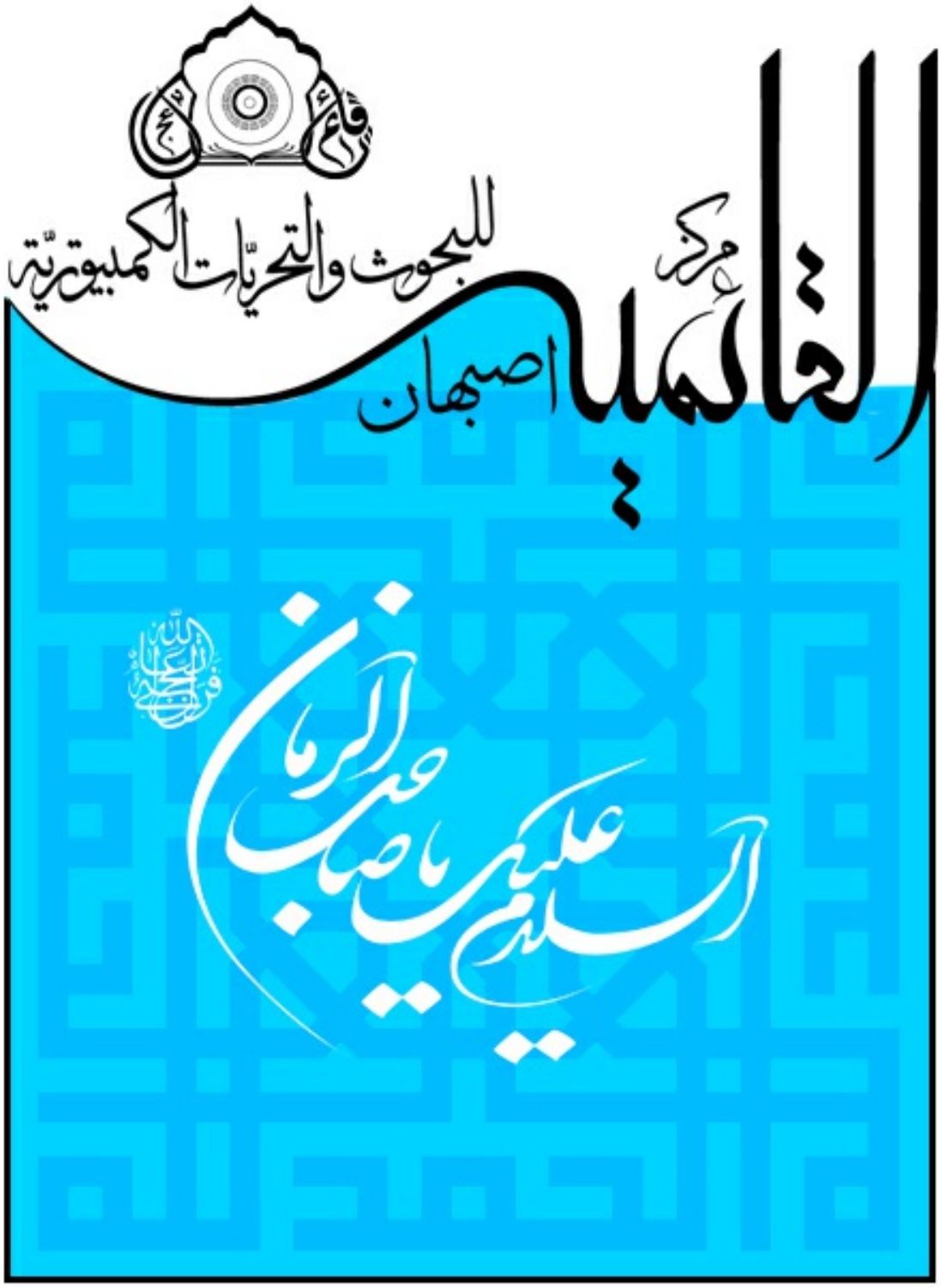

www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

أسد حيدر

الإمام الصادق

والمذاهب الأربعة

مع إضافات وتحقيقات جديدة

دار الكتاب العربي

بسم الله الرحمن الرحیم

الامام الصادق و المذاهب الاربعه

كاتب:

اسد حيدر

نشرت في الطباعة:

دار التعارف للمطبوعات

رقمي الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

الفهرس 5

الامام الصادق و المذاهب الاربعه 59

اشارة 59

المجلد 1 59

اشارة 59

الجزء الأول 65

مقدمات التحقيق 65

الإهداء 65

المقدمة الأولى 67

المقدمة الثانية 69

مقدمة الطبعة الثالثة 71

كتاب الإمام الصادق 73

الإمام الصادق بين عهدين 79

اشارة 79

العهد الأموى 81

بنو أمية فى عهد عثمان: 81

على. . . و مبايعة معاوية لطلحة و الزبير: 83

طلب معاوية بدم عثمان: 85

موقف عائشة و عمرو بن العاص: 86

موقف معاوية من عثمان: 87

عائشة و عثمان: 90

معاوية و الخلافة: 92

بيعة يزيد و أعماله: 94

تحول الحكم من آل أبی سفیان إلی بنی الحکم: 95
ولادة الإمام الصادق: 96
نشأة الإمام الصادق: 97
عصر الإمام الصادق: 98
اشارة 98
المرحلة السعيدة: 99
العهد العبّاسی 101
اشارة 101
السفاح: 102
المنصور: 102
اشارة 102
أعمال المنصور: 103
مع المنصور و بنی الحسن: 104
الإمام الصادق و مشاكل العهدين: 105
اتهامات المنصور للإمام الصادق: 106
الإمام الصادق شخصيته 111
اشارة 111
شخصية الإمام الصادق: 111
أقوال العلماء فی الإمام الصادق: 113
الإمام الصادق 127
اشارة 127
مدرسة الإمام الصادق: 127
تلامذة الإمام الصادق و رواة حديثه: 130
اشارة 130
أبان بن تغلب: 134

مع البخاری 138
شهرة البخاری: 138
آیة التطهیر 146
اشارة 146
تخریج الحفاظ لآیة التطهیر: 146
حدیث الغدیر 154
رواة حدیث الغدیر من الصحابة: 154
خطبة النبی یوم الغدیر: 155
عنایة الشیعة بعید الغدیر: 157
حدیث الثقلین 159
تخریج الحفاظ لحدیث الثقلین: 159
الإمام الصادق 167
اشارة 167
تمهید: 167
موقف الإمام الصادق من الظالمین: 170
ملوک عصره 172
اشارة 172
عبد الملک بن مروان: 172
اشارة 172
تولیته للحجاج: 174
الولید بن عبد الملک: 177
اشارة 177
مقتل سعید بن جبیر: 179
سلیمان بن عبد الملک: 180
عمر بن عبد العزیز: 183

اشارة ----- 183
سیرته فی الخراج: ----- 184
أخطاء تاریخیة: ----- 185
یزید بن عبد الملک: ----- 186
هشام بن عبد الملک: ----- 188
اشارة ----- 188
هشام و زید بن علی: ----- 189
مقتل زید بن علی و ملابساته: ----- 191
الولید بن یزید: ----- 193
اشارة ----- 193
مقتل یحیی بن زید: ----- 195
یزید الناقص: ----- 196
إبراهیم بن الولید: ----- 197
مروان بن محمد: ----- 197
ولاة المدینة فی العهد الأموی: ----- 198
اشارة ----- 198
هشام بن إسماعیل: ----- 199
عمر بن عبد العزیز: ----- 199
اشارة ----- 199
سبب عمارته لمسجد النبی: ----- 200
عثمان بن حیان: ----- 201
أبو بکر بن محمد: ----- 202
عبد الرحمن بن الضحاک: ----- 202
عبد الواحد النضری: ----- 203
إبراهیم بن هشام: ----- 203

خالد بن عبد الملک: 203
محمد بن هشام: 204
یوسف الثقفی: 204
ولاة المدینة فی العهد العباسی: 205
المذاهب الأربعة 215
اشارة 215
تمهید: 215
نشأة المذاهب: 215
المدینة و الحرکة العلمیة: 216
أهل الحدیث و أهل الرأی: 218
نشوء المذاهب: 220
سفیان الثوری: 221
سفیان بن عیینة: 222
الحسن البصری: 222
الأوزاعی: 223
ابن جریر الطبری: 223
داود بن علی الظاهری: 224
اللیث بن سعد: 225
عمر بن عبد العزیز: 225
الأعمش: 226
الشعبی: 226
المذهب الحنفی: 228
المذهب المالکی: 231
المذهب الشافعی: 236
المذهب الحنبلی: 237

السلطة و انتشار المذاهب: 238
خلاصة البحث: 242
آراء حول الاجتهاد و التقليد: 245
كلمات حول التقليد: 251
الاجتهاد: 253
التقليد: 254
حركة التنازع بين المذاهب 255
كلمات حول تنازع المذاهب: 255
التعصب بين المذاهب: 258
التحول من مذهب إلى مذهب: 261
التعصب لائمة المذاهب: 263
حركات التعصب بين المذاهب: 267
محنة خلق القرآن: 270
بين السنة و الشيعة: 272
انتشار المذاهب الأربعة فى الأقطار الإسلامية: 277
انتشارها فى الوقت الحاضر: 279
مدارسها فى الأقطار الإسلامية: 281
المذهب الجعفرى 285
اشارة 285
مذهب أهل البيت: 285
العداء لأهل البيت: 286
معارضة معاوية 287
بذرة التشيع و نموها: 290
أخطاء تاريخية لابن خلدون: 291
المذهب الجعفرى و الدولة العباسية: 293

اشارة ----- 293
معارضة المنصور و الرشيد للمذهب: ----- 295
تغلب المذهب الجعفرى: ----- 297
قوة المعارضة أيام المتوكل: ----- 298
الشيعة و نصرة أهل البيت: ----- 299
أحاديث النبى فى أهل البيت: ----- 301
الغلاة ----- 307
موقف أهل البيت من الغلاة ----- 307
عبد اللّه بن سبأ: ----- 310
انتشار المذهب الجعفرى ----- 315
انتشاره فى الأقطار الإسلامية: ----- 315
تصفية الحساب ----- 323
أسباب الخلاف و عوامل التفرقة: ----- 323
الاتهام بالتشيع: ----- 324
ضحايا المبدأ: ----- 327
أحاديث النبى فى حب على و شيعته: ----- 331
تحريف الأحاديث: ----- 332
أحكام جائرة: ----- 335
الوضع. . . و الحديث النبوى ----- 340
حركة الوضع: ----- 340
السلطة و وضع الحديث: ----- 341
القصاصون و أثرهم فى المجتمع: ----- 344
عدول الناس عن المذاهب: ----- 346
المتعة و تشريعها: ----- 347
الطلاق الثلاث واحدة: ----- 349

المسح على الرجلين: 351
الأذان و حيّ على خير العمل 352
الإمام أبو حنيفة 355
تمهيد: 355
مع الأستاذ عفيفى فى روايته: 356
المناقب: 358
البشائر فى أبى حنيفة: 360
حديث السراج و إحياء الدين: 360
حديث غياث لكل مهموم: 364
أبو البخترى: 364
اشارة 364
فتوى أبى البخترى: 365
بين المد و الجزر: 366
سماعه من الصحابة: 368
حديثه و عنايته بالرواية: 371
أبو حنيفة بين أنصاره و خصومه. 373
نشأته و نبوغه: 378
الموالى و أوضاع عصره: 380
اتجاهه العلمى: 381
فقهه و تلامذته: 383
اشارة 383
أبو يوسف: 384
محمد بن الحسن الشيبانى: 384
الحسن بن زياد: 384
زفر بن الهذيل: 385

علماء الحنفية و نشر المذهب: 387
مناظرته للإمام الصادق: 391
اشارة 391
مناظرته فی القیاس: 392
روایاته عن الإمام الصادق و میله لأهل البیت 393
أسباب مقتل أبی حنیفة: 396
شیوخ أبی حنیفة من الشیعة: 399
خلاصة البحث 401
الجزء الثانی 408
اشارة 408
الإمام الصادق 411
اشارة 411
تمهید: 411
عصره و مشاکله: 412
اشارة 412
مشکلة الخراج: 415
سیرة الجباة: 417
الموالی و الثورة: 419
الموالی و وظائف الدولة: 420
أسباب انهیار الدولة: 422
عظات و عبر: 425
قیام الدولة العباسیة: 427
مواقف الإمام الصادق 431
مواقف الإمام فی الحکم الأموی: 431
موقف الإمام فی دعوة الخلال لبیعته: 433

إخباره بصيرورة الأمر لبنى العباس: 434
موقفه من الحركات الفكرية: 435
اشارة 435
موقفه من حركة الغلاة: 436
الإمام الصادق 439
اشارة 439
توجيهه الأمة إلى الشعور بالمسؤولية: 439
حثه على التجارة و طلب الرزق: 442
دعوته إلى العمل: 443
دعوته للألفة و الأخوة الإسلامية: 446
سياسته تجاه الظلم و الظالمين: 448
عزة النفس: 452
قوة الإرادة: 454
مراسلاته: 455
اشارة 455
رسالة لعبد اللّه النجاشى: 456
رسالته فى الصفات: 458
رسالته إلى جماعة من أصحابه: 458
وصاياه: 459
اشارة 459
وصيته لحفص بن غياث: 460
وصيته لسفيان الثورى: 460
وصيته لعبد اللّه بن جندب: 461
جوامع الكلم: 463
الإمام الصادق 471

اشارة ----- 471
الأمويون و حديث أهل البيت: ----- 471
بعض المؤلفين من تلامذته: ----- 475
تلامذته و رواة حديثه: ----- 477
1-إبراهيم بن سعد: ----- 477
2-إبراهيم بن زياد: ----- 477
3-إبراهيم بن محمد: ----- 477
4-إبراهيم بن طهمان: ----- 477
5-إبراهيم بن على: ----- 477
6-إبراهيم بن مهاجر الأزدى: ----- 477
7-إبراهيم بن محمد: ----- 477
8-بسام بن عبد اللّه: ----- 478
9-بشار بن قيراط: ----- 478
10-بشار بن ميمون: ----- 478
11-تليد بن سليمان: ----- 478
12-الجراح بن مليح: ----- 478
13-جرير بن عبد الحميد: ----- 478
14-حبيب بن النعمان: ----- 479
15-حبيب بن يسار: ----- 479
16-الحسن بن عياش: ----- 479
17-الحكم بن عتبة: ----- 479
18-الحارث: ----- 480
19-الحارث: ----- 480
20-حميد بن قيس: ----- 480
21-حماد بن عيسى: ----- 480

22-الحارث بن عمران الأسدى: 480
23-حاتم بن إسماعيل: 480
24-داود بن الزبرقان: 481
25-الربيع بن حبيب: 481
26-رحيل: 481
27-رقبة: 481
28-الركين بن الربيع: 481
29-زكريا بن إسحاق: 481
30-زياد بن سعد: 482
31-زيد بن عطاء: 482
32-زهير بن محمد التميمى: 482
33-زيد بن الحسن: 482
34-سعيد بن سالم: 482
35-سعيد بن عبد الجبار: 482
36-سعيد بن عبد الرحمن: 482
37-سلمة بن كهيل: 483
38-سليمان بن مهران الأعمش: 483
39-سليمان: 483
40-سفيان الثورى: 483
41-سفيان بن عيينة: 484
42-سعيد بن عبد الرحمن: 484
43-سنان بن هرون: 484
44-سعيد بن طريف: 484
45-سعيد بن أبى خثيم: 484
46-سعيد بن حسان: 484

47-سعيد بن سالم: 484
48-سعيد بن مسلمة: 485
49-سالم بن عبد الواحد: 485
50-شعبة بن الحجاج: 485
51-شعيب بن خالد: 485
52-الضحاک بن مخلد: 486
53-طلحة بن زيد: 486
54-عاصم بن عمر: 486
55-عاصم بن حميد: 486
56-عاصم بن سليمان: 486
57-عامر بن السمط: 486
58-عتبة بن عبد اللّه: 487
59-عثمان بن فرقد: 487
60-عثمان بن عبد الرحمن: 487
61-عثمان بن مطر: 487
62-عطاء بن مسلم: 487
63-على بن حمزة: 487
64-على بن صالح: 488
65-العوام بن حوشب: 488
66-عيسى بن عمر: 488
67-عبد الجبار: 488
68-عبد العزيز: 488
69-عبد العزيز: 488
70-عبد العزيز: 489
71-عبد العزيز: 489

72-عبد الوهاب: 489
73-عبد الملک بن جریح: 489
74-عبد اللّه بن رجاء: 489
75-عبد اللّه بن جعفر: 490
76-عبد اللّه بن جعفر: 490
77-عبد اللّه بن الزبیر: 490
78-عبد اللّه بن دکین: 490
79-عبد اللّه بن میمون: 490
80-عبید اللّه بن عمر: 490
81-علی بن هاشم: 491
82-علی بن عبد الأعلی: 491
83-عمرو بن خالد: 491
84-عمرو بن هرون: 491
85-عمر بن قیس: 491
86-عمر بن دینار: 491
87-فضیل بن عیاض: 492
88-فضیل بن مرزوق الکوفی: 492
89-فلیح بن سلیمان: 492
90-القاسم بن معن: 492
91-القاسم بن عبد اللّه: 492
92-محمد بن إسماعیل: 492
93-محمد بن إسحاق: 493
94-محمد بن فلیح: 493
95-محمد بن الحسن: 493
96-محمد بن راشد: 493

97-محمد بن مجيب: 494
98-محمد بن ثابت: 494
99-محمد بن جعفر: 494
100-معلى بن هلال: 494
101-معمر بن راشد: 495
102-معمر بن يحيى: 495
103-منصور بن المعتمر: 495
104-المنهال بن عمر: 495
105-ميسرة بن حبيب: 495
106-مالک بن أنس: 495
107-مكى بن إبراهيم: 495
108-مسعود بن سعد: 496
109-مسلم بن خالد: 496
110-مصعب بن سلام: 496
111-معاوية بن صالح: 496
112-معاوية بن عمار: 496
113-معروف بن خربوذ: 496
114-مفضل: 497
115-النعمان بن ثابت: 497
116-نوح بن دراج: 497
117-هرون بن سعد العجلى: 497
118-هرون بن موسى: 497
119-هلال بن أبى حميد: 497
120-وهيب بن خالد: 497
121-يحيى بن سعيد: 498

122-يحيى بن قيس: 498
123-يحيى بن سليم: 498
124-يعلى بن الحرث: 498
الرواة: 499
اشارة 499
مشاهير الثقات: 501
اشارة 501
جابر بن حيان: 503
الفرق: 506
الإمام الصادق 509
اشارة 509
تمهيد: 509
الإمام الباقر: 509
اشارة 509
كنيته و لقبه: 510
أقوال العلماء فيه: 512
من تلامذته و رواة حديثه: 517
عمر بن دينار 517
عبد الرحمن: 518
عبد الملک: 518
قرة بن خالد: 518
محمد بن المنكدر: 518
يحيى بن كثير: 518
الزهرى: 518
ربيعة الرأى: 519

الأعمش: ----- 519
عبد اللّه بن أبى بكر: ----- 519
زيد بن على: ----- 519
موسى بن سالم: ----- 520
موسى الحناط: ----- 520
القاسم بن الفضل: ----- 520
القاسم بن محمد: ----- 520
محمد بن سوقة: ----- 521
حجاج: ----- 521
معروف: ----- 522
أصحاب الإمام الباقر و رواة حديثه من الشيعة ----- 523
اشارة ----- 523
أبان بن تغلب: ----- 523
بريد العجلى: ----- 523
بكير بن أعين: ----- 524
أبو حمزة الثمالى: ----- 524
جابر الجعفى: ----- 524
محمد بن مسلم: ----- 526
حمران بن أعين: ----- 527
زرارة: ----- 527
عبد الملک بن أعين: ----- 528
مدرسة الإمام الباقر: ----- 529
اشارة ----- 529
حكمه: ----- 532
وصيته لعمر بن عبد العزيز: ----- 534

وصیته لجابر الجعفی: ----- 534
من تعالیمه: ----- 535
الإمام الباقر و عبد الملک: ----- 537
الإمام الصادق ----- 541
اشارة ----- 541
تمهید: ----- 541
محاولة المنصور قتل الإمام: ----- 542
الإمام الصادق و ولاة المنصور: ----- 551
سیاسة المنصور تجاه العلویین: ----- 554
اشارة ----- 554
حدیث الخزانة: ----- 557
تظاهر المنصور بالعدل: ----- 558
الشیعة و أهل البیت: ----- 563
الإمام مالک بن أنس ----- 565
تمهید: ----- 565
من هو الإمام مالک: ----- 566
اشارة ----- 566
ولادته: ----- 568
المناقب: ----- 570
عالم المدینة: ----- 571
أمین زمانه: ----- 573
أطیاف حول مالک: ----- 575
مالک و أقوال العلماء: ----- 576
مع الخلفاء و الولاة: ----- 578
اشارة ----- 578

مع المنصور: 580
اتصاله بالمنصور: 583
شيوخ مالک: 588
اشارة 588
ابن هرمز: 589
نافع: 589
الزهری: 590
رسالة الإمام زين العابدين للزهری: 590
أبو الزناد: 592
ربيعة الرأی: 592
تلامذة مالک: 593
اشارة 593
ابن وهب: 594
ابن القاسم: 594
أشهب: 594
عبد اللّه بن الحكم: 595
ابن الفرات: 595
الليثی: 595
ابن الماجشون: 596
كتب المذهب المالكی: 596
اشارة 596
المدونة: 596
أصول الفقه المالكی: 602
عمل أهل المدينة: 603
المصالح المرسلة: 605

الاستحسان: 606
القياس: 608
الرأى: 608
إنكار الإمام الصادق للقياس: 610
رسالة الإمام الصادق حول القياس: 612
عصر مالک و حوادثه: 614
الخراج فی عهد مالک: 617
رسالة مالک: 620
تدوين العلم 623
أول من دون العلم: 623
الشيعة و التدوين: 626
أهل البيت أول من دون العلم: 627
عهد الإمام علیّ لمالک الأشتر: 628
رسالة الحقوق للإمام زين العابدين: 629
مسند زيد بن علیّ و مدونته الفقهية: 630
عصر الإمام الباقر: 631
عصر الإمام الصادق: 633
حركة التدوين عند الشيعة: 634
موطأ مالک: 636
صحيح البخارى: 638
صحيح مسلم: 639
صحيح الترمذى: 640
صحيح أبى داود: 641
صحيح النسائى: 641
صحيح ابن ماجة: 642

عود على بدء: 643
الكتب الأربعة: 644
اشارة 644
1-الكافى: 644
2-من لا يحضره الفقيه: 644
4-3-التهذيب و الاستبصار: 644
مسألة التفضيل 646
مالک و مسألة التفضيل: 646
الاختلاف فى التفضيل: 648
العباسيون و التفضيل: 650
تطور الخلاف فى مسألة التفضيل: 652
فضل علىّ و امتيازه و خصاله: 655
أقوال الصحابة فى علىّ: 664
خلاصة البحث فى مسألة التفضيل: 669
الشيعة و الصحابة 673
تمهيد: 673
مسألة الصحابة: 676
اشارة 676
شمول الصحبة و مميزاتها: 678
اشارة 678
تعريف الصحابى و نقطة الخلاف: 685
موالاة الشيعة للصحابة: 687
الصحابة فى حدود الكتاب و السنة: 688
قدامة بن مضعون: 690
سياسة عمر تجاه بعض الصحابة: 691

رواية الصحابى: 692
حديث أهل الصفة: 695
حديث أبى هريرة: 696
حديث أمهات المؤمنين: 699
تهمة سب الصحابة: 701
نهاية البحث: 705
التثبت قبل الحكم: 706
المجلد 2 713
اشارة 713
الجزء الثالث 719
اشارة 719
عرض و تمهيد 721
نوعية البحث: 721
تفاوت المذاهب فى الانتشار: 722
نظرة فى التعصّب المذهبى: 725
الإمام الصّادق 729
اشارة 729
مدرسته و طابعها: 729
اشارة 729
مواقفه من ساسة عصره: 730
الصراع بين المدرسة و الدولة: 732
نواة المدرسة و تاريخ نشأتها: 733
صمود مذهبه أمام الحكام: 736
اشارة 736
التنبيه الأول: التابعون و الإمام الصّادق: 738

التنبيه الثانى: تلامذة الإمام و مركزية الكوفة: 741
التنبيه الثالث: مدرسة الإمام و معنى التشيّع: 743
أخطاء و أكاذيب 747
المؤلّفون و الشيعة: 747
مع أحمد أمين فى كتبه: 748
أخطاء القصيمى: 749
مع ابن عبد ربّه: 751
أحلام ابن العماد: 754
أسطورة ابن سبأ: 755
الإمام الصّادق 759
اشارة 759
مؤهلات الإمام الصّادق و مكانته: 759
أصحاب الإمام الصادق ع 763
أبان بن تغلب 763
نسبه و أقوال العلماء فيه: 763
علمه و شيوخه: 765
تلامذته: 766
مكانته و كفايته العلمية: 767
مؤلفاته: 768
أبان بن عثمان: 769
بريد العجلى: 770
جميل بن دراج: 771
جميل بن صالح: 771
حماد بن عثمان: 771
حماد بن عيسى: 772

حبيب بن ثابت: 772
حمزة بن الطيار: 772
مؤمن الطّاق 775
اشارة 775
نسبه و أقوال العلماء فيه: 775
علمه و نبوغه: 777
مناظراته و احتجاجه: 777
مؤلفاته: 780
وصية الإمام الصّادق له: 781
آراء و مناقشات: 782
هشام بن الحكم 783
اشارة 783
صلته بالإمام الصّادق: 785
عصره: 787
شيوخه و تلامذته: 790
مؤلفاته: 790
أجوبته و مناظراته: 791
نموذج من مناظراته: 793
مع هشام فى تهمته: 796
الجاحظ فى الميزان: 800
رسالة الجاحظ فى تفضيل على عليه السّلام: 803
عود على بدء: 807
هل تؤاخذ الأمة بقول الفرد؟ ! 810
وصية الإمام موسى له: 817
و خلاصة القول: 819

الفرق الإسلامية ----- 821
اشارة ----- 821
تمهيد: ----- 821
الخوارج: ----- 822
آراء الخوارج و فرقهم: ----- 823
فرق الخوارج: ----- 824
اشارة ----- 824
الأزارقة: ----- 824
النجدات: ----- 824
الأباضية: ----- 825
الصفرية: ----- 825
العجاردة: ----- 826
المعتزلة: ----- 827
اشارة ----- 827
فرق المعتزلة: ----- 827
المرجئة و فرقهم: ----- 829
الجبرية: ----- 831
نسبة أبى حنيفة إلى المرجئة: ----- 832
تقولات حول فرق الشيعة: ----- 833
حول فرق الغلاة: ----- 835
الإمام الصّادق ----- 837
اشارة ----- 837
تمهيد: ----- 837
وصايا الإمام الصادق ع ----- 838
وصية عامة إلى جميع أصحابه: ----- 838

وصیته لعنوان البصری: ----- 841
وصیته علیه السّلام لعمرو بن سعید: ----- 842
وصیته للمفضل بن عمر: ----- 842
وصیته لحمران بن أعین: ----- 843
حکمه علیه السّلام: ----- 844
اشارة ----- 844
و من حکمه: ----- 846
المذاهب الأربعة ----- 849
اشارة ----- 849
تمهید: ----- 849
الالتزام بالمذاهب الأربعة: ----- 850
التطرّف بالتزام المذهب: ----- 851
الإمام أبی حنیفة لا یلزم بالرجوع إلیه: ----- 855
الإمام مالک ینهی عن التقلید: ----- 856
الإمام الشافعی ینهی عن التقلید: ----- 858
الإمام أحمد یحارب التقلید: ----- 859
أسباب التعصب المذهبی و تطور الدعوة: ----- 861
آراء حول الاجتهاد و التقلید ----- 865
اشارة ----- 865
الاجتهاد: ----- 866
التقلید: ----- 868
بین طائفتین: ----- 868
حجّة المقلّدین: ----- 869
التلفیق: ----- 875
نسبة المذهب إلی أبی حنیفة: ----- 876

طريق الأصول للمذاهب: 877
الشيعة و الاجتهاد: 878
الخلاصة: 878
الإمام الشّافعى 881
تمهيد: 881
نسبه و نشأته: 882
طلبه العلم فى مكّة: 885
طلبه العلم فى المدينة: 887
ولاية الإمام الشّافعى: 888
الإمام الشّافعى فى بغداد: 889
الإمام الشّافعى فى مصر: 892
الإمام الشافعى و حياته العلمية 893
مناقبه: 893
شيوخه و تلامذته: 896
تلامذته و رواة مذهبه: 898
المصريون: 900
كتبه و آثاره: 902
اشارة 902
كتاب الأم: 903
الاختلاف حول كتاب الأم: 905
بين قديم و جديد: 910
آراؤه فى القرآن: 914
رأيه فى الرؤية: 916
رأيه فى الصفات: 918
رأيه فى الإمامة: 919

رأيه فى علم الكلام: 920
تنبيه: 921
عصر الإمام الشّافعى و أحداثه: 923
اشارة 923
بذخ الدولة العباسية: 924
اضطهاد الدولة العباسية للعلويين: 929
الحسين صاحب فخ: 930
الزندقة فى عرف العباسيين: 932
نشاط العلماء و تأيد الدولة: 935
الخلاصة: 936
أخباره: 938
اشارة 938
الإمام الشّافعى فى مصر: 940
مذهبه الجديد: 942
الطعون على الشّافعى: 944
الإمام الشّافعى و التشيّع: 947
نتيجة و حكم: 953
دفاع الشّافعية: 954
مذهبه و انتشاره: 955
تعقيب و تصويب 957
حول تمييز الشّافعى: 957
التناقض فى التصوير: 959
مذهبه الفقهى: 961
نهيه عن مذهبه القديم: 962
الخصومة المذهبية: 963

نتائج الخلافات المذهبية: 964
الجزء الرابع 967
اشارة 967
تقديم و بيان 971
اشارة 971
نوعية البحث: 971
منهج البحث: 971
التعصّب للمذاهب: 974
التحامل على مذهب أهل البيت: 976
البحث و الزوائد: 978
الإمام الصّادق 981
اشارة 981
ولادته: 982
نشأته: 982
معاصرته للحكم الأموى: 983
الإمام الصّادق 989
اشارة 989
تمهيد: 989
نهيه عن المنازعات و فض الخصومة لدى حكام الجور: 990
نهيه عن الولاية للظالمين: 992
حثّه على صلة الرّحم: 992
حثّه على مساعدة الضعفاء و أبناء السبيل: 994
حثّه على العمل و طلب الرزق الحلال: 998
نبذ من أعماله و أقواله: 999
حول أخطاء بعض الكتّاب: 1004

الدعوة العباسية: 1005
أساليب الدعوة: 1006
دعوة الإمام الصّادق للخلافة: 1011
الإمام الصّادق 1017
اشارة 1017
موقف الإمام الصّادق و اتجاهه للإصلاح: 1017
اشارة 1017
أسس الدعوة إلى الإصلاح: 1020
مهمة الداعى: 1021
شخصية الداعى: 1023
ملاحظات حول دعوته الإصلاحية: 1024
الإمام الصّادق 1027
اشارة 1027
تمهيد: 1027
انطباعات مالک بن أنس: 1028
انطباعات سفيان الثورى: 1028
انطباعات زيد بن علىّ: 1029
انطباعات مالک بن أنس: 1030
انطباعات أبى حنيفة: 1031
انطباعات المنصور الدوانيقى: 1032
انطباعات ابن أبى ليلى: 1035
انطباعات عمرو بن عبيد: 1036
الإمام الصّادق 1039
اشارة 1039
تمهيد: 1039

حکمه و أقواله: 1041
حکمه تعالیم إسلامیة: 1057
جهاده و دفاعه عن الإسلام: 1059
مشکلة الغلاة 1063
المؤرّخون و مشکلة الغلاة: 1063
أسباب نشأة الغلاة: 1065
الدعوة الإسلامیة و خصومها: 1067
رؤساء الغلاة و مواقف الإمام ضدهم: 1069
أبو الخطاب الأسدی: 1069
بزیع بن موسی: 1072
بشار الشعیری: 1073
معمر النهدی: 1074
حمزة الزیدی: 1075
صائد النهدی: 1075
بیان التبان: 1075
المغیرة بن سعید: 1076
اشارة 1076
براءة الإمامین الباقر و الصّادق من المغیرة: 1077
أبو منصور العجلی: 1080
دراسة حرکة الغلاة ناقصة: 1082
اشارة 1082
الغلاة و الشیعة: 1083
حرکة الغلاة ضد الإسلام: 1084
حوار و تصویب: 1087
موقف مع شیخ أزهری: 1090

الناقمون على الإسلام و أهل البيت: 1095
المنحرفون عن الحق و الشيعة: 1097
الإمام الصّادق 1105
اشارة 1105
تمهيد: 1105
موقف الإمام من الزنادقة و الشبه الفكرية: 1106
طرق معيشة العباد: 1115
سلوک الوالى مع الرعية: 1116
التوحيد فى أجوبة الإمام للمفضل بن عمر: 1118
اشارة 1118
المجلس الأول فى خلق الإنسان: 1119
المجلس الثانى فى ذكر الحيوان: 1121
المجلس الثالث فى ذكر السماء: 1122
المجلس الرابع فى ذكر آفات الدهر: 1122
مناظرات الإمام حول الإسلام و مبادئه: 1123
خلاصة الصراع بين دعوة الإمام الإصلاحية 1127
الإمام أحمد بن حنبل 1137
اشارة 1137
تمهيد: 1137
نسبه: 1138
ولادته و نشأته: 1139
نبوغه و شهرته: 1141
صلته بالمتوكل: 1142
الإمام أحمد بن حنبل 1145
اشارة 1145

المحنة: 1145
اشارة 1145
أدوار المحنة: 1147
اشارة 1147
امتحان أحمد بن حنبل: 1151
فی عهد المعتصم: 1151
شركاء فی المحنة: 1155
أوضاع المحنة فی عصر الإمام أحمد: 1158
الإمام أحمد بن حنبل 1161
اشارة 1161
مناقبه: 1161
شيوخه: 1165
تلامذته: 1167
اشارة 1167
أحمد بن محمّد بن هانی المعروف بالأثرم: 1168
أحمد بن محمّد بن الحجاج بن عبد العزيز المروزی: 1168
إبراهيم بن إسحاق الحربی: 1169
صالح بن أحمد بن حنبل: 1169
عبد اللّه بن أحمد بن حنبل: 1169
كتبه و آثاره: 1170
اشارة 1170
مسند الإمام أحمد: 1171
الإمام أحمد بن حنبل 1177
اشارة 1177
عصره: 1177

أحداث عصره: 1179
اشارة 1179
المأمون: 1183
المعتصم: 1188
الواثق: 1190
المتوكل: 1191
الدولة العباسية و بداية الضعف: 1194
اتهام أحمد بالميل للعلويين: 1196
شيوخ الإمام أحمد من الشيعة: 1198
أقوال العلماء: 1200
مذهبه و انتشاره: 1203
الفقه الحنبلى: 1205
اشارة 1205
كتب الفقه الحنبلى: 1207
أصول الفقه الحنبلى: 1208
بين معسكرين: 1209
انتصار المحدثين: 1211
ملاحظات حول انتصار الحنابلة: 1218
نظرة عامّة: 1223
المجلد 3 1228
اشارة 1228
الجزء الخامس 1232
اشارة 1232
تقديم و بيان 1234
تمهيد 1236

اشارة ----- 1236
بين الواقع و الخيال: ----- 1240
آراء المستشرقين فى التشيع: ----- 1245
التشيع و الفرس: ----- 1248
الشيعة و المستشرقون: ----- 1250
اشارة ----- 1250
الدكتور شلبى و الشيعة: ----- 1255
مناقشة أخطاء المؤلفين: ----- 1258
مع كتّاب الفرق: ----- 1262
أهم المصادر: ----- 1263
الإمام الصادق ----- 1272
اشارة ----- 1272
المنصور و الإمام الصادق: ----- 1272
الإمام الصادق ----- 1284
اشارة ----- 1284
تمهيد: ----- 1284
تعاليمه: ----- 1284
كلماته الحكمية: ----- 1286
صفاته: ----- 1289
من كتاب الإمام الصادق: ----- 1289
الإخلاص: ----- 1292
نفاذ بصيرته و قوة إدراكه: ----- 1293
حضور بديهته: ----- 1294
جلده و صبره: ----- 1294
سخاؤه: ----- 1295

حلمه و سماحه: 1296
شجاعته: 1297
فراسته: 1298
هيبته: 1298
استنتاج و تعقيب: 1299
لقاء مع الأستاذ(أبو زهرة) 1306
اشارة 1306
القسم الأول 1306
اشارة 1306
تمهيد: 1308
كتاب الإمام الصادق لأبى زهرة: 1312
تمهيد الأستاذ أبى زهرة: 1319
بيت الإمام الصادق من سنة 80 ه إلى سنة 148 ه 1323
شيوخه: 1329
حول الانحراف: 1340
المختار الثقفى: 1342
اشارة 1342
الكيسانية: 1345
الإمام الصادق و انصرافه إلى العلم: 1347
الفقهاء السبعة: 1352
اشارة 1352
1-سعيد بن المسيب: 1353
2-عروة: 1353
3-عبد الرحمن: 1353
4-عبيد اللّه: 1354

5-سليمان: 1354
6-خارجة: 1354
تنبيهات: 1355
القسم الثانى من: 1358
اشارة 1358
آراء الإمام الصادق: 1360
حديث الثقلين و أسانيده: 1364
اشارة 1364
1-صحيح مسلم: 1364
2-الترمذى: 1365
3-المسند: 1365
4-المستدرک: 1365
حديث الثقلين فى اللغة: 1369
مقاصد المؤلف من التشکيک بالروايات: 1370
اتجاه آخر فى التشکيک بالروايات: 1372
و الخلاصة: 1375
حول الصحابة: 1377
اشارة 1377
رأى الشيعة فى الصحابة: 1379
مناقشة أبى زهرة بمسألة الصحابة: 1382
فقه الإمام الصادق: 1390
و فى الختام نقول: 1400
الفقه الإسلامى 1404
اشارة 1404
اختلاف الفقهاء فى الفتوى: 1409

اشارة 1409
أبو حنيفة: 1409
مالک بن أنس: 1411
الشافعی: 1411
أحمد: 1412
ما انفرد به ابن تیمیّة: 1413
الخلاف بین المذاهب: 1414
الطهارة 1416
اشارة 1416
أجمع المسلمون علی وجوب الطهارة للصلاة: 1416
الوضوء 1417
اشارة 1417
فروضه: 1417
اشارة 1417
غسل الوجه: 1419
غسل الیدین: 1419
مسح الرأس: 1420
الأرجل: 1421
و قال الجصاص: 1424
و قال إبراهیم الحلبی: 1425
و قال ابن حزم: 1425
الأخبار: 1426
المسح علی الخفین: 1429
مسح الأذنین: 1434
المسح علی العمامة: 1436

مسح العنق: 1438
الموالاة: 1439
الترتيب: 1440
نواقض الوضوء: 1442
اشارة 1442
النوم: 1442
الشک: 1447
السنن أو المستحبات: 1448
اشارة 1448
الشيعة: 1449
الحنفية: 1449
المالكية: 1451
الشافعية: 1451
الحنابلة: 1453
فرع: 1453
الغسل و التيمم 1456
اشارة 1456
الغسل 1456
اشارة 1456
غسل الجنابة 1456
واجباته: 1457
الأحكام: 1460
غسل الحيض: 1463
مدته: 1463
أيام الطهر: 1464

سن الحائض: 1464
الأحكام: 1466
حرمة الوطء: 1467
قبل الاغتسال: 1468
غسل الاستحاضة: 1469
غسل النفاس: 1472
غسل الأموات: 1475
1-كيفية الغسل: 1476
المالكية: 1478
2-غسل المس: 1480
الصلاة على الميت : 1482
التيمم 1484
اشارة 1484
مسوغاته: 1484
كيفيته: 1486
الشيعة: 1487
الحنفية: 1487
المالكية: 1487
الشافعية: 1487
الحنابلة: 1488
الاتفاق و الافتراق بين المذاهب: 1489
ما يصح التيمم به: 1492
نواقضه: 1494
النجاسات 1495
اشارة 1495

الشيعة: 1495
البول و الغائط: 1496
المنى: 1497
الكلب و الخنزير: 1498
الميتة: 1499
أجزاء الميتة: 1500
الخارج من الميتة: 1501
الدم: 1501
الخمر: 1503
المطهرات 1503
اشارة 1503
الشمس: 1504
الأرض: 1505
الاستحالة: 1505
الدبغ: 1506
الفرک و المسح: 1506
الصّلاة 1510
اشارة 1510
تمهيد: 1510
الصلاة اليومية: 1513
اشارة 1513
الوقت: 1513
القبلة: 1515
ستر العورة: 1516
الطهارة: 1518

الإباحة: 1519
الحرير: 1520
الذهب: 1521
الميتة: 1522
المكان: 1522
مسجد الجبهة: 1524
الأذان و الإقامة: 1525
ألفاظ الأذان: 1525
الجزء السادس 1532
اشارة 1532
تقديم و تمهيد 1534
أفعال الصلاة 1540
اشارة 1540
واجبات الصلاة 1540
النية: 1540
تكبيرة الإحرام: 1542
القيام: 1545
القراءة: 1546
اشارة 1546
وجوب القراءة بالعربية: 1548
الركوع: 1552
السجود: 1555
التشهد: 1558
التسليم: 1558
نية الخروج من الصلاة: 1559

الصلاة على النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: 1560
مستحبات الصلاة: 1562
اشارة 1562
الشيعة: 1562
الحنفية: 1563
الشافعية: 1564
المالكية: 1565
الحنابلة: 1565
مبطلات الصلاة: 1566
اشارة 1566
الحنفية: 1567
الشافعية: 1568
المالكية: 1569
الحنابلة: 1569
الشيعة: 1570
تنبيه: 1571
صلاة المسافر 1574
اشارة 1574
حجة الشافعى: 1580
حجة الحنابلة: 1583
المسافة: 1584
الإقامة: 1588
السفر المبيح للقصر: 1592
الجمع بين الصلاتين: 1597
أهم المراجع: 1607

اشارة ----- 1607
مصادر الجمهور: ----- 1607
المصادر الشيعية: ----- 1609
کتّاب و مؤلّفون ----- 1611
اشارة ----- 1611
من هم المستشرقون؟؟ ----- 1618
اشارة ----- 1618
دراسة المستشرقين: ----- 1619
حديث عن المستشرقين: ----- 1621
و الخلاصة: ----- 1627
التفسير و المفسرون: ----- 1632
أدب الشيعة: ----- 1683
اشارة ----- 1683
مقدمة الكتاب: ----- 1686
تعقيب: ----- 1687
أسطورة: ----- 1699
التاريخ السياسى للشيعة: ----- 1702
ابن سبأ ----- 1707
اشارة ----- 1707
تمهيد: ----- 1707
اشارة ----- 1707
أبو زهو: ----- 1709
محمد أبو زهرة: ----- 1710
أحمد أمين: ----- 1712
الخطيب: ----- 1713

من أين و إلى أين... 1715
المدينة المنورة: 1719
المصدر: 1721
اشارة 1721
أخبار الطبرى: 1723
اشارة 1723
السند: 1724
رجال السند: 1726
التحقيق: 1728
اشارة 1728
1-السرى: 1728
2-من هو شعيب؟ 1730
3-من هو سيف؟ 1730
4-من هو عطية؟ 1730
سيف بن عمر فى الميزان: 1731
يقول الكوثرى: 1736
من فمک أدينک.. 1737
أبو ذر الغفارى: 1740
عمار بن ياسر: 1741
زيد بن صوحان: 1744
خلاصة البحث: 1746
رجال الصحاح من الشيعة 1749
تمهيد: 1749
أبان بن تغلب: 1756
أحمد بن المفضل: 1758

إبراهيم بن يزيد: 1759
إبراهيم بن محمد 1759
أجلح 1761
إسحاق بن منصور: 1761
إسماعيل بن أبان: 1762
تمييز: 1763
إسماعيل السدى: 1764
إسماعيل بن خليفة: 1765
إسماعيل بن زكريا: 1766
إسماعيل بن موسى: 1766
إسماعيل بن عبد اللّه: 1767
إسماعيل بن سلمان: 1768
أصبغ بن نباتة 1769
بسام الصيرفى: 1769
تليد بن سليمان 1770
ثابت بن أبى صفية: 1771
ثوير بن أبى فاختة: 1772
جعفر بن زياد: 1772
جعفر بن سليمان: 1774
جميع بن عمير: 1775
جميع العجلى: 1776
جابر بن يزيد: 1777
جرير بن عبد الحميد: 1777
الحارث الهمدانى: 1778
الحارث بن حصيرة: 1779

حبيب بن أبى ثابت: 1780
الحسن بن صالح: 1780
حماد بن عيسى: 1781
الحكم بن ظهير: 1782
حكيم بن جبير: 1783
الحكم بن عتيبة: 1784
خالد بن طهمان: 1784
خالد بن مخلد: 1784
خلف بن سالم: 1786
داود بن أبى عوف: 1786
الربيع بن أنس: 1787
زبيد بن الحارث: 1787
زياد بن المنذر: 1788
سالم العجلى: 1789
سعيد بن خثيم: 1790
سعيد بن عمرو: 1791
سعيد بن محمد: 1792
سعيد بن كثير: 1792
سعاد: 1793
سلمة بن كهيل: 1794
سلمة بن الفضل: 1794
سليمان بن قرم: 1795
سليمان بن مهران: 1796
سوار: 1798
سليمان بن طرخان: 1798

شریک بن عبد اللّٰہ: 1799
شعبة بن الحجاج: 1801
عائذ بن حبیب: 1802
عباد بن العوام: 1803
عباد بن یعقوب: 1803
عبد اللّٰہ بن عمر: 1805
عبد اللّٰہ بن زریر: 1805
عبد اللّٰہ بن شداد: 1806
عبد اللّٰہ بن شریک: 1807
عبد اللّٰہ بن الجهم: 1807
عبد اللّٰہ بن أبی عیسی: 1808
عبد اللّٰہ بن لهیعة: 1808
عبید اللّٰہ: 1809
عبد الجبار: 1810
عبد الرحمن: 1810
عبد الرحمن بن صالح: 1811
عبد الرزاق: 1812
عبد السلام: 1813
عبد العزیز: 1816
عبد الملک: 1816
عبد الملک بن مسلم: 1817
عثمان: 1817
علی بن بذیمة: 1818
علی بن الجعد: 1819
علی بن زید: 1820

علی بن غراب: 1820
علی بن قادم: 1821
علی بن المنذر: 1821
علی بن هاشم: 1822
عطیة بن سعد: 1822
عمار بن زریق: 1823
عمرو بن حماد: 1823
عمرو بن ثابت: 1824
عمارة بن جوین: 1824
عمار بن معاویة: 1825
الفضل بن دکین: 1825
فضیل بن مرزوق: 1827
فطر بن خلیفة: 1827
عبد الملک بن مسلم: 1827
محمد بن عبد اللّه: 1828
محمد بن جحاده: 1828
محمد بن فضیل: 1829
محمد بن موسی: 1829
مالک بن إسماعیل: 1830
مخول بن راشد: 1830
منصور بن المعتمر: 1831
منصور اللیثی: 1831
نوح بن قیس: 1832
یعقوب بن سفیان: 1832
یزید بن أبی زیاد: 1832

يحيى بن عثمان: ----- 1833
يحيى بن عيسى: ----- 1833
يونس بن خباب: ----- 1833
يونس بن أبى يعفور: ----- 1834
المجلد 4 ----- 1840
اشارة ----- 1840
الجزء السابع ----- 1845
اشارة ----- 1845
تقديم: ----- 1848
اشارة ----- 1848
1-الجمود الفكرى ----- 1858
2-خلق القرآن ----- 1870
3-البدع و الضلالات ----- 1892
اشارة ----- 1892
من هو المبتدع ----- 1894
4-القصص و القصاصون ----- 1902
خلاصة البحث ----- 1926
الإمام الصادق و التفسير الصوفى ----- 1930
اشارة ----- 1930
الأول:الحب ----- 1945
الأمر الثانى: الزهد ----- 1947
أئمة المذاهب ----- 1972
اشارة ----- 1972
أبو حنيفة ----- 1974
اشارة ----- 1974

الحيلة الشرعية 1983
صلته مع العلويين 1990
اشارة 1990
و يقول الأستاذ محمد أبو زهرة 1992
أبو يوسف 1995
وفاته 2017
أولاده و أحفاده 2017
قبره 2018
أحمد بن حنبل 164-241 ه 2019
اشارة 2019
أولاده 2028
اشارة 2028
صالح بن أحمد بن حنبل 2029
عبد اللّه بن أحمد بن حنبل 2029
سعيد بن أحمد 2030
وفاته 2031
الحنابلة فى ظل المتوكل 2039
أحمد و الشيعة 2047
خاتمة و خلاصة 2051
الجزء الثامن 2058
اشارة 2058
مقدمة و تمهيد 2062
الإمام الصادق 2066
اشارة 2066
ولادته: 2068

أمه: ----- 2068
كنيته و ألقابه: ----- 2069
صفته: ----- 2069
نظرة إلى حوادث عصره ----- 2074
اشارة ----- 2074
دعوة الغلاة ----- 2082
أضواء من سيرته عليه السّلام ----- 2088
مدرسة الإمام الصادق ----- 2110
الإمام الصادق ----- 2143
اشارة ----- 2143
مرحلة الثورة و مرحلة الدعوة ----- 2144
اشارة ----- 2144
الإمام زين العابدين ----- 2146
الإمام الباقر: ----- 2163
ثورات العلويين ----- 2182
رؤساء المذاهب ----- 2200
اشارة ----- 2200
مالک بن أنس ----- 2202
اشارة ----- 2202
من هو الإمام مالک ----- 2202
عصر مالک و علمه ----- 2203
مالک بين الأموية و العباسية ----- 2217
موطأ مالک ----- 2224
سيرة مالک ----- 2226
وفاته ----- 2233

أولاده و أحفاده 2233
الإمام الشافعی 2236
اشارة 2236
نسبه 2236
طلبه العلم 2238
بين الحديث و الرأی: 2245
الانتقال إلى مصر: 2250
أدبه و شعره 2254
وفاته 2262
أولاده 2263
الإمام الصادق 2265
اشارة 2265
أولاد الإمام 2265
اشارة 2265
علی بن جعفر عليه السّلام 2266
محمد 2268
عبد اللّه 2271
إسحاق 2271
الإمام موسى بن جعفر عليهما السّلام 2272
اشارة 2272
ولادته 2274
من حكمه و مواعظه 2279
أولاده: 2283
الإسماعيلية و الإمامة 2285
اشارة 2285

الإسماعيلية 2297
الدولة الفاطمية 2320
اشارة 2320
الحاكم بأمر اللّه: 2325
و الخلاصة: 2336
الهفت و الأظلة: 2340
خاتمة الكتاب 2348
تعريف مركز 2353

الامام الصادق و المذاهب الاربعه

اشارة

عنوان و نام پدیدآور:الامام الصادق و المذاهب الاربعه / اسد حیدر

مشخصات نشر:دارالکتاب الاسلامی - بیروت - لبنان- 1422

زبان: عربی

مشخصات ظاهری:4ج

موضوع:امام صادق علیه السلام

موضوع:مذاهب اربعه - اهل سنت

ص: 1

المجلد 1

اشارة

ص :3

عنوان و نام پدیدآور:الامام الصادق و المذاهب الاربعه / اسد حیدر

مشخصات نشر:دارالتعارف للمطبوعات - بیروت - لبنان- 1422

زبان: عربی

مشخصات ظاهری:4ج

موضوع:امام صادق علیه السلام

موضوع:مذاهب اربعه - اهل سنت

ص :4

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاه و السلام على محمد و آله الطيبين الطاهرين و صحبه المنتجبين

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ »

توبه 19

ص :5

بسم الله الرحمن الرحيم

ص :6

الجزء الأول

مقدمات التحقيق

الإهداء

إلى صادق بيت الوحى. رضيع ثدى النبوة و ربيب مهد الإمامة. إمام الأمّة بالحق و قدوة الأئمة بالصدق. إلى منهل شرائع الكتاب و سنة المصطفى. إلى سيدى الإمام أبى عبد اللّه جعفر بن محمد الصادق عليه صلوات من ربه و رحمة. أرفع صحيفتى هذه و هى مجهودى الضئيل راجيا حسن القبول فهو غاية النجاح و منتهى الأمل و السعادة لعبدكم. أسد حيدر

ص:7

المقدمة الأولى

فی ساعة من ساعات الفراغ آویت لمکتبتی، أروح النفس من عناء الدراسة الشاقة بمطالعة کتب السیر و التاریخ، و کل کتاب تناولته لم أجد فیه بغیتی و رغبت عن مطالعته من دون أن أعرف السبب الحقیقی لذلک، حتی وقعت علی مقدمة ابن خلدون بدون مقدمة، و کأنه کان هو المطلوب دون غیره. فطالعته و ما کنت مستوفیا أبحاثه من قبل، فراقنی أسلوبه و جذبنی تعبیره، و لم أستوف الغرض من مطالعته حتی فوجئت بهذه الکلمة القاسیة و القول المؤلم: «و شذ أهل البیت فی مذاهب ابتداعوها و فقه انفردوا به» . فأخذتنی الدهشة استغرابا، إنها لجرأة علی مقام أهل البیت، و أصبحت عند ذلک «کالمستجیر من الرمضاء بالنار» . و هناک نسیت ترویح نفسی و تجردت عن العوامل التی دعتنی إلی ملاقاة هذا الرجل و الاجتماع به، و شعرت أن الرجل کان منقادا للعاطفة العمیاء فی هذه الجرأة، و جعلت أعلل نفسی فی البحث عن المذاهب الإسلامیة و تکوینها، و بیان مذهب أهل البیت و مکانته فی التشریع الإسلامی، و بقیت الفکرة تخامرنی و أنّی لی بتحقیقها، و أنا تحت سلطة شواغل لا تعرف الرحمة، و لا تحلم بالعدل، و لکن إذا أراد اللّه شیئا هیأ أسبابه، فتسلمت رسالة من صدیق فاضل من أهل الموصل هو الأستاذ هاشم زین العابدین الصرّاف الموصلی کنت قد اجتمعت به خارج النجف الأشرف، و اتصلت به اتصالا ـ وثیقا، و دارت بیننا أبحاث یطول ذکرها، و کان یطلب فی رسالته أن أذکر له شیئا عن حیاة الإمام الصادق، لأنه لا یعرف عنه، إلا أنه ابن محمد الباقر أستاذ أبی حنیفة. و هذا ما حفزنی علی نشر الحقیقة بالبحث عن حیاة الإمام الصادق علیه السلام

و بيان مـذهب أهل البيت، و فقههم الـذى انتشـر فى عصـره، و لا يتسـنى لى الـدخول فى هـذا المضـمار دون أن أتعرض لذكر المذاهب الإسـلامية و نشأتها و التعرف على أئمتها بدراسة حياتهم دراسة تاريخية إظهارا للحقائق، و خدمة للحق، فوضـعت هذا الكتاب و قد منحته وقتـا من أوقاتى، بالرغم من تلك العراقيل الشائكـة التى كدسـتها الظروف فى طريق الوصول إلى الغايـة، و واجهت المصاعب وجها لوجه، فجاء هـذا المؤلف فى عـدة أجزاء متتالية و موسوعة كبيرة، و قد أعطيت فيها صورة واضـحة عن تلك العصور التى لها أثرها فى إيجاد عوامل التفرقة بين المسـلمين، و التى فسـحت المجال لخصومهم فى التدخل بين صفوفهم بدافع التشفى و الانتقام لبث روح العداء و التباغض. و لم أجهد نفسـى فى إبراز الكتاب مؤنق العبارة رشـيق اللفظ، و لئن فاتنى التفوق فى الإنشاء وسـعة الخيال و مهارة الفن فى إبرازه فلن يفوتنى إخلاص النية، و صدق القول و التثبت فى النقل و الاتزان فى الرد، فهو بهذا الشـكل أتقدم به خدمة لأهل البيت عليهم السلام بما استطعته، و ما توفيقى إلا باللّه عليه توكلت و إليه أنيب. النجف الأشرف 1375 ه-1956 م أسد حيدر

المقدمة الثانية

صـدر هـذا الجزء و هو الأول من كتابنا (الإمام الصادق و المـذاهب الأربعة) فكان الإقبال عليه يبعث على التشـجيع و مواصـلة البحث، و المضـى فى خوض هذا الموضوع الشائک الذى يتطلب دراسة عميقة، و تحمل مصاعب، بعزيمة لا تسـتكين لصـعوبة، و لا يحد من قوتها ملـل. و إن موضوع البحث عن المـذاهب قـد أحيـط بغموض و ملابسـات، و كان من وراء ذلک حصول مشاكل فى المجتمع الإسـلامى، تحتـاج إلى حـل و عمـل جـدى، و تفكير صـحيح، ليزول ما خلفته تلک العصور من ترسـبات، و ما أودعت فى المجتمع من أفكار، نتيجة للتعصب، مما أدى إلى وقوع حوادث مؤلمـة، جرت على الأمـة بلاء الفرقـة، إذا اتسـعت فيها شـقة الخلاف، و وجـد أعداء الإسـلام مجالا واسـعا، لبث روح التباغض بين طوائف المسـلمين، و أصـبحت المفاهيم معكوسة، و عندها توارت الحقيقة وراء سـحب الخصومات، من جراء النعرات الطائفيـة. و قد تكفل هذا الجزء لبيان الكثير من ذلک، بآراء حرة، و بيان مسـتفيض عما نجم من وراء ما أحدثته الخلافات من خطر على الجامعة الإسلامية. و مهما تكن أهمية هذا الموضوع فقد تناولته-قدر الاستطاعة و الإمكان- بدراسة واقعية، مستفيضة الجوانب، تزيل اللبس، و ترفع الغموض، فطالما رافق اللبس و الغموض أكثر الـدراسات التى صدرت فى هذا الموضوع؛ لأنها لم تكن خالية من نزعة التصـعب، الـذى جرّ على هـذه الأمة ويلات الدمار، و عوامل الانهيار. و إنى أجد فيما لقيه الكتاب من إقبال و اهتمام لدى الكتّاب و القراء جانبا يكشف أنى قد وفقت إلى ما صبوت إليه.

ص:11

و كان من عنايـة اللّه و توفيقة أن يصدر من هذا الكتاب–فى فترات متتالية–سـتة أجزاء، تتكفل بالبحث عن المذاهب الإسـلامية، و نشأتها و عوامل انتشارها، و التعرف على شخصـيات رؤسائها، عن طريق الواقع مع إعطاء صورة عن الخلافات المذهبية، و الآراء الفقهية و الحوادث التاريخية، و غير ذلک مما له صـلة بالموضوع. و قد نفد الجزء الأول و الثانى حتى آخر نسـخة منهما، قبل إكمال السلسلة فأصبح من اللازم إعـادة الطبع مع كثرة الطلب، و شـدة الإلحاح، من مختلف الجهات. و هـذا هو الجزء الأول أقـدمه للقراء الكرام بطبعته الثانيـة مع زيادة و تنقيـح، راجيا منهم التنبيه على ما يقفون عليه من خطأ، فإنى لا أضـمن لنفسـى السـلامة، مما لا يخلو منه مؤلف، و اللّه الموفق و منه أطلب حسن القبول و عليه الاتكال و هو حسبى و نعم الوكيل. النجف الأشرف 1383 ه–1963 م أسد حيدر

مقدمة الطبعة الثالثة

بسمه تعالى: يكاد يمر عقد من السنين على صدور الطبعة الثانية من كتابنا «الإمام الصادق و المذاهب الأربعة» و ها أنا ذا أستجمع بقايا قدراتى و أتحامل على نفسى لأعدّ الكتاب لطبعة ثالثة إن شاء اللّه بعد أن احتل مكانا مشرفا فى المكتبة الإسلامية. و لقد كانت «الطبعة الثانية» حكاية غريبة و تجربة صعبة بتفاصيلها و ما كانت عليه من أخطاء و تلاعب حتى كأن يدا قصدت الإساءة و العبث بالكتاب. و ما تعرضت إليه من نمط تجارى فى التعامل تمكن من تحقيق المصلحة المادية بلبوس من العاطفة و إظهار غاية شريفة روعى بها وضوح قصدى و ذيوع منهجى فى إصدار الكتاب الذى أنفقت عليه ما أجهدنى تحصيله و استغرق منى شطرا مهما من حياتى. و خرج منى تاجر الكتب بالموافقة على قيامه بطبع الكتاب طبعة ثانية. و راح يطبع الكتاب بآلاف النسخ و يوزعها فى العالم الإسلامى و لم يراجعنى فى الأمور التى تتعلق بالإصدار أو الوفاء بالالتزامات التى ترتبت عليه. و قد طلب منى كثير من المخلصين أن أقوم بما يضمن حفظ الكتاب كأثر إلى جانب حقى الذى هو آخر ما أفكر فيه. زارنى مرة أحد السادة من الباكستانيين بصحبة صديق فى منزلى فى النجف الأشرف و طلب موافقتى على ترجمة الكتاب إلى اللغة الأردية لأن هناك إقبالا شديدا و طلبا كثيفا. ثم أذنت للعلامة السيد حيدر كراورى بترجمته و طبعه. و ترجم الكتاب و نشر فى

لاهور و لم نتطرق حتى اليوم إلى شيء اسمه اتفاق أو شروط لأنى أعلم بدوافع الأخوة فى الباكستان. و فى آخر زيارة لى لبيروت كنت أتوقع من الناشر أن يأتينى و هو يعلم بوجودى و يعرف محل إقامتى فى بيروت ليؤدى ما عليه أو لأحصل منه على النسخ التى أحتاجها و التى هى من شروط الاتفاق، فإن من عادتى أن أهدى إخوانى العلماء و الباحثين فى بعض الأقطار الإسلامية نسخا من مؤلفاتى. و أقوم بالإشراف على إرسالها و طريقة إيصالها إلى بعض الأجزاء من الوطن العربى التى منع فيها الكتاب و أصبح اقتناؤه يعاقب عليه القانون فأضطر إلى شراء النسخ من المكتبات أو أحضر معرض الكتاب العربى الذى يقام فى الكويت و أشترى بضاعتى بمالى من جناح الناشر نفسه. و لقد كانت نواقص الطبع و أخطاء الطبعة مؤلمة تحزّ فى النفس و يوحى تكرار الأخطاء بأفكار لا سبيل إلى التغلب عليها، و لقد تطلب ذلک تحقيقا مرهقا و تدقيقا صعبا أوقعنى فى حال من الإرهاق و التعب المضنى فإن التحقيق يكون فى أعمال الآخرين و أسفارهم لدواعى الزمن و عوامل التاريخ لا فى عمل أناملک و نتاج فكرک و لا أقول بأنى استطعت تدارک كل ما فى الطبعة من خلل. و ختاما أسأل اللّه العلى القدير أن يفسح فى الأجل و يمدّنى بالعون لأكمل الجزء الثامن بعد أن أكملت الجزء السابع و توسعت فى أجزاء الكتاب و قد قدمت إعداد الأجزاء الستة للطبعة الثالثة على إنهاء الجزء الثامن و إنجازه. و آخر دعوانا أن الحمد للّه رب العالمين و صلى اللّه على نبينا محمد و على آله الطيبين الطاهرين. أسد حيدر الكويت/ربيع الأول/1399

و المذاهب الأربعة

>بقلم الدكتور حامد حفنى داود أستاذ الأدب العربى بكلية الألسن فى القاهرة< منذ أكثر من عشرين عاما استرعى التفاتى-و أنا أبحث فى تاريخ التشريع الإسلامى و العلوم الدينية-الإمام جعفر الصادق سليل البيت النبوى الكريم، و ما كان له من شخصية عظيمة فى الفقه الإسلامى و منزلة لا تجارى فى عالم الفكر العربى، و فى الجانب الروحى بصفة خاصة. فوضعت فى ذلک الوقت بحثا تناولت فيه جوانب من سيرته و علمه و منهجه الفكرى و الفقهى، و استغرق ذلک منى قرابة ثمانين صفحة. ثم عرضت الفكرة على أستاذنا المرحوم عبد الوهاب عزام، و هو من النفر القليل المشهود لهم-فى نظرى-بالقدرة على الجمع بين أخلاق القدماء و مناهج المحدثين. و لكن الأستاذ الوقور لم يكد يسمع بعنوان البحث حتى علت وجهه السمح بسمة خفيفة، فهمت منها كل شىء. . . فهمت أن هذه الشخصية-على الرغم مما تحتله من مكانة عظيمة-هى مما يهم علماء الشيعة أكثر مما يعنى علماء السنة، و لو كان ذلک البحث فى مجال «الجامعة» التى يجب أن تكون أرحب صدرا مما تدعو إليه الطائفية المذهبية من تخصص أو تفرضه البيئة من مخططات محدودة ضيقة فى مجال الفكر. خامرتنى هذه الفكرة أمدا طويلا و كدت أن أعيش فيها و أخرج بها إلى الناس فى كتاب خاص، أردت أن يكون عنوانه «جعفر الصادق: إمام العلماء الربانيين و أول المبعوثين من المجددين» .

ص:15

و على الرغم من كثرة ما كتبت و ما حصلت من مراجع حول هذه الشخصية العظيمة منذ عام 1943-فإن الدوافع البيئية و الوجدانية لمن يعيشون حولى كانت تردنى إلى الوراء و تحملنى على اليأس أكثر مما تحملنى على الكتابة و الانطلاق فى الموضوع. و قد ضاعف من الزهد فى إتمام ما بدأت ما قرأته من أبحاث مهلهلة هنا و هناك حول شخصية هذا الإمام، فطويت صحافى و تركت الكتابة، و تأبيت على التعليق و الرد. و لكن يأبى اللّه سبحانه إلا أن يظل الحق حقا، و أن تكون قوته فوق طاقات الزمان و حواجز المكان. و هكذا بعد عشرين عاما قضت إثر انقطاعى عن الكتابة حول هذه الشخصية الفذة، تخللتها ألوان من التخبط المنهجى، و صور من الكتابات التى لا تقوم على أساس علمى، طالعتنا الأقدار التى تأبى إلا أن تضع الحق فى نصابه بمن يميط اللثام عن وجه الحق سافرا، و يحمل السحب على الانقشاع بعد الذى طال من تلبد. كان هذا الفتح الجديد فى دراسة الإمام منذ عشرة أعوام حين خرج إلينا الباحث الأديب و العالم العراقى الحصيف الأستاذ أسد حيدر بالجزء الأول من كتابه «الإمام الصادق و المذاهب الأربعة» ، و الذى تم نشره على ما يبدو من مقدمة الطبعة الأولى سنة 1375 ه-1956 م. فكان هذا الكتاب الجامع إيذانا بإنهاء مرحلة التخبط حول سيرة الإمام الصادق، كما كان نقطة الانطلاق التى عرفنا من ورائها الكثير عن تاريخ «المذهب الجعفرى» ، و ما بينه و بين المذاهب الفقهية الأربعة من صلات و روابط يجهلها الكثيرون من علماء هذه الأمة على الرغم مما حصلوه من ثقافات تاريخية و فقهية و فلسفية. و أول ما يسترعى التفاتنا من هذا السفر الضخم شموله وسعة آفاقه و استيعابه أكثر جوانب هذه الشخصية العظيمة، و لعل ذلک راجع إلى سعة اطلاع المؤلف فلا يكاد يرى رأيا لصاحب رأى حول شخصية الإمام إلا و أتى به، و لا قضية تتصل بالموضوع من قريب أو بعيد إلا و ساقها و ناقشها فى أسلوب أدبى أقرب ما يكون إلى الموضوعية و النهج الفنى و أبعد ما يكون عن التحيز المسف و التعصب الأعمى. و فى كتابات المؤلف و استرسالاته التحليلية حول هذا الموضوع- نلمس اتزان العالم الحصيف حين يهرع إلى كلمة الحق و يفر بنفسه عن كل ما يشوه هذه الكلمة. و إن من يقرأ صدر الجزء الأول من كتابه «الإمام الصادق و المذاهب الأربعة» يقف على

عجالة دقيقة فى الخلافة الإسلامية أرسلها المؤلف واضحة المعالم سافرة الأركان، يقرأها القارئ فيخيل إليه أنه يعيش فى هذه الحقبة من التاريخ. إن هذا الأسلوب العلمى فى علاج التاريخ الإسلامى خليق بأن ينال من النقاد الحظوة من التقدير، و خليق بأن يكون أساسا لما بعده من مؤلفات. إننا فى حاجة إلى دراسة التاريخ دراسة علمية، و فى حاجة أشد إلى دراسة المذاهب السياسية و الفقهية فى صورة أعمق مما وصل إلى أيدينا لنقول للمحق أحققت و للمخطئ أخطأت. و تشتد حاجتنا إلى هذه الدراسة حين نعلم عن يقين لا يقبل الشك القدر الذى لعبته السياسة الأموية و السياسة العباسية فى تصوير المذاهب الفقهية، و حين نعلم عن يقين لا يقبل الشك مدى ما أصاب الشيعة من عنت و اضطهاد فى ظل هاتين الأسرتين الحاكمتين خلال ثمانية قرون كاملة. إن هذا الإحياء الصادق الذى يقوم به علماء الشيعة فى صرح الثقافات الإسلامية يعتبر فى نظرى انعكاسا لهذه الثورة النفسية التى أشعلت نيرانها السياسة الأموية و العباسية فى نفوس شيعة الإمام علىّ و الأئمة من بعده. و لقد كان اضطهاد هذه الشيعة بالقدر الذى خامر أعماق الإيمان و استقر فى النفوس بحيث توارثه هؤلاء الشيعة فى معارج التاريخ كلها و امتزج منهم بالدم و اللحم امتزاج الإيمان الصادق فى نفوس المؤمنين. فالشيعة-من هذه الناحية بالذات-مؤمنون عقائديون و ليس إيمانهم من هذا النوع الذى يقف عند حدّ التقليد و القول باللسان. و هذا الإيمان العميق المسلك العقائدى الذى يحياه الشيعة فى كل قرن هو-وحده-سرّ هذا النشاط المستمر الملحوظ فى دعوتهم، و هو أيضا سر الانبثاقات المتلاحقة فى مؤلفاتهم و هذا النفس الطويل الذى نلمسه فى كتاباتهم. و لو شئنا أن ننصف المؤلف فيما كتبه عن «الإمام الصادق و المذاهب الأربعة» لاستوعب منا ذلك مجلدا، فقد أصدر المؤلف من هذا الكتاب ستة أجزاء كاملة مهد فى أولها للتاريخ الإسلامى و الأدوار التى لعبها فى خلق الأحداث المؤثرة فى كيان المذاهب الفقهية، و كيف كانت حياة الإمام الصادق منها، و أين كان يقف المذهب الجعفرى، ثم مدى تأثيره فى المذاهب الأربعة الأخرى، و مدى ما بينه و بينها من خلافات أكثرها فى الفروع و قليل منها فى الأصول.

نعم لو أردنا أن ننصف المؤلف فيما أطرف به مكتبة التاريخ، و فيما أطرف به مكتبة الفقه لاستوعب منا ذلک قرابة المجلد الكامل. و لكننا نكتفى من هذا القدر العظيم بالإشارة السريعة التى ترسم بعض معالم هذه الصورة العلمية عن الإمام الصادق، معبرين فيها عن مشاعرنا إزاء هذا النهج القويم الذى سلكه المؤلف فى سفره الضخم. و لعل أروع ما يستوقف النظر و يطمئن الناقد على ما بلغه المؤلف من توفيق فى هذا الكتاب إرساؤه القواعد فى مشكلة الخلافة التى أشرت إليها آنفا. و أنا-فى هذا الصدد-أوافق المؤلف أن المشكلة بدأت فى خلافة عثمان حين انتهز بنو أبيه خلافته فعبثوا بمصائر البلدان الإسلامية. و لكنى كنت أود أن يبدأ حديث الخلافة و مشكلتها فى الصورة الجذرية التى بدأت بانتقال الرسول صلوات اللّه عليه إلى الرفيق الأعلى. و قد أنصف المؤلف تاريخ الإمام «علىّ» حين صور المشاكل التى كانت تحيط خلافته من خروج أم المؤمنين «عائشة» إلى مؤامرات «معاوية» و عبثه بشخصيتين كبيرتين هما: «طلحة» و «الزبير» حين بايعهما لا لذاتهما و لا لسبقهما فى الإسلام و لكن ليجعل منهما جسرا لمعارضته و موضوعا لبث أهوائه الشخصية، إلى غير ذلک من المطالبة بدم عثمان و علىّ برىء من هذا الدم. و قد كانت هذه المشاكل من الكثرة بالقدر الذى استعصى على فلاسفة التاريخ من عرب و مستشرقين، فأخطئوا فهم شخصية «الإمام على» و نزعوا عنه صفة السياسة و اكتفوا بوصفه بالورع و الزهد. و لكن اجتهاد الإمام عليه السّلام و نزوعه الشديد إلى منهج التوفيق بين الورع فى الدين و الصراحة فى السياسة كان فوق مدارک هؤلاء المؤرخين. و كم كنت أود أن يشير مؤرخنا البارع إلى مهاترات المستشرقين و ضحالة تفكيرهم فى إدراک معنى «التكامل النفسى» -كما أسميه-فى شخصية «الإمام على» ، و هو القدر الذى أخطأ فيه « جولدتسيهر» و غيره. و نحن نرى أن انتصار معاوية على الإمام إنما هو صورة من صور الثأر و التآمر التى نزع إليها الشرک بعد أن غلبه الإسلام، فهى على حد تعبيرنا قصاص المتمسلمين و أدعياء الإسلام من المسلمين المؤمنين حقا و هم الذين قتلوا آباءهم و أجدادهم من أجل الحق و إعلاء كلمة الإسلام. و لا أحب أن أطيل فى التعليق على هذا الكتاب القيم الذى أعتبره دائرة معارف عامة و موسوعة قيمة فى تاريخ المذهب الجعفرى و المذاهب الفقهية لا غنى للباحثين

عنه. و أوثر فی ختام هـذه الکلمـة أن أنوه بما کتبه المؤلف عن محمـد بن إسـماعیل البخاری و کتابه فی الحـدیث. و قد لاحظت فی تعلیق المؤلف علی «البخاری» جانبین: جانب موضوعی و هو الذی تناول فیه المؤلف الأحادیث الموجودة فی هذا الصـحیح کما تناول أسانیدها و رجالهـا. و جانب اجتهادی تحـدث فیه المؤلف عن انصـراف البخاری عن الأحادیث التی تروی فی فضائل بیت النبوة. أما الجانب الأول فنحن فیه علی اتفاق تام، ذلک لأن أحادیث الرسول صلّی اللّه علیه و آله و سلم لم تدون فی حیاته إلا ما روی عن صحیفة عبد اللّه بن عمرو بن العاص، و من ثم لا بـد من أن یخضع الحدیث سـندا و متنا للنقد النزیه، فما وافق منه القرآن الکریم و روح السـیرة النبویة العطرة جزمنا بصـحته، و ما کان بعیـدا عنهما صار موضع نظر، و هنا یأتی -فقط- الخلاف بین نقاد الحـدیث. و أما الجانب الثانی -و هو الـذی یتلخص- ظاهرا- فی إعراض البخاری عن الأحادیث المرویة عن أئمة آل بیت النبوة. فإنی أری فیه رأیا لا ألزم فیه أخی المؤلف. ذلک أن هذا الإعراض عن أحادیث هؤلاء السادة هو من أفعال القلوب التی لا تسـتطیع الحکم علیها إلا بعد الاسـتقصاء التام، و کما نسـتطیع أن نقول: إن إعراضه عن الأحادیث المرویـة عن الأئمـة کان آتیا بـدافع عدم التوثیق، نسـتطیع -بلا شک و لا ریب -أن نقول: إنه امتنع عن روایتها خوفا و فرقا من حکام العباسیین الذین کانوا یناصبون آل محمد العداء. و هو یعلم أنه لو روی عنهم لأهمل کتابه فی حدیث رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلم، أو لقضی علیه و قبر و هو فی مهده. فإذا کانت الشجاعة الأدبیة قد تخطت الإمام البخاری فیما یتعلق بأحادیث فضائل آل محمد فإن ذلک لا یقضـی علی ما بـذله من جهـد و لا أقل من أن یقال فی هـذا الصدد: إنه اجتهد و أخطأ، و لعل إهماله لهذا الجانب من الأحادیث کـان درءا لما یخشاه من سـطوة الحاکم، فاکتفی من ذلک أن یقر بقلبه دون المشافهـة باللسان و التسـجیل بالقلم و ذلک ما یطابق أضـعف الإیمان. هـذا إن ثبت خوفه من حکام ذلک العصـر -و إلا فإننا لا نسـتبعد أنه حاول الروایـة عن رجال البیت النبوی و استعصـی ذلک علیه بسبب ما کان یضربه الحکام حول أفراد هذا البیت من سیاج منیع لیحولوا بینهم و بین اتصال طلاب العلم بهم، و نحن نعرف مدی اضطهاد الحکام لهم و حقدهم علیهم.

و قصارى القول فإن إغفال البخارى لهذه الأحاديث لا يضعف من شأنها و لا ينقص من قدرها و قد رواها أصحاب السنن، كما أن ذلک- علميا- لا يصبح دليلا قاطعا على موقفه من الأئمة رضوان اللّه عليهم. و إنى لأرجو اللّه سبحانه أن يؤاتينا فنتصفح ما فاتنا من صفحات هذا الكتاب القيم، متمنين لمؤلفه العلامة الأستاذ أسد حيدر التوفيق و السداد فى إتمام ما بدأ، و إنا لمنتظرون. دكتور حامد حفنى داود

الإمام الصادق بين عهدين

اشارة

العهد الأموى-العهد العباسى

ص:21

العهد الأموى

بنو أمية فى عهد عثمان:

أتاح القـدر لبنى أمية فرصة نادرة، إذ انتخب عثمان (1)خليفة للمسـلمين بعد عمر بن الخطاب، فأصـبح زعيم الأمة و رب دستها المطاع، و أميرها المسـلط و خليفـة صاحب الرسالـة، و بذلک برقت لهم الآمال من بين ظلمات اليأس، و تنشـقوا روائح الراحة فتعلقوا بعرى الفوز، و طلع فجر ليلهم الذى باتوا ينشدون فيه أملهم الضائع و يأسـفون لحزبهم الفاشل. بعد أن خاب كل أمل فى نيل بغيتهم لإعادة ذلک الحزب المنحل، و المنهزم فى ميدان المعارضة للحق. و لكن الأقدار تجرى بين عشـية و ضـحاها لامتحان الخلق و غربلة الناس فإذا بهم يسوسون الأمة و يتلاعبون بالإمرة. و لسـنا بصدد البحث عن حوادث عهد الخليفة عثمان، و ما فيه من بلاء و محن و ما لقى المسـلمون من أبناء أبيه. عند ما أصبح مروان بن الحكم (2)أمينا عاما و وزيرا خالصا للخليفة الجديد،

1- 1) عثمان بن عفان بن العاص بن أمية بن عبد شـمس و أمه أروى بنت كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس، بويع له بالخلافة سنة 23 ه-و 24 ه-و قتل صبيحة الجمعة 18 ذى الحجة سنة 35 ه- فكانت خلافته 12 سنة و حوصر فى داره 22 ليلة و دفن فى حش كوكب مقبرة لليهود و اختلف فى عمره فقيل 90 و 88 و 75 و 86 و 63 انظر الطبرى ج 2 [1] حوادث سنة 35.

2- 2) مروان بن الحكم بن أبى العاص بن أميـة بن عبـد شـمس بن عبـد مناف ولد يوم أحد و قيل عام الخندق و قيل بالطائف. قال ابن عبد البر: ولد على عهد رسول اللّه (صلى الله عليه و آله) سنة 2 من الهجرة و طرد رسول اللّه أباه و هو طفل لا يعقل، و بهذا لا تثبت له صحبة. و يعرف مروان بخيـط الباطـل و لما بويع بالخلافـة قال فيه أخوه عبـد الرحمن بن الحكم: لحا اللّه قوما أمروا خيط باطل على الناس يعطى ما يشاء و يمنع و نظر إليه على (عليه السـلام) فقال: ويلک و ويل أمة محمد منک و من بنيک، بويع له بعد معاوية بن يزيد سـنة 64 ه-و مات سنة 65 ه-قتلته زوجته أم خالـد بن يزيد و هو معدود فيمن قتلته النساء-انظر ابن عبد البر ج 3 ص 428 [2] بهامش الإصابة [3]ط الأولى سنة 1328، و الحكم بن العاص نفاه النبى (صـلى الله عليه و آله) إلى الطائف ثم أعيد إلى المدينة فى خلافة عثمان و روى الزهرى و عطاء أن أصـحاب النبى (صـلى الله عليه و آله) دخلوا عليه و هو يلعن الحكم فقـالوا: يـا رسول اللّه مـاله؟ قـال: دخـل على شق الجـدار و أنا مع زوجتى فلانة فكلح فى وجهى، و مر النبى (صـلى الله عليه و آله) بالحكم فجعل الحكم يغمز النبى (صـلى الله عليه و آله) باصبعه فالتفت فرآه فقال: اللهم اجعله وزغا فزحف مكانه. و مر الحكم يوما فقال (صـلى الله عليه و آله) : ويل لأمتى مما فى صـلب هـذا. و من حـديث عائشـة أنهـا قـالت لمروان أما أنت يا مروان فأشـهد أن رسول اللّه لعن أباک و أنت فى صـلبه و طرده النبى (صـلى الله عليه و آله) و نفاه إلى الطائف و مات فى خلافة عثمان سنة 32 ه- و ضرب فسطاطا على قبره و عاب الناس عليه ذلک- انظر الإصابة ج 1 ص 346. [4]

يحبى بالأموال و يختص بخمس الغنائم و يتنعم بأموال الأمـة بعد ذلک الشـقاء، و يتقلب بأحضان الراحة بعد العناء. و الأغيلمة الذين على أيـديهم هلاک الأمـة، يتولون الحكم و يتلاعبون بالإمرة كتلاعب الغلمان بالكرة، و ينزون على منبر رسول اللّه نزو القردة (1). فلنترک ذلک العهـد و ما فيه من أحـداث و حوادث، و لا نناقش ذلک الانتخاب الـذى فاز فيه عثمان، لا بسابقة فى الإسـلام، و لا قرابة فى رحم، و ما هو بأولى من على عليه السّلام لو كان هناک انتخاب حر و مقاييس صحيحة. نعم لا نريد أن نتعرض لما خلفته تلک الأحداث من آثار مؤلمة، و أوضاع شاذة مما دعا أصـحاب النبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلم إلى مقاطعـة الخليفة، عند ما أصـبحت مقاليد الحكم بيد بنى أبيه، فعم الاستياء جميع الأقطار الإسـلامية مما أدى إلى قيام ثورة مخضت عن قتل عثمان فى داره، و مبايعه على عليه السّلام و انتصار معاويـة بعد قتله و قد خذله فى حياته.

---

1 - 1) حـديث-اخرج ابن جرير فى تفسـيره قـال: رأى رسول اللّه (صـلى الله عليه و آله) بنى الحكم بن أبى العاص ينزون على منبره فساءه ذلـک فمـا اسـتجمع ضاحكـا حتى مـات و أنزل اللّه فى ذلـک: وَ مـا جَعَلْنَا اَلرُّؤْيَا اَلَّتِى أَرَيْناکَ إِلاّ فِتْنَـةً لِلنّاسِ [الإسـراء:60]و [1]أخرجه السيوطى فى اللؤلؤ المنثور من حديث عبد اللّه بن عمر و يعلى بن مرة و الحسين بن على و غيرهم (و طرق هذا الحديث كثيرة) .

علی. . . و مبایعة معاویة لطلحة و الزبیر:

وجد معاویة (1)نفسه بدائرة ضیقة بعد قتل عثمان و مبایعة علی بالخلافة أ یعلن معارضة علی؟ و قد عقدت بیعته علی أکمل وجه و ناصره أصحاب محمد. و القلوب تغلی علی بنی أمیة، أم یدخل فیما دخل فیه الناس کارها کدخوله فی الإسلام هو و أبوه من قبل، و هو لا یجهل مکانة علی و منزلته فی الإسلام فهو أول القوم إسلاما و أقدمهم إیمانا و أفضل الناس بعد رسول اللّه و أقربهم منه. و علی قد طبعت نفسه علی العدل لا تأخذه فی اللّه لومة لائم، و لا یستطیع معاویة أن یعمل فی عهد علی عمله الذی یحاول به نجاح مهماته، و تأبی نفس معاویة أن ترضخ للعدل، و تستسلم للواقع، لأنه یعرف علیا و سیرته و خشونته فی الأمر. و علی یعرف معاویة، و علی أی طابع طبعت نفسه، و هو أدری بحرکاته و ما یهدف إلیه فی دهائه الذی استطاع أن یستجلب به رضا عمر و یخاتل عثمان من قبل. إذا کیف یصنع معاویة؟ إذا اشتد جانب علی و عظمت شوکته، فکان موقفه تجاه هذه المشاکل موقف حیرة و ارتباک، و دنیاه حبلی و لا یعلم ما تلد فی الغد. کاد معاویة أن یفر من میدان المعارضة لعلی لأنه أعزل من کل سلاح یستطیع به مقابلة علی إن أعلن حربه، و لیس له حجة یستهوی بها قلوب الناس. بما ذا یدعی معاویة و أی أمل له بالخلافة و الإمرة علی المسلمین؟ و هو یعرف نفسه و لا یفوته منها کل شیء، فهو ابن هند (2)و ابن أبی سفیان (3)زعیم المشرکین و مثیر الحرب علی صاحب الرسالة.

1- 1) معاویة بن أبی سفیان بن صخر بن حرب بن أمیة بن عبد شمس بن عبد مناف ولد قبل البعثة بخمس سنین و قیل سبع سنین أسلم عام الفتح و مات فی رجب سنة 60 ه-قال أبو عمر معاویة و أبوه من المؤلفة قلوبهم و قال ابن أبی الحدید کان معاویة مطعون فی دینه انظر ج 1 ص 111 و قول الزمخشری فی ربیع الأبرار فی نسبه و کانت إمارة معاویة عشرین سنة ولاه عمر بن الخطاب الشام و حاسب عماله إلا معاویة و بعد وقوع الصلح تم الأمر لمعاویة فاستقل مدة عشرین سنة.

2- 2) هند بنت عتبة بن ربیعة بن عبد مناف والدة معاویة-کانت تثیر شعور المشرکین بأراجیزها فی حروبهم علی النبی و تشجعهم هی و باقی نساء المشرکین و کانت ترجز یوم أحد (نحن بنات طارق) و بذلت لوحشی ما یحب أن قتل حمزة عم النبی (صلی الله علیه و آله) فلما قتل مثلت به و استخرجت کبده فشوت منه و أکلت-انظر الاستیعاب [1]بهامش الإصابة ج 4 ص 426 و [2]توفیت فی عهد عمر بن الخطاب فی الیوم الذی مات فیه أبو قحافة والد أبی بکر الصدیق.

3- 3) أبو سفیان: هو صخر بن حرب بن أمیة بن عبد شمس و أمه صفیة بنت حرب الهلالیة مات فی خلافة عثمان سنة 34 ه-و قیل 31 ه-و هو ابن ثمان و ثمانین سنة و کان یکنی بأبی حنظلة الذی قتل یوم بدر کافرا قتله علی (علیه السلام) .

نعم كاد معاوية أن يهزم و يخضع لسلطان على و هو كاره له، و لكن خروج أم المؤمنين عائشة (1)و نقض طلحة (2)و الزبير (3)بيعة على فتحا له باب أمل ارتج عليه من قبل، فأسرع بالكتاب إلى الزبير: (إنى قد بايعتک و لطلحة من بعدک فلا يفوتكما العراق) . و ليس له بغية بهذه البيعة إلا الفرار من على و الخروج عن سلطانه، إذ لا يجد من نفسه قدرة على اتباع على (فعلى مع الحق و الحق مع على) . و بهذه البيعة انتهى رأيه ليتخلص من المشاكل الشائكة، و وجد فسحة فى الأمل و فرجا بعد الشدة ان انتصر حزب المعارضين لعلى عليه السّلام.

1- 1) عائشة بنت أبى بكر الصديق زوجة النبى (صلى الله عليه و آله) أمها أم رومان بنت عامر بن عويمر الكنانية ولدت بعد المبعث بأربع سنين دخل بها النبى (صلى الله عليه و آله) فى السنة الثانية من الهجرة و هى بنت تسع سنين و توفى عنها و هى بنت 17 أو 18 سنة و ماتت سنة 58 ه-و قيل سنة 57 ه-و دفنت بالبقيع بأمر منها و أن تدفن ليلا و صلّى عليها أبو هريرة.

2- 2) طلحة بن عبيد اللّه بن عثمان بن عمر بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة و أمه الصعبة الحضرمية شهد أحدا و أبلى بها بلاء حسنا و لم يشهد بدرا و آخى النبى (صلى الله عليه و آله) بينه و بين الزبير و قيل بينه و بين كعب بن مالک و كان أحد أبطال الثورة على عثمان و قتل يوم الجمل مع عائشة قتله مروان بن الحكم أخرج البغوى بسند صحيح قال: لما كان يوم الجمل نظر مروان إلى طلحة فقال لا أطلب ثأرى بعد اليوم فنزع بسهم فقتله و كان ذلک فى جمادى الأول سنة 36 ه-و مات و له أربع و ستون سنة و دفن بالبصرة ثم نقل لمكان آخر فيها- انظر الإصابة ج 2 ص 230 و [1]ابن كثير ج 7 ص 246. [2]

3- 3) الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى بن كلاب القرشى أمه صفية بنت عبد المطلب أحد أصحاب الشورى الستة قتل يوم الجمل يوم الخميس لعشر خلون من جمادى الآخرة سنة 36 ه-و عمره 66 و لا يعرف قبره أما قبره الحالى الواقع فى مدينة الزبير قريبا من البصرة فقد شيد على الخطأ يقول ابن كثير فى تاريخه ج 11 ص 319 فى حوادث 386 ما هذا نصه و فى محرمها كشف أهل البصرة عن قبر عتيق فإذا هم بميت طرى عليه ثيابه و سيفه فظنوه الزبير بن العوام فأخرجوه و كفنوه و دفنوه و اتخذوا عند قبره مسجدا و وقفوا عليه أوقافا كثيرة و جعل عنده خدام و قوام و تنوير. و يقول أبو الفرج ابن الجوزى فى المنتظم ج 7 ص 187 [3] فى حوادث سنة 386 ما هذا نصه: (فمن الحوادث فيها أن أهل البصرة فى شهر المحرم ادعوا أنهم كشفوا عن قبر عتيق فوجدوا فيه ميتا طريا بثيابه و سيفه و أنه الزبير بن العوام فأخرجوه و كفنوه و دفنوه بالمربد بين الدربين و بنى عليه الأثير أبو المسک عنبر بناء و جعل الموضع مسجدا و نقلت إليه القناديل و الآلات و الحصر و السمادات و أقيم فيه قوام و وقف عليه وقوفا.

و هل كان معاويـة فی غفلـة عن سـلاح فاتک يسـتطيع به أن يأمل نجاح أمره و تكون له حجـة فی مقابلـة علی و هو الإعلان فی الطلب بدم عثمان، و اسـتبعد بعد ذلک عن تفكيره أو أنه غافل عنه، فهو بدهائه و مكره لا تعزب عنه هذه الفكرة، و لكن فی نظر الواقع أنها فكرة خاطئة و حجة ليس لها برهان، فعثمان قتل بأيدی المسـلمين، و ما هو ولی دمه، و ليس منه فی شـیء، و بنوه أولی بذلک، و لا يعزب عن معاوية مثل هذا فهو بحاجة إلی من يدعم حجته، و يؤيد هذه الدعوی الكاذبة، و لكنه جعل هذه الفكرة فی جعبة آماله و لـم يسـتطع اسـتعمالها إلا بعد أن عرف نجاحها بيـد غيره و اسـتخدامها من قبل الآخرين فهـذه أم المؤمنين عائشة بنت أبی بكر من تيم تعلن الطلب بدم عثمان الأموی، و هی التی فتحت باب المؤاخذة عليه و آزرها علی ذلک قوم أراقوا بأيديهم دمه بالأمس، و هم يمسـحون بها دموع الحزن المصطنعة اليوم (وا عثماناه إنه قتل مظلوما) دوت هذه الصـرخة و إذا بالشام تقوم لها و تقعد. و قاموا بحركات عاطفية و أعمال تقليدية من دون وقوف علی حقيقة الأمر و هم يشاركون قاتل عثمان فی الندبة عليه و يؤازرون من خذله فی الأمس و من حرض الناس علی قتله.

طلب معاوية بدم عثمان:

انتحل معاويـة لنفسه حق الطلب بدم عثمان و انه أقرب الناس إليه و أولاهم بدمه، و ان عثمان قتل مظلوما و قد جعل الشارع لوليه سـلطانا. إذا لمن يطالب معاويـة و الكل مشتركون فی إثارة الناس عليه؟ و هؤلاء الذين يبكون عليه اليوم قد فتحوا عليه باب المؤاخذة من قبل و أعلنوا للناس انحرافه عن جادة الصواب، لسـيره فی ركاب بنی أبيه، إذا فالأمر يحتاج إلی مزيـد من التأمل و التفكير فليس لمعاويـة غرض إلا مناوأة علی و جعله هو القاتل وحده، و لم يلتفت إلی المعارضات التی قام بها أصـحاب محمد صلّی اللّه عليه و آله و سلّم ضد عثمان، فإنهم عند ما لمسوا ميله لأبناء أبيه و اختصاصـهم بالغنائم و توليتهم الأمر، و تقريب مروان بن الحكم و جعله أمينا للدولـة، و إهانـة بعض الصـحابة و تبعيد آخرين-حتی أعلنوا مقاطعته و الغضب عليه، فهذا عبد الرحمن بن عوف (1)المناصر لعثمان و الباذل جهده فی انتخابه، هجره

1- 1) عبد الرحمن بن عوف بن عبد الحرث بن زهرة بن كلاب القرشـی الزهری اسـمه فی الجاهلية عبد عمر-و قيل عبد الكعبة. أمه الشفاء بنت عوف بن الحرث بن زهر ولد بعد الفيل بعشـر سنين و كان من المهاجرين و شهد بدرا و المشاهد كلها مع رسول اللّه (صلی الله عليه و آله) و هو أحد السـتة أصـحاب الشوری و كان من أهل الثروة الطائلة و خلف من بعده ألف بعير و ثلاثة آلاف شاة و مائة فرس و أوصی بأن يتصدق من ماله بخمسـين ألف دينار و صولحت إحدی نسائه التی طلقها فی مرضه عن ربع الثمن بثلاث و ثمانين ألف انظر الرياض النضرة ص 389 و [1]كان عنده من الذهب ما كسر بالفؤوس و توفی سنة 32 ه-و قيل 31 ه-و دفن بالبقيع.

و أوصى أن لا يصلى عثمان عليه (1)و كان يقول: عاجلوه قبل أن يتمادى فى ملكه، و قال لعلى عليه السّلام: خذ سيفک و آخذ سيفى فإنه قد خالف ما أعطانى. و كان طلحة من أشد الناس على عثمان حتى كان عثمان يدعو و يقول: اللهم اكفنى طلحة فإنه حمل على هؤلاء و ألبهم علىّ، و اللّه إنى لأرجو أن يكون منها صفرا و أن يسفک دمه (2).

موقف عائشة و عمرو بن العاص:

و هذه أم المؤمنين عائشة تعلن معارضة عثمان، و تخرج شعرا من شعر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و ثوبا من ثيابه و نعلا من نعاله ثم قالت: ما أسرع ما تركتم سنة نبيكم و هذا شعره و ثوبه و نعله لم يبل بعد (3)فغضب عثمان غضبا شديدا حتى ما درى ما يقول، و كانت تقول: إن عثمان عطل الحدود، و توعد الشهود، و أغلظت لعثمان و أغلظ لها، و قال: ما أنت و هذا إنما أنت امرأة، أمرتى أن تقرى فى بيتک، فقال قوم مثل قوله، و قال آخرون: و من أولى بذلک منها فاضطربوا بالنعال، و كان أول قتال بين المسلمين بعد النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم (4)و هذا عمرو بن العاص وزير معاوية و شريكه فى الأمر كان من الثائرين و المحرضين على عثمان يقوم إليه فى ملأ من الناس و يقول: إنک ركبت نهابير و ركبناها معک فتب نتب (5)و قال له: اتق اللّه يا عثمان، فقال له عثمان: و إنک هناک يا ابن النابغة قملت جبتک منذ عزلتک عن العمل. و نودى من ناحية أخرى تب إلى اللّه (6)فخرج إلى فلسطين و أقام هناک و جعل يحرض الناس على عثمان حتى رعاة

1- 1) البلاذرى ج 5 ص 75. [1]

2- 2) الكامل لابن الأثير ج 3 ص 86. [2]

3- 3) البلاذرى ج 5 ص 48. [3]

4- 4) البلاذرى ج 5 ص 84. [4]

5- 5) الطبرى ج 3 ص 369. [5]

6- 6) الكامل ج 3 ص 80. [6]

الغنم و لما بلغه قتله قال: أنا أبو عبد اللّه إذا حككت قرحة نكأتها (1). و جل الصحابة أظهروا الإنكار على عثمان لسوء ما ارتكبه بنو أبيه الذين حملهم على رقاب الأمة، و كان جيش مصر-الذى حاصر عثمان و اشترک فى قتله-تحت قيادة عبد الرحمن بن عديس البلوى من كبار الصحابة و هو ممن شهد الحديبية و بايع بيعة الشجرة، كما اشترک فى حصار عثمان جمع من أهل بدر كرفاعة بن رافع الأنصارى و غيره. و قتل نيار بن عياض و هو من الصحابة المحاصرين له. كما أن النصوص التاريخية مجمعة بالاتفاق على مكاتبة الصحابة من أهل المدينة إلى من بالآفاق منهم: إن أردتم الجهاد فهلموا إليه فإن دين محمد قد أفسده خليفتكم (2). و مهما يكن من أمر فقد أعلن معاوية الطلب بدم عثمان و لا يريد بذلک إلا إعلان الحرب على على عليه السّلام، لأنه يبغض عليا بغضا لا يحمله قلب إنسان على وجه البسيطة؛ إن معاوية يبغض عليا لإيمانه و عدله، و على يبغض معاوية لنفاقه و ظلمه. لذلک سلک معاوية طرق المكر و الخداع و الخداع و اتخذ أعوانا هم على شاكلته يثيرون الناس لحرب على عليه السّلام بتهمة قتل خليفة المسلمين، و دب و هم هذه الفكرة فى أفئدة ضعفاء العقول و الإيمان، و أحاطوا بقميص عثمان يبكون عليه، و يتوقدون لطلب القود من قاتله. قدم قبيصة العبسى إلى المدينة رسولا من معاوية، فقال على: ما وراءک؟ قال: تركت قوما لا يرضون إلا بالقود. قال: ممن؟ قال: من خيط رقبتک، و تركت ستين ألف شيخ يبكون تحت قميص عثمان، و هو منصوب لهم قد ألبسوه منبر دمشق فقال على: أمنى يطلبون دم عثمان؟ !! (3)

موقف معاوية من عثمان:

ما هذا العطف من معاوية على عثمان و هذه الرحمة المرتجلة. أين كانت عاطفة

1- 1) البلاذرى ج 5 ص 74. [1]

2- 2) الكامل ج 3 ص 83 و [2]البلاذرى ج 5 ص 60 و الطبرى ج 3 ص 400. [3]

3- 3) الكامل ج 3 ص 100. [4]

معاوية على ابن عمه يوم كان محصورا و ترده أخباره، و يستنجده فلا يجيبه بشيء، و يستغيث به و كأن فى أذنيه صمم؟ !! . يحدثنا الطبرى (1)أن عثمان كتب إلى معاوية بن أبى سفيان و هو بالشام: بسم اللّه الرحمن الرحيم: أما بعد فإن أهل المدينة كفروا و خلعوا الطاعة، و نكثوا البيعة، فابعث إلىّ من قبلك من مقاتلة أهل الشام على كل صعب و ذلول. . فلما جاء معاوية الكتاب تربص به و كره إظهار مخالفة أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم و قد علم اجتماعهم. لا يريد معاوية نصرة عثمان و إنما يحاول أن ينتصر المسلمون عليه فيقتل فتكون له وسيلة لنجاح الخطط التى رسمها ضد على و بنى هاشم، لأن الأمويين يحاولون أن يكيلوا لهم صاع الانتقام كل أذى، و كانوا فى حذر من تنازل عثمان عن العرش فتفشل ريحهم، و يخيب كل أمل لهم فى الأمر، لذلك كان مروان و باقى الحزب الأموى يقفون حاجزا دون تحقيق الأهداف التى أراد المصلحون الوصول إليها فى إبعاد المفسدين من الأمويين عن الحكم و تجرد الخليفة عن معاونتهم، و كان الأمر المهم الذى يتطلبه إصلاح وضع الأمة هو إبعاد عثمان عن الحكم، و قد قام الإمام على بمعالجة الوضع و كلما أراد إصلاح أمر عثمان بالاتفاق بينه و بين الثائرين، من طريق التفاهم و إيقاف تيار الخلاف عند حده، كان الأمويون يسلكون طرق الشغب، و يوقدون نار الفتنة، فكانت مواعيد عثمان كلها فاشلة، و أعمال بنى أمية و فى طليعتهم مروان تزيد حراجة الموقف. و تضاعف الحال تعقيدا. و كان الخليفة المقتول يأمل من معاوية نصره فى تلك المشكلة و لكنه خذله بصورة لا مجال للتشكيك فيها. و لما ازداد نشاط الثوار عاود عثمان أمله فانتصر بمعاوية مرة أخرى، فأرسل معاوية جيشا تحت قيادة يزيد القسرى، و أمره أن يقيم بذى خشب و لا يتجاوز، و قال له: لا تقل الشاهد يرى ما لا يراه الغائب، فإنى أنا الشاهد و أنت الغائب. فأقام الجيش حتى قتل عثمان، فاستقدمه معاوية إلى الشام، و إلى هذا يشير أبو أيوب

1- 1) تاريخ الطبرى ج 3 ص 402. [1]

الأنصارى صاحب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بقوله لمعاوية: إن الذى تربص بعثمان و ثبط يزيد بن أسد عن نصرته لأنت. فمعاوية بطلبه لثأر عثمان بعد موته و خذلانه له فى حياته دليل على سوء نواياه و ما يقصده من وراء ذلک. و هو مخطط أموى للاستيلاء على السلطة و مقابلة على بكل وجه. و إن معاوية لا يقيم لقتل عثمان وزنا و لا يرى له قيمة و لكنها حجة استهوى بها أمة أخضعها لإرادته و سيرها كما شاء، و إلا فإن من قتلة عثمان من أصبحوا أنصار معاوية و حزبه و هو يعرف ذلک، و يعلم جيدا أن الإمام على أكثر الناس حرصا على الدماء، و أن ما كان من قواعد الولاية أن تكون البيعة ثم تفوض الأمور بالأموال و الدماء و كل الحقوق إلى صاحبها كما هو العهد فى حكم من سبق الإمام، و لكن الأمر لم يكن القصاص أو الثأر لعثمان و إنما كراهية دولة الحق و سلطان الدين و قد جاءا عليا ليعيدها بأصولها، و على من اليقين باللّه و الثقة بدينه ما يجعله يجد فى الخلافة أمرا يتعلق بالدين لا بالدنيا، و لذلک كان تجاوزه من قبل، فليس أمام معاوية إلا الخديعة و المكر و التظاهر بأمر هو من أدرى الناس بملابساته. و ليس لمعاوية نصيب من خصائص على و دين على، و عليه أن يظهر للناس بأمر مقبول يجند له كل ما يمكنه من الخديعة و الدهاء. و قد نجح معاوية فى مخاتلته و مكره، فقد أصبح خصما لعلى عليه السّلام و طرفا مقابلا، و التف حوله ضعفاء العقول الذين يحاولون الوصول لغاياتهم بكل وسيلة، فها هم يقومون فى الأندية و المجتمعات، و يبثون بين الأفراد و الجماعات يذيعون بين الناس أن خليفة المسلمين قتله على بن أبى طالب عليه السّلام، و هم يبكون و يتألمون و استدرجوا لهذه الغاية من عرف بالنسک و وسم بالصلاح لتكون كلمته أوقع فى النفوس، و سرت هذه الدعوى المفتعلة بخطى واسعة، و تلقتها النفوس الضعيفة بكل قبول فأصبح شتم قاتل عثمان على ألسنتهم، و هم يتقدون بنار الغيظ لطلب الثأر، و معاوية و حزبه يحركون شعور الناس بنشر قميص عثمان فيطول بكاؤهم و يعلو نحيبهم، و أقسموا أن لا يمسهم الماء إلا للغسل من الجنابة و أن لا يناموا على الفرش حتى يقتلوا قتلة عثمان و من قام دونهم قتلوه. و جاء عمرو بن العاص إلى دمشق راجلا و معه ابناه و هو يبكى كما تبكى المرأة و يقول: وا عثماناه أنعى الحياء و الدين حتى دخل دمشق، و انضم لجانب معاوية على

حرب على، و ذلک لما بلغه بيعـة على لأنه يكره ولاية على عليه السّلام و بيعته (1)و لكنه اشترط على معاوية أن يعطيه ولاية مصـر ما دام على قيـد الحيـاة ثمنا لافتعاله و اصـطناعه التظلم لمقتل عثمان، فرضـى معاويـة بـذلک و لا يهمه اشتراک عمرو بن العاص بقتل عثمان فى التحريض عليه لهياج الرأى العام، كل ذلک لا يهم معاويـة ما دام ابن العاص أصـبح عـدوا لعلى و كان أكثر اعتماد معاوية على المتمردين على الإمام على بن أبى طالب عليه السّلام. و ازداد نشاط خصوم على بهذه الفكرة و قويت شوكة معاوية، و عظم جانبه، و برأ الكل من دمه إلا على وحده، و انقلب بعض المعارضين لعثمان و الثائرين عليه من قبل إلى جهة الشفقة و الحنان عليه.

عائشة و عثمان:

و كانت أم المؤمنين عائشة تتطلع أخبار المدينة و هى فى مكة، و قد تركت عثمان محصورا، فقدم عليها رجل يقال له أخضر فقالت: ما صنع النـاس؟ قـال: قتـل عثمان المصـريين، فقالت: إنا للّه و إنا إليه راجعون أ يقتل قوما جاءوا يطلبون الحق و ينكرون الظلم؟ !! و اللّه لا نرضـى بهـذا. فهى بهـذه اللحظة متمسـكة بالإنكار على عثمان و ان من رأيها أحقية المطالبين لعثمان، و الثائرين عليه ثم لقيها رجل آخر فسألته ما صنع الناس؟ قال: قتل المصـريون عثمانا. قالت: العجب لأخضر زعم المقتول هو القاتل و لم يظهر إلى هذا الحد منها تغير و تبدل، و لكن عنـد ما بلغها قتل عثمان و بيعـة على عليه السّلام و هى تريـد الخروج إلى المدينـة نادت: ردونى إن عثمان قتل مظلوما فاطلبوا بدم عثمان (2). ليت هـذه انطبقت على هذه إن تم الأمر لصاحبک (تعنى عليا) ردونى قتل و اللّه عثمان مظلوما، و اللّه لأطلبن بدمه. فقال لها الرجل: و لم؟ !! و اللّه إن أول من أمال حرفه لأنت، و لقـد كنت تقولين اقتلوا نعثلا فقـد كفر، قالت: قلت و قالوا، و قولى الأخير خير من الأول فقال لها:

1- 1) الكامل ج 3 ص 129. [1]

2- 2) الطبرى ج 3 ص 369 و [2]الكامل ج 3 ص 102. [3]

فمنک البداء و منک الغیر و منک الریاح و منک المطر

و أنت أمرت بقتل الإمام و قلت لنا إنه قد کفر

و التف حولها بنو أمیة الذین هربوا إلی مکة، و جاء طلحة و الزبیر فأیدوا هذا الرأی و انضموا لجانب عائشة، و من هناک تألف جیش البصرة، و کثر نعی عثمان و إعلان الحرب علی علی علیه السّلام. فکانت حرب الجمل (1)و بعدها صفین تلک الحرب التی طال أمدها و عظم وقعها فلجأ معاویة إلی المکر و الخداع و انتهت بذلک التحکیم الذی جری بغیر ما أنزل اللّه ثم کانت حرب النهروان التی أثارها المارقون عن الدین و الخارجون علی إمام المسلمین فانتصر علیهم و شتت شملهم. و ارتحل علی علیه السّلام إلی دار البقاء شهیدا بعد أن أدی رسالته علی أکمل وجه و أقام فی الأمة العدل و سار بسیرة الرسول (صلی الله علیه و آله) و اهتدی بهدیه فصلوات اللّه علیه و رحمته و مغفرته و رضوانه. و قام من بعده ولده الحسن علیه السّلام بنص من أبیه من جهة، و اجتماع المسلمین علی بیعته من جهة أخری و هو ریحانة رسول اللّه و سبطه الذی خلفه فی أمته، فکان ما کان من مقابلة معاویة له بإعلان الحرب علیه، و مقابلته له بما یکره، و استعماله طرق الخداع و المکر لتفریق الناس عنه، لیضرب معاویة ضربته القاضیة، و یتم له الأمر بالظفر و الغلبة. فکان من حنکة الحسن علیه السّلام و حسن تدبیره تنازله للصلح لیوقف تیار غلبة معاویة عنده حده، فإن معاویة لو تم له الأمر بالغلبة لکان ما کان من أفعال انتقامیة کما هو شأن الظافر الذی لا وازع له یحجزه عن ارتکاب ما یرید وقوعه فی خصومه، و لکن الحسن علیه السّلام قیده بشروط تقف حاجزا دونه و دون مآربه و تجعله لا یشعر بسلطة الظفر الذی یبیح ما یرید، و کان یثقل علیه وجود الحسن فی الوجود فتوصل إلی قتله بالسم فإنا للّه و إنا إلیه راجعون و تم لمعاویة ما أراد (و إن ربک لبالمرصاد) .

1- 1) کانت حرب الجمل فی سنة 36 هجریة فی جمادی الآخرة و قتل فیها من الطرفین عدد لا یقل عن عشرة آلاف و فیها قتل طلحة رماه مروان بن الحکم بسهم فقتله و قد اشتهر عنه قوله أینما أصابت فتح و کذلک وقعة صفین ابتدأت فی هذه السنة و انتهت فی أمر التحکیم فی شهر رمضان سنة 37.

معاوية و الخلافة:

ما كان معاوية يحلم يوما ما بتلك العظمة فيتسنم عرش الخلافة الإسلامية، لقد كان صعلوكا لا مال له، و ذليلا تحت عزة الإسلام، و وسم هو و أبوه و حزبهم الفاشل بالطلقاء، يوم فتح اللّه على نبيه و نصره نصرا عزيزا «و دخلوا فى الإسلام و قلوبهم مملوءة بالحقد على الإسلام يتربصون الفرص لمحو سطوره و قلع جذوره و ما تغير شيء من نفسيات أبى سفيان بعد دخوله فى حضيرة الإسلام قلامة ظفر» . فلا يستغرب من معاوية تلك المقابلة التى قابل بها عليا بوجه لا يعرف الخجل، لأنه وريث ذلك العداء المتأصل بين بنى هاشم و بنى أمية فتلك «عداوة جوهرية ذاتية يستحيل تحويلها و يمتنع زوالها» فما أعظم محنة المسلمين و ما أشد بليتهم عند ما يعود أمرهم لخصوم لا يعرفون الرحمة، و لا عهد لهم بالعدل، و ناهيك بما فى القلوب من حقد، و بما فى النفوس من حب الانتقام، و قد آن الأوان لتحريك ساكن الغل و إظهار مكنون العداء. و إنه ليثقل على معاوية ذكر على بخير، و تأبى نفسه أن يرى فى الوجود أنصارا لعلى يحفظون به وصايا محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و يرعون حقه، لذلك أصدر أمره إلى عماله عامة بنسخة واحدة: انظروا من قامت عليه البينة أنه يحب عليا و أهل بيته فامحوه من الديوان و أسقطوا عطاءه. فما أعظم بلاء الأمة عند ما فتح معاوية عليهم باب التشفى و الانتقام، و ما أكثر المأخوذين بهذه التهمة، و معاوية يحاول بذلك أن يوقع بين صفوف الأمة عداء تتوارثه الأجيال، و يبعث العصبية بين القبائل ليشق الطريق إلى غايته. و يحدثنا المدائنى فى كتاب الأحداث أنه كتب إلى عماله نسخة واحدة أن برأت الذمة ممن روى شيئا فى فضل أبى تراب و أهل بيته. و قام الخطباء فى كل كورة ينالون من على و يقعون فيه و فى أهل بيته، و كان أشد الناس بلاء أهل الكوفة لكثرة من بها من شيعة على، إذ استعمل عليهم المغيرة بن شعبة (1)ثم زياد بن سمية و ضم إليه البصرة فكان يقتل كل من اتهمه بحب على،

1- 1) المغيرة بن شعبة بن أبى عامر بن مسعود المتوفى سنة 50 و كان أحد الدهاة استعان به معاوية و استعمله على الكوفة و كان عمر قد ولاه البصرة و عزله لقضيته مع أم جميل، قال قبيصة بن جابر: لو أن مدينة لها ثمانية أبواب لا يخرج منها إلا بالمكر لخرج المغيرة منها كلها.

و يهـدم الدور و يقطع الأيدى و الأرجل، فكان ذلک الدور من أهم أدوار الإرهاب و الانقلاب على مفاهيم العدل الإسـلامى و إحياء لدور الجاهلية فى قتل أهل التوحيد. و الذين على شاكلة معاوية أخلصوا له و قاموا بما يحب فأعلنوا شتم على و البراءة منه. فكان المرتزقة يتقربون إليه بذلک، و علماء السوء يوازرونه فى نشـر الحكايات المفتعلة حتى أدت الحالة فى الشام بأن تختم مجالس الوعظ بشتم على عليه السّلام (1). و بعـد ذلک فكر معاويـة أن هذا العمل الذى يقوم به لا يثمر كثير فائدة لأنه عمل إرهابى و سـرعان ما يتبدل الوضع، فضم لهذا العمل شيئـا آخر من تقريب خصوم على و المتظاهرين بعـدائه و المعروفين بشـيعة عثمان و إغـداق العطاء عليهم و منحهم الصـلات الجزيلـة، و رعايتهم و العناية بهم و تسـجيل أسـمائهم و أسـماء عشائرهم، ليكونوا فى محل الاعتبار، و رفع أسماءهم للبلاط الأموى ليشملهم بعطفه و يرعاهم بلطفه، فما أكثر المتقربين إليه خوفا من شفرة السيف و ظلمة السجن، و ضيق اللحد و عناء المطاردة و التبعيد. و قد تلقى شيعة على عليه السّـلام كل ذلک بصبر و ثبات، و تحملوا ظلم معاوية و جوره، و لم يتحولوا عن عقيدتهم أو تزل بهم قدم خوف الإرهاب و الفتک. ثم فكر معاوية بشىء يستطيع به إنجاح خططه عند ما يستعمل أولئک الدجالين و ذوى الضمائر الرخيصة لوضع الأحاديث على لسان صاحب الرسالـة بما تشاء نفسه و تتطلبه مصـلحة ملكه، بـدون التفات إلى مؤاخـذة و عدم مبالاة بجريمة الكذب على اللّه و على رسوله، و لم تقف أمامه حواجز عنـد ارتكاب جرائم قتل المسـلمين على الظنـة و التهمة، و سـلب الأموال، و هتک الأعراض، و سبى النساء، و هدم الدور، و إلقاء الجثث فى الطرقات، و القتل فى المساجـد و أخذ البرىء بالسـقيم، إلى غيرها من جرائم يتصدع لها قلب المسـلم و تكاد نفسه تذهب حسـرات. و ها نحن نتخطى عهد معاوية و لا نقف موقف المدقق الذى يريد حصـرها فليس من غرضنا ذلک، و قد كفانا رجال التحقيق من علماء الأمة، و التاريخ الصحيح بيان ذلک إذ ليس لنا من الوقت ما يتسع لنشر تلک الصحائف السود و ذكر تلک الفضائع المؤلمة.

1- 1) ابن عساكر ج 3 ص 402.

فأعمال معاوية سجلها التاريخ عليه و هى بعيدة عن روح الإسلام و مجانبة للعدالة، و إن ضرب الحصانة عليه باسم الصحبة بدعة فى الدين و افتراء محض.

بيعة يزيد و أعماله:

و مضى معاوية لسبيله مثقلا بأوزاره تاركا وراءه ولى عهد فرضه على المسلمين بشكل قسرى، كما فرض على نفسه الحلم الاصطناعى، و مداراة الناس ليحملهم على إجابته، و من سوء حظ الأمة أن يلى أمرها فاسق لا يعرف إلا الرذيلة و هو أشرّ خلق اللّه و ألعنهم (1)و سيعلم الذى مهد له ذلک أى نوعية قدم للمسلمين و ولاه رقابهم. و لا يستبعد من معاوية و كيده للإسلام و محاربته له من البداية إلى النهاية، أن يرشح يزيد لعلمه بما طبعت عليه نفسه من الفسق و عدم المبالاة بما يرتكبه، ليتم له نجاح الخطط التى رسمها معاوية فى حياته لمحاربة الإسلام و أهل البيت، و شرع فى تطبيقها فى حياته و عهد إلى يزيد لتنمو فى عهده فينال معاوية غرضه. فكان يزيد كما أراد أبوه فقد قام بدور خطر و مثل تلک العظائم التى يقف القلم عند بيانها. فكانت باكورة عمله أن قتل الحسين ابن بنت رسول اللّه و سبى نساءه بصورة يذوب لها قلب كل إنسان مهما اختلفت ملته و نحلته فضلا عن المسلم الذى يعرف الحسين و منزلته من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و مكانته من الإسلام، و ما أعظمها من جريمة تقشعر لها الجلود و تذوب لها النفوس حسرات فكانت وقعة الطف سلسلة فجائع مروعة و نكبات أليمة، فإنا للّه و إنا إليه راجعون.

1- 1) مما يثير الأسى أن ينجم عن سياسة إضفاء الصحبة و طابع القداسة على معاوية و أمثاله الإيمان بالطاعة لأولى الأمر ممن ظلموا أو سفكوا دماء المسلمين و ما نتج من آراء بعدم الطعن بمعاوية أو لعن ابنه يزيد أو تكفيره أو حتى رواية قتل الحسين و ما جرى بين الصحابة لأنه يبعث على ذمهم و عندهم لا يجوز نسبة المسلم إلى الفسوق، بدون تحقق، بما ذا سيجيبون نبيهم و هم يلقونه غدا؟ نعوذ باللّه من خطل القول و زلل اللسان و كل ما يسخط رسوله (صلى الله عليه و آله) و يرضى أعداءه. أما أولئک الذين أفسد دينهم النصب و أعمى قلوبهم التعصب و وقعوا ضحايا حملات التضليل فمن فقد عقله راح يفصح عن سخائم سريرته، و من تزيا بزى العلم على طريقة علماء بلاط ملوک الأمويين فجاهر بالكفر بالتزامه سياسة يزيد فننشد فى وصفهم ما قاله الجوهرى صاحب الصحاح و قد رمى الزمن أمامه من أمثال هؤلاء: رأيت فتى أشقرا أزرقا قليل الدماغ كثير الفضول يفضّل من حمقه دائبا يزيد بن هند على ابن البتول

و فی السنة الثانیة أباح مدینة الرسول و أصبح جنده یجوسون خلال دیار الوحی لیفسدوا فیها و یهلکوا الحرث و النسل، یتدفقون فی شوارع ذلک البلد الطیب، یهجمون علی البیوت، لیهتکوا أعراضا، و یسلبوا أموالا- فلا- تزعجهم أصوات النساء المعولات علی أزواجهن و أولادهن. و لم تلن قلوبهم لأنین الأطفال و ذعرهم. و تری مخدرات ذلک البلد کأسراب القطا تتخطفها البزاة الجارحة، أو کقطعان الغنم تتناهبها الذئاب الضاریة، فهن تحت تصرف أولئک الوحوش ثلاثة أیام یفعلون ما شاءوا، و مروان بن الحکم ینظر الفجائع فیهتز طربا و مرحا یعجبه أن یری شیوخ الصحابة و وجوه العرب و أبطال الإسلام یقادون لقائد الجیش لیأخذ منهم البیعة لیزید بیعة عبودیة. فبعین اللّه ما لقیت الأمة، و لا تخفی علی اللّه خافیة فی الأرض و لا فی السماء. و فی السنة الثالثة هدم الکعبة و لعلها أبلغ أمنیة لنفس الأمویین و أعظم إنجاز لعائلتهم أن ینالوا من البیت الذی کان مهبط الوحی علی ابن عبد اللّه (صلی الله علیه و آله) و قبلة الإسلام الذی قضی علی مکانتهم و أباد رجالهم، و حرم التوحید و الإیمان، فبنار مجانیقهم یکون یوما بیوم هبل و اللات و العزی. هذا هو ولی عهد معاویة الذی عرف لیاقته للحکم و صلاحیته للأمر. فلنترک عهده و نتخطی فظائعه بدون تفصیل فهی أشهر من أن تذکر، و إن ربک لبالمرصاد. فلم یطل عهده و أراح اللّه منه الأمة و اللّه شدید الانتقام.

تحول الحکم من آل أبی سفیان إلی بنی الحکم:

و تحول الأمر من بعد یزید بن معاویة من آل أبی سفیان إلی بنی الحکم لأن عهد معاویة بن یزید (1)لم یطل و قد فر بنفسه من ولایة ورثها بدون حق، و هو یعرف أهلها، و إن أباه وجده غاصبون لها، فصرح بذلک فی خطبته فقال:

1- 1) معاویة بن یزید أبو عبد الرحمن و یقال أبو یزید و یقال أبو لیلی استخلف بعهد من أبیه فی ربیع الأول سنة 64 و کان شابا صالحا و کانت مدة خلافته أربعین یوما و لم یخرج إلی الناس بعد هذه الخطبة و لا فعل شیئا و لا صلّی بالناس و مات و هو ابن 21 سنة و قیل 23 و قیل غیر ذلک و دفن بمقابر باب الصغیر بدمشق و لما حضرته الوفاة قیل له أ لا توصی فقال: لا أتزود مرارتها و أترک حلاوتها لبنی أمیة و لما دفن حضر مروان دفنه فقال أ تدرون من دفنتم؟ قالوا نعم معاویة بن یزید فقال: مروان نعم هو أبو لیلی الذی یقول فیه الغزاری: إنی أری فتنة تغلی مراجلها و الملک بعد أبی لیلی لمن غلبا

إن هـذه الخلافة حبل اللّه، و إن جدى معاوية نازع الأمر أهله، و من هو أحق به منه على بن أبى طالب عليه السّلام و ركب بكم ما تعلمون، حتى أتته منيته فصـار فى قبره رهينـا بـذنوبه، ثم قلـد أبى الأـمر، و كـان غير أهل له، و نازع ابن بنت رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلم فقصف عمره، و انبتر عقبه، و صار فى قبره رهينا بذنوبه. ثم بكى و قال: إن من أعظم الأمور علينا علمنا بسوء مصرعه و بئس منقلبه، و قد قتل عترة رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم و أباح الخمر، و خرب الكعبة. و لم أذق حلاوة الخلافة. فلا أتقلد مرارتها فشأنكم أمركم و اللّه لإن كانت الـدنيا خيرا فقـد نلنا منها حظا و لإن كانت شـرا فكفى ذرية أبى سـفيان ما أصابوا منها (1)ثم تنـازل عن عرش أقيم على جماجم الأبريـاء من المسـلمين، و خلع بردا نسـج على نول المكر و الخـداع و التمويه، و فر بنفسه عن التلبس بتلـك الجرائم فعفى اللّه عنه. و ولى الأمر مروان بن الحكم، بعـد أخذ ورد و وقوع فتن فى الشام و غيره و تعصب بين القبائل، و حروب فى جميع الأقطار و كثرة الدعاة ضد بنى أمية. فأصـبح مروان خليفة المسـلمين، و لم تطل أيامه و مات سنة 65 ه-قتلته زوجته أم خالـد بن يزيـد، و هو معدود فيمن قتلته النساء. ثم جاء دور عبد الملك بن مروان، بويع له بعد أبيه و الأمور مضـطربة و البلاد تموج من فوضـى الأمويين و سوء سـيرتهم، و عبد اللّه بن الزبير قارب أن يتم له الأمر، و المختار بن أبى عبيدة نهض لطلب ثأر الحسـين عليه السّلام و نكل بقاتليه و مزقهم كل ممزق، و شـفى صدور قوم مؤمنين، و قضى على علوج الشرك، و قتلة أولاد الأنبياء فرحمه اللّه و جزاه خيرا، فكان مجىء عبد الملك للحكم، مجىء فاتك لا يقف عند حد، و ناقم لا يعرف قلبه الرحمة، و ظالم لا عهد له بالعدل فكان دوره دور إرهاب و جور.

ولادة الإمام الصادق:

و بهـذا الـدور فى عهـد عبـد الملك بن مروان ولد الإمام أبو عبد اللّه جعفر الصادق عليه السّلام فى ليلة الجمعة فى السابع عشـر من ربيع الأول سنة 82 ه-و قيل فى

1- 1) ابن حجر فى الصواعق ص 124. [1]

غرة شـهر رجب و الأمة الإسـلامية تلاقى تلك الأحكام القاسـية، و قد انتشـر فيها دعاة الفساد، و تحكم أئمة الجور، و استولى على الأقطار الإسـلامية أولئک الجزارون الذين يتقربون لأئمتهم بضـحايا البشرية بدون جناية، و الأخيار من الأمة الذين ينكرون تلک الأعمال الوحشية عرضـة للأخطـار و محلاـ للنقم. ولـد عليه السّـلام فى حجر الرسالـة، و نشأ فى بيت النبوة، و ترعرع فى ربوع الوحى، و تربى بين جـده زين العابدين و أبيه الباقر عليهما السـلام. أقام مع جده على بن الحسـين عليه السّـلام اثنتى عشـرة سـنة، و قيل خمس عشـرة سـنة، و على رواية المدائنى ست عشـرة سـنة، و أخذ عنه فى حياته و تربى فى مدرسـته. و بدون شک ان جده زين العابدين هو أفضل الهاشـميين، و سيد أهل البيت فى عصره، و أعلم الأمة فى زمانه و أورعهم و أصدقهم حديثا، و بعد وفاة جده تفرد بتربيته أبوه الباقر عليه السّلام (1)و هو هو فى عمله و ورعه، فنشأ الإمام تلک النشأة الصالحة و هو خليفة أبيه، و المتحمل أعباء الإمامة من بعده و عاشر أباه بعد وفاة جده تسع عشرة سنة.

نشأة الإمام الصادق:

و لاـ شـک ان الإمـام الصـادق نشأ فى وسط مجتمع لا يتصل بآل البيت إلا من طريق الحـذر و التكتم لشـدة المراقبـة التى تحوط بهم من السـلطة الأموية، و شاهد طلاب العلم يتصـلون بمدرسة جده و أبيه و هم بأشد حذر، لأن ذلک الدور لا يستطيع أحد أن يتظاهر بالاتصال بآل محمد و من عرف فى ذلک فإنما مصـيره القبر أو ظلمة السـجن إلى حيث الأبد. نشأ الصادق فى عصر تتنازع فيه الأهواء، و تضطرب فيه الأفكار و طغت فيه موجـة الإحن و الأحقاد، و تلاطمت فيه أمواج الظلم و الإرهاب. و تقرب الناس إلى ولاة الأمر بالوشايات و الاتهامات فلاـ حرمـة للنفوس و لاـ قيمـة للـدين و لاـ نظـام يشـمل الرعيـة، بل هى فوضـى و الأمراء يحكمون بما شاءوا و الرعيـة بين أيـديهم ألعوبة لأغراضهم.

1- 1) ستأتى فى الجزء الثانى لمحة من حياة الإمام الباقر عليه السلام.

و أشد الناس بلاءهم أنصار آل محمد و شيعتهم و اتخذ خصومهم شتم علىّ سنة يتمون به فرضهم، فلا يدخل الداخل إلى مسجد و لا معبد و لا مجلس و لا حلقة علم إلا و يسمع تلك العبارات التى يعبر بها أولئک القوم عن سوء سريرتهم، و لا يكاد يصغى لخطيب أو قصاص أو واعظ إلا و كانت براعة استهلاله شتم على عليه السّلام. فكان آل محمد يلاقون تلك المشاق و يواجهون تلك المصاعب بقلوب مطمئنة بما وعد اللّه الصابرين، و كل هذه الأمور شاهدها الإمام الصادق فى نشأته، أو أخذ عنها من أبيه صورة واقعية بعد حدوثها حتى شمله العسف الأموى عند ما جىء به مع أبيه الباقر إلى الشام مقر الظالمين و موطن البغاة. فبعين اللّه ما لقيت الأمة الإسلامية و ما لقى آل محمد الذين هم حملة العلم و مبلغى رسالات الإسلام. أدرک الإمام الصادق صلوات اللّه عليه ثلاث سنين من خلافة عبد الملک، و تسع سنين و ثمانية أشهر من خلافة الوليد بن عبد الملک، و ثلاث سنين و ثلاثة أشهر و خمسة أيام من خلافة سليمان، و سنتين و خمسة أشهر من خلافة عمر بن عبد العزيز، و أربع سنوات و شهرا من خلافة يزيد بن عبد الملک، و عشرين سنة من خلافة هشام بن عبد الملک، و سنة واحدة من خلافة الوليد بن يزيد، و ستة أشهر من خلافة يزيد بن الوليد، و بعده لم يبق خليفة للأمويين بعينه لكثرة الاضطرابات حتى زال ملكهم فى سنة 132 ه-. كل هذه الأدوار شاهدها الإمام الصادق، و هو يعيش و أهل بيته بتلک الدائرة الضيقة محاطا بالرقابة، و بتلک الاتهامات التى يحوكها ضده المتقربون لخصوم آل محمد، و هو يرى بين آونة و أخرى مصارع زعماء الشيعة و سجن آخرين و مطاردة السلطة لبقية السيف منهم، و كان يطرق سمعه مدة تسع عشرة سنة شتم جده على عليه السّلام و انتقاص آله، و كان يرى بعض ولاة المدينة يجمع العلويين يوم الجمعة قريبا من المنبر يسمعهم شتم على و انتقاصه، حتى ولى عمر بن عبد العزيز سنة 99 ه- فرفع السب عن على عليه السّلام كما سيأتى بيانه.

عصر الإمام الصادق:

اشارة

كانت نشأة الإمام الصادق نشأة خشونة و ملاقاة مصائب، و خوض غمرات محن و بلاء، من ولاة أضاعوا الحق و ظلموا الأمة، و اتبعوا شهواتهم و أعلنوا العداء لآل

محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و مع هذا كله فإنه كان لا يمتنع من الجهر بالحق و إرشاد الناس و تحذيرهم من مخالطة أولئک الظلمة، و كان ينهى عن المرافعة إليهم و ينهى عن الاختلاط بهم و إعانتهم فى شىء، و التولى لهم و قبول أى عمل منهم. و فى أيامه كان خروج زيد بن على فى الكوفة و لما قتل زيد كان يؤبنه بكلماته البليغة، و يلعن قاتله و ذلک فى أيام هشام بن عبد الملک ذلک الجائر الذى أظهر العداء لآل أبى طالب بصورة إرهابية بعد قتل زيد، و أمر عماله بالتضييق عليهم، و أن تمحى أسماؤهم من ديوان العطاء و ملأ منهم السجون، و كتب لعامله يوسف بن عمر الثقفى بقطع لسان الكميت و يده لأنه رثى زيدا، كما منع العطاء عن أهل المدينة لاتهامه إياهم بالميل إلى زيد، و ألزم آل أبى طالب بالبراءة من زيد، إلى آخر ما هنالک من فجائع و أمور كانت تحوط بالإمام، و تنكد عيشه، و لكن عناية اللّه قضت بأن يزداد شعور الناس نحو آل محمد مع تلک المحاولات التى اتخذها الأمويون، فكانت هناک اجتماعات و مؤتمرات سرية سعيا إلى انقلاب عام يزيل مملكة الأمويين و تحويلها لآل محمد، و بانتشار الدعاة لهذه الفكرة و حصول خلاف بين الأمويين أنفسهم اضطربت الدولة، و دب فى جسمها الضعف، و أحاطت بها عوامل الانهيار، فكانت فترة سعيدة و لكنها كانت فترة مؤلمة فى الوقت نفسه، إذ كان الإمام الصادق يرى ما يصيب الدين الإسلامى من وهن و تشويه و انتهاک فانبرى لفتح أبواب مدرسته، و ليقوم بما يجب عليه من توجيه الناس، و بث الأحكام و تعاليم الدين فهو بين شيخوخة الدولة الأموية، و طفولة الدولة العباسية قام فى عصر ازدهار العلم لتعليم الناس حتى عد تلامذته أربعة آلاف رجل.

المرحلة السعيدة:

و كان بيته عليه السّلام فى تلک الفترة كالجامعة، يزدان على الدوام بالعلماء الكبار فى الحديث و التفسير و الحكمة و الكلام، فكان يحضر مجلس درسه فى أغلب الأوقات ألفان و بعض الأحيان أربعة آلاف من العلماء المشهورين. (1)و كان يؤم مدرسته طلاب العلم و رواة الحديث من الأقطار النائية، لرفع الرقابة و عدم الحذر فأرسلت الكوفة و البصرة و واسط و الحجاز إلى جعفر بن محمد أفلاذ

1- 1) مجلة رسالة الإسلام العدد 4 السنة 6.

أكبادها، و من كل قبيلة من بنى أسد و مخارق، و طى، و سليم، و غطفان، و غفار، و الأزد، و خزاعة، و خثعم، و مخزوم، و بنى ضبة، و من قريش، و لا سيما بنى الحارث بن عبد المطلب، و بنى الحسن بن الحسن بن على (1). و نقل عنه الحديث و استفاد منه العلم جماعة من الأئمة و أعلامهم مثل يحيى بن سعيد الأنصارى، و ابن جريح، و مالک بن أنس، و الثورى، و ابن عيينة، و أبى حنيفة، و شعبة، و أيوب السجستانى، و غيرهم، و عدّوا أخذهم منه منقبة شرفوا بها و فضيلة اكتسبوها (2). و نالت مدرسة الصادق شهرة عظيمة ففى تلک الفترة السعيدة، كان هو زعيم الحركة الفكرية فى ذلک العصر، و يعتبر فى الواقع أنه أول من أسس المدارس الفلسفية فى الإسلام، و لم يكن يحضر حلقته العلمية أولئک الذين أصبحوا مؤسسى المذاهب الفقهية فحسب، بل كان يحضرها طلاب الفلسفة و المتفلسفون من الأنحاء القاصية (3)، و ستطلع على جوانب تكوين هذه المدرسة الكبرى و وجوه نشاطها المختلفة. و إن من جوانب عظمة الإمام الصادق أن ينهض فى هذا الدور من التاريخ الإسلامى الذى شهد تلک الأحداث السياسية و التحولات الفكرية، و يقيم صرحا فكريا على قواعد دينية و مناهج علمية و هو يواجه سياسة الضغط و حملات العنف و يعالج روح الأمة و يتجه إلى أفكار أبنائها، و بقيت مدرسة الإمام الصادق- برغم سياسة الأمويين-فى محو آثار أهل البيت جامعة تمد الرجال بعلوم الدين و زاد الإيمان، يتخرج منها الطلاب للدعوة إلى الحق، كما بقيت على استقلال نهجها و وضوح منهاجها فى عهد العباسيين، و قد حفظت لنا مصادر التاريخ صورة لمكانة الإمام الصادق فى عصره و مدى انتشار علمه فى الأقطار الإسلامية، حتى كان اسمه فى الحديث و الرواية من أمارات الصحة و علامات العلم، ففى كل مسجد من مساجد المسلمين المعروفة راح الرواة و المحدثون ينهلون من فيضه و كلّ يقول: حدثنى جعفر بن محمد، حتى قال أحدهم: أدركت فى جامع الكوفة تسعمائة شيخ من أهل الدين و الورع كلهم يقول: حدثنى جعفر بن محمد.

1- 1) كتاب جعفر بن محمد لسيد الأهل.

2- 2) كمال الدين محمد بن طلحة الشافعى فى مطالب السئول ج 2 ص 55.

3- 3) تاريخ العرب للسيد مير على الهندى ص 179.

العهد العبّاسی

اشارة

ما کاد المسلمون یلمسون من الأمویین انحرافهم عن الدین و استهانتهم برجال الأمة، و محاربتهم أهل البیت حتی اشتد إنکارهم علی تلک السیرة الملتویة و ذلک النظام الجائر الذی لا یعرف العدل و لا عهد للمسلمین به من قبل. و کانت نهضة الحسین علیه السّلام صرخة داویة، فهی علی دعاة الجور برکان بلاء و نقمة، و لدعاة الحق شعلة هدایة و رحمة یستنیرون بها فی طریق الوصول إلی الدعوة الصالحة، أعقبتها سلسلة ثورات دمویة، مهدت الطریق لحدوث انقلاب الحکم و إبعاد أولئک القوم الذین تربّعوا علی دسته، فقد ثقلوا علی الناس و طال عهدهم الجائر، فکان أفقهم مثقلا بسحب السخط علی أعمالهم، فتألفت الجمعیات السریة التی کان هدفها تحقیق ثورة إصلاحیة، لنقل الحکم من أمیة-التی تعتبر فی الواقع عدوة للإسلام من البدایة إلی النهایة-إلی آل محمد الذین هم دعاة الحق و أئمة العدل. و کان العباسیون فی طلیعة أنصار العلویین، و کانوا أشد الناس حماسا لتحقیق ذلک الغرض. و کان لمحمد بن عبد اللّه بن الحسن نشاط سیاسی فی ذلک العهد، و بویع فی مؤتمر عقده الهاشمیون من العباسیین و العلویین، و أول من بایعه السفاح و أخوه المنصور. و مهما یکن من أمر فقد اندلعت نیران الثورة و هتافات الثوار: الدعوة إلی الرضا من آل محمد، فوقعت الواقعة بأمیة و دارت بهم الدوائر، و زال ملکهم و أراح اللّه العباد و البلاد منهم، و تطلع المسلمون إلی العهد الجدید الذی یأملون به انتشار العدل و تطهیر الأرض من الفساد، لا سیما إذا قام علی رأس الدولة الجدیدة زعیم علوی لا شک فی حقه بالخلافة. فانتحل العباسیون أحقیتهم بالأمر و انهم آل محمد و أهله الأدنون.

ص:43

السفاح:

و جرت الحوادث و دارت عجلة الزمن، و انتقل الأمر إلى بنى العباس الذين استغلوا شمولهم باسم آل محمد ثم انتحلوا انطباقه عليهم دون غيرهم، و بويع السفاح (1)فكان عهده عهد ثورة، و قد شغل الناس بمطاردة الأمويين و تتبع البقية منهم، و استطاع السفاح بمهارته أن يظهر للناس عطفه على أبناء عمه بإكرامهم، و عدم التعرض لهم و هو يحاول بذلک جلب قلوبهم، و إقناع الأمة التى ترى أن الحق لهم دونه، و أنه أحد الأفراد المطوقين بالبيعة لآل على عليه السّلام فاقتضت سياسة الدولة الفتية أن يسير على خطة المجاراة لأبناء عمه، و التظاهر بأخذ الثأر من قتلة الحسين عليه السّلام لمصانعة الناس الذين بدءوا يدركون بأن العباسيين كانوا يسعون فى تحصيل الخلافة لأنفسهم باسم (آل البيت) و ما كانوا يقصدون بآل البيت إلا أنفسهم دون العلويين. تمويها على الرأى العام.

المنصور:

اشارة

و لم تطل أيام السفاح حتى مضى لسبيله و قد عهد بالأمر لأخيه المنصور (2)و هو ذلک الداهية الذى أعطته التجارب درسا من التيقظ و جعلته يحذر أشد الحذر حتى من أقرب الناس إليه. فقد قام المنصور و الدولة لم ترتكز دعائمها على أسس قوية فهى مهددة من نواح شتى: فالعلويون يرون العباسيين دعاتهم و أنصار دعوتهم و الأمة متجهة بأنظارها إليهم، و ان الأمر لهم دونهم، و قواد الثورة يرون أن قيام العباسيين بالأمر كحكومة مؤقتة يستطيعون أن يحولوا الأمر عنهم متى شاءوا، و بقية السيف من الأمويين يخشى على الدولة من انتشارهم فى الآفاق. و كان علماء المدينة يجهرون بالفتوى بأن بيعة العباسيين غير صحيحة، فتعددت

1- 1) السفاح هو أبو العباس عبد اللّه بن محمد بن على بن عبد اللّه بن العباس بويع له بالخلافة سنة 132 ه-و توفى بالجدرى فى الأنبار يوم الأحد 11 ذى الحجة سنة 136 ه-و كانت خلافته أربع سنين و تسعة أشهر.

2- 2) هو أبو جعفر عبد اللّه بن محمد بن على بن عبد اللّه بن العباس و هو أكبر من أخيه السفاح و أمه أم ولد اسمها سلامة و كان أكبر من أخيه أبى العباس بويع له بالخلافة سنة 136 ه-و كانت خلافته 22 سنة و توفى سنة 158 ه-.

صور معارضة العباسيين على أن أهم ما كان يثير القلق فى نفس المنصور هو أمر العلويين، و فى طليعتهم جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام) فكان يحذر منه أشد الحذر و يحاول زوال تلك العقبات بكل حيلة و لا يقف عند حد. و المنصور عند ما يلى الخلافة يرجع بتفكيره إلى الوراء و يتذكر سالف أيامه و ماضيه المحزن، يوم كان جوالا، تتقاذفه أمواج الخوف، و تسوقه الحاجة و طلب العيش إلى رواية الحديث، و هو لا ينسى ضرب السياط و ظلمة السجن فى عهد الدولة الأموية، و لا ينسى استعطاف الناس بمدح آل محمد، و هو أحد رواة حديث الغدير (1)كل ذلک لا تنمحى صورته عن مخيلته فهو أمامه و معه.

أعمال المنصور:

و الآن و قد أصبح أمير المؤمنين تجبى له الأموال من الشرق و الغرب و أودع فى خزائنه ما يكفى للدولة عشر سنين بعد أن كان لا يجد درهما واحدا و تحوط به آلاف من الجنود، بعد أن كان يقطع المسافة البعيدة وحده خائفا فهو بحكم الغريزة النفسية يشح بما أوتى حتى على نفسه، فكان يرقع ثيابه بيده و يحاسب على الدانق، حتى عرف به، و يكون فى حذر من أقل واهمة يتخيل بها زوال ملكه، فحصنه بالسيف، و جعل بينه و بين الخطر سورا من أشلاء الأبرياء و بحرا من الدماء التى حرم اللّه إراقتها. و قد اتخذ طبيبا نصرانيا يستعين به على قتل من لا يود أن يتظاهر فى قتله، فكان يدس السم بالدواء، فهذا الطبيب النصرانى (كان زنديقا معطلا) لا يبالى بمن قتل، أرسل إليه المنصور يأمره بأن يقتل محمد بن أبى العباس. فاتخذ سما قاتلا ثم انتظر علة تحدث به، فوجد محمد حرارة فقال له الطبيب: خذ شربة دواء، فقال هيئها فهيأها له و جعل فيها ذلک السم ثم سقاه منها. فكتبت أمه تخبر المنصور فأمر بضرب الطبيب ثلاثين سوطا خفيفة و سجنه ثم أطلقه و أعطاه ثلاثمائة درهم (2). . هذه دية القتيل فى شرع المنصور. و هناک نوع آخر من ألوان العذاب الذى كان يعذب بها من وقع تحت قبضته، و هو وضع الأحياء فى البناء، فهو اطلال الهاشمية و بغداد لو تمكنت من الإفصاح عن

1- 1) تاريخ بغداد ج 12 ص 344.

2- 2) الطبرى ج 7 ص 309. [1]

شیء لکان أول شـیء تفصـح عنه هی جثث الأبریاء الذین دخلوا فی بطونها بدون جرم، و عند اللّه تجتمع الخصوم. لقد سـلبت الرحمة من قلبه فلا یعرف لها فیه موضعا، و کان یقف أمام المشاهد المحزنة موقف رجل لا تؤلمه مناظر البؤس أو تزعجه مواقف الشقاء، و قد جمع بین دمامـة الوجه و قبح السـیرة. یمر موکبه عند ما أراد الحج بابنة عبد اللّه بن الحسن (علیه السـلام) و کان أبوها تحت أسـره و قد حمل مع من حمل من العلویین، فأرادت استعطافه، و الرفق بحال أبیها فأنشأت: ارحم کبیرا سنة متهدم فی السجن بین سلاسل و قیود

و ارحم صغار بنی یزید انهم یتموا لفقدک لا لفقد یزید

إن جدت بالرحم القریبة بیننا ما جدّنا من جدکم ببعید

فکان جواب المنصور: أذکرتنیه. ثم أمر به فأحـدر فی المطبق و کان آخر العهـد به. هذه صورة من جور المنصور و قساوته لم تعطفه عاطفة الرحم، و لم تدعه الإنسانیة إلی الرحمة بهذه المسـکینة، و لم یراقب القربی و حرمة النسب و ذل موقفها بین یدیه، و کیف یؤمل منه العطف علی أهل بیت ینظر إلیهم نظر خصم ملأ قلبه علیهم حقدا و نفخ فی أوداجه غضبا.

مع المنصور و بنی الحسن:

إنه لاـ یری لملکه بقاء إن بقی منهم أحـد فی الوجود، و کان الفتک بهم هو شـغله الشاغل و لا یتوقف فی تنفیـذ إرادته مهما کلفه الأمر فقام بـذلک العمل الإرهابی و فتک بهم فتکا ذریعا یوم دخل المدینة محتجا بأداء فریضة الحج، و ما الحج أراد و لکنه أراد أن یعرف حقیقة الأمر عند ما یقوم بمهمة الفتک بآل محمد. و ها هو یدخل المدینة و بنو الحسن فی سـجن رباح، فأمر بالقبض علی من بقی منهم فتری شـرطته و قواده یعلوهم الغضب، و یرتکبون الشدة، یأتون بأبناء علی واحدا بعد واحد و یودعونهم فی السجن بأشد ما یتصور من القسوة.

و كـان العبـاس بن الحسن بن الحسن (1)واقفـا على بـاب داره و أمه تراقبه و قلبها كجناح الطير من الخوف، فقبض عليه الشـرطة، فأخـذتها الدهشـة و لـم تسـتطع شـيئا فى الدفاع عنه، إلا أنها طلبت منهم أن تشم ولدها و تودعه، فكان الجواب بشدة و غلظة: لا يكون ذلک، و قبض على محمـد بن عبـد اللّه بن عمرو ابن عثمان بن عفان أخو بنى الحسن لأمهم، فأحضـره أمامه و كلمه بما لا يليق ذكره، و أمر بأن يشق إزاره لتبدو عورته، و أمر بضربه بالسياط فضرب حتى سال دمه، و أرجعه لإخوانه فأقعد إلى جنب أخيه عبد اللّه بن الحسن، و كان قد أخذ العطش منه مأخذا فاسـتقى ماء فلم يجسـر أحد أن يسـقيه إلا خراسانى رق عليه فسقاه ماء. ثم أصدر المنصور أمره بحملهم من المدينة إلى العراق، بعـد أن أثقلوا بالحديـد و ضـربوا بالسـياط، و هو مطرب لنغمـة السـلاسل، و أنين المعـذبين، فسار ذلک الموكب فى شوارع المدينة محاطا بالجند، و هو يسرع الخطى من المدينة إلى الكوفة، إلى مقرهم الأخير فأودعوا ذلک السجن المظلم، الذى لا يعرف فيه الليل من النهار. لقد أودعهم المنصور فى بطن الأرض، و فعل بهم ما لا يفعل الحيوان المفترس بفريسـته، و عاملهم بأقسى ما يتصور من الشدة، فهم لا يعرفون الليل من النهار، و كان الواحد إذا مات من شدة العذاب بقيت جثته ما بينهم، و هم صابرون محتسـبون، يتلون الكتاب، و يقيمون الصـلاة و لا يعرفون أوقاتها إلا بأجزاء من القرآن يقرءونها، و كانت خاتمة مطافهم أن هدم عليهم السجن فماتوا تحت أنقاضه.

الإمام الصادق و مشاكل العهدين:

و على أى حال فقد لقى أبو عبد اللّه فى هذين العهدين كثيرا من المشاكل، فهو فى العهد الأموى عرضة لأخطار أولئک القوم الذين يكيدون آل محمد صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم و يتوقعون الفرص للفتک بهم، و هو فى عصره عميد البيت النبوى و سيد الهاشميين، و المبرز من آل محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و من رجال الأمة الذين كانوا يهم الدولة أمرهم باتجاه الأنظار إليهم،

1- 1) هو العباس بن الحسن بن الحسن بن الحسن بن أبى طالب و أمه عائشـة بنت طلحـة الجود بن عمر بن عبد اللّه التيمى و كان العباس أحد فتيان بنى هاشم و له يقول إبراهيم بن على الشاعر: لما تعرضت للحاجات و اعتلجت عندى و عاد ضمير القلب وسواسا جعلت أسعى لحاجاتى و مصـدرها برا كريما لثوب المجد لباسا توفى فى سـجن المنصور سـنة 145 ه-لسـبع بقين من شـهر رمضان و هو ابن خمس و ثلاثين سنة.

و لا يستبعد من الأمويين أن يقابلوه بكل أذى و شدة، و لكن اللّه سبحانه و تعالى عصمه منهم، ورد كيدهم عنه. و لما دب الضعف فى جسم الدولة كانت فترة مريحة استطاع الإمام أن يركن إلى الراحة و الاطمئنان مدة من الزمن فتوافد عليه طلاب العلم من رجال الأمة كما مر ذكره. أما فى العهد العباسى فهو قذى فى عيونهم لأنه زعيم أهل بيت ثارت الأمة لأجلهم، و انهارت الدولة الأموية بالدعوة لهم، و رفعت شعارات البيعة لهم. و قد كان فى أيام السفاح برفاهية نظرا للظروف و الأوضاع التى سايرها السفاح بمقتضى سياسة الدولة. و فى زمن المنصور كانت المشكلة أشد مما هى عليه من قبل، فقد كان المنصور يقظا لا يفوته ما لجعفر بن محمد من المنزلة فى المجتمع، و يعظم عليه اتجاه الأنظار إليه، و قد عاشره من قبل و عرف منزلته و علمه لذلک كان حذرا منه أشد الحذر، و المخاوف تحيط به و الأوهام و الشكوک تساوره، كما أن الوشاة ملأوا سمع المنصور من الأكاذيب على جعفر بن محمد عليهما السلام مما جعله يحاول الفتک به، و كانت سياسة جعفر بن محمد و انعزاله و نظره إلى الأمور بعين الواقع برهنت على كذب أولئک الوشاة و خففت من سورة غضب المنصور قليلا و لكنها لم ترفع أصل الاتهام، فهو على حذر دائم لأنه يعرف مقام الإمام جعفر بن محمد و منزلته العلمية و مكانته الاجتماعية.

اتهامات المنصور للإمام الصادق:

و مهما يكن من أمر فقد كثرت الوشاة على أبى عبد اللّه عليه السّلام فأثارت من المنصور كوامن ضغنه و حركت عوامل غيظه، فحج فى سنة 147 ه-. و دخل المدينة و أمر الربيع بإحضار الإمام جعفر الصادق و قال له: ابعث إلى جعفر من يأتينا به تعبا قتلنى اللّه إن لم أقتله، فتغافل عنه الربيع لينساه، ثم أعاد ذكره و قال: أرسل إليه من يأتينى به متعبا، فلما حضر الصادق عليه السّلام أعلم أبا جعفر حضوره، فلما دخل عليه قابله بوحشية و كلام لا مجال لذكره. و قال: اتخذک أهل العراق إماما يجبون إليک زكاة أموالهم، و تلحد فى سلطانى و تبغى الغوائل، قتلنى اللّه إن لم أقتلک، فقال الصادق عليه السّلام: يا أمير إن سليمان أعطى فشكر، و إن أيوب ابتلى فصبر، و إن يوسف ظلم فغفر. فقال أبو جعفر: إلى و أنت عندى يا أبا عبد اللّه البرىء الساحة السليم الناحية، القليل الغائلة، جزاک اللّه من

ذی رحم أفضل ما جزی ذوی الأرحام عن أرحامهم، ثم تناول یده فأجلسه معه ثم قال: علیّ بالمتحفة فأتی بدهن فیه غالیة فخلقه بیده. ثم قال: فی حفظ اللّه و فی کلاءته. ثم قال: یا ربیع ألحق أبا عبد اللّه جائزة و کسوة. قال الربیع فلحقته فقلت له: إنی قد رأیت قبل ذلک ما لم تره و رأیت بعد ذلک ما قد رأیت فما قلت یا أبا عبد اللّه حین دخلت؟ قال علیه السّلام قلت: اللهم احرسنی بعینک التی لا تنام، و اکفنی برکنک الذی لا یرام، و اغفر لی بقدرتک علیّ، لا أهلک و أنت رجائی، اللهم إنک أکبر و أجل ممن أخاف و أحذر، اللهم بک أدفع فی نحره و أستعیذ بک من شره (1). و ترکزت فی ذهن المنصور فکرة الفتک بجعفر بن محمد، لأنه یعلم أن مئات الآلاف یقولون بإمامته و تجبی له الأموال، و ینظر بعین العظمة و الاحترام، کما أن أکثر الملتفین حول المنصور و المؤازرین له یذهبون إلی القول بإمامته. و أراد امتحانه مرة لیکون له طریق فی المؤاخذة. فدعا ابن مهاجر و قال: خذ هذا المال و آت المدینة و الق عبد اللّه بن الحسن و جعفر بن محمد و أهل بیتهم و قل لهم: إنی رجل غریب من أهل خراسان من شیعتکم، و قد وجهوا إلیکم بهذا المال، فادفع إلی کل واحد منهم علی هذا الشرط کذا و کذا فإذا قبض المال فقل: إنی رسول و أحب أن یکون معی خطوطکم بقبض ما قبضتم منی. و مضی فلما رجع قال له أبو جعفر: ما وراءک؟ فقال: أتیت القوم و هذه خطوطهم ما خلا جعفر بن محمد فإنی أتیته و هو یصلی فی مسجد الرسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فجلست خلفه و قلت: ینصرف و أذکر له فعجل و انصرف، فالتفت إلیّ فقال: یا هذا، اتق اللّه و لا تغرّن أهل بیت محمد، و قل لصاحبک اتق اللّه و لا تغرن أهل بیت محمد، فإنهم قریبو العهد بدولة بنی مروان و کلهم محتاج، فقلت: و ما ذاک أصلحک اللّه؟ فقال: ادن منی فدنوت، فأخبرنی بجمیع ما جری بینی و بینک حتی کأنه ثالثنا، فقال له: یا ابن مهاجر إنه لیس من أهل بیت نبوة إلا و فیهم محدث و ان جعفر بن محمد محدثنا الیوم (2). و صعبت علی المنصور تلک الطرق التی اتخذها جعفر بن محمد فی حذره

1- 1) ابن الجوزی فی صفوة الصفوة ج 2 ص 96 و [1]ابن الصباغ المالکی فی الفصول المهمة ص 207 و [2]المفید فی الإرشاد ص 25. [3]

2- 2) ابن شهرآشوب ج 2 ص 302. [4]

و احتیاطه عن أی مؤاخذة من المنصور له لیستحل بها دمه فإنه لم یبق طریقا إلا سلکه، من إرسال الکتب المزورة عن لسان شیعة جعفر بن محمد یدعونه للنهوض و إرسال الأموال الکثیرة مع أناس استخدمهم المنصور لهذه الغایة عساه أن ینجح بموافقة جعفر علیه السّلام فی قبض المال أو جواب الکتب، لتکون له وسیلة للقضاء علی الإمام، و لکن تلک المحاولات ذهبت بدون جدوی و کان نصیبها الفشل. و إن المنصور لیهمه أمر جعفر بن محمد أکثر من غیره و له معه أخبار أهمل کثیر من المؤرخین ذکرها، و کانت بینهما صلة أیام بنی أمیة و عاشره فی خلافته أکثر من عشر سنین، و لقی فی هذه المدة جهدا و امتحن غیر مرة، و کان الخطر محدقا به و المنصور لا یجهل مکانته علیه السّلام، فهو الشخصیة التی کان یتطلع إلیها الناس یوم طلع فجر النهضة العلمیة، و کان لمدرسته حرکة واسعة و نشاط علمی، و ازدحم علیه طلاب العلم، و اشتهر ذکره، و کان زعیم أهل الحدیث فی معرکة أهل الرأی و أهل الحدیث کما یأتی بیانه. فکان المنصور یخشی خطر هذه الشهرة، و یحذر من حدوث انقلاب مفاجئ من قبل العلویین ینضم إلیه علماء الأمة الذین اتصلوا بجعفر بن محمد و عرفوا منزلة أهل البیت، مع علمه بمعارضته لبیعة محمد بن عبد اللّه فإنه اعترض علی هذه البیعة معلنا أنها جاءت سابقة لأوانها، و لکن المنصور یخشی أن یترأس الإمام الصادق دعوة العلویین فیشتد الخطر علی الدولة الجدیدة. و لکن جعفر بن محمد کان بحدسه الصائب و نظره الثاقب یخترق الحجب و یستشف أحداث المستقبل و یخبر بکثیر من الکوائن قبل وقوعها. فکان من رأیه عدم التعرض لطلب الأمر، و نهی قومه عن عقد تلک البیعة و کان ینصحهم فی التجافی عن شئون الدولة فی عصره، و قد عرض علیه الخلافة أبو سلمة الخلال وزیر آل محمد فی بدء الدعوة، قبل وصول الجند إلیه فأبی الإمام قبولها، و لم یقنع أبو سلمة بهذا الرد و حاول إقناع الإمام بکل صورة، و عند ما أقبلت الرایات کتب أبو سلمة إلیه: إن سبعین ألف مقاتل وصل إلینا فانظر أمرک (1)فأجابه بالرد و أن الأمر للسفاح و للمنصور من بعده. کما أنه علیه السّلام لم یستجب لما دعاه إلیه أبو مسلم الخراسانی قائد الثورة فی

1- 1) مناقب ابن شهرآشوب ج 2 ص 310. [1]

بلاد فارس، و صاحب السلطان فی ذلک الدور، فإن أبا مسلم کان یدعو الناس إلی الرضا من آل محمد صلّی اللّه علیه و آله و سلم، و أعلن غضبه علی بنی أمیة لأنهم ظلموا أهل البیت، و أراقوا دماءهم، و أراد إسناد الأمر لآل علی علیه السّلام لأنهم أحق بهذه الدعوة من غیرهم، فکتب إلی الإمام الصادق علیه السّلام و هو زعیم أهل البیت و سیدهم فی عصره، و إلیه تطلعت الأنظار، و اتجهت القلوب-و قال فی کتابه للإمام الصادق علیه السّلام: إنی قد أظهرت الکلمة، و دعوت الناس عن موالاة بنی أمیة إلی موالاة أهل البیت، فإن رغبت فلا مزید علیک. فأجاب الإمام الصادق علیه السّلام: ما أنت من رجالی، و لا الزمان زمانی (1). فهو علیه السّلام بنظره الصائب و منهجه السدید، و علمه بما وراء الحوادث، لا یری أن یستجیب لدعوة لا تترکز علی ما یؤمل فیه تحقیق أهداف الأمة الإسلامیة و إصلاح الأوضاع الفاسدة، لعلمه بأن هؤلاء الذین أظهروا الولاء لم یکونوا مخلصین فی ذلک و إنما هناک غایات لا یمکنه أن یوافقهم علی تحقیقها فهو ینظر إلی الأمور بمنظار الواقع، و یسیر علی خطط حکیمة و آراء سدیدة فی تقدیر الظروف و مناسباتها. و قد أخبر علیه السّلام من قبل بصیرورة الخلافة لبنی العباس دون غیرهم من الهاشمیین (و لذلک کان أسد الهاشمیین رأیا بمعارضته لبیعة النفس الزکیة. و الواقع أن أئمة أهل البیت کثر تحدثهم قبل عصر الصادق عن الدولة الهاشمیة و تعددت إشاراتهم إلی ملک بنی العباس، و أنهم سیطئون أعناق الرجال، و یملکون الشرق و الغرب و یجمعون من الأموال ما لم یجتمع لأحد من قبلهم، و أن مدة ملکهم ستطول، و تکون أضعاف مدة الدولة الأمویة، و قد أخبروا بهذه الحوادث قبل وقوعها) (2). کما أنهم کانوا ذوی تجارب سیاسیة، و اختبارات اجتماعیة تقیض لخواطرهم نوعا من الفراسة و استطلاع الحوادث التی لا بد لها أن تقع فی میادین الانقلابات الحزبیة و الثورات المتشابکة فی طول الدولة الإسلامیة و عرضها.

1- 1) الملل و النحل ج 1 ص 241. [1]

2- 2) مؤرخ العراق ابن الفوطی لفضیلة العلامة الشبیبی.

الإمام الصادق شخصيته

اشارة

و أقوال العلماء فيه

شخصية الإمام الصادق:

التاريخ هو مرآة تعكس الصور فتحفظها للأجيال بصفحات تضم الأحداث، و هو للجميع لا يختص بأمة دون أخرى، و لا يتقيد برأى دون رأى، و هو أمين، و الأمين يقبح به أن يخون أمانته. و لئن تحتم عليه أن يحتفظ بالحقائق و الأضاليل معا فليس ذلک إلا إلى أمد الآماد ثم تنكشف الحقائق لتثبت وحدها سليمة من مجاورة الأضاليل. و التأريخ يسجل الحوادث على ما هى عليه بصورها و أشكالها، فلا تغيير و لا تبديل، و لا نقل صورة و ترک أخرى؛ هذه هى وظيفة التأريخ الصحيح فى كل دور من الأدوار. و لكن التلاعب السياسى الذى لعب دورا هاما فى سيطرته على نظام التأريخ و تصرفه فى سيره، و سلب حريته فى أداء أمانته، جعلنا نعترف بأنه لم يتمكن من أداء واجبه على الوجه الصحيح، و قد أودعت فى طياته أشياء هى أعظم عليه من و خز المدى، و تركت أشياء هى مفخرته عند ما يؤديها للأجيال، و ان من المؤسف جدا أن يفقد التأريخ حريته، و تلتوى به الطرق، و إذا به ينظر فى مرآة الغير و لا ينظر الغير فى مرآته. بفعل المسيطرين عليه لا بفعله هو. و لئن كبّل التأريخ بتلک القيود فهو لا يخلو من حقائق يطمئن إليها كل باحث، و ها نحن على ضوء تلک الحقائق ننتزع من أشواک العصبية و الأهواء زهرة حياة الإمام الصادق، و إن أكثر المؤرخين قد أهملوا أخباره و سيرته و لم يذكروا إلا النزر منها، و من وقف على ما كتبه ابن كثير فى تأريخه عن بعض الشخصيات التى لا قيمة لها فى

سوق الاعتبار يعرف مـدى انحرافه و أنه أهمل الواقع و ظلم الحقيقـة، و تراه عند ما يأتى لذكر جعفر بن محمد الصادق فى حوادث 148 ه- يقتصـر على قوله: و فيها مات الإمام جعفر الصادق. و لا يروق له ذكر شـىء عن حياته. و كثيرون أمثال ابن كثير من قبل و من بعد. و أغرب شىء وقفنا عليه أن البحاثـة محمـد محيى الدين المعروف بالتتبع و ضـبط الألفاظ فى تصـحيحه و تعليقه على الكتب أهمل اسم جعفر بن محمد و غير اسمه، فيقول عند ذكر وفاته فى العنوان: وفاة محمد بن جعفر العلوى (1). و هب أن ذلک غلط مطبعى أو من الناسخ فى أصل الكتاب فإن الواجب عليه التنبيه و الإلفات لهـذا الغلط. و ما نرى ذلک إلا من نتائج جهود النواصب و أعداء أهل البيت الذين اتجهوا بنشاط واضح إلى الأقلام المعاصـرة فى مصر العروبة و الإسلام للتأثير فى واقعيتها و التحول عما اتصفت به من الدقة و الصدق فى مواقف كثيرة. و مثل شخصية جعفر بن محمد تلک الشخصية الإسلامية العظيمة يجب على التأريخ إعطاءها حقها من البحث، فهو أبرز شخصية فى عصره و أعلم الأمـة على الإطلاق. و لا نتجاوز الحقيقة إن قلنا ان الإمام الصادق عليه السّـلام كان أعلم أهل عصـره و هو أولى الناس بحفظ أمانة الدين، و لا نبعد عن الواقع، إن قلنا ان تلک الخطوات التى سار عليها فى عصـر ازدهار العلم قد أعطت الأمة دروسا، و علمتهم كيف يجب أن يكون المصـلح الـذى يقتـدى به عظماء الأمـة و رجال الدعوة، و أن يسـتقل العلم بمؤهلاته النفسـية و يفرض نفسه على المجتمع بقيمه الروحيـة، بـدون التزام بالقوة. بل الأولى أن يكون مقبولا من حيث هو، لا من حيث الإرهاب و السـلطة أو المغريات الخداعـة، و إن الكثير ممن درسوا حيـاة الإمـام الصادق عليه السّـلام إنما سـلكوا طرق الحـذر و التكتم، فتلک دراسـة سـطحية لا تتجاوز حـدود دائرة الحـذر أو التعصب، و قد رسـمت صورته فى إطار التأريخ بريشة مفن مرتعشة لذلک لـم تبرز طبق الأصل و مع هذا جاءت سليمة من التشويه و فريدة فى الإبداع. لـم تنل منها أغراض الحكام، و لـم تتمكن من منزلته سياسـتهم، فكان غاية ما فى وسع من أشبع بروح العداء أو نذر نفسه لخدمة أغراض

1- 1) مروج الذهب ج 3 ص 212. [1]

الملوک، أو خشی السیف و ظلمة السجون أن یغفل ذکر الإمام أو یهمله، فکان عملهم هذا کأنه إشارة بالغة و صرخة عالیة للدلالة علی فضل الإمام جعفر الصادق. و لو تأملنا شخصیة الإمام لرأیناها موضع الاهتمام الأول من قبل السلطة و مصدر همومهم، و لوجدناها محور حرکة علوم الدین و الفقه، فقد أثر نبوغه و تفرده الذی أثار الحکام فی مجموع النشاط العلمی. و غرضنا فی البحث عن حیاة الصادق بیان منزلته العلمیة بالقیاس إلی غیره ممن أخذ الشهرة و ما هو منه فی شیء، و الأسباب غیر مجهولة و الحقیقة غیر صامتة. و هنا یلزمنا أن نتخلی عن الموضوع و نستمع إلی أقوال علماء الأمة و رؤساء المذاهب، و حفاظ الحدیث، و کبار المؤرخین و الکتّاب من القدماء و بعض المعاصرین فی انطباعاتهم عن شخصیة الإمام الصادق علیه السّلام بدون إحاطة للکل، بل من یحضرنا ذکره فلنصغ لأقوالهم تمهیدا للبحث.

أقوال العلماء فی الإمام الصادق:

«فی کل زمان رجل منا أهل البیت یحتج اللّه به علی خلقه، و حجة زماننا ابن أخی جعفر لا یضل من تبعه و لا یهتدی من خالفه» (1).
زید بن علی (علیه السلام) «إن جعفرا کان ممن قال اللّه فیه: (ثم أورثنا الکتاب الذین اصطفینا من عبادنا) . و کان ممن اصطفاه اللّه و کان من السابقین فی الخیرات (2)و إنه لیس من أهل بیت إلا- و فیهم محدث و إن جعفر بن محمد محدثنا الیوم» (3). المنصور الدوانیقی «جعفر بن محمد اختلفت إلیه زمانا فما کنت أراه إلا علی إحدی ثلاث خصال، إما مصل، و إما صائم و إما یقرأ القرآن (4)، و ما رأت عین و لا سمعت أذن و لا

1- 1) مناقب ابن شهرآشوب ج 2 ص 147. [1]
2- 2) الیعقوبی ج 3 ص 177. [2]
3- 3) المناقب ج 2 ص 302. [3]
4- 4) إلی هنا عبارة التهذیب، و ما بعدها زیادة فی کتاب المجالس السنیة ج 5 و قد ذکر ابن تیمیة فی کتاب التوسل و الوسیلة ص 52 ط 2 هذه العبارة فی جملة طویلة فی ضمنها هذه الجملة.

خطر على قلب بشـر أفضل من جعفر بن محمـد الصادق علما و عبادة و ورعا» (1). مالـک بن أنس «كنت إذا نظرت إلى جعفر بن محمد علمت أنه من سلالة النبيين» (2). عمرو بن المقـدام «ما رأيت أفقه من جعفر بن محمـد لما أقـدمه المنصور بعث إليّ فقال: يا أبا حنيفة إن الناس قـد افتتنوا بجعفر بن محمـد فهيّئ له من المسائل الشـداد فهيأت له أربعين مسألـة، ثم بعث إليّ أبو جعفر و هو بالحيرة فأتيته فدخلت عليه و جعفر بن محمـد جالس عن يمينه، فلما أبصـرت به دخلتنى من الهيبة لجعفر بن محمد الصادق ما لم يدخلنى لأبى جعفر، فسـلمت عليه و أومأ إلى فجلست ثم التفت إليه فقال: يا أبا عبـد اللّه هـذا أبو حنيفة. قال جعفر: نعم. ثم اتبعها قد أتانا. كأنه كره ما يقول فيه قوم انه إذا رأى الرجـل عرفه، ثم التفت المنصور إلى فقـال: يـا أبـا حنيفـة ألق على أبى عبـد اللّه من مسائلک. فجعلت ألقى عليه فيجيبنى، فيقول: أنتم تقولون كذا و أهل المدينة يقولون كذا و نحن نقول كذا فربما تابعهم و ربما خالفنا جميعا حتى أتيت على الأربعين مسألة، ثم قال أبو حنيفة: ألسـنا روينا أن أعلم الناس أعلمهم باختلاف الناس» (3). أبو حنيفـة «ما هذا ببشـر و إن كان فى الدنيا روحانى يتجسد إذا شاء، و يتروح إذا شاء، فهو هـذا. و أشار إلى الصادق» . ابن أبى العوجاء «جعفر بن محمد الصادق هو ذو علم غزير و أدب كامل فى الحكمة و زهد فى الدنيا و ورع تام عن الشـهوات و قـد أقام بالمدينة مدة يفيد الشـيعة المنتمين إليه و يفيض على الموالين له أسـرار العلوم، ثم دخل العراق و أقام بها مدة، ما تعرض للإمامة قط، و لا نازع فى الخلافة أحدا، و من غرق فى بحر المعرفة لم يقع فى شط، و من تعلاّ إلى

1- 1) تهذيب التهذيب ج 2 ص 104. [1]

2- 2) تهذيب التهذيب ج 2 ص 104. [2]

3- 3) مناقب أبى حنيفة للموفق ج 1 ص 173 و جامع مسانيد أبى حنيفة ج 1 ص 222 و تذكرة الحفاظ للذهبى ج 1 ص 157.

ذروة الحقيقة لم يخف من حط» (1)أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستانى «الإمام الصادق كان بين أخوته خليفة أبيه نقل عنه من العلوم ما لم ينقل عن غيره. كان رأسا فى الحديث، روى عنه يحيى بن سعيد و ابن جريح و مالک بن أنس و ابن عيينة و أبو أيوب السجستانى و غيرهم» . القرمانى فى تاريخه «جعفر بن محمد كان من سادات أهل البيت فقها و علما و فضلا» . ابن حيان «جعفر بن محمد ثقة لا يسأل عن مثله» (2). الحافظ أبو حاتم «جعفر بن محمد هو من علماء أهل البيت و ساداتهم، ذو علوم جمة، و عبادة موفورة، و أوراد متواصلة، و زهادة بينة، و تلاوة كثيرة، يتتبع معانى القرآن و يستخرج من بحره جواهره و يستنتج عجائبه، و يقسم أوقاته على أنواع الطاعات بحيث يحاسب عليها نفسه، رؤيته تذكّر بالآخرة، و استماع كلامه يزهّد فى الدنيا، و الاقتداء بهديه يورث الجنة، نور قسماته شاهد أنه من سلالة النبوة، و طهارة أفعاله تصدق أنه من ذرية الرسالة، نقل عنه الحديث و استفاد منه العلم جماعة من أعيان الأمة و أعلامهم، مثل يحيى بن سعيد الأنصارى، و ابن جريح، و مالک بن أنس، و الثورى، و ابن عيينة، و أيوب السجستانى، و غيرهم، و عدوا أخذهم منه منقبة شرفوا بها و فضيلة اكتسبوها» (3). كمال الدين محمد بن طلحة الشافعى «جعفر بن محمد الإمام الناطق ذو الزمام السابق أبو عبد اللّه جعفر بن محمد الصادق أقبل على العبادة و الخضوع، و آثر العزلة و الخشوع و نهى عن الرئاسة و الجموع» (4). أبو نعيم

1- 1) الملل و النحل ج 1 ص 272- [1]ط 2.

2- 2) تهذيب ج 2 ص 104.

3- 3) مطالب السئول ج 2 ص 55.

4- 4) حلية الأولياء ج 3 ص 192.

«جعفر بن محمد بن علی بن الحسین کان مشغولا بالعبادة عن حب الرئاسة» (1). عبد الرحمن بن الجوزی «جعفر بن محمد بن علی بن الحسین بن علی بن أبی طالب و کنیته أبو إسماعیل و یلقب بالصادق و الطاهر و الفاضل، و أشهر ألقابه الصادق» (2). أبو المظفر یوسف شمس الدین «أدرکت فی هذا المسجد (یعنی الکوفة) تسعمائة شیخ کل یقول حدثنی جعفر بن محمد» (3). الحسن بن علی الوشاء «جعفر بن محمد، ازدحم علی بابه العلماء، و اقتبس من مشکاة أنواره الأصفیاء، و کان یتکلم بغوامض الأسرار و علوم الحقیقة و هو ابن سبع سنین» (4). عبد الرحمن بن محمد الحنفی البسطامی «جعفر بن محمد، الذی ملأ الدنیا علمه و فقهه، و یقال: إن أبا حنیفة من تلامذته و کذلک سفیان الثوری، و حسبک بهما فی هذا الباب» (5). أبو بحر الجاحظ «جعفر بن محمد بن علی بن الحسین بن علی بن أبی طالب فقیه صدوق» (6). ابن حجر العسقلانی «مناقب الصادق فاضلة، و صفاته فی الشرف کاملة، جری علی سنن آبائه الکرام و أخذ بهدیه و هدیهم علیهم السلام، و وقف نفسه الشریفة علی العبادة و حبسها علی الطاعة و الزهادة، و اشتغل بأوراده و تهجده و صلاته و تعبده لو طاوله الفلک لتزحزح عن مکانه» . الوزیر أبو الفتح الأربلی

1- 1) صفوة الصفوة ج 2 ص 94. [1]

2- 2) تذکرة الخواص-ص 351. [2]

3- 3) المجالس للسید الأمین ج 5 ص 209.

4- 4) مناهج التوسل ص 106.

5- 5) رسائل الجاحظ للسندوبی ص 106.

6- 6) تقریب التهذیب ص 68.

«أبو عبـد اللّه الإمام المعظم جعفر الصادق، صاحب الخارقات الظاهرة و الآيات الباهرة المخبر بالمغيبات الكائنة أمه و أم أخيه عبد اللّه أم فروة بنت القاسم بن محمـد بن أبى بكر و أمها أسـماء بنت عبد الرحمن بن أبى بكر و لذا كان جعفر بن محمد عليه الرضوان يقول ولدنى أبو بكر مرتين ولد سنة 83 و توفى سنة 148 ه-و دفن بالبقيع» (1). نقيب حلب محمـد بن حمزة بن زهرة «جعفر الصادق نقل الناس عنه من العلوم ما سارت به الركبان و انتشـر صـيته فى جميع البلدان، و روى عنه الأئمة الأكابر كيحيى بن سـعيد و ابن جريح و مالک و السفيانين و أبى حنيفة و شـعبة و أيوب السجستانى» (2). أحمـد بن حجر الهيتمى «ولد الصادق بالمدينة يوم الجمعة عند طلوع الفجر سـنة 83 و عاش 65 سنة و كانت إمامته أربعا و ثلاثين سنة، و قد نقل الناس عنه على اختلاف مذاهبهم و دياناتهم ما سارت به الركبان، و قد عد أسماء الرواة عنه فكانوا أربعة آلاف رجل. توفى فى شوال سنة 148 و دفن بالبقيع مع أبيه و جده و قيل قتله المنصور الدوانيقى بالسم» (3). محمد سراج الـدين الرفاعى «جعفر الصادق بن محمـد الباقر بن على زين العابدين بن الحسـين بن على بن أبى طالب رضـى اللّه عنهم، سـمى الصادق لصدقه، و ينسب إليه كلام فى صفة الكيمياء و الزجر و الفال ولد سنة 80 بالمدينة بالبقيع» . عمرو بن الوردى فى تاريخه «جعفر الصادق بن محمد الباقر الإمام السـيد أبو عبد اللّه الهاشـمى العلوى الحسينى المدنى، و كان يلقب بالصابر و الفاضل و الطاهر، و أشهر ألقابه الصادق. حدث عنه أبو حنيفة و ابن جريح و شعبة و السفيانان و مالک و غيرهم» (4). جمال الدين أبو المحاسن

1- 1) غاية الاختصار ص 62.

2- 2) الصواعق المحرقة ص 120. [1]

3- 3) صحاح الأخبار ص 44.

4- 4) النجوم الزاهرة ج 2 ص 8. [2]

«و جعفر الصادق بن محمد الباقر بن زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب السادس من الأئمة الاثنى عشر والدته أم فروة كريمة القاسم بن محمد بن أبى بكر (رض) . ولد الإمام جعفر فى المدينة المنورة سنة 82 ه-و هو أكبر أولاد الإمام محمد الباقر و تتلمذ على والده فريد زمانه فى العلم و الفضل، استمر على حلقة تدريس و إفادات جعفر الصادق الإمام الأعظم أبو حنيفة، و استفاد منه أولا فى المعارف الظاهرية و الباطنية، و كان للإمام اليد الطولى فى الجفر و الكيمياء و الإلمام بسائر العلوم، و كان ممن تتلمذ على الإمام موجد فن الكيمياء جابر، لم يكن له نضير فى الزهد و التقوى، و القناعة و حسن الأخلاق، و لصدق حسبه سمى بالصادق. كان أبو جعفر المنصور ثانى خلفاء العباسيين يدعو إلى تعظيم الإمام و تكريمه و يستنير بآرائه و إرشاداته و نصائحه، و عرض أبو مسلم الخراسانى الخلافة ابتداء على الإمام جعفر الصادق فلم يقبلها، كان له من الأولاد سبعة أبناء و ثلاث بنات، توفى فى سنة 148 عن عمر ناهز 65 سنة فى المدينة المنورة و دفن بجوار جده و والده، عرف صاحب الترجمة بإمام المذهب الشيعى و المنتمون إليه سموا بالجعفرية» (1). «جعفر بن محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب الهاشمى المدنى المعروف بالصادق أمه أم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبى بكر. . . متفق على إمامته و جلالته» (2). على القارى «جعفر بن محمد الصادق و هو ابن محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب الهاشمى رضى اللّه عنهم، و يكنى أبو عبد اللّه و أمه أم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق، و أمه أم فروة أسماء بنت عبد الرحمن بن أبى بكر، و كان من سادات أهل البيت، سمع أباه و محمد بن المنكدر و عطاء بن أبى رباح، روى عنه عبد الوهاب الثقفى، و حاتم بن إسماعيل، و وهيب بن خالد، و حسن بن عياش، و سليمان بن بلال، و الثورى و الداوردى و يحيى بن سعيد الأنصارى، و حفص بن

1- 1) قاموس الأعلام تأليف ش سامى ج 3 ص 1821 استانبول و قد ترجمت الكلمة عن اللغة التركية.

2- 2) شرح الشفاء لعلى القارى ج 2 ص 35. [1]

غیاث و مالک بن أنس، و ابن جریح، ولد سنة ثمانین و مات سنة ثمان و أربعین و مائة و هو ابن أربعة و ستین سنة» (1). محمد بن طاهر بن علی المقدسی «جعفر الصادق أبو عبد اللّه جعفر بن محمد الباقر بن زین العابدین بن الحسین السبط الهاشمی القرشی، سادس الأئمة الاثنی عشر عند الإمامیة: کان من أجل التابعین، و له منزلة رفیعة فی العلم أخذ عنه جماعة منهم: أبو حنیفة، و مالک و جابر بن حیان، و لقب بالصادق لأنه لم یعرف عنه الکذب قط، له أخبار مع الخلفاء من بنی العباس، و کان جریئا علیهم صداعا فی الحق، و صنف تلمیذه جابر بن حیان کتابا فی ألف ورقة یتضمن (رسائل الإمام جعفر الصادق) و هی خمسمائة رسالة، مولده و وفاته بالمدینة» (2). خیر الدین الزرکلی «لو لا السنتان لهلک نعمان» . أبو حنیفة یقول الآلوسی: «هذا أبو حنیفة و هو من أهل السنة یفتخر و یقول بأفصح لسان لو لا السنتان لهلک نعمان» یعنی السنتین اللتین جلس فیهما لأخذ العلم عن الإمام جعفر الصادق (3). «جعفر الصادق فاق جمیع أقرانه من أهل البیت و هو ذو علم غزیر، و زهد بالغ فی الدنیا، و ورع تام عن الشهوات، و أدب کامل فی الحکمة» . الشیخ عبد الرحمن السلمی «جعفر الصادق کان من بین اخوته خلیفة أبیه و وصیه، نقل عنه فی العلوم ما لم ینقل عن غیره و کان إماما فی الحدیث و مناقبه کثیرة» . السویدی فی سبائک الذهب «جعفر الصادق له عمود الشرف، و مناقبه متواترة بین الأنام، مشهورة بین الخاص و العام، و قصده المنصور الدوانیقی بالقتل مرارا فعصمه اللّه» . جمال الدین الدراوردی

1- 1) الجمع بین رجال الصحیحین ج 1 ص 70.

2- 2) الاعلام ج 1 ص 186. [1]

3- 3) التحفة الاثنی عشریة ص 8. [2]

«و لا مشاحة ان انتشار العلم فی ذلک الحین قد ساعد علی فک الفکر من عقاله، فأصبحت المناقشات الفلسفیة عامة فی کل حاضرة من حواضر العالم الإسلامی، و لا یفوتنا أن نشیر إلی أن الذی تزعم تلک الحرکة: هو حفید علی بن أبی طالب المسمی بالإمام الصادق، و هو رجل رحب أفق التفکیر، بعید أغوار العقل، ملم کل الإلمام بعلوم عصره، و یعتبر فی الواقع أنه أول من أسس المدارس الفلسفیة المشهورة فی الإسلام، و لم یکن یحضر حلقته العلمیة أولئک الذین أصبحوا مؤسسی المذاهب الفقهیة فحسب، بل کان یحضرها طلاب الفلسفة و المتفلسفون من الأنحاء القاصیة» (1). السید میر علی الهندی جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علی زین العابدین بن الحسین بن علی بن أبی طالب رضی اللّه عنهم أجمعین، و کنیته أبو عبد اللّه و قیل أبو إسماعیل و ألقابه الصادق و الفاضل و الطاهر و أشهرها الأول، نقل الناس عنه من العلوم ما سارت به الرکبان، و انتشر صیته فی جمیع البلدان، و روی عنه الأئمة الکبار کیحیی و مالک و أبی حنیفة» (2). محمود بن وهیب البغدادی «الإمام أبو عبد اللّه جعفر بن محمد بن علی بن الحسین بن علی بن أبی طالب رضی اللّه عنهم الهاشمی المدنی الصادق، أمه أم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبی بکر الصدیق رضی اللّه عنهم، روی عن أبیه و القاسم بن محمد و نافع و عطاء و محمد بن المنکدر و الزهری و غیرهم، و روی عنه محمد بن إسحاق و یحیی الأنصاری و مالک و السفیانان و ابن جریح و شعبة و یحیی القطان و آخرون-و اتفقوا علی إمامته و جلالته، قال عمر بن أبی المقدام: کنت إذا نظرت إلی جعفر بن محمد علمت أنه من سلالة النبیین» (3). أبو زکریا محیی الدین بن شرف

1- 1) تاریخ العرب ص 179.

2- 2) جواهر الکلام ص 13. [1]

3- 3) تهذیب الأسماء ج 1 ص 155. [2]

«جعفر الصادق أبو عبد اللّه بن محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب روى عنه كثيرون كمالک و السفيانان و ابن جريح و ابن إسحاق، و اتفقوا على إمامته و جلالته و سيادته، ولد سنة 80 ه-و توفى سنة 148 ه-قيل مسموما، وثقه فى روايته الشافعى و ابن معين و أبو حاتم و الذهبى و هو من فضلاء أهل البيت و علمائهم» . أحمد شهاب الدين الخفاجى «كان جعفر بن محمد الصادق مستجاب الدعوة إذا سأل اللّه شيئا لا يتم قوله إلا و هو بين يديه» . الشبلنجى فى نور الأبصار «جعفر بن محمد سيد بنى هاشم أبو عبد اللّه العلوى» . الذهبى «جعفر بن محمد أبو عبد اللّه فقيه صدوق» (1). الزرقانى «أبو عبد اللّه جعفر بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى اللّه عنهم أجمعين أحد الأئمة الاثنى عشر على مذهب الإمامية و كان من سادات آل البيت، و لقب بالصادق لصدقه و فضله أشهر من أن يذكر» . ابن خلكان فى وفياته «سلالة النبوة و معدن الفتوة أبو عبد اللّه جعفر الصادق بن أبى جعفر محمد الباقر بن زين العابدين على بن الحسين الهاشمى العلوى، و أمه أم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبى بكر، فهو علوى الأب بكرى الأم ولد سنة ثمانين فى المدينة

1- 1) شرح المواهب ج 1 ص 51. [1]

و فيها توفى و دفن بالبقيع فى قبر فيه أبوه محمـد الباقر، وجـده زين العابـدين، و عـم جده الحسن بن على رضوان اللّه عليهم أجمعين و أكرم بذلک و ما جمع من الأشـراف الكرام، أولى المناقب، و إنما لقب بالصادق لصدقه فى مقالته، و له كلام نفيس فى علوم التوحيد و غيرها و قد ألف تلميذه جابر بن حيان الصوفى كتابا يشـتمل على ألف ورقة يتضمن رسائله و هى خمسمائة رسالة» (1). اليافعى و قال الشيخ المناوى (2)عند ذكر الإمام جعفر الصادق: و كانت له كرامات كثيرة و مكاشـفات شهيرة منها: «انه سعى به عند المنصور فلما حج أحضر الساعى و قال للساعى: أ تحلف؟ قال نعم، فحلف، فقال جعفر للمنصور: حلفه بما أراه فقال: حلفه. فقال: قل برئت من حول اللّه و قوته و التجأت إلى حولى و قوتى لقـد فعل جعفر كـذا و كـذا فامتنع الرجل، ثم حلف فما تم حتى مات مكانه. و منها أن بعض الطغاة قتل مولاه فلم يزل ليلته يصـلى ثم دعا عليه عند السـحر فسـمعت الضـجة بموته. و منها لما بلغه قول الحكم بن العباس الكلبى فى عمه زيد: صـلبنا لكم زيدا على جذع نخلة و لم نر مهديا على الجذع يصلب

قـال: اللهم سـلط عليه كلبـا من كلابک. فافترسه الأسـد. و منها ما أخرجه الطبرى من طريق ابن وهب قال: سـمعت الليث بن سـعد يقول حججت سـنة ثلاث عشرة و مائة فلما صليت العصر رقيت أبا قبيس فإذا رجل جالس يدعو فقال: يا رب، حتى انقطع نفسه ثم قال: يا حى يا حى حتى انقطع نفسه ثم قال: إلهى إنى أشـتهى العنب فأطعمنيه و إن بردى قد خلق فاكسـنى قال الليث: فما تم كلامه حتى نظرت إلى سلة مملوءة عنبا إلى آخر ما ذكره» . المناوى

1- 1) مرآة الجنان ج 1 ص 304. [1]

2- 2) الكواكب الدرية ج 1 ص 94. [2]

«السادس من الأئمة جعفر الصادق ذو المناقب الكثيرة و الفضائل الشهيرة، روى عنه الحديث كثيرون مثل مالک بن أنس و أبی حنيفة و يحيى بن سعيد، و ابن جريح و الثورى، ولد رضى اللّه عنه بالمدينة المنورة سنة ثمانين من الهجرة و غرر فضائله على جبهات الأيام كاملة، و أندية المجد و العز بمفاخره و مآثره آهلة و توفى رضى اللّه عنه سنة 148» (1). عبد اللّه الشبراوى «جعفر بن محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب الهاشمى أبو عبد اللّه الصادق المدنى أحد الأعلام حدث عن أبيه و جده و أبى أمه القاسم بن محمد و عروة و عنه خلق لا يحصون فمنهم ابنا موسى و شعبة و السفيانان قال الشافعى و ابن معين و أبو حاتم ثقة مات سنة 148 عن 67» (2). الجزرى «أبو عبد اللّه جعفر الصادق: كان من سادات أهل البيت، و لقب بالصادق لصدقه فى مقالته، ولد سنة ثمانين و روى عنه مالک بن أنس و أبو حنيفة و كثيرون من علماء المدينة» (3). محمد الخضرى «و أكبر شخصيات ذلک العصر فى التشريع الشيعى بل ربما كان أكبر الشخصيات فى ذلک فى العصور المختلفة الإمام جعفر الصادق، و على الجملة فقد كان الإمام جعفر من أعظم الشخصيات فى عصره و بعد عصره، و قد مات فى العام العاشر من حكم المنصور» . الدكتور أحمد أمين

1- 1) أتحاف الأشراف ص 54.

2- 2) الخلاصة ص 76.

3- 3) التشريع الإسلامى ص 263.

«جعفر بن محمـد كان إماما مفخرة من مفاخر المسـلمين لم تـذهب قط، و إنما بقى منها فى كل غد قادم حتى القيامة صوت صارخ، يعلم الزهاد زهدا؛ و يكسب العلماء علما، يهدى المضـطرب و يشـجع المقتحم، يهدم الظلم و يبنى للعدالة، و هو ينادى بالمسـلمين جميعا أن هلمـوا و اجتمعوا، و ان قومـا لم يختلفوا فى ربهم و فى نـبيهم لمجموعون مهمـا اختلفوا فى يوم قريب» (1). عبد العزيز سـيد الأهل «كان بيت جعفر الصادق كالجامعة يزدان على الدوام بالعلماء الكبار فى الحديث و التفسـير و الحكمة و الكلام، فكان يحضـر مجلس درسه فى أغلب الأوقات ألفان و بعض الأحيان أربعـة آلاف من العلماء المشـهورين، و قـد ألف تلاميـذه من جميع الأحاديث و الدروس التى كانوا يتلقونها فى مجلسه مجموعـة من الكتب تعد بمثابة دائرة معارف للمذهب الشـيعى أو الجعفرى» . السـيد محمد صادق نشأة الأسـتاذ بكلية الآداب بجامعـة القاهرة «أبو عبد اللّه جعفر الصادق بن محمد الباقر بن زين العابدين هو أحد الأئمة الاثنى عشـر على مذهب الإمامية كان من سادات أهل البيت النبوى لقب بالصادق لصـدقه فى كلامه» . فريد وجدى «جعفر الصادق و هو ابن محمد الباقر بن على زين العابدين كان من سادات أهل البيت و لقب بالصادق لصدقه، و فضله عظيم، له مقالات فى صناعات الكيمياء و الزجر و الفال و كان تلميذه جابر بن حيان قد ألف كتابا يشتمل على ألف ورقة تتضمن «رسائل الصادق» و هى خمسمائة رسالة، إليه ينسب كتاب الجفر و سيذكر، و كان جعفر أديبا تقيا دينا حكيما فى سيرته» (2). بطرس البستانى

1- 1) كتاب جعفر بن محمد ص 6.

2- 2) دائرة المعارف ج 6 ص 468.

«عنـد مـا يتفرغ الباحث لدراسـة شخصـية الإمام جعفر بن محمـد بن على بن الحسـين بن على بن أبى طالب دراسـة صـحيحة على ضوء الضمير النقى، و الواقع العقلى، و التجرّد العلمى، متبعا الأصول الحديثة، مبتعدا عن العاطفة، و مرض التعصب، و أثر الجنسية، فلا يستطيع إلا الإقرار بأنها مجموعـة فلسـفية قائمـة بـذاتها، تزخر بالحيويـة النابضة، و الروحية المتجسدة، و العقلية المبدعة التى اسـتنبطت العلوم، و أبدعت الأفكار، و ابتكرت السـنن، و أوجدت النظم و الأحكام» (1). معهد البحوث الشـرقية عارف ثامر، و الأب أ. عبده خليفة اليسوعى و بهذا نكتفى عن ذكر أقوال بقية العلماء الآخرين، و سـيأتى محل آخر ننشر فيه آراء علماء العصر من المسلمين و غيرهم. و يلزمنا التنبيه على شىء مر ذكره فى بعض هذه الأقوال و هو نسـبة الزجر و الفال إلى الإمام الصادق عليه السّلام، و هذا من الخطأ و الاشتباه، و إنما كان الإمام يسـتشف ما وراء الحجب باسـتقراء الحوادث السياسية، و ينظر المستقبل بحكمته و صفاء باطنه، يخبر بالحوادث قبل وقوعها، و قد أخبر بأن الخلافـة للسـفاح و من بعـده للمنصور و تبقى فى أولاده من بعـده، و أخبر بمقتل محمـد و إبراهيم على يد المنصور، و كان معارضا لبيعة محمد فى المؤتمر الذى عقده الهاشميون من عباسيين و علويين لبيعة محمد بن عبد اللّه، و قال لعبد اللّه بن الحسن: لا تفعلوا فإن الأمر لم يأت بعـد، فقال عبـد اللّه لقـد علمت خلاف ما تقول، قال الصادق: لا، و لكن هـذا و أبناؤه دونک و ضـرب بيده على أبى العباس. ثم نهض فأتبعه عبد الصمد بن على و أبو جعفر المنصور فقالا له: أ تقول ذلک؟ قال: نعم أقوله و اللّه و أعلمه. و ليس فى وسعنا بسط القول فى علمهم (عليه السلام) و انكشاف حقائق الأشياء لهم، فقد أخبروا بكثير من الحوادث قبل وقوعها، و قد صدر عن الصادق كثير من ذلک مما لا يتسع المجال لذكره. و أما نسبة الزجر و الفال إليه فهو خطأ نشأ من اشتباه فى الاسم و تقارب فى

1- 1) مقدمة كتاب الهفت و الأظلة ص 15-16.

الزمن، و ذلک أن جعفر بن محمد البلخی المعروف بأبی معشر الفلکی کان مشهورا بالزجر و الفال و أستاذ عصره فی التنجیم، و نقل الناس أخباره و شاع ذکره. قال ابن کثیر: و الظاهر أن الذی نسب إلی جعفر بن محمد الصادق من علم الزجر و الطرف، و اختلاج الأعضاء إنما هو منسوب إلی جعفر بن أبی معشر هذا و لیس بالصادق و إنما یغلطون (1). هذا ما یتعلق بالانطباعات عن شخصیته علیه السّلام و سیأتی فی الجزء الرابع إن شاء اللّه ما له صلة بالموضوع.

1- 1) البدایة و النهایة ج 11 ص 51. [1]

اشارة

مدرسته و تلامذته و رواة حديثه

مدرسة الإمام الصادق:

لم يكن من المبالغة وصف مدرسة الإمام الصادق بأنها جامعة إسلامية، خلفت ثروة علمية و خرجت عددا وافرا من رجال العلم، و أنجبت خيرة المفكرين و صفوة الفلاسفة و جهابذة العلماء، و قد عدت أسماء تلامذته و المتخرجون من مدرسته فكانوا أربعة آلاف رجل، و قد صنف الحافظ أبو العباس بن عقدة كتابا جمع فيه رجال الصادق و رواة حديثه و أنهاهم إلى أربعة آلاف. روى الشيخ الصدوق أن سليمان بن داود المنقرى قال: كان حفص بن غياث (1)إذا حدثنا عن جعفر بن محمد قال: حدثنى خير الجعافر جعفر بن محمد (عليه السلام) . قال الشيخ المفيد فى الإرشاد: «إن أصحاب الحديث قد جمعوا الرواة عن الصادق من الثقات على اختلافهم فى الآراء و المقالات فكانوا أربعة آلاف» . و قال الشيخ محمد بن على الفتال فى روضة الواعظين: «و قد جمع أصحاب الحديث أسماء الرواة من الثقات على اختلافهم فى الآراء و المقالات فكانوا أربعة آلاف» . و قال السيد على بن عبد الحميد النيلى فى كتاب الأنوار: «و مما اشتهر بين

1- 1) القاضى أبو عمر حفص بن غياث النخعى من الثقات روى عن الإمام الصادق و روى عنه إسحاق و أحمد و خلق، وثّقه ابن معين و العجلى و كان متشددا فى الرواية، وصفه ابن عمار بأنه كان عسرا فى الحديث جدا، توفى سنة 194 ه-، خرّج حديثه أصحاب الصحاح.

العامة و الخاصة أن أصحاب الحديث جمعوا أسماء الرواة عنه فكانوا أربعة آلاف» . و قال الشيخ الطبرسى فى أعلام الورى: «و لم ينقل عن أحد من سائر العلوم ما نقل عنه، فإن أصحاب الحديث قد جمعوا أسماء الرواة عنه من الثقات فكانوا أربعة آلاف رجل، و قال فى القسم الثالث: «و روى عن الصادق من أهل العلم أربعة آلاف إنسان» . و قال ابن شهرآشوب فى المناقب: «نقل عن الصادق من العلوم ما لا ينقل عن أحد، و قد جمع أصحاب الحديث أسماء الرواة من الثقات على اختلافهم فى الآراء فكانوا أربعة آلاف» . و قال المحقق فى المعتبر فى جملة كلامه عن الصادق: «فإنه انتشر عنه من العلوم الجمة ما بهر به العقول و روى عنه جماعة من الرجال ما يقارب أربعة آلاف رجل» . و قال الشهيد فى الذكرى: إن أبا عبد اللّه جعفر بن محمد الصادق كتب من أجوبة مسائله أربعمائة مصنف لأربعمائة مصنف، و دون من رجاله المعروفين أربعة آلاف رجل من أهل العراق و الشام و الحجاز» . و قال الشيخ حسين والد العلامة البهبهانى فى ذكر الصادق: «و دون العامة و الخاصة ممن تبرز بعلمه من العلماء و الفقهاء أربعة آلاف» . و على أى حال فإن مدرسة الإمام الصادق، كانت مصدرا للعلم و ينبوعا يفيض على الأمة بالعلوم و المعارف الإسلامية، و أغدقت على العالم الإسلامى بخدماتها الجليلة، فى بث تلك التعاليم القيمة فى عصر ازدهر فيه العلم، و أقبل المسلمون على انتهاله. و لو تسنى لمدرسة الإمام الصادق عليه السّلام الظهور التام لأدت رسالتها على أحسن ما يتطلبه واقع المسلمين و ما هم فيه من الحاجة إلى نشر التعاليم القيمة فى بث روح الأخوة الإسلامية، و العدالة الاجتماعية، و محو المعتقدات الفاسدة و الآراء الشاذة. و لكن بمزيد الأسف أن السلطة الحاكمة قد اتخذت جميع التدابير لمحاربة تلك المدرسة، لأن شهرة الإمام الصادق عليه السّلام فى العالم الإسلامى كانت تقض

مضاجعهم، و تبعث فی قلوبهم الوجل من نشاطه العلمی إلی جانب ما لأهل بیته من النشاط السیاسی، و لهذا فقد کانوا یضعون الخطط التی یأملون فیها الوصول إلی غلق أبواب تلک المدرسة و القضاء علی الإمام الصادق بکل وسیلة، لأن الأنظار أصبحت متجهة إلیه، و کانت وفود رجال الأمة و طلاب العلم تتسابق إلی الحضور عنده، و الاستماع منه حتی کان ذکره حدیث الرکبان، و کانت أندیة العلم فی العواصم الإسلامیة تلهج بذکره، و ینتهی الاحتجاج فی الاستشهاد بقوله. «و الحقیقة، أن مدرسة الإمام جعفر الصادق الفکریة قد أنجبت خیرة المفکرین، و صفوة الفلاسفة و جهابذة العلماء، و إذا کانت هناک حقیقة یجب أن تقال فهی: أن الحضارة الإسلامیة و الفکر العربی مدینان لهذه المدرسة الفکریة بالتطور و الرقی و الخلود، و لعمیدها الصادق بالمجد العلمی و التراث الثمین» . کما أنها وجهت الأمة إلی قواعد الاستنباط و نقد الحدیث و بعثت علی النشاط فی مجال التألیف و تبویب الأحکام فکانت ملتقی العلماء، و مجمعا لطلابه رغم تلک المحاولات التی تبذل فی طریق شهرتها، و الوقوف أمام انتشار ذکرها. و أود بأن أسارع هنا فأشیر إلی ما یأتی فیما بعد: بأن مدرسة الإمام الصادق علیه السّلام: کان طابعها التی طبعت علیه و منهجها الذی اختصت به، هو استقلالها الروحی، و عدم خضوعها لنظام السلطة، و لم تفسح المجال لولاة الأمر بأن یتدخلوا فی شئونها، أو تکون لهم ید فی توجیهها و تطبیق نظامها لذلک لم یتسنّ لذوی السلطة استخدامها فی مصالحهم الخاصة، أو تتعاون معهم فی شئون الدولة، و من المستحیل ذلک-و إن بذلوا جهدهم فی تحقیقه-فهی لا تزال منذ نشأتها الأولی تحارب الظالمین، و لا ترکن إلیهم کما لا ترتبط و إیاهم بروابط الألفة، و لم یحصل بینها و بینهم انسجام، و بهذا النهج الذی سارت علیه، و الطابع الذی اختصت به أصبحت عرضة للخطر، فکان النزاع بینها و بین الدولة یشتد و العداء یتضخم، الأمر الذی جعل المدرسة عرضة للخطر. و رغم ذلک کله فقد صمدت لتلک الهجمات التی توجهها الدولة لتمحوها من صفحة الوجود، و قد عانت من بطش الجبارین و عسف الظالمین ما لا یحیط به البیان. و علی کل حال فإن مدرسة الإمام الصادق علیه السّلام کانت بعیدة عن التأثر بآراء

الحكـام الـذين يفرضون إرادتهم على العلم و العلمـاء، و يحاولون أن تكون لهم السـلطة الدينيـة إلى جانب السـلطة التنفيذيـة. و قـد بـذل المنصور كل ما فى وسـعه لجلب رضا الإمام الصادق عليه السّـلام و الفوز بمسايرته له، و لكنه لم يفلح، فقد أعلن عليه السّـلام مقاطعته، و أوعز إلى أصـحابه ذلـک، فسارت مدرسـته على ذلک الاسـتقلال الروحى، و نالت تلک الشـهرة العظيمـة، و خلفت ذلک التراث الثمين و المجد العلمى، و إن الحضارة الإسلامية مدينة لها بالتطور و الخلود. و سيأتى فى الأجزاء القادمة مزيد بيان لذلک.

تلامذة الإمام الصادق و رواة حديثه:

اشارة

أما تلامـذته فقد أجمع العلماء على أنهم كانوا أربعة آلاف، و هم من مختلف الأقطار الإسـلامية على اختلاف آرائهم و معتقداتهم، و قيل: إن الثقات منهم كانوا بهذا العدد، و لا بد لنا من الإشارة هنا إلى البعض منهم مقتصـرين على ذكر أسـمائهم بدون تفصـيل لأنا سنشير إلى جملة منهم فى الجزء الثانى، كما اننا لم نذكر منهم إلا من اشـتهر بالعلم و خرج حديثه أصحاب الصحاح كالبخارى، و مسلم، و الترمذى، و أصـحاب السـنن. و ان منهم من أصـبحوا رؤساء طوائف، و أئمـة مـذاهب: كأبى حنيفـة النعمان بن ثابت المتوفى سـنة 150 ه-صاحب المذهب المنسوب إليه و قد اشـتهر قوله: ما رأيت أعلم من جعفر بن محمد. . و قوله: لو لا السنتان لهلک النعمان (1)و كانت له مع الإمام الصادق اتصالات متفرقة بالمدينة و الكوفة، و قد لازمه مدة سـنتين متواصـلتين بالمدينة. فجعل هاتين السنتين نجاة له من الهلكة. مالک بن أنس المتوفى سنة 179 ه-رئيس المذهب المنسوب إليه و كانت له صلة تامة بالإمام الصادق عليه السّلام و روى الحديث عنه و اشتهر قوله: ما رأت عين أفضل من جعفر بن محمد. سفيان الثورى المتوفى سنة 161 ه-و هو من رؤساء المذاهب و حملة الحديث و أعلام الأئمة و قد بقى مـذهبه معمولا به إلى ما بعـد القرن الرابع، و كان لسـفيان الثورى اختصاص بالإمام الصادق و قد روى عنه الحديث كما روى كثيرا من آدابه عليه السّلام و أخلاقه و مواعظه.

1- 1) التحفة الاثنى عشرية ص 8. [1]

سفیان بن عیینة المتوفی سنة 198 ه-و المدفون بالحجون و هو من رؤساء المذاهب البائدة. و غیر هؤلاء من حملة الحدیث و أعلام الأمة و لا یتسع المجال لذکرهم الآن و نکتفی بذکر البعض منهم فی عرض موجز و هم: شعبة بن الحجاج بن الورد العتکی المتوفی سنة 160 ه- خرج له أصحاب الصحاح و السنن و روی عنه خلق کثیر. قال الشافعی: لو لا شعبة لما عرف الحدیث بالعراق. و قال أحمد: شعبة أمة وحده. و فضیل بن عیاض بن سعد بن بشر التمیمی الیربوعی المتوفی سنة 187 ه-قال الجزری: «هو أحد أئمة الهدی و السنة، روی عنه الأعمش و سلیمان التیمی و ابن المبارک و ابن القطان و أحمد بن المقدام و خلق کثیر، وثقه النسائی و غیره، و خرج له البخاری و الترمذی و مسلم و النسائی» . و حاتم بن إسماعیل المتوفی سنة 180 ه-کوفی الأصل خرج له البخاری و مسلم و الترمذی و الجماعة و کان ثقة فی الحدیث، أخذ عن الصادق و أخذ عنه خلق کثیر منهم إسحاق و ابن معین (1). و حفص بن غیاث بن طلق بن معاویة بن مالک أبو عمرو الکوفی المتوفی سنة 194 ه-روی عن الصادق و روی عنه أحمد، و إسحاق، و أبو نعیم، و یحیی بن معین، و علی بن المدینی و عفان بن مسلم، و عامة الکوفیین، ولی قضاء بغداد ثم عزل و ولی قضاء الکوفة، و کان کثیر الحدیث حافظا له ثبتا فیه مقدما عند المشایخ کتبوا عنه من حفظه ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف حدیث، خرج له الجماعة أجمع (2). و زهیر بن محمد التمیمی أبو المنذر الخراسانی المتوفی سنة 162 ه-أخذ عن الإمام الصادق و عنه أبو داود الطیالسی، و روح بن عبادة، و أبو عامر العقدی، و عبد الرحمن بن مهدی، و الولید بن مسلم، و یحیی بن بکیر، و أبو عاصم و غیرهم وثقه أحمد و یحیی و عثمان الدارمی و هو من رجال الصحاح. یحیی بن سعید بن فروخ القطان الحافظ البصری المتوفی سنة 198 ه-روی له رجال الصحاح و حدث عنه ابن مهدی، و عفان و مسدد و أحمد و إسحاق و ابن معین.

1- 1) خلاصة الکمال 56. [1]

2- 2) تاریخ بغداد ج 8 ص 188 و [2]الخلاصة ص 74.

إسماعيل بن جعفر بن أبى كثير الأنصارى المتوفى ببغداد سنة 180 ه-روى عنه محمد بن جهضم و يحيى بن يحيى النيسابورى، و أبو الربيع الزهرانى، و أبو معمر الهذلى و غيرهم، قال ابن سعد: ثقة و هو من أهل المدينة قدم بغداد و لم يزل بها حتى مات، خرج له البخارى و مسلم و الجماعة (1). إبراهيم بن محمد بن أبى يحيى الأسلمى أبو إسحاق المدنى المتوفى سنة 191 ه-روى عن الصادق، و له كتاب مبوب فى الحلال و الحرام، و ذكره الشيخ الطوسى فى الفهرست، و روى عنه إبراهيم بن طهمان و الثورى و هو أكبر منه و كنى عن اسمه، و ابن جريح و الشافعى و سعيد بن أبى مريم و أبو نعيم و آخرون و يعد من مشايخ الشافعى و قد أكثر عنه فى كتبه (2)و قد اتهم إبراهيم بالحط من السلف فضعف و نسب إلى الكذب، و لعل سبب ذلک اختصاصه بحديث أهل البيت أكثر من غيره. الضحاک بن مخلد أبو عاصم النبيل البصرى المتولد سنة 122 ه-و المتوفى سنة 214 روى عنه الصادق و عنه البخارى و أحمد بن حنبل و ابن المدينى و إسحاق بن راهويه، قال ابن شيبة: و اللّه ما رأيت مثله. محمد بن فليح بن سليمان المدنى المتوفى سنة 177 ه-روى له البخارى و النسائى و ابن ماجة. عبد الوهاب بن عبد المجيد بن الصلت المتوفى 194 ه-روى عنه محمد بن إدريس الشافعى و أحمد بن حنبل و يحيى بن معين و ابن المدينى و غيرهم؛ قدم بغداد فى أيام المنصور و حدث بها وثقه ابن معين و كانت غلة عبد الوهاب فى كل سنة مائتين و أربعين ألف ينفقها على أصحاب الحديث لا يحول الحول على شىء منها. خرج له مسلم و البخارى. عثمان بن فرقد العطار أبو معاذ البصرى خرج له البخارى فى صحيحه و الترمذى و روى عنه ابن المدينى و ابن المثنى و زيد بن أحزم، قال ابن حبان مستقيم الحديث.

1- 1) تاريخ بغداد ج 8 ص 188 و [1]الخلاصة ص 74.

2- 2) تهذيب التهذيب ج 1 ص 282-760. [2]

عبـد العزيز بن عمران بن عبد العزيز الزهرى بن أبى ثابت الأعرج المدنى المتوفى سـنة 197 ه-خرج له الترمذى فى صـحيحه. عبد اللّه بن دكين الكوفى خرج له البخـارى فى الأدب المفرد وثقه أحمـد و روى عنه يحيى الوضاحى و موسـى بن إسـماعيل. زيـد بن عطا بن السائب روى عنه إسـرائيل و جرير بن عبـد الحميـد وثقه أبو حاتم. و خرج حديثه النسائى و الترمذى. مصـعب بن سـلام التميمى الكوفى روى عنه أحمد و أبو سـعيد الأشج و خرج له الترمذى، قال ابن معين: ليس به بأس، و قال أبو حاتم: شـيخ محلة الصدق. بشـير بن ميمون الخراسانى المتوفى سنة 184 ه-روى عنه أحمد بن عاصم الخراسانى؛ قدم بغداد و روى الحديث عن جعفر بن محمد الصادق عليه السّلام خرج له ابن ماجة. إبراهيم بن سـعد الزهرى المتوفى سنة 183 ه-أحد الأعلام و من رجال الصـحاح و هو من شـيوخ أحمد بن حنبل. سعيد بن مسلمة الأموى المتوفى سنة 201 ه-و هو من رجال الصـحاح و شيوخ الشافعى. الحارث بن عمير البصرى نزل مكة روى عن الصادق عليه السّلام و عنه ابن عيينـة و ابن مهـدى و أبو أسامـة. المفضل بن صالـح الأسـدى أبو جميلة الكوفى خرج له الترمذى و روى عنه محمد بن عبيد اللّه المحـاربى. أيوب بن أبى تميمـة السـختيانى أبو بكر البصـرى مولى عنزة، و يقال مولى جهينـة روى عنه الأعمش و قتادة و هو من شـيوخه و الحمادان و السـفيانان و شعبة، و خلق كثير، وثقه ابن سعد و ابن معين، ولد سنة 66 ه-و مات سنة 121 ه-. عبد الملک بن جريح القرشى أحد العلماء المشـهورين و يقال: إنه أول من صـنف الكتب فى الإسـلام، ولد سـنة 80 ه-و توفى سـنة 149 ه-. و غير هؤلاـء ممن نسـب لمدرسة الصادق، و أخذ عنه و روى حديثه، و قد ذكر ذلک ابن حجر فى تهذيب التهذيب و لسان الميزان و تقريب التهذيب، و الذهبى فى

ميزان الاعتدال و تذكرة الحفاظ، و الجزرى فى الخلاصة، و الخطيب فى تاريخه، و ابن أبى حاتم فى الجرح و التعديل و غيرهم. و لا يصعب على المتتبع إحصاءهم، و قد أفرد بعض علمائنا رسائل فى عددهم و ذكر أسمائهم و سيأتى فى الجزء الثانى بيان جملة منهم. أما حملة فقهه عليه السّلام و خواص أصحابه، الذين كانت لهم اليد الطولى فى خوض معارك الحياة الاجتماعية و السياسية، و محاربة أهل الإلحاد و الزندقة، و مناظرة أهل العقائد الفاسدة و الآراء الشاذة و مقابلة الظلمة فى شدة الإنكار عليهم و توجيه الانتقاد إليهم، فسيأتى فى الجزء الثالث تفصيل عن حياة بعضهم و المشهورين منهم، كأبان بن تغلب، و مؤمن الطاق، و هشام بن الحكم و غيرهم. و نكتفى هنا بالتنويه عن بعضهم:

أبان بن تغلب:

أبو سعد الكوفى، روى عن السجاد، و الباقر، و الصادق، و مات فى أيامه. قال الشيخ فى الفهرست (1)«أبان بن تغلب بن رباح أبو سعيد البكرى الحريرى مولى جرير بن عباد، ثقة جليل القدر عظيم المنزلة فى أصحابنا، لقى أبا محمد على بن الحسين و أبا جعفر الباقر و روى عنهم، و كانت له عندهم حظوة و قدم» ، و قال له أبو جعفر الباقر: «اجلس فى مسجد المدينة و افت الناس فإنى أحب أن يرى فى شيعتى مثلك. . . و كان فقيها لغويا» و كان غزير العلم متضلعا فى عدة علوم و له كتب ذكرها ابن النديم فى الفهرست منها كتاب معانى القرآن، كتاب القراءات، كتاب من الأصول فى الرواية على مذهب الشيعة (2). و قال ابن سعد فى الطبقات: أبان الربعى توفى فى الكوفة فى خلافة أبى جعفر و عيسى بن موسى وال على الكوفة، و كان ثقة و روى عنه شعبة، و قال فى التهذيب روى عنه موسى بن عقبة، و شعبة، و حماد بن زيد و ابن عيينة و جماعة، وثقه أحمد، و يحيى، و أبو حاتم، و النسائى.

1- 1) الفهرست ص 17. [1]

2- 2) ابن النديم ص 308. [2]

قال الـذهبی فی میزان الاعتدال أبان بن تغلب الکوفی شـیعی جلد لکنه صدوق فلنا صدقه و علیه بدعته (1)و قـد وثقه أحمد بن حنبل و ابن معین و أبو داود خرج له مسلم و أبو داود، و الترمذی، و ابن ماجة. قال الجوزجانی: أبان بن تغلب زائغ مذموم المذهب، قال ابن حجر: و أما الجوزجـانی فلاـ عبرة بحطه علی الکوفیین، فالتشـیع فی عرف المتقـدمین هو اعتقـاد تفضـیل عثمان، و أن علیا کان مصـیبا فی حروبه و أن مخالفه مخطئ مع تقدیم الشـیخین، و ربما اعتقد بعضـهم أن علیا أفضل الخلق بعد رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم و إذا کان معتقد ذلـک ورعا دینا صادقا مجتهـدا فلا ترد روایته (2). أبان بن عثمان بن أحمر البجلی أبو عبـد اللّه أصـله کوفی، و کان یسـکنها تارة و البصـرة أخری، و قد أخذ عنه أهلها منهم أبو عبیدة معمر بن المثنی و أبو عبد اللّه محمد بن سـلام، و أکثروا الحکایة عنه فی أخبار الشعراء و النسب و الأیام، روی عن أبی عبد اللّه الصادق علیه السّـ لام و أبی الحسن موسی علیه السّلام و له مؤلفات منها کتاب المبتدی، و البعث و المغازی و الوفاة، و ذکره ابن حبان فی الثقات، قال محمـد بن أبی عمر: کان أبان من أحفظ الناس بحیث إنه یری کتابه فلا یزیـد حرفا، توفی علی رأس المائتین (3). و هو من الستة أصحاب أبی عبد اللّه (علیه السلام) الذین أجمعت العصابة علی تصحیح ما یصح عنهم و الإقرار لهم بالفقه و هم: جمیـل بن دراج، و عبـد اللّه بن مسـکان، و عبـد اللّه بن بکیر، و حمـاد بن عیسـی، و حماد بن عثمان، و أبان بن عثمان. بکیر بن أعین الشـیبانی أخو زرارة روی عن الباقر و الصادق علیه السّـ لام و مات فی أیام الصادق علیه السّـ لام و لما بلغه خبر موته قال: أما و اللّه لقد أنزله اللّه بین رسول اللّه صـلّی اللّه علیه و آله و سـلم و أمیر المؤمنین علیه السّلام. و ذکره یوما فقال: رحم اللّه بکیرا. و هو من الثقات، و قد روی عنه جماعة.

1- 1) لم یکن أبان مبتدعا و لکنه بتفضـیله لعلی و قوله بإمامته أصبح مبتدعا فی نظر الذهبی و أضرابه ممن حملهم التعصب علی تضعیف المشـاهیر من الحفّاظ من أهل السـنة و غیرهم لأنهم یروون الأحادیث الصـحاح فی أهل البیت کما حـدث لابن جریر الطبری لأنه یروی حدیث: من کنت مولاه. و الحاکم لتصحیحه حدیث الطیر، و حدیث الموالاة. و غیرهم کثیر سیأتیک بیانه.

2- 2) تهذیب التهذیب ج 3 ص 93. [1]

3- 3) لسان المیزان ج 1 ص 24.

جميل بن دراج بن عبد اللّه النخعى روى عن الصادق و الكاظم و توفى أيام الرضا، و هو من السـتة الذين أجمعت العصابة على تصحيح ما يصـح عنهم. حماد بن عثمان بن زياد الرواسـى الكوفى روى عن الصادق عليه السّـلام و الكاظم و الرضا عليه السّـلام، و هو من أصـحاب الصادق عليه السّـلام و من السـتة المار ذكرهم توفى سنة 190 ه-. الحارث بن المغيرة النصـرى روى عن الباقر عليه السّـلام و عن الصادق (عليه السلام) و الكاظم (عليه السلام) ، كان جليل القدر مقبول الرواية له منزلة عظيمة. هشام بن الحكم البغدادى الكندى مولى بنى شيبان كنيته أبو محمـد و قيل أبو الحكم أصـله من الكوفـة و انتقل إلى بغـداد قال ابن النـديم: هو من جلـة أصـحاب أبى عبد اللّه جعفر بن محمد الصادق (عليه السـلام) و هو من متكلمى الشـيعة ممن فتق الكلام فى الإمامة و هذب المذهب و النظر و كان حاذقا بصناعة الكلام حاضر الجواب سـئل عن معاوية أشـهد بدرا؟ فقال: نعم من ذاك الجانب، و كان ينزل الكرخ من مدينة السـلام و توفى بعد نكبة البرامكة مستترا، و قيل فى خلافـة المأمون و له من الكتب كتاب الإمامـة، كتاب الـدلالات، ثم ذكر له أكثر من عشـرين مؤلفا. و دعى له الإمام الصادق (عليه السلام) قال: «لا تزال مؤيدا بروح القدس ما نصرتنا بلسانک، و كان أولا من أصحاب جهم بن صفوان ثم انتقل إلى القول بالإمامة بالدلائل و النظر، و كان الصادق (عليه السلام) يقول فيه: هذا ناصرنا بقلبه و لسانه و يده، و يقول أيضا: هشام بن الحكم رائد حقنا و سائق قولنا المؤيد لصـدقنا و الدامغ لباطل أعدائنا. و كان هشام يقول: ما رأيت مثل مخالفينا عمدوا إلى من ولاه اللّه من سـمائه فعزلوه، و إلى من عزله اللّه من سمـائه فنصـبوه، و لهشـام أخبـار كثيرة و محاججات و مناظرات مع خصوم آل محمـد، و كان يخوض غمرات البحث فيخرج منها و حليفه النصـر. روى الكلينى فى الصـحيح أنه ورد على الصادق (عليه السـلام) رجل من أهل الشام فقال له: إنى صاحب كلام و فقه و فرائض و قد جئت لمناظرة أصـحابک. فقال له الصادق (عليه السـلام) : كلامک هذا من كلام رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم أو من عندک؟ فقال الرجل: بعضه من كلام رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم و بعضه من عندى، قال الإمام

الصادق (علیه السلام) : فأنت إذا شریک رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم! قال: لا، قال: فسمعت الوحی عن اللّه تعالی؟ قال: لا، قال: فتجب طاعتک کما تجب طاعة رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم؟ قال: لا، فقال الصادق (علیه السلام) : هذا قد خصم نفسه قبل أن یتکلم، ثم أخرج الصادق (علیه السلام) رأسه و کان فی خیمة فی الحرم قبل الحج بأیام فإذا هو ببعیر یخب فقال (علیه السلام) : هشام و رب الکعبة. فإذا هشام بن الحکم قد ورد و هو أول ما اختطت لحیته و لیس فی أصحاب الصادق (علیه السلام) إلا من هو أکبر سنا منه فوسع له الصادق (علیه السلام) و قال: ناصرنا بقلبه و لسانه و یده، ثم قال للشامی: کلّم هذا الغلام. یعنی هشام بن الحکم. فقال الشامی لهشام: سلنی فی إمامة هذا. یعنی الصادق (علیه السلام) . فغضب هشام حتی ارتعد و قال: یا هذا ربک أنظر لخلقه أم هم لأنفسهم؟ فقال: بل ربی أنظر لخلقه، قال هشام: فعل بنظره لهم فی دینهم ما ذا؟ قال: کلّفهم و أقام لهم حجة و دلیلا علی ما کلفهم و أزاح فی ذلک عللهم. قال: فما هذا الدلیل الذی نصبه لهم؟ قال: هو رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم، قال: فبعد رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم؟ قال: الکتاب و السنة، قال: فهل ینفعنا الیوم الکتاب و السنة فیما اختلفنا فیه حتی رفع عنا الاختلاف؟ قال: فقال الشامی: نعم. فقال هشام: فلم اختلفنا نحن و أنت و جئتنا من الشام تخالفنا و تزعم أن الرأی طریق الدین و أنت تقر أن الرأی لا یجتمع علی القول الواحد للمختلفین؟ فسکت الشامی کالمفکر فقال له الصادق (علیه السلام) : مالک لا تتکلم؟ قال: إن قلت ما اختلفنا کابرت، و إن قلت إن الکتاب و السنة یرفعان الاختلاف أبطلت لأنهما یحتملان الوجوه، و لکن لی علیه مثل ذلک. فقال الصادق (علیه السلام) : سله تجده ملیا. فقال لهشام: من انظر للخلق ربهم أو أنفسهم؟ قال: بل ربهم، قال: فهل أقام لهم من یجمع کلمتهم و یرفع اختلافهم و یبین حقهم من باطلهم؟ قال: نعم، قال: من هو؟ قال: أما فی ابتداء الشریعة فرسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم، و أما بعده فغیره، قال: من هو غیره؟ قال: فی وقتنا هذا هو هذا الجالس الذی تشد إلیه الرحال. یعنی الصادق (علیه السلام) إلی آخر ما ذکره (1). المعلی بن خنیس کان من أصحاب الإمام و موالیه و من عذب فی اللّه و قتل

1- 1) أصول الکافی ج 1 ص 172-173. [1]

بحب آل محمـد، قتله الأـمير داود بن على و صـادر أمواله-و الأسـباب غير مجهولـة فى ذلک-لأن المعلى كان من خواص الإمام الصادق (عليه السـلام) بصـورة تسـتدعى غضب الوالى، و كـان داود بن على عنـد مـا ولى المدينـة أو الجزيرة برمتهـا اسـتعمل العسف و الجور و الاضـطهاد للطالبيين فكان شديدا فى مطاردتهم و تتبع أنصارهم. و بطبيعة الحال ان مثل المعلى بمواقفه و اتصاله بالإمام لا يسـلم من شر هـذا الوالى و قد تلقى الإمام الصادق هذه الحادثة بالاستياء و أثر فى نفسه و مشـى إلى ديوان الأمير و هو محنق على خلاف عادته و قال له: قتلت مولاى و أخذت مالى أ ما علمت أن الرجل ينام على الثكل و لا ينام على الحرب، و قابله الإمام بالشدة و العنف و حاول ذلک الأمير أن يسـند هذا الجرم لصاحب الشـرطة و يبرأ من تبعته، فأمر بقتله ليتستر بذلک، و لكن صاحب الشـرطة فضح أمره فأعلن للملإ عند ما سيق للإعـدام بقوله: يـأمروننى بقتـل النـاس فـأقتلهم لهم ثم يأمرون بقتلى. و قـد اختلفت أقوال المؤرخين فى الحادثـة فتارة يـذكرونها فى عهد السفاح و أخرى فى عهد المنصور. هذا و ليس فى إمكاننا إحصاء أصحابه عليه السّلام و رواة الحديث عنه من الشيعة و غيرهم و نكتفى بهذا القـدر، و قـد أرجأنـا ذكر بعض الأعيان منهم إلى الجزء الثالث: كعبـد الملک بن أعين و زرارة و ابنه، و على بن يقطين، و عمار الـدهنى و عمرو بن حنظلـة، و الفضـيل بن يسار، و أبو بصـير، و مؤمن الطاق، و محمـد بن مسـلم، و معاوية بن عمار، و المفضل بن عمر، و هشام بن سالم، و غيرهم.

مع البخارى

شهرة البخارى:

قطع صـحيح البخارى (1)شوطـا بعيـدا من الشـهرة و نال قبولا دون غيره من كتب الحـديث، فأصـبحت له منزلـة لا يشاركه بها غيره، و من العسير مؤاخذته بشىء لأن

1- 1) أبو عبـد اللّه محمد بن إسـماعيل بن إبراهيم بن (بردزبه) بباء موحدة مفتوحة ثم راء ساكنة ثم دال مهملة مكسورة ثم زاء ساكنة ثم باء موحدة ثم هاء، معناه بالعربية الزراع، و كان جده المغيرة مجوسـيا كأبيه أسـلم على يد اليمان البخارى الجعفى لذلک قيل للبخارى جعفى لأنه مولى يمان الجعفى ولد سنة 194 و توفى سنة 256 و دفن بخرتنک قرية على فرسخين من سمرقند.

ذلک یدعو إلی الرمی بالبدعة و الخروج عن سبیل المؤمنین (1)و لهذا تهیب أکثر الحفاظ نقده، و وقفوا أمامه موقف خضوع و تسلیم. یقول الـذهبی فی ذکره لبعض الأحادیث: و لو لا هیبة الصـحیح لقلت إنها موضوعة. و ذهب ابن حزم إلی تکذیب بعض أحادیثه (2)فعنف، لأن التسـلیم بجمیع ما فی کتاب البخاری أصـبح سـنة و صحیحه أصبح معمولا به، فلا یمکن لأحد أن یعمل بحریة الرأی، و مع هذا فإن بعض الحفاظ من کبار المحـدثین تناولوه بالنقـد بصـراحة و حریة فی الرأی من وجوه أهمها: 1-ترتیب الکتاب و العلاقـة بینه و بین الترجمة و ما تحتها. 2-انه یقطع الحـدیث فیـذکر بعضه فی باب و بعضه فی آخر، و قد تختلف الروایة فی الأجزاء المختلفة، و قد یذکر بعضـها متصـل السـند و بعضها منقطعه، و قد أخذ علیه فی هذا الباب بعض مآخذ لم یستطع المنتصرون له أن یجیبوا عنها (3)3-انتقده الحفاظ فی بعض أحادیث بلغت 110 منها 32 حدیثا اتفق فیها هو و مسلم و منها ما انفرد بتخریجه و هو 78. 4-إن بعض الرجال الذین روی لهم غیر ثقات و قـد ضـعف الحفـاظ من رجـال البخـاری نحو الثمـانین. و علی کـل حـال فإن صـحیح البخاری کان محلا للوثوق و الاعتماد عنـد أکثر المحـدثین فهم یقبلون روایته بـدون نقاش تهیبا لمکانته، و حذرا من المؤاخذات القاسـیة و التهجم المر، لأن أکثر الناس یزعمون أنه أعظم کتاب علی وجه الأرض، أو أنه: «هو عـدل القرآن و أنه إذا قرأ فی بیت أیام الطاعون حفظ أهله منه، و أن من ختمه علی أی نیة حصل ما نواه، و أنه ما قرأ فی شدة إلا فرجت، و لا رکب به فی مرکب فغرقت» (4). و قد جری علی العمل بذلک کثیر من رؤساء العلم، و مقدمی الأعیان إذا ألم

1- 1) قواعد التحدیث ص 241. [1]

2- 2) تهذیب التهذیب ج 8 ص 146. [2]

3- 3) ضحی الإسلام ج 2 ص 116.

4- 4) قواعد التحدیث للقاسمی ص 250. [3]

بالبلاد نازلـة، يوزعون أجزاءه على العلماء و الطلبة (لكشف الخطوب و تفريج الكروب، فهو يقوم عندهم فى الحرب مقام المدافع و الصارم و الأسل، و فى الحريق مقام المضـخة و الماء، و فى الهيضة مقام الحيطة الصحيحة و عقاقير الأطباء، و فى البيوت مقام الخفراء و الشرطة، و على كل حال هو مستنزل الرحمات و مستقر البركات) (1). و الحاصل أن صحيح البخارى قد أحيط بهالة من التقديس و الإكبار فهو عدل القرآن و هو أصـح كتاب على وجه الأرض-كما يقال-و لهـذا فقـد تهيب أكثر الحفاظ عن نقـد أحاديثه و من أقـدم على ذلک عنف. و من أظرف الأشـياء: أن مجلس المبعوثان فى عهد الأتراک بالعراق قد قرر مبلغا جسيما لوزارة الحربية جعلوه لقراءة البخارى فى الأسطول، فقال الشاعر العراقى الزهاوى-و كان عضوا فى المجلس-: أنا أفهم أن هـذا المبلغ فى ميزانية الأوقاف، أما الحربية فالمفهوم أن الأسـطول يمشـى بالبخار لا بالبخارى فثار عليه المجلس و شـغب عليه العامـة (2). و نحن لا ننكر عظمـة حديث النبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلم و بركة آثاره، و لكن لنا أن نتساءل لأى شـىء اختص صـحيح البخارى دون غيره بهذه الخصوصية من كتب الحديث؟ و لما ذا كانت له هذه المنزلة دونها؟ ! و نتساءل لم لم يقرأ القرآن و فيه شـفاء للناس و دفع لما يكرهون؟ ! و لما ذا كان صـحيح البخارى عدلا للقرآن و أصـبح التوسل به من العقائد الراسخة يتلى لدفع المجاعة و يوزع أحزابا فى المساجد و البيوت كما حدث فى مجاعة سنة 798 فى مصر؟ ؟ ؟ فإن كان لصحة أحاديثه فلما ذا لم تكن هـذه الخصوصـية لموطأ مالک الـذى قيل فيه إنه أصح كتاب بعد كتاب اللّه؟ ! ! و صـحيح مسـلم الذى قالوا فيه: ما تحت أديم السـماء أصح من كتاب مسلم (3)و يقول ابن حجر: حصل لمسـلم فى كتابه حظ عظيم مفرط لم يحصل لأحـد مثله بحيث إن بعض النـاس كان يفضـله على صـحيح محمـد بن إسـماعيل و ذلک لما اختص به من جمع الطرق و جودة السـياق و المحافظـة على أداء الألفاظ من دون تقطيع و لا رواية بمعنى. و قال الحاكم: سمعت

1- 1) من مقال لأحد علماء الأزهر نشـر فى إحدى المجلات المصـرية فى معرض نقده لذلک الاعتقاد السائد نشر سنة 1320 ه-و قواعد التحديث ص 251. [1]

2- 2) مجلة الرسالة السنة الخامسة ص 403.

3- 3) تذكرة الحفاظ ج 2 ص 104.

أبـا الوليـد يقول، قـال لى أبى: أى كتاب تجمع؟ قلت أخرج على كتاب البخارى، قال: عليک بكتاب مسـلم فإنه أكثر بركـة. و هـذا صـحيح الترمـذى بحسن ترتيبه و تنميقه و تتبعه للصـحيح من غيره لم يكن بمنزلـة البخارى؟ ! و قد قالوا: إن كتاب الترمذى أنور من كتاب الترمذى أنور من كتاب البخارى. فإن كانت تلک العظمة التى أحرزها صحيح البخارى لما حواه فالقرآن أولى بأن يتخذ لدفع تلک المشاكل، أو كان لعظمـة البخـارى نفسه؟ فـإن مالـک بن أنس صاحب الموطأ أعظم منزلـة و أعلى كعبا، و أعرق نسـبا، و أغزر علما. و لا نريـد أن نقسو على البخـارى بالحكم، أو نجحف بحقه، و نقول بمقالـة جمال الـدين الحنفى: «من نظر فى كتاب البخارى تزنـدق» (1). و لا نـذهب بعيدا عن الواقع فنقول: إن كل ما فيه صـحيح يلزم الاعتقاد به و التصـديق له، و إن عدم التصديق بدعة، أو كفر باللّه و تكذيب لأحاديث الرسول صـلّى اللّه عليه و آله و سـلم كما ذهب إلى ذلک كثير من المقلدين الذين لا يعقلون. إن كتاب البخارى لا يخلو من أحاديث لا تتصف بالصـحة كمـا لاـ يخلو من أحاديث عليها علامـة الوضع كحـديث «إن النبى كان مسـحورا. .» و غيره من الأحاديث التى لا يمكن القول بصـحتها، لتناقضـها أو تعارضها مع غيرها مما يصعب الجمع بينها، و لا ننكر أن الرجل كان همه خدمة الدين و لكنه كان جمّاعة يتلقى كل ما يسمع بالقبول رغم أنه كان يتنقل من مصر إلى مصر، و يتحول من أفق إلى أفق، و قد جاب العالم الإسلامى من موطنه الأصلى و محل إقامته حتى الحرمين، و من السـهولة عليه التمييز فى النظم و السـياق و الغرض لكنه صـرف همه إلى الروايـة فحسب، ففتح أوعية آذانه و لم يفتح أوعية أفهامه لأن أمر تـدقيق الطرق و فحص الروايات يحتاج إلى خصائص لا تتوافر إلا بعد جهد، و من الناس من جبل على خصـلة أو فطر على شىء لا يسـتطيع تجاوزه، فكان البخارى مقبلا على الجمع، و لم يحـذر إلا من أمر واحد سـتجدنا مضـطرين إلى إثباته و هو خوف الملوک الذين يعادون أهل البيت، و ليس عليه من خوف إن أخذ الحديث بطرق الخوارج و المارقين و الوضّاع و الضعفاء. و كل ما يسمعه البخارى يراه مادة حتى نجد أن بعض الأبواب التى تخص السيرة النبوية تضم

1- 1) شذرات الذهب ج 7 ص 40. [1]

من الأحاديث التى تتعلق بحياة الرسول الأعظم التفصيلية فيها توغل لا مبرر له و لا حاجة، بل إن عدم ذكرها أولى صيانة للنبى الأعظم و مكانته من تسويته بباقى الخلق، و لكنه الوضع و الكذب اللذين جعلا أصحابهما يتناولون كل ناحية ليكذبوا على الرسول الكريم و هم تتحكم فيهم أغراض شتى نفسية و سياسية و اقتصادية. و الهالة التى أحاط بها الحفاظ شخصية البخارى و القدسية التى رفع إليها بتضافر أوساط و جهات مختلفة لم تمنع بعض علماء السنّة (حفاظا و محدثين) من التوقف عن الأخذ بكل ما جاء به البخارى، و عدم تقليد ما جرى عليه ذوو الشأن فى الحديث و السياسة، بل تركوا البخارى فى بعض ما لا يصح من رواية أو قول كأبى حاتم و ابنه عبد الرحمن، و كأبى زرعة، كما ضعف الحافظ أبو الحسن الدارقطنى طائفة كبيرة من أحاديثه. و العلماء الذين أنكروا صحة بعض أحاديثه لم ينكروها إلا بأدلة قامت عندهم، و لا ندرى كيف يعد ذلك طعنا فى دين الإسلام، و هدما للسنة كما يذهب بعضهم. و قد انتقد العلماء من أحاديث البخارى أكثر من مائة حديث، كما انتقدوا رجاله و طعنوا فى كثير منهم لأنهم أناس لا قيمة لهم فى ميزان الصدق و العدالة، و منهم ضعفاء لا يتصف حديثهم بالصحة. و لقد ترك البخارى الرواية عن كثير من علماء الأمة و أعلام الحديث، و من هم أدرى بحديث الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلم، و أشد عناية فيه و إحاطة له، و فى طليعتهم الإمام الصادق عليه السّلام فلم يقدح ذلك فيهم أو يحط من مقامهم. و قد خرج أحاديث أناس لم يسلموا من الطعن، سواء فى العقيدة أو العدالة، أو الوثاقة، فإن منهم من اتهم بالكذب، و وصف بوضع الحديث، و للمثال نذكر منهم: إسماعيل بن عبد اللّه بن أويس بن مالك المتوفى سنة 226. قال يحيى بن معين: إن إسماعيل مخلط كذاب. و قد تكلم فيه النسائى كما أنه عرف بوضع الحديث لأهل المدينة إذا اختلفوا فيما بينهم. و زياد بن عبد اللّه العامرى المتوفى سنة 282 فإنه منهم بالكذب. قال الترمذى عن وكيع: إن زياد بن عبد اللّه على شرفه كان يكذب فى الحديث. و الحسن بن مدرك السدوسى الطحان رماه أبو داود بالكذب، و تلقين المشايخ و غير هؤلاء ممن لا نحب إطالة الحديث عنهم و بسط القول فيهم.

أما الضعفاء فقد ذكروا منهم عددا لا يقل عن الثمانين أمثال: الحسن بن ذكوان البصرى فقد كان قدريا يدلس، و عرف بالخطإ، و ضعفه أحمد و ابن معين، و النسائى، و الترمذى، و ابن المدينى. و منهم أحمد بن أبى الطيب البغدادى، و سلمة بن رجاء التميمى، و بسر بن آدم الضرير و غيرهم ممن نص الحفاظ على ضعفهم. أما القدرية، فهم عدد كثير كعبد اللّه بن أبى لبيد المدنى، و عبد اللّه بن أبى نجيح المكى، و كهمس بن منهال السدوسى، و هارون بن موسى الأزدى و سفيان بن سليمان، و عبد الوارث بن سعيد، و غيرهم. و القول: بأن تخريج البخارى هو دليل الوثاقة، و شاهد العدالة، و أن من يروى له البخارى «فقد جاز القنطرة» كما يقول بعضهم بمعنى أنه لا يلتفت إلى ما قيل فيه. فهذا مجرد افتراض لا يدعمه دليل، و تخالفه القرائن و الشواهد، فليس قول البخارى فى الشخص هو الحكم العدل و القول الفصل، فالخلاف فى الجرح و التعديل لم ينته إلى حد أو يقف عند قول أحد، على أنهم قد أحصوا على البخارى أخطاء فى معرفة الرجال و أسمائهم، كجعله اسم الرجل الواحد اسمين أو ثلاث، كالوليد بن أبى الوليد مولى عبد اللّه بن عمر، و هرون بن سعد مولى قريش، و كثير بن خنيس و غيرهم، فقد جعل اسمين لكل واحد منهم، و كذلك جعل محمد بن أيوب اليمامى ثلاثة أسامى و هو واحد، كما نسب عبد الملک بن أخى القعقاع إلى القعقاع، و ذكر فى باب النون اسم ناسح الحضرمى، و هو عبد اللّه بن ناسح الذى يروى عنه شرحبيل بن شفيعة، إلى غير ذلک من المؤاخذات عليه. و هناک ناحية ذات أهمية فى الموضوع و هى تخريجه لأناس عرفوا بالنصب و العداء لعلى عليه السّلام و بغضهم لآل محمد من خوارج و غيرهم أمثال: عمران بن حطان السدوسى البصرى المتوفى سنة 84 ه-. كان من رءوس الخوارج و المعلنين عداء الإمام على عليه السّلام و هو الذى مدح عبد الرحمن بن ملجم المرادى بقوله: يا ضربة من تقى ما أراد بها إلا ليبلغ من ذى العرش رضوانا

فهذا الرجل قد تحدى مقام النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم فسمى من وسمه النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم بأنه أشقى

الأولين و الآخرين، بأنه تقى، و قد صح عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم بأنه قال: «يا على أ تدرى من أشقى الأولين؟ فقال على عليه السّلام: اللّه و رسوله أعلم فقال صلّى اللّه عليه و آله و سلم عاقر الناقة. قال صلّى اللّه عليه و آله و سلم: يا على أ تدرى من أشقى الآخرين؟ فقال على عليه السّلام اللّه و رسوله أعلم، قال صلّى اللّه عليه و آله و سلم: قاتلك يا على» . أخرجه أحمد بن حنبل و ابن الضحاك و رواه الطبرى (1). و روى صهيب عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم مثله و كان على عليه السّلام لأهله: و اللّه وددت لو انبعث أشقاها. أخرجه أبو حاتم. فأى ثقة و أى عدالة لمن يخالف قول النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم و يتجرأ على مقامه، فيسمى من سماه صلّى اللّه عليه و آله و سلم شقيا تقيا و يعلن مدحه و الثناء عليه. و قد انبرى للرد عليه كثير من علماء الإسلام نظما و نثرا مما لا يتسع المجال لذكرهم. و أبو الأحمر السائب بن فروخ المتوفى سنة 136 و كان شاعرا هجاء خبيثا فاسقا مبغضا لآل محمد، و هو القائل لأبى عامر بن واثلة الصحابى المعروف بأبى الطفيل (2). لعمرك إننى و أبا طفيل لمختلفان و اللّه الشهيد

لقد ضلوا بحب أبى تراب كما ضلت عن الحق اليهود

(3)فهذا الرجل كسابقه أيضا قد تحدى ما روى عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم أنه قال: «على مع الحق و الحق مع على» و قوله صلّى اللّه عليه و آله و سلم: «على مع القرآن و القرآن مع على» إلى غير ذلك من الأحاديث الواردة عنه صلّى اللّه عليه و آله و سلم بأن الهدى فى اتباع على عليه السّلام و الضلالة فى خلافه و لكن هذا الشاعر الأموى قد رد أقوال النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم و تحدى مقامه، فأى عدالة يتصف بها و أى ثقة تدعو إلى الاطمئنان بقوله؟ !! و حريز بن عثمان الحمصى (4)المتوفى سنة 163 ه-كان من المشهورين بالنصب و المعلنين العداء لعلى عليه السّلام، و كان ينال منه و يقول: لا أحب عليا قتل آبائى.

1- 1) ذخائر العقبى ص 115. [1]

2- 2) أبو الطفيل عامر بن واثلة بن عبد اللّه بن عمر الليثى الكنانى صحابى جليل و هو آخر الصحابة وفاة. بقى إلى سنة 100 ه-و توفى فيها و كان من شيعة على شهد معه حروبه كلها.

3- 3) نكت الهميان [2]للصفدى.

4- 4) تهذيب التهذيب ج 1 ص 238 و [3]تاريخ بغداد ج 2 ص 295 و شذرات الذهب ج 1 ص 257 و غيرها.

و يقول: لنا إمامنا (يعنى معاوية) و لكم إمامكم (يعنى عليا) . و غير هؤلاء من رجال صحيح البخارى الذين عرفوا بالنصب أمثال إسحاق بن سويد التميمى المتوفى سنة 131 ه-، و عبد اللّه بن سالم الأشعرى المتوفى سنة 179 ه-، و زياد بن علاقة أبو مالك الكوفى المتوفى سنة 129 ه-، و غيرهم من النواصب و الخوارج الذين أعلنوا العداء لعلى و تظاهروا بالتحامل عليه، و قد قال صلّى اللّه عليه و آله و سلم: «يا على لا يحبك إلا مؤمن و لا يبغضك إلا منافق» . و إن المنافقين لفى الدرك الأسفل من النار. فكيف تصدق أخبارهم و يؤخذ بأحاديثهم (و اللّه يشهد أن المنافقين لكاذبون) . فمن الحق و واجب العلم أن نستنكر على البخارى تخريج حديث أناس خالفوا أحاديث الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلم فى وجوب حب آله لحبه صلّى اللّه عليه و آله و سلم و أعلنوا العداء لهم و عرفوا بالنصب، و لعل هناك أمرا خفى علينا و كان هو الداعى له على إقدامه لروايته عنهم و احتجاجه بهم، و لست أدرى أخفى على البخارى قول النبى لعلى: لا يحبك إلا مؤمن و لا يبغضك إلا منافق. حتى اشتهر فى عصر الصحابة أنهم كانوا لا يعرفون المنافقين إلا ببغضهم على بن أبى طالب. و بغض على بغض رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم؟ ! أم خفى على البخارى قوله صلّى اللّه عليه و آله و سلم: يا على حربك حربى و سلمك سلمى أ ليس على هو من النبى بمنزلة هرون من موسى كما يحدثنا البخارى نفسه فى صحيحه ج 2 ص 199؟ ! ! و هناك آلاف من الأحاديث فى فضل على عليه السّلام و أهل بيته و قد خرجها الحفاظ من طرق عديدة، و لكن البخارى لم يخرج إلا ثلاثة أحاديث أو أربعة منها، و ليس من المعقول أن عدم تخريجه لأكثر من هذا كان لعدم وثوقه بصحتها، و لكن هناك شىء غير هذا، و لعله كان يفقد الشجاعة و الجرأة الأدبية كما لاحظ ذلك منه بعض الكتّاب فقال ما مضمونه: إن كتاب البخارى لا تتجلى فيه الشجاعة و عدم الخوف من العباسيين كمسند أحمد لأنه-أى مسند أحمد-لم يتحرج من ذكر أحاديث كثيرة فى ذكر مناقب على و شيعته. و عكسه البخارى. و للإيضاح نذكر بعض ما ورد فى أهل البيت مما خرجه حفاظ الحديث و علماء الأمة من طرق صحيحة ليتضح لنا مدى تحفظ البخارى و إعراضه عن ذكر فضائل آل محمد.

آية التطهير

اشارة

و أنها نزلت فی علی و فاطمة و الحسن و الحسین

تخریج الحفاظ لآیة التطهیر:

1-قوله تعالی: إِنَّما یُرِیدُ اَللّٰهُ لِیُذْهِبَ عَنْکُمُ اَلرِّجْسَ أَهْلَ اَلْبَیْتِ وَ یُطَهِّرَکُمْ تَطْهِیراً (1). أخرج مسلم فی صحیحه عن طریق عائشة: خرج النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم و علیه مرط مرجل من شعر أسود فجاء الحسن بن علی علیه السّلام فأدخله، ثم جاء الحسین فدخل معه ثم جاءت فاطمة فأدخلها ثم جاء علی فأدخله ثم قال: إِنَّما یُرِیدُ اَللّٰهُ لِیُذْهِبَ عَنْکُمُ اَلرِّجْسَ أَهْلَ اَلْبَیْتِ وَ یُطَهِّرَکُمْ تَطْهِیراً (2). و أخرج الترمذی من طریق عمرو بن أبی سلمة ربیب النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم قال: نزلت هذه الآیة علی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم فی بیت أم سلمة فدعا النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم فاطمة و علیا و حسنا و حسینا فجللهم بکساء ثم قال: «اللهم هؤلاء أهل بیتی فأذهب عنهم الرجس و طهرهم تطهیرا» قالت أم سلمة: یا رسول اللّه و أنا معهم؟ قال: أنت علی مکانک و أنت علی خیر (3). و أخرج الحافظ أبو عبد الرحمن أحمد بن شعیب النسائی المتوفی سنة 303 ه- من طریق سعد بن أبی وقاص قال: لما نزلت إِنَّما یُرِیدُ اَللّٰهُ لِیُذْهِبَ عَنْکُمُ اَلرِّجْسَ أَهْلَ اَلْبَیْتِ وَ یُطَهِّرَکُمْ تَطْهِیراً دعا رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم علیا و فاطمة و حسنا و حسینا فقال اللهم هؤلاء أهل بیتی (4). و أخرج الخطیب من طریق أبی سعید عن أم سلمة قالت: نزلت هذه الآیة و کان فی البیت علی و فاطمة و الحسن و الحسین، قالت: و کنت علی باب البیت فقلت: أین أنا یا رسول اللّه؟ قال: أنت فی خیر و إلی خیر (5).

1- 1) سورة الأحزاب، الآیة 33. [1]

2- 2) صحیح مسلم ج 4 ص 127.

3- 3) الترمذی ج 4 ص 304. [2]

4- 4) الخصائص ص 4.

5- 5) الخطیب ج 9 ص 127.

و أخرج أيضا من طريق أبى سعيد عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم فى نزول هذه الآية قال: جمع رسول اللّه عليا و فاطمة و حسنا و حسينا ثم أدار عليهم الكساء فقال: اللهم هؤلاء أهل بيتى. . . الخ. و أخرج ابن عبد البر (1)قال: لما نزلت إِنَّما يُرِيدُ اَللّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ اَلرِّجْسَ أَهْلَ اَلْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً دعا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم فاطما و عليا و حسنا و حسينا فى بيت أم سلمة و قال: «اللهم هؤلاء أهل بيتى فاذهب عنهم الرجس و طهرهم تطهيرا» و أخرجه ابن الأثير من طريق أم سلمة (2). و أخرج ابن جرير الطبرى فى تفسيره عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم: نزلت هذه الآية فى خمسة: فىّ، و فى على، و حسن و حسين و فاطمة. إِنَّما يُرِيدُ اَللّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ اَلرِّجْسَ أَهْلَ اَلْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً . و أخرج عن أم سلمة أن هذه الآية نزلت فى بيتها و أن فى البيت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم و على و فاطمة و الحسن و الحسين. و عن أبى سعيد الخدرى عن أم سلمة أن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم قال: اللهم هؤلاء أهل بيتى، اللهم أذهب عنهم الرجس و طهرهم تطهيرا. و أخرج أيضا من طريق أبى هريرة عن أم سلمة مثله، و كذلك أخرجه عن شهر بن حوشب عن أم سلمة. و أخرج عن واثلة بن الأسقع (3)عن على عليه السّلام أنها نزلت فى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم و على و فاطمة و الحسن و الحسين عليهم السّلام. و عن أنس بن مالك أن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم كان يمر ببيت فاطمة ستة أشهر كلما خرج إلى الصلاة فيقول الصلاة أهل البيت إِنَّما يُرِيدُ اَللّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ اَلرِّجْسَ أَهْلَ اَلْبَيْتِ

1- 1) الاستيعاب [1]بهامش الإصابة ج 1 ص 27. [2]

2- 2) أسد الغابة ج 5 ص 521. [3]

3- 3) واثلة بن الأسقع بن كعب بن عامر من بنى ليث بن عبد مناة أسلم قبل تبوك و شهدها، روى عن النبى (صلى الله عليه و آله) و كان من أهل الصفّة و أشار ابن حجر فى الإصابة [4]إلى و هم البخارى فيه.

وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً و عن أبی الحمراء مثله (1). و قال السیوطی (2)من طریق أم سلمة: أخرج ابن جریر و ابن المنذر، و ابن أبی حاتم، و ابن مردویه عن أم سلمة أن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم کان فی بیتها علی منام له و علیه کساء خیبری، فجاءت فاطمة فقال صلّی اللّه علیه و آله و سلم: ادعی لی زوجک و ابنیک حسنا و حسینا فدعتهم فبینما هم یأکلون إذ نزلت علی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم إِنَّما یُرِیدُ اَللّهُ. . . الآیة فأخذ النبی بفضلة إزاره فغشاهم ثم أخرج یده من الکساء و أومأ بها إلی السماء و قال: اللهم هؤلاء أهل بیتی و خاصتی. الخبر (3). و قال محمد بن أحمد المالکی: روی الواحدی فی کتابه المسمی أسباب النزول یرفعه بسنده إلی أم سلمة أنها قالت: کان النبی صلّی اللّه علیه و آله فی بیتها یوما فأتته فاطمة ببرمة فیها عصیدة فدخلت بها علیه، فقال لها: ادعی لی زوجک و ابنیک. فجاء علی علیه السّلام و الحسن و الحسین علیهما السلام فدخلوا یأکلون و النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم جالس علی دکة و تحته کساء خیبری قالت: و أنا فی الحجرة قریب منهم فأخذ النبی الکساء فغشاهم به، ثم قال: «اللهم هؤلاء أهل بیتی و خاصتی فاذهب عنهم الرجس و طهرهم تطهیرا» فأدخلت رأسی و قلت: و أنا معکم یا رسول اللّه؟ قال صلّی اللّه علیه و آله و سلم: إنک علی خیر، فأنزل اللّه عز و جل: إِنَّما یُرِیدُ اَللّهُ. . . الآیة (4). و أخرجه محب الدین الطبری قال: فی بیان أن فاطمة و علیا و حسنا و حسینا هم أهل البیت المشار إلیهم فی قوله تعالی: إِنَّما یُرِیدُ اَللّهُ لِیُذْهِبَ عَنْکُمُ اَلرِّجْسَ أَهْلَ اَلْبَیْتِ وَ یُطَهِّرَکُمْ تَطْهِیراً إلی آخر ما ذکر. و رواه من طریق أم سلمة، و من طریق عمر بن أبی سلمة ربیب رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم، و من طریق زینب بنت أبی سلمة، و من طریق واثلة بن الأسقع و من طریق عائشة (5).

1- 1) تفسیر ابن جریر ج 7 ص 22.

2- 2) الدر المنثور ج 5 ص 198. [1]

3- 3) الدر المنثور ج 5 ص 198. [2]

4- 4) الفصول المهمة ص 6. [3]

5- 5) ذخائر العقبی ص 21-24. [4]

و عن أبی سعید الخدری أنها نزلت فی خمسة: رسول اللّه، و علی، و فاطمة، و الحسن، و الحسین، أخرجه أحمد فی المناقب و الطبرانی. و أخرجه الخطیب البغدادی عن سعد بن أبی عوف عن أبی سعید عن أم سلمة. و عن أبی سعید الخدری أنها نزلت فی علی و فاطمة و الحسن و الحسین (1)و أخرجه البغوی من طریق عائشة (2). و أخرجه الحاکم فی المستدرک عن عطاء بن یسار عن أم سلمة (3). و قال عبد الملک الثعالبی النیسابوری: جمع النبی علیا و فاطمة و الحسن و الحسین، ثم قال: إِنَّما یُرِیدُ اَللّهُ لِیُذْهِبَ عَنْکُمُ اَلرِّجْسَ أَهْلَ اَلْبَیْتِ وَ یُطَهِّرَکُمْ تَطْهِیراً قال: و یروی أن جبرائیل انضم إلیهم و اندس فیهم تقربا إلی اللّه تعالی بمداخلتهم و قال: کساء آل محمد یضافون إلیه فیقال: آل الکساء کما قال دیک الجن فی مدحهم: و الخمسة الغر أصحاب الکساء معا خیر البریة من عجم و من عرب

(4)و قال ابن تیمیة فی جواب من سأله عن دخول علی علیه السّلام فی أهل البیت: مما لا خلاف فیه بین المسلمین، و هو أظهر عندهم من أن یحتاج إلی دلیل بل هو أفضل أهل البیت و أفضل بنی هاشم بعد النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم، و قد ثبت عن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم أنه أدار کساه علی علی و فاطمة و حسن و حسین فقال: «اللهم هؤلاء أهل بیتی فاذهب عنهم الرجس و طهرهم تطهیرا» (5). و قال ابن حجر الهیثمی فی شرح همزیة البوصیری ص 319 عند قوله: و بأم السبطین زوج علی و بنیها و من حوته العباء

و هم النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم و فاطمة و علی و ابناهما الحسن و الحسین. و قال: و صح أنه صلّی اللّه علیه و آله و سلم جعل علی علی و فاطمة و ابنیهما کساء و قال: «اللهم هؤلاء أهل بیتی و خاصتی، اذهب عنهم الرجس و طهرهم تطهیرا» ، فقالت أم سلمة:

1- 1) تاریخ بغداد ج 9 ص 129 و ج 10 ص 278. [1]

2- 2) معالم التنزیل [2]بهامش الخازن ج 5 ص 213. [3]

3- 3) المستدرک ج 2 ص 416.

4- 4) ثمار القلوب 483-484.

5- 5) الفتاوی لابن تیمیة ج 1 ص 230. [4]

و أنا منهم؟ قال: إنک علی خیر، و فی روایـة ألقی علیهم کساء و وضع یده علیهم و قال: «اللهم إن هؤلاء آل محمد صـلّی اللّه علیه و آله و سلم فاجعل صـلواتک و برکاتک علی آل محمد إنک حمید مجید» . و قال الشـیخ عبد القادر الرافعی: عند ذکر بیت البوصـیری و من حوته العباء هم: النبی و علی و فاطمة و ابناهما (1). و ذکر ابن کثیر فی تفسیره طرق نزول هذه الآیة فی الخمسة فقط، و هم محمد صلّی اللّه علیه و آله و سلم و علی و فاطمة و الحسن و الحسین فی خمسة عشر موردا. و نود الإشارة إلیها زیادة فی التوضیح و تأکیدا للبیان: 1-حدیث أبی الحمراء أن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم کان إذا طلع الفجر جاء إلی باب علی علیه السّلام و فاطمة و قال: الصلاة الصلاة یا أهل البیت، إنما یریـد اللّه لیذهب عنکم الرجس أهل البیت و یطهرکم تطهیرا. 2-حـدیث شداد بن عمار عن واثلة، قال ابن عمار: إنی جالس عند واثلة بن الأسـقف إذ ذکروا علیا فشـتموه، فلما قاموا قال: اجلس حتی أخبرک عن هـذا الذی شـتموه، کنت عند رسول اللّه صـلّی اللّه علیه و آله و سلم إذ جـاء علی و فاطمـة و حسن و حسـین رضـی اللّه عنهم فألقی علیهم کساء له، ثم قال: اللهم هؤلاء أهل بیتی اذهب عنهم الرجس و طهرهم تطهیرا. 3-حـدیث أبی ریاح عمن حـدثه عن أم سـلمة أنها نزلت فی الخمسة. 4-من طریق أبی هریرة عن أم سـلمة أیضـا. 5-عن حکیم بن سـعد: ذکرنا علی بن أبی طالب عنـد أم سـلمة، فقالت فی بیتی نزلت: إِنَّما یُرِیـدُ اَللّهُ لِیُذْهِبَ عَنْکُمُ اَلرِّجْسَ أَهْلَ اَلْبَیْتِ وَ یُطَهِّرَکُمْ تَطْهِیراً . 6-عن عطیة عن أبیه عن أم سـلمة. 7-عن أبی سعید عن أم سلمة. 8-عن شهر بن حوشب عن أم سلمة. 9-عن عمر بن أبی سلمة عن أم سلمة.

1- 1) نیل المراد ص 65.

10-عن صفية بنت شيبة قالت: قالت عائشة: خرج النبى ذات غداة و عليه مرط مرجل من شعر أسود فجاء الحسن فأدخله معه ثم جاء الحسين فأدخله معه ثم جاءت فاطمة فأدخلها معه ثم جاء على فأدخله معه ثم قال صلّى اللّه عليه و آله و سلم: إِنَّما يُرِيدُ اَللّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ اَلرِّجْسَ أَهْلَ اَلْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً . 11-و عن العوام بن حوشب، عن ابن عم له قال: دخلت مع أبى على أم المؤمنين عائشة فسألتها عن على فقالت: تسألنى عن رجل كان أحب الناس إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم و كان ابنته تحته، رأيت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم دعا عليا و فاطمة و حسنا و حسينا فألقى عليهم ثوبا، فقال: «اللهم هؤلاء أهل بيتى فاذهب عنهم الرجس و طهرهم تطهيرا» قالت: فدنوت منهم فقلت: يا رسول اللّه و أنا من أهل بيتك؟ فقال: تنحى إنك على خير (1). 12-عن أبى سعيد رضى اللّه عنه عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم أنها نزلت فى خمسة: فىّ و فى على و فاطمة و حسن و حسين. 13-عن عامر بن سعد عن سعد قال: إن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم حين نزلت عليه فأخذ عليا و ابنيه و فاطمة فأدخلهم تحت ثوبه ثم قال: ربى هؤلاء أهلى و أهل بيتى. 14-عن أبى جميلة عن الحسن بن على عليه السّلام. 15-عن السدى عن أبى ديلم عن على بن الحسين عليه السّلام. هذا ما ذكره ابن كثير فى تفسيره سلكنا فى نقله طريق الاختصار و أعتقد أن المنصف يكتفى بما ذكرنا و لا نحتاج إلى ذكر تفاصيل أخرى حول تخصيص نزول هذه الآية فى أهل البيت خاصة، فالأمر أجلى من الشمس. و كان صلّى اللّه عليه و آله يؤكد بعمله أمام أصحابه بهذه المنزلة، لذلك كان يمر على باب فاطمة يرفع صوته بالسلام عليهم و يتلو هذه الآية. روى الترمذى فى صحيحه عن أنس بن مالك. قال: إن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله كان يمر بباب فاطمة ستة أشهر كلما خرج إلى صلاة الفجر و يقول: الصلاة

1- 1) أخرجه البغوى عن عائشة فى معالم التنزيل ج 5 ص 213 [1] المطبوع بهامش تفسير الخازن، و [2]كذلک الخازن نفسه ذكره عن طريق عائشة ج 5 ص 213 و فيه زيادة أنت من أزواج النبى و لا نتكلف البحث عن قوله (صلى الله عليه و آله) لعائشة تنحى. و إلحاق أنت على خير أو أنت من أزواج النبى.

یا أهل البیت إِنَّما یُرِیدُ اَللّٰهُ لِیُذْهِبَ عَنْکُمُ اَلرِّجْسَ أَهْلَ اَلْبَیْتِ وَ یُطَهِّرَکُمْ تَطْهِیراً (1). و فی روایة أبی الحمراء: أن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم کان یمر ببیت فاطمة و علی علیه السّلام فیقول: السلام علیکم أهل البیت إِنَّما یُرِیدُ اَللّٰهُ لِیُذْهِبَ عَنْکُمُ اَلرِّجْسَ أَهْلَ اَلْبَیْتِ وَ یُطَهِّرَکُمْ تَطْهِیراً . رواه السیوطی عن أبی الحمراء أن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم کان یمر علی باب بیت فاطمة ثمانیة أشهر بالمدینة لیس من مرة یخرج إلی الصلاة الغداة إلا و أتی باب فاطمة و یقول: السلام علیکم أهل البیت إنما یرید اللّه. . . الآیة (2). و رواه ابن الأثیر فی أسد الغابة فی ترجمة أبی الحمراء قال رواه الثلاثة (3). و عن ابن عباس: شهدنا رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم تسعة أشهر یأتی کل یوم باب علی علیه السّلام عند وقت کل صلاة فیقول: السلام علیکم أهل البیت إنما یرید اللّه. . . الآیة خمس مرات. و هذا البیان منه صلّی اللّه علیه و آله و سلم زیادة فی البیان لأمته و تأکیدا لهم فی إبراز أهله بتلک المنزلة العظیمة و بدیهی أنه ما کان قصده أن یوقظهم للصلاة فهم الذین تتجافی جنوبهم عن المضاجع یدعون ربهم خوفا و طمعا. و لکن لشدة اهتمامه بآله و بإظهار فضلهم للأمة کان یعمل هذا لیطبقه تطبیقا عملیا. و قال الشیخ عبد المجید الشرنوبی الأزهری (4). ثم إنه یختلف تفسیر آله صلّی اللّه علیه و آله و سلم باختلاف المقامات، ففی مقام الزکاة هم الذین تحرم علیهم الصدقة کبنی هاشم و فی مقام المدح هم أهل بیته الکرام الذین بحبهم و بزیارتهم یبلغ العبد المرام. و فی الحدیث: من مات علی حب آل محمد مات مغفورا له. و للّه در القائل: أری حب آل البیت عندی فریضة علی رغم أهل البعد یورثنی القربی

فما اختار خیر الخلق منا جزاءه علی هدیه إلا المودة فی القربی

1- 1) شرح الترمذی لابن العربی ج 13 ص 85 و ابن عبد البر فی الاستیعاب [1]بهامش الإصابة ج 4 ص 46. [2]

2- 2) الدر المنثور ج 5 ص 174. [3]

3- 3) الدر المنثور ج 5 ص 99 و [4]أخرجه ابن عبد البر فی الاستیعاب ج 4 ص 64. [5]

4- 4) شرح الشافیة ص 123.

و هم أهـل العبـا جمعهم النبی صـلّی اللّه علیه و آله و سـلم تحت الکسـاء و قـال: اللهم هؤلاء أهل بیتی فاذهب عنهم الرجس و طهرهم تطهیرا فأنزل اللّه عز و جل: إِنَّما یُرِیدُ اَللّهُ. . . الآیة. و هم الحسن و الحسـین و أمهما و أبوهما کما قال بعضـهم: إن النبی محمدا و وصـیه و ابنیه و ابنته البتول الطاهرة

أهل العباء و إننی بولائهم أرجو السلامة و النجا فی الآخرة

وراه الشیخ عبد اللّه الشبراوی (1). و أخرجه ابن عسـاکر فی تاریخه و أطال البحث فی تحقیقه (2). و محمد بن یوسف الشافعی فی کفایة الطالب (3). و الشـیخ أبو بکر بن ملاـ الحنفی فی کتاب قرة العیون (4). و ابن عبـد ربه فی العقد الفرید (5). و الشیخ نعمان الآلوسی فی غالیـة المواعظ قال أخرجه الإمام أحمـد عن أبی سـعید الخـدری أن الآیـة نزلت فی علی و فاطمـة و الحسن و الحسـین و أخرج البیهقی و الترمذی و ابن المنذر عن أم سـلمة. . . (6). و أخرجه الواحدی فی أسـباب النزول عن أبی سعید عن أم سلمة (7). و یطول بنا البحث، فی تتبع إیضاح هذه الآیة، و ذکر رواتها، و بیان اختصاصها بآل محمد و لا یشارکهم بتلک المنزلة أحد، فنقتصر علی هذا البیان الموجز بالنسبة لمـا تقتضـیه من إیضـاح یسـتدعی إلی وضع مجلـدات کثیرة للخوض فی نتاجات روح التعصب و الطائفیـة التی رعتها و غـذتها سـیاسات الملوک و الأمراء الذین صـبوا جام حقدهم علی أهل البیت الأطهار و شـیعتهم و راحوا یجندون علماء السوء و عبدة السـلطان للتأثیر علی أفهام الناس و التحکم فیهم حتی اختلط علی الناس ما هم فیه و جازت علیهم البدع و الضـلالات التی یروجها هؤلاء، فما بین شتم الإمام أمیر المؤمنین (علیه السلام) علی سنّة معاویة و بین إرهاب أهل البیت (علیه السلام) علی سنة أولاد عم

1- 1) الأتحاف السنیة ص 5.

2- 2) تاریخ ابن عساکر ج 4 ص 204.

3- 3) کفایة الطالب ج 2 ص 13. [1]

4- 4) قرة العیون ج 1 ص 189.

5- 5) العقد الفرید ج 1 ص 37.

6- 6) غالیة المواعظ ج 2 ص 86.

7- 7) أسباب النزول ص 267. [2]

النبی صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم من العباسـین الذین کانوا یقسمون بلا خجل بهذه القرابة و أیدیهم ملطخة بدماء أبنائه، کان الناس یحنون الرقاب لأصحاب السلطان و الملک و یذعنون (لأولی الأمر) ، و لیس أولو الأمر غیر أئمة الحق و الدین و ورثة علم النبی المصطفی و حملة رسالته من أهل البیت الذین أذهب اللّه عنهم الرجس و طهرهم تطهیرا، و إنها لرزیّة أن یتکلف مسلم مناقشة أمور هی من أنصع الحقائق.

حدیث الغدیر

رواة حدیث الغدیر من الصحابة:

رواه جماعة من الصحابة، ینوف عددهم علی المائة، و فی طلیعتهم أبو ذر جندب بن جنادة الغفاری المتوفی سنة 21 ه-الذی قال فیه رسول اللّه صـلّی اللّه علیه و آله و سـلم: «ما أضلت الخضراء، و لا أقلت الغبراء من ذی لهجة أصدق من أبی ذر» ، رواه عنه جماعة من الأعلام. و حذیفة الیمانی المتوفی سنة 29 ه-و البراء بن عازب، و جابر بن عبد اللّه الأنصاری، و أبو أیوب خالد بن زید الأنصاری المتوفی بغزوة الروم سنة 50 ه-، و سعد بن أبی وقاص، و سلمان الفارسی المتوفی سنة 36 ه-و طلحة بن عبید التیمی، و عائشة زوجة النبی صلّی اللّه علیه و آله و سـلّم أخرج حدیثها ابن عقدة (1)فی کتاب حدیث الولایة. و عبد اللّه بن عباس المتوفی سـنة 68 ه-و العباس بن عبـد المطلب عم النبی صلی اللّه علیه و آله و عثمان بن عفان، و أبو الیقظان عمار بن یاسر العنسی شهید صفین سنة 27 ه-، و الصدیقة فاطمة بنت النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و غیرهم إلی عدد یتجاوز المائة. و رواه من التابعین عدد ینوف علی الثمانین، و کانت عنایة الجمیع بهذا الحدیث

---

1 - 1) هو أحمـد بن محمـد بن سـعید الکوفی المتوفی 230 قـال الـذهبی: هو حافظ العصـر و المحـدث البحر، کان إلیه المنتهی فی قوة الحفظ و کثرة الحـدیث، و قال الدارقطنی أجمع أهل الکوفة أنه لم یکن بالکوفة من زمن ابن مسـعود إلی زمن ابن عقدة أحفظ منه، و قال أبو علی الحافظ: ما رأیت لحـدیث الکوفیین أحفظ من أبی العباس بن عقـدة، و کان ابن عقـدة یقول: أحفظ مائـة ألف حدیث بأسانیدها و یقول أجیب فی ثلاثمائـة ألف حـدیث من أحادیث أهل البیت قال الذهبی و کان مقدما فی الشـیعة، انظر تذکرة الحفاظ للذهبی ج 3 ص 16 و ذکرنا ترجمته هنا لأنه من الذین ألفوا فی حدیث الغدیر فی القرن الرابع و أخرج الحدیث من مائة و خمسین طریقا.

ظاهرة، و قد خرجه جماعة من العلماء فی کتبهم المعتبرة کمسلم فی صحیحه، و الترمذی و الحاکم، و عدد لا یمکننا حصره بهذه العجالة، و قـد ألف فیه جماعـة کتبا خاصة یربو عددهم علی الثلاثین. و شـهد به لأمیر المؤمنین عدد من الصـحابة، یوم ناشدهم بحدیث الغدیر فی مواطن عدیدة کیوم الشوری، و أیام عثمان، و یوم الرحبة، و قام له فی ذلک الیوم من الصـحابة عدد لیس بالقلیل و فی طلیعتهم: أبو الهیثم بن التیهان و أبو هریرة الدوسـی؛ و أبو سـعید الخدری، و غیرهم عدد لا یقل عن العشـرین و تواتر النقل بتعدد مناشدة أمیر المؤمنین أصـحاب محمد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بإظهارهم للملإ هذا الحدیث الشریف کما ورد أنه ناشدهم یوم الجمل، و یوم الرکبان فی الکوفة، و شهد له بذلک جماعة من الصـحابة منهم عمار بن یاسـر و هو من البدریین، و أبو الهیثم بن التیهان، و خزیمة بن ثابت ذو الشـهادتین، و قیس بن سعـد بن عبادة، و هم ممن شـهدوا بـدرا، و قـد أخفی ذلک الحدیث جماعة من القوم لمؤثرات العاطفة و عوامل التعصب فدعا علیهم أمیر المؤمنین علیه السّـلام بقوله: اللهم من کتم هذه الشهادة و هو یعرفها فلا تخرجه من الدنیا حتی تجعل به آیة یعرف بها، فبرص أنس، و عمی البراء بن عازب، و رجع جریر اعرابیا بعـد هجرته و هم ممن کتموا شـهادتهم و لم یؤدوا ما حملوا، و منهم زید بن أرقم، و یزید بن ودیعة. و کذلک ناشد أمیر المؤمنین علیه السّـلام أصـحاب محمد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یوم صفین، و احتجت به فاطمة (علیه السلام) و الإمام السـبط الحسین بن علی علیه السّلام و عبد اللّه بن جعفر و غیرهم، و لزیادة البیان نورد طرفا من خطبة النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یوم الغدیر.

خطبة النبی یوم الغدیر:

أخرج ابن جریر الطبری المتوفی سنة 210 ه-فی کتاب الولایة بسـنده عن زید بن أرقم قال: لما نزل النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بغدیر خم فی رجوعه من حجـة الوداع و کان فی وقت الضـحی و حر شدیـد فأمر بالـدوحات فقمن و نادی الصـلاة جامعة فجمعنا فخطب خطبة بالغة ثم قال: إن اللّه تعالی أنزل إلیّ یا أَیُّهَا اَلرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَیْکَ مِنْ رَبِّکَ وَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ وَ اَللّهُ یَعْصِمُکَ مِنَ اَلنّاسِ و قد أمرنی جبرئیل عن ربی أن أقوم فی هذا

المشهد و أعلم كل أبيض و أسود أن على بن أبى طالب أخى و وصيى و خليفتى و الإمام بعدى، فسألت جبرئيل أن يستعفى لى ربى لعلمى بقلة المتقين و كثرة المؤذين لى و اللائمين لكثرة ملازمتى لعلى، و شدة إقبالى عليه حتى سمونى أذنا، فقال تعالى: وَ مِنْهُمُ اَلَّذِينَ يُؤْذُونَ اَلنَّبِيَّ وَ يَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ [التوبة:61]و لو شئت أن أسميهم و أدل عليهم لفعلت و لكنى بسترهم قد تكرمت، معاشر الناس فإن اللّه قد نصبه لكم وليا و إماما و فرض طاعته على كل أحد ماض حكمه جائز قوله، ملعون من خالفه، مرحوم من صدقه، اسمعوا و أطيعوا فإن اللّه مولاكم و على إمامكم، ثم الإمامة من صلبه إلى القيامة. و منها: «افهموا كتاب اللّه، و لا تتبعوا متشابهه و لن يفسر ذلك لكم إلا من أنا آخذ بيده شائل بعضده و معلمكم: إن من كنت مولاه فعلى مولاه و موالاته من اللّه عزّ و جلّ أنزلها علىّ. ألا و قد أديت، ألا و قد أسمعت، ألا و قد أوضحت» ، إلى آخر خطبته صلّى اللّه عليه و آله و سلّم التى رواها الثقات من رجال الأمة. و من أراد الاطلاع و سعة البيان فليراجع ما كتبه الحجة المتتبع فقيه التأريخ شيخنا العلامة الأمين الشيخ عبد الحسين الأمينى فى كتابه «الغدير» ففيه نجعة الرائد و بغية الطالب. فهذا بيان موجز عن حديث الغدير، الذى تحرج البخارى عن إخراجه و تنكر له كما تنكر لكثير من فضائل أهل البيت، و حادثة الغدير أهم الحوادث الإسلامية التى سجلها التاريخ بصورة لا مجال لأحد إنكارها، و من المؤسف إنكار بعض المسلمين لهذه الحادثة المهمة، مكابرة منهم بعد وضوح الحجة و الدليل القاطع يوم قام النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى ذلك الحفل الرهيب، و الجمع الحاشد و فى ذلك الهجير المضطرم، فى غدير خم حيث مفترق المدنيين و المصريين و العراقيين، و عدد الجمع لا يقل عن مائة ألف، و بلغ ما أمره به ربه «بأن ينص على على عليه السّلام و ينصبه علما للناس من بعده، و كان النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يعلم أن ذلك سوف يثقل على الناس و قد يحملونه على المحاباة و المحبة لابن عمه و صهره، و من المعلوم أن الناس ذلك اليوم و إلى اليوم ليسوا فى مستوى واحد من الإيمان و اليقين بنزاهة النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و عصمته عن الهوى و الغرض، و لكن اللّه سبحانه لم يعذره فى ذلك فأوحى إليه: يا أَيُّهَا اَلرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ [المائدة:67]، فلم يجد بدا من الامتثال بعد هذا الإنذار

الشديـد، فخطب الناس عنـد منصـرفه من حجة الوداع فى غدير خم فنادى و جلّهم يسـمعون: أ لست أولى بالمؤمنين من أنفسـهم؟ فقالوا: اللهم نعم. فقال: «من كنت مولاه فهـذا على مولاه» إلى آخر ما قال ثم أكـد ذلک فى مواطن أخرى تلويحا و تصـريحا و إشارة و نصا حتى أدى الوظيفة، و بلغ عند اللّه المعذرة، و لكن كبار المسـلمين بعد النبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلم تأولوا تلک النصوص نظرا منهم لصالح الإسلام حسب اجتهادهم فقدموا و أخروا و قالوا: «الأمر يحدث بعده الأمر» (1).

عناية الشيعة بعيد الغدير:

و كان عيد الغدير محل عناية أهل البيت و شـيعتهم على ممر العصور يقيمون شعائره حسب مناسبات الظروف، و فى عهد آل بويه أقيم فى بغداد سـنين متطاولة بصورة علنية نظرا لرفع الرقابة و عدم الحذر، و قد عظم ذلک على خصوم الشـيعة فثاروا ضد إعلان هذا العيد و حدثت ثورات دمويـة بين السـنة و الشـيعة على فترات من الزمن، و الشـيعة متمسـكة بإظهار هـذا العيـد لا تقف تلک المحاولات فى طريق إقامة شعائره، و لما رأى خصوم الشـيعة أن وسائلهم التى قاموا بها ضد هذه الشعائر كان نصيبها الفشل، التجئوا إلى المغالطات العلمية فقاموه فى إحداث عيد يقابلون فيه عيد يوم الغدير الزاهر. و هو يوم الغار و جعلوه عيدا و أقاموا الزينة و نصـبوا القباب فى اليوم السادس و العشـرين من ذى الحجة، و زعموا أن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أبا بكر اختفيا فى الغار، و هذا من الجهل و الغلط البين، فإن أيام الغار إنما كانت فى آخر صفر أو أول شهر ربيع الأول (2)و استمروا على ذلک مدة ثم كان مصير هذا العيد إلى الإهمال و النسيان. أما الشيعة فقد استمروا على إحياء عيـد الغدير و إقامة المآتم يوم عاشوراء فضاق بأعدائهم ذرعا ففى سـنة 363 ه-عمدوا إلى مقابلة الشـيعة و أركبوا امرأة و سموها عائشة، و تسـمى بعضـهم بطلحة و بعضـهم بالزبير، و قالوا: نقاتل أصـحاب على فقتل بسبب ذلک من الفريقين خلق كثير (3). و استمرت الفتن بين الطرفين بسبب إقامة هذه الشعائر، و بلغت مبلغا شديدا

1- 1) أصل الشيعة و أصولها ص 108. [1]

2- 2) شذرات الذهب لابن العماد ج 3 ص 120. [2]

3- 3) تاريخ ابن كثير ج 11 ص 275.

حتی التجأ خصوم الشیعة إلی الاستعانة بالجند و السودان و ذلک فی سنة 350 ه-961 م و کان الجنود یسألون من یجدونه فی الطریق من خالک؟ فإن لم یقل معاویة ضربوه. و طاف أحد السودان المتهجمین بالطرقات و هو یصیح بین الناس: معاویة خال علی فتابعه العامة، و أصبحت هذه هی صیحة أهل السنة بمصر حینما یریدون قتال الشیعة (1). و یحکی عن بعض الشیعة فی تلک المحنة قیل له: معاویة خالک فقال: لا أدری أ کانت أمی نصرانیة. کل ذلک محاولة منهم لإرغام الشیعة علی ترک إقامة هذه الشعائر، و لکنها مرت علی ذلک غیر مبالیة بتلک المقابلات الفاشلة. کما أنهم قابلوا یوم عاشورا بیوم مصرع مصعب بن الزبیر، و أقاموا علیه النیاحة و زاروا قبره یومئذ بمسکن (2)و نظروه بالحسین علیه السّلام لکونه صبر و قاتل حتی قتل، و لأن أباه ابن عمة رسول اللّه و حواریه، کما أن أبا الحسین علیه السّلام ابن عم النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم و فارس الإسلام فنعوذ باللّه من الهوی و الفتن (3). و ناهیک ما جری فی بغداد من حروب دامیة مبعثها الجهل و التعصب التی یقف القلم عند وصفها، و أعظمها محنة وقعة الکرخ التی تجلت فیها نفسیة قوم أشرب قلوبهم بغض آل محمد و القضاء علی من یوالیهم، فقد هجمت طوائف یبعثهم صلف الولاة و میلهم للنزعات، حتی أحرقوا دور شیعة آل محمد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و قتلوا الرجال و الأطفال فکانت عاقبة الدولة إلی الدمار و الانهیار بعد تلک الحادثة بقلیل، و لیس فی وسعنا التعرض لذکر تلک الفجائع السود و لا نود نبش تلک الدفائن التی مرت فی تلک العصور المظلمة، و نحن فی عصر ما أحوجنا فیه إلی الاخوة و الاتحاد لنقابل من یکید الإسلام و یحاول القضاء علی تعالیمه و لا یروق له اتحاد المسلمین لأن فی اتحادهم یکون القضاء علی المستبدین بأمور الأمة، و کلنا أمل بالوعی المتعاظم بوجوب تطبیق نظام الإسلام و من اللّه نسأل تحقیق ذلک.

1- 1) الحضارة الإسلامیة للأستاذ آدم متز ج 1 ص 112.

2- 2) مسکن موضع علی نهر دجیل فی العراق دارت الحرب فیه بین عبد الملک بن مروان و مصعب بن الزبیر سنة 72 ه-فقتل مصعب و دفن فیه.

3- 3) شذرات الذهب ج 3 ص 130. [1]

تخریج الحفاظ لحدیث الثقلین:

أخرج مسلم فی صحیحه من طریق زید بن أرقم خطبة النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یوم الغدیر و قوله صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فیها: و أنا تارک فیکم الثقلین کتاب اللّه فیه الهدی و النور فخذوا بکتاب اللّه و استمسکوا به فحث علی کتاب اللّه و رغّب فیه، ثم قال و أهل بیتی أذکّرکم اللّه فی أهل بیتی (1). و أخرجه الترمذی عن زید بن أرقم قال: قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم: إنی تارک فیکم الثقلین ما إن تمسکتم بهما لن تضلوا بعدی، أحدهما أعظم من الآخر، کتاب اللّه ممدود من السماء إلی الأرض، و عترتی أهل بیتی و لن یفترقا حتی یردا علی الحوض، فانظروا کیف تخلفونی فیهما (2). و أخرجه أحمد عن أبی سعید الخدری قال: قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم: إنی تارک فیکم الثقلین کتاب اللّه و عترتی أهل بیتی و انهما لن یفترقا حتی یردا علی الحوض (3). و عن أبی سعید أیضا عن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال: إنی أوشک أن أدعی فأجیب و إنی تارک فیکم الثقلین کتاب اللّه و عترتی أهل بیتی، کتاب اللّه حبل ممدود من السماء إلی الأرض، و عترتی أهل بیتی، و إن اللطیف الخبیر أخبرنی أنهما لن یفترقا حتی یردا علی الحوض، فانظروا بم تخلفونی فیهما (4)؟ و رواه البغوی فی مصابیح السنة (5)و القاضی عیاض فی الشفاء. و أخرج الخطیب البغدادی من طریق حذیفة بن أسید أن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال: یا أیها الناس إنی فرط لکم و أنتم واردون علی الحوض، و إنی سائلکم حین تردون علی عن الثقلین فانظروا کیف تخلفونی فیهما، الثقل الأکبر کتاب اللّه سبب طرفه بید اللّه و طرفه بأیدیکم و استمسکوا به (6).

1- 1) صحیح مسلم ج 7 ص 122.

2- 2) سنن الترمذی ج 2 ص 308. [1]

3- 3) مسند أحمد ج 2 ص 14 [2] ط 1.

4- 4) مسند أحمد ج 2 ص 17-26. [3]

5- 5) مصابیح السنة ج 2 ص 204.

6- 6) تاریخ البغدادی ج 8 ص 443. [4]

و أخرجه الحاكم من طريق زيد بن أرقم فی المستدرک (1)و رواه السيوطی من ثلاث طرق: من طريق زيد بن أرقم، و زيد بن ثابت و أبی سعيد الخدری. و أخرجه فقيه الحرمين محمد بن يوسف الشافعی فی كتابه كفاية الطالب، و أخرجه الطبری فی الذخائر من طريق زيد بن أرقم. و أخرجه ابن حجر فی الصواعق المحرقة ثم ذكره بطرق مختلفة و قال: و لهذا الحديث طرق كثيرة عن بضع و عشرين صحابيا (2). و ذكره الشيخ عبد اللّه بن محمد الشبراوی فی كتاب الاتحاف بحب الأشراف و السيوطی فی كتاب إحياء الميت بفضائل أهل البيت المطبوع على هامش الاتحاف، و ذكره الشيخ العدوی فی مشارق الأنوار عند ذكره لفضائل أهل البيت (3)و العلامة السيد خير الدين أبی البركات نعمان أفندی الآلوسی فی غالية المواعظ (4). و قال ابن حجر الهيتمی فی شرح الهمزية عند ذكر آل محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلم: و فی الحديث و الذی نفسی بيده لا يؤمن عبد بی حتی يحبنی و لا يحبنی حتی يحب ذوی قرابتی، أنا حرب لمن حاربهم و سلم لمن سالمهم و عدو لمن عاداهم، ألا و من آذی قرابتی فقد آذانی، و من آذانی فقد آذی اللّه، ثم ذكر حديث الثقلين و اختصاصه بآل محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلم. و رواه ابن كثير فی تفسيره، من طريق زيد بن أرقم قال: قام فينا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم يوما خطيبا بماء يدعى خما بين مكة و المدينة فحمد اللّه و أثنى عليه و وعظ و ذكر ثم قال: أما بعد ألا أيها الناس فإنما أنا بشر يوشک أن يأتينی رسول ربی فأجيب، و أنا تارک فيكم الثقلين كتاب اللّه فيه الهدی و النور فخذوا بكتاب اللّه و استمسكوا به. فحث على كتاب اللّه عز و جل و رغب فيه ثم قال: و أهل بيتی أذكركم اللّه فی أهل بيتی أذكركم اللّه فی أهل بيتی أذكركم اللّه فی أهل بيتی (5). و قال الشيخ عبد الرحمن النقشبندی فی كتابه العقد الوحيد بعد ذكره أهل البيت: كيف و هم أنجم ديننا و مصدر شرعنا و عمدة أصحابنا، فيهم ظهر الإسلام

1- 1) المستدرک ج 4 ص 109.

2- 2) الصواعق المحرقة ص 136. [1]

3- 3) مشارق الأنوار ص 146.

4- 4) غالية المواعظ ج 2 ص 87.

5- 5) تفسير ابن كثير ج 3 ص 486. [2]

و فشی، و بهم تأیدت أرکانه و نشأ، و من ثم صح أنه صلّی اللّه علیه و آله قال: إنی تارک فیکم ما أن أخذتم به لن تضلوا کتاب اللّه و عترتی أهل بیتی فانظروا کیف تخلفونی. و صح عنه علیه السّلام قال: من سره أن یکتال بالمیکال الأوفی إذا صلّی علینا أهل البیت فلیقل، اللهم صل علی محمد و آله و روی عن الشافعی أنه قال بوجوب الصلاة علی الآل فی التشهد الأخیر و روی له قوله: یا آل بیت رسول اللّه حبکم فرض من اللّه فی القرآن أنزله

کفاکم من عظیم القدر أنکم من لم یصل علیکم لا صلاة له

(1)و جاء فی مجلة المسلم: أهل البیت حراس هذا الدین و ورثة هذا المجد إلی أن یقول: و کان أهل البیت هدفا للطعن و الأذی المنوع، بل و للإبادة فی کل عصور التاریخ من عهد الإمام علی رضی اللّه عنه، و قد اتخذ أعداؤهم محاربتهم دینا نسبوه ظلما لجدهم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و لعبت أطوار التأریخ فی ذلک أدوارا مریرة، حتی جردوهم من أنسابهم و أملاکهم و أوقافهم؛ بعد أن أفاءوا علیهم صنوف المهانات و ألوان العذاب باسم الدین المظلوم ما لا یعلمه إلا اللّه، و لم یکفهم أن ینالوا منهم حتی دفعهم سوء الطبع و سوء الأدب و سوء الإیمان و الغل الدفین إلی تألیف الکتب فی اضطهاد آل الرسول و سبهم باسم إحیاء السنة و اجتهاد الرسول و العیاذ باللّه. انتهی (2). و قال فی القاموس فی مادة ثقل: الثقل کعنب، ضد الخفة، و الثّقل محرکة متاع المسافر و حشمته و کل شیء نفیس مصون، و منه الحدیث: «إنی تارک فیکم الثقلین کتاب اللّه و عترتی» . و قال محب الدین فی التاج فی مادة ثقل عند ذکر الحدیث: جعلهما ثقلین إعظاما لقدرهما و تفخیما لهما، قال ثعلب: سماهما ثقلین لأن الأخذ بهما ثقیل و العمل بهما ثقیل، قال الأزهری: و روی شریک عن الرکین عن القاسم عن حسان عن زید بن ثابت قال: قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم: إنی تارک فیکم الثقلین خلفی: کتاب اللّه و عترتی فإنهما لن یتفرقا حتی یردا علیّ الحوض. قال محمد بن إسحاق: و هذا حدیث حسن صحیح، و رفعه نحوه زید بن أرقم و أبو سعید الخدری و فی بعضها: إنی

1- 1) العقد الوحید ص 78.

2- 2) مجلة المسلم ع 1 س 2-1371 هـ ص 8.

تـارک فیکم الثقلین کتاب اللّه و عترتی أهل بیتی. فجعل العترة أهل البیت. و روی أبو العباس عن ابن الأعرابی أنه قال: العترة ولـد الرجل و ذریته و عقبه من صـلبه. قال: فعترة النبی صـلّی اللّه علیه و آله و سـلم: ولد فاطمة البتول (علیه السلام) (1). و قـال ابن أبی منظور فی لسان العرب: روی عن النبی صـلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنه قال فی آخر عمره: «إنی تارک فیکم الثقلین کتاب اللّه و عترتی» ثم ذکر قول ثعلب و قـال: واصـل الثقـل إن العرب تقول لکل شـیء نفیس مصون خطیر ثقل فسـماهما ثقلین إعظاما لقـدرهما و تفخیما لشأنهما و یقال للسـید العزیز ثقل، إلی آخره. و قال ابن الأثیر فی النهایـة بعد أن ذکر قوله صـلّی اللّه علیه و آله و سـلم: إنی تارک فیکم الثقلین کتاب اللّه و عترتی سماهما ثقلین لأن الأخذ بهما و العمل بهما ثقیل، و یقال لکل خطیر ثقل، و قال فی العترة: و المشـهور المعروف أن عترته أهل بیته الذین حرمت علیهم الزکاة (2)، و قال فی المصباح: العترة نسل الإنسان قال الأزهری و روی ثعلب عن ابن الأعرابی: أن العترة ولد الرجل و ذریته و عقبه من صـلبه و لا تعرف العرب من العترة غیر هـذا (3). و قال السـید محمـد صدیق حسن البخاری فی کتاب الدین الخالص بعد ذکره لهذا الحدیث من طریق زید بن أرقم: هذا الحدیث فیه فضـیلة أهل البیت و بیان عظم حقهم فی الإسلام، و انهم قرین القرآن فی التعظیم و الإکرام، و لیس بعد هذا البیان من رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بیان، و لا قریة بعد عبادان. و قال: و عندی أن المراد بهم «أی بأهل البیت» هم الموجودون فی عصر النبوة أولا بالذات، و لکن یدخل فیهم أیضا من وجد بعدهم من السادة القادة إلی العلم و العبادة، کالأئمة الاثنی عشر من العترة. إلی أن یقول: و المراد بأهل البیت-هنا-العترة الطاهرة، و الذریة المطهرة خاصة دون أزواج النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم. (4)

1- 1) تهذیب اللغة ج 2 ص 264. [1]

2- 2) النهایة ج 3 ص 177. [2]

3- 3) المصباح المنیر ج 2 ص 597. [3]

4- 4) الدین الخالص ج 3 ص 511-514.

و يطول بنا الحديث إذا حاولنا تتبع مخارج هذا الحديث و بسط القول فيه، و قد اقتصرنا على هذا القدر من طرقه و قد ألف الحافظ محمد بن طاهر بن على المعروف بالقيصرانى كتابا خاصا جمع فيه طرق هذا الحديث و قد خرجه عن 27 صحابيا. و هناك أمر يستدعى الانتباه و هو أن يـد التحريف التى لا زالت تبعث فى الأمـة عوامل التفرقـة قد جنت جناية عظيمة، إذ امتدت إلى نص الحديث فتلاعبت به فإن الحديث يقول: كتاب اللّه و عترتى، فبـدلوه إلى: «كتاب اللّه و سـنتى» و هم يقصدون من وراء ذلک تغيير الواقع و التمويه لما يتضـمنه هذا الحديث الشـريف الـذى قرن العترة بالكتاب، و جعلهما كتوأمين يلزم التمسک بهما، و إيثار حقهما، و أن العترة باقيـة إلى يوم القيامـة. قال الشـريف السـمهودى: هذا الخبر يفهم منه وجود من يكون أهلا للتمسک به من عترته صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى كل زمن إلى قيام الساعة حتى يتوجه الحث المـذكور على التمسـک به، كما أن الكتاب كـذلک، و لـذا كانوا أمانا لأهل الأرض، فإذا ذهبوا ذهب أهل الأرض (1). و قال الشـيخ الزرقانى-بعد شـرحه لهذا الحديث-: أما الكتاب فلأنه معدن العلوم الدينية، و الأسـرار و الحكم الشرعية، و كنوز الحقائق، و خفايا الـدقائق. و أما العترة فلأن العنصـر إذا طاب أعان على فهم الدين، فطيب العنصـر يؤدى إلى حسن الأخلاق، و محاسـنها يؤدى إلى صـفاء القلب و نزاهته و طهـارته، و أكـد صـلّى اللّه عليه و آله و سـلم تلـک الوصـية و قواهـا بقوله: «فـانظروا بمـا ذا تخلفونى فيهما» هل تتبعونى فتسرونى، أو لا فتسيئونى؟ (2). و هو صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أعرف بالمصالح العامة، و رأى أن مصلحة أمته فى التمسک بهذين الثقلين من باب رعاية المصلحة لهم، و تحصيلا لسعادتهم، فأكد (صلى الله عليه و آله) فى عدة مواطن على لزوم اتباع أهل بيته و أنهم أولى الناس برعاية شـئون الأمة و لذا جعل مثلهم كمثل سـفينة نوح. حدث أبو ذر الغفارى عن رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سلم-و هو آخذ بباب الكعبة-أنه قال: «مثل أهل بيتى فيكم مثل سفينة نوح من ركبها نجا و من تخلف عنها غرق» .

1- 1) الدين الخالص ج 3 ص 511-514.

2- 2) شرح المواهب اللدنية ج 8 ص 2. [1]

خرجه أحمد بن حنبل و الحاكم فى المستدرک، و غيرهما من المحدثين. و أخرج الطبرانى عن أبى سعيد الخدرى أن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: «إنما أهل بيتى فيكم مثل باب حطة فى بنى إسرائيل من دخله غفر له» . و غير هذه الأحاديث الواردة بالطرق الصحيحة مما ملأ سمع الدنيا و رددتها الأجيال و أوردها العلماء فهى تقضى بوجوب التمسک بأهل البيت و اتباعهم و حبهم و مناصرتهم، فهم دعاة الحق و هداة الخلق، و أعلام الرشاد و قادة العباد. و نحن نقطع بأن المسلمين لو توفرت لهم حرية الرأى توافرا تاما ليعلنوا غير خائفين فيمن يجب أن يرشحوه خليفة عليهم، و يؤهلوه لرعاية أمورهم و ولاية أمرهم لتحقيق المصالح العامة و سعادة المجتمع الإسلامى من جميع الوجوه، لما عدلوا عن أهل بيت النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم رعاية لوصاياه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و امتثالا لأمره، و ان أهله المرشحين للخلافة قد اجتمعت فيهم خصال الكمال و أهلية الرعاية و ولاية الأمر و لم يستطع أحد أن يلصق بهم عيبا و إن كان خصما لهم، و حربا عليهم. و لكن الأمر أصبح وراثيا فى أسرة معينة، ينتقل من واحد لواحد بالوصاية و ولاية العهد، كما رأينا من فعل معاوية ببيعة يزيد بالسيف و قوة السلطان، و هكذا من بعده فى ولاية الحكم و لا رأى للأمة فى ذلک. و لننظر إلى ما عليه الحكام و ما ارتكبوه بحق الأمة و الدين و كيف كانت العلاقات. يقول السيوطى: و أخرج البخارى و النسائى و ابن أبى حاتم فى تفسيره-و اللفظ من طرق-إن مروان خطب بالمدينة و هو على الحجاز من قبل معاوية فقال: إن اللّه قد أرى أمير المؤمنين فى ولده يزيد رأيا حسنا و إن يستخلفه فقد استخلف أبو بكر و عمر-و فى لفظ-: سنة أبى بكر و عمر. فقال عبد الرحمن بن أبى بكر: سنّة هرقل و قيصر، إن أبا بكر و اللّه ما جعلها فى أحد من ولده و لا أحد من أهل بيته، و لا جعلها معاوية إلا رحمة و كرامة لولده. فقال مروان: أ لست الذى قال لوالديه أف لكما. فقال عبد الرحمن: الست من اللعين الذى لعن أباک رسول اللّه (صلى الله عليه و آله) ؟ فقالت عائشة رضى اللّه عنها: كذب مروان، ما فيه نزلت، و لكن نزلت فى فلان بن فلان، و لكن رسول اللّه (صلى الله عليه و آله) لعن أبا مروان و مروان فى صلبه فمروان بعض من لعنه اللّه (1).

1- 1) تاريخ الخلفاء ص 78. [1]

و على أى حال فإن أهل البيت هم هداة الأمة، و كانت الأنظار تتجه إليهم فى جميع الأدوار، و سنوضح فيما بعد التفاف الناس حول الإمام الصادق و ترشيحه لولاية الأمر، لأنه زعيم أهل البيت و سيدهم فى عصره. و نعود إلى القول: بأن عدم تخريج الشيخ البخارى أحاديث الإمام الصادق هو شىء يعود إلى البخارى نفسه و لا يقدح بشخصية الإمام الصادق عليه السّلام فهو الذى أجمعت الأمة على صدقه فلقبوه بالصادق، و قد خرّج البخارى أحاديث تلامذة الإمام الصادق عليه السّلام و لكنه تجنب الروايات التى يروونها عنه عليه السّلام. و ليس بغريب أن تقضى الظروف القاسية بأن يبتعد الناس عن أهل البيت حبا للسلامة أو استسلاما لعوامل أخرى. و لا بد لنا أن نشير هنا إلى أن البخارى لم يجمع الأحاديث الصحيحة عنده كلها فإنه قد ترك الكثير منها. حدث الإسماعيلى عنه أنه قال: لم أخرّج فى هذا الكتاب إلا صحيحا و ما تركت من الصحيح أكثر (1). و قد نقل عنه أنه يحفظ مائة ألف حديث صحيح (2)و ليس فى كتابه بالنسبة لذلك إلا القليل، فإن جميع ما فيه أربعة آلاف و المكرر ألفان فيكون المجموع ستة آلاف. و مع هذا فلا يمكن القطع بصحة كل ما يرويه أو أنها أصح الأحاديث. قال المحقق ابن همام فى شرح الهداية: و قول من قال: أصح الأحاديث ما فى الصحيحين، ثم ما انفرد به البخارى، ثم ما انفرد به مسلم، ثم ما اشتمل على شرطهما، ثم ما اشتمل على شرط أحدهما تحكم لا يجوز التقليد فيه، إذ الأصحية ليست إلا لاشتمال رواتها على الشروط التى اعتبراها، فإن فرض وجود تلك الشروط فى رواية حديث فى غير الكتابين أ فلا يكون الحكم بأصحية ما فى الكتابين عين التحكم؟ ! و بعد هذا نقول: لعل ترك البخارى للأحاديث الصحاح فى فضائل أهل

1- 1) هداية البارى ص 5.

2- 2) شرح ألفية العراقى ج 1 ص 48.

البيت (عليه السلام) لم يكن لعدم وثوقه بصحتها، أو توقفه عن قبولها، و لكنه مع ذلک ترکها عمدا اختصارا لکتابه، أو تهيبا مما وراء ذلک من اتهام. کما أن عدم تخريج أحاديث الإمام عليه السّلام لا يعود بالتأثير السلبی علی شخصية الإمام الصادق أو أنه يشکل غضا من مکانته يعتدّ به، فإن ذلک ما عجز عنه ملوک العصر بکل ما أوتوه من إمکانات، و فشل أذنابهم فيه أيضا. کذلک لم يستطع البخاری و لا غيره أن يجرحوا الإمام الصادق عليه السّلام بشیء أبدا. و الأمة الإسلامية قد تقبلت رواياته و أخذت بأقواله عليه السّلام حتی لقب بالصادق، و کان المرجع الوحيد لإيضاح المبهم و حل ما أشکل عليهم: و قد ملأ رواة حديثه الأقطار الإسلامية، و کان فی الکوفة ألف شيخ محدث کل يقول: حدثنی جعفر بن محمد. و لا نطيل الحديث هنا و سيأتی فيما بعد ما له صلة بالموضوع إن شاء اللّه.

الإمام الصادق

اشارة

ملوک عصره و أمراء بلده

تمهيد:

لقد رفضت الدولة الأموية الأخذ بنظام الإسلام فی حرية الرأی و الإجماع الصحيح من أهل الحل و العقد، و دعت إلی محاربته و ارتبطت أشد الارتباط بفوضی الجاهلية، و جمعت شتات ذلک الجمع الذی فرقه المصلح الأعظم بدعوته. فالإسلام يأمر بوحدة و هم فرقوا الكلمة، و ينهی أن تراق الدماء و قد ولغوا فيها، و يأمر بالإحسان و العدل و قد جاروا فی الحكم و أساءوا السيرة فی الأمة، فإذا رجعنا إلی ماضی الجاهلية و التاريخ الذی سجل تلک العصور الوحشية أدركنا أنه تمثل فی عصرهم بأوضح صورة، و قد دفعوا الناس إلی التخطی عن حدود الدين الإسلامی الذی جاء بتعاليم تحسبها النفوس الشريرة سجنا ضيقا تتمنی الخروج منه، و التمرد علی أوامره و نظمه التی سنها الشرع المقدس لحفظ النظام و سعادة البشر؛ فهو يعاقب علی ترک الصلاة، و شرب الخمر، و قتل النفس و أكل الأموال بالباطل، و حدد حدودا، و نظم قوانين يعاقب بها المجرم بمخالفته حسب جريمته، و لم يفرق فی تطبيقها بين أفراد الأمة جمعاء، فهی بعمومها تشمل الشريف و الوضيع، و الحر و العبد، و الذكر و الأنثی، و لم تكن هناک رخصة لأحد فيها، و لا ميزة تطبق من أجلها علی طبقة دون أخری، فالكل يخضعون لذلک النظام علی حد سواء، و ليس هناک طبقة فوق القانون الذی شرعه الإسلام، و ما ذلک إلا لقلع جذور الشقاء، و غرس السعادة، و رعاية المصلحة العامة، ليجتنی الناس ثمر ذلک الغرس الذی غذاه محمد صلّی اللّه عليه و آله و سلّم بتعاليمه، و أجهد نفسه أی جهد فی تفهيم الناس منافعه و مصالحه. و لا ريب ان هذه التعاليم التی تكفلت للأمة السعادة فی اتباعها تحتاج إلی تنفيذ

و تطبیق، و لا یقوم بهذه المهمة إلا الإنسان الکامل الذی لا تهمه مصلحة نفسه، بل إن أهم شیء عنده المصلحة العامة، و هو الذی یغذی الأمة بعلمه لتنال السعادة علی ضوء تعالیمه، و تحیی، الحیاة المطلوبة فی صعید إرشاداته. و ما الإسلام إلا مجموعة نظم و قوانین سماویة هبطت إلی الأرض بواسطة النبی الأعظم، فهو الذی یتولی تطبیقها فی حیاته، و من یختاره لذلک بعد وفاته یأمر من المشرع الأعلی وَ رَبُّکَ یَخْلُقُ ما یَشاءُ وَ یَخْتارُ ما کانَ لَهُمُ اَلْخِیَرَةُ (1). قال الإمام کاشف الغطاء رحمه اللّه: فالإمامة منصب إلهی کالنبوة، فکما أن اللّه سبحانه یختار من یشاء من عباده للنبوة و الرسالة فکذلک یختار للإمامة من یشاء، و یأمر نبیه بالنص علیه و أن ینصبه إماما للناس من بعده للقیام بالوظائف التی کان علی النبی أن یقوم بها، سوی أن الإمام لا یوحی إلیه کالنبی، و إنما یتلقی الأحکام منه مع تسدید إلهی، فالنبی مبلغ عن اللّه و الإمام مبلغ عن النبی، و الإمامة متسلسلة فی اثنی عشر، کل سابق ینص علی اللاحق و هو معصوم-کالنبی-عن الخطأ و الخطیئة، و إلا- لزالت الثقة إِنِّی جاعِلُکَ لِلنّاسِ إِماماً قالَ وَ مِنْ ذُرِّیَّتِی قالَ لا یَنالُ عَهْدِی اَلظّالِمِینَ (2)لأن الغرض هو تکمیل البشر و تزکیة النفوس بالعلم و العمل الصالح: هُوَ اَلَّذِی بَعَثَ فِی اَلْأُمِّیِّینَ رَسُولاً مِنْهُمْ یَتْلُوا عَلَیْهِمْ آیاتِهِ وَ یُزَکِّیهِمْ وَ یُعَلِّمُهُمُ اَلْکِتابَ وَ اَلْحِکْمَةَ (3)و الناقص لا یکون مکملا- لغیره و الفاقد لا- یکون معطیا. انتهی (4). و لأن شریعة الإسلام قائمة إلی قیام الساعة فلا بد من استمرار الدعوة و بقاء مقتضیات الإرشاد و وسائل التوجیه، و من اللازم أن یکون الدوام و البقاء فی الدین علی ید مؤهل یحمل صفات صاحب الرسالة الأصلی و یتحلی بخصائص ممیزة تمکنه من الاضطلاع بمهمات النیابة عن صاحب الرسالة و تمثیل أحکام الشریعة و أداء أعباء قیادة الناس و تصدّرهم بحیث لو انقاد الناس فی أمر دینی و شرعی إلی غیره لبان جلیا الفرق فی مباشرة الأمر من قبل مؤهل بطریق الاختیار و الحکمة الإلهیة عنه من قبل مرشح آخر تتداخل فی إظهار أمره عوامل کثیرة لا حاجة للدخول فیها. أما لو اتفق الناس فی

1- 1) سورة القصص، آیة:68. [1]

2- 2) سورة البقرة، آیة:124. [2]

3- 3) سورة الجمعة، آیة:2. [3]

4- 4) أصل الشیعة و أصولها ص 102. [4]

الانقياد إلى حاكم زمنى فإن أمر الدين سيكون أوضح و أكثر جلاء كما حدث على مر العصور، فإن الإمام من أهل البيت الأطهار كان فى ورعه و تقاه و علمه لا يزيده إجرام الحكّام و تعسفهم إلا تمسكا بموقعه و مسئولياته فى ولايته الدينية فيزداد سلطانهم فى النفوس و يتسع اتجاه الناس إليهم بعوامل الإيمان و التمسک بأهداب الدين فى مقابل الإذعان و الخنوع لقوة السلطة و حراب المتحكمين. و الإمام الصادق هو سادس الأئمة الاثنى عشر، و هو صاحب هذه الولاية و ولى أمر المسلمين، و هو الإنسان الكامل الذى اختاره اللّه لتطبيق ذلک النظام المقدس فى عصره. و حسبک دليلا على نزاهته و عظمته أن خصومه-على كثرة عددهم و اختلاف عقائدهم-لم يستطيعوا أن يثبتوا عليه زلة أو منقصة اجتماعية، أو نكسة علمية حتى ساعة وفاته. و ظلت الأنظار متجهة إليه فهو المبرز من أهل البيت و سيدهم فى عصره و قد طلب منه قواد الثورة أن يبايعوه، لأهليته للخلافة و لثقة المجتمع به و لكنه امتنع عن ذلک لما يراه من وراء سير الحوادث كما سنبينه إن شاء اللّه. و لسنا فى موقف الراغب هنا فى البحث عن الإمامة و الولاية العامة، فلها محل آخر. و لكننا فى معرض بيان موجز، عن أعمال الولاة فى عصر الإمام الصادق عليه السّلام الذين يفترض أن يتولوا رعاية الأمة و ليس لهم قدرة على إصلاح أنفسهم فكيف تصلح بهم الأمة؟ ! و قد شاهد عليه السّلام صنيعهم السيئ و سيرتهم الملتوية فى منهجهم السياسى الفاتک من اضطراب حبل الأمن، و انصرافهم إلى أعمال تسىء إلى الدين و ترهق المسلمين لا يهمهم شىء إلا الرئاسة و السيطرة على الرعية و إشباع رغباتهم، من أى طريق كان، إلى ما هنالک من جرائم هى سلسلة عذاب و نقمة أضعفت الأمة، خالفوا الكتاب و السنة، و وقفوا حاجزا دون المجتمع و دون سعادته التى جعلها اللّه لهم باتباع أوامر الدين و الخضوع لنظامه. و سنعرض بعض الحوادث التى جرت فى ذلک العصر لنعرف مقدار ما تحمله الإمام الصادق عليه السّلام من عظيم المسئولية و صعوبة ما أحاط به من أوضاع مؤلمة قاسية انتهج فيها الإصلاح الروحى و هو وسط ظروف سياسية يتوقع فيها الأذى كل

حين، فكان (عليه السلام) يتجه إلى المسلمين فيشاركهم أحوالهم و يعمل على إبقاء نظام الدين فى الحياة كما هو فى نفوسهم، كما كان عليه فى ذات الوقت أن يتحاشى نقمة الحكام الذين تعددت وسائل مراقبتهم له و عيون رصدهم و مضايقاتهم.

موقف الإمام الصادق من الظالمين:

فكان موقفه عليه السّلام فى تلك المدة موقف الرجل المصلح الذى يصول بيد جذاء لقلة أعوانه، فهو يراقب الحوادث عن كثب، و يتألم لتلك الفظائع و يشارك المسلمين فى مآسيهم. و لم يكن عليه السّلام ليترك الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر و إرشاد الناس مع شدة الرقابة و نصب حبائلهم له ليلحقوه بشهداء آل محمد و لكن اللّه دفع شرهم عنه. فكان عليه السّلام يبث تعاليمه فى معارضتهم، و يحذر الأمة من مخالطة أئمة الجور، كما اشتهر ذلك عنه فكان عليه السّلام يقول: إياكم أن يخاصم بعضكم بعضا إلى أهل الجور. أيما مؤمن قدم مؤمنا فى خصومة إلى قاض أو سلطان جائر، فقضى عليه بغير حكم اللّه فقد شركه فى الإثم. أيما رجل كان بينه و بين أخ له مماراة فى حق فدعاه إلى رجل من إخوانكم ليحكم بينه و بينه فأبى إلا أن يرافعه إلى هؤلاء، كان بمنزلة الذين قال اللّه عز و جل فيهم: أَ لَمْ تَرَ إِلَى اَلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِما أُنْزِلَ إِلَيْکَ وَ ما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِکَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحاكَمُوا إِلَى اَلطّاغُوتِ وَ قَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ (1). اتقوا الحكومة فإن الحكومة للإمام العالم بالقضاء، العادل بالمسلمين كنبى أو وصى نبى. و سأله رجل عن قاض بين فرقتين يأخذ من السلطان على القضاء الرزق؟ فأجابه عليه السّلام: إن ذلک سحت. و قال: العامل بالظلم، و المعين له، و الراضى به كلهم شركاء ثلاثتهم، إلى كثير من ذلک، و سنذكر بعضها فيما بعد. و كان يحث الناس و يدعوهم إلى مقاطعتهم و عدم الركون إليهم، و يدعو الأمة

1- 1) سورة النساء، آية:60. [1]

إلى الاتحاد ضد أولئک الظلمة امتثالا لقوله تعالى: وَ لا تَرْكَنُوا إِلَى اَلَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ اَلنّارُ (1)فهو يبث نصيحته بين طبقات ذلک المجتمع بصفته إمام زمانه و يواصل جهاده فى سبيل الدعوة الإصلاحية، ليفک أسر الأمة من يد من أفسدوا ذلک المجتمع الصالح، و قد عاش عليه السّلام مدة من الزمن و عاشر كثيرا من ملوک عصره فما ركن لهم، و ما استطاعوا أن يستميلوه و قد حاول المنصور أن يستميله عليه السّلام ليوهم الناس أن ولايته على حق، فأرسل إليه: لم لا تغشانا كما يغشانا سائر الناس؟ . و كان المنصور يظن أن ينال من الإمام جوابا يحقق هذا الطلب إذ المنصور سلطان العصر و مهاب الجانب. فكان جواب الإمام عليه السّلام: «ما عندنا من الدنيا ما نخافک عليه و لا عندک من الآخرة ما نرجوک له، و لا أنت فى نعمة فنهنيک عليها، و لا تعدها نقمة فنعزيک عليها، فلم نغشاک؟» و عظم هذا الجواب على المنصور و لكنه يعرف منزلة الصادق عليه السّلام و صدقه فى ذلک، و حاول أن يسلک طريقا لضم الإمام إلى جانبه كما ضم غيره، إذ يصعب عليه انعزاله و ترفعه عن مخالطته، فأرسل إليه: إنک تصحبنا لتنصحنا. و لم يخف مراده على الإمام فأجابه: «من أراد الدنيا فلا ينصحک و من أراد الآخرة فلا يصحبک» . و قد استخدم المنصور وجهى سياسته من الفضاضة الدنيئة و الليونة المصطنعة ليجعل الإمام كالآخرين الذين يتحاشونه ثم ينفذون ما يريده منهم، و الحقيقة أن موقف الإمام الصادق من المنصور كان يمثل مشكلة سياسية و دينية احتلت أهمية كبيرة فى سياسة المنصور، و ما دام الإمام يقطن فى المدينة فقد كانت الشكوک تأكل قلب الدوانيقى فيهب إلى الموسم أو العمرة و غرضه أن يرى بنفسه ما يفعل الإمام جعفر الصادق و قد احتل تلک المكانة السامية فى نفوس العلماء و العامة، و يقوم المنصور بإحضاره إذا ما جاء المدينة أو و هو فى حاضرة ملكه فنرى فى أحاديثه و أقواله مع الإمام محاولاته المختلفة حتى أعياه، فهو يقصد رجلا يفيض علما و إيمانا و من صفوة استتر المنصور و أهله بشعارهم حتى تمكنوا من الحكم، و منزلة آل البيت تزداد قوة،

1- 1) سورة هود، آية:113. [1]

فكل ما يصدر عن المنصور بحق الإمام يسرى سريعا بين الناس، فإن من شيعته من هم فى قصره لأن الأوضاع لم تصل بعد إلى درجة التفريق بين من يأبى سياسة العباسيين و هم يستأثرون بالحكم و بين من بقى بانتظار تحقيق ما قامت عليه الثورة. و قد حاول المنصور أكثر من مرة الانتقاص من الإمام إذ اعترض الإمام قائلا: لا تتفقه علىّ، فأجابه الإمام: أين يذهب منى الفقه؟ فانزجر المنصور. كما أنه صرّح مرات بعزمه على قتل الإمام و لكن اللّه أحبط عمله و مسعاه، و حفظ لهذه الأمة إمامها.

ملوك عصره

اشارة

عاصر الإمام الصادق عليه السّلام عشرة من ملوك بنى أمية و هم: عبد الملك بن مروان، و الوليد بن عبد الملك، و سليمان بن عبد الملك، و عمر بن عبد العزيز، و يزيد بن عبد الملك، و هشام بن عبد الملك، و الوليد بن يزيد بن عبد الملك، و إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك، و مروان بن محمد بن مروان بن الحكم المعروف بالحمار و هو آخر ملوكهم. و عاصر (عليه السلام) من العباسيين عبد اللّه بن على بن عبد اللّه بن العباس المعروف بالسفاح، و أخيه المنصور الدوانيقى. و لا بد لنا من الوقوف على تراجمهم و ذكر بعض الحوادث التى جرت فى أيامهم.

عبد الملك بن مروان:

اشارة

عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبى العاص بن أمية، أمه عائشة بنت معاوية بن المغيرة بن أبى العاص، فهو أموى بين أمويين. و كان جده المغيرة من أشد الناس عداء لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فظفر به (صلى الله عليه و آله) فى خروجه لغزوة حمراء الأسد فأمر بضرب عنقه (1)و قال ابن كثير: المغيرة جد عبد الملك لأمه هو الذى جدع أنف حمزة يوم أحد (2).

1- 1) السيرة لابن حزم ص 175.

2- 2) تاريخ ابن كثير ج 9 ص 63.

تولی عبد الملک بعهد من أبیه مروان سنة 65 ه-و بقی فی الملک إلی سنة 86 ه- و هی سنة وفاته. و کان قبل ولایته یجالس العلماء، و یحفظ الحدیث و یتعبد فی المسجد و کان متقشفا، و قد أنکر علی یزید بن معاویة حربه لعبد اللّه بن الزبیر، و قال-لبعض من سار فی ذلک الجیش-: ثکلتک أمک أ تدری إلی من تسیر؟ إلی أول مولود ولد فی الإسلام، و من حنکه رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و ابن حواریه، و ابن ذات النطاقین. أما و اللّه إن جئته نهارا وجدته صائما، و لیلا و جدته قائما، فلو أن أهل الأرض اطبقوا علی قتله لأکبهم اللّه جمیعا فی النار. قال ذلک الرجل الذی خاطبه عبد الملک بهذا: فلما صارت الخلافة إلی عبد الملک وجهنا عبد الملک مع الحجاج حتی قتلناه، أی ابن الزبیر (1). و ذلک أن عبد الملک بن مروان عند ما ولی الخلافة أرسل الحجاج بن یوسف لحرب ابن الزبیر فی جیش من أهل الشام، و حوصر ابن الزبیر ستة أشهر و سبع عشرة لیلة، و کان الحجاج یرمی الکعبة بالمنجنیق من أبی قبیس. (2)روی ابن عساکر: أن الحجاج لما رمی الکعبة بالمنجنیق أخذ قومه یرمون من أبی قبیس و یرتجزون: خطارة مثل الفنیق المزبد ارمی بها أعواد هذا المسجد

فجاءت صاعقة فأحرقتهم، فامتنع الناس من الرمی، و خطب بهم الحجاج فقال: أ لم تعلموا أن بنی إسرائیل کانوا إذا قربوا قربانا فجاءت نار فأکلته، علموا أنه قد تقبل منهم، و إن لم تأکله النار علموا أن القربان لم یقبل و لم یزل یخدعهم حتی عادوا فرموا (3). و دام الحصار و الرمی للکعبة حتی قتل عبد اللّه بن الزبیر فی جمادی الآخرة سنة

1- 1) التحفة اللطیفة فی تاریخ المدینة الشریفة للسخاوی ج 3 ص 317. [1]

2- 2) شفاء الغرام [2]للقاضی تقی الدین المکی ج 1 ص 169.

3- 3) تهذیب تاریخ ابن عساکر ج 4 ص 50.

83 و صلبه الحجاج منكوسا بعد قتله و بعث رأسه إلى عبد الملک بن مروان فطيف به فى البلاد (1). و لما أفضى الأمر إليه كان المصحف بيـده فأطبقه و قال: هـذا آخر العهد بک أو هذا فراق بينى و بينک (2). قال ابن كثير: حج عبد الملک فى سـنة 75 ه-و خطب الناس بخطبة قال فيها: إنه كان من قبلى من الخلفاء يأكلون و يوكلون، و إنى و اللّه لا أداوى أدواء هذه الأمة إلا بالسـيف، و لست بالخليفة المستضـعف- يعنى عثمان-و لا الخليفـة المـداهن-يعنى معاوية-و لا الخليفة المأبون-يعنى يزيد بن معاوية-أيها الناس إنا نحتمل منكم ما لم يكن عقد رايـة أو وثوب على منبر، هـذا عمرو بن سـعيد حقه حقه قرابته و ابنه قال برأسه هكـذا قلنا بسـيفنا هكـذا، و إن الجامعة التى خلعها من عنقه عنـدى، و قد أعطيت اللّه عهدا أن لا أضـعها فى رأس أحد إلا أخرجها الصـعداء فليبلغ الشاهد الغائب. (3)و عمرو بن سعيد هو المعروف بالأشدق قتله عبد الملک بيده سنة 69 و قال بعـد أن فرغ من قتله: كان أبو أميـة أحب إلىّ من زهر النواظر و لكن و اللّه ما اجتمع فحلان فى شول قط إلا أخرج أحدهما صاحبه (4)و كان قتله لعمرو بن سـعيد غدرا لأنه آمنه و حلف له و جعله ولى عهد من بعده. و كان عبد الملک له إقدام على سـفک الدماء و لما قالت له أم الدرداء: بلغنى أنک شـربت الطلى بعد العبادة و النسک! ! فقال: أى و اللّه و الدماء أيضا شربتها (5). و كانت أول بادرة صدرت منه و تعتبر منهاجا لسـيرته أنه نهى عن الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر و قال: لا يأمرنى أحد بتقوى اللّه إلا ضربت عنقه.

توليته للحجاج:

و هو الذى حمل الحجاج بن يوسف على رقاب المسلمين عند ما ولاه على الحجاز و العراق.

1- 1) شفاء الغرام ج 1 ص 170. [1]

2- 2) تاريخ الخلفاء للسيوطى ص 84 و [2]تاريخ ابن كثير ج 9 ص 63.

3- 3) تاريخ ابن كثير ج 9 ص 64.

4- 4) تهذيب التهذيب ج 7 ص 37. [3]

5- 5) تاريخ الخلفاء للسيوطى ص 84 و [4]البداية و النهاية ج 9 ص 66. [5]

و الحجاج ذلک الطاغیـة الذی أذاق الأمة أنواع العذاب، یغمد سـیفه فی رقاب الأبریاء، و قد اتخذ ذلک السـجن المکشوف الذی یضم بین جدرانه عددا لا یقل عن مائة و عشـرین ألفا بین رجل و امرأة، یلاقون فیه حرارة الشـمس و ألم الجوع، و یکابدون غصـص وضع الرماد علی الرءوس، و هم یموجون من الشدة، و یغلون کالمرجل، تحرقهم حرارة الشـمس و تقلبهم السیاط و بعج الرماح و صرخات السجانین، و لقد اتخـذ الحجاج فی معاملة الناس عند ولایته أقسـی ما یتصور من القسوة و الشدة، فهو یضـرب بسـیفه أنّی شاء و کیف شاء، و له أسالیب فی إنزال العذاب و العقوبة بمن یظفر بهم، فأصبح إمام سنّة الظلمة و أستاذ القتلة من الحکام. فهذا سجین یشد علیه القصب الفارسی المشقوق و یجر علیه ثم ینضح علیه الخل، و ذاک أسیر آخر أصیب ساقه بنشابة ثبت نصلها فی ساقه. و علم الحجاج أن أشد عذاب یعامل به أسیره أن یحرک النصل لیسـمع اسـتغاثة السـجین و صـیاحه فتأخذه نشوة الطرب تجبرا و طغیانا. قال عمر بن عبد العزیز: لو جاءت کل أمة بخبیثها و جئنا بالحجاج لغلبناهم (1). و قـال عاصم: ما بقیت للّه عز و جل حرمـة إلا قـد ارتکبها الحجاج (2). و کان الحجاج قـد تطلع إلی إمرة العراق و هو یری عبـد الملـک قلقـا علی ملکه ممـا یحـدث فیه و یخاطب أصـحابه: ویلکم! من للعراق؟ و تم للحجاج ما رغب فیه و اتجه رضـیع الـدماء المبیر إلی العراق حیث الثوار فکـان غاشـما عاتیا فی فعله و قوله. و من جملـة أقواله: یا أهل العراق هل اسـتنبحکم نابـح، أو استشـلاکم غاو، أو اسـتخفکم ناکث، أو استنصـرکم عاص إلا تابعتموه و بایعتموه و آویتموه و کفیتموه؟ یا أهل العراق هل شغب شاغب أو نعب نـاعب أو ربی کاذب إلا کنتم أنصاره و أشـیاعه (3). و یخاطب أهل الشام: یا أهل الشام أنتم العـدة و العـدد، و الجنّة فی الحرب، إن نحارب حاربتم أو

1- 1) انظر الکامل لابن الأثیر ج 4 ص 236-282. [1]

2- 2) تاریخ ابن کثیر ج 9 ص 132.

3- 3) مروج الذهب ج 3 ص 140. [2]

نجانب جانبتم و ما أنتم و أهل العراق إلا كما قال نابغة بنى جعدة: و إن تداعيهم حظهم و لم ترزقوه و لم تكذب

كقول اليهود قتلنا المسيح و لم يقتلوه و لم يصلب

و أنزل أهل الشام بيوت أهل الكوفة. يقول ابن الأثير: و هو أول من أنزل الجند فى بيوت غيرهم و هو إلى الآن لا سيما فى بلاد العجم و من سنّ سنة سيئة كان عليه وزرها و وزر من عمل بها إلى يوم القيامة. و قيل أحصى من قتله الحجاج صبرا فكانوا مائة ألف و عشرين ألفا. و روى أن الحجاج مر بخالد بن يزيد بن معاوية هو يخطر فى مشيته، فقال رجل لخالد: من هذا؟ قال خالد بخ بخ، هذا عمرو بن العاص، فسمعهما الحجاج فرد عليهما بكلام منه: أنا الذى ضربت بسيفى هذا مائة ألف كلهم يشهد أن أباك كان يشرب الخمر و يضمر الكفر (1). و سئل الحسن البصرى عن عبد الملك بن مروان؟ فقال: ما أقول فى رجل الحجاج سيئة من سيئاته (2). و يقول ابن الأثير و هو يصف خوف عبد الملك من الموت و هو فى ساعاته الأخيرة: «و يحق لعبد الملك أن يحذر هذا الحذر و يخاف فإن من يكن الحجاج بعض سيئاته يعلم على أى شىء يقدم عليه» . و كان عبد الملك يشجع الحجاج و يشد أزره، و لا يسمع عليه أى شكاية و لا يرق لأى استغاثة، و لما أدركه الموت أوصى ولى عهده الوليد برعاية الحجاج و إكرامه (3)و كيف لا يوصيه برجل كان من رأيه أن عبد الملك أفضل من النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم. و لا عجب من الحجاج بل العجب ممن يطلب له المعاذير و يحاول أن يوفق بين أعماله القبيحة و بين الدين، و يريد أن يدخله الجنة رغم الحواجز، و ليس ببعيد عن التعصب و العاطفة حصول هذا و أمثاله، و نستطيع أن نعرف نفسية عبد الملك و ما هو فيه من جرأة على سفك الدماء، فى ولايته للحجاج و توليته أمور المسلمين مع علمه بجوره

1- 1) ابن الأثير ج 4 ص 282 و [1]ابن عبد ربه ج 3 ص 242. [2]

2- 2) تاريخ أبى الفداء ج 1 ص 209. [3]

3- 3) السيوطى ص 85.

و تعسفه، و قد كانت تصله أخباره و ترفع إليه الشكايات و الاستغاثة منه فلا يرون عنده إلا تشجيع الحجاج على عمله. و لما حضرته الوفاة أوصى ولده الوليد، فى أخذ البيعة له بالسيف و قال و هو فى آخر ساعة من الدنيا: يا وليد حضر الوداع و ذهب الخداع و حل القضاء. فبكى الوليد، فقال له عبد الملک: لا تعصر عينک كما تعصر الأمة الوكاء، إذا أنا مت فغلسنى و كفنى و صلى علىّ و أسلمنى إلى عمر بن عبد العزيز يدلينى فى حفرتى، و اخرج أنت إلى الناس و البس لهم جلد نمر، و اقعد على المنبر، و ادع الناس إلى بيعتک، فمن مال بوجهه كذا فقل له بالسيف كذا، و تنكر للصديق و القريب، و اسمع للبعيد، و أوصيک بالحجاج خيرا (1). و بهذا نأخذ صورة عن كيفية أخذ البيعة من الناس لخليفة جديد، يتولى إدارة شئون الأمة، فهل للأمة اختيار فى الانتخاب أم أنها مرغمة ليس لها أى رأى؟ ! و لا يحق لها الاعتراض على شىء من ذلک، و المعارض يقتل، فهل تصح مثل هذه البيعة التى سن نظامها العهد الأموى، و هل يصح أن يسمى من يفوز بمثل هذا التعيين الإجبارى بأمير المؤمنين و يكتب ذلک بحروف بارزة؟ أنا لا أدرى و لعل هناک من يدرى و إلى القارئ النبيه الحكم. و كان عبد الملک يبتعد عن دماء بنى هاشم لا تدينا و لكنه رأى عاقبة آل أبى سفيان السيئة من وراء ذلک ما يشير بكتابه للحجاج بن يوسف فى عدم التعرض لهم و مع هذا فقد حمل الإمام زين العابدين عليه السّلام مقيدا من المدينة إلى الشام كما حدث الحافظ أبو نعيم فى حلية الأولياء (2). و لا يسعنا التوسع فى البحث عن عبد الملک و أعماله و سوء سيرة عماله فى الرعية، و سيأتى بعض منها.

الوليد بن عبد الملک:

اشارة

ولى الأمر بعد أبيه يوم الخميس فى النصف من شوال سنة 86 ه-و هو اليوم الذى مات فيه عبد الملک. و كان الوليد ولى عهده، و بقى واليا إلى أن مات يوم

1- 1) الإمامة و السياسة ج 2 ص 74. [1]

2- 2) حلية الأولياء ج 3 ص 135.

السبت فی النصف من جمادی الأولی سنة خمس و تسعین، و کانت مدة ولایته تسع سنین و سبعة أشهر، و له ست و أربعون سنة. و أمه ولادة بنت العباس بن جزء بن الحارث بن زهیر بن جذیمة العبسی. و کان الولید له سطوة شدیدة لا یتوقف إذا غضب، و کان کثیر النکاح و الطلاق، یقال إنه تزوج ثلاثا و ستین امرأة (1)غیر الإماء. و کان لجوجا کثیر الأکل. و کان یغلب علیه اللحن. و هو الذی بنی جامع دمشق، و الذی عرف بالجامع الأموی، و أنفق علی ذلک أربعمائة صندوق من الذهب، و فی کل صندوق أربعة عشر ألف دینار، و قیل کان فی کل صندوق ثمانیة و عشرون ألف دینار، و قد لامه الناس علی ذلک و أنه أنفق مال بیت المسلمین فخطبهم و قال: إنما هذا کله من مالی لأن الأمویین یعدون الأموال التی تجیء لهم هی ملکهم یتصرفون بها کیف شاءوا. کما أنه زاد فی مسجد النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و زخرفه و نمقه، و رصعه بالفسیفساء و هی الفص المذهب، و أدخل فیه حجر أزواج النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و سائر المنازل التی حوله (2)فقال له خبیب بن عبد اللّه بن الزبیر أنشدک اللّه أن تهدم آیة من کتاب اللّه إِنَّ اَلَّذِینَ یُنادُونکَ مِنْ وَراءِ اَلْحُجُراتِ فأمر الولید بضربه حتی مات، و سیأتی بیان السبب الذی من أجله وسع الولید مسجد النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم. و فی أیامه مات الإمام زین العابدین علی بن الحسین علیه السّلام مسموما، و ذلک فی الخامس و العشرین من شهر محرم الحرام سنة 95 ه-، و کان الولید هو الذی دس إلیه السم و یقال: إن هشام بن عبد الملک هو الذی دس إلیه السم بأمر من الولید (3)و سیأتی بیان ذلک إن شاء اللّه.

1- 1) الانافة فی مآثر الخلافة ج 1 ص 133.

2- 2) الانافة فی مآثر الخلافة ج 1 ص 136.

3- 3) ذکر ذلک جماعة من الحفاظ و المؤرخین کالقرمانی فی تاریخه، و ابن حجر فی صواعقه، و ابن الصباغ المالکی فی الفصول، و ابن جریر فی دلائل الإمامة، و روضة الواعظین للحافظ النیسابوری و غیرهم مما لا یترک مجالا للشک فی ذلک.

مقتل سعید بن جبیر:

و فی أیامه قتل سعید بن جبیر، قتله الحجاج بن یوسف فی شعبان سنة 95 ه-، و کان سعید قد هرب من الحجاج إلی أذربیجان، و منها توجه إلی مکة مستجیرا باللّه، و لائذا فی حرمه. و کتب الحجاج إلی الولید: إن جماعة من التابعین قد التجئوا إلی مکة فکتب الولید إلی عامل مکة خالد القسری: یأمره بحملهم إلی الحجاج. و کانوا خمسة و هم: سعید بن جبیر، و عطاء، و مجاهد، و طلق بن حبیب، و عمر بن دینار. و لما دخل سعید علی الحجاج دارت بینهما محاورة، و أسمعه الحجاج کلاما شائنا ثم سأله عن عبد الملک؟ فقال سعید تسألنی عن امرئ أنت واحد من ذنوبه. و أمر الحجاج بقتله فقال سعید: أشهد أن لا إله إلا اللّه وحده لا شریک له استحفظکها یا حجاج حتی ألقاک یوم القیامة، و لما قتل هلل رأسه ثلاثا أفصح فیها بمرّة، و التبس عقل الحجاج یومئذ و جعل یقول: قیودنا قیودنا فظنوها قیود سعید التی فی رجلیه فأخذوها من رجلیه بعد أن قطعوا رجلیه من ساقیه. و جعل اللّه من مقتل هذا التابعی الجلیل بدایة لعذابه فی الدنیا قبل أن یلحق بأولیائه فی جهنم فی الآخرة، فإذا نام الحجاج رأی سعیدا بمنامه و هو یأخذ بمجامع ثوبه قائلا: یا عدو اللّه فیما قتلتنی؟ فیقول الحجاج: مالی و لسعید بن جبیر، مالی و لسعید بن جبیر. (1)و لم یبق الحجاج بعد ذلک إلا أیاما، فإنه قتل سعیدا فی شعبان و مات هو فی شهر رمضان من السنة المذکورة. و کذلک الولید فإنه مات فی السنة الثانیة 96 ه-فی النصف من جمادی الآخرة. أو الأولی. قال بعض من هرب من جور الحجاج: مررت بقریة، فوجدت کلبا نائما فی ظل حب، فقلت فی نفسی لیتنی کنت مثل هذا الکلب و کنت مستریحا من خوف الحجاج.

1- 1) انظر الطبری ج 8 ص 95. و [1]ابن الأثیر ج 4 ص 279. و [2]تاریخ ابن خلدون ج 3 ص 65. [3]

قال ثم عدت بعد ساعة فوجدت الكلب مقتولا فسألت عنه؟ فقيل: جاء أمر الحجاج بقتل الكلاب (1). لقد تركت سلطة الأمويين الحجاج يفعل ما يشاء و يتصرف مع أعدائهم بسيفه دون أن تحرك ضمائرهم مناظر القتل و التشريد و انتهاك الأعراض، فهو «جلدة ما بين العينين» فى أعز موقع من وجه السلطة الدموى. كما تركوه يتمادى فى الكفر و يأتى بما يشاء من الكفر و الخروج عن الإسلام. فكان يدّعى نزول الوحى عليه و أنه لا يعمل إلا بوحى من اللّه تعالى (2)و بلغت به الجرأة القول: إن خليفة اللّه فى أرضه أكرم عليه من رسوله (3)و بهذا ينطبق عليه الحديث الشريف «إن فى ثقيف مبير و كذاب» . و قد حققنا ذلک فى غير هذا المكان.

سليمان بن عبد الملک:

ولى الأمر بعد أخيه الوليد يوم السبت فى النصف من جمادى الآخرة سنة 96 بعهد من أبيه عبد الملک، و بقى واليا إلى أن مات يوم الجمعة لعشر خلون من صفر سنة 99 ه-و كانت ولايته عامان و تسعة أشهر و أيام، و هو شقيق الوليد. و أراد الوليد أن يعزل سليمان عن ولاية العهد، و يبايع لولده عبد العزيز فأبى سليمان، فكتب الوليد إلى عماله، و دعى الناس إلى ذلک، فلم يجبه إلا الحجاج، و قتيبة بن مسلم (4). و لهذا غضب سليمان على آل الحجاج و نكبهم، و قتل قتيبة بن مسلم سنة 96 و عزل عمال الحجاج، و عذب أهله، و أطلق فى يوم واحد من المسجونين فى سجن الحجاج أحد و ثمانين ألفا من الأسراء، و أمرهم أن يلحقوا بأهاليهم، و وجد فى سجن الحجاج ثلاثين ألفا ممن لا ذنب لهم، و ثلاثين ألف امرأة (5).

1- 1) ابن نباتة فى سرح العيون ص 96. [1]

2- 2) ابن عساكر ج 4 ص 70.

3- 3) ابن عبد ربه ج 3 ص 266. [2]

4- 4) سمط النجوم العوالى [3]لعبد الملک العصامى المكى ج 3 ص 187.

5- 5) ابن عساكر ج 4 ص 80. [4]

و سجن یزید بن مسلم کاتب الحجاج، و أدخل علیه و هو مکبل فی الحدید فلما رآه سلیمان ازدراه فقال: ما رأیت کالیوم قط، لعن اللّه رجلا أجرک رسنه و حکّمک فی أمره. فقال له یزید: لا تفعل یا أمیر المؤمنین فإنک رأیتنی و الأمر عنی مدبر و علیک مقبل. ثم قال سلیمان: عزمت علیک لتخبرنی عن الحجاج ما ظنک به أ تراه یهوی بعد فی جهنم أم قد استقر؟ قال: لا تقل هذا فی الحجاج، فقد بذل لکم نصحه، و أحقن دونکم دمه، و أمن ولیکم، و أخاف عدوکم، و إنه یوم القیامة لعن یمین أبیک عبد الملک، و یسار أخیک الولید، فاجعله حیث شئت، فقال سلیمان: اخرج عنی إلی لعنة اللّه (1). و کان سلیمان یأخذ برأی عمر بن عبد العزیز فی بعض أموره یستشیره فیها، و قال له: إنه قد ولینا ما تری، و لیس لنا علم بتدبیره، فما رأیت من مصلحة العامة فمر به فلیکتب. فکان رد الصلاة إلی میقاتها، بعد أن کانوا یؤخرونها إلی آخر وقتها (2). و سمع سلیمان لیلة صوت غناء فی عسکره فلم یزل یفحص حتی أتی بهم، فقال سلیمان: إن الفرس لیصهل فتستودق له الرمکة، و إن الجمل یهدر فتضع له الناقة، و إن التیس لینب فتستخذی له العنز، و إن الرجل لیغنی فتشتاق له المرأة، ثم أمر بهم فقال: أخصوهم. فیقال إن عمر عبد العزیز قال: یا أمیر المؤمنین إنها مثلة، و لکن انفهم. فنفاهم (3). و قد أجمع المؤرخون علی شدة نهم سلیمان و أنه یأکل کثیرا یجوز المقدار. و قال بعضهم: کان یأکل مائة رطل و غیر ذلک مما ذکروه. و کان یلبس الثیاب الرقاق؛ و ثیاب الوشی، و لبس الناس جمیعا الوشی جبابا و أردیة و سراویل، و عمائم و قلانس، و ألبس جمیع أهله و حاشیته الوشی؛ حتی الطباخین و أمر أن یکفن فیه (4).

1- 1) مروج الذهب ج 3 ص 187. و [1]العقد الفرید ج 3 ص 171. [2]

2- 2) البدایة و النهایة ج 9 ص 178. [3]

3- 3) ابن کثیر ج 9 ص 180. [4]

4- 4) مروج الذهب ج 3 ص 185. [5]

و كان مجحفا فى جباية الأموال، فمن ذلک أنه كتب إلى عامله على خراج مصر -و هو أسامة بن زيد التنوخى-: احلب الدر حتى ينقطع، و احلب الدم حتى ينصرم. قال الكندى: فذلک أول شدة دخلت على أهل مصر. و قد أعجب سليمان بفعل أسامة و قال: هذا أسامة لا يرتشى دينارا و لا درهما. فقال له عمر بن عبد العزيز: أنا أدلک على من هو شر من أسامة و لا يرتشى دينارا و لا درهما. فقال سليمان: و من هو؟ قال: هو عدو اللّه إبليس. فغضب سليمان و قام من مجلسه (1). و قدم أسامة على سليمان بما اجتمع عنده من الخراج و قال: يا أمير المؤمنين إنى ما جئتک حتى نهكت الرعية و جهدت، فإن رأيت أن ترفق بها و ترفه عليها، و تخفف من خراجها ما تقوى به على عمارة بلادنا فافعل، فإنه يستدرک ذلک فى العام المقبل. فقال له سليمان: هبلتک أمک، احلب الدر فإذا انقطع فاحلب الدم (2). و غضب سليمان على أعظم قائد فتح الفتوحات العظيمة فى بلاد المغرب و هو موسى بن نصير، و كان من رجالات الكوفة العسكريين، و زهادها المؤمنين! ممن عرف بولائه لأهل البيت و استقامته، و لعل من هذا كان سخط سليمان عليه بعد تلک الأعمال الجليلة و الفتوحات العظيمة كما هو مشهور. و قد أهمل كثير من المؤرخين عظيم بلائه و جهاده فى نشر الإسلام، و اتساع رقعته، و أشادوا بذكر مولاه طارق بن زياد الذى كان تحت إمرته و يسير على مخططاته العسكرية. كانت لموسى هذا مواقف مشهورة، ففتح بلاد المغرب، و غنم أموالا طائلة و كان يوجه ولده عبد العزيز، و مولاه طارق بن زياد لافتتاح المدن، و لكن سليمان وجد على موسى فقتل ولده عبد العزيز الذى افتتح فى إمارته مدائن كثيرة، و كان عبد العزيز متصفا بالزهد و الصلاح و لكن بعض المؤرخين حاكوا حوله تهمة لا تتفق مع ما يتصف به من الاستقامة و حسن السيرة، و كان قتله سنة 98 ه-. قال ابن الأثير: و يعدون ذلک من زلات سليمان.

1- 1) النجوم الزاهرة ج 1 ص 232. [1]

2- 2) الجهشيارى ص 32. [2]

و كان والده موسى قد سخط عليه سليمان و عذبه أنواع العذاب، و ضمنه أربعة آلاف دينار و ثلاثين ألف درهم. و لما قتل ولده عرض رأسه عليه فتجلد للمصيبة و قال: هنيئا له بالشهادة و قد قتلتموه و اللّه صواما قواما. و كان موسى ممن عرف هو و أبوه نصير بولائه لآل محمد و لقد غضب معاوية عليه إذ لم يخرج معه لصفين.

عمر بن عبد العزيز:

اشارة

أبو حفص عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم، و أمه أم عاصم ليلى بنت عاصم بن عمر بن الخطاب. ولى بعهد من سليمان بن عبد الملك، يوم الجمعة لعشر خلون من صفر سنة 99 ه-، و بقى واليا إلى أن مات يوم الجمعة لخمس بقين من رجب سنة 101 ه-. و مدة خلافته سنتين و خمسة أشهر و خمسة أيام. و كان أبوه عبد العزيز المتوفى سنة 86 ه-ولى عهد مروان بعد أخيه عبد الملك، و لكنه مات قبله. و قد وجد الناس فى عهد عمر بن عبد العزيز عدلا فقدوه زمانا، و استراحوا فى أيامه القليلة مما كانوا يتحملونه من ظلم و تعسف، و جور فى الحكم، و استبداد فى الأمر من حكام سبقوه، و هم لا يتقيدون بقانون سماوى أو وضعى و لا ينظرون إلا لأنفسهم و أنصارهم، فيستأثرون بما يجبونه من الأموال، و ينفقونه فى مصالحهم الخاصة. و كان الخراج فى عهده من أسوإ مظاهير السياسة التى تواجهها الأمة لسوء تصرف العمال، و جشع الولاة، و كانت جبايته غير محدودة و لا مقررة، بل يعود أمرها إلى العمال أنفسهم، فظلموا العباد و خربوا البلاد. و لما ولى عمر بن عبد العزيز عالج هذه المشكلة، و يعطينا كتابه لعامله فى العراق صورة واضحة عن سوء الحالة و تردى الأوضاع.

سیرته فی الخراج:

کتب عمر بن عبـد العزیز إلی عامل الکوفـة: أما بعد فإن أهل الکوفة قد أصابهم بلاء و شدة فی أحکام اللّه، و سـنة خبیثة سـنها علیهم عمال السوء، و إن قوام الـدین العدل و الإحسان، فلا یکن شـیء أهم إلیک من نفسک، فلا تحملها قلیلا من الإثم، و لا تحمل خرابا علی عامر، و خـذ منه مـا أطـاق و أصـلحه حتی یعمر، و لاـ یؤخـذن من الغـامر إلا وظیفـة الخراج فی رفق و تسـکین لأهل الأرض، و لا تأخـذن أجور الضـرابین، و لا هدیة النوروز و المهرجان، و لا ثمن الصـحف، و لا أجور الفتوح، و لا أجور البیوت و لا درهم النکاح، و لا خراج علی من أسـلم من أهل الأرض، فاتبع فی ذلک أمری فإنی قـد ولیتک ما ولانی اللّه، و لا تعجل دونی بقطع و لا حلب حتی تراجعنی فیه، و انظر من أراد من الذریـة أن یحـج فعجل له مائة لیحج بها و السـلام (1). و قـد عامـل العلویین معاملـة حسـنة و فرق فیهم أموالا و کتب إلی عامله بالمدینة: أن أقسم فی ولد علی بن أبی طالب عشـرة آلاف دینار. فکتب إلیه العامل: ان علیا قد ولد له فی عدة قبائل من قریش ففی أی ولده؟ فکتب إلیه عمر: إذا أتاک کتابی هـذا فأقسم فی ولد علی من فاطمة رضوان اللّه علیهم عشـرة آلاف دینار فطالما تخطتهم حقوقهم و السـلام (2). و دخلت علیه فاطمة بنت علی علیه السّلام فقال لها یا بنت علی و اللّه ما علی ظهر الأرض أهل بیت أحب إلیّ منکم، و لا أنتم أحب إلی من أهل بیتی (3). و قال ابن الأثیر: و کان سـبب محبته علیا أنه قال: کنت بالمدینـة أتعلم العلم، و کنت ألزم عبیـد اللّه بن عبد اللّه بن عتبة بن مسعود فبلغه عنی شیء من ذلک، فأتیته یوما و هو یصلی، فقال لی: متی علمت أن اللّه غضب علی أهل بدر و بیعة الرضوان بعد أن رضی عنهم؟ قلت: لم أسمع ذلک. قال: ما الذی بلغنی عنک فی علی علیه السّلام؟ قلت: معذرة إلی اللّه و إلیک و ترکت ما کنت علیه.

1- 1) الکامل لابن الأثیر ج 5 ص 29 و [1]الطبری ج 8 ص 139. [2]

2- 2) مروج الذهب ج 3 ص 194. [3]

3- 3) طبقات ابن سعید ج 5 ص 333.

و كـان أبى إذا خطب فنـال من على رضـى اللّه عنه تلجلـج، فقلت: يـا أبت إنک تمضـى فى خطبتک، فإذا أتيت على ذكر على عرفت منک تقصـيرا؟ ! قال: أو فطنت لذلک؟ قلت نعم. فقال: يا بنى إن الذين حولنا لو يعلمون من على ما نعلم تفرقوا عنا إلى أولاده. فلما ولى الخلافة لم يكن عنـده من الـدنيا هم مثل ما يرتكب هـذا الأمر العظيم لأجله، فترک ذلک و كتب بتركه و قرأ عوضه: إِنَّ اَللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَـدْلِ وَ اَلْإِحْسانِ الآية [النحل:90]فحل هذا الفعل عند الناس محلا حسـنا و أكثروا مدحه بسـببه (1). و صـعب على الأمويين ترک هذه البدعة، و حاولوا إعادتها بعد عمر بن عبد العزيز. حج هشام بن عبد الملک سـنة 106 ه-فقال له سـعيد بن الوليد بن عثمان: يا أمير المؤمنين إن اللّه لم يزل ينعم على أهل بيت أمير المؤمنين، و ينصـر خليفته المظلوم و لا يزالوا يلعنون فى هـذه المواطن الصالحة أبا تراب، فأمير المؤمنين ينبغى أن يلعنه فى هذه المواطن الصالحة، فشق على هشام ذلک و قطع كلامه و قال: ما قدمنا لشتم أحد (2). و على أى حال فإن عمر بن عبد العزيز قام بأمور مشكورة و وجد الكثيرون فى عهده ما لم يجدوه فى عهد غيره من الأمويين. و لقد ثقل على الأمويين ما قام به عمر بن عبد العزيز من الأعمال الصالحة و معالجة مشاكل المجتمع، و لذا قيل: إنه مات بالسم من بنى أمية علما منهم أنه إن امتدت أيامه أخرج الأمر عنهم، و أنه لا يعهد بعهد إلا لمن يصلح للأمر فعاجلوه (3).

أخطاء تاريخية:

ذكر بعض المؤرخين: أن عمر بن عبد العزيز صعد المنبر ذات يوم بمكة فقال:

1- 1) ابن الأثير ج 5 ص 20. [1]

2- 2) الطبرى ج 8 ص 86. [2]

3- 3) الانافة فى مآثر الخلافة ج 1 ص 142.

أيها الناس من كانت له ظلامة فليتقدم. فتقدم على بن الحسين بن على عليه السّلام فقال: إن لى ظلامة عندک. فقال: و ما ظلامتک؟ . فقال على بن الحسين: مقامک هذا الذى أنت فيه. فقال عمر: إنى لا أعلم ذلک، و لكن لو علمت أن الناس يتركونه لک و اللّه لتركته (1). و نحن لا ننكر اعتراف عمر بن عبد العزيز بأحقية أهل البيت للأمر، و لا ننكر مطالبة أهل البيت فى حقهم عند سنوح الفرص، و انهم مظلومون، و أيديهم من حقهم صفرات. و لكننا ننكر اتخاذ أمثال هذه الوسائل من إمام عصره، و سيد أهل البيت زين العابدين، فهو أعرف الناس بالأوضاع السائدة، و أعلمهم بالظروف و مناسباتها. هذا من جهة و من جهة أخرى أن التاريخ لا يقر ذلک، فإن وفاة الإمام زين العابدين عليه السّلام كانت فى سنة 95 ه-و ولاية عمر بن عبد العزيز فى سنة 99 ه-فكيف يصح ذلک؟ و مثل هذه ما ذكره بعضهم: أن على بن الحسين عليه السّلام اقترض من مروان بن الحكم أربعة آلاف دينار، فلم يتعرض له أحد من بنى مروان حتى استخلف هشام، فقال لعلى بن الحسين: ما فعل حقنا قبلک؟ فقال عليه السّلام؛ موفور و مشكور. فقال هشام: هو لک. و هذا لا يصح من جهات أهمها التاريخ فإن خلافة هشام كانت سنة 105 ه-كما سيأتى، و وفاة على بن الحسين كانت سنة 95 ه-أى قبل أن يلى الأمر هشام بعشر سنوات (2).

يزيد بن عبد الملک:

يزيد بن عبد الملک بن مروان أمه عاتكة بنت يزيد بن معاوية. تولى الحكم بعد عمر بن عبد العزيز سنة 101 ه-و بقى إلى أن مات ليلة الجمعة لأربع بقين من شعبان سنة 105 ه-فكانت ولايته أربعة أعوام و شهرا واحدا و يومين.

1- 1) سمط النجوم العوالى للمكى ج 3 ص 204. [1]

2- 2) تاريخ ابن كثير ج 9 ص 252.

أراد عنـد مـا ولی الخلافـة أن یسـیر بسـیرة عمر بن عبـد العزیز، فشق ذلک علی قرناء السوء، و أعوان الظلم و دعاة الباطل، فأتوا إلیه بأربعین شیخـا، فشـهدوا له أنه ما علی الخلفاء من حساب و لا عـذاب (1). فخـدعوه بـذلک فانخدع بهم، و کان کلامهم موافقا لهواه، فانهمک فی اللذات و اللهو الطرب، و لم یراقب اللّه و لم یخشه (2). فعادت الأمور إلی وضعها قبل عمر بن عبد العزیز، و عادت مشکلة الخراج و عزل جمیع عمـال عمر، و کتب إلی عماله: أما بعـد فإن عمر بن عبـد العزیز کان مغرورا، فـدعوا ما کنتم تعرفون من عهـده، و أعیـدوا الناس إلی طبقتهم الأولی، أخصبوا أم أجدبوا، أحبوا أم کرهوا، حیوا أم ماتوا (3). و قال ابن الأثیر: و عمد یزید بن الولید إلی کل ما صـنعه عمر بن عبد العزیز مما لم یوافق هواه فرده، و لم یخف شـناعة عاجلـة، و لا إثما عاجلا، فمن ذلک: أن محمـد بن یوسف أخا الحجاج کان علی الیمن، فجعل علیهم خراجا مجددا، فلما ولی عمر بن عبد العزیز کتب إلی عامله بالاقتصار علی العشـر، و ترک ما جدده محمد بن یوسف، و قال: لأن یأتینی من الیمن حصة ذرة أحب إلی من تقریر هذه الوضـعیة، فلما ولی یزید بعد عمر أمر بردها، و قال لعامله: خذها منهم و لو صاروا حرضا و السلام (4). و کان یزید صاحب لهو و لذة، و هو صاحب حبابة و سـلامة و هما جاریتان و کان مشغوفا بهما، و ماتت حبابة فمات بعدها بیسـیر أسـفا علیها، و کان قد ترکها أیاما لم یدفنها، لعدم استطاعته فراقها، فعوتب علی ذلک، فدفنها، و یقال إنه نبشها بعد الدفن حتی شاهدها (5).

1- 1) ابن کثیر ج 9 ص 232. [1]

2- 2) سمط النجوم العوالی ج 3 ص 209. [2]

3- 3) العقد الفرید ج 3 ص 180. [3]

4- 4) الکامل ج 5 ص 22. [4]

5- 5) الانافة فی مآثر الخلافة ج 1 ص 146 و البدء و التاریخ ج 3 ص 48. [5]

هشام بن عبد الملک:

اشارة

هشام بن عبد الملک بن مروان بن الحکم ولی الأمر بعهد من أخیه یزید بن عبد الملک سنة 105 ه-لخمس بقین من شعبان و بقی إلی سنة 125 ه-و هی سنة وفاته، و کانت مدة ملکه تسع عشرة سنة و سبعة أشهر غیر أیام، و أمه بنت هشام بن إسماعیل المخزومی. کان هشام یعد من دهاة بنی أمیة، و قرنوه بمعاویة، و عبد الملک، و قد عرف بالغلظة، و خشونة الطبع، و شدة البخل، و سوء المجالسة، و کان أحول، و هو الرابع من أولاد عبد الملک الذین تولوا الحکم. و کان شدید البغض للعلویین، حاول الانتقام منهم، و انتقاصهم کلما أمکنته الفرصة. حج هشام قبل أن یلی الخلافة فطاف فی البیت و لم یتمکن من استلام الحجر من شدة الزحام، فنصب له منبر و جلس علیه، و أهل الشام حوله. و بینما هو کذلک إذ أقبل علی بن الحسین زین العابدین علیه السّلام فانفرج الناس له و صاروا سماطین، إجلالا و هیبة و احتراما، فعظم علی هشام و غاضه ذلک. و قال: من هذا؟ استنقاصا له. و کان الفرزدق حاضرا فقال: أنا أعرفه. فقال هشام: من هو؟ فأنشأ الفرزدق قصیدته المشهورة التی یقول فی مطلعها: هذا الذی تعرف البطحاء وطأته و البیت یعرفه و الحل و الحرم

هذا ابن خیر عباد اللّه کلهم هذا التقی النقی الطاهر العلم

إلی آخر القصیدة، فغضب هشام، و أمر بسجن الفرزدق. و حج هشام بن عبد الملک فی أیام خلافته سنة 106 ه-و کان الإمام محمد الباقر علیه السّلام فی المسجد، و قد أحاط به طلاب العلم، و هو فی تلک الحلقة یلقی علیهم تعالیم الدین الإسلامی، و یعلمهم الأحکام و الفرائض، فصعب ذلک علی هشام، فقال لرجل من جماعته: اذهب إلیه و اسأله و قل له یقول لک أمیر المؤمنین: ما الذی یأکله الناس و یشربونه فی المحشر إلی أن یفصل بینهم یوم القیامة؟ فلما سأله

الرجل قال علیه السّلام: قل له یحشر الناس علی مثل قرص النقی (1)فیها أشجار و أنهار یأکلون و یشربون منها حتی یفرغوا من الحساب. و کان هشام یقصد من وراء هذا السؤال أن یظفر بشیء یستطیع به أن یضع من منزلة الإمام فی ذلک المجتمع و لو من باب المغالطة، لأنه حانق علیه، فلما رجع الرسول إلیه بما أجابه الإمام ظن هشام أنه ظفر بما أراد و نجح بما دبر. فقال: اللّه أکبر، اذهب إلیه فقل له یقول لک: ما أشغلهم عن الأکل و الشرب یومئذ؟ فقال أبو جعفر الباقر علیه السّلام: هم فی النار أشغل، و لم یشغلوا عن أن قالوا: أفیضوا علینا من الماء أو مما رزقکم اللّه. فسکت هشام و عرف فضله. و هو الذی سیر الإمام الباقر علیه السّلام و ولده الصادق علیه السّلام من المدینة إلی الشام، یقصد بذلک إهانتهما و التشفی منهما لما رآه و سمعه عند ما حج فی تلک السنة، و حج فیها الإمام محمد الباقر و ولده الصادق علیه السّلام فقال الإمام الصادق فی ذلک الملأ: الحمد للّه الذی بعث محمدا بالحق نبینا و أکرمنا به، فنحن صفوة اللّه من خلقه و خیرته من عباده و خلفائه، فالسعید من تبعنا، و الشقی من عادانا. فبلغ هشام ذلک، و عظم علیه فلم یتعرض لهما بشیء، حتی انصرف إلی دمشق، و أمر بإشخاص الإمام و ولده الصادق علیه السّلام إلی دمشق. قال الإمام الصادق علیه السّلام فلما وردنا دمشق حجبنا ثلاثا، ثم أذن لنا فی الیوم الرابع إلی آخر ما هو معروف من هذه القصة.

هشام و زید بن علی:

و دخل علیه زید بن علی علیه السّلام فسلم علیه بالإمرة فلم یرد السلام إهانة له، و أغلظ فی الکلام و لم یفسح له فی المجلس. فقال زید: السلام علیک یا أحول، فإنک تری نفسک أهلا لهذا الاسم. فغضب

1- 1) النقی کغنی، قال فی النهایة: الحدیث: یحشر الناس یوم القیامة علی أرض بیضاء کقرصة النقی یعنی الخبز الحواری.

هشام، و جرت بينها محاورة كان نصيب هشام فيها الفشل، و خرج زيد و هو يقول: ما كره قوم حر السيوف إلا ذلوا. و أمر هشام برده و قال له: اذكر حوائجک. فقال زيد: أما و أنت ناظر على أمور المسلمين فلا. و خرج من عنده و قال: من أحب الحياة ذل (1). و مضى زيد إلى الكوفة و بها استشهد فى الثالث من صفر سنة 121 ه-بعد ثورة آزرته فيها مختلف الطاقات، و جرت حوادث لا يتسع المجال لذكرها. و بعد شهادته رضى اللّه عنه صلب جسده عريانا منكوسا بأمر من هشام و بقى الجسد مصلوبا أربع سنين، و نسجت العنكبوت على عورته (2)و أرسل يوسف بن عمر أمير الكوفة رأس زيد إلى هشام، فصلبه على باب دمشق ثم أرسله إلى المدينة، فنصب عند قبر الرسول يوما و ليلة، ثم نصب فى مؤخر المسجد على رمح، و أمر الوالى باجتماع الناس، فقام خطباء الأمويين بشتم أهل البيت، و هكذا بقى الرأس سبعة أيام (3)ثم أمر هشام بإرسال الرأس إلى حنظلة بن صفوان عامله على مصر سنة 122 ه-فأمر حنظلة بتعليقه، و أن يطاف به (4). أما الجسد الشريف فقد بقى مصلوبا إلى أيام الوليد بن يزيد و قد أقام عليه يوسف بن عمر حراسا خوفا من أن ينزل الجسد فيغسل و يكفن، و كان الموكل بحراسة الجسد زهير بن معاوية، أحد رجال الصحاح و حملة الحديث. و كان زهير يحدث الناس: بأنه رأى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى النوم، و قد وقف على الخشبة و قال: هكذا تصنعون بولدى من بعدى؟ ! ! يا بنى يا زيد قتلوک قتلهم اللّه صلبوک صلبهم اللّه (5).

1- 1) تاريخ الطبرى ج 8 [1] حوادث سنة 121 و ابن عساكر ج 6 ص 22-23. [2]

2- 2) تاريخ الخميس ج 2 ص 320. [3]

3- 3) زيد الشهيد للعلامة السيد عبد الرزاق المقرم ص 162-164.

4- 4) النجوم الزاهرة ج 1 ص 281. [4]

5- 5) تهذيب تاريخ ابن عساكر ج 6 ص 323.

مقتل زيد بن على و ملابساته:

و نود أن نوضح هنا-بإيجاز-نقطة ذات أهمية فى الموضوع و هى: ان المشهور بأن الشيعة اجتمعوا إلى زيد فسألوه عن أبى بكر و عمر و ما هو رأيه فيهما؟ أو انهم سألوه البراءة منهما، فأجابهم بخلاف ما أرادوه من الطعن فى الشيخين. فتفرقوا عنه فسماهم الرافضة. و على هذا فقد وسم الشيعة باسم الرافضة، و انهم الذين رفضوا الشيخين أو رفضوا زيدا إلى غير ذلک مما هو مشهور فى هذه القضية. و عند ما نرجع إلى الواقع و ندرس الحوادث على ضوء العلم و عدم التحيز و نتثبت-قدر الإمكان-من صحة القول فبدون شک يبدو لنا عدم صحته، و رب مشهور لا أصل له. و حقيقة الأمر أن الشيعة لم يسألوا زيدا عن الشيخين و رأيه فيهما بذلک الموقف الحرج، و إنما كان ذلک من قبل المندسين فى صفوف جيشه، و انها كانت حيلة من قبل الوالى يوسف بن عمر ليوقع الفرقة، و يثير غبار الخلاف لأن جيش زيد كان يتألف من عناصر مختلفة الآراء و العقائد، ففيهم الخوارج و فيهم الناقمون على الأمويين، و فيهم الجواسيس و غير هؤلاء. قال ابن عساكر: فخرج زيد فى أربعة آلاف بالكوفة، فاحتال عليه بعض من كان يهوى هشاما، فدخلوا عليه و قالوا: ما تقول فى أبى بكر و عمر؟ . فقال زيد: رحم اللّه أبا بكر و عمر صاحبى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ثم قال: أين كنتم قبل اليوم؟ ! ! (1). و كان الغرض من إلقاء هذا السؤال فى ذلک الموقف الحرج فى ساعة حرب و تجمع، و هياج و تحزب، هو أحد أمرين و فى كليهما نجاح تلک الخدعة، و تحقيق هدف تلک المؤامرة، فإما أن يتبرأ زيد من الشيخين و يسىء القول فيهما، فيكون حينئذ أقوى سبب لقتل زيد، لأنه يسىء القول فى الشيخين و تلک وسيلة اتخذها الأمويون و من بعدهم للقضاء على خصومهم.

1- 1) تهذيب تاريخ ابن عساكر ج 6 ص 23.

و إمـا أن لا ـ يتبرأ فيقولون كيف لا ـ يتبرأ ممن ظلمهم حقهم، و بالفعـل قالوا و نجحت هـذه المؤامرة، و تفرق أهل الغـدر و ذوو الأطماع، و كانت هذه الحيلة من الوالى يوسف بن عمر أقوى سلاح لجأ إليه. يقول الأستاذ الخربوطلى: و لجأ يوسف بن عمر إلى الحلية فدس لزيد بين أنصاره من يسأله عن رأيه فى أبى بكر و عمر. . . الـخ (1). كما أنه أعطى لبعض جواسيسه الأموال ليتعرف على أصحاب زيد (2)و إن الأمر لا يحتاج إلى مزيد من إقامة الشواهد على اهتمام الأمويين فى اتخاذ الوسائل لإفشال ثورة زيد، و أن نفسيات الأكثرية التى انضمت إليه قد طبعت على الغـدر و نقض العهود. و ان قول زيـد لمن سـائله: أين كنتم قبل هـذه؟ ليـدل بصـراحة على ما فى الأمر من هـدف معين و أمر مـبيت. إن الشـيعة هم محور تلـك الثورة، و ليس من الصـحيح أن ينسب إليهم إثـارة موضوع هم فى غنى عنه، و هم لا ـ يجهلون رأى أهل البيت فى ذلك الأمر فما معنى هذا السؤال فى ذلك الموقف الحرج؟ كما انهم يعرفون الجيش و اختلاطه من عناصـر مختلفة، فكيف يهبط بهم الشـذوذ فى التفكير إلى هـذا المسـتوى الـذى لا يتفق مع عقائـدهم و لا يسـير مع خططهم الثورية؟ و الواقع أن الشـيعة لم يثيروا هذا الموضوع لأنهم لا يجهلون خطره فى ذلك الموقف الحرج، و إنما كانت إثارته من الخـدع السياسـية، و الحيل الأموية. و لقد نجحت تلك المؤامرة و تسـربت الفرقـة بين صـفوف الجيش، و تفرق عن زيد من لم يأت لنصـرته عن عقيدة ثابتة، و لم يبق معه إلا الخلص من الشـيعة، فدافعوا عنه دفاع الأبطال، و ثبتوا معه إلى أن قتل رحمة اللّه عليه، و قد قتل بين يديه جماعة منهم، و آخرون صـحبوا ولده يحيى و قاتلوا معه، و لم ترفض الشـيعة زيـدا بـل إنما رفض المعاونـة معه أنصار الأمويين و أعوان الظلمـة. و ليس باسـتطاعتنا التفصـيل لهـذه القضـية الآن و الإحاطة بها من جميع الوجوه،

1- 1) الدولة العربية الإسلامية ص 305.

2- 2) الطبرى ج 8 ص 277.

ليتضح الأمر كما يجب و سيأتى إن شاء اللّه مزيد بيان فى دراسة هذا الموضوع و الوقوف على الحوادث التى أدت إلى فشل ثورة زيد بن على عليه السّلام.

الوليد بن يزيد:

اشارة

هو الوليد بن يزيد بن عبد الملک بن مروان، و أمه أم الحجاج بنت محمد بن يوسف أخى الحجاج الثقفى. ولى الأمر بعد هشام بعهد من يزيد بن عبد الملک، و تربع على دست الحكم يوم الأربعاء لست خلون من شهر ربيع الأول سنة 125 ه-. و قيل لعشر خلون من ربيع. بقى فى الحكم إلى أن قتل يوم الخميس لليلتين بقيتا من شهر جمادى الآخرة سنة 126 ه-. فكانت ولايته سنة واحدة و شهرين. قال ابن حزم: و كان الوليد فاسقا خليعا ماجنا (1). و قال ابن فضل اللّه فى المسالک: الوليد بن يزيد فرعون ذلک العصر الذاهب، يأتى يوم القيامة فيورد قومه النار، و يرديهم العار، و بئس الورد المورود، رشق المصحف بالسهام، و لم يخش الآثام. و قال القلقشندى: و كان مصروف الهمة إلى اللهو، و الأكل، و الشرب و سماع الغناء. . . (2). و قال ابن كثير: كان هذا الرجل مجاهرا بالفواحش، مصرا عليها، منتهكا محارم اللّه عز و جل لا يتحاشى من معصية، و ربما اتهمه بعضهم بالزندقة و الانحلال. و لما ولى هشام أكرم ابن أخيه الوليد، حتى ظهر عليه أمر الشراب، و خلطاء السوء، و مجالس اللهو. . . و قال هشام للوليد: ويحک و اللّه ما أدرى أعلى دين الإسلام أنت أم لا؟ فإنک لم تدع شيئا من المنكرات إلا أثبته غير متحاش و لا متستر. فكتب إليه الوليد: يا أيها السائل عن ديننا ديني على دين أبى شاكر

1- 1) السيرة ص 363.

2- 2) الانافة فى مآثر الخلافة ج 1 ص 156.

فشربها صرفا و ممزوجة بالسخن أحيانا و بالفاتر

(1)و أبو شاكر هو مسلمة بن هشام بن عبد الملک. و على أى حال فإن للوليد أعمالا منكرة، و جرائم لا توصف، و قبائح تشمئز منها النفس، و يقف القلم عند بيانها خجلا. و كانت له جرأة عظيمة على انتهاک حرمة الإسلام، فمن ذلک أنه كان يستهدف بالمصحف و يقول: تهدد كل جبار عنيد فها أنا ذاک جبار عنيد

إذا ما جئت ربک يوم حشر فقل يا رب خرّقنى الوليد

(2)و هو الذى كتب إلى عامله على الكوفة يوسف بن عمر: خذ عجل أهل العراق فأنزله جذعة (يعنى زيد بن على عليه السّلام) و أحرقه بالنار ثم انسفه باليم. فأمر يوسف به فأحرقه ثم رضه و حمله فى سفينة، ثم ذراه فى الفرات (3). و قد وردت فى الوليد أحاديث بأنه فرعون هذه الأمة منها: ما أخرجه الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب أنه ولد لأخى أم سلمة غلاما فسموه الوليد فقال النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم: «سميتموه باسم فراعينكم، ليكونن فى هذه الأمة رجل يقال له الوليد، لهو أشد فسادا لهذه الأمة من فرعون لقومه» و فى لفظ لهو أضر على أمتى. و أخرج البيهقى عن زينب بنت أم سلمة عن أمها قالت: دخل النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و عندى غلام من آل المغيرة اسمه الوليد، فقال صلّى اللّه عليه و آله و سلم: من هذا يا أم سلمة؟ قالت: هذا الوليد. فقال صلّى اللّه عليه و آله و سلم: «قد اتخذتم الوليد حنانا؛ غيروا اسمه فإنه سيكون فى هذه الأمة فرعون يقال له الوليد» (4). و عند ما ولى كان يكتب إلى الناس:

1- 1) ابن الأثير ج 5 ص 124 و [1]تاريخ ابن كثير ج 10 ص 2-6.

2- 2) البدء و التأريخ للمقدسى ج 3 ص 53، و [2]تاريخ الخميس ج 2 ص 320، و [3]ابن الأثير ج 5 ص 137 و [4]الحور العين [5]لابن نشوان ص 190 و غيرها.

3- 3) الطبرى ج 8 ص 122 و [6]ابن الأثير ج 5 ص 127. [7]

4- 4) ابن كثير ج 10 ص 6 و [8]تأريخ الإسلام للذهبى ج 5 ص 173. [9]

ضمنت لكم إن لم تعقنى منيتى بأن سماء الضر عنكم ستقلع

(1)و لما عم ظلمه و جوره و فسقه و استهتاره، قال فيه الشاعر العربى حمزة بن بيض: وصلت سماء الضر بالضر بعد ما زعمت سماء الضر عنا ستقلع

فليت هشاما كان حيا يسومنا و كنا كما كنا نرجى و نطمع

و قال أيضا: يا وليد الخنا تركت الطريقا واضحا و ارتكبت فجا عميقا

و تماديت و اعتديت و أسرف- ت و أغويت و انبعثت فسوقا

أنت سكران ما تفيق فما تر تق فتقا و قد فتقت الفتوقا

(2)و كتب إليه عامله على خراسان: بتردى الأوضاع، و حدوث ثورات فأجابه: إنى مشغول بالعريض و معبد و ابن أبى عائشة. و هم المغنون الذين أحضرهم عنده (3). و اشتدت النقمة على الوليد، و ثار الناس عليه بقيادة ابن عمه يزيد بن الوليد، و قال له يزيد بن عنبسة: ما ننقم عليك فى أنفسنا، لكن ننقم عليك انتهاك حرم اللّه، و شرب الخمر، و نكاح أمهات أولاد أبيك، و استخفافك بأمر اللّه (4). و قتل يوم الخميس لليلتين من جمادى الآخرة سنة 126 ه-و حمل رأسه إلى يزيد بن الوليد، فأمر أن يطاف به فى البلد.

مقتل يحيى بن زيد:

و فى أيامه قتل يحيى بن زيد بن على بن الحسين عليه السّلام و ذلک أنه خرج من الكوفة بعد مقتل أبيه زيد و توجه إلى خراسان، فسار إلى الرى، و منها أتى سرخس، ثم خرج و نزل فى بلخ على الحريش بن عبد الرحمن الشيبانى، و لم يزل عنده حتى هلک هشام و ولى الوليد بن يزيد.

1- 1) البدء و التأريخ ج 3 ص 51. [1]

2- 2) ابن الأثير ج 5 ص 133. [2]

3- 3) البدء و التأريخ ج 3 ص 53. [3]

4- 4) تاريخ الإسلام للذهبى ج 5 ص 178. [4]

و كتب يوسف بن عمرو إلى نصر بن سيار يخبره بأمر يحيى، و أنه فى منزل الحريش، فطالبه نصر بيحيى فقال له الحريش: لا علم لى به، فأمر به فضرب ستمائة سوط. فقال الحريش: و اللّه لو أنه تحت قدمى ما رفعتهما عنه (1)ثم وقعت بعد ذلک حوادث يطول ذكرها، و قامت الحرب بين يحيى و بين نصر، و أرسل نصر ليحيى جيشا عدده عشرة آلاف فارس، و كان يحيى فى سبعين رجل فهزمهم يحيى و قتل قائد الجيش عمر بن زرارة. فأرسل نصر جيشا آخر فى طلب يحيى، فأدركوه بالجوزجان، و وقع القتال بينهم و بين يحيى و أصاب يحيى سهم فى جبهته فقتل و قتل أصحابه عن آخرهم، و أخذوا رأس يحيى و سلبوه قميصه. (2)كانت شهادة يحيى يوم الجمعة وقت العصر سنة 125 ه-و بعث برأسه إلى الوليد بن يزيد، فبعثه إلى المدينة؛ و جىء به إلى أمه ريطة بنت أبى هاشم بن محمد بن الحنفية فقالت: شردتموه عنى طويلا، و أهديتموه إلىّ قتيلا، صلوات اللّه عليه، و على آبائه بكرة و أصيلا (3). أما جسده الشريف فصلب بالجوزجان، و لم يزل مصلوبا حتى ظهر أبو مسلم الخراسانى، و استولى على خراسان، فأنزله و صلّى عليه و دفنه، و أمر بالنياحة عليه (4).

يزيد الناقص:

يزيد بن الوليد بن عبد الملک بن مروان و أمه شاهفريد بنت فيروز بن يزدجرد ملک الفرس. ولى الأمر بعد قتل الوليد سنة 126 ه-، و بقى إلى أن مات يوم الأحد فى ذى الحجة من السنة المذكورة، و مدة حكمه خمسة أشهر و ليلتين.

1- 1) ابن الأثير ج 5 ص 127. [1]

2- 2) الكامل لابن الأثير ج 5 ص 127. [2]

3- 3) زيد الشهيد للمقرم ص 181. [3]

4- 4) الكامل لابن الأثير ج 5 ص 127. [4]

و إنما سـمى بالناقص لأنه نقص الزيادة التى كان الوليد زادها فى أعطيات الناس و هى عشـرة عشرة، ورد العطاء إلى ما كان أيام هشام. و فى أيامه اضـطرب حبل الدولـة أشد مما كان عليه من قبل، و وقع خلاف بين ولاة الأمصار، و ثار أهل حمص، و وثب أهل فلسـطين، و وقعت الحرب بين أهل اليمامـة و عاملهم إلى غير ذلک من الأمور، و مات يزيـد و لـم يعهد لأحد من بعده. و كان مولاه قطن و هو الموكل بخاتم الخلافة قد افتعل عهدا على لسان يزيد بن الوليد لإبراهيم بن الوليد، و دعا أناسا فشهدوا عليه زورا (1).

إبراهيم بن الوليد:

هو إبراهيم بن الوليـد بن عبـد الملک بن مروان، و أمه أم ولـد اسـمها نعمـة. ولى الأمر بعـد أخيه يزيد بعهد منه زوره الموكل بالخاتم و هو مولاهم قطن كما تقدم. و ذلک فى ذى الحجة سنة 126 ه-و لم يتم له الأمر لكثرة الثورات و اختلاف الكلمة، و سقوط هيبة الدولة، و كان اتباعه يسـلمون عليه تارة بالخلافة و تارة بالإمارة، و كانت مدة ولايته ثلاثة أشـهر، و قيل شهرين و أيام. و قد خلع نفسه و سلّم الأمر لمروان الآتى ذكره، و ذلک فى صفر سنة 127 ه-. و قيل أن مروان قتله بعد أن ظفر به و صـلبه و قتل جميع أصحابه، و قيل غرق فى الزاب أو أنه قتل فيه (2).

مروان بن محمد:

مروان بن محمد بن مروان بن الحكم و أمه أم ولد من الأكراد اسـمها لبابة، ولى الحكم فى صـفر سنة 127 ه-إلى أن قتل ببوصير من أرض مصر لثلاث عشر ليلة خلت من ربيع سنة 132 ه-. و به انتهى الحكم الأموى و انتقل الأمر إلى بنى العباس. و تفرق الأمويون فى البلاد، و كانوا طعمة للسـيف و زالت دولتهم بعد أن حكمت البلاد إحدى و تسـعين سـنة، و تسعة أشهر. و قامت على أنقاضها الدولة العباسية، بعد حروب طاحنة دامت مدة من الزمن، و كانت دعوة بنى العباس إلى أهل البيت.

1- 1) العقد الفريد 3-194. [1]

2- 2) مروج الذهب ج 3 ص 239 و [2]جوامع السيرة ص 364 و الانافة ج 1 ص 161.

و أول من ولى الحكم منهم هو: أبو العباس السفاح عبد اللّه بن محمد بن على بن عبد اللّه بن العباس، بويع فى ربيع الآخر سنة 132 ه-و مات فى ذى الحجة سنة 136 ه-. و قام من بعده أخوه أبو جعفر المنصور و اسمه عبد اللّه بن محمد بن على بن عبد اللّه بن العباس. بويع إذ مات أخوه السفاح، و بقى واليا إلى أن مات سنة 158 ه-فى ذى الحجة، و فى عهده استشهد الإمام الصادق عليه السّلام بالسم دسه إليه المنصور سنة 148 ه-فى الخامس و العشرين من شهر شوال و دفن بالبقيع مع أبيه و جده و الحسن السبط صلوات اللّه عليهم أجمعين. و قد تجرع من المنصور كئوس الأذى و المحن، و تحمل فى سبيل أداء رسالته أنواع الآلام كما تقدم.

ولاة المدينة فى العهد الأموى:

اشارة

أما ولاة المدينة المنورة فنحن نتعرض لمن وليها فى العهدين الأموى و العباسى فى حياة الإمام الصادق عليه السّلام بإيجاز، لتقف على بعض الحوادث التى شاهدها الإمام الصادق عليه السّلام، و تجرع مرارة ذلك الظلم الذى لقيته الأمة و تحمله رجالها الأبرار. و قد تعاقب على المدينة ولاة جاروا فى الحكم، و استهانوا بحرمة هذا البلد، و منهم الحجاج بن يوسف فقد ولى المدينة بعد قتل ابن الزبير سنة 74 و أقام فيها ثلاثة أشهر و تغيب عنه أهلها، و قد استهان بصحابة الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و ختم أيديهم و أعناقهم بالرصاص ليذلهم، ثم عزله عبد الملك سنة 75 و ولاه العراق، و أمر على المدينة أبان بن عثمان بن عفان، ثم عزله عبد الملك سنة 82 و ولى هشام بن إسماعيل المخزومى. و نحن لا نريد أن نتعرض بالحديث عن الولاة الذى سبقوا عهد الإمام الصادق عليه السّلام و أيام حياته، بل يختص بحثنا بمن ولى المدينة فى أيامه عليه السلام و هم:

هشام بن إسماعيل:

هشام بن إسـماعيل بن الوليد المخزومى المتوفى سنة 88 ه-ولاه عبـد الملک بن مروان إمرة المدينة المنورة سـنة 82 ه-، و كـان ظالما فى حكمه مبغضا لآل محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلم و كان يؤذى على بن الحسين عليه السّلام و أهل بيته، و يخطب على المنبر و ينال من على بن أبى طالب عليه السّلام. و لما أراد عبد الملک أن يبايع لولده الوليد ثم من بعده لسليمان بن عبد الملک امتنع سعيد بن المسيب أن يبـايع، فـأمر به هشام فضـربه ستين سوطا و ألبسه ثيابا من شـعر، و أركبه جملا، و طاف به فى المدينـة، و ذلک فى سـنة 85. و لمـا بلغ عبد الملک ذلک لام هشاما و كتب له: إنا لنعلم أن سعيدا ليس عنده شقاق. و قال: ما ينبغى له إلا أن يبايع، و إن لم يبايع ضربت عنقه أو خليت سبيله (1). و كانت ولاية هشام على المدينة أربع سنوات و قد أساء فيها لأهل المدينة و جار فى حكمه. و فى سنة 87 ه-عزله الوليد بن عبد الملک و ولى مكانه عمر بن عبـد العزيز و أمره بأن يوقف هشام بن إسـماعيل للناس عنـد دار مروان، لأنه أساء إلى أهل المدينـة مدة ولايته (2). و لما أوقفوه للناس قال: ما أخاف إلا من على بن الحسين، لأنه أساء معه أكثر من غيره، و لكن الإمام على بن الحسين عليه السّلام أمر مواليه و خاصته بأن لا يتعرضوا له بكلمة واحدة، و لما مر به على بن الحسين عليه السّلام ناداه هشام: اللّه أعلم حيث يجعل رسالته (3).

عمر بن عبد العزيز:

اشارة

تقدمت ترجمته و طرف من سيرته و كان محبا لأهل البيت، و هو الذى رد عليهم

1- 1) تاريخ الإسلام للذهبى ج 3 ص 310 و [1]تاريخ ابن كثير ج 9 ص 60.

2- 2) ابن كثير ج 9 ص 71. [2]

3- 3) الطبرى ج 8 ص 61 و [3]تاريخ الإسلام ج 3 ص 310. [4]

فدكا و منع سب على عليه السّلام بعد أن اتخذته الدولة الأموية شعارا لها و قد تقدم بيان ذلک. و كان الإمام الباقر عليه السّلام يوصى عمر بن عبد العزيز بالعدل فمن وصيته له: «أوصيک أن تتخذ صغير المسلمين ولدا، و أوسطهم أخا، و أكبرهم أبا، فارحم ولدک و صل أخاک، و بر والدک، فإذا صنعت معروفا فربه» بمعنى أدمه و لا تقطعه. و قد روى عن الإمام الصادق أنه قال: كان العبد الصالح أبو حفص يهدى إلينا الدراهم و الدنانير فى رقاق من العسل خوفا من أهل بيته. ولى إمرة المدينة فى سنة 87 ه-و بقى واليا إلى سنة 93 ه-و فيها عزله الوليد عن المدينة لأن عمر بن عبد العزيز كتب إلى الوليد بعسف الحجاج و ظلمه، و استبداده و جوره فى حكمه، و اعتدائه على الناس بغير حق و لا جناية. فبلغ الحجاج ذلک و كتب إلى الوليد: إن من قبلى من مراق العراق و أهل الشقاق لجئوا إلى المدينة و مكة و إن ذلک و هن. فاستشاره الوليد عمن يوليه المدينة فأشار الحجاج عليه بعثمان بن حيان و خالد بن عبد اللّه القسرى، فولى خالدا مكة و عثمان المدينة، و عزل عمر بن عبد العزيز. و فى سنة 88 ه-شرع عمر بن عبد العزيز ببناء مسجد النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و توسعته بأمر الوليد.

سبب عمارته لمسجد النبى:

و كان السبب الذى من أجله قام الوليد بعمارة المساجد، و توسعة مسجد الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هو: أنه خرج حاجا فمر بمسجد النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فدخله، فرأى بيتا ظاعنا فى المسجد، شارعا بابه، فقال: ما بال هذا البيت؟ فقيل: هذا بيت على بن أبى طالب عليه السّلام، أقره رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و ردم سائر أبواب أصحابه. فقال الوليد: إن رجلا نلعنه على منابرنا فى كل جمعة، ثم نقر بابه ظاعنا فى مسجد رسول اللّه عليه السّلام اهدم يا غلام. فقيل له: لا تفعل يا أمير المؤمنين، حتى تقدم الشام، ثم تخرج أمرک بتوسيع

مساجد الأمصار، مثل مكة و المدينة و بيت المقدس، و تبنى بدمشق مسجدا، فيدخل بيت على عليه السّلام فيما يوسع من مسجد المدينة فقبل ذلک (1). و لم يهدم الوليد دار عثمان بن عفان فلما تولى بنو العباس أراد الحسن بن زيد أن يوسع المسجد ليهدم دار عثمان كما هدم الوليد دار على عليه السّلام فكتب إلى أبى جعفر المنصور: يصف له ناحية موضع الجنائز. و يقول: إن زيد فى المسجد من الناحية الشرقية توسط قبر النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى المسجد. فكتب إليه أبو جعفر: إنى قد عرفت الذى أردت، فاكفف عن ذكر دار الشيخ عثمان بن عفان (2). و كان اهتمام الوليد فى توسعة المسجد شديدا، و أمر عامله عمر بن عبد العزيز بشراء ما حوله من الدور، و من أبى هدمت عليه داره (3). و شق على أهل المدينة ذلک و أرادوا ترک حجر النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم على حالها لينظر إليها الحجاج و الزوار، و المسافرون، و يكون ذلک أدعى لهم إلى الزهد فى الدنيا، فلا يعمرون فيها إلا بقدر الحاجة، و يعرفون أن هذا البنيان العالى إنما هو من أفعال الفراعنة و الأكاسرة. فكتب عمر بن عبد العزيز إلى الوليد بما أجمع عليه الفقهاء العشرة من عدم الرضا بالهدم. فأرسل إليه الوليد يأمره بالخراب و بناء المسجد، و لما شرعوا فى الهدم صاح الأشراف و وجوه الناس من بنى هاشم و غيرهم، و بكوا مثل يوم مات فيه النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم (4). و يظهر أنه لم يجسر أحد من عمال المدينة على الهدم، و لذلک اضطر الوليد إلى جلب عمال من بلاد الروم، و كانوا أربعين من الروم و أربعين من القبط (5).

عثمان بن حيان:

عثمان بن حيان المرى مولى أم الدرداء أو مولى عتبة بن أبى سفيان.

1- 1) مختصر تاريخ البلدان [1]لأبى بكر أحمد بن إبراهيم المعروف بابن الفقيه ص 107.

2- 2) الدرة الثمينة لابن النجار ص 85. [2]

3- 3) الدرة الثمينة ص 81. [3]

4- 4) تاريخ ابن كثير ج 9 ص 74-76.

5- 5) الدرة الثمينة ص 81 و [4]الطبرى ج 8 ص 65. [5]

كـان ظالمـا متعسـفا، و أول عمـل أجراه فی المدینـة أنه أرسـل علی جماعـة من العلماء کانوا یأمرون بالمعروف و ینهون عن المنکر، منهم محمـد بن المنکـدر أحـد العلمـاء الثقـات و من تلامـذة الإمـام البـاقر علیه السّلام فضـربهم، و نکـل بهم لما کان من کلامهم، و أمرهم بـالمعروف و نهیهم عن المنکر. کما حـدث بـذلک مالک بن أنس (1). و نفی العراقیین من المدینـة، و حـذر کـل من آواهم، لأنهم کانوا یسـتجیرون بالحرم النبوی من الحجاج و جوره، فکان یتتبعهم و یرجعهم إلی الحجاج مقیـدین بالحدیـد، و لم یترک أحدا لا تاجرا و لا غیر تاجر. و خطب علی المنبر فقال: أیها الناس إنا وجـدناکم أهل غش لأمیر المؤمنین فی قـدیم الـدهر و حـدیثه. ثم ذکر العراقیین و وصـفهم بالشـقاق و الغدر. ثم قال: و اللّه ما جربت عراقیا قط إلا وجدت أفضلهم عند نفسه الذی یقول فی آل أبی طالب ما یقول و ما هم لهم بشیعة. . . و اللّه إنی لا أوتی بأحد آوی أحدا منهم أو أکراه منزلا، إلا هدمت منزله و أنزلت به ما هو أهله (2).

أبو بکر بن محمد:

أبو بکر بن محمـد بن عمر بن حزم المتوفی سـنة 121 ه-کـان من العلماء و من رجال الصـحاح، و تولی قضاء المدینـة، ثم ولی إمرتها بعد عثمـان بن حیـان المری. و کان عثمان قـد عزم علی التنکیل بأبی بکر و أن یلحق رأسه و لحیته، و لکن عاجله أمر سـلیمان بتولیـة أبی بکر و عزله، و تقییده بالحدیث و ذلک فی سنة 96. أقام أبو بکر بولایة المدینة من سنة 96 ه-إلی سنة 101 ه-فعزله یزید و ولی مکانه عبد الرحمن بن الضحاک الفهری، و اشتد علی أبی بکر و عذبه بما یطول ذکره.

عبد الرحمن بن الضحاک:

عبد الرحمن بن الضحاک بن قیس الفهری.

1- 1) السخاوی فی التحفة ج 3 ص 381. [1]

2- 2) الطبری ج 8 ص 92. [2]

تولى إمرة المدينة سنة 101 ه-ولاه يزيد بن عبد الملک بعد أبى بكر بن حزم، ثم عزله سنة 104 ه-و ولى مكانه عبد الواحد بن عبد اللّه بن بشر النضرى و أمره أن يعذب عبد الرحمن، و أن يضربه بالسياط، و أن يغرمه ألف دينار، ففعل به عبد الواحد ما أمره يزيد، و سلب ماله حتى أصبح لا يملک إلا جبة صوف، و هو يسأل الناس، لسوء حاله و شدة حاجته. و كان عبد الرحمن هذا سيئ السيرة، عامل الناس بالظلم و التعسف و عادى الأنصار، و ضرب أبا بكر بن حزم ظلما و عدوانا، فكرهه الناس و هجاه الشعراء.

عبد الواحد النضرى:

عبد الواحد بن عبد اللّه بن بسر النضرى، نسبة لجده النضر بن معاوية. ولى إمرة المدينة و مكة و الطائف فى سنة 104 ه-من قبل يزيد بن عبد الملک إلى أن عزله هشام بن عبد الملک سنة 106 ه-و ولى مكانه إبراهيم المخزومى، و كان مرضى السيرة عند أهل المدينة، و لا يفعل أمرا إلا بعد استشارة القاسم بن محمد بن أبى بكر.

إبراهيم بن هشام:

إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومى هو خال هشام بن عبد الملک ولى المدينة سنة 106 ه-و ضم إليه الطائف و مكة، و بقى واليا إلى سنة 114 ه-. و حج بالناس سنة 100 ه-و خطب بمنى يوم النحر بعد الظهر فقال: سلونى أنا ابن الوحيد، لا تسألون أحدا أعلم منى، فقام إليه رجل من أهل العراق فسأله عن الأضحية أ واجبة هى أم لا؟ فما درى أى شىء يقول.

خالد بن عبد الملک:

خالد بن عبد الملک بن الحارث بن الحكم بن أبى العاص. ولى إمرة المدينة سنة 114 ه-بعد عزل إبراهيم بن هشام، و بقى واليا عليها إلى سنة 118 ه-و ولى مكانه محمد بن هشام بن إسماعيل أخو إبراهيم الوالى السابق. و كان خالد يحمل على على عليه السّلام و يتكلم على منبر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم

بانتقاصه، فقام إليه داود بن قيس فبرک على رکبتيه و قال له: کذبت کذبت حتى خفضه الناس (1).

محمد بن هشام:

محمد بن هشام بن إسماعيل المخزومى خال هشام بن الحکم ولى سنة 118 ه-و بقى واليا عليها إلى سنة 125 ه-و عزله الوليد الفاسق، و ولى مکانه يوسف بن محمد بن يوسف الثقفى، و هو خال الوليد. و أضاف إليه مکة و الطائف. و غضب الوليد على إبراهيم و محمد ابنى إسماعيل المخزومى، و هما من أمراء المدينة السالفين، فسجنهما و دفعهما إلى يوسف بن محمد موثقين فى عباءتين فقدم بهما المدينة فى شهر شعبان 125 ه-و أقامهما للناس ثم بعث بهما إلى يوسف بن عمر عامل العراق، فعذبهما عذابا شديدا حتى ماتا تحت العذاب (2).

يوسف الثقفى:

يوسف بن محمد بن يوسف الثقفى ابن أخى الحجاج و خال الوليد. ولى المدينة سنة 125 ه-ولاّه ابن أخته الوليد الفاسق، و ضم إليه جميع الحجاز، و أقره يزيد بن الوليد، و بقى واليا إلى سنة 126 ه-و عزله و ولى مکانه عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز، و بقى واليا إلى سنة 129 ه-ثم عزله مروان الحمار، و ولى مکانه عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملک بن مروان، و هو آخر ولاة الأمويين على المدينة و الحجاز. و فى عهده دخل المدينة أبو حمزة الخارجى فى صفر سنة 130 ه-بعد وقعة قديد و قد قتل فيها من أهل المدينة خلق کثير. و قامت النياحة فى بيوت أهل المدينة. و دخل أبو حمزة الخارجى مدينة الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و هرب عبد الواحد بن سليمان إلى الشام و أقام أبو حمزة الخارجى فى المدينة ثلاثة أشهر، ثم خرج لقتال مروان الحمار، فلقيهم عبد الملک بن محمد بن عطية السعدى فى جيش فأوقعوا بأصحاب أبى حمزة، و انهزم جيشه، و عادوا إلى المدينة منهزمين، فلقيهم أهل المدينة فقتلوهم

1- 1) ابن عساکر ج 5 ص 82. [1]

2- 2) ابن کثير ج 10 ص 4 و [2]الطبرى ج 8 ص 299. [3]

و دخل المدينة عبد الملک بن محمد بن عطية منتصـرا و أقام شـهرا ثم مضـى إلى مكة و استخلف على المدينة ابن أخيه الوليد بن عروة بن محمد بن عطية.

ولاة المدينة فى العهد العباسى:

أما أمراء المدينة فى العهد العباسى فعند ما ولى أبو العباس السفاح عزل عن المدينة يوسف بن محمد بن يوسف الثقفى أمير المدينة من قبل الأمويين، و ولى عمه داود بن على بن عبد اللّه بن العباس، و ذلک فى سـنة 132 ه-و ضم إليه مكة، و اليمن، و اليمامة. و لما دخل المدينة هـدد النـاس و توعـدهم و قال فى خطبته: أيها الناس أغركم الإمهال حتى حسـبتموه الإهمال، هيهات منكم و كيف بكم، و السوط كفى، و السيف مشهر. حتى يبيد قبيلة فقبيلة و يعض كل مثقف بالهام

و يقمن ربات الخدور حواسرا يمسحن عرض ذوائب الأيتام

و لكن اللّه لم يمهله و عجل عليه فلم تطل أيامه و مات فى شهر ربيع الأول سنة 133 ه-و كانت مدة ولايته أقل من ثلاثة أشهر. و لما دنت وفاته اسـتخلف ولده موسـى، و ولى السـفاح مكانه زياد بن عبيد اللّه بن عبد المدان الحارثى، و هو خال السـفاح و بقى إلى أيام المنصور و عزله فى سنة 141 ه-و غضب عليه و حمله إلى الكوفـة مكبلا بالحديد. و ولى مكانه محمد بن خالد بن عبد اللّه القسـرى ثم عزله فى سـنة 144 ه-. و ولى مكـانه رياح بن عثمان بن حبان المرى و بقى إلى سـنة 145 ه-و فى عهـده ثار محمد بن عبد اللّه بن الحسن فى المدينة، و قبض على رياح و أخيه إبراهيم و أودعهما السجن، و دخل رجل من ولد مصعب بن الزبير عليهما فى السجن عند ما اشتد القتال بين محمد بن عبـد اللّه و بين جيش المنصور فـذبحهما، و رجع إلى محمـد و قاتل معه حتى قتل. ثم ولى إمرة المدينـة-بعـد قتل محمـد-عبد اللّه بن الربيع الحارثى و ذلک فى سنة 145 ه-و بقى واليا إلى سنة 147 ه-ثم عزله المنصور.

و ولی جعفر بن سلیمان بن علی بن عبد اللّه بن العباس و بقی والیا من قبل المنصور إلی سنة 149 ه-. و فی أیامه مات أبو عبد اللّه الصادق علیه السّلام و ذلک فی سنة 148 ه-مسموما. هذا موجز من البیان عن ولاة إمرة المدینة فی العهد العباسی، و قد شهدت المدینة المنورة فی عهد ریاح بن عثمان المری-الذی ولاه المنصور إمرة المدینة- أولئک الجند القساة یهجمون علی منازل آل الرسول صلّی اللّه علیه و آله و سلم، و یخرجون الرجال منها فیزج بهم فی السجون، و یعذبون فیها بدون رحمة، و لا خشیة من عقاب. و لعل من أعظم تلک المشاهد وقعا، و أشدها ألما، مرور موکب آل الرسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم من شیوخ و شبان فی شوارع المدینة، و هم مکبلون فی الحدید، و قد غیر ألم العذاب نضارة تلک الوجوه یحوط بهم جند المنصور و هم یسیرون إلی الکوفة حتی أودعوا فی سجنه المظلم فکان به خاتمة مطافهم، و هو بیت ضیق لا یتمکن أحدهم من مقعده، یبول بعضهم علی بعض و یتغوط، لا یدخل علیهم روح الهواء، و لا یخرج عنهم رائحة القذر حتی ماتوا عن آخرهم (1). و فی خضم هذه الأحداث کان الإمام الصادق یعیش معترکا حادا تختلط فیه المشاعر بالمسؤولیات الجسام و لیس أشق علی نفسه الکریمة الطاهرة من ذاک المنظر و هو یری برباطة جأش ما ذا سینجم عن هذه الجولة التی کان وقوعها أمرا مقدرا لم یدخل فی دائرة الاحتمالات علی المدی الذی کان یلوح فی الأفق. یروی الحسین بن زید: انی لواقف بین القبر و المنبر، إذ رأیت بنی الحسن یخرج بهم من دار مروان مع أبی الأزهر یراد بهم الربذة، فأرسل إلی جعفر بن محمد فقال: ما وراءک؟ قلت: رأیت بنی الحسن یخرج بهم فی محافل، فقال: اجلس، فجلست، قال: فدعا غلاما له، ثم دعا ربه کثیرا، ثم قال لغلامه: اذهب، فإذا حملوا فأت فأخبرنی. قال: فأتاه الرسول فقال: قد أقبل بهم. فقام جعفر فوقف وراء ستر شعر أبیض من ورائه. فطلع بعبد اللّه بن الحسن و إبراهیم بن الحسن و جمیع أهلهم، کل واحد منهم معادله مسوّد، فلما نظر إلیهم جعفر بن محمد هملت عیناه حتی جرت دموعه علی لحیته،

1- 1) البدء و التاریخ ج 6 ص 85. [1]

ثم أقبل علىّ فقال: يا أبا عبـد اللّه، و اللّه لا تحفظ للّه حرمـة بعد هذا، و اللّه ما وفت الأنصار و لا أبناء الأنصار لرسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم بما أعطوه من البيعة على العقبة (1). و بعد أن عرفنا أهم الحوادث التى جرت فى عهد الإمام الصادق عليه السّـلام سواء أ كانت فى عهد جده زين العابدين عليه السّـلام أم فى عهد أبيه الإمام الباقر عليه السّـلام أو فى عهده بالذات فإنه يتضح لنا مدى تحمله للمتاعب و مواجهته للآلاـم التى مـاجت بهـا تلـك الفترات. كمـا تتضـح لنا الظروف التى أحاطت به و المشاكل التى كان يواجهها و قـد عايش تلك الأحداث التى عمّت العالم الإسـلامى و تخطى معه تلك المراحل العصـيبة يوم أصبح الحق لا يعمل به، و الباطل لا يتناهى عنه. و كانت الأهواء هى الحاكمة، و الأحقاد هى المسـيطرة، و قد رضخ المسلمون لحكم أناس ابتعدوا عن القرآن و تركوا العمل بسنة الرسول فأصبحت الأمة الإسـلامية يثقل كاهلها أطماع أولئك الحكام و يرهقها جورهم. و فى عهد الإمام الصادق كانت البلاد الإسلامية مشحونة بالخلافات و المشاحنات و حـدثت ثورات دمويـة و حروب طاحنـة، أدت إلى اسـتغلال الوضع من قبل أناس لا يهمهم إراقـة الدماء فى سبيل تحقيق مآربهم الشخصـية. و قد تولى الإمام الصادق عليه السّلام أعباء الإمامة و مسئولية أداء رسالة الإسلام و هداية الأمة بعد أبيه الإمام الباقر عليه السّـلام و قد لمعت شخصيته. و ظهرت قابلياته. فتوالت عليه الطلبات لقيادة تلك الثورات التى قامت بوجه الطغيان، و اتجهت إليه الأنظار للاحتجاج على ذلك الحكم الظالم، و كانت الدعوة باسم أهل البيت عليهم السّلام، لأنهم زعماء هذه الأمة و أملها المنشود. و كان الإمام الصادق عليه السّـلام قـد اختط لنفسه طريق الـدعوة الصامتـة و الثورة الإصـلاحية، بعد أن عرف بثاقب بصـره و خبرته-و هو ينظر إلى تلك الحوادث-أن هذه الثورات لا تؤدى إلى الغاية التى ينشدها، و لا تحقق الهدف، بل فى ذلك مزيد

1- 1) مقاتل الطالبيين ص 219-220. و [1]تاريخ الطبرى ج 9 ص 194. [2]

من التضحيات التى لا يتورع بنو أمية فى مقابلتها عن سفک الدماء، و كفى أمة محمد ما أريق من دماء، و كفى أهل البيت و شيعتهم ما أزهق من أرواح. و كان يعلم عواقب تلک الخلافات، و يتحسس حاجة المجتمع الإسلامى إلى التوجيه الصحيح، و الدعوة إلى الالتزام بمبادئ الإسلام و تعاليمه، ليحقق بذلک التكافل الاجتماعى، و التآزر العام، فقد بذر الحكام بين الصفوف بذور الفرقة و جعلوا جسم المجتمع مغرسا للأهواء و الأباطيل، و للسلطة مفعولها فى شد النفوس إليها، و إحاطة أهل البيت بستار من الريبة و الخوف ليمنعوهم من التأثير فى الأمة. فقام عليه السّلام بمهمة التوجيه، ليخلق الوعى بين الصفوف، و ليحقق التكاتف و التآخى، و ليقضى على بقايا رواسب جاهلية عملت على إحيائها طغمة حاكمة، لتحقق لنفسها مغانم تسند بها سلطانها الجائر، و حكمها الظالم، و قد شهد طغيان المؤثرات القبلية و السياسية و غيرها. إن الدعوة التى قام بها الإمام الصادق عليه السّلام إنما هى ثورة إصلاحية و حملة توجيه عامة، ليوجد من تلک الجموع الثائرة أمة ذات وعى تحسب للظروف حسابها، و تنظر الوقت المناسب لقيام الثورة المتكفلة لتحقيق غايتها و تحقيق هدفها فى إعادة الخلافة الإسلامية و تطبيق نظام الإسلام الذى يكفل للبشر سعادتهم. و الإمام الصادق عليه السّلام وسط ذلک المعترک هو الموجه القائد الذى اجتمعت فى شخصيته جميع مؤهلات القيادة العامة، و قد واجه تلک الحوادث بحزم و ثبات. و قد رد عليه السّلام طلب من ألح عليه فى تزعم الحركة الثورية التى نشبت فى أيامه بين أنصار العلويين و بين الأمويين، و كانت الدعوة باسم أهل البيت عليهم السلام و هو زعيمهم و سيدهم فى عصره. و لكنه كان يرى أن إصلاح الوضع بالتوجيه الصحيح و تفهيم الناس ضرورة الوقوف تجاه الخصوم موقف تحسس بما تؤول إليه الحالة من التسرع فى إثارة الحرب، و أن ذلک لا يجدى نفعا لوجود ذوى الأطماع الذين لا يقل ضررهم على الأمة الإسلامية من ضرر الأمويين، و بهذا يكون حل المشكلة بمشكلة أعظم منها. و اتخاذ مثل هذا الموقف الذى اتخذه الإمام لنفسه و من ورائه ذوو البصيرة من أعيان الأمة ليدلّ على عمق التفكير و حصافة الرأى من ناحية عملية، و من الناحية

العقيدية، فهو صاحب ولاية و عهد تضمنتهما الإمامة التى آلت إليه بعد وفاة أبيه الإمام الباقر عليه السّلام و هى فى سياق الدعوة متصلة بمصادر الرسالة متعلقة بمصير الدين. فإن الأمة شهدت على يد الملوك الذين تلبّسوا بالدين انحرافا فى مسيرة السياسة و ارتدادا فى الغايات و الأهداف، و لا يحظى تطبيق نظام الإسلام فى ظل خلافة الملوك بمعشار ما تحظى به مصالح الحكام و مآربهم الشخصية و هم لا يتورعون بحال عن استثارة ما منع من الإسلام أو إحياء ما عمل على هدمه النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم. و قد أصبح لسلاطين الزمان قوة و صولة حتى انعدمت حالات التكافؤ، و مع ما هم عليه من الشوكة و النفوذ لم يتمكنوا من إخماد صوت الحق أو منع المؤمنين من العمل بالعقيدة الحقة، و قد تصدّى أهل البيت للحفاظ على روح التحدى فى نفوس المؤمنين بشجاعة و بطولة إذ نذروا أنفسهم لدعوة الحق و قيادة تيار الالتزام و الاتجاه الدينى. فعمل الإمام الصادق بعد وفاة أبيه على جمع شيعته و مريديه على قواعد المنهج و السلوك المعروفين منذ عهد جده الإمام زين العابدين عليه السّلام. لقد وقف الإمام الصادق عليه السّلام موقف المصلح الذى يحاول أن يعيد للأمة مجدها فى تعميق مبادئ الإسلام الصحيحة، و نشر الوعى الإسلامى بما يجب على كل مسلم أن يقوم به فى إصلاح الوضع، فى عصر انتشر به الفساد و منى المجتمع فيه بضروب المحن و الابتلاء، و هو عليه السّلام بدون شك يحمل من الأذى أضعاف ما تتحمله أفراد الأمة، لأنه المصلح الذى يريد للمجتمع السعادة المفقودة فى عهد ولاة لا تحترم حقوق الأمة المشروعة، و تتحدى نظامها المقدس، إذ استبدوا بالأمر و ظلموا الأمة، و استأثروا بالمغانم، و خالفوا الكتاب و السنّة فى سبيل غاياتهم، و خلقوا مشكلات الخلاف و التعصب ليفرقوا الكلمة، و يشتتوا الشمل و يشغلوا الأفكار، مما أثر على سير المسلمين و تقدمهم من الجهة الروحية التى هى قوام دينهم، و ذلك خلاف ما قرره الإسلام، لأنه يدعو إلى كلمة التوحيد و توحيد الكلمة. و الإمام يرى أن واجبه يحتم عليه نشر دعوة الإصلاح، و توجيه المجتمع و بث تعاليم الدين، و أن يعلن غضبه على ذلك النظام الجائر بصفته إمام زمانه، و لكنه ما ذا يصنع و هو الرجل المغلوب على أمره، و المغصوب منه حقه، و مع ذلك فإنه لم يأل جهدا فى معارضتهم، و نهى الناس عن مخالطتهم و التولى لأعمالهم، و قد أوجب على

الأفراد عـدم التعاون مع ولاة الأمر، و حرم عليهم العمل لهم، و حـذر و أوعـد من عاونهم بالعـذاب لأنه كبيرة من الكبائر، إذ الوالى الجائر يشـتد عزمه و تتسع دائرة اسـتبداده عنـد ما يكثر مناصـروه. كان الإمام عليه السّلام يرى أن انفصال الأمة عن الظالمين و عدم الركون إليهم يضـيق دائرة الاسـتبداد و يرغم الولاـة على العـدل، و يأمـل من وراء ذلـک لهم السـعادة، و الغرض أن ولاة ذلک العصـر أو خلفاء الـدولة المروانية قد انهمكوا فى الدنيا و سـفكوا الدماء، و انتهكوا المحرمات و تجاهروا فى عداء آل محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلم، و تتبعوا من عرف بحبهم، و الميـل إليهم، و تقريب من عرف ببغضـهم، و هم يحاولون بـذلک تحويل أنظار الأمـة عن أهل البيت أهل العلم و الورع و العبادة. و الناس و إن تمكن من نفوسهم حب الدنيا و الطموح إلى المال فهم يخضعون لسيطرة العلم و الدين بدافع العقيدة، و حب الناس، لآل محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لا للدنيا و لكنه للدين وحده، فحبهم من الدين، لذلک كان يثقل على بنى أمية ذكر أهل البيت بخير، لأن سياستهم ترتكز على بغضهم و نصب العداء لهم، و إقصاء من عرف بحبهم، و قتل من اتضح منه ذلک. تارة باسم الزندقة و أخرى باسم الخروج على طاعة السلطان. و يعطينا الشاعر العبلى (1)صورة عن تلک السياسة بقوله: شردوا بى عند امتداحى عليا و رأوا ذاک فىّ داء دويا

فو ربى ما أبرح الدهر حتى تختلى مهجتى بحبى عليا

و بنيه لحب أحمد أنى كنت أحببتهم بحبى النبيا

حب دين لا حب دنيا و شر الحب حب يكون لى دنيويا

صاغنى اللّه فى الذوابة منهم لا ذميما و لا سنيدا دعيا

و كان هذا الشاعر فى عداد الأمويين، فهو من عبد العزى بن عبد شـمس و لكن يكره ما يجرى عليه بنو أمية من ذكر على و سبه على المنابر، و يظهر الإنكار، فنهوه عن ذلک و نفوه من مكة إلى المدينة، و عاش مجفوا من الأمويين مع مدحه لهم و شعره فيهم.

1- 1) هو عبد اللّه بن عامر بن عبد اللّه بن ربيعة بن عبد العزى.

ثم خلفتها الدولة العباسية فزادت على أعمال الدولة الأموية، حتى قال أحد مخضرمى الدولتين: يا ليت جور بنى مروان دام لنا و ليت عدل بنى العباس فى النار

لأنهم تتبعوا الذرارى العلوية فقتلوهم تحت كل حجر و مدر، و خربوا ديارهم و هدموا آثارهم حتى قال الشعراء فى عصر المتوكل: تالله إن كانت أمية قد أتت قتل ابن بنت نبيها مظلوما

فلقد أتته بنو أبيه بمثله هذا لعمرک قبره مهدوما

أسفوا على أن لا يكونوا شاركوا فى قتله فتتبعوه رميما

و كابد أهل البيت من المحن ما لا يمكن حصره، فقد امتلأت منهم السجون و اهتزت بأجسامهم المشانق، و سالت بدمائهم الأرض. و كانت السلطة الحاكمة تشجع خصومهم و تدعو الناس للابتعاد عنهم. فيصدر مرسوم من بغداد إلى مصر، بأن لا يقبل علوى ضيعة و لا يركب فرسا و لا يسافر من الفسطاط إلى طرف من أطرافها، و أن يمنعوا من اتخاذ العبيد إلا العبد الواحد، و إن كانت بين علوى و بين أحد من سائر الناس خصومة فلا يقبل قول العلوى و يقبل قول خصمه بدون بينة (1)و كانوا بين آونة و أخرى، يصدر مرسوم بأن يسفروا من الأطراف إلى عاصمة الملک ليكونوا تحت الرقابة، و ينالوا العقاب هناک، و أمر الرشيد عامله على المدينة أن يضمن العلويون بعضهم بعضا و كانوا يعرضون على السلطان كل يوم فمن غاب عوقب. أما عاصمة ملكهم بغداد، أو مقر حكمهم العراق فأمر العباسيين مع العلويين أشهر من أن يذكر بإشارة، فلو نطقت أجزاء الأرض ما بين البصرة و فخ و كوفان و مقابر قريش و أفصحت عما احتوت و ما شهدت لضج ما بين المشرق و المغرب لهول المشاهد و الأحداث من أناس لو لا اسم أهل البيت لكانوا أبعد عن السلطان و الحكم، و لكنهم أخفوا نواياهم و استظلوا بمكانة أهل البيت و محبة الناس لهم و تفجعهم لما حل بهم.

1- 1) الولاة و القضاة للكندى ص 198. [1]

و لم يقف العلويون تجاه هذه السياسة موقف الذلة و الخضوع، و أبت نفوسهم التسليم لتلك النظم و الأحكام القاسية، و قد استطاعوا الإفلات من تلك السيطرة، فثاروا فى وجه الظلم لرفع راية العدل، فكانت هناك ثورات دموية كان النجاح مع أكثرهم فأسسوا دولا و حكومات أقلقت العباسيين و دفعتهم إلى الانتقام من العلويين، و تطبيق مادة الفناء و الإبادة بحق من عرف بالميل لهم أو اتهم بذلك، فحاكوا لهم التهم، و لصقوا بهم العيوب، فلقيت شيعة أهل البيت من ذلك أشد الأذى، و لكنهم ذللوا تلك المصاعب بسلاح العقيدة و الإيمان الصحيح، و وقف معسكرهم من البداية إلى النهاية مرابطا على خط الدفاع عن حقوق آل محمد و الانتصار لهم. على أن الأكثرية الساحقة دعاهم الطمع و حب الدفاع عن النفس، -و هو من الغرائز الملائمة لطبيعة الإنسان-للتظاهر مع السلطة على هضم حقوق العترة و بث تلك الدعايات الكاذبة ضد شيعتهم لفزعهم من الأحكام القاسية التى تطبق على الشيعة، إذ شاهدوا أن أقرب الناس من ساحات الأمن و أبعدهم عن الخطر من ألف كتابا فى ذمهم أو أبدى رأيا فى مؤاخذتهم أو الطعن فى معتقداتهم أو قال شعرا يهجوهم به، أو عرف بالعداء لآل محمد، و هم أئمة الشيعة و لا يرون طاعة أحد غيرهم، فتجد الكتّاب و العلماء و الشعراء يتقربون إلى ولاة الأمر بما يحط من كرامتهم، لينالوا شهادة الانتساب إلى مؤيدى السلطة و يتنعموا بالسحت الحرام الذى تدرّه عليهم ألسنتهم الخبيثة و أقلامهم الدنيئة. هذا بشار بن برد المعروف بالزندقة و الإلحاد يقف أمام الخليفة العباسى فينشد: أنّى يكون و ليس ذاك بكائن لبنى البنات وراثة الأعمام

فيجيزه المهدى بسبعين ألف درهم، فما حال الرعاع و ذوى الحاجة و الضمائر الرخيصة الذين يبيعون ضمائرهم بأبخس الأثمان عند مشاهدة هذا التشجيع. و يدخل مروان بن حفص على المهدى فينشده قصيدة يتعرض بها لآل على عليه السّلام. هل تطمعون من السماء نجومها بأكفكم أو تشترون هلالها

أو تدفعون مقالة عن ربكم جبريل بلغها النبى فقالها

شهدت من الأنفال آخر آية بتراثهم فأردتم إبطالها

يعنى بذلک بنى على و بنى العباس (1). فترى المهدى يتزاحف من صدر مصلاه حتى صار على البساط إعجابا بما سمع و تقديرا لموهبة هذا الشاعر. . ثم قال له كم بيتا هى؟ قال: مائة بيت، فأمر له بمائة ألف درهم. و ناهيک بما فى هذا العمل و التشجيع من الخليفة و أثره فى نفوس العامة، و لا شىء أملک للنفس من عطف الأمراء و توددهم للأفراد بما تميل طباعهم إليه إلاّ من أحبّه اللّه و وقاه. دخل رجل على الرشيد فقال: لقد هجوت الرافضة، قال: هات فأنشد: رغما و شمسا و زيتونا و مظلمة من أن تنالوا من الشيخين طغيانا

قال الرشيد: فسره لى. قال: لا، و لكن أنت و جيشک أجهد من أن تدرى ما أقول. قال: و اللّه ما أدرى ما هو. و أجازه. و يقف مروان بن أبى الجنوب فينشد المتوكل شعرا ينال فيه من آل على و يذم شيعتهم، فيأمر المتوكل بأن ينثر على رأسه ثلاثة آلاف دينار، و يأمر ولده سعد ألا يتأنى بالتقاطها له، و يعقد له على إمارة البحرين و اليمامة و يخلع عليه أربع خلع (2). هذا بعض ما أبدته السلطة فى مقاومتهم و تشجيع خصومهم، و لكنه عمل لم يثمر أى شىء. فآل محمد لا تستطيع أى قوة إخفاء ذكرهم أو محو آثارهم، فهم فى كل زمن أعلام هدى، و دعاة صلاح و ذكرهم يتجدد كلما تحرر الفكر و ازدهر العلم. و المنصف إذا نظر إلى انتشار مذهب أهل البيت فى الأقطار الإسلامية، كالعراق، و الحجاز، و مصر و الشام و الأندلس و الهند و إيران، و البحرين و القطيف و غيرها، يرى أن ذلک الانتشار إنما كان بحسب ذاته و لياقته و قيمه الروحية، مع شدة مقاومة السلطات فكلها تتصف بالعداء له و وقفوا دون انتشاره مواقفا خانهم النجاح فيها، و سيتضح كل ذلک عند دراساتنا لنشأة المذاهب الإسلامية و عوامل انتشارها، و ها نحن ننتقل بالقارئ الكريم إلى البحث عن نشأة المذاهب و اللّه ولى التوفيق.

1- 1) الخطيب ص 13 ص 144.

2- 2) ابن الأثير ص 7 ص 38. [1]

المذاهب الأربعة

اشارة

نشأتها و شهرتها و انتشارها

تمهيد:

و قبل البحث عن حياة أئمة المذاهب الأربعة يلزمنا ذكر أسباب نشأتها و كيف تكيف الالتزام بها دون غيرها من المذاهب، حتى أصبح الوقوف عند قول إمام معين لازم، و لا يمكن استنباط حكم شرعى لأى أحد دون أولئک القوم الذين وقفت قافلة التشريع الإسلامى عندهم، فأصبحوا المصدر للتشريع و المرجع الأعلى فى الدين، حتى ادعى استحالة الاجتهاد لمن بعدهم، فأغلق بابه فى وجوه المسلمين. و غلق باب الاجتهاد جمود للتشريع و وقف لتطور حياة الأمة، فتلک أمور يلزمنا النظر فيها و لا نستطيع فهمها إلا بعد أن ندرس الظروف التى تكونت فيها فكرة التمذهب بمذهب إمام معين، و نبحث عن أسباب نشأتها و عوامل انتشارها، فهل كانت دواعى الانتشار بسبب القيم الروحية؟ أم أنها استندت إلى السلطة التنفيذية؟ و هل كانت مستقلة عن تأثير السلطة أم أنها عرضة لذلک؟ و هل أخضعتها لمتابعتها أم أنها خضعت لأغراض الولاة؟ و سيتضح لنا ذلک عند ما نبحث عن نشأة المذاهب.

نشأة المذاهب:

على اثر النجاح الذى أحرزته الجمعيات السرية المنعقدة ضد النظام الأموى طلع نجم بنى العباس، و كان لهم نشاط سياسى فى المجتمع، فهم فى طليعة رجال حركة الانقلاب الذى أحدثته الأمة لتحويل الحكم من البيت الأموى إلى البيت العلوى، و كان العباسيون أشد الناس حماسا فى إيقاد نار الثورة انتقاما من الأمويين لأبناء على عليه السّلام و كانت هتافات الثورة هى الدعوة إلى الرضا من آل محمد. و كانوا بذلک يتغلغلون فى أوساط الناس، و بواسطة هذا الشعار أوجدوا لأنفسهم مكانا فى

قيادة تيار النقمة و توجيه الثورة، و هم فى قرارات أنفسهم يستغلون شمولهم بتسمية أهل البيت و قد أخفوا نواياهم حتى حين، إذ ليس من السهل أن يكاشفوا شيعة أهل البيت أو يصرحوا بعزمهم على العمل لأنفسهم كبيت عباسى مستقل، و لو فعلوا ذلک قبل نجاح الثورة فمن المؤكد أن جماعات الثوار ستلفظهم أو تتخذ ما يناسب ذلک، لأن الأمر فى أذهان الناس لا يعدو آل محمد و لا يتجاوز البيت العلوى الذى كان قطب الرحى فى المسيرة، و أى عمل يكشف عن نوايا العباسيين المبيتة سيؤدى بهم بعيدا عن الثورة. على هذا ثارت الأمة و انتظمت صفوفها التى نالت الانتصار فى تلک الحروب الدامية، و محيت أمية من صفحة الوجود، ثم نال العباسيون ثمرة ذلک الغرس بمسايرة الركب و مجاراة المشاعر، فتاقت نفوسهم إلى انتحال هذا الاسم عسى أن يوفقوا لإقناع الأمة بانطباقه عليهم فتكون لهم حكومة وراثية، و تمنحهم الأمة ثقتها التامة. و بالطبع ان هذه الفكرة لا تلاقى كثير قبول عند العرب و فى المدينة و مكة فى الخصوص، لذلک وجهوا عنايتهم إلى الموالى. فأهل المدينة أعرف بآل محمد و أدرى بنزول الآيات فيهم، و أحاديث النبى و وصاياه فى آله، و لأنهم شاهدوا تلک الأعمال التى عامل الأمويون بها آل محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و تألموا لها، فكان كل ينكر ذلک و يتمنى مناصرتهم فلا يمكنهم أن يجعلوا العباسيين هم آل محمد. و حذرا من إنكار العرب و انضمامهم لجانب العلويين اقتضت سياستهم توجيه العناية إلى الموالى، و هم يأملون من وراء ذلک تثبيت قواعد المملكة اليوم و النقمة من العرب يوما آخر.

المدينة و الحركة العلمية:

كانت المدينة المنورة مصدرا للفتيا ترجع إليهم الأمة فى مهمات التشريع الإسلامى لأنها مركز العلم و فيها أصحاب الرسول و أهل بيته و التابعين لهم بإحسان، و قد لاحظت الدولة الأموية من قبل هذه المهمة التى يجب أن تلاحظها، و هى اتجاه الأنظار إلى المدينة لأنها الجامعة الإسلامية و يخشى على الدولة خطرها، فكانت تحذرهم أشد الحذر، فاستمالت أكثر الفقهاء بالعطاء و الرجوع إليهم فى المهمات، لتسد بذلک ثغرة الخطر على الدولة.

و فی العهد العباسی نشطت الحرکة العلمیة و کان طبیعیا أن تنتعش العلوم فی ظل سلطانهم لأنهم کانوا یجعلون حقهم فی الإمامة قائما علی أنهم سلالة النبی، و کانوا یقولون إنهم سیشیدون-علی اطلال الحکومة الموسومة بالزندقة عند أهل التقی- نظاما علی سنة النبی و أحکام الدین الإلهی. فنهض أهل البیت و بقیة العلماء لنشر العلم إذ وجد المسلمون حریة الرأی، و التفوا حول آل البیت لانتهال العلوم من موردهم العذب، و کان الإمام الصادق علیه السّلام هو الشخصیة التی یتطلع إلیها الناس یوم طلع فجر النهضة العلمیة فحملوا عنه إلی سائر الأقطار، و قصده طلاب العلم من الأنحاء القاصیة، و فتحت مدرسته بتلک الفترة فکان المنتمون إلیها أربعة آلاف کما مر ذکره. و هذا النشاط العلمی لا- یروق للدولة الفتیة التی قامت علی اطلال الدولة الأمویة بدون حق شرعی، و إنما فی صالح العلویین و انضمام العباسیین إلیهم یطلبون الانتقام من أمیة التی جرعتهم کأس الغصص فهم کسائر البیوتات التی انضمت لهذه الدعوة، و لکنهم نشطوا بالحیلة، و تغلبوا باصطناع المعروف لآل البیت فکانوا فی حذر متواصل من العرب عامة و من المدینة خاصة، لأن الأمر فی المدینة غیره فی الکوفة، فأهل المدینة قد وقفوا علی حقیقة البیعة و انها لآل علی علیه السّلام دون بنی العباس، کما أنهم کانوا فی طلیعة من بایع محمد بن عبد اللّه بن الحسن و فی رقبة السفاح و المنصور بیعته فکیف یستقلان بالأمر و ینقضان تلک البیعة؟ و لکن السفاح استطاع بمهارته استجلاب قلوب الناس إلیه و تثبیت قواعد ملکه علی أیدی الفرس، لأنه لا یأمن وثبة العرب لجانب العلویین، فهم فی نظر العباسیین أنصار بنی علی لا أنصار بنی العباس، کذلک کان من سیاستهم فی بدء الدعوة قتل کل من یتکلم بالعربیة فی بلاد فارس. و مضی السفاح و جاء المنصور للحکم و هو ذلک الرجل الحدیدی الذی یقتحم مواقع الخطر، و لا یتهیب من إراقة الدماء، و لا یقف أمامه حاجز و لا یردعه وازع دینی فی سبیل ترکیز دعائم ملکه، إذ کان الخطر محیطا به من کل الجهات و أمام غایته حواجز لا یتخطاها إلا بالتجرد عن العاطفة ففتک بأهل البیت و بکثیر من العباسیین أنفسهم، و أبعد علماء المدینة و نصر الموالی و أوجد تلک المعرکة القویة و هی معرکة أهل الحدیث و أهل الرأی.

فقرب فقهاء العراق القائلين بالقياس، و أحاطهم بعنايته ليحول أنظار الناس إليهم، و بذلک تقل قيمة علماء أهل المدينة الذين هم أهل الفتيا إلى حد كبير، و ما زالت الأقطار الإسلامية عيالا عليهم، إذ هم حملة الحديث و أوثق الناس فيه.

أهل الحديث و أهل الرأى:

و كان الحديث فى العراق قليلا و لكن انفتح فيه باب الرأى و القياس، و قد أخذه حماد بن إبراهيم النخعى المتوفى سنة 95 ه-713 م، و أخذه أبو حنيفة المتوفى سنة 150 هج-عن حماد، و كان أهل الحديث يعيبون أهل الرأى بأنهم يتركون الأحاديث لأقيستهم، و الدين لا يقاس بالرأى، و إنما سموا أهل الرأى لأن عنايتهم بتحصيل وجه من القياس و المعنى المستنبط من الأحكام و بناء الحوادث عليها، و ربما يقدمون القياس الجلى على آحاد الأخبار؛ و طريقتهم أن للشريعة مصالح مقصودة التحصيل من أجلها شرعت، فجعلوا هذه المصالح أصلا من أصول الأدلة إذ لم يجدوا نصا فى الكتاب و السنة الصحيحة عندهم، و قد كانت قليلة العدد لبعد العراق عن موطن الحديث. و أما أهل الحديث فلم يجعلوا للقياس و الرأى فى استنباط الأحكام هذا المحل، و اتسعت شقة الخلاف و احتدم النزاع و افترق أهل الفتيا إلى فرقتين. و أنت ترى أن هذا النزاع بعد أن كان علميا محضا أصبح مزيجا بالسياسة أو التعصب، و تعددت فيه عوامل التفرقة لتستند السلطة إلى أقوى الفريقين، و اتسع نطاق الخلاف فترى مالک بن أنس يحط من كرامة العراقيين و يتحامل عليهم و يعلن بقوله: أنزلوهم منزلة أهل الكتاب، لا تصدقوهم و لا تكذبوهم و قولوا آمنا بالذى أنزل إلينا و إليكم و إلهنا و إلهكم واحد (1). و دخل عليه محمد بن الحسن الشيبانى فسمعه يقول هذه المقالة ثم رفع رأسه فكأنه استحيا فقال: يا أبا عبد اللّه أكره أن تكون غيبة كذلک أدركت أصحابنا يقولون، و كان يقرأ إذا نظر إلى العراقيين (تعرف فى وجوه الذين كفروا المنكر) (2).

1- 1) جامع بيان العلم و فضله-2-157. [1]

2- 2) ضحى الإسلام 3-152.

و كان يسمى الكوفة دار الضرب يعنى أنها تضع الأحاديث و تضعها كما تخرج دار الضرب الدراهم و الدنانير. و قال عطاء لأبى حنيفة: من أين أنت؟ قال: من أهل الكوفة، قال: أنت من أهل القرية الذين فرقوا دينهم و كانوا شيعا (1). و مهما يكن من الأمر فقد تعصب كل فريق إلى بلده و تنابزوا، و عيّر أهل المدينة بسماع الغناء، و أهل مكة بالمتعة، و أهل الكوفة بالنبيذ، و اشتدت عصبية كل قوم لبلادهم، و حملتهم على وضع الأخبار فى مدح كل منهم قومه و بلده و ذم مقابله، و عظم الانشقاق بين الطائفتين، و بالطبع ان الكوفة تضعف عن مقابلة الحجاز، و لكن السياسة الزمنية اقتضت أن تكون إلى جانب أهل الرأى لا حبا لهم و لكن بغضا لأهل المدينة، و أصبح لكل جانب أنصار و متعصبون فكان مالك بن أنس فى طليعة أهل الحديث و أنصاره من الحجاز سفيان الثورى و أصحابه، و زعيم أهل الرأى أبو حنيفة و أصحابه و كثير من فقهاء العراق. فالشافعى أخذ عن مالك و أصحابه، و أحمد المتوفى سنة 241 ه-820 م أخذ عن الشافعى المتوفى سنة 204 ه-820 م و أصحابه. و إنما سموا أصحاب الحديث لأن عنايتهم بتحصيل الأحاديث و نقل الأخبار و بناء الأحكام على النصوص و لا يرجعون إلى القياس. يقول الشافعى: إذا ما وجدتم لى مذهبا و وجدتم خبرا على خلاف مذهبى فاعلموا أن مذهبى ذلك الخبر، و تبعه أصحابه، و هم: إسماعيل بن يحيى المزنى، و الربيع بن سليمان الجيزى، و حرملة بن يحيى، و أبو يعقوب البويطى، و ابن الصباح، و ابن عبد الحكم المصرى، و أبو ثور، و غيرهم. و أما أصحاب الرأى، فهم: أبو حنيفة النعمان بن ثابت، و أصحابه: محمد بن الحسن الشيبانى، و أبو يوسف القاضى، و زفر بن الهذيل، و الحسن بن زياد اللؤلؤى، و أبو مطيع البلخى، و بشر المريسى، فهؤلاء عرفوا بأهل الرأى و قالوا إن الشريعة معقولة المعنى و لها أصول يرجع إليها، و لاقتناعهم بمعقولية الشريعة و ابتنائها على أصول محكمة فهمت من الكتاب و السنة كانوا لا يحجمون عن الفتوى برأيهم كما كان يفعل الفريق الأول فإنهم يقفون و لا يتعدون حدود النص، و كانوا يحبون معرفة العلل

1- 1) تاريخ بغداد 13-220. [1]

و الغايات التى من أجلها شـرعت الأحكام، و ربما ردوا بعض الأحاديث لمخالفتها لأصول الشـريعة، و لا سيما إذا عارضها حديث آخر. و بهـذا افترقت الأمـة على فرقتين أهل حديث و أهل رأى، أو أهل المدينة و أهل الكوفة، مع العلم بأن أهل العراق لا يقاسون بأهل المدينة فى الحديث، فكان القياس عندهم أكثر و عليه يبنون غالب فتاواهم، و نشط سير الحركة العلمية فى ذلك العصر.

نشوء المذاهب:

أصبح النشاط العلمى واسع النطاق، فكان فى كل بلد إمام له مذهب ينسب إليه، و كثر عدد المذاهب المنتمون إليها، إلا أنه لم يكتب البقاء لأكثرها و اعتراها الانقراض، و كان لمؤسسـيها الـذين كثر اتباعهم تأريـخ مجيد و مكانة سامية، ربما فاقوا فى نظر معاصـريهم و ذوى العلم منهم رؤساء المذاهب الذين وقفت قافلة الفقه عندهم، و اقتصـر استنباط الأحكام عليهم، و لكن عوامل انتشار مذاهبهم عجزت عن مسايرة الظروف فلم يكتب لهـا البقـاء، و محيت من صـفحة الوجود و لم يبق لأبنـاء السـنة منهـا إلاـ الأربعـة: المـالكى. و الحنفى. و الشافعى. و الحنبلى. أمـا المـذاهب التى انقرضت فهى كثيرة و نـذكر منها: 1-مـذهب عمر بن عبد العزيز المتوفى سـنة 101 ه-720 م. 2-مذهب الشعبى المتوفى سنة 105 ه-723 م. 3-مذهب الحسن البصرى المتوفى سنة 110 ه-. 4-مذهب الأعمش المتوفى سنة 148 ه-764 م. 5-مذهب الأوزاعى المتوفى سنة 157 ه-773 م. 6-مذهب سفيان الثورى المتوفى سنة 161 ه-777 م. 7-مذهب الليث المتوفى سنة 175 ه-. 8-مذهب سـفيان بن عيينة المتوفى سنة 198 ه-814 م. 9-مذهب إسحاق المتوفى سنة 238 ه-. 10-مذهب أبى ثور المتوفى سنة 240 ه-854 م.

11-مذهب داود الظاهری المتوفی سنة 270 ه-833 م. 12-مذهب محمد بن جریر المتوفی سنة 310 ه-923 م. و مذهب عبد اللّه بن اباض (1)و غیرها من مذاهب المسلمین التی تتفق أحیانا و تفترق أحیانا فی کثیر من المسائل الشرعیة، و منهم من جعل فی تعداد هذه المذاهب، مذهب عائشة، مذهب ابن عمر، مذهب ابن مسعود، مذهب إبراهیم النخعی. و لزیادة البیان نذکر طرفا من حیاة بعض أولئک العلماء و رؤساء المذاهب.

سفیان الثوری:

أبو عبد اللّه سفیان بن سعید بن مسروق الثوری الکوفی المتولد سنة 65 ه- و توفی بالبصرة سنة 161 ه-متواریا عن السلطان و عده ابن قتیبة فی عداد الشیعة و هو أحد الأئمة المجتهدین. و له مذهب لم یطل العمل به لقلة أتباعه و عدم مؤازرة السلطة له، إذ کان طریدا یخشی سطوتهم و هم یطلبونه حتی مات مختفیا منهم، و هو أحد تلامذة الإمام الصادق علیه السّلام و خریج مدرسته، و کان إماما من أئمة المسلمین، قیل روی عنه عشرون ألفا، و کان والده سعید بن مسروق من محدثی الکوفة و ثقة ابن معین و أبو حاتم و العجلی. نشأ الثوری فی مسقط رأسه الکوفة نشأة صالحة و کان بیته معروفا و له مکانة فی محیطه، فهو من فقهاء العراق الذین تشد إلیهم الرحال فی طلب العلم، و أراد المنصور قتله فلم یتمکن، و دعی إلی القضاء فهرب، کان یتحری مواقف الصدق فی مواجهة العباسیین و یعمل علی الاستمساک بتعالیم الدین فلما عزم المنصور علی ابن أبی ذؤیب أن یقول رأیه فیه و استعفاه ابن أبی ذؤیب و أصر المنصور، قال ابن أبی ذؤیب: أشهد أنک أخذت هذا المال من غیر حقه فجعلته فی غیر أهله و أشهد أن الظلم ببابک فاش. فلما انصرف لقیه سفیان الثوری فقال له: یا أبا الحارث لقد سرنی ما خاطبت به هذا الجبار، و لکن ساءنی قولک له: ابنک المهدی. فقال: یغفر اللّه لک، یا أبا عبد اللّه، کلنا مهدی. کلنا کنا فی المهد. و بقی مذهبه معمولا به إلی القرن الرابع.

1- 1) تاریخ الفتح العربی فی لیبیا ص 106.

سفيان بن عيينة:

أبو محمد سفيان بن عيينة بن أبى عمران الهلالى، مولاهم الكوفى المتوفى سنة 198 ه-كان إماما عالما ثبتا أخذ العلم عن الصادق عليه السّلام و الزهرى و ابن دينار و أبى إسحاق و غيرهم، و روى عنه الشافعى و شعبة بن الحجاج و خلق كثير، قال الشافعى: ما رأيت أحدا فيه آلة الفتيا ما فى سفيان، و ما رأيت أكف منه عن الفتيا، و ثقة العجلى و الشافعى و غيرهم، و قال الشافعى لو لا مالک و ابن عيينة لذهب علم الحجاز، و له مذهب يعمل به و لم يطل عمره و انقرض فى القرن الرابع، لقلة أتباعه و أنصاره و عدم ملاءمته لسلطان عصره، و دفن بمكة.

الحسن البصرى:

أبو سعيد الحسن بن أبى الحسن يسار البصرى المتوفى سنة 110 ه-، كان من التابعين و أبوه مولى زيد بن ثابت الأنصارى و أمه خيرة مولاة أم سلمة زوج النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم. نشأ بوادى القرى، و كان من أجمل أهل البصرة حتى سقط عن دابته فحدث بأنفه ما شوّه خلقته، كان مؤازرا لبنى مروان يشد أزرهم و له علاقة وثيقة مع الولاة و الأمراء و يلاقى منهم الإكرام، و كان لهم فى ثغر البصرة بقوة الدفاع أعظم من الجيوش المدربة فى ساحات الحرب، حتى قالوا: لو لا لسان الحسن و سيف الحجاج لوئدت الدولة المروانية فى لحدها و أخذت من وكرها، و كان مدلسا فى حديثه كما نص عليه الحفاظ و لم يطل العمل بمذهبه. كان الحسن البصرى يتفق مع سياسة الدولة الأموية و يروى عن على عليه السّلام فإذا حدث عنه قال: قال أبو زينب (يعنى عليا) مجاراة للدولة التى اقتضت سياستها أن لا يظهر اسم على عليه السّلام و نقل عنه أنه تكلم فى على فقال له أبان بن عياش: ما هذا الذى يقال عنک أنک قلته فى على؟ فقال: يا ابن أخى أحقن دمى من هؤلاء الجبابرة و لو لا ذلک لسالت بى أعشب. و لا شک أن هذا من أظهر موارد التقية و كان له مجلس علم حاشد بالعلماء لعظيم منزلته من الدولة، و فى مجلسه نشأت فكرة الاسم و الحكم التى كانت أساسا لمذهب الاعتزال.

الأوزاعی:

عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعی إمام الشاميين المتوفی سنة 157 ه-. انتشر مذهبه بالشام كما انتشر مذهب مالک فی الحجاز و أبو حنيفة فی العراق و عمل أهل الشام بمذهبه مدة من الزمن، و انتشر بالأندلس ثم اندرس مذهبه و حل محله مذهب الشافعی، و عند ما عين محمد بن عثمان الشافعی قاضيا علی دمشق حكم بمذهب الشافعی، و هو أول من نشره هناک و بقی مذهب الأوزاعی إلی سنة 302 ه-. و كانت للأوزاعی شخصية مرموقة فی عصره، و لن يعدم العناية من السلطة، فقد كان فی العهد الأموی محترما مبجلا لأنه علی شاكلتهم، و من المؤيدين لدولتهم، و المناصرين لهم، و اتخذته السياسة رمزا دينيا لأغراضها الخاصة، و فی العهد العباسی قربوه لمكانته عند أهل الشام، فكانوا يستميلونه و يقربون محله، و كان المنصور يعظمه و يراسله لأنه عرف عنه الانحراف عن آل محمد صلّی اللّه عليه و آله و سلّم كما يتضح لنا ذلک من تتبع آرائه و أقواله، يروی الأوزاعی قال: بعث إلی أبو جعفر المنصور أمير المؤمنين و أنا بالساحل فأتيته فلما وصلت إليه و سلمت عليه بالخلافة رد علی و استجلسنی ثم قال لی: ما الذی أبطأ بک عنا يا أوزاعی؟ قال قلت: و ما الذی تريد يا أمير المؤمنين؟ قال: أريد الأخذ عنكم و الاقتباس منكم. و أما منزلته العلمية فلا تنكر فی عصره و بعد عصره، روی ابن القطان عن مالک بن أنس أنه قال اجتمع عندی أبو حنيفة و الثوری و الأوزاعی فقلت: أيهم أرجح؟ قال: الأوزاعی. و مات فی خلوة فی الحمام، و ذلک أن زوجته أوقدت له كانون فحم و أغلقت الباب عليه فمات.

ابن جرير الطبری:

أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن خالد بن غالب الطبری، المتولد سنة 224 ه-بآمد الطبرستان و توفی ببغداد فی 26 شوال سنة 310 ه- . هو من المجتهدين لم يقلد أحدا و له مذهب عمل به مدة، و اعتنقه جماعة منهم أبو فرج المعافی بن زكريا النهروانی المعروف بابن طراز. قال محمد بن إسحاق بن خزيمة: ما أعلم تحت أديم الأرض أعلم من محمد بن جرير، و قال الخطيب البغدادی. كان حافظا لكتاب اللّه تعالی عارفا بالقرآن بصيرا بالمعانی فقيها بأحكام

القرآن، عالما بالسنن و طرقها، صحيحها و سقيمها ناسخها و منسوخها عارفا بأقوال الصحابة و التابعين فمن بعدهم.

داود بن على الظاهرى:

أبو سليمان داود بن على بن خلف المعروف بالظاهرى ولد بالكوفة سنة 202 ه- و نشأ ببغداد و توفى بها سنة 270 ه-و كان له لون خاص فى التشريع لعمله فى الظاهر. استمر العمل بمذهب داود إلى القرن السابع الهجرى، و كان من أتباعه و أئمة: عبد الحق بن عبد الرحمن الاشبيلى المتوفى سنة 610 ه-، و محمد بن الحسين المشهور بالميورقى المتوفى منتصف القرن السادس، و مجد الدين عمرو بن حسن بن على بن محمد بن فرج المتوفى سنة 623 ه-و كان من المحدثين. و من أئمة هذا المذهب محمد بن حزم (1)صاحب الفصل فى الملل و النحل و صاحب المحلى على قواعد المذهب الظاهرى. قطع هذا المذهب شوطا من الزمن بخطى ثقيلة، و لكنا نراه يسرع فى خطاه و ينتشر بنطاق واسع عند ما تولى المغرب يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن و أعلن تمسكه به، و أعرض عن مذهب مالک الذى غمر المغرب بانتشاره، فعظم المذهب الظاهرى و كثر اتباعه، و انقطع علم الفروع و خاف الفقهاء سطوة السلطان عند ما فرض اعتناق هذا المذهب، و أمر بإحراق كتب مذهب مالک، كمدونة سحنون، و كتاب ابن يونس، و نوادر ابن أبى زيد و التهذيب للبردعى. قال فى المعجب: و لقد شهدت منها و أنا يومئذ بمدينة فاس يؤتى منها بالأحمال فتوضع و تطلق النار عليها. و استمر المذهب و قد عده المقدسى فى «أحسن التقاسيم» خامسا للمذاهب.

1- 1) هو على بن أحمد بن سعيد بن حزم المتولد سنة 381 ه-و المتوفى سنة 456 ه-و كان عظيم الحفظ كثير التصانيف و كان جرىء اللسان متسرع إلى النقل بمجرد ظنه كبير الوقوع بالعلماء و له كتاب الفصل يعرف به تحامله على المسلمين فإنه يطلق لسانه حتى قيل إن لسان ابن حزم و سيف الحجاج شقيقان. كان شافعى المذهب. قال ابن العربى: ثم إنه انتسب إلى داود ثم خلع الكل و استقل و زعم أنه إمام الأئمة يضع و يرفع و يحكم و يشرع و ينسب إلى دين اللّه ما ليس فيه. تذكرة الحفاظ ج 3 ص 324.

الليث بن سعد:

أبو الحارث الليث بن سعد بن عبد الرحمن المتولد سنة 92 ه-و المتوفى يوم الخميس أو الجمعة منتصف شعبان سنة 175 بمصر، و دفن بالقرافة الصغرى و قبره أحد المزارات هناک و له مکانة علمية، و مذهب يعمل به، و کان يقرن بمالک بن أنس، يقول الشافعي: الليث أفقه من مالک إلا أن أصحابه لم يقوموا به، و کان ابن وهب يقرأ على الشافعي مسائل الليث فمرت به مسألة فقال رجل: أحسن و اللّه الليث کأنه کان يسمع مالکا يجيب فيجيب هو، فقال ابن وهب للرجل: بل کان مالک يسمع الليث يجيب فيجيب هو، و اللّه الذى لا إله إلا هو ما رأينا أفقه من الليث. و کان أهل مصر ينتقصون عثمان فنشأ فيهم الليث فحدثهم بفضائل عثمان فکفوا، و لم يسعده الحظ بأنصار ينشرون مذهبه فيکتب له الخلود، و قد انقرض لمدة قليلة، يقول الأستاذ أحمد أمين: «لو تعصب المصريون لمن نبغ منهم لاحتفظوا بمذهبه، و لکانوا أتباعه، و لکن زامر الحى لا يطرب و أزهد فى عالم أهله» . و فى الواقع ان عدم اشتهار مذهبه و انتشاره من عدم امتزاجه بسلطان عصره، فقد طلبه المنصور للقضاء فأبى و قال: إنى أضعف عن ذلک، و لم يکن من أصحابه من يتولاه. فالقضاء هو عامل قوى لنموّ المذاهب و بقائها کما يأتى بيانه. و مما يؤثر عنه أنه لقى الرشيد فسأله الرشيد: ما صلاح بلادکم؟ قال: يا أمير المؤمنين صلاح بلادنا إجراء النيل و صلاح أميرها، و من رأس العين يأتى الکدر، فإذا صفا رأس العين صفت العين. و قال فى النجوم الزاهرة: کان الليث کبير الديار المصرية و رئيسها و أمير من بها فى عصره، بحيث إن القاضى و النائب من تحت إمرته و مشورته، و کان الشافعي يتأسف على فوات لقياه؛ و قد کتب بعض من غاظه ذلک إلى المنصور: أمير المؤمنين تلاف مصرا فإن أميرها ليث بن سعد

عمر بن عبد العزيز:

عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحکم، کان تابعيا جليلا روى عن أنس بن مالک و غيره، و کان أعدل ملوک الأمويين، مر بيان ترجمته عند ذکرنا لملوک عصر الإمام الصادق عليه السّلام و أمراء بلده، و لا نعلم بالضبط الآخذين بمذهبه و العاملين به

و لا نعلم مـدة بقائه، و ربما كانت له آراء خاصـة أخـذها الناس عنه فعـدّ فی عداد المذاهب. و لا یخفی أن لمنزلته الدینیة و فقهه أثرهما فی الناس بعـد أن اسـتلم الحکم، و الناس لا تری من حکام بنی أمیـة إلا ثلاثة أوجه: کره العلویین و ظلم الناس و اقتراف الموبقات. و نقل عنه قول: ما یسرّنی أن أصحاب محمد (صلی الله علیه و آله) لم یختلفوا لأنهم لو لم یختلفوا لم تکن رخصة.

الأعمش:

أبو محمد سـلیمان بن مهران الأعمش مولی بنی کاهل من ولد أسد المعروف بالأعمش الکوفی المتوفی سنة 148 ه-، کان ثقة عالما و کان أبوه من دنباوند و هی ناحیة من رسـتاق الری فی الجبال، و کان یقارن بالزهری فی الحجاز، و رأی أنس بن مالک لکنه لم یسمع منه، و یروی عن أنس إرسالا أخذه عن أصـحاب أنس، و روی عنه سـفیان الثوری، و شـعبة بن الحجاج، و کان لطیف الخلق مزاحا. دخل أبو حنیفة یوما لعیادته فطول القعود عنده فلما عزم علی القیام قال أبو حنیفة: ما کأنی إلا ثقلت علیک. فقال: و اللّه إنک الثقیل علی و أنت فی بیتک. و عاده أیضا جماعة و أطالوا الجلوس عنده فضـجر منهم فأخذ و سادته و قام و قال: شـفی اللّه مریضکم بالعافیة، ولد الأعمش سنة 60 ه-و قیل إنه ولد یوم مقتل الحسـین علیه السّلام و عده ابن قتیبة فی کتاب المعارف من جملة من حملت به أمه سـبعة أشهر و توفی سنة 148 ه-أی فی السنة التی توفی بها الإمام الصادق علیه السّلام و لم یکن لمذهبه ظهور و انتشار فی المجتمع و انقرض بمدة قلیلة.

الشعبی:

عامر بن شـراحیل الشعبی أبو عمر الکوفی المتوفی سنة 105 ه-سـمع من جماعة من الصحابة و قال: أدرکت خمسمائة منهم، و کان قاضیا لعمر بن عبـد العزیز، و کان محـدث الکوفـة یفتی علی ما صح عنده من الأثر، و ینقبض عن الفتوی إن لم یجد نصا و لا یقول برأیه، و نسـبة المـذهب إلیه لما صدر عنه من الفتوی، و إلا فلم یشـتهر عنه ذلک و العمل به قلیل. هؤلاء بعض رؤساء المذاهب البائدة، و هی کثیرة تزید علی الخمسین و نقصر

الخطى على هؤلاء، فالاستقصاء يقصينا عن الغاية التى نطلب من ورائها كشف الحقيقة. و ليس لنا غرض فى التعرف عليهم، و لكن الغرض أن نعرف الأسباب التى دعت إلى محو هذه المذاهب من صفحة الوجود و إثبات المذاهب الأربعة، مع العلم أن رؤساء المذاهب البائدة لهم منزلة علمية، و نستطيع القول بأن أكثرهم كانوا أعلم من رؤساء المذاهب الأربعة: فسفيان الثورى لقبوه بأمير المؤمنين فى الحديث و سيد الحفاظ و غير ذلک، كما قاله شعبة و أبو عاصم و ابن معين و غيرهم، و قال ابن المبارک: كتبت عن ألف شيخ كان سفيان أفضلهم. و قال القطان: الثورى أحب إلىّ من مالک؛ إلى غير ذلک من أقوال علماء الرجال مما لم نعثر على مثلها لأبى حنيفة و غيره، نعم من طرق أتباعهم تتعدى حد الحصر، و اعطف عليه سفيان بن عيينة و ابن جريح و الليث و غيرهم فإنهم بمكانة من العلم، و قد رجع الناس إليهم فى الفتيا مدة من الزمن، و استمر العمل بمذاهبهم ثم انقرضت و لم يبق لأهل السنة إلا المذاهب الأربعة الحنفى و المالكى و الشافعى، و الحنبلى. أما أتباع آل البيت فقد بقيت آراؤهم و معتقداتهم فى الأصول و الفروع و غيرهما أقوى من أن تلين للسياسة و تدخلات الولاة و الأمراء. . . و إذا شوهدوا فى بعض الأحيان يميلون إلى التقية و إلى تحاشى ضغائن الملوک فإن ذلک كان من عزم الأمور و درء المهالک عن أنفسهم حين يرون أن دماءهم أحفظ للدين من إراقتها دون طائل. فالحكام فى العهدين الأموى و العباسى لا يتورعون عن سفک الدماء الطاهرة و لا يتوقفون فى ظلمهم لآل البيت عند حد، و لهذا كان الإمام الصادق يرى فى تعرض أهله من آل الحسن إلى تلک المحنة و العذاب أمرا يجرّئ الظالمين أكثر على انتهاک حرمات أهل البيت و يصبح انتهاک حرمات الناس أبسط بكثير فقال عليه السلام و هو يرى موكب آل الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلم: «و اللّه لا تحفظ للّه حرمة بعد هذا» . و لا يندرج المذهب الجعفرى فى سياق نشأة المذاهب لأمور عدة منها: 1-استقلال فقه أهل البيت عن السلطة الجائرة و تعلقه بالإمامة و السلطة الروحية. 2-فى العهد الأموى حيث لم تأخذ المذاهب صفتها الرسمية و لم ترس على

عـدد معين كـان الشـيعة هم الخطر الحقيقى الـذى يهـدد بقـاء الأمويين فى كل حين فكان الاعتقاد بمـذهب الشـيعة اسـتعدادا للموت و التضحية. 3-فى العهد العباسـى حيث أرست الدولة عدد المذاهب لم يكن الشـيعة من أجزاء السلطة بل ظلوا على العمل بقاعدة مقاطعة الظالمين فيما كان وجودهم الفقهى و العلمى يتسع و ينتشـر برغم إرادة العباسـيين و قد شـيدوا بناءهم الفكرى بعيدا عن مؤثرات السـلطة و على الضد من رغبات الحكام. و هنا يلزمنا البحث عن عوامل انتشار المذاهب الأربعة.

المذهب الحنفى:

ينسب إلى الإمام أبى حنيفة النعمان بن ثابت بن زوطى، من أهل كابل أو من أهل نسا، و كان اسمه عتيک بن زوطره، و كان أبوه عبدا مملوكا لرجل من ربيعـة من بنى تيم اللّه بن ثعلبـة من فخذ يقال لهم بنى قفل، ولد سـنة 80 ه-فى نسا، و توفى سـنة 150 ه-فى بغداد. كانت دعوة العباسـيين قائمـة على أساس الانتماء إلى النبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلم، و أنهم سـلالة البيت النبوى، فهم أحق بالأمر من أمية خصوم الإسلام و أعداء محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلم، و بالطبع انهم يقيمون على اطلال تلک الدولة المتهمة بمخالفة الدين، دولة ذات صبغة دينية، يحاولون أن يظهروا الاتصال الوثيق بين الدين و الدولة، ليكوّنوا من أحكام الشـريعة الإسـلامية دسـتورا و نظاما تسير الدولة عليه سيرا صوريا، فقربوا العلماء، و اتصـلوا بهم اتصالا وثيقا و آثروا نشـر العلم، و جعلوا القضاء بيد أهل الرأى من أهل العراق، حتى ولى أبو يوسـف القضاء، و هو أقوى عوامل انتشار المذهب الحنفى لمكانة أبى يوسف و سلطته التنفيذية يومذاک، فكانت للمذهب الحنفى خطوة واسعة فى قطع مسافة الشهرة بما لم يسعد به غيره. فأبو يوسف (1)هو تلميذ أبى حنيفة و قد تربى فى نعمه،

1- 1) أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم بن حبيب بن خنيس بن سـعد الأنصارى المتوفى سـنة 182 ه-ببغـداد و المدفون فى مقابر قريش و هو أول من دعى بقاضـى القضاة، تولى القضاء لثلاث من الخلفاء المهدى و ابنه الهادى و الرشـيد. قال محمد بن جرير الطبرى: نحا ما قوم من أهل الحـديث حـديثه لغلبـة الرأى عليه و تفريع الفروع و الأحكام مع صـحبة السـلطان. و قال عمار بن أبى مالک ما كان فى أصـحاب أبى حنيفـة مثل أبى يوسف لو لا أبو يوسف ما ذكر أبو حنيفـة و لا محمـد بن أبى ليلى و هو الذى نشـر قولهما. و عن ابن المبارک أنه وهاه و عن يزيـد بن هارون أنه قال لا تحل الروايـة عنه كان يعطى أموال اليتامى و يجعل الربـح لنفسه. و أبو يوسف هو الذى عناه الشاعر بقوله: يا قاتل المسلم بالكافر جرت و ما العادل بالجائر و ستأتى ترجمته ببيان و وضوح فى موكب القضاة.

و بتوليته منصب القضاء استطاع نشر المذهب، و ولى منصب رئاسة القضاء العامة فى عهد الرشيد سنة 170 ه-فلم يقلد ببلاد العراق و خراسان و الشام و مصر إلا من أشار به القاضى أبو يوسف (1)، و ذلک لمكانته فى الدولة و منزلته عند الرشيد حتى قال له الرشيد يا يعقوب لو جاز لى إدخالک فى نسبى و مشاركتک فى الخلافة المفضية إلىّ لكنت حقيقا به، أ لست القائل لأخى وقت كذا و كذا؟ و فى وقت كذا و كذا؟ يشير بذلک إلى ما عزم عليه الهادى من خلع الرشيد و استشارة أبى يوسف فى ذلک، و جوابه له برد عزمه، فكان الرشيد يشكر لأبى يوسف هذه اليد، حتى قيل لم يتمكن أحد كتمكن أبى يوسف من الرشيد، و قال بشر المريسى ما اشتهيت من مراتب السلطان إلا مرتبة رأيت أبا يوسف بلغها عشية من العشايا. و قال أحمد بن يوسف الكاتب: و بلغ أبو يوسف مع الرشيد مبلغا لم يبلغه عالم بعلمه و لا محبوب بمرتبته (2). و قال ابن عبد البر: كان أبو يوسف قاضى القضاة قضى لثلاثة من الخلفاء، ولى القضاء فى بعض أيام المهدى ثم للهادى ثم للرشيد، و كان الرشيد يكرمه و يجله، و كان عنده حظيا مكينا، لذلک كانت له اليد الطولى فى نشر ذكر أبى حنيفة و إعلاء شأنه، لما أوتى من قوة السلطان و سلطان القوة (3). و إذا نظرنا إلى مقومات المذهب فى نفسه نجد ذلک يرجع لجهود أربعة من أصحاب أبى حنيفة فإنهم ألفوا فيه و هذبوا مسائله، و ليس لأبى حنيفة إلا المشاركة فى الرأى أحيانا، و خالفوه فى أكثر المسائل، كما انهم و سعوا دائرة المذهب فى الحيل الشرعية، و أول أولئک النفر هو أبو يوسف القاضى، فقد خدم المذهب بقوة سلطانه و فى تصنيف الكتب و تبويب المسائل، و قد أدخل الحديث فى فقه أبى حنيفة، و ألف كتاب الخراج لهارون الرشيد مستنبطا من الحديث على مذهب مالک و غلبت على آرائه العناية بمصالح السلطان الزمنية.

1- 1) خطط المقريزى ج 4 ص 144. [1]

2- 2) المكافاة لابن الداية ص 62-63-64-116-173.

3- 3) الانتقاء ص 6.

و الثانی محمد بن الحسن الشیبانی مولاهم المتولد (1)سنة 132 ه-و المتوفی سنة 189 ه-نشأ بالکوفة و عاش تحت ظل الدولة العباسیة، أدرک أبا حنیفـة و لم ینتفع منه لحداثـة سـنة، فأتم دراسة المذهب علی أبی یوسف، و کان ذا فطنة و ذکاء، و أصـبح المرجع لأهل الرأی فی نبوغه و تقـدمه، و ألف فی المـذهب کتبا هی فی الحقیقـة المرجع الأول فیه، فإن الحنفیـة لیس بأیـدیهم إلا کتبه، و خرج إلی المدینة و لقی مالکا و قرأ الموطأ علیه، ثم رجع إلی بلده فطبق مذهب أصحابه علی الموطأ مسألة مسألة (2)و نظم الفقه الحنفی و خالف أبا حنیفة فی أکثر مسـائله. و الثالث زفر بن الهـذیل المتولـد سـنة 110 ه-کـان من أهـل الرأی و کـان أقیس أصـحاب أبی حنیفـة. و الرابـع الحسن بن زیـاد (3)اللؤلؤی مولی الأنصار درس علی أبی حنیفـة ثم علی أبی یوسف و علی محمـد بعده، و صـنف الکتب فی مذهب أبی حنیفة، و لم تکن کتبه بتلک الدرجة من الاعتبار عند الحنفیة کما کانت لکتب محمد بن الحسن. فهؤلاء الأربعة هم دعامة رقی المذهب وسـعة دائرته، و لم ینقل لنا التاریـخ عن أبی حنیفـة کتابا یتضـمن مسائله و فقهه، و إنما دون علم المذهب أصـحابه. نعم ینسب لأبی حنیفة کتاب یسـمی الفقه الأکبر هو وریقات قلیلـة لا یتضـمن إلا شـیئا من العقائد، و قد شـرح و وسع و أضـیفت إلیه آراء أخر مع أن الأکثریة یذهبون إلی نسـبة هذا الکتاب إلی أبی حنیفة البخاری، و لیس هو أبو حنیفة رئیس المذهب. و بهذا یصـبح لا أثر له فی تدوین أی شـیء، کما أن أبا حنیفة لا یفارق فتوی إبراهیم

1- 1) محمد بن الحسن الشیبانی المتوفی سنة 189 ه-قال فیه أحمد بن حنبل أنه مرجئ ورد شـریک شهادته لذلک و قد وقعت بینه و بین أبی یوسف مناکرة فکان یقول محمـد بن الحسن جهمیا و قال محمـد بن سـعد الصوفی سـمعت یحیی بن معین یرمیه بالکذب و قال مرة إنه جهمی کذاب، و عن منصور بن خالد سـمعت محمدا یقول لا ینظر فی کلامنا من یرید اللّه، لسان المیزان ج 5 ص 131 و الوفیات ج ص 324.

2- 2) رسالة الإنصاف ص 8.

3- 3) الحسن بن زیاد اللؤلؤی کـذبه یحیی بن معین و أبو داود و محمـد بن عبـد اللّه بن نمیر، قال ابن المـدینی لا یکتب حـدیثه، و قال أبو حاتم لیس بثقة. و قال الدارقطنی: ضـعیف متروک، و قال محمد بن حمید الرازی: ما رأیت أسوأ صـلاة منه، و قال الخطیب: إن الحسن ولی القضاء و لم یوفق فکان إذا جلس لا یفهم شیئا و عن إسحاق بن إسماعیل کنا عند وکیع فقلنا له: السنة مجدبة قال: و کیف لا تجدب و حسن اللؤلؤی قاض و حماد بن أبی حنیفة قاض.

و عبد الرزاق إلا فی مواضع یسیرة. و الغرض ان المذهب إنما انتشر و کثرت مسائله بأعمال هؤلاء الأربعة و مساعیهم. ثم جاء من بعدهم علماء نسبوا لهذا المذهب، فکانت لهم آراء مستقلة و تکونت مجموعة من الأقوال و الآراء الفقهیة و کلها تنسب لأبی حنیفة، و إن لم یفت بها و لم یعرفها، و لکنهم قالوا: إن أبا حنیفة أمر أصحابه بأن یأخذوا من أقواله بما یتجه لهم من الدلیل علیه حتی صار ما قالوه قولا له لابتنائه علی قواعده التی أسسها لهم، و سیأتی الکلام حول هذا الموضوع إن شاء اللّه تعالی.

المذهب المالکی:

ینسب إلی الإمام مالک بن أنس بن مالک بن أبی عامر الأصبحی ولد سنة 93 بالمدینة، و یدّعی أن أمه حملت به سنتین و قیل أکثر و توفی سنة 179 و اللّه أعلم. و کان من نتائج النزاع الذی حدث بین أهل العراق و أهل المدینة، أو أهل الحدیث و أهل الرأی، ظهور شخصیة أبی حنیفة فی العراق و مالک فی الحجاز، و کانت السلطة تؤید جانب أصحاب أبی حنیفة و تشد أزرهم، و تقدم الموالی لتحط من قیمة العرب، لأنهم فی نظر السلطة أعداء یتکتمون فلا یأمنون جانبهم من وثبة یوما ما لمیلهم للعلویین، و إنهم لیترقبونها فی غالب الأحیان فهم دائما فی حذر، و کان مالک ممن انضم لجانب العلویین، و أخذ العلم عن الإمام الصادق علیه السّلام، و أظهر القول بجواز الخروج مع محمد النفس الزکیة، فأهین لذلک و ناله الأذی و تعصب له قوم و ناصروه و أصبحت له مکانة فی المجتمع، و لحظت السلطة أهمیة مکانته، فرأت من اللازم أن تجعله تحت عنایتها لتوجد منه شخصیة علمیة توجه إلیه المجتمع طوعا أو کرها، فأصبح محترما إلی أبعد حدود الاحترام. و یعطینا الإمام الشافعی صورة عن عظیم منزلته، عند ما دخل المدینة یحمل إلی والیها کتابا من والی مکة توصیة منه بالشافعی، و یطلب منه إیصاله إلی مالک، قال الشافعی: فأبلغت الکتاب إلی الوالی فلما أن قرأه قال: یا فتی إن المشی من جوف المدینة إلی جوف مکة حافیا راجلا أهون علیّ من المشی إلی باب مالک بن أنس، فلست أری الذلة حتی أقف علی بابه، قال الشافعی: فقلت أصلح اللّه الأمیر إن رأی یوجه إلیه لیحضر، قال هیهات لیت انی إذا رکبت أنا و من معی، و أصابنا من تراب العقیق نلنا بعض حاجاتنا. قال: فواعدته العصر و رکبنا جمیعا فو اللّه لکان کما قال،

فتقدم رجل فقرع الباب فخرجت إلينا جارية سوداء فقال لها الأمير قولى لمولاک إنى بالباب قال: فدخلت فأبطأت ثم خرجت فقالت: إن مولاى يقرؤک السلام و يقول إن كانت لک مسألة فارفعها فى رقعة يخرج إليک الجواب، و إن كان للحديث فقد عرفت يوم المجلس؛ فانصرفت؛ فقال: قولى له معى كتاب والى مكة إليه فى حاجة مهمة، قال: فدخلت و خرجت و فى يدها كرسى فوضعته، ثم إذا أنا بمالک قد خرج و عليه المهابة فرفع إليه الوالى الكتاب (1). و نحن إذ نقيس منزلة مالک بين العهدين نجد الفرق بينا فنراه فى عهد أحد الولاة مغضوبا عليه يسحب و يجرد من ثيابه و يضرب خمسين سوطا و يهان، و نراه فى العهد الثانى يتهيب الوالى أن يكلمه. فمالک فى حاليه يعطينا درسا فى معرفة أغراض السياسة مع رجال الأمة، و ان لها ألوانا من المعاملة مع الأشخاص الذين تريد أن تستخدمهم بالمغريات. و الغرض أن نجم مالک بزغ بذلک الأفق فأصبحت له شخصية مرموقة دون غيره من شيوخه الذين هم أعلم و أفقه كربيعة الرأى (2)و غيره، فامتاز بتلک المنزلة و اكتست شخصيته بأبراد العظمة، و حاول العباسيون أن يجعلوا منه مرجعا عاما للأمة فى الفتوى، و لكنها محاولة لم تنجح، و قد أمره المنصور بوضع كتاب يحمل الناس عليه بالقهر، فكلمه مالک فى ذلک و امتنع فقال المنصور: ضعه فما أحد اليوم أعلم منک (3)فوضع الموطأ.

1- 1) معجم الأدباء ج 17 ص 275. [1]

2- 2) ربيعة بن أبى عبد الرحمن بن فروخ التميمى أبو عثمان المدنى الفقيه المعروف بربيعة الرأى روى عن أنس و السائب بن يزيد و ابن المسيب و عنه سليمان التميمى و يحيى بن سعيد القطان و سعيد و الليث و خلق كثير. و كان أبوه فروخ خرج فى البعوث إلى خراسان أيام بنى أمية و ربيعة حمل فى بطن أمه فقدم المدينة بعد سبع و عشرين سنة و هو راكب فرسا و دفع الباب برمحه فخرج ربيعة و قال يا عدو اللّه أ تهجم على منزلى، فقال فروخ: يا عدو اللّه أنت دخلت على حرمى فتواثبا حتى اجتمع الجيران و كثر الضجيج فبلغ مالک بن أنس فقال مالک: أيها الشيخ لک سعة فى غير هذه الدار فقال الشيخ هى دارى و أما فروخ فسمعت امرأته كلامه فخرجت و قالت هذا زوجى و هذا ابنى الذى خلفه و أنا حامل به فاعتنقا جميعا. قال سوار بن عبد اللّه: ما رأيت أحدا أعلم من ربيعة الرأى قيل و لا الرأى و كانت وفاته فى سنة 136 ه-بالهاشمية و دفن هناک و قيل سنة 133 ه-.

3- 3) شرح الموطأ للزرقانى ج 1 ص 8.

و هـذه الكلمـة لهـا مكانتها فی نظر الاعتبار، فالمنصور حينما يعلن بأن مالكا أعلم الناس، و يلزمه بوضع كتاب تصادق عليه الدولـة فيكون نظامها المتبع و تطلب الالتحاق بقافلة الدين-و ما أبعدها عن ذلک-فمن يسـتطيع أن يتخلف عن الاعتراف بمنزلة مالک و أنه أعلم الأمة؟ و الرشيد يأمر عامله على المدينة بأن لا يقطع أمرا دون مالک، و كان الرشيد يجلس على الأرض أمامه لاستماع حديثه. كيف لا يكون لمالک ظهور و سـمعة و منادی السلطان يهتف أيام الحج: أن لا يفتی إلا مالک. فأصبحت له مكانة فی المجتمع و هيبة فی النفوس، و تقرب الناس إليه بشتی الوسائل، و التفوا حوله، و تزاحموا على مجلسه الـذی عين له وقتا خاصا فی يوم معين يزدحم الناس فيه لاسـتماع الحديث، و أخذ الفتيا، و له كاتب بين يديه يقرأ للناس و ليس لأحد أن يدنو منه و لا ينظر فی كتابه و لا يسـتفهمه فی شیء، و بذلک لا يستطيع أحد مناقشته، و كان على رأسه سودان يأتمرون بأمره. قال إسـماعيل الفزاری: دخلت على مالک و سألته أن يحدثنی فحدثنی اثنی عشـر حديثا ثم أمسک، فقلت: زدنی أكرمـک اللّه و كـان له سودان قيام على رأسه فأشار إليهم فأخرجونی من داره (1). و لا ريب أن هـذه المعاملة من مالک تبعثنا على التسـاؤل من أسـباب امتناع مالک و بخله على الناس بما ينفعهم من أحاديث نبويـة و إرشادات تربويـة؟ و هـذا الوضع منه لا شک أنه مستغرب لأن السنة الشريفة أمرت بنشر العلم و توعدت من يكتمونه. و يحدثنا أبو بكر بن عبد اللّه الصنعانی قال: أتينا مالک بن أنس فحدثنا عن ربيعـة الرأی فكنا نستزيده فقال لنا ذات يوم: ما تصـنعون بربيعة و هو نائم فی ذاک الطاق؟ فأتينا ربيعة فقلنا: كيف يحظى بک مالک و لم تحظ أنت بنفسک؟ فقال: أ ما علمتم أن مثقالا من دولـة خير من حمل علم (2). و لا بد من التنويه برضا مالک بما أقبل عليه السـلاطين و ترک أيديهم تلعب

1- 1) الانتقاء ج 2 ص 42.

2- 2) طبقات الفقهاء لابن إسحاق ص 43.

بأحواله الخاصة فأصابه من جبرية الحاكم شيء سنأتى على تفاصيله حسب البحث إنشاء اللّه. و مهما يكن من أمر فقد أسعده الحظ فكان له شأن و لمذهبه قبول و لكتابه منزلة حتى قالوا: ما على ظهر الأرض كتاب بعد كتاب اللّه أصح من كتاب مالک. و فى لفظ آخر ما على الأرض كتاب هو أقرب إلى القرآن من كتاب مالک. و كان انتشار مذهبه على أيدى القضاة و الملوک، و قد انتشر بالأندلس بسبب حمل ملک الأندلس الناس عليه بالقهر، لما بلغه كلام من مالک فى مدحه عند ما سأل عن سيرة الملک فى الأندلس فذكر له عنها ما أعجبه فقال: نسأل اللّه تعالى أن يزين حرمنا بملككم. فلما بلغ قوله إلى الملک حمل الناس على مذهبه، و ترک مذهب الأوزاعى و هذا من أقوى عوامل الانتشار و دواعى الظهور و السمعة، و إقبال الناس عليه اتباعا للسلطان و خضوعا للسلطة بدون تمييز لما هو الأرجح و الأولى. و قد نشر مذهب مالک فى إفريقيا القاضى سحنون، و يقول المقريزى: و لما ولى المعز باديس حمل جميع أهل إفريقية على التمسک بمذهب مالک و ترک ما عداه فرجع أهل إفريقيا و أهل الأندلس كلهم إلى مذهبه، رغبة فيما عند السلطان، و حرصا على طلب الدنيا إذ كان القضاء و الإفتاء فى جميع تلک المدن لا يكون إلا لمن تسمى بمذهب مالک، فاضطرت العامة إلى أحكامهم و فتاواهم ففشى هذا المذهب هناک و حظى بالقبول لا بحسب مؤهلاته و مقوماته الروحية، و إنما سار على حسب نظام القوة التى خضع الناس لها بدون تبصر، كما أن انتشاره بالمغرب الأقصى هو كذلک رغبة لما عند السلطان، و خضوعا لما افترضوه على الناس، و لم يكن ثبوته مستقلا بروحانيته عن تأثر السلطة التنفيذية، فإن دولة بنى تاشفين قامت فى الأندلس فى القرن الخامس، و تولى ثانيهم على بن يوسف بن تاشفين فعظم أمر الفقهاء، و لم يكن يقرب منه و يحظى عنده إلا- من علم مذهب مالک، فنفقت فى زمنه كتب المذهب، و عمل بمقتضاها و نبذ ما سواها، و كثر ذلک حتى نسى النظر فى كتاب اللّه و حديث الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلم، فلم يكن أحد يعتنى بهما كما يعتنى بكتب المذهب المالكى. و ما ذلک إلا من اختراع السياسة لأمور كان الأصلح للأمة أن تتخلى السياسة عن التدخل بمثلها، إذ من الصعب على الرعية أن تعرف صلاح أمرها ما دام مفروضا عليها أمرا معينا من قبل السلطان و هى تجهل ذلک، و بهذه المؤثرات انتشر مذهب مالک

بصورة هائلة كزميله المذهب الحنفى، فله أسوة به، و إذا ما قصرت خطاه فى بعض الأماكن فبمجرد تولى القضاء المالكى من قبل رجال المذهب يزداد نشاطه و يشتد إقبال الناس عليه و تمسكهم به، لذلك أنه لما خمل ذكره فى المدينة مدة من الزمن فبمجرد أن تولى قضاءها ابن فرحون أظهره بعد خموله، فيظهر لنا أن الزمن سار فى انتشار هذه المذاهب لا على سبيل الاعتقاد و الواقع بل أن فى الأمة ضعفاء قلدوا الأقوياء بأهم أمر و كان الأجدر استقلالهم بمعرفته، و أخذهم له من أهله، و أنى لهم ذلك و كل سلطة تحاول أن تجعل أمورها ذات صبغة دينية، و أمر التشريع بيد قضاة صارعتهم الدنيا فصرعتهم إلا من عصم اللّه و قليل ما هم. قال ابن حزم: مذهبان انتشرا فى مبدأ أمرهما بالرياسة و السلطان: مذهب أبى حنيفة فإنه لما ولى أبو يوسف القضاء كان لا يولى قاضيا إلا من أصحابه و المنتسبين إليه و إلى مذهبه. و الثانى مذهب مالک عندنا فى الأندلس فإن يحيى بن يحيى (1)كان مكينا عند السلطان مقبولا فى القضاء، فكان لا يولى قاضيا فى أقطار الأندلس إلا بمشورته و اختياره و لا يسبر إلا بأصحابه، و الناس سراع إلى الدنيا فأقبلوا على ما يرجون به بلوغ أغراضهم (2). و قال شاه ولى الدهلوى: و أى مذهب كان أصحابه مشهورين و أسند إليهم القضاء و الإفتاء و اشتهرت تصانيفهم فى الناس، و درسوا درسا ظاهرا انتشر فى أقطار الأرض، و أى مذهب كان أصحابه خاملين و لم يولوا القضاء و الإفتاء، و لم يرغب فيهم الناس اندرس مذهبهم بعد حين. و هذا التعليل قد أجمعت عليه آراء المؤرخين و العلماء حتى لقد شاع بين الناس

1- 1) هو أبو محمد يحيى بن يحيى الأندلسى و يعرف بابن عيسى سمع مالک بن أنس و جمع مسائله و كتب سماع بن القاسم عن مالک ثم انصرف إلى المدينة ليسمعه من مالک فوجده عليلا فأقام بالمدينة إلى أن توفى مالک و قدم إلى الأندلس و خالف مالكا فى كثير من المسائل قال أحمد بن خالد لم يعط أحد من أهل العلم بالأندلس منذ دخلها الإسلام من الحظوة و عظم القدر و جلالة الذكر ما أعطيه يحيى بن يحيى توفى سنة 233 ه-.

2- 2) ابن خلكان ج 2 ص 116. [1]

قولهم (إن الناس على دين ملوكهم) و قد مر فى مطاوى هذا البحث تنويه به و إشارة إليه.

المذهب الشافعى:

و ينسب إلى الإمام محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب، و قيل إن شافعا كان مولى لأبى لهب فطلب من عمر أن يجعله من موالى قريش، فامتنع فطلب من عثمان ذلك ففعل، ولد سنة 150 ه-و توفى سنة 198 ه- . كان ظهوره أولا بمصر و كثر أصحابه هناك فغلب على بغداد و على كثير من بلاد خراسان، و دخل شىء منه إلى إفريقيا و الأندلس بعد سنة 300 ه-، و قويت شوكته، و عظمت شهرته فى عهد الدولة الأيوبية التى كانت تتسم بسمة شافعية، و بذلوا جهدهم فى نصرته، ببناء المدارس لفقهاء الشافعية و اختصاص القضاء بهم، و كان الغالب على أهل مصر الشيعة فى عهد الفاطميين الذين كانوا يملكون مصر قبله، و كان المذهب يدرس فى الجامع الأزهر و غيره، فأبطل صلاح الدين درسه فيها و أحيا مذهب الشافعى و أبى حنيفة و مالك، و بنى لهم كثيرا من المدارس، و رغب الناس فيها بالأوقاف التى حبسها عليها فرغبوا فيها و أخذوا فى تقليدها و هجروا ما عداها من المذاهب. و كان انتشار مذهب الشافعى بعد صلاح الدين أكثر من غيره لاعتناق الملوك الذين تولوا من بعده مذهب الشافعى، و قد نجح الشافعى فى بدء أمره عند ما قدم مصر و زاحم مذهب مالك، حتى تعصب عليه المالكية، لأنه كاد أن ينسى الناس مذهب مالك إلى أن آل الأمر بهم فقتلوه بسبب التعصب كما يأتى بيانه. و كان سبب نجاحه مؤازرة بنى عبد الحكم له فإن لهم مكانا رفيعا بمصر، و منزلة سامية و جاها عظيما، و قد آزره أبو محمد عبد اللّه بن الحكم بن أعين بن الليث، و كان عالما عاقلا متحققا بمذهب مالك و إليه أفضت الرئاسة بعد أشهب، فلما نزل الشافعى عليه أكرم مثواه و بلغ الغاية فى بره، و مات الشافعى فى بيته فاعتنق مذهب الشافعى و كتب كتبه لنفسه، مع أن الشافعى لن يعدم رعاية السلطان هناك، فإنه دخل مصر و هو يحمل من الرشيد كتابا لواليه على مصر يوصيه به و يلزمه بعنايته، و وقعت بينه و بين المالكية مناوشات كان النجاح له فى نهاية الأمر. و كان قدوم الشافعى إلى مصر فى سنة 198 ه-و يقال إنه

جاء مع أميرها عبد اللّه بن العباس بن موسى العباسى، فصحبه جماعة من أعيان أهل مصر كبنى عبد الحكم و الربيع بن سليمان، و أبى إبراهيم إسماعيل بن يحيى المزنى، و البويطى و كتبوا عنه و نشروا مذهبه.

المذهب الحنبلى:

ينسب إلى الإمام أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد بن إدريس بن حيان بن عبد اللّه بن أنس بن عوف بن قاسط بن مازن بن ذهل بن شيبان ولد سنة 164 ه-فى بغداد و توفى سنة 241 ه-فيها. ظهر مذهب أحمد بن حنبل ببغداد و هو آخر المذاهب لتأخره زمنيا فى الحدوث، و كانت خطوة انتشاره خارج بغداد قصيرة جدا و لم ينل شهرة غيره من المذاهب، و ظهر فى مصر فى القرن السابع بين أفراد معدودين و لكن انتشر بعد فترة قصيرة عند ما تولى القضاء عبد اللّه بن محمد بن محمد بن عبد الملك الحجازى، فزاد انتشاره هناك و ذلك فى سنة 738 ه-. قال ابن خلدون: فأما أحمد بن حنبل فمقلده قليل لبعد مذهبه عن الاجتهاد و أصالته فى معاضدة الرواية و الأخبار بعضها ببعض، و أكثرهم بالشام و العراق من بغداد و نواحيها، و هم أكثر الناس حفظا للسنة و رواية للحديث. و عداد أحمد بن حنبل عند القدماء أنه من أهل الحديث لا الفقهاء و لذا لم يعد مذهبه فى الخلاف بين الفقهاء، و كان ابن جرير يقول: إنه رجل حديث لا رجل فقه، و عده المقدسى كذلك من أهل الحديث لا من الفقهاء، و لم يذكره ابن قتيبة فى معارفه فى عداد الفقهاء، و اقتصر ابن عبد البر فى كتابه الانتقاء على ذكر مالك و الشافعى و أبى حنيفة. و الحاصل أن المذهب الحنبلى أقل المذاهب انتشارا و قد عدّ متبعوه هذه القلة فخرا، نعم ظهرت عظمته ببغداد إذ كان متبعوه يحتفظون فيما بينهم باتحاد وثيق حيث تكون المصلحة هناك، و قد أصبحوا فى زمن ما و لهم قوة استطاعوا بها أن يقلقوا بال الحكومة، و تظاهروا بالأمر بالمعروف و النهى عن المنكر، فكانت صولتهم عظيمة و أوقعوا فى سائر المذاهب التى تخالفهم ما تشتهيه أنفسهم من التنكيل و الأذى، و قضت الحكومة على تلك الحركات غير المنظمة، و ضيقوا دائرة اتساع دعوتهم.

و لم ينل المـذهب الحنبلى قوة أنصار و رجال دعوة إلا فى البلاد النجدية، فقد ساعده الزمن و كتب له البقاء على يد محمد بن عبد الوهاب مؤسـس المذهب الوهابى، و إن كان مذهب أحمد و شهرته اندكت إلى جانب شهرة الوهابى و مذهبه، و لا ينكر ما لابن تيمية و تلميذه ابن قيّم الجوزيـة من الفضل فى انتشار المـذهب و نشاطه، و هما فى الحقيقة أبطال دعوته و عنهم أخذ ابن الوهاب تعاليم مذهبه الجديد، و مع ذلک فإن معتنقى هذا المذهب هم اليوم أقل عددا بالنسبة إلى معتنقى المذاهب الأخرى فى العالم الإسلامى.

السلطة و انتشار المذاهب:

و بهذه الأسباب و عوامل الترغيب التى اتخذها أولئک الأمراء و ذوو النفوذ و السلطة أخذت هذه المذاهب بين العامة فى الصيت و الشهرة، ما جعلهم متزاحمين على اعتناقها بدون تمييز و حرية فى الرأى، و ظلت حقيقتها غامضة إذ لا يمكن استكشافها. فالخضوع للسلطان أمر لا مفر منه، و كان عدم تدخل الحكومة فى مثل هذه الأمور أعود على الأمة، و أصـلح لدينها و دنياها فتدخلها فيه قد جر الأمة إلى منافسات و عصبية أعقبتها فتن ذهبت ضـحيتها نفوس بريئة تدين للّه بالوحدانية و لمحمد صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم بالنبوة، و قد أدت الخلافات إلى فرقة و تباعد مما كدر صـفو الأمة و رماها بالشتات بعد الألفة، و بالعداء بعد الأخوة. و على هذا المنوال أستطيع أن أسير فى التدليل على ما فى هـذا الالتزام من النقص و قـد سارت عليه جماهير من المسـلمين بدون دليل و لا برهان، فوقوف التشـريع الإسـلامى و انحصاره بأقوال الأربعة إنما هو تحجير للفكر، و جمود للتشـريع لأغراض تعود بالنفع على الطبقة الحاكمة، الذين يريدون أن يطبعوا أعمالهم بطابع الدين و ما هم من الـدين فى شـىء إذ لا هم لهم إلا حفظ ملكهم و قضاء مآربهم، على أن الأئمـة الأربعـة أنفسـهم لا يعرفون هـذا و يفتون بضده، فأقوالهم تـدل على عـدم الالتزام بقول أحد، هذا مالک بن أنس يقول: «إنما أنا بشـر أصـيب و أخطئ فاعرضوا قولى على الكتاب و السـنة» و يقول أبو حنيفـة: «هـذا رأيى و هذا أحسن ما رأيت فمن جاء برأى خلافه قبلناه» . و يقول الشافعى: «إذا صح الحديث بخلاف قولى فاضـربوا بقولى الحائط» و يقول أحمد: «من ضيق علم الرجل أن يقلد دينه الرجال» و قال: «لا تقلد

دینک الرجال فإنهم لم یسلموا من أن یغلطوا» کما سنبین ذلک قریبا. و علی أی حال فإن الاستسلام و التقلید اللذین أدّیا إلی التعصب و الانغلاق أثّرا فی سیر الحرکة الفکریة و العلمیة لأن التقلید یقوم علی الاتباع و بذلک ترک النظر و التعرّف علی الدلیل. و کیف کان فقد استطاعت المذاهب الأربعة أن تصعد سلّم الرقی و تکتسب قیمتها المعنویة، لأنها موضع عنایة الخلفاء و الولاة المتعاقبین بالرغم مما رافقها من خلافات و منافرات، و إن عنایة السلطة تکسب الشیء لونا من الاعتبار و العظمة حسب نظام السیاسة لا النظام الطبیعی، فعوامل الترغیب و أداة القوة جعلتها تأخذ بالتوسع شیئا فشیئا، و لو لا ذلک لما استطاعت البقاء حتی تصبح قادرة علی مزاحمة غیرها. ثم کان بعد هذا ما هو أدهی و أمر فإنه فی سنة 645 ه-أحضر مدرسو المدرسة المستنصریة إلی دار الوزیر، فطلب منهم ألا یذکروا شیئا من تصانیفهم، و ألا- یلزموا الفقهاء بحفظ شیء منها، بل یذکروا کلام المشایخ السابقین تأدبا معهم، و تبرکا بهم، فأجاب جمال الدین عبد الرحمن بن الجوزی الحنبلی بالسمع و الطاعة. و قال سراج الدین عبد اللّه الشرمساحی المالکی: لیس لأصحابنا تعلیقة، أما النقط من مسائل الخلاف فمما ارتبه (1). و قال شهاب الدین الزنجانی الشافعی و أقضی القضاة عبد الرحمن بن اللمغانی الحنفی: إن المشایخ کانوا رجالا. و نحن رجال. فأوصل الوزیر ما أجابوا به إلی المستعصم، و کان قد تولی الملک بعد أبیه المستنصر فأحضرهم أمامه، و طلب منهم جمیعا أن یلتزموا ذکر کلام المشایخ و یحترموهم، فأجابوه جمیعا بالسمع و الطاعة، و رجع مدرسا الشافعیة و الحنفیة عن اعتدادهما بأنفسهما. و قال المقریزی: فلما کانت سلطنة الظاهر بیبرس البندقداری ولّی بمصر أربعة قضاة و هم شافعی، و مالکی، و حنفی، و حنبلی، فاستمر ذلک من سنة 665 ه-حتی لم یبق فی مجموع أمصار الإسلام مذهب یعرف من مذاهب أهل الإسلام سوی هذه المذاهب الأربعة، و عملت لأهلها المدارس و الخوانک و الزوایا و الربط فی سائر ممالک الإسلام، و عودی من تمذهب بغیرها، و أنکر علیه و لم یول قاض و لا قبلت

1- 1) ابن الغوطی الحوادث الجامعة ص 216. [1]

شهادة أحـد و لا قـدم للخطابـة و الإمامـة و التدريس أحد ما لـم يكن مقلدا لأحد هذه المذاهب، و أفتى فقهاء الأمصار فى طول هذه المدة بوجوب اتباع هذه المذاهب و تحريم ما عداها. يقول الاسـتاذ عبد المتعال الصعيدى أحد علماء الأزهر فى كتابه «ميدان الاجتهاد» : «فلما رأى بنو العبـاس أن وسائلهم فى القهر لا تجـديهم، أرادوا أن يأتوا الناس من باب التعليم، فيتولوا أمره بأنفسـهم، ليربوا العلماء على الخضوع لهم. و يملكوهم بالمال من أول أمرهم، و كانت الأمة هى التى تتولى أمر التعليم بعيدا عن الحكومة، كما تتولاه الآن الأمم الراقية فى أوروبا و أمريكـا، فيقوم فى المساجـد حرا لاـ يخضع لحكم ملـك أو أمير، و يتربى العلماء بين جـدرانها أحرارا لا يراقبون إلا اللّه فى عملهم، و لا يتأثرون بهوى حاكم، و لا تلين قناتهم لطاغية أو ظالم، فأراد بنو العباس أن يقضوا على هذا التقليد الكريم، و يتولوا بأنفسـهم أمر التعليم بين المسـلمين، فأخـذوا ينشـئون له المدارس بدل المساجد، و يحبسون عليها من الأوقاف الكثيرة ما يرغب العلماء فيها، و يجعل لهم سـلطانا عليهم، و أخذت الممالك التابعة لهم تأخذ بهذا فى سـنتهم، حتى صار التعليم خاضعا للحكومات بعد أن كان أمره بيد الرعية، و كان لهذا أثره فى نفـوس العلمـاء، فنزلـوا على إرادة الملوك و لـم تقو نفوسـهم على مخـالفتهم فى رأيهم، أو توجيه شـىء من النصـح إليهم، و كـانت المدرسـة البيهقية أول ما أنشـئت من تلك المدارس، و هى منسوبة إلى البيهقى المتوفى سـنة 450 ه-ثم أنشـئت بعدها المدرسة السعيدية بنيسابور، أنشأها الأمير نصـر بن سـبكتكين، ثم أنشـئت بعدها النظامية ببغداد أنشأها الوزير نظام الملك سنة 459 ه-و قد احتفل بافتتاحها احتفالا عظيما. . .» . إلى أن يقول: «ثم جاء صـلاح الـدين الأيوبى لمصـر، فقام بإنشاء المـدارس فيها للتعليم، و أنشأ المدرسـة الناصـرية لتعليم مذهب الشافعى سنة 566 ه-ثم أنشأ المدرسة الصلاحية بالقرافة الصغرى سنة 572 ه-بجوار الإمام الشافعى و جعل لناظرها أربعين دينارا فى كل شـهر، و رتب له فى كل يوم ستين رطلا من الخبز و راويتين من ماء النيل، ثم أنشأ مدرسة أخرى بجوار المشـهد الحسـينى، و جعل دار العباس العبيدى مدرسة للحنفيين» . و كان صلاح الدين يقصد من هذه المدارس كلها إلى إحياء مذهب أهل السنّة

و القضاء على مذهب الشيعة الفاطميين الذين كانوا يملكون مصر قبله، و رغب الناس فيها بالأوقاف التى حبسها عليها، فرغبوا فيها و أخذوا فى تقليدها و هجروا ما عداها من المذاهب. و قد جاء المستنصر العباسى (1)بعد هذا فأنشأ فى بغداد المدرسة المستنصرية سنة 625 ه-، و أنفق فى بنائها أموالا لا تحصى حتى تم بناؤها سنة 631 ه، فاحتفل بافتتاحها احتفالا عظيما حضره بنفسه و حضر معه نائب الوزارة، و كذلك الولاة و الحجاب و القضاة و المدرسون و الفقهاء، و شيوخ الربط و الصوفية و الوعاظ و القراء و الشعراء، و جماعة من أعيان التجار الغرباء، و اختير لكل مذهب من المدارس و غيرها اثنان و ستون نفسا، و رتب لها مدرسين و نائبى تدريس، و كان المدرسان محيى الدين محمد بن يحيى بن فصلان الشافعى، و رشيد الدين عمر بن محمد الفرغانى الحنفى، و كان نائبا التدريس جمال الدين عبد الرحمن بن يوسف بن الجوزى، و أبا الحسن عليا المغربى، و جعل لها ستة عشر معيدا، أربعة لكل مذهب، و جعل ربع القبلة الأيمن للشافعى، و جعل ربع القبلة الأيسر للحنفية، و جعل الربع الذى على يمين الداخل للحنابلة، و جعل الربع الذى على يساره للمالكية، و قد شرط المستنصر فى وقفه عليها أن يكون عدد فقهائها مائتين و ثمانية و أربعين، من كل طائفة اثنان و ستون بالمشاهرة الوافرة، و الجراية الدارة، و اللحم الراتب إلى غير هذا من وسائل الترغيب فى هذه المذاهب. فأقبل الناس على دراستها و أهملوا غيرها من المذاهب التى لم يقدر لها مثل هذه الأوقاف المغرية» . و هكذا أخذ الشباب و الكهول يواصلون الدراسة على المذاهب الأربعة فى مثل هذه المدارس، و يسمعون فى خلال دراستهم طعونا على أى مذهب آخر، فيمتلئون حقدا على من لم يترك مذهبه لينتسب إلى أحد هذه المذاهب الأربعة. فكان ذلك من النتائج الأولى لتسلّم صلاح الدين دست الحكم فى ظروف سياسية مرت بها دولة الفاطميين الذين تربّى صلاح الدين و ذووه فى ظل عزهم، و لو لا خدمتهم للفاطميين ما كانوا. و قد تحوّل صلاح الدين بشدة و مارس القسوة و هو يتربع على العرش الذى

1- 1) هو أبو جعفر منصور بن الظاهر ولد سنة 588 ه-و بويع له سنة 623 ه-و توفى سنة 640 ه-.

اؤتمن عليه، و اتجه إلى سنّة السلاطين الآخرين الذين حكموا الأمة فقسم المجتمع على طريقتهم و أقام الدراسة فى قاهرة المعز على الطريقة المذهبية التى اتبع إشاعتها الحكام.

خلاصة البحث:

ظهر لنا مما سبق أن العامل الأساسى لتكوين الالتزام بمذهب معين، و عدم الترخص فى استنباط الأحكام الشرعية إنما هو السلطة، و أن بقاء هذه المذاهب إنما يكون بتلك الوسائل المشجعة، حتى كثر أنصارها. و لو قدرت عوامل الانتشار لغير المذاهب الأربعة لبقى لها جمهور يقلدها أيضا، و لكانت مقبولة عند من ينكرها، و لكنها عدمت رعاية السلطة فمحيت من الوجود إذ لا قابلية لها فى ذاتها على البقاء بقوة بنائها أو قدرات أصحابها العلمية. و قد فاز المذهب الحنفى بتشجيع أكثر من غيره، فهو فى العصر العباسى المذهب الذى ترجع الدولة إليه فى مهمات التشريع، و رئاسة القضاء بيد أهل الرأى، لم يشاركهم إلا القليل من سائر المذاهب، و بعد انقراض الدولة العباسية اعتنق المذهب سلاطين الأتراك عند ما أرادوا انطباق اسم الخلافة الإسلامية عليهم؛ لأن من شروطها: أن يكون الخليفة قرشيا طبقا للحديث «الخلافة فى قريش» و الحنفية لا يشترطون هذا الشرط، و أول من تولى الخلافة الإسلامية من غير قريش السلطان سليم الفاتح و صحح الحنفية هذه الخلافة و حجتهم أن الخليفة يتولى الخلافة بخمسة حقوق: 1-حق السيف. 2-حق الانتخاب. 3-حق الوصاية. 4- حماية الحرمين. 5-الاحتفاظ بالأمانات. و هى المخلفات النبوية المحفوظة فى الآستانة و هم يقولون: إن الآثار النبوية سلمت من اغتيال التتر فى بغداد فحملها الخليفة العباسى إلى القاهرة حتى نقلها السلطان سليم إلى القسطنطينية فى صندوق من الفضة و هى البردة النبوية، و سن من

أسنان النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و شعرات من شعره و نعاله، و بقیة من العلم النبوی، و إناء من حدید، وجبة الإمام أبی حنیفة (1). و بهذا الشکل سارت عوامل انتشار المذاهب مع السیاسة جنبا لجنب، إذ الرغبة فیها منوطة بالقضاة و رغبة السلطة، حتی کثر التحول من مذهب إلی مذهب تقربا للسلطان و طلبا لرفده، و تحول کثیر من الشافعیة إلی الحنفیة لأجل الدنیا، و ذلک أن الأمیر بلبغا بن عبد اللّه الخاصکی الناصری الأمیر الکبیر صاحب النفوذ و الصولة کان یتعصب لمذهب أبی حنیفة، و یعطی لمن تحول إلیه العطاء الجزیل، و رتب الجامکیات الزائدة، و حاول فی آخر عمره أن یجلس الحنفی فوق الشافعی (2). و لما انتقل أبو البرکات الحنفی إلی مذهب الحنبلی فآذاه الحنفیة فانتقل إلی مذهب الشافعی فقال المؤید التکریتی فی هجائه: أ لا مبلغ عنی الوزیر رسالة و إن کان لا تجدی إلیه الرسائل

تمذهبت للنعمان بعد ابن حنبل و ذلک لما أعوزتک المآکل

و ما اخترت رأی الشافعی تدینا و لکنما تهوی الذی هو حاصل

و عما قلیل أنت لا شک صائر إلی مالک فافهم لما أنا قائل (3)

و هذا أبو بکر البغدادی الحنبلی تحول شافعیا لأجل الدنیا، و ولی القضاء، و کان أبو المظفر یوسف بن قرغلی سبط ابن الجوزی حنبلیا نقله الملک المعظم إلی مذهب أبی حنیفة (4)و کثیر غیرهم. و خلاصة القول أن تلک الوسائل المشجعة للمذاهب الأربعة دعت الناس إلی الرغبة فیها و الإعراض عما سواها، و دعت أکثر الفقهاء الذین لهم أهلیة الاستنباط أن یجمدوا علی تقلید السلف و تعطیل موهبة الاجتهاد. قال الشیخ أبو زرعة: قلت مرة لشیخنا البلقینی ما یقصر بالشیخ تقی الدین بن السبکی عن رتبة الاجتهاد و قد استکمل الآلة و کیف یقلد؟ و لم أذکره هو استحیاء منه و لما أرید أن أرتب علی ذلک.

1- 1) التمدن الإسلامی ج 1 ص 109.

2- 2) شذرات الذهب ج 6 ص 213. [1]

3- 3) مرآة الجنان ج 4 ص 34. [2]

4- 4) شذرات الذهب ج 5 ص 267. [3]

فسكت عنى، ثم قلت: ما عندى أن الامتناع عن ذلک إلا للوظائف التى قررت للفقهاء على المذاهب الأربعة و إن من خرج عن ذلک لم ينله شىء و حرم ولاية القضاء، و امتنع الناس من استفتائه و نسب إلى البدعة؛ فتبسم و وافقنى. و من هنا قوبل مذهب أهل البيت بتلک الهجمات العنيفة و الحملات الظالمة، و أصبح الشيعة المتمسكون بمذهب أهل البيت عرضة لكل خطر، و غرضا للتهم، و أصبح الشيعى فى نظر أتباع السلطة خارجا عن الإسلام، مفارقا جماعتهم، و لكن الشيعة ثبتوا على أخذ تعاليم الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلم فى أحكام الإسلام من طريق أهل البيت، لأنهم عدل القرآن و التمسک بهم من دعائم الإسلام ففى اتباعهم الهدى و هم كسفينة نوح و باب حطة. و بذلک تحملوا ما تحملوا فى سبيل المحافظة على وصاية النبى فى آله و ساروا على نهجهم و بقى باب الاجتهاد مفتوحا على مصراعيه، و مدرستهم مستقلة عن سياسة السلطة و آراء الحكام. فإذا ما عدنا إلى بدايات ضعف الحكم الأموى نرى الإمام الباقر عليه السّلام يتعرض للأذى و المضايقات فيحمل إلى مقر الجائرين فى الشام و كان يصحبه ولده جعفر الصادق عليه السّلام، و لأن منهج الدعوة و أساليب العمل قد أخذت بالتطبيق على يد الإمام الباقر عليه السّلام فى ظل مقتضيات الظروف و مستجدات السياسة فإنه عليه السّلام قرن بين السلوک الدينى و بين الجانب الذى أراد الحكّام التحكم فيه و إخضاع أهل البيت و أنصارهم و هو الذى يتعلق بالإمامة بصيغة الخلافة و مسميات السياسة فقال: من عبد اللّه عبادة اهتمام و لم يعتقد بإمام عادل و أنه منصوب من اللّه فلا يقبل اللّه منه سعيا. أما الإمام الصادق عليه السّلام حيث ماج عصره بالتيارات الفكرية و اشتدت فيه النزعات المختلفة فقد اتجه إلى الأفكار و مخاطبة العقول لشدها إلى أركان العلم و أصول الفقه بطريقة منهجية رائدة تتيح للعقول الإفلات من مخطط السلطة الزمنية حتى عرف عنه عليه السّلام أنه كان يجيب كل من يتوجه إليه بالسؤال مراعيا اهتمامات السائل و مقاصده ثم يقيم الإجابة على نحو من أغراض منهجه هو عليه السلام فظن من بهم جهالة أنه عليه السّلام يقول بأقوال مختلفة و حاشاه عليه السلام.

يقول الدكتور محمد كامل حسين: عرف عن الصادق الاعتدال فى الرأى و العقيدة بحيث يقبل آراءه كل مسلم السنى منهم و الشيعى (1).

و نرى من الخير أن نتعرض لذكر الآراء حول الاجتهاد و التقليد فى نقل أقوال السلف و بعض المعاصرين بإيجاز و للتفصيل محل آخر.

آراء حول الاجتهاد و التقليد:

«إنما أنا بشر أصيب و أخطئ فاعرضوا قولى على الكتاب و السنة» . مالک بن أنس «إذا صح الحديث بخلاف قولى فاضربوا بقولى الحائط» . الشافعى «هذا رأيى و هذا أحسن ما رأيت فمن جاء برأى غير هذا قبلناه. حرام على من لم يعرف دليلى أن يفتى بكلامى» . أبو حنيفة «من ضيق علم الرجال أن يقلدوا الرجال، لا تقلد دينک الرجال فإنهم لن يسلموا من أن يغلطوا، و قيل له لم لا تضع لأصحابک كتابا فى الفقه قال أ لأحد كلام مع كلام اللّه و رسوله؟» . أحمد بن حنبل «لا يجوز ترک آية أو خبر صحيح لقول صاحب أو إمام و من يفعل ذلک فقد ضل ضلالا مبينا و خرج عن دين اللّه» . محيى الدين بن العربى «لم يبلغنا أن أحدا من السلف أمر أحدا أن يقيد بمذهب معين، و لو وقع ذلک منهم لوقعوا فى الإثم، لتفويتهم العمل بكل حديث لم يأخذ به ذلک المجتهد الذى أمر الخلق باتباعه وحده، و الشريعة حقيقة إنما هى مجموع ما بأيدى المجتهدين كلهم لا بيد مجتهد واحد، و من أين جاء الوجوب و الأئمة كلهم قد تبرءوا من الأمر باتباعهم، و قالوا: إذا بلغكم حديث فاعملوا به و اضربوا بكلامنا الحائط» . الشعرانى

1- 1) طائفة الإسماعيلية: ص 10.

سئل الشیخ تقی الدین بن تیمیة عن رجل تفقه علی مذهب من المذاهب، و تبصر فیه، و اشتغل بعده بالحدیث فوجد أحادیث صحیحة، لا یعلم لها ناسخا و لا- مخصصا و لا- معارضا، و ذلک المذهب فیه ما یخالف تلک الأحادیث، فهل له العمل بالمذهب، أو یجب علیه الرجوع إلی العمل بالحدیث و مخالفة مذهبه؟ فأجاب بما هذا نصه: الحمد للّه رب العالمین قد ثبت فی الکتاب و السنة و الإجماع أن اللّه افترض علی العباد طاعته و طاعة رسوله صلّی اللّه علیه و آله و سلم، و لم یوجب علی هذه الأمة طاعة أحد بعینه فی کل ما أمر به و نهی عنه إلا رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم، حتی کان صدّیق الأمة و أفضلها بعد نبیها علیه الصلاة و السلام، و رضی اللّه عنه یقول: أطیعونی ما أطعت اللّه، فإذا عصیت اللّه عز و جل فلا طاعة لی علیکم. و اتفق کلهم علی أنه لیس أحد معصوما فی کل ما أمر اللّه به و نهی عنه إلا رسول اللّه، و لهذا قال غیر واحد من الأئمة: کل أحد یؤخذ من کلامه و یترک إلا رسول اللّه علیه الصلاة و السلام. و هؤلاء الأئمة الأربع رحمهم اللّه تعالی أجمعین قد نهوا الناس عن تقلیدهم فی کل ما یقولون، و ذلک هو الواجب، قال الإمام أبو حنیفة: هذا رأیی و هذا أحسن ما رأیت فمن جاء برأی خیر منه قبلناه، و لهذا لما اجتمع أفضل أصحابه أبو یوسف بإمام دار الهجرة مالک بن أنس و سأله عن مسألة الصاع و صدقة الخضراوات، و مسألة الاجناس؟ فأخبر مالک بما دلت علیه السنة فی ذلک. فقال أبو یوسف: رجعت لقولک یا أبا عبد اللّه و لو رأی صاحبی ما رأیت لرجع کما رجعت. و مالک رحمه اللّه کان یقول: إنما أنا بشر أصیب و أخطئ فاعرضوا قولی علی الکتاب و السنة، أو کلام هذا معناه، و الشافعی رحمه اللّه کان یقول: إذا صح الحدیث بخلاف قولی فاضربوا بقولی الحائط، و إذا رأیت الحجة موضوعة علی طریق قولی (1). «من حصر فضل اللّه علی بعض خلقه، و قصر فهم هذه الشریعة المطهرة علی من تقدم عصره، فقد تجرأ علی اللّه عز و جل، ثم علی شریعته الموضوعة لکل عباده الذین تعبدهم بالکتاب و السنة، فإذا کان التعبد بهما مختصا بأهل العصور السابقة و لم یبق لهؤلاء المتأخرین إلا التقلید لمن تقدمهم و لا یتمکنون من معرفة کتاب اللّه و سنة

1- 1) جلاء العینین للآلوسی ص 107.

رسوله فما الدليل على هذه التفرقة الباطلة، و المقالة الزائفة، و هل النسخ إلا هذا؟ سبحانک اللهم هذا بهتان عظيم» (1). حسن خان «ليس على الإنسان التزام مـذهب معين، و انه لا يجوز له العمل بما يخالف ما عمله على مذهبه مقلدا فيه غير إمامه مسـتجمعا شـروطه، و يعمل بأمرين متضادين فى حادثتين لا تعلق لواحدة منهما بالأخرى و ليس له إبطال عين ما فعله بتقليد إمام آخر لأن إمضاء القاضـى لا ينقض» . ابن عابـدين «اعلم أن المقلـد على غير ثقـة فيما قلـد فيه، و فى التقليـد إبطال منفعة العقل، لأنه إنما خلق للتدبر، و قبيح بمن أعطى شـمعة يستضـىء بها أن يطفئها و يمشـى فى الظلمة، و اعلم أن عموم أصـحاب المذاهب يعظم فى قلوبهم الشخص فيتبعون قوله من غير تدبر بما قال، و هـذا عين الضـلال، لأن النظر ينبغى أن يكون إلى القول لا إلى القائل» (2). جمال الـدين بن الجوزى «اعلم أنه لم يكلف اللّه أحدا من عباده بأن يكون حنفيا أو مالكيا أو شافعيا، أو حنبليا، بل أوجب عليهم الإيمان بما بعث به محمدا صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم و العمل بشريعته» (3). عبد العظيم المكى «و من العجب العجيب أن الفقهاء المقلدين يقف أحدهم على ضـعف قول إمامه بحيث لا يجد لضعفه مدفعا و هو مع ذلک مقلد فيه، و يترک من شـهد الكتاب و السـنة و الأقيسة الصحيحة لمذهبهم، جمودا على تقليد إمامه، بل يتحيل لظاهر الكتاب و السّ نة و يتأولهما بالتأويلات البعيـدة الباطلـة، نضالا عن مقلـده، و لـم يزل الناس يسألون من اتفق من العلماء إلى أن ظهرت هذه المذاهب و متعصبوها من المقلدين فإن أحدهم يتبع إمامه مع بعد مذهبه عن الأدلة، مقلدا فيما قال كأنه نبى أرسل، و هذا نأى عن

1- 1) جلاء العينين للآلوسى ص 107.

2- 2) تلبيس إبليس لابن الجوزى ص 81. [1]

3- 3) رسالة القول السديد ص 3.

الحق، و بعـد عن الصواب لا يرضـى به أحد من أولى الألباب» (1). عز الدين بن عبد السـلام رأى بعض المقلدة لمذهب إمام يزعمون أن إمامهم هو الشـريعة بحيث يأنفون أن تنسب إلى أحـد من العلماء فضـيلة دون إمامهم، حتى إذا جاءهم من بلغ درجة الاجتهاد و تكلم فى المسائـل و لم يرتبـط إلى إمـامهم رموه بـالنكير، و فوّقوا إليه سـهام النقـد، و عـدوه من الخارجين عن الجادة و المفارقين للجماعـة من غير اسـتدلال منهم بدليل، بل بمجرد الاعتبار العامى، و لقد لقى بقىّ بن مخلّد حين دخل الأندلس آتيا من المشـرق من هذا الصـنف الأمرين حتى أصاروه مهجور الفناء، مهتضم الجانب. إلى أن يقول: و كان هؤلاء المقلّدة قد صمموا على مذهب مالک بحيث أنكروا ما عداه، و هذا تحكيم الرجال على الرجال و الغلو فى محبـة المذاهب» (2). الشاطبى «ينبغى لمن اشـتغل بالفقه أن لا يقتصر على إمام، و يعتقد فى كل مسألـة صـحة ما كان أقرب إلى دلالـة الكتاب و السـنة المحكمـة و ذلک سـهل عليه، و ليتجنب التعصب و النظر فى طرائق الخلاف، فإنها مضـيعة للزمان، و لصفوه مكدرة، فقد صح عن الشافعى أنه نهى عن تقليده و تقليد غيره» (3). الشيخ أبو شامة «إن قفل باب الاجتهاد معناه الضـربة القاضـية على حرية الفكر، بل على الإسلام الذى قلنا أنه جاء للناس كافة، ليساير مختلف العصور و الشعوب و الآن بعد سير ألف سنة سار خلالها المسـلمون جامدين» . محمد على مؤلف كتاب الدين الإسـلامى «و إنى أسـتطيع أن أحكم بعد هذا بأن منع الاجتهاد قد حصل بطرق ظالمة، و بوسائل القهر و الإغراء بالمال، و لا شک أن هذه الوسائل لو قدرت لغير المذاهب

1- 1) رسالة الإنصاف ص 37.

2- 2) الاعتصام ج 3 ص 259.

3- 3) انظر دائرة المعارف لفريد و جدى ج 3 ص 248.

الأربعة التی نقلدها الآن لبقی لها جمهور یقلدها أیضا، و لکانت الآن مقبولة عند من ینکرها، فنحن إذا فی حل من التقید بهذه المذاهب الأربعة التی فرضت علینا بتلک الوسائل الفاسدة، و فی حل من العود إلی الاجتهاد فی أحکام دیننا لأن منعه لم یکن إلا بطرق القهر، و الإسلام لا یرضی إلا بما یحصل بطریق الرضی و الشوری بین المسلمین کما قال تعالی فی الآیة 28 من سورة الشوری: وَ أَمْرُهُمْ شُورى بَيْنَهُمْ (1). عبد المتعال الصعیدی أحد علماء الأزهر «بأی نص سد باب الاجتهاد، أو أی إمام قال: لا ینبغی لأحد من المسلمین بعدی أن یجتهدوا لیتفقهوا فی الدین، أو أن یهتدی بهدی القرآن و صحیح الحدیث، أو أن یجد و یجتهد بتوسیع مفهومه، و الاستنتاج علی ما ینطبق علی العلوم العصریة و حاجیات الزمان و أحکامه، و لا ینافی جوهر النص أن اللّه بعث محمدا رسولا بلسان قومه العربی لیعلمهم ما یرید إفهامهم، و لیفهموا منه ما یقوله لهم. و لا- ارتیاب بأنه لو فسح فی أجل أبی حنیفة و مالک و الشافعی و أحمد و عاشوا إلی الیوم لداموا مجتهدین مجدین یستنبطون لکل قضیة حکما من القرآن و الحدیث، و کلما زاد تعمقهم زادوا فهما و تدقیقا، نعم إن أولئک الفحول من الأئمة و رجال الأمة اجتهدوا و أحصنوا فجزاهم اللّه خیر الجزاء، و لکن لا یصح أن نعتقد أنهم أحاطوا بکل أسرار القرآن و تمکنوا من تدوینها فی کتبهم» (2). جمال الدین الأفغانی «منع الاجتهاد هو سر تأخر المسلمین، و هذا هو الباب المرن الذی عند ما قفل تأخر المسلمون بقدر ما تقدم العالم، فأضحی ما وضعه السابقون لا یمکن أن یغیر و یبدل لأنه لاعتبارات سیاسیة منع الولاة و السلاطین الاجتهاد حتی یحفظوا ملکهم، و یطمئنوا إلی أنه لن یعارضهم معارض، و إذا ما عارضهم أحد-لأنه لا تخلو أمة من الأمم إلا و فیها المصلح النزیه، و الزعیم الذی لا یخشی فی الحق لومة لائم-فلن یسمع قوله لأن باب الاجتهاد قد أغلق. لهذا جمد التشریع الإسلامی الآن، و ما التشریع إلا روح الجماعة و حیاة الأمة، و إنی أرجح الفتنة الشعواء، التی حصلت فی

1- 1) میدان الاجتهاد ص 14.

2- 2) خاطرات جمال الدین ص 177. [1]

عهـد الخليفة عثمان و التى كانت سـببا فى وقف الفتح الإسـلامى حيث تحولت فى عهده الحرب الخارجية إلى حرب داخلية، أرجع ذلک إلى أن عثمان كان من المحافظين، و قد شـرط ذلک على نفسه، عند ما وافق عبد الرحمن بن عوف على «لزوم الاقتداء بالشـيخين فى كل ما يعنى دون اجتهاد» عند انتخابه خليفة و لم يوافق الإمام على على ذلک حينئذ قائلا: إن الزمن قد تغير، فكان سـبب تولى عثمان الخلافة هو سبب سقوطه» (1). الدكتور عبد الدائم البقرى الأنصارى «كم بين دفتى التاريخ من أحزاب سياسة استحالت إلى مذاهب دينية، رب مغفل أرعن يحقـد على أخيه لاختلاف مـذهبيهما اختلافا فى الفروع منشؤه الاجتهاد، و لا يـذكر أن كلمة التوحيد التى تجمعه و أخاه على خطر عظيم، و أن حقده هذا يزيده خطرا. الاجتهاد مجلبة اليسـر، و اليسـر من أكبر مقاصد الشارع و أبدع حكم التشريع، بالاجتهاد يتلاطم موج الرأى فينفـذ جوهر الحقيقـة على الساحل، الحوادث لا تتناهى و العصور محدثات، فإذا جمدنا على ما قيل فما حيلتنا فيما يعرض من ذاک القبيـل؟ سـد باب الاجتهاد اجتهاد فقل للقائل به إنک قائل غير ما تفعل» (2). العلامة العبيدى هذه بعض الشواهد على عدم شـرعية غلق باب الاجتهاد الذى حدث فى ظروف خاصة و لمآرب سياسـية، و لم تخضع الشيعة لحكم تلک الظروف بل ساروا على طريقة أهل البيت، و أخذوا أحكام الإسلام عنهم و بقى الاجتهاد مفتوحا عندهم. و لقد ألفت فى هذا الباب رسائل عدة لكبار العلماء، و كلهم ينددون بجمود التشـريع على المـذاهب الأربعـة و يطلبون حل تلک العقـدة التى عقدها ولاة أمر لا يطلبون بذلک إلا مصالح الدولة، و قد أوضح العلماء أسباب هذا الجمود كالغزالى، و العز بن عبد السلام و غيرهما من الأئمة الذين لا تأخذهم فى الحق لومة لائم، فمنها

1- 1) الفلسفة السياسية للإسلام ص 21.

2- 2) النواة فى حقل الحياة ص 136.

بالنسبة إلى بعضهم كالمباراة و المماراة، و حب الظهور، و ما يتعلق بذلک، و منها المنافع، و المرافق فی القضاء، و الإفتاء، و الأوقاف بالنسبة إلى آخرين. و منها الثقة و الاطمئنان بالتربية العلمية على المذهب و الاقتصار عليه فی التعليم و الإفتاء، و من طبع الإنسان أن ما يعتاده زمنا طويلا يملک عليه أمره و يؤثر فی نفسه تأثيرا يصرفها عن کل ما عداه، إلا أصحاب العقول الکبيرة و النفوس العالية الذين تکون الحقيقة ضالتهم و الصواب و جهتهم (1).

کلمات حول التقليد:

أما الذين يحاولون الجمود و يلتزمون بالتقليد فإنهم عجزوا عن الوصول إلى رتبة الاجتهاد و اقتنعوا بعناية السلطان على ما هم فيه من النقص، فلا يروق لهم بلوغ أحد رتبة الاجتهاد، و نسبوا مدعيه إلى الجنون کما ذهب إليه الشيخ داود النقشبندی فی کتابه «أشد الجهاد» حيث يرى أن مدعی الاجتهاد ضال مبتدع. و يقول الشيخ أحمد بن عبد الرحيم فی تقسيم طبقات المجتهدين: «الطبقة الثالثة من نشأ من المسلمين من رأس المائة الرابعة و يجب على العامی تقليد المجتهد المنتسب لا غير، «أی لأحد المذاهب الأربعة» لامتناع وجود المستقل من هذا التأريخ حتى اليوم، ثم أورد على نفسه و أجاب، و أهم شیء يعتمد عليه فی أدلته، قوله: إنه اجتمعت الأمة على أن يعتمدوا على السلف فی معرفة الشريعة فلا بد لنا من الرجوع إليهم، و لا يرجع إلا إلى المروی عن السلف بسند صحيح مدون فی الکتب المشهورة، مع بيان الأرجح من دلالتها، و تخصيص عمومها أو تقييدها و الجمع بين مختلفاتها، و لا توجد هذه الخصوصيات إلا فی المذاهب الأربعة، و ليس مذهب بهذه الصفة إلا الإمامية، و الزيدية و هم أهل البدعة (2)لا يجوز الاعتماد على أقاويلهم فتعين الأخذ بأحد المذاهب الأربعة» . هذا أهم ما عندهم من الأدلة. و ذهب بعضهم إلى القول بعصمة الأربعة مستدلا بعصمة النبی، و هم ورثته فهم معصومون من الخطأ، و إذا کانوا کذلک فيجب الرجوع إليهم فحسب.

1- 1) الوحدة الإسلامية للسيد محمد رشيد رضا ص 112.

2- 2) رسالة الإنصاف للدهلوی ص 7.

و لا حاجة بنا إلى إطالة نقل أقوال المانعين لملكة الاجتهاد لعلماء الأمة بعد المذاهب الأربعة، لأنها حجج لقضية تبتنى على عدم لياقة أى أحد بعدهم لهذه الرتبة، و أن مدعيها ضال مضل بل ممن يريد فى الأرض الفساد، و يجب إقامة الحد عليه، و من ادعى من الأمة تلك المنزلة أو كانت له لياقة استنباط الأحكام الشرعية شنعوا عليه، و رموه بالنكير. فهذا العلامة جلال الدين السيوطى ادعى رتبة الاجتهاد المطلق قام عليه علماء عصره فرموه بالنكير، و وقعوا فيه، و كذلک أنكروا على كل من ادعى ذلک. و الواقع أن فى القرون المتأخرة رجالا برهنوا بمؤلفاتهم على تلک الملكة التى ادعى استحالتها عليهم، حتى فضلوا بعضهم على رؤساء المذاهب. فهذا أبو حامد أحمد بن محمد الاسفراييني فضلوه على الشافعى، و كثير منهم كانوا بمنزلة من العلم لا يستبعد اتصافهم بتلک الملكة. كالشيخ عبد العزيز بن سلام المتوفى سنة 578 ه-. و الشيخ عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم بن الفضل بن الحسن القزوينى المتوفى سنة 623 ه-، و إسماعيل بن عبد الرحمن الصابونى المتوفى سنة 449 ه-، و محمد بن إسحاق صدر الدين القونوى المتوفى سنة 673 ه-و إبراهيم بن محمد بن إبراهيم الاسفراييني المتوفى سنة 418 ه-. و ناهيک ما للقفال، و إمام الحرمين الجوينى، و الصيدلانى، و السبخى و السرخسى، و الجصاص، من منزلة فى العلم و موهبة فى استنباط الأحكام، و لكنهم ألجموا من قبل العامة الذين رأوا ادعاء الاجتهاد ضلالة، بل يتلبس مدعيها بتهمة التشيع لأنهم يقولون بذلک (1). و كان أبو الحسن الداركى أحد المجتهدين فى عصره إذا سئل عن فتوى يجيب بعد تفكر، فربما كانت فتواه مخالفة لمذهب الشافعى و أبى حنيفة فينكرون عليه ذلک، فيقول: ويلكم روى فلان عن فلان عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كذا و كذا، فالأخذ به أولى من الأخذ بمذهب الشافعى و مخالفتهما أسهل من مخالفة الحديث.

1- 1) أشد الجهاد لمدعى الاجتهاد ص 25.

و لقد لقى بقى بن مخلد من الأذى و شدة الإنكار لدعوى الاجتهاد ما جعله مهجور الفناء، مهتضم الجانب، و كثير من أمثاله، أما ابن تيمية و ابن قيم الجوزية فإنهما بلغا فى آرائهما حدودا كان ينبغى الامتناع عن تجاوزها فمهما أحسن المرء الظن فإنها اجتراء على مقام الرسول محمد و نيل من آل بيته الأطهار رويت للفرقة و مؤداها الجمود، فما لقياه كان عملا اقتضته طريقة خوضهما فى الاجتهاد، و لو أحسنا الفهم و الاختيار لكانا فى قافلة المنافحين عن الحق و الداعين إلى حرية الرأى. و لست أدرى ما هذه الاستحالة و عدم الإمكان من حصول درجة الاجتهاد و الحكم على الرجال بالقصور و النقص و حصر الكمال فى عدد معين بدون دليل؟ و لا بد من تعريف الاجتهاد و التقليد عندهم إجمالا لنرى مدى تحجير الأفكار و وقوف العقل عن إدراك ذلك.

الاجتهاد:

الاجتهاد لغة: هو بذل الوسع فى ما فيه كلفة، مأخوذ-كما نقل ابن أبى زرعة عن الماوردى-من جهاد النفس و كدها فى طلب المراد، و فى الاصطلاح على ما فى جمع الجوامع: استفراغ الفقيه الوسع لتحصيل ظن بحكم، و الفقيه و المجتهد لفظان مترادفان و هو البالغ العاقل، أى ذو ملكة يدرك بها العلوم و هذه الملكة العقل. كما عرّفوا الاجتهاد أيضا بأنه استنفاذ الجهد بالنظر فى المآخذ الشرعية، لتحصيل علم أو ظن بحكم شرعى. قال أبو إسحاق: و من كان موصوفا بالبلادة و العجز عن التصرف فليس من أهل الاجتهاد، و فى إنكاره للقياس خلاف، و أن يكون عارفا بالدليل العقلى و هو البراءة الأصلية، و أن يكون عارفا بلغة العرب و بالعربية و علم النحو إعرابا و تصريفا، و بأصول الفقه ليقوى على معرفة الأدلة و كيفية الاستنباط و بالبلاغة ليتمكن من الاستنباط بحيث يميز العبارة الصحيحة من الفاسدة و أن يكون عارفا بالكتاب و السنة و لا يعتبر العلم بجميعها و لا حفظها. قال العلامة السبكى: المجتهد من هذه العلوم من له ملكة و إحاطة بمعظم قواعد الشرع، و مارسها بحيث اكتسب قوة يفهم بها مقصود الشارع، و يعتبر على ما قيل كونه خبيرا بمواقع الاجتماع كيلا يخرقه، و الناسخ و المنسوخ و أسباب النزول و شرط

المتواتر و الآحاد، و الصحيح و الضعيف، و حال المرويات و سير الصحابة، و لا يشترط فيه الكلام، و تفاريع الفقه، و الذكورة و الحرية، و كذا العدالة على الأصح. هذه هى شروط المجتهد عندهم، و أنت لو نظرت إلى الواقع لم تجد سببا لمنعه من أجل قصور عن إدراكه لمن أراده، و كم من العلماء من عرفنا عنه تمام المعرفة لهذه العلوم و زيادة و لكن المانع شيء آخر.

التقليد:

و التقليد: هو أخذ قول الغير من غير معرفة دليله، قال ابن أبى زرعة فى شرح الجوامع: و قد اختلف العلماء فى تقليد المفضول من المجتهدين مع التمكن من تقليد الفاضل على مذاهب، أحدها و هو المشهور: جوازه، و قد كانوا يسألون الصحابة مع وجود أفاضلهم، و الثانى: منعه، و به قال الإمام أحمد و ابن سريج، و اختاره القاضى حسين و غيره، و الثالث: يجوز لمن يعتقده فاضلا، أو مساويا لغيره فإن اعتقده دون غيره امتنع استفتاؤه. و كذا اختلفوا فى تجويز تقليد الميت على أقوال: أحدها: جوازه، و به قال الجمهور، و عبر عنه الشافعى بقوله: المذاهب لا- تموت بموت أربابها. و الثانى: منعه، أى منع تقليد الميت مطلقا، و عزاه الإمام الغزالى لإجماع الأصوليين و اختاره الإمام فخر الدين. و الثالث: يجوز مع فقد حى و لا يجوز مع وجوده. انتهى ملخصا. و قال الشيخ محيى الدين بن عربى فى الباب الثامن و الثمانين من الفتوحات المكية: و التقليد فى دين اللّه لا يجوز عندنا لا تقليد حى و لا ميت، انتهى. فتدبر. و قال ابن عابدين الشامى: إنه يجوز تقليد المفضول مع وجود الأفضل و به قالت الحنفية و المالكية و الشافعية و أكثر الحنابلة، و عن أحمد و طائفة كثيرة من الفقهاء: لا يجوز.

حركة التنازع بين المذاهب

كلمات حول تنازع المذاهب:

كان النزاع بين طوائف المسلمين إنما هو نزاع علمى، و اختلاف لا يتعدى حدود القول فى النقض لبعض ما ينهجه الآخر، و سارت الأمور على هذا المنوال و لكن حركة الانشقاق تتسع و روح الاختلاف تسرى فى المجتمع بسرعة، لقوة الدافع السياسى الذى يحاول أن لا تتفق الأمة على رأى واحد فهو يعمل على إحياء العصبية «إذ لا حياة للنظام الملكى إلا بها» (1). و مضى عصر أئمة المذاهب و جاء دور أتباعهم فشغل كل بمذهبه الذى يرتضيه، و تأصلت روح الخصومة و انحاز كل إلى جهة بدون التفات إلى ما وراء هذا التحيز من خطر على العلم، فى ضياع حقيقته، و سلب منافعه التى أراد الإسلام أن تسير الأمة على ضوء تعاليمه القيمة لاكتساب السعادة. و لم يصل الأمر إلى تحديد الأخذ بمذهب معين لا غير و إلزام الناس بالأخذ عن المذاهب الأربعة فحسب إلا بعد مدة من الزمن. يقول الشاه ولى الدهلوى (2)اعلم أن الناس كانوا فى المائة الأولى و الثانية غير مجتمعين على التقليد فى مذهب واحد بعينه، بل كان الناس على درجتين: العلماء و العامة، و كانوا فى المسائل الاجتماعية التى لا خلاف فيها بين المسلمين أو بين جمهور المجتهدين لا يقلدون إلا صاحب الشرع، و كانوا يتعلمون صفة الوضوء و الغسل و أحكام الصلاة و الزكاة و نحوه، من آبائهم أو معلمى بلادهم فيمشون على

1- 1) فلسفة السياسة للإسلام ص 21 نقلا عن ابن خلدون.

2- 2) رسالة الإنصاف ص 8.

ذلک، و إذا وقعت لهم واقعة نادرة استفتوا فيها أی مضت وجدوا من غير تعيين مذهب. و أما العلماء فكانوا على مرتبتين: منهم من أمعن فی تتبع الكتاب و السنة و الآثار حتی حصل له بالقوة القريبة من الفعل ملكة تؤهله لفتيا الناس يجيبهم فی الوقائع غالبا بحيث يكون جوابه أكثر مما يتوقف فيه و يخص باسم المجتهد، و هذا الاستعداد يحصل تارة باستفراغ الجهد فی جميع الروايات، فإنه ورد كثير من الأحكام فی الأحاديث و كثير منها فی آثار الصحابة و التابعين. ثم بعد هذه القرون كان ناس آخرون، ذهبوا يمينا و شمالا، و حدث فيهم أمور منها: الجدل و الخلاف فی علم الفقه و تفصيله، علی ما ذكره الغزالی (1). و لما انقرض عهد الخلفاء الراشدين أفضت الخلافة إلی قوم تولوها بغير استحقاق، و لا استقلال بعلم الفتاوی و الأحكام، فاضطروا إلی الاستعانة بالفقهاء، و إلی استصحابهم فی جميع أحوالهم، و كان بقی من العلماء من الطراز الأول، فكانوا إذا طلبوا هربوا و أعرضوا، فرأی أهل تلک الأعصار-غير العلماء-إقبال الأئمة عليهم مع إعراضهم، فاشتروا طلب العلم توصلا إلی نيل العز، فأصبح الفقهاء بعد أن كانوا مطلوبين طالبين، و بعد أن كانوا أعزة بالإعراض عن السلاطين أذلة بالإقبال عليهم، إلا من وفقه اللّه، و قد كان من قبلهم قد صنف ناس فی علم الكلام، و أكثروا القال و القيل و الإيراد و الجواب و تمهيد طرق الجدال، وقع ذلک منهم بموقع من قبل أن كان الصدور و الملوک من مالت نفسه إلی المناظرة فی الفقه من مذهب الشافعی و أبی حنيفة، فترک الناس الكلام و فنون العلم، و أقبلوا علی المسائل الخلافية بين الشافعی و أبی حنيفة علی الخصوص، و تساهلوا فی الخلاف مع مالک و سفيان و أحمد بن حنبل و غيرهم و زعموا أن غرضهم استنباط دقائق الشرع و تقرير علل المذهب، و تمهيد أصول الفتاوی، و أكثروا فيها التصانيف و هم مستمرون عليه إلی الآن. و لسنا ندری ما الذی قدره اللّه تعالی فيما بعده من الأعصار؟ اه-.

1- 1) هو محمد بن محمد الغزالی نسبة إلی غزالة قرية من قری طوس، الملقب حجة الإسلام صاحب كتاب إحياء العلوم الذی نال شهرة عظيمة إلا أنه أورد فيه خمسمائة حديث مرسل ليس لها طريق و لم يروها أحد و لم يخرجها الحفاظ و له مؤلفات كثيرة و منزلته العلمية أشهر من أن تذكر ولد فی سنة 450 ه-و توفی سنة 505 ه-و دفن بالطابران فی طوس و كان فی عداد الشافعية إلا أنه مجتهد.

و يعطينا الخطابى (1)فى كتابه معالم السنن صورة عن الخلاف الذى حصل بعد المائة الثالثة بين فقهاء المسلمين و متبعى المذاهب إذ يقول: رأيت أهل زماننا انقسموا إلى فرقتين: أصحاب حديث و أثر، و أهل فقه و نظر، و وجدت هاتين الفرقتين إخوانا متهاجرين. أما أهل الحديث و الأثر فإن الأكثر منهم إنما كدهم الروايات و جمع الطريق، و طلب الغريب و الشاذ من الحديث الذى أكثره موضوع أو مقلوب لا يراعون و لا يفهمون المعانى، و ربما عابوا الفقهاء و تناولوهم بالطعن و ادعوا عليهم مخالفة السنن. و أما الطبقة الأخرى و هم أهل الفقه و النظر، فإن أكثرهم لا يعرجون من الحديث إلا على أقله، و لا يكادون يميزون صحيحه من سقيمه، إذا وافق مذاهبهم التى ينتحلونها و وافق آراءهم التى يعتقدونها، و قد اصطلحوا على مواضعة بينهم فى قبول الخبر الضعيف و الحديث المنقطع إذا كان قد اشتهر عندهم، و تعاورته الألسن فيما بينهم من غير تثبت فيه، أو يقين علم به، و لو حكى لهم عن واحد من رؤساء مذاهبهم و زعماء نحلهم قول يقوله باجتهاده من قبل نفسه طلبوا فيه الثقة و استبرءوا له العدة، فتجد أصحاب مالک لا يعتمدون فى مذهبه إلا على ما كان من رواية ابن القاسم و أشهب، فإذا جاءت رواية عبد اللّه بن الحكم و أضرابه لم يكن عندهم طائلا، و ترى أصحاب أبى حنيفة لا يقبلون من الرواية عنه إلا ما حكاه أبو يوسف و محمد بن الحسن، فإن جاءهم عن الحسن بن زياد اللؤلؤى و ذوى روايته قول بخلاف لم يقبلوه و لم يعتمدوه. و كذلک تجد أصحاب الشافعى، إنما يعولون فى مذهبه على رواية المزنى و الربيع بن سليمان المرادى، فإذا جاءت رواية خزيمة و الجرمى و أمثالهما لم يلتفتوا إليها، و لم يعتدوا بها فى أقاويله. و على هذا عادة كل فرقة من العلماء فى أحكام مذاهب أئمتهم و أساتذتهم. فإذا كان هذا دأبهم و كانوا لا يقتنعون فى أمر هذه الفروع

---

1 - 1) هو الشيخ حمد (بفتح الحاء و سكون الميم) بن محمد بن الخطاب البستى قال السمعانى: كان الخطابى حجة صدوقا رحل إلى العراق و الحجاز و جال فى خراسان و خرج إلى ما وراء النهر و قال السبكى فى طبقات الشافعية: كان إماما فى الفقه و الحديث و اللغة، و قال الذهبى: كان ثقة من أوعية العلم، و قال البهنسى: إنه من الأعلام المجتهدين فى قواعد الأحكام توفى سنة 388 ه-.

و الروایـة عن هؤلاء الشـیوخ إلا بالوثیقـة و التثبت فکیف یجوز لهم أن یتساهلوا فی الأمر الأهم، و الخطب الأعظم، و أن یتواکلوا الروایة و النقل عن إمام الأئمـة و رسول رب العزة صـلّی اللّه علیه و آله و سـلم الواجب حکمه، اللازمـة طاعته، الذی یجب علینا التسـلیم لحکمه و الانقیاد لأمره، من حیث لا نجـد فی أنفسـنا حرجا مما قضاه، و لا فی صدورنا غلا من شـیء أبرمه و أمضاه، و لکن أقواما عساهم اسـتوعروا طریق الحق، و اسـتطابوا الدعـة فی ذلک الخط، و أحبوا عجالـة النیل، فاختصـروا طریق العلم، و اقتصـروا علی نتف و حروف منتزعـة من معانی أصول الفقه سـموها عللا و جعلوهم شـعارا لأنفسـهم فی الترسم برسم العلم، و أخـذوا جنـة عنـد لقاء خصومهم و نصـبوها ذریعة للخوض و الجدال یتناظرون بها و یتلاطمون علیها، و عند التصادر عنها قد حکم الغالب بالحذق و التبریر، فهو الفقیه المذکور فی عصـره و الرئیس المعظم فی بلده و مصره. انتهی باختصار (1).

التعصب بین المذاهب:

هـذه بعض کلمـات علمـاء ذلک العصـر أوردناها لیتضـح للقارئ سـیر العلم فی تلک الأدوار، و الخلاف الـذی أدی إلی الارتباکات التی أحاطت بمفهومه و بلغ الحال إلی تطور مؤلم أدی إلی الطعن فی المعتقـدات، و نتج من وراء ذلک ثورات دمویة ذهبت بکثیر من النفوس و الأموال بشـکل یبعث علی الأسف الشدیـد لما حل من التطاحن بین المـذاهب، فأصـبحوا أعـداء متخاصـمین فی المعتقـدات و قد عامل بعضـهم بعضا معاملة الخارجین عن الدین حتی قال محمد بن موسـی الحنفی قاضـی دمشق المتوفی سنة 506 ه-: «لو کـان لی من الأمر شیء لأخذت علی الشافعیة الجزیة» و یقول أبو حامد الطوسـی المتوفی سنة 567 ه-: «لو کان لی أمر لوضـعت علی الحنابلة الجزیة» . إن أسـباب تلک الفتن التی حلت بالمسـلمین کلها تعود لمسایرة بعض العلماء للدولـة، یشایعها و یؤیـد وجهة نظرها، فأغدقت علیه العطاء و بذلک أصبح العلم مسایرا للدولة.

1- 1) رسالة الانصاف للدهلوی ص 17.

و لو استقل العلم عن مؤثرات السياسة فی تلک العصور، لأرغمت الدولة علی الخضوع له و لسارت فی رکابه، و فی ذلک سعادة الأمة، و لکن بعض حملة العلم بمسایرتهم لولاة الأمر الذین انحرفوا عن الدین أصبحوا دعامة تستند علیها سلطتهم الجائرة فی أهم الأمور، مما جعل الناس ینظرون إلی الإسلام و هو مسلوب القوة العادلة عن تنظیم شئون العالم. و الدین أجل و أسمی من أن یکون مهبا للأهواء، أو مثارا لاختلاف الآراء أو مجالا لتحزب العلماء. و علی أی حال فقد اصطدمت الطوائف اصطداما عنیفا، و خلقت کثیرا من المشاکل التی هی فی نهایة التعقید و لا- یمکن حلها ما دام علماء الدولة هم المحور لتلک الأمور، و منهم تنبعث تلک الأفکار التی تتحرک بها شعور العامة فیقع من وراء ذلک حوادث مؤلمة. و إذا نظرنا إلی الحوادث المؤلمة التی حصل فیها التشاجر و التطاحن بین معتنقی المذاهب الأربعة، فإن ذلک یبعث فی نفوسنا الألم، مما وصلت إلیه الحالة السیئة بین جماعات الأمة، و یدلنا ذلک بکل وضوح علی إبطال من یدعی لهم الاتفاق و عدم الخلاف، و هو بذلک یستدل علی أحقیة مذاهبهم، و صدق معتقداتهم، کما ذهب إلیه صاحب کتاب التبصیر و غیره ممن یطلقون الأقوال بدون تدبر، و یحکمون بدون تثبت. لیت شعری أخفیت علیهم تلک الحوادث التی وقعت بین الحنفیة و الحنابلة، و بین الحنابلة و الشافعیة، یوم قام خطباء الحنفیة یلعنون الحنابلة و الشوافع علی المنابر، و الحنابلة یحرقون مسجدا للشافعیة بمرو. و تقع هناک فتنة ذهب تحت هیاجها خلق کثیر، و یعظم الأمر و الخلاف بین الحنفیة و الشافعیة فی نیسابور، و تقع فتنة مبعثها التعصب المذهبی، فتحرق الأسواق و المدارس، و یکثر القتل فی الشافعیة فینتصرون بعد ذلک علی الحنفیة، و یسرفون فی أخذ الثأر منهم و ذلک فی سنة 554 ه-و مثلها تقع بین الشافعیة و الحنابلة، و تضطر السلطة إلی التدخل فی حسم النزاع بالقوة، و ذلک فی سنة 716 ه- (1)و کثر القتل

1- 1) البدایة و النهایة ج 14 ص 76.

و حرق المساكن و الأسواق فی أصبهان و کان منشؤه التعصب (1). و لشدة وقوع الفتن ببغداد فقد نادی منادی السلطان بمنع الفتن و عدم ذکر المذاهب و الخصومة فیها (2). و کان الحنابلة یخلون فی أعمالهم بالأمن، و یرهجون بغداد، و یستظهرون بالعمیان علی الشافعیة الذین کانوا یأوون للمساجد، فإذا مر بهم شافعی المذهب أغروا به العمیان فیضربونه (3)و کان رئیس الحنابلة و زعیمهم الدینی الشیخ البربهاری یتولی إثارة الفتنة و ذلک فی سنة 323 ه-. و لما تولی القشیری الوعظ بالمدرسة النظامیة عظم ذلک علی الحنابلة فحطوا منه، و کان ینال منهم فوقعت بینهم فتنة ذهبت بکثیر من النفوس (4)و اشتد تعصب محب الدین بن محمد الهندی الحنفی المتوفی سنة 789 ه- علی الشافعیة و کان یظهر التدین و النسک، و یری تعصبه علیهم تدینا و الدین بریء من ذلک (5)و تجتمع بقیة المذاهب علی الحنابلة غضبا علی أعمال ابن تیمیة و نودی فی دمشق و غیرها: من کان علی دین ابن تیمیة حل ماله و دمه بمعنی أنهم کفرة یعاملون معاملة الکافرین، علی أن الشیخ ابن حاتم الحنبلی یقول: «من لم یکن حنبلیا فلیس بمسلم» (6)فهو یکفر جمیع المسلمین، و عکسه الشیخ أبو بکر المقری الواعظ فی جوامع بغداد ذهب إلی تکفیر الحنابلة أجمع (7). و لقد لقی الشیخ عبد الغنی المقدسی المتوفی سنة 600 ه- من التحامل علیه و التکفیر له و للحنابلة بدمشق ما یطول ذکره حتی هجر دمشق. و تکفیر الفرق بعضها بعضا أمر شائع یحز فی صدر الحق، و یؤلم التأریخ وقعه، و یتبرأ الإسلام منه.

1- 1) مرآة الجنان ج 3 ص 343. [1]

2- 2) المنتظم ج 10 ص 111.

3- 3) ابن الأثیر ج 8 ص 229. [2]

4- 4) مرآة الجنان ج 3 ص 97.

5- 5) شذرات الذهب ج 6 ص 260.

6- 6) تذکرة الحفاظ ج 3 ص 375.

7- 7) شذرات الذهب ج 3 ص 253. [3]

هذا أبو سهل بن زياد القطان و كان من الحفاظ و الثقات عندهم يذهب إلى تكفير المعتزلة مستدلا بقوله تعالى: يا أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَ قالُوا لِإِخْوانِهِمْ إِذا ضَرَبُوا فِي اَلْأَرْضِ [آل عمران:156]الآية. و ثارت فتن عمياء و وقعت حوادث مؤلمة مبعثها التعصب الأعمى. فهذا الشيخ أبو إسحاق إبراهيم بن على بن يوسف الفيروزآبادى المتوفى سنة 479 ه-و كان شيخ الشافعية و عالمهم المبرز تعصب الحنابلة عليه فتكلموا فيه و بالغوا فى الأذى بألسنتهم فثارت فتنة عظيمة أدت إلى ذهاب نفوس من الطرفين، و انتصر السلطان لأبى إسحاق فسجن شيخ الشافعية (1). و هذا الفقيه أبو منصور المتوفى سنة 567 ه-قتله الحنابلة بالسم تعصبا عليه، قال ابن الجوزى إن الحنابلة دسوا إليه امرأة جاءت إليه بصحن حلوى و قالت: هذا يا سيدى من غزلى، فأكل هو و امرأته و ولد له صغير فأصبحوا موتى و كان من علماء الشافعية المبرزين (2)، و كذلك أبو الحسن بن فورک قتل مسموما بسبب التعصب و أبو على خادم المستنصر كان من أئمة الشافعية فى مصر، و كان يجلس فى حلقة ابن عبد الحكم و يناظرهم فسعوا به إلى السلطان و قالوا: هذا جاسوس فحبسه سبع سنين، و اجتمع مشايخ المذاهب فى هراة عند الملک الب ارسلان يستغيثون به من الشيخ محمد بن عبد اللّه الأنصارى الحنبلى بعد أن جعلوا صنما تحت سجادته و يقولون للملک إنه مجسم و إنه يترک فى محرابه صنما يزعم أن اللّه على صورته فتفحص الملک و وجد الأمر كذلک (3).

التحول من مذهب إلى مذهب:

و يحدثنا ابن خلكان (4)عن الشيخ الآمدى المتوفى سنة 631 ه-كان أول اشتغاله حنبلى المذهب و انحدر إلى بغداد و بقى مدة ثم انتقل إلى مذهب الشافعى، و عاد إلى الديار المصرية و تولى الإعادة بالمدرسة المجاورة لضريح الإمام الشافعى، فحسده جماعة من فقهاء البلاد و تعصبوا عليه، و نسبوا إليه فساد العقيدة و انحلال الطوية،

1- 1) طبقات الشافعية ج 3 ص 109.

2- 2) طبقات الشافعية ج 4 ص 184. [1]

3- 3) تذكرة الحفاظ ج 3 ص 358.

4- 4) وفيات الأعيان ج 1 ص 301. [2]

و مذهب الفلاسفة و الحكماء، و كتبوا محضرا يتضمن ذلک و وضعوا خطوطهم بما يستباح به دمه. و فی مصر يأمر القاضی المالکی و هو الحارث بن مسکين بإخراج الحنفية و الشافعية من المسجد و أمر بنزع حصرهم. و فی سنة 538 ه-قدم بغداد الحسن بن أبی بکر النيسابوری الحنفی و تحامل علی الأشعری و علی الشافعية و فيها أخرج أبو الفتوح الاسفراييني من بغداد لما حصل فيها من الفتن بين الأشعرية و الشافعية (1). و لعل أعظم صورة تتجلی بها روح العصبية و الخلاف بين الطوائف هی قضية القفال عند السلطان محمود بن ناصر، و ذلک أنه کان حنفيا و تحول شافعيا فأحضر علماء الفريقين و طلب من القفال المروزی أن يصلی رکعتين طبق المذهب الحنفی، فصلی القفال علی مذهب الشافعی، و کان شافعی المذهب بوضوء و شرائط معتبرة، ثم صلی علی مذهب أبی حنيفة و ما يجوزه فی الصلاة فصلی رکعتين بتلک الصورة القبيحة التی ذکروها و نحن نعرض عن ذکرها (2). و هذا الشيخ علی بن الحسن الملقب بسيف الدين المتوفی سنة 631 ه-کان حنبليا ثم صار شافعيا و تعصب عليه فقهاء البلاد و حکموا عليه بالکفر و الزندقة (3). و کثير من أمثاله من العلماء الذين قتلوا بسيف التصعب بشهادة رجال ذلک العصر، و لا يستبعد أن ذلک کله افتراء محض، و أن أکثر هؤلاء هم بريئون مما نسب إليهم، و قد استساغ أعداؤهم شهادة الزور علی من يخالفهم تدينا. استفتی بعضهم فی شهادة علی شافعی زورا فأجابه المفتی أ لست تعتقد أن دمه و ماله حلال؟ قال: نعم. قال: فما دون ذلک، فاشهد و ادفع فساده عن المسلمين. و هذه الأمور التی ابتلی بها الإسلام إنما هی من جنايات علماء السوء الذين تزلفوا للدولة، و تأثروا بسياستها لفتح باب الشحناء و النزاع و التخاصم و البغضاء بين طوائف المسلمين، فتجد الحنابلة يتعصبون علی الحنفية و الحنفية علی الحنابلة، و لو أنعمنا

1- 1) المنتظم ج 10 ص 106-108. [1]

2- 2) وفيات الأعيان ج 2 ص 86 و [2]الطبقات ج 4 ص 14. [3]

3- 3) مرآة الجنان ج 4 ص 24. [4]

النظر فی طیات التاریخ، و استعرضنا حوادث الفتن بین المنتسبین إلی السنة بعضهم مع بعض فإننا نجد من الوقائع ما یؤلم قلب کل مسلم. یقول الأستاذ السید محمد رشید رضا صاحب المنار: و من أغرب ما تجد أن العدوان بین الشافعیة کان من أسباب حملة التتار علی المسلمین، تلک الحملة التی کانت أول صدمة صدعت بناء قوة المسلمین صدعا لم یلتئم من بعده. أدر طرفک فی بلادهم الیوم و انظر حال هذه المذاهب، علی ضعف الدین فی نفوس الجماهیر تجد بأسهم بینهم شدیدا تحسبهم جمیعا و قلوبهم شتی، کما قال اللّه تعالی فی وصف من لا ایمان لهم و لا ایمان (1).

التعصب لائمة المذاهب:

تعددت عوامل التفرقة، و کثرت طرق الخلاف بین الطوائف، و تعصب کل إلی جهة، فأهل الجرح و التعدیل أدی بهم التعصب إلی الحط مما یخالف مذهبهم فاستهان بعضهم ببعض، و اختلق بعضهم مکارم لبعض، فکم من مجروح عدلوه، و عادل جرحوه، و أعطف علیهم المؤرخون فإنهم ربما وضعوا أناسا و رفعوا أناسا، إما لتعصب، أو لجهل، أو لمجرد اعتماد علی نقل من لا یوثق به أو غیر ذلک. یقول السبکی: «و الجهل فی المؤرخین أکثر منه فی الجرح و التعدیل و کذلک التعصب، قل أن رأیت تاریخا خالیا من ذلک، و أما تأریخ شیخنا الذهبی غفر اللّه له فإنه علی حسنه و جمعه مشحون بالتعصب، فإنه أکثر الوقیعة فی أهل الدین الذین هم صفوة الخلق، و استطال بلسانه علی کثیر من أئمة الشافعیة و الحنفیة و مال فافرط و مدح فزاد فی المجسمة. و یقول الحافظ صلاح الدین: إن الحافظ شمس الدین الذهبی لا شک فی دینه و ورعه، و لکن غلب علیه مذهب الاثبات و منافرة التأویل، و الغفلة عن التنزیه حتی أثر ذلک فی طبعه انحرافا شدیدا (2). و علی أی حال فقد مالت الأهواء و أثرت النزعات فنفروا من الحقائق و لم

1- 1) الوحدة الإسلامیة ص 2.

2- 2) طبقات الشافعیة ج 1 ص 190.

يتقبلوها، فكتبوا بما توحيه إليهم أهواؤهم و أغراضهم، لا بما تقتضيه الحقيقة من حيث هى حقيقة لا تقبل الدجل و التدليس. و تأصلت روح العداء، و تحيز كل إلى مذهبه، و غلوا فى أئمتهم غلوا أخرجهم عن حدود الاتزان، و وضعوا فى مدحهم ما شاءت رغباتهم بدون قيد و شرط، و توسعوا فى وضع الأحاديث عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بالبشائر بأئمة المذاهب كما أورد الحنفية مرسلا: أن آدم افتخر بى و أنا أفتخر برجل من أمتى اسمه النعمان، و بصورة أخرى: الأنبياء يفتخرون بى و أنا أفتخر بأبى حنيفة، من أحبه فقد أحبنى و من أبغضه فقد أبغضنى (1). و توسعوا فى الادعاءات لتصحيح مذهبه و وجوب اتباعه و أن عيسى يحكم بمذهبه و أن اللّه غفر له و لأهل مذهبه إلى يوم القيامة (2)و أنه أعظم معجزة للنبى بعد القرآن. و من ذلك قولهم إن اللّه خص أبا حنيفة بالشريعة و الكرامة و من كرامته أن الخضر عليه السّلام كان يجىء إليه كل يوم وقت الصبح و يتعلم منه أحكام الشريعة إلى خمس سنين، فلما توفى أبو حنيفة دعا الخضر ربه فقال: يا رب إن كان لى عندك منزلة فأذن لأبى حنيفة حتى يعلمنى من القبر على عادته حتى أعلم الناس شرع محمد على الكمال ليحصل لى الطريق، فأجابه ربه إلى ذلك. و أتم الخضر دراسته على أبى حنيفة و هو فى قبره فى مدة خمس و عشرين سنة إلى آخر ما فى هذه الأسطورة التى تتلى فى مجالس الحنفية فى الهند و مساجدهم (3)و قد صنعت فى عصور التعصب. و لو بعث أبو حنيفة لأقام الحد على هؤلاء المتجرئين بالكذب و الافتراء على مقام الأنبياء، و لخر صعقا إلى الأرض و عفر خده فهو يعرف نفسه، و لكنهم أرادوا أن يحسنوا فأساءوا و يقول شاعرهم لتأييد صحة مذهبه و ترجيحه على غيره. غدا مذهب النعمان خير المذاهب كذا القمر الوضاح خير الكواكب

مذاهب أهل الفقه عندى تقلصت و أين عن الروسى نسج العناكب

1- 1) الدر المختار فى شرح تنوير الأبصار ج 1 ص 53 و 54.

2- 2) الدر المختار فى شرح تنوير الأبصار ج 1 ص 52 و 54.

3- 3) كتاب الياقوت فى الوعظ لأبى الفرج على بن الجوزى ص 48.

و يقول الشاعر الشافعى: مثل الشافعى فى العلماء مثل البدر فى نجوم السماء

قل لمن قاسه بنعمان جهلا أ يقاس الضياء بالظلماء

و المالكيـة يدعون لإمامهم أمورا، منها أنه مكتوب على فخذه بقلم القدرة مالک حجة اللّه فى أرضه، و أنه يحضـر الأموات من أصـحابه فى قبورهم و ينحى الملكين عن الميت و لا يدعهما يحاسبانه على أعماله (1)، و منها أنه ألقى كتابه الموطأ فى الماء فلم يبتل و يقول شاعرهم:
إذا ذكروا كتب العلوم فحى هل بكتب الموطأ من تصانيف مالک

فشد به كف الصيانة تهتدى فمن حاد عنه هالک فى الهوالک

و يقول الحنبلى: سبرت شرائع العلماء طرا فلم أر كاعتقاد الحنبلى

فكن من أهله سرا و جهرا تكن أبدا على النهج السوى

و يقول آخر: أنا حنبلى ما حييت و إن أمت فوصيتى للناس أن يتحنبلوا

و الحنابلـة يقولون: أحمـد بن حنبل إمامنا فمن لم يرض فهو مبتدع، فما أكثر المبتدعين فى نظرهم على هذه القاعدة. و تقولوا على الشافعى قوله: من أبغض أحمد بن حنبل فهو كافر، فقيل له: أ تطلق عليه اسم الكفر؟ فقال: نعم، من أبغض أحمد عاند السـنة، و من عاند السـنة قصد الصحابة و من قصد الصحابة أبغض النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و من أبغض النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كفر باللّه العظيم (2). و إنى أسـتبعد صدور هذا القول من الشافعى و هو فى مكانته و لكن الغلو لا يقف عند حد و لا يتقيد بشـرط، و إلا فلما ذا لا يسمى من أبغض عليا كافرا؟ مع انا نراهم

1- 1) مشارق الأنوار للعدوى ص 288.
2- 2) طبقات الحنابلة ج 1 ص 13. [1]

يعظمون المتوكل العباسی و يسمونه بناصر السنة و يحوكون له المناقب و الفضائل (1)و هو هو فی تحامله علی علی علیه السّلام و بغضه له، و تقریبه من عرف بالنصب و العداء له: کعمر بن فروخ، و أبی السمط، و عبد اللّه بن محمد بن داود، و علی بن الجهم و غیرهم من حزبه و أعوانه، حتی أنه کان لا یأنس إلا بنقص علی علیه السّلام و الحط من کرامته، و کان یقصد من یبلغه عنه أنه یتولی علیا و أهل بیته فیأخذ ماله و یهدر دمه. و لکنهم لم یلتفتوا إلی هذا الخطأ فوسموه بأنه ناصر السنة، و أنه من أهل الجنة، و من أولیاء اللّه و مجاوریه فی حظیرة القدس، و جعلوه فی عداد أبی بکر و عمر بن عبد العزیز (2). و کذلک حزبه النواصب و سموهم بالسنة. و قال ابن الجوزی فی مناقب أحمد: و کان علی بن الجهم من أهل السنة حسن الرأی فی أحمد. فعلی هذا ان کل من کان حسن الرأی فی أحمد هو من أهل السنة و إن أساء الرأی فی جمیع المسلمین و نال منهم. ؟ ! قاتل اللّه الغلو کیف یحید بصاحبه عن طریق الحق. و کذلک یقولون: إنه ما قام بأمر الإسلام أحد بعد رسول اللّه ما قام به أحمد بن حنبل و لا أبو بکر الصدیق مثله، و إن اللّه جل و علا کان یزور قبره إلی آخر ما هنالک من مناقب مبعثها الجهل و التعصب. و یحدثنا الشیخ عبد اللّه بن محمد الهروی إذ یقول: قصدت أبا حاتم بن جاموس بالری، و کان مقدم أهل السنة، و قد أمر السلطان محمود أن علی کل من دخل الری أن یعرض اعتقاده علی الشیخ أبی حاتم، قال: فلما قربت من الری کان معی رجل فی الطریق، فسألنی عن مذهبی؟ فقلت: حنبلی، فقال: مذهب ما سمعت به، و هذه بدعة و أخذ بثوبی و قال: لا أفارقک حتی تذهب إلی الشیخ أبی حاتم، فذهب بی إلی داره فأخبره بذلک، فقال الشیخ: دعه فکل من لم یکن حنبلیا فلیس بمسلم (3).

1- 1) مناقب الإمام أحمد لابن الجوزی ص 356-357.

2- 2) النجوم الزاهرة 2:325. [1]

3- 3) تذکرة الحفاظ ج 3 ص 375.

فسائر أهل المذاهب الإسـلامية أجمع فى نظر هذا الشيخ كفار و ما أعظمها من قسوة فى الحكم، و ما أبعد هذا الشيخ عن الانتساب لمنزلة العلم، و لكن حكم العاطفة العمياء يسـلب الرجل رشده، و للعصبية وقعها و طابعها إذا ما كانت بدافع السـياسة و بتأثير الحكام و هى النوع الأغلب الذى بفعله حدثت المآسى. و لو لا انجرار ضعاف النفوس و ضيقى العقول لما تحولت صفحات الإخاء الناصع إلى سطور دموية.

حركات التعصب بين المذاهب:

و كان القضاء للحنفيـة لإيثار الخلفاء لهم بـذلک، و لما أراد القادر باللّه نقله إلى الشافعية، عين أبا العباس أحمد بن محمد البارزى الشافعى بـدلا من الأكفانى الحنفى قاضـى بغـداد بإشارة أبى حامد الاسـفراييني، و كتب أبو حامد بذلک إلى السـلطان محمود، و أهل خراسان: أن الخليفة نقل القضاء عن الحنفية إلى الشافعية فاشـتهر ذلک و صار أهل بغداد حزبين ثارت بينهما الفتن، فاضطر الخليفة إلى جمع الأشراف و القضاة و أخرج إليهم رسالة تتضـمن أن الاسـفراييني أدخل على أمير المؤمنين مداخل أوهمه فيها النصح و الشفقة و الأمانة و كانت على أصول الـدخل و الخيانـة، فلما تبين له أمره و وضـح عنده خبث اعتقاده فيما سأل فيه من تقليد البارزى الحكم و العدول بأمير المؤمنين عما كان عليه أسلافه، من إيثار الحنفية و تقليدهم و استعمالهم، صرف البارزى و أعاد الأمر إلى حقه، و أجراه على قديم رسمه، و حمل الحنفية على ما كانوا عليه من العنايـة و الكرامـة، و الحرمـة و الإعزاز، و تقدم إليهم أن لا يلقوا أبا حامد و لا يقضوا له حقا و لا يردوا عليه سـلاما، و خلع على أبى محمد الأكفانى، و انقطع أبو حامد عن دار الخلافة و ظهر التسـخط عليه و الانحراف عنه (1). يظهر لنا من هذه القصة عظيم اهتمـام الحنفيـة فى منصب القضـاء. و يعود الأمر لمنزلـة القضاة إذ هم همزة الوصل بين البلاط و أهل ذلک المـذهب، و تكون لهم تلک الحظوة و نيل الكرامـة و العناية و الحرمة، و الإعزاز ما حمل الحنفية على إثارة تلک الفتنة عند ما أراد الشافعية سـلبها منهم، و الاختصاص بهذه المنزلة دونهم، و انتهت تلک المشكلة بتنازل الخليفة عن رأيه، و عاد الأمر إلى نصابه.

1- 1) نظرة تاريخية لأحمد تيمور باشا ص 87.

و التزاحم بالمناكب على القضاء هو أقوى عامل لإثارة تلك الفتن و بث روح الشغب و الفرقة، و تغليب مذهب على مذهب بقوة السلطة القائمة و نشر القضاة المناصرين لمذهب على مذهب. و كان القضاة فى أغلب الأوقات يثيرون الفتن و يوقدون نار الحرب بين الطوائف. فأحمد بن صاعد الحنفى رئيس نيسابور و قاضيها و كان يلقب بشيخ الإسلام قد بالغ فى تعصبه على بقية المذاهب فأغرى بعضهم ببعض حتى لعنت الخطباء أكثر الطوائف على المنابر (1). و أراد القاضى بكار أن يعمل فى جامع بنى أمية إماما حنفيا، و كان لا يؤم فيه إلا شافعى، و لا صعد منبره غير شافعى فأراد هذا القاضى أن يشاركهم بإمام على مذهبه فثارت الشافعية و أغلقوا الجامع و عزل القاضى. (2)و لعل من أعظم تلك الفتن التى وقعت بين المذاهب هى فتنة ابن القشيرى عند ما ورد بغداد سنة 469 ه-و جلس فى النظامية و أخذ يذم الحنابلة و ينسبهم إلى التجسيم، و كتب إلى الوزير يشكو الحنابلة و يسأله المعونة، و هجم أصحاب القشيرى على زعيم الحنابلة عبد الخالق بن عيسى، و وقع قتال بين الطرفين و أغلق اتباع ابن القشيرى و هم الشافعية أبواب سوق مدرسة النظام، و غضب أبو إسحاق الشيرازى و كاتب فقهاء الشافعية نظام الملك غضبا لتسلط الحنابلة، و اتسعت الفتنة و فكر الخليفة فى حل هذه المشكلة و اهتدى إلى سعيه فى الصلح، فجمع القشيرى و أصحابه و أبا جعفر الشريف زعيم الحنابلة و أصحابه بمحضر الوزير، فقام القشيرى رئيس الشافعية و التفت إلى الوزير عند ما طلب منه الصلح و قال: أى صلح يكون بيننا؟ إنما يكون الصلح بين مختصمين على ولاية أو دينا أو تنازع فى ملك. فأما هؤلاء القوم فإنهم يزعمون أنا كفار، و نحن نزعم أن من لا يعتقد ما نعتقده كان كافرا، فأى صلح يكون بيننا (3)؟ و قد واجه كثير من العلماء الأذى و تحملوا بلاء عظيما عند ما يتحولون من

1- 1) شذرات الذهب ج 3 ص 261. [1]

2- 2) طبقات الشافعية ج 1 ص 174.

3- 3) ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب ج 1 ص 22 باختصار.

مـذهب إلى مذهب حتى قالوا: «إن من يصـير حنفيا يخلع عليه، و من يصـير شافعيا يعزر» (1). فهذا أبو سـعيد المتوفى سنة 562 ه-كان حنفى المـذهب و تحول شافعيا، و لقى عناء و امتحن لـذلك، و هـذا السـمعانى لما انتقل من المذهب الحنفى إلى المذهب الشافعى لقى محنا و تعصـبا و قامت الحروب على ساق، و اضطرمت نيران الفتنة بين الفريقين، فكانت تملأ ما بين خراسان و العراق و اضطرب أهل مرو لذلك اضـطرابا فظيعا، و فتحت باب المشاقة، و تعلق أهل الرأى بأهل الحديث و ساروا إلى باب السلطان إلى آخر ما وصفه السبكى (2)فى الطبقات. و الشـيخ عبد العزيز بن الخزاعى كان من أكابر المالكية، فلما قدم الإمام الشافعى بغداد تبعه و قرأ عليه كتبه و نشر علمه، و الشيخ محمد بن عبد اللّه المتوفى سنة 268 ه-كان على مذهب الإمام مالک فلما قدم الشافعى إلى مصر انتقل إلى مذهبه ثم رجع، و أبو جعفر بن نصر الترمذى سنة 295 ه-رأس الشافعيـة بالعراق كان حنفيا فلما حـج انتقل إلى مذهب الشافعى، و أبو جعفر الطحاوى كان شافعيا و تفقه على خاله المزنى ثم تحول حنفيا بعـد ذلک، و الخطيب البغـدادى الحافظ المتوفى سـنة 493 ه- كـان حنبليا ثم صار شافعيا، و ابن فارس صاحب كتاب المجمل فى اللغـة، كان شافعيا تبعا لوالده ثم انتقل إلى مذهب مالک، و السـيف الآمدى الأصولى المشـهور المتوفى سـنة 631 ه-كـان حنبليا ثم تحول إلى مـذهب الشافعى، و الشـيخ محمـد بن الـدهان النحوى المتوفى سـنة 590 ه-كـان حنبليا ثم انتقل إلى مـذهب الشافعى ثم تحول حنفيا حينما طلب الخليفة نحويا يعلم ولده النحو ثم تحول شافعيا، و الشـيخ تقى الدين محمد بن على بن دقيق العيـد كـان أولا مالكيا ثم تحول إلى مـذهب الشافعى و كل هؤلاء امتحنوا و عـذبوا من قبل أنصار المـذهب الـذى يتحولون منه و أمثالهم كثيرون. و قـد طغت موجـة التعصب حتى أصـبح التكتم بالمـذهب لازما. يقول أبو بكر محمد بن عبد الباقى المتوفى سـنة 535 ه-و كان حنبليا: احفظ لسانک لا تبح بثلاثة سن و مال ما استطعت و مذهب

1- 1) انظر الدين الخالص ج 3 ص 355.

2- 2) طبقات الشافعية ج 3 ص 22. [1]

فعلى الثلاثة تبتلى بثلاثة بمكفر و بحاسد و مكذب

و يعطينا الزمخشرى صورة واضحة من صور الخلاف و شدة التطاحن بين المذاهب و طعن البعض على البعض بقوله: إذا سألوا عن مذهبى لم أبح به و أكتمه كتمانه لى أسلم

فإن حنفيا قلت قالوا بأننى أبيح الطلى و هو الشراب المحرم

و إن شافعيا قلت قالوا بأننى أبيح نكاح البنت و البنت تحرم

و إن مالكيا قلت قالوا بأننى أبيح لهم أكل الكلاب و هم هم

و إن قلت من أهل الحديث و حزبه يقولون تيس ليس يدرى و يفهم

(1)

محنة خلق القرآن:

هذا عرض موجز لحركات التعصب الطائفى الذى تسترت به السلطة الحاكمة من وراء تلك الحوادث، لتوقع الفرقة فى صفوف المسلمين، فتصل إلى غاياتها، و يشق علينا ذكر أمثال هذه الحوادث المؤلمة، و قد ذكرنا بعضها استطرادا فى البحث لإظهار حقيقة يلزمنا إظهارها نصرة للحق، وردا للباطل و تكذيبا لما يدعيه البعض كالاسفراييني و غيره من اتفاق المذاهب و عدم حصول أى خلاف بينهم و لم يحصل بينهم شقاق و تطاحن، و لم يكفر بعضهم بعضا، مستدلين بذلك على صحة مبادئهم و بطلان مذهب الشيعة و فساد عقائدهم بحصول الخلاف فيما بينهم، و تكفير بعضهم بعضا، و نحن لا نستغرب من الاسفراييني هذه الدعوة الباطلة فكم له فى كتابه من غرائب و افتعالات على سائر فرق المسلمين بدون دليل، بل هو تقول بالباطل و رجم بالغيب، و إليک قوله: الفصل الثانى من هذا الباب فى طريق تحقيق النجاة لأهل السنة، و الجماعة فى العاقبة. منها ان أهل السنة مجتمعون فيما بينهم لا يكفر بعضهم بعضا و ليس بينهم خلاف يوجب التبرى و التكفير فهم إذا أهل الجماعة. قائمون بالحق و اللّه تعالى يحفظ الحق و أهله كما قال تعالى: إِنّا نَحْنُ نَزَّلْنَا اَلذِّكْرَ وَ إِنّا لَهُ لَحافِظُونَ [الحجر:9]قال

1- 1) الكشاف ج 2 ص 498.

المفسرون: أراد به الحفظ عن التناقض، و ما من فريق من فرق المخالفين إلا و فيما بينهم تكفر و تبرى، يكفر بعضهم بعضا. كما ذكرنا من الخوارج و الروافض و القدرية، حتى اجتمع سبعة منهم فى مجلس واحد فافترقوا عن تكفير بعضهم بعضا، و كانوا بمنزلة اليهود و النصارى حين كفر بعضهم بعضا حتى قالت اليهود: «ليست النصارى على شىء» ، و قالت النصارى: «ليست اليهود على الشىء» . هذا ما يقوله بل يتقوله الأسفراينى و كم له من تقول و افتعال، و لا أدرى أخفى على الأسفراينى أمر تلك الحوادث التى مر ذكرها فيذهب إلى هذا الرأى؟ أم نسى محنة القول بخلق القرآن، و ما حدث من ورائها من تكفير البعض للبعض؟ فقد ذهب أحمد بن حنبل إلى تكفير من يقول بخلق القرآن، و يقول أبو عبد اللّه محمد بن يحيى الدهلى المتوفى سنة 255 ه-: من زعم أن القرآن مخلوق فقد كفر، و بانت منه امرأته، فإن تاب و إلا ضربت عنقه، و لا يدفن فى مقابر المسلمين، و من وقف و قال لا أقول مخلوق أو غير مخلوق فقد ضاهى الكفر، و من زعم أن لفظى بالقرآن مخلوق فهو مبتدع، و لا يدفن فى مقابر المسلمين، على أن أحمد بن حنبل لم يقبل توبة التائب، و كان لا يشيع جنازة من يقول بخلق القرآن، و لم يصل على أحد منهم، و كان يرتب عليهم أحكام الكفار، و شاع التكفير حتى عند النساء، يحدثنا الخطيب: أن امرأة تقدمت إلى قاضى الشرقية عبد اللّه بن محمد الحنفى، فقالت: إن زوجى لا يقول بمقالة أمير المؤمنين فى القرآن، ففرق بينى و بينه (1). و اتسع الخلاف بين المسلمين، من تكفير البعض للبعض، فطائفة تقول: إن من قال القرآن غير مخلوق فهو كافر، و عليه ابن أبى دؤاد و جماعته، حتى أن الواثق استفك من الروم أربعة آلاف من الأسارى، و لكنه اشترط أن من قال القرآن مخلوق يخلى من الأسر، و يعطى دينارين (2)و من امتنع عن ذلک فيترک فى الأسر و لا يفک، بمعنى أنه رتب آثار الكفر على من لم يقل بخلق القرآن. و لما قدم أحمد بن نصر إليه قال له الواثق: ما تقول فى القرآن؟ و كان أحمد ممن يذهب إلى أن القرآن غير مخلوق فقال: كلام اللّه، و أصر على رأيه غير متلعثم فقال بعض الحاضرين: هو حلال الدم، و قال ابن أبى دؤاد: هو شيخ مختل لعل به

1- 1) تاريخ بغداد ج 10 ص 74. [1]

2- 2) طبقات الشافعية ج 3 ص 22 و [2]تاريخ اليعقوبى ج 3 ص 194.

عاهـة أو تغير عقله، يؤخر أمره و يسـتتاب، فقال الواثق ما أراه إلا داعيا للكفرة، ثم دعى بالصـمصامة فقال: إذا قمت إليه فلا يقومن أحد معى فإنى أحتسب خطاى إلى هـذا الكافر الـذى يعبـد ربا لا نعرفه، ثم أمر بالنطع فأجلس عليه و هو مقيد، و أمر أن يشد رأسه بحبل، و أمرهم أن يمـدوه، و مشـى إليه برجله و ضـرب عنقه، و أمر بحمل رأسه إلى بغـداد (1). هـذا بعض ما حل بالمسـلمين من عوامل الفرقـة، و حوادث الشغب بين معتنقى المذاهب الأربعة، مما يبعث على الأسف الشديد، لما حل بالأمة من التفكك و التحيز، الأمر الذى جعل المتداخلين فى صـفوف المسلمين ينفذون خططهم، و يحققون أهدافهم فى تفريق كلمة المسلمين و صدع وحدتهم. و لم نقصد بهذا العرض إلا إعطاء صورة عن الحوادث التى لا يزال أثرها فى تاريخ الأمة الإسلامية من أكبر عوامل التأخر و الانحطاط.

بين السنة و الشيعة:

و إذا أردنا أن نولى وجوهنا شـطر الحوادث التى حدثت بين المسـلمين: السـنة و الشيعة. فإن ذلک أدهى و أمر، و أشد وقعا، و أعظم خطرا. لقـد وقعت بين السـنة و الشـيعة حوادث مؤلمـة أدت إلى إثارة نيران الفتن، و إراقة الدماء، و حرق المساكن. و ليس بودنا أن نذكر هنا كل ما حدث من خلاف بين هاتين الطائفتين فى أمور لو طرحت على بساط البحث و المناقشة العلمية لزال كل شىء، و كان الحكم للحق وحده، و الحق أحق أن يتبع. لأن الخلاف كان لا يتعـدى حـدود النزاع فى مسألـة الإمامـة و غيرها من المسائل التى حدث الخلاف بين الطائفتين فيها، ثم تطور الوضع إلى تحزب ضد الشـيعة، و اتجاه معاكس، فحاكوا لهم التهم و حملوا عليهم بكل ما هو شائن من دون التفات إلى حق العلم، أو خضوع للحق. و يطول بنا الحديث حول ذلک هنا، و سنتحدث عن ذلک فيما بعد، و الشىء

1- 1) شذرات الذهب ج 2 ص 67 و [1]تاريخ الخطيب ج 5 ص 177. [2]

الـذی نود أن نشـیر إلیه هو: أن الأمر بلغ أشده حتی أدی إلی ثورات دمویة مؤسـفة، و فتن ذهب تحت هیاجها خلق کثیر، و لعل من أعظم ذلک یوم کان الشـیعة یقومون بإقامة شـعائرهم الدینیة کیوم عاشوراء، و یوم الغدیر، فإن ذلک یدعو إلی الإنکار من إخوانهم السنیین، بدعوی أن النیاحـة و إقامـة الزینة یوم الغدیر بدعة. و کان یصـحب هذا الإنکار اعتداء أدی إلی إراقة الدماء بین الفریقین و قتل خلق کثیر (1). و مع هذا فإن السـنة قاموا بما قامت به الشـیعة من النیاحة علی مصـعب بن الزبیر مقابلة للحسـین، و أقاموا الزینة یوم الغار مقابل یوم الغدیر و قد مرت الإشارة لذلک (2). کما انهم أقاموا النیاحة علی کثیر من الناس، و قد رأوا أن ذلک من الأمور المستحسـنة، حتی قال محمد بن یحیی النیسـابوری-حین بلغه موت أحمـد بن حنبـل-: ینبغی لأهل کل دار فی بغـداد أن یقیموا علی أحمـد بن حنبل النیاحـة فی دورهم (3). و أقیمت النیاحـة علی أحمـد بن حنبـل و عظم الحزن علیه، و لاـزموا قبره مـدة من الزمن، إظهارا للتفجع، و أقیمت مجالس العزاء علیه، کما أقیمت النیاحة علی غیره من الرجال و للمثال نذکر بعضا من ذلک: یموت أبو الفتح إسـماعیل بن السـلطان محمود سـنة 567 ه-فتقام علیه المـآتم و ینـاح علیه نوح الثکلی، و یکثر البکاء فی الطریق، و تفرش بالرماد إظهارا للحزن، و تعظیما للمصاب (4). و یموت ابن تیمیة سنة 728 ه-فتحضـر جنـازته خمسون ألف امرأة ینحن علیه، و مائتـا ألف رجـل یرفعون أصواتهم بالتکبیر مزیجا بالبکاء و العویل، و لما غسـل جمع ماء غسـله فشـربوه تبرکا به، و اقتسم جماعـة بقیة السدر الذی غسل به تبرکا، و دفع بالطاقیة التی علی رأسه خمس مائة درهم، و الخیط الذی فی رقبته فیه الزئبق لدفع القمل دفع فیه مائة و خمسون دینارا، و سارت جنازته بین الضجیج و البکاء، و المنادی

1- 1) البدایة و النهایة لابن کثیر 11-235. [1]

2- 2) الإمام الصادق و المذاهب الأربعة-انظر فصل: عنایة الشیعة بیوم الغدیر ص 94.

3- 3) طبقات الحنابلة 2-51. [2]

4- 4) شذرات الذهب ج 6 ص 112. [3]

أمـامه ينادى هكـذا تكون جنائز أهل السـنة، و لما وضع على المغتسل دخل الرجال عليه يقبلونه و ينوحون عليه، ثم أذن للنساء ففعلن مثل ذلک (1)و أقيمت عليه المآتم و دامت النياحـة و رثاه خلق كثير منهم شـمس الدين الذهبى و غيره (2). و يموت أحمد بن السـلطان ملک شاه سنة 481 ه-فيمكث الناس ينوحون عليه سبعة أيام و لم يركب أحد فرسا و النساء ينحن عليه فى الأسواق، و سوّد أهل البلاد أبو ابهم. و يموت شـيخ الحرمين فتطوف تلامذته فى الشوارع ينوحون عليه نوح النساء و كسـروا المحابر و أقاموا النياحة عليه سنة كاملة (3). و أبو عمر الحنبلى المتوفى سنة 607 ه-يعظم عليه البكـاء و العويـل و يتناوحون عليه رجالا و نساء، و غسل فى المسـجد، و نشف ماء غسـله بخمر النسـاء، و عمـائم الرجـال-للتبرک طبعـا-و يتسابقون إلى تمزيق كفنه يتبركون به، و كادت تبـدو عورته، لو لا محافظـة الدولـة على كرامته. فدفعت الناس عنه بالسيف. قال ابن العماد: و لو لا الدولة لما وصل من كفنه إلى قبره شىء (4). و تخرج النساء يوم وفاة المسترشد العباسى سنة 529 ه-ينحن عليه و يلطمن و هن منشرات الشعور ينشدن المراثى فى الطرقات، أما الرجال فشاركوهن بالنياحة و زادوا بأن شقوا الثياب عليه (5). و غير هؤلاء ممن يطول بنـا الحـديث عنهم و مـا حـدث من مظـاهر الحزن و الأسـى يوم وفاتهم و بعـده. و العزاء أو البكاء من الحالاـت الإنسانيـة التى تظهر العطف و تبين مـا فى دواخـل المرء من مشـاعر و هى تتنـاسب عكسـيا مع القسوة و الغلظـة، و إنما تناولنا مظاهرها فى خلال الفترة التاريخية التى أصـبح فيها القضاء و الفتوى تبعا لأهواء الحكّام الذين يسـمحون بذلک لأن المتوفين لا يمثلون فى شخصياتهم رموزا تهدد أركان

1- 1) تاريخ ابن كثير ج 14 ص 138.

2- 2) العقود الدرية فى مناقب ابن تيمية ص 399.

3- 3) طبقات الشافعية ج 3 ص 259.

4- 4) شذرات الذهب ج 3 ص 30. [1]

5- 5) تاريخ دول الإسلام للذهبى ج 1 ص 182.

نظامهم كالإمام الحسين أو الإمام الصادق أو الإمام الكاظم الذى ترک جثمانه الطاهر على رأس الجسر و منادى السلطة ينادى بذاک النداء المعروف؟ و لا مانع أن تقابل البدع ببدع أخرى-كما يرى الحكّام-لأن أساس الاتهام واه، فلو كان قطيعا أو حتى ظنيا لكان على هؤلاء أن يتوقفوا عند المنع. و يكفى ما تضمّه الروايات من صور لعاطفة النبى محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و هو يبكى عمه حمزة، منها: ما رواه الواقدى عند ما جاءته صفية فجلست عنده فجعلت إذا بكت يبكى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و فاطمة الزهراء عليهم السّلام تبكى، فلما بكت بكى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم. أو ما رواه البخارى أنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم دخل على ابنه إبراهيم و هو يجود بنفسه، فجعلت عينا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم تذرفان. فقال له عبد الرحمن بن عوف: و أنت يا رسول اللّه؟ فقال صلّى اللّه عليه و آله و سلم: يا ابن عوف، إنها رحمة، ثم اتبعها بأخرى فقال صلّى اللّه عليه و آله و سلم: إن العين تدمع و القلب يحزن و لا نقول إلا ما يرضى ربنا، و إنّا بفراقک يا إبراهيم لمحزونون. و أيضا عن أنس بن مالک قال: شهدنا بنتا لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم تدفن و رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم جالس عند القبر، قال: فرأيت عينيه تدمعان. و لما استشهد جعفر بن أبى طالب، أتى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أسماء فقال: أخرجى لى ولد جعفر، فخرجوا إليه فضمهم إليه و شمهم و دمعت عيناه. و روى عن الإمام الصادق قوله: «إن زين العابدين عليه السّلام بكى على أبيه أربعين سنة، صائما نهاره، و قائما ليله فإذا حضره الإفطار جاءه غلامه بطعامه و شرابه، فيضعه بين يديه، و يقول: كل يا مولاى، فيقول: قتل ابن رسول اللّه جائعا، قتل ابن رسول اللّه عطشانا، و لا يزال يكرر ذلک و يبكى، حتى يبل طعامه من دموعه، فلم يزل كذلک حتى لحق باللّه عز و جل» . و نحن إذا نظرنا إلى أسباب تلک المؤاخذات التى تؤاخذ بها الشيعة و استوجبت حدوث تلک الحوادث، نجد الأسباب تعود إلى متابعة أغراض السلطة، حتى تحكم العداء للشيعة و أصبح الابتعاد عن تهمة التشيع، أمر لازم حتى حرّموا التشبه بهم. ذكر الزرقانى فى المواهب اللدنية فى صفة عمة النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم على رواية على عليه السّلام فى إسدالها على منكبه حين عممه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ثم ذكر قول الحافظ العراقى ان ذلک أصبح شعار كثير من فقهاء الإمامية فينبغى تجنبه لترک التشبه بهم.

فهـذا الشـيخ يفتى بترک التشـبه بالشـيعة فى اتخاذ العمـة التى كان رسول اللّه يلبسـها، و هذا شاهد من آلاف الشواهد التى عامل بها رجال أولئک العصـر شـيعة آل محمد. و عبروا أن من المصـلحة أن يمنع المصـلى عن اختصاص جبهته بما يسـجد عليه من أرض و غيرها، لأن ذلک الاختصاص من شـعار الشيعة. و لا غرابة فإن تهمة التشيع تدعو لسخط الدولة، و هل وراء ذلک إلا إزهاق الأرواح، و نهب الأموال أو السـجن أو التبعيـد؟ لذلک التجأ الأكثر إلى التظاهر فى الوقيعة بهم فأدى الأمر إلى التباعد عنهم و الحذر من تهمة التشـيع حتى فى الرؤيا. يحدثنا الخطيب البغدادى: أن رجلا رأى عليا عليه السّلام فى المنام فلم يجسر على الدنو منه فسأله صاحبه فقال: أخشى إن قربت إليه أسأله أن أتهم بالتشـيع. هكـذا أرادت السـلطة الجائرة، تفريق كلمة المسـلمين، و إيقاد نار العداء فيما بينهم، لغايات تعود لمصالحهم الخاصة، و رغبات فى نفوسـهم، لا تنال مع الوحـدة و الاتحاد، و تبادل الثقـة و الاخاء. و كان فى الأمـة رجال يـدعون إلى الحق، و ينبهونهم على هذه الأخطـاء و لكن جهـودهم لم تثمر كـثير فائـدة، لأـن الفوضـى تحكمت فى المجتمع، و دبت روح الاختلاـف فى النفوس، و طغت موجة التعصب، حتى كانت عاقبـة ذلک الجهل أن سـلط عليهم أعـداء لا يعرفون الرحمـة، فألبسوهم الذل، و حكموا فيهم السـيف، و سـقوا من دمائهم الأرض، و أقاموا من رءوسـهم تلالا، فتمكن من قلوب المسـلمين الرعب، و سلبت منهم تلک القوة و الشجاعة، و التفانى فى سبيل نشـر كلمة التوحيد، يوم ساروا تحت راية الإسـلام، و هم يسـتهينون بالحياة، و يسـتقبلون الموت، و يتمنون الشـهادة، حتى أخضعوا جبابرة الأرض و دانت لهم البلاد. و إذا بهم تلک العزة، يسـتولى عليهم الذل، و يدخل فى قلوبهم الرعب، و لا يدافعون عن أنفسـهم، فكان الرجل الواحـد من التتر يقتل جماعة من المسـلمين الواحد بعد الآخر. و دخلت امرأة دارا و قتلت جماعة من أهلها، و لم يدفعوها عن أنفسـهم، و دخل واحد منهم دربا فيه مائة رجل فما زال يقتلهم واحدا واحدا حتى أفناهم، و لم تمد إليه يد بسوء.

و أخـذ رجل من التتر رجلا من المسـلمين و لم يجـد ما يقتله فيه، فقال له: ضع رأسک على هـذا الحجر و لا تبرح، فوضع رأسه و بقى نائما حتى جاء التترى و قتله (1). و هذا ما يذهب بنفس المسلم حسرات و يميت قلبه أسفا و حزنا، و ها نحن اليوم أمام تيار المبادئ الفاسدة، و الآراء الهدامة، و العقائد السخيفة، و إن خطرها على المسلمين لأعظم خطر يخاف عاقبته، و تخشى مغبته إن لم ينهج المسلمون لمكافحتها منهج فهم التعاليم الإسـلامية و القيام بتطبيقها عمليا، و أن يتحدوا لإبعاد المتداخلين بين صـفوف المسلمين، لهدم المجتمع الإسلامى، و تشويه تعاليمه الدينية و الأخلاقية، و اسـتبدالها بتعاليم إباحية، و لا يدفع ذلک الخطر إلا باتحاد الكلمة و فهم الإسـلام فهما صحيحا، و أن تسـتقى تعـاليمه من ينبوعه الـذى أراد اللّه أن نأخـذ منه و نتبع قول الحق، و أئمـة الصـدق: يا أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُوا اِتَّقُوا اَللّهَ وَ كُونُوا مَعَ اَلصّادِقِينَ [التوبة:119]، وَ اِعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اَللّهِ جَمِيعاً وَ لا تَفَرَّقُوا [آل عمران:103].

انتشار المذاهب الأربعة فى الأقطار الإسلامية:

اشـتهر الأخـذ بالمـذاهب الأربعـة و انتشـر العمـل بها فى الأقطار الإسـلامية، فهى فى القرن الرابع الهجرى قـد تغلبت على ما سواها من المـذاهب المعمول بها فى القرن الثانى و الثالث، ما عـدا المـذهب الشـيعى فإنه سار بقوته الروحيـة رغم العقبات التى وقفت فى طريقه، و يحـدثنا المقدسـى عن انتشار المـذاهب فى القرن الرابع بما يلى: سواد صـنعاء و نواحيها مع سواد عمان شـراة غاليـة، و بقية الحجاز و أهل الرأى بعمان و جهر و صـعده شيعة. و الغالب على صنعاء أصحاب أبى حنيفة و الجوامع بأيديهم، و فى نواحى نجد و اليمن مذهب سفيان. و فى العراق الغلبـة ببغـداد للحنابلة و الشـيعة، و به مالكية و أشـعرية، و بالكوفة الشـيعة إلا الكناسة فإنها سـنة، و أكثر أهل البصـرة قدرية و (شـيعة) و ثم حنابلة، و ببغداد غالية يفرطون بحب معاوية. و هنا يحدثنا المقدسـى عن دخوله جامع واسط و اسـتماعه لقصاص يقص على الناس حديثا عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم: ان اللّه يدنى معاوية يوم القيامة فيجلسه إلى جنبه ثم يجلوه على الخلائق كالعروس، قال المقدسى فقلت له: بما ذا؟ بمحاربته عليا رضى اللّه عنه؟ كذبت يا

1- 1) المد و الجزر لأبى الحسن المناوى ص 37.

ضال، فصاح: خذوا هذا الرافضی، فاقبل الناس علیّ، فعرفنی بعض الکتبة فکرکرهم عنی. إقلیم اقور و هو الیوم شمال العراق-أی الموصل و نواحیها-مذهبهم سنة و جماعة، إلا عانه فإنها کثیرة المعتزلة و لا تری فی الرأی غیر مذهب أبی حنیفة و الشافعی، و فیها حنابلة و جلبة للشیعة، و إقلیم الشام مذاهبهم مستقیمة أهل جماعة و سنة، و أهل طبریة و نصف نابلس و أکثر عمان شیعة و لا تری فیه مالکیا، و العمل کان فیه علی مذهب أصحاب الحدیث. إقلیم مصر علی مذهب أهل الشام، غیر أن أکثر فقهائهم مالکیون أ لا تری أنهم یصلون قدام الإمام و یربون الکلاب؟ و أعلی القصبة شیعة و سائر المذاهب فی الفسطاط موجودة ظاهریة. و إقلیم المغرب: فالمذاهب علی ثلاثة أقسام، و أما فی الأندلس فمذهب مالک، و قراءة نافع، و هم یقولون لا نعرف إلا کتاب اللّه و موطأ مالک، فإن ظهروا علی حنفی أو شافعی نفوه، و إن عثروا علی معتزلی أو شیعی و نحوهما ربما قتلوه، و بسائر المغرب إلی مصر لا یعرفون مذهب الشافعی إلا مذهب أبی حنیفة و مالک، و أصحاب مالک یکرهون الشافعی، یقولون أخذ العلم عن مالک ثم خالفه. إقلیم جانب خراسان للشیعة و المعتزلة و الغلبة لأصحاب أبی حنیفة إلاـ فی کورة الشاش فإنهم شوافع، و فیهم قوم علی مذهب عبد اللّه السرخسی. و إقلیم الرحاب مذاهبهم مستقیمة، إلا أن أهل الحدیث حنابلة، و الغالب بدبیل مذهب أبی حنیفة. و إقلیم الجبال اما بالری فمذاهبهم مختلفة، فالغلبة للحنفیة و هم نجاریة، و بالری حنابلة کثیرة، و أهل قم شیعة، و فی الدینور جلبة لمذهب سفیان الثوری. إقلیم خوزستان مذاهبهم مختلفة، أکثر أهل الأهواز و رامهرمز و الدورق حنابلة، و نصف الأـهواز شیعة، و به من أصحاب أبی حنیفة کثیر و لهم فقهاء و بالأهواز مالکیون. إقلیم فارس، العمل فیه علی أصحاب الحدیث، و أصحاب أبی حنیفة، و للداودیة دروس و مجالس و غلبة، و یتقلدون القضاء و الأعمال.

إقليم كرمان المذاهب الغالبة للشافعي. إقليم السند: مذاهبهم أكثرها أصحاب حديث. و رأيت القاضي أبا محمد المنصور داوديا إماما في مذهبه. و أهل الملتان «شيعة يحيعلون في الأذان و يثنون في الإقامة» و لا تخلوا القصبات من فقهاء على مذهب أبي حنيفة و ليس بهم مالكية، و لا معتزلة، و لا عمل للحنابلة (1)

انتشارها في الوقت الحاضر:

أما إحصائيات المذاهب الأربعة في الوقت الحاضر، و انتشارها في البلاد الإسلامية فيحدثنا عن ذلك العلامة أحمد تيمور (2)بما يلي: المغرب الأقصى يغلب عليه الآن المذهب المالكي. و على الجزائر و تونس أيضا. «طرابلس» المذهب المالكي بكثرة، و الحنفي بقلة. و هم من بقايا الأسر التركية، و أكثرهم في تونس، و منهم أفراد بيت الإمارة بها، و لهذا تمتاز حاضرتها بالقضاء الحنفي مشاركا للقضاء المالكي، و أما سائر أعمالها: فقضاتها مالكية، و في الحاضرة كبير المفتين الحنفي و يلقب بشيخ الإسلام و له التقدم و الزعامة المعنوية على الجميع، و المالكي و له المقام الثاني، و قد تساهلوا الآن في تلقيبه بشيخ الإسلام أيضا. و مع قلة المقلدين للمذهب الحنفي فإن من السنن المتبعة عندهم أن يكون نصف مدرسي جامع الزيتونة حنفية، و النصف الآخر مالكية. و إنما امتاز الحنفي بذلك لكونه مذهب الأسرة المالكة. «مصر» : الشافعي و المالكي و يغلب الأول في الريف و الثاني في الصعيد و السودان، و يكثر الحنفي و هو مذهب الدولة، و المتبع في الفتوى و القضاء، و الحنبلي قليل بل نادر. «الشام» : الحنفي يشمل نصف أهل السنة بها و الربع شافعية، و الربع الآخر حنابلة.

1- 1) أحسن التقاسيم [1]لشمس الدين محمد بن أحمد المعروف بالشارى طبع سنة 1909 م بمطبعة بريل.

2- 2) نظرة تاريخية لأحمد تيمور باشا ص 42.

«فلسطين» : يغلب على مذاهب أهل السنة فيه الشافعى، و يليه الحنبلى فالحنفى، فالمالكى. «العراق» : يغلب الحنفى فيه على مذاهب أهل السنة، و يليه الشافعى و به مالكية و حنابلة. «الترک» : العثمانيون و الألبان و سكان بلاد البلقان المذهب الحنفى. «الأكراد» : المذهب الشافعى و هو الغالب على بلاد أرمينية لأن مسلميها من أصل تركمانى أو كردى، و السنيون من أهل فارس أغلبهم شافعية و قليل منهم حنفية. «الأفغان» : المذهب الحنفى و الشافعى، و الحنبلى بقلة. «تركستان الغربية» : التى منها بخارى المذهب الحنفى، و أما تركستان الشرقية فكان الغالب عليها الشافعى، ثم تغلب الحنفى بمسعى العلماء الواردين عليها من بخارى القفقاز و ما والاها الحنفى و فيهم شافعية. «الهند» : الحنفى و الشافعى بقلة، و فيها مذاهب أخرى. «الهند الصينية» : شافعية و كذلک مسلمو استرالية، و فى البرازيل من أمريكا نحو 25 ألف مسلم حنفية. «أمريكا» : فيها من المسلمين عدد ينوف على 140 ألفا و هم مختلفو المذاهب. «الحجاز» : الشافعى و الحنبلى و فيه حنفية و مالكية فى المدن و أهل عسير شافعية. «اليمن» : السنيون فيها و فى عدن، و حضرموت شافعية، و قد يوجد بنواحى عدن حنفية و الغالب على عمان الاباضية، و لكنها لا تخلو من حنابلة و شافعية. «قطر و البحرين» : المالكى و فيهما حنابلة من الواردين عليهما من نجد. «الاحساء» : الغالب على أهل السنة فيها الحنبلى و المالكى. «الكويت» : المالكى. هذا ما ذكره العلامة أحمد تيمور باشا عن المذاهب الأربعة و انتشارها، و لم يتعرض لانتشار المذهب الشيعى فى الأقطار الإسلامية فى العصر الحاضر، و سنشير لانتشار المذهب الشيعى فى الأقطار الإسلامية بعد عرضنا لتاريخ المذهب و نشأته.

و لا بد من ملاحظة عامل الزمن و التغيرات السياسية. كما لا يعنى أن تقسيمات تيمور و إحصاءاته هى من الدقة بحيث لا تقبل الإضافة فى الأسماء أو الزيادة فى العدد، لأن تيمور لم يذكر الشيعة و نرجو أن يكون ذلک لا يخفى غرضا ينافى العلم و يمجّه الذوق، كما أن من السهولة الانتباه إلى نقص فى تسمية المذاهب الغالبة الموجودة كما هو الأمر فى الجزيرة و الخليج. و كما قلنا سابقا إن هذه المذاهب قد لقيت تشجيعا من السلطة و تعددت عوامل انتشارها، و كان من أهمها إنشاء المدارس لها مما يدعو إلى الإقبال عليها و لنشر هنا إلى بعض تلک المعاهد التى أنشأت لدراسة فقه المذاهب الأربعة خاصة.

مدارسها فى الأقطار الإسلامية:

كانت بغداد فى العهد العباسى ربوعا عامرة أنشئت فيها دور للعلم، و بنيت مدارس لتعلم الفقه الإسلامى على المذاهب الأربعة، و أجريت على طلاب العلم منهم نفقات طائلة، و قد أنفق نظام الملک عليهم فى كل سنة ما يبلغ ستمائة ألف دينار، و كان أبو الحسن على بن محمد وزير المقتدر العباسى يقوم بنفقات خمسة آلاف طالب منهم، و بذلک أصبحت بغداد دار هجرة يؤمها طلاب العلم من كل ناحية و صوب، و أهم تلک المدارس هى: 1-النظامية: التى أنشأها نظام الملک الطوسى على شاطئ دجلة سنة 457 ه- و بنى حولها أسواقا و جعلها وقفا عليها، مع كثير من الضياع و الخانات و الحمامات. 2-التاجية: و قد بنيت سنة 482 ه-بناها تاج الدين أبو الغنائم المتولى لتدبير دولة ملک شاه بعد نظام الملک. 3-التتوشية: التى بناها خمارتكين خادم تتش بن ألب ارسلان بن داود بن سلجوق، و هى خاصة لأصحاب أبى حنيفة فقط. 4-باب الازج: بنيت لثقة الدولة أبى الحسن على بن محمد القزوينى. 5-مدرسة ابن دينار: بنيت لأبى حكيم إبراهيم بن دينار البغدادى الفقيه الشافعى. 6-مدرسة زيرک أو مدرسة سوق العميد: خاصة للحنفية.

7-المدرسة الشرابية: أنشأها شرف الدين اقبال الشرابى سنة 628 على عهد المستنصر بسوق العجم. 8-المدرسة البشيرية: أنشئت بالجانب الغربى من بغـداد و قـد أمرت ببنائها حظيـة المسـتعصم و جعلتها وقفا على المذاهب الأربعة، و وقفت عليها أوقافا كثيرة. و لكن أهم تلك المدارس هى المستنصرية التى مرت الإشارة إليها فى الأبحاث السابقة و قد وصفها السيوطى (1)و ابن بطوطة فى رحلته و ابن الفوطى (2)و غيرهم. و كانت تعد هذه المدرسة كالجامعة لتخريج العلماء على المذاهب الأربعة فى ذلک العصـر. أما فى مصر فكان مجموع المدارس التى أنشـئت للمـذاهب الأربعة لا يقل عددها عن تسـعين مدرسة، و إليک ذكر البعض منها: 1-المدرسة الفائزية: أنشأها شـرف الدين بن صاعد سنة 636 ه-و هى خاصة للشافعية. 2-المدرسة القطبية: أنشئت سنة 570 ه-انشأها الأمير قطب الدين خسـرو و هى للشافعية. 3-المدرسة السـيوفية: أنشئت سنة 572 ه-و هى للحنفيـة أنشأها الملک الناصـر صـلاح الدين أيوب و أوقف على مسـتحقيها 32 حانوتا. 4-المدرسة الفاضلية: أنشأها القاضى الفاضل عبد الرحيم سنة 580 ه-و جعلها لفقهاء الشافعية و المالكية. 5-مدرسة المحلى: أنشأها برهان الـدين إبراهيم بن على المحلى. 6-المدرسة الفارقانية: أنشـئت سنة 676 ه-و هى للشافعيـة و الحنفية. 7-المدرسة الشريفية: أنشأها أحد أمراء مصر فى الدولة الأيوبية سنة 612 ه- و هى للشافعية.

1- 1) تاريخ الخلفاء ص 185 ط بولاق. [1]

2- 2) الحوادث الجامعة ص 53. [2]

8-المدرسة الصالحية: أنشأها الملک نجم الدين أيوب سنة 639 ه-للفقهاء الأربعة. 9-المدرسة الكاملية: أنشأها السلطان ناصر الدين محمد بن الملک العادل للشافعية. 10-المدرسة الظاهرية: للشافعية و الحنفية. 11-المدرسة القطبية: أنشئت فی القرن السابع بوصية من الست عصمة مونسة خاتون (1). و لا يسعنا ذكر بقية المدارس التی أنشئت فی سائر الأقطار الإسلامية للمذاهب الأربعة، و نكتفی بهذه الإشارة إلی عظيم تشجيع الدولة و الأمراء فی تلک العصور لنشر العلم طبقا للمذاهب الأربعة فقط، ليلتزم الناس التمسک بها دون غيرها. أما مذهب أهل البيت و هو المذهب الجعفری فلم يلق تشجيعا من دولة أو تأييدا من سلطة، بل كان عرضة لمقاومة السلطة، و هدفا لسهام الاتهام بكل ما لا يليق به، و قد صمد المذهب أمام تلک الحوادث متمسكا بمبادئ أهل البيت ممتثلا وصايا رسول اللّه صلّی اللّه عليه و آله و سلّم فی آله حتی انتشر علی وجه البسيطة بقوته الروحية و الآن نتحدث عنه باختصار.

1- 1) الخطط للمقريزی ج 4 [1] من ص 191 إلی 262.

المذهب الجعفرى

اشارة

نشأته و عوامل انتشاره

مذهب أهل البيت:

هو مذهب أهل البيت الذين أذهب اللّه عنهم الرجس و طهرهم تطهيرا، و هو أقدم المذاهب نشأة و أقواها عاملا، يستمد تعاليمه من الينبوع الإسلامى الفياض: القرآن الكريم و سنة نبيه، و قد غرس النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بذرته و وجه الناس إليه بتعاليمه و إرشاداته، و عمل به فى زمن الصحابة، و قام بنشره جماعة منهم كأبى ذر الغفارى، و سلمان و المقداد، و عمار بن ياسر و غيرهم كما يأتى بيانه. و اختصاصه بالإمام الصادق للأسباب التى مر ذكرها عند حصول تلك الفترة بين شيخوخة الدولة الأموية، و طفولة الدولة العباسية، و فيها اتسع المجال للإمام الصادق عليه السّلام لنشر العلم و بث الأحكام الإلهية، و نشر التعاليم النبوية التى استقاها عن أبيه عن جده عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم، عند رفع تلك الرقابة التى جعلها الأمويون للحيلولة بين الأمة و بين أهل البيت، فاشتهر فى ذلك العصر ذكر جعفر بن محمد و اتسعت أمامه حرية القول، و حرية النقض و الإبرام فى شأن الحقائق الدينية من جهة، و المشتبهات و الموضوعات على غير أساس صحيح من الأحاديث و السنة من جهة أخرى، و ازدحم طلاب العلم على أبواب مدرسته، و كثرت الهجرة إليها، فنسب المذهب إليه فى عهد ازدهار العلم، لأن كل ما ذهب الإمام الصادق إلى تصويبه و الوثوق بصحته من الأحكام أصبح بجملته يسمى (مذهب جعفر الصادق عليه السّلام) . و لم يكن المذهب الجعفرى كسائر المذاهب الإسلامية فى تطور نشأته و عوامل انتشاره، بل امتاز باستقلاله عن مقومات المادة و مؤازرة السلطة، و استطاع بمؤهلاته الذاتية إخضاع الزمن، و اجتياز العقبات التى تقف فى طريق نشره.

و لو لا فيض من القدسية فى مبادئه، و قوة روحية فى تعاليمه، و عناية قبل كل شىء من الخالق الحكيم رحمة بهذا الخلق المتعوس، لقضت عليه السلطات بمحاولتها القضاء عليه و لكن ذهبت تلك المحاولات ضد المذهب دون جدوى، فكان نصيبها الفشل و نصيبه النجاح. و قد اتضح لنا بالبحث عن المذاهب الإسلامية و دراساتنا للظروف التى تكونت فيها، و العوامل الرئيسية لنشر البعض و خمول البعض الآخر، إنما هو لتدخل السلطة التنفيذية، فقد أخذت على عاتقها نشر ما ترتضيه منها، و معارضة المذهب الذى لا يروق لها نشره، و كانت الأسباب التى أدت إلى محو تلك المذاهب البائدة بعد شهرتها بين المسلمين هى عدم المؤازرة و الترغيب من قبل الدولة، كما مرت الإشارة إليه.

العداء لأهل البيت:

أما مذهب أهل البيت فقد بذلت السلطات كل إمكانياتها لعرقلة نشره و اتساع دائرة أتباعه، و كان لكل دولة غايات تعمل على تحقيقها فى مقابلة أهل البيت، و الوقوف فى طريق انتشار مذهبهم فى البلاد الإسلامية، أما الدولة الأموية فكانت مدفوعة للمعارضة بأمور ثلاثة: 1- العداء للبيت النبوى عداء ذاتيا متأصلا، توارثه الأبناء عن الآباء و لم يغير الإسلام من وجهة نظرهم هذه أى شىء، بل يزداد حقدهم كلما زاد انتشار الإسلام بالصورة التى أرغمتهم على الدخول فيه استسلاما لقوته. 2-إن مذهب أهل البيت بانتشاره فى عهدهم و عدم معارضتهم له، معناه الضربة القاضية على الدولة، للتفاوت العظيم بين سياسة أهل البيت و سياسة الأمويين فى إشاعة العدل و المساواة بين الطبقات، و نشر التعاليم الإسلامية. 3-إنهم بدون شك لا يجهلون أنفسهم و مؤهلاتها للخلافة الإسلامية و يعرفون الأمة و اتجاه أنظارها لآل محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و لا توجد أى نسبة بين الأمويين و بين أهل البيت، فإذا تركوا الأمور تسير بمجراها الطبيعى يوشك أن يتأخر فوز الأمويين بالخلافة (حتى يلج الجمل فى سم الخياط) و هم يعلمون هذا فاتخذوا تلك التدابير لنجاح أمرهم و إن كان فى ذلك تأخر المسلمين عن التقدم السريع حينا من الدهر.

معارضة معاوية

و على أى حال فقد واجه محبو على عليه السّلام و أنصاره فى عهد معاوية أنواع الأذى و ضروب المحن، و قد استعمل شتى الوسائل فى معاقبتهم و منع الناس من الرواية عن على عليه السّلام فكان المحدثون يكنون عنه بأبى زينب خشية العقوبة من التصريح باسمه عليه السّلام. و يصور لنا اهتمام معاوية فى محو ذكر على عليه السّلام ولاية زياد على الكوفة، و تتبعه لشيعة على عليه السّلام تحت كل حجر و مدر، حتى حملهم على البراءة من على عليه السّلام، و لنا فى قتل حجر بن عدى و أصحابه رحمهم اللّه أكبر دليل على ذلك كما سنبينه قريبا. و لا نطيل الحديث حول الجهود التى بذلها معاوية فى الوصول لتلك الغاية و لكنها أتعاب لم تثمر الفائدة التى كان يسعى لتحصيلها. فقد انتشر مذهب أهل البيت فى عاصمة الأمويين على عهده و ازداد انتشاره على ممر العصور، و إن أول من نشر المذهب فى الديار الشامية هو الصحابى الجليل أبو ذر الغفارى، فقد قام بدوره فى نشر تعاليم الإسلام، و إظهار الإنكار على معاوية لسوء سيرته، و تصرفه بأمور الأمة بما لا يتفق و نظم الإسلام، فاستغاث معاوية بالخليفة عثمان لإخراج أبى ذر من الشام ليصفو له الجو، فكان نصيب أبى ذر التبعيد عن دار الهجرة، و موته وحيدا بالربذة. و لم يقض معاوية على تلك الحركة الإصلاحية التى قام بها أبو ذر، بل توسعت بصورة أرغمته على إثارة العصبية بين القبائل، و بث روح التفرقة بين الناس، و بذل كل ما فى وسعه فى مقابلة على و أنصاره كما تقدم. و تقف الكوفة-التى هى أهم مراكز الإسلام و يعترف الأمويون بخطرها على الدولة-موقف المعارضة و الإنكار للأوضاع الشاذة التى ارتكبها ولاة الأمر و يترأس المعارضة الصحابى الجليل حجر بن عدى و خلصاء أصحابه، فقاموا يطالبون بالحق، و ينتصرون للعدل، و يتألمون لهجر تعاليم الإسلام و الخروج على نظامه المقدس، و ينبهون الأمويين على تلك الأخطاء التى ارتكبوها، و المخالفة لأحكام الإسلام بصورة واضحة بما لا مجال للدفاع عنهم.

فكان موقف أمراء الأمويين فى الكوفة كالمغيرة بن شعبة موقف تريث و تأنيب و استعمال طرق الإقناع لزعماء هذه الحركة عسى أن يتحولوا عن هذا الرأى، و يسالموا معاوية و يكونوا فى جملة المؤيدين لسياسته، و لكن الأمر يزداد شدة يوما بعد يوم، و يكثر الناقمون و بالأخص عند ما أعلن الوالى زياد بن سمية على المنبر إلزام الناس بالبراءة من على عليه السّلام و شتمه، و هم يرون أن على بن أبى طالب عليه السّلام هو بطل الإسلام و ناشر دعوته، و أنه أقرب الناس إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم، و أشدهم تمسكا بسيرته و إحياء سنته. و لما ولى زياد الكوفة استقر رأيه و رأى معاوية على الوقيعة بهم، فزوروا شهودا -و ما أكثرهم فى ذلک العهد-من الذين استخدمهم معاوية بصلاته فشهدوا على حجر (1)و أصحابه بما يستطيعون أن يردوا بعض الإنكار عنهم، فكانت خاتمة مطاف حياتهم فى مرج عذراء بتلک الصورة المؤلمة. لقيت الأمة فى سبيل الانتصار للحق و الانضمام لجانب أهل البيت و هم أهله، أنواع العذاب. أما أهل البيت أنفسهم فكانوا فى الدور الأموى-دور الإرهاب و الظلم-يلاقون المصائب على أيدى تلک الفئة التى تضمر العداء لآل محمد و تحاول القضاء عليهم بكل وسيلة. و تزلف الناس إليهم، بالعداء لآل محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلم، و تطوع آخرون بضرب الأحاديث المكذوبة على صاحب الرسالة، استجابة لاقتراح معاوية، و اتباعا لأوامره التى أصدرها بلاطه الجائر، فكانت هناک مجموعة أحاديث كلفت بيت المال مئات الآلاف من الدنانير، و قليلا ما يبذلون، فإن أولئک الدجالين يبيعونهم دينهم، و إنهم يريدون أن يجعلوا من الفأرة جملا، و يحاولون إدخال الأسد فى البيضة.

1- 1) حجر بن عدى بن معاوية بن جبلة بن الأدبر كان من فضلاء الصحابة و من شيعة على (عليه السلام) و حضر معه حروبه و كان على كنده يوم صفين، و على الميسرة يوم النهروان-حمله زياد بأمر معاوية فى اثنى عشر رجلا موثقين فى الحديد فقتل معاوية ستة منهم حجر و استحيا ستة و أوصى حجر من حضر من أهله أن لا تطلقوا عنى حديدا و لا تغسلوا عنى دما فإنى ملاق معاوية غدا على الحادة، و كان قتله فى مرج عذراء سنة إحدى و خمسين للهجرة.

يريدون أن يجعلوا ممن حارب الإسلام هو و أبوه من قبل شخصية تعترف الأمة الإسلامية بأنها شخصية روحانية طاهرة مطهرة، تمنحه الأمة ثقتها، و تنقاد له بدافع العقيدة و هذا أمر لا يكون. إنهم يريدون أن يجعلوا لمعاوية حق وراثة النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و تولى سلطانه و هو عدوه الألد، إنهم يريدون أن يجعلوا من أبى سفيان شخصية إسلامية تتفانى فى نصرة الدين، و هو لا يجهل أحد حاله. و من هذا و ذاك فإن قبول مثل هذه الأمور يحتاج إلى قوة تسيطر على العقل، و تطفئ شعلته، و لا يستبعد ما للمال من عوامل مؤثرة، فهى فى الواقع أقوى من السيف، و لذلك أصبحت لتلك المفتريات أثرها، و طابعها الخاص، و إذا بمعاوية تحاك له أحاديث المدح، فيصبح (أمين هذه الأمة) و خصما لأمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السّلام حتى عد على عليه السّلام ذلك من أعظم مصائبه فقال: (أنزلنى الدهر حتى قيل على و معاوية) ، و أصبح أبو سفيان بمقتضى تلك الأوضاع المقلوبة مسلما صحابيا له مكانته و مناقبه. و أبو طالب مؤمن قريش و ناصر الإسلام الأول، و حامى دعوته و من بذل جهده لنصرة دعوة الحق، و تفانى بالدفاع عن محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بدافع العقيدة و العاطفة و موجات الحق، تردد أناشيده و ترسمها على لوحة الخلود: و لقد علمت بأن دين محمد من خير أديان البرية دينا

و ساند النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى دعوته و بذل أقصى جهده فى حمايته، و أعز اللّه جانبه فيه، و ألجم أعداءه عن مقابلته، يسمى كافرا و لا ينطق بشهادة أن لا إله إلا اللّه، و تذهب أتعابه سدى و تسند إليه كلمة الكفر؟ ! و ما ذلك إلا رغبة لنوال من لا رغبة له إلا أن ينال من على عليه السّلام، و يحاول أن يخمل ذكره، و لا ترضى نفس ابن أبى سفيان أن تكون لعلى تلك السلسلة الطاهرة التى لم تنجسها الجاهلية بأرجاسها، و هو و الرسول الأعظم ركيضا رحم و رضيعا لبن. و معاوية أعلم بنفسه من هو و ابن من، و لكنه تمكن بمكره و خداعه، و جلب ما استطاع بخيله و رجله، فى تركيز هذه الفكرة. و ما ذنب أبى طالب و لم يبق فى كنانته سهما إلا رماه فى نصرة الدين، و لكن عليا هو سبب تلك المؤاخذات المفتعلة على أبى طالب، و ما ذنب على عليه السّلام إلا أنه

على الحق و معاوية على الباطل، فعداء معاوية لعلى (عداوة جوهرية يستحيل تحويلها. هى عداوة الشر للخير و الخبيث للطيب و الباطل للحق و الكفر للإيمان) . و إلا ـ فأبو طالب فى الخصال و الخلق مثال للحنيفية و تجسيد لقيم إبراهيم الخليل. و أبو سفيان فى الخصال مجمع للنقائص التى جاء الإسلام ليحاربها و فى الخلق انعكاس لمجتمع الجاهلية الذى يرتكس فى الضلال و الغواية. و لذا أقام معاوية سياسته على النيل من مكانة الإمام على، و استخدم الوسائل الدينية التى يتبعها و التى ينفذ من خلالها إلى أذهان العامة فعبّر عن عداء دنىء و أخذ بجعل سمة ملكه و عنوان دينه لعن الإمام العادل و قد وضع لها مكانا فى التاريخ الذى ينوى إقامته لبنى أمية فى الشام، فصرح أن ستكون هذه السياسة العدائية يشب عليها الصغير و يهرم عليها الكبير، و قد تمكن من نفوس أهل الشام خلال حكمه و حكم أخيه من قبل «و بلغ من أمرهم فى طاعتهم له أنه صلّى بهم عند مسيرهم إلى صفين الجمعة فى يوم الأربعاء، و أعاروه رءوسهم عند القتال و حملوه بها. . . ثم ارتقى بهم الأمر فى طاعته إلى أن جعلوا لعن على سنة، ينشأ عليها الصغير، و يهلك عليها الكبير» (1)و كتب إلى عماله بهذه السياسة. و كان همه أن يجرى اللعن من على المنبر النبوى الشريف و كتبت أم سلمة زوج النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلى معاوية: إنكم تلعنون اللّه و رسوله على منابركم، و ذلك أنكم تلعنون على بن أبى طالب و من أحبه، و أنا أشهد أن اللّه أحبه و رسوله (2)و يروى ابن عبد ربه أن بعض العلماء قال لولده: يا بنى إن الدنيا لم تبن شيئا إلا هدمه الدين و إن الدين لم يبن شيئا فهدمته الدنيا أ لا ترى أن قوما لعنوا عليا ليخفضوا منه، فكأنما أخذوا بناصيته جرا إلى السماء.

بذرة التشيع و نموها:

و مهما يكن من أمر فقد نشأ مذهب أهل البيت و تكون فى عهد صاحب الرسالة صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فهو أول من وضع بذرة التشيع فى حقل الإسلام، يوم غرس دوحة شريعته الغراء جنبا إلى جنب و سواء بسواء، و لم يزل غارسها صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يتعاهدها بالسقى و العناية حتى ثبتت و نمت فى حياته، ثم أثمرت بعد وفاته، حيث كان يتعاهدها أهل

1- 1) مروج الذهب ج 3 ص 41-42. [1]

2- 2) العقد الفريد ج 3 ص 131-132. [2]

بیته و خلص أصحابه، و قد قام کل بما یجب علیه من رعایتها، و تحمل من نکبات و اضطهاد فی سبیل حفظها من تلک السلطات التی کانت تحاول القضاء علیها لمحو ذکر آل محمد صلّی اللّه علیه و آله و سلم. و قد وقفوا أمام تلک التیارات وقفة إخلاص و إیمان و ثبات علی مبدأ الحق، و لم یأبهوا یوما ما إلی سلطة أو سیاسة، و مرت تلک الأدوار العصیبة المظلمة، و لم یزل ذلک الغرس ثابت الجذور نامی الفروع یسقی من ماء غیر آسن، حتی أفرعت دوحته و امتدت أغصانه و أینع ثمره بحفید النبی الکریم و وارث علمه الإمام جعفر بن محمد الصادق علیه السّلام. کان الإمام الصادق علیه السّلام مهتما فی تلک الفترة المارة الذکر ببث العلوم و نشر المعارف الإسلامیة بین طبقات المجتمع، فأقبل الناس علی مدرسته و ازدحموا علی أبوابها ینتهلون من علومه، و یقتبسون من أنوار معارفه، و أقبلت وفود طلاب العلم من الأقطار الإسلامیة، حتی أصبح عدد تلامیذه و المنتمون إلی مدرسته أربعة آلاف، منهم أئمة مذاهب کأبی حنیفة، و مالک بن أنس، و سفیان الثوری، و ابن عیینة، و الأعمش، و غیرهم و کذلک منهم رؤساء طوائف و أعلام الحدیث و الفقه. و کثر التألیف فی عصره، و دون فقه أهل البیت و حدیثهم بصورة واسعة، حتی أحصی ما دونوه فی عصره فکان أربعمائة مؤلف لأربعمائة مؤلف ممن سمعوا الحدیث منه، فدونوه و عرفت بالأصول الأربعمائة و ستأتی الإشارة لذلک عند ذکر تدوین الفقه الجعفری. و بالجملة فإن مذهب أهل البیت علیه السّلام هو أقدم المذاهب، و قد تخطی فی العصر الأموی تلک العقبات التی حاول الأمویون بها أن یعرقلوا سیره، و یقفوا فی طریق انتشاره، و سیأتی بیان مقاومة العباسیین له، و معارضتهم لانتشاره.

أخطاء تاریخیة لابن خلدون:

و أود هنا أن أعود للإشارة عما تجناه ابن خلدون علی الحقائق التاریخیة إذ یصف هذا المذهب بالبدعة حیث یقول فی مقدمته: و شذ أهل البیت فی مذاهب ابتدعوها، و فقه انفردوا به (1).

1- 1) مقدمة ابن خلدون:274. [1]

و ليس من الغريب صدور مثل هذا القول من رجل كان يحقد على العرب و يضمر لهم كل سوء، و ليس ببعيد تحامله على سادة أهل البيت و أئمة المسلمين فهو يتعصب عليهم، و يتجاهل مكانتهم، هذا مع جهله بمذهبهم فإنه لم يقرأ كتب المذهب و إنما قرأ كتب الخصم، و لم يتصل بزعمائه، و إنما اتصل بأعدائه، فراق له ما سمع من قالة السوء، و استعذب ما قرأ فى كتب المناوئين لآل محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و شيعتهم. و لعل هالة الأكبار و التقدير لابن خلدون التى أحاطت بشخصيته من قبل بعض الكتاب أبعدتهم عن الوقوف على شخصية هذا الرجل بواقعها، و التعرف على ما تضمنته من أخطاء و مخالفات للحقيقة. و لقد رأينا دوما أن ابن خلدون موضع إجلال أكثر الباحثين و الكتّاب، سيرا على طريقة السلف، و برغم ما تضمنته مقدمته من علوم فى الاجتماع و العمران. إلا أن ذلك لا يبيح لنا أن نتغاضى عن مواقف وقفها تجاه العرب و حضارتهم، فيجردهم من ذلك و يسلبهم فضائلهم فيصفهم بأنهم أمة متوحشة، و هم أهل نهب و عبث، بل هم أداة خراب للأوطان التى يتغلبون عليها إلى غير ذلك مما يدلنا بكل وضوح على تعصبه أو تجاهله كما يصفه لنا الأستاذ موسى سلامة بقوله: و الخطأ البارز فى ابن خلدون: هو تنقصه حضارة العرب، فإنه هنا أعمى كامل العمى، لا يرى بصيصا من نور. . . ، هذا مع أنى أحتفظ له بخيانات شخصية و ثقافية، فإنه مثلا خان معظم الأمراء و الملوك الذين خدمهم ثم إنه سرق كل ما كتبه إخوان الصفا و عزاه إلى نفسه. . . اه-. و لا أدل على تجاهله أو تحامله من كلمته هذه فى مذهب أهل البيت و وصفه لهم بالشذوذ. و لو كان له قليلا من التأمل لما قال هذا القول الذى لم يتوصل إليه بالنتائج العلمية، و هذه الكلمة هى التى بعثتنا على خوض غمرات البحث و التعرف على المذاهب، و عوامل انتشارها، و أسرار نجاح المذاهب الأربعة و أسباب خلودها دون غيرها من مذاهب المسلمين، فاتضح لنا أن ذلك مستند إلى دواعى السلطة، و إغراء المادة، التى من أجلها نسى ابن خلدون نفسه، فجرى قلمه بظلم الحق و الحقيقة. و لا يستبعد ذلك من إنسان تربع على دست قضاء دولة لا ترغب فى إظهار فضل

آل محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أسوة بأخواتها اللواتى سرن على ذلک من قبل، فهو عبد لسلطانه، و أسير لشيطانه. و مهما كانت مكانته التى احتلها من علم الاجتماع المعاصر أو غيره من العلوم فإن رأى ابن خلدون هذا لا ينبعث إلا عن جهل، أو عقل أعمى لا يبصر الحقائق، و أسوأ ألوان الجهل جهل مواقف آل محمد فى الدفاع عن الإسلام، و تفانيهم فى نشر تعاليمه و تعليم الناس أحكام الإسلام و فرائضه، و محاربة ذوى العقائد الفاسدة، و قيامهم بتعليم الأمة مستمدين من الرسول الأعظم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بما لا مجال للشک فى ذلک، و لكن ابن خلدون لتحامله نقل كثيرا من الأشياء مبتعدا عن طريق الواقع، و قد صبها فى قالب رغباته، و تساهل فى إبداء الحقيقة، و جعلها فى طيات الخفاء و الكتمان. و ابن خلدون إذا كان أسير عقدة تتحكم فيه و تقض مضجعه ساع إلى السلطة و باحث عن المجد لا يهدأ عن سعيه فى سبيل الحكم و الانضمام إلى السلاطين، فكيف له أن يحتل موقعا لدى الملوک و سلاطين الزمن إذا ترک لعقله الحرية و لنفسه الخيار فى قول الحق «لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى» . و كيف يمكن أن يخالف مذهب الحكام و يعمل على استخلاص الحقيقة و بحث دوافع العداء لأهل البيت عليهم السّلام؟ فهو فى نظر علم الاجتماع نتاج بيئة و محيط فبقى كما نشأ؟ و لكن العالم من ينتزع نفسه و يخلصها مما يراه قاهر التأثير و جبرى النتيجة ليستطيع أن يقدم للناس مادة علمه بتجرد و تكون نظرته بالغة الوضوح تحمل شواهد صحتها. ذلک فى مقابل النظرة العصرية لابن خلدون و مكانته فى علم الاجتماع اليوم. أما النظر إلى ابن خلدون من خلال الواقع و الحكم عليه من حقائق سيرته و وقائع تأريخه فهو من رجال العصور الذين أذعنوا للحكام و شاركوهم و ساندوهم فى محاربة أهل البيت أو الغض من مكانتهم و النيل منهم و لقد كان ذلک سبيل من طمع فى متاع الدنيا و عطاء الحكام فحسب، فكيف و الحال مع ابن خلدون و هو يجوب الأقطار من أجل رغبته فى الحكم نفسه؟ !

المذهب الجعفرى و الدولة العباسية:

اشارة

كانت سيطرة الطبقة الحاكمة تلجىء المفكرين إلى كبت الشعور، و تلجم الألسن عن قول الحق، و من التجأ إلى المعارضة فقد عرض نفسه إلى السخط و جعلها هدفا

للنقمة، و بذلک ضاعت أکثر الحقائق، و أثرت تلک السیطرة علی سیر المسلمین و تقدمهم لعدم الحریة فی الرأی و العقیدة، و لو لا ذلک لما حدثت تلک الحوادث التی أخرت المسلمین. لقد کان أولئک الحکام یعمدون دائما إلی خلق مشکلات یفرقون بها کلمة الأمة، و یثیرون الشحناء و یشغلون الأفکار، لاستخدام الأکثر لمصالحهم الذاتیة، و قد أجهدوا أنفسهم فی ربط العقائد فی دستورهم الذی یتمشی مع رغباتهم، و إن أهم مشکلة فی تاریخ الإسلام هی مشکلة الخلافة أو الاعتقاد بالإمامة بأنه منصب إلهی کالنبوة. فکما أن اللّه سبحانه یختار من یشاء من عباده للنبوة و الرسالة و یؤیده بالمعجزة التی هی کنص من اللّه علیه فکذلک یختار للإمامة من یشاء و یأمر نبیه بالنص علیه، فالنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم مبلغ عن اللّه و الإمام مبلغ عن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم. و الشیعة تعتقد أن تلک المنزلة لم تحصل إلا لعلی و ولده و الإمامة متسلسلة فی اثنی عشر إماما کما نص النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم علی ذلک. و لا تری تلک الخلافة الإلهیة لغیر علی و بنیه علیهم السّلام، و لا یسعنا التعرض لبحث الإمامة و لکنا نرید الإشارة بهذه العجالة إلی الأدوار التاریخیة التی سار فیها شیعة آل محمد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی المحافظة علی وصایا النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم من التمسک بالکتاب و العترة. و قد قام أصحاب محمد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی نشر تلک الدعوة فی الصدر الأول و تحملوا ما تحملوا فی سبیل ذلک، و مر ذکر الدور الأموی و ما لقی فیه آل محمد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و شیعتهم من الاضطهاد و المحنة فلا نتعرض للبیان بأکثر من ذلک. و کان من نتائج تلک الحرکة الفکریة الواسعة النطاق و النهضة العلمیة التی ازدهرت فی عصر الإمام الصادق علیه السّلام هو انتشار مذهب أهل البیت فی الأقطار الإسلامیة. و کانت الدولة العباسیة فی طفولتها تعارض حرکة انتشار المذهب من وراء الستار، إذ لیس فی إمکانها التظاهر فی المعارضة، لأنهم فی حاجة ملحة لاستمالة أعیان أهل البیت و الاستعانة بزعماء الشیعة لتثبیت أرکان الدولة. و لم یکن هناک شهرة لأحد سوی الإمام الصادق علیه السّلام و التاریخ یدلنا بوضوح علی ذلک.

أما مالک بن أنس فقد کان فی حیاة الإمام الصادق علیه السّلام کأحد رجال المدینة، و لم ینتشر ذکره إلا بعد سنة 148 ه-و هی سنة وفاة الإمام الصادق، و کان ضربه بالسیاط و إهانته فی سنة 146 ه-أی قبل وفاة الإمام الصادق بأقل من سنتین، و بعد سنة 148 ه-وجه المنصور نظره نحو مالک و أمره أن یضع کتابا یحمل الناس علیه و یوزع منه نسخا فی الأمصار و لا یکون غیره. و کان غرض المنصور من ذلک هو معارضة انتشار مذهب أهل البیت، لأنه یثقل علیه تخلید ذکر جعفر بن محمد علیه السّلام و قیام ولده الإمام موسی بن جعفر علیه السّلام بعده و التفاف الناس حوله حتی لقبوه بالعالم و هو هو فی زهده و ورعه و علمه. لم یغب عن مالک مغزی هذا التکلیف فأجابه: یا أمیر المؤمنین لا تفعل؛ أما هذا الصقع فقد کفیتکه، و أما الشام ففیه الرجل الذی علمته-یعنی الأوزاعی، و أما أهل العراق فهم أهل العراق. فکان المنصور یشد أزر الأوزاعی و یراسله و یلحظ مالکا و یواصله حتی ازدحم الناس علی باب داره التی أصبحت کأبواب دور الملوک. و بذل جهده بالانتصار إلی أهل الرأی و هو یأمل من وراء ذلک کله تغلیب مذهبه علی مبادئ أهل البیت، و لما اشتد جانب الدولة و قوی ساعدها، أظهر المنصور ما کان یضمره، فأعلن مقاومة أهل البیت و معارضة انتشار مذهبهم، و شدد النکیر علی أهله.

معارضة المنصور و الرشید للمذهب:

و کان المنصور یأمل بالإمام أبی حنیفة عند ما رعاه بعنایته و نصره و قدمه علی کثیر من الفقهاء أن یوجد منه شخصیة علمیة تقف أمام انتشار مذهب جعفر بن محمد علیه السّلام و لکنه قد خاب أمله، فهذا الإمام أبو حنیفة یصرح للملإ بأنه ما رأی أعلم من جعفر بن محمد علیه السّلام و أنه أعلم الأمة (1). و سأله رجل یوما عن رجل وقف ماله للإمام فمن یکون المستحق؟ فأجاب أبو حنیفة: المستحق هو جعفر الصادق لأنه هو الإمام الحق (2).

1- 1) جامع مسانید ابن حنیفة ج 1 ص 222.

2- 2) تاریخ العلویین محمد أمین غالب ص 140. [1]

و ذهبت تلک المحاولات فاشلة، و لم یزل المذهب الجعفری یتسع فی الأقطار و ینتشر فی العواصم، و کثر أتباعه رغم تلک المحاولات و الخطط التی خطها المنصور و من بعده المهدی و الهادی و الرشید. و قد بذل الرشید کل ما فی وسعه لتحویل أنظار الناس عن آل محمد، و أظهر تعظیم مالک بن أنس، فکان یجلس بین یدیه تأدبا یتعلم منه العلم، و یأمر أولاده و خواصه باحترامه. و کان یقرب الفقهاء و ینظر إلی الشافعی نظر عطف و حنان لأنه قرشی، و أرسله إلی مصر صحبة الوالی، و أمره باحترامه و إکرامه، و تقریب أصحابه و أعطاه سهم ذی القربی. فیما عامل أهل البیت بالشدة و القسوة، من تتبع أنصارهم، و القضاء علی من اتهمه فی موالاتهم، حتی ثقل علیه أن یکون علی بن أبی طالب علیه السّلام رابع الخلفاء، فحاول أن ینفی ذلک و یعاقب من یثبته. قال أبو معاویة: دخلت علی هرون الرشید فقال لی: یا أبا معاویة هممت بمن أثبت خلافة علیّ فعلت به و فعلت. قال أبو معاویة: فسکت فقال لی: تکلم. قلت: إن أذنت لی تکلمت. قال: تکلم. فقلت: یا أمیر المؤمنین، قالت تیم: منا خلیفة رسول اللّه. و قالت عدی: منا خلیفة رسول اللّه. و قالت بنو أمیة: منا خلیفة الخلفاء، فأین حظکم یا بنی هاشم من الخلافة؟ و اللّه ما حظکم إلا ابن أبی طالب (1)و بهذا استطاع أبو معاویة أن یصرف الرشید عن رأیه. و استعمل فی معاملة أهل البیت ما لا یستعمله أحد و فیه صبابة من الرحمة، لقد سجن الإمام موسی بن جعفر علیه السّلام و هو عالم عصره، و من له السلطة الروحیة و ضیق علیه حتی قتله بالسم، و بذلک أنزل بالمسلمین خسارة فادحة إذ لم یتهیأ لهم الاتصال بالإمام و الأخذ من علومه و آرائه إلا فی مدة قلیلة، و تتبع بقیة أهل البیت و شیعتهم، و طلبهم تحت کل حجر و مدر، و کان بحکم السیاسة العمیاء التی لا تعرف إلا غایتها، و لا تفرق بین الحق و الباطل، و لا تری سوی السیطرة علی الناس بأی

1- 1) تاریخ بغداد ج 5 ص 244. [1]

طريق و بأى نوع كان، فإنه قد حمل الناس على العداء لآل محمد، و حاول قلع بذرة حبهم التى غرسها الرسول، و سقاها بماء غديره العذب، تلـك البـذرة الطيبـة التى أينعت فأثمرت و جنى ثمرها رجال العلم، و صـلحاء الأمـة، رغم تلك المحاولات و الجهود الجبارة التى بـذلها العباسـيون، و هم يطلبون من وراء ذلك اسـتقرار ملكهم بالوراثة الشـرعية، بادعائهم الخلافة دون آل على بن أبى طالب عليه السّلام. دخل شريك القاضـى على المهدى. فقال له المهدى: ما ينبغى أن تقلد الحكم بين المسـلمين، قال: و لم؟ قال: لخلافك على الجماعة. و قولك بالإمامـة. فقال شـريك: أما قولك بخلافك على الجماعـة، فعن الجماعـة أخذت دينى فكيف أخالفهم و هم أصـلى فى دينى؟ و أما قولك بالإمامة، ما أعرف إلا كتاب اللّه و سـنة رسوله. و أما قولك: مثلك ما يقلد فى الحكم فهذا شـىء أنتم فعلتموه، فإن كان خطأ فاسـتغفروا اللّه منه. و إن كان صوابا فامسـكوا عليه. قال الرشيد: ما تقول فى على بن أبى طالب؟ قال: ما قال فيه جدك العباس و عبد اللّه، قال: و ما قالا فيه؟ قال: فأما العباس فمات و على عنده أفضل الصـحابة، و كان يرى كبراء المسـلمين يسألونه عما ينزل من النوازل، و ما احتاج هو عليه السّلام إلى أحد حتى لحق باللّه. و أما عبد اللّه فإنه كان يضـرب بين يديه بسـيفين. و كان فى حروبه سـيفا منيعا و قائدا مطاعا، فلو كانت إمامته على جور، كان أول من يقعـد عنها أبوك لعلمه و فقهه فى أحكام اللّه، فسـكت المهدى و لم يمض بعد هذا المجلس إلا قليلا حتى عزل شـريكا .(1)

تغلب المذهب الجعفرى:

و على أى حال فقد تغلب المذهب الجعفرى على سائر الأقطار الإسلامية فكانت له فى بغداد من القوة و النشاط ما استطاع أن يقاوم الدولة التى ما برحت تطارد الشـيعة و تناصـر خصومهم، و لكنهم ثبتوا فى وجه الطغيان بكل ثبات، و أقاموا شعائرهم الدينية بدون خفاء و تكتم، و كانت الدولة تعد هذا التظاهر تهديدا و خطرا عليها. و فى أيام المأمون كانت الغلبة للمذهب الجعفرى فى جميع الأقطار بل امتدت

1- 1) تاريخ بغداد ج 9 ص 292. [1]

دعوة التشيع إلى رجال الدولة أنفسهم، فكان منهم الوزراء و الأمراء و قواد الجيش و الكتّاب، و رؤساء الدواوين، الأمر الذى دعا المأمون إلى التظاهر بالتشيع، و الميل إلى العلويين، لأنه خشى على زوال ملكه فدعا الإمام على بن موسى الرضا عليه السّلام إلى البيعة، و التنازل عن العرش، و لكن الإمام رد هذه الدعوة علما منه بأنها مفتعلة، و لكنه تفادى إيقاع نفسه فى التهلكة بقبول ولاية العهد قبولا شكليا لا أكثر و لا أقل. و قبل ولاية العهد بعد أخذ ورد و أكثر المأمون عقد المجالس للمناظرة فى الإمامة، و قد نجح بما دبره فى سياسته و دهائه، إذ استمال قلوب الشيعة و أمن ثورة العلويين المتوقعة، و فاخر علماء الأديان الأخرى بالرضا و علوم الرضا عليه السّلام. و فى أيام المعتصم التجأ الشيعة إلى التكتم نوعا ما، و لكنا نراهم يخرجون على الدولة بعدة كاملة، و قوة لم تستطع الدولة معارضتها، و ذلک عند ما استخرجوا جنازة الإمام الجواد عليه السّلام فى سنة 220 ه-عند ما حاول دفنه سرا، و لم يسمح لأحد فى تشييعه، و لكن الشيعة خرجوا بذلک الموكب المهيب الذى يربو عدده على اثنى عشر ألف و السيوف على عواتقهم، فشيعوا جنازة الإمام رغم معارضة السلطة.

قوة المعارضة أيام المتوكل:

و اشتد الأمر و عظمت المحنة فى أيام المتوكل العباسى، فكان بغض الإمام على عليه السّلام و شيعته يأكل قلبه كما تأكل النار يابس الحطب، و كان لا يذوق طعم الراحة و لعلى عليه السّلام ذكر فى الوجود، و لشيعته مجتمع زاهر بالعلم محتفظ بكرامته، مستقل بمواهبه، منفصل عن الدولة. و قد تتبع العلويين و حط من كرامة أهل البيت. و لم يسمح لأى أحد أن يذكرهم بخير. و يدلنا على شدة بغضه و تحامله أن نصر بن على الجهضمى حدث بحديث عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنه أخذ بيد الحسن و الحسين و قال: (من أحبنى و أحب هذين و أباهما و أمهما كان معى فى درجتى يوم القيامة) ، فأمر المتوكل بضربه ألف سوط إلى أن كلمه جعفر بن عبد الواحد بأن نصرا لم يكن شيعيا و إنما هو من أهل السنة، فضرب خمسمائة سوط و عفى عن الباقى (1).

1- 1) الخطيب ج 2 ص 281.

و يحدثنا المقريزى: أن يزيد بن عبد اللّه أمير مصر، أمر بضرب جندى تأديبا لشىء صدر منه، و عند ما أحس الجندى بألم الضرب، أقسم على الأمير بحق الحسن و الحسين أن يعفو عنه، فأمر الأمير بضربه ثلاثين سوطا جزاء لهذا القسم، و كتب إلى المتوكل فى بغداد يخبره بخبر الجندى، فورد الكتاب على يزيد يأمره بضربه مائة سوط و حمله إلى بغداد (1). و لعل النطع و السيف كانت خاتمة المطاف لذلك الجندى، و أمر بضرب أحمد بن محمد بن عاصم صاحب خان عاصم ألف سوط، لاتهامه بسب الشيخين حتى مات، قال فى الحضارة الإسلامية نقلا عن المنتظم: و كانت الحكومة إذا أرادت أن تعاقب شيعيا لمذهبه لم تذكر اسم على، بل يجعل سبب العقوبة أنه شتم أبا بكر و عمر. و ما أكثر من عوقب بهذه الوسيلة. و لكن أنصار المتوكل و حزبه الذين يرون البغض لعلى و شيعته يقربهم إليه زلفا. نالوا بذلك إربهم فى الدنيا و عقابهم فى الآخرة. و خلاصة القول أن المتوكل اشتد فى العداء لأهل البيت و النيل منهم، حتى دفعه حقده إلى هدم قبر الإمام الحسين و هدم المشهد الشريف. و استقدم أبا الحسن الهادى عليه السّلام من المدينة إلى سامراء فى سنة 236 و عامله بالشدة و الأذى، و توصل المنحرفون عن آل على إلى إساءة الإمام الهادى عليه السّلام فسعوا به إلى المتوكل و أخبروه أن فى منزله سلاحا و كتبا من شيعته، فهجموا على داره ليلا و لم يعثروا على أى شىء من ذلك، و ما زال الإمام الهادى عليه السّلام مقيما فى سامراء إلى أن مات مسموما سنة 254 ه-، و كانت مدة إقامته فيها 18 سنة.

الشيعة و نصرة أهل البيت:

و مرت الأدوار، و تعاقبت الأيام، و الشيعة يلاقون الأذى و يخوضون غمار الحروب و يواجهون المصاعب، و يتجرعون من ولاة الأمر ضروب المحن، كل ذلك فى سبيل نصرة آل محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و نشر مذهبهم على وجه البسيطة، و ما دفعهم إلى تحمل ذلك إلا حبهم لآل محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و امتثالهم لأوامر النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى المحافظة عليهم و وصاياه المتكررة باتباعهم.

1- 1) الخطيب ج 4 ص 153.

و لقد بذل الشيعة كل ما فى وسعهم لنصرة أهل البيت الذين عنهم يأخذون تعاليم دينهم، و كانوا فى هذه الأدوار يتصلون بمدرسة أهل البيت مهما كلفهم الأمر، فلا يقعد بهم خوف ظالم، و لا تحول دونهم و دون الاتصال بهم تلك الإرهابات التى اتخذها أعداء آل محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم وسيلة لفصل الأمة عنهم، فهم من زمان على عليه السّلام إلى زمان الإمام الحسن العسكرى يأخذون عنهم معالم الدين حتى وقعت الغيبة الصغرى. و سيأتى بيان ذلك عند ذكرنا للنهضة العلمية عند الشيعة بعد عصر الأئمة عليهم السّلام. و كان الإمام العسكرى قد جلبه المتوكل مع أبيه على الهادى عليه السّلام إلى سامراء، و ما زال مع أبيه إلى أن التحق أبوه بالرفيق الأعلى و بقى العسكرى مدة إمامته القصيرة فى سامراء (ست سنين) فى نكد و أذى، و انفرد بعد أبيه بما يقصده به العباسيون من الإساءة و الغض من مقامه، و التضييق عليه و السجن إلى أن اغتاله المعتمد العباسى بالسم فى سامراء لثمان خلون من ربيع الأول سنة 260 ه-و دفن مع أبيه فى دارهما حيث قبرهما الآن، و كان عمره الشريف ثمان و عشرين سنة. و فى ذلك العهد كان مذهب أهل البيت ينتشر فى البلاد الإسلامية، و أصبحت قم من عواصم العلم للشيعة و فيها من رواة الحديث أهل البيت عدد كثير، و من المؤلفين فى الحديث و الفقه و فنون العلم جم غفير، و كذلك الكوفة و بغداد و المدائن و سامراء و الشام عاصمة الأمويين كما سيأتى بيانه. و إن تمسك الشيعة بمذهب أهل البيت، لا لتحزب أو تعصب، و لا لطعن فى مذاهب المسلمين أو حط من كرامة أحد من أئمة المذاهب، و لكن الأدلة الشرعية أخذت بأعناقهم، لوجوب الأخذ بمذهب أهل البيت لحكم الأدلة القاطعة و تعبدا بسنة سيد النبيين صلّى اللّه عليه و آله و سلم. و لو وجدوا طريقا للأخذ عن غيرهم لاتبعوه، و لم يتحملوا المحن فى سبيل اتباعهم، و لكن لا- طريق إلى ذلك بل وجدوا الحق معهم و الحق أحق أن يتبع، و لأنهم عليهم السّلام كانوا يمثلون الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى خلقه و هديه و ورعه و زهده، فهم عدل القرآن متكاتفين معه يمتثلون أوامره و يسارعون إلى تنفيذه، و اطلعوا على أسرار أحكامه، و دقائق أطواره و القرآن قد أشاد بفضلهم كثيرا. و لقد بذلوا جهدهم فى هداية الناس، كما بذلوا لهم النصح ليرشدوهم إلى طرق السعادة، و قد نشروا العلم و العدل، و قاوموا الجهل و الظلم، و ليس هذا مجرد فرض و إنما هو أمر واقع و حقيقة ظاهرة لا يمكن إنكارها، و وجد الناس فيهم أئمة هدى:

«لا ـ يخالفون الحق، و لا يختلفون فيه، و هم دعائم الإسلام و ولائج الاعتصام، بهم عاد الحق إلى نصابه، و انزاح الباطل عن مقامه، عقلوا الدين عقل وعاية و رعاية لا عقل سماع و رواية، فإن رواة العلم كثيرة و رعاته قليل» . و هم أهل بيت النبوة و موضع الرسالة و مهبط الوحى، و لم تسمح الأدلة بمخالفتهم و الأخذ عن غيرهم. و هم عدل القرآن و سفينة نوح باتباع علم الهداية و الرشاد.

أحاديث النبى فى أهل البيت:

و قد صرح النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بوجوب اتباعهم و التمسک بهم فى مواطن عديدة، و اشتهر حديث الثقلين كالشمس فى رائعة النهار و حديث: «مثل أهل بيتى كسفينة نوح من ركبها نجى و من تخلف عنها غرق و هوى» من الأحاديث الثابتة التى أيدها الرواة و تناقلتها كتب التاريخ. أخرج أحمد فى مسنده و الطبرانى فى مسنده بالإسناد إلى ابن عباس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم: «من سره أن يحيى حياتى و يموت مماتى و يسكن جنة عدن غرسها ربى فليتول عليا من بعدى و ليوال وليه، و ليقتد بأهل بيتى من بعدى، فإنهم عترتى، خلقوا من طينتى، و رزقوا فهمى و علمى، فويل للمكذبين بفضلهم من أمتى، القاطعين صلتى لا أنالهم اللّه شفاعتى» . و أخرج ابن حجر فى صواعقه قال: قال صلّى اللّه عليه و آله و سلم: «فى كل خلف من أمتى عدول من أهل بيتى ينفون عن هذا الدين تحريف الضالين و انتحال المبطلين. و تأويل الجاهلين، ألا و إن أئمتكم وفدكم إلى اللّه فانظروا من توفدون» . و أخرج جماعة من الحفاظ عن أبى ذر الغفارى قال: قال صلّى اللّه عليه و آله و سلم: «فلا تقدموهم فتهلكوا و لا تقصروا عنهم» . و قال صلّى اللّه عليه و آله و سلم: «اجعلوا أهل بيتى منكم مكان الرأس من الجسد و مكان العينين من الرأس و لا يهتدى الرأس إلا بالعينين» . و قال صلّى اللّه عليه و آله و سلم: «أوصى من آمن بى و صدقنى بولاية على بن أبى طالب فمن تولاه فقد تولانى، و من تولانى فقد تولى اللّه، و من أحبه فقد أحبنى و من أحبنى فقد أحب اللّه، و من أبغضه فقد أبغضنى و من أبغضنى فقد أبغض اللّه» .

و قال صلّى اللّه عليه و آله و سلم: «اللهم من آمن بى و صدقنى فليتول على بن أبى طالب فإن ولايته ولايتى و ولايتى ولاية اللّه» . و أخرج أبو نعيم فى الحلية عن ابن عباس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم: ما أنزل اللّه آية و فيها يا أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُوا إلا و علىّ رأسها و أميرها. و أخرج عن حذيفة قال: قالوا: يا رسول اللّه أ لا تستخلف علينا؟ قال: إن تولوا عليا تجدوه هاديا مهديا يسلك بكم الطريق المستقيم (1). و أخرج بطريق آخر عنه صلّى اللّه عليه و آله و سلم: إن تستخلفوا عليا و ما أراكم فاعلين تجدوه هاديا مهديا يحملكم على المحجة البيضاء. و أخرج النسائى فى الخصائص من طريق عمران بن حصين عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: ما تريدون من على؟ إن عليا منى و أنا منه و هو ولى كل مؤمن من بعدى (2). و أخرج أيضا من طريق أم سلمة قالت: سمعت رسول اللّه يقول: من سب عليا فقد سبنى (3). و أخرج عن حبشى بن جنادة السلولى قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم: على منى و أنا منه فلا يؤدى عنى إلا أنا أو على. و أخرج الحاكم من طريق أبى ذر عن النبى أنه قال: «من أطاعنى فقد أطاع اللّه و من عصانى فقد عصى اللّه و من أطاع عليا فقد أطاعنى و من عصى عليا فقد عصانى» . و أخرج أيضا من طريق أبى ثابت مولى أبى ذر عن أم سلمة عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنه قال: «على مع القرآن و القرآن مع على لن يفترقا حتى يردا على الحوض» (4). و عن ابن عباس قال: كنا نتحدث أن أقضى أهل المدينة على بن أبى طالب. و عن أبى هريرة قال: قال عمر بن الخطاب: لقد أعطى على بن أبى طالب

1- 1) الحلية ج 1 ص 64. [1]

2- 2) الخصائص ص 32.

3- 3) نفس المصدر ص 24.

4- 4) انظر المستدرک ج 2 ص 122. [2]

ثلاث خصال لئن تكون لی خصلة منها أحب إلیّ من أن أعطی حمر النعم. قیل: و ما هن یا أمیر المؤمنین؟ قال: تزویجه فاطمة بنت رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و سکناه المسجد مع رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یحل فیه ما یحل له. و أخرج الحاکم أیضا قال: کنا مع رسول اللّه فانقطعت نعله فتخلف علی یخصفها فمشی قلیلا ثم قال: إن منکم من یقاتل علی تأویل القرآن کما قاتلت علی تنزیله فاستشرف لها القوم و فیهم أبو بکر و عمر. قال أبو بکر: أنا هو؟ قال: لا، قال عمر: أنا هو؟ قال: لا و لکن خاصف النعل. یعنی علیا فأتیناه و بشرناه فلم یرفع رأسه کأنه سمعه من رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم (1). و قال أمیر المؤمنین علیه السّلام: فأین تذهبون و أنی تؤفکون و الاعلام قائمة و الآیات واضحة، و المنار منصوبة، فأین یتاه بکم بل کیف تعمهون؟ و بینکم عترة نبیکم و هم أزمة الحق، و أعلام الدین و ألسنة الصدق، فأنزلوهم منازل القرآن، و ردوهم ورود الهیم العطاشی. أیها الناس خذوها من خاتم النبیین انه یموت من مات منا و لیس بمیت و یبلی من بلی منا و لیس ببال، فلا تقولوا بما لا تعرفون فإن أکثر الحق فیما تنکرون، و اعذروا من لا حجة لکم علیه و أنا هو، أ لم أعمل فیکم بالثقل الأکبر و أترک فیکم الثقل الأصغر، و رکزت فیکم رایة الإیمان؟ و قال علیه السلام: انظروا أهل بیت نبیکم فالزموا سمتهم، و اتبعوا أثرهم، فلن یخرجوکم من هدی، و لن یعیدوکم فی ردی، فإن لبدوا فالبدوا، و إن نهضوا فانهضوا، و لا تسبقوهم فتضلوا، و لا تتأخروا عنهم فتهلکوا. و أخرج الحاکم عن الکنانی قال: سمعت أبا ذر یقول و هو آخذ بباب الکعبة: من عرفنی فقد عرفنی و من أنکرنی فأنا أبو ذر. سمعت رسول اللّه یقول: «مثل أهل بیتی کسفینة نوح من رکبها نجی و من تأخر عنها غرق» . و أخرج البخاری عن عبد الرحمن بن أبی لیلی قال: لقینی کعب بن عجرة فقال: أ لا أهدی لک هدیة سمعتها من رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم فقلت بلی، فأهدها، قال: سألنا

1- 1) انظر المستدرک و لهذه الأحادیث طرق کثیرة ذکرها الحفاظ یمکن مراجعتها.

رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فقلنا: يا رسول اللّه، كيف الصلاة عليكم أهل البيت؟ قال قولوا: اللهم صلّى على محمد و على آل محمد كما صلّيت على إبراهيم و على آل إبراهيم إنک حميد مجيد، اللهم بارک على محمد و على آل محمد كما باركت على إبراهيم و على آل إبراهيم إنک حميد مجيد. و عن ابن عباس-أخرجه الترمذى-قال: قال رسول اللّه: أحبوا اللّه لما يغذوكم به و أحبونى لحب اللّه و أحبوا أهل بيتى بحبى. و عنه أيضا قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم: لو أن رجلا صفّ بين الركن و المقام، فصلى و صام، ثم لقى اللّه مبغضا لأهل بيت محمد دخل النار (1). و عن أبى سعيد الخدرى قال قال صلّى اللّه عليه و آله و سلم: من أبغضنا أهل البيت فهو منافق. و عن أبى سعيد أيضا قال: قال صلّى اللّه عليه و آله و سلم: و الذى نفسى بيده لا يبغضنا أهل البيت رجل إلا أدخله اللّه النار (2). و أخرج الطبرانى فى الأوسط عن عمار بن ياسر قال: وقف على علىّ سائل و هو راكع فى تطوع فأعطاه خاتمه فنزلت إِنَّما وَلِيُّكُمُ اَللّهُ وَ رَسُولُهُ وَ اَلَّذِينَ آمَنُوا الآية [المائدة: 55]. و أخرج السيوطى عن ابن عباس أنها نزلت فى على، و أخرج ابن مردويه من وجه آخر عن ابن عباس مثله، و أخرج أيضا عن على عليه السّلام، و أخرج ابن جرير مثله، و لهذا شواهد كثيرة لا يمكن إنكارها. و سيأتى مزيد بيان حول هذه الآية و غيرها فى الأجزاء الآتية. و على كل حال فالأخذ عن أهل البيت بموجب هذه النصوص و غيرها التى لا يسعنا حصرها لازم شرعا، و الرجوع لغيرهم لا- يحصل معه صحة العمل. و نحن مع احترامنا للمذاهب الأربعة، لا نستطيع أن نتخطى أوامر الرسول فى اتباع آله و وجوب الأخذ عنهم، و لنا بحديث الثقلين و حديث الغدير و آية التطهير، و آية الموالاة كفاية لبراءة الذمة و صحة العمل بمذهبهم عليهم السّلام، و لو سمحت لنا الأدلة بمخالفة الأئمة من أهل البيت، أو تهيأ لنا إيثار غيرهم عليهم أو تمكنا من تحصيل نية القربة فى مقام العمل على مذهب غيرهم لاتبعناه، على أنه لا دليل للجمهور فى

1- 1) انظر ذخائر العقبى لمحب الدين الطبرى.

2- 2) إحياء الميت للسيوطى.

رجحان شیء من مذاهبهم فضلا عن وجوبها، و کیف لا و أئمة المذاهب أنفسهم قد أخذوا عن أهل البیت، و جعلوا ذلک فخرا لهم و سببا لنجاحهم، فهذا الإمام أبو حنیفة کان یأخذ بأقوال علی علیه السّلام حتی جعلوا ذلک من مرجحات مذهبه علی غیره من المذاهب لقول النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم: «أنا مدینة العلم و علی بابها» (1)ذکر ذلک المقدسی فی أحسن التقاسیم. و کان أبو حنیفة یفتخر بالأخذ عن الصادق علیه السّلام و یقول: «لو لا السنتان لهلک النعمان» . و نری مالک بن أنس و هو أحد تلامیذ الصادق، و عنه أخذ الشافعی و أخذ أحمد بن حنبل عنه، و کان الشافعی لا یروی إلا عن علی علیه السّلام و لذلک اتهموه بالتشیع فافتخر بذلک قائلا: أنا الشیعی فی دینی و أصلی بمکة ثم داری عسقلیة

بأطیب مولد و أعز فخر و أحسن مذهب یسمو البریة

(2)و رماه یحیی بن معین بالرفض و قال: طالعت کتابه فی السیر فوجدته لم یذکر إلا علی بن أبی طالب و قد أظهر الشافعی ذلک فی قوله:
یا راکبا قف بالمحصب من منی و اهتف بقاعد خیفها و الناهض

سحرا إذا فاض الحجیج إلی منی فیضا کملتطم الفرات الفائض

إن کان رفضا حب آل محمد فلیشهد الثقلان أنی رافضی

و کذلک الإمام أحمد کان یفضل علیا علی الصحابة، و سئل یوما عن أفضل أصحاب رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فقال: أبو بکر ثم عمر ثم عثمان، قیل فعلی؟ قال: سألتمونی عن أصحابه و علی نفس محمد. إلی غیر ذلک مما یطول ذکره، علی أنا نجد أهل المذاهب متفرقین کل یذهب إلی رجحان مذهبه و بطلان غیره، و یقیم کل فریق أدلة للغلبة و الظهور علی الآخر، و لسنا بصدد البحث عن ذلک، و لکن الغرض ان أخذ الشیعة عن أهل البیت إنما هو لدلالة الکتاب و السنة، و یرون ضرورة الأخذ بأصول الدین و فروعه عنهم، فهم سفن

1- 1) لهذا الحدیث طرق کثیرة یتجاوز عددها المائة.
2- 2) مناقب الشافعی للفخر الرازی ص 51.

النجاة و أمان الأمة، و باب حطة من دخله كان من الآمنين، و العروة الوثقى التى لا انفصام لها، و أحد الثقلين لا يضل من تمسک بهما و لا يهتدى من ضل عن أحدهما. و قد أشرنا للأسباب التى دعت لمقاومة مذهبهم من قبل ذوى النفوذ و السلطة بأوهام حاولوا تركيزها بدون إقامة دليل شرعى، و لا برهان عقلى. و قد سرت تلک الأمور المرتجلة يتلقفها السذج فما عن فم، و يتوارثونها جيلا عن جيل كقضية مسلمة، و الحق أنها شبه و أوهام تناقلتها الألسن، و ساعدتها الظروف و الأحوال فصعب هجرها. و مع هذا كله فإن تلک المحاولات لم يكتب لها النجاح فقد انتشر المذهب بصورة واسعة النطاق متجاوزا أوامر الحكام و متخطيا حدود قوتهم إذ لم تنفع قسوتهم فى دفع الناس عن آل محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و لم تثمر سياساتهم الجائرة فى تحويل الأمة عن الأصول الكبرى و المنابع الأولى. و هنا أمر آخر لا بد من توضيحه: هو ان تلک المعارضات التى أجهد الساسة أنفسهم فى تركيزها، و آزرهم على ذلک مرتزقة باعوا ضمائرهم بأبخس الثمن، إنما كانت بعيدة كل البعد عن الواقع، و لا تجد من أولئک المتشدقين بذم الشيعة و الحط من كرامة أهل البيت من أقام دليلا منطقيا يستطيع أن يغطى به باطله و يستر به أكاذيبه، و إنما هم يتحمسون للظلم و يهرجون لدعاته، و الحقيقة بعيدة عنهم، و الدين يتبرأ مما قالوه. و نسبوا إلى الشيعة أمورا كثيرة، لا يسعنا عرضها الآن، حتى أنهم نسبوا إليهم القول بألوهية الأئمة، و هذا نهاية الحمق و غاية الجنون، و إن الاعتدال فى القول خير من التهور، و من اعتدل فكره اعتدل قوله. من أين أخذوا ذلک عن الشيعة و بأى دليل يثبتونه؟ نعم حملهم بغض الشيعة و التحامل على أهل البيت على إضافة طوائف الغلاة إلى الشيعة المخلصين و حاولوا ربط عقائدهم بعقائد الشيعة، مع الفرق البين و عدم إمكان ذلک إلا أن يظلموا الحقيقة، بتجرئهم على أهل البيت بنسبة الغلاة إلى أتباعهم، و هنا يلزمنا التعرض لذكر موقف الأئمة من التبرؤ من هذه النسبة و معاملة الشيعة لتلک الفرق.

موقف أهل البيت من الغلاة

إن أعظم شيء على الشيعة هو حمل فرق الغلاة عليهم و إضافتها إليهم؛ و لقد كان الحكام و زبانيتهم وراء نشاط تلك الفرق الضالة و مؤازرتهم بالسياسة، و سهلت لهم الطرق ليصلوا إلى غايات فى نفوسهم من الوقيعة فى الشيعة، و الحط من كرامة أهل البيت، إذ كانوا لا يستطيعون أن ينالوا من عقائدهم أو ينتقصوهم بشيء، و الأمر واضح كل الوضوح؛ فإن مذهب أهل البيت لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه، و تعاليمهم هى المحور الذى يدور عليها نظام الإسلام فكان دخول الغلاة فى صفوف الشيعة عبارة عن حركة سياسية أوجدتها عوامل من جهة، و الفتك بالإسلام من جهة أخرى، لأن دخول الغلاة فى الإسلام كان انتصارا لمبادئهم، إذ لم يجدوا طريقا للانتقام من الإسلام إلا باختراع المغالات فى بعض العقائد الإسلامية عند ما عجزوا عن مقابلته بالقوة وجها لوجه، و انهزموا أمام قوم وطئوا أرضهم بأقدام لا تتأخر خطوة إلى الوراء إما الموت أو الفتح، فأذلوا عزيزهم، و أسروا ذراريهم، و أخذوا منهم الجزية عن يد و هم صاغرون. و قد عالج أهل البيت هذه المشكلة الخطرة، و عرفوا الدوافع التى دعت هؤلاء الكفرة إلى الالتحاق بصفوف الشيعة، و اتضح لهم غايات خصومهم الذين يريدون أن يوقعوا بهم، فكان أهل البيت عليهم السلام يعلنون للملإ البراءة من الغلاة و جاهروا بلعنهم، و أمروا شيعتهم بالتبرؤ منهم و الابتعاد عنهم، و تلقى الشيعة تلك الأوامر الشريفة بالقبول و الامتثال، فاعلنوا البراءة و ملأوا كتبهم من التبرى منهم، و أفتوا بحرمة مخالطتهم، و أجمعوا على نجاستهم و عدم جواز غسل و دفن موتاهم و تحريم إعطائهم الزكاة، و لم يجوزوا للغالى أن يتزوج المسلمة، و لا المسلم أن يتزوج الغالية، و لم يورثوهم من المسلمين و هم لا يرثون منهم. و كان الإمام الصادق عليه السّلام يلعن المغيرة بن سعيد و يصرح بكذبه و كفره، و لعن أبا الخطاب و أصحابه و جميع الدعاة إلى المبادئ الفاسدة، و كان هذا الإعلان من الإمام الصادق عليه السّلام قد أوقف سريان دائها القاتل، و لم يبق من تلك الفرق إلا الاسم فى التاريخ و بادت بمدة قصيرة.

و قال علیه السّلام لمرازم: قل للغالیة توبوا إلی اللّه فإنکم فساق کفار مشرکون، و قال علیه السّلام له: إذا قدمت الکوفة فأت بشار الشعیری و قل له یقول لک جعفر بن محمد: یا کافر یا فاسق أنا بریء منک. قال مرازم: فلما قدمت الکوفة قلت له یقول لک جعفر بن محمد: یا کافر یا فاسق یا مشرک أنا بریء منک، قال بشار: و قد ذکرنی سیدی. قلت: نعم ذکرک بهذا، قال: جزاک اللّه خیرا. و لما دخل بشار الشعیری علی أبی عبد اللّه الصادق علیه السّلام قال له: أخرج عنی لعنک اللّه، و اللّه لا یظلنی و إیاک سقف أبدا، فلما خرج قال علیه السّلام: و یله ما صغر اللّه أحدا تصغیر هذا الفاجر، إنه شیطان ابن شیطان خرج لیغوی أصحابی و شیعتی فاحذروه، و لیبلغ الشاهد الغائب أنی عبد اللّه و ابن أمته ضمتنی الأصلاب و الأرحام، و إنی لمیت و مبعوث ثم مسئول. و کتب الإمام الحسن العسکری علیه السّلام ابتداء منه إلی أحد موالیه: إنی أبرأ إلی اللّه من ابن نصیر الفهری و ابن بابه القمی فابرأ منهما، و إنی محذرک و جمیع موالی، و مخبرک أنی ألعنهما علیهما لعنة اللّه، یزعم ابن بابا أنی بعثته نبیا و أنه باب، ویله لعنه اللّه سخر منه الشیطان فأغواه فلعن اللّه من قبل منه، یا محمد إن قدرت أن تشدخ رأسه فافعل. و قال أبو عبد اللّه الصادق علیه السّلام یوما لأصحابه: لعن اللّه المغیرة بن سعید لعن اللّه یهودیة کان یختلف إلیها یتعلم منها الشعر و الشعبذة و المخاریق، إن المغیرة کذب علی أبی، و إن قوما کذبوا علی ما لهم! أذاقهم اللّه حر الحدید، فو اللّه ما نحن إلا عبید خلقنا اللّه و اصطفانا ما نقدر علی ضر و لا نفع إلا بقدرته، إن رحمنا فبرحمته، و إن عذبنا فبذنوبنا، و لعن اللّه من قال فینا ما لا نقول فی أنفسنا، و لعن اللّه من أزالنا عن العبودیة للّه الذی خلقنا و إلیه مآبنا و معادنا و بیده نواصینا. و قال علیه السّلام: إن أبا منصور کان رسول إبلیس: لعن اللّه أبا منصور، قالها ثلاثا. و قال علیه السّلام: إنا أهل بیت صادقون لا نعدم من کذاب یکذب علینا عند الناس یرید أن یسقط صدقنا بکذبه علینا، ثم ذکر المغیرة و بزیغ و السری و أبا الخطاب، و معمر و بشار الشعیری و حمزة الیزدی و صائد النهدی، فقال: لعنهم اللّه أجمع و کفانا مئونة کل کذاب.

و عن حمدويه قال: كنت جالسا عند أبى عبد اللّه و ميسرة عنده فقال له ميسرة: جعلت فداك عجبت لقوم كانوا يأتون إلى هذا الموضع فانقطعت أخبارهم و آثارهم و فنيت آجالهم. قال عليه السّلام: و من هم؟ قلت: أبو الخطاب و أصحابه، فقال عليه السّلام-و كان متكئا و رفع بنظره إلى السماء-: على أبى الخطاب لعنة اللّه و الملائكة و الناس أجمعين، فأشهد باللّه أنه كافر فاسق مشرك، و أنه يحشر مع فرعون فى أشد العذاب. و ذكر عنده أصحاب أبى الخطاب و الغلاة فقال عليه السّلام: لا- تقاعدوهم، و لا- تواكلوهم، و لا تشاربوهم، و لا تصافحوهم و لا توارثوهم (1). و قال عليه السلام: إن من الغلاة من يكذب حتى ان الشيطان يحتاج إلى كذبه. و قال عليه السلام: إن قوما يزعمون أنى لهم إمام، و اللّه ما أنا لهم بإمام ما لهم لعنهم اللّه! أقول كذا و يقولون كذا، إنما أنا إمام من أطاعنى، و من قال بأننا أنبياء فعليه لعنة اللّه، و من شك فى ذلك فعليه لعنة اللّه (2). هذا بعض ما ورد فى الغلاة الذين حاول خصوم آل محمد إلحاقهم بالشيعة لغاية الحط من كرامة المبدأ، و ليظهروهم للملإ بأبشع المظاهر و أشنعها، و يعلنوا للعالم أن الشيعة يعتقدون فى الأئمة الألوهية، فلا يصلح عدهم من المسلمين فتراق بذلك دماؤهم و تنهب أموالهم، و كم حدثنا التاريخ عن تلك الفظائع السود؛ و من أراد أن يعرف موقف الشيعة من طوائف الغلاة فليرجع إلى كتاب «روض الجنان» للشهيد الثانى المتوفى سنة 996 ه-، و «نهج المقال» للميرزا محمد الأسترآبادى المتوفى سنة 1026 ه-و «الانتصار» للسيد المرتضى المتوفى سنة 436 ه-، و «التهذيب» للشيخ الطوسى المتوفى سنة 460 ه-، و «السرائر» لابن إدريس المتوفى سنة 598 ه- و «المنتهى» و «نهاية الأحكام» و «التذكرة» و «القواعد» و «التبصرة» للعلامة الحلى المتوفى سنة 726 ه-، و «البحار» للشيخ المجلسى المتوفى سنة 1011 ه-،

1- 1) رجال الكشى ص 190. [1]

2- 2) الشيعة فى التاريخ لمحمد حسين الزين ص 178 [2] نقلا عن منهج المقال.

و «الدروس» للشهيد الأول المتوفى سنة 786 ه-، و «جامع المقاصد» للشيخ على الكركى المتوفى سنة 940 ه-و «الشرائع» و «المعتبر» و «المختصر النافع» للمحقق أبى القاسم الحلى المتوفى سنة 676 ه-و «الجواهر» للشيخ محمد حسن المتوفى سنة 1266 ه-. و غيرها من الكتب الفقهيـة التى تنص بإجماع على كفر الغلاة و نجاسـتهم و بعـدهم عن الدين و أن لا رابطة بينهم و بين الشـيعة. كما أن كتب الرجال طافحة بذمهم و التبرؤ منهم و من معتقداتهم، و يلعنونهم بلغة واحدة. فأملنا بأبناء المسـتقبل أن لا يركنوا إلى الأوهام و الأباطيل و أن يطلبوا الحقيقـة، فالعلم يطلب منهم أداء رسالته، و الحق يدعوهم إلى مؤازرته، فقد آن أن تماط عن العيون غشاوات التعصب التى منعتها من رؤية الحق و أبرزت الواقع معكوسا إذ هى كعدسة المصور فليعتدل الكتّاب عن هذه السيرة الملتوية، و ليغيروا خططهم و لغتهم فى ذكر الشيعة، و لا يلتفتوا لأوضاع تلك العصور المظلمة التى جنت على الإسلام جناية لا تغفر، و ملأوا القلوب بالأحقاد و الضغائن، و نسبوا مبدأ التشيع إلى عبد اللّه بن سبأ اليهودى، و طعنوا بذلک على أصحاب محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الذين عرفوا بتشيعهم لعلى، و يتجاوز عددهم المئات و غيرهم ممن تكتم جريا مع الظروف و متابعـة الأحوال، على أن كلمات اللغويين و المفسـرين قد أجمعت على أن معنى الشـيعة هى الموالاة لعلى إذ أصبح علما فى ذلک.

عبد اللّه بن سبأ:

أما عبـد اللّه بن سـبأ، ذلک الشـخص الوهمى الـذى وصـفوه بصـفات البطولـة و الإقـدام، و جعلوه صاحب السـلطة المطلقة فى المجتمع الإسـلامى، و قـالوا عنه انه اسـتطاع أن يسـيطر على أهل مصـر و يقود منهم جيشا لقتل الخليفـة عثمان، و ان أبا ذر تعلم منه، و عمارا أخذ بـآرائه، و حرب الجمـل من دسـائسه، و وقعـة صـفين من تصـلبه، و مبادئ التشـيع من تفكيره. . . و قـد ورد ذكره فى كثير من الكتب حتى أصـبحت قصـته و كأنها حقيقـة ملموسـة و قضـية واقعية و هؤلاء لم يلتفتوا إلى أن الإساءة المتحققة من وراء هذه الأكذوبة لا تقتصـر على الشيعة و الطعن فى أصولها و إنما تشمل صميم حركة الإسلام و رجالاته حيث جعلوا لهذا اليهودى قدرات سحرية تمكنه من قيادة جموع

المسلمين كيف شاء و توجيه رجالات الدين كيف أراد يتلاعب بسلوكها و أفكارها بشكل لا يليق إلا بمن اتخذوا أحبارهم و رهبانهم أربابا. و الـذى يلفت النظر هو أن بعض الشـيعة ترجموا له، و ذكروه للتبرؤ منه، و أخف عبـارة يقولونهـا فى ترجمته: عبـد اللّه بن سـبأ ألعن من أن يـذكر. و إذا أردنا أن نرجع لواقع هذه الشخصـية، و ما لها من صـلة فى الواقع و ذلک على ضوء البحث الدقيق، فإن النتائج العلمية تثبت لنا عدم ثبوت هذه الشخصية، و أنها أسطورة و حديثها حديث خرافة، و هى من مبتكرات التعصب الطائفى، و دسائس السياسة، للحط من قيمة مذهب أهل البيت، و الوقيعة فى شيعتهم. و لو أن هؤلاء الذين ذكروا عبد اللّه بن سبأ بتلک الصورة المدهشة، لينالوا من مقام الشيعة، وقفوا قليلا أمام مصادر هذه الأسـطورة، و منحوا لها بعض الوقت من التأمل، لا نكشف لهم الواقع و ظهر أن المصدر الوحيد هو الطبرى المتوفى سنة 310 ه-و لـم يسـبقه أحد فى ذكرها، و الكل رواها عنه و هو يرويها عن سـيف بن عمر بسلسلة مظلمة مجهولة، و سيف قد أجمع علماء الرجال على أنه كذاب، و سـيأتى الحديث عن قصة ابن سـبأ فى الجزء السادس من هذا الكتاب. و لنصغ الآن إلى حديث الأستاذ كرد على حول مذهب التشـيع و علقة ابن سبأ به. يقول الأستاذ كرد على فى خطط الشام: عرف جماعة من كبار الصحابة بموالاة على فى عصر رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم مثـل سـلمان الفارسـى القائل: بايعنا رسول اللّه على النصـح للمسـلمين و الائتمام لعلى بن أبى طالب و الموالاة له. و مثل أبى سعيد الخدرى الذى يقول: أمر الناس بخمس فعلوا بأربع و تركوا واحدة و لما سئل عن الأربع، قال: الصلاة و الزكاة و صوم شـهر رمضـان و الحـج، قيل فما الواحـدة التى تركوها؟ قال: ولايـة على بن أبى طالب. قيل له: و إنها لمفروضـة معهن، قال: نعم هى مفروضـة معهن. و مثل أبى ذر الغفارى، و عمار بن ياسـر، و حذيفة بن اليمان، و ذى الشـهادتين خزيمة بن ثابت، و أبى أيوب الأنصارى، و خالد بن سعيد بن العاص، و قيس بن سعد بن عبادة.

و أمـا ما ذهب إليه بعض الكتّاب من أن مـذهب التشـيع من ابتـداع عبـد اللّه بن سـبأ المعروف بابن السوداء فهو وهم و قلـة معرفـة بحقيقة مـذهبهم، و من علم منزلـة هذا الرجل عند الشـيعة، و براءتهم منه و من أقواله و أعماله، و كلام علمائهم فى الطعن فيه بلا خلاف بينهم فيه، علم مبلغ هـذا القول من الصواب، و لا ـ ريب فى أن أول ظهور الشـيعة كان فى الحجاز بلـد المتشـيع له. انتهى (1). و يقول الإمام الشـيخ محمد الحسـين كاشف الغطاء رحمه اللّه حول الغلاة و نسـبتهم للشيعة: أما الشيعة الإمامية فيبرءون من تلك الفرق براءة التحريم، على أن تلك الفرق لا تقول بمقالـة النصارى بل خلاصـة مقالتهم بل ضـلالتهم: أن الإمام هو اللّه سـبحانه ظهورا و اتحادا أو نحو ذلك مما يقول به كثير من متصوفـة الإسـلام و مشاهير مشايـخ الطرق، و قد ينقل عن الحلاج و الكيلانى، و الرفاعى، و البدوى و أمثالهم من الكلمات -و إن شئت فسـمها كما يقولون شـطحات-ما يـدل بظاهره على أن لهم منزلة فوق الربوبية، و أن لهم مقاما زائدا عن الألوهية (لو كان ثمة موضـع لمزيـد) و قريب من ذلـك مـا يقول به أربـاب وحـدة الوجود أو الموجود. أمـا الشـيعة الإماميـة و أعنى به جمهرة العراق و إيران، و ملاـيين المسـلمين فى الهنـد و مئـات الألـوف فى سوريـا و الأفغـان فإن جميع تلك الطائفـة من حيث كونها شـيعة يبرؤون من تلك المقالات، و يعدونها من أبشع الكفر و الضـلالات و ليس دينهم إلا التوحيد المحض و تنزيه الخالق عن كل مشابهة للمخلوق، أو ملابسة لهم فى صـفة من صـفات النقص و الإمكـان و التغيير و الحـدوث، و مـا ينـافى وجوب الوجود و القـدم و الأزليـة، إلى غير ذلـك من التنزيه و التقـديس المشحونة به مؤلفاتهم فى الحكمة و الكلام من مختصرة أو مطولة.

1- 1) خطط الشام ج 6 ص 251-256. [1]

و على أی حـال فـإن الشـیعة براء ممـا نسب إلیها من الغلو، و أما أهل المقالات فی الغلو کالبیانیـة و المنصوریـة و غیرهم فإن نسـبتهم إلی الشـیعة ظلم-و ما أکثر الظلم للشـیعة-و تهجم علی أمـة تدین للّه بالوحدانیة، و لمحمد بالرسالة، و لآله بالمودة. و أسـتطیع الجزم بأن هذه الأمور لم تخف علی أولئک القوم الـذین أصـبحوا یتهجمون علی الشـیعة بالطعن فی عقائدهم، إذ نسـبوا إلیهم هذه المقالات الفاسدة التی یقول بها الغلاة. نعم إنهم یعرفون الأمر و لکن الحق مر لا یمکن أن تتقبله أذواقهم، و لقـد أعجزهم الأمر عن مؤاخـذة الشـیعة و الطعن فی عقائـدهم، عند ما وجدوا طرق المؤاخذات أمامهم مغلقة فلا یسـتطیعون منها النفوذ إلی مقاصدهم، فالتجئوا إلی هذه الخرافات و الأباطیل التی لا تثبت أمام التدقیق و التحقیق. کیف یسـتطیعون مؤاخذة الشـیعة و منهم صحابة الرسول و التابعین لهم بإحسان: کأبی ذر الغفاری، و عمار بن یاسـر، و جاریة بن قدامة، و جابر بن عبد اللّه الأنصاری، و حذیفة بن الیمان، و سلمان الفارسی، و صعصعة بن صوحان، و المقداد الکندی و غیرهم؟ ! ! و من الغریب أن أکثر الکتّاب قد نسـبوا لأصـحاب محمد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم تأثرهم بآراء ابن سبأ، و أی طعن علی الإسلام و علی رسوله صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أعظم من هذا بأن یسیطر یهودی علی عقول أصحاب النبی و من تأدبوا بآدابه؛ و إلیک ما کتبه بعض کتّاب العصـر الحاضـر عند ذکره لعبد اللّه بن سـبأ و نسـبة ظهور التشیع إلیه، إذ یقول: إن هذا الشیطان هو عبد اللّه بن سبأ من یهود صـنعاء، و کان یبث دعوته بخبث و تـدرج و دهاء، و اسـتکثر أتباعه بآخرین من البلهاء الصالحین المتشددین فی الدین المتنطعین فی العبادة إلی أن یقول: و عنی بالتأثیر فی أبناء الزعماء من قادة القبائل و أعیان المدن الذین اشترک آباؤهم فی الجهاد و الفتح، فاستجاب له من بلهاء الصالحین و أهل الغلو من المتنطعین جماعات کان علی رأسـهم فی الفسـطاط الفاقعی بن حرب العتکی، و عبـد الرحمن بن عدیس البلـوی، و کنانـة بن بشـر بن عتـاب، و عبـد اللّه بن زیـد بن ورقـاء الخزاعی، و عمرو بن الحمق الخزاعی، و عروة بن النبـاع اللیـثی، و قـتیر السـکونی. و کان علی رأس من اسـتغواهم ابن سـبأ فی الکوفـة عمرو بن الأصم، و زید بن صوحان العبدی، و الأشتر بن مالک بن الحارث النخعی، و زیاد بن النضر الحارثی، و عبد اللّه بن الأصم.

و من البصـرة حرقوص بن زهير السـعدى، و حكيم بن جبلة العبدى، و ذريح بن عباد العبدى، و بشـر بن شريح الحطم بن ضبيعة القيسى، و ابن المحرش. أما المدينـة فلم ينـدفع فى هـذا الأمر من أهلها إلا ثلاثـة نفر. محمد بن أبى بكر، و محمد بن حذيفة، و عمار بن ياسـر (1). هكذا يقول، و نبرأ إلى اللّه مما يقول، ليت شعرى أى جرأة أعظم من هذه الجرأة على أصحاب محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و وصفهم بهذه الصفة بأنهم مخدوعون بدعوة ذلک الشيطان، و استجابوا لما جاء به هذا اليهودى المزعوم، و هم خريجو مدرسة محمد صلّى اللّه عليه و آله و سـلّم و دعاة الحق و أتباعه، و لكن الشـيطان خـدع هـذا الكاتب فجاء بهذا الافتراء و هو (يجادل بغير علم و يتبع كل شـيطان مريد. كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلاّهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَ يَهْدِيهِ إِلى عَذابِ اَلسَّعِيرِ [الحج:4]. و نحن نأمل من كتّابنا الـذين يكتبون لـذات الحق و لا يميل بهم الهوى، و لا تستولى عليهم النزعات الطائفية، أن يوجهوا عنايتهم لإظهار الحقيقة عند دراستهم لقضية ابن سبأ بأن يدرسوها دراسة مؤرخ لا يتحيز و لاـ يتعصب، و لا يقصـد إلا خدمـة العلم و إظهار الحق، و يقف موقف المـدقق على مصادرها و رواتها و الظروف التى أوجـدتها، ليتضـح له الأمر، و يتميز الحق من الباطل. و أعود فأقول مؤكـدا: إن قضـية ابن سـبأ أسـطورة خرافيـة أوجدتها عدّة عوامل للحط من تعاليم الإسـلام و النيـل من رجاله، بأنهم قـد تأثروا بآراء رجل يهودى فأوردهم موارد الهلكـة، من دون تميز و تفكير، إلى غير ذلک مما يؤدى إليه إيجاد هـذه الخرافـة من مناقضات. هذا مع أن سـندها باطل، و راويها و هو سـيف بن عمرو كذاب، و سـيأتى التحقيق حول ذلک فى الجزء السادس من هذا الكتاب.

1- 1) حملة رسالة الإسلام لمحب الدين الخطيب ص 23.

انتشار المذهب الجعفرى

انتشاره فى الأقطار الإسلامية:

و خلاصة القول أن المذهب الجعفرى انتشر بقوته و مقوماته من دون استناد إلى سلطة أو عوامل الترغيب فى اعتناقه، و أن أول ظهور الشيعة كان فى بلد الحجاز، و هو أول أرض بذرت فيه بذرة التشيع. و فى المدينة المنورة فى القرن الرابع انتشر بصورة ظاهرة، و قد عظم ذلک على من يسوؤهم انتشار مذهب أهل البيت كابن حزم فقد وصف المدينة المنورة بما لا يليق بها لوجود الشيعة فيها (1). كما انتشر التشيع فى الشام و كان أبو ذر الغفارى هو الذى نشر المذهب هناک، و لا يزال فى قرية الصرفند بين صيدا و صور مقام معروف باسم أبى ذر اتخذ مسجدا معمورا. و هم اليوم عدد كثير اشتركوا فى إدارة البلاد و شغلوا مناصب مهمة فى حكومة سوريا، و منهم التجار و الأطباء، و لهم مركز مهم هناک، و تقام عندهم مآتم عزاء الحسين عليه السّلام علنا فى عاصمة الأمويين، و يحضرها كثير من أهل السنة، و الخطيب يفصح بمخازى معاوية و يزيد و بنى أمية مستنبطا ذلک من التاريخ الصحيح. و يقول ابن جبير فى رحلته فى وصف المذاهب المتغلبة على الشام فى القرن السادس: إن الشيعة أكثر من السنيين و قد عموا البلاد بمذهبهم. و يقول كرد على: و فى دمشق يرجع عهدهم (أى الشيعة) إلى القرن الأول للهجرة، و فى أكناف حوران و هم مهاجرة جبل عامل، و فى شمال لبنان و المتن و البترون و هم مهاجرة بعلبک، و لا يقل عدد الشيعة فى الشام من الإمامية عن مائتى ألف نسمة (2). أما جبل عامل و هو البلد الواقع بين صفد جنوبا و نهر الأولى شمالا، و غور الحولة و ما والاها إلى أرض البقاع شرقا، و البحر المتوسط غربا فقد كان بدء التشيع فى جبل عامل بفضل الجهود التى بذلها المجاهد فى اللّه أبو ذر الغفارى رضى اللّه عنه

1- 1) النبذ فى أصول الفقه الظاهرى لابن حزم.

2- 2) خطط الشام لكرد على ج 6 ص 252. [1]

و انتشر بسبب دعوته، و كانت حركة العلم واسعة حتى اليوم، فالتشيع فى لبنان منتشر بكثرة و يسير بكل نظام و هدوء، محفوظ الحقوق، مرعى الجانب، و لهم فى جامعة النجف الأشرف جماعة، و تخرج منها عدد كثير من أبطال العلم، و حملة دعوة الإصلاح، و منهم المجتهدون المجاهدون فى نصرة الدين و جمع كلمة المسلمين. و يقول الأستاذ كرد على أيضا: إن فى حمص قرى للشيعة خاصة، و فى نفس المدينة جماعات ظاهرة و مستترة، و فى أعمال ادلب قرى الغوغة و نبل و غيرهما، و كلها شيعة و فيهما إلى اليوم السادة بنو زهرة نقباء الأشراف فى مدينة حلب، و كل هؤلاء من بقايا زمن الحمدانيين و من فلول شيعة حلب يوم تشتت شملهم. يشير بذلك إلى الكارثة التى أصابت الشيعة عند ما أفتى الشيخ نوح الحنفى بكفر الشيعة و استباحة دمائهم تابوا أو لم يتوبوا، فقتل بسبب هذه الفتوى أربعون ألفا من الشيعة، و انتهبت أموالهم و أخرج الباقون إلى القرى. و غلب مذهب التشيع فى حلب بصورة ظاهرة و لهم قوة استطاعوا أن يمنعوا سليمان بن عبد الجبار صاحب حلب عن بناء المدرسة الزجاجية و ذلك فى سنة 517 ه-. و سرى التشيع فى إفريقيا بانتشار عظيم، إلى أن قاومته السلطة، يوم كان أمير إفريقيا المعز بن باديس، فإنه فتك بالشيعة فتكا ذريعا و ذلك فى عام 407 ه-فقد أوقع بهم وقيعة عظيمة، و نسبوا ذلك إلى سب الشيخين و هى المادة التى يطبقها الولاة على من يريدون الفتك به من أى الفرق كان. و ذلك أن المعز بن باديس مر على جماعة من الشيعة فى القيروان و قد سأل عنهم، فلما أحس الناس من المعز الميل عنهم انصرفت العامة من فورها إلى مجتمعات الشيعة، فقتلوا منهم خلقا كثيرا، و توجه العسكر للنهب، و شجعهم عامل القيروان فقتل منهم خلق كثير، و أحرقوا بالنار، و نهبت دورهم، و تتبعوهم فى جميع إفريقيا، و اجتمع جماعة منهم إلى قصر المنصور قرب القيروان فتحصنوا به، فحصرهم العامة و ضيقوا عليهم، فاشتد عليهم الجوع فأقبلوا يخرجون و الناس يقتلونهم حتى قتلوا عن آخرهم، و لجأ منهم بالمدينة إلى الجامع فقتلوا كلهم (1). و هذه إحدى النكبات الفظيعة التى لاقاها التشيع و ما أكثرها، و مع ذلك فإن

1- 1) الكامل لابن الأثير ج 9 ص 123 [1] ط 1.

التشـيع اليوم منتشر فى إفريقيا الوسطى و الجنوبية زهاء عشرة ملايين نسمة. و فى أندونيسيا عدد كثير من الشيعة يقدر بثمانية ملايين نسمة، و للعلويين هناک اليد الطولى فى نشر المذهب، و كان منهم العلامة السيد محمد السيد عقيل صاحب المؤلفات القيمة «كالنصائح الكافية» و «العتب الجميل» و «تقوية الإيمان» و «القول الفصل» . و كان يقيم فى سنغافورة، و كانت لهم أندية أدبية تربط أواصر بعضهم مع بعض. أما فى مصـر فقد انتشـر التشيع عند انتشار الإسلام هناک بواسطة أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الذين شهدوا فتح مصر، و هم المقـداد بن الأسود الكندى و أبو ذر الغفارى، و أبو رافع، و أبو أيوب الأنصارى، فهؤلاء هم دعاة التشـيع و أنصاره. و لما دخلها عمار بن ياسـر أيام عثمان دعا إلى التشيع و نمت روحه حتى أصبحت البلاد كلها إلى جانب على و أجمعوا على مقاومة عثمان. ثم دخلها بعد ذلک قيس بن سـعد واليا فركز دعائم التشـيع هناک، و خفق لواؤه و كثرت جنوده، لكن بدخول عمرو بن العاص تأخر سير تلک الحركة إلى أن زال ملـک الأـمويين، فأظهر المصـريون ما انطوت عليه قلوبهم من الولاء لعلى عليه السّلام، و لا زال التشـيع يظهر فى مصـر و يخفى حسـب العوامل التى تـدعو إلى خفائه و ظهوره، و هو اليوم منتشـر هناک و فيه فئات كثيرة. و فى الهنـد ظهر التشـيع هناک و انتشـر بسـبب الروابط المتصـلة بين العرب و الهنود، و قد اعتنق مذهب التشيع جماعة كبيرة من الوثنيين بمساعى المرشدين الذين دخلوا بلاد الهند من الشيعة، و منهم جماعـة كثيرة باقون إلى اليوم و لهم امارات فى جميع الأقطار الهنديـة، و لا يخلو بلد منهم، و هناک بلد تختص بهم و أخرى يكونون الأكثريـة بها و هى لكنهور و هى المركز الوحيـد للشـيعة فى الهنـد و عاصـمة مملكـة اودة الفانية و منبع علمائها قديما و تعد اليوم من أكبر البلاد العلميـة، و فيها مـدارس عربيـة أهمها الجامعـة السـلطانية، و منها مدرسـة الواعظين و هى تختص بالتبليغ، و المدرسة الناظمية و قد أسسها العلامة السيد أبو الحسن كما أسس الجامعة السلطانية، و فى لكنهور الشىء

الكثير من آثار الشيعة كالمساجد و الحسينيات. و من البلدان جانبور، بتن آباد، مظفرآباد، لاهور، بنجاب (1). و بعد استقلال الباكستان و انفصالها عن الهند لعب الشيعة دورا كبيرا فى بناء باكستان الحديثة و حافظوا على مواقعهم فى المجتمع الجديد و منهم العلماء و رجال الدين و كبار التجار و الأدباء و حملة الشهادات. و تنتشر فى عموم الباكستان المساجد و الحسينيات و أصبح وجودهم متميزا و فى انتشار و توسع. و قد أذنت للعلامة السيد حيدر جوادى كراروى بترجمة كتابنا «الإمام الصادق و المذاهب الأربعة» إلى اللغة الأردية لكثرة الطلبات و إقبال الشباب على قراءته و قامت بنشرة مكتبة تعمير أدب فى لاهور عام 1388 و أهدانا السيد أبرار حسين شيرازى نسخة عن مكتبة تعمير أدب نحتفظ بها الآن و قد بلغتنى أخبار تبهج النفس و تسر المؤمن لذلك الإقبال على مبادئ أهل البيت و التقيد بمنهجهم فى الحياة و الالتزام بأقوالهم و تعاليمهم و تزايد أعداد الشباب و ارتباطهم بالمجامع الشيعية و المراكز الدينية فى مختلف أنحاء الباكستان. أما فى تركيا فقد انشتر المذهب بصورة محسوسة و كثر اتباعه و لكن السلطان سليم المتوفى سنة 926 ه-قاوم الشيعة و قتل منهم مقتلة عظيمة. يقول إبراهيم الطبيب الأول للجيش التركى: و كان السلطان سليم شديد التعصب على أهل الشيعة، و لا سيما أنه كان فى تلك الأيام قد انتشرت بين رعاياه تعاليم شيعية تنافى مذهب أهل السنة، و كان قد تمسك بها جماعة من الأهالى، فأمر السلطان سليم بقتل كل من يدخل فى هذه الشيعة، فقتلوا نحو أربعين ألف رجل، و أخرج فتوى شيخ الإسلام بأنه يوجر على قتل الشيعة و إشهار الحرب ضدهم (2). و مع هذا فهم اليوم فى تركيا عدد كثير منتشرون فى أطراف البلاد. و فى السعودية فالقطيف و قراها شيعة خالصة. و أما الإحساء و قاعدتها هفوف فالشيعة فيها يشاطرون غيرهم، كما أن فى قطر يوجد كثير من الشيعة، و لا يزال من الإحساء و القطيف فى النجف الأشرف مهاجرون لتحصيل علم أهل البيت، و منهم

1- 1) تاريخ الشيعة ص 258. [1]

2- 2) مصباح السارى و نزهة القارى ص 123-124.

علماء مبرزون و أدباء لهم مكانتهم الأدبية و العلمية، و فى البحرين للتشيع مكانة، و لأهله قوة، و قد برز منه علماء خدموا الأمة الإسلامية، بمؤلفاتهم القيمة و آثارهم الجليلة، التى تعد فى الواقع من أعظم التراث الشيعى، و لهم فى النجف الأشرف الآن بعثات تتلقى العلوم الدينية، و منهم علماء مبرزون و أدباء مشهورون. و فى الأفغان انتشر التشيع من زمن بعيد، و يقدر عددهم اليوم بعشرة ملايين، و يوجد منهم فى النجف زهاء ثلاثة آلاف نسمة منهم من يدرس الفقه الجعفرى، و منهم من يلتمس الرزق، و قد برز منهم علماء لهم مكانتهم العلمية. و هاجر كثير من الشيعة إلى أميركا من السوريين و جبل عامل للتجارة و الزراعة من قبل نصف قرن، و ينوف عددهم اليوم على خمسين ألفا، و هم ذوو شأن و عزة هناك يقيمون شعائر الإسلام علنا، و قد بنوا مسجدا فخما فى الولايات المتحدة و فى أميركا من الشيعة قوم من الفرس و الهنود و قليل من العراقيين. كما دخل مذهب التشيع إلى الصين منذ القرن الرابع و لهم عدد كثير هناك حتى اليوم. و فى روسيا كان للشيعة فى البلاد الروسية حرية واسعة فى إقامة الشعائر الدينية كبلاد بخارى و القوقاس، و كانوا قبل الحرب العالمية عام 1332 ه-يتواردون بكثرة لزيارة المشاهد المقدسة، و يفدون مهاجرين لطلب العلم، و إلى اليوم منهم جماعة فى النجف حالت دون وصولهم لأوطانهم و دون الصلات اتصالهم ببلادهم هذه السلطة الحاضرة. أما العراق فقد انتشر فيه مذهب أهل البيت فى الصدر الأول، و قام بذلک أصحاب الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى الكوفة، و المدائن و البصرة، و عرفت الكوفة بأنها علوية النزعة و قام رجال الدعوة فى الدفاع عن أهل البيت، و تحملوا فى عهد معاوية ما تحملوا كما مر بيان ذلک. و فى المدائن كان سلمان الفارسى و حذيفة بن اليمان قد نشرا دعوة التشيع هناک، و كذلک البصرة و غيرها من مدن العراق من الشمال إلى الجنوب، و انتشر التشيع فيها بصورة ظاهرة، و العراق اليوم معروف بتشيعه لأهل البيت و ولائهم للعترة الطاهرة. و الشيعة هم الأكثرية فى العراق و قد قاوموا ظلم الأتراک بثورات سجلها

التاریخ بکل فخر لهم فی محاربة الاستبداد، و قاوموا الاستعمار الإنکلیزی، و أعلنوا ثورة العشرین التی شیدت صرح الاستقلال الوطنی. أما فی إیران، فقد کانت بلاد فارس مسرحا للجیوش الإسلامیة و کان اهتمام الحکام منصبا علی استدرار الأموال و تعیین العمال الذین ینفذون سیاسة النظام القائم و یلبون رغبات السلطان، و نزحت قبائل عربیة کثیرة و رغم عداء الأمویین و عملهم علی إبعاد العناصر المعروفة من الشیعة و إرسالهم مع الجیوش فإن الکثیر من القبائل عرف بالتشیع و لم تتخلّ عن هویتها. و کانت قم وحدها فی القرن الأول شیعیة، و کان سیر التشیع فی إیران ثقیل الخطا و هم شیعة بنی العباس، و فیهم من یذهب إلی تقدیس الأمویین و مناصرتهم، کما أن فی خراسان نواصب و غلاة فی معاویة یدعون نبوته، و لکن مذهب أهل البیت انتشر فی بلاد إیران بصورة تدریجیة علی ممر الأدوار، حتی أصبحت إیران الیوم کلها شیعة حکومة و شعبا، و قامت بخدمة المذهب و نشر مآثر أهل البیت و عمارة مراقدهم. أما عدد الشیعة فی الیمن فکثیر جدا حسبما بلغنا ممن زاروا بلادهم هناک، و قد انتشر التشیع فی بقاع الیمن منذ صدر الإسلام. و لکن المذاهب الزیدیة بمرور الزمن أخذ بعض علمائها یتأثرون بنزعات السلفیة و یخشون اتهامات الابتداع التی شهرت بوجه الشیعة منذ مئات السنین لتنفیر الناس منهم و إبعاد المسلمین عنهم و إخراجهم بمظهر الابتعاد عن الجماعة. و شاع اتجاه الأخذ ببعض مقولات المتخلفین و السلفیة من أهل التعصب و الجمود، و انتشرت بین الصفوف فی الیمن. و لکن مذهب أهل البیت له وجود فی الیمن-و کما علمت-فإن من مهمات رجال المذهب جلاء أصول الزیدیة و العودة إلی جوهر تعالیم الشهید زید بن الإمام زین العابدین، و رفض التباعد عن الشیعة المفروض لأغراض أخری تجهد فی رسم ملامح بعیدة عن الأصول الزیدیة، فالشهرستانی یفضل تأکید صفة الاعتزال علی حقیقة التشیع، فیدعی أنهم یعظمون أئمة الاعتزال أکثر من تعظیمهم أئمة أهل البیت علیه السّلام (1)مما یدحضه تراث علمائهم و مراجعهم و مصنفیهم الزاخر بعبقات الولاء لأهل البیت، و أشعارهم المشحونة بالإخلاص و صادق الحب، کنظم

1- 1) الملل و النحل ج 1 ص 84. [1]

العلاّمـة مصـنف الهداية اللؤلؤية و هو من رجالهم و مراجعهم فى القرن التاسع الهجرى: و إنى و حبى للنبى و آله و ما اشـتملت منى عليه ضلوع

و إن أفلت منهم شموس طوالع يكون لها بعد الأفول طلوع

و منها: أبا للّه لى غير التشيع مذهبا و من لا منى فيه فلست أطيع

بنى المصطفى لى أسرة و جماعة و مذهبهم لى روضة و ربيع

أصم إذا حدثت عن قول غيرهم و إن حدثونى عنهم فسميع

و باللّه إنى فى التشيع واحد و إن كثرت لدى جموع

(1)أما الشوكانى الـذى تعرض لعـدوى السـلفية و أصابته حمى التيميـة، فبعـد عن أصول الزيدية، و تمكن من الادعاء فراح يشـمل الزيدية بالتهم الباطلـة التى وجهت إلى الشـيعة الإماميـة و التى يبرأ منها كل مسـلم، فيقول فى رسالته (القول المفيـد فى أدلـة الاجتهاد و التقليد) واصفا أبناء بلده من الزيدية بالتشيع، و إن العوام (طبائعهم مجبولة على التشيع إلى حد يقصر عنه الوصف، حتى لو أن أحدهم سمع النقص بالجناب الإلهى و الجناب النبوى لم يغضب له عشـر معشار ما يغضـبه إذا سـمع التنقص بالجناب العلوى بمجرد الوهم و الاتهام الذى لا حقيقـة له) . . . اه-. و آخر عبارته مصـداق ما وقع فيه هو و ما شاب معتقـده. هـذه أهم الأصـقاع التى تنبسط فيها منابت الشـيعة و لهم فى جميع أصـقاع العالم جاليات منتشـرة. و سنتحدث عن بعض مآثر الشيعة و تراثهم القيم و خدماتهم الإسلامية، و مواقفهم فى وجوه الظلمة بصـراحة لا أثر فيها للخداع و الغش، و لا يشوهها الحرص على الصـلات و الجوائز و طلب المناصب. كما سنتكلم عن آدابهم التى تأثرت بـآداب الإسـلام و ثقـافته، و أن ذهنيتهم صـقلتها التجـارب، فكـانت أكثر مـا تعنى بالأفكـار العميقـة، و المعانى الدقيقـة، و أنهم يمتازون بالعواطف الثورية الهائجة لاستنهاض الأمة من كبوتها، و إيقاضها من غفلتها.

1- 1) انظر البدر الطالع.

و الشـيء الذى يجب الالتفات إليه هو أن تاريخ الشـيعة لـم يدرس الدراسة الكافية التى ترفع الغموض الذى يكتنف مبادئهم و تطورهم، إذ المصـادر التى يسـتمد منها المعلومات عن الشـيعة مضـطربة لا توضـح الطريق الموصل إلى الحقيقـة، لأنها مصادر لـم تسـلم من سـيطرة التعصب الأعمى و غلبـة الأهواء المردية و التحيز الممقوت. كما أن كتّاب الفرق قد سـلكوا طريق الافتراء و التحامل، و لـم يكتبوا للعلم بل كـانت كتابـاتهم مجردة عن كـل مـا له صـلة بالحقيقـة، و سـنوضح ذلـک إن شـاء اللّه عسـى أن نكشف جانبا مهما له تمام الصـلة بحياتنا الاجتماعيـة، لأـن ليس من اللائـق أن يتعايش الشـيعى مع أخيه السـنى فى إطار العلاقات الاجتماعيـة فيجـد أحـدهما من الآخر ما يوثق العلاقات و يمتن المودة و إذا ما جاءت مناسـبة يبدى بها الشـيعى فرحه لذكرى تتعلق بآل البيت، أو يظهر فيها حزنه لحادثة الطف أو غيرها من الفواجع، وجد من أخيه امتعاضا أو اتهاما، و عند التحقق يجد الشـيعى أن أخاه السنى متأثر بأقوال زرعتها أقلام لا ترقب اللّه، أو ألسنة لا ترعى حرمة الدين. و لقد عشـنا فى العراق مواسم لا تفرق فيها بين السنة و الشيعة، لأن الشيعة باعتبارهم الأغلبية عملوا على جعل المواسم مناسـبات تلهب المشاعر الوطنية و تخدم قضايا الأمة الإسـلامية فى مواجهة القوى الأجنبية المستعمرة أو الحكام الظلمة. و قد عشت أيضا تعاطف إخواننا السـنة فى المواسم و المواقف، كما رأيت ما ذا صـنعت السلفية فى النفوس حتى أثمرت نصبا كريها و حقدا بغيضا و أنا أقيم خارج العراق. و نسير على ما دأبنا عليه من سلوک التجرد لكشف الحقيقة و اللّه الموفق للسداد.

أسباب الخلاف و عوامل التفرقة:

يطالعنا التاريخ بحوادث مؤلمة، و نزاع بين طوائف المسلمين عامة و بين الشيعة و السنة بصورة خاصة، فإذا أردنا أن نبحث عن الأسباب التى أدت إلى حدوث تلك المنازعات نجدها سياسية قبل أن تكون دينية، و قد اتضح لنا فى الأبحاث السابقة أن تدخل أولى النفوذ و السلطة هو الذى جر الأمة إلى تلك المنازعات، و أوقعهم فى ورطة الاختلاف، و نشوء تلك المعارک التى اضطرمت نارها، و تنوعت أسبابها بصورة ظاهرة، و يعود ذلک إلى سبب رئيسى هو عامل السياسة. فذهبت آلاف من النفوس، و اتسعت بذلک شقة الخلاف، و فتحت باب الظنون و الاتهامات، و نحن لا يتعلق لنا غرض بذكر الخلاف بين جميع طوائف المسلمين لأنا نعلم أن هذا الخلاف قديم عميق، و من المؤسف أن كثيرا من قادة المسلمين لم يلتفتوا إلى ما وراء ذلک من خطر يهدد كيان الأمة، و يقضى على وحدتها التى هى أقوى عامل تستطيع به الانتصار على خصومهم، الذين وقفوا لهم يتحينون الفرص للوثبة عليهم و التشفى منهم، و قد مرت الإشارة إلى ذلک. و حيث كان بحثنا عن المذهب الجعفرى و عوامل انتشاره، فنحن لا نتعرض إلا بالإشارة لأسباب الخلاف المتكون بين السنة و الشيعة، و قد مرت عليه قرون و قرون، و لم تسعد الأمة يوما ما برفع سوء التفاهم و إزالة تلک الحواجز التى تقف بينها و بين وحدتها التى أمر اللّه سبحانه و تعالى جميع المسلمين بالمحافظة عليها، و عالج الدين الإسلامى مشاكل الخلاف و بيّنها بأدق صورة. فنحن نرى أن هذا الخلاف القائم بين الطائفتين مبنى على سببين رئيسيين هما:

1-الخلاف فی الخلافة الإسلامیة و من هو المتأهل أهلیة صالحة للولایة العامة و الرئاسة الشاملة، و هی لا تحصل إلا لمن خصه اللّه بالکمال، و خلصه من شوائب النقص فی الأقوال و الأفعال، و نزهه عن الظلم للرعیة، حتی یقیم الحدود و (اللّه أعلم حیث یجعل رسالته) و الشیعة لا یرون تحقق تلک الشروط و حصول هاتیک الصفات إلا فی من اختاره اللّه و أمر نبیه بالنص علیه. 2-عوامل السلطة فإن الطبقة التی سیطرت علی نظام الحکم رأت من نفسها عدم انطباق تلک الشروط علیها، و الشیعة لا یرون قیمة لسلطان لا یتمسک حق التمسک بالشرع، و لا- یتنزه عن الظلم و لا یتورع عن المحارم، و لیس له قابلیة تحمل أعباء الخلافة الإسلامیة، و إن من هؤلاء الذین تربعوا علی دست الحکم یریدون أن یکسبوا ثقة الأمة و یرکزوا أنفسهم بالسلطتین الروحیة و الزمنیة فینالوا الثقة التامة، و یصبحوا أمراء المسلمین بحق مع عدم انطباق ما یؤهلهم لذلک، فهم إذا یرون الشیعة حزبا معارضا، و عقیدتهم لا تتمشی مع أغراضهم، فکانوا لا یعارضون العقائد، ما دامت لا تعارض سیاستهم و أغراضهم الخاصة، و الناس فی أذهانهم ذلک العصر الذی کانوا یسیرون به فی حریة العقیدة، و حریة العبادة بأمن تحت ظلال السلطة و أمام القانون. أما إذا کانت العقیدة مخالفة لرأیهم أو أن لها دخلا فی سیاسة الدولة، فلا یسمح القانون بإظهارها، و لا تقعد السلطة عن مقاومتها، و من الواضح أن عقائد الشیعة تخالف دستور الحکومة فی أغلب الأشیاء التی تخرج عن مقاییس حریة الرأی أو سلامة النیة و القصد الحکیم و العقائد الصحیحة، و من هذا التجأ القانون إلی عدم المساواة فی العقائد من جهة، و إلی مساواتها من جهة أخری، فتری مواقف الحکومة مختلفة اختلافا کلیا، و تقف فی أکثر حالاتها موقف الحیرة خوفا من انتشار العقائد التی لها أثرها عند المفکرین فتصبح الأقلیة أکثریة، و لا یمکنها الوقوف أمام جارف الإنکار، فهی تلتجیء أبدا إلی خلق مشکلات تفرق بها کلمة الأمة لتثیر الشحناء، و تشغل الأفکار، و ذلک هو قانون الظلمة و أصحاب المصالح الشاذة یهدیهم إلیه طبعهم و بقاء الحالة عبر العصور بین معسکرین معسکر الظلم و معسکر العدل.

الاتهام بالتشیع:

و علی هذا الأساس حاولوا إبراز الشیعة فی ذلک المجتمع بصورة تدعو إلی

مقاومتهم من كل الجهات، و فصلهم عن المجتمع الإسلامى بالطعن فى عقائدهم مرة، و بالخروج على الجماعة مرة أخرى. فوجهوا إليهم التهم، و تقولوا الأقاويل التى لا نصيب لها من الصحة، و لاحظ لها من الحقيقة، و إنما هى اتهامات كاذبة و افتراءات محضة تمكنت من قلوب السذج فأصبحت كالأمر الواقع، لكثرة العوامل التى دعت إلى تركيز تلك المفتريات فى أذهان الناس، و تجنيد السلطة لإشاعتها أقوى الطاقات. و أنت إذا نظرت بعين البصيرة تجد تلك المؤاخذات و الاتهامات التى رميت بها الشيعة غير محدودة بحد، بل تتسع باتساع غرض السلطة الحاكمة التى لعبت دورها فى مقاومة الشيعة على ممر أدوار التاريخ، فيبرز فى فترة ضرب معين و فى أخرى بشكل مغاير. و سارت الأمور على ذلك الشكل الذى قضى على حرية التفكير فى فهم الأمور، و أن لا يكون إلا ما تراه السلطة و ما تتمسك به. يدخل الإمام مالك بن أنس على أبى جعفر المنصور، فيوجه إليه سؤالا: من أفضل الناس بعد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم؟ و هنا يقف مالك موقف الحيرة عند ما يريد أن يعبر عن رأيه الصحيح، فربما يخالف رأى المنصور فيكون عرضة للنقمة، كما نقم منه من قبل لمخالفته فى فتوى طلاق المكره. و لكنه درس نفسية المنصور و عرف أغراضه المكنونة، فأجابه: أبو بكر، و عمر، فقال المنصور: أصبت و ذلك رأى أمير المؤمنين. و بالطبع ان رأيه محترم و الرعية تابعة له فلا يمكن لأحد مخالفته، و من ذهب إلى غير هذا فإنما يعرض نفسه للسخط و يصبح فى قائمة المتهمين لمعارضة الدولة، و ناهيك بما وراء ذلك من بلاء و محن، و يمكننا أن نعتبر مسألة التفضيل بين الخلفاء بدعة سياسية، و دعاية من دعايات التفرقة منذ أول نشوئها فى البيئات الأموية فى الشام، و فى غير الشام، و من المعلوم عند الراسخين فى دراسة التاريخ أن مسألة التفضيل بين الخلفاء إنما كانت بهذا الشكل الحتمى لا من حيث الواقع، و إلا لو ترك الأمر بدون تدخل السلطة فيه لما كانت المسألة من المسائل المشكلة التى ابتليت بها

الأمة حتى أصبح القائل بأفضلية علىّ على الشيخين مبتدعا زائغا عن الحق سيئ المذهب، رافضيا خبيثا، زنديقا مارقا، إلى ما هنالک من التعابير التى اتخذها المتزلفون لرضا السلطة. و إذا رجعنا للواقع من حيث الواقع بدون مغالطة و لا- تعصب فى ضوء التفكير الحر، و الدراسات الصحيحة الخالية من نزعة الأهواء، نجد أن ترتيب الخلفاء حسب أزمنة خلافتهم ليست حجة على فضل بعضهم على بعض و جدارتهم بالحكم، و إنما هى تقليد أعمى، و جمود على اتباع السلف، الذين عرفت نزعاتهم و أهواؤهم و ميلهم للسلطة التى أصبحت ترغم الناس على ربط العقائد بدستور الدولة، فترى المأمون يخلق مشكلة القول بخلق القرآن و يحمل الناس عليه بالقهر، و لا يجعل للتفكير فى الأمر مجالا، فيقع ما يقع من قتل و تكفير إلى غير ذلک، و يأتى من بعده المتوكل فيخالف رأيه، و يقضى على ما أمر به المأمون، و يحمل الناس على القول بقدم القرآن بالقهر و القوة. و يأتى القادر العباسى سنة 422 ه-فيحمل الناس على الاعتقاد بما يراه فى فضل الصحابة، و تكفير المعتزلة القائلين بخلق القرآن، و يؤلف بذلک كتابا يتلى على الناس فى كل جمعة، كما أنه حملهم بالقهر على الاعتقاد بالسنة، و استتابة من خالفه من المعتزلة و الشيعة، و أخذ خطوطهم بالتوبة، و بعث إلى السلطان محمود، يأمره ببث السنة فى خراسان، ففعل ذلک، و بالغ و قتل جماعة و نفى جماعة آخرين من المعتزلة و الشيعة و غيرهم، و أمر بلعنهم على المنابر، و ذلک فى سنة 408 ه- (1). و فى سنة 403 ه-يصدر مرسوم من البلاط العباسى يتضمن القدح فى نسب العلويين خلفاء مصر و أنهم ليسوا من أبناء على (2)، و نشر هذا المرسوم و وزعت نسخه، و الزم علماء بغداد بتوقيعه، إلى غير ذلک مما يطول شرحه من الأمور التى تدخلت بها الدولة لغاياتها الخاصة، و لا يريدون بذلک إلا فتح باب المناقشات، لا بصورتها الواقعية و لكن بالصورة التى يريدون من ورائها الشغب و الاختلاف بين الأمة للنفوذ إلى مصالحهم الخاصة، و إلا فيلزمهم إعطاء الحرية الكاملة فى المناقشات

1- 1) شذرات الذهب ج 3 ص 186. [1]

2- 2) تاريخ أبى الفداء ج 2 ص 150. [2]

العلمیـة التی تختلف فیها الأمة و لا یؤدی اختلافها إلی فرقة بل إلی غناء فی الأفکار و تقدم فی المواهب و المقدرات و هو ما یهدد ملکهم و سـلطویتهم، لذلک حصروا الخلاف فیما یسیء إلی وحدة الأمة و اختلقوا أسباب تفرّق المجتمع الإسلامی، و ترکوهم یخوضون غمرات المعارک المذهبیة و العقائد الدینیة، و تدخلوا بقسوة فی حیاة الفکر و عاملوا المفکرین الذین یأبون الانصـیاع لمخطط الحکام بکل صـنوف الأذی و الکبت.

ضحایا المبدأ:

و الغرض ان نظر الدولة لموقف الشـیعة إلی جنب آل محمد یعتبرونه موقفا معارضا لسیاسـتهم، و محاولة ظاهرة للقضاء علی کیان الملک الذی تربعوا علی دسـته بدون أهلیة، و هو من حق آل محمد صـلّی اللّه علیه و آله و سلم، فهم یحذرونهم أشد الحذر، و یدفعون الناس إلی التبرؤ منهم بشتی الوسائل، حتی أصـبحت تهمة التشـیع طریقا إلی الهلاک یفرون منها و یرون أنها أعظم من تهمة الزندقة. قال الزمخشری فی کیفیة الصـلاة علی محمد صلّی اللّه علیه و آله و سلم: و أما إذا أفرد غیره من أهل البیت بالصلاة کما یفرد، فمکروه لأن ذلک صار شعارا لذکر رسول اللّه صـلّی اللّه علیه و سلم، و لأنه یؤدی إلی الاتهام بالرفض، و قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم: من کان یؤمن باللّه و الیوم الآخر فلا یقفن مواقف التهم. و أمثال هذه الفتاوی کثیرة جدا. و قد ترکوا القول بأشـیاء رغم صـحتها و ثبوت تشـریعها، و لیس لهم فی ترکها إلا لأن الشـیعة تقول بها، و متابعتهم تؤدی إلی الرفض کما مر بنا شیء منه و کما سیأتی ذکره. و من هذا نعرف عظیم حراجة الموقف، و إلی أی حد انتهی الأمر فی الابتعاد عن شـیعة أهل البیت، فی عصـر تأصـلت فیه روح العداء فی قلوب الناس الذین ساروا مع الدولة جنبا لجنب، و هل الرفض إلا حب أهل البیت کما یوضح لنا الشافعی بقوله: إذا فی مجلس ذکروا علیا و سبطیه و فاطمة الزکیة

یقال تجاوزوا یا قوم هذا فهذا من حدیث الرافضیة

برئت إلی المهیمن من أناس یرون الرفض حب الفاطمیة

و یقول: قالوا ترفضت قلت کلا ما الرفض دینی و لا اعتقادی

لكن توليت من غير شک خير إمام و خير هادى

إن كان حب الوصى رفضا فإننى أرفض العباد

و أظرف شىء ما يحدثنا به الخطيب عن الفتح بن شخرف قال: حملتنى عينى فنمت، فبينما أنا نائم إذا أنا بشخصين فقلت للذى يقرب منى: من أنت يا هذا؟ فقال: من ولد آدم، قلت: كلنا من ولد آدم، فما الذى وراک؟ قال لى: على بن أبى طالب، قلت له: أنت قريب منه و لا تسأله، قال: أخشى أن يقول الناس إنى رافضى (1). و كان الفضل بن دكين يتشيع فجاءه ولده يوما يبكى فقال له: ما لک فقال: إن الناس يقولون إنک تتشيع فأنشأ يقول: و ما زال بى حبيک حتى كأننى برجع جواب السائلى عنک أعجم

و لا سلّم من قول الوشاة و تسلمى سلمت و هل حى على الناس يسلم

(2)و إن أمرا يدعو الولد إلى هذا الحذر، و يحمله على البكاء لعظيم جدا، و لا غرابة من ذلک فإنه يخشى على أبيه القتل، و على داره الهدم، و ماله النهب، طبقا لقانون الدولة المقرر تنفيذه فى حق الشيعة، لأنهم كانوا ينفذون هذا القانون فى حق من اتهم بالميل للعلويين. كان إبراهيم بن هرثمة شاعرا مجيدا مدح آل البيت بأبيات منها: و مهما (ألام) على حبهم فإنى أحب بنى فاطمه

بنى بنت من جاء بالمحكما ت و بالدين و السنة القائمة

فلست أبالى بحبى لهم سواهم من النعم السائمه

و لما دخل على المنصور قال: لا مرحبا و لا أهلا، يا إبراهيم قد بلغنى عنک أشياء لو لا ذلک لفضلتک على نظرائک فأقر لى بذنوبک فاستعفاه فعفى عنه حفظا لدمه، و قال: لئن بلغنى عنک أمر أكرهه لأقتلنک. و لما دخل إبراهيم المدينة أتاه رجل من العلويين فسلم عليه فقال له إبراهيم تنح عنى لا تشط بدمى (3).

1- 1) الخطيب ج 12 ص 386.

2- 2) تاريخ بغداد ج 12 ص 351. [1]

3- 3) تاريخ بغداد ج 6 ص 127. [2]

و هذا منصور النميرى أنشأ أبياتا منها: آل النبى و من بحبهم يتطامنون مخافة القتل

امن النصارى و اليهود و من فى أمة التوحيد فى أزل

إلا مصالت ينصرونهم بظبا الصوارم و القنا الذّبل

فغضب الرشيد و أرسل إليه من يقتله فوجده ميتا فقال: لقد هممت أن أخرج لسانه من قفاه. و أراد أن ينبش عظامه فيحرقها و لكنه لم يفعل (1). و قطعوا لسان ابن قرايا لأنه كان يمدح آل محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و ينشد الأشعار فيهم، فثارت العامة فى بغداد، و قدم للقاضى، فحكم عليه بقطع لسانه و يده استنادا إلى مادة الحط من كرامة الصحابة، بمدحه عليا عليه السّلام و تفضيله عليهم. وليت الأمر ينتهى عند هذا الحد، و لكنهم تبعوه عند ما أخذ للمارستان، و رموه بالحجارة، فألقى نفسه فى دجلة فغرق و أخرجوه ميتا و أحرقوا جسده، و وقعت بذلک معركة بين السنة و الشيعة و ذلک فى سنة 574 (2). و قامت البينة على الحسن بن محمد بن أبى بكر الشيعى، بأنه سب الصحابة عند القاضى شرف الدين المالكى، فحكم عليه بضرب عنقه بسوق الخيل بدمشق فى جمادى الأولى سنة 744 ه- (3). و أمثال هذه الفظائع كثيرة لا يسعنا عرضها، و لكنا أوردنا طرفا منها لنأخذ صورة عن أعمال الدولة و سياستها مع الشيعة، يروى ابن عبد ربه عن الرياشى: سمعت محمد بن عبد الحميد يقول: قلت لابن أبى حفصة: ما أغراک ببنى على؟ قال: ما أحد أحب إلى منهم، و لكنى لم أجد شيئا أنفع عند القوم منه. و هنا أمر مهم يلزمنا أن نتساءل عنه: و هو ان الإقدام على سفک دم المسلم باسم الشريعة هو جرأة عظيمة، و ان دولة تدعى السير على نظام الشرع كان يلزمها أن تتخذ طريقا للخلاص من الإنكار و المؤاخذة، كما اتخذت ذلک فى كثير من القضايا المخالفة لنظام الإسلام.

1- 1) زهر الآداب ج 2 ص 650. [1]

2- 2) شذرات الذهب ج 4 ص 246. [2]

3- 3) شذرات الذهب ج 6 ص 140. [3]

إذا ما ذا اتخذوا تجاه هذه الفظائع و هذه المنكرات فی معاملة الشیعة؟ أ لیس فی الأمة علماء ینبهون الحکومة و العامة علی هذا الخطأ عند مخالفتهم نصوص الکتاب و السنة بإراقة الدماء فی عمل لا یستوجب ذلک؟ و کیف سکت العلماء عن هذا الفعل الشنیع؟ و لم تقتصر سیاستهم علی إراقة الدماء و إنزال الأذی بالشیعة بل قاموا بحملة مضادة یسعون بها إلی مواجهة اعتقادات الشیعة. نعم انهم لم یغفلوا عن ذلک و اتخذوا التدابیر اللازمة فی رد المنکرین بأمور منها: 1-إنهم رفعوا مقام الصحابة علی الإطلاق، و منعوا الناس عن الخوض فی أحادیثهم و حوادثهم، و جعلوا لهم منزلة العصمة الادعائیة، و قرنوهم بالرسول الأعظم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و جعلوا مؤاخذتهم بشیء إنما هو مؤاخذة للرسول صلّی اللّه علیه و آله و سلم. و أن الطعن فی حدیثهم هو طعن فی حدیث الرسول صلّی اللّه علیه و آله و سلم. ذکر عند الرشید حدیث أبی هریرة: أن موسی لقی آدم فقال: أنت آدم الذی أخرجتنا من الجنة، فقال القرشی أین لقی آدم موسی، فغضب الرشید، و قال: النطع و السیف زندیق یطعن فی حدیث رسول اللّه (1). و بهذا ألجمت الأمة لیحرموها حریة التفکیر، و ألزموها بالنزول لإرادتهم، فمن خرج عن ذلک عد زندیقا و الزندیق یقتل، و بالطبع فإن الشیعة لا تقیم لهذا الحکم وزنا فهم فی نظر القانون یحل قتلهم من هذه الجهة، و مع ذلک فقد وضعت أحادیث کاذبة علی صاحب الرسالة فی تکریم الصحابة مطلقا، و بمقتضی ذلک لا یشملهم نظام الإسلام و أحکامه. و سیأتی بیان رأی الشیعة فی الصحابة و أنه أعدل الآراء. 2-إن مبادئ الشیعة و عقائدهم مستقاة من ینبوع أهل البیت علیهم السلام، و یرونهم نصب أعینهم یقیمون الصلاة، و یحتفظون بشعائر الدین فکیف یحکم علیهم بالکفر؟ فلا بد إذا من سلوک طریق لاتهام الشیعة بما یخالف الإسلام، و بالفعل سلک خصوم الشیعة طریقا نجحوا فیه، و ذلک فی ترکیز فکرة الغلو عند الشیعة فی أذهان العامة، و أن الشیعة یدعون لآل البیت الربوبیة، و قام بنشر هذه الفکرة بین العامة أولئک الدجالون الذین یفترون علی اللّه الکذب، من قصاص و وعاظ و زهاد، یتصفون بالتدین و هم جزارون لا یتورعون عن المحارم.

1- 1) تاریخ بغداد ج 94 ص 7. [1]

3-إن الشيعة لما عرفوا بموالاة أهل البيت و محبتهم لهم، و أخذ الأحكام عنهم، أصبح ولاة الأمر يحذرون الإنكار عليهم من رجال الفكر الذين لا يخدعون بأقوال الدجالين من وعاظ و قصاص، لكيلا تتسع عليهم دائرة المؤاخذة، و ربما يطالبون بشيء أوضح مما مر في تكفير الشيعة و الطعن في عقائدهم. و لذا لجئوا إلى الطعن في الأمور التي من شأنها أن يحكم على معتقدها بالكفر و هم يعلمون أن الشيعة قبل غيرهم يكفّرون من ينحرف على هذا النحو الذي صورته أبواق الخلفاء.

أحاديث النبي في حب علي و شيعته:

و إن هناك أحاديث صحيحة وردت في أهل البيت و شيعته لا مجال لإنكارها، إذا كيف يصنعون و ليس في إمكانهم إنكار تلك الأحاديث في مدح الشيعة و لزوم اتباع آل محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و قد أخذت تلك الأحاديث مكانتها في المجتمع الإسلامي؟ و لم تستطع الإرهابات محوها من الأذهان، و ليس في قدرة السلطة أن تفرض طاعتها على الشيعة قهرا. فلنر إذا كيف استطاعوا أن يفهموا الناس انحراف الشيعة عن الدين؟ مع وجود تلك الأحاديث الصحيحة. أ يكفي أن يستندوا إلى المادتين الأوليتين، أم إن الأمر يحتاج إلى أكثر من ذلك؟ نعم الأمر أهم من أن يتهاون فيه، و يلزمهم أن يتخذوا شيئا يستطيعون فيه تغيير تلك الأحاديث، أو وضع زيادة يصلون من ورائها لغايتهم المقصودة، فكانت النتيجة أن توضع زيادة تلحق ببعض الأحاديث ليبطل الاستدلال بها، و إليك بعض الأحاديث الواردة في محبة أهل البيت. كقوله صلّى اللّه عليه و آله و سلم: يا علي لا يحبك إلا مؤمن و لا يبغضك إلا منافق (1). و قوله صلّى اللّه عليه و آله و سلم: يا علي إنك ستقدم على اللّه و شيعتك راضين مرضيين و يقدم عدوك غضابا مقمحين (2). و قوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: و قد أخذ بيد حسن و حسين فقال: من أحبني و أحب هذين و أباهما و أمهما كان معي في درجتي يوم القيامة (3).

1- 1) صحيح مسلم ج 1، و الترمذي ج 2 ص 298، و أحمد في مسنده ج 2 ص 102 [1] ط 2.

2- 2) أخرجه الطبراني في الصواعق المحرقة لابن حجر ص 93. [2]

3- 3) أخرجه الحاكم ج 2 ص 149، و أحمد في مسنده ج 2 ص 25 [3] ط 2.

و قوله صلّى اللّه عليه و آله و سلم: حب على براءة من النار، حب على براءة من النفاق شيعة على هم الفائزون (1). و قوله صلّى اللّه عليه و آله و سلم: من يريد أن يحيى حياتى و يموت موتى و يسكن جنة الخلد التى وعدنى ربى فليتول على بن أبى طالب، فإنه لن يخرجكم من هدى و لن يدخلكم فى ضلالة (2). و قوله صلّى اللّه عليه و آله و سلم: على و شيعته هم الفائزون يوم القيامة. (3)و لما نزلت قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ اَلْمَوَدَّةَ فِي اَلْقُرْبى [الشورى:23]قالوا: يا رسول اللّه من قرابتک هؤلاء الذين وجبت علينا مودتهم؟ قال صلّى اللّه عليه و آله و سلم: على و فاطمة و ابناهما (4). و قوله صلّى اللّه عليه و آله و سلم: يا على أنت و شيعتک فى الجنة. و قوله صلّى اللّه عليه و آله و سلم: يا أبا الحسن أنت و شيعتک فى الجنة. و قوله صلّى اللّه عليه و آله و سلم: يا على أنت و شيعتک تردون على الحوض رواء. و لما نزلت إِنَّ اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّالِحاتِ أُولئِکَ هُمْ خَيْرُ اَلْبَرِيَّةِ [البينة:7]قال: هو أنت يا على هو أنت و شيعتک تأتون يوم القيامة راضين مرضيين (5). هذا نزر من تلک الأحاديث الصحيحة الواردة عن صاحب الرسالة صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى فضل على و أهل بيته عليهم السلام و إلزام الناس باتباعهم، و كثير غيرها كحديث الثقلين الذى مرت الإشارة إليه و حديث مثل أهل بيتى، و باب حطة و غيرها.

تحريف الأحاديث:

و هنا تأتى يد الوضع فتعمل عملها بالتحريف أو بإلحاق زيادة لهذه الأحاديث، و لكنها زيادة تدل بنفسها على نفسها، و إليک أنموذجا من تلک الموضوعات على صاحب الرسالة. فالنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يقول: يا على أنت و أصحابک فى الجنة، أنت و شيعتک فى الجنة، فيأتى الفضل بن غانم بوضع زيادة و إلحاقها بهذا الحديث، و هى ألا إن

1- 1) أخرجه الديلمى فى كنوز الحقائق.

2- 2) أخرجه الحاكم فى المستدرک ج 2 ص 126. [1]

3- 3) كنوز الحقائق.

4- 4) أخرجه الطبرى فى ذخائر العقبى ص 52. [2]

5- 5) أخرجه الخطيب من طريق أم سلمة ج 12 ص 358.

ممن يحبک قوما يضفزون الإسلام بألسنتهم يقرءون القرآن لا يتجاوز تراقيهم، لهم نبز يسمون الرافضة فإذا لقيتهم فجاهدهم فإنهم مشركون (1). و يأتى أبو يحيى الحمانى بزيادة عن على عليه السّلام أنه قال: قلت: يا رسول اللّه ما العلامة فيهم؟ قال: يقرضونک بما ليس فيک و يطعنون على أصحابى و يشتمونهم. و بلفظ آخر: يا على ينتحلون حبک يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم و علامتهم أنهم يسبون أبا بكر و عمر. و بصورة أخرى: و سيأتى قوم لهم نبز يقال لهم الرافضة فإذا لقيتموهم فاقتلوهم فإنهم مشركون (2). و رواية أخرى: قالوا يا رسول اللّه، ما العلامة فيهم؟ قال: لا يشهدون جمعة و لا جماعة و يطعنون فى السلف (3). و كتحريف حديث الثقلين بوضع سنتى مكان عترتى. و هكذا تجرأ أولئک المتقربون لأسيادهم بالكذب على اللّه و رسوله بوضع تلک الزيادة فى الأحاديث الواردة عن صاحب الرسالة بمدح شيعة أهل البيت، فأصبحت تلک الأكذوبة مقررة بصورة رسمية كقانون تسير عليه السلطة التنفيذية، و تلقاها السذج بكل قبول، و أخذت مكانتها من ذوى العقول القاصرة. لأن السلطة اشترت ذمم الكذبة و من ليس له من الدين إلا اسمه و زيّه فباعوا دينهم بدنياهم و تجرءوا على مقام رسول اللّه دون وازع و هم يعلمون إنما هم بذلک يتبوّءون مقعدهم من النار، و تلقوا ما أمروا به من الجائرين و أضافوه إلى الأحاديث الصحاح التى لا يشک بها لأنها تصدر عن حق و تنطق بحقيقة و تتعلق بواقع رسول اللّه و تتصل برسالته. و بأمر الحكام الظالمين يتحول أنصار العترة الطاهرة و شيعة ابن عم المصطفى و وصيه إلى مشركين على لسان صاحب الرسالة (صلى الله عليه و آله) لأن السلطة تسعى إلى هدم الوجود الشيعى الذى يهدد سلطانهم. و بوحى من السلطة يصبح قتل الموحدين سنة و على لسان محمد و هو الذى كان

1- 1) تاريخ بغداد ج 12 ص 358. [1]

2- 2) الإشاعة فى اشتراط الساعة ص 112.

3- 3) شرح الهمزية للهيتمى ص 224.

يدعو إلى عدم قتل الكفار عند ترديد الشهادة و يغنى عن بيان ذلک قصة قتل زيد لكافر ردد الشهادة. ثم يشمل الوضع الجمعة و الجماعة و إنما جاءت هذه الزيادة لأن الشيعة لا يعترفون إلا بإمامة السلطان العادل فلا يجيزون الصلاة خلف أولئک المتسلطين الجائرين و جعلوا أول شروطها الخمسة و أحكامها: السلطان العادل. و أما صلاة الجماعة فهى لدى الشيعة مجال اقتداء و لا يقتدون إلا بشروط معروفة لا ينطبق أى منها على زبانية الحكام أو المتصدين للائتمام إذا دخل وقت الصلاة و هم على سماط الشرب أو مائدة اللهو فترى أن كل زيادة تتم استجابة لغرض و تمر على الناس بواسطة أعضاء لجان الوضع التى كثر تشكيلها و أصبحت من دعائم الحكم. أما العلماء فقابلوها بالإنكار، و قالوا بوضعها بكل صراحة، و ان رواتها كذابون. كالفضل بن غانم المروزى القاضى، الذى كان مشهورا بفساد الأخلاق و متهما فى دين، و كان غير مقبول الرواية، و قد ترک الحفاظ أحاديثه و طعنوا فيه. قال الدارقطنى: الفضل بن غانم ليس بالقوى، و قال يحيى بن معين: ضعيف ليس بشىء. و غير ذلک من أقوال رجال العلم، و كيف يؤتمن على حديث رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم من عرف عنه حب الغلمان و فساد الأخلاق كما جاء ذلک فى ترجمته (1). و منهم سوار بن مصعب الهمدانى الكوفى الأعمى، قال فيه يحيى بن معين: سوار بن مصعب ليس بشىء، و قال البخارى: منكر الحديث، و قال النسائى و غيره: متروک، و قال أبو داود: ليس بثقة، و قال أحمد و أبو حاتم: متروک الحديث، و قال النسائى: ليس بثقة، و لا يكتب حديثه، و قال الحاكم: روى عن الأعمش و ابن خالد المناكير (2). و لا نطيل الكلام بذكر الآخرين من رجال هذه الزيادة كأبى جناب الكلبى، و سويد بن سعيد، فقد نص الحفاظ على كذبهم و عدم قبول روايتهم، كما أنهم نصوا

1- 1) لسان الميزان ج 4 ص 445 و تاريخ بغداد ج 12 ص 357. [1]

2- 2) لسان الميزان ج 3 ص 128.

على هـذه الزيادة بالوضع، و صـرح بـذلک على بن محمـد الشوكانى و ابن حجر و ابن تيميـة و الخطيب البغدادى و السـيوطى و غيرهم. و الغريب أن هـذه الحقيقة يقررها الكثير من العلماء و ينصون على كذب هذه الزيادة، و لكن هناک حثالة من المتعصبين الذين لا يروق لهم إلا إيقاع الفرقة بين صـفوف المسـلمين، جعلوا هذه الأكذوبة وسـيلة للوقيعة بشيعة أهل البيت، و تقربوا إلى ولاة الجور بنشرها و إدخالها فى قالب الاعتبار، و لكنها محاولة فاشلة «فجولة الباطل ساعة، و جولة الحق إلى قيام الساعة» .

أحكام جائرة:

و الغرض أن ولاة الجور اتخـذوا هذه الأمور كقانون يحكمون به على المعارضـين لأحكامهم، فكان من الخطر البالغ أن يجهر الإنسان بأى رأى حر، أو يذهب إلى خلاف ما تراه السلطة الحاكمة، و من سوء حظ الرجل أن يكون له خصوم يسعون به عند السلطان، فتنطبق بحقه هذه المادة فيكون نصـيبه القتل أو السجن. لذلک نرى أن الكثير من غير الشيعة حكم عليهم بهذه المادة و ليس لهم ذنب إلا التحرر من الجمود الفكرى، و الصراحة بشىء يخالف غرض الدولة. فهذا المولى ظهير الدين الأردبيلى، حكم عليه بالإعدام و اتهم بالتشيع، و ذلک لأنه ذهب إلى عدم وجوب مدح الصـحابة على المنبر و أنه ليس بفرض، فقبض عليه و قدم للمحاكمة و حكم عليه القاضى بالإعدام، و نفذ الحكم فى حقه فقطعوا رأسه، و علقوه على باب زويلة بالقاهرة (1). و امتنع أحد القضاة من المبايعة للخليفة المقتدر، و قال: هو صبى لا تصح مبايعته، فحكموا عليه بالقتل و ذبح أمام الملأ بدمشق. و هذا سـليمان بن عبد القوى المعروف بأبى العباس الحنبلى المتولد سـنة 657 ه-و المتوفى سنة 716 ه-، كان من علماء الحنابلة، و من المبرزين فى عصره، و درس فى أكثر مدارس الحنابلة فى مصر، فقد نسب إلى الرفض، و قامت عليه الشهود فى ذلک حتى تعجب هو من هذه النسبة و استغربها فقال:

1- 1) شذرات الذهب ج 7 ص 173. [1]

حنبلی رافضی ظاهری أشعری إنها إحدی الکبر

و قد عزر فی القاهرة لمدحه علیا بأبیات منها: کم بین من شک فی خلافته و بین من قیل إنه اللّه

و نسب إلی هجاء الشیخین، و الحط من مقام عمر بن الخطاب لقوله فی شرح الأربعین: إن أسباب الخلاف الواقع بین العلماء تعارض الروایات و النصوص، و بعض الناس یزعم أن السبب فی ذلک هو عمر بن الخطاب، لأن الصحابة استأذنوه فی تدوین السنة فمنعهم مع علمه بقول النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم: «اکتبوا لأبی شاه» و قوله صلّی اللّه علیه و آله و سلم: «قیدوا العلم بالکتابة» فلو ترک الصحابة یدون کل واحد منهم ما سمع من النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم لانضبطت السنة، فلم یبق بین آخر الأمة و بین النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم إلا الصحابی الذی دونت روایته، لأن تلک الدواوین کانت تتواتر عنهم کما تواتر البخاری و مسلم. انتهی. و بهذه الصراحة نسب هذا الحنبلی إلی الرفض، و ناله الضرب و السجن و التبعید عن وطنه، و فصل عن وظیفة التدریس (1). و من أغرب الأشیاء ما یحدثنا المقدسی عند دخوله إلی أصفهان بقوله: و فیهم بله و غلو فی معاویة، و وصف لی رجل بالزهد و التعبد، فقصدته و ترکت القافلة خلفی، فبت عنده تلک اللیلة، و جعلت أسأله إلی أن قلت: ما قولک فی الصاحب؟ فجعل یلعنه. قلت: و لم؟ قال: إنه أتی بمذهب لا نعرفه، قلت: و ما هو؟ قال: إنه یقول إن معاویة لم یکن مرسلا. قلت: و ما تقول أنت؟ قال أقول کما قال اللّه عز و جل: و لا نفرق بین أحد من رسله، أبو بکر کان مرسلا، و عمر کان مرسلا، ثم عد الأربعة ثم قال: و معاویة کان مرسلا. قلت لا تفعل، أما الأربعة فکانوا خلفاء، و معاویة کان ملکا، و قال النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم: «الخلافة بعدی إلی ثلاثین سنة ثم تکون ملکا» فجعل یشنع علی، و أصبح یقول للناس: هذا رجل رافضی.

1- 1) تاریخ علماء بغداد للسلامی ص 59.

قال المقدسی: فلو لم أهرب و أدرکت القافلة لبطشوا بی (1). و علی هذا سار الناس علی غیر هدی یزدحمون فی دائرة ضیقة، و قد سلبوا حریة الرأی و حریة التفکیر. فلذلک تراهم لا یعرفون معنی الطعن، و لا یهتدون لطرق المؤاخذة، و لا یتورعون فی أمر، و لا یقفون عند حد و إنما هی فوضی الاتهام و التقول، فکان کل من یورد حدیثا فی فضل علی علیه السّلام یتهم بالتشیع أو الزندقة علی حد تعبیرهم. و کذلک کل من یناقش أعمال السلف طبقا للموازین العلمیة و الحوادث التاریخیة یتهم بالتشیع. لذلک نراهم یحکمون علی أناس بشیء و هم لا یتصفون به. فقد حکموا علی الحاکم أبی عبد اللّه النیسابوری صاحب المستدرک بأنه شیعی، لذکره فی کتابه حدیث الطائر المشوی، و حدیث من کنت مولاه فعلی مولاه، و بالطبع ان ثبوت هذین الحدیثین الصحیحین یخالفان سیاسة الدولة، و هل یستطیع أحد أن یتفوه بشیء منها؟ و قد عقدت الألسن و کمت الأفواه، فمن یستطیع الخروج علی نظام الدولة إذ لا قیمة لمعاییر الحق و مقاییس العقل. و من أغرب الأشیاء ما ذهب إلیه ابن کثیر فی تاریخه ج 10 ص 21 و هو أن شهاب الدین أحمد المعروف بابن عبد ربه مؤلف العقد الفرید کان من الشیعة، بل أن فیه تشیع شنیع، و ذلک لأنه روی أخبار خالد القسری و ما هو علیه من سوء الحال. یقول ابن کثیر: و قد نسب إلیه (أی لخالد) أشیاء لا تصح، لأن صاحب العقد کان فیه تشیع شنیع و مغالاة فی أهل البیت، و ربما لا یفهم أحد کلامه ما فیه من التشیع، و قد اغتر به شیخنا الذهبی فمدحه بالحفظ و غیره، و نحن نکل أمر هذه التهمة إلی قراء العقد الفرید و ذوقهم السلیم، لأن خالد بن عبد اللّه القسری فی واقع الحال بعید عن الإسلام بعد ابن عبد ربه عن الشیعة، و لکن السیاسة جعلت خالدا و هو المتهم فی دینه-کما یذکر ابن خلکان-قائما فی إطفاء البدع و الضلال. و مهما یکن من أمر فالشیء المهم الذی نرید التنبیه علیه هو أن تلک الخلافات التی وقعت بین المسلمین إنما هی من الأمور التی اتخذتها السلطة لأغراضها الخاصة.

1- 1) أحسن التقاسیم ج 2 ص 299. [1]

و إن تلک الاتهامات التی اتهم بها رجال الأمة فأریقت بها دماؤهم، إنما کان بسبب حریة الرأی و قوة التفکیر المخالف للسیاسة فی ذلک العصر، فإنهم یریدون أن یجعلوا رجال الفکر و حملة العلم من الأمة کقطیع غنم یوجهونهم إلی أی جهة أرادوا بدون تفکیر منهم أو اختیار. و لذلک فقد اجتاز المسلمون دورا عصیبا من أدوار القهر و القمع السیاسیین و الضغط الاجتماعی السافر. و مما تقدم نستنتج ما لتلک النظم الموضوعة من رغبة و رهبة و من التأثیر العمیق فی روح الجماعات، و استخدامها کل الوسائل لحملها علی العداء للشیعة، فلا نستغرب إذا تعبیرهم عن التشیع بکونه بدعة کما هو فی کثیر من عبارات أهل الحدیث، فالبدعة هنا فی مقابلة سنة السیاسة لا سنة الشریعة المقدسة. و إذا أردنا إجراء الحساب معهم عما ارتکبوه فی حق الشیعة فلا یستطیعون الجواب بشیء، لأنهم ساروا مع التقالید السیاسیة التی أجمع علیها الحکام و اتفق علیها الظلمة عبر العهود الطویلة التی ذاق فیها الشیعة الأمرین. و من الغریب بل المستهجن أن تتلقی العقول حتی الیوم ما سنّة الأمویون و العباسیون و ابتدعوه من طرق مخالفة لروح الإسلام و أعمال منافیه لأحکام الشریعة، و إلا فما هی بدعة التشیع و هم مجمعون علی أن الشیعة هم الذین شایعوا علیا و تابعوه، و من الغریب جدا أن تکون متابعة علی و الأخذ عنه و محبة أهل بیته بدعة؟ «ما جاءنا بهذا من سلطان» . أ لیس فی ذلک مخالفة صریحة لأقوال النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم فی علی الدالة بوضوح علی وجوب حبه و لزوم اتباعه، کقوله صلّی اللّه علیه و آله و سلم: «یا علی لا یحبک إلا مؤمن و لا یبغضک إلا منافق» . و لما سئل الإمام أحمد بن حنبل عما یروی أن علیا علیه السّلام قسیم الجنة و النار فقال أحمد: و ما تنکرون من ذا؟ أ لیس قد روینا أن النبی صلّی اللّه علیه و آله قد قال: «لا یحبک إلا مؤمن و لا یبغضک إلا منافق» قالوا بلی. قال: فأین المؤمن؟ قالوا: فی الجنة. قال: فأین المنافق؟ قالوا: فی النار، قال أحمد: فعلی قسیم الجنة و النار. و علی أی حال فإن خصوم الشیعة لم یظفروا یوما ما بالذی حاولوا تحقیقه من وراء اتخاذ تلک الوسائل فی مقابلة الشیعة، و قد أحاط الفشل بتلک العوامل، و لم

ينجح النجاح المأمول فى عرقلة سير انتشار مذهب أهل البيت و لم تؤثر تلک الدعايات لأنها أسباب بعيدة عن الواقع، لذلک وقف تيارها و أخذ المذهب فى الانتشار، فأصبح فى أقطار العالم عدد من الإمامية لا يقل عن تسعين مليونا. و بذلک يصبح لنا أن نحاسب الكتّاب الذين تولعوا بذم الشيعة، و التهجم عليهم خضوعا لمؤثرات العاطفة، و استجابة لدواعى الفرقة بين طوائف المسلمين، و لا أدرى بما ذا استساغوا هذا النقد و تولعوا بالذم. و إذا أردنا أن نحاسب الناقمين على الشيعة طبقا للمنطق الصحيح، فإن الأرقام تقف عن مسايرتنا، و ربما تقصر عن الإحصاء، و لا نريد منهم إلا الاعتدال فى الحكم و ترک المغالطات و التقولات، فإن ذلک نقص بمن يدعى العلم و الثقافة، فقد مرت العصور و انتهت الأوضاع التى تقتضى إثارة الفتن، و إيقاد نار البغضاء بين المسلمين، فما لهم يضربون على وتر الطائفية بين آونة و أخرى، و لحساب من يكون هذا و من هو الرابح فى تلک المعركة؟ نعم إنما الربح فى جانب أعداء الإسلام. إن من يفسح لفكره المجال فى البحث النزيه و التحقيق العادل عما اتهم به الشيعة من أمور تخالف الإسلام فسيقف على خلاف ما قيل عنهم. فكل ما أحيط بالتشيع من أمور تبتعد به عن دائرة الواقع إنما هى أمور مصطنعة لا تمتّ إلى الحقيقة بشىء، و لا يفوتنا أن ننبه عن أعمال الكذابين الذين اتخذتهم السياسة الجائرة لدعم كيانها. إن هؤلاء باعوا ضمائرهم، و اشتروا مرضاة المخلوق بسخط الخالق. و من المستحسن أن نشير لبعضهم و قد عبرنا عنهم بلجان الوضع كما تقدم، و هى من جملة بدع معاوية و من معالم سنّته و سياسته التى تلقفها بأمانة بنو العباس. لقد سعى معاوية إلى إرساء حقده الأموى و كرهه الجاهلى لشخصية الإمام أمير المؤمنين على عليه السّلام على أساس له طابع دينى و الظرف مهيأ له بعد انقياد أهل الشام لإرادته فقرن سنته السيئة فى لعن الإمام بحملة مسعورة لوضع الأحاديث فى عثمان لمقابلة الأحاديث الصحيحة و المشهورة عن الإمام فقام بإغداق الأموال و يزيدها حسب رغبة من يرضى لنفسه بالكذب و الدنية، فتهافت كثيرون ممن لهم شأن فى علم الحديث على السحت الحرام غير آبهين بلظى النار التى أوعدهم النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم بها.

حركة الوضع:

اتسع نطاق الكـذب على اللّه و على رسوله، و تلاطمت أمواج الافتراء و تصـدر قوم لا أمانـة لهم، و لا دين يردعهم، و لا عهـد لم بالصدق، فحدثوا الناس بالأكاذيب، و نمقوا و زوروا، و وضعوا من الأحاديث كيفما شاءت رغباتهم، إرضاء لسلطان لا يرعى للصدق حرمة، و لا يرى للـدين قيمة، فدرج الناس على ذلک و تلقنوا تلک الأحاديث بلا تمحيص و لا تتبع. و لا أريد أن أتعرض لعهد الصـحابة و ما حدث فيه من أحاديث، فإن يـد الوضاعين انتحلت سلسـلة تتصل بهم فى الحديث، لأن أصـحاب محمد صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم أجل قدرا و أعلى منزلة من تعمد الكذب عليه، إلا من صارعته الدنيا فصـرعته و باع آخرته بدنياه فكان نصـيبه الخسران، و ما هو من مصداق الصحبة فى شىء كسـمرة بن جنـدب و غيره، الـذى كـان يسـاومه معاويـة فى وضع الأحاديث أو تحريف ما أنزل اللّه بمئات من الآلاف من الـدنانير كما هو مشهور عنه. و لكن نريد أن نتعرض لعصر اشتداد الفوضى و الخروج على حدود الأمانة فى النقل، يوم دار الزمان دورته، و دب داء الحسد و التنافس على حب الرئاسة و التقرب إلى السلطان، عند ما اشتدت حاجته إلى مرتزقة يجعلهم قنطرة إلى غايته، ليبرر مواقفه المخالفة لأحكام الـدين، فكان ما كان من تشـجيع للكذابين و الوضاعين، فكانت هناک سلسـلة أحاديث موضوعة رغبة فى نواله، و طلبا لاستصـفاء وده، و قد فتحت باب التقرب إلى السلطان بمفاتيح الأكاذيب، فدخل الكثير منهم. فهذا غياث بن إبراهيم يدخل على المهدى، و كان المهدى يحب الحمام، فطلب منه المهـدى أن يحـدثه، فيأتى بحـديث عن أبى هريرة لا سـبق إلا فى حافر أو نصل، و أضاف إليه أو جناح، فأمر له المهدى بعشـرة آلاف درهم، فلما قام غياث قال المهدى: أشهد أنه قفا كذاب على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم ما قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم جناح و لكنه أراد أن يتقرب إلىّ (1).

1- 1) تاريخ بغداد ج 13 ص 193. [1]

و يدخل أبو البخترى وهب بن وهب قاضى بغداد على هرون الرشيد، و هرون يطير فى الحمام فقال هل تحفظ فى هذا شىء؟ فقال: نعم، حدثنى هشام عن عروة عن أبيه عن عائشة أن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم كان يطير الحمام، فنرى القاضى هنا سريع الارتجال بوضع الأحاديث رغبة لنوال السلطان و تحببا إليه، بدون التفات إلى مؤاخذة أو خوف من اللّه تعالى. و كان شاه بن بشر بن ماميان معروفا بالوضع فى الدولة العباسية. و من أحاديثه عن جابر بن عبد اللّه مرفوعا: أتانى جبرئيل و عليه قباء أسود و منطقة و خنجر، فقلت ما هذا؟ فقال: يأتى زمان يكون لباسهم كهذا قلت: يا جبرئيل من يكون رئيسهم؟ قال: من ولد العباس. و استجلب الرشيد إسحاق المعروف بأبى حذيفة المتوفى سنة 200 ه-، و هو معروف بالكذب و مشهور بالوضع، فأمره الرشيد أن يجلس فى مسجد ابن رغبان و يحدث الناس، فأخذ إسحاق يحدث بالأكاذيب، و يروى عن خلق من الثقات أكثرهم ماتوا قبل أن يولد (1). و استقدم المهدى أبا معشر السندى، و أشخصه إلى بغداد، و قال: تكون بحضرتنا تفقه من حولنا، و كان أبو معشر ماهرا بوضع الأحاديث و القصص. قال ابن جزرة: أبو معشر أكذب من تحت السماء (2)و صنف كتاب المغازى. و روى عنه الواقدى و ابن سعد، و قد نعم فى بغداد برضا كثير من رجال البلاط العباسى، و قد استمد منه الطبرى معلومات عن التاريخ الإنجيلى و من تاريخ النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم، كما استمد منه بنوع خاص معلومات تاريخية تنتهى إلى عام وفاته.

السلطة و وضع الحديث:

و ناهيک ما ابتدعه هؤلاء من الأحاديث حبا للدنيا بما يقربهم عند السلطان زلفى، لمخالفتهم الشرع و خروجهم عن سلطان العقل.

1- 1) تاريخ بغداد ج 6 ص 346. [1]

2- 2) تاريخ بغداد ج 4 ص 431. [2]

و هناک عناصر فی الوضع من طراز آخر، و هم الذین قاموا بنصر مبادئهم فی وضع الأحادیث علی لسان صاحب الرسالة بدون مبالاة. فهذا نعیم بن حماد بن معاویة المتوفی سنة 227 ه-کان ماهرا فی وضع الحدیث، متجرئا علی مقام صاحب الرسالة. قال الذهبی: و کان یضع الحدیث فی تقویة السنة، و حکایات فی ثلب أبی حنیفة و کان صلبا فی السنة. و منهم أحمد بن عمرو بن مصعب بن بشر، کان من الوضاعین و من أهل السنة المجودین، و وضع بذلک کتبا فی تقویة السنة کلها موضوعة منتشرة عند الخراسانیین فی عصره، و کان معروفا فی نصرة السنة بوضع الأحادیث الکاذبة عن الثقات (1). و منهم علی بن أحمد بن محمد بن عمر و کان شدید العصبیة فی السنة یضع الأحادیث فی نصرتها (2). و منهم أحمد بن عبد اللّه الأنصاری کان من الوضاعین لنصرة السنة، و هو واضع الحدیث عن ابن عمر مرفوعا فی قوله تعالی: یَوْمَ تَبْیَضُّ وُجُوهٌ وَ تَسْوَدُّ وُجُوهٌ [آل عمران:106]قال: فأما الذین ابیضت وجوههم: أهل السنة و أما الذین اسودت وجوههم: أهل البدعة و غیرهم (3)و سیأتی الحدیث عنهم فی الأجزاء الآتیة. لقد کان خطر أولئک الدجالین عظیما جدا، فإنهم تقربوا لولاة الأمر بوضع الأحادیث، فاتخذوا منهم أعوانا علی حل مشاکل یعجزهم حلها بالقوة، و لکنهم جعلوا ما یضعونه وسیلة لتعزیز مرکزهم أولا، و مقابلة خصومهم ثانیا، و إشغال الرأی العام ثالثا، و کان الأمر الذی یهمهم قبل کل شیء هو أمر الشیعة الذین آثروا تضحیة النفس علی الإذعان للخصم، و لم تربطهم معهم رابطة، و لم یعترفوا بصحة تلک الولایة الجائرة، فلا یصح لهم السکوت عن معارضتها و هم غاصبون للخلافة ظالمون لنظام الحکم الإسلامی الذی جعلوا منه ملوکیة مستبدة و مؤسسة ظالمة لا تمت إلی قیم العدل الإسلامی إلا بالاسم، لذلک سلکت السلطة طرق المکر و الخداع و التمویه علی الناس، حتی بلغ بهم الأمر إلی وضع الأحادیث بخروج الشیعة عن الإسلام کما مر بیانه، و هی تدل بمنطوقها علی تحلیل دمائهم و معاملتهم معاملة الکفرة، و هیهات أن

1- 1) تاریخ بغداد ج 5 ص 73. [1]

2- 2) تاریخ بغداد ج 5 ص 73. [2]

3- 3) شذرات الذهب ج 3 ص 226.

ينطبق ذلـک على الواقع، و رجال الأمـة لـم يكونوا بتلک الدرجـة من الجهل و عـدم المعرفـة بحيث يجهلون الشـيعة و ما لهم من الأثر فى المجمع الإسلامى، فقبول مثل تلک المنكرات أمر شاق يصعب تحقيقه و يبعد نجاحه، و لكن السلطة بذرت تلک البذرة فى أذهان السواد و جعلت تتعهـدها و تحسن رعايتها بيـد علماء السوء، الذين اتخذوهم أعوانا فى ساعة هم أحوج إليهم فيها من السـيف و الجند، فقوة فتكهم أثمرت الشحناء بين أفراد المجتمع الإسلامى، و تركوا له قرحة دامية فى جسم الأمة أعجز رجال الإصلاح علاجها حتى أيامنا هذه. و قد كان أولئک الـدجالون على أنواع فى الوضع، و اختلاف فى الغايـة. فمنهم من يضع الحديث طمعا فى الدنيا و تزلفا لولاة الأمر و هم الذين نعبر عنهم بلجنة الوضع، و أول من اتخذ ذلک معاوية بن أبى سـفيان (1)كما تقـدم معنا. و منهم من كان يتعصب لمبدئه فيضع الحديث تقوية له، و مخالفـة لخصـمه و يعـدون ذلک تدينا، و سـينالون الجزاء عليه يوم الجزاء. و منهم من يضع الحديث فى نصـرة مذهبه، و هؤلاء يرون الانتصار لمذهبهم انتصارا للحق و مقاومة للباطل، و زين لهم الشيطان أعمالهم فراحوا يضربون الأحاديث بمهارة، و يخلقون الحكايات و القصـص. و يطول بنـا الحـديث إذا أردنا التوسع فى البحث عن الوضاعين و الكـذابين، و لعل لنا فى الوقت متسـعا فننشـر أسـماءهم، و قد أحصـى شـيخنا الأمينى منهم عـددا بلغ سـتمائة و عشـرين، و مجموع ما وضـعوه من الأحاديث و ما قلبوا أسانيـده على اختلاف الأهواء و النزعات فكان 408324 حديثا (2). و قد أخرجنا من تلک الموضوعات ما يقارب الأربعمائة فى الفضائل و المناقب و فى بعضـها أساطير لا ـ أحـاديث، و حكايات يصـنعها القصاصون بمهارة و يبثونها بين الناس. و من أعظم تلک الافتعالات هى أسـطورة ابن سـبأ التى لا زالت تحتل مكانتها فوق صفحات التاريخ و تأخذ وقتا من كتّاب عصرنا الحاضر.

1- 1) انظر شرح النهج ج 1 ص 258. [1]

2- 2) الغدير ج 5 ص 245. [2]

و لعمری إنها محنة و لکن کیف المخرج؟ و هل یتسنی لنا تصفیة الحساب لنعالج هذه المشاکل؟ کیف و قد سری داؤها فی المجتمع، و أخذها المهرجون مأخذ القبول و جعلوها بمحل الاعتبار، و راحوا یؤیدون تلک الموضوعات إذ وافقت أغراضهم، و جعلوها فی منهاج الاحتجاج، و لم یتلفتوا لحالها و حال رواتها ممن أعماه التعصب، فضعفت مواهب إدراکه، و لم یستطع تمییز الحق من الباطل، و قد خانه الاتزان و التعقل، فهوس و هرج و موّه و افتری، و حاول إخفاء حقیقة لا یمکن إخفاءها.

القصاصون و أثرهم فی المجتمع:

و لا بد لنا من الإشارة إلی بعض أعمال القصاص و ما لهم من الأثر فی توجیه الرأی العام لقبول تلک المنکرات عند العامة. فإنهم قاموا فی المساجد و الجوامع و الطرقات و الأندیة یبثون تلک المنکرات نصرة للسلطة، و تأییدا للمبادئ المبتدعة، و لقد اتخذت السیاسة منهم سلاحا فاتکا. فکانوا ینشرون القصاصین فی ساحات الحرب یشجعون الجند علی التضحیة حتی تطورت الحالة إلی اختراع الأحادیث و القصص لإیقاع الفتن بین طوائف المسلمین. و لقد خضعت العامة لتصدیقهم و قبول مفتعلاتهم، حتی أصبح من العسیر الإنکار علیهم. یحدثنا الشعبی: أنه أنکر علی قاص حدث عن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أن اللّه خلق صورین، له فی کل صور نفختان. فقال الشعبی: اتق اللّه یا شیخ و لا تحدث بالخطإ إن اللّه لم یخلق إلا صورا واحدا. فقال القصاص: یا فاجر إنما حدثنی فلان عن فلان و ترد علیّ؟ ثم رفع نعله فضربه، و تتابع القوم علیه بالضرب فما خلص نفسه حتی حلف ان اللّه خلق ثلاثین صورا فی کل صور نفخة (1). و حدث أحدهم بحدیث عن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أن من بلغ لسانه أرنبة أنفه لم یدخل النار. فلم یبق أحد منهم إلا و أخرج لسانه یومیء به إلی أرنبة أنفه (2).

1- 1) تحذیر الخواص للسیوطی.

2- 2) الأغانی ج 12 ص 5. [1]

و أنكر الطبرى على قاص ببغداد ما يحدث به من الأكاذيب فرمى العامة باب دار الطبرى بالحجارة حتى سدوه، و صعب الخروج منه. و نزل القصاص إلى غمار العامـة يقصون لهم القصـص الدينية، و الأساطير و النوادر فى المساجد و الطرق، و ينالون بها مالا كثيرا، و كان يجتمع إليهم الرجال و النساء. قال ابن الجوزى فى المنتظم: و كان القصاص فى أواخر القرن الرابع أكبر مثيرى الفتن بين السنة و الشيعة. و على أى حال فلو حاولت أن أصف هنا عظيم الأثر الـذى تركته تلك الأوهام و الأكاذيب التى وضـعها الـدجالون و القصاصون الذين يلقنون العوام إياها و بالأخص بغض الشـيعة و عداء أهل البيت لطال بنا الحديث، و عظمت قائمة الحساب، و لكنا نقتصر على هذا القدر و لا نلم بجميع العوامل التى دفعت الناس إلى التهجم على الشـيعة، فـذلك يحتاج إلى وقت طويل، و صـفحات تزيد على صـفحات هذا الكتاب. و لهذا نقتصـر على نتيجة واحدة فى تصـفية الحساب، و هى لفت نظر أبناء العصـر الحاضـر إلى رعاية حقوق الأمة، و أن يسـتعرضوا تاريخ الشيعة بـدون تعصب و تحيز، و أن يلحظوا تطور المـذهب الجعفرى و سـيره فى طريق التقـدم بما لـديه من القوى الحيويـة، و القدرة على مقاومة الطوارئ، و تخطى تلك الحواجز التى وقفت فى طريقه، ما لو وقف بعضها فى طريق غيره من المذاهب لما استطاع أن يخطو خطوة واحدة، لأنها عوامل جبارة تجعله أقوى من كل ظرف و معترك يختلقه الظلمـة و الجبارون و سـيبقى على هـذه القوة محتفظا بعوامل البقاء و الدوام حتى تظهر دولـة الحق و تقوم الساعـة. على أن المـذهب الجعفرى ليس باسـتطاعة أى أحـد مؤاخـذته بشـىء فى ذاته، فهو موافق للشـعور المتطور و الوجدان، و لكتاب اللّه العزيز، و السنة المستقيمة، و قد وجد العقل السليم فيه بغيته، كما أن باب الاجتهاد مفتوح على مصراعيه و قد برهن بغزارة مادته، و مرونة أحكامه، و دقة بحوثه، و سـلامة قواعده، و نقاوة أصوله و فروعه على أنه أقوى مصدر للتشـريع الإسـلامى، و يتطور مع الزمن و مع كثرة الحوادث. و لكن المؤسف أن نرى الكثير ممن كتبوا عن التشريع الإسلامى قد اقتصروا

على ذكر المـذاهب الأربعة فحسب، و إذا انجر الحديث إلى ذكر اختلاف الآراء و تعدد الأقوال فى مسألة فقهية ذكروا آراء رؤساء المذاهب البائـدة و لم يـذكروا أقوال أهل البيت و آراءهم. عـذرنا أولئک القوم الذين دونوا الفقه فى العصور الغابرة لأن الخشـية من ذكر مذهب أهل البيت قـد أرغمتهم على الإـعراض عن ذكره، فـإن التعرض لـذلک إنمـا هو تعرض للخطر، و لكنا نعجب من المتأخرين الـذين ساروا تلک السيرة الملتوية، و لم يعطوا مذهب أهل البيت حقه من العناية فى البحث. و لا يستبعد أن التقليد من حيث هو قد دعاهم لمخالفة الواقع، و إلا فما المانع من التعرض لذكر مذهب أهل البيت عند ما يكتبون عن التشـريع الإسـلامى؟ و قد انتشر فى أقطار الأرض، و عبر إلى ما وراء البحار، و أصـبح مؤيـدوه يتجاوز عـددهم التسـعين مليونا، و لكن هناک عوامل حالت بينهم و بين الاحتكاک بمذهب أهل البيت، و ليس عليهم كلفة فى معرفته إلا أن يقرءوا الكتب المدونة فى ذلک ليقفوا على الحقيقة و عليهم أن يتقبلوا الحق و إن كان مرّا، أو يرفضوه إن وجدوا لـديهم أدلـة عقلية. و لعل تلک الدعايات المارة الذكر قد خامرت الأدمغة، و توارثتها الأجيال و هى التى أدت إلى ابتعادهم عن الحقيقة. و لذلک عجز المصلحون عن مسألة التوفيق بين المسلمين، و رفع سوء التفاهم، مع ما بذلوه من النصح و أجهدوا أنفسهم لتحقيق هذه الغاية، و هذا أمر غريب جدا فإنه لم يكن هناک شـىء من الأمور المتضادة التى لا يمكن بحثها، و الوقوف على حقيقتها، حتى أصـبح من الصعب التوفيق بين المسـلمين، و نبـذ تلک الخلافات، فالشـيعة لم يكن لهم مذهب يخالف بأحكامه كتاب اللّه و سـنة رسوله. و أرى من الخير أن أتعرض هنا لما ذكره المقدسـى فى كتابه «أحسن التقاسـيم» عن عدول الناس عن مذهب الشـيعة-بالأخص-فى أربع مسائل، و نجيب عن ذلک باختصار من القول، و موجز من البيان.

عدول الناس عن المذاهب:

اعلم أن الناس قـد عـدلوا عن مـذهب أبى حنيفـة فى أربع: صـلاة العيـدين إلا بزبيـد، و صدقة النخيل، و توجيه الميت عند الموت، و التزام الأضحية. و عدلوا عن مذهب مالک فى أربع: الصلاة قدام الإمام إلا بالمغرب و يوم

الجمعـة بمصـر، و فی أكل لحوم الكلاب (1)إلاـ بمـدينتين بالمغرب تباع جهرا، و تطرح فی عرائس مصـر و يثرب سـرا، و فی الخروج من الصـلاة بتسليمة واحدة. و عدلوا عن مذهب الشافعی فی أربع: الجهر بالبسملة إلا بالمشرق فی مساجد أصحابه، و كذلک القنوت بالفجر، و فی اختصار النيـة فی تكبيرة الافتتاح، و فی ترک القنوت فی الوتر. و عـدلوا عن مـذهب داود فی أربع: تزويج ما فوق الأربع، و إعطاء الانثيين النصف، و لا صـلاة لجار المسـجد إلا فی المسجد، و فی مسألة العول. و عدلوا عن أصحاب الحديث فی أربع: المتعة فی الحج، و المسح علی العمامـة، و ترک التيمم فی الرمـل، و انتفاء الوضوء فی القهقهـة. و عـدلوا عن مـذهب الشـيعة فی أربع: المتعـة، و وقوع طلاق الثلاث واحـدة، و المسـح علی الرجلين، و الحيعلة فی الأذان. و تلک المسائل التی عدلوا فيها عن المذاهب موجودة فی كتب الفقه، و لا حاجة بنا إلی التعرض لذكرها لأنا قد أفردنا بحثا خاصا بالفقه و سـيأتی، نعم الشیء المهم هو النظر فی هذه المسائل التی يقول فيها المقدسی بعدول الناس عنها فی المذهب الجعفری، فهل هی بدعة فتركها الناس أم انها من المسائل المقررة فی الشـريعة الإسـلامية؟ فلا بد لنا من البحث- بإيجاز-عن هذه المسائل لنری ما هو الحق:

المتعة و تشريعها:

أما عدولهم عن متعة النساء فإنما هو عدول عما شرعه اللّه و رسوله للمسلمين و قد عمل به أصحابه من بعده مدة خلافة أبی بكر، و شطرا من خلافة عمر، و اسـتمروا علی العمل بها حتی نهی عنها عمر بقوله: «متعتان كانتا علی عهد رسول اللّه صـلّی اللّه عليه و آله و سلّم و أنا أنهی عنهما و أعاقب عليهما: متعة الحج و متعة النساء» فإباحة المتعة مقطوع به علی عهد النبی صـلّی اللّه عليه و آله و سلّم و ادعاء النسخ لذلک الحكم لا يثبت. و كان ابن عباس حبر الأمـة يأمر الناس بالمتعة، و كان ابن الزبير ينهی عنها فذكر ذلک لجابر فقال: علی يدی دار الحديث تمتعنا مع رسول اللّه صلّی اللّه عليه و آله و سلّم فلما قام عمر

1- 1) سيأتی الكلام فی الجزء الثانی حول جواز أكل الكلاب فی مذهب مالک.

قال: إن اللّه كان يحل لرسوله ما شاء بما شاء، فأتموا الحج و العمرة و أبقوا نكاح هذه النساء، فلن أوتى برجل نكح امرأة إلى أجل إلا رجمته بالحجارة. و أخرج مسلم فى باب نكاح المتعة من صحيحه عن أبى نضرة قال: كنت عند جابر بن عبد اللّه فأتاه آت فقال: إن ابن عباس و ابن الزبير اختلفا فى المتعتين فقال جابر: فعلناهما مع رسول اللّه، ثم نهانا عنهما عمر فلم نعد لهما. و قد ذهب إلى القول بها جماعة من أصحاب النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كأمير المؤمنين على عليه السّلام كما روى عنه أنه قال: لو لا أن عمر نهى عن المتعة ما زنى إلا شقى. و منهم عبد اللّه بن عباس و كان يقول: ما كانت المتعة إلا رحمة رحم اللّه بها أمة محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لو لا نهيه (يعنى عمر) عنها ما احتاج إلى الزنا إلا شقى. و منهم عبد اللّه بن عمر، أخرج الإمام أحمد فى مسنده من حديث عبد اللّه بن عمر قال: سأل رجل ابن عمر عن متعة النساء فقال: و اللّه ما كنا على عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم زانين و لا مسافحين. و منهم عبد اللّه بن مسعود قال: كنا نغزو مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و ليس لنا شىء، فقلنا أ لا نستخصى؟ فنهانا عن ذلك، ثم رخص لنا أن ننكح المرأة بالثوب إلى أجل. ثم قرأ عبد اللّه: يا أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّباتِ ما أَحَلَّ اَللّٰهُ لَكُمْ وَ لا تَعْتَدُوا إِنَّ اَللّٰهَ لا يُحِبُّ اَلْمُعْتَدِينَ (1)[المائدة:78]. و أخرج البخارى عن جابر بن عبد اللّه و سلمة بن الأكوع أنه قال: كنا فى جيش فأتانا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فقال: إنه قد أذن لكم أن تستمتعوا فاستمتعوا (2). و أخرج مسلم عن عمران بن الحصين أنه قال: تمتعنا مع رسول اللّه و لم ينزل فيه القرآن، قال رجل برأيه ما شاء (3). و على أى حال فإن تشريع زواج المتعة فى الإسلام بشروطه المعتبرة فيه قد اتفق عليه السنة و الشيعة، و دل عليه القرآن الكريم كقوله تعالى: فَمَا اِسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً [النساء:24].

1- 1) صحيح مسلم ج 4 ص 129.

2- 2) نيل الأوطار للشوكانى ج 6 ص 124.

3- 3) صحيح مسلم ج 2 ص 48.

و على هذا الاتفاق ساروا على القول بها فى عهد النبى صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أيام أبى بكر و شطرا من عهد عمر إلى أن نهى عنها كما مر، فـافترقوا عنـد هـذا الحـد، فالشـيعة أخـذوا بحليتهـا و لـم يتركوا قول رسول اللّه لقول عمر. و لـم يحل ذلک من أن يقول فيها جماعـة من الصـحابة، منهم جابر بن عبد اللّه و ابن مسعود، و معاوية، و عمرو بن حريث، و أسماء بنت أبى بكر، و أبو سعيد و سلمة ابنا أمية بن خلف و غيرهم. و قال بها جماعـة من التابعين منهم طاوس، و عطاء، و سـعيد بن جبير و سائر فقهاء مكـة (1). و سيأتى تفصيل البحث فى الأجزاء القادمة إن شاء اللّه.

الطلاق الثلاث واحدة:

اتفقت الإماميـة على أن طلاق الثلاث واحدة، فلو طلقها ثلاثا بدون مراجعة لم تحرم عليه، و يجوز له مراجعتها و لا تحتاج إلى محلل. نعم الطلاـق المحرم الـذى لاـ تحل المطلقـة بعـده لمطلقها إلا بالمحلل الشـرعى، إنما هو لو طلقها ثم راجعها و هكـذا ثلاثا حرمت عليه فى الطلاق الثالث، و هو المسـبوق برجعتين مسبوقتين بطلاقين، و حينئذ لا تحل المطلقة بعد لمطلقها حتى تنكح زوجا غيره، و به جاء التنزيل اَلطَّلاقُ مَرَّتانِ فَإِمْساکٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْـرِيحٌ بِإِحْسانٍ [البقرة:229]إلى قوله عز و جل: فَإِنْ طَلَّقَها فَلا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْـدُ حَتّى تَنْكِـحَ زَوْجاً غَيْرَهُ [البقرة: 230]. و قـد خالف الأكثر من علماء السـنة، فجعلوا قول الزوج لزوجته: أنت طالق ثلاثا يوجب تحريمها و لا تحل إلا بالمحلل، و قـد كـان على عهـد رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم يعـد طلاق الثلاث واحـدة، كـذلک فى أيام أبى بكر و شـطرا من عهـد عمر بن الخطاب. أخرج مسلم فى صحيحه بسند عن ابن عباس أنه كان الطلاق على عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم، و أبى بكر و سنتين من عهد عمر طلاق الثلاث واحدة، فقال عمر بن

1- 1) صحيح مسلم ج 4 ص 183.

الخطاب: إن الناس قـد اسـتعجلوا فی أمر قد کانت لهم فیه أناة: فلو أمضـیناه علیهم، فأمضاه (1)و جعل البتة واحدة (2). و أخرج عن أبی الصـهباء أنه قال لابن عباس: أتعلم أنما کانت الثلاث تجعل واحدة علی عهد النبی صـلّی اللّه علیه و آله و سلّم و أبی بکر و ثلاث من إمارة عمر فقال ابن عباس: نعم (3). و أخبر رسول اللّه صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم عن رجل طلق امرأته ثلاث تطلیقات جمیعا، فقام صلّی اللّه علیه و آله و سـلم غضبان ثم قال: أ یلعب فی کتاب اللّه و أنا بین أظهرکم (4). و عن ابن عباس أن رکانـة طلق زوجته ثلاثا فی مجلس واحد فحزن علیها حزنا شدیدا فسأله رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم: کیف طلقتها؟ قال: ثلاثا. قال صلّی اللّه علیه و آله و سلم: فی مجلس واحد؟ قال: نعم. قال صـلّی اللّه علیه و آله و سلم: إنما تلک واحدة فارجعها إن شئت (5). و أخرج الترمذی بلفظه عن عبد اللّه بن یزید بن رکانة عن أبیه عن جده قال: أتیت النبی (صلی الله علیه و آله) فقلت: یا رسول اللّه إنی طلقت امرأتی البتة؟ فقال: ما أردت بها؟ قلت: واحدة. قـال: و اللّه، قلت: و اللّه. قال: فهو ما أردت (6). قال الآلوسـی فی تفسـیره: و فی وقوع الثلاث بلفظ واحد و کذا فی وقوع الطلاق مطلقا فی الحیض خلاف، فعنـد الإمامیة لا یقع الطلاق بلفظ الثلاث و لا فی حالة الحیض، لأنه بدعة محرمة و قد قال صـلّی اللّه علیه و آله و سـلم: «من عمل عملا لیس علیه أمرنا فهو رد» و نقله غیر واحد عن ابن المسـیب و جماعة من التابعین. قال الشوکانی: وقع الخلاف فی الثلاث إذا وقعت فی وقت واحد، هل یقع جمیعها و یتبع الطلاق أم لا؟ ثم ذکر القائلین بالوقوع: و هم أئمة المذاهب الأربعة و غیرهم ثم قال: و ذهب بعض من أهـل العلم: لا یتبع بل یقع واحـدة فقط، و حکی ذلک عن أبی موسـی، و روایـة عن علی علیه السّلام، و ابن عباس، و طاوس، و عطاء، و رجاء، و الهادی و القاسم، و الباقر، إلی آخره.

1- 1) صحیح مسلم ج 4 ص 183.

2- 2) صحیح الترمذی ج 5 ص 133. [1]

3- 3) صحیح مسلم ج 4 ص 183.

4- 4) نیل الأوطار للشوکانی ج 4 ص 226.

5- 5) نیل الأوطار للشوکانی ج 4 ص 226.

6- 6) صحیح الترمذی ج 5 ص 131. [2]

و الحاصل أنه لا خلاف عند المسلمين بوقوع الطلاق الثلاث واحدة، فی عهد النبی و أبی بکر و شطرا من إمارة عمر، و بعد ذلک ألزم عمر الناس بوقوع مثل هذا الطلاق اجتهادا منه، و عند هذه النقطة تفترق الشیعة عن السنة، فالشیعة یأخذون بقول النبی و یتبعون ما شرعه و لا یلتزمون بتنفیذ اجتهاد عمر و ترک تلک النصوص الدینیة المقدسة من الکتاب و السنة، فقد دعته مصلحة رآها و لکن المصلحة عندنا هی اتباع الرسول امتثالا لقوله تعالی: وَ ما آتاکُمُ اَلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ ما نَهاکُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا [الحشر:7]. یقول الأستاذ الغزالی: و جمهور الفقهاء الأقدمین جعلوه بدعیا و یقع الطلاق به و هم فی هذا یتبعون اجتهاد عمر رضی اللّه عنه إلی أن یقول: و بدلا من أن یلتزموا منهج السنة آثروا البدعة المحرمة، و نطقوا بالطلقات الثلاث دفعة واحدة، و کان ذلک إذا حدث فی عهد النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم غضب منه أشد الغضب و لم یجعله إلا واحدة (1).

المسح علی الرجلین:

المسح علی الرجلین مشروع علی عهد رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله کما رواه الجمهور عن معلی بن عطاء عن أبیه عن إدریس بن أبی أویس الثقفی: أنه رأی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم توضأ و مسح علی قدمیه. و أخرج مسلم فی صحیحه عن عبد اللّه بن عمر أنه قال: تخلف عنا رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فأدرکنا و قد حضرت الصلاة، فجعلنا نمسح علی أرجلنا فنادی: «ویل للأعقاب من النار» . قال القرطبی: و هذا الأثر و إن کانت العادة قد جرت بالاحتجاج به فی منع المسح فهو أدل علی جوازه منه فی منعه، لأن الوعید إنما تعلق فیه بترک التعمیم لا بنوع الطهارة بل سکت عن نوعها، و ذلک دلیل علی جوازه و وجوب المسح هو أیضا مروی عن بعض الصحابة و التابعین. و الغرض أن أهل السنة اختلفوا فی فرض الرجلین، فقال قوم: فرضهما المسح. و قال آخرون: فرضهما الغسل و ذهب بعضهم إلی التخییر بین المسح و الغسل، کما هو مذهب ابن جریر و داود الظاهری و غیرهما.

1- 1) حقوق الإنسان للأستاذ محمد الغزالی 172. [1]

أما الشيعة فاتفقوا على وجوب المسح لدلالة الآية الكريمة و هو قوله تعالى: وَ اِمْسَحُوا بِرُؤُسِكُمْ وَ أَرْجُلَكُمْ [المائدة:6]بالنصب عطفا على موضع برءوسكم كما هو المعروف باللغة العربية و هو كالعطف على المحل، و قرأ غيرهم بالخفض على المجاورة، و هو شاذ فى اللغة ورد فى مواضع لا يلحق بها غيرها و لا يقاس عليها سواها، و لا يجوز حمل كتاب اللّه على الشذوذ الذى ليس بمعهود و لا مألوف، و الإعراب بالمجاورة إنما يكون عند من أجازه، عند فقدان حرف العطف. و قد صح فى صفة وضوء النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من طريق أهل البيت أنه غسل وجهه و ذراعيه ثم مسح رأسه و قدميه، و صح عن ابن عباس أنه قال: ما أجد فى كتاب اللّه إلا غسلتين و مسحتين. و سنقف على بيان ذلک فى الجزء الخامس من هذا الكتاب إن شاء اللّه.

الأذان و حيّ على خير العمل

إن كلمة «حى على خير العمل» كانت على عهد النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم جزءا من الأذان و من الإقامة، و لكنهم ادعوا نسخها بعد ذلک، و الصحيح أنها كانت على عهد النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم و أبى بكر و شطرا من عهد عمر، و لكنه نهى عنها كما نهى عن متعة النساء (1)و لقد أبدلوا مكانها كلمة الصلاة خير من النوم، كما يروى مالک بن أنس فى موطأه: أن المؤذن جاء إلى عمر بن الخطاب يؤذنه بصلاة الصبح فوجده نائما فقال: الصلاة خير من النوم، فأمره عمر أن يجعلها فى نداء الصبح، قال الزرقانى فى شرح الموطأ: هذا البلاغ أخرجه الدارقطنى فى السنن من طريق وكيع فى مصنفه عن العمرى عن نافع عن ابن عمر عن عمر أنه قال لمؤذنه: إذا بلغت حى على الفلاح فى الفجر فقل: الصلاة خير من النوم، الصلاة خير من النوم. و لا وزن لما جاء عن محمد بن خالد بن عبد اللّه الواسطى أن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم استشار الناس لما ينبههم إلى الصلاة، فذكروا البوق فكرهه من أجل اليهود، ثم ذكروا الناقوس فكرهه من أجل النصارى، فأرى النداء تلک الليلة رجل من الأنصار يقال له عبد اللّه بن زيد و عمر بن الخطاب فطرق الأنصارى رسول اللّه ليلا، فأمر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بلالا فأذن به. أما رجل هذه الرواية و هو محمد بن خالد بن عبد اللّه الواسطى كذاب لا يصح

1- 1) الفصول المهمة [1]للحجة شرف الدين.

أخـذ الأحاديث عنه، و قد نص على ذلک يحيى بن معين، و ضـعفه أبو زرعة، و أنكر عليه ابن عدى أحاديثه، و قال يحيى: هو رجل سوء فلا يلتفت إلى ما يرويه فى تشـريع الأذان على الرؤيا، و قد ذكر الناس رؤيا عبد اللّه بن زيد فى تشـريع الأذان فلما سـمع الحسـين بن على عليه السّـلام غضب و قال: الوحى ينزل على الرسول و يزعمون أنه أخـذ الأذان عن عبد اللّه بن زيد و الأذان وجه دينكم، و لقد سـمعت أبى على بن أبى طالب عليه السّـلام يقول: أهبط اللّه ملكا عرج برسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلى السماء إلى أن قال: و بعث اللّه ملكا لم ير فى السماء قبل ذلک الوقت فأذن و أقام و ذكر كيفية الأذان، ثم قال جبرئيل للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم: يا محمد هكذا أذن للصلاة. و قـد أجمعت الإمامية على كون الأذان من الأحكام التى نزل بها الوحى من اللّه لا يرجع ذلک إلى رؤيا كما يقولون، و كلمة «حى على خير العمل» جزء من الأذان، و قول: «الصـلاة خير من النوم» ، إنما هو من اجتهادات الخليفـة عمر، و قـد صح عن ابنه عبد اللّه أنه كان يقول فى أذانه: «حى على خير العمل» و كـذلک امامـة بن سـهل بن حنيف كما ذكره ابن حزم فى المحلى و كان أهل البيت يأتون بها لثبوتها و عدم دليـل على نسـخها، و أذّن بها الحسـين بن على صاحب فـخ (1)و على ذلک اسـتمرت الشـيعة فى اتباع أهل البيت عليهم السـلام و عـدم الرجوع لغيرهم و كان ذلک شـعارهم فى جميع الأدوار. و الغرض أن هـذه الأمور التى يقول عنها المقدسـى بعدول الناس فيها عن مذهب أهل البيت لم تكن من الأمور المبتدعـة بل هى مقررة فى الإسـلام. و سـيأتى فى مباحث الفقه مزيـد بيان حول هـذه المسائل و غيرها. أما المسائل التى عدل عنها الناس-كما يقول المقدسى-عن المذاهب الأخرى فلا يسع المجال للبحث عنها هنا.

1- 1) ظهر الحسين بن على بن الحسن السبط بالمدينة المنورة، و كان معه جماعة من الطالبيين و حاربه عامل العباسيين فهزمه الحسين و بايعه الناس على كتاب اللّه و سـنة رسوله للمرتضى من آل محمد (صلى الله عليه و آله) و أرسل له العباسيون جيشا فقتل يوم التروية بفخ و مما هو جدير بالذكر أن موسى بن عيسى العباسى أرسل رجلا إلى عسكر الحسين حتى يراه و يخبره عنه، فمضى الرجل و رجع و قال له: ما أظن القوم إلا منصورون فقال: و كيف ذاک يا ابن الفاعلة؟ قال الرجل لأنى ما رأيت فيهم إلا مصـليا أو مبتهلا أو ناظرا فى مصـحف أو معدا للسـلاح، فضـرب موسـى يـدا على يد و بكى ثم قال: هم و اللّه أكرم خلق اللّه، و أحق بما فى أيدينا منا، و لكن الملک عقيم لو أن صاحب هذا القبر يعنى النبى (صلى الله عليه و آله) نازعنا الملک ضربنا خيشومه بالسيف.

و كيف كان فإن مذهب أهل البيت يرتبط بكتاب اللّه و سنة رسوله ارتباطا وثيقا و لا دخل فيه للرأى و لا للقياس، كما أنه بعيد كل البعد عما أحيط به من تهم رماه بها خصومه كما أوضحنا ذلک فى الأبحاث السابقة. و هنا نقف عن مواصلة البحث عما حل بالمسلمين من عوامل الفرقة من جراء الخلافات التى أوهنت الكثير من روابطهم و كدرت صفو مودتهم. و كان التعصب هو العامل القوى فى قطع تلک الروابط و المعول الهدام لصرح الأخوة الإسلامية. و الآن نتحول للبحث عن حياة أئمة المذاهب بعد أن تعرضنا لبيان نشأة المذاهب و عوامل انتشارها. و فى هذا الجزء سنعرض لحياة الإمام أبى حنيفة من حيث نشأته و مقومات شخصيته، و فى الجزء الثانى لحياة الإمام مالک بن أنس، و فى الجزء الثالث لحياة الإمام الشافعى، و فى الجزء الرابع لحياة الإمام أحمد بن حنبل. أما البحث عن الإمام الصادق فلم نقتصر عليه فى جزء واحد، بل التزمنا أن نذكر طرفا من أخباره فى كل جزء ابتداء من الجزء الأول. و لا أقول بأنى قد استوفيت البحث فى هذه الموسوعة عن حياة الإمام الصادق و ما له من آثار و مآثر، و مناقب و مفاخر فدراسة حياته لا تستوفى بسهولة، و إن ذلک أمر يشق على الباحث مهما أنفق من جهد فى هذا السبيل و فى أى ناحية يسلک فى دراسة حياته عليه السّلام ليفرغ منها فراغا تاما و يحيط بها إحاطة تامة فإنه يجد نفسه فى البداية لا فى النهاية. و ليس ذلک لغموض يكتنف جوانب عظمته، أو وجود زوائد فى دراسة حياته، أو اندفاع وراء العاطفة لرفع مكانته و علو مقامه، فهو أرفع من ذلک. و إنما اتساع دائرة معارفه، و تعدد نواحى شخصيته، و عظيم أثره فى بعث الفكر الإسلامى، و جهاده المتواصل فى سبيل إسعاد الأمة، و رفع مستوى المجتمع الإسلامى، هو سبب فى قصور الباحث عن إدراک الغاية المطلوبة فى الدراسة عن شخصيته عليه السّلام و النفوذ إلى معرفة كنهها. و إن العلم و الحق لكفيلان بإظهار مآثر الإمام، و للعلم حكمه، و للحق اتباعه، و نسأل اللّه التسديد و هو ولى التوفيق.

الإمام أبو حنيفة

تمهيد:

ذكرنا فى الأبحاث السابقة أسباب نشأة المذاهب الإسلامية و انتشارها بكثرة، و تعرضنا لذكر المذاهب التى أصابها الخمول و التأخر فكان نصيبها الفناء و الإبادة بعد مدة، و لم يبق منها لإخواننا أبناء السنة إلا المذاهب الأربعة: الحنفى، المالكى، الشافعى، الحنبلى. و قد سارت هذه المذاهب فى طريق الانتشار و الشهرة، و لم يعرض لها أى عارض، و لم يواجهها أى خطر يعرقل حركة السير، فكتب لها الخلود و أصبح المعول عليها اليوم. و الآن و قد انتهى بنا السير فى البحث عن أئمة المذاهب الأربعة لنأخذ صورة عن كل واحد منهم بدون تعصب لهم أو عليهم، فإن الباحث إذا أطل من زاوية التعصب الضيقة لا يهتدى إلى الواقع و لا يعرف الأشياء بحقيقتها، و ليكن ابتداء التعرف على الإمام أبى حنيفة أولا و ذلک من حيث الرتبة الزمنية لا رتبة الأفضلية و الأولوية فذاک أمر يعود لغيرنا. و إن ما اتصل بنا من أخبار أبى حنيفة من طريق المغالين فيه أو المتحاملين عليه لا يوضح لنا نهج الوصول إلى الغاية. فإذا أردنا أن نتعرف على شخصية أبى حنيفة لنعرف مكانته فى ذلک العصر و أهميته فى مجتمعه، يلزمنا مناشدة الرجال الذين عاصروه، و لا ننظر إليه من زاويتى الغلو أو التعصب، لأنا نطلب الحقيقة و نتبع الحق بلا- تعصب له و عليه، فإن رجلا قد أصبح مرجعا للفتيا لكثير من المسلمين يقتدون بأقواله، و يتمذهبون بمذهبه، فهو من الأهمية بمكان فلنبحث عن شخصيته لنأخذ عنها صورة عن طريق البحث المتجرد عن التحيز و التعصب.

ص:297

>الإمام أبو حنيفة: < هو النعمان بن ثابت بن زوطى بن ماه ولد سنة 80 ه-و توفى ببغداد سنة 150 ه-767 م. و كان جده زوطى (بضم الزاء و سكون الواو و فتح الطاء) من أهل كابل و قيل من مدينة نسا، أو من أهل بابل، و قد أسر عند فتح العرب لتلك البلاد و استرق لبعض بنى تيم بن ثعلبة، ثم أعتق، فكان و لاؤه لهذه القبيلة. و قد وقع الاختلاف فى نسب أبى حنيفة، فالمتعصبون له ينفون عنه الرق، و يدعون له نسبا عربيا مرة و فارسيا لم يقع عليه الرق أخرى، و الصحيح أن أبا حنيفة فارسى النسب، تيمى الولاء، كوفى النشأة. و كذلك وقع الخلاف فى محل ولادته، من جهة مقام أبيه فقيل: ترمذ. و قيل نسا. و قيل الأنبار أو الكوفة، كما أننا لم نقف على تاريخ حياة أبيه ثابت، و سنة وفاته و مدة معاشرة أبى حنيفة له. نعم يروى عن أبى حنيفة أنه قال: حججت سنة 96 ه-، أو 99 ه-مع والدى و أنا ابن تسع عشرة سنة، فلما دخلت المسجد الحرام رأيت حلقة فقلت لأبى: حلقة من هذه؟ فقال: حلقة عبد اللّه بن الحارث الخ. و هذا شىء بعيد عن الصحة: لأن وفاة عبد اللّه بن الحارث كانت فى سنة 85 ه- بمصر كما سنوضح ذلک فى بحثنا حول سماع أبى حنيفة من الصحابة. و مهما يكن من أمر فإنا لم نقف على أخبار والده، و تاريخ حياته، و هل ولد على الإسلام، أم أنه أسلم بعد فتح العرب لبلاده، و استرقاق أبيه؟ و يقولون إن زوطى جده أهدى للإمام على عليه السّلام فالوذجا يوم النوروز، و كان ثابت صغيرا فدعى له الإمام على عليه السّلام بالبركة. أما أمه فلم يتعرض التاريخ لذكرها بالتفصيل، و قد ذكر لها أخبارا معه من حيث طاعته و معاشرته لها.

مع الأستاذ عفيفى فى روايته:

و قد وافانا الأستاذ السيد عفيفى المحامى الشرعى بمصر، و محرر مجلة المحاماة الشرعية، بقصة من دون سند و هى تتكفل تعيين أم الإمام و شخصيتها و إليک نصها:

ص:298

يقول الأستاذ السيد عفيفى عند ذكره لوالد أبى حنيفة: هو ثابت بن النعمان بن المرزبان، و كان ثابت هذا يرجع إلى دين و عقل و مروءة، تصدر عن جد، فقد روى أنه كان فى شبابه ورعا زاهدا، و كان يوما يتوضأ من جدول فجاءت تفاحة فى الماء فأمسكها و أكلها بعد الفراغ من الوضوء، ثم بصق فرأى بصاقه دما فقال فى نفسه: لعل ما أكلته حرام، و إلا لما تغير بصاقى فتبع رأس الجدول، فوجد شجرة تفاحها مثل ما أكل، فطلب صاحبها و قص عليه القصة و أعطاه درهما و قال: اجعلها فى حل، فلما رأى صاحب التفاحة ورعه و صلابته فى دينه أحبه، و قال لا أرضى بدرهم و لا بألف درهم و لا بأكثر. فقال ثابت: فبم ترضى؟ قال إن لى ابنة لا ترى و لا تنطق، و لا تسمع و لا تمشى، فإن تزوجتها أجعلها فى حل، و إلا أخاصمك يوم السؤال و الحساب. فلبث ثابت فى التفكر ساعة، ثم قال فى نفسه: عذاب الدنيا أسهل و ينقضى، و عذاب الآخرة أشد و أبقى، و تزوج بها فلما دخل عليها تقبلته بقبول حسن، فاشتبه على ثابت الأمر، لأنه وجدها حسناء سميعة بصيرة ناطقة، فقالت له: أنا زوجتك بنت فلان. قال: وجدتك على خلاف ما وصفك أبوك، قالت: نعم فإنى كنت من سنين لم أطأ خارج البيت، و لم أنظر الأجانب و لم أسمع كلامهم و لم يسمعوا كلامى، فعرف ثابت الحال و قال: اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ اَلَّذِى أَذْهَبَ عَنَّا اَلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنا لَغَفُورٌ شَكُورٌ [فاطر:34]. يقص علينا الأستاذ المحامى هذه القصة غير ملتفت إلى المؤاخذات التى يؤاخذ بها بصفته مثقفا من أبناء القرن العشرين و يتولى مهنة المحاماة الشرعية. فيعلق عليها بقوله: هيهات لا يأتى الزمان بمثل ثابت، و لا بمثل صاحبته فلا عجب أن يتولد منهما ولد فى صورة الإنسان و سيرة الملك، و يحيى اللّه به دينه القويم، و يشيع مذهبه فى الأقطار، و علمه فى الأمصار و يقول: من هذا الوالد الورع الزاهد، و هذه الأم الطاهرة، ولد الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان فى مدينة الكوفة فى سنة 80 من الهجرة النبوية فى عصر الدولة الأموية فى خلافة عبد الملك بن مروان. و يقول بعد ذلك إن اسمه النعمان و هو منقول من اسم جنس و قيل إنه الدم و قيل إنه الروح، فيكون اتفاقا حسنا لأن أبا حنيفة روح الفقه و قوامه و منه منشأه و نظامه.

و نحن نسائل الأستاذ المحامی عن الأسباب التی دعته لنقل هذه الأسطورة فی مقدمة کتابه «حیاة الإمام أبی حنیفة» أ کان انتصارا للإمام لیعلن بفضله و فضل أبیه و أمه؟ و هل ضاقت علیه المسالک فی مناقب أبی حنیفة فالتجأ إلی أساطیر العجائز فی لیالی الشتاء؟ و لیته ترک هذه الأسطورة، و هو المثقف الذی یحمل شهادة المحاماة، و المفروض بالمحامی أن یحمل عقلیة قویة و فکرا واسعا یستطیع به أن یتوغل إلی أعماق معقولات القوانین. و نسائله أیضا لو قدر للشیخ عفیفی حضور تشاجر الفلاح مع ثابت و طلب کل منهما حکمه فی الأمر، أ کان یحکم علی ثابت بأنه مذنب و یلزمه بإرضاء الفلاح بکل صورة؟ و هل فی وسع الشیخ أن یحکم بصحة ما ذهب إلیه ثابت من أن التفاحة کانت حراما لذلک تحولت إلی دم؟ و کیف یکون ذلک من الوجهة الطبیة و البیولوجیة. أنا لا أدری و لعل الأستاذ محب الدین الخطیب یدری، لأنه قدم الکتاب و عرفه للقراء.

المناقب:

لعل من أهم المشاکل التی تقف أمامنا و نحن فی طریق البحث عن حیاة أبی حنیفة هی مشکلة المناقب، فإنها متضخمة إلی أبعد حد، و لا نستطیع أن ندرس حیاة أبی حنیفة دراسة صحیحة إلا بعد الفراغ من مشکلة المناقب لأنها أهم شیء فی الباب. و إن کتب المناقب تعرقل سیر الباحث بینه و بین الوصول إلی الهدف لأن فیها الإغراق فی المدح، و المبالغة فی الوصف، و نقل أخبار و حکایات بعیدة عن مقاییس الصحة، و لا نرید التعرض لکل ما قیل بل نقتصر علی مناقشة ما یدعی وروده علی سبیل البشارة و طریقة التعیین لأهلیة الاتباع. و کیف کان فقد قال أصحاب المناقب ینبغی لکل مقلد إمام أن یعرف حال إمامه الذی قلده، و لا یحصل ذلک إلا بمعرفة مناقبه و شمائله و فضائله، و سیرته فی أحواله و صحة أقواله، ثم لا بد من معرفة اسمه و کنیته و نسبه و عصره و بلده، ثم معرفة أصحابه و تلامذته. و قد ألف کل من علماء المذاهب کتبا فی مناقب إمامهم فألف الحنفیة کتبا فی

مناقب أبی حنیفـة. منها «عقود المرجان فی مناقب أبی حنیفـة النعمان» ، و مختصـره «قلائد عقود الدرر و العقیان» لأبی جعفر الطحاوی و «مناقب أبی حنیفـة» لموفق الدین بن أحمد المکی الخوارزمی المتوفی سـنة 567 ه-رتبه علی أربعین بابا، و «البسـتان فی مناقب النعمان» للشیخ محیی الدین عبد القادر بن أبی الوفاء، و «شقائق النعمان فی مناقب النعمان» للزمخشری المتوفی سنة 538 ه-و «مناقب أبی حنیفة» لمحمد بن الکردری المعروف بالبزاز المتوفی سنة 782 ه-و قـد ترجم إلی اللغة الترکیة و غیرها. و توجد مناقب کثیرة فی بطون الکتب علی اختلاف نزعات المؤلفین و أهوائهم. یقول الـدکتور أحمـد أمین: کما أن العصبیـة المذهبیـة حملت بعض الأتباع لکل مـذهب أن یضـعوا الأخبار لإعلاء شأن إمامهم، و من هذا الباب ما رووا من الأحادیث بتبشـیر النبی صـلّی اللّه علیه و آله و سلّم لکل إمام من مثل ما روی أن النبی صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم قـال فی أهل العراق: «إن اللّه وضع خزائن علمه فیهم» و مثل: «یکون فی أمتی رجل یقال له النعمان بن ثابت، و یکنی بأبی حنیفة یحیی اللّه علی یدیه سـنتی فی الإسـلام» الخ؛ حتی لقد زعموا أن أبا حنیفة بشـرت به التوراة. و کذلک فعل بعض الشافعیة فی الشافعی، و المالکیة فی مالک، و ما کان أغناهم عن ذلک. و من أجل ذلک صـعب علی الباحث معرفة التاریخ الصـحیح لکل إمام، فکلما أتی جیل زاد فی فضائل إمامه. و قد وضع أحمد بن الصلب بن المفلس أخبارا فی مناقب أبی حنیفة و کان یحکی ذلک عن بشر بن الحارث و یحیی بن معین و ابن المدینی (1). لذلک نری من اللازم البحث عن بعض المناقب التی أصبح التسلیم بصحتها أمرا مفروغا منه عند بعضـهم، و ترسل فی معرض المدح و الثناء إرسال المسـلمات. و ها نحن نضع بین یدی القراء أهم المناقب فی أبی حنیفة و نعطیه عنها صورة صادقة من حیث الصـحة و البطلان، فالعلم هو الکاشف لذلک، و التحقیق فی البحث یحل تلک المشاکل، و لا غرض لنا بهذا إلا تجرید شخصیة أبی حنیفة من أبراد الغلو فنتعرف علی واقع أمره و نخلص إلی سیرة و ترجمة حقیقیتین.

1- 1) انظر المنتظم 5-156. [1]

البشائر فی أبی حنیفة:

أورد الحنیفـة فی کتبهم أحادیث عن صاحب الرسالة صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم تنص علی البشارة بأبی حنیفة و تصـرح باسـمه، و کنیته، منها: 1-یکون فی أمتی رجل یقال له أبو حنیفة هو سـراج أمتی. 2-یکون فی أمتی رجل اسمه النعمان و کنیته أبو حنیفة. 3-یکون فی أمتی رجل یقال له النعمان بن ثابت یکنی بأبی حنیفة یحیی اللّه به سنتی. بهذا اللسان و التعبیر أوردوا هذه الأحادیث عن صاحب الرسالة و نحن نقف هنا موقف الحیرة. أ نترک هـذه الأحادیث بـدون فحص و نسدل علیها سـتار الإعراض، فالعقل السـلیم أجل من أن یحتاج إلی إیضاح مثل هـذه الأمور التی تـدل بنفسـها علی بعدها عن الواقع، أن نبحث عنها فنصـرف زمنا فی البحث لطلب الحقیقة فقط؟ نعم، البحث عنها أولی، لأنا وجـدناها فی کتب الحنفیـة المعتبرة عنـدهم، و یسـتدل بها أکثر علمائهم فی صـحة اتباع مـذهب أبی حنیفـة دون غیره، علی أن المبرزین منهم یکـذبون ذلک و ینصون علی کـذبها کما سـیأتی بیانه، إذا لا بـد لنا من البحث بإیجاز عن مصدر هذه الأحادیث و النظر فی سلسلة الرواة.

حدیث السراج و إحیاء الدین:

و هـذا الحـدیث استشـهد به کثیر من الحنفیـة فی تفضـیل أبی حنیفـة علی غیره ذاهبین إلی صـحته، فلننظر إلی سلسـلة الحدیث، و نکتفی بالبعض منها و لا نتتبع حلقاتها جمعاء فسلسـلة الحدیث تبتدئ من محمد بن سـعید البورقی، و تنتهی إلی أبی هریرة، أما محمد بن سـعید فإلیک حاله و منزلته فی الروایة لتعرف أهلیته لحمل الحدیث. قال ابن حجر: محمد بن سعید البورقی أحد الوضاعین قد وضع المناکیر علی الثقات، و أوحشـها روایته عن بعض مشایخه عن الفضل بن موسـی عن محمد بن عمر عن أبی سـلمة عن أبی هریرة مرفوعا: یکون فی أمتی رجل یقال له أبو حنیفة هو سراج أمتی، و زاد روایة أخری، و سیکون فی أمتی رجل یقال له محمد بن إدریس (یعنی

الشافعی) فتنته علی أمتی أضر من فتنة إبلیس (1). و قال حمزة السهمی: محمد بن سعید کذاب حدث ببلاد خراسان (سیکون فی أمتی رجل یقال له النعمان هو سراج أمتی) ثم حدث فی العراق بإسناده و زاد (سیکون فی أمتی رجل یقال له محمد بن إدریس فتنته علی أمتی أضر من فتنة إبلیس) و قال الحاکم: (محمد بن سعید حدیثه لیس بشیء) . و یقول ملا علی القاری و هو أکبر علماء الحنفیة و له کتاب فی مناقب أبی حنیفة: و قد أورد بعضهم فی مدح أبی حنیفة و ذکر حدیث السراج و هو حدیث موضوع. هذا و حدیث محیی الدین بهذا اللفظ أوردوه مرفوعا (سیکون رجل یقال له النعمان بن ثابت و یکنی بأبی حنیفة یحیی دین اللّه و سنتی) . و قد أجهد الموفق المکی نفسه فی تصحیح هذا الحدیث و لم یوفق، و راوی هذا الحدیث یحیی بن سلیمان عن إبراهیم بن أحمد الخزاعی عن أبی هدبة إبراهیم بن هدبة عن أنس بن مالک مرفوعا، و لا حاجة بالتعرض لرجالها أجمع و نکتفی بذکر من رواها عن أنس و هو إبراهیم بن هدبة. قال الخطیب فی تاریخه: إبراهیم بن هدبة حدث عن أنس بالأباطیل. و قال أبو حاتم و غیره: إنه کذاب خبیث و قال ابن حبان إنه من الدجاجلة کان لا یعرف بالحدیث (2). و قال بشر بن عمر کان فی جوارنا عرس، فدعی له أبو هدبة فأکل و شرب، و سکر فجعل یغنی: أخذ القمل ثیابی فرقصت لهنّه

و قال علی بن ثابت: أبو هدبة أکذب من حماری، إلی آخر الأقوال فیه و فی فسقه، و انه کان یسأل الناس فی الأسواق مع العلم أنه کان من أهل القرن الثالث، فکیف سمع من أنس؟ فلا شک فی کذبه، إذا فالحدیث موضوع علی صاحب الرسالة و قد اختلفت ألفاظ هذه الموضوعات لاختلاف الغرض فی وضعها، و ذلک أنها إشارة

1- 1) لسان المیزان ج 5 ص 179.

2- 2) لسان المیزان ج 1 ص 120.

فی أول الأمر إلی الکنیة فقط، و بهذا وقعوا فی حذر عظیم، لأن الذی یکنی بأبی حنیفة من العلماء کثیر، فذهبوا إلی الصراحة بالاسم، فقالوا: اسمه النعمان بن ثابت و یکنی بأبی حنیفة، لیخرجوا بذلک جملة من العلماء الذین اشتهروا بهذه الکنیة فی عصره و بعد عصره. قال السیوطی عند ذکر هذه الأحادیث: إن الذی وضع حدیث (أبو حنیفة سراج أمتی) هو مأمون بن أحمد السلمی، و أحمد بن محمد الجویباری و کلاهما من الوضاعین (1). و أنهم أوردوا هذه الأحادیث من طرق متعددة، و لکن المحور الذی تدور علیه، هو سعید البورقی، و مأمون بن أحمد الهروی، و أحمد بن محمد الجویباری، و محمد بن یزید الطرسوسی، و أبان بن عیاش، و هو الراوی عن أنس، و إبراهیم بن هدبة راوی حدیث محیی السنة و کل هؤلاء عرفوا بالکذب و الوضع. أما مأمون بن أحمد السلمی الهروی، و هو راوی حدیث یکون فی أمتی رجل یقال له النعمان إلی آخره. قال أبو نعیم فی مقدمة المستخرج علی صحیح مسلم: مأمون السلمی من أهل هراة خبیث و ضاع یأتی عن الثقات، مثل هشام بن عمار، و دحیم بالموضوعات، و فیما حدث عن أحمد الجویباری الکذاب عن عبد اللّه بن معدان الأزدی عن أنس مرفوعا: سیکون فی أمتی رجل یقال له النعمان. الحدیث قال أبو نعیم: مثله یستحق من اللّه تعالی و من الرسول و من المسلمین اللعنة. و قال الحاکم بعد ذکر الحدیث من طریق مأمون: و مثل هذه الأحادیث یشهد من رزقه اللّه أدنی معرفة بأنها موضوعة علی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله. و أما محمد بن یزید فقد کان من الوضاعین، و قد روی هذا الحدیث عن سلیمان بن قیس عن أبی المعلی بن مهاجر عن أبان عن أنس قال ابن حجر: و سلیمان بن قیس و المعلی مجهولان لا یعرفان (2). و أما أبان بن أبی عیاش البصری مولی عبد القیس و هو الراوی عن أنس فقد کان یحیی بن معین، و عبد الرحمن بن المهدی لا یحدثان عنه. و قال الفلاس: هو متروک

1- 1) اللآلئ المصنوعة فی الأحادیث الموضوعة ج 1 ص 237.

2- 2) لسان المیزان ج 5 ص 7.

الحـديث، و قال أحمـد بن حنبل: لا يكتب عنه ترک الناس حـديثه. و قال أبو عوانـة: لا أسـتحل أن أروى عنه شـيئا، إلى آخر ما هنالک من الأقوال فى ذمه، و قد نص بعضـهم على كذبه، قال ابن حبان: إن أبان سـمع من أنس أحاديث و جالس الحسن فكان يسـمع من كلامه: فإذا حدث جعل كلام الحسن البصـرى عن أنس أحاديث عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم و لعله حدث عن أنس بأكثر من 1500 حديث. قال الجوزجانى: أبان ساقط، و قال شـعبة: لئن أشرب من بول حمارى أحب إلىّ من أن أقول: حدثنى أبان و قال مرة: لئن يزنى الزانى خير من أن يروى عن أبان. و قال أيضا لا يحل الكف عن أبان إنه يكذب على رسول اللّه (1)و قد مر ذكر إبراهيم و البورقى. و أما الجويبارى فقد نص على كـذبه الـذهبى فى الميزان، و ابن حجر فى لسـانه و السـيوطى و الخطيب البغـدادى و غيرهم. و نحن لا ـ نتعرض لجميع هـذه الأـقوال الادعائية فى البشائر النبوية التى التجأ إليها المعجبون بأبى حنيفة، و المغالون بشخصيته، و نكتفى بهذا القدر من التوهين لها، و لم يكن من قصـدنا بالبحث عن هذه الأمور إلا إظهار الحقيقة و خدمة العلم، لأن أغلب من كتب عن أبى حنيفة جعلها من أقوى مؤيدات اتباعه و لزوم الأخذ عنه دون غيره، و إن أكثر من كتب من المتعدلين فى مناقب أبى حنيفة لم يذكروا هذه الأحاديث لعدم الاعتماد عليها كالسـيوطى فى تبييض الصحيفة، و ابن حجر فى الخيرات الحسان (2)و ملا على القارى، و الذهبى فى مناقب أبى حنيفة. و قد سـلک السيوطى طريقا آخر لإثبات تبشـير النبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم بأبى حنيفة. قال: و قد بشـر النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بأبى حنيفة فى الحديث الذى أخرجه أبو نعيم فى الحلية من طريق أبى هريرة: لو كان العلم بالثريا لتناولته رجال من أبناء فارس. و هذا لا يمكن و فى أبناء فارس من حملة العلم من الصـدر الأول إلى اليوم من العلماء ما ينطبق هـذا العموم عليهم فكيف يخصـص بأبى حنيفة وحده! هذا من التخمين و الظنون و هو من باب أريه السهى و يرينى القمر.

1- 1) تهذيب التهذيب ج 1 ص 98. [1]

2- 2) قال ابن حجر فى الخيرات الحسان ص 5 عند ذكر الحديث: قد أطبق المحدثون على وضعه.

و على أی حال فإن هذه الموضوعات کانت من نتائج عصور التعصب و عهود التطاحن بین المذاهب.

حدیث غیاث لکل مهموم:

روی الموفق بسنده عن محمد الحارثی بإسناده إلی أبی البختری قال: دخل أبو حنیفة علی جعفر بن محمد الصادق علیه السّلام فلما نظر إلیه قال: کأنی أنظر إلیک و أنت تحیی سنة جدی بعد ما اندرست، و تکون مفزعا لکل ملهوف، و غیاثا لکل مهموم. هکذا نقل الموفق بهذا السند یوصله إلی أبی البختری، و نحن فی سعة عن مناقشة رجال السند أجمع، بل یلزمنا أن نتعرف علی شخصیة أبی البختری الذی یدعی سماع هذه الکلمات من الإمام الصادق علیه السّلام فإذا کان محله الصدق و الثقة فنحن نأخذ هذه الروایة بعین الاعتبار، إذ لیس لنا عداء مع الحق.

أبو البختری:

اشارة

هو وهب بن وهب بن وهب القرشی أبو البختری قاضی بغداد، الذی یقول فیه المعافی: ویل و عول لأبی البختری إذا ثوی للناس فی المحشر

من قوله الزور و إعلانه بالکذب فی الناس علی جعفر

و قال ابن العماد الحنبلی فی الشذرات فی حوادث 200 ه-: و فیها مات وهب بن وهب أبو البختری. . . إلی أن قال: روی عن هشام بن عروة و طائفة و اتهم بالکذب. و قال ابن قتیبة فی المعارف: کان ضعیفا فی الحدیث کذبه فی المغنی، و قال یحیی بن معین: أبو البختری کان یأخذ فلسا فیذکر عامة لیله یضع الحدیث و قال أیضا: أبو البختری القاضی کان یکذب علی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم و قال أیضا: أبو البختری کذاب عدو اللّه خبیث. و قال عثمان بن أبی شیبة: وهب بن وهب ذاک دجال أری أنه یبعث یوم القیامة دجالا، و لما بلغ عبد الرحمن بن مهدی موته قال: الحمد للّه الذی أراح المسلمین

منه، و قال ابن خلكان: أبو البخترى كان متروك الحديث، مشهورا بوضعه، و نص أحمد على كذبه. و روى الخطيب أن أبا البخترى دخل على الرشيد و هو قاض يوم ذاک و هرون يطير الحمام فقال: هل تحفظ فى هذا شيئا؟ فقال: حدثنى هشام عن عروة عن أبيه عن عائشة أن النبى كان يطير الحمام (1). و ساق ابن عدى لأبى البخترى أحاديث موضوعة قال: و أبو البخترى من الكذابين الوضاعين، و كان يجمع فى كل حديث يرويه بأسانيد من جسارته على الكذب و وضعه على الثقات (2). هذا هو أبو البخترى راوى هذه المنقبة التى ذكرها الخوارزمى فى مناقب أبى حنيفة.

فتوى أبى البخترى:

و نسوق إليک قضية من قضايا قاضى القضاة أبى البخترى لتعرف أهليته لهذه المنزلة: كان الرشيد قد أعطى ليحيى بن عبد اللّه بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب كتاب الأمان، ثم أراد إبطاله فسأل محمد بن الحسن الشيبانى صاحب أبى حنيفة. . . فقال: هذا أمان صحيح و دمه حرام، فدفع الكتاب إلى الحسن بن زياد فقال بصوت ضعيف: أمان، فدخل أبو البخترى وهب بن وهب القاضى، و أخرج من خفه سكينا فقطع الكتاب من غير أن يسأل عنه، و قال: هذا أمان مفسوخ، و كتاب فاسد و دمه فى عنقى (3). و بارتكابه لهذه الجريمة و إراقته دما طاهرا لحفيد من أحفاد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم نال درجة الرقى فى مناصب الدولة، و خطا خطوات واسعة إذ قال له الرشيد عند صدور هذه الفتيا: أنت قاضى القضاة و أنت أعلم بذلک. و أجازه الرشيد بألف ألف و ستمائة ألف درهم، فها هو قد أصبح بعد أن كان واحدا من القضاة رئيسهم الأول، و مرجعهم

1- 1) تاريخ بغداد ج 13 ص 453 و [1]وفيات الأعيان ج 2 ص 182 و 181.

2- 2) لسان الميزان ج 6 ص 231.

3- 3) مفتاح السعادة [2]لأحمد بن مصطفى المعروف بطاش كبرى زاده ج 2 ص 110 و لسان الميزان ج 2 ص 234.

الأعلى تناط به أمورهم، و من سوء حظ الأمـة أن تكون سـلطتها القضائية بيد قضاة لا يخافون اللّه و لا يرجون معادا، هذا هو أبو البخترى و هـذه حاله فكيف يوثق بنقله و يعتمـد على قوله. يقول سويد بن عمرو بن الزبير فى أبيات له: إنا وجدنا ابن وهب حين حدثنا عن النبى أضاع الدين و الورعا

يروى أحاديث من إفک مجمعة أف لوهب و ما يروى و ما جمعا

(1)

بين المد و الجزر:

لقـد غالى بعض كتّاب المناقب غلوا أخرجهم من الاعتدال فى القول و التثبت فى النقل، فتقولوا و افتعلوا، و ذهبوا إلى أبعد حد من المدح و الثنـاء، و جـاءوا بـأمور متنوعـة فى منـاقبه و فضـائله حتى وضع بعضـهم كتابـا موضوعا فى مناقبه. و للبيان نعطى صورة مختصـرة عن تلک الادعاءات الكاذبة و للتفصـيل محل آخر. فمن أظرف ما ينقل من كرامات أبى حنيفة قضـية الدهرى الذى ورد بغداد ليناظر علماء الإسـلام أيام الدولة العباسـية، و أنهم عجزوا عن جوابه و لم يبق إلا حماد بن أبى سـليمان، و معه تلميذه أبو حنيفة، و لهذه الأسطورة صور فى النقل: منها: أن دهريا من الروم ناظر علماء الإسـلام فأفحمهم إلا حمادا. و لم يأت أحد بما فيه مقنع، و الإمام إذ ذاک كان صبيا فخاف حماد لأنه لو ألزمه يهون أمر الإسـلام. فرأى رؤيا لا حاجـة لنا بنقلها (2). فـذهب أبو حنيفة مع أسـتاذه إلى الجامع. و صـعد الدهرى المنبر. و طلب الخصم، فحضـر أبو حنيفة و هو صبى، فاستحقره، فقال أبو حنيفة: دع هذا و هات كلامک، فتعجب الدهرى من جرأته فسأله الدهرى بأسئلة فأجـاب عنها فقال أبو حنيفـة: هـذه الأسـئلة و أنت على المنبر و أنا أجبت عنها و الآن انزل إلى الأرض و أنا أصـعد المنبر، فنزل و صـعد أبو حنيفة و قال: إذا كان على المنبر مشبه مثلک أنزله، و إذا كان على الأرض موحد مثلى رفعه، «كل يوم هو فى شأن» فبهت الدهرى و قتلوه.

1- 1) ترجمة قاضى القضاة أبو البخترى فى لسان الميزان ج 6 ص 332، و ميزان الاعتدال ج 3 ص 278 و تاريخ بغداد ج 13 ص 454 و غيرها.

2- 2) مفتاح السعادة ج 2 ص 201. [1]

هکـذا دون بعض أصـحاب المناقب هذه الأسـطورة و لـم يلتفتوا إلى المؤاخذات فإنهم ذكروا أن هذه القصة قد وقعت فى بغداد، و لا يتأتى ذلک، فإن بغداد مصـرت فى زمن المنصور سنة 145 ه-فيكون عمر أبى حنيفـة فى هذه القصة 65 سـنة فكيف كان عمره سبع سنين؟ و إن وفاة أستاذه حماد بن أبى سليمان سنة 120 ه-بالاتفاق، أى قبل تمصـير بغداد بخمس و عشرين سنة. مع أن أبا حنيفة تتلمذ على يد حماد، بعد أن قضـى شـطرا من عمره فى بيع الخز، و اشـتغل مدة بعلم الكلام، و بعد ذلک التحق بحلقة حماد. و قد ذكرت هذه الأسطورة فى عدة كتب و علق بعضـهم عليها بقوله: هـذا حال الإمام فى صـغره فكيف فى كبره (1). أمـا الصورة التى ينقلها الخوارزمى فهى: إن ملک الروم بعث مالا عظيما بيد أمين إلى بغداد، و قال: سلهم عن ثلاث مسائل، فإن هم أجابوا فادفع إليهم المال، و إلا فارجع به، فلما قدم بغداد جمع العلماء و صـعد الرومى المنبر و قال: إن أجبتم عن أسـئلتى أعطيتكم المال، و إلا رجعت به، فسألهم و سكت القوم و فيهم أبو حنيفة، و هو يومئذ صبى، فقال لأبيه: يا أبتا أنا أجيبه، فأسكته أبوه، و قام أبو حنيفة و استأذن الخليفة فى الجواب و صعد أبو حنيفة المنبر. الخ. هكذا أوردوا هذه الأسـطورة و اختلفوا بطرق نقلها. و من أظرف ما نقلوه ما يرويه صاحب مفتاح السعادة أن ثابتا توفى و تزوج الإمام الصادق عليه السّلام أم الإمام أبى حنيفـة، و كان أبو حنيفـة رحمه اللّه صـغيرا و تربى فى حجر الإمام جعفر الصادق و أخذ علومه منه. قال مؤلفه: و هذه إن ثبتت فهى منقبـة لأبى حنيفـة، و قـد أيـد ذلک قاضـى زاده شـريف مخدوم فقال: و بعد وفاة الثابت، أى والد أبى حنيفة، تزوج أم الإمام رحمه اللّه الإمام جعفر الصادق و ربى أبو حنيفة فى حجره (2). و كيف يتأتى ذلک و يستقيم و إن أبا حنيفة كان صغيرا و تربى فى حجر الإمام الصادق و قد كانت ولادة أبى حنيفة سنة 80 ه-و ولادة الصادق سنة 83 ه-؟ فلا يصح

1- 1) مفتاح السعادة ج 2 ص 201، و [1]شرح وصية أبى حنيفة المخطوط بمكتبة الإمام كاشف الغطاء.

2- 2) جامع الرموز ج 1 ص 2.

هـذا و إن أبوا إلاـ تصـحيح هـذه المناقب فاللّه قادر على كل شـىء، و لا يسـتبعد أن يكون المـد و الجزر فى الأعمار كما هو فى البحار. و لنكتف بما ذكرناه، و لا نتعرض لتلك الادعاءات الكاذبـة فقد ادعوا أن التوراة بشـرت به، و أن صـفته مكتوبة فيها، و أن اللّه ناداه: يا أبا حنيفة إنى قـد غفرت لک و لمن هو على مذهبک إلى يوم القيامة، و أن النبى غبط داود لأن فى أمته لقمان فبشـره جبرائيل بأبى حنيفة، و أن حكمته أعظم من حكمة لقمان، و أن الخضـر درس عليه خمس سـنين فى حياته و أكمل دراسته عليه و هو فى قبره، إلى كثير من تلك السفاسف و هى من الأمور التى لا تحتاج إلى مناقشـة، و إنما هى وليـدة عصـر احتدام التعصب للمذاهب، فذهب كل إلى تكوين شخصـية إمامه طبقا لأهـدافه، و قد ألفوا كتبا طافحة بالثناء الأجوف و المدح الكاذب. و قد كان جماعة يضـعون الأحاديث و المناقب لنصـرة مذهب أبى حنيفة أمثال أحمد الحمانى المتوفى سنة 302 ه-و أسد بن عمر البجلى القاضـى المتوفى سنة 190 ه-، و اباء بن جعفر الكـذاب المعروف، و قد حرفه بعضـهم عنـد نقله عنه بابان ليخفى حاله، و قـد خرجوا فى أبى حنيفـة أحاديث لا أصل لها (1)و قـد وضع أباء عليه أكثر من ثلاثمائة حـديث، و ذكر أكثرها الحارثى فى مسـند أبى حنيفة؛ و غير هؤلاء كثير لا يسع الوقت لذكرهم ممن دعتهم عصبيتهم إلى تكوين شخصـية أبى حنيفة طبقا لرغباتهم، و معاكسة للوجدان و مخالفة للحق، و بذلک صـعب الوصول إلى معرفة شخصـية أبى حنيفة. فلنترک مناقشة تلک المناقب فإنا لا نتعرض إلا لما له أهمية فى الموضوع. فمن ذلک قولهم: إن أبا حنيفة سمع جماعة من الصحابة و دونوا له أحاديث ذكرت فى مسانيده فلننظر لصحة هذه الدعوى.

سماعه من الصحابة:

حاول البعض أن يجعل أبا حنيفة من التابعين بل قال بعضـهم إنه سـيدهم، و التابعى هو الذى عاصـر الصـحابة و سمع منهم، و قالوا: إن أبا حنيفة عاصر جماعة من الصحابة و روى عنهم و مجموع ما رواه خمسون حديثا.

1- 1) تهذيب التهذيب ج 1 ص 449.

و هـذه الدعوى يختص بها الحنفية، و قد نفاها علماء الحديث و التاريخ، كما أن أصـحابه الذين دونوا مذهبه لم يثبتوا ذلک، و لم يعرفوا من روايته عن الصـحابة معرفـة قطيعـة لا تقبل الشک. و إنما هو من إيحاءات العصبيـة و نزعة الغلو، و للبيان نذكر أولئک الصـحابة رضـى اللّه عنهم و تاريخ وفاتهم، فيتضح بطلان هذه الدعوى، و إليک البيان: 1-عبد اللّه بن أنيس أبو يحيى الجهنى حليف الأنصار، شهد العقبة الثانية و أحد، و رحل إلى مصـر و توفى فى الشام سنة 80 ه-أى سـنة ولادة أبى حنيفة، و قال بعضهم: توفى فى خلافة معاوية سنة 54 ه-فما يروى عن أبى حنيفة أنه قال: ولدت سـنة ثمانين، و قدم عبد اللّه بن أنيس الجهنى صاحب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم سنة 94 ه-و رأيته و سـمعت منه عن رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سلم «حبک الشىء يعمى و يصم» لا أصل له. و يقول ملا على القارى-بعد ذكره لهذا الحـديث-: فى ملاقاة عبد اللّه بن أنيس به (أى بأبى حنيفة) إشـكال لأن أهل السـير و التواريخ مجمعون على أنه مات بالمدينة سـنة 54 ه- (1). 2-عبـد اللّه بن الحرث بن جزء الزبيـدى أبو الحرث شـهد فتح مصـر و اختط بها دارا و مات سـنة 86 ه-و هو آخر من مـات بهـا من الصـحابة، فما روى عن أبى حنيفة أنه قال: حججت مع أبى سنة 96 ه-، و رأيت عبد اللّه بن الحرث يدرس فى المسـجد الحرام، و سمعت منه أنه يقول سـمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم يقول: من تفقه فى دين اللّه كفاه اللّه ما أهمه، و رزقه من حيث لا يحتسب؛ فهذا لا يصح، لأن وفاة هذا الصـحابى كانت فى سنة 86 ه-و ولادة أبى حنيفة فى سـنة 80 ه-و أول حج حجه أبو حنيفة سـنة 96 هجرية فكيف يصـح ملاقاته و سـماعه منه؟ . قال الشـيخ قاسم الحنفى و هو من مشايـخ الحنفية: إن سـند ذلک الحديث فيه قلب و تحريف، و فيه كذاب اتفاقا، و بأن عبـد اللّه مات بمصـر و لأبى حنيفـة ست سـنين و عبـد اللّه لم يـدخل الكوفة فى تلک المدة. 3-جابر بن عبـد اللّه الأنصارى صحابى جليل شهد العقبة، و غزا تسع عشرة

1- 1) شرح مسند أبى حنيفة 286.

غزوة مات بالمدينة 78 ه-أی قبل ولادة أبی حنيفة بسنتين، فما يروی عن أبی حنيفة عن جابر عن النبی صلّی اللّه عليه و آله و سلم أنه أمر من لم يرزق ولدا بكثرة الاستغفار و الصدقة، فولد لجابر تسعة ذكور، فهذا حديث موضوع لا أصل له (1). 4-عبد اللّه بن أبی أوفی الأسلمی، صحابی ابن صحابی شهد بيعة الرضوان، مات سنة 85 ه-و سماع أبی حنيفة منه حديث رسول اللّه صلّی اللّه عليه و آله و سلم «من بنی للّه مسجدا كمفحص قطاة بنی اللّه له بيتا فی الجنة» فسماعه غير صحيح لأنه طفل صغير ليس له أهلية السماع، مع أن أبا حنيفة لم يشتغل بطلب العلم إلا بعد مدة من الزمن. 5-معقل بن يسار المزنی بايع بيعة الشجرة، و توفی فی خلافة معاوية سنة 60 ه-فرواية أبی حنيفة عنه حيث يقول: سمعت معقلا يقول: سمعت رسول اللّه صلّی اللّه عليه و آله و سلم يقول: «علامات المنافق ثلاث إذا قال كذب، و إذا وعد أخلف، و إذا ائتمن خان» ، غير صحيح لتقدم وفاة معقل علی ولادة أبی حنيفة بعشرين سنة. 6-واثلة بن الأسقف بن كعب بن عامر من بنی ليث بن عبد مناف، و يكنی أبا الأسقع أسلم قبل تبوک، و شهدها مع النبی صلّی اللّه عليه و آله و سلم نزل الشام و مات فی خلافة عبد الملک سنة 83 ه-و كان آخر من مات بدمشق من الصحابة، روی عنه أبو حنيفة حديثين: (الأول) : «لا تظهر الشماتة بأخيک فيعافيه اللّه و يبتليک» . (و الثانی) : «دع ما يريبک إلی ما لا يريبک» . و الحديثان رواهما الترمذی من وجه آخر عن جمع من الصحابة، و رواية أبی حنيفة لهما عن واثلة لا تصح لأنه مات بالشام و عمر أبی حنيفة ثلاث سنين. 7-عائشة بنت عجرد مجهولة لا تكاد تعرف، قال الذهبی و ابن حجر: إن عائشة لا صحبة لها و أنها لا تكاد تعرف، و بذلک رد ما روی أن أبا حنيفة روی هذا الحديث الصحيح «أكثر جند اللّه الجراد لا آكله و لا أحرمه» . 8-سهل بن سعد الساعدی كان اسمه حزن فسماه رسول اللّه سهلا توفی سنة 88 ه-و هو آخر من مات من الصحابة بالمدينة و لم يخرج منها إلی الكوفة فلا يصح سماع أبی حنيفة منه و روايته عنه لأن أبا حنيفة لم يحج إلا فی سنة 96 ه-أی بعد وفاة سهل بثمان سنوات. ذكر ذلک البزاز فی مناقب أبی حنيفة.

1- 1) انظر الخيرات الحسان ص 24.

9-أنس بن مالک بن النضـر بن ضمضم بن زید بن حرام الأنصاری شهد بدرا مات سنة 90 ه-و قد جاوز المائة و هو آخر من مات بالبصرة من الصحابة (1). و علی کل حال فإن روایة أبی حنیفة عن الصـحابة قد نفاها جماعة من المحدثین و علماء الرجال: کالولی العراقی، و ابن حجر، و السخاوی و غیرهم (2). قال محمد بن شهاب البزاز: إن جماعة من المحدثین أنکروا ملاقاة أبی حنیفة للصحابة، و أصحابه أثبتوها. و قبل أن نتحول عن موضوع المناقب نحب أن نشـیر إلی منزلة أبی حنیفة فی الحدیث، و هل خرج له أصحاب الصحاح أم لا؟ و لا نحب أن نطیل الحدیث و نکتفی ببعض الموضوع، لنأخذ صورة عن ذلک فی مجال المقارنة و الموازنة فیما بعد.

حدیثه و عنایته بالروایة:

قالوا: إن أبا حنیفة لم یکن صاحب حدیث و لکن کان قیاسا سـلک فی القیاس مسلکا استوجب شدة الإنکار علیه و علی أصحابه. قال مالک بن مغول: قـال لی الشـعبی-و نظر إلی أصـحاب الرأی-: ما حـدثک هؤلاء عن أصـحاب محمـد صـلّی اللّه علیه و آله و سـلم فاقبله، و ما خبروک به عن رأیهم فـارم به فی الحش. و قال: إیاکم و القیاس فإنکم إن أخـذتم به حرمتم الحلال و أحللتم الحرام (3). یقول ابن خلدون: بلغت روایة أبی حنیفة إلی سـبعة عشر حدیثا. و یعلل ذلک بقوله: إنما قلت روایة أبی حنیفة لما شدد فی شروط الروایة و التحمل، و ضعف روایة الحدیث الیقین إذا عارضها الفعل النفسی (4). قال الدکتور أحمد أمین-بعد نقل هذه العبارة-: و هی و إن کانت موجزة،

1- 1) الخیرات الحسان و خلاصة تهذیب الکمال.

2- 2) شرح مسند أبی حنیفة للقاری 284.

3- 3) تأویل مختلف الحدیث لابن قتیبة ص 70.

4- 4) المقدمة ص 372.

و غامضة بعض الغموض إلا أنها تدلنا على هذا الاتجاه، و هو عدم الاكتفاء بالرواية، بل عرضها على الطباع النفسية و البيئة الاجتماعية (1). و نحن نستبعد صحة هذا القول و إن أبا حنيفة لم يرو إلا سبعة عشر حديثا أو لم يصح عنده إلا ذلک العدد. فإن الرجل حضر عند علماء الأمة، و سمع من الثقات و سافر إلى مكة و المدينة، و سمع من أئمة أهل البيت عليهم السلام الإمام الباقر عليه السّلام، و ولده الإمام الصادق عليه السّلام، و زيد بن على عليه السّلام، و عبد اللّه بن الحسن. و نحن لا ننكر أنه كان قياسا و كان يتشدد فى الرواية، و لا يقبل الخبر إلا إذا رواه جماعة عن جماعة أو كما يقول أصحابه: إذا كان خبر عام عن عامة، أو اتفق علماء الأمصار على العمل به، و مهما كان تشدده و اشتراطه فلا يصح أن يقال إنه لم يصح عنده إلا سبعة عشر حديثا. أما أصحابه فلم يتشددوا فى قبول الرواية، فقد أدخل أبو يوسف فى فقه أبى حنيفة أحاديث كثيرة، و من بعده محمد بن الحسن الشيبانى، فإنه لقى مالكا، و قرأ الموطأ عليه، ثم رجع إلى بلده، و طبق مذهب أصحابه على الموطأ مسألة مسألة (2). و كيف كان فقد اختلف المحدثون فى قبول رواية أبى حنيفة فمنهم من قبله، و منهم من لينه لكثرة غلطه فى الحديث ليس إلا، قال على بن المدينى ليحيى بن سعيد: كيف كان حديث أبى حنيفة؟ قال: لم يكن صاحب حديث (3). و قال ابن عدى فى ترجمة إسماعيل بن حماد بن أبى حنيفة: ثلاثتهم ضعفاء. و قد عده البخارى من الضعفاء و المتروكين. أما أصحاب الصحاح فلم يخرجوا له حديثا، نعم فى رواية أبى على الأسيوطى و المغاربة عن النسائى قال: حدثنا على بن حجر، حدثنا عيسى هو ابن يونس، عن النعمان عن عاصم عن ابن عباس: من أتى بهيمة لا حد عليه. و هو لم ينسب النعمان فهل هو أبو حنيفة أم غيره.

1- 1) ضحى الإسلام ج 2 ص 131.

2- 2) رسالة الإنصاف ص 8.

3- 3) الذهبى فى مناقب أبى حنيفة ص 28.

و خرج له الترمـذی من روایـة عبـد الحمید الحمانی أنه قال: ما رأیت أکذب من جابر الجعفی، و لا أفضل من عطاء. و هذا لیس بحدیث و إنما هو قول لأبی حنیفة و إذا رجعنا إلی الواقع ففی إمکاننا تکذیب هذا القول و لا یصح نسـبته لأبی حنیفة لأن جابر من کبار التابعین و وثقه سفیان الثوری، و زهیر، و شعبة، و وکیع و غیرهم. جاء فی جامع أسانید أبی حنیفة عن زهیر أنه قال: إذا قال جابر بن یزید: حدثنی أو سمعت فهو من أصـدق الناس (1). و روی عن جـابر کبار العلماء و أعیان الأمـة و هو من شـیوخ أبی حنیفـة، و قـد روی عنه عـدة أحادیث أوردها أصـحابه فی کتبهم، و هی منتشـرة فی أسانیـد أبی حنیفة. و کان أبو حنیفة یمدح جابر بالحفظ و یقول: ما سألت جابر الجعفی عن مسألة قط إلا أورد فیها حدیثا، و لقد سألته عن ورد رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم فقال حدثنی نافع عن ابن عمر أن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سـلم کان یجعل وتره آخر صلاته (2). و لا یسـتبعد أن هذا القول وضع أیام نشاط الخلافات و تحامل الموالی علی العرب، فإن جابر عربی و عطاء من الموالی. و ستأتی ترجمة جابر فی الأجزاء القادمة إن شاء اللّه.

أبو حنیفة بین أنصاره و خصومه.

لیس للباحث عن حیاة أبی حنیفة بد من الوقوف علی أخباره العامة، و أن یسـتعرض الأقوال فیه و آراء الناس حوله، و بهذا لا یجد سهولة فی الوصول إلی الغایـة، إذ الطریق غیر معبـد لوجود رکام من الأخبار المختلفـة، و الآراء المتناقضـة، و الأقوال التی لا یمکن تصـدیقها. فهناک تعصب و غلو فی شخصیته، و إعجاب مفرط فی مواهبه، و هناک نقد مر لأعماله، و تحامل شدید علیه، و وصف بما لا یلیق بشخصیة رئیس مذهب و إمام طائفة.

1- 1) جامع أسانید أبی حنیفة ج 1 ص 305.

2- 2) جامع أسانید أبی حنیفة ج 1 ص 305.

و الكاتب هنا يقف بين طائفتين: متعصبون له و مغالون فيه و هم أنصاره، و ناقدون له و متحاملون عليه و هم خصومه. أما الطائفة الأولى فقد رفعوه إلى منازل النبيين، و زعموا أن التوراة بشرت باسمه، و أن النبى أخبر به قبل ولادته، و أنه سراج الأمة و محيى السنة، و أنه معجزة النبى بعد القرآن، و لولاه لما اهتدى الناس. و الشيء الغريب أنهم رفعوه فوق منزلة الأنبياء، لأن عيسى إذا رجع يقلده و يحكم بمذهبه، و أن الخضر تعلم أحكام الشريعة منه. يقول قاضى زادة: اعلم أن المذهب لا يقلده من الصحابة و التابعين إلا أبو حنيفة فإن عيسى لما ينزل يحكم بمذهبه (1)! ! و قالوا: إن اللّه خص أبا حنيفة بالشريعة و الكرامة. و من كراماته: أن الخضر عليه السّلام كان يجيء إليه كل يوم وقت الصبح، و يتعلم منه أحكام الشريعة إلى خمس سنين. فلما مات أبو حنيفة ناجى الخضر ربه و قال: إلهى إن كان لى عندك منزلة فائذن لأبى حنيفة حتى يعلمنى من القبر على حسب عادته حتى أتعلم شرع محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم على الكمال، فأحياه اللّه و تعلم منه العلم إلى خمس و عشرين سنة. و بعد أن أكمل الخضر دراسته، أمره اللّه أن يذهب إلى القشيرى، و يعلمه ما تعلم من أبى حنيفة، و صنف القشيرى ألف كتاب، و هى لا تزال وديعة فى نهر جيحون، إلى رجوع المسيح، فيحكم بتلك الكتب، لأنه يأتى فى زمان ليس فيه من كتب شرع محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فيتسلم المسيح أمانة نهر جيحون. و هى كتب القشيرى (2). هذا ما قالوه حول انتساب المسيح لمذهب أبى حنيفة و لعمرى إنهم أساءوا لإمامهم بهذه السفاسف و خرجوا عن حدود التبجيل و الإكرام له. كما وصفوه بصفات فوق الطبيعة البشرية، كقراءة القرآن سبعين ألف مرة، فى محل واحد، و صلاته فى كل ليلة ركعتين يختم القرآن فى كل ركعة، و صلاته الفجر

1- 1) جامع الرموز ج 1 ص 2.

2- 2) الإشاعة فى أشراط الساعة ص 120 و الياقوتة لابن الجوزى ص 45.

بوضوء العشاء أربعين سنة، و امتناعه من أكل اللحم عشر سنين لأن شاة ضاعت فسأل كم تعيش فقيل عشر سنين، إلى غير ذلک من الأمور التى أساء المغالون لأبى حنيفة فيها. هذا هو أبو حنيفة فى نظر المعجبين به و أنصاره المغالين فى تكوين شخصيته. أما الطرف الآخر من معاصريه و غيرهم، فقد رموه بالزندقة، و الخروج عن الجادة، و وصفوه بفساد العقيدة، و الخروج على نظام الدين، و مخالفة الكتاب و السنة، و طعنوا فى دينه و جردوه من الإيمان (1). و قالوا اجتمع سفيان الثورى و شريک و حسن بن صالح و ابن أبى ليلى، فبعثوا إلى أبى حنيفة، فقالوا: ما تقول فى رجل قتل أباه و نكح أمه و شرب الخمر فى رأس أبيه؟ فقال: مؤمن. فقال ابن أبى ليلى: لأقبلت لک شهادة أبدا. و قال له سفيان الثورى: لا كلمتک أبدا (2). و حكى عن أبى يوسف قيل له: أ كان أبو حنيفة مرجئا؟ قال: نعم. قيل: كان جهميا؟ قال: نعم (3)قيل: أين أنت منه؟ قال: إنما كان أبو حنيفة مدرسا، فما كان من قوله حسنا قبلناه، و ما كان قبيحا تركناه عليه (4). و حدث إبراهيم بن بشار عن سفيان بن عيينة أنه قال: ما رأيت أحدا أجرأ على اللّه من أبى حنيفة، و عنه أيضا: كان أبو حنيفة يضرب لحديث رسول اللّه الأمثال فيبرره بعلمه (5). و عن الوليد بن مسلم قال: قال لى مالک بن أنس: أ يذكر أبو حنيفة فى بلادكم؟ قلت: نعم قال: لا ينبغى لبلادكم أن تسكن (6). و عن الأوزاعى يقول: إننا لا ننقم على أبى حنيفة أنه رأى، كلنا يرى، و لكنا

1- 1) انظر أبو حنيفة محمد أبو زهرة ص 5.

2- 2) الخطيب ج 13 ص 374.

3- 3) نفس الصدر.

4- 4) الخطيب ج 3 ص 374.

5- 5) الانتقاء ص 148.

6- 6) ميزان الشعرانى ج 1 ص 59.

ننقم علیه أنه یجیئه الحدیث عن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فیخالفه إلی غیره (1). قال ابن عبد البر: و ممن طعن علیه و جرحه محمد بن إسماعیل البخاری، فقال فی کتابه «الضعفاء و المتروکین» : أبو حنیفة النعمان بن ثابت الکوفی، قال نعیم بن حماد: حدثنا یحیی بن سعید و معاذ بن معاذ سمعنا سفیان الثوری یقول: استتیب أبو حنیفة، من الکفر مرتین. و قال نعیم الفزاری: کنت عند سفیان بن عیینة، فجاء نعی أبی حنیفة، فقال: . . . کان یهدم الإسلام عروة عروة، و ما ولد فی الإسلام مولود أشر منه. هذا ما ذکره البخاری (2). و قال ابن الجارود فی کتابه «الضعفاء و المتروکین» : النعمان بن ثابت جل حدیثه و هم. و قد روی عن مالک رحمه اللّه أنه قال فی أبی حنیفة نحو ما ذکره سفیان: أنه شر مولود ولد فی الإسلام، و أنه لو خرج علی هذه الأمة بالسیف کان أهون. و روی عنه أنه سئل عن قول عمر بن الخطاب: بالعراق الداء العضال فقال مالک: أبو حنیفة، و روی ذلک کله أهل الحدیث. و عن وکیع بن الجراح أنه قال: وجدت أبا حنیفة خالف مائتی حدیث عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم. و قیل لابن المبارک: کان الناس یقولون إنک تذهب إلی قول أبی حنیفة، قال: لیس کل ما یقول الناس یصیبون فیه، کنا نأتیه زمانا، و نحن لا نعرفه، فلما عرفناه ترکناه (3). و أورد ابن عبد البر فی الانتقاء بعضا من أقوال المادحین له و الطاعنین علیه (4). یقول الدکتور علی حسن عبد القادر: و یدعی خصوم أبی حنیفة أنه لم یکن یعطی للحدیث أهمیة کبیرة، و أنه یجعل للرأی الطلیق مکانه الأول بالنسبة للاستنتاج الفقهی، و أنه رد کثیرا من الأحادیث فی سبیل الرأی.

1- 1) تأویل مختلف الحدیث لابن قتیبة ص 63.

2- 2) الانتقاء لابن عبد البر ص 150.

3- 3) الانتقاء لابن عبد البر ص 150-151. و الخیرات الحسان ص 76.

4- 4) الانتقاء ص 124-152.

حـدث أبو صالح الفراء قال: سـمعت يوسف بن أسـباط يقول: رد أبو حنيفة على رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم أربعمائة حديث أو أكثر. قلت له: يا أبا محمد تعرفها؟ قال: نعم. قلت: أخبرنى بشـىء منها قال: قال رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سلم: (للفرس سهمان و للرجل سهم) قال أبو حنيفة: أنا لا أجعل سهم بهيمة أكثر من سهم المؤمن. و أشعر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أصحابه البدن. و قال أبو حنيفة: الاشـعار مثله. و قال صلّى اللّه عليه و آله و سلم: «البيعان بالخيار ما لـم يتفرقا» . و قال أبو حنيفة: إذا وجب البيع فلا خيار. و كان النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يقرع بين نسائه إذا أراد أن يخرج فى سفر، و أقرع أصحابه. قال أبو حنيفة: القرعة قمار. و قالوا: إنه كان فى عصـره أربعة من الصـحابة، و لكن لـم يهتم للقائهم. و قد ذكر ابن أبى شيبة فى مصنفه فى باب خاص الأحاديث التى خالفها أبو حنيفة و أبلغها 150 حديثا. . . الخ (1). و قـد اسـتعرض الخطيب البغدادى أخبار أبى حنيفة، و ذكر أقوالا عن الفريقين من معدلين و مضـعفين، و مادحين و طاعنين و نسب لأبى حنيفة أشياء لا نحب التعرض لها (2). و قد طعن علماء الحنفية فى الخطيب و نسبوه إلى التصعب الأعمى، و أجابوا عن الطعون التى أوردها الخطيب على أبى حنيفة. و صـفوة القول أن دراسة حياة أئمة المذاهب تلفت نظر الكاتب إلى دقة البحث و صعوبته، لوجود الأقوال المختلفة التى تدل على اندفاع الأتباع لإعلاء تلك الشخصـيات فوق منزلتهم الواقعية، و سنوضح ذلك فيما بعد. و ان دراسـة حياة أبى حنيفة تتصف-بصورة خاصة-بصـعوبة تقف أمام الباحث. يقول الأسـتاذ أبو زهرة: لقد تعصب له (أى لأبى حنيفة) ناس حتى قاربوا به منازل النبيين المرسلين، فزعموا أن التوراة بشرت به، و أن محمدا صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ذكره باسمه، و بين أنه سراج أمته، و نحلوه من الصـفات و المناقب ما عـدوا به رتبته، و تجاوزوا معه درجته، و تعصب ناس عليه فرموه بالزندقـة، و الخروج عن الجادة و إفساد الدين، و هجر السنة، بل مناقضتها ثم الفتوى فى الدين بغير حجة و لا سلطان مبين.

1- 1) نظرة عامة فى تاريخ الفقه الإسلامى للدكتور على حسن عبد القادر ص 225.

2- 2) تاريخ بغداد ج 13 ص 133-423.

و يقول: إن كتب المناقب كثيرة و كثرتها لا تهدى السبيل، و لا تنير الطريق إذ أنها طوائف من الأخبار يسودها المبالغة، و لا يكاد يخلو خبر منها من الإغراق، فتمييز صحيحها من سقيمها يحتاج إلى مقاييس النقد المستقيمة، فأخبارها لا ترفض جملة و لا تؤخذ جملة، إذ هى بلا شک فيها الحق و الباطل و أخذ الحق من بينها يحتاج إلى نظر فاحص (1). و نحن هنا لا يمكن أخذ صورة واقعية عن شخصية أبى حنيفة، فإن هذه الأقوال المتراكمة أمامنا لا نستطيع أن نتميز بواسطتها تلک الشخصية و لا نبدى رأينا فى الموضوع إلا بعد أن نطل من زاوية التاريخ.

نشأته و نبوغه:

ولد أبو حنيفة سنة 80 ه-فى خلافة عبد الملک بن مروان الأموى، و عاش إلى سنة 150 ه-و قيل سنة 151 ه-و قيل سنة 153 ه-فقد أدرک من العصر الأموى اثنتين و خمسين سنة، و من العصر العباسى ثمانى عشرة سنة. و قد نشأ فى الكوفة فى عهد الحجاج بن يوسف، فرأى قسوة الحجاج و استبداده و سيرته السيئة، و حكمه القاسى، و معاملته للناس بما لا يمكن تحمله، و مات الحجاج و عمره خمسة عشر عاما، و شاهد ولاة الأمويين يسيرون بالأمة، و قد جاروا فى الحكم، و خالفوا نظم الإسلام، اتباعا لملوكهم، و طبقا لرغباتهم، من غير رادع من دين، و لا مراعاة لحرمة، و لم تمنعهم حواجز عن إيقاع الأذى برجال المسلمين و أعيانهم، و مع هذا يرى العصبية العنصرية فيهم تتجلى بدون خفاء و تكتم، و من المعلوم أن ذلک يثير فى نفسه نزعة البغض و الكراهة لتلک السلطة، فلا غرابة حين نراه يساهم فى حركة الانقلاب، و ينضم لجانب العباسيين فى دعوتهم، و يناصر أهل البيت عليهم السلام. و كان أبو حنيفة منصرفا للعمل فهو يتعاطى بيع الخز، و له محل لصنعه و صناع تحت يده، و بهذا كان يعيش برفاهية، و يصل إخوانه و أصحابه، و لا نعرف بالضبط مدة بقائه تحت رعاية أبيه فالتأريخ لم يتعرض لذلک.

1- 1) أبو حنيفة لأبى زهرة ص 5-7.

و لقد كان عصر أبی حنيفة الذی أظله، و البيئة الفكرية التی عاش فيها، و ترعرعت مواهبه تحت سلطانها أكبر عامل على نبوغه و توجيهه، إذا كانت الكوفة إحدى مدن العراق العظيمة التی نشأت بها حلقات العلم، و كانت الأهواء المتضادة و الآراء المتضاربة فی السياسة و العلم و أصول العقائد تدعو يومئذ إلى الدهشة و الإمعان. فقد صارت الكوفة ملتقى الأفكار و صعيدا لتلاقحها فكان مستوى ثقافات الشعوب التی أظلها الإسلام يؤثر فی مناهج العلم و طرق الثقافة، و يقبل رجال الإسلام على تلك المناهج و الطرق للتعرف على قواعدها و خصائصها لتكون وعاء للفكر الإسلامی ليعاد تغذية المسلمين و إنشاء أبنائهم بعقيدة الإسلام و أحكامه، و لعمق العقيدة تتجرد الأوعية التی قصد أن يكون لونها كذلک مجردا عن كل لون آخر، و يصبح ما فی الوعاء من فكر إسلامی عنوانا متميزا مستقلا لا يدانيه و لا يشابهه ما سبق. و يقال إنه نبغ فی علم الكلام و الجدل و ناظر فيه، و اتسعت دائرة تفكيره. و إذا رجعنا إلى حديثه عن ذلک فتكون ملازمته لحلقة المتكلمين أكثر من حلقة الفقه التی انتقل إليها بعد هجر علم الكلام، فاختص بالفقه وحده، فإن ذهابه للبصرة، و مناظرته الفرق هناک أكثر من عشرين مرة- كما يقولون- و فی كل مرة يمكث سنة أو أكثر أو أقل، يدل على أنه قضى الشطر الأكبر من عمره (1)فی ذلک، و إن كانت تلک الرواية لا تخلو من مبالغة و لم تسلم من الخدشة فی السند، فإنها من وضع يد الغلو و وحی العاطفة. و مهما يكن فإنه نشأ فی أول أمره رجلا يتعاطى التجارة و صنعة الخز و بيعه فی الأسواق، و قضى شطرا من حياته فی ذلک حتى أرشده الشعبی لطلب العلم فاتجه للكلام ثم اتصل بحلقة حماد بن أبی سليمان المتوفى سنة 120 ه- و كان هو المبرز من بعده، و قد ساعدته الظروف على هدم الحواجز التی تقف أمامه، كما أن العصر الذی هو فيه هيأ له أسباب الرقی، و مهد له طرق التقدم، فقد حدثت تطورات و سنحت فرص استغلها أبو حنيفة، لما كان يتصف به من ذكاء و فطنة و طموح فی نفسه.

1- 1) مناقب أبی حنيفة للمكی ج 1 ص 59.

الموالی و أوضاع عصره:

و من حسن طالعه أن یقع فی عصره الخلاف بین أهل الحدیث و أهل الرأی، أو بین العرب و الموالی و تشتد الخصومة، و یکثر بینهم التهاجی، و هو یترأس حلقة أستاذه حماد و هی إحدی حلقات العلم بالکوفة، و بالطبع ان الملتفین حوله و المجتمعین إلیه أکثرهم من الموالی و أکثرهم یحقد علی العرب الذین نظروا إلیهم نظر السید إلی المسود و الشریف إلی الوضیع، حتی بعثوا فیهم روح النعرة و تلک نزعة غذاها بنو أمیة فعاملوا الموالی معاملة سیئة، و لم یعدلوا معهم فی الحکم، و کانت تبعث فی نفوس المفکرین من الموالی کرها لما آلت إلیه أحوالهم، و ینعکس حقدا فی نفوس الأغلبیة ممن اعتنقوا الإسلام لسبب أو لآخر فذاقوا المهانة. و واقع حضارتهم و أمجاد دولهم ما زالت ماثلة لم یمر علیها دهر لتمحی أو تزول من الأذهان. و لقد أوجد الأمویون بسیاسة التعصب واحدة من آفات سیاستهم التی أودت بدولتهم و أقدموا علی مخالفة مبادئ المساواة و العدل فی الإسلام. و تطورت الحرکة الفکریة و اتجه الناس فی آخر الدولة الأمویة إلی أمور لم یکن فی وسعهم الاتجاه إلیها فی إبان عظمة الدولة و کانت فی الکوفة حلقات العلم یجلس طلابه إلی شیوخ عرفوا بذلک، فکانت حلقات للمتکلمین بجانب حلقات الفقه و حلقات الشعر و الأدب یتکلمون فیها بالقضاء و القدر، و الکفر و الإیمان، و یستعرضون أعمال الصحابة فی الحرب و غیرها، و قد اختار أبو حنیفة حلقة المتکلمین (1). کما زخرت الکوفة برجال العلم، و اتسع نطاق الحرکة الفکریة و اتجه الناس للبحث و وقع الخلاف بین أهل الرأی و أهل الحدیث، و أخذت السلطة فی تشجیع أهل الرأی و اندفع الموالی (2)إلی التزاحم علی طلب الشهرة و النبوغ فی المجتمع، عند ما أصبحوا و لهم قوة علی إیجاد کتلة متماسکة الأجزاء، فکثر عددهم فی الکوفة و قوی جمعهم، و أصبح منهم رجال تبوءوا مناصب الدولة، فمنهم قواد جیش و أمراء بلدان، و علماء یشار إلیهم بالأصابع، و منهم الأدباء و رواة حدیث، و قد اجتازوا مراحل العنف و الشدة، و انتقلوا من عهد الاستبداد و القسوة و عدم المساواة فی الحکم بینهم و بین

1- 1) ضحی الإسلام ج 2 ص 178.

2- 2) شرح النهج.

العرب، و قد كان الأمويون يتعصبون لأنصارهم و عشيرتهم و يحتقرون الموالى مهما كانت ميزاتهم و كفاءتهم، و تابعهم بعض المتعصبين من العرب و نهجوا هذا المنهج، خلافا لما شرعه اللّه و سار عليه الرسول الأعظم فكانوا يضعون من قيمة الموالى و يحتقرونهم. يقول الأصفهانى: كانت العرب إلى أن جاءت الدولة العباسية، إذا أقبل العربى من السوق و معه شىء فرأى مولى دفعه إليه ليحمله عنه فلا يمتنع. و تزوج رجل من الموالى بنتا من أعراب بنى سليم، فركب محمد بن بشير الخارجى إلى المدينة، و واليها يومئذ إبراهيم بن هشام بن إسماعيل، فشكا إليه فأرسل الوالى إلى المولى ففرق بينه و بين زوجته، و ضربه مائتى سوط، و حلق رأسه، و حاجبه و لحيته، فقال محمد بن بشير: قضيت بسنة و حكمت عدلا و لم ترث الحكومة من بعيد

و قد نفذ الأمويون هذه السياسة بشدة، و غذوا هذه النزعة بأعمالهم التى عاملوا بها الموالى، و قد شرعها لهم معاوية بن أبى سفيان، لأنه عرف عدل الإمام على بن أبى طالب و مساواته فى الرعية، الأمر الذى أدى إلى تقاعد من تحكمت به هذه النزعة الشريرة عن نصرته، فأراد معاوية استمالتهم و تحويلهم إليه. روى المدائنى أن طائفة من أصحاب على عليه السّلام مشوا إليه فقالوا: يا أمير المؤمنين أعط هذه الأموال، و فضل هؤلاء الأشراف من العرب و قريش على الموالى و العجم، و استمل من تخاف خلافه من الناس-و إنما قالوا له ذلك لما كان معاوية يصنع فى المال-فقال لهم: أ تأمروننى أن أطلب النصر بالجور؟ ! (1). و حوادث التاريخ مملوءة بالشواهد على ذلك من الأمور التى بعثت المفكرين من الموالى إلى الحقد على العرب.

اتجاهه العلمى:

و بين هذه الأمور و فى ذلك العصر كانت نشأة أبى حنيفة، و هو من أولئك القوم الذين نالهم الأذى فى تلك المدة، و كان يشعر بما يشعر به أبناء جنسه، و يعظم عليه

1- 1) شرح النهج. [1]

إهانتهم و تعذيبهم، و قد شاهد فی الكوفة و غيرها تلك الأوضاع الشاذة، و السيرة المخالفة للإسلام، و بالطبع ان نفسه كانت تتأثر. و بعد أن تحول الحكم من الأـمويين إلى العباسـيين، و الموالى هم الـذين شـاطروا فى هـذا الانقلاـب، بـل كـان العباسـيون يعـدونهم من خلص أنصارهم، و رجال دعوتهم فاتجهوا إليهم و نصـروهم، فكان النشاط الذى أحرزه الموالى يسترعى الأنظار، و يبعث على العجب، خصوصا حينما نراهم يلتفون حول الإمام أبى حنيفة و يعتزون بشخصيته بعد ما أصبح يترأس حلقة علمية خلفها له أستاذه حماد، و هو من الموالى. و أبو حنيفة هو ذلك الرجل الذى عرف بقوة النفس، و علو الهمة و كان ذا فطنة و لباقة، و له سيرة خاصة فى معالجة مشاكل الحياة، فتراه يقتحم مواقع الخطر و يزج نفسه فيها، فتحدث الناس عنه و اشتهر اسمه و كان مع ذلك على جانب عظيم من المداراة لخصومه، فقد كانوا يسمعونه السب و يقرعون سـمعه بالنقـد المر، و كان حسن المعاشـرة لأصـحابه يصـلهم برفده، و يساعدهم بمعروفه، و له ثروة تساعده على ذلك و تمهد له الطريق. و لما هجاه مساور بقوله: كنا من الدين قبل اليوم فى سعة حتى بلينا بأصحاب المقاييس

قاموا من السوق إذا قامت مكاسبهم فاستعملوا الرأى بعد الجهد و البؤس

فلقيه أبو حنيفة فقال: هجوتنا يا مساور، نحن نرضيك فوصله بدراهم فقال مساور: إذا ما الناس يوما قايسونا بآبدة من الفتيا طريفه

أتيناهم بمقياس صحيح تلاد من طراز أبى حنيفة

إذا سمع الفقيه بها و عاها و أثبتها بحبر من صحيفه

فأجابه أصحاب الحديث: إذا ذو الرأى خاصم عن قياس و جاء ببدعة هنة سخيفه

أتيناهم بقول اللّه فيها و آثار مبرزة شريفه

إلى آخر الأبيات التى ذكرها ابن قتيبة (1)و ابن عبد ربه (2)و لا يسع المجال لذكر

1- 1) المعارف ص 216. [1]

2- 2) العقد الفريد ج 3 ص 408.

ما نتج من وراء ذلک الخلاف بين أهل الحديث و أهل الرأى من هجاء و مناوشات، و كانت السلطة تشجع تلک الحركة، و تضاعف أسباب الخلاف من وراء الستار لغاية فى نفوس أصحابها. و على أى حال فقد اتجه أبو حنيفة إلى الفقه بعد أن قضى مدة من حياته فى التجارة ثم قرأ الكلام، و درس على مشايخ عصره، و حضر على عطاء بن أبى رباح فى مكة و هو من الموالى، و على نافع مولى ابن عمر فى المدينة، و أخذ عن عاصم بن أبى النجود و عطية العوفى، و عبد الرحمن بن هرمز مولى ربيعة بن الحارث، و زياد بن علاقة، و هشام بن عروة و آخرين، و لكنه لزم واحدا منهم ملازمة تامة و تخرج عليه و هو حماد بن أبى سليمان الأشعرى، و هو الذى اختص به أبو حنيفة و حضر درسه و تخرج عليه إلى أن مات سنة 120 ه-و عمر أبى حنيفة أربعون سنة و قد أكثر أبو حنيفة الرواية عنه. و يحدث أبو حنيفة عن صلته بشيخه حماد بقوله: قدمت البصرة فظننت أنى لا أسأل عن شىء إلا أجبت عنه فسألونى عن أشياء لم يكن عندى فيها جواب، فجعلت على نفسى أن لا أفارق حمادا حتى يموت، فصحبته ثمانى عشرة سنة. و لم تكن ملازمته لحماد بحيث لم ينقطع عنه و لم يأخذ عن غيره لأنه كان كثير الرحلة إلى بيت اللّه الحرام حاجا، و التقى هناک بكثير من التابعين و سمع منهم و اجتمع بأئمة أهل البيت، و روى عنهم كزيد بن على و الإمام محمد الباقر و ابنه الإمام الصادق و عبد اللّه بن حسن بن حسن.

فقهه و تلامذته:

اشارة

لم يعرف فقه أبى حنيفة إلا من طريق أصحابه الذين اختصوا به، فهو لم يكتب فقهه بنفسه و لم يدون شيئا من آرائه، و لكن التدوين إنما أخذ من قبل أصحابه؛ و كان لأبى حنيفة تلاميذ، منهم من كان يرحل إليه و يستمع منه، و منهم من لازمه ملازمة تامة، و فيهم يقول: هؤلاء ستة و ثلاثون رجلا منهم ثمانية و عشرون يصلحون للقضاء، و ستة يصلحون للفتوى، و اثنان أبو يوسف و زفر يصلحون لتأديب القضاة و أرباب الفتوى! و لكن الذين خدموا مذهب أبى حنيفة و نشروه هم أبو يوسف، و زفر، و محمد بن الحسن الشيبانى، و الحسن بن زياد اللؤلؤى.

أبو يوسف:

1-أما أبو يوسف و هو يعقوب بن إبراهيم الأنصارى نسبا و الكوفى منشأ، فهو عربى و ليس من الموالى ولد سنة 113 ه-و قد نشأ فقيرا و اتصل بأبى حنيفة بعد أن جلس إلى ابن أبى ليلى، ثم انقطع لأبى حنيفة و اتصل به، و قد قام أبو حنيفة بنفقته و نفقة عياله عشر سنين، و بعد وفاة أبى حنيفة و زفر بن الهذيل استقل أبو يوسف برئاسة أصحاب أبى حنيفة، و ساعدته الظروف السياسية، و أقبلت الدنيا عليه، و وقع موقع القبول عند خلفاء بنى العباس، و ولى القضاء لثلاثة منهم للمهدى و الهادى و الرشيد، و قد نال عند الرشيد حظا مكينا و قربه، و هو الذى نشر مذهب أبى حنيفة فى الأقطار على أيدى القضاة الذين كان يعينهم أبو يوسف من أصحابه، فكان نفوذ المذهب يستمد من نفوذ سلطته، و لأبى يوسف كتب كثيرة دون فيها آراءه و آراء شيخه، ذكرها ابن النديم منها: كتاب الصلاة، كتاب الزكاة، كتاب الصيام، كتاب الفرائض، كتاب البيوع، كتاب الخراج، كتاب الوكالة، كتاب الوصايا، كتاب اختلاف الأنصار، كتاب الرد على مالک، و غيرها؛ و له إملاء رواه بشر بن الوليد القاضى يحتوى على ستة و ثلاثين كتابا، و أبو يوسف هو أول فقهاء أهل الرأى الذى دعموا آراءهم بالحديث، و بذلک جمع بين طريقة أهل الرأى و أهل الحديث.

محمد بن الحسن الشيبانى:

2-محمد بن الحسن، مولى بنى شيبان، ولد سنة 132 ه-و توفى سنة 189 ه-، حضر على أبى حنيفة، و لم يتم دراسته عليه، لأن أبا حنيفة مات و عمر محمد نحو الثامنة عشرة، و لكنه أتم دراسته على أبى يوسف، و أخذ عن الثورى و الأوزاعى و رحل إلى مالک، و تلقى عنه فقه الحديث و الرواية، و مكث عنده ثلاث سنين، و هو الذى أدخل الحديث فى فقه أهل الرأى، و ألف كتبا فى ذلک أصبحت هى المرجع الأول لفقه أبى حنيفة، و كان يخالفه فى أكثر مسائله.

الحسن بن زياد:

3-الحسن بن زياد اللؤلؤى الكوفى المتوفى سنة 204 ه-، و هو من فقهاء المذهب و رواة آراء أبى حنيفة، و قد طعن المحدثون عليه، و رفضوا روايته، قال ابن

معين: إنه كذاب غير ثقة، و قال النضر بن شميل لرجل كتب كتب الحسن بن زياد: لقد جلبت إلى بلدک شرا. و قال أبو ثور: ما رأيت أكذب من اللؤلؤى، و كان ابن أبى شيبة يقول: كان أسامة يسميه الخبيث و وثقه ابن قاسم (1)و أخرج له أبو عوانة فى مستخرجه و الحاكم فى مستدركه.

زفر بن الهذيل:

4-زفر بن الهذيل، و هو أقدم صحبة لأبى حنيفة من أبى يوسف و محمد توفى سنة 158 ه-، و كان أبوه عربيا و أمه فارسية، أخذ عن أبى حنيفة فقه الرأى، حتى غلب عليه على ما سواه، و كان أشد أصحاب أبى حنيفة قياسا، و هو الذى خلف أبا حنيفة فى حلقته، ثم من بعده أبو يوسف، و لم تعرف له رواية لشيخه و يعود ذلک إلى قصر حياته من بعده، إذ لم يتسع الزمن للتدوين و لكن نشره لمذهب أبى حنيفة كان بلسانه و تولى القضاء فى زمن أبى حنيفة فى البصرة و هجاه أحمد بن المعدل المالكى بقوله: (إن كنت كاذبة بما حدثتنى) فعليک إثم أبى حنيفة أو زفر

الماثلين إلى القياس تعمدا و الراغبين عن التمسک بالخبر

(2)و قد ترک المحدثون الرواية عنه قال أبو موسى محمد بن المثنى: ما سمعت عبد الرحمن بن مهدى يحدث عن زفر شيئا. و عن معاذ بن معاذ قال: كنت عند سوار القاضى فجاء الغلام فقال زفر بالباب فقال سوار: زفر الرأى لا تأذن له فإنه مبتدع، و عدّه العقيلى فى الضعفاء، و عن بشر بن السرى قال: ترحمت يوما على زفر و أنا مع سفيان الثورى فأعرض بوجهه عنى. و قال الأزدى: زفر غير مرضى المذهب و الرأى، و قال أحمد بن أبى العوام قاضى مصر فى مناقب أبى حنيفة: قال لى أبو جعفر الطحاوى: سمعت أبا حازم سمعت الضبى يقول: قدم زفر بن الهذيل البصرة فكان يأتى حلقة عثمان البتى فيناظرهم و يتبع أصولهم، فإذا رأى شيئا خرجوا فيه عن الأصل تكلم فيه مع عثمان حتى يتبين له خروجه عن الأصل، ثم يقول فى هذا جواب أحسن من هذا فإذا استحسنوه قال: هذا قول أبى حنيفة، فلم يلبث أن تحولت الحلقة إليه و بقى عثمان البتى وحده.

1- 1) لسان الميزان ج 2 ص 208.

2- 2) تأنيب الخطيب للكوثرى ص 95.

هؤلاء تلامذة أبی حنیفة الذین نشروا فقهه و نقلوا آراءه، و أول من دون منهم، هو القاضی أبو یوسف، و من بعده محمد بن الحسن مولی بنی شیبان، و کتبه تعد المرجع الأول لفقه أبی حنیفة، و قد أخذه عن أبی یوسف، لأنه أدرک أبا حنیفة و عمره لم یسمح له بنقل فقهه، و لکنه روی ذلک عن أبی یوسف، فتراه یذکر فی کتابه «الجامع الصغیر» فی أول کل فصل روایته عنه، و لم یذکره فی «الجامع الکبیر» ، و قد ذکر ابن نجیم فی البحر فی باب التشهد أن کل تألیف لمحمد بن الحسن موصوف بالصغیر فهو باتفاق الشیخین أبی یوسف و محمد، بخلاف الکبیر فإنه لم یعرض علی أبی یوسف. و لقد کان أبو یوسف و محمد و غیرهم من تلامذة أبی حنیفة مستقلین فی تفکیرهم کل الاستقلال، غیر مقلدین لشیخهم، بأی نواحی من نواحی التفکیر، و کونهم درسوا آراءه أو تلقوه علیه و تثقفوا فی أول دراستهم علیه لا ـ یمنع استقلال تفکیرهم، و حریة اجتهادهم، و إلا کان کل من یتلقن علی شخص لا بد أن یکون مقلدا له، و تنتهی القضیة لا محالة إلی أن تنزل درجة أبی حنیفة عن الاجتهاد، و یکون مقلدا لشیخه حماد بن أبی سلیمان لأنه درس عنده، و کان کثیر التخریج علیه، و خالفه أحیانا و وافقه أحیانا. و کذلک کان أصحاب أبی حنیفة. فقد درسوا فقهه. و تلقوا علیه فوافقوه فی بعضها و خالفوه فی کثیر من الآراء و الأقوال، و ما کانت الموافقة عن تقلید بل عن اقتناع و استدلال و تصدیق للدلیل. و لیس ذلک من شأن المقلد فإن لهم آراؤهم الخاصة و لکنهم الطریق إلی نقل أقوال أبی حنیفة. و تجد کتب الحنیفة تورد أقوال الأربعة، و ربما یکون لمسألة واحدة أربعة أقوال لأبی حنیفة قول، و لأبی یوسف قول، و لمحمد قول، و لزفر قول، حسب ما یظهر لهم من الآثار و المعانی (1). یقول العلامة الخضری: و قد حاول بعض الحنفیة أن یجعل أقوالهم المختلفة أقوالا للإمام رجع عنها، و لکن هذه غفلة شدیدة عن تاریخ هؤلاء الأئمة، بل عما ذکر فی کتبهم، فإن أبا یوسف یحکی فی «کتاب الخراج» رأی أبی حنیفة، ثم یذکر رأیه

1- 1) ضحی الإسلام ج 2 ص 200.

مصـرحا بأنه يخالفه، و يبين سـبب الخلاف و كـذلک يفعل فی کتاب أبی حنيفة، و ابن أبی ليلی، فإنه أحيانا يقول برأی ابن أبی ليلی بعد ذکر الرأيين، و محمـد رحمه اللّه يحکی فی کتبه أقوال الإمـام، و أقوال أبی يوسف و أقواله مصـرحا بالخلاف علی أنه لو کان کما قالوا لـم يکن ما رجع عنه من الآراء مـذهبا. و من الثابت أن أبا يوسف و محمـد رجعا عن آراء رآها الإمام لما اطلعا علی ما عنـد أهل الحجاز من الحديث، فالمحقق تاريخيا أن أئمة الحنفية الذين ذکرناهم بعد أبی حنيفة رحمه اللّه ليسوا مقلدين له، لأن التقليد لـم يکن نشأ فی المسـلمين فی ذلک التاريخ، بل کان المفتون مستقلين فی الفتوی، بناء علی ما يظهر من الأدلة، سواء أ خالفوا معلميهم أم وافقوهم، و لـم تکن نسبة أبی يوسف و محمد إلی أبی حنيفة إلا کنسبة الشافعی إلی مالک (1). و سـيأتی إنشاء اللّه فی مباحث الفقه ذکر أقوالهم التی خالفوا بها أبا حنيفة و آرائهم التی انفردوا بها.

علماء الحنفية و نشر المذهب:

و قد نقل کتبهم تلاميذهم المبرزون، منهم: 1-إبراهيم بن رستم المروزی المتوفی سنة 211 ه-، تفقه علی محمد بن الحسن و سمع مالک بن أنس، و قـدم بغداد، له کتاب النوادر عن محمد أسـتاذه، و هو ينسب إلی مرو بفتح الميم و سـکون الراء المهملة فی آخرها واو، بلدة يقال لها مرو، و إلحاق الزاء المعجمـة بعد الواو فی النسـبة، للفرق بينه و بين المروی، و هی ثياب مشـهورة بالعراق منسوبة إلی قرية بالکوفة (2). 2-أحمـد بن حفص الکبير البخاری، أخـذ الفقه عن محمـد بن الحسن، و روی عنه کتبه، و کتب المبسوط بيده، و له اختيارات يخالف بها جمهور أصحابه (3). 3-بشر بن غياث المويسی المتوفی سنة 218 ه-ابن أبی کريمة مولی زيد بن الخطاب أدرک مجلس أبی حنيفة و أخذ نبذا منه، ثم لازم أبا يوسف، و أخذ الفقه عنه

1- 1) الخضری تاريخ التشريع الإسلامی ص 225.

2- 2) الفوائد البهية ص 9.

3- 3) نفس المصدر ص 18.

حتی صار من أخص أصحابه، و له تصانیف و روایات کثیرة عن أبی یوسف، و له فی المذهب أقوال غریبة، و کان أبو یوسف یذمه و یعرض عنه، و کان غیر مرض عند أهل الحدیث قال الذهبی: بشر بن غیاث لا ینبغی أن یروی عنه (1). 4-بشر بن الولید بن خالد الکندی القاضی المتوفی سنة 238 ه-أحد أصحاب أبی یوسف، روی عنه کتبه و أمالیه، ولی قضاء بغداد فی زمان المعتصم، و کان متحاملا علی محمد بن الحسن الشیبانی، و کان الحسن بن مالک ینهاه، وثقه الدارقطنی، و قال صالح بن محمد هو صدوق و لکنه لا یعقل. 5-محمد بن شجاع الثلجی المتوفی سنة 267 ه-، تفقه علی الحسن بن زیاد و الحسن بن أبی مالک، له کتاب تصحیح الآثار، و کتاب النوادر، و کتاب المضاربة، و کتاب الرد علی المشبهة. و هو ضعیف الروایة عند أهل الحدیث (2). 6-أبو سلیمان موسی بن سلیمان الجوزجانی المتوفی بعد المائتین، أخذ العلم عن محمد و کتب مسائل الأصول و الأمالی، عرض علیه المأمون القضاء فلم یقبل، و له کتاب السیر الصغیر، و النوادر، و غیر ذلک. 7-محمد بن سماعة التمیمی، حدث عن اللیث، و أبی یوسف، و محمد، و أخذ الفقه عنهما، و عن الحسن بن زیاد، و کتب النوادر عن أبی یوسف، و محمد ولد سنة 130 ه-و مات سنة 233 ه-، و ولی القضاء بعد موت یوسف ابن الإمام أبی یوسف سنة 192 ه، له کتاب أدب القاضی، و کتاب المحاضرات، و السجلات، و النوادر. 8-هلال بن یحیی بن مسلم، تفقه علی أبی یوسف و زفر، و له مصنف فی الشروط و أحکام الوقف، توفی سنة 245 ه-. 9-أحمد بن عمر بن مهیر الخصاف المتوفی سنة 261 ه-أخذ عن أبیه عن الحسن بن زیاد عن أبی حنیفة، کان عارفا بالمذهب، صنف للمهتدی کتاب الخراج، و له کتاب الوصایا، و کتاب الشروط الکبیر و الصغیر، و کتاب الرضاع، و کتاب أدب القاضی، و کتاب الحیل الشرعیة (3).

1- 1) لسان المیزان ج 2 ص 29.

2- 2) الفوائد البهیة فی تراجم الحنفیة ص 171.

3- 3) للحنفیة کتابان فی استعمال الحیل الشرعیة، أحدهما لمحمد بن الحسن الشیبانی، و الثانی للخصاف، و یقال إن لأبی حنیفة کتابا فی الحیل، و کان یفتی به الناس للتحلل من الأحکام الشرعیة و القیود الفقهیة، روی أن عبد اللّه بن المبارک قال: من کان عنده کتاب الحیل لأبی حنیفة یستعمله أو یفتی به، فقد بطل حجه، و بانت منه امرأته. انظر کتاب أبو حنیفة، محمد أبو زهرة ص 417 و کتاب تاریخ التشریع الإسلامی ص 280 و سیأتی ذکر ذلک و تحقیقه.

10-أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الأزدى الطحاوى المتوفى سنة 321 ه-. قال المولى عبد العزيز الدهلوى: إنه كان مجتهدا و لم يكن مقلدا للمذهب تقليدا محضا، فإنه اختار فيه أشياء تخالف مذهب أبى حنيفة. لما لاح له من الأدلة القوية، و قال محمد بن عبد الحى: هو فى طبقة أبى يوسف و محمد، لا ينحط عن درجتهما، و إن له درجة عالية و رتبة شامخة قد خالف بها صاحب المذهب كثيرا. و إنه من المجتهدين المنتسبين إلى إمام معين من المجتهدين، لكن لا يقلدونه لا فى الفروع و لا فى الأصول، لكونهم متصفين بالاجتهاد و إنما انتسبوا إليه لسلوكهم طريقه فى الاجتهاد (1). و بهذه الصورة انتشر مذهب أبى حنيفة. فهو فى عصره لم يدون آراءه و أقواله و إنما دونه أصحابه، و لم يكتفوا بأخذهم عنه، فأبو يوسف لزم أهل الحديث و أخذ عنهم أحاديث كثيرة لعل أبا حنيفة لم يطلع على كثير منها. و محمد لم يلازم أبا حنيفة إلا مدة قليلة فى صدر حياته، ثم اتصل بمالک و روى عنه و روايته له تعد من أصح الروايات إسنادا. إذا فعدهم من المجتهدين فى المذهب كما ذهب إليه ابن عابدين خطأ بين، يقول ابن عابدين: إن الإمام لما أمر أصحابه بأن يأخذوا من أقواله بما يتجه لهم من الدليل عليه صار ما قالوه قولا له، لابتنائه على قواعده التى أسسها لهم؛ و نظير هذا ما نقله العلامة البيرى فى أول شرحه على الاشباه على شرح الهداية لابن الشحنة الكبير و هذا نصه: «إذا صح الحديث و كان على خلاف المذهب عمل بالحديث و يكون ذلک مذهبه-أى مذهب أبى حنيفة-فقد صح عن أبى حنيفة أنه قال: إذا صح الحديث فهو مذهبى. . . فإذا نظر أهل المذهب فى الدليل و عملوا به صحت نسبته إلى المذهب لكونه صادرا

1- 1) الفوائد البهية ص 31. [1]

بإذن صاحب المذهب. إذ لا شک أنه لو علم بضعف دليله لرجع عنه و اتبع الدليل الأقوى» (1). و هذا قول لا محل له، فلو كان الأمر كذلک فإن كل فتوى تصدر عن صحة الحديث من أى عالم كان و من أى مذهب هو. يلزم نسبتها إلى مذهب أبى حنيفة. و لعلهم يرون ذلک فجعلوه أعلم الأمة على الإطلاق، بل أفضل التابعين و أعلمهم من هذا الباب، و الغرض أن الوصول إلى معرفة قول أبى حنيفة و مذهبه الخاص متعسر جدا. و الذى بين أيدينا إنما هو مجموع الأقوال منه و من أصحابه و تلامذتهم الذين أخذوا عنهم، فلا يمكن استخلاص أقواله منفردة لتكون منها وحدة فكرية خالصة له من كل الوجوه من غير اقتران أقوال أصحابه بأقواله؛ فإن محمد بن الحسن جمع أقوال فقهاء العراق و لم يجمع أقوال أبى حنيفة وحده، و لم يفصل آراءه عن آراء غيره من أصحابه و معاصريه، بل ألقى بالفروع و الحلول ما بين متفق عليه و مختلف فيه، فجاءت الأجيال و توارثت تلک المجموعة الفقهية التى تجمع أقوال فقهاء العراق فى الجملة، و أقوال أبى حنيفة و أصحابه و تلاميذه خاصة. و قد نهج منها ذلک المنهج غير محمد ممن روى فقه أبى حنيفة و هكذا نجد الرواية لآراء أبى حنيفة تذكر مخلوطة بالرواية عن غيره و ممزوجة بها. و على ذلک النهج تدارس من العلماء تلک الآراء و سموها المذهب الحنفى، و اختاروا للنسبة اسم كبير أولئک الأئمة و شيخهم-و هو أبو حنيفة-و من التهجم على الحقائق سلبهم شخصيتهم لتفنى فى شخصية الإمام (2). و الخلاصة أن المذهب الحنفى اتسع بجهود أصحابه و نشرهم له إذ وسعوا دائرته بالبحث و التأليف، و أن علم أبى حنيفة لا يكاد يعرف لعدم انفراده عن أصحابه، فالموازنة بينه و بين غيره لا تحصل إلا إذا اتجهنا إلى الموازنة بين علماء المذاهب و بين مجموع مؤسسى المذهب الحنفى، الذين كونوا مجموعة فقهية مزيجة بأقوال فقهاء العراق و أقوالهم، و هذا أمر لا يمكن، و محاولة الحنفية بإرجاع الجميع إليه أمر غير وجيه، و سيتضح الأمر عند البحث عن آراء أبى حنيفة و أقواله، و ما ذهب إليه أصحابه فى خلافه.

1- 1) أبو حنيفة لمحمد أبو زهرة ص 441-451.

2- 2) أبو حنيفة لمحمد أبو زهرة ص 435.

مناظرته للإمام الصادق:

اشارة

إن عصر أبى حنيفة كان عصر مناظرات و جدل إلى أقصى حد، فمناظرات بين أهل الأهواء و بين الفرق المختلفة، و بين الفقهاء بعضهم بعضا. و كان أبو حنيفة قوى المناظرة شديد الجدل، يتسلح بكل الوسائل التى تعينه على الوصول إلى الفوز بالنتيجة فى غالب الأحيان، كما وصفه الإمام مالک بقوله: رأيت رجلا لو كلمک فى هذه السارية أن يجعلها ذهبا لقام بحجته. و فى رواية أنه قال: تاللّه لو قال: إن هذه الأسطوانة من ذهب لأقام الدليل القياسى على صحة قوله، و بالطبع ان مثله ينال فى تلک المعارک نصيبه من الشهرة، على أن المنصور نظر إليه بعين التقدير و العناية تكريما له و لأبناء قومه الذين طلع نجمهم فى ذلک العصر. و مما يدلنا على قوة مناظرته أن المنصور انتدبه إلى مهمة عجزت قوته عن دفعها، و خانته حيلته فى التخلص منها، و هى مسألة انتشار ذكر جعفر بن محمد الصادق عليه السّلام، و من الصعب على المنصور أن تصبح فى الكوفة و مكة و المدينة و قم حلقات علمية هى أشبه شىء بفروع لمدرسة الإمام جعفر بن محمد الصادق، و كانت تقرع سمعه أصوات شيوخ الكوفة، بكلمة يضطرب لها لبه، و يفقد عندها اتزانه، و هى قولهم فى مناظرتهم: حدثنى جعفر بن محمد الصادق، لذلک اضطر إلى جلب الإمام من المدينة إلى الكوفة ليفتک به، و أراد من أبى حنيفة الذى عرف بقوة المناظرة و سرعة الجواب أن يهيئ من مهمات المسائل، فيسأل الإمام بها فى مجلس عام، عساه أن يظفر بشىء ينال به غرض الحط من كرامة الإمام الصادق، و لم يغب عن المنصور ما للإمام الصادق من المكانة العلمية. قال الحسن بن زياد اللؤلؤى سمعت أبا حنيفة-و قد سئل من أفقه من رأيت-؟ قال: ما رأيت أفقه من جعفر بن محمد الصادق، لما أقدمه المنصور بعث إلىّ فقال: يا أبا حنيفة إن الناس قد فتنوا بجعفر بن محمد، فهيّئ له من المسائل الشداد فهيأت له أربعين مسألة. ثم بعث إلىّ أبو جعفر و هو بالحيرة فأتيته فدخلت عليه، و جعفر بن محمد جالس عن يمينه، فلما بصرت به دخلتنى من الهيبة لجعفر بن محمد الصادق ما لم

يدخلنى لأبى جعفر المنصور، فسلمت عليه. و أومأ إلىّ فجلست، ثم التفت إليه فقال: يا أبا عبد اللّه هذا أبو حنيفة، فقال: نعم. ثم أتبعها قد أتانا كأنه كره ما يقول فيه قوم: إذا رأى الرجل عرفه. قال: ثم التفت إلىّ فقال: يا أبا حنيفة ألق على أبى عبد اللّه مسائلك، فجعلت ألقى فيجيبنى فيقول: أنتم تقولون كذا و أهل المدينة يقولون كذا و نحن نقول كذا. فربما تابعنا و ربما تابعهم و ربما خالفنا جميعا، حتى أتيت على الأربعين مسألة ما أخل منها بمسألة. ثم قال أبو حنيفة رحمه اللّه: ألسنا روينا أن أعلم الناس أعلمهم باختلاف الناس (1).

مناظرته فى القياس:

و كان عليه السّلام ينهى أبا حنيفة عن القياس و يشدد الإنكار عليه و يقول: بلغنى إنک تقيس الدين برأيک، لا تفعل فإن أول من قاس إبليس (2). و يحدثنا أبو نعيم: أن أبا حنيفة و عبد اللّه بن أبى شبرمة و ابن أبى ليلى دخلوا على جعفر بن محمد الصادق عليه السّلام، فقال لابن أبى ليلى: من هذا الذى معک؟ قال: هذا رجل له بصر و نفاذ فى الدين. قال: لعله يقيس أمر الدين برأيه؟ قال: نعم! فقال جعفر لأبى حنيفة: ما اسمک؟ قال نعمان قال: ما أراک تحسن شيئا، ثم جعل يوجه إليه أسئلة فكان جواب أبى حنيفة عدم الجواب عنها فأجابه الإمام عنها. ثم قال: يا نعمان حدثنى أبى عن جدى، أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: «أول من قاس أمر الدين برأيه إبليس» قال اللّه تعالى له: اسجد لآدم فقال: أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِى مِنْ نارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ فمن قاس الدين برأيه قرنه اللّه يوم القيامة بإبليس لأنه اتبعه بالقياس.

1- 1) الإمام الصادق و المذاهب الأربعة ج 1 ص 56. [1]

2- 2) الطبقات الكبرى للشعرانى ج 1 ص 28، و الحلية ج 3 ص 193.

قال ابن شبرمة: ثم قال جعفر أيهما أعظم قتل النفس أو الزنا؟ قال أبو حنيفة: قتل النفس. قال الصادق: فإن اللّه عزّ و جلّ قبل فى قتل النفس شاهدين و لم يقبل فى الزنا إلا أربعة. ثم قال: أيهما أعظم الصلاة أم الصوم؟ قال أبو حنيفة: الصلاة، قال الصادق: فما بال الحائض تقضى الصوم و لا تقضى الصلاة. فكيف ويحک يقوم لک قياسک! اتق اللّه و لا تقس الدين برأيک (1). و قد احتفظ لنا التاريخ بكثير من تلک المواقف، التى كان فيها لأبى حنيفة موقف تسليم، لأنه أمام أمر واقع لا مجال فيه للجدل و المناقشة، و هو يعرف الإمام الصادق و خطته فى مناظراته التى لا يريد بها إلا توجيه المسلمين توجيها صحيحا، و كان بيته يختلط فيه أشتات الناس على اختلاف آرائهم و مبادئهم و نحلهم، و كان ميدان المعترک الفكرى واسعا فى جميع الأنحاء، فكان عليه السّلام فى ذلک العصر مرجعا لكل مشكلة و مهمة، يقصده طلاب الحقيقة من الأنحاء القاصية و يختلف إليه أهل الجدل و النظر فيكون جوابه هو القول الفصل و الحكم العدل. و كان عليه السّلام إذا ورد الكوفة اختلف إليه علماؤها و أحاط به فقهاؤها يسألون عما يهمهم و يستقون من فيض علمه، كما كان من خطته عليه السّلام أن يسأل بقصد التوجيه و سبرغور من يتحرى المناظرة و يتطرق إلى مذاهب الكلام و مناهى القياس، فتراه عليه السّلام يسأل أبا حنيفة: ما على محرم كسر رباعية ظبى؟ قال أبو حنيفة: ما أعلم فيه. فقال عليه السّلام: أنت تتداهى و لا تعلم أن الظبى لا يكون له رباعية و هو ثنى أبدا (2).

رواياته عن الإمام الصادق و ميله لأهل البيت

و كان أبو حنيفة ممن يختلف إلى الإمام الصادق عليه السّلام و يسأله عن كثير من المسائل مع أدب و احترام و لا يخاطبه إلا بقوله: جعلت فداک يا ابن رسول اللّه. و قد روى أبو حنيفة عن الإمام الصادق عليه السّلام و حدث عنه و اتصل به فى

1- 1) حلية الأولياء ج 3 ص 197.

2- 2) المصايد و المطارد لكشاجم ص 202-203. وفيات الأعيان ج 1 ص 212 [1]مرآة الجنان ج 1 ص 305 و [2]شذرات الذهب ج 1 ص 220. [3]

المدینـة مـدة من الزمن، و رواياته عنه أثبتها رواة مسانيده و ورد منها فی کتاب الآثار لأبی یوسف. و علی أی حال فإن لأبی حنیفة صـلة مع أهل البیت علیهم السلام و کان ینتصر لهم و یؤازرهم فی جمیع مواقفهم. لقد ناصر زید بن علی و ساهم فی الدعوة إلی الخروج معه و کان یقول: ضاهی خروج زید خروج رسول اللّه یوم بدر. فقیل له: لم تخلفت عنه؟ قال: حبسـنی عنه ودائع الناس عرضتها علی ابن أبی لیلی فلم یقبل (1). کمـا أنه آزر محمـد بن عبـد اللّه بن الحسن و أخـاه إبراهیم، و کـان یحث الناس و یأمرهم باتباعه، و جاءت إلیه امرأة أیام إبراهیم فقالت: إن ابنی یریـد هـذا الرجل و أنا أمنعه، فقال: لا تمنعیه (2). و قال أبو إسـحاق الفزاری: جئت إلی أبی حنیفـة فقلت له: أما اتقیت اللّه أفتیت أخی بـالخروج مع إبراهیم بن عبـد اللّه بن الحسن حتی قتـل. فقـال: قتل أخیک حیث قتل یعـدل قتله لو قتل یوم بـدر و شـهادته مع إبراهیم خیر له من الحیـاة (3)فکان إسـحاق یبغض أبا حنیفـة بعد ذلک. و وجه أبو حنیفة إلی إبراهیم کتابا یشـیر علیه أن یقصد الکوفة سـرا لیعینه الزیدیة و قال: إن فیها من شـیعتکم یبیتون أبا جعفر فیقتلونه أو یأخذون برقبته فیأتونک به، و کانت المرجئة تنکر ذلک علی أبی حنیفة و تعیبه به (4). و کان أبو حنیفـة عند ما یذکر محمد بن عبد اللّه بن الحسن بعد قتله تذرف عیناه بالدموع (5). و فی الجملة أن میل أبی حنیفة لأهل البیت لا خفاء علیه حتی عد من الشیعة الزیدیة.

1- 1) أبو حنیفة لمحمد أبو زهرة ص 71 نقلا عن مناقب أبی حنیفة للبزازی ج 1 ص 55.

2- 2) مناقب أبی حنیفة للمکی ج 2 ص 84.

3- 3) مقاتل الطالبیین ص 364. [1]

4- 4) مقاتل الطالبیین ص 366. [2]

5- 5) المناقب للکردری ج 2 ص 72.

و يقول أبو زهرة-بعد البحث عن ميله و تشيعه-: و ننتهى من الكلام السابق أن أبا حنيفة شيعى فى ميوله و آرائه فى حكام عصره، أى أنه يرى الخلافة فى أولاد على من فاطمة، و أن الخلفاء الذين عاصروه قد اغتصبوا الأمر منهم، و كانوا لهم ظالمين (1). و كان أبو حنيفة يرى أن على بن أبى طالب على الحق فى قتاله لأهل الجمل و غيرهم و يتضح ذلک من أقواله فى عدة مواطن منها: انه سئل عن يوم الجمل؟ فقال: سار على فيه بالعدل و هو أعلم المسلمين فى قتال أهل البغى. و قوله: ما قاتل أحد عليا إلا و على أولى بالحق منه. . . الخ. و قوله: إن أمير المؤمنين عليا إنما قاتل طلحة و الزبير بعد أن بايعاه و خالفا (2). و قال يوما لأصحابه: أ تدرون لم يبغضنا أهل الشام؟ قالوا: لا. قال: لأنا لو شهدنا عسكر على بن أبى طالب و معاوية لكنا مع على رضى اللّه عنه. أ تدرون لم يبغضنا أهل الحديث؟ قالوا: لا. قال: لأنا نحب أهل بيت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و نقر بفضائلهم. و فى رواية أنه قال: أ تدرون لم يبغضنا أصحاب الحديث؟ قالوا لا. قال: لأنا نثبت خلافة على رضى اللّه عنه و هم لا يثبتونها. و لا نريد هنا أن نستقصى أخبار أبى حنيفة الدالة على صلته بأهل البيت عليهم السلام، كما لا نريد أن نقيم الأدلة على ميوله الشيعية أو نفيها فإن ذلک لا يعنينا فى البحث.

1- 1) أبو حنيفة ص 165.

2- 2) مناقب المكى ج 2 ص 24.

أسباب مقتل أبی حنیفة:

و بقی شیء یجب الالتفات إلیه و هو قتل المنصور لأبی حنیفة بالسم. فهل کان ذلک لمناصرته لأهل البیت علیهم السلام؟ أو کان لعدم قبوله القضاء فحسب؟ اختلفت أقوال المؤرخین فی ذلک، فمنهم من أرجع الأسباب إلی عدم قبوله القضاء فقط، عند ما أشخصه المنصور من الکوفة إلی بغداد و عرض علیه القضاء، و لکنه أبی فحبسه و مات فی الحبس، و الروایات فی هذه الحادثة مختلفة، فبعضهم یرویها علی هذا الوجه، و آخرون یروون أن المنصور هدده بالضرب، فقبل القضاء علی کره (1)ثم مات بعد أیام، و آخرون یروون أن المنصور إنما استقدمه من الکوفة لأنه اتهم بالتشیع لإبراهیم بن عبد اللّه بن الحسن، فإنه أعلن الانضمام لجانب دعوة محمد و إبراهیم، و أفتی بوجوب الخروج مع إبراهیم. یحدثنا أبو الفرج الأصفهانی عن عبد اللّه بن إدریس قال: سمعت أبا حنیفة و هو قائم علی درجته، و رجلان یستفتیانه فی الخروج مع إبراهیم، و هو یقول: اخرجا. و انه کتب إلی إبراهیم یشیر علیه أن یقصد الکوفة و یدخلها سرا، فإن من هاهنا من شیعتکم یبیتون أبا جعفر فیقتلونه، أو یأخذون برقبته، فیأتونک به، و کتب له کتابا آخر فظفر أبو جعفر بکتابه، فسیره و بعث إلیه، فأشخصه و سقاه شربة فمات منها (2). و التسلیم لهذه الروایة غیر ممکن لأن قتل إبراهیم کان فی سنة 145 ه-و وفاة أبی حنیفة فی سنة 150 ه-و لیس فی إمکان المنصور التریث فی أمر أبی حنیفة مدة خمس سنوات عند ما تحقق منه ذلک؛ و کان لا یقف فی ظلمه عند حد لترکیز دعائم ملکه، و لا یتورع فی سفک الدماء، و إن له من القوة ما یخول له قتل أبی حنیفة بسرعة، فإن بقاءه خطر علی الدولة و لا یمکن للمنصور أن یغض عن ذلک، و قد فتک بأبی مسلم مع قوته و کثرة جنده، و فتک بزعماء أهل البیت، مع علمه بحراجة الموقف، کما فتک بکثیر من الزعماء و ذوی الوجاهة، و النفوذ. اللهم إلا أن یکون عثور المنصور علی رسالة أبی حنیفة لإبراهیم بعد مدة من قتله.

1- 1) مناقب المکی ج 2 ص 27.

2- 2) مقاتل الطالبیین ص 366. [1]

و كان أبو حنيفـة من جملة الفقهاء المنتصـرين لمحمد و إبراهيم كمالک بن أنس و الأعمش و مسـعر بن كدام و عبادة بن العوام و عمران بن داود القطان و شعبة بن الحجاج و غيرهم، و كان بعضهم حضر حربه (1)و كانوا يعدون شهداء وقعته كشهداء بدر و يسمونها بدر الصغرى، و قـد رأينا المنصور يغض عن مؤاخـذة أولئک الفقهاء لأنه بحاجـة ماسـة لبقائهم و المعاونـة معهم، و بـذلک يقصـد إيجاد مجموعـة منهم لتخفيف خطر انتشار ذكر جعفر بن محمـد فى الأقطار فقد كان هو الشـجى المعترض فى حلقه. و من الحق و الإنصاف أن نقول: إن موقف أبى حنيفـة ليس كموقف مالک بن أنس، فإن مالكا لما عوقب لأجل فتواه بالخروج مع محمد أخلص بعد ذلک للمنصور، و تغير موقفه حتى كان يظهر أن لا فضل لعلى عليه السّلام على غيره من الصـحابة، بل هو كسائر الناس أما أبو حنيفـة فلم يتغير موقفه، و كان يفضل عليا عليه السّلام إمـا على عثمان فقط أو على جميع الصـحابة، كما لـم تتغير وجهـة نظره فى الدولـة و إنها ظالمـة لا تصـح مؤازرتها. و الحاصل أن غضب المنصور على أبى حنيفة قد اختلفت الأقوال فيه، و مهما تعددت الأسباب فيه فالمرجع كله يعود إلى مخالفة أبى حنيفة لرأى السلطة التى تريد تجريد العلماء من مواهب الإدراک و التفكير، و منعهم من حرية الرأى و الصـراحة بالحق، و على كل فقد مضى أبو حنيفة ضحية فتک المنصور و سطوته. و لا بد لنا قبل نهاية البحث أن نشير إلى اتصال أبى حنيفة برجال مدرسة الشيعة و روايته عنهم و سماعه منهم. ربما يظن أن أبا حنيفة لـم يرو عن رجال الشيعة، و لـم يكونوا من شيوخه، و ذلک

1- 1) كان خروج محمد بن عبد اللّه النفس الزكية فى المدينة سـنة 144 ه-و بـايعه أهل الحجاز، قال ابن العماد: و أحبه الناس حبا عظيما لما كان فيه من الكمال و خصال الفضل، و يشـبه النبى فى الخلق و الخلق، و اسـمه و اسم أبيه. و بايعه المنصور و السفاح، و كانا من دعاته أيام بنى أميـة، و قتل فى المدينـة قتله المنصور الـدوانيقى، و خرج أخوه إبراهيم فى العراق بعـد قتله، و كاد أن يظفر بالمنصور لكثرة جيشه و محبة الناس له و تأييد الفقهاء لنهضـته، و دعوه لدخول الكوفة ليلا فقال أخاف أن يستباح الصغير و الكبير. و إن حادثة إبراهيم و محمد لمن أهم الحوادث التاريخية و لـم تنل نصيبها من التحقيق و البحث.

لأنهم نقلوا عنه أن أبا عصمة حدث عن أبی حنيفة عند ما سأله ممن تأمرنی أن أسمع الآثار؟ فقال أبو حنيفة: من كل عدل فی هواه إلا الشيعة فإن أصل عقيدتهم تضليل أصحاب محمد صلّی اللّه عليه و آله و سلم. و الصحيح أن هذا القول لم يصح عن أبی حنيفة. أولا انه انفرد به أبو عصمة و هو نوح بن مريم المروزی المتوفی سنة 173 ه- و هذا الرجل مشهور بوضع الحديث حسبة. قال الحافظ زين الدين العراقی فی مبحث الوضاعين: و مثال من كان يضع الحديث حسبة ما رويناه عن أبی عصمة نوح بن مريم المروزی، قاضی مرو، فيما رواه الحاكم بسنده إلی أبی عمار المروزی، أنه قيل لأبی عصمة: من أين لک عن عكرمة عن ابن عباس فی فضائل القرآن سورة سورة، و ليس عند أصحاب عكرمة هذا؟ فقال: إنی رأيت الناس قد أعرضوا عن القرآن، و اشتغلوا بفقه أبی حنيفة، و مغازی محمد بن إسحاق، فوضعت هذا الحديث حسبة. و كان يقال لأبی عصمة هذا: نوح الجامع فقال ابن حبان: جمع كل شیء إلا الصدق. و قال البخاری: قال ابن المبارک لوكيع: عندنا شيخ يقال له أبو عصمة كان يضع كما يضع المعلی بن هلال (1). و قال ابن حجر فی ترجمته: قد أجمعوا علی تكذيبه (2)و قال العباس بن مصعب: كان نوح بن أبی مريم أبوه مجوسيا اسمه «مابنه» استقضی نوح علی مرو و أبو حنيفة حی، فكتب إليه أبو حنيفة يعظه (3).

1- 1) شرح ألفية العراقی ج 1 ص 168 و الفوائد البهية فی تراجم الحنفية ص 221.

2- 2) لسان الميزان ج 6 ص 168.

3- 3) ميزان الاعتدال ج 3 ص 245.

و لا حاجة بنا إلى مزيد من البيان عن أبى عصمة و شهرته بالوضع، و هو بهذه الكلمة أراد أن يضلل الناس فى عقيدة الشيعة بالصحابة رضوان اللّه عليهم. و من المؤسف أن هذه الكلمة الموضوعة قد أخذت مكانتها من أدمغة كثيرين من كتّاب الأصول و الحديث فى السابق و الحاضر، و بنوا عليها تأييد ما يدعى على الشيعة من الطعن على جميع الصحابة. و إن أبى أولئک إلا أن يصححوا ما أورده أبو عصمة، و أن هذه الكلمة صادرة عن أبى حنيفة و أنها شهادة منه على الشيعة، فنحن نسائلهم كيف يصح لأبى حنيفة أن ينهى عن شىء و هو يفعله؟ . لأننا نرى بالوجدان أن أبا حنيفة قد حضر عند علماء الشيعة، و سمع منهم، و روى عنهم، و هذه مسانيده و كتب أصحابه مليئة بتلک الروايات أمثال كتاب الآثار، و كتاب الخرائج و كتاب الرد على الأوزاعى و غيرها. و لا يعنى ذلک أن أبا حنيفة قد تخلص من مؤثرات ذلک العصر و قلد الشيعة و اتبعهم فهو فى الفقه-كما رأينا-، و هو فى اتصاله بالحكام لا يتجاوز الحد الذى يغضب الخليفة رغم أنه من ركائز ثورة الإمام زيد، و مع ذلک امتدت إليه يد المنصور فأذاقته المنية. و كان يخشى أن يتهم بالرفض أو الاعتزال فيحذر فى أقواله و يتحرز فى إجابته (1)و مع كل هذا اتهم فى إيمانه و اعتقاده. و لمزيد من الإيضاح نذكر-بإيجاز-أسماء بعض شيوخ أبى حنيفة من الشيعة و قد وردت رواياته عنهم فى جامع مسانيده و كتب أصحابه.

شيوخ أبى حنيفة من الشيعة:

جابر بن يزيد بن الحارث الجعفى الكوفى المتوفى سنة 128 ه-. حبيب بن أبى ثابت أبو يحيى بن قيس الكوفى المتوفى سنة 119 ه-. مخول بن راشد أبو راشد النهدى المتوفى سنة 141 ه-.

1- 1) انظر المناقب للموفق ج 1 ص 171 و الكردرى ج 1 ص 173.

عطية بن سعد العوفى المتوفى سنة 111 ه-. سلمة بن كهيل الحضرمى المتوفى سنة 113 ه-. أجلح الكندى و قيل اسمه يحيى بن عبد اللّه و لقبه الأجلح المتوفى سنة 145 ه- إسماعيل بن عبد الرحمن بن أبى كريمة الكوفى المتوفى سنة 127 ه-. المنهال بن عمر الكوفى التابعى. عدىّ بن ثابت الأنصارى الكوفى المتوفى سنة 116 ه-. زبيد بن الحارث اليامى، و يقال الأيامى الكوفى المتوفى سنة 122 ه-. و غير هؤلاء من شيوخ أبى حنيفة الذين عرفوا بتشيعهم لأهل البيت و لا يسعنا ذكر الباقين منهم بهذه العجالة. و سيأتى فى الجزء السادس من هذا الكتاب تراجم هؤلاء العلماء الذين تحامل رجال الجرح و التعديل عليهم لتشيعهم فحسب مع أن رجال الصحاح خرجوا أحاديثهم فى صحاحهم. و على أى حال فإن أبا حنيفة أخذ عن رجال الشيعة كما أخذ عن أئمتهم عليهم السلام و نفى ذلک تكذبه أحداث حياة أبى حنيفة و أفكاره. إلى هنا ينتهى البحث عن حياة أبى حنيفة من الوجهة التاريخية و قد اختصرت البحث عنه و آثرنا المهم من سيرته و مراحل حياته لإعطاء صورة عن اختلاف الناس فيه، من قادح و مادح، و مغال و متعصب، و ذكرنا طرفا من أقوال خصومه بدون تعرض لإثباتها أو نفيها، و بقيت أقوال المعتدلين فيه ضاق المجال عن ذكرها و التعليق عليها، و سنعطى رأينا فيه و بيان منزلته العلمية و من اللّه التسديد.

خلاصة البحث

1-إظهار الحقيقة من حيث هو أمر يشق على بعض النفوس التى خضعت لسلطان الهوى و فهمت الأشياء من طريق التقليد، لا من طريق التثبت و الواقع، إنما يلائم أمزجة نقية و طباعا متنورة. و إن البحث عن المذاهب هو من أهم الأبحاث التى توقع الكاتب فى حيرة و ارتباك، لأن مسالك الوصول إلى الحقيقة ملتوية، و الحواجز متكاثرة، كما أنى لا أجهل أهمية الموضوع و خطره، فهو من أهم أسباب العداء و البغضاء بين طوائف المسلمين، و هو منبع التباعد و التضارب، مما أدى بالمسلمين إلى الانحطاط، و اتساع نفوذ أعداء الدين الإسلامى، فى بث روح الفرقة و إيقاد نار الخصومة بينهم، لانصراف المسلمين بكل قوتهم إلى الوقيعة بعضهم ببعض لتأييد كل مذهبه الذى يرتضيه، فنشأ من وراء ذلك فتن و نزاع و تخاصم و اتهام بالسوء، و فرقة و تباعد، و تركوا ورائهم الأخذ بما أمرهم اللّه من الاعتصام بحبل اللّه و أن لا يتفرقوا فتذهب ريحهم، و يتسلط عليهم عدوهم. و لم يسعد المسلمون بالتفاهم حول أسباب النزاع، و عوامل التفرقة و معالجة مشكلة العصبيات، لأن الخلاف أصبح فى الجملة طبيعة ارتكازية، و قد عد إزالته من المستحيل، و ليس كذلك إن تركز البحث على ضوء الأدلة العقلية، و التجرد عن الهوس و العصبيات، و ترك المغالطات و اتحاد الهدف، و هو إظهار الحقيقة و تقبل الحق و إن كان مرا. و قد مضى زمن رجال وسعوا دائرة الخلاف ليتسع نفوذهم، و يتم لهم ما أرادوا فى تفريق كلمة المسلمين، لتركيز دعائم الملك، و امتداد سلطان الاستبداد إذ اتحاد كلمة الأمة يضيق عليهم الدائرة، و يرغمهم على إعطاء المجتمع حرية التفكير، و بذلك تعتدل طرق سيرتهم و يقل ضرر استبدادهم. و هذا الخلاف خلاف غرض أئمة المذاهب، كيف و قد أصبح اتباعهم فى أخذ الأحكام سببا لانفجار براكين الحقد و الكراهية، و اتساع شقة الخلاف، و تكفير البعض للبعض كما مر بيانه، فحدث من ذلك فساد عظيم و خلقت مشاكل. 2-اتضح لنا من سير الحوادث اهتمام ولاة الأمر فى تلك العصور بتحويل

أنظـار النـاس عن اتباع أهل البيت، و الأخـذ من تعاليمهم، و وجهوا الناس بكل حول و قوة لمعاداة من اتبعهم فى الأحكام الشـرعية. و لما كانت الشـيعة متظافرة على الدعوة لآل محمد، و تقديم مذهبهم على جميع المذاهب فالشيعة يرون أحقية أهل البيت بالأمر، و أنهم حملة رسالة الإسـلام، و دعاة نشـره، و أولياء أمر الأمة، يقودونهم إلى السعادة، و ينفذون أحكام اللّه، و لا تأخذهم فى اللّه لومة لائم، و هم المثل الأـعلى فى طهـارة النفس، و هم ينبوع فيـاض تتـدفق منه أنواع المثـل و القيم التى تغـذى العقول و تبنى السـلوك و تضـمن توجيه الحيـاة الإنسانية، فاتباعهم لازم بدليل العقل و الشـرع. و لن تتخل الشيعة أبدا عن الاعتصام بآل محمد، و التمسک بهم مهما كلفهم الأمر، و مهما اتخـذ أعـداؤهم من أسـاليب و وجهوا إليهم من تهم. لـذلک نظرت إليهم السـلطة نظر خصم لاـ تلين قنـاته، و لا تعمل الإرهابات عملها المطلوب، و قد عجزوا عن تحويل عقيدتهم الراسـخة رسوخ الطود، فراحوا يلصـقون بهم التهم و يتقولون عليهم، و هم يعلمون عن الشيعة خلاف ذلک، و لكنهم عرفوا أن تقويم ملكهم و بقاء عزهم لا يتم إلا بإلجام الألسن و كم الأفواه عن المؤاخـذات التى توجه إليهم بصـفتهم ساسة الأمة و حكام الإسلام، و قد حاولوا إفهام الناس أنهم على الحق و خصومهم على الباطل، فطبعوا فى القلوب بغض المعارضين لهم، حتى أخرجوهم عن الإسـلام ادعـاء، و وجهوا إليهم كل مكروه، و اتبعوهم بالأذى، و عاملوهم بالقسوة و الشـدة حتى توصـلوا إلى مخالفة الأحكام، و هجر السـنن الصحيحة عن صاحب الرسالة، لأن الشيعة قاموا بالعمل بها، و لنضع صورا بين يدى القارئ من تلک المخالفات: يقول ابن تيمية (1)فى منهاجه عند بيان التشـبه بالشيعة: و من هنا ذهب من ذهب من الفقهاء إلى ترک بعض المستحبات، إذ صارت شعارا لهم، فإنه و إن لم يكن الترک واجبا لـذلک لكن فى إظهار ذلک مشابهة لهم، فلا يتميز السـنى من الرافضـى، و مصـلحة التمييز عنهم لأجل هجرانهم و مخالفتهم أعظم من مصلحة ذلک المستحب.

1- 1) هو أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام المتولد سنة 661 ه-و المتوفى سنة 728 ه-.

و قال مصنف الهداية من الحنفية: إن المشروع التختم باليمين، و لكن لما اتخذته الرافضة جعلناه فى اليسار. و قال الغزالى: إن تسطيح القبور هو المشروع، و لكن لما جعلته الرافضة شعارا لها، عدلنا عنه إلى التسنيم (1). و قال الشيخ محمد بن عبد الرحمن فى كتاب «رحمة الأمة فى اختلاف الأئمة» المطبوع فى هامش ميزان الشعرانى ج 1 ص 88: السنة فى القبر التسطيح و هو أولى على الراجح، من مذهب الشافعى. و قال أبو حنيفة و أحمد: التسنيم أولى، لأن التسطيح صار شعارا للشيعة. 3- و مهما يكن من أمر فإن امتحانات الشيعة و ما نالهم من الأذى، إنما هو فى سبيل الانتصار لآل محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الانضمام إلى جانبهم و نشر مبدئهم، و لو انهم استجابوا لداعى السلطة، و رغبوا فى لذة الحياة، فليس بينهم و بينها إلا النزول على رغبات أولئک القوم الذين لا يرغبون إلا فى القضاء على مبادئ آل محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلم، و محو ذكرهم فيجنبوا أنفسهم الويلات و تصبح حصتهم من الدولة المراكز و المنافع و يبعدوا أهليهم و ذويهم عن مستقبل ينفتح على السجون و قطع الرقاب. و يبدو أن إلحاق الأذى بالشيعة صار قانون الملوک الطغاة و الأمراء الذين استولوا على مقاليد الأمور فلو تجاوزنا بنى أمية و بنى العباس فإننا نرى ملوک بنى أيوب فى مصر الذين كالوا لهم كل مدح و أطروهم بثناء جميل. اتخذوا يوم عاشوراء يوم سرور، يوسعون فيه على عيالهم و يتبسطون فى المطاعم و يصنعون الحلاوات، و يتخذون الأوانى الجديدة، و يكتحلون و يدخلون الحمام، جريا على عادة أهل الشام، التى سنها لهم الحجاج فى أيام عبد الملک بن مروان ليزعجوا شيعة على بن أبى طالب الذين يتخذون يوم عاشوراء يوم عزاء و حزن على الحسين بن على عليه السّلام لأنه قتل فيه. يقول: المقريزى و قد أدركنا بقايا مما عمله بنو أيوب من اتخاذ يوم عاشوراء يوم سرور. و يكفى خصوم الشيعة أنهم يسيرون على ما سنه الحجاج من ذلک الفعل القبيح، فهل يا ترى أنهم ذهلوا عن قبح هذا العمل؟ أم ترى أنهم لا يعلمون أن هذا الفعل يسىء رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم؟ كيف و هم يظهرون الفرح فى يوم بكى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم له قبل

1- 1) الغدير ج 10 ص 201. [1]

وقوعه، و كان يتألم منه، و هل جهلوا منزلة الحسين عليه السّلام؟ فعمدوا إلى هذا الفعل المنكر؟ !! (1). 4-اندفع ولاة الجور للدفاع عن مراكزهم، و المحافظة عن كيان ملكهم، ببث روح الفرقة بين أفراد الأمة، لاستحصال غاياتهم التى رأوا استحالة حصولها مع اتفاق المسلمين و صفاء ودهم و صبغوا تلك الأعمال التى حاولوا بها تمزيق وحدة الصف صبغة دينية، و لكنها فى الواقع بعيدة كل البعد عن روح الدين. و قد أفصح لنا التاريخ عن نياتهم السيئة و ما يقصدون من وراء ذلك، و قد آزرهم رجال ابتعدوا عن الحق، و تهجموا على أصول المحاسنة و المداراة الاجتماعية، و دعاهم جشعهم إلى الابتعاد عن حدود الإنسانية، و خلعوا ابراد الحشمة، و أطفأت الأطماع شعلة عقولهم «فهم فى غيهم يعمهون» . و على أى حال فقد تفرقت الأمة كما شاءت السياسة، أو كما شاء ولاة الجور، بمقتضى العوامل التى وجهوها لهدم كيان المجتمع الإسلامى، فاتسع الخلاف و عظم الارتباك، و وقعت الخصومة، و بين هذا و ذاك رفع الاستبداد رأسه و افترس كل ما وجده صالحا للأمة. و أصبحت المسألة سيئة الوضع نشأ من جرائها عداء متأصل، توارثته الأجيال حتى عجز المصلحون عن معالجة مشاكل الأمة، و قد اتخذه المستبدون أسهل وسيلة لتفريق المجتمع الإسلامى، تقوية لسلطانهم، و قوة لنفوذهم على ممر العصور، و هم يتظاهرون بمحاربة هذه النعرة، و لكنهم يبذلون جهودهم فى نصرتها من وراء الستار، باستخدامهم مرتزقة سلبوا مواهب الإدراك، و فقدوا شعورهم عند حصول تلك الأجرة الزهيدة، و اشتروا الضلالة بالهدى، يكتبون بأقلامهم المسمومة، ما يثير الضغائن و الأحقاد، فكانت لهجتهم جائرة، يختلقون و يفتعلون بدون قيد و شرط تقربا لأسيادهم. بين يدى عشرات من تلكم الكتب التى حررتها تلك الأقلام المأجورة، ألفها مهرجون لا يعرفون من الحق موضع أقدامهم، يكيلون الذم لأمة عرفوا بإخلاصهم و ولائهم لأهل البيت، و اعتناق مذهبهم الذى تركزت دعائمه على تعاليم صاحب

1- 1) انظر كتابنا: مع الحسين فى نهضته.

الرسالة، و انتشر بجهود أصحابه، و قد رأت السلطة مخالفة ذلک لمصالحهم فجعلوا اتباع النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و أخذ تعالیمه عن أهل بیته بدعة نظرا لعدم تشریع السیاسة لذلک. و لم یجدوا طریقا لمؤاخذة الشیعة بحکمة و نزاهة، و لکنهم حاکوا لهم التهم، تقولا بالباطل و ابتعادا عن الحق، بل هو تهریج و هوس، و تعابیر لا شعوریة، و من أعظم تلک التهم التی ألصقوها بالشیعة هو قولهم بتکفیر الشیعة للصحابة، و حکموا علیهم فی ذلک بالخروج عن الدین! ما أقسی هذا الحکم، و ما أعظم هذه التهمة «عفوک اللهم عفوک» . اللهم إننا نبرأ إلیک مما یقوله الحاقدون و نوالی أصحاب رسولک صلّی اللّه علیه و آله و سلّم الذین رضیت عنهم و أخلصوا فی الدعوة و الجهاد فی سبیلک. 5-لقد أخذت هذه التهمة نصیبها من التهویل، و حظها من الشیوع، فی عصر اتخذ خصوم الشیعة من سلطانه قوة الانتصار، و ازداد نشاطهم بتلک المفتریات، و الاتهامات التی سلکوا بها طرق الخداع و التمویه علی السذج و عوام الأمة، فترکزت فی أدمغتهم تلک الفکرة السیئة، و بحکم مؤثرات الدعایة التی بثتها الطبقة الحاکمة ضد الشیعة، لیثیروا البغضاء، و یبذروا الحقد، و یبرزوا للشیعة صورة تشمئز منها النفوس، فکانت دماؤهم مهدورة و أموالهم مباحة. و لم تقف الشیعة تجاه هذه المنکرات مکتوفة الید، بل دافعت عن مبدئها و عقیدتها بساطع البرهان و قوة المنطق و حد السیف، فکانت هناک ثورات یتبع بعضها بعضا، و حروب طاحنة دفاعا عن المبدأ و حفظا لکرامة الدین. ما أقسی هذا الحکم و ما أعظم هذه التهم، و لا تستطیع الشیعة السکوت علیه، و لکن ما ذا تصنع و زاویة التعصب مفتوحة یطل منها أولئک الحول القلب الذین یفترون الکذب. ربنا احکم بیننا و بین قومنا بالحق، ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هدیتنا، ربنا إنا آمنا بک و اتبعنا نبیک، و والینا أصحابه الذین نهجوا نهجه، و اهتدوا بهدیه و سمعوا دعوة الحق فلاقتها نفوسهم بکل قبول و صدق، و إخلاص بالقول و العمل، و نظروا لمصلحة المسلمین قبل مصالح أنفسهم أولئک هم أصحاب محمد صلّی اللّه علیه و آله و سلم «أشداء علی الکفار رحماء بینهم یبتغون فضلا من اللّه و رضوانا» سبقوا إلی الإسلام، و هاجروا و جاهدوا

بأموالهم و أنفسهم، و نشروا الدين و أظهروا شعائر الإسلام، و أقاموا الفرائض، و أحيوا السنن، آمنوا بمحمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و نصروه، و اتبعوا النور الذى أنزل معه فأيدت نبيک فيهم، و ألفت بين قلوبهم فاتحدوا و آزروا و نصروا و صدقوا ما عاهدوا عليه اللّه؛ ربنا إنا آمنا بنبيک، و تبرأنا من المنافقين الذين مردوا على النفاق، و نصبوا لنبيک الغوائل، و لم يؤمنوا إيمان القلب و الجنان، بل إيمان الشفة و اللسان فأخبرت نبيک عنهم إِذا جاءَکَ اَلْمُنافِقُونَ قالُوا نَشْهَدُ إِنَّکَ لَرَسُولُ اَللّهِ وَ اَللّهُ يَعْلَمُ إِنَّکَ لَرَسُولُهُ وَ اَللّهُ يَشْهَدُ إِنَّ اَلْمُنافِقِينَ لَکاذِبُونَ. اِتَّخَذُوا أَيْمانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اَللّهِ إِنَّهُمْ ساءَ ما کانُوا يَعْمَلُونَ [المنافقون:1 و 2]. الذين يُخادِعُونَ اَللّهَ وَ هُوَ خادِعُهُمْ وَ إِذا قامُوا إِلَى اَلصَّلاةِ قامُوا کُسالى يُراؤُنَ اَلنّاسَ وَ لا يَذْکُرُونَ اَللّهَ إِلاّ قَلِيلاً. مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذلِکَ لا إِلى هؤُلاءِ وَ لا إِلى هؤُلاءِ وَ مَنْ يُضْلِلِ اَللّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً [النساء:142 و 143]. و نتبرأ من الذين شاقوا رسولک وَ مَنْ يُشاقِقِ اَلرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُ اَلْهُدى وَ يَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ اَلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ ما تَوَلّى وَ نُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَ ساءَتْ مَصِيراً [النساء:115]. حقا إنها مؤاخذة عظيمة، لو كان لها من الصحة نصيب، و لكنها فرية و بهتان، بعثتها الأغراض، و أوحتها الأوهام و الخيالات، فتوارثتها الأجيال و لو تناولتها أقلام غير مأجورة لقبرتها فى مقرها الأخير. أ تكون الشيعة بميلها عن معاوية و حزبه، و مناقشتهم نقاشا علميا يتركز على حرية الرأى مجرمة فى نظر العدالة، و يحكم عليهم بعدم الاستقامة فتطرح رواياتهم؟ نصفا يا حكام الجرح و التعديل، فهل ألقيت أقوال من تجرأ على سب على و بغضه و الحط من كرامته؟ لا لا إنه مقبول ثقة فى الرواية، و يقال إنه حسن الاعتقاد، ناصر للسنة. و لا يسعنا التوسع أكثر بالبحث فى هذا الموضوع فهو واسع، لا يحاط به و لو صنفت مجلدات و سيأتيک مزيد بيان أسباب توجيه تلک التهمة إلى الشيعة، و نوقفک على الافتراء فيها فى الأجزاء الآتية إن شاء اللّه. و كنا نظن أن تلک المفتريات ذهبت مع تلک العصور التى اقتضت اختراعها و افتعالها لتفريق صفوف الأمة، و كنا نتخيل أنها قبرت مع أصحابها و مرت عليها عجلة

الزمن، فابتعدنا عنها و نحن بعصر انطلاق حرية العقل، و رفع حواجز السلطة و إزالة ستار التمويه، و بمزيد الأسف إنا نجد من يريد أحياء تلک النعرات و يعيد تلک العصور الغابرة و يضرب على وتر العصبية. و ليس من أصل موضوعى التعرض لأقوال المهرجين فإن سلة المهملات لا تضيق عنهم. و سنشير لبعض الأقوال التى أطلقها أصحابها-من كتّاب و مؤرخين-حول الشيعة و الصحابة من دون قيد و شرط، و بدون معرفة لعقيدة الشيعة فى الصحابة رضوان اللّه عليهم. و لو أن أولئک الكتّاب ساروا بأبحاثهم حول هذا الموضوع بدقة و تمحيص، و نزاهة، و تجرد عن العاطفة، خدمة للحق من حيث هو لحكموا على أنفسهم بالخطإ فيما يذهبون إليه من القول بأن الشيعة يكفرون جميع أصحاب النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و العياذ باللّه. و هذا الموضوع من أهم ما يجب أن نتكلم به، و أن نلم بجميع أطرافه، و حيث لم يتسع له هذا الجزء و قد ضاق نطاقه عن ذلک، فقد أرجأنا الحديث عنه إلى الجزء الثانى إن شاء اللّه فإلى اللقاء هناک. و من اللّه نستمد العون و نسأله التسديد و الإخلاص فى العمل، و هو ولى التوفيق. ختام الجزء الأول من هذا الكتاب، و الحمد للّه رب العالمين، و الصلاة على رسوله الذى أرسله بِالْهُدى وَ دِينِ اَلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى اَلدِّينِ كُلِّهِ وَ لَوْ كَرِهَ اَلْمُشْرِكُونَ [التوبة:33]و على آله الذين أذهب اللّه عنهم الرجس و طهرهم تطهيرا.

ص:349

الجزء الثانى

اشارة

ص:350

بِسْمِ اَللّهِ اَلرَّحْمنِ اَلرَّحِيمِ

يا أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُوا اِتَّقُوا اَللّهَ حَقَّ تُقاتِهِ وَ لا تَمُوتُنَّ إِلاّ وَ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ . وَ اِعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اَللّهِ جَمِيعاً وَ لا تَفَرَّقُوا وَ اُذْكُرُوا نِعْمَتَ اَللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْداءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْواناً وَ كُنْتُمْ عَلى شَفا حُفْرَةٍ مِنَ اَلنّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْها كَذلِكَ يُبَيِّنُ اَللّهُ لَكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ. وَ لْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى اَلْخَيْرِ وَ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ اَلْمُنْكَرِ وَ أُولئِكَ هُمُ اَلْمُفْلِحُونَ. وَ لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَ اِخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ اَلْبَيِّناتُ وَ أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ [آل عمران:102-105].

الإمام الصادق

اشارة

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد:

كنا نتحدث عن نشأة المذاهب الإسلامية و عوامل انتشارها و ما يتعلق بذلک من تطورات و أحداث. كما تحدثنا عن بعض ما يتعلق بحياة الإمام الصادق عليه السّلام و مشاكل عصره، و الإشارة إلى مدرسته، و ذكر عدد قليل من تلامذته و رواة حديثه. و فى هذه الجزء نعود- بعون اللّه- للبحث عن حياة الإمام الصادق و مدرسته، و بعض رواة حديثه، بعد أن نشير لحوادث عصره، يوم ساد الاضطراب و القلق جميع البلاد الإسلامية، و عم الخوف جميع الأرجاء فلم يأمنه الطفل الراقد فى مهده، و لا الشيخ القابع فى داره عند ما اتسعت دائرة المؤاخذات على ولاة الأمر، و سوء تصرف العمال و جورهم على الرعية، بشكل لا مجال معه إلا إلى انفجار ثورة دموية، و انقلاب يؤدى إلى انهيار الدولة. و كان أهم عوامل الثورة على الأمويين هو الانتصار لآل محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الطلب بثأرهم، لأن الأمويين أراقوا دماءهم من غير أن تراعى حرمة لرسول اللّه فيهم، فكانت هتافات الثوار إلى الرضا من آل محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلم. و كان الإمام الصادق عليه السّلام هو سيد أهل البيت و زعيم الهاشميين فى عصره، و هو محط آمال الأمة و معقد أمانيها، و هو الشخصية التى بلغت بمواهبها و سمو معناها إلى أرفع درجة من الكمال، و أعلى ذروة من الفضل، و لم تكن منزلته فى المجتمع يعلوها الخفاء أو يحوطها شىء من الغموض.

و هنـا لاـ بـد لنا أن نتساءل: هل ان الإمام الصادق عليه السّلام كان بمعزل عن ذلک المعترک السياسـی؟ و انه لـم يشارک فی ذلک النشاط الـذی کانت دعامته هو الـدعوة لآل محمد؟ و أنه دعی عبد اللّه بن الحسن ليمد يده فيبايعه لأنه أکبر سـنا من ولده محمد ذی النفس الزکية يوم اجتمع الهاشميون فی الأبواء للمداولة فی الأمر، و مبايعة رجل من آل البيت تناط به مسئولية الدعوة کما ذکره ذلک بعض الکتّاب بدون سنـد. و الإجابة علی هذه الأسـئلة تحصل عند ما ندرس عوامل الثورة، و نعرف نفسـيات الثوار و نزعاتهم، و اختلاف مشاربهم و آرائهم. و يتضـح لنا ذلک عنـد ما نقف علی الخطـة التی اختطها الإمام لنفسه فی ذلک الجو الهائـج بالفتن، و المائج بالأهواء، إذ لـم يسـتجب لدعوة زعماء الثورة لبيعته، لأنه لا يعـدهم من رجاله و لا الزمان زمانه، و لـم يغامر فی نفسه و أهل بيته مغامرة عقيمـة الإنتاج، تعود علی المجتمع بأخطار جسـيمة، و علی أهل بيته بسوء العاقبة، لأنه يعلم النتائج و ما يؤول إليه الأمر و ينظر إلی الحوادث عن کتب، نظر الحکيم البصـير، و السياسـی الخبير بعواقب الأـمور، و کثيرا مـا أعلن حقـائق تلک الأوضاع و کشف نوايا أولئک القادة و ما يهـدفون إليه من وراء الـدعوة لآل محمد صـلّی اللّه عليه و آله و سـلم. کما أنه نهی أبناء عمه عن التسـرع فی الأمر و عدم القيام بأی نشاط ثوری إلی أن يأتی الوقت المناسـب لأن القيام بشـیء قبل أن يسـتحکم و يستکمل أمره مفسدة له. و سنتحدث فی هذا الجزء و غيره-إن شاء اللّه-عن خطته الحکيمة و أساليب دعوته القوية، و منهجه السياسـی الرصـين بصفته إمام عصره و زعيم أهل بيته، بعد أن نستعرض بعضا من مشاکل عصره و أسباب قيام الثورة التی أطاحت بالحکم الأموی.

عصره و مشاکله:

اشارة

يمتد عصـر الإمام الصادق من آخر خلافة عبد الملک بن مروان إلی وسط خلافة المنصور الدوانيقی، أی من سـنة 83 ه-إلی سنة 148 ه- فقد أدرک طرفا کبيرا من العصـر الأموی، و عاصر کثيرا من ملوکهم، و شاهد من حکمهم أعنف أشکاله، و قضی حياته الأولی حتی الحادية عشـرة من عمره مع جـده زين العابدين، و حتی الثانية و الثلاثين مع أبيه الباقر، و نشأ فی ظلهما يتغذی تعاليمه، و تنمو مواهبه، و تربی تربيته الدينية، و تخرّج من تلک المدرسة الجامعة، فاختص بعد وفاة أبيه بالزعامة سنة 114 ه-

و اتسعت مدرسته بنشاط الحركة العلمية فى المدينة و مكة و الكوفة، و غيرها من الأقطار الإسلامية، و هذا هو الدور الخاص الذى يهمنا العرض له و تلزمنا دراسته. كان العصر الذى اختص به الإمام الصادق عليه السّلام عصر فتن و اضطراب فى جميع البلاد الإسلامية، و حروب طاحنة و نزاع بين رجال الدولة، و قد اصطدمت بتحركات تهدد كيانها، و تجاوبت البلاد بلغة الإنكار على الأمويين، و المؤامرات السرية قد قاربت النجاح فى تدبيرها الخفى، و هم فى غفلة من معالجة تلك المشاكل التى حلت بالأمة، و لم ينظروا إلى المصالح التى تحتاجها سلامة البلاد كاهتمامهم بمصالح أنفسهم. و قد عم الاستياء جميع الطبقات لسوء المعاملة الاقتصادية و السياسية، و كان وضع الدولة يستوجب العمل على إيجاد طرق لحل تلك المشاكل التى فتحت عليهم باب المؤاخذات من جميع الطبقات فقد كانت سيرة الحكام تخالف نظم الإسلام بصورة لا مجال إلى السكوت عنها. و تتابعت الحوادث و اشدت الأمور، و كلما ولى الحكم واحد منهم تزداد قائمة المؤاخذات، و تظهر فى عهده أمور تبعث فى النفوس الكراهة لعهدهم و الاستياء منهم. و كان الوضع الاقتصادى عاملا مهما فى بث النقمة و مضاعفة المقاومة لذلك الحكم، فقد عملوا على زيادة الخراج و اتباع الطرق السيئة فى الجباية، و أجحفوا فى تقديره كما فعلوا فى فارس. إذ كان عمال بنى أمية يخرصون الثمار على أهلها، ثم يقومونها بسعر دون سعر الناس الذى يتبايعون فيه، فيأخذونها على قيمتهم التى قدورها (1)و أخذوا الجزية ممن لم تجب عليهم كما فعلوا بمصر، فإن عبد العزيز بن مروان أمر بإحصاء الرهبان فأحصوا، و أخذت منهم الجزية، و هى أول جزية أخذت من الرهبان. و فرض الأمويون ضرائب إضافية، كالرسوم على الصناعات و الحرف و على من يتزوج أو يكتب عرضا.

1- 1) العصر العباسى الأول. الأستاذ عبد العزيز الدورى.

و أرجعوا الضـرائب الساسانية التی تسمی هدایا النوروز، و أول من طالب بها معاویة، و أمر أهل السواد أن یهدوا له فی النوروز و المهرجان، ففعلوا ذلک، و بلغ ثلاثـة عشـر ألف ألف درهم (1). و قدم دهقان هرات و اسـمه خراسان، إلی أسد بن عبد اللّه القسـری عامل هشام سـنة 119 ه-بهدایا المهرجان بما قیمته ألف ألف (2). و یقول الطبری: قدم والی هرات، و معه دهقان سـنة 120 ه-بهدایا کان بها قصران: قصر من فضـة و قصـر من ذهب، و أباریق من ذهب و أباریق من فضـة، و صـحاف من ذهب و صـحاف من فضـة، و الدیباج الهروی و القوهی و المروی (3)و بعث عبد الملک بن مروان إلی عامله فی الجزیرة یأمره أن یحصی الجماجم و یعتبر الناس کلهم عمالا بأیدیهم، و یحسب ما یکسـبه العامل سنته کلها، ثم یطرح من ذلک نفقته فی طعامه و أدمه و کسوته، و طرح أیام الأعیاد کلها، ففعل العامل، و وجد الذی یحصل من ذلـک فی السـنة لکل فرد أربعـة دنانیر فألزمهم ذلک جمیعا (4). و کـان عامل الیمن: محمـد بن یوسف أخو الحجاج قـد ارتکب أنواع العسف و الجور، فکان یصادر أملاک الأهالی و أموالهم، و ضـرب علیهم ضـریبة معینة عدا الخراج الذی ضربه الإسلام (5). و قدم أسامة بن زید علی سـلیمان بن عبد الملک بما اجتمع عنده من الخراج- و کان والیا علیه فی مصـر-و قال له: یا أمیر المؤمنین إنی ما جئتک حتی نهکت الرعیة و جهدت، فإن رأیت أن ترفق بها و ترفه علیها، و تخفف من خراجها ما تقوی به علی عمارة بلادها و صـلاح معایشـها، فافعل، فإنه یستدرک ذلک فی العام المقبل. فقال له سلیمان: هبلتک أمک، احلب الدر، فإذا انقطع فاحلب الدم، فالنجا (6).

1- 1) الجهشیاری ص 15. [1]

2- 2) الکامل ج ص 101.

3- 3) الطبری ج 5 ص 465 سنة 120 ه-. [2]

4- 4) الخراج ص 27. [3]

5- 5) السیادة العربیة ص 28.

6- 6) الجهشیاری ص 32. [4]

و بهذا جهدت الرعية، و فقدت الرفاهة، فكان الكل متأثرا من تأدية تلک الضـرائب الثقيلة التى تتمتع بها أقلية مسـتهترة، و لا يهم ولاة الأمر بمـا ينجم من وراء ذلک من خراب البلاد، و اغتنم العمال رغبـة ولاة الأمر فى تحصـيل المال و جبايته، فكانوا يعبثون فى جبايتها للحصول على الثروة من وراء ذلک. و ربما كان الخلفاء من الأمويين يخولون عمالهم ما يحصل تحت أيـديهم من جبايـة الضـرائب. فقد خول والى خراسان ما حصل له، و هو عشـرون ألف ألف درهم من تلک الضـرائب. و سوغ يزيـد بن معاويـة لعبـد الرحمن بن زياد والى خراسان بما اعترف له من المال، و هو عشرون ألف درهم، و كان عنده من العروض أكثر منها، فقال عبد الرحمن يوما لكاتبه: إنى لأعجب كيف يجيئنى النوم و هذا المال عندى! فقال له: و كم مبلغه! قال: إنى قدرت ما عندى لمائة سـنة، فى كل يوم ألف درهم لا أحتاج منه إلى شـراء رقيق و لا كراع و لا عرض من العروض، فقال له كاتبه: أنام اللّه عينک أيها الأمير، لا تعجب من نومک و هـذا المال عنـدک، و لكن اعجب من نومک إذا ذهب ثم نمت! فـذهب ذلک المال كله، أودع بعضه فـذهب، و جحـد بعضه، و سـرق بعضه. فآل أمره إلى أن باع فضـة مصـحفه، و كان يركب حمارا صغيرا تنال رجله الأرض، فلقيه مالک بن دينار، فقال له: ما فعل المال الذى قلت فيه ما قلت؟ قال: كل شىء هالک إلا وجهه! (1).

مشكلة الخراج:

و لما ولى عمر بن عبد العزيز، عالج مشكلة الخراج و الجزية و الضرائب الإضافية التى هى أعظم من الخراج، إذا لم تكن محدودة أو مقررة، بل يعود أمرها إلى العمال أنفسهم. فكتب إلى عامل الكوفة: أما بعد فإن أهل الكوفة قد أصابهم بلاء و شدة فى أحكام اللّه، و سنة خبيثة سنها

1- 1) الجهشيارى ص 18. [1]

علیهم عمال السوء، و إن قوام الـدین العدل و الإحسان، فلا یکن شـیء أهم إلیک من نفسک، فلا تحملها قلیلا من الإثم، و لا تحمل خرابا علی عامر، و خذ منه ما أطاق و أصـلحه حتی یعمر. و لا یؤخذن من الغامر إلا وظیفة الخراج فی رفق و تسـکین لأهل الأرض، و لا تأخذن أجور الضـرابین، و لا هدیة النوروز و المهرجان، و لا ثمن المصـحف، و لا أجور الفتوح، و لا أجور البیوت، و لا درهم النکاح. و لا خراج علی من أسـلم من أهـل الأـرض، فـاتبع فی ذلـک أمری، فإنی قـد ولیتک من ذلک ما ولانی اللّه. و لا تعجل دونی بقطع و لا صـلب حتی تراجعنی فیه، و انظر من أراد من الذریـة أن یحج، فعجل له مائة لیحج بها و السـلام (1). و انتهی ذلک الإصـلاح الذی سار فیه عمر بوفاته، لأن یزیـد بن عبـد الملک- عنـد ما ولی الخلافـة-أمر بإعادة تلک الضـرائب التی أمر عمر بإبطالها، فکتب إلی عماله: أما بعد فإن عمر کان مغرورا، فـدعوا ما کنتم تعرفون من عهـده. و أعیـدوا الناس إلی طبقتهم الأولی، أخصـبوا أم أجـدبوا، أحبوا أم کرهوا، حیوا أم ماتوا (2). فزاد الضـغط و عظمت المحنـة، و أصـبحت هذه الضـرائب عبئا ثقیلا علی کاهل الأمة، و بالأخص البلاد المغلوبة التی وقعت تحت «إسـراف العمال فی تحصـیل الأموال و جبایتها، و عبثهم بما تحت أیـدیهم منها، و إنفاقها فی مصالحهم الشخصـیة، و قـد کانت تتخـذ أمرة إحـدی الولایات وسیلة للحصول علی الثروة و جمع المال» (3)و مما یدلنا علی عظیم الاهتمام بتحصیل الولایة للحصول علی الثروة؛ قضیة بلال بن أبی بردة عند ما وفد علی عمر بن عبد العزیز فلزم المسـجد یصلی و یدیم الصلاة، فأعجب به عمر. فقال عمر لعلاء بن أبی بندار: إن یکن سر هـذا کعلانیته، فهو رجل العراق غیر مدافع. فقال العلماء: أنا آتیک بخبره، فجاء إلیه و هو فی المسـجد و قال له: قد عرفت حالی من أمیر المؤمنین، فإن أنا أشرت بک علی ولایة العراق فما تجعل لی؟ قال: لک عمالتی سنة، و هی عشرین ألف ألف، قال: فاکتب بذلک،

1- 1) الکامل لابن الأثیر ج 5 ص 29 و [1]الطبری ج 8 ص 139. [2]

2- 2) الطبری و الکامل لابن الأثیر.

3- 3) السیادة العربیة ص 30.

فكتب له و رجع العلاء إلى عمر بن عبد العزيز، فكتب إلى عامله بالكوفة: إن بلالا غرّنا باللّه، فسبكناه فوجدناه خبثا كله و السلام (1). فنرى بلالا يبذل عشرين ألف ألف للحصول على إمرة العراق، فلا بد أن يتعوض بأضعافها فى أقل من سنة، كما تقتضيه سيرة الولاة و جشع الجباة فى ذلك الدور.

سيرة الجباة:

و كانت جباية العراق قد أسندت إلى الدهاقين-رؤساء القبائل-فساروا فيهم سيرة غير مرضية. و فى خراسان كانت الضرائب توزع على رءوس الأهلين لا على مساحة الأرض، إذ لو فرض على مساحة الأرض، لوقع أكثره على الدهاقين. و قد فرض الأمويون الضريبة على من أسلم، و كان ذلك سببا فى تأخر خطى انتشار الإسلام، لأن الضريبة تؤخذ من غير المسلم، و هى الجزية و الخراج، و عند إسلام الذمى يعفى من الاثنين. فلما دخل كثير من الذميين فى الإسلام عن عقيدة، أو عن رغبة فى الخلاص من الضرائب، عرف النقص فى ميزانية الدولة، ففرض الأمويون الجزية و الخراج على من أسلم، فوقف انتشار الإسلام، لمعارضته لمصالح الدولة المادية و قد لمس أهل الكتاب و الملل و الديانات روح التسامح فمن تحركت فى نفسه دوافع الإيمان الحق وجد فى الأحكام الإسلامية روحا جديدة و فى الشريعة المحمدية توحيدا حقا، و من راح يتقى دفع الحق المالى الذى ترتب على الفتح الإسلامى فصار إلى طريقة إشهار الإسلام و لكنه بمرور الوقت يجد أن ما اتخذه ستارا ينفذ إلى الأعماق بنوره و يرى فى سلوك المخلصين و أفعال جنود الدعوة حوافز على الإيمان الحق. ثم انقلب المسئولون فى الحكم إلى جباة و كاد سلوك الدعاة الأول ينحصر فى مجالات ضيقة لأن الملوك أقبلوا على الدنيا بكل وجوهها و لم يكن لهم من الإسلام إلا الاسم. و من الدواهى أن يتابعهم على ذلك الذين اتخذوا الدين زيا و بنيت مكانتهم فى المجتمع على أساس صلتهم بالدين و تفرغهم لأمور الشريعة. و لم يكن إسقاط

1- 1) الكامل للمبرد ج 1 ص 158 [1] ط 1.

تلک الضرائب فی الواقع مضرا فی مصلحتها أو مخلا فی میزانیتها، بل کان معارضا لجشع الولاة، و طمع الجباة و مصلحة الدهاقین، فکانت تلک الأعمال القاسیة التی سار علیها العمال تفسح للناقمین مجالا واسعا، و تملأ القلوب علی الأمویین غیظا، لأن سیرة العمال مستمدة من سلطان لا یهمه تذمر الرعیة، و لا یصغی لشکایة مظلوم، و یعظم علی المسلمین أن تسودهم أمة تتجاهر بالظلم و تخالف الأحکام. و قد هجرت السنن و نبذت تعالیم الکتاب وراء الظهور، حتی أصبح ذلک من شعار الدولة، فکان رجال الأمة یتألمون من تلک الأوضاع السیئة، و ما حل بالأمة الإسلامیة من الجور و العسف بالحکم، و إراقة الدماء و غصب الأموال و هتک الحرمات، فقام دعاة الإصلاح و صلحاء الصحابة بالمعارضة منذ عهد الدولة الأول، و أنکر المسلمون أشد الإنکار معاملة الأمویین الجائرة. و کلما امتد عمر الدولة ازداد السخط و عظم الإنکار من جمیع الطبقات و لهذا رافقت الثورات حکم الأمویین منذ البدایة. و کانت ثورة الإمام الحسین علیه السّلام هی بدایة الانطلاق لنشر الوعی الإسلامی ضد الأمویین، و صرخة مدویة هزت عروش الظالمین، و أول طلائع تلک الثورات الإسلامیة هی ثورة المدینة المنورة فی واقعة الحرة سنة 63 ه-استنکارا لأعمال یزید و إجرامه. فکانت ثورة دمویة انتهت بالغلبة للجیش الأموی، و أقدم جیش یزید الذی أعدّه لهذا الغرض علی ارتکاب فظائع و مذابح و جرائم أجمع المؤرخون علی استنکارها، فقد أباح مسلم المدینة ثلاثا لجنده یقتلون أهلها، و یسلبونهم أموالهم، و قتل ثمانون من أصحاب الرسول و الباقون منهم أخذت علیهم البیعة لیزید، بیعة عبودیة و استرقاق. کما قتل سبعمائة رجل من حملة القرآن، و ألف و سبعمائة من بقایا المهاجرین و الأنصار، و عشرة آلاف من أوساط الناس سوی النساء و الصبیان (1)، و افتض الأمویون ألف عذراء (2). إضافة إلی أعمال النهب و السبی، و کان الرجل من أهل

1- 1) انظر البدایة و النهایة ج 10 ص 22 و [1]الدولة الإسلامیة للخربوطلی ص 205.

2- 2) النجوم الزاهرة ج 1 ص 161. [2]

المدينـة بعـد ذلک إذا زوج ابنته لا يضـمن بکارتها و يقول لعلها قـد افتضت فی وقعـة الحرة (1). ثم تتـابعت الثورات فی البلاد العربيـة، و تفاقمت حرکـة الإنکار علی سوء السـيرة، و الظلم للرعية و الاسـتهانة بمقدرات الأمة فکانت ثورات فی العراق و فی الحجاز و فی الأردن و مصر و غيرها.

الموالی و الثورة:

و بعد هذا العرض يمکننا تفنيد مزاعم القائلين: بأن الموالی هم العامل الوحيد لانهيار الدولة الأموية لأسباب ذکروا منها: ان الدولة الأموية عربية بحتة و ليس فی مناصب الدولة للموالی نصيب. و ان الموالی کانوا يحقدون بذلک علی المجتمع العربی الممثل فی الدولة الأموية. و ان الموالی قد حاولوا إعادة المجد الساسانی، و ان الصـراع بين الکتلتين إنما هو صـراع عنصـری بحث، و کانت مؤازرتهم للدعوة الهاشمية إنمـا هو طمع فی استرداد المجـد القـديم. إلی غير ذلک مما ذکره کثير من الکتّاب من مستشـرقين و غيرهم. و نحن لا ننکر أثر الموالی فی الثورة علی الدولة الأموية، کيف و قد تکاملت القوی فی خراسان، و ظهرت الدعوة و عظم أمر أبی مسـلم الخراسانی. و لکننا لا نذهب إلی ما ذهبوا إليه من إسـناد العوامل إلی الموالی فحسب، و معنی هـذا سـلب الأمـة الإسـلامية من کل و عی و شـعور بما لمسوه من أمور کان اللازم إنکارها، و عـدم الخضوع لها و قـد أشـرنا لبعض الحوادث من قبل. هذا من جهة و من جهة أخری أن الثورة فی بلاد فارس کان أکثر زعمائهـا من رؤساء العرب کسـليمان بن کثير الخزاعی، و قحطبـة بن شبيب الطائی و أبو داود الشـيبانی و غيرهم من رؤساء قبائل العرب فی خراسان و هم من المقاتلة أيام الفتوح الأولی من النزارية و اليمانية.

1- 1) ابن الطقطقی ص 107. [1]

و كان رجال الـدعوة من العرب لا من الفرس كنصـر بن صبيـح التميمى و عبـد الرحمن بن سـلّم و الجهم بن عطية و غيرهم. و كان النقباء جلهم من العرب و المنتسبين إلى أشهر القبائل: فمنهم خمسة من خزاعة، و ثلاثة من تميم و بعضهم من ربيعة و غيرها من القبائل العربية.

الموالى و وظائف الدولة:

و أما القول بأن الأمويين قـد أبعـدوا الموالى عن وظائف الدولـة مما بعث الحقد فى قلوبهم و الكيد للأمويين فهو غير صـحيح؛ لأنا نرى أن الموالى قـد اسـتغلوا أهم وظائف الدولـة فى العصـر الأموى كرئاسـة الـديوان و جبايـة الخراج و أمانة السـر، و قيادة الجيوش و إمارة بعض البلدان، و إليک أنموذجا من ذلک: سرجون بن منصور مولى معاوية كان يتولى رئاسة ديوان الرسائل و الخراج لمعاوية و ابنه يزيد و لمعاوية بن يزيـد و لمروان بن الحكم. عبـد الرحمن بن دراج تولى الرسائل لمعاويـة، و كان أخوه على خراج العراق فى أيامه. مرداس مولى زياد بن أبيه كـان على رئاسـة ديوان الرسائـل لزياد، و كان على الخراج فى العراق مولاه زاذانفروخ. أبو الزعيزعـة مولى عبـد الملک كان يتولى ديوان الرسائل فى عهـده و كان أمين سـره عمر بن الحارث مولى بنى عامر. جناح مولى عبـد الملک: يترأس ديوان الخاتم. أبو العلاء يزيـد بن أبى مسـلم مولى ثقيف: يتقلـد للحجاج رسائله و يقتل الناس بأمره، و ولى خراج العراق بعـد موت الحجاج. سـعيد الصابى: على ديوان الخاتم للوليـد بن عبـد الملک، و كاتبه شـعيب العمانى مولاه. الليث بن أبى فروة: مولى أم الحكم كان يكتب لعمر بن عبـد العزيز، و جعل خراج العراق بيد عبد اللّه بن ذكوان مولى رملة بنت شيبة. محمد بن يزيد مولى الأنصارى: كان واليا على مصر من قبل عمر بن عبد

العزيز، و بعد وفاة عمر عزله يزيد بن عبد الملک و ولى مكانه يزيد بن مسلم مولى ثقيف. سالم مولى سعيد بن عبد الملک كان على ديوان الرسائل للوليد بن يزيد. عبد الحميد بن يحيى مولى العلاء: كان يتولى رئاسة ديوان الرسائل لمروان الحمار و كذلک عثمان بن قيس مولى خالد القسرى. طارق بن زياد مولى موسى بن نصير: كان من القواد العسكريين. نيزک بن صالح مولى عمر بن عبد العزيز: كان على إمارة الشاش. أسامة مولى معاوية على إمارة مصر. طارق بن عمر مولى عثمان بن عفان ولى المدينة و كان من ولاة الجور. و كان الكثير منهم يتولى السلطة التشريعية كعطاء بن يسار مولى ميمونة أم المؤمنين المتوفى سنة 102 ه-. و على قضاء مصر سمنان مولى عبد اللّه بن عمرو بن العاص المتوفى سنة 127 ه-. و كان مفتى مصر و شيخها أبو رجاء بن حبيب المتوفى سنة 128 ه-و غير هؤلاء. و كان الأمويون يكرمون علماء الموالى و يشيدون بذكرهم. فقد نادى منادى الدولة أن لا يفتى إلا عطاء بن أبى رباح، و أرسلوا نافع الديلمى مولى ابن عمر المتوفى سنة 117 ه-إلى مصر يعلم الناس السنن. و كانت الفتيا بدمشق لسليمان بن أبى موسى المتوفى سنة 117 ه-مولى الأمويين. و لزيد بن أسلم العدوى المتوفى سنة 136 ه-حلقة فى المسجد النبوى. و يطول بنا الحديث و يتسع البحث إن أردنا استقصاء ذكر من أشغل وظائف الدولة الهامة من الموالى، من ولاة و قواد و قضاة و أمناء سر و أمراء خراج و جباة أموال.

أسباب انهيار الدولة:

و مهما تكن محاولة جعل انهيار الدولة لحقد الموالى فحسب، فهو أمر بعيد كل البعد عن الصحة و ان الباعث له تبرئة الأمويين من كل ما ارتكبوه، و ان المسلمين قد أقروا ذلک الحكم و لم يعارضوا، و ان انهيار الدولة كان لأسباب عنصرية. و ليس ببعيد أن تكون هذه المحاولة من أناس حملهم حب الأمويين عليها كما حمل غيرهم على وضع الأحاديث التى يستطيعون بواسطتها التمويه على السذج من الناس فى تبرير تلک الأعمال المنكرة منها. يحدثنا ابن الأثير أن معاوية بن أبى سفيان قال لولده يزيد: اطلب منى فلست بسائل شيئا إلا أجبتک إليه، فقال: حاجتى أن تعتقنى من النار لأن من ولى أمر أمة محمد ثلاثة أيام أعتقه اللّه من النار، فتعقد لى البيعة بعدک (1). و ساروا على هذا يفهمون الناس و يركزون عقيدة ولايتهم أمر الأمة و الدين و يتحلون بالقداسة مع عظيم تلک المنكرات حتى سرت هذه الفكرة إلى عمالهم و قواد الجيوش. هذا مسلم بن عقبة لما فعل بالمدينة ما فعل و انصرف ثم نزل به الموت فى الطريق فقال: إنى لم أعمل عملا قط بعد شهادة أن لا إله إلا اللّه و أن محمدا عبده و رسوله أحب إلىّ من قتل أهل المدينة، و لا أرجى عندى منه فى الآخرة (2). و أشهد عند الوليد أربعون شيخا منهم أن الخليفة لا- يعاقب، و أن من ولى أمر الأمة ثلاثة أيام أعتق من النار. و هم يحاولون بذلک رد تلک الأحاديث الواردة عن الرسول الأعظم فى التشديد على الولاة، و إلزامهم بالعدل و هم لا يستطيعون ذلک و يخشون الإنكار، . فقد صح عنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنه قال لجابر بن عبد اللّه: أعاذک اللّه من إمارة السفهاء، قال: و ما إمارة السفهاء؟ قال: أمراء يكونون بعدى لا يقتدون بهديى، و لا يستنون بسنتى، فمن صدقهم بكذبهم و أعانهم على ظلمهم فأولئک ليسوا منى و لست منهم، و لا يردوا حوضى، و من لم يصدقهم بكذبهم و لم يعنهم على ظلمهم فأولئک منى و أنا منهم، و سيردوا علىّ حوضى (3).

1- 1) الكامل ج 4 ص 62. [1]

2- 2) الكامل ج 4 ص 61. [2]

3- 3) مسند أحمد ج 3 ص 321. [3]

و قال صلّى اللّه عليه و آله و سلم: إن هلاک أمتى أو فساد أمتى رءوس أمراء أغيلمة سفهاء من قريش (1). و عن كعب بن عجرة مرفوعا: سيكون أمراء يكذبون و يظلمون، فمن صدقهم بكذبهم و من أعانهم على ظلمهم فليس منى و لا أنا منه، و لا يرد علىّ الحوض يوم القيامة، و من لم يصدقهم بكذبهم، و لم يعنهم على ظلمهم فهو منى و أنا منه، و يرد علىّ الحوض يوم القيامة (2): و قال صلّى اللّه عليه و آله و سلم: «سيكون عليكم أمراء تشغلهم أشياء عن الصلاة حتى يؤخروها فصلوها لوقتها» (3). و عن عوف بن مالک عنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنه قال: إن شئتم أنبأتكم عن الإمارة و ما هى: أولها ملامة و ثانيها ندامة، و ثالثها عذاب يوم القيامة، إلا من عدل و كيف يعدل مع قريبه (4). و عن بشر بن عاصم عنه صلّى اللّه عليه و آله و سلم: «من ولى شيئا من أمر المسلمين أتى به يوم القيامة حتى يوقف على جسر جهنم، فإن كان محسنا نجا، و إن كان مسيئا انخرق به الجسر فهوى به سبعين خريفا» ، رواه الطبرانى. و عن أبى ذر مثله، و عن عمر بن الخطاب عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنه قال: أفضل الناس عند اللّه منزلة يوم القيامة إمام عادل رفيق، و شر عباد اللّه عند اللّه منزلة يوم القيامة إمام جائر خرق (5). أخرجه الترمذى و الطبرانى فى الأوسط. و عن أنس عنه صلّى اللّه عليه و آله و سلم «يجاء بالإمام الجائر يوم القيامة فتخاصمه الرعية فيفلحوا عليه فيقال له: سد ركنا من أركان جهنم» ، رواه البزار. و عن أبى هريرة عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم: «ما من أمير عشرة إلا يؤتى به يوم القيامة مغلولا لا يفكه إلا العدل» . رواه أحمد بإسناد جيد رجاله رجال الصحيح، و مثله عن سعد بن عبادة. و عن أبى هريرة بزيادة (و إن كان مسيئا زيد غلا إلى غلّه) رواه البزار و الطبرانى.

1- 1) مسند أحمد ج 2 ص 255. [1]

2- 2) تأريخ الخطيب ص 362 و [2]جامع بيان العلم، و تيسير الوصول.

3- 3) مسند أحمد ج 5 ص 315. [3]

4- 4) الترغيب و الترهيب ج 3 ص 132.

5- 5) الخرق بالضم: الجهل و الحمق، و منه الحديث: الرفق يمن و الخرق شؤم.

و عن عمر بن الخطاب أن النبی (صلی الله علیه و آله) قال: «أ لا أخبرکم بخیار أمرائکم و شرارهم، خیارهم الذین تحبونهم و یحبونکم و تدعون لهم و یدعون لکم و شرار أمرائکم الذین تبغضونهم و یبغضونکم و تلعنونهم و یلعنونکم» أخرجه الترمذی. و عن أنس بن مالک: قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم: من ولی من أمور المسلمین شیئا فغشهم فهو فی النار. و قد وضعوا الکثیر فی فضائل معاویة من الأحادیث المکذوبة و الأقوال الشاذة التی یتبرأ منها الإسلام فأنکر المسلمون ذلک، و لکن أنّی یجدی الإنکار فی وقت ألجمت فیه الأفواه، و کبتت المشاعر، و حکم علی أهل الصدق منهم بالتنکیل الشدید، و الطرد و التبعید، و قد حقق الحفاظ تلک الأکاذیب و أظهروا حقائقها، و نصوا علی وضعها، و إلیک بعضا منها: أخرج أبو نعیم فی الحلیة بسند عن ابن عمر قال: قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم: یطلع علیکم رجل من أهل الجنة؛ فطلع معاویة، ثم قال من الغد مثل ذلک فطلع معاویة، ثم قال من الغد مثل ذلک فطلع معاویة (1). و عن هشام بن عروة عن عائشة فی حدیث طویل فیه أن النبی دعا لمعاویة فقال: اللهم اهده بالهدی و جنبه الردی، و اغفر له فی الآخرة و الأولی. إلی غیر ذلک من الأکاذیب و الموضوعات التی یتحرج القلم عن ذکرها، و قد وضع جزءا من تلک الأکاذیب فی فضل معاویة بعض المشهورین بالکذب، و هو محمد بن عبد الواحد و أمره مشهور فی ذلک (2). و ألف الهیتمی کتابا فی فضل معاویة و ما أبعده عن الفضائل، و لا یسع الوقت لمناقشته (3)بعد أن کفانا ذلک حفاظ الحدیث و رجال العلم (4). و لم یکتفوا بالأکاذیب علی رسول اللّه بوضع الأحادیث حتی جرتهم أطماعهم و ساقتهم جرأتهم علی اللّه

1- 1) الحلیة ج 10 ص 293.

2- 2) انظر الخطیب ج 2 ص 357. [1]

3- 3) انظر الغدیر ج 10 و 11 فهناک تعرف معاویة، فقد أبرز صورته البحاثة الأمینی فی اطار الواقع، و هنا تعرف تلک الأحادیث و قیمتها، فقد ناقشها من الطرق العلمیة بما لا مجال إلی إنکاره.

4- 4) فی کتاب لسان المیزان، و الفوائد المجموعة.

و على رسوله بوضع الأحاديث فى مدح عاصمة ملكهم و مقر دولتهم. و لا نود إطالة الحديث فى المحاولات الفاشلة فى تبرير أعمال الأمويين و إسناد الثورة عليهم لا من جهة حكمهم بل من جهة العنصرية فحسب.

عظات و عبر:

و على أى حال فقد بيّنا أن الثورة بصورتها العامة إنما هى ضد الحكم الأموى، و قد كانت هذه الثورات عنيفة، تعبر بعمق و أصالة عن استنكار المسلمين تلك المعاملة القاسية التى عاملوا بها الأمة، و اتخاذهم تلك الإجراءات ضد أهل البيت و هم يحسبون أنهم يحسنون لأنفسهم صنعا، و يأملون من ورائها تخليد سلطانهم مع الزمن، و لم يلتفتوا إلى حراجة الموقف و سوء العاقبة حيث إن الخلافة الإسلامية تدور عليها سعادة الأمة و قوة الإسلام، و قد عظم على المسلمين أن تتحول من أوج العظمة إلى حضيض الاستهتار، و أصبحت الأوضاع مقلوبة فوليها بعد الخلافة الراشدة من لا عهد له بالدين، و لا معرفة له بالهدى، و هم أولى غلظة لا ينفذ إلى قلوبهم شعاع الرحمة، فلا يسمعون لمتظلم شكوى، و لا يدفعون عن الأمة ما يسوؤها من تلك المعاملات القاسية. فكانت عاقبة أمرهم أن مزقوا كل ممزق، و خرج بقية السلف منهم من رجال و نساء هائمين على وجوههم خوفا على أنفسهم و طلبا للنجاة، و لجئوا لبلاد النوبة، فأخرجهم عظيمها، فكانوا عرضة للخطر، حتى صاروا إلى بجاوة فقاتلهم عظيمها، و انصرفوا يريدون اليمن، و مروا فى البلاد هائمين. و كان عبيد اللّه و عبد اللّه ولدا مروان الحمار آخر ملوك الأمويين هما قادة تلك الفرقة الهائمة، فعرض لهما طريقان بينهما جبل، فأخذ كل واحد منهما فى طريق، و هما يريان أنهما يلتقيان بعد ساعة، فسارا يومهما ذلك، ثم راما الرجوع فلم يقدرا و سارا أياما، ثم لقى عبد اللّه منسرا من مناسر الحبشة فقاتلهم فزرقه رجل منهم بمزراق فقتل عبد اللّه و استأسر أصحابه، فأخذت الحبشة كل ما معهم و تركوهم، فمروا فى البرارى عراة حفاة حتى أهلكهم العطش، فكان الرجل يبول فى يده و يشربه حتى لحقوا عبيد اللّه بن مروان و قد ناله من العرى و الشدة أكثر مما نالهم، و معه عدة من حرمه عراة حفاة، قد تقطعت أقدامهم من المشى، و شربوا البول حتى تقطعت

شفاههم، و وافوا المندب فأقاموا بها شهرا، و جمع الناس لهم شيئا ثم خرجوا يريدون مكة فی زی الحمالين (1). و لما سبيت نساء مروان و مررن علی منازله رفعن أصواتهن بالبكاء. و هـذا من أعظم العظات و العبر. و يروی أن عامر بن صالـح الخراسانی صاحب مقدمة صالح بن علی عم السـفاح لمـا قتل مروان الجعـدی آخر ملوک بنی أميـة دخل دار مروان و جلس علی سـريره و دعا بعشائه، و جعل رأس مروان فی حجر ابنته، و أقبل يوبخها فقالت له: يا عامر إن دهرا أنزل مروان و أقعـدک علی سـريره حتی تعشـيت عشاءه، لقد أبلغ فی موعظتک، و عمل فی إيقاظک و تنبيهک. إن عقلت و فكرت، ثم قالت: يا أبتاه و يا أمير المؤمنيناه، فأخذ عامر الرعب، و لما بلغ السـفاح ذلک كتب إليه يوبخه (2). و كان عبيد اللّه بن مروان ولی العهد قد ظفر به المنصور و أودع فی السـجن، و أخرجه المنصور يوما من سجنه و كان مقيدا بقيد ثقيل، فقال له المنصور: بلغنی أن لک قصـة عجيبـة مع ملک النوبـة فما هی؟ فقال: يا أمير المؤمنين و الذی أكرمک بالخلافة ما أقدر علی النفس من ثقل الحديد، و لقد صدأ قيدی من رشاش البول، و أصب عليه الماء فی أوقات الصـلاة، ثم قص عليه القصة و أعاده إلی السـجن، و أودع فيه إلی أيام الرشيد فهلک (3). و لما دخل عبد اللّه بن علی دمشق أمر بنبش قبور بنی أمية، فنبش قبر معاوية بن أبی سفيان فلم يجدوا فيه إلا خيطا مثل الرماد، و نبش قبر عبـد الملک بن مروان فوجـدوا فيه جمجمة، و نبش قبر يزيد بن معاوية فوجدوا فيه حطاما كأنه الرماد، و أخرج جسد هشام بن عبد الملک فضـربه بالسياط و صلبه و حرقه و ذراه فی الهواء (4). و قتل سـليمان بن علی بالبصرة جماعة من بنی أمية و أمر بهم فجروا بـأرجلهم و ألقوا فی الطريق فـأكلتهم الكلاـب، و اختفی كثير منهم كعمر بن معاويـة بن عمر بن سـفيان بن عتبـة فضـاقت عليه الأرض، و التجأ إلی سليمان بن علی متخفيا، و وقف

1- 1) اليعقوبی ج 3 ص 84-85 و [1]ابن عبد ربه ج 3 ص 198-199. [2]

2- 2) الشذرات ج 1 ص 184. [3]

3- 3) الشذرات ج 1 ص 186. [4]

4- 4) الكامل ج 5 ص 205. [5]

على رأسه، فقـال: لفظتنى البلاـد إليـک، و دلنى فضـلک عليک. فإما قتلتنى فاسترحت، و إما رددتنى سالما فأمنت. فقال: و من أنت؟ فعرفه نفسه. فقـال: مرحبا بک ما حاجتک؟ فقال: إن الحرم اللواتى أنت أولى الناس بهن و أقربهم إليهن قـد خفن لخوفنا، و من أخاف خيف عليه، فقال: حقن اللّه دمک و وفر مالک، و كتب بذلک إلى السفاح فأمنه (1).

قيام الدولة العباسية:

و طويت صفحة الدولة الأموية بقتل مروان الجعدى (2)، و هو مروان بن محمد بن مروان بن الحكم، بويع له بالخلافة سنة 126 ه-و قتل يوم الإثنين لثلاث عشـرة خلت من ذى الحجة سنة 132 ه-. و فى هذه السـنة قامت الدولة العباسـية. و توقع الناس فى العهد الجديد عهدا سعيـدا و انتقالا مباركا، و نتيجـة صالحـة بعـد خوض غمرات الحروب، و مشاهدة المحن و التضـحية فى سبيل تحقيق تلک الأمنية، و هى إقامة دولة عادلة تحكم بكتاب اللّه و سنة نبيه، التى لـم يظفر بها المسلمون فى العهد الأموى إلا ببعضها فى أيام عمر بن عبد العزيز. فتطلعوا فجر ذلک العهد الميمون، و شخصوا بأبصارهم إلى معرفة المتربع على دست الحكم، و هو (الرضا من آل محمد) و أصبح المجتمع يزخر بآمال عظيمة، لأنهم أعدل الناس فى الحكم، و أعلمهم بالدين، فانكشف الأمر بظهور بنى العباس و اختصاصـهم بمنصب الخلافة، بعد أن خابت آمال بعض زعماء الثورة و قواد الجيش بإسـناد الحكم لآل على، و فى طليعتهم جعفر بن محمد و قد رفض ذلک الطلب كما سـيأتى بيانه. و لـم يكن العباسـيون ليتجرّءوا على الإفصاح عن نواياهم و أغراضـهم و هم ينضمون إلى جموع الناقمين و مسيرة الثورة و أبقوا على ما فى نفوسـهم و هم يتمسكون فى السر بشمول شعار (الرضا من آل محمد) لعائلتهم، و لـم يخطر ذلک ببال الثوار و ظل العباسيون يضمرون نواياهم.

1- 1) الكامل ج 5 ص 206. [1]

2- 2) نسبة إلى الجعد بن درهم و كان مؤدبه و هو من زنادقة أهل الشام.

و الـدعوة لم تكن للعباسـيين، و لـم تكن دولتهم هى المتوقعـة، بل هى إلى الرضا من آل محمـد فحسب، و هم دعاة هـذه النهضـة انتصارا للعلويين و طلبا بـدمائهم الزكيـة، و بذلک اسـتطاعوا أن ينظموا حزبهم و يجمعوا أنصارهم، و هم ينضـمون إلى جانب العلويين فى جميع الدور الأموى، و يخفون ما أبدته الأيام و أظهره الزمن عند ما حان الوقت لاقتطاف ثمار تلک الأتعاب، إذا لا بد أن يستنكر الناس هذا الأمر، و يؤاخذونهم بهذا الاختصاص. و شعر العباسيون بتحسس الناس، كما شعروا بعدم ثقة أكثر العرب بدولتهم فلا يستطيعون أن يشيدوا كيان دولتهم على أكتـافهم، فرأوا من الضـرورة تقويـة الجيش و الاعتمـاد على القوة بالأكثريـة الساحقـة، فاختصوا بالخراسانيين من بين عناصـر الدولة، و أطلقوا عليهم اسم الشـيعة و الأنصار، لأنهم عرفوا نفسـياتهم من قبل، فجعلوا بلادهم مهدا للدعوة، و محلا لبذر تلک الفكرة كما جاء فى وصية إبراهيم الإمام، فأظهروا العطف على أبناء عمهم فى دورهم الجديد و اهتمامهم بتتبع قتلة الحسين، إظهارا لنصرة آل محمد و إقناعـا للرأى العام. و لما دخلت نساء مروان الحمار على صالـح بن على تكلمت ابنـة مروان الكبرى فقالت: يا عم أمير المؤمنين حفظ اللّه لک من أمرک ما تحب، نحن بناتک و بنات أخيک و ابن عمک، فليسـعنا من عفوک ما وسعک من جورنا، قال: و اللّه لا أستبقى منكن أحدا. . . إلى أن قال لها: أ لم يقتل يزيد بن معاوية الحسـين و أهل بيته؟ أ لـم يخرج إليه بحرم رسول اللّه سـبايا فأوقفهن موقف السبى؟ أ لم يحمل رأس الحسـين و قد قرع دماغه؟ فما الذى يحملنى على الاسـتبقاء عليكن؟ قالت: فليسـعنا عفوک (1). و لمـا قتل مروان و جىء برأسه إلى السـفاح، فلما رآه سـجد و رفع رأسه فقال: الحمد للّه الذى أظهرنى عليک و أظفرنى بک، و لـم يبق ثأرى قبلک و قبل رهطک أعداء الدين، و تمثل بقول الشاعر: لو يشربون دمى لـم يرو شاربهم و لا دماؤهم للغيظ ترويني

(2)حتى عرف الناس منهم ذلک، و أنشد الشعراء فى تلک الغاية التى كانت تقوم بها

1- 1) الكامل ج 5 ص 204. [1]

2- 2) الكامل ج 5 ص 203. [2]

الدولـة فی دورها الجدیـد عند ما قتل السـفاح بقیة الأمویین، ثم أمر بإلقائهم فی الصـحراء فی الأنبار فجروا بأرجلهم، و علیهم سـراویلات الوشی فوقف علیهم سدیف و أنشد: طمعت أمیة أن سیرضی هاشم عنها و یذهب زیدها و حسینها

کلا و رب محمد و إلهه حتی یبید کفورها و خئونها

(1)إلی غیر ذلک من الأمور التی اتخذوها فی تهدئة الرأی العام، و قام السـفاح بالأمر و أظهر فی خطبته الافتتاحیة ما تمیل إلیه النفوس من المواعیـد من إعـادة العـدل و المسـاواة و العمل بکتاب اللّه و سـنة نبیه، بقوله: أیها الناس لکم ذمـة اللّه تبارک و تعالی و ذمـة رسوله و ذمة العباس علینا أن نحکم فیکم بما أنزل اللّه و نعمل فیکم بکتاب اللّه، و نسیر فی العامة و الخاصة بسیرة رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم (2)ثم ذکر أعمال بنی أمیة و ما ارتکبوه فی الأمة. فأخذ الناس بنود هذه الخطبة بعین الاعتبار، و توقعوا تحقیق تلک الوعود، و لکنها کانت و هما من الأوهام و أقوال حملتها الریح. افتتحت صحیفة الدولة العباسیة مصبوغة بالدم القانی، و ورثوا سلطان الأمویین بعد ذلک الانقلاب، و کانت الأسـباب التی أدت إلی فوزهم بالخلافة بعضها أمور غیر متوقعة، و بعضها ساعدهم الحظ فیها، فکان نصیبهم النجاح. و أهم تلک الأسباب التی اعتمدوا علیها هی الانتصار لآل محمد من بنی أمیة، لأنهم اضطهدوا آل رسول اللّه فکانت هذه المشکلة من أعظم المشاکل التی تقف أمامهم فی سبیل توطید ملکهم و امتداد سلطانهم، لأنهم یعرفون العلویین و نفسیاتهم و منزلتهم فی المجتمع الإسلامی، لذلک کـان أهم شـیء عنـدهم هو أمر العلویین، و الوقوف أمـام نفوذهم، فاتخـذوا تلـک الطرق فی إقناع الناس و أظهروا لهم الحب المصـطنع و العطف الـذی ینطوی من ورائه غیض یحرق القلوب، فکانت أیام السـفاح و شـطرا من خلافة المنصور علی تلک السـیاسة الهادئة ریثما یتم لهم النفوذ و تحکم أسس الدولة. و لما آن وقت إظهار ما کانوا یکتمونه، نفذوا تلک الخطط الانتقامیة من آل

1- 1) العقد الفرید ج 3 ص 207. [1]

2- 2) الکامل ج 5 ص 197. [2]

علی، فلم یدخر المنصور-بعد أن عظمت شوکته و امتد سلطانه-وسعا لسحق العلویین و حزبهم، لأنه یری أن فی بقائهم تحطیم نفوذه و تمزیق ملکه الذی ناله باسمهم بعد املاق و بؤس و اضطهاد و عذاب، فهو یتوقع فی کل آونة قیام ثورة دمویة یترأسها علوی یحوط به عدد کثیر من الأمة، فتوجه بکل ما فی وسعه من جد و حزم، و أنالهم شر أنواع العذاب، و صب علیهم کئوس غضبه و عاملهم بقسوة و شدة، حتی قال أحد مخضرمی الدولتین شعرا: یا لیت جور بنی مروان دام لنا و لیت عدل بنی العباس فی النار

مواقف الإمام فى الحكم الأموى:

قضى الإمام الصادق عليه السّلام خمسين عاما من عمره فى العهد الأموى، أى من سنة 83 ه-إلى سنة 133 ه-و هى السنة التى زال فيها سلطان الأمويين و قام على أنقاضه سلطان بنى العباس. و لقد شاهد الأمويين فى أيام عظمة سلطانهم، و قوة نفوذهم، و رأى تلك المعاملة القاسية التى عومل بها رجال الأمة، و عايش تلك الفجائع التى حلت بالمسلمين، من جراء التحكم و الاستبداد من دون وازع دينى أو خوف عقاب أخروى. فكان يطرق سمعه بين آونة و أخرى قتل جماعة ممن عرفوا بالولاء لآل محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و مطاردة آخرين، و تهبط عليه أنباء الفجيعة بزعماء أهل بيته، الذين أراق الأمويون دماءهم من غير أن تراعى فيهم حرمة لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فقد قتل زيد بن علىّ بالكوفة سنة 122 ه-و صلب جسده عاريا منكوسا و أجساد خواصه معه خمس سنوات، ثم أحرق و نسف فى أليم. ثم أردفوه بولده يحيى بن زيد، كما شاهد نصب عينيه ما كابده جده الإمام زين العابدين من جور الأمويين حتى قضى بالسم على أيديهم، و كذلك أبوه الإمام الباقر. و شاهد ولاة المدينة يجمعون العلويين قريبا من المنبر ليسمعوهم شتم علىّ و تنقيصه. و كانت تؤلمه أنباء جور الولاة و عسفهم بالحكم، و ما يوقعونه فى الأمة الإسلامية. و إذا رجع إلى ذلك الماضى المحزن و ما يبلغه من حديث تلك الحوادث المؤلمة كواقعة الطف التى هى نصب عينيه كأنه قد شاهدها، و كان يعقد المجالس

فینشـده الشـعراء رثاء جـده الحسـین فیها فیبکی، فهی تمثل له فی کل آونـة. فیتوجع لها قلبه، و لکنه یرکن إلی الصبر. و کـذلک حدیث یوم الحرة و حدیثها شـجون، فلا تزال آثار تلک الفاجعة باقیة و إن طال العهد، و شاهد أولئک الحکام الذین یحکمون باسم الخلافة الإسلامیة و ما هم منها بشـیء، فلا عـدل فی حکم، و لا مساواة فی حق، و لا نظام یضم للناس حریاتهم، و الأمور إلی الفوضـی أقرب منها إلی النظام.

عاش الإمام علیه السّلام وسط ذلک الجو المضطرب بالفوضی و العبث و الفساد و التلاعب بمقدرات الأمة، و هو علیه السّلام یحس بآلام الناس أکثر من غیره، فما ذا یصـنع و قد طوقه الأمویون برقابة شدیدة، و ضـربوا حوله دائرة ضـیقة لیحصـروا نفوذه فیها. و رغم ذلک کله راح علیه السّـلام یؤدی رسالته لیعالج إصـلاح الوضع من طریق الهدایة و الإرشاد و نشـر تعالیم الإسلام، و إفهام الناس تلک النظم التی أهملها حکام عصـره و جعلوها وراء ظهورهـم، و حکموا بلغة السـیف و ساسوا الأمة بالإرهاب و القسوة. و لـم یسـتجب علیه السّلام للدعوات التی تتوالی علیه-عنـد ما أعلنت الثورة علی الأمویین-لیقود الثورة و یتقدم الرکب، لأنه علی علم من نتائج تلک الحرکات و هو أعرف بنفسـیات زعمـاء الثورة و قـادة الجیوش، و هـم إن ادعوا الولاـء لآـل محمـد و الانتصار لهم، و طلب البیعـة إلی الرضا منهم، و لکن هناک غایات فی نفوس القوم لا تتحقق إلا بهـذه الادعاءات، فرفض علیه السّـلام تلک الطلبات الموجهـة إلیه لعلمه بما وراء الأکمـة من الخطر. و لقد ابتعد علیه السّلام عن ذلک المعترک و بذل لأبناء عمه النصح بأن لا یزجوا أنفسهم فی ذلک الصراع، و حذرهم عاقبة الأمر التی لا تعود علیهم إلا بالخیبـة و لا یتحقق لهم هـدف ما دام الوقت لـم یأت، و الـدخول فی أمر قبل أن یسـتحکم مفسـدة له، و إن إعلان الثورة فی ذلک الوقت لا یجدی نفعا بل یؤدی إلی مزید من التضـحیات و اتساع شـقة الخلاف و الفرقة، و هو یعرف نوایا العباسـیین و ما یطلبونه من وراء انضمامهم إلی جانب العلویین.

موقف الإمام فی دعوة الخلال لبیعته:

و لما سبر أبو سلمة الخلال أحوال بنی العباس و عرف نواياهم عزم علی العدول عنهم إلی بنی علی، فكاتب ثلاثة من أعيانهم: جعفر بن محمد الصادق عليهما السلام، و عبد اللّه المحض، و عمرو الأشرف، و أرسل الكتب مع رجل من مواليهم و قال له: اقصد أولا جعفر بن محمد الصادق، فإن أجاب فأبطل كتاب عمرو، و إن لم يجب فالق عمرو. فذهب الرسول إلی جعفر بن محمد أولا، و دفع إليه كتاب أبی سلمة فقال عليه السّلام: ما لی و لأبی سلمة و هو شيعة لغيری، فقال له الرسول: اقرأ الكتاب فقال الصادق لخادمه: أدن السراج، فأدناه، فوضع الكتاب علی النار حتی احترق، فقال الرسول: أ لا تجيبه؟ قال: قد رأيت الجواب. ثم مضی الرسول إلی عبد اللّه المحض، و دفع إليه الكتاب، فقرأه و قبله و ركب فی الحال إلی الصادق عليه السّلام و قال: هذا كتاب أبی سلمة يدعونی فيه إلی الخلافة، قد وصل إلیّ علی يد بعض شيعتنا من أهل خراسان. فقال الصادق: و متی صار أهل خراسان شيعتک؟ أ أنت وجهت إليه أبا مسلم؟ هل تعرف أحدا منهم باسمه؟ فكيف يكونون شيعتک و أنت لا تعرفهم و هم لا يعرفونک؟ ! ! فقال عبد اللّه: كان هذا الكلام منک لشیء. فقال الصادق: قد علم اللّه أنی أوجب النصح علی نفسی لكل مسلم، فكيف أدخره عنک! فلا تمنّ نفسک، فإن هذه الدولة ستتم لهؤلاء (1)-يعنی بنی العباس. و دخل عليه سدير الصيرفی فقال: يا أبا عبد اللّه ما يسعک القعود. فقال: و لم يا سدير؟ قال: لكثرة مواليک و شيعتک و أنصارک. فقال: يا سدير و كم عسی أن يكونوا؟ قال: مائة ألف. قال: مائة ألف؟ قال:

1- 1) الآداب السلطانية ص 111 [1] لابن الطقطقی.

نعم، و مائتی ألف. فكان الجواب من الإمام بما حاصله عدم الركون لهذه الكثرة لقلة المخلصين منهم و علمه بالعواقب (1).

إخباره بصيرورة الأمر لبنى العباس:

و لما بايع الهاشـميون محمـد بن عبـد اللّه بن الحسن قال لهم الإمام الصادق: لا تفعلوا فإن الأمر لم يأت بعد، و ضـرب بيده على ظهر أبى العباس السـفاح، ثم ضرب بيده على كتف عبد اللّه بن الحسن و قال: و اللّه إنها ما هى إليک-أى الخلافة-و لا إلى ابنيک، و لكنها لهم-أى لبنى العباس-و إن ولـديک لمقتولان. ثم نهض و توكأ على يـد عبـد العزيز بن عمران الزهرى فقال: أ رأيت صاحب الرداء الأصـفر؟ -يعنى المنصور-قال: نعم. قال: فإنا و اللّه نجده يقتله. فقال عبد العزيز: أ يقتل محمدا؟ . قال: نعم، قال: فقلت فى نفسـى حسده و رب الكعبة. قال عبد العزيز: فو اللّه ما خرجت من الدنيا حتى رأيت المنصور قتلهما (2). و لا زال الإمام الصادق يخبر بصيرورة الأمر لغير آل محمد، و لا زال يقول: إنه صائر لبنى العباس. روى على بن عمرو عن ابن داحـة أن جعفر بن محمد قال لعبد اللّه بن الحسن -و كان السـفاح و المنصور معهما-: إن هـذا الأمر و اللّه ليس إليک و لا إلى ابنيک و إنما هو لهـذا-يعنى السـفاح-ثم لهذا-يعنى المنصور-ثم لولده من بعده لا يزال فيهم حتى يؤمّروا الصبيان و يشاوروا النساء، و إن هذا-يعنى المنصور-يقتله على أحجار الزيت (3)ثم يقتل أخاه بعده، ثم قام مغضبا يجر رداءه فتبعه المنصور. فقال: أ تـدرى ما قلت يا أبا عبد اللّه؟ قال: أى و اللّه أدريه و إنه لكائن. و على أى حال فإن الإمام الصادق عليه السّلام قد مرت عليه أخطار هائلة و فجائع مؤلمة و قد تلقاها بقلب مؤمن باللّه ملتجئا إليه سبحانه و تعالى فى جميع أموره مخلصا

1- 1) أصول الكافى ج 2 ص 243. [1]

2- 2) انظر مقاتل الطالبيين ص 117، و [2]الطبرى ج 9 ص 233 [3] ط 1.

3- 3) أحجار الزيت موضع بالمدينـة المشـرفة و هو خارجها، استشـهد به محمد بن عبد اللّه بن الحسن سـنة 145 ه-و قتل أخوه إبراهيم بالعراق لخمس ليال بقين من ذى القعدة منها و كان عمره 48 سنة.

له فی دعوته لا تأخذه فی الحق لومة لائم، و لا یقعد به عن أداء رسالته خوف ظالم، و قد خاض غمار تلک الأخطار بثبات قلب و رأی سدید و حکمة بالغة. و قد اختط لنفسه طریقا سار فیه إلی الدعوة و تأدیة الرسالة، و أمر أصحابه بالثبات و العمل بما یدعون إلیه من تطبیق نظام الإسلام، و أمرهم بالدعوة الصامتة و قد عرف حاجة المجتمع إلی الألفة، و إزالة رواسب الخلافات و حمل الناس علی تطبیق مبادئ الإسلام لیوجد من المجمع الإسلامی قوة متکاتفة تصرخ فی وجوه الظلمة، و تحملهم علی الاعتدال فی السیرة و العدل فی الحکم، و المساواة فی الرعیة، و سیأتی مزید بیان لهذا الموضوع کما تقدمت الإشارة إلیه فی الجزء الأول.

موقفه من الحرکات الفکریة:

اشارة

هذا من ناحیة الموقف السیاسی. أما ما یتصل بالحیاة الاجتماعیة و العقائد الدینیة فکان الأمر أدهی و أمر، فقد صحبت تلک العاصفة السیاسیة تیارات فکریة جارفة، و هزات إلحادیة قویة، و تطور غریب فی النزعات و الاتجاهات أقلق بال حماة الشریعة و الذائدین عن حوضها، و حدثت عصبیات جاهلیة ذمیمة، و قد نهض الإمام الصادق لمقارعة أهل الباطل، و باحث الفلاسفة و الدهریین، و أهل الکلام الجدلیین، الذین تصدوا لإفساد معتقدات الناس فأبطل بنور حکمته مقالاتهم الفاسدة و سفسطتهم الفارغة (1)، فنبههم عن غفلتهم و أیقظهم من رقدتهم، و أوضح لهم اعوجاج مذاهبهم و التواء سبلهم، و دعاهم إلی کلمة الحق، و جادلهم بالتی هی أحسن، و ناقشهم بالبرهان الساطع و قد احتفظ التاریخ بکثیر من تلک المناظرات، کمناظرته فی التوحید مع الزندیق الذی قدم من مصر، و اسمه عبد الملک لیناظر الإمام فناظره حتی آمن قلبه، و اطمأنت نفسه بعد الزیغ و الارتیاب، و طلب من الإمام تعلیمه و إرشاده و قال: اجعلنی من تلامیذک، فقال الصادق لهشام: خذه إلیک فعلمه (2). و جاء إلیه زندیق آخر و سأله عن أشیاء منها أنه قال له: کیف یعبد اللّه و لم یر؟ فقال أبو عبد اللّه: رأته القلوب بنور الإیمان، و أثبته العقول بیقظتها إثبات العیان،

1- 1) الرسالة الأولی فی الإمام الصادق للأستاذ توفیق الفکیکی المحامی.

2- 2) الصادق للمظفر ج 1 ص 212.

و أبصرته الأبصار بما رأته من حسن التركيب و إحكام التأليف من عظمته دون رؤيته. إلى آخر المناظرة (1). و كان الجعد بن درهم من الزنادقة يضل الناس و يغويهم و قد جعل فى قارورة ترابا و ماء فاستحال دودا و هواما فقال: أنا خلقت هذا، لأنى كنت سبب كونه. فبلغ ذلک جعفر بن محمد عليه السّلام فقال: ليقل كم هو-و كم الذكر و الاناث إن كان خلقه و ليأمر الذى يسعى إلى هذا أن يرجع إلى غيره. قال ابن حجر: فبلغه ذلک فرجع. (2)و له مناظرات مع عبد الكريم بن أبى العوجاء (3)و أصحابه و غيرهم من الزنادقة، فكان جوابه الفصل و الحكم العدل، و ستأتى الإشارة إلى تلک المناظرات فى باب احتجاجاته.

موقفه من حركة الغلاة:

و إن من أعظم المشاكل على الإمام الصادق و أهمها عنده هى حركة الغلاة الهدامة الذين تطلعت رءوسهم فى تلک العاصفة الهوجاء إلى بث روح التفرقة بين المسلمين، و ترعرعت بنات أفكارهم فى ذلک العصر ليقوموا بمهمة الانتصار لمبادئهم و أديانهم التى قضى عليها الإسلام، فقد اغتنموا الفرصة فى بث تلک الآراء الفاسدة فى المجتمع الإسلامى، فكانوا يبثون الأحاديث الكاذبة و يسندونها إلى حملة العلم من آل محمد ليلبسوا مبدأهم الصحيح ثوبا لا يليق به، و يسندوا إليه ما ليس منه، فكان المغيرة بن سعيد (4)يدعى الاتصال بأبى جعفر الباقر و يروى عنه الأحاديث المكذوبة، فأعلن الإمام الصادق كذبه و البراءة منه، و أعطى لأصحابه قاعدة فى الأحاديث التى تروى عنه فقال: لا تقبلوا علينا حديثا إلا ما وافق القرآن و السنة، أو تجدون معه

1- 1) انظر احتجاج الطبرسى و البحار ج 4 و [1]الكافى فى احتجاجات الصادق.

2- 2) لسان الميزان ج 2 ص 105.

3- 3) عبد الكريم بن أبى العوجاء هو خال معن بن زائدة قتل على الزندقة سنة 161 ه-. و لما أخذ لتضرب عنقه قال: لقد وضعت فيكم أربعة آلاف حديث أحرم فيها الحلال و أحلل الحرام.

4- 4) المغيرة بن سعيد مولى بجيلة كذاب قال ابن عدى: لم يكن بالكوفة ألعن من المغيرة بن سعيد كان يكذب على أهل البيت. قتله خالد القسرى سنة 119 ه-مع عدد من أصحابه.

شاهدا من أحاديثنا المتقدمة، فإن المغيرة بن سعيد لعنة اللّه دس فى كتب أصحاب أبى أحاديث لم يحدّث بها فاتقوا اللّه و لا تقبلوا علينا ما خالف قول ربنا و سنة نبينا صلّى اللّه عليه و آله. و قال عليه السّلام: «لعن اللّه المغيرة بن سعيد و لعن يهودية كان يختلف إليها. . . الخ» . فكان عليه السّلام يهتم أشد الاهتمام بأمر الغلاة، لأن بعضهم ادعى أن جعفر بن محمد إله-تعالى اللّه عن قوله-فعظم ذلک على الإمام جعفر بن محمد و حاول أن يقدر عليه فلم يقدر، فأعلن لعنه و البراءة منه، و جمع أصحابه و أعلمهم بذلک و كتب إلى جميع البلدان بكفره و لعنه و البراءة منه (1). و قد أعلن عليه السّلام براءته من الغلاة و يقول لأصحابه: لا- تقاعدوهم و لا- تواكلوهم، و لا تشاربوهم، و لا تصافحوهم، و لا توارثوهم. و لما قتلوا بالكوفة قال عليه السّلام: لعن اللّه أبا الخطاب و لعن اللّه من قتل معه و لعن اللّه من دخل قلبه رحمة لهم، و كان يقول: على أبى الخطاب لعنة اللّه و الملائكة و الناس أجمعين. و قال لأبى بصير: يا أبا محمد ابرأ ممن يرى أننا أرباب. فقال أبو بصير: أنا برىء إلى اللّه منه، قال: ابرأ ممن يزعم أننا أنبياء. فقال: أنا برىء منه إلى اللّه. و قال عليه السّلام: من قال بأننا أنبياء فعليه لعنة اللّه، و من شک فى ذلک فعليه لعنة اللّه. و له كثير من هذه الأقوال التى أظهرها للملإ فى محاربة تلک الفئة الزائغة و حث الناس على مقاومتهم، و كان يقول: ليس لهؤلاء شىء خير من القتل. و لم يكد يعلن عليه السلام على الملأ براءته حتى أحدث ذلک صدعا فى صفوفهم و فرق كلمتهم، و عرف الناس نواياهم و ما يقصدون فى إظهار تلک العقائد الفاسدة، فمزق اللّه شملهم و أباد جمعهم، و لم يبق لهم أثرا فى الوجود. و على أى حال فإن عصر الإمام من أهم العصور ففيه من المشاكل ما لم تكن فى غيره، و لا يسعنا التفصيل لجميع تلک المشاكل و سيأتى مزيد بيان لتلک الأوضاع

1- 1) دعائم الإسلام ص 62-63. [1]

كما سنتعرض إلى بعض مناظراته مع أهل الفرق و جميع أهل الأهواء و الآراء الفاسدة، و هو يدعوهم بدعوة الحق لاتباعه فكان لكلامه أثر فى تنفيد آرائهم و إبطال أقوالهم. و مهما يكن من أمر فإن مشكلة الغلاة فى عصر الإمام الصادق عليه السّلام كانت من أهم المشاكل الدينية التى نجمت عنها آثار اجتماعية أصابت تماسک المجتمع و صفاء عقيدته بالاضطراب. و قد واجهها عليه السّلام و نبه المسلمين على نوايا أولئک الأفراد الذين قاموا بنشاط معاد للإسلام فى تلک الحركات الفكرية فى عصر ازدهار العلم و انطلاق الفكر. و قد أعلن-كما تقدم و سيأتى فيما بعد-الحرب عليهم و أمر أتباعه بمقاطعتهم و التبرى منهم، مما أدى إلى كشف الستار عن نواياهم السيئة، و إظهار مقاصدهم الخبيثة إلى الرأى العام، فوئدت حركاتهم فى مهدها، و لم يبق إلا نقل أقوالهم فى بطون الكتب. و سنرى فى الأبحاث القادمة كيف ارتكب بعض الكتّاب جناية العمد لهضم الحقيقة، فى الابتعاد عن نزاهة البحث بتعصبهم الأعمى عند ما راحوا يربطون بين الحاضر و الماضى، و يقيمون هياكل و همية، و يبتدعون أسماء فرق بلا مسميات و ينسبونها إلى الشيعة بما لا يتلاءم و واقع الحقيقة و العقل. و ليس من شک بأن تلک التهجمات إنما كانت لأغراض سياسية بحتة و ليس للعلم فيها دخل، و هى من وحى التعصب و نسج الخيال، كما أشرنا إليه سابقا و نتعرض له فيما بعد.

الإمام الصادق

اشارة

تلامذته و رواة حديثه

توجيهه الأمة إلى الشعور بالمسؤولية:

كـانت المدينـة المنورة مأهولـة بالصـحابة و التابعين، زاخرة برجال الأمـة، تنتظم فيها حلقات الفقه، و تكثر عليها الوفود من أطراف البلاد و مختلـف الأقطـار، و يتخرج منهـا حفـاظ الحـديث و الفقهـاء، لأنهـا دار هجرة الرسـول و مـوطن الشـرع و مبعث النور، و عاصـمة الحكم الإسـلامى الأول، و هى مهـد السـنن و المرجع للأمـة و معـدن العلم و الفقه، و لها المكانة السامية، و فيها أهل بيت النبى و عترته «الذين أذهب اللّه عنهم الرجس و طهرهم تطهيرا» فهم حملة العلم «و أعلام الأنام و حكام الإسلام» (1)«قوم بنور الخلافة يشرقون و بلسان النبوة ينطقون» (2). و فى هـذا البلد الطيب و البيت الطاهر ولد أبو عبد اللّه الصادق عليه السّلام و نشأ فى بيت النبوة، و درج فى ربوع الإيمان، و نهض عليه السّلام لأداء رسالته فى نشر تعاليم الإسلام من دار الهجرة و مهبط الوحى و معدن الرسالة. و كانت مدرسة الإمام الصادق عليه السّلام ثابتة المبدأ متصلة الكفاح، وجد الناس فيها ثروة علمية، و كانوا يحيون فيها حياة فكرية تهذب النفوس و تسمو بالعقول، و ترتقى بهم إلى أوج المعرفـة و الكمال. و كان غرضه المباشـر هو توجيه الناس إلى أسـمى درجـة من التفكير، و إفهام الأمـة نظم الإسـلام على الوجه الصحيح، و تطبيقه بين أفراد الأمة من طريق العلم و حرية

1- 1) الكلمة لسعيد بن المسيب و هو أحد التابعين.

2- 2) القول لمسلم بن هلال العبدى.

التفكير، ليعالج مشاكل ذلک المجتمع بالحكمة و الموعظة الحسنة، و يدعو الناس من طريق الهداية و الإرشاد إلى التمسک بتعاليم الدين، و تطبيق تلک النظم التى أهملها الحكام و جعلوها وراء ظهورهم. و ازدهرت المدينة المنورة فى عصر الإمام الصادق، و زخرت بطلاب العلم و وفود الأقطار الإسلامية، و انتظمت فيها حلقات الدرس، و كان بيته كجامعة إسلامية يزدحم فيه رجال العلم و حملة الحديث من مختلف الطبقات، ينتهلون موارد علمه و يقتبسون من ضياء معرفته، و قد اغتنموا تلک الفرصة فازدحموا عليه يسألونه إيضاح ما أشكل عليهم «فحمل الناس عنه من العلوم ما سارت به الركبان و انتشر ذكره فى جميع البلدان» (1). و ازدحم على بابه العلماء و اقتبس من مشكاة أنواره الأصفياء، و كان متجها إلى العمل بما يرضى اللّه لا يفتر عن ذكره و لا ينفک عن طاعته. يحدثنا مالک بن أنس، و هو تلميذ الإمام تردد عليه زمانا طويلا قبل أن تفصل بينهما عوامل الدولة، و تحول وجهة نظر مالک عن الإمام عند ما رفعت من مقامه، و أعلت من شأنه، و وجهت الأنظار إليه طوعا أو كرها رهبة أو رغبة يقول: و لقد كنت أرى جعفر بن محمد و كان كثير التبسم، فإذا ذكر عنده النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم اصفر لونه، و ما رأيته يحدّث عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم إلا على طهارة. و لقد اختلفت إليه زمانا فما كنت أراه إلا على ثلاث خصال: إما مصليا، و إما صامتا، و إما يقرأ القرآن، و لا يتكلم بما لا يعنيه، و كان من العلماء و العباد الذين يخشون اللّه (2). و فى رواية الحافظ النيسابورى: و كان كثير الحديث طيب المجالسة كثير الفوائد، فإذا قال: قال رسول اللّه اخضر مرة و اصفر أخرى حتى ينكره من يعرفه. و لقد حججت معه فلما استوت به راحلته عند الإحرام انقطع الصوت فى حلقه و كاد يخرّ من راحلته. و لو اطلعنا على أخبار الإمام الصادق و مناظراته لعلمنا حقيقة و واقع ذلک العصر فى جانبه الدينى و حياته الفكرية فهو عصر شهد تلاقح الأفكار و التقاء الآراء فى اطار

1- 1) الصواعق المحرقة لابن حجر ص 120. [1]

2- 2) التوسل و الوسيلة لابن تيمية ص 52.

المجتمع الإسلامی الواسع الذی انضم إليه طوائف من أديان سابقة و شعوب من حضارات أخرى و قد استهوت مناهج هؤلاء و طرقهم عقول بعض المسلمين فتوغلوا فی تقليدها و توسعوا فی مجاراتها فكان أن اختل ثبات الرأی و ضوابطه المعروفة، و أقحموا أنفسهم فی مغاليق و مبهمات عمد الإسلام إلى إيضاحها و بيانها فی مسائل التوحيد و الإيمان و عموم الأحكام غير أنهم مالوا إلى بهرج اللفظ و الصياغة و ظنوا أن تغيير وسائل القول و ألوان الكلام سيكتب لهم المنزلة السامية و المكانة العليا فكيف و قد تعمدوا ما لا يؤمن نتيجته؟ و اتخذوا من المناهج ما يقتضی تكلفا يبعد عن وضوح المعهود و جلائه. و هنا برز الإمام الصادق فی خضم معترک فكری و دينی و لو لا خصائص الإمامة و نور النبوة الذی يفيض من منطقه لما تمكن بشر من القيام بتلک المهمات و المسئوليات الجسام فكان عليه السلام يتصدى الأفكار التی تمس العقيدة و تؤثر فی الدين، و كان يتحرى أقوال الآخرين و يناظر أصحاب الدعوات و الآراء و الكل يلجأ إليه لما اشتهر به من علم، و قد كان عليه السلام فی موجات هذا الخضم لا ينسى كيف يصون نفسه من الحكام و يجنب شيعته الأذى و هو يعدّهم إعدادا متميزا و يوجههم توجيها هادفا. و قد كان منهم نخبة يلازمونه و يختصون به و قد وكل إليهم الإمام الصادق كثيرا من المهام الاجتماعية و عهد إليهم بأدوار دينية و دفع بهم إلى واقع الأمة و كل منهم لديه ذخيرة من التعاليم و الآداب الدينية. و فی تلک الفترة كانت مدرسته عليه السلام تقوم على قاعدة علمية كبرى تتفرع منها بقية العلوم التی يتلقاها الطلاب، فربط عليه السلام ضروب النشاط العلمی فی مجمع مدرسته و منتداها بالتوحيد و الإيمان، و جعل من وجوب المعرفة باللّه أصلا لذلک فكان يملی على أصحابه و طلابه قائلا: وجدت علم الناس كلهم فی أربع. أولها أن تعرف ربک و الثانی أن تعرف ما صنع بک و الثالث أن تعرف ما أراد منک و الرابع أن تعرف ما يخرجک عن دينک. و لا نريد أن نشير إلى أغلب جوانب الحركة الفكرية فی مدرسة الإمام الصادق لأن ذلک سيتوزع على أجزاء الكتاب فنعاود ذكرها و بحثها لكنا نؤكد على بنائها و الاهتمام العالی فی منهجها و إشراف الإمام الصادق على نشاطها و مباشرة مهماتها

بنفسه و قد أصبح لمنهجها و رجالها شهرة فی أرجاء العالم الإسلامی و اختلف إلیها طلاب العلم علی تباین مقاصدهم و کان الإمام یجیب کل من یسأله مراعیا اهتمامات السائل و مقاصده. عن یونس بن یعقوب قال: کنت عند أبی عبد اللّه علیه السلام فورد علیه رجل من أهل الشام فقال له: إنی رجل صاحب کلام و فقه و فرائض و قد جئت لمناظرة أصحابک. فقال له أبو عبد اللّه کلامک هذا من کلام رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله أو من عندک؟ فقال: من کلام رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم و من عندی بعضه، فقال له أبو عبد اللّه علیه السلام: فأنت إذن شریک رسول اللّه (صلی الله علیه و آله) ؟ قال: لا، قال: فسمعت الوحی عن اللّه؟ قال لا، قال الصادق علیه السّلام: فتجب طاعتک کما تجب طاعة رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم؟ قال: لا، فالتفت أبو عبد اللّه إلیّ فقال: یا یونس بن یعقوب، هذا قد خصم نفسه. ثم أمر علیه السلام بعضا من أصحابه و رجال مدرسته بأن یکلموا الرجل (1)فانعقدت مناظرة ستأتی تفاصیلها حسب البحث إن شاء اللّه.

حثه علی التجارة و طلب الرزق:

کان الحلقات التی تعقد فی مدرسة الإمام الصادق علیه السّلام هی الصعید الذی تنطلق علیه تعالیم الإمام و إرشاداته، فکان یزرع الفضیلة فی النفوس و یغرس الخیر فیها. و کان حدیثه علیه السّلام یشمل کل أمور الحیاة و جوانبها، فهو یهدف إلی تصفیة الغرائز و یرسم طریق الصلاح و الهدایة و یوضح للناس سبل الخیر. و جعل هدفه الأسمی فی توجیه الناس إلی الورع عن محارم اللّه و الخوف منه، و الامتثال لأوامره، و الشعور بالمسؤولیة أمام اللّه تعالی و جعل یوم الحساب ماثلا أمام أعینهم، للمحافظة علی القیم الروحیة، و لیرفع من مستوی أخلاقهم. و کان علیه السّلام یرمی إلی تشجیع روح العمل و القیام بواجبات المعاش لتکون شخصیة المسلم تجمع بین زاد المعاد بالإیمان الخالص و زاد المعاش بالکسب الحلال. و کان یسمی التجارة

1- 1) الإرشاد ص 260. [1]الاحتجاج ص 122. [2]

و دخول السوق بالعز، كما يحدثنا المعلى بن خنيس قال: رآنى أبو عبد اللّه و قد تأخرت عن السوق فقال لى: اغد إلى عزك. و قال لآخر و قد ترك غـدوه إلى السوق: ما لى أراك تركت غـدوك إلى عزك؟ قال: جنازة أردت أحضـرها. قال: فلا تـدع الرواح إلى عزك. و قال لمعاذ بياع الأكسـية عند ما ترك التجارة: لا تتركها فإن تركها مذهبة للعقل، اسع على عيالك و إياك أن يكونوا هم السـعاة عليك. و سأل عن رجل من أصـحابه فقـال: مـا حبسه عن الحـج؟ فقيل: ترك التجارة و قلّ شـيئه، فاسـتوى الإمام جالسا و كان متكئا ثم قال: لا تـدعوا التجارة فتهونوا؛ اتجروا بارك اللّه لكم. و قال معاذ: قلت لأبى عبد اللّه: إنى هممت أن أدع السوق، فقال: إذا يسـقط رأيک و لا يسـتعان بک على شـىء. فهو بهـذه التعـاليم القيمـة يبعث فى نفوس أصـحابه إلى طلب المعـاش ليوجـد منهم ذوى نفوس لا تخضع لـذى ثروة، و يصونوا كرامتهم عن الخضوع له و الاسـتغناء عنه، و ليكونوا ذوى قدرة على الإنفاق عن سعة لمساعدة ذوى العسرة و أهل الضنک من المؤمنين. و لما كان حب المال يؤدى إلى الانصراف عن قيم الحياة الرفيعة، و يدعو صاحبه إلى العناء و الاستغراق فى جمعه و الانشغال به، نبه على ذلک بقوله: ليكن طلبک للمعيشة فوق كسب المضيع و دون طلب الحريص الراضى بدنياه المطمئن إليها، انزل نفسک من ذلک بمنزلة المنصف المتعفف، و ترفع بنفسک عن منزلة الواهن الضعيف، و تكسب ما لا بد منه للمؤمن. ثم يحدثهم عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم بما يرويه عن آبائه فى الإجمال بالطلب و عـدم الاسـتغراق فى حب المال. و لما كان الاقتصاد فى المعيشـة أقوى عامل للتوفير و زيادة الثروة، فلم يهمل هذه الناحية بل نبه عليها بقوله: «إن السرف يورث الفقر، و إن القصد يورث الغنى» .

دعوته إلى العمل:

و كان يحث على العمل و يعمل بنفسه و لا يحتقر ذلک، لأن كرامـة الإنسان فى عمله، فهو عليه السّـلام قد حث على العمل قولا و فعلا. و قد تضافرت الأخبار بأنه كان يعمل بيده و يتجر بماله. يحدثنا أبو عمر الشيبانى، قال: رأيت أبا عبد اللّه الصادق و بيده مسحاة يعمل

فی حائط له و العراق یتصبب، فقلت: جعلت فداک أعطنی أکفک، فقال لی: إنی أحب أن یتأذی الرجل بحر الشمس فی طلب المعیشة. و یقول إسماعیل بن جابر: أتیت أبا عبد اللّه و إذا هو فی حائط له، و بیده مسحاة و هو یفتح بها الماء. . . و عن الفضل بن أبی قرة قال: دخلنا علی أبی عبد اللّه فی حائط له، و بیده مسحاة یفتح بها الماء و علیه قمیص. . . و کان یقول إنی لأعمل فی بعض ضیاعی، و إن لی من یکفینی لیعلم اللّه عز و جل أنی أطلب الرزق الحلال. و کان علیه السّلام یشجع علی العمل و یحث علیه، لأنه یری أن الکسالة تؤدی إلی الخط من کرامة المرء، و تقذف به فی حضیض الهوان. فإن الإسلام یرشد بتعالیمه إلی الجد و طلب المعیشة فی الدنیا، کما أرشد إلی العمل و طلب الجزاء فی الآخرة. و لقد وهب اللّه للإنسان فی عقله و جسمه قدرة یطرق بها أبواب الخیر فی رزقه، فلا یصح له أن یذر اعمال تلک القوة و یسأل الرزق بلسان العاجز الکسلان: و قد ورد فی الحدیث: «اعمل لدنیاک کأنک تعیش أبدا، و اعمل لآخرتک کأنک تموت غدا» . فالعمل فی الإسلام ضمن قواعده المهمة، و لم یرض للمسلم البطالة و الکسل، حتی ورد فی الحدیث «ملعون ملعون من ألقی کله علی الناس، ملعون ملعون من ترک من یعول به» . و قال أمیر المؤمنین علیه السّلام: ما غدوة أحدکم للجهاد فی سبیل اللّه بأعظم من غدوة من یطلب لولده و عیاله ما یصلحهم. و قال علیه السّلام: «الشاخص فی طلب الحلال کالمجاهد فی سبیل اللّه» إلی غیر ذلک من أقوال تبیّن شدة الاهتمام بطلب الحلال. فکان الإمام الصادق کثیرا ما یلقی علی تلامذته تلک الدروس القیمة و یحثهم علی العمل و الجد، و ینهاهم عن البطالة التی تخمد جذوة الفکر، و تعوّد الجسم علی العجز، و تمیل به عن الاعتدال، و تسقطه فی المجتمع من عین الاعتبار. و لقد قال أمیر المؤمنین علیه السّلام: «إنی لأری الرجل فیعجبنی، فأقول: أله حرفة؟ فإن قالوا لا سقط من عینی» .

و لـذلک قال الإمام الصادق لمعاذ عنـد ما أراد ترک العمل و التجارة: إذا يسـقط رأيک و لا يسـتعان بک على شـيء. و بعد أن دعاهم عليه السّلام إلى العمـل قولاـ و فعلاـ بيّن لهم قواعـد مشـروعة لمـا يصـح الاكتسـاب به و ما لا يصـح، و فصل لهم أهم ما يتعلق بنظام الحياة الاجتماعيـة من حيث الكسب للمال، و كيفيـة تملكه و إنفاقه، لأن المال وسـيلة فعالة فى حياة الإنسان، فلا بد من نظام يكفل بيان ذلک، و نقتصـر على بعض ما رواه الحسن بن على بن شـعبة فى تحف العقول: أن سائلا سأل الإمام عليه السّلام كم جهات معاش العباد التى فيها الاكتسـاب و التعامـل بينهم و وجوه النفقـات؟ فقال عليه السّلام: جميع المعايش كلها من وجوه المعاملات فيما بينهم مما يكون لهم فيه المكاسب أربع جهات و يكون منها حلال من جهـة و حرام من جهـة. فأول هـذه الجهات الأربعة: الولاية، ثم التجارة، ثم الصـناعات، ثم الإجـارة. و الفرض من اللّه تعـالى على العبـاد فى هـذه المعاملات الـدخول فى جهات الحلال، و العمل بـذلک الحلال منها، و اجتناب جهـات الحرام. فإحـدى الجهتين من الولايـة ولاـة العـدل الـذين أمر اللّه بولايتهم على الناس. و الجهـة الأخرى ولايـة ولاة الجور، فوجه الحلال من الولاية ولاية الوالى العادل: و ولاية ولاته بجهة ما أمر به الوالى العادل بلا زيادة و لا نقصان، فالولاية له و العمل معه، و معونته و تقويته حلال محلل. و أما وجه الحرام من الولايـة فولايـة الوالى الجائر. و ولايـة ولاته فالعمل لهم و الكسب معهم بجهة الولاية لهم حرام محرم معذب فاعل ذلک على قليل من فعله أو كثير، لأن كل شـيء من جهة المعونة له معصية كبيرة من الكبائر، و ذلک أن فى ولاية الوالى الجائر دروس الحق كله، فلذلک حرم العمل معهم و معونتهم و الكسب معهم إلا بجهة الضـرورة، نظير الضـرورة إلى الدم و الميتة. . . ثم بين عليه السّلام بقيـة المعاملات و المكاسب بما لا يتسع المجال لذكره هنا. و قول الإمام الصادق من أعظم الأدلة على منهج أهل البيت فى اعتزال الجـائرين و حث الأمـة على الابتعاد عنهم حتى أن المكانـة التى يحتلها العمل فى حياة المرء و ما قام به الإمام عليه السّلام من دعوة إلى العمل قيّد حلّها و بيّن جهة الحرام منها إذا كانت مع

الاعتراف بولايتهم و الإقرار بشرعيتهم فالعمل على مثل هذه الحال حرام و الكسب فى ظل الولاية لهم حرام فانظر إلى مثل هذا التوجيه الذى يرمى إلى الحفاظ على روح الشريعة فى صورة المجتمع و هيكله و يجعل الجور طارئا و الظلم قصيرا لأن الأمور لا بد أن تعود إلى وضعها. و كذلک فإن الإمام عليه السلام يعرض الحالات الاجتماعية التى تكثر صورها و يصور حكم الدين فيها لكى يزيح عن الناس غشاوة الجهل و يدفعهم إلى حال من التبصر و المعرفة فهو يقول للوليد بن صبيح عن الثلاثة الذين يردّ دعاؤهم قال: أحدهم له مال فأنفقه فى وجهه فيقول يا رب ارزقنى فيقول اللّه عز و جل أ لم أرزقک، و رجل يجلس فى بيته و يسعى فى طلب الرزق و يقول رب ارزقنى فيقول اللّه عز و جل أ لم أجعل لک سبيلا إلى الرزق، و رجل له امرأة تؤذيه فيقول يا رب خلصنى منها فيقول اللّه عز و جل أ لم أجعل أمرها بيدک. و لأصحاب النظريات الحديثة و المدافعين عن الطبقات الكادحة نقول: إن الإمام الصادق كان يصنف أبواب المعاملات بعرض المسائل و أحكامها على تلامذته فعن هشام بن الحكم فى الحمّال و الأجير أن الإمام الصادق قال لا يجف عرقه حتى تعطيه أجرته. و عن شعيب قال: تكارينا للإمام الصادق عليه السّلام قوما يعملون له فى بستان له و كان أجلهم إلى العصر فلما فرغوا قال عليه السلام يا شعيب اعطهم أجورهم قبل أن يجف عرقهم.

دعوته للألفة و الأخوة الإسلامية:

و كان يدعو إلى الاحتفاظ بالأخوة الإسلامية، و يدعو إلى الألفة و التقارب، و ينهى عن التباغض و التباعد، و يحاول تأليف القلوب بمختلف الطرق، لأن الحب أقوى عامل لسعادة بنى الإنسان، و بالحب ينتظم العالم، و هو القانون الطبيعى لكيان الحياة، و لذلک نجد روح الإسلام مفعمة بالمودة و الإخاء و الإخلاص و النصيحة. فكتاب اللّه و سنة رسوله الكريم دعوة خالصة و نداء دائم للأخوة و جمع الكلمة و نبذ الفرقة و الاعتصام بالدين. أما الكراهية فإنها تبعث الشقاء و تثير الشحناء، لأن عين الكراهة لا تبصر المحاسن بل تتطلع إلى العيوب، و إن لم تجد فتقلب الحسن قبيحا،

فلذلک نهی الشارع المقدس عن الأمور التی تثیر العداء بین المسلمین، و تخل بتماسکهم و تخلخل أوضاعهم و تخلق الاضطراب و النفرة، و تذهب إلی أبعد حدود القلق، فکان من أسس نظام الدین الإسلامی هی الأخوة، فلذا آخی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بین أصحابه، و أمر المسلمین بالمؤاخاة. و قال تعالی: إِنَّمَا اَلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ [الحجرات: 10]و جعل النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم عنوان الأخوة: أن تحب لأخیک ما تحب لنفسک، فإذا کنت تحب لأخیک الخیر أحبه لک، فکانت راحة نفسک من عاملین قویین. و هکذا إذا کثرت الأسباب و الدواعی، و اتسع میدان الإخاء، فإذا کان المسلم یحب نفع أخیه کما یحبه لنفسه، فبالطبع إنه لا یأتی منه ضرر، فإذا أمن الإنسان ضرر أبناء جنسه، فتلک هی السعادة، و هل تری مظهرا للمدنیة الصحیحة أجلی من هذا المظهر، فاللّه سبحانه و تعالی رحمة بعباده جعل الأخوة الإسلامیة لیتم لهم نظام الحیاة، و یتعاونوا علی البر و التقوی، و لا یتعاونوا علی الإثم و العدوان. لذلک کان الإمام الصادق یدعو بتعالیمه إلی الأخوة الإسلامیة. و یحث علی مساعدة الإخوان و قضاء حوائجهم. قال صفوان الجمال: دخلت علی أبی عبد اللّه الصادق علیه السّلام إذ دخل علیه رجل من أهل مکة یقال له میمون فشکی إلیه تعذر الکراء علیه، فقال لی علیه السّلام: قم فأعن أخاک، فقمت معه فیسر اللّه کراه، فرجعت إلی مجلسی، فقال أبو عبد اللّه: ما صنعت فی حاجة أخیک؟ فقلت: قضاها اللّه بأبی أنت و أمی، فقال: أما إنک إن تعن أخاک المسلم أحب إلیّ من طواف أسبوع فی البیت. و ذلک لأن مساعدة الإخوان توجب المحبة و الألفة، و بهما تحصل المنافع العامة. و قد عالج الإسلام مشکلة الحب و الکراهة، و هما من أعظم المشاکل الاجتماعیة، فإن الحب إذا حصل فی المجتمع فلا تجد هناک مشکلة من مشاکل الحیاة الاجتماعیة. و المحبة تخمد جذوة الرذائل، و معنی هذا أن رذائل الشخص فلما تصیب من أحبه، و من ثم قیل: «العدالة خلیفة المحبة» . قال سقراطیس: لا یستطیع أحد من الناس أن یعیش بغیر المودة، و إن مالت إلیه الدنیا، فإن ظن أحد أن أمر المودة صغیر، فالصغیر من ظن ذلک.

و لنـا فی تعـالیم الإمـام الصادق و حکمیاته-التی کان یلقیها علی تلک المجموعـة الوافرة من الناس فی مدرسـته-کفایـة علی إیضاح فوائد الحب فی اللّه و مضار الکراهـة، فکان ینصح المسـلمین و یحذرهم عاقبة التباعد و البغضاء، و لم یقتصـر علی القول فی هدم عوامل الفرقة، بل کان یسـعی لذلک من طرق مختلفة، حتی أنه أقام بعض أصـحابه و أمرهم أن یصـلحوا المتخاصمین علی شیء من حطام الدنیا من ماله الخاص. یحدثنا أبو حنیفة سابق الحاج-و اسـمه سـعید بن بیان-قال: مر بنا المفضل بن عمر و أنا و ختن لی نتشاجر فی میراث، فوقف علینا ساعـة، ثم قال لنا: تعالوا إلی المنزل، فأتیناه، فأصـلح بیننا بأربعمائـة درهم، فدفعها إلینا من عنده حتی إذا اسـتوثق کل واحد منا من صاحبه، قال: أما إنها لیست من مالی، و لکن أبا عبد اللّه الصادق أمرنی إذا تنازع رجلان من أصـحابنا فی شـیء أن أصلح بینهما و افتدیهما من ماله، فهذا مال أبی عبد اللّه (1).

سیاسته تجاه الظلم و الظالمین:

لقـد تسالمت العقول و اتفقت آراء العقلاء علی قبح الظلم، فهو من أعظم الرذائل، کما أنهم لم یجمعوا علی تقدیر فضـیلة کإجماعهم علی تقدیر فضـیلة العدل الذی هو أصل کل خیر، و القلب النابض لجمیع الفضائل، و لا یخرج شـیء من الفضائل عنه. فهو أسمی هدف یسعی الإسـلام لتحقیقه، و یأبی أن تهدمه رذیلة حب السـلطة و التغلب. و کان الإمام الصادق علیه السّلام ینهی عن الظلم و یحارب الظالمین، و یأمر بالابتعاد عنهم و عـدم التعاون معهم، و أقواله فی ذلک کثیرة، فأصـبحت نورا تهتـدی به النفوس، و یتردد ذکرها علی ألسـنة العلماء من أقـدم العصور، و جاء ذکرها فی أمهات الکتب، فهی نور ساطع فی أفق العقلیـة البشـریة، و قد سن قواعد مشـروعة لمقاومة الظالمین، و هی خیر وسـیلة لتقویض کیـان الظلم و محو دعائمه. و کان أهل البیت یعظمون علی الإنسان ارتکاب العـدوان علی الغیر و الظلم للناس، فقد جاء عن إمام أهل العدل أمیر المؤمنین علیه السلام: «و اللّه لئن أبیت علی

1- 1) الکافی ج 2 ص 209. [1]

حسک السعدان مسهدا أو أجر فی الأغلال مصفدا أحب إلیّ من أن ألقی اللّه و رسوله ظالما لبعض عباده، و غاصبا لشیء من الحطام» . و یقول: «و اللّه لو أعطیت الأقالیم السبعة بما تحت أفلاکها علی أن أعصی اللّه فی نملة أسلبها جلب شعیرة، ما فعلت» إلی غیر ذلک من تعالیمه و أحکامه. و قد قام کل من أهل البیت بما یجب علیه فی نصرة العدل و محاربة الظلم، و قد بذلوا أنفسهم لتحقیق ما دعا إلیه الإسلام بما یکفل للأمة السعادة، لذلک کانوا طعمة لسیوف الظالمین؛ لأنهم کانوا حربا علی الظلم، و ساروا فی سیاسة سلبیة ازاء الحکام الظالمین، فلم یرکنوا إلیهم، و لم یتعاونوا معهم امتثالا لأمر اللّه تعالی: وَ لا تَرْکَنُوا إِلَی اَلَّذِینَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّکُمُ اَلنّارُ [هود:113]؛ و بهذا تحفظ الأمة کرامتها، و تکسب قوة و رفعة، بینما تضع الحکام الظالمین فی مأزق یجعلهم فی معزل عن الناس و ابتعاد عن الرعیة، و بذلک تکون الأمة قادرة علی إرغام الحکام الظالمین علی الاعتدال فی السیرة و الحکم فی العدل. یحدثنا صفوان الجمال قال: دخلت علی الإمام موسی بن جعفر علیه السّلام فقال لی: یا صفوان کل شیء منک حسن جمیل، خلا شیئا واحدا. قلت: جعلت فداک أی شیء؟ قال: کراک جمالک من هذا الرجل-یعنی هرون-. قلت: و اللّه ما أکریته أشرا و لا بطرا، و لا للصید، و لا للهو، و لکن أکریته لهذا الطریق-یعنی طریق مکة-، و لا أتولاه بنفسی، و لکن أبعث معه غلمانی. قال: یا صفوان أیقع کراک علیهم؟ قلت: نعم جعلت فداک. قال: أ تحب بقاءهم حتی یخرج کراک؟ قلت: نعم. قال: فمن أحب بقاءهم فهو منهم، و من کان منهم فهو کمن ورد النار. قال صفوان: فذهبت و بعت جمالی عن آخرها.

و قـد قام الإمام الصادق بـدوره فی عصـره فأعلن للملإ أضـرار الظلم، لأن کل فساد فی الأرض و شق لعصـی الطاعة، و اضـطراب فی نظام العمران إنمـا یعود إلی الجور بین الناس، بل إن کل قحط و جـدب و ضـیق و ضـنک، و جوع و خوف و بلاء و انتقام إنما هو من ظلم العباد بعضهم بعضا، لذلک أمر الإمام الصادق بالابتعاد عنهم، کما أبعد عنه المتقرب إلیه منهم و حرم الولایة لهم، لأنه یری: «أن فی ولایة الجائر دروس الحق کله، و إحیـاء الباطـل کله، و إظهار الظلم و الجور» ، کما ورد عنه ذلک، و کان یقول: العامل بالظلم و المعین له و الراضـی به شرکاء. و دخل علیه عذافر فقال علیه السّلام: بلغنی أنک تعامل أبا أیوب و الربیع، فما حالک إذا نودی بک فی أعوان الظلمة؟ و نهی یونس بن یعقوب عن معاونتهم حتی علی بناء المساجد. و سأله رجل من أصـحابه عن البناء لهم و کرایة النهر، فأجابه علیه السلام: «ما أحب أن أعقد لهم عقـدة أو وکیت لهم وکاء و لا مـدة بقلم، إن أعوان الظلمة یوم القیامة فی سـرادق من نار حتی یحکم اللّه بین العباد» . و جاءه مولی من موالی علی بن الحسـین علیه السّـلام فقال له جعلت فـداک لو کلمت داود بن علی أو بعض هؤلاء فأدخل فی بعض هذه الولایات. فقال له علیه السّـلام ما کنت لأفعل. فانصـرف إلی منزله متفکرا، و قال ما أحسبه منعی إلا مخافة أن أظلم أو أجور، و اللّه لآتینه و لأعطینه الطلاق و العتاق و الایمان المغلظـة أن لا أظلم أحـدا و لأعـدلن. قال فأتیته فقلت: جعلت فـداک إنی فکرت فی إبائک علیّ، فظننت أنک إنما کرهت ذلک أن أجور أو أظلم، و إن کل امرأة لی طالق و کل مملوک لی حر و علیّ و علیّ. . . إن ظلمت أحـدا أو جرت علیه و لم أعدل. فقال علیه السّـلام: کیف قلت؟ فأعدت علیه الایمان، فرفع رأسه إلی السماء فقال: تناول السماء أیسر علیک من ذلک (1). و قد وردت عن أهل البیت أحادیث بجواز الولایة إذا کان فیها صیانة العدل و إقامة حدود اللّه، و الإحسان إلی المؤمنین، و السعی فی الإصلاح، و مناصرة

1- 1) الجواهر [1]فی باب التجارة ص 36.

المظلومين، و الأـمر بالمعروف، و النهى عن المنكر. فهناک أحاديث عن الأئمـة عليهم السـلام توضـح النهـج الـذى ينبغى أن يجرى عليه الولاة و الموظفون، كما ورد فى رسالة الإمام الصادق إلى النجاشـى أمير الأهواز (1). و قوله عليه السّـلام: «إن للّه فى أبواب الظلمة من نوّر اللّه به البرهان، و مكن له فى البلاد، فيدفع به عن أوليائه، و يصـلح به أمور المسـلمين» . و قد أشرنا لنهجه الذى وضعه فى سياسته التى سار عليها مدة حياته، و هى السـياسة السلبية التى أرادها للأمة، و قد مر تقسيمه للولاية: ولاية عدل، و ولاية جور، و سن تلک القاعدة المشروعة فى معاملة ولاة الجور فى عصـره. يقول أحد رجال القانون (2)فى بيان تلک القاعدة عند تعرضه لرأى الإمام السياسـى فى عدم المعاونة مع أمراء عصـره: إن الإمام عليه السّـلام قد سنّ قاعدة مشـروعة للسـياسة السلبية، و هى ما يسمونها اليوم باللغة السياسية (بالعصيان المدنى) أو سياسة عدم التعاون مع حكومة أو دولة لا تحترم الحقوق، أو تسىء التصرف، فتعبث بحرمة قانونية المعاهدات و المواثيق، أو تتحدى قدسية الـدساتير، و حقوق الأمـة المشـروعة، إلى غير ذلک من وسائل الظلم، و ذرائع الباطل التى تتوسل بها الحكومات الغاشـمة و الدول القوية المسـتعمرة، و حكام الاسـتبداد و الفساد فى سبيل الغايات الخبيثة الدنيئة. فالإمام الصادق عليه السّلام قد أوجب على الأفراد عدم التعاون مع ولاتهم الجائرين على اختلاف درجاتهم و مناصبهم من أعلاهم إلى أدناهم، و حرم عليهم العمل لهم و الكسب معهم، و حذر و أوعد الفاعل لذلک بالعذاب لارتكابه معصية كبيرة من الكبائر، لأن فى بذل المعونة للوالى الجائر إماتة الحق كله و إحياء الباطل كله، و فى تقويته إظهار الظلم و الجور و الفساد و سـحق السـنن و طمس الشـرائع-و العياذ باللّه- و لا نريـد أن نكثر القول فى شـرف هـذه القاعدة للسياسـة السلبية و فى فوائد حكمتها، و هذه القاعدة الوحيدة الناجعة لعلل السياسة الفاسدة و أوبائها المهلكة. و ليس للأحرار

1- 1) الوسائل فى كتاب التجارة و سننشرها فى قسم الوصايا.

2- 2) هو المحامى الشهير توفيق الفكيكى فى الرسالة الأولى فى حياة الصادق ص 27.

المصـلحين فى كل أمة قاعدة أخرى يلجئون إليها فى إكراه المستبدين و المستعبدين و المستهترين بحقوق الأمة للخضوع إلى إجابة رغبات الشعب و تحقيقها و تطبيق القوانين و خدمة العدل و احترام الحق، إلا اتباع هذه القاعدة المثالية فى السياسة السلبية. و لا يقوى على انتهاج هذه الخطة القويمة إلا أصـحاب القلوب العامرة بقوة الإيمان، و أرباب النفوس الملتهبة بحرارة العقيدة الصحيحة الصلبة، و أهل الصبر على تقـديم القرابين الغاليـة من أرواحهم الطاهرة فى سبيل حريات الرعية و صـيانة حقوقهم من جور الجائرين و اعتسافهم. فهل بعد هذا العلاج الشافى من علاج يسـتعمله الإمام الصادق عليه السّلام لمداواة السياسة الأموية و العباسية المريضة فى روحها و دماغها؟ - اللهم لا-حتى إذا وجد المعين و النصـير، فكيف إذا لم يكن هذا و ذاك! و الظلم فى جميع أنواعه قبيح عقلا و شـرعا، و لم ينحصر الظلم فى الولاية بل هو عـام لجميع أنواع المعاملاـت التى تقع خلاف الحق، و فى ذلک أحاديث كثيرة. روى عن أبى حمزة عن أبى عبـد اللّه الصادق عليه السّـلام قال: «أما إنه ما ظفر بخير من ظفر بالظلم، أما إن المظلوم يأخـذ من دين الظالم أكثر مما يأخـذ الظالم من مال المظلوم» ثم قال: «من يفعل الشـر بالناس فلا ينكر الشر إذا فعل به» . و قال: «من أكل من مال أخيه ظلما و لم يرده إليه، أكل جذوة من النار يوم القيامة» . و كان يوصى أصـحابه بقوله: إياكم أن تعينوا على مسلم مظلوم فيدعو عليكم فيستجاب له فيكم، فإن أبانا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم كان يقول: إن دعوة المسـلم المظلوم مسـتجابة و ليعن بعضـكم بعضا، فإن أبانا رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان يقول: معونة المسلم خير و أعظم أجرا من صيام شهر، و اعتكافه فى المسجد الحرام، و قال: من أعان ظالما على مظلوم لم يزل اللّه عليه ساخطا حتى ينزع عن معونته. . . إلى غير ذلک من تعاليمه و إرشاداته.

عزة النفس:

هى إكرام المرء نفسه و وضعها فى مرتبتها، و رفعة المنزلة من السعادة التى

يجدها الشخص فی هذا العالم، و سبب رفعة المنزلة إنما هی الأعمال المختلفة التی يقوم بها المرء تبعا لما توحيه إليه نفس عزيزة تنزع إلی الرفعة و السمو، فيضع نفسه فی موضعها، و يباشر ما يليق بشأنه؛ و التعدی عن ذلک إذلال للنفس، و تعريض بکرامتها. و فی ذلک يقول الإمام الصادق عليه السّلام: لا ينبغی للمؤمن أن يذل نفسه. قيل و کيف يذل نفسه؟ قال: يدخل فی شیء يعتذر منه. و قد تقدم حثه لطلب المعاش خوفا من ذلة النفس و استهانتها، و کان فی کثير من تعاليمه التی ينهی بها عن ارتکاب الأمور الحقيرة التی تجعل الإنسان لا يشعر من نفسه بالفضيلة، فالرذائل کلها تذهب بعزة النفس، و الفضائل هی الأساس المبتنی لعزة النفس. فالکذب و الخيانة و الرياء و الغش و الطمع و الميل مع الهوی أمور تذهب بعزة النفس، و تبعد السعادة و تجلب الشقاء، کما أن العفة و القناعة و الأمانة و الصبر و الصدق و الوفاء تبعث فی النفس عزة و سموا، و قد أمر اللّه و رسوله بذلک. و لسنا بحاجة إلی إقامة الدليل علی مضار الجرائم، و أنها تجعل الإنسان ذليلا، و تهوی به إلی حضيض الهوان، کما أن الفضائل ترفع من قدره و يشعر بعزة نفسه، و قد جاء فی نظام الإسلام بيان الأمور التی توجب ذلک، فالسعادة کل السعادة فی الامتثال. فاللّه سبحانه و تعالی أراد لعباده العزة فی جميع تلک الأوامر، و التعاليم الأخلاقية، لذلک کان خلفاء النبی و حملة علمه هم مثال الإنسانية الکاملة، و قد نشروا تلک التعاليم القيمة التی يجب أن يتصف بها المؤمن. يقول الإمام الصادق عليه السّلام: «من برىء من الشر نال العز» . و يقول: «المؤمن له قوة فی دين، و حزم فی لين، و إيمان فی يقين، و حرص فی فقه، و نشاط فی هدی، و بر فی استقامة، و علم فی حلم، و کيس فی رفق، و سخاء فی حق، و قصد فی غنی، و تجمل فی فاقة، و عفو فی مقدرة، و طاعة فی نصيحة، و انتهاء فی شهوة، و ورع فی رغبة، و حرص فی جهاد، و صلاة فی شغل، و صبر فی شدة، فی الهزاهز و قور، و فی الرخاء شکور، لا يغتاب و لا يتکبر، و لا يقطع الرحم، و ليس

بواهن، و لا فظ و لا غليظ، و لا يسبقه بصره، و لا يفضحه بطنه، و لا يغلبه فرجه، و لا يحسد الناس، و لا يسرق، و لا يظلم» . و يقول عليه السّلام: «إنّ اللّه فوض إلى المؤمن أموره كلها، و لم يفوض إليه أن يكون ذليلا، أ ما تسمع اللّه تعالى يقول: وَ لِلّهِ اَلْعِزَّةُ وَ لِرَسُولِهِ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ [المنافقين:8] فالمؤمن يكون عزيزا و لا يكون ذليلا، إن المؤمن أعز من الجبل، الجبل يستقل منه (1)بالمعاول، و المؤمن لا يستقل من دينه شيء» . و كثير من الأخبار و الأحاديث الواردة في براءة المؤمن عن ذلة النفس التي هي من نتائج الجبن و خبائث الصفات، و تلزمه المهانة و عدم الاقتحام في معالي الأمور، و المسامحة في النهي عن المنكر و الأمر بالمعروف و الاضطراب بعروض أدنى شيء من البلايا و المخاوف، و أن يتصف بقوة الإرادة في السيطرة على نزعاته و ميوله.

قوة الإرادة:

5-إرادة الإنسان هي المحرك الأول لقوة العمل، و بقوة هذه الإرادة تكافح هذه الغرائز الشاذة، و تصادم الميول المتطرفة، و بقوة الإرادة تبتدئ الفضيلة و يتم التوازن، و قوى الإرادة هو الإنسان العظيم الذي يأتي بالعجائب إذا أحسن توجيه إرادته إلى أعمال الخير و محاسن الصفات، أما إذا توجه بها إلى أعمال الشر، فإنه يجر على نفسه نقصا آخر لا يقل خطرا عن ضعف الإرادة، و قد جمع الإمام الصادق قوة الإرادة في كلمته البليغة و هي قوله: «ما ضعف بدن عما قويت عليه النية» و قوة الإرادة عنصر سام يقوم عليه كيان الشخص، بل هي نتاج شخصية منظمة أحسن التنظيم، فالرجل ذو الإرادة القوية هو الذي يعرف طرق تحقيق ما يطلبه من الخير له و لأبناء جنسه، محكما عقله موجها قوته بكل إقدام و ثبات، و ان له مثلا أعلى ينظم طاقاته. و قد ورد في تعاليم أهل البيت عليهم السّلام ما يدل على مزيد من الاهتمام في تكوين هذه الشخصية القوية الإرادة، و إن كلمة الإمام الصادق عليه السّلام على قصرها فهي جامعة وافية لبيان قوة الإرادة.

1- 1) الجبل يستقل منه: من القلة، أي ينقص و يؤخذ منه.

و بهذا العرض الموجز نكتفى عن البحث هنا فى بقية المواضيع الهامة التى كان الإمام الصادق عليه السّلام يهتم بها و يبينها للمجتمع، فقد كان عليه السّلام يجهد فى توجيه الناس نحو الخير و السعادة و اتباع الحق ليخلق مجتمعا تتمثل فيه تعاليم الإسلام، و تتجسد فى سلوك أفراده تلك الآداب و النظم القيمة، و سيأتى فيما بعد بعض جوامع الكلم من أقواله الحكمية التى كان يلقيها فى مجالس وعظه و إرشاده و وصاياه لأصحابه. و ليس من الممكن استقصاء كل ما صدر عنه من حكم، و تلقى الناس عنه من مواعظ فإن له من التراث الفكرى ما يملأ عدة مجلدات. و من المؤسف له أن تلك التعاليم القيمة متفرقة فى بطون الكتب، و لو جمعت لكانت أكبر ثروة علمية للمسلمين، لأنه عليه السّلام قضى حياته فى نشر العلم، و بذل جهده فى إرشاد الناس و النصح لجميع أفراد الأمة. فتعاليمه هى القوانين الأخلاقية الصالحة لكل العصور و الجماعات، و الكفيلة لرقى الفرد و الأسرة، على نحو يرضاه العقل و يطمئن إليه الوجدان لأنها مستقاة من ينبوع الوحى، و مستمدة من التعاليم النبوية. و على أى حال فقد كان الإمام الصادق عليه السّلام حريصا على توجيه الأمة، يحاول تطهير النفوس من الرذيلة و تقويمها من اعوجاج الميول فى الغرائز، ليتعاونوا و يصبحوا بنعمة اللّه إخوانا متحابين متراحمين، لينالوا بذلك السعادة كما قرأنا من تعاليمه و ما نقرؤه بعد، فقد كان يؤدب أصحابه بآداب الإسلام، و يحرص على استقامتهم.

مراسلاته:

اشارة

كانت للإمام الصادق عليه السّلام مراسلات إلى مختلف الأقطار تتضمن نصائحه الثمينة يدعوهم إلى سبيل ربه، و كانت تهبط عليه أسئلة من البلدان النائية يسألونه إيضاح ما أشكل عليهم من أمور دينهم و دنياهم، و نرى من الخير التعرض لبعضها و إثبات البعض منها بقدر ما يسع المجال ليقف القارئ على صور مختلفة تمثل نواحى العظمة و عظيم حبه للخير.

رسالة لعبد اللّه النجاشی:

قال عبد اللّه بن سلیمان النوفلی (1): کنت عند جعفر بن محمد الصادق علیه السّلام فإذا بمولی لعبد اللّه النجاشی (2)ورد علیه، فسلم و أوصل إلیه کتابا ففضه و قرأه فإذا فیه: «بسم اللّه الرحمن الرحیم: أطال اللّه بقاء سیدی و جعلنی من کل سوء فداه، إنی بلیت بولایة الأهواز، فأری سیدی أن یحد لی حدا أو یمثل لی مثلا لأستدل علی ما یقربنی إلی اللّه عز و جل و إلی رسوله، إلی أن قال: فعسی أن یخلصنی اللّه بهدایتک و دلالتک، فإنک حجة اللّه علی خلقه، و أمینه فی بلاده، و لا زالت نعمته علیک» . فأجابه أبو عبد اللّه علیه السّلام: «بسم اللّه الرحمن الرحیم: حاطک اللّه بصنعه، و لطف بک بمنه، و کلأک برعایته فإنه ولیّ ذلک، إلی أن یقول: فإنی ملخص لک جمیع ما سألت عنه إن أنت عملت به و لم تجاوزه، رجوت أن تسلم إن شاء اللّه. أخبرنی أبی عن آبائه عن علی بن أبی طالب علیهم السلام عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم أنه قال: من استشاره أخوه المؤمن فلم یمحضه النصیحة سلبه اللّه لبه. و اعلم أنی سأشیر علیک برأی إن أنت عملت به تخلصت مما أنت متخوفه، و اعلم أن خلاصک و نجاتک من حقن الدم و کف الأذی من أولیاء اللّه، و الرفق بالرعیة، و التأنی و حسن المعاشرة، مع لین فی غیر ضعف و شدة فی غیر عنف. و مداراة صاحبک و من یرد علیک من رسله، و ارتق فتق رعیتک بأن توافقهم علی ما وافق الحق و العدل إن شاء اللّه. إیاک و السعاة و أهل النمائم فلا یلتزقن منهم بک أحد، و لا یراک اللّه یوما و لیلة و أنت تقبل منهم صرفا و لا عدلا فیسخط اللّه علیک، و یهتک سترک.

1- 1) عبد اللّه بن سلیمان النوفلی: روی عنه هشام بن یوسف و غیره و خرج له الترمذی فی صحیحه.

2- 2) عبد اللّه النجاشی أو ابن النجاشی هو أبو بجیر عبد اللّه بن غنیم الأسدی ولی الأهواز من قبل المنصور و قد اتصل بالإمام الصادق و سأله عن کثیر من المسائل و کان الإمام علیه السّلام یجیبه، قال النجاشی: إن هذا-یعنی الإمام الصادق-عالم آل محمد، و إن الذی کنت علیه باطل و إن هذا صاحب الأمر.

فأما من تأنس به و تستريح إليه و تلج أمورک إليه، فذلک الرجل الممتحن المستبصر الأمين الموافق لک على دينک. و إياک أن تعطى درهما أو تخلع ثوبا أو تحمل على دابة فى غير ذات اللّه لشاعر أو ممزح إلا أعطيت مثله فى ذات اللّه. و لتكن جوائزک و عطاياک و خلعک للقوّاد و الرسل، و الأحفاد و أصحاب الرسائل، و أصحاب الشرط و الأخماس، و ما أردت أن تصرفه فى وجوه البر و النجاح و الفتوة و الصدقة و الحج و المشرب و الكسوة التى تصلى بها و تصل بها، و الهدية التى تهديها إلى اللّه عز و جل و إلى رسوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من أطيب كسبک. يا عبد اللّه أجهد أن لا تكنز ذهبا و لا فضة، فتكون من أهل هذه الآية التى قال اللّه عز و جل: وَ اَلَّذِينَ يَكْنِزُونَ اَلذَّهَبَ وَ اَلْفِضَّةَ وَ لا يُنْفِقُونَها فِي سَبِيلِ اَللّهِ [التوبة:34]. و لا تستصغر من حلوى و فضل طعام تصرفه فى بطون خالية ليسكن بها غضب اللّه تعالى، و اعلم أنى سمعت من أبى يحدث عن آبائه عن أمير المؤمنين عليهم السلام أنه سمع النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يقول يوما: ما آمن باللّه و اليوم الآخر من بات شبعانا و جاره جائع، فقلنا: هلكنا يا رسول اللّه، فقال: من فضل طعامكم و من فضل تمركم و رزقكم، و خلقكم و خرقكم تطفئون بها غضب الرب. فخرج أمير المؤمنين عليه السّلام من الدنيا و ليس فى عنقه تبعة لأحد حتى لقى اللّه محمودا غير ملوم و لا مذموم، ثم اقتدت به الأئمة من بعده بما قد بلغكم لم يتلطخوا بشىء من بوائقها. . . يا عبد اللّه إياک أن تخيف مؤمنا فإن أبى محمدا حدثنى عن أبيه عن جده على بن أبى طالب عليهم السلام أنه كان يقول: «من نظر إلى مؤمن ليخيفه بها أخافه اللّه يوم لا ظل إلا ظله، و حشره فى صورة الذر لحمه و جسده و جميع أعضائه حتى يورد مورده» . ثم ذكر له عليه السّلام الأحاديث المتضمنة لمكارم الأخلاق و طيب الصفات التى يجب أن يسير عليها الوالى، و التى تضمن له النجاة إن عمل بها و سار على الجادة (1).

1- 1) البحار ج 17 ص 263، و [1]الوسائل [2]فى باب الولاية من أبواب التجارة.

و جاء إليه رجل من الأهواز فقال: يا أبا عبد اللّه إن فى ديوان النجاشى علىّ خراجا فإن رأيت أن تكتب له كتابا، فكتب إليه هذه الكلمة الموجزة: بسم اللّه الرحمن الرحيم: سرّ أخاك يسرك اللّه. فلما ورد الكتاب على النجاشى امتثل ذلک و أجاز الرجل و أكرمه و أسقط الخراج و قال له: هل سررتک؟ قال: نعم.

رسالته فى الصفات:

و كتب إليه عبد الملک بن أعين من العراق يخبره: أن قوما بالعراق يصفون اللّه بالصورة و بالتخطيط، فإن رأيت جعلنى اللّه فداک أن تكتب إلىّ بالمذهب الصحيح من التوحيد. فكتب إليه: سألت رحمک اللّه عن التوحيد و ما ذهب إليه من قبلک فتعالى اللّه الذى ليس كمثله شىء و هو السميع البصير، تعالى عما يصفه الواصفون المشبهون اللّه بخلقه المفترون على اللّه، فاعلم رحمک اللّه: أن المذهب الصحيح فى التوحيد ما نزل به القرآن من صفات اللّه جل و عز، فانف عن اللّه تعالى البطلان و التشبيه، فلا نفى و لا تشبيه، هو اللّه الثابت الموجود، تعالى اللّه عما يصفه الواصفون، و لا تعدوا القرآن فتضلوا بعد التبيان (1).

رسالته إلى جماعة من أصحابه:

و كتب إلى جماعة من أصحابه: اتقوا اللّه و كفوا ألسنتكم إلا من خير، إلى أن قال: و عليكم بالصمت إلا ما ينفعكم اللّه به فى آخرتكم و يأجركم عليه، و أكثروا من التهليل و التقديس، و التسبيح و الثناء على اللّه، و التضرع إليه و الرغبة فيما عنده من الخير، الذى لا يقدر قدره و لا يبلغ كنهه أحد، فاشغلوا ألسنتكم بذلک عما نهى اللّه عنه من أقاويل الباطل التى تعقب أهلها خلودا فى النار من مات عليها و لم يتب إلى اللّه و لم ينزع عنها. و كتب إلى جماعة منهم أيضا نقتطف منها: أما بعد فسلوا ربكم العافية، و عليكم بالدعة، و الوقار و السكينة و التنزه كما تنزه

1- 1) الكافى ج 1 ص 100. [1]

الصالحون منكم، إلى أن قال: و عليكم بحب المساكين المسلمين، فإن من حقرهم و تكبر عليهم فقد زل عن دين اللّه، و اعلموا أن من حقر أحدا من المسلمين ألقى اللّه عليه المقت، فاتقوا اللّه فى إخوانكم فإن لهم عليكم حقا أن تحبوهم فإن اللّه أمر نبيه بحبهم، فمن لم يحب من أمر اللّه بحبه فقد عصى اللّه و رسوله، و من عصى اللّه و رسوله و مات على ذلک مات من الغاوين. إياكم أن يبغى بعضكم على بعض فإنها ليست من خصال الصالحين، فإنه من بغى صير اللّه بغيه على نفسه، و صارت نصرة اللّه لمن بغى عليه، و من نصره اللّه غلب و أصاب الظفر من اللّه. إياكم أن يحسد بعضكم بعضا فإن الكفر أصله الحسد. إياكم أن تعينوا على مسلم مظلوم يدعو اللّه عليكم و يستجاب له فيكم، فإن أبانا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: إن دعوة المظلوم مستجابة. إياكم أن تشره نفوسكم إلى شىء مما حرم اللّه عليكم، فإن من انتهک ما حرم اللّه عليه حال اللّه بينه و بين الجنة.

وصاياه:

اشارة

ليس من الغريب أن نرى كثيرا من علماء الأمة يغتنمون فرصة الاتصال بالإمام الصادق و يطلبون منه أن يزودهم بوصاياه التى هى أثمن شىء عندهم، لأنهم يجدون فيها إكمال نقص، و توجيها للخير و السعادة، و قد وجدوا فيه شخصية إسلامية قد طبعت على الخير و البر، فهو يتوخى لهم السعادة و يقيم لهم الحجج الواضحة و البراهين اللائحة، فهو من أهل بيت لا تجهل منزلتهم، و لا تنكر مكانتهم، و هم أولى بتبليغ الأحكام و هداية الأنام، مهما كثرت عوامل المعارضة و وقفت الصعوبات فى طريق الوصول إلى الغاية. و الإمام الصادق فريد عصره و وحيد زمانه لا يلحق أثره و لا يبلغ شأوه، فلذلک نرى التفاف الأمة حوله و انتهالهم من تعاليمه، و حرصهم على حصول تلک الوصايا الثمينة و التعاليم القيمة. هذا سفيان الثورى و هو من علماء الأمة يتردد على الإمام و يطلب منه أن يوصيه بما ينفعه، ثم يستزيده مرة بعد أخرى.

و هـذا أبو حنيفـة يغتنم الحضور عنده و يصـغى لوصاياه عند ما قدم إلى المدينة، و كذلک فى الكوفة يوم دخلها الإمام الصادق، كما تحدث بـذلک كتب مناقب أبى حنيفـة و غيرها. و هـذا الإمام مالک يلازم صـحبته و يرافقه و يتزود منه و كثير من علماء الأمة كانوا يغتنمون فرصـة الحضور عنده ليسـمعوا منه و ينتفعوا بوصاياه، لأنهم يطلبون الخير لأنفسـهم و للأمة. و قد أكثر سـفيان الثورى لذكر تلک الوصايا و نشرها للملإ و لا يسـتبعد أن يكون ذلک هو السـبب فى مطاردته من قبل السلطان، بعد أن فشلت فى محاولتها لاستمالته حتى مات مغضوبا عليه من قبل ولاة الجور. و كان حفص بن غياث و هو أحـد الأعلام يطلب من الإمام أن يوجهه و يزوده بوصاياه، و قـد احتفظ التاريـخ بكثير من ذلک. و على كل حال فإن وصايا الإمام الصادق كثيرة و نقتصر على القليل منها.

وصيته لحفص بن غياث:

و قد جاء فى وصـيته لحفص بن غياث (1)قوله: «إن قـدرتم أن لاـ تعرفوا فـافعلوا، و ما عليک إن لـم يثن الناس عليک، و ما عليک أن تكون مـذموما عند الناس إذا كنت عند اللّه محمودا» إلى أن قال: «إن قدرت أن لا تخرج من بيتک فافعل، فإن عليک فى خروجک أن لا تغتاب و لا تكذب و لا تحسد، و لا ترائى و لا تتصنع، و لا تداهن. . .» (2).

وصيته لسفيان الثورى:

الوقوف عنـد كل شـبهة خير من الاقتحام فى الهلكـة، و ترک حديث لـم تروه أفضل من روايتک حديثا لـم تحصه، إن على كل حق حقيقة، و على كل صواب نورا، فما وافق كتاب اللّه فخذوه، و ما خالفه فدعوه (3).

---

1 - 1) حفص بن غيـاث بن طلـق بن معاويـة النخعى المتـوفى سـنة 194 ه-أحـد الأعلام [1]روى عن الإمـام الصادق [2]خرج حديثه أصحاب الصحاح الستة.

2- 2) الوسائل ج 2 باب الجهاد. [3]

3- 3) تاريخ اليعقوبى ج 3 ص 115. [4]

و قال نصر بن كثير (1): دخلت أنا و سفيان الثورى على جعفر بن محمد الصادق عليه السّلام فقلت: إنى أريد البيت فعلمنى شيئا أدعو به، فقال: إذا بلغت البيت الحرام فضع يدک على الحائط ثم قل: يا سابق الفوت يا سامع الصوت يا كاسى العظام لحما بعد الموت ثم ادع بما شئت. فقال له سفيان شيئا لم أفهمه. فقال: يا سفيان إذا جاءک ما تحب فأكثر من الحمد للّه، و إذا جاءک ما تكره فأكثر من لا حول و لا قوة إلا ـ باللّه، و إذا استبطأت الرزق فأكثر من الاستغفار. و لقيه مرة فقال: يا ابن رسول اللّه أوصنى. قال: يا سفيان لا مروة لكذوب، و لا أخ لملول، و لا ـ راحة لحسود، و لا سؤدد لسيّئ الخلق. فقال: يا ابن رسول اللّه زدنى، قال: يا سفيان ثق باللّه تكن مؤمنا، و ارض بما قسم اللّه لک تكن غنيا، و أحسن مجاورة من جاورک تكن مسلما، و لا تصحب الفاجر يعلمک من فجوره، و شاور فى أمرک الذين يخشون اللّه عز و جل. فقال: يا ابن رسول اللّه زدنى، فقال: يا سفيان من أراد عزا بلا عشيرة و غنىّ بلا مال و هيبة بلا سلطان فلينتقل من ذل معصية اللّه إلى عز طاعته. و قال سفيان للصادق مرة: لا أقوم حتى تحدثنى. قال له: أنا أحدثک و ما كثرة الحديث لک بخير يا سفيان، إذا أنعم اللّه عليک بنعمة فأحببت بقاءها و دوامها، فأكثر من الحمد و الشكر عليها فإن اللّه عز و جل قال: لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ [إبراهيم:7] و إذا استبطأت الرزق فأكثر من الاستغفار، فإن اللّه تعالى قال فى كتابه: اِسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كانَ غَفّاراً يُرْسِلِ اَلسَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً. وَ يُمْدِدْكُمْ بِأَمْوالٍ وَ بَنِينَ وَ يَجْعَلْ لَكُمْ جَنّاتٍ وَ يَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهاراً [نوح: 10-12]يا سفيان إذا أحزنک أمر من سلطان أو غيره، فأكثر من لا حول و لا قوة إلا باللّه، فإنها مفتاح الفرج و كنز من كنوز الجنة. فعقد سفيان بيده و قال: ثلاث و أى ثلاث (2).

وصيته لعبد اللّه بن جندب:

يا ابن جندب إنما المؤمنون الذين يخافون اللّه، و يشفقون أن يسلبوا ما أعطوا من الهدى، فإذا ذكروا اللّه و نعماءه و جلوا و أشفقوا، و إذا تليت عليهم آياته، زادتهم إيمانا

1- 1) سيأتى ذكره فى رواة حديث الصادق.

2- 2) حلية الأولياء ج 3 ص 193.

الهـدی، فإذا ذکروا اللّه و نعماءه و جلوا و أشـفقوا، و إذا تلیت علیهم آیاته، زادتهم إیمانا مما أظهره من نفاذ قـدرته، و علی ربهم یتوکلون. یا ابن جنـدب یهلک المتکل علی عمله، و لا ینجو المجترئ علی الـذنوب الواثق برحمة اللّه-قال عبد اللّه بن جندب: فمن ینجو؟ قال: الذین هم بین الخوف و الرجاء کأن قلوبهم فی مخلب طائر شوقا إلی الثواب و خوفا من العقاب. ویل للساهین عن الصلاة، النائمین فی الخلوات، المسـتهزئین باللّه فی الفترات، أولئک الـذین لا خلاق لهم فی الآخرة، و لا یکلمهم اللّه یوم القیامة و لهم عذاب ألیم. یا ابن جندب أحبب فی اللّه، و أبغض فی اللّه، و اسـتمسک بالعروة الوثقی، و اعتصم بالهدی یقبل عملک. . و خذ حظک من آخرتک، و لا تکن بطرا فی الغنی، و لا جزعا فی الفقر، و لا تکن فظا غلیظا یکره الناس قربک، و لا تکن واهیا یحقرک من عرفک، و لا تشار (1)من فوقک، و لا تسخر بمن هو دونـک، و لا تنازع الأمر أهله، و لا تطع السـفهاء. یا ابن جنـدب صل من قطعک، و أعط من حرمک، و أحسن إلی من أساء إلیک، و سـلّم علی من سـبک، و أنصف من خاصـمک، و اعف عمن ظلمک کما أنک تحب أن یعفی عنک. یا ابن جنـدب لا تتصـدقن علی أعین الناس یزکوک، فإنک إن فعلت ذلک فقـد اسـتوفیت أجرک، و لکن إذا أعطیت بیمینک فلا تطلع علیها شـمالک، فإن الذی تتصدق له سـرا یجزیک علانیة قد علم ما ترید (2). و قال علیه السّلام لأصـحابه: لا یتکلم أحدکم بما لا یعنیه، و لیدع کثیرا فیما یعنیه حتی یجد له موضـعا، فرب متکلم فی غیر موضـعه جنی علی نفسه بکلامه و لا یمارین أحدکم سفیها و لا حلیما، فإنه من مارای حلیما أقصاه، و من مارای سفیها أرداه، و اذکروا أخاکم إذا غاب عنکم بأحسن ما تحبون أن تذکروا به إذا غبتم عنه، و اعملوا عمل من یعلم أنه مجازی بالإحسان مؤاخذ بالإجرام.

1- 1) یقال شاره عابه و ازدری به.

2- 2) تحف العقول ص 73-75. [1]

إلى غير ذلک من وصاياه الجليلة لخواصه و أصحابه و أهل بيته و غيرهم (1). مما هو جدير بأن يجعل دستورا لنظام الحياة، فقد كان يبذل جهده لتطهير النفوس من الأرجاس الطبيعية البشرية، و مكافحة الشهوات البهيمية، و اتخاذ أنجع الوسائل لتحقيق غرضه السامى، فكان كلامه يسيل على سامعيه رقة و عذوبة تحكم على مستمعه الاستزادة لما يبدو من خلاله صورة من التعاليم الإسلامية الحقة، يلقيها مخلص قد توخى الخير للمتعلم، و إبداء النصيحة الخالصة التى لا تشوبها شائبة، فهو ينقشها على صفحات قلوب الخلص منهم، فلا تنمحى و إن كثرت عوامل المحو. و ها نحن ذا نقدم من نصائحه نبذا قصيرة هى جوامع الكلم و آيات بينات فى الأدب و البلاغة و فرقان حكيم جاء بالفلسفة الخلقية.

جوامع الكلم:

*اتقوا اللّه و كونوا إخوة بررة متحابين فى اللّه، متواصلين، متراحمين، تزاوروا و تلاقوا. *اتقوا الظلم فإن دعوة المظلوم تصعد إلى السماء. *من لم يهتم بأمور المسلمين فليس بمسلم، إن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: من أصبح لا يهتم بأمور المسلمين فليس منهم، و من سمع رجلا- ينادى يا للمسلمين فلم يجبه فليس بمسلم. *صدقة يحبها اللّه: إصلاح بين الناس إذا تفاسدوا، و تقارب بينهم إذا تباعدوا. *المؤمن من طاب مكسبه، و حسنت خليقته، و صحت سريرته، و أنفق الفضل من ماله، و أمسک الفضل من كلامه، و كفى الناس شره، و أنصف الناس من نفسه. *المؤمن حسن المعونة. خفيف المئونة، جيد التدبير لمعاشه، و لا يلسع من جحر مرتين. *اجعلوا أمركم هذا للّه، و لا تجعلوه للناس، فإنه ما كان للّه فهو للّه، و ما كان للناس فلا يصعد إلى اللّه.

1- 1) تجد الكثير منها فى الوسائل و الكافى و حلية الأولياء و تحف العقول و غيرها.

*إياكم و هؤلاء الرؤساء الذين يترأسون فإنه ما خفقت النعال خلف رجل إلا هلک و أهلک. *لا تمارينّ حليما و لا سفيها، فإن الحليم يقليک، و السفيه يؤذيک. *إياكم و الخصومة، فإنها تشغل القلب، و تورث النفاق، و من زرع العداوة حصد ما بذر، و من لم يملک غضبه لم يملک عقله. *كان أبى يقول: أى شىء أشد من الغضب؟ إن الرجل ليغضب فيقتل النفس التى حرم اللّه، و يقذف المحصنة. *من كافأ السفيه بالسفه فقد رضى بما أوتى إليه حيث احتذى مثاله. *من عذر ظالما بظلمه، سلط اللّه عليه من يظلمه، فإن دعا لم يستجب له، و لم يؤجره اللّه على ظلامته. *احذروا أهواءكم كما تحذرون أعداءكم، فليس شىء أعدى للرجال من اتباع أهوائهم، و حصائد ألسنتهم. *من ساء خلقه عذب نفسه. *العامل على غير بصيرة كالسائر على غير الطريق، لا تزيده سرعة السير إلا بعدا. *من أكرمک فأكرمه، و من استخف بک فأكرم نفسک عنه. *إياكم و المزاح فإنه يذهب بماء الوجه. *لا شىء أحسن من الصمت، و لا عدو أضر من الجهل، و لا داء أدوى من الكذب. *المؤمن مألوف، و لا خير فيمن لا يألف و لا يؤلف. *العدل أحلى من الماء يصيبه الظمآن. *ما أوسع العدل و إن قل. *من كف يده عن الناس، فإنما يكف يدا واحدة و يكفون عنه أيد كثيرة. *من كان له عقل كان له دين و من كان له دين دخل الجنة. *الفقهاء أمناء الرسل فإذا رأيتم الفقهاء قد ركبوا إلى السلاطين فاتهموهم.

*إذا بلغک عن أخیک شیء یسوؤک فلا تغتم، فإن کان کما یقول کانت عقوبة عجلت، و إن کان علی غیر ما یقول کانت حسنة لم تعملها. *لا یتم المعروف إلا بثلاثة: بتعجیله، و تصغیره، و ستره. *بنی الإنسان علی خصال، فمما بنی علیه أنه لم یبن علی الخیانة و الکذب. *ثلاثة تورث المحبة: الدین، و التواضع، و البذل. *من بریء من ثلاث نال ثلاثة: من بریء من الشر نال العز، و من بریء من الکبر نال الکرامة، و من بریء من البخل نال الشرف. *ثلاثة مکسبة للبغضاء: النفاق، و العجب، و الظلم. *آفة الدین الحسد، و العجب، و الفخر. *إن المؤمن یغبط و لا یحسد. *اتقوا اللّه و اعدلوا فإنکم تعیبون علی قوم لا یعدلون. *ما قدست أمة لم یؤخذ لضعیفها من قویها بحقه. *ویل لقوم لا یدینون اللّه بالأمر بالمعروف و النهی عن المنکر. *ثلاثة یحجزن عن طلب المعالی: قصر الهمة، و قلة الحیاء، و ضعف الرأی. *ثلاثة یجب علی کل إنسان تجنبها: مقارنة الأشرار، و محادثة النساء، و مجالسة أهل البدع. *ثلاثة أشیاء یحتاج إلیها الناس طرا: الأمن، و العدل، و الخصب. *ثلاثة تکدر العیش: السلطان الجائر، و الجار السوء، و المرأة البذیة. *الصلة و حسن الجوار یعمران الدیار و یزیدان فی الأعمار. *لیس منا من لم یحسن مجاورة جاره. *من رزق ثلاثا نال الغنی الأکبر: القناعة بما أعطی، و الیأس مما فی أیدی الناس، و ترک الفضول. *لیس بحازم من لا ینظر فی العواقب، و النظر فی العواقب تلقیح القلوب. *إذا رأیتم العبد متفقدا لذنوب الناس ناسیا لذنوبه، فاعلموا أنه قد مکر به.

*أقصـر نفسک عما یضرها من قبل أن تفارقک، واسع فی فکاکها کما تسعی فی طلب معیشتک، فإن نفسک رهینة بعملک. *تعوذوا باللّه من سطوات اللیـل و النهـار، قیل: و ما هی؟ قال الأخـذ علی المعاصـی. *لا تشاور أحمقا، و لا تسـتعن بکـذاب، و لا تثق بمودة الملوک: فإن الکـذاب یقرب لک البعید، و یبعد لک القریب، و الأحمق یجهد لک نفسه، و لا یبلغ ما ترید، و الملوک أوثق ما کنت به خذلک، و أوصـل ما کنت له قطعک. *بطانة السـلطان ثلاث طبقات: طبقة موافقة للخیر، و هی برکة علی السـلطان، و طبقة غایتها المحاماة علی ما فی أیدیها، فتلک لا محمودة و لا مذمومة، بل هی إلی الذم أقرب، و طبقة موافقة للشـر و هی مشومة مذمومة علیها و علی السـلطان. *لا یسـتغنی أهل کل بلد عن ثلاث، فإن عدموا ذلک کانوا همجا: فقیه عالم ورع، و أمیر خیر مطاع، و طبیب بصـیر ثقة. *الاخوان ثلاثة: مواس بنفسه، و آخر مواس بماله، و هما الصادقان فی الاخاء، و آخر یأخـذ منک البلغة و یریدک لبعض اللذة، فلا تعده من أهل الثقة. *کفی بالحلم ناصـرا. *ما من عبـد کظم غیظا إلا زاده اللّه عزا فی الـدنیا و الآخرة. *ما یقدم المؤمن علی اللّه عز و جل بعمل بعد الفرائض أحب إلی اللّه تعالی من أن یسع بخلقه. *صـنائع المعروف و حسن البشـر یکسبان المحبة و یدخلان الجنة. *من زرع العداوة حصد ما بذر. *من دخله العجب هلک. *العجب کـل العجب ممن یعجب بعمله، و لا یـدری بما یختم له. *ما من رجل تکبر أو تجبر إلا لذلـة وجـدها فی نفسه. *إذا کان الزمان زمان جور و أهله أهل غدر، فالطمأنینة إلی کل أحد عجز.

*إذا أردت أن تعلم صحة ما عند أخيک، فأغضبه فإن ثبت لک على المودة فهو أخوک و إلا فلا. *لا تثقن بأخيک كل الثقة، فإن سرعة الاسترسال لا تقال. *المؤمن حسن المعونة خفيف المئونة جميل التدبير لمعيشته، و لا يلسع من جحر مرتين. *من صحة يقين المسلم أن لا يرضى الناس بسخط اللّه، و لا يلومهم على ما لم يؤته اللّه، فإن الرزق لا يسوقه حرص حريص و لا يرده كراهية كاره. *خف اللّه كأنک تراه، و إن كنت لا تراه فإنه يراک، و إن كنت ترى أنه لا يراک فقد كفرت، و إن كنت تعلم أنه يراک ثم برزت له بالمعصية فقد جعلته من أهون الناظرين إليک. *أيما أهل بيت أعطوا حظهم من الرفق فقد وسع اللّه عليهم فى الرزق، و الرفق لا يعجز عنه شىء، و التبذير لا يبقى معه شىء. *اطلبوا العلم و تزينوا معه بالحلم و الوقار، و لا تكونوا علماء جبارين فيذهب باطلكم بحقكم. *إنما المؤمن إذا غضب لم يخرجه غضبه من حق، و إذا رضى لم يدخله رضاه فى باطل. *اتقوا اللّه و لا يحسد بعضكم بعضا. *ما ذئبان ضاريان فى غنم قد غاب عنها رعاتها بأفسد فيها من حب المال و الشرف فى دين المسلم. *ثلاثة هم أقرب الخلق إلى اللّه يوم القيامة: رجل لم تدعه قدرته فى حال غضبه، أن يحيف على من تحت يديه. و رجل مشى بين اثنين فلم يمل مع أحدهما على الآخر، و رجل قال الحق فيما له و عليه. *للمتكلف ثلاث علامات: ينازع من فوقه، و يقول ما لم يعلم، و يتعاطى ما لا ينال. *اتقوا اللّه فى الضعيفين: اليتيم، و النساء.

*و قال للمفضل بن زيد: أنهاک عن خصلتين فيهما هلک الرجال: أن تدين اللّه بالباطل، و تفتی الناس بما لا تعلم. *لا يطمعن ذو الكبر فی الثناء الحسن، و لا الخب فی كثرة الصديق، و لا السيئ الأدب فی الشرف، و لا بالبخيل فی صلة الرحم، و لا المستهزئ فی صدق المودة، و لا- القليل الفقه فی القضاء، و لا المغتاب فی السلامة، و لا الحسود فی راحة القلب، و لا المعاقب علی الذنب الصغير فی السؤدد، و لا القليل التجربة المعجب برأيه فی رئاسة. *إن السفه خلق لئيم يستطيل علی من دونه و يخضع لمن فوقه، و إياک و ما تعتذر منه. *طبعت القلوب علی حب من أحسن إليها و بغض من أساء إليها. *من غضب عليک ثلاث مرات فلم يقل فيک سوءا اتخذه خلا، و من أراد أن تصفو له مودة أخيه فلا يمارينه و لا يمازحنه و لا يعده ميعادا فيخلفه. *لا تخالطن من الناس خمسة: الأحمق، فإنه يريد أن ينفعک فيضرک، و الكذاب فإن كلامه كالسراب يقرب منک البعيد و يباعد منک القريب، و الفاسق فإنه يبيعک بأكلة، و البخيل فإنه يخذلک فی وقت أحوج ما تكون إليه، و الجبان فإنه يسلمک. *ثلاثة تجب لهم الرحمة: غنی افتقر، و عزيز قوم ذل، و عالم تلاعب به الجهال. *إذا أراد اللّه برعية خيرا، جعل لهم سلطانا رحيما و وزيرا عادلا- *إنما المؤمنون إخوة بنو أب و أم، و إذا ضرب علی رجل منهم عرق سهر له الآخر. *قال حفص بن أبی البختری: كنت عند أبی عبد اللّه الصادق و دخل عليه رجل، فقال لی: أ تحبه؟ قلت: نعم، قال: و لم لا تحبه؟ و هو أخوک و شريکک فی دينک، و عونک علی عدوک، و رزقه علی غيرک. *الانتقاد عداوة، و قلة الصبر فضيحة و إفشاء السر سقوط.

*إياكم و النظرة، فإنها تزرع فى القلب الشـهوة و كفى بها لصاحبها فتنة. طوبى لمن جعل بصره فى قلبه و لم يجعل بصره فى عينه. هذا قليل من كثير فى هذا الباب فإن تراثه الفكرى و تعاليمه القيمة لا يمكننا الإحاطة بها الآن. و من الخير للعلم و الإنسانية أن يضاعف العاملون منا جهودهم لجمع المتفرق من ذلک التراث الثقافى الفكرى من مظانه، و هو كثير حافل. و لنا فى تعاليمه كفايـة على إيضاح ما كان يبـذله من النصح لأفراد الأمة، و يجهد نفسه فى معالجة النفوس من أمراض فواتن الدنيا، و غريزة الطمع التى تحول خير المجتمع إلى شر يسلب راحة الضـمير، و يودع فيه القلق و النكـد، و يفتـح باب الظلم و التباغض. هـذا من الناحيـة الأخلاقية و التعاليم الإسـلامية. أما ما يتصل بناحية العلوم من تفسـير و فقه و حديث و حكمة و كلام و غيرها، فليس هذا محل التعرض لذلک، و سـتقف على البعض منه فى مطاوى البحث، عنـد التعرض لآرائه و فقهه فى الأجزاء القادمة إن شاء اللّه. و سـيأتى-إن شاء اللّه-بيان لبعض حكمه و مواعظه التى كان يلقيها على مسامع طلاب العلم، و وفود الأقطار الإسـلامية. فإنه عليه السّلام لم يـدخر نصـحا، و لم يأل جهـدا فى توجيه النصـح لكل أحد، فتجد له فى كل مناسـبة قولا و فى كل مجال حكمـة، و لكل مشـكلة حلا. و قـد تضـمنت كتب الأخلاق، و الحـديث، و الأدب الشـىء الكثير من تلک النصائـح و الحكم و المواعظ التى كان يتلقاها منه كبار علماء عصـره الـذين قصدوه على اختلاف مراتبهم، فانتهلوا من معارفه، و كان ذلک فخرا و اعتزازا لهم.

الإمام الصادق

اشارة

تلامذته و رواة حديثه

الأمويون و حديث أهل البيت:

لا بـد لنا و نحن فى معرض الحديث عن مدرسة الإمام الصادق عليه السّلام من أن نتعرف على بعض المنتمين إليها و المتخرجين منها، و هم من حملـة العلم و رجـال الفكر الـذين تركوا للأجيـال أهم ما يخلفه العقل الإنسانى من إنتاج و إبـداع. و ليس من شك فى أن مدرسـة الإمام الصادق عليه السّلام كانت تمتاز بطابع الانفصال عن الدولـة، فى عدم الخضوع لتوجيهات الحكام، و السـير فى ركابهم، فلم تتعاون معهم، و لـم تسانـد سـلطاتهم، لأنها وجـدتهم بعيدين كل البعد عن واقع الحكم الإسـلامى، الذى يضـمن تقدم الأمة فى جميع مجالات الحياة، و يتكفل سـعادة المجتمع فى جميع الظروف. و بهذا فقد قاومت السـلطة انتشار ذكر آل محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و منعت الناس عن الاتصال بهم و الرواية عنهم. و رغم ذلک كله فقد اسـتطاعت مدرسة الإمام الصادق عليه السّلام أن تجتاز تلک العقبات، فكان لها السـبق فى نشـر العلم، و الفضل فى تحرير الفكر الإسـلامى. و من الجـدير بالـذكر أن نشـير إلى الفرق بين تـدخل الدولـة الأموية فى معارضـتها لانتشار ذكر آل محمد صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم و بين تدخل الدولة العباسية فى ذلک. فلم يكن الأمويون يتخذون ألاعيب سياسـتهم من وراء الستر و يعارضون أهل البيت من طريق الخفاء و التكتم كما فعلته الدولة العباسـية فى أول عهدها، بل كان أمرهم ظاهرا لا خفاء عليه، و كان أبرز شـىء عنـدهم هو العـداء لأهل البيت و عقاب أنصارهم، فقد كانوا يصـبون جام غضـبهم على من يروى عن أهل البيت أو ينقل عنهم

فتوى، لأن ذلک يمس شئون الدولة، فأبعدوا الفقهاء الذين يقفون لجانب الحق، و لا يراعون جانب أغراض الدولة و مصالحها الخاصة، و قربوا إليهم من جعلوه قنطرة للوصول إلى تلک الأغراض، كما أنهم اتخذوا مواليهم للفتيا و رفعوا من شأنهم: كسليمان بن موسى الأشدق مولاهم الأموى المتوفى سنة 119 ه-كان مفتى دمشق و عالمها. و عبد اللّه بن ذكوان المتوفى سنة 130 ه-مولاهم الأموى أحد الرواة عن أبى هريرة. قال الليث: رأيت أبا الزناد و خلفه ثلاثمائة طالب، و قال الذهبى: ولى بعض أمور بنى أمية. و غيرهم من الموالى الذين شجعهم الأمويون، و جعلوا لهم منزلة فى المجتمع و يدا فى التشريع الإسلامى. منهم: نافع مولى ابن عمر المتوفى سنة 117 ه-. و كان ابن عمر يقول له: اتق اللّه ويحک يا نافع و لا تكذب علىّ كما كذب عكرمة على ابن عباس (1). و سليمان بن يسار أخو عطاء المتوفى سنة 107 ه- جعلوه للفتيا فى المدينة. و مكحول مولى بنى هذيل المتوفى سنة 113 ه-كان عالم دمشق و مرجع الفتيا. و أبو حازم سلمة بن دينار الأعرج مولى بنى مخزوم المتوفى سنة 140 ه-، كان عالم المدينة و مفتيها. و سليمان بن طرخان المتوفى سنة 143 ه-. و إسماعيل بن خالد البجلى مولاهم المتوفى سنة 145 ه-. و عكرمة مولى ابن عباس المتوفى سنة 105 ه-. و ناهيک ما لعكرمة من منزلة لأحاديثه و أفاعيله، و غيرهم مما يطول ذكرهم. و على كل حال فقد كان الأمويون يقرّبون من يرون فيه أهلية لتنفيذ أغراضهم، و لذلک غضبوا على سعيد بن المسيب المتوفى سنة 93 ه-و ضربوه و شهروه فى المدينة، لأنه خالف غرض الدولة، و لقى غيره من العلماء تنكيلا فى سبيل ذلک. و خلاصة القول أن الأمويين كان اتجاههم للسياسة و قد ابتعدوا عن شئون

1- 1) تهذيب التهذيب ج 7 ص 267. [1]

الـدين، فكان من سياسـتهم أن يقبلوا قول كل أحـد و لا يسـمعون لأهل البيت قولا، و يعاقبون من يذكرهم فى ذلک. كما يحدثنا الإمام أبو حنيفة عند ما دعى ليسأل عن مسألة فقهية من قبل أحد الأمويين. قال أبو حنيفة: فاسترجعت فى نفسـى لأنى أقول فيها بقول على رضـى اللّه عنه و أدين اللّه به، فكيف أصنع؟ قال ثم عزمت أن أصدقه و أفتيه بالدين الذى أدين اللّه به، و ذلک أن بنى أمية كانوا لا يفتون بقول على، و لا يأخـذون به، إلى أن يقول: و كان على لا يذكر فى ذلک العصـر باسـمه، و كانت العلامة بين المشايخ أن يقولوا: قال الشـيخ. و كان الحسـن البصـرى يقول فيه: أخبرنـا أبو زينب (1). و يعطينا الحسن البصـرى (2)صورة جليـة عن ذلک الاهتمام و الجهـد الـذى بذله الأمويون فى معارضة حديث أهل البيت، فقد كان الحسن مع قربه من الدولة و عظيم منزلته فى المجتمع إذا أراد أن يحدث عن على عليه السّلام يقول: قـال أبو زينب، و يظهر الابتعاد عن على عليه السّلام حتى ظهر منه ما يوجب الإنكار عليه فقال له أبان بن عياش: ما هـذا الـذى يقال عنک أنک قتلته فى علىّ عليه السّلام؟ ! فقال: يا ابن أخى أحقن دمى من هؤلاء الجبابرة-يعنى بنى أميـة-لو لا ذلک لسال بى أعشب (3). و لسنا بحاجـة إلى إقامـة الـدليل على عظيم اهتمام الأمويين فى معارضـة حـديث أهل البيت و خصومتهم لهم و معاقبـة من يتقرب إليهم. يقول الشعبى: ما ذا لقينا من آل أبى طالب؟ إن أحببناهم قتلنا، و إن أبغضناهم دخلنا النار (4). و قد برهن الأمويون على ذلک بما احتفظ التاريخ بكثير منه. و على أى حال فقد اشتدت المحنة على المسلمين، و أصبح الأكثر يجازف

1- 1) مناقب أبى حنيفة للمكى ج 1 ص 171.

2- 2) هو أبو سـعيد الحسن بن أبى الحسن البصـرى مولى أم سلمة المتوفى سنة 110 ه-كان مناصـرا لبنى مروان، و دولتهم مدينة له بقوة دفاعه كما هى مدينـة للحجاج بقوة بطشه حتى قيل: (لو لا لسان الحسن البصـرى و سـيف الحجاج لوئـدت الدولـة المروانيـة فى مهدها و أخذت من وكرها) .

3- 3) الحسن البصرى لأبى الفرج بن الجوزى ص 7. و ابن أبى الحديد ج 1 ص 396. [1]

4- 4) عيون الأخبار لابن قتيبة ج 2 ص 112. [2]

بحياته لاختراق تلك الخطوط، و اجتياز تلك الحدود، مما أوجب سخط الدولة عليهم. و لما فسح المجال بضعف الدولة الأموية و وجد المسلمون بعض الحرية، ازدحموا على أبواب بيت النبوة لأخذ التعاليم و رواية الحديث، فكانت للإمام الباقر عليه السّلام حلقة فى المدينة لا تعقد أى حلقة علمية إلا بعد انتهائه من الحديث و كذا فى مكة. و قد احتفظ الحجاز بولائه لأهل البيت و المدينة بصورة خاصة، و كان الناس بأشد ما يكونوا من الحاجة إلى الأخذ من أهل المدينة، لقرب عهدهم من الرسول و فيها علماء الصحابة، و هم أقوى الناس فى الحديث، حتى أن أكثر الصحابة الذين كانوا فى سائر الأقطار يشدون الرحال إلى المدينة ليتأكدوا من صحة ما يسمعون من الحديث. و كثرت الهجرة إلى دار الهجرة، و تتابعت الوفود من أطراف البلاد و نشطت الحركة العلمية فى عصر الإمام الصادق عليه السّلام و رفعت الموانع، فكان بيته جامعة إسلامية يؤمها طلاب العلم و رواد الحقيقة، فكان عدد المنتمين لمدرسته أربعة آلاف رجل. و قد أفرد الحافظ أبو العباس أحمد بن عقدة المتوفى سنة 230 ه، فيهم كتابا ذكر فيه أربعة آلاف رجل ممن روى الحديث عن الصادق و ذكر منهم الشيخ الطوسى المتوفى سنة 460 هما يزيد على ثلاثة آلاف. و قال الشيخ نجم الدين فى المعتبر: «روى عن الصادق أربعة آلاف رجل و برز بتعليمه من الفقهاء الأفاضل جمّ غفير إلى أن يقول: حتى كتبت من أجوبة مسائله أربعمائة مصنف لأربعمائة مصنف، سموها بالأصول» (1). و ليس من الغريب أن يترأس الإمام الصادق تلك الحركة العلمية فهو من أهل بيت النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و كان يتصف بصفات الكمال التى بعثت الإعجاب فى نفوس الأمة على

1- 1) انظر «الإمام الصادق و المذاهب الأربعة» الجزء الأول. [1]

اختلافهم فی الآراء و المعتقدات. و له القدم الراسخ و الباع الطویل فی کل علم، و النظر الثاقب فی جمیع العلوم، فاشتهر ذکره فی الحدیث و سائر العلوم و الفنون، حتی وجد فی الکوفة تسعمائة شیخ کلّ یقول: حدثنی جعفر بن محمد.

بعض المؤلفین من تلامذته:

و قد ألف تلامذته المختصون به کتبا فی سائر العلوم و الفنون. منهم: 1-أبان بن تغلب الربعی أبو سعید الکوفی المتوفی سنة 141 ه. له کتاب (معانی القرآن) کتاب (القراءات) کتاب من الأصول علی مذهب الشیعة (1). 2-علی بن یقطین المتوفی سنة 184 ه. له کتاب ما سئل عنه الإمام الصادق من أمور الملاحم (2). 3-أبو حمزة ثابت بن أبی صفیة الثمالی المتوفی سنة 150 ه. له کتاب فی التفسیر، و کان من تلامذة الباقر و الصادق. (3)4-أبو بصیر یحیی بن القاسم المتوفی سنة 150 هو هو من تلامذة الباقر و الصادق علیه السّلام له تفسیر القرآن، ذکره ابن الندیم. 5-علی بن حمزة: أبی الحسن الکوفی البطائنی من تلامذة الإمام الصادق. له کتاب جامع أبواب الفقه، ذکره النجاشی. 6-إسماعیل بن أبی خالد محمد بن مهاجر له کتاب مبوب فی القضاء، ذکره الشیخ الطوسی. 7-المفضل بن عمر الکوفی، له کتاب التوحید الذی أملاه علیه الإمام الصادق عند ما التقی المفضل بأحد الزنادقة و ناظرة، و طلب من الإمام أن یملی علیه بما یقوی به علی مناظرة الزنادقة، فأملی علیه الإمام الصادق تلک الدروس القیمة التی تحتوی علی دلائل التوحید، و محکم البراهین علی وجود الصانع الحکیم من بیان هیئة العالم، و تألیف أجزائه، و کیف خلق الإنسان و تکوینه، و کیفیة ولادته و تغذیته، و غرائزه و طبائعه، و بیان الدماغ و عظمته، و ما فیه و فی سائر الأعضاء من عجیب

1- 1) فهرست ابن الندیم ص 308. [1]

2- 2) فهرست ابن الندیم ص 308. [2]

3- 3) کشف الظنون ج 2 ص 444 و [3]فهرست ابن الندیم ص 50. [4]

الصنع، و عظيم القدرة، و ذكر الفؤاد و النخاع، و الدم و الأوردة و الشرايين، و بيان قوى البدن من جاذبة و ماسكة و هاضمة و دافعة، و بيان تركيب بدنه و تنسيق أعضائه و انتصاب القامة و اعتدالها، و بيان الحواس و أعمالها و أسرارها و الوسائط التى بينها من ضياء و هواء، و ماهية الصوت و حقيقة الكلام، و المنطق و الكتابة و ما أعطى الإنسان من علم، و الأشياء المخلوقة لمآرب الإنسان، و ما يتوقف عليه نظام حياته، إلى غير ذلک. و قد شرحه الأستاذ الطبيب الماهر محمد الخليلى شرحا وافيا بالغرض، و طبقه على العلوم الحديثة فى مجلدين، و لا يزال مخطوطا نتمنى له الظهور لعالم النشر. 8-هشام بن الحكم المتوفى سنة 185 ه. أبو محمد الشيبانى الكوفى من تلامذة الإمام الصادق و ابنه موسى الكاظم عليه السّلام، له من الكتب: كتاب (الإمام) كتاب (حدوث الأشياء) . كتاب (الرد على الزنادقة) ، كتاب (الأكف) ، و غيرها. و قد ذكر له ابن النديم خمسة و عشرين كتابا (1). 9-محمد بن على بن النعمان. أبو جعفر الأحول المعروف ب-(مؤمن الطاق) و تسميه خصومه (شيطان الطاق) من أصحاب أبى عبد اللّه الصادق، كان متكلما حاذقا، له من الكتب: كتاب (الإمامة) ، كتاب (المعرفة) ، كتاب (الرد على المعتزلة) ، كتاب فى أمر طلحة و الزبير (2). و غير هؤلاء من تلامذة الإمام الصادق الذين ألفوا فى عصره سائر العلوم و الفنون، كما ستقف عليه فى بحث تدوين الفقه و الحديث و فى أبواب أخرى من الكتاب. و نعود إلى الحديث عن بعض رواة حديث الإمام الصادق عليه السّلام من كبار العلماء و حملة الحديث من رؤساء طوائف و أئمة مذاهب و غيرهم، مقتصرين على ذوى الشهرة منهم و من خرج حديثه أصحاب الصحاح الستة، و قد سلكنا طريق الاختصار لضيق المجال.

1- 1) الفهرست لابن النديم ص 250. [1]

2- 2) الفهرست. [2]

تلامذته و رواة حديثه:

1-إبراهيم بن سعد:

إبراهيم بن سعد بن عبد الرحمن الزهرى المتوفى سنة 183 ه. أحد الأعلام و من رجال الصحاح الستة، روى عنه يزيد بن هرون و أحمد بن حنبل و خلق كثير، وثقه ابن معين، و أبو حاتم، و العجلى، و أحمد بن حنبل، و روايته عن الصادق فى التهذيب و الكافى يرويها عنه ابنه يعقوب.

2-إبراهيم بن زياد:

إبراهيم بن زياد البغدادى المتوفى سنة 228 ه. روى له مسلم و أبو داود و النسائى.

3-إبراهيم بن محمد:

إبراهيم بن محمد بن يحيى الأسلمى أبو إسحاق المدنى المتوفى سنة 191 ه.

4-إبراهيم بن طهمان:

إبراهيم بن طهمان بن شعيب الهروى المتوفى سنة 168 ه. كان أحد الأعلام و من رجال الصحاح الستة، قال أبو نعيم: حدث عن جعفر بن محمد الصادق: وثقه أحمد، و أبو داود، و أبو حاتم.

5-إبراهيم بن على:

إبراهيم بن على بن الحسن بن رافع المدنى. روى عنه أحمد بن محمد، و إبراهيم بن المنذر، و يعقوب بن حميد. خرج حديثه ابن ماجه.

6-إبراهيم بن مهاجر الأزدى:

روى عن حفص بن راشد و غيره، و ذكره الخطيب فى المتفق.

7-إبراهيم بن محمد:

إبراهيم بن محمد بن أبى يحيى المتوفى سنة 184 ه. أحد الأعلام روى عنه الشافعى و وثقه، و الثورى، و يحيى بن آدم. قال أحمد بن حنبل: «كان قدريا معتزليا جهميا كل بلاء فيه» . و قال ابن عقدة: «ليس بمنكر الحديث» و قال ابن عدى: «هو كما قال ابن عقدة» . ذكره الشيخ الطوسى فى رجال الصادق، و أن له كتابا مبوبا فى

الحلال و الحرام يرويه عن جعفر بن محمد. و قال بعض ثقات العامة: إن كتب الواقدى سائرها إنما هى منه.

8-بسام بن عبد اللّه:

بسام بن عبد اللّه الصيرفى أبو الحسن الكوفى، وثقه أحمد و يحيى بن معين. خرج له النسائى فى صحيحه. قال ابن حجر: «صدوق من الخامسة» .

9-بشار بن قيراط:

بشار بن قيراط النيسابورى أبو نعيم، روى عنه عبد اللّه بن الوليد بن مهران و عمر بن رافع و نوح بن أنس، قال ابن عدى كان ينتحل الرأى، و روى عنه عمار بن الحسن.

10-بشار بن ميمون:

بشار بن ميمون الخراسانى المتوفى سنة 180 ه. سكن مكة، و قدم بغداد و حدث بها عن جعفر بن محمد، فترك الناس حديثه، نظرا لظروف سياسة الدولة التى تريد أن تطبع الناس بطابعها الخاص.

11-تليد بن سليمان:

تليد بن سليمان المحاربى أبو سليمان الكوفى الأعرج المتوفى سنة 190 ه، روى عنه أحمد بن حنبل و إسحاق بن موسى، خرّج حديثه الترمذى. قال ابن عقدة: إن له كتابا عن الصادق يرويه عنه جماعة.

12-الجراح بن مليح:

الجراح بن مليح الرواسى الكوفى المتوفى سنة 175 ه. روى عنه ابنه و أبو قتيبة، و سفيان بن عقبة، و ابن مهدى. قال ابن سعد: ولى بيت المال ببغداد فى خلافة هرون، و كان ضعيفا فى الحديث. روى له البخارى فى الأدب المفرد، و مسلم فى صحيحه، و أبو داود و الترمذى و ابن ماجة. قال أبو أحمد بن عدى: له أحاديث صالحة و روايات مستقيمة. و حديثه لا بأس به، و هو صدوق.

13-جرير بن عبد الحميد:

جرير بن عبد الحميد بن قرط أبو عبد اللّه الرازى القاضى المتوفى سنة

188 ه. روى عنه ابن راهويه، و ابنا أبى شيبة، و يحيى بن معين، و موسى القطان، و محمد بن قدامة و غيرهم. قال العجلى: كوفى ثقة نزل الرى. و قال النسائى: ثقة. و قال أبو قاسم: مجمع على ثقته، و هو من رجال الصحاح الستة. عده الشيخ فى رجاله من أصحاب الصادق. و قال ابن حجر فى التقريب: ثقة صحيح.

14-حبيب بن النعمان:

حبيب بن النعمان الأسدى أحد بنى عمر بن أسد. قال النجاشى: حبيب بن النعمان النجاشى رجل من بنى أسد من أهل البادية، له كتاب يرويه عن الصادق عليه السّلام. و قال ابن حجر: حبيب بن النعمان مقبول من السادسة. و ذكره ابن حبان فى الثقات. روى له أبو داود و ابن ماجة.

15-حبيب بن يسار:

حبيب بن يسار الكندى الكوفى. روى عنه زكريا بن يحيى الحميرى، و أبو الجارود، و يوسف بن صهيب و غيرهم. و ثقة ابن معين، و أبو زرعة، و أبو داود. و ذكره ابن حبان فى الثقات. قال ابن حجر: ثقة من الثالثة. ذكره الشيخ فى رجال الصادق و أخرج حديثه الترمذى و أبو داود.

16-الحسن بن عياش:

الحسن بن عياش بن سالم الأسدى أبو محمد الكوفى المتوفى سنة 172 ه. روى عنه ابن مهدى و أحمد بن يونس. وثقه ابن معين و النسائى و ابن حبان. خرج له مسلم و الترمذى و النسائى.

17-الحكم بن عتبة:

الحكم بن عتبة أبو محمد الكندى مولاهم المتوفى سنة 113-114 ه. روى عنه الأعمش، و منصور، و أبو إسحاق السبيعى، و الشيبانى و غيرهم و هو من رجال الصحاح الستة. ذكره النجاشى فى رواة الصادق، روى له فى الكافى و التهذيب و النهاية. قال ابن حجر: ثقة ثبت فقيه. و قال ابن عيينة: ما كان بالكوفة بعد إبراهيم و الشعبى مثل

الحكم. وثقه أبو حاتم و ابن معين. و قال العجلى: كان صاحب سنة و اتباع، و كان فيه تشيع إلا أن ذلک لم يظهر منه. و قد نص على تشيعه شعبة بن الحجاج و ابن قتيبة.

18-الحارث:

ابن عمران الجعفرى المدنى خرج حديثه ابن ماجة، و روى عنه عبد اللّه بن عمر بن محمد المعروف بمشكدانه، و على بن محمد الموصلى، و محمود بن غيلان.

19-الحارث:

ابن عمير البصرى نزيل مكة، روى عنه ابنه حمزة، و عبد الرحمن بن مهدى و جماعة، و كان حماد بن زيد يقدمه و يثنى عليه وثقه ابن معين و خرج حديثه الأربعة.

20-حميد بن قيس:

حميد بن قيس الأعرج المتوفى سنة 130 ه. من رجال الصحاح الستة. روى عنه معمر و السفيانان و مالک بن أنس و غيرهم.

21-حماد بن عيسى:

حماد بن عيسى الجهنى المدنى نزيل البصرة المتوفى سنة 208 ه. خرج حديثه الترمذى و ابن ماجة. و روى عنه إسحاق الجوزجانى و محمد بن بكار البصرى و محمد بن المثنى و غيرهم.

22-الحارث بن عمران الأسدى:

الحارث بن عمران الأسدى. روى عنه أبو سعيد الأشج، و خرج حديثه ابن ماجة.

23-حاتم بن إسماعيل:

حاتم بن إسماعيل المدنى أبو إسماعيل الحارث مولى بنى عبد الدار المتوفى سنة 186-187 ه. خرج حديثه أصحاب الصحاح و روى عنه يحيى بن سعيد القطان، و إبراهيم بن حمزة، و هرون بن معروف، و عثمان بن أبى شيبة و محمد بن مهران و غيرهم.

24-داود بن الزبرقان:

داود بن الزبرقان الرقاشی أبو عمر البصری ثم البغدادی المتوفی سنة 186 ه. روی عنه سعید بن عروة، و بقیة و علی بن حجر و شعبة بن الحجاج و هو من شیوخه و أبو صالح المصری و الحسن بن عرفة و غیرهم، ذکره فی جامع الرواة و عده ابن حجر من الطبقة الثامنة. خرج حدیثه الترمذی و ابن ماجة.

25-الربیع بن حبیب:

الربیع بن حبیب العبسی مولاهم الکوفی، روی عنه وکیع و غیره. وثقه ابن معین. و قال البخاری: منکر الحدیث، خرج حدیثه ابن ماجة.

26-رحیل:

رحیل-بالمهملة مصغر-ابن معاویة بن حدیج الجعفی، روی عنه أخوه زهیر، و شجاع بن الولید. وثقه ابن حبان. و خرج حدیثه أبو داود و الترمذی. قال ابن حجر: صدوق من السابعة.

27-رقبة:

رقبة بن مصقلة العبدی الکوفی أبو عبد اللّه المتوفی سنة 129 ه. روی عنه سلیمان التمیمی، و أبو عوانة، و ابن فضل. قال أحمد: ثقة مأمون وعده ابن حجر من السادسة. خرج حدیثه البخاری و مسلم و الترمذی و أبو داود و النسائی و ابن ماجة فی التفسیر.

28-الرکین بن الربیع:

الرکین بن الربیع بن عمیلة أبو الربیع الکوفی المتوفی سنة 131 ه. روی عنه شعبة، و الثوری و معتمر بن سلیمان. وثقه النسائی، و خرج حدیثه البخاری فی الأدب المفرد، و مسلم فی صحیحه و الأربعة. قال ابن حجر: ثقة من الرابعة.

29-زکریا بن إسحاق:

زکریا بن إسحاق المکی المتوفی سنة 148 ه. وثقه البخاری و أبو داود و ابن معین. و هو من رجال الصحاح الستة. و کان یرمی بالقدر. و وثقه ابن معین و ابن حجر.

30-زیاد بن سعد:

زیاد بن سـعد الخراسانی أبو عبد الرحمن المکی نزیل الیمن. روی عنه ابن جریح، و همام و مالک بن أنس، و هو من رجال الصحاح الستة. قال النسائی: ثقة ثبت. ذکره ابن حجر فی الطبقة السادسة.

31-زید بن عطاء:

زید بن عطاء بن السائب الکوفی الثقفی. روی له الترمذی و أبو داود.

32-زهیر بن محمد التمیمی:

زهیر بن محمد التمیمی أبو المنذر الخراسانی المتوفی سنة 162 ه. تقدم فی الجزء الأول.

33-زید بن الحسن:

زید بن الحسن القرشی الأنماطی. روی عنه إسحاق و ابن المدینی. و خرج حدیثه الترمذی فی صحیحه.

34-سعید بن سالم:

سعیـد بن سـالم القـداح أبو عثمـان الکوفی. روی عنه الشافعی و یحیی بن آدم. قال أبو داود: صـدوق یـذهب إلی الارجاء. و قال ابن حجر: صدوق یتهم، رمی بالارجاء و کان فقیها من کبار التاسعة. خرج حدیثه أبو داود و النسائی.

35-سعید بن عبد الجبار:

سعید بن عبد الجبار الزبیدی أبو عثمان (أو عثیم) الحمصی، خرج له ابن ماجة، روی عنه محمد المقدمی، و هشام بن عبید اللّه، و یحیی بن المغیرة الرازی و غیرهم.

36-سعید بن عبد الرحمن:

سعید بن عبد الرحمن الجمحی أبو عبد اللّه المدنی المتوفی سنة 176 ه. وثقه ابن معین، و روی عنه ابن وهب، و محمد بن سلیمان، و علی بن حجر. روی له مسلم و أبو داود و النسائی و الترمذی و ابن ماجة.

37-سلمة بن كهيل:

سلمة بن كهيل الحضرمى أبو يحيى الكوفى المتوفى سنة 121 ه. روى عنه ابنه يحيى و شعبة و حماد بن سلمة و غيرهم، و هو من رجال الصحاح الستة. قال ابن المدينى: له نحو مائتين و خمسين حديثا. وثقه أحمد. و قال ابن حجر: ثقة فى الرابعة. كان من البترية. و كان من تلامذة الباقر و الصادق، و قد ذمه الإمام الباقر مع جماعة بقوله: إنهم أضلوا كثيرا ممن ضل من هؤلاء، و إنهم ممن قال اللّه عز و جل: وَ مِنَ اَلنّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنّا بِاللّهِ وَ بِالْيَوْمِ اَلآخِرِ وَ ما هُمْ بِمُؤْمِنِينَ [البقرة:8].

38-سليمان بن مهران الأعمش:

سليمان بن مهران الأسدى الكاهلى (1)أبو محمد الكوفى الأعمش المتوفى سنة 147-148 ه. أحد الأعلام، و من رجال الصحاح الستة، و رؤساء المذاهب البائدة. روايته عن الصادق فى كتاب من لا يحضره الفقيه فى نكت الحج.

39-سليمان:

سليمان بن بلال التيمى القرشى مولاهم أبو محمد المتوفى سنة 172 ه. خرج حديثه أصحاب الصحاح الستة. و روى عنه أبو عامر العقدى، و ابن المبارک، و معلى بن منصور، و عبد بن وهب و غيرهم. وثقه ابن سعد، و ابن عدى، و أحمد بن حنبل، و نص ابن داود على توثيقه و ذكره فى أصحاب الإمام على بن موسى الرضا، و أكثر علماء الرجال يعدونه من تلامذة الإمام الصادق عليه السّلام (2)و قد أدرک عصر الإمام الرضا عليه السّلام.

40-سفيان الثورى:

سفيان بن سعيد بن مسروق الثورى (3)أبو عبد اللّه الكوفى المتوفى سنة 161 ه. أحد الأعلام و من رجال الصحاح الستة، و رؤساء المذاهب البائدة. كان كثير التردد على الإمام الصادق، و له أخبار كثيرة يرويها عنه ابن داود، و الحلبى و الكشى.

1- 1) الإمام الصادق و المذاهب الأربعة ج 1. [1]

2- 2) تهذيب التهذيب 4-175 و [2]تاريخ الإسلام للذهبى 6-45.

3- 3) الإمام الصادق و المذاهب الأربعة ج 1. [3]

41-سفيان بن عيينة:

سفيان بن عيينة بن أبى عمران المتوفى سنة 198 ه. و هو أحد رؤساء المذاهب البائدة.

42-سعيد بن عبد الرحمن:

سعيد بن عبد الرحمن الجمحى المتوفى سنة 176 ه. أحد الأعلام. روى له أصحاب الصحاح ما عدا البخارى، وثقه أحمد و غيره. و ذكره الشيخ الطوسى.

43-سنان بن هرون:

سنان بن هرون البرجمى أبو بسر الكوفى، روى عنه وكيع و محمد بن سليمان. خرج له الترمذى فى صحيحه.

44-سعيد بن طريف:

سعيد بن طريف الحنظلى الإسكافى الكوفى. روى عنه إسرائيل و ابن علية. خرج حديثه الترمذى و ابن ماجة. قال ابن حجر: كان رافضيا من السادسة. عدّه الشيخ من أصحاب الصادق و رواياته مطروحة و غير مستقيم.

45-سعيد بن أبى خثيم:

سعيد بن أبى خثيم بن رشد الهلالى أبو معمر الكوفى المتوفى سنة 180 ه روى عنه أحمد بن حنبل و عبد اللّه بن أبى شيبة. وثقه ابن معين و غيره قال فى التقريب: أبو معمر الكوفى صدوق رمى بالتشيع، خرج له الترمذى و النسائى.

46-سعيد بن حسان:

سعيد بن حسان المخزومى المكى القاضى. روى عنه السفيانان، و أبو أحمد الزبيرى، و وكيع، و أبو نعيم و غيرهم. وثقه ابن معين. و عدّه الشيخ من أصحاب الصادق. و قال ابن حجر صدوق له أوهام من السادسة. خرج حديثه مسلم و الترمذى، و النسائى، و ابن ماجة.

47-سعيد بن سالم:

سعيد بن سالم القداح بن عثمان المكى، أصله من خراسان أو الكوفة و قال ابن حجر: صدوق يرمى بالارجاء، و كان فقيها من كبار التاسعة.

روی عنه الشافعی و یحیی بن آدم، و أسد بن موسی، و أحمد بن یونس و غیرهم، قال ابن معین: لیس به بأس. و قال أبو داود و ابن عدی: صدوق یذهب إلی الارجاء. خرج له أبو داود و النسائی.

48-سعید بن مسلمة:

ابن هشام بن عبد الملک بن مروان بن الحکم الأموی و یقال مسلمة بن أمیة بن هشام کان ینزل الجزیرة. خرج حدیثه الترمذی و ابن ماجة و روی عنه محمد بن إدریس الشافعی، و عمر بن إسماعیل بن مجالد، و علی بن میمون العطار. و غیرهم. ذکره الذهبی من رواة حدیث الإمام الصادق علیه السّلام و قال ابن داود: له کتاب و هو من تلامذة الإمام الصادق علیه السّلام.

49-سالم بن عبد الواحد:

سالم بن عبد الواحد المرادی أبو العلاء الکوفی. روی عنه الصباح بن محارب و وکیع. خرج له الترمذی. قال ابن حجر: مقبول. و قال الخزرجی: ضعفه ابن معین، و وثقه ابن حبان.

50-شعبة بن الحجاج:

شعبة بن الحجاج بن الورد العتکی (1)، مولاهم أبو بسطام المتوفی سنة 160 ه. الحافظ أحد الأئمة الأعلام. قال ابن المدینی: له نحو ألفی حدیث. و قال أحمد: شعبة أمة وحده و هو من رجال الصحاح الستة. روی عن الإمام الصادق و حضر عنده. و روایته عنه فی التهذیب. یروی عنه یحیی بن أبی بکر و خلق کثیر.

51-شعیب بن خالد:

شعیب بن خالد البجلی. عده ابن حجر فی التقریب من الطبقة السابعة: قال النسائی: لیس به بأس. خرج حدیثه أبو داود. و روی عنه یحیی بن العلاء الرازی، و عمر بن قیس، و حجاج بن دینار، و زهیر بن معاویة و غیرهم.

1- 1) تقدمت ترجمته فی الجزء الأول من هذا الکتاب.

52-الضحاک بن مخلد:

الضحاک بن مخلد الشیبانی (1)أبو عاصم النبیل المتوفی سنة 212 ه. و المتولد سنة 122 ه. البصری الحافظ أحد الأعلام، و من رجال الصحاح الستة. من شیوخ البخاری و أحمد و ابن المدینی و غیرهم. قال النجاشی: روی عن جعفر بن محمد کتابا، یرویه عنه هرون بن مسلم و عباس بن محمد بن حاتم. و ذکر ذلک فی الخلاصة أیضا. و کان آخر تلامذة الإمام الصادق وفاة.

53-طلحة بن زید:

طلحة بن زید القرشی أبو مسکین الرقی، روی عنه شیبان بن فروخ، رماه أحمد و ابن معین بالوضع، روی له ابن ماجة.

54-عاصم بن عمر:

عاصم بن عمر بن حفص بن عاصم بن عمر بن الخطاب. وثقه ابن حبان، و ضعفه أحمد. روی عنه أبو داود الطیالسی، و إسماعیل بن أبی أویس، و محمد بن فلیح، و عبد اللّه بن نافع، و ابن وهب و غیرهم. خرج حدیثه الترمذی و ابن ماجة.

55-عاصم بن حمید:

عاصم بن حمید الحناط الکوفی، وثقه أبو زرعة. و قال ابن حجر: صدوق من السابعة، و روی عنه محمد بن عبد اللّه بن نمیر، و یحیی الحمانی، و إسماعیل بن موسی الفزاری، و أبو نعیم الطحان.

56-عاصم بن سلیمان:

عاصم بن سلیمان البصری أبو عبد الرحمن المعروف بالکوزی المتوفی سنة 141 ه. أحد الأعلام، و من رجال الصحاح الستة. و روی عنه قتادة، و سلیمان التیمی، و معمر بن راشد، و حماد بن زید، و شعبة، و إسماعیل بن زکریا و غیرهم.

57-عامر بن السمط:

عامر بن السمط التمیمی الکوفی أبو کنانة. وثقه ابن حجر و ابن القطان، و خرج له النسائی فی مسند علیّ.

1- 1) تقدمت ترجمته فی الجزء الأول من هذا الکتاب.

58-عتبة بن عبد اللّه:

عتبة بن عبد اللّه بن عتبة بن عبد اللّه بن مسعود أبو العميس الهذلى. روى عنه شعبة، و أبو معاوية، و أبو أسامة، وثقه أحمد و ابن معين. خرج حديثه أصحاب الصحاح الستة، له نحو أربعين حديثا.

59-عثمان بن فرقد:

عثمان بن فرقد العطار البصرى (1). روى له البخارى و الترمذى.

60-عثمان بن عبد الرحمن:

عثمان بن عبد الرحمن بن عمر بن سعد بن أبى وقاص الزهرى أبو عمر المدنى الوقاص، و يقال له المالكى نسبة إلى جده الأعلى أبى وقاص مالك المتوفى فى خلافة الرشيد. كذبه ابن معين، قال ابن حجر متروك.

61-عثمان بن مطر:

عثمان بن مطر البصرى الشيبانى. روى عنه مسلم بن إبراهيم. و خرج حديثه ابن ماجة.

62-عطاء بن مسلم:

عطاء بن مسلم الخفاف الحلبى أبو مخلد المتوفى سنة 190 ه. روى عنه ابن المبارک، و أبو توبة، و عبد الرحمن بن يزيد، و هشام بن عمار. وثقه ابن معين، و خرج حديثه الترمذى فى الشمائل، و النسائى فى السنن.

63-على بن حمزة:

على بن حمزة أبو الحسن الأسدى المتوفى سنة 180-182 ه. المعروف بالكسائى العالم النحوى أحد الأئمة القراء من أهل الكوفة استوطن بغداد و كان قد تعلم النحو على كبر سنه، و قد روى الحديث عن الإمام الصادق عليه السّلام و جماعة من أعلام الحديث ذكره الذهبى.

1- 1) تاريخ الإسلام للذهبى 6-45. [1]

64-علی بن صالح:

علی بن صالـح أبو الحسن الهمدانی الکوفی المتوفی سـنة 151 ه. خرج له مسـلم و الأربعـة، و روی عنه ابن نمیر و وکیـع و أبـو نعیم. وثقه أحمد، و ابن معین. قال ابن المدینی: له نحو ثمانین حدیثا، و قال ابن حجر: ثقة عابد من الطبقة التاسعة.

65-العوام بن حوشب:

العوام بن حوشب الشـیبانی الربعی أبو الحرث الواسـطی المتوفی سنة 148 ه. أحد الأعلام، و من رجال الصـحاح السـتة. قال العجلی ثقة روی عنه نحو مائتی حدیث.

66-عیسی بن عمر:

عیسی بن عمر الأسدی الکوفی المتوفی سنة 156 ه. المعروف بالهمدانی. روی عنه ابن المبارک و وکیع. وثقه ابن معین و النسائی. خرج له الترمذی و النسائی.

67-عبد الجبار:

عبـد الجبار بن العباس الهمـدانی الشامی. روی عنه مسـلم بن قتیبة، و ابن المبارک. قال أبو حاتم، و ابن حجر: صدوق روی له البخاری فی الأدب المفرد، و الترمذی فی صحیحه.

68-عبد العزیز:

عبد العزیز بن عبد اللّه بن أبی سـلمة الماجشون التمیمی مولاهم المدنی المتوفی سـنة 166 ه. أحد الأعلام، و من رجال الصـحاح الستة. روی عنه اللیث و ابن مهـدی، و خلق کـثیر. وثقه ابن سـعد، و ابن حبـان. و قـال ابن معین: ثقـة کـان یری القـدر، ثم رجع. ذکره الشـیخ و الأردبیلی و الأسترآبادی فی رواة حدیث الصادق علیه السّلام.

69-عبد العزیز:

عبد العزیز بن محمد بن عبید الدراوردی أبو محمد الجهنی مولاهم المدنی

المتوفی سنة 187 ه. خرج حدیثه أصحاب الصحاح و روی عنه إسحاق بن راهویه، و یعقوب الدورقی. و خلق کثیر، وثقه ابن المدینی و غیره.

70-عبد العزیز:

عبد العزیز بن عمران بن عبد الرحمن بن عوف الزهری المدنی المتوفی سنة 197 ه. خرج حدیثه الترمذی، و روی عنه ابنه سلیمان، و یعقوب بن محمد الزهری، و علی بن محمد المدائنی، و محمد بن عیسی الطباع، و أبو غسان الکنانی، و إبراهیم بن المنذر و غیرهم.

71-عبد العزیز:

عبد العزیز بن المطلب بن عبد اللّه المخزومی المدنی المتوفی فی خلافة المنصور، روی له البخاری فی الأدب المفرد، و مسلم و الترمذی فی الصحیح و ابن ماجة فی السنن.

72-عبد الوهاب:

عبد الوهاب بن عبد المجید بن الصلت المتوفی سنة 194 ه. من شیوخ الشافعی، و أحمد بن حنبل، و یحیی بن معین، و ابن المدینی و غیرهم.

73-عبد الملک بن جریح:

عبد الملک بن جریح (1)أحد الأعلام، و من رجال الصحاح توفی سنة 149 ه.

74-عبد اللّه بن رجاء:

عبد اللّه بن رجاء المکی أبو عمران المکی المتوفی سنة 180 ه. روی عنه أحمد بن حنبل، و یحیی بن معین و إسحاق و خلق کثیر. خرج حدیثه مسلم و أبو داود و النسائی و ابن ماجة و البخاری فی جزء القراءة، وثقه ابن معین، و أبو حاتم، و ابن سعد.

1- 1) الإمام الصادق و المذاهب الأربعة. الجزء الأول. [1]

75-عبد اللّه بن جعفر:

عبد اللّه بن جعفر بن نجيح السعدى مولاهم المدنى المتوفى سنة 178 ه. روى عنه قتيبة و على بن حجر. خرج حديثه الترمذى و ابن ماجة.

76-عبد اللّه بن جعفر:

عبد اللّه بن جعفر بن عبد الرحمن بن المسور بن مخرمة أبو محمد المدنى المتوفى سنة 170 ه. وثقه العجلى. و قال ابن معين: صدوق. خرج حديثه مسلم و الأربعة.

77-عبد اللّه بن الزبير:

عبد اللّه بن الزبير بن عيسى الأسدى المكى المتوفى سنة 219 ه. من شيوخ البخارى. خرج له فى صحيحه، و روى له أبو داود الترمذى، و ابن ماجة فى التفسير، له كتاب عن الصادق يرويه عنه يعقوب الأسدى.

78-عبد اللّه بن دكين:

عبد اللّه بن دكين أبو عمر الكوفى نزيل بغداد. خرج حديثه البخارى فى الأدب المفرد، روى عنه يزيد بن هرون، و أبو نعيم، و موسى بن إسماعيل، و محمد بن بكار الريان و غيرهم، وثقه أحمد.

79-عبد اللّه بن ميمون:

عبد اللّه بن ميمون بن داود القداح المخزومى مولاهم المكى، روى عنه أبو الخطاب زياد بن يحيى، و مؤمل بن أهاب، و يعقوب بن حميد، و أبو الأزهر و غيرهم. خرج حديثه الترمذى، ضعفه النسائى، و قال أبو حاتم: منكر الحديث. و وثقه ابن داود الحلى.

80-عبيد اللّه بن عمر:

عبيد اللّه بن عمر بن حفص بن عاصم بن عمر بن الخطاب أبو عثمان المدنى المتوفى سنة 147 ه. أحد الفقهاء السبعة و العلماء الاثبات. و من رجال الصحاح

الستة. روى عنه شعبة و السفيانان و الليث و معمر و خلق كثير. و ذكر حديثه عن الصادق أبو نعيم فى الحلية. و عده الشيخ و غيره من رجاله.

81-على بن هاشم:

على بن هاشم بن البريد العابدى أبو الحسن الكوفى المتوفى سنة 180 ه. أحد الأعلام و من شيوخ أحمد بن حنبل. و أحمد و ابن معين، و ابن منيع، و غيرهم. خرج حديثه البخارى فى الأدب المفرد، و مسلم فى صحيحه و الأربعة.

82-على بن عبد الأعلى:

أبو الحسن الكوفى الأحول خرج حديثه أبو داود، و النسائى و الترمذى، و ابن ماجة، و روى عنه إبراهيم بن طهمان، و هيثم، و زهير بن معاوية و غيرهم. وثقه الترمذى، و قال أحمد و النسائى ليس به بأس، و ذكره ابن حبان فى الثقات.

83-عمرو بن خالد:

عمرو بن خالد القرشى. مولى بنى هاشم. روى عنه إسماعيل بن يونس، و عباد بن كثير البصرى، و جعفر بن زياد، و غيرهم. خرج حديثه ابن ماجة.

84-عمرو بن هرون:

عمرو بن هرون البلخى المتوفى سنة 194 ه. كان كثير الحديث، بصيرا بالقراءات. و كان من كبار الطبقة الرابعة. و خرج حديثه الترمذى و ابن ماجة. و روى عنه الرازيون، و هشام بن عبيد اللّه و ابن حميد و كان عنده من الصادق عليه السّلام ستون حديثا. و كتب عنه أحمد بن حنبل.

85-عمر بن قيس:

عمر بن قيس الملائى الكوفى المتوفى سنة 146 ه. روى عنه إسماعيل بن أبى خالد و الثورى و إسماعيل بن زكريا، و مصعب بن سلام و غيرهم، وثقه أبو حاتم، و أحمد و النسائى، و روى له البخارى فى الأدب المفرد، و مسلم فى صحيحه و الأربعة.

86-عمر بن دينار:

عمر بن دينار المكى أبو محمد الأثرم الجمحى مولاهم المتوفى سنة 126 ه.

روی عنه جماعة کمالک و شعبة و داود. أخذ عن الباقر و الصادق علیه السّلام و حدیثه فی الصحاح الستة.

87-فضیل بن عیاض:

فضیل بن عیاض بن السعد بن بسر التمیمی (1)المتوفی سنة 187 ه.

88-فضیل بن مرزوق الکوفی:

فضیل بن مرزوق الکوفی، روی عنه یحیی بن آدم و غیره، وثقه السفیانان و قال ابن معین: شدید التشیع. خرج حدیثه مسلم و الأربعة.

89-فلیح بن سلیمان:

فلیح بن سلیمان بن أبی المغیرة الخزاعی أبو یحیی الکوفی المتوفی سنة 168 ه. أحد الأعلام و من رجال الصحاح الستة، روی عنه ابن وهب و أبو عامر و خلق کثیر، ضعفه النسائی، و قال ابن حجر: صدوق کثیر الخطأ.

90-القاسم بن معن:

القاسم بن معن-بفتح المیم و سکون العین-ابن عبد الرحمن بن عبد اللّه بن مسعود الهذلی المتوفی سنة 175 ه. أبو عبد اللّه الکوفی روی عنه ابن مهدی و أبو نعیم و غیره، وثقه أبو حاتم. خرج له أبو داود و النسائی.

91-القاسم بن عبد اللّه:

القاسم بن عبد اللّه بن عمر بن حفص بن عمر بن الخطاب العمری العدوی المتوفی سنة 150 ه. روی عنه محمد بن الحسن بن زبالة المدنی و عبد اللّه بن وهیب و آخرون، رماه أحمد بن حنبل بالکذب. خرج له ابن ماجة.

92-محمد بن إسماعیل:

محمد بن إسماعیل بن جابر بن ربیعة أبو عبد اللّه الکوفی المتوفی سنة 167 ه. قال ابن حجر: صدوق یتشیع، خرج حدیثه النسائی فی الخصائص، و روی

1- 1) الإمام الصادق و المذاهب الأربعة. الجزء الأول. [1]

عنه يحيى بن آدم، و أبو نعيم، و يحيى الحمانى، و محمد بن الحسن بن المختار، ذكره ابن أبى حاتم من رواة حديث الصادق عليه السّلام.

93-محمد بن إسحاق:

محمد بن إسحاق بن يسار المتوفى سنة 151 ه. روى عنه يحيى الأنصارى و شعبة و الحمادان و خلق كثير، خرج حديثه مسلم و الأربعة.

94-محمد بن فليح:

محمد بن فليح بن سليمان المدنى المتوفى سنة 197 ه. خرج له البخارى و النسائى و ابن ماجة، روى عنه إبراهيم بن المنذر بن أبى علقمة الغروى، و محمد بن يعقوب الزبيرى، و أبو سعيد الأشج.

95-محمد بن الحسن:

محمد بن الحسن بن أبى يزيد الهمدانى أبو الحسن الكوفى نزيل واسط. خرج حديثه الترمذى، و روى عنه إسماعيل بن إبراهيم الترجمانى، و الحسن بن حماد الحضرمى، و أحمد بن منيع و غيرهم.

96-محمد بن راشد:

أبو عبد اللّه محمد بن راشد المكحولى الدمشقى الخزاعى نزيل البصرة المتوفى سنة 171 ه. خرج حديثه أبو داود، و الترمذى، و النسائى، و ابن ماجة، و روى عنه الثورى و شعبة-و هما من أقرانه-و ابن المبارک و ابن مهدى، و زيد بن أبى الزرقاء و الوليد بن مسلم، و يزيد بن هرون و غيرهم. وثقه ابن معين، و قال عبد الرزاق ما رأيت رجلا أورع منه فى الحديث و قال أحمد بن حنبل: إنه ثقة ثقة. و سئل عنه أبو حاتم فقال: إنه كان رافضيا. و قال أبو زرعة: لم يكتب عنه أبو مسهر لأنه كان يرى الخروج على الأئمة (أى على حكام عصره) . قال الذهبى بعد نقله لقول أبى حاتم و نسبة ابن راشد للرفض: و فيه نظر فكيف يكون دمشقى نزيل البصرة رافضيا؟ ! و اللّه أعلم. و بعد قليل من مرافقة الذهبى فى إشكاله و تأمله و تعجبه من رجل شامى ينسب

إلى الرفض و هى نسبة تحط بمقام الشخص، و تستوجب ترک حديثه و تعرضه لکل نقص و تهجم. نعم بعد قليل يرتفع إشکال الذهبى و يتضح له الأمر فيقول: ثم تأملت فوجدته (أى محمد بن راشد الرافضى) خزاعيا و خزاعة يوالون أهل البيت (1). و نحن هنا لا نود أن نخرج عن الموضوع فنعلق على هذا الکلام و لا نقول أکثر من قولنا: بأن موالاة أهل البيت و حبهم هو علامة الرفض عندهم و الرفض کما أوضحته عبارات کثير من المحدثين موجب للرمى بالزندقة و الخروج عن الإسلام، و موجب لترک الرواية، و هذه من جنايات سوء الفهم، و التحدى لنواميس الإسلام، و الرد لوصايا النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بآله، و لزوم حبهم، و وجوب موالاتهم.

97-محمد بن مجيب:

محمد بن مجيب الثقفى الکوفى سکن بغداد و کان کثير الرواية عن جعفر بن محمد، و روى عنه عبد الرحمن بن عفان، و عبد الرحمن بن نافع، و عيسى بن محمد بن مسلم و الفيض بن وثيق.

98-محمد بن ثابت:

محمد بن ثابت بن أسلم البنانى البصرى. روى عنه عبد الصمد بن عبد الوارث، و جعفر بن سليمان، و أبو داود الطيالسى، و أبو عبيدة و خلق کثير خرج حديثه الترمذى.

99-محمد بن جعفر:

محمد بن جعفر بن أبى کثير المدنى، روى عنه خالد بن مخلد و سعيد بن أبى مريم وثقه ابن معين و قال ابن حجر فى التقريب: ثقة من الطبقة السابعة خرج حديثه أصحاب الصحاح الستة.

100-معلى بن هلال:

معلى بن هلال الحضرمى أبو عبد اللّه الکوفى. روى عنه قتيبة کذبه أحمد و غيره، و خرج له ابن ماجة.

1- 1) ميزان الاعتدال ج 3 ص 55.

101-معمر بن راشد:

معمر بن راشد الصنعانی أبو عروة البصری المتوفی سنة 153 ه. قال ابن حجر: ثقة ثبت فاضل. روی عنه أیوب و الثوری و خلق کثیر، خرج حدیثه أصحاب الصحاح الستة.

102-معمر بن یحیی:

معمر بن یحیی بن سام الضبی الکوفی، وثقه أبو زرعة، و خرج حدیثه البخاری فی صحیحه.

103-منصور بن المعتمر:

منصور بن المعتمر السلمی أبو عتاب الکوفی المتوفی سنة 132 ه. روی عنه خلق کثیر، و هو أحد الأعلام و من رجال الصحاح الستة، و روی عن الباقر و الصادق علیه السّلام، قال العجلی: ثقة ثبت له ألفی حدیث.

104-المنهال بن عمر:

المنهال بن عمر الأسدی مولاهم الکوفی، وثقه ابن معین و النسائی، و خرج له الحسین و الباقر و الصادق علیه السّلام.

105-میسرة بن حبیب:

میسرة بن حبیب النهدی أبو حازم الکوفی، روی عنه شعبة و إسرائیل و وثقه ابن معین و العجلی و النسائی. خرج له البخاری فی الأدب المفرد و أبو داود و الترمذی و النسائی، قال ابن حجر: صدوق من السابعة.

106-مالک بن أنس:

مالک بن أنس الأصبحی (1)المتوفی سنة 179 ه. أحد أئمة المذاهب الأربعة.

107-مکی بن إبراهیم:

مکی بن إبراهیم الحنظلی أبو السکن البلخی المتوفی سنة 215 ه. أحد الحفاظ و من شیوخ البخاری روایته فی الصحاح الستة.

1- 1) الإمام الصادق و المذاهب الأربعة ج 1. [1]

108-مسعود بن سعد:

مسعود بن سعد الكوفى أبو سعد الجعفى، روى عنه أبو خالد الأحمر و أبو غسان النهدى. قال ابن معين: ثقة من خيار عباد اللّه، و قال ابن حبان يكتب حديث. خرج له مسلم و النسائى.

109-مسلم بن خالد:

مسلم بن خالد المخزومى مولاهم أبو خالد المكى المعروف بالزنجى المتوفى سنة 189 ه. روى عنه الشافعى و ابن وهب و غيره وثقه ابن معين، خرج له أبو داود و ابن ماجة.

110-مصعب بن سلام:

مصعب بن سلام التميمى الكوفى نزيل بغداد، روى عنه أحمد بن حنبل و أبو الأشج. قال ابن معين: ليس به بأس. و قال العجلى: ثقة. خرج له الترمذى فى صحيحه.

111-معاوية بن صالح:

معاوية بن صالح الحضرمى أبو عبد الرحمن الحمصى المتوفى سنة 158 ه. عالم الأندلس و قاضيها، روى عنه الثورى و الليث و ابن وهب، وثقه أحمد، و ابن معين. روى له مسلم و الأربعة.

112-معاوية بن عمار:

معاوية بن عمار البجلى الدهنى المتوفى سنة 175 ه. روى عنه يحيى بن سعيد، و معاذ بن معاذ و خلق كثير، وثقه ابن معين، و ابن داود. روى له مسلم و الترمذى و النسائى. قال فى نهج المقال: له كتب يرويها عنه أصحابنا: كتاب الصلاة، كتاب يوم و ليلة، كتاب الطلاق، كتاب الدعاء.

113-معروف بن خربوذ:

معروف بن خربوذ-بفتح الخاء و الراء-مولى عثمان بن عفان المكى، روى عنه وكيع و غيره، خرج له البخارى و مسلم و أبو داود و ابن ماجة و هو من تلامذة الباقر و الصادق عليه السّلام. و هو غير معروف الكرخى المتوفى سنة 200 هو المدفون ببغداد و هو من علماء الشيعة و أصحاب الإمام الرضا عليه السّلام و قبره ظاهر يزار.

114-مفضل:

أبو جميلة مفضل بن صالح الأسدى الكوفى النخاس. خرج حديثه الترمذى، و روى عنه محمد بن عبيد المحاربى، و أحمد بن بديل اليامى، و محمد بن إسماعيل الأحمسى و غيرهم.

115-النعمان بن ثابت:

النعمان بن ثابت أبو حنيفة التيمى (1)مولاهم الكوفى المتوفى سنة 150 ه رئيس المذهب الحنفى.

116-نوح بن دراج:

نوح بن دراج النخعى مولاهم الكوفى القاضى المتوفى سنة 182 ه، روى عنه سعيد بن منصور، و خرج له ابن ماجة فى التفسير.

117-هرون بن سعد العجلى:

هرون بن سعد العجلى، قال ابن معين: ليس به بأس. خرج له مسلم فى صحيحه، و قال الكشى: هو زيدى. و قال ابن حجر: رمى بالرفض. و يقال رجع عنه.

118-هرون بن موسى:

هرون بن موسى الأزدى مولاهم أبو عبد اللّه القارئ. روى عنه بهز بن أسد، و مسلم بن إبراهيم، و خلق كثير، خرج له البخارى و مسلم و الترمذى و النسائى و أبو داود، وثقه ابن معين. قال ابن حجر: ثقة مقرئ إلا أنه رمى بالقدر من السابعة.

119-هلال بن أبى حميد:

هلال بن أبى حميد أو ابن مقلاص أبو أيوب الصيرفى الكوفى. روى عنه مسعر و شعبة و خرج له البخارى و أبو داود، و مسلم و الترمذى و النسائى.

120-وهيب بن خالد:

وهيب بن خالد الباهلى البصرى المتوفى سنة 165 ه. أحد الحفاظ الأعلام

1- 1) تقدمت ترجمته فى الجزء الأول من هذا الكتاب.

و من رجال الصحاح الستة. قال ابن سعد: حجة كثير الحديث. و قال فى منهج المقال. وهيب بن خالد البصرى ثقة، و قال النجاشى: إن له كتابا يرويه عنه إسماعيل.

121- يحيى بن سعيد:

يحيى بن سعيد بن فروخ القطان (1)المتوفى سنة 198 ه. أحد الأعلام و من الحفاظ المشهورين. روى عنه أصحاب الصحاح الستة، و هو من شيوخ أحمد و ابن معين.

122- يحيى بن قيس:

يحيى بن سعيد بن قيس الأنصارى المدنى أبو سعيد المدنى القاضى المتوفى سنة 144 ه. روى عنه الأوزاعى و السفيانان و خلق كثير، قال ابن المدينى: له ثلاثمائة حديث خرج له البخارى فى الأدب المفرد. قال ابن سعد: ثقة حجة.

123- يحيى بن سليم:

يحيى بن سليم الطائفى أبو محمد القرشى نزيل مكة المتوفى سنة 193 ه. روى عنه أحمد و إسحاق و قتيبة. احتج به البخارى و الجماعة. وثقه ابن معين و النسائى و ابن سعد.

124- يعلى بن الحرث:

يعلى بن الحرث المحاربى الكوفى المتوفى سنة 168 ه. روى عنه وكيع و ابن مهدى و جماعة، وثقه ابن معين، و خرج له البخارى، و مسلم و النسائى و الترمذى و ابن ماجة. و بهذه العجالة نكتفى عن التوسع فى ذكر الرواة إذ لا يسع المجال هنا لأكثر من هؤلاء و قد ذكرنا عددا وافرا منهم فى كتابنا عن حياة الإمام الصادق، كما أننا سنتعرض لذكر حملة فقهه من الشيعة فى الجزء الثالث من هذا الكتاب. و سيأتى ذكر آخرين منهم فى بحثنا عن رجال الحديث من الشيعة فى الجزء

1- 1) الإمام الصادق و المذاهب الأربعة-الجزء الأول. [1]

السادس من الذين خرّج حديثهم أصحاب الصحاح الستة و يتجاوز عددهم ثلاثمائة رجل.

الرواة:

اشارة

نظرا لاشتهار مدرسة الإمام الصادق عليه السّلام، إذ أصبحت جامعة إسلامية كبرى، تقصدها وفود الأمصار، فقد كثر المنتمون إليها من جميع الأطراف على اختلافهم فى الآراء و المعتقدات، و الميول و النزعات، و لهذا فلم يكونوا سواء فى حسن الاستماع، و قوة الحفظ، و صدق اللهجة، و إخلاص النية. و ربما كان فيهم من ذوى الأغراض السيئة الذين يحرفون الكلم عن مواضعه، لغاية فى نفوسهم، فتعمدوا الكذب، و نسبوا إليه عليه السّلام ما لم يصدر عنه أمثال: وهب بن وهب القاضى المعروف بأبى البخترى، فقد اشتهر هذا الرجل فى الكذب ذكره، و عرف أمره (1). و سالم بن أبى حفصة العجلى (2)و المغيرة بن سعيد، و صائد النهدى و محمد بن مقلاص. و حيث كان لوضاع الأحاديث أخطر آفة على العلم، و أعظم خطر على الدين، فقد أعلن الإمام عليه السّلام للملإ وجوب الحذر، و لزوم التحفظ من هؤلاء الذين انحرفوا عن طريق الاستقامة و الصواب، فكان يقول: و اللّه ما الناصب لنا حربا بأشد علينا مؤونة من الناطق علينا بما نكره. و يقول: إن الناس قد أولعوا بالكذب علينا، و إنى أحدث أحدهم بالحديث فلا يخرج من عندى حتى يتأوله على غير تأويله، و ذلك انهم كانوا لا يطلبون بأحاديثنا ما عند اللّه و إنما يطلبون الدنيا، و كل يحب أن يدعى رأسا. و قد كان بعضهم يغير ما ينقله عنه بزيادة أو نقيصة. قال له رجل من أصحابه: يا ابن رسول اللّه قد بلغنا عنك أنك قلت: إذا عرفتم فاعملوا ما شئتم. فقال أبو عبد اللّه إنى قلت: إذا عرفتم فاعملوا ما شئتم، فإنه يقبل منكم. و كان يقول: إنا أهل البيت لا

1- 1) الإمام الصادق و المذاهب الأربعة-ج 1. [1]

2- 2) هو أبو يونس سالم بن أبى حفصة المتوفى سنة 140 هخرج حديثه البخارى فى الأدب المفرد و الترمذى فى صحيحه، قال ابن داود: كان يكذب على أبى جعفر و قد لعنه الإمام الصادق عليه السّلام.

يزال الشيطان يدخل فينا من ليس منا، و لا أهل ديننا، فإذا رفعه و نظر الناس إليه، أمره الشيطان فيكذب علينا. إلى غير ذلک من أقواله فی تحذير الأمة من قبول ما ينقل عنه بواسطة أولئک الدجالين کأبی البخترى و أضرابه من الکذابين، و أبی الخطاب و أمثاله من الغلاة الذين اندسوا فی صفوف المسلمين ليفرقوا الکلمة و يغيروا القلوب، و قد قضی الإمام الصادق عليه السّلام على حرکاتهم، و فرق شملهم، و لم يبق لهم ذکر إلا فی بطون الکتب و على ألسنة دعاة الفرقة الذين تجندوا لخدمة خصوم الإسلام و هم کما يقول القائل: إن يسمعوا الخير أخفوه و إن علموا شرا أذاعوا و إن لم يعلموا کذبوا

و قد اهتم علماء الحديث من الشيعة و بذلوا جهدهم فی عناية تامة بالبحث و التحقيق عن معرفة الحديث و ترتيب طبقات رجاله و التثبت فی أحوالهم و بيان عدالتهم فألفوا کتبا تکشف النقاب عن أحوال الرجال منها: کتاب الرجال لشيخ الطائفة أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسی المتوفی سنة 460 ه. و کتاب الشيخ أحمد بن على بن أحمد النجاشی المتوفی سنة 450 ه. و کتاب الضعفاء المنسوب للشيخ أحمد بن عبيد اللّه الغضائرى و کان معاصرا للشيخ الطوسی. و کتاب تقی الدين الحسن بن على بن داود و هو من تلامذة جمال الدين بن طاوس و المحقق الحلی. و کتاب الخلاصة لأبی منصور جمال الدين العلامة الحلی المتوفی سنة 726 ه. و غيرها من کتب الرجال، و قد تشدد الشيعة فی قبول الرواية أکثر من غيرهم، و لهم شروط خاصة، و المسلمون بصورة عامة يشترطون شروطا فی الراوی حذرا من الکذابين الذين أخبر عنهم النبی صلّی اللّه عليه و آله و سلّم فقال: «من کذب علیّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار» و لهذا کان الصحابة لا يأخذون بالرواية إلا ممن يصح الأخذ عنهم و يتأکدون فی ذلک مع قرب عهدهم من النبی صلّی اللّه عليه و آله و سلم.

مشاهير الثقات:

اشارة

كان من المناسب ذكر مشاهير الثقات من أصحاب الإمام الصادق و المؤلفين منهم و بيان أحوالهم بترجمة وافية، و لكن نطاق هذا الجزء لا يتسع لذكرهم و سيأتى ذلک فى الجزء الثالث إن شاء اللّه، و نرى هنا أن نشير إلى بعض المؤلفين من الرواة لحديثه عليه السّلام و نترک ذكر الآخرين لمحل آخر، و نقتصر على ذكر أسمائهم حذرا من الإطالة. إبراهيم بن خالد العطار العبدى، و إبراهيم بن نعيم العبدى المعروف بأبى الصباح، و إسحاق بن بشر الكاهلى، و إسحاق بن جندب، و أنس بن عياض الليثى المدنى، و برد الاسكاف الأزدى من تلامذة الباقر و الصادق عليه السّلام، و أيوب بن عطية الحذاء، و ثابت بن جرير، و ثابت الضرير، و ثعلبة بن ميمون القارئ الفقيه، و جحدر بن المغيرة الطائى الكوفى، و جفير بن الحكم أبى المنذر العبدى، و جميل بن دراج، و حارث بن المغيرة النضرى، و حبيب بن النعمان الأعرابى الأسدى، و حذيفة بن زائدة الأسدى، و حريز بن عبد اللّه الأزدى السجستانى، و حسان بن مهران الكوفى، و الحسن بن الحسين بن الحسن الجحدرى الكندى، و خطاب بن مسلم الكوفى، و خلاد السندى البزاز الكوفى، و داود بن الحسن الأسدى الكوفى، و داود بن سرحان العطار الكوفى، و رافع بن سلمة بن زياد بن أبى الجعد الأشجعى، و زريق بن الزبير الخلقانى، و زكريا بن يحيى الواسطى، و زيد بن يونس أو ابن موسى أبى أسامة الشحام الكوفى، و سالم الحناط أبى الفضل الكوفى، و سالم بن مكرم بن عبد اللّه من أصحاب الصادق و الكاظم عليه السّلام، و السرى بن عبد اللّه بن يعقوب السلمى الكوفى، و سعيد بن عبد الرحمن و عبد اللّه الأعرج السمان التميمى الكوفى، و سعيد بن غزوان الأسدى، و كتاب سلام بن أبى عمرة الخراسانى و هو من الكتب الموجودة الباقية (1)، و سليم الفراء الكوفى، و سليمان بن داود المنقرى أبو أيوب الشاذكونى، و سماعة بن مهران الحضرمى، و سويد بن مسلم، و سيف بن سليمان التمار الكوفى، و شعيب العقرقوفى، و شهاب بن عبد ربه بن أبى ميمون من أصحاب الصادق و الكاظم عليه السّلام و الصباح الحذاء بن صبيح

1- 1) الذريعة ج 6 ص 336. [1]

إمام مسجد دار اللؤلؤ بالكوفة، و صباح بن يحيى المزنى الكوفى من تلامذة الباقر و الصادق عليه السّلام، و صفوان بن مهران الكوفى، و طلاب بن حوشب الشيبانى الكوفى، و عاصم بن سليمان البصرى، و عامر بن جداعة الأزدى، و عبيد بن زرارة بن أعين الشيبانى، و عبيد اللّه بن الوليد الرصافى يروى عن الباقر و الصادق عليه السّلام، و عقبة بن خالد الأسدى الكوفى، و على بن عقبة بن خالد الأسدى الكوفى، و عمار بن مروان البيكرى، و عمار بن موسى الساباطى، و عمرو بن إبراهيم الأزدى، و عمرو بن الياس بن عمرو بن الياس البجلى، و عمرو بن حريث الصيرفى الأسدى الكوفى، و عمرو بن خالد الأفرق الخياط، و عمرو بن منهال بن مقلاص الصيرفى، و أبى محمد بن قتيبة بن محمد الأعشى المؤدب المغربى، و كعيب بن عبد اللّه مولى بنى طرفة الكوفى، و مالک بن عطية الأحمسى الكوفى البجلى، و محمد بن حمران النهدى، و محمد بن عذافر بن عيسى الصيرفى المدينى من أصحاب الصادق و الكاظم عليه السّلام، و عباد بن صهيب أبو بكر البصرى، و عباس بن الوليد بن صبيح الكوفى، و عبد الحميد بن أبى العلاء بن عبد الملک الأزدى، و عبد الرحمن بن محمد بن عبيد اللّه الفزارى، و عبد الغفار بن حبيب الطائى، و عبد الغفار بن قيس بن فهد الأنصارى من تلامذة الباقر و الصادق عليه السّلام، و عبد الكريم بن هلال الجعفى الكوفى يقال له الخلقانى، و عبد اللّه بن أبى يعفور و عبد اللّه بن بكير بن أعين الشيبانى، و عبد اللّه بن زرارة بن أعين الشيبانى، و عبد اللّه بن سعيد بن شبل، و عبد اللّه بن غالب الأسدى الشاعر الفقيه، و عبد اللّه بن الفضل بن عبد اللّه الهاشمى النوفلى، و عبد الملک بن حكيم الخثعمى الكوفى، و عبد الملک بن عتبة النخعى الصيرفى الكوفى. إلى آخر ما هو مذكور فى كتاب الفهرست للشيخ الطوسى، و كتاب النجاشى، و جامع الرواة. و قد ذكر شيخنا البحاثة حجة الإسلام الشيخ محمد المحسن الطهرانى فى كتابه الذريعة الجزء السادس عددا وافرا منها فى حرف الحاء، و ذكر طرق الرواية لها، كما أنه ذكر فى الجزء الأول فى حرف الهمزة فى باب الأصول عددا كثيرا من رجال الأصول الذين دونوا أحاديثهم عن الإمام الصادق عليه السّلام. و قد ذكرنا بعض من لهم كتب عن الإمام الصادق عليه السّلام فى تلک المجموعة المتقدمة و لم نعد ذكرهم كما أنا لم نذكر من هؤلاء هناک.

جابر بن حيان:

اشتهر جابر بن حيان بعلم الكيميا، و هو أول من عرف به، و نسب أخذه و تعلمه لذلک عن الإمام الصادق عليه السّلام، و قد اختلفت الآراء فی ذلک، و ها نحن ذا نذکره استطرادا فی البحث، فلسنا من أهل الاختصاص فيما اختص به أبو عبد اللّه جابر بن حيان بن عبد اللّه الکوفی المعروف بالصوفی و يقال الحرانی الصوفی، فهو أول من اشتهر فی علم الکيميا و تلميذ الإمام جعفر الصادق عليه السّلام و هو أول من تکلم فی علم الکيميا، و وضع فيها الکتب و بين صنعة الاکسير و الميزان، و نظر فی کتب الفلاسفة فی الإسلام، و اکتشف جابر فی امتحاناته أمورا کثيرة فی علم الکيميا، و ترجمت بعض مصنفاته إلی جميع اللغات، و طبعت و اشتغل بها الناس فانتفعوا بها، و نسب إليه قوم اختراع الجبر، و ألف خمسمائة رسالة فی الکيميا فی ألف ورقة، و هی تتضمن رسائل جعفر الصادق عليه السّلام و اختلف الناس فی أمر جابر اختلافا کثيرا. فيذهب البعض إلی أنه شخصية موهومة، و أنه اسم موضوع. وضعه المصنفون فی هذا الفن. و يؤيدون هذا الرأی بأن شخصية جابر تلک الشخصية العظيمة لم يکن لها ذکر فی تاريخ العرب. و أجاب ابن النديم عن هذا الإيراد بقوله: «إن رجلا فاضلا يجلس و يتعب فيصنف کتابا يحتوی علی ألفی ورقة، يتعب قريحته و فکره بإخراجه و يتعب يده و جسمه بنسجه ثم ينحله لغيره، إما موجودا أو معدوما ضرب من الجهل و أن ذلک لا يستمر علی أحد و لا يدخل تحته من تحلی ساعة واحدة بالعلم، و أی فائدة فی هذا و أی عائدة، و الرجل له حقيقة، و أمره أظهر و أشهر، و تصنيفاته أعظم و أکثر، و لهذا الرجل کتب فی مذاهب الشيعة أنا أوردها فی مواضعها، و کتب فی معان شتی من العلوم قد ذکرتها فی مواضعها من الکتاب. و قد قيل إن أصله من خراسان، و الرازی يقول فی کتبه المؤلفة فی الصنعة قال أستاذنا أبو موسی جابر بن حيان» . ثم ذکر ابن النديم مؤلفاته (1). و للقدماء و المتأخرين و من المستشرقين کلام کثير فی شأن جابر، و قد نشر رسائله المستشرق کراوس، و فيها دلالة علی تشيعه و أخذه عن الإمام الصادق عليه السّلام

1- 1) فهرست ابن النديم. [1]

كإمام مفترض الطاعـة متبع الرأى. و قد كبر على المستشـرقين أن يكون رجل عربى مسـلم و من أهل القرن الثانى للهجرة يمتاز بتلك الآراء السديدة، و تكون نظرياته الأسـس العامة التى قام عليها علم الكيميا قديمة و حديثة، فصاروا يخبطون فى تعرضهم لكتبه كحاطب ليل، فمرة يشـكون فى وجوده و تـارة فى زمـانه، و أخرى فيمـا نسب إليه من تلك الكتب، و رابعـة فى نسـبة ما يرويه البعض عن أسـتاذه الصادق عليه السّـلام، و خامسا فى التبويب و الوضع و الأسـلوب لأنه لم يكن يعرفه أهل ذلك العصـر إلى غير ذلك. و قد فند تلك الشـكوك و المزاعم الكاتب إسماعيل مظهر صاحب مجلة العصور فيما نشره فى المقتطف (625،617،551،544،68) و جلى فى هذه الحلبة الأستاذ أحمد زكى صالح فيما كتبه فى مجلة الرسالة المصـرية السنة الثامنة ص 1204 و 1206. و لقد فند تلك الأوهام و المزاعم تنفيدا حكيما علميا و صرح مرارا بتشـيعه و قال فى مناقشة رأى الأسـتاذ كراوس: و من الجلى الواضح لدى كل من درس علم الكلام أن فرق الشـيعة كانت أنشـط الفرق الإسـلامية حركة، و كانت أول من أسس المذاهب الدينية على أسس فلسفية حتى أن البعض ينسب فلسفة خاصة لعلى بن أبى طالب عليه السّلام. (1)و منهم من يقول إنه تلميذ خالد بن يزيد، و استدل ملا كتاب جلبى على ذلك بالبيتين المشهورين من قول بعض الشعراء: حكمة أورثناها جابر عن إمام صادق القول و فى

لوصى طاب فى تربته فهو كالمسک تراب النجف

و ذلک لأن خالـد بن يزيد و فى لعلى و اعترف له بالخلافة، و ترک الإمارة (2)و هذا الاستدلال بعيد عن إثبات الدعوى من كل وجه بما لا حاجـة إلى إيضـاحه، و عبارات جابر بن حيان فى رسائله تؤيـد ما يقوله الأكثر بأنه أخـذ ذلک عن الإمام الصادق عليه السّـلام فقـد كرر فى عباراته ما يشعر بذلک، و يعبر عنه بقوله: حدثنى سيدى

1- 1) حياة الإمام الصادق للمظفر ص 202.

2- 2) كشف الظنون ج 2 ص 198. [1]

عن آبائه واحدا بعد واحد و قال لی. . . (1). و یقول: و کنت یوما قاصدا دار سیدی جعفر «صلوات اللّه علیه» ، و یکثر من قوله: و حق اللّه و حق سیدی صلوات اللّه علیه. . . (2). و فی ص 316 فی المقالة 24: رضی اللّه عن سیدی فإنه کان إذا مر به مثل هذه الخواص شیء قال: یا جابر هذه حیاة القلوب و ما ینبغی إذا نظرت فی کتبنا هذه إلا أن تجمعها و ما ینضاف إلیها من فنونها و السلام. و قد نص أکثر المؤرخین و الکتّاب علی ذلک کابن خلکان فی وفیات الأعیان، و الیافعی فی مرآة الجنان، و ابن الوردی فی تاریخه، و الحاج خلیفة فی کشف الظنون، و بطرس البستانی فی دائرة المعارف، و (ش) سامی فی قاموس الاعلام باللغة الترکیة. و یقول الأستاذ الدکتور محمد یحیی فی کتابه الإمام الصادق ملهم الکیمیاء: من الأمور التی تلفت النظر فی تاریخ العلوم مشکلة الإمام جعفر الصادق علیه السّلام و علاقته الکبری مع جابر بن حیان، أبو الکیمیاء فی العصور الوسطی، و لقد تصدی إلی هذا الموضوع عدد من المستشرقین، و الکیمائیین، فلم یوفوه حقه، لأنهم عالجوا المشکلة دون أن یکلفوا أنفسهم عناء البحث فی رسائل جابر نفسها، مما لها علاقة مع الإمام الصادق مبرزین میزاتها، و إمکانیة صدورها عن الإمام، و إننا فی هذه الدراسة المقتضبة سوف نحاول أن نقوم فی عمل هذا الاستقراء. مستعینین بما وصل إلی أیدینا من المصادر التی نعترف بأنها قلیلة، و من الضروری عمل دراسة عملیة عن الإمام جعفر الصادق، و مکانته الأدبیة، و دوره فی التاریخ الفکری الإسلامی لتظهر لنا کثیرا من النقط الغامضة علی ضوء النهار. إلی أن یقول فی ص 39: لدی مطالعتنا للتراث الضخم الذی خلفه لنا جابر عن الکیمیاء نری اعترافا صریحا بأن المعلم لهذه الصنعة هو الإمام جعفر الصادق علیه السّلام، و قد اطلع علی هذه الحقیقة کثیر من المستشرقین الغربیین فاعتقدوا فی ذلک مبالغة عظیمة، و فی النقد الذی وجهوه ضد هذه المشکلة قالوا: إنه لمن

1- 1) رسائل جابر بن حیان التی نشرها المستشرق کراوس ص 335 فی کتاب السر المکنون.

2- 2) کتاب الخواص الکبیر ص 205.

المستحيل على جعفر أن يلمّ هذا الإلمام العظيم بالعلوم و الفنون التى ذكرها جابر فى المخطوطات التى وصلت إلينا، و التى يوجد منها عدد كبير فى القاهرة، و التى لم تدرس الدراسة الكافية بعد، و يعتقد (دروسكا) انه لمن المستحيل على جعفر أن يكون كيمائيا، فليس من الممكن أن يتعاطى تلك الصنعة سواء كان ذلك نظريا أو عمليا و هو فى المدينة، و لقد أعجب كل من (برتلو الافرنسى) و (هولميارد الإنكليزى) بالمعلومات التى تسند إلى جابر. إلى آخر ما ذكره فى تصحيح نسبة اتصال جابر بالإمام جعفر عليه السّلام و لا نتعرض لأكثر من هذا فلسنا من أهل الاختصاص فيما اختص به جابر بن حيان، و إنما تعرضنا له على سبيل الإشارة و الاستطراد. و إذا تأملنا أغراض المستشرقين فلا نستغرب منهم هذه المحاولات للتشكيک و هى لا تنال من الحقيقة و إن من أول الشخصيات التى اشتغلت بالكيمياء فى الإسلام هو جابر و قد أثر فى الكيمياء الأوربية و كان انتسابه إلى جامعة الإمام الصادق هو الأساس فى هذه المكانة.

الفرق:

لما كانت مدرسة الإمام جامعة للعلوم، و لم يكن هناک منهج خاص للمسائل التى يسأل فيها، بل كان تارة يسأل عن مختلف العلوم و المسائل المشكلة فيحلها، و يبتدئ تارة فيهدى قلوبا متنكبة عن جدد الطريق، و تارة يجتمعون حواليه فيحدثهم عن آبائه عن جده فيما يصلح لمعادهم و معاشهم و ربما يملى و يكتب الكتاب فى أهم مسائل علم الكلام و الحديث، لذلک كانت مدرسته موضع عناية المفكرين يقصدها زعماء الفرق، فكان الإمام يناظرهم، و قد اجتمع بكثير منهم فى العراق و مكة، فكانوا يخضعون لعذوبة منطقه، و حسن بيانه و قوة حجته، و قدرته الفائقة فى التوجيه، لاتساع علمه، و ساطع برهانه. و قد حضر عنده كثير من أهل الآراء و المعتقدات المنحرفة فهدى اللّه به بعضا منهم و تعنت آخرون. و سنشير إلى ذكر الفرق فى عصره و مناظراته معهم و اهتمامه العظيم فى اعتدال اعوجاج طرقهم، و إن كان ذكرهم هنا أجدر، و لكن ضيق المجال أرغمنا على تأخيره، لذلک أشرنا إليه. بقيت أمور كثيرة تتعلق بمدرسة الإمام الصادق عليه السّلام، و تعاليمه و حديثه و تلامذته، و العلوم التى كان يتلقاها الناس عنه. و قد التزمنا فى جميع الأجزاء أن يكون

بحثنا عن الإمام الصادق عليه السّلام بدءا و ختاما و إلى اللقاء فى الأجزاء القادمة و من اللّه التوفيق. كما أننا لم نتعرض فى بحثنا عن حياة الإمام الصادق عليه السّلام، لسلسلة الآباء و الأمهات، لأنا فى غنى عن ذلک فنسبه أجلى من الشمس، و التعرض له يستدعى الخروج عن الموضوع، لما يتعلق بحياة آبائه الطاهرين، و بيان مآثرهم، و لم يكن هناک شىء من الغموض و الخفاء، لنحاول إيضاحه و بيانه. على أن بقية من التزمنا بالبحث عنهم فى هذا الكتاب من رؤساء المذاهب قد كثر الاختلاف فى آبائهم و ولادتهم بالزمان و المكان، و التاريخ لم يحتفظ لآبائهم إلا بالاسم فقط، و قد مرت الإشارة إلى الاختلاف فى نسب أبى حنيفة، و سيأتى البيان عند ذكر الباقين. و على أى حال فإنا لا نتعرض لذكر نسب الإمام الصادق عليه السّلام هنا، و نعترف بالعجز عن إعطاء البحث عنهم حقه، لاتساع دائرته و أنه يستدعى الإطالة فى هذا الكتاب (1)و لهذا فقد اقتصرنا على الإشارة و البيان الموجز عن حياة أبيه الإمام الباقر عليه السّلام إذ البحث عن حياته من صميم الموضوع. لأنه قد تربى فى ظله، و غذاه بعلومه، و اختص بتربيته و تعليمه، فلننتقل إلى البحث عن حياة الإمام الباقر عليه السّلام موجزين فى القول مهما ساعدنا الإيجاز و رافقنا الاختصار.

1- 1) أفردنا ترجمة الإمام الصداق عليه السّلام مع ذكر سلسلة الآباء و الأبناء فى كتاب منفرد يختص بحياته و هو مخطوط.

الإمام الصادق

اشارة

فی ظل أبیه الباقر

تمهید:

ذکرنا فیما مضی أن الإمام الصادق قد تلقی علومه عن جده زین العابدین و أبیه الباقر علیه السّلام و قضی شطرا من حیاته فی ظلهما و تحت عنایتهما و هو وصی أبیه و القائم بأعباء الإمامة من بعده. و لا نستطیع هنا أن نعطی موضوع البحث عن حیاة الإمام الباقر علیه السّلام حقه، بل نقتصر علی الإشارة فیما یتعلق بمکانته، و قیامه بالإصلاح و توجیه الأمة، و ذکر بعض تلامذته و رواة حدیثه من کبار التابعین و غیرهم. فإن حیاته حافلة بأعمال جلیلة و مآثر عظیمة، فقد فتحت فی عصره معاهد العلم، و عقدت فیه مجالس البحث عن العرفان و الأدب و سائر العلوم، و کانت حلقة درسه فی المدینة تضم کبار التابعین و أعیان الفقهاء، و لا تعقد أی حلقة هناک إلا بعد انتهاء حلقة درسه، و أقبلت الوفود تحج إلی مغناه و تهتدی بهدیه، یستبقون إلی انتهال تعالیم جده، فهو ینطق بلسانه و یحکم بشریعته و ینزه الدین الإسلامی عن فتاوی علماء السوء المتزلفین للسلطة، الناعمین بخیراتها و النافخین ببوقها. و قد أوجد فی عصره حرکة و نشاطا للعلم، و مرکزا للحیاة الفکریة و الاجتماعیة، و التفّ حوله طلاب العلم و رواد الحقیقة، رغم تلک العقبات التی یواجهها المتصل بأهل البیت، و قد اجتازوا مراحل الخطر بقوة الإیمان و رسوخ العقیدة.

الإمام الباقر:

اشارة

أبو جعفر محمد بن علی بن الحسین بن علی بن أبی طالب علیهم السّلام. ولد فی

المدينة سنة 57 ه و توفى سنة 114 هفيكون عمره 57 سنة على رواية الشيخ المفيد فى الإرشاد (1)و وافقه ابن كثير فى النهاية و ابن الأثير فى تاريخه، و قال المسعودى: إنه توفى فى أيام الوليد. و على أى حال فإن الإمام الباقر عليه السّلام أدرك جده الحسين و شاهد وقعة الطف المحزنة، و أقام معه ثلاث سنين أو أربع سنين، و مع أبيه زين العابدين أربعا و ثلاثين سنة، و بعد أبيه تسع عشرة سنة و قيل ثمانى عشرة سنة، و عاشر من ملوك عصره معاوية بن أبى سفيان المتوفى سنة 60 ه، و يزيد بن معاوية، و معاوية بن يزيد، و مروان بن الحكم، و عبد الملك بن مروان، و الوليد بن عبد الملك، و سليمان بن عبد الملك، و عمر بن عبد العزيز، و يزيد بن عبد الملك. و توفى سنة 114 ه كما عليه الأكثر فى خلافة هشام بن عبد الملك مسموما.

كنيته و لقبه:

يكنى بأبى جعفر الأول، و يلقب بالباقر لأنه تبحر فى العلم و أخرج غوامضه. قال صاحب القاموس: و الباقر محمد بن على بن الحسين رضى اللّه عنهم لتبحره فى العلم (2). و قال محمد بن المكرم: التبقر التوسع فى العلم و المال، و كان يقال لمحمد بن على بن الحسين بن على: الباقر رضوان اللّه عليهم، لأنه بقر العلم و عرف أصله و استنبط فرعه (3). و قال الدميرى: بقر مأخوذ من الشق، و منه قيل لمحمد بن على: الباقر لأنه بقر العلم أى شقه و دخل فيه مدخلا عظيما (4). و قال أبو الفداء: و قيل له الباقر لتبقره فى العلم أى توسعه فيه و ولد الباقر سنة 57 ه (5).

1- 1) الإرشاد ص 241 و [1]تاريخ ابن كثير ج 9 ص 84 و ابن الأثير ج 5 ص 84. [2]

2- 2) القاموس المحيط ج 1 ص 376. [3]

3- 3) لسان العرب ج 5 ص 140 [4] ط 1.

4- 4) حياة الحيوان ج 1 ص 147. [5]

5- 5) تاريخ أبو الفداء ج 1 ص 215. [6]

و قال الذهبی فی ترجمة الإمام الباقر: کان سید بنی هاشم، فی زمانه، اشتهر بالباقر من قولهم بقر العلم یعنی شقه فعلم أصله و خفیه (1)و ان أول من لقبه بذلک هو جده رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم. کما ورد عن جابر بن عبد اللّه الأنصاری المتوفی سنة 78 ه: أن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم قال له: یوشک أن تبقی حتی تلقی ولدا لی من الحسین یقال له محمد یبقر العلم بقرا فإذا لقیته فاقرأه منی السلام (2). و فی روایة الیعقوبی قال جابر بن عبد اللّه الأنصاری: قال لی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم: «إنک ستبقی حتی تری رجلا من ولدی أشبه الناس بی اسمه اسمی إذا رأیته فاقرأه منی السلام» . فلما کبر سن جابر و خاف الموت فجعل یقول یا باقر یا باقر! . . . (3). و قال أبو المظفر سبط ابن الجوزی: ذکر المدائنی عن جابر بن عبد اللّه أنه قال: کنت جالسا عند رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم و الحسین فی حجره و هو یداعبه فقال یا جابر: یولد مولود اسمه علی إذا کان یوم القیامة نادی مناد لیقم سید العابدین، فیقوم ولده ثم یولد له ولد اسمه محمد فإن أدرکته فاقرأه منی السلام (4). و بهذا رواه الشبلنجی عن الزبیر بن محمد بن مسلم (5). و فی عیون الأخبار لابن قتیبة: أن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم قال له: یا جابر إنک مستعمر بعدی حتی یولد مولود اسمه کاسمی یبقر العلم بقرا فإذا لقیته فاقرأه عنی السلام (6). و علی کل حال فقد کان هو المتفرد فی علوم الإسلام فی عصره، کما اتضح ذلک من سیرته عند دراسة حیاته، فإن له الأثر العظیم فی توجیه الفکر رغم ما هنالک من عوارض و موانع تقف أمام أداء رسالته. و قد تکتم التاریخ عن إظهار أکثر الحقائق التی کان الأجدر إظهارها و حفظها للأجیال.

1- 1) تذکرة الحفاظ ج 1 ص 117.

2- 2) القاموس المحیط فی هامش 376 ج 1، و الفصول المهمة لابن الصباغ ص 193. [1]

3- 3) تاریخ الیعقوبی ج 3 ص 61. [2]

4- 4) تذکرة الخواص ص 347 و [3]أحسن القصص للسید علی فکری ج 4 ص 380.

5- 5) نور الأبصار ص 143. [4]

6- 6) عیون الأخبار ج 1 ص 212. [5]

و استمرت سياسة التضييق على فكر أئمة أهل البيت عليهم السّلام يتبعها الحكام الظلمة و يسيرون عليها، فإن بنى أمية الذين ذاق الإمام الباقر عليه السّلام على أيديهم المرارة و حاول ملوكهم الأشرار الذين عاصروه الإساءة إليه و تطويق دائرة تأثيره لم ينته نهجهم بانتهاء حكمهم و سقوط عرشهم بل استأنف من جاء بعدهم ذات السياسة لأن أئمة آل البيت أصحاب رسالة ما وهنوا فى أدائها و لا استكانوا أمام ضغوط أصحاب السلطان الزمنى الذين رأوا أيضا فى مواقف أهل البيت تهديدا لجورهم و خطرا عليهم.

أقوال العلماء فيه:

«ما كنت أرى أن مثل على بن الحسين يدع خلفا يقارنه فى الفضل حتى رأيت ابنه محمد الباقر» . محمد بن المنكدر «ما رأيت العلماء عند أحد من العلماء أصغر علما منهم عند محمد بن على الباقر» (1). عبد اللّه بن عطاء «محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى اللّه عنه القرشى الهاشمى المدنى أبو جعفر المعروف بالباقر، سمى بذلک لأنه بقر العلم أى شقه فعرف أصله و عرف خفيه. و أمه أم عبد اللّه بنت حسن بن على بن أبى طالب و هو تابعى جليل، إمام بارع مجمع على جلالته، معدود فى فقهاء المدينة و أئمتهم، سمع جابرا و أنسا و سمع جماعات من كبار التابعين كأبى المسيب و ابن الحنفية و غيرهما، روى عنه أبو إسحاق السبيعى و عطاء بن رباح و عمر بن دينار الأعرج و هو أسنّ منه و الزهرى و ربيعة و خلائق آخرون من التابعين و كبار الأئمة، و روى له البخارى و مسلم» (2). محيى الدين بن شرف النووى المتوفى سنة 676 ه «أبو جعفر الباقر محمد بن زين العابدين على بن الحسين بن على بن أبى طالب رضوان اللّه عليهم، أحد الأئمة الاثنى عشر فى اعتقاد الإمامية و هو والد جعفر

1- 1) حلية الأولياء.

2- 2) تهذيب الأسماء و اللغات [1]لشرف الدين النووى.

الصادق، لقب بالباقر لأنه بقر العلم أی شقه و توسع فیه و یقول الشاعر: یا باقر العلم لأهل التقی و خیر من حج علی الأجبل

و قال عبد اللّه بن عطاء ما رأیت العلماء عند أحد أصغر علما منهم عند محمد بن علی. عاش رضی اللّه عنه ستا و خمسین سنة، و دفن فی البقیع مع أبیه» (1). عفیف الدین الیافعی المتوفی سنة 768 ه «أبو جعفر محمد الباقر بن علی بن الحسین بن علی بن أبی طالب ولد سنة 56 ه کان من فقهاء أهل المدینة، و قیل له الباقر، لأنه بقر العلم أی شقه و عرف أصله و توسع فیه، و هو أحد الأئمة الاثنی عشر علی اعتقاد الإمامیة. قال عبد اللّه بن عطاء: ما رأیت العلماء أصغر منهم علما عنده، و له کلام نافع فی الحکم و المواعظ. مات رضی اللّه عنه سنة 114 ه و دفن بالبقیع (2). أبو الفلاح عبد الحی بن العماد الحنبلی المتوفی سنة 1089 ه «محمد بن علی الباقر علیه السّلام، هو باقر العلم و جامعه و شاهر علمه و رافعه و متفوق دره و راضعه و منمق درره و راصعه، صفا قلبه و زکا عمله و طهرت نفسه و شرفت أخلاقه، و عمرت بطاعة اللّه أوقاته، و رسخت فی مقام التقوی قدمه، و ظهرت علیه سمات الازدلاف و طهارة الاجتباء، فالمناقب تسبق إلیه، و الصفات تشرف به، فأما ولادته فبالمدینة فی ثالث صفر من سنة سبع و خمسین للهجرة، قبل قتل جده الحسین بثلاث سنین، و له ألقاب ثلاث: باقر العلم و الشاکر، و الهادی، و أشهرها الباقر و سمی بذلک لتبقره فی العلم و هو توسعه فیه» (3). محمد بن طلحة القرشی العدوی الشافعی «أبو جعفر الباقر محمد بن علی بن الحسین الإمام الثبت الهاشمی العلوی روی عن أبیه و جابر بن عبد اللّه و أبی سعید و ابن عمر و عبد اللّه بن جعفر و عدة، و أرسل عن عائشة و أم سلمة و ابن عباس. حدث عنه ابنه جعفر بن محمد و عمر بن دینار و الأعمش و الأوزاعی و ابن جریح و قرة بن خالد و خلق، و کان سید بنی هاشم فی

1- 1) مرآة الجنان ج 1 ص 248. [1]

2- 2) الشذرات. [2]

3- 3) مطالب السئول ج 2 ص 50.

زمانه اشـتهر فی زمانه بالباقر من قولهم بقر العلم شـقه فعلم أصـله و خفیه، و عدّه النسائی و غیره فی فقهاء المدینة، مات سـنة 114 هو قیل 117 ه» (1). شـمس الدین الذهبی المتوفی سنة 748 ه «أبو جعفر البـاقر هو محمـد بن علی بن الحسـین بن علی بن أبی طالب القرشـی الهاشـمی أبو جعفر الباقر، و أمه أم عبد اللّه بنت الحسن بن علی، و هو تابعی جلیل، کبیر القدر، أحد أعلام هذه الأمة علما و عملا و سیادة و شـرفا. . . و سمی الباقر لبقره العلوم و استنباطه الحکم، کان ذاکرا خاشعا صابرا و کان من سلالة النبوة، رفیع النسب عالی الحسب، و کان عارفا بالخطرات، و کثیر البکاء و العبرات، معرضا عن الجدال و الخصومات» (2). عماد الدین أبو الفداء إسماعیل بن عمر بن کثیر «محمد بن علی بن الحسـین بن علی بن أبی طالب الهاشـمی أبو جعفر الباقر أمه بنت الحسن بن علی بن أبی طالب، روی عن أبیه و جدیه الحسن و الحسـین و جد أبیه علی بن أبی طالب مرسـلا. . . روی عنه ابنه جعفر و إسـحاق السبیعی و الأعرج و الزهری و عمر بن دینار، و أبو جهضم موسـی بن سـالم، و القاسم بن الفضل و الأوزاعی، و ابن جریـح، و شـیبة بن نصاح، و عبـد اللّه بن أبی بکر بن عمر بن حزم، و عبـد اللّه بن عطاء، و بسام الصـیرفی، و حرب بن سـریح، و حجاج بن أرطاة، و محمد بن سوقة و مکحول بن راشد، و معمر بن یحیی بن بسام و آخرون» (3). شـهاب الدین بن حجر «محمد بن علی بن الحسـین بن علی بن أبی طالب و هو والد جعفر الصادق و یقال له الباقر، سمی باقرا لتبحره فی العلم و هو الشق و التوسـعة، تابعی عدل ثقة، و إمام مشـهور، توفی سـنة 114 ه علی الأصـح و دفن مـع أبیه فی البقیع» (4). التلمسانی «محمد الباقر بن علی زین العابدین بن الحسین بن علی بن أبی طالب رضوان

1- 1) تذکرة الحفاظ ج 1 ص 117.

2- 2) البدایة و النهایة ج 9 ص 309. [1]

3- 3) تهذیب التهذیب ج 9 ص 210. [2]

4- 4) شرح الشفاء للخفاجی ج 1 ص 392. [3]

اللّه عنهم، ولد بالمدينة المنورة ثالث صفر سنة سبع و خمسين من الهجرة النبوية قبل قتل جده الحسين بثلاث سنين، و كنى أبو جعفر و لقب بالباقر لبقره العلم، يقال بقر الشيء فجره، سارت بذكر علومه الأخبار و أنشد فى مدائحه الأشعار، فمن ذلک قول مالک الجهنى: إذا طلب الناس علم القرآن كانت قريش عليه عيالا

و إن فاه فيه ابن بنت النبى تلقت يداه فروعا طوالا

نجوم تهلل للمدلجين فتهدى بأنوائهن الرجالا

و توفى الباقر فى المدينة المنورة سنة 117 ه و له من العمر ثمانية و خمسون سنة و قيل ستون، أقام منها مع جده الحسين ثلاث سنين، و مع أبيه زين العابدين 33 سنة و بقى بعد موت أبيه 19 سنة» (1). عبد اللّه بن محمد بن عامر «محمد بن على عليه السّلام: هو الباقر بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى اللّه عنهم أجمعين، سمى بالباقر من بقر الأرض أى شقها و أنار مخبآتها و مكامنها، فكذلک هو أظهر من مخبآت كنوز المعارف و حقائق الأحكام و الحكمة و اللطائف ما لا يخفى إلا على منطمس البصيرة، و من ثم قيل هو باقر العلم و جامعة و رافعه، صفا قلبه و زكا علمه و عمله و طهرت نفسه و شرف خلقه، و عمرت أوقاته بطاعة مولاه، و كنيته أبو جعفر لا غير، و ألقابه ثلاثة: الباقر، و الشاكر، و الهادى، و أشهرها الأول، و يكفيه ما رواه ابن المدينى عن جابر رضى اللّه عنه أنه قال له-و هو صغير-رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم: يسلم عليک، فقيل له و كيف ذلک؟ قال: كنت جالسا عنده و الحسين عليه السّلام فى حجره يداعبه فقال: يا جابر يولد له مولود اسمه على، إذا كان يوم القيامة نادى مناد ليقم سيد العابدين، فيقوم ولده، ثم يولد له ولد اسمه محمد فإن أدركته فاقرأه منى السلام» (2). محمد بن عبد الفتاح الحنفى «الباقر محمد بن على زين العابدين ابن الحسين الطالبى الهاشمى القرشى أبو

1- 1) الاتحاف ص 52. [1]

2- 2) جوهرة الكلام ص 132-135.

جعفر الباقر خامس الأئمة الاثنى عشر عند الإمامية: كان ناسكا عابدا، له فى العلم و التفسير آراء و أقوال، ولد فى المدينة و توفى بالحميمة» (1). الزركلى «محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين عليه السّلام، سمى به لأنه بقر العلم أى شقه فعرف أصله و خفيه، و له من الرسوخ فى مقام العارفين ما تكل عنه ألسن الواصفين، و له كلمات كثيرة فى السلوك و المعارف يعجز عن حكايتها الواصف. فمن كلامه: الصواعق تصيب المؤمن و غيره و لا تصيب ذاكر اللّه عزّ و جلّ. و قال: ما دخل قلب امرئ شيء من الكبر إلا نقص من عقله مثل ما دخله منه أو أكثر. و قال: ما من عبادة أفضل من عفة بطن و فرج، و قال: ليس فى الدنيا شيء أعون من الإحسان للاخوان، و قال: بئس الأخ يرعاك غنيا و يقطعك فقيرا، و قال: اعرف المودة فى قلب أخيك بما له فى قلبك. و كلامه من هذا المهيع كثير» (2). المناوى «أبو جعفر محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب بن عبد المطلب، و أمه أم عبد اللّه بنت الحسن بن على بن أبى طالب، فولد أبو جعفر: جعفر بن محمد و عبد اللّه بن محمد، و أمهما أم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق، و إبراهيم بن محمد، و أمه أم حكم بنت أسيد بن المغيرة بن الأخنس الثقفى، و على بن محمد و زينب بنت محمد، و أمهما أم ولد، و أم سلمة بنت محمد، و أمها أم ولد. . مات سنة 117 ه و هو ابن ثلاث و سبعين سنة. و قيل توفى سنة 118 ه، و قال أبو نعيم الفضل بن دكين: توفى بالمدينة سنة 114 ه، و كان ثقة كثير العلم و الحديث و ليس يروى عنه من يحتج به» (3). ابن سعد و حيث أخذنا على أنفسنا الإيجاز فى البيان، فلنترک بقية الأقوال و نكتفى بما ذكرنا لنأخذ صورة من صور حياته، و لسنا من المغالين إن قلنا إنه فريد عصره، و لا

1- 1) الاعلام ج 3 ص 932. [1]

2- 2) الكواكب الدرية ج 1 ص 164. [2]

3- 3) الطبقات الكبرى ج 5 ص 138. [3]

يـدانيه أحد فيما اختص به من مميزات تؤهله لأن يكون هو المرجع الوحيد. و باسـتطاعتنا أن نضع بين يدى القارئ أدلة كافية على ذلک. و لعل بهـذه الإشارة ما يكفينا عن التوسع فى الموضوع. و الشـىء الذى يلفت النظر هو قول ابن سـعد فى آخر كلمته عن الإمام الباقر: و ليس يروى عنه من يحتـج به. و هنا يجب أن نحاسب ابن سـعد و نسائله عن هـذا القول، فهو أمر يبعث على الاسـتغراب، و بعيـد كل البعـد عن الواقع، و تهجم على الحقيقة. فهل كان يقصد ابن سـعد أن جميع من روى عن الإمام الباقر لا يحتج به؟ كيف و قد روى عنه ثقات التابعين و علماء المسـلمين، و قد احتج أصـحاب الصحاح بتلک الروايات، و لـم يتوقف أحد عن قولها. و ليس من البعيد أن ابن سعد يقصد بكلمته هذه رواته من الشـيعة، فهم فى نظره غير ثقات، نظرا لنفسـيته و تصوراته الذهنية التى علقت به من إيحاء الأوهام، و عوامل السـياسة، و تدبير السـلطة ضـد شـيعة أهل البيت، أو مجاراة للظرف الـذى نشأ فيه. و إذا أردنا أن ندرس نفسـية ابن سـعد وجدنا انطباعات الانحراف جلية لا مجال للتشكيک فيها، و لا حاجة إلى إجراء الحساب مع ابن سعد بأكثر من هذا، و لكنا نضع بين يدى القارئ بعضا من رواة حديث الإمام البـاقر عليه السّـلام-من التـابعين و غيرهـم- ممن يعترف ابن سـعد بـأنهم ثقـات، كمـا ينص هو على أكثرهم فى طبقاته، و خرج حـديثهم أصحاب الصحاح لتظهر الحقيقة، فنعرف مقدار انحراف ابن سعد عن الحق و ابتعاده عن الواقع.

من تلامذته و رواة حديثه:

عمر بن دينار

عمر بن دينار الجمحى مولاهم أبو محمـد الكوفى الأثرم المتوفى سـنة 115 ه أحد الأعلام، و من رجال الصـحاح السـتة، روى عنه قتادة و شعبة و السفيانان و الحمادان و خلق. . . قال ابن معين: له خمسمائة حديث. قال مسعر: ثقة ثقة ثقة. و قال ابن أبى نجيح: ما كان عندنا أحد أفقه، و لا أعلم من عمر بن دينار. و زاد غيره و لا عطاء و لا طاوس. . .

عبد الرحمن:

عبد الرحمن بن عمر الأوزاعی المتوفی سنة 157 ه، أحد رؤساء المذاهب البائدة و من رجال الصحاح الستة (1).

عبد الملک:

عبد الملک بن عبد العزیز بن جریح الأموی، مولاهم أبو الولید المکی المتوفی سنة 150 ه. روی عنه یحیی بن سعید الأنصاری و السفیانان. و هو أحد الأعلام و احتج بحدیثه أصحاب الستة. قال أحمد: کان من أوعیة العلم (2).

قرة بن خالد:

قرة بن خالد السدوسی أبو خالد البصری المتوفی سنة 154 ه. له نحو مائة حدیث. و احتج به أصحاب الستة.

محمد بن المنکدر:

محمد بن المنکدر بن عبد اللّه القرشی التیمی أبو عبد اللّه المدنی المتوفی سنة 133 ه من أعلام التابعین. و احتج به أصحاب الصحاح الستة. قال ابن عیینة: کان من معادن الصدق یجتمع إلیه الصالحون. و قال الذهبی: مجمع علی تقدمه و ثقته.

یحیی بن کثیر:

یحیی بن کثیر أبو نصر الطائی مولاهم الیمامی المتوفی سنة 129 ه. قال شعبة: هو أحسن من الزهری. و قال أبو حاتم: ثقة لا یروی إلا عن ثقة (3). و هو من رجال الصحاح الستة و من الأعلام المشهورین.

الزهری:

أبو بکر محمد بن مسلم بن عبید بن شهاب الزهری المدنی المتوفی سنة 124 ه، روی عنه مالک بن أنس، و ابن أبی ذئب، و سفیان بن عیینة، و اللیث بن سعد، و الأوزاعی و غیرهم.

1- 1) الإمام الصادق و المذاهب الأربعة الجزء الأول. [1]

2- 2) طبقات الحفاظ ج 1 ص 160.

3- 3) طبقات الحفاظ ج 1 ص 131.

و هو من تلامذة الإمام زين العابدين و ولده الإمام الباقر عليه السّلام (1). و الزهری من کبار العلماء و ممن احتج به أصحاب الصحاح، و ستأتی ترجمته فی هذا الکتاب عند ترجمة أساتذة مالک.

ربیعة الرأی:

أبو عثمان ربیعة بن عبد الرحمن فروخ التیمی المتوفی سنة 136 ه، احتج به أصحاب الصحاح و هو من کبار شیوخ مالک بن أنس و من تلامذة الإمام الباقر علیه السّلام (2)و روی عنه الأوزاعی، و الثوری، و سلیمان بن بلال و غیرهم.

الأعمش:

أبو محمد سلیمان بن مهران الأسدی مولاهم الکوفی المتوفی سنة 148 ه أحد الأئمة الأعلام و رؤساء المذاهب البائدة و من رجال الصحاح الستة، و هو من تلامذة الإمام الباقر علیه السّلام (3).

عبد اللّه بن أبی بکر:

أبو محمد عبد اللّه بن أبی بکر بن عمر بن حزم الأنصاری المدنی المتوفی سنة 135 ه من رجال الصحاح الستة و من شیوخ مالک، و هشام بن عروة و السفیانان و غیرهم قال النسائی ثقة ثبت و قال مالک بن أنس: إنه رجل صدق کثیر الحدیث و قال ابن سعد: ثقة کثیر الحدیث (4).

زید بن علی:

زید بن علی بن الحسین بن علی بن أبی طالب أبو الحسین المدنی المتوفی سنة 122 ه. روی عن أبیه و أخیه محمد الباقر. و عنه الزهری و الأعمش و شعبة و سعید بن خیثم و إسماعیل السدی و زکریا بن أبی زائدة و عبد الرحمن بن الحارث بن عیاش و غیرهم، قتل سنة 122 ه، و قال ابن خلیفة سنة 121 ه، و قال مصعب الزبیری: قتل و هو ابن 42 سنة و بقی مصلوبا إلی

1- 1) تهذیب الأسماء و اللغات للنووی ج 1 ص 87.

2- 2) انظر تاریخ الإسلام للذهبی 4-299. [1]

3- 3) الإمام الصادق و المذاهب الأربعة. الجزء الأول. [2]

4- 4) انظر تهذیب التهذیب 5-164 و [3]تاریخ الإسلام 5-364. [4]

سنة 126 ه. قال ابن أبی الدنیا: حدثنی محمد بن إدریس حدثنا العتکی عن جریر بن حازم أنه رأی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم متساندا إلی جذع زید بن علی و زید مصلوب، و هو یقول للناس: هکذا تفعلون بولدی (1). و لزید بن علی منزلة عند الأئمة علیهم السّلام و قد أخذ العلم عن أبیه زین العابدین و أخیه الباقر، و له کتاب فی الفقه «و قد اکتشف «جرفینی» بین المخطوطات القیمة فی المکتبة الامبروزیة بمیلانو-الخاصة ببلاد العرب الجنوبیة-مختصرا فی الفقه اسمه (مجموعة زید) المتوفی سنة 122 ه(740) م و هو منسوب إلی مؤسس فرقة الزیدیة من الشیعة» (2).

موسی بن سالم:

موسی بن سالم أبو جهضم مولی آل العباس. روی عنه عطاء بن السائب و هو من أقرانه، و لیث بن أبی سلیم، و الثوری، و الحمادان و غیرهم، وثقه أحمد و ابن معین و أبو زرعة، و أبو حاتم، و قال ابن عبد البر: لم یختلفوا فی أنه ثقة (3).

موسی الحناط:

موسی بن أبی عیسی الحناط أبو هرون المدنی، روی عنه اللیث بن سعد و ابن عیینة، و یحیی القطان و غیرهم، وثقه النسائی و ابن حبان، و روی له البخاری و مسلم و أبو داود و ابن ماجة.

القاسم بن الفضل:

أبو المغیرة القاسم بن الفضل بن معدان الحدانی المتوفی سنة 167 ه خرج حدیثه البخاری فی الأدب المفرد، و مسلم فی صحیحه و الأربعة، وثقه القطان و أحمد و روی عنه ابن مهدی، و وکیع و آخرون (4).

القاسم بن محمد:

القاسم بن محمد بن أبی بکر التیمی أبو محمد المدنی المتوفی سنة 106 ه

1- 1) تهذیب التهذیب ج 3 ص 420. [1]

2- 2) تمهید لتاریخ الفلسفة الإسلامیة ص 200.

3- 3) تهذیب التهذیب ج 10 ص 344. [2]

4- 4) تاریخ الإسلام للذهبی ج 4 ص 299. [3]

أحد الفقهاء السبعة و أحد الأعلام، و من رجال الصحاح الستة، قال ابن سعد: كان ثقة عالما فقيها إماما كثير الحديث.

محمد بن سوقة:

محمد بن سوقة روى عنه مالک بن مغول، و الثوری و ابن المبارک و أبو معاوية و عبد الرحمن بن محمد المحاربی، و إسماعيل بن زكريا، و مروان بن معاوية و أبو المغيرة النضر بن إسماعيل، و عطاء بن مسلم الخفاف و ابن عيينة و علی بن عاصم الواسطی و غيره. قال محمد بن عبيد: سمعت الثوری يقول: حدثنی الرضا محمد بن سوقة و قال الحسين بن حفص: قال الثوری: أخرج إليكم كتاب خير رجل بالكوفة، فأخرج كتاب محمد بن سوقة، و قال العجلی: كوفی ثقة. و قال أبو حاتم: صالح الحديث. و قال النسائی: ثقة مرضی، و ذكره ابن حبان فی الثقات، و قال: كان من أهل العبادة و الفضل و الدين، و قال الدار قطنی: كوفی فاضل ثقة (1). خرج حديثه أصحاب الصحاح الستة. قال ابن المدينی له ثلاثون حديثا. و قال ابن عيينة: كان لا يحسن أن يعصی اللّه تعالی.

حجاج:

حجاج بن أرطاة بن ثور بن شراجيل النخعی الكوفی القاضی المتوفی سنة 145 ه. روی عنه شعبة، و هشيم و ابن نمير، و الحمادان و الثوری و حفص بن غياث، و غندر، و أبو معاوية، و يزيد بن هرون و خلق كثير. و أخرج له مسلم فی صحيحه، و البخاری فی الأدب المفرد و الأربعة. قال ابن عيينة: سمعت ابن أبی نجيح يقول: ما جاءنا منكم مثله يعنی الحجاج. و قال الثوری: عليكم به فإنه ما بقی أحد أعرف بما يخرج من رأسه منه. و قال العجلی: كان فقيها، و كان أحد مفتی الكوفة (2).

1- 1) تهذيب التهذيب ج 9 ص 210. [1]

2- 2) تهذيب التهذيب ج 2 ص 196. [2]

معروف:

معروف بن خربوذ الكوفی مولی عثمان روی عن الباقر و هو من خواصه: و عنه وكيع، و أبو داود الطيالسی و أبو بكر بن عياش و عبد اللّه بن داود و أبو عاصم و غيرهم، و خرج له البخاری، و مسلم، و أبو داود، عده ابن حاتم فی الثقات، و قال الساجی: صدوق (1). و هو غير معروف بن خربوذ المعروف بالكرخی فإنه كان من أصحاب الإمام الرضا عليه السّلام و توفی سنة 200 ه. و غير هؤلاء من علماء الأمة الذين حضروا عند الإمام الباقر عليه السّلام و رووا عنه ممن لا يمكننا بسط القول فی تراجمهم أمثال: أبو حنيفة النعمان ثابت الكوفی المتوفی سنة 150 ه و قد جاءت رواياته عن الإمام الباقر عليه السّلام و ولده الإمام الصادق فی كتب مناقبه و جامع مسانيده و غيرها. و منهم شيبة بن نصاح القارئ المدنی القاضی المتوفی سنة 130 ه (2). و أسلم المنقری أبو سعيد الكوفی المتوفی سنة 142 ه. و محمد بن إسحاق بن يسار أبو بكر المطلبی مولاهم المدنی المتوفی سنة 151 ه و صاحب المغازی (3). و عبد اللّه بن عطاء المدنی الطائفی من رجال الصحاح و من شيوخ إسحاق، و شعبة، و الثوری و غيرهم. و عروة بن عبد اللّه بن قشير أبو مهل الجعفی، روی عنه الثوری، و زهير بن معاوية و غيرهما، و خرج حديثه أبو داود، و ابن ماجة، و الترمذی فی الشمائل (4). و عبد اللّه بن حبيب بن أبی ثابت قيس بن دينار الأسدی مولاهم الكوفی خرج حديثه مسلم و النسائی فی الخصائص، و روی عنه الثوری، و وكيع، و ابن المبارک و غيرهم (5).

1- 1) الخلاصة ص 327.

2- 2) التقريب لابن حجر ج 1 ص 257. [1]

3- 3) تذكرة الحفاظ ج 1 ص 163.

4- 4) الجرح و التعديل ج 3 ص 197.

5- 5) الجرح و التعديل ج 2 قسم 2.

و قـد ذكر ابن أبى حاتم الرازى فى كتابه الجرح و التعـديل و ابن حجر فى التهذيب، و الخزرجى فى خلاصة تذهيب الكمال و غيرهم عددا وافرا من تلامذة الإمام الباقر عليه السّلام تركنا ذكرهم لضيق المجال.

أصحاب الإمام الباقر و رواة حديثه من الشيعة

اشارة

أما أصحابه و رواة حديثه من الشيعة فكثيرون منهم:

أبان بن تغلب:

أبان بن تغلب الربعى أبو سـعد الكوفى المتوفى سنة 141 ه كان من تلامـذة السـجاد و الباقر و الصادق، و أمره أبو جعفر الباقر أن يجلس فى مسجد المدينة و يفتى الناس، و قال له: فإنى أحب أن أرى فى شيعتى مثلك. و قد خرج حديثه مسلم فى صحيحه و الترمذى و النسائى و أبو داود و ابن ماجـة، وثقه أحمـد و ابن معين و النسـائى و أبو حاتم، و قال ابن عـدى: له نسـخ عامتها مسـتقيمة إذا روى عنه ثقـة و هو من أهل الصـدق و فى الرواية صالح لا بأس به، و إن كان مذهبه مذهب الشـيعة، و قال ابن سـعد: كان ثقة. و قال الذهبى ثقة ثقة. . . إلى آخر ما هو موجود فى مدحه و الثناء عليه (1)و له كتب فى التفسير و علم القراءة و الفرائض، و كان يحفظ ثلاثين ألف حديث عن الصادق فقط.

بريد العجلى:

بريد بن معاوية أبو القاسم العجلى المتوفى سنة 148 ه، كان من حوارى الإمام الباقر و الصادق عليه السّلام و روى عنهما. قال الكشى: هو ممن اتفقت العصابة على تصديقه، و قال العلامة الحلى: هو وجه من أصحابنا ثقة فقيه ممن اتفقوا على تصديقه و انقادوا له بالفقه. و قد ورد مـدحه عن الأئمة عليهم السّلام، و قد بلغ عندهم حدا فوق الوثاقة، لجلالة قدره و عظيم شأنه. روى داود بن سـرحان قال سـمعت الصادق عليه السّلام يقول: إن أصحاب أبى كانوا زينا أحياء و أمواتا، أعنى: زرارة بن أعين، و محمد بن مسلم، و منهم ليث المرادى،

---

1 - 1) تهـذيب التهذيب، و [1]لسـان الميزان، و ميزان الاعتـدال، و الخلاصـة و الفهرسـت ص 308 و [2]الإمام الصادق و المـذاهب الأربعة-الجزء الأول. [3]

و برید العجلی. . . إلی غیر ذلک من أقواله فی خواص أصحابه و أصحاب أبیه.

بکیر بن أعین:

بکیر بن أعین الشیبانی، أخو زرارة بن أعین، من أصحاب الباقر و الصادق، و مات فی حیاة الصادق علیه السّلام، و لما بلغه خبر موته قال: أما و اللّه لقد أنزله اللّه بین رسوله و أمیر المؤمنین، و ذکره یوما فقال: رحم اللّه بکیرا، و هو من ثقات أولاد أعین و صلحائهم.

أبو حمزة الثمالی:

أبو حمزة الثمالی ثابت بن دینار، روی عن علی بن الحسین و الباقر و الصادق علیهم السّلام و بقی إلی أیام الکاظم علیه السّلام و کان عظیم المنزلة، جلیل القدر، روی عنه سفیان الثوری، و شریک، و حفص بن غیاث، و أبو أسامة. و عبد الملک بن أبی سلیمان، و أبو نعیم، و وکیع، و عبید اللّه بن موسی. و خرج حدیثه الترمذی، و ابن ماجة، و النسائی فی خصائص علی. و قد ورد مدحه عن الأئمة، و هو راوی دعاء علی بن الحسین الذی یقرأ سحر شهر رمضان المعروف بدعاء أبی حمزة الثمالی.

جابر الجعفی:

جابر بن یزید بن الحارث بن عبد یغوث الجعفی، أبو یزید الکوفی المتوفی سنة 128 ه، روی عنه شعبة، و الثوری، و إسرائیل، و الحسن بن حی، و شریک، و مسعر، و معمر، و أبو عوانة، و خرج حدیثه أبو داود، و الترمذی، و ابن ماجة. قال ابن مهدی: ما رأیت فی الحدیث أورع منه. و قال ابن علیة: جابر صدوق فی الحدیث. و قال یحیی بن أبی بکیر عن شعبة: کان جابر إذا قال حدثنا و سمعت، فهو من أوثق الناس. و قال وکیع: مهما شککتم فی شیء فلا تشکو فی أن جابرا ثقة، و قال ابن عبد الحکم: سمعت الشافعی یقول: قال سفیان الثوری لشعبة: لئن تکلمت فی جابر الجعفی، لأتکلمن فیک. و کان جابر یحفظ مائة ألف حدیث (1).

1- 1) تهذیب التهذیب ج 2 ص 48. [1]

هكذا وصفه معاصروه، و هكذا نقلوا عنه. و قد كانت له منزلة فى الكوفة، و انتشر حديثه، و أخذ عنه العلماء. و بعد أن تطور الزمن و ظهرت الآراء، وهبت زوبعة الخلاف، و اشتد النزاع بين العرب و الموالى، أو بين أهل الحديث و أهل الرأى، و بدا فى أفق السياسة عامل التفرقة، أصبح جابر لا يؤخذ بقوله، و رماه غير واحد بالكذب و كانت كلماتهم مشوشة، و أدلتهم على تكذيبه واهية و لم يدعموها بحجة، و لقد ظهر من أبى حنيفة القول بتكذيب جابر، لأن جابرا عارض أهل الرأى. و انتصر لأهل الحديث، و بالطبع أن ذلك يصعب عليهم. يقول أبو يحيى الحمانى: قال أبو حنيفة: «ما لقيت فى من لقيت أكذب من جابر ما أتيته بشىء من رأيى إلا جاءنى فيه بأثر» . هذا هو استدلال أبى حنيفة على تكذيب جابر، و هو كما ترى، لأن أبا حنيفة قليل الحديث، و لم يكن من أهله حتى قيل: إنه لم يحفظ أكثر من سبعة أحاديث. و بالطبع إنه يستغرب كثرة أحاديث جابر، لأنه يحفظ مائة ألف حديث، على أن ذلك العصر قد تطلعت به رءوس الموالى، و بدأت عوامل الفرقة و أنصار أبى حنيفة يأخذون قوله بعين الاعتبار، فوسعوا تلك الدائرة، فكثرت كلمات الذم له جريا مع الظروف و خضوعا لعوامل الخلاف. و روى أن بعضهم رأى أحمد بن حنبل معه كتاب (زهير عن جابر) و هو يكتبه فقال: يا أبا عبد اللّه: تنهوننا عن حديث جابر (الجعفى) و تكتبونه؟ ! فقال الإمام أحمد: نعرفه (1)و أدنى ما يفهم من كلمة أحمد أن يطلع على ما لدى جابر لشهرته. و قد قال الإمام الصادق عليه السّلام فى مدحه: رحم اللّه جابرا كان يصدق علينا، و لعن اللّه المغيرة، كان يكذب علينا. و روى الكشى فى رجاله روايات كثيرة دالة على مدحه، و له أصل يرويه الشيخ الطوسى عن ابن أبى جيد عن ابن الوليد، كما انه يذكر له كتابا فى التفسير (2). و على أى حال فإن الأمر لا يحتاج إلى مزيد بيان، لتلك العوامل التى أدت إلى تكذيبه من قبل بعض رجال عصره و بعد عصره. و قد كان يكثر روايته عن أهل البيت، و يقول عند ما يحدّث عن الإمام الباقر: حدثنى وصى الأوصياء. و هو أمر يعظم تحمله فى عصر تقرب الناس لولا تهم بالابتعاد عن أهل البيت، لذلك رأينا كثيرا من رجال

1- 1) المجروحين لابن حبان ج 1 ص 203.

2- 2) الفهرست للشيخ الطوسى ص 45.

الحديث تركوا الرواية عنهم: إما خوفا على أنفسهم، أو تقربا لسلطانهم.

محمد بن مسلم:

محمد بن مسلم بن رياح أبو جعفر الكوفى الثقفى، مولاهم المتوفى سنة 150 ه-عن سبعين سنة. روى عن الإمام الباقر و ابنه الصادق، و قد أجمعت العصابة على تصحيح ما يصح عنه. و كان المثل الأعلى فى الصلاح و الطاعة و العلم، و قد حفظ عن الإمام الباقر ثلاثين ألف حديث، و عن الإمام الصادق ستة عشر ألف حديث. و له كتاب يسمى الأربعمائة مسألة فى أبواب الحلال و الحرام. قال عبد اللّه بن أبى يعفور: قلت لأبى عبد اللّه: إنه ليس كل ساعة ألقاك، و لا يمكن القدوم إليك، و يجىء الرجل من أصحابنا فيسألنى، و ليس عندى كل ما يسألنى عنه. قال فما يمنعك عن محمد بن مسلم الثقفى؟ فإنه قد سمع من أبى، و كان عنده وجيها. و دعى لأداء شهادة عند شريك القاضى هو و أبو كريبة الأزدى، فقال ابن أبى ليلى: جعفريان فاطميان. ورد شهادتهما، فقال محمد بن مسلم لشريك: نسبتنا لأقوام لا يرضون بأمثالنا، و لرجل لا يرضى بأمثالنا أن نكون من شيعته، فإن تفضل و قبلنا فله المن علينا و الفضل. فتبسم شريك ثم قال: إذا كانت الرجال فلتكن أمثالكم. و سئل أبو حنيفة صاحب الرأى عن مسألة الحامل التى تموت و الولد يتحرك فى بطنها، و يذهب و يجىء، فقال للسائل: عليك بمحمد بن مسلم الثقفى، فإنه يخبرك فيها. و دخل عليه شريك القاضى و عنده امرأة تسأله عن امرأة ضربها الطلق، فما زالت تطلق حتى ماتت، و الولد يتحرك فى بطنها و يذهب و يجىء فما أصنع؟ فقال محمد بن مسلم: يا أمة اللّه سئل محمد بن على بن الحسين الباقر عن مثل ذلك، فقال: يشق بطن الميت، و يستخرج الولد. فقالت: رحمك اللّه جئت إلى أبى حنيفة صاحب الرأى أسأله، فقال: ائتى محمد بن مسلم. . . و لما ردّ ابن أبى ليلى شهادة محمد بن مسلم، أرسل الإمام الصادق من يسأل ابن أبى ليلى عن مسائل يعجز عن حلها، و قال قل له، إذا عجز عن ذلك، يقول لك جعفر بن محمد: ما حملك على أن رددت شهادة رجل أعرف منك بأحكام اللّه و سنة

رسوله صلّى اللّه عليه و آله و سلم؟ فلما صار الرجل إليه و سأله فلم يجب و بلّغه قول الإمام الصادق، قال ابن أبى ليلى: من هو؟ قال هو محمد بن مسلم الثقفى. فلم يرد شهادته بعدها. و كان محمد بن مسلم رجلا موسرا جليلا فى قومه، و له منزلة عظيمة. و أقام بالمدينة أربع سنين يتعلم العلم من الإمام الباقر.

حمران بن أعين:

حمران بن أعين الشيبانى مولاهم الكوفى، روى عن الباقر و الصادق عليه السّلام و كان الإمام الباقر يقول فيه: حمران من المؤمنين حقا لا يرجع أبدا. و كانت له منزلة عندهم، و كان فقيها عالما بعلوم القرآن و اللغة و النحو و علم الكلام.

زرارة:

زرارة بن أعين الشيبانى أبو الحسن المتوفى سنة 150 ه-من مشاهير رجال الشيعة، فقها و حديثا و معرفة بالكلام، اجتمعت فيه خلال الفضل و الدين، و هو من أصحاب الباقر و الصادق عليهم السّلام، قال النجاشى: شيخ أصحابنا فى زمانه و متقدمهم و كان قارئا فقيها متكلما شاعرا أديبا، قد اجتمعت فيه خلال الفضل و الدين، و قال أبو غالب كما حكى عنه: إن زرارة كان وسيما جسيما أبيض، فكان يخرج إلى الجمعة و على رأسه برنس أسود و بين عينيه سجادة، و فى يده عصى فيقوم الناس سماطين ينظرون إليه لحسن هيئته فربما رجع من طريقه، و كان خصما جدلا لا يقوم بحجته، صاحب إلزام و حجة قاطعة إلا أن العبادة أشغلته عن الكلام، و المتكلمون من الشيعة تلاميذه. و قيل لجميل بن دراج: ما أحسن محضرك و أزين مجلسك! فقال: أى و اللّه ما كنا حول زرارة بن أعين إلا بمنزلة الصبيان حول المعلم. و دخل الفيض بن المختار على الإمام الصادق عليه السّلام فسأله عن الاختلاف فى الحديث فأجابه الإمام بعد كلام طويل: إذا أردت حديثنا فعليك بهذا الجالس و أشار إلى زرارة بن أعين. و قال سليمان بن خالد الأقطع: سمعت أبا عبد اللّه يقول: ما أجد أحدا أحيا ذكرنا و أحاديث أبى إلا زرارة و أبا بصير المرادى، و محمد بن مسلم، و بريد بن معاوية العجلى. و فى الفصول المهمة للحر العاملى بإسناده، ان الإمام الصادق قال: بشّر

المخبتين بالجنة بريد بن معاوية العجلى و أبو بصير ليث بن البخترى المرادى و محمد بن مسلم و زرارة أربعة نجباء أمناء اللّه على حلاله و حرامه لو لا هؤلاء انقطعت آثار النبوة و اندرست. و قوله عليه السّلام: رحم اللّه زرارة لو لا زرارة و نظراؤه لاندرست أحاديث أبى عليه السّلام. و قد تحمل زرارة فى سبيل دفاعه عن أهل البيت و نشر أحاديثهم ما يتحمله أمثاله من حملة العلم و المخلصين فى الدعوة إلى آل الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و قد تقوّل عليه خصومه أقوالا و انتحلوا له آراء حتى بلغ ذلك الإمام جعفر بن محمد عليه السّلام فقال: أنا أبرأ ممن يقول ذلك، فأظهر خصومه تلك المقالة و أشاعوها عليه ليحطوا من مقامه، فالتجأ آل زرارة إلى كشف الحال من الإمام الصادق. دخل حمزة بن حمران على الإمام الصادق عليه السّلام فقال: يا أبا عبد اللّه بلغنى أنك برئت من عمى «يعنى زرارة» فقال عليه السّلام: أنا لم أبرأ من زرارة و لكنهم يجيؤون و يذكرون و يروون عنه فلو سكت ألزمونيه فأقول: من قال هذا أنا برىء منه. و قال الحسين بن زرارة: يا أبا عبد اللّه إن أبى يقرأ عليك السلام و يقول لك: جعلت فداك لا يزال الرجل و الرجلان يقدمان فيذكران أنك قلت فىّ. فقال أبو عبد اللّه: اقرأ أباك السلام و قل له: أنا و اللّه أحب لك الخير فى الدنيا و أحب لك الخير فى الآخرة، و أنا و اللّه عنك راض. إلى كثير من الأقوال فى مدحه الدالة على جلالة قدره و عظيم منزلته. قال الشيخ الطوسى: و لزرارة مصنفات منها كتاب الاستطاعة و الجبر. و قال ابن النديم: و زرارة من أكبر رجالات الشيعة فقها و حديثا و معرفة بالكلام و التشيع، و من ولده الحسين بن زرارة و الحسن بن زرارة من أصحاب جعفر بن محمد. و من تتبع كتب الحديث يقف على حقيقة أمره و علو منزلته فى العلم و حرصه الشديد على أخذ الأحكام من أهل بيت الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلم.

عبد الملك بن أعين:

عبد الملك بن أعين الشيبانى مولاهم الكوفى، روى عنه السفيانان و غيرهما و خرج حديثه البخارى و مسلم و أبو داود و الترمذى و ابن ماجة و النسائى، روى عن

الإمام الباقر و الصادق، و كان له عنـد الإمام الصادق درجة، و لما بلغه خبر وفاته ترحم عليه و دعا له، و كان من التابعين و حفاظ الحديث. قال أبو حاتم محله الصـدق و من عتق الشـيعة يكتب حـديثه. و قال ابن حجر (1): عبد الملک بن أعين مولى بنى شـيبان صدوق شـيعى. و حيث قـد أخذنا على أنفسـنا الاختصار فلا يمكننا أن نتوسع بأكثر مما ذكر من رواة حديثه عليه السّلام و قد جمعنا منهم أكثر من ثلاثمائة رجـل. و عسانا نوفق لإبراز كتاب خاص فى حياة الإمام الباقر فنـذكرهم هناک، كما و انا لم نتعرض لـذكر المؤلفين من أصـحابه و عـددهم ينوف على المائة. أما التفسـير المنسوب إلى الإمام الباقر عليه السّلام و الذى يرويه عنه زياد بن المنذر أبو الجارود فقد ذكره الشيخ الطوسى فى الفهرست و رواه عنه بطريقين، كما ذكره صاحب الذريعة و ابن النديم فى الفهرست و غيرهم (2).

مدرسة الإمام الباقر:

اشارة

رأينـا كيف انهـال رجـال العلم من التـابعين و غيرهم على مدرسـة الإمام الباقر عليه السّلام مع وجود تلک الخطط التى ضـربها الأمويون ليصـرفوا الناس عن أهل البيت، و تقـدموا بالتهديد و التوعيد و حذروا من خالف ذلک، و أظهروا كوامن الحقد و قديم الخصومة و لا يروق لهم أن يـذكرهم أحـد بخير، و قاموا إلى جانب ذلک بالمغريات الخداعـة من بـذل المال و إسـناد الوظائف لمن عرفوا منه الانحراف عن آل محمد صـلّى اللّه عليه و آله و سلم. و لكن تلک الخطط التى ساروا عليها لم تنجح النجاح المطلوب فاجتاز أكثر المسلمين تلک العقبات، و حفظوا لأهـل البيت منزلتهم و عرفوا مقـامهم و مـا وهبهم اللّه من علوم هم أحوج مـا يكونوا إليها، فتحملوا-فى سبيل أخـذ العلم و نشـر الأحكام فى جميع الأقطار-مصاعب و واجهوا محنا و لكنها تهون عليهم فى سبيل نصرة الحق و إظهار الحقيقة.

1- 1) التقريب لابن حجر ص 249. [1]

2 - 2) و قـد حققه الأسـتاذ المحـامى شـاكر الغربـاوى فى كتـابه حيـاة الباقر الجاهز للطبع و أثبت ذلک من عـدة طرق كما أنه وقف على معلومات كافية حول التفسير و استحصل جملا منه.

و قـد نشأ الإمام الباقر فی عصـر قوة الدولـة و امتداد سـلطانها و شدة نفوذها، و مع ذلک فقد قام بما یجب علیه من الدعوة للّه و نشـر تعالیم الإسـلام و إلقاء دروس الأخلاق و العلوم الدینیـة، و الحث علی التمسک بالدین و الابتعاد عن الظلمة الذین اتخذوا مال اللّه دولا، فازدحم العلماء علی أبواب مدرسـته و انتشروا فی أقطار المملکة الإسلامیة یحملون للناس أصدق الحدیث، و أظهروا الحقائق التی حاول الأمویون إخفاءها بأبراد التمویه و الخداع. و قد کان یؤلمهم موقف الإمام الباقر، و تقض مضاجعهم شـهرته فی الآفاق و لکن ما ذا یصنعون و الحجاز یخلص له بالولاء، و المدینة المنورة ترعی جانبه و تقدر منزلته. و لا یستطیعون أن یحرکوا جانب المدینة مرة أخری و هی المرکز الإسلامی، و إلیهـا تقصـد وفودهم فی أخـذ الأحکـام. فکـان هو وحیـد عصـره فی إرشاد الناس و تحـذیرهم من الزیغ و الضـلال، و إلیه یرجعون فی معضـلات المسائـل، فیحـل لهـم عقالهـا و یوضـح لهـم ما أشـکل علیهم فهمه من أحکام الـدین، فکان قوله الفصل و حکمه العـدل. روی مکحول بن إبراهیم عن قیس بن الربیع قال: سألت أبا إسـحاق عن المسـح علی الخفین فقال: أدرکت الناس یمسـحون حتی لقیت رجلا من بنی هاشم لـم أر مثله قط و هو محمد بن علی بن الحسـین فسألته عن المسح علی الخفین. فنهانی عنه، و قال: لـم یکن أمیر المؤمنین یمسـح علیهما و کان یقول: سبق الکتاب المسح علی الخفین. قال أبو إسحاق: فما مسحت مذ نهانی عنه، و قال قیس بن الربیع: و ما مسحت أنا مذ سمعت أبـا إسـحاق. و قال زرارة: کنت جالسا إلی جنب أبی جعفر علیه السّـلام و هو مسـتقبل القبلـة فقال: أما إن النظر إلیها عبادة، فجاءه رجل من بجیلة فقال لأبی جعفر: إن کعب الأحبار (1)

1- 1) هو کعب بن مانع الحمیری أبو إسحاق المعروف بکعب الأحبار المتوفی سنة 134 ه-بحمص و کان یهودیا أسلم فی أیام أبی بکر و قیل فی أیام عمر، و کان عنده تنبؤات عن طریق جمع الأحادیث التی وضـعها الیهود أو المسـیحیون و اشـتهر کعب بذلک و مثله وهب بن منبه و تمیم الـداری و کان لهذه الأحادیث أثر فی المجتمع إذ أدخلوا أشـیاء من التکهن بوقوع الحوادث أو مصـیر العالم و قد اسـتمد منهم معاویة أشـیاء یسـتعین بها علی تقویة مرکزه لذلک نوه باسم کعب: انه کان من أصدق هؤلاء المحدثین. ألا ان کعبا أحد العلماء، و قد روی عنه أبو هریرة و معاویة. و أنکر المسلمون علی کعب و أصحابه و کذبوهم لرجمهم بالغیب.

كان يقول: إن الكعبة تسجد لبيت المقدس فی کل غداة، فقال أبو جعفر: فما تقول فيما قال كعب؟ فقال الرجل: صدق كعب، فقال له أبو جعفر: كذبت و كذب كعب الأحبار معک، و غضب. قال زرارة: ما رأيته استقبل أحدا بقوله كذبت غيره. و كان عليه السّلام إذا دخل مكة انثال عليه الناس يستفتون عن أهم مسائل الحلال و الحرام، و يستفتحون أبواب مشاكل العلوم و يغتنمون فرصة الاجتماع به ليزودهم بتعاليمه، و إذا أقام بمكة عقدت له حلقة ينضم فيها طلاب العلم بل علماء الأمة، و حج هشام بن عبد الملک فنظر إلى اجتماع الناس حوله و حضور العلماء عنده فثقل عليه ذلک، فأرسل رجلا من أصحابه و قال له: قل له يقول لک أمير المؤمنين ما الذی يأكله الناس و يشربونه فی المحشر إلى أن يفصل بينهم يوم القيامة؟ فلما سأله الرجل قال له الإمام الباقر: يحشر الناس مثل قرص النقی (1)فيها أشجار و أنهار يأكلون و يشربون منها حتى يفرغوا من الحساب. فقال هشام للرسول: اذهب إليه فقل له يقول: ما أشغلهم عن الأكل و الشرب يومئذ؟ فقال أبو جعفر: هم فی النار أشغل و لم يشتغلوا عن أن قالوا: أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم اللّه، فسكت هشام و لم يظفر بما أراد من سؤاله للإمام فإنه سؤال امتحان لا استفادة. و دخل عليه رجل من الخوارج فقال له: يا أبا جعفر أی شیء تعبد؟ فقال عليه السّلام: اللّه. قال الرجل: رأيته؟ قال: بلى، لم تره العيون بمشاهدة الأبصار و لكن رأته القلوب بحقائق الإيمان، لا يعرف بالقياس، و لا يدرک بالحواس، و لا يشبه بالناس، موصوف بالآيات، معروف بالدلالات، لا يجوز فی حكمه، ذلک اللّه لا إله إلا هو. فخرج الرجل و هو يقول: اللّه أعلم حيث يجعل رسالته. و دخل عليه عثمان الأعمى من أهل البصرة و قال له: يا ابن رسول اللّه إن الحسن البصری زعم أن الذين يكتمون العلم يؤذی ريح بطونهم النار، فقال أبو جعفر: إذا هلک مؤمن آل فرعون و اللّه مدحه بذلک.

1- 1) النقی كغنی. قال فی النهاية الحديث يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء كقرصة النقی يعنی الخبز الحوارى.

و قصده العلماء للسؤال و كشف الحقائق كعمرو بن عبيد، و طاوس اليمانى، و الحسن البصرى، و نافع مولى ابن عمر، و غيرهم ممن يطول ذكرهم (1). و قد ناظر أهل الفرق و خاصمهم و بين لهم فساد آرائهم و سوء معتقداتهم إلى كثير مما هو مذكور فى محله. و كان عليه السّلام يزود الوافدين بتعاليم قيمة، و يدعو إلى اللّه بالحكمة و الموعظة الحسنة. و نرى من الأجدر أن نذكر بعضا من كلماته و مختارات من مواعظه.

حكمه:

*كفى بالمرء عيبا أن يبصر من الناس ما يعمى عليه من نفسه. *أشد الأعمال ثلاثة: ذكر اللّه على كل حال، و إنصافك من نفسك، و مواساة الأخ فى المال. *إذا رأيتم القارئ يحب الأغنياء فهو صاحب دنيا، و إذا رأيتموه يلزم السلطان فهو لص. *ما شيب شىء بشىء أحسن من علم بحلم. *إن استطعت أن لا تعامل أحدا إلا و لك الفضل عليه فافعل. *من كان ظاهره أرجح من باطنه خف ميزانه. *إياك و الكسل و الضجر فإنهما مفتاح كل شر، فإن من كسل لم يؤد حقا، و من ضجر لم يصبر على حق. *التواضع: الرضا بالمجلس دون شرفه، و أن تسلم على من لقيت، و أن تترك المراء و إن كنت محقا. *إن للّه عقوبات فى القلوب و الأبدان: ضنك فى المعيشة، و وهن فى العبادة، و ما ضرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب. *الحياء و الإيمان مقرونان، فإذا ذهب أحدهما ذهب صاحبه. *إن هذا اللسان مفتاح كل خير و شر، فينبغى للمؤمن أن يختم على لسانه كما

1- 1) انظر الاحتجاج للطبرسى، و كتاب الإرشاد.

يختم على ذهبه و فضته، فإن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: رحم اللّه مؤمنا أمسک لسانه من کل شر، فإن ذلک صدقة منه على نفسه. *عليکم بالورع و الاجتهاد و صدق الحديث و أداء الأمانة إلى من ائتمنکم عليها برا کان أو فاجرا، فلو أن قاتل على بن أبى طالب ائتمننى على أمانة لأديتها إليه. *اعلم أن طالب الحاجة لم يکرم وجهه عن مسألتک فأکرم وجهک عن رده. *الکسل يضر بالدين و الدنيا. *لا يقبل عمل إلا بمعرفة، و لا معرفة إلا بعمل، و من عرف دلته معرفته على العمل، و من لم يعرف فلا عمل له. *من صدق لسانه زکى عمله، و من حسنت نيته زيد فى رزقه، و من حسن بره فى أهله زيد فى عمره. *ثلاثة من مکارم الدنيا و الآخرة: أن تعفو عمن ظلمک، و تصل من قطعک، و تحلم إذا جهل عليک. *سلاح اللئام قبيح الکلام. و قد نظمه بعضهم: لقد صدق الباقر المرتضى سليل الإمام عليه السلام

بما قال فى بعض ألفاظه سلاح اللئام قبيح الکلام (1)

*قم بالحق و اعتزل ما لا يعنيک، و تجنب عدوک، و احذر صديقک و لا تصحب الفاجر و لا تطلعه على سرک. و استشر فى أمرک الذين يخشون اللّه. *إنما مثل الحاجة إلى من أصابه ماله حديثا کمثل الدرهم فى فم الأفعى أنت إليه محتاج و أنت منها على خطر. *قولوا للناس أحسن ما تحبون أن يقال لکم، فإن اللّه يبغض اللعان السباب الطعان على المؤمنين، و يحب الحيى الحليم العفيف المتعفف. *إن المؤمن أخو المؤمن لا يشتمه و لا يحزنه و لا يسىء به الظن.

1- 1) الاتحاف ص 76. [1]

وصيته لعمر بن عبد العزيز:

لما ولى عمر بن عبد العزيز طلب من الإمام الباقر أن يوصيه بما ينفعه فى آخرته و دنياه فقال عليه السّلام: أوصيک أن تتخذ صغير المسلمين ولدا، و أوسطهم أخا، و أكبرهم أبا، فارحم ولدک وصل أخاک و بر والدک، و إذا صنعت معروفا فربه (أى أدمه) . و دخل عمر بن عبد العزيز المدينة و اجتمع بالإمام الباقر عليه السّلام فأوصاه الإمام بقوله: إنما الدنيا سوق من الأسواق يبتاع فيها الناس ما ينفعهم و ما يضرهم، و كم قوم ابتاعوا ما ضرهم فلم يصبحوا حتى أتاهم الموت فخرجوا من الدنيا ملومين، لما لم يأخذوا ما ينفعهم فى الآخرة، فقسم ما جمعوا لمن لم يحمدهم و صاروا إلى من لم يعذرهم، فنحن و اللّه حقيقون أن ننظر إلى تلک الأعمال التى نتخوف عليهم منها، فكف عنها و اتق فى نفسک اثنتين: إلى ما تحب أن يكون معک إذا قدمت على ربک فقدمه بين يديک. و انظر إلى ما تكره أن يكون معک إذا قدمت على ربک فارمه وراءک و لا ترغبن فى سلعة بارت على من كان قبلک فترجو أن يجوز عنک. و افتح الأبواب و سهل الحجاب و انصف المظلوم و رد المظالم. ثلاثة من كن فيه استكمل الإيمان باللّه: من إذا رضى لم يدخله رضاه فى باطل، و من إذا غضب لم يخرجه غضبه من الحق و من إذا قدر لم يتناول ما ليس له.

وصيته لجابر الجعفى:

من وصيته لجابر بن يزيد الجعفى. فكر فيما قيل فيک، فإن عرفت من نفسک ما قيل فيک، فسقوطک من عين اللّه جل و عز عند غضبک من الحق، أعظم عليک مصيبة مما خفت من سقوطک من أعين الناس، و إن كنت على خلاف ما قيل فيک، فثواب اكتسبته من غير أن يتعب بدنک. و اعلم أنک لا تكون لنا وليا حتى لو اجتمع عليک أهل مصرک و قالوا: إنک رجل سوء لم يحزنک ذلک، و لو قالوا: إنک رجل صالح لم يسرک ذلک، و لكن

اعرض نفسک علی کتاب اللّه، فإن کنت سالکا سبیله زاهـدا فی تزهیده راغبا فی ترغیبه، خائفا من تخویفه، فاثبت و ابشـر، فإنه لا یضـرک ما قیـل فیـک. و إن کنت مباینـا للقرآن فما ذا الـذی یغرک من نفسک، إن المؤمن معنی بمجاهـدة نفسه لیغلبها علی هواها، فمرة یقیم أودها و یخالف هواها فی محبـة اللّه. إلی أن یقول: و توق مجازفة الهوی بدلالة العقل، وقف عند الهوی باسترشاد العلم، و اسـتبق خالص الأعمال لیوم الجزاء، و اقطع أسـباب الطمع ببرد الیـأس، و سـد سبیـل العجب بمعرفـة النفس، و تحرز من إبلیس بالخوف الصادق، و إیاک و الرجاء الکاذب، فإنه یوقعک فی الخوف الصادق. . . و اطلب بقاء العز بإماتة الطمع، و ادفع ذل الطمع بعز الیأس، و استجلب عز الیأس ببعد الهمة، و تزود من الدنیا بقصـر الأمل، و بادر بانتهاز البغیة عند إمکان الفرصة. و اعلم أنه لا علم کطلب السـلامة، و لا سلامة کسلامة القلب، و لا عقـل کمخالفـة الهوی، و لاـ خوف کخوف حـاجز. و لاـ رجـاء کرجاء معین، و لا فقر کفقر القلب، و لا غنی کغنی النفس، و لا قوة کغلبة الهوی، و لا معرفـة کمعرفتک بنفسک، و لا نعمـة کالعافیة، و لا عافیة کمساعدة التوفیق، و لا شـرف کبعد الهمة. . . إلی آخر وصـیته و هی طویلة أخذنا منها الیسیر (1).

من تعالیمه:

إلی کثیر من وصایـاه و تعالیمه (2). و قـد احتفظ التاریـخ بکثیر من تراثه الفکری بما فیه الکفایة للعقل الیقظان و البصـیرة الواعیة، فقد کان یفیض علی سـامعیه من الخواطر و الحکم، متوجهـا إلی النصـح و الإرشـاد، منقطعا لتوجیه المجتمع، فکان یغتنم فرصـة اسـتعداد سامعیه لتلقی ما یدلی به من النصائح التی تصل لقلب السامع، فلا یسعه إلا التسلیم.

1- 1) تحف العقول 69. [1]

2- 2) المـذکورة فی تاریـخ ابن کثیر و الیعقوبی، و الصواعق لابن حجر، و کشف الغمة للإربلی و الفصول المهمة لابن الصـباغ، و تحف العقول، و [2]مطالب السئول، و تذکرة الخواص و غیرها.

و قد كان يؤدب أصحابه بآداب الإسلام، و يحثهم على الطاعة و مكارم الأخلاق، و يدعوهم إلى العمل فى إصلاح معايشهم بما يصلح به حالهم، فكان يقول: من طلب الدنيا استعفافا عن الناس و سعيا على أهله و تعطفا على جاره، لقى اللّه عز و جل يوم القيامة و وجهه مثل القمر ليلة البدر. و كان يقول: نعم العون الدنيا على الآخرة، و كان عليه السّلام يحثهم على حسن العشرة و ملازمة الآداب لئلا يتكدر صفو المودة و تفسد الأخوة. و ليس وراء ذلک إلا العناء. فتراه عليه السّلام يكثر من قوله: عظموا أصحابكم و وقروهم، و لا يتهجم بعضكم على بعض، و لا تضاروا و لا تحاسدوا، و إياكم و البخل، كونوا عباد اللّه المخلصين. و كان ينهى عن كثرة المزاح بقوله: كثرة المزاح تذهب بماء الوجه، و كثرة الضحک تمج الإيمان مجا. و كان يوصيهم بحسن الجوار و تحمل الأذى من الجار، و يقول: قرأت فى كتاب على عليه السّلام أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كتب بين المهاجرين و الأنصار و من لحق بهم من يثرب: إن الجار كالنفس غير مضار و لا آثم، و حرمة الجار على الجار كحرمة أمه. . . الحديث. ليس حسن الجوار كف الأذى و إنما حسن الجوار صبرک على الأذى. و قال عليه السّلام: من القواصم التى تقصم الظهر، جار السوء إن رأى حسنة أخفاها و إن رأى سيئة أفشاها. إلى غير ذلک مما لا يمكننا عرضه و لا نستطيع إحصاء تعاليمه القيمة و حثه على محاسن الأخلاق و حسن الآداب، فقد كان يحب الخير و يدعو إليه و هو فى عصره المثل الأعلى فى مكارم الأخلاق و جميل الصفات. و هكذا قضى حياته متوجها للّه باذلا نصحه للأمة متحملا من ولاة عصره ضروب الأذى و التضييق و الأهوال عليه السّلام و لكنه ثبت أمام تيار ظلمهم غير حافل بما يوجهونه إليه، مستعينا باللّه متوكلا عليه، فاحتمل تلک الملمات فى سبيل نصرة الحق و إحراز النصر، و تم له أعظم النجاح على خصومه الذين وجهوا إليه كل أذى،

و حاولوا صرف الناس عنه بكل وسيلة، و لقد جلبه هشام إلى الشام مرتين يحاول الفتک به، و لكن اللّه برعايته رد عنه كيده و صرف عنه أذاه.

الإمام الباقر و عبد الملک:

كان عبد الملک بن مروان يبتعد عن التعرض للإمام الباقر عليه السّلام و أهل بيته و كتب إلى عامله فى الحجاز: جنبنى دماء آل أبى طالب فإنى رأيت آل حرب لما تهجموا بها لم ينصروا (1). فهو لا يجهل منزلتهم و يعرف مكانتهم، و لكن حرصه على ملكه و طمعه فى دنياه يدعوه إلى نصب العداء لهم؟ لأنهم أوقع منه فى نفوس الأمة و إليهم تهوى أفئدة المسلمين. و كان يلجأ إليهم فى أكثر الأمور التى تهمه، و لا يجد المخرج منها إلا بهم لعلمه بمكانتهم مع تكتمه و عدم إظهار ذلک (2). و لما كتب إليه ملک الروم يتوعده فضاق عليه الجواب، فكتب إلى الحجاج و هو إذ ذاک على الحجاز: أن ابعث إلى على بن الحسين زين العابدين فتوعده و تهدده و أغلظ له، ثم انظر ما ذا يجيبک؟ فاكتب به إلىّ. ففعل الحجاج ذلک. فقال له على بن الحسين عليه السّلام: إن للّه فى كل يوم ثلاثمائة و ستين لحظة، و أرجو أن يكفينيک فى أول لحظة من لحظاته. فكتب الحجاج إلى عبد الملک بذلک. و لما كتب ملک الروم لعبد الملک بن مروان يتهدده أن يذكر النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى الدنانير بما يكرهون، فعظم ذلک على عبد الملک و استشار الناس فلم يجد عند أحد منهم رأيا (3). فقال له روح بن زنباع: إنک لتعلم المخرج من هذا الأمر، و لكنک تتعمد تركه، فقال ويحک من؟ فقال: عليک بالباقر من أهل بيت النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: صدقت و لكنه ارتج الرأى فيه.

1- 1) اليعقوبى ج 3 ص 47. [1]

2- 2) سنذكر ذلک فى الجزء الثامن من الكتاب إنشاء اللّه.

3- 3) شذور العقود للمقريزى ص 7.

فكتب إلى عامله بالمدينة: أن أشخص إلىّ محمد بن على بن الحسين مكرما، و متعه بمائة ألف درهم لجهازه و بثلاثمائة ألف لنفقته، و أرح عليه فى جهازه و جهاز من يخرج معه من أصحابه، و حبس عبد الملك رسول ملك الروم إلى موافاة محمد بن على الباقر، فلما وافاه أخبره الخبر، فقال له محمد الباقر: لا يعظم عليك فإنه ليس بشىء من جهتين: إحداهما أن اللّه عز و جل لم يكن ليطلق ما تهدد به صاحب الروم فى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم، و الثانى وجود الحيلة فيه قال: و ما هى؟ قال: تدعو بصاغة فيضربون بين يديک سككا للدراهم و الدنانير و تجعل النقش عليها سورة التوحيد إلى آخر القصة (1). و على أى حال فالإمام أبو جعفر الباقر أعلم أهل زمانه و سيد الهاشميين و أفضلهم فى عصره، و لم يكن ليحيا حياة العزلة أو ينضم فى زاوية الخمول، بل كانت له شهرة، و لمدرسته أثر فى توجيه الفكر. تخرج منها علماء الأمة الذين هم مفخرة الزمن. و قد نظر إليه رجال السلطة نظر تهيب و تحفظ، و وقفوا أمام نشر تعاليمه و انتشار ذكره موقف المعارضة، لأن ذلک يهدد مناصبهم التى أحاطت بها هالة من الجهل، و التف حولها أعداء الفضيلة و خصوم الحق، و قد تحمل صلوات اللّه عليه ضروب الأذى، و ثبت أمام تلک المصاعب مجاهدا لإحياء الدين و تأييد الشريعة و خدمة الإنسانية، و دعا المسلمين لما فيه صلاح دينهم و دنياهم ليصبحوا أمة أبرارا، يتعاونون على البر و التقوى و العدل و الإحسان، حتى قضى صابرا محتسبا، سنة 114 ه-مسموما و دفن بالبقيع مع أبيه زين العابدين عليه السّلام و الحسن السبط عليه السّلام. فسلام عليه يوم ولد و يوم مات و يوم يبعث حيا. و قد أوصى لولده الإمام جعفر بن محمد الصادق بما أوصاه به أبوه زين العابدين عند ما حضرته الوفاة بقوله: يا بنى إن العقل رائد الروح، و العلم رائد العقل، و العقل ترجمان العلم، و اعلم أن العلم أبقى و اللسان أكثر هذرا، إلى أن قال له: إن الساعات تذهب عمرک و إنک لا تنال نعمة إلا بفراق أخرى، فإياک و الأمل الطويل فكم من مؤمل أملا لا يبلغه، و جامع

1- 1) الدميرى ج 2 ص 55، و [1]المحاسن و المساوى للبيهقى، و [2]العقد المنير ص 18 و هامش شذور العقود ص 7 و قد نسب ابن الأثير هذه الفكرة لخالد بن يزيد و هى خطأ.

ما لا يأكله، و مانع ما سوف يتركه. إلى آخر وصيته ثم قال: أوصيک بما أوصانی به أبی حين حضرته الوفاة: إياک و ظلم من لا يجد عليک ناصرا إلا اللّه. و كان له من الأولاد خمسة من الذكور: الإمام جعفر الصادق عليه السّلام و كان يكنى به، و عبد اللّه الأفطح و أمهما أم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبی بكر، و عبيد اللّه و إبراهيم أمهما أم حكيم بنت أسد الثقفية، و علیّ و أمه أم ولد. و على كل حال فالإمام أبو عبد اللّه جعفر الصادق وارث أبيه و خليفته من بعده، و قد نشأ فی ظله و تغذی من علومه و استمد مواهبه منه، و قد دب و درج فی حجور طابت و بيوت طهرت و نشأ فی ربوع الوحی و ترعرع فی مهد الرسالة، و هو من أهل بيت النبوة و معدن العلم و مهبط الوحی، و هم كما يقول القائل: إذا ولد المولود منهم تهللت له الأرض و اهتزت إليه المنابر

فهو حكام الإسلام و أعلام الأنام: لو كان يوجد عرف مجد قبلهم لوجدته منهم على أميال

إن جئتهم أبصرت بين بيوتهم كرما يقيک مواقف التسآل

نور النبوة و المكارم فيهم متوقد فی الشيب و الأطفال

(1)و لهم فی كتاب اللّه غنى عن مدح المادحين و وصف الواصفين: إِنَّما يُرِيدُ اَللّٰهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ اَلرِّجْسَ أَهْلَ اَلْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً [الأحزاب:33]. و قد ختم الإمام الباقر عليه السّلام حياته بالإيصاء بأصحابه و رعايتهم لأنه يعلم ما سيواجهون من مصاعب و ويلات فقال للقائم بالأمر من بعده، و وصيّه جعفر الصادق لمّا حضرته الوفاة: يا جعفر، أوصيک بأصحابی خيرا.

1- 1) زهر الآداب ج 1 ص 58. [1]

الإمام الصادق

اشارة

فی عهد المنصور

تمهید:

انتقل الأمر بعد السفاح إلی أخیه أبی جعفر المنصور سنة 136 ه-و کان السفاح لین الجانب مع أبناء عمه، یصلهم و یتظاهر بالعطف علیهم، و یتحمس لما نالهم من الأذی و ما حل بهم من نکبات فی العهد الأموی، و یعلن بأخذ ثأرهم و الانتقام من عدوهم. و کان العلویون و العباسیون علی وئام لم تنقطع بینهم الصلات، و لم یحدث بینهم ما یثیر الأحقاد و یفرق الکلمة، و إن کان العباسیون قد استأثروا بالأمر و نقضوا بیعتهم التی عقدوها بالأبواء لآل علی علیهم السّلام. و لکن المنصور الدوانیقی عند ما ولی الحکم و مهد له الأمر غدر بأبناء علی علیه السّلام و تعرضوا فی عهده لخطر شدید، و نالهم من الأذی ما لم یکن بالحسبان. یقول السیوطی (1): و المنصور أول من أوقع الفتنة بین العباسیین و العلویین، و کانوا شیئا واحدا. و إن سیرة حیاته ملیئة بتلک الحوادث المحزنة التی لقیها آل محمد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی عهده من قتل و سجن و تشرید کما أشرنا له من قبل. لقد کان المنصور قوی النزعة إلی انتهاز الفرصة للإیقاع بمن یظن به نشاطا سیاسیا أو علمیا، فهو یتوصل بکل وسیلة إلی نیل مقصده و لا یتوقف بأن یسیء إلی من أحسنوا إلیه، و یتنکر لمن قدموا له المعروف و غمروه بفضلهم.

1- 1) تاریخ الخلفاء ص 102. [1]

يقول المقدسی (1): کان رجلا أسمر نحیفا طویل القامة قبیح الوجه دمیم الصورة ذمیم الخلق، أشحّ خلق اللّه و أشد حبا للدینار و الدرهم سفاکا للدماء ختارا بالعهود غدارا بالمواثیق کفورا بالنعم قلیل الرحمة و کان جال فی الأرض و تعرض للناس و کتب الحدیث و حدّث فی المساجد و تصرف فی الأعمال الدنیة و الحرف الشائنة و قاد القود لأهلها و ضربه سلیمان بن حبیب بالسیاط فی الجملة و التفصیل، کان رجلا- دنیا خسیسا کریها شریرا فلما أفضی الأمر إلیه أمر بتغییر الزی و تطویل القلانس فجعلوا یحتالون لها بالقصب من داخل، فقال أبو دلامة فی هجوه: و کنا نرجّی من إمام زیادة فزاد الإمام المصطفی بالقلانس

تراها علی هام الرجال کأنها دیار یهود جللت بالبرانس

و علی أی حال فقد تقدم فی الأبحاث السابقة من الجزء الأول بعض أخباره مع الإمام الصادق علیه السّلام و محاولته الفتک به مرارا و لکن اللّه بالغ أمره قد جعل لکل شیء قدرا. فقد عصمه اللّه منه و دفع شره عنه.

محاولة المنصور قتل الإمام:

و هنا نعود لذکر بعض ما لقیه الإمام الصادق علیه السّلام فی عهد المنصور لنأخذ صورة عن الحیاة التی کان یحیاها الإمام علیه السّلام فی عهده. و ما من شک أن المنصور قد حاول عدة مرات أن یفتک بالإمام جعفر بن محمد الصادق علیه السّلام و أرسل إلیه من یحضره عنده عدة مرات. و قد عزم علی الحج فی سنة 147 ه-لأجل القبض علی الإمام الصادق علیه السّلام فلم یتم له ذلک (2). و لکن هل أن المنصور سجن الإمام الصادق علیه السّلام ثم أطلقه أم أنه کان یعزم علی ذلک و یحضره أمامه و یترک عما عزم علیه؟ و إن بعض المؤرخین قد ذکر أن المنصور قد حبس الإمام الصادق علیه السّلام (3)و بعضهم لم یتعرض لذلک کما أن أکثرهم قد أهمل کثیرا من الحوادث التی جرت فی

1- 1) البدء و التاریخ ج 6 ص 90-91. [1]

2- 2) النجوم الزاهرة لجمال الدین الاتابکی ج 2 ص 6. [2]

3- 3) طمط النجوم الغوالی للعصامی المکی ج 3 ص 239.

عهد المنصور على أهل البيت عليهم السّلام و بالأخص أخبار الإمام الصادق عليه السّلام. و نحن بعد ذكرنا لبعض أخبار الإمام عليه السّلام مع المنصور نستطيع أن نقف على كثير من الحقائق: حدث الربيع حاجب المنصور قال: لما استقرت الخلافة لأبى جعفر المنصور قال لى: يا ربيع ابعث إلى جعفر بن محمد. قال الربيع: فذهبت إليه و قلت: يا أبا عبد اللّه أجب أمير المؤمنين فقام معى، فلما دنونا من الباب قال الإمام الصادق فحرك شفتيه ثم دخل فسلم فلم يرد المنصور السلام، ثم رفع رأسه إليه فقال: يا جعفر أنت الذى ألّبت علىّ؟ فاعتذر إليه الإمام حتى سكن غضبه، فقال: اجلس أبا عبد اللّه، ثم دعا بمدهن غالية، فجعل يطيبه بيده و الغالية تقطر من بين أنامل المنصور، ثم قال: انصرف أبا عبد اللّه، و قال: يا ربيع اتبع أبا عبد اللّه جائزته و ضاعفها. قال الربيع: فخرجت فقلت: يا أبا عبد اللّه شهدت ما لم تشهد و سمعت ما لم تسمع، و قد دخلت و رأيتك تحرك شفتيك عند دخولك إليه، أ شىء تؤثره عن آبائك الصالحين؟ فقال الصادق: حدثنى أبى عن أبيه عن جده أن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان إذا حزنه أمر دعا بهذا الدعاء، و كان يقول: هو دعاء الفرج: اللهم احرسنى بعينك التى لا تنام، و اكفنى بركنك الذى لا يرام، و احفظنى بعزك الذى لا يضام، و اكلأنى فى الليل و النهار، و ارحمنى بقدرتك علىّ، أنت ثقتى و رجائى، فكم من نعمة أنعمت بها علىّ قل لک بها شكرى، و كم من بلية ابتليتنى بها قل بها لک صبرى، و كم خطيئة ركبتها فلم تفضحنى، فيا من قلّ عند نعمته شكرى فلم يحرمنى، و يا من قلّ عند بلائه صبرى فلم يخذلنى، و يا من رآنى على الخطايا فلم يعاقبنى، يا ذا المعروف الذى لا ينقضى أبدا، و يا ذا الأيادى التى لا تحصى عددا، و يا ذا الوجه الذى لا يبلى أبدا، و يا ذا النور الذى لا يطفأ سرمدا! أسألک أن تصلى على محمد و على آل محمد كما صليت و باركت و ترحمت على إبراهيم، و أن تكفينى شر كل ذى شر، بک أدرأ فى نحره و أعوذ بک من شره، و أستعينک عليه. اللهم أعنى على

دینی بـدنیای، و علی آخرتی بـالتقوی، و احفظنی فیما غبت عنه، و لا تکلنی إلی نفسـی فیما حضـرته. یا من لا تضـره الـذنوب و لا تنقصـه المغفرة اغفر لی مـا لاـ یضـرک، وهب لی مـا لا ینقصک. یا إلهی أسألک فرجا قریبا و أسألک العافیـة من کل بلیـة، و أسألک الشـکر علی العافیـة، و أسألک دوام العافیـة. و أسألک الغنی عن الناس، و لا حول و لا قوة إلا باللّه العلی العظیم. اللهم بک أسـتدفع مکروه ما أنا فیه، و أعوذ بک من شرّه یا أرحم الراحمین (1). و بهذا فقد رد اللّه کید المنصور و دفع عن الإمام شره لأنه علیه السّلام علیه من اللّه جنة واقیة. کما حدث الربیع مرة أخری بأن المنصور أرسـله لاسـتقدام جعفر الصادق علیه السّـلام لشیء بلغه عنه فلما وافی قال الحاجب: أعیذک باللّه من سطوة هذا الجبار فإنی رأیت ضـرره علیک شدیدا. فقال الإمام الصادق علیه السّـلام: علیّ من اللّه جنة واقیة تعیننی إن شاء اللّه. اسـتأذن لی علیه فلما دخل الإمام علیه السّـلام دار بینهما حـدیث طویل و کان الإمام یجیب عما یوجه إلیه المنصور من تهم حتی هـدأ غیظه و تصاغر أمام قوة الإیمان و سـلطان الحق، و قال المنصور: صـفحت عنک لعـذرک و تجاوزت عنک لصـدقک فحـدثنی بحدیث أنتفع به و یکون لی زاجرا عن الموبقات. فقال الصادق علیه السّـلام: علیک بالحلم فإنه رکن العلم، و املک نفسک عنـد أسـباب القـدرة فإنک إن تفعل ما تقدر علیه کنت کمن شفی غیظا و تداوی حقدا، و یحب أن یذکر بالصولة، و اعلم بأنک إن عاقبت مستحقا لم تکن غایة ما توصف به إلا العدل، و الحـال التی توجب الشـکر أفضـل من الحـال التی توجب الصبر، فقال المنصور: وعظت فأحسـنت و قلت فأوجزت. و کان المنصور کلما دخل المدینـة فلا یهمه أمر إلا الوقیعة بأبی عبد اللّه و یسـلک إلی ذلک مختلف الطرق و شتی الوسائل، و لکن الإمام علیه السّـلام کان بقوة إیمانه و التجائه إلی ما وعد اللّه المؤمنین من الدفاع عنهم، فهو لا یهتم و لا یخشی بطشه.

1- 1) عیون الأدب و السیاسة لأبی الحسن علی بن عبد الرحمن بن هذیل ص 163.

و أرسل إليه مرة أخرى و هو بالمدينة-كما حدث الربيع-، و قال: انطلق فى وقتک هذا على أخفض جناح و ألين مسير فإن استطعت أن تكون وحدک فافعل، حتى تأتى أبا عبد اللّه جعفر بن محمد عليه السّلام و قل له: هذا ابن عمک يقرئک السلام و يسألک المصير إليه فى وقتک هذا، فإن سمح بالمسير معک، و إن امتنع بعذر أو غيره فاردد الأمر إليه فى ذلک. قال الربيع: فصرت إلى بابه فوجدته فى دار خلوته معفرا خديه، مبتهلا بظهر يديه، قد أثر التراب فى وجهه و خديه، فأكبرت أن أقول له شيئا حتى فرغ من صلاته و دعائه، ثم انصرف بوجهه. فقلت: السلام عليک يا أبا عبد اللّه فقال: و عليک السلام ما جاء بک؟ فأخبرته الخبر. فقال: يا ربيع أَ لَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اَللّهِ وَ ما نَزَلَ مِنَ اَلْحَقِّ وَ لا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا اَلْكِتابَ مِنْ قَبْلُ فَطالَ عَلَيْهِمُ اَلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ. . . [الحديد:16]. ويحک يا ربيع أَ فَأَمِنَ أَهْلُ اَلْقُرى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنا بَياتاً وَ هُمْ نائِمُونَ. أَ وَ أَمِنَ أَهْلُ اَلْقُرى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنا ضُحًى وَ هُمْ يَلْعَبُونَ. أَ فَأَمِنُوا مَكْرَ اَللّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اَللّهِ إِلاَّ اَلْقَوْمُ اَلْخاسِرُونَ [الأعراف:97-99]ثم قال: و عليه السلام، ثم أقبل على صلاته، ثم صرف إلىّ وجهه فقلت هل بعد السلام شىء؟ فقال: قل له: أَ فَرَأَيْتَ اَلَّذِي تَوَلّى. وَ أَعْطى قَلِيلاً وَ أَكْدى. أَ عِنْدَهُ عِلْمُ اَلْغَيْبِ فَهُوَ يَرى [النجم:33-35]. ثم قال له: بلغه إنا قد خفناک و خافت لخوفنا النسوة، فإن كففت و إلا أجرينا اسمک فى كل يوم خمس مرات، إن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: أربع دعوات لا يحجبن عن اللّه: دعاء الوالد لولده، و الأخ بظهر الغيب لأخيه، و المظلوم، و المخلص. و أرسل إليه محمد بن الربيع، و أمره أن يأتيه به على الحالة التى هو عليها و قال: امض إلى جعفر بن محمد فتسلق على حائطه و لا تفتح عليه بابا فيغير بعض ما هو عليه، و لكن انزل عليه نزولا فامتثل ما أمره. قال محمد بن الربيع: فوجدته قائما يصلى، فلما سلّم من صلاته، قلت: أجب أمير المؤمنين.

فقال علیه السّلام: دعنی ألبس ثیابی. فقلت: لیس إلی ترکک من سبیل، إلی أن جاء به علی حالته و أدخل علی المنصور، فلما نظر إلیه قال: یا جعفر ما تدع حسدک و بغیک علی أهل هذا البیت من بنی العباس، و ما یزیدک ذلک إلا شدة الحسد و ما تبلغ به ما تقدره. فقال علیه السّلام: و اللّه ما فعلت شیئا من هذا، و لقد کنت فی ولایة بنی أمیة و أنت تعلم أنهم أعدی الخلق لنا و لکم، و أنهم لا حق لهم فی هذا الأمر، فو اللّه ما بغیت علیهم و لا بلغهم عنی سوء مع جفاهم الذی کان بی، و کیف أصنع هذا؟ و أنت ابن عمی و أمس الخلق بی رحما. فأطرق المنصور ساعة ثم رفع و سادة إلی جنبه، فأخرج إضبارة کتب فرمی بها إلیه و قال: هذه کتبک إلی خراسان تدعوهم إلی نقض بیعتی و أن یبایعوک دونی. فقال علیه السّلام: و اللّه ما فعلت و قد بلغت من السن ما قد أضعفنی عن ذلک لو أردته، فصیرنی إلی بعض حبوسک حتی یأتینی الموت فهو منی قریب. فقال: لا و لا کرامة، ثم أطرق و ضرب یده إلی السیف فسل منه مقدار شبر ثم رد السیف و قال: یا جعفر أ ما تستحی مع هذه الشیبة و مع هذا السن أن تنطق بالباطل، و تشق عصا المسلمین؟ ترید أن تریق الدماء و تطرح الفتنة بین الرعیة و الأولیاء؟ فقال علیه السّلام: لا و اللّه ما فعلت و لا هذه کتبی و لا خطی و لا خاتمی، ثم أقبل علی جعفر یعاتبه و جعفر یعتذر إلیه، ثم رفع رأسه و قال: أظنک صادقا (1). و عن عبد اللّه بن أبی لیلی قال: کنت بالربذة مع المنصور و کان قد وجه إلی أبی عبد اللّه، فأتی به فلما جیء به صاح المنصور: عجلوا به قتلنی اللّه إن لم أقتله. فأدخل علیه مع عدة جلاوزة فلما انتهی إلی الباب، رأیته قد تحرکت شفتاه و دخل فلما نظر إلیه المنصور، قال: مرحبا یا ابن عم مرحبا یا ابن رسول اللّه فما زال یرفعه حتی أجلسه علی و سادته. ثم خرج فسأله ابن أبی لیلی عما قاله عند دخوله علی المنصور، فأجابه الإمام: نعم إنی قلت: ما شاء اللّه ما شاء اللّه لا یأتی بالخیر إلا اللّه، لا یصرف السوء إلا اللّه ما شاء اللّه ما شاء اللّه کل نعمة فمن اللّه، ما شاء اللّه و لا حول و لا قوة إلا باللّه.

1- 1) البحار ج 12. [1]

و عن صفوان بن مهران الجمال قال: رفع رجل من قريش المدينة من بنى مخزوم إلى أبى جعفر المنصور أن جعفر بن محمد بعث مولاه المعلى بن خنيس بجباية الأموال من شيعته، و أنه كان يمد بها محمد بن عبد اللّه، فكاد المنصور أن يأكل كفه على جعفر غيظا و كتب إلى أمير المدينة أن يسير إليه جعفر بن محمد، و لا يرخص له فى التلوم و المقام. فلما بلغه قال لى: تعهد راحلتنا فإنا غادون فى غد إن شاء اللّه إلى العراق، فلما أصبح أبو عبد اللّه رحلت له الناقة، و سار متوجها إلى العراق حتى قدم مدينة أبى جعفر، فاستأذن و أذن له، فلما رآه قربه و أدناه، ثم أسند قصة الرافع على أبى عبد اللّه فقال الصادق عليه السّلام: معاذ اللّه، قال المنصور: تحلف على براءتك، إلى أن قال المنصور: إنى أجمع الساعة بينك و بين الرجل الذى رفع عنك حتى يواجهك، فجىء به و اعترف أمام جعفر بصحة ما رفعه عنه. فقال أبو عبد اللّه: تحلف أيها الرجل؟ قال: نعم ثم ابتدأ الرجل باليمين، فقال الصادق: لا تعجل فى يمينك. ثم حلفه بما أراد و انتقم اللّه من الساعى عاجلا.

و عن محمد بن عبد اللّه الاسكندرى قال: كنت من ندماء المنصور و خاصته فدخلت عليه فوجدته مغتما، فقلت: ما هذا يا أمير المؤمنين؟ فقال لى: يا محمد لقد قتلت من أولاد فاطمة مقدار مائة و بقى سيدهم و إمامهم، فقلت له من؟ قال: جعفر الصادق، فقلت: يا أمير المؤمنين إنه رجل أنحلته العبادة و اشتغل باللّه عن طلب الملك و الخلافة، فقال: يا محمد و قد علمت أنك تقول به و بإمامته، و لكن الملك عقيم، و قد آليت على نفسى أن لا أمسى عشيتى هذه أو أفرغ منه. قال محمد: ثم دعا سيافا و قال له: إذا أنا أحضرت أبا عبد اللّه و شغلته بالحديث و وضعت قلنسوتى من رأسى، فهى العلامة بينى و بينك فاضرب عنقه، ثم أحضر أبا عبد اللّه فرأيت المنصور يمشى بين يديه و استقبله و أجلسه على سريره. ثم قال: سل حاجتك يا ابن رسول اللّه، قال: أسألك أن لا تدعونى. . . (1). و نحن نستظهر من هذه الحوادث عدة أمور: 1-إن حنق المنصور على الإمام و محاولته الفتك به لم يكن لباعث عداء

1- 1) البحار ج 11 ص 124. [1]

متأصل فهو قد اتصل به أيام المحنة و سمع الحديث و كان من المؤازرين له إذ المنصور كان من أكبر الدعاة للعلويين، و قد بايع محمد ذى النفس الزكية و كان يدعو الناس للثورة على الأمويين باسم العلويين. و لكن المنصور عند ما ولى الحكم و تحول إليه الأمر تنكر لأبناء عمه فكان حرصه على ملكه يدعوه لأن يقضى على أعظم شخصية منهم تتجه إليها أنظار العالم الإسلامى، فقد كان موقف الإمام فى عصر انتشار العلم و شهرته التى ملأت الآفاق تقض مضجع المنصور و تنكد عليه عيشه، فوجود الإمام الصادق كان من أخطر المشاكل التى تواجهها دولة العباسيين، لأنهم جلبوا قلوب الناس بالغضب على أمية، لسوء السيرة التى ارتكبوها مع أبناء علىّ، فنالوا بذلك السلطان الذى ساعدهم الحظ على الحصول عليه، فتظاهروا بالدين مع أن أعمالهم لا يمكن التوفيق بينها و بين نظم الإسلام الواقعية. و الإمام الصادق عليه السّلام لعظيم منزلته كانت تتجه إليه الأنظار، فبمجرد إنكاره على الدولة يشتد جانب المنكرين من العلويين و غيرهم، فيتسع ميدان المؤاخذات. و الدولة فى دورها الجديد لا يمكنها أن تقف تجاه حزب العلويين و غيرهم، لذلك نرى المنصور وقف بين السلب و الإيجاب فى قضية الإمام الصادق، فهو يعزم على قتله مجازفا فى ذلك و لكن دهاءه فى قضية الإمام الصادق، فهو يعزم على قتله مجازفا فى ذلك و لكن دهاءه و حذره من سوء العاقبة يدعو إلى التريث، فكان يتظاهر بالعطف، حتى حان الزمن و حصلت الفرصة. 2-اتضح لها من حديث إضبارة الكتب المزورة أن ذلك العمل يدل على وجود قوة متكاتفة من الدخلاء فى الإسلام على السعى بكل جهد لتفريق الأمة، و إيقاد نار الفتنة بتزوير الكتب على الإمام الصادق و انتحال الأقوال التى يسلب لبّ المنصور سماعها، و يخرج عن حدود اتزانه فيخاطب الإمام بتلك اللهجة القاسية التى لا تصدر إلا عن جاهل لا يعرف ما يقول. و إن كنت لا أستبعد التزوير من المنصور نفسه، أو من رجال بلاطه و على أى حال، فإن الدخلاء فى صفوف المسلمين يجهدون فى إيقاد نار الفتنة لحصول ثورة دموية، فيقفون موقف المتفرج و أينما أصابت فتح، فإنهم يأملون بقتل الإمام الصادق حصول اضطراب و حوادث تؤدى إلى ضعف الدولة الفتية و انحلالها، لأنهم يعلمون ما

لأهل البيت فی قلوب المسلمين من الولاء، و أن الإمام الصادق هو الذی تجب طاعته، و تحرم مخالفته، و هم الذين يسميهم المنصور بالأوغاد. و فی الحقيقة هم علماء دار الهجرة، و فيهم خيرة الشباب النابه، و كذلک فی سائر الأمصار. و المحصل إن مسألة تزوير الكتب لا تخلو من اثنين: إما هؤلاء القوم الذين يريدون ضعف الأمة الإسلامية، و إما المنصور و رجالاته أرادوا أن يكون لهم طريقا لقتل الإمام و عذرا به يعتذرون للمنكرين عليهم، و لكن اللّه رد مكر الجميع، و خيب سعيهم، و كان عليه من اللّه جنة واقية. 3-يظهر من رواية صفوان الجمال المتقدمة أن الإمام الصادق دخل بغداد، و أفاد الناس بها من علمه «و إن بالجانب الغربی من بغداد على ضفة الفرات شمال جسره الغربی اليوم المعروف بالجسر القديم مكان يعرفه الناس بمدرسة الصادق، و لس فيه اليوم أثر بيّن، و لعله أفاد الناس فيه عند مجيئه إلى بغداد على عهد المنصور» (1). و الغريب أن الخطيب البغدادی (2)لم يذكره، و لكن لا يستغرب ذلک ممن نشأ فی عصر احتدام التعصب الطائفی، و لا تجهل نفسية الخطيب. 4-إن المنصور مهما بلغت به الحالة من الشذوذ و الانحراف عن الإمام الصادق، و مهما بلغ من عدائه و بغضه لا يجهل منزلة الإمام، و يعرف له قدره. و لقد حاول أن يستميله و يجلب وده، و لكن الإمام ابتعد عنه، و أعلن سخطه عليه و على ولاته، كما اتضح من سيرته، فكان اهتمام المنصور بأمره أعظم من كل أحد، لأن الملک عقيم، و لا يقف أمام تركيز دعائمه شیء، فقد أسرف المنصور فی سفک الدماء فی سبيل ذلک، حتى قتل أقرب الناس إليه و أمسهم رحما به، لقد قتل عمه عبد اللّه بن علیّ.

1- 1) حياة الإمام الصادق لشيخنا المظفر ج 1 ص 146. [1]

2- 2) هو أحمد بن على بن ثابت بن أحمد بن مهدی البغدادی، أبو بكر الخطيب المتوفى سنة 463 ه- تفقه على مذهب الشافعی، و رحل إلى نيسابور فی سنة 415 ه-، لاضطراب الأحوال ببغداد، و حدوث التعصب بين المذاهب، و قد آذاه الحنابلة و استتر فی فتنة البساسيری و خرج إلى الشام، لأنه كان على مذهب أحمد بن حنبل، قال ابن الجوزی: فمال عنه أصحابنا لما رأوا من ميله إلى المبتدعة و آذوه، فانتقل إلى مذهب الشافعی و تعصب فی تصانيفه. كما أن الحنفية حملوا عليه و فسقوه.

يحدثنا المسعودى: أن المنصور سلّم عبد اللّه بن على إلى أبى الأزهر المهلب ابن أبى عيسى، فلم يزل عنده محبوسا، ثم أمره بقتله، فدخل عليه و معه جارية له، فبدأ بعبد اللّه، فخنقه حتى مات، ثم مده على الفراش، ثم أخذ الجارية ليخنقها، فقالت: يا عبد اللّه قتلة غير هذه، فكان أبو الأزهر يقول: ما رحمت أحدا قتلته غيرها، فصرفت وجهى عنها، و أمرت بها فخنقت، و وضعتها معه على الفراش (1). كما يتضح لنا أن المنصور كان يخشى دعوة الإمام الصادق، و كان يتهيبه فى نفسه، فهو يشعر بالتصاغر أمام هيبة الإمام، مهما بلغت هيبة المنصور المصطنعة، و مهما كنت عظمته فى ملكه. و قد كان الإمام الصادق مجاب الدعوة عرف الناس عنه ذلک، فهو يلجأ إلى اللّه تعالى فى كل ما يهمه، و يفزع إليه فى شدائده، إذ الدعاء سلاح المؤمن و مخ العبادة. و قد شاهد المنصور كثيرا من ذلک، كدعاء الإمام الصادق على حكيم بن عياش الكلبى شاعر الأمويين مفتخرا بقتل زيد بن على بقوله: صلبنا لكم زيدا على جذع نخلة و لم نر مهديا على الجذع يصلب

و قستم بعثمان عليا سفاهة و عثمان أزكى من على و أطيب

قال ابن حجر: فجاء رجل إلى جعفر الصادق فقال: هذا ابن عياش ينشد للناس هجاءكم بالكوفة. فقال: هل علقت بشىء منه؟ قال: نعم، فأنشده الأبيات، فرفع جعفر يديه، فقال: اللهم إن كان كاذبا، فسلط عليه كلبک، فخرج حكيم، فافترسه الأسد (2). و قصة رجل السوء الذى سعى بالإمام عند المنصور، فلما حج المنصور أحضر الساعى و أحضر الإمام و قال للساعى: أ تحلف؟ قال: نعم. فحلف. فقال الإمام الصادق للمنصور: حلّفه بما أراه، فقال: حلفه، فقال الإمام قل: برئت من حول اللّه و قوته و التجأت إلى حولى و قوتى لقد فعل جعفر كذا و كذا. فامتنع الرجل ثم حلف فما تم حتى مات (3).

1- 1) مروج الذهب ج 3 ص 230. [1]

2- 2) الإصابة ج 1 ص 395 و [2]تاريخ ابن عساكر.

3- 3) الكواكب الدرية ج 1 ص 94. [3]

الإمام الصادق و ولاة المنصور:

و كانت له مواقف مع ولاة المنصور الـذين كانوا يتحدون مقامه، و يحاولون إيقاع الأذى تبعا لرئيسـهم، و امتثالا لأمره، منها: - أن أحد ولاة المدينـة خطب يوم الجمعـة، و كان الإمام حاضـرا، فحمـد اللّه، ثم ذكر عليا و تعرض له، فقام أبو عبد اللّه الصادق بذاك الحفل و قال له: و نحن نحمد اللّه و نصلى على محمد خاتم النبيين و سيد المرسلين. أما ما قلت من خير، فنحن أهله، و ما قلت من سوء، فأنت و صاحبک به أولى، فـاختبر يا من ركب غير راحلته، و أكل غير زاده! ارجع مأزورا. ثم أقبل على الناس، فقال: أ لا أنبئكم بأخلى الناس ميزانا يوم القيامـة و أبينهم خسـرانا، من باع آخرته بـدنيا غيره، و هو هذا الفاسق. فسـكت الوالى، و لـم ينطق بحرف، و خرج من المسـجد. و مثل هذا لا يتحمله المنصور، لأـنه لاـ يخفى عليه، فـإن الرصـد و العيون يوصـلون إليه كل ما يصـدر من الإمام الصادق، فهو يتقـد بنار غيظه، و يتحين الفرص لإطفائهـا عنـد مـا يظفر به. و لمـا كان داود بن على واليا على المدينـة، بالغ فى إيـذاء العلويين، و تتبع أنصارهم. و فى أيامه قتل المعلى بن خنيس، قتله السـيرافى صـاحب شـرطة داود. و كـان المعلى رحمه اللّه من موالى جعفر بن محمـد و أتبـاعه، و صودرت أمواله، و تحمل ما تحمل فى سبيل نصـرة أهل البيت. و قـد ذكروا فى سـبب قتله أقوالا: منها: - أن المعلى طلب منه داود أن يدله على المخلصـين من شـيعة أهل البيت، فامتنع، و هدده بالقتل، و أصـر على امتناعه و تفانيه و إخلاصه لأهل البيت، فأمر داود بقتله. و منهم من يرى أن قتله كان بسبب القيام بالـدعوة لمحمـد بن عبد اللّه ذى النفس الزكية، و كان لهذا الحادث الأثر العظيم فى نفس الإمام الصادق «و قد رأى فى هذا الاعتداء اعتـداء على حقه، و حربا معلنـة عليه، يـدل على ذلک عنف الاحتجاج الـذى احتـج به على الأمير، و التهديد الذى هدده به، فقد أجمعت روايات الباحثين فى سيرته على أنه مشى إلى ديوان الأمير، و هو محنق على خلاف عادته، و ألقى خطابا موجزا قال فيه:

«قتلت مولای، و أخذت مالی، أ ما علمت أن الرجل ینام علی الثکل و لا ینام علی الحرب؟ و قد جری إثر الخطاب أخذ ورد بین الإمام و الأمیر لا یخلوان من العنف، و لکن الأمیر حاول التنصل و إحالة التقصیر علی صاحب شرطته. فکانت الحجة واهیة. و لم یکن للأمیر مهرب من القود، فأمر بقتل السیرافی، و لما أخذ لیقتل، صرح القاتل قائلا: یأمروننی بقتل الناس فأقتلهم لهم. فیأمرون بقتلی. و هی کلمة تدل علی أن القاتل کان مأمورا بإزهاق روح المعلی بن خنیس و أنه امتثل أمر الأمیر داود بذلک» (1). و کما قلنا: إن الإمام الصادق کان یلجأ إلی اللّه فی مهماته، فقد أهمه قتل المعلی و دعا علی داود حتی سمعوه یقول: الساعة الساعة، فما استتم دعاءه حتی سمعت الصیحة فی دار داود. و انه قال فی دعائه: اللهم إنی أسألک بنورک الذی لا یطفی، و بعزائمک التی لا تخفی، و بعزک الذی لا ینقضی، و بنعمتک التی لا تحصی، و بسلطانک الذی کففت به فرعون عن موسی (2). و هکذا بقی أبو عبد اللّه یتحمل ضروب الأذی و أنواع المحن و کان الخطر محدقا به، و یدل علی ذلک حدیثه المشهور و کلمته الخالدة: «عزت السلامة حتی لقد خفی مطلبها» . و کان سفیان الثوری یکثر الدخول علیه قبل أن یشتد الأمر علی الإمام، و لما دخل علیه فی تلک الأیام یطلب منه أن یحدثه قال: یا سفیان أنت رجل یطلبک السلطان و أنا رجل أتقی السلطان قم فاخرج غیر مطرود. و خلاصة القول أن الإمام الصادق علیه السّلام لقی فی أیام المنصور محنا و واجه صعوبات لم یلق بعضا منها فی العهد الأموی. کما أن المنصور اقتضت سیاسته عند اشتداد ملکه أن یقضی علی الإمام الصادق، و اتخذ شتی الوسائل فی ذلک. فمرة یحضره للفتک به کما تقدم و کانت سلامته فی تلک المواقف أعجوبة، لأن المنصور لا

1- 1) مؤرخ العراق لابن الفوطی.

2- 2) الکافی ج 2 ص 557 [1] ط 2.

يتوقف عن إراقة الدماء، و ليس له وازع يحجزه عن ارتكاب المحارم، و لكن عناية اللّه و عينه التى كانت ترعى الإمام دفعت عنه كيده. يحدثنا على بن ميسرة، قال: لما قدم أبو عبد اللّه على أبى جعفر أقام أبو جعفر مولى له على رأسه، و قال له: إذا دخل جعفر بن محمد فاضرب عنقه، فلما دخل أبو عبد اللّه نظر إلى أبى جعفر و أسر شيئا فى نفسه ثم أظهره: «يا من يكفى خلقه كلهم و لا يكفيه أحد، اكفنى شر عبد اللّه بن على. . .» فسلمه اللّه من شره و استجاب دعاءه (1). و كان يعرف كيد المنصور و وسائله التى اتخذها ضده، فمرة يرسل أموالا إلى العلويين على يد رجال من أعوانه يتظاهرون بأنهم غرباء من أهل خراسان فإذا دفعوا المال إلى أحد من العلويين يأخذون منه كتابا بوصول المال. و جاء أحد هؤلاء الرجال إلى الإمام الصادق، و قد أرسل معه المنصور مالا جزيلا ليدفعه إليه و إلى عبد اللّه بن الحسن، فجاء الرجل إلى المسجد و كان الصادق يصلى فيه فجلس خلفه ينتظره، فالتفت الإمام إليه و قال: يا هذا اتق اللّه، و قل لصاحبك-يعنى المنصور-اتق اللّه و لا تغرن أهل بيت محمد، فإنهم قريبو العهد بدولة بنى مروان، و كلهم محتاج. . . (2). و كذلك كان المنصور يكتب رسائل مزورة على لسان بعض شيعة أهل البيت و يرسلها بيد أعوانه، و يحاول أن ينال غرضه عند ما يحصل على جواب من الإمام لتلك الكتب و الرسائل، و لكنه لم يظفر بشىء من ذلك للخطة التى اتخذها الإمام، و لنظره الصائب و رأيه السديد. و كثرت السعايات به إلى المنصور، و اجتهد الوشاة بكل حيلة أن ينالوا قصدهم و غرضهم بذلك التقرب إلى المنصور بما يرفعونه إليه من أخبار الإمام التى تدور حول اتصاله بأنصاره و أوليائه فى الحجاز و العراق و خراسان، و أنهم كانوا يحملون زكاة أموالهم إليه، و قد زوروا على لسانه كتبا إلى هؤلاء الأنصار يدعوهم فيها إلى خلع بنى العباس.

1- 1) الكافى ج 2 ص 561. [1]

2- 2) ابن شهرآشوب ج 2 ص 302. [2]

و على أى حال فإن المنصور كان يهتم بأمر العلويين عامة، و بجعفر بن محمد خاصة، لأن شبح الثورة يلوح على الدوام فى مخيلته، فهو يقض و لا يقر له حال، و يبذل كل ما فى وسعه لتحصيل غايته.

سياسة المنصور تجاه العلويين:

اشارة

اقتضت سياسة المنصور أن يعامل العلويين معاملة قاسية، لم يشهد التاريخ مثلها، لأنه يعلم و يعلم كل أحد أن الأمة ترى أهلية أهل البيت للخلافة، و هم أولى بالأمر من غيرهم، لقربهم من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم نسبا، و لما اتصفوا به من المؤهلات لذلک من وفور العلم و التمسک بالدين، و قد برهنوا على عدلهم فى الحكم. و قد كان العباسيون و العلويون من قبل يجمعهم السخط على أعمال الأمويين كما ملأ سمع الدنيا انتصار العباسيين لأبناء عمهم، فقد أظهروا للناس التودد لأهل البيت، و كانوا يتفجعون لما نالهم من الأمويين، و يمسحون دموعهم المصطنعة بتلک الأيدى التى خضبوها من دمائهم فيما بعد، و كانوا يظهرون للناس إنكارهم الشديد على الأمويين لأعمالهم السيئة، و ما قابلوا به أهل البيت بقلوب لا عهد لها بالرحمة، كما أوضحوا ذلک فى كثير من مواقفهم و أقوالهم، و قد قطعوا على أنفسهم عهدا فى نصرة آل محمد. و لما تم الأمر و نالوا غايتهم و نجحت خططهم التى دبروها فى استغلال تلک الفرصة، و تم لهم ما أرادوا نراهم يذيقون العلويين أنواع الأذى و ضروب المحن، و عاملوهم أعظم مما كان الأمويون يعاملونهم به. فقد كان المنصور يطارد العلويين و يضيق عليهم الدنيا، و يذيقهم أنواع العذاب، و لنا بما فعله مع أسرائهم منهم كفاية على عظيم ما كان يتحمله من الغيظ و الحقد. فقد جمع منهم جماعة فى الربذة و أثقلهم بالحديد، و ضربهم بالسياط، حتى اختلطت بدمائهم و لحومهم، ثم حملهم إلى العراق على أخشن مركب و توجه بهم إلى الكوفة، فكانت خاتمة مطافهم ذلک السجن الضيق الذى لا يعرفون فيه الليل من النهار، و سلط عليهم شرطة ابتعدوا عن الرقة كابتعاده عن الإنسانية فقد عذبوهم بأمره. كما أنه أمر أن تترک أجساد الموتى منهم فى السجن. فاشتدت رائحة الجثث على الأحياء، فكان الواحد منهم يخر ميتا إلى جنب أخيه. و لما قتل إبراهيم بن عبد اللّه أرسل برأسه إلى أبيه مع الربيع و هو فى السجن،

و كان أبوه عبد اللّه يصلى فقال له أخوه إدريس، أسرع فى صلاتک يا أبا محمد فالتفت إليه و أخذ رأس ولده، و قال: أهلا و سهلا يا أبا القاسم، و اللّه لقد كنت من الذين قال اللّه عز و جل فيه: اَلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اَللّهِ وَ لا يَنْقُضُونَ اَلْمِيثاقَ. وَ اَلَّذِينَ يَصِلُونَ ما أَمَرَ اَللّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ. . . [الرعد:20-21]. فقال له الربيع: كيف أبو القاسم فى نفسه؟ قال: كما قال الشاعر: فتى كان يحميه من الذل سيفه و يكفيه أن يأتى الذنوب اجتنابها

ثم التفت إلى الربيع فقال: قل لصاحبک قد مضى من يومنا أيام و الملتقى القيامة. فمكثوا فى ذلک السجن، لا يعرفون أوقات صلاتهم إلا بأجزاء من القرآن، حتى كانت نهاية أمرهم أن أمر المنصور بهدم السجن على الأحياء منهم (1)ليذوقوا الموت من بين ألم القيود و ثقل السقوف و الجدران، و كان منهم من سمر يديه فى الحائط. و هكذا اقتضت سياسة المنصور أن يعامل العلويين بهذه المعاملة القاسية، و قد أمر ببعضهم فوضع بالبناء حيا. و لما خشى المنصور عاقبة فعله مع أبناء الحسن خشى الإنكار عليه، فقام خطيبا بالهاشمية فحمد اللّه و أثنى عليه، ثم قال: يا أهل خراسان أنتم شيعتنا و أنصارنا، و لو بايعتم غيرنا لم تبايعوا خيرا منا، و إن ولد ابن أبى طالب تركناهم و الذى لا إله إلا هو فلم نعرض لهم لا بقليل و لا بكثير إلى أن يقول: ثم وثب بنو أمية علينا فأماتوا شرفنا و أذهبوا عزنا، و اللّه ما كانوا لهم عندنا ترة يطلبونها، و ما كان ذلک كله إلا بسببهم و خروجهم-يعنى العلويين-فنفونا من البلاد، فصرنا مرة بالطائف و مرة بالشام و مرة بالسراة، حتى ابتعثكم اللّه لنا شيعة و أنصارا، فأحيا اللّه شرفنا و عزنا بكم و أظهر حقنا، و أصار إلينا ميراثنا من نبينا صلّى اللّه عليه و آله و سلم، فقر الحق فى قراره، و أظهر اللّه مناره و أعز أنصاره، و قطع دابر القوم الذين ظلموا و الحمد للّه رب العالمين. فلما استقرت الأمور فينا على قرارها من فضل اللّه و حكمه العدل، وثبوا علينا حسدا منهم، و بغيا لهم بما فضلنا اللّه به عليهم و أكرمنا من خلافته ميراثنا من نبيه. . إلى آخر خطبته (2).

1- 1) مروج الذهب ج 3 ص 299، [1] ابن الأثير ج 4 ص 371.

2- 2) المسعودى ج 3 ص 312. [2]

و لا يخفى ما فى هذه الخطبة من الأمور المخالفة للواقع، و إنما استعمل هذه اللهجة وسيلة لإرضاء أنصاره، و خشية من إنكارهم عليه، فهو يحاول أن يحل تلك المشكلة بهذه اللهجة الباردة، و الواقع أن العلويين لم ينهضوا حبا للملك و طمعا فى السيادة، و إنما كانت مواقفهم مشرفة يدعوهم للنهوض إباؤهم للضيم و رعايتهم لمصلحة الأمة و هو ما يفرقهم عن غيرهم، و قد أقر المنصور فى هذه الخطبة بأن ما لحقهم من بنى أمية كان بسبب مواقف العلويين. و يعلل ابن الساعى نهضة العلويين بقوله: إن من يمعن النظر كل الإمعان بتاريخ الإسلام يعلم علما يقينا أن كل من خرج من أهل البيت ما كان ذلك إلا عن مصيبة نابتة، و ذل إهانة، فإن الأمويين كانوا يمنون على الموالى و صعاليک العرب بمئات الألوف من الدنانير، و يعطونهم الاقطاع و الضيعات، و يستعملونهم على الممالک، و يستوزرونهم، و يقترون على الفاطميين حتى يصير الفاطمى فى ضيق و محنة شديدة، و يرى الذين يفرطون لبنى أمية و يتمسخرون لهم فى مجالسهم و يشاركونهم فى شرابهم و فسقهم و فجورهم، يتقلبون بأنواع الرفاهة، فهنالک يهز الجماعة الفاطمية شرفهم و نخوتهم، فيخرجون لا خروجا عن الطاعة و لا نقضا لبيعة (1). و لكن يقولون أرض اللّه واسعة، فيهاجر أحدهم إلى ناحية من الأرض فيها قوم من أمة جده، فإذا وصلهم حركتهم نخوة الدين فاحترموه و أكرموه و ألفته قلوبهم و اجتمعوا عليه، فمتى بلغ خبره الأمويين قالوا خرج و رب الكعبة، و ساقوا عليه القواد و الجنود و لا يزالون حتى يتركوه شهيدا. و كذلک بنو العباس. . . (2). و يجب هنا أن نلحظ الفرق بين خطة الأمويين فى معاملة أهل البيت و بين خطة العباسيين فإنهم يختلفون عن الأمويين. فأولئک قد جاهروا بالعداء لأهل البيت بكل ما للجهر بالعداء من طرق. و لم يتكتموا فى شىء من سياستهم و هل بعد قتل الحسين عليه السّلام و سبى نسائه و إعلان سب أمير المؤمنين و جعل ذلک سنة متبعة من شىء يدعو إلى التكتم؟ و لكن العباسيين لم يسلكوا ذلک الطريق بل تظاهروا بالولاء لآل محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلم، طمعا فى السيطرة، و حبا للإمرة.

1- 1) لم تكن للعباسيين بيعة فى رقاب العلويين فإنهم لم يعترفوا بولايتهم و لم يلزموا بالبيعة لهم و على هذا ساروا و تبعهم أنصارهم.

2- 2) تاريخ ابن الساعى ص 36.

و قد تحقق ذلک عند ما ولی المنصور، و تثبتت دعائم الدولة فأوقع بالعلويين، فكانوا أول الضحايا، و فی مقدمة القوافل التی تساق للسجون و ساحات الإعدام. و قد تحدثنا عن بعض أعمال المنصور مع العلويين و تشريدهم و إراقة دمائهم. و لعل أفجع حادث و أشجی حديث هو حديث الخزانة و إليک بيان ذلک:

حديث الخزانة:

و حديثها شجون، فقد احتفظ المنصور بخزانة ادخرها (ليوم لا ينفع فيه مال و لا بنون) ادخرها (ليوم الفصل) ، (يوم يعض الظالم علی يديه) أجل ما هذه الخزانة التی احتفظ بها فی حياته، و أوصی بها المهدی بعد وفاته و دفع مفتاحها إلی ريطة زوجة المهدی، و أوصاها أن لا تدفعها إلا بيده عند ما يصح لها موت المنصور؟ و لما مات المنصور و آن لريطة أن تنفذ وصيته بفتح تلک الخزانة، و لعلها كانت تأمل أنها تحتوی علی نفائس من الجوهر تحلی بها جيدها، فوق ما وهبتها الكف الظالمة، كما حظت ببغيتها من الخزائن الأخری. فجاءت مع المهدی و لا ثالث معهما إلا عين اللّه الذی لا تخفی عليه خافية فی الأرض و لا فی السماء. فاستبقا بكل بهجة و سرور لفتح تلک الخزانة العظيمة فوجدوا هناک أشلاء مطرحة، و جثثا هامدة، و إليک حديثها: حدث الطبری فی تاريخه قال: لما عزم المنصور علی الحج دعا ريطة بنت أبی العباس امرأة المهدی. و كان المهدی بالریّ قبل شخوص أبی جعفر. فأوصاها بما أراد و عهد إليها و دفع إليها مفاتيح الخزائن، و تقدم إليها و أحلفها و وكد الإيمان أن لا تفتح بعض تلک الخزائن و لا تطلع عليها أحدا إلا المهدی. و لا هی إلا أن يصح عندها موته، فإذا صح ذلک اجتمعت هی و المهدی و ليس معهما ثالث حتی يفتحا الخزانة. فلما قدم المهدی من الری إلی مدينة السلام دفعت إليه المفاتيح، و أخبرته عن المنصور أنه تقدم إليها فيه ألا يفتحه و لا يطلع عليه أحدا حتی يصح عندها موته، فلما انتهی إلی المهدی موت المنصور و ولی الخلافة فتح الباب و معه ريطة، فإذا أزج كبير فيه جماعة من قتلی الطالبيين، و فی آذانهم رقاع فيها أنسابهم، و إذا فيهم أطفال و رجال، شباب و مشايخ عدة كثيرة، فلما رأی ذلک المهدی ارتاع لما رأی، و أمر

فحفرت لهم حفيرة فدفنوا فيها، و عمل عليها دكانا (1). و لا حاجة بنا إلى بيان أكثر من هذا مما استعمله المنصور مع أهل البيت، و كفى بذلک شاهدا على نوع السياسة الجديدة و سير حكم النظام الجديد.

تظاهر المنصور بالعدل:

و الذى يلفت النظر: هو محاولة المنصور تغطية أعماله بأقوال فارغة، و ادعاء كاذب و تظاهر بالزهد. قيل لجعفر بن محمد عليه السّلام: إن أبا جعفر يعرف بلباس جبة هروية مرقوعة و إنه يرقع قميصه. فقال جعفر عليه السّلام: الحمد للّه الذى ابتلاه بفقر نفسه فى ملكه (2). و ضرب كاتبه محمد بن جميل خمس عشرة درة لأنه لبس سراويل كتان و قال له: إن هذا من السرف، و هو يحاول بذلک أن يفهم الناس بأنه أمين على أموال الأمة، و دينه يمنعه بأن يرى كاتبه يسرف فى لباسه. و خطب فى يوم عرفة فقال: أيها الناس إنما أنا سلطان اللّه فى أرضه أسوسكم بتوفيقه و تسديده، و أنا خازنه على فيئه أعمل بمشيئته، و أقسمه بإرادته و أعطيه بإذنه، فقد جعلنى اللّه عليه قفلا إذا شاء أن يفتحنى لأعطياتكم و قسم فيئكم فتحنى، و إذا شاء أن يقفلنى أقفلنى، فارغبوا إلى اللّه أيها الناس و سلوه-فى هذا اليوم الشريف (3)-أن يوفقنى للصواب و يسددنى للرشاد، و يلهمنى الرأفة بكم و الإحسان إليكم و يفتحنى لأعطياتكم! . فهو يحاول أن يتبرأ من عهدة بخله و يدعى طهارة ثوبه مما علق به من الدماء، و أنه أمر يعود إلى اللّه و بأمره، إذ هو سلطانه فيتبع الحق و يخالف الباطل، و لكن الواقع غير ما يقول. ثم نراه يصل إلى درجة أخرى من التظاهر بالقداسة بموافقة أعماله لما يرضى اللّه

1- 1) تاريخ الطبرى ج 6 ص 344. [1]

2- 2) الكامل لابن الأثير ج 6 ص 13. [2]

3- 3) الطبرى ج 6 ص 330. [3]

و لكنها أمور ادعائية لا صلة لها بالواقع. فهو يقول فى خطبة أخرى: الحمد للّه أحمده و أستعينه و أؤمن به و أتوكل عليه، و أشهد أن لا إله إلا اللّه وحده لا شريک له. فاعترضه معترض عن يمينه-و هو أبو الجوزاء-فقال: أيها الإنسان أذكرک من ذكرت به؟ . فقطع الخطبة، ثم قال: سمعا سمعا لمن حفظ عن اللّه و ذكر به، و أعوذ باللّه أن أكون جبارا عنيدا. ثم التفت إليه قائلا له: و إياک و إياكم معشر الناس أختها، فإن الحكمة علينا نزلت، و من عندنا فصلت فردوا الأمر إلى أهله توردوه موارده، و تصدروه مصادره، و عاد إلى خطبته. فهو بهذا الرد يخيف الناس و يهدد من يرد عليه أو ينقد عمله، لأنه يظهر نفسه بالمحافظة على الدين، و أنه يحكم بأمر اللّه، و لا يتبع الهوى، و أنه رجل عدل، و مثال تقوى، إذ هو سلطان اللّه، يعمل بمشيئته و لا يخالف حكمه، و كان ينقد سياسة الأمويين و أعمالهم مع أن عهده كان امتدادا للحكم الأموى و زيادة. قال المنصور يوما لعبد الرحمن الافريقى: كيف سلطانى من سلطان بنى أمية؟ . فقال عبد الرحمن: ما رأيت فى سلطانهم شيئا من الجور إلا رأيته فى سلطانک (1). و كان عبد الرحمن هذا من أهل افريقيا يطلب العلم مع المنصور قبل الخلافة، فلما ولى المنصور و ظهر الجور فى عهده قدم عبد الرحمن على المنصور فأقام ببابه شهرا لا يمكنه الدخول عليه. فلما أذن له بالدخول قال له المنصور: ما أقدمک؟ قال: ظهر الجور ببلادنا فجئت لأعلمک، فإذا الجور يخرج من دارک. و رأيت أعمالا سيئة، و ظلما فاشيا، ظننت لبعد البلاد منک، فجعلت كلما دنوت منک كان الأمر أعظم. فغضب المنصور، و أمر بإخراجه (2).

1- 1) تاريخ الخلفاء للسيوطى ص 105. [1]

2- 2) تاريخ بغداد ج 10 ص 215. [2]

و لما حج المنصور فی السنة التی مات فیها فبینما هو یطوف بالبیت إذ سمع قائلا یقول: اللهم إنی أشکو إلیک ظهور البغی و الفساد فی الأرض و ما یحول بین الحق و أهله من الطمع. فخرج المنصور إلی ناحیة من المسجد و دعا بالقائل فسأله عن قوله؟ فقال: یا أمیر المؤمنین إن أمنتنی أنبأتک بالأمور علی جلیتها، فقال: أنت آمن علی نفسک و مالک. فقال: إن الذی دخله الطمع حتی حال بین الحق و أهله هو أنت. فقال: ویحک فکیف یدخلنی الطمع و الصفراء و البیضاء عندی؟ ! فقال: یا أمیر المؤمنین لأن اللّه استرعاک للمسلمین و أموالهم، فجعلت بینک و بینهم حجابا من الجص و الآجر، و أبوابا من الحدید، و حجابا معهم من الأسلحة، و أمرتهم أن لا یدخل علیک إلا فلان و فلان، و لم تأمر بإیصال المظلوم، و لا الملهوف، و لا الضعیف، و لا الفقیر، و لا الجائع، و لا العاری، و ما منهم إلا و له فی هذا المال حق، فلما رآک هؤلاء النفر الذین استخلصتهم لنفسک و آثرتهم علی رعیتک تجبی الأموال فلا تعطیها، و تجمعها فلا تقسمها، قالوا: هذا قد خان اللّه تعالی فما لنا لا نخونه و قد سخر لنا نفسه، فاتفقوا علی أن لا یصل إلیک من أخبار الناس إلا ما أرادوا، و لا یخرج لک عامل إلا أقصوه و نفوه، حتی تسقط منزلته، فلما اشتهر هذا عنک و عنهم عظمهم الناس و هابوهم، فکان أول من صانعهم عمالک فی الهدایا، لیقووا بهم علی ظلم رعیتک، ثم فعل ذلک ذوو القدرة و الثروة، لینالوا بهم ظلم من دونهم، فامتلأت بلاد اللّه بالطمع ظلما و فسادا، و صار هؤلاء شرکاؤک فی سلطانک و أنت غافل، فإن جاء متظلم حیل بینه و بین الدخول علیک، فإن أراد رفع قصته إلیک و جدک قد منعت من ذلک و جعلت رجلا للمظالم، فلا یزال المظلوم یختلف إلیه و هو یدافعه خوفا من بطانتک، و إذا صرخ بین یدیک ضرب لیکون نکالا لغیره، و أنت تنظر و لا تفکر فما بقاء الإسلام علی هذا (1). و قال له عمه عبد الصمد بن علی: لقد هجمت بالعقوبة حتی کأنک لم تسمع بالعفو؟ ! ! فقال: لأن بنی مروان لم تبل رممهم و آل أبی طالب لم تغمد سیوفهم،

1- 1) تاریخ ابن الساعی ص 19.

و نحن بين قوم قـد رأونا أمس سوقـة، و اليوم خلفاء، فليس تتمهد هيبتنا فى صدورهم إلا بنسـيان العفو و اسـتعمال العقوبة (1). و وقفت فى طريقه-يوم دخل المدينة-ابنة صغيرة لعبد اللّه بن الحسن و هى تستعطفه و تطلب منه الرحمة و الإشفاق، عند ما يقع نظره عليها و هى بتلك الحالة و تخاطبه برقة و استعطاف: ارحم كبيرا سنه متهدم فى السجن بين سلاسل و قيود

إن جدت بالرحم القريبة بيننا ما جدكم من جدنا ببعيد

و كانت تأمل إطلاق أسـيرها رحمة بحالها، و لكن المنصور عند ما سمع صوتها قال: أذكرتنيه ثم أمر به فأحدر بالمطبق و ضيق عليه سجنه و كان السجن خاتمة مطاف ذلک الأسير و نهاية حياته. و رغم هذه الأعمال و ما اتضح للناس من سوء السيرة و الإجحاف بحقوق الرعية، فقد كان يحاول أن يصـبغ الدولة بصـبغة دينية، و أنه الوارث الشرعى لهذا الحق، و هو القائم بالعدل. كان المنصور يطارد العلماء الذين يأمرونه بـالمعروف و ينكرون أعمـاله، و يقرب آخرين ممن خضع لغير الحق. و كـان يريق دمـاء أبنـاء رسول اللّه و يملأ السـجون منهم، بينما نراه يحتفظ بحصـيرة بالية قد مرت عليها السـنون، يدعى بأنها كانت لرسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سلم، فيتبرک بها أمام الناس، و جعل لها موضـعا خاصـا، و خادمـا يحتفظ بها يحملها أوقات الصـلاة أمام الناس ليظهر لهم أنه محافظ على آثار النبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم تمويها و خداعا. و كان يطلب من الزهاد و الوعاظ أن يعظوه بمجلسه، فيرق عند سـماع الوعظ و يبكى، و لكنه بدون اتعاظ، و تجرى دموعه و لكن بدون خشوع و إنما هو من باب: كف تذبح و أخرى تسـبح، إلى غير ذلک من الأمور التى كان يفعلها إغراء للناس ليغطى أعماله التى ارتكبها. و سار على ذلک أحفاده و وضعت فى دولتهم بشائر عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ليكون لهم فى

1- 1) تاريخ الخلفاء للسيوطى 104. [1]

قلوب الناس اعتقاد راسخ و سلطة دينية، فمن الأحاديث التى وضعت لإعلاء شأنهم (اللهم اغفر للعباس و لولد العباس و لمن أحبهم) (1). و بصورة أخرى: «اللهم اغفر للعباس و ولد العباس و لمن أحبهم، اللهم اغفر للعباس ما أسر و ما أعلن و ما أبدى و ما أخفى، و ما كان و ما يكون منه و من ذريته إلى يوم القيامة» (2). و هذه أحاديث مكذوبة كما حققها الحفاظ من علماء الحديث. و بهذا يريدون أن يكونوا فى سلامة من المؤاخذة و عليهم حصانة من العقاب، كما حاولوا أن تكون دولتهم هى الدولة الصالحة التى يبشر بها النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم، فرووا عن أبى سعيد الخدرى مرفوعا: يخرج منا رجل فى انقطاع من الزمن و ظهور من الفتن يسمى السفاح (3)و بلفظ آخر عن المهدى بن المنصور عن آبائه مرفوعا: ليكونن منا السفاح و المنصور و المهدى (4). يقول الدكتور أحمد أمين: فوضعت الأساطير حول العباس، و عبد اللّه بن العباس، و غيرهما من آل العباس، من مثل ما يروى أن عمر بن الخطاب استسقى بالعباس عام الرمادة لما اشتد القحط، فسقاهم اللّه تعالى به، و أخصبت الأرض، فقال عمر: هذا و اللّه الوسيلة إلى اللّه و المكان منه، و لما سقى الناس طفقوا يتمسحون بالعباس و يقولون له: ساقى الحرمين (5). و تصوير بعض المؤرخين بأنه-أى عبد اللّه بن العباس-سياسى محنک قدير، كان يرسم الخطط لعلى بن أبى طالب، مع أن أكبر مزية له فى الواقع هى سعة علمه إلى غير ذلک (6). و قد حقق الحفاظ هذه الأحاديث و غيرها الواردة فى حق بنى العباس و قد نصوا على أنها موضوعة من قبل أناس تقربوا إليهم بالكذب على النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عند ما لمسوا

1- 1) تاريخ بغداد ج 10 ص 39. [1]

2- 2) انظر شرح الهمزية لابن حجر ص 318.

3- 3) تاريخ بغداد ج 1 ص 48. [2]

4- 4) نفس المصدر. [3]

5- 5) أسد الغابة ج 3 ص 111. [4]

6- 6) ضحى الإسلام.

رغبتهم فی تأیید سلطانهم، و أنهم خلفاء الرسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و أولیاء الأمر. و إن ارتکبوا الجرائم و خالفوا الإسلام. و علی أی حال فإن المنصور الدوانیقی کان سیئ السیرة مع أبناء علی علیه السّلام و قد قابل الإمام الصادق علیه السّلام بکل جفاء و غلظة، و تشدد فی أمره و حاول الفتک به مرارا حتی حان الوقت، و حل الأجل فدس إلیه السم، و قضی علیه فی سنة 148 ه-. و قد تحمل الإمام الصادق علیه السّلام من طاغیة زمانه أکثر مما تحمله من خصومه الأمویین، و لکنه علیه السّلام لم تهن عزیمته، و سار فی نهجه الذی نهجه لنفسه، من الدعوة إلی اللّه، و مناصرة المظلومین، و إعلان الغضب علی المنصور و وجوب مقاطعته، و عدم المؤازرة له و المعاونة معه، لأن حکومته غیر شرعیة فهو ظالم غاشم و حاکم مستبد. و لم تلن قناته یوما ما، أو یخدع بحیل المنصور فیتحول عن رأیه، أو یتنازل عن أحقیته للإمرة دونه و لکن الوقت لم یأت، و الزمان لیس بزمانه و لا یرید أن یزج الأمة فی حرب طاحنة، تکون نتائجها غیر مرضیة. فسلک علیه السّلام طریق التریث و النظر إلی العواقب و نهض إلی إصلاح المجتمع لیصلح وضع الدولة و حاول تطهیر القلوب من رواسب الخلافات التی خلفها العهد الأموی، و وسع دائرتها العهد العباسی.

الشیعة و أهل البیت:

و من حقنا هنا أن نشیر إلی عظیم المحنة و الخطر الجسیم الذی حل بأتباعه علیه السّلام من بعده، و ما اتخذته السلطات الغاشمة فی إنزال العقوبة بهم. لقد ارتبط اسم الشیعة باسم أهل البیت فهم أنصارهم من عهد النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم إذ عرف المحب لعلی بأنه شیعی له، ثم شمل المناصر له و هکذا أهل بیته فإن أنصارهم و أتباعهم شیعة لهم. و بطبیعة الحال أن ینالهم من الأذی ما لم ینل غیرهم لأن أهل البیت علیهم السّلام فی جمیع الأدوار هم المعارضون لتیار الظلم، و هم دعاة الحق و العدل، فأریقت دماؤهم، و نالهم من طغاة زمانهم ما یقف القلم عند بیان بعض تلک المآسی، فکیف الإحاطة بها و سردها جمیعا. و إذا کان أهل البیت أنفسهم لم یسلموا من نقمة الظالمین و سخط الجبارین فالشیعة أولی بأن تشتد علیهم المحن، و تتوجه إلیهم سهام الانتقام.

و قد خاض الشیعة عدة معارک و بذلوا أنفسهم فی سبیل مناصرة دعاة الحق و العدل و لم یثنهم الخوف، أو تحولهم الأطماع عن منهجهم الذی ساروا علیه، فکانوا فی معارضتهم یثقلون کاهل الدولة و اسم التشیع یدخل الرعب فی قلوب الحکام، و لهذا فقد سلکوا فی معارضة الشیعة کل الطرق. و قد أدخل أولئک الحکام-بمعاونة علماء السوء-فی روع أتباعهم أن الشیعة إنما یناصرون آل محمد لا رعایة لحق النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و وصایاه فیهم و أنهم عدل القرآن، بل انهم اعتقدوا أنهم آلهة و هم بهذا یحاولون تکفیر الشیعة. کما أنهم حرموهم من کل ما یتمتع به غیرهم من سعة العیش و حریة الفکر و إظهار العقائد و إقامة الشعائر الدینیة. فکان الزندیق یعیش فی سعة من العیش، و إن أنکر الخالق، و ألحد فی عقیدته فلا یؤاخذ بشیء ما دام مسالما للدولة. و الشیعی مضایق من کل جهاته، و یرمی بسوء العقیدة، مع إقراره للّه بالوحدانیة و لمحمد بالرسالة، و لا یسلم من الطعن لأنه معارض للسلطة. فمنعوهم من الحدیث و من یأخذ الحدیث عنهم یناله سوء الاتهام و وسموهم بالخروج عن الدین و اتهموهم بالزندقة و الإلحاد لیتوصلوا إلی حلیة دمائهم ورد روایاتهم. هذا إجمال سنفصله فیما بعد و قد أشرنا لبعضه من قبل و ذکرنا ما بذل الولاة فی محاربة الشیعة و دعایتهم ضد أهل البیت و أتباعهم، ما خرجوا عن الواقع المحسوس، و استعملوا الخرافات و الأباطیل لیضلوا الناس عن طریق الحق و نهج الرشاد. و نحن نأمل کما یأمل کثیر من الناس أن تهزم خرافات الأجیال الماضیة بقوة العلم، و تخضع تلک الأشباح الهائلة علی التقهقر، فقد وقفت فی طریق وحدة المسلمین و اتفاقهم لتعود لواقعها من حیث هی، و تکشف الحقائق و یظهر لجیلنا المثقف خطأ الوضع، فإنه لا یکاد یخضع لتلک الخرافات التی هیمنت علی عقول الأجیال زمنا طویلا. و لننتقل الآن إلی البحث عن حیاة الإمام مالک بن أنس الأصبحی الإمام الثانی من الأئمة الأربعة، و نتعرف علیه ملتزمین البحث التاریخی بدون تعصب له أو علیه.

الإمام مالک بن أنس

تمهید:

تقدمت الإشارة فی الجزء الأول لمعرکة أهل الحدیث و أهل الرأی و ما أحدثه ذلک النزاع فی صفوف الأمة من تصدع و خلافات أدت إلی الهجاء و القول بما لا تحمد عقباه، و کان من نتائجه أن تظهر شخصیة مالک فی الحجاز و شخصیة أبی حنیفة فی العراق، کما أنه لم تخف أغراض السیاسة من وراء انتصارها لأهل الرأی و سخطها علی أهل الحدیث. و قد افترق المسلمون إلی فرقتین: أهل الحدیث و أهل الرأی، و زعیم الفرقة الأولی مالک، و الثانی أبو حنیفة، و اتسع بینهما الخلاف حتی أدی إلی الخروج عن حدود العلم، و تجاوزها إلی الهجاء و القذف و السباب، و لکن تلک المعرکة لم تطل أیامها، فقد رأینا بعد قلیل التقاء أطراف ذلک الافتراق، و اجتماع أهل الحدیث و أهل الرأی، و کأن القضیة کانت لتحقیق أمر و قد حصل ذلک. و کان مالک بن أنس عرضة لسخط الدولة، حتی منعوه من الحدیث، و ضربوه بالسیاط لأجل فتوی أفتاها لم توافق غرض الدولة، و لکنه بعد قلیل من الزمن أصبح مقدما فی الدولة ملحوظا بالعنایة، محفوفا بالکرامة، و کانت بابه تزدحم علیها الناس کأنها باب الأمیر، بل کان الأمراء یتهیبون شخصه، و تقصر خطاهم عن الوصول إلیه فشملته مظاهرهم. و هذا التحول الغریب یحملنا علی التساؤل: هل أن الدولة کانت تبغضه لشیء فترکه تقیة أو تبدل رأیه عن ذلک؟ أم أنه ثبت علی ما یراه و تحملت الدولة له ذلک، و وجدت نفسها مضطرة إلی مجاراته؟ أم أن هناک شیء آخر؟

و يمكننا أن نستحصل الإجابة عن هذه الأسئلة عند دراستنا لحياته و وقوفنا على عوامل شخصيته و بواعث انتشار ذكره، إذا لنتعرف على الإمام مالک و ندرس شخصيته دراسة تاريخية، و نستعرض حوادث عصره و سياسته لنكون على بينة من الأمر و معرفة من الواقع.

من هو الإمام مالک:

اشارة

هو أبو عبد اللّه مالک بن أنس بن مالک بن أبی عامر بن عمر بن الحارث بن عثمان بن خثيل بن عمر بن الحارث، و هو ذو أصبح من حمير بن سباء، و هی قبيلة يمينة، و أمه أزدية و هی العالية بنت شريک الأزدية. فعلی هذا فإن أمه و أباه عربيان. و هنا تقف أمامنا مشكلتان لا يمكن أن نتخطاهما بدون إشارة لهما، ليتجلی لنا الأمر و يتضح القول الصحيح. الأولی: إن البعض من كتّاب السير ذهبوا إلی عدم صحة هذا النسب، و إن مالكا لم يكن عربيا و إنما هو من موالی بنی تيم، فهو علی هذا من موالی قريش و ليس بعربی، و قد روی عن ابن شهاب أنه قال: حدثنی نافع بن مالک-و هو عم مالک بن أنس-مولی التيميين (1)أن أباه حدثه عن أبی هريرة. . . و ابن شهاب الزهری هو أستاذ مالک و أعرف بحاله، فهو يعتبر مالكا من الموالی لأنه اعتبر عمه نافعا كذلک. و قال ابن عبد البر: إن محمد بن إسحاق الواقدی زعم أن مالكا و أباه وجده و أعمامه موالی لبنی تيم بن مرة، و هذا هو السبب فی تكذيب مالک لمحمد بن إسحاق و طعنه عليه. فبهذا يصبح مالک هو من الموالی لا من العرب، و قد كان شائعا فی عصر مالک، لذلک وقف تجاه هذه الدعوی مكذبا لها و أنكرها أشد الإنكار، و كذب من يدعيها عليه، و كذلک أبو سهيل عم مالک قام فی إنكارها و قال: نحن قوم من ذی أصبح، قدم جدنا المدينة فتزوج فی التيميين، فكان معهم و نسبنا إليهم. و هذا يدل علی خمول ذكرهم و عدم اشتهار عشيرتهم، و قد أصر ابن إسحاق

1- 1) الانتقاء ص 11.

على عدم صحة هذه الدعوى و تكذيب انتسابهم إلى العرب. و قد ادعى أن حصول هذه الشبهة فى نسب مالک و عدم کونه عربيا: أن مالک بن أبى عامر قدم المدينة متظلما من بعض ولاة اليمن، فمال إلى بعض بنى تيم بن مرة فعاقده، و صار معهم. و هذا يختلف مع ما يقوله نافع بن مالک فإنه يدعى أن الحلف کان مع أبى عامر جدهم لا مع ابنه مالک جد مالک بن أنس. و يروى ابن عبد البر عن البخارى بسند عن نافع بن مالک بن أبى عامر قال: قال لى عبد الرحمن بن عثمان بن عبيد اللّه التيمى و هو ابن أخى طلحة: هل لک إلى ما دعانا إليه غيرک، فأبينا عليه أن يکون هدمنا هدمک و دمنا دمک ترثنا و نرثک (1)؟ و ينسب هذا إلى الربيع بن مالک أيضا (2). و مهما يکن فإن نسب مالک للعرب لم يخل من طاعن فيه، و أنه من الموالى فهو بين مثبت و ناف. و کما طعن فى أب مالک و عدم صحة عروبته، فکذلک الحال فى أمه العالية فقيل: إنها أزدية يمنية و هى بنت شريک بن عبد الرحمن بن شريک الأزدية، و قيل: إنها طليحة مولاة عبيد اللّه بن معمر حکاه القاضى عياض (3)و على هذا يکون نسب مالک من الطرفين إلى الموالى. و لا علقة له بالعرب. الثانية: قضية بقائه فى بطن أمه. قيل: سنتين و قيل: ثلاث سنين و قيل: أربع سنين، و قال ابن سعد فى الطبقة السادسة من تابعى أهل المدينة: أخبرنا الواقدى قال: سمعت مالک بن أنس يقول قد يکون الحمل ثلاث سنين و قد حمل ببعض الناس ثلاث سنين يعنى نفسه. و قال ابن عبد البر: و قد ذکر غير الواقدى أن أم مالک حملت به ثلاث سنين (4). و هذا بعيد کل البعد عن الصحة، لأن الطب يقرر أن الحمل لا يمکن أن يمکث

1- 1) الانتقاء ص 11.

2- 2) تزيين الممالک للسيوطى ص 3.

3- 3) مناقب مالک للسيوطى ص 5.

4- 4) الانتقاء ص 12 و مناقب مالک للسيوطى ص 6.

فی بطن أمه أکثر من سنة، علی أن الاستقراء مع المراقبة الدقیقة یجعلنا نؤمن بأن الحمل لا یمکن أن یمکث فی بطن أمه أکثر من تسعة أشهر، مع أنا لم نقف علی تاریخ وفاة أبیه، فنقارن النسبة بین الولادة و الوفاة، و هذه الدعوی من شذوذ الطبیعة و لا نتعرض إلی إقامة البرهان علی عدم بقاء الطفل فی بطن أمه أکثر مما هو المتعارف. و یذهب بعضهم إلی أن هذه الروایة: وضعها المعجبون بمالک، لأنهم یریدون أن یقرنوا حیاته بالعجائب و الغرائب، لبیان أنه صنف من الناس ممتاز اقترنت مییزاته بمولده، إذ أنه حمل به ثلاث سنین علی حین یحمل بکل مولود تسعة أشهر، فکانت هذه منقبة اقترنت بمیلاده، کما کانت حیاته کلها مناقب، کما سیأتی بعضها. و لیس من البعید أن یتقبل المعجب بشیء کل ما له علاقة فیه و إن خالف الحق و لم یؤیده العلم و شذ عن العقل و مجری العادة، علی أن مثل هذا لا یرتفع به مقام مالک و کان الأجدر رفضها دون قبولها.

ولادته:

اختلفت الروایات فی سنة ولادة مالک کالاختلاف فی مدة حمله، فقیل: إنه ولد سنة 90 ه-و قیل: سنة 93 ه-و قیل: سنة 94 ه-و قیل: سنة 95 ه-و قیل: سنة 96 ه-فی المدینة المنورة، و تختلف الروایات فی أول من نزل المدینة من أسرة مالک، فقیل: إن أول من نزل هو أبو عامر و أنه صحابی و شهد المغازی مع النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم ما عدا بدرا و لم یذکره أحد فی عداد الصحابة. قال الذهبی فی التجرید: لم أر من ذکره فی الصحابة. و الصحیح أن أول من انتقل إلی المدینة هو مالک بن أبی عامر جد مالک بن أنس، و هو من التابعین کما رواه ابن عبد البر، و تدل علیه روایة أبی سهیل عم مالک المتقدمة فی بیان نسبهم، و لکن المالکیة ذهبوا إلی إثبات الصحبة لأبی عامر و لیس لهم علی ذلک دلیل، لذلک لم یقبله المحققون و لم یثبتوا له صحبة. فابن حجر فی الإصابة لم ینقل عنه شیئا إلا أنه نقل عبارة الذهبی، و ابن عبد البر فی الاستیعاب لم یتعرض لذکره. و هذه الدعوی ولیدة ظروف متأخرة أثبتتها کتب مناقب مالک، کما أن أنس بن مالک والد مالک-صاحب المذهب-لم یکن له ذکر فی کتب الرجال و لم

يعرف عنه أنه اشتغل بالعلم، و ليست له معرفة فيه، و لو كان يؤثر عنه شيء لكان مالک أولى بروايته. نعم ورد فى بعض الكتب رواية مالک عن أبيه عن جده عن عمر بن الخطاب عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنه قال: ثلاث يفرع لهن الجسد فيربو عليهن: الطيب، و الثوب اللين، و شرب العسل، و لكن المحققين من علماء الحديث قالوا: إن هذا الخبر لا يصح عن مالک (1). و بهذا لم يكن لأنس رواية فى الحديث و لا رواية واحدة. قال الخطيب فى المتفق بعد ذكر الحديث المتقدم: لا أعلم. روى عن مالک من هذا الوجه و فيه نظر، فهو يطعن بصحته، و قال أيضا: لم يروه عن مالک غير يوسف بن هرون تفرد به القشيرى، و أخرجه ابن حبان فى الضعفاء، و قال: هذا لم يأت به عن مالک غير يونس-و هو أحد رواة الحديث المتقدم-و قد روى عجائب لا تحل الرواية عنه. و أخرجه الدارقطنى فى غرائب مالک و قال: هذا لا يصح عن مالک، و يونس ضعيف. و ربما يتوهم أن والد مالک بن أنس هو أنس بن مالک الصحابى الشهير، لأن المتسمين بأنس بن مالک هم خمسة: 1-أنس بن مالک بن النضر بن ضمضم بن زيد بن حرام الأنصارى أبو حمزة المدنى المتوفى سنة 93 ه-و هو خادم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم. 2-أنس بن مالک الكعبى القشيرى أبو أميعة، نزل البصرة، و روى عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حديثا واحدا. 3-أنس بن مالک شيخ حمصى، ذكره أبو بكر أحمد بن محمد بن عيسى البغدادى فى تاريخ الحمصيين، و ليس له من الحديث شيء. 4-أنس بن مالک أبو القاسم الكوفى حدث عن عبد الرحمن بن الأسود و حماد بن أبى سليمان و غيره، و أحاديثه قليلة. 5-أنس بن مالک والد الإمام مالک هذا، و لم يكن له ذكر فى كتب الحديث، و لم يفصح التاريخ عن شيء من حياته و لا تاريخ وفاته، بل هو مجهول كما إنا لم نقف على شيء من حياته لنتحقق نشأة مالک تحت رعايته و تربيته، و لعله مات قبل أن

1- 1) تزيين الممالک ص 5.

يولد مالک بمدة، و يقال: إن مالک نشأ تحت رعاية غيره من أسـرته، و يدعى أنها مشـهورة بالعلم، و لا نعرف منهم إلا نافع بن مالک بن أبى عامر الأصبحى أبو سهيل المتوفى فى سنة 34 ه-35. روى عن ابن عمر و أنس، و عنه ابن أخيه مالـک بن أنس و الزهرى، و لـم يكن له كثير حـديث. و أما أخوه النضـر بن أنس أخو مالک، فقد روى عن أبيه و ابن عباس و عنه بكر المزنى، و يقال: إن مالكا كان ملازما له، و لا يعرف إلا بأخيه، فيقال عند تعريفه: أخو النضـر لشهرة أخيه دونه، و لـم يكن غير هؤلاء فى أسرة مالک من عرف عنه الحديث، و لا يصح أن توصف هذه الأسرة من الأسر العلمية فى المدينة، فيكون لها الأثر فى توجيه مالک إلى طلب الحديث و الفتيا، لأن الناشىء تتغذى مواهبه و منازعه من منزع بيته و ما يتجه إليه، فتزعزع تحت ظلها المواهب و تتجه المنازع، على أنهما لـم يكونا بتلک المنزلـة من الشـهرة العلميـة، و لـم تكن لهما كثير رواية.

المناقب:

من الأمور التى تسـتدعى النظر و الاهتمام هو الغلو فى المناقب، و ذلک لقوة نزعـة التعصب، و بالأخص عند احتدام النزاع و التخاصم بين الفرق، فكـل يحاول تأييـد مـذهبه و تعزيز رأيه، و يتخـذ شتى الوسائل لتكون له الغلبـة على غيره، حتى كان الحق فى جانب و المغالون فى جانب آخر مما أدى إلى حصول عقبات دون الباحث الـذى يريـد أن يتعرف على شخصـية من شخصـيات التاريـخ. و قد تقدم بعض تلک المناقب التى انتحلوها لأبى حنيفة تعزيزا لمركزه و تقويما لشخصـيته حتى ذهبوا إلى أبعد حد من ثبوت العبقرية الادعائية من وفور علمه، و علو منزلته، و شـرف بيته حتى قالوا: إن أهل الكوفة كلهم موالى لأبى حنيفة-أى عبيد فأعتقهم (1)-. و هل ينكر أحد أن أبا حنيفة كان مولى لبيت من بيوت الكوفـة، و لهم ولاؤه؟ و لكن المغالطات و الادعاءات الفارغـة لا حـدّ لها و لا نهايـة، فهى واسـعة بمقدار اتساع الغرض، و تسـير طيعة للهوى و النزعة التى تقتضـيها، و يعود ذلک إلى المعركة الجدلية التى جرت فى القرن الرابع و بالأخص بين الحنفية و الشافعية، فملأت كتب المناقب

1- 1) مناقب أبى حنيفة للمكى ج 1 ص 174.

بالإغراق و المبالغـة، حتى بلغت مغالاة أمـة من الحنفيـة أن إمامهم أعلم من رسول اللّه و حدّث علىّ بن جرير: أن رجلين تماريا فى مسألة فقال أحدهما: قال رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلم، فقال الآخر كان أبو حنيفة أعلم بالقضاء (1)و هذا منتهى الإغراق فى الغلو و قد مرّ قسم من ذلـک فى الجزء الأول. أما المالكيـة فإنهم أهون فى تقحم الخطر على مركب الغلو من الحنفيـة فى وضع المناقب، و قـد خلت كتبهم من التحامل و الطعن على غيرهم، على أنهم لم يخلوا من شائبـة الغلو و المـدح و الإطراء المؤدى إلى الاضـطراب، كما أنهم أكثروا من الأطياف و الرؤيا بما يعود لمالک و علو منزلته و يحصل فيه لشخصـيته امتياز عن غيره، و تلک مبالغات مصـدرها الغلو و حب الغلبة و الشهرة. و إليک بعضا من مناقبه:

عالم المدينة:

لما كانت المدينـة المنورة مهـدا للعلم و مصـدرا للتشـريع، فلا بد أن يكون لعلمائها منزلة دون غيرهم من علماء الأقطار، و قد ورد حديث عالم المدينة فجعلوه ينطبق على مالک وحده، و كأن المدينة لم ينبغ بها عالم حتى يكون مصداقا للحديث غير مالک بن أنس. فلا بد لنا أن نتكلم عن صحة الحديث و انطباقه على مالک دون غيره. أخرج الترمذى بطريق عن أبى هريرة مرفوعا: «يوشک أن يضرب الناس أكباد الإبل فلاـ يجـدون أحـدا أعلم من عالم المدينـة» . و جعلوا المراد به مالک بن أنس دون غيره. قال ابن أبى الحوت فى أسـنى المطالب: خبر (أبى حنيفة سـراج أمتى) موضوع باطل، و لم يرد فى أحد من الأئمة نص لا صـحيح و لا ضـعيف كخبر: عالم قريش يملأ طباق الأرض علما، و حمل على الشافعى، و كذا خبر: يكاد يضرب الناس أكباد الإبل. . الحديث. سمعته من المالكية و لم أره، و حمل على مالک و يظهر عليه التكلف. و لاـ حاجـة بنا إلى نقل الأقوال فى تفنيـده، و مع التسـليم لصـحة الحـديث فمن البعيـد حمله على مالک بن أنس. قال الخطيب البغدادى عند ذكر هذا الحديث: قال

1- 1) تاريخ بغداد ج 13 ص 413-414. [1]

أبو موسى الأنصارى: قلت لسفيان: إن ابن جريج يقول: نرى أنه مالک، فقال سفيان: إنما العالم من يخشى اللّه. و قد نقل عن ابن عيينة: أن المراد به عبد العزيز العمرى. و مع هذا فإن الحديث لا يخلو من خدشة فى السند إن لم نقل فى الواسطة الأولى، فإن أبا الزبير و هو أحد رواة هذا الحديث، قد تكلموا فيه و طعنوا عليه. و إذا أردنا أن نسلم لصحة هذا الحديث فإن انطباقه على مالک بعيد جدا و دونه خرط القتاد، فالمدينة المنورة قد ضمت علماء الإسلام الذين كانوا أعلى درجة من مالک و أرفع منزلة منه، و لو راق للسلطة غير مالک لحملوه عليه و لكنهم أرادوا ذلک، و الناس تبعا لما أرادوا. و إن فى المدينة من العلماء فى ذلک العهد قوم هم شيوخ مالک، و هم أعلم منه، منهم: عبد العزيز العمرى. و زيد بن أسلم المتوفى سنة 136 ه-و عنه أخذ مالک. و أبو حازم سلمة بن دينار المتوفى سنة 140 ه-و هو من شيوخ مالک. و صفوان بن سليم المتوفى سنة 132 ه-و هو من شيوخ مالک. و عبد الرحمن بن أبى الزناد المتوفى سنة 174 ه-و هو من شيوخ مالک. و عبد اللّه بن ذكران المتوفى سنة 131 ه-و هو من شيوخ مالک. و ربيعة الرأى المتوفى سنة 136 ه-و هو من شيوخ مالک. و يحيى بن سعيد بن قيس المتوفى سنة 143 ه-و هو من شيوخ مالک. و أبو الحارث محمد بن عبد الرحمن المتوفى سنة 160 ه-، كان أفضل من مالک و كان يشبه سعيد بن المسيب. و محمد بن مسلم الزهرى المتوفى سنة 124 ه-، و هو من شيوخ مالک. و غيرهم من علماء المدينة ممن لم يتعلق غرض السلطة فى معارضتهم، و لم تقف أمامهم على ربوة العداء و الخصومة، على أن المسألة لم تكن مسألة علم و عدمه، بل حظوظ و دعاية كما يقول ربيعة الرأى و هو أستاذ مالک و معلمه. قال أبو بكر عبد اللّه الصنعانى: أتينا مالک بن أنس فحدثنا عن ربيعة الرأى فكنا نستزيده،

فقال لنا ذات يوم: ما تصنعون بربيعة و هو نائم فی ذاک الطاق؟ فأتينا ربيعة فقلنا: كيف يحظى بک مالک و لم تحظ أنت بنفسک؟ فقال: أ ما علمتم أن مثقالا من دولة خير من حملی علم (1)و ذلک أن الدولة رفعته بعد غضبها عليه، و لذلک نری مبادلة العواطف بين المنصور و مالک بن أنس. فكان المنصور يقول لمالک: أنت و اللّه أعقل الناس و أعلم لئن بقيت لأكتبن قولک كما تكتب المصاحف و لأبعثن به إلی الآفاق فأحملهم عليه. و هذا غاية فی التعظيم و الإجلال و أقوی عامل لرفع مالک و علو منزلته، و كان مالک يقول: وجدت المنصور أعلم بكتاب اللّه و سنة رسوله و آثار من مضی. و بالجملة فإن هذا الحديث لا ينطبق علی مالک و لم يعتن به أكثر من كتب عن مالک، و لكن المالكية جعلوه دليلا لهم علی لزوم الأخذ عن مالک و هو كما ترى يبنی علی الظنون و التكهن، و هذا لا يجدی، و لإن صح الحديث فلا مصداق له سوی حملة العلم و أعلام الأمة و ورثة الرسول الأعظم، فهم أئمة الهدی، و إن لهم فی صحيح الآثار و أصدق الأخبار عن الصادق الأمين كفاية عن التمحل و التكلف بأمثال هذا و نحوه.

أمين زمانه:

ليس من الغريب أن تصل يد الوضع و الانتحال إلی ارتكاب ما لا يقبله العقل و لا يقره الوجدان و التتبع، و لا يتسق مع الواقع، و قد ورد ذلک فی منقبة لمالک، هی بعيدة كل البعد عن الصحة، و لا يمكن قبولها بالمرة. و ذلک أنهم ادعوا أن الإمام الصادق عليه السّلام أوصی إلی مالک عند وفاته و إليک نص هذا الافتعال: روی الشيخ عيسی بن مسعود الزواوی فی كتاب مناقب مالک و يعزيه إلی كتاب أبی نعيم.

1- 1) طبقات الفقهاء لأبی إسحاق ص 42.

دخل على الإمام الصادق قوم من أهل الكوفة فى مرضه الذى توفى فيه فسألوه أن ينصب لهم رجلا يرجعون إليه فى أمر دينهم فقال: عليكم بقول أهل المدينة فإنها تنفى خبثها كما ينفى الكير خبث الحديد، عليكم بآثار من مضى، فإنى أعلمكم أنى متبع غير مبتدع، عليكم بفقه أهل الحجاز عليكم بالميمون المبارک فى الإسلام المتبع آثار رسول اللّه، فقد امتحنته فوجدته فقيها فاضلا، متبعا مريدا لا يميل به الهوى، و لا تزدريه الحاجة، و لا يروى إلا عن أهل الفضل من أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فإن اتبعتموه أخذتم بحظكم من الإسلام، و إن خالفتموه ضللتم و هلكتم، فإنه قد أخذ عنى كل ما يحتاج إليه فلا يميل بكم الهوى فتهلكوا، أى أحذركم عذاب اللّه يوم القيامة يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ وَ لا بَنُونَ. إِلاّ مَنْ أَتَى اَللّهَ بِقَلْبٍ سَ لِيمٍ [الشعراء:88 و 89]، أحذركم فقد أرشدتكم إلى رجل نصبته لكم فإنه أمين مولود فى زمانه. قالوا: من هو بينه لنا؟ قال: (ذلک مالک بن أنس) عليكم بقول مالک (1). هكذا قال الزواوى، و هكذا نقل. و لا أقول إنه هو الذى وضعها أو افتعلها و لكنه ناقل عن غيره، و نحن لا ننكر أثر الخلافات التى حصلت بين الطوائف، و وجود قوة عاملة على إيجاد الخلاف و إيقاد نار الفرقة، فأصبح كل يذهب لتأييد مذهبه بشتى الوسائل و الاجتهاد فى تحصيل ما ينال به الظفر على خصمه، و أى ظفر أعظم من الحصول على شهادة أعظم شخصية علمية كان مالک يسارع لاستماع حديثه و يغتنم فرصة الحضور عنده، و يتلقى تعاليمه فى مدرسته كما مر بيانه. تلک هى شخصية الإمام الصادق الذى ترأس أعظم مدرسة إسلامية شهدها التشريع الإسلامى، و بقيت آثاره مفخرة الدهر و حديث الأجيال، فكانت أقواله تؤخذ بالقبول و الاعتبار، فقوله مسموح و حكمه نافذ. لذلک نرى كثيرا من الأقوال تنسب إليه طلبا لتأييد رأى أو ثبوت حكم، و قد حققها المنقبون من متبعى آثاره و الذين يرجعون إليه فى أخذ الأحكام الشرعية. و من هذا القبيل تلک الافتعالات التى انتحلها أصحاب المذاهب، و قد سبق للحنفية مثل ذلک فى مدح أبى حنيفة كما مر بيانه فى رواية أبى البخترى و هذه المنقبة

1- 1) انظر مناقب مالک ص 10.

التى ذكرها الزواوى من ذلک النمط. و يمكنک أن تقف على سيرة الإمام مالک لتعرف ابتعاده عن الصادق فى آخر عهده لانحيازه لجانب السلطة، مما لا يتفق مع آراء الإمام الصادق و سيرته التى سار عليها مدة حياته. من مجانبته الحكّام و الابتعاد عنهم. كما انه هجر كل من اتصل بالسلطة، و منهم مالک بن أنس فإنه كان عند وفاة الإمام الصادق عليه السّلام فى أول مرحلة من التقرب للسلطان. و أظهر مالک حرصه على الاتصال بالحكام مؤذنا بتغيره. و لا حاجة لنا فى إطالة الوقوف عند مناقب مالک، و إعطائها مزيدا من البحث كقولهم مكتوب على فخذ مالک بقلم القدرة: مالک حجة اللّه فى أرضه. و قولهم فى ورعه: إنه لا يدخل الخلاء إلا فى كل ثلاثة أيام مرة، بينما يقول هو عن نفسه: استحييت من كثرة دخولى للخلاء. و هذا أمر لا دخل لقدرة الإنسان و سلطته فيه، إذ هو من الأمور القهرية على البشر، و قد أرادوا أن يسوّوه بالملائكة أو من شرفهم اللّه لحكمة فجعلهم يأكلون الطعام و لا يغوطون. و لو تأتى ذلک لكل أحد لفعل، و لكن شذوذ الآراء يثبت شذوذ الطبيعة، كما ادعوا أنه ألقى كتابه الموطأ فى الماء عند ما اتهم نفسه فيه فألقاه فى الماء و قال: إن ابتل فلا حاجة لى به فلم يبتل منه شيء، إلى غير ذلک من الخرافات و الأقوال الفارغة التى تدل بنفسها على نفسها بالكذب.

أطياف حول مالک:

ما أكثر وضع المنامات لتأييد رأى، أو رفعة شخص، أو حط كرامة من آخر، إنها دعايات كما قلنا و افتراءات كما ذكرنا، اتخذها القصاصون ليسيطروا على عقول السذج من الناس، و استعملها كثير ممن كتب فى أكثر الشخصيات، حتى اتخذوا تلک الخرافات-و هى أكثر من أن تحصى-دليلا لتأييد المذهب. و قد وضع المالكية منامات فى تأييد مذهب مالک: و علو شأنه نذكر البعض منها: قال العدوى: لما مات شيخنا شيخ الإسلام اللقانى رآه بعض الصالحين فى المنام فقال: ما صنع اللّه بک؟ فقال: لما أجلسنى الملكان فى القبر يسألانى أتانى

الإمام مالک فقال: مثل هـذا یحتاج إلی سؤال فی إیمانه؟ تنحیا عنه، فتنحیا عنی (1). و منها: إنّ النبی صـلّی اللّه علیه و آله و سلّم هو الذی سمی کتـاب مالـک بالموطأ و انه سـئل صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم فی المنام: ان مالک و اللیث یختلفان فی المسألـة فأیهما أعلم؟ فقال: مالک وارث جدی یعنی إبراهیم علیه السّلام (2). و انه سئل صلّی اللّه علیه و آله و سلّم مرة أخری فی المنام: من نسأل بعدک یا رسول اللّه؟ فقال: مالک بن أنس. کما وضع أهل الأندلس فی تأیید مذهبه و تشـجیع عالمهم سـحنون و هو ناشر مذهب مالک فی الأندلس: أن القیسی رأی النبی صـلّی اللّه علیه و آله و سلّم یمشی فی طریق و أبو بکر خلفه، و عمر خلف أبی بکر، و مالک بن أنس خلف عمر، و سحنون خلف مالک. و فی هـذا إشارة للاتباع و الاقتداء (3). و کثیر من هـذا النمط. و لا حاجـة إلی ذکره، و لا اعتبار بإثباته أو نفیه. و إنما المعتبر معرفة شخصـیته من قبل معاصـریه، و من هم أدری الناس به، فإن لأقوالهم تمام الأثر فی التعرف علیه، فلننظر الواقع فی مرآة الماضـی، لأن هـذه الأمور المسـتحدثة إنما هی ولیدة عصور متأخرة لا نستطیع منها استخلاص صورة متناسقة، لأنها نتیجة جدل و خصام و إثارة فتن و تطاحن بین المذاهب. قال أبو عمر: قد ألف الناس فی فضائل مالک و أکثروا، و أتوا بما لا فضیلة فی بعضه حشوا بها کتبهم.

مالک و أقوال العلماء:

و هنا نقف بین طائفتین من الأقوال المأثورة عن علماء عصـر مالک، فبعضـها من نسق ما ذکرناه، و هی کثیرة مثبتة، و البعض الآخر لم یکن بدرجـة من الحـط بکرامته و انتقاصه، و إنما هی مؤاخـذات علمیـة و أقوال صـریحة. و آراء حرة. و إلیک منها: قال الشافعی: اللیث أفقه من مالک، إلا أن أصحابه لم یقوموا به. و قال سعد بن أیوب: لو أن اللیث و مالکا اجتمعا، لکان مالک عند اللیث

1- 1) مشارق الأنوار للعدوی ص 288.

2- 2) مناقب مالک للزاوی ص 18.

3- 3) مناقب مالک للزاوی ص 17-18.

أبكم، و لباع الليث مالكا فيمن يريد (1). و سأل على بن المدينى يحيى بن سعيد: أيهما أحب إليك رأى مالك أو رأى سفيان؟ قال: رأى سفيان لا يشك فى هذا. و قال: سفيان فوق مالك فى كل شىء. و قال يحيى بن معين: سفيان أحب إلىّ من مالك فى كل شىء (2). و قال سفيان الثورى: ليس له حفظ. يعنى مالكا. و قال ابن عبد البر: تكلم ابن ذويب فى مالك بن أنس بكلام فيه جفاء و خشونة كرهت ذكرها (3). و تكلم فى مالك إبراهيم بن سعد و كان يدعو عليه، و كذلك تكلم فيه عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، و ابن أبى يحيى، و محمد بن إسحاق الواقدى، و ابن أبى الزناد، و عابوا أشياء من مذهبه. و قال سلمة بن سليمان لابن المبارك: وضعت شيئا فى رأى أبى حنيفة و لم تضع فى رأى مالك؟ قال: لم أره علما (4). و قال ابن عبد البر فى مالك: إنهم عابوا أشياء من مذهبه. و عن عبد اللّه بن إدريس قال: قدم علينا محمد بن إسحاق، فذكرنا له شيئا عن مالك. فقال: هاتوا علمه، فإنا بيطاره. و عابه قوم فى إنكاره المسح على الخفين فى الحضر و السفر، و فى كلامه فى على و عثمان. و قال يحيى بن صالح: قال لى ابن أكثم: قد رأيت مالكا و سمعت منه و رافقت محمد بن الحسن، فأيهما كان أفقه؟ فقلت: محمد بن الحسن فيما يأخذه لنفسه أفقه من مالك (5).

1- 1) الرحمة الغيثية لابن حجر ص 6.

2- 2) تاريخ بغداد ج 10 ص 164. [1]

3- 3) جامع بيان العلم و فضله ج 2 ص 160. [2]

4- 4) ن. م. ص 157.

5- 5) الخطيب ج 2 ص 175.

و كان أبو محمـد بن أبى حاتم يقول: عن أبى زرعة عن يحيى بن بكير أنّه قال: الليث أفقه من مالک، إلا أنه كانت الحظوة لمالک. و فى رسالة الليث بن سعد التى بعث بها إلى مالک يناقشه فيها فى بعض آرائه مناقشة قوية، و يرد عليه، فيقول فى بعضها: و من ذلک إنک تذكر أن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سـلّم لـم يعط الزبير بن العوام إلا لفرس واحد، و الناس كلهم يحدثون أنه أعطاه أربعة أسـهم لفرسـين، و منعه الفرس الثالث. و الأمة كلهم على هذا الحديث: أهل الشام، و أهل مصـر، و أهل العراق، و أهل إفريقية لا يختلف فيه اثنان، فلم يكن ينبغى لک و إن كنت سمعته من رجل مرضى أن تخالف الأمة أجمعين. و قال أحمد بن حنبل: كان ابن أبى ذويب يشبه سعيد بن المسيب، و كان أفضل من مالک، إلا أن مالكا أشد تنقية للرجال منه (1). و قال أيضا: هو أورع و أقوم بالحق-يعنى ابن أبى ذويب-من مالک، دخل على المنصور فلم يهبه إن قـال له الحق: و قـال الظلم ببابک فاش، و أبو جعفر أبو جعفر (2)يعنى فى قوته و جبروته و اشـتداد سـلطانه و عظمته و بطشه. و نقف عند هذا الحد من استعراض آراء العلماء و أقوالهم فى مالک، مما تدل على عدم امتيازه بموهبة يصبح بها أهلا للمرجعية دون غيره. و لا حاجـة بنا إلى غربلة الأقوال الأخر و مناقشـتها. و إنما ذكرنا هذا كانموذج و مقدمة لما نريد أن نذكره فى الموازنة فيما بعد عند انتهائنا من التعرف على شخصيات أئمة المذاهب.

مع الخلفاء و الولاة:

اشارة

أدرک مالک بن أنس من العهد الأموى أربعين سنة، و من العهد العباسى ستا و أربعين سنة، لأن ولادته سنة 93 ه-و وفاته سنة 179 ه-على اختلاف الأقوال فى ذلک، و بهذا فقد أدرک الدولتين الأموية و العباسية، و قد كانت ولادة مالک فى عهد الوليد بن عبد الملک.

1- 1) تذكرة الحفاظ ج 1 ص 176.

2- 2) تاريخ بغداد ج 2 ص 302. [1]

و لم نعرف عن نشأته الأولى شيئا، حتى نتكلم عن حياته فى العهد الأموى، لأن مالكا لم يكن من المبرزين فى ذلك العصر، فيسجل التاريخ قضاياه فى العهد الأموى، و لم يكن لبيته نشاط سياسى و لا علمى حتى يكون معرضا لأخطار الدولة، و إنما يأتى الحديث عنه فى العهد العباسى الذى يبتدئ من سنة 133 ه-، و هو تاريخ سقوط الدولة الأموية و انهيارها، كما أن عهد أبى العباس السفاح خال عن ذكره، و إنما يبتدئ حديثه من آخر خلافة المنصور. و لم يكن لمالك بن أنس شهرة إلا بعد اشتداد الخلاف بين أهل الرأى، و أهل الحديث، و بعد وقوعه فى المحنة. و الشىء المهم الذى يجب أن يلحظ هو تطور حياة مالك و انتقاله من دور الغضب عليه-من قبل الدولة-إلى دور الرضا عنه، و من عهد المحنة و الشدة إلى عهد التبجيل و الرفاهة. و قد اختلفت الأقوال فى سبب محنته و ضربه بالسياط. فمن قائل: إن مالكا كان يجاهر بمخالفة ابن عباس فى جواز نكاح المتعة، و يقول: إنه حرام. و يروون أنه حمل إلى بغداد و سئل عن نكاح المتعة، فقال: هو حرام، فقيل له فى قول ابن عباس فيها، فقال: كلام غيره فيها أوفق لكتاب اللّه، و أصر على القول بتحريمها، فطيف به على ثور مشوها، فكان يرفع القذر عن وجهه، و يقول: يا أهل بغداد! أنا مالك بن أنس فعل بى ما ترون لأقول بجواز المتعة (1). و هذا بعيد عن الواقع، لأن ضرب مالك بالسياط أو محنته-كما يقولون-كانت فى المدينة لا فى بغداد، و لئن كان سبب محنته قوله بجواز المتعة الأمر الذى أوجب الغضب عليه من الدولة، فهل أصرّ مالك على رأيه فيما بعد؟ و وافقته الدولة، و عرفت خطأها، فقربته؟ أم أنه وافق رأيها و تنازل عن إصراره و ترك ما وافق كتاب اللّه لما وافق آراءهم؟ فهذا أمر يبعث على الاستغراب و لعلهم أرادوا اتساع دائرة ذكره بتعدد صورها. و منها-ما يذكره بعضهم: أن السبب هو عدم رضا بعض الطالبيين عنه، لتفضيله عثمان على على عليه السّلام. و هذا بعيد كالأول و إن كان يذهب مالك لذلك.

1- 1) الشذرات ج 1 ص 290. [1]

و الصحیح فی ذلک و إن اختلفت الأقوال فیه أن سبب ضربه بالسیاط هو فتواه بما لا یوافق غرض السلطة بأی صورة کان و بأی سبب حصل، و ذلک فی زمن ولایة جعفر بن سلیمان سنة 146 ه-، فإنه جرد مالکا و مده و ضربه بالسیاط حتی انخلعت کتفاه، و قیل: إن المنصور قد نهی مالکا عن الحدیث (لیس علی مستکره طلاق) ثم دس إلیه من یسأله عنه، فحدث به مالک، فضربه بالسیاط (1)حتی انخلع کتفه. قال إبراهیم بن حماد: کنت أنظر إلی مالک إذ أقیم من مجلسه حمل یده الیمنی أو یده الیسری بالأخری. کما أن مالکا قد تظاهر بالدعوی لمحمد بن عبد اللّه ذی النفس الزکیة. و بالجملة فإنه إلی حدود سنة 146 ه-هو فی دوره الأول، ثم انتقل بعد ذلک إلی دور الحفاوة و التجلة.

مع المنصور:

لمالک مع المنصور أخبار کثیرة، منها قبل اتصاله الوثیق به. و منها بعد ذلک. و نأتی بالبعض من الطرفین فی ذلک: دخل عبد اللّه بن طاوس الیمانی (2)علی المنصور، و معه مالک بن أنس، فقال المنصور: حدثنی عن أبیک. قال حدثنی أبی: أن أشد الناس عذابا یوم القیامة رجل أشرکه اللّه فی سلطانه، فأدخل علیه الجور فی حکمه. فأمسک المنصور. قال مالک: فضممت ثیابی خوفا من أن یصیبنی دمه. ثم قال المنصور ناولنی الدواة. فلم یفعل، فقال: لم لا تناولنی الدواة؟ فقال: أخاف أن تکتب بها معصیة. قال المنصور: قوما عنی. قال عبد اللّه: ذلک ما کنا نبغیه. قال: مالک فما زلت أعرف فضله (3).

1- 1) الانتفاء لابن عبد البر ص 43-44.

2- 2) عبد اللّه بن طاوس الیمانی أبو محمد الیمانی روی عن أبیه و عکرمة بن خالد، و روی عنه خلق کثیر، و هو من رجال الصحاح. و قد أخطئوا فی تعیین سنة وفاته فی سنة 133 ه-و بهذا لا تصح هذه الحکایة. و الصحیح أنه متأخر عن هذا الوقت.

3- 3) الشذرات ج 2 ص 188. [1]

و دخـل مالک هو و ابن أبی ذؤیب و ابن سـمعان علی المنصور عنـد ما ولی الخلافـة، و کان منظر المجلس یملأ القلب رعبا، کما یحـدث مالـک و یصف مـا دخله من الخوف عنـد ما نظر إلی الجلاوزة یحملون السـلاح. فألقی المنصور سؤالا مشترکا، فقال بعـد کلام طویل: أی الرجال أنا عندکم؟ أمن أئمة العدل أم من أئمة الجور؟ قال مالک بن أنس: فقلت: یا أمیر المؤمنین أنا متوسل إلیک باللّه تعالی و أتشفع إلیک بمحمـد صـلّی اللّه علیه و سـلّم و بقرابتک منه إلا ما أعفیتنی من الکلام فی هـذا. قال: قـد أعفاک أمیر المؤمنین من هذا، ثم التفت إلی ابن سمعان، فقال له أیها القاضـی: ناشـدتک اللّه تعالی أی الرجال أنا عندک؟ فقال ابن سـمعان: أنت و اللّه خیر الرجال، و اللّه یا أمیر المؤمنین تحـج بیت اللّه الحرام و تجاهـد العدو، و تؤمن السـبل و یأمن الضـعیف بک أن یأکله القوی، و بک قوام الدین، فأنت خیر الرجال، و أعدل الأمة. ثم التفت إلی ابن أبی ذؤیب (1)فقال له: ناشدتک اللّه أی الرجال أنا عندک؟ قال: أنت و اللّه عندی شر الرجال، استأثرت بمال اللّه و رسوله، و سهم ذی القربی، و الیتامی، و المساکین، و أهلکت الضعیف و أتعبت القوی، و أمسکت أموالهم، فما حجتک غدا بین یدی اللّه؟ فقال أبو جعفر ویحک ما تقول انظر ما أمامک! ! قال: نعم رأیت أسـیافا و إنما هو الموت، و لا بد منه عاجله خیر من آجله (2)و خرج آمنا لم ینله شیء. أما مالک فبقی عند المنصور. و یا لیت مالکا أجاب المنصور بجواب وسط، لا کابن سمعان الذی خالف الحق و لا یستبعد منه، فهو یعیش علی بساط الدولة و یشغل وظیفة القضاء، و یتمنی بقاء المنصور.

1- 1) هو أبو الحارث محمد بن عبد الرحمن بن المغیرة بن أبی ذئب أو ذویب العامری المدنی المتوفی سنة 159 ه-. قال الواقدی ولد سنة 80 ه-، و کان من أورع الناس و أفضـلهم، و قیل: إن المهـدی حـج فدخل مسـجد النبی فقام الناس إلا ابن أبی ذئب، فقیل له: قم فهذا أمیر المؤمنین، فقال: إنما یقوم الناس لرب العالمین، فقال المهدی: دعوه فقد قامت کل شعرة علی بدنی.

2- 2) الإمامة و السیاسة ج 2 ص 153. [1]

و يعد أيام الشهور ليوم تعداد النقود

و لا كجواب ابن أبى ذؤيب الـذى هو بكامل الصـراحة و الجرأة الأدبيـة التى فقدها مالک. و لـم يحدثنا التاريخ بموقف مشـهود له تتجلى به شجاعته و اقـدامه، كغيره من العلماء الذين واجهوا المنصور فى أحرج المواقف، كعبد اللّه بن مرزوق عند ما التقى بأبى جعفر فى الطواف، و قـد تنحى النـاس عنه. فقـال له عبـد اللّه: من جعلک أحق بهـذا البيت من الناس تحول بينه و بينهـم و تنحيهـم منه؟ فنظر أبو جعفر فى وجهه فعرفه. فقال: يا عبد اللّه بن مرزوق! ؟ من جرأک على هذا، و من أقدمک عليه؟ فقال عبد اللّه: و ما تصـنع بى؟ أبيدک ضـرر أو نفع؟ و اللّه ما أخـاف ضـرک و لاـ أرجو نفعـک، حتى يكون اللّه عزّ و جلّ يأذن لک فيه. فقال المنصور: إنک أحللت بنفسک، و أهلكتها. فقال عبـد اللّه: اللهم إن كان بيد أبى جعفر ضرى، فلا تدع من الضر شيئا إلا أنزلته علىّ، و إن كان بيده منفعتى، فاقطع عنى كل منفعة منه، أنت يا رب بيدک كل شـىء، و أنت مليک كل شـىء. فأمر به أبو جعفر فحمله إلى بغداد، فسجنه بها ثم أطلقه (1). هكذا كان موقف ذوى الصـراحة و الجرأة الأدبية. أما مالک فلم يحدثنا التاريخ أنه أقدم على شىء من ذلک مع المنصور و غيره لكن يقال عنه: بأنه كان يدخل على الأمراء و الخلفاء و يعظهم و يرشـدهم و يـدعوهم إلى الخير، و أنه كـان يحث العلمـاء على إرشـاد الخلفاء و الأمراء، و قول الحق لهم ما اسـتطاعوا إلى ذلک سبيلا. نعم يمكن أن ذلک كان يصـدر منه مع أمراء المدينـة بعد ما حظى بإقبال المنصور عليه و قربه منه، فقد نقل أنه كان يطلب من مالک أن يبـدى رأيه فى ولاته على الحجاز، و قال له فى ذلک: إن رابک ريب من عامل المدينـة، أو عامل مكة، أو أحد من عمال الحجاز فى ذاتک أو ذات غيرک أو سوء أو شر فى الرعية، فاكتب إلىّ بذلک أنزل بهم ما يستحقون.

1- 1) الإمامة و السياسة ج 2 ص 156. [1]

و لـذلک نرى أن الولاة كانوا يحترمونه غاية الاحترام، و يخشونه كخشـيتهم من المنصور، فعظمت بذلک منزلة مالک، و تقرب الناس إليه، و ازدحموا على بابه كازدحامهم على أبواب الأمراء. و هذا هو السـبب فى هيبة مالک فى النفوس، لأن الحكام كانوا يهابونه حتى أنهم يحسون بالصـغر فى حضـرته، كما حـدث الشافعى عنـد ما قـدم المدينة يحمل كتابا لواليها من والى مكة، و يطلب منه أن يوصـله إلى مالک، فقال الوالى: يا فتى إن مشـيى من جوف المدينـة إلى جوف مكـة حافيا راجلا أهون علىّ من المشـى إلى باب مالک، فلست أرى الذلة حتى أقف على باب داره (1)فإذا كان الولاة هـذه حالتهم معه، فالناس أولى بذلک. و كيف لا يهابه الولاة و بيده أمرهم من عزل و تعيين؟ هذا هو سـر هيبة مالک مرجعها لقوة المنصور التنفيذية.

اتصاله بالمنصور:

و الـذى يظهر أن اتصال مالک بالمنصور و تقريبه إياه كان فى السـنة التى حـج فيها المنصور على ما يرويه ابن قتيبـة: أن المنصور كتب إلى مالـک: أن واف الموسم فى العـام القابـل إن شـاء اللّه، فـإنى خارج إلى الموسم. فلما حـج المنصور 153 ه-و دخل عليه مالک، فاعتـذر المنصور إليه مما ناله من الضـرب و الإهانـة و قال له-بعـد كلام طويل-: و لقد أمرت أن يؤتى بعدو اللّه من المدينة على قتب-يعنى جعفر بن سـليمان الـذى ضـرب مالک-و أمرت بضـيق مجلسه، و المبالغة فى امتهانه، و لا بد أن أنزل فيه من العقوبة أضـعاف ما نالک منه. فقال مالک: عافى اللّه أمير المؤمنين، و أكرم مثواه، قد عفوت عنه لقرابته من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ثم منک. و بهذا يتضح أن هذا الاجتماع هو أول اجتماع بعـد ضـرب مالک و إهانته ثم أمره أن يضع كتابا يحمل الناس عليه، و يبثه فى الأمصار و يأمر الناس بالعمل به، و أن لا يقضى بسواه. فقال مالک: إن أهل العراق لا يرضون علمنا، و لا يرون فى علمهم رأينا.

1- 1) معجم الأدباء ج 17 ص 275. [1]

فقـال أبو جعفر: يحملون عليه و نضـرب عليه هاماتهم بالسـيف و تقطع طى ظهورهم بالسـياط، فعجل بـذلک و سـيأتى المهـدى فى العام المقبل. و قـد فرغت من ذلک. ثم أمر له بألف دينار عينا ذهبا و كسوة عظيمـة، ثم أمر لابنه بألف دينار (1). و طلب المنصور من مالک أن يذهب معه إلى مدينة السـلام، و قال له: اذهب معى فلا أقدم عليک أحدا، فقال مالک: إن تكن عزيمة من أمير المؤمنين-يعنى شيئا واجبا- فلا- سبيل إلى مخالفته، و إن تكن غير ذلک، فقـد قال رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلم: و المدينـة خير لهم لو كانوا يعلمون، فقال له المنصور: فلا أحمل عليک شـيئا تكرهه، ثم أجازه بثلاث صرر: كل صرة ألف دينار، فلما خرج مالک، قال ولد المنصور لأبيه: أ تدنى رجلا من رعيتـک حتى يجلس منک هـذا المجلس؟ ! فقال له المنصور: ما على وجه الأرض اليوم رجل يسـتحيى منه إلا مالک و سـفيان الثورى (2). و قـال المنصور لمالک: يا أبا عبـد اللّه! ذهب الناس و لـم يبق غيرى و غيرک. و دخل مالک بن أنس على المنصور فقال: يا مالک مالى أراک تعتمد على قول ابن عمر دون أصـحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم؟ فقال مالک: يا أمير المؤمنين إنه آخر من بقى عندنا من أصـحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فاحتاج الناس إليه، فسألوه و تمسكوا بقوله. فقال: يا مالک عليک بما تعرف إنه الحق عندک، و لا تقلـدن عليا و ابن عباس. و يمكن أن تكون كلمة ابن عباس من الزوائد التى ألحقت بالعبارة لتبرير موقف المنصور عن النهى عن تقليد علىّ فى الأحكام الشـرعية، لأنه بعـد أن كان علم علىّ مفخرة لبنى العباس، و يجاهرون بفضـله و بعلمه، أصـبح عنـد اشـتداد ملكهم و قوة سلطانهم لا يروقهم أن يروى أحد عن علىّ و أهل بيته، و قد شاركوا الأمويين فى هذه النزعة، بل بصورة أشد و أعظم فى المؤاخذة. و ما من شک فى أن المنصور اتجه لمالک بتمام العناية، و اشـتدت بينهم الروابط و الصـلات، تلک الروابط التى أوجدت فى مالک شخصية له حق رعاية حكام الحجاز و ولاته مما جعلهم يخشون مخالفته، و يتهيبون مقامه، و بذلک اتجهت الأنظار إليه

1- 1) الإمامة و السياسة ج 2 ص 195. [1]

2- 2) مناقب مالک للزاوى ص 25.

و تكونت شخصيته، و علت منزلته دون غيره من علماء دار الهجرة، و غيرهم من علماء المسلمين. و نحن لا نريد أن نظلم مالكا إن قلنا: إن من الظلم تقديمه على علماء المدينة، و جعل الفتوى منوطة به دون غيره، فما هى المؤهلات التى جعلته يكون كذلك؟ فقد كان مالك لا يعرف عن نفسه ما يقول المنصور بأنه أعلم أهل الأرض. حدث مالك قال: قال لى أبو جعفر يوما: أعلى ظهرها أحد أعلم منك؟ قلت: بلى. قال: فسمهم لى. قلت: لا أحفظ أسماءهم، قال أبو جعفر: قد طلبت هذا الشأن-أى العلم-فى زمن بنى أمية و قد عرفته. و بهذا رأينا مالكا يعترف بوجود من هو أعلم منه، و لكن لا يصرح باسمه، لعلمه بما وراء ذلك. و قد كان مالك يسأل عن كثير من المسائل الشرعية. فكان أكثر جوابه بلا أدرى. و قد قصده رجل من العراق بأربعين مسألة، فأجاب عن خمس و ثلاثين بلا أدرى. و قد أنكر مالك على أهل مصر بأنهم عرفوا البيوع و هو لا يعرفها، إذ كانوا يرجعون إليه، على أننا نجد فى علماء المالكية من يتعجب من قول لا أدرى. فهذا محمد بن عبد الحكم المتوفى سنة 268 ه-كان يقول: أتعجب ممن يقول: لا أدرى، و له كتاب فى الرد على الشافعى فيما خالف الكتاب و السنة. و قال عبد الرحمن بن المهدى: كنا عند مالك فجاءه رجل فسأله فقال: لا أحسن، فقال الرجل: و أى شىء أقول إذا رجعت إلى بلادى؟ قال تقول لهم: قال مالك بن أنس: لا أحسن. و الغرض أن مالكا نال حظا وافرا فى آخر دولة المنصور مما جعله يحاول أن يجمع الناس على علمه، و من يخالف تضرب عنقه. و جاء من بعده المهدى، فكانت منزلة مالك فى دولته عظيمة. و قد أمره بأن يضع للناس كتبا يحملهم عليها. و كان يحترمه و يجله و يوصله بهدايا جزيلة و عطاء وافر، و يقرب مجلسه، و يظهر للناس شأنه و علو منزلته. و كان المهدى يطلب من مالك أن يزوده بوصاياه لينتفع بها.

فقال له مالک: أوصیک بتقوی اللّه وحده، و العطف علی أهل بلد رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و جیرانه، فإنه بلغنا أن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال: «المدینة مهجری، و بها قبری، و بها مبعثی، و أهلها جیرانی، و حقیق علی أمتی حفظی فی جیرانی، فمن حفظهم کنت له شهیدا و شفیعا یوم القیامة» . و علی أثر هذه الوصیة أخرج المهدی عطاء کثیرا، و طاف بنفسه علی دور المدینة، و لما أراد الخروج، دخل علیه مالک فقال له: إنی محتفظ بوصیتک التی حدثتنی بها. و لما جاء دور الرشید، سار علی تلک الخطة التی سار علیها آباؤه، فاحتفظ بمکانة مالک، و عظمه غایة التعظیم، و لما قدم المدینة جاء الرشید إلی منزل مالک بنفسه، فأجلسه مالک علی منصته التی کان یجلس علیها للحدیث، ثم أراد مالک أن یظهر من الرشید فیه للملإ أعظم من ذلک، فقال له: یا أمیر المؤمنین ما أدرکت أهل بلدنا إلا و هم یحبون أن یتواضعوا للّه. فنزل الرشید عن المنصة و جلس بین یدی مالک، تواضعا لعلمه و انقیادا لقوله. و یطول بنا الحدیث إذا حاولنا أن نشبع الموضوع فی علاقة مالک بالخلفاء و الولاة، و أردنا أن نقیس حیاته الأولی التی قضاها فی خمول، لبعده عن سلطان عصره، مع حیاته الثانیة التی خطی بها إلی میدان الشهرة و التفوق علی غیره، حتی أصبح موضع عنایة الدولة، و کان المنصور یطلب منه مزاملته للحج، و یسمیه برکن الإسلام، و ینوط أمر ولاته به، و الرشید یأمر عامله بأن لا یقطع أمرا دون مالک، فوقعت هیبته فی النفوس، و هابته تلامذته، حتی انه لیدخل علیه الرجل إلی مجلسه فیلقی السلام علیه، فلا یرد علیه أحد إلا همهمة و إشارة، و یشیرون إلیه ألا یتکلم مهابة و إجلالا، و لا یستطیع أحد أن یستفهمه أو یدنو منه، و کان علی رأسه سودان یأتمرون بأمره، فإذا أشار إلیهم بإخراج أحد أخرجوه (1). و کان علی بابه حجاب یمنعون الناس من الدخول علیه فإذا أذن لهم ازدحموا علی الباب. قال أبو مصیب: کانوا یزدحمون علی باب مالک بن أنس فیقتتلون علی الباب

1- 1) مناقب مالک للزاوی ص 18 و الانتقاء لابن عبد البر ص 12.

من الزحام، و كنا عند مالک فلا يكلم هذا هذا، و لا يلتفت ذا إلى ذا و الناس قائلون برءوسهم هكذا (مبالغة فى الانصات) ، و كان السلاطين تهابه، و هم قائلون و مستمعون، و كان يقول فى المسألة لا أو نعم فلا يقال له من أين لک هذا. و كانت لمالک بن أنس سلطة تنفيذية فهو يضرب و يسجن و قد ذكرت كتب مناقب مالک كثيرا من ذلک فمنها: ان رجلا كان عند مالک فقال: أ ليس قد أمر النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بدفن الشعر و الاظفار فغضب مالک و أمر بضربه و سجنه. فقيل له: إنه جاهل. فقال: يقول قال النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و قد قال النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من كذب علىّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار. و قد أعلن مالک غضبه عمن يروى عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فيضربه أو يحبسه حتى يصح عنده ذلک فيطلقه فما كان يتهيأ لأهل المدينة أن يقولوا قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم. و كان المشايخ الذين سمعوا الحديث مع مالک قد تركوا الحديث هيبة لمالک أو خشية منه إلى أن مات حدثوا بما عندهم. و سأله هشام بن القارى عن حديث و هو واقف فضربه عشرين سوطا ثم أشفق عليه فحدثه. و دخل عليه رجل فقال: ما تقول فيمن قال: القرآن مخلوق؟ فقال مالک: زنديق اقتلوه. فقال الرجل: يا أبا عبد اللّه إنما أحكى كلاما سمعته. قال مالک: لم أسمعه من أحد إنما سمعته منک. إلى غير ذلک مما حدثتنا به كتب مناقبه (1)و يجب ألا يغيب من بالنا مقاصد الدولة من وراء هذا الاتجاه. إذا فليس من الغريب أن تتسع أقوال المدح فيه، و أن يتقرب الناس إليه برؤيا النبى فهذا يأتى إليه و يقول له: كنت راقدا فى الروضة فرأيت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم متوكئا على أبى بكر و عمر فقلت: يا رسول اللّه من أين أقبلت؟ فقال مضيت إلى مالک فأقمت له الصراط المستقيم (2).

1- 1) مناقب مالک للزاوى 30 و تزين المسالک للسيوطى 14.

2- 2) تزيين الممالک للسيوطى ص 44.

و يقدم عليه آخر و هو جالس فى المسجد. فيقول: أيكم مالک بن أنس؟ فقالوا: هذا. فسلم عليه. فاعتنقه و قبله بين عينيه و ضمه إلى صدره و قال: رأيت البارحة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى هذا الموضع فقال: هاتوا مالكا فأتى بک ترعد فرائصک فقال: ليس بک بأس أبا عبد اللّه و كناک. و قال: اجلس. و قال: افتح حجرک فملأه مسكا منثورا. و قال: بثه فى أمتى. فبكى مالک طويلا و قال: الرؤيا تسر و لا تضر إن صدقت رؤياک، فهو هذا العلم الذى أودعنى اللّه (1). و من هذا و نحوه مما يتقرب به المتقربون، أو يفتعله المغالون فيه و يجعلونه من دواعى أهليته، بل مؤهلاته. و لو أردنا استقصاء ما أحيطت به شخصية مالک من الزوائد و المبالغات فإننا نخرج عن خطة الاختصار.

شيوخ مالک:

اشارة

ازدهر عصر مالک برجال العلم و لمعت فيه أسماء رجال تحدث الناس عنهم لشهرتهم العلمية، و مكانتهم فى المجتمع الإسلامى، و أصبحت المدينة يؤمها طلاب العلم من مختلف الأقطار الإسلامية، و امتازت بالتمسک بالحديث و محاربة الرأى و القياس، كما كانت صبغة الكوفة هى الميل إلى الرأى و القياس و عظم بين البلدين انشقاق أدى إلى خصومة و عداء، خرج عن نطاق البحث العلمى إذ تعصب كل لبلده. و كانت المدينة تزدهر بمدرسة الإمام الصادق، و قد تهافتت الوفود إليها عند ما وجد الناس فرصة الاتصال بأهل البيت، و رفع عراقيل المؤاخذة على ذلک، و كانت مدرسة الإمام الصادق متمسكة بالحديث، لا تجعل للرأى و القياس دخل فى الأحكام الشرعية كما مر بيان ذلک. و كان مالک بن أنس هو أحد المنتمين لمدرسة الإمام الصادق مدة من الزمن و عنه أخذ الحديث، فالإمام الصادق هو من أكبر شيوخ مالک بن أنس كما مر بيانه. و قد أخذ مالک أيضا عن عدة شيوخ من علماء المدينة و غيرهم: منهم عامر بن عبد اللّه بن الزبير بن العوام، و زيد بن أسلم، و سعيد المقبرى، و أبى حازم،

1- 1) مناقب مالک للزاوى ص 17.

و صفوان بن سليم، و صالح بن كيسان، و إسماعيل بن أبى حكيم و حميد بن قيس المكى. و اختص مالك بالأخذ عن جماعة منهم، و لازمهم ملازمة تامة: و هم ابن هرمز، و نافع مولى ابن عمر، و ابن شهاب الزهرى، و ربيعة بن عبد الرحمن المعروف بربيعة الرأى، و أبو الزناد. فهؤلاء أخص مشايخ مالك و لا بد من الإشارة إلى كل واحد من هؤلاء:

ابن هرمز:

و تطلق هذه الكنية (ابن هرمز) على رجلين، أحدهما عبد الرحمن بن هرمز، و لقبه الأعرج و كنيته أبو داود، و كان قارئا محدثا توفى سنة 117 ه-. و ثانيهما عبد اللّه بن يزيد بن هرمز و كنيته أبو بكر توفى سنة 148 ه-. أما الأول: فهو عبد الرحمن بن هرمز مولى بنى هاشم أبو داود توفى سنة 117 ه-بالإسكندرية، روى عن أبى هريرة و معاوية و أبى سعيد، و عنه الزهرى، و أبو الزبير، و أبو الزناد، و روى له أصحاب الصحاح الستة. و قد اختلف فيمن اختص مالك من هذين، هل هو ابن هرمز المتقدم أم هذا؟ و قد حقق ذلك بعض الباحثين و انتهى إلى أنه الأول، و لم يكن هو هذا، و يمكن أن يكون هو الصحيح لأن ولادة مالك سنة 98 ه-على الاختلاف، فيكون عمره عند وفاة أستاذه 19 سنة، و فى هذا الدور لم يتجه مالك لطلب علم الحديث فلا يمكن أن يوصف بالملازمة له و كسب المواهب التامة منه على أنه يمكن أن خروج ابن هرمز للإسكندرية متقدم، فيكون عمر مالك أقل.

نافع:

نافع العدوى مولى عبد اللّه بن عمر المتوفى سنة 117-120 ه-. روى عن مولاه عبد اللّه بن عمر، و أبى لبابة و أبى هريرة و عائشة، و عنه ابناه، و ابن جريح و مالك. و هو أحد حلقات السلسلة (الذهبية) كما يقولون إن أصح الأسانيد مالك عن نافع عن ابن عمر، فهو شيخ مالك، و عنه أخذ قضايا ابن عمر و فقهه، و نافع من رجال الصحاح الستة.

الزهری:

ابن شـهاب الزهری هو محمد بن مسلم بن عبد اللّه بن شهاب المتوفی سنة 124 ه-. و کانت له منزلـة عند خلفاء بنی أمیة، و ولاه یزید بن عبد الملک القضاء و کتب عمر بن عبد العزیز إلی الآفاق: علیکم بابن شـهاب فإنکم لا تجدون أعلم بالسـنة الماضیة منه، و قد روی مالک أنه أول من دون أحادیث رسول اللّه صـلّی اللّه علیه و آله و سلّم بأمر من عمر بن عبد العزیز. و هو أحد تلامذة الإمام زین العابدین و الإمام الباقر علیه السّلام، و لکنه علی انحراف لعلقته ببنی أمیـة. و قـد کتب إلیه الإمام زین العابـدین علیه السّلام رسالة یعظه بها و یحذره أولئک الحکام الذین استمالوه و قربوه لأغراضهم، و نری من المهم ذکر بعض تلک الرسالة الحکمیة الخالدة:

رسالة الإمام زین العابدین للزهری:

«کفانـا اللّه و إیـاک من الفتن، و رحمک من النار، فقـد أصـبحت بحال ینبغی لمن عرفک أن یرحمک. فقـد أثقلتک نعم اللّه بما أصـح من بـدنک، و أطـال من عمرک. و قامت علیک حجـج اللّه بما حملک من کتابه. و فقهک فیه من دینه و عرفک فیه من سـنة نبیه. فانظر أی رجل تکون غدا إذا وقفت بین یدی اللّه فسألک عن نعمه علیک کیف رعیتها. . . و لا تحسـبن اللّه قابلا منک بالتعذیر، و لا راضیا منک بالتقصیر، هیهـات هیهـات لیس کـذلک، أخـذ علی العلمـاء فی کتـابه إذ قـال: «لتبیننه للنـاس و لا ـ تکتمونه» . و اعلم أن أدنی ما کتمت و أخف ما احتملت أن آنست وحشـة الظالم. و سـهلت له طریق الغی بـدنوک منه حین دنوت. و إجابتک له حین دعیت. فما أخوفنی بإثمک غـدا مع الخونـة. و أن تسأل عما أخـذت بإعانتک علی ظلم الظلمة. إنک أخذت ما لیس لک ممن أعطاک. و دنوت ممن لم یرد علی أحد حقا و لم ترد باطلا ـ حین أدنـاک، و أحببت من حـاد اللّه. أو لیس بـدعائه إیاک حین دعاک جعلوک قطبا أداروا بک رحی مظالمهم، و جسـرا یعبرون علیک إلی بلایاهم، و سـلما إلی ضـلالهم، داعیا إلی غیهم، سالکا سبیلهم، یدخلون بک الشک علی العلماء، و یقتادون بک قلوب الجهال إلیهم، فما أقل ما أعطوک فی قدر ما أخذوا منک، و ما أیسر ما عمروا لک فکیف ما خربوا

علیک، فانظر لنفسک فإنه لا ینظر إلیها غیرک، و حاسبها حساب رجل مسئول، و انظر کیف شکرک لمن غذاک فی نعمه صغیرا أو کبیرا، فما أخوفنی علیک أن تکون کما قال اللّه تعالی فی کتابه: فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ. . . الآیة إلی آخر الرسالة الخالدة (1). و الرسالة تعبر عن اتجاه الإمام زین العابدین إلی إبعاد رجال الدین و أصحاب المنزلة الدینیة عن دوائر الحکام و رجال الجور و الباطل، فإنما احتل العلماء هذه المنزلة فی نفوس الناس لمکان العقیدة فی النفوس و تمجید کل ما یمت إلی الدین بصلة، خاصة حملة العلم و أصحاب الفقه الذین یجب أن یکونوا دعائم للحق لا دعائم للباطل و الجور. و قد لمست الأمة بعد الحکام عن العقیدة و إن لم تکن مبادئ الإسلام هی التی قررت مضمون العدالة و المساواة، فإن نوامیس الحیاة تؤکد تأثر المجتمع بالعلماء و الأمراء فإذا صلحا صلح المجتمع، فکیف إذا کان الزهری فی غمار الملوک الطغاة البغاة، و صفة الزهری الدینیة و منزلته العلمیة یفترض أن تحمله إلی شاطئ الإمامة لا إلی خضم السلطان فاختار الإمام زین العابدین علیه السّلام أن یتجه بالخطاب إلی الزهری فی فترة اختط فیها الإمام نهج الدعوة الدینیة لبناء النفوس و تنزیه الدین من الالتقاء مع الجائرین و تأکید سیاسة عدم التعاون مع الظلمة التی سار علیها أهل البیت و حرصوا علی إلزام الأمة مقاطعة الظالمین و هجرهم. و إن من أشد معوقات ذلک أن یکون من یفترض فیهم الصلاح جسرا للبلاء و سلما للضلال. و الجدیر بالذکر أن الإمام زین العابدین وجّه عنایته إلی الزهری کواحد من تلامیذه لما کان الزهری یغشی مجلسه فیقوم الإمام زین العابدین بإسداء النصح و الإرشاد. دخل الزهری علی الإمام زین العابدین و هو کئیب حزین، فقال له زین العابدین علیه السّلام: ما بالک مغموما؟ قال یا ابن رسول اللّه، غموم و هموم تتوالی علیّ لما امتحنت به من جهة حساد نعمی و الطامعین فیّ، و ممن أرجو، و ممن أحسنت إلیه فیخلف ظنی. فقال له الإمام: اضغط علیک لسانک تملک به اخوانک، قال الزهری: یا ابن رسول اللّه، إنی أحسن إلیهم بما یبدر من کلامی. قال الإمام زین العابدین: هیهات هیهات، إیاک أن تعجب من نفسک بذلک، و إیاک أن تتکلم بما یسبق إلی القلوب إنکاره، و إن عندک اعتذاره، فلیس کل من تسمعه شرا یمکنک أن توسعه عذرا.

1- 1) تحف العقول. [1]

ثم قال: يا زهرى، من لم يكن عقله من أكمل ما فيه كان هلاكه من أيسر ما فيه. ثم قال: يا زهرى، أما عليک أن تجعل المسلمين بمنزلة أهل بيتک فتجعل كبيرهم بمنزلة والدک، و تجعل صغيرهم بمنزلة ولدک، و تجعل تربک منهم بمنزلة أخيک، فأى هؤلاء تحب أن تظلم، و أى هؤلاء تحب أن تدعو عليه، و أى هؤلاء تحب أن تهتک ستره، و إن عرض لک إبليس لعنه اللّه بأن لک فضلا على أحد من أهل القبلة فانظر إن كان أكبر منک فقل: قد سبقنى بالإيمان و العلم الصالح فهو خير منى. و إن كان أصغر منک فقل: قد سبقنى بالإيمان و العمل الصالح فهو خير منى. و إن كان تربک فقل: أنا على يقين من ذنبى فى شک من أمره فما لى أدع يقينى لشكى. و إن رأيت المسلمين يعظمونک و يوقرونک و يبجلونک فقل: هذا فضل أخذوا به. و إن رأيت منهم جفاء و انقباضا فقل: هذا الذنب أحدثته، فإنک إذا فعلت ذلک سهّل اللّه عليک عيشک و كثر أصدقاؤک و فرحت بما يكون من برّهم و لم تأسف على ما يكون من جفائهم (1).

أبو الزناد:

عبد اللّه بن ذكوان مولى بنى أمية أبو الزناد المدنى المتوفى سنة 120 ه-، روى عن ابن عمر مرسلا، و عن الأعرج فأكثر، قال الليث: رأيت أبا الزناد و خلفه ثلاثمائة طالب، و قد ولى بعض أمور بنى أمية، و كان من الموالى الذين رفعت الدولة الأموية شأنهم، و قدمتهم على غيرهم و قد أخذ عنه مالک قليلا و كان أكثر اتصاله و أخذه عن ابن هرمز و الزهرى.

ربيعة الرأى:

ربيعة بن أبى عبد الرحمن فروخ، و يكنى أبا عثمان و هو من موالى آل المنكدر توفى بالأنبار سنة 136 ه-فى مدينة الهاشمية، تقدمت ترجمته فى الجزء الأول من هذا الكتاب. و قد أخذ مالک عن ربيعة و حضر عنده و هو صغير السن، عند ما وجهته أمه لطلب العلم، كما أن آراء ربيعة واضحة فى فقه مالک.

1- 1) الاحتجاج للطبرسى.

تلامذة مالک:

اشارة

لقـد بالغ کتّاب المناقب بالکثرة لتلامـذة مالک، و أضافوا إلیهم من لیسوا منهم، و أخذوا یعدون من هم أکبر منه سـنا و من تقدم بهم الزمن علیه، و یعدون أحیانا أخری من رواته شـیوخه الذین تلقی علیهم و روی عنهم. و لا غرابة أن یروی الشـیخ عن تلمیذه، و لکن إذا کان لذلک حقیقـة واقعـة فلا غضاضة فی قبولها، و إن کان لمجرد المبالغة فی التقدیر و التوثیق فلیس من العلم قبوله، بل یجب رده (1). و لقد ادعوا أن الزهری قـد روی عنه، فیـذکر القاضـی عیاض: أن من التابعین الذین رووا عنه محمد بن مسـلم الزهری، و قد نفی ذلک ابن عبد البر. و لعل الـذی أوقعهم فی هـذا الخطأ: هو الاشـتباه بین اسم الزهری هـذا و بین الزهری أحمد بن أبی بکر قاضـی المدینة فإنه من رواة الموطأ و تفقه بأصحاب مالک و توفی سنة 242 ه-، کما قالوا إن أبا حنیفـة من تلامذته لروایة أشـهب أنه قال: رأیت أبا حنیفة بین یدی مالک کالصبی بین یـدی أبیه. و اسـتدلوا بما أخرجه ابن شاهین و الدارقطنی فی غرائب مالک بسـند عن حماد بن أبی حنیفة عن أبی حنیفة عن مالک فی حدیث (الایم أحق بنفسـها) . و أخرج الخطیب البغـدادی بسـند عن أبی حنیفة عن مالک فی حدیث راعیة الغنم. و قد أجیب عن ذلک بأن الروایة الأولی هی عن حماد بن أبی حنیفة دون ذکر أبیه. و أن الروایة الثانیة هی عن أبی حنیفة عن عبد الملک هو ابن عمیر فصـحفوه بمالک. و قال ابن حجر لم تثبت روایة أبی حنیفة عن مالک. و هو الصـحیح لأن أبا حنیفة أکبر من مالک بخمس عشرة سنة و مات قبله بأکثر من ثلاثین و لم تکن لمالک شهرة آنذاک.

1- 1) محمد أبو زهرة فی حیاة مالک ص 229.

و على أی حال فإنهم ذکروا رواة عن مالک تجاوز عـددهم الألف و أکثرهم لم یدرک مالکا و بعضـهم لم یدرکه مالک. و لم یصح ذلک و نحن هنا نذکر بعض تلامذته و الرواة عنه. و على أی حال فنحن نذکر کبار تلامذته و ناشری علمه و فقهه.

ابن وهب:

عبد اللّه بن وهب بن مسلم البربری نسبا القرشی ولاء أبو محمد المصری المتوفی سنة 199 ه-. روی عن یونس بن یزید، و أسامة اللیثی، و مالک، و الثوری، رحل إلی مالک سـنة 148 ه-، و لم یزل فی صـحبته إلی أن توفی مالـک، و کـان أعلم أصـحاب مالک، إلا أنه یروی عن الضـعفاء، و کان مالک یکرمه و یجله. و ما أحد من تلامذة مالک إلا و زجره مالک، إلا ابن وهب، و قد رحل لمصـر و نشـر مذهب مالک هناک، و فی المغرب أیضا.

ابن القاسم:

عبد الرحمن بن القاسم أبو عبد اللّه العتکی مولاهم المتوفی سـنة 191 ه-روی عن مالک، و اللیث و ابن الماجشون، و مسـلم بن خالد، و غیرهم. رحل إلی مالک بعد ابن وهب، ببضع عشـرة سـنة و طالت صحبته له، و اختص بعلم مالک دون غیره، حتی کان أثبت أصحابه به، و کانت له آراء یخالف بها شـیخه مالک. قال ابن عبد البر: کان فقیها قد غلب علیه الرأی، کما أنه خالف مالکا فی ابتعاده عن السلطان و عدم قبول جوائزهم، و کان یقول: لیس فی قرب الولاة و لا فی الدنو منهم خیر.

أشهب:

أشهب بن عبد العزیز القیسی أبو عمرو العامری المتوفی سنة 204 ه-انتهت إلیه الرئاسة بمصر بعد ابن القاسم، صحب مالکا و لازمه و تفقه علیه، و له مدونة تسمی مدونة أشهب أو کتب أشهب، و کان یدعو علی الشافعی و یتمنی موته، و توفی بعد الشافعی بأیام.

عبد اللّه بن الحكم:

عبد اللّه بن الحكم بن الليث مولى عثمان بن عفان المتوفى سنة 210 ه-و إليه أفضت الرئاسة بعد أشهب.

ابن الفرات:

أسد بن الفرات بن سنان المتوفى سنة 213 ه-. أصله من خراسان، و ولد بحرّان من ديار بكر، و رحل لمالک و سمع موطأه، ثم رحل إلى العراق فلقى أبا يوسف، و محمد بن الحسن، و أسد بن عمرو، و أصحاب أبى حنيفة، فتفقه بهم، و سمع أبو يوسف منه موطأ مالک، و تولى قضاء القيروان و اقتصر فى العمل على مذهب أبى حنيفة، فانتشر بسببه مذهب أبى حنيفة هناک، و له مدونة على مذهب مالک.

الليثى:

يحيى بن يحيى بن كثير الليثى المتوفى سنة 224 ه-، كان أصله من البربر و أسلم جدهم (و سلاس) على يد يزيد بن عامر الليثى، فهو من موالى الليثيين و سمع يحيى بن مالک بن أنس و هو أحد رواة الموطأ، و سمع من الليث بن سعد و غيره، و تفقه بأصحاب مالک كابن وهب، و عبد الرحمن بن القاسم العتكى، و انتهت إليه الرئاسة فى الأندلس، و به اشتهر مذهب مالک، لمكانته من السلطان. قال ابن حزم: مذهبان انتشرا فى بدء أمرهما بالرياسة و السلطان: مذهب أبى حنيفة، فإنه لما ولى القضاء أبو يوسف كانت القضاة من قبله من أقصى المشرق إلى أقصى عمل افريقية، فكان لا يولى إلا أصحابه، و المنتسبين لمذهبه، و مذهب مالک عندنا بالأندلس، فإن يحيى بن يحيى كان مكينا عند السلطان، مقبول القول فى القضاة، و كان لا يولى قاض فى أقطار الأندلس إلا بمشورته و اختياره، و لا يشير إلا بأصحابه و من كان على مذهبه-و الناس سراع إلى الدنيا-فأقبلوا على ما يرجون بلوغ أغراضهم به (1). حتى قيل: إنه لم يعط أحد من أهل الأندلس-منذ دخلها الإسلام-ما أعطى

1- 1) نفح الطيب ج 6 ص 20. [1]

يحيى من الحظوة و عظيم القدر و جلالة الذكر. و قالوا: إنه كان مجاب الدعوة و قبره يستسقى به بقرطبة (1)

ابن الماجشون:

عبد الملك بن عبد العزيز بن الماجشون مولى بنى تيم المتوفى سنة 212 ه-، كان أبوه قرينا لمالک، و هو الذى قيل إنه كتب موطأ قبل مالک، و دارت الفتوى على عبد الملک فى زمانه، تفقه بأبيه و بمالک، قال يحيى بن أكثم: عبد الملک بحر لا تكدره الدلاء! و أثنى عليه ابن حبيب كثيرا، و هو من أهل مذهبه، و تفقه به خلق كثير: كأحمد بن المعدل و ابن حبيب و سحنون، و كان مولعا بسماع الغناء. هؤلاء هم عظماء أصحاب مالک و ناشرو مذهبه. و نسبتهم إليه نسبة المعلم من المتعلم. و له تلامذة آخرون ليس لهم مزيد أثر فى نشر مذهبه. و قد ذكر السيوطى عنهم عددا كثيرا نسبتهم إليه بالأخذ و الرواية فقط.

كتب المذهب المالكى:

اشارة

للفقه المالكى طريقان: أحدهما-كتابه الموطأ الذى رواه عنه الكثيرون ممن تلقوا عنه إلا أن فى رواياتهم اختلافا من زيادة و نقص، و أشهر رواة الموطأ يحيى بن يحيى الليثى، و هى المطبوعة بمصر، و هناک موطأ يرويه محمد بن الحسن، و هو مطبوع ببلاد الهند (2)و قد روى الموطأ بروايات مختلفة عدها بعضهم ثلاثين (3). و ثانيهما-تلاميذه، فقد كانوا هم المصدر الثانى لفقهه، و كانوا يدونون ما يفتى به فى المسائل. قال القاضى عياض فى المدارک: كان مالک إذا تكلم بمسألة كتبها أصحابه. و أشهر كتب المذهب أربعة: المدونة، و الواضحة، و العتيبية، و الموازية.

المدونة:

فالمدونة: هى أصح الكتب المعتبرة فى المذهب، و أصل هذه المدونة هى الأسدية التى دونها أسد بن الفرات بالتلقى عن ابن القاسم، و ذلک أن ابن الفرات

1- 1) نفح الطيب ج 6 ص 23. [1]

2- 2) تاريخ التشريع الإسلامى ص 305.

3- 3) الزرقانى ج 1 ص 7.

رحل إلى مالک و تلقی علیه، ثم رحل إلی محمـد بن الحسن صاحب أبی حنیفة، و أخذ عنه کتبه و تعلم فقه العراقیین و لما عاد إلی مصـر، کان مالک قد مات، فأراد أن یجمع بین الفقه المالکی و الفقه الحنفی، فأتی بالمسائل إلی أصـحاب مالک الذین لازموه، فالتجأ أولا إلی ابن وهب و قال له: هذه کتب أبی حنیفة، و سأله أن یجیب فیها علی مذهب مالک، فتورع ابن وهب و أبی، فالتجأ إلی ابن القاسم، فأجابه إلی ما طلب، فأجـابه فیمـا حفـظ عن مالک بقول مالک، و فیما شک من حفظه قال: أخال، و أحسب، و أظن. و منها ما کان یقول فیه بالقیاس علی رأی له فی مثله، فکان یقول: سـمعته یقول فی مسألـة کذا کذا، و مسألتک مثله، و منه ما قال فیه باجتهاده علی أصل قول مالک. و جمع تلک الأجوبـة و سـماها الأسدیـة. و الأسدیـة هـذه هی الأصل لمدونـة سـحنون، لأنه تلقاها عن أسـد بن الفرات. و قد تکلم بعض الناس فیها، لاشـتمالها علی إخـال، و أظن، و أحسب. و قـالوا له: جئتنـا بإخال و أظن و أحسب، و ترکت الآثار و ما علیه السـلف. و لما تلقی سـحنون الأسدیـة، ارتحل علی ابن القاسم و عرضـها علیه. و أسـقط ما کان ظنیا، فأقبل الناس علی کتب سـحنون، و هجروا کتب أسد بن الفرات، و نظر سـحنون بعد ذلک فی کتبه بعد أن استوثق بروایة ما هو روایة منها، و ما هو رأی مخرج علی أصل مالک، و رتبها و زاد علیها خلاف کبار أصـحاب مالک له، و ذیل أبوابها بالحدیث و الآثار، فأصـبحت المدونة هی الأصل الثانی للفقه المالکی (1). و أنت تری أن الفقه المالکی تأثر بالفقه الحنفی، و دخله الرأی من أصـحاب أبی حنیفة، کما أن مالک نفسه کان یلجأ إلی الرأی، و یعمل بالقیاس، کما یأتی بیانه. ثم جاء علماء المالکیـة، فشـرحوا المدونـة و وسـعوها بما علقوا علیها. فالمدونـة هی مجموعـة لمسائل عن مالک، و اجتهاد من تلامیـذه و تلامیذ تلامیـذه فی وضع أحکام المسائل علی قواعـد مالک و مبادئه، و قـد احتج سـحنون لبعض مسائلها بالآثار، من روایته من موطأ ابن وهب و غیره، و بقیت منها بقیة لـم یتم سـحنون فیها هذا العمل (2)و اتبع الناس مدونة سـحنون علی ما کان فیها من اختلاط المسائل فی الأبواب، فکانت

1- 1) مالک لمحمد أبو زهرة.

2- 2) التشریع الإسلامی ص 306.

تسمی المدونة و المختلطة، و عکف أهل القیروان علی هذه المدونة، و أهل الأندلس علی الواضحة و العتیبیة، و کذلک اعتمد أهل الأندلس علی العتیبیة، و هجروا الواضحة و ما سواها (1). و الواضحة: ألفها عبد الملک بن حبیب (2)و قد أخذ عن ابن القاسم و طبقته، و بث مذهب مالک فی الأندلس. و العتیبیة: ألفها محمد بن أحمد العتبی القرطبی المتوفی سنة 255 ه-، و قد أکثر فیها من الروایات المطروحة، و المسائل الشاذة، و کان یأتی بالمسائل الغریبة، فإذا أعجبته قال: أدخلوها فی المستخرجة. قال ابن وضاح: فی المستخرجة خطأ کثیر. و قال محمد بن عبد الحکم: رأیت جلها کذبا و مسائل لا أصل لها. و لکنها مع هذا الطعن و ما فیها من الکذب و الخطأ، فإن لها عند أهل العلم بافریقیة القدر العالی و الطیران الحثیث، قاله ابن حزم. و الموازیة: هی لمحمد بن إبراهیم بن زیاد الاسکندری المعروف بالمواز المتوفی سنة 269 ه. قال القاضی عیاض عن کتاب الموازیة: هو أجل کتاب ألفه المالکیون، و أصحه مسائل، و أبسطه کلاما، و أوعبه، و ذکره أبو الحسن القابسی، و رجحه علی سائر الأمهات. هذه هی أمهات کتب المذهب المالکی، و المعول علیها فی العمل. و قد خالف أصحاب مالک فی أکثر المسائل ما ذهب إلیه مالک، کما خالف أبو یوسف و محمد بن الحسن الشیبانی أبا حنیفة، و کما خالف المزنی و البویطی الشافعی. فأنت تری أن مجموع ما علیه العمل فی المذهب لم یکن من قول صاحب المذهب وحده، و إنما هو مجموع آراء. و قد کانوا مستقلین فی تفکیرهم و یوضح لنا ابن خلدون حالة هذه الکتب و استعمالها بقوله:

1- 1) ابن خلدون ص 245. [1]

2- 2) عبد الملک بن حبیب بن سلیمان بن هارون بن جلهمة بن عباس بن مرداس السلمی أبو مروان المتوفی سنة 239 ه-له تآلیف کثیرة غیر الواضحة: منها غریب الحدیث، و تفسیر الموطأ، و طبقات الفقهاء، و غیرها. قال ابن لبابة: لم یکن له علم بالحدیث یعرف به صحیحه من سقیمه، و یفرق مستقیمه من مختلفه، و کان غرضه الإجازة. و کان یعرف بعالم الأندلس. ترجمته فی نفح الطیب ج 6 ص 15 و [2]الدیباج المذهب ص 154.

رحل من الأنـدلس عبـد الملک بن حبیب، فأخـذ عن ابن القاسم و طبقته، و بث مذهب مالک فی الأندلس، و دون فیه کتاب الواضـحة، ثم دون العتبی من تلامذته کتاب العتیبیة. و رحل من افریقیة أسد بن الفرات، فکتب عن أصـحاب أبی حنیفة أولا، ثم انتقل إلی مذهب مالک، و کتب عن ابن القاسم فی سائر أبواب الفقه، و جاء إلی القیروان بکتابه و سـماه الأسدیة نسـبة إلی أسد بن الفرات، فقرأها سحنون علی أسد، ثم ارتحل إلی المشـرق، و لقی ابن القاسم و أخذ عنه، و عارضه بمسائل الأسدیة، فرجع عن کثیر منها، و کتب سـحنون مسائلها. و دونها و أثبت مـا رجع عنه، و کتب لأسـد أن یأخـذ بکتاب سـحنون فأنف من ذلک، فترک الناس کتابه و اتبعوا مدونـة سـحنون علی ما کان فیها من اختلاط المسائل فی الأبواب، فکانت تسـمی المدونة و المختلطة و عکف أهل القیروان علی هذه المدونة، و أهل الأندلس علی الواضحة و العتیبیة، ثم اختصـر ابن أبی زید المدونة و المختلفة فی کتابه المسـمی بالمختصـر و لخصه أیضا أبو سـعید البرادعی من فقهاء القیروان فی کتابه المسـمی بالتهـذیب، و اعتمـده المشـیخة من أهل افریقیة، و أخذوا به و ترکوا ما سواه. و کذلک اعتمد أهل الأندلس کتاب العتیبیة، و هجروا الواضـحة و ما سواها. و لم یزل علماء المـذهب یتعاهـدون هـذه الأمهات بالشـرح، و الإیضاح و الجمع، فکتب أهل افریقیـة علی المدونـة ما شاء اللّه أن یکتبوا مثل ابن یونس، و اللخمی، و ابن محرز التونسـی و ابن بشـیر و أمثالهم. و کتب أهل الأنـدلس علی العتیبیة ما شـاء اللّه أن یکتبوا مثـل ابن رشـد و أمثـاله. و جمع ابن أبی زیـد جمیع مـا فی الأمهـات من المسائل و الخلاف و الأقوال فی کتاب النوادر فاشـتمل علی جمیع أقوال المـذهب و فروع الأمهات کلها فی هـذا الکتاب، و نقل ابن یونس معظمه فی کتابه علی المدونة، و زخرت بحار المـذهب المالکی فی الأفقین إلی انقراض دولـة قرطبـة و القیروان، ثم تمسک بهما أهل المغرب بعد ذلک إلی أن جاء کتاب أبی عمرو بن الحاجب لخص فیه طرق أهل المذهب فی کل باب، و تعدید أقوالهم فی کل مسألة فجاء کالبرنامج للمذهب (1).

1- 1) مقدمة ابن خلدون ص 377. [1]

و لقد كان أهل الأندلس يغالون فى مالک و فقهه: قال البيهقى: إن الشافعى إنما وضع الكتب على مالک: أنه بلغه أن بالأندلس قلنسوة لمالک يستسقى بها، و كان يقال لهم: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فيقولون: قال مالک، فقال الشافعى: إن مالكا بشر يخطئ، فدعاه ذلک إلى تصنيف الكتاب فى اختلافه معه (1). و على الجملة فإن انتشار مذهب مالک فى الأندلس يعود أمره إلى قوة السلطان، فإنه قد حمل أهل مملكته عليه (2)و قد كانوا يعملون بمذهب الأوزاعى. و كان يحيى بن يحيى الليثى مقدما مكينا عند السلطان فنشر المذهب هناک، إذ جعل إليه تعيين القضاة، فلم يول إلا من كان على مذهبه، حتى اضطر القضاة الذين كانوا على غير مذهب مالک أن يلتزموا الفتوى به، نظرا لإلزام السلطة. فهذا القاضى منذر بن سعيد البلوطى قاضى الجماعة بقرطبة المتوفى سنة 355 ه-كان يتفقه بمذهب الظاهرى، و يقضى بمذهب مالک و أصحابه، لأنه ألزم بالعمل به من قبل السلطان (3). و يعود ذلک إلى ثناء مالک على ملک الأندلس عند ما سئل عن سيرة الملک، فذكر له عنها ما أعجبه، فقال مالک: نسأل اللّه أن يزين حرمنا بملككم، فلما بلغ قوله إلى الملک حمل الناس على مذهبه بالقهر (4). و يقول المقريزى: لما ولى المعز باديس حمل جميع أهل افريقيا و أهل الأندلس على التمسک بمذهب مالک و ترک ما عداه، فرجع أهل افريقيا و أهل الأندلس كلهم إلى مذهبه رغبة فيما عند السلطان و حرصا على طلب الدنيا، إذ كان القضاء و الإفتاء فى جميع تلک المدن لمن سمى بمذهب مالک، فاضطرت العامة إلى أحكامهم و فتاواهم ففشى هذا المذهب هناک (5).

1- 1) توالى التأسيس للحافظ ابن حجر ص 76.

2- 2) نفح الطيب ج 6 ص 45. [1]

3- 3) نفح الطيب ج 6 ص 45. [2]

4- 4) ميدان الاجتهاد.

5- 5) الإمام الصادق و المذاهب الأربعة. الجزء الأول. [3]

فالمـذهب المالكى محفوف بعنايـة السـلطة و عوامل السـياسة من جميع جوانبه. و قد قام القضاة بنشـره و لما خمل ذكر مذهب مالك فى المدينة المنورة و عين إبراهيم بن على اليعمرى قاضـيا على المدينة قام بنشـر مذهب مالك بقوة سلطانه و سطوته و ذلك فى القرن السابع. و لا بد أن نلحظ الشـبه بين المذهب المالكى و المذهب الحنفى. 1-إن كلا منهما انتشـر بالقوة و القهر من قبل السلطان على أيدى القضاة. 2-و إن كلا من رئيسـى المذهب قد أسـعده الحظ بالقبول عند سلطان عصره، فكانت له المنزلة الرفيعة و الدرجة العظيمة. فأبو حنيفة انتصر المنصور له و قربه و أدناه لغاية فى نفسه، و لكنه فشل فى محاولته فآل أمره إلى أن يغضب عليه و يقتله لمؤثرات فى نفس أبى حنيفة و أسباب منعته من الاسـتجابة تماما للسـلطان، و بعد، اندفع أصحابه كما يشاؤون. و مالك قد حظى برضا المنصور و المهدى و الهادى و الرشيد، و رفعوا من شـأنه فى حيـاته كما مر بيانه. 3-إن كـل واحـد منهمـا تأثر بالآخر، فالمـذهب الحنفى دخلت فيه آراء مالك و رواياته أدخلها أبو يوسف و محمد بن الحسن و طبقوا آراءهم على الموطأ و اسـتخرجوا لها شواهد من الآثار. و كذلك المذهب المالكى تأثر بالرأى الحنفى، أدخله عليه أسـد بن الفرات كمـا مر ذكرناه. 4-إن أصول المـذهبين و مسائلهما هما مجموعـة آراء علماء كل من المـذهبين التى قام عليها تخريـج المسائل، و ينسب ذلك إلى رئيس المذهب، فأصـبحت تلك المسائل هى الأسـس التى يقوم بها و إن كان فيها خلاف لمن نسـب المـذهب إليه. فإن لتلاميـذ مالك آراء بجوار آرائه و منزلتهم منه كمنزلة المزنى من الشافعى و كمنزلة محمد و أبى يوسف من أبى حنيفة. و هنا لا بد لنا من الإشارة إلى بعض أصول فقه المذهب المالكى.

أصول الفقه المالكى:

يختلف المذهب المالكى عن بقية المذاهب بكثرة أصول الفقه، فإن الأصول عند الحنفية الكتاب و السنة و الإجماع و القياس و الاستحسان و العرف. و الأصول عند الشافعية: الكتاب، و السنة، و الإجماع، و القياس. أما الأصول عند المالكية فأقل عدد أحصوه له تسعة: الكتاب، و السنة، و الإجماع، و القياس، و الاستحسان، و العرف، و إجماع أهل المدينة، و المصالح المرسلة، و سد الذرائع، و قيل أكثر من ذلك. و لقد ذكر القاضى عياض فى المدارك الأصول العامة للفقه الإسلامى: و هى القرآن الكريم نصوصه و ظواهره و مفهوماته، و السنة متواترها و مشهورها و آحادها، و يؤخذ أيضا بنصوصها ثم ظواهرها ثم مفهوماتها ثم الإجماع ثم القياس. و بعد ذلك ذكر أصول مالك و مقامها من تلك الأصول العامة فقال: و أنت إذا نظرت لأول وهلة منازع هؤلاء الأمة و مآخذهم فى الفقه و اجتهادهم فى الشرع وجدت مالكا رحمه اللّه ناهجا فى هذه الأصول منهاجها مرتبا لها مراتبها و مدارجها، مقدما كتاب اللّه على الآثار، ثم مقدما لها على القياس و الاعتبار، تاركا منها ما لم يتحمله الثقات العارفون لما تحملوه، أو ما يجهلونه، أو ما وجد الجمهور الجم الغفير من أهل المدينة قد عملوا بغيره و خالفوه و لا يلتفت إلى من تأول عليه بظنه فى هذا الوجه سوء التأويل و قوله ما لا يقوله بل صرح بأنه من الأباطيل. هذا ما ذكره القاضى عياض فى أصول مذهب مالك، ذكر الكتاب و السنة، و عمل أهل المدينة و القياس و لم يذكر غيرها، فلم يذكر الإجماع، و لم يذكر القواعد التى امتاز بها مذهب مالك، و هى المصالح المرسلة و سد الذرائع، و العرف، و العادات، و غيرها و أحصيت إلى ستة عشر أصلا. و مهما يكن من شىء فإن مالكا لم يدون أصوله التى بنى عليها مذهبه فى منحاه الاجتهادى الذى استخرج فروع مذهبه منها، فهو كأبى حنيفة فى ذلك. «و لقد صنع فقهاء المذهب المالكى فى فقه مالك ما صنعه فقهاء المذهب الحنفى، فجاؤوا إلى الفروع و تتبعوها و استخرجوا منها ما يصح أن يكون أصولا ـ قام عليها الاستنباط فى ذلك المذهب العظيم، و دونوا تلك الأصول التى استنبطوها على أنها أصول مالك، فيقولون مثلا: مالك يأخذ بمفهوم المخالفة

و بفحوى الخطاب و بظاهر القرآن، و يقول فى العموم كذا، و الحقيقة أن هذه ليست أقوالا ـ له مأثورة قد ذكرها و رويت عنه، بل هى مستخرجة من الفروع التى أثرت عنه و أدلتها التفصيلية التى ذكرت بجوارها أو ذكرها الفقهاء من بعده لها و لا يمكن الاستدلال بسواها» (1). فأصبح ذلك المجهود الذى بذله علماء المالكية هو مجموع أصول المذهب المالكى، و فى أكثرها مخالفة لرأى مالك، أو تفردهم بما لم يرد من مالك أثر فيه، فقد ظهرت بعد وفاته آراء لكبار تلاميذه خالفوه فيها، و دونوا تلك المخالفة. و الشواهد كثيرة على مخالفة أصحاب مالك له من بعده، فهذا يحيى الأندلسى يخالفه فى مسألة الشاهد و يمين صاحب الحق، و هذا أشهب تروى مخالفته حتى أن أسد بن الفرات لما أراد أن يدون آراء مالك و لجأ إلى أشهب لم يستطع عند التدوين التفرقة بين آراء التلميذ و شيخه مالك فعدل عنه و عاب مسلكه و لجأ إلى عبد الرحمن بن القاسم يأخذ منه، فقد جاء فى مقدمات ابن رشد ما نصه: قدم أسد يسأل مالكا رحمه اللّه فألفاه قد توفى، فأتى أشهب ليسأله، فسمعه يقول: أخطأ مالك فى مسألة كذا، و أخطأ فى مسألة كذا فتنقصه بذلك و عابه و لم يرض قوله، و التجأ إلى ابن القاسم ليأخذ عنه آراء مالك و فقهه فقد كان أيضا يخالف مالكا و قد دون ذلك، فقد جاء فى مدونة سحنون آراء صريحة فى مخالفة مالك. و أهم الأصول التى كان يعتمد عليها مالك فى منحاه الاجتهادى كثيرة منها:

عمل أهل المدينة:

كان مالك قد أعطى ما جرى عليه العمل فى المدينة أهمية كبرى، و هو يرد الحديث لأنه لم يجر عليه عمل، و يرى أن أهل المدينة أدرى بالسنة و بالناسخ و المنسوخ كما أشار لذلك فى رسالته إلى الليث بن سعد إذ يقول فيها: فإنما الناس تبع لأهل المدينة، إليها كانت الهجرة، و بها نزل القرآن و أحل الحلال و حرم الحرام، إذ رسول اللّه بين أظهرهم، إلى أن يقول: فإذا كان الأمر بالمدينة ظاهرا معمولا به لم أر لأحد خلافه للذى فى أيديهم من

1- 1) مالك لمحمد أبو زهرة ص 255.

تلک الوراثة التی لا یجوز انتحالها و لا ادعاؤها، و لو ذهب أهل الأمصار یقولون: هذا العمل ببلدنا، و هذا الذی مضی علیه من مضی منا، لم یکونوا فیه من ذلک علی ثقة، و لم یکن من ذلک الذی جاز لهم. . . إلی آخر الرسالة. و قد رد علیه اللیث برسالة طویلة ناقشه فیها بمناقشة علمیة ذکرها ابن القیم الجوزیة فی أعلام الموقعین بکاملها. و قال فی بعض فصولها: و کان من خلاف ربیعة لبعض من قد مضی ما قد عرفت و حضرت قولک فیه، و قول ذوی الرأی من أهل المدینة: یحیی بن سعید، و عبید اللّه بن عمر، و کثیر بن فرقد، و غیره کثیر ممن هو أسنّ منه حتی اضطرک ما کرهت من ذلک إلی فراق مجلسه، و ذاکرتک أنت و عبد العزیز بعض ما نعیب علی ربیعة من ذلک فکنتما من الموافقین فیما أنکرت. و کان من ابن شهاب اختلاف کثیر إذا لقیناه و إذا کاتبه بعضنا فربما کتب إلیه فی الشیء الواحد علی فضل رأیه و علمه بثلاثة أنواع ینقض بعضها بعضا، و لا یشعر بالذی مضی من رأیه فی ذلک. . . إلی آخر الرسالة، و قد ناقشه فیها بکثیر من المسائل العلمیة التی نقض بها قول مالک، و کذلک الشافعی ناقش مالک مناقشة علمیة قیمة فی کتاب الأم، لأن مالک لا یفرق فی لزوم اتباع أهل المدینة بین العمل النقلی، و العمل الاجتهادی، لذلک وجهوا إلیه تلک المؤاخذات المعقولة. «أما العمل النقلی فلا خلاف فی حجیته عند مفسری مذهب مالک کنقل أهل المدینة تعیین محل منبر النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و قبره و محل وقوفه للصلاة، و تعیینهم مقدار المد و الصاع و الأوقیة فی عهد رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم، و نقلهم کیفیة الأذان و الإقامة. أما المسائل الاجتهادیة فالأمر فیه سواء بین مجتهدی الصحابة. و التابعین من المدنیین و الکوفیین و الشامیین، و المصریین (1). و قد رد ابن حزم علی هذه القاعدة بقوله: و أما من قال إن الإجماع إجماع أهل المدینة لفضلها، و لأن أهلها شهدوا نزول الوحی فقول خطأ من وجوه. نذکر منها:

1- 1) ضحی الإسلام ج 2 ص 212 و التشریع الإسلامی ص 241.

1-إن الذين شهدوا الوحى، إنما هم الصحابة رضى اللّه عنهم لا من جاء بعدهم من أهل المدينة، و عن الصحابة أخذ التابعون من أهل كل مصر. 2-إن الخلفاء الذين كانوا لا يخلو حالهم من أحد وجهين لا ثالث لهما: إما أن يكونوا قد بينوا لأهل الأمصار من رعيتهم حكم الدين أو لم يبينوا. فإن كانوا قد بينوا لهم الدين فقد استوى أهل المدينة و غيرهم فى ذلک. و إن كانوا لم يبينوا لهم فهذه صفة سوء أعاذهم اللّه تعالى منها، فبطل قول هؤلاء بيقين. 3-إنه إنما قال ذلک قوم من المتأخرين ليتوصلوا بذلک إلى تقليد مالک بن أنس دون علماء المدينة جميعا و لا سبيل لهم إلى مسألة واحدة أجمع عليها جميع فقهاء أهل المدينة المعروفون من الصحابة و التابعين خالفهم فيها سائر الأمصار (1).

المصالح المرسلة:

و من أصول مذهب مالک: القول بالمصالح المرسلة كما نسب إلى الحنفية القول بالاستحسان، و قد تسمى هذه المصالح بالاستصلاح، و معنى المصالح المرسلة المصالح التى لم يشهد لها من الشرع بالبطلان و لا بالاعتبار نص معين، و محل النزاع فى العمل بها إذا صادمت دليلا آخر من نص أو قياس. و مثال ذلک الضرب بالتهمة للاستنطاق بالسرقة، فقد قال بجوازه مالک و يخالفه غيره. لأن هذه المصلحة تعارضها أخرى، و هى مصلحة المضروب، لأنه ربما يكون بريئا، و ترک الضرب فى مذنب أهون من ضرب برىء، فإن كان فيه فتح باب يعسر معه انتزاع الأموال. ففى الضرب فتح باب إلى تعذيب البرىء. و من ذلک المفقود زوجها إذا اندرس خبر موته و حياته و قد انتظرت سنين و تضررت بالعزوبة، و المرأة تباعد حيضها سنين و تعوقت عدتها فى النكاح و بقيت ممنوعة منه، أخذ مالک برأى عمر فيهما فقال: تنكح زوجة المفقود بعد أربع سنين من انقطاع الخبر مراعاة لمصلحة الزوجة، و عدم الالتفات إلى مصلحة الغائب، و فى المتباعد حيضها تعتد بثلاثة أشهر بعد أن تمر عليها مدة الحمل و هى تسعة أشهر

1- 1) النبذ لابن حزم ص 16.

فالمجموع سنة راعوا مصلحة الزوجة مع المخالفة للنص الصريح، و هو قوله تعالى: وَ اَلْمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ [البقرة:228]و هى لم تصل لسن اليأس حتى تعتد بالأشهر. و الخلاصة أن المصلحة المرسلة مصلحة ترجع إلى حفظ مقصود شرعى بالكتاب أو السنة أو الإجماع إلا أنها لا يشهد لها أصل معين بالاعتبار، و إنما يعلم كونها مقصودة لا بدليل واحد بل بمجموع أدلة و قرائن أحوال و تفاريق الإمارات. و من أجل ذلک تسمى مصلحة مرسلة، و لا خلاف عندهم فى اتباعها إلا عند ما تعارضها مصلحة أخرى، و عند ذلک يكون الخلاف فى ترجيح أحد المصلحتين (1).

الاستحسان:

كان مالک بن أنس يأخذ بالاستحسان و روى ابن القاسم عن مالک أنه قال: الاستحسان تسعة أعشار العلم، و فى رواية أخرى عن مالک أنه قال: تسعة أعشار العلم الاستحسان. و كان القرافى يفتى بالاستحسان و يقول فيه: «قال به مالک رحمه اللّه فى عدة مسائل فى تضمين الصناع المؤثرين فى الأعيان بصنعهم و تضمين الحمالين للطعام و الادام دون غيرهم» . و قد عرفه ابن العربى: إن الاستحسان إيثار ترک مقتضى الدليل على طريق الاستثناء و الترخيص لمعارضة ما يعارض به فى بعض مقتضياته و أقسامه أربعة: 1-ترک الدليل للعرف. 2-تركه للإجماع. 3-تركه للمصلحة. 4-للتيسير و رفع المشقة و إيثار التوسعة. و يقول ابن الأنبارى: الذى يظهر من مذهب مالک القول بالاستحسان لا على المعنى السابق-أى تعريف ابن العربى له-بل هو استعمال مصلحة جزئية فى مقابل قياس كلى، فهو يقدم الاستدلال المرسل على القياس، و مثاله لو اشترى سلعة بالخيار ثم مات فاختلف ورثته فى الإمضاء و الرد، قال أشهب: القياس الفسخ، و لكنا

1- 1) تاريخ التشريع الإسلامى ص 242.

نستحسن إذا قبل البعض الممضی نصیب الراد إذا امتنع البائع من قبوله أن نمضیه. و علی أی حال فإن الاستحسان فی الفقه المالکی قد استعمل بکثرة، و نقلوا ذلک من مالک، و قد اختلفوا فی تعریفه و فی بیان المواضع التی یجیز مالک الأخذ به و یعتمد علیه فی بناء الأحکام، و سیأتی بیان ذلک بصورة واسعة عند حدیثنا عن أصول الفقه الجعفری و مقارنته مع غیره. و قد حمل الشافعی علی مالک فی مسألة الاستحسان و عقد بابا فی الأم سماه کتاب إبطال الاستحسان. و لقد بنی إبطال الاستحسان: أولا: علی أن الشارع ما ترک أمر الإنسان سدی، بل جاء فی الشریعة بما فیه صلاحه و نص علی الأحکام الشرعیة الواجبة الاتباع و ما لم ینص علیه قد أشیر إلیه و حمل علی النصوص بالقیاس فلا شیء لم یبینه الشارع، و ترک بیانه للاستحسان، و إلا کان ثمة نقص فی البیان. ثانیا: لأن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کان إذا نزلت به حادثة لم یجد بها نصا و لا حملا علی نص سکت حتی ینزل وحی بالبیان، کما فعل عند ما جاءه من ینکر نسب ولد جاءت به امرأته فسکت حتی نزلت آیة اللعان، لأنه لم یجد نصا، و لا حملا علی نص فانتظر، و لو کان الإفتاء بغیر النص أو الحمل علیه جائزا من أحد لجاز من النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم. ثالثا: إن اللّه سبحانه أمر بإطاعته سبحانه و تعالی و إطاعة رسوله، و ذلک باتباع ما جاء فی کتاب اللّه تعالی، ثم ما جاء فی سنة رسوله صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و إن لم یکن نص فیهما کان الاتباع بالحمل علی النص فی أحدهما و الاستحسان لیس واحد منهما. رابعا: إن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قد استنکر تصرف من اعتمد علی استحسانه من الصحابة لأنه لم یعتمد علی نص. خامسا: إن الاستحسان لا ضابط له و لا مقاییس یقاس بها الحق من الباطل. فلو جاز لکل مفت أو مجتهد أن یستحسن فیما لا نص فیه لکان الأمر فرطا، و لاختلفت الأحکام فی النازلة الواحدة علی حسب استحسان کل مفت، فیقال فی الشیء ضروب من الفتیا و الأحکام، و ما هکذا تفهم الشرائع و لا تفسر الأحکام الدینیة (1).

1- 1) مالک لمحمد أبو زهرة ص 356-357.

القياس:

و هو أصـل من أصول الفقه المـالكى، و قـد أجمع المالكيون أن مالكا كان يقيس بعض المسائل التى تقع على مسائل قـد علم فيها أقضـية الصـحابة كما قاس حال زوجـة المفقود إذا حكم بموته فاعتـدت عـدة الوفاة و تزوجت بغيره ثم ظهر حيا، بحال من طلقها زوجها و أعلمها بالطلاق ثم راجعها و لم تعلم بالرجعـة، فتزوجت بعـد انتهاء العـدة، و ذلک لأن عمر أفتى فى هـذه بأنها لزوجها الثانى دخل أو لم يدخل، لأـن الحالتين متماثلتين، فلا بـد أن يكون الحكم متحـدا، و كثيرا ما كان يقيس على القضايا، و أكثر قياسه على قضايا عمر لأنه يجعل ذلک نصا فى الحكم كما على سائر الأدلة، إذ لم يقتصـر قياسـهم على الأحكام الثابتة من الكتاب و السـنة بل يقيسون على الفروع المسـتنبطة، و القياس حجـة عند المالكية، كما هو حجة عند الحنفية و لكن هناک فرق بين القياسـين و إن كان المدرک واحدا إذ لا يختلفان إلا فى اتساع الـدائرة و ضـيقها، فأبو حنيفـة كان يتسع فى اسـتنباطه فيبحث عن أحكام المسائل التى لم تقع، و يتصور وقوعها، فهو يسـتنبط العلل الباعثة للأحكـام، و الغايات المناسـبة لشـرعيتها، و يبنى عليها و يجعل العلل مطردة فى كل ما تنطبق عليه، و على هـذا فأخـذه بالرأى لا بـد و أن يجعل علة فى القياس لأن قلة حديثه وسعت دائرة الرأى و القياس عنده كما يأتى بيانه إن شاء اللّه. و قد كان أبو حنيفة يقدم القياس على خبر الواحد فكذلک كان مالک بن أنس كما فى كثير من فتواه التى نقلها أصحابه.

الرأى:

و الشىء الذى يجب الالتفات إليه: ان الذين كتبوا فى تاريخ الفقه الإسلامى قد قسموا الفقه إلى فقه أثر و فقه رأى و يعدون مالكا فقيه أثر و أبا حنيفـة فقيه رأى. و قد رأينا ابن قتيبة فى معارفه يعد مالک بن أنس فقيه رأى كما ذكر منهم: ربيعة الرأى أسـتاذ مالک، و الأوزاعى و الثورى و ابن أبى ليلى، و زفر، و أبو يوسف، وعد مالكا من جملتهم (1)كما أنه لم يذكره فى أصحاب الحديث إذ عد منهم: شعبة و جرير بن حازم، و حماد بن زيد، و حماد بن سلمة و غيرهم.

1- 1) المعارف لابن قتيبة 218. [1]

و زيادة على ذلک ان اشتهار مالک بالرأى كان معروفا فى عصره، و يعتبرونه فقيه رأى، حتى ليسأل بعضهم من للرأى فى المدينة بعد ربيعة و يحيى بن سعيد؟ فيجاب بأن مالكا من بعدهما. يقول الأستاذ محمد أبو زهرة: و إن مقدار أخذ مالک بالرأى ليبدو جليا فى أمرين. أحدهما فى مقدار المسائل التى اعتمد فيها على الرأى سواء أ كان بالقياس، أم بالاستحسان، أم بالمصالح المرسلة أم بالاستصحاب، أم بسد الذرائع. . . إلى أن يقول: و إن ذلک لكثير و افتح المدونة تجد الكثرة بينة واضحة بل ان تعدد طرائق الرأى عنده أكثر من غيره، ليجعل له القدح المعلى فيه، فإن كثرتها تشير إشارة واضحة إلى كثرة اعتماده على الرأى لا إلى قلته. ثانيهما عند تعارض خبر الآحاد مع القياس و هو أحد وجوه الرأى، و هنا نجد أنه يقرر الكثيرون من المالكية انه يقدم القياس، و انهم بالإجماع يذكرون أنه أحيانا قد أخذ بالقياس، ورد خبر الآحاد، و لقد أحصى الشاطبى فى الموافقات طائفة من المسائل أخذ فيها مالک بالقياس أو المصلحة أو القاعدة العامة و ترک خبر الآحاد، لأنه رأى الأصول التى أخذ بها قطعية أو تعود إلى أصل قطعى و الخبر الذى رده ظنى. و من ذلک حديث غسل الإناء من ولوغ الكلب سبعا إحداهن بالتراب فقد قال فيه مالک: جاء الحديث و لا أدرى ما حقيقته و كان يضعفه و يقول: يؤكل صيده فكيف يكره لعابه (1)؟ !

1- 1) و من هذا الباب قضية أكل الكلاب، فقد اشتهر عن المالكية جوازه كما يقول المقدسى فى أحسن التقاسيم: إنها تباع فى المغرب جهرا و تطرح فى عرائس مصر و قال ابن حزم فى المحلى بعد ذكر حرمة أكل السباع و منها الكلب: و أنكر المالكيون تحريم أكل السباع، و موهوا بأن قالوا: قد صح عن عائشة أنها سألت عن أكل لحوم السباع؟ فقرأت: قُلْ لا أَجِدُ فِى ما أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّماً. . . الآية. و قال القرطبى: روى ابن القاسم عن مالک أنها مكروهة، و على هذا القول عول جمهور أصحابه و هو الرأى المنصور عندهم، و قد فرق أصحاب مالک بين كلب الماشية و الزرع فاتفقوا على أن ما لا يجوز اتخاذه لا يجوز بيعه أما من أراده للأكل فاختلفوا فيه فمن أجاز أكله أجاز بيعه فهو عندهم طاهر العين غير محرم الأكل. انظر بداية المجتهد و المحلى فى باب الأطعمة و كتاب الطهارة و البيوع تجد هناک الأقيسة المعارضة للآثار الصحيحة.

و قد رد خيار المجلس الذى يوجب أن يكون لكلا العاقدين الحق فى فسخ الخيار ما دام المجلس لم يتفرق، فقد قال مالک بعد روايته الحديث ليس لهذا عندنا معروف و لا أمر معمول فيه (1). و لم يأخذ بخبر من مات و عليه صيام صام عنه وليه، و لا بالخبر الذى جاء عن ابن عباس أن امرأة أتت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فقالت: يا رسول اللّه إن أمى ماتت و عليها صوم شهر، فقال صلّى اللّه عليه و آله و سلم: أ فرأيت لو كان على أبيک دين فقضيته؟ قالت: نعم، قال: فدين اللّه أحق أن يقضى، و قد رد مالک ذلک استنادا لقوله تعالى: وَ لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى [الأنعام:164]. و لم يعتبر للرضاع نصابا مقررا عشرا و لا خمسا إطلاقا للقاعدة المستفادة من الآية الكريمة: وَ أُمَّهاتُكُمُ اَللاّتِى أَرْضَعْنَكُمْ [النساء:23]فالرضاع عنده على القليل و الكثير فليس له حد أدنى. ورد خبر المصراة و هو ما روى عن أبى هريرة أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: لا تصروا الإبل و الغنم و من ابتاعها بخير النظرين بعد أن يحلبها إن شاء أمسک و إن شاء ردها، و صاعا من تمر (2). و بهذا يتضح أن مالكا كان يعمل بالرأى و القياس و لم يكن الاختصاص فيه لأبى حنيفة. فالقول بأن مالكا كان متمسكا بالحديث حتى عرف به غير وجيه. و من هذا يتضح أن معركة أهل الرأى و أهل الحديث كانت تحوم حول نقطة سياسية لا شرعية و هى معارضة مدرسة أهل البيت التى انهال الناس عليها فى عصر الإمام الصادق و قد تمسكت بالحديث و لم تجعل للقياس و الرأى دخل فى الأحكام الشرعية.

إنكار الإمام الصادق للقياس:

و كان الإمام الصادق عليه السّلام ينكر أشد الإنكار على ذلک كما مر بيانه فى أقواله لأبى حنيفة و نهيه له عن القياس و القول بالرأى.

1- 1) الموطأ ج 2 ص 94. [1]

2- 2) مالک ص 300-301.

و من أقواله المأثورة: إن أصحاب المقاييس طلبوا العلم بالمقائيس فلم تزدهم المقاييس من الحق إلا بعدا. و قال فی رده علی ابن شبرمة: لو علم ابن شبرمة من أين هلک الناس ما دان بالمقاييس و لا عمل بها. و قال لأبی حنيفة: ويحک إن أول من قاس إبليس لما أمره اللّه بالسجود لآدم، قال خلقتنی من نار و خلقته من طين. و قال لأبی حنيفة مرة أخری: اتق اللّه و لا تقس، فإنا نقف غدا بين يدی اللّه فنقول: قال اللّه و قال رسوله و تقول أنت و أصحابک سمعنا و رأينا (1). و دخل عليه أبان بن تغلب فقال: يا أبا عبد اللّه رجل قطع اصبع امرأة؟ فقال فيها عشرة من الإبـل. فقال أبان: قطع اثنين. قال الصادق: فيهما عشـرون من الإبل. قال: قطع ثلاث أصابع. قال الصادق: فيهن ثلاثون من الإبل. قال: قطع أربعـا. قـال الصـادق: فيهن عشـرون. قال أبان: أ يقطع ثلاثا و فيهن ثلاثون من الإبل، و يقطع أربعا و فيها عشـرون من الإبل؟ ! قال: نعم إن المرأة إذا بلغت الثلث من ديـة الرجل سـفلت المرأة و ارتفع الرجل، إن السـنة لا تقاس، أ لا ترى أنها تؤمر بقضاء صومها، و لا تؤمر بقضاء صلاتها، يا أبان أخذتنی بالقياس و إن السنة إذا قيست محق الدين. إلی كثير مما ورد عنه عليه السّلام فی شدة الإنكار علی العمل بالقياس و الأخذ بالرأی، و قد انتشـر ذلک فی عصره فوجه إليهم رسالة ينهاهم عن ذلک و بين لهم الأخطاء التی يؤدی إليها العمل بالرأی و القياس، و إليک نص الرسالة:

1- 1) ابطال القياس لابن حزم 71.

رسالة الإمام الصادق حول القياس:

أما بعـد فإنه من دعا غيره إلى دينه بالارتياء و المقاييس لم ينصف و لم يصب حظه لأن المدعو إلى ذلک لا يخلو من الارتياء و المقاييس، و متى ما لم يكن بالـداعى قوة فى دعائه على المـدعو لم يؤمن على الداعى أن يحتاج إلى المدعو بعد قليل، لأنا قد رأينا المتعلم الطالب ربما كان فائقا لمعلم و لو بعـد حين! و رأينا المعلم الداعى ربما احتاج فى رأيه إلى رأى من يدعو، و فى ذلک تحير الجاهلون و شک المرتابون، و ظن الظانون! و لو كان ذلک عنـد اللّه جائزا لم يبعث الرسل بما فيه الفصل، و لم ينه عن الهزل، و لم يعب الجهل، و لكن الناس لما سـفهوا الحق و غمطوا النعمـة، و اسـتغنوا بجهلهم و تدابيرهم عن علم اللّه، و اكتفوا بذلک دون رسـله، و القوامين بأمره قالوا: لا شـىء إلا ما أدركته عقولنا و عرفته ألبابنا، فولاهم اللّه ما تولوا، و خذلهم حتى صاروا عبدة أنفسـهم من حيث لا يعلمون. و لو كان اللّه رضى منهم اجتهادهم و ارتياءهم فيما ادعوا من ذلک لم يبعث إليهم فاصـلا لما بينهم و لا زاجرا عن وصـفهم، و إنما اسـتدللنا أن رضى اللّه غير ذلک، ببعثه الرسل بالأمور القيمـة الصـحيحة و التحـذير عن الأمور المشـكلة المفسـدة، ثم جعلهم أبوابه و صـراطه و الأدلاء عليه بأمور محجوبة عن الرأى و القياس. فمن طلب ما عند اللّه بقياس و رأى لم يزدد من اللّه إلا بعدا، و لم يبعث رسولا قط و إن طال عمره قابلا من الناس خلاف ما جاء به حتى يكون متبوعا مرة، و تابعا أخرى، و لم ير أيضا فيما جاء به اسـتعمل رأيا أو مقياسا حتى يكون واضحا عنده كالوحى من اللّه، و فى ذلک لكل ذى لب و حجى أن أصحاب الرأى و القياس مخطئون مدحضون. . . الخ الرسالة. و الغرض أن مالكا كان يعد من أهل الرأى و قد نهاه أسـتاذه ابن هرمز عن الأخذ به كما حدث مالک عنه. قال مطرف: سـمعت مالكا يقول: قال ابن هرمز: لا تسـتمسک على شىء مما سمعته من هذا الرأى إنما افتجرته أنا و ربيعة فلا تتمسک. و كما صـرح مالک بذلک فى قوله: إن نظن إلا ظنا و ما نحن بمستيقنين (1)و كذلک كان تلاميـذه و حملـة حديثه و ناشـرى مذهبه يحذرون من الأخذ بآرائهم قال عبيد اللّه بن يحيى بن يحيى: كنت آتى ابن القاسم فيقول لى: من أين جئت؟ فأقول

1- 1) جامع بيان العلم ج 2 ص 33. [1]

من عنـد وهب فيقول: اتق اللّه فـإن أكثر هـذه الأحـاديث ليس عليهـا العلم. ثم آتى ابن وهب فيقول: من أين؟ فأقول: من عنـد ابن القاسم. فيقول: اتق اللّه فإن أكثر هذه المسائل رأى (1). و قال العقبى: دخلت على مالک فى مرضه الذى مات فيه فسلمت عليه فرأيته يبكى فقلت: يا أبا عبد اللّه ما الذى يبكيک؟ فقال لى: يا ابن قعنب و مالى لا أبكى و من أحق بالبكاء منى و اللّه لوددت أنى ضربت بكل مسألة سوطا و قد كانت لى السـعة فيما سبقت إليه و ليتنى لم أفت بالرأى (2). و على كل حال فإن المذهب المالكى توسع فى اسـتعمال القياس كالمذهب الحنفى، كما أنه توسع فى اعتبار المصـلحة و جعلها أصـلا قائما بـذاته. و كذلک مذهب أحمد بن حنبل كما يأتى بيانه، فقد قرر أن نصوص الشارع لم تأت فى أحكامها إلا بما هو المصلحة، و ما كان بالنص عرف به. بل لقد زاد بعض الحنابلة و المالكية فخصص النصوص القرآنية و النبوية بالمصالح، إذا كان موضوع هذه النصوص من المعاملات الإنسانية، لا من العبادات. و قال الطوفى (3)-و هو أحد علماء الحنابلة- : إن رعاية المصلحة إذا أدت إلى مخالفة حكم مجمع عليه أو نص من الكتاب و السنة وجب تقديم رعاية المصلحة بطريق التخصيص لهما بطريق البيان (4). و قـد رد الإمام كاشف الغطاء-تغمده اللّه برحمته-على ذلک بمقال قيم ذكر فيه: أن تقديم المصـلحة على إطلاقها ففيها توسع غريب أدهى من توسع بعضـهم فى القول بالمصالـح المرسـلة، و ربمـا جر ذلـک إلى الهرج و المرج و الفوضـى فى أحكام الشـريعة الإسـلامية، و التلاعب حسب الأهواء فيتسـنى للفقيه على هذا أن يحكم بحلية الربا مثلا، لأن فيه مصـلحة، و الفائدة و المصـلحة تعارض النص و تقدم عليه فى

1- 1) نفس المصدر ص 159. [1]

2- 2) ابن خلكان ج 3 ص 246. [2]

3- 3) هو نجم الدين أبو الربيع سـليمان بن عبد القوى الحنبلى البغدادى المتوفى سنة 716 ه-. و قد اتهم فى التشيع لتأليفه كتاب العذاب الواصب على أرواح النواصب و لقوله الشعر فى مدح على، فعذب لذلک و عزر و طرد من وظيفة التدريس-شذرات الذهب ج 2 ص 39.

4- 4) رسالة الإسلام السنة الثانية العدد الأول ص 94 تحت عنوان من ذخائر الفكر الإسلامى.

المعاملات، و هل ذلک إلا الفوضی و التلاعب بأحکام الشریعة؟ (1)إلی آخر مقاله القیم الذی اقتصرنا منه علی هذه الجملة. هذا ما یتعلق ببیان بعض أصول الفقه المالکی و سیأتی الکلام علی ذکر بعض المسائل الفقهیة عند حدیثنا عن فقه المذاهب. و لا بد لنا من الإشارة لعصر مالک و ما فیه من التطور الذی نستطیع أن نعرف موقفه عند تلک الحوادث فقد کان سابقا من المنکرین علی العباسیین اختصاصهم بالأمر دون بنی علی و هو کغیره من المفکرین الذین أنکروا ذلک و نالوا جزاءهم.

عصر مالک و حوادثه:

کانت ولادة مالک فی عهد الولید بن عبد الملک فی سنة 93-99 ه-و وفاته فی عهد الرشید هرون سنة 179 ه-فهو قد أدرک شطرا من العهد الأموی و مثله فی العهد العباسی، و قد شاهد الکثیر من حوادث العصر الأموی مما لا حاجة إلی بیانه فقد مرت الإشارة إلیه. و لا بد أن نشیر هنا إلی العهد العباسی إشارة موجزة لحوادث عصره فإنه قد عاصر منهم: السفاح، و المنصور، و المهدی، و الهادی و طرفا من عصر الرشید، فهذا هو أهم عهد فی العصر العباسی الأول، ففیه تم انتقال الحکم من الأمویین إلی العباسیین بعد اضطراب و حروب طاحنة ذهبت بکثیر من النفوس و الأرواح، و قد شاهد مالک أهم حوادث ذلک العهد، و عرف نصیب المدینة المنورة من تلک الثورة الماحقة، و ذلک الانقلاب الهائل، کما أنه طمع کما طمع کثیر من الناس أن ینال المجتمع سعادة تحت ظل دولة جاءت ساخطة علی ظلم الأمویین، و سوء سیرتهم و جور عمالهم، و انتهاکهم لحرمات الإسلام، و اعتدائهم علی مقدسات الدین، و معاملتهم السیئة لأهل بیت الرسول و شاهد کما شاهد کثیر من الناس اتحاد العباسیین و العلویین و اتفاقهم علی محاربة عدو مشترک، لیعالجوا الوضع الذی عظم علی المسلمین تحمله. و کان العباسیون ینظمون لجانب أهل البیت، و ینظمون حزبهم وسط ذلک

1- 1) رسالة الإسلام العدد الثانی ص 193.

الجو، و هم أشد الناس انتقادا لوضع الدولة الجائر، و يتألمون لما نال المسلمين بصورة عامة و لأبناء عمهم بصورة خاصة و هم موتورون من الأمويين و ناهيک بما فی قلب الموتور من واتره، و كانت الهتافات باسم الرضا من آل محمد و قد اتجهت الأنظار لآل محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلم، و حامت عليهم الآمال، و اتسع نطاق الثورة باسمهم و تمت بيعة محمد بن عبد اللّه بن الحسن، و قد بايعه السفاح و المنصور و بقية العباسيين، و كثير من العلويين، و كان مالک ممن يرى لزوم تلک البيعة و صحتها. و على أی حال فقد استقر حكم بنی العباس بعد ذلک الاضطراب و قامت دولتهم على أساس الانتماء لأهل البيت و الانتقام من أمية الظالمة. و بطبيعة الحال أن يكون ذلک العصر مقرونا بتطورات و حوادث هامة، و قد شاهد مالک أكثرها، و لعلنا نستطيع أن نستكشف رأيه و موقفه عند ما ننظر إلى مظاهر الدولة الجديدة التی كانت تنتقد أعمال الأمويين و إقامة عرشها على اطلال دولتهم. فهل تبدل ذلک الوضع الذی بعث الاستياء فی نفوس العباسيين من الأمويين فی معاملتهم القاسية مع أهل بيت النبی صلّى اللّه عليه و آله و سلم؟ و هل وجدوا فی ظل دولة أبناء عمهم راحة بعد ذلک العناء الذی شاهدوه فی عهد الأمويين؟ و هل ظفر الناس ببغيتهم فی إقامة دولة عادلة تحكم بكتاب اللّه و سنة نبيه حتى يصبح مالک بن أنس من مؤازری الدولة و أعوانها؟ و يسعد برضاها لأنها دولة عادلة تسير على كتاب اللّه و سنة رسوله، كل ذلک لم يكن بل كان الأمر معكوسا. و قد تضاعف الجور و ازداد العنف. كان عهد السفاح عهد حروب و مذابح، و لكنه يعد فی الواقع أحسن العهود، و عصره خير عصر على أهل البيت و أنصارهم، و ذلک واضح بيانه، لأن الدولة فی عهدها الجديد لا يمكنها ارتكاب ما يكدر الصفو و يغير الوضع و تكشف عن وجهها فيحدث من ذلک خطر لا يمكن تلافيه، و مع هذا فقد أعطانا أبو مسلم صورة عن سياسة السفاح بكتابه للمنصور: أما بعد فقد كنت اتخذت أخاک-يعنی السفاح-إماما و جعلته على الدين دليلا لقرابته، و الوصية التی زعم أنها صارت إليه، فأوطأ بی عشوة الضلالة، و أرهقنی فی ربقة الفتنة، و أمرنی أن آخذ بالظنة، و أقتل على التهمة، و لا أقبل المعذرة، فهتكت

بأمره حرمات حتم اللّه صونها، و سفكت دماء فرض اللّه حقنها و زويت الأمر عن أهله، و وضعته فی غير محله (1). و يقول فی كتاب آخر للمنصور أيضا: أما بعد فإنی اتخذت رجلا إماما و دليلا علی ما افترض اللّه علی خلقه، و كان فی محلة العلم نازلا، و فی قرابته من رسول اللّه صلّی اللّه عليه و آله و سلّم قريبا، فاستجهلنی بالقرآن فحرفه عن مواضعه طمعا فی قليل قد تعافاه اللّه إلی خلقه، و كان كالذی دلی بغرور، و أمرنی أن أجرد السيف و أرفع الرحمة، و لا أقبل المعذرة، و لا أقيل العثرة، ففعلت توطيدا لسلطانكم، حتی عرفكم من كان يجهلكم، و أطاعكم من كان عدوكم، و أظهركم اللّه بی بعد الإخفاء و الحقارة و الذل، ثم استنقذنی بالتوبة. . . (2). و الشیء الذی يلفت النظر فی هذه المراسلة هو اعتراف أبی مسلم بخطئه فی تأويل الآيات التی حاول العباسيون انطباقها عليهم تمويها علی الناس، كآية التطهير التی نزلت فی آل محمد دون غيرهم، و ادعی العباسيون أنهم أهل البيت الذين تنطبق عليهم هذه الآية، و غيرها كآية المودة، لذلک تنبه أبو مسلم لهذا الخطأ فی التأويل، و حاول أن يتدارک أمره بالتوبة، و إرجاع الأمر لآل علی، فراسل الإمام الصادق-كما ذكره غير واحد-بأن يدعو له، و يرجع الأمر إليه، و لكن الإمام رفض طلبه للأمور التی مر بيانها، فكان ذلک أعظم شیء علی المنصور و قامت قيامته حتی استطاع أن يعجل علی أبی مسلم قبل اتساع الخرق، و انتشار الأمر. و هذا هو السبب الوحيد فی قتله بتلک الصورة كما قتل من قبله أبو سلمة الخلال المعروف بوزير آل محمد لأنه حاول إرجاع الأمر لآل علی فقتله السفاح غيلة. و جاء المنصور من بعده و هو اليقظ الذی أعطته المشاكل درسا، فكان قوی السطوة عظيم البطش، يخشی زوال ملكه، و تتصور أمامه أيام محنته و كده و نكده، يوم كان خائفا متخفيا يسعی فی الأرض لإثارة الشعور، و تحريک عواطف الأمة بما نال أهل البيت من الجور الأموی، فسفكوا دماءهم و لم يراعوا بهم حرمة الدين و قرابة النسب من رسول اللّه صلّی اللّه عليه و آله و سلم، و كان يتوجع لمصائب الأمة و محنها فی عهدهم. فلما نال غرضه و ما يقصده من وراء ذلک فكان مثالا للظلم و العدوان، و فتح

1- 1) تاريخ بغداد ج 10 ص 208. [1]

2- 2) البداية و النهاية ج 10 ص 14. [2]

على الأمة أبواب الجور، و أطلق عليهم عقال الفتنة و خالف بأعماله أقواله حتى انتشر الجور فى عهده، و قد أسرف فى إراقة الدماء حتى قال له عمه عبد الصمد: لقد لججت فى العقوبة حتى كأنك لم تسمع بالعفو. فقال المنصور: لأن بنى مروان لم تبل رممهم، و آل أبى طالب لم تغمد سيوفهم، و نحن بين قوم قد رأونا بالأمس سوقة فكيف تتمهد هيبتنا فى صدورهم إلا بنسيان العفو. فهو يحاول تركيز دعائم ملكه بتلك القسوة الهائلة من جهة، و بالتظاهر بالتدين من جهة أخرى، ليدفع عن نفسه خطر المؤاخذات، و قد كثرت عليه لإسرافه فى القتل و سوء معاملته لأهل البيت حتى قال أكثر الناس: ما على هذا بايعنا آل محمد أن نسفك الدماء التى حرمها اللّه. و أنكر جماعة من القواد سياسة المنصور و قسوته فأظهروا الدعوة لآل على عليه السّلام فحاربهم عبد الجبار بن عبد الرحمن الأزدى عامل خراسان سنة 140 ه- فقتلهم و حبس منهم آخرين (1)و عظم الأمر على الأمة و سار العمال فى العسف و الجور كما كان فى العهد الأموى. و قال عمرو بن عبيد للمنصور: «إنه ما عمل وراء بابك بشىء من كتاب اللّه و لا سنة نبيه. قال المنصور: فما أصنع؟ قد قلت لك: خاتمى بيدك فتعال و أصحابك فاكفنى، قال عمرو: ادعنا بعدلك تسخ أنفسنا بعونك، إن ببابك ألف مظلمة اردد منها شيئا نعلم أنك صادق» (2). و على أى حال فإن الإمام مالك قد عاصر من خلفاء العباسيين: السفاح و المنصور، و المهدى، و موسى الهادى، و هرون الرشيد. و قد طلع نجمه فى عهد المنصور، و كان ذلك العصر الذى عاش فيه مالك هو من أزهر العصور، و لكن لم يجد الناس فيه ما كانوا يأملونه من الأمن و الاستقرار و العدل و المساواة، بل كانت هناك أثرة و استبداد و تحكم فى مقدرات الأمة و كبت للحريات.

الخراج فى عهد مالك:

أما مسألة الخراج التى عظم أمرها فى العهد الأموى، و انتقد العباسيون سياسة

1- 1) ابن كثير ج 10 ص 75. [1]

2- 2) عيون الأخبار 2-337. [2]

الأـمويين فيهـا و وعـدوا النـاس خيرا، و قطعوا على أنفسـهم عهودا فى تخفيفها، و العمل فيها بما أمر اللّه و رسوله، فكانت نتيجـة الأمر أن يتضاعف البلاء و يكون الحال فيها أعظم مما كان فى العهـد الأموى، حتى التجأ بعضـهم إلى الاحتماء باسم رجال الدولـة كالوزير مقابل ذلک مقدار من المال فى السنة. يقول الجهشيارى: إن من أهل الخراج من يلجئ أرضه و ضياعه إلى خاصة الملک و بطانته لأحد أمرين: إما للامتناع من جور العمال و ظلم الولاة و إما لـدفع ما يلزمهم من الحق و الكسـر له. و يعطى الجهشـيارى مثلا لـذلک بقوله: جاء رجل من أهل الأهواز إلى أبى أيوب الموريانى و هو وزير المنصور فقال له: إن ضـيعتى بالأهواز قد حمل علىّ فيها العمال، فإن رأى الوزير أن يعيرنى اسمه أجعله عليها، و أحمل له كل سنة مائة ألف درهم. فقال له: «قد وهبت لک اسمى فافعل ما بدا لک» . و فى العام التالى أحضر الرجل المال و دخل على أبى أيوب و أعلمه أنه قد انتفع باسـمه، و أنه قد حمل المال فسـر أبو أيوب كثيرا (1). و كان أبو أيوب عبدا للمنصور اشتراه صبيا قبل الخلافـة، و قلده الوزارة فى خلافته، ثم غضب عليه فقتله سـنة 153 ه-و استصـفى أمواله، و قلد الوزارة من بعده للربيع بن يونس مولى آل عثمان بن عفان، و لم يزال وزيرا إلى أن مات المنصور (2). و ليس فى وسعنا أن نتوسع فى قضية الخراج و تلاعب الجباة فى ذلک و ما نال أهل الخراج من الشـدة و التعـذيب، بالسـباع و الزنابير و السـنانير (3)و ذلک فى عهد المهدى العباسـى. و اشـتد الأمر كلما امتد الزمن بالدولة العباسية، فقد كان عمال الخراج يستعملون وسائل الشدة و أنواع التعذيب، كما وصفوا بأنهم: عتاة ليس فى قلوبهم رحمة و لا إيمان، شر من الأفاعى يضربون الناس و يحبسونهم، و يعلقون الرجل البدين من ذراع واحد حتى يموت.

1- 1) الوزراء و الكتّاب ص 83. [1]

2- 2) أبو أيوب اسمه سليمان الموريانى من قرية موريان من قرى الأهواز.

3- 3) الجهشيارى ص 103. [2]

و من أظرف ما جرى فی عهد الوزیر ابن الفرات قصة ملخصـها: أنه أراد إجراء الحساب مع محمد بن جعفر بن الحجاج سنة 296 ه-فطلب رجلا لا یؤمن باللّه و الیوم الآخر، فانتدب له رجل یکنی بأبی منصور فأحضـر ابن الحجاج بین یدیه و شـتمه أبو منصور و افتری علیه، ثم أمر بتجریـده و إیقـاع المکروه به. و ابن الحجاج یقول: یکفی اللّه، ثم أمر أبو منصور بنصب دقل و جعل فی رأسه بکرة فیها حبل، و أمر برفع ابن الحجـاج إلی أعلی الـدقل و هو یسـتغیب و یقول: یکفی اللّه، فما زال معلقا و أبو منصور یقول: المال المال. و هو غضـبان حتی اختلط من شدة الغضب، و قال لمن یمسک الحبال: أرسـلوا ابن الفاعلة و هو یری أنهم یتوقفون، و هو یحاول بذلک تهدیده فأرسلوا ابن الحجاج و کان بدینا فسـقط علی عنق أبی المنصور، فدقها و خرّ علی وجهه و سـقط ابن الحجاج مغشیا علیه، فحمل أبو منصور إلی منزله فی محمل فمات فی الطریـق، ورد ابن الحجـاج إلی محبسه و قـد تخلص من التلف (1). و کان أحـد عمالهم یشـتد فی المطالبة بالأموال، فکان یضع علی بطون الناس أطسات الجمر، و منهم من یستعمل الدبابیس یضربون بها رءوس أهل الخراج، إلی غیر ذلک من أعمال القسوة و الشدة مما لم یکن أکثره فی العهد الأموی. هذه نظرة موجزة لسـیاسة العباسـیین و سیرتهم التی ساروا فیها بالرعیة، و هی امتداد لسیرة الأمویین بل فیها ما هو أشـد من ذلک. و الغرض أن الأمـة لم تحقق أمانیها فی ظل الدولـة العباسـیة، و قد أنکر الناس سوء المعاملة، و کانت ظلمة السـجن قد حجبت شـعاع الحریة، و لغة السیف أخرست المتظلم، و قد وقف أهل البیت و أتباعهم موقف الحزم و البطولة، و لم یتنازلوا عن المعارضة و شدة الإنکار، فکانت معاملة بنی العباس لهم و لأنصارهم بقسوة و سیاسـتهم متجردة عن معانی الرحمة، و راقبوهم أشد المراقبة و ضـیقوا علیهم سـعة الـدنیا لیحملوهم علی التنازل عن مبادئهم. فکان نصـیب بنی العباس و أعوانهم التمتع بمسـرات الحیاة و لذائـذ الدنیا و جمع الأموال و نشر السلطان، و إزهاق النفوس و حصد الرقاب.

1- 1) الحضارة الإسلامیة ص 326.

و كان نصيب أهل البيت و أنصارهم ألم الحديد، و ثقل القيود، و ظلمة السجون، و التحلى بابراد الشهادة و هى مطرزة بدمائهم الزكية.

رسالة مالک:

و لا نحتاج إلى أكثر من هذا البيان لذلک العصر و ما فيه من تبدل و تطور. هذا و لم يؤثر عن مالک بن أنس معارضة للوضع، و لا دعوة إلى إصلاحه. نعم هناک رسالة تنسب إلى الإمام مالک تحتوى على جملة من المواعظ و السنن، يقال: أرسلها مالک إلى الرشيد أو إلى يحيى البرمكى، فلما وصلت أمر الرشيد بكتابتها بالذهب (1). و قد ذكرها القاضى عياض فى ضمن ما ذكره من كتب مالک، و أول من حدث عنها بالأندلس ابن حبيب. و ينحصر سند هذه الرسالة بأبى بكر بن عبد العزيز بن عبد اللّه بن عمر بن الخطاب عن مالک بن أنس، أنه كتب بهذه الرسالة إلى يحيى البرمكى، و مرة أخرى إلى هرون الرشيد، فالذى عن أبى بكر مختلف فى من وجهت إليه. فمرة إلى خالد و مرة إلى هرون، و قد حاولوا الجمع لذلک بتكرارها و أنها وجهت لكل منهما، و هو أمر غير مستساغ من فحوى الرسالة، و بالإعراض عن مناقشة السند، فقد أراحنا كثير من علماء المالكية عن فحصه و نقاشه منهم: القاضى إسماعيل المالكى، و الأبهرى، و أبو محمد بن أبى زيد، فقد قالوا: إنها لا تصح و أن طريقها إلى مالک ضعيف، و فيها أحاديث لا نعرفها. و قال الأبهرى: فيها أحاديث لو سمع مالک من يحدث بها لأدبه، و أحاديث منكرة تخالف أصوله، و قالوا فيها أشياء أخرى لا تعرف من مذهب مالک، و قد أنكرها أصبغ بن الفرج أيضا، و حلف ما هى من وضع مالک. و الحقيقة أن الرسالة موضوعة، لأنها خالية عما يخص العدل و الالتزام به و ترک الظلم اللذين هما أخص ما يخاطب به الملوک إلا قليلا، بل الرسالة تذكر المستحبات

1- 1) طبعت هذه الرسالة فى مصر مستقلة فى المطبعة الأميرية سنة 1311 ه-و طبعت بالمطبعة المحمودية سنة 1343 ه-و طبعت فى خاتمة كتاب سعد الشموس و هى لا تتجاوز 28 صفحة.

كقوله فی الصفحة الرابعة: و صلّ من النهار اثنی عشر ركعة و اقرأ فيهن ما أحببت إن شئت صلهن جميعا و إن شئت متفرقات، و قوله: وصم ثلاثة أيام من كل شهر، و يتعرض للغسل فی الحمام و سائر المستحبات، و قوله فی الصفحة السابعة: أقلل طلب الحوائج من الناس فإن فی ذلک غضاضة، و بلغنی عن النبی أنه قال لرجل: لا تسأل الناس. و مثل هذا كيف يخاطب به الملوک؟ و يقول: لتكن يدک العليا علی كل من خالطت، فإنه بلغنی عن النبی صلّی اللّه عليه و آله و سلّم أنه قال: اليد العليا خير من اليد السفلی. ثم يتعرض إلی سنن الأكل و الشرب و استحباب الجلوس فی المسجد، إلی غير ذلک من الأمور التی تدل بكل وضوح علی أن الرسالة منتحلة و لا أصل لها، و يقرأها الوعاظ و المرشدون. و مهما يكن من أمر فإن عصر مالک اشتد فيه الوضع المؤلم و الجور علی الرعية و لم يرد عن مالک-مع عظمته و نفوذ سلطته- ما يدل علی إنكاره لتلک الأوضاع. و كان العباسيون يعتمدون علی ما يفتی به مالک، حتی حملوا الناس علی الأخذ بأقواله و مناديهم ينادی: ألاّ يفتی إلا مالک. و لما قدم إبراهيم بن سعد الزهری العراق سنة 184 ه-فأكرمه الرشيد و أظهر بره. و قال له الرشيد: من كان من فقهائكم يكره السماع؟ قال: من ربطه اللّه. قال: فهل بلغک عن مالک بن أنس فی هذا شیء؟ قال: لا و اللّه إلا أن أبی أخبرنی أنهم اجتمعوا فی مدعاة كانت فی بنی يربوع، و هم يومئذ جلة و مالک أقلهم فی فقهه و قدره، و معهم دفوف و معازف و عيدان يغنون و يلعبون، و مع مالک دف مربع و هو يغنيهم: سليما أجمعت بينا فأين لقاؤها أينا

و قد قالت لأتراب لها زهر تلاقينا

تعالين فقد طاب ل- -نا العيش تعالينا

(1)و كان المنصور يعظمه و يوجه الأنظار إليه، و يعلن بأن مالكا هو أعلم الناس، كما أن مالكا يعلن بأن المنصور أعلم الناس بالكتاب و السنة.

1- 1) تاريخ بغداد ج 6 ص 84. [1]

و كذلک المهدی، و الهادی، و الرشید لحظوه بالعنایة و التقدیر، فتوجهت إلیه أنظار الناس، و ازدحموا علی بابه، و انتشرت أقواله فی الحجاز و کثر المنتمون لمدرسته، و استماع الموطأ منه، و لهذا اختلفت روایات الموطأ لکثرة رواته. و قد حمل مذهب مالک فی الحجاز فأظهره القاضی إبراهیم المعروف بابن فرحون (1). کما أن مذهب مالک دخل الأندلس بواسطة زیاد بن عبد الرحمن المتوفی سنة 193 ه-و تولی الأمویون نشره هناک، و تزلف الناس إلیهم بقبوله و کان قاضی القضاة یحیی بن یحیی لا یولی قاضیا إلا من کان ینتمی للمذهب المالکی کما کان أبو یوسف بالعراق بالنسبة لمذهب أبی حنیفة. و قد أشرنا من قبل لعوامل انتشار المذاهب أن القضاة هم الذین یتولون نصرة المذهب و انتشاره. و الخلاصة: أن الإمام مالک بن أنس قد ارتفع شأنه و علت منزلته عند ما اتجهت إلیه الدولة بالعنایة بعد محنته و تعذیبه و طلبوا وضع کتاب تقرره الدولة و یحملون الناس علیه بالسیف (2)و هو کتاب الموطأ الذی سنتکلم عنه الآن تحت عنوان (تدوین العلم) لنری هل أن مالکا هو أسبق من دوّن فی العلم أم غیره؟ و ما هو نصیب الشیعة فی تدوین العلم؟ و ما هو أثرهم فی نشاط الحرکة العلمیة؟ و لا بد لنا قبل الشروع فی ذلک من القول: بأننا قد ترکنا التعرض لآراء مالک و أقواله، فإن له آراء فی السیاسة و أقوال فی أمور مختلفة لأن ذلک یستدعی الإطالة فی القول و التوسع فی البحث. و لکننا سنتکلم حول رأیه فی التفضیل فإن له رأیا یکاد ینفرد به عن علماء الإسلام، و ذلک أنه یذهب إلی تفضیل أبی بکر ثم عمر ثم عثمان، و یسکت، و یقول: هنا یتساوی الناس و هذا أمر غریب و سنبحث هذه المسألة قریبا تحت عنوان مشکلة التفضیل. و من اللّه التوفیق و السداد.

1- 1) نیل الابتهاج بهامش الدیباج المذهب ص 24.

2- 2) الدیباج المذهب لابن فرحون ص 25.

تدوين العلم

أول من دون العلم:

هـذا تمهيـد لأبحاث تأتى فيما بعد حول علم الحديث و سائر العلوم، فإن لعلم الحديث أهمية كبرى، فهو المدار لتفصـيل الأحكام و تبيين الحلالـل من الحرام، و قـد اعتنى رجـال الأمـة فى معرفـة الأحـاديث النبويـة، و سـنتعرض لبيان أقسامه و صـفات رواته بما له تمام الصـلة بموضوعنـا، و الكلاـم هنا يقع حول أمرين: 1-فى أى عصـر ظهر التـدوين، هـل هو فى الصـدر الأول، أم فى العهـد الأموى، أم فى العهد العباسى؟ 2-فى تعيين أول من دون فى الإسلام. اختلفت أقوال المؤرخين فى ذلک، فمن قائل: إن التدوين ظهر فى عهد الصحابة، و منهم من يقول: إنه فى آخر العهد الأموى و أن عمر بن عبد العزيز المتوفى سنة 101 ه-أمر بجمع السنن فكتب دفاتر فبعث بها إلى كل بلد، أو أنه أمر ابن شـهاب الزهرى بالتدوين، إلى غير ذلک من الاختلاف فى الأقوال. و ها نحن ذا ندرس الموضوع لنقف على حقيقة الأمر و الواقع، و لا مشاحة فإن حركة التأليف كانت فى العصـر العباسى قوية و النزعة إلى ذلک شديدة، لتشجيعهم الحركة العلمية، و انتعاش العلوم فى ظل سلطانهم، لأنهم يحاولون أن يصـبغوا الدولة صـبغة دينية و جعل أمورها على منهاج شـرعى كما اقتضت سياستهم لذلک، و قد مر بيانه. و هنا لا بـد لنا أن نتعرض للأقوال فى تـدوين العلم لاسـتكشاف الحقائق و معرفـة السابق إلى التدوين فى الإسـلام. قال السـيوطى فى شـرح الموطأ: أخرج الهروى فى ذم الكلام من طريق

الزهری: أن عمر بن الخطاب أراد أن یکتب السنن و استشار فیه أصحاب رسول اللّه. فأشار علیه عامتهم فی ذلک، فلبث شهرا یستخیر اللّه فی ذلک شاکا فیه، ثم أصبح یوما و قد عزم اللّه له فقال: إنی ذکرت لکم من کتابة السنن ما قد علمتم، ثم تذکرت فإذا أناس من أهل الکتاب من قبلکم کتبوا مع کتاب اللّه کتبا، فأکبوا علیها و ترکوا کتاب اللّه، و إنی و اللّه لا ألبس کتاب اللّه بشیء. فترک کتابة السنن (1). و کان کثیر من الصحابة و التابعین یکره کتابة العلم و تخلیده فی الصحف کعمر، و ابن عباس، و الشعبی، و قتادة و من ذهب مذهبهم. قال ابن عبد البر فی جامع بیان العلم: «من کره کتابة العلم إنما کرهه لوجهین: أحدهما أن یتخذ مع القرآن کتاب یضاهی به، و لئلا یتکل الکاتب علی ما یکتب، فلا یحفظ فیقل الحفظ» . و هذا هو رأی عمر و ما أدی إلیه اجتهاده فی ذلک. و قال ابن عبد البر أیضا: کان اعتماد الصحابة أولا علی الحفظ و الضبط فی القلوب غیر ملتفتین إلی التدوین، فلما انتشر الإسلام و تفرقت الصحابة و مات معظمهم مست الحاجة إلی تدوین الحدیث و تقییده بالکتابة (2). و بهذا یظهر أن التدوین عندهم متأخر عن الصدر الأول، کما مر من رأی عمر فی ذلک، و یذهب الغزالی إلی أن حدوث التدوین کان فی سنة 120 ه-و بعضهم یری أنه قبل ذلک فی عهد عمر بن عبد العزیز. جاء فی الموطأ أن عمر بن عبد العزیز کتب إلی أبی بکر بن محمد بن عمر بن حزم: أن انظر ما کان من حدیث رسول اللّه أو سنته فاکتبه، فإنی خفت دروس العلم و ذهاب العلماء، و أوصاه أن یکتب له ما عند عمرة بنت عبد الرحمن الأنصاریة و القاسم بن محمد بن أبی بکر. و أخرج أبو نعیم فی تاریخ أصفهان عن عمر بن عبد العزیز أنه کتب إلی الآفاق: «انظروا إلی حدیث رسول اللّه فاجمعوه» . و أبو بکر بن محمد بن عمر هذا کان أنصاریا مدنیا، ولی القضاء علی المدینة لسلیمان بن عبد الملک و لعمر بن عبد العزیز، و توفی سنة 120 ه-، و کانت ولایة

1- 1) تنویر الحوالک شرح موطأ مالک ص 35.

2- 2) جامع بیان العلم ج 2 ص 34.

عمر بن عبد العزيز سنة 99 ه-إلى سنة 101 ه-، فعلى هذه الرواية قد يكون أمر أبو بكر بالجمع حوالى سنة 100 ه-. يقول الدكتور أحمد أمين: و لكن هل نفذ هذا الأمر؟ كل ما نعلمه أنه لم تصل إلينا هذه المجموعة و لم يشر إليها-فيما نعلم-جامعو الحديث بعد. و من أجل هذا شك بعض الباحثين من المستشرقين فى هذا الخبر، إذ لو جمع شيء من هذا القبيل لكان من أهم المراجع لجامعى الحديث، و لكن لا داعى إلى هذا الشك فالخبر يروى لنا أن عمر أمر. و لم يرو لنا أن الجمع تم. فلعلّ موت عمر سريعا عدل بأبى بكر عن أن ينفذ ما أمر به (1)فلما جاء العصر العباسى و انتصف القرن الثانى بدأ التأليف فى الحديث، كما بدأ فى العلوم الأخرى، و وجدت هذه النزعة إلى تدوين الحديث فى أمصار مختلفة و فى عصور متقاربة، ففى مكة جمع الحديث ابن جريح المتوفى سنة 150 ه-(الرومى الأصل) و لم يوثقه البخارى، و قال: «إنه لا يتابع فى حديثه» و فى المدينة محمد بن إسحاق المتوفى سنة 151 ه-و مالک بن أنس المتوفى سنة 179 ه-، و بالبصرة الربيع بن صبيح المتوفى سنة 160 ه-، و سعيد بن أبى عروبة المتوفى سنة 156 ه-، و حماد بن سلمة المتوفى سنة 176 ه-، و بالكوفة سفيان الثورى المتوفى 161 ه-، و بالشام الأوزاعى المتوفى سنة 156 ه-، و باليمن معمر المتوفى سنة 153 ه-، و بخراسان ابن المبارک المتوفى سنة 181 ه-، و بمصر الليث بن سعد المتوفى سنة 175 ه-. قال فى كشف الظنون: و اعلم أنه اختلف فى أول من صنف فى الإسلام فقيل الإمام عبد العزيز بن جريح البصرى المتوفى سنة 155 ه-، و قيل أبو النضر سعيد بن عروبة المتوفى سنة 156 ه-، ذكرهما الخطيب البغدادى. و قيل ربيع بن صبيح المتوفى سنة 160 ه-ثم صنف سفيان بن عيينة المتوفى سنة 198 ه-و مالک بن أنس بالمدينة، و عبد اللّه بن وهب المتوفى سنة 198 ه-بمصر، و عبد الرزاق باليمن، و محمد بن فضيل بن غزوان بالكوفة، و حماد بن سلمة و روح بن عباد بالبصرة، و هيثم المتوفى سنة 183 ه-بواسط، و عبد اللّه بن المبارک المتوفى سنة 182 ه- بخراسان. قال الغزالى فى الاحياء: بل الكتب و التصانيف محدثة لم يكن شيء منها فى

1- 1) ضحى الإسلام ج 3 ص 606-607.

زمن الصحابة و صدر التابعين، و إنما حدثت بعد سنة 120 ه-من الهجرة و بعد وفاة جميع الصحابة و جل التابعين، و بعد وفاة سعيد بن المسيب و الحسن و خيار التابعين، بل كان الأولون يكرهون كتب الأحاديث و تصنيف الكتب لئلا يشتغل الناس بها عن الحفظ و عن القرآن و عن التدبر و التذكر و قالوا: احفظوا كما كنا نحفظ. . . و كان أحمد بن حنبل ينكر على مالک تصنيف الموطأ، و يقول: ابتدع ما لم تفعله الصحابة، و قيل أول كتاب صنف فى الإسلام كتاب ابن جريج فى الآثار و حروف التفاسير عن مجاهد و عطاء و أصحاب ابن عباس بمكة، ثم كتاب معمر بن راشد الصنعانى المتوفى سنة 154 ه-باليمن جمع فيه سننا مأثورة نبوية، ثم كتاب الموطأ بالمدينة لمالک، ثم جامع سفيان الثورى، ثم فى القرن الرابع حدثت مصنفات فى الكلام، و كثر الخوض فى الجدال، و الخوض فى إبطال المقالات (1). و قال ابن عبد البر عن عبد العزيز الداروردى قال: أول من دون العلم و كتبه ابن شهاب. و عن عبد الرحمن بن أبى الزناد عن أبيه قال: كنا نكتب الحلال و الحرام. و كان ابن شهاب يكتب كل ما سمع. و قال السيوطى: أول القضاة بمصر سجل سجلا بقضائه سليم بن عز: قضى فى ميراث و أشهد فيه، و كتب كتابا بالقضاء و أشهد فيه شيوخ الجند، فكان أول القضاة تسجيلا، و كانت ولايته من سنة 40 ه-إلى موت معاوية، فترى من هذا أن الجمع بدأ فى أوائل النصف الثانى من القرن الثانى-غالبا-و أن الفكرة فشت فى الأمصار المختلفة، و من الصعب تحديد أى مصر كان له السبق، إلا إذا اعتبرنا أن ابن جريج فى مكة كان أسبق هؤلاء العلماء موتا، فيكون أسبقهم تأليفا، و ربما قلد فى ذلک، و عمت الفكرة فى الأمصار من طريق الحج، فالعلماء الذين رحلوا إلى مكة أخذوا فكرة جمع الحديث منها أثناء حجهم، و نشروها فى بلادهم، و جمعوا ما فى مصرهم من الحديث، كما جمع ابن جريج أحاديث مصره.

الشيعة و التدوين:

هذا ملخص ما فى الباب من الاختلاف و كثرة الأقوال. و من المؤسف له أن

1- 1) الأحياء ج 2 ص 143-144. [1]

أكثرهم أهمل ناحية سبق أهل البيت و أتباعهم إلى التدوين فى جميع العلوم الإسلامية. و لا يستغرب هذا فالظروف قد اقتضت ذلک، نظرا لسياسة الوقت، فعدم تعرضهم لذلک لا لجهة العدم، و إنما هى أمور لا تخفى على المتتبع. و الحق الذى لا غبار عليه: أن أهل بيت النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هم الحائزون على قصب السبق، و قد وجهوا عنايتهم التامة فى تدوين العلوم، و احتفظ تلامذتهم و المختصون بهم بذلک. فسجلوا ما تلقوا عنهم، و حفظوا ما أخذوه منهم. يقول العلامة مصطفى عبد الرازق عند ذكره لأول من دون الفقه: و على كل حال فإن ذلک لا يخلو من دلالة على أن النزوع إلى تدوين الفقه كان أسرع إلى الشيعة، لأن اعتقادهم العصمة فى أئمتهم أو ما يشبه العصمة كان حريا أن يسوقهم إلى الحث على تدوين أقضيتهم و فتاواهم (1). و إن أسبق كتاب فى الفقه هو كتاب قضاء الإمام على بن أبى طالب الذى كان عند ابن عباس منه نسخة يعتمد عليها.

أهل البيت أول من دون العلم:

رأينا كيف اختلفت الأقوال فى تعيين السابق إلى تدوين العلم فى الإسلام و المحاولة التى تقضى بظاهرها صرف الحق فى ذلک عن أهله، كغيرها من المحاولات التى اتخذت ضدهم من قبل المناوئين لهم، و خصومهم الذين كان يزعجهم ذكر آل محمد بخير، لأن ذلک يدخل على خصومهم القلق، و عدم الاستقرار و التنعم فى ملاذ الحياة. و لكن أكثر المسلمين احتفظوا بالولاء لهم رغم كل محاولة. و إن لأهل البيت قدما راسخا فى العلم، و آثارا خالدة فى الإسلام. و فى الواقع أن أول من دوّن العلم هو سيد الأوصياء و إمام البلغاء على بن أبى طالب عليه السّلام، و إن أسبق كتاب فى الفقه هو كتاب الإمام على عليه السّلام و أحكامه، فقد كانت عند ابن عباس منه نسخة ينظر فيها لأخذ أهم القضايا فى القضاء عنه و كان عند الإمام الباقر عليه السّلام نسخة من كتاب على عليه السّلام بخطه يرجع إليه و توارثه أولاده و أحفاده كما أن عندهم صحف بمختلف الفنون و العلوم يتوارثونها عنه واحدا بعد واحد. و دوّن

1- 1) تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ص 202.

تلاميذه فى عصره ما سمعوه منه و تلقوه عنه من الأحكام فى الدين. كعبد اللّه بن أبى رافع، و الأصبغ بن نباتة، و غيرهم الذين يأتى ذكرهم.

عهد الإمام علىّ لمالک الأشتر:

إن أعظم أثر خالـد دوّنه الإمام على بن أبى طالب هو عهـده لمالک الأشتر الـذى يحتوى على أهم القواعد و الأصول التى تتعلق بالقضاء و القضاة، و إدارة الحكم فى الإسـلام، و قرر فيه قواعد مهمة فى التضامن الاجتماعى، بل التعاون الإنسانى فى إقامة العدل، و حسن الإدارة، و السـياسة و بيان صـلاح الهيئة الاجتماعية، و تنظيم الجيش، و بيان الخراج و أهميته، و كيف يجب أن تكون المعاملة فيه، و النظر فى عمارة الأرض و ما يتعلق بـذلک من أصول العمران، و ما فيه صـلاح البلاد و منابع ثروته، و ما للتجارة و الصـناعة من الأثر فى حياة الأمة إلى غير ذلک من القواعد الهامة التى تهدف إلى أسـمى هدف فى العدل الإسـلامى، و هو لا يعد فى عداد الرسائل أو العهود القصـيرة الموجزة، بل هو يعتبر فى الواقع كتابا مسـتقلا له أهميته فى التشريع الإسلامى، حتى أصبح موضع العناية من رجال الفكر، و أعطوه كبير العناية بالشرح و الإفاضـة و اعتنى به علماء القانون و ساسـة الأمم، فهو أثر خالد و مفخرة الإسـلام على ممر الدهور، إذا فليس من الصـحيح إهماله و جعله جزءا من كتاب، بل هو كتاب برأسه، و قانون للتشـريع الإدارى بـذاته. و لهـذا العهد شـروح عديدة، منها: 1-شرح العلامة المصلح مفتى الديار المصـرية الشـيخ محمد عبده المتوفى سنة 1323 ه-الموسوم «مقتبس السـياسة» المطبوع سـنة 1317 ه-. 2-شرح السيد الماجد البحرانى، و سـماه «التحفة السـليمانية» شرحه فى ستين فصلا، طبع فى طهران. 3-شـرح المولى محمد صالح الروغنى القزوينى من علماء القرن الحادى عشـر. 4-شـرح المولى محمد باقر، و قد يظن أنه المجلسـى المتوفى سـنة 1111 ه-. 5-شـرح سلطان محمد المتوفى سنة 1354 ه-الموسوم أساس السياسة فى تأسيس الرئاسة. 6-شرح العلامة الهادى البرجندى المطبوع سنة 1355 ه-.

7-شرح الحسين الهمدانى الموسوم «هدية الحسام لهداية الحكام» . 8-ترجمة الفاضل محمد جمال الدين لهذا العهد الشريف إلى اللغة التركية منظوما نظما لطيفا. 9-شرح العلامة الشيخ عبد الواحد المظفر، أسماء (السياسة العلوية) مخطوط يقع فى ثلاثة أجزاء. 10-و شرحه شراح نهج البلاغة بشروح وافية، كابن أبى الحديد، و الشيخ ميثم، و غيرهما من العلماء الأعلام، و يزيد عدد شروح نهج البلاغة على المائة شرح باللغة العربية و غيرها. 11-شرح القانونى الكبير الأستاذ توفيق الفكيكى الموسوم ب- «الراعى و الرعية» و هو شرح يمتاز عن غيره بكثير من النواحى، أهمها تطبيقه تلك القواعد على نظم العصر الحاضر من القوانين الحديثة. و قد طبع فى النجف سنة 1358 ه-و يقع فى مجلدين. كما أن لهذا العهد شروحا كثيرة لا يمكن الإحاطة بها، ذكرها شيخنا الحجة الشيخ محسن الطهرانى فى كتابه «الذريعة» . فكتاب عهد الإمام على بن أبى طالب هو المثل الأعلى للحكم فى الإسلام لما فيه من أهم القواعد السياسية، و الإدارية، و القضائية، و المالية، و النظريات الدستورية، التى تتضمن السعادة لما فيها من نظام عادل. فجدير إذا اعتنى به علماء الأمة، و رجال الحكم، و أرباب السياسة و التشريع و القضاء و أعطوه أهمية كبرى و عناية عظيمة. و سار أولاده و أحفاده فى تشجيع حركة التدوين، و احتفظ التاريخ بكثير من تلك الآثار الخالدة.

رسالة الحقوق للإمام زين العابدين:

و يجب أن لا يغيب عن بالنا ما لرسالة الحقوق التى كتبها الإمام زين العابدين عليه السّلام، فهى فى الواقع من أعظم الكتب التى دونت فى القرن الأول، و هى تحتوى على خمسين فصلا فى بيان أهم الحقوق التى يلزم الإنسان القيام بها، لما فى

ذلک من صلاح الهیئة الاجتماعیة فی سیاسة الإنسان نفسه، و سیرته مع أبناء جنسه، و ما یلزم علی الحکام فی سیرتهم مع الرعیة، و ما یجب علی الرعیـة للحکام، و ما یجب علی العبد من العبودیة للّه و شـکره، و القیام بما یجب علیه إلی غیر ذلک من بیان أهم الحقوق و الواجبات کحق الصـلاة و حق السـلطان، و حق الرعیـة، و حق الرحم، و حق الوالـد، و حق الولد، و حق الجلیس و الصاحب، و حق الخصم، و حق الغریب. . . إلی آخر فصولها القیمة. و هی کبیرة. و قد طبعت فی طهران فی ضـمن کتاب تحف العقول، و شـرحها الخطیب السـید حسـن القبانجی شرحا وافیا فی مجلدین طبعا فی النجف الأشرف.

مسند زید بن علیّ و مدونته الفقهیة:

و لزید بن علی بن الحسین بن أبی طالب علیه السّلام مسند کبیر، جمع فیه الحدیث عن آبائه و أخیه الباقر علیهم السلام، و هو لا یزال محل اعتماد المحـدثین. و نقلوا عنه فی کتب الحـدیث، و یرمزون له ب-(ز) ، و عده فی کتاب مفاتیح کنوز السـنة من الکتب المعتمدة المنقولة عنها، و کذلک لمحمد بن الحنفیة مسـند فی الحدیث، له ذکر مشـهور. و لزید بن علی مدونة فقهیة اکتشـفت بین المخطوطات القدیمة فی المکتبـة الامبروزیـة بمیلانو الخاصة ببلاد العرب الجنوبیة. و هذا المخطوط یعد أقدم مجموعة فی الفقه الإسـلامی. و علی کل حال ینبغی أن یوضع هـذا الکتاب موضع الاعتبار فیما یتعلق بتاریخ التألیف فی الفقه الإسـلامی (1). و لا مشاحة فی أن سـبق أهل البیت إلی تدوین الفقه و سائر العلوم الإسلامیة أمر لا یمکن إنکاره. فقد دونوا العلم و أمروا تلامذتهم فی ذلک، فکانوا یأمرونهم بالکتابة فدونوا ما تلقوه منهم فی سائر العلوم. و لیس من شک أن نزعة التدوین عند الشیعة کانت من عهد الإمام علی علیه السّلام. فهذا علی بن أبی رافع مولی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کان من تلامذة أمیر المؤمنین

1- 1) تمهید لتاریخ الفلسفة الإسلامیة ص 200.

و خواصه، ذكره النجاشى فى الطبقة الأولى من مصنفى الشيعة، و جمع كتابا فى فنون الفقه، تلقى ذلک عن أمير المؤمنين عليه السّلام و كانوا يعظمون هذا الكتاب. و له كتاب السنن و الأحكام. و أبو سليمان زيد الجهنى الذى شهد حروب الإمام على عليه السّلام و ألف كتاب الخطب فى عصر أمير المؤمنين عليه السّلام. و عبيد اللّه بن أبى رافع كاتب أمير المؤمنين عليه السّلام له كتاب قضايا أمير المؤمنين عليه السّلام يرويه الشيخ الطوسى، و له كتاب تسمية من شهد مع أمير المؤمنين عليه السّلام الجمل و صفين و النهروان، و هو أول مصنف فى الرجال ذكره الشيخ محسن الطهرانى فى مصفى المقال فى علم الرجال. و سليم بن قيس من أصحاب أمير المؤمنين عليه السّلام له كتاب يرويه عنه أبان بن عياش، و سيأتى الحديث حول هذا الكتاب. و غير هؤلاء من أصحاب أمير المؤمنين ممن سبقوا إلى التدوين، و لما نشطت الحركة العلمية فى عهد الإمام الباقر و ولده الإمام الصادق، كثر تدوين الفقه و الحديث و سائر العلوم عنهم، و اتجه تلامذتهما إلى التأليف، و لا بد من الإشارة إلى ذلک بموجز من البيان.

عصر الإمام الباقر:

كان لانتعاش العلم فى ذلک العصر أثر فى اتجاه الناس إلى الأخذ عن أهل البيت، و قد مرت الإشارة إلى اتساع مدرسة الإمام الباقر، فكان عليه السّلام قد وحّد جهوده إلى نشر العلم، فاتجهت إليه طلاب الحقيقة، لأنه خير رائد و أعظم مرشد. و هو أول من أسس علم الأصول و فتح بابه و فتق مسائله، و من بعده ولده الإمام الصادق عليه السّلام، و قد أمليا على أصحابهما قواعده و جمعوا من ذلک مسائل دونها المتأخرون حسب ترتيب المصنفين فيه برواية مسندة إليهما من دون دخل لآرائهم فيها، و لا وضع قول إلى جنب قولهما، و تلک الكتب موجودة إلى هذا الوقت. فالإمام الباقر عليه السّلام هو واضع علم الأصول و فاتح بابه. و أول من صنف فيه هو هشام بن الحكم: صنف كتاب الألفاظ و مباحثها، و هو أهم مباحث علم الأصول، ثم من بعده يونس بن عبد الرحمن مولى آل يقطين صنف كتاب اختلاف

الحديث و مسائله، و هو مبحث تعارض الحديثين و مسائل التعادل و التراجيح، ثم أخذت حركة التأليف فى الأصول من بعدهما بالتوسعة، و اشتهر منهم أئمة أعلام: منهم أبو سهل النوبختى و الحسن بن موسى النوبختى و هما من علماء القرن الثالث، و من بعدهما ابن الجنيد و أبو منصور الصرام، و ابن داود و الشيخ المفيد و السيد المرتضى و غيرهم عدد كثير. فالقول بأن الشافعى هو واضع علم الأصول ظلم للحقيقة و خروج عن حدود الإنصاف، على أن هذا القول لا يؤيده بقية العلماء من سائر المذاهب فللحنفية أصول و للمالكية أصول. نعم لا ينكر أن الشافعى ألف فى الأصول و وسع دائرة بحثه و يعتبر عندهم أول من صنف فيه، و هو متأخر عن مصنفى الشيعة الذين سبقوا للتصنيف فى علم الأصول، و قد ذكر ابن النديم كتاب مباحث الألفاظ فى تعداد مؤلفات هشام بن الحكم. على أنا نجد فى كتاب الفهرست أيضا فى ترجمة محمد بن الحسن الشيبانى صاحب أبى حنيفة ذكر كتاب له يسمى أصول الفقه. و تدعى الحنفية أيضا أن أول من وضع الكتب فى أصول الفقه على مذهب أبى حنيفة هو أبو يوسف (1). و الغرض أن دعوى وضع الشافعى لعلم الأصول غير صحيحة، بل يقول الأكثر: إنه أول من صنف فى أصول الفقه صنف كتاب الرسالة و كتاب أحكام القرآن كما جاء فى البحر المحيط للزركشى. و يقول ابن خلدون: أول من كتب فى علم الأصول الشافعى أملى فيه رسالته المشهورة تكلم فيها فى الأوامر و النواهى و البيان و النسخ و حكم العلة المنصوصة من القياس. و قال فى كشف الظنون: أول من ألف فيه الشافعى، إذا فالشافعى مؤلف واضح، و نحن لا ننكر ذلك. و لكن هشام بن الحكم كان أسبق من الشافعى لأنه ألف مباحث الألفاظ من الأوامر و النواهى و البيان و النسخ، و غير ذلك الذى تلقى معلوماتها عن أستاذه الإمام الصادق عليه السّلام قبل ولادة الشافعى. و كانت وفاة هشام سنة 179 ه- و وفاة الشافعى سنة 204 ه-فرسالة هشام بن الحكم-فى علم الأصول التى ذكرها النجاشى و الكشى و ابن النديم-أقدم من رسالة الشافعى أخذا و تأليفا. و قد وصف

1- 1) مناقب أبى حنيفة للمكى ج 2 ص 245. [1]

الشهرستانی صاحب الملل و النحل هشاما بأنه صاحب غور فی الأصول. و رسالة الشافعی نقضها أبو سهل النوبختی من علماء القرن الثالث، و هو من علماء الشیعة. و إن للإمام الباقر علیه السّلام کتاب فی التفسیر یرویه عنه أبو الجارود و قد مرت الإشارة إلیه. أما تلامذته الذین ألفوا فی عصره فعددهم کثیر: منهم-ثابت بن دینار له کتاب یرویه الشیخ الطوسی بطریق واحد، و له کتاب النوادر و کتاب الزهد، رواهما حمید بن زیاد عن محمد بن عیاش. و أبان بن تغلب و هو من المؤلفین بشتی العلوم، و کان من تلامذة الباقر و الصادق علیه السّلام، ذکره ابن الندیم. و حجر بن زائدة الحضرمی له کتاب فی الحدیث یرویه عنه النجاشی بست وسائط. و سلام بن أبی عمرة الخراسانی له کتاب رواه عنه عبد اللّه بن جبلة و النجاشی بإسناده إلی ابن جبلة عنه، و هو من الکتب الموجودة الباقیة بالهیئة الأصلیة. و کلیب بن معاویة بن جبلة الصیداوی الأسدی له کتاب فی الحدیث یرویه عنه جماعة: منهم عبد الرحمن بن أبی هاشم، و یرویه النجاشی بخمس و سائط عنه. و غیرهم کثیر لا یسع المقام ذکرهم.

عصر الإمام الصادق:

و هو أزهر العصور فی نشاط الحرکة العلمیة و النزوع إلی التدوین. و الإمام الصادق علیه السّلام هو زعیم تلک الحرکة و المعلم الأول فی ذلک العهد، فقد انتمی لمدرسته عظماء الأمة، و رجال العلم و رؤساء المذاهب. و کان بیته کالجامعة یزدان علی الدوام بالعلماء الکبار فی الحدیث و التفسیر و الحکمة و الکلام، فکان یحضر درسه فی أغلب الأوقات ألفان، و فی بعض الأحیان أربعة آلاف من العلماء المشهورین، و قد ألف تلامیذه من جمع الأحادیث و الدروس التی کانوا یتلقونها فی مجلسه مجموعة من الکتب تعد بمثابة دائرة معارف للمذهب الشیعی أو الجعفری، و قد بلغ عددها فی أیام الإمام الحسن العسکری أربعمائة کتابا.

فهشام بن الحكم، و الطاقى، و زرارة، و أبو بصير، و محمد بن مسلم من نوابغ تلاميذ الإمام جعفر الصادق عليه السّلام، و هم فى الحقيقة المرجع الأصلى لفقه المذهب الجعفرى أو مذهب الشيعة و حكمته، و كان خلفاء الإمام جعفر الصادق يعدون موردا فياضا للاستفادة المذهبية و العلمية للشيعة (1). و تسابق أعيان تلامذته إلى تدوين الحديث و المسائل الفقهية، فكان مجموع ما أحصى من التأليف فى عصره أربعمائة مصنف لأربعمائة مصنف. و ذكر الشيخ آغا بزرگ (2)من مصنفى تلامذة الإمام الصادق عليه السّلام فى الحديث فقط أكثر من مائتى رجل مع تراجمهم عدا المؤلفين من سائر أصحاب الأئمة عليهم السّلام و مجموع ما ذكره سبعمائة و تسعة و ثلاثون كتابا، عدا الكتب التى ذكرها بعنوان الأصول. و قال فى خاتمة البحث: «هذا آخر ما ظفرنا به من فهرس كتب قدماء الأصحاب التى لم تسم إلا باسم الكتاب و عبرنا عنها بكتب الحديث لاشتمالها على أحاديثهم التى يروونها عن الأئمة عليهم السّلام قد أودعت تلك الروايات بعين ألفاظها فى المجاميع الأربعة التى ألفها المحمدون الثلاثة القدماء: الكافى، و التهذيب، و الاستبصار و الفقيه، و المحامدة المتأخرة أى: الوافى، و البحار، و الوسائل و مستدركه، و غيرها من المجاميع المخطوطة الموجودة فى خزائن الكتب فى العالم مثل جامع المعارف و الأحكام، و جوامع الكلم، و درر البحار، و الشفاء فى أخبار آل المصطفى، و مستدرک الوافى، و مستدرک البحار، و غير ذلک من الكتب. . .» .

حركة التدوين عند الشيعة:

و خلاصة القول أن أهل بيت الرسول عليهم السّلام هم أسبق الناس إلى التدوين و تشجيع الحركة العلمية، فهم أهل الفضل فى كل علم، حفظوا أحكام الرسول و أخبروا عن أنباء التنزيل. فكانوا معدن العلم، و خزان الوحى، و ورثة الرسول الأعظم صلّى اللّه عليه و آله و سلم، و هم عدل القرآن و تراجمته.

1- 1) رسالة الإسلام العدد 4 السنة السادسة من مقال للأستاذ السيد صادق نشأت الأستاذ بكلية الآداب بالقاهرة.

2- 2) الذريعة ج 6 ص 301-374. [1]

و من الظلم و عـدم إنصاف الحق الإعراض عن ذكرهم فی السـبق إلی تدوین العلم، و تعلیم الأمة، و لو فسح المجال و تخلت السـلطة عن التدخل فی شـئون العلم لأغراضـها لتحررت الأفكار من ذلک الجمود الذی فرضـته السلطة و ذكرت الحقیقة التی ترعب الحكام. و مما لا شک فیه أن حركة التدوین عند الشـیعة كانت أسـبق من غیرهم، و إثبات ذلک لا یسـتدعی كثیر مشقة و مزید عناء، و لكن الشیء الذی أدی إلی أن یتأخر ذكرهم فی السـبق: هو أن فقههم و حدیثهم مأخوذ عن أهل البیت الذین أمر الرسول صلّی اللّه علیه و آله و سلم باتباعهم، و لا یخفی علی المتتبع المنصف معارضة الأمویین و العباسـیین لإظهار ذكر آل محمد صـلّی اللّه علیه و آله و سلّم و نشر مآثرهم، فإنهم یرون إظهـار ذلـک إضـعافا لحكمهم و معارضـا لسیاسـتهم، و قـد منع الأمویون جمیع المحـدثین أن یـذكروا علیا و أهل بیته بخیر و لا یروون حـدیثهم، فكان العلماء إذا أرادوا أن یحدثوا عن علی كنوه بأبی زینب أو أشاروا إلیه بإشارة متفق علیها. و لما جاء الدور العباسـی و نشـطت الحركـة العلمیـة و ظهرت النزعة إلی التدوین و قاموا فی تشـجیعها، كانت الشـیعة فی طلیعة السابقین لذلک، و لكن سـیاسة الدولة و تطور الزمن أدی إلی أن یصـبح المتتبع لآثـار آل محمـد فی الأحكـام-بل المعروف بحبهم-متهما بجرم لا یغفر، حتی امتحن كثیر من العلماء. فهـذا الإمـام الشافعی علی ما هو فیه من اتضاح الحالـة و النزعـة اتهم فی التشـیع، و حوسب علی ذلک، لأنه كان یظهر حب علیّ و یعتمد علی أحكـامه فی أحكـام البغـاة علی الإمـام. و كـذلک الحاكم صاحب المسـتدرک لأنه كان یطعن علی معاویـة و روی فی كتابه حـدیث الموالاة و غیره. و الحافظ الدارقطنی اتهم بالتشـیع لأنه كان یحفظ دیوان السید الحمیری. و الحافظ النسائی عذب بل مات من أثر ذلک لأنه حـدث بفضائل علیّ و لم یحـدث بفضائل معاویة، إلی عدد كثیر من العلماء المعذبین باتهامهم فی التشـیع، و لیسوا كذلک. و إنما الشـیء الـذی أوجب اتهامهم هو: إما روایـة مناقب أهل البیت، أو اسـتنباط مسألة من الأحكام من طریقتهم و تلک حقیقة ملموسة، أبرزها التأریخ فی مرآته

بأجلى صورة و أوضح بيان. فلقى أكثر المحدثين محنا. و واجهوا مصاعب. أما الذين أرادوا أن يؤكدوا للسلطة القائمة فى زمانهم بأنهم منحرفون عن أهل البيت، فتجنبوا الرواية عنهم، و لم يخرجوا فضائلهم، فكانوا موضع عناية السلطة و محلا لثقتها التامة. هذا ما أردنا بيانه من حركة التأليف عند الشيعة فى الصدر الأول بإيجاز، أما نشاط الحركة العلمية فقد بدأ فى القرن الثانى، و أشهر الكتب التى ألفت فى ذلک: مصنف شعبة بن الحجاج المتوفى سنة 160 ه-، و مصنف سفيان بن عيينة المتوفى سنة 198 ه-، و مصنف الليث بن سعد المتوفى سنة 175 ه-، و موطأ مالک بن أنس المتوفى سنة 179 ه-، و مسند الشافعى المتوفى سنة 204 ه-، و مختلف الحديث له، و الجامع للإمام عبد الرزاق بن همام الصنعانى، و مجموعات من عاصرهم من حفاظ الحديث كالأوزاعى و الحميدى.

موطأ مالک:

لا بد و أن نذكر هنا نبذة يسيرة عن موطأ مالک وفاء بالوعد و إتماما للغرض و قد تقدم أن المنصور لقى مالكا من قبل فى موسم الحج، و فاتحه فى كثير من المسائل، و اعتذر إليه عما لقى من عامله على المدينة، و أمره أن يدوّن كتابا يحمل الناس عليه، ليوحد بذلک نظام التشريع و يحمل الناس على الجمود على قول مفت واحد، إلى آخر ما هنالک من أقوال حول تأليف الموطأ، و قد اشترط المنصور عليه أن لا يروى عن على، فوفى مالک بالشرط، إذ لم يرو عن علىّ عليه السّلام فى موطأه (1). و قد نال موطأ مالک شهرة حتى قالوا: إنه لا مثيل له و لا كتاب فوقه بعد كتاب اللّه عز و جل (2).

---

1 - 1) إذا أحصينا ما فى الموطأ وجدنا ذكر الإمام عليه السّلام، و يبدو أن تنفيذ مالک لشرط المنصور-كما هو رأى المالكية-تحاشى الإكثار من فتاوى الإمام عليه السّلام أدى إلى ذلک. و لذا فإن رواية مالک عن أستاذه الإمام جعفر الصادق عليه السّلام فى طريقها يرد اسم الإمام على فمن السلسلة الذهبية التى هى سند أحاديث أهل البيت كما جاءت فى حديث الإمام الصادق [1]الذى ذكره الشيخ المفيد فى الإرشاد و [2]الكلينى فى الكافى و [3]غيرهما من علمائنا: «حديثى حديث أبى و حديث أبى حديث جدى و حديث جدى حديث الحسين و حديث الحسين حديث الحسن و حديث الحسن حديث أمير المؤمنين و حديث أمير المؤمنين حديث رسول اللّه و حديث رسول اللّه قول اللّه» .

2- 2) مقدمة النص لابن عبد البر ص 9. [4]

و وضعوا عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم منامات فى مدحه و أنه قال: ليس بعد كتاب اللّه عز و جل و لا سنتى فى إجماع المسلمين حديث أصح من الموطأ (1). و قالوا: إن النبى سمى الموطأ بهذا الاسم. . إلى غير ذلک. و قد روى عن مالک أنه قال: عرضت كتابى هذا على سبعين فقيها من فقهاء المدينة، فكلهم واطأنى عليه فسميته الموطأ. و كان قد جمع فيه عشرة آلاف حديث ثم هذبه و نقحه فلم يبق من ذلک العدد إلا ألف و سبعمائة حديث و قيل خمسمائة (2)و قيل أقل و أكثر لاختلاف النسخ زيادة و نقصا و إسنادا و إرسالا. و اختلفوا فى منزلة الموطأ من كتب السنة فمنهم من جعله مقدما على الصحيحين كابن العربى، و ابن عبد البر و السيوطى. و قال الحافظ ابن حجر: إن كتاب مالک صحيح عنده و عند من يقلده، على ما اقتضاه نظره من الاحتجاج بالمرسل و المنقطع (3)و غيرهما. و جملة ما فى الموطأ 1720 حديث، المسند منها 600، و المرسل 228، و الموقوف 613، و من قول التابعين 285. و قد وصلت مراسيله من طرق أخرى بواسطة أصحابه. قال ابن حزم: فى الموطأ سبعون حديثا قد ترک مالک نفسه العمل بها، و فيه أحاديث ضعيفة قد رواها جمهور العلماء (4). و هكذا نرى العلماء يختلفون فى صحة كل ما اشتمل عليه الموطأ، لاختلافهم فى قبول المرسل و نحوه، فالمالكية إذ يقبلونه يحكمون بأن كل ما فى الموطأ صحيح و غيرهم إذ لا يقبل المرسل إلا بقيود لا يقبلون مرسلاته و لكن بعض المالكية ندب نفسه لوصل ما ليس متصل السند. و على كل حال فكتاب الموطأ يعد من أوائل الكتب التى ألفت فى الحديث لا

1- 1) كشف المغطى فى فضل الموطأ ص 2.

2- 2) شرح الزرقانى على الموطأ ج 1 ص 7.

3- 3) المرسل من الحديث ما سقط من مسنده الصحابى بأن يرويه التابعى عن الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مباشرة. و المنقطع ما سقط من أثناء سنده راو أو أكثر مع عدم التوالى فإن كان مع التوالى فذلک المعضل.

4- 4) مفتاح السنة للخولى ص 24.

أولها. و قد نشره الآخذون عن مالک فی الأمصار: کمحمد بن الحسن الشیبانی فی العراق، و یحیی بن یحیی اللیثی فی الأندلس، و عبد اللّه بن وهب، و عبد الرحمن بن القاسم، و أشهب فی مصر، و أسد بن الفرات فی القیروان. هذه هی أهم الکتب المدونة فی القرن الثانی عند السنة، و أما حرکة التدوین عند الشیعة فی ذلک القرن، فنشاطها مستمر-کما تقدم-من جمیع الوجوه و فی جمیع العلوم. و فی القرن الثالث اتجه الناس إلی التدوین بنشاط ملموس، و حرکة قویة، و اتجه رواة الحدیث فی جمعه إلی طریقة الافراد إذ کان قبل ذلک ممزوجا بأقوال الصحابة، و فتاوی التابعین. و أشهر الکتب المؤلفة لأهل السنة هی: صحیح البخاری، و صحیح مسلم، و سنن أبی داود، و سنن النسائی، و صحیح الترمذی، و سنن ابن ماجة. و هذه هی التی یطلق علیها الصحاح الست، و أقدمها و أهمها صحیح مسلم و البخاری، و یطلق علیهما الصحیحان، و علی مؤلفیهما الشیخان. و قد وقع الاختلاف فی تفضیل أحدهما علی الآخر و أیهما أصح و أشد قبولا. و لنلق علی کل واحد من أصحاب الصحاح نظرة إجمالیة.

صحیح البخاری:

البخاری: محمد بن إسماعیل بن إبراهیم بن المغیرة بن (بردزبه) ولد سنة 194 ه-و مات سنة 256 ه-. انحدر من سلالة فارسیة تدین بالمجوسیة و أول من أسلم من أجداده المغیرة علی ید الیمان الجعفی، فهو مولی الجعفیین لذلک یقال للبخاری: الجعفی لأنه مولی لهم. و قد نشأ یتیما فی حجر أمه، و رحل إلی البلدان فی طلب الحدیث. و وضع کتابه و خطا فیه خطوة جدیدة فی جمع الحدیث، إذ لم یقتصر علی روایة بلد واحد کغیره من علماء الحدیث. و الذی یظهر أن تلک الخطوة أخذها عن علی بن المدینی، و ذلک أن ابن المدینی ألف کتاب العلل، و کان ضنینا به، فغاب یوما فی بعض ضیاعه، فجاء البخاری إلی بعض بنی علی بن المدینی، و راغبه بالمال علی أن یری الکتاب یوما واحدا، فأعطاه له، فدفعه إلی النساخ فکتبوه و ردوه إلیه، و لما علم ابن

المدینی اغتم لذلک حتی مات بعد یسیر، و استغنی البخاری عنه بذلک الکتاب، و خرج إلی خراسان، و وضع کتابه الصحیح (1). و بهذا یتضح أنه سلک طریقة ابن المدینی و أخذ کتابه و استغنی فیه، و لا حاجة إلی إطالة القول حول البخاری و صحیحه. فقد أشرنا لذلک فی الجزء الأول، و ذکرنا المؤاخذات من قبل المفکرین علیه کانتقادهم علیه 120 حدیثا، و فی الواقع أنها أکثر، و فی تقطیع الأحادیث و غیر ذلک، و عدة ما فی البخاری من الأحادیث بالمکرر 7397، سوی المعلقات و المتابعات و الموقوفات (2)و بغیر المکرر من المتون الموصولة 2602 و من المتون المعلقة المرفوعة التی لم یصلها فی موضع آخر منه 159. و قد تقدم الکلام حول البخاری فی الجزء الأول من هذا الکتاب.

صحیح مسلم:

و هو یعد فی الدرجة کصحیح البخاری. و الناس یختلفون فی تقدیم صحیح البخاری أو مسلم. و کان مسلم من تلامذة البخاری و شارکه فی مشایخه. و مسلم هو ابن الحجاج القشیری النیسابوری ولد سنة 204 ه-و توفی سنة 261 ه-، و کان مخلصا للبخاری، و حصل بینهما فتور آخر أیامه، دعاه لأن ینتقد من طریقة البخاری فی مقدمة صحیحه. و قد انتقده الحفاظ بکثرة روایته عن الضعفاء، و قد طعنوا فی مائة و ستین رجلا من رواة مسلم. و مع ذلک فقد فضلوا کتاب مسلم علی کتاب البخاری من وجوه: 1-إن مسلما ألف کتابه فی بلده بحضور أصوله فی حیاة شیوخه، من أن یتحرز فی الألفاظ، و یتحری فی السیاق. 2-إن مسلما لا یقطع الحدیث کما یفعل البخاری، لأنه یروی جزءا من

1- 1) تهذیب التهذیب ج 9 ص 54. [1]

2- 2) المعلق من الحدیث: ما کان فی سنده سقط من أوله. کأن یقول البخاری عن ابن عمر عن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم: کذا. و الموقوف: ما انتهی سنده إلی الصحابی فلم یذکر فیه قولا للنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم، و لا فعلا، و لا وصفا، و لا تقریرا. و المقطوع: ما انتهی سنده إلی من دون الصحابی کالتابعی، و قد یطلق علی المقطوع (موقوف علی فلان) أی الذی انتهی إلیه السند.

الحـديث بسـند، و قـد يروى جزءا آخر بسـند آخر فى مكان آخر، فيصـعب على المحدث معرفة الحديث كاملا بأسانيده المختلفة. 3-إن البخارى قد يقع له الغلط فى أهل الشام و ذلك أنه أخذ كتبهم، فربما ذكر الواحد منهم بكنيته. و يذكره فى موضع آخر باسمه، و يتوهم أنهما اثنان. أما مسـلم فقلما يقع له الغلط (1)و قال الطبينى: كان من شـيوخى من يفضل كتاب مسـلم على كتاب البخارى (2). و قال أبو على النيسابورى: ما تحت أديم السـماء أصح من كتاب مسـلم بن الحجاج فى علم الحديث. و عدد أحاديثه 7375 بالمكرر، و من غير المكرر نحو أربعة آلاف، و قد أجمع الحفاظ على أن البخارى و مسلم لم يستوعبا تخريج الأحاديث الصحاح.

صحيح الترمذى:

و الترمذى هو: أبو عيسـى محمد بن عيسى بن سورة الترمذى المتولد سنة 200 ه-و المتوفى سنة 271 ه-فى أواخر رجب. سمع الحديث من البخارى، و غيره من علماء بخارى، و كان ضريرا و ألف الصحيح، و عرضه على علماء الحجاز، و العراق، و خراسان، و سلك طريقة فى تأليفه لم يسلكها من قبله، و هو بيانه حول درجة الحديث، و بين الصحيح منه و المعلول، كما ميز المعمول به من المتروك، و ساق اختلاف العلماء و كتابه جليل القـدر كثير الفائـدة قليل التكرار. و قـد فضـله بعض الحفاظ على صـحيح البخارى. و الترمذى لم يتجنب الرواية عن النواصب و الخوارج، كغيره من أصـحاب الصـحاح، و قد أحصـينا عليه جملة منهم، كما أن فى رجاله كثير من الضـعفاء و الكذابين منهم: سيف بن عمر البرجمى، و يقـال السـعدى، و يقال الضبيعى صاحب كتاب الردّة و الفتوح، كان يروى الموضوعات عن الإثبات، و أنه يضـع الحديث و اتهم بالزندقة.

1- 1) تاريخ بغداد ج 13 ص 102. [1]

2- 2) شرح ألفية العراقى ج 1 ص 16.

و الشـيء الذى يلفت النظر أن هذا الرجل و هو سـيف بن عمر قد اعتمد عليه ابن جرير فى تاريخه، فروى عنه بواسـطة مكاتبات السرى عن شعيب عنه فى الحوادث الواقعة من سنة 11 ه-إلى سنة 37 ه-. و قد ضـبط تلك الموضوعات و الأكاذيب-التى توالت عليها السنين، و لم تنلها يد التنقيب-شيخنا فقيه التاريخ العلامة الأمينى (1). فقد ذكر الطبرى فى ج 2 من تاريخه فى حوادث سنة 67، 11 حديثا عن سيف بن عمر، و أخرج فى ج 4 فى حوادث سنة 427، 12 حديثا عن سـيف بن عمر، و أورد فى ج 4 فى حوادث سنة 207، 23 أحاديث-المجموع 701. و هـذه القائمـة العظيمـة-التى ذكرهـا الطبرى عن هؤلاء المجاهيل و الكـذابين-لها تمام الأثر الفعال فى تمويه الحقيقـة، و مخالفة الحق، و إثارة نار البغضاء بين المسـلمين. و لو وسع المجال لأعطينا أنموذجا منها. و قـد سار على ذلك المؤرخون من بعـد الطبرى، كابن الأثير، و ابن كثير، و ابن خلدون بدون تحقيق، بل تقليدا للطبرى. كما أن أسـطورة ابن سـبأ كانت من اختراع سيف بن عمر، رواها الطبرى و أخذها عنه المؤرخون و سنشير لذلك فى الجزء السادس إن شاء اللّه.

صحيح أبى داود:

أبو داود هو: سـليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير الأزدى المتولد سنة 202 ه-و المتوفى سنة 275 ه-كان من الحفاظ، و عده الشيرازى فى الطبقات من تلامذة أحمد و صـحيحه المعروف بسـنن أبى داود. قال فيه الخطابى: كتاب السـنن لأبى داود كتاب شـريف لم يصنف فى علم الـدين مثله، و قد رزق القبول من كافة الناس، فصار حكما بين فرق الناس، و عليه معول أهل العراق، و أهل مصـر، و بلاد الشام و كثير من أقطار الأرض.

صحيح النسائى:

النسائى هو: أحمد بن شعيب بن على أبو عبد الرحمن النسائى المتولد سنة 215 ه-و المتوفى سنة 303 ه-، كان من أئمة الحديث، و قد برع فى علم الحديث

1- 1) الغدير ج 8 ص 336. [1]

و تفرد بالمعرفة و علو الإسناد، و كان أحفظ من مسلم بن الحجاج، و سننه أقل السنن ضعفا. قاله: الذهبى. و لما دخل دمشق فسئل عن معاوية و فضائله، فقال: أ ما يرضى معاوية أن يخرج رأسا برأس، حتى يفضل. و فى رواية: ما أعرف له فضيلة إلا «لا أشبع اللّه بطنک» - و هو دعاء النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عليه فصار يأكل و لا يشبع-فما زالوا يدافعونه فى خصيتيه، و داسوه، ثم حمل إلى مكة فتوفى بها، و هو مدفون بين الصفا و المروة. و قال الحافظ أبو نعيم: لما داسوه بدمشق، مات بسبب ذلک الدوس فهو مقتول (1). و كان قد صنف كتاب الخصائص فى فضل على بن أبى طالب و أهل البيت عليهم السّلام، و أكثر روايته فيه عن الإمام أحمد بن حنبل، و كذلک صنف كتاب مسند الإمام على عليه السّلام، و يرمزون له فى التخريج ب-(عس) و لخصائص على عليه السّلام ب-(صلى الله عليه و آله) .

صحيح ابن ماجة:

ابن ماجة هو: محمد بن يزيد بن ماجة أبو عبد اللّه القزوينى المتولد سنة 209 ه-و المتوفى سنة 273 ه-ارتحل إلى العراق، و الكوفة، و مكة و الشام و ألف كتابه فى الحديث، و هو أحد الصحاح الست. و قدموا كتابه على موطأ مالک. هذه هى الصحاح الست التى يخصها أهل السنة بالثقة على اختلاف فى درجاتها فى الصحة. على أن هناک كتب توصف بالصحة، لأن الصحيحين لم يستوعبا جميع الأخبار الصحيحة، فألفت كتب توصف بالصحاح: كصحيح إسحاق بن خزيمة و صحيح أبى حاتم المتوفى سنة 354 ه-، و صحيح أبى عوانة، و غيرها. و قد استدرک الحاكم النيسابورى على الصحيحين أحاديث خرجها على شرطهما (2).

1- 1) الشذرات ج 2 ص 240. [1]

2- 2) اصطلح الرجاليون على الإشارة لمن خرج له البخارى ب-(خ) و مسلم (م) و الترمذى (ت) و النسائى (س) و أبو داود (د) و ابن ماجة (ق) و لمن خرج حديثه أصحاب الصحاح الست (عليه السلام) و إذا اجتمع الأربعة (ع-) فإذا وجدت العلامة فى أول الترجمة، عرف أنه حديث صاحب الترجمة رواه من أشير إليه.

عود على بدء:

ذكرنا سبق أهل البيت عليهم السّلام إلى تدوين العلم، و اهتمام الشيعة فى حفظ آثارهم، و الانتهال من عذب غديرهم، إذ وجدوا سندا قويا و مرعى خصيبا تتصل سلسلة أحاديثهم بصاحب الرسالة، و هى السلسلة المعروفة بالذهبية، أو هى الترياق المجرب، فكان الإمام الصادق عليه السّلام عند ما يحدث بإسناده، يقول: حدثنى أبى محمد الباقر عن أبيه زين العابدين عن أبيه الحسين بن على عن أبيه على بن أبى طالب عليه السّلام عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم. و هناك تتصل هذه السلسلة بالوحى الإلهى، و كذا كل واحد من الأئمة عليهم السّلام. و كان الإمام الصادق عليه السّلام إذا أرسل حديثه، فهو اتصال بهذه السلسلة، لأنه كان يقول: حديثى حديث أبى، و حديث أبى حديث جدى، و حديث جدى حديث أبيه، و حديث أبيه حديث أمير المؤمنين عليه السّلام، و حديث أمير المؤمنين حديث رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم (1). و فى هذا يقول الشاعر: و وال أناسا ذكرهم و حديثهم روى جدنا عن جبرئيل عن البارى

و لكن بمزيد الأسف أن البخارى قد تحرج و تضايق من تخريج حديث الإمام الصادق عليه السّلام، و توسع و تساهل لقبول رواية عمران بن حطان و داود بن الحصين، و أضرابهم من الفسقة الذين عرفوا بالعداء للّه و لرسوله و كذلك خرج لرجال دخلوا فى الإسلام للدس و التضليل، و لم يخرج حديث الإمام الصادق عليه السّلام، لأن ظروفه اقتضت ذلك و نزعته ضربت بسلطانها عليه. و قد عظم على خصوم الشيعة اختصاصهم بذلك التراث العظيم. و لم يستطع أحد أن يطعن فى حديث أهل البيت عليهم السّلام فالتجئوا إلى الطعن على حملة آثارهم و رواة حديثهم، كما لا ينكر تدخل عملاء السلطة و الدخلاء فى الإسلام أن يدخلوا على أهل البيت عليهم السّلام مما لم يحدثوا به و يتقولوا عليهم ما لم يقولوه، يقصدون بذلك تنفير الناس و اشمئزاز النفوس من تلك الروايات المدسوسة، لذلك كانت الشيعة

1- 1) الروضة [1]للحافظ أبى على النيسابورى، و روى فى ص 175 عن الإمام الباقر [2]عليه السّلام كذلك عند ما سئل عن إرساله الحديث فقال: حديثى حديث أبى. . .

أشد تنقية للرجال و تصحيحا للأحاديث، فألفوا بذلک کتبا، و تشددوا فی قبول الروایة، و هذا بحث واسع لا یمکننا أن نخوضه الآن.

الکتب الأربعة:

اشارة

و خلاصة القول: أن الشیعة احتفظت بآثار أهل البیت علیهم السّلام و سبقت جمیع الأمة إلی تدوین علومهم، فکانت حرکة التدوین عندهم قویـة فی جمیع العلوم و الفنون. أما ما یختص بالفقه و الحـدیث، فکانت أصولهم أربعمائة أصل، و هی التی سـمعها تلامذة الأئمة منهم، و جمعت هذه الأصول فی الکتب الأربعة و هی:

1-الکافی:

للشـیخ المجـدد محمد بن یعقوب الکلینی المتوفی سـنة 329 ه-و قـد ألفه فی عشـرین سـنة، و قـد دخل إلی الأقطار الإسـلامیة فی طلب الحدیث، و جمع فیه من الأحادیث سـتة عشـر ألفا و مائة و تسـعین حدیثا، و هو أکثر من مجموع ما فی الصحاح الست. و لیس هذا محل التوسع فی البحث عن الکافی و مکانته.

2-من لا یحضره الفقیه:

للشـیخ محمد بن علی بن الحسین بن موسی بن بابویه القمی الشهیر بالصدوق المتوفی سنة 381 ه-بالری، ورد بغداد سنة 355 ه-و حدث بها، و کان جلیلا حافظا للأحادیث بصیرا بالرجال ناقدا للأخبار کثیر التألیف، و قد أحصیت مؤلفاته فکانت 300 کتابا علی اختلاف العلوم، و أهمها کتابه الجلیل «من لا یحضره الفقیه» الذی هو من أهم کتب الحدیث عند الشیعة و عدد أحادیثه 5963 حدیثا.

4-3-التهذیب و الاستبصار:

لشـیخ الطائفة أبی جعفر محمد بن الحسن بن علی الطوسـی المولود سـنة 385 ه-و المتوفی سـنة 460 ه-فی النجف الأشـرف. هاجر إلی بغداد سنة 408 ه-فی أیام علم الشـیعة و رئیسها محمد بن محمد بن النعمان الشهیر بالشیخ المفید فاتصل به و استفاد منه، و لما توفی سنة 413 ه-اتصل من بعده بعلم الهدی السید المرتضی المتوفی سنة 436 ه-، و بعد وفاة السید استقل الشیخ

بالزعامة، و كانت كمدرسة جامعة تأوى إليها طلاب العلوم، فكان عدد تلامذته ثلاثمائة من الشيعة و كثير من سائر المذاهب، لذلک ترجم له السبکی فی طبقات الشافعية (1)و غيره، لأنه كان يملی علی أهل المذاهب و يجيبهم عن مسائلهم لغزارة علمه وسعة اطلاعه، فكان يفيد الأمـة بعلومه، و أملی كتابه المعروف بالأمالی علی تلامـذته، يقع فی مجلدين و كانت له منزلة علمية عظيمة فی بغداد، و قد جعل له خليفة عصـره-القائم بأمر اللّه عبـد اللّه بن القادر-كرسـی الكلام و الإفادة، لأنه فاق أقرانه فتعين هو لتلک المنزلـة، و لما هبت عواصف الطائفيـة و اشـتد النزاع بين المذاهب و بين السـنة و الشيعة بالأخص، و كان الموقف فی الوقت علی أشد ما يكون من الخصام، و لم تزل الدولة تنضم لجانب السـنة فأحرقت كتب الشـيخ بأمر طغربک أول ملوک السـلاجقة، قال السـبكی: و قـد أحرقت كتبه-أی الشـيخ الطوسـی-عـدة نوب بمحضر من الناس. و كذلک أمر السلجوقی بإحراق مكتبة الشيعة فی محلة الكرخ، و كانت تحتوی علی أكثر من عشرة آلاف مجلد من أهم الكتب كلهـا بخطوط الأئمـة المعتبرة و أصولهم المحررة كمـا ذكر ذلک ياقوت الحموی و غيره. و فی سـنة 448 ه-نهبـت داره و كبست و أخـذت كتبه و الكرسـی الذی كان يجلس عليه للكلام فأحرقت (2)و هاجر الشـيخ إلی النجف فقصده طلاب العلم، فأصـبحت دار هجرة لانتهال العلم و لم تزل حركتها بنشاط من ذلک العهـد تقصدها و فود العالم الإسـلامی لأخذ العلم و الانتماء لمعهدها علی ممر الدهور. فالشـيخ الطوسـی يعد فی الواقع هو واضع الحجر الأساسی لمعهد النجف الأشرف، و قبره فيها قريبا من المرقد المطهر. و له مؤلفات كثيرة تبلغ الخمسـين مؤلفا فی شتی العلوم. و أهمها التهذيب و الاستبصار فی الحديث. و الحديث عن حياة شيخ الطائفة واسع، و ناحية البحث عنها لا يمكننا الإلمام بها فی هذا العرض الموجز.

1- 1) طبقات الشافعية للسبكی ج 3 ص 51 و ترجم له فی الشذرات و فی البداية و النهاية لابن كثير و ابن الجوزی فی المنتظم و غيرهم.

2- 2) المنتظم لابن الجوزی ج 8 ص 173 و 179. [1]

أما التهـذيب: فهو أحد الكتب الأربعة و المجاميع القديمة المعول عليها، و قد أنهيت أبوابه إلى 390 بابا و احصيت أحاديثه فى 13590، و توجـد منه نسـخة بخط المؤلف. و أما الاسـتبصار فيما اختلف فيه من الأخبار فهو أحـد الكتب الأربعـة التى عليها مدار اسـتنباط الأحكام الشـرعية عند فقهاء الشيعة، و قد أحصيت أحاديثه فكانت 5511 حـديثا. و الغرض أن تلك الأصول و الكتب التى ألفت فى زمن الأئمة قد جمعت فى هذه الكتب الأربعة و فى غيرها كالوافى للمحقق الكاشانى، و البحار للعلامة المجلسى، و الوسائل للمحدث محمد بن الحسن الحر العاملى، و مسـتدرک الوسائل للشـيخ النورى. و على هـذا سارت حركـة التدوين عند الشـيعة باتباع آثار أهل البيت نزولا على حكم الأدلـة و البراهين و تعبـدا بسـنة النبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلم. و قـد احتفظت الشـيعة باسـتقلالها الروحى و لم ترتبط يوما ما بسـلطة لتشـجيع حركتها العلمية أو تأييد مبدأها، بل كان ولاة الأمر يحاولون اكتساح ما لهذه الطائفة من أثر، و لكن الشـيعة وقفوا أمام ذلک السـيل الجارف، و استطاعوا تركيز مبادئهم بقواهم الروحية، و نبغ منهم المحدثون و المفسرون و اللغويون و النسابون و الشعراء و الأدباء مما يطول ذكره، و كان لهم الأثر العظيم فى جميع فنون الإسـلام و علومه، و قد أحصـينا من علماء الحديث الذين خرج حديثهم أصـحاب الصحاح عـددا لا يقل عن مائتين و خمسـين رجلا أكثرهم حفاظ حديث و أعلام فى الفقه، و قد اعترف الكل لهم بذلک. إذا فالتدوين على ما قررناه لم يكن السبق لأحد سوى أهل البيت و شيعتهم، و ليس لمالک و لا لغيره.

مسألة التفضيل

مالک و مسألة التفضيل:

سبقت الإشارة إلى رأى مالک فى التفضـيل و أنه يذهب إلى مساواة الإمام على عليه السّلام لسائر الناس، و أن أفضل الأمة الخلفاء الثلاثة، ثم يقف و يقول: هنا

يتساوى الناس. فهو لا يرى لعلى عليه السّلام ميزة عن سائر الصحابة كما يروى عنه، و من الغريب ذلک، فهو يكاد ينفرد بهذا الرأى، و يمتاز عن سائر علماء الأمة بهذه النزعة، كما أنه لم يرو عن على فى موطأه. و لم تكن مسألة التفضيل من الأمور الاعتيادية التى يمر عليها المؤرخ أو الكاتب فلا يعطيها مزيدا من البيان، فهى من أعظم المشاكل التى حلت فى المجتمع الإسلامى، و لها تمام الأثر فى تطور الأوضاع و إثارة نار البغضاء بين المسلمين، لتدخل السياسة فيها، و ما تدخلت السياسة فى أمر إلا و جعلته عرضة للاضطراب و التقلب، و لو انفردت القضية عن ذلک لما كان من ورائها ما كان، و لسارت على ضوء العلم و الواقع، و تجردت عن الظنون و الاتهامات و انتهت بالدليل و الإقناع، و لكنها فى الواقع كانت بالإرهاب و القهر و العسف، أو الإغراء و الخداع السياسى. و قد حاولنا بقدر الإمكان أن لا نتعرض للأمور التى أثارتها أغراض المتعطشين على السيادة، لتفريق كلمة الأمة، و إيجاد مشاكل يحاولون من وراء إيجادها حل مشاكلهم السياسية، لأنهم يريدون أن يرغموا الأمة على اتباع آرائهم، و تصديق أقوالهم، و لا يكون هناک رأى إلا ما تراه الدولة، فإذا وقف المفكرون إلى جانب غير جانبها فهناک الخطر العظيم من الاضطهاد و الاتهام بالعقائد الفاسدة، لأن الاستقلال فى الرأى لم يكن من صالح الدولة، و هم يحاولون توجيه الناس إلى حيث اتجهوا. فالمخالف لذلک يتهم بالخروج على الدولة مرة، و عن الدين أخرى. و من أعظم المسائل فى تاريخ الإسلام هى مسألة التفضيل، فقد جعلوا عنوان الرفض هو: محبة الإمام على عليه السّلام و تفضيله على الصحابة. يقول ابن حجر فى مقدمة فتح البارى: و التشيع محبة على و تقديمه على الصحابة فمن قدمه على أبى بكر و عمر فهو غال فى تشيعه و يطلق عليه رافضى، و إلا فشيعى. فالشيعى فى عرفهم هو محبة على عليه السّلام. أما إذا فضله على أبى بكر و عمر فهو الرافضى. و ناهيک ما وراء كلمة الرافضى من خطر عظيم، فقد اتخذته السلطة ذريعة للقضاء على كثير من رجال الأمة الذين لم ينحازوا إليها، و لم يتعاونوا معها و يقفوا إلى جانبها، و اتخذت هناک الخدع و المكائد التى تؤدى إلى سفک الدماء، و قام المتمرغون على أعتاب الظلمة، و المتنعمون فى خيرات الدولة بما يجلب قلوب ولاة الأمر إليهم فى إلصاق العيوب بالشيعة، و ذمهم و الطعن فى عقائدهم، حتى قال

بعضـهم: آكل ذبيحة اليهودى و لا آكل ذبيحة الرافضى (1)و قد عرفت أن الرافضـى هو الذى يفضل عليا عليه السّلام على أبى بكر و عمر فقط. و لم تكن المسألـة فى حقيقتها مسألـة حب لأبى بكر و عمر أو تفضـيل بموجب الفضائل و المناقب و إنما كانت قضـية أوجـدتها فى الأصل القبلية التى حقدت على الإمام على و وجدت فيه واترها الذى جندل فرسانها و أهلك شجعانها فكيف تترك له الأولية و الصدارة فى الـدين و القيادة. ثم توطأ الحكام من الأمويين و غيرهم فأكدوا ذلك المنهج لأن المنزع واحد و الغاية لا تختلف، و قد جرت القضـية على الأمة الويلات.

الاختلاف فى التفضيل:

و الغرض أن الأمة اختلفت فى مسألة التفضـيل على ثلاثة أقوال: 1-تفضـيل الإمام على بن أبى طالب عليه السّلام على جميع الصحابة، و هو رأى أهـل البيت و جميع الصـحابة و التـابعين-إلاـ القليل النادر-و جميع الهاشـميين و أهل الحجاز و أهل الكوفـة، و وافقهم كثير من المتـأخرين من علمـاء السـنة تصـريحا أو تلميحا، نظرا للظروف التى قضت على المفكرين من رجال الأمـة بمجاراتها. 2-إن على بن أبى طالب أفضل الأمة بعد الشيخين. 3-إنه أفضـلهم بعد الثلاثة و عليه رأى الجمهور من السـنة. قال القرطبى: و المسألة اجتهادية و مستندها، إن هؤلاء الأربعـة اختارهم اللّه لخلافـة نبيه و إقامـة دينه، فمنزلتهم عنـده بحسب ترتيبهم بالخلافة. و نحن هنا لا نريد أن نتعرض للأقوال و نقضـها، و لا نريد أن نتساءل عن صـحة الدليل، و لا نناقش رواية ابن عمر التى أصـبحت هى دليل الإجماع و مسـتند التفضيل و هى قاصرة عن الدلالة، فلنترك ابن عمر و رأيه-أو روايته-و لننظر إلى رأى مالك بن أنس فى جعل على عليه السّلام كسائر الناس، لا يمتاز عنهم بصفة و لا بفضيلة، و هو رأى انفرد به و لا يوافقه أحد من علماء الإسلام. روى مصعب و هو تلميذ مالك أنه سأل مالكا: من أفضل الناس بعد

1- 1) الصارم المسلول لابن تيمية ص 575.

رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم؟ فقال مالک: أبو بکر. قال: ثم من؟ قال: عمر. قال: ثم من؟ قال: عثمان. قال: ثم من؟ قال: هنا وقف النـاس. و دخل مالک على المنصور فسأله المنصور: من أفضل الناس بعـد رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلم؟ فقال مالک: أبو بکر و عمر. فقال المنصور أصبت و هذا رأى أمير المؤمنين-يعنى نفسه. و فى رواية ابن وهب: أنه قال-أى مالک-: أفضل الناس أبو بکر و عمر، ثم أمسک. فقال له ابن وهب: ثم من؟ فأمسک فقال له: إنى امرئ أقتدى بک فى دينى فقال مالک: عثمان. فهو فى هذا يتردد فى ضم عثمان إلى الشـيخين و لذلک أمسک و لـم يذکر عليا عليه السّـلام بعدهم. و سأله أحد العلويين فى مجلس درسه: من خير الناس بعد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سـلم؟ قال مالک: أبو بکر. قال: ثم من؟ قال: عمر. قال: ثم من؟ قال: عثمان. فقال العلوى: لا جالسـتک أبدا. يقول الأستاذ محمد أبو زهرة: إن مالکا رضى اللّه عنه يخالف بذلک إمامين آخرين عاصراه: أحدهما أسن منه و مات قبله، و ثانيهما أصغر منه و هو تلميذه الشافعى، فإن أبا حنيفة لا يعد عليا كسائر الناس بل يرفعه إلى مرتبة الراشدين من الخلفاء، و يقدمه فى الترتيب على عثمان رضـى اللّه عنه، و الشافعى يعلن محبته لعلىّ و يحکم على خصومه بأنهم بغاة، و يعتمـد فى اسـتنباط أحکام البغاة على ما کان يفعله على رضـى اللّه عنه مع الخارجين عليه و الذين بغوا على حکمه، حتى لقد اتهم بأنه شيعى و حوسب على ذلک و تعرض للتلف و لکنه کان يذکر مناقب أبى بکر و يفضله على علىّ، و لذلک لـم يکن رافضيا (1). و لما ذا رأى مالک عدم ذکر علىّ فى مقام المفضـلين، بل کان يقف بعد عثمان و يقول: هنا يتسـاوى الناس. فما کان علىّ کسائر الناس، فهل جهل ذلک الإمام الجليل مناقبه و سابقته فى الإسـلام، و جهاده و حسن بلائه و مقامه من النبى صلّى اللّه عليه و سلم؟ لا نظنه أنه جهل شيئا من ذلک أو أنکره، إنما هو يعرف عليا رضى اللّه عنه

---

1 - 1) هـذه نقطـة يجب الالتفات إليها و هى أن حب على عليه السّـلام و الاعتماد على قوله فى اسـتنباط الأحکام من علامات التشـيع و يوجب الاتهام و إجراء الحساب، و قـد افتخر الشافعى بهـذه التهمـة. و قد بسـطنا القول فى ذلک بکتابنا (الشـيعة فى قفص الاتهام) و هناک نقطة أخرى، و هى أن من يفضل عليا على أبى بکر فهو رافضى، و ناهيک ما للرافضى من صفات أقلها الخروج عن الدين.

و يعرف مقامه، و لكنه عند ما يجيب عن المسألة كان يجيب فيما يتعلق بالخلافة و الخلفاء، و لعل لجوابه بعض المبررات و إن كنا لا نوافقه فى جوابه (ثم يـذكر المبررات لقول مالک) إلى أن يقول: و هو فى هـذا القول يضـرب على نغمة معاوية و الأمويين. و مهما تكن المبررات التى تدفع إلى ذلک الحكم على سـيف الإسـلام أخى رسول اللّه، و زوج ابنته، و من كانت منه الذرية الطيبة النبوية عليها السّـلام فإن ذلک الحكم يدل على نزعة أموية (1)

العباسيون و التفضيل:

و نحن نقول: إنها نزعة عباسـية أيضا، و ذلک لأن العباسيين سرت إليهم نزعة العداء لآل محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلم: بصورة أشد مما كانت عند الأمويين، فإنهم بعد أن كانوا يتفقون مع العلويين فى الرأى و يتحدون معهم فى الغضب على أعمال أمية، و ينتصـرون للعلويين و يخلصون لهم الود، و يـذهبون لأحقيـة علىّ بالخلافة و أفضـليته على جميع الأمة، و كان المنصور نفسه يحدث بفضائل على، و هو أحد رواة حديث الغدير (2)، و كـانوا يـأمرون الـدعاة بأول ما يظهرونه للناس هو فضل علىّ و أولاده، فلما اسـتجابت الأمصار لهم، و تم زوال الدولـة الأمويـة، و تربعوا على دست الحكم حصـل ذلـک التبـدل السـريع، و التحول الغريب، فـأظهروا العـداء لأهـل البيت، و ساموهم الخسف و الهوان، و أصـبح العلويون يطاردون من قبل الدولة، و لا ذنب لهم إلا أنهم المرشـحون للخلافة، و إليهم تتجه الأنظار، و عليهم تحوم الآمال، فهم أهل الزعامة الدينية و الحق الشـرعى، و قد سبق الاعتراف من العباسيين لهم بذلک. حقا أنه تحول غريب و لكنه الملک، و الملـک عقيم. دخـل المهـدى على أبى عون بن عبـد الملـک يعوده و طلب إليه أن يعرض عليه حوائجه، فقـال أبو عون: يا أمير المؤمنين حاجتى أن ترضـى عن عبـد اللّه بن أبى عون و تـدعو به فقـد طالت موجـدتک عليه. و كان عبد اللّه يرى رأى الشـيعة فى الخلافة، و أن عليا أفضل الخلق بعد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم، فقال المهدى: يا أبا عون إنه على غير الطريق، و على خلاف رأينا.

1- 1) مالک لأبى زهرة ص 69-71.

2- 2) تاريخ بغداد ج 12 ص 344.

فقال أبو عون: هو و اللّه يا أمير المؤمنين على الأمر الذى خرجنا عليه و دعونا إليه، فإن كان قد بدا لكم فمرونا حتى نطيعكم. و عرضت على المهدى وصية القاسم بن مجاشع التميمى و قد جعل المهدى وصيه و كان قد كتب فيها: شهد اللّه أنه لا إله إلا هو و الملائكة و أولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم إن الدين عند اللّه الإسلام. ثم كتب: و القاسم بن مجاشع يشهد بذلك و يشهد أن محمدا عبده و رسوله و أن على بن أبى طالب وصى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم و وارث الإمامة من بعده. فلما بلغ المهدى إلى هذا الموضع رمى بالوصية و لم ينظر فيها (1)و عظم عليه ذلك، لأنه مخالف لرأى الدولة الجديد. و من هنا نعرف الفرق بين الماضى و الحاضر بذلك التحول السريع و التطور الغريب، كل ذلك بغضا للعلويين و كراهة لموافقتهم فى الرأى، حتى أصبحوا يعظمون الأمويين و يعاقبون من ينتقصهم. فقد عذب يحيى بن كثير-و هو أحد الأعلام-و ضرب و حلق رأسه لأنه انتقص الأمويين (2)و كثير من أمثال ابن كثير، كما عظم على العباسيين ثبوت الخلافة لعلىّ بغضا للعلويين. قال أبو معاوية: دخلت على هرون الرشيد، فقال لى: لقد هممت أن من يثبت خلافة على فعلت به و فعلت. قال: فسكت فقال لى: تكلم، قلت: إن أذنت لى تكلمت. قال: تكلم. فقلت: يا أمير المؤمنين، قالت تيم: منا خليفة رسول اللّه. و قالت عدى: منا خليفة خليفة رسول اللّه. و قالت بنو أمية: منا خليفة الخلفاء. فأين حظكم فيها يا بنى هاشم؟ و اللّه ما حظكم فيها إلا ابن أبى طالب (3). ثم تطورت الحالة و اشتد الأمر من قبل العباسيين حتى أدى الأمر إلى قتل من عرف بحب على و أهل بيته، و اتخذوا لذلك شتى الطرق و مختلف الأساليب، و أقرب طريق سلكوه للوصول إلى إيقاع الفتك بمن عرف بحب أهل البيت هو مسألة تفضيل

1- 1) الطبرى ج 6 ص 397 [1] حوادث 169 ه-.

2- 2) تذكرة الحفاظ ج 1 ص 121.

3- 3) تاريخ الخطيب ج 5 ص 244. [2]

على علیه السّلام علی الخلفاء، و جعلوا قاعدة مطردة عندهم و هی: أن من فضل علیا علیه السّلام فقد طعن علی الصحابة، و من طعن علی الصحابة طعن علی رسول اللّه، و من طعن علی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم فهو زندیق. و جعلوا مدح علی و ذکره بما خصه اللّه و رسوله من الفضائل التی امتاز بها علی غیره طعنا علی الصحابة، و موهوا علی السذج بذلک، و انخدع أکثر الناس و استجاب آخرون تحت الضغط، و لقی المفکرون من الأمة عناء، و واجهوا مشاکل عند محاولتهم الوقوف أمام تیار ذلک السیل الجارف، فساير أکثرهم تلک الأوضاع، و جاری تلک الظروف دفاعا عن النفس و طمعا فی الحیاة، فخضعوا لرأی الدولة و تجنبوا الحدیث عن أهل البیت و فضائلهم و درج الناس علی ذلک، و نظروا إلی الشیعة بعیون مزورة و قلوب تتقد بنار العداء، فکانوا لا یصبرون علی سماع منقبة لأهل البیت، و إذا رأوا أحدا یذکرهم بخیر رموه بالرفض، و اتهموه بالزندقة، و قد أعطانا الإمام الشافعی صورة عن تلک الأوضاع بقوله: إذا فی مجلس ذکروا علیا و سبطیه و فاطمة الزکیة

یقال تجاوزوا یا قوم عنه فهذا من حدیث الرافضیة

برئت إلی المهیمن من أناس یرون الرفض حب الفاطمیة

و ستلمس عزیزی القارئ أن حقیقة تکالب الحکام علی مقاومة آثار أهل البیت و مناوأة محبیهم کانت من أعظم الجنایات التی ترکت آثارها علی حرکة العلم و حالت دون الاستفادة من نتاج الأفکار بحریّة، کما أنها من أکثر الظواهر إثارة للألم لتمکن الحکام من توجیه الآراء و انقیاد الناس إلیهم فی ذلک دون وعی، فلذلک سیکون فشل سیاسة الحکام تجاه أهل البیت من محاور البحث الأساسیة.

تطور الخلاف فی مسألة التفضیل:

و یصف لنا ابن قتیبة (1)أوضاع عصره و نصبهم العداء لأهل البیت و بغضهم للشیعة فی تفضیلهم علیا علیه السّلام علی جمیع الأمة بقوله:

---

1 - 1) هو عبد اللّه بن مسلم بن قتیبة المروزی المتوفی سنة 276 ه-کان من علماء الحدیث فی القرن الثالث و له مؤلفات کثیرة، یعرف بالدینوری لأنه أقام بالدینور قاضیا مدة من الزمن فنسب إلیها و قد وصفه ابن حجر بالانحراف عن أهل البیت.

و قـد رأيت هؤلاء أيضا كلما رأوا غلو الرافضة فى حب على و تقديمه، قابلوا ذلک أيضا بالغلو فى تأخير على كرم اللّه وجهه، و بخسه حقه، و لحنوا فى القول و إن لم يصـرحوا إلى ظلمه، و لم يوجبوا له اسم الخلافـة لاختلاف الناس عليه، و أوجبوها ليزيد بن معاوية لاجتماع الناس عليه، و اتهموا من ذكره بخير و تحـامى كثير من المحـدثين أن يحـدثوا بفضائله كرم اللّه وجهه، أو يظهروا ما يجب له و كل تلک الأحاديث لها مخارج صـحاح. . . و ساووا بينه فى الفضل و بين أهل الشورى، لأن عمر لو تبين له فضله لقدمه عليهم و أهملوا من ذكره أو روى حديثا من فضـائله حتى تحـامى كثير من المحـدثين أن يتحـدثوا بهـا، و عنوا بجمع فضائـل عمرو بن العاص و معاويـة، كأنهم لا يريـدونها و إنما يريدونه، فإن قال قائل: «أخو رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلم علىّ و أبو سـبطيه الحسن و الحسين و أصحاب الكساء علىّ و فاطمة و الحسن و الحسـين» تمعرت الوجوه، و تنكرت العيون، و ظهرت حسائـک الصـدور. و إن ذكر ذاكر قول النبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلم: «من كنت مولاه فعلى مولاه» و: «أنت منى بمنزلـة هرون من موسـى» و أشـباه هذا، التمسوا لتلک الأحاديث المخارج لينتقصوه و يبخسوه حقه بغضا منهم للرافضة و إلزاما لعلى عليه السّـلام ما لا يلزمه. و هذا هو الجهل بعينه، و السلامة من ذلک أن لا تهلک بمحبته و لا تهلک ببغضه و أن لاـ تحتمـل ضـغنا عليه بجنايـة غيره فـإن فعلت فأنت جاهل مفرط فى بغضه، و أن تعرف مكانه من الرسول بالتربيـة و الأخوة و الصهر، و الصبر فى مجاهدة أعدائه، و بذل مهجته فى الحروب بين يديه مع مكانه فى العلم، و الدين، و البأس، و الفضل. . . إلى أن يقول: و لو كان إكرامک لرسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلم هو الذى دعاک إلى محبة من نازع عليا و حاربه و لعنه إذ صـحب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سـلم-يعنى معاوية-لأنت بذلک فى علىّ أولى لسابقته و فضله و خاصيته و قرابته و الدناوة التى جعلها اللّه بينه و بين رسوله عنـد المباهلـة حين قال تعالى: فَقُلْ تَعالَوْا نَدْعُ أَبْناءَنا وَ أَبْناءَكُمْ [آل عمران:61]فدعا حسـنا و حسينا «و نساءنا و نساءكم» فدعا فاطمة عليها السّلام «و أنفسنا و أنفسكم» فدعا عليا عليه السّلام، و من أراد اللّه تبصيره بصره، و من أراد به غير ذلک حيره (1). هكذا تأثر ذلک المجتمع و تكيف بمزاج الدولة، و لم تجر الأمور طبقا للحقيقة،

1- 1) الاختلاف فى اللفظ لابن قتيبة ص 47-49. [1]

مما أدى إلى مخالفة الواقع و الابتعاد عن الحق، كما وصف ذلک ابن قتيبة و غيره، و لا يسع المجال لبسط القول فى ذكر تلک الأوضاع السياسية التى سار عليها ولاة الأمر، و حملوا الناس على الخضوع لها، و لا يستغرب أن تكون نزعة الدولة نزعة عداء لأهل البيت، و لكن الغريب أن يتأثر فيها بعض من عرف بالفهم، و وسم بالعلم، و لم يمنح عينا تدرک الحقائق. و لا نريد أن نرجع إلى الماضى، و نقف عند تلک المحاولات التى اتخذها خصوم أهل البيت فى العصر الأموى ليمحوا بذلک ذكرهم، فقد مر كثير من الإشارة إليها، كما أنا لا نريد أن نحاسب ابن عمر (1)على روايته فى التفضيل التى كانت سببا لإيجاد تلک المشاكل، و لا نريد أن ندرس نفسيته لنعرف الأسباب التى حملته على ذلک القول، و ادعائه أمرا لم يكن له أهلية الاتصاف به لحداثة سنه و خمول ذكره. أخرج البخارى من طريق ابن عمر أنه قال: كنا نخير بين الناس فنخير أبا بكر، ثم عمر، ثم عثمان بن عفان رضى اللّه عنهم (2). و فيه أيضا بلفظ: كنا فى زمن النبى لا نعدل بأبى بكر أحدا، ثم عمر ثم عثمان (3). و هذه الرواية هى عمدة ما تمسک به القوم فى بحث الإمامة، تقليدا لابن عمر، و جريا مع الظروف و سياسة الزمن، فنحن لا نريد أن نطيل الوقوف على هذه الرواية، و لا نريد أن نناقشها سندا و دلالة، و قد كفانا البحاثة الكبير العلامة الأمينى نقاشها فى

1- 1) كان من رأى عمر فى ابنه أنه لا يحسن أن يطلق امرأته، و لم يره أهلا لشىء، و ليس فيما (وقذته العبادة) شهادة له بل من جملة ما كان يبعد عمر عن ابنه، و قد كان ظن الوالد بابنه صحيحا حتى أنه بمرور الأيام لم ينصر الحق و لم يميز بين إمام الهدى و قائد البغاة فامتنع عن بيعة الإمام على و طرق على الحجاج بابه ليلا ليبايع عبد الملک كيلا يبيت تلک الليلة بلا إمام فأخرج الحجاج رجله من الفراش و قال لابن عمر: أصفق بيدک عليها!! و يبدو أن الحجاج علم حقيقة ابن عمر مما اشتهر عنه بعد موقعة الحرّة أو مأساتها و دعوته إلى عدم خلع الطاعة و نكث البيعة فيما خلع الناس يزيد بن معاوية. راجع صحيح مسلم ج 2 ص 121. و مسند أحمد ج 2 ص 48.

2- 2) البخارى ج 5 ص 242. [1]

3- 3) البخارى ج 5 ص 262. [2]

غديره. و بين نفسية ابن عمر و مؤهلاته و مقدار تحمله لذلک، و قيمة ما يروى عنه فى نظر حفاظ الحديث و علماء الأمة (1). و لا نعود إلى مسألة مالک بن أنس عن الأسباب التى حملته على رأى المساواة، و لعلها لا تخفى على المتتبع، فهو لا يجهل مكانة علىّ عليه السّلام فى الإسلام من البداية إلى النهاية، كما أنه لا يجهل اختصاص علىّ عليه السّلام بمزيد فضل و عظيم شرف لم يشاركه أحد فى ذلک. و قد امتاز على غيره من أصحاب محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلم، الذين كانوا على جانب عظيم من الصفات الفاضلة و المزايا الجليلة: من الإيمان و الصلاح و الورع و الزهد و الجهاد. . . فقد كان أسبقهم إلى الإسلام، و أقربهم من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم، و أشدهم جهادا فى الحرب، و أعلمهم بالدين، و أعظمهم منزلة، فهو أقضى الأمة، و أعلم الصحابة، و أول من أسلم، و قد آزر النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى نشر الدعوة و غير ذلک. و امتاز عنهم بأنه أخو رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و منه الذرية الطيبة. و هو نفس محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلم و هو مطهر من الرجس، و منزه عن المعايب، يمثل النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى زهده و ورعه و خلقه و هديه و فعله و علمه و فضله. و هو و رسول اللّه ركيضا رحم، و رضيعا لبن واحد، إلى غير ذلک من المميزات التى اختص بها الإمام علىّ عليه السّلام، و امتاز بها على غيره، فذاته صيغت من فضيلة. و لا يمكننا أن نعطى صورة واقعية عن شخصية الإمام بدراسة حياته بجميع نواحى عظمتها فليس ذلک بمستطاع.

فضل علىّ و امتيازه و خصاله:

رأينا كيف تدخلت السياسة فى تشويه الحقائق، و حمل الناس على مخالفة الواقع بأشكال و ألوان مختلفة، مما أفسد على المجتمع ما صلح، و قامت بسب ذلک فتن و حروب، و ليس ذلک بعجيب، و لكن الأعجب منه حمل من خالف تلک الأوضاع الشاذة، و وقف لجانب الحقيقة على الشذوذ و الانحراف، و أن يصبح غرضا ترشقه سهام التهم بدون تثبت فى الحكم. و تدبر فى الأمر. و قد كانت مسألة التفضيل من أهم الأسباب التى تذرع بها ولاة الأمر للقضاء على المفكرين من الأمة، و جعلتهم

1- 1) الغدير ج 10 ص 3-73.

عرضـة لخطر غضب الرأى العام من الذين أغواهم شـيطان السـياسة الفاسدة ليلقوا بأنفسـهم فى مهاوى الهلكة، حتى أصـبح الأمر بأشد ما يكون من الخطر، و التجأ الكثير إلى الـدفاع عن النفس بالمجاراة للرأى العام الـذى تكيف بسـياسة الدولة بدون تدبر و تفكير. و لو تجردت المسألـة عن ذلک التـدخل لما كان أى شـىء من ذلک، لأن الحقيقة فى جانب، و ما يذهبون إليه فى جانب آخر. و إنما هى أقوال يرددونها اتباعـا لقائليها بـدون تحقيق من صـحتها. و إذا أردنا أن نسألهم عن التطبيق العملى يصـعب عليهم ذلک، و لا يجـدون للإجابـة عن طريق المنطق الصـحيح سبيلا. و أقل قـدر من التجرد من دواعى التقليـد و عوامل التعصب يساعـد فى اكتشاف جـذور إظهار هذه المسألة و دفع الإمام عن مكانته الدينيـة و التاريخيـة، فقريش التى أوصل سـيف على الحزن إلى قلوبها و فجعها بصـناديد الكفر لا تريد ذلک و الأمويون الذين اسـتخذوا تحت أقدام جند النبى عام الفتح و أظهروا الإسـلام تفاقم حقدها الجاهلى و عظم شـركها و لـم تكتف بسـنّة شتم الإمام بل امتـدت أياديها القـذرة إلى العترة الطاهرة قتلا و سبيا و تشـريدا. و إذا استكشـفنا حقيقـة الأمر على ضوء الأحاديث النبوية و الآيات القرآنية الواردة فى فضل على عليه السّلام و اختصاصه بمزايا لـم يشاركه فيها أحد، لوجدنا تلک الآراء التى ذهبوا إليها فى مسألة التفضيل، بعيدة عن الصواب، إذ هى تعطينا صورة واضـحة، لمقام على عليه السّـ لام و أنه أفضل الأمـة لأنها حقائق ملموسة لا يمكن لأحد أن يحيد عنها، فهى تقضـى بأفضـليته على جميع الأمة. كيف؟ و قد ملأ سـمع الدنيا نداء رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يوم غدير خم: «من كنت مولاه فهذا علىّ مولاه، اللهم وال من والاه و عاد من عاداه» و قد رواه جمع من الصـحابة يربو عددهم على المائة (1). و فى حديث الثقلين كفاية للدلالة على علو شأن على و فضله و اختصاصه دون

1- 1) الإمام الصادق و المذاهب الأربعة ج 1. [1]

سائر الصحابة باقترانه مع القرآن فی وجوب الاتباع، فهو مع القرآن و القرآن معه (1). إذا کیف یصح لقائل أن یقول بمساواته لسائر الناس، و عدم امتیازه عنهم بمؤهلات الفضل؟ و لا غرابة فی ذلک بعد أن وقفنا علی الأسباب التی أدت إلی هذا الرأی. أ لعلیّ یقال هذا؟ و هو نفس محمد بنص الوحی الإلهی بقوله تعالی: فَقُلْ تَعالَوْا نَدْعُ أَبْناءَنا وَ أَبْناءَکُمْ وَ نِساءَنا وَ نِساءَکُمْ وَ أَنْفُسَنا وَ أَنْفُسَکُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اَللّٰهِ عَلَی اَلْکاذِبِینَ [آل عمران:61]و دعا النبی علیا و فاطمة و الحسن و الحسین و قال: اللهم هؤلاء أهلی (2). فهو بنص القرآن الکریم نفس النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم، و لو وجد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم نظیرا لعلی علیه السّلام لضمه إلیه، کما صنع فی الحسن و الحسین، إذا لیس فی أمته من یکون نفسه غیر علی. و قد احتج علی یوم الشوری بذلک، فقال لهم: أنشدکم اللّه هل أحد أقرب إلی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی الرحم منی. و من جعله صلّی اللّه علیه و آله و سلّم نفسه، و ابناه أبناءه، و نساءه نساءه غیری؟ قالوا: اللهم لا، و قد أصبح ذلک من المقرر عند الناس و المشهور بینهم، و لم یستطع أحد إنکاره. و لو أصغی إلی قواعد البیان و أدلة اللسان لوضح الحق و بان الهدی و لم تصرف کلمة فی محکم التنزیل و سفر الإعجاز عن دلالتها و معناها کذلک قول اللّه عز و جل: ما کانَ لِأَهْلِ اَلْمَدِینَةِ وَ مَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ اَلْأَعْرابِ أَنْ یَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اَللّٰهِ وَ لا یَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ [التوبة:120]فلو کان المقصود بنفسه هنا النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لاقتضی البیان تعبیرا یتسق مع الإعجاز و البلاغة بضمیر دال علیه صلّی اللّه علیه و آله و سلم، و لکن التصریح بالنهی عن التخلف عن وصی رسول اللّه الإمام علی و هو نفسه کان سبب ذلک. و من حق کتّاب الیوم أن یروا أن بعض مناقب أمیر المؤمنین الإمام علی لم تأخذ مکانها من الاهتمام، أو أن الشیعة لم یجعلوا بعضها بدرجة اهتمامهم فی المناقب الأخری کقضیة مبیت الإمام فی فراش النبی الأعظم التی تعد من أعظم فضائل الإمام و أقوی دلائل الاختصاص بالنبی محمد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و القرب

1- 1) نفس المصدر ج 1. [1]

2- 2) صحیح مسلم ج 5 ص 176 من شرح النووی، و تفسیر الرازی ج 2 ص 488. [2]

منه (1). و لكن ما يؤلم الشيعة و يحز فى نفوس الآخرين من غير الشيعة الذين أبوا الاستسلام و التقليد أن تكون قضية إبراز فضل الإمام على و إظهار مناقبه من اهتمامات الشيعة فحسب، و النظرة البسيطة توضح بجلاء من هو الإمام على و ما دوره فى نصرة الإسلام و حماية نبيه صلّى اللّه عليه و آله و سلم. قام رجل فى مجلس ابن عائشة، فقال: يا أبا عبد الرحمن من أفضل أصحاب رسول اللّه؟ فقال: أبو بكر و عمر و عثمان و عبد الرحمن و طلحة و الزبير. فقال الرجل: فأين على بن أبى طالب؟ فقال ابن عائشة: تستفتينى عن أصحابه أم عن نفسه؟ . فقال الرجل: عن أصحابه. قال: إن اللّه تبارک و تعالى يقول: فَقُلْ تَعالَوْا نَدْعُ أَبْناءَنا وَ أَبْناءَكُمْ وَ نِساءَنا وَ نِساءَكُمْ وَ أَنْفُسَنا وَ أَنْفُسَكُمْ [آل عمران:61]فكيف يكون أصحابه مثل نفسه؟ (2). و قال عبد اللّه بن أحمد بن حنبل: قلت لأبى: ما تقول فى التفضيل؟ قال: فى الخلافة أبو بكر، و عمر، و عثمان. فقلت: فعليّ؟ قال: يا بنيّ على بن أبى طالب من أهل بيت لا يقاس بهم أحد (3). و كان النبى فى مختلف الظروف و شتى المناسبات قد بيّن للناس أن عليا كنفسه، و هو منه بمنزلة رأسه من بدنه (4). كقوله صلّى اللّه عليه و آله و سلم: لينتهين بنو ربيعة، أو لأبعثن إليهم رجلا كنفسى (5). و كقوله صلّى اللّه عليه و آله و سلم: علىّ منى و أنا منه. و يحدث ابن عباس عن أم سلمة أن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم قال: يا أم سلمة على منى و أنا من على، لحمه من لحمى و دمه من دمى و هو منى بمنزلة هرون من موسى.

1- 1) انظر: الإمام على بن أبى طالب لعبد الكريم الخطيب. ط بيروت.

2- 2) البيهقى فى المحاسن ج 1 ص 39. [1]

3- 3) طبقات الحنابلة لابن أبى يعلى ج 2 ص 120. [2]

4- 4) انظر الخطيب البغدادى ج 7 ص 41. [3]

5- 5) الرياض النضرة ص 64. [4]

و كان صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يظهر للملإ فى المواقف العامة فضل على صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أنه كنفسه ففى الحج أشركه فى نحر البدن: و هى الهدى. قال عرفة بن الحرث الكندى: شهدت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أتى بالبدن فقال: «ادعوا لى أبا حسن فدعى له على عليه السّلام فقال صلّى اللّه عليه و آله و سلم: خذ بأسفل الحربة. و أخذ صلّى اللّه عليه و آله و سلم بأعلاها ثم طعنا بها البدن فلما فرغ ركب و أردف عليا عليه السّلام (1). و كان صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يأمر عليا بأن يقوم على البدن و أن يتولى تقسيم لحومها بنفسه (2). و كان صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يخطب الناس فى الحج على ناقته الشهباء و على عليه السّلام يعبر عنه (أى يفهمها الناس) . رواه ابن حجر فى المواهب (3)و أخرجه أبو داود، و النسائى و البغوى و الطبرانى. و النبى الأعظم يرعى عليا كما لو كان يرعى نفسه فى جميع الأحوال، أخرج الطبرانى عن إبراهيم بن رفاعة بن رافع بن مالك بن عجلان الأنصارى عن أبيه عن جده قال: أقبلنا يوم بدر تفقدنا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فنادت الرفاق بعضها بعضا أ فيكم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم؟ فوقفوا حتى جاء رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم معه على بن أبى طالب، فقالوا: يا رسول اللّه: فقدناك، فقال: «إن أبا حسن وجد مغصا فى بطنه فتخلفت عليه» (4). و كثير من هذا الباب الذى يدل بالبرهان القاطع أنه عليه السّلام نفس محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلم و شريكه فى مميزاته و صفاته، إلا ما علم بالضرورة استثناؤه. و كان أصحاب النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يعرفون عليا بتلك المنزلة، و لا يجهلون ذلك الاختصاص. أخرج الطبرى عن ابن عباس: أنه مر بمجلس من مجالس قريش و هم يسبون عليا، فقال لقائده: أ ما سمعت هؤلاء ما يقولون؟ قال: سبوا عليا. قال: فردنى إليهم فرده. فقال: أيكم الساب لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم؟ قالوا: سبحان اللّه من سب رسول اللّه فقد كفر، فقال: أيكم الساب لعلى؟ قالوا: أما هذا فقد كان. قال ابن عباس: فأنا أشهد

1- 1) شرح المواهب اللدنية ج 8 ص 194. [1]

2- 2) البخارى ج 2 ص 201.

3- 3) شرح المواهب ج 8 ص 205. [2]

4- 4) المعجم الكبير ج 5 ص 46.

باللّه لسمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يقول: من سب عليا فقد سبنى، و من سبنى فقد سب اللّه، و من سب اللّه عز و جل أكبه اللّه على منخره (1). و أخرج النسائى عن عبد اللّه الجدلى. قال: دخلت على أم سلمة، فقالت لى: أ يسب رسول اللّه فيكم؟ قلت: سبحان اللّه أو معاذ اللّه. قالت: سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يقول: من سب عليا فقد سبنى (2). فامتياز شخصية على عليه السّلام اقتضت أن يختص بأمور لا يشاركه فيها أحد لذلك كان أخا للنبى من دون أصحابه يوم آخى النبى بينهم و أخذ بيد على فقال: هذا أخى (3). و قالت عائشة لرجل من بنى ضبة-و هو آخذ بخطام جملها-: أين ترى على بن أبى طالب؟ قال: ها هو ذا واقف رافع يده إلى السماء. قالت: ما أشبهه بأخيه. قال الضبى: و من أخوه؟ قالت: رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم. فقال الضبى: فلا أرانى أقاتل رجلا هو أخو رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فنبذ خطام جملها و مال إلى على عليه السّلام (4). و قد أراد اللّه إظهار فضل على، و أراد أن يعرف الناس منزلته فخصصه بتلك المزايا التى لا يمكن حصرها، و كيف تجهل مكانة علىّ و عظيم منزلته فيساوى مع سائر الناس؟ و قد جعل النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حب على علامة الإيمان، و بغضه علامة النفاق بقوله صلّى اللّه عليه و آله و سلم: «يا على لا يحبك إلا مؤمن، و لا يبغضك إلا منافق» و قال على عليه السّلام: «إنه لعهد النبى الأمى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلىّ أنه لا يحبنى إلا مؤمن، و لا يبغضنى إلا منافق» (5). و كان أصحاب النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يعرفون إيمان الإنسان بحبه لعلى، و نفاقه ببغضه له، متخذين من قوله قاعدة مطردة على الدوام فى معرفة الناس، و تمييز الأشخاص. قال أبو سعيد الخدرى: كنا نحن معشر الأنصار نعرف المنافقين ببغضهم على بن أبى طالب (6)و قال جابر بن عبد اللّه الأنصارى: ما كنا نعرف المنافقين إلا ببغضهم عليا (7).

1- 1) الرياض النضرة ج 2 ص 219. [1]

2- 2) الخصائص ص 24 و الرياض النضرة ج 2 ص 219. [2]

3- 3) مصابيح السنة ج 2 ص 203.

4- 4) المحاسن و المساوى للبيهقى ج 1 ص 35. [3]

5- 5) صحيح مسلم شرح النووى ج 1 ص 64 و خصائص النسائى ص 27 و [4]ذخائر العقبى ص 91 و [5]الاستيعاب [6]بهامش الإصابة ج 3 ص 37 و [7]شرح الشفاء للخفاجى ج 3 ص 457.

6- 6) صحيح الترمذى ج 2 ص 299. [8]

7- 7) الذخائر ص 91 و الاستيعاب ج 3 ص 46. [9]

فبنص هذا الحديث الشريف أن محب على مؤمن، و مبغضه منافق. و المنافق هو المؤمن بلسانه و الكافر بجنانه و «إن المنافقين فى الدرک الأسفل من النار» . قال أحمد بن منصور: كنا عند أحمد بن حنبل، فقال رجل: يا أبا عبد اللّه ما تقول فى هذا الحديث الذى يروى أن عليا قال: «أنا قسيم النار» ؟ فقال أحمد: و ما تنكرون من ذا؟ ! أ ليس روينا أن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال لعلى عليه السّلام: «لا يحبک إلا مؤمن و لا يبغضک إلا منافق» قلنا قال: فأين المؤمن؟ قلنا: فى الجنة. قال: و أين المنافق؟ قلنا: فى النار. قال أحمد: فعلىّ قسيم النار (1). و قد امتاز على عليه السّلام على جميع أصحاب محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بأنه نظيره فى الأداء و التبليغ بقوله صلّى اللّه عليه و آله و سلم: لا يؤدى عنى إلا أنا أو رجل منى. و ذلک لما أرسل أبا بكر ليقرأ براءة على أهل مكة، أوحى اللّه إليه أن يرجعه، و يرسل عليا ليقوم مقام النبى فى الأداء، فانصرف أبو بكر كئيبا، فقال لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم: أنزل فىّ شىء؟ ؟ قال: لا، إلا أنى أمرت أن أبلغه أنا أو رجل من أهل بيتى. و فى رواية سعد: لا يؤدى عنى إلا أنا أو رجل منى. و فى رواية أبى هريرة: لا يبلغ غيرى أو رجل منى (2). فالإرسال كان بوحى من اللّه تعالى. و قد رشحه لمقام التبليغ، و وسمه النبى بذلک الوسام، و ميزه بتلک الصفة. كما ميزه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بأنه باب مدينة علمه لما بينهما من المشاركة و المجانسة بقوله: «أنا مدينة العلم و علىّ بابها» (3). قال الهيتمى: رواه جماعة و صححه الحاكم، و حسنه الحافظان العلائى و ابن حجر. و قال ابن حجر فى شرح الهمزية فى تعداد فضائل على عليه السّلام: و منها العلوم التى أشار إليها النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بقوله: «أنا مدينة العلم و على بابها» و فى رواية من أراد العلم فليأت الباب. و فى أخرى عند الترمذى: «أنا دار الحكمة و علىّ بابها» . و فى أخرى عند ابن عدى: «علىّ باب علمى» (4). و قال أيضا: مما يدل على أن اللّه سبحانه و تعالى اختص عليا من العلوم ما تقصر عنه العبارات كقوله صلّى اللّه عليه و آله و سلم: «أقضاكم على» و هو

1- 1) طبقات الحنابلة ج 1 ص 320. [1]

2- 2) الرياض النضرة ج 2 ص 228 و [2]الخصائص ص 20.

3- 3) لهذا الحديث طرق معتبرة صحيحة، و قد أفرد له الشيخ أحمد بن محمد بن الصديق المغربى مؤلفا يقع فى 102 صفحة ذكر فيه طرق الحديث و تعرض لجميع الأقوال فيه.

4- 4) شرح الهمزية ص 302.

حديث لا نزاع فيه. و قوله صلّى اللّه عليه و آله و سلم: «أنا دار الحكمة و علىّ بابها» و قوله صلّى اللّه عليه و آله و سلم: «أنا مدينة العلم و علىّ بابها» (1). و اختص على عليه السّلام بأنه أحب الخلق إليه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أقربهم منه، و وجوب محبته و لزوم اتباعه، و أنه مع الحق و الحق معه، و كان يحل له ما يحل لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يوم أمر النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بسد أبواب أصحابه إلا باب على. أخرج النسائى من طريق زيد بن أرقم: كان لنفر من أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أبواب شارعة فى المسجد، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم: سدوا الأبواب إلا باب على عليه السّلام فتكلم بذلك الناس، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فحمد اللّه و أثنى عليه، ثم قال: أما بعد، فإنى أمرت بسد هذه الأبواب غير باب علىّ. و قال فيه قائلكم: و اللّه ما سددته و لا- فتحته، و لكنى أمرت فاتبعته (2). أخرجه أحمد و الطبرانى و ما ذلك إلا لميزة فى شخص على اقتضت هذا التخصيص. و قد أكبر عمر بن الخطاب هذه الخصلة، و كانت من أهم الخصال التى كان يتمناها، فكان يقول: لقد أوتى ابن أبى طالب ثلاث خصال لئن يكون لى واحدة منهن أحب إلىّ من حمر النعم: زوجه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ابنته، و سد الأبواب إلا بابه فى المسجد، و أعطاه الراية يوم حنين (3). و كم تمنى عمر بن الخطاب بعض ما اختص به على عليه السّلام، كما يحدثنا عن نفسه فى عدة موارد: كيوم خيبر، يوم قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: لأعطين الراية غدا رجلا- يفتح اللّه عليه، يحب اللّه و رسوله، و يحبه اللّه و رسوله. قال عمر بن الخطاب: ما أحببت الإمارة إلا يومئذ (4)، و كان عمر يتعوذ من معضلة ليس لها أبو حسن (5). و لم يشهد المسلمون شخصية برزت فى ذلك العصر بمؤهلات الفضل و الكمال كشخصية الإمام على بن أبى طالب، فلا يستطيع أى أحد أن يتطاول إليها فى الشرف. و قد بذل النبى عنايته فى تربيته، و كان يغمره بالحب و يأمر بحبه، و يوجه الناس إلى

1- 1) انظر ص 303.

2- 2) الخصائص ص 13. و شرح المواهب اللدنية ج 8 ص 253. [1]

3- 3) ذخائر العقبى ص 77. و [2]مسند أبى يعلى ص 251.

4- 4) أخرجه البخارى و مسلم، و الترمذى فى الصحيح، و النسائى فى الخصائص، و غيرهم.

5- 5) الإصابة ج 2 ص 509. [3]

معرفة مميزاته، و صفات الكمال التى اجتمعت فيه، فكان يعلن للملإ بقوله صلّى اللّه عليه و آله و سلم: «أنت منى بمنزلة هرون من موسى، إلا أنه لا نبى بعدى» «على منى و أنا من على و لا يؤدى عنى إلا أنا أو على» أخرجه الترمذى فى صحيحه (1)و النسائى فى خصائصه (2)و غيرهما. «ما تريدون من علىّ إن عليا منى و أنا من على و هو ولى كل مؤمن و مؤمنة» (3). و أخرجه الترمذى بلفظه: «ما تريدون من على ما تريدون من على ما تريدون من على إن عليا منى و أنا منه و هو ولى كل مؤمن من بعدى» (4). «من أحب عليا فقد أحبنى، و من أبغض عليا فقد أبغضنى، و من آذى عليا فقد آذانى، و من آذانى فقد آذى اللّه» (5). «يا على طوبى لمن أحبك و صدق فيك، و ويل لمن أبغضك و كذب فيك» (6). و روى عمار بن ياسر قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم: أوصى من آمن بى و صدقنى بولاية على بن أبى طالب، فمن تولاه فقد تولانى، و من تولانى فقد تولى اللّه، و من أحبه فقد أحبنى، و من أحبنى فقد أحب اللّه، و من أبغضه فقد أبغضنى، و من أبغضنى فقد أبغض اللّه عز و جل، أخرجه الطبرانى فى الكبير و ابن عساكر فى تاريخه (7). و أخرج أحمد رواية الإمام على عليه السّلام: و اللّه إنه مما عهد إلىّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم أنه لا يبغضنى إلا منافق و لا يحبنى إلا مؤمن (8). و نكتفى بهذا البيان الذى لم نقصد به التوسع و الإحاطة لتعذر ذلك، و لكنها إشارة موجزة من حيث الارتباط فى الموضوع، كما و أنا لم نتعرض لذكر الآيات الواردة فى فضل على عليه السّلام مما أجمع المفسرون على أنها نزلت فيه، و قد أفرد

1- 1) الترمذى ج 13 ص 169. [1]

2- 2) الخصائص ص 20.

3- 3) الإصابة لابن حجر ج 2 ص 509. [2]

4- 4) صحيح الترمذى ج 13 ص 165. [3]

5- 5) الاستيعاب ج 3 ص 37 [4] بهامش الإصابة.

6- 6) الرياض النضرة 2 ص 285. [5]

7- 7) كنز العمال ص 145 ج 6.

8- 8) مسند أحمد ج 1 ص 84. [6]

علماء الإسلام-فی فضائله و مناقبه التی اختص بها و امتاز عن سائر الصحابة-مؤلفات کثیرة، عدا ما أودع فی مضامین الکتب التی لا تحصی. و أفرد الحافظ أبو نعیم الأصفهانی کتابا فی بیان ما نزل من القرآن فی علی، و له کتاب الخصائص أیضا. و ألف النسائی و الإمام أحمد و عبد الرحمن السکری و غیرهم کتبا فی مناقب أمیر المؤمنین علیه السّلام التی أختص بها دون سائر الصحابة، و عسی أن تتاح لی الفرصة إلی العودة فی البحث عن حیاة الإمام علی بن أبی طالب، لنقتبس من حیاته نظرة واسعة. و نکتفی هنا بهذه النظرة الخاطفة عن بقیة ممیزاته و صفاته التی یعجز أی أحد عن الإحاطة بها، و إعطائها حقها من البیان، فإن لشخصیته منزلة مرموقة، و ما رسمت ریشة التاریخ فی صفحة الوجود کصورته بعد صاحب الرسالة.

أقوال الصحابة فی علیّ:

و لا بد لنا و نحن فی معرض البحث عن مسألة التفضیل أو مشکلته، من الرجوع لأقوال الصحابة و لمعرفة ما لمسوه من الحقائق فی شخصیة الإمام علی علیه السّلام و امتیازه بتلک الصفات التی اختص بها من بین الأمة. و لنا بذکر أقوال البعض کفایة عن الإحاطة بأقوال الجمیع. لما بویع علی و عادت الخلافة إلیه بعد أن تخطته زمانا، قام خطباء الصحابة فی مجلس البیعة، و تکلموا بما یحق لهم أن یتکلموا فیه: منهم ثابت بن قیس قال (1): و اللّه یا أمیر المؤمنین لئن تقدموک فی الولایة فما تقدموک فی الدین، و لئن کانوا سبقوک إلیها أمس لقد لحقتهم الیوم، و کنت لا یخفی موضعک، و لا تجهل مکانتک، یحتاجون إلیک فیما لا یعلمون، و ما احتجت إلی أحد مع علمک. و قام خزیمة ذو الشهادتین فقال: یا أمیر المؤمنین ما أصبنا لأمرنا هذا غیرک، و لا کان المنقلب إلا إلیک، و لو صدقنا أنفسنا فیک لأنت أقدم الناس إیمانا، و أعلم الناس باللّه، و أولی المؤمنین برسول اللّه، لک ما لهم و لیس لهم ما لک.

1- 1) ثابت بن قیس بن الحطیم بن عدی الأنصاری، توفی فی خلافة معاویة شهد مع النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم وقعة أحد و ما بعده من المشاهد، و استعمله علی علیه السّلام علی المدائن و شهد معه حروبه، و قد نسب بعض المؤرخین هذه الکلمة لثابت بن شماس الأنصاری خطیب الأنصار، و هو اشتباه؛ لأن الشماس قتل یوم الیمامة سنة اثنتی عشرة فی خلافة أبی بکر.

و قام صعصعة بن صوحان فقال: و اللّه يا أمير المؤمنين لقد زينت الخلافة و ما زانتک، و رفعتها و ما رفعتک، و لهی إليک أحوج منک إليها. و قام مالک بن الحرث فقال: أيها الناس هذا وصی الأوصياء، و وارث علم الأنبياء، العظيم البلاء، الحسن العناء، الذی شهد له کتاب اللّه بالإيمان، و رسوله بجنة الرضوان، من کملت فيه الفضائل، و لم يشک فی سابقته و علمه و فضله الأوائل و لا الأواخر. و قام عقبة بن عمر فقال: من له يوم کيوم العقبة، و بيعة کبيعة الرضوان و الإمام الأهدی الذی لا يخاف جوره. و العالم الذی لا يخاف جهله (1). و تتابع الخطباء و الشعراء فی ذلک اليوم، و بما لا يتسع المجال لذکره و لا يمکن الإحاطة بجميع أقوالهم فی علیّ بشتی المناسبات، و مختلف المقامات. و علی الإجمال، فإن أصحاب محمد صلّی اللّه عليه و آله و سلّم کانوا يعترفون لعلی بالفضل الذی لا يتطاول إليه أحد، و يرجعون إليه فی مهماتهم، و يحدثون بفضله، و علو منزلته. فهذا أبو بکر کان يکثر النظر إلی وجه علی، فقالت له عائشة: يا أبة إنک لتديم النظر إلی وجه علی، فقال: يا بنيه سمعت رسول اللّه صلّی اللّه عليه و آله و سلّم يقول: النظر إلی وجه علیّ عبادة. أخرجه ابن السمان فی الموافقة. و أخرج أبو الحسن الحربی مثله عن عبد اللّه بن مسعود، و الأبهری عن عمرو بن العاص مثله. و اشتهرت عن أبی بکر أحاديث کثيرة فی فضله کما اشتهر عنه رجوعه إليه فی أهم المسائل. و هذا الخليفة الثانی کان يعترف بعلم علی و أفضليته. و جاءت عنه أقوال کثيرة فی ذلک: منها أنه قال لرجل: لا تذکر عليا إلا بخير فإنک إن تنقصه آذيت صاحب هذا القبر فی قبره-يعنی رسول اللّه صلّی اللّه عليه و آله و سلم-خرجه أحمد فی المناقب و ابن السمان فی الموافقة (2). و قال: أقضانا علیّ. أخرجه الحافظ السلفی (3)و فی لفظ ابن عبد البر أنه قال: علیّ أقضانا. أخرجه عن ابن عباس (4).

1- 1) تاريخ اليعقوبی ج 2 ص 155. [1]

2- 2) الرياض النضرة 220 ج 2. [2]

3- 3) الذخائر ص 83.

4- 4) الاستيعاب ج 3 ص 39. [3]

و قال سعید بن المسیب: کان عمر یتعوذ من معضلة لیس لها أبو الحسن. و قال فی المجنونة التی أمر عمر برجمها، و فی التی وضعت لستة أشهر فأراد عمر رجمها فقال له علی علیه السّلام: «إن اللّه تعالی یقول: وَ حَمْلُهُ وَ فِصالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً. . . [الأحقاف:15]» . و قال فی المجنونة: «رفع القلم عن المجنون. . . الحدیث» فکان عمر یقول: لو لا علیّ لهلک عمر. و قال أذینة العبدی: أتیت عمر بن الخطاب، فسألته من أین أعتمر؟ فقال: ائت علیّ بن أبی طالب فاسأله. و قال له: ما أجد لک إلا ما قال علی علیه السّلام (1)و أقواله فی علی کثیرة منها: قوله: لا یفتین أحد فی المسجد و علی حاضر. و قوله: اللهم لا تبقنی لمعضلة لیس لها ابن أبی طالب. و قوله: اللهم لا تنزل بی شدیدة، إلا و أبو الحسن إلی جنبی. و قوله: کاد یهلک ابن الخطاب، لو لا علی بن أبی طالب. و قوله: عجزت النساء أن تلدن مثل علی بن أبی طالب. و قوله: ردوا قول عمر إلی علی علیه السّلام، لو لا علی لهلک عمر. و قوله: یا ابن أبی طالب، فما زلت کاشف کل شبهة، و موضع کل علم. قال ابن الأثیر فی أسد الغابة: و لو ذکرنا ما سأله الصحابة به مثل عمر و غیره رضی اللّه عنهم لأطلنا (2). و جاء رجل إلی معاویة بن أبی سفیان فسأله عن مسألة، فقال: سل عنها علی بن أبی طالب، فهو أعلم. قال: یا أمیر المؤمنین جوابک فیها أحب إلیّ من جواب علی. قال: بئس ما قلت. لقد کرهت رجلا کان رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یغزره بالعلم.

1- 1) الاستیعاب ج 2 ص 43. [1]

2- 2) راجع الاستیعاب لابن عبد البر و شرح الهمزیة لابن حجر. و تأویل مختلف الحدیث لابن قتیبة. و الفتح لأحمد بن محمد الصدیق. و الغدیر للأمینی [2]تجد هذه الأقوال الواردة عن عمر.

غزارا و لقد قال له: أنت منی بمنزلة هرون من موسی إلا أنه لا نبی بعدی، و کان عمر إن أشکل علیه شیء أخذه منه. أخرجه أحمد بن حنبل فی المناقب (1). و قال ابن عباس: لعلی أربع خصال لیست لأحد غیره: هو أول عربی و عجمی، صلی مع رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و هو الذی کان لواؤه معه فی کل زحف. و هو الذی صبر معه یوم فرّ غیره. و هو الذی غسله و أدخله قبره. أخرجه أبو عمر. و لما حضرته الوفاة، قال: اللهم إنی أتقرب إلیک بولایة علی بن أبی طالب. خرجه أحمد فی المناقب (2). و قیل له: أین علمک من علم ابن عمک؟ فقال: کنسبة قطرة من المطر إلی البحر المحیط (3). و قال ابن مسعود: أقضی أهل المدینة علی بن أبی طالب (4). و قال سعد بن أبی وقاص-عند ما طلب منه معاویة أن یسب علیا-: أما ما ذکرت ثلاثا قالهن له رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فلن أسبه، لئن تکون لی واحدة منهم أحبّ إلیّ من حمر النعم: سمعت رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یقول له: «أ ما ترضی أن تکون منی بمنزلة هرون من موسی. . .» . و کانت عائشة تقول: علی أعلم الناس بالسنة (5). و دخل علیها جابر بن عبد اللّه الأنصاری، فقال لها: ما تقولین فی علی فأطرقت رأسها ثم رفعته فقالت: إذا ما التبر حک علی محک تبین غشه من غیر شک

و فینا الغش و الذهب المصفی علی بیننا شبه المحک

(6)و قال معاویة بن أبی سفیان: لما بلغه قتل الإمام علی علیه السّلام: لقد ذهب العلم

1- 1) الریاض النضرة ج 2 ص 257. [1]

2- 2) الریاض النضرة ج 2 ص 227. [2]

3- 3) شرح النهج ج 2 ص 6. [3]

4- 4) الاستیعاب ج 3 ص 41. [4]

5- 5) الاستیعاب بهامش الإصابة ج 3 ص 40. [5]

6- 6) الفصول المهمة لابن الصباغ المالکی ص 193. [6]

و الفقه بموت ابن أبی طالب. و سئل عطاء: أ کان فی أصحاب محمد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أحد أعلم من علی قال: و اللّه ما أعلمه (1). إلی کثیر مما لا یصعب علی المتتبع الوقوف علیه لاستجلاء الحقائق منه. و إظهار ما خفی علی کثیر من السذج و البسطاء الذین استولت علی شعورهم الدعایات الکاذبة و الأقوال الفارغة. و علی أی حال، فإن مسألة التفضیل لم تقم علی سند من العلم و البحث أو التفکیر السلیم، و لم یکن هناک دلیل إقناعی أو برهان قاطع، بل المسألة تعود لآراء ذوی السلطة کما تقدم بیانه. و إن الإجماع المدعی لم یحصل إلا فی زمن أحمد بن حنبل فی عهد المتوکل (2)و قد کانت بشکل حتمی لا ترجع للواقع من حیث هو، و إذا رجعنا لذلک بدون تحیز و تعصب، بل یترک الأمر و حریة الرأی، و یجری البحث علی ضوء الأدلة و الدراسات الصحیحة الخالیة من نزعة التعصب و الهوی، و تدخل السیاسة لما کان أی شیء و لم یحصل الاختلاف فی أفضلیة علی علیه السّلام علی جمیع الأمة، کما علیه السلف و أکثر علماء الإسلام، و لکن التدخل فی الآراء و المعتقدات من قبل ولاة الأمر أوجد تلک المشاکل، و سلب الناس حریة الرأی، لذلک أصبح الکثیر منهم یتکتم فی إبداء رأیه لما وراء ذلک من الخطر، کما تحامی أکثر المحدثین ذکر فضائل علی و أهل بیته، و ترکوا الروایة عنهم. و یذکر ابن حجر القول فی ذلک: و کان سبب ذلک بغض بنی أمیة، فکان کل من کان عنده علم من شیء من مناقبه من الصحابة یثبته و کلما أرادوا إخماده و هددوا من حدّث بمناقبه لا یزداد إلا انتشارا (3). و یحدثنا الخطیب البغدادی. أن نصر الجهضمی المتوفی سنة 250 ه-حدث عن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنه: أخذ بید حسن و حسین فقال: «من أحبنی و أحب هذین و أباهما و أمهما کان معی فی درجتی یوم القیامة» فلما حدث بهذا الحدیث أمر المتوکل بضربه ألف سوط، فکلمه جعفر بن عبد الواحد و جعل یقول للمتوکل: هذا رجل من أهل السنة و لم یزل به حتی ترکه.

1- 1) کتاب ألف باء للبلوی 1 ص 222. [1]

2- 2) الاستیعاب ج 3 ص 54.

3- 3) الإصابة ج 2 ص 59. [2]

قال الخطيب البغدادى: إنما أمر المتوكل بضربه لأنه ظنه رافضيا، فلما علم أنه من أهل السنة تركه (1). و من هذا نعرف عظيم الخطر الذى تلاقيه الشيعة أو الروافض، كما يقولون، فقد أصبح فى عرف أهل ذلک العصر أن من روى منقبة لعلى و أهل بيته يعد رافضيا، و كم اتهم بذلک من العلماء فأصبحوا عرضة للبلاء، و محلا للنقمة، و ما أكثر الشواهد على تأثر المجتمع بتلک النزعة السياسية، فلا نستغرب تلک الأقوال التى كان يتخذها أصحابها ضد أهل البيت و شيعتهم وسيلة للنجاة و طريقا لاستمالة قلوب ولاة الأمر إرضاء لهم، و إن غضب اللّه عليهم بما يفترون.

خلاصة البحث فى مسألة التفضيل:

هذا ما تعلق الغرض ببيانه حول مسألة التفضيل. بعد أن وقفنا على رأى مالک بن أنس و انفراده برأى يبعث على الاستغراب، فلا حاجة لنا فى الاستمرار برده و مناقشته بعد معرفة الأسباب التى دعت لذلک (2)، و إلا- كيف يتساوى علىّ مع سائر الناس؟ بعد اختصاصه بمزيد فضل و علو منزلة لا يدانيه أحد. فقد رباه النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى حجره و نشأ فى ظلمه، و تغذى تعاليمه منه، و نمت مواهبه فى تربيته، فتأدب بآدابه، و تخلق بأخلاقه، و اهتدى بهداه، و لازمه طول حياته، و سبق إلى تصديقه فى الرسالة قبل كل أحد، و لبى دعوته فى مؤازرته يوم نزلت: وَ أَنْذِرْ عَشِيرَتَکَ اَلْأَقْرَبِينَ [الشعراء: 214]و فداه بنفسه يوم أزمع كفار قريش على قتله و أمره اللّه بالهجرة (3)و اختص النبى بمؤاخاته من بين أصحابه يوم آخى بينهم، فأخذ بيد على و قال: هذا أخى (4)و ذلک على سبيل المشاكلة و المجانسة. و على نفس محمد بنص القرآن الكريم، و هو منه بمنزلة رأسه من بدنه. و هو أعلم الأمة و أقضاهم و أقربهم و أشدهم جهادا. قال أبان بن عياش: سألت الحسن البصرى عن على عليه السّلام فقال ما أقول فيه؟ كانت له السابقة و الفضل و العمل، و الحكمة و الفقه، و الرأى و الصحبة و النجدة و البلاء

1- 1) تاريخ بغداد ج 13 ص 287. [1]

2- 2) سنلتقى فى الجزء الثامن مع مالک فى تكملة البحث عن رؤساء المذاهب.

3- 3) سيرة ابن هشام ج 2 ص 95.

4- 4) كنز العمال و الرياض النضرة و تذكرة الخواص و غيرها.

و الزهد و القضاء و القربة إلى أن قال: و قد قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم لفاطمة عليه السّلام: زوجتک خير أمتى، فلو كان فى أمته خيرا منه لاستثناه، و لقد آخى رسول اللّه بين أصحابه، فآخى بين علىّ و نفسه فرسول اللّه خير الناس نفسا و خيرهم أخا (1). و سأله رجل عن على أيضا، و كان يظن بالانحراف عنه، فقال: ما أقول فى من جمع الخصال الأربع؟ ائتمانه على براءة، و ما قاله له فى غزوة تبوک، فلو كان غير النبوة شىء يفوته لاستثناه، و قول النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم: الثقلان كتاب اللّه و عترتى، و أنه لم يؤمر عليه أمير قط. و قد أمرت الأمراء على غيره. و قال عبد اللّه بن أحمد بن حنبل: اجتمعت جماعة عند أبى، فخاضوا فى الخلافة، فرفع أبى رأسه، و قال: يا هؤلاء قد أكثرتم القول فى على و الخلافة. إن الخلافة لم تزين عليا. بل علىّ زانها. و عن عبد اللّه أيضا، قال: سمعت أبى يقول: ما ورد لأحد من الصحابة من الفضائل بالأسانيد الصحاح مثل ما ورد لعلى عليه السّلام (2). و لسنا بحاجة إلى ذكر أقوال التابعين و غيرهم من العلماء فى مدح علىّ و فضله. و نكتفى بهذه النظرة الخاطفة و لا يمكن التوسع فى ذلک. و قصارى القول فى مسألة التفضيل: أنها أهم مسألة و أعظم مشكلة. و قد اتخذها-خصوم الشيعة فى عصر احتدام النزاع بين الطوائف-ذريعة للوقوع فيهم، و الطعن فى عقائدهم، و أصبحوا بتقديمهم عليا عليه السّلام مبتدعة لا تحل الرواية عنهم، و هم-فى نظر طائفة من السلف-كفار لا يجوز الأخذ عنهم (3). و قالوا: إن من يقدم عليا على عثمان فهو من أهل البدع. و إنه لمما يثير الأسى و الشجون أن يضطر المسلم إلى النقاش و إيراد الأدلة و الحجج فى هذه المسألة التى تتظافر على تأكيدها الحقائق التاريخية و الشرعية و من المؤلم أن ينساق مسلم إلى ما اختلقته الأغراض و ادّعته القوى التى هدم الإسلام عزّها فى الجاهلية و نالها على يد الإمام على ما نالها من ويلات و ليسأل من استسلم

1- 1) ابن أبى حديد ج 1 ص 369. [1]

2- 2) مناقب أحمد لابن الجوزى ص 163.

3- 3) الكفاية للخطيب البغدادى ص 48.

للاختلاقات و الادعاءات ما للغير فی أن یحتل علی ما أراده اللّه له و رسوله؟ و لو أن قریشا تخلت عن أحقادها و لم تخضع للموتورین منها هل ستکون هذه القضیة بمثل هذه الخطورة و المشکلة بمثل هذه الصورة و تصبح من المرتکزات. لکنها الجاهلیة التی استسلمت للإسلام لتسلم رءوسها و کانت أمیة تقودها، و بواعث الملک و التسلط لذلک کان قول أحمد بن حنبل و قد سأله ولده عن علی و معاویة: «اعلم أن علیا کان کثیر الأعداء ففتش له أعداؤه شیئا فلم یجدوا فجاءوا إلی رجل قد حاربه و قاتله فأطروه کیدا منهم له» (1). و فی قوله ما یصف سنة العداء التی اتبع بها العباسیون أسلافهم من الحکام و جهود زبانیتهم. هذا ما أردنا بیانه حول مسألة التفضیل التی هی من أهم المشاکل- کما قدمنا- و بیان رأی مالک بن أنس، و بهذا تنتهی دراستنا لحیاة مالک، و بیان آرائه، و لنا عودة للبحث عنه إن شاء اللّه فی الأجزاء القادمة. و حیث کنا علی موعد مع القراء-فی آخر الجزء الأول-بأن نتعرض للبحث عن اتهام الشیعة فی الطعن علی جمیع الصحابة، أو تکفیرهم أجمع (و العیاذ باللّه) . و لمناسبة الموضوع نتحول لموضوع الشیعة و الصحابة و سنتعرض لما أثیر حول الشیعة من زوابع التهم و ما لفقه خصومهم من ادعاءات کاذبة و أقوال فارغة، و من اللّه نطلب التسدید، و هو ولی التوفیق.

1- 1) انظر شرح الهمزیة لابن حجر الهیتمی ص 239.

الشيعة و الصحابة

تمهيد:

إن موضوع الحديث عن عقيدة الشيعة فى الصحابة هو أهم موضوع نريد أن نتحدث عنه، و كان بودنا التجنب عن ذلک و لكن من شرط هذا الكتاب هو التعرض لكل ما له علاقة بمذهب أهل البيت، و سائر المذاهب فإن هذه المسألة من أهم المسائل التى كانت ذريعة لمعارضة مذهب أهل البيت و انتشاره. فقد نسبوا إلى الشيعة ما لا يتفق مع الواقع فى اعتقادهم حول الصحابة. و تقولوا عليهم بأنهم (أى الشيعة) يكفرون جميع الصحابة-و العياذ باللّه-و أنهم لا يعتمدون على أحاديثهم، و يطعنون فيهم إلى غير ذلک. و جعلوا ذلک أساسا لقاعدة بنوا عليها الحكم بالزندقة و حلية إراقة الدماء فقالوا: من طعن فى الصحابة فقد طعن على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم، و من طعن على رسول اللّه فهو زنديق. و قالوا: إذا رأيت الرجل ينتقص أحدا من أصحاب محمد فاعلم أنه زنديق، و جعلوا الخوض فيما جرى بين الصحابة و حرية الرأى فى مناقشتهم هو انتقاص لهم. فلندرس هذا الموضوع بدقة، و رجاؤنا معقود على إيلاء هذه الدراسة جل عنايتها، و إعطائها وجهة النظر بصورة خاصة، لأن اتهام الشيعة بسب الصحابة، و تكفيرهم أمر عظيم، و معضلة شديدة اتخذها خصوم أهل البيت وسيلة للقضاء على مبادئهم و انتشار مذهبهم، عند ما بان عجزهم عن اللحوق بهم. و قد تدخل الدخلاء و أعداء الإسلام فى اتساع شقة الخلاف بين صفوف الأمة ليجدوا طريقهم لبث آرائهم الفاسدة، حتى أصبح من المقرر فى تلک العصور تكفير الشيعة و إبعادهم عن ذلک المجتمع، كل ذلک مبعثه آراء السلطة و أغراضها التى قضت على الأمة بكبت الشعور،

و كم الأفواه و سلب الأفراد حرية الرأى لأن الجمود الفكرى هو الذى يخدم مصالحهم، عند ما حاولوا ربط العقائد بالدولة و إناطة الآراء بما تراه السلطة لا غير، و فرضوا ربط التعليم بهم، و ضربوا سلطانهم على بعض العلماء، و وجهوهم حيث شاءت إرادتهم، إلى غير ذلک من المحاولات التى كانوا يقصدون بها القضاء على أهل البيت و معارضة مذهبهم و لكن شاء اللّه أن تذهب تلک المحاولات أدراج الرياح، و يبقى ذكر أهل البيت على ممر الدهور و الأعوام، و لم تقف تلک الدعايات الكاذبة و التهم المفتعلة أمام انتشاره، و إن اتهام الشيعة بسب الصحابة و تكفيرهم أمر عظيم حاول خصومهم فيه تشويه سمعتهم، لأنهم خصوم الدولة و أنصار أهل البيت و نحن لا نريد أن نرغم خصوم الشيعة على الاعتراف بالأخطاء التى ارتكبوها فى تعبيرهم عنهم بعبارات التهجم التى تشمئز منها النفوس، و تنفر منها الطباع. و لا نريد منهم أن يغالطوا أنفسهم فى مجاراتهم للأوضاع الحاضرة. و لا نريد منهم أن يتركوا الخطأ الذى وقفوا عليه فى زاوية الإهمال، و لا إسدال الستر على العيوب التى عثروا عليها فى المجتمع الشيعى. و النقص الذى لمسوه. و لكنا نريد منهم أن لا يكذبوا أو يتقولوا. و نريد منهم أن يتحرروا من تقليد أقوام أعمتهم المادة و أخضعتهم السلطة، فحملتهم على الافتعال و الأكاذيب. و نريد منهم أن يصرحوا لنا بلغة العلم و المنطق الصحيح عن الأمور التى استوجبت أن يرتكبوا من الشيعة ما ارتكبوه، و ليحاسبوا أنفسهم قبل يوم الحساب، إن أهملوا محاسبة الوجدان و الضمير الحر. و نريد منهم أن يصرحوا لنا عن نقاط الضعف التى وقفوا عليها فيما تدعيه الشيعة فأباحت لهم ذلک التهجم، و ليقولوا بكل صراحة فإنا نتقبل قول الحق، و لا يهم الشيعة أقوال أهل التهريج و الهوس، و لا يعبئون بأقلام المستأجرين من قبل أعداء الإسلام الذين عظم عليهم انتشاره و أخضعهم بقوة برهانه، و أعطوا الجزية عن يد و هم صاغرون، فالتجئوا إلى لغة الدس و الخيانة. و نريد منهم أن يتنبهوا رويدا إلى التباين بين ما يدعونه أو يفتعلونه على الشيعة و بين الواقع. و نريد من الباحث أن يتحرى ببحثه الدقة و التمحيص و أن يتثبت قبل الحكم، و أن يعرف الخطر الذى ينجم من وراء ذلک، فقد بلغ الأمر إلى أشد ما يكون من الخطورة.

و من المؤلم أن تروج هذه الدعايات المغرضة أو الأكذوبة الكبرى فتصبح من الأمور المسلمة بها لا تحتاج إلى نقاش، و الواقع أن اتهام الشيعة كان سياسيا قائما على مخالفة الواقع و إنكار الحقائق و الجهل الفاضح. >الشيعة و الصحابة: < نحن أمام مشكلة كبرى، وقف التاريخ أمامها ملجما و اختفت الحقيقة فيها وراء ركام من الادعاءات الكاذبة، و الأقوال الفارغة فالتوت الطرق الموصلة إليها. كما أثيرت حولها زوابع من المشاكل و الملابسات. و لم تعالج القضية بدراسة علمية ليبدو جوهر المسألة واضحا و تظهر الحقيقة كما هى. و على أى حال فقد تولع كثير من المؤرخين بذم الشيعة، و نسبت أشياء إليهم بدون تثبت، فهم يكتبون بدون قيد و شرط، و يتقولون بدون وازع دينى أو حاجز وجدانى، و قد اتسعت صدور الشيعة لتحمل أقوالهم، بل تقولاتهم كما اتسعت سلة المهملات لقبر شخصياتهم، و ترفعوا عن المقابلة بالمثل، و إن أهم تلك التهم هى مسألة الصحابة و تكفيرهم (و العياذ باللّه) مما أوجب أن يحكم عليهم بالكفر و الخروج عن الإسلام كما يأتى بيانه. قال السيد شرف الدين: «إن من وقف على رأينا فى الصحابة علم أنه أوسط الآراء إذ لم نفرط فيه تفريط الغلاة الذين كفروهم جميعا، و لا أفرطنا إفراط الجمهور الذين وثقوهم جميعا، فإن الكاملية و من كان فى الغلو على شاكلتهم قالوا: بكفر الصحابة كافة، و قال أهل السنة بعدالة كل فرد ممن سمع النبى أو رآه من المسلمين مطلقا، و احتجوا بحديث «كل من دب أو درج منهم أجمعين أكتعين» . أما نحن فإن الصحبة بمجردها و إن كانت عندنا فضيلة جليلة لكنها بما هى من حيث هى غير عاصمة، فالصحابة كغيرهم من الرجال، فيهم العدول و هم عظماؤهم و علماؤهم، و فيهم البغاة و فيهم أهل الجرائم من المنافقين، و فيهم مجهول الحال، فنحن نحتج بعدولهم و نتولاهم فى الدنيا و الآخرة. أما البغاة على الوصى و أخى النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و سائر أهل الجرائم كابن هند، و ابن النابغة، و ابن الزرقاء، و ابن عقبة، و ابن أرطاة، و أمثالهم فلا كرامة لهم و لا وزن لحديثهم، و مجهول الحال نتوقف فيه حتى نتبين أمره.

هـذا رأينا فى حملـة الحـديث من الصـحابة و الكتاب و السـنة بنينا على هذا الرأى كما هو مفصل فى مظانه من أصول الفقه. لكن الجمهور بالغوا فى تقديس كل من يسـمونه صـحابيا حتى خرجوا عن الاعتدال، فاحتجوا بالغث منهم و السـمين، و اقتدوا بكل مسلم سمع من النبى صلّى اللّه عليه و آله و سـلّم أو رآه اقتـداء أعمى، و أنكروا على من يخالفهم فى هذا الغلو، و خرجوا فى الإنكار على كل حد من الحدود. و ما أشد إنكارهم علينا حين يروننا نرد حديث كثير من الصـحابة مصـرحين بجرحهم أو بكونهم مجهولى الحال عملا بالواجب الشـرعى فى تمحيص الحقـائق الدينيـة و البحث عن الصـحيح من الآثار النبويـة. و بهـذا ظنوا بنا الظنون فاتهمونا بما اتهمونا رجما بالغيب و تهافتا على الجهـل. و لو ثابت إليهم أحلامهم و رجعوا إلى قواعـد العلم لعلموا أن أصالـة العدالـة فى الصـحابة مما لا دليل عليها، و لو تـدبروا القرآن الحكيم لوجدوه مشحونا بذكر المنافقين منهم. و حسبک منه سورة التوبة و الأحزاب. . .

مسألة الصحابة:

اشارة

و على أى حال فإن فروض المسألـة ثلاثة: الأول: أن الصـحابة كلهم عدول أجمعين، و ما صدر منهم يحتمل لهم، و هم مجتهدون. و هذا هو رأى الجمهور من السـنة. الثـانى: أن الصـحابة كغيرهم من الرجـال و فيهم العـدول، و فيهم الفساق، فهم يوزنون بأعمالهم، فالمحسـن يجازى لإحسانه، و المسـىء يؤخـذ بإساءته. و هذا رأى الشـيعة. الثالث: أن جميع الصـحابة كفار-و العياذ باللّه-و هذا رأى الخارجين عن الإسلام و لا يقوله إلا كافر، و ليس من الإسلام فى شىء. هذه ثلاثة فروض للمسألة و هنا لا بد أن نقف مليا لنفحص هذه الأقوال: أما القول الثالث فباطل بالإجماع و لم يقل به إلا أعداء الإسـلام أو الدخلاء فيه. و أما القول الأول و هو أشبه شىء بادعاء العصمة للصحابة، أو سقوط التكاليف عنهم، و هذا شـىء لا يقره الإسـلام، و لا تشمله تعاليمه. بقى القول الوسط و هو ما تذهب إليه الشيعة، من اعتبار منازل الصحابة حسب الأعمال، و درجة الإيمان و ذلک:

إن الصحبة شاملة لكل من صحب النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أو رآه أو سمع حدیثه، فهی تشمل المؤمن و المنافق، و العادل و الفاسق، و البر و الفاجر، کما یدل علیه قول النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی غزوة تبوک عند ما أخبره جبرئیل بما قاله المنافقون: إن محمدا یخبر بأخبار السماء و لا یعلم الطریق إلی الماء، فشکا ذلک إلی سعد بن عبادة فقال له سعد: إن شئت ضربت أعناقهم. قال صلّی اللّه علیه و آله و سلم: «لا یتحدث الناس أن محمدا یقتل أصحابه و لکن نحسن صحبتهم ما أقاموا معنا» . فالصحبة إذن لم تکن بمجردها عاصمة تلبس صاحبها ابراد العدالة، و إنما تختلف منازلهم و تتفاوت درجاتهم بالأعمال. و لنا فی کتاب اللّه و أحادیث رسوله صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کفایة عن التمحل فی الاستدلال علی ما نقوله، و الآثار شاهدة علی ما نذهب إلیه، من شمول الصحبة و إن فیهم العدول من الذین صدقوا ما عاهدوا اللّه علیه، و رسخت أقدامهم فی العقیدة، و جری الإیمان فی عروقهم، و أخلصوا للّه فکانوا بأعلی درجة من الکمال، و قد وصفهم اللّه تعالی بقوله: أَشِدّاءُ عَلَی اَلْکُفّارِ رُحَماءُ بَیْنَهُمْ تَراهُمْ رُکَّعاً سُجَّداً یَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اَللّهِ وَ رِضْواناً سِیماهُمْ فِی وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ اَلسُّجُودِ ذلِکَ مَثَلُهُمْ فِی اَلتَّوْراةِ وَ مَثَلُهُمْ فِی اَلْإِنْجِیلِ کَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوی عَلی سُوقِهِ یُعْجِبُ اَلزُّرّاعَ لِیَغِیظَ بِهِمُ اَلْکُفّارَ وَعَدَ اَللّهُ اَلَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّالِحاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَ أَجْراً عَظِیماً (1). و هم المؤمنون: اَلَّذِینَ آمَنُوا بِاللّهِ وَ رَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ یَرْتابُوا وَ جاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فِی سَبِیلِ اَللّهِ أُولئِکَ هُمُ اَلصّادِقُونَ (2). و قد أمر اللّه تعالی باتباعهم و الاقتداء بهم بقوله تعالی: یا أَیُّهَا اَلَّذِینَ آمَنُوا اِتَّقُوا اَللّهَ وَ کُونُوا مَعَ اَلصّادِقِینَ ، وَ اَلسّابِقُونَ اَلْأَوَّلُونَ مِنَ اَلْمُهاجِرِینَ وَ اَلْأَنْصارِ وَ اَلَّذِینَ اِتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسانٍ رَضِیَ اَللّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ وَ أَعَدَّ لَهُمْ جَنّاتٍ تَجْرِی تَحْتَهَا اَلْأَنْهارُ خالِدِینَ فِیها أَبَداً ذلِکَ اَلْفَوْزُ اَلْعَظِیمُ (3). هؤلاء هم أصحاب محمد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و من یستطیع أن یقول فیهم ما لا یرضی اللّه تعالی و یخالف قوله.

1- 1) سورة الفتح، آیة:29. [1]

2- 2) سورة الحجرات، آیة:15. [2]

3- 3) سورة التوبة، آیة:119-100. [3]

شمول الصحبة و مميزاتها:

اشارة

كما أن الصحبة تشمل من مردوا على النفاق، و الذين ابتغوا الفتنة من قبل و قلبوا لرسول اللّه الأمور، و أظهروا الغدر، حتى جاء الحق و ظهر أمر اللّه و هم كارهون. و فيهم من كان يؤذى رسول اللّه و قد وصفهم اللّه بقوله: وَ مِنْهُمُ اَلَّذِينَ يُؤْذُونَ اَلنَّبِيَّ وَ يَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ (1)، إِنَّ اَلَّذِينَ يُؤْذُونَ اَللّهَ وَ رَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اَللّهُ فِي اَلدُّنْيا وَ اَلآخِرَةِ وَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذاباً مُهِيناً ، وَ اَلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اَللّهِ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ . و فيهم المخادعون و الذين يظهرون الإيمان و قد وصفهم اللّه تعالى بقوله: وَ مِنَ اَلنّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنّا بِاللّهِ وَ بِالْيَوْمِ اَلآخِرِ وَ ما هُمْ بِمُؤْمِنِينَ. يُخادِعُونَ اَللّهَ وَ اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ ما يَخْدَعُونَ إِلاّ أَنْفُسَهُمْ وَ ما يَشْعُرُونَ (2)، وَ إِذا لَقُوا اَلَّذِينَ آمَنُوا قالُوا آمَنّا وَ إِذا خَلَوْا إِلى شَياطِينِهِمْ قالُوا إِنّا مَعَكُمْ إِنَّما نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُنَ (3). وَ مِنْهُمْ مَنْ عاهَدَ اَللّهَ لَئِنْ آتانا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَ لَنَكُونَنَّ مِنَ اَلصّالِحِينَ. فَلَمّا آتاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَ تَوَلَّوْا وَ هُمْ مُعْرِضُونَ. فَأَعْقَبَهُمْ نِفاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِما أَخْلَفُوا اَللّهَ ما وَعَدُوهُ وَ بِما كانُوا يَكْذِبُونَ (4). و الحاصل أن الصحبة منزلة عظيمة، و فضيلة جليلة، و هى بعمومها تشمل من امتحن اللّه قلبه للإيمان، و أخلص للّه، و جاهد و ناصر، و من رقى درجة الكمال النفسانى. فكان مثالا لمكارم الأخلاق، و هم يخشون اللّه و يمتثلون أوامره، كما وصفهم تعالى بقوله: إِنَّمَا اَلْمُؤْمِنُونَ اَلَّذِينَ إِذا ذُكِرَ اَللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَ إِذا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آياتُهُ زادَتْهُمْ إِيماناً وَ عَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ. اَلَّذِينَ يُقِيمُونَ اَلصَّلاةَ وَ مِمّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ. أُولئِكَ هُمُ اَلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ (5). كما أنها لم تشمل من لم يدخل الإيمان قلبه يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ ما لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ (6).

1- 1) سورة التوبة، آية:61. [1]

2- 2) سورة البقرة، الآيتان:8 و 9. [2]

3- 3) سورة البقرة، آية:14. [3]

4- 4) سورة التوبة، الآيات:75-77. [4]

5- 5) سورة الأنفال، الآيات:2-3-4. [5]

6- 6) سورة الفتح، آية:11. [6]

و من الحقيقة، التى تتجلى بسهولة لكل من نزع عن عينيه التعصب و تمرد على تأثير الدعايات و إيحاءات الباطل، أن شروط الصحبة و صفات المؤمن التى نص عليها القرآن و خصائص القرب من الرسول الأعظم لم تكن تشمل كل أفراد عصر الرسالة، فإن المغالاة فى التعميم تقوم على غرض لا- يختلف فى شىء عن الغرض الذى أعيا الحكام الظلمة تحقيقه و هم يواجهون أهل البيت بمكانتهم و عظيم منزلتهم بين الناس باعتبار الأئمة منهم أهل الولاية الشرعية و نواب صاحب الرسالة و الأوصياء المؤتمنين على أمور الدين و الرعية فكانت مسألة تقديس كل من ضمته تسمية الصحبة بعد توسيعها و تعميمها هى مضاهاة منزلة أهل البيت و عدم تمييزهم و إرغام الناس على عدم ذكر الحقائق و الأحداث إذ كانت العملية تنص على التقديس بغض النظر عن الأفعال، فكم شملت الصحبة أناسا ما زال التأريخ يذكر ما اقترفوه، و ما زالت أفعالهم مثالا- للظلم، و ما ذا نصنع بما نص عليه القرآن من ذكر المنافقين؟ و ما أثبته التاريخ من أفعال، كذلك فإن الجانب الآخر لعملية التقديس يتفق مع روح الحكام فى تحجير الأفهام و تقييد حرية الفكر، إذ فرضت العملية تلقّى ما صدر عن الذين شملتهم عملية توسيع الصحبة بالقبول، و إن ما كان منهم ليس لأحد قدرة على أن يرقى إليه فهو فى أعلى مستوى من الكمال، مهما كانت مؤاخذات الواقع، و ناهيك بما فى هذا من استهانة بنعمة العقل التى ركبها اللّه للإنسان، ثم كان ادعاء العصمة. ليت شعرى ما هذه العصمة، أ كانت فى حياة النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أم بعده؟ ! فإن كانت فى حياته فما أكثر الشواهد على نفى ذلك: أخرج البيهقى بسنده عن أبى عبد اللّه الأشعرى عن أبى الدرداء قال: قلت: يا رسول اللّه بلغنى أنك تقول: ليرتدن أقوام بعد إيمانهم. قال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أجل و لست منهم (1). و من الغريب أن البعض علل ذلك بأن المراد من هؤلاء المرتدين، هم الذين قتلوا عثمان، و أن أبا الدرداء مات قبل قتل عثمان، و بهذا التأويل يتوجه الطعن على أكثر الصحابة، فإنهم اشتركوا بقتل عثمان، و المتخلفون عن ذلك عدد لا يتجاوز أصابع الكف. و بمقتضى هذا التأويل يدخل فى قائمة الحساب عدد كثير هو أضعاف

1- 1) تاريخ ابن كثير ج 6 ص 170.

ما فی قائمة الشیعة من المؤاخذات. و من الشواهد علی نفی العدالة فی زمان النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم. 1-کان رجل یکتب للنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم، و قد قرأ البقرة و آل عمران، فکان رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یملی علیه غفورا رحیما، فیکتب علیما حکیما فیقول له النبی: اکتب کذا و کذا. فیقول: أکتب کیف شئت، و یملی علیه علیما حکیما فیکتب سمیعا بصیرا و قال: أنا أعلمکم بمحمد. فمات ذلک الرجل فقال النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم: الأرض لا تقبله. قال أنس: فحدثنی أبو طلحة، أنه أتی الأرض الذی مات فیها الرجل، فوجده منبوذا فقال أبو طلحة: ما شأن هذا الرجل؟ قالوا: دفناه مرارا فلم تقبله الأرض. قال ابن کثیر: و هذا علی شرط الشیخین و لم یخرجاه (1). 2-و هذا الولید بن عقبة بن أبی معیط الذی سماه اللّه فاسقا حینما أرسله النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم علی صدقات بنی المصطلق فعاد و أخبر النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنهم خرجوا لقتاله فأراد أن یجهز لهم جیشا فأنزل اللّه فیه: یا أَیُّهَا اَلَّذِینَ آمَنُوا إِنْ جاءَکُمْ فاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَیَّنُوا أَنْ تُصِیبُوا قَوْماً بِجَهالَةٍ. . . الآیة [الحجرات:6]فقد کان فی عداد الصحابة فأین العدالة من الفاسق؟ ! (2). 3-و هذا الجد بن قیس أحد بنی سلمة نزلت فیه: وَ مِنْهُمْ مَنْ یَقُولُ اِئْذَنْ لِی وَ لا تَفْتِنِّی أَلا فِی اَلْفِتْنَةِ سَ قَطُوا وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِیطَةٌ بِالْکافِرِینَ (3). 4-و هذا مسجد ضرار و ما أدراک ما مسجد ضرار قد بناه قوم، و سموا بالصحبة یتظاهرون فیه بأداء الصلاة فی أوقات لا یسعهم الوصول إلی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم، و لکن فضح اللّه سرهم و أبان أمرهم فهم منافقون. و أنزل اللّه فیهم: وَ اَلَّذِینَ اِتَّخَذُوا مَسْ جِداً ضِ راراً وَ کُفْراً وَ تَفْرِیقاً بَیْنَ اَلْمُؤْمِنِینَ وَ إِرْصاداً لِمَنْ حارَبَ اَللّهَ وَ رَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَ لَیَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنا إِلاَّ اَلْحُسْ نی وَ اَللّهُ یَشْ هَدُ إِنَّهُمْ لَکاذِبُونَ (4)و کانوا اثنی عشر رجلا من المنافقین منهم خذام بن خالد بن عبید، و من داره أخرج المسجد، و معتب بن قشیر، و أبو حبیبة بن أبی الأزعر و غیرهم (5).

1- 1) تاریخ ابن کثیر ج 6 ص 170.

2- 2) تفسیر ابن کثیر ج 4 ص 212. [1]

3- 3) سیرة ابن هشام ج 2 ص 332. [2]

4- 4) سورة التوبة، آیة:107. [3]

5- 5) سیرة ابن هشام ج 1 ص 341 و [4]تفسیر ابن کثیر ج 2 ص 388. [5]

6-و هذا ثعلبة بن حاطب بن عمر بن أمية ممن شهد بدرا و أحدا، فقد منع زكاة ماله، فأنزل اللّه فيه: وَ مِنْهُمْ مَنْ عاهَدَ اَللّهَ لَئِنْ آتانا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَ لَنَكُونَنَّ مِنَ اَلصّالِحِينَ. فَلَمّا آتاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَ تَوَلَّوْا وَ هُمْ مُعْرِضُونَ (1). و كان ثعلبة هذا من الصحابة ملازما لأداء الصلاة فى أوقاتها، و كان فقيرا معدما، فقال لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم: ادع اللّه لى أن يرزقنى مالا فقال صلّى اللّه عليه و آله و سلم: ويحک يا ثعلبة قليل تشكره خير من كثير لا تطيقه فقال ثعلبة: و الذى بعثک فى الحق نبيا لأن دعوت اللّه فرزقنى مالا لأعطين كل ذى حق حقه. فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم: اللهم ارزق ثعلبة مالا، فزاد وفره و كثر ماله و امتنع من أداء زكاته فأعقبه نفاقا إلى يوم يلقاه بما أخلف وعده و كان من الكاذبين. 7-و هذا ذو الثدية كان فى عداد الصحابة متنسكا عابدا، و كان يعجبهم تعبده و اجتهاده فأمر النبى بقتله و كان صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يقول: إنه لرجل فى وجهه لسفعة من الشيطان، و أرسل أبا بكر ليقتله فلما رآه يصلى رجع و أرسل عمرا فلم يقتله ثم أرسل عليا عليه السّلام فلم يدركه (2)و هو الذى ترأس الخوارج و قتله على عليه السّلام يوم النهروان. 8-و هؤلاء قوم وسموا بالصحبة كانوا يجتمعون فى بيت سويلم يثبطون الناس عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فأمر من أحرق عليهم بيت سويلم (3). 9-و هذا قزمان بن الحرث شهد أحدا و قاتل مع النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قتالا شديدا، فقال أصحاب النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ما أجزأ عنا أحد كما أجزأ عنا فلان فقال النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم: أما إنه من أهل النار، و لما أصابته الجراحة و سقط فقيل له: هنيئا لک بالجنة يا أبا الغيداق. قال: جنة من حرمل و اللّه ما قاتلنا إلا على الأحساب (4). 10-و هذا الحكم بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس طريد رسول اللّه و لعينه و هو والد مروان و عم عثمان. حدث الفاكهى بسند عن الزهرى و عطاء الخراسانى أن أصحاب محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلم

1- 1) الاستيعاب بهامش الإصابة ج 1 ص 201. [1]

2- 2) الإصابة ج 1 ص 429. [2]

3- 3) سيرة ابن هشام ج 1 ص 332. [3]

4- 4) الإصابة ج 3 ص 235. [4]

دخلوا علیه و هو یلعن الحکم فقالوا: یا رسول اللّه ما باله؟ فقال: دخل علیّ شق الجدار و أنا مع زوجتی فلانة. و مرّ النبی بالحکم فجعل الحکم یغمز النبی بإصبعه فالتفت فرآه فقال: اللهم اجعله وزغا فزحف مکانه (1)و کان یسمی خیط الباطل و قال صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فیه: ویل لأمتی مما فی صلب هذا. و من حدیث عائشة أنها قالت لمروان بن الحکم: أشهد أن رسول اللّه لعن أباک و أنت فی صلبه.

11- و هذه أم المؤمنین عائشة لم یثبت لها صلّی اللّه علیه و آله و سلّم الإیمان کما حدث کثیر بن مرة عنها: أن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال: أطعمینا یا عائشة قالت: ما عندنا شیء، فقال أبو بکر: إن المرأة المؤمنة لا تحلف أنه لیس عندها شیء و هو عندها. فقال النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم: ما یدریک أنها مؤمنة؟ إن المرأة المؤمنة فی النساء کالغراب الأبقع فی الغربان (2). و هذا إنکار من النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم علی القطع بالعدالة و الإیمان. و لو کان کما یدعی لقال مؤیدا لقول أبی بکر. نعم إنها مؤمنة و زوجة نبی و من أهل الجنة و لکنه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لم یرض بذلک الاعتقاد و إنما الأمور منوطة بالعمل و حسن الخاتمة. و یدل علی ذلک أنه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم عاد کعبا فی مرضه فقالت أم کعب: هنیئا لک الجنة یا کعب، فقال صلّی اللّه علیه و آله و سلم: من هذه المتألیة علی اللّه عز و جل. قال کعب: هی أمی یا رسول اللّه. فقال صلّی اللّه علیه و آله و سلم: و ما یدریک یا أم کعب؟ لعل کعبا قال ما لا یعنیه و منع ما لا یغنیه (3). 12- و أخرج النسائی فی صحیحه عن ابن عباس فی نزول قوله تعالی: وَ لَقَدْ عَلِمْنَا اَلْمُسْتَقْدِمِینَ مِنْکُمْ وَ لَقَدْ عَلِمْنَا اَلْمُسْتَأْخِرِینَ أنه قال: کانت امرأة تصلی خلف رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم حسناء من أحسن الناس، و کان بعض القوم یتقدم لئلا یراها و یستأخر بعضهم حتی یکون فی الصف المؤخر، فإذا رکع نظر من تحت إبطه لیراها. فأنزل اللّه فیهم ذلک.

1- 1) الإصابة ج 1 ص 346. [1]

2- 2) علل الحدیث لابن أبی حاتم ج 1 ص 439.

3- 3) تاریخ بغداد ج 4 ص 273. [2]

13-و أخرج ابن حنبل من طريق ابن عباس و ابن عمر أنهما سمعا النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم على منبره يقول: لينتهين أقوام عن ودعهم الجماعات أو ليختمن اللّه على قلوبهم ثم ليكتبن من الغافلين (1). 14-و أخرج أحمد فى مسنده: عن عبد اللّه بن مسعود عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنه قال لأصحابه: أنا فرطكم على الحوض و لأنازعن أقواما ثم لأغلبن عليهم فأقول: يا ربى أصحابى، فيقول: إنک لا تدرى ما أحدثوا بعدک (2). و أخرج عن ابن مسعود أيضا بلفظ: و إنى ممسک بحجورک إن تهافتوا فى النار كتهافت الفراش (3). و أخرج الترمذى عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم: و يؤخذ من أصحابى برجال ذات اليمين و ذات الشمال فأقول: يا ربى أصحابى فيقال: إنک لا تدرى ما أحدثوا بعدک، فإنهم لن يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم، فأقول كما قال العبد الصالح: إن تعذبهم فإنهم عبادک (4)و أخرج مسلم من طريق عائشة بلفظ: إنى على الحوض أنتظر من يرد علىّ منكم فو اللّه لينقطعن رجال فلأقولن أى ربى. . . الحديث. و أخرج مثله من طريق أم سلمة (5). و لعل الاستمرار بذكر الشواهد-و ما أكثرها-يوجب الإطالة، و الإطالة توجب الملل، فلهذا نكتفى بالقليل من البيان حول الشواهد على نفى العدالة المزعومة: «لكل من دب و درج» . و الحق أن الصحبة بما هى فضيلة جليلة لكنها غير عاصمة، فإن فيهم العدول و الأولياء و الصديقون، و هم علماء الأمة و حملة الحديث، و فيهم مجهول الحال و فيهم المنافقون و أهل الجرائم، كما أخبر تعالى بقوله: وَ مِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ اَلْأَعْرابِ مُنافِقُونَ

1- 1) مسند أحمد ج 5 ص 40. [1]

2- 2) مسند أحمد ج 5 ص 231. [2]

3- 3) مسند أحمد ج 6 ص 51. [3]

4- 4) صحيح الترمذى ج 2 ص 67.

5- 5) صحيح مسلم ج 4 ص 65-67.

وَ مِنْ أَهْلِ اَلْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى اَلنِّفاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلى عَذابٍ عَظِيمٍ (1)و فيهم من كان يؤذى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم وَ اَلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اَللّهِ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (2)فإلى اللّه نبرأ من هؤلاء و ممن اِتَّخَذُوا أَيْمانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اَللّهِ فَلَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ (3)و الـذين يُخادِعُونَ اَللّهَ وَ هُوَ خادِعُهُمْ وَ إِذا قامُوا إِلَى اَلصَّلاةِ قامُوا كُسالى يُراؤُنَ اَلنّاسَ وَ لا يَذْكُرُونَ اَللّهَ إِلاّ قَلِيلاً مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذلِكَ لا إِلى هؤُلاءِ وَ لا إِلى هؤُلاءِ وَ مَنْ يُضْلِلِ اَللّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً (4). و الكتاب العزيز يعلن بصراحة عن وجود طائفة تستمع إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و لكن طبع اللّه على قلوبهم لأنهم اتبعوا الهوى فقال تعالى: وَ مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتّى إِذا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا اَلْعِلْمَ ما ذا قالَ آنِفاً أُولئِكَ اَلَّذِينَ طَبَعَ اَللّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ وَ اِتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ (5). كما أعلن تعالى لعن طائفة منهم و هم الذين فى قلوبهم مرض و الذين يفسدون فى الأرض و يقطعون أرحامهم أُولئِكَ اَلَّذِينَ لَعَنَهُمُ اَللّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَ أَعْمى أَبْصارَهُمْ. أَ فَلا يَتَدَبَّرُونَ اَلْقُرْآنَ أَمْ عَلى قُلُوبٍ أَقْفالُها (6). أجل أين ذهب أولئک بعد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم؟ و قد جرعوه الغصص فى حياته، و دحرجوا الدباب، فهل انقلبت حالهم بعد موته صلّى اللّه عليه و آله و سلم من النفاق إلى الإيمان؟ و من الفساد إلى الصلاح، و من الشک إلى اليقين، فأصبحوا فى عداد ذوى العدالة من الصحابة الذين طبعت نفوسهم على التقى و الورع و عفة النفس و العلم و الحلم و التضحية فى سبيل اللّه و هم الذين وصفهم اللّه تعالى بقوله: إِنَّمَا اَلْمُؤْمِنُونَ اَلَّذِينَ آمَنُوا بِاللّهِ وَ رَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتابُوا وَ جاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اَللّهِ أُولئِكَ هُمُ اَلصّادِقُونَ (7). فنحن لا نرتاب فى ديننا و لا نخالف قول الحق فى تمييز منازل الصحابة

1- 1) سورة التوبة، آية:101. [1]

2- 2) سورة التوبة، آية:61. [2]

3- 3) سورة المجادلة، آية:16. [3]

4- 4) سورة النساء، الآيتان:142 و 143. [4]

5- 5) سورة محمد، آية:16. [5]

6- 6) سورة محمد، الآيتان:23 و 24. [6]

7- 7) سورة الحجرات، آية:15. [7]

و درجاتهم فنتبع الصادقين منهم، و نوالی من اتصف بتلک الصفات التی ذکرها اللّه و رسوله، کما أنا لا نأتمن أهل الخیانة للّه و رسوله، ففی ذلک جنایة علی الدین و خیانة لأمانة الإسلام و لا نرکن لمن ظلم منهم، و لا نود من حاد اللّه و رسوله. هذا هو قول الحق. و الحق أحق أن یتبع. و قد اختلفوا فی تعریف الصحابة و من هو الصحابی الذی یطلق علیه هذا الاسم و إلیک بیان ذلک:

تعریف الصحابی و نقطة الخلاف:

اختلفت الأقوال فی حد الصحبة و من هو الصحابی فقیل: من صحب النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم أو رآه من المسلمین، فهو من أصحابه. و إلیه ذهب البخاری فی صحیحه و سبقه إلیه شیخه علی بن المدینی و قال: من صحب النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أو رآه و لو ساعة من نهار فهو من أصحابه. و هذا التعریف ینطبق علی المرتدین فی حیاة النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و بعده، و علی کل راء له و إن لم یعقل و هذا أمر لا یقره العقل و الوجدان، فإن الردة محبطة للعمل فلا مجال لبقاء سمة الصحبة، و قد ذهب أبو حنیفة إلی الإحباط، و نص علیه الشافعی فی الأم. و قال الزین العراقی: الصحابی من لقی النبی مسلما ثم مات علی الإسلام. و قال سعید بن المسیب: من قام مع النبی سنة کاملة، أو غزا معه غزوة واحدة. و هذا القول لم یعملوا به لأنه یخرج بعض الصحابة الذین لم تطل مدتهم مع النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم، و لم یغزوا معه. قال ابن حجر: و العمل علی غیر هذا القول (1). و حکی ابن الحاجب قولا لعمرو بن یحیی أنه یشترط فی الصحابی طول الصحبة، و الأخذ عنه (2). کما أنهم جعلوا من الصحابة من لم یر النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و هو مسلم أو له رؤیة قصیرة.

1- 1) المواهب شرح الزرقانی 8-26. [1]

2- 2) شرح ألفیة العراقی 4-32.

و مهما تكن الأقوال و التعاريف فإن هذا الاسم يطلق على كل من سمع النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أو رآه من المسلمين مطلقا و هم كلهم عدول عندهم و ما صدر منهم يحتمل لهم بحجة أنهم مجتهدون. و هذه هى النقطة الجوهرية التى وقع الاختلاف فيها، إذ الشيعة لا يذهبون لهذا القول فلا يثبتون العدالة إلا لمن اتصف بها، و كانت فيه تلك الملكة، و أصالة العدالة لكل صحابى لا دليل عليه، و لا يمكن إثباته. فالشيعة تناقش أعمال ذوى الشذوذ منهم بحرية فكر، و تزن كل واحد منهم بميزان عمله فلا يوادون من حاد اللّه و رسوله و يتبرّءون ممن اتخذوا إيمانهم جنة فصدوا عن سبيل اللّه. و الشيعة لا يخالفون كتاب اللّه و سنة رسوله و عمل السلف الصالح فى تمييز الصحابة، و من هو مصداق هذا الاسم حقيقة. . . فيكون عمله بحسب قوله و قوله بحسب إيمانه و يجعل بينه و بين شعائر الجاهلية و أحلاف المشركين حاجزا و يلوذ بأفياء شهادة لا إله إلا اللّه محمد رسول اللّه و يتبرأ مما يسىء إلى عقيدته أو يمسّ إيمانه، و لا يلغى الشيعة قوانين الطبيعة البشرية القاضية بتفاوت مدارك الناس و اختلاف قابلياتهم. و من هذا فتحت على الشيعة باب الاتهامات الكاذبة، التى لفقها خصومهم، و لو كان هناك صبابة إنصاف، و مسكة من عقل، و قليل من تتبع و إعطاء الفكر حريته، لما وقعت تلك الملابسات، و حلت تلك المشاكل. و من الغريب أن تتهم الشيعة بسب الصحابة و الطعن عليهم أجمع، و بذرة التشيع نشأت فى مجتمع الصحابة، و منهم أبطال التشيع و حاملو دعوته، و هم الذين عرفوا بالولاء لعلى عليه السّلام و ناصروه فى حربه لمن بغى عليه، و هم خيار الأئمة، و سيأتى ذكر بعضهم فى الأجزاء القادمة، كما أن من الغريب أن يطالبوا بمخالفة مقاييس الإيمان و السلوك، و لكن الشيعة يأبون إلا حفظ شرف الصحبة و عدم الإساءة إلى مقام الحظوة عند النبى و الإخلاص له و التمسك بهداه، و إذا طرح علماء السوء أردية التعصب و العداء لتبين لهم أن الشيعة مثال ما قادت إليه عقول الكثير الكثير من رجال السنة كابن عيينة الذى قال: نظرت فى أمر الصحابة و أمر ابن المبارك فما رأيت

لهم علیه فضلا إلا بصحبتهم النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و غزوهم معه (1). و الشیعة تتحری التقوی و الاستقامة علی أمر محمد صلّی اللّه علیه و آله و سلم.

موالاة الشیعة للصحابة:

و الشیعة یوالون أصحاب محمد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم الذین أبلوا البلاء الحسن فی نصرة الدین، و جاهدوا بأنفسهم و أموالهم. و إن الدعاء الذی تردده الشیعة لأصحاب محمد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لهو دلیل قاطع علی حسن الولاء و إخلاص المودة. نعم إن الشیعة لیدعون اللّه لأتباع الرسل عامة و لأصحاب محمد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم خاصة بما ورثوه من أئمتهم الطاهرین، و من أشهر الأدعیة هو دعاء الإمام زین العابدین علیه السّلام فی صحیفته المعروفة بزبور آل محمد الذی یقول فیه: «اللهم و أتباع الرسل و مصدقوهم من أهل الأرض بالغیب عند معارضة المعاندین لهم بالتکذیب و الاشتیاق إلی المرسلین، بحقائق الإیمان فی کل دهر و زمان، أرسلت فیه رسولا، و أقمت لأهله دلیلا، من لدن آدم إلی محمد صلّی اللّه علیه و آله و سلم، من أئمة الهدی وقادة أهل التقی علی جمیعهم السلام. اللهم و أصحاب محمد خاصة، الذین أحسنوا الصحابة، و الذین أبلوا البلاء الحسن فی نصره، و کاتفوه و أسرعوا إلی وفادته، و سابقوا إلی دعوته، و استجابوا له حیث أسمعهم حجة رسالته، و فارقوا الأزواج و الأولاد فی إظهار کلمته، و قاتلوا الآباء و الأبناء فی تثبیت نبوته، و الذین هجرتهم العشائر إذ تعلقوا بعروته، و انتفت منهم القرابات إذ سکنوا فی ظل قرابته، اللهم ما ترکوا لک و فیک، و أرضهم من رضوانک و بما حاشوا الحق علیک، و کانوا من ذلک لک و إلیک، و اشکرهم علی هجرتهم فیک دیارهم و خروجهم من سعة المعاش إلی ضیقه. . .» . هؤلاء هم أصحاب محمد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم الذین تعظمهم شیعة آل محمد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و یدینون بموالاتهم و یأخذون تعالیم الإسلام فیما صح وروده عنهم. و لکن التلاعب السیاسی و احتدام النزاع بین الطوائف خلق کثیرا من المشاکل فی

1- 1) صفة الصفوة لابن الجوزی ج 4 ص 112. [1]

عصور قامت بها فئات لإثارة الفتن حبا للسيطرة و طمعا فى النفوذ من باب فرّق تسد. و صفوة القول إن عصور التلاعب بالمبادئ و التطاحن حول بغية ذوى الأطماع قد ولت، و نحن فى عصرنا الحاضر عصر انطلاق الفكر من عقاله و التقدم و الرقى، أ يصح لنا أن نستمر على ضرب وتر العصبية؟ و نطرب لنغمات النزعة الطائفية، و نكرع بكأس الشذوذ عن الواقع، و نهمل ما يجب علينا من مكافحة خصوم الإسلام و أعدائه، فقد وجهوا إلينا سيلا جارفا من الآراء الهدامة و المبادئ الفاسدة. أ ليس من الذوق السليم الترفع عن التعبير بتلك العبارات التى اتخذها ضعفاء العقول، و أهل الجمود الفكرى عند ما يكتبون عن الشيعة فينبزونهم بكل عظيمة، أ ليس من الحق أن يتبينوا من صحة ما يقولون؟ و إن اتهام الشيعة بسب الصحابة و تكفيرهم أجمع إنما هو اتهام بالباطل و رجم بالغيب، و خضوع للعصبية و تسليم لنزعة الطائفية، و جرى وراء الأوهام و الأباطيل.

الصحابة فى حدود الكتاب و السنة:

و هل تجاوزت الشيعة فى نقد أعمال بعض الصحابة حدود الكتاب و السنة؟ إذ وجدوا فى أعمالهم مخالفة ظاهرة، لا يمكن لها التأويل و التسامح، لأن عموم الصحبة لا يمنحهم سلطة التصرف بالأحكام، و لا تسوغ لهم مخالفة تلك الحدود، و إن الاجتهاد فى مقابلة النص هو فى الحقيقة طرح للأحكام، و نبذ للقرآن وراء الظهور، و إن كثيرا منهم حديثو عهد فى الإسلام. قد ألفت نفوسهم أشياء و طبعت عليها، و من الصعب عليها أن تتحلل منها بسرعة. و ليس من الإنصاف أن يكونوا هؤلاء بمنزلة أهل السبق، و من رسخ الإيمان فى قلوبهم فنشروا الإسلام و حملوا ألوية العدل، و نشروا العقيدة الإسلامية، و جاهدوا فى سبيل اللّه بأموالهم و أنفسهم عن نية صادقة، و هاجروا عن إيمان خالص. و قد قال النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم: «إنما الأعمال بالنيات، و إنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى اللّه و رسوله فهجرته إلى اللّه و رسوله، و من كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه» (1).

1- 1) صحيح مسلم ج 6 ص 48.

و سأله ناس من أصحابه فقالوا: يا رسول اللّه أ نؤاخذ بما عملنا فى الجاهلية فقال صلّى اللّه عليه و آله و سلم: «أما من أحسن منكم فى الإسلام فلا يؤاخذ به، و من أساء أخذ فى الجاهلية و الإسلام» (1). و عن صهيب مرفوعا: «ما آمن بالقرآن من استحل محارمه» (2)و عنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بلفظ: «من أحسن فى الإسلام لم يؤاخذ بما عمل فى الجاهلية و من أساء فى الإسلام أخذ فى الأول و الآخر» (3). و عن ابن عمر قال: صعد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم المنبر فنادى بصوت رفيع فقال: «يا معشر من أسلم بلسانه و لم يفض الإيمان إلى قلبه لا- تؤذوا المسلمين و لا- تعيروهم و لا تتبعوا عوراتهم. من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع اللّه عورته و من تتبع اللّه عورته يفضحه و لو فى جوف رحله» (4). و هكذا يتضح لنا على ضوء الأحاديث النبوية و آى القرآن الكريم مساواة الناس و شمول الأحكام لهم، و أن ثبوت العدالة بالعمل و لا أثر لها بدونه و الصحابة هم أولى بتنفيذها، و القول فى اجتهادهم مطلقا يحتاج إلى مشقة فى الإثبات، و النتيجة عقيمة لا تثمر كثير فائدة، و التأويل فى مقابلة النص معناه طرحا للأحكام. فلا يصح أن يتأولوها على خلاف ظاهرها ثم يستبيحوا لأنفسهم مخالفة الظاهر منها، بل الأحكام شرعة واحدة بين الناس لتشملهم عدالتها، فلا مجال لأحد عن الخضوع لها و تطبيقها. و لنا فى سياسة الإمام على بن أبى طالب و سيرته فى عصر الخلفاء و فى عصره لأكبر دليل على ما نقول، فقد كان يقيم الحد على من تعدى حدود اللّه و يعامل كل واحد بما يقتضيه عمله، و بقدر منزلته عند اللّه تعظم منزلته عنده، و كم كان يدعو على أولئک الذين و سموا بالصحبة و خالفوا كتاب اللّه و سنة رسوله و نصبوا له الحرب. و قد أعلن عليه السّلام البراءة منهم بل أعلن سب بعضهم على منبره لأنهم خالفوا كتاب اللّه و سنة نبيه صلّى اللّه عليه و آله و سلم. و من وقف على عهوده عليه السّلام لعماله و وصاياه لأمراء جيشه و رسائله لولاة أمره

1- 1) صحيح مسلم ج 1 ص 77.

2- 2) صحيح الترمذى ج 2 ص 151. [1]

3- 3) صحيح مسلم ج 1 ص 77.

4- 4) صحيح الترمذى ج 1 ص 365. [2]

يعرف هناک عدم الالتزام بما ألزموا الأمة به من القيود التی فرضتها ظروف خاصة، و هو القول بعدالة الصحابی و إن ارتکب ما حرم اللّه. و التحدث عن سيرة علیّ لا يتسع له مجال هذا الموضوع الذی خضناه بهذه العجالة، و الغرض أن أصحاب محمد صلّی اللّه عليه و آله و سلم لا بد أن يلتزموا باجتناب ما حرم اللّه تعالی و يهتدوا بهدی رسوله صلّی اللّه عليه و آله و سلّم و لم يفتحوا المجال لمتأول فی مقابلة النص، و للاجتهاد شروط، و لعل فی قصة قدامة أكبر دليل علی ذلک.

قدامة بن مضعون:

قدامة بن مضعون بن حبيب المتوفی سنة 36 ه-كان من السابقين الأولين و هاجر الهجرتين و استعمله عمر بن الخطاب علی البحرين، فقدم الجارود سيد عبد القيس علی عمر بن الخطاب من البحرين و شهد علی قدامة أنه شرب الخمر فسكر، فقال: من يشهد معک، فقال الجارود: أبو هريرة، فقال عمر لأبی هريرة: بم تشهد؟ قال: لم أره شرب و لكن رأيته سكران يقیء. فقال عمر: لقد تنطعت فی الشهادة، ثم كتب إلی قدامة أن يقدم عليه من البحرين فقدم، فقال الجارود: أقم علی هذا حد اللّه. فقال عمر: أخصم أنت أم شهيد؟ فقال: شهيد. فقال: قد أديت شهادتک. ثم غدا الجارود علی عمر فقال: أقم علی هذا حدّ اللّه فقال عمر: ما أراک إلا خصما و ما شهد معک إلا رجل واحد، فقال الجارود: أنشدک اللّه. فقال عمر: لتمسكن لسانک أو لأسوأنک. فقال: يا عمر ما ذلک بالحق أن يشرب ابن عمک الخمر و تسوأنی، فقال أبو هريرة: يا أمير المؤمنين إن كنت تشک فی شهادتنا فأرسل إلی ابنة الوليد فاسألها-و هی امرأة قدامة-فأرسل عمر إلی هند بنت الوليد ينشدها، فأقامت الشهادة علی زوجها. فقال عمر لقدامة: إنی حادّک، فقال قدامة: لو شربت كما تقول ما كان لكم أن تحدّونی. فقال عمر: لم؟ قال قدامة: قال اللّه عزل و جل: لَيْسَ عَلَى اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّالِحاتِ جُناحٌ فِيما طَعِمُوا. . . الآية فقال عمر: أخطأت التأويل أنت إذا اتقيت اللّه اجتنبت ما حرم اللّه، ثم أقبل عمر علی الناس فقال: ما ترون فی جلد قدامة؟ فقالوا: لا نری أن تجلده ما دام مريضا. فسكت علی ذلک أياما ثم أصبح و قد عزم علی جلده، فقال: ما ترون فی جلد

قدامة؟ فقالوا: لا نرى أن تجلده ما دام وجعا. فقال عمر: لأن يلقى اللّه تحت السياط أحب إليّ من أن ألقاه و هو فى عنقى، ائتونى بسوط تام. فأمر به فجلد (1). هـذه قصـة قدامـة و إقامـة الحد عليه و تأويله فيما ارتكبه و لـم نوردها لنحط من كرامته أو نطعن عليه فى دينه، فله شـرف الهجرة و السبق، و لكنا ذكرناها ليتضح لنا عدم صحة ما يقولون بعدم مؤاخذة المتأول و إن خالف الإجماع و ما هو معلوم بالضرورة كقضية أبى الغاديـة و قتله لعمار بن ياسـر مع اعترافه بأن ما ارتكبه جريمة توجب دخول النار. و هناك جماعة من الصـحابة تأولوا فأخطئوا فلم يدرأ تأويلهم الحد لوقوعهم فى الخطأ. منهم: أبو جندل و ضرار بن الخطاب و أبو الأزور فقد وجدهم أبو عبيدة قد شربوا الخمر فأنكر عليهم فقال أبو جنـدل: لَيْسَ عَلَى اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّالِحـاتِ جُناحٌ فِيما طَعِمُوا . . . الآيـة و لـم ينفعهم ذلك و أقام عليهم الحـد. فأين العدالـة من إقامة الحد. و كان عبد الرحمن بن عمر بن الخطاب قد شرب الخمر بمصر فأقام الحد عليه عمرو بن العاص إلى كثير من ذلك.

سياسة عمر تجاه بعض الصحابة:

و هذا عمر بن الخطاب لـم يثبت العدالة لأبى هريرة عند ما اسـتعمله على البحرين فقدم بعشـرة آلاف فقال له عمر: استأثرت بهذه الأموال يا عـدو اللّه و عـدو كتـابه، فقـال أبو هريرة: لست بعـدو اللّه و لا عـدو كتابه و لكن عـدو من عاداهما. فقال عمر: من أين هى لك؟ قال: خيل نتجت، و غلـة و رقيق لى و أعطية تتابعت (2). و فى لفظ ابن عبـد ربه أن عمر دعا أبا هريرة فقال له: علمت أنى اسـتعملتك على البحرين و أنت بلا نعلين، ثم بلغنى أنك ابتعت أفراسا بألف دينار و ستمائة دينار. قال: كانت لنا أفراس تناتجت و عطايا تلاحقت، قال عمر: قد حسبت لك رزقك و مؤونتك و هذا فضل فأده، قال أبو هريرة: ليس لك ذلك. قال: بلى و اللّه أوجع ظهرك، ثم قام إليه بالدرة فضربه حتى أدماه، ثم قال: ائت بها. قال: احتسبتها عند اللّه. قال: ذلك

1- 1) الإصابة ج 3 ص 228. [1]

2- 2) تاريخ ابن كثير ج 8 ص 113.

لو أخـذتها من حلاـل و أديتهـا طائعا، أ جئت من أقصـى البحرين تجبى الناس لک لا للّه و لا للمسـلمين؟ ما رجعت بک أميمـة إلا لرعية الحمر، و أميمة أم أبى هريرة (1). هكذا رأينا عمر يقابل أبا هريرة بشدة و يتهمه بخيانة أموال المسـلمين و ينسـبه لعداء اللّه و عداء كتابه و لا يصـدقه فيما يـدعيه. و لو كان أبو هريرة عادلا فى نظر عمر لصدق قوله. و لقال: أنت عادل أو مجتهد مخطئ، و كذلک موقف عمر مع خالد بن الوليـد فى جنايته الكبرى مع مالک بن نويرة. و يحـدثنا البلاذرى أن أبا المختار يزيـد بن قيس رفع إلى عمر بن الخطاب كلمة يشـكو بها عمال الأهواز و غيرهم يقول فيها: أبلغ أمير المؤمنين رسالة فأنت أمين اللّه فى النهى و الأمر

و أنت أمين اللّه فينا و من يكن أمينا لرب العرش يسلم له صدرى

فأرسل إلى الحجاج فاعرف حسابه و أرسل إلى جزء و أرسل إلى بشر

و لا تنسين النافعين كليهما و لا ابن غلاب من سراة بنى نصر

(2). إلى آخر الرسالة و ذكر فيها جماعة من عماله الذين استأثروا بالأموال و جلهم من الصحابة فعاقبهم عمر و اتهمهم بالخيانة و الخيانة لا تجتمع مع العدالة. و لا نطيل الحديث حول قاعدة أصالة العدالة لكل صحابى أو تأويل الأخطاء لهم على وجه يلزم السكوت عليه. ما ذلک إلا تحد لنواميس الدين و مقدسات الشريعة، و مجادلة بالباطل لحفظ كرامة معاوية و حزبه ها أَنْتُمْ هؤُلاءِ جادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى اَلْحَياةِ اَلدُّنْيا فَمَنْ يُجادِلُ اَللّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ اَلْقِيامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً (3).

رواية الصحابى:

و واضـح مما تقـدم أن الشـيعة لا يـذهبون إلى عدالـة كل من وسم بالصـحبة و تحقيقها لا يكون إلا بالعمل الـذى يصح أن يتصف الراوى بشروط العدالة المقررة،

1- 1) العقد الفريد ج 1 ص 26. [1]

2- 2) فتوح البلدان ص 377. [2]

3- 3) سورة النساء، آية:109. [3]

و اصالـة العدالـة فی حق الصـحابة لا أصل له و إثبات ذلک یحتاج إلی مشـقة و النتیجـة عقیمة لا تثبت أی ثمرة هناک. أما السـنة فقد أثبتوا العدالـة لکل صـحابی و اسـتدلوا بأدلـة ذکرت فی محلها و مع ذلک فقـد اختلفوا، فذهب طائفة إلی عدالة الصـحابة أجمع بدون اسـتثناء و آخرون ذهبوا إلی عدالـة من لم یلابس الفتنـة «أی من حین مقتل عثمان» . و ذهبت المعتزلـة: إلی فسق من قاتل علیا علیه السّلام منهم و حکی ابن الصـلاح إجماع الأمـة علی تعـدیل من لم یلابس الفتنـة. و حکی الآمدی و ابن الحاجب قولا أنهم کغیرهم فی لزوم البحث عن عدالتهم إلی غیر ذلک من الأقوال (1). أما الشیعة فلا یذهبون لعدالة الجمیع کما تقدم. فهم یتثبتون فی قبول الروایة فلا یروون إلا عن ثقة و لهم شـروط مقررة فی محلها، إذ الحدیث هو دسـتور الإسـلام، و منهاج حیاة المسلمین الدینیة و الاجتماعیة، لذلک اجتهد المسلمون فی دراسـته من حیث السـند و الدلالة. و قد سـمعنا و سـمع کل أحد تلک التقولات علی الشیعة: بأنهم یردون أحادیث الصحابة و لا یأخذون عنهم، و هذا طعن علی أصـحاب محمد صلّی اللّه علیه و آله و سلم. و قد ذکر بعضهم أن الشیعة لا یعتمدون علی شریعة المسلمین لأنهم یردون أخبار الصـحابة إلی غیر ذلک من الأقوال بل التقولات. و واضـح أن مقتضـی تلک الأقوال تهدف لشـیء خلاف الواقع اتباعا لظروف قضت علی الأمة بذلک، و لیت شـعری أمن الإنصاف و الواقع أن تؤاخذ الشـیعة فی التثبت عند قبول الروایة، و هل جاءوا بشـیء نکرا إذا لم یقبلوا روایـة من اتضـحت حاله لسوء عمله و مجاراة هواه؟ ؟ بل ترد أقوالهم و عـدم الاعتماد علی روایاتهم و لا کرامة. هذا من جهة. و من جهة أخری أن هناک أمور تقتضـی الوقوف عن قبول کثیر من الأحادیث من حیث السـند و الدلالة، فإن هناک سیلا جارفا یسبق إلی الذهن إنکاره و یقضی العقل السلیم برده.

1- 1) شرح ألفیة العراقی ج 4 ص 35 و کفایة الخطیب البغدادی ص 81-83.

و على أى حال فإن روايـة الصـحابى و قبولها عند الشـيعة لم يكن كما يذهب إليه غيرهم من عدم الاعتماد مطلقا. و ليس من الحق أن يقال لمن احتاط لدينه و تثبت فى أخذ أحكامه أنه طعن على أصـحاب رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلم. فإذا أردنا أن نتثبت فى قبول رواية أبى هريرة مثلا و نقف أمام أحاديثه موقف التثبت لاسـتجلاء الواقع و ظهور الحقيقة يقال هذا طعن على الصـحابة. أ ليس من الحق أن نقف موقف الإنكار على كثرة أحاديثه الهائلة و نتساءل عن اختصاصه بمنزلة لم تكن لأحد من الصـحابة قط، و هو حديث عهد فى الإسـلام. فإنه أسـلم بعـد خيبر فى السـنة السابعـة، و ذهب إلى البحرين مع العلاء فى السـنة الثامنة، و بقى فيها إلى أن توفى النبى صـلّى اللّه عليه و آله و سلم، فتكون صـحبته أقل من سـنتين. فكيف يختص بما لم يختص به من هو أسـبق إسلاما، و أكثر ملازمة منه للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أفرغ بالا لقبول ما يسـمع؟ ؟ فقد كان أبو هريرة مشـغولا بسد رمقه، و يصـرع من الجوع مرة بعد أخرى، و كان يتعرض للناس يسألهم عن مسائل، و ما كان يقصد إلا أن يتعطفوا عليه بشىء يسد رمقه، لما ذا كانت هذه الكثرة الهائلة عند أبى هريرة دون غيره من أصحاب محمد صلّى اللّه عليه و آله و سـلم؟ ! فقـد كانت كثرة أحاديثه تبعث على الاسـتنكار و التساؤل، فقـد روى عن النبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم 5374 حديثا، و قد أنكر الصـحابة عليه ذلک و كذبوه، و كان يعتذر بأن غيره من الصـحابة تشـغلهم التجارة. روى الأعرج عن أبى هريرة أنه قال: إنكم تقولون ما بال المهاجرين لا يتحدثون عن رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم بهذه الأحاديث، و إن أصحابى من المهاجرين كانت تشـغلهم صـفقاتهم فى الأسواق، و إن أصـحابى من الأنصار كانت تشغلهم أراضيهم و القيام عليها، و إنى كنت امرأ معتكفا أكثر من مجالسـة رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم أحضـر إذا غابوا و أحفظ إذا نسوا (1). و هـذا لاعتذار لا يمكن قبوله إذ لم يقبله أصـحاب النبى، و قد أنكرت عليه عائشة و ابن عمر، و نهاه عمر بن الخطاب عن الحديث.

1- 1) الفتوحات الوهبية ص 136.

إن أبا هريرة يدعى أنه كان معتكفا لا يشغله شيء عن حفظ الحديث، لأنه من أهل الصفة و بالإعراض عن شغله بسد رمقه و كثرة صرعه من الجوع كما يحدث هو عن نفسه، فإنا نسائله عن اختصاصه بذلک و لم لم يشارکه المعتکفون معه و هم أسبق و أقدم إسلاما، فلم تکن لهم هذه الخصوصية. و إليک أنموذجا عن حديث أهل الصفة. بذکر البعض منهم:

حديث أهل الصفة:

حجاج بن عمر المازنى الأنصارى شهد صفين مع على عليه السّلام له فى الصحاح حديث واحد. حازم بن حرملة الأسلمى له حديث واحد رواه ابن ماجة عن مولاه أبى زينب. زيد بن الخطاب العدوى قتل يوم اليمامة له حديث واحد يرويه عنه ابن عمر. سفينة مولى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم له أربعة عشر حديثا انفرد له مسلم بحديث واحد. شقران مولى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم، له عند الترمذى حديث واحد. طنخفة-بكسر أوله و إسكان المعجمة-ابن قيس الغفارى مختلف فى اسمه، له حديث واحد أخرجه أصحاب الصحاح. عبد اللّه بن أنيس أبو يحيى المتوفى سنة 80 ه-بالشام له أربع و عشرون حديثا انفرد له مسلم بحديث واحد. عبد اللّه بن الحرث بن جزع-بفتح الجيم-الزبيدى المتوفى سنة 80 ه- بمصر، و هو آخر من مات بها من الصحابة، له أحاديث قليلة خرجها أبو داود و الترمذى و ابن ماجة. عبد اللّه بن قرط الثمالى المتوفى سنة 56 ه-له عند أبى داود و النسائى حديث واحد، و لعله حديث المعراج. عقبة بن عامر الجهنى المتوفى سنة 58 ه-له خمس و خمسون حديثا، انفرد البخارى بواحد و مسلم بتسعة، و هو ممن حضر صفين مع معاوية. عمر بن تغلب العبدى له حديثان رواهما عنه البخارى. عمر بن عنبسة السلمى له ثمانية و أربعون حديثا انفرد مسلم بحديث واحد.

عتبة بن عبد السلمى المتوفى سنة 87 ه-له ثمانية و عشرون حديثا. عتبة بن الندر-بضم النون و فتح الدال المشددة-له حديثان عند ابن ماجة. عياض بن حماد المجاشعى البصرى له ثلاثون حديثا انفرد له مسلم بحديث واحد. فضالة بن عبيد الأنصارى المتوفى سنة 53 ه- شهد أحدا و بيعة الرضوان، له خمسون حديثا انفرد له مسلم بحديثين. فرات بن حيان العجلى له عند أبى داود حديث واحد، و هو الذى كان عينا لأبى سفيان و حليفه، فأمر النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بقتله فمر على حلقة من الأنصار و قال: إنى مسلم. فقال رجل منهم: يا رسول اللّه يقول: إنى مسلم، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم: «إن منكم رجالا نكلهم إلى إيمانهم منهم الفرات بن حيان» . السائب بن خلاد بن سويد بن ثعلبة بن عمر الخزرجى المتوفى سنة 71 ه-، له خمسة أحاديث، و غير هؤلاء من أهل الصفة.

حديث أبى هريرة:

فهؤلاء كانوا يشاركون أبا هريرة فيما ادعاه من تلك الخصوصية التى امتاز بها على جميع أصحاب النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم، و قد ضرب الرقم القياسى فى الكثرة و هو فى الدرجة الأولى من الصحابة فى ذلك، مع أنه كان أميا لا يقرأ و لا يكتب، و قد اعتذر عن ذلك بقوله كما أخرجه أحمد فى مسنده: حضرت يوما من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مجلسا فقال: من بسط رداءه حتى أقضى مقالتى ثم يقبضه إليه فلن ينسى شيئا سمعه منى، فبسطت بردة علىّ حتى قضى مقالته ثم قبضتها إلىّ فو الذى نفسى بيده ما نسيت شيئا سمعته منه (1). و لنا أن نسائله عن إعراض من كان فى المجلس عن هذه المكرمة، و لأى شىء لم يتسابقوا لهذه الفضيلة؟ أ كانوا يشكون بما قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم، حاشا و كلا، أم أنهم لم يملكوا رداء يبسطونه كما بسط أبو هريرة رداءه! فهل يصح لنا أن نتساءل عن ذلك، أم لا يسوغ و نرجع إلى العصور الماضية فنسكت خوفا من الوقوع فى الزندقة و ليس وراءها إلا السيف و النطع؟

1- 1) تاريخ ابن كثير ج 8 ص 105.

كما حـدّث الخطيب البغدادى: ذكر عند الرشـيد حديث أبى هريرة: أن موسـى لقى آدم فقال: أنت آدم الذى أخرجتنا من الجنة؟ فقال رجل من قريش: أين لقى آدم موسـى؟ فغضب الرشيد و قال: النطع و السيف زنديق يطعن فى حديث رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم (1). و من هذا نعرف شدة الأمر و خطر الموقف، فهذا رجل يسأل عن المكان الذى لقى موسى آدم ليتضح له أمر لعله كان يجهله فلقى ما لقى و طبقت عليه مادة الفناء و هى الاتهام بالزندقـة، لأنه يستفسـر عن غموض حصل له فى حـديث أبى هريرة، فأدت الحالة أن اتهم بالطعن على حديث رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سلم. فكيف إذا أراد الاستفسار عن حديث أبى هريرة الذى أخرجه مسلم و البخارى: إن جهنم لا تمتلئ حتى يضع اللّه رجله فتقول قط قط. الحديث (2). إذا لا يصح للمسلم الذى ينزه اللّه تعالى عن تلك الصفة أن يسأل لأن فى السؤال و تنزيه اللّه طعن على أبى هريرة، و الطعن على أبى هريرة طعن على النبى. و كيف إذا أراد أن يستفسـر عن المحل الذى ينزل إليه اللّه جل و علا فى سـماء الـدنيا حين يبقى الثلث الأخير من الليل، فقد روى ذلك أبو هريرة كما أخرجه الشـيخان (3)إلى غير ذلـك من أحاديثه التى يطول الحديث بالتحدث عنها (4). و غرضـنا من هـذا العرض أن أحاديث أبى هريرة تحوط بها أشواك من التشـكيك لحصول تلك الكثرة الهائلة، و لأنه كان أميا لا يقرأ و لا يكتب، و هو حديث عهد فى الإسلام، و أقل الصحابة صحبة لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم، فهو يحدث عن وقائع لم يحضـرها، و مشاهد لم يشـهدها إجماعا. فمن ذلك ما حدث به عن سهو النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى الصلاة (و هو منزه عن ذلك) .

1- 1) تاريخ بغداد ج 14 ص 7. [1]

2- 2) و أخرجه أحمد فى ج 3 ص 314.

3- 3) أخرجه البخارى فى باب الدعاء و مسلم فى باب الترغيب فى الدعاء.

4- 4) و قد جمع قسـما منها سـيدنا الحجة شـرف الدين فى كتابه (أبو هريرة) و أعطى صورة صادقة عنه و قد جمع قسما منها سيدنا الحجة شرف الدين فى كتابه (أبو هريرة) و أعطى صورة صادقة عنه ببحث علمى يتركز على حرية الفكر فكان موضع عناية المفكرين و نال القبول لما فيه من إظهار للحقائق الضائعة.

قال أبو هريرة: صلى بنا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الظهر أو العصر فسلم فى ركعتين، فقال له ذو اليدين: أنقصت الصلاة أم نسيت؟ ! و فى لفظ كما أخرجه مسلم: بينا أنا أصلى مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم: الحديث. مما يدل على حضوره الواقعة، و مما لا شك فيه أن إسلام أبى هريرة كان بعد خيبر سنة 7 ه-و وفاة ذو اليدين فى بدر فى السنة الثانية. و قد حاولوا التوجيه لذلک و لم يتوجه جواب شاف كما يقول ابن عابدين (1). و يحدث عن رقية بنت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أنه دخل عليها و سألها عن فضيلة لعثمان. و رقية ماتت قبل إسلام أبى هريرة فى السنة الثالثة من الهجرة. كما أنه لم يكن حاضرا فى المدينة و يحدث عن أشياء يدعى أنه اشترک بها كقوله: كنت مع على عليه السّلام حينما بعثه النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ببراءة (2). و مرة يقول: كنت مع أبى بكر، مع أن التاريخ يشهد بأنه لم يكن حاضرا فى المدينة، لأنه كان مؤذنا فى البحرين. نسوق هذا من باب المثال للتناقض الذى حصل فى روايات أبى هريرة. و نحن إذ نتثبت و نرد الرواية التى ليس لها نصيب من الصحة فإن ذلک مما يوجبه الإسلام و يقره العقل. و على أى حال فأبو هريرة هو فى الدرجة الأولى من المكثرين. فالوقوف عند تلک الكثرة للتثبت لا يوجب طعنا فى حديث رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم و ذلک لا يستوجب أن يقال إن الشيعة لا يعتمدون على أحاديث الصحابة. و لا نريد هنا أن نتحدث عن حديث عبد اللّه بن عمر و اختصاصه بما لا يكون لأحد من الصحابة، فهو فى الدرجة الثانية بعد أبى هريرة، فقد روى 2630 حديثا و هذا لم يكن عند من هو أكبر منه سنا و أشد منه ملازمة، فقد كان حدث السنن لأن

1- 1) حاشية ابن عابدين على الدر المختار 1-643.

2- 2) أخرجه النسائى فى الحج.

عمره يوم توفى النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لم يتجاوز العشرين سنة، فهذه الكثرة تبعث على الاستغراب، كما أن هناك أمورا لا تسيغ لنا قبول كثير من رواياته. و التوقف فى ذلک لا يدعو إلى الطعن فى الصحابة. و لا نريد أن نعتذر عن رد أحاديثه عند التثبت لمعرفة حاله فإضبارة عمله كافية لكشف الحقيقة. فلنطو صحيفة البحث عن ذلک طلبا للاختصار هنا و نتركه لمحل آخر. أما أم المؤمنين عائشة فلا نريد أن نساير موكب حياتها من البداية إلى النهاية، فاستقصاء البحث يقصينا عن الموضوع (1). و لكنا نريد أن نتحدث عن حديثها بصورة موجزة، فإن لشخصيتها مكانة فى المجتمع و أثر فى التشريع الإسلامى، و قد اختصت دون سائر أزواج النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بكثرة الرواية عنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بما لا نسبة له بين مجموع رواياتهن و رواياتها، و إليک ما يلى:

حديث أمهات المؤمنين:

زينب بنت جحش سنة 20 ه-، لها 11 حديثا. صفية بن حيى بن أخطب المتوفاة سنة 50 ه-اتفق مسلم و البخارى على حديث واحد. سودة بنت زمعة المتوفاة فى خلافة عمر انفرد البخارى لها بحديث. هند بنت أمية المخزومية و هى آخر أزواج النبى وفاة، لها 378 حديثا. حفصة بنت عمر بن الخطاب المتوفاة سنة 41 ه-لها 60 حديثا. جويرية بنت الحرث المتوفاة سنة 56 ه-لها أحاديث انفرد لها البخارى بحديثين. رملة بنت أبى سفيان المتوفاة سنة 44 ه-لها 65 حديثا. ميمونة بنت الحرث الهلالية المتوفاة سنة 51 ه-لها 40 حديثا. عائشة بنت أبى بكر الصديق المتوفاة سنة 57 ه-لها 2210 أحاديث، فارتفاع هذا الرقم و حصول تلک الطفرة فى الكثرة يستوجب التريث و التثبت و عدم الإسراع فى

1- 1) ذكرنا أطوار حياتها و منزلتها فى التشريع الإسلامى فى كتابنا (عائشة و التشريع الإسلامى) مخطوط.

قبول ذلک، و لا حجر علی المفکر لو أعطی النظر حریته مع حصول أشیاء تؤید هذا التفکیر من شغلها و شواغلها، و صغر سنها و لعبها باللعاب و منادمة صویحباتها (1)و القیام بخدمة البیت إلی کثیر من ذلک. فالوقوف هنا لاستجلاء الحقیقة لا یوجب الطعن علی أمهات المؤمنین لیستوجب الکفر و الخروج عن الدین، علی أن هناک شیئا یدعو إلی التثبت و هو أمر رواة أحادیثها، فإنهم اتخذوا الروایة عنها سببا للتقرب إلی بنی أمیة، و قد طعن علی هشام بن عروة و غیره، ممن تقربوا للأمویین بوضع الأحادیث عن عائشة خدمة لمصالحهم. و لا نطیل نقاشنا للأحادیث الواردة عنها التی فیها من الدخل الشائن لروح الإسلام و المنافیة لمقام النبی الأعظم، کما یروی البخاری عنها فی الأدب المفرد، أنها قالت: کنت آکل حیسا مع النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فمرّ عمر فدعاه فأکل فأصابت یده إصبعی فقال عمر: خس لو أطاع فیکن ما رأتکن عین (2). أ لیس فی ذلک حط لمقام النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و نقصه؟ و هو الإنسان الکامل و المثل الأعلی لمکارم الأخلاق، أ کانت داره أطروقة للذاهب و الجائی؟ ! ! أم کان یأکل هو و زوجته علی قارعة الطریق؟ ؟ أم أن عمر کان لا یحترم النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فیدخل علیه دخول عابر سبیل؟ ؟ کل هذا نسکت عنه لا خوفا من القول بأنه طعن علی ما یروی عن عائشة، و الطعن علیه خروج عن ملة المسلمین کما یقولون! و لکن ضیق المجال یحول دون بسط القول فی ذلک. أ لیس لنا حق التثبت بما یروی عن عائشة؟ أن رجلا سأل رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم عن الرجل یجامع أهله ثم یکسل هل علیهما الغسل؟ و عائشة جالسة، فقال صلّی اللّه علیه و آله و سلم: إنی لأفعل ذلک أنا و هذه ثم نغتسل (3). کیف یصح هذا؟ و رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم مثال الغیرة و مجمع الفضائل و الإنسان الکامل، فالعقل یمتنع عن قبوله احتراما لمقام الرسول الأعظم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لذاته و خلّته

1- 1) البخاری فی الأدب المفرد ص 54.

2- 2) الأدب المفرد ص 152. [1]

3- 3) البخاری ج 1 ص 161 و صحیح مسلم ج 1 ص 187 و سنن البیهقی ج 1 ص 164.

الشخصية فما بالک إذا کان رسول اللّه و أمینه علی وحیه و خیر خلقه؟ و لیکن من وراء عدم قبول ذلک اتهام بالکفر و رمی بالزندقة. کما یحق لنا أن نناقش ما یرویه مسلم فی صحیحه عن هشام بن عروة عن أبیه عن عائشة: إن النبی کان مسحورا یخیل إلیه أنه یفعل الشیء و ما یفعله (1). فسل صحیح مسلم عن صحة ذلک، و سل عروة و ابنه إن کنت رجلا لا تخاف الاتهام بالزندقة، و إلا فاترک مسئولیة البحث لمن لا یتقید بالأوهام و لا یخضع لسلطان العاطفة العمیاء و لا یبالی بتوجیه التهم ما دمنا محافظین علی کرامة النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و إن طعنا بألف صحابی و صحابی و کذبنا ألف صحیح و صحیح، حاشا للنبی الأعظم و منقذ الإنسانیة و هو الإنسان الکامل فی کل صفاته، و هو المثل الأعلی لکل مکرمة، کیف یعتریه النقص و یخیل إلیه أنه یفعل الشیء و لا یفعله؟ ! لیت شعری أیتم نظام العالم و هو مصلحه مع اتصافه بهذه الصفة؟ کلا إنه (ما ینطق عن الهوی إن هو إلا وحی یوحی) . فلنترک مناقشة کثیر من الأحادیث و لا نمضی فی هذا الموضوع بأکثر مما ذکرناه، و نکتفی بذکر ما دعت الحاجة إلی عرضه بدون استقصاء فی البحث و لا تتبع شامل لنقاط الموضوع، و غرضنا من ذلک إعطاء صورة عن تلک الاتهامات التی وجهت للشیعة بأنهم لا یأخذون بروایة الصحابة. نعم الشیعة لا یأخذون إلا عن الصادقین فی القول، و یتشددون فی قبول الروایة أکثر من غیرهم.

تهمة سب الصحابة:

إن تهمة سب الصحابة قد استأصل داؤها فعز علاجه، و نفذ حکمها فعظم نقضه، و سرت تلک الدعایة فی مجتمع تسوده عاطفة عمیاء و عصبیة هوجاء، و قد وقفت الحقیقة أمام ذلک الوضع المؤلم مکتوفة الید، و أسدلت دونها أبراد التمویه، و أحیطت بأنواع الحواجز و أقیمت فی طریق الوصول إلیها آلاف من العقبات و سلاح القوة فوق ذلک، إذ السلطة قررت نظام انطباق الکفر و الزندقة علی المعارضین لسیاستها، و لم یمکنهم تحقیقه إلا باتهام سب الصحابة أو أبی بکر و عمر بصورة خاصة.

1- 1) صحیح مسلم ج 4 ص 24.

و إذا حاول المفكرون أن يقفوا على حقيقة الأمر و الواقع أخذوا بتلك التهمة و شملهم ذلک النظام الجائر. فكانت الحكومة إذا أرادت أن تعاقب شيعيا لمذهبه لم تذكر اسم علىّ بل يجعل سبب العقوبة أنه شتم أبا بكر و عمر. قاله فى المنتظم، و قال ابن الأثير فى حوادث سنة 407: و فى هذه السنة قتلت الشيعة فى جميع بلاد إفريقيا و جعل سبب ذلک اتهامهم بسب الشيخين (1). و ما أكثر تلک الفظائع السود و الأعمال الوحشية التى وقعت طبقا لنظام السياسة و لا علاقة لها بنظام الإسلام الذى يقضى على مرتكبها بالخروج منه. و إن المسألة مكشوفة لا تحتاج إلى مزيد بيان لشرح الأسباب التى أدت إلى حدوث تلک الحوادث المؤلمة، و ارتكاب تلک الجرائم الفادحة، و معاملة شيعة أهل البيت بتلک المعاملة القاسية. و ليس هناک من شک بأن استقلال الشيعة الروحى و عدم اعترافهم بشرعية سلطان لا يحترم نواميس الدين و لا يلتزم بأوامر الشرع جعلهم خصوما للسلطة. فكانت مشكلة التشيع من أعظم المشاكل التى تواجهها الدولة. فلقيت الشيعة بسبب خصومتها للدولة و معارضتها لحكام الجور انتكاسات فى سبيل نشر الدعوة، كما لقيت انتصارات إذ لم تكن تلک الانتكاسات لتعود بهم القهقرى، أو تلقى بهم فى نطاق الفشل الضيق، و اليأس من المضى فى سبيل إظهار عقيدتهم، فقد كان لهم من الحيوية و رسوخ العقيدة ما ساعدهم على المضى فى استرجاع مكانتهم فى التاريخ، لحمل رسالة يلزمهم أداءها و يجب عليهم مواصلة الكفاح لتحقيقها تلک هى رسالة الإسلام، تحت ظلال دعوة أهل البيت عليهم السّلام. فكان لهم الأثر العظيم فى نشر الوعى الإسلامى و إطلاق الفكر من عقال الجمود. و على أى حال فإن أعداءهم لم يجدوا حلاّ لهذه المشكلة إلا بأن يلصقوا بهم تهما يتلقاها المجتمع بالقبول، فتوسعوا فى التهم و اتخذوا مرتزقة لتحقيق ذلک

1- 1) الكامل ج 9 ص 110. [1]

الغرض، فقالوا: إن الشيعة تكفّر جميع أصحاب محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و يطعنون عليهم، و بذلک يتوجه الطعن على النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أنهم يرمون أمهات المؤمنين و غير ذلک. و وضعوا قاعدة قررها علماء السوء و هى: إذا رأيت الرجل ينتقص أحدا من أصحاب محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فاعلم أنه زنديق. و ذلک أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حق و القرآن حق، و إنما أدى إلينا هذا القرآن و السنن أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و إنما يريدون أن يجرحوا شهودنا ليبطلوا الكتاب و السنة و الجرح بهم أولى و هم زنادقة (1). و حكموا على من اتهم بسب الشيخين بالكفر، فلا يغسل و لا يصلى عليه، و لا تنفعه شهادة أن لا إله إلا اللّه، و يدفع بالخشب حتى يوارى فى حفرته (2). و إنه إذا تاب لا تقبل توبته بل يجب قتله (3). و قال بعضهم بحرمة ذبيحته و حرمة تزويجه. و من هذا و ذاک سرت فكرة كفر الشيعة، لأن الدولة قضت بنظامها القضاء عليهم، و أن يسندوا ذلک إلى الشرع-و حاشاه من ذلک-و لكن السياسة عمياء، و الحق لا قيمة له عند علماء السوء الذين اندفعوا لمؤازرة السلطة و إغواء العامة. و من الغريب أن بعض أولئک المرتزقة احتاط لدينه و استشكل فى تنفيذ ذلک النظام المخالف للشرع، فجاء بحكم جديد فأفتى بوجوب قتل من سب الصحابة سياسيا لدفع فسادهم و شرهم، و إن كانوا لا يجوزونه شرعا للحديث الشريف: لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا اللّه محمد رسول اللّه إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزانى، و النفس بالنفس، و التارک لدينه (4)خرجه جميع الحفاظ و صححوه. . . هكذا أفتى هذا المأجور. و كم حكمت السياسة على نصوص الشريعة و نسخت أحكامها المقررة لأن السياسة اقتضت ذلک، و علماء السوء قد فتحوا باب الارتزاق بالدين و أعمتهم المادة و استغواهم شيطان اللذة و حب التمتع بالحياة، فلم يقفوا عند حدود اللّه، و حكموا بغير ما أنزل اللّه.

1- 1) الكفاية للخطيب البغدادى ص 49.

2- 2) الصارم المسلول ص 575.

3- 3) رسائل ابن عابدين ج 1 ص 364.

4- 4) رسائل ابن عابدين ج 1 ص 367.

و طغى طوفان الافتعالات و تلاطمت أمواج الأكاذيب على اللّه و رسوله من أولئک القوم الذين ساروا على غير هدى، و لم يستمعوا لمرشد و لم يقفوا عند حد، بل الأمر منوط لرأى السلطة كيف شاءت. و نود هنا أن نشير لنبذة من بحث للإمام كاشف الغطاء حول ذكر الفروق الجوهرية بين الطائفتين (1). قال رحمه اللّه-بعد ذكر الاختلاف فى الخلافة-: نعم و نريد أن نكون أشد صراحة من ذلک، و لا نبقى ما لعله يعتلج أو يختلج فى نفس القراء فنقول: لعل قائلا يقول: إن سبب العداء بين الطائفتين أن الشيعة ترى جواز المس من كرامة الخلفاء أو الطعن فيهم، و قد يتجاوز البعض إلى السب و القدح مما يسىء الفريق الآخر طبعا و يهيج عواطفهم فيشتد العداء و الخصومة بينهم. و الجواب أن هذا لو تبصرنا به قليلا و رجعنا إلى حكم العقل بل و الشرع أيضا لم نجده مقتضيا للعداء أيضا. أما أولا: فليس هذا من رأى جميع الشيعة و إنما هو رأى فردى من بعضهم، و ربما لا يوافق عليه الأكثر، كيف و فى أخبار أئمة الشيعة النهى عن ذلک. فلا يصح معاداة الشيعة أجمع لإساءات بعض المتطرفين منهم. و ثانيا: إن هذا على فرضه لا- يكون موجبا للكفر و الخروج عن الإسلام، بل أقصى ما هناک أن يكون معصية و ما أكثر العصاة فى الطائفتين. و معصية المسلمين لا تستوجب قطع رابطة الأخوة الإسلامية معه قطعا. و ثالثا: قد لا يدخل هذا فى المعصية أيضا و لا يوجب فسقا إذا كان ناشئا عن اجتهاد و اعتقاد و إن كان خطأ، فإن من المتسالم عليه عند الجميع فى باب الاجتهاد أن للمخطئ أجرا و للمصيب أجرين. و قد صحح علماء السنة الحروب التى وقعت بين الصحابة فى الصدر الأول، كحرب الجمل و صفين و غيرهما، بأن طلحة و الزبير و معاوية اجتهدوا و إن أخطئوا فى اجتهادهم، و لكن لا يقدح ذلک فى عدالتهم و عظيم مكانتهم. و إذا كان الاجتهاد يبرر و لا يستنكر قتل آلاف النفوس و إراقة دمائهم فبالأولى

1- 1) انظر هذا البحث القيم الذى نشرته مجلة رسالة الإسلام تحت عنوان (بيان للمسلمين) ص 227- 228 السنة الثانية العدد الثالث.

أن يبرر و لا يستنكر معه (أى مع الاجتهاد) تجاوز بعض المتطرفين على تلك المقامات المحترمة، إلى آخر البحث. و ليس فى وسعنا نقل كلمات علماء الشيعة حول هذه النقطة المهمة التى لها أثرها العظيم فى تكدير صفو الأخوة الإسلامية، فأصبحت طريقا لأعداء الدين يدخلون فيه لأغراضهم.

نهاية البحث:

إن فكرة اتهام الشيعة بسب الصحابة و تكفيرهم-كونتها السياسة الغاشمة، و تعاهد تركيزها أناس مرتزقة باعوا ضمائرهم بثمن بخس و تمرغوا على أعتاب الظلمة، يتقربون إليهم بذم الشيعة. و قد استغل أعداء الدين هذه الفرصة فوسعوا دائرة الانشقاق لينالوا أغراضهم، و يشفوا صدورهم من الإسلام و أهله، و راح المهرجون يتحمسون لإثارة الفتن و إيقاد نار البغضاء بين المسلمين بدون تدبر و تثبت، و قد ملئت قلوبهم غيظا. و بفعل السياسة و تحكمها أصبحت الشيعة و هى ترمى بكل عظيمة و تهاجم بهجمات عنيفة، و اندفع ذوو الأطماع يعرضون ولاءهم للدولة فى تأييد ذلک النظام و الاعتراف به، و أنه قد أصبح جزءا من حياة الأمة العقلية و هم يخادعون أنفسهم. و لم يفتحوا باب النقاش العلمى و حرموا الناس حرية القول، و أرغموهم على الاعتراف بكفر الشيعة و الابتعاد عن مذهب أهل البيت عليهم السّلام و لو سألهم سائل عن الحقيقة و طلب منهم أن يوضحوا لهم ذلک، فليس له جواب إلا شمول ذلک النظام له، و نحن نسائلهم: 1-أين هذه الأمة التى تكفر جميع الصحابة و يتبرّءون منهم؟ 2-أين هذه الأمة التى تدّعى لأئمة أهل البيت عليهم السّلام منزلة الربوبية؟ 3-أين هذه الأمة التى أخذت تعاليمها من المجوس فمزجتها فى عقائدها؟ 4-أين هذه الأمة التى حرفت القرآن و ادعت نقصه؟ 5-أين هذه الأمة التى ابتدعت مذاهب خارجة عن الإسلام؟ إنهم لا يستطيعون الجواب على ذلک، لأن الدولة قررت هذه الاتهامات فلا

يمكنهم مخالفتها. و لا يمكن إقناعهم بلغة العلم. و ما أقرب الطريق إلى معرفة الحقيقة لو كان هناك صبابة من تفكير و بقايا من حب الاستطلاع و خوف من اللّه و حماية للدين. أ ليس التشيع مبدأ يشمل عددا وافرا من أصحاب محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و هم من البدريين و أهل بيعة الرضوان؟ ممن و الى عليا عليه السّلام و يرى أحقيته بالخلافة. أ ليس من الشيعة علماء اعترف الكل بعلو منزلتهم و غزارة علمهم، و احتاج الناس إليهم، و هم من شيوخ كبار العلماء و رجال الصحاح كأبى حنيفة، و الشافعى، و أحمد، و البخارى و غيرهم، و قد خرج أصحاب الصحاح لعدد وافر من رجال الشيعة، يربو عددهم على ثلاثمائة رجل، و لا يسع المقام لنشر أسمائهم فنتركهم لفرصة أخرى (1). أ ليس من الشيعة رجال حملوا رسالة الإسلام و تحملوا المصاعب فى أدائها و منهم حملة فقه لولاهم لضاع الفقه و ذهبت تعاليم الإسلام؟ و إن للشيعة يدا فى المحافظة على التراث الإسلامى و صيانته عن تلاعب السياسة.

التثبت قبل الحكم:

لم نسهب فى بيان الموضوع عبثا و استطرادا، و لم نقصد به خوض بحث لا علاقة له بموضوع الكتاب، بل الواقع أن هذا الموضوع من أهم المواضيع التى يجب أن نتطرق إليها فى هذا الكتاب الذى أقدمنا عليه لبيان مذهب أهل البيت عليهم السّلام. فمما لا شك فيه أن أهم مشكلة تقف أمام الباحث هى مسألة اتهام الشيعة بسب الصحابة أو تكفيرهم. و قد بينا مرارا أن ذلك يعود إلى عوامل سياسية لا صلة لها بالواقع، لأن اسم الشيعة ارتبط بآل محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و هم أنصارهم و آل محمد هم الشجى المعترض فى حلق أولئك الحكام الذين استبدوا بالحكم و جاروا على الأمة، فكان من دواعى السياسة أن تطبع فى قلوب الناس طابع البغض للجانب الذى ينافسهم و يعارضهم، أو من لا يؤازرهم، و هو يقف موقف المعارضة لأعمالهم.

1- 1) ذكر منهم سيدنا شرف الدين فى كتاب المراجعات مائة رجل. و ذكر العلامة الأمينى فى كتاب الغدير فى ج 3 عددا وافرا منهم. و بأيدينا قائمة تقارب ثلاثمائة رجل قد اعتمد رجال الصحاح عليهم.

و هل من شک فی معارضة الشیعة و عدم مؤازرتهم الدولة، و إنهم لا یعترفون بشرعتیها فی تلک العصور، لأنهم لا یتنازلون عن الاعتقاد بأحقیة أهل البیت للخلافة، لما طبعوا علیه من صفاء النفس و التضحیة فی سبیل المصلحة العامة، و هم أولی الناس بالأمر و أعدلهم بالحکم. لذلک نری أن تشریع نظام الحکم علی من اتهم بسب الصحابة یهدف إلی عقاب الشیعة فقط. أما غیرهم فلا یشمله هذا الحکم و لو کان ملحدا کما مر بیانه. و قد تسرع المخدوعون بالظواهر إلی الاعتراف به، و قاموا بتنفیذه، فحکموا علی الشیعة بالفسق مرة و بالکفر أخری، و لیتهم حددوا لذلک حدا حتی یعرف الناس کیفیة المؤاخذة، و لکنهم وسعوا الدائرة و اختلفت الصور، کما أنهم قرروا عدم قبول توبة المتهم بسب الصحابة أو الشیخین بصورة خاصة، و قرروا انطباق الآراء الفردیة علی مجموع الأمة. من دون تثبت فی الحکم و تورع فی الموضوع. و لهذا فإن المرتزقة-من العلماء الذین أصبحوا مصدرا للفتوی و حکاما فی السلطة التشریعیة-قد أخذوا علی عاتقهم مسئولیة إغواء العامة و حملهم علی خلاف الحق، فکانوا دعاة فرقة و أئمة ضلال فحکموا علی الشیعة بالأخص-من دون بیان لمستند الحکم و دلیل للفتوی-بأن قتالهم (أی الشیعة) جهاد أکبر، و من قتل فی حربهم فهو شهید. و یقول فی خاتمة الفتوی: و من شک فی کفرهم-أی الشیعة-کان کافرا. و آخر یقول کما فی الخلاصة: الرافضی إذا کان یسب الشیخین و یلعنهما، فهو کافر، و إن کان یفضل علیا علیهما، فهو مبتدع (1). و هکذا زینوا للناس حب الوقیعة بعضهم ببعض، و أباحوا قتل المسلم بید أخیه المسلم بدون تثبت فی الحکم و وقوف أمام حرمة ذلک، و لیس غرضهم إلا إرضاء السلطة و إن غضب اللّه علیهم. و لا حاجة بنا إلی نقل عبارات تعبر عن عقلیة قائلیها و مقدار إدراکهم للواقع فلا نطیل الوقوف علی تلک الخرافات و الأباطیل، فلنسدل الستار عنها و لا بد لنا أن نلحظ نقطتین: الأولی: هل الطعن علی مجموع الصحابة موجب لهذه الأحکام القاسیة، أم أن

1- 1) رسائل ابن عابدین ج 2 ص 169.

هناک فرقا و تمییزا؟ فإن کان هذا الحکم علی کل من طعن صحابیا أو وصفه بصفة لا تلیق به، فلما ذا لم یحکموا علی من طعن علی عدد کثیر من الصحابة و وصفهم بما لا یلیق بهم؟ و هم من کبار الصحابة و أعیانهم، لأنهم أنکروا علی عثمان أوضاع بنی أبیه الشاذة و مسایرته لهم، أو خالفوا معاویة بن أبی سفیان. أ لیس من الطعن و التنقیص وصفهم للصحابة: بأنهم أجلاف أخلاط من الناس، لا شک أنهم مفسدون فی الأرض بغاة علی الإمام (1). و یقول ابن تیمیة: بأنهم خوارج مفسدون فی الأرض إلی أن یقول: و لم یقتله- أی عثمان-إلا طائفة قلیلة باغیة ظالمة. و أما الساعون فی قتله فکلهم مخطئون بل ظالمون باغون معتدون (2). و یقول ابن حجر فی وصف المعترضین علیه: إن المجتهد لا یعترض علیه فی الأمور الاجتهادیة، لکن أولئک الملاعین المعترضون لا فهم لهم و لا عقل (3). و قد قرروا فی بحث العدالة أن الصحابة عدول إلی وقوع الفتن. أما بعد ذلک فلا بد من البحث عمن لیس ظاهر العدالة. هذا هو أحد الأقوال (4). و لا نرید التعرض لجمیع الأقوال التی وصفوا بها الصحابة الذین اشترکوا فی معارضة عثمان، و حرضوا الناس علیه، و لکنا نورد بعضا من الرأی المعاصر فی هذه القضیة و نأخذ قول رفیق بک العظم إذ یقول: «. . . فإن أولئک الثائرین علی عماله (عثمان) الناقمین منه مهما کان الدافع لهم إلی ذلک العمل فإن غایتهم التی یقصدون إلیها بحسب الظاهر هی العدل بین الناس بعدم الاستئثار بمصالح و منافع الأمة» . و یستطرد فیقول: «. . . فوقوف الناس علی أخبارهم (الصحابة) و الأخذ و الرد فیما حدث بینهم یحیی فی القلوب روح الحریة و یبعث علی استظهار عامة الناس للحجة التی یصادمون بها الآن الاستبداد من الخلفاء و الملوک الذین حوّلوا الخلافة إلی الملک العضوض و أمعنوا فی التمکن من رقاب المسلمین، و لهذا و لما کثر خوض الناس فی

1- 1) تاریخ ابن کثیر ج 1 ص 176.

2- 2) منهاج السنة ج 3 ص 191-206.

3- 3) الصواعق المحرقة لابن حجر ص 68. [1]

4- 4) شرح ألفیة العراقی ج 4 ص 36.

أخبار الصحابة أرادوا إلهاءهم عنها بحجة حرمة الخوض فيها، فأوعزوا إلى الوضاع و القصاصين بوضع أخبار المغازى و قصة عنترة و أشباها فى أعصر مختلفة لا تعلم بالتحقيق» (1). و كان من السهل على الأستاذ رفيق بک أن يعلم أعصر و أزمان حركات الوضع و القصص التى لجأ إليها من ذكرهم من المتسلطين و التى انصبت على الإساءة إلى رموز العدل و أهل الإيمان إلى جانب الأخبار و المغازى. الثانية: إن الشيعة لا- تتكتم فى بغض من عادى عليا، فإن مبغض على منافق بنص الحديث الشريف: «يا علىّ لا يحبک إلا مؤمن و لا يبغضک إلا منافق» و إن المنافقين لفى الدرک الأسفل من النار، و قد ثبت أن بعض من وسموا بالصحبة كانوا يبغضون عليا عليه السّلام و يسبونه. و قد اشتهر ذلک عنهم: فاللّه يشهد إنا لا نحبهم للّه ما نختشى فى ذاک من غضبا

و بدون شک أن معاوية و حزبه كانت تتجلى بهم صفة البغض لعلىّ و أهل البيت أجمع، و قد قابلوه بالعداء و أعلنوا الحرب عليه. كما أعلن معاوية شتم علىّ و جعله سنة، و تتبع أنصاره من الصحابة و التابعين، فأذاقهم أنواع الأذى و المحن، و جرعهم الغصص و قتلهم تحت كل حجر و مدر بما لا حاجة إلى بيانه. على أن أعماله لا يمكن السكوت عنها، و لا طريق إلى حملها على وجه صحيح. و ليس من الإنصاف أن يقال: إن معاوية مجتهد متأول، و قد عطل الحدود، و أبطل الشهود، و قتل النفس المحرمة. و سبى نساء المسلمين، و عرضهن فى الأسواق، فيكشف عن سوقهن، فأيتهن كانت أعظم ساقا اشتريت على عظم ساقها (2)إلى كثير من تلک الفظائع و الفجائع. و هذا أبو الغادية الجهنى، كان من الصحابة، و ممن سمع النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم، و روى عنه، و هو أحد رواة حديث «يا عمار تقتلک الفئة الباغية» .

1- 1) انظر: عثمان، لمحمد رضا ص 214-215.

2- 2) الاستيعاب ج 1 ص 157. [1]

و هو الذی قتل عمار بن یاسر رضوان اللّه علیه، و قد أنکر الناس علیه ارتکابه لهذه الجریمة، و اعترف هو علی نفسه بأنه من أهل النار، و کان یقول: و اللّه لو أن عمارا قتله أهل الأرض لدخلوا النار (1). فکیف یتهم بالخروج عن الدین من تبرأ من هذا المجرم الذی اعترف علی نفسه بأنه عدو اللّه، و لکن بعض المحدثین تأولوا له ذلک، و أنه مجتهد أخطأ و یلزم حسن الظن بالصحابة (2). و نحن لا نعرف هذا المنطق الذی یقضی بطرح الأحکام، و هجر الکتاب فی جانب حسن الظن بالصحابة و السکوت عما ارتکبوه. و هل یسوغ لنا السکوت عن أعمال بسر و موبقاته؟ إذ وسم بالصحبة أیضا، و هو قائد جیش معاویة. و قد ارتکب جرائم لم یشهد التاریخ مثلها فظاعة، حتی أنکرت النساء علیه عند ما دخل الیمن، و قتل الشیوخ و الأطفال و سبی النساء، فقالت له امرأة من کندة: یا ابن ارطاة إن سلطانا لا یقوم إلا بقتل الصبی الصغیر و الشیخ الکبیر و نزع الرحمة و عقوق الأرحام إنه لسلطان سوء (3). فکیف یسوغ لنا السکوت عن أعمال بسر، و نصم أسماعنا عن صوت ثکلی تردد نغماتها موجات الحق، و ترفع ظلامتها إلی رجال العدل، و تدعو هائمة مذهولة؟ ؟ یا من أحس بابنیّ اللذین هما کالدرتین تشظی عنهما الصدف

یا من أحس بابنیّ اللذین هما سمعی و عقلی فعقلی الیوم مختطف

من دل والدة حیری مدلهة علی صبیین ذلا إذ غدا السلف

نبئت بسرا و ما صدقت ما زعموا من إفکهم و من الإثم الذی اقترفوا

أحنی علی ودجی ابنیّ مرهفة مشحوذة و کذاک الإثم یقترف

فهذا صوت یبعث فی القلب شجی، و فی العین قذی، یصدر من أم والهة- و هی زوجة عبید اللّه بن العباس-فقدت ولیدها و هما قثم و عبد الرحمن. أخذهما بسر بن أرطاة و هما صغیرین، فذبحهما بین یدی أمهما، فهامت علی وجهها مذهولة،

1- 1) أسد الغابة 5-267. [1]

2- 2) الإصابة 4-151.

3- 3) الکامل لابن الأثیر ج 3 ص 195. [2]

فكانت تأتى الموسم و تنشد هذا الشعر و تهيم على وجهها (1). إذا فليس من أنصاف الحق أن يؤاخذ المسلم عند ما يغضب لسماع صوتها و ينسب الظلم لمن قتل ولديها فيرمى بالزندقة و الإلحاد لأنه طعن على معاوية، إذ القتل بأمره و هو صحابى، و له فى ذلک اجتهاد مقبول أو تأويل صحيح، إذا ليجرى معاوية فى ميدان الحياة و ليفعل ما شاءت له نفسه، فقد ضربت الصحبة عليه حصانة لا يمكن مؤاخذته فليأمن من كل خطر و ليسفک الدماء، و ليقتل على الظنة و التهمة، فقد انهارت الحواجز كلها فى وجهه و اندكت العقبات أمامه، فلا تشمله تلک النظم و الأحكام التى قررها الشارع المقدس، و فيها سعادة البشر و نظام الحياة، لأنه صحابى و له حرية التصرف فى الأحكام. و لو كان له ذلک لما أنكر الصحابة عمله، و فى طليعتهم الصحابى الجليل أبو ذر الغفارى، فقد أعلن للملإ انحراف سيرة معاوية و مخالفته لنظم الدين. و قد أنكرت عائشة على معاوية قتله لحجر و أصحابه و غضبت عليه و منعته من الدخول عليها و لم تقبل بأعذاره إذ قال: إن فى قتلهم صلاحا للأمة، و فى مقامهم فسادا للأمة فقالت: سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يقول: سيقتل بعذراء الناس يغضب اللّه لهم و أهل السماء (2). و كثر الإنكار على معاوية لما ارتكبه من الأعمال و لا يتسع المجال للإسهاب فى هذا الموضوع. و خلاصة القول أن الصحبة بشروطها فى الإخلاص فى الدين و الولاء فى الإسلام و ليست منزلة توجب العصمة و تلزم الاعتراف بالتفرد دون نظر و تدقيق، قال سفيان بن عيينة: نظرت فى أمر الصحابة و أمر بن المبارک فما رأيت لهم عليه فضلا إلا بصحبتهم النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و غزوهم معه (3). فليست مقرونة بمواهب خارقة و خصال خاصة و قد تكون اصطحابا بلا أثر و غزوا فى الظاهر، و فى السريرة أغراض نفع و رياء فعن معاذ بن جبل أن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: الغزو غزوان، فأما من ابتغى وجه اللّه و أطاع الإمام

1- 1) الاستيعاب ج 1 ص 156 و [1]الكامل لابن الأثير ج 3 ص 195.

2- 2) تاريخ ابن كثير 8/55.

3- 3) صفة الصفوة لابن الجوزى ج 1 ص 111 و [2]تاريخ ابن كثير.

و أنفق الكريمة و اجتنب الفساد فإن نومه و نبهته أجر كله، و أما من غزا رياء و سمعة و عصى الإمام و أفسد فى الأرض فإنه لا يرجع بالكفاف (1). فإذا كان ذلک فى حياته عليه أفضل الصلاة و السلام فما ظنک بعد أن قبض صلّى اللّه عليه و آله و سلم، و لقد أخبر صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أولئک-كما روى عن ابن مسعود و أنس و آخرين: «يرفع إلى أقوام فيقولون: يا محمد يا محمد، فأقول: يا رب أصحابى، فيقول: إنک لا تدرى ما أحدثوا بعدک، فأقول: بعدا و سحقا» . و سنعود إن شاء اللّه تعالى للبحث عنه مرة أخرى فى الأجزاء القادمة. و ها نحن أولاء نعيد تأكيد الطلب من الكتّاب الذين يهمهم خدمة الحق و إظهار الحقيقة، أن يتثبتوا قبل الحكم حول تلک الاتهامات الموجهة إلى الشيعة (2)و أن يستعملوا لغة المنطق و لا يخضعوا للتقاليد و استعمال الأقيسة المعكوسة و مؤاخذة الأمة بالفرد. نقول هذا و لنا كبير أمل فيما نلمسه من وعى فى المجتمع الإسلامى لنبذ الحزازات، و قبر تلک الآراء التى أوجدت الخلافات. و من اللّه نسأل تحقيق الآمال فهو الموفق و عليه الاتكال. و نسأله تعالى أن ينصر المسلمين و يوحد كلمتهم وَ لَوْ كَرِهَ اَلْكافِرُونَ . و الحمد للّه هُوَ اَلَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى وَ دِينِ اَلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى اَلدِّينِ كُلِّهِ وَ لَوْ كَرِهَ اَلْمُشْرِكُونَ .

و الصلاة على محمد و آله الطيبين و أصحابه المنتجبين

تم الجزء الثانى

و يليه الجزء الثالث إن شاء اللّه تعالى

1- 1) النسائى فى السنن ج 7 ص 155.

2- 2) استقصينا البحث عن التهم الموجهة إلى الشيعة فى كتابنا (الشيعة فى قفص الاتهام) و قد حالت الظروف بيننا و بين طبعه.

المجلد 2

اشارة

عنوان و نام پدیدآور:الامام الصادق و المذاهب الاربعه / اسد حیدر

مشخصات نشر:دارالتعارف للمطبوعات - بیروت - لبنان- 1422

زبان: عربی

مشخصات ظاهری:4ج

موضوع:امام صادق علیه السلام

موضوع:مذاهب اربعه - اهل سنت

ص: 1

ص :3

عنوان و نام پدیدآور:الامام الصادق و المذاهب الاربعه / اسد حیدر

مشخصات نشر:دارالتعارف للمطبوعات - بیروت - لبنان- 1422

زبان: عربی

مشخصات ظاهری:4ج

موضوع:امام صادق علیه السلام

موضوع:مذاهب اربعه - اهل سنت

ص :4

بسم الله الرحمن الرحيم

ص :5

الجزء الثالث

اشارة

ص: 7

عرض و تمهید

نوعیة البحث:

هـذا هو الجزء الثالث من کتابنا الإمام الصّادق و المـذاهب الأربعـة، أضـعه بین یـدی القرّاء. و قد نهجت فیه منهجی الذی سـرت علیه فی الجزءین الأول و الثانی، مبتـدئا بـذکر الإمام الصّادق علیه السّـلام فی بیان موجز عن تاریخ حیاته، و نشاط مدرسـته، و بعض تعالیمه. و لـم أتوسع فی البحث-کما یتطلّبه الموضوع-إذ لا یمکن إعطاء شخصـیته حقها من الإحاطـة و البیان، فإن ذلک أمر یشق علی الباحث حصوله مهما أنفق من جهـد فی هـذا السبیل، و فی أی ناحیـة یسـلک لیفرغ منها فراغا تاما یجـد نفسه فی البدایـة لا فی النهایة؛ لأن شـمول البحث لجمیع جوانب شخصـیة الإمام الصّادق علیه السّلام و مزایاه التی اتّصف بها، و أعماله التی قام بها، لإعلاء کلمة الإسلام و توحید صفوفها، و هو من الصـعوبة بمکان. و لهذا التجأت إلی إفراد البحث فی ذلک بجزء خاص به، کما أن الفترة التاریخیة التی عاشها الإمام علیه السّلام، کانت ملیئـة بأحـداث تأثّر بها مجتمعه الـذی کان یتصل به، و یرتبط بواقعه، فکان یعالـج تلک المشاکل بحنکـة و تدبّر، عن بصـیرة و معرفة بعاقبـة الأمور. و کانت الظروف تقضـی علی رجال أهل البیت علیهم السّـلام أن یکونوا محور آمال الأمّة؛ لأن الثورة قامت باسـمهم، و قد ارتفعت هتافات الثّوار بالدعوة لهم، و إسـناد الحکم إلیهم، و کان هو علیه السّـلام زعیم أهل البیت و سـیّدهم فی عصره، و هو أعلم الناس بتلک الأمور، و ما یؤول إلیه الأمر بین العبّاسـیین و العلویین، کما أنّه درس تلک الأوضاع و عاش مع أحـداث مختلفـة، و مشاکل متراکمة. فکان موقفه علیه السّلام

أحرج موقف يقفه زعيم دينى يحمل رسالة الإسلام، و يريد تطبيق نظامه فى عصر هبّت فيه زوبعة الأهواء، و اختلفت الآراء، و ذهب الناس فيه مذاهب شتّى، و سلكوا طرقا متباينة، فالموقف إذا يحتاج إلى قيادة حكيمة، و سياسة إسلامية مركّزة، فكان موقفه عليه السّلام موقف القائد المحنّک، الذى يسير على هدى من دينه، و بصيرة من أمره، و لقد ظلم التاريخ مواقفه، و ألجم عن التصريح بأعماله و آثاره، و لو أفصح التاريخ عن جميع مآثره و جليل أعماله-و لم يكن محظورا عليه ذلک-لاتسعت دائرة البحث عن إدراک جوانب تاريخ حياته. و من الحق هنا الاعتراف بالقصور عن إدراک شخصيته و مكانتها فى تاريخ الإسلام، و ما لها من الأثر العظيم فى التشريع الإسلامى. و ليس ذلک، لغموض يكتنف جوانب عظمته، أو وجود زوائد فى دراسة حياته، أو اندفاع وراء العاطفة لرفع مكانته و علوّ مقامه بدون حق، كل ذلک لم يكن، و إنما اتساع دائرة معارفه، و تعدد نواحى شخصيته، و عظيم أثره فى بعث الفكر الإسلامى، و تدفق ينبوع آرائه، و جهاده المتواصل فى سبيل توجيه الأمة بآثاره الخالدة و تعاليمه القيّمة، هو السبب فى قصور الباحث عن إدراک الغاية المطلوبة بسهولة. و التزمت أن أذكر فى كل جزء إماما واحدا من الأئمة الأربعة. فذكرت فى الجزء الأول: الإمام أبا حنيفة، و فى الثانى: الإمام مالكا، و فى هذا الجزء الإمام الشافعى، مقتصرا على ذكر أنسابهم و مناقبهم و نشأتهم و نبوغهم، و ذكر شيوخهم و تلامذتهم، دون استقصاء لآرائهم و فقههم. و فى الجزء الرابع يأتى ذكر الإمام أحمد بن حنبل. و فى بقية الأجزاء سنعرض إلى الموازنة و المقارنة بين المذاهب الإسلامية.

تفاوت المذاهب فى الانتشار:

تكلّمت فيما مضى عن أسباب نشأة المذاهب و انتشارها و كثرة عددها، و قد اقتصرت على ذكر البعض منها، مع بيان موجز عن حياة رؤسائها و منزلتهم العلمية. و أشرت إلى أسباب اندراس تلک المذاهب و بقاء الأربعة منها: الحنفى، و المالكى، و الشافعى، و الحنبلى. و قد اتضح لنا أن للحكومات دخلا فى نصرة المذاهب و انتشارها، فإذا كانت الحكومة قوية و أيّدت مذهبا من المذاهب، تبعه الناس بالتقليد، و ظل سائدا إلى أن تزول الدولة.

و انتشار المـذاهب و عظيم الإقبال عليها لا يـدل على قوّتها الروحية، و عواملها الذاتية، فقد رأينا أن قوة الدعاة و تدخّل السـلطة أقوى عامل لنشـر المذهب (فأىّ مذهب كان أصـحابه مشهورين، و أسند إليهم القضاء و الإفتاء، و اشتهرت تصانيفهم فى الناس، و درسوا درسا ظاهرا، انتشـر فى أقطار الأرض، و لم يزل ينشـر كل حين. و أى مـذهب كان أصـحابه خاملين، و لم يولّوا القضاء و الإفتاء، و لم يرغب فيهم الناس اندرس بعد حين) (1). و المذاهب الأربعة نفسـها كانت تختلف بالقوة و الانتشار، فقد رأينا المذهب الحنفى هو أكثر المذاهب انتشارا، و أعظمها إقبالا، لقوة أنصاره و كثرة دعاته فى البداية و النهاية، إذ كانت نواة شـهرته من غرس أبى يوسف قاضى قضاة الدولة العباسية، فهو ناشر المذهب أو مؤسّسه-إن صح لنا أن نقول ذلک-و قد كان أبو يوسف وجيها فى الدولة، مقبولا عند الخلفاء، له منزلة لا يشاركه فيها أى أحد. فكان لا يولى قاضـيا إلاّ من انتسب لمدرسة أبى حنيفة. و اسـتمر القضاة فى نشـر المذهب فى جميع الأقطار، مسـتمدين قوّتهم من السلطة التنفيذية، حتى أصـبح مذهب أبى حنيفة هو المذهب الرسمى للدولة. و لما اعتنق الأتراک مذهب أبى حنيفة أثّر ذلک فى قوّته و انتشاره فى العصور المتـأخرة، و ناهيک بما للأتراک من قوة فى الدولـة، و قسوة فى الحكم، و اسـتبداد فى الأمر، و قـد ناصـروه بكل حول و قوة، و كان انتصارهم لطمعهم فى الخلافة. فإن السـلطان سـليما طمع فى الخلافة الإسلامية، و هى لا تكون إلاّ فى قريش باتفاق المذاهب إلاّ الحنفى فإنّه جوّز أن يتولى الخلافـة غير قرشـى، فحمل الناس على اعتناق هذا المذهب. و قد رأينا انتصار العباسـيين لمالک بن أنس-بعد غضـبهم عليه-فقد أمروا بقصـر الفتوى عليه، و أعلن ذلک بأمر الدولة، و نودى-غير مرة علنا-ألاّ يفتى الناس إلاّ مالک (2)و أمروا عمّالهم باستشارته فى الأمر، و عدم القطع دونه، فهذا المنصور يقول لمالک: إن رأيت ريبة من عامل المدينة أو عامل مكّة، أو أحد عمّال الحجاز، فى ذاتک،

1- 1) حجة اللّه البالغة للدهلوى ج 1 ص 151.

2- 2) تذكرة الحفاظ ج 1 ص 206.

أو ذات غيرک، أو سوء سيرة فی الرعية، فاکتب إلیّ بذلک، أنزل بهم ما يستحقون، و قد أکتب إلی عمالی بها أن يسمعوا منک و يطيعوک فی کل ما تعهد إليهم، فانههم عن المنکر و أمرهم بالمعروف توجر علی ذلک، و أنت خليق أن تطاع و يسمع منک (1). و کان مالک يأمر الحرس ليأخذوا شخصا إلی السجن، و يأمر بإطلاقه حين يری ذلک. و يجلس مالک عند الوالی فيعرض عليه السجن فيقول له: اقطع هذا و اضرب هذا مائة و هذا مائتين و اصلب هذا إلخ (2). و علی أی حال فإن مالک بن أنس قد لحظته الدولة و قرّبته، إذ وجدت منه عونا و مؤازرة، فقرّبوه و أحسنوا إليه، و رفعوا مجلسه، و نشروا علمه، و أجزلوا له العطاء، و أصاب منهم ثروة طائلة، و مع هذا فهم مدينون لمالک فی مؤازرتهم و معاونتهم و الرکون إليهم. و کان انتشار مذهبه فی الأندلس يرجع لفضل القضاة، و قوة السلطة، إذ حملوا الناس علی اعتناق مذهبه بالسيف کما مرّ بيانه. أما المذهب الشافعی فقد تعرّضنا لذکره و عوامل انتشاره، و ستأتی زيادة بيان فی ترجمته، کما تعرّضنا لانتشار مذهب الإمام أحمد، و قد رأينا الإعراض عنه محسوسا. و لم يکن کغيره من المذاهب شهرة، بل اقتصر انتشاره فی بغداد أما فی سائر الأقطار فکان قليلا جدا، حتی إن بعضهم لم يعدَّه من المذاهب المعمول بها، و ذکر مکانه مذهب الظاهری. و لما امتد سلطان العثمانيين أصاب المذهب الحنبلی ضربة قاضية، و أخذ المذهب يتضاءل شيئا فشيئا. أما فی مصر فلم تکن له أی شهرة هناک، فقد کان فی العصور المتأخرة عدد شيوخ الأزهر 312 شيخا من جميع المذاهب، و عدد طلاّبه 9069، و کان من بينهم 28 طالبا من الحنابلة، و 3 شيوخ منهم فقط، و لکنه ظهر فی القرن الثامن عشر ميلادی فی صورة قوية جديدة، بظهور الوهابيين الذين يتبيّن فی مذهبهم أثر تعاليم ابن تيمية. و قد تطرّفوا فی ذلک إلی حدّ بعيد، و سيأتی الکلام علی ظهورهم و تعاليمهم عند کلامنا فی مذهب أحمد بن حنبل.

1- 1) مالک الخولی ص 318.

2- 2) مالک الخولی ص 319 نقلا عن القاضی عياض فی الترتيب ج 1 ص 27.

نظرة فی التعصّب المذهبی:

و قد رأینا کیف تغلّبت روح التعصّب المذهبی الشدید، کما تغلّبت الفکرة القائلة بتحریم تقلید غیر المذاهب الأربعة. و تطورت الدعوة إلی ذلک بصورة واسعة و أخذ نشاطها یزداد حتی جعل من قلّد غیر هذه المذاهب خارجا عن الدّین. فکان هناک نزاع و احتدام و تعصّب حتی بین معتنقیها، أدّی إلی معارک دامیـة، و اتّهام البعض للبعض الآخر و تکفیر قوم لآخرین، حتی قال قائل الحنفیـة: لو کان لی الأمر لأخذت الجزیة من الشافعیة (1). و أصـبح کلّ یحتکر الإیمان باللّه و التصـدیق بنبیّه لأبناء مـذهبه. و أن الجنّـة وقف علیهم و لا نصـیب لأحد فیها معهم، خلافا لما جاء به النبی (صـلی الله علیه و آله) و خروجا علی تعالیم الإسـلام حتی قال أحـد الحنابلـة: إنه من لم یکن حنبلیا فلیس بمسلم. و قد اندفع المتطرّفون من معتنقی المذاهب الأربعة لبذل جهدهم فی جعل رئیس مذهبهم هو المؤسّس لعلوم الإسلام، و المرجع الأعلی للتشریع، و أن العلم مقصور علیه، و الاجتهاد لا یلیق إلاّ به. و قد استنفدوا کل إمکانیاتهم فی تصویره بصورة لا تشبهها صورة (فهو ملک بصورة البشر) (2)و تمسّکوا بأقوال أئمتهم تمسّکا جعلهم یقدّمونها علی کتاب اللّه و سنّة رسوله (3)فکان یقال لهم: قال رسول اللّه فیقولون: قـال فلان (4)-أی رئیس المـذهب-و یأنفون أن تنسب إلی أحـد من العلماء فضـیلة دون إمامهم (5). و علی أی حـال فإن تلک الاتجاهات التی سار علیها المتعصّبون للمـذاهب، قد اسـتولت علی کثیر من أتباعها، و قد یکون ذلک نتیجة للظروف التی مرّت بها الأمة الإسـلامیة، من تدخّل عناصر خارجة عن الإسلام، لتشویه سمعة المسلمین و الإساءة إلی المجتمع، من بث روح الفرقة و إثارة الشغب، و من المؤسف أن نجد البعض (قدمهم علی الأنبیاء عند تعارض کلامهم-أی أئمة المذاهب-مع الحدیث الصحیح،

1- 1) مرآة الزمان القسم 1 ج 8 ص 44.

2- 2) أبو حنیفة للسید عفیفی المحامی ص 6.

3- 3) همم ذوی الأبصار ص 51.

4- 4) توالی التأسیس للحافظ ابن حجر ص 76.

5- 5) الاعتصام للشاطبی ج 3 ص 259.

فـإنّهم يردون كلاـم النبيّ المعصوم–مع اعتقاد صـحة سـنده–لقول نقل عن إمامهم، و يتعلّلون باحتمالات ضـعيفة) (1). كما و قـد دفعهم التعصّب إلى أنّهم (إذا وقفوا على آية محكمة، أو سـنّة قائمة، أو فريضة عادلة تخالف مذهبهم، صاروا يؤولونها على غير تأويلها، و يصـرفونها عن ظاهرهـا إلى مـا تقرر عنـدهم من المـذاهب و المشارب، و طفقوا يطعنون على من عمل بفحواها الظاهر و مبناها الباهر، كأن الـدين–عنـدهم–هو ما جاء عن آبائهم و أسـلافهم دون ما جاء عن اللّه فى كتابه، أو عن رسوله صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم) (2). و مهما يكن من الأمر فإن تلك الاتجاهات كانت من تدخّل عناصـر دخيلة فى الإسـلام، بعيدة عن مبادئه، و إلاّ كيف يصح أن يقدم مسلم تشبّعت فيه روح الإسـلام إلى هـذه الأمور المخالفة للحق، و التى يتبرأ منها الإسـلام، كما أن أئمة المذاهب هم أنفسـهم لا يعرفون ذلك فى أنفسـهم. و لو استنطقنا تاريخ حياة أولئك الأئمة، لأجاب بالإنكار على ما يرتكبه المتعصّبون من مخالفة الواقع، و قد ألّفوا كتبا تختص بمناقبهم، و جمعوا فيها ما لا يقبله العقل، و لا يرتضـيه الذوق، من أمور لا صـلة لها بالواقع. كما قد تساهلوا فى نقل كل ما سـمعوا، و أثبتوا كل ما وجدوا، من دون التفات إلى المؤاخذات. و يجب علينا–إن أردنا دراسة شخصـية أحد من أئمة المذاهب، أو إعطاء صورة عنها–أن لا نقتصـر على اقتفاء ما نقلته ألسنة المعجبين به. فإن العقل يشهد بوضع أكثرها، و عدم ارتباطها بالحقيقة، و لهذا كان البحث عن المذاهب أمرا شاقا مجهدا؛ لما يكتنف الموضوع من غموض و تعقيـد، و يحتاج إلى تأمّل و اسـتفراغ واسع، لإعطاء النتيجة عند الوصول إلى الغرض المطلوب. و ربما يبدو للبعض سـهولة البحث فى الموضوع. و لكن الحقيقـة غير هـذا، بـل هو موضوع شائـک يحتـاج إلى جهـد و عناء. و الخلاصـة: إن مشـكلة التعصّب للمذاهب الأربعة هى أعظم مشـكلة حلّت فى المجتمع الإسلامى، أدّت إلى اختلاف فى الآراء، و تشتت فى الأهواء، و اضطراب حبل المودّة، و تكدير صفو الأخوّة. و كان من وراء ذلک خطر عظيم، و انحطاط

1- 1) الوحدة الإسلامية للسيد رشيد رضا ص 45.

2- 2) الدين الخالص للسيد محمّد صديق حسن ج 3 ص 263.

فظيع، و قد تنبّه المسـلمون لدفع ذلک الخطر، فی اتخاذ الطرق الناجحة لإصـلاح الوضع و جمع الکلمة، و قد تجاوبت أصوات المصلحین بالـدعوة إلی الوحـدة و لکن ذهبت صـرختهم فی واد و نفختهم فی رماد! ! لأن المتعصبین للمـذاهب قـد سـیطرت علیهم عوامل العاطفة، فحالت بینهم و بین التفکیر بسوء عاقبة ذلک الانقسام الذی أوجده المتعصّبون، و قد مرّ المجتمع الإسـلامی-علی أثر ذلک-بفترات مائجة بالفتن و الفوضـی و الحوادث الدامیـة، حتی تصـدع کیان المجتمع الإسـلامی، و طغی تیار التعصّب، و اسـتفحل خطر الانقسام و تلبدت سحب الفرقة فی سـماء المسـلمین، و التقوا علی صـعید الحقد و الخصومة، و تحلّلوا من رابطة المودة و الإخاء فکانت حوادث مؤسفة، من إراقـة دماء، و نهب أموال، و حرق دور، و إعلان مسـبة البعض للبعض الآخر أو تکفیر فرقة لأخری، و جعلوا الدین وسـیلة للتغلب، و طریقا لنجاح الخصومـة فوضـعوا أحادیث، و اختلقوا مناقب و وضـعوا بذلک کتبا ملیئة بأوهام و خرافات تتعلّق بنصـرة المذهب و إعلاء کلمته. و کان کبار الأمة و صـلحاؤها یقفون موقف المناوأة و المعارضة لهذه الأوضاع، و لکن السواد تغلبت علیه دعایة العناصـر المتداخلة، بمعاونة السـیاسة العمیاء. و علی تطاول الأیام و امتداد التاریخ لا نعدم من مشاهدة تلک الخلافات و لا زال دعاة الفرقة، و أعوان الاستبداد یسایرون رکب الإسلام عبر التاریخ لتحقیق أهدافهم، و لکن جولة الباطل ساعة و جولة الحق إلی قیام الساعة.

ص:15

الإمام الصّادق

اشارة

المدرسة و المذهب و الشيعة

مدرسته و طابعها:

اشارة

كانت الفترة التى عاشها الإمام الصّادق عليه السّلام فترة محنة تمر بها الأمة، فقد كان الحكم الأموى حكما جائرا؛ إذ ابتعدت السلطة عن أحكام الإسلام، فكانت نهاية الحكم الأموى مثل بداية قيامه؛ إذ صبغت بالدم نهايته كما كانت بدايته. و قامت دولة بنى العباس، و هى تلبس لباس الدّين، و ترفع شعار الدعوة لمناصرة آل محمّد، و الانتقام من أعدائهم، و هى تحاول أن تكسب ود المسلمين. و بعد أن تكشفت سياسة بنى العباس، و زال القناع عن وجه حكمهم، اعتبر الناس عهدهم امتدادا لحكم بنى أمية الجائر. فأصبح المسلمون فى معترک عصيب. . . تحركت فى جوانحهم الثورة و تاقت نفوسهم لتحقيق الإصلاح، و كان البيت العلوى هو محط آمال الأمّة، فساندهم رجال الدين، و انضوى بعض الفقهاء تحت رايتهم. و فى ذلک المعترک الرهيب برزت شخصية الإمام الصّادق و هو يحمل للأمة مبادئ الإسلام، و ينشر تعاليمه، و يرفع صوت الإنكار على الظلم، و يدعو للإصلاح بكل جهد، و شارک الأمّة فى محنتها إذا امتزجت مشاعره بمشاعر الأفراد، و توجهت إليه الأنظار، و انضم إليه رجال الفكر و دعاة الإصلاح؛ لأنه عليه السّلام يعرف كيف يبدأ الدعوة، و كيف يداوى النفوس من الأمراض الاجتماعية، فكانت دعوته سلمية، تهدف لتنوير الرأى العام، و الحضّ على التمسّک بأحكام القرآن، و قد توسعت آفاق دعوته، كما انتشر دعاته من تلامذته فى كل مكان، فأصبحت مدرسته منهلا لرجال الأمّة و مصدرا لعلوم الإسلام.

و كان طابع مدرسة الإمام الصّادق الذى طبعت عليه، و منهجها الذى اختصت به -من بين المدارس الإسلامية-هو استقلالها الروحى، و عدم خضوعها لنظام السلطة، و لم تفسح المجال لولاة الأمر، بأن يتدخلوا فى شئونها، أو تكون لهم يد فى توجيهها و تطبيق نظامها، لذلك لم يتسنّ لذوى السلطة استخدامها فى مصالحهم الخاصة، أو تتعاون معهم فى شئون الدولة. و من المستحيل ذلك-و إن بذلوا جهدهم فى تحقيقه- فهى لا تزال منذ نشأتها الأولى تحارب الظالمين، و لا تركن إليهم، كما لا تربطها و إياهم روابط الألفة، و لم يحصل بينها و بينهم انسجام. و بهذا النهج الذى سارت عليه، و الطابع الذى اختصت به، أصبحت عرضة للخطر. فكان النزاع بينها و بين الدولة يشتد و العداء يتضخم، فلا الدولة تستطيع التنازل بمنهج المدرسة فتكسب ودها و تسعد بمعاونتها، و لا المدرسة فى إمكانها أن تتنازل لإرادة الدولة، فتؤازرها و تسير بخدمتها و تتعاون معها، و كيف يكون ذلك؟ ! و هى منذ نشأتها الأولى ترتبط بالثقلين كتاب اللّه و عترة رسوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و هما متلازمان متكاتفان لن يفترقا فى أداء واجبهما لإرشاد الأمّة و هدايتها. فالقرآن ينهى عن معاونة الظالمين و الركون إليهم وَ لا تَرْكَنُوا إِلَى اَلَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ اَلنّارُ وَ ما لَكُمْ مِنْ دُونِ اَللّهِ مِنْ أَوْلِياءَ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ (1).

مواقفه من ساسة عصره:

و من الواضح أن مبدأ العدالة-و هو من أعظم مبادئ الشريعة الإسلامية-أصبح فى عهد أولئک الولاة لا يعمل به. فهم جبابرة ظلمة، لا يصلحون لمركز الولاية على المسلمين، و ليس لهم كفاءة على التحلّى بصفات الخلافة، و لا قدرة لهم على تنفيذ أحكام الإسلام، فهم لا يصلحون للولاية و لا تجب طاعتهم بحال. و إنّ فى مؤازرتهم و المعاونة معهم خروجا عن أمر اللّه، و مخالفة لكتابه. و بذلک لا تكون ملازمة بين العترة و بين الكتاب إن داهنوا الظلمة أو ركنوا إليهم. فسياسة أهل البيت تقضى بحرمة معاونة الظالمين، و عدم الركون إليهم. و منهجهم فى توجيه الأمّة لا يتعدّى حدود ما أمر اللّه به، فهم و القرآن يسيرون جنبا إلى جنب فى أداء الرسالة و مهمة التبليغ، و هم أئمة للعدل و حماة للدين، و دعاة للصلاح. و قد برهنوا على أعمالهم بما كانوا يتحلّون به من مكارم الأخلاق، و جميل الصفات،

1- 1) سورة هود، آية 113. [1]

و شدة محافظتهم على نواميس الشـرع. و قد اتضح لنا من سـيرتهم ما لا حاجة إلى إطالة البحث فيه. و قد روى الحسن بن على بن شعبة أن سائلا سأل الإمام الصّادق عن وجوه المعاش، فكان من جوابه (عليه السلام) : «. . . و أما وجه الحرام من الولاية فولاية الجائر و ولاية ولاته، فالعمـل لهم و الكسب معهم بجهـة الولايـة لهم محرم معـذب فاعل ذلک على قليل من فعله أو كثير» . و صـحّ عن الإمام الصّادق أنّه قال لأصـحابه: «ما أحب أن أعقد لهم-أى الظلمة -عقدة أو وكيت لهم وكاء، و لا مدة بقلم. إن الظلمة و أعوان الظلمة يوم القيامة فى سرادق من نار حتى يحكم اللّه بين العباد» . و كان ينهى عن المرافعة إلى حكامهم، و لا يرى لزوم ما يقضون به، لأن حكمهم غير نافذ، كما كان يشـتد على العلمـاء الـذين يسـيرون فى ركـاب الدولـة و يـأمر بالابتعـاد عنهم حيث يقول: «الفقهـاء أمناء الرسل، فإذا رأيتم الفقهاء قـد ركبوا إلى السلاطين فاتّهموهم» (1). و قد حاول المنصور أن يستميل الإمام الصّادق فى عدة مرات، و لكنّها محاولة فاشلة فلم يزل يبتعد عنه، و يعلن غضـبه عليه، و لا تأخـذه فى الحق لومـة لائم. كما أعلن مقاطعته له فكتب المنصور إليه: لو لا تغشانا كما تغشانا سائر الناس. فأجابه الإمام عليه السّلام: «ما عنـدنا من الـدنيا ما نخافک عليه، و لا عنـدک من الآخرة ما نرجوک له، و لا أنت فى نعمة فنهنيک عليها، و لا تعدها نقمة فنعزيک بها فلم نغشاک؟ !!» فكتب إليه المنصور ثانية: تصـحبنا لتنصحنا. فأجابه الإمام: «من أراد الدنيا فلا ينصحک و من أراد الآخرة فلا يصـحبک» . و بهذا يتجلى موقف الإمام الصّادق من حكام عصـره، و ابتعاده عنهم، و هو النهج الذى أمر أتباعه أن ينهجوه، و قد أبدى ذلک فى كثير من مواقفه و أعلن للأمـة وجوب مقاطعـة الظالمين و حرمـة معاونتهم ليحد من نشاطهم فى هضم حقوق الناس، و استيلائهم على مقدراتهم، و استبدادهم بالأمور و جورهم فى الحكم. و كانت محاولة المنصور لجذب شخصية الإمام إليه و طلب الاتصال به لغرض

1- 1) حلية الأولياء للحافظ أبى نعيم ج 3 ص 194.

تضـييق دارة المقاطعة التى أعلنها الإمام الصّادق، و التى سار عليها كثير من الناس. و سـيأتى مزيد بيان لمواقفه مع المنصور و إعلان غضبه عليه، و قـد عرف المنصور بالشـدة و القسوة و عدم مبالاته فى إراقة الدماء و كان يقتل على الظنة و التهمة و يحاسب من يتهمه بالإنكار عليه أشـد المحاسـبة، و لا ـ يلين فى شـىء من ذلـک، كمـا لا ـ يتورع عن ارتكـاب مـا حرّمه اللّه تعالى. و المنصور على ما فيه من الظلم و سوء المعاملة للرعية، كان يتمنى أن يكون فى دولته مثل الحجّاج بن يوسف، ذلک السّفّاح المستهتر، فكان يقول: و اللّه لوددت أنى وجدت مثل الحجّـاج بن يوسف، حـتى أسـتكفيه أمرى و أنزله أحـد الحرمين (1). و معنى ذلـک أنّه كـان يتمنى أن يقضـى على أهم مصـدر للتشـريع الإسـلامى، فيضع السيف فى حملة الحديث و رجال العلم الذين يحتفون بالإمام الصّادق و يتفقهون عليه، و يملأ السجون من الصلحاء، و يصـبغ وجه الأرض من دماء الأبرياء. و قـد أشـرنا إلى طرف من أعمال المنصور و سوء سـيرته، و ما كان يلقى الإمام الصّادق منه فى سبيل الدعوة إلى اللّه تعالى (2).

الصراع بين المدرسة و الدولة:

و كانت مدرسة الإمام الصّادق عليه السّـلام بعيدة عن التأثّر بآراء الحكّام، الّذين يفرضون إرادتهم على العلم و العلماء، و يحاولون أن تكون لهم السـلطة الدينيـة إلى جانب السـلطة التنفيذية، مما يؤدّى إلى الفوضـى الكاملة فى الحكم عند ما يسـتغلّون الدّين، و يتّخذون من رجاله وسـيلة لاشـتغال الناس عن مؤاخـذتهم، و يـدينون لهم بالطاعـة الكاملـة و يحل الإيمان بتقديسـهم محل الإيمان باللّه! ! أما مدرسة الإمام الصّادق عليه السّـلام فإن الصـراع بينها و بين الدولة كان على أشده، و العداء بالغا نهايته، الأمر الذى جعل المدرسة عرضة للخطر، و لكنّها رغم ذلک صـمدت لتلک الهجمات التى توجهها الدولـة لتمحوها من صـفحة الوجود. و قـد تحملت بطش الجبارين، و عسف الظالمين، فأدت رسالتها على أكمل وجه. و كان منها النتاج الصالـح، الـذى يفيض على الأمّـة خيرا و بركـة، و يطفـح بالعلم و الحكمـة و العرفان، و خرّجت عددا وافرا من رجال العلم، و حملة الحديث. و لـم تكن كل تلک المعارضات من قبل ولاة الجور

1- 1) الطبرى ج 9 ص 298. [1]

2- 2) الإمام الصّادق و المذاهب الأربعة ج 2. [2]

لتعوقها عن مواصلة كفاحها فی الدعوة إلی الحق، و الخیر و العدل و المساواة و الأخوة الإسلامیة العامة، و المدنیة الصحیحة و الحضارة الراقیة، و محاربة أهل الأهواء، و البدع و الضلالات، و یتضح ذلک من تعالیم العترة الطاهرة-زعماء هذه المدرسة- و سیرتهم العادلة و شدة اهتمامهم بتوجیه الأمة نحو دینهم الذی یتکفّل لهم بالسعادة، و یدعوهم إلی الأهداف الکریمة، و الغایات السامیة، و الأغراض الشریفة، و المثل العلیا، بتطبیق نظامه علی جمیع الطبقات.

نواة المدرسة و تاریخ نشأتها:

إن تاریخ نشأة مدرسة الإمام الصّادق علیه السّلام هو أسبق من جمیع المدارس الإسلامیة، إذ لم یکن الإمام الصّادق علیه السّلام هو الواضع لحجرها الأساسی، و الغارس لبذرتها الأولی، بل کان الواضع لحجرها و الغارس لبذرتها هو الرسول الأعظم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم. فقد وضع منهاجها و نظامها، و حثّ الناس علی الانتهاء إلیها، إذ قرن العترة بکتاب اللّه العزیز بقوله صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «إنی مخلف فیکم الثقلین کتاب اللّه و عترتی أهل بیتی، ما إن تمسکتم بهما لن تضلوا أبدا» . الحدیث (1)کما صرّح فی کثیر من تعالیمه بلزوم اتباع أهل بیته و الأخذ عنهم و أنهم لسفینة نوح من رکبها نجا، و من تخلّف عنها غرق، کما أشار النبی الأعظم إلی لزوم اتباعهم فی کثیر من أحادیثه. فالمدرسة کانت نشأتها فی عهد صاحب الرسالة، و کان رئیسها الأول هو الإمام أمیر المؤمنین علی بن أبی طالب علیه السّلام و هو أقضی الأمة و أعلمهم، و هو نفس محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و کان ملازما له فی جمیع أوقاته، یأخذ عنه العلم، و یتلقی التشریع العملی، فهو صاحبه فی سفره و حضره و حربه و سلمه، یقیم أنّی أقام، و یرحل أنّی ارتحل. و رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم هو معلّم علیّ و متولی تربیته و نشأته، فکان علیه السّلام باب علم مدینة الرّسول و أمینه علی سرّه. فکان له من الکفاءة و الاستعداد ما جعله مرجعا لأحکام الأمّة، و إماما هادیا. و قد عوّل النبی علیه فی جمیع شئونه لاتصافه بصفات الإمامة، و إنکار ذلک مکابرة و مغالطة، و لا حاجة بنا إلی إطالة البحث و رحم اللّه المتنبی إذ قال:

1- 1) إن هذا الحدیث الشریف لجدیر ببسط القول فی ما جمعه من مقاصد جلیلة، و أمور یجب علی کل مسلم أن یتدبّرها، و قد ألّف علماؤنا فی بیان مقاصده رسائل عدیدة.

و تركت مدحى للوصى تعمدا إذ كان نورا مستطيلا كاملا

و إذا استطال الشيء قام بنفسه و صفات ضوء الشمس تذهب باطلا

و لما انتقل على عليه السّلام إلى جوار ربّه تزعّم الحركة العلمية و ترأس المدرسة الإمام الحسن عليه السّلام سبط الرّسول، و ريحانته، فكان عليه السّلام محطا لآمال الأمة، و مرجعا لأحكامها. و لكن الظروف القاسية و الحوادث المتتابعة فى عهد معاوية لم تسمح للمدرسة أن تتقدّم على الوجه المطلوب، و سارت بخطى ثقيلة، لأنّها قابلت جور معاوية بكل ما لديها من قوّة فى إعلان الغضب عليه، و قد قابلها بسياسة لا تعرف الرحمة، و شدة لا تعرف الهوادة، حتى أريقت دماء بعض المنتمين إليها، و هدمت دورهم. كل ذلك فى سبيل الدعوة إلى الإصلاح. و جاء دور الحسين بن على عليه السّلام و هو أعظم الأدوار و أهمّها. و معاوية قد عظمت شوكته و امتدّ سلطانه، و كثر بطشه و فتكه، و تلاعب بالأحكام و حرّف الكلم عن مواضعه، و أخذ يتتبع رجال الفكر و خيار الأمّة، و يقتلهم تحت كل حجر و مدر. و مهّد الأمر لابنه يزيد–و هو الفاسق الذى لا يختلف اثنان على حق فى إجرامه و كفره –فأصبح خليفة للمسلمين، و إماما يتربع على عرش الخلافة الإسلامية، (و هو الفاسق المستهتر الذى أباح الخمر و الزّنا و حط بكرامة الخلافة إلى مجالسة الغانيات، و عقد حلقات الشرب فى مجلس الحكم، و ألبس الكلاب و القرود جلاجل من ذهب، و مئات من المسلمين صرعى الجوع و الحرمان) (1). و أصبحت الأمة الإسلامية فى حالة سيئة، لم يسهل احتمالها على نفوسهم. فعمّ التأثّر جميع البلاد، حتى لم يجد الحسين عليه السّلام طريقا للسكوت. فنهض منتصرا للحق، آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر، حتى أريق فى ذلك دمه، و استبيح حرمه، فكانت نهضته صرخة داوية ترددها الأجيال من بعده، و تلقى عليهم دروس التضحية و التفانى فى سبيل إنقاذ الأمة من براثن الظّلمة، و كانت منهجا لثورات إصلاحية مرّت عليها الأجيال من بعده، اقتداء به، و عملا بدروسه القيّمة، فسلام عليه يوم ولد و يوم استشهد و يوم يبعث حيا (2).

1- 1) الثائر الأول فى الإسلام لمحمّد عبد الباقى ص 79.

2- 2) من وحى ذكرى الطف و مواسم إحياء الثورة الحسينية كتبنا «مع الحسين فى نهضته» الذى هيأناه بإضافات و تنقيحات لطبعته الثانية إن شاء اللّه.

و من بعده انتقلت رئاسة المدرسة لولده زين العابدين الإمام على بن الحسين عليه السّلام و هو أورع أهل زمانه و أتقاهم، و أعلم الأمة. و قد اشتدت الرقابة عليه من قبل الأمويين بصورة لا مجال لأحد أن يتظاهر بالانتماء لتلك المدرسة، إلاّ من طريق المخاطرة و المغامرة. و مع هذه الشدة و تلك الرقابة فقد كان سيرها محسوسا و كفاحها متواصلا و خرّجت عددا وافرا من علماء الأمة، الذين أصبحوا مرجعا للأحكام و مصدرا للأحاديث. و على عهد الإمام زين العابدين و تحت وطأة السياسة الوحشية و الجور الأموى بدأت مرحلة جديدة إذ كان الإمام على بن الحسين أمام أمرين: إما أن يبقى نفسه لمواصلة الرسالة و الاضطلاع بأعباء الولاية الشرعية، و إما أن ينجرّ لمّا تعمل من أجله أمية للقضاء على آل محمّد و قتله بعد إذ نجّاه اللّه بآية باهرة و حكمة بالغة و اللّه أعلم حيث يجعل رسالته. و هكذا كان عهد ولده الإمام الباقر عليه السّلام من بعده فى أول الأمر، و لكن ما أن دب الضعف فى جسم الدولة الأموية، حتى بعث النشاط فى مدرسة أهل البيت عليهم السّلام فقام الإمام الباقر بواجبه، و نشر معالم الإسلام و أحيا مآثر السنّة، فكانت حلقة درسه فى مسجد النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و مسجد مكة «ابن ماحل» هى أعظم حلقات الدروس. و لما جاء عصر الإمام الصّادق و كان أزهر العصور، اتّسع فيه نطاق الحركة العلمية و نشأت المدارس الإسلامية، و كان فى كل بلد عالم يرجع إليه، و كانت مدرسة الإمام الصّادق فى المدينة جامعة إسلامية كبرى، تشد إليها الرحال، و ترسل إليها البعثات من سار الأقطار الإسلامية لانتهال العلم إذ وجدوا عنده ضالتهم المنشودة و غايتهم المطلوبة، و لم يذكر التاريخ لنا أنه سئل عن شيء فأجاب: بلا أدرى، أو أن مناظرا قطعه، بل كان هو المتفوق فى كل علم، و المحلق فى كل مناظرة، و اشتهر عنه أنه كان يقول: «سلونى قبل أن تفقدونى فإنّه لا يحدثكم أحد بمثل حديثى» (1). و كيف لا يكون كذلك؟ و هو وارث علم جدّه أمير المؤمنين عليه السّلام الذى اشتهر عنه هذا القول، و لم يستطع أحد أن يقول ذلك إلاّ أفحم، و على هو باب مدينة علم الرّسول لقوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «أنا مدينة العلم و على بابها» .

1- 1) تذكرة الحفاظ ج 2 ص 157.

فالإمام الصّادق يروى عن أبيه الباقر، عن أبيه زين العابدين، عن الحسين بن على، عن على بن أبى طالب عليهم السّلام. و هذا الإسناد هو المعروف بالسلسلة الذهبية. و هو أصح الأسانيد و أقواها (1).

صمود مذهبه أمام الحكام:

اشارة

و مهما يكن من أمر، فإن ما يبدو لنا بوضوح: أنّ ذلک الانفصال و عدم التأثّر بآراء الحكّام هو الذى أوجد تلک المرونة فى المذهب الجعفرى، لأنّه يستقى من ينبوع لم يكدر صفوه التعليم الاستعمارى بما فرضه على العلم و العلماء، و لمّا كان غلق باب الاجتهاد هو من مقترحات الدولة و تشريع السياسة، فلم يلتزم المذهب الجعفرى به، و لم يخضع لذلک النظام الجائر الذى يفضى مؤداه إلى الجمود الفكرى و تحجير العقل، ورد نعمة أنعم اللّه بها على هذه الأمة (2). و من الواضح أن عدم الالتزام بما تفرضه الدولة، هو خروج عن الطاعة و عمل يستوجب العقاب و المقاومة. و قد عرف معتنقو مذهب أهل البيت عليهم السّلام بأنّهم لا يرون لزوم طاعة أولئک الحكّام الذين تربعوا على عرش الخلافة بدون حق، فلم يؤازروهم، و لم يتعاونوا معهم اقتداء بأئمتهم و اتباعا لأوامر الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى مقاطعة الظلمة، و حرمة المعاونة لهم، لأن ليس فى نظام الملوک الذى أوجده الأمويون و العباسيون قواعد الخلافة و مبادئ الحكم الإسلامى إلاّ ما اقتضته مصالحهم الشخصية، و هو نظام زمنى يقوم على المظاهر و الأشخاص، و ليس نظاما دينيا يقوم على الإيمان و العقيدة. كانت الطبقة الحاكمة تعد من لا يؤازرها و يتعاون معها خصما يجب القضاء عليه، لأن عدم التعاون مع الدولة هو عدم الاعتراف بأهليتها للحكم، و انتقاد لسياستها و سيرة رجالها. لذلک اتجهت قوة الدولة لمعارضة مذهب أهل البيت عليهم السّلام و اتهام منتحليه بسوء العقيدة، و الخروج عن الإسلام، فسلكوا فى تحقيق ذلک تلک الطرق الخداعة،

1- 1) معرفة علوم الحديث للحاكم النيسابورى ص 55.

2- 2) سيأتى الكلام حول الاجتهاد و التقليد، و قد تقدم فى الجزء الأول نقل آراء بعض العلماء و رؤساء المذاهب فى لزوم فتح باب الاجتهاد.

و أسندوا إلى الشيعة ما ليس من عقائدهم، و أوعزوا إلى الوعّاظ فى المساجد، و القصاص فى الطرقات، و إلى العلماء المرتزقة الذين يطلبون ود السلطان طلبا لمنفعة، و استدرارا لنعمة، و حيازة لصلة الملوك ليقوموا بكل ما يأمرونهم به من مخالفة الحق، باتهام الشيعة: بأنّهم يكفّرون جميع الصحابة (و العياذ باللّه) و أنهم لا يعملون بالقرآن. . . و ألزموهم بأن يذكروا ذلک محفوفا بشواهد يتقبلها السذج و عوام الناس، حتى تمكنت فى نفوسهم، و لهجت بها ألسنتهم، كأنها حقيقة لا تقبل أى جدل و نقاش. و بدون تفكير و تدبر انتشرت فى ذلک المجتمع السائر فى ركاب الدولة فكرة بغض الشيعة، و أنّى لذلک المجتمع بأن يظفر أفراده بالتفكير الحر و تحكيم العقل، و قد فرضت السلطة عليهم تلک الافتعالات بقوة قاهرة، لا يستطيعون لها دفعا و لا يجدون. عن الإذعان لها سبيلا، و الناس مع القوة عند ضعف الإيمان، و لكن الحق لا بد أن يظهر مهما طال الزمن و ادلهمت الخطوب. و على أى حال فليس من العسير أن يقف المتتبع على بواعث تلک الافتعالات التى أوجدتها عوامل السياسة، و قوة الإرهاب، و سلطة الاستبداد، التى شوهت الحقيقة، و غيّرت مجرى الواقع، و إن الوقوف أمام ذلک التيار أمر لا يتحمّله إلاّ رجال الفكر و حاملو ثقل العقيدة الإسلامية. و صفوة القول أن المذهب الجعفرى قد انتشر على وجه البسيطة، و لم تقف أمامه تلک المحاولات التى بذلها رجال السلطة و أعوانهم فى محوه و الوقوف أمام انتشاره، و لم تقض عليه كما قضت على بقية المذاهب التى لا يروقها انتشارها، كما لم تقف أمامه تلک المجازر و الفظائع السود التى يقوم بها خصومه. و قد أشرنا فيما سبق من أجزاء الكتاب إلى عوامل إنشاء المذاهب و اختيار رؤسائها، و لذا لزم أن ننبّه هنا إلى أن تسمية «المذهب الجعفرى» لم تكن على منوال التسميات الأخرى التى تتعلّق بإرادة السلطان، و إنما كانت هذه التسمية نتيجة لنشاط مدرسة الإمام الصّادق و صورة لرعايته لطلاّبه و منتسبى مدرسته. فكما أشرنا سابقا أنّه عليه السّلام كان يتحرى قابلياتهم و يتولى توجيههم و رعايتهم و حثّهم على العمل و العلم فيسمعهم أرق عبارات الود و أعذب ألفاظ الاحترام، و كان يسميهم «أصحاب جعفر بن محمّد» و يسعى إلى ذيوع تميزهم فى الفقه و استقلال أقوالهم، و كان عليه السّلام

يصـرح بسـروره إذا اشتهر أصحابه بالورع و حسن الخلق، و أن يوصف واحدهم ب (الجعفرى) و سنأتى على تفصيل ذلک. و ما دمنا بصدد البحث عن مدرسة الإمام الصّادق عليه السّلام فلا بدّ لنا من التنبيه على أمور ثلاثة:

التنبيه الأول: التابعون و الإمام الصّادق:

قد يبدو للبعض أن الإمام الصّادق عليه السّلام حضر عند أحد من التابعين، أو روى عنه، و منشأ هذا أنّ بعض من ترجم للإمام الصّادق ذكر أنّه روى عن نافع و عطاء و عروة بن الزّبير و الزهرى. و هـذا القول لا يثبته التتبّع، و هو بعيـد عن الصواب، بل هى كلمات يلوكها من يرسـل القول على عواهنه، و يعطى الآراء جزافا، و ينقل الأقوال بـدون تثبت و تمحيص، فإننا لم نجـد فى حـديثه أنّه أسـند عن أى واحـد من الناس سوى آبائه الطاهرين عليهم السّ لام فإذا أراد أن يسـند فسلسـلة حديثه هكذا: حدّثنى أبى الباقر، قال: حدّثنى أبى زين العابدين، قال: حدّثنى أبى الحسـين، قال: حـدّثنى أبى على بن أبى طالب، قال: حـدّثنى رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم. و هو أصـح الأسانيـد عند علماء الحـديث كما تقـدّم، و هو الترياق المجرّب كما سـمّاه بعض العلماء. و ربما أرسل حديثه بدون إسـناد و لكنه أعطى قاعدة مشـهورة بقوله: حـديثى حـديث أبى و حـديث أبى حديث جدى و حديث جدى حديث أبيه و حديث أبيه حديث على بن أبى طالب و حديث على حديث رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم. كما أننا بعد البحث و التتبّع لم نجد فى كتب الرجال من يذكره فى عداد من حضر على هؤلاء، نعم إلاّ الخزرجى صاحب الخلاصـة ذكره فى من أخـذ عن عطاء، و هو كما قلنا بعيـد عن الصواب، على أن بعض هؤلاء قـد كان يحضـر عند الإمام الباقر كمحمّد بن المنكدر، و الزهرى، فلا يتصور أن الصادق كان يحضر على أحد فى عهد أبيه الباقر، إذ لم يكن هناک نقص فيحاول إكماله على أيدى هؤلاء، و بعد وفاة أبيه، فقد اسـتقل بالفتوى، و تزعم المدرسة، و انتشـر ذكره، و أصبح هو المتفرّد بالزعامة. و أمّا قولهم: أنه حضر عند عروة بن الزبير المتوفى سنة 92 ه و سمع منه فهذا من الغرابة بمكان، لأن عروة لا تخفى حاله على الإمام الصّادق عليه السّلام و ما كان

یتصف به من الشذوذ، و عدم الاستقامة بتقرّبه إلی الأمویین، و هو من الوضّاع الذین اتخذهم معاویة أعوانا یستعین بهم علی مهماته فی وضع الأحادیث الکاذبة، و الذین أطلقنا علیهم أعضاء (لجان الوضع) . قال أبو جعفر الإسکافی المعتزلی: إن معاویة وضع قوما من الصحابة و قوما من التابعین، علی روایة أخبار قبیحة فی علی علیه السّلام تقتضی الطعن فیه و البراءة منه، و جعل لهم علی ذلک جعلا یرغب فی مثله، فاختلقوا ما أرضاه. منهم أبو هریرة، و عمرو بن العاص، و المغیرة بن شعبة و من التابعین عروة بن الزبیر (1). فمن کانت هذه حاله کیف یصح أن ینسب إلی الصادق الروایة عنه؟ و کذا الزهری فقد کان من أعوان الأمویین و المتصلین بخدمتهم و المؤازرین لهم، و کان قطب رحی أداروا به مظالمهم، و جسرا یعبرون علیه إلی بلایاهم، و سلّما إلی ضلالهم، داعیا إلی غیهم، سالکا سبیلهم، یدخلون الشک به علی العلماء، و یقتادون به قلوب الجهال. کما جاء فی رسالة الإمام زین العابدین علیه السّلام إلیه یرشده بها لطریق الحق و الصواب. و قد انقطعت صلته بالإمام زین العابدین بعد أن نهل من علمه و تعلم منه حتی جرّه الأمویّون إلی قصورهم و أغروه بخدمتهم و تنفیذ أغراضهم. و من کانت هذه صفته، فهو مسلوب العدالة، و لا یوثق بحدیثه، فکیف یکون مصدرا لحدیث أهل البیت؟ و لعل الذی أوقع صاحب هذا القول-و هو روایة الصادق عن الزهری-أنه اشتبه عند ما رأی فی عداد تلامذة الزهری رجلا یسمی بجعفر، فتوهم أنّه الصادق کما سبق مثل هذا الاشتباه لکثیر من المؤرخین، إذ نسبوا الشهرة بالزجر، و الفأل، و التنجیم، لجعفر بن محمّد الصّادق. و لم یفرّقوا بینه و بین جعفر بن محمّد الفلکی، المعروف بأبی معشر البلخی، فإنه کان مشهورا فی الزجر، و الفأل، و التنجیم، و کان عصره مقاربا لعصر الإمام الصّادق، و نقل الناس أخباره فی ذلک، و لا یستبعد أن أعداء جعفر بن محمّد أشاعوا ذلک، للحط من کرامته و بخس حقّه من العلم، و النیل من مکانته الرفیعة، و قد ردّد هذا القول کثیر من الکتّاب بدون وقوف علی حقیقة الأمر. قال ابن کثیر: إن الذی نسب إلی جعفر بن محمّد الصّادق من علم الزجر

1- 1) شرح النهج ج 1 ص 158. [1]

و الطرف، و اختلاج الأعضاء، إنما هو منسوب إلى جعفر بن محمّد أبى معشر الفلكى، و ليس بالصّادق، و إنما يغلطون (1). قلت بل أكثرهم كان يتعمد ذلک، و لا شىء هناک إلاّ عوامل السياسة، و لا أذهب بک بعيدا فى الاستدلال على ذلک، أو أرجع بک إلى تلک العصور التى سيطرت عوامل السياسة على عقول أبنائها، فأعمتها عن الحق، و أبعدتها عن الصواب، و لكنى أسلک بک أقرب الطرق فى أقرب العصور-عصر النور أو القرن العشرين-هذا الدكتور أحمد أمين يقع فى هذا الغلط، أو يتغافل عن الحقيقة! يقول فى «فجر الإسلام» : فى هذا العصر كان العلم-و لا سيما الدينى-يدرس فى المساجد، يجلس الأستاذ فى المسجد، و حوله الآخذون عنه، على شكل حلقة، و تكبر الحلقة و تصغر تبعا لقدر الأستاذ. إلى أن يقول: و كذلک كان يفعل جعفر الصّادق فى المدينة-أى أنه يجلس و يجلس الآخذون حوله حلقة-قالوا: و كان يشتغل بالكيمياء و الزجر و الفال (2). و لا يخفى على القارئ اللبيب سرعة انتقال الأستاذ أحمد أمين لنقل ذلک القول و إيراد ذلک الغلط، و ما يقصده فى ذلک، كما لا تخفى نزعته العدائية للشيعة، فلا يروقه أن يذكر حلقة درس رئيس مذهبهم فى المسجد، و إعطاء ما يلزم لها من النقل التاريخى، إن كان مؤرخا منصفا، و لكنه يثقل عليه ذلک. و خلاصة القول: إن الإمام الصّادق لم يرو عن أحد من التابعين، و لم يحضر حلقة درس أى واحد منهم، أما فى حياة أبيه، فقد كان فى غنى عن ذلک، و أما من بعده فإنه أصبح المبرز فى كل فن، و المرجع الأعلى فى الأحكام، و كانت حلقة درسه تضم رجال العلم من رؤساء المذاهب و غيرهم، كسفيان الثورى، و شعبة بن الحجاج، و سفيان بن عيينة، و مالک بن أنس، و أبى حنيفة، و يحيى بن سعيد القطان، و أيوب السجستانى، و عبد الملک بن جريج و غيرهم. فليس من المعقول أن يكون-رئيس مدرسة تضم أمثال هؤلاء-يحضر درس من هو أقل درجة منه، بل هم أقل درجة من كثير من تلامذته. و إن أمثال هذه الأقوال إنما تقال لمجرد المبالغة فى التقدير و التوثيق فى حق من يريدون رفع

1- 1) البداية و النهاية ج 11 ص 51. [1]

2- 2) فجر الإسلام ص 165.

مقامه، و ليس بمستطاع لأى أحد أن يأتينا برواية للإمام الصّادق فى سندها أحد أولئک القوم.

التنبيه الثانى: تلامذة الإمام و مركزية الكوفة:

إذا أردنا أن نرسل نظرة إحصاء لتلامذة الإمام الصّادق عليه السّلام من حيث البلدان النائية التى ينتسبون إليها فسنجد الكوفيين أكثرهم عددا!! ! و على وجه التقريب: يكون عددهم قد يتجاوز الألف. و عكسها الشام فإن عدد تلامذته المنتسبين إليها لا يتجاوز العشرة!! ! و أسباب ذلک ربما تعود للنزعة التى يتصف بها كل من البلدين. فالكوفة كانت تناصر أهل البيت عليه السّلام و تتشيّع لهم، و الشام على عكس ذلک. و بهذا أصبحت الكوفة محل اهتمام الخلفاء الذين يجعلون من أهل البيت خصوما و يعتقدون بأنه لا يستقر أمر الخلافة ما لم يتخذوا لها التدابير للقضاء على نشاطهم العلمى و السياسى. لذلک نجد الدولة الأموية تهتم بأمر الكوفة و تحاول إخضاعها بالقوة عند ما تعيّن ولاة لا- رحمة فى قلوبهم، و لا- وازع دين يردعهم عن الفتک و إراقة الدماء كالحجاج، و زياد، و عبيد اللّه بن زياد، و خالد القسرى. و كذا العباسيون اتخذوها مركزا للخلافة، لتكون تحت مراقبة الخليفة مباشرة. . . هذا من جهة. و من جهة أخرى: إن الكوفة كانت مركزا تجاريا و صناعيا ملحوظا فى حياة المجتمع الإسلامى فى القرن الأول الهجرى، و ازدهرت فيها صناعة المنسوجات الحريرية، و هى ما سمّوها عمل الوشى و الخز. و كانت هذه المصنوعات تلقى رواجا فى الأقطار الإسلامية (1)و كانت محاطة بقرى كثيرة و فيها من غير المسلمين عدد كبير، كالنصرانية فى الحيرة و غيرها، و وفد عليها أربعة آلاف من رعايا الفرس عرفوا بحمراء الديلم (2). و قد كثرت الهجرة إلى الكوفة من ذوى العقائد المتباينة، و اختلطوا بمجتمع الكوفة و كان أكثر هؤلاء يترقبون الفرص للفتک بالمسلمين، انتصارا لدياناتهم التى قضى عليها الإسلام. ثم زخرت الكوفة بالموالى، فكان لهم أثر محسوس فى تطور الحياة الاجتماعية و بهذا أصبحت الكوفة تموج بعناصر مختلفة، لا تتحد فى الرأى، و لا تتفق فى

1- 1) الأغانى ج 2 ص 173.

2- 2) البلاذرى فى فتوح البلدان ص 289.

الاتجاه، و هـذا الاختلاط يوجـد اضـطرابا، و عـدم الاسـتقامة فى الأمور، و كان له أثر واضح فى أخلاق أهل الكوفة، و قد لحظه حذيفة بن اليمان من قبل فبيّنه فى خطاب له قائلا: (يا معشـر أهل الكوفـة، إنكم أول ما مررتم بنا كنتم خيار الناس، فغيّرتم بذلك زمان عمر و عثمان، ثم تغيرتم و فشت فيكم خلال أربع: بخل، و خبّ (1)و غدر و ضـيق، لم تكن فيكم واحدة منهن، فنظرت فى ذلك فإذا ذلك فى مولديكم، فعلمت من أين يأتى، فإذا الخب من قبل النمط، و البخل من قبل فارس، و الغـدر من قبل خراسان، و الضـيق من قبل الأهواز) (2). و حين اتّسع نطاق الحركـة العلمية كانت الكوفة مركزا هاما لمختلف العلوم، و قد ظهر علم الكلام، و كثر الجدل حول العقائد، و أهمّها البحث عن الأمانـة. و قـد ازداد نشاط ذوى العقائد الفاسدة، و الآراء الشاذة، فأظهروها على سبيل النقاش العلمى، فكانت تلك الآراء تأخذ مفعولها فى المجتمع، و يتناقلها الناس و مصدرها الكوفة، و هى شـيعية فتنسب تلك المقالة إلى الشـيعة. و كانت السـياسة تؤيد ذلك بغضا للشـيعة و وسيلة للقضاء عليهم، و قد اتبع المؤرخون للفرق تلك الخطة، فنسبوا للشيعة فرقا كثيرة من ذوى المقالات الفاسدة بدون إنصاف أو تعقّل، و ما ساقهم إلى ذلك إلاّ الجهل بعقائد الشـيعة، أو البغض لهم اتباعا لأسـيادهم و مجاراة للظروف. و لا أطيل الحديث-و الحديث شجون- حول تلك الدعايـة الكاذبـة، فى نشـر الآراء الشاذة، و العقائـد الفاسـدة، التى يبثّها أعداء الإسـلام ليتقبّلها ضـعفاء النفوس، و المصابون فى تفكيرهم، فينسـبونها للشـيعة و لا ربط لها بعقائد الشـيعة، إلاّ أنّ الكوفة كانت مصدرا لها و الكوفة شـيعية، و قد تعمد أولئك النفر أن يعلنوا سبّ الصـحابة ليكون ذلك طريقا لمؤاخذة شـيعة آل محمّد، الذين تأدّبوا بآدابهم و اتّبعوا أوامرهم، كما أن موجة الغلو قد ظهرت فى الكوفة دون غيرها من البلـدان، و كان القصـد من ذلك ما قلناه و هو أن أعـداء آل محمّد أرادوا الوقيعة فى أتباعهم فأشاعوا الغلو فى بلد يعرف أهله بالتشيع لهم و الانتساب إليهم. و قد عالج أهل البيت تلك المشكلة الخطيرة. و عرفوا تلك الدوافع التى دعت

1- 1) الخب بفتح الخاء المعجمة: الغدر و الخداع و الغش.

2- 2) حركات الشيعة المتطرفين نقلا عن ابن مسكويه، تجارب الأمم ص 435 ليدن.

هؤلاء إلى الالتحاق بصفوف الشيعة، و اتضحت لهم غايات خصومهم، الذين يريدون أن يوقعوا بهم المكروه، فأعلنوا البراءة منهم، و جاهروا فى لعنهم، و أمروا شيعتهم بالابتعاد عنهم، و إليک بعض النصوص فى ذلک: روى هشام بن الحكم: أنّه سمع أبا عبد اللّه الصّادق يقول: «كان المغيرة يتعمّد الكذب على أبى، و يأخذ كتب أصحابه و يدس فيها الكفر و الزندقة و يسندها إلى أبى ثم يدفعها إلى أصحابه، و يأمرهم أن يبثوها فى الشيعة فكل ما كان فى كتب أبى من الغلو فذلک مما دسّه المغيرة بن سعيد فى كتبهم» . يظهر لنا أن حركة المغيرة كانت حركة يهودية ضد الإسلام، كما أشار الإمام الصّادق فى قوله: «لعن اللّه المغيرة بن سعيد، و لعن اللّه يهودية كان يختلف إليها يتعلّم منها السحر و الشعبذة، إن المغيرة كذب على أبى» إلخ (1).

التنبيه الثالث: مدرسة الإمام و معنى التشيّع:

إننا إذ نعبر عن المدرسة، فإنما المقصود بذلک هو تعاليم المذهب و انتشاره، لأن مذهب أهل البيت ينسب للإمام جعفر بن محمّد الصّادق عليه السّلام لما اشتهر به من العلم و كثرة التعاليم فى تلک الفترة، و هى بين شيخوخة الدولة الأموية و طفولة الدولة العباسية، و إلاّ فمذهب الشيعة هو مذهب أهل البيت، و عنهم يأخذون الأحكام، لأنّهم أصدق الناس فى الحديث، و أشدهم محافظة على أداء رسالة التبليغ، و اتباعا لأمر النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إذ قرنهم بالكتاب العزيز الدال بكل صراحة على وجوب اتباع أهل البيت و التمسّک بهم، فإنّه نجاة من الضلالة. و هذا هو التشيّع بمعناه الجلى، و لهذا أخذنا عنوان الكتاب لأن ظروف نشأة المذاهب لا تشمل المذهب الشيعى و لم يخضع لأى ظرف منها، كيف و هو فى جذوره يمتد إلى زمن الرسالة، و لم يكن فى وجوده أثر لمصلحة إلاّ مصلحة الدين أو سبب إلاّ سبب العقيدة. و برز اسم الإمام الصّادق فى تلک المرحلة التى ظهرت فيها دوافع إيجاد المذاهب فكان أولى أن يطلق اسمه على المذهب تمييزا لا- مساواة و بدواعى تلک الفترة و بإشارة من الإمام عليه السّلام الذى كان يوجه أصحابه و يعين مهامهم الدينية و الاجتماعية و ما ينبغى لهم القيام به فى ظل تلک

1- 1) منهج المقال ص 340. [1]

المرحلة التی ماجت بالأفکار المختلفة و الأصول و المنابع. و جعل الإمام لکل واحد من أصحابه دورا مخصوصا فی تلک المرحلة. و راح یعدّهم لتحمّل المسئولیات الدینیة بأعلی درجة من التفقه و التقوی، فکان الإمام الصّادق ینظر إلی أن یقال فی أصحابه: «رحم اللّه جعفر بن محمّد ما أحسن ما أدب به أصحابه» . و هذا هو التشیع فی إحدی مراحله المهمّة. و علی أی حال، فإن محور التشیع و رکیزته الأساس إطاعة صاحب الرسالة و التمسّک بأهل بیته و الاقتداء بتعالیمهم و موالاتهم و نص أهل اللغة بمعناه: یقول الحافظ الأزهری: الشیعة قوم یهوون هوی عترة النبی و یوالونهم (1). و قال فی القاموس: و شیعة الرجل بالکسر أتباعه و أنصاره، و قد غلب هذا الاسم علی کل من یتولی علیّا و أهل بیته حتی صار اسما خاصا لهم (2). و قال فی التاج: إذا قیل فلان من الشیعة عرف أنّه منهم، و فی مذهب الشیعة کذا أی عندهم، و أصل ذلک من المشایعة و المطاوعة (3). و قال الجوهری: شیعة الرجل أتباعه و أنصاره، یقال: شایعه و یقال والاه (4). و یقول ابن منظور الإفریقی: و أصل الشیعة الفرقة من الناس، و یقع علی الواحد و الاثنین و الجمع و المذکّر و المؤنّث بلفظ واحد و معنی واحد، و قد غلب هذا الاسم علی من یتولی علیّا و أهل بیته «رضوان اللّه علیهم أجمعین» حتی صار اسما خاصا، فإذا قیل: فلان من الشیعة عرف أنّه منهم (5). و بهذا القول نفسه قال ابن الأثیر فی «النهایة ج 2 ص 246» و کذا فی «صبح الأعشی ج 13 ص 236» و «مجمع البحرین» فی مادة شیع و غیرها من معاجم اللغة. و قال أبو حاتم الرازی: (إن أول اسم ظهر فی الإسلام هو الشیعة، و کان هذا لقب أربعة من الصحابة هم: أبو ذر، و سلمان، و عمّار، و المقداد، حتی آن أوان صفّین فاشتهر بین موالی علی رضی اللّه عنه) (6).

1- 1) لسان العرب ج 10 ص 55. [1]

2- 2) القاموس ج 3 ص 47. [2]

3- 3) تاج العروس ج 5 ص 405. [3]

4- 4) الصحاح ج 1 ص 63. [4]

5- 5) لسان العرب ج 10 ص 55. [5]

6- 6) روضات الجنات ص 88. [6]

و قال ابن النديم: لما خالف طلحة و الزبير على على عليه السّلام و أبيا إلاّ الطلب بدم عثمان، و قصدهما على عليه السّلام ليقاتلهما حتى يفيئا إلى أمر اللّه جلّ اسمه سمى من اتبعه على ذلک الشيعة، فكان يقول: شيعى. . . و لسنا الآن بصدد الإحاطة بتعريف الشيعة، أو تعيين الزمن الذى نشأت به، و لا نريد أن نطيل الكلام فى نقل الاختلاف فى سبق هذا الاسم أو تأخّره، إذ من الثابت أن هذا الاسم كان على عهد النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم. لكن ما يؤسف له أن بعض ذوى الفهم المعكوس قد حملوا اسم الشيعة على غير معناه، و شرقوا فى ذلک و غربوا، و قد اضطربت أقوالهم و خرجوا عن منطق العلم فى تجاوز الحد، و ارتكبوا أمورا لا تليق بمن يتزيّى بالعلم، إذ هى تدل على نقص فى الإدراک، و خلل فى التفكير! و قد ساهم المستشرقون فى هذه الافتعالات و وسعوا دائرة الطعن على الشيعة، و تبعهم بعض كتّاب العصر الحاضر، بدون التفات إلى نوايا أولئک القوم الذين يحاولون تشويه تاريخ الإسلام. و مما تجدر الإشارة إليه: هو أن البعض يتعمد استعمال هذا الاسم على عمومه و حيث كان اسم التشيّع يدل على الاتباع فقد أطلق المؤرخون اسم الشيعة على أنصار العباسيين و أتباعهم، فيقولون: شيعة المنصور أو شيعة الرشيد مثلا، و يذكرون لهم كثيرا من الحوادث. و أهم هذه الفرقة هم الشيعة الراوندية و هم شيعة المنصور الدوانيقى الذين غلوا فى حبّه، بل عبدوه من دون اللّه. و لا بد من الانتباه إلى ما فى بعض نصوص المصادر من ذكر تسمية «الشيعة» و ملاحظة السياق و طبيعة الأحداث، فقد جرى بعض المؤرخين على هذا الإطلاق و هم يعنون به أنصار العباسيين و رجالهم أو حتى ملوكهم. و من الغريب أن بعض كتّاب العصر الحاضر عند ما ذكر فرق الشيعة و بيّن عقائدهم التى خبط فيها خبط عشواء جعل الراوندية من شيعة آل محمّد و هذا نص قوله: الراوندية فرقة من غلاة الشيعة ناهضت العلويين فى أيام العباسيين، و ذهبت إلى أن أحق الناس بالإمامة هو (العباس بن عبد المطلب) لأنه عمّ النبى، ثم يأتى من بعد العباس أبناؤه، إلى أن يقول: و قد غلت الراوندية أو فريق منهم (بل كلهم) فعبدوا أبا

جعفر المنصور و طاروا قائلين (أنت أنت) أى أنت اللّه (1). و لا ندرى كيف يتفق هذا مع عقائد الإمامية (سبحانک اللّهمّ هذا بهتان عظيم) . و ليس من الصعب الوقوف على كثير من شذوذ الكتّاب الذين دونوا أسماء الفرق و ألحقوا بفرق الشيعة من ليس منهم عند ما نعرف عقائد الشيعة الإمامية و لكن الأغراض و الأهواء قد انحرفت بكثير ممن كتب عن الشيعة. و قد ساعد على ذلک خوض بعض الكتّاب المعاصرين فى بحوث تقصر هممهم عن الإيفاء بشروطها، و تعجز قدراتهم عن الإحاطة بظروفها، و لكن بعضها قد بحث بما فيه بيان الحق و ليس فيه ما يسبب لمن لم يتزود بالاطلاع الكافى ارتباكا أو خطأ، فإن قضية استغلال العباسيين لمشاعر النقمة الكبرى التى اعتملت بها النفوس تجاوبا و تعاطفا مع أهل البيت الأطهار هى من الحقائق التى لم يختلف عليها، و أن العباسيين ركبوا تلک الموجة و أخفوا ما بأنفسهم مستغلين شمولهم بالتسمية، و لكنهم لم يجسروا على الإعلان عن نواياهم حتى مر عهد ملكهم الأول السفاح، و جاء المنصور فبدأت جولة الحرب الجديدة و نزع القناع الأسود عن وجهه. و مسألة شمول العباسيين بآل البيت قيد إطلاقها بالمعارضة الشديدة و الإنكار الواضح من قبل الشيعة، لأن إطلاقها بالشكل الذى استخدمه العباسيون قد جرّ الأمة إلى بلوى جديدة حملت أناسا ظلمة جدد إلى مواقع الحكم و السلطان، و أصبح الأمر واضحا بتطورات الأحداث و مجريات السياسة، فكيف نفعل مع خدمة الحكام الذين صرعهم شيطان التعصب فى تلک الظروف المظلمة، و راحوا يوسعون فى دلالة التسمية مكابرة و عنادا؟ و إنما تركوا لمن أتى من المعاصرين مادة تساعدهم على القول بدون تثبّت.

1- 1) الدكتور عادل العوّا-الكلام و الفلسفة ص 31.

المؤلّفون و الشيعة:

رأينا أن أكثر من كتب حول الشيعة. قد استندوا لأقوال أقوام عاشوا فى عصور احتدام النزاعات، و اشتداد عواصف الطائفية، و إيقاد نار البغضاء بين طوائف المسلمين: من حنفية و شافعية و حنبلية و أشعرية و معتزلة. . . مما أدّى إلى ارتباك حبل الأمن، و حل عرى المودّة، و هدم صروح الوحدة. تلك أمور كانت نتائجها و خيمة يتألم لها قلب كل مسلم، لما أصاب المسلمين من الانحطاط و التأخّر. و انتهى ذلك النزاع إلى حالة مؤسفة، عند ما تحوّل إلى عقيدة و مبادئ، و استمد كل قوته من أمور و همية لا مساس لها بالدين، فهم فى جانب، و هو فى جانب آخر إِنَّ اَلدِّينَ عِنْدَ اَللّٰهِ اَلْإِسْلامُ و الإسلام يدعو إلى كلمة التوحيد، و توحيد الكلمة، و بثّ روح الأخوة، لتتم سعادة البشر فى اتّباع أوامره و الوقوف عند زواجره. نعم إنهم كتبوا عن الشيعة بدون تثبّت، و استندوا لأقوال قوم دعاهم حب الشغب و خدمة السلطة إلى اختراع تلك الاتهامات. و قد تقوّل أكثر المقلّدين لهم، و الناقلين عنهم، فزادوا فى الطين بلّة. و لقد ساروا تحت ظلام الأوهام، و لا يعرفون إلاّ ما قيل، و لا يقولون أى شىء، تقليدا للسلف و خضوعا للعاطفة. و كنا نأمل من جيلنا الحاضر و أبناء عصر النور، أن لا تميل بهم نزعة الهوى، و لا تخفف العاطفة وزنهم، و لا يلجئوننا إلى نشر تلك الفضائح، و إخراج تلك الدفائن، و نحن بأمس الحاجة إلى اتجاه واحد، و اتحاد كامل، لإيجاد قوة إسلامية

متكاتفة، تقف أمام تيار الإلحاد الجارف، ورد هجمات خصوم الإسلام، و الوقوف أمام عدوانهم الغاشم، و تحرير الأمة الإسلامية من قيود الاستعباد، و رفع كابوس الاستعمار، برفع لواء كلمة «لا إله إلاّ اللّه محمّد رسول اللّه» و أناشيدنا: إِنَّمَا اَلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ [الحجرات:10] وَ اِعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اَللّهِ جَمِيعاً وَ لا تَفَرَّقُوا [آل عمران:103]. و قد يكون فى هذا الكلام صدمة لمن لا يرتضى التفاهم بين المسلمين لإزالة سوء التفاهم، لأنا وجدناهم لا يعيشون إلاّ فى ظلمة الفتن و من وراء حجب التمويه و الأكاذيب، فهم مع الباطل فلا يروق لهم إظهار كلمة الحق لثقلها على بعض النفوس!! لكننا نرى أنّه من الخير استمرارنا بهذه الصراحة، لأنا نفضل مواجهة الحقيقة بأقصى ما يمكننا من ذلك، لإظهار الحق و اتباعه، و الحق أحق أن يتّبع.

مع أحمد أمين فى كتبه:

إذا فليس من الحق قول أحمد أمين: (و الحق أن التشيع كان مأوى يلجأ إليه كل من أراد هدم الإسلام لعداوة أو حقد، و من كان يريد إدخال تعاليم آبائه من يهودية، و نصرانية، و زردشتية، و هندية، و من كان يريد استقلال بلاده، و الخروج على مملكته. إلى أن يقول: فاليهودية ظهرت فى التشيع فى القول بالرجعة و قال الشيعة إن النار محرمة على الشيعى إلاّ قليلا، كما قال اليهود لن تمسنا النار إلاّ أيّاما معدودات. . . إلخ) (1). نعم ليس من الحق أن يتقوّل على الشيعة بهذا، أو يقلد ما كتبه المستشرقون و هم الذين دعاهم حب الشغب لإثارة الطائفية بين المسلمين. و فى الواقع أن الرجل اتبع آراء الغربيين، الذين يكتبون عن الإسلام بداعى الحقد و الوقيعة فى أهله و هو فى هذا المورد- بالأخص-قد اتبع المستشرق (ولهوسن) حيث يقول: إن العقيدة الشيعية نبعت من اليهودية أكثر مما نبعت من الفارسية. و اتبع أيضا قول المستشرق (دوزى) : إن العقيدة الشيعية أساسها فارسى، فالعرب تدين بالحرية، و الفرس يدينون بالملك و بالوراثة فى البيت المالك، و لا يعرفون معنى لانتخاب الخليفة، و قد مات محمّد و لم يترك ولدا، فأولى الناس بعده على بن أبى طالب فمن أخذ الخلافة منه-كأبى بكر و عمر و عثمان و الأمويين-فقد اغتصبها من مستحقها. و قد اعتاد الفرس أن ينظروا إلى

1- 1) فجر الإسلام ص 276.

الملک نظرة فیها معنی إلهی. فنظروا النظر نفسه إلی علی و ذریته و قالوا: إن طاعـة الإمام أول واجب، و إن إطاعته إطاعة اللّه (1). و هذا هو مضـمون عبارة أحمد أمین بتصرّف و زیادة. و نحن الآن لا نرید أن نتعرّض لجمیع ما کتبه أحمد أمین عن الشیعة و أئمتهم من سادات أهل البیت و سـلالة النبی صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم. نعم لا نرید أن نذکر جمیع أقواله و تقولاته، و لا نقف طویلا فی ردّه، و لکن شیئا واحدا نریـد أن نقوله هو: إن أحمـد أمین کاتب له شـهرة فائقة، و آثار کثیرة. و لکن مما یؤسف له أن الرجل لم یکن واقعیا، بل کان ینقاد للعواطف بسـرعة، و یخضع للنزعـات و یستسـلم للشـکوک التی تموج فی صـدره. فهو یجهل نفسه أمام الواقع و یفقـد الجرأة الأدبیـة عنـد ما تتجلی الحقیقـة أمـامه. و یتضـح ذلـک من مؤلفاته و مقالاته! إن أحمـد أمین أدیب کاتب، و لکن لم تکن له خبرة فی علم الرجال، و لا إلمام بعلم الحـدیث. و له أخطاء فی التاریـخ، فکان اللازم علیه أن یتجنّب الخوض فی أمور لیست من اختصاصه، لیدفع بذلک نقصا جرّه إلی نفسه، و عیبا لصقه بها. و هو فیما یذهب إلیه-فی کثیر من الآراء-یبرهن علی نقص فی إدراکه و دراسته، فیستسلم إلی آراء المستشرقین الذین انطوی اهتمامهم بالمواضـیع الإسـلامیة علی أهـداف قـذرة أملاها علیهم الاسـتعمار. و بمزید الأسف أن «أمین» و عد أن یکون أمینا و یتدارک ما أخطأ فیه و لکنه لم یفعل؟ !

أخطاء القصیمی:

و لا نرید أن نتعرّض للقصـیمی (2)فی صـرعه، فهو مصـروع لشـدة داء (الهستریا) و مدفوع بحرکة لا شـعوریة، فلا حاجة إلی التعرّض له و لأمثاله، ممن ابتلی بداء الشـغب، و حب التفرقة بین المسـلمین، خدمة للاسـتعمار و استدرارا لصلته، و طلبا لنائله، نعم لا نرید أن نتعرّض لخرافاته و سفاسـفه، و أخطائه و أکاذیبه، فقلما یترفع عن مناقشـته من أوقف نفسه لخدمة أعداء الإسـلام. و لکنا نود أن ننبّه لشـیء واحد من أخطائه و أکاذیبه و هو قوله فی ج 2 ص 38:

1- 1) فجر الإسلام ص 277.

2- 2) هو الشیخ عبد اللّه القصیمی، و مؤلّف کتاب «الصراع بین الوثنیة و الإسلام» .

استفتی أحد الشیعة إماما من أئمتهم و لا أدری أ هو الصادق أم غیره؟ فی مسألة من المسائل فأفتاه فیها، ثم جاءه من قابل و استفتاه فی المسألة نفسها فأفتاه بخلاف ما أفتاه عام أوّل، و لم یکن بینهما أحد حینما أفتاه بالمرتین، فشک ذلک المستفتی فی إمامته و خرج من مذهب الشیعة و قال: إن کان الإمام إنما أفتانی تقیة فلیس معنا من یتقی فی المرّتین، و قد کنت مخلصا لهم عاملا فیما یقولون؛ و إن کان مأتی هذا هو الغلط و النسیان فالأئمة لیسوا معصومین إذن. و الشیعة تدعی لهم العصمة، ففارقهم و انحاز إلی غیر مذهبهم. و هذه الروایة مذکورة فی کتب القوم. لا أرید أن أسائل القصیمی عن الکتب التی ذکرت فیها هذه الحادثة. و لا ألزمه بأن یبیّن لنا اسم الرجل السائل أو الإمام المسئول، فالقصیمی جوابه-کنقله-کذب و افتعال بیّن. فإذا کذب فی النقل یکذب فی الجواب. و دائرة الکذب غیر محدودة، تمتد إلی حیث لا نهایة. و إنی قد ألقیت القصیمی و کتابه فی (سلة المهملات) (1)فلا- أحب التعرّض لهفواته، إلاّ بهذه فقط لأنه أراد أن ینال من کرامة الإمام الصّادق علیه السّلام بإسناد هذه الحکایة له علی وجه الترديد، و قد اشتبه علیه الأمر فی ذلک. أو هو یتعمد ارتکاب الخطأ. و إن هذه القضیة نقلها علی غیر وجهها فإنّها لم تکن فی کتب الشیعة و لم یکن المسئول هو الإمام الصّادق، بل غیره من أئمة المذاهب و إلیک نصّها: جاء رجل من أهل المشرق إلی أبی حنیفة بکتاب منه بمکة عام أول. فعرضه علیه مما کان یسأل (و فی نسخة سئل عنه) فرجع أبو حنیفة عن ذلک کله. فوضع الرجل التراب علی رأسه ثم قال: یا معشر الناس أتیت هذا الرجل عاما أولا فأفتانی بهذا الکتاب، فأهرقت به الدماء، و أنکحت به الفروج، فرجع عنه هذا العام. قال ابن قتیبة: حدّثنی سهل بن محمّد: قال حدّثنا المختار بن عمر: إن الرجل قال له-أی لأبی حنیفة-: کیف هذا؟ قال: رأیا رأیته فرأیت العام غیره. قال: فتؤمننی أن لا تری من قابل شیئا آخر. قال أبو حنیفة: لا أدری کیف یکون ذلک. فقال له الرجل: لکننی أدری أن علیک لعنة اللّه. انظر تأویل مختلف الحدیث لابن قتیبة ص 62-63 المطبوع بمطبعة کردستان بمصر، الطبعة الأولی سنة 1326 ه.

1- 1) هو عنوان موضوع یأتی فی هذا الکتاب إن شاء اللّه.

هذه هی الحکایة التی أخطأ القصیمی فی نسبتها للإمام الصّادق أو غیره من الأئمة مع تصرّف فیها منه. و لا أستبعد أن الرجل لا یفرق بین أن یکون أبو حنیفة إماما للحنفیة أو للشیعة، لأن کتابه لم یترکز علی قواعد علمیة، و لا علی نقل صحیح. بل هو هوس و تهریج، و تقوّل بالباطل. فلا نود مناقشة رجل یحور الوقائع، و یغیّر النص، و یتعمّد الکذب، و لا عتب علیه فهو إنسان أفلت من عقال التعقّل، و خرج علی الموازین، و حارب الإسلام بدافع الطمع بما فی أیدی أعدائه من صهاینة و ملاحدة، لهذا نعرض عن الاستمرار فی بیان أباطیله و أضالیله، و ها نحن نلقیه فی سلة المهملات.

مع ابن عبد ربّه:

و من الخطأ الإصغاء لأخطاء ابن عبد ربّه-فیما ینقله فی ذم الشیعة-من الأمور التی یتبیّن لذی العین الباصرة أنّها باطلة، أملاها التعصب و التشاحن المذهبی. و هی من وضع أقوام تقرّبوا للدولة، بوضع خرافات لمسوا رغبتهم فی نشرها، و لم یلتفتوا إلی أی مؤاخذة أو نقص. و خذ مثلا لذلک ما نقله عن مالک بن معاویة (1)أنّه قال لی الشعبی-و ذکرنا الرافضة-: یا مالک إنی درست الأهواء کلّها فلم أر قوما أحمق من الرافضة ثم قال: أحذّرک الأهواء المضلّة شرها الرافضة، فإنّها یهود هذه الأمّة، یبغضون الإسلام، کما یبغض الیهود النصرانیة و لم یدخلوا فی الإسلام رغبة و لا رهبة من اللّه و لکن مقتا بأهل الإسلام، و بغیا علیهم. إلی أن یقول: قالت الیهود لا یکون الملک إلاّ فی آل داود و قالت الرافضة: لا یکون الملک إلاّ فی آل علی بن أبی طالب، و الیهود یؤخرون صلاة المغرب حتی تشتبک النجوم، و کذلک الرافضة، و الیهود لا تری الطلاق شیئا، و کذلک الرافضة. إلی أن قال: و الیهود تستحل دم کل مسلم و کذلک الرافضة، إلی آخر ما نقله من هذه الأسطورة، و ما فیها من الأمور التی تضحک الثکلی. کما أن مثل هذا لا یصدر عن رجل مثل الشعبی (2)المعروف بالعلم فیجهل أمثال هذه الأمور، و یصدر عنه ما یکذبه الواقع قبل الوجدان. صحیح أننا لا نتوقع من الشعبی الدفاع عن الشیعة بعد تحولاته و انقلاباته فی المواقف و الآراء، و بعد

1- 1) العقد الفرید ج 1 ص 259. [1]

2- 2) هو عامر بن شراحبیل، ولد فی خلافة عمر بن الخطاب، و توفی سنة 103 ه. روی عن علی و ابن مسعود و عمر و لم یسمع منهم، و عن أبی هریرة و عائشة، و هو من رجال الصحاح الستة.

أن استقرّت سيرته على مسالمة الحكام و مسايرة مؤسساتهم فى الموقف من الشيعة، إلاّ أنا نستبعد أن يكون الشعبى واحدا من علماء السوء الذين اصطنعتهم الدولة، و قد يصدر من الشعبى ما يناقض سيرته الماجنة و ما يخالف به الشيعة لكن ليس إلى هذا الحد من الافتراء و السقوط. هذا من جهة. و من جهة أخرى: إن وفاة الشعبى كانت سنة 102 ه و ظهور اسم الرافضة سنة 121 ه-122 ه كما يقولون. و قبل هذا التاريخ لم يعرف أحد هذا الاسم و قالوا: إن زيد بن على سمّاهم بذلک، عند ما خرج بالكوفة سنة 121 ه و لم يذهب أحد إلى سبق هذا الاسم و اشتهاره قبل هذا التاريخ، مع أن الناقل و هو مالک بن معاوية لم يعرف و ليس له ذكر فى كتب الرجال قط، و لكن هذا من اختراع ابن عبد ربه، أو لقّنه بها بعض القصاصين، الذين استخدمتهم السلطة لمحاربة مذهب أهل البيت و لا أستبعد أن هذه التسمية و نسبتها لزيد من اختراعات الأصمعى و مجونه، فهو راوى قصة الشيعة مع زيد فى حربه بالكوفة (1)و قضية زيد مشهورة و ثبوت الشيعة معه فى حربه أمر لا ينكر، و لكنها حيلة سياسية استعملها الأمويون لتفرقة بعض الناس عنه إذ دسّوا أدواتهم و عبيدهم بين صفوف أصحاب زيد مستخدمين قضية الشيخين لأغراضهم السياسية- هذا على فرض صحة الخبر-فتوسّلوا إلى إنقاذ حكمهم بمثل هذه الوسيلة و القضاء على ثورة عمّر قلوب أصحابها الإيمان بالإسلام و فاضت صدور جنودها بمشاعر الولاء لآل بيت النبى المصطفى و النقمة على الظالمين المضلين. و قد قامت تهمة الرفض فى ظلال روح النصب و أفياء العداء لآل البيت النبوى الكريم، و رغم انفضاح بواعثها و تلفيقها فقد ظلت مداد الأقلام و مضامين الأسفار، لأن الظالمين أقاموا سياستهم على ذلک و أذعن الكتّاب و المحترفون و مالوا إلى هوى المتسلطين و دواعى النفع، و إلاّ فإن من الإسرائيليات و العقائد اليهودية التى أفشاها كعب الأحبار-و هو فى عرفهم الثقة المأمون و التابعى الجليل-ما يكفى لتجريد الأقلام و صرف الأموال لتشذيب ما علق بأذهان الناس و الدعوة إلى رفض ما بثّه فيهم اليهود من تجسيم و تشبيه و خرافات و أساطير لا تليق إلاّ بأهلها من قتلة الأنبياء. و لنتأمّل فى ختام القول عن ابن عبد ربّه هذه النقطة المهمّة: و هى استسهال

1- 1) تاج العروس ج 5 ص 34.

الاتهام بالتشيع و الرمى بالمغالاة فى أهل البيت لا لشىء إلاّ لأن الحقيقة قد روعيت و الوقائع قد ذكرت لأن العداء للتشيع يقضى على أتباع المتسلطين و ورثة السلف السائرين فى ركاب الظلمة بإهمال الحقائق و إغفال الوقائع. و ابن كثير يتهم ابن عبد ربّه بالتشيع لأن ابن عبد ربه تكلم عن سيرة خالد بن عبد اللّه القسرى و التى يراها ابن كثير غير صحيحة فتحمله المغيرة على الدخول فى دينه و يجعل من التشيع لأهل البيت سبيلا لتوهين ما عرف من سيرة خالد بن عبد اللّه القسرى مما لم يستطع ابن كثير نفسه منه فكاكا فذكر شيئا منها مرغما. و لكن كل الجرائم تهون دون بطش خالد و جرائمه التى تتفق فى منحاها مع القسوة و الغلظة التى اتصف بها النواصب و دعاة السلفية. فيدافع ابن كثير الحافظ عن خالد بما لفظه: و الذى يظهر أن هذا لا يصح عنه فإنه كان قائما فى إطفاء الضلال و البدع. . . و قد نسب إليه صاحب العقد أشياء لا تصح لأن صاحب العقد كان فيه تشيّع شنيع و مغالاة فى أهل البيت، و ربما لا يفهم أحد من كلامه ما فيه من التشيّع، و قد اغتر به شيخنا الذهبى فمدحه بالحفظ و غيره. اه. نعم ابن كثير وحده يفهم هذا التشيع الغريب و الذى رأى الاتهام به دفاعا عن القائم بإطفاء الضلال و البدع. و خالد باعتراف ابن كثير نفسه و تحريره أنه كان متهما فى دينه، و بنى لأمّه كنيسة فى داره، لأن أمّه كانت نصرانية و يدعى بابن النصرانية. و ليت الأمر ينتهى بهذا الحد من الفضائل، بل أن خالدا جمع «الإيمان» من أطرافه و بتحرير ابن كثير أيضا لقول ابن خلكان كان فى نسبه يهود فانتموا إلى القرب و كان يقرب من شق و سطيح. و مثل هذه النماذج جديرة بأن تكون منزهة لأن لديها الاستعداد النفسى لحمل راية العنف و الشدة فيكون العداء لها صادرا من الجهة التى تقف بوجه الظلم و العنف. يطلق ابن كثير على صاحب العقد الفريد تهمة التشيّع و بذلک يكشف عن واحد من الأمور التى يتعجل بها فى الحكم. و ما أكثرها فى منهجه. لقد كان ابن عبد ربه من رجال بلاط عبد الرّحمن الناصر الأموى، و نظم فى سيرته ملحمة، و لما جاء فيها ذكر الخلفاء لم يذكر الإمام على، و جعل معاوية رابع الراشدين، فذكر أبا بكر و عمر و عثمان و معاوية مما حدا بعالم أندلسى هو منذر بن سعيد البلوطى للرد عليه قائلا: أو ما علىّ-لا برحت ملعنا يا ابن الخبيثة- عندكم بإمام

رب (1)الكساء و خير آل محمّد دانى الولاء مقدم الإسلام

و قـد حملته أمويته على عـدم ذكر اسم الإمـام الكاظم عليه السّـلام و هو يورد رسالته عليه السّـلام إلى هارون الرشـيد و قـد بعثها إليه من السـجن و التى جاءت فى أغلب المصادر و أمّهات كتب التراجم و التى يخاطب فيها الرشيد: «إنه لن ينقضى عنى يوم من البلاء إلاّ انقضى عنك يوم من الرخاء حتى نقضـى جميعا إلى يوم ليس له انقضاء و يخسـر فيه المبطلون» . فيذكرها فى العقد الفريد: أن الرشيد حبس رجلا فلما طال حبسه كتب إليه. و يـذكر المعنى و بلفظ آخر و هو مما ينفرد به. و ليت الأمر يقف عنـد هـذا الحد، و لكنهم توسـعوا فى الكذب، حتى استخدموا ألسنة الشياطين. و إليک مثلا من ذلک:

أحلام ابن العماد:

نقـل أبو الفلاـح عبـد الحى بن العماد الحنبلى (2)عن الأعمش-بلا سـند-أنّه قال: خرجت فى ليلـة مقمرة أريـد المسـجد، فإذا أنا بشـىء عارضـنى، فاقشـعر منه جسدى، و قلت أمن الجن أم من الإنس؟ فقال: من الجن. فقلت: أ مؤمن أم كافر؟ فقال: بل مؤمن. فقلت: هل فيكم من هـذه الأهواء و البدع شـىء؟ قال: نعم. ثم قال: وقع بينى و بين عفريت من الجن اختلاف فى أبى بكر و عمر، فقال العفريت: أنهما ظلما عليا و اعتديا عليه. فقلت: بمن ترضـى حكما؟ فقال: بإبليس. فأتيناه فقصصـنا عليه القصة فضحک، ثم قال: هؤلاء من شيعتى و أنصارى، و أهل مودتى. ثم قال: أ لا أحدّثک بحديث؟ قلنا: بلى. قال: أعلمكم أنى عبدت اللّه تعالى فى السـماء الدنيا ألف عام فسـميت فيها العابد، و عبدت اللّه فى الثانية ألف عام فسـميت فيها الزاهد، و عبدت اللّه فى الثالثة ألف عام فسـميت فيها الراغب، ثم رفعت إلى الرابعة، فرأيت فيها سبعين ألف صف من الملائكة يستغفرون لمحبى أبى بكر و عمر، ثم رفعت إلى الخامسة فرأيت فيها سبعين ألف ملک يلعنون مبغضى أبى بكر و عمر. انتهى. هذه هى أسـطورة ابن العماد ينقلها للطعن فى الشيعة و إظهار فضل أبى بكر و عمر، نقدّمها ليتضح للقارئ مدى الشوط الذى لعبه الجهل فى عقول الناس، حتى

1- 1) رب: بمعنى رابع و اختصرت للضرورة الشعرية.

2- 2) شذرات الذهب ج 1 ص 25. [1]

استخدموا الشياطين فى أكاذيبهم لِيَجْعَلَ ما يُلْقِى اَلشَّيْطانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَ اَلْقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَ إِنَّ اَلظّالِمِينَ لَفِى شِقاقٍ بَعِيدٍ (1)وَ قُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِکَ مِنْ هَمَزاتِ اَلشَّياطِينِ. وَ أَعُوذُ بِکَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ (2).

أسطورة ابن سبأ:

و من الأساطير التى أخذت مفعولها فى المجتمع، و تأثّر بها أهله تأثّرا جعلهم يرسلونها إرسال المسلمات، هى أسطورة عبد اللّه بن سبأ. تلک الشخصية الموهومة التى لا وجود لها فى التأريخ، و إنما هى أحاديث خرافة وضعها القصّاصون و أرباب السمر و المجون. فى أواسط الدولتين الأموية و العباسية إذ بلغ الترف و النعيم أقصاه، و كلما اتسع العيش و توفرت دواعى اللهو اتسع المجال للوضع، و راجت سوق الخيال، و نسج القصص و الأمثال، كى تأنس بها ربّات الحجال. و الترف و النعمة (3). و لقد اندفع أعداء الشيعة فى القرون المتوسطة إلى جعل أسطورة عبد اللّه ابن سبأ ذات شأن فى تأريخ الإسلام، و أسندوا إليه أمورا يأباها البحث المبرأ من الهوى، و يرفضها العقل السليم، فقد اخترعوا له أفعالا و مواقف، و أسندوا إليه قصصا و وقائع، و ألبسوه أبراد العظمة، و ادعوا له الشجاعة و البسالة؛ فهو الذى أثار حرب الجمل، و هيّأ جيش مصر لحرب عثمان، و أقام فى الكوفة يثير الفتنة على عثمان و عمّاله، و يسير فى أنحاء الأقطار الإسلامية بسرعة البرق ليوقد الفتنة، و يعود للمدينة فيؤلب الناس على عثمان، و تأثّر به كثير من كبار الصحابة. إلى آخر ما هنالک من الأمور العجيبة التى حفّت بها شخصية عبد اللّه بن سبأ! ! و قد نص كثير من القدماء المحققين على نفى وجود شخصية عبد اللّه ابن سبأ، و أنها أسطورة وضعها أعداء الشيعة (4). . . و كذلک ذهب جماعة من المتأخرين إلى نفيها (5)و للمستشرقين آراء كثيرة فى ذلک: يقول برناردو لويس: (و نسب كثير من

1- 1) سورة الحج آية 5. [1]

2- 2) سورة المؤمنون آية 97. [2]

3- 3) أصل الشيعة و أصولها ص 84. [3]

4- 4) عبد اللّه بن سبأ للأستاذ السيد مرتضى العسكرى فهو خير كتاب فى هذا الموضوع، فقد تتبع فيه أصل وضع هذه الأسطورة.

5- 5) الفتنة الكبرى لطه حسين ج 1 ص. و خطط الشام لمحمّد كرد على ج 6 ص 251-256. [4]

المؤرخين المسلمين بداءات التشيّع الثورى إلى رجل اسمه عبد اللّه بن سبأ و هو يهودى يمانى، عاصر عليا، و كان يدعو إلى تأليهه، فأمر على بحرقه لما دعا إليه، و من هنا قيل إن أصل التشيّع مأخوذ من اليهودية. و لكن البحث الحديث قد أظهر أن هذا استباق للحوادث و أنّه صورة مثل بها الماضى و تخيلها الرواة فى القرن الثانى الهجرى من أحوالهم و أفكارهم السائدة) . فهو يذهب بهذا إلى أن فكرة عبد اللّه بن سبأ من تخيّل الرواة نظرا للأفكار السائدة، و الأحوال التى كانوا عليها فى انتحال القصص و الخرافات (1)و أظهر فلهاوزن، و فريد لندر بعد دراسة نقدية: أن المؤامرات و الدعوة المنسوبتين إلى عبد اللّه بن سبأ من اختلاق المؤرخين. و قال كايتانى: (إن مؤامرة مثل هذه بهذا التفكير و هذا التنظيم، لا يمكن أن يتصوّرها العالم العربى عام 35 ه بنظامه القبلى القائم على سلطان الأبوة، و أنها تعكس العصر العباسى الأول بجلاء) . و الغرض أن أمثال هذه الأساطير و اختراع تلك الخرافات لا تخفى على من أعطاها نظرة صادقة، و وقف وقفة متريث يريد أن يعرف الواقع، و يصل إلى معرفة البواعث التى أدت إلى وضعها من قبل سلف مخدوع يسير وراء توجيهات الدولة. و قد تبعهم كثير من أبناء الجيل الحاضر و ضربوا على و ترهم لتصبح تلك الأمور الخرافية قواعد ثابتة الأصول و ما هى فى عرف الحق إلا: وَ مَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اُجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ اَلْأَرْضِ ما لَها مِنْ قَرارٍ. يُثَبِّتُ اَللّهُ اَلَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ اَلثّابِتِ فِى اَلْحَياةِ اَلدُّنْيا وَ فِى اَلآخِرَةِ وَ يُضِلُّ اَللّهُ اَلظّالِمِينَ وَ يَفْعَلُ اَللّهُ ما يَشاءُ (2)و سيأتى فى الجزء السادس من هذا الكتاب بحث مستفيض عن هذه الأسطورة. و صفوة القول أن الاتهامات التى وجّهت للشيعة، إنما تعود لأسباب سياسية، قد اتخذها الحكام وسيلة للقضاء عليهم، و محو مذهبهم الذى أصبح عبئا ثقيلا على كاهل الدولة، و شبحا مخيفا يقض مضاجعهم، لأنّه يتصل بأهل البيت، و هم أعداء للباطل و حرب على الظالمين. و قد اتضح إعلانهم الانفصال عن دولة لا تحترم الحقوق، و تسير بالأمة على

1- 1) أصول الإسماعيلية ص 86-87.

2- 2) سورة إبراهيم 26-27. [1]

غیر هـدی، حتی عرف المنتمون لهم بـذلک اتّباعا لهم و اقتـداء بهم. فکانت من أبرز معالم سـیرة أئمـة أهل البیت و أهم خصائص مسـیرة شیعتهم، تعاهدها الأئمة الأطهار بالرعایة لکی یعلم الحکّام أن أمر العقیدة أبعد من مرماهم و أکبر من سیاسـتهم. قال الأنباری: کتبت إلی أبی الحسن الرضـا علیه السّـلام أربع عشـرة (مرة) أسـتأذنه فی عمـل السـلطان، فلما کان آخر کتاب کتبته: إنی أخاف علی خیط عنقی و أن السـلطان یقول: إنـک رافضـی، و لسـنا نشک فی أنک ترکت العمل للسـلطان للترفض. فکتب إلیّ أبو الحسن: «إنی قـد فهمت کتبک، و ما ذکرت من الخوف علی نفسک، فإن کنت تعلم أنّک إذا ولیت عملت فی عملک بما أمر به رسول اللّه صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم» إلی آخر الکتاب (1). فیظهر جلیا أن عـدم معاونـة الدولـة و العمل لها آنـذاک، یوقع الإنسان بتهمـة التشـیع، الـذی هو من أعظم الذنوب فی ذلک العصـر؛ لأنهم-أی الشـیعة-معارضون لذلک النظام! ! و ناهیک بما یلقی المعارضون لحکام الجور من مقاومة و تنکیل. فإذا رأینا فی بعض مراحـل حکم بنی العباس من عرف بالتشـیع و الولاء لأهل البیت و هو فی محل من الدولـة أو فی مسـئولیة من الحکم و لم یخف انتماءه، فـذلک أن الکثیر بقی علی أمل إقامـة الأمر علی ما کانت علیه الثورة ضـد حکم الأمویین، کما أن کثرة شـیعة أهل البیت الساحقـة، و تزاید أعداد العلماء منهم و ذوی الکفاءة فی الشؤون المختلفة جعل من التخلص منهم أمرا عسـیرا. و الذین کانوا فی الولایة و العمل لأهل الجور منهم لا یفتأون یتصـلون بالأئمة علیه السّلام فیرشدوهم إلی سبل خدمة الرعیة و طرق تجنّب ظلم الناس کما کان علیه النجاشی مع الإمام الصّادق، و الأنباری الـذی تقـدم ذکره مع الإمام الرضا علیه السّـلام. فانتشار مـذهب أهل البیت یعتبر فی الواقع اتساعا للمعارضـة، لذلک اجتهـد حکام الجور فی معارضـته و التنکیل بأهله، و لکنه اسـتطاع أن یصـمد لتلک الأعاصـیر الجائحـة، و یتخطی تلک العقبات الهائلـة، فانتشـر علی وجه البسـیطة، فکان عـدد المنتمین إلیه مائة ملیون أو یزیدون. و جدیر بمن یرید دراسة المذهب الجعفری أن یزن أقوال بعض علماء الرجال الذین ساروا فی رکاب الدولة، و نفخوا ببوقها-عند ما یترجمون لعلماء الشیعة-

---

1- 1) فروع الکافی [1]فی باب عمل السلطان.

فيقولون مثلا: فلان صدوق إلاّ أنه مبتدع أو أنه سيئ المذهب، أو زائغ عن الحق. كما قال الذهبى فى ترجمة أبان بن تغلب: إنه صدوق إلاّ أنه مبتدع، فلنا صدقه و عليه بدعته. إلى آخر ما هنالک من أقوال بعيدة عن الصواب. و إذا أردنا أن نسائلهم عن بدعتهم فلا شىء هناک إلاّ مخالفة ما شرعته السياسة لا ما شرعه الإسلام؟ ! و قد رأيت قبل قليل كيف جعلت الأهواء من خالد بن عبد اللّه القسرى المتهم فى دينه قائما بإطفاء البدع، و ابن عبد ربّه السنى متشيعا و مغاليا. نقول هذا و نحن نأسف الأسف الشديد على ذوى التفكير من أبناء العصر أن يعوّلوا على أقوال قوم جرفهم تيار التعصّب، أو كان فهمهم للمذهب الجعفرى فهما عاطفيا! ! لذلک نرى أكثر من كتاب عن تأريخ التشريع الإسلامى و بيان المذاهب فيه، قد أهمل ذكر جعفر بن محمّد الصّادق. و لئن دل إهمالهم له على شىء فإنما يدل على اعتزازهم بتلک النعرات الطائفية، و تلوث وجدانهم بالرواسب التى ورثوها من السّلف المخدوع ليضعوها فى طريق وحدة المسلمين، فى الوقت الذى يكونون فيه بأمسّ الحاجة إلى إزالة ما خلفته تلک العصور المظلمة من عقبات تحول بينهم و بين التفاهم و الوحدة، و ما أحوجهم إليها اليوم لمقابلة أعداء الإسلام الذين يكيدون له بكل ما لديهم من حول و قوة، و ما أخذناه ما هو إلاّ أمثلة قليلة للقضايا الكبرى التى اختلقها أعداء الشيعة و غيرها مما لا يحاط به و لا يحصى، و نحن فى هذا العصر نطالب بأن تتبع طرق التفكير السليم و المنطق الصحيح من خلال الإجابة على سبب هذا التحايل و الكره، و لما ذا يبقى المرء أسير نظرة الأنظمة المتعسفة الذين اتجهوا ضد الشيعة لأنّهم يمثّلون خطرا؟ ! . و لا حول و لا قوة إلاّ باللّه العلى العظيم. ذلِکَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَ اَلْيَوْمِ اَلآخِرِ ذلِكُمْ أَزْكى لَكُمْ وَ أَطْهَرُ وَ اَللّهُ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ [سورة البقرة:232].

الإمام الصّادق

اشارة

أصحابه و حملة فقهه

مؤهلات الإمام الصّادق و مكانته:

انتشـر ذكر مدرسة الإمام الصّادق عليه السّـلام فى جميع الأقطار الإسلامية، فأصبحت جامعة إسلامية كبرى تقصدها وفود الأمصار، حتى كـان عـدد المنتمين إليها أربعـة آلاف كلهم من حملـة الحـديث. و لـم يعرف لأحـد من أئمـة المـذاهب من التلاميـذ مثل ما عرف للإمام الصّادق، مع تباعد أقطارهم. فكان تلاميذه، من: العراق، و مصـر، و خراسان، و حمص، و الشام، و حضـرموت و غيرها. و مما يلفت النظر أن أكثر تلاميـذه كانوا من الكوفة و المدينة. لانتشار التشـيع فى الأولى و نشأته فى الثانية. و أن هذا العدد و هو 4000 طالب فى مدرسته لم يكن هائلا-كما قد يبدو للبعض -و هو قليل بالنسـبة لذلك العصر من حيث اتساع نطاق الحركة العلمية و اتجاه الناس لإحياء ما درس من السّـنن. و لأن الإمام الصّادق عليه السّـلام هو سـيد أهل البيت فى عصـره و وارث علم جدّه، و كان لأهل البيت نشاط علمى؛ فلا غرابة أن اتجهت إليه الأمّة الإسـلامية تنتهل من ينبوع علمه، فضلا عن أنّه قد اتّصف بجميع الصفات التى تؤهله لأن يتزعم الحركة العلمية فى عصر نهضتها، و قد (نقل الناس عنه من العلوم ما سارت به الركبان، و انتشر صيته فى جميع البلدان) (1)(و روى حديثه خلق لا يحصون) (2). و كانت له (نواح كثيرة يعذب فيها القول، و تفيض فى شأنها المعانى

1- 1) الصواعق المحرقة لابن حجر ص 120. [1]

2- 2) الخلاصة للخزرجى ص 54.

و الدراسات، و من أبرز ذلک: أنّه علیه السّلام کان-بشخصیته و علمه-موضع احترام و تقدیر وحب، من أهل الإیمان و العلم فی عصره، لا فرق بین الخاصة و العامة، و لا بین من یتبعونه و یعتقدون بنصیّة إمامته، و من یتبعون المذاهب الأخری. کلهم عرفوه إماما جلیلا، و عالما قویا، و صادقا إذا حدّث، و منصفا إذا فکّر، لا هدف له إلاّ الحق، و لذلک لقّب بالصّادق، و هی نفحة من نفحات جده الأعظم رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم حیث کان ملقّبا بالصّادق) (1). و لا نستغرب قول من یعترف بعدم استطاعته لإحصاء تلامذته، و رواة حدیثه، و قد نقلنا من أوثق المصادر بعضا منهم من سائر الناس، دون خواصه، و سنواصل نشر الآخرین منهم. و علی أی حال فإن الناشرین لفقه الإمام جعفر بن محمّد خلق کثیر. و لکن فقهه الذی أراد اللّه تعالی أن یکون خالدا مع الزمن، و هو المتبع عند الشیعة، و المرجع فی أهم الأحکام، انحصر تلقیه فی جماعة اختصوا بالإمام الصّادق و واصلوا دراستهم عنده، و کانوا من العدالة و الوثاقة بمنزلة تجعلهم أهلا لقبول ما یروی عنهم من فقهه، الذی ینبع فیضه من بحار آبائه، الذین هدی اللّه بهم الأمّة، و أوجب محبتهم علی الخاصة و العامة. و قد أشرنا فیما سبق إلی أن عددا من تلامذته، و هم أربعمائة قد ألّفوا فی فقهه و الروایة عنه أربعمائة کتابا، و هی أصول الفقه للمذهب الجعفری المعروفة بالأصول الأربعمائة. و قد جمعت هذه الکتب فی الکتب الأربعة و هی: الکافی، و الاستبصار، و التهذیب، و من لا یحضره الفقیه. و کان الإمام الصّادق ینظر إلی أصحابه علی قدر کفایتهم الموهوبة کل علی حسب استعداده و تمکّنه، فاختص بجماعة منهم، فکانوا خیر معین علی حل المشاکل التی تحل بالمجتمع، و التی یهتم بها الإمام الصّادق أشد الاهتمام. فهم یقومون بتنفیذ الخطط التی یرسمها لهم، و تحت إشرافه یکون قیامهم بها، فهو المصدر الأول و المنتهی الأخیر لتلک التعالیم التی تقوم بها النخبة الصالحة من أصحابه. و کانت لهم الید الطولی فی خوض معارک الحیاة الاجتماعیة و السیاسیة، و فی

1- 1) من کلمة عن دار التقریب بمصر.

محاربـة أهل الإلحاد و الزندقـة، و مناظرة أهل العقائـد الفاسـدة، و الفرق الشاذّة، و مقابلـة الظلمة فى شدة الإنكار عليهم، و توجيه الانتقاد إليهم. بطرق مختلفة. و كان عليه السّلام يشـيد بذكر خلّص أصحابه، و يظهر للناس كفايتهم. و حيث كانت ترد عليه الوفود من سار البلاد الإسـلامية للاسـتفادة مرة، و للمناظرة أخرى. فقد جعل لكل واحد من أصحابه وظيفة خاصة يقوم بها عند ما يعوّل فى الجواب عليه، إظهارا لفضـله و علو منزلته. فجعـل أبان ابن تغلب للفقه، و أمره أن يجلس فى المسـجد فيفتى الناس. و وكل لحمران بن أعين الأجوبـة عن مسائل علوم القرآن، و زرارة بن أعين للمناظرة فى الفقه، و مؤمن الطاق للمساجلة فى الكلام، و الطيّار للمناظرة فى الاسـتطاعة و غيرها، و هشام بن الحكم للمناظرة فى الإمامـة و العقائد. و كان منهم جماعة يتجولون فى الأمصار، و أمدهم بالأموال للتجارة. و القصد من ذلک أن يمتزجوا بالمجتمع. لتوجيه الناس و الـدعوة إلى مـذهب أهل البيت عليه السّلام. و هكـذا كان يوجه أصـحابه و يجعل لكل واحد جهة، و على كل واحد أداء رسالة خاصة. و لا يسـعنا-و نحن بهذه العجالة-أن ندرس حياة أولئک العظماء الذين وقفوا إلى جانب أهل البيت، و اتبعوا الحق أينما سارت ركائبه. فكانوا أعلاما يهتـدى بهم، و علماء يرجع إليهم فى أهم المسائل العلميـة، مع خطورة الموقف، و عظيم المراقبة من قبل السـلطة، و معارضة أعوانها لهم، و قد وقفوا بصـلابة الإيمان، و نفاذ البصـيرة، يتحدّون كل مقابلة، و اجتازوا كل الصـعاب التى تعترضـهم؛ ليصـلوا إلى الهـدف الـذى عاهـدوا اللّه على الوصول إليه، و إن دراسـة حياتهم دراسـة مسـتفيضة أمر ليس بالهيّن إدراكه و لهذا فقد اكتفينا بالإشارة للبعض بإلمامـة موجزة و عرض قليل؛ إتماما للغرض و وفاء بالوعد. و قد ألّف علماؤنا كتبا مطولة فى تراجمهم و دراسة حياتهم. و قـد رأينا لزاما أن نتكلّم عن هشام بن الحكم بصورة واسـعة بالنسـبة لغيره، لا بالنسـبة لدراسـة حياته، لنعرف بذلک منهجه فى تفكيره و بيان عقيـدته. و نقف على بواعث الاتهام له بتلک العقائـد الفاسدة، عسانا نوفق لكشف تلک الحجب التى غطّت وجه الحقيقة فى معرفة هشام و دراسة شخصـيته. أما أصحاب الإمام الصّادق عليه السّلام فأخذنا بعضا من البارزين منهم ممن أسهموا فى الحركة العلمية، و اشتهروا بالفقه و الرواية و علوم القرآن و فنون الإسلام، فتوسعنا فيهم و أوردنا تراجم الآخرين من تلامذته و رواة حديثه.

أصحاب الإمام الصادق ع

أبان بن تغلب

نسبه و أقوال العلماء فيه:

أبان بن تغلب بن رباح (1)هو أبو سعيد البكرى الجريرى المتوفى سنة 141 ه كان جليل القـدر، عظيم المنزلة، لقى الإمام زين العابدين، و الباقر، و الصّادق، و كانت له حلقـة فى المسـجد. و قال ياقوت الحموى: كان قارئا لغويا فقيها إماميا، ثقـة عظيم المنزلة، جليل القدر، روى عن على بن الحسـين، و أبى عبد اللّه عليه السّلام و سمع من العرب و صنّف غريب القرآن و غيره. و قال الذهبى: أبان بن تغلب شيعى جلد صدوق، لكنه مبتدع، فلنا صدقه و عليه بدعته. و قد وثقه أحمد بن حنبل و ابن معين. روى عنه موسـى بن عقبة و شـعبة و حماد بن زيد و ابن عيينة و جماعة. و قال ابن عدى: له نسخ عامتها مستقيمة، إذ روى عنه ثقة، و هو من أهل الصدق فى الرواية و إن كان مذهبه مذهب الشيعة، و هو فى الروايـة صالـح لا بأس به. و قال الحاكم: كان قاص الشـيعة و هو ثقة، و مدحه ابن عيينة بالفصاحة. و قال أبو نعيم فى تاريخه: مات سنة 140 ه و كان غاية من الغايات.

1- 1) ترجمته فى تهذيب التهذيب لابن حجر ج 1 ص 93، و طبقات ابن سعد ج 6 ص 250، و فهرست ابن النديم ص 308، و معجم الأدباء ج 1 ص 117، و [1]بغية الوعاة ص 176، و ميزان الاعتدال ج 1 ص 4، و خلاصة تذهيب الكمال ص 13، و شذرات الذهب ج 1 ص 210، و طبقات القراء لشـمس الـدين الجزرى ج 1 ص 86، و مرآة الجنـان ج 1 ص 293، و منهج المقال، و الخلاصة، و فهرسـت الشيخ الطوسى و غيرها.

و قال العقيلى: سمعت أبا عبد اللّه يذكر عنه عقلا و أدبا و صحة حديث، إلاّ أنه كان غاليا فى التشيع. و قال ابن سعد: كان ثقة. و ذكره ابن حبان فى الثقات. و قال الأزدى: كان غاليا فى التشيع و ما أعلم به فى الحديث بأسا. خرّج حديثه مسلم فى صحيحه، و الترمذى، و أبو داود، و النسائى، و ابن ماجة. و هو ممن أجمعوا على قبول روايته و صدقه، و اعترفوا بعلو منزلته، فلا يضر قول من زاغ عن الحق فى طعنه-فى أبان- كإبراهيم الجوزجانى (1)حيث يقول: أبان زائغ مذموم المذهب مجاهر. قال ابن حجر: و أما الجوزجانى فلا عبرة بحطه على الكوفيين، فالتشيع فى عرف المتقدمين هو اعتقاد تفضيل على عليه السّلام على عثمان، و أن عليا كان مصيبا فى حروبه و أن مخالفه مخطئ، و ربما اعتقد بعضهم أن عليا أفضل الخلق بعد رسول اللّه، و إذا كان معتقد ذلک ورعا دينا صادقا مجتهدا فلا ترد روايته. و على أى حال فلا يهمنا قول الجوزجانى، و لا نود أن نخوض فى بحث يقصينا عن الغاية، و نكتفى بأن نحيل القارئ المنصف المتجرد عن نزعة الهوى إلى مراجعة تاريخ حياة الجوزجانى، و يقف هناک وقفة قصيرة فيعرف نزعة الرجل التى اتصف بها، فهو خارجى يرى رأى الحرورية (2)و كان شديد الميل على على عليه السّلام يذهب مذهب أهل الشام الذين تغذّت أدمغتهم بأباطيل معاوية و أضاليله، حتى سلک الناس طرقا ملتوية و زاغوا عن الحق اتباعا لمن لا يروق له قول الحق! و قد اتصف الجوزجانى أيضا بأنه حريزى المذهب، أى يذهب مذهب «حريز بن عثمان» المعروف بالعداء لعلى بن أبى طالب عليه السّلام فقد كان حريز (3)أموى النزعة شامى النشأة يحمل على علىّ، و قيل: إنه يسبّه.

1- 1) هو إبراهيم بن يعقوب السعدى المتوفى سنة 256 ه سكن دمشق، كان من المتحاملين على أهل البيت و يتجاهر بنصب العداء لهم.

2- 2) تهذيب التهذيب ج 1 ص 181-183. [1]

3- 3) حريز بن عثمان الرحبى المتوفى سنة 163 ه من رجال البخارى الأربعة، و كان معروفا بالنصب. و يقول: لا أحب عليا لأنه قتل آبائى. و حكى الناس عنه أيضا سوء الاعتقاد و فساد المذهب، و لكن البخارى خرج حديثه و وثقه، كما وثقه أحمد بن حنبل. ترجمته فى تاريخ بغداد ج 8 ص 265- 270 و الخلاصة ص 64 و غيرهما.

و من الغريب أنّهم يصفون من عرف ببغض على عليه السّلام بالصّلابة فى السنّة كما و صفوا علىّ بن الجهم و الجوزجانى. و لا أدرى أى سنّة هذه التى يتصف بها مبغض على عليه السّلام؟ ! أجل أين قول الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «يا على لا يحبك إلاّ مؤمن و لا يبغضك إلاّ منافق» و هذا الحديث خرّجه الحفاظ من طرق متعددة، و رواه مسلم، و النسائى، و ابن عبد البر. و الطبرى، و غيرهم. و قد كان أصحاب النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يعرفون إيمان الرجل بحبّه لعلى، و نفاقه ببغضه له، متّخذين من هذا الحديث قاعدة مطردة. و كيف كان فإن بدعة أبان التى وصفه بها الجوزجانى و الذهبى هى موالاته لعلى، و صلابة الجوزجانى فى السنّة هى بغضه لعلى، و الحكم فى هذا للقارئ المنصف.

علمه و شيوخه:

و كان أبان بن تغلب من الشخصيات الإسلامية التى امتازت باتّقاد الذهن، و وفور العقل، و بعد الغور، و الاختصاص بعلوم القرآن، و هو أوّل من ألّف فى ذلك. و كان فقيها يزدحم الناس على أخذ الفقه عنه، و إذا دخل مسجد المدينة المنورة أخليت له سارية النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فيحدّث الناس. و له علم باختلاف الأقوال، و قد شهد له معاصروه بالفضل و التفوّق. و يكفيه-شهادة فى التقدّم-أن الإمام الباقر و الإمام الصّادق أمراه أن يحدّث الناس فى مسجد النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و كلّ يقول له: «اجلس فى مسجد المدينة و أفت الناس فإنى أحب أن يرى فى شيعتى مثلك» . و أخذ أبان علمى الفقه و التفسير عن أئمة أهل البيت عليه السّلام فقد حضر عند الإمام زين العابدين، و من بعده عند الإمام الباقر، ثم عند الإمام الصّادق فهؤلاء شيوخه و أساتذته، و هو من كبار أصحابهم و الثقات فى رواياتهم. و قد عدّ علماء الرجال من جملة أساتذة أبان جماعة منهم: الحكم بن عتيبة الكندى المتوفى سنة 115 ه و هو من رجال الصحاح الستة، و من حملة الحديث و أعلام الأمّة.

و فضيل بن عمرو الفقيمى أبو النظر الكوفى المتوفى سنة 110 ه خرّج حديثه مسلم و الأربعة. و أبو إسحاق عمرو بن عبد اللّه الهمدانى السبيعى، المتوفى سنة 127 ه و هو أحد أعلام التابعين، و من رجال الصحاح الستة.

تلامذته:

و روى الحديث عنه خلق كثير منهم: موسى بن عقبة الأسدى المتوفى سنة 141 ه من رجال الصحاح الستة، وثقه ابن معين، و أحمد، و أبو حاتم. و قال مالك: عليكم بمغازى موسى بن عقبة. و قد صنّف فيها و أجاد. و شعبة بن الحجاج تقدمت ترجمته فى الجزء الأول. و حماد بن زيد بن درهم الأزدى أبو إسماعيل الأزرق البصرى الحافظ المتوفى سنة 197 ه عن إحدى و ثمانين سنة. قال ابن مهدى: ما رأيت أحفظ منه و لا أعلم بالسنّة و لا أفقه بالبصرة منه. و قال أحمد: هو من أئمة المسلمين. و سفيان بن عيينة تقدمت ترجمته فى الجزء الأول. و محمّد بن خازم التميمى أبو معاوية الضرير المتوفى سنة 195 ه خرج حديثه أصحاب الصحاح الستة، و روى عنه أحمد بن حنبل، و إسحاق بن راهويه، و ابن المدينى و ابن معين. و كان أحفظ الناس لحديث الأعمش. و عبد اللّه بن المبارك بن واضع الحنظلى مولاهم أبو عبد الرّحمن المروزى المتوفى سنة 181 ه أحد الأعلام، و من رجال الصحاح الستة. قال ابن المبارك: كتبت عن أربعة آلاف شيخ فرويت عن ألف، وثّقه جماعة. هؤلاء الذين ذكرهم ابن حجر فى «تهذيب التهذيب» و الخزرجى فى «خلاصة تذهيب الكمال» و غيرهما. و هذه عادة علماء الرجال أن يذكروا من تلامذة الشخص بعضا و يتركوا آخرين. و يعبرون عن ذلك بقولهم: و جماعة، و آخرين، و خلق كثير. و نظرا لمنزلة أبان العلمية و مكانته فى الفقه، و كثرة الآخذين عنه. لا بد و أن يكون له عدد كثير من التلاميذ، و حيث لا يمكننا إحصاؤهم فنعوّل فى ذلك بالرجوع

إلى «جامع الرواة» فقد ذكر عددا وافرا ممن روى عن أبان، و أشار إلى موضع الرواية عنه فى كتب الأصحاب.

مكانته و كفايته العلمية:

و صفوة القول: أن أبان بن تغلب شخصية إسلامية، قد أهمل التاريخ أكثر مآثره، و بخسه أكثر علماء الرجال حقّه، و لم يعطوه ما يستحقه من البيان. و الأسباب غير مجهولة، فإن تدوين التاريخ جاء فى عصور قد اشتدت فيها النعرة الطائفية، فأسرع أكثر الكتّاب و المؤرخين إلى مجاراة الدولة، و الخضوع لأوامر السلطة. و إن أبان من أعيان الشيعة، و الشيعة-كما لا يخفى-هم الحزب المعارض لسلطان الجور، و حكام الاستبداد. و كيف نرجو من أولئک المؤرخين أن يعطوا رجال الشيعة حقّهم من البيان مع بخسهم حق عترة الرّسول و أئمة الهدى؟ ! فإنّهم يتحرّجون عن ذكر ما لهم من المآثر، و ما خصّهم اللّه به من الفضائل، فتراهم عند ترجمة أى واحد من الأئمة يستعملون الإيجاز المخل. لقد عاش أبان بن تغلب مدة من الزمن و هو ملازم لأهل البيت عليه السّلام يأخذ عنهم، حتى أنّه كان يحفظ عن الإمام الصّادق ثلاثين ألف حديث (1). و كان الإمام الصّادق يرشد إليه فى أخذ الأحكام، و رواية الحديث. قال سليم بن أبى حبّة: (كنت عند أبى عبد اللّه الصّادق عليه السّلام فلما أردت أن أفارقه ودّعته و قلت: أحب أن تزوّدنى) . فقال: «ائت أبان بن تغلب فإنّه قد سمع منى حديثا كثيرا، فما روى لک فاروه عنى» . و مما يدل على إحاطة أبان و تفوقه فى الحديث أنّه كان يجلس فى مسجد النبى فيجىء إليه الناس و يسألونه فيخبرهم على اختلاف الأقوال، ثم يذكر قول أهل البيت و يسوق أدلته و مناقشته، لأنه يرى أن الحق مع أهل البيت و أن قولهم الفصل. يحدّثنا عبد الرّحمن بن الحجاج قال: كنا فى مجلس أبان فجاءه شاب فقال: يا أبا سعيد أخبرنى كم شهد على بن أبى طالب من أصحاب النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم؟ فقال له أبان:

1- 1) منهج المقال ص 86. [1]

كأنّک تريد أن تعرف فضل على بن أبى طالب و من تبعه من أصحاب رسول اللّه؟ فقال الرجل: هو ذاک. فقال أبان: و اللّه ما عرفنا فضلهم- أى الصحابة- إلاّ باتباعهم إياه- يعنى عليا- فقال أبو البلاد: (عض ببظر أم رجل من الشيعة فى أقصى الأرض و أدناها يموت أبان لا تدخل مصيبته عليه) . فقال أبان: يا أبا البلاد أ تدرى من الشيعة؟ الشيعة الذين إذا اختلف الناس عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أخذوا بقول على عليه السّلام و إذا اختلف الناس عن على، أخذوا بقول جعفر بن محمّد عليه السّلام. و قال أبان: مررت بقوم يعيبون علىّ رواية جعفر بن محمّد فقلت: كيف تلومونني فى روايتى عن رجل ما سألته عن شىء إلاّ قال: قال رسول اللّه؟

مؤلفاته:

1- غريب القرآن: و هو أول تأليف فى ذلک، فصار أساسا لعلم اللغة و قد ذكر شواهده من الشعر، فجاء فيما بعد عبد الرّحمن بن محمّد الأزدى الكوفى فجمع من كتاب أبان، و كتاب محمّد بن السائب الكلبى، و أبى ورق عطية بن الحرث فجعلهما كتابا واحدا، و بيّن فيه ما اختلفوا فيه و ما اتفقوا عليه فتارة يجىء كتاب أبان مفردا و تارة مشتركا. 2- كتاب الفضائل. 3- كتاب معانى القرآن. 4- كتاب القراءات. 5- كتاب الأصول فى الرواية على مذهب الشيعة، ذكره ابن النديم فى الفهرست. و له مناظرات و مجادلات و قراءة للقرآن مفردة مقرّرة عند القرّاء. قال محمّد بن موسى: ما رأيت أقرأ منه قط. و قال محمّد بن إبراهيم الشافعى: كان أبان مقدما فى كل فن من العلم: فى القرآن، و الفقه، و الحديث و الأدب و اللغة. و على أى حال فقد كان أبان من رجال الأمة المبرزين فى العلم و من حملة فقه آل محمّد، حفظ عن الإمام الصّادق عليه السّلام ثلاثين ألف حديث، و كان لعظم منزلته

إذا دخل المدينـة تفوضت إليه الحلق و أخليت له ساريـة النبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم (1). و لقد كان من المقرّر المضـىّ فى دراسة مشاهير الرواة عن الإمام الصّادق عليه السّلام و حملـة فقهه بنفس الأسـلوب الـذى سـرت عليه فى دراسـة حياة «أبان» من ذكر الشـيوخ و التلاميـذ و الأقوال فيه مع مراعاة الاختصار. لكنى تبينت جليا عـدم اسـتطاعتى استيفاء هذا الغرض لأن ذلك مما يضـيق به وسع الكتاب. فالتجأت إلى حذف كثير مما أعددته من الدراسات لهذا الجزء، و فضلت الاقتصار على دراسة حياة أبان بن تغلب، و مؤمن الطاق، و هشام بن الحكم كما هو المقرر فى الأصل، و اكتفيت بدراسة حياة الآخرين بالاختصار مرة و بالإشارة أخرى. و اخترنا مختصرين عددا منهم:

أبان بن عثمان:

أبان بن عثمان بن يحيى بن زكريا اللؤلؤى (2)المتوفى سنة 200 ه. كان من أهل الكوفة، و كان يسكنها تارة و يسكن البصرة أخرى. و قد أخذ عنه من أهل البصـرة: أبو عبيدة معمر بن المثنى، و أبو عبد اللّه محمّد بن المثنى، و أبو عبد اللّه محمّد بن سـلام الجمحى، و أكثروا الحكاية عنه فى أخبار الشـعراء و النسب و الأيام. روى عن أبى عبـد اللّه، و أبى الحسن موسـى بن جعفر، و ما عرف من مصـنفاته إلاّ كتاب جمع فيه المبدأ، و المبعث، و المغازى، و الوفاة، و السـقيفة و الردة. و لأبان أصل يرويه الشـيخ الطوسى عن عدة من الأصحاب. و كان أبان من الستّة الـذين أجمعت العصابـة على تصـحيح ما يصـح عنهم، و الإقرار لهم بالفقه، و هم: جميل بن دراج، و عبد اللّه بن مسـكان، و عبد اللّه بن بكير، و حماد بن عيسى، و حماد بن عثمان، و أبان بن عثمان. و قد روى عن أبان خلق كثير، منهم الحسن بن على الوشاء، و على بن الحكم

1- 1) قاموس الرجال 1 ص 74.

2- 2) معجم الأدباء ج 1 ص 108-109، و [1]لسان الميزان ج 1 ص 24، و بغية الوعاة ص 177، و فهرست الشيخ الطوسى ص 18، و [2]منهج المقال ص 16، و [3]جامع الرواة ج 1 ص 12-15، و [4]غيرها من كتب الرجال و الأدب.

الكوفى، و فضالة بن أيوب، و الحسين بن سعيد، و صفوان بن يحيى، و عيسى الفراء، و جعفر بن سماعة و غيرهم. و كان هو أيضا يروى عن جماعة من أصحاب الإمام، كزرارة، و الفضيل بن يسار، و عبد الرّحمن بن أبى عبد اللّه و غيرهم كما هو موجود فى كتب الحديث.

بريد العجلى:

و بريد بن معاوية العجلى (1)هو أبو القاسم الكوفى المتوفى سنة 150 ه. كان من أصحاب الإمام الباقر، و ولده الإمام الصّادق. و هو من حملة الحديث و رجال الفقه، و له منزلة عند أهل البيت عليهم السّلام من الوثاقة و علو القدر. و ورد مدحه فى روايات صحيحة، كما أجمعت الشيعة على تصحيح ما صحّ عنه. و الذى يظهر أن له منزلة سامية فى نشر حديث أهل البيت، لذلك نجد الخصوم قد وضعوا أحاديث فى ذمّه ليحطوا من قدره، و يصرفوا الناس عنه، و لكنها لم تقف فى طريقه، أو تعرقل سيره المتواصل فى نشر المذهب، و بث الأحكام. و هو من السّتّة الذين عرفوا بأنّهم أفقه الناس و هم: زرارة بن أعين، و معروف بن خربوذ، و بريد العجلى، و أبو بصير الأسدى، و الفضيل بن يسار، و محمّد بن مسلم الطائفى. و أفقه الستة زرارة. و قال الإمام الصّادق: «زرارة بن أعين و محمّد بن مسلم و بريد العجلى و أبو جعفر الأحول أحب الناس إلىّ أحياء و أمواتا» . روى الحديث عن الإمام الباقر و الإمام الصّادق، و روى عنه داود بن يزيد بن فرقد، و الحكم و إسماعيل ابنا حبيب. و القاسم بن عروة و منصور بن يونس، و عبد اللّه بن المغيرة، و خلق كثير. و كان بريد من المؤلّفين فى عصر الإمام الصّادق. له كتاب يرويه عنه على بن عقبة بن خالد الأسدى. و قد تقدم ذكر بريد فى الجزء الثانى من هذا الكتاب، فى جملة أصحاب الإمام الباقر عليه السّلام فلا حاجة إلى إطالة البحث. كما تقدمت هناك ترجمة بكير بن أعين، و محمّد بن مسلم، و زرارة بن أعين،

1- 1) منهج المقال للأسترآبادى ص 66، و [1]جامع الرواة ج 1 ص 117-119، و [2]الإمام الصّادق للمظفر ص 147-148، و غيرها كتنقيح المقال للمامقانى، و رجال أبى على، و رجال الشيخ محمّد طه نجف.

و جابر الجعفی، و عبـد الملک بن أعین، و أبی حمزة الثمالی، و حمران بن أعین، و کلهم من الثقات و حملـة فقه الإمام الباقر و ولده الإمام الصّـادق علیه السّـلام. و إن التعرّض لدراسـة حیـاتهم أمر یقصـینا عن الموضوع، لاتسـاع دائرة البحث فنکتفی بما ذکرناه عنهم من الإشارة هناک.

جمیل بن دراج:

و جمیل بن دراج بن عبـد اللّه أبو علی النخعی (1)مولاهم الکوفی من أصـحاب الإمام الصّادق علیه السّلام و ولده أبی الحسن موسی علیه السّـلام و کان ثقة. و هو من السـتّة الذین أجمعوا علی تصحیح ما یصح عنهم. توفی فی أیام الإمام الرضا علیه السّلام و کان کثیر الحدیث، فقیها، زاهـدا، متعبّدا، له مؤلّفات، منها کتاب اشترک هو و محمّد بن حمران فیه. و له کتاب اشترک هو و مرازم بن حکیم فیه، و له أصل یرویه الشـیخ الطوسـی عن الحسـین بن عبیـد اللّه. روی عنه الحدیث خلق کثیر کالحسن بن محبوب، و صالح بن عقبة. و عبد اللّه بن جبلة، و أبو مالک الحضرمی و محمّد بن عمرو و غیرهم. و کان لجمیل أخ یقال له نوح بن دراج، و کان قاضیا فی الدولة العباسیة و قد اشتدت الملامة علیه من قبل أصـحاب الإمام الصّادق لأن القضاء من قبل الدولة یعد مؤازرة لهم، و کان نوح من رواة حدیث الإمام الصّادق، و لکنه اعتذر أنّه لم یتول القضاء حتی سأل أخاه جمیلا.

جمیل بن صالح:

و جمیل بن صالـح الأسـدی الکوفی. من أصـحاب الإمام الصّادق و ولده موسـی علیه السّـلام. ثقة له أصل، روی عنه جماعة کالحسن بن محبوب و سعد بن عبد اللّه و عمار بن موسی الساباطی محمّد بن عمر و غیرهم.

حماد بن عثمان:

و حماد بن عثمان بن زیاد الرواسی الکوفی المتوفی سنة 190 ه.

1- 1) فهرست الشیخ الطوسی ص 44، و [1]جامع الرواة ج 1 ص 165، و [2]منهج المقال ص 78 و [3]غیرها.

هو من السـتّة الـذين أقرّت الطائفـة لهم و تصـحيح ما يصح عنهم. روى حماد عن الإمام الصّادق و ولده موسـى الكاظم، و عن جماعة من أصحابهما عليه السّلام. و روى عنه جماعة منهم: محمّد بن الوليد، و على بن مهزيار، و صفوان بن يحيى و غيرهم.

حماد بن عيسى:

و حماد بن عيسـى بن عبيدة الجهنى (1)الواسـطى ثم البصرى، غريق الجحفة المتوفى سنة 308 ه من أصـحاب الإمام الصّادق و الكاظم عليهم السّلام و هو من الستّة الذين أجمعت العصابة على تصحيح ما يصح عنهم.

حبيب بن ثابت:

و حبيب بن ثـابت الكـاهلى (2)مولاـهم أبو يحيى الكوفى المتوفى سـنة 122 ه من التـابعين و من رجـال الصـحاح السـتة. روى عن زين العابـدين و الإمام الباقر و ولـده الصّادق، و عنه مسـعر و الثورى و شـعبة و أبو بكر النهشـلى، وثقه العجلى و أبو زرعـة و خلق كثير. قال ابن معين: له نحو مائتى حديث.

حمزة بن الطيار:

و حمزة بن محمّـد الطيـار كان من رجال الفقه و المتفوقين فى علم الكلام و له مناظرات مع خصوم أهل البيت، كما دلّت على ذلک آثاره و وردت من أحـاديث أهـل البيت فى مـدحه. منهـا ما رواه أبان الأحمر عن الطيار قال: قلت لأبى عبـد اللّه عليه السّـلام: بلغنى أنّک كرهت مناظرة الناس و كرهت الخصومـة. فقال: «أما كلام مثلک فلا يكره. من إذا طار أحسن أن يقع، و إن وقع أحسن أن يطير، فمن كان هكذا فلا نكره كلاـمه» . إلى غير ذلـک من الأحـاديث التى لم نـذكرها للاختصـار. كما لم نـذكر جماعـة منهم: داود بن فرقـد، و حميـد بن المثنى العجلى، و داود الرقى، و زيد الشـحام، و سدير الصـيرفى، و عبد الرّحمن البجلى، و داود بن يزيد الكوفى العطار، و داود بن كثير، و روح بن عبد الرحيم الكوفى، و عبد اللّه بن أبى يعفور

1- 1) خلاصة تذهيب الكمال ص 78، و جامع الرواة ج 1 ص 273، و [1]منهج المقال ص 122.

2- 2) تهذيب التهذيب ج 2 ص 187، و [2]المعارف لابن قتيبة ص 268، و الخلاصة للخزرجى و غيرها.

الكوفى، و عبد اللّه بن شريک، و عبد اللّه بن مسكان، و العلاء بن رزين، و عمر بن حنظلة، و شعيب العقرقوفى، و المعلّى بن خنيس. و كل هؤلاء قد أعددنا لهم ترجمة وافية، و لكن ضيق المجال حال بيننا و بين نشرها. و مما يلزم التنبيه عليه: أن أكثر من دوّن فى مناقب أئمة المذاهب قد نسبوا إلى أئمتهم من المشايخ و التلاميذ ما لا يتصل بالواقع، و لا أصل لتلک النسبة، إذ التتبع ينفى ذلک، فمثلا نجد عدد تلاميذ أبى حنيفة من الكثرة بمكان، و لكن الواقع أن تلاميذه الذين سمعوا منه و حضروا عنده لا يتجاوز عددهم أكثر من ستة و ثلاثين. أما المشايخ فإنهم يخطئن كثيرا فيهم. و قد تقدم فى الجزء الأول من هذا الكتاب تكذيب دعوى سماع أبى حنيفة من الصحابة بما لا حاجة إلى إعادته، و هذا كثير عندهم فى نسبة مشايخ أو تلاميذ للشخص بدون تثبت. فمثلا إنهم يقولون: إن محمّد بن الحسن بن فرقد الشيبانى صاحب أبى حنيفة و مدون فقهه، قد سمع من عمرو بن دينار. و هذا غير صحيح لأن عمرو بن دينار قد توفى سنة 115 ه و كانت ولادة محمّد بن الحسن سنة 129 ه فكيف يصح سماعه من عمرو بن دينار الذى توفى قبل ولادته بأربعة عشر عاما؟ و حذرا من وقوع هذا الاشتباه نؤكّد: أن العدد الذى بيّناه فى تلامذة الإمام الصّادق عليه السّلام هو أربعة آلاف أو يزيدون. هذا العدد لم يكن فيه شىء من الادعاء أو خروج عن حدود الواقع، و إنما هو نتاج تتبع و تمحيص و تحمّل مشقة و عناء. و نستطيع أن نقول: إن عددهم كان أكثر من هذا. و بهذه المناسبة أود أن أنبّه على شىء له أثر فى الموضوع و هو: أن الشيخ الخالصى ذكر فى حديثه عن الإمام الصّادق عليه السّلام- كما جاء فى سلسلة أشعة من حياة الصّادق عليه السّلام الحلقة الأولى ص 34-أن محمّد بن الحسن الشيبانى صاحب أبى حنيفة كان من جملة تلامذة الإمام الصّادق عليه السّلام. و هذا شىء ينفرد به الشيخ الخالصى! إذ التحقيق لا يؤيّد ذلک. و كما قلنا: إننا لم نثبت فى عداد تلامذة الإمام الصّادق من لا تصح فى حقه تلک النسبة، و لا نريد أن نلقى الأشياء جزافا، دون تثبّت، فالتاريخ يحاسبنا على ذلک. و الذى أعتقده أن الأمر اشتبه على الشيخ، و ذلک أن عبد اللّه بن الحسن الشيبانى،

أخو محمّد بن الحسن الشـيبانى، كان من تلامذة الإمام الصّادق عليه السّلام و رواة حديثه. و من قواعد التصنيف و الترجمة لدى الشيعة أن يكون بأثر و أن يدل على الترجمة خبر، فكتب الرجال تضم تراجم من استحق الترجمة بعلمه، أو اقتضت الأمانة العلمية التنويه به، و لذلک فـإن ما أحصـى من تلامـذة الإمام الصّادق هو ما كان بالشواهـد و الأثر. على أن من أهم ما يجب التركيز عليه بالقول هو أن تلامـذة الإمام الصّادق لم يكن لهم دور كـدور تلامـذة رؤساء المذاهب كأبى حنيفة و الشافعى و مالک و أحمد فى تبويب الأقوال و جمع الآراء و انتهاج الاسـتقلال من بعدهم ليدخل المذهب فى دور التأسيس و الإعلان، لأن تلامذة الإمام الصّادق لا مزيد لهم على ما تلقوه منه عليه السّلام إلاّ فى مجال الدربـة و الإعداد للاجتهاد فى الحوادث، أما أصول المذهب و قواعده فالحمد للّه هى من جذور الإسـلام تمتد بامتدادها و لا تبدأ بعصر دون آخر أو فترة دون أخرى. و كان الإمام الصّادق عليه السّلام يقول لأصحابه: «إذا نزلت بكم حادثة لا تجدون حكمها فيما رووا عنا، فانظروا إلى ما رووه عن على عليه السّلام فاعملوا به» .

مؤمن الطّاق

اشارة

محمّد بن على بن النعمان

نسبه و أقوال العلماء فيه:

محمّد بن على بن النعمان البجلى الكوفى (1)أبو جعفر، مولاهم الأحول، الملقب بمؤمن الطاق. و هو من أصحاب الإمام جعفر الصّادق عليه السّلام و لقبه خصومه -شيطان الطاق-و يقال: إن أول من لقبه شيطان الطاق أبو حنيفة، لمناظرة جرت بين مؤمن الطاق و الخوارج، و كانت الغلبة له و أبو حنيفة حاضر فلقبه بذلک. و هناک رأى آخر فى سبب لقبه فى قول: قال ابن أبى طى: إنه نسب إلى سوق فى طاق المحامل بالكوفة، كان يجلس للصرف بها، فيقال: إنه اختصم مع آخر فى درهم زيف فغلب. فقال أنا شيطان الطاق. و الصحيح: أن هذه النسبة كانت من خصومه و أعدائه الذين تفوّق عليهم بالمناظرة، و أعجزهم عن المقابلة له، فالتجئوا إلى لغة الانتقاص كما يأتى. و لما بلغ هشام بن الحكم ذلک لقّبه: مؤمن الطاق، فعرف بذلک بين الطائفة. و ذكره المرزبانى فى شعراء الشيعة و أورد من شعره ما رواه عمارة بن حمزة و ذلک: أن المنصور كان إذا ذكر مدح ابن قيس الرقيات المتوفى سنة 85 ه لعبد الملک بن مروان تغيظ منه و شقّ عليه. فقال عمارة: يا أمير فيكم رجل من أهل الكوفة أجود مما قال قيس. قال: و من هو؟ قال: مؤمن الطاق و أنشده:

1- 1) لسان الميزان ج 5 ص 200، و فهرست ابن النديم ص 250، و [1]تكملة الفهرست ص 8، و الملل و النحل للشهرستانى ج 1 ص 113، و جامع الرواة ج 1 ص 158، و [2]منهج المقال ص 210، و [3]فهرست الشيخ الطوسى ص 121، و [4]لباب الأنساب ج 2 ص 42، و الكنى و الألقاب ج 2 ص 298- 299 و [5]ضحى الإسلام ج 3 ص 270-271 و غيرها.

يا من لقلب قد شفّه الوجع يكاد مما عناه ينصدع

أمسى كئيبا معذبا كمدا تظل فيه الهموم تصطرع

عن ذكر آل النبى إذ قهروا و اللون منى مع ذاک ملتمع

قالت قريش و نحن أسرته و الناس ما عمروا لنا تبع

قالت قريش منا الرّسول فما للناس فى الملک دوننا طمع

قد علمت ذاک العريب فما تصلح إلاّ بنا و تجتمع

فإن يكونوا فى القول قد صدقوا فقد أقروا ببعض ما صنعوا

لأن آل الرّسول دونهمو أولى بها منهمو إذا اجتمعوا

و إنّهم بالكتاب أعلمهم و القرب منه و السبق قد جمعوا

ما راقبوا اللّه فى نبيهم إذ بعد وصل أهله قطعوا

(1)و وصفه المرزبانى بقوله: أبو جعفر محمّد بن على بن النعمان، و إنما سمى بالطاق لأنه كان بطاق المحامل بالكوفة يعانى الصرف، و كان من الفصحاء البلغاء، و من لا يطاول فى النظر، و الجدال فى الإمامة، و كان حاضر الجواب. و ذكر له عدة مناظرات مطولة و مختصرة، و كانت له الغلبة فيها. و قال ابن النديم فى ترجمته: أبو جعفر محمّد بن النعمان الأحول، نزل طاق المحامل بالكوفة، و تلقبه العامة بشيطان الطاق، و الخاصة تعرفه بمؤمن الطاق، و شيعته-أى أصحابه-تسميه شاه الطاق أيضا. و هو من أصحاب أبى عبد اللّه جعفر بن محمّد الصّادق عليه السّلام. و لقد لقى زيد بن على زين العابدين و ناظره على إمامة أبى عبد اللّه و لقى على بن الحسين زين العابدين عليه السّلام و قيل: إنما سمى شيطان الطاق لأنّه كان يتصرف و يشهد الدنانير، فلاحاه قوم فى دينار جرّبوه و بهرجه هو، فأصاب و أخطئوا، و ألزمهم الحجّة، فقال: أنا شيطان الطاق. يعنى طاق المحامل بالكوفة موضع دكانه، فلزمه هذا اللقب. و كان حسن الاعتقاد و الهدى، حاذقا فى صناعة الكلام. سريع الخاطر و الجواب. ثم ذكر مناظراته مع أبى حنيفة و ستأتى. قال أبو خالد الكاملى: رأيت أبا جعفر صاحب الطاق و هو قاعد فى الروضة،

1- 1) المرزبانى، شعراء الشيعة ص 86.

قـد قطع أهـل المدينـة إزاره، و هو دائب يجيبهم و يسألونه، فـدنوت منه و قلت: إن أبا عبـد اللّه نهانا عن الكلام. فقال: أو أمرک أن تقول لی؟ فقلت: لا و اللّه و لكنه أمرنی أن لا أكلم أحدا. قال: فاذهب و أطعه فيما أمرک. فدخلت على أبی عبد اللّه عليه السّلام فأخبرته بقصة صاحب الطاق، فتبسم أبو عبد اللّه عليه السّلام و قال: «يا أبا خالد إن صاحب الطاق يكلم الناس فيطير، و أنت إن قصّوک لن تطير» (1).

علمه و نبوغه:

و كـان محمّـد بن على بن النعمان كثير العلم، متفوقا فی معارفه، قويا فی حجته، تعـددت فيه نواحی العبقريـة و النبوغ-فهو عالم-بالفقه، و الكلام، و الحديث، و الشعر، و كان قوىّ العارضة، سريع الجواب واضح الحجّة. اشتغل بالتجارة و تنقّل بين أكثر المدن الإسلامية، و عرف بتشـيّعه و إخلاصه لأهل البيت عليهم السّلام و لقی من عنت خصومهم و المناوئين لهم ما نغّص عليه عيشه، و لكن لم يحل ذلک بينه و بين الإعلان بمبـدئه، و الجهر فی دعوته. و كان يتمتع بشخصـية فـذّة، يعترف له الناس بالفضل و العلم، و النبوغ و التفوّق. و قد كان عصـره يقضـی على المفكّرين-من أمثاله-بكبت الشـعور و كمّ الأفواه، و تمويه الحقائق، و لكنه لم يخضع لذلک الحكم الجائر، فهو لا يزال يدعو بالحق، و يعلن بفضل علىّ، و يظهر تمسكه بأبنائه.

مناظراته و احتجاجه:

كان مؤمن الطاق يمتاز بقدرة فائقة على الجدل، و قوة فی التفكير، و مهارة فی الاسـتنباط. و يكاد المؤرخون يجمعون على تفوقه، فی سـرعة الجواب و قوة العارضـة. و إذا أردنـا اسـتقصاء منـاظراته فالأـمر يسـتلزم الإطالـة، و لكننـا نكتفی بالبعض منها، و هی كثيرة مبعثرة فی بطون الكتب. 1-اجتمع قوم من الخوارج و قوم من الشـيعة بالكوفـة عنـد أبی نعيم النخعی، فقال أبو حدرة الخارجی: أن أبا بكر أفضل من على و جميع الصحابة بأربع خصال: فهو ثان لرسول اللّه دفن فی بيته، و هو ثانی اثنين معه فی الغار، و هو ثانی اثنين صلى

1- 1) الكنى و الألقاب ج 2 ص 298. [1]

بالناس آخر صلاة قبض بعدها رسول اللّه، و هو ثانی صدّیق من الأمة. فردّ علیه شیطان الطاق-علی حد تعبیر الدکتور أحمد أمین-و قال: یا ابن أبی حدرة، أترک النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بیوته التی أضافها اللّه إلیه، و نهی الناس عن دخولها إلاّ بإذنه، میراثا لأهله و ولده؟ أو ترکها صدقة علی جمیع المسلمین؟ فإن ترکها میراثا لولده و أزواجه فقد ترک تسع زوجات، فلیس لعائشة إلاّ نصیب إحداهن، أی لم یکن لها أن تدفن أبا بکر فی بیته و نصیبها لا یسمح بذلک. و إن ترکها میراثا لجمیع المسلمین فإنه لم یکن له نصیب من البیت إلاّ کما لکل رجل من المسلمین. و أما قولک: إنه ثانی اثنین إذ هما فی الغار، فإن مکان علی فی هذه اللیلة علی فراش النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و بذل مهجته دونه أفضل من مکان صاحبک فی الغار. و أمّا قولک: فی صلاته بالناس، فقد تقدم لیصلی بالناس فی مرض رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، فخرج النبی و تقدم فصلّی بالناس و عزله عنها، و لو کان قد صلّی بأمره لما عزله من تلک الصلاة. و أما تسمیته بالصدّیق، فهو شیء سمّاه الناس. إلی آخر المناظرة (1). 2-عن أبی مالک الأحمسی قال: خرج الضحاک الشادی بالکوفة فحکم و تسمی بإمرة المؤمنین، و دعی الناس إلی نفسه. فأتاه مؤمن الطاق، فلما رأته الشراة وثبوا فی وجهه فقال لهم: جانح، فأتوا به صاحبهم، فقال له مؤمن الطاق: أنا رجل علی بصیرة من دینی فأحببت الدخول معکم. فقال الضحاک لأصحابه: إن دخل هذا معکم نفعکم. ثم أقبل مؤمن الطاق علی الضحاک فقال: لم تبرأتم من علی بن أبی طالب، و استحللتم قتله و قتاله؟ قال الضحاک: لأنه حکم فی دین اللّه. قال مؤمن الطاق: و کل من حکم فی دین اللّه استحللتم دمه و قتاله و البراءة منه؟ قال: نعم. قال: فأخبرنی عن الدین الذی جئت أناظرک علیه، لأدخل معک إن غلبت

1- 1) ضحی الإسلام للدکتور أحمد أمین ج 3 ص 270-271.

حجتی حجتک، أو حجتک حجتی، من یوقف المخطئ علی خطأه ویحکم للمصیب بصوابه؟ فلا بدّ لنا من إنسان یحکم بیننا. فأشار الضحاک إلی رجل من أصحابه و قال: هذا الحکم بیننا، فهو عالم بالدین. قال مؤمن الطاق: و قد حکمت هذا فی الدین الذی جئت أناظرک فیه؟ قال: نعم. فأقبل مؤمن الطاق علی أصحاب الضحاک فقال: إن صاحبکم قد حکم فی دین اللّه فشأنکم به. فاختلف أصحابه و أسکتوه، و خرج مؤمن الطاق منتصرا. 3-کانت الخصومة بین مؤمن الطاق و أبی حنیفة شدیدة جدا، لأنا نری کثرة المناظرة بینهما، و أهمها فی الإمامة و التفضیل، و بدون شک أن أبا حنیفة لم یکن معروفا بعلم الکلام، و لیس له قوة علی مقابلة من تفوّق به. و إن مؤمن الطاقة کان معروفا بعلم الکلام و قوة الحجّة، و سرعة الجواب، و شدة العارضة. فهو دائما یتفوق فی مناظراته، و یسمو فی حجّته. قال ابن حجر: وقعت له-أی لمؤمن الطاق-مناظرة مع أبی حنیفة فی شیء یتعلّق بفضائل علی، فقال أبو حنیفة کالمنکر علیه: عمّن رویت حدیث رد الشمس لعلی؟ فقال مؤمن الطاق: عمّن رویت أنت عنه یا سارية الجبل. و قال أبو حنیفة له یوما: ما تقول فی المتعة؟ قال: حلال. قال أبو حنیفة: أ یسرّک أن تکون بناتک و أخواتک یمتع بهن؟ قال مؤمن الطاق: شیء أحلّه اللّه، و لکن ما تقول أنت فی النبیذ؟ قال: حلال. قال مؤمن الطاق: أ یسرک أن تکون بناتک و أخواتک نباذات «هن» ؟ و لما مات الإمام الصّادق علیه السّلام قال له أبو حنیفة: قد مات إمامک. قال: لکن إمامک من المنظرین. أو لا یموت إلی یوم القیامة. و فی لفظ الخطیب البغدادی: لما مات جعفر بن محمّد التقی هو-أی مؤمن الطاق-و أبو حنیفة. فقال له أبو حنیفة: أما إمامک فقد مات، فقال شیطان الطاق: أما إمامک فمن المنظرین إلی یوم الوقت المعلوم (1).

1- 1) تاریخ بغداد ج 13 ص 410. [1]

و قال الخطيب: كان أبو حنيفة يتهم شيطان الطاق بالرجعة، و كان شيطان الطاق يتهم أبا حنيفة بالتناسخ. فخرج أبو حنيفة يوما إلى السوق فاستقبله شيطان الطاق و معه ثوب يريد بيعه، فقال له أبو حنيفة: أ تبيع هذا الثوب إلى رجوع على؟ فقال: إن أعطيتنى كفيلا أن لا تمسخ قردا بعتك. فبهت أبو حنيفة (1). و له معه مناظرة فى إبطال الطلاق الثلاث (2). و قد ألّف مؤمن الطاق كتابا فى مناظراته مع أبى حنيفة، و لم نذكر هنا شيئا من تلك المناظرات الكثيرة معه، و اقتصرنا منها على هذا القدر القليل. و لم يكن من رأيى التعرض لأمثال هذه المناظرات، التى جرت بين مؤمن الطاق و أبى حنيفة، و لكنى وقفت على بعض كتب الحنيفة-التى دونت فى مناقب إمامهم-فوجدتهم يذكرونها بصورة معكوسة، فأحببت أن أنبّه على هذا الخطأ، لأن الذين ذكروا هذه المناظرات- على وجهها الصحيح-كانوا أقدم من هؤلاء المحرفين. فهذا ابن النديم و هو من علماء القرن الرابع، إذ كانت وفاته سنة 385 ه قد ذكرها فى الفهرست. أما الذين نقلوها على العكس فهم المتأخّرون، كابن البزاز الكردرى المتوفى سنة 627 ه. و الخوارزمى المتوفى سنة 568 ه. و كذلك الخطيب البغدادى المتوفى سنة 463 ه ذكرها فى تاريخه. ذكرها بصورتها الواقعية و لكن الحنفية جعلوا الغالب هو المغلوب، و هذا شأن كتاب المناقب فى كثير من القضايا و المتتبع يقف على أمور من التحريف و التحوير تبعث على العجب و الاستغراب.

مؤلفاته:

و كيف كان فإن مؤمن الطاق من فرسان حلبة علم الكلام و من أبطال الرجال الذين حملوا رسالة التشيّع فتحمّلوا الأذى فى جنب اللّه، و وقف مواقفا مشرفة فى الدفاع عن آل محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم. كما أنه ألّف كتبا قيّمة فى شتى المواضيع الهامة و قد ذكر منها الشيخ الطوسى و ابن النديم الكتب الآتية: 1-كتاب الإمامة. 2-كتاب المعرفة.

1- 1) تاريخ بغداد ج 13 ص 409، و [1]تكملة فهرست ابن النديم ص 8.

2- 2) البحار ج 4 ص 371. [2]

3-كتاب الرد على المعتزلة فى إمامة المفضول. 4-كتاب فى أمر طلحة و الزبير و عائشة. 5-كتاب إثبات الوصية. 6-كتاب افعل، لا تفعل. و له كتاب المناظرة مع أبى حنيفة.

وصية الإمام الصّادق له:

للإمام الصّادق عدة وصايا يوصى بها أصحابه بما ينفعهم فى الدنيا و الآخرة، و قد ذكرنا جملة منها فى الجزء الثانى، و نقتطف هنا فصولا من وصيته لمؤمن الطاق. قال عليه السّلام: «يا ابن النعمان إياك و المراء فإنه يحبط عملك، و إيّاك و الجدال فإنه يوبقك، و إياك و كثرة الخصومات. فإنّها تبعدك من اللّه. إن من كان قبلكم يتعلمون الصمت، و أنتم تتعلمون الكلام. كان أحدهم إذا اراد التعبّد يتعلم الصمت قبل ذلك. إنما ينجو من أطال الصمت عن الفحشاء، و صبر فى دولة الباطل على الأذى، أولئك النجباء الأصفياء الأولياء حقا، و هم المؤمنون. إن أبغضكم إلىّ المترئسون المشاءون بالنمائم، الحسدة لإخوانهم، ليسوا منى و لا أنا منهم، إنما أوليائى الذين سلموا لأمرنا، و اتبعوا آثارنا. يا ابن النعمان إنّا أهل بيت لا يزال الشيطان يدخل فينا من ليس منا و لا من أهل ديننا، فإذا رفعه و نظر إليه الناس أمره الشيطان فيكذب علينا، و كلما ذهب واحد جاء آخر. يا ابن النعمان إن أردت أن يصفو لك ودّ أخيك فلا تمازحنّه، و لا تمارينّه و لا تباهينّه. و لا تطلع صديقك من سرّك إلاّ على ما لو اطلع عليه عدوك لم يضرك، فإن الصديق قد يكون عدوك يوما. يا ابن النعمان ليست البلاغة بحدة اللسان، و لا- بكثرة الهذيان، و لكنها إصابة المعنى و قصد الحجة. يا ابن النعمان لا تطلب العلم لثلاث: لترائى به، و لا لتباهى به، و لا تمارى. و لا تدعه لثلاث: رغبة فى الجهل، و زهادة فى العلم، و استحياء من الناس» (1).

1- 1) تحف العقول ص 307-312.

آراء و مناقشات:

زعم المتقولون على مؤمن الطـاق: أنّه كان من المشـبهة، و تنسب إليه فرقـة يقال لهـم شـيطانية من مـذهبهم التشبيه. و أنّه كان يقول: إن اللّه تعالى إنما يعلم الأشـياء إذا قدرها، و التقدير عنده الإرادة، و للإرادة فعل (1)و أنه كان يذهب إلى أن الإله على صورة الإنسان و لا يسـميه جسما (2)إلى غير ذلک من الأقوال التى نطق بها من لا يبالى بمؤاخـذة و لا يدرى ما يقول؟ ! إنها لعمر اللّه فرية، و تقوّل بالباطل، و نحن لا نسـتغرب اتهام مؤمن الطاق بما يخالف عقيـدته، لأنّه كان حربا على ذوى الآراء الفاسـدة. و قد أعطى نصـيبا وافرا من قوة العارضة و سـرعة الجواب، فكان يقيم الدليل على خصمه، و يرغمه على الاعتراف بالخطإ. و من الواضح: أن تلک المناقشات التى كانت تدور فى أندية الكوفة كـان أكثرهـا يهـدف إلى تشويش الأفكـار، و التلاـعب بالعقول، لوجود طائفـة من الـدخلاء كان غرضـهم ذلک. و كان مؤمن الطاق و بقية خواص الأئمـة قـد بـذلوا جهـدهم فى مقاومة أولئک الخصوم، الذين يريدون الفتک بالإسـلام و أهله، فكان أهون شـىء عليهم أن ينسـبوا لأولئک الصـفوة ما يخالف عقائـدهم، و الظروف تساعدهم على ذلک عند ما أطلق الباطل من عقاله، فدفع صاحبه إلى اتهام البرىء و براءة المتهم. و يكفينا فى براءته و علو منزلته و حسن عقيـدته، ما ورد فى مدحه و الثناء عليه من أئمة الهدى. و قد كان من أحب الناس إلى الإمام الصّادق. فقد صح عنه أنّه كان يقول: «أربعة أحب الناس إلىّ أحياء و أمواتا: بريد بن معاوية العجلى، و زرارة بن أعين، و محمّد بن مسلم، و أبو جعفر الأحول» . فلا تضره تهجمات أولئک القوم الذين ألقوا مقاليد أمورهم للعاطفة، فاتهموه بما هو برىء منه، و رموه بما لا يليق بشأنه. وَ مَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدِ اِحْتَمَلَ بُهْتاناً وَ إِثْماً مُبِيناً [النساء: 112].

1- 1) لباب الأنساب ج 2 ص 42.

2- 2) الفرق بين الفرق للبغدادى ص 131، و [1]ستأتى مناقشة هذه الأقوال فى دراسة حياة هشام بن الحكم.

هشام بن الحكم

اشارة

«يا هشام ما زلت مؤيدا بروح القدس»

الإمام الصّادق

«رحم اللّه هشاما كان عبدا ناصحا»

الإمام الرضا

(لسان هشام أوقع فى نفوس الناس من ألف سيف)

هارون الرشيد

نسبه و نشأته و أقوال العلماء فيه:

هشام بن الحكم الكندى (1)أبو محمّد البغدادى المتوفى سنة 197 ه. كانت نشأته بالكوفة و واسط، و يدخل بغداد للتجارة، و لكنه استقام بها بعد مدة من الزّمن، و نزل قصر وضاح بالكرخ من مدينة السّلام، له دار بواسط. و كان يتجول للتجارة ينتقل من بلد إلى آخر و هو يرشد الناس و يدافع عن مذهب أهل البيت و يناظر الملحدين فيفحمهم و رجع الكثيرون إلى التوحيد تسليما لقوة الحجة و خضوعا للحق، و هو من تلامذة الإمام الصادق عليه السّلام و من خواص ولده موسى الكاظم عليه السّلام.

1- 1) فهرست ابن النديم ص 249، و التكملة ص 7، و الملل و النحل ج 1 ص 308، و [1]لسان الميزان ج 6 ص 194، و المراجعات لشرف الدين ص 300-301، و [2]الانتصار للخياط فى عدة مواضع، و ضحى الإسلام ج 3 ص 268، و عقد الفريد ج 1 ص 360، و عيون الأخبار لابن قتيبة ج 2 ص 150، و حياة هشام بن الحكم للشيخ محمّد الحسين المظفر (مخطوط) و جامع الرواة ج 2 ص 313، و [3]نهج المقال ص 356، و حياة هشام للشيخ محمّد صالح الشيخ راضى «مخطوط» و غيرها.

نشأ هشام بن الحكم بالكوفة، و كانت الكوفة مصطرعا للآراء، و موطنا لاختلاف المذاهب التى استوطنتها، و قوى بها انتشار علم الكلام، و ازدهرت أرجاؤها بحلقات العلم و رجال الفكر، فكانت هناك خصومات و جدل و نزاع بين أصحاب المذاهب المختلفة، و الآراء المتفرقة و الفرق المتعددة. و قد اتخذ كل فريق علم الكلام وسيلة للانتصار على خصمه، و وسيلة لتأييد رأيه و تصحيح مذهبه. و كان هشام بن الحكم من أبرز شخصيات ذلك العصر، يمتاز بقوة شخصيته التى جعلته مطمحا لأنظار علماء عصره، لتفوقه و مهارته و شدة خصومته، و قوة حجته؛ و يصف ابن النديم هشاما بقوله: هشام بن الحكم من متكلمى الشيعة، ممن فتق الكلام فى الإمامة، و هذّب المذهب و النظر، و كان حاذقا بصناعة الكلام، حاضر الجواب. سئل هشام عن معاوية أشهد بدرا؟ قال: نعم، من ذاك الجانب-أى من جانب المشركين. و يقول الشهرستانى: هشام بن الحكم صاحب غور (1)فى الأصول لا- يجوز أن يغفل عن إلزاماته على المعتزلة، فإن الرجل وراء ما يلزمه الخصم، و دون ما يظهره من التشبيه. و قال الزركلى: هشام بن الحكم فقيه، متكلم، مناظر، من أكابر الإمامية، ولد بالكوفة. فانقطع إلى يحيى بن خالد، فكان القيم بمجالس كلامه (2). و يقول الدكتور أحمد أمين: أما هشام بن الحكم فيظهر أنّه أكبر شخصية شيعية فى علم الكلام، و كان من تلاميذ جعفر الصّادق عليه السّلام و كان جدلا قوى الحجة، ناظر المعتزلة و ناظروه، و نقلت فى كتب الأدب له مناظرات كثيرة، دل على حضور بديهته و قوّة حجّته، إلى أن يقول: و الجاحظ يشتد عليه فى المناقشة و يغضب فى نقده. و ستأتى بقية الأقوال فيه.

1- 1) غور كل شىء قعره، و عمقه، و صاحب غور هو من تعمق فى علمه، حتى وصل إلى حقيقته، و منه فلان بعيد الغور أى متعمق النظر و هو بحر لا يدرک غوره. انظر فى التعليق الملل و النحل ج 1 ص 311. [1]

2- 2) الأعلام ج 3 ص 1123. [2]

صلته بالإمام الصّادق:

اتصل هشام بمدرسة الإمام الصّادق عليه السّلام و أصبح من أبرز رجالها فى الحكمة و الدراية، و العرفان، و الفقه، و الحديث. و يقال: إنّه كان قبل اتصاله بالإمام يذهب إلى رأى جهم بن صفوان (1)، و لكنه تركه عند ما اجتمع بالإمام الصّادق عليه السّلام فى مدينة الوحى، و قد اكتظ المجلس بوفود الأمصار و طلاّب العلم، فرأى من هيبة الإمام و روحانيته، و سمع ما طرق سمعه من أجوبته لسائليه، و حسن بيانه و عذوبة ألفاظه، ما أفقده الاعتزاز بنفسه، و عرف عجزه عن مقابلته فى مسائله. و كان الإمام الصّادق عليه السّلام قد عرف هشاما و سمع به من قبل، فاتجه إليه ليوجهه إلى الحق، و يرشده إلى الهدى، فألقى إليه سؤالا بما كان قد اختص هشام به، فلم يستطع الجواب عنه، و عرف الحق فاتبعه «و الحق أحق أن يتبع» . و انقطع إلى الإمام الصّادق عليه السّلام فأصبح من خواصه، و من أبرز رجال مدرسته، فكان من أشهر رجال العلم، و من أبطال الفلسفة، يمثل فى مواقفه البطولة و الجرأة الأدبية، يسير مع الحق أينما سارت ركائبه. و فاز بالتفوّق على مناوئيه بواضح الحجّة، و ساطع البرهان، و استجاب اللّه دعوة الإمام الصّادق فيه: «يا هشام ما زلت مؤيدا بروح القدس» . كان هشام شديد الإخلاص، قوى الإيمان، راسخ العقيدة، يدافع عن مذهب أهل البيت، و يتشدّد فى مناقشته للخلافات المذهبية، و تفنيد آراء المتكلمين من سائر الفرق الإسلامية الذين تأثّروا بانتقال الفلسفة اليونانية. و كان يخرج منتصرا فى جميع مواقفه، لما عرف فيه من قوة الحجّة وسعة التفكير، و بذلك أصبح فى خطر من قبل الدولة-كما هو شأن المفكّرين و أهل الآراء الحرّة من أمثاله-و قد عرف هشام بشدة مناظرته فى الإمامة، و انتصاره للعلويين، و هم خصوم الدولة و أهل الحق الشرعى. و قد خشى الرشيد من اتساع نشاط هشام، و تفوّقه على أكثر المفكّرين من رجال عصره. فحاول الفتك به و القضاء عليه.

---

1 - 1) جهم بن صفوان إليه تنسب الفرقة الجهمية، ظهرت بدعته بترمذ و قتله سلم بن أحوز المازنى بمرو، آخر الدولة الأموية، وافق المعتزلة فى نفى الصفات الأزلية و زاد عليهم: أنه لا يجوز أن يوصف البارى بصفة يوصف بها خلقه لأن ذلك يقتضى تشبيها، فنفى كونه حيا عالما، و أثبت كونه فاعلا خالقا لأنه لا يوصف شىء بالفعل و الخلق. إلى آخر أقواله فى الملل و النحل ج 1 ص 113. [1]

و لکن یحیی بن خالد البرمکی کان یدافع عن هشام، و یلطّف الجو، لأنه کان مختصا به، حتی تغیّر قلبه علی هشام لأسباب هناک، فأعرض عن دفاعه. و جری بحث الإمامة فی مجلس البرمکی و الرشید یسمع من وراء الستر، فاشتدت المناظرة و کانت الغلبة لهشام، فغضب الرشید و قال: إن لسان هشام أوقع فی نفوس الناس من ألف سیف. و لکن الرشید بما عرف عنه من عداء لأهل بیت النبوة و مقاومته لآثارهم، یری فی هشام مبتدعا. روی أن ملک الصفد کتب إلی الرشید یسأله أن یبعث إلیه من یعلّمه الدین، فدعا یحیی بن خالد فعرض علیه الکتاب، فقال یحیی: لا یقوم بذلک إلاّ رجلان ببابک: هشام بن الحکم، و ضرار [ابن عمرو من شیوخ المعتزلة]فقال: کلا، إنهما مبتدعان فیلقنان القوم ما یفسدهم و یغویهم بالمسلمین، لیس لذلک إلاّ أصحاب الحدیث (1). و کان هشام قد احتل منزلة فی حرکة مدرسة الإمام الصّادق الفکریة، و عمل بتوجیهات الإمام الصّادق إلی جانب تلامذة الإمام الآخرین ممن مهروا فی الکلام و اختصوا بأفانین الجدل فی عصر ساد الأوساط ما یشبه الموجة التی تکاد یعتورها نفس الأفکار لو لا تلقی رجال الأمة لها بالتصدی للتخفیف منها و التحکّم فی شططها و انحرافها حتی تنساب برقّة و تصب فی مجری العقیدة بلا شوائب و أکدار. و قد عزم الإمام الصّادق علی انتشال هشام بن الحکم من مؤثرات ذلک العصر ثم هداه اللّه إلی ما یریده من الإمام و أصبحت له مکانة فی النشاط الدینی و الفکری و احتل منزلة خاصة فی نفس الإمام الصّادق. یروی یونس بن یعقوب قال: کنت عند أبی عبد اللّه علیه السّلام فورد علیه رجل من أهل الشام فقال: إنی رجل صاحب کلام وفقه و فرائض و قد جئت لمناظرة أصحابک، فقال له أبو عبد اللّه علیه السّلام: «کلامک هذا من کلام رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أو من عندک؟» فقال: من کلام رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بعضه و من عندی بعضه. فقال له أبو عبد اللّه علیه السّلام: «فأنت إذن شریک رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم؟» قال: لا. قال: «فسمعت الوحی عن اللّه؟» قال: لا. قال: «فتجب طاعتک کما تجب طاعة رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم؟» قال: لا. قال: فالتفت أبو عبد اللّه علیه السّلام إلیّ فقال: «یا یونس بن یعقوب هذا قد خصم نفسه» قبل أن یتکلم، ثم قال: «یا یونس، لو کنت تحسن الکلام کلمته» قال

1- 1) محاضرات الأصبهانی ج 1 ص 37-38. [1]

یونس: فیا لها من حسرة، فقلت: جعلت فداک، سمعتک تنهی عن الکلام و تقول: «ویل لأصحاب الکلام یقولون هذا ینقاد و هذا لا ینقاد، و هذا ینساق و هذا لا ینساق، و هذا نعقله و هذا لا نعقله؟» فقال أبو عبد اللّه علیه السّلام: «إنما قلت: ویل لقوم ترکوا قولی و ذهبوا إلی ما یریدون» . ثم تأتی روایة ابن یعقوب لتبین عظیم المکانة التی علیها هشام فیقول: أخرج أبو عبد اللّه علیه السّلام رأسه من الخیمة فإذا هو ببعیر یخبّ، فقال: «هشام و رب الکعبة» . فظننا أن هشاما من ولد عقیل کان شدید المحبة لأبی عبد اللّه علیه السّلام فإذا هشام بن الحکم قد ورد و هو أول ما اختطت لحیته و لیس فینا إلاّ من هو أکبر سنا منه، قال: فوسع له أبو عبد اللّه علیه السّلام و قال: «ناصرنا بقلبه و لسانه و یده» ثم قال لحمران بن أعین: «کلّم الرجل الشامی» فکلّمه حمران فظهر علیه، ثم کلّمه الآخرون ممن حضر مجلس الإمام. . . یقول ابن یعقوب: ثم قال للشامی: «کلّم هذا الغلام» یعنی هشام بن الحکم، فقال: نعم. ثم قال الشامی لهشام: یا غلام سلنی فی إمامة هذا، یعنی أبا عبد اللّه علیه السّلام فغضب هشام حتی ارتعد، ثم قال له: أخبرنی یا هذا، أ ربّک أنظر لخلقه أم هم لأنفسهم؟ فقال الشامی: بل ربی أنظر لخلقه. قال: ففعل بنظره لهم فی دینهم ما ذا؟ قال: کلّفهم و أقام لهم حجة و دلیلا علی ما کلّفهم، و أزاح فی ذلک عللهم. فقال له هشام: فما هذا الدلیل الذی نصبه لهم؟ قال الشامی: هو رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم. قال له هشام: فبعد رسول اللّه من؟ قال: الکتاب و السنّة. قال له هشام: فهل ینفعنا الیوم الکتاب و السنّة فیما اختلفنا فیه حتی یرفع عنا الاختلاف و مکّنا من الاتفاق؟ قال الشامی: نعم. قال له هشام: فلم اختلفنا نحن و أنت و جئتنا من الشام تخالفنا و تزعم أن الرأی طریق الدین، و أنت تقرّ بأن الرأی لا یجمع علی القول الواحد المختلفین؟ فسکت الشامی کالمفکّر، فقال له أبو عبد اللّه علیه السّلام: «ما لک لا تتکلم؟» قال: إن قلت أنا ما اختلفنا کابرت، و إن قلت إن الکتاب و السنّة یرفعان عنا الاختلاف أبطلت، لأنهما یحتملان الوجوه. . . ثم یقوم الشامی بسؤال هشام، و یجیب هشام حتی یخرج الشامی من مجلس الإمام و هو علی الهدی.

عصره:

کان عصر هشام من أزهر العصور فی الکلام بجمیع أصوله، لکثرة الفرق. و جعل هاتیک الأصول الکلامیة مبتنیة علی القواعد المنطقیة. و کانت الرغبة ملحّة فی

النظر و الجدل، فكانت المجالس تعقد للمناظرة، و تشد الرحال للمدارسة و الاحتجاج، و لا سيما فى الإمامة، لأنها الأصل الذى يصحح للخليفة-بالشكل المعهود-أن يستولى به على العباد و البلاد باسم الشريعة، و يصحح له أن يكون ولى الأمر الذى تجب طاعته على الأمّة، أو يمنعه عن التصرّف فى مقدرات البلاد، و القبض على رقاب العباد، و يأبى له من أن يكون الحجة من الخالق إلى المخلوق. فالملوك من أمية و بنى العباس وقفوا سدّا دون سيل الكلام فى الإمامة لئلا يشيع رأى الشيعة فيها، و ألجموا الأفواه، و حجروا العقول، و منعوا حرية القول، و ساروا بالناس سيرة إرهاب و تهديد. فكان هشام بن الحكم واسطة القلادة فى تلك الأندية، يساجل فى كل أصل، فإن انتهت الخصومة إلى الإمامة، أدلى بحجته، مصرحا إن أمن من العقاب، و ملوحا إن خاف النكال. لأن إثبات الإمامة فى الأئمة الاثنى عشر هدم لصروح إمامة الأوائل، وثل لعروش الأواخر (1). و كان لمجلس يحيى البرمكى الذى يعقد فى بغداد للمناظرة أثر كبير فى تنوير العقول، و لا يعقد ذلك المجلس إلاّ تحت إشراف هشام و رئاسته. و من الحق أن نقول: إن هشاما كان من مفاخر الأمة الإسلامية، فقد جنّد نفسه لخدمة الحق، و نشر مبادئ الإسلام، و قد تصدّى للرد على أعداء الدين، و رفع الغشاوة من بعض العقول التى قد ركبها الشطط، و غلبها الغرور. سأل ضرار هشام بن الحكم عن الدليل على الإمام بعد النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فقال هشام: الدلالة عليه ثمان دلالات: أربع منها فى نعت نسبه، و أربع منها فى نعت نفسه. أما الأربع التى فى نعت نسبه: فأن يكون معروف القبيلة، معروف الجنس، معروف النسب، معروف البيت. و ذلك أنه إذا لم يكن معروف القبيلة معروف الجنس معروف النسب معروف البيت. جاز أن يكون من أطراف الأرض و فى كل جنس من الناس، فلما لم يجز أن يكون الدليل إلاّ فى أشهر الأجناس، و لما لم يجز أن يكون إلاّ فى هذا الجنس لشهرته؛ لم يجز أن يكون إلاّ هكذا، و لم نجد جنسا فى العالم أشهر من جنس

1- 1) عن كتاب حياة هشام لشيخنا المظفر مخطوط.

محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و هو جنس العرب الذى منه صاحب الملّة و الدعوة الذى ينادى باسمه فى كل يوم و ليلة خمس مرّات على الصوامع و المساجد فى جميع الأماكن: أشهد أن لا إله إلاّ اللّه و أن محمّدا رسول اللّه، و وصل دعوته إلى كل بر و فاجر من عالم و جاهل معروف غير منكر فى كل يوم و ليلة، فلم يجز إلاّ أن يكون فى هذه القبيلة التى فيها صاحب الدعوة لاتصالها بالملّة، لم يجز أن يكون إلاّ فى هذا البيت الذى هو بيت النبى لقرب نسبه من النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إشارة إليه دون غيره من أهل بيته، ثم إن لم يكن إشارة إليه اشترك أهل هذا البيت، و ادعيت فيه، فإذا وقعت الدعوة فيه وقع الاختلاف و الفساد بينهم و لا يجوز أن يكون إلاّ من النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إشارة إلى رجل من أهل بيته دون غيره لئلا يختلف فيه أهل هذا البيت أنه أفضلهم و أعلمهم و أصلحهم لذلك الأمر.

و أما الأربع التى فى نعت نفسه: فأن يكون أعلم الخلق، و أسخى الخلق، و أشجع الخلق، و أعفّ الخلق و أعصمهم من الذنوب صغيرها و كبيرها، لم تصبه فترة و لا جاهلية، و لا بد من أن يكون فى كل زمان قائم بهذه الصفة إلى أن تقوم الساعة. فقال عبد اللّه بن يزيد الأباضى-و كان حاضرا-: من أين زعمت يا هشام أنّه لا بد أن يكون أعلم الخلق؟ قال: إن لم يكن عالما لم يؤمن أن تنقلب شرائعه و أحكامه، فيقطع من يجب عليه الحدّ، و يحدّ من يجب عليه القطع، و تصديق ذلك قول اللّه عزّ و جلّ: أَ فَمَنْ يَهْدِى إِلَى اَلْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لا يَهِدِّى إِلاّ أَنْ يُهْدى فَما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ . قال: فمن أين زعمت أنّه لا بد أن يكون معصوما من جميع الذنوب؟ قال: إن لم يكن معصوما لم يؤمن أن يدخل فيما دخل فيه غيره من الذنوب، فيحتاج إلى من يقيم عليه الحدّ كما يقيمه على غيره، و إذا دخل فى الذنوب لم يؤمن أن يكتم على جاره و حبيبه و قريبه و صديقه، و تصديق ذلك قول اللّه عزّ و جلّ: إِنِّى جاعِلُكَ لِلنّاسِ إِماماً قالَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِى قالَ لا يَنالُ عَهْدِى اَلظّالِمِينَ . قال له: فمن أين زعمت أنّه لا بد أن يكون أشجع الخلق؟ قال: لأنه قيّمهم الذى يرجعون إليه فى الحرب، فإن هرب فقد باء بغضب من اللّه و لا يجوز أن يبوء الإمام بغضب من اللّه، و ذلك قوله عزّ و جلّ: إِذا لَقِيتُمُ اَلَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلا تُوَلُّوهُمُ اَلْأَدْبارَ . قال: فمن أين زعمت أنّه لا بد أن يكون أسخى الخلق؟ قال: لأنّه إن لم يكن سخيا لم يصلح للإمامة، لحاجة النّاس إلى نواله و فضله و القسمة بينهم بالسوية، و ليجعل الحق فى موضعه؛ لأنه إذا كان سخيا لم تتق نفسه إلى أخذ شىء من حقوق الناس و المسلمين، و لا يفضل نصيبه فى القسمة

على أحد من رعيته، و قد قلنا إنه معصوم فإذا لم يكن أشجع الخلق و أعلم الخلق و أسخى الخلق و أعفّ الخلق لم يجز أن يكون إماما (1). و لما كان هشام قد عرف بالتفوّق، و قوة الحجة، و سرعة الجواب، و اتقاد الذهن، فقد أصبح ذكره حديث الأندية، و قد تحامل عليه خصومه فنسبوه إلى ما لا يليق بشأنه، و لا يتسق مع اعتقاده (لأن الرأى العام فى ذلک العهد من أنصار الخلافة المعهودة، و لا تصغى العامة للحجج إذا خالفت الرغبة) فتوجهوا إليه بتلک الطعون الشائنة، و التى لا تمت بشىء من الحقيقة كما سنوافيک بجملة منها.

شيوخه و تلامذته:

أخذ هشام علم الفقه، و الحديث و التفسير، و غيرها عن الإمام الصّادق عليه السّلام و كان ملازما له منذ نشأته، و روى عنه أحاديث كثيرة فى مختلف الأحكام. و كان الإمام الصّادق يكرمه و يرفع من مقامه، و له أصل يرويه الشيخ الطوسى عن جماعة من الأصحاب. و لما انتقل الإمام الصّادق إلى جوار ربه، أصبح هشام من خواص الإمام موسى بن جعفر عليه السّلام و روى الحديث و أخذ عنه علما كثيرا. أما تلامذته: فخلق كثير، توجد رواياتهم عنه فى كتب الفقه و الحديث منهم: النضر بن سويد الصيرفى الكوفى من تلامذة الإمام الكاظم، و كان من الثقات، المشهورين بالعدالة و صحة الحديث. و نشيط بن صالح العجلى مولاهم الكوفى، عده الشيخ فى رجاله من تلامذة الصّادق و الكاظم. و يونس بن عبد الرّحمن مولى آل يقطين، كان من أصحاب الكاظم و الرضا. و له مؤلّفات كثيرة؛ و كان ثقة عظيم المنزلة. و غيرهم مما لا يسع المجال لذكرهم.

مؤلفاته:

كانت لهشام بن الحكم مؤلّفات فى شتى العلوم، ذكر منها ابن النديم:

1- 1) علل الشرائع ج 1 ص 204. [1]

1-كتاب الإمامة. 2-كتاب الدلالات على حدوث الأشياء. 3-كتاب الرد على الزنادقة. 4-كتاب الرد على أصحاب الاثنين. 5-كتاب الرد على هشام الجواليقى. 6-كتاب الرد على أصحاب الطبائع. 7-كتاب الشيخ و الغلام. 8-كتاب التدبير. 9-كتاب الميزان. 10-كتاب الرد على من قال بإمامة المفضول. 11-كتاب اختلاف الناس فى الإمامة. 12-كتاب الوصية و الرد على من أنكرها. 13-كتاب فى الجبر و القدر. 14-كتاب الحكمين. 15-كتاب الرد على المعتزلة فى طلحة و الزبير. 16-كتاب القدر. 17-كتاب الألفاظ.

أجوبته و مناظراته:

نشأ هشام تحت ظلال مدرسة أهل البيت، و تغذى منها تعاليمه القيّمة، و ثقافته العالية. و امتاز بقوة شخصيته التى جعلته محطا لأنظار علماء عصره، و قد تجرّد لنصرة مذهب أهل البيت، و ناضل فى الدفاع عنهم، و لم تقعد به ملاقاة عنت أو تكبد أذى. و كان يقصده الكثير من علماء عصره الذين عرفوا بقوة المناظرة ليناظروه و يحاجوه فى مختلف العلوم. و كان هو كذلك يتعرّض لمناظرتهم و يقصد علماء الأمصار و رؤساء الحلقات العلمية للمناظرة، طلبا لإظهار الحق و دفعا للباطل. و نظرا لما كان يمتاز به هشام من قوة العارضة، و غزارة العلم، و سرعة

الجواب، فقد ترأس مجلس المناظرة الذى كان يعقده يحيى بن خالد البرمكى مساء كل جمعة ببغداد، و هو يضم جميع علماء الفرق، و رؤساء الأديان، و أهل الآراء، فكانوا لا يخوضون فى مسألة حتى يحضر هشام فيكون قوله الفصل، و حكمه العدل. و كان الرشيد يحضر ذلك المجلس من وراء الستار-فى بعض الأوقات-يستمع لتلك المناظرات و يصغى لتلك الأقوال. و أراد بعضهم أن يوقع الشر فى قلب الرشيد على هشام، فألقى إليه سؤالا- فى قضية مخاصمة العباس لعلى عليه السّلام فى ميراث النبى، و هو لا يعلم بمكان الرشيد. قال السائل: يا أبا محمّد (و هى كنية هشام) أ ما علمت أن عليا نازع العباس إلى أبى بكر؟ قال هشام: نعم. قال السائل: فأيّهما كان الظالم لصاحبه؟ فتوقف هشام و قال فى نفسه: إن قلت: العباس خفت الرشيد، و إن قلت: عليا ناقضت قولى و عقيدتى. ثم قال هشام: لم يكن فيهما ظالم. فقال السائل: أ فيختصم اثنان فى أمر و هما محقان جميعا؟ قال هشام: نعم، اختصم الملكان إلى داود و ليس فيهما ظالم، و إنما أرادا أن ينبهاه. كذلك اختصم هذان إلى أبى بكر ليعلماه ظلمه. فأمسك الرجل (1)و وقع الجواب عند الرشيد موقع القبول و مال قلبه لهشام. و له كثير من أمثال هذا من الأجوبة المسكتة، و الكلمات التى كان يتفوق بها على خصومه. قال ابن النديم بعد وصفه بقوة الحجّة وسعة التفكير: و كان هشام يقول: ما رأيت مثل مخالفينا؟ ! عمدوا إلى من ولاّه اللّه من سمائه فعزلوه (يعنى عليا) و إلى من عزله اللّه من سمائه فولوه (يعنى أبا بكر) . و يذكر قصة مبلغ سورة براءة، و مرد أبى بكر، و إيراد على عليه السّلام بعد نزول جبرائيل عليه السّلام قائلا لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «لا يؤديها عنک إلاّ أنت أو رجل منک» . فرد أبا بكر و أنفذ عليا عليه السّلام (2).

1- 1) العقد الفريد ج 1 ص 360، و [1]عيون الأخبار لابن قتيبة ج 2 ص 150. و [2]ضحى الإسلام ج 3 ص 268.

2- 2) تكملة فهرست ابن النديم ص 7.

و على أى حال فإن لهشام بن الحكم أجوبـة و مناظرات قـد احتفظ التاريخ ببعضـها، و هى خير شاهد لقوة شخصـيته فى شتى العلوم. و لا يسـعنا الآـن بسط القول فيها، بل نـذكر نموذجا منها، و إليک ثبتا فى بعضـها: 1-مناظرته مع الإباضـية. 2-مناظرته مع أحـد البراهمة. 3-مناظرته فى ضـرورة احتياج الناس إلى حجّة. 4-مناظرته مع جماعـة من أهل الشام فى مجالس متفرّقـة فى أمور شتى. 5-مناظرته فى بيان أحقية على بالخلافة دون غيره. 6-مناظرته فى أفضـلية على عليه السّـلام على جميع الأمة و تفنيد الاستدلال بآية (ثانى اثنين) . 7-مناظرته فى إثبات وجوب الموالاة لعلى عليه السّـلام. 8-مناظرته فى لزوم طاعة الإمام الحق. 9-مناظرته مع أبى شاكر الديصانى. 10-مناظرته مع الجاثليق. 11-مناظرته فى نفى الجهـة و عدم الاثنينية. 12-مناظرته مع ابن أبى العوجاء. 13-مناظرته مع أبى حنيفة فى عدة مواطن. 14-مناظرته مع إبراهيم بن يسار المعتزلى. 15-مناظرته مع أبى الهذيل العلاف. و غير ذلک كثير متفرق فى الكتب التاريخية و الأدبية.

نموذج من مناظراته:

تصـدى هشام لمناظرة أهل الكلام، و الرد على الملحدين و الزنادقة، و يكاد المؤرّخون يجمعون على تفوقه فى المناظرة و سـرعة الجواب و قوة العارضـة، و إليک نموذجا من مناظراته: 1-جـاء إليه رجل ملحـد فقال له: يا هشام أنا أقول بالاثنين و قـد عرفت إنصافک و لست أخاف مشاغبتک.

فقام هشام-و هو مشغول بثوب ينشره-و قال: حفظک اللّه هل يقدر أحدهما أن يخلق شيئا لا يستعين بصاحبه عليه؟ قال: نعم. قال هشام: فما ترجو من اثنين؟ واحد خلق كل شيء أصح لک. فقال الرجل: لم يكلمنى أحد بهذا قبلک. 2-و دخل المؤبذ على هشام بن الحكم فقال له: يا هشام حول الدنيا شيء؟ قال: لا. قال المؤبذ: فإن أخرجت يدى منها ثم شيء يردها؟ قال هشام: ليس ثم شيء يردک و لا شيء تخرج يدک فيه. قال: فكيف أعرف هذا؟ قال هشام: يا مؤبذ أنا و أنت على طرف الدنيا فقلت لک: يا مؤبذ، إنّى لا أرى شيئا. فقلت لى: و لم لا ترى؟ فقلت لک: ليس هاهنا ظلام يمنعنى. قلت لى: يا هشام إنى لا أرى شيئا. فقلت لک: و لم لا ترى؟ قلت: ليس ضياء أنظر فيه. فهل تكافأت الملتان فى التناقض؟ قال: نعم. قال هشام: فإن تكافأتا فى التناقض لم تتكافأ فى الإبطال أن ليس شيء. فأشار المؤبذ بيده: أن أصبت. و عاد إليه المؤبذ فقال: هما فى القوة سواء. قال: فجوهرهما واحد؟ فقال المؤبذ لنفسه-و من حضر يسمع-: إن قلت: إن جوهرهما واحد عاد فى نعت واحد، و إن قلت: مختلف اختلفا أيضا فى الهمم و الإرادات و لم يتفقا فى الخلق، فإن أراد هذا قصيرا أراد هذا طويلا. . . و لما عجز عن الجواب التفت إليه هشام فقال: كيف لا تسلم! قال: هيهات (1)!.

1- 1) عيون الأخبار ج 5 ص 152. [1]

3-قال هشام لأبی الهذیل (1): إذا زعمت أن الحرکة تری فلم لا زعمت أنها تلمس؟ قال: لأنها لیست بجسم فیلمس، لأن اللمس إنما یقع علی الأجسام. فقال له هشام: فقل إنّها لا تری لأن الرؤیة إنما تقع علی الأجسام. فرجع أبو الهذیل سائلا: من أین قلت: إن الصفة لیست الموصوف و لا غیره؟ قال هشام: من قبل أنه یستحیل فعلی أنا، و یستحیل أن یکون غیری، لأن التغایر إنما أوقعه علی الأجسام و الأعیان القائمة بأنفسها، فلما لم یکن فعلی قائما بنفسه، و لم یجز أن یکون فعلی أنا، وجب أنّه لا أنا و لا غیری. و علة أخری أنت قائل بها: زعمت یا أبا الهذیل أن الحرکة لیست مماسة و لا مباینة، لأنها عندک مما لا یجوز علیه المماسة و لا المباینة، فلذلک قلت أنا: إن الصفة لیست أنا و لا غیری، و علّتی فی أنّها لیست أنا و لا غیری علتک فی أنّها لا تماس و لا تباین، قال المسعودی: فانقطع أبو الهذیل و لم یرد جوابا (2).

ذکرنا هذه المناظرة لا بقصد أن نعطی صورة عن هشام بن الحکم فیها، و لکنا نود أن ننبه علی خیانة للنقل و جنایة علی التاریخ و تهجم علی الحقائق بما ارتکبه ابن حجر العسقلانی فإنه ذکر (3)ما هذا نصه: و قال المسعودی: قال أبو الحسن الحناط مات أبو الهذیل سنة 227 ه و تنازع أصحابه فی مولده فقال قوم سنة إحدی و ثلاثین و قال قوم: سنة أربع. و ذکر (أی المسعودی) مناظرة بینه و بین هشام بن الحکم الرافضی، و أن هشاما غلبه أبو الهذیل فیها. هذا و قد أوقفناک علی نص عبارة المسعودی و أن هشاما غلب أبا الهذیل و لم یرد جوابا. و الحکم للقارئ المنصف. 4-اجتمع هشام فی إحدی رحلاته إلی البصرة بعمرو بن عبید المتوفی سنة 144 ه و تناظرا فی الإمامة، و کان عمرو یذهب إلی أن الإمامة اختیار من الأمة فی

---

1 - 1) هو محمّد بن الهذیل بن عبد اللّه بن مکحول البصری، أبو الهذیل العلاف المتوفی سنة 235 ه شیخ المعتزلة و مقدمهم و مقرر الطریقة و المناظر علیها، أخذ الاعتزال عن عثمان بن خالد الطویل، و له آراء و أقوال و إلیه تنسب الفرقة الهذیلیة من المعتزلة.

2- 2) مروج الذهب ج 4 ص 54. [1]

3- 3) لسان المیزان ج 5 ص 214.

سائر الأعصار، و هشام يذهب إلى أنّها نص من اللّه و رسوله على على بن أبى طالب عليه السّلام و على من يلى عصره من ولده الطاهرين. فقال هشام لعمرو بن عبيد: أ ليس قد جعل اللّه لک عينين؟ قال: بلى. قال: و لم؟ قال: لأنظر بهما فى ملكوت السموات و الأرض فأعتبر. قال: فلم جعل لک سمعا؟ قال: لأسمع به التحليل و التحريم و الأمر و النهى. قال: فلم جعل لک فما؟ قال: لأذوق المطعوم، و أجيب الداعى. ثم عدد الحواس كلها. قال: و لم جعل لک قلبا؟ قال: لتؤدى إليه الحواس ما أدركته، فيميز بين مضارها و منافعها. قال هشام: فكان يجوز أن يخلق اللّه سائر حواسک و لا يخلق لک قلبا تؤدى هذه الحواس إليه؟ قال عمرو: لا. قال: و لم؟ قال: لأن القلب باعث لهذه الحواس على ما يصلح لها. فقال هشام: يا أبا مروان (كنية عمرو بن عبيد) إن اللّه تبارک و تعالى لم يترک جوارحک حتى جعل لها إماما يصحّح لها الصحيح، و يترک هذا الخلق كله لا يقيم لهم إماما يرجعون إليه؟ قال المسعودى: فتحيّر عمرو و لم يأت بفرق يعرف (1).

مع هشام فى تهمته:

نضج علم الكلام فى العصر العباسى الأول، و انتشر الخلاف و كثر الجدل و كان النزاع يملأ حلقات العلم، و المناظرات تقع فى مجالس الخلفاء، و فى المساجد، و فى الشوارع.

1- 1) مروج الذهب ج 4 ص 55، و علل الشرائع ص 194، و الطبرسى ص 200 و أمالى المرتضى و غيرها.

و كـان للمعتزلـة نشـاط فى الحركـة الكلاميـة، فقـد كانوا يبحثون عن أهم المسائل و يصـطدمون مع خصومهم. إلى جانب ذلک نراهم قد تعرّضوا لمسائل تكاد تكون سوفسـطائية مثل: الإله قادر على الظلم أو لا؟ هل الجنّة مخلوقة اليوم أو لا؟ هل قدرة اللّه تتعلّق بالمحال أو لا؟ هـل الكـافر قادر على الإيمان و المؤمن قادر على الكفر؟ إلى كثير من أمثال ذلک. مع اختلافهم فى الإمامـة و السـياسة، و كل هـذه الآراء تكوّن جوا مضـطربا و نزاعا علميا، و قد حصل ذلک فى عصـرهم و بعد عصرهم. و كان هشام بن الحكم شديد الخصومة لهم، قوى الحجة عليهم، واسع الفكر. و له شـهرة فى علم الكلام، لـذلک ترأس مجلس المناظرة فى بغـداد، و كان يقصد حلقات العلم فيمتحن رؤساءها بما يفحمهم فيه، فكان انتصاره عليهم سـببا لاتهامه بما لا يليق بشأنه، و لا صـلة له بالواقع. و كان الجاحظ من أشد الناس عداء لهشام، فنسـب إليه تلک المفتريات هو و النظام إبراهيم بن سـيار، و جاء ابن قتيبـة فى (مختلف الحـديث) فأرسـلها إرسال المسـلّمات، و كـذلک الخياط المعتزلى كما جاء فى كتاب «الانتصار» . و ليس من العسـير علينا أن نستشف بواعث تلک الاتهامات الموجهة لهشام من قبل خصومه مع براءته من ذلک. و لا يصح لنا أن ننساق مع المندفعين بتيار الهوى و الخاضعين للعاطفة، الذين اتهموه بتلک التهم الشنيعة بدون التفات إلى الواقع، أو اسـتناد إلى مصـدر وثيق، و إنمـا كـانت بـدافع الانتقام منه و الحقـد عليه لكونه يغلب خصـمه بمنطقه و يقطعه ببراهينه. كما كان الحكم على هشام بتلک التهم صادرا عن طائفيـة بغيضـة رغبـة فى تشويه الحقيقـة، أو اقتناع بما دبّرته عوامل عصـر هشام، من الاعتداء على المفكّرين من رجال الأمـة، و تطبيقه بوسائل عنيفـة وحشـية. و لـم يخف على المتتبعين ما أحـدثه ذلک التطور الفكرى، من وجود خلافات مذهبية و فوارق طائفية أدت إلى خصومة عنيفة، خرجت عن حدود العلم و المنطق الصحيح، بل عن حدود العقل و الاتزان. و كان الموقف السياسـى يؤثّر فى كفـة الخلاف، و يؤيـد حركـة النزاع الطائفى من وراء السـتار لغايـة التفريق، و الوصول لأمور لا تحصل إلاّ بـذلک، طبقا لقاعدة (فرّق تسد) و هى خطة سلكها الأمويون و اتبعهم العباسيون، فصارت مركبا لحكام الاستبداد و أمراء الجور.

و اتضح لنا مما سبق أن الموقف العدائی للشیعة قد تعدّی حدود المنطق، و بلغ إلی الهوس و التهریج، و التقوّل بالباطل، کل ذلک یرمی إلی تشویه الصورة الحقیقیة، و تنفیر الناس عن عقائدهم التی لا تستطیع سیاسة تلک العصور أن تترکها بدون معارضة و مقاومة، و بالأخص فیما یتعلّق بالإمام. و لنقف عند هذا الحد من التعرّض لتلک التقولات علی الشیعة و نعود لبعض ما قیل عن هشام فی اتهامه. کما أننا لا نرید أن نستقصی ذلک و لا لنجهد أنفسنا فی الرد علی تلک التقولات، فالأمر أوضح من أن یدعونا إلی ذلک. فشخصیة هشام لها مقومات واقعیة، تستمد اتجاهاتها من واقع تعالیم الدین الحنیف و لا یضرّه تقولات أعدائه و إلیک بعضا منها: 1-یقول عبد القاهر البغدادی المتوفی سنة 429 ه فی بیان مذاهب المشبهة: و من هذا الصنف هشامیة منتسبة إلی هشام بن الحکم الرافضی، الذی شبّه معبوده بالإنسان، و زعم لأجل ذلک أنه سبعة أشبار بشبر نفسه و أنه جسم ذو حدّ و نهایة، و أنّه طویل، عریض، عمیق، و ذو لون و طعم و رائحة و قد روی عنه أن معبوده کسبیکة الفضة المستدیرة (1). هذا ما یقوله صاحب الفرق بین الفرق و هو عار عن الصحة، بعید عن الواقع، لأن آثار هشام من کتب و مناظرات تدل بوضوح علی إیمانه باللّه، فکتابه التوحید و غیره من کتب الرد علی الملحدین تتکفل صدق ما نقوله عنه. و کذب ما یقوله البغدادی و من سار علی نهجه الذی لا یعتمد علی الحق، و لا یرکن إلی الصواب بل هو محض افتراء و تقوّل بالباطل، و مجرد أوهام فاضت بها أحقاد المناوئین، فراحوا یذکرون عن هشام و طائفته بما لا یمت إلی الواقع بصلة، و نحن إذا أمعنا النظر فی أسباب هذه الحملات علی هشام، فإنّا نجد مصدرها المعتزلة، فإنّهم خصومه لأنه کان شدیدا علیهم؛ مفندا لآرائهم. و سنوضح موقف الجاحظ-و هو من کبار المعتزلة-من هذه المعرکة، و کیف صبّ جام غضبه علی هشام بأسلوبه الساخر، فکانت اتهامات هشام من صوغ الجاحظ و إنتاجه الأدبی.

1- 1) الفرق بین الفرق ص 139. [1]

2-و يقول محمّد بن أحمد بن عبد الرّحمن الملطى الشافعى المتوفى سنة 377 ه فى كتابه التنبيه: الفرقة الثانية عشر من الإمامية هم أصحاب هشام بن الحكم، يعرفون بالهشامية، و هم الرافضة الذين روى فيهم الخبر أنّهم يرفضون الدين بحب على (رضى اللّه عنه) فيما يزعمون، و كذب أعداء اللّه و أعداء رسوله و أصحابه، و إنما يحب عليا من يحب غيره، و هم أيضا ملحدون لأن هشاما كان ملحدا دهريا، ثم انتقل إلى الدهرية و المانوية، ثم غلبه الإسلام فدخل فى الإسلام كارها، فكان قوله فى الإسلام بالتشبيه و الرفض. و أما قوله بالإمامة فلم نعلم أن أحدا نسب إلى على عيبا مثل هشام. . . و اللّه نحمده قد نزع عن على و ولده العيوب و الأرجاس و طهرهم تطهيرا، و ما قصد هشام التشيع و لا محبة أهل البيت، و لكن طلب بذلک هدم أركان الإسلام، و التوحيد و النبوة. انتهى. هكذا يقول الملطى. و إذا أردنا أن نسائل هذا الشيخ عن المصدر الذى استمد منه معلوماته عن هشام، و على أى شىء اعتمد فى كيل هذه الاتهامات، و ما الذى عرفه عن هشام فاستوجب أن ينسب إليه الإلحاد؟ و هل نقل عن مصدر موثوق به. كل ذلک لم يكن، و إنما يحتج بما نقل عن هشام فى قوله بإمامة علىّ عليه السّلام و أن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم نصّ على إمامته، و أن عليا أفضل الأمة. و إليک نص ما نقله الملطى عن هشام إذ يقول: فزعم هشام أن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم نصّ على إمامة على فى حياته بقوله: «من كنت مولاه فعلى مولاه» . و بقوله: «أنت منى بمنزلة هارون من موسى، إلاّ أنّه لا نبى بعدى» و بقوله: «أنا مدينة العلم و على بابها» و بقوله: «تقاتل على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله» و أنّه-أى عليا-وصى رسول اللّه و خليفته فى ذريته، و هو خليفته فى أمّته، و أنه أفضل الأمة و أعلمهم، و لا يجوز عليه السهو و لا الغفلة و لا العجز، و أنّه معصوم، و أن اللّه عزّ و جل نصبه للخلق إماما و لكن لا يهملهم، و أن المنصوص على إمامته كالمنصوص على القبلة و سائر الفرائض. . . إلخ. هذه هى المزاعم التى استنتج منها الشيخ الملطى مقاصد هشام من التشيّع، فهشام بن الحكم فى نظر هذا الشيخ إنما كان عدوا للإسلام، و أصبح ملحدا غير مؤمن، لأنه يذهب إلى إمامة على بالنص، و أنّه خليفة رسول اللّه فى أمّته. و نحن لا نلوم هذا الشيخ على هذيانه و تمرّده على الواقع، و لكنا نلوم الرجل

المثقف الذى يريد أن يخدم الأمة بنشر هذه الفضائح (1)و إخراج هذه الجيف، فلا نطيل الوقوف هنا فالزمن أثمن و الوقت من ذهب. و عند اللّه تجتمع الخصوم. 3-و قال ابن حجر (2): هشام بن الحكم أبو محمّد الشيبانى من أهل الكوفة، و كان من كبار الرافضة و مشاهيرهم، و كان مجسما يزعم أن ربه سبعة أشبار بشبر نفسه، و يزعم أن علم اللّه محدث. ذكر ذلك ابن حزم. بدون مستند و لا سند، و إنما هذا مجرد تهجم على الأبرياء كما هو شأن ابن حزم. و على هذه اللغة و هذه اللهجة سار كل من تعصّب على هشام. و قد ثبت من التحقيق أن هذه الجمل التى يسوقونها للانتقاص من هشام و الحط من كرامته، إنما هى مفتعلات الجاحظ و مفترياته. لأنه كان شديد القسوة على من يخالفه. و قد عرف بالانتصار للمعتزلة، و كان هشام حربا عليهم ناظر علماءهم و انتصر عليهم. و الجاحظ معروف بأسلوبه التهكمى اللاذع، الذى كان يتذرّع به فى كثير من مهماته، فتراه عند ما يأخذ بعض الأشخاص بالتصوير التهكّمى يقدّم لک الصورة الدّقيقة الرّائعة، التى تثير فى نفسک كل ما يمكن من النفور و البغض. و هو إذ يتهجّم على هشام يسلک سبيل السخرية و التهكم، فيقول: إن هشاما مجسّم يدّعى أن إلهه سبعة أشبار بشبر نفسه، له طول و عرض، و طوله مثل عرضه إلى آخر قوله فى اتهام هشام. و هذا أمر لا يحتاج إلى تحمّل مشقة فى الرد، لأن خصومة الجاحظ لهشام و لأمثاله أوضح من أن تخفى. و حيث كان الجاحظ هو بطل الخصومة لهشام، و هو مصدر تلک الاتهامات الباطلة فلا بد لكفة الميزان أن تحويه لتكشف نقصه مهما كان لاسمه صدى فى ميدان الأدب و مكانة فى رحابه.

الجاحظ فى الميزان:

هو عمرو بن بحر بن محبوب الكنانى مولاهم المعروف بالجاحظ المتوفى سنة

1- 1) نشر هذا الكتاب عرة العطار مدير مكتبة نشر الثقافة الإسلامية فى مصر و علّق عليه و حقّقه محمّد زاهد الكوثرى.

2- 2) لسان الميزان ج 6 ص 194.

250 ه أو سنة 255 ه تلميذ النظام، و هو من رؤساء المعتزلة و متكلميهم، و له شهرة عظيمة فی أدبه، كما أن له مؤلفات كثيرة فی شتّی العلوم و الفنون، اتّصل بالحكّام و الأمراء و الخلفاء، و تقرّب إليهم بتصنيف الكتب و الرسائل، و بها يتعصّب لمذاهبهم و يعضد بها آراءهم و ينقض بها آراء مخالفيهم، طلبا لجوائزهم و نيلا لرفدهم. و لا نريد البحث عن علمه، و لكنا نريد أن نعرف: هل كان الجاحظ رائده الحق؟ و ضالته الحقيقة ينشد الوصول إليها عن طريق التثبت و التجربة و البرهان؟ أم كان له غرض خاص يطلبه و يسعى لتحقيقه. و لو كان الجاحظ يهدف إلى غاية معينة، و يلتزم فكرة، يجند لها قلمه لابتعد عن المتناقضات و سار فی خطّ مستقيم، فكم جاء بقول و أتی بعده بما يناقضه، و كم أبدی فكرة و أتی بما ينفيها، فهو متقلّب الرأی ضعيف العقيدة. و يتجلی لنا الأمر-إذا عرفنا منزلته و صدقه-عند ما نسائل عنه علماء الرجال، و نصغی لما وصفوه به و ما عرفوه عنه. قال أبو جعفر الإسكافی، و هو من كبار المعتزلة و علمائهم: إن الجاحظ ليس علی لسانه من دينه و عقله رقيب، و هو من دعوی الباطل غير بعيد، فمعناه نزر، و قوله لغو، و مطلبه سجع، و كلامه لعب و لهو، يقول الشیء و خلافه، و يحسن القول و ضده، ليس له من نفسه واعظ، و لا لدعواه حد قائم (1). و قال ابن أبی دؤاد: الجاحظ أثق بظرفه و لا أثق بدينه (2). و قال الذهبی: كان الجاحظ من أهل البدع. و قال ثعلب: الجاحظ ليس بثقة و لا مأمون، كان كذابا علی اللّه و علی رسوله و علی الناس. و قال أبو منصور فی مقدمة تهذيب اللغة: و ممن تكلم فی اللغات بما حصره لسانه، و روی عن الثقات ما ليس من كلامهم الجاحظ، و كان قد أوتی بسطة فی القول، و بيانا عذبا فی الخطاب، و مجالا فی الفنون، غير أن أهل العلم ذبّوه و عن الصدق دفعوه (3).

1- 1) شرح النهج ج 3 ص 267. [1]

2- 2) تاريخ بغداد ج 12 ص 218. [2]

3- 3) لسان الميزان ج 4 ص 356-357.

و حکی الخطیب عنه: أنّه کـان لاـ یصـلی. و قال الإسـکندری: الجاحظ کان عثمانیا یتنصب یفضل عثمان علی علیّ (1). و قال ابن قتیبة: الجاحظ هو آخر المتکلمین و أحسـنهم للحجّة اسـتشارة، و أشدهم تلطفا لتعظیم الصغیر حتی یکبر، و تصغیر العظیم حتی یصغر، و یبلغ به الاقتـدار علی أن یعمل الشـیء و نقیضه، و یحتـج للعثمانیـة علی الرافضـة، و مرة للزیدیـة علی العثمانیة و أهل السـنّة، و مرة یفضل علیا «رضـی اللّه عنه» و مرة یؤخره، و یعمل کتابا یذکر فیه حجج النصاری علی المسـلمین، فإذا صار إلی الردّ علیهم تجوز فی الحجة، کأنّه إنما أراد تنبیههم علی ما یعرفون، و تشکیک الضعفة من المسلمین و تجده یقصد فی کتبه للمضاحیک و العبث یرید بذلک استمالة الأحداث و شرّاب النبیذ، و یستهزیء من الحدیث استهزاء لا یخفی علی أهل العلم إلی أن یقول: و هو مع هذا من أکذب الأمّة، و أضعفهم لحدیث، و أنصرهم لباطل (2). هذه صورة عن الجاحظ نقدمها لیقف القارئ علی أثر طعنه و تهجمه، و رمیه الأبریاء من الأمة بما لیس فیهم، فهو غیر مسـتقیم و لاـ حـدّ لتقلّبه و تلوّنه. یختلق الاتهامـات، و یبتـدع الأـقوال، و یکـذب فی نقله. إن الجاحـظ موهوب فی أدبه، بارع فی تهکمه و سخریته، له قدرة علی تصویر الأشیاء التی یخترعها من نفسه، و لا یهمه أن تتناقض أقواله و تضطرب آراؤه، فتراه یؤلّف فی الأمور المتناقضة، و الأشـیاء المتفرقـة. نری الجاحظ یمیل مع الهوی و یساير الظروف، فهو إذ یخالف الواقع و یسـلم قیاده لهواه–تراه فی مورد آخر یرجع إلی الحقیقـة و یعطیها حقها من البیان، و یتبین لک تکلفه عنـد مخالفته للواقع، و انحرافه عن الصواب، و له رسائل عدیدة متفرقة یستقصـی فیها الحجـج لنفسه، و یؤیدها بالبراهین، و یعضدها بالأدلة فیما یتصوّر من عقله، و ما یوحیه الهوی، و یفرضه علیه تماجنه و عبثه. ألّف الجاحظ رسائل فی أمور متناقضة تشـهد علی عدم اسـتقامته، فهو ینتصر للعثمانیة، و یذهب إلی تأخیر علی علیه السّلام فی الفضیلة، و یمدح معاویة بن أبی سفیان منتصرا له من علی علیه السّلام و شیعته، و یذکر إمامة آل مروان و بنی أمیة بما شاء له الهوی

1- 1) تاریخ آداب اللغة ص 84.

2- 2) مختلف الحدیث لابن قتیبة ص 71-72.

و العصبيـة و المجون، ثم ينفلت من أسـر هواه و يعود إلى رشـده، و يترک الأخذ بالآراء و الأهواء، فيؤلف رسالة فی بنی أمية، و يصـفهم بما يلزمه الواقع، و يجعل معاوية ظالما سـفاکا للدماء، جائرا فی الحکم، مخالفا لأحکام الإسلام. و يکتب رسائل فی تفضيل علی عليه السّلام و الانتصار له، و يقدم الحجج و يقيم الأدلة و البراهين، و هو يصـرح: بأنّه عاد إلی رشده، و أفلت من عقال هواه و أخذ اليقين و ترک الشک و الظن، و إليک نصّ رسالته التی ذهب بها إلی تفضيل علی علی جميع الأمة. و قد ذکرها الاربلی فی کشف الغمة.

رسالة الجاحظ فی تفضيل علی عليه السّلام:

قال: هـذا کتاب من اعتزل الشک و الظن، و الـدعوی و الأهواء، و أخذ باليقين و الثقة من طاعة اللّه و رسوله صـلّی اللّه عليه و آله و سـلّم، و بإجماع الأمة بعد نبيّها عليه السّـلام مما يتضـمنه الکتاب و السـنّة، و ترک القول بالآراء، فإنّها تخطئ و تصـيب، لأن الأمة أجمعت أن النبی صلّی اللّه عليه و آله و سلّم شاور أصحابه فی الأسری ببدر، و اتفق علی قبول الفداء منهم فأنزل اللّه تعالی: ما کانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَکُونَ لَهُ . فقد بان لک: أن الرأی يخطئ و يصـيب و لا يعطی اليقين، و إنما الحجّـة للّه و رسوله و ما أجمعت عليه الأمّة من کتاب اللّه و سـنّة نبيّها. و نحن لم نـدرک النبی صـلّی اللّه عليه و آله و سـلّم و لا أحدا من أصـحابه الذين اختلفت الأمة فی أحقّهم، فنعلم أيهم أولی، و نکون معهم کما قال تعـالی: وَ کُونُوا مَعَ اَلصّـادِقِينَ نعلم أيهم علی الباطل فنتجنبهم؟ و کما قال تعالی: وَ اَللّهُ أَخْرَجَکُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهاتِکُمْ لا تَعْلَمُونَ شَـيْئاً حتی أدرکنـا العلم فطلبنـا معرفـة الـدين و أهله، و أهـل الصـدق و الحق، فوجـدنا النـاس مختلفين يبرأ بعضـهم من بعض، و يجمعهم فی حـال اختلافهم فريقان: أحدهما، قالوا: إن النبی صـلّی اللّه عليه و آله و سـلّم مات و لم يسـتخلف أحدا. و جعل ذلک إلی المسـلمين يختارونه، فاختاروا أبا بکر. و الآخرون، قالوا: إن النبی صلّی اللّه عليه و آله و سلّم استخلف عليا، فجعله إماما للمسلمين بعده. و ادعی کل فريق منهم الحق. فلمـا رأينـا ذلـک وقّفنا الفريقين لنبحث و نعلم المحق من المبطل؟ فسألناهم جميعا: هل للناس بـدّ من وال يقيم أعيادهم، و يجبی زکاتهم، و يفرقها

على مستحقيها، و يقضى بينهم، و يأخذ لضعيفهم من قويهم و يقيم حدودهم؟ فقالوا: لا بد من ذلک. فقلنا: هل لأحد يختار أحدا فيوليه، بغير نظر من كتاب اللّه و سنّة نبيّه؟ فقالوا: لا يجوز ذلک إلاّ بالنظر. فسألناهم جميعا عن الإسلام الذى أمر اللّه به؟ فقالوا: إنه الشهادتان، و الإقرار بما جاء من عند اللّه، و الصلاة، و الصوم، و الحج-بشرط الاستطاعة-و العمل بالقرآن يحل حلاله و يحرم حرامه. فقبلنا ذلک منهم لإجماعهم. ثم سألناهم جميعا: هل للّه خيرة من خلقه، اصطفاهم و اختارهم؟ . فقالوا: نعم. فقلنا: ما برهانكم؟ فقالوا: قوله تعالى: وَ رَبُّکَ يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَ يَخْتارُ ما كانَ لَهُمُ اَلْخِيَرَةُ . فسألناهم: من الخيرة؟ فقالوا: هم المتقون. فقلنا: ما برهانكم؟ فقالوا: قوله تعالى: إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اَللّهِ أَتْقاكُمْ . فقلنا: هل للّه خيرة من المتقين؟ قالوا: نعم، المجاهدون بأموالهم بدليل قوله تعالى: فَضَّلَ اَللّهُ اَلْمُجاهِدِينَ بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ عَلَى اَلْقاعِدِينَ دَرَجَةً . فقلنا: هل للّه خيرة من المجاهدين؟ قالوا جميعا: نعم السابقون من المهاجرين إلى الجهاد بدليل قوله تعالى: لا يَسْتَوِى مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ اَلْفَتْحِ وَ قاتَلَ . فقبلنا ذلک منهم لإجماعهم عليه، و علمنا أن خيرة اللّه من خلقه المجاهدون السابقون إلى الجهاد. ثم قلنا: هل للّه منهم خيرة؟

قالوا: نعم. قلنا: من هم؟ قالوا: أكثرهم عناء فى الجهاد، و طعنا و ضربا و قتلا فى سبيل اللّه، بدليل قوله تعالى: فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَ ما تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اَللّهِ . فقبلنا منهم ذلک، و علمنا و عرفنا: أن خيرة الخيرة أكثرهم فى الجهاد عناء، و أبذلهم لنفسه فى طاعة اللّه، و أقتلهم لعدوه. فسألناهم عن هذين الرجلين على بن أبى طالب و أبى بكر أيّهما كان أكثر عناء فى الحرب، و أحسن بلاء فى سبيل اللّه؟ فأجمع الفريقان على أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السّلام أنّه كان أكثر طعنا و ضربا و أشد قتالا، و أذب عن دين اللّه و رسوله. فثبت بما ذكرناه من إجماع الفريقين، و دلالة الكتاب و السنّة أن عليا أفضل. و سألناهم-ثانيا-عن خيرته من المتقين؟ فقالوا: هم الخاشعون، بدليل قوله تعالى: وَ أُزْلِفَتِ اَلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ. هذا ما تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوّابٍ حَفِيظٍ. مَنْ خَشِيَ اَلرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ وَ جاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ . و قال تعالى: أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ اَلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ . ثم سألناهم: من الخاشعون؟ فقالوا: هم العلماء، لقوله تعالى: إِنَّما يَخْشَى اَللّهَ مِنْ عِبادِهِ اَلْعُلَماءُ . ثم سألناهم جميعا: من أعلم الناس؟ قالوا: أعلمهم بالقول، و أهداهم إلى الحق، و أحقهم أن يكون متبوعا و لا يكون تابعا بدليل قوله تعالى: يَحْكُمُ بِهِ ذَوا عَدْلٍ مِنْكُمْ فجعل الحكومة لأهل العدل. فقبلنا ذلک منهم، و سألناهم عن أعلم الناس بالعدل من هو؟ قالوا: أدلهم عليه. قلنا: فمن أدل الناس عليه؟ قالوا: أهداهم إلى الحق. و أحقّهم أن يكون متبوعا و لا يكون تابعا بدليل قوله تعالى: أَ فَمَنْ يَهْدِي إِلَى اَلْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لا يَهِدِّي إِلاّ أَنْ يُهْدى فَما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ فدل كتاب اللّه و سنّة نبيّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الإجماع: أن أفضل

الأمّة بعد نبيها أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السّلام لأنّه إذا كان أكثرهم جهادا كان أتقاهم، و إذا كان أتقاهم كان أخشاهم، و إذا كان أخشاهم كان أعلمهم، و إذا كان أعلمهم كان أدل على العدل، و إذا كان أدل على العدل كان أهدى الأمّة إلى الحق، و إذا كان أهدى كان أولى أن يكون متبوعا، و إن يكون حاكما لا تابعا و لا محكوما. و أجمعت الأمّة-بعد نبيّها صلّى اللّه عليه و آله و سلّم-أنّه خلف كتاب اللّه تعالى ذكره و أمرهم بالرجوع إليه إذا نابهم أمر، و إلى سنّة نبيه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فيتدبرونهما و يستنبطوا منهما ما يزول به الاشتباه فإذا قرأ قارئهم: وَ رَبُّکَ يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَ يَخْتارُ فيقال له: اثبتها، ثم يقرأ: إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اَللّٰهِ أَتْقاكُمْ و فى قراءة ابن مسعود-إن خيركم عند اللّه أتقاكم- وَ أُزْلِفَتِ اَلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ. هذا ما تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوّابٍ حَفِيظٍ. مَنْ خَشِيَ اَلرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ . فدلّت هذه الآية على أن المتقين هم الخاشعون. ثم يقرأ فإذا بلغ قوله: إِنَّما يَخْشَى اَللّٰهَ مِنْ عِبادِهِ اَلْعُلَماءُ فيقال له: اقرأ حتى ننظر هل العلماء أفضل من غيرهم أم لا؟ فإذا بلغ قوله تعالى: هَلْ يَسْتَوِي اَلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَ اَلَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ علم أن العلماء أفضل من غيرهم. ثم يقال: اقرأ، فإذا بلغ إلى قوله: يَرْفَعِ اَللّٰهُ اَلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ اَلَّذِينَ أُوتُوا اَلْعِلْمَ دَرَجاتٍ . قيل: قد دلّت هذه الآية على أن اللّه قد اختار العلماء و فضّلهم و رفعهم درجات، و قد أجمعت الأمّة على أن العلماء من أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الذين يؤخذ عنهم العلم كانوا أربعة: على بن أبى طالب، و عبد اللّه بن العباس، و ابن مسعود، و زيد بن ثابت. و قالت طائفة: عمر. فسألنا الأمّة: من أولى الناس بالتقديم إذا حضرت الصّلاة؟ فقالوا: إن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: يؤم القوم أقرؤهم. ثم أجمعوا على أن الأربعة كانوا أقرأ من عمر، فسقط عمر. ثم سألنا الأمة: أىّ هؤلاء الأربعة أقرأ لكتاب اللّه، و أفقه لدينه فاختلفوا، فأوقفناهم حتى نعلم. ثم سألناهم: أيهم أولى بالإمامة؟

فأجمعوا على أن النبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم قال: الأئمة من قريش. فسقط ابن مسعود و زيد بن ثابت. و بقى على بن أبى طالب و ابن عباس، فسألنا: أيهما أولى بالإمامـة؟ فأجمعوا: على أن النبىّ قال: إذا كان عالمان فقيهان من قريش فأكبرهما سـنا و أقـدمهما هجرة. فسـقط عبد اللّه بن العباس و بقى على بن أبى طالب صلوات اللّه عليه، فيكون أحق بالإمامة، لما أجمعت عليه الأمة و لدلالة الكتاب و السنّة عليه. انتهى. ذكر هذه الرسالة (1)أبو الحسن على بن السـعيد فخر الدين عيسـى بن أبى الفتح الأربلى و قال: إنها نسخت عن مجموعة للأمير أبى محمّـد الحسن بن عيسـى المقتـدر باللّه. و بهذا نكتفى عن الحديث حول الجاحظ، كما أنّا لا نود أن نتعرّض لذكر ابن حزم و تشـنيعه على هشام و قسوته فى اتهامه، و يكفينا فى ابن حزم ما عرف عنه من التهجم على العلماء بدون اسـتناد حتى قيل: لسان ابن حزم و سيف الحجاج شقيقان. إذ كل واحـد منهما يفتك بالمسـلمين ظلما و عـدوانا. و قـد تحامل ابن حزم على الشـيعة بما لا يتقبّله العقل، و لا نـدرى من أى مصدر استقى ذلك. فلنترك مناقشته و على اللّه حسابه.

عود على بدء:

إن دراسة حياة هشام و الوقوف على آرائه و أقواله توقف القارئ النبيه على أسـباب اتهامه بتلك التهم الشنيعة التى تناقض الحقيقة، و لا تتفق مع عقيدته و إيمانه. و قد أشرنا لبعض الأسباب التى دعت خصومه لرميه فى ذلك، و هناك شىء آخر و هو: أن هشاما كان ذا شخصية قوية و فكر واسع و رأى صائب، و هو صـلب فى إيمانه، قوى فى عقيدته، لا يتنازل عنها لسـلطان، و لا يجارى الأغلبية الساحقة، و لم ينقطع يوما ما أمام مناظر، أو يهزم فى قول أو يغلب فى حجاج، و كانت المعركـة الفكريـة تـدور حول الإمامة و ما شاكلها، و كان هشام يخالف فى رأيه سلطان عصره،

1- 1) كشف الغمة ص 12-13. [1]

و يناظر على صحة قوله و صواب رأيه، فهو مع أهل البيت يناضل عن حقّهم، و يحاجج فى لزوم اتباعهم، و لم يعبأ فى مخالفة الأغلبية، و لم يبال بالاضطهاد المنتظر بحق كل من يخالف رأى الدولة. و إن كان رأيها هو الرأى السائد و القول المتبع. فلذلک تكونت حول شخصيته تلک المؤامرات و الدسائس، التى تتكيف بمزاج العصر و أوضاعه؛ لأن أعظم سلاح يقاوم به من يخالف آراء ملوک ذلک العصر هو الاتهام بالبدعة، و الرمى بالإلحاد و الزندقة. و يكفى للاستدلال على براءة هشام من ذلک قول الإمام الصّادق عليه السّلام: «يا هشام ما زلت مؤيدا بروح القدس» . و قوله: «هذا ناصرنا بقلبه و لسانه» . و قوله: «هشام رائد حقّنا المؤيّد لصدقنا، و الدافع لباطل أعدائنا، من تبعه و تبع أمره تبعنا، و من خالفه فقد عادانا» . و قال علم الهدى السيد المرتضى: فكيف يتوهم عاقل-مع ما ذكرناه-على هشام هذا القول: بأن ربّه سبعة أشبار بشبره، و هل ادعاء ذلک عليه (رضوان اللّه عليه) مع اختصاصه المعلوم بالصادق، و قربه منه و أخذه عنه إلاّ قدح فى أمر الصّادق، و نسبته للمشاركة فى الاعتقاد الذى نحلوه هشاما، و إلاّ كيف لم يظهر عنه من النكير عليه، و التبعيد له بما يستحقه المقدم على هذا الاعتقاد المنكر، و المذهب الشنيع (1). و وردت فى حقه روايات مدح من بقية الأئمة عليهم السّلام كقول الإمام الرضا عليه السّلام عند ما سئل عن هشام: «رحمه اللّه كان عبدا ناصحا و أوذى من قبل أصحابه حسدا منهم له» . و قال الإمام الجواد عليه السّلام: «هشام بن الحكم رحمه اللّه ما كان أذبّه عن هذه الناحية» . و صفوة القول: إن هشام بن الحكم كان عظيم المنزلة، رفيع المكانة ثقة فى الحديث، مبرزا فى الفقه و التفسير و سائر العلوم و الفنون. و الشىء الذى يلفت النظر، هو وجود بعض الروايات عن أئمة أهل البيت عليهم السّلام تنص على الطعن فى عقيدة هشام، و قد ذكرها الأصحاب فى معرض النقد و الرد، إذ هى-بدون شک-مكذوبة لا صلة لها بالصحة.

1- 1) الشافى ص 12.

فمن ذلک: ما أشاعوه عن الإمام الرضا علیه السّلام أنّه قال فی هشام: إنه ضال مضل، شرک فی دم أبی الحسن الکاظم علیه السّلام و لما شاعت هذه المقالة قدم جماعة من الشیعة إلی الإمام الرضا علیه السّلام یسألونه عن ذلک القول، و عن مبلغه من الصحّة لکی یتبرّءوا من هشام إن صح ذلک. فتقدم إلیه موسی بن المشرقی یسأله عن ذلک القول، و هل یتولّون هشاما أم یتبرّءون منه؟ فأجابه الإمام بلزوم موالاة هشام، و قال له: «تولوه، إذا قلت لک فاعمل به و لا ترید أن تغالب به، أخرج الآن فقل لهم-أی الشیعة-: قد أمرنی بولایة هشام» . و قال علیه السّلام «رحمه اللّه-أی هشاما-کان عبدا ناصحا و أوذی من قبل أصحابه حسدا منهم له» (1). و منهم: عن محمّد بن زیاد قال: سمعت یونس بن ظبیان یقول: دخلت علی أبی عبد اللّه الصّادق علیه السّلام فقلت له: إن هشام بن الحکم یقول قولا عظیما إلاّ أنی أختصر لک منه حرفا: یزعم أن اللّه جسم لأن الأشیاء شیئان: جسم و فعل فلا یجوز أن یکون الصانع بمعنی الفعل، و یجوز أن یکون بمعنی الفاعل. فقال أبو عبد اللّه: «ویله، أ ما علم أن الجسم محدود متناه، و القدرة محدودة متناهیة، فإذا احتمل الحد احتمل الزیادة و النقصان، و إذا احتمل الزیادة و النقصان کان مخلوقا» . هکذا ادعی یونس بن ظبیان أنّه سمع ذلک فی حقّ هشام. و یونس، هذا هو ممن یکید لهشام و یبغضه، لأن یونس من الغالین الذین شوّهوا سمعة المذهب، و هو من أصحاب أبی الخطاب. قال ابن الغضائری: یونس بن ظبیان کوفی غال کذاب، وضّاع للحدیث. روی عن أبی عبد اللّه، لا یلتفت إلی حدیثه. و قال النجاشی: إنه مولی ضعیف جدا لا یلتفت إلی ما رواه، کل کتبه تخلیط، و قد ورد لعنه علی لسان الأئمة. و علی أی حال، فإن هشام بن الحکم من المعذّبین فی اللّه، و هو أجلّ من أن

1- 1) جامع الرواة ج 2 ص 213. [1]

تنسب إليه تلـک الأـمور، و أعظم منزلـة من کـل مـا يرمونه به، فلاـ يلتفت إلى تلـک الخرافـات و الأوهـام و الـدسائس التى حيكت حول شخصيته.

هل تؤاخذ الأمة بقول الفرد؟ !

و لم يكف خصوم هشـام صوغ تلک العبارات و اختراع تلک الحكايات فى ذمّه و الحط من كرامته، حتى تجاوزوا الحـدّ فى ذلک، و نسـبوا تلک الآراء المفتعلـة لمجموع الشـيعة، و هـذا من الخطأ الفاحش. و لو سـلمنا جـدلا أن هشام بن الحكم كان يعتقد بما نقل عنه (و العياذ باللّه) فهل يصح لهـم أن يجعلوا ذلک الرأى لمجموع الشـيعة، و أن تلک العقائد المكذوبة هى من عقائد الشـيعة؟ و هل يصح لهـم مؤاخذة الكـل بجريمـة الجزء؟ و هـذا أمر لا يبرّره منطق سـليم، لأن جميع الهيئات و الطوائف فى المجتمع الإنسانى لا تخلو من أفراد يحطّون من قدرها و يسيؤون إلى سمعتها! ! و قد استساغوا ذلک فى حق الشيعة بنسبة الآراء الفردية لمجموع الأمة، و هذا كثير لا حصر له و لسنا بصدده الآن. و كما قلنا: إذا سـلمنا جدلا بصـحة ما يقولونه فى هشام (و ليس لقولهم نصيب من الصحّة) فهل يصح أن يجعل ذلک الرأى لمجموع الشـيعة؟ و قـد سـلک هـذه الطريقة الملتوية و ارتكب هذا الخطأ الفاحش جماعة من القدماء و بعض المتأخرين و لم يكتفوا بالافتراء على هشام بل جعلوا ذلک لمجموع الشـيعة إفكا و زورا. و على سبيل المثال نـذكر ما يقوله الخياط المعتزلى فى كتابه «الانتصار» ، بعـد أن ذكر تلک المفتريات عن هشام بن الحكم منتصـرا لأشـياخه، و مقلـدا للجاحظ فى إفكه و بهتانه. قال: الرافضـة تعتقـد أن ربها ذو هيئـة و صورة، يتحرک و يسكن، و يزول و ينتقل، و أنّه غير عالم فعلم. إلى أن يقول: هذا توحيد الرافضة بأسرها إلاّ نفر منهم يسير صحبوا المعتزلة و اعتقدوا التوحيـد، فنفتهم الرافضـة عنهم و تبرءوا منهم. أمـا جملتهم و مشايخهم مثل هشام بن سالم، و شـيطان الطاق، و على بن ميثم، و هشام بن الحكم، و السكاک، فقولهم ما حكيت عنهم. ثم يقول: الرافضة تقول: إن ربّها جسم ذو هيئة و صورة، يتحرک و يسكن و يزول و ينتقل.

فهل على وجه الأرض رافضـی إلاّ و هو يقول: إن اللّه صورة. و يروى فی ذلک الروايات و يحتـج فيه بالأحاديث عن أئمتهم إلاّ من صـحب المعتزلـة منهم. إلى آخر أقواله و تقولاته فی كتاب «الانتصار» فی مواطن متعددة. و لا أريد مناقشة هذا الافتراء و الدسّ، و هذه الأقوال التی لا ربط لها بالحقيقة، و لا مساس لها بالواقع، و لكن من الحق أن نؤاخذه بهذا الانحراف، و نحاسـبه على هذا الشذوذ فی سلوک تلک الخطة الملتوية، و قد سار على هذا كثير ممن كتب عن الشـيعة بدون تفكير و تدبّر، و ذكروا فرقا للشـيعة بأسـماء من ينسبون إليهم رأيا فرديا، و هو افتراء و تقول بالباطل. و لئن صـح هذا السـلوک و اسـتساغوا هذه اللغة فيصح للشـيعة عندئذ هذا الاسـتعمال فيقيسوا مجموع الأمة بالفرد و ينسـبوا الآراء الفرديـة للجميع. و قـد اشـتهر جماعة من علماء المذاهب الأخرى و المقدمين عندهم بشذوذ فی الآراء و فساد فی الاعتقاد و إليک منهم: 1-شـهاب الدين يحيى بن حبش، فقد اشتهر عنه أنه كان زنديقا، و له عقيدة الانحلال و التعطيل، و له أشياء منكرة، و كان بارعا فی علم الكلام مناظرا محجاجا (1). 2-محمّد بن جمال الباجريقی الشافعی المعروف بالشـمس، و قد عرف بالزندقة و الإلحاد، و له أتباع ينسـبون إليه، و يعكفون على ما كان يعكف عليه (2). 3-الرفيع الجيلی الشافعی قاضـی القضاة بدمشق المتوفى سنة 642 ه. قال ابن شهبة فی تاريخه: إنه كان فاسـد العقيـدة دهريا مسـتهزءا بأمور الشـريعة. و يقول ابن العماد: إنه سار سـيرة فاسـدة. مع قلـة دين و فساد عقيدة، مع استعمال المنكرات و حضور صلاة الجمعة سكرانا (3). 4-عبد اللّه بن محمّد بن عبد الرزّاق الحربوی بن الخوام الشافعی، فإنه نسب الوزير رشيد الدولة إلى الربوبية بتقريضه تفسيره حتى قال شاعر وقته: يا حزب إبليس ألا فابشروا إن فتى الخوام قد أسلما

1- 1) شذرات الذهب ج 4 ص 29، و [1]مرآة الجنات ج 3 ص 437.

2- 2) البداية و النهاية لابن كثير ج 14 ص 14. [2]

3- 3) شذرات الذهب ج 5 ص 214. [3]

و كان فيما قال فى كفره إن رشيد الدين رب السّما

و قال لى شيخ خبير به ما أسلم الشيخ بل استسلما

(1)فهل يصح هنا أن نؤاخذ الأمة بهذا الرأى الفردى، كما أخذوا الشيعة بما ينسب للحسن بن هانى الشاعر الأندلسى فى مدحه للمعز بقوله: ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهّار

و قالوا: إن الشيعة بلغوا فى الغلو درجة بعيدة، و مثلوا له بقول الحسن بن هانى (2). و مما يؤسف له أن هذا القول صدر من مثقف من أبناء عصر النور، فما قولنا فى أبناء العصور المظلمة. و هذا القول هو أحد الدواعى التى ألجأتنا إلى إعطاء هذه الصورة و إثبات هذا العرض. 5- محمّد بن العلى أبو عبد اللّه الحكيم الترمذى الشافعى. كان يفضل الأولياء على الأنبياء، و قد ألّف كتابا فى ذلك سمّاه ختم الولاية، و قال: إن للأولياء خاتما كما لأن للأنبياء خاتما، و إنّه يفضل الولاية على النبوة محتجا بالحديث: «الأولياء يغبطهم النبيون و الشهداء» . قال: لو لم يكونوا أفضل منهم لم يغبطوهم (3). 6-الركن عبد السّلام بن وهب بن عبد القادر الجيلانى الحنبلى المتوفى سنة 611 ه. كان داعية للانحلال و حكم بكفره، و كان يخاطب النجوم و يقول لزحل: أيها الكوكب الدرّى المضىء المنير أنت تدبر الأفلاك و تحيى و تميت و أنت إلهنا. و له فى حق المريخ من هذا الجنس (4). 7-صدقة بن الحسين البغدادى الحنبلى المتوفى سنة 267 ه. كان بارعا فى فقههم و أصولهم، و المقدم فى عصره عندهم، مع سوء اعتقاده

1- 1) الدرر الكامنة ج 2 ص 292. [1]

2- 2) أثر التشيع فى الأدب العربى لمحمّد سيد گيلانى ص 89.

3- 3) طبقات الشافعية ج 2 ص 20.

4- 4) شذرات الذهب ج 5 ص 45. [2]

و فساد رأيه، و رداءة مـذهبه. قال ابن الجوزى فى المنتظم: إنه يعترض على القدرة، و أورد له من الشـعر ما يدل على سوء معتقده. كقوله: لا توطّنها فليست بمقام و اجتنبها فهى دار الانتقام

أ تراها صنعة من صانع أم تراها رمية من غير رام

و قد وضعوا فيه مناما بعد موته عند ما سئل عن حاله فقال: غفر لى بتميرات تصدقت بها على أرملة (1). 8-إسماعيل بن على الملقب بفخر الدين الفقيه الحنبلى المتوفى سنة 616 ه. كان من المشـهورين فى علم الكلام، قرأ المنطق و الفلسفة على ابن مرقيس الطبيب النصرانى، و كان يتردد عليه إلى بيعة النصارى، و صـنّف كتابا سـمّاه نواميس الأنبياء، يذكر أنّهم كانوا حكماء، كهرمس، و أرسطاطاليس و كان متسامحا فى دينه متلاعبا به، إلى آخر ما نقل عنه من الآراء الفاسـدة، و الأمور القبيحـة (2). كان أحد العلماء العارفين بالمذهب، و نسـبت إليه أشياء قبيحة و آراء فاسدة (3). 9-إبراهيم الملقب بشمس الدين الحنبلى المتوفى سنة 610 ه. 10-إبراهيم بن يوسف أبو إسحاق الأوسى المالكى المتوفى سنة 611 ه المعروف بـابن المرأة، كـان فقيها مالكيا غلب عليه علم الكلام. ذكره ابن حبان فى زنادقـة أهل الأنـدلس (4). 11-أبو معن النميرى من كبار المعتزلـة، قال ابن قتيبة: و من المشـهور عنه أنّه رأى قوما يتعادون إلى الجمعة لخوفهم فوت الصـلاة فقال: انظروا إلى البقر أنظروا إلى الحمر. ثم قال لرجل من إخوانه: أنظر ما صـنع هذا العربى بالناس (5)؟ 12-و محمّد اللوشى الغرناطى المتوفى سنة 776 ه فقد نسب إلى الزندقة

1- 1) لسان الميزان ج 3 ص 186.

2- 2) شذرات الذهب ج 5 ص 41. [1]

3- 3) شذرات الذهب ج 5 ص 40. [2]

4- 4) لسان الميزان ج 1 ص 127.

5- 5) نفس المصدر ج 2 ص 83.

و الإلحاد و الانحلال، و الخروج عن الدين، و انتقاص النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلى غير ذلک مما اتصف به (1). و غير هؤلاء ممن يطول المقام ببسط القول فيهم، كالشيخ نجم الدين بن خلكان (2)و إسماعيل بن عبد اللّه الرعينى، و الفخر الرازى المؤرخ الكبير و المفسّر الشهير (3)و أبو حيان التوحيدى الشافعى و غيرهم ممن رمى بالإلحاد و الزندقة و سوء العقيدة و نسبت إليه آراء فاسدة. و إذا أردنا أن نتوسع فى الموضوع و نرجع إلى أعيان المذاهب و من عليهم مدار أحكامها فالأمر أفظع. فهذا محمّد بن الحسن الشيبانى المتوفى سنة 189 ه، و هو عماد المذهب الحنفى و قوامه، و عليه مدار أحكامه، لما قام به من التأليف و نشر المذهب، و إذا صح التعبير فنقول: هو إمام المذهب الحنفى الثانى، و مع هذا فقد رموه بالإرجاء و غيره، كما حكى عن أحمد بن حنبل أنّه قال فيه: إنه مرجئ. و قد ردّ شريک القاضى شهادته و وقعت بينه و بين أبى يوسف منافرة، فكان أبو يوسف يقول: محمّد بن الحسن جهمى. إلى غير ذلک من الأقوال فيه (4)و من أعيان الحنفية: بشر بن غياث المريسى المتوفى سنة 218 ه فقد وصفوه: بأنه ضال مبتدع، و نص أبو زرعة على زندقته، و قال الأزدى: أنه على غير طريقة الإسلام. و إنه كان ينكر عذاب القبر و سؤال الملكين، و الصراط و الميزان، إلى آخر ما روى عنه من الأقوال المنكرة، و الآراء الفاسدة (5). و كذلک محمّد بن شجاع الثلجى المتوفى سنة 267 ه. من فقهاء الحنفية، و له الرئاسة فى وقته، و قد نسب إلى البدعة. سئل عنه أحمد بن حنبل فقال: مبتدع صاحب هوى. و قال الساجى: إن

1- 1) شذرات الذهب ج 6 ص 46. [1]

2- 2) انظر مرآة الجنان ج 4 ص 242. [2]

3- 3) شذرات الذهب ج 5 ص 21. [3]

4- 4) وفيات الأعيان ج 3 ص 224، و لسان الميزان ج 5 ص 121.

5- 5) لسان الميزان ج 2 ص 30، و الفوائد البهية فى تراجم الحنفية ص 54، و الفرق بين الفرق للبغدادى ص 124. [4]

محمّد بن شجاع كان كذابا، احتال فى إبطال حديث رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم نصرة لأبى حنيفة. و قال ابن الجوزى: كان يضع الحديث فى التشبيه و ينسبه لأهل الحديث (1). هذا عرض تاريخى موجز لجماعة اتهموا بسوء الاعتقاد فتحمّلوا مسئوليته دون غيرهم، و بوسعنا أن نذكر من الشخصيات العظيمة التى نسبوا إليها آراء فاسدة و مذاهب ذميمة، كأبى الحسن الأشعرى (2)إمام أهل السنّة، و شيخ الطريقة فى الاعتقاد فقد وصفوه بالبدعة و الضلالة، و أنّه أنكر نبوة محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بعد موته، كما أنكر عذاب اللّه للعصاة و الكفّار، و أنّه تعالى لا يجازى المطيعين على إيمانهم و طاعتهم. و كان يقول: بتكفير العوام (3)إلى غير ذلك مما نسبوه له، و ما اتهموه فيه. و كذلك ابن تيمية و ابن القيم الجوزية و تاج الدين السبكى و غيرهم. إننا لا نستعمل تلك الطريقة الملتوية، و ذلك القياس المعكوس، فلا نقيس الأمّة بالفرد، و لا نؤاخذ السليم بالسقيم، بل نتثبت فى الحكم على الشخصيات الإسلامية، فلا نتسرع بقبول الاتهام ما لم يتضح الأمر، لأننا قد عرفنا أثر ذلك التطور الذى حدث فى البلاد الإسلامية، فهو عامل من أخطر العوامل التى لعبت دورها فى الحياة العقلية، فى تلك العصور الماضية. إلى جانب ذلك يلزمنا أن لا نهمل عوامل السياسة، و التهالك على السيادة فى تفريق صفوف الأمة، و جعلها أحزابا و فرقا! . و الغرض: أن قياس الأمّة بالفرد من الأمور التى لا يقرّها المنطق. و قد سلكوا فى اتهام الشيعة طرقا غير صحيحة، و كالوا لهم الذم جزافا، بدون تمحيص و تدبّر، و لعبوا فى التاريخ و خاضوا فيه بالباطل فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَ يَلْعَبُوا حَتّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ اَلَّذِى يُوعَدُونَ و لا نريد أن نقابلهم بالمثل و لا نقيم معهم الحساب، بل نتركهم ليوم الحساب، يوم يقوم الناس لرب العالمين، فهم مسئولون أمام اللّه عن بذور التفرقة

1- 1) الفوائد البهية ص 172.

2- 2) أبو الحسن الأشعرى: هو على بن إسماعيل يرجع نسبه إلى أبى موسى الأشعرى، توفى سنة 324 ه كان معتزليا و يعد من كبارهم و متكلميهم، ثم رجع عن الاعتزال و ألّف كتبا فى العقائد، فأصبح شيخ طريقة أغلب أهل السنة و عليه المدار فى الاعتقاد.

3- 3) طبقات الشافعية ج 2 ص 278-285.

التی زرعوها فی حقول التاریخ فاجتنت ثمرتها الأجیال؛ فکان من أثر تسمم الثمرة أن یهاجمنا فی کل آونة بعض من أبناء هذا العصر ممن أخذ التقلید بعنقه. فسیّره طوع إرادته، و حرمه حریة التفکیر، و لکنا لا نود مقابلته بل نمرّ علی ما نقرأ له مرّ الکرام، داعین اللّه له بالشفاء من الأمراض العقلیة. و صفوة القول: إن تلک العصور التی عظم فیها التطاحن قد کدّرت صفو الأخوة، و غیّرت مجری الواقع. و الشیء الذی نود أن ننبّه علیه فی ختام هذا العرض: هو أنّه لما لم یکن الاتهام مبنیا علی أساس وثیق، و قاعدة بیّنة، کثر الخلط و الخبط، و لم یفرقوا بین السلیم و السقیم، و المتهم و البریء. و إلیک أمثلة من ذلک: 1-إن اسم الجعفریة أصبح علما لأتباع جعفر بن محمّد الصّادق، و به یعرفون. و توجد هناک فرقتان من المعتزلة عرفتا بالجعفریة: الأولی: أتباع جعفر بن حرب الثقفی المتوفی سنة 224 ه. و الثانیة: أتباع جعفر بن مبشر الهمدانی المتوفی سنة 226 ه، و کلاهما من المعتزلة و لهما آراء و أقوال شاذة اشتهرت عنهما، و تناقلها الناس، و تبعهما علی ذلک خلق عرفوا بالجعفریة، فجاء من لا یفرق بین الحق و الباطل و لا یعرف إلاّ اتباع هواه، فخلط هذین الفرقتین مع الفرقة الجعفریة الشیعیة، و نسب تلک الأقوال الشاذة إلیهم بدون تفکیر و تدبر!! 2-قولهم فی المفضل بن عمر أنّه کان یلعب بالحمام، و إنه من أصحاب أبی الخطاب، مع العلم بأن المفضل هو أجلّ من ذلک، و لکنهم لم یفرّقوا بینه و بین المفضّل بن عمر الصیرفی، الذی کان من الخطابیة و من المخالفین لقواعد الإسلام، فخلطوا بین هذا و ذاک و لم یهتدوا للتفرقة، و لعل أکثرهم یتعمد ذلک للوقیعة فی المفضل، لأنه شیعی من خواص الإمام الصّادق. 3-إن من المعتزلة فرقة تعرف بالهشامیة، و هم أصحاب هشام بن عمر الفوطی، و کان معاصرا لهشام بن الحکم، و قد ذهب إلی أشیاء منکرة. و أنت عند مراجعتک لما اتهم به هشام من تلک الأمور المفتعلة تجد أکثرها من أقوال الفوطی، لأنهم خلطوا فی ذلک، و لم یفرّقوا بین هشام بن الحکم و بین هشام بن عمرو الفوطی!!

و كثير من هـذا الخبط و الخلط، مما يطول بنا الحديث عنه و الحديث شـجون. و لنعد إلى الحديث عن هشام و مكانته، و نرى من الخير أن نـذكر هنا وصـية الإمام موسـى بن جعفر له، فهى من غرر الوصايا، و جوامع الكلم، و على ضوئها نأخـذ صورة عن منزلة هشام. و قد اقتطفنا منها قليلا، و هى طويلة:

وصية الإمام موسى له:

قال الإمام موسـى بن جعفر عليه السّـلام موصـيا هشاما: «يا هشام، من أراد الغنى بلا مال، و راحة القلب من الحسد، و السّلامة فى الدين، فليتضـرع إلى اللّه فى مسـألته بـأن يكمل له عقله، فمن عقل قنع بما يكفيه، و من قنع بما يكفيه اسـتغنى، و من لم يقنع بما يكفيه لم يـدرک الغنى أبـدا. يا هشام، من صـدق لسانه زكى عمله، و من حسـنت نيته زيـد فى رزقه، و من حسن برّه بإخوانه و أهله مـدّ فى عمره. يا هشام، لا تمنحوا الجهـال الحكمـة فتظلموها، و لا تمنعوها أهلها فتظلموهم. يا هشام، كما تركوا لكم الحكمـة؛ فاتركوا لهم الـدنيا. يا هشام، إن أمير المؤمنين عليه السّلام كان يقول: لا يجلس فى صدر المجلس إلاّ رجل فيه ثلاث خصال: يجيب إذا سئل، و ينطق إذا عجز القوم عن الكلام، و يشـير بالرأى الذى فيه صـلاح أهله. فمن لم يكن فيه شىء منهن فجلس فهو أحمق. يا هشام، إن العاقل لا يحدّث من يخاف تكذيبه، و لا يسـأل من يخـاف منعه، و لا يعـد ما لا يقـدر عليه، و لا يرجو ما يعنّف برجائه، و لا يتقـدّم على ما يخاف لعجز عنه. يا هشام، رحم اللّه من اسـتحيا من اللّه حق الحيـاء فحفـظ الرأس و ما حوى، و البطن و ما وعى، و ذكر الموت و البلى، و علم أن الجنّـة محفوفـة بالمكاره، و النار محفوفة بالشهوات. يا هشام، من كفّ نفسه عن أعراض الناس أقال اللّه عثرته يوم القيامة، و من كفّ غضبه عن الناس كفّ اللّه عنه غضبه يوم القيامة. يا هشام، تعلّم من العلم ما جهلت، و علّم الجاهل مما علمت. عظّم العالم لعلمه، و صـغّر الجاهل لجهله و لا تطرده، و لكن قرّبه و علّمه.

یـا هشـام، علیـک بالرفق، فإن الرفق یمن، و الخرق شؤم، إن الرفق و البر و حسن الخلق یعمر الـدیار، و یزیـد فی الأعمار. یا هشام، إن مثل الـدنیا مثل الحیة مسّ ها لیّن، و فی جوفها السم القاتل. یحذرها الرجال ذوو العقول، و یهوی إلیها الصبیان بأیدیهم. یا هشام، إن الزرع ینبت فی السـهل و لا ینبت فی الصّ فا، فکـذلک الحکمة تعمر فی قلب المتواضع، و لا تعمر فی قلب المتکبر الجبّار، لأن اللّه جعل التواضع آلة العقل، و جعل التکبر آلة الجهل، أ لم تعلم أن من شمخ إلی السقف شجّه، و من خفض رأسه استظل تحته و أکنّه، و کذلک من لم یتواضع للّه خفضه اللّه و من تواضع للّه رفعه. یـا هشـام، إیـاک و مخالطـة الناس و الأنس بهم، إلاّ أن تجـد بهم عاقلا و مأمونا فآنس به، و اهرب من سائرهم کهربک من سباع الضاریة. و ینبغی للعاقل إذا عمل عملا أن یستحی من اللّه. و إذا مرّ بک أمران لا تدری أیهما خیر و أصوب فانظر أیهمـا أقرب إلی هواک فخـالفه، فإن کثیر الصواب فی مخالفـة هواک. یا هشام، من أحب الـدنیا ذهب خوف الآخرة من قلبه. و ما أوتی عبد علما فازداد من الـدنیا حبا إلاّ ازداد من اللّه بعـدا، و ازداد اللّه علیه غضـبا. یا هشام، إیاک و الطمع، و علیک بالیأس مما فی أیـدی الناس، و أمت الطمع من المخلوقین، فإن الطمع مفتاح للـذل و اختلاس العقل، و اختلاق المروءات و تـدنیس العرض، و الـذهاب بالعلم. و علیک بالاعتصام بربک و التوکّل علیه، و جاهـد نفسک لتردّها عن هواها، فإنّه واجب علیک کجهاد عدوک» . قال هشام: قلت أی الأعداء أوجبهم مجاهدة؟ قال علیه السّ لام: «أقربهم إلیک، و أعداهم لک، و أضرّهم بک، و أعظمهم لک عداوة، و أخفاهم لک شخصا-مع دنوه منک. . .» . یا هشام، من أکرمه اللّه بثلاث فقـد لطف له: عقل یکفیه مئونـة هواه، و علم یکفیه مئونـة جهله، و غنی یکفیه مخافـة الفقر. یا هشام، احذر هـذه الدنیا و احذر أهلها، فإن الناس فیها علی أربعة أصـناف: رجل متردی معانق لهواه، و متعلّم مقرئ کلما ازداد علما ازداد کبرا یسـتعلی بقراءته و علمه علی من هو دونه، و عابد جاهل یستصغر من هو دونه فی عبادته، یحب أن

يعظّم و يوقّر، و ذو بصيرة و لا ـ يقدر على القيام بما يعرفه فهو محزون مغموم بذلک، فهو أمثل أهل زمانه و أوجبهم عقلا» . ثم ذكر عليه السّلام العقل و جنده و الجهل و جنده. و تركنا ذلک اختصارا.

و خلاصة القول:

إن هشام بن الحكم قد عز بولائه لأهل البيت، و ناظر جميع أهل الفرق فى التوحيد و الإمامة، و ضحّى براحته فى سبيل مبدئه، و بذل أقصى الجهد من أجل إصلاح العقيدة و القضاء على البدعة. و كان يستمد تعاليمه من ينبوع أهل بيت النبوة، هداة الخلق، و أئمة العدل. و قد لقى العنت من حساده و منافسيه، و كان عرضة للخطر من قبل سلطان عصره حتى أصبح مشردا عن البلاد. و قد طلبه هارون الرشيد أشد الطلب حتى أدركه الموت بالكوفة مختفيا، و أوصى أن يحمل فى جوف الليل، و يدفن بالكناسة، و تكتب رقعة على قبره: هذا قبر هشام بن الحكم- الذى طلبه أمير المؤمنين-مات حتف أنفه. و بلغ هارون الرشيد ذلک فقال: الحمد للّه الذى كفانا أمره. و كان هارون قد أخذ به خلقا كثيرا من تلامذته و أصحابه، و منهم إخوانه. فأفرج عنهم بعد موته و أطلقهم. لقد كان هشام من المفكّرين المصلحين، الذين خدموا الأمّة بإخلاص النية و صدق العزيمة و رجاحة الرأى. و له القدح المعلى فى نصرة مذهب أهل البيت، و إنک عند ما تتبع آثاره الخالدة تجده يلتفت إلى النوادر من الفروع. و إلى الغوامض من المسائل، و له كلمات خالدة ذكرها العلماء فى مختلف المواضيع: فى التوحيد، و النبوة و الإمامة، و قد ضاق المجال عن استقصائها. و قد كانت لى رغبة شديدة فى إحياء مآثره و الإحاطة بدراسة شخصيته دراسة وافية غير أنى لما وجدت الشيخ محمّد حسين المظفر قد كتب رسالة كبيرة قيمة فيه. تركت الميدان لفارس الحلبة. فرحم اللّه هشاما، لقد أوذى فى سبيل نصرة الحق، و كان من اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يَلْبِسُوا إِيمانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولئِکَ لَهُمُ اَلْأَمْنُ وَ هُمْ مُهْتَدُونَ (1). و هنا ينتهى حديثنا عن أصحاب الإمام الصّادق، و لم نذكر كثيرا منهم طلبا للاختصار. و ستأتى الإشارة إلى الأعيان منهم كهشام بن سالم الجواليقى، و هشام بن الأحمر، و هشام بن المثنّى الرازى، و غيرهم، و باللّه نستعين و منه نستمد التوفيق.

1- 1) سورة الأنعام آية 82. [1]

الفرق الإسلامية

اشارة

فی عصر الإمام الصّادق

تمهید:

لعل خیر ما یعکس لنا أهمیة الدور الذی لعبته مدرسة الإمام الصّادق علیه السّلام و النشاط العلمی الذی قامت به فی ذلک العصر، و اتساع نفوذها و کثرة روادها هو ما نجده فی انتماء رجال من أهل العلم إلیها، و حضورهم عنده لانتهال العلم، و أخذ الأحکام، فقد کانت مدرسته علیه السّلام جامعة إسلامیة، یؤمّها المسلمون من مختلف الطوائف، و شتّی الفرق، فهی مدار الحرکة الفکریة، و المحور الذی تدور علیه آمال الموجهین و حملة الدعوة الإسلامیة، و قد أثرت تعالیمه علیه السّلام فی کثیر من أولئک الرجال فاعتدلوا فی آرائهم. و الإمام أبو حنیفة الذی عرف بکثرة القیاس و طرح أکثر الأحادیث؛ یکشف لنا أهمیة هذه المدرسة و عظیم أثرها إذ یقول: (لو لا السنتان لهلک النعمان) و السنّتان هما اللتان حضر بهما عند الإمام الصّادق و کان الإمام الصّادق یشتد علیه فی کثرة القیاس و یناظره فی ذلک، و بهذا یتضح أن أبا حنیفة فی أخذه أقوال الإمام الصّادق، و اتباع أمره یعد نفسه فی نجاة من الهلکة، و ربما یکون ذلک فی ترکه القیاس، و أخذه بالأحادیث الصحیحة. و مهما یکن من أمر فقد حدّثنا التاریخ عن أولئک الرجال الذین ینتمون لفرق مختلفة قد حضروا عند الإمام الصّادق و ناظرهم، و فنّد کثیرا من آرائهم، و قد کان علیه السّلام یتحرّی من برز منهم مخافة اشتداد خطره و استفحال أمره، فإن لم یأته کبقیة أصحاب الفرق و المعتقدات و الأفکار الذین یقصدونه للکلام و المناظرة، وجّه أصحابه و أوصاهم بطریقة الوعظ و بمنهج الکلام الذی یختص بهذا الجانب، فیمضی

الأصحاب فی حلقاتهم و دروسهم علی تلک الطریقة و ذلک المنهج، و من قصده من أصحاب الفرق و الأقوال بعد سماعه ما تتحدّث به الرکبان و تلهج به الألسن من علم الإمام الصّادق یلق من الإمام حججا ساطعة و براهین واضحة لا یملک معها الإنسان إلاّ أن یثوب إلی رشده أو یکابر و یعاند. و من الضروری التعرّف علی أهم تلک الفرق الإسلامیة، التی نشأت فی عصره أو سبقته بدون إحاطة أو إسهاب فی البیان.

الخوارج:

نشأت هذه الفرقة بصفّین، عند ما طلب معاویة التحکیم من الإمام علی علیه السّلام، و هی خدعة حربیة استعملها معاویة و دلّه علیها ابن العاص عند ما أحس بالهزیمة و لمس الضعف فی جیشه، و عرف تفوق علی بحقّه، و إن الحق مع علی علیه السّلام و قد انضم لجیشه رجال مخلصون قد رسخ الإیمان فی قلوبهم. أراد معاویة أن یوقع الشک، و یحدث الفرقة فی صفوف جیش الإمام علیه السّلام و قد وقع ما أراد معاویة، فقد نفرت طائفة لم یترسخ الإیمان فی قلوبهم و مرقوا من الدّین، و لم یقبلوا تحکیم أحد فی کتاب اللّه و رأوا أن التحکیم خطأ، لأن حکم اللّه فی الأمر واضح جلی، و التحکیم یتضمن شک کل فریق من المحاربین أیهما المحق؟ و لیس یصح هذا الشک، لأنهم و قتلاهم إنما حاربوا و هم مؤمنون. هذه المعانی المختلجة فی نفوسهم صاغها أحدهم فی الجملة الآتیة: (لا حکم إلاّ للّه) فسرت هذه الجملة سیر البرق إلی من یعتنق هذا الرأی، و تجاوبتها الأنحاء فأصبحت شعار هذه الطائفة (الخوارج) . و علی أی حال، فقد تکونت هذه الفرقة من عناصر مختلفة، و ظهرت منهم مخالفة علی علیه السّلام و تجرءوا علی مقامه. و نسبوا إلیه ما لا یلیق بشأنه. و قد نظموا أمورهم، و قاموا بأمر لم یکن ولید وقته و إنما هو أمر مدبّر من ذی قبل، فکانت حرب النهروان، و قضی الإمام علی علیه السّلام علی زعمائهم. و استمروا علی اعتقادهم و حماسهم، و کانوا یظنّون أنّهم أشد فرق المسلمین دفاعا عنه، و أظهروا غضبهم علی کثیر من الخلفاء، و استعملوا ألفاظا معسولة فی الدعوة إلی مبادئهم، و تظاهروا بالهدف إلی العدل و المساواة، و لکنهم تلبسوا بالظلم إلی أبعد حد، و أباحوا دماء جمیع المسلمین، و خضبوا البلاد الإسلامیة بالدماء.

و كانوا يتهورون فى دعوتهم، و يتشـدّدون فى عقيدتهم، و يرون إباحة دماء المسـلمين الذين يخالفون عقيدتهم، فالمسـلم المخالف لهم لا عصـمة لدمه. و من طريف أخبارهم: أنّهم أصابوا مسـلما و نصـرانيا فقتلوا المسلم و أوصوا بالنصرانى، و قالوا: احفظوا ذمّة نبيّكم فيه. و قتلوا عبـد اللّه بن خباب و فى عنقه مصـحف، و قالوا: إن الّـذى فى عنقك يأمرنا أن نقتلك، فقرّبوه إلى شاطئ النهر فذبحوه و بقروا بطن زوجته. و ساوموا نصرانيا نخلة له، فقال: هى لكم. فقالوا: و اللّه ما كنا لنأخذها إلاّ بثمن، فقال لهم النصرانى: ما أعجب هذا؟ أ تقتلون مثل عبد اللّه بن خباب و لا تقبلوا منا ثمن نخلة؟ ! .

آراء الخوارج و فرقهم:

اتفق جمهور الخوارج على نظريتين: 1-نظرية الخلافة: و هى أن الخليفة لا يكون إلاّ بانتخاب حر صـحيح من المسلمين، و يستمر الخليفة ما قام بالعدل مبتعدا عن الزيغ و الخطأ، فإن حاد وجب عزله أو قتله. 2-إن العمل جزء من الإيمان، و ليس الإيمان الاعتقاد وحده، فمن لم يعمل بفروض الـدين و ارتكب الكبائر فهو عندهم كافر. و لم يفرّقوا بين ذنب يرتكب عن قصد و سوء نية و خطأ فى الرأى و الاجتهاد يؤدى إلى مخالفة الصواب، و بهذا كفّروا جميع فرق المسـلمين و أباحوا دماءهم. و الخوارج لا يرون أن يختص الخليفة ببيت من العرب، فليست الخلافـة فى قريش عندهم، و ليست لعربى دون أعجمى، و الجميع فيها سواء، بل يفضّـلون أن يكون الخليفة من غير قريش ليسـهل عزله أو قتله. و بهذا اسـتمالوا العناصر غير العربية، و جلبوا الموالى إليهم، لأن آراء الخوارج من شأنها أن تجعل للموالى الحق فى أن يكونوا خلفاء، لـذلك التحق بهم عـدد كثير من الموالى، و لو لاـ تعصب بعض الخوارج عليهم لازداد عـددهم، لأن هـذه الآراء تفسـح المجال لتـدخّل الدخلاء فى الإسلام، و مع ذلك فقد تكونت فرقة منهم انضمت لفرقة الخوارج، و هم اليزيدية أتباع يزيد بن أنيسة الخارجى، و ادّعوا أن اللّه سبحانه و تعالى

يبعث رسولا من العجم ينزل عليه كتابا ينسخ الشريعة المحمدية. و كذلک تکونت فرقة الميمونية، أتباع ميمون العجردی؛ و أظهروا عقائد المجوس، فکانوا يبيحون نکاح بنات الأولاد و بنات أولاد الأخوة، و بنات أولاد الأخوات.

فرق الخوارج:

اشارة

ذکر للخوارج فرق کثيرة قاربت العشرين فرقة علی حسب اختلافهم فی الآراء، و أهم فرقهم المشهورة:

الأزارقة:

و هم أتباع نافع بن الأزرق، و کان من أکبر فقهائهم. و قد کفّر جميع المسلمين. و قال: إنّه لا يحل لأحد من أصحابه أن يجيبوا أحدا من غيرهم إذا دعاهم إلی الصّلاة، و لا أن يأکلوا من ذبائحهم، و لا أن يتزوجوا منهم، و لا يتوارث الخارجی و غيره، و هم مثل کفار العرب و عبدة الأوثان، لا يقبل منهم إلاّ الإسلام أو السيف. و دارهم دار حرب، و يحل قتل أطفالهم و نسائهم، و لا تحل التقية، و استحل الغدر بمن خالفه. و أسقطوا الرجم عن الزانی إذ ليس له فی القرآن ذکر، کما أسقطوا حد القذف عمن قذف المحصنين من الرجال، مع وجوب الحد علی قاذف المحصنات من النساء. و قالوا: يجوز أن يبعث اللّه نبيا يعلم أنه يکفر بعد نبوته، أو کان کافرا قبل البعثة. و کان أصحاب نافع من أقوی فرق الخوارج و أکثرهم عددا، خرجوا من البصرة معه، فتغلبوا علی الأهواز و ما وراءها من بلدان فارس و کرمان، و قتلوا عمال تلک النواحی و اشتدت شوکتهم و وقعت حروب بينهم و بين الدولة الأموية بما لا يسع المجال لذکرها.

النجدات:

و هم أتباع نجدة بن عامر الحنفی. و هم الذين خالفوا نافعا و انفردوا بتعاليم منها: إن المخطئ بعد أن يجتهد معذور. و إن الدين أمران: معرفة اللّه، و معرفة رسوله، و ما عدا ذلک فالناس معذورون بجهله إلی أن تقوم عليهم الحجّة، و من أدّاه اجتهاده إلی استحلال حرام أو تحريم حلال فهو معذور. و أن من کذب کذبة صغيرة

أو كبيرة أو نظر نظرة و أصرّ عليهما فهو مشرک. و من شرب الخمر أو زنا أو سرق غير مصرّ على ذلک، فهو مسلم. و يوجبون قتل من خالفهم من المسلمين.

الأباضية:

و هم أتباع عبد اللّه بن أباض التميمى، الذى خرج أيام مروان الحمار. آخر ملوک بنى أمية، و لا يزال أتباعه إلى اليوم فى المغرب، و لعلّهم هم البقية من جميع فرق الخوارج الكثيرة. فقد انقرضت تلک الفرق و لم تبق منهم باقية إلاّ الأباضية، و هم على عقيدتهم فى تكفير جميع المسلمين، و يعتذرون عنهم بأنّهم يذهبون إلى تكفيرهم لا على سبيل الشرک، بل يرون أنّهم كفّار نعمة. و من جملة آرائهم: أن دماء مخالفيهم حرام فى السرّ لا فى العلانية، و دارهم دار توحيد. و إنهم ليسوا مشركين و لا مؤمنين، و يسمونهم كفارا، و لا يحل من غنائمهم فى الحرب إلاّ الخيل و السّلاح. و لا يزال الأباضيون يؤلّفون جماعات عديدة فى إفريقية الشمالية، و يوجد فريق آخر بزنجبار بإفريقية الشرقية. أما الوطن الأصلى للأباضيين الذين يهاجرون منه إلى إفريقية الشرقية فهو بلاد عمان العربية. و قد حاولوا فى السنوات الأخيرة أن يسنهضوا همّتهم و نشاطهم و أن يستعيدوا الشعور بكيانهم. و تقسم الأباضية ذاتها إلى ثلاثة شعب هى: الحفصية، و الحارثية، و اليزيدية.

الصفرية:

و هم أتباع زياد بن الأصفر، و قولهم فى الجملة كقول الأزارقة فى أن أصحاب الذنوب مشركون، لكنهم أقل تطرّفا منهم، و أشد من غيرهم؛ فلا يرون قتل أطفال مخالفيهم و نسائهم، و الأزارقة يرون ذلک. و اختلفوا فى مرتكب الكبائر فلم يتفقوا على إشراكه، فمنهم من يرى أن ما كان من الأعمال عليه حد واقع لا يسمى صاحبه إلاّ بالاسم الموضوع له، و سمّاه اللّه به كالسارق و الزانى، و ما ليس فيه حد فمرتكبه كافر. و من زعماء الصفرية: أبو هلال مرداس، الذى خرج أيام يزيد بن معاوية بناحية البصرة، على عبيد اللّه بن زياد.

و منهم: عمران بن حطان، و قد انتخبه الخوارج إماما لهم، و هو القائل يمدح عبد الرّحمن بن ملجم المرادى: يا ضـربة من منيب ما أراد بها إلاّ ليبلغ من ذى العرش رضوانا

إنى لأذكره يوما فأحسبه أوفى البرية عند اللّه ميزانا

و أجابه جماعة، منهم عبد القادر البغدادى المتوفى 429 ه: يا ضربة من كفور ما استفاد بها إلاّ الجزاء بما يصليه نيرانا

إنى لألعنه دينا و ألعن من يرجو له أبدا عفوا و غفرانا

ذاک الشقى لأشقى الناس كلهم أخفهم عند رب الناس ميزانا

و عمران بن حطان قد خرّج حديثه البخارى و وثّقه، و هذا من مزايا صحيحه و امتيازه.

العجاردة:

و هم أتباع عبـد الكريم بن عجرد، و كانت العجاردة مفترقـة عشـرة فرق، ثم افترقوا فرقا كثيرة، منها ما يتعلّق بالقـدر و قـدرة العبد، و منها ما يتعلّق بأطفال المخالفين. و قـد فارقوا الأزارقـة فى عـدم اسـتحلال أموال مخالفيهم. هـذا جملـة القول فى أهم الخوارج. و قد بلغت فرقهم عشرين فى العدد و كل فرقة تخالف الأخرى فى تعاليمها و آرائها، إلاّ أنّهم اتفقوا على النظريتين السابقتين. كما أجمعوا على تكفير: على، و عثمان، و أصـحاب الجمل، و الحكمين، و من رضـى بالتحكيم، و صوّب الحكمين أو أحدهما، و اعترفوا بصحة خلافة الشيخين. و بهذا قد اكتسـبوا الرضـا من أكثر من كتب عن الفرق، فإنّک تجـد اللهجـة خفيفـة فى التعبير عنهم، و ربمـا و صـفوا زعماءهم بالزهـد و الصـلاح. فالخوارج-مع عظيم إجرامهم-لا يوصـفون بما وصف به الشـيعة، فهم يكفّرون عليا، و لكن لا يعد هذا جرما فى نظر المتطرّفين، فلم يعبروا عنهم كما يعبّرون عن الشيعة بتلک العبارات القبيحة، و الألفاظ المستهجنة، و هم يوالون عليا و يذهبون لأحقيته بالخلافة. و بدون شک أن حركة الخوارج كانت من أكبر العوامل التى هدّدت المسلمين

بأخطـار شتّى، و قـد اتخـذوا تكفير جميع فرق المسـلمين وسـيلة لنشـاط دعوتهم، لأـن ارتكاب الجرائم-بمبرر-يميل إليه أهل الشـغب و الأـهواء. و لو لم يكن من مبـدئهم وجوب الخروج على أئمـة الجور لاسـتخدمتهم سـياسة تلـك العصور، و لعزّزت جـانبهم للفتـك بمن يريـدون الفتك به. و لكن ذلك الاعتقاد-و هو وجوب الخروج-هو الـذى أوجب أن تقاومهم السـلطة، فتـدور رحى الحرب معهم مدة من الزّمن، و قد سجّل التاريخ عنها حوادث كثيرة.

المعتزلة:

اشارة

يطول بنا الحـديث عن المعتزلـة إن أردنا بيان فرقها، و أسـباب افتراقها و آرائها السياسـية و الدينية، و نشاطها الفكرى، و حياتها العقلية. و قد اختلف فى تاريخ نشأتها، و تسـميتها بهذا الاسم، فهل كانت على عهد الصحابة أم على عهد الحسن البصرى، لاعتزال واصل بن طاء حلقة درس الحسن؟ إلى كثير من الأبحاث حول هـذه الفرقة. و نحن نكتفى بإلمامة موجزة لبيان الغرض فى ذلك: الأكثر على أن الاعتزال نشأ فى البصـرة، عنـد ما اعتزل واصل بن عطاء المتوفى سـنة 131 ه حلقـة درس الحسن البصـرى، لمخـالفته إياه فى مسألـة مرتكب الكبيرة، فقال واصـل: أنـا أقول إن صاحب الكبيرة ليس بمؤمن بإطلاق، بل هو فى منزلـة بين المنزلتين، أى أن مرتكب الكبيرة ليس بمؤمن و لا كافر، لكنه فاسق، و الفاسق يستحق النار بفسقه.

فرق المعتزلة:

قال الخياط فى كتاب «الانتصار» : ليس يسـتحق أحـد اسم الاعتزال حتى يجمع القول بالأصول الخمسـة: التوحيـد، و العـدل، و الوعد، و الوعيد، و المنزلة بين المنزلتين، و الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر، فإذا كمنت فى الإنسان هذه الأصول الخمس فهو معتزلى. و افترقت المعتزلة إلى فرق كثيرة، منهم: 1-الواصلية و هم أصحاب واصل بن عطاء. 2-الهذيلية و هم أصحاب أبى الهذيل العلاف.

3-النظامية و هم أصحاب النظام إبراهيم بن سيار. 4-الحائطية و هم أصحاب أحمد بن حائط. 5-البشرية و هم أصحاب بشر بن المعتمر. 6-المعمرية و هم أصحاب معمر بن عباد السلمى. 7-المزدارية و هم أصحاب عيسى، المكنى بأبى موسى الملقب بالمزدار. 8-الثمامية و هم أصحاب ثمامة بن أشرس النميرى. 9-الهشامية و هم أصحاب هشام بن عمر الفوطى. 10-الجاحظية و هم أصحاب عمرو بن بحر الجاحظ. 11-الخياطية و هم أصحاب أبى الحسين الخياط. 12-الجبائية و هم أصحاب أبى على محمّد بن عبد الوهاب الجبائى. و غيرهم. كما هو مذكور فى كتب أهل المقالات و الفرق، و قد ذكروا لهم أقوالا شاذة و آراء فاسدة. و قد ألف الأشعرى كتابا فى تكفير النظام. و يتفق المعتزلة فى الاعتقاد بأن اللّه تعالى قديم، و القدم أخص وصف لذاته و نفوا الصفات القديمة أصلا فقالوا: هو عالم لذاته، قادر لذاته، حى لذاته، لا بعلم و قدرة و حياة، هى صفات قديمة و معانى قائمة به لأنه لو شاركته الصفات فى القدم- الذى هو أخص الوصف-لشاركته فى الإلهية. و اتفقوا على أن كلامه محدث مخلوق فى محل. و هو حرف و صوت كتب أمثاله فى المصاحف حكايات عنه، فأينما وجد فى المحل عرض فقد فنى فى الحال. و اتفقوا على أن الإرادة، و السمع، و البصر، ليست معانى قائمة بذاتها. و اتفقوا على أن العبد قادر خالق لأفعاله-خيرها و شرّها-مستحق على ما يفعله ثوابا و عقابا فى الدار الآخرة، و الربّ منزّه أن يضاف إليه شر و ظلم. و اتفقوا على أن الحكيم لا يفعل إلاّ الصلاح و الخير، و يجب من حيث الحكمة رعاية مصالح العباد. و أما الأصلح و اللطف ففى وجوبه خلاف عندهم و سموا هذا النمط عدلا. و اتفقوا على أن المؤمن إذا خرج من الدنيا على طاعة و توبة استحق الثواب

و العوض و التفضّل، و معنّى آخر وراء الثواب. و إذا خرج من غير توبة عن كبيرة ارتكبها استحق الخلود فى النار، و يكون عقابه أخف من عقاب الكفّار. و سموا هذا النمط عدلا و وعيدا. و اتفقوا على أصول المعرفة و شكر النعمة واجبان قبل ورود السمع. و الحسن و القبح يجب معرفتهما بالعقل، و اعتناق الحسن واجب، و اجتناب القبيح واجب كذلك. و ورود التكاليف ألطاف للبارى تعالى، أرسلها إلى العباد بتوسط الأنبياء امتحانا و اختبارا. و اختلفوا فى الإمامة و القول فيها-نصا و اختبارا-كما هو بيّن فى مقالاتهم و آراء فرقهم. و لسنا هنا بصدد الاشتغال بتفصيل أقوالهم و آرائهم. و إن أهم غرض هو معرفتهم بموجز من القول، لأن المعتزلة كونوا جوا فكريا، و برعوا فى علم الكلام، و كانت الخصومة شديدة بينهم و بين رجال الشيعة، الذين اشتهروا فى هذا العلم؛ كما أن النزاع بينهم و بين الأشاعرة و المجسمة بلغ إلى درجة الخروج عن حدود المقبول، و تعدى إلى التهريج و الاعتداء، كما هو المذكور فى تاريخ عصورهم.

المرجئة و فرقهم:

و هم الذين يبالغون فى إثبات الوعد، و هم عكس المعتزلة المبالغين فى إثبات الوعيد، فهم يرجون المغفرة و الثواب لأهل المعاصى، و يرجئون حكم أصحاب الكبائر إلى الآخرة، فلا يحكمون عليهم بكفر و لا فسق و يقولون: إن الإيمان إنما هو التصديق بالقلب و اللسان فحسب، و إنه لا يضر مع الإيمان معصية، كما لا ينفع مع الكفر طاعة، فالإيمان عندهم منفصل عن العمل. و منهم من زعم أن الإيمان اعتقاد بالقلب؛ و إن أعلن الكفر بلسانه، و عبد الأوثان أو لزم اليهودية و النصرانية، و عبد الصليب، و أعلن التثليث فى دار الإسلام، و مات على ذلک، فهو مؤمن كامل الإيمان عند اللّه، و هو ولى اللّه، و من أهل الجنّة، ذكر ذلک ابن حزم. و كلمة الإرجاء على معنيين: أحدهما: التأخير مثل قوله تعالى: قالُوا أَرْجِهْ وَ أَخاهُ أى أمهله و أخّره. ثانيهما: إعطاء الرجاء. أما إطلاق اسم-المرجئة-على الجماعة بالمعنى الأول

فصحيح. لأنهم كانوا يؤخرون العمل عن النية و العقد. و أما بالمعنى الثانى فظاهر، لأنهم كانوا يقولون: لا يضر مع الإيمان معصية، كما لا ينفع مع الكفر طاعة. و لقد اضطربت الأقوال حول نشأة هذه الفرقة و بدء تكوينها، و لم نستطع بهذه العجالة تحديد ذلک على وجه التحقيق. و يرى النوبختى أن نشأتها لما قتل على عليه السّلام بسيف ابن ملجم المرادى و اتفقت بقية الناكثين و القاسطين و تبعة الدنيا على معاوية فسموا المرجئة، و زعموا أن أهل القبلة كلهم مؤمنون بإقرارهم الظاهر بالإيمان، و يرجون لهم جميعا المغفرة (1). و فى الواقع أن هذه الفرقة سياسية، و لكنها أخذت تخلط السياسة بأصول الدين، فهم أعوان الأمراء و المنضوون تحت لوائهم، يؤيّدون دولتهم مع ارتكابهم المحارم، و انغماسهم بالجرائم. و قد فسح هذا المبدأ للمفسدين و المستهترين طريق الوصول إلى غاياتهم بما يرضى نهمهم، و قد اتخذوه ذريعة لمآثمهم، و مبررا لأعمالهم القبيحة، و ساترا لأغراضهم الفاسدة. و قد أيّدوا-برأيهم هذا-خلفاء الدولة الأموية، تأييدا عمليا، فهم فى الواقع قد فتحوا باب الجرأة على ارتكاب المحارم، و أيّدوا المجرمين، و وازروا الظلمة، و هوّنوا الخطب فى العقاب و المؤاخذة. و افترقت المرجئة إلى خمسة فرق-كل فرقة تضلّل أختها-و هم: (1) اليونسية-أصحاب يونس النميرى. (2) العبيدية-أصحاب عبيد بن مهران الكوفى. (3) الغسانية-أصحاب غسان الكوفى، و هو غير غسان بن أبان المحدث كما توهم بعضهم، فإن غسان بن أبان يمانى و هذا كوفى. (4) الثوبانية-أصحاب أبى ثوبان المرجئ. (5) التومنية-أصحاب أبى معاذ التومنى.

1- 1) فرق الشيعة ص 6. [1]

و لكل فرقة أقوال و آراء، ذكرها المؤلّفون فى الفرق، و لا يتسع المجال بهذا العرض للتعرّض لذكرها بأكثر من هذا.

الجبرية:

الجبر هو نفى الفعل عن العبد حقيقة، و إضافته إلى الربّ حقيقة، و زعمت هذه الفرقة: أن الإنسان لا يخلق أفعاله، و ليس له مما ينسب إليه من الأفعال شىء، فقوام هذا المذهب نفى الفعل عن العبد، و إضافته إلى الرب تعالى. و قد اختلفت الأقوال فى نشأة هذه الفرقة، و من هو القائل بها أولا؟ فقيل: إن أول من قال بهذه النحلة رجل يهودى، و قيل الجعد بن درهم، أخذها عن أبان بن سمعان، و أخذها أبان عن طالوت بن أعصم اليهودى. فهى على هذا فكرة يهودية، و قد ضل بها خلق كثير. و بهذا المذهب لا يكون للإنسان كسب و لا إرادة و لا اختيار و لا تصرّف، فيما وهبه اللّه من نعمة العقل على حسبه، فكيف يكون له مطمع فى ثواب أو خوف من عقاب؟ و قد انتشر هذا المبدأ و مبدأ المفوضة: و هم الذين يقولون بتفويض الأفعال إلى المخلوقين، و رفعوا عنها قدرة اللّه و قضائه، عكس المجبرة الذين أسندوا الأفعال إليه تعالى، و أنّه أجبر الناس على فعل المعاصى، و أجبرهم على فعل الطاعات، و أن أفعالهم فى الحقيقة أفعاله، فكان أثر هاتين الفكرتين سيئا فى المجتمع الإسلامى، تصدّى الإمام الصّادق عليه السّلام للردّ على هؤلاء، و أعلن العقيدة الصحيحة و الرأى السديد فى التوسّط بين الأمرين فقال عليه السّلام: «لا- جبر و لا- تفويض و لكن أمر بين أمرين» و خلاصته: أن أفعالنا من جهة، هى أفعالنا و تحت قدرتنا و اختيارنا؛ و من جهة أخرى، هى مقدورة للّه تعالى، و داخلة فى سلطانه، فلم يجبرنا على أفعالنا حتى يكون قد ظلمنا فى عقابنا على المعاصى، لأن لنا القدرة على الاختيار فيما نفعل، و لم يفوض إلينا خلق أفعالنا حتى يكون قد أخرجها عن سلطانه، بل له الخلق و الأمر و هو قادر على كل شىء و محيط بالعباد. و اعتقاد الشيعة فى ذلك وسط بين المذهبين، كما بيّنه أئمة الهدى، و دلّت عليه كلمة الإمام الصّادق المشهورة.

و بالجملة، فإن عصر الإمام الصّادق عليه السّلام كان عصر مجادلات و نظر، و اتسعت فيه دائرة الخلاف، و قد رأينا موقفه فى مقابلتهم، و ردع أهل الآراء الفاسدة و العقائد المخالفة للإسلام. و قام خلّص أصحابه و أعيانهم بقسط وافر من ذلک النضال دفاعا عن تعاليم الإسلام الصحيحة. و قد مرّت بعض مناظراتهم، كما احتفظ التاريخ بقليل منها. و قبل أن نتخطى موضوع البحث عن الفرق، يلزمنا ذكر ما يتصل بالبحث، و توضيح بعض الأمور التى لها صلة بالموضوع:

نسبة أبى حنيفة إلى المرجئة:

ذكر أصحاب المقالات: أن أبا حنيفة كان من المرجئة، و حكى عنه غسان الكوفى الذى تنسب إليه الفرقة الغسانية: أنّه كان على مذهبه، و يعدّه من المرجئة، لأن أبا حنيفة كان يذهب إلى أن الإيمان هو الإقرار باللسان، و أن الإيمان لا يزيد و لا ينقص. قال وكيع: سمعت الثورى يقول: نحن المؤمنون، و أهل القبلة عندنا مؤمنون فى المناكحات، و المواريث، و الصّلاة، و الإقرار. و لنا ذنوب و لا ندرى ما حالنا عند اللّه؟ . قال وكيع: و قال أبو حنيفة: من قال بقول سفيان هذا فهو عندنا شاک، نحن المؤمنون هنا و عند اللّه حقا. قال وكيع: و نحن نقول بقول سفيان. و قول أبى حنيفة عندنا جرأة. و على هذا فإن أبا حنيفة كان يذهب إلى أن العمل ليس جزءا من الإيمان. و خالفه كثير من الفقهاء و المحدّثين، الذين يرون أن العمل يدخل فى تكوين الإيمان، من حيث تأثيره فيه بالزيادة و النقصان، و أبو حنيفة يرى أن الإيمان لا يزيد و لا ينقص و هو يعتبر أن إيمان أهل السماء و أهل الأرض واحد كما تنص على ذلک الرواية عنه أنّه قال: (إيمان أهل الأرض و أهل السماوات واحد، و إيمان الأولين و الآخرين و الأنبياء واحد، لأنّا كلّنا آمنا باللّه وحده، و صدّقناه، و الفرائض كثيرة مختلفة، و كذا الكفر واحد، و صفات الكفار كثيرة و كلنا آمنا بما آمن به الرسل إلخ. . .) (1).

1- 1) انظر مناقب أبى حنيفة لكردرى ج 2 ص 141.

و يروى عنه غير هـذا، كما حـدّث أبو إسـحاق الفزارى أنّه سـمع أبا حنيفـة يقول: إيمان أبى بكر الصدّيق و إيمان إبليس واحد، قال إبليس: يا رب. و قال أبو بكر الصـدّيق: يا ربّ. قال أبو إسـحاق: و من كان من المرجئة ثم لم يقل هذا انكسـر عليه قوله (1). و كذلك يحكى عنه فى مساواة إيمان آدم و إيمان إبليس. و يقول محمّـد بن عمرو: سـمعت أبا مسـهر يقول: كان أبو حنيفـة رأس المرجئـة. و قال عمر بن سـعيد بن سالم: سـمعت جـدى يقول: قلت لأبى يوسف: أ كان أبو حنيفة مرجئا؟ قال: نعم. قلت: أ كان جهميا؟ قال: نعم. قلت: فأين أنت منه؟ قال: إنما كان أبو حنيفة مدرسا، فما كان من قوله حسـنا قبلناه و ما كان قبيحا تركناه. و مثله عن محمّد بن سـعيد عن أبيه (2). و كانت هذه التهمة وسـيلة للتشـنيع على أبى حنيفـة، و ناله كثير من العلماء بالطعن و خالفوه فى مسألة الإيمان. و قد جاء عن أبى حنيفة (3)ما يبين الفرق بين مذهبه و مذهب المرجئة الذين أهملوا ناحية العمل بالطاعة، و عدم إدخالها بالحساب.

تقولات حول فرق الشيعة:

إن موضوع البحث عن الفرق و تعدّدها موضوع مضطرب شائك، و لا يستطيع الكاتب أن يجزم بكل ما نقله أهل المقالات، لأنّهم قد أفرطوا إلى أبعد حد، و تقبّلوا كل نسـبة على حسب مفهومها السطحى بدون تثبت و تأمّل. و قد تعصّب أكثرهم على من يخالف رأيه، فينقل عنهم آراء على غير وجههـا و لا يصـح قول مخالف ما لم يؤيّـد بثبوته من غير طريقه. و إن هناك آراء فرديـة نسـبوها لجماعـة لا وجود لها، و قد تعصّب أكثر الكتّاب فى الموضوع، فنقلوا المذاهب على خلاف الواقع، و أكثرهم قد افتعل فرقا خيالية كقولهم فى عدّ فرق الشيعة: إن منهم الهشامية و هم فرقتان: فرقة تنسب

1- 1) تاريخ بغداد ج 13 ص 273. [1]

2- 2) المصدر السابق ص 375. [2]

3- 3) الفقه الأكبر ص 9.

إلى هشام بن الحكم و الأخرى تنسب إلى هشام بن سالم الجواليقى، و نسبوا إليهما آراء خاطئة، و أقوالا كاذبة. و كذلك جعلوا من فرق الشيعة فرق: الزرارية، نسبة إلى زرارة بن أعين. و الشيطانية نسبة إلى شيطان الطاق، و هو محمّد بن النعمان المعروف عند الشيعة بمؤمن الطاق. و كل هذا من الأمور المرتجلة التى لا حقيقة لها، و إنما هى افتعال و تقول بالباطل، إذ الشيعة تستمد من مصدر واحد، و تستقى من ينبوع أهل البيت. و قد شق على مرضى النفوس أن يبلغ رجال الشيعة درجات رفيعة فى العلم بلغت حد التميز الذى يجتذب النفوس و يستميل العقول، حتى كان لكثير منهم جماعة يعرفون باسم من يتصدرهم كجماعة زرارة، و هم فى مطارحاتهم و مناظراتهم يشبعون المسائل بحثا و استقصاء، و تدور ما بين جماعة فلان من أصحاب الإمام الصّادق و جماعة فلان من أصحاب الإمام أيضا مناقشات هى على نمط ما يجرى بين حلقات العلماء اليوم فاختلقوا من المتعلمين على زرارة و المتصلين به فرقة. فزرارة-كما مر-من مشاهير رجال الشيعة و هو من أصحاب الإمام الباقر و الإمام الصّادق، و هو شيخ الأصحاب فى زمانه و متقدمهم قارئا فقيها متكلما، و مؤمن الطاق من أحب الناس إلى الإمام الصّادق كما قال عليه السّلام أحياء و أمواتا. و مؤمن الطاق المتميّز بقوة التفكير و عمق النظرة و وضوح الحجة وسعة العلم، كان له دوره البارز فى التوجيه و الإرشاد و عقد المناظرات و خوض المجادلات، فكان حاضر الجواب حاذقا فى فن الكلام، شد إليه الأنظار؛ فنسبوا إليه فرقة «الشيطانية» و التسمية تكشف عن القصد و الغرض من وراء اختراع هذه الفرق و اختلاقها، فأطلق لقب «شيطان الطاق» من قبل أعداء الشيعة و خصوم مؤمن الطاق-كما مرّ بنا-. و أوضح شىء من هذا الشذوذ هو إجماعهم على وجود فرقة السبائية المنسوبة لعبد اللّه بن سبأ، تلك الشخصية الموهومة، و ما قضيته إلاّ أسطورة سياسية. و الشىء الذى يلزمنا التنبيه عليه: هو متابعة بعض المؤلّفين لبعض، فإن الشهرستانى قد كتب فى الفرق، معتمدا على عبد القاهر البغدادى، و الأسفرائينى كان تلميذ عبد القاهر و صهره، و ألفاظهما فى التعبير واحدة. أما ابن حزم فذاك فارس ميدان التعصّب و التقوّل على الشيعة. قال الرازى فى مناظرته مع أهل ما وراء النهر، فى المسألة العاشرة عند ذكره

لكتاب «الملل و النحل» : إنه كتاب حكى فيه مذاهب أهل العالم بزعمه، إلاّ أنه غير معتمد عليه، لأنه نقل المذاهب الإسلامية من الكتاب المسمى «بالفرق بين الفرق» من تصانيف الأستاذ أبى منصور البغدادى، و هذا الأستاذ كان شديد التعصب على المخالفين، و لا يكاد ينقل مذهبهم على الصحيح. ثم إن الشهرستانى نقل مذاهب الفرق الإسلامية من ذلک الكتاب، فلهذا السبب وقع الخلل فيه. و على أى حال، فإن موضوع الفرق يحتاج إلى دقة فى البحث و تأمل فى سير الحوادث و التطور. و هو إلى الآن لم ينل دراسة عادلة، و خوضا دقيقا و غربلة و تمحيصا، فإن حصر الفرق الإسلامية بهذا العدد غير وجيه، و الحديث الذى يشير إلى تعددها فيه مناقشة من حيث الدلالة و السند، لاختلاف ألفاظه و إن كثرت طرقه. و عسى أن ينال هذا الموضوع دراسة دقيقة لطرح الزوائد، و إيضاح دسائس المغرضين، و بيان خطأ المؤرخين فى ذلک. و من الغريب أن ينفرد الدكتور أحمد أمين فى كتابه «ظهر الإسلام» يعدّ القرامطة و الزنج من فرق الشيعة! بل لا غرابة فى تجاوز الدكتور و تحدّيه للشيعة، فقد برهن على تعصّبه الشائن و تجاهله المعيب، إذ هو كما يقول الشاعر: إن يسمعوا الخير أخفوه و إن علموا شرا أذاعوا و إن لم يعلموا كذبوا

و يؤلمنى أن أقول: إن الدكتور يفقد توازنه عند ما يتناول الشيعة بالبحث كما يتجرّد عن جميع معلوماته، و يتخلّى عن تفكيره و إدراكه، و كان بوسعه أن يدقّق و يبحث كأديب أو مؤرخ، و لكنه مقلد للمستشرقين الذين يتقوّلون على المسلمين و يثيرون الفتن و يفتعلون الأقاويل. كما كان بوسعه أن يتثبت و أن يقارن بين عقائد الشيعة و عقائد القرامطة و الزنوج، إن وجد مصدرا يذكر ذلک. و كم كان يسعدنا لو أثبت ما أدّى إليه الحوار معه، و دوّن ما أقره على نفسه من تعصّب و تحامل، و أنجز ما وعد من إعلان العدول عن أقواله.

حول فرق الغلاة:

تركنا البحث هنا عن فرق الغلاة، اكتفاء بما مرّ فى الأجزاء السابقة، و سيأتى فى الجزء الرابع مزيد بيان. و قد ذكرنا هناک أن حركتهم كانت ضد الإسلام بصورة عامة،

و ضد أهل البيت بصورة خاصة، لأن انتحالهم حب أهل البيت يفتح لخصومهم طريق الوقيعة فى أتباعهم، و قد وقع ذلک بدون التفات إلى التباين بين تعاليم أهل البيت و بين ما يذهب إليه الغلاة. و كما قلت سابقا: إن الكوفة قد عرفت بالتشيّع، و هى تموج بعناصر مختلفة لكثرة المهاجرين إليها، من المدن المجاورة لها و النائية عنها، و ذلک عند اتساع نشاط الحركة العلمية، فكانت جماعة المتداخلين فى الإسلام يبثون سمومهم فى ذلک المجتمع، و يتناقل الناس مع مساعدة السلطة تلک الأخبار، فتنسب للكوفة، و الكوفة شيعية. و قد أعلن الإمام الصّادق براءته منهم، و جهر بلعنهم، و قد دخل الكوفة عدة مرات ينشر تعاليم الإسلام الصحيحة، و يظهر للملإ فساد عقائد الغلاة، و واصل كفاحه فى مقابلتهم حتى بادت جماعتهم بتلک السرعة، و قبرها فى مقرّها الأخير، و لم يبق لهم أثر إلاّ فى بطون الكتب. و أبت نفوس من يضربون على وتر سياسة تلک العصور، و يترنحون بنغمات الهجاء و الطعن على شيعة أهل البيت، إلاّ أن يقيموا تلک الرمم البالية، و يخرجوا تلک الجيف النتنة لتكون عارا على الإسلام، و منظرا بشعا، يدل عليه من لا يود إظهار محاسنه للأجيال انتصارا لدينهم، و انتقاما لأسلافهم أُولئِکَ اَلَّذِينَ اِشْتَرَوُا اَلضَّلالَةَ بِالْهُدى وَ اَلْعَذابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَما أَصْبَرَهُمْ عَلَى اَلنّارِ .

الإمام الصّادق

اشارة

وصاياه و حكمه

تمهيد:

للإمام الصّادق عليه السّلام من التراث الفكرى و الفكر الخوالد، و الآراء و الحكم و المواعظ ما لا يحيط بها الإحصاء، أو تنالها يد الحصر و التتبع إلاّ بجهد و مشقة. و هى على كثرتها قليلة بالنسبة إليه، لما قام به من التوجيه و الإرشاد و الهداية فى عصر ضلّت به قافلة الأمّة، وحدا بالركب غير سائقه، فقام عليه السّلام بما يجب عليه أن يقوم به من الإرشاد و الدعوة إلى الصلاح و الإصلاح، يلتمس كل ما يجد فيه طريقا للوصول إلى الغاية التى ينشدها، فهو حيث كان و أينما حل لا ينفك عن تأدية رسالته فى الإرشاد إلى الهدى، و الدعوة إلى الحق، و يحاول أن ينتصر المجتمع الإسلامى على ميوله و نزعاته، و يهذّب نفوسهم من دنس الرذائل و يحملهم على اعتناق الفضائل، و يودّ للمسلم أن يكون كما أراد اللّه له و جاء به النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم. فهو حريص على هداية الأمة، يواصل جهاده فى مكافحة الأوضاع الشاذة، و يعلن آراءه ضد نظام ذلک الحكم الجائر. و لقد كان عليه السّلام دوما صوت إصلاح داوى، و صرخة إرشاد عالية، يدعو الناس إلى التمسّک بمبادئ الإسلام و هدى القرآن، و قد عرف أوضاع الأمة، و ما أصابها من تفكک و هوان، و رأى أن الداء وراء تحكم النزعات فى النفوس، و أن الدواء هو التزام مبادئ الدين و أحكامه، و أن رسوخ العقيدة فى القلوب قوة لأفراد الأمة، و منعة لكيان المجتمع من تحكم النزعات، و انتشار الرذيلة، كما أنّها سلاح فاتک يرهب ولاة الجور، فكان عليه السّلام لا تفوته فرصة دون أن يدعو إلى اعتناق الفضائل و محاربة الرذيلة، ليصبح المجتمع متماسكا يستطيع أن يوحد كلمته فى مقابلة الظالمين، الذين استبدوا بالحكم، و ابتعدوا عن الإسلام.

و إن الثورة الدمويـة ضـدهم لاـ تعود على المجتمع إلاّ بالضـرر، لأنّهم أناس عرفوا بالقسوة و سوء الانتقام، و لهم أعوان يشـدّون أزرهم، و أنصار يدافعون دونهم، فالإمام الصّادق عليه السّلام كان يهتم بإصـلاح الوضع الداخلى. فكان يرسل وصاياه عامة شاملة، و ينطق بالحكمة عن إخلاص و صـفاء نفس، و حب للصالح العام ليعالج المشاكل الاجتماعية. و انتظم من أصـحابه رجال عهد إليهم بمهمات الإصلاح، و كلّفهم بأعمال الخير، كما كوّن منهم معلّمين و رواة فى ظل مدرسـته، و مجاهدين و دعاة فى مسـير ركبه. كان عليه السّلام يدعو الناس إلى الورع عن محارم اللّه و الخوف منه تعالى و الامتثال لأوامره، و الشـعور بالمسؤوليـة أمام اللّه تعالى، و جعل يوم الحساب ماثلا أمام أعينهم، مع حثّهم على التكسب و طلب الرزق كما كان يحث على العمل و يعمل بنفسه، و ينهى عن الكسل و البطالة. و يأمر بطلب الرزق كما أمر اللّه تعـالى. يحـدّثنا العلاء بن كامل: أنّه جاء إلى الإمام الصّادق عليه السّلام فقال له: يا أبا عبـد اللّه ادع اللّه أن يرزقنى فى دعـة. فقال عليه السّلام: «لا أدعو لک، أطلب كما أمرک اللّه و رسوله» . و على أى حال فإن حكم الإمام و وصاياه تشرق على وجه الزمان إلى آخر الزمان، و قـد ذكرنا فى الجزء الثانى طرفا منها، و نحن هنا نـذكر بعض ما لم نـذكره فى ذلک الجزء من تلک الوصايا القيّمة، و الحكم الخالدة، سواء كانت عامة شاملة يرسـلها إلى الأطراف النائية، أم كانت وصايا خاصة لبعض الأفراد، و هى كالأولى فى عمومها و شمولها، و إليک طرفا من ذلک.

وصايا الإمام الصادق ع

وصية عامة إلى جميع أصحابه:

«صبّروا النفس على البلاء فى الـدنيا، فإن تتابع البلاء فيها، و الشـدة فى طاعـة اللّه و ولايته، و ولايـة من أمر بولايته، خير عاقبـة عند اللّه فى الآخرة، من ملک الـدنيا و إن طال تتابع نعيمها، و زهرتها و غضارة عيشـها فى معصـية اللّه و ولاية من نهى اللّه عن ولايته و طاعته، فإن اللّه أمر بولايـة الأئمة الذين سـمّاهم فى كتابه بقوله: وَ جَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا . . . إن اللّه أتم لكم ما آتاكم من الخير. و اعلموا أنّه ليس من علم اللّه و لا من أمره أن يأخذ أحد من خلق فى دينه بهوى و لا رأى و لا مقاييس، قد أنزل اللّه القرآن و جعل فيه

تبیان کل شیء، و جعل للقرآن و تعلم القرآن أهلا، لا یسع أهل علم القرآن-الذین آتاهم اللّه علمه-أن یأخذوا فیه بهوی و لا رأی و لا مقاییس، أغناهم اللّه عن ذلک بما آتاهم من علمه و خصهم به، و وضعه عندهم، و کرامة من اللّه أکرمهم بها. و هم أهل الذکر الذین أمر اللّه هذه الأمة بسؤالهم. . . أکثروا ذکر اللّه ما استطعتم فی ساعة من ساعات اللیل و النهار، فإن اللّه تعالی أمر بکثرة الذکر له، و اللّه ذاکر لمن ذکره من المؤمنین. و اعلموا أن اللّه لم یذکره أحد من عباده المؤمنین إلاّ ذکره بخیر، فاعطوا اللّه من أنفسکم الاجتهاد فی طاعته، فإن اللّه لا یدرک شیء من الخیر عنده إلاّ بطاعته، و اجتناب محارمه. و اتبعوا آثار رسول اللّه و سنته فخذوا بها، و لا تتبعوا أهواءکم و آراءکم فتضلّوا، فإن أضلّ الناس عند اللّه من اتبع هواه و رأیه بغیر هدی من اللّه. و أحسنوا إلی أنفسکم ما استطعتم، فإن أحسنتم أحسنتم لأنفسکم و إن أسأتم فلها. و جاملوا الناس و لا تحملوهم علی رقابکم، و إیاکم و سب إعداء اللّه-حیث یسمعونکم-فیسبوا اللّه عدوا بغیر علم. و اعلموا أنّه لن یؤمن عبد من عبیده حتی یرضی عن اللّه فیما صنع اللّه إلیه، و صنع به علی ما أحب وکره. و علیکم بالمحافظة علی الصلوات و الصلاة الوسطی، و قوموا للّه قانتین کما أمر اللّه المؤمنین فی کتابه من قبلکم. و علیکم بحب المساکین المسلمین، فإن من حقرهم و تکبّر علیهم فقد زل عن دین اللّه، و اللّه له حاقر و ماقت. و قد قال أبونا رسول اللّه: أمرنی ربی بحب المساکین المسلمین منهم. و اعلموا أنّه من حقر أحدا من المسلمین ألقی اللّه علیه المقت منه حتی یمقته الناس، و اللّه له أشد مقتا، فاتقوا اللّه فی إخوانکم المسلمین المساکین منهم، فإن لهم علیکم حقا أن تحبوهم، فإنّ اللّه أمر نبیّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بحبّهم، فمن لم یحب من أمر اللّه بحبّه فقد عصی اللّه و رسوله، و من مات علی ذلک مات من الغاوین.

و إياكم و العظمة و الكبر، فإن الكبر رداء اللّه تعالى، فمن نازع اللّه رداءه قصمه اللّه و أذلّه يوم القيامة. و إياكم أن يبغى بعضكم على بعض، فإنّها ليست من خصال الصالحين، فإنّه من بغى صيّر اللّه بغيه على نفسه، و صارت نصرة اللّه لمن بغى عليه، و من نصره اللّه غلب و أصاب الظفر من اللّه. و إياكم أن يحسد بعضكم بعضا، فإن الكفر أصله الحسد. و إياكم أن تعينوا على مسلم مظلوم، فيدعو اللّه عليكم، فيستجاب له فيكم، فإن أبانا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان يقول: إن دعوة المظلوم مستجابة. و ليعن بعضكم بعضا، فإن أبانا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان يقول: إن معونة المسلم خير و أعظم أجرا من صيام شهر و اعتكافه فى المسجد الحرام. و إياكم و إعسار أحد من إخوانكم المسلمين فإن أبانا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان يقول: ليس لمسلم أن يعسر مسلما، و من أنظر معسرا أظلّه اللّه يوم القيامة بظله، يوم لا ظل إلاّ ظلّه. و اعلموا أنّه ليس بين اللّه و بين أحد من خلقه، لا ملك مقرّب، و لا نبى مرسل، و لا من دون ذلك كلهم، إلاّ طاعتهم له، فجدّوا فى طاعة اللّه، إن سركم أن تكونوا مؤمنين حقا حقا، و لا قوة إلاّ باللّه. و إياكم و معاصى اللّه أن تركبوها، فإنّه من انتهك معاصى اللّه فركبها، فقد أبلغ فى الإساءة إلى نفسه، و ليس بين الإحسان و الإساءة منزلة، فلأهل الإحسان عند ربهم الجنة، و لأهل الإساءة عند ربهم النار، فاعملوا بطاعة اللّه، و اجتنبوا معاصيه، و اعلموا أنّه ليس يغنى عنكم من اللّه أحد من خلقه، لا ملك مقرّب، و لا نبى مرسل، و لا من دون ذلك، فمن سرّه أن تنفعه شفاعة الشافعين؛ فليطلب إلى اللّه أن يرضى عنه. و إياكم أن تشره أنفسكم إلى شىء مما حرم اللّه عليكم، فإنّه من انتهك ما حرم اللّه عليه هاهنا-فى الدنيا-حال اللّه بينه و بين الجنّة و نعيمها، و لذّاتها و كرامتها الدائمة لأهل الجنّة أبد الآبدين. و اعلموا أنّه بئس الحظ الخطر لمن خاطر بترك طاعة اللّه، و ركب معصيته، فاختار أن ينتهك محارم اللّه، فى لذات دنيا منقطعة زائلة عن أهلها، على خلود نعيم

فی الجنّة و لـذاتها، و کرامـة أهلها، ویل لأولئک، ما أخیب حظهم، و أخسـر کرّتهم و أسوأ حالهم عند ربهم یوم القیامة، اسـتجیروا اللّه أن یجیرکم فی مثـالهم أبـدا و أن یبتلیکم بما ابتلاهم به و لا قوة لنا و لکم إلاّ به. فاتقوا اللّه و سـلوه أن یشـرح صـدورکم للإسـلام، و أن یجعل ألسـنتکم تنطق بـالحق حتی یتوفاکم و أنتم علی ذلک، و أن یجعل منقلبکم منقلب الصالحین و لا قوة إلاّ باللّه، و الحمـد للّه رب العالمین (1)» .

وصیته لعنوان البصری:

و عنوان هو شـیخ بصـری قـدم المدینـة لطلب العلم، اتصـل بمالـک بن أنس، ثم اتصـل بالإمام الصّادق، فقال له الإمام: «إذا أردت العلم فاطلب أولا فی نفسک حقیقة العبودیة» . قال عنوان البصری: فقلت: ما حقیقة العبودیة؟ فقال الإمام الصّادق: «ثلاثة أشیاء: أن لا یری العبد لنفسه فیما خوّله اللّه ملکا، لأن العبید لا یکون لهم ملک، بل یرون المال مال اللّه یضـعونه حیث أمرهم اللّه، و لا یدبر العبد لنفسه تدبیرا، و جملة اشتغاله هی فیما أمره اللّه به و نهاه عنه، و إذا لم یر العبد فیما خوّله اللّه ملکا هان علیه الإنفاق فیما أمره اللّه، و إذا فرض تدبیر نفسه إلی مـدبره هانت علیه مصائب الـدنیا، و إذا اشـتغل بما أمره اللّه به و نهاه عنه، لا یتفرغ إلی المراء و المباهاة مع الناس، فإذا أکرم اللّه العبد بهذه الثلاث هانت علیه الـدنیا، فلا یطلبها تفاخرا و تکاثرا، و لا یطلب عنـد الناس عزّا و علوا، و لا یـدع أیامه باطلة، فهذا أول درجة المتقین، قال اللّه تعالی: تِلْکَ اَلـدّارُ اَلآخِرَةُ نَجْعَلُها لِلَّذِینَ لا یُرِیـدُونَ عُلُوًّا فِی اَلْأَرْضِ وَ لا فَساداً وَ اَلْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِینَ » . فقال عنوان: یا أبا عبد اللّه أوصـنی. فقال: «أوصـیک بتسعة أشیاء فإنها وصیتی لمریدی الطریق إلی اللّه، و اللّه أسأل أن یوفقک لاستعمالها: ثلاثة منها فی ریاضة النفس، و ثلاثة منها فی الحلم، و ثلاثة منها فی العلم، فاحفظها و إیاک و التهاون بها.

1- 1) روضة الکافی 397-408.

أما اللواتی فی الریاضـة: فإیاک أن تأکل ما لا تشـتهیه فإنه یورث الحمق و البله، و لا تأکل إلاّ عند الجوع، فإذا أکلت فکل حلالا و سمّ اللّه تعالی، و اذکر حدیث النبی صـلّی اللّه علیه و آله و سلّم: ما ملأ آدمی وعاء أشد شرا من بطنه، فإن کان و لا بد فثلث لطعامه، و ثلث لشرابه، و ثلث لنفسه. و أما اللواتی فی الحلم: فمن قال لک: إن قلت واحدة سـمعت عشـرا، فقل له: إن قلت عشـرا لم تسـمع واحدة. و من شتمک فقل له: إن کنت صادقا فیما تقوله فأسأل اللّه أن یغفر لی، و إن کنت کاذبا فاسأل اللّه أن یغفر لک. و من وعـدک بالخیانـة فعـده بالنصـیحة و الوفاء. و أما اللواتی فی العلم: فاسأل العلماء ما جهلت، و إیّاک أن تسألهم تعنتا و تجربة، و إیاک أن تعدل بذلک شـیئا، و خذ بالاحتیاط فی جمیع أمورک ما تجد إلیه سبیلا، و اهرب من الفتیا فرارک من الأسد، و لا تجعل رقبتک للناس جسرا (1)» .

وصیته علیه السّلام لعمرو بن سعید:

قال عمرو بن سـعید بن هلال: قلت لأبی عبد اللّه الصّادق علیه السّلام: إنی لا أکاد ألقاک إلاّ فی السـنین، فأوصنی بشیء آخذ به. قال علیه السّلام: «أوصیک بتقوی اللّه و صدق الحدیث، و الورع و الاجتهاد، و اعلم أنّه لا ینفع اجتهاد لا ورع معه، و إیّاک أن تطمح نفسک إلی من فوقک، و کفی بما قال عزّ و جلّ: فَلا تُعْجِبْکَ أَمْوالُهُمْ وَ لا أَوْلادُهُمْ . و قال عزّ و جل لرسوله: وَ لا تَمُدَّنَّ عَیْنَیْکَ إِلی ما مَتَّعْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ اَلْحَیاةِ اَلـدُّنْیا . فإن خفت شـیئا من ذلک، فاذکر عیش رسول اللّه صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم فإنما کان قوته الشـعیر، و حلواه التمر، و وقوده السعف إذا وجده. و إذا أصبت بمصیبة فاذکر مصابک برسول اللّه، فإن الخلق لم یصابوا بمثله قط» .

وصیته للمفضل بن عمر:

قال علیه السّلام: «أوصیک و نفسی بتقوی اللّه و طاعته، فإن من التقوی الطاعة

1- 1) الاثنی عشریة [1]للسید ابن القاسم العیتانی ص 93. و الإمام الصّادق للمظفر ج 2 ص 58-61 نقلا عن البحار. [2]

و الورع و التواضع للّه، و الطمأنينة و الاجتهاد، و الأخذ بأمره، و النصيحة لرسله، و المسارعة فى مرضاته، و اجتناب ما نهى عنه، فإن من يتق اللّه فقد أحرز نفسه من النار بإذن اللّه، و أصاب الخير كلّه فى الدنيا و الآخرة. و من أمر بتقوى اللّه فقد أفلح الموعظة، جعلنا اللّه من المتقين برحمته» . و من وصيته-أيضا-للمفضل بن عمر: «أوصيک بست خصال تبلّغهن شيعتى» . قال المفضل: و ما هى يا سيدى؟ قال عليه السّلام: «أداء الأمانة إلى من ائتمنک، و أن ترضى لأخيک ما ترضى لنفسک، و اعلم أن للأمور أواخر فاحذر العواقب، و أن للأمور بغتات فكن على حذر، و إياک و مرتقى جبل إذا كان المنحدر وعرا، و لا تعدنّ أخاک ما ليس فى يدک و فاؤه» .

وصيته لحمران بن أعين:

قال عليه السّلام: «يا حمران انظر إلى من هو دونک و لا تنظر إلى من هو فوقک فى المقدرة، فإن ذلک أقنع لک بما قسم لک، و أحرى أن تستوجب الزيادة من ربّک. و اعلم: أن العمل الدائم القليل على اليقين، أفضل عند اللّه من العمل الكثير على غير اليقين. و اعلم: أن لا ورع أنفع من تجنّب محارم اللّه، و الكفّ عن أذى المؤمنين و اغتيابهم، و لا عيش أهنأ من حسن الخلق، و لا مال أنفع من القنوع باليسير المجزى، و لا جهل أضر من العجب» . و هكذا كان الإمام الصّادق عليه السّلام يواصل أصحابه بوصاياه القيّمة، و تعاليمه التى تدل على شدة اهتمامه بتوجيه الدعوة إلى الرشاد و طريق الهدى. و كان يرسل وصاياه العامة مع من يحضر عنده من أصحابه، و يلزمهم أن يبلغوا من يلقونه من أصحابهم كقوله: «أقرءوا من لقيتم من أصحابكم السّلام، و قولوا لهم: فلان بن فلان-يعنى نفسه-يقرؤكم السّلام، إنى و اللّه ما آمركم إلاّ بما نأمر به أنفسنا، فعليكم بالجد و الاجتهاد. و إذا صليتم الصبح و انصرفتم، فبكروا فى طلب الرزق و اطلبوا الحلال، فإن اللّه عزّ و جل سيرزقكم و يعينكم عليه» .

و يحدّثنا زيد الشحام: قال: قال لى أبو عبد اللّه الصّادق عليه السّلام: «أقرأ-من ترى أنه يطيعنى منكم-السّلام، و أوصيكم بتقوى اللّه عزّ و جلّ و الورع فى دينكم، و الاجتهاد للّه و صدق الحديث، و أداء الأمانة، و طول السجود، و حسن الجوار، فبهذا جاء محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم. أدّوا الأمانة إلى من ائتمنكم عليها برّا أو فاجرا، فإن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان يأمر بأداء الخيط و المخيط. صلّوا عشائركم، و اشهدوا جنائزهم، و عودوا مرضاهم، و أدّوا حقوقهم، فإن الرجل منكم إذا ورع فى دينه، و صدق الحديث، و أدّى الأمانة، و حسن خلقه مع الناس، و قيل هذا جعفرى، يسرّنى ذلک و يدخل علىّ منه السرور، و قيل هذا أدب جعفر، و إذا كان غير ذلک دخل علىّ بلاؤه و عاره» . و نقف عند هذا الحد من ذكر وصاياه التى كان يوجهها إلى أصحابه، و قد ذكرنا بعضا منها فى الجزء الثانى، و لكثرتها لا نستطيع حصرها فى جزء واحد، و سنواصل نشرها إن شاء اللّه تعالى فى بقية الأجزاء.

حكمه عليه السّلام:

اشارة

كانت وصاياه عليه السّلام هى لغته فى مخاطبة العقول و طريقته فى تربية النفوس يستمدها من الدين و العقيدة، و يتجه بها إلى المجتمع و الأفراد. و أما حكمه عليه السّلام فهى خلاصة المعانى و صفوة الأفكار، يقولها لمختلف الأغراض الدينية و الأخلاقية و الاجتماعية بخبر و أمر و وصف تنم عن عمق إيمانه و كمال شخصيته و عظيم خصاله و كل قول يرقى إلى الحكمة يأتى عن دراية و تجربة، فما ظنک بإمام يتولى بنفسه مواجهة الأخطار التى تهدد المجتمع من مصادرها السياسية و الفكرية و يتبنّى أمر المسلمين فى مرحلة تشتد فيها وسائل الحكام فى مراقبته و الإيقاع به، و يرى نفسه مسئولا عن الأمة مهما تزايد ظلم الحكام و جورهم؛ فهو يدنو من المجتمع الإسلامى فى عمومه و تعدد أقطاره. و يعايش الأفراد و تصرفاتهم معايشة المصلح الموجّه و الحكيم المرشد. و إليک باقة من تلک الحكم الخوالد: * «أفضل الملوک من أعطى ثلاث خصال: الرأفة، و الجود، و العدل، و ليس

يحب للملوک أن يفرطوا (أی يقصّروا) فی ثلاث: فی حفظ الثغور، و تفقد المظالم، و اختيار الصالحين لأعمالهم» . * «ثلاثة لا يعذر المرء فيها: مشاورة ناصح، و مداراة حاسد، و التحجب إلی الناس» . * «احذر من الناس ثلاثة: الخائن، و الظلوم، و النمّام. لأنّ من خان لک خانک، و من ظلم لک سيظلمک، و من نمّ إليک سينم عليک» . * «ثلاثة من تمسّک بهنّ نال من الدنيا بغيته: من اعتصم باللّه، و رضی بقضاء اللّه، و أحسن الظنّ باللّه» . * «کل ذی صناعة مضطر إلی ثلاث خلال يحتلب بها المکسب: أن يکون حاذقا فی عمله، مؤديا للأمانة فيه، مستميلا لمن استعمله» . * «إذا لم تجتمع القرابة علی ثلاثة أشياء، تعرضوا لدخول الوهن عليهم، و شماتة الأعداء بهم، و هی: ترک الحسد فيما بينهم لئلا يتحزّبوا فيتشتت أمرهم، و التواصل ليکون ذلک حاديا لهم علی الإلفة، و التعاون لتشملهم العزّة» . * «ثلاثة لا يصيبون إلاّ خيرا: أولو الصمت، و تارکو الشر، و المکثرون ذکر اللّه عزّ و جلّ. و رأس الحزم التواضع» . فقال له بعضهم: و ما التواضع؟ قال: «أن ترضی من المجلس بدون شرفک، و أن تسلّم علی من لقيت، و أن تترک المراء و إن کنت محقا» . * «خذ من حسن الظن بطرف تروح به و تروح به قلبک» . * «من ظهر غضبه ظهر کيده، و من قوی هواه ضعف عزمه، و من أنصف من نفسه رضی حکما لغيره» . * «العجب يکلم المحاسن، و الحسد للصديق من سقم المودة، و لن تمنع الناس من عرضک إلاّ بما تنشر عليهم من فضلک» . * «العز أن تذل للحق إذا ألزمک» . * «من أخلاق الجاهل الإجابة قبل أن يسمع، و المعارضة قبل أن يفهم، و الحکم بما لا يعلم» . * «من أدب الأديب دفن أدبه» .

* «إن خير مـا ورّث الآبـاء لأبنـائهم الأدب لا المال، فإن المال يـذهب و الأدب يبقى» . * «لا تطعنوا فى عيوب من أقبل إليكم بمودة، و لا توقفوه على سيئة يخضع لها، فإنّها ليست من أخلاق رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و لا من أخلاق أوليائه» .

و من حكمه:

«العلم جنّة. و الصدق عز. و الجهل ذل. و حسن الخلق مجلبة للمودة. و العالم بزمانه لا تهجم عليه اللوابس. و الحزم مشكاة الظن. و اللّه ولى من عرفه. و العاقل غفور و الجاهل ختور. و إن شئت أن تكرم فلن. و إن شئت أن تهان فاخشن. و من كرم أصله لان قلبه، و من خشن عنصره غلظ كبده. و من فرّط تورّط. و من خاف العاقبة تثبت فيما لا يعلم. و من هجم على أمر من غير علم جدع أنف نفسه» . و نكتفى بهذا الموجز من البيان لبعض وصايا الإمام الصّادق و حكمه، و سيأتى كثير منها فى ثنايا البحث، و إن استقصاءنا لها يستلزم وضع مؤلّف كبير فى ذلك، لأنها تشتمل على أمور هامة و مواعظ نافعة تتناول كل نواحى الحياة و مشاكل عصره، و قد بذل جهده عليه السّلام فى إيجاد قوة فعّالة تتجه نحو الخير ليحيى المسلمون حياة طيبة، و لا يحصل ذلك إلاّ فى توثق العلاقات بينهم، و إيجاد المحبة فى قلب المسلم لأخيه المسلم و قمع غرائز الأثرة، و الابتعاد عن الرذائل، و اتباع المثل العليا فى الإسلام. و كان الإمام الصّادق وحيد عصره فى مختلف العلوم و الفنون، و ظهرت فى شخصيته آثار الوراثة بأجلى صورها، إذ هو رضيع ثدى الإيمان، و وليد بيت الوحى، و وارث علم النبى، و حافظ تراثه. و كانت الآمال تتركز حول شخصيته، لذلك لم نجد مدرسة إسلامية تطاول مدرسته فى الشهرة، أو تماثلها فى منهجها الذى سارت عليه. و قد انتشر مذهبه فى أقطار الأرض-رغم تلك الحواجز التى وقفت فى طريقه-فهو بقوته القدسية قد ذلّل المصاعب، و صارع الحوادث، وشق طريقه إلى التقدّم. و مهما تكن العوامل فى صرف الناس عنه-فإنّها لم تؤثّر أثرها المطلوب. إذ العقيدة أكبر مؤثّر فى تكوين العقل الإنسانى-رقيا و انحطاطا-فإن الناس لا يجهلون ما لأهل البيت من الأثر العظيم فى المجتمع الإسلامى، و قد منحهم النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم صفة لا يشاركهم فيها أحد، و هى الاقتران بالكتاب و عدم افتراقهما إلى آخر الزمن. فهم دعاة

للخير و أئمة للهدى، و سفن النجاة إذا طغت أمواج النفاق. و هم أكثر الناس زهدا فى الحياة و فناء فى اللّه. و قد بذلوا نفوسهم الزكية لحفظ تعاليم الإسلام، و لم تقف أمامهم مقاومة الأعداء. و تحمّلوا قسوة الطغاة و عنت الباغين، و جور المستبدين، انتصارا للحق و ثورة على الباطل. و امتازوا بقوة الإيمان و صدق النيّة، و إخلاص العمل فى سبيل حفظ الإسلام و نشر تعاليمه و إحياء مآثره، و قد قال أمير المؤمنين على عليه السّلام: «فأين تذهبون و أنى تؤفكون، و الأعلام قائمة و الآيات واضحة، و المنار منصوبة، فأين يتاه بكم، بل كيف تعمهون و بينكم عترة نبيكم و هم أزمّة الحق، و أعلام الدّين، و ألسنة الصدق» . و يقول عليه السّلام: «انظروا أهل بيت نبيكم فالزموا سمتهم، و اتبعوا أثرهم؛ فلن يخرجوكم من هدى، و لن يعيدوكم فى ردى» (1). و يقول الإمام الصّادق عليه السّلام: «نحن أصل كل خير، و من فروعنا كل بر، فمن البر: التوحيد، و الصيام، و كظم الغيظ، و العفو عن المسىء، و رحمة الفقير، و تعهد الجار، و الإقرار بالفضل لأهله. و عدوّنا أصل كل شر، و من فروعهم كل قبح و فاحشة، فمنهم: الكذب، و البخل، و النميمة، و القطيعة، و أكل الربا، و أكل مال اليتيم بغير حقّه، و تعدى الحدود التى أمر اللّه، و ركوب الفواحش ما ظهر منها و ما بطن، و الزّنا، و السرقة و كل ما وافق ذلک من القبيح، و كذب من زعم أنّه معنا و هو متعلّق بفروع غيرنا» . و إلى هنا ينتهى بحثنا فيما شرعنا فيه حول مدرسة الإمام الصّادق و حملة فقهه، و بيان الفرق فى عصره، و بيان بعض تعاليمه من حكمه و وصاياه. و ننتقل الآن مع القارئ الكريم، إلى دراسة تتعلّق بالمذاهب الأربعة. من حيث الالتزام بأخذ الأحكام الشرعية عن الأئمة الأربعة دون غيرهم، و لا يصح العمل إلاّ بذلک. فعلينا إذا أن ندرس القضية، و نقف على الأمر، و هل كان هذا الالتزام أمرا شرعيا قرّره الإسلام؟ و هل أن باب الاجتهاد مغلق بعد الأئمة الأربعة، و متى كان هذا الالتزام؟ و بأى تاريخ وقع؟ و ما هى أسبابه و عوامله؟

1- 1) شرح نهج البلاغة ج 1 ص 152.

المذاهب الأربعة

اشارة

التزام و آراء

تمهيد:

إن أهم موضوع فی تاریخ التشریع الإسلامی هو موضوع غلق باب الاجتهاد، و ادعاء استحالته لأحد غیر أئمة المذاهب الأربعة: أبو حنیفة، و مالک، و الشافعی، و أحمد بن حنبل. و أن تقلیدهم لازم، و لا یصح العمل إلاّ بما جاء عنهم، و أن من المستحیل حصول ملکة الاجتهاد لأحد غیرهم حتی أن البعض یری أن من یقلّد غیرهم زندیق، و أن العمل لا یصح إلاّ بالأخذ عن واحد من هؤلاء الأئمة، فهم أعلم الأمة و سادات الأئمة إلی غیر ذلک من الادعاءات. و قد تقدم الکلام عن أسباب نشأة المذاهب و عوامل انتشارها و لإیضاح ما لعله لم یتضح من هذا الموضوع، نتعرّض هنا لما یتعلّق فیه من بیان تاریخ الالتزام، بالأخذ عن الأئمة الأربعة، و بیان العوامل التی أدّت إلی الجمود الفکری، فأغلق باب الاجتهاد فی وجوه المسلمین، و ادّعی استحالته بعد ذلک الزمن، و أن من یدعی ذلک یوصم بالجهل، و یؤاخذ بدعواه، و ربما رمی بالزندقة، و مع ذلک فإن البعض من أهل السنّة یعارضون هذه الفکرة، و یقفون أمام هذه الدعوة بشدة إن ساعدتهم الظروف علی ذلک، فهم یوافقون الشیعة فی حریة الرأی، و عدم القول بغلق باب الاجتهاد. و لقد أثر هذا الالتزام بوحدة المسلمین، ففرّق کلمتهم و نشبت بین معتنقی المذاهب حروب دمویة، نتیجة للخلافات المذهبیة، و ادعاء کل فریق أن الحق له دون غیره، و أن إمامه هو المنفرد بمنزلة العلم و أهلیة الاتباع، و اندفعوا بکل وسیلة لرفع مقام رئیس المذهب إلی منزلة لا یدانیه فیها أحد، و تحکم التعصب الطائفی، و کثر الجدل، و عظم الخلاف بین أتباع أئمة المذاهب (و دب التقلید فی صدورهم دبیب

النمل و هم لا يشعرون، و كان سبب ذلک تزاحم الفقهاء و تجادلهم فيما بينهم) (1). و بلغ الأمر بهم فی صوغ عبارات المدح و الثناء إلی ما يقف العقل أمامه موقف الرد و الإنكار، كما ذهبوا إلی أعلمية هؤلاء الأئمة علی جميع المسلمين، و أنهم بلغوا درجة العصمة عن الخطأ؛ و أن اللّه لا يقبل عمل عامل إلاّ من طريقهم و كل يعتقد أفضلية إمامه علی بقية الأئمة، و أن مذهبه هو الصواب. إلی غير ذلک من التفريط و الغلو، مما لم يعرفه معاصرو أولئک، و لم يجدوه هم فی أنفسهم.

الالتزام بالمذاهب الأربعة:

تطورت الدعوة إلی المذاهب الأربعة، و تكثرت العوامل لاتباعهم بصورة خاصة، و قد ذكرنا فی الجزء الأول أسباب نشأتها و عوامل انتشارها بما لا حاجة إلی إعادته. و الغرض: إن الالتزام بهذه المذاهب الأربعة كان بصورة تدريجية، حتی أدّی ذلک علی مرور الزمن، إلی أن ينحصر أخذ الأحكام عنها دون غيرها من المذاهب الإسلامية علی كثرتها و انتشارها. و الشیء المحصل من جميع الأقوال أن الأخذ بها و لزوم التقليد كان فی القرن الرابع، أما الالتزام بها دون غيرها و وجوب أخذ أقوالهم و ترک أقوال الآخرين و عدم السماح بالاجتهاد و الاستنباط يرجع تاريخه إلی سنة 645 ه و ذلک عند ما رأت السلطة أن تحصر الأخذ عن المشايخ الأربعة: أبی حنيفة، و مالک، و الشافعی، و أحمد. فأحضر مدرسو المدرسة المستنصرية إلی دار الوزير، و تقدم إليهم أن لا يذكروا شيئا من تصانيفهم، و لا يلزموا الفقهاء بحفظ شیء منها، بل يذكرون كلام المشايخ تأدّبا معهم و تبرّكا بهم، و أجاب جمال الدين عبد الرّحمن بن الجوزی-مدرّس الحنابلة- بالسمع و الطاعة، ثم مدرس المالكية سراج الدين عبد اللّه الشرمساحی، و قال: ليس لأصحابنا تعليقة، فأمّا النقط من مسائل الخلاف فما أرتبه. و أما شهاب الدين الزنجانی مدرس الشافعية، و أقضی القضاة عبد الرّحمن بن اللمغانی مدرّس الحنفية فإنهما قالا ما معناه: (إن المشايخ كانوا رجالا و نحن رجال) .

1- 1) حجة اللّه البالغة ج 1 ص 153.

و نحو ذلک من إبهام المساواة فانتهت صورة الحال، فتقدم الخليفة أن يلتزموا بذكر كلام المشايخ و احترامهم، فأجابوه بالسمع و الطاعة (1). و بذلک أصبح الالتزام بهذه المذاهب أمرا رسميا لا يمكن خلافه، و قضى على غيرها من المذاهب المعمول بها فى ذلک الوقت- على قلة اتباعها- كمذهب سفيان الثورى، و مذهب داود بن على الظاهرى، حتى أدت الحالة إلى محو الجميع، و بقاء المذاهب الأربعة نظرا لما أظهرته السلطة من تهديد و توعيد، و ترغيب و ترهيب (و لم يبق لأهل السنّة إلاّ المذاهب الأربعة السابقة، لأنّها وجدت من الملوک و الوزراء من يحمل الناس عليها، و ينشىء لها تلک المدارس، و يحبس عليها تلک الأوقاف، فلما طال العهد بها على الناس أخذوا يتعصّبون لها و ينكرون ما عداها من المذاهب السابقة) (2).

التطرّف بالتزام المذهب:

و اتسع الخلاف و كثر الجدل، و عظمت الفرقة، و ذهب كلّ إلى تأييد مذهبه و تصويب رأيه، و إبراز صرة إمام مذهبه فى صفحة الوجود بإطار الغلو و العبقرية الادعائية، لا العبقرية الواقعية، جهلا منهم بعاقبة الأمر، و اتباعا لهوى سلطان لا يروق له اتحاد الأمة. و قد اندفع المتطرّفون إلى أبعد حدّ من الشذوذ، و لم يصغوا لأهل الاعتدال و التوازن منهم، و لم يجعلوا وزنا لأقوال أئمتهم، و ما هو مأثور عنهم: بأنّهم لم يصلوا إلى تلک الدرجة التى يدعونها لهم، فإنهم بشر يخطئون و يصيبون، و أن أقوالهم لا قيمة لها تجاه الأثر و النصوص النبوية، كما يأتى بيانه. لم يسمعوا ذلک، بل وصفوهم بما تهوى أنفسهم، كما وصفوا أبا حنيفة بأنّه: سراج الأمة، و سيد الأئمة، و محيى السنّة، و أنه إذا تكلم خيّل إليک أن ملكا يلقنه، و ما كلّم أحدا فى باب من أبواب الفقه إلاّ ذلّ له، و إذا أشكلت مسألة على أعلم الناس سهلها عليه. كما تجد ذلک فى كتب مناقبه للمكى، و الكردرى و غيرهما. و أنک لتدهش من تلک الألفاظ الفارغة، التى لا تجد فيها سوى التهجم على

1- 1) الحوادث الجامعة ص 216-217. [1]

2- 2) ميدان الاجتهاد ص 11.

الحقائق، و مخالفة الحق و الواقع!!! إذ هی ولیدة عصور متأخرة لا یعرفها معاصروه، و لم یشهد له بذلک علماء عصره، و قد کان أکثرهم ینکرون علیه و یردّون فتاواه. منهم: أیوب السجستانی، و جریر بن حازم، و همام بن یحیی، و حماد بن سلمة، و أبو عوانة، و علی بن عاصم، و سفیان الثوری، و سفیان بن عیینة، و مالک بن أنس و غیرهم، و کلماتهم فی الرد علیه مشهورة مدونة (1). و کان هو بنفسه لا یری ذلک، و یعترف بأنّه یخطئ و یصیب، کما یتضح ذلک من أقواله المدونة و المشهورة عنه (2). و الشیء الذی یلفت النظر هو تکرارهم لکلمة تنسب إلی الشافعی، و قد جعلوها من أعظم المؤیّدات لأتباع مذهب أبی حنیفة و هی: أنّه کان یقول: الناس عیال فی الفقه علی أبی حنیفة. مع أن المشهور غیر هذا. و العبارة لم تصدر إلاّ من قبل دعاة المذهب، إذ المعروف عن الشافعی أنّه کان یقول: أبو حنیفة یضع أول المسألة خطأ ثم یقیس الکتاب کلّه علیه. و یقول: ما أشبه رأی أبی حنیفة إلاّ بخیط سحارة، و هی شیء یلعب به الصبیان، تمده هکذا فیجیء أصفر، و تمده فیجیء أخضر. و یقول: رأیت أبا حنیفة فی النوم و علیه ثیاب و وسخة فقال: ما لی و لک (3)؟ و کان الشافعی یفضل مالکا علی أبی حنیفة. و اشتهرت مناظرته لمحمّد بن الحسن الشیبانی. قال محمّد بن عبد الحکم: سمعت الشافعی یقول: قال لی محمّد بن الحسن: أیهما أعلم، صاحبنا أو صاحبکم؟ -یعنی مالکا و أبا حنیفة-قلت علی الإنصاف؟ قال: نعم. . . قلت: فأنشدک اللّه من أعلم بالقرآن صاحبنا أو صاحبکم؟ قال: صاحبکم-یعنی مالکا. قلت: فمن أعلم بالسنّة، صاحبنا أو صاحبکم؟ قال: اللّهمّ صاحبکم. قلت: فأنشدک اللّه من أعلم بأقاویل أصحاب رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و المتقدمین، صاحبنا أو صاحبکم؟ قال: صاحبکم.

1- 1) تاریخ بغداد ج 13. و [1]الانتقاء و جامع بیان العلم و فضله لابن عبد البر و غیرها.

2- 2) حجة اللّه البالغة ج 1 ص 157.

3- 3) آداب الشافعی لابی حاتم الرازی ص 171-174.

قال الشافعی: قلت فلم یبق إلاّ القیاس. و القیاس لا یکون إلاّ علی هذه الأشیاء، فمن لم یعرف الأصول علی أی شیء یقیس (1)؟ هذه هی أقوال الشافعی فی أبی حنیفة. و تدلّنا بکل وضوح علی بطلان ما نسبوه إلیه من أن الناس عیال فی الفقه علی أبی حنیفة. و کذلک أقوال أحمد بن حنبل فی مدح أبی حنیفة، فإن التتبع یرفع الوثوق بها، و قد اشتهر عنه قوله: إذا رأیت الرجل یتجنّب أبا حنیفة و رأیه و النظر فیه، و لا یطمئن إلیه و لا إلی من یذهب مذهبه، و یغلو، و لا یتخذه إماما، فارجو خیره (2). و کان یشتد علی أصحاب الرأی فی استعمال الحیل فیقول: هذه الحیل التی وضعها هؤلاء-أبو حنیفة و أصحابه-عمدوا إلی السّنن فاحتالوا فی نقضها. أتوا الذی قیل لهم أنه حرام، فاحتالوا فیه حتی أحلّوه. و قال أیضا: إنهم یحتالون لنقض سنن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم (3). و سئل أحمد عن مالک فقال: حدیث صحیح و رأی ضعیف. و سئل عن أبی حنیفة فقال: رأی ضعیف و حدیث ضعیف. و ما أکثر الشواهد التی تدل علی خلاف ما یذهبون إلیه من الإفراط و الاندفاع وراء العاطفة، و التمسّک بأشیاء بعیدة عن الصواب. فقد کثر الجدل و عظم الخلاف (حتی آل بهم التعصّب إلی أن أحدهم إذا ورد علیه شیء من الکتاب و السنّة علی خلاف مذهبه یجتهد فی دفعه بکل وسیلة من التأویلات البعیدة، نصرة لمذهبه و لقوله) (4). و نقل الرازی عن أکبر شیوخه فی تفسیر قوله تعالی: أَ فَلا یَتَدَبَّرُونَ اَلْقُرْآنَ أنّه قال: قد شاهدت جماعة من مقلدة الفقهاء قرأت علیهم آیات کثیرة من کتاب اللّه فی بعض مسائل، و کانت مذاهبهم بخلاف تلک الآیات فلم یقبلوها، و لم یلتفتوا إلیها،

1- 1) آداب الشافعی لابن أبی حاتم الرازی ص 159-160. و مناقب الفخر ص 101. و مناقب مالک للسیوطی و الزواوی ص 10-12. و حلیة الأولیاء ج 6 ص 329. و طبقات الفقهاء ص 42 و غیرها.

2- 2) طبقات الحنابلة ج 1 ص 247. [1]

3- 3) طبقات الحنابلة ج 2 ص 151-152. [2]

4- 4) أبو شامة فی مختصر المؤمل ص 14-15.

و بقوا ينظرون إلىّ كالمتعجب-يعنى كيف يمكن العمل بظواهر هذه الآيات مع أن الرواية عن سلفنا وردت على خلافها؟ و لو تأملت حق التأمّل وجدت هذا الداء ساريا فى عروق الأكثرين من أهل الدنيا. قال أبو شامة (1): و كانت تلك الأزمنة مملوءة بالمجتهدين، فكل صنف على ما رأى، و تعقب بعضهم بعضا مستمدّين من الأصلين: الكتاب و السنّة، و ترجيح الراجح أقوال السلف المختلفة بغير هدى، و لم يزل الأمر على ما وصفت، إلى أن استقرت المذاهب المدونة، ثم اشتهرت المذاهب الأربعة و هجر غيرها، فقصرت همم اتباعهم إلاّ قليلا منهم، فقلدوا بعد ما كان التقليد حراما لغير الرسل، بل صارت أقوال أئمتهم بمنزلة الأصلين-الكتاب و السنّة-و ذلک معنى قوله تعالى: اِتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَ رُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اَللّهِ فعدم المجتهدون و غلب المتقلدون، و كثر التعصّب و كفروا بالرّسول حيث قال: «يبعث اللّه فى كل مائة سنة من ينفى تحريف الغالين و انتحال المبطلين» و حجروا على رب العالمين، مثل اليهود، أن لا يبعث بعد أئمتهم وليا مجتهدا، حتى آل بهم التعصب إلى أن أحدهم إذا أورد عليه شىء من الكتاب و السنّة على خلافه يجتهد فى دفعه بكل سبيل من التأويلات البعيدة نصرة لمذهبه و لقوله. . إلخ (2). و هنا يستوقفنى الفكر طويلا عند ما أتأمل أقوال العلماء المبرزين، الذين ينتسبون لأحد المذاهب، و أنّهم كيف كانوا يتشدّدون فى النهى عن التقليد و مضاره، و كيف كانوا يخالفون رئيس المذهب فى اجتهادهم و أنهم لم يعرفوا عن أئمة المذاهب ما يدعيه المتأخرون عنهم من المبالغات، و ذلک التشديد فى وجوب تقليد إمام بعينه. فكم الفرق بين الفريقين؟ و إن الأمر ليبعث على الاستغراب! و إن المتتبع يقطع ببطلان ما يذهب إليه المتأخّرون، و أنهم قد خالفوا أئمتهم و رؤساء مذاهبهم فى اتباع تلک الأمور المبتدعة، و تعصّبهم لمذاهبهم بما لا يرضى به أولئک الأئمة الذين ادّعوا أنّهم لهم متبعون، و وصفوهم بأقصى ما يتصور من المدح و الثناء، و جعلوا تقليدهم

1- 1) هو شهاب الدين أبو القاسم عبد الرّحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المتولد فى 596 ه المتوفى سنة 665 ه.

2- 2) مختصر المؤمل للرد إلى الأمر الأول ص 14-15.

و الرجوع لأقوالهم أمرا إلزاميا. و لا نعلم من أين جاء هذا الالتزام، و الأئمة أنفسهم ينهون عن ذلک؟ ! و لجلاء الأمر نضع صورة موجزة من أقوال أئمة المذاهب.

الإمام أبى حنيفة لا يلزم بالرجوع إليه:

إن أقوال أبى حنيفة و آثاره تدل على عدم الإلزام بالرجوع إليه، و أخذ قوله دون غيره، و أن حكمه هو الصواب لا غير، حتى أدّى الأمر إلى أن يتعصّب أكثر اتباعه فى تقديم قوله على الآثار الصحيحة. و كيف ساغ لهم ذلک و هو ينهى عنه؟ ! ! كما كان ينهى عن تقليده، بما اشتهر عنه أنّه كان يقول: (إذا صح الحديث فهو مذهبى) . و قوله: لا ينبغى لمن لا يعرف دليلى أن يفتى بكلامى. و فى رواية: حرام على من لا يعرف دليلى. و كان يقول: هذا رأى النعمان بن ثابت-يعنى نفسه-و هو أحسن ما رأيت، فمن جاء بأحسن منه فهو أولى بالصواب (1). و قال: هذا الذى نحن فيه رأى لا يجبر أحد عليه، و لا نقول يجب على أحد قبوله بكراهية، فمن كان عنده شىء أحسن منه فليأت به (2). و قيل لأبى حنيفة: إذا قلت قولا و كتاب اللّه يخالفه؟ قال: اتركوا قولى بكتاب اللّه. فقيل: إذا كان خبر الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم؟ فقال: اتركوا قولى لقول رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم. فقيل: إذا كان قول الصحابة يخالفه؟ قال: اتركوا قولى لقول الصحابة (3). و قد اشتهر منع الفتوى بدون معرفة الدليل على أكابر أصحاب أبى حنيفة. قال عصام بن يوسف: كنت فى مأتم، فاجتمع فيه أربعة من أصحاب أبى حنيفة: زفر بن الهذيل، و أبو يوسف، و عافية بن يزيد، و آخر، فكلهم أجمعوا على أنّه قال: لا يحل لأحد أن يفتى بقولنا ما لم يعلم من أين قلناه. قال الشيخ صالح بن محمّد العمرى: إن هؤلاء الأئمة لا يبيحون لغيرهم أن يقلّدهم بغير أن يعلموا دليل قولهم (4).

1- 1) حجة اللّه البالغة ج 1 ص 152-153.

2- 2) الانتقاء ص 140.

3- 3) الوحدة الإسلامية ص 97.

4- 4) إيقاظ همم ذوى الأبصار ص 72.

و قال أبو الليث السمرقندى: باب من يصلح للفتوى؟ قال الفقيه: لا ينبغى لأحد أن يفتى إلاّ أن يعرف أقاويل العلماء-يعنى أبا حنيفة و صاحبيه-و يعلم من أين قالوا، و يعرف معاملات الناس، فإن عرف أقاويل العلماء و لم يعرف مذاهبهم. . . إلخ. و قال أبو يوسف بمثل قول أبى حنيفة و هو قوله: حرام على من لم يعرف دليلنا أن يفتى بقولنا (1).

الإمام مالک ينهى عن التقليد:

و قد اشتهر عن مالک: أنّه كان ينهى عن التقليد و الرجوع لقول أى أحد دون كتاب اللّه و سنّة رسوله. و يعلن معارضته لمن كان يتعصب له و يدعى أعلميته على جميع الأمة. و يتضح من مطاوى كلماته أن الحديث الذى ادّعوه فى فضله، و هو حديث عالم المدينة، لم يكن يعرفه مالک، و إن كان معروفا فلا- يرى انطباقه عليه لوجود من هو أعلم منه، و المأثور عن مالک فى ذلک كثير، كقوله: إنما أنا بشر أخطئ و أصيب، فانظروا فى رأيى فكل ما وافق الكتاب و السنّة فخذوه، و كل ما لم يوافق الكتاب و السنّة فاتركوه. و كان مالک لا يخرج عن عمل أهل المدينة، و يصرح فى موطنه بأنّه أدرک العمل على هذا، و هو الذى عليه أهل العلم ببلدنا. و يقول فى غير موضع إذا سئل عن شىء: ما رأيت أحدا أقتدى به يفعله (2)أى يفعل ذلک الشىء المسئول عنه. و روى محمّد بن محمّد بن سنه بسنده عن مالک أنّه قال: إنما أنا بشر أخطئ و أصيب، فانظروا فى رأيى، فكل ما وافق الكتاب و السنّة فخذوه، و كل ما لم يوافق فاتركوه. و روى مثله عن أحمد بن مروان المالكى (3). و كان رأى مالک: أن من ترک قول أحد من الصحابة لقول تابعى أنّه يستتاب. و قد صرح مالک بأن من ترک قول عمر بن الخطاب لقول إبراهيم النخعى أنه يستتاب.

1- 1) الدين الخالص ج 4 ص 180.

2- 2) أعلام الموقعين لابن القيم ج 2 ص 186.

3- 3) الدين الخالص ج 4 ص 182.

فکیف بمن ترک قول اللّه و الرّسول لقول من هو دون إبراهیم أو مثله (1)و هذا علی سبیل المثال لا التشخیص منه. و قد اشتهر عن مالک کثرة قوله: لا أدری. فی کثیر من المسائل، و قد سئل عن ثمان و أربعین مسألة، فقال فی اثنین و ثلاثین منها: لا أدری. و سئل من العراق عن أربعین مسألة، فما أجاب منها إلاّ فی خمس. قال أبو مصعب: قال لنا المغیرة: تعالوا نجمع کل ما نرید أن نسأل عنه مالکا. فمکثنا نجمع ذلک، و وجه به المغیرة إلیه، و سأله الجواب، فأجاب مالک فی بعضه، و کتب فی الکثیر منه: لا أدری (2). و الروایات عنه فی «لا أدری» و «لا أحسن» کثیرة، حتی قیل: لو شاء رجل أن یملأ صحیفة من قول مالک: «لا أدری» لفعل. و قیل لمالک إذا قلت-أنت-یا أبا عبد اللّه: لا أدری فمن یدری؟ قال: و یحک؟ أ عرفتنی؟ و من أنا؟ و أیش منزلتی حتی أدری ما لا تدرون؟ ثم أخذ یحتج و قال: قد ابتلی عمر بن الخطاب بهذه الأشیاء، فلم یجب فیها. و قال عبد اللّه بن مسلمة: دخلت علی مالک-أنا و رجل آخر-فوجدناه یبکی، فسلمت علیه، فرد علیّ، ثم سکت عنی و هو یبکی، فقلت: یا أبا عبد اللّه ما الذی یبکیک؟ فقال لی: یا ابن قعنب أبکی للّه علی ما فرط منی من هذا الرأی و هذه المسائل. و قد کان لی سعة فیما سبقت. فقلنا له: ارجع عن ذلک. فقال: و کیف لی بذلک و قد سارت به الرکبان (3). و سأل رجل مالکا عن مسألة، و ذکر أنّه أرسل فیها من مسیرة ستة أشهر من المغرب فقال له: أخبر الذی أرسلک أنّه لا علم لی بها. قال: و من یعلمها؟ قال مالک: من علّمه اللّه. و سأله رجل عن مسألة استودعه إیاها أهل المغرب، فقال: ما أدری، ما ابتلینا بهذه المسألة ببلدنا، و لا سمعنا أحدا من أشیاخنا تکلم فیها، و لکن تعود. فلما کان من الغد جاء الرجل و قد حمل ثقله علی بغله یقوده، فقال: مسألتی. فقال مالک: ما أدری ما هی؟

1- 1) أعلام الموقعین لابن القیم.

2- 2) الموافقات ج 4 ص 288.

3- 3) الوحدة الإسلامیة ص 107.

فقال الرجل: يا أبا عبد اللّه تركت خلفى من يقول: ليس على وجه الأرض أعلم منك. فقال مالک غير مستوحش: إذا رجعت إليهم فأخبرهم إنى لا ـ أحسن (1). و هذا مما يدل على خطأ ذلک الاعتقاد الذى كونته عوامل غير مشروعة، و أيّدته ظروف خاصة، لذلک أنكر عليهم مالک، إذ هو لم يعرف من نفسه ما قد ادّعاه فيه غيره، و كذلک لم يكن يعرف المتّصلون بمالک، و الذين عرفوا منزلته كما عرفه الناءون عنه، و أخذوا عنه صورة مكبرة رسمتها يد المبالغة و الغلو، فأنكر مالک عليهم ما يدّعونه فيه من العصمة و الوصول إلى درجة الإحاطة بكل العلوم. و اتسع الأمر بعد مالک حتى أصبح قوله يقدم على الكتاب و السنّة كما أشرنا لذلک.

الإمام الشافعى ينهى عن التقليد:

و كذلک الإمام الشافعى كان ينهى عن التقليد، و يدعو إلى العلم من طريقه. و قد روى عنه أنّه قال: مثل الذى يطلب العلم بلا حجة كمثل حاطب ليل، يحمل حزمة حطب و فيه أفعى تلدغه، و هو لا يدرى. ذكره البيهقى. و قال إسماعيل بن يحيى المزنى فى أول مختصره: اختصرت هذا من علم الشافعى و من معنى قوله: لأقرّبه على من أراده، مع إعلامية نهيه-أى الشافعى-عن تقليده و تقليده غيره، لينظر فيه لدينه، و يحتاط فيه لنفسه (2). و مختصر المزنى هذا قد أصبح للشافعية فيه اعتقاد و تمسک شديد، و امتلأت به البلدان، حتى أن المرأة كانت إذا جهزت للدخول على زوجها حمل فى جهازها مصحف و نسخة من مختصر المزنى (3). و قال ابن حجر فى توالى التأسيس: قد اشتهر عن الشافعى: (إذا صح الحديث فهو مذهبى) . قال ابن القيم: هذا صريح فى مدلوله، و أن مذهبه ما دل عليه الحديث لا قول له غيره، و لا يجوز أن ينسب إليه ما خالف الحديث، فيقال هذا مذهب الشافعى، و لا يحل الإفتاء بما خالف الحديث على أنه مذهب الشافعى، و لا الحكم به، صرّح بذلک جماعة من أئمة أتباعه.

1- 1) الموافقات لأبى إسحاق الشاطبى ج 4 ص 287-288.

2- 2) أعلام الموقعين ج 2 ص 181.

3- 3) مختصر المؤمل ص 35.

و قد اعترف الشافعی بعدم إحاطته بالأخبار الصحیحة، کما روی عن أحمد بن حنبل أنّه قال: قال الشافعی: أنتم أعلم بالأخبار الصحاح منا، فإذا کان خبر صحیح فأعلمنی حتی أذهب إلیه (1)و لـذلک قال أبو ثور: إن الشافعی ما کان یعرف الحدیث، و إنما کنّا نوقفه علیه و نکتبه. و قال الربیع: سـمعت الشافعی یقول: ما من أحد إلاّ و تذهب علیه سـنة لرسول اللّه صـلّی اللّه علیه و آله و سلّم و تعزب عنه، فمهما قلت من قول، و أصّـلت من أصـل، فیه عن رسول اللّه خلاف ما قلت، فالقول ما قاله رسول اللّه صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم و هو قولی، و جعل یردد هذه الکلمات. و قال أیضا: أجمع الناس علی أن من اسـتبانت له سـنة رسول اللّه صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم لم یکن لیدعها لقول أحد. و ستأتی زیادة بیان لهذه الأقوال عند بحثنا عنه.

الإمام أحمد یحارب التقلید:

و کذلک الإمام أحمد بن حنبل فإن المأثور عنه و المشـهور من أقواله أنّه کان یحارب التقلید، و یحث الناس علی طلب الحکم من دلیله، و یقول: کثرة التقلید عمی فی البصـیرة (2). و قال أبو داود: قلت لأحمـد: الأوزاعی هو أتبع من مالک؟ فقال أحمـد: لا تقلد دینک هؤلاء، ما جاء عن النبی و أصحابه فخذ به (3). و کان ینهی عن الکتابـة عنه و یقول: لا تکتبوا عنی و لا تقلدونی، و لا تقلدوا فلانا و فلانا، و خذوا من حیث أخذوا (4). و قال أحمـد أیضا: لا تقلـدنی، و لا تقلّـد مالکا، و لا الثوری و لا الأوزاعی، و خـذ من حیث أخـذوا. و قال: من قلّة فقه الرجل أن یقلد دینه الرجال (5).

1- 1) البدایة و النهایة ج 9 ص 327، و [1]طبقات الحنابلة ج 1 ص 282، و [2]آداب الشافعی لابن أبی حاتم ص 95، و میزان الشعرانی ج 1 ص 26 و مجموعة الرسائل المنبریة ج 3 ص 99.

2- 2) جلاء العینین للآلوسی ص 105.

3- 3) أعلام الموقعین ج 2 ص 181.

4- 4) مختصر المؤمل لأبی شامة ص 31.

5- 5) أعلام الموقعین ج 2 ص 182.

قال صاحب المنار: و قد كان هذا الإمام الجليل متأخرا قليلا عن «الأئمة الثلاثة» و إن أدرک بعضهم و صحب أحدهم و كان قد رأى بوادر التزام تقليد الذين تكلموا فى الأحكام و كتبوا فيها، و علم أن مالكا «رحمه اللّه» قد ندم قبل موته إذ نقلت أقواله و فتاويه قبل موته، و لذلک لم يدون مذهبا، و اقتصر على كتابة الحديث، و لكن أصحابه جمعوا من أقواله و أجوبته و أعماله ما كان مجموعه مذهبا، كما قال العلامة ابن القيم (1). و قال سلمة بن المسيب: سمعت أحمد بن حنبل يقول: رأى الأوزاعى و رأى مالک، و رأى أبى حنيفة كله رأى، و هو عندى سواء و إنما الحجة فى الآثار (2)! . يقول السيد صديق حسن، بعد نقله لأقوال أئمة المذاهب فى النهى عن تقليدهم: فإنّهم-رضى اللّه عنهم-قد نهوا عن الرأى و التقليد، و صرح بعضهم بأن الاستحسان بدعة، و لكن مقلديهم باللسان دون الجنان، لم يرضوا بهذا النهى و قالوا نحن مقلدوكم شئتم أو أبيتم-و هم و اللّه يعلم-أنهم كاذبون. (الدين الخالص ج 4 ص 373) . و الشىء الذى نود التنبيه عليه هنا أن أتباع أحمد قد تمسكوا بتقليده و الأخذ بأقواله، بل جعلها بعضهم كأقوال النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و هى بمثابات ما يروى عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من الآثار (3). هذا ما أردنا ذكره فى هذا العرض الموجز عن أئمة المذاهب، و نحن لا نريد أن نحط من كرامة واحد منهم، أو نتعصب عليه، و لكنى كما قلت سابقا: إن من الحق و الإنصاف أن نعطى شخصية كل واحد من أئمة المذاهب حقها من الدراسة المتجردة عن التعصّب و التحيّز، و أن لا ننقاد للعواطف، و لننظر الواقع بعين تبصر الحقائق كما هى. و بدون شک أن ذلک التعصّب الطائفى قد أوجد مشاكل اجتماعية فرقت الكلمة و كدرت صفو الأخوة. و ما أحوج المسلمين إلى الإلفة و الاتحاد و هى دعوة رفع الأئمة بها أصواتهم و كان تعاليمهم تحث على الوحدة و الاتفاق. فالتعصّب ينافى المبادئ

1- 1) الوحدة الإسلامية ص 117.

2- 2) الإيقاظ للغلاف ص 28.

3- 3) طبقات الحنابلة لابن أبى يعلى ج 2 ص 176. [1]

الصحيحة و يدعو إلى الفرقة، و نحن بأمسّ الحاجة إلى التفاهم من طريق العلم و الواقع. و لا يتسنى لنا حصول الغرض إلاّ برفع تلك الزوائد التى أوجدتها عوامل التعصّب، و أن لا نقيم و وزنا لعوامل السياسة التى قضت على المسلمين باتساع شقة الخلاف، فهى تساعد الضعيف ليقوى على مقابلة خصمه، فإذا ما بلغ الغاية أو كاد؛ سحبت يد المساعدة خلسة لتضمها للجانب الآخر!!! و هكذا على ممر الزمن و اختلاف العصور.

أسباب التعصب المذهبى و تطور الدعوة:

و الغرض: إن التعصب قد شوّه وجه الحقيقة، و قلب الأمور عن واقعها، و لعل أسباب ذلک تعود إلى ما يلى: 1-كان لتطور الدعوة إلى الالتزام بالمذاهب الأربعة، أثر فى تحيز كل جانب إلى المذهب الذى يعتنقه، مما يؤدى إلى الاندفاع بنوع من التعصب وراء طلب المؤيدات لذلک المذهب، بدون التفات إلى مؤاخذة، أو استناد لأمر ملموس. و كانت الظروف تساعد على تنمية تلک الاندفاعات، إذ وجدت نشاطا ساذجا فى المجتمع، و قبولا فى العقول المتبلبلة، فكالت المدح لها جزافا ما شاءت بدون حساب. 2-إن التزاحم على مناصب الدولة من قضاء و تولى حسبة، كان يؤدى إلى المجادلة و المناضلة و التحزب، و لا يحصل من وراء ذلک إلاّ خلاف و تباعد، و ادّعاء كل الحق فى جانبه، و أن مذهبه هو المذهب الذى لا يقبل اللّه عملا إلاّ به، و أن رئيس المذهب هو المتفرّد بعلوم الإسلام لا غير، لتكون له الغلبة على غيره. و قد تزلفوا للأمراء و الخلفاء طلبا للحصول على ذلک المنصب (و لذلک تجد الوطيس لم يحم إلاّ بين الحنفية و الشافعية، لأن المناصب كانت محصورة فيهم) (1). 3-مزاحمة المذهب الجعفرى و انتشاره فى المجتمع الإسلامى، مع بذل الجهد من السلطات فى معارضته، و القضاء على المنتمين إليه مرة، و بتشجيع غيره من المذاهب تارة أخرى، مما يبعث معتنقيها على التفانى فى التعصّب لها، و التحامل على هذا المذهب الذى فرض نفسه على المجتمع بدون مشجع مادى.

1- 1) الوحدة الإسلامية للسيد محمّد رشيد رضا ص 37.

و قد أفصح التاريخ عن كثير من ذلک مما لا حاجة لذكره الآن. و من المناسب أن نختم هذا الفصل بما ذكره الأستاذ السيد محمّد رشيد رضا، فی جواب الأسئلة التالية الموجهة إليه من باريس، من صديقه أحمد زكی بک و هی: 1-متی أقفل باب الاجتهاد؟ و ما ذا ترتب علی هذا الإقفال من المنافع و المضار؟ الجواب: زعموا أنه أقفل بعد القرن الخامس، و لكن كثيرا من العلماء اجتهدوا بعد ذلک، فلم يكونوا يعملون إلاّ بما يقوم عندهم من الأدلة، و لا يخلو زمن من هؤلاء، كما صرح بذلک علماء الشافعية. و لو لا خوفهم من حكومات الجهل لبيّنوا للناس مفاسد التقليد الذی حرمه اللّه. و دعوهم إلی العمل بالدليل كما أمر اللّه، و قد علمت الحكومة العثمانية-منذ عهد قريب-بأن بعض علماء الشام يحملون تلاميذهم علی ترک التقليد و العمل بالدليل، فشددت عليهم النكير حتی سكتوا عن الجهر بذلک. و لا نعرف فی ترک الاجتهاد منفعة ما، و أما مضاره فكثيرة و كلها ترجع إلی إهمال العقل و قطع طريق العلم، و الحرمان من استقلال الفكر. و قد أهمل المسلمون كل علم بترک الاجتهاد فصاروا إلی ما نری. 2-ما معنی قولهم أقفل باب الاجتهاد؟ الجواب: معناه أنّه لم يبق فی الناس من تتوفر فيه شروط المجتهد، و لا يرجی أن يكون ذلک فی المستقبل، و إنما قال هذا القول بعض المقلّدين، لضعف ثقتهم بأنفسهم، و سوء ظنّهم بالناس، و زعمهم أن العقول دائما فی تدلّ و انحطاط، و غلو فی تعظيم السابقين. و قد رأی أن تلک الشروط-أی شروط الاجتهاد-ليست بالأمر الذی يعز مثاله، و تعلم أن سنّة اللّه تعالی فی الخلق الترقی إلاّ أن يعرض مانع، كما يعرض لنمو الطفل مرض يرجعه القهقری. كان آخر الأديان أكملها. 3-ما معنی هذه العبارة: قفل باب الاجتهاد، عند العامة و عند أهل التحقيق؟ الجواب: العامة يقلّدون آباءهم و رؤساءهم فی قولهم: إن أهل السنّة ينتمون إلی أربعة مذاهب من شذّ عنها فقد شذّ عن الإسلام. و لا يفهمون أكثر من هذا.

و أما المشـتغلون بالعلم أو السـياسة، فالضعفاء المقلّدون منهم يفهمون من الكلمة ما فسرناها به فى جواب السؤال السابق، و يحتجّون على ذلک بأن الناس قـد أجمعت كلمتهم على هـذه المـذاهب، فلو أجيز للعلماء الاجتهاد لجاؤونا بمذاهب كثيرة، تزيد الأمة تفريقا، و تذهب بها فى طرق الفوضى. و المحققون، يعلمون أن منشأ هذا الحجر هو السياسة، فالسلاطين و الأمراء المستبدون لا يخافون إلاّ من العلم، و لا علم إلاّ بالاجتهاد. فقـد نقل الحافظ ابن عبد البر و غيره الإجماع على أن المقلد ليس بعالم، و نقله عنه ابن القيم فى (أعلام الموقعين) و هو ظاهر، إذ العالم بالشىء هو من يعرفه بدليله، و إنما يعرف المقلد أن فلانا قال كذا فهو ناقل لا عالم. و ربما كانت آلة (الفوتوغراف) خيرا منه.

آراء حول الاجتهاد و التقليد

اشارة

>حول الاجتهاد و التقليد: < أغلق باب الاجتهاد و التقليد فی وجوه المسلمين، و أصبح الالتزام بالمذاهب الأربعة لازما، حتی جعلت أحكام الإسلام مقصورة علی الأئمة الأربعة دون غيرهم، لأن درجة الاجتهاد مستحيلة علی أی أحد من علماء الأمة (كما يقولون) مع سهولة الوصول إليها. و قد اتضحت لنا الأسباب التی دعت إلی هذا الالتزام، و قد وقفنا علی الأمور التی أدت إلی قفل باب الاجتهاد. و معناه الضربة القاضية علی حرية الفكر بل علی الإسلام، الذی جاء للناس كافة ليساير مختلف العصور و الشعوب. يقول الأستاذ عبد المتعال الصعيدی: و إنی أستطيع أن أحكم بعد هذا بأن منع الاجتهاد قد حصل بطرق ظالمة، و بوسائل القهر و الإغراء بالمال، و لا شک أن هذه الوسائل لو قدرت لغير المذاهب الأربعة-التی نقلدها اليوم-لبقی جمهور يقلّدها أيضا و لكانت الآن مقبولة عند من ينكرها، فنحن إذا فی حل من التقليد بهذه المذاهب الأربعة التی فرضت علينا بتلک الوسائل الفاسدة، و فی حل من العود إلی الاجتهاد فی أحكام ديننا لأن منعه لم يكن إلاّ بطريق القهر، و الإسلام لا يرضی إلاّ بما يحصل بطريق الرضی و الشوری بين المسلمين، كما قال تعالی: وَ أَمْرُهُمْ شُورى بَيْنَهُمْ (1). و قد ذكرنا فيما سبق عرضا موجزا لأقوال العلماء الأعلام من الأمة فی الإنكار علی غلق باب الاجتهاد، و منع المسلمين من الاهتداء بهدی القرآن و صحيح الحديث، و الاقتصار علی أقوال المذاهب الأربعة، و ليس من الصحيح الاعتقاد بأنّهم أحاطوا

1- 1) ميدان الاجتهاد ص 14.

بأسـرار القرآن و علوم الحديث، فدوّنوها فى كتبهم أو لقنوها لتلامذتهم، مع أن كلماتهم تدل على عدم بلوغهم تلك الدرجة من الكمال؛ و لا ارتياب بأنه لو فسح فى أجل أبى حنيفـة و مالک و الشافعى و أحمـد، و عاشوا إلى اليوم، لداموا مجتهدين مجدين يسـتنبطون لكل قضـية حكما و كلما زاد تعمّقهم زادوا فهما و تدقيقا. إلى آخر ما تعرضنا لذكره من الآراء و الأقوال فى الإنكار على غلق باب الاجتهاد، و منعه و (و هو سـر تأخر المسـلمين، و هو الباب المرن الذى عند ما قفل تأخّر المسلمون بقدر ما تقدم العالم، فأضحى ما وضعه السابقون لا يمكن أن يغير و يبدّل لاعتبارات سياسية) . و على أى حال فإن هناک طائفة من العلماء يحاولون رفع ذلک الجمود الفكرى و فتح باب الاجتهاد الذى دعت السـياسة لإقفاله، حيث لم يعرف هناک دليل شـرعى يؤيـد ما ذهب إليه المقلّدون و القائلون بلزومه، و وجوب الرجوع إلى المذاهب الأربعـة دون غيرها من علماء الأمـة. و قد عقد ابن القيم فصـلا طويلا فى أعلام الموقعين استقصـى فيه أدلة القائلين بذلک و إبطالها بالأدلة القويـة، كما قـد ألفت رسائل عديدة لهذا الغرض، و كلها تدعو إلى التحرّر من تلک القيود التى أخذت بأعناق العلماء، و إذا رفع أحد منهم صوته بالـدعوة إلى رفع تلک القيود ألقى فى غيابت السـجن، و لقى العـذاب و التنكيل، لأن السـلطان كان مؤيـدا لأهل التقليـد، لأنهم آلة السياسة و أعوان الرئاسة، فكان صوت المصلحين بينهم خافتا و مقامهم خافيا. و ها نحن أولاء نلقى نظرة خاطفة حول الاجتهاد و التقليد، و نقف على شروط الاجتهاد كما وقفنا على كلمات الأئمة من الدعوة إليه و النهى عن التقليد، و نستطرد حجج القائلين به.

الاجتهاد:

الاجتهـاد فى اللغـة: بـذل المجهود و اسـتفراغ الوسع فى فعل من الأفعال. و لا يسـتعمل إلاّ فيما فيه كلفـة، فيقال: اجتهـد فى حمل حجر الرحى. و لاـ يقـال: اجتهـد فى حمـل خردلـة. ثم صار هـذا اللفظ فى عرف العلماء مخصوصا ببـذل الفقيه وسـعه فى طلب العلم بأحكام الشريعة.

و الاجتهاد التام: أن يبذل الوسع فی الطلب بحیث یحس من نفسه بالعجز عن مزید طلب. و قال فی کشاف اصطلاحات الفنون: (الاجتهاد فی اللغة استفراغ الوسع فی تحصیل أمر من الأمور مستلزم للکلفة و المشقة. و فی اصطلاح الأصولیین: استفراغ الفقیه الوسع فی تحصیل ظن بحکم شرعی. و المستفرغ وسعه فی ذلک التحصیل یسمی مجتهدا بکسر الهاء. ثم ذکر بعد ذلک بحثا فی التعریف و القول بتجزی الاجتهاد -أی جواز کونه فی بعض الأحکام دون بعض-و شروط المجتهد فقال: (للمجتهد شرطان: 1-معرفة الباری تعالی و صفاته، و تصدیق النبی بمعجزاته، و سائر ما یتوقف علیه علم الإیمان، کل ذلک بأدلة إجمالیة و إن لم یقدر علی التحقیق و التحصیل، علی ما هو دأب المتبحرین فی علم الکلام. 2-أن یکون عالما بمدارک الأحکام و أقسامها، و طرق إثباتها و وجوه دلالتها، و تفاصیل شرائطها و مراتبها، و جهات ترجیحها عند تعارضها، و التقصی عن الاعتراضات الواردة علیها فتحتاج إلی: معرفة حال الرواة، و طرق الجرح و التعدیل، و أقسام النصوص المتعلقة بالأحکام، و أنواع العلوم الأدبیة من اللغة و الصرف و غیر ذلک، هذا فی حق المجتهد المطلق الذی یجتهد فی الشرع) اه. و جعل الشاطبی فی الموافقات العمدة فیها: فهم العربیة متنا و أسلوبا. و معرفة مقاصد الشریعة، و أجاز تقلید المجتهد لغیره فی الفنون التی هی مبدأ الاجتهاد، کأن یقلد المحدثین فی کون هذا الحدیث صحیحا و هذا ضعیفا، من غیر أن یعرف هو حال الرواة و طرق الجرح و التعدیل. و من الأقوال ما یجمع بین التزام الاجتهاد و التقلید، و هی مما اقتضاه الحال فی مواجهة تحریر المسائل و مقالات المتأخرین فی الأصول، حیث ینم تصریحهم عن رغبة فی الاجتهاد أو عمل به بالفعل، و قد ورد هنا قول محمّد بن عبد العظیم الرومی الموردی الحنفی فی الفصل الأول من کتابه (القول السدید) الذی ألّفه سنة 1052 ه: (اعلم أنّه لم یکلف اللّه أحدا من عباده بأن یکون حنفیا أو مالکیا أو شافعیا أو حنبلیا، بل أوجب علیهم الإیمان بما بعث محمّدا صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و العمل بشریعته، غیر أن العمل بها متوقف علیها. و الموقوف له طرق، فما کان منها مما یشترک به العوام و أهل النظر

كالعلم بفريضة الصلاة و الزكاة و الصوم و الحج و الوضوء إجمالا، و كالعلم بحرمة الزنا و الخمر و اللواطة و قتل النفس و غير ذلک مما علم من الدين بالضرورة، فذلک لا يتوقف فيه على اتباع مجتهد و مذهب معين، بل كل مسلم عليه اعتقاد ذلک. فمن كان فى العصر الأول فلا يخفى وضوح ذلک فى حقّه، و من كان فى الأعصار المتأخرة فلوصول ذلک إلى علمه ضرورة من الإجماع و التواتر و سماع الآيات و السنن، أى الأحاديث الشريفة المستفيضة المصرحة بذلک فى حق من وصلت إليه. و أما ما لا يتوصل إليه إلاّ بضرب من النظر و الاستدلال، فمن كان قادرا عليه بتوفر الآلة وجب عليه فعلا كالأئمة المجتهدين (رضى اللّه عنهم) و من لم يكن له قدرة عليه؛ وجب عليه الاتباع إلى من يرشده إلى ما كلف به ممن هو أهل النظر و الاجتهاد و العدالة.

التقليد:

التقليد: هو قبول قول بلا حجة. و ليس من طرق العلم لا فى الأصول و لا فى الفروع، إلاّ أنّه لما كان الظن فى الفروع كافيا للعمل، و فى الأصول غير كاف؛ جاز فى الفروع دون الأصول. و قال قوم: إن طريق معرفة الحق: التقليد، و إن ذلک هو الواجب، و إن النظر و البحث حرام (1)!!!. قال الذين جوزوا التقليد أيضا فى الأصول: إن النظر لو كان واجبا لفعله الصحابة و أمروا به، و لكنهم لم يفعلوا، و لو فعلوا لنقل عنهم كما نقل النظر فى الفروع. و دليل الجمهور فى منع التقليد فى الأصول: انعقاد الإجماع على وجوب العلم باللّه تعالى، و لا يحصل ذلک بالتقليد لإمكان كذب المقلّد، إذ أن صدقه إنما يعرف بالضرورة أو النظر، و الأول منتف، و إذا علم ارتفع التقليد.

بين طائفتين:

ها نحن ذا بعد هذا البيان الموجز للاجتهاد و التقليد نقف بين طائفتين من المسلمين، و كل واحدة تخالف الأخرى فيما تذهب إليه من حيث الاجتهاد و التقليد،

1- 1) أصول الفقه لمحمّد الخضرى ص 369.

و أنّ النزاع لا يزال يشتد، كلما اتسع الفكر و انتشر العلم و رفعت القيود كانت كفة القائلين بالجواز أرجح. و إن استقصاء حجج كل من الطرفين يستدعى الإطالة فى الموضوع و الخروج عن شرط الكتاب، و لكنا نكتفى بالإشارة للبعض منها، و الاطلاع على التفصيل فى الكتب المختصة بذلك. و إنّ أكثرها فائدة و استقصاء هو كتاب «الدين الخالص» للسيد صديق حسن و كتاب «أعلام الموقعين لابن القيم الجوزية» فليراجع من أراد الوقوف على ذلك.

حجّة المقلّدين:

لقد سرت روح التقليد سريانا عاما بعد أن كان مريد الفقه يشتغل أولا بدراسة الكتاب، و رواية السنة، اللذين هما أساس الاستنباط، أما فى هذا الدور-أى دور غلق باب الاجتهاد-فأصبح مريد الفقه يتلقى كتب إمام معيّن، و يدرس طريقته التى استنبط بها ما دوّنه من الأحكام، فإذا أتم ذلك صار من العلماء الفقهاء. و منهم من تعلو به همّته فيؤلّف كتابا فى أحكام إمامه. و لا يستجيز الواحد منهم لنفسه أن يقول فى مسألة من المسائل قولا يخالف ما أفتى به إمامه. كأن الحق كله نزل على لسان إمامه و قلبه، حتى قال طليعة فقهاء الحنفية فى هذا الدور، أبو الحسن عبيد اللّه الكرخى: كل آية تخالف ما عليه أصحابنا فهى مؤوّلة أو منسوخة. و كل حديث كذلك فهو مؤوّل أو منسوخ. و بمثل هذا أحكموا دونهم أرتاج باب الاختيار. و التزم كل منهم مذهبا معينا لا يتعدّاه. و يبذل كل ما أوتى من مقدرة فى نصرة ذلك المذهب جملة و تفصيلا. مع أنه لا يخطر ببال هؤلاء الفحول ثبوت العصمة لأى إمام فى اجتهاده، و قد كان الأئمة أنفسهم يعترفون بجواز الخطأ عليهم، و أن تكون هناك سنّة لم يطلعوا عليها (1). و على هذا سارت قافلة الزمن، و لم يكن هناك طريق لرفع ذلك التحجير. و إيقاف تسريات تلك الروح. و من يحاول الاجتهاد و الاتصال بالأدلة الشرعية يكون نصيبه النكال و التعذيب، و يرمى بالبدعة و الضلالة. و قد وقع ذلك لكثير من العلماء. و على أى حال فقد احتج القائلون بلزوم التقليد بأمور:

1- 1) تاريخ التشريع الإسلامى ص 424-426.

1-قوله تعالى: فَسْئَلُوا أَهْلَ اَلذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ . و بقوله تعالى: أَطِيعُوا اَللّهَ وَ أَطِيعُوا اَلرَّسُولَ وَ أُولِي اَلْأَمْرِ مِنْكُمْ و قالوا: إنّ أهل الذكر و أولى الأمر هم العلماء. 2-إن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أرشد إلى التقليد و سؤال من لا يعلم لمن يعلم، فقال فى حديث صاحب الشجة: «أ لا سألوا إذ لم يعلموا إنما شفاء العىّ السؤال» (1). 3-تصريح الشافعى بتقليده لعمر: فى الضبع بعير، أى كفّارة قتل الضبع بعير، أنّه قال: قلته تقليدا لعمر، و فى مسألة بيع الحيوان بالبراءة من العيوب، تقليدا لعثمان. و فى مسألة الجد مع الأخوة، تقليدا لزيد. و عنه (أى عن زيد) قبلنا أكثر الفرائض. و هذا أبو حنيفة ليس معه فى مسائل الآبار إلاّ تقليد من تقدمه من التابعين فيها. و هذا مالك لا يخرج عن عمل أهل المدينة. و قال محمّد بن الحسن الشيبانى: يجوز للعالم أن يقلّد من هو أعلم منه، و لا يجوز له أن يقلّد من هو مثله. 4-استدلّوا بقول عمر: إنى لأستحى من اللّه أن أخالف أبا بكر. و قال لأبى بكر: رأينا تبع لرأيك. إلى آخر ما أوردوه من الاحتجاج لذلك. و أنت ترى أن حججهم خارجة عن محل النزاع. أما الآيات فهى عامة، فما الدليل على تخصصها بالأربعة، و أنّه لا يجوز سؤال غيرهم؟ و أن جميع ما ذكروه لا يصلح لإثبات المدعى. و قد أجاب عنه مانعو التقليد و فندوا ما ذهبوا إليه. و قال أبو عمر: يقال لمن قال بالتقليد لم قلت به و خالفت السّلف فى ذلك فإنهم لم يقلّدوا؟ فإن قال: قلت لأن كتاب اللّه لا علم لى بتأويله، و سنّة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لم أحصها، و الذى قلدته قد علم ذلك، فقلدت من هو أعلم منى.

---

1 - 1) أخرجه أبو داود و ابن ماجه عن جابر قال: خرجنا فى سفر، فأصاب رجلا منا حجر فشجه فى رأسه، ثم احلم فسأل أصحابه: هل تجدون لى رخصة فى التيمم؟ فقالوا: ما نجد لک رخصة، فاغتسل فمات، فلما قدمنا على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أخبر بذلک فقال: «قتلوه قتلهم اللّه أ لا سألوا إذا لم يعلموا» الحديث.

قیل له: أما العلماء إذا أجمعوا علی شیء من تأویل الکتاب، أو حکایة عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أو اجتمع رأیهم علی شیء فهو الحق لا شک فیه، و لکن قد اختلفوا فیما قلدت فیه بعضهم دون بعض، فما حجتک فی تقلید بعضهم دون بعض و کلهم عالم؟ و لعل الذی رغبت عن قوله أعلم من الذی ذهبت إلی مذهبه. فإن قال: قلدته لأنی أعلم أنه علی صواب. قیل له: علمت ذلک بدلیل من کتاب اللّه أو سنة أو إجماع؟ فإن قال: نعم. أبطل التقلید و طولب بما ادعاه من الدلیل. و إن قال: قلدته لأنه أعلم منی. قیل له فقلد کل من هو أعلم منک، فإنّک تجد من ذلک خلقا کثیرا، و لا تحصی من قلدته إذ علتک فیه أنّه أعلم منک. فإن قال: قلّدته لأنه أعلم الناس. قیل له: إذا أعلم من الصحابة و کفی بقول مثل هذا قبحا! ! إلی أن یقول: و لا خلاف بین أئمة الأمصار فی فساد التقلید (1). و علی أی حال فإن روح التقلید قد سرت و أشرب قلوب المقلدین حب التعصب للمذهب الذی یتبعونه، و حکموا بخلوّ الأرض من القائمین للّه بحجة، و قالوا: لم یبق فی الأرض عالم منذ الأعصار المتقدمة. فقالت طائفة: لیس لأحد أن یختار بعد أبی حنیفة، و أبی یوسف و زفر بن الهذیل، و محمّد بن الحسن الشیبانی، و الحسن بن زیاد اللؤلؤی، و هذا قول کثیر من الحنفیة. و قال بکر بن العلاء القشیری: لیس لأحد أن یختار بعد المائتین من الهجرة. و قال آخرون: لیس لأحد أن یختار بعد الأوزاعی، و سفیان الثوری، و وکیع بن الجراح، و عبد اللّه بن المبارک. و قالت طائفة: لیس لأحد أن یختار بعد الشافعی. و عند هؤلاء أن الأرض قد خلت من قائم للّه بحجّة، و لم یبق فیها من یتکلم بالعلم، و لم یحل لأحد بعد أن ینظر فی کتاب اللّه و لا سنّة رسوله لأخذ الأحکام منها،

1- 1) أعلام الموقعین ج 2 ص 179.

و يقضى و يفتى بما فيهما حتى يعرضه على قول مقلده و متبوعه، فإن وافقه حكم به و أفتى به، و إلاّ ردّه و لم يقبله. و هذه أقوال-كما ترى-قد بلغت من الفساد و البطلان و التناقض و القول على اللّه بلا علم، و إبطال حججه، و الزهد فى كتابه و سنة رسوله (1). و إن منهم من أقام رؤساء المذاهب مقام الأنبياء (بل إن من اتباعهم من قدّمهم عليهم عند تعارض كلامهم مع الحديث الصحيح، فإنّهم يردون كلام النبى المعصوم مع اعتقادهم صحة سنده، لقول نقل عن إمامهم، و يتعلّلون باحتمالات ضعيفة كقولهم: يحتمل أن يكون الحديث نسخ، و يحتمل أنّ عند إمامنا حديثا آخر يعارضه!!) . و لا شك أنّ هؤلاء المقلدين قد خرجوا بغلوهم فى التقليد عن التقليد، لأنهم لو قلّدوا الأئمة فى آدابهم و سيرتهم و تمسّكهم بما صح عندهم من السنّة لما ردّوا كلام المعصوم لكلام غير المعصوم، الذى يجوز عليه الخطأ و الجهل بالحكم، و كانوا يأمرون بأن يترك قولهم إذا خالف الحديث. بل تسلّق هؤلاء الغالون-بمثل ذلك-إلى القرآن نفسه، و هو المتواتر القطعى و الإمام المبين. و تجرأ بعضهم أنّه لا يجوز لأحد أن يأخذ دينه من الكتاب، لأنه لا يفهمه، و إنما يفهمه رجال الدين، فيجب عليه أن يأخذ بكل ما قالوا و إن خالف الكتاب، و لا يجوز له أن يأخذ بالكتاب إذا خالف ما قالوا، بل لا يجوز لأحد أن يقول: هذا حلال و هذا حرام، لأن اللّه قال كذا، أو لأن رسول اللّه قال كذا، بل لأن فلانا الفقيه قال كذا (2)!!!! . و جملة القول أنهم انقسموا إلى فئتين، فئة ترى بقاء القديم على قدمه و المحافظة على إبقاء ما قرر فى تلك العصور، حتى عدوا محاولة الخروج عن ذلك ضلالا و بدعة. و فئة ترى وجوب حل تلك القيود و إطلاق حرية الفكر و الرجوع إلى أصول

1- 1) أعلام الموقعين ج 2 ص 256-257.

2- 2) الوحدة الإسلامية ص 45-46.

استنباط الحكم، و كلما طال الزمن اتسع نشاط هذا الرأى و كثر الإنكار على من يقول بغلق باب الاجتهاد. ذكروا يوما فى مجلس السيد جمال الدين الأفغانى (1)قولا للقاضى عياض، و اتخذوه حجة، و اشتد تمسّكهم بذلك القول حتى أنزلوه منزلة الوحى، بأنّه لا يأتيه الباطل لا من خلفه و لا من أمامه. فقال جمال الدين: يا سبحان اللّه إن القاضى عياض قال ما قاله على قدر ما وسعه عقله، و تناوله فهمه و زمانه، أ فلا يحق لغيره أن يقول ما هو أقرب للحق و أوجه و أصح من قول القاضى عياض أو غيره من الأئمة؟ . و ذكروا أن باب الاجتهاد مسدود لتعذّر شروطه. فتنفّس جمال الدين الصعداء و قال: ما معنى باب الاجتهاد مسدود؟ و بأى نص سد باب الاجتهاد، أو أى إمام قال لا ينبغى لأحد من المسلمين بعدى أن يجتهد ليتفقه بالدين؟ ! و أن يهتدى بهدى القرآن، و صحيح الحديث، أو أن يجدّ و يجتهد لتوسيع مفهومه منها، و الاستنتاج بالقياس على ما ينطبق على العلوم العصرية و حاجيات الزمان و أحكامه، و لا ينافى جوهر النص. إن اللّه بعث محمّدا رسولا بلسان قومه العربى يفهمهم ما يريد إفهامهم، و ليفهموا منه ما يقوله لهم وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلاّ بِلِسانِ قَوْمِهِ . و قال: إِنّا أَنْزَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ و فى مكان آخر إِنّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ . فالقرآن ما أنزل إلاّ ليفهم، و لكى يعمل الإنسان بعقله لتدبّر معانيه. و فهم أحكامه، و المراد منها (2).

1- 1) السيد جمال الدين بن صفتر أو صفدر ولد سنة 1254 ه 1838 م، و توفى يوم الثلاثاء 9 مارس سنة 1897 م 1314 ه بالآستانة، و ينتهى نسبه إلى الحسين بن على عليهما السّلام، و عشيرته قوية فى الأفغان، و هم محل احترام و تقدير الأفغانيين، و نشأ جمال الدين بينهم و سافر إلى البلاد الإسلامية يدعو للإصلاح، و لقى أذى كثيرا فى سبيل ذلك من أعلام النهضة و رجال الحرية. ترك منهجه واضحا عند الكثيرين و كان له الفضل فى بعث روح الفكر و تجديد حركتها بالتصدى للجمود و التعصب.

2- 2) خاطرات جمال الدين للمخزومى ص 177-178. [1]

و كان تلميذه الشيخ محمّد عبده (1)يدعو لفتح باب الاجتهاد، و ينكر الجمود على القديم، و يدعو لحل تلك القيود، و إطلاق حرية الفكر، و الرجوع الصحيح إلى قواعد الدّين. و كان يناضل عن هذه الفئة بلسانه و قلمه، و إليك بيان وجهة نظره فى قوله: (و ارتفع صوتى فى الدعوة إلى أمرين عظيمين: الأول تحرير الفكر من قيد التقليد، و فهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف، و الرجوع فى كسب معارفه من ينابيعها الأولى، و اعتباره من موازين العقل البشرى التى وضعها اللّه لترد من شططه و تقلّل من غلطه و خبطه، لتتم حكمة اللّه فى حفظ نظام العالم الإنسانى، و أنّه على هذا الوجه يعد صديقا للعلم، باعثا على البحث فى أسرار الكون، داعيا إلى احترام الحقائق الثابتة، مطالبا بالتعويل عليها فى آداب النفس و إصلاح العمل (2). و قام السيد رشيد رضا تلميذ الشيخ محمّد عبده فى المطالبة بفتح باب الاجتهاد، و شدّد النكير على من يذهب إلى غلقه، فى لزوم اتباع مذهب معين، و من أقواله: (و لا نعرف فى ترك الاجتهاد منفعة ما، و أما مضاره فكثيرة، و كلها ترجع إلى إهمال العقل، و قطع طريق العلم، و الحرمان من استغلال الفكر، و قد أهمل المسلمون كل علم بترك الاجتهاد، فصاروا إلى ما نرى) (3). و ذكر (أنّه لو لا خوفهم-أى العلماء-من حكومات الجهل لبيّنوا مفاسد التقليد الذى حرمه اللّه، و دعوا الناس إلى العمل بالدليل كما أمر اللّه، و قد علمت الحكومة العثمانية منذ عهد قريب، بأن بعض علماء الشام يحملون تلاميذهم على ترك التقليد، و العمل بالدليل، فشددت عليهم النكير حتى سكتوا عن الجهر) (4). و يقول الدكتور أحمد أمين: و قد أصيب المسلمون بحكمهم على أنفسهم بالعجز و قولهم بإقفال باب الاجتهاد؛ لأن معناه أنه لم يبق فى الناس من تتوفر فيه شروط المجتهد، و لا يرجى أن يكون ذلك فى المستقبل و إنّما قال هذا القول بعض

1- 1) هو الشيخ محمّد بن عبده خير الدين المتوفى 8 جمادى الأولى سنة 1333 ه 1905 م كان حامل لواء نهضة العلم فى مصر، و هو تلميذ السيد جمال الدين الأفغانى و [1]له آثار قيمة و ذكر جميل.

2- 2) أعلام الإسلام ص 99.

3- 3) الوحدة الإسلامية ص 137.

4- 4) نفس المصدر ص 45.

المقلّدين لضعف ثقتهم بأنفسهم و سوء ظنّهم بالناس و زعمهم عكس ما يقول أصحاب النشوء و الارتقاء من دعواهم أن العقل دائما فى تدن و انحطاط، و غلوهم فى تعظيم السابقين. . . (1). و قد تقدم فى الجزء الأول بعض ما يتعلّق بمسألة الاجتهاد و التقليد و ذكرنا هناك آراء كل من الفريقين من العلماء المعاصرين و غيرهم.

التلفيق:

و هو الأخذ برأى إمام فى مسألة، و العدول عن رأيه إلى رأى غيره فى مسألة أخرى. و قد وقع الخلاف فى جوازه و منعه. و قال الشاطبى: إنّه ليس للمقلد أن يتخير فى الخلاف، كما إذا اختلف المجتهدون على قولين، فوردت كذلك على المقلّد، فقد يعد بعض الناس القولين بالنسبة إليه مخيرا فيهما، كما يخير فى خصال الكفّارة، فيتبع هواه و ما يوافق غرضه. إلى أن يقول: و قد أدى إغفال هذا الأصل إلى أن صار كثير من مقلدة الفقهاء يفتى قريبه أو صديقه بما لا يفتى به غيره من الأقوال، اتباعا لغرضه و شهوته، أو لغرض ذلك القريب و ذلك الصديق. ثم أورد قصصا عن القضاة و المفتين الذين طلبوا الرخص فى الفتوى، نزولا لرغبة السلطان أو الأصدقاء و الأقارب، كقصة قاضى قرطبة الذى قضى بما يرضى المخلوقين، و قصة يحيى بن لبانة عند ما عزل عن القضاء لسقوط عدالته، و لكنه عاد إلى المنصب عند ما أفتى الخليفة بما يرضيه (2). و أجاز ذلك آخرون. و قد نسبوا التخير فى القولين، و تتبع الرّخص لأكثر أصحاب الشافعى. و قد منع الحنفية ذلك، و لكنه واقع عندهم فى أكثر الفتاوى. و استدل المجوزون: بما فعله أبو يوسف من التلفيق، و ذلك أنّه لما صلّى بالناس الجمعة، فأخبر بوجود فارة فى ماء الحمام الذى كان قد اغتسل منه للجمعة، فقال: نأخذ بقول إخواننا من أهل المدينة: (إذا بلغ الماء قلّتين لم يحمل خبثا) (3). و كان أبو يوسف و محمّد بن الحسن-و هما عماد المذهب الحنفى-يكبّران فى

1- 1) يوم الإسلام ص 189.

2- 2) الموافقات ج 4 ص 137-141.

3- 3) القول السديد ص 24.

العیدین تکبیر ابن عباس، لأن هارون الرشید کان یحب تکبیر جدّه (1). قال الأستاذ السید محمّد رشید رضا فی تعلیقته علی قول الشاطبی فی الاعتصام فی الوجه الثامن من الوجوه التی جعلها لمعرفة الانحراف عن السنّة و المیل للبدعة؛ (و من فروع هذه البدعة أن بعضهم یستحل أن یجعل المرجح لأحد القولین فی الفتوی ما یعطیه المستفتون من الدراهم، فإذا جاء مستفتیان فی مسألة واحدة فیها خلاف یطلب أحدهما الفتوی بالجواز أو الحل، و الآخر یطلب الفتوی بالمنع أو الحرمة، یفتی من کان منهما أکثر بذلا للمفتی، فهو تارة یفتی بالحل و تارة یفتی بالحرمة، و القاعدة فی ذلک ما صرّح به بعض الفقهاء فی بعض الکتب التی تدرس فی الأزهر: (نحن مع الدراهم قلة و کثرة) فإذا کان القولان المتناقضان صحیحین فی المذهب؛ جاز أن یکون السحت هو المرجح فی الفتوی. و لا حول و لا قوة إلاّ باللّه العلی العظیم (2)) اه. و قال الشیخ محمّد عبد اللّه دراز شارح الموافقات: بل أخرجوا الأمر عن کونه قانونا شرعیا و عدّوه متجرا، حتی کتب بعض المؤلّفین فی الشافعیة ما نصه: (نحن مع الدراهم کثرة و قلة) (3).

نسبة المذهب إلی أبی حنیفة:

و قبل أن نترک الکلام حول الاجتهاد و التقلید لا بد لنا من الإشارة لأمور: إن المذهب الحنفی لم یکن ینتسب لأبی حنیفة لأنه مرجع جمیع أحکامه و مصدر فقهه، و لکن تلک النسبة اصطلاحیة. فإنا نجد أن المذهب قد تکوّن من مجموعة أقوال و آراء لأبی حنیفة و لأصحابه من بعده، و أن أصول المذهب مشتملة علی أقوال أبی یوسف (4)و أبی حنیفة، و محمّد بن الحسن. و کان أبو یوسف و محمّد بن الحسن یجتهد کل منهما، و ربما یتفق مع قول أبی حنیفة أو یخالفه، کما أن أبا یوسف و محمّد بن الحسن کانا یختلفان فی کثیر من

1- 1) حجة اللّه البالغة ج 1 ص 158.

2- 2) کتاب الاعتصام ج 3 ص 268.

3- 3) الموافقات ج 4 ص 135.

4- 4) بحثنا فی الجزء السابع فی سیرة أبی یوسف و إفتائه بحسب رغبة المستفتی.

المسائل، على أنا نقطع بأن كثيرا من الحوادث و الوقائع لم يكن لأبى حنيفة فيها رأى، و لكن استنبطها المجتهدون المتأخّرون عنه، بل لم تكن فيها رواية عن أبى يوسف و غيره من الطبقة الأولى من مجتهدى المذهب، فنسبت تلك المسائل التى استخرجها المتأخّرون إلى المذهب باعتبار أن هؤلاء مجتهدون فى المذهب فحسب، و إن كانت لهم ملكة الاستنباط و الاستدلال و القوة فى الاجتهاد. و من مجموع تلك الأقوال التى صدرت عن أبى حنيفة و أصحابه، و ما خرّجه المتأخرون تكوّن المذهب الحنفى. فأصبح المجموع ينسب لأبى حنيفة. و الظاهر أن منعهم اجتهاد أى أحد، و الالتزام بقول إمام المذهب، لا يعود لأبى حنيفة وحده، و إنما هو لأبى حنيفة و أصحابه معا.

طريق الأصول للمذاهب:

إن أصول الفقه للمذاهب قد اتفقت طريقتهم فى الأصول فى الجملة، و إن أصولهم لم تكن كأصول المذهب الشافعى، فهو يعد فى الواقع أصلا لأصولهم و إن خالفوه فى كثير منها. فالحنفية قد اتفقت طريقة استنباطهم فى الجملة مع أصول الاستنباط عند الشافعى، و كذلك المالكية اتحدت طريقتهم مع أكثر ما جاء فى رسالة الشافعى، و الخلاف بينهم و بينه أكثر مما بينه و بين الحنفية، و قد تجاوز الخلاف التفصيلات إلى بعض الأصول العامة، فعمل أهل المدينة حجة عندهم. و قد شدّد الشافعى عليه فى رده فى مواضع كثيرة من كتاب «الأم» . و الحنابلة قد أخذوا بأصول الشافعى، و لكنهم لم يتصوروا إجماعا غير إجماع الصحابة، و فى التحقيق أنّهم-و إن خالفوا الشافعى فى ظاهر الأصل-فإنهم لم يتعدوا روح الرأى عند الشافعى، لأن الشافعى-و إن أطلق حجية الإجماع-فلم يفرضها فى عصر و لا فى أمر، فالفرق فى الإجماع بين الشافعى و أحمد ليس كبيرا، و إن كان فى ظاهر القول لا يبدو صغيرا. و من هذا نرى المذاهب الأربعة تتلاقى أصولهم و تتقارب ينابيع استنباطهم، و لا تتباعد، و إن جاءت الفروع مختلفة اختلافا كبيرا فى بعض الأحيان (1).

1- 1) الشافعى لأبى زهرة ص 330.

الشيعة و الاجتهاد:

كان من المناسب ذكر شروط الاجتهاد عند الشيعة فی هذا البحث، و لكن رأينا تأخير ذلک لمحله، عند ذكرنا لنهضة الشيعة العلمية، و أنّهم لم يخضعوا لنظام السلطة فی غلق باب الاجتهاد، إذ لم يكن تعليمهم يدخل تحت نظام الدولة، و لم تخضع مدارسهم لذلک المنهج الذی سارت عليه أكثر المدارس الإسلامية، بل ساروا على منهج أهل البيت فی عدم مؤازرة الدولة (و باب الاجتهاد عندهم لم يغلق، و لا زال مفتوحا، و هذا مما يفاخر به الشيعة سائر جماعات المسلمين اليوم) (1). و من الخطأ القول بأن الشيعة تقدّم أقوال الأئمة على نصّ الكتاب و حديث الرسول، كيف و إن أئمة أهل البيت هم حملة علم الكتاب و سنّة رسوله، فهم المبلّغون لهما، و هم أصدق الناس حديثا و أتقاهم و أشدّهم خوفا من اللّه، و أزهدهم فی الحياة الدنيا. و إنّ الغلو الذی يدّعونه على الشيعة فی أهل البيت، إنما هو دون الغلو فی أبی حنيفة و مالک و الشافعی و أحمد، من إعطاء أقوالهم و آرائهم منزلة تهجر النصوص القرآنية و الأحاديث النبوية فی جانبها. و سيتضح ذلک فی بحث الفقه إن شاء اللّه.

الخلاصة:

إن تفرق المسلمين و اختلافهم فی المذاهب، و تعصّب كل لمذهبه و الانتصار له قد ملأ جو العالم الإسلامی بفتن يتبع بعضها بعضا، و كان التعصب و التحزب وراء أن يشهر المسلمون سيوفهم بعضهم على بعض، و السبب الذی حلّل دماءهم و أموالهم و أعراضهم. و حرّف الكتاب و السنّة ثم صيرهما كالعدم بسد باب الاجتهاد. ثم ترتب على هذا الافتراق تقويم كل لعمود الشقاق، و صار كل منهم يعتز بمن مال إليه من الملوک على خصمه، و عظمت المجادلة و اشتدت المناضلة. و أسباب ذلک ترجع إلى التزلف للأمراء و الخلفاء، و التزاحم على منصب القضاء، كما ذكر ذلک الغزالی و غيره، و قد شدّد النكير على من ينتقل من مذهب لآخر.

1- 1) الشافعی لأبی زهرة ص 334.

و حدث من وراء ذلک فتن و مشاغبات بین المذاهب، کما حدث للسمعانی (1)عند ما انتقل من مذهب النعمان إلی مذهب الشافعی، فقامت الحرب علی ساق، و اضطرمت بین الفریقین نیران فتنة کادت تملأ ما بین خراسان و العراق، و اضطرب أهل مرو لذلک اضطرابا، و ذلک فی سنة 468 ه و أدّی الأمر إلی غلق باب الجامع، و رفعوا الأمر للسلطان، فنفاه من مرو و لم یعد إلیها إلاّ بعد مدة (2). و کثیر أمثال السمعانی قد واجهوا مصائب عند تحولهم من مذهب إلی مذهب. و أدّی الخلاف بین المذاهب إلی رمی بعضهم بعضا بالکفر، کما صرّح القشیری فی کلامه للوزیر عند ما أراد حل مشکلة الخلاف بین الحنبلیة و الشافعیة. و کان القشیری زعیم الشافعیة فقال للوزیر: أیّ صلح یکون بیننا؟ إنما یکون الصلح بین مختصمین علی ولایة أو دین أو تنازع فی ملک. فأمّا هؤلاء فإنّهم یزعمون أنّا کفار، و نحن نزعم أن من لا یعتقد ما نعتقده کافر، فأیّ صلح یکون بیننا (3)؟ و ذهب بعضهم إلی لزوم تعزیر من انتقل من مذهب لمذهب، و عدم قبول شهادته (کما اشتهر بین الحنفیة، من أن الحنفی إذا انتقل إلی مذهب الشافعی یعزر، و إذا کان بالعکس یخلع، و قیل لا تقبل شهادته) (4)و منعوا اقتداء بعض أهل المذاهب بالبعض الآخر. بل تجد الحنفی فی کثیر من البلاد لا یصلّی خلف الشافعی. و کسر بعضهم سبابة مصلّ لرفعه إیاها فی التشهد لأن ذلک محرّم عندهم، کما ذهب إلیه الکیدانی و غیره من الحنفیة، و اختلفوا فی تزویج الحنفیة بالشافعی، لقول بعضهم: لا یصح ذلک لأنها تشک فی إیمانها، یعنی أنّ الشافعیة و غیرهم من الأشعریة یجوزون أن یقول المسلم: أنا مؤمن إن شاء اللّه. و قال آخرون: یصح نکاحها-أی الشافعیة- قیاسا علی الذمیة (5)، إلی غیر ذلک من الأمور البعیدة عن روح الإسلام و لا یقرّها أولئک الأئمة و لا یرضون بها. و بهذا الاختلاف وقع من الفتن بین المختلفین فی الفروع و فی الأصول ما سوّد

1- 1) هو منصور بن أحمد التمیمی أبو المظفر السمعانی المتوفی سنة 489 ه بمرو کان حنفی المذهب، فنشر المذهب الشافعی مدعیا إن اللّه أمره بذلک فی الرؤیا، إذ رأی رب العزة و المقام فقال له: عد إلینا، فأوّل ذلک بأنه أراد مذهب الشافعی.

2- 2) طبقات الشافعیة ج 4 ص 23-25. [1]

3- 3) ذیل طبقات الحنابلة لابن رجب ج 1 ص 22.

4- 4) إیقاظ همم ذوی الأبصار ص 76.

5- 5) الوحدة الإسلامیة 145-146.

وجه التاريخ، و كدّر صفو الأخوة، و ذهب بجهود المصلحين أدراج الرياح، و لا حول و لا قوة إلاّ باللّه العلى العظيم. و فى الحقيقة إنّ مبعث ذلک إنما هو حب الرئاسة و الأثرة، و شغب المتداخلين فى صفوف المسلمين لإيقاد نار البغضاء و الحقد، و لو رجعنا إلى الواقع نجد ذلک الشذوذ و التطرّف الذى ارتكبه المتعصّبون بعيدا كل البعد عن الدين. و لم يكن الأمر ليصل إلى هذا الحد من التطاحن و التفرّق لو لا الأخذ بأساليب الحكام و الميل إلى سبلهم فى حماية أشخاصهم و مصالح ملكهم. و قد كان غلق باب الاجتهاد من تصرفات الحكام بعد أن تمكّن غيرهم من توجيه الأحداث كما يشاؤون، و التدخّل فى معتقدات الناس و أفكارهم، و حتى يأمنوا جانب العلماء خشية مضيهم على ما ركّبه اللّه فيهم من آلة العقل و أداة التفكّر فيقولوا أو يفتوا بما يضر الجور و يقف بوجه الظلم، فأغلقوا الباب الذى كان يمكن أن يتسلّل منه هذا الخطر. و بذلک دخلت الأمّة فى دور من الجمود و الحجر-و صفنا جانبا منه فى الأجزاء السابقة، و سنأتى على صور منه فيما يأتى من أجزاء-. و لم يخضع الشيعة لمثل هذه السياسة التعسفية و إنما بقى للعقل مكانته، فكيف تهمل وسيلة من وسائل التدبّر و الحكمة التى-بضبطها بقواعد الاستخدام الشرعية المستمدة من الكتاب و السنّة-تنتج أحكام ليس فيها شطط الرأى و لا ميل الهوى. و من نتائج البعد عن العقل و مجافاة الصواب انقياد المسلم لما ارتآه الحكام لمصلحتهم، و اتفقت الأدلة على منافاته لروح الأخوة الإسلامية. و بعد أن مرّت تلک الأدوار و ما فيها-و فى ذمة التأريخ ذلک-فنحن اليوم أحوج ما نكون إلى الوحدة و التفاهم، لرفع تلک الأشواک التى غرست فى طريق تفاهم المسلم مع أخيه، لأنا فى مشاكل أمام خصوم الإسلام لا يحلّها إلاّ الاتحاد و الرجوع إلى الأمر الأول، و اتباع أوامر الرّسول و تعاليم القرآن، و أخذ العلم من أهله، و أن نعرف الحق حقا فنتبعه و الباطل باطلا فنتجنبه، لنعيش عيش سعادة و هناء تحت ظلال الدين الحنيف. و إلى اللّه نبتهل أن يجعل كلمة الإسلام هى العليا. و أن يجمع شمل المسلمين و ينصرهم على خصومهم الذين يكيدون لهم و يسعون فى تفريق كلمتهم، و ما النصر إلاّ من عند اللّه. وَ اِعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اَللّهِ جَمِيعاً وَ لا تَفَرَّقُوا وَ اُذْكُرُوا نِعْمَتَ اَللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْداءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْواناً .

الإمام الشّافعى

تمهيد:

مرّ بنا من قبل أن البحث عن حياة أئمة المذاهب الأربعة معقد يحتاج إلى مزيد من العناية، لكثرة الحكايات و القصص التى لا تتسق مع الواقع و لا أثر لها فى تمييز الطابع الذى طبع عليه، لذلک نرى من الحق علينا أن نتناول دراسة حياة كل واحد منهم من طرقها المختلفة، لكى يتسنى لنا الوقوف على الواقع بعد التمحيص و التثبت فى جميع ما ورد بمختلف المصادر، من أمور متباينة و أقوال متناقضة، كان مبعثها اندفاع بعض معتنقى المذهب وراء العاطفة، و الخروج عن حدود الواقع، إذ العاطفة تغلب على العقل فتعطّله، و تطغى على الواقع فتخفيه، و تجعل الأمور الوهمية كحقائق لا تقبل النقاش و الجدل، و بذلک تضاعفت تلک الصعوبات التى تقف أمام الباحث، و ها نحن أمام البحث عن حياة الإمام الشّافعى، و قد وقفنا على كثير من الزوائد فأهملنا ذكرها، و إن من الغريب أن يجمد بعض أساتذة العصر الحاضر على ما وقفوا عليه فى دراسة حياة الإمام الشّافعى بدون تمحيص، و كان الواجب يقضى عليهم أن يتتبعوا الحقائق التاريخية و لا يقتنعوا بكل ما ورد، و إليک مثلا من ذلک: الأستاذ على فكرى، الأمين الأول لدار الكتب المصرية، يحدّثنا أن الشّافعى سافر إلى العراق فى حياة الإمام مالک و دخل الكوفة و اجتمع بأبى يوسف و محمّد بن الحسن الشيبانى و جرت بينهم مناظرات و مسائل، و نزل فى الكوفة ضيفا على محمّد بن الحسن و نسخ كتبه. ثم ذكر رحلته إلى بلاد فارس و ما حولها من بلاد العجم، ثم سافر إلى بلاد ربيعة و مضر و شمال العراق حتى وصل إلى جنوب بلاد الروم-و هى الأناضول الآن-و عرج على حرّان و أقام فيها زمنا، ثم سافر منها إلى فلسطين و أقام فى الرملة فى جنوب بيت المقدس. و قد استغرقت هذه السياحة حولين

كاملين من سنة 172 ه إلى سنة 174 ثم رجع إلى المدينة لرؤيا مالک. إلى آخر ما ذکره (1). و جميع ما ذکره لا أصل له، و الأستاذ عوّل على مخيلته أو على کتب لا يعتمد عليها. و کان بوسعه-و هو الأمين الأول لمکتبة عامة-أن يراجع و يبحث و ينقّب عن مصادر يستمد منها ما يکتب. کان بوسع الأستاذ أن يقف على الحقائق التاريخية، و أن يعلم أن رحلة الشافعى کانت لبغداد لا للکوفة، و ذلک سنة 184 ه و هى الرحلة الأولى، و أن وفاة أبى يوسف کانت سنة 182 أو 183 ه أى قبل دخول الشافعى لبغداد بأکثر من سنة. و کان بوسع الأستاذ أن يعرف وفاة الإمام مالک و هى سنة 179 ه و أن رحلة الشّافعى سنة 184 ه ليتضح له أن رحلة الشّافعى کانت بعد وفاة مالک بخمس سنوات. و لعله استند فى بعض ما نقله إلى الرحلة التى وضعها عبد اللّه بن محمّد البلوى، و هى مکذوبة لا أصل لها؛ کما نص على ذلک حفّاظ الحديث، کأبى نعيم، و الفخر الرازى، و ابن حجر و ابن القيم و غيرهم. و کثيرا من الأمور التى تخالف الواقع أو ردّوها على علاّتها فى ترجمة الشّافعى بدون تثبت و ترو. و على أى حال فإن من الحق أن نتناول دراسة حياة الإمام الشّافعى من مختلف المصادر، و لنا الحق فى التنبيه على بعض ما يخالف الواقع خدمة للعلم و طلبا للحق، و اللّه المسدد للصواب.

نسبه و نشأته:

أبو عبد اللّه محمّد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف. ولد سنة 150 ه نهار الجمعة آخر يوم من رجب. و قيل فى اليوم الذى مات فيه أبو حنيفة، و قيل غير ذلک على اختلاف الأقوال. و اختلفوا فى محل ولادته، فقيل: بغزة، أو عسقلان، أو اليمن. و هناک قول

1- 1) أحسن القصص ج 4 ص 73-87.

شاذ: أنّه ولـد بمكـة، و قد أجهد أصـحاب المناقب أنفسـهم بالجمع بين هذه الروايات و لا حاجة لذكرها هنا. أما وفاته فكانت سـنة 204 ه بمصـر، و حمل على الأعناق من الفسـطاط حتى دفن فى مقبرة بنى زهرة، و تعرف بتربـة ابن عبد الحكم و فيه يقول الشاعر: أكرم به رجلا ما مثله رجل مشارک لرسول اللّه فى نسبه

أضحى بمصر دفينا فى مقطمها نعم المقطم و المدفون فى تربه

و المطلب الـذى ينتهى إليه الشّافعى هو أحـد أولاد عبـد مناف الأربعـة، و هم: المطلب، و هاشم، و عبد شـمس جد الأمويين، و نوفل. و المطلب هو الذى ربّى عبد المطلب ابن أخيه هاشم جد النبى صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم. فالشّافعى بهذا السياق قرشى النسب، يلتقى مع النبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم فى عبد مناف. هذا ما عليه الأكثر. و ذهب بعضـهم: أن الشّافعى لم يكن قرشـيا بالنسب، بل كان قرشـيا بالولاـء. فهو مولى لهم و ليس منهم، لأـن شافعـا جـده كان مولى لأبى لهب، فطلب من عمر أن يجعله من موالى قريش فامتنع، فطلب من عثمان ذلک ففعل، فعلى هذا التقدير يكون الشافعى من موالى قريش كما ذكر ذلک بعض المالكية و الحنفية (1). و أمّا أمّه فهى من الأزد و كنيتها أم حبيبـة كما ذكر ذلک الساجى، و الأبرى و البيهقى و الخطيب و الأردسـتانى و غيرهم. و قيل: إنها أسدية، مسـتدلين على ذلک بما روى عن الشافعى: أنّه لما قدم مصـر سأله بعضـهم أن ينزل عنده فأبى و قال: أنزل على أخوالى الأسديين فنزل عليهم (2). و قيل إنها فاطمة بنت عبد اللّه، أبو عبيد بن الحسـين بن الحسن بن على بن أبى طالب. قال الرّازى: و هذا القول شاذ رواه الحاكم، و ضـعفه البيهقى، و ذهب المقرى إلى نفيه، و لكن السـبكى ذهب إلى تأييـده و ليس له شاهد على ذلک. و قيل أيضا: إنّها فاطمة بنت عبد اللّه بن الحسن بن الحسـين بن على بن أبى

1- 1) مناقب الشافعى للفخر الرازى ص 3-5. و هامش الانتقاء لابن عبد البر ص 66. و الشافعى لمحمّد أبو زهرة ص 15.

2- 2) طبقات الشافعية ج 1 ص 100. [1]

طالب، أو أنّها بنت عبد اللّه المحض بن الحسن المثنى بن الحسن السبط (1). و على أى حال: إن الادعاء بكرامة قرشية علويّة مخالف لما عليه الإجماع و علماء النسب، و لكن ذلک منصب محض و ادعاء يخالف ما جاء عن الشّافعى فى عدة روايات: أن أمه أزدية لا قرشية و انعقد الإجماع على ذلک. أما أبوه إدريس فلم يفصح التاريخ عن شىء من حياته و سيرته و وفاته، و لم يحتفظ إلاّ بالاسم فقط، فليس له ترجمة فى جميع الكتب التى ذكرت الشّافعى، و لا فى غيرها من كتب الحديث و الرجال و الأدب. و بذلک حرمنا معرفة كثير من الأمور التى نود أن نعرفها عن حياة إدريس والد هذا الإمام العظيم. و قد ذكر بعضهم أشياء مرتجلة لا صحة لها كقول هداية اللّه الحسينى: إن والد الشّافعى سلّمه للتفقه إلى مسلم بن خالد الزنجى مفتى مكة. و هذا غير صحيح بالإجماع، لأن جميع الروايات متضافرة على أن الشّافعى نشأ يتيما فى حجر أمه، و تولت تربيته عند ما خشيت عليه الضيعة، فأرسلته إلى مكة و هو ابن عشر سنين. فالشّافعى إذا لم يترب فى ظلال أبيه، و لم يتول ذلک إلاّ أمه، و لا نعلم أنّه عرف أباه و حدّث عنه، كما لا نعلم هل ولد الشّافعى فى حياة أبيه أم أنّه مات أبوه و هو حمل فى بطن أمه؟ و هل أن إدريس كان فى مكة و رحل إلى اليمن. و ما هى أسباب رحلته؟ كل ذلک مجهول و فى ذمة التاريخ. و جاء فى مقدمة كتاب «الأم» : أن والد الشّافعى كان رجلا حجازيا فقيرا خرج مهاجرا من مكة إلى الشام و أقام ب- «غزة» و «عسقلان» ببلاد فلسطين، ثم مات بعد ولادة الشّافعى بقليل. و لكن هذا القول لم يستند إلى نص تاريخى، و أيا كان فالروايات مختلفة و الأقوال متفرقة فى ولادته و محلها، و هجرته و وقتها و كذلک رحلاته المتعددة و تحصيله للعلم بأى زمن. فهل كان من صغر سنّه أم بعد نشأته. و كذلک دخوله إلى مكّة فقيل: إنّه لما بلغ من العمر سنتين و أصبح قرة عين والدته، فرأت أمه أن تحمله إلى مكة المكرّمة، صونا لنسبه من الضياع إذا بقى فى غزة، فهاجرت به، و نزلت

1- 1) مناقب الرازى 6. و طبقات السبكى ج 1 ص 100-249. و توالى التأسيس ص 46. و مشارق الأنوار للعدوى ص 181. و إسعاف الراغبين للصبّان و غيرها.

بجوار الحرم بحى يقال له «شعب الخيف» و لما ترعرع أرسلته أمّه إلى الكتّاب، و حفظ القرآن و عمره سبع سنوات. و قيل: إن الشّافعى ولد بغزّة و حمل إلى عسقلان و دخل مكة و هو ابن عشر.

طلبه العلم فى مكّة:

كان دخول الشّافعى إلى مكة و هو صغير السن، و لما ترعرع سلمته أمّه إلى الكتّاب فحفظ القرآن الكريم، و تعلم الكتابة، و كان حريصا على استماع الحديث، و كان يكتب على الخزف مرة و على الجلود أخرى. و خرج إلى البادية فلازم هذيلا، و حفظ الأشعار، و كان يرحل برحيلهم و ينزل بنزولهم، فرجع إلى مكة ينشد الأشعار و يذكر الآداب و الأخبار، و قد تأثّر بالبداوة و اكتسب من هذيل فصاحتهم، كما يحدّث عن نفسه (1). و يظهر أن مقامه فى البادية كان أكثر من عشر سنين، و فى إحدى الروايات أنّه أقام عشرين سنة (2)و فى أخرى سبع عشرة سنة، كما حدّث هو عن نفسه (3). و فى هذه المدة لم تكن له شهرة علمية، و لم يتجه لطلب الفكر و لم يعرف به. قال النووى: كان الشّافعى فى ابتداء أمره يطلب الشعر و أيام العرب و الأدب، ثم أخذ فى الفقه، ثم ذكر سبب ذلك (4). و أفاد كثيرا من ملازمته أهل البادية، و ظهر عليه ذلك بقدرته الشعرية و تمكنه من اللغة و معرفته بفنونها مما لا يخفى فى بعض إجاباته و أقواله و ما روى عنه من شعره. و قد صرّح الشّافعى بسبب اتجاهه لطلب الفقه فيما يروى عنه أنّه قال-بعد أن ذكر ابتداء تعلّمه للقرآن و الكتابة فى مكة-: ثم إنى خرجت عن مكة فلزمت هذيلا فى البادية أتعلم كلامها، و آخذ طبعها، و كانت أفصح العرب، فبقيت فيهم سبع عشرة سنة، أرحل برحيلهم و أنزل بنزولهم، فلما رجعت إلى مكة جعلت أنشد الأشعار و أذكر الآداب و الأخبار و أيام العرب، فمرّ بى رجل من الزبيريين من بنى عمى، فقال لى: يا أبا عبد اللّه عزّ علىّ أن لا يكون مع هذه اللغة و هذه الفصاحة و الذكاء فقه (5).

1- 1) معجم الأدباء ج 17 ص 284-285. [1]

2- 2) البداية و النهاية لابن كثير 10-252. [2]

3- 3) معجم الأدباء ج 17 ص 285.

4- 4) تهذيب الأسماء و اللغات ج 1 ص 46. [3]

5- 5) معجم الأدباء ج 17 ص 284. و [4]تهذيب الأسماء ج 1 ص 46. و [5]الحلية ج 9 ص 70.

فهو لهـذا الحـد و طول ذاک الزمن لـم يعرف الفقه، و كان قول الزبيرى سـببا لتوجيهه إلى طلب الفقه و الحديث، فقصد لمجالسة مسـلم بن خالد الزنجى-مفتى مكة المتوفى سنة 180 ه-و هو أول شيوخ الشّافعى. و روى النووى عن مصعب بن عبد اللّه الزبيرى قال: كان الشافعى فى ابتداء أمره يطلب الشـعر و أيام العرب، ثم أخذ فى الفقه؛ و كان سبب ذلک: أنّه كان يسير يوما و خلفه كاتب لأبى، فتمثل الشّافعى ببيت شعر، فقرعه الكاتب بسوطه ثم قال: مثلک يـذهب بمروته! ! أين أنت من الفقه، فهزّه ذلک، فقصـد مجالسـة مسـلم بن خالد الزنجى (1). و الـذى نسـتظهره من مجموع الروايـات، أن اتجـاه الشـافعى لطلب العلم كان فى العقـد الثالث من عمره، و على روايـة ابن كثير أن بقاءه فى البادية عشـرين سـنة. فيكون طلبه للفقه فى العقد الرابع، أى بعد تجاوزه الثلاثين من عمره، فتكون ملازمته لمسـلم بن خالد الزنجى قصـيرة جدا. فما يروى عن الحميدى أنّه قال: سـمعت خالدا الزنجى و قد مر على الشافعى و هو يفتى، و هو ابن خمس عشـرة سنة، فقال: يا أبا عبد اللّه افت فقد آن لک أن تفتى، فإنه لا أصل له، نظرا لما بين أيدينا من الأدلة التاريخية المصـرحة بأن الشّافعى لم يعرف بالفقه إلاّ من بعد مدة طويلـة، مع أن الحميـدى لم يدرک مثل هذا التاريخ. قال الخطيب البغدادى بعد نقل هذه الحكاية: (و ليس ذلک بمسـتقيم لأن الحميدى كان يصـغر عن إدراک الشافعى و له تلک السن) (2). و من الغريب إرسال ذلک إرسال المسـلّمات، و قـد جعلوا هذا النقل من المؤيدات لعلم الشّافعى و علو منزلته، لأنه كان يفتى و هو ابن خمس عشـرة سنة. و بعضهم يرجع إلى الوراء فيقول: إنه كان يفتى و هو ابن عشر سنين! و كـل ذلـک غير صـحيح لأن المشـهور عن الشّافعى أنّه قـدم مكـة و هو ابن عشـر سـنين أو أكثر و تعلّم القرآن فيها، و انصـرف إلى حفظ الأشعار، و لازم هذيلا، و كان مقامه فى البادية أكثر من عشر سنين، و قيل عشرين سنة، و قيل سبع عشرة سنة كما تقدم بيانه. و مهما يكن من أمر فإن الشّافعى لم يعرف الفقه و الحديث و هو فى مكة، و لكنه

1- 1) تهذيب الأسماء و اللغات ج 1 ص 46. [1]

2- 2) تاريخ بغداد ج 2 ص 64. [2]

اتصل بعد ذلک بمالک بن أنس، و رحل إلی المدینة لتعلم الفقه و الحدیث، و واصل دراسته، فکانت له تلک الشهرة بعد مدة طویلة. قال ابن حجر: انتهت رئاسة الفقه فی المدینة إلی مالک، و رحل الشّافعی إلیه و لازمه، و أخذ عنه، و انتهت رئاسة الفقه إلی أبی حنیفة، فأخذ عن صاحبه محمّد حملا لیس فیها شیء إلاّ و قد سمعه علیه، فاجتمع له علم أهل الرأی و علم أهل الحدیث. و کان محمّد یواسیه بالبر و یتعاهده بالأعطیات بخمسین دینارا فما فوقها بین حین و آخر، و بمحمّد اکتمل بدر الشّافعی، و به تخرج حتی أصبح له شأن فی العلم. . .

طلبه العلم فی المدینة:

اتجه الشّافعی لطلب الفقه، و حضر علی بعض علماء مکة کخالد الزنجی و سعید بن سالم القداح، و اشتهر مالک بن أنس فی المدینة و شاع ذکره، فتاقت نفس الشّافعی إلی الهجرة للمدینة طلبا للعلم و الحضور عند مالک بن أنس، فأخذ وصیة من والی مکة إلی والی المدینة یطلب منه إیصال الشّافعی إلی مالک. قال الشّافعی: فأوصلت الکتاب إلی الوالی، فلما أن قرأه قال: یا فتی إن مشیی من جوف المدینة إلی جوف مکة حافیا راجلا أهون علیّ من المشی إلی باب مالک بن أنس، فلست أری الذلة حتی أقف علی بابه. فقلت: أصلح اللّه الأمیر إن رأی یوجه إلیه لیحضر. قال: هیهات لیت أنی إذا رکبت أنا و من معی و أصابنا من تراب العقیق نلنا بعض حاجاتنا. قال: فواعدته العصر و رکبنا جمیعا، فو اللّه لکان کما قال. فتقدم رجل فقرع الباب فخرجت إلینا جاریة سوداء فقال لها الأمیر: قولی لمولاک إنی بالباب. فدخلت فأبطأت، ثم خرجت فقالت: إن مولای یقرؤک السّلام و یقول: إن کانت لک مسألة فارفعها فی رقعة یخرج إلیک الجواب، و إن کان للحدیث فقد عرفت یوم المجلس فانصرف. فقال: قولی له إن معی کتاب والی مکة إلیه فی حاجة مهمة، فدخلت و خرجت و فی یدها کرسی فوضعته، ثم إذا أنا بمالک قد خرج و علیه المهابة، فرفع إلیه الوالی الکتاب (1).

1- 1) معجم الأدباء ج 17 ص 275. و [1]مناقب الفخر الرازی ص 10.

و هنا يحـدّثنا الشّافعى عن انتقاد مالک له بحمله الکتاب من الوالى و تأثّره من ذلک، يقول الشّافعى: إن مالکا عنـد ما قرأ الکتاب رمى به من يده، ثم قال: سبحان اللّه أو صار علم رسول اللّه يؤخذ بالوسائل؟ . فأجابه الشافعى معتذرا و أخبره بقصته. اتصل الشّافعى بمالک و أخذ عنه و قرأ الموطأ، و لا نعرف بالضـبط متى کان قدوم الشّافعى إلى المدينة و حضوره عند مالک، و کم کانت سـنّه يوم ذاک. و الأخبار مضـطربة مشوشـة جـدا لا نکاد نلمس الواقع منها، فالحکايات الواردة عن الشّافعى مختلفـة. فمرة أنه اتجه لمالک بعـد عودته من البادية، و أخرى بعد وفاة خالد الزنجى. و على أى حال: فالمحصل من مجموع الروايات أنه قدم على مالک و قد تجاوز عمره الثلاثين سـنة. و ما يرويه ابن حجر فى مناقب الشّافعى أنه حضر عند مالک و عمره ثلاث عشرة سنة هو خطأ بيّن و نقل بدون تثبّت، إذ لا خلاف بأن وروده على مالک کان بعد عودته من البادية، و قد مکث فيها مدة تزيد على خمس عشـرة سنة. و من المحقق أن ملازمته لمالک کانت أربع سنوات، و توفى مالک سنة 179 ه فيکون عمر الشّافعى 29 سنة. و بقى الشافعى بعده فى ضنک من العيش، و بسبب ذلک کانت رحلته إلى اليمن مع و إليها و ليس له ما يستعين به من المال، فرهن داره و أخذ ثمنها.

ولاية الإمام الشّافعى:

نشأ الشّافعى يتيما فى حجر أمه کما تقدم، و لما اتصل بمالک اتسـعت حاله بواسـطته، لأنّه کان يرعاه و يقوم بشـئونه، فلما توفى مالک سـنة 179 ه اشـتد الأمر عليه و ضاقت حالته، فاتفق أن والى اليمن قدم المدينة، فکلّمه بعض القرشـيين فى أن يصحبه. فأخذه ذلک الوالى معه و استعمله فى أعمال کثيرة (1)فبقى فى العمل خمس سنوات، و بهذه المدة کان متجها للعمل و الولاية، و خمد ذلک النشاط الذى فى نفسه نحو الاتجاه لطلب العلم، لأنه مشـغول فى تدبير شـئون السـلطان و معاملة الناس إلى سـنة 184 ه و هى السـنة التى قـدم فيها لبغداد المرة الأولى بسـبب المحنـة و اتهامه بالميل للعلويين. و أن مطرفا کتب إلى الرشـيد: إن أردت اليمن لا تفسـد عليک، فأخرج محمّد بن إدريس. فحمل إلى بغداد، و قد جاء عن الشّافعى: أنه نقل من اليمن إلى ولاية نجران فأحسن السيرة هناک.

1- 1) مناقب الفخر الرازى ص 10.

الإمام الشّافعی فی بغداد:

قدم الشّافعی العراق ثلاث مرّات، الأولی سنة 184 ه حمل من الیمن إلی بغداد بسبب اتهامه بالمیل للعلویین، و الثانیة سنة 195 ه بعد أن مات هارون الرشید، و الثالثة سنة 198 ه. أما الأولی: فکانت بسبب اتهامه بالمیل للعلویین، أو أن عامل الیمن تغیّر علیه و ثقل مقامه هناک، لأن الشافعی کان یعارض ظلم ذلک الوالی، و ینبه الناس علی مؤاخذته. و أن الشّافعی أحسن إدارة العمل و نال ثناء الناس مما أوجب تغیر قلب الوالی علیه، و اتهامه بالمیل للعلویین، و ذلک أعظم جرم تعاقب علیه الدولة، و إن کان هذا الاتهام و تلک القضیة أشبه شیء بالأساطیر. و علی أی حال: فقد حمل الشّافعی إلی بغداد بتهمة المخالفة للدولة و الانضمام لجانب العلویین. و تعرض بتلک التهمة إلی خطر شدید، و لکنه دافع عن نفسه، و توسط له الفضل بن الربیع و تشفع له، فنجا بعد أن قتل من کان معه. و سیأتی البحث عن أسباب التشیع و عن میله للعلویین. و إذا أردنا البحث عن محنة الشّافعی و قدومه لبغداد، و ما قابل به الرشید عند اجتماعه، و مناظرته مع محمّد بن الحسن الشیبانی، فالأمر یستدعی إطالة البحث و اتساع شقة المناقشة، للمناقضات فی تلک الرحلة المروية عن الشّافعی. ففی بعضها: أنّه ناظر أبا یوسف (1)و هذا غیر صحیح لأن وفاة أبی یوسف کانت سنة 182 ه أو 183 ه أی قبل ورود الشّافعی بسنتین أو بأکثر من سنة. و فی بعضها: أن محمّد بن الحسن انتصر للشافعی، و أخری أنه حرض الرشید علی قتله و وصفه بأنّه یرید الخروج علی الدولة، و أن الرشید سأل أبا یوسف عن صدق هذه الدعوی فأیّدها. و هناک اختلاف فی حمله إلی العراق، هل کان من الیمن أم من مکة؟ فابن عبد البر، یروی بسند عن المزنی عن الشافعی أنّه قال: رفع إلی هارون الرشید أن بمکّة قوما من قریش استدعوا رجلا علویا کان بالیمن، فاجتمع إلیه من قریش فتیة جماعة، یریدون أن یبایعوه و یقوموا به، فأمر الرشید یحیی بن خالد بن برمک أن

1- 1) الحلیة ج 9 ص 85.

يكتب إلى عامله بمكة أن يبعث إليه ثلاثمائة رجل كلهم من قريش، مغلولة أيديهم إلى أعناقهم. قال الشّافعى: فأشخصت فيمن أشخص مغلولا، فلما وردنا العراق أتى بنا إلى دار يحيى بن خالد و قال لنا: يا معشر قريش قد رفع عليكم أمر كبير و عسى اللّه أن ينجيكم من البلاء إن كنتم قد بغى عليكم، و الذى أراه أن تقدموا من أنفسكم رجلا يخاطب الرشيد عنكم و عن نفسه، فقالوا كلهم: هذا الشّافعى يخاطبه. ثم حكى عن نفسه دفاعه عنها و عنهم، فكانت النتيجة أن عفى الرشيد عن الجميع و أمر لهم بجائزة (1). و بصورة أخرى: أنه حمل من الحجاز مع تسعة من العلويين فضربت أعناقهم، و نجا الشّافعى و أكرمه الرشيد. و رواية الفخر الرازى التى يفترض أن تكون دقيقة فى التاريخ التى نضمها ففيها مشاورة الرشيد لأبى يوسف فى أمر الشّافعى بشأن هذه الحادثة التى يثبتها الرازى بأنّها وقعت فى سنة 184 ه. و معلوم أن وفاة أبى يوسف كانت قبل سنة أو سنتين من هذا التاريخ على اختلاف فى الروايات كما مرّ. و فى الحلية: إن السبب فى حمله من اليمن: أن خارجيا خرج على هارون الرشيد، فأرسل الرشيد إليه جيشا فقبض عليه و حمل إلى العراق و معه الشّافعى، و أحضروا جميعا و أمر بقتلهم، فعرض الشّافعى عليه قصته مع الخارجى و بيّن له نسبه، و ذكر كلاما استحسنه الرشيد و طلب إعادته، و قال له: كثّر اللّه فى أهل بيتى مثلك (2). و عفى عنه، إلى آخر الاختلاف فى الصّور، و الزمان، و الأسباب. و مهما يكن من أمر فإن الغرض من اتساع هذا الحادث، و إيراده بصور مختلفة هو التعصب للشافعى، و وصفه بعلو المنزلة و اتساع العلم و قوة الحجة، و نبوغه على القرشيين، كما رأيت فى الصورة المتقدمة، بأن أولئك القرشيين الذين حملوا معه و كانوا ثلاثمائة رجل كأن اللّه سلب منهم كل موهبة الدفاع عن النفس، و قوة الحجّة، و طلاقة اللسان، و بلاغة البيان و هم أهله، فليس لهم قابلية على الدفاع، و لم يملكوا من الشجاعة و الجرأة قليلا أو كثيرا فيها، و انفرد الشافعى بالجرأة و قوة البيان و ثبات القلب، و هو شاب قد تجاوز الثلاثين من عمره، و حاشا قريشا أن يمثلوا موقفا كهذا الموقف، و لكن دائرة الاختراع واسعة، و التقولات لا حد لها. و قد اعترف الشّافعى

1- 1) الانتقاء ص 96.

2- 2) الحلية ج 9 ص 81.

نفسه بقصوره عن إدراک منزلة الطالبيين و إحجامه عن الكلام بحضورهم كما يروى: أنّه حضر الشّافعى مجلسا فيه بعض الطالبيين فقال: لا أتكلم فى مجلس أجدهم أحق بالكلام منى، و لهم الرئاسة و الفضل (1). و قد وضع عبد اللّه بن محمّد البلوى صورة لهذه الرحلة تتضمن أشياء كثيرة لا أصل لها (2)و هى طويلة، ذكر فيها دخول الشّافعى على الرشيد مقيدا بالحديد، و سؤال الرشيد له بمختلف العلوم و الفنون، و جواب الشّافعى له، و وعظه، و بكاء الرشيد و من حضر، إلى آخر ما فيها من الأمور المكذوبة التى لا تمت بالواقع، و قد نص ابن حجر (3)و ابن القيم الجوزية (4). و غيرهما على وضعها. و خلاصة القول: إن مجموع الروايات فى محنة الشّافعى و حمله لبغداد مضطربة كل الاضطراب، و تشتمل على أشياء لا صحة لها، كما تشتمل على ما لا يصح صدوره من الشّافعى كما نقلوا عنه فى جوابه للرشيد-عند الدفاع عن نفسه من تهمة المبايعة للعلويين-أنه قال للرشيد: أ أدع من يقول أنى ابن عمه (يعنى الرشيد) و أصير إلى من يقول أنى عبده (يعنى العلويين) ؟ . . . إن هذا من التجنّى على الحقائق و التهجم على الواقع بأن ينسب العلويين إلى اتخاذ المسلمين عبيدا، و أنهم يسيرون تحت طغيان الأنانية التى لا توضح لهم إلاّ طريق الاستبعاد للناس، و الاستعلاء عليهم و الاحتقار لهم، و حاشاهم من ذلک و هم أبعد ما يكون عن اتصافهم بما يخالفون ما طبعوا عليه، من اتباع نظم الإسلام، و إن الناس عندهم سواسية لا يتفاضلون إلاّ بالأعمال الصالحة، و هم لم يكونوا كغيرهم ممن ولى أمر المسلمين الذين لا يشعرون إلاّ بوجودهم الخاص، و لا يفكّرون إلاّ نحو ما يعود عليهم بالنجاح، و لا يرون إلاّ مصلحة أنفسهم، و لا يقيمون لمصالح الأمة وزنا. كل هذا لم يكن له أثر عند العلويين، و حاشاهم من ارتكاب ما يخالف نظام الإسلام و أحكامه. و صدور مثل هذا القول من الشّافعى تقوّل عليه بالباطل، و لا يصح

1- 1) الفهرست لابن النديم ص 295. [1]

2- 2) الحلية ج 9 ص 85-91. و مناقب الفخر الرازى ص 23-27.

3- 3) مناقب الشافعى لابن حجر ص 71.

4- 4) مفتاح السعادة ص 565.

ذلک عنه. و قـد صح عنه أنه بایع لیحیی بن عبد اللّه بن الحسن المثنی. قال ابن العماد: قام یحیی بن عبد اللّه بن الحسن المثنی، و بث دعاته فی الأرض، و بایعه کثیر من أهل الحرمین و الیمن و مصـر و العراقین، و بایعه من العلماء: محمّـد بن إدریس الشافعی، و سـلیمان بن حریر (1). و فی هـذه المحنـة التی امتحن بهـا الشّافعی کان له أسوة بمن قبله من أئمـة المـذاهب، فأبو حنیفـة قتل مسـموما بـدعوی أنه لم یقبل القضاء، و مالک بن أنس ضـرب بالسـیاط لفتوی تخالف رأی السلطان، و لیس ببعید أن مخترع هذه المحنة أراد مساواة الشّافعی بمن قبله و بمن بعـده، فإن أحمـد بن حنبل امتحن فی مسألة خلق القرآن، و کذلک قالوا أن الشّافعی امتحن باتهامه بالمیل للعلویین، و ذکروها بصورة موسعة و ألفاظ مختلفة. و هی من تصرّف کتّاب المناقب و المنتصرین للمذهب.

الإمام الشّافعی فی مصر:

قدم الشّافعی إلی مصر سنة 198 ه و نزل بالفسطاط ضیفا کریما علی محمّد بن عبد اللّه بن عبد الحکم، فأکرم مثواه و آزره، و کانت لمحمّد بن عبد اللّه مکانة فی مصـر و رئاسة علمیة، و کان أهل مصـر لا یعدلون به أحدا، و تأکدت بینه و بین الشّافعی مودة و إخاء، و قام فی معاونة الشّافعی و مؤازرته و نشـر علمه. و کان قدوم الشّافعی إلی مصر فی صحبة الوالی من قبل المأمون، و هو العباس بن موسی بن العباس، فلقی هناک إقبالا من المالکیـة، لأنه من أشـهر تلامذة مالک بن أنس، و کان یقول: هذا قول أسـتاذنا (یعنی مالکا) . و لما اسـتقل بآرائه، و وضـع الکتب فی الرد علی مالک؛ تنکر له المالکیـة و عارضوه و أرادوا إخراجه من مصـر، و اتهموه بالتشـیّع مرة، و بمقاومـة السـلطة أخری، حتی اغتالوه فمات بسبب ضربة علی رأسه سنة 204 ه. و الذی یظهر أن الشّافعی عاد إلی مکة و بقی مدة، ثم رجع سنة 200 ه و فیها سطع نجمه و کثر أتباعه رغم تعصب الحنابلة علیه و إیذائهم له.

1- 1) شذرات الذهب ج 1 ص 328. [1]

مناقبه:

إن من الحق و الإنصاف أن نعطی شخصیة کل واحد من أئمة المذاهب الأربعة حقّها من الدراسة و العنایة العلمیة، و أن نتناول سیرهم من غیر تعصب و تحیّز، و ننظر إلی ما کتب عنهم بعین تبصر الحقیقة، و نبرز جوهر تلک الشخصیات التی أخذت محلها من التشریع الإسلامی. و مهما یکن من أمر فإن المؤثّرات الاجتماعیة و الأحداث السیاسیة تشوّه سیر البحث، و لا یستنتج الباحث منها الغایة المطلوبة، إذ أن أکثرها مبالغات أوجدها التعصّب الطائفی، عند ما کثر الجدل و عظم الخلاف بین أنصار المذاهب، و خاصة المؤرخین و الراوین الذین ساروا علی ما تقتضیه ظروفهم المعاشیة أو السیاسیة، لا لما یقتضیه واقع الأئمة الملموس، و قد وصفوهم بصفات بعیدة عن الحقیقة، إذ جعلوهم فی أعلی درجة من الکمال، و أرفع منزلة من العلم. بحیث یمتنع علی أی مخلوق أن یصل إلی تلک المنزلة! و لا حاجة بنا إلی إعادة النظر فی الأمور، و لسنا نرغب أن نستقصی القول فیما أدعی للشافعی من تلک المناقب الموضوعة، نعم لا بد لنا من التعرض للأحادیث التی استدلّوا بها علی تقدیم الشّافعی علی غیره، و ترجیح مذهبه علی سواه، فی لزوم الأخذ به، و وجوب اتباعه، و الاقتداء به، و إلی القارئ طرفا من تلک الأحادیث: 1-من یرد هوان قریش أهانه اللّه. 2-من أحب قریشا أحبّه اللّه، و من أبغض قریشا أبغضه اللّه. 3-إذا اجتمعت جماعات من قریش فالحق مع قریش، و هی مع الحق. 4-إنما نحن و بنو المطلب هکذا-و شبک بین أصابعه. 5-أمان أهل الأرض من الاختلاف الموالاة لقریش. 6-هذا الأمر فی قریش، لا یعادیهم أحد إلاّ أکبه اللّه علی منخریه.

7-الأئمة من قريش. 8-إن اللّه يبعث لهذه الأمة على كل مائة سنة من يجدّد لها دينها. و بهذه العمومات بنوا حصر الأخذ عن الشّافعى و وجوب الرجوع إليه. قال السبكى بعد إيراد هذه الأحاديث: و الغرض الأعظم تبيين أنّه (أى الشّافعى) قرشى مطلبى، و ذلک أمر قطعى، و من أجله سقنا ما أوردناه من الأحاديث. ثم يمضى فى الاستدلال على انحصار هذه الأحاديث و تخصيص عموماتها فى الشّافعى، و هى حصر المبتدأ بالخبر (1). و الواقع غير هذا! فإن هذه الأحاديث مع فرض صحتها هى عامة شاملة، و لا سبيل إلى حصرها بالشافعى، و الاستدلال بها غير وجيه. و قد فرّعوا على هذه الأحاديث أشياء كثيرة. منها حرمة نسبة الخطأ للشافعى فى مسألة ما، لأن ذلک إهانة له، و إهانة القرشى غير جائزة، و منها وجوب الحذر من معاندة الشافعى و بغضه و عداوته (2). و منها لزوم تقديم الشّافعى، و الابتداء بذكره لقول النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قدّموا قريشا و تعلموا من قريش. إلى آخر ما هنالک من أمور أثبتوها فى تقديم الشّافعى على غيره. و كان إمام الحرمين، و ابن السمعانى، و الكيا الهراسى، و غيرهم يقولون لتلامذتهم: يجب عليكم التقيد بمذهب إمامكم الشّافعى، و لا عذر لكم عند اللّه تعالى فى العدول عنه (3). و مهما يكن من أمر فإن هذه الأحاديث لا تنهض حجة على المطلوب، و ليس فيها ما يصلح لإثبات المدّعى. و قد أجاب عنها أصحاب المذاهب الأخرى بأجوبة كثيرة، منها: 1-أن المراد بحديث (قدّموا قريشا) إنما هو فى الخلافة لا العلم. 2-إن قوله: تعلّموا من قريش و لا تعلّموها. فهذا الخبر لا أصل له.

1- 1) طبقات الشافعية ج 1 ص 101.

2- 2) مناقب الفخر ص 136.

3- 3) ميزان الشعرانى ج 1 ص 40.

و كيف يظن به-عليه الصّلاة و السّلام-أن يقول: اتركوا جهال قريش على جهلهم فلا تعلموها. هذا محال. ثم قالوا: إن الشّافعى كان قرشيا، و لم يكن له معلم من قريش، و إنما أخذ علمه من غير قريش، كمالك بن أنس، و محمّد بن الحسن، و خالد الزنجى، و هؤلاء من غير قريش (1). 3-و قال ابن الجوزى: فأما قوله: قدّموا قريشا. فقد قال إبراهيم الحربى: سئل أحمد بن حنبل عن ذلك، فقال: يعنى الخلافة. و يقول: فإن قالوا (أى الشّافعية) : إن الشّافعى كان فصيحا فمسلّم، و ذلك لا يعطى التقدّم على غيره، لأن التقدّم بكثرة العلم. على أنه قد أخذ عليه كلمات فقالوا: قد قال: ماء مالح. و إنما يقال ماء ملح. و قال: إذا أشلا كلبا (يريد أغراه) و إنما الأشلاء عند العرب الاستدعاء. و قال: ثوب يسوى كذا، و العرب تقول يساوى. ثم ذكر ابن الجوزى أدلة ترجيح أحمد بن حنبل على الشّافعى بالعلم (2). و صفوة القول: إن ادعاء الشّافعية بالأحاديث، فى لزوم اتباع الشّافعى لا يقرّها المنطق الصحيح، و إن جميع حججهم لا تنهض فى إثبات المدعى. على أننا نناقش فى أصل لزوم الرجوع إلى مذهب معين، و أنه أمر لا دليل عليه. و قد بيّنا ذلك فى البحث السابق، بإشارة موجزة حول الاجتهاد و التقليد. فإذا كان أصل الالتزام لا أصل له، فلا حاجة إلى هذا التكلّف. كما لا حاجة إلى ذكر كثير من المناقب التى أسندوها للشافعى و غيره، من منامات و غيرها، تدل بمؤداها على لزوم اتباعه و الأخذ بمذهبه. و الخلاصة: أن أتباع كل إمام قد أحاطوا شخصية إمامهم بهالة من التقديس، و سلكوا سبلا مختلفة و طرقا متعددة، لإقامة الدليل على أعلمية إمامهم، و أولويته

1- 1) مناقب المكى ج 2 ص 143-145.

2- 2) مناقب أحمد ص 502.

بالاتباع دون غيره، فنشبت خلافات و ظهرت ضغائن، و مرّت الأمة نتيجة ذلک بفترة محزنة، توترت فيها العلاقات الاجتماعية، و صبغت بالحدة و العنف. و لقد كان الهدف الأول لاختراع تلک الأمور و نشرها هو إثبات أعلمية ذلک الإمام، و أهليته للإتباع، لينتشر المذهب و يكتب له النجاح. و لم يقف الأمر عند هذا الحد، بل امتدت الحركة الادعائ ية هذه لترتكز على قاعدة قوية يكون لها أثرها فی رسوخ المذهب و ثبوته فی القلوب، و ذلک ادعائهم بالبشائر النبوية! فكل سلک جانبا من الادعاء على صاحب الرسالة، و قد ساهم القصاصون و أعوان السلطة بنشر تلک الأكاذيب.

شيوخه و تلامذته:

تلقى الشّافعی الفقه و الحديث على شيوخ من مكة، و المدينة، و اليمن، و بغداد، و قد ذكر ابن حجر منهم عددا يتجاوز الثمانين، أما غيره فاقتصر على المشهورين منهم. و نحن نشير إليهم هنا بترجمة قصيرة و هم تسعة عشر: خمسة من مكة، و ستة من المدينة، و أربعة من اليمن، و أربعة من العراق. و قد ترک الفخر الرازی ذكر محمّد بن الحسن الشيبانی تعصبا، و لا مجال لتركه فإن الشّافعی قد اعترف بأخذه العلم عنه، و أنه حمل عنه علما كثيرا و نمت مواهبه فی ملازمته، و يعد فی الواقع من أشهر شيوخه، بعد مالک بن أنس، و أول شيخ تلقى الشّافعی عنه العلم هو: 1- مسلم بن خالد المخزومی أبو خالد المكی، المعروف بالزنجی المتوفی سنة 180 ه و هو من موالی مخزوم، و هو أول شيوخ الشّافعی، و ابتدأ بأخذ الفقه و الحديث عنه، ثم انتقل إلى المدينة و حضر عند مالک، و لم يكن مسلم بن خالد ممن يعتمد عليه فی الحديث، فقد طعن عليه و ضعفه كثير من الحفّاظ، كأبی داود، و أبی حاتم، و النسائی، خرّج حديثه ابن ماجه و أبو داود (1). 2- سعيد بن سالم القداح، أبو عثمان الخراسانی، ثم المكی المتوفی سنة 171 ه و كانت له حلقة مسلم بن خالد الزنجی، بعد أن توفی مسلم، و قد أخذ الشّافعی عنه و روى حديثه، و كان سعيد يرمی بالإرجاء (أی أنّه من المرجئة) .

1- 1) تهذيب التهذيب، و الخلاصة ص 321 و غيرهما.

3-داود بن عبد الرّحمن العطار المتوفى سنة 175 ه. قال الشّافعى: ما رأيت أورع منه. و وثقه ابن معين. و لم تكن ملازمة الشّافعى له كغيره من شيوخه، و لعل أخذه عنه كان قليلا. 4-سفيان بن عيينة بن أبى عمران المتوفى سنة 198 ه تقدمت ترجمته فى هذا الكتاب فى أسماء تلامذة الإمام الصادق، و هو من رؤساء المذاهب البائدة. 5-مالک بن أنس الأصبحى المتوفى سنة 179 ه تقدمت ترجمته فى الجزء الأول و الثانى. 6-عبد اللّه بن نافع الصائغ، مولى بنى مخزوم المتوفى سنة 206 ه. 7-يحيى بن حسان بن حيان، البكرى المصرى المتوفى سنة 208 ه. 8-إبراهيم بن محمّد بن أبى يحيى أبو إسحاق المدنى المتوفى سنة 184 ه. و قد أكثر الشافعى من الرواية عنه. و هو عندهم ضعيف. و قد رموه بالكذب. و طعنوا على الشّافعى بالأخذ عنه، و لكن الشّافعى كان يرى إبراهيم صدوقا، و إنما رمى بالكذب لغايات هناک، و قد روى الربيع بن سليمان عن الشّافعى أنه كان يقول: لئن ينحر إبراهيم من بعد أحب إليه من أن يكذب. و كان ثقة فى الحديث. و إبراهيم هذا كان من تلامذة الإمام الصّادق و خرّيج مدرسته، و كان يروى أحاديث أهل البيت عليهم السّلام و له مؤلّف مبوّب فى الحلال و الحرام على مذهب أهل البيت، و هو أستاذ الواقدى، و كتب الواقدى أكثرها مأخوذة عنه. و حيث كان الشّافعى يعتمد على كتبه و رواياته، فكان مرة يصرح باسمه و مرة أخرى يورّى عنه فيقول: حدّثنى الثقة، حدّثنى من لا أتهمه. 9-حماد بن أسامة الكوفى، مولى بنى هاشم المتوفى سنة 201 ه. 10-وكيع بن الجراح بن مليح الرواسى، أبو سفيان الكوفى المتوفى سنة 196 ه. 11-إبراهيم بن سعد الأنصارى الزهرى، المتوفى سنة 183 ه تقدمت ترجمته فى تلامذة الإمام الصّادق عليه السّلام. 12-محمّد بن الحسن الشيبانى القاضى، تلميذ أبى حنيفة، قال الشّافعى: حملت عن محمّد بن الحسن الشيبانى حمل بختى (نوع من الإبل، ليس عليه إلاّ

سماعی) و قال: کان محمّد بن الحسن جید المنزلة، فاختلفت إلیه، فلزمته و کتبت کتبه (1). و لذلک قالوا: إن محمّد بن الحسن أغزر منه (أی من الشّافعی) علما و أخطر أثرا، و أن علم الشافعی راجع إلیه و مأخوذ عنه. 13-عبد الوهّاب بن عبد المجید بن الصلت البصری المتوفی سنة 194 ه تقدمت ترجمته فی هذا الکتاب فی تلامذة الإمام الصّادق. 14-هشام بن یوسف أبو عبد اللّه قاضی صنعاء، المتوفی سنة 197 ه و هو من الأبناء، سمع معمرا، و ابن جریج، و أخذ عنه ابن المدائنی، توفی قبل عبد الرزّاق بن همام (2). 15-إسماعیل بن إبراهیم الأسدی القرشی. مولاه أبو بشر البصری المتوفی سنة 193 ه و یعرف بابن علیّة، و هی أمّه، مولاة لبنی أسد بن خزیمة و لما ولی إسماعیل بن علیّة القضاء کتب إلیه ابن المبارک: یا جاعل العلم له بازیا یصطاد أموال المساکین

تحتال للدنیا و لذاتها بحیلة تذهب بالدّین

فصرت مجنونا بها بعد ما کنت دواء للمجانین

أین روایاتک فیما مضی عن ابن عون و ابن سیرین

أین روایاتک فی سردها فی ترک أبواب السّلاطین

إن قلت أکرهت فذا باطل زل حمار العلم فی الطین

(3)

تلامذته و رواة مذهبه:

نقل مذهب الشّافعی عن طریقین: أحدهما تلامذته، و الثانی کتبه. أما رواة مذهبه فمنهم من العراق. و منهم من مصر (4). و العراقیّون هم:
1-خالد الیمانی الکلبی، أبو ثور البغدادی المتوفی سنة 240 ه و قد تقدمت

1- 1) آداب الشافعی لابن أبی حاتم ص 23-32.
2- 2) طبقات فقهاء الیمن للجعدی ص 67.
3- 3) تهذیب التهذیب ج 1 ص 278. [1]
4- 4) الانتقاء لابن عبد البر ص 104-115، و توالی التأسیس لابن حجر ص 37-43. و مناقب الشافعی للرازی ص 13. و طبقات الشافعیة ج 1 ص 186-299.

ترجمته فی المـذاهب البائـدة، و الحق أن عدّه فی رواة مذهب الشّافعی غیر صـحیح، فإن الرجل کان مجتهدا مطلقا، و له مذهب قد اعتنقه کثیر من الناس، و اشـتهر الأخذ به فی القرن الثانی، و لکنه اندرس، شأنه شأن غیره من المذاهب التی لم تحظ بتشـجیع فیکتب لها البقاء، و له کثیر من المسائل قد خالف فیها الشّافعی، و سیأتی بیانها. 2-الحسن بن محمّد بن الصباح الزعفرانی البغدادی المتوفی سنة 260 ه و هو أثبت رواة المذهب القدیم للشافعی، و کان یذهب مذهب أهل العراق، فترکه و تفقه للشافعی. 3-الحسن بن علی الکرابیسی تفقه أولا علی مـذهب العراقیین، ثم تفقه للشافعی و سـمع منه و من غیره و قـد تجنب الناس روایته. لأن أحمد بن حنبل طعن علیه فی مسألة اللفظ، لأنه کـان یقول: لفظی بالقرآن مخلوق. 4-أحمـد بن عبـد العزیز البغـدادی کان من کبار أصـحاب الشّافعی الملازمین له ببغـداد، ثم صار من أصـحاب ابن داود و تبعه علی رأیه، و له مسائل خالف بها الشّافعی. 5-أبو عبد الرّحمن أحمد بن محمّد بن یحیی الأشـعری البصری، کان یشـبّه بالشافعی و یوصف به، لأنه انتصـر للمذهب و دافع عن أصـحابه، لمکانته من السـلطان، و علو منزلته فی الدولة، فقد کان رفیع المنزلة عندهم، له جاه عظیم. و قد أجهد نفسه فی نصـرة مذهب الشّافعی و انتشاره، حتی وصف بما أشـرنا إلیه. 6-أحمد بن محمّد بن حنبل إمام المذهب الحنبلی (سـتأتی ترجمة حیاته) و الشـیء الذی نود الإشارة إلیه هو أن الحنابلة یجعلون الشّافعی تلمیذ أحمد بن حنبل، و یعدّونه فی عداد من أخذ عنه و تعلّم منه، و یسـتدلّون بقول أبی حاتم: إن أحمد بن حنبل أکبر من الشّافعی. تعلم الشّافعی أشیاء من معرفة الحدیث من أحمد بن حنبل و کان الشّافعی فقیها، و لم تکن له معرفة بالحدیث، فربما قال لأحمد هذا الحدیث محفوظ؟ فإذا قال أحمد: نعم، جعله أصـلا و بنی علیه. و قال إسـحاق بن حنبل: کان الشّافعی یأتی أبا عبـد اللّه أحمد بن حنبل عندنا هاهنا عامة النهار یتذاکرون الفقه. و قال أبو بکر الأثرم فیما کتبه إلی المروزی: و أخبرت أن الشّافعی له معرفة بالحدیث مما تعلمه منه (أی من أحمد بن حنبل) .

و عن عبد اللّه بن أحمد قال: قال لنا الشّافعی: أنتم أعلم بالحدیث و الرجال منی، فإذا کان الحدیث صحیحا فأعلمونی أن یکون کوفیا، أو بصریا، أو شامیا، حتی أذهب إلیه إذا کان صحیحا. هکذا ذکر ابن رجب فی طبقات الحنابلة (1)و قال ابن الجوزی: و ممن حدّث عن أحمد بن حنبل: الشّافعی. و قد ذکره فی عداد تلامذته. و لکن الشّافعیة جعلوا أحمد بن حنبل تلمیذا للشافعی. 7-داود بن علی الظاهری، إمام أهل الظاهر، أخذ عن الشّافعی، و لکنه لم یکن من رواة المذهب و ناشریه، بل کان له مذهب مستقل و له أتباع، و لا زال مذهبه معمولا به مدة من الزمن، و کان من أشهر علماء المذهب: ابن حزم صاحب کتاب المحلی.

المصریون:

و انتشر مذهب الشّافعی فی مصر أکثر من غیره، لأن أصحاب الشّافعی فی مصر قاموا بنشر المذهب، و تألیف الکتب، و قد ساعدت الظروف علی ذلک کما یأتی، فکان للشافعی أصحاب من مصر لهم ید فی نشر مذهبه، و له تلامذة کثیرون، کان أشهرهم: 1-یوسف بن یعقوب البویطی أو یعقوب المصری المتوفی سنة 231 ه فی سجن بغداد، لأنه لم یقل فی مسألة خلق القرآن. و کان البویطی من أکبر أصحاب الشّافعی، و ناشری مذهبه، و هو خلیفته علی حلقة درسه، و کان الشّافعی یحیل علیه فی الفتیا إذا جاءته مسألة، و یعد فی الواقع من أکبر أنصار المذهب و دعاته، فقد کان یدنی الغرباء و یقرّبهم، و یعرفهم فضل الشّافعی و کتبه، حتی کثر الطالبون لکتب الشّافعی، و کان یقول: کان الشّافعی یأمر بذلک، و یقول لی أصبر للغرباء. و غیرهم من التلامیذ حتی کثر أتباعه و قوی انتشار المذهب، فحسده ابن أبی اللیث الحنفی قاضی مصر و عاداه، و بسبب ذلک أخرجه أیام المحنة فی خلق القرآن، و حمل مع من حمل من أهل مصر، و حبس ببغداد و مات فی السجن سنة 231 ه.

1- 1) طبقات الحنابلة ج 1 ص 280-282. [1]

2-إسماعيل بن يحيى المزنى أبو إبراهيم المصرى المتوفى سنة 264 ه كان من أكبر أنصار الشافعى و ناشرى مذهبه، حتى قال الشّافعى فى حقه: المزنى ناصـر مذهبى. و قال أيضا فى وصفه: لو ناظر الشيطان لغلبه (1). و له فى مذهب الشّافعى كتب كثيرة، منها: الجامع الكبير، و الجامع الصـغير و المختصر، و المنثور، و المسائل المعتبرة، و الترغيب فى العلم، و كتاب الوثائق، و كتاب نهاية الاختصار. و اشتهر كتاب «المختصـر» بين النـاس، و امتلأت به البلـدان، و كـان للنـاس فيه اعتقاد شديـد حتى أن المرأة إذا جهزت للـدخول على زوجها حمل فى جهازها مصحف و نسخة «مختصر المزنى» (2)و كان المزنى من المجتهدين فى المذهب، و ممن له حرية الاسـتنباط، و كان ممن ينهى عن التقليـد و الجمود كما جاء فى مقدمة المختصـر. 3-الربيع بن سـليمان بن عبد الجبّار بن كامل المرادى المتوفى سـنة 270 ه كان من موالى مراد، و مؤذن جامع الفسطاط، و هو راوى كتب الشّافعى، وثقوه فى الحديث على غفلة فيه، و تقدم روايته على غيره، فلو تعارض هو و المزنى فى رواية قدّم أصـحاب الشّافعى روايته على رواية المزنى، و قد رحل الناس إليه لتلقى كتب الشّافعى، و كان الشّافعى يحبّه حتى قال له: لو قـدرت أن أطعمـک العلم لأطعمتک إيّاه. 4-الربيع بن سـليمان بن داود الجيزى، أبو محمّد الأزدى مولاهم المصـرى المتوفى سـنة 256 ه روى عن الشافعى أحاديثا، و لم يرو كتبه، و كان ضـعيفا فى الحديث. و من المصـريين أيضا: حرملة بن يحيى بن حرملة، أبو حفص المصرى المتوفى سنة 266 ه صـحب الشافعى و روى عنه كتبا لم يروها الربيع بن سليمان. و منهم: قحزم بن عبد اللّه بن قحزم، و أبو حنيفة القبطى المتوفى سنة 271 ه صحب الشافعى و أخذ عنه و كتب كثيرا من كتبه، و روى عنه عشرة أجزاء فى السنن و الأحكام. و يونس بن عبد الأعلى الصدفى المصرى ولد سنة 170 ه و توفى سنة 264 ه

1- 1) طبقات الشافعية للسبكى ج 1 ص 238. [1]

2- 2) مختص المؤمل لأبى شامة ص 35.

و سمع الحديث من ابن عيينة و ابن وهب، و تفقه على الشّافعى، و انتهت إليه رئاسة العلم المصرى، و فيه يقول الشّافعى: ما رأيت بمصر أحدا أعقل من يونس بن عبد الأعلى. و محمّد بن عبد اللّه بن الحكم المتوفى سنة 268 ه. كان من أصحاب الشّافعى، و كان أهل مصر لا يعدلون به أحدا. قال المزنى: نظر إليه الشافعى فأتبعه بصره، و قال: (وددت لو أن لى ولدا مثله و علىّ ألف دينار) . و قال أبو إسحاق الشيرازى: انتهت إليه رئاسة العلم بمصر، و كانت بينه و بين الشّافعى مؤاخاة صادقة، و مودة صافية. و لما مرض الشّافعى، و أحس بدنو منيته، و طلب إليه أصحابه أن يذكر من يخلفه فى حلقته أشار إلى البويطى، دون ابن عبد الحكم، و كان قد استشرف لها و أرادها، فأغضبه ذلك و ترك مذهب الشافعى، و انتصر لمذهب مالك، و أخذ يرد على الشّافعى، فهو إذا من تلامذة الشافعى و لم يكن من ناشرى المذهب. هؤلاء هم أشهر أصحاب الشّافعى، الذين انتشر بهم علمه بما ألّفوا و صنّفوا.

كتبه و آثاره:

اشارة

يمتاز الشّافعى عن غيره من أئمة المذاهب الأربعة بنسبة الكتب التى عرف أنّه صنفها بنفسه، فكان عليها اعتماد المتمذهبين بمذهبه: كرسالة أدلة الأحكام و هى رسالة أصولية، و كتاب اختلاف الحديث، و كتاب المسند، و الأمالى، و مجمع الكافى، و عيون المسائل، و البحر المحيط، و هذه الكتب الأربعة تعرف بالقديم. و إن من سبقه من الأئمة لم يظهر له مثلما ظهر للشافعى، فمالك بن أنس له كتاب «الموطأ» فحسب، و أبو حنيفة ليس له شىء من التأليف إلاّ ما يقال من نسبة كتاب «العالم و المتعلم» و قد تقدم الخلاف فى ذلك، و سيأتى الكلام حول كتب الإمام أحمد. أما أهم كتاب ينسب إلى الشافعى فهو كتاب «الأم» المطبوع فى ستة مجلدات، و هو المرجع لفقه الشّافعى قديمه و جديده. و أهم شىء نود الوقوف عليه فى هذا البحث هو: هل «الأم» من تأليف الشافعى أو هو لغيره و نسب إليه؟

كتاب الأم:

لقد وقع الخلاف حول هذا الكتاب، و كثر الجدل فى نسبته للشافعى، و أنه أكب على تأليفه بنفسه، فبعضهم يذهب إلى ذلک. و البعض الآخر ينفى ذلک، و يذهب إلى عدم نسبته للشافعى. و إذا نحن أردنا أن نلحظ الكتاب فى قراءة موضوعية نجد أننا كثيرا ما نصطدم بعبارات توجب التشكيک فى صحة القول بأن الشّافعى هو مؤلّف هذا الكتاب. و لعل من الخير أن نضع بين يدى قرائنا المحترمين، بعضا من الشواهد على ذلک: منها-افتتاح كثير من فصوله بهذه العبارة: «أخبرنا الربيع، قال: قال الشّافعى-كما ورد فى مطلع الجزء الأول و كثير من فصول الكتاب، و فى كتاب الحيض و الاستحاضة فى عدة موارد، و فى ص 58 قال: قال الربيع: قال الشافعى، و هو الذى نقول به: إن أقل الحيض يوم و ليلة. و أكثره خمسة عشر. و فى كثير من فصول الكتاب، يحكى الربيع بن سليمان أقوال الشّافعى و آراءه كما فى ص 60 ج 1 و كذلک فى ص 67 و 72 و 73 إلى غير ذلک. و إن المؤيدات لنفى دعوى تأليف الشّافعى كثيرة لا تحصى، ففى ص 74 فى باب الأذان قال الربيع: أخبرنا الشّافعى قال: أخبرنا إبراهيم بن محمّد (1)و غيره، عن جعفر بن محمّد عليه السّلام إلى أن يقول قال الشّافعى: و بهذا كله نأخذ. و من أهم المؤيدات، أن الربيع كان ينص فى بعض الموارد على سماعه من الشّافعى، و فى بعضها أنّه لم يسمع ذلک منه. و ورد فى باب غسل الميت ص 248 أخبرنا الربيع بن سليمان أنّه قال: لم أسمع هذا الكتاب من الشّافعى، و إنما أقرأه على المعرفة. و تقع فى الكتاب عبارة: قيل للشافعى فأجاب بكذا. كما تكثر فيه عبارة: (سألت الشّافعى بكذا فأجاب بكذا) كما فى السؤال عن ولوغ الكلب فى الإناء ج 7 ص 94 و غيره.

1- 1) إبراهيم بن محمّد بن أبى يحيى هو أحد تلامذة الإمام الصّادق عليه السّلام و من أكبر شيوخ الشافعى و قد أكثر الرواية عنه و ستأتى ترجمته.

و يأتى أيضا: قلت للشافعى كذا، فأجابنى بكذا. إلى آخر ما هنالک من الشواهد و التعليقات للربيع و للبويطى، كما فى ج 5 ص ،144،59 145،183 أكبر دليل على ذلک. و يجد المتتبع لفصول الكتاب، صراحة فى عدم تأليف الشّافعى لهذا الكتاب، كما فى باب الصلح، و الحوالة، و الوكالة، و الوليمة، و إقرار الوارث و غيرها. و على أى حال: فإن للقول فى عدم نسبة الكتاب للشافعى مجالا. و أنه لم يؤلّفه بنفسه، و لا أكبّ على كتابته، و لكن أقرب الاحتمالات: إن الكتاب هو مجموعة آرائه و أقواله دوّنها تلامذته، كغيره من أئمة المذاهب، مع زيادات فى التخريج على أصول المذهب. و على الأقل فإن القطع بعدم نسبة جميع الكتاب للشافعى لا مجال لإنكاره، فهو إما تأليف البويطى أو الربيع بن سليمان. و قد أيّد ذلک الغزالى فى الإحياء، و أبو طالب المكى فى قوت القلوب. قال أبو حامد الغزالى: كان الشافعى رحمه اللّه آخى محمّد بن عبد الحكم، و كان يقرّبه و يقبل عليه و يقول: ما يقيمنى بمصر غيره، فاعتل محمّد فعاده الشّافعى رحمه اللّه فقال: مرض الحبيب فعدته فمرضت من حذرى عليه

و أتى الحبيب يعودنى فبرأت من نظرى إليه

و ظن الناس من صدق مودتهما أنه يفوض أمر حلقته إليه بعد وفاته، فقيل للشافعى فى علته التى مات فيها: إلى من نجلس بعدک يا أبا عبد اللّه؟ فاستشرف له محمّد بن عبد الحكم و هو عند رأسه ليومئ إليه، فقال الشّافعى: سبحان اللّه! أ يشک فى هذا! أبو يعقوب البويطى. فانكسر لها محمّد، و مال أصحابه إلى البويطى، مع أن محمّدا قد حمل عنه مذهبه كله. لكن البويطى كان أفضل و أقرب إلى الزهد، فنصح الشّافعى للّه و للمسلمين و ترک المداهنة، و لم يؤثر رضا الخلق على رضا اللّه تعالى. فلما توفى، انقلب محمّد بن عبد الحكم عن مذهبه، و رجع إلى مذهب أبيه. و درس كتب مالک. و آثر البويطى الزهد و الخمول، و لم يعجبه الجمع و الجلوس فى الحلقة، و اشتغل بالعبادة، و صنّف كتاب «الأم» الذى ينسب الآن إلى الربيع بن

سلیمان و یعرف به، و إنما صـنفه البویطی، و لکن لم یذکر نفسه فیه، و لم ینسبه إلی نفسه، فزاد الربیع فیه و تصرّف (1). هذا هو النص الذی أورده الغزالی، علی نفی نسـبة کتاب الأم للشافعی، و إنما ألفه البویطی، ثم نسـبه الربیع بن سـلیمان إلی نفسه، و زاد فیه و تصرف. و الغزالی هو من أئمـة الشافعیـة، الذین علیهم المعوّل. و قال أبو طالب المکی: إن البویطی هو الذی ألّف کتاب الأم و أعطاه الربیع، و صار یعرف به، لأنه اعتزل الناس بالبویطة من سواد مصـر، و صنّف کتاب الأم الذی ینسب الآن للربیع بن سلیمان و یعرف به، و إنما هو جمع البویطی، لم یذکر نفسه فیه، و أخرجه إلی الربیع فزاد فیه (2). و هذا نص صریح فی تأکید المدّعی، و قد مرّت العصور علی نسبة الکتاب للشافعی، و أنّه أکبّ علی تألیفه، مع وجود هـذه النصوص و الشواهـد التی یتجلی منها عدم صـحة هذه النسـبة، لمن یتتبع فصول الکتاب، من وجود تلک العبارات الدالة بصـراحة علی نفی تلک النسـبة کما قدمناه، و کذلک فی بقیة الأبواب المسـبوقة بعبارة (أخبرنا الربیع بن سلیمان قال: أخبرنا الشافعی) کما فی باب الصـلح، و الحوالة، و الوکالة، و الولیمة و إقرار الوارث و غیرها. و تسمیة هذا الکتاب باسم الأم تسمیة جدیدة و أحیانا ما یرد ذکره فی الکتاب و لعله من فعل الشراح (3). و بهذه الأمور أصبح التشکیک فی نسبة الکتاب للشافعی، بل جزم أکثرهم بأن الشّافعی لم یؤلّفه. و حقیقة أنه جامع لأقواله و آرائه التی لم یقصد منها تصنیف کتاب بعینه و لو قدّم کذلک، لسلم ما فیه من علم من التشکیک و رفع عنه التردد.

الاختلاف حول کتاب الأم:

و قد ثار الخلاف فی مصر حول هذه المسألة، و کثر الجدل فیها، و هو: هل أن کتاب «الأم» ألّفه الشافعی أو ألفه البویطی؟

1- 1) الإحیاء ج 2 ص 190. [1]

2- 2) قوت القلوب للمکی ج 4 ص 135. [2]

3- 3) نظرة عامة فی تاریخ الفقه الإسلامی ص 255.

فمنهم، من ينفى تأليف الشّافعى لهـذا الكتاب، و أنّه عكف على كتابته و تأليفه فى هذا الموضع النهائى. و منهم، من يرى أن الشّافعى أملاه على تلامـذته فى حلقـة درسه، و قسم آخر يرى أن الشّافعى أملى مسائل، و كتب مسائل، و تحدّث بمسائل، ثم ترك علمه و رسائله و أماليه وديعة فى خزائن أصـحابه و صدورهم بعد موته، فجاء البويطى فصنّف من ذلک كله كتاب الأم و أعطاه الربيع، فزاد فيه و تصرّف. و لكل قول مرجحـات و مؤيّـدات. يقول الـدكتور أحمـد أمين: (فليس يسـتطيع أحـد أن يقول أن مـا بين دفتى الكتاب الـذى بين أيـدينا هو من تأليف الشّافعى، و أنّه عكف على كتابته و تأليفه فى هـذا الموضع النهائى. كما أنّه لا يسـتطيع أحـد أن ينكر أن فى «الأم» مـذهب الشّافعى بقوله و عبـارته، فالظاهر أنّها أمال أملاها الشافعى فى حلقته، و كتبها عنه تلاميـذه، و أدخلوا عليها تعليقات من عنـدهم، و اختلفت رواياتهم بعض الاختلاف) (1). و كتب الدكتور زكى مبارک رسالة خاصة فى هذه المسألة تحت عنوان: (إصلاح أشنع خطأ فى تاريخ التشريع الإسلامى، كتـاب الأم لـم يؤلّفه الشافعى، و إنّما ألّفه البويطى و تصـرّف فيه الربيع بن سـليمان) . يقول فى المقدمـة: (و ملک الـدنيا بأسـرها لا يساوى عندى تصحيح هذه الغلطة التى درج عليها الناس منذ أجيال، و هى نسبة كتاب الأم إلى الشافعى رحمه اللّه، مع أن الشّافعى لـم يؤلّف ذلک الكتـاب، و لـم يعرفه على الإطلاـق، لأـنه ألّف بعـد وفـاته بسـنين) . و يقول: إن الفرق عظيم بين كتـاب يؤلّفه الشّافعى أو يمليه و يرويه عنه أصـحابه، و كتاب يؤلّف بعـد وفاته بسـنين، الفرق عظيم جدا بين هذين فى التأليف و التصـنيف، إلاّ أن تكون الحقائق الأدبية فى مصـر مما يكال و يوضع فى الأعدال. و يسـتمر الأسـتاذ مبارک فى مناقشته، و بحثه حول الكتاب–و هو المعروف بدقة البحث و سلامة الذوق–و يقيم الأدلة على ما يدّعيه، من إثبات تأليف الكتاب للبويطى، لا للشافعى، و يصف لنا مهاجمة الناس له، و قيام المعركة حول إثارة هذه

1- 1) ضحى الإسلام ج 2 ص 231.

المسألـة، و أن المعركة تنتهى على أن الشّافعى لـم يعرف كتاب الأم بصورته، و أنّه لا مفرّ من الاعتراف بأثر أبى يعقوب البويطى، و الربيع بن سليمان فى تأليف ذلک الكتاب. و يقول: كتب اللّه لنا النصر فى تلک الحرب الشعواء، و اعترف خصومى بأن الشّافعى لـم يعرف كتاب الأم فى حياته، اعترفوا فى محادثات شخصية و تلفونية، و سألتهم أن يذيعوا ما اقتنعوا به فلم يفعلوا، لأن الاعتراف بالهزيمة يصعب على كثير من الناس. و لكنهم لـم يكونوا جميعا فى درجـة واحدة من المكابرة، فقد تفرد الرجل الفاضل الأسـتاذ محمّد عرفة-وكيل كلية الشـريعة-بكلمة وقعت منه قضاء و قدرا، فى مقال نشره بالبلاغ فى مساء السبت 28 شعبان سنة 1352 ه إذ قال: (إلا أنه يحتمل أن يكون الشّافعى أملى كتابه الأـم كتبـا متفرقـة و مسائـل مجزأة، و الـذى جمعه و جعله كتابا مسـتقلا، و سـماه بهـذا الاسم هو الربيع بن سـليمان، و نحن نرجـح هـذا الاحتمال) . هذا كلام وكيل كلية الشـريعة بالجامع الأزهر، فما ذا ينتظر الناس من الفوز لرأى زكى مبارک، من أن يوافقه وكيل كلية الشريعة من حيث لا يحتسب. و يختم الأسـتاذ زكى مبارک رسالته، التى نشـرها حول إثارة هـذا الموضوع فيقول: و أظهر ما تكون عقبـة التوحيد فى الفقه الإسـلامى، فقـد رأينا كيف يتفق فقهاء الشّافعية على إضافة مؤلفات أصـحاب الشّافعى إلى الشّافعى، و مضوا على ذلک الرأى الموحد إلى اليوم، حتى رأينا من فقهاء عصـرنا من يضـجر و يحزن و يكتئب حين يسـمع من يقول: إن للبويطى و الربيع بن سـليمان يـدا فى تأليف كتاب الأم، لأن فى ذلک إشـراكا بالشافعى رحمه اللّه! و لا ننسـى أن من فقهاء الشّافعية جماعة أنطقت الرسول عليه السّلام بمدح الشافعى قبل أن يولـد بزمان، فزعمت أنّه قال: (عالم قريش يملأ طباق الأرض علما) و أن المقصود بهذا الحديث محمّد بن إدريس الشافعى. إلى أن يقول: لقد مرت أجيال و المسـلمون يعتقدون أنّه ليس لأحد بعد الأئمة الأربعة أن يجتهد فى الشـريعة الإسـلامية، و الخارج عن المذاهب الأربعة-و هو رأى الجمهور-صاحب بدعة، و كل بدعة ضلالة، و كل ضلالة فى النار!

و من المؤسف، أن تتغلغل هذه العقيدة فى الجماهير الإسلامية. حتى نجد من يسأل عن مذهب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أ شافعى هو أم مالكى؟ ! و غفلة العوام فرع عن غفلة الخواص! فإن لم يكن ذلك كذلك-كما كانوا يعبرون-فلم يصرخ بعض الناس فيقولون فى جريدة يومية: أنه يعزّ عليه أن ينسب كتاب الأمّ إلى غير الشّافعى؟ مع أن فى فحول المتقدمين من نسبه إلى البويطى و الربيع، مع أن الأدلة تظافرت على أنّه ألف بعد وفاة الشّافعى بسنين؟ يقولون: إن أصحاب الشّافعى كانوا جميعا عالة عليه. و نحن نقول: لو لا أصحاب الشّافعى لكان مصيره مصير الليث بن سعد، فقد كان من كبار الأئمة، و لكن قعد عنه أصحابه فضاع. و فى عصرنا شاهد لذلك، فلو لا رشيد رضا لما كان محمّد عبده، و هل استطاع الشيخ محمّد عبده أن يظفر بكلمة ثناء! و هل جرى فى الدنيا أنّه الأستاذ الإمام و أنه (لوثر) هذا الجيل؟ لو لا عناية رشيد رضا بطبع مؤلّفاته، و إذاعة ما وعى عنه من مختلف الأقوال. إن التلميذ المخلص شريک أستاذه فى الفضل، فلا تغضبوا من قيمة أصحاب الشّافعى لتصح لكم فى الشّافعى عقيدة التوحيد، فبعض التوحيد و ثنية لو تعلمون. انتهى. و فى الرسالة مباحث قيمة لم يتسع الوقت لإعطاء صورة عنها. و بهذا ينتهى بحثنا حول شبهة كتاب الأم، و نسبته للشافعى. و للشافعى كتب أخرى فى علوم مختلفة، كالتفسير و اللغة و غيرهما. كما أنّهم نسبوا إليه معرفة كثير من العلوم، و التحقيق لا يقر ذلک، و التتبع لا يثبته. فمن ذلک: إن بعض من درسوا الشّافعى ينسبون إليه تعلم اليونانية، معتمدين على ما نقله الرازى عن الشّافعى: أنّه عند ما دخل على الرشيد بتلک التهمة، سأله الرشيد عن علمه، فكان مما جاء فى هذه المحاورة: قال الرشيد: فكيف علمک بالطب! قال الشافعى: أعرف ما قالت الروم مثل أرسطاطاليس و جالينوس، و قرقوريوس، و أبو قليس بلغاتها، و ما نقله أطباء العرب، و قنّنه فلاسفة الهند، و نمقته علماء الفرس. و القصة مكذوبة لا يعتمد عليها، لاشتمالها على أمور متناقضة و أشياء مكذوبة، و أوضح ما فيها من الكذب أن السؤال من الرشيد كان بمحضر أبى يوسف، مع القطع بأن الشّافعى دخل بغداد بعد وفاة أبى يوسف، و لم يجتمع به قط. و كذلک تشتمل

القصـة على مناقشات فقهيـة تخالف مـذهب الشّافعى، قديمه و جديده (1). فليس من التحقيق العلمى التمسّـك بشـىء مما جاء فى هـذه القصة، لأن راويها كذاب وضّاع، و هو محمّد بن عبد اللّه البلوى، و حاله أشهر من أن يذكر، و لم نجد نسبة تعلمه للطب و اللغة اليونانية إلاّ فى هذه الرواية التى لا يعتمد عليها، و نص على ذلک كثير من المحققين. و ليس لنا غرض فى نفى ذلک عنه، إلاّ الالتزام بشرط الدراسة من التعرّض لكثير من الأـمور التى هى بعيـدة عن الواقع. أمـا الكلاـم حول علم الأصول، و هل كان الشّافعى هو الواضع له، أو أنه أول من ألّف فيه؟ ! فـذلک ما يسـتدعى بيانه الإطالة فى البحث لاسـتلزامه الرجوع إلى البحث عن تاريخ علم الأصول و نشأته، و هو متأخر عن علم الفقه لأنه ميزان له، فالفقه هو المادة التى توزن، و المادة سابقـة على الميزان. و قـد أشـرنا فى الجزء الثانى فى فصل تدوين العلم: أن الإمام الباقر عليه السّلام كان هو الواضع الأول لقواعده و أسسه، و قد ألّف تلامذته رسائل فى مسائله. و مهما يكن من أمر فلا مجال إلى الاعتراف بوضع الشّـافعى لعلم الأـصول، و لا يمكن التمسک بما نقله البعض فى ذلک، لبعـده عن الحقيقـة، و عـدم مطابقته للواقع، لأنا نجـد من كان قبل عصـر الشّافعى من علماء الإسـلام من كان يسـتعمل فى استنباطه للحكم كثيرا من القواعد الأصولية، للوقوف على حقيقة الحكم الوارد من الشارع. و كان لكل مـذهب أصول و قواعـد، و قد ألّف أبو يوسف كتابا فى أصول الفقه، كما أن قواعد أصول الفقه المالكى كانت سابقة على الشّـافعى، و قـد ألّف محمّـد بن الحسن الشـيبانى كتابا أسـماه أصول الفقه. و تـدعى الحنفيـة أن أول من وضع الكتب فى أصول الفقه على مـذهب أبى حنيفـة هو أبو يوسف (2). و ذكر ابن النـديم كثيرا من كتب الأـصول لمن هو أسـبق فى التـأليف من الشّـافعى من معاصـريه و غيرهم. و قد تقدم القول بأن الإمام الباقر عليه السّلام هو الذى وضع قواعد علم الأصول

1- 1) و قد رد ابن القيم هذه الرواية، و رفضها ابن حجر و ابن كثير، و نص الجميع على كذبها. و قد أوردها الفخر الرازى بدون سند.

2- 2) مناقب أبى حنيفة للمكى ج 1 ص 245.

و فتح أبوابه، و أوّل من صنّف فيه هو هشام بن الحكم المتوفى سنة 179 ه صنّف كتاب (الألفاظ و مباحثها) ثم من بعده يونس بن عبد الرّحمن مولى آل يقطين، و هو مبحث تعارض الحديثين، و مسائل التعادل و التراجيح. و قد ذكر ابن النديم مؤلّفات الشيعة فى الأصول لمن هو أسبق من الشّافعى، و قد مر البحث فى ذلک فى الجزء الثانى من هذا الكتاب. و نحن لا ننكر أن الشّافعى له يد فى علم الأصول، و أنّه وسع الدائرة فى بعض المسائل، إلاّ أنه لم يكن واضعا لهذا العلم، بل هو مؤلّف و له الرسالة المشهورة، و قد تصدّى أبو سهل النوبختى، و هو من علماء الشيعة، فنقضها و بيّن أخطاء الشّافعى فيما كتب عن علم الأصول. و لكننا ننكر أن يكون هو الواضع الأول لعلم الأصول، و هو ادّعاء لا- يثبت أمام التفاصيل التى حوتها كتب الشيعة، و التى تبيّن الأبواب التى جرى عليها الإمام الباقر فى مسائله و أقواله، و تظهر القواعد التى وضعها فى استخراج الأحكام و تصنيف المسائل و التى برزت أيضا بمنهج الإمام الصّادق و مدرسته الكبرى.

بين قديم و جديد:

تختلف أقوال الشّافعى و فتاواه فى كثير من الموارد، و قد عرف عنه أنه عدل عن فتواه فى العراق، و عرفت بالمذهب القديم، و هو الذى تحمّله عنه تلامذته فى العراق و أخذوا عنه، و حفظوا مسائله، و دوّنوا كتبه كالزعفرانى و الكرابيسى و غيرهما. و من كتب المذهب القديم المنسوبة للشافعى: الأمالى، و مجمع الكافى. و لما دخل مصر رجع عما أفتاه فى العراق، و ما دوّن عنه، حتى روى البويطى: إن الشّافعى قال: لا أجعل فى حل من روى عنى كتابى البغدادى (1)هذا مع العلم بأن تلک الآراء و الأقوال قد انتشرت و أخذها من تتلمذ عليه فى بغداد، و لا نعلم معنى هذا النهى و مؤدّاه-إن صح عنه-فهل كان الرجوع عنها لعدم مطابقتها للحق؟ أم أن استعداده الاجتهادى كان قاصرا عن إدراک الواقع الذى أدركه فى مصر؟ ! و صفوة القول: أن ما تقدم يضع بين يدى الباحث حقيقة مذهبية طريفة هى تأثّر ذهنية الفقيه بالمحيط الجغرافى؛ و هذا ما لم يصل إليه التصور أو الإدراک، فالشّافعى صاحب المذهب المعروف هو الذى تفرّد مذهبه بهذه الصبغة (صفة الجديد و صفة

1- 1) مناقب الشافعى للفخر الرازى ص 69.

القديم) فمذهبه الجديد هو ما أملاه فی مصر، و أخذ عنه تلامذته هناک، و القديم هو مذهبه فی بغداد؛ و قد عدل عنه و نهی عن نقله، و لکن تلامذته فی بغداد لم يبلغهم نهيه و عدوله، فدونوها و تناقلوها و انتشرت بينهم، و لهذا تجد الأقوال عن الشّافعی مختلفة. فيأتی فی المسألة قولان أو أکثر، و قد يثبت رجوعه عن أحدها أو لا يثبت، فيبقی القولان ثابتين فی المذهب منسوبين إليه، کما جاء فی کتاب الأم و غيره. و قد يعتبر هذا الاختلاف دليلا علی النقص فی اجتهاد الشّافعی لأن عدم الجزم دليل علی نقص العلم. ذکر الفخر الرازی فی المسألة الحادية عشرة: أنهم-أی العلماء القائلين بنقص اجتهاد الشّافعی-قالوا: إنه-أی الشّافعی-ما کان کاملا فی الاجتهاد لأنه توقف فی أکثر مسائل الفقه. و تساوت عنده الأدلة، و ذلک يدل علی ضعف الرأی و قلة الفقه (1). و اعتذر الرازی: بأن هذا يوجد عند أبی حنيفة أيضا فی مسألة الماء المستعمل فی الوضوء، فقد نقلوا عن أبی حنيفة ثلاث روايات: 1-رواية محمّد بن الحسن عن أبی حنيفة أنه طاهر. 2-رواية أبی يوسف أنّه نجس نجاسة خفيفة. 3-رواية الحسن أنّه نجس نجاسة غليظة، و لهم من هذا الباب مسائل کثيرة، فثبت أنّ هذا الإشکال مشترک من الجانبين (أی من الشافعی و أبی حنيفة فی اختلاف الأقوال) . و سنوقف القارئ الکريم علی کثير من ذلک. و قد جعلوا قول الشافعی الجديد ناسخا لقوله القديم، کما أنّهم قد أکثروا من الاعتذار عن وجود هذا الاختلاف الذی جعله بعض العلماء نقصا فی اجتهاد الشّافعی و إدراکه. قال أبو منصور البغدادی: و ليس الشّافعی أجلّ من رسول اللّه صلّی اللّه عليه و آله و سلّم حين سئل عن قذف الرجل امرأته، حتی نزلت آية اللعان، و قد روی: أن المؤمن و قاف و المنافق و ثاب. و أنت ترى أن هذا النوع من الدفاع عن الشّافعی لا موجب له، و هو تعصّب محض و قياس مع الفارق، فليس من الصحيح أن تقاس حوادث الشافعی بالنبی صلّی اللّه عليه و آله و سلّم

1- 1) مناقب الشافعی للرازی ص 68.

الذى كان يستمد تعاليمه من السماء، و أنّه لا ينطق عن الهوى، إن هو إلاّ وحى يوحى. على أن الشّافعى قد أراحهم من هذا التكلف، فإنه لم يدّع العصمة و الكمال، و قد دلّت أقواله على خلاف ما يدعونه له، من صفة الإنسان الكامل الذى لا يعتريه الخطأ و النسيان، كما تقدم بيانه. و حدث البويطى عن الشّافعى أنّه قال: صنفت هذه الكتب فلم آل فيها الصواب، فلا بد و أن يوجد فيها ما يخالف كتاب اللّه و سنّة رسوله، فما وجدتم فيه ما يخالف كتاب اللّه و سنّة رسوله فإنى راجع عنه إلى كتاب اللّه و سنّة رسوله. و قال المزنى: قرأت كتاب «الرسالة» على الشّافعى ثمان مرات، فما من مرة إلاّ و قد كان يقف على خطأ، فقال لى الشّافعى: أبى اللّه أن يكون كتابا صحيحا غير كتابه تعالى. فقول أبى منصور فى نصرة الشّافعى خطأ محض و جرأة على مقام الرسالة، و ليس بغريب على من انغمس فى بحر التعصب للمذهب بأن تصدر منه أمثال هذه المخالفات، فقد ترک قول النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لقول صاحب المذهب، و قد مرّ أن بعضهم يسأل عن مذهب النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هل كان حنفيا أم شافعيا. و لسنا الآن بصدد البحث عن هذا، و لكن الغرض أن أقوال الشّافعى قد اختلفت فى كثير من المسائل، فهو قد أفتى فى بغداد بمسائل، ثم أعرض عنها فى مصر، فسميت تلک الأقوال بالمذهب القديم. و إن أقواله القديمة منشورة فى أبواب الفقه المختلفة، و أخذ العلماء يوازنون بينها، و اختلفت ترجيحاتهم و تصحيحاتهم فيها، بل تناولوا ما رجحه الشافعى نفسه بالدراسة و الفحص، فكانوا يرجحون القول الآخر إذا وجدوا حديثا صحيحا-سيرا على قاعدة الشّافعى التى سنّها لنفسه-إذا صح الحديث فهو مذهبى. قال البجرمى: الفتوى على ما فى الجديد دون القديم، و قد رجع الشّافعى عنه، و هذا كله قديم لم يعضده حديث، فإن اعتضد بحديث فهو مذهب الشّافعى، فقد صح عنه أنّه قال: إذا صح الحديث فهو مذهبى، و اضربوا بقولى عرض الحائط. و لكن بعض الشّافعية تردد فى الأخذ بالحديث إن عارض قول الشّافعى، لأنه عساه يكون منسوخا فى نظره أو مؤوّلا، أو صح عند غيره بطريق أقوى من طريقه، و بعضهم إذا وجد حديثا يخالف رأيا مأثورا عن الشّافعى يأخذ بالحديث الصحيح، و يترک رأى الشافعى.

و قـد أفتى المتقـدمون من فقهاء الشافعية بعدة مسائل فى القديم، و ترجيحها على الجديد، و اختلفوا فى عددها، و حاولوا حصـرها فى عدد قليل أو أكثر، و قـد منع بعضـهم الحصـر. و حصـرها بعضـهم فى اثنين و عشـرين، منها: عـدم وجوب التباعد عن النجاسة فى الماء الراكد الكثير، و التثويب فى الأـذان، و عـدم انتقـاض الوضوء بمس المحـارم، و طهـارة الماء الجارى ما لم يتغيّر، و عـدم الاكتفاء فى الاسـتنجاء بالحجر إذا انتشـر البول، و تعجيل صـلاة العشاء، و عـدم مضـى وقت المغرب بمضـى خمس ركعات، و عدم قراءة السورة فى الأخيرتين، و المنفرد إذا أحرم الصّلاة ثم أنشأ القدوة (أى جواز ذلک) ، و كراهية تقليم أظافر الميت، و عدم اعتبار النصاب فى الركاز، و شرط التحليل فى الحج بعذر المرض، و تحريم جلد الميتة بعد الدباغ. و لزوم الحد بوطء المحرم بملک اليمين، و قبول شـهادة فرعين على كل من الأصلين. إلى آخر ما ذكر. و صـفوة القول: إن اختلاف الشّافعيـة فى أقوال الشّافعى المختلفـة قد فتحت لهم أبواب الترجيح، و التخريج، و الموازنة بين أقواله و تطبيقها على الأحاديث، فما كان له شاهد من الحديث قدم على ما لم يكن له شاهد، و اشترطوا لذلک شـروطا يأتى بيانها. و هاتان الناحيتان (القديم و الجديد) تظهران جليا فى كتاب الأم، و فى اختلاف الشّافعية المتأخرين، إذ يذكرون للمسألة قولين، و يقصدون القديم و الجديد. و قد مرّ أن اتباع أئمة المذاهب يجعلون أقوالهم هى بمنزلة أقوال النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و ربما ترک قوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لقولهم. و قد قيل فى أسباب تحول الشّافعى عن أقواله فى بغداد: أن انتقاله من بغداد إلى مصر، و تقلبه فى عادات جديدة أثر ذلک فى تبـدّل رأيه. و غير بعيـد أن الشّافعى عنـد ما كان فى بغداد كان يرى نفسه تلميذا لمالک بن أنس، و بعد ذهابه لمصـر بقى مدة ينقل أقوال أسـتاذه، ثم تحوّل إلى مرحلة النضوج الاجتهادى فى تعمقه و دراسته، فهجر ما قاله أولا، و انتقد أستاذه مالكا، و وضع الكتب فى الرد عليه، و أعلن بحرمـة العمل فى قوله الأول، و منع من نقله عنه. و لكن مـدة بقائه بمصـر لا تساعده على اكتساب تلک الملكة الاجتهادية، و ذلک الأفق الواسع من العلم كما ينقل عنه.

آراؤه فی القرآن:

قیـل أن الشّافعی کان یری أنّ القرآن کلام اللّه غیر مخلوق و یقول: إن اللّه سـبحانه و تعالی یقول: وَ کَلَّمَ اَللّهُ مُوسـی تَکْلِیماً . و مسألـة خلق القرآن من المشاکل المهمـة التی حلّت بالجامعـة الإسـلامیة. و التی أدت إلی موجة کلامیة فی تاریخ الإسـلام، نجم عنها تباعد و عداء، و اتهام بالکفر، و رمی بالزندقة و الإلحاد. و إثارة للفتن، و إیقاد لنار البغضاء، حتی عد من لم یقل بخلق القرآن خارجا عن الدین و یقتل. و قد تطورت هذه المسألة بعد وفاة الشّافعی، و ظهر الامتحان بها فی سنة 218 ه ففیها دعا المأمون المحدثین و القضاة إلی القول بخلق القرآن، محتجا علی أنه محدث، و کل محدث مخلوق، و هذا الرأی السائد عند کثیر من علماء عصـره. و کان معارضو هذا الرأی یقولون: إن القرآن کلام اللّه تعالی: القائم بـذاته المقدّسـة، و ما کان قائما بذاته لا یکون مخلوقا (1). و أخـذ المأمون جماعة من الفقهاء فحبسـهم و ماتوا فی السجن (2). و أجاب کثیر منهم تقیـة. طمعا فی الوظائف، و إبقاء علی النفس. و یتجاوز عـدد الـذین أجابوا أکثر من ستین عالما کلّهم من کبار المحـدثین، کیحیی بن معین المتوفی سـنة 233 ه. و محمّـد بن سـعد صاحب کتاب الطبقات المتوفی سـنة 230 ه و قتیبة بن سـعید المتوفی سنة 240 ه و غیر هؤلاء یأتی الکلام علیهم إن شاء اللّه تعالی. و لقد تجاوز أکثر الفقهاء الحد فی هذه المسألة، فذهبوا إلی کفر من قال بخلق القرآن، و بطلان نکاحه، و أن امرأته قد بانت منه. فإن تاب و إلاّ ضربت عنقه، و لا یدفن فی مقابر المسلمین.

1- 1) سیأتی بحث هذه المشکلة بمزید من البیان فی الجزء السابع ضمن بحث أسباب التخلف و التأخر.

2- 2) منهم یوسف بن یحیی البویطی خلیفة الشافعی فی مصـر، مات فی سـجن بغداد سـنة 206 ه، و نعیم بن حمـاد الخزاعی، مات فی السجن سنة 228 ه، و عبد الأعلی بن مسـهر الغسانی، مات فی سـجن المأمون سنة 208 ه و غیرهم سـیأتی بیانهم فی الجزء الرابع إن شاء اللّه.

و قـال: إن من وقف و قـال: لا أقول أن القرآن مخلوق أو غير مخلوق، فقـد ضاهى الكفر، و من زعم أن لفظى بالقرآن مخلوق فهو مبتـدع، لا يجالس و لا يكلم. و كان أحمـد بن حنبل لا يقبل توبـة أحد ممن يقول بخلق القرآن، بل كان يرتب عليهم آثار الكفر و أحكامه، فلم يشـيع جنائزهم، و لم يصلّ على واحـد منهم، و حرم الكلام معهم. و لقـد أخذت هذه المسألة دورها فى ذلک العصـر، حتى أن امرأة جاءت إلى القاضى فقالت: طلّقنى فإن زوجى يقول بخلق القرآن. ثم اتسعت الحالة فخرجت عن اعتقاد البشر إلى الجن، و أنهم يقولون بذلک إلى آخر ما فيها من تطور و تأزم كما سيأتى فى الجزءين الرابع و السابع إن شاء اللّه. و بالجملة، فإنى أرى أن ما ينقل عن الشّافعى من التشدّد فى هذه المسألة لا يخلو بعضه من مبالغة، كما لا يخلو من زيادة-نسـبة للظروف المتأخرة-إذ المسألة فى عصر الشّافعى لم تأخذ أثرها فى المجتمع بـذلک الشـكل الـذى يجعلنا نثق بصـحة كل ما جاء عن الشّافعى فيه، مع أنا لا نريـد أن ندفع عن الشّافعى ما كان يراه، أو نقول بعدم صـحة النقـل عنه، و لكنا نشک فى تشـدده فى أمر من يقول بخلق القرآن! . . . قال الربيع بن سـليمان: سـمعت الشّافعى يقول: من حلف باسم من أسماء اللّه فحنث فعليه الكفارة، لأن اسم اللّه غير مخلوق، و من حلف بالكعبة أو بالصفا و المروة فليس عليه كفارة. لأنه مخلوق و ذاک غير مخلوق (1). و قال الربيع بن سـليمان: حدّثنى من أثق به قال: كنت حاضـرا فى المجلس فقال حفص الفرد: القرآن مخلوق. فقال الشّافعى: كفرت بـاللّه العظيم. و قـال الربيع أيضا: حضـر عبـد اللّه بن عبـد الحكم، و يوسف بن عمر، و حفص الفرد، و كان الشّافعى يسـميه حفص المنفرد، فسأل حفص عبد اللّه بن الحكم و قال: ما تقول فى القرآن؟ فأبى أن يجيبه، ثم سأل يوسف بن عمر فلم يجبه، و كلاهما أشار

1- 1) آداب الشافعى ص 195.

للشـافعی، فسـأل الشّـافعی. فاحتـج علیه الشّافعی، و أقام الحجـة علیه بأن القرآن کلام اللّه غیر مخلوق، و کفّر الشّافعی حفصا. قال الربیع: فلقیت حفصا فی المجلس فیما بعد فقال: أراد الشّافعی قتلی (1).

رأیه فی الرؤیة:

قـال الربیع: کنت یومـا عنـد الشّـافعی، و جـاءه کتـاب من الصـعید یسألونه عن قوله تعالی: کَلاّ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ یَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ . فکتب الشّافعی: لما حجب قوما بالسـخط، دل علی أن قوما یرونه بالرضا. قال الربیع: أو تـدین بـذلک؟ قال: و اللّه لو لم یدن محمّد بن إدریس إنه یری ربه فی المعاد لما عبده فی الدنیا (2). و بهـذا یتضح لنا رأی الشّافعی: أن الرؤیة محققة فی الآخرة، و لو لا ذلک لما عبد اللّه فی الدنیا. و قـد اختلف المسـلمون فی رؤیة اللّه تعالی، فذهب قوم إلی جوازها فی الدنیا و الآخرة. و منعها آخرون فی الدنیا و وقوعها فی الآخرة، کما هو مذهب الشّافعی. و ذهب أهل البیت علیهم السّلام و شیعتهم إلی استحالة الرؤیة فی الدنیا و الآخرة، و عدم إمکانها لأنه تعالی لا تُدْرِکُهُ اَلْأَبصـارُ وَ هُوَ یُـدْرِکُ اَلْأَبصـارَ وَ هُوَ اَللَّطِیفُ اَلْخَبِیرُ لأن الأبصار إنما تتعلّق بما کان فی جهـة أصـلا أو تابعا، کالأجسام. و الهیئات، و علّل ذلـک بأن الباصـرة لا تکون فی حیز الممکنات ما لـم تتصل أشـعة البصـر بالمرئی، و یمتنع اتصال شـیء ما بـذاته جل و علا. و للإمام أبی الحسن الهادی علیه السّلام أسلوب آخر فی تقریر هذا الوجه، یوافق رأی الفلاسفة من أهل هذا العصر. أخرج الکلینی فی باب إبطال الرؤیة، من کتاب التوحید من أصول الکافی، بسنده إلی أحمد بن إسحاق قال: کتبت إلی أبی الحسن

1- 1) آداب الشافعی ص 195.

2- 2) طبقات الشافعیة ج 1 ص 231. [1]

الثالث أسأله عن الرؤية؟ فكتب عليه السّلام: «لا تجوز الرؤية-عقلا-ما لم يكن بين الرائی و المرئی هواء (1)ينفذ البصر، فإذا انقطع الهواء عن الرائی أو المرئی لم تصح الرؤية» . قال سيدنا شرف الدين: إن العقل الذی عرفنا اللّه تعالی به يحكم مستقلا بامتناع رؤية البارى سبحانه، سواء أ كانت الرؤية بصرية، أم قلبية، أم خيالية، أم وهمية، لامتناع لوازمها بحكم العقل. نعم، ندرک بأبصارنا آيات اللّه فی عجائب مخلوقاته إِنَّ فِی خَلْقِ اَلسَّماواتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ اِخْتِلافِ اَللَّيْلِ وَ اَلنَّهارِ لآياتٍ لِأُولِی اَلْأَلْبابِ . و فی كل شیء له آية تدل على أنّه واحد

و نـدرک ببصائرنـا أنه هو اللّه، الـذی لاـ إله إلاّـ هو، عـالم الغيب و الشـهادة، هو الرحمن الرّحيم. و عن الإمام الرضا عليه السّلام أخرجه الكلينی فی أصول الكـافی بسـنده إلى صـفوان بن يحيى قـال: سألنی أبو قرة المحـدث أن أدخله على الإمام أبی الحسن الرضا عليه السّلام فاسـتأذنته فی ذلک، فأذن لی، فأدخلته عليه، فسأله عن الحلال و الحرام حتى بلغ سؤاله إلى التوحيد، فقال أبو قرة: إنا روينا أن اللّه قسم الرؤية و الكلام بين النبيين، فقسم الكلام لموسـى، و لمحمّد الرؤية فقال الإمام عليه السّلام: «فمن المبلغ عن اللّه إلى الثقلين من الإنس و الجن فی أنه لا تدركه الأبصار، و لا يحيطون به علما، و ليس كمثله شـیء؟ أ ليس هو محمّد صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم؟» قال أبو قرة: بلى. قال عليه السّلام: «كيف يجیء رجل إلى الخلق جميعا فيخبرهم: أنه جاء من عند اللّه، و أنه يدعوهم إلى اللّه بأمر اللّه، و يقول لهم عن اللّه: أنه لا تدركه الأبصار، و لا يحيطون به علما، و ليس كمثله شیء؟ ثم يقول لهم: أنا رأيت اللّه بعينی، و أحطت به علما، و هو على صورة البشر. أ ما تسـتحون؟ ! ما قدرت الزنادقة أن ترميه صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم بهذا، أن يكون يأتی من عند اللّه بشیء ثم يأتی بخلافه! . .» قال له أبو قرة: فإنه تعالى يقول: وَ لَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرى .

1- 1) الهواء كنه المعنى الذی يعبر عنه فلاسفة اليوم بالأثير الممتد عندهم من عين الرائی إلى المرئی.

فقال الإمام عليه السّلام: «إن بعد هذه الآية ما يدل على ما رأى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حيث قال تعالى: ما كَذَبَ اَلْفُؤادُ ما رَأى يقول: ما كـذب فؤاد محمّـد ما رأت عيناه، ثم أخبر بما رأى فقال: لَقَدْ رَأى مِنْ آياتِ رَبِّهِ اَلْكُبْرى فآيات اللّه غير اللّه تعالى. و قد قال عزّ من قائل: وَ لا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً فإذا رأته الأبصار فقد أحيط به علما. قال أبو قرة: أ فتكذّب الروايات؟ قال الإمام: «إذا كانت الروايات مخالفة للقرآن كذبتها، و قـد أجمع المسـلمون على أنه لا يحاط به علما، و لا تـدركه الأبصار، و ليس كمثله شـيء» . و دخل رجل من الخوارج على محمّد الباقر عليه السّلام فقال له: أى شـيء تعبـد فقال عليه السّلام: «اللّه» . قال الرجل: رأيته؟ قال: «بلى، لم تره العيون بمشاهدة الأبصار، و لكن رأته القلوب بحقائق الإيمان، لا يعرف بالقياس، و لا يدرک بالحواس، و لا يشـبّه بالناس، موصوف بالآيات، معروف بالدلالات، ذلک اللّه لا إله إلاّ هو» . و لا حاجـة إلى الاسترسال بذكر الشواهد على خطأ هذه الفكرة بما ورد عن أهل البيت عليهم السّلام من تنزيه اللّه عزّ و جلّ عن إدراک البصـر له و تحديـده، فهو لا يحويه مكان و لا يخلو منه مكان. أما ما ورد عن الشّافعى فى هـذا فهو يوافق أغلبية الجمهور، و قد نقلوا عنه غير ذلک، و أنّه لا يرى هـذا الرأى، و اتبع فى نفى الرؤية للّه تعالى أسـتاذه مسـلم بن خالد الزنجى، و إبراهيم الأسـلمى، و قد نقل ذلک الهمدانى فى طبقات المعتزلة. و أن الشّافعى لم يصـرح بأن الرؤية تكون بالباصرة، بل كان يطلق ذلک و يقول: إن اللّه يراه أولياؤه فى الآخرة. و الروايات عنه مضطربة، و لكن أصحابه جعلوا رأيه الصحيح هو ما عليه أغلب بقية المذاهب من الرؤية و الإدراک بالحواس.

رأيه فى الصفات:

عن يونس بن عبد الأعلى المصرى، قال: سمعت أبا عبد اللّه محمّد بن إدريس الشّافعى يقول-و قد سئل عن صفات اللّه و ما ينبغى أن يؤمن به-: للّه تبارک و تعالى أسماء و صفات جاء بها كتابه، و أخبر بها نبيه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أمته، لا يسمع أحدا ممن

خلق اللّه قامت علیه الحجّة: أن القرآن نزل به و صح عنه بقول النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فما روی عنه العدل، فإن خالف ذلک بعد ثبوت الحجة علیه فهو و اللّه کافر، فأما قبل ثبوت الحجة علیه من جهة الخبر فمعذور بالجهل، لأن علم ذلک لا یدرک بالعقل و لا بالرؤیة و الفکر، و نحو ذلک أخبار اللّه سبحانه و تعالی، أتانا أنه سمیع و أن له یدین، بقوله: بَلْ یَداهُ مَبْسُوطَتانِ و أن له یمینا بقوله: وَ اَلسَّماواتُ مَطْوِیّاتٌ بِیَمِینِهِ و أن له وجها، بقوله: کُلُّ شَیْءٍ هالِکٌ إِلاّ وَجْهَهُ و قوله: وَ یَبْقی وَجْهُ رَبِّکَ ذُو اَلْجَلالِ وَ اَلْإِکْرامِ و أن له قدما، بقول النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: (حتی یضع الرب فیها قدمه) یعنی جهنم. و أنه یضحک من عبده المؤمن بقول النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم- للذی قتل فی سبیل اللّه-: أنه لقی اللّه و هو یضحک إلیه (1)و أنّه یهبط کل لیلة إلی سماء الدنیا بخبر رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و أنّه لیس بأعور، بقول النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم-إذ ذکر الدجال-فقال: «إنه أعور، و إن ربکم لیس بأعور، و إن المؤمنین یرون ربهم یوم القیامة بأبصارهم، کما یرون القمر لیلة البدر» و أن له أصبعا، بقول النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «ما من قلب إلاّ هو بین إصبعین من أصابع الرّحمن عزّ و جل» . فإن هذه المعانی التی وصف اللّه بها نفسه. و وصفه بها رسوله. مما لا تدرک حقیقته بالرؤیة و الفکر، فلا یکفر بالجهل بها أحد إلاّ بعد إنهاء الخبر إلیه بها. فإن کان الوارد بذلک خبرا یقوم فی الفهم مقام المشاهدة فی السماع، وجبت الدینونة علی سامعه بحقیقته و الشهادة علیه، کما عاین و سمع من رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم. و لکن یثبت هذه الصفات و ینفی التشبیه، کما نفی ذلک عن نفسه تعالی ذکره، فقال: لَیْسَ کَمِثْلِهِ شَیْءٌ وَ هُوَ اَلسَّمِیعُ اَلْبَصِیرُ .

رأیه فی الإمامة:

کان الشّافعی یری أن الإمامة فی قریش، و لا یشترط البیعة. روی عنه تلمیذه حرملة أنّه قال: کل شیء غلب علی الخلافة بالسیف، و اجتمع علیه الناس فهو خلیفة. فالعبرة عنده فی الخلافة بأمرین: کون المتصدی لها قرشیا، و اجتماع الناس علیه، سواء أ کان الاجتماع سابقا علی إقامته خلیفة، کما فی حال الانتخاب و البیعة، أم لا حقا لتنصیبه نفسه خلیفة، کحال التغلب، و هذا لا یسمی اجتماعا. و لم یشترط الهاشمیة، بل القرشیة کافیة. و کان یری: أن علی بن أبی طالب هو

1- 1) طبقات الحنابلة [1]للقاضی محمّد بن أبی یعلی ج 1 ص 283-284.

الإمام الحق فی عصره، و أن معاویة و أصحابه کانوا الفئة الباغیة، و لذلک اتخذ فی کتاب السیر سنّة علی علیه السّلام فی معاملة البغاة، کما هو مدون و ثابت فی کتاب الأم و غیره من کتب الشّافعیة، لذلک اتهم الشّافعی بأنه رافضی. کما تقدم بیانه. فهو لا یبالی بأن یظهر حب آل محمّد. و إن اعترضت حواجز فی طریق إظهار الحب، کما شاءت السیاسة بأن یرمی محب أهل البیت بکل تهمة، و یکون عرضة للخطر. و قد أعلن الشّافعی ذلک بقوله: إن کان رفضا حب آل محمّد فلیشهد الثقلان أنی رافضی

و کان یذکر علیا بکل إعجاب و تقدیر، و له أشعار فی مدحه تأتی فی محلها. و سئل یوما عن علی علیه السّلام فقال: ما أقول فی رجل أخفت أولیاؤه فضائله خوفا، و أخفت أعداؤه حسدا، و شاع له من هذین ما ملأ الخافقین. و أخذ هذا المعنی السید تاج الدین فقال: لقد کتمت آثار آل محمّد محبو همو خوفا و أعداؤهم بغضا

فشاع لهم بین الفریقین نبذة بها ملأ اللّه السماوات و الأرضا

و حکی البیهقی فی مناقب الشّافعی: أنه قیل إن أناسا لا یصبرون علی سماع منقبة لأهل البیت، فإذا أراد أحد أن یذکر شیئا من ذلک قالوا تجاوزوا عن هذا فهو رافضی، فأنشأ الشّافعی یقول: إذا فی مجلس ذکروا علیا و سبطیه و فاطمة الزکیه

یقال تجاوزوا یا قوم هذا فهذا من حدیث الرافضیه

برئت إلی المهیمن من أناس یرون الرفض حب الفاطمیة

و سیأتی فی باب اتهامه بالتشیع زیادة بیان لهذا. هذا موجز البیان فی رأیه فی الإمامة. أما رأیه فی الخلافة و الخلفاء، فکان یقول: الخلفاء خمسة: أبو بکر، و عمر، و عثمان، و علی، و عمر بن عبد العزیز، أما الباقون فی نظره فهم ملوک.

رأیه فی علم الکلام:

المعروف عن الشّافعی أنه کان یبغض علم الکلام و ینهی عنه، حتی ذهب إلی عدم جعل کتب الکلام من کتب العلم، کما حدّث الربیع: أنّ الشّافعی کان یقول: لو أن رجلا أوصی بکتبه من العلم و فیها کتب الکلام؛ لم تدخل کتب الکلام فی تلک الوصیة.

و كـان يرى لزوم تعزير أهـل الكلاـم، و ضـربهم و إهانتهم، و أن يطاف بهم فى العشائر. و اشـتهر عنه أنّه كان يقول: إيّاكم و الكلام. و كان يقول: و لئن يبتلى اللّه المرء بكل ما نهى عنه-ما عـدا الشـرک به-خير من أن ينظر فى الكلام. و هـذا التشديد من الشّافعى يدل على بغضـه لعلم الكلاـم، و عـدم الرضا بتعلمه و النظر فيه. و هـذا غريب جـدا فإن العصـر الـذى نشأ فيه الشّافعى قـد نضـج فيه الكلام، و اتسع نشاط المتكلمين، و أثاروا فى المجتمع مسائل كثيرة، و قـد كثر النقاش و الجـدل، و كان لا بد لكل عالم أن يلتمس الدلائل و البراهين الفلسـفية، لتقويـة جانبه و الرد على مخالفيه. و كان لا بـد من الانهزام أمام ذلک التيار. إذا لم يكن هناک اسـتعداد و قابليـة للمقابلة و الرد عند خوض تلک المعارک التى دارت رحاها فى عصـره. و قـد علّل الرازى نهى الشّافعى عن علم الكلام و بغضه: بأن المعتزلـة قد حرضوا الخلفاء على أذى العلمـاء، و قـد كـانوا هم القوامين على هـذا العلم، و أن الفتن العظيمـة وقعت فى ذلـک الزمان بسـبب خوض الناس فى مسألـة خلق القرآن، و أهل البـدع اسـتعانوا بالسـلطان و قهروا أهل الحق، و لم يلتفتوا إلى دلائل المحقين، و تلک الحكايات و الواقعات مشـهورة، فلما عرف الشّافعى أن البحث عن هـذا العلم فى ذلک الزمان ليس لطلب الحق، و ليس للّه و فى اللّه، بل لأجل الـدنيا و السـلطنة، فلا جرم أنه تركه و أعرض عنه و حرّم من اشـتغل به. و فى الواقع أن التعليل بعيد عن الواقع، لأن تلک الأمور التى أشار إليها كانت بعد موت الشّافعى، و أن أكثر مـا ذكره يحتـاج إلى إثبـات. و على أى حـال: فهـل كـان الشّافعى مع نهيه عن علم الكلام على جهل به؟ مع أنا نرى له ما يـدل أنه يتعاطاه و يناظر فيه!!! و بهذا نكتفى عن بيان آرائه، و سنعود إن شاء اللّه تعالى.

تنبيه:

لم أتعرض لذكر حديث (عالم قريش) الذى استندت إليه الشافعية فى البشارة بالشّافعى، لأنى كنت مطمئنا من عدم صحة الاستدلال به-إن قلنا بصحته-إذ لا مجال للمغالطة و تضييع الوقت فى ذلک، و لكنى رأيت الكثير من علماء الشّافعية قد

أخـذ هـذا الحديث بعين الاعتبار، و رتب عليه نتائج تلزم بوجوب اتباع الشّافعى. يقول بعضـهم: فى هذا الحديث (أى حديث عالم قريش) علامـة بينة، إذا تأمله الناظر المميز علم أن المراد به رجل من قريش ظهر علمه، و انتشـر فى البلاد، و كتب كما تكتب المصاحف، و درسـه المشايـخ و الشـبان فى مجالسـهم، و أجروا أقاويله فى مجالس الحكام و القراء، و أهل الآثار و غيرهم. و هـذه صـفة لا نعلمها فى أحد غير الشّافعى، فهو عالم قريش الأفضل (1). هكـذا نظر هـذا الإنسان لهذا الحديث، فتلقفها من جاء بعده، فإنهم ينقلون هذه العبارة بالنص، و ليس كل إنسان مصيبا فى رأيه، فالنظر يصيب و يخطئ. و بدون شک أن هذا كان متأثرا بالبيئة التى يعيش فيها و المجتمع الذى يندمج فيه. و لا أريـد أن أتحـدث عن جميع فقرات هـذه الكلمـة التى أصـبحت كمنهـج متبع، و لكنى أريد أن اتساءل: هل كانت قريش على درجة من الانحطـاط و الخمول و الجهـل ليكون الشّافعى حامـل لواء نهضـتها، و لسانها الناطق، و عالمها الأوحـد؟ و هل بلغ الشّافعى بعلمه تلک الدرجـة التى لم ينالوهـا، و عرف من غوامض العلوم ما لم يعرفوه؟ و هل كان انتشار علمه عن نفسه لنفسه، أو بمشـجع من عوامل لو تهيأت لمن هو دونه لكان علمه منتشـرا مقبولا؟ أما الجواب عن هـذه الأسـئلة فيسـير لا عناء فى الحصول عليه، لأن التاريـخ طافـح بتكذيب تلک الادعاءات الكاذبة. و حاشا قريشا-و هم أعلم الناس و مفخرة العرب-أن تمر عليها قرون لا تعرف بالعلم، و لم ينشـر لها شـىء، إلاّ بعد أن بعث الشّافعى، فبعثها من رقـدتها! ! و نحن إذا أردنا أن نتصـدّى للرد و نتعرض للنقـد نخرج عن موضوع البحث. و إن هذا الفهم الذى فهمه ذلک الإنسان و تابعه مقلّدوه. لم يكن فهم عقل و تفكير، بل هو فهم تلقين من ناحيـة معيّنـة، و الحقيقـة شـىء و العاطفة شـىء آخر، لأن العاطفة طاغية تسيطر على العقل فتطفئ شعلته، و تطغى على الواقع فتضيعه، و تحكم

1- 1) تهذيب الأسماء و اللغات ج 1 ص 52. [1]

على الفكر بـالجمود، و لكن من أين يسـتطيع الوصول إلى الواقع من كبّلته قيود التقليـد، و أثقلته أوزار التعصّب الممقوت؟ ! ! أمـا الحـديث الذى أشـرنا إليه فهو: عن أبى هريرة عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: (اللهم أهد قريشا، فإن عالمها يملأ طباق الأرض علما) . و مع التسـليم بصـحة هذا الحديث، فإن انطباقه على الشافعى بعيد جدا، لوجود الكثير من علماء قريش ممن له أهلية الاتصاف بذلك، و لكن أكثر علماء الحـديث قـد ذهبوا إلى وضع هذا الحديث، و قد نص على ذلك ابن أبى الحوت فى (أسـنى المطالب) و الأسـفرائينى فى سـفر السعادة و غيرهما.

عصر الإمام الشّافعى و أحداثه:

اشارة

يمتد عصـر الشّافعى من آخر خلافة المنصور المتوفى سنة 158 ه إلى أول خلافة المأمون، أى من سـنة 150 ه إلى سنة 204 ه و على هذا فقد أدرک الشافعى ثمانى سـنين من خلافة المنصور، و خلافة المهدى المتوفى سـنة 165 ه و خلافة الهادى المتوفى سـنة 170 ه و خلافة الرشيد المتوفى سنة 193 ه و الأمين المقتول سنة 198 ه. و سـتة سنين من خلافة المأمون. و نحن إذا أردنا أن نلحظ أدوار الدولة العباسية، نجـد هـذه الفترة من أزهر العصور و أهمّهـا، و إن كانت لا تخلو من حوادث هامّـة، تهـدد كيان الـدول و تنغص عيش أربابها، و لكن تلک الحوادث كانت هينة بالنسـبة لقوة الدولة، عند ما اسـتقر أمرها و تمكن سـلطانها، و ازدهرت حياتها فى امتداد نفوذها، و اتساع دائرتها. فهى تمتـد من الأندلس إلى الممالک التى تصاقب الصـين شـرقا. و كانت المملكة الإسـلامية واسـعة الأطراف، و قد أخذت المدن الإسـلامية حضارتها فى العلم، و التجارة، و الصناعة، و نشطت الحركة العلمية، و اقتبس العلماء من فلسفة اليونان. كما نشطت حركة الترجمة، و انتشر علم الكلام. و قـد ساهم الخلفاء بتشـجيع تلک الحركـة. إلى آخر ما هنالک من عوامل امتياز ذلک العصـر، من مظاهر فكرية و اجتماعية و اقتصادية، و فى ذلک العصـر بلغت الدولة العباسية أوج عظمتها، عند ما استطاعت أن ترغم خصومها على عدم المعارضة، بوسائل البطش و الإرهاب، و استعمال أنواع ألوان التعذيب، و كانت لا تعف عن ارتكاب أشنع وسائل العنف، تحقيقا لسيادتها.

و يكفى أن نستدل على ذلک بما ارتكبوه فى معاملة العلويين و أنصارهم، و من كانوا يخشون معارضته لسيرتهم الملتوية، و أعمالهم الشاذة، عند ما كبّلوا الأمة بقيود جديدة من العبودية، و سلبوا حرية المجتمع، و تلاعبوا بالأموال، و جعلوها وقفا على أنفسهم، و لا ينال منها إلاّ المتقرّبون منهم و عامة الناس منها محرومون، و تفننوا بذاک الثراء الطائل فى وجوه حياتهم، فى الشراب و الطعام، و غير ذلک من وسائل العيش. فكانت حياتهم مضرب المثل فى الرغد و السرف و البذخ.

بذخ الدولة العباسية:

تدفقت الأموال على الدولة العباسية من جميع الأقطار، و امتلأت خزائنها بما يجبيه العمال، بمختلف الطرق و شتى الوسائل، حتى أنّهم كانوا يستولون على أموال الناس و أملاكهم بدون حق، لأنهم لا يحاسبون على ذلک من قبل الخليفة. كما حدّث المسعودى: عن الرجل الهمدانى الذى أراد والى همدان أن يغتصب ضيعته، التى تساوى ألف ألف درهما، فامتنع. فكبّله بالحديد، و حمله إلى المنصور، فأودع فى السجن أربعة أعوام لا يسأل عنه، و لا ينظر فى أمره (1). كما أن المنصور نفسه كان يأخذ أموال العمال الذين يعزلهم و يجعلها فى بيت خاص، و أوصى بتسليمها إليهم بعد موته، و لا نعرف أسباب المنع لها فى حياته! ! و قد جاء فى وصيته لولده المهدى: و قد جمعت لک من الأموال ما أن انكسر عليک الخراج عشر سنين كفاک لأرزاق الجند و النفقات، و الذرية و مصلحة البعوث، فاحتفظ بها، فإنک لا تزال عزيزا ما دام بيت مالک عامرا، و ما أظنک تفعل (2). و لا نعلم مقدار هذه الثروة الطائلة، و الوفر الهائل الذى كنزه المنصور من أموال الأمة الإسلامية، و أبناؤها يعانون الحرمان، و يمنعون من حقهم فى بيت مال المسلمين. و لما ولى المهدى (3)و كان عكس أبيه فى إنفاق الأموال و الإسراف، فإن

1- 1) مروج الذهب ج 3 ص 115. [1]

2- 2) الكامل لابن الأثير ج 6 ص 6. [2]

3- 3) المهدى هو محمّد بن عبد اللّه بن محمّد بن على بن عبد اللّه بن العباس، المتوفى سنة 169 ه و كان سبب موته أنه خرج إلى الصيد فتبع وحشا، فدخل الوحش خربة و تبعته الكلاب و تبعها المهدى، فدق ظهره فى باب الخربة لشدة عدوه فمات لساعته، و قيل أنه أكل طعاما مسموما، و كانت مدة خلافته عشرة سنين و أشهر.

المنصور كان أبخلهم، و فرق المهدى من تلك الأموال التى جمعها المنصور فى خزينة الدولة مائة ألف ألف، و ستين ألف درهما، و أعطى شاعرا-مدحه-خمسين ألف دينارا، و أعطى لأعرابى-سقاه لبنا-خمسمائة ألف (1). و دخل عليه مروان بن حفص، فأنشده قصيدة يتعرّض بها لآل على عليه السّلام منها: هل تطمعون من السماء نجومها بأكفكم أو تسترون هلالها

أو تدفعون مقالة عن ربكم جبريل بلغها النبى فقالها

شهدت من الأنفال آخر آية بتراثهم فأردتموا إبطالها

فلما سمعها المهدى تزاحف من صدر مصلاه، و أخذه الفرح، ثم قال له: كم هى؟ قال: مائة بيت، فأمر له بمائة ألف درهم (2). و اندفع الشعراء بدافع الطمع يمدحون العباسيين، و يضعون من العلويين طلبا للمادة و حبا للصلة، طالما كان صرف الأموال بغير حساب!! و مضى عهد المهدى و الهادى (3)و الأموال تتضخم، و جاء دور الرشيد فكان عهده عهد رخاء وسعة إلى أبعد حد، و بالغ الرشيد فى البذخ و الترف، و تفنن فى حياته حتى بلغ مبلغ الإسراف، و بلغت مظاهر الحياة عنده إلى غايتها، فكان فى داره من الجوارى و الخصايا و خدمهن، و خدم زوجته و أخواته، أربعة آلاف جارية. و حضرن عنده يوما فغنته المطربات منهن، فطرب جدا و أمر بمال فنثر عليهن، و كان مبلغ ما حصل لكل واحدة منهن ثلاثة آلاف درهم (4). و غنّاه مسكين المدنى فأطربه، فأمر له بأربعة آلاف دينار (5)و أضحكه ابن مريم فأعطاه ألف دينار. و كانت زوجته زبيدة لا تستطيع أن تقوم لكثرة ما عليها من

1- 1) شذرات الذهب ج 1 ص 267. [1]

2- 2) الخطيب ج 13 ص 144.

3- 3) الهادى هو موسى بن محمّد المهدى بن المنصور أبو محمّد الهادى، المتوفى سنة 170 ه كانت مدة خلافته سنة، و يقال فى سبب موته: إن أمه الخيزران هى التى تولت قتله بوسادة وضعتها عليه، لأنه أراد قتل أخيه الرشيد و قيل غير ذلك. و كان موسى قاسى القلب جبارا ظالما.

4- 4) تاريخ ابن كثير ج 10 ص 220.

5- 5) مروج الذهب ج 3 ص 279. [2]

المجوهرات و الحلل، و قد سلكت فی صرف الأموال طريقة الرشيد، فكانت تستهين بالأموال، و لا تحسب لها أی حساب. خرج الرشيد منها يوما يضحک، فسئل عن ذلک فقال: دخلت اليوم علی هذه المرأة (يعنی زبيدة) فأقلت عندها فما استيقظت إلاّ علی صوت ذهب يصب، و قالوا هذه ثلاثمائة ألف دينار قدمت من مصر، فقالت: زبيدة هبها لی يا ابن عم. فقلت: هی لک، فما خرجت من عندها حتی عربدت علیّ و قالت: أی خير رأيته منک (1). و أهدت لأبی يوسف القاضی لأجل فتوی أفتاها توافق مرادها فكان فيها: حق فضة فيه حقان، فی كل حق لون من الطيب، و جام ذهب فيه دراهم، و جام فضة فيه دنانير، و غلمان و تخوت من ثياب و حمار و بغل (2). و اشتری الرشيد من مسلم بن عبد اللّه العراقی درة بسبعين ألف دينار، و اشتری فص ياقوت أحمر بثمانين ألف دينار و كان وزنه مثقالا و نصفا، و كانت بيده سبحة فيها مائة حبة كل حبة اشتريت بمائة ألف دينار. و هكذا كانت الأموال تنفق فی البذخ و الإسراف، و توزع بين طبقة خاصة من الناس، و يتنعم بها أفراد قلائل. و قد استغل الولاة هذه الفرصة، فجمعوا الأموال الطائلة، و ادخروا العروض و بنوا الأملاح، و قد ترک سليمان بن جعفر العباسی ستين ألف ألف دينار ما عدا المتاع و الدواب (3)و هكذا غيره من الولاة و الأمراء و من سار فی ركاب الدولة من سائر الناس. علی حين أنّ هناک آلافا من المسلمين قد تلاطمت بهم أمواج العسرة، و لعبت بهم عوامل الفقر المدقع، لأن ثروة الأمة و أموال المسلمين أصبحت تحت تصرف الطبقة الحاكمة من نساء و رجال، يتصرّفون بها فی لذاتهم بغير مانع و لا رادع، و كانوا يتفننون فی الملبس و المأكل، فيجلبون لحوم الطيور و لو بعد مكانها، فتأتيهم علی البريد و ينفقون علی ذلک الأموال الطائلة، ليتنعموا فی المأكل (4)كما قد جلبت لهم الفواكه من أقصی البلدان. و اتخذوا الأسرّة الذهبية المرصعة بالجوهر، و الحصر المنسوجة بالذهب المكلّلة بالدر و الياقوت (5).

1- 1) البداية و النهاية ج 10 ص 219. [1]

2- 2) مروج الذهب ج 3 ص 260. [2]

3- 3) تاريخ ابن خلدون ج 3 ص 463. [3]

4- 4) ثمار القلوب ج 1 ص 428.

5- 5) ابن خلدون ج 5 ص 106. [4]

و كان شـغف نسائهم بالتفنن فى ألوان الزينـة يبعث على العجب و الاسـتغراب، كما و أنهن اتخـذن من الأملاك ما كانت وارداته أكثر من ألف ألف و سـتمائة ألف دينـار. إلى جـانب ذلـک اتخـاذهم مجالس الشـرب و الغناء، و إغـداقهم فى العطاء على المغنين، حتى أن بعض المغنين الـذى كان يغنى لسـيدة، أورث ابنا له أربعين ألف دينارا. و قد جعل الرشـيد للمغنين مراتب و طبقات. و كان الأمين لا ينقطع عن الشـراب. و وجه إلى جميع البلـدان فى طلب المغنين، و أجرى لهم الأـرزاق. و غناه أحـد المغنين فأعطاه أربعين ألف دينار. كما و قـد زاد نشاط الجوارى لشـغف الخلفاء بهنّ، فكان لهن نفوذ فى المملكـة و سـلطة على الأمر. و كانت لهارون الرشـيد جارية تسـمى (هيلانة) لها منزلة عنده. فلما ماتت رثاها بأبيات من الشعر، كما رثاها الشعراء تبعا لرغبته فأجاز بعضهم أربعين ألف دينار (1). هذا فى الوقت الذى نجد رجـال الأمـة و صـلحاءها و الأحرار من أبنائها يتجرعون غصـص الحاجـة، و كان نصـيب أكثرهم الخوف و التشـريد، و ظلمـة السـجون و التعـذيب و القتل. كما نجـد ألوان العـذاب تصبّ على رءوس أهل الخراج من قبل عمال الدولـة، و يعاملونهم أسوأ معاملـة و أقساها. و لا يسعنا المضى فى الموضوع بأكثر من هذا. و الغرض الذى سقنا لأجله هذه الأمور، هو إعطاء صورة عن بذخ ذلک العصر، و الإسراف الذى بلغ إلى أبعد حد و لم يقتصر ذلک على عصر الرشيد، بل اندفع أحفاده و أولاده إلى التبذير بصورة ربما تكون أوسع و أكبر. فإنا نجد الأمين قد أسـرف إلى أبعد حد. و كان المعتصم (2)لا يقل درجـة عنه. فقـد ترک ثروة طائلة كان منها ثمانية آلاف ألف دينارا من الذهب، و ثمانية عشر ألف ألف درهما، و من الخيل ثمانين ألف فرسا، و من الجمال و البغال مثل ذلک، و من

1- 1) تاريخ ابن كثير ج 10 ص 165.

2- 2) هو أبو إسحاق محمّد بن المعتصم بن هارون الرشيد، ثامن خلفائهم، و كان أميا لا يحسن القراءة، أكثر من استخدام الترک، و كان له من المماليک منهم عشرون ألفا، توفى فى ربيع الأول سنة 227 ه.

المماليک ثمانية آلاف، و مثلهم من الجوارى (1)و كذلک المتوكل، و الواثق، و قد كان المتوكل ينفق الأموال خاصة فى مجالس الشرب، و بناء القصور، و اتخاذ الجوارى. و إنه لمن المؤسف حقا عدم إنكار العلماء الذين نالوا رضا أولئک الملوک و سعدوا بقربهم، و كيف ينتظر منهم الإنكار و قد استخدموهم لمصالحهم الخاصة و أقاموا منهم ستارا تملى من ورائه إرادتهم، و استعانوا بهم فى فسح المجال لمؤاخذة الخصوم بالاتهام و الانتقاص، و لو أنهم رفعوا أصواتهم بالإنكار و انضموا لجانب المعارضين لهان الخطب و اعتدل الأمر، سواء من ناحية أحوال العاملين فى العلم و الذين يتبوؤن مواقع الإفتاء و الإرشاد، أو من ناحية الحكم، لأن حضور العالم الذى يعرف ما عليه و هو عند الحاكم يجعل الحاكم يراعى و لو قليلا مبادئ العدل و وصايا الإسلام فى الرعية، و لقد ضمت مسانيد و صحاح رؤساء المذاهب أحاديث مشهورة جمعت فى هذه الفترة، و لم يكن الأمر غريبا على العلم و لا على سيرة العلماء فى التصدى للجائرين، فخير الشهداء من قال كلمة حق عند سلطان جائر. لذلک نرى أن تأريخ أهل البيت يثير فى نفوس الحكام مشاعر القلق، و سير رجالهم المعاصرين تبعث فيهم الخوف. أضف إلى أن نصيب من انتمى إليهم من العلماء يكون الضيق و السجن، و قد أشرنا إلى وجود العالم عند الحاكم كما هو واقع الحال. أما الإسلام فيدعو إلى احترام العلم و إجلال العلماء من قبل الحكام و العامة، و كان النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يشير إلى هذا الأمر الذى سيحدث لمعالجته، و أن خير الحكام من كان على أبواب العلماء، و شر العلماء من كان على أبواب الحكام. و صفوة القول أن الدولة العباسية قد سارت على طريقة لا تتفق مع نظام الإسلام، مع أنّهم قطعوا على أنفسهم عهودا تبعث بمؤداها على الارتياح بتحقيق مطاليب الأمّة، و جعل نفوذهم السياسى يتمشى مع تعاليم الإسلام جنبا إلى جنب، و لكن تلک العهود ذهبت مع الريح، و كانت أقوالا فارغة و ادعاءات جوفاء. و الذى نود الإشارة إليه هو أن ذاک الوفر و تلک الثروة الطائلة كان أكثره يصرف

1- 1) انظر شذرات الذهب ج 2 ص 63. و [1]مرآة الجنان ج 3 ص 94. [2]

فی تشـجیع معارضـة العلویین، و الوقوف أمـام نفوذهم، فکانوا یجیزون الشـعراء الـذین ینالون من العلویین أموالا طائلـة. هـذا بشار بن برد المعروف بالزندقة و الإلحاد، یتقدم إلی المهدی بأبیات منها: أنّی یکون و لیس ذاک بکائن لبنی البنات وراثة الأعمام

فیجیزه بسبعین ألف درهم. و یقف آخر و هو مروان بن أبی الجنوب، فینشد هذه الأبیات بین یدی الخلیفة التی جاء فیها: لکمو تراث محمّد و بعدلکم تشقی الظلامة

إلی أن یقول: ما للذین تنحلوا میراثکم إلاّ الندامة

فیخلع علیه أربع خلع، و ینثر ثلاثـة آلاف دینار و یأمر بالتقاطها، و یعطی عشـرة آلاف درهم، و یعقـد له علی ولایة البحرین و الیمامة (1)و کثیر من أمثال هـذا الشاعر من الـذین دفعهم الطمع، و ساقهم الشـیطان حبا فی الصـلة و رغبة فی المال، و إرضاء للسـلطة و إن غضب اللّه علیهم.

اضطهاد الدولة العباسیة للعلویین:

أما العلویون فکانوا یلاقون أنواع العذاب، و یتجرّعون غصـص الفاقة، و یتحمّلون کل ذلک اعتزازا بأنفسهم و حفظا لکرامتهم، و لم یخضعوا یوما لینالوا من ذلک النعیم أو یهنأوا بذلک العیش. فکان نصیب زعمائهم القتل و السجن و التشرید، و کانوا بین آونة و أخری عرضة لصدور الأمر من عاصـمة الملک بتسفیرهم من الأطراف و إلیها، لیکونوا تحت الرقابة و ینالوا العقاب هناک، و یصدر مرسوم من بغداد إلی مصر بأن لا یقبل علوی ضیعة، و لا یرکب فرسا، و لا یسافر من الفسطاط أو إلی طرف من أطرافها، و أن یمنعوا من اتخاذ العبید إلاّ العبد الواحد، و إن کانت بین علوی و بین أحد من الناس خصومة، فلا یقبل قول العلوی، و یقبل قول خصمه بدون بیّنة (2).

1- 1) الکامل ج 7 ص 38. [1]

2- 2) الولاة و القضاة للکندی ص 198. [2]

و أمر الرشيد عامله على المدينة بأن يضمن العلويون بعضهم بعضا، و كانوا يعرضون على السلطات كل يوم فمن غاب منهم عوقب، و كانت هذه الأوامر تصدر من المهدى و الهادى قبله. و ما زال آل أبى طالب يكفل بعضهم بعضا و يعرضون، فغاب أحدهم عن العرض، فطولب به الحسين صاحب (فخ) و يحيى بن عبد اللّه كافليه، و أغلظ الوالى لهما فحلف يحيى أنه يأتيه به من ليلته، أو يدق عليه الباب يؤذنه به، و ذلك إشارة للخروج و إعلان الثورة التى كان من المقرر القيام بها أيام الموسم، و لكن سوء معاملة الوالى أعجلهم على الخروج فى تلك الليلة، و اقتحموا المسجد و أعلنوا الثورة، و بايع الناس الحسين المعروف بصاحب فخ و لقبوه بالمرتضى.

الحسين صاحب فخ:

هو الحسين بن على بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب عليهم السّلام (1). كانت نهضته سنة 169 ه، و كان الحسين من رجال بنى هاشم و ساداتهم، و كان ممن روى الحديث عن الإمام الصّادق عليه السّلام و له منزلة علمية، و كانت أسباب نهضته: أنه لقى عنتا من والى المدينة، و هو عبد العزيز بن عبد اللّه من ذرية عمر بن الخطاب، و كان العمرى يسىء إلى الطالبين، و أفرط فى التحامل عليهم، و طالبهم بالعرض فى كل يوم، فكانوا يعرضون فى المقصورة، و أخذ كل واحد منهم بكفالة قرينه و نسيبه. و اشتد العمرى فى أمر العرض، و ولّى على الطالبيين رجلا- يعرف بعيسى الحائك، فحبسهم فى المقصورة. إلى آخر ما كان يعاملهم به ذلك الرجل. فثار آل أبى طالب، و اجتمع إليهم ناس كثيرون. فتحصن منهم عاملها، فكسروا السجون و أخرجوا من كان بها، و بويع الحسين بن على بن الحسن عليه السّلام و عظم شأنه، و بقى الحسين واحدا و عشرين يوما فى المدينة، و ارتحل إلى مكة فأقام بها إلى زمن الحج، فجهز إليه الهادى جيشا فالتقوا بموضع يقال له (فخ) بين مكة و المدينة، فقتل الحسين و معه جماعة من العلويين (2)و حمل رأس الحسين إلى القائد العباسى،

1- 1) تاريخ هذا الحادث فى مقاتل الطالبيين ص 288-308. و [1]الفخرى ص 172. و [2]الطبرى و ابن كثير فى حوادث سنة 169 ه.

2- 2) الآداب السلطانية 172. و [3]تاريخ ابن كثير ج 1 ص 157. و الكامل ج 6 ص 26. [4]

حمله رجل خراسانی و هو ینادی بالبشارة، حتی ألقی الرأس بین یـدیه، و هو مضـروب علی الجبهة و القفی، فجمعت رءوس القتلی فکانت مائة و نیفا (1)و أفلت إدریس بن عبد اللّه، فأتی مصـر و علی بریدها أفلح مولی صالح بن منصور، فحمله إلی المغرب فبایعه الناس و أسّس هناک دولة (2). حدث أبو القرناء قال: أرسـلنی موسی بن عیسی (قائد الجیش) فقال: اذهب إلی عسکر الحسین حتی تراه و تخبرنی بکل ما رأیت. فذهبت فدرت، فما رأیت خللا و لا فللا، و لا رأیت إلاّ مصـلیا أو مبتهلا أو ناظرا فی مصـحف أو معدا لسلاح، قال فجئت فقلت: ما أظن القوم إلاّ منصورین. فقال: و کیف؟ قال: فأخبرته. فضـرب یـدا علی ید، و بکی حتی ظننت أنه سینصـرف، ثم قال: هم و اللّه أکرم خلق اللّه و أحق بما فی أیدینا منا. کان هذا الحادث من أهم الحوادث التی شغلت بال الدولة، و أقضّت مضاجع ذوی الأمر، لأنها کانت فی أهم مرکز إسـلامی و هو الحجاز. لذلک أسرع الهادی فی مقاومة تلک الحرکة خوفا من اتساعها فی البلاد الإسلامیة. و تتابعت ثورات العلویین غضـبا للحق، و من أهمها-أیضا-ثورة یحیی بن عبد اللّه بن الحسن بن الحسن بن علی بن أبی طالب فی الدیلم، و قد قویت شوکته، فاحتال الرشـید علیه بإعطائه الأمان، و نقضه بعد ذلک، فسـجنه و ضـیق علیه إلی أن مات فی السجن، و وجد جسده معلقا قد سمّرت یداه. و مضی العباسـیون فی سـفک دماء العلویین، و شرّدوهم فی البلاد بدون رحمة و لا وازع دینی. و علی أی حال فقد کان مجتمع ذلک العصر یموج بعناصـر مختلفـة، و کانت بغداد هی موطن الحکم و عاصـمة المملکة، و حاضـرة العالم الإسـلامی، و قد قصدها کثیر من علماء الیونان و الفرس و الهنود، و نقلت کتب الفلسـفة إلی العربیة. و ظهر علم الکلام و نضج، فکثرت حلقات الجدل و الخصومات، و ظهرت آراء شاذة، و عقائد فاسدة أثرت علی عقول من لا تقوی نفوسـهم علی هضـمها و احتمالها، فکونت هناک فوضـی فکریة و اضـطرابا و حیرة. و نشـطت هنالک حرکة المتداخلین فی الإسلام، لبثّ

1- 1) تاریخ ابن خلدون ج 3 ص 457. [1]

2- 2) نفس المصدر. [2]

تلک الآراء التی یأملون من ورائها القضاة علی العقیدة الإسلامیة، أو إثارة فتن بین المجتمع الإسلامی علی الأقل. و قد نبغ رجال من علماء المسلمین فی علم الکلام، و عرفوا بقوة المناظرة و التفوق فی الحجّة، و عقدت المجالس و الحلقات للمناظرة دفاعا عن المبادئ الصحیحة و العقائد الإسلامیة، و قابلوا تلک النزعات التی نشرت لواء الشک فی عقائد ذلک المجتمع، و کان النصر لمن قرّبهم الخلفاء و أدنوا مجالسهم و فتحوا لهم باب قصورهم، أما الذین لم یکونوا کذلک فترد أقوالهم و لا یصغی لما یدلون به من الحجاج، و ما یقیمونه من الأدلّة القویة ذودا عن الإسلام و ذبّا عن حیاضه. و أستطیع أن أؤکد أن تلک الحرکات الفکریة کانت لها صلة وثیقة بالسیاسة، و هی التی تدیر کفتها لتلعب دورها من وراء الستار. و کانت هذه الناحیة و ذلک التطور فی الآراء و العقائد من أخطر العوامل التی نجم من ورائها التفکک فی المجتمع، و تکوین جماعات تختلف فی الآراء، و کلّ یذهب إلی أن الحق فی جانبه دون غیره.

الزندقة فی عرف العباسیین:

و من المشاکل ذات الخطورة فی ذلک العصر، مشکلة ظهور الزنادقة و انتشارهم. و أهم من ذلک هو أن تشخیص الزندیق بطابعه الخاص، الذی یکشف عن شخصیته، لم یکن واضحا عند ما أصبح انطباق هذه اللفظة علی معان مختلفة، لأن الاتهام بالزندقة کان لأسباب سیاسیة، عندها اتخذها الخلفاء وسیلة للقضاء علی خصومهم، بل کان هناک من الوزراء من یتخذون من الاتهام بالزندقة سبیلا للکید و الوقیعة بنظرائهم الذین یحقدون علیهم. لذلک أصبح لفظ الزندیق لفظا مشترکا غامضا، فأطلق علی معان مختلفة بعد أن کان یطلق علی من یؤمن بالمانویة و یثبت أصلین أزلیین للعالم: هما النور، و الظلمة. و هذا المعنی هو المطلوب أولا و بالذات، ثم اتسع المعنی حتی أطلق علی کل صاحب بدعة و کل ملحد، بل انتهی به الأمر أخیرا إلی أن یطلق علی من یکون مذهبه مخالفا لمذهب أهل السنة، أو حتی من کان یحیی حیاة المجون!!!. کان شریک بن عبد اللّه القاضی لا یری الصلاة خلف المهدی، فأحضره

و تكلم معه، فقال له المهدى فى جملة كلامه: يا ابن الزانية! فقال شريک: مه مه يا أمير المؤمنين، فلقد كانت صوّامة قوّامة. فقال له المهدى: يا زنديق لأقتلنک. فضحک شريک و قال: يا أمير المؤمنين، إن للزنادقة علامات يعرفون بها: شربهم القهوات و اتخاذهم القينات. فأطرق المهدى (1). فنرى أن المهدى كان يطلق كلمة زنديق على من لم يعترف بخلافته أو عدالته، و ما أكثر الذين يذهبون لذلک من رجال الأمة و علمائها، كما أن شريكا القاضى أطلق لفظ الزندقة على من كان يحيى حياة المجون، و إن من أوضح الأمور انطباق ذلک على المهدى نفسه، فهو الشخص الوحيد الذى يمثّل دور المجون و الاستهتار، فأطلق عليه شريک لفظ الزندقة بالتلميح. و كذلک أطلق لفظ الزندقة على من يناقض أحاديث الصحابة أو يردّها لعدم صحتها (2)و كذلک أطلق لفظ الزندقة على المفكّرين الذين يقفون أمام الحوادث التاريخية موقف تثبّت، لاستجلاء الواقع و معرفة الحقيقة. فالأمر الذى يتعلّق بالبحث حول بعض الصحابة و ما صدر منهم قد أصبح محظورا، فلا يمكن إلاّ التسليم بصحة ما صدر منهم-و إن خالف الشرع-لأن البحث عن ذلک أمر يستوجب الاتهام بالزندقة، و ليس وراء ذلک إلاّ السيف. حتى أصبح ذلک من القواعد المقرّرة المعمول بها طبقا لإرادة الدولة، و تلک القاعدة هى: إذا رأيت الرجل ينتقص أحدا من أصحاب محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فاعلم أنّه زنديق (3). يقول الدكتور أحمد أمين: (إن الاضطهاد و الرّمى بالزندقة عنوان الشخصية. فالرجل إن كان ضعيف الهمّة، فائل الرأى، أو ذا رأى و لكنه ملق، يكلم كل إنسان بما يحب فلم يضطهد؛ و إذا كان يسير فى العلم حسب رأى الأغلبية، و يرى من النظريات و القواعد و التعاليم ما يراه الناس فى عصره فلم يضطهد. إنما يضطهد القوى فى الرأى، لا يتنزل عنه لسلطان أو أمير، المستقل الفكر، يؤديه فكره إلى نتائج قد يخالف

1- 1) ابن كثير ج 10 ص 153. [1]

2- 2) تاريخ بغداد ج 14 ص 7.

3- 3) الكفاية للخطيب البغدادى ص 49.

فيها أهل عصره جميعا، فلا يعبأ بمخالفتهم و لا يأبه لنقدهم. . . إذ ذاک يکون الاضطهاد و تکون الحرب العوان بين الآراء، فيقف ذو الشخصية و أتباعه القليلون فی جانب، و ذوو الجاه و السلطان أحيانا فی جانب آخر، و يکون النضال، و تکون الدسائس و المؤامرات، و ما شئت من صنوف القتال؟) . فلهذه الأسباب کان الاتهام علی الزندقة لأقل شبهة، و قد سجل التاريخ کثيرا من تلک الحوادث التی کان مبعثها الحقد و الانتقام و التشفی. و صفوة القول: أن تلک الحملة علی الزنادقة لو تجردت عن تلک الزوائد لکان أثرها أکثر نفعا لتطهير المجتمع الإسلامی من أولئک النفر الذين لعبوا دورا هاما فی نشر الخرافات و الأساطير، و التحلل من قيود الشريعة الإسلامية ممن هم زنادقة فعلا، عند ما وجد أکثرهم طريقا يسلکون فيه، و کان منهم ذوو مکانة فی الدولة: کمطيع بن إياس، و ابن المقفع، و ابن أبی العوجاء. و قد وضعوا حوادث و أحاديث يقصدون بها إفساد الرأی العام؛ و عند ما قدم ابن أبی العوجاء للقتل قال: (أما و اللّه لئن قتلتمونی لقد وضعت أربعة آلاف حديث أحرم فيه الحلال و أحل فيه الحرام، و اللّه لقد فطرتکم يوم صومکم و صومتکم فی يوم فطرکم) کما أنهم وضعوا کثيرا من القصص فی المجون و الهزل، و خلقوا شخصيات لا وجود لها، و اخترعوا حوادث لا واقع لها، کما أنهم ترجموا کتب الزنادقة و نشروها فی المجتمع للتضليل و الخداع و قد قام جماعة منهم- و علی رأسهم سيف بن عمرو-بالدس الشائن فی تاريخ الإسلام فحوروا و بدّلوا و اخترعوا، و قد اشتهر کتاب الردة لسيف بن عمرو، و أصبح مصدرا لکثير من المؤرخين. و سيف هو رأس الزنادقة و الکذّابين کما نص عليه علماء الرجال و اشتهر عنه ذلک. و کيف کان فإن وضعهم سيئ و أثرهم فی المجتمع أسوأ، و کما قلنا فإن لفظ الزندقة أو الاتهام بها لم يکن دقيقا، فقد اتهم أبرياء، و قتل صلحاء تحت غبار هذه الحملة، و أطلقت هذه اللفظة علی بعض من لم يصح أن يکون موضوعا لمحمولها و لکن ذلک کان لأسباب سياسية أو أغراض انتقامية کما قدّمنا. و قد اعتمد عليها أکثر الباحثين فلم يکلفوا أنفسهم بالبحث عن الحقائق لمعرفة الأسباب. و الوقوف علی العوامل التی دعت إلی اتهام الکثيرين من رجال الأمة و صلحائها بالزندقة، و الحکم عليهم بدون مبرر، لأن تلک اللفظة قد اتسع معناها إلی

حد لا يسمح بتحديده تحديدا دقيقا. و أصبح الزنديق الواقعى آمنا إن أمنت السلطة سطوته. و هذا ما حمل الكثيرين من الكتّاب على إيجاد رابطة بين الزندقة و بين التحرر الفكرى و النقد للأوضاع، ذهولا منهم عن التوصل إلى الحقيقة، و قصورا عن معرفة الأسباب، التى جعلت الانتساب إلى التشيع دليلا على الزندقة، و داعيا إلى الاتهام بها، و لا شىء هناك إلاّ عدم ارتباط العقائد بالدولة، و إن انفصالهم الروحى و عدم امتزاجهم بالسلطان و أعوانه لأكبر دليل على الاستهانة بتوجيه الأسباب التى توجب اتهامهم بذلك. و أهم شىء اتهامهم بسب الشيخين، فإن هذه التهمة هى فوق جريمة الإلحاد، فإن المتهم بالزندقة تقبل توبته، أما المتهم بهذه التهمة فلا تقبل توبته، و يحكم بكفره و إلحاده مع إيمانه باللّه و رسوله و إقامة الفرائض، و لكن للسياسة حكم فوق ما يثبته الواقع و يقرّه الحق، إذ هى عمياء لا تبصر، و لهذه المشاكل كان ذلك العصر يموج بحوادث لها أهميتها فى تاريخ الإسلام.

نشاط العلماء و تأييد الدولة:

و كان من أهم مظاهر ذلك العصر انصراف علماء الإسلام إلى دراسة العلوم المختلفة، كما اتسعت حركة التأليف، و زاد نشاط العلماء فى تدوين علوم الإسلام، و رتبوا أبواب الفقه و أنواع الحديث. و كان الخلفاء-مع انغماسهم فى الشهوات و الترف و ارتكابهم المحرمات- يتظاهرون بخدمة العلماء، و يتحلون بالنزعة الدينية، و بهذا تمكنوا من استخدام رجال منهم وسيلة لتوطيد استبدادهم، و ذريعة لإخضاع العامة لهم، و أنهم ملزمون بإطاعة السلطان إطاعة عمياء، و أن تصرفه لا يجوز الاعتراض عليه، و إن انحرف عن حدود طاعة اللّه؛ و بهذا وقع تطور أوجد مشاكل خطيرة، فكانت فى ذلك العصر للفقهاء و المحدثين درجات عالية عند الخلفاء، و قد كثر الجدل و النقاش فى أهم المسائل الفقهية، كما كثر فى العقائد و المسائل الكلامية. كما و قد اشتدت قضية أهل الرأى و أهل الحديث، و أصبح لكل جانب أنصار، و هم يقيمون الحجج و البراهين على ما يذهبون إليه. إلى غير ذلك من مميزات ذلك العصر الذى نشأ فيه الشّافعى. كما و قد أثيرت هناك مسائل كثيرة تتعلق بالتوحيد و بالصفات. و رؤية اللّه بالابصار، و غيرها من المسائل ذات الأهمية فى ذلك العصر. كالبحث حول الحديث

و صـحّته، و الاجتماع و كيفيـة الاسـتدلال به. و لقـد جاء عن الشّافعى فى كتاب الأم أنّه ناظر فى كثير من هـذه المسائل، و قد كانت طريقة الشّافعى فى النقل عن كثير من المناظرات، نقل الحجـة عن لسان واحـد بدون تعيين، و لعل ذلک طريقة علمية للتوصل إلى إيضاح الأمر و بيانه.

الخلاصة:

و الخلاصة؛ أن العصر الذى نشأ فيه الشّافعى كان أزهر العصور من جهة، و من جهة أخرى كان عصر مشاكل للأمة عند ما استبد ولاة الأمر بأمور المسـلمين، فاسـتأثروا بالأموال، و تحكموا بالرقاب، و خالفوا حـدود اللّه مع ادعائهم-الأجوف-بالمحافظة عليها، و قد تجاوزوا الحد فى تعدى حدود اللّه و مخالفة أحكامه؛ حتى لقد استعملوا فى معاملة الرعية أشد أنواع التعسف و الجور، الأمر الذى دعا رجال الإصلاح و المحافظين على نواميس الإسـلام إلى متابعة الإنكار و رفع أصواتهم بالمؤاخذة، فكان نصـيبهم القتل و التشريد و ظلمة السجون. و قد أدّى ذلـک الظلم إلى عواقب و خيمـة، كـان من ورائهـا عـدم اسـتقرار الأـمر و ضـياع الحق، و قـد حاولنا أن نلمس موقف الشّافعى وسط ذلک المعترک، و مواجهته تلک الأوضاع الشّاذة، و هو ذلک الرجل الطموح الـذى كان يتحسّس إلى النهوض فى وجه الظلم، بانضـمامه لجانب العلويين كما نقل عنه. فإنا لم نجد للشافعى موقفا يدلنا بصـراحة على إنكاره للأوضاع، و لعل قضـية اتهامه بذلک حالت بينه و بين نشاطه و شعوره المتوقد، هذا إن كان لقضـية الاتهام أصل، و إلاّ فلا شىء يدل على أى أثر هناک، لأن القضية مكذوبة و لا أصل لها. و لا تهمّنا هذه الجهة، و لكن يهمنا معرفة تأثّره بطابع ذلک العصر، من حيث النشاط العلمى، و التقدم بين أقرانه، لما اتصف به من ذكاء و فطنة. و نحن عند ما ندرس تلک الجهة عن طريق المعجبين به نجد أن له نشاطا عظيما و تقدما فائقا يوم كان ببغداد. و لكن هناک أيضا من ينفى هذا و يصـفه بالانسـحاب عن ميـدان المقابلة لعلماء عصـره، و يجعل ذلک سـببا لخروجه إلى مصـر. يقول البزاز: كان الشّافعى (رض) بالعراق يصـنّف الكتب، و أصحاب محمّد (أى الشيبانى) يكسرون عليه أقاويله بالحجج و يضعفون أقواله، و قد ضيّقوا عليه،

و أصحاب الحديث أيضا لا يلتفتون إلى قوله، و يرمونه بالاعتزال. فلما لم يقم له بالعراق سوق خرج إلى مصر، و لم يكن فقيه معلوم، فقام بها سوقه (1). و يقول أيضا: عن على بن حسين الرّازى قال: اجتمع فى عرس هو و سفيان بن سحبان، و فرقد، و عيسى بن أبان، و أخذوا فى مسألة غامضة و فيهم الشّافعى، فدخل فى نكتة من المسألة غامضة، فظن الإمام الشّافعى أنّه فطن للمسألة. و لم يكن ذلک، فجرّه سفيان إلى أغمض منها حتى تحيّر، و لم يتهيأ له الكلام، فحكى ذلک لمحمّد فقال: ارفقوا به فإنه جالسنا و صحبنا، و لا تفعلوا به هذا (2). أما الأولون، فقد وصفوه بأنه قد أحدث فى بغداد تغيّرا محسوسا، و قد ثقل مقامه على أهل الرأى، لأنه كان ينتصر لمذهب أستاذه مالک، و يدفع عنه، و حوّل أكثر المبرزين منهم إلى حلقته. حدث الفضل الزجاج فقال: لما قدم الشّافعى إلى بغداد سنة 195 ه و كان فى الجامع إما نيف و أربعون حلقة، أو خمسون حلقة. فلما دخل بغداد ما زال يقعد فى حلقة حلقة و يقول لهم: قال اللّه و قال الرّسول. و هم يقولون: قال أصحابنا. حتى ما بقى فى المسجد حلقة غيره (3). و معنى هذا أن الدراسة توحدت للشافعى، و لم يبق لأهل الرأى مجال لمقابلة ذلک النشاط الذى لقيه الشّافعى. و هذا أمر موكول إلى صحة أحد القولين، و لا مجال لنا فى تأييد جانب دون آخر؛ على أننا لا ننكر منزلة الشّافعى العلمية، كما لا ننكر مقابلته لأهل الرأى، مع أنا نعلم أنّه أخذ أكثر معلوماته عن محمّد بن الحسن الشيبانى. و على أى حال: فإن أكثر الروايات حول الشّافعى مضطربة-كما قدمت-و لكن مقتضى شرطنا فى هذه الدراسة التعرّض لكثير من ذلک، و لنا الحق فى المناقشة، و قد رأينا ترک هذا الموضوع، و نريد أن نلتحق بركب صاحبنا لمعرفة أخباره، و أكثرها كانت فى مصر، و لنأخذ على ضوئها صورة عن طابع شخصيته.

1- 1) المناقب للبزاز ج 2 ص 153.

2- 2) نفس المصدر ج 2 ص 150.

3- 3) تاريخ بغداد ج 2 ص 68-69. [1]

أخباره:

اشارة

نشأ الشّافعی یتیما فی حجر أمه، و قدمت به مکة خوفا علیه من الضـیعة، و لیتلقی دراسته، فاستقبل عهد دراسته علی خالد الزنجی و مالک، و کان بطبیعة الحال شدید الحاجة إلی ما یساعده علی مواصلة دراسته، لأنه کان فقیرا لا یجد ثمن القرطاس الذی یکتب علیه دروسه، فکان یتعوض عنه بأکتاف الغنم. و قـد ساعـده مالک بن أنس لسـعة حاله، و بعد وفاة مالک التجأ إلی الوساطة لأن یلی عملا للدولة، لیسـتعین به علی زمـانه. فعیّن فی الیمن، و حمل منها أو من مکـة إلی بغـداد بتهمـة التشـیع أو غیر ذلک. و کانت بغـداد فی عنفوان نهضـتها العلمیـة و حرکتها الثقافیة، و اتجاهها الفکری إلی مختلف العلوم. و کان الفقهاء فی ذلک العصـر قد انقسموا إلی أهل رأی یعتمدون فی نهضتهم علی سرعـة أفهامهم، و نفاذ عقولهم، و قوتهم فی الجـدل. و أهل حـدیث یعتمدون علی السـنن و الآثار، و لا یأخذون من الرأی إلاّ ما تدعو إلیه الضـرورة. و کان الشّافعی قد تفقه علی أهل الحدیث من علماء مکة، و علی مالک من علماء المدینة. و کان یعترف لمالک بالفضل و المنّة فکان یقول: إذا ذکر العلماء فمالک النجم، ما أحد أمنّ علیّ من مالک بن أنس. و لما ذهب إلی العراق استرعی نظره تحامل أهل الرّأی علی أسـتاذه و المنعم علیه مالک بن أنس و علی مـذهبه. و کان أهل الرأی أقوی سـندا و أعظم جاها بما لهم من المکانة عند الخلفاء، و بتولیتهم شئون القضاء، ذلک لأنهم أوسع حیلـة فی الجدل من أهل الحدیث و أنفذ بیانا (1). و قـد وقعت لکثیر من الخلفاء و غیرهم مشاکل، فکان لها مخرج عنـد أهل الرأی، لـذا کانت منزلتهم فی الدولـة أعظم من غیرهم. و کان الشافعی قد لازم محمّد بن الحسن عند قدومه العراق، و درس کتبه و أخذ عنه الشـیء الکثیر، و اطلع علی کتب فقهاء العراق، فأضاف ذلک إلی ما عنده من طریقة أهل الحدیث. و عاد الشّافعی من العراق إلی الحجاز، و استمر بمکة یواصل استفادته من الوافدین إلی مکة من علماء الأمصار، و اختلط بهم، ثم عاد إلی العراق مرة ثانیة سنة

1- 1) تمهید لتاریخ الفلسفة الإسلامیة ص 221.

195 ه فی خلافة الأمین، و هناک أملی علی من التف حوله کتبه التی کتبها فی مذهبه فی العراق–و هو المعروف بمذهبه القدیم–و قد رجع عن ذلک عنـد ما نزل فی مصـر و حرم الروایـة لـذلک عنه، و کان نزوله فی هـذه القدمة علی محمّد بن أبی الحسن الزیادی، و مقامه هناک سنتان. و قـد توفی محمّد بن الحسن، و قام مقامه–من أصـحاب أبی حنیفة–الحسن بن زیاد اللؤلؤی، ثم عاد إلی الحجاز. و فی سـنة 198 ه قدم العراق قدمته الثالثة، فأقام هناک أشـهرا، و من العراق سافر إلی مصـر فنزل فی الفسطاط ضیفا کریما علی عبد اللّه بن عبد الحکم. کانت الأسـباب التی حملت الشّافعی للرحیل إلی مصر کثیرة مختلفة، فبعض یقول: أنّه کان یتشوق إلی مصر دائما، و رووا له فی ذلک شعرا: أری النفس قد أضحت تتوق إلی مصر و من دونها قطع المهامة و القفر

فو اللّه ما أدری أ للفوز و الغنی أ ساق إلیها أم أ ساق إلی القبر

(1)؟ و هـذه الأبیـات تنسب إلی الحسن بن هـانی و هو المعروف بـأبی نواس، و أن الشّافعی تمثل بها، ذکر ذلک أبو بکر أحمـد بن محمّد الهمـدانی المعروف بابن الفقیه فی کتاب البلـدان. و قیل: إنه قـدم مصـر رغبـة منه فی معارضـة انتشار أقوال أبی حنیفة و مالک، کما حدّث الربیع قال: سألنی الشّافعی عن أهل مصـر. فقلت: هم فرقتان فرقـة مالت إلی قول مالک و ناضـلت علیه، و فرقـة مالت إلی قول أبی حنیفة و ناضلت علیه. فقال: أرجو أن أقدم مصر إن شاء اللّه، فآتیهم بشیء أشغلهم به عن القولین. فهو إذ ذاک سلک طریقا وسطا، فلم یکن علی رأی مالک فی الحدیث و تشدده، و لا کأصـحاب الرأی یتساهلون فی الحدیث و یکتفون بشـهرته، و یقدّمون القیاس علی خبر الآحاد و إن صح سنـده. فانتقـد مالکا لأنه ترک أحیانا حـدیثا صـحیحا، لقول واحـد من الصـحابة أو التابعین، أو لرأی نفسه. و کان أشد نقد لمالک قد وجهه الشّافعی، أنّه ترک قول ابن عباس إلی قول عکرمة فی مسألة، مع أن مالکا کان یسیء القول فی عکرمة.

1- 1) معجم الأدباء ج 17 ص 319. [1]

الإمام الشّافعی فی مصر:

و کان قدوم الشافعی لمصـر، و قد انتشـر مذهب مالک و ترکزت دعائمه علی أیدی تلامذته، الذین کان لهم فی مصر مکانة عظیمة، فأصبح اعتقاد الناس فی مالک عظیما، و یقدّمون قوله علی السـنّة إذ یقال لهم: قال رسول اللّه. فیقولون: قال مالک. و کانت له قلنسوة یستسقون بها، و قـد غلوا بکتـابه غلوا عظیما حتی قالوا: ما علی ظهر الأرض کتاب بعـد کتاب اللّه أصـح من کتاب مالک. و فی لفظ آخر: ما علی الأرض کتاب أقرب إلی القرآن من کتاب مالک. و نزل الشّافعی ضـیفا کریما علی محمّـد بن عبد اللّه بن عبد الحکم، و کان من أکبر أنصار مذهب مالک، و کانت له مکانـة و رئاسـة، و کان أهل مصـر لا یعـدلون به أحدا، فأکرم مثوی الشّافعی و وازره، و تأکدت بینهما مودة و إخاء. و قد عرف الشّافعی بأنه تلمیـذ مالک و ناصـر مـذهبه و المدافع عنه، و کان هذا أحد الأسـباب التی هیأت النجاح للشافعی. یضاف إلی ذلک أنه قدم مصـر مزودا بتوصـیة من خلیفة العصـر إلی أمیر مصر، أو أنه جاء بصحبته علی ما فی القضیة من اختلاف الأسباب. یقول ابن حجر: إن الرشـید سأل الشّافعی أن یولیه القضاء فامتنع، فقال: سل حاجتک. قال: حاجتی أن أعطی من سـهم ذوی القربی بمصر و أخرج إلیها. ففعل ذلک و کتب له إلی أمیرها (1). و قیل: إنّه خرج إلی مصـر مع أمیرها العباس بن عبد اللّه بن العباس بن موسی العباسی، و کان العباس هذا خلیفة أبیه علی مصـر، و قد صحبه جماعة من أعیان أهل مصر، کبنی عبد الحکم، و الربیع بن سلیمان، و ذلک بعد وفاة الرشید سنة 199 ه. فکان الشّافعی موضع عنایة أصـحاب مالک، لأنه من أشهر تلامیذه و المناصرین له فوازروه، و أخذ الشّافعی فی نشر مذهبه الجدید. و وضع الکتب فی الرد علی مالک و معارضة أقواله. قال الربیع: سمعت الشّافعی یقول: قدمت مصر و لا أعرف أن مالکا یخالف من أحادیثه إلاّ ستة عشـر حدیثا، فنظرته فإذا هو یقول بالأصل و یدع الفرع، و یقول بالفرع و یدع الأصل. ثم ذکر الشّافعی فی رده علی مالک، المسائل التی ترک الأخبار

1- 1) توالی التأسیس ص 77.

الصحيحة فيها بقول واحد من الصحابة، أو بقول واحد من التابعين أو لرأى نفسه. و ذكر الساجى: أن الشّافعى إنما وضع الكتب على مالك بسبب أنه بلغه أن قلنسوة لمالك يستسقى بها، و كان يقال لهم: قال رسول اللّه. فيقولون: قال مالك. فقال الشّافعى: إنما مالك بشر يخطئ. فدعاه ذلك إلى تصنيف الكتاب فى اختلافه معه، و كان يقول: استخرت اللّه فى ذلك مدة سنة. و قال أبو عمر: و تكلم فى مالك أيضا فيما ذكره الساجى فى كتاب العلل، عبد العزيز بن أبى سلمة، و عبد الرّحمن بن زيد، و عابوا أشياء من مذهبه. إلى أن يقول و تحامل عليه الشّافعى و بعض أصحاب أبى حنيفة فى شىء من رأيه حسدا لموضع إمامته (1). فهو قد جعل رد الشّافعى على مالك تحاملا عليه و حسدا له، و لما وضع الكتاب على مالك تعصب المالكية عليه وسعوا به عند السلطان و قالوا له: أخرجه و إلاّ افتتن به البلد. فأتاه الشّافعى فكلمه فامتنع الوالى و قال: إن هؤلاء كرهوك و أخشى الفتنة. فقال له الشّافعى: أجلنى ثلاثة أيام. فمات الوالى فيها (2). و قال ياقوت: كان بمصر من أصحاب مالك رجل يقال له: فتيان، فيه حدة و طيش، و كان يناظر الشّافعى كثيرا و يجتمع الناس عليهما، فتناظرا فى مسألة بيع الحر -و هو العبد المرهون-إذا أعتقه الراهن و لا- مال له غيره، فأجاب الشّافعى بجواز بيعه على أحد أقواله، و منع فتيان منه. . . فضاق فتيان بذلك ذرعا، فشتم الشّافعى شتما قبيحا. فلم يرد عليه الشّافعى فرفع ذلك رافع إلى السرى (الوالى) فدعا الشّافعى و سأله عن ذلك و عزم عليه، فأخبره بما جرى و شهد الشهود على فتيان بذلك، فقال السرى: لو شهد آخر مثل الشّافعى على فتيان لضربت عنقه، و أمر بفتيان، فضرب بالسياط و طيف به على جمل، و بين يديه مناد ينادى: هذا جزاء من سبّ آل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم. ثم إن قوما تعصبوا لفتيان، من سفهاء الناس، و قصدوا حلقة الشّافعى حتى خلت من أصحابه و بقى وحده، فهجموا عليه و ضربوه فحمل إلى منزله، فلم يزل فيه عليلا حتى مات (3).

1- 1) جامع بيان العلم و فضله. [1]

2- 2) توالى التأسيس ص 84.

3- 3) معجم الأدباء ج 17 ص 223. [2]

إن هـذه الروايـة تدل على أن سـبب موت الشّافعى هو ذلک الضـرب المنبعث عن التعصب، و قد نصّ ابن حجر على أنّهم ضـربوه بمفتاح حديد فمات (1)بعد ذلک الضـرب بقليل، كما جاء فى رثاء الشّافعى: قال ابن حجر عند ذكره لهذا الحادث: و قد ضمن ذلک شيخ شيوخنا أبو حيان فى قصـيدته التى مـدح بها الشّافعى، ثم ذكر القصـيدة. و نذكر منها محل الشاهد: و لما أتى مصـر انبرى لأذائه أناس طووا كشـحا على بغضه طيا

أتى ناقدا ما حصلوه و هادما لما أصّلوا إذ كان بنيانهم و هيا

فدسّوا عليه عند ما انفردوا به شقيا لهم شل الإله له اليديا

فشج بمفتاح الحديد جبينه فراح قتيلا لا بواک و لا نعيا

نعم قد نعاه الدين و العلم و الحجا و ترداد صوت فى الدجا يسرد الوحيا

(2)فالشّافعى إذا ذهب ضحية التعصب من المالكية، لأنه كان يعارض أقوال مالک و يرد عليه، و قد وضع كتابا فى ذلک، كما وضع كتابا فى الرد على أبى حنيفة (3).

مذهبه الجديد:

و كيف كان فقـد جاء الشّافعى بمـذهبه الجديد، و كان قد درس المذهبين: مذهب أهل الرأى و مذهب أهل الحديث، و قد لاحظ ما فيهما من نقص، فبـدا له أن يكمل ذلک النقص، و أخذ ينقض بعض التعريفات من ناحية خروجها من متابعة نظام متحد فى طريقة الاسـتنباط، و ذلک يشـعر باتجاهه فى الفقه اتجاها جديـدا، الذى لا يكاد يعنى بالجزئيات و الفروع. و لعل خير ما يلخص مسـلكه فى منحاه الاجتهادى هو أنّه قال: الأصل قرآن و سـنّة، فإن لم يكن فقياس عليهما، و إذا اتصل الحديث عن رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم و صح الإسناد عنه فهو سـنّة، و الإجمـاع أكبر من الخبر المفرد، و الحـديث على ظـاهره، و ما احتمل معانى فما اشـتبه منها ظاهر أولاها به، و إذا تكافأت الأحاديث فأصحّها إسنادا أولاها، و ليس المنقطع بشىء ما عدا منقطع ابن المسيب، و لا يقاس أصل على أصل،

1- 1) توالى التأسيس ص 86.

2- 2) توالى التأسيس ص 87.

3- 3) أنكر بعضـهم على الخزرجى قوله فى الخلاصـة ص 279-: أن الشّافعى مات شـهيدا سنة 204 ه. لعـدم وقوفه على المصادر التى تنص على ذلک.

و لا يقال للأصل لم و كيف. و إنما يقال للفرع لم، فإذا صح قياسه صح و قامت به الحجة. فهو بهذه الخطة الجديدة قد هاجم مالكا، لتركه الأحاديث الصحيحة لقول واحد من الصحابة أو التابعين أو لرأى نفسه. و هاجم أبا حنيفة و أصحابه، لأنهم يشترطون فى الحديث أن يكون مشهورا، و يقدمون القياس على خبر الآحاد و إن صح سنده، و أنكر عليهم تركهم لبعض السنن لأنّها غير مشهورة، و عملهم بأحاديث لم تصح عند علماء الحديث، بدعوى أنّها مشهورة، و وقف فى القياس موقفا و سطا، فلم يتشدد فيه تشدد مالک، و لم يتوسع فيه توسع أبى حنيفة (1). و قال إمام الحرمين: فمالک أفرط فى مراعاة المصالح المطلقة المرسلة، غير المستندة إلى شواهد الشرع، و أبو حنيفة قصر نظره على الجزئيات و الفروع و التفاصيل من غير مراعاة القواعد و الأصول، و الشافعى (رض) جمع بين القواعد و الفروع، فكان مذهبه أقصد المذاهب، و مطلبه أسدى المطالب كما يقول إمام الحرمين. هذا عرض موجز لما يتعلّق بحياة الشّافعى و أخباره من حيث اتجاهه الفقهى، و مخالفته لأهل الرأى و أهل الحديث. و تدلنا الحوادث بوضوح أنه لقى أذى كثيرا فى إظهار مخالفته لمالک و رده عليه، كما أنه لم يلق فى مصر ذلک الإقبال المطلوب الذى كان يأمله رجل مثله، فقد جفاه الناس، و لم يجلس إليه أحد، فقال له بعض من قدم معه: لو قلت شيئا يجتمع إليک الناس، فقال: إليک عنى و أنشأ: أ أنثر درا بين سارحة النعم و أنظم منثورا لراعية الغنم

(2). ! و كان يظهر التذمر و التألّم، و يدلّنا على ذلک قوله: و أنزلنى طول النوى دار غربة إذا شئت لاقيت امرأ لا أشاكله

أحامقه حتى تقال سجية و لو كان ذا عقل لكنت أعاقله

(3)

1- 1) تمهيد لتأريخ الفلسفة الإسلامية للأستاذ مصطفى عبد الرزّاق ص 225. و ضحى الإسلام ج 2 ص 224.

2- 2) معجم الأدباء ج 17 ص 319. و [1]تمام الأبيات ص 307.

3- 3) المعجم ج 17 ص 310.

و يقول: لعمرى لئن ضيعت فى شر بلدة فلست مضيعا فيهم غرر الكلم

لئن سهل اللّه العظيم بلطفه و صادفت أهلا للعلوم و للحكم

بثثت مفيدا و استفدت ودادهم و إلاّ فمكنون لدىّ و مكتتم

و من منح الجهال علما أضاعه و من منح المستوجبين فقد ظلم

(1)و قال الكندى: لما دخل الشّافعى مصر كان ابن المنكدر يصيح خلفه: يا كذا، . . . دخلت هذه البلدة و أمرنا واحد، و رأينا واحد، ففرقت بيننا، و ألقيت بيننا الشر، فرق اللّه بين روحك و جسمك (2). و كان أشهب يدعو على الشّافعى و يقول فى سجوده: اللّهمّ أمت الشّافعى و إلاّ ذهب علم مالك بن أنس. فسمع الشّافعى بذلك و أنشأ يقول: تمنّى رجال أن أموت و إن أمت فتلك سبيل لست فيها بأوحد

و مما قال: كل العداوات قد ترجى مودتها إلاّ عداوة من عاداك عن حسد

(3)

الطعون على الشّافعى:

توجهت للشافعى طعون كثيرة فى مختلف الأمور، من اعتقاد و استنباط و حديث، فقد رموه بالاعتزال مرة، و التشيع أخرى، أو أنه يروى عن الكذابين، و أنّه قليل الحديث. و ألف بعض الحنفية كتابا فى الرد و الطعن عليه. سئل يحيى بن معين: الشّافعى كان يكذب؟ قال: لا أحب حديثه، و لا أذكره. و فى قول آخر: أما الشّافعى فلا أحب حديثه. و روى الخطيب عن يحيى بن معين أنه قال: الشّافعى ليس بثقة. و عن عبد اللّه بن وضاح أنّه قال فى الشّافعى: إنه ليس بثقة. و قد ساء هذا القول بعض الشّافعية، فهجا ابن معين (4)بقوله:

1- 1) معجم الأدباء ج 7 ص 207. [1]

2- 2) القضاة للكندى ص 428. [2]

3- 3) مناقب الفخر ص 115.

4- 4) يحيى بن معين بن عون الغطفانى أبو زكريا البغدادى المتوفى سنة 233 ه أحد الحفاظ و من رجال الصحاح الستة أخذ عنه أحمد بن حنبل و البخارى و مسلم و خلق كثير. قال أحمد بن حنبل: كل حديث لا يعرفه يحيى فليس بحديث. و لما مات نودى بين يديه: هذا الذى كان يذب الكذب عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلى آخر ما هو موجود فى ترجمته من ثناء و إطراء بالنظر لعوامل الحب و الكراهة.

و لابن معين فی الرجال وقيعة سيسأل عنها و المليک شهيد

فإن کان صدقا فهو لا بدّ غيبة و إن کان کذبا فالعذاب شديد

(1)و علی أی حال فلا بـد من إعطاء نموذج من تلک الطعون فيما يأتی: 1-إن البخاری و مسـلم لم يخرجا حديثه فی صحيحيهما، و لو لا أنّه کان ضعيفا فی الرواية لرويا عنه کما رويا عن سائر المحدثين (2). 2-أنه کان لا يعرف صحاح الأخبار، فقد روی عن أحمد بن حنبل أنّه قال: قال الشّافعی هم أعلم بالأخبار الصـحاح منا، فإذا کان خبر صحيح فأعلمنی حتی أذهب إليه. قالوا: و هذا إقرار منه بالتقصير. و عن أبی ثور أنّه قال: الشّافعی ما کان يعرف الحـديث، و إنما کنا نوقفه عليه و نکتبه (3). 3-إن من مذهبه أن المراسيل ليست بحجّة، ثم أنه ملأ کتبه من قول: أخبرنا الثقة، أخبرنی من لا أتهمه (4). و الجمع بين هذه الروايات و ذلک المذهب عجيب (5). 4-أنه کان يروی عن الکذابين و البدعيين، فروی عن إبراهيم بن يحيی مع أنه کان قدريا، و روی عن إسماعيل بن علیّة مع أنه قد طعن فيه. 5-أنه يذهب مذهب الشيعة، و أنّه کان يقول الأشـعار المشـعرة برغبته فی ذلک المذهب، و قد نصّ ابن معين علی تشـيّعه. و روی المزنی قال: قلت للشافعی: أنت توالی أهل البيت، فلو عملت فی هذا الباب أبياتا فقال: و ما زال کتمانيک حتی کأننی برد جواب السائلين لأعجم

و أکتم و دی فی صفاء مودتی لتسلم من قول الوشاة و تسلم

(6)

1- 1) مناقب الفخر ص 50.

2- 2) مناقب الرازی ص 84.

3- 3) البداية و النهاية ج 1 ص 327، و طبقات الحنابلة ج 1 ص 282، و [1]آداب الشّافعی ص 95.

4- 4) بينّا سابقا من يقصد الشّافعی بذلک.

5- 5) مناقب الشافعی للرازی ص 84.

6- 6) الرازی ص 50.

هـذه هی أهم الطعون الموجهـة إلی الشّافعی: و قـد دافع الشّافعیـة عن ذلک بما أمکنهم الدفاع عنه سواء وفّقوا للنجاح أم لا. و لا بد لنا من إبداء الرأی فی ذلک: 1-إن عدم تخریج البخاری و مسـلم لحدیث الشّافعی لم یکن دلیلا علی الجرح فی الشخص الذی لم یخرجا حدیثه، إذ لم یکن ذلـک دائرا مـدار الواقع فیکون قولهمـا الفصل و حکمهما العـدل، فإن الصـحیح یکون صـحیحا فی نظرهما لا یلزم منه أن یکون کـذلک واقعا، کما لا یلزم أن یأخـذ ذلک بطریق التقلیـد و الاتباع. لأن الحقیقة غیر هذا، إذ المؤاخذات علی البخاری کثیرة جدا، فمنها فی رجاله کروایته عن قوم عرفوا بالکذب و قوم ضـعفاء و خوارج. و منها فی نفس الأحادیث التی یصدق علیها بعض علامات الوضع. و قد کان البخاری یروی بالمعنی، کما حـدّث الخطیب البغـدادی: أن البخاری قال یوما: ربّ حـدیث سـمعته بالبصـرة کتبته بالشام، و ربّ حـدیث سمعته بالشام کتبته بمصـر! ! فقیل له: یا أبا عبد اللّه بکماله؟ ! ! فسـکت (1). و مهما یکن من شـیء فإن ترک البخاری لحدیث الشّافعی لم یکن دلیلاـ قاطعـا علی الوهن، و إن کان فی ذلک شـیء من الاسـتغراب، إذ لا مانع للبخاری من تخریـج حـدیث الشّافعی، لأن الخوف و الحـذر کان یحول بینه و بین تخریج أحادیث کثیر من أعلام الأمة، نظرا لعوامل الظروف، و سـیاسة الوقت. و البخاری لا یسـتطیع أن یجتاز تلک العقبات، لفقدانه الجرأة و الشـجاعة. هذا مع أن نزعة البخاری نحو الشّافعی هی غیر نزعته نحو أولئک الرجال الذین ترک حدیثهم، إما لشـیء فی نفسه، أو خوفا من سلطان عصره. أما ترکه أحادیث أهل البیت و فضائلهم فلا یعترینا شک بانحراف البخاری عن أهل البیت. هذا و الأمر یحتاج إلی تحلیل نفسـیة البخاری علی ضوء الحوادث التاریخیـة. و عسـی أن تتاح لنا الفرصة فی ذلک. 2-أما أخذه عن إبراهیم بن أبی یحیی، فقـد کان الشّافعی یوثقه و یطمئن إلیه. و کان یقول: لئن یخر إبراهیم من بعـد، أحبّ إلیه من أن یکـذب، و کان ثقـة فی الحـدیث (2).

1- 1) تاریخ البغدادی ج 2 ص 11. [1]

2- 2) تهذیب التهذیب ج 1 ص 159. [2]

و كـذلک ذهب بعض علماء الـدين إلى تنزيه إبراهيم بن أبى يحيى عمّا رمى به من الكذب. قال أبو أحمد بن عدى: سألت أحمد بن محمّد بن سـعيد (يعنى ابن عقـدة) : تعلم أحـدا أحسن القول فى إبراهيم غير الشّـافعى؟ قال: نعم، إنى أنظر فى حـديث إبراهيم كثيرا و ليس بمنكر الحـديث. قال ابن عـدى: و قد نظرت أنا كثيرا فى حديثه فلم أجد فيه منكرا، إلاّ شـيوخ يحتملون، و إنما يروى المنكر من قبل الراوى، أو من قبل شـيخه، و هو (أى إبراهيم) فى جملـة من يكتب حديثه و له الموطأ أضـعاف موطأ مالک. و كان إبراهيم من تلامذة الإمام الصّادق، و له كتاب فى مـذهب أهل البيت، و قد روى الشّافعى عنه فأكثر، و كان مرة لا يذكر اسـمه و يقول: روى عن جعفر بن محمّد (الصّادق) عن أبيه عن جـده على بن الحسـين: أن مروان بن الحكم قال له: ما رأيت أحـدا أكرم غلبة من أبيک، ما هو إلاّ أن ولينا يوم الجمل، فنادى مناديه: لا يقتل مدبر و لا يجهز على جريح. و قد جاء فى كتاب الأم كثير من روايات الشّافعى عن إبراهيم عن الإمام الصّادق عليه السّـلام و لعل هذا هو السبب فى الطعن عليه نظرا لما تقتضيه سياسة الوقت.

الإمام الشّافعى و التشيّع:

الاتهام بالتشـيع خطر عظيم، و مشـكلة لا يقوى على تحمّلها كل أحد، و كيف و قد صوّر التشيع بعدسة الاتهامات الكاذبة فى الابتعاد عن الـدين، تلـک التهم التى تثير فى النفوس اشـمئزازا، و فى العواطف ثورة، حتى أصـبح من اللاـزم التظاهر بالعـداء لمن يعرف به. و قـد أدّى الموقف السياسـى إلى أن اتهـام الرجـل بالزندقـة و الإلحاد أهون عليه من الاتهام بالتشـيع. فالزنـديق آمن مع كفره، و الشـيعى مطارد على إيمانه. و قد مر بيان الدور الأموى، و ما اقترفوا فيه من الذنوب، و ارتكبوا من وحشـية فى معاملة شـيعة أهل البيت بالطرق السـيئة: فمن دفن للناس و هم أحياء، إلى صلب على جذوع النخل، إلى حرق و حبس، و منع الهواء و الأكل و الماء عن المحبوسين. حتى يقضى المسجون نحبه جوعا و عطشا. و كانوا يرتكبون من الآثام فى وحشـية لم يعرف لها التاريـخ مثيلا، فيقطعون رأس الابن أو الزوج و يبعثون بهـذا الرأس إلى الأم أو الزوجة و يلقونه فى حجرها. و كانوا يصلبون الناس و يتركونها حتى تنبعث منهم

الروائح الكريهة، ثم يحرقونهم و يذرونهم فی الهواء. و لا ذنب لهم إلاّ حب أهل البيت و اتباعهم. أما فی الدور العباسی فالأمر أشد و أعظم. و قد تعرّضنا للبعض من ذلک فی مطاوی الأبحاث، و نعود بعد هذا التمهيد إلی أسباب اتهام صاحبنا الشّافعی بالتشيع، حتی جعل ذلک طعنا عليه، مما اضطر أتباعه إلی الدفاع عنه و إخراجه من قفص الاتهام. و لا بد لنا من أن نتعرّض لأسباب اتهام الشّافعی بعرض موجز فنقول: لقد توسع الناس فی تطبيق لفظ الشيعی، فاستعملوه بغير ما وضع له، فهو بعد أن كان لا يطلق إلاّ علی من يوالی عليا و أهل بيته عليهم السّلام و يقدمه بالخلافة و يفضله علی الأمة-كما هو رأی كثير من الصحابة و التابعين-أصبح يستعمل فی معان كثيرة. و علی سبيل المثال نضع بين يدی القراء صورا من ذلک. فی ذكر رجال اتهموا بالتشيع و ليسوا هم من الشيعة فی شیء، و هم كما يأتی: 1-خيثمة بن سليمان العابد، ألّف فی فضائل الصحابة و ذكر فضائل علی عليه السّلام فاتّهم بالتشيع لذلک. و شهد الخطيب البغدادی بأنّه ثقة، و أنه ألّف فی مناقب الصحابة و لم يخص عليا (1). 2-الحاكم أبو عبد اللّه النيسابوری، اتّهم بالتشيّع لأنه ذكر فی كتابه (المستدرک) أحاديث فی فضل علی عليه السّلام منها: حديث الطائر المشوی. و حديث (من كنت مولاه. . .) (2). و زاد الذهبی: إنه كان منحرفا عن معاوية و آله (3). 3-عبد الرزّاق بن همام المتوفی سنة 211 ه الحافظ الكبير، و من رجال الصحاح. قال الذهبی: إنه صاحب تصانيف، وثقه غير واحد، و حديثه مخرّج فی الصحاح، و له ما ينفرد به. و نقموا عليه التشيع، و ما كان يغلو به، بل كان يحب عليا و يبغض من قاتله (4). و يقول فی ترجمة جعفر بن سليمان الضبعی: هو من ثقات الشيعة، حدّث عنه سيار بن حاتم، و عبد الرزّاق بن همام، و عنه أخذ بدعة التشيّع (5).

1- 1) لسان الميزان ج 2 ص 411.

2- 2) تاريخ بغداد ج 5 ص 474. [1]

3- 3) تذكرة الحفاظ ج 3 ص 233.

4- 4) تذكرة الحفاظ ج 1 ص 331.

5- 5) تذكرة الحفاظ ج 1 ص 222.

فأنت ترى أنهم نقموا على ابن همام لتشيعه-و هو حب على و بغض قاتله- و بهذا أصبح مبتدعا كما يقولون!! 4-محمّد بن طلحة بن عثمان أبو الحسن النعالى، أتّهم بالتشيّع و تعرّض للخطر، لأن أبا القاسم نقل عنه: أنه شتم معاوية (1). 5-قاضى القضاة محيى الدين الأموى المتوفى سنة 268 ه يرجع بنسبه إلى عثمان، قال ابن العماد فى ترجمته: و كان شيعيا يفضل عليا على عثمان، مع كونه أدعى نسبا إلى عثمان و هو القائل: أدين بما دان الوصى و لا أرى سواه و إن كانت أمية محتدى

و لو شهدت صفين خيلى لأعذرت و ساء بنى حرب هنالک مشهدى

(2)انظر كيف جعل مقياس تشيّعه أنه يفضّل عليا على عثمان فقط. 6-محمّد بن جرير الطبرى المؤرخ الشهير المتوفى سنة 310 ه كان من علماء القرن الثالث، و له مذهب انفرد به، و له أتباع يعملون فيه، و قد غضب عليه الحنابلة انتصارا لإمامهم أحمد بن حنبل، و رموه بالحجارة، و لما مات دفن ليلا. قال ابن الأثير فى حوادث سنة 310 ه: إنه دفن ليلا بداره لأن العامة اجتمعت و منعت من دفنه نهارا، و ادّعوا عليه الرفض و الإلحاد. قال: و قال على بن عيسى: لو سئل هؤلاء عن معنى الرفض و الإلحاد ما عرفوه و لا فهموه. و هذه التهمة وجهت إليه من الحنابلة، لأنه ألّف كتابا ذكر فيه اختلاف الفقهاء، و لم يذكر فيه اختلاف أحمد بن حنبل، فقيل له فى ذلک. قال: لم يكن من الفقهاء، فاشتد ذلک على الحنابلة، و كانوا لا يحصون كثرة فى بغداد (3). 7-ابن حبون أبو عبد اللّه محمّد بن إبراهيم الأندلسى المتوفى سنة 305 ه من علماء الأندلس و عظمائهم. قال ابن سعيد: لو كان الصدق إنسانا لكان ابن حبون. و كان (يزن) أى يتهم فى التشيع لشىء كان يظهر منه فى معاوية. و من أعجب الأمور أن ابن عبد البر قد اتهم بالتشيع على ما فيه من النصب

1- 1) تاريخ بغداد ج 5 ص 384. [1]

2- 2) شذرات الذهب ج 5 ص 326. و [2]مرآة الجنان ج 4 ص 169. [3]

3- 3) الكامل ج 8 ص 49. [4]

و العـداء لأهل البيت، فقـد وصـفه ابن كثير فى تاريخه بأنّه شـيعى لروايـة نقلها تمس بكرامـة الأمويين. و ابن كثير من أهم الذين يحكّمون معيارهم الخاص بهم، و هو الموقف من الأمويين أو الرأى فى معاوية، فكل من يقول الحق و ينطق بالصواب و لا يخضع لآراء سابقة كوّنتها أغراض بنى أمية لصيانة ملكهم و إرساء قواعد إمبراطوريتهم فهو يتشيع مهما كان واقع حال القائل بذلک القول، و مهما كانت حقيقة مذهبه، و ابن كثير فى كثير من أحواله يضارع أخس أهل النصب فمثلا: فى تعليقه على روايـة: «لا يزال هذا الأمر قائما حتى يكون اثنا عشـر خليفة كلهم من قريش» فيعدد من يراهم مشمولين بهذه الرواية. ثم يقول: (و ليس المراد الأئمة الاثنى عشر الذين يعتقد فيهم الرافضة الذين أولهم على بن أبى طالب و آخرهم المنتظر بسـرداب سامرا-و هو محمّـد بن الحسن العسـكرى (كذا) فيما يزعمون-فإن أولئک لـم يكن فيهم أنفع من على و ابنه الحسن بن على حين ترک القتال، و سـلّم لأمر معاوية، و أخمد نار الفتنة، و سـكّن رحى الحرب بين المسلمين. و الباقون من جملـة الرعايا، لـم يكن لهم حكم على الأمـة فى أمر من الأمور) (1). و له من القول زيادة أعرض عن ذكرها لهوسـها. و لا بـد من القول أنه نظر إلى صـلح الحسن ليس من الناحية الإسـلامية لأن الحديث عليها يتعلّق بمصلحة الرسالة و مصير أهل البيت الأطهار عليهم السّلام و لكنه نظر إلى الصـلح كتسـليم للأمر إلى معاوية و إخماد للفتنة بمفهومها الذى أراه كالمفاهيم الأخرى التى توسّـعوا فى إطلاقها و تعميمها بغرض النيـل من الجماعـات التى تثور على الظالمين و تأبى ذل الجور. و من الغريب أيضا خلط كتّاب العصـر الحاضـر بوصـفهم ابن أبى الحديـد المعتزلى أنه شـيعى، إلى غير ذلـک من الغرائب. هـذا مـا ذكرناه على سبيل المثال و التمهيـد للوصول إلى أسـباب اتهام الشّافعى بالتشـيع. و لو أردنا أن نتوسع فى ذلک لطال بنا الحديث فى ذكر الحوادث التى وقعت من وراء ذلک. و صـفوة القول: إن الاتهام بالتشـيع، و نسبة أناس كثيرين إلى الشيعة أصبح غير منوط بقاعدة و لا مربوط بدليل، حتى أن أبا حنيفة نسبوه إلى التشيع، لأنه كان يذهب

1- 1) قصص الأنبياء: [1] قصة إبراهيم الخليل عليه السّلام.

إلى تفضـيل على عليه السّلام على عثمان. و قد امتحن كثير من العلماء و أوذوا فى ذلک، مثل: النسائى صاحب «السنن الكبرى» لأنه ألّف فى فضل على كتابا و لم يؤلّف فى فضائل معاويـة. و أمثال هـذا كثير لا يسع المقام حصـره. و لنعد إلى الحديث عن أسـباب اتهام صاحبنا بذلک. و هى أمور: 1-كان الإمام الشّافعى يتظاهر فى مدح أهل البيت عليهم السّلام مما يدل على نزعته و ميوله إلى التشيع-كما ذكروا-و إنها لتشعر بكل صراحة على ذلک، فهو يعلن تمسّكه بآل محمّد و يقول: آل النبى ذريعتى و همو إليه وسيلتى

أرجو بأن أعطى غدا بيدى اليمين صحيفتى

و اشتهر عنه قوله: يا آل بيت رسول اللّه حبكمو فرض من اللّه فى القرآن أنزله

يكفيكمو من عظيم الذكر انكمو من لم يصل عليكم لا صلاة له

و يوضح لنا الإمام الشّافعى بواعث اتهامه بالرفض أو التشيّع فيقول: قالوا ترفضت قلت كلا ما الرفض دينى و لا اعتقادى

لكن توليت دون شک خير إمام و خير هادى

إن كان حب الوصى رفضا فإنى أرفض العباد

فهو بإظهاره حب على بن أبى طالب عليه السّلام قـد اتهم بالرفض، و لشدة تظاهره بحب على عليه السّلام فقد هجاه بعض الشـعراء بقوله المشهور: يموت الشّافعى و ليس يدرى علىّ ربّه أم ربّه اللّه

و هو لم يقتصـر بحبه لعلى فقط، بل كان يوالى أهل البيت عليهم السّلام و يحبهم، و لا يبالى بأن يتهم بالتشـيع الذى كان من أعظم التهم فى عصره و قبل عصره فيقول: يا راكبا قف بالمحصب من منى و اهتف بقاعد خيفها و الناهض

سحرا إذا فاض الحجيج إلى منى فيضا كملتطم الفرات الفائض

إن كان رفضا حب آل محمّد فليشهد الثقلان أنى رافضى

2-إن الشّافعى قد صرّح بتشيعه، و جعل ذلک فخرا له فيقول: أنا الشيعى فى دينى و أصلى بمكة ثم دارى عسقلة

بأطيب مولد و أعز فخر و أحسن مذهب سموا البرية

(1)فهو بهذه الصراحة يدل على أن تلك التهمة موجهة إليه لا محالة. 3-لقد نص على تشيع الشّافعى جماعة من المؤرخين و المحدثين. فهذا يحيى بن معين المحدّث الكبير كان يقول: إن الشّافعى كان شيعيا، فلما بلغ أحمد بن حنبل ذلک، و كان طبيعيا أن يسوؤه هذا القول فى الشّافعى، فأحب أن يسأل من ابن معين عن الأدلة التى أدت إلى اتهام الشّافعى بالتشيع، فقال أحمد لابن معين: كيف عرفت ذلک؟ فقال يحيى: نظرت فى تصنيفه فى قتال أهل البغى، فرأيته قد احتج من أوله لآخره بعلى بن أبى طالب (2). هذا هو سبب اتهام الشّافعى أو الطعن عليه بأنه كان يحتج بعلى بن أبى طالب!! و قال ابن النديم: و كان الشّافعى شديدا فى التشيع، و استدل على ذلک بما يلى: 1-ذكر له رجل يوما مسألة فأجاب فيها، فقال له الرجل: خالفت على بن أبى طالب رضى اللّه عنه. فقال الشّافعى: أثبت لى هذا عن على بن أبى طالب حتى أضع خدى على التراب و أقول قد أخطأت. 2-حضر الشّافعى مجلسا فيه بعض الطالبيين فقال: لا أتكلم فى مجلس أجدهم (أى الطالبيين) أحق بالكلام و لهم الرئاسة و الفضل (3). فالشافعى إذا بمجموع هذه الأدلة قد تحققت فى حقه تلک التهمة، و هى الانتساب إلى مذهب التشيّع، الذى كانت الدولة و أذنابها تنظره بعين الغضب، لأن مذهب التشيع كابوس لصدور الدولة، و قذى فى عيونها، لعدم امتزاجه بسياستها، فهو يستقى من ينبوع أهل البيت، و يأخذ بتعاليمهم. و ناهيک ما لأهل البيت فى قلوب المتعطشين على السيادة و الاستبداد من بغض و عداء!! إذا كيف نصنع بهذا الإمام

1- 1) الفخر الرازى فى المناقب ص 51.

2- 2) الفخر الرازى فى المناقب ص 51.

3- 3) فهرست ابن النديم ص 295. [1]

العظيم، الذى اشتهر ذكره و كثرت أتباعه، مع أنه متّهم بانضمامه إلى جانب خصوم الدولة، فلا بد من الدفاع لتبرأته من ذلک.

نتيجة و حكم:

و قد نستخلص من هذا الاستطراد لاتهام الشّافعى و لأقواله، سواء منها الصريحة أو المموهة النتيجة التالية: إن تشيع الشّافعى كان تشيعا بالنسبة لمجتمعه الذى أخرجته السياسة عن عقيدة الاستقامة، حيث صيّرت أكثر مسلمى ذلک الزمن أناسا يحاربون أهل البيت باليد و اللسان، و قديما قيل: (الناس على دين ملوكهم) لذلک كانت شجاعة الشّافعى فى إظهار حبه لعلى و آله هى السبب فى وصفه بالتشيع. أما إذا جردنا ذلک المجتمع من سيطرة الدولة، و كشفنا الستار الذى تعمل من ورائه أيدى العابثين بصفو الأخوة الإسلامية، من قبل المتداخلين فى الإسلام، فإنا لا نجد هناک إنسانا مسلما يبغض أهل البيت فيما عدا الخوارج، و من حذا حذوهم ممن لم يرفع الإسلام ترسبات الشرک و الوثنية من قلبه، و ما هو بمسلم بل مستسلم أو متحين لفرصة الانتقام بالمسلمين، طالما لم يكن فى آل على من يتصف بما يوجب كراهيته فى المجتمع، فحبهم لا يكاد يخلو من قلب مسلم من السنّة أو الشيعة، غير أن الفرق الأساسى بين الطائفتين هو قول الشيعة بالإمامة لعلى و الوصاية له، و قول السنّة بالشورى و الخلافة و إنكار الوصاية. فالشافعى على هذا ليس شيعيا، و إنما هو مسلم يتمسک بحب أهل البيت و لا يناصبهم العداء، شأن أهل زمانه من السنّة. و إن نظرة دقيقة من القارئ إلى قول الشّافعى: (ما الرفض دينى و لا اعتقادى) مع ملاحظة أنّ سبب تسمية الشيعة هو رفضهم للخلفاء و الخلافة توقفه بوضوح، على أنّ الشّافعى نفسه ينكر الرفض و الاعتقاد به، و أنه لم يزل يتمسک بمبدإ التسنن. غير أنّه ينكر على مجتمعه إطلاق (لفظ رافضى) على محب على و آله، لعلمه بأن مجرد الحب لا يعنى التشيع، طالما كان التشيع ملزوما بالاعتراف لعلى بالوصاية و أحقيته بالخلافة و أهليته للإمامة و لزوم اتباعه. و لهذا قال على سبيل الفرض: إن كان رفضا حب آل محمّد فليشهد الثقلان أنى رافضى

فالشّافعی لا یبالی بتلک التهمـة التی وجّهت إلیه، لأنه کان یری أن حب آل محمّد فرض علی الأمة الإسـلامیة. یدلّنا علی ذلک قوله: یا آل بیت رسول اللّه حبکمو فرض من اللّه فی القرآن أنزله

و هو یشـیر بـذلک إلی قوله تعالی: قُلْ لا أَسْـَٔلُکُمْ عَلَیْهِ أَجْراً إِلاَّ اَلْمَوَدَّةَ فِی اَلْقُرْبی و بهذا قد اتضح لنا رأی الشّافعی و عرفنا نزعته، فهو محب لأهل البیت و لیس بشیعی. و مما یؤید ذلک أن الشیعة لم تدع هذه الدعوی و لم تدخله فی قائمة علمائها، لأن أمره واضح و مبدأه بیّن. إذا، فالشّافعی بریء من هـذه التهمـة. هـذا ما استخلصـناه علی سبیل الاسـتطراد و الاختصار. و إلی القارئ صورة من دفاع الشّافعیـة عن هـذه التهمة:

دفاع الشّافعیة:

قال الفخر الرازی: أما دعوی الرفض فباطلـة، لأنه قـد اشـتهر عنه أنه کان یقول بإمامة الخلفاء الراشدین، و کان کثیر الطعن فی الروافض، قال یونس بن عبد الأعلی: سـمعت الشّافعی یقول: أجیز شهادة أهل الأهواء کلهم إلاّ الرافضة فإنهم یشهدون بعضهم لبعض. و قال یونس: کان الشّافعی یعیب الروافض و یقول: هم شـر عصابة. و أما مدح علی و حبّه و المیل إلیه فذلک لا یوجب القدح، بل یوجب أعظم أنواع المدح. و أمـا طعن یحیی بن معین فـالجواب عنه، مـا روی البیهقی عن أبی داود السجسـتانی. أنه قیل لأحمـد بن حنبل: إن یحیی بن معین ینسـب الشّافعی إلی الشـیعة، فقال أحمـد: کیف عرفت ذلک؟ فقال یحیی: نظرت فی قتال أهل البغی فرأیته قد احتجّ من أوله إلی آخره بعلی بن أبی طالب. فقال أحمد: یا عجبا لک!!! فیمن کان یحتج الشّافعی فی قتال أهل البغی، فإن أول من ابتلی من هذه الأمة بقتال أهل البغی هو علی بن أبی طالب. قال: فخجل یحیی من کلامه. و أیضا فإن یحیی بن معین کان شدید الحسد للشافعی، و کان یلوم أحمد بن حنبل علی تعظیم الشّافعی. و لما سمع الشّافعی أن بعض الناس رماه بالتشیع أنشد و قال: إذا نحن فضّلنا علیا فإننا روافض بالتفضیل عند ذوی الجهل

و فضل أبی بکر إذا ما ذکرته رمیت بنصب عند ذکری للفضل

فلا زلت ذا رفض و نصب كلاهما أدين به حتى أوسّد فى الرمل

(1)

مذهبه و انتشاره:

كانت مصر هى المكان الذى صدر عنه المذهب الشّافعى و منه انتشر فى الأقطار، و ذلک بفضل جهود تلامذته المخلصين الذين شغلوا الناس عن دراسة المذهب المالكى و المذهب الحنفى. و كانا قد انتشرا هناک. قال السبكى فى الطبقات عن مصر و الشام بالنسبة للمذهب الشّافعى: هذان الإقليمان مركز ملک الشّافعية، منذ ظهر المذهب الشّافعى، اليد العالية لأصحابه فى هذه البلاد، لا يكون القضاء و الخطابة فى غيرهم، أما الشام فقد كان مذهب الأوزاعى حتى ولى القضاء أبو زرعة محمّد بن عثمان الدمشقى الشّافعى. و يقول: كان (محمّد بن عثمان) رجلا رئيسا، يقال أنّه هو الذى أدخل مذهب الشّافعى إلى دمشق، و أنه كان يهب لمن يحفظ مختصر المزنى منه مائة دينار. و على أى حال، فإن المذهب الشّافعى كانت بذرته الأولى فى مصر، و منها انتشر بفضل جهود أصحاب الشّافعى، و لو لا هم لكان أثرا بعد عين، و لكان مصيره مصير مذهب الليث بن سعد، الذى لم يتهيأ له أصحاب مخلصون يقومون بنشره. و لعل أهم العوامل التى هيأت للشافعى أسباب النجاح فى مصر هى كما يلى: 1-أنّه كان معروفا بأنه تلميذ مالک و خريج مدرسته، و كان لمالک هناک ذكر و لمذهبه انتشار فقوبل بالعناية، و ذلک قبل إظهاره المعارضة لمذهب مالک و الرد عليه. 2-نشاط الشّافعى و علو همته و تفوقه بالأدب و معرفة اللغة، و إحاطته بأقوال مالک و أهل العراق. و ما عرف عنه أنّه كان ينتصر لأهل الحديث، و يرد على أهل الرأى. 3-اشتهار قرشيته و اعتصامه بالانتساب للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و هذا له أثره فى قلوب المصريين. 4-صلته بحاكم مصر الجديد عبد اللّه بن العباس بن موسى، و معرفته به يوم

1- 1) مناقب الشّافعى للرازى ص 51-52.

كان بمصر، و أنّه سافر معه عند تعيينه، أو أنه حمل له وصية من الخليفة فى بغداد. 5-اختياره فى النزول عند أقوى بيت فى مصر و أعزهم جانبا، و هم بنو الحكم، و التفاف أعيان أصحاب مالک حوله، كأشهب و ابن القاسم و ابن المواز و غيرهم. تغلّب المذهب الشّافعى على المذهب المالكى بمصر بعد أن كان هو السائد و له السلطان هناک. و قد ذكرنا مقابلة أنصار المذهب المالكى لأصحاب الشّافعى: و تمت له الغلبة هناک أيام الدولة الأيوبية، لأنّهم كلهم شوافع إلاّ عيسى بن العادل (1)سلطان الشام، فإنّه كان حنفيا، و لم يكن فى هذه الأسرة حنفى سواه، ثم تبعه أولاده، و كان شديد التعصّب لذلک المذهب، و يعده الحنفية من فقهائهم، و له شرح على الجامع الكبير فى عدة مجلدات. و لما خلفت دولة المماليک البحرية دولة الأيوبيين لم تنقص حظوة المذهب الشّافعى، فقد كان سلاطينها من الشّافعية إلاّ سيف الدين، الذى كان قبل بيبرس، فقد كان حنفيا، و لكن لم يكن له أثر فى الدولة لقصر مدته.

1- 1) عيسى بن سيف الدين الملک العادل أبى بكر بن أيوب، ولد فى القاهرة سنة 576 ه. و ملک دمشق ثمان سنين و أشهر، و مات سنة 624 ه و كان متغاليا فى التعصب لمذهب أبى حنيفة. قال له والده: كيف اخترت مذهب أبى حنيفة و أهلک كلهم شوافع؟ فقال: أ ما ترغبون أن يكون فيكم رجل واحد مسلم. و هو قد صنّف كتبا كثيرة منها: السهم المصيب فى الرد على الخطيب. ترجمته فى الفوائد البهية ص 151.

تعقيب و تصويب

و بعـد هـذا العرض لأخبار الشّافعى و آثاره نود أن نسـجل بعض الملاحظات إتماما لتصوير الشّافعى الفقيه و عهده فنقول: إن قضـية ادعاء الأفضلية فى العلم و التفرّد فى الفقه لرؤساء المذاهب أو غيرهم أصبحت قضية متعلقة بروح التعصب و العداء تجرى مجراها، و لو انعدمت هـذه الروح و لم توجـد الأعراض التى خلقت الفرقـة و التعدد لما اسـتخدمت أساليب الوضع و اتخاذ البشائر و المقامات بدلا من موازين العلم و معـاييره. فالعـالم بآثاره و أعماله و من صـفاته العزوف عن التظاهر أو إعلان التفوق إنما يزداد العالم منزلـة بزيادة علمه و يعلو شأنه بعلو كعبه فى ميدان التصـنيف و إحياء الآثار، و لا تتحقق الأفضـلية بالادعاء أو الحجب عن الآخرين. و مما يجعل هذه القضـية قضية غير موفقـة أو غير ناجحـة هو وضـعها فى جملة وسائل التحكم أو التأثير فى معتقدات الناس أو أفكارهم، فالأمر العلمى يمضـى بخصائصه من دون حاجـة إلى دعوى لا برهان عليها. على أن العلماء أنفسـهم يندر أن يصدر منهم شخصـيا مثل ذلک، و لكن الأعوان أو مصالح الحكام هى التى تقف وراء مثل هذه الادعاءات و نموها لأن العالم الحق بقوة إيمانه و ورعه و بتحصيله و عطائه تصان مكانته و يصون نفسه.

حول تمييز الشّافعى:

إن مـا بأيـدينا من أخبـار الشّـافعى و مـا وقفنا عليه من آثاره، و ما يحكيه هو عن نفسه، لا يـدل على ما يـذهب إليه الشّافعيـة من القول: بأن الشّافعى هو أعلم الأمـة. أو فوق علمائها أجمع، و أنه أعلم قريش و أشـهرهم ذكرا، بل العلم بالكتاب و السـنّة له دون غيره، فى عصـره و قبل عصره، كما جاء فى آداب الشّافعى لابن أبى حاتم الرازى

عن عبد الرّحمن قال: سمعت دبيسا يقول: جئت إلى حسين الكرابيسى فقلت له: ما تقول فى الشّافعى؟ فقال: ما أقول فى رجل ابتدأ فى أفواه الناس الكتاب و السنّة، نحن و لا الأولون حتى سمعنا من الشّافعى الكتاب و السنة و الإجماع (1). و يقول السبكى فى وصفه إنه: الإمام الأعظم المطلبى، و العالم الأقوم ابن عم النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم؛ فإنه عالم قريش الذى ملأ اللّه به طباق الأرض علما، و رفع من طباقها إلى طباق السّما بذاته الطاهرة من هو أعلى من نجومها و أسمى، و أثبت باسمه فى طباق أجزائها اسم من يسمع آذانا حما، و من لو قالت بنو آدم: علمه اللّه الأسماء: كما أبرز منه لكم أبا و من تصانيفه أمّا، و الحبر الذى أسّس بعد الصحابة قواعد بيته-بيت النبوة-و أقامها، و شيّد مبانى الإسلام بعد ما جهل الناس حلالها و حرامها و أيّد دعائم الدين (2). و أمثال هذا كثير، و نحن لا نثب معهم هذه الوثبة، بل نقف عند حدود الواقع و لا نأخذ هذا بعين الاعتبار بدون تثبّت، مع العلم بأن هذا بعيد عن الواقع. و لا نفهم من ذلك الاندفاع لتصوير شخصية الشّافعى إلاّ التعصّب. و نحن حين نتعرّض لأمثال هذه الأمور إنما نقصد إعطاء صورة عن ذلك التدرج إلى إعلاء مكانة الشخص، طلبا للتفوق فى ظروف التدافع و التقابل و تلاحى كل فريق مع منافسه. بدون التفات إلى مؤاخذة عند مخالفة الواقع. و اتخذ سبيل انتحال الأقوال و نسبة المديح إلى رجال معروفين لتحقيق التفوق. و لكن التدقيق و التمحيص يكشفان حقيقة الادعاء. و إليك مثلا من ذلك: يروى ابن عبد البر بسنده عن سويد بن سعيد قال: كنا عند سفيان بن عيينة بمكة، فجاء رجل ينعى الشّافعى و يقول: إنه مات. فقال سفيان: إن مات محمّد بن إدريس، فقد مات أفضل أهل زمانه (3).

1- 1) المناقب ص 57.

2- 2) طبقات الشّافعية ج 1 ص 343.

3- 3) الانتقاء ص 70.

هذا ما ورد فی مناقب الشّافعی، و إذا أردنا أن نقف وقفة قصیرة لاستجلاء الواقع فسیتضح لنا کذب هذا القول: لأن وفاة سفیان کانت سنة 198 ه فی جمادی الآخرة أی قبل وفاة الشّافعی بستة سنین و أشهر، مع أن سوید بن سعید هو البورقی- راوی هذا القول-کان من أکذب الناس، و ممن یضع الحدیث، کما نص علماء الرجال علی ذلک.

التناقض فی التصویر:

و هناک أقوال لا بدّ لنا من عرض بعضها و النظر إلیها بدقّة و تمحیص: جاء عن أحمد بن حنبل أنّه کان یقول: إن هذا الذی ترون (أی العلم) کله أو عامته من الشّافعی. و یقول المیمونی: قال لی أحمد بن حنبل: ما لک لا تنظر فی کتب الشّافعی؟ ما من أحد وضع الکتب منذ ظهرت أتبع للسنة من الشّافعی. و روی أبو نعیم فی مناقب الشّافعی: أن أحمد قال لیحیی بن معین: إن أردت الفقه فالزم ذنب البغلة (أی بغلة الشّافعی) (1). هذا و أمثاله ترویه کتب الشّافعیة. و حینما نطمئن إلی هذا النقل مدة قصیرة، لا نلبث أن نواجه ما یخالفه و یناقضه من الجانب الآخر. قال أحمد بن الحسن الترمذی: سألت أبا عبد اللّه أحمد بن حنبل أ أکتب کتب الشّافعی؟ فقال: ما أقل ما یحتاج صاحب حدیث إلیها (2). و قال أبو بکر المروزی: قلت لأحمد بن حنبل: أ ترى الرجل یکتب کتب الشّافعی؟ قال: لا. قلت: أ ترى أن یکتب الرسالة؟ قال: لا تسألنی عن شیء محدث. . . و قال أیضا: قال أحمد: لا تکتب کلام مالک، و لا سفیان، و لا الشّافعی (3). و نحن لا یدهشنا التناقض بعد وقوفنا علی الأصل الذی أثر علی الآراء و الحقائق، و بعد ما سمعنا فی مدح الشّافعی و غیره بما هو أکثر من هذا، و فی انتقاصه بما هو أعظم کالحدیث الذی یرویه أحمد بن عبد اللّه الجویباری عن عبد بن معدان

1- 1) توالی التأسیس ص 57.

2- 2) طبقات الحنابلة ج 1 ص 38. [1]

3- 3) طبقات الحنابلة ج 1 ص 57. [2]

عن أنس عن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: یکون فی أمّتی رجل یقال له محمّد بن إدریس أضر علی أمتی من إبلیس، و یکون فی أمتی رجل یقال له أبو حنیفة هو سراج أمّتی (1). و أحمد بن عبد اللّه الجویباری أمره مشهور و حاله معروف فی وضع الأحادیث. و قد استخدموه لصالح التعصب و التنافس. فهذه التیارات من الجانبین تستدعی الوقوف و التریث. و بهذا لا نصغی لأقوال المندفعین وراء العاطفة کقول أحمد بن یسار: لو لا الشّافعی لدرس الإسلام (2). و قول البرذعی: سمعت أبا زرعة یقول: ما أعلم أحدا أعظم منّة علی أهل الإسلام من الشّافعی. و یقول أحمد بن سنان: لو لا الشّافعی لا ندرس العلم (3). و لو أردنا أن نبحث بدقّة عن هذه الأقوال و غیرها لمعرفة نصیبها من الصحّة فالأمر لا یحتاج إلی تکلّف. بعد أن وقفنا علی المبادئ الأساسیة التی دعت إلی وضع هذه الأقوال، و أهمها ثورة العواطف و تیار التعصب. و ما لنا نستغرب أو نستکثر علی أصحاب الشّافعی هذه المغالاة فی مؤسّس فقههم و رئیس مذهبهم و نحن نری أصحاب أبی حنیفة لم یقصروا عن هذه الخدمة فی حق إمامهم؟ ! و بهذا استوت کفة المیزان فی کل ما ورد من مبالغات معتنقی المذاهب، کالحنفیة فی حدیث: أبو حنیفة محیی السنّة. و المالکیة فی حدیث: عالم المدینة. و الشّافعیة أیضا فی حدیث: عالم قریش. فجعلوا العلم وقفا علی شخصیة الشّافعی دون غیره من قریش، و حصروه علیه بمعناه الکامل-إن صح الحدیث-و إلاّ فهو موضوع من قبل المتعصبین کغیره من الأحادیث و المناقب التی کثیرا ما تبدو فی مظهر جد برّاق خلاب، و مما یؤید ذلک أن ذوی الاستقامة من علماء المذاهب لم یجعلوا لأکثرها و زنا کبیرا من الاعتماد و الاحتجاج. أما الحنابلة الذین لم یستطیعوا خلق حدیث فی إمامهم، فإنهم اعتمدوا علی

1- 1) اللآلئ المصنوعة للسیوطی ج 1 ص 217.

2- 2) توالی التأسیس ص 71.

3- 3) توالی التأسیس ص 61.

الأطياف، فوضعوا عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كثيرا من ذلک و سيأتى بيانها، و هى أمور كان مبعثها احتدام النزاع الطائفى الذى أصبح ميدانا للخلاف و محورا للتخاصم آنذاک. نقول هذا بدون طعن على أولئک الرجال، و لا حطّا من كرامتهم، لأن الواقع الذى نلمسه من سيرتهم و ما طبعوا عليه يقضى علينا ببراءتهم من ذلک الادعاء الأجوف. و قد دلّت آثارهم على خلاف ما يذهب إليه المتعصّبون لهم. و قلنا إن العالم بآثاره و أسفاره و من صفاته البحث فى العلم و ليس البحث عن التفوق، و لا ادعاء الأفضلية لأن العلم ما تشهد به الحقائق.

مذهبه الفقهى:

إذا أردنا أن نقف على مدى نشاط الشّافعى فى فقهه، فلا نستطيع تحديد ذلک بعد أن وقفنا على نشاط أصحابه و تلامذته الذين نما المذهب بجهودهم و اجتهادهم بكثرة التخريج. و لهم آراء كثيرة و أقوال متعددة اجتهدوا فيها، و لم يؤثر عن الشّافعى نص فيها، و نسبوا الجميع إليه و عدّت من مذهبه، و هم و إن كانوا لا يقولون إنها أقوال الشّافعى، لكنهم يقولون إنها أوجه بمذهبه. و بفضل جهود أصحابه قد (اكتسب المذهب من البيئات المختلفة و الأحوال الاجتماعية المتباينة و الشؤون الاقتصادية المتخالفة الشىء الكثير، مما كان يتأثّر به المجتهدون عند تخريجهم للمسائل، إذ كانوا بلا ريب متأثّرين ببيئاتهم الجغرافية و الاجتماعية و الاقتصادية، و إنک لو درست ذلک المذهب على ضوء هذا، و فحصت الآراء بين المختلفين على ذلک النور لعلمت أثر البيئات فى أقوال المختلفين و آراء المتنازعين، و إن الذين يدرسون فروع ذلک المذهب بل فروع المذاهب المختلفة، درسوها منسوبة لأصحابها، و عرفوا البيئات المختلفة؛ فإنّهم حينئذ يرون تلک الآراء صورا صادقة لعصورها، حاملة ألوانها و منازعها الاجتماعية و الاقتصادية و أعراف الناس فيها) (1). و قد نشأ فى عصور الاجتهاد و حرية الفكر رجال لهم الأثر العظيم فى التخريج وسعة دائرة المذهب كالأسفرائينى الذين قالوا فى حقه: إنه أنظر و أفقه من الشّافعى؛

1- 1) الشّافعى لمحمّد أبو زهرة 264.

و مثـل القفّال و أبو العباس و غيرهم ممن اشـتهر بالاجتهاد المطلق و نسب إلى الشّافعى، و لهم الفضل فى التخريـج للمسائل. و لما أغلق باب الاجتهاد أصـبح المـذهب مقصورا على دراسـة أقوال المتقدمين، و المحافظة على ما ورثوه عنهم، و اسـتخراج الفتاوى و الأحكام من بين الأقوال المختلفـة و الآراء المتنازعـة. و بمجموعها قد تكوّن المذهب الشّافعى. و على أى حال؛ فإنا لا نسـتطيع تحديد فقه الشّافعى من أقواله و آرائه بعـد ما أصـبح المـذهب المنسوب إليه، مجموعـة أقوال أئمة مختلفين متباعدة أوطانهم مختلفة آراؤهم، و ضـمن تلك الأقوال انضمت أقوال الشّافعى و آراؤه، و لا سيما أكثر المؤلّفين قد نسبوا ما ألّفوه للشافعى طلبا للقبول و دعاية للرواج.

نهيه عن مذهبه القديم:

إن من أهم الظواهر التى لاحظناها عند دراستنا لحياة الشّافعى هى نهيه عن الأخذ بمذهبه القديم الذى أفتى فيه ببغداد، فأصبح المعوّل على ما أفتاه فى مصـر، و مثل هذا التطور يوجد لنا إحجاما عن تحقيق ذلك التكامل فى تلك المدة القصـيرة، التى لا تسـمح لمثله من البشر أن يبلغ تلك الدرجـة التى ادعيت له فى بلوغ أعلى منزلـة علميـة، مع وجود شواغل و موانع تحول بينه و بين اسـتخدام قوته و اسـتعمال فطنته، لاسـتنتاج مسائـل تكون شاملـة لأحكام قرون متواليـة. لقـد كان الشّافعى فى مصـر مشـغولا بمرضه الـذى اعتوره مـدة طويلـة، مع وجود مشاحنات و مقابلات بين أصـحابه و بين خصومهم من المالكية، بالإضافة إلى ما وصـفوه به من طول العبادة و التهجد. يضاف إلى ذلك ما كان يعلوه من دين لعسـر حاله، فيقال: إنه مات و عليه من الـديون سـتون ألف دينار. و هـذا له أثره فى الطبيعـة البشـرية، إذ هو بحكم الطبع الإنسانى شاغل مجهـد، مع أن الشّافعى معروف ببلاغته و معرفته بلغـة العرب و أشـعارهم، و كان هو ينظم الشـعر الرائق أيضا، و قـد التف حوله كثير من طلاّب مصـر لمعرفـة الآداب و اكتسابها منه. إلى آخر الأمور التى وصـفوه بها، و بطبيعـة الحال إن ذلك يوجب التوقف عن إعطاء الحكم بما يـدّعونه له، و كان اللازم أن نوفق بين تلك الروايات الدالة بمنطوقها على تكامله و اسـتعداده و تفوقه الاجتهادى من صـغر سنّه، و بين نهيه و تحريمه لمذهبه القديم، لأن هذا التطور الغريب يستلزم

الاستغراب فی تحقیق ذلک التکامل. و نظرا لضیق المجال أرجأنا الکلام حول هذا الموضوع إلی محل آخر.

الخصومة المذهبیة:

لقد أصبح الخلاف فی المذاهب میدانا للنزاع و محورا للتخاصم و مثارا للفتن، و قد تعرضنا لکثیر من ذلک، مما یوضح للقارئ النبیه أن الکثیر منهم قد استساغ الوقیعة بمن یخالفه فی المذهب، و کانت المعرکة الجدلیة بین الحنفیة و الشّافعیة أکثر منها بین سائر المذاهب، حتی خرج الأمر عن حدود الجدل إلی الحروب الدمویة، مما أدّی إلی خراب البلد من جراء هذا الخلاف. یقول یاقوت-عند الکلام علی (أصفهان) بعد أن ذکر مجدها القدیم-: و قد فشا فیها الخراب فی هذا الوقت و قبله. و فی نواحیها، لکثرة الفتن و التعصّب بین الشّافعیة و الحنفیة، و الحروب المتصلة بین الحزبین. فکلما ظهرت طائفة نهبت محلة الأخری، و أحرقتها و خربتها، لا یأخذهم فی ذلک إلّ و لا ذمة. و مع ذلک فقلّ أن تدوم بها دولة سلطان، أو یقیم بها فیصلح فاسدها. و کذلک الأمر فی رساتیقها و قراها التی کل واحدة منها کالمدینة. و یقول عند وصفه للرّی و وقوع العصبیة بین الحنفیة و الشّافعیة: و وقعت بینهم حروب کان الظفر فی جمیعها للشافعیة، هذا مع قلة عدد الشّافعیة، إلاّ أن اللّه نصرهم علیهم. و کان أهل الرستاق-و هم حنفیة-یجیؤون إلی البلد بالسّلاح الشاک و یساعدون أهل نحلتهم، فلم یغنهم ذلک شیئا حتی أفنوهم (1). و لشدة الخلاف و الجدل بینهم ألّفت الکتب فی بیان الخلاف بین أبی حنیفة و الشّافعی، و نشأ من ذلک علم یسمی (آداب البحث و المناظرة) یقصدون منه الشروط التی یتبعها المجادل فی جدله، إذ أصبح الأمر فوضی. و قد ذکر الغزالی شروطا ثمانیة لا یسع المجال ذکرها. و علی أی حال، فإن ذلک التعصب کان من نتائجه ذلک الاندفاع و الإغراق فی المدح، بحق و بغیر حق، إذ لم یضعوا الأمور فی نصابها بالتجرد عن الأهواء و العاطفة، مما شوّه وجه الحقیقة، فأوجد صعوبة کبیرة فی تمحیص الأخبار التی اشتملت علیها المناقب، و بالأخص کتب الشّافعیّة و الحنفیة للأسباب المتقدمة، لأنّها

1- 1) معجم البلدان ج 4 ص 356. [1]

غير متناسقة و لا متماسكة، لذلک اقتصرنا فی دراسة حياة الشّافعی علی العرض التأريخی. و نقف عند هذا الحد من البيان عن تاريخ حياته، و سنعود إن شاء اللّه تعالی إلی استعراض آرائه.

نتائج الخلافات المذهبية:

و قبل الختام أود الإشارة بإيجاز إلی أن تلک الخلافات المذهبية و النعرات الطائفية قد أوجدت الفرقة بين المسلمين، و كادت تكتسح صروح مجدهم المؤثل، لو لا عناية اللّه تعالی و لطفه بالإسلام و أهله، و لم يكن منشأها سوی وجود الأيدی العابثة من الفئة الفاسدة أو من الذين دخلوا فی الإسلام-لا رغبة-بل للوقيعة بأهله، فإذا بهم و قد فسحت السياسة لهم المجال ليحققوا سويا الأهداف التی لا تتحقق مع وحدة الكلمة و لا تنال إلاّ بالفرقة، و تحكيم قانون (فرّق تسد) . فكانت المؤامرات و الدسائس تحاک من قبل خصوم الإسلام باتخاذهم شتی الأساليب فی تفريق صفوف الأمة. و قد أفصح التأريخ عن كثير من تلک الحوادث المؤلمة و الوقائع المفجعة، التی أثارها أعداء الوحدة الإسلامية فی شتی الظروف السالفة. و لقد مرت أحقاب من تلک الحياة المضطربة و الأدوار المظلمة و المسلمون فی نزاع و تخاصم، كلّ يريد أن يكيل صاع الانتقام للآخر، فكان من ذلک أن أريقت الدماء، و نهبت الأموال بدون مبرر. و بهذا وجدت الأمم المغلوبة غايتها المنشودة، فعملوا بكل إمكانياتهم فی زيادة التوتر بين طوائف المسلمين، و لم يسعد المسلمون بيقظة فی زمن ما، فيستقبلوا أمرهم بفكر ثاقب و حرية رأی و تجرد عن العواطف، ليرفعوا ذلک الستار الأسود و يقطعوا تلک الأيدی العابثة، التی حملت لهم معاول الهدم و أدوات التخريب أحقابا و قرونا. و لو رفع الستار لزال الخلاف، و أوقف ذلک الصراع الناتج من وراء التعصب الجنونی، و الجهل بالأمر الواقع، و لكان باستطاعة المسلمين أن يوحدوا صفوفهم ليقفوا فی وجه الخصم موقفا مشرفا فی سبيل المحافظة علی العقيدة و الدين، و لهدأت تلک الضوضاء التی ذهبت فيها أصوات المصلحين مع الرياح. و لأصبحنا خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنّاسِ كما وصفنا القرآن الكريم.

قلت لو رفع السـتار: لنظر بعضـنا إلى بعض نظر مودة و أخوّة بدلا من نظرة البغض و الكراهية. و لزالت تلك الرواسب التى أوجدتها عصور التطاحن و التعصّب لتكون عقبـة كئودا فى طريق وحـدة المسـلمين. هـذا و قـد مرّت العصور و ذهبت الأيام بما فيها غير مأسوف عليها، و نحن أبنـاء اليوم، فهـل لنا أن نشـعر بوجود تيارات دوليـة تعمل فى السـر و العلن، و تتكالب على السـيطرة و الاسـتعمار؟ ! و إن خير طريق لمعالجـة الوضع هو الشـعور بالمسؤولية تجاه الدين و الوطن، لندرک الحقيقة الناصـعة و نقف على الأمر الواقع و نكون كما أمر اللّه تعالى دعاة خير موحدين وَ لْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى اَلْخَيْرِ أو وَ اِعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اَللّهِ جَمِيعاً وَ لا تَفَرَّقُوا ؟ . و هذا ما تيسّر لنا-بعونه تعالى-بيانه، و نسأله تعالى أن يوفقنا لإكمال بقية الأجزاء إنه سميع مجيب. و قد أرّخ نخبة من العلماء لكتابنا الإمام الصّادق و المذاهب الأربعة، ننشر منها ما وردنا من سماحة العلاّمة الشيخ على السماوى: تحفتک الغراء قد أصبحت بمفرق التأريخ إكليلا

ففقت أقرانک فيها بما أمليت إجمالا و تفصيلا

سفر به حبلک قد صار فى حبل رسول اللّه موصولا

و حزت خيرا فيه و الخير ما قد كان عند اللّه مقبولا

فزت بمسعاک لتحقيق ما حق و أبطلت الأباطيلا

و من سنى الصادق قد أشرقت به براهينک تدليلا

لو النصارى قرأته لما تلت بدنياها الأناجيلا

يا أسد الفضل و من لم يزل يحلل الأبحاث تحليلا

تاريخک العذب بسلساله فاق الفرات العذب و النيلا

أيّدک العلم فدم سالما عضبا بوجه الجهل مسلولا

حسبک من سفرک أنى به أرتل الإطراء ترتيلا

حيث وجدت فيه ما أبتغى (و فوق ما قد كان مأمولا)

حق لک الإطراء فيه بما عانيت-ترحيبا و تبجيلا

و حق إعظامک فیه بما أحسنت تحلیلا و تأویلا

نال الأمانی الغر من قد غدا بالعلم و التأریخ (مشغولا)

1377 ه و من صدیقنا الأستاذ الکبیر المؤرّخ السید محمّد الحلی: هذا کتاب قد حوی کنزه مباحثا نافعة ممتعه

أبحاثه جاءت لمن أنصفوا دلائلا واضحة مقنعه

نمّقها من أسد مزبر لان مع الخصم لکی یقنعه

و یوضح الحق جلیا کما لم یخط فی تألیفه موضعه

فهنّه و الثم و أرّخ فما (یحکی عن المذاهب الأربعه)

1377 ه و من صدیقنا الأستاذ الخطیب السید علیّ الهاشمی: خیر سفر أظهر الحق لنا (أسد) فیه و للزور محق

فتصفّحه و بالتاریخ (قل مذهب الصّادق بالإسلام حق)

1377 ه (انتهی الجزء الثالث بحمده تعالی)

الجزء الرابع

اشارة

ص:255

بِسْمِ اَللّهِ اَلرَّحْمنِ اَلرَّحِيمِ

(وَ مَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعا إِلَى اَللّهِ وَ عَمِلَ صالِحاً وَ قالَ إِنَّنِى مِنَ اَلْمُسْتَسْلِمِينَ. وَ لا تَسْتَوِى اَلْحَسَنَةُ وَ لاَ اَلسَّيِّئَةُ اِدْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا اَلَّذِى بَيْنَكَ وَ بَيْنَهُ عَداوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ. وَ ما يُلَقّاها إِلاَّ اَلَّذِينَ صَبَرُوا وَ ما يُلَقّاها إِلاّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ. وَ إِمّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ اَلشَّيْطانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ إِنَّهُ هُوَ اَلسَّمِيعُ اَلْعَلِيمُ

[صدق اللّه العلى العظيم]

ص:257

تقديم و بيان

اشارة

>بسم اللّه الرّحمن الرّحيم<

نوعية البحث:

يتضمن هذا الجزء، و هو الجزء الرابع من كتابنا الإمام الصّادق و المذاهب الأربعة، لمحة موجزة عن حياة الإمام الصّادق، و نبذا من تعاليمه، و أخلاقه، و آدابه، ثم تاريخ حياة الإمام أحمد بن حنبل. و قد اقتصرت على ذكر نسبه و شيوخه، و أهم حوادث عصره: كمشكلة خلق القرآن و غيرها. و هذه الحادثة هى من أهم الحوادث التى أثارت صراعا فكريا، و جدلا بين المسلمين أعقبه عداء بين الطوائف، ذهب ضحيته خلق كثير. و قد اكتفيت بالإشارة إليها فى موجز من البيان فى هذا الجزء. لكثرة ما كتب فيها و ما ذكر عنها، لأنّها كانت العامل الوحيد فى شهرة أحمد و طلوع نجمه، و سنبحثها فى الجزء السابع فى جملة الأسباب و العوامل التى أثّرت فى المجتمع الإسلامى. كما أنى أشرت إلى أعيان مذهبه و ناشريه، و حملة فقهه و المؤلّفين فيه. و لم أهمل ذكر بعض القضايا الهامة التى تعطينا صورة لها علاقة بموضوع البحث عن الإمام أحمد و مذهبه، كما أهملت الكثير من القضايا التى نقلت عنه من مناقب و مآثر، و أشياء لا تصلح أن تكون تاريخا نستمد منه معلومات خليقة بأن تكشف لنا عن نواحى شخصيته، لأننا نحاول أن نتعرّف عليه عن طريق الواقع، و من ضوء الحوادث التأريخية التى لا صلة لها بالمؤثّرات التقليدية و المنازعات الطائفية.

منهج البحث:

و قد نهجت فى هذا الجزء ما نهجته فى الأجزاء السابقة من الابتداء بذكر الإمام الصّادق، ثم ذكر واحد من أئمة المذاهب الأربعة.

فذكرت الإمام أبى حنيفة فى الأول، و مالكا فى الثانى، و الشّافعى فى الثالث، و أحمد بن حنبل فى هذا الجزء. و خصّصت الجزء الخامس لأهم المسائل الفقهية المتفق عليها، و المختلف فيها من المذاهب الأربعة، و مذهب الإمام جعفر بن محمّد الصّادق عليه السّلام مع استدراک ما فاتنا بيانه فى تلک الأجزاء المتقدمة عليه. و قد نبهت بأن ترتيب ذكرهم بهذه الصورة إنما هو حسب الرتبة الزمنية لا الرتبة العلمية. فإن الحكم لواحد من الأربعة بالأعلمية هو من الصعوبة بمكان، لوجود الخلاف و الاختلاف، فأتباع كل إمام يدّعون أن إمامهم هو الأعلم و الأولى بالاتباع دون غيره، مستدلّين بالنقل و الاعتبار. و ساق كل فريق-عدا الحنابلة-أحاديث عن النبى جعلوها دليلا على لزوم اتباع ذلک الإمام و مبشّرة به تصريحا أو تلميحا. فالحنفية يروون فى كتب مناقبهم أحاديث: يكون فى أمتى رجل يقال له أبو حنيفة هو سراج أمتى. و فى لفظ آخر: يكون فى أمّتى رجل اسمه النعمان و كنيته أبو حنيفة. و فى لفظ ثالث: اسمه النعمان بن ثابت. و نحن لا نقف هنا مع هذه المرويات موقف تمحيص و تدقيق بعد أن وقفنا معها فى الجزء الأول، فأوضحنا هناک للقارئ نصيبها من الصحة. و لم نحجم عن التصريح بأنها مكذوبة و أنها من وضع رجال أجمع علماء الرجال على تجردهم من الصدق، كما نصّ الكثيرون من علماء الحنفية على كذب هذه الادعاءات و نفوها نفيا باتا. و ادّعت المالكية انطباق حديث: يوشک أن يضرب الناس أكباد الإبل فلا يجدون عالما أعلم من عالم المدينة. و قد أطال القاضى عياض فى (ترتيب المدارک) القول فى الحديث و روايته و رواته بانطباقه على مالک دون غيره، و أن السّلف فهموا ذلک. و عدّ هذا من معجزات النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و إخباره بالمغيبات. و قد أصبح عند المالكية من المسلّمات، و أكثر حفّاظ الحديث قالوا: إن هذا الحديث من اختصاص المالكية دون غيرهم، و منهم من وهّنه مرة، و نفى انطباقه على مالک مرة أخرى. لوجود علماء فى عصر مالک كانت المدينة تزخر بهم، و هم أعلم منه بل هم أساتذته: كسعيد بن المسيب، و عبد العزيز العمرى، و محمّد بن مسلم

الزهری، و ربیعة الرأی و غیرهم من شیوخ مالک الذین هم أعلم منه و أرقی درجة فی الفقه، و لو سمحت الظروف القاسیة للحقیقة الصامتة أن تنطق بالحق و تفوه بالواقع لما تخطت الإمام جعفر بن محمّد الصّادق علیه السّلام الذی هو أستاذ مالک و من شهد له مالک نفسه: بأن عینه ما رأت أعلم و لا أتقی من جعفر بن محمّد الصّادق. و أما الشّافعیة فدلیلهم فی النقل هو دعوی انطباق حدیث عالم قریش: یملأ الأرض علما. علی الشّافعی و ما ذلک إلاّ تخمینات مبهمة و فرضیات عقیمة، و قد تعرضنا له فی الجزء الثالث فی حدیثنا عن الشّافعی. أما الحنابلة فقد أهملوا طریق النقل و تمسکوا بالاعتبار، فلم یدّعوا وجود حدیث فی إمامهم یبشّر به و یفیض علی شخصیته قدسیة تؤهله لأن یتفرد بالعلم و لزوم الاتباع، و لکنهم اعتمدوا علی مبشرات الأحلام، فجعلوها محل اعتماد و من المرجحات للمذهب، و أنها بمنزلة الیقظة فیقولون: إن ما قاله رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی نوم أو یقظة فهو حق، و قد ندب صلّی اللّه علیه و آله و سلّم إلی الاقتداء به-أی بأحمد-فلزمنا جمیعا امتثاله (1). یشیرون بذلک إلی منامات یدّعی فیها أن سائلا سأل رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی النوم: من ترکت لنا فی عصرنا هذا من أمتک نقتدی به یا رسول اللّه؟ فقال: علیک بأحمد بن حنبل. و بهذا استوت کفتا المیزان فی طریق النقل کاستوائهما بین جمیع المذاهب فی طریق النقل و الاعتبار. فإنّهم جمیعا قد عقدوا فصولا مطولة فی الأحلام لإثبات فضائل أئمتهم، و جعلوها مصدرا من مصادر تاریخ حیاتهم، و میزانا من موازین عظمة شخصیتهم و طریقا لإثبات مفاخرهم. کما أننا نلمح فی مناقب الکثیر منهم اشتراکا فی المفاخر التی أثبتوها، و أن طابعها واحد لا یتغیّر و إن تغیّر الزمن، و قد تجنّبنا الخوض فی ذلک و ذکر الکلام حولها، إلاّ ما یتعلّق به غرض من أطراف البحث. و کثرت المنامات فی فضل أحمد حتی کان لها الأثر فی الأدب الحنبلی، فنظم الشعراء ذلک، یقول أبو الخطاب المتوفی سنة 476 ه: و عن مذهبی إن تسألوا فابن حنبل به أقتدی ما دمت حیا أمتع

و ذاک لأنی فی المنام رأیته یروح و یغدو فی الجنان و یرتع

(2)

1- 1) ذیل طبقات الحنابلة ج 1 ص 137.

2- 2) طبقات الحنابلة ج 1 ص 407. [1]

فهذا الرجل قد جعل المرجح لمذهب أحمد و الدليل على لزوم اتباعه هو حلم رآه، و هو: أنه رأى أحمد فى الجنّة. و مثل هذا كثير ستقف على البعض منه فى ترجمة أحمد. و على أى حال فإنا نقرأ فى تأريخ حياة أولئک الأئمة صفحات غامضة، و ألغازا معقدة، و زوائدا تتضمن غلوا فى المدح، و تجاوزا فى الإطراء، و مناقب حافلة بالغرائب و العجائب، يقف الباحث حيالها مدهوشا، و لكنه بعد أن يتوصّل إلى معرفة الأسباب التى أوجدت تلک الأوهام، و سبّبت ذلک الغموض تتضح له الحقيقة التى تبطل الأوهام. و لقد نهجنا فى بحثنا عن أئمة المذاهب نهجا وسطا، فلم نندفع مع المتعصبين لهم فنستوحى معلوماتنا عنهم بما لا صلة له بالواقع، و لا يكشف عن طابعهم الذى طبعوا عليه، و نهجهم الذى ساروا به، كما أننا لم نتنكر للحقائق شأن المتعصبين عليهم فى سلوک طرق ملتوية فرارا من الحقيقة و ابتعادا عن الواقع، فإن كلا من هذا و ذاک لا يكشف لنا عن الحقيقة التى نحاول الوقوف عليها فى دراستنا هذه. و قد التزمنا بأمانة النقل للحوادث التى أثرت فى نتائج المقارنة و الموازنة بينهم، فإنا لم ننته بعد من إجراء تلک العملية، و لا يمكن لنا ذلک إلاّ بعد التدقيق و التمحيص. و إنى بهذا العرض التأريخى الموجز آمل من ورائه أن أقف على مقدمات صحيحة النتائج.

التعصّب للمذاهب:

و كما قلت إن مشكلة التعصّب للمذاهب هى من أعظم المشاكل التى حلّت فى المجتمع الإسلامى فقد أدّت إلى تفرّق و تباعد فى صفوف المسلمين، بانتشار العداء بين الطوائف، و إثارة القلق من جراء الخلافات التى كوّنتها تلک الظروف القاسية، عند ما أصبح للآراء و الأفكار عصبية تشبه العصبية الجاهلية، و كل يحسب أن مذهبه هو الإسلام، و أن ما عداه انحراف لا يؤخذ به، و ضلال لا يلتفت إليه، و قد نهجوا نهجا أبعدهم عن روح الإسلام، حتى بالغ بعضهم فى طعنه لمن خالف مذهبه، كقول بعض الحنابلة: من لم يكن حنبليا ليس بمسلم. و قول الآخر: لو كان لى من الأمر شىء لأخذت من الشّافعية الجزية. و يقول آخر: لو كان لى من الأمر شىء لوضعت على الحنابلة الجزية. و كل هذه الأمور ترجع إلى عوامل سياسية، تحاول تفريق الصف

و جعل المسلمين فرقا و أحزابا، يشتم بعضهم بعضا، و قد تحكم التعصّب الطائفى فألقى على العيون غشاوة التمويه و الخداع. و بهذا فقد توالت الحوادث و تعددت الفتن. حتى أدّى ذلک التعصّب أن يجهل بعض الخطباء واجبهم الملقى على عواتقهم: من الدعوة إلى الإصلاح، و الألفة و المحبة، و اجتثاث جذور العداء و التشاحن. عند ما سلكوا طريق الفرقة و نشر الشغب و بث روح العداء. بقيامهم على المنابر يلعنون من خالفهم فى مذهبهم، مما أثّر فى نفوس العامة تأثيرا دفعهم إلى النهب و التخريب، و حرق المساجد و الأسواق، كما حدث فى كثير من البلدان الإسلامية فى سنة 554 ه و غيرها و مما عظمت به المصيبة و عرّض المجتمع إلى خطر ماحق، لأن صفة الخطباء محلها العلماء و الأخيار الذين ينظر إليهم المجتمع باحترام و تجلّه، و عليهم أن يرعوا رسالتهم الدينية لا- أن ينحرفوا هذا الانحراف، و قد أشرنا لذلک بإلمامة موجزة فى أبحاثنا السابقة. إن هذه الأمور المؤلمة هى التى فتحت باب التدخل لأعداء الإسلام فى صفوف الأمة ليحاولوا القضاء عليه و الوقيعة بأهله. و بمزيد الأسف أننا نتوارث ذلک الخلاف الذى أوجد الانقسام بيننا، و الفرقة فى صفوفنا، فأفقدنا تلک القوة و سلبنا ذلک السلطان الذى انتشر فى أرجاء المعمورة، عند ما خفق علم التوحيد فحطّم هياكل الشرک و معابد الوثنية، و نشر العدل على وجه البسيطة، و انبثق نور المحمدية يبدد سحب الظلام. و ينير للإنسانية طريقها. فأشرق وسط حلک الدياجير المظلمة يزيح حواجز الطريق التى تعترض سير قافلة الإنسانية الصاعد، راميا إيصالها إلى ربوع الخير و شاطئ النجاة، ليفرح المسلمون بذلک النعيم، فترفرف السعادة بدنياهم و يعم الرفاه فى أرضهم. و المسلمون وسط هذا الرخاء صفا متماسكا. فهل ندرک أثر ذلک الاختلاف؟ و هل يمكننا أن نعمل لإزالة ما خلّفه من أثر سيئ فى المجتمع الإسلامى؟ فلنطو صفحات ذلک التأريخ الأسود، و نتمسّک بتعاليم ديننا، و نسير على منهاجه، تاركين وراءنا خرافات سلف مخدوع و جيل طائش و ترسبات طائفية قذرة. و لا بد أن تعلو كلمة اللّه و يظهر دين الإسلام على الدين كله و لو كره المشركون. بهذا وعدنا اللّه، و إن اللّه لا يخلف الميعاد.

التحامل على مذهب أهل البيت:

و لقد ذكرت فى مقدمة الجزء الأول من هذا الكتاب، أن أهم الأسباب التى دعت إلى تأليفه، و تحمّل عناء البحث و مشقة التنقيب عن المذاهب. هو: تطرّف البعض بل تعصّبه على مذهب أهل البيت، فوصفهم بالشذوذ و مذهبهم بالبدعة. و هذا أمر لا مبرّر له و لا يذهب إليه عاقل. و لكن مؤثّرات التعصّب و عوامل السياسة العمياء قد وجهت الواقع إلى الوجهة المعاكسة، و دفعت المخدوعين و ذوى الأطماع لمعاداة أهل البيت، و رمى أتباعهم بكل ما يروق لهم أن يتقولوه. قال الرياشى: سمعت محمّد بن عبد الحميد قال: قلت لابن أبى حفصة ما أغراك ببنى على؟ قال: ما أحد أحب إلىّ منهم، و لكن لم أجد شيئا أنفع عند القوم منه: أى من بغضهم و التحامل عليهم (1). كان ابن أبى حفصة يتحامل على آل على و يكثر هجاءهم طمعا بجوائز العباسيين، لأنّهم شجعوا الناس على التحامل و البغض لأهل البيت، و قد أنشد ابن أبى حفصة قصيدة أمام المهدى يتعرّض فيها لآل على، فتزاحف المهدى من صدر مصلاه حتى صار على البساط، إعجابا بما سمع، و قال له: كم بيتا هى؟ قال: مائة بيت. فأمر له بمائة ألف درهم. و هذا النهج الذى سار بنو العباس عليه كان بنو أمية ينتهجونه، و هو إثارة الشعور ضد آل على، و معاقبة المعروفين بالولاء لهم، و لو كان أقرب الناس إليهم. يقول العبلى: شرّدوا بى عند امتداحى عليا و رأوا ذاك فىّ داء دويا

فو ربى لا أبرح الدهر حتى تختلى مهجتى بحبى عليا

و بنيه لحب أحمد إنى كنت أحببتهم لحب النبيا

حب دين لا حب دنيا و شرّ ال حب حب يكون دنياويا

صاغنى اللّه فى الذؤابة منهم لا ذميما و لا سنيدا دعيّا

و هذا الشاعر هو من بنى أمية، و لكنه كان يحب أهل البيت، فشرّدوه و طاردوه، و نفوه من البلاد.

1- 1) عقد الفريد ج 3 ص 287. [1]

و ما أكثر الشواهد التى احتفظ بها التاريخ من تلك الأساليب التى استعملها حكام تلك العصور. لتوجيه الناس فى طريق رغباتهم، و إثارة الشعور ضد أهل البيت عليهم السّلام و نصب العداء لهم. و لم يكن من الصعب على قوة الحكم و شدة الدعاية، أن تزرع بذور العداء و تنشر الكراهة لأهل البيت، و وصف أتباعهم بما يخالف الحقيقة و الواقع. فليس من الغريب إذا تجنى ذوو الأطماع و السائرين فى ركاب الدولة أن يوصف مذهب أهل البيت بالبدعة. و ليس من الغريب أن يجعل التشيع عنوان الزندقة و الشذوذ عن الدين، لأن الحقد لهم قام فى نفوس الكثيرين و انتشر بطريقة لا شعورية، و قد صوّروا التشيع بصورة لا تقع العين منه إلاّ على منظر يثير الحقد و الكراهة، عند ما شوهته الدعاية الكاذبة، و أسدلت على محاسن هذا المبدأ أبرادا من نسيج الخيال، و فسّروا تاريخ الشيعة بتفسير خاطىء لا يتصل بالحقيقة. إنهم فسّروا حب الشيعة لأهل البيت اعتقادا بالتأليه، و أقاموا على ذلک شواهد من الأساطير المضحكة، كأسطورة ابن سبأ (1)، و أضافوا إليها قضايا المتداخلين فى صفوف المسلمين من أعداء الدين، ليثيروا بينهم العداء، و لم يهتموا بالخطر الذى ينجم من وراء ذلک. لأن حكام ذلک العصر لا يهمهم شىء سوى نشر سلطانهم بكل وسيلة. كما إنهم فسّروا اعتماد الشيعة على أحاديث أهل البيت و أخذ الأحكام عنهم: بأن الشيعة تدّعى نزول الوحى عليهم. و أقاموا شواهد و ادعاءات باطلة، إلى غير ذلک من الأمور التى أخذها الكتّاب المعاندون، أو المقلّدون الذين يسيرون فى طريق وعر يتعثّرون بالأوهام، فكتبوا بما شاءت الدعاية، لا بما شاء الحق و الواقع.

1- 1) لقد ظهرت مسرحية عبد اللّه بن سبأ على مسرح الأوهام؛ لينظر إليها ضعفاء النفوس كأنها حقيقة لا تقبل النقاش، و ما هى إلاّ من مهازل التاريخ، و عجائب الزمن، و خرافة يكذبها الوجدان، و يندى منها جبين الإنسانية. إنها أسطورة مضحكة رتبتها أقلام مأجورة، و أخرجها إلى الوجود أبطال فتنة و دعاة شغب، و لقد تصدى الأستاذ الكبير السيد مرتضى العسكرى لكشف حقيقة عبد اللّه بن سبأ، فألّف كتابا قيما صدر إلى الوجود منه جزء واحد، و هو يواصل نشر ما تبقى من بحثه القيّم.

نعم ليس من الغريب أن نقف على آلاف الغرائب، و لكن الغريب تجاهل أسباب وجودها، و بواعث انتشارها، على أيدى فئة مخربة عابثة. إن تلك الأيدى قد رسمت للشيعة صورة مشوهة، و وصفوهم بصفات بعيدة عن الواقع، و ما ذلک إلاّ خضوعا للعاطفة و طمعا لما فى أيدى خصوم الشيعة من الحكام. و إنى أبقى على منهجى فى شجب هذه الفرقة و الدعوة إلى تحكيم العقل و التنزّه عن الاستسلام و الخضوع لتلک الأسباب التى باد دعاتها من الحكّام الذين انحرفوا بالخلافة و اتخذوها ستارا لمصالحهم و أغراضهم، و ظهر اليوم حكام لكل منّا عندهم نصيب من الظلم و الاضطهاد دون تمييز، فقد استخذى منهم من استخذى للقوى المعادية للإسلام، و قد استكبر منهم من استكبر، فبات فرعون هذا العصر. و لن تهدأ منى صرخة الاستنكار أو لهجة النقمة على كل من أيّد و أسهم على مدى تأريخنا و دعم الحكام فى سياساتهم الرامية إلى تمزيق وحدة الصف و زرع الفتنة. كما أنى آمل أن تتعدد البحوث و تكثر الكتابات التى تدعو إلى النزول عند حكم العقل و التزام المنطق فى معرفة أسباب العداء المتأصّل فى نفوس العتاة و الجبارين لأهل البيت و شيعتهم، و من يقبل من أبناء عصرنا أن يكون تبعا لهم فى المنهج؛ فقد خان الأمانة الملقاة على عاتقه. و يكفى طرح هذا التساؤل كل مرة ليكون الجواب مقنعا.

البحث و الزوائد:

و بدراستى هذه عن المذاهب أخذت نفسى بالابتعاد عن الزوائد قدر الإمكان، فلا أتعرّض إلاّ لما فيه صلة بالبحث، و علاقة بالموضوع، كما أهملت جانب الهزل و المجون، الحاصل من جراء التعصّب المذهبى، فهناک أشعار كثيرة، و قضايا متعددة، و لذلک أشرت لصلاة القفال (1)إشارة عابرة فى الجزء الأول التى ذكرها بعض المؤرخين، و أنّها هى صلاة أبى حنيفة بالصورة الصحيحة، كما تركت استقصاء أقوال الناقمين عليه، و الناقدين له، و قد ذكرها الخطيب البغدادى و غيره. و إنى لم أستوف تاريخ حياة الإمام الصّادق عليه السّلام و لم أتعرّض لترجمة الآباء

---

1 - 1) لم أذكر هذه القضية بالتفصيل لما فيها من الأمور المخالفة للإسلام، و قد ذكرها ابن خلكان، و هو شافعى المذهب، و يقصد بذكرها الطعن على الحنفية فى تجوزهم السجود على العذرة، و الصلاة بجلد كلب و غير ذلک. كما نقلها كثير من المؤرخين.

و الأجداد و الأبناء و الأحفاد، لأن ذلک يستدعی تعدد أجزاء هذا الکتاب زيادة علی ما أعددناه (1)، و قد أفردت مجلدا ضخما يتضمن ذلک تحت عنوان (حياة الإمام جعفر بن محمّد) و قد قضيت فيه وقتا من الزّمن، فکان هو أحد الأسباب التی أدّت أن تطول الفترة بين صدور هذا الجزء و سابقه. و کذلک لم أستوف جميع حکمياته و مواعظه، لأنی قد جمعتها فی جزءين علی حدة تحت عنوان «الأسس التربوية» لتکون فی متناول الجميع و سأنشر منها فصولا فی هذا الجزء، لأنی لا أحب خلوه من تلک المآثر العظيمة، و الفکر الخوالد، و لا أقول بأنی قد أحطت بجميع تراثه الفکری، فقد تعمدت ترک الکثير منه اختصارا، و قد بقی الشیء الکثير مبعثرا فی بطون الکتب هنا و هناک، و من اللّه نسأل أن يهيئ لهذه الآثار القيمة من يجهد نفسه فی جمعها من مظانها، و يتناولها بالشرح اللائق بها، و الکاشف عن حقائقها، فإن فی ذلک أکبر خدمة للأمة، و إحياء أعظم أثر من تراثها الفکری. و إذا أمدنا اللّه بمعونته، و وفّقنا بعنايته، و وهب لنا فسحة من الأمل، و تأخيرا فی الأجل، فسنقوم بهذه الخدمة، و نحقّق ما نطلب تحقيقه. و من اللّه نطلب القوة، و به نستعين و بيده التيسير. کما نسأله تعالی أن يجمع کلمة المسلمين و يوفقهم لاتباع أوامره، و أن يهب لهم اليقظة و الحذر مما يدبره لهم أعداء الدين، لإيجاد المشاکل و الاختلاف فيما بينهم، و اتساع الثغرة التی ينفذون منها إلی مآربهم الخبيثة، و غاياتهم الدنيئة، إذ لا أمل لهم بذلک مع جمع الکلمة و وحدة الصف. فلنطو صحائف التاريخ الأسود، و ننسی مآسی الماضی، و نزيل من نفوسنا آثار التعصب الطائفی، و ترک الخصومة فی الدّين فإننا أمام خصوم قد تفاقم خطرهم، و استفحل أمرهم. يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِؤُا نُورَ اَللّهِ بِأَفْواهِهِمْ وَ يَأْبَی اَللّهُ إِلاّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَ لَوْ کَرِهَ اَلْکافِرُونَ هُوَ اَلَّذِی أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدی وَ دِينِ اَلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَی اَلدِّينِ کُلِّهِ وَ لَوْ کَرِهَ اَلْمُشْرِکُونَ .

---

1 - 1) أدخلنا فی الجزء الثامن نبذا قصيرة من تراجم أبناء الإمام عليه السّلام لم نتوسع فيها کما يجب لأن الغرض من ذکرهم فی سياق البحث و تسلسل الکتاب هو الإشارة إليهم و التنويه بمکانتهم.

الإمام الصّادق

اشارة

لمحات من تاريخ حياته

بعد ثلاثة أجزاء مضت من كتابنا «الإمام الصّادق و المذاهب الأربعة» و قد تضمن كل جزء جانبا من حياة الإمام الصّادق، و نحن لم نوف شخصية الإمام حقّها فى أى جانب تناولناه، و هنا نحاول أن نستعرض بعجالة كيفية تميّز الإمام الصّادق بهذه الشخصية العظيمة. و بكل اطمئنان فإن التاريخ احتفظ بصورته مجردة من آثار السلطان و نتائج سياسات الحكام، فلم تنجح تلك الحملات فى دفع الناس عن أهل البيت و عميدهم، و فشلت فى الإساءة إليه. و إن رجلا يعاصر تلك المرحلة و عهودها و أحداثها السياسية و قد تباينت فيها و اتّسعت و اختلفت المجريات و النتائج، و يخرج منها بمبادئه نقية و بأهدافه نزيهة لهو من أعظم الرجال الذين يعجز القلم عن إيفائه حقّه من البيان و التقدير. و ببساطة، فإن صورة الحال أنه كان مع أبيه الباقر عليه السّلام غاية بنى أمية، ثم هدم اللّه ملكهم وثل عرشهم. و بدأت فترة اتجهت فيها الأنظار إليه، فاجتازها، فهو يعلم ما ذا ستسفر عنه الأحداث و كيف ستكون السلطة، إذ علم من بنى العباس ما جهله غيره، و لما قام حكمهم و استقر، لقى منهم بلاء و محنا حتى كتب اللّه له النجاة و حفظه. فهو ما بين حماية نفسه و أصحابه و بين رسالته الدينية و واجبه تجاه مجتمعه و أبناء دينه يشيد صرحا دينيا و ثقافيا خالدا و يشق طريقه بما يشق على غيره و يعجزه، لكنها خصائص أهل البيت سلام اللّه عليهم، فكم لأبى عبد اللّه الصّادق من أعداء؟ و كم جهد الحكام فى الإساءة إليه و إلى أهله و شيعته؟ و لكن تلك الإساءات و ذلك العداء فشلت جميعها، و احتفظ التاريخ بصورة متألقة لشخصية الإمام الصّادق هى مصداق الأعلمية و الأفضلية.

ولادته:

الإمام أبو عبد اللّه جعفر الصّادق، ابن محمّد الباقر، ابن على زين العابدين، ابن الحسين سبط رسول اللّه، ابن على بن أبى طالب عليهم السّلام. ولد بالمدينة المنورة يوم الجمعة، أو الاثنين عند طلوع الفجر 17 ربيع الأول سنة 83 ه و قيل سنة 80 ه. و قيل غرة رجب أو منتصفه، و قيل يوم الثلاثاء قبل طلوع الفجر غرة شهر رمضان. و المعتمد الأول و هو يوم 17 ربيع الأول يوم ولادة جدّه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كما عليه عمل كثير من المسلمين. و أمه أم فروة، و قيل أم القاسم و اسمها قريبة، أو فاطمة بنت القاسم بن محمّد بن أبى بكر الصدّيق. أمّها أسماء بنت عبد الرّحمن بن أبى بكر، و كانت أم فروة قد ولدت للإمام الباقر ولدين هما: الإمام الصّادق عليه السّلام و عبد اللّه أو عبيد اللّه، و قد قال الإمام الصّادق فيها: «إنّها ممن آمنت و اتّقت و أحسنت، و اللّه يحب المحسنين» . و قد روت عن الإمام الباقر أحاديث كثيرة، و كانت لها مكانة علمية، و قد استقت العلم من ينبوع الوحى، و معدن الرسالة، و مما يدلّنا على مكانتها العلمية، ما رواه عبد الأعلى قال: رأيت أم فروة تطوف بالكعبة عليها كساء متنكرة، فاستلمت الحجر بيدها اليسرى، فقال لها رجل ممن يطوفون: يا أمة اللّه أخطأت السنّة. فقالت: إنا لأغنياء عن علمك. و كان أبوها القاسم بن محمّد بن أبى بكر من أعلام الأمة و كبار المحدّثين عن أهل البيت، و روى عن عمته عائشة و كثير من الصحابة، و كان من الفقهاء السبعة و من رواة الحديث، و قد روى حديثه أصحاب الصحاح الستّة. و قد استوفينا ترجمة أم فروة و أبيها القاسم و أبيه محمّد، فى كتابنا الذى أفردناه فى ترجمة الإمام جعفر بن محمّد الصّادق، و لذلك اكتفينا بهذه الإشارة الموجزة.

نشأته:

نشأ أبو عبد اللّه عليه السّلام بالمدينة المنورة، و قد تولى جدّه الإمام زين العابدين تربيته فى عهد طفولته، و درج تحت كنفه و رعايته، و كان هو معلمه الأول. قضى مع جده زين العابدين ما يقارب 18 سنة من عمره، و بعد وفاة جدّه سنة

94 ه تولى أبوه الباقر تربيته، و استقل بتعليمه، و كان الإمام الصّادق مقدما عند أبيه و ملازما له فى حلّه و ترحاله، و دخل معه الشام و مكة المكرّمة، و قد شاهد هناك ازدحام الفقهاء من مختلف الأقطار على أبيه الباقر لاستماع حديثه و السؤال منه، و كانت حلقة درسة تعقد بالمسجد، فتكون هى الحلقة الوحيدة لطلاّب العلم، و رجال الفكر، و رواة الحديث، فلا تعقد حلقة هناك إلاّ بعد انتهاء الإمام الباقر من إلقاء دروسه. و كان الإمام الصّادق فى طليعة تلامذة أبيه فى مدرسته بالمدينة، و هى تضم عددا وافرا من أعلام عصره: كعمر بن دينار الجمحى، و عبد الرّحمن الأوزاعى، و ابن جريج، و محمّد بن المنكدر، و يحيى بن كثير و غيرهم من رجال الحديث، و هم يسألونه عن أهم المسائل و أعظم المشاكل، و لم يحضر الإمام الصّادق حلقة أحد من فقهاء عصره، فهو غنى عن ذلك. و ما يدّعى أنه روى عن عروة بن الزبير و الزهرى و غيرهما فإنه ادّعاء فارغ لا يدعمه دليل، لأنه عليه السّلام استقى العلم من جده زين العابدين و من أبيه الإمام محمّد الباقر عليه السّلام حتى نشأ تلك النشأة الصالحة، و نال تلك الدرجة السامية، و عظم فى أعين كبار الفقهاء، لما تحلى به من الخصال الحميدة، و الأخلاق الفاضلة، و الإحاطة التامة بشتى العلوم، و ظهرت عليه علائم الفضل، و شرف المحتد، و عزة النفس، و صدق اللهجة. قال عمر بن المقدام: إذا نظرت إلى جعفر بن محمّد علمت أنه من سلالة النبيين. و هكذا بقى مع أبيه عليه السّلام بعد جدّه زين العابدين تسع عشرة سنة. و لما توفى أبوه الباقر سنة 114 ه تفرّد بالزعامة، و قام بأعباء الإمامة، بوصية من أبيه الباقر عليه السّلام و كانت مدة إمامته 34 سنة.

معاصرته للحكم الأموى:

أدرك الإمام الصّادق عليه السّلام طرفا كبيرا من العهد الأموى، و عاصر كثيرا من خلفائهم. فقد ولد عليه السّلام فى عهد عبد الملك بن مروان، و أدرك خلافته ثلاثة سنين أو ستة أى من سنة 80 ه أو 83 ه إلى سنة 86 ه و هى السنة التى توفى فيها عبد الملك بن مروان. و مدة خلافته ثلاث عشرة سنة و أشهر. ثم ملك الوليد بن عبد الملك سنة 86 ه و توفى سنة 96 ه و كانت مدة خلافته تسع سنين و ثمانية أشهر.

ثم ملک أخوه سـلیمان بن عبد الملک و توفی سـنة 99 ه و کانت مـدة خلافته سـنتین و ثمانیة أشـهر. ثم ملک بعده عمر بن عبد العزیز بن مروان المتوفی سنة 101 ه و مدة خلافته سـنتین و سـتة أشهر. و ملک بعده یزید بن عبد الملک بن مروان المتوفی سنة 105 ه و کانت مدة خلافته أربع سـنین و شهرا. و ملک بعده هشام بن عبد الملک المتوفی سنة 125 ه و کانت مدة خلافته عشـرین سنة إلاّ شهرا. و ملک بعده الولید بن یزید بن عبد الملک المتوفی سنة 126 ه و مدة خلافته سـنة و ثلاثة أشهر. و ملک من بعده یزید بن الولید بن عبد الملک المتوفی سنة 126 ه. و ملک بعده أخوه إبراهیم و لم تطل أیامه، و تنازل لمروان الحمار بن محمّد بن مروان بن الحکم سنة 127 ه و کان مروان آخر خلفاء بنی أمیة، و قتل سـنة 132 ه. و کانت مدته خمس سـنین و عشـرة أشـهر. و لم تکن مدة خلافة أو سـلطان، بل أیام حروب متوالیة، و ثورات متتابعـة، و بموته انتهی العهـد الأموی، و انهارت دولتهم، و قامت علی أطلالها الدولـة العباسـیة. کانت هذه المدة التی لا تقل عن ثمانیـة و أربعین سـنة قضاها الإمام الصّادق علیه السّلام فی عهـد الحکم الأموی، ملیئة بأحداث تبعث آلاما تنکد علیه عیشه، لما فیها من المحن و ویلاتها. إنه علیه السّلام کان یری المضـطهدین من خیار الأمّة و صـلحائها، تملأ بهم السـجون، و یساقون إلی الموت زرافات و وحدانا، کما یری بین آونة و أخری رجال الطالبیین و أعیانهم مطاردین و مشـردین، یلاقون حتفهم شـهیدا بعد شهید، فکانت مقاتلهم مآسی التاریـخ الدامیـة، و کان کل من ملک الأمر من أولئک الحکام یراقب حرکاتهم بعین ساهرة، و أذن سامعة، فإذا ضاقت علیهم الأرض و أنفوا الذل خرجوا بالسّیف، و هم یأملون مناصرة الأمّة و مؤازرتها، و لکن لم تسعد الأمّة بذلک، فکانت الشهادة و سامهم، و القتل نهایتهم.

لقد عاصر الإمام الصّادق عليه السّلام ملوكا استفحل ضررهم على جميع الطبقات، و قد انحطوا إلى مهاوى الرذيلة، فارتكبوا المنكرات التى ينـدى منها الجبين، و يتصدع لها قلب ذوى الأنفة و الحمية على الدين، و هم يدعون الخلافة للمسلمين و لا يتصفون بأى صفة من صفاتها، فليس منهم أحد إلاّ و هو ظالم فى حكم، جائر على الرعية، مستبد بأموال الأمة، ينفقها فى شهواته، اللّهمّ إلاّ إذا استثنينا عمر بن عبد العزيز فهو نجيبهم، إذ أظهر الزهد و الابتعاد عن الظلم. و بادر إلى محو السنة الأموية، و منع سب الإمام على عليه السّلام بعد أن أدخل فى مناهج التعليم، و أعلنوا به على المنابر، و فى الأندية و المجتمعات، لينشئوا جيلا قد تركزت فيه فكرة البغض لعلى و أولاده، فكان سب الإمام على هو علامة الولاء للدولة، و البراءة منه دليلا على الإخلاص و عدم الخيانة، حتى تركزت فى مخيلة كثير من الناس صور معاكسة للحقيقة، و نشئوا على التقليد الأعمى فى اتباع ولاة أمورهم، و تصديق ما صدر عنهم. قال أبو يحيى السكرى: دخلت مسجد دمشق فقلت: هذا بلد دخله جماعة من الصحابة. فملت إلى حلقة فيها شيخ جالس. فجلست إليه، فقال له رجل جالس أمامه: من هو على بن أبى طالب؟ فقال الشيخ: خفاق-يعنى ضعيفا-كان بالعراق اجتمعت عليه جماعة. فقصد أمير المؤمنين (يعنى معاوية) أن يحاربه، فنصره اللّه عليه. قال يحيى: فاستعظمت ذلک و قمت، فرأيت فى جانب المسجد شيخا يصلى إلى سارية، و هو حسن السمت و الصلاة و الهيئة، فقلت له: يا شيخ أنا رجل من أهل العراق، جلست إلى تلک الحلقة، ثم قصصت عليه القصّة. فقال الشيخ: فى هذا المسجد عجائب، بلغنى أن بعضهم يطعن على أبى محمّد الحجاج بن يوسف، فعلى بن أبى طالب من هو (1)! ؟ . هكذا أثرت قوة الدعاية فى مجتمع يتقبل تلک الأباطيل و المفتريات، لضعف الإيمان. و كم للدعاية من أثر فى توجيه الناس إلى ما تهدف إليه السياسة، من تحقيق أهداف و بلوغ مآرب، حتى حملوا السّذج على الاعتقاد بكل ما يوحى إليهم، حتى ارتبطت فى نفوس بعض الناس ارتباطا وثيقا، فهى لا تقبل الرد و المعارضة. أما البعض الآخر فقد خضعوا لتلک الأوهام تحت ضغط الإرهاب و قوة الحكم الغاشم.

1- 1) المدخل إلى مذهب أحمد بن حنبل ص 5 نقلا عن تاريخ ابن عساكر. [1]

و لو لا إسهام علماء القصور و فقهاء الملوک فی هذه الحملة لکان أمرها سیاسیا یتصل بمصالح السلطة و شئون الحکم، لکن المؤلم أن الظلمة تحکموا بالناس بوسائل القوة الغاشمة من جهة، و بوسائل الدین من جهة أخری. یقول الشعبی: ما ذا لقینا من آل علی إن أحببناهم قتلنا، و إن عادیناهم دخلنا النار. و قد مرّت الإشارة إجمالا-فی الأجزاء السابقة-إلی تلک الدعایات و أسالیبها، و مدی تأثّر المجتمع فیها. و علی أی حال فإن الإمام الصّادق علیه السّلام قضی من عمره فی الحکم الأموی ما یقارب نصف قرن، و قد شهد انتقال الدولة منهم إلی بنی العباس، و شاهد ذلک النشاط السیاسی الذی عصف بتلک الدولة فهدم أرکانها، و محاها من صفحة الوجود، کما عصف بأرواح الناس و أموالهم، و قد اتضح لنا رأیه و موقفه وسط ذلک المعترک، و سنری فیما بعد رأیه فی معالجة المشاکل و موقفه فی إصلاح الوضع. و خلاصة القول إن الإمام الصّادق علیه السّلام قد شاهد فی عصر أولئک الحکام أنواع الظلم و ضروب المحن، من سوء السیرة فی الأمة، و جور الحکم فی الرعیة. و قد تراکمت المصائب علی أهل البیت، و توالت علیهم الحوادث من قتل و تشرید، و فرض مراقبة شدیدة، و منع الأمة من الاتصال بهم، و الانتهال من نمیر تعالیمهم. و شاهد جده الإمام زین العابدین علیه السّلام علی فراش الموت، متأثّرا من السم الذی دسّه الأمویون له، فقضی نحبه صلوات اللّه علیه سنة 94 ه. و کذلک شاهد أباه الإمام الباقر علیه السّلام علی فراش الموت، و لفظ أنفاسه مسموما بید أولئک الطغاة، الذین صعب علیهم انتشار ذکره و اتساع آفاق دعوته، و نشاط مدرسته و ذلک فی سنة 114 ه. و وافاه نبأ مقتل عمّه زید بن علی علیه السّلام الثائر علی الظلم و المنتصر للعدالة الضائعة، فی ظل حکم أولئک الطغاة فی سنة 124 ه. و حینما أخبر الإمام الصّادق علیه السّلام عن مقتله و ما جری علیه، بکی بکاء شدیدا، و قال: «إنا للّه و إنا إلیه راجعون، عند اللّه أحتسب عمّی» ثم قال: «مضی و اللّه شهیدا، کشهداء استشهدوا مع رسول اللّه و علی و الحسین» .

و قال علیه السّلام: «فلعن اللّه قاتله و خاذله، و إلی اللّه أشکو ما نزل بأهل بیت نبیه بعد موته، و نستعین اللّه علی عدونا و هو المستعان» . و لم تمض علی قتل زید بن علی مدة من الزمن حتی وافته الأنباء بقتل ابن عمه یحیی بالجوزجان سنة 126 ه و صلب علی باب المدینة، إلی أن ظهر أبو مسلم الخراسانی فأنزله و دفنه. و هکذا کان فی کل آونة یقرع سمعه نبأ مفجع فی أهل بیته و شیعته، فقد ملأوا بهم السجون، و صبغوا من دمائهم الأرض، و اهتزت بأجسادهم المشانق. و قد تلقی تلک الفجائع بصبر و ثبات، و عزیمة صادقة. . و لا یغیب عن الأذهان عظیم استیاء الإمام و محنته من جراء الانحراف العقائدی و السیاسی، و بعد الأمة الإسلامیة عن واقع الدین، و ابتعادهم من الناحیة العملیة عن الإسلام، و هو المسئول الأول عن التوجیه، و هدایة الأمة. و ما ذا یصنع و هو المحاط برقابة شدیدة، و الدولة لا تنفک عن مقابلته بالشدة، و محاولة الفتک به بین آونة و أخری. و قد نظر علیه السّلام إلی واقع الأمر نظرة دقیقة، و سار علی خطة محکمة و طریق سویّ فی معالجة الأوضاع، و إصلاح المجتمع. أما بقیة حیاته التی قضاها فی العهد العباسی، و هی من سنة 132 ه إلی سنة 148 ه و هی سنة وفاته، و تکاد هذه المدة أن تکون فی بدایتها خیر عهد یشهده الإمام من حیث الحریة الکاملة، و رفع الرقابة المشدّدة، و لکن لم یطل الزمن حتی اشتد المنصور فی معاملته، و عامله بقسوة لا مزید علیها، حتی اغتاله بالسم فی الخامس و العشرین من شهر شوال سنة 148 ه. و خلاصة القول: إن الإمام عاش هذه المدة وسط معترک سیاسی و فکری، و قد قام بواجبه الإصلاحی، و وجه الأمة إلی ما فیه سعادتها، و لم یخضع لتلک السلطات فیترک عمله، أو یتخلی عن المسئولیة فی أداء الرسالة، فلم یتزلف لملوک عصره فیسایرهم، أو یبرّر أعمالهم، بل کان دائما یسلک منهج آبائه فی محاربة الظالمین، مظهرا سخطه علیهم، معلنا غضبه علی أعمالهم، داعیا لمقاطعتهم، و کانت علیه من اللّه جنة واقیة، فهو متسلح بإیمانه باللّه، متحمّل الأذی فی سبیل الدعوة إلی اللّه. و لا بد لنا هنا-إتماما للبحث عن حیاته-من ذکر شیء من سیرته و بعض تعالیمه التی تتجلی فیها روح الصّلاح، و هو یضع فی کل منها حجرا لأعظم الأسس التربویة.

الإمام الصّادق

اشارة

قبس من سيرته و تعاليمه

تمهيد:

لقد كان الإمام الصّادق عليه السّلام مثالا كاملا لدعاة الإصلاح، و علما من أعلام الصلاح، يأمر بالأخلاق الفاضلة و السجايا الحميدة، و اكتساب الفضائل، و الابتعاد عن الرذائل، لا يدخر النصح عن أحد. كان يدعو الناس بلين و رفق، و يجادلهم بالتى هى أحسن، و لا يتشدّد على الشاك فى الدّين، بل كان يوضح له ما أشكل، و يبيّن له ما أبهم، حتى يظهر له الحق و يجلو له السبيل. و فى خضم عداوة الحكام لأهل البيت، و موجات الإرهاب التى يتعرّض لها الشيعة من قبل أصحاب السلطان و أذنابهم، كان الإمام عليه السّلام حريصا على إبعاد المؤمنين عن مواقع سيوف الظلمة، و كان من نتائج انحراف الحكام عن الدّين و بعدهم عن روح الإسلام أن يصرّح فى المجتمع بالنصب و العداء لأهل البيت، فسئل الإمام عن رجل سبّابة للإمام على عليه السّلام فقال عليه السّلام: «حلال الدم و اللّه، لو لا أن تعمّ به بريئا» . قال السائل: لأى شىء يعم به بريئا؟ قال: «يقتل مؤمن بكافر» . و سئل عليه السّلام فى قتل الناصبى؟ فقال: «حلال الدم، و لكنى أتقى عليك، فإن قدرت أن تقلب عليه حائطا أو تغرقه فى ماء لكى لا يشهد به عليك فافعل» . و كان يتشدد على أصحابه المتشددين فى معاملة المنحرفين عن الحق، و يأمرهم بأن يدعوهم بالحكمة و الموعظة الحسنة و يقول لهم: «لأحملن ذنوب سفهائكم على علمائكم، ما يمنعكم إذا بلغكم عن الرجل منكم ما تكرهون، و ما يدخل به الأذى علينا، أن تأتوه فتؤنبوه و تعذلوه و تقولوا له قولا بليغا» . فقال له بعض أصحابه: إذا لا يقبلون منا.

قـال: «اهجروهم و اجتنبوا مجالسـهم» . فهو يوجب على العالم أن لا يتخلى عن تعليم الجاهل الـذى يتردّى بجهالته، فيرتكب ما يخالف الـدّين، و يـدخل به الأذى على دعاة الإصـلاح و حماة المسـلمين، و لا يصـح لهم هجره إلاّ بعد اليأس من إصـلاحه، و إزالة الغشاوة التى أعمت بصـره، ففى هذه الحالة تكون مواصلته تشجيعا، و مجالسته إغراء. و كان عليه السّلام يبذل جهده فى توجيه الناس و تقويم أخلاقهم، و إصـلاح شـئونهم ما استطاع، و يريد منهم أن يلتزموا الجوهر و يتركوا العرض، و يأمرهم بالعمل، و يدعو ذوى اليسر إلى الإنفاق على ذوى العسـرة، و أن يوسعوا على المضيق منهم حتى يمنعوهم من ذلّ السؤال، و كان ينفق حتى لا يبقى شيئا لعياله (1)كما يحدّث عنه الهياج بن بسـطام. يقول شعيب بن ميثم: قال لى الصّادق: «يا شعيب أحسن إلى نفسك وصل قرابتك، و تعاهد إخوانك، و لا تستبد بالشىء فتقول: ذا لنفسـى و عيـالى، إن الـذى خلقهم هو يرزقهم» . إلى غير ذلـك من أقواله و أفعاله، التى كان يبعث فيها الشـعور لسامعيه على لزوم التخلّق بالسجايا الحسنة اقتداء به، لأنه عليه السّلام كان حريصا على توجيه المجتمع، و التخلّى بآداب الإسلام، فهو يدعو الأغنياء لمواساة الفقراء و الإحسان إليهم، لنزول عوامل العداء و الحسد و البغضاء، و يكون الجميع إخوة، كل يحب الخير لأخيه، فلا أثرة و لا بخل، و لا إهانة بعض لبعض، و لا خصومـة و لا مشاحنة، إلى غير ذلك مما دعا الإسـلام كل مسـلم أن يتصف به. و لحرصه عليه السّـلام على تأليف القلوب و إزالة الشـحناء، و إطفاء نار العداوة و البغضاء، كان يدفع إلى بعض أصـحابه من ماله ليصـلح به بين المتخاصمين على شىء من حطام الدنيا تسوية للخلاف، و دفعا للتقاطع و التهاجر. و منعا من الترافع لحكام الجور.

نهيه عن المنازعات و فض الخصومة لدى حكام الجور:

قال أبو حنيفة و اسمه سعيد بن بيان: مرّ بنا المفضل بن عمرو أنا و ختن لى

1- 1) القرمانى ص 128. و كشف الغمة للاربلى ج 1 ص 223.

نتشاجر فی میراث، فوقف علینا ساعـة، ثم قال لنا: تعالوا إلی المنزل. فأتیناه و أصـلح بیننا بأربعمائـة درهم، فدفعها إلینا حتی إذا اسـتوثق کل واحد منا صاحبه قال المفضل: أما إنها لیست من مالی، و لکن أبا عبد اللّه الصّادق أمرنی: إذا تنازع رجلان من أصـحابنا أن أصلح بینهما، و أفتـدیهما من ماله، فهـذا مال أبی عبـد اللّه الصّادق. و هکذا یکشف لنا عظیم اهتمامه بجمع الکلمة، و عدم الفرقة أولا، و إنهاء الخصومات علی یـد من أقـامه من قبله لـذلک ثانیا. لأنه علیه السّـلام منع عن المرافعـة إلی حکام الجور، و أمر بمقاطعتهم، و قـد أقام جماعـة من کبار أصـحابه حکامـا من قبله، ینظرون فی الخصومـات، و یحکمون بحکم اللّه عزّ و جـل، و قـد أمر الإمـام الصّادق بالرجوع إلیهم، و المرافعة عنـدهم و قـال: «أیّمـا رجـل کـانت بینه و بین أخ له ممـاراة فی حق، فـدعاه إلی رجل من إخوانکم لیحکم بینه و بینه، فأبی إلاّ أن یرفعه إلی هؤلاء، کان بمنزلة الذین قال اللّه عزّ و جلّ فیهم: أَ لَمْ تَرَ إِلَی » . و کان یعلن علیه السّلام بأن المرافعة إلی أولئک الحکام إثم، و أن حکمهم غیر نافـذ، لأـن الحکومـة للإمام العادل بالحکم، العالم بالقضاء، کنبی أو وصـی نبی؛ و هو علیه السّـلام أحق بالحکم، و أمر بالرجوع لمن جعله من قبله للحکم بین المتنازعین. و قد ورد عنه علیه السّـلام أنّه قال: «إیّاکم أن یخاصم بعضکم بعضا إلی أهل الجور، و أیما مؤمن قدم مؤمنا فی خصومة إلی قاض أو سـلطان جائر، فقضی علیه بغیر حکم اللّه فقد شرکه فی الإثم» . و المراد بقوله علیه السّلام: «بغیر حکم اللّه» مطلق مـا یحکمون به، سواء کـان الحکم بالحق أم بالباطل، لأنهم حکام جور، و لیس لهم حق الحکومـة بأحکام اللّه، فحکمهم غیر حکم اللّه. و کما کان ینهی عن المرافعـة إلیهم، کان ینهی عن معاونتهم و العمل لهم، حتی فی البناء و کرایة الأنهر، و قال فی جواب من سأله عن ذلک: «ما أحب أن أعقد لهم عقدة، أو وکیت لهم وکاء، إن الظلمة و أعوان الظلمة فی سرادق من نار، حتی یحکم اللّه بین العباد» .

نهيه عن الولاية للظالمين:

و طلب منه مولى من موال جده على بن الحسين عليه السّلام أن يكلّم والى المدينة -و هو داود بن على-أن يدخل فى بعض الولايات. فقال عليه السّلام: «ما كنت لأفعل» . فظن الرجل أن امتناع الإمام عليه السّلام كان خوفا من أن يظلم أحدا؛ فحلف له بالأيمان المغلّظة أنه يعدل و لا يجور، فكان جواب الإمام عليه السّلام أن قال له: «تناول السماء أيسر عليک من ذلک» . و قد أشرنا من قبل إلى مواقفه ضد الحكام و أحكامهم، و إعلانه المقاطعة لهم. و على هذا النهج سار أتباعه، و طبعت مدرسته بهذا الطابع، فكانت عرضة للخطر من قبل حكام الجور، و لكنها واصلت كفاحها فى سبيل ترسيخ مبادئها و إعلاء كلمة الحق. و كان يحرص الحرص الشديد على إزالة الشحناء من القلوب، و بثّ روح الأخوة، فهو ينهى عن التهاجر و المقاطعة. قال المفضل: سمعت أبا عبد اللّه الصّادق عليه السّلام يقول: «لا يفترق رجلان على الهجران إلاّ استوجب أحدهما البراءة و اللعنة، و ربما استوجب ذلک كلاهما» . فقال له معتب: جعلت فداک هذا حال الظالم، فما بال المظلوم؟ ! قال عليه السّلام: «لأنه لا يدعو أخاه إلى صلته، و لا يتغافل عن كلامه. سمعت أبى يقول: إذا تنازع اثنان فعاد أحدهما الآخر، فليرجع المظلوم إلى صاحبه حتى يقول له: أى أخى أنا الظالم. حتى يقطع الهجران بينه و بين صاحبه، فإن اللّه حكم و عدل يأخذ للمظلوم من الظالم» . و قال جابر بن عون: إن رجلا قال لجعفر بن محمّد الصّادق عليه السّلام: إنّ بينى و بين قوم منازعة فى أمر، و إنى أريد أن أتركه، فيقال لى: إن تركک له ذلة. فقال عليه السّلام: «إن الذليل هو الظالم» .

حثّه على صلة الرّحم:

فهو عليه السّلام يحاول أن يزيل من القلوب ضغائن الأحقاد التى تبعث على الكراهة و الفرقة، و كان هو عليه السّلام من حسن سيرته و مكارم أخلاقه أنّه يصل من قطعه، و يعفو عمّن أساء إليه، كما ورد أنه وقع بينه و بين عبد اللّه بن الحسن كلام، فأغلظ عبد اللّه

فی القول، ثم افترقا و ذهبا إلی المسجد، فالتقیا علی الباب، فقال الصّادق علیه السّلام لعبد اللّه بن الحسن: «کیف أمسیت یا أبا محمّد؟» . فقال عبد اللّه: بخیر-کما یقول المغضب-. قال الصّادق علیه السّلام: «یا أبا محمّد أ ما علمت أن صلة الرحم تخفف الحساب؟» ثم تلی قوله تعالی: وَ اَلَّذِینَ یَصِلُونَ ما أَمَرَ اَللّٰهُ بِهِ أَنْ یُوصَلَ وَ یَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَ یَخافُونَ سُوءَ اَلْحِسابِ . فقال عبد اللّه: فلا ترانی بعدها قاطعا رحما. و کان یقول: «قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: لا تقطع رحمک و إن قطعتک» . و جاء إلیه رجل فشکا أقاربه، فقال علیه السّلام: «اکظم غیظهم» . فقال الرجل: إنهم یفعلون و یفعلون. فقال علیه السّلام: «أ تریدأن تکون مثلهم فلا ینظر اللّه إلیکم! !» . و قال علیه السّلام: «إن رجلا أتی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فقال: یا رسول اللّه إنّ لی أهلا قد کنت أصلهم و هم یؤذونی، و قد أردت رفضهم. فقال له رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: إن اللّه یرفضکم جمیعا» . قال الرجل: و کیف أصنع؟ قال علیه السّلام: «تعطی من حرمک، و تصل من قطعک، و تعفو عمّن ظلمک، فإذا فعلت ذلک کان اللّه عزّ و جل لک علیهم ظهیرا» . فکان علیه السّلام یصل رحمه، و یبذل لهم النصح، و یدعوهم إلی ما فیه صلاح أنفسهم، و إصلاح الأوضاع التی اضطرب حبل استقامتها فی عصرهم، و کان یصل فقراءهم باللیل سرا و هم لا یعرفونه، کما کان علیه السّلام یبذل النصح لجمیع المسلمین، و یدعوهم إلی الالتزام بأوامر الدّین. و کان یحث فی کثیر من تعالیمه علی مساعدة الضعفاء و معاونة المعوزین، وصلة الفقراء و المساکین، و یقوم هو بنفسه بصلتهم و معاونتهم، و یوزع علیهم من ماله. و إذا جن اللیل قام بصدقة السّرّ، یطوف علی بیوت الفقراء. قال هشام بن الحکم رحمه اللّه: کان أبو عبد اللّه الصّادق علیه السّلام إذا اعتم و ذهب من اللیل شطره، أخذ جرابا فیه خبز و لحم و دراهم فیحمله، ثم یذهب فیه إلی

أهل الحاجة من أهل المدينة، فيقسمه فيهم، و هم لا يعرفونه، فلما مضى أبو عبد اللّه فقدوا ذلک، فعلموا أنّه کان هو أبو عبد اللّه الصّادق علیه السّلام.

حثّه علی مساعدة الضعفاء و أبناء السبیل:

و قال له رجل من أصحابه: جعلت فداک. بلغنی أنک تفعل فی عین زیاد (اسم ضیعة له) شیئا أحب أن أسمعه منک. فقال علیه السّلام: «نعم کنت آمر إذا أدرکت الثمرة أن یثلم فی حیطانها الثلم، لیدخل الناس و یأکلوا، و کنت آمر أن یوضع عشر بنیات یقعد علی کل بنیة عرة، کلما أکل عشرة جاء عشرة أخری، یلقی لکل نفس منهم مد من رطب، و کنت آمر لجیران الضیعة کلهم: الشیخ و العجوز و المریض و الصبی و المرأة، و من لا یقدر، أن یجیء فیکون لکل إنسانا مدا، فإذا أوفیت القوام و الوکلاء أجرتهم؛ أحمل الباقی إلی المدینة، ففرقت فی أهل البیوت و المستحقین علی قدر استحقاقهم، و حصل لی بعد ذلک أربعمائة دینارا، و کانت غلتها أربعة آلاف» . و قال مصادف: کنت مع أبی عبد اللّه علیه السّلام ما بین مکة و المدینة، فمررنا علی رجل فی أصل شجرة، و قد ألقی بنفسه، فقال علیه السّلام: «مل بنا إلی هذا الرجل، فإنی أخاف أن یکون قد أصابه العطش» . فملنا إلیه فإذا هو رجل من النصاری طویل الشعر، فسأله الإمام: «أ عطشان أنت؟» فقال: نعم. فقال الإمام: «انزل یا مصادف فاسقه» . فنزلت و سقیته ثم رکب و سرنا. فقلت له: هذا نصرانی، أ فتتصدق علی نصرانی؟ فقال: «نعم. إذا کانوا بمثل هذه الحالة» . و لشدة اهتمامه بمساعدة الضعفاء، و قضاء حوائج المؤمنین، کان یری علیه السّلام أن الإعراض عن المؤمن المحتاج للمساعدة استخفاف به، و الاستخفاف بالمؤمن استخفاف بهم علیهم السّلام. و جاء ذلک موضحا فی قوله- و قد کان عنده جماعة من أصحابه-: «ما لکم تستخفون بنا؟» فقام إلیه رجل من أهل خراسان فقال: معاذ اللّه أن نستخف بک أو بشیء من أمرک. فقال علیه السّلام: «إنک أحد من استخف بی» . فقال الرجل: معاذ اللّه أن أستخف بک!!.

فقال له علیه السّلام: «ویحک أ لم تسمع فلانا و نحن بقرب الجحفة، و هو یقول لک: احملنی قدر میل فقد و اللّه أعییت. فو اللّه ما رفعت له رأسا، لقد استخففت به، و من استخف بمؤمن فبنا استخف، وضیع حرمة اللّه عزّ و جلّ» . و قال صفوان الجمال: دخلت علی أبی عبد اللّه الصّادق علیه السّلام فدخل علیه رجل من أهل مکّة-یقال له میمون-فشکی إلیه تعذّر الکراء علیه. فقال علیه السّلام: «قم فأعن أخاک» . فقمت معه فیسّر اللّه کراه، فرجعت إلی مجلسی، فقال أبو عبد اللّه: «ما صنعت فی حاجة أخیک؟» . فقلت: قضاها اللّه: بأبی أنت و أمّی. فقال علیه السّلام: «أما إنک إن تعن أخاک المسلم أحب إلیّ من طواف أسبوع فی البیت» . و دخل علیه عمار الساباطی، فقال له: «یا عمار إنک ربّ مال کثیر، فتؤدی ما افترض اللّه علیک من الزکاة؟» قال: نعم. قال علیه السّلام: «فتخرج الحق المعلوم من مالک؟» قال: نعم. قال علیه السّلام: «فتصل قرابتک؟» قال: نعم. قال: «فتصل إخوانک؟» قال: نعم. قال علیه السّلام: «یا عمار إن المال یفنی، و البدن یبلی، و العمل یبقی، و الدیّان حی لا یموت یا عمار ما قدمت فلم یسبقک، و ما أخّرت فلن یلحقک» . و قال المفضل بن قیس: دخلت علی أبی عبد اللّه الصّادق علیه السّلام فشکوت إلیه بعض حالی، و سألته الدعاء فقال: «یا جاریة هاتی الکیس» ، فجاءت بکیس. فقال: «هذا کیس فیه أربعمائة دینار، فاستعن به» . قال المفضل: فقلت لا و اللّه ما أردت هذا، و لکن أردت الدعاء لی.

فقال لی علیه السّلام: «و لا تدع الدعاء، و لکن لا تخبر الناس بکل ما أنت فیه فتهون علیهم» . و قال الشقرانی -مولی رسول اللّه-: خرج العطاء أیام المنصور، فوقفت علی الباب متحیرا، و إذا بجعفر بن محمّد قد أقبل، فذکرت له حاجتی، فدخل ثم خرج و إذا بعطائی فی کمه و ناولنی إیّاه و قال: «إن الحسن من کل أحد حسن، و إنه منک أحسن، و إن القبیح من کل أحد قبیح، و إنّه منک أقبح لمکانک منا» . قال ابن الجوزی: و إنما قال له جعفر ذلک لأن الشقرانی کان یشرب الشراب، فمن مکارم أخلاق جعفر أنه رحب به و قضی حاجته مع علمه بحاله و وعظه علی وجه التعریض، و هذا من أخلاق الأنبیاء. و قال یوما لبعض أصحابه: «ما بال أخیک یشکوک؟ !» فقال: یشکونی إذ استقصیت علیه حقی. فجلس الإمام مغضبا و قال: «کأنّک إذا استقصیت علیه حقک لم تسیء؟ أ رأیت ما حکی اللّه عن قوم یخافون سوء الحساب؟ أخافوا أن یجور علیهم؟ لا. و لکن خافوا الاستقصاء، فسمّاه اللّه سوء الحساب. فمن استقصی فقد أساء» . قال زرارة: قلت لأبی عبد اللّه: إن لی علی رجل دینا و قد أراد أن یبیع داره فیعطینی. فقال الصّادق علیه السّلام: «أعیذک باللّه أن تخرجه من ظل رأسه، أعیذک باللّه أن تخرجه من ظل رأسه» . و کان یسأل القادمین علیه من أصحابه عن معاونة بعضهم بعضا. قال محمّد بن زید الشحام: رآنی أبو عبد اللّه و أنا أصلی، فأرسل و دعانی، فقال لی: «من أین أنت؟» قلت: من الکوفة. فقال: «من تعرف من الکوفة» . فذکرت له رجلین. قال: «و کیف صنیعهما إلیک» . قلت: و ما أحسن صنیعهما إلیّ. فقال علیه السّلام: «خیر المسلمین من وصل و أعان و نفع. ما بت لیلة قط و فی مالی حق یسألنیه اللّه تعالی» ثم قال: «أی شیء معک من النفقة» ، قلت: عندی مائتا درهم. قال: «أرنیها» . فأتیته، فزاد فیها ثلاثین درهما و دینارین، ثم قال علیه السّلام: «تعشّ عندی» . فتعشیت عنده. قال زید: فلما کان من السنة القابلة لم أذهب إلیه، فأرسل إلیّ فدعانی، فقال علیه السّلام: «ما لک لم تأتنی البارحة؟»

قلت: لم يأتنى رسولک. فقال علیه السّلام: «فأنا رسول نفسی إلیک ما دمت مقیما فی هذه المدة» . قال زید: فقلت له علمنی دعاء. قال: «أکتب: بسم اللّه الرّحمن الرّحیم، یا من أرجوه لکل خیر، و آمن سخطه عند کل عثرة، یا من یعطی الکثیر بالقلیل، و یا من یعطی من سأله تحننا منه و رحمة، و یا من أعطی من لم یسأله و من لم یعرفه، صلّ علی محمّد و أهل بیته، و أعطنی بمسألتی إیاک خیر الدنیا و جمیع خیر الآخرة، فإنه غیر منقوص ما أعطیت و زدنی من سعة فضلک یا کریم» . ثم رفع یده فقال: «یا ذا المن و الطول، یا ذا الجلال و الإکرام، یا ذا النعماء و الجود، ارحم شیبتی من النار» . ثم وضع یدیه علی لحیته، و لم یرفعهما، حتی امتلأ کفه دموعا. و قال مصادف: کنت عند أبی عبد اللّه الصّادق، فدخل رجل فسلم علیه، فسأله الإمام: «کیف من خلفت من إخوانک؟» فأجاب الرجل و أحسن الثناء و أطراهم. فسأله الإمام: «کیف عیادة أغنیائهم علی فقرائهم! ؟» فقال الرجل: قلیلة. قال الإمام: «کیف مساعدة أغنیائهم لفقرائهم؟» . فقال الرجل: قلیلة. قال الإمام: «کیف صلة أغنیائهم لفقرائهم فی ذات أیدیهم؟» فقال الرجل: إنک تذکر أخلاقا قلّ ما هی فیمن عندنا. قال الإمام: «فکیف یزعم هؤلاء أنهم شیعتنا؟ !» و قال إسحاق بن عمار: دخلت علی أبی عبد اللّه الصّادق. فنظر إلیّ بوجه قاطب، فقلت: ما الذی غیّرک لی؟ . قال علیه السّلام: «الذی غیّرک لإخوانک، بلغنی یا إسحاق أنک أقعدت ببابک بوابا یردّ عنک الفقراء» . فقلت: جعلت فداک إنی خفت الشهرة. فقال علیه السّلام: «أ لا خفت البلیة» .

قال إسحاق بن إبراهيم: كنت عند أبى عبد اللّه الصّادق عليه السّلام إذ دخل عليه رجل من خراسان فقال: يا ابن رسول اللّه أنا من مواليكم، و بينى و بينكم شقة بعيدة، و قد قلّ ذات يدى، و لا أقدر أن أتوجه إلى أهلى إلاّ أن تعينونى، فنظر أبو عبد اللّه و قال: «أ ما تسمعون ما يقول أخوكم؟ إنما المعروف ابتداء، فأما ما أعطيت بعد ما سأل إنما هو مكافأة لما بذل من ماء وجهه، أ فيبيت ليلته متأرقا متململا بين اليأس و الرجاء، لا يدرى أين يتوجه بحاجته، فيعزم على القصد إليک، فأتاک و قلبه يجب، و فرائصه ترتعد، و قد نزل دمه فى وجهه، و بعد هذا فلا يدرى أ ينصرف من عندک بكآبة الرد، أم بسرور النجح، فإن أعطيته رأيت أنک قد وصلته، و قد قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: و الّذى فلق الحب، و برأ النسمة، و بعثنى بالحق نبيا، لممّا يتشجم من مسألته إياک أعظم مما ناله من معروفک» . قال إسحاق: فجمعوا له خمسمائة درهم، و دفعوها إليه. و كان عليه السّلام يوجه المجتمع بتعاليمه إلى جميع مهمات الحياة، و يحث الإنسان على عزة النفس و عدم الإهانة لها فيقول: «إن اللّه فوّض إلى المؤمن أموره كلها، و لم يفوض إليه أن يكون ذليلا أ ما تسمع قول اللّه تعالى: وَ لِلّهِ اَلْعِزَّةُ وَ لِرَسُولِهِ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ فالمؤمن يكون عزيزا و لا يكون ذليلا، إن المؤمن أعز من الجبل، الجبل يستقل منه بالمعاول، و المؤمن لا يستقل من دينه شىء» .

حثّه على العمل و طلب الرزق الحلال:

و قد حث عليه السّلام فى جملة من تعاليمه على طلب المال من حلّه، و يدعو أصحابه إلى التكسب فى الأسواق، و يجعل ذلک عزّا للإنسان. يقول المعلى بن خنيس: رآنى أبو عبد اللّه عليه السّلام و قد تأخرت عن السوق، فقال لى: «اغدو إلى عزّک» . و قال لآخر-و قد ترک غدوّه إلى السوق-: «ما لى أراک و قد تركت غدوّک إلى عزّک؟ !!» فهو عليه السّلام يدعو لكسب المال من حلّه، لينال المرء عزّة فى نفسه، و لا يكون كلا على الناس فيهان.

و لقد أخبر عن رجل قال: لأقعدن و لأصلين، و لأصومن و لأعبدن اللّه، فأما رزقى فيأتينى. قال عليه السّلام: «هذا أحد الثلاثة الذين لا يستجاب لهم» . و قال له رجل: إنا لنطلب الدنيا و نحب أن نؤتاها. قال عليه السّلام: «ما ذا تحب أن تصنع بها» . فقال الرجل: أوسع بها على نفسى و عيالى، و أصل بها قرابتى، و أتصدّق و أحجّ، و أعتمر. فقال أبو عبد اللّه عليه السّلام: «ليس هذا طلب الدنيا، هذا طلب الآخرة» . و كان هو بنفسه يطلب الرزق الحلال. قال أبو عمر الشيبانى: رأيت أبا عبد اللّه الصّادق و بيده مسحاة يعمل فى حائط له و العرق يتصبب، فقلت: جعلت فداك أعطنى أكفك. فقال لى: «إنى أحب أن يتأذى الرجل بحرّ الشمس فى طلب المعيشة» . و قال المفضل بن قرة: دخلنا على أبى عبد اللّه فى حائط له (أى بستان) و بيده مسحاة يفتح بها الماء و عليه قميص، و كان يقول: «إنى لأعمل فى بعض ضياعى، و إن لى من يكفينى، ليعلم اللّه أنى أطلب الرزق الحلال» . و خرج عليه السّلام فى يوم صائف شديد الحر، فاستقبله عبد الأعلى-مولى آل سام-فى بعض طرق المدينة، فقال له: يا ابن رسول اللّه حالك عند اللّه عزّ و جلّ و قرابتك من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أنت تجهد نفسك فى مثل هذا اليوم! ! فقال عليه السّلام: «يا عبد الأعلى خرجت فى طلب الرزق لأستغنى عن مثلك» .

نبذ من أعماله و أقواله:

فهو عليه السّلام يعلّم الناس قولا و عملا لأنه ناصح مرشد بأقواله و أفعاله يدعو إلى الخير و يهدى إلى سبيل الرشاد. بلغه عن رجل من أصحابه أنّه وقع بينه و بين أمه كلام، فأغلظ لها، فلما دخل عليه من الغد ابتدأه قائلا: «يا مهزم ما لک و خالدة (اسم أمه) أغلظت فى كلامها البارحة، أ ما علمت أن بطنها منزل قد سكنته، و أن حجرها مهد قد عمرته، و أن ثديها وعاء قد شربته؟» فقال: بلى. قال عليه السّلام: «فلا تغلظ لها» .

و دخل علیه صالح بن سهل-و کان یذهب مذهب الغلاة-فلما نظر إلیه قال: «یا صالح إنا و اللّه عبید مخلوقون، لنا رب نعبده. و إن لم نعبده عذّبنا» . فترک صالح ما کان یذهب إلیه. و کان عبد العزیز القزار ممن یذهب لهذا المذهب، فلما دخل علی الإمام علیه السّلام قال له: «یا عبد العزیز ضع لی ماء أتوضأ به» . قال عبد العزیز: ففعلت. فلما دخل، قلت فی نفسی هذا الذی قلت فیه ما قلت؟ ! ! فلما خرج قال علیه السّلام: «یا عبد العزیز لا تحمل البناء فوق ما لا یطیق. إنّا عبید مخلوقون» . و هکذا کان علیه السّلام یرشد للحق، و یدعوا إلی سبیل الرشاد، و یعظ جلساءه. و یوجه بأقواله و أعماله من شذّ عن الطریق السویّ، و یعلن براءته مما یدّعی فیهم من الغلو، و یقول أمام الملأ: «إنا عبید مخلوقون لربّ إن عصیناه عذّبنا» . و کان مجلسه یکتظ بمختلف الطبقات، من علماء الفرق و أهل الآراء، فهو یلقی علیهم دروسا توجیهیة بأقواله و أفعاله. قال سدیر الصیرفی: کنت أنا و أبو بصیر و یحیی البزاز فی مجلس أبی عبد اللّه، إذ خرج إلینا و هو مغضب، فلما أخذ مجلسه قال: «یا عجبا لأقوام یزعمون أنا نعلم الغیب، ما یعلم الغیب إلاّ اللّه عزّ و جل، لقد هممت بضرب جاریتی فلانة، فهربت منی، فما علمت فی أی بیت من الدار هی» . فهو بهذا یردّ مزاعم أولئک المنحرفین عن منهج أهل البیت علیهم السّلام و یدّعون حبهم، و یزعمون أنّهم یوحی إلیهم، و أنهم یعلمون الغیب الذی هو للّه وحده، فأوضح علیه السّلام لجلسائه بطلان هذه المزاعم لیحملوا ذلک عنه، و ینشروه فی البلاد النائیة، لأنه شدید الاهتمام بأمر الغلاة، و إعلان الحرب علیهم، و هم لیسوا من شیعته، و إنما هم أعداء له، یریدون الإساءة له و الوقیعة فی أتباعه. و سأله رجل من جلسائه فقال: إن قوما من موالیکم یلمون بالمعاصی و یقولون: نرجو.

فقال علیه السّلام: «کذبوا لیسوا لنا بموال، أولئک قوم ترجحت بهم الأمانی. من رجا شیئا عمل له، و من خاف شیئا هرب منه» . و کما قلنا إن مجلسه کان مکتظا بمختلف الطبقات من رواد العلم و حملة الحدیث، و کان سفیان الثوری و هو أحد أعلام الأمة و من رؤساء المذاهب البائدة، یکثر التردد علیه، و یطلب منه الموعظة و التوجیه. و یحدّثنا سفیان: أنه دخل علی الإمام الصّادق علیه السّلام و کان علیه جبة خز دکناء قال سفیان: فجعلت أنظر إلیها متعجبا. فقال لی: «یا ثوری، ما لک تنظر إلینا، لعلک مما رأیت؟» قال فقلت: یا ابن رسول اللّه لیس هذا من لباسک و لا لباس آبائک! فقال لی: «یا ثوری، کان ذلک الزمان مقفرا مقترا» ثم حسر عن ردن جبته، و إذا تحتها جبة صوف بیضاء، و قال: «یا ثوری لبسنا هذا للّه (و أشار إلی جبة الصوف) و هذا لکم (و أشار إلی الخزّ) فما کان للّه أخفیناه، و ما کان لکم أبدیناه» . و کان علیه السّلام یؤوی الضیف، و یدعو الغرباء إلی ضیافته و یکرمهم، و من حسن أخلاقه لا یود أن یسارع الضیف فی رحلته، و یمنع خدمه من المعاونة لهم فی رحلتهم، و هذا من مفاخر العرب، و لهم فیه أشعار کثیرة. و عند ما یسأله ضیوفه عن سبب ذلک یقول: «إنّا أهل بیت لا نعین أضیافنا علی الرحلة من عندنا» . کما أنه یبذل الطعام و یدعو إلی بذله. و سأله محمّد بن قیس فقال: إنی لا أتغدی و لا أتعشی إلاّ و معی اثنان أو ثلاث أو أکثر. فقال علیه السّلام: «فضلهم علیک أکثر من فضلک علیهم» . فقال محمّد: جعلت فداک کیف؟ ! ! و أنا أطعمهم طعامی، و أنفق علیهم، و یخدمهم خادمی. فقال علیه السّلام: «إذا دخلوا علیک دخلوا بالرّزق الکثیر، و إذا خرجوا خرجوا بالمغفرة» . و قال رجل من الجالسین عنده: إن المنصور مذ صارت الخلافة إلیه لا یلبس إلاّ الخشن، و لا یأکل إلاّ الجشب. فقال علیه السّلام: «یا ویحه مع ما مکن اللّه له من سلطان! !»

فقيل: إنما يفعل ذلک بخلا و جمعا للأموال. فقال علیه السّلام: «الحمد للّه الذی حرمه من دنیاه ماله مع دینه» . و لما أحضره المنصور فی مجلسه، وقع الذباب علی وجه المنصور حتی ضجر، فقال المنصور: یا أبا عبد اللّه لم خلق اللّه الذباب؟ فقال علیه السّلام: «لیذل به الجبارین» . فوجم لقوله. و قد أدّب أصحابه بآداب الإسلام، فی جمع الکلمة و عدم الفرقة، و حسن الصحبة لمن یصحبونه. قال أبو بصیر: سمع أبا عبد اللّه الصّادق یقول: «اتّقوا اللّه، و علیکم بالطاعة لأئمتکم، قولوا ما یقولون، و اصمتوا عمّا صمتوا، فإنّکم فی سلطان من قال اللّه تعالی: وَ إِنْ کانَ مَکْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ اَلْجِبالُ فاتقوا اللّه فإنکم فی هدنة، صلوا فی عشائرهم، و اشهدوا جنائزهم، و أدّوا الأمانة إلیهم، و علیکم بحجّ البیت، فإن فی إدمانکم الحجّ دفع مکاره الدنیا عنکم. و أهوال یوم القیامة» . و قال أبو ربیع الشامی: دخلت علی أبی عبد اللّه علیه السّلام و البیت غاص، فیه الخراسانی و الشامی و من أهل الآفاق، فلم أجد موضعا أقعد فیه، فجلس أبو عبد اللّه و کان متکئا، ثم قال: «یا شیعة آل محمّد إنه لیس منا من لم یملک نفسه عند غضبه، و من لم یحسن صحبة من صحبه، و مخالقة من خالقه، و مرافقة من رافقه، یا شیعة آل محمّد اتّقوا اللّه ما استطعتم، و لا حول و لا قوة إلاّ باللّه العظیم» . و قال علیه السّلام للمفضل: «من صحبک؟» قال رجل من إخوانی. قال علیه السّلام: «فما فعل؟» قال المفضل: منذ دخلت المدینة لم أعرف مکانه. فقال علیه السّلام: «أ ما علمت أن من صحب مؤمنا أربعین خطوة سأله اللّه عنه یوم القیامة» . و بعث الإمام الصّادق علیه السّلام غلاما له فی حاجة، فأبطأ الغلام، فخرج علی أثره فوجده نائما، فجلس عند رأسه یروّحه فانتبه، فقال له الإمام علیه السّلام: «و اللّه ما ذلک لک، تنام اللیل و النهار! ! لک اللیل و لنا منک النهار» . و دخل علیه رجل فقال: یا ابن رسول اللّه أخبرنی بمکارم الأخلاق. فقال علیه السّلام: «هی العفو عمن ظلمک، و صلة من قطعک، و إعطاء من حرمک» . و قال یوما لأصحابه: «إنا لنحب من کان عاقلا، فهما، حلیما، مداریا،

صبورا، صدوقا، وفيا. إن اللّه عزّ و جل خصّ الأنبياء بمكارم الأخلاق، فمن كانت فيه فليحمد اللّه على ذلک، و من لم تكن فيه فليتضرع إلى اللّه عزّ و جل، و ليسأله إياها» . فقال له ابن بكير: جعلت فداک و ما هن؟ قال عليه السّلام: «هنّ الورع و القناعة و الصبر و الشكر و الحلم و الحياء و السخاء و الشجاعة و الغيرة، و البرء و أداء الأمانة» . و هكذا كان عليه السّلام يلقى على الناس نصائحه، و يغتنم الفرص فى التوجيه و الإرشاد، لما فيه صلاح أنفسهم، و بذلک يصلح المجتمع. فهو عليه السّلام طول حياته يهدى إلى الخير، و يدعو إلى سبيل الرشاد، فى امتثال أوامر اللّه، و الوقوف عند نواهيه. و قد بذل جهده عليه السّلام فى بذل النصح لجميع المسلمين لينتصر المجتمع الإسلامى على ميوله و نزعاته، عند ما تهذب النفوس من أدران الرذائل، و تتحول عن شهواتها. و لم يترک طريقا للنصح إلاّ سلكه فى أقواله و أفعاله، و لم يدع بابا للتوجيه إلاّ طرقه، و يدفع بالناس إلى التحلى بفضائل الأعمال، و يحث على الورع و التقوى، و الاجتهاد فى الطاعة، و الإلفة و المحبة و التعاون، و مناصرة المظلوم و الوقوف فى وجه الظالم، و أخذ الحق للضعيف من القوى، و قال غير مرة: «ما قدست أمة لم تأخذ لضعيفها من قويها بحقه» . كما أنه عليه السّلام كان يوصى من يريد السفر من أصحابه، أو الوفود القادمين عليه من البلاد النائية بالمروّة، ثم يشرحها لهم بقوله: «هى كثرة الزاد و طيبه، و بذله لمن كان معک، و كتمانک على القوم بعد مفارقتک إيّاهم، و كثرة المزاح فى غير ما يسخط اللّه» . ثم يقول: «و الذى بعث جدى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بالحق نبيا، إن اللّه عزّ و جل يرزق العبد على قدر المروة، و إن المعونة تنزل على قدر المئونة، و إن الصبر ينزل على قدر شدة البلاء» . و يوصيهم بعد ذلک بما أوصى لقمان ابنه إذ يقول: «إذا سافرت مع قوم فأكثر استشارتهم فى أمرک و أمورهم، و أكثر التبسّم فى وجوههم، و كن كريما على زادک بينهم، و إذا دعوک فأجبهم، و إذا استعانوا بک فأعنهم، و استعمل طول الصّمت، و كثرة الصّلاة و سخاء النفس بما معک من دابة أو ماء أو زاد، و إذا استشهدت على الحق

فاشـهد لهم، و أجهد رأيک إذا اسـتشاروک، و لا تجب فی مشورة حتی تقوم بها، فإن من لـم يمحض النصـيحة لمن استشاره سلبه اللّه رأيه و نزع عنه الأمانـة. و إذا رأيت أصـحابک يمشون فامش معهم، و إذا رأيتهم يعملون فاعمل معهم، و إن تصـدقوا أو أعطوا قرضا فاعط معهم، و اسـمع لمن هو أكبر منک سنا، و إذا أمروک بأمر أو سألوک شيئا فقل نعم و لا تقل لا، فإن لا عی و لؤم؛ و إذا تحيرتم فی الطريق فانزلوا، و إذا شككتم فی الأمر فقفوا و تواموا، و إذا رأيتم شـخصا واحدا فلا تسألوه و لا تسترشدوه، فإن الشخص الواحد فی الفلاة مريب، لعله أن يكون عين اللّصوص» . إلخ. . .

حول أخطاء بعض الكتّاب:

هذه لمحة موجزة و نظرة خاطفة لبعض سيرته فی حياته التی قضاها فی الدعوة إلی سبيل الخير، قائدا روحيا يوجه المجتمع إلی ما يسعده، و قـد رأينـا كيف كـان فی منهجه مع ولاـة عصـره، فهو لـم يكن مسالمـا لهم، و لا مبررا أعمالهم. و من الخطأ فی الرأی ما يـذهب إليه بعض الكتّاب من أن الصّادق عليه السّـلام كان مسالما يقعد عن نصـرة أبناء عمه، كما يقول الأستاذ أمين الخولی: (إن الصّادق-كما تشهد حياته- مسالم أو مسـرف فی المسالمـة، يقعـد عن نصـرة أبناء عمّه، فقـد خرج ابن عمه محمّد بن عبد اللّه بن حسـين بالمدينة، فهرب هو حتی قتل محمّـد، فلما قتل و اطمأن الناس و أمنوا، رجع إلی المدينـة، و ذلک أقصـی المسالمة، أو هو يصل إلی شـیء وراء المسالمة قد ينتقد) (1). هذا ما يقوله الأسـتاذ الخولی. و لـم يكن هو أول من يسهم فی تجاهل الحقائق و الحكم علی الشیء قبل معرفته، فهناک الكثير ممن حاولوا أن يلصـقوا بأهل البيت و صـمات الانتقاد نتيجة للتعصّب، أو لضيق أفق المعرفة أمامهم، فتاهوا فی بيداء التخبط و التعثّر، عند ما ركضوا فی طريق الانحراف عن الواقع. و إن مثل هـذا القول يرينا إلی أی حد بلغ التأثّر بأفكار المنحرفين عن الواقع، فلم يتجاوزوا فی كتاباتهم عن أهل البيت حدود الخطة التی رسمتها لهم أقلام منحرفة، و آراء شاذة.

1- 1) مالک بن أنس لأمين الخولی. ص 92.

الدعوة العباسية:

أشـرنا سابقا إلى سوء معاملـة الأمويين، و إجحافهم بحق الرعيـة، و ظلمهم الـذى لم يسـلم منه أحد حتى الشـيخ فى محرابه، و الطفل فى مهـده، فعم الاستياء جميع الطبقات، و ساد الاضـطراب جميع أنحاء المملكـة، و قـد وصف الشاعر الجعـدى تلك الحالة السـيئة بقوله: و الناس فى كربة يكاد لها تنبذ أولادها حواملها

فكـان الوضع السـيئ يفسـح المجال للثورة، و أى دعوة إلى الخلاص من تلك المحن و ويلاتها تلقى قبولا، و قـد قامت الجمعيات السـرية للدعوة إلى الرضا من آل محمّد، و نالت النجاح بسـرعة مدهشة حتى قضى على الدولة الأموية، و قامت على أطلالها الدولة العباسية. و إذا أردنـا أن نسـتنطق الحوادث، و نبحث عن العوامـل التى أدّت إلى نجاحهم، فإنا لـم نجـد لهم فى أول الأمر أى نشاط يـذكر، و لا يؤمل لهم النجاح بالدعوة و الفوز فى ميدان الكفاح السياسـى. إذا كيف بدأت الدعوة و ما هى أسـباب طمعهم بالخلافة؟ و أى أسـلوب اتخذوه لجلب القلوب؟ هـذه أسـئلة تجيب عليهـا الحوادث فلنعرض ذلـك بموجز من البيـان. كـان محمّـد بن على بن أبى طالب المعروف بابن الحنفية (1)يعتقد بعض الناس فيه أنّه هو الإمام بعد أخيه الحسـين بن على عليه السّـلام و أنّه صاحب الدولة المبشّـر بها. فلما مات محمّد بن على أوصـى إلى ابنه أبى هاشم، و كان أبو هاشم، و اسـمه عبـد اللّه، من رجالات أهل البيت البارزين، فاتفق أنه قصـد هشام بن عبد الملك وافدا فوصله هشام، ثم رأى من فصاحته و رئاسته ما حسده عليه، و خاف منه، فبعث إليه من سمّه فى الطريق، فلما علم أبو هاشم بذلك، عدل إلى محمّد بن على بن عبد اللّه بن العباس، فأعلمه أنه ميت، و أوصى إليه، و كان معه جماعة من أصحابه فأوصاه فيهم، و ذلك سنة 99 ه.

1- 1) هو أبو القاسم محمّـد بن على بن أبى طالب، كان من سادات قريش و شـجعانهم المشـهورين و أقويائهم المعروفين، أمه خولة بنت جعفر بن قيس من بنى حنيفة، روى الحديث عن أبيه على، و خرج حديثه أصحاب الصحاح الستة، المتوفى سنة 80 ه أو 81، و دفن بالبقيع.

و كانت هذه الوصية بذرة طمع و بارقة أمل (فهوس محمّد بن على بن عبد اللّه منذ يومئذ بالخلافة، و شرع فى بث الدعاة سرا، و ما زال الأمر كذلک حتى مات سنة 125 ه و خلف أولاده و هم جماعة، منهم: إبراهيم المعروف بالإمام و السّفّاح و المنصور) (1). فقام إبراهيم بالدعوة، و أخذ يتحدّث مع المنكوبين فى آلامهم، و يشاركهم فى التأثّر، و يعطف على المظلومين، و يلعن الظالمين، و الناس يندفعون وراء من يشاركهم آلامهم، و يميلون لمن يأملون الخلاص على يده من الظالمين. انتشر دعاة إبراهيم فى بلاد خراسان، و هم من الرجال الذين لهم الأثر هناک، منهم: زياد مولى همدان، و حرب بن قيس، و سليمان بن كثير، و مالک بن الهيثم و غيرهم، فبعضهم قتلوا فى سبيل الدعوة، و مثّل ببعضهم، و حبس البعض الآخر (2)و ما زال الأمر يتفاقم و الناس تتقبل هذه الدعوة. و الجدير بالذكر أن الدعوة كانت على جانب كبير من الغموض و التكتم باسم الخليفة، و أن الشخص الذى يبايعه الناس لا يعرفه إلاّ الدعاة، و العامة تبايع إلى (الرضا من آل محمّد) . و كان فى طليعة الدعاة نشاطا و قوة و دهاء أبو مسلم الخراسانى، و قد ولاه إبراهيم الإمام على خراسان، و جعله قائدا لتلک الحركة و ذلک سنة 128 ه. و قد عرف أبو مسلم الخراسانى بالدهاء و المهارة الحربية، و كان يبذر بذور الشقاق بين جنود الأمويين؛ ليحصل الانقسام بينهم، و قد استفاد بذلک و نجح فى مهمته، فقد انجفل الناس من هرات، و الطالقان، و مرو، و بلخ، و توافروا جميعا مسودين الثياب، و أنصاف الخشب التى كانت معهم (3). و كان السواد هو شعار الدعوة العباسية، جعلوه علامة حزن لما نال أهل البيت عليهم السّلام فى العهد الأموى من القتل و التشريد.

أساليب الدعوة:

تولى الدعاة نشر الدعوة بكل نشاط، و تجاوب الناس لقبولها، و كانت الأساليب

1- 1) الآداب السلطانية ص 127. [1]

2- 2) تاريخ ابن الساعى ص 3.

3- 3) الدينورى ص 360. [2]

تستهوی النفوس و تثیر الشعور، و أهمّها أن الثورة إنما تقوم علی التنظیم و رعایة مصالح الأمة، و الانتصار للعدالة المفقودة و الحق الضائع، و أن الخلیفة هو من أهل البیت و من عترة محمّد و ورثته، و ناهیک ما لأهل البیت من أثر فی النفوس، و وقع فی القلوب، لأنهم أهل العدل و حماة الدین. کان الدعاة یلقون علی الناس العبارات التالیة: هل فیکم أحد یشک أن اللّه عزّ و جل بعث محمّدا و اصطفاه؟ قالوا: لا. أ فتشکّون أن اللّه أنزل علیه کتابه فیه حلاله و حرامه و شرائعه؟ قالوا: لا. أ فتظنونه خلّفه عند غیر عترته و أهل بیته؟ قالوا: لا. أ فتشکّون أنّ أهل البیت معدن العلم و أصحاب میراث رسول اللّه الذی علّمه اللّه؟ قالوا: لا (1). و عند ما یسمع الناس هذه العبارات المعبّرة عن أمانیهم فی تحقیق سعادتهم تحت ظل دولة تکفل لهم القضاء علی آلامهم، و تضمن تحقیق آمالهم بالعمل علی إزالة کابوس ذلک الحکم الجائر. یزداد نشاطهم و یکثر حماسهم. و من الأسالیب التی اتخذت لنجاح الدعوة هو الشعار الأسود الذی یعبّر عن محاربة الضلالة، أو إظهار الحزن و الحداد علی أهل البیت، الذین قامت الدعوة باسمهم للانتقام من الأمویین علی ما ارتکبوه منهم، بدون مراقبة للّه و لا احترام لرسوله. و قد أرسل إبراهیم الإمام لواء یدعی الظل أو السحاب علی رمح طوله ثلاثة عشر ذراعا، و کتب إلی أبی مسلم إنی قد بعثت إلیک برایة النصر (2). و قد تأولوا الظل أو السحاب: أن السحاب یطبق الأرض، و کما أن الأرض لا تخلو من الظل کذلک لا تخلو من خلیفة عباسی (3). و إن ذلک اللواء یمثّل لواء رسول اللّه، لأنهم ذکروا أن لواءه فی حروبه و غزواته کان أسودا. علی أن للتنبؤات و کشف حجب الغیب عن المستقبل أثر فی نشاط الدعوة، و اندفاع المنظمین إلیها، و قد جری علی الألسن من تلک النبوءات: (علیه السلام) بن (علیه السلام) بن

1- 1) الکامل لابن الأثیر ج 5 ص 17. [1]

2- 2) الطبری ج 9 ص 82. [2]

3- 3) الکامل لابن الأثیر ج 5 ص 170. و [3]الطبری ج 9 ص 85. [4]

(علیه السلام) سیقتل (م) بن (م) بن (م) و تأوّلوا أن المراد بالأول هو عبد اللّه بن علی بن عبد اللّه بن العباس، و الثانی هو مروان بن محمّد بن مروان. کما ادّعوا أیضا أن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کان یبشّر بدولة هاشمیة، و زعموا أنّه قال لعمه العباس: إنها تکون فی ولدک. قال محمّد بن الأسود: بینما عبد اللّه بن علی، یساور أخاه داود بن علی و معهما عبد اللّه بن الحسن، فقال داود لعبد اللّه: لم لم تأمر ابنیک بالظهور؟ فقال عبد اللّه بن الحسن: هیهات، لم یأن لهما بعد. فالتفت إلیه عبد اللّه بن علی فقال: کأنّک تحسب أن ابنیک هما قاتلا مروان. فقال عبد اللّه: إن ذلک کذلک. فقال عبد اللّه: هیهات و تمثّل: سیکفیک المقالة مستمیت خفیف اللحم من أولاد حام

أنا و اللّه قاتله (1). و غیر ذلک من التنبؤات التی کان یروّج لها بنو العباس، و یدخلونها فی أذهان الأفراد الذین اعتمدوهم فی التنظیم، و بثّوهم فی الأقطار للدعوة و لکن تحت شعار: الرضا من آل محمّد. و لما اتصل أبو مسلم الخراسانی بإبراهیم الإمام فسأله عن اسمه، فقال: اسمی إبراهیم بن عثمان. فقال له الإمام: غیّر اسمک فإنه لا یتم لنا الأمر إلاّ بتغییر اسمک. علی ما وجدته فی الکتب. فسمّی نفسه عبد الرّحمن بن مسلم، و کنیته أبو مسلم. و هذا یکشف لنا أن الدعوة کانت محفوفة بدعایات غیبیة، و ادعاء وجود کتب تنطق بانتقال الخلافة إلی بنی العباس، و لکنهم تکتموا فی إظهار ذلک للناس و لم یطلعوا علیها إلاّ النقباء من خواصهم، و کان التکتم باسم الخلیفة هو عامل جوهری فی نجاح الدعوة، حتی یتم الأمر، و ینتهی کل شیء، عند ما یزول سلطان الأمویین، و هناک یعلن باسم الخلیفة الذی یعرفه القواد و النقباء. و قد احتفظوا لأنفسهم بتنازل أبی هاشم بن محمّد بن الحنفیة عن الإمامة لهم، و هی دعوی غیر معتبرة لأن الإمامة لم تکن و لن تکون لغیر أصحابها و القائمین بها بالحق. و علی أی حال فإن الدعوة کانت تدعو إلی تحریک الشعور الدینی بالانتصار

1- 1) المسعودی ج 3 ص 188. [1]

لأهل البيت، الـذين أريقت دماؤهم فى سبيل الانتصار للحق، و قـدّموا أنفسـهم إلى الجهاد فى سبيل اللّه لتكون كلمة اللّه هى العليا، و لـم يجرءوا على كشف مخططهم و نواياهم. و بهذه الآمال انبعث فى نفوس المسلمين الأمل بانبثاق فجر العدل الإسلامى الذى يضمن للناس سعادتهم، على يد رجل من أهل بيت النبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم و هم أئمة العدل و هداة الخلق، و لا سـيما فى الولايات التى كان الولاة و العمال يسـتغلونها لأنفسهم، مدفوعين بعوامل الجشع، و قد أذاقوا الناس أنواع الأذى و ضروب المحن، فاستأثروا بالأموال و ضاعفوا الضـرائب، و أخذوا الجزية على المسـلمين. و كذلك انبعث الأمل فى نفوس غير المسـلمين ممن لـم يعرفوا عن الإسلام فى العهد الأموى سوى الاضـطهاد، و دفع الجزيـة، و جبايـة الضـرائب على اختلاف أنواعها، فانـدفع كثير من الـدهاقين من المجوس إلى اتباع أبى مسـلم و أظهروا الإسـلام. كما اسـتجاب كثير من أهل الآراء و العقائـد الخارجة عن الإسـلام، و غرضـهم التخلّص من الحكم الأموى، عند ما رأوا العطف من أبى مسـلم على مـذاهبهم و عقائـدهم، و كان الكثير منهم يعتبرونه وحـده الإمام، و اعتقدوا فيه أنه أحد أعقاب زرادشت الذى ينتظر المجوس ظهوره، حتى أنّهم لـم يعتقدوا بموت أبى مسـلم، بل كانوا ينتظرون رجعته. و صـفوة القول أن العباسـيين قد وجدوا الفرصـة سانحـة للقيام بـدعوة الناس إلى الثورة ضـد الأمويين، لوجود العوامل الكثيرة التى يأملون بها نجاح دعوتهم لأنفسـهم، و قد تستروا بالدعوة لآل بيت النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و عترته، و هم يخفون من ورائها الآمال و المطامع لأنفسهم. و لهذا التجئوا إلى مجاراة أبناء على عليه السّـلام ليهيؤوا جوا تسوده مشاعر المحبـة و الوئام، حتى يتم لهم ما يريدونه، بدون عرقلة من جانب أهل البيت الذين هتفت الجماهير بالانتصار لهم، لذلك عقدوا فى بادئ الأمر مؤتمرا بالأبواء يضم العلويين، و العباسـيين، ليبايعوا رجلا منهم، يكون هو الخليفة عند ما يفتح اللّه عليهم فى نجاح الثورة، و أرسـلوا إلى الإمام الصّادق عليه السّـلام و قـد علموا إباءه فى قبول البيعة من قبل. و انتهى المؤتمر بعد مداولة فيما بينهم إلى مبايعة محمّد بن عبد اللّه بن الحسن و قد جاء فى كلام المنصور يخاطب به الحاضرين:

لأی شیء تخدعون أنفسکم؟ و اللّه لقد علمتم ما الناس إلی أحد أسرع إجابة منهم إلی هذا الفتی (یعنی محمّد بن عبد اللّه بن الحسن) . فقالوا: قد و اللّه صدقت، فبایعوا جمیعا محمّدا، و مسحوا علی یده. و بعد ذلک حضر الإمام الصّادق علیه السّلام و قال لعبد اللّه بن الحسن: «و اللّه ما هی إلیک (أی الخلافة) و لا لابنیک، و إنهما لمقتولان» ثم نهض (1). و یمکننا أن نعتبر هذا المؤتمر من أهم الوسائل التی اتخذها العباسیون لإیقاف أی عرقلة تقف فی طریق سریان الدعوة من جانب أهل البیت و أنصارهم المدفوعین بدافع الولاء، و الانتصار للحق و العدالة، لأن أهل البیت لهم فضیلة السبق إلی الإیمان، و قوة التمسک بالدین، و التضحیة فی سبیل اللّه، و هم أعدل الناس فی الحکم و أولاهم برعایة المصالح العامة، و فی تطبیق نظام الإسلام. و لا یغرب عن البال ما حاوله العباسیون أیضا فی زج أبناء علی فی ذلک المعترک السیاسی، و هم یعلمون بالخطة التی اختطها الإمام الصّادق لنفسه، و لأبناء عمومته، من الانعزال عن تلک الاتجاهات و الاحتفاظ بمرکزهم الدینی، لأن الظروف غیر مواتیة للثورة، و کل شیء یقع قبل أوانه فنتیجته الفشل، و لکن العباسیین استطاعوا صدع الصف العلوی بجلب البعض إلیهم من بنی الحسن فی مبایعة محمّد بن عبد اللّه المحض. و الخلاصة: أن الدعوة استمرت فی طریقها، و قام دعاة العباسیین بنشاطهم، و أظهروا حماسا شدیدا فی الولایات الإسلامیة، فکانوا یجوبون بلاد خراسان لبثها، و لا یدعون لشخص معین، و إنما یذیعون بین الناس أنّه لا خلاص لکم إلاّ إذا ولی أمرکم آل البیت. و هکذا سار کل ما دبّره العباسیون بنجاح مدهش، فقد غلب أبو مسلم علی خراسان، و استولی علی کورها، و قامت الحروب هناک، و تجمعت الجنود یقاتلون و یبذلون نفوسهم و أموالهم فی سبیل الانتصار، و هم یمتثلون الأوامر من قواد یدعون لخلیفة لا یعرفه الناس، و لم ینفق علیهم مالا و لم یعط أحدهم دابة، و لا سلاحا، بل کانوا هم یجبون إلیه الأموال، و یحملون إلیه الخراج فی کل سنة، و هو متستر بعبادته،

1- 1) مقاتل الطالبین ص 144.

و إصلاح شأنه حتى ظهر أمره لمروان، فقبض عليه سنة 131 ه و حبسه بحران، ثم قتله، فخاف أخواه السفاح و المنصور و جماعة من بنى العباس، و قصدوا الكوفة و لهم بها شيعة و دعاة، و فى طليعتهم أبو سلمة الخلال المعروف بوزير آل محمّد، فأخلى لهم دارا، و تولى خدمتهم بنفسه، و كتم أمرهم لأنه أراد صرف الخلافة عنهم لآل على. و لكنه غلب على أمره، و وصلت جند أبى مسلم إلى الكوفة، و ظهر أمر بنى العباس، فأخرجوا السفاح إلى المسجد و بايعوه و لقّبوه المهدى، و خطب فى الناس أول يوم من خلافته بخطبة استهلها بالتنويه عن الآمال التى بعثها الدعاة فى النفوس بتلك الأساليب الخداعة، أو الكذب المنظم. و على أى حال: فقد فاز العباسيون و اعتلى أبو العباس السفاح عرش الخلافة، و تم لهم ما أرادوا، و قد خابت آمال المندفعين بدافع الإيمان الصحيح، و الولاء لأهل البيت فى إسناد الحكم إليهم لتحقيق العدل الإسلامى، و التكافل الاجتماعى، و تطهير الأرض من آلام الظلم و ويلات الحروب، كما خابت آمال أبى سلمة الخلال فى تحويل الأمر لآل على، و عدوله عن الدعوة للعباسيين، و قد احتجزهم بالكوفة مدة من الزمن، ليكشف رأى العلويين فى قبول البيعة لأنفسهم، و لكنه غلب على أمره، و انتهى كل شىء ببيعة السفاح. و مهما تكن البواعث التى دعت أبا سلمة الخلال إلى تحويله عن فكرة الدعوة لبنى العباس إلى آل على، كما نص عليه كثير من المؤرخين (1)فلا يهمنا البحث عن ذلك، و لكن المهم هو الرد من قبل الإمام الصّادق و عدم إجابته له، ففى ذلك دلالة واضحة على نظره الصائب و حدسه الثاقب، و علمه بما وراء الحوادث. فلم يخدع بتلك المغريات، فيعرّض نفسه و أهل بيته، بل المجتمع الإسلامى كله لخطر لا قبل لهم على دفعه.

دعوة الإمام الصّادق للخلافة:

ذكر كثير من المؤرخين أن أبا سلمة (2)كاتب ثلاثة من أعيان العلويين و هم: جعفر بن محمّد الصّادق، و عمر الأشرف بن زين العابدين، و عبد اللّه بن

1- 1) الطبرى ج 9 ص 124. و ابن قتيبة ص 128. و الطقطقى ص 127 و غيرهم.

2- 2) أبو سلمة: حفص بن سليمان، كان مولى بنى الحارث بن كعب، و قد نشأ بالكوفة، و لعب دورا هاما فى الدعوة العباسية لما اتصف به من فصاحة و علم بالأخبار و السير و قوة البديهة و حضور الحجة؛ و كان ذا ثروة طائلة ينفق من ماله على رجال الدعوة، و قد اتصل بإبراهيم الإمام بواسطة بكر بن ماهان، أحد أبطال الدعوة المختصين بإبراهيم الإمام، فلما أدركته الوفاة قال لإبراهيم الإمام: إن لى صهرا بالكوفة يقال له أبو سلمة الخلال قد جعلته عوضى فى القيام بأمر دعوتكم، فلما مات كتب إبراهيم إلى أبى سلمة يأمره بالقيام بالدعوة، فقام بها خير قيام، و تركزت فى الكوفة بجهوده، و قتله السفاح لعلمه بانحرافه و ميله للعلويين بعد أن استوزره مدة.

المحض (1). و أرسل الكتب مع رجل من مواليهم يسمى محمّد بن عبد الرّحمن بن أسلم مولى لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و قال أبو سلمة للرّسول: العجل العجل فلا تكونن كوافد عاد. و قال له: اقصد أولا جعفر بن محمّد الصّادق، فإن أجاب فأبطل الكتابين الآخرين. و إن لم يجب فالق عبد اللّه المحض، فإن أجاب فأبطل كتاب عمر، و إن لم يجب فالق عمرا. فذهب الرّسول إلى جعفر بن محمّد أولا، و دفع إليه كتاب أبى سلمة، فقال الإمام عليه السّلام: «ما لى و لأبى سلمة و هو شيعة لغيرى؟» . فقال له الرجل: اقرأ الكتاب. فقال عليه السّلام لخادمه: «ادن السراج منى» فأدناه. فوضع الكتاب على النار حتى احترق. فقال الرّسول: أ لا تجيبه؟ قال عليه السّلام: «قد رأيت الجواب. عرّف صاحبك بما رأيت» . فخرج الرّسول من عنده، و أتى عبد اللّه بن الحسن، و دفع إليه الكتاب، و قرأه و ابتهج، فلما كان غد ذلك اليوم الذى وصل إليه فيه الكتاب، ركب عبد اللّه حتى أتى منزل أبى عبد اللّه جعفر بن محمّد الصّادق، فلما رآه أبو عبد اللّه أكبر مجيئه، و قال: «يا أبا محمّد (كنية عبد اللّه المحض) أمر ما أتى بك؟» قال: نعم، هو أجل من أن يوصف. فقال له: «و ما هو يا أبا محمّد؟» قال: هذا كتاب أبى سلمة يدعونى إلى الخلافة، و قد قدمت عليه شيعتنا من أهل خراسان. فقال له أبو عبد اللّه: «يا أبا محمّد، و متى كان أهل خراسان شيعة لك؟ أنت بعثت أبا مسلم إلى خراسان، و أنت أمرتهم بلبس السواد، و هؤلاء الذين قدموا العراق أنت كنت سبب قدومهم، أو وجهت فيهم، و هل تعرف منهم أحدا؟» فنازعه عبد اللّه بن الحسن الكلام، إلى أن قال: إنما يريد القوم ابنى محمّد لأنه مهدى هذه الأمة، فقال أبو عبد اللّه جعفر

1- 1) هو أبو محمّد عبد اللّه بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن على بن أبى طالب، و أمه فاطمة بنت الحسين بن على بن أبى طالب. لقب بالمحض لأنه أول من جمع ولادة الحسن و الحسين من الحسنية. مات فى حبس المنصور سنة 145 ه و قد تجرع الآلام و الويلات هو و أهله كما أشرنا.

الصّادق: «ما هو مهدی هذه الأمة و لئن شـهر سـیفه لیقتلن» . فقال عبد اللّه: کان هذا الکلام منک لشـیء. فقال الصّادق: «قد علم اللّه أنی أوجب النصح علی نفسی لکل مسلم، فکیف أدخره عنک، فلا تمنّ نفسک الأباطیل، فإن هذه الدولة ستتم لهؤلاء، و قد جاءنی مثل الکتاب الذی جاءک» (1). و علی ضوء ما تقدم نستطیع أن نکشف کثیرا من الحقائق الناصعة، فإن امتناع الإمام عن إجابة أبی سلمة دلیل قاطع علی أن خطته الحکیمة و منهجه السدید فی عدم امتزاجه بذلک المعترک الذی لا یؤمل من ورائه نجاح تلک المهمة قد أصاب کبد الحقیقة بتلک النظرة الصائبة و الحدس الثاقب و علمه بما وراء الحوادث، فقد فشل أبو سـلمة فشلا ذریعا فی تلک المحاولة التی جاءت متأخرة عن وقتها. و لقد ابتعد الإمام الصّادق عن ذلک المعترک، و بذل لأبناء عمّه النصح بأن لا یزجّوا أنفسهم فی ذلک الصراع، و حذّرهم عاقبة الأمر التی لا تعود علیهم إلاّ بالخیبـة، و قد لقی منهم اسـتنکارا، و ربما اتهموه، و لکنه یری ما لا یرونه و یعلم ما لا یعلمون. إذ الأمر جاء قبل أوانه، و هو علیه السّـلام یری التریث إلی حین إعـداد العـدة و إحکـام الأـمور و حلول الوقت المناسب. و لم یکن أبو سـلمة وحـده یتحول عن رأیه فی الدعوة لبنی العباس، فقد سـبقه أبو مسـلم الخراسانی لذلک، فإنه تحول عن رأیه، و حاول أن یسـتمیل الإمام الصّادق فی إسـناد الحکم إلیه. فکتب إلی الإمام الصّادق علیه السّـلام کتابا یقول فیه: إنی قد أظهرت الکلمة، و دعوت الناس عن موالاة بنی أمیة إلی موالاة أهل البیت، فإن رغبت فلاـ مزیـد علیـک. فکتب إلیه الإمـام علیه السّـلام: «ما أنت من رجالی، و لا الزمان زمانی» (2). و ها نحن أولاء نترک تقـدیر هـذا الجواب إلی القـارئ النبیه، لیلمس فیه الحقائق التی تـدل علی الروح المشـبعة بالإیمان، و الشخصـیة المستعصـمة بالفکر الثاقب، و النظر الـدقیق لعواقب الأمور، و مراعاة المصـلحة العامـة، و السـیر علی الخطط المحکمـة و الآراء السدیدة، فی تقدیر الظروف و مناسـباتها، فلم یندفع وراء تیار الأقوال البرّاقة،

1- 1) مروج الذهب للمسعودی ج 3 ص 268 و 269. و الآداب السلطانیة ص 137. [1]

2- 2) الملل و النحل للشهرستانی ج 1 ص 241. [2]

و لم يجر فی میدان السیاسة عند ما حاول الکثیرون إثارة حفیظته، و تحریک عواطفه نحو الثورة و إعلان الحرب علی أولئک الحکام الذین استشری داؤهم و عظم خطرهم. و لقد أراد بعض أصحابه حمله علی الخروج و إعلان الثورة لما یعرفونه من کثرة محبیه و أنصاره، و لکنهم کانوا ینظرون إلی الأمور نظرة سطحیة، فتغلب علیهم سلامة الصدر، و سرعة التصدیق. دخل علیه سهل بن الحسن الخراسانی فسلم علیه و قال له: یا ابن رسول اللّه لکم الرأفة و الرحمة، و أنتم أهل بیت الإمامة، ما الذی یمنعک أن یکون لک حق تقعد عنه؟ ! و أنت تجد من شیعتک مائة ألف یضربون بین یدیک بالسیف. و دخل علیه سدیر الصیرفی، فقال: یا أبا عبد اللّه ما یسعک القعود. فقال علیه السّلام: «و لم یا سدیر؟» قال: لکثرة موالیک و شیعتک و أنصارک. فقال: «یا سدیر و کم عسی أن یکونوا؟» قال: مائة ألف. فقال الصّادق علیه السّلام: «مائة ألف؟» قال: نعم (1). فأجابه علیه السّلام بما حاصله: أن تلک الکثرة المزعومة، و ذلک العدد الکبیر لا یوجد فیهم من الرجال المخلصین الذین تمکنت العقیدة فی نفوسهم إلاّ نفر قلیل، فلا یمکنه أن یخوض معرکة کما یرید سدیر و غیره، مع عدم وجود العدة الکافیة من المخلصین الذین یمکنه الرکون إلیهم و التعویل علیهم. فإن التسرّع فی مثل تلک الظروف عدیم النفع، و إن أنجع وسیلة أن یواصل دعوته لإیجاد التکامل الخلقی، و التکافل الذی یربط أجزاء المجتمع، و یصل الأفراد إلی نقطة الإدراک لکیفیة الانتفاضة ضد الحکم القائم، و یحصل وعی عام من جراء أعمال ولاة الأمر، المخالفة لنظم الإسلام، فتکون الثورة للعدالة الضائعة و لتحقیق نظم الدین. و لا جدال بأن الإمام الصّادق کان یفکر و یقلب وجوه الرأی، لیجد المدخل الذی یدخل منه لإصلاح ما فسد من أمور المسلمین، و یحاول أن یسلک أقرب الطرق للوصول إلی حل تلک المشاکل، و إنقاذ المجتمع من براثن الظلم و نیر الاستعباد، عند ما ولی الحکم أناس انحدروا مع شهواتهم انحدار البهائم، و تناحروا تناحر الوحوش، و تهافت الناس لاتباعهم کتهافت الفراش علی النار، فلا یمکنه أن یخوض ذلک المعترک المضطرب

1- 1) الکافی ج 2 ص 243. [1]

الهائج، لأن فی ذلک ضـیاع المصـلحة التی یحرص علیها، و إهدار للدماء من غیر نتیجة مرضیة. و لقد عاش علیه السّلام و هو غیر بعید عن مجتمعه الذی یعیش فیه، و قد عرف مقدرتهم الحربیة فلا یمکنه الرکون إلیهم و الاعتماد علیهم لأنّهم لا ینتصـر بهم فی حرب، و لا یثبتون فی شدة. و أهل الثبات و الصدق قلّة فی مواجهة قوة الحکام الغاشـمة، و لکل دم من آل بیت محمّد صـلّی اللّه علیه و آله و سلّم رسالة، فلو لا ـ دم الحسـین جـدّه لتمکنت أمیـة من تحقیق ردّتها و تغلیب جاهلیتها، و ها هم آل الرّسول یحامون عن وجودهم من دون إعلان للثورة، فلما ذا یقدم نفسه و شـیعته طعمة سهلة و لقمة سائغة. و سعی الناس إلی الرضا من آل محمّد لا یکف، و ثوراتهم لا تتوقف، و لکن ما وهبه اللّه من محبة فی النفوس و انقیاد إلیه لا یبرر التعرّض لأهل القوة و السـلطان، کما لا یکفی الهیاج فی الأحاسیس و المشاعر. وحدها خطة الإصـلاح و الدعوة إلی التمسّک بأهداب الإسـلام هی التی تکفل للمؤمنین النجاح و البقاء. و لم یکن أبو سـلمة معروفا بولائه الصحیح، و عقیدته الصادقة فیکون محل ثقة الإمام لیسـتجیب له، و لو اسـتجاب لکانت العاقبة أدهی و أمرّ، کما اتضـحت الحالة و ظهرت الحقائق. و صفوة القول إن الإمام الصّادق علیه السّلام قد اعتزل ذلک المعترک السیاسـی، لا عن خضوع و تسـلیم، بل کان انعزال ثورة و تصمیم، فقرّر أن یدعو إلی اللّه، لتوجیه الوعی الإسـلامی بالقوة الروحیة التی جعلها الإسـلام هی الأساس الوحید للحیاة الدنیا، و هو أقوی أثرا فی اندفاع الإنسان إلی العمل. و الشـعور بالمسؤولیـة، و أن یقوم المصـلحون بالـدعوة الصامتـة، فهی أنجح الوسائل فی التبلیغ، و أقرب الطرق لهدایة الناس. إذا ما هی الدعوة الصامتة؟ . . .

الإمام الصّادق

اشارة

الدعوة الصامتة

قال الإمام الصّادق لأصحابه: «أوصيكم بتقوى اللّه و اجتناب معاصيه، و أداء الأمانة لمن ائتمنكم، و حسن الصحابة لمن صحبتموه، و أن تكونوا لنا دعاة صامتين» .

موقف الإمام الصّادق و اتجاهه للإصلاح:

اشارة

تقدمت الإشارة فى الأبحاث السابقة عن موقف الإمام الصّادق وسط ذلک المعترک السياسى المائج بالفتن و الهائج بالأهواء، فلم يساهم عليه السّلام فى تلک الحوادث أو يمد يده أنملة للاشتراک فيها، لعلمه بعواقب الأمر، و أن الدعاة لهم أهداف و غايات. فاختط لنفسه و لأهل بيته خطة الاعتزال عن تلک التيارات و الأعاصير السياسية، و اتجه إلى الاحتفاظ بمركزه العلمى، لأداء رسالة الإسلام على أكمل وجه، فذلک وحده كفيل بسعادة المجتمع. فابتعد عن المغامرة رغم إلحاح الكثيرين ممن ينظرون إلى الأمور نظرا سطحيا، و لا يعلمون بعواقب الأمور. فهم يظنون أن الزمن قد حان لإقامة حكومة عادلة تسير على نظام الإسلام و قوانينه، و هو المؤهل لتلک المنزلة لأنه زعيم أهل البيت و سيدهم، و له المكانة المرموقة فى المجتمع بشخصيته الفذّة، التى كانت تزعج الفئة الحاكمة، و تثير كل مخاوفها، الأمر الذى جعل الكثير من الناس يرمقونه بعين الإكبار، و يعدّونه الرجل المنقذ الذى تتحقّق بشخصه آمالهم بالقضاء على ذلک الحكم الذى أذاق الناس أنواع المحن و الظلم. فكان عليه السّلام على جانب كبير من رصانة التفكير، و بعد النظر فى العواقب،

و خبرة فائقة بأحوال الناس و نزعاتهم و ميولهم، و علما بالظّروف و مقتضيات الزمن، فلم يستجب لتلك المحاولات، و لم يتحول عن منهجه فيغامر بنفسه و بأهل بيته مغامرة عقيمة النتائج، تعود على المجتمع بأخطار جسيمة؛ لذلك كان ينهى أبناء عمه عن القيام بكل نشاط ثورى، لثقته بفشل كل محاولة فى ذلك الوقت. فلم يتجاوز فى نشاطه الحد الذى يهدم جهوده التعليمية، أو يحول دون متابعة دعوته الإصلاحية، و لو أنّه أجاب أبا سلمة أو أبا مسلم لما ندباه إليه كما تقدم، لكان عرضة لتلك الأخطار التى حلت بغيره ممن عرف بنشاطه الثورى. فكان لتلك الأحداث أثر سيئ فى نفوس الناس. و لا بد لداعى الإصلاح من أنصار ينصهرون بمبادئ الدعوة و أهدافها يشاركونه بذلك الشعور عن نية صادقة و عزيمة ثابتة، لينتصر بهم و يركن إليهم، و يكونوا أعوانا مخلصين يأمنهم فى كل خطوة يخطوها بطريق الإصلاح. و كم من إنسان يأمل النصر من أناس، و لكنهم يخذلونه عند حاجته إلى النصر، لعدم اختباره لهم و عدم علمه بأحوالهم، لذلك كان من المحزن تحسّس ذلك النوع من الأنصار كما فعل الإمام الصّادق، و يظهر أثره فى جوابه لأبى مسلم (1)بقوله: «ما أنت من رجالى و لا الزمان زمانى» . و كذلك قوله لرسول أبى سلمة: «ما أنا و لأبى سلمة و هو شيعة لغيرى» فلا

1- 1) أبو مسلم الخراسانى: هو عبد الرّحمن بن مسلم. اتصل بإبراهيم الإمام و هو غلام، فنشأ فى خدمته و تربى فى نعمته، و كان ذكيا فطنا قوى النفس، فأرسله إبراهيم إلى خراسان داعيا للدولة و هو ابن ثمان و عشرين سنة، و قال لهم: إنه منا أهل البيت. فكان يسمّى أمين آل رسول اللّه، و قام بدوره فى الدعوة حتى أظهرها سنة 129 ه و كان شديد البطش سفاكا للدماء حتى أحصى من قتلهم فى أيامه فكانوا ستمائة ألف. ذكر ابن عساكر أن رجلا قام لأبى مسلم و هو يخطب، فقال له: ما هذا السواد الذى عليك؟ قال: حدّثنى أبو الزبير عن جابر أن رسول اللّه دخل مكة و عليه عمامة سوداء، يا غلام اضرب عنقه فضربت عنق الرجل السائل. و قد استقل أبو مسلم بالحكم و الناس له تبع، حتى قال بعضهم بإمامته، و لما خشى المنصور من بطشه احتال عليه فقتله سنة 137 ه فلم تصدق طائفة من تابعيه بموته، و قالوا إنه حى، و ذهبت أخرى إلى التصديق بموته، و قالوا بإمامة ابنه من بعده. و التاريخ حافل بأخباره و سيرته من بطش و فتك و تقلب فى الرأى و فساد فى العقيدة. سأل بعضهم عبد اللّه بن المبارك عن أبى مسلم: أ هو خير أم الحجاج؟ فقال: لا أقول أن أبا مسلم خير من أحد، و لكن الحجاج شرّ منه.

يمكنه القيام بثورة دموية و قد عرف عواقبها، و اتضح للجميع نتائج القيام بها مع علمه بذلک المجتمع الذى أنهکت قواه الحروب المتتالية و الثورات المتتابعة. و قد وجد عليه السّلام أن الأمر يدعو إلى الحزم و التريث، و أن يتحيّن الفرص المؤاتية، إذ القيام بأمر فى غير أوانه لا بد و أن يفشل و ينهار، فصمّم على الاحتفاظ بالاتجاه العلمى، و الوقوف موقف المصلح المتسلّح بالإيمان باللّه، و نشر تعاليمه، و بعث الوعى الإسلامى بالقوة الروحية، التى هى أقوى العوامل فى الالتزام الدينى و السعى إلى الخير، و قد جعلها الإسلام هى الأساس الوحيد للحياة الكريمة و المجتمع الأمثل، لأن المجتمع الإسلامى حسب تعاليمه و نظمه لا يقوم إلاّ على الإيمان باللّه بعقيدة راسخة، و منه تنبعث القوة الروحية، لأداء الواجب و الشعور بالمسؤولية و التضامن بين الأفراد و التكافل الاجتماعى، و بذلک يسعد المجتمع و ينعم أفراده. فكان الإمام الصّادق عليه السّلام خير داعية للإصلاح لما اتصف به من صدق القول و مثابرة العمل، و لم يقعد به عن ذلک ما لقيه من الأذى و ما نزل به من مصائب، فلم تهن عزيمته و لم تفتر همّته، بل ثبت فى نشر دعوته، و واصل أداء رسالته بالدعوة إلى العمل الصالح، و هو دليل رسوخ العقيدة و الإيمان باللّه. و كلما ازداد الإيمان باللّه ازداد العمل الصالح، و بذلک تهون المخاطر التى تحوط دعوة المصلح و تهددها، و يكسبها قوة الصمود، و قدرة اجتياز العراقيل و العقبات. و كيف ينجو المصلح من مجابهة الشدائد؟ و مهمته أن يحول بين نفوس الناس و شهواتها، و يباعد بينها و بين ما ألفته من العادات، فمن العسير أن يخلعوا أنفسهم مما هم فيه، و أن يمدّوا أعناقهم للحق الذى ابتعدوا عنه. و المصلح يحتاج إلى ثبات، فلا يتسرب اليأس إلى نفسه، و لا تهن عزيمته عند ما يصطدم بعقبة تعترض سبيل دعوته. و لا يحصل ذلک الثبات إلاّ بقوة الإيمان باللّه. و هناک يستطيع أن يوجد أمة تصرخ بوجه الطغاة الذين استبدوا بالحكم، و ظلموا العباد و خربوا البلاد وَ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اَللّهُ فَأُولئِکَ هُمُ اَلْفاسِقُونَ فالذين آمنوا باللّه حق الإيمان يجاهدون فى اللّه حق جهاده، لتكون كلمة اللّه هى العليا، و لا تأخذهم فى الحق لومة لائم.

أسس الدعوة إلى الإصلاح:

اتجه عليه السّلام منذ تفرّده بالزعامة و استقلاله بمهمة الإمامة إلى الدعوة للّه، و قد ألزم دعاة الخير و قادة الصّلاح بأن يدعوا الناس بأعمالهم قبل الدعوة لهم بأقوالهم، لأن الناس من شأنهم أن ينظروا فى أعمال من يدعونهم إلى الخير، فإن رأوا منهم العمل بما يدعونهم إليه و الوقوف عند حدوده اتبعوهم، و إن رأوا عملهم يخالف قولهم نبذوهم. و لذلک قالوا: إن تأثير العمل على الناس فوق تأثير القول. و إن أمثل قاعدة يسترشد بها فى اصطفاء من يتخذه الناس زعيما لهم و قدوة هى أعماله، فهى التى تجعله أهلا لأن يسلم إليه الناس قيادهم، و يأتمنوه على عقولهم يثقفها و يغذيها، و على أخلاقهم يقوّمها و يزكّيها، و إن أثر الحكمة الخلقية تسمع من أفواه الوعاظ أو الدعاة إلى الخير ليس بأكثر منها و هى مسطورة فى الكتب، أو منقوشة فى الجدار، إذ الأقوال الخالية عن العمل من قبل قائلها تدعو الناس إلى عدم الاعتداد بها؛ لأنّهم لا يرون أثرا منها على من يأمر بامتثالها. فلهم الحق إذا نفروا عنه. و كان ذلک من جملة العوامل التى دعت الإمام إلى تقرير القيام بالدعوة الصامتة كما جاء فى وصيته لأصحابه بقوله: «أوصيكم بتقوى اللّه، و أداء الأمانة لمن ائتمنكم، و حسن الصحابة لمن صحبتموه، و أن تكونوا لنا دعاة صامتين» . فوقع هذا القول عندهم موقع الاستغراب. أجل، كيف يكون الداعى للخير صامتا؟ و كيف يقومون بهذه المهمة و هم لا يتكلمون؟ فطلبوا منه إيضاح الأمر و إزالة الاشتباه ليزول الاستغراب فقالوا: يا ابن رسول اللّه و كيف ندعو و نحن صامتون؟ قال عليه السّلام: «تعملون بما أمرناكم به من العمل بطاعة اللّه، و تعاملون الناس بالصّدق و العدل، و تؤدّون الأمانة، و تأمرون بالمعروف، و تنهون عن المنكر، و لا يطّلع الناس منكم إلاّ على خير، فإذا رأوا ما أنتم عليه علموا فضل ما عندنا، فتنازعوا إليه» . و بذلک أراد أن تكون الواسطة بينه و بين المجتمع تعكس واقع تعاليمه، و تحبذ منهجه و مبادئه، فركّز على أن ينهج أصحابه منهج العمل الصحيح و القول الصادق. و لم يزل يكرّر هذه القاعدة، و يلزم أصحابه بها، و يحثّهم على العمل بما أمرهم به، و قد ورد عنه كثير من الأقوال بهذا المضمون. قال أبو أسامة: سمعت أبا عبد اللّه الصّادق يقول: «عليكم بتقوى اللّه، و الورع

و الاجتهاد، و صدق الحديث، و أداء الأمانة، و حسن الخلق، و حسن الجوار، و كونوا دعاة لأنفسكم بغير ألسنتكم و كونوا زينا، و لا تكونوا شينا» . و قال ابن أبى يعفور: سمعت الصّادق يقول: «كونوا دعاة للناس بغير ألسنتكم. ليروا منكم الاجتهاد، و الصدق، و الورع» . فالإمام الصّادق عليه السّلام كان يحاول أن يكون أساس الدعوة هو العمل الصالح و الخلق الطيب، فهى أنجع وسيلة لخوض معركة صامتة، تكافح المظالم بكافة أنواعها، و تقف إلى جنب المظلومين، ليظهر بذلک خطأ أولئک الذين اغتصبوا حقوق الأمة، و ترأسوا على المسلمين، و قد انحرفوا كل الانحراف عن مبادئ الإسلام و تعاليمه. فالمسلم الذى يتحلى بصفات الإسلام لا يمكنه النفاق و لا المسايرة لذلک الركب المنحرف عن طريق الحق و الرشاد. نعم إنه عليه السّلام يرى أن الدعوة الإصلاحية بالأقوال و المواعظ الخلقية و الاجتماعية لا يتحقّق أثرها إلاّ إذا كانت الأعمال مظاهر لها، و أن الاتصاف بتقوى اللّه و اجتناب معاصيه، و معاملة الناس بعاطفة نبيلة و خلق رفيع، و أداء الأمانة و حسن الصحبة و الجوار، و الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر، و كل صفة من صفات الخير و الصلاح كما جاء فى وصيته، لجدير بأن يكون صاحبها مقبولا قوله، مؤثرا بدعوته، لأنه يملک مشاعر أبناء جنسه، فهم يحبونه و يخلصون له بالمودة، و ناهيک بما وراء الحب من أثر فى تغيير الطباع لاتباع المحبوب. و قد قرّر علماء الاجتماع: أنه لا يتم إصلاح لأمة من الأمم أو لشعب من الشعوب إلاّ إذا أفعمت القلوب حبا للمصلح و طاعة لأوامره. و إن الاتصاف بالأخلاق الفاضلة و الانتصار على النفس ما هو إلاّ خطوة نحو الثورة الشاملة لجلب قلوب الناس، لمن اتصف بتلک الصفات، و إن المرء إذا استطاع ضبط نفسه و تنظيمها، لجدير بأن تنقاد الناس إلى دعوته.

مهمة الداعى:

إن مهمة الداعى إلى اللّه مهمة عظيمة، و عليه مسئولية كبرى، و لا يستطيع أن يقوم بهذه المهمّة من ترمى بهم المصادفات، لأنه ليس كل فرد صالحا لهذا العمل الشاق، و لا كل فرد قادرا على تحمّل أعبائه، فيجب أن تتوفر فى الداعى صفات عقلية

و أخلاقيـة تخوّله أداء واجبه على الوجه المطلوب، إذا فلا بـد لمن يقوم بالنصح أن يتصف بالصبر و محامده، و يتحمل الأذى و شدائده، فلا يبالى بما يلاقيه من أذى فى سبيل أداء رسالته و نشـر عقيدته، و أن تكون له برسول اللّه أسوة حسـنة. و كل هذا إنما يتفرع عن الإيمان باللّه و العمل بطاعته. و قد تضـمنت فقرات تلك الوصـية المتضمنة لهذه القاعدة الإصلاحية (الدعوة الصامتة) كل نواحى الخير فى الإنسان الدالة على كماله النفسانى و هى ثلاثة: 1-الناحية الاعتقادية التى تكمن وراءها القوة الروحية، و عليها تبتنى صحة أعماله، و هى تتمثل فى إدراكه بصـلته باللّه، و امتثال أوامره، و تلك القوة هى أعظم أثرا فى قيام الإنسان بالعمل. و هذا الإدراك العقلى، أو الشعور الوجدانى بصلة الإنسان بـاللّه يجعل الإنسان مـدفوعا إلى العمل بطاعته. 2-ناحيـة خلقه الفردى و تهـذيب نفسه بالأخلاق الفاضـلة و الخصال الحميـدة، لأن بناء المجتمع الصالح إنما هو بصـلاح أفراده، و إعدادهـم لأن يكونوا أعضاء صالحين، و تزويد كل فرد منهم بما يجب عليه للأسـرة و للمجتمع، فإذا صـلح الفرد و تهذبت الأسرة صلحت الأمّة، و اتجهت لسبيل الصّلاح. 3-الناحية الاجتماعية التى تنشأ عن مخالطة الناس و معاشـرته لهم من حسن الصـحبة، و حسن الجوار، و أداء الأمانة و غيرها، فإذا كملت فى الشخص هذه النواحى الثلاثة، كان هو الإنسان الذى يصلح لأن يـدعو إلى الخير و سواء السبيل. و على هـذا فليست العبرة بالصـلاح هى المظاهر التى يكون مرجعها القلب، و ما قـد نواه فى ذلك، و لكل امرئ ما نوى، فربما يكون الداعى مظهرا للدعوى بطول السـجود و كثرة التسبيح، و لكن باطنه غير ظاهره، بل العبرة بالاسـتقامة ظاهرا و باطنا، و إتيان الأعمال الصالحـة التى تنبعث عن النية الصادقة و الإيمان، بما يعود على المجتمع بالسـعادة فى حسن المعاملة مع الناس، و لذلك يقول الإمام الصّادق عليه السّلام: «لا تنظروا إلى طول ركوع الرجل و سجوده، فإن ذلك ربما يكون شىء قد اعتاده، و لكن انظروا إلى صدق حديثه و أداء الأمانة» . و الغرض أنّه عليه السّـلام كان حريصا على توجيه الأمّة توجيها صحيحا لتسير إلى المثل الأعلى فى الحياة، و أن تسـعى ما أمكنها السعى إلى تطبيق نظم الإسلام و تعاليمه. ففى ذلك صلاح المجتمع و سعادته، و أى إصلاح أعظم من نشر دين يهدى الناس إلى المحبة و التعاون و الأخوة الصادقة.

الإسلام هو دين اللّه الذى أنزله رحمة بالإنسانية المعذبة، فهو دين شامل بتعاليمه، يأمر بالعدل و الإحسان، و ينهى عن الظلم و الفحشاء، و يجعل المجتمع كنفس واحدة، لأنه يبعث فى نفس كل فرد شعورا يلزمه احترام جميع الأفراد، كما يشعر بأضرار أبناء جنسه و آلامهم، كشعوره بأضرار نفسه و آلامها، و يحس بمنافع أبناء مجتمعه كإحساسه بمنافع نفسه، طبقا للتعاليم التى جاءت بها الشريعة الإسلامية و منها: «أحب لأخيک المسلم ما تحب لنفسک» . و يقول الإمام الصّادق: «المؤمن أخو المؤمن كالجسد الواحد إذا اشتكى شيئا منه وجد ذلک فى سائر جسده، إن المؤمن أخو المؤمن هو عينه و دليله، لا يخونه و لا يظلمه و لا يغشّه و لا يعده عدة فيخلفه» . الإسلام يتناول الحياة كلها بجميع ما تشتمل عليه من تنظيم، و هو يرسم للبشر صورة كاملة لما ينبغى أن تكون عليه حياتهم فى هذه الأرض. الإسلام يتناول الإنسان فردا فى جميع أحواله يوجهه و يهذبه، و يتناوله و هو يعيش فى مجتمعه مع غيره من الأفراد، فأعطى للمجتمع دروسا يبيّن له كيف تكون الصّلات بين أفراده، و كيف تكون العلاقات و تنشأ المودة و الإخاء و الحب و التكافل و التعاون، و لو نفذ المسلمون دستور دينهم، و ساروا على منهاجه و تعاليمه، لكانوا المثل الأعلى للإنسانية الراقية، و لسادوا العالم بأسره و لأصبح كل فرد منهم مثالا للفضيلة و رمزا للكمال.

شخصية الداعى:

و صفوة القول إنه عليه السّلام اتجه إلى الإصلاح بالدعوة للعمل الصالح، لأن العمل الصالح من شأنه أن يحول بين الناس و بين ظلمهم بعضهم بعضا، و هو أعظم حاجز بينهم و بين الشرور، و من شأنه أن يهذب النفوس و يطهرها من الخبث، لأنه يربط الإنسان بربه بصلة الإيمان به، فهو يخشاه فى سرّه و علانيته، و من كان كذلک فلا يخشى ضرره، و لا يقع منه ظلم، و لا يصبح أسير شهواته، و صريع أهوائه. و من كان يدعو الناس إلى دعوة هذا أساسها، فجدير به أن يتحمل الأذى، و يصبر على ما يلاقيه من أعداء الحق و أنصار الباطل، فلا يهون لشدة، و لا يضعف لاضطهاد، بل يقابلها بالحزم و العزم، و بقلب لا يعرف الضعف إليه سبيلا، و لا يجد الخوف من الناس فيه مكانا.

فلقد كان عليه السّلام قويا فى دينه لا يهن لشدة، و لا يضعف عند النكبة، بل يتلقى كل ذلک بقلب لا يتسرّب إليه الضعف، و فؤاد لا يتزلزل عنـد النوازل، و هو قوى الثقـة بربّه و خـالقه، كثير الرجوع إليه فى حاجـاته و مهماته، يلجأ إليه فى كل شـدة، و ينتصـر به على أعـدائه، و يرد بالالتجاء إليه كيـدهم، و ما يريـدونه به من سوء و ما يدبّرون له من مكائد. و لقد مرّت عليه أيام مختلفة تبدلت فيها سـياسات، و تقلّبت فيها أمور، و شاهد أنواعا من الحكم، و كانت الأيام تبسم له مرة و تعبس أخرى، و يقسو عليه الحكم تارة، و يلين تارة أخرى، و هو يتحمّل الأذى و يصبر على المحن، و كيف لا يكون كذلک و هو يحمل رسالة الإصـلاح و أعظم مصـلح عرفه التأريخ فى عصـره و بعد عصره. كان هدفه تقويم المعوج و إرشاد الضال و توجيه الشاذ، ليسـير بالقافلـة فى طريق الخير مرحلـة إثر مرحلـة، و لا تحول دونه و دون عزيمته المخاطر و الأهوال، و لا يخشـى انفجار مشاعر أعـدائه المكبوتـة. و غيظهم المتوقـد، و قد مرّ غير مرة محاولة أعدائه للفتک به، و القضاء عليه، و ترويج التهم حوله، و لكن اللّه عصـمه ورد كيدهم عنه، و لما حل قضاءه و لا راد لقضائه نفذ ما أرادوه، و تم ما حاولوه من المكيدة. فمضى بعد أن ترک للأجيال دروسا و عبرا لم تكن مقصورة على أتباعه فحسب، بل كانت عامة لجميع الأمة.

ملاحظات حول دعوته الإصلاحية:

1-إن قوله عليه السّلام: «كونوا دعاة صامتين» . لم يكن المقصود منه كون الـداعى للعمل الصالـح صامتا مطلقا، لأن ذلک ينافى قوله عليه السّلام: «تـأمرون بـالمعروف و تنهون عن المنكر» . و الأـمر بـالمعروف و النهى عن المنكر لا يكونان مع الصـمت، و لكن المقصود بأن يكون القول مقرونا بالعمل، إذ هو بـدونه لغو كما تقـدم بيانه، فجعل عليه السّلام الدعوة بالعمل الصالح قبل الدعوة بالقول. 2-إنه كان يأمر بالإقدام على النصح، و أن لا يحول بين الداعى و بين نشـر دعوته خوف ظالم؛ لأن الأمر بالمعروف من أهم فروض الإسلام و أكبر واجباته، إذ هو أسـاس نشـر الحق، و إعلاـن المبـادئ الساميـة. فيقول فى الحثّ عليه: «اؤمروا بـالمعروف و انهوا عن المنكر، فإن الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر لم يقربا أجلا و لم يبعدا رزقا» . و يقول: «ويل لقوم لا يدينون اللّه بالأمر بالمعروف و النهى عن المنكر» .

3-يتجلى لنا أن هذه الدعوة قد وقفت فى طريقها عقبات و حواجز، لأن فى انتشارها انتشار لمبادئ الإسلام و نظمه و تعاليمه، و لم يبق من وراء ذلک لظالم طمع بالحكم، و لا لمعادى الإسلام من وسيلة يحاربه بها انتصارا لمبادئه، لذلک فقد أحست العناصر المعادية للإسلام بخطر هذه الدعوة، و إنها بدون شک ستقضى على مآربهم التى من أجلها اندسوا فى صفوف المسلمين، و تهدم آمالهم المعقودة على ذلک التدخّل، من إثارة الفتنة و تشويه محاسن الإسلام، عند ما يغيرون الحقائق و يقلبون الأوضاع، و لهذا أطلقوا دعاتهم ضد تحقيق هذه الدعوة الإصلاحية، فانتحلوا لأنفسهم حب أهل البيت، و أظهروا ولاءهم للإمام الصّادق، الذى انفرد بزعامة ذلک البيت الطاهر. و قد تبرأ منهم و أمر بهجرهم. لأن تلک الفئة المعادية للإسلام انطلقت بكل قوة، فاستغلت جهالة العامة ممن لم تساعدهم ظروفهم على الاتصال بأهل البيت، فصدقوا بما ادعاه أولئک المندسون فى صفوف الأمة من الغلو فى أهل البيت. 4-إن الناس فى مقابلة الدعوة الإصلاحية ثلاثة طوائف: فطائفة تتقبل الدعوة و تناصرها ظاهرا و باطنا و يضحون فى سبيل مناصرتها، و هم ذوو العقول الراجحة الذين لم تستطع العاطفة أن تسيطر على عقولهم، بل غايتهم اتباع الحق، و الحق أحق أن يتبع. و طائفة أخرى تعادى تلک الدعوة ظاهرا و باطنا، مع اتضاح صدق الداعى و ظهور حجته، و وضوح برهانه، و هم المعاندون، و المعاند لا- يقنع بشىء، لأنه لا يطلب حقا و لا يحيد عن باطل، و إنما هو متعنت يخالف الواقع، و يبعد عن سنن الطريق لخبث فى نفسه و فساد فى طويته. و طائفة ثالثة تعادى فى الباطن و تناصر فى الظاهر و هم المنافقون (1)و هؤلاء أشد ضررا على الدعوة من الفئة الثانية، و هم المعادون لها ظاهرا و باطنا، لأنّهم شاركوهم بتلک الصفات الخبيثة، و قد امتازوا عليهم بالجبن و الخور و ضعف القلب، فلا

1- 1) المنافق مشتق من النافقاء، و هو حجر الضب أو اليربوع، فالمنافق هو مثل ذلک الحيوان الخبيث يعمل له جحرا فى الأرض يسمى النافقاء، له بابان إذا أراد أن يدخل إليه من أحد البابين لوح له بذنبه أنه مقبل عليه ليطمعه، ثم يخرج من الباب الآخر، أو هو كجحرة اليربوع التى يعملها فى الأرض ظاهرة يراها الناس، فإذا ذهبوا إليها إذا به قد أعد جحرا آخر قد أخفاها عن الناس. و نافق اليربوع إذا أتى النافقاء.

یستطیعون أن یصارحوا المصلح بأنهم أعداء له، إذ لیست لهم قابلیة الجرأة الأدبیة، و لا تسمح نفوسهم بأن یظهروا بالمظهر الواقعی، و یتقبّلوا تلک الدعوة بقبول حسن عند ما یصطدمون بالواقع، لخبث نفوسهم و فساد نیتهم. 5-نظرا لأهمیة هذا الموضوع و ما یتعلّق به، فإن المجال لا یتسع للإحاطة بجمیع أطراف البحث، و إن للإمام الصّادق أقوالا کثیرة و مواقف متعددة حول الدعوة بالعمل الصالح، فلذلک اخترنا الوقوف عند هذا الحد من البحث حول الدعوة الصامتة التی قام بها علیه السّلام فی عصر انطلاق الفکر، و ازدهار العلم، و هو رئیس أعظم مدرسة إسلامیة، و زعیم تلک الحرکة العلمیة، و کان خیر قدوة صالحة فی العلم و العمل الصالح، لا یفتر عن تعلیم الناس و توجیههم إلی الخیر و الفضیلة، کما لا یفتر عن عبادة اللّه و العمل بطاعته و یخشاه فی سرّه و علنه. و قد أشرنا سابقا إلی موقفه تجاه حکام الجور و مقاطعته لهم، و قد أمر الناس بالابتعاد عنهم، کما أبعد عنه المتقرب منهم إلیه، و حرم الولایة لهم، لأنّه علیه السّلام یری أن ولایة الجائر دروس الحق کله و إحیاء الباطل کله. و کان یحرم معاونتهم حتی فی بناء المساجد، لأنّهم لا یملکون هذه الأموال، فلا یقبل منهم العمل فیها حتی فی وجوه الخیر، و الإمام علیه السّلام یهدف بهذه المقاطعة و عدم التعاون مع حکام الجور، الذین ادعوا الخلافة الإسلامیة، أن یضیق دائرة نفوذهم، و یوقظ الناس من غفلة اتباع أناس لا یلیقون بهذا المنصب؛ لأن المقاطعة لحکام الجور ترغمهم علی الاعتدال، أو التخلی عن الحکم بدون إراقة دماء، و قد أمر اللّه تعالی بقوله: وَ لا تَرْکَنُوا إِلَی اَلَّذِینَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّکُمُ اَلنّارُ . فکانت مهمة الإمام الصّادق علیه السّلام تطبیق هذا الأمر، لأنّه أنجع وسیلة تنتصر بها الأمم علی حکام الجور، الذین یسیرون بغیر صواب و یحکمون بغیر العدل.

الإمام الصّادق

اشارة

انطباعات عن شخصيّته

تمهيد:

للإمام الصّادق شخصية قوية، و مكانة مرموقة، و مركز ملحوظ عند سائر الطوائف و جميع الفرق. شخصية أقر لها العدو بالفضل. شخصية هى مثال للصفات الكاملة و المزايا الحميدة، فهو الصادق فى لهجته، و المنزه عما لا يليق بمنزلته، و هو زعيم أهل البيت و سيدهم فى عصره. لقب بالصّادق لأنه عرف بصدق الحديث حتى أصبح مضرب المثل فى عصره و بعد عصره. قال ابن الحجاج و هو الشاعر المشهور:
يا سيدا أروى أحاديثه رواية المستبصر الحاذق

كأننى أروى حديث النبى محمّد عن جعفر الصّادق

لقد كان عليه السّلام مفخرة من مفاخر المسلمين لم تذهب قط، و إنما بقى منها حتى القيامة صوت صارخ يعلم الزهاد زهدا، و يكسب العلماء علما. لقد كانت له هيبة يخضع لها جليسه، و صدق لهجة يطمئن إليه من يحدثه، و حسن بيان ينفذ إلى قلوب سامعيه، و قد أعطى من قوة البيان و وضوح الحجّة ما جعل المعاندين يصغون لحسن بيانه، و يخضعون لبرهانه. و كان من السابقين بالخيرات رغبة بما وعد اللّه، و من دعاة الخير الذين لا يدخرون نصحا عن المسلمين، حتى انطبع فى قلوب معاصريه من العلماء تعظيمه و تبجيله. فكانوا يقصدونه من كل الأطراف لاستماع مواعظه و الاستفادة من علومه، و كان مجلسه مكتظا بوجوه الناس من أطراف البلاد النائية، يغتنمون فرصة الاتصال به و الانتهال من نمير تعاليمه، و يطلبون المزيد من وصاياه و حكمه النافعة.

ص:315

و هنا نورد بعض الأقوال المجموعة من رجال عصره، و هی تبیّن انطباعاتهم عنه، لا ـ علی سبیل الحصر، لأن حصر الأقوال و جمع الانطباعات مما یضیق به وسع الکتاب. و قد تقدم فی ثنایا الأجزاء المتقدمة شیء منها أیضا. و الغرض أنه کان وحید زمانه، لا یلحق أثره و لا یبلغ شأوه، و هو المصلح الذی عرف الناس عنه حبه للإصلاح و بذله النصح لعباد اللّه، لذلک قصده رجال العلم فی عصره من الأقطار النائیة، للانتفاع بوفیر علمه و مواعظه و حکمه، و قد کان أبو حنیفة یغتنم الحضور عنده للاستماع منه عند ما دخل الإمام الکوفة کما نصّت علی ذلک کتب مناقب أبی حنیفة و سیرته. و کذلک حضر عنده فی المدینة سنتین حتی اشتهر عنه قوله: لو لا السنتان لهلک النعمان.

انطباعات مالک بن أنس:

و کان مالک بن أنس یحضر عند الإمام الصّادق و یتأدب بآدابه و یهتدی بهدیه، فکانت له انطباعات فی نفسه یحدّثنا عنها بقوله: ما رأت عین و لا سمعت أذن و لا خطر علی قلب بشر أفضل من جعفر بن محمّد الصّادق علما و عبادة و ورعا.

انطباعات سفیان الثوری:

قال سفیان الثوری: دخلت علی الصّادق فقلت له: أوصنی بوصیة أحفظها من بعدک. قال: «و تحفظ یا سفیان؟» قلت: أجل یا ابن رسول اللّه. قال: «یا سفیان لا مروة لکذوب، و لا راحة لحسود، و لا أخا لملول، و لا سؤدد لسیّئ الخلق» ، ثم أمسک. فقلت: یا ابن رسول اللّه زدنی. فقال: «یا سفیان ثق باللّه تکن عارفا مؤمنا، و ارض بما قسمه لک تکن غنیا، و أحسن مجاورة من جاورک تکن مسلما، و صاحب بمثل ما یصاحبونک به تزدد إیمانا، و لا تصاحب الفاجر فیعلمک من فجوره، و شاور فی أمرک الذین یخشون اللّه» . قال سفیان: ثم أمسک الإمام فقلت: یا ابن رسول اللّه زدنی. فقال: «یا سفیان من أراد عزا بلا عشیرة، و غنی بلا مال، و هیبة بلا سلطان، فلینتقل من ذلّ معاصی اللّه إلی عزّ طاعته» . ثم أمسک. فقلت: یا ابن رسول اللّه زدنی. فقال: «یا سفیان أدّبنی أبی بثلاث، و نهانی عن ثلاث، فأما اللواتی أدّبنی بهن فإنّه قال لی: یا بنی من یصحب صاحب السوء لا یسلم، و من لا یملک لسانه یندم، و من یدخل مداخل السوء یتهم» . قلت: یا ابن رسول اللّه فما الثلاث اللواتی نهاک عنهن؟

قال: «نهانی أن لا أصاحب حاسد نعمة، و شامتا بمصیبة، و حامل نمیمة» ثم أنشد: عوّد لسانک قول الخیر تحظ به إن اللسان لما عوّدت معتاد

موکل بتقاضی ما سننت له فی الخیر و الشر فانظر کیف تعتاد

و دخل علیه مرة أخری یطلب المزید من تعالیمه و وصایاه فقال علیه السّلام: «یا سفیان الوقوف عند کل شبهة خیر من الاقتحام فی الهلکة، و ترک حدیث لم تروه أفضل من روایتک حدیثا لم تحصه، إن علی کل حق حقیقة و علی کل صواب نورا، ما وافق کتاب اللّه فخذوه و ما خالفه فدعوه» . و قال نصر بن کثیر: دخلت أنا و سفیان الثوری علی جعفر بن محمّد الصّادق فقلت له: یا ابن رسول اللّه إنی أرید البیت، فعلمنی شیئا أدعو به، فقال علیه السّلام: «إذا بلغت البیت فضع یدک علی الحائط ثم قل: یا سابق الفوت، یا سامع الصوت، یا کاسی العظام لحما بعد الموت، ثم ادع بما شئت» . فقال له سفیان شیئا لم أفهمه. فالتفت إلیه علیه السّلام فقال: «یا سفیان إذا جاءک ما تحب فأکثر من الحمد للّه، و إذا جاءک ما تکره فأکثر من لا حول و لا قوة إلاّ باللّه؛ و إذا استبطأت الرّزق فأکثر من الاستغفار» . و دخل علیه حفص بن غیاث، و هو أحد أعلام عصره، و المحدثین فی وقته، فطلب منه أن یوصیه وصیة ینتفع بها فقال علیه السّلام: «إن قدرتم أن لا تعرفوا فافعلوا، و ما علیک إن لم یثن الناس علیک» . إلی أن قال: «إن قدرت أن لا تخرج من بیتک فافعل، فإن علیک فی خروجک أن لا تغتاب، و لا تکذب و لا تحسد، و لا ترائی، و لا تداهن» .

انطباعات زید بن علیّ:

قال زید بن علی: فی کل زمان رجل منا أهل البیت یحتج اللّه به علی خلقه، و حجة زماننا ابن أخی جعفر لا یضل من تبعه و لا یهتدی من خالفه (1). هذا قول رجل من سادات بنی هاشم، و علم من أعلام الأمة، و فقیه من فقهاء

1- 1) المناقب لابن شهرآشوب ج 2 ص 147. [1]

الإسـلام، و بطل من أبطال الثورة على الظلم، و من أباة الضيم، إنه يكشف عن منزلة الإمام فى نفسه، و اعتقاده فيه، و هو معاصره، و أكبر منه سنا، و كـذلک يكشف للناس و يبين لهم منزلة الإمام الصّادق، فهو يرى أنّه حجة اللّه فى ذلک الزمان، و أن الهداية فى اتباعه و الضـلال فى خلافه، و أن اللّه لا يحتج إلاّ بمن بلغ درجة الكمال النفسانى، و ارتقى أعلى منزلة من طاعة اللّه و امتثال أوامره، فابتعد عن الدنيا و زينتها، و صدف عن زخارفها، و أخلص للّه فاستخلصه و طهره من دنس العيوب و كدر الذنوب.

انطباعات مالک بن أنس:

و يقول مالـک بن أنس: اختلفت إلى جعفر بن محمّـد زمانـا فمـا كنت أراه إلاّ على إحـدى ثلاث خصال: إما مصـليا و إما صائما و إما يقرأ القرآن، و مـا رأيته قـط يحـدّث عن رسول اللّه إلاّ على طهارة، و لا يتكلّم بما لا يعنيه، و كان من العلماء العبّاد و الزهّاد الـذين يخشون اللّه (1). هـذه شـهادة مالک و انطباعاته عن شخصـية الإمام، و مالک هو رئيس مـذهب من مـذاهب الإسـلام المعمول بها حتى الآن، و كان معاصـرا للإمام الصّادق و من تلامـذته. و الـذى يعنينا من هـذه الكلمة قوله: إنه كان من العلماء العباد و الزهّاد، الذين يخشون اللّه. فالعلم وحـده غير نافع بدون عمل، فالإمام الصّادق عالم عامل زاهد فى الدنيا يخشـى اللّه و يتبع أوامره، و إنما يخشـى اللّه من عباده العلماء، و لم يمنعه زهده و تبتله عن الكسب و طلب المعاش من وجوه المشـروعة مع الإجمال فى الطلب و الاعتدال فى الإنفاق و أداء الحقوق، كما أنه ينهى عن الكسـل و البطالـة، و يمقت صاحبها و يفضل رجل العمل و يشـجعه عليه. كما دلّت سـيرته على ذلک. فالإمام مالک يكشف لنا انطباعـاته عن الإمـام الصـادق، و مـا عرفه عنه و مـا اعتقـده فيه، بأنّه لا ينفک عن عبادة اللّه و تلاوة كتابه، و لا يتكلم بما لا يعنيه، و كان من العلماء العبّاد و الزهّاد الذين يخشون اللّه، و ناهيک بما وراء الخشـية من اللّه و العمل بطاعته، فهى أعظم درجة و أرقى منزلة لدعاة الخير و أئمة الهدى، و هو فرع من الشجرة النبوية التى طاب غرسها و زكى ثمرها، قد التقى فيه شرف النسب و شرف النفس، و عزة

1- 1) مالک بن أنس، للخولى ص 94. و كتاب مالک لمحمّد أبو زهرة ص 28 نقلا عن المدارک للقاضى عياض ص 212.

الإيمـان و قوة الحق، و هو من أهل البيت الـذين أذهب اللّه عنهم الرجس، و طهّرهم تطهيرا. نعم إنّه من السابقين إلى الخير و الـداعين إليه رغبة بما وعد اللّه، فهو لم يأل جهدا فى التوجيه الصحيح، و حرصه على هداية الأمة إلى سواء السبيل.

انطباعات أبى حنيفة:

و قـد كشف لنا أبو حنيفـة قبله انطباعاته عن الإمام الصّادق، و ما عرفه عنه، و أنّه ما رأى أفقه منه بقوله: ما رأيت أفقه من جعفر بن محمّد، لما أقـدمه المنصور بعث إلىّ فقال: يا أبا حنيفـة إن الناس قـد افتتنوا بجعفر بن محمّـد فهيّئ له من المسائل الشداد. فهيأت له أربعين مسألة، ثم بعث إلىّ أبو جعفر المنصور و هو بالحيرة، فدخلت عليه و جعفر بن محمّد جالس عن يمينه، فلما بصرت به دخلتنى من الهيبة لجعفر ما لم يـدخلنى لأبى جعفر المنصور، فسـلمت و أومأ فجلست، ثم التفت إليه قائلا: يا أبا عبد اللّه هذا أبو حنيفة. فقال عليه السّـلام: «نعم أعرفه» . ثم التفت المنصور فقـال: يا أبا حنيفـة الق على أبى عبـد اللّه مسائلک. فجعلت ألقى عليه، فيجيبنى فيقول: «أنتم تقولون كـذا، و هم يقولون كـذا، و نحن نقول كـذا» فربمـا تابعنا و ربما تابعهم و ربما خالفنا، حتى أتيت على الأربعين مسألـة، ما أخل منها مسألـة واحـدة، ثم قال أبو حنيفة: أعلم الناس أعلمهم باختلاف الناس (1). و هذه القضية تبيّن لنا انطباعات أبى حنيفة عن الإمام الصّادق، و ما عرفه عنه، و أنّه ما رأى أفقه منه، و هو أعلم الناس لعلمه باختلاف الناس، و نحن نستظهر من هذه القضية ثلاثة أمور: 1-اهتمام المنصور بشأن الإمام الصّادق، لأن الناس افتتنوا به على حـد تعبيره، عنـد ما اشـتهر ذكره، حتى سارت به الركبان، و المنصور يعـدّ هـذا خطرا على دولته، لأنه لا يريد أن يلتف الناس حول الإمام الصّادق، فـذلک يثير مخاوفه منه و يجعله حـذرا، و لا يروق له تعلّقهم بالإمام الصّادق، و انتشار علمه الذى بلغ كل بقعة أنارها الإسلام، كما تنبئ عنه معاملته معه و تشدّده عليه، و ترقبه فرصة الفتک به و القضاء عليه.

1- 1) مناقب أبى حنيفة للمكى ج 1 ص 173. و جامع مسانيد أبى حنيفة ج 1 ص 252. و تذكرة الحفاظ للذهبى ج 1 ص 157.

2-وصف أبی حنیفة لهیبة الإمام، و ما داخله منها عند رؤیته له، و هو لا سلطان له، و لکنها هیبة منحه اللّه إیاها، تخضع لها جبابرة الأرض و تذل لها ملوکها. هیبة العلم و جلالة الإمامة و عظمة التقوی، هیبة اندکّت أمامها هیبة الإمرة و عظمة السلطان، و رهبة البطش. یحدّثنا ابن أبی العوجاء عند ما ناظره الإمام الصّادق فسکت ابن أبی العوجاء. قال: فقال لی: «ما یمنعک من الکلام؟» قلت: إجلالا لک و مهابة منک، ما ینطق لسانی بین یدیک، فإنی شاهدت العلماء و ناظرت المتکلمین، فما تداخلنی من هیبة أحد منهم مثلما تداخلنی من هیبتک. و یقول المفضل بن عمر: إن المنصور قد همّ بقتل أبی عبد اللّه غیر مرة، فکان إذا بعث إلیه لیقتله، فإذا نظر إلیه هابه (1). فالمنصور صاحب الدولة و السلطة، و الجیش و الحرس، و من عرف بالشدة و التجبّر، تندک هیبته أمام هیبة الإمام علیه السّلام و عظمته، لأنّها لم تکن مصطنعة، بل هی التی یفیضها اللّه تعالی علی من یشاء من عباده. و لا تختلف هذه الهیبة باختلاف الناس معه، فإن کل واحد کان یشعر فی نفسه بتلک الهیبة له، سواء الولی و العدو و المؤالف و المخالف. علی أنه علیه السّلام کان بین أصحابه و جلسائه کواحد منهم، ینبسط لهم بالکلام و یؤنسهم بالحدیث، و یجلس معهم علی المائدة. 3-نستطیع أن نلحظ من وراء هذه الروایة أسباب تقرب المنصور للعلماء و تظاهره بمناصرة العلم، و بالأخص من کانت له شهرة فی محیطه کأبی حنیفة و قد نوّهنا عن هذه الأسباب فی الأبحاث السابقة.

انطباعات المنصور الدوانیقی:

و قد شهد المنصور-و هو أشد الناس خصومة له، و أعظمهم عداوة و تألّبا علیه-

---

1- 1) حیاة الإمام الصّادق، للسبیتی ص 25.

بأن الإمام الصّادق كان من السابقين بالخيرات، و من الـذين اصـطفاهم اللّه من عباده، و أورثهم الكتاب. قال إسـماعيل بن على بن عبد اللّه بن العباس: دخلت على أبى جعفر المنصور يوما فرأيته و قد اخضلّت لحيته بالدموع و قال لى: ما علمت ما نزل بأهلک؟ فقلت: و ما ذاک يا أمير المؤمنين؟ قال: فإن سـيدهم و عالمهم، و بقيـة الأخيار منهم توفى. قلت: و من هو يا أمير المؤمنين؟ قال: هو جعفر بن محمّد. فقلت: عظم اللّه أجر أمير المؤمنين و أطـال لنا بقاه. فقال لى المنصور: إن جعفر بن محمّـد كان ممن قال اللّه فيه ثُمَّ أَوْرَثْنَا اَلْكِتابَ اَلَّذِينَ اِصّـ طَفَيْنا مِنْ عِبادِنـا و كـان ممن اصـطفى اللّه و كـان من السابقين بالخيرات (1). و للمنصور كلمـة أخرى تعبر عن انطباعـاته و مـا عرفه عن الإمـام الصّادق و هى قوله لابن المهاجر: اعلم أنه ليس من أهل بيت إلاّ و فيهم محدث، و إن جعفر بن محمّد محدّثنا اليوم. و لهذه الكلمة قصة: و هى أن المنصور قال لمحمّـد بن الأشـعث: يا محمّد ابغ لى رجلا له عقل يؤدى عنى. فقال له محمّد: إنى قد أصـبته لک، هذا ابن المهاجر خالى. قال: فأتنى به، فلما أتاه، قال له أبو جعفر: يا ابن المهاجر خذ هذا المال، و اتى المدينة، و اتى عبد اللّه بن الحسن، و جعفر بن محمّد، و جماعة، و ادفع إليهم هذا المال، و قل لهم: هذا من شيعتكم بخراسان، فإذا قبضوا المال فقل: إنى رسول و أحب أن يكون معى خطوطكم بقبضـكم مـا قبضـتم، فأخـذ المال و أتى المدينـة، ثم رجع إلى أبى جعفر المنصور، فقال له: ما وراءک؟ قال: أتيت القوم و هـذه خطوطهم بقبضهم المال، خلا جعفر بن محمّد، فإنى أتيته و هو يصلى فى مسجد النبى، فجلست خلفه و قلت: ينصرف فأذكر له ما ذكرت

1- 1) تاريخ ابن واضح ج 3 ص 17.

لأصحابه، فتعجّل و انصرف، و تبعته فالتفت إلىّ و قال: «يا هذا اتق اللّه، و لا تغرى أهل بيت محمّد، فإنهم قريبو العهد من دولة بنى مروان، و كلهم محتاج» . قلت: و ما ذاک أصلحک اللّه؟ فأدنى رأسه منىّ فأخبرنى بما جرى بينى و بينک. فقال المنصور: يا ابن المهاجر اعلم أنه ليس من أهل بيت نبوة إلاّ و فيهم محدّث، و إن جعفر بن محمّد محدّثنا اليوم. فالمنصور مع شدة عدائه للإمام الصّادق، و بغضه له، فهو يقول الحق فى عدة مناسبات، و يصرح بما يخالف أفعاله، فمرة يصفه بأنّه من السابقين فى الخيرات الذين اصطفاهم اللّه من عباده و بأنّه محدث، فكأنه ثاب إليه رشده أو نزع نفسه من مقتضيات السلطان و الإمارة، و مرات يهدد بقتله و يستعد لتنفيذ ما يمليه عليه حقده. و يقول-عند ما يتحدث الناس عن علم الصّادق-: هذا الشجى المعترض فى حلقى، من أعلم الناس فى زمانه. فيجمع بين الحقيقة و بين بغيه و حقده. و يقول: إنه ممن يريد الآخرة لا الدنيا. و يقول مخاطبا الإمام الصّادق عليه السّلام: لا نزال من بحرک نغترف و إليک نزدلف، تبصر من العمى، و تجلو بنورک الطخيا (الليلة المظلمة) فنحن نعوم فى سحاب قدسک، و طامى بحرک. و قال لحاجبه الربيع: و هؤلاء من بنى فاطمة لا يجهل حقّهم إلاّ جاهل، لاحظ له فى الشريعة. و مع هذه الاعترافات فى حق الإمام الصّادق فهو لا يستطيع أن يتغلّب على هواه أو ينتصر على نفسه، فينطلق من عقال حقده، و يعرف للإمام منزلته، و يرعى حقه و يحفظ قرابته من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم. و لكن المنصور كان خصما لا يلين، و جبارا لا يرعوى، و متعنّت لا يخضع لحق، و لا يرتدع عن باطل، فقد كان يثقل عليه انتشار ذكر جعفر بن محمّد فى أندية العلم و حلقات الدرس، و العلماء يستدلّون بروايته و يستشهدون بقوله، فيكون قوله الفصل و حكمه العدل. و لذلک فقد وقف للإمام بالمرصاد، يحاول الفتک به و القضاء عليه، مع معرفته بمنزلته، قد أخذته العزّة بالإثم، و الطمع فى الملک، فهو دائما مع شهواته، و أسير هواه و أطماعه.

و تكاد تكون سياسة المنصور تجاه الإمام الصّادق أهم وجوه الحكم، فقد كان الإمام الصّادق شغل المنصور الشاغل، و قد سلك معه كل السبل حتى كأنّه بات يواجه ثورة على و شك الاشتعال بفعل نشاط الإمام الصّادق و مكانته، فنرى المنصور يتذرع إما بالحج ليأتى المدينة، و يتحرى أخبار الإمام و يبعث إليه ليأتيه، أو يوجه إليه إلى العراق، و فى كل مرة يفقد توازنه و يكشّر عن أنياب حقده فيهدد بقتل الإمام، أو يترك نفسه على سجيتها فيسىء الأدب معه، أو يحاول أن يوقع بالإمام الصّادق حيث يوهمه حقده أن بإمكانه أن يجد من هو أعلم من الإمام عليه السّلام. و سيأتيك فى الأجزاء القادمة تفاصيل العلاقة بين رأس النظام المنصور و بين الإمام الصّادق عليه السّلام و ترى وجوه العناية الربانية التى حفظت الإمام من مكائد هذا الطاغية.

انطباعات ابن أبى ليلى:

قال نوح بن دراج: قلت لابن أبى ليلى (1): أ كنت تاركا قولا قلته و قضاء قضيته لقول أحد؟ . قال: لا إلاّ لرجل واحد. قلت: من هو؟ قال: هو جعفر بن محمّد الصّادق. هذا قول فقيه من فقهاء ذلک العصر، و قاض من قضاة الدولتين الأموية و العباسية، و قد وصفوه بأنّه أفقه أهل الدنيا، كما وصفوه بأنّه صاحب قرآن و سنّة، و أنّه صدوق، و جائز الحديث، و خرّج حديثه الأربعة، و قد أقام قاضيا ثلاث و ثلاثين سنة. و مهما تكن حاله فهو بكلمته هذه يكشف لنا عن انطباعاته بعلم الإمام الصّادق

1- 1) ابن أبى ليلى: هو عبد الرّحمن بن أبى ليلى الأنصارى، المتوفى سنة 148 ه. روى الحديث عن أخيه عيسى و الشعبى و عطاء و نافع، و روى عنه شعبة و السفيانان و وكيع. و الشىء الذى نريد أن نوضحه هنا هو أن عبد الرّحمن بن أبى ليلى أبو محمّد، هو غير عبد الرّحمن بن أبى ليلى الأوسى الكوفى المعروف بابن أبى ليلى؛ فإن الأخير من أصحاب الإمام على و شهد مشاهده كلها، و هو من التابعين، و قد ضربه الحجاج بن يوسف بالسياط حتى اسودت كتفاه، و ذلک عند ما أمره أن يشتم عليا و ينتقصه، فامتنع ابن أبى ليلى، فأقامه الحجاج فى المسجد و أمر بضربه، و أخذ ابن أبى ليلى يحدّث الناس بفضائل على، و لم يعبأ بتعذيب الحجاج و تهديده، و قد خرج على الحجاج فى وقعة دير الجماجم سنة 183 ه استنكارا على الحجاج لتأخيره الصلاة حتى يفوت وقتها، و قيل أن الحجاج قبض عليه مرة أخرى و قتله، و قيل أنه غرق فى النهر هو و محمّد بن الأشعث و ذلک فى سنة 183 ه.

و عظیم منزلته، و ما عرفه عنه من قـدم راسـخ فی العلم، فهو لا یری أحـدا یترک قوله لقوله أو قضاء قضاه لأی أحد إلاّ لمن هو أعلم منه، و لا یعتقد بهذه المنزلة لأی رجل فی عصره، إلاّ للإمام الصّادق علیه السّلام.

انطباعات عمرو بن عبید:

دخل عمرو بن عبید (1)علی الإمام الصّادق، فطلب من الإمام أن یعدّد له الکبائر و قال: أحب أن أعرفها من کتاب اللّه، أو سـنّة رسوله؛ لأن الخلاف قـد تعاظم بین المسـلمین، فی مسألـة مرتکب الکبیرة، و احتدم النزاع فی ذلک العصـر، و عقدت المجالس للمناظرة فیها. فقال له الإمام: «نعم یا عمرو» و فصّلها له: 1-الشرک باللّه إِنَّ اَللّهَ لا یَغْفِرُ أَنْ یُشْرَکَ بِهِ (2). 2-عقوق الوالدین: لأن العاق جبار شقی وَ بَرًّا بِوالِدَتِی وَ لَمْ یَجْعَلْنِی جَبّاراً شَقِیًّا (3). 3-قذف المحصـنات إِنَّ اَلَّذِینَ یَرْمُونَ اَلْمُحْصَـناتِ اَلْغافِلاتِ اَلْمُؤْمِناتِ لُعِنُوا فِی اَلدُّنْیا وَ اَلآخِرَةِ وَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِیمٌ (4). 4-أکـل مـال الیتیم إِنَّ اَلَّذِینَ یَـأْکُلُونَ أَمْوالَ اَلْیَتـامی ظُلْمـاً إِنَّما یَأْکُلُونَ فِی بُطُونِهِمْ ناراً وَ سَیَصْـلَوْنَ سَـعِیراً (5). 5-الفرار من الزحف وَ مَنْ یُوَلِّهِمْ یَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاّ مُتَحَرِّفاً لِقِتالٍ أَوْ مُتَحَیِّزاً إِلی فِئَةٍ فَقَدْ باءَ بِغَضَبٍ مِنَ اَللّهِ وَ مَأْواهُ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ اَلْمَصِیرُ (6). 6-قتل النفس وَ مَنْ یَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزاؤُهُ جَهَنَّمُ خالِداً فِیها وَ غَضِبَ اَللّهُ عَلَیْهِ وَ لَعَنَهُ وَ أَعَدَّ لَهُ عَذاباً عَظِیماً (7).

---

1 - 1) عمرو بن عبیـد بن باب. ولـد سـنة 80 ه و توفی سـنة 143 ه سـکن البصـرة و جـالس الحسن البصـری ثم اعتزله، و هو من رؤساء المعتزلة، لقی الإمام الصّادق علیه السّلام و روی عنه.

2- 2) سورة النساء آیة 116. [1]

3- 3) سورة مریم آیة 32. [2]

4- 4) سورة النور آیة 23. [3]

5- 5) سورة النساء آیة 10. [4]

6- 6) سورة الأنفال آیة 16. [5]

7- 7) سورة النساء آیة 93. [6]

7-نقض العهـد و قطيعـة الرحم اَلَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْـدَ اَللّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثاقِهِ وَ يَقْطَعُونَ ما أَمَرَ اَللّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَ يُفْسِدُونَ فِي اَلْأَرْضِ أُولئِکَ هُمُ اَلْخاسِرُونَ (1). و يسـتمر الإمام عليه السّـلام فى تعداد الكبائر بأوضح بيان، و يستشـهد على كل واحدة منها بآية من كتاب اللّه أو سـنّة من رسوله، حتى أتى على آخرها، و عمرو بن عبيد يصـغى لبيانه، فلما انتهى الإمام عليه السّـلام قال عمرو بن عبيد: هلک من سـلبكم تراثكم و نـازعكم فى الفضل و العلم (2). و هـذه الكلمـة من عمرو بن عبيـد، و هو رئيس من رؤساء المعتزلـة و عالم من علماء الأمة، قالها بعد أن عرف ما عنـد الناس حول هـذه المشـكلة، و هى فعل الكبيرة، و قد ناظر و جادل، و جاء للإمام الصّادق ليكون قوله الفصل و حكمه العدل، فهو يرى أن الإمام عليه السّـلام معـدن العلم و الفضل، و من حاول أن يتقـدّم عليه فى هـذه المنزلـة فهو هالک. و خلاصـة القول فى هـذه الأقوال أنّها صـدرت عن أناس لا يتّهمون بالتحيز، فإن كلمـة كل واحـد منهم إنما تنطبق على الواقع، و ليس فيها ميل و لا تحيّز. فمالک بن أنس كـان لاـ يعرف بموالاـة أهـل البيت، و لا بالدعايـة لهم، و لـم تكن نزعته نزعـة شـيعية فيتهم، بل كانت نزعته أقرب ما تكون إلى النزعة الأموية، فإنّه يميل إليهم، فانطباعاته عن شخصـية الإمام بأنه من العلماء الزهّاد الذين يخشون اللّه، و أنه لا يفتر عن طاعة اللّه، فى سـرّه و فى علنه، كل ذلک صادر عن واقع لا تحيّز فيه، و لا ميل، بل هو الحق الـذى لا شـبهة فيه و لا غبار عليه، و قـد لازمه مـدة من الزمن، و حضـر مجالس درسه و وعظه، و رافقه فى سـفره للحـج، فلم يجـد فيه إلاّ العالم الزاهـد، الـذى خالف هواه و عمل بما علم، و اتّقى اللّه حق تقاته، فكان من الصادقين الـذين يهتدى بهديهم و يقتدى بهم. و كذلک أبو حنيفة و اعترافه بأن الإمام الصّادق كان أعلم الناس و أفقههم، فهو قول صادر عن واقع بل عن خبرة و دراية، فهو لا يتهم فى قوله، و هو بعيد عن أسباب الاتهام، لأنه لم يعرف بميله للتشيع.

1- 1) سورة البقرة آية 27. [1]

2- 2) كتاب الإمام الصّادق للأستاذ رمضان لاوند ص 20-22.

و أما المنصور فناهيک به من عدو لدود، و خصم شديد، إذ يشـهد بما تقدم فإنما ذلک من باب: و مناقب شـهد العدو بفضـلها و الفضل ما شهدت به الأعداء

و كما أن هؤلاء لا يتهمون بتصـريحهم عما يعتقدونه فى نفوسـهم عن شخصية الإمام، كذلک لا يتهم عبد اللّه بن المبارک فى مدح الإمام الصّادق و تصريحه عن اعتقاده فيه عند ما استقبله فى بعض الأيام فقال: أنت يا جعفر فوق ال مدح و المدح عناء

إنما الأشراف أرض و لهم أنت سماء

جاز حد المدح من قد ولدته الأنبياء

و يقول أيضا: اللّه أظهر دينه و أعزّه بمحمّد

و اللّه أكرم بال- -خلافة جعفر بن محمّد

و على أى حال فإن استيفاء هذا البحث بالبيان عن جميع ما يلم به من ذكر انطباعات العلماء و الأدباء عن شخصـية الإمام فى عصـره و بعد عصـره أمر يطول شـرحه، و قد أشـرنا للبعض منه فى الجزء الأول. و للمزيد من الوقوف على نواحى عظمته و السير على أضواء تعاليمه، نود هنا ذكر فصول من حكمه و فكره الخوالـد، التى أرسـلها عبر الدهور معلما للأجيال، و هو يضع فى كل منها حجر الأساس لأعظم الأسـس التربوية التى يتجلى فيها روح الصلاح و حب الإصلاح.

الإمام الصّادق

اشارة

فصول من حكمه

تمهيد:

إن للحكم و الأقوال التى ينطق بها كبار الرجال و المصلحون، أهمية كبرى فى حياة الأمم التى تنشد الرقى، لتمهد لنفسها الطريق إلى السعادة، فالحكم التى يوجهها المصلحون بما يتعلّق بمقتضيات الأمور الاجتماعية، و الاقتصادية، و بكل شىء يمتّ إلى حياتهم التى يحيونها بصلة، إنّما هى سجل خالد تتلخّص فيه الشخصية، و تتبلور فيه الأخلاق و الخصائص الفردية و الاجتماعية. إن أولئک المصلحون و المرشدون فى كل أمة و فى كل عصر يدلون بحكمهم و إرشاداتهم لا يرومون من ورائها إلاّ سعادة المجتمع الذى يعيشون فيه، فهم ينيرون الطريق بشعلة من الأفكار؛ ليوجهوا الناس إلى مناهج الحياة الصحيحة، و الابتعاد عن مهاوى الجهل، و مخاطر الفساد. و قد خلّدت آثارهم عبر القرون تتلقاها الأجيال فتلقى عليهم دروسا نافعة، و تلقى أضواء تكشف عن شخصياتهم فتبعث إلى الوجود من جديد، و تمرّ العصور و هم أحياء بتلک الذكريات الخالدة. و كان أهل بيت النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و خلفاؤه من بعده هم خير من أوجب النصح للمسلمين على أنفسهم، جاعلين نصب أعينهم خدمة الأمة فى التوجيه الصحيح، و السير بهم فى طريق الهدى و الرشاد، فكانت سيرتهم و حكمهم تدل على مدى اهتمامهم فى أداء رسالتهم، و قد خاضوا غمرات المحن فى سبيل تحقيق ذلک، فكانوا خير قادة للرشاد و أئمة للهدى. جربوا الحياة و مارسوها، و كل منهم واجه ظروفا خاصة، و خاضوا معترک الحياة، فكانت أقوالهم و حكمهم خلاصة تجارب، و ثمرة كفاح عانوه.

ص:327

و كـان للإمام الصّادق عليه السّلام تراث فكرى و ثروة كبيرة من الحكم الأخلاقيـة تعـد فى الواقع أعظم أثر من آثار دعاة الإصـلاح، و قادة الخير و الرشاد فهو عليه السّلام لا يهـدأ لحظة عن الإرشاد إلى طاعة اللّه، و لا تفوته فرصة يرجو فيها تنظيم العلاقات الاجتماعية و تهذيب النفوس من كل ما يؤدى إلى قطع تلك الروابط بين أفراد المجتمع، فكانت أقواله عليه السّلام فى كل مناسبة توجيها، و وصاياه فى كل حين إرشادا. أما إذا اسـتخلص التعاليم و استصـفى النظرات فإنه عليه السّلام يأتى بموجز من البيان و ينطق بعبارات يسيرة ترقى إلى أعلى مراتب الحكمة، و تسـمو إلى أرفع منازل الإيمان، و يتخلل منهجه عليه السّلام فى الدعوة و الإرشاد بيان مشرق و يضمه سياق محكم. و لقد قدّمنا فى أبحاثنا السابقة من هذا الكتاب بعض تلك الحكم، و نجد لزاما علينا أن نزين هذا الجزء ببعض جواهر حكمه التى تضـمنت أهم النقاط الاجتماعيـة و الخلقيـة، و كـل ما يتعلق بأمور الفرد و المجتمع، فهو عليه السّلام يعالـج الأمور بأسـلوب يعجز القلم عن وصـفه، و حكمة يتلعثم اللسان عن بيانها. لقـد عرف عليه السّلام بين الناس بكرم الأخلاق و صـدق الحـديث، و حسن المجالسـة. و قـد منحه اللّه سـلامة الفطرة، و صفاء الحس، و نفاذ البصيرة و حسن البيان، فكان خير داعية للخير، و مرشد للهدى، يزدحم مجلسه بمختلف الطبقات و الطوائف و ينتهلون من تعاليمه، و يتزوّدون من حكمه و أخلاقه، و قـد وجدوا فيه المصـلح الاجتماعى العظيم، و المرشد الدينى الكبير. إنهم وجدوا فيه عالما و إنسانا كاملا، يهـدى إلى الرشاد، و يدعو إلى سواء السبيل، و قد خرّجت مدرسـته علماء أعلاما و رجال إصـلاح خدموا الإنسانية جمعاء خدمة لا تنكر. إنه عليه السّلام لم يدخر نصحا عن أحد، و لم يأل جهدا فى توجيه النصح لكل أحد، فتجد له فى كل مناسبة قولا، و فى كل مجال حكمـة، و لكل مشـكلة حلا، و إن منهجه القويم و طابعه الأخلاقى ليظهران على كل كلمـة نقلت عنه، و على كل أثر نسـب إليه. إن تلك الفكر الخوالد تتصف بصـفة الشـمول لجميع نواحى الحياة الإنسانية و توضح للمسـلم تعاليم دينه الصـحيح، و هى تمتّ إلى واقع المسلمين فى كل عصر، و هى الدواء لأمراض المجتمع، و الحل الصحيح لمشكلاته.

و ها نحن نذكر هنا بعض حكمه و مواعظه، فی أمور متفرقة اقتبسناها من تلک الثروة العلمية، بدون شرح و تعليق، لأننا عزمنا علی إبراز ما جمعناه من حكمه و تراثه الفكری علی حدة، مع شرح يكشف معانيها، و يبيّن مرادها، و من اللّه نستمد العون و هو ولی التوفيق.

حكمه و أقواله:

* «اتّقوا اللّه و اعدلوا، فإنّكم تعيبون علی قوم لا يعدلون» . * «إياكم و الخصومة فإنّها تشغل القلب، و تورث النفاق، و تكسب الضغائن، قال النبی صلّی اللّه عليه و آله و سلّم: ما كاد جبرائيل يأتينی إلاّ قال: يا محمّد اتق شحناء الرجال، و عداوتهم» . * «أولی الناس بالعفو أقدرهم علی العقوبة، و أنقص الناس عقلا من ظلم من دونه، و من لم يصفح عمن اعتذر إليه» . * «إن من حقيقة الإيمان أن تؤثر الحق و إن ضرّک، علی الباطل و إن نفعک» . * «احفظ لسانک تعز، و لا تمكن الناس من قيادک فتذل رقبتک» . * «إياكم و سؤال الناس فإنّه ذل فی الدنيا و فقر تعجلونه، و حساب طويل يوم القيامة» . * «اطلبوا العلم و لو بخوض اللجج، و شق المهج» . * «إذا أردت أن تختبر عقل الرجل فی مجلس واحد فحدّثه فی خلال حديثک بما لا يكون، فإن أنكره فهو عاقل، و إن صدقه فهو أحمق» . * «إن هذا العلم عليه قفل، و مفتاحه السؤال» . * «إن يسلم الناس من ثلاثة أشياء كانت سلامة شاملة: لسان السوء، و يد السوء، و فعل السوء» . * «العاقل من كان ذلولا عند إجابة الحق، منصفا بقوله جموحا عند الباطل، يترک دنياه و لا يترک دينه. و دليل العاقل شيئان: صدق القول و صواب الفعل. و العاقل لا يتحدّث بما ينكره العقل، و لا يتعرّض للتهمة، و لا يدع مداراة من ابتلی به، و يكون العلم دليله فی أعماله، و الحلم رفيقه فی أحواله، و المعرفة تعينه فی مذاهبه. و الهوی عدو العقل، و مخالف الحق، و قرين الباطل. و قوة الهوی من الشهوة. و أصل علامات الشهوة: أكل الحرام و الغفلة عن الفرائض و الاستهانة بالسنن و الخوض فی الملاهی» .

* «أحسنوا النظر فيما لا يسعكم جهله، و انصحوا لأنفسكم، و جاهدوا فى طلب معرفة ما لا عذر لكم فى جهله، فإن لدين اللّه أركانا لا ينفع من جهلها بشدة اجتهاده فى طلب ظاهر عبادته، و لا يضر من عرفها فدان بها حسن اقتصاده، و لا سبيل لأحد إلى ذلک إلاّ بعون اللّه عزّ و جل» . * «إن السرف يورث الفقر، و إن القصد يورث الغنى» . * «إذا بلغک عن أخيک ما تكرهه فاطلب له من عذر واحد إلى سبعين عذرا، فإن لم تجد له عذرا فقل: لعل له عذرا لا أعرفه» . * «إن اللّه ارتضى لكم الإسلام دينا، فأحسنوا صحبته بالسخاء و حسن الخلق» . * «إن العمل الدائم القليل على يقين أفضل عند اللّه من العمل الكثير على غير يقين» . * «أحب إخوانى إلىّ من أهدى إلىّ عيوبى» . * «إن سرعة ائتلاف قلوب الأبرار إذا التقوا و إن لم يظهروا التودد بألسنتهم، كسرعة اختلاف ماء السماء بماء الأنهار، و إن بعد ائتلاف قلوب الفجار إذا التقوا، و إن أظهروا التودد بألسنتهم كبعد البهائم من التعاطف، و إن طال ائتلافها على مذود واحد» . * «إياک و مخالطة السفلة، فإن مخالطة السفلة لا تؤدى إلى خير» . * «إن مثل الدنيا كمثل ماء البحر، كلما شرب العطشان منه ازداد عطشا» . * «إن عيال الرجل أسراؤه، فمن أنعم عليه اللّه فليوسع على أسرائه، فإن لم يفعل يوشک أن تزول تلک النعمة عنه» . * «اتقوا اللّه و صونوا دينكم بالورع» . * «انظر إلى من هو دونک فى المقدرة، و لا تنظر إلى من هو فوقک، فإن ذلک أقنع لک بما قسم اللّه لک، و أحرى أن تستوجب الزيادة منه عزّ و جل، و اعلم إن العمل الدائم القليل على اليقين أفضل عند اللّه من العمل الكثير على غير يقين، و اعلم أنّه لا ورع أنفع من تجنّب محارم اللّه، و الكفّ عن أذى المؤمن، و لا مال أفضل من القناعة باليسير المجزى، و لا جهل أضر من العجب» . * «إن الغنى و العزّ يجولان، فإذا ظفرا بموضع التوكل أوطناه» .

* «ألا ـ و إن أحب المؤمنين إلى اللّه من أعان المؤمن الفقير من الفقر فى دنياه، و معاشه، و من أعان و نفع و دفع المكروه عن المؤمنين» . * «إن صلة الرحم و البرّ ليهوّنان الحساب، و يعصمان من الذنب، فصلوا أرحامكم، و برّوا إخوانكم، و لو بحسن الجواب و ردّ السلام» . * «احذروا سطوات اللّه بالليل و النهار» فقيل له: و ما سطوات اللّه؟ فقال: «أخذه بالمعاصى» . * «إياك و خصلتين: الضجر و الكسل، فإنك إن ضجرت لم تصبر على حق، و إن كسلت لم تؤد حقه» . * «إياك و الرياء فإنه من عمل لغير اللّه وكله اللّه إلى من عمل له» . * «باشر كبار أمورك بنفسك و كل ما صغر منها لغيرك» . * «البركة أسرع إلى البيت الذى يمتاز فيه المعروف من الشفرة إلى سنام البعير و السيل إلى منتهاه» . * «إياكم و الخصومة فى الدين؛ فإنّها تشغل القلب عن ذكر اللّه. و تورث النفاق، و تكسب الضغائن، و تستجيز الكذب» . * «إنما أعطاكم اللّه هذه الفضول من الأ ـ موال لتوجهوها حيث وجهها اللّه عزّ و جلّ و لم يعطكموها لتكنزوها» . * «إذا بلغك عن أخيك شىء فلا تغتم، فإن كان كما يقول كانت عقوبة عجلت، و إن كان على غير ما يقول كانت حسنة لم تعملها» . * «إن أبغض خلق اللّه تعالى عبد اتقى الناس لسانه» . * «أيما أهل بيت أعطوا حظهم من الرفق، فقد وسع اللّه عليهم فى الرزق، و الرفق فى تقدير المعيشة خير من سعة المال، و الرفق لا يعجز عن شىء، و التبذير لا يبقى معه شىء، إن اللّه عزّ و جلّ رفيق يحب الرفق» . * «اصنع المعروف إلى من هو أهله و إلى من ليس هو أهله، فإن لم يكن هو من أهله فكن أنت من أهله» . * «إن من عرف نعمة اللّه بقلبه استوجب المزيد من اللّه قبل أن يظهر شكرها على لسانه» .

* «تدخل يدک فی فم التنين إلی المرفق خير لک من طلب الحوائج إلی من لم يکن له ثم کان» . * «ثلاثة لم يجعل اللّه لأحد من الناس فيهنّ رخصة: برّ الوالدين، برّين کانا أو فاجرين، و الوفاء بالعهد للبر و الفاجر، و أداء الأمانة للبر و الفاجر» . * «تأخير التوبة اغترار، و طول التسويف حيرة، و الاعتدال علی اللّه هلکة، و الإصرار علی الذنب أمن من مکر اللّه، و لا يأمن مکر اللّه إلاّ القوم الخاسرون» . * «ثلاثة من لم تکن فيه فلا يجری خيره أبدا: من لم يخش اللّه فی الغيب، و لم يرعو عند الشيب، و لم يستح من العيب» . * «تحتاج الأخوة فيما بينکم إلی ثلاثة أشياء فإن استعملتموها و إلاّ تباينتم و هی: التناصف، و التراحم، و نفی الحسد» . * «ثلاثة من استعملها أفسد دينه و دنياه: من أساء ظنه، و أمکن من سمعه، و أعطی قياده حليلته» . * «ثلاثة تجب علی السلطان للخاصة و العامة: مکافأة المحسن بالإحسان ليزدادوا رغبة فيه، و تغمد ذنوب المسيئين ليتوب و يرجع عن غيه، و تألفهم جميعا بالإحسان و الإنصاف» . * «ثلاثة تدل علی کرم المرء: حسن الخلق، و کظم الغيظ، و غض الطرف» . * «الجهل فی ثلاث: الکبر و المراء و الجهل باللّه فأولئک هم الخاسرون» . * «حسن الظن باللّه أن لا ترجو إلاّ اللّه و لا تخاف إلاّ ذنبک» . * «الحزم فی ثلاث: الاستخدام للسلطان، و الطاعة للوالد، و الخضوع للمولی» . * «الحياء و الإيمان مقرونان، فإذا ذهب أحدهما اتبعه الآخر» . * «خلّوا سبيل المعسر کما خلاه اللّه» إشارة لقوله تعالی: وَ إِنْ کانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلی مَيْسَرَةٍ . * «خف اللّه کأنک تراه، و إن کنت لا تراه فإنّه يراک، و إن کنت تری أنه لا يراک فقد کفرت، و إن کنت تعلم أنه يراک ثم بدرت له بالمعصية فقد جعلته من أهون الناظرين إليک» . * «خذ من حسن الخلق بطرف تروح به أمرک، و تروح به قلبک» .

* «خير السادة أرحبهم ذراعا عند الضيق، و أعدلهم حلما عند الغضب، و أبسطهم وجها عند المسألة، و أرحمهم قلبا إذا سلط، و أكثرهم صفحا إذا قدر» . * «الدّين غم فى الليل و ذلّ فى النهار» . * «داووا مرضاكم بالصدقة، و ادفعوا البلاء بالدعاء» . * «دراسة العلم لقاح المعرفة، و طول التجارب زيادة فى العقل، و الشرف و التقوى و القنوع راحة الأبدان» . * «رأيت المعروف لا يصلح إلاّ بثلاث خصال: تصغيره، و ستره، و تعجيله. فإنک إن صغرته عظمته عند من تصنعه إليه، و إذا سترته تممته، و إذا عجلته هنأته، فإذا فعلت غير ذلک فإنّک سخفته و نكدته» . * «رأيت المعروف كاسمه، و ليس شىء أفضل من المعروف إلاّ ثوابه، و ذلک يراد منه، و ليس كل من يحب إلى الناس يصنعه، و ليس كل من يرغب فيه يقدر عليه، و لا كل من يقدر عليه يؤذن له فيه، فإذا اجتمعت الرغبة و القدرة؛ فهناک تمت السعادة للطالب و المطلوب» . * «الرجال ثلاثة: عاقل و أحمق و فاجر. فالعاقل إن كلّم أجاب، و إن نطق أصاب، و إن سمع وعى. و الأحمق إن تكلّم عجّل، و إن حمل على القبيح فعل. و الفاجر إن ائتمنته خانک، و إن حدّثته شانک» . * «سرّک من دمک، فلا تجره فى غير أوداجک» . * «ستة لا تفارقهم الكآبة: الحقود، و الحسود، و فقير قريب العهد بالغنى و غنى يخشى الفقر، و طالب رتبة يقصر عنها قدره، و جليس أهل الأدب و ليس منهم» . * «سيد الأعمال ثلاثة: إنصاف الناس من نفسک، حتى لا ترضى بشىء إلاّ رضيت لهم مثله، و مواساة الأخ بالمال، و ذكر اللّه على كل حال» ثم قال: «ليس هو سبحان اللّه و الحمد للّه و لا إله إلاّ اللّه و اللّه أكبر فقط، و لكن إذا ورد عليک ما أمر اللّه به أخذت به، و إذا ورد عليک شىء نهى اللّه عنه تركته» . * «الصفح الجميل أن لا تعاقب على الذنب، و الصبر الجميل الذى ليس فيه شكوى» .

* «صلة الأرحام تحسن الخلق و تطيب النفس، و تزيد فى الرزق، و تنسى الأجل» . * «صدرک أوسع لسرّک» . * «الصلاة قربان کل تقى، و الحج جهاد کل ضعيف، و زکاة البدن الصيام، و الداعى بلا عمل کالرامى بلا وتر، و استنزلوا الرزق بالصدقة، و حصّنوا أموالکم بالزکاة، و ما عال من اقتصد، و التدبير نصف العيش، و التودد نصف العقل، و قلة العيال أحد اليسارين، و من أحزن والديه فقد عقّهما، و من ضرب يده على فخذه عند مصيبة فقد حبط أجره، و الصنيعة لا تکون صنيعة إلاّ عند ذى حسب و دين، و اللّه تعالى منزل الصبر على قدر المصيبة، و منزل الرزق على قدر المؤنة، و من قدر معيشته رزقه اللّه، و من بذّر معيشته حرمه اللّه» . * «صلة الرحم تهوّن الحساب يوم القيامة، و هى منسأة فى العمر، و تقى مصارع السوء» . * «صدقة يحبها اللّه: إصلاح بين الناس إذا تفاسدوا و تقارب إذا تباعدوا» . * «صلاح حال التعايش و التعاشر على مکيال، ثلثاه فطنة و ثلث تغافل» . * «ضمنت لمن اقتصد أن لا يفتقر» . * «احذروا عواقب العثرات» . * «إن المؤمن أخو المؤمن، عينه و دليله، لا يخونه و لا يظلمه، و لا يغشه، و لا يعده عدة فيخلفه» . * «طلب الحوائج إلى الناس استلاب للعزّ و مذهبة للحياء، و اليأس مما فى أيدى الناس عز للمؤمن فى دينه، و الطمع هو الفقر الحاضر» . * «الطيرة على ما تجعلها إن هونتها تهونت، و إن شددتها تشددت، و إن لم تجعلها شيئا لم تکن» . * «ما من أحد يتيه إلاّ لذلة يجدها فى نفسه» . * «ما من أحد تکبّر أو تجبّر إلاّ لذلة وجدها فى نفسه» .

* «مـا أقبـح بالمؤمن من أن تكون له رغبـة تـذلّه» . * «إن المشورة لا تكون إلاّ بحـدودها، فمن عرفها بحـدودها و إلاّ كانت مضـرتها على المستشـير أكبر من نفعها: فأولها: أن يكون الـذى تشاوره عاقلا. و الثانيـة: أن يكون حرا متدينا. و الثالثة: أن يكون صديقا مواخيا. الرابعة: أن تطلعه على سـرّك، فيكون علمه به كعلمک بنفسک، ثم يسر لک و يكتمه، فإنه إذا كان عاقلا انتفعت بمشورته، و إن كان حرا متدينا أجهد فى النصـيحة لک، و إذا كان صديقا مواخيا كتم سرک إذا أطلعته عليه، و إذا أطلعته على سرک فكان علمه به كعلمک به، فهناک تمت المشورة و كملت النصـيحة» . * «الصداقـة محـدودة، فمن لـم تكن فيه تلک الحـدود فلا تنسـبه إلى كمال الصداقـة، و من لـم يكن فيه شـىء من تلک الحدود فلا تنسـبه إلى شـىء من الصداقة: أولها: أن تكون سريرته و علانيته لک واحدة. الثانية: أن يزينک زينه و يشينک شينه. الثالثة: أن لا يغيره مال و لا ولايـة. الرابعة: أن لا يمنعک شـيئا مما تصل إليه مقدرته. الخامسة: أن لا يسـلمک عند النكبات» . * «طلبة العلم على ثلاثة أصـناف: فـاعرفهم بأعيانهم و صـفاتهم: صـنف يطلبه للجهل و المراء، و صـنف يطلبه للاسـتطالة و الختل، و صـنف يطلبه للفقه و العقل. فصاحب الجهل و المراء متعرض للمقال فى أنديـة الرجال يتذاكر العلم، و صـفة الحلم، قد تسـربل بالخشوع، و تخلّى عن الورع، فدق اللّه من هـذه خيشومه. و صـاحب الاسـتطالة و الختل: ذو خب و ملق، يسـتطيل على مثله من أشـباهه، و يتواضع للأغنياء من دونه. و صاحب الفقه و العقـل ذو كآبـة و حزن، يعمل و يخشـى، و جلا داعيا مشـفقا على شأنه، عارفا بأهل زمانه، مسـتوحشا من أوثق إخوانه» . * «طلبت الجنة فوجدتها فى السخاء، و طلبت العافية فوجدتها فى العزلة،

و طلبت ثقل الميزان فوجدته فی شهادة أن لا إله إلاّ اللّه محمّد رسول اللّه. و طلبت سرعة الدخول إلی الجنّة فوجدتها فی العمل للّه، و طلبت حب الموت فوجدته فی تقديم المال لوجه اللّه، و طلبت حلاوة العبادة فوجدتها فی ترک المعصية، و طلبت رقة القلب فوجدتها فی الجوع و العطش، و طلبت نور القلب فوجدته فی التفکر و البکاء، و طلبت الجواز علی الصراط فوجدته فی الصدقة، و طلبت نور الوجه فوجدته فی صلاة اللیل، و طلبت فضل الجهاد فوجدته فی الکسب للعیال، و طلبت حب اللّه فوجدته فی بغض أهل المعاصی، و طلبت الرئاسة فوجدتها فی النصيحة لعباد اللّه، و طلبت فراغ القلب فوجدته فی قلة المال، و طلبت عزائم الأمور فوجدتها فی الصبر، و طلبت الشرف فوجدته فی العلم، و طلبت العبادة فوجدتها فی الورع، و طلبت الراحة فوجدتها فی الزهد، و طلبت الرفعة فوجدتها فی التواضع، و طلبت العز فوجدته فی الصدق، و طلبت الغنی فوجدته فی القناعة، و طلبت الأنس فوجدته فی قراءة القرآن، و طلبت رضا اللّه فوجدته فی بر الوالدين» . * «إذا کان اللّه قد تکفل بالرزق فاهتمامک لما ذا؟ و إن کان الرزق مقسوما فالحرص لما ذا؟ و إذا کان الحساب حقا فالجمع لما ذا؟ و إن کان الخلف من اللّه عز و جل حقا فالبخل لما ذا؟ و إن کانت العقوبة من اللّه عزّ و جل النار فالمعصية لما ذا؟ و إن کان الموت حقا فالفرح لما ذا؟ و إن کان العرض علی اللّه حقا فالمکر لما ذا؟ و إن کان الشيطان عدوا فالغفلة لما ذا؟ و إن کان کل شیء بقضاء و قدر فالحزن لما ذا؟ و إن کانت الدنيا فانية فالطمأنينة لما ذا؟» * «إن أحق الناس بأن يتمنی للناس الغنی البخلاء؛ لأن الناس إذا استغنوا کفوا عن أموالهم، و إن أحق الناس بأن يتمنی للناس الصلاح أهل العيوب، لأن الناس إذا صلحوا کفوا عن تتبع عيوبهم. و إن أحق الناس بأن يتمنی للناس الحلم أهل السفه الذين يحتاجون أن يعفی عن سفههم، فأصبح أهل البخل يتمنون فقر الناس، و أصبح أهل العيوب يتمنون معايب الناس، و أصبح أهل السفه يتمنون سفه الناس. و فی الفقر الحاجة إلی البخيل، و فی الفساد طلب عورة أهل العيوب، و فی السفه المکافأة بالذنوب» . * «العاقل لا يستخف بأحد، و أحق من لا يستخف به ثلاثة: العلماء،

و السلطان، و الإخوان. لأنه من استخف بالعلماء أفسد دينه، و من استخف بالسلطان أفسد دنياه، و من استخف بالإخوان أفسد مروءته» . * «العافية نعمة خفية إذا وجدت نسيت و إذا عدمت ذكرت» . * «العدل أحلى من الماء يصيبه الظمآن» . * «العجب يكلم المحاسن، و الحسد للصديق من سقم المودة، و لن تمنع الناس من عرضك إلاّ بما تنشر عليهم من فضلك» . * «العز أن تذلّ للحق إذا لزمك» . * «العادة على كل شيء سلطان» . * «عليک بالنصح للّه فی خلقه فإنک لن تلقاه بعمل أفضل منه» . * «ويل لقوم لا يدينون اللّه بالمعروف و النهی عن المنكر» . * «الغضب ممحقة لقلب الحليم، و من لم يملک غضبه لم يملک عقله» . * «الغضب مفتاح كل شر» . * «فوت الحاجة خير من طلبها من غير أهلها، و أشد من المصيبة سوء الخلف منها» . * «من استشاره أخوه فلم يمحضه النصح؛ سلبه اللّه رأيه» . * «لا تبد الشماتة لأخيک، فيرحمه اللّه و يصيّرها بک» . * «لو يعلم السائل ما عليه من الوزر ما سأل أحدا أحدا، و لو يعلم المسئول إذا منع ما منع أحد أحدا» . * «لا تتبع أخاک بعد القطيعة وقيعة فيه، فتسد عليه طريق الرجوع إليک، و لعل التجارب أن ترده إليک» . * «لو علم سيئ الخلق أنه يعذب نفسه لتسمح فی خلقه» . * «لا ـ تكن أول مشير، و إيّاک و الرأی الفطير، و تجنب ارتجال الكلام، و لا تشر على مستبد برأيه، و لا على وغد، و لا على متلون، و لا على لجوج» .

* «لا يزال العز قلقا حتى يدخل دارا قد أيس أهلها من أيدى الناس» . * «ليس منّا من لم يحسن مجاورة من جاوره» . * «البر و حسن الخلق يعمران الديار، و يزيدان فى الأعمار» ، فقيل له: ما حد حسن الخلق؟ قال عليه السّلام: «تلين جانبک، و تطيب كلامک، و تلقى أخاک ببشر حسن» . و قال عليه السّلام للمفضل بن عمر: «أوصيک بست خصال» . قال المفضل: و ما هى يا سيدى؟ قال عليه السّلام: «أداء الأمانة إلى من ائتمنک، و أن ترضى لأخيک ما ترضاه لنفسک، و اعلم بأن للأمور أواخر فاحذر العواقب، و إن للأمور بغتات فكن على حذر، و إيّاک و مرتقى جبل سهل إذا كان المنحدر وعرا، و لا تعدنّ أخاک وعدا ليس فى يدک و فاؤه» . * «ثلاثة لا يصيبون إلاّ خيرا: أولو الصمت، و تاركو الشر، و المكثرون من ذكر اللّه، و رأس الحزم التواضع» . فقيل له: و ما التواضع؟ قال عليه السّلام: «أن ترضى من المجلس بدون شرفک، و أن تسلّم على من لقيت، و أن تترک المراء و إن كنت محقا» . * «خمس خصال من فقد منهنّ واحدة لم يزل ناقص العيش مشغول القلب: فأولها صحة البدن، و الثانية الأمن، و الثالثة السعة فى الرّزق، و الرابعة الأنيس الموافق، و الخامسة و هى تجمع هذه الخصال: الدعة» فقيل له: و ما الأنيس الموافق؟ قال: «الزوجة الصالحة، و الولد الصالح» . * «الكلام ثلاثة: صدق، و كذب، و إصلاح بين الناس» . فقيل له: ما الإصلاح بين الناس؟ قال عليه السّلام: «تسمع فى الرجل كلاما إن يبلغه فيخبت نفسه، فتلقاه و تقول: قد سمعت من فلان فيک من الخير كذا و كذا خلاف ما سمعته منه» . * «إن الخمر رأس كل إثم و مفتاح كل شر، و ما عصى اللّه بشىء أشد من شرب المسكر» .

فقال له الرجل: أصلحک اللّه؛ أشرب الخمر شر أم ترک الصلاة؟ قال علیه السّلام: «شرب الخمر» . ثم قال له: «أو تدری لم ذاک؟» قال: لا. قال علیه السّلام: «لأنه-أی شارب الخمر-یصیر فی حال لا یعرف ربه» . *و سئل علیه السّلام: هل یکون المؤمن بغیضا؟ قال: «لا و لا یکون ثقیلا» . * «لعن اللّه قاطعی سبیل المعروف» . قیل له: و من قاطعو سبیل المعروف؟ قال علیه السّلام: «الرجل یصنع إلیه المعروف فیکفره، فیمتنع صاحبه من أن یصنع ذلک إلی غیره» . * «لا یطعن ذو الکبر فی الثناء الحسن، و لا الخب فی کثرة الصدیق، و لا السیئ الأدب فی الشرف، و لا البخیل فی صلة الرحم، و لا المستهزئ بالناس فی صدق المودة، و لا القلیل الفقه فی القضاء، و لا المغتاب فی السّلامة، و لا الحسود فی راحة القلب، و لا المعاقب علی الذنب الصغیر فی السؤدد، و لا القلیل التجربة المعجب برأیه فی الرئاسة» . * «لا یصلح من لا یعقل، و لا یعقل من لا یعلم، و الصدق عز، و الجهل ذل، و الفهم مجد، و الجود نجح، و حسن الخلق مجلبة للمودة، و العالم بزمانه لا تهجم علیه اللوابس، و الحزم مشکاة الظن، و العاقل غفور و الجاهل ختور؛ و إن شئت أن تهان فأخشن، و من کرم أصله لان قلبه، و من خشن عنصره غلظ کبده، و من فرط تورط، و من خاف العاقبة تثبت» . * «لا غنی بالزوج عن ثلاثة فیما بینه و بین زوجته: الموافقة لیجتلب بها موافقتها و محبتها و هواها و حسن خلقه معها، و استعماله استمالة قلبها بالهیئة الحسنة فی عینها، و توسعته علیها. و لا غنی للزوجة فیما بینها و بین زوجها عن ثلاث خصال و هن: صیانة نفسها من کل دنس حتی یطمئن قلبه إلی الثقة فی حال المحبوب و المکروه. و حیاطته لیکون ذلک عاطفا علیها عند زلة تکون منها. و إظهار العشق له بالخلابة و الهیئة الحسنة لها فی عینه» .

* «لا ـ تتكلم فيما لا ـ يعنيک، ودع كثيرا من الكلام فيما يعنيک حتى تجد له موضعا، فربّ متكلّم تكلم بالحق بما يعنيه فى غير موضعه فتعب، و لا تمارين سفيها و لا حليما فإن الحليم يغلبک و السفيه يرديک، و اذكر أخاک إذا تغيب بأحسن ما تحب أن يذكرک به إذا تغيبت عنه، و اعمل عمل من يعلم أنه مجزى بالإحسان، مأخوذ بالإجرام» . * «ليس من أحد، و إن ساعدته الدنيا بمستخلص غضارة عيش إلاّ من خلال مكروه، و من انتصر بمعاجلة الفرصة مواجلة سلبته الأيام فرصته، لأن من شأن الأيام السلب، و سبيل الزمن الفوت، و لا تحدث من تخاف أن يكذبک، و لا تسأل من تخاف أن يمنعک، و لا تأمن من تخاف أن يغدر بک، و من لم يواخى من لا عيب فيه قل صديقه، و من لم يرض من صديقه إلاّ بإيثاره إياه على نفسه دام سخطه، و من عاتب على كل ذنب كثر تعبه» . * «لا تغرنک الناس من نفسک فإن الأمر يصل إليک دونهم، و لا تقطع النهار عنک بكذا و كذا، فإن معک من يحصى عليک، و لا تستصغرنّ حسنة تعملها فإنک تراها حيث تسرک، و لا تستصغرنّ سيئة تعملها فإنک تراها حيث تسوؤک، و أحسن فإنى لم أر شيئا أشد طلبا و لا أسرع دركا من حسنة محدثة لذنب قديم» . * «لا تعتد بمودة أحد حتى تغضبه ثلاث مرات» . * «لا تثقن بأخيک كل الثقة، فإن سرعة الاسترسال لا تقال» . * «ليس لک أن تأمن الخائن و قد جربته، و ليس لک أن تتهم من ائتمنت» . * «ليس لملول صديق، و لا ـ لحسود غنى، و كثرة النظر فى الحكمة تلقح العقل» . * «ليس الإيمان بالتحلى و لا بالتمنى، و لكن الإيمان ما خلص فى القلوب و صدقته الأعمال» . * «ليس فيما أصلح البدن إسراف» . * «كفى بالمرء إثما أن يضيع من يعول فيه» . * «كفارة عمل السلطان قضاء حاجات الإخوان» . * «كفى بالحلم ناصرا» . * «كسب الحرام يبين فى الذرية» .

* «من سعادة الرجل أن يكون القيّم على عياله» . * «من أمل أحدا هابه، و من قصر عن شيء عابه» . * «من صدق لسانه زكى عمله، و من حسنت نيته زيد فى رزقه، و من حسن بره بأهل بيته مد فى عمره» . * «من حق أخيک أن تحمل له الظلم فى ثلاث مواقف: عند الغضب، و عند الذلة، و عند السهو» . * «لا يستكمل عبد حقيقة الإيمان حتى تكون فيه خصال ثلاث: الفقه فى الدين، و حسن التقدير فى المعيشة، و الصبر على الرزايا» . * «لا يبلغ أحدكم حقيقة الإيمان حتى يحب أبعد الخلق منه فى اللّه، و يبغض أقرب الخلق منه فى اللّه» . * «لا تكون مؤمنا حتى تكون خائفا راجيا، و لا تكون خائفا راجيا حتى تكون شاملا لما تخاف و ترجو» . * «لا يكون الرجل من المتقين حتى يحاسب نفسه أشد من محاسبة الشريک شريكه فيعلم من أين مطعمه، و من أين ملبسه أمن حلال أم من حرام؟» . * «من أوثق عرى الإيمان أن تحب فى اللّه و تبغض فى اللّه، و تعطى فى اللّه و تمنع فى اللّه» . * «من صحة يقين المرء المسلم أن لا يرضى الناس بسخط اللّه، و لا يحسدهم على ما آتاهم اللّه، و لا يلومهم على ما لم يؤته اللّه، فإن رزقه لا يسوقه حرص حريص، و لا يردّه كره كاره. و لو أن أحدكم فرّ من رزقه كما يفرّ من الموت لأدركه رزقه كما يدركه الموت» . * «من لم يحب على الدين و لا يبغض على الدين فلا دين له» . * «ينبغى للمؤمن أن يكون فيه ثمان خصال: و قور عند الهزاهز، صبور عند البلاء، شكور عند الرخاء، قانع بما رزقه اللّه، لا يظلم الأعداء و لا يتحمل الأصدقاء، بدنه منه فى تعب، و الناس منه فى راحة» . * «يحق على المسلمين الاجتهاد فى التواصل، و التعاون، و التعاطف، و المواساة لأهل الحاجة، و تعاطف بعضهم على بعض» .

* «یا شیعة آل محمّد إنه لیس منّا من لم یملک نفسه عند الغضب، و لم یحسن صحبة من صحبه، و مرافقة من رافقه، و مصالحة من صالحه، و مخالفة من خالفه. یا شیعة آل محمّد اتقوا اللّه ما استطعتم، و لا حول و لا قوة إلاّ باللّه العلی العظیم» . * «المغرور فی الدنیا مسکین و فی الآخرة مغبون، لأنه باع الأفضل بالأدنی، و لا تعجب من نفسک فربما اغتررت بمالک و صحة جسدک لعلک تبقی، و ربما اغتررت بطول عمرک و أولادک و أصحابک لعلک تنجو بهم، و ربما اغتررت بجمالک و إصابتک مأمولک و هواک فظننت أنک صادق و مصیب، و ربما اغتررت بما تری من الندم علی تقصیرک فی العبادة و لعل اللّه یعلم من قلبک بخلاف ذلک، و ربما أقمت نفسک علی العبادة متکلفا و اللّه یرید الإخلاص، و ربما توهمت أنک تدعو اللّه و أنت تدعو سواه، و ربما حسبت أنک ناصح للخلق و أنت تریدهم لنفسک، و ربما ذممت نفسک و أنت تمدحها علی الحقیقة» . * «إن اللّه خبأ ثلاثا فی ثلاث: رضاه فی طاعته فلا تحتقروا منها شیئا فلعل رضاه فیه، و غضبه فی معاصیه فلا تحتقروا شیئا فلعل غضبه فیه، و خبأ ولایته فی عباده فلا تحتقروا منهم أحدا فلعله ولی اللّه» . * «إذا استقبلت القبلة فآیس من الدنیا و ما فیها، و الخلق و ما هم فیه، و استفرغ قلبک من کل شاغل یشغلک عن ذکر اللّه، و عاین بسرک عظمة اللّه عزّ و جل، و اذکر وقوفک بین یدیه قال تعالی: هُنالِکَ تَبْلُوا کُلُّ نَفْسٍ ما أَسْلَفَتْ وَ رُدُّوا إِلَی اَللّهِ مَوْلاهُمُ اَلْحَقِّ وقف علی قدم الخوف و الرجاء» . * «لا ینبغی للمؤمن أن یجالس مجلسا یعصی اللّه فیه و لا یقدر علی تغییره، و من ابتلی بحضور طعام ظالم إکراها و تقیة، فلیقلل الأکل و لا یأکل أطایب الأطعمة» . * «المؤمن هو الذی إذا غضب لم یخرجه غضبه من حق، و إذا رضی لم یدخله رضاه فی باطل، و الذی لم یأخذ أکثر مما له» . * «الصمت کنز وافر و زین الحلیم و ستر الجاهل» . * «قلة الصبر فضیحة» . * «کل ذی صناعة مضطر إلی ثلاث خلال یجتلب بها المکسب: أن یکون

حاذقا بعمله، مؤديا للأمانة فيه، مستميلا لمن استعمله» . * «كم من مغرور بما أنعم اللّه عليه، و كم من مستدرج يستر اللّه عليه، و كم من مفتون بثناء الناس عليه» . * «من ائتمن خائنا على أمانة لم يكن له على اللّه ضمان» . * «من دعا الناس إلى نفسه و فيهم من هو أعلم منه فهو مبتدع ضال» . * «من زرع العداوة حصد ما بذر» . * «من أخلاق الجاهل: الإجابة قبل أن يسمع، و المعارضة قبل أن يفهم، و الحكم بما لم يعلم» . * «من سأل من غير حاجة فكأنما يأكل الجمر» . * «إياك و ملاحات الشعراء، فإنهم يضنّون بالمدح و يجودون بالهجاء» . * «الأدب عند الأحمق كالماء العذب فى أصول الحنظل، كلما ازداد ريا ازداد مرارة» . * «من عظمت نعمة اللّه عليه اشتدت مؤونة الناس إليه» . * «إن اللّه يحب معالى الأمور، و يكره سفاسفها» . * «دعامة الإنسان العقل، و بالعقل يكمل، و هو دليله و مبصره و مفتاح أمره» . * «ثلاثة يجب على كل إنسان تجنبها: مقارنة الأشرار، و محادثة النساء، و مجالسة أهل البدع» . * «القضاة أربعة: قاض قضى بالحق و هو لا يعلم أنه الحق فهو فى النار، و قاض قضى بالباطل و هو لا يعلم أنه باطل فهو فى النار، و قاض قضى بالباطل و هو يعلم أنه باطل فهو فى النار، و قاض قضى بالحق و هو يعلم أنه الحق فهو فى الجنة» . * «ما من مظلمة أشد من مظلمة لا يجد صاحبها عليها عونا إلاّ اللّه» . * «من عذر ظالما بظلمه سلّط اللّه عليه من يظلمه، و إن دعا لم يستجب له، و لم يؤجره اللّه على ظلامته» . * «من يفعل الشر بالناس فلا ينكر الشر إذا فعل به» . * «من أعان على قتل مؤمن و لو بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوب بين عينيه آيس من رحمة اللّه» .

* «من ولّی شیئا من أمور المسلمین و ضیّعه ضیّعه اللّه» . * «من ظلم مظلمة أخذ بها فی نفسه أو فی ماله أو فی ولده» . * «من کان الحزم حارسه و الصدق جلیسه عظمت بهجته و تمت مروّته. و من کان الهوی مالکه و العجز راحلته عاقاه عن السلامة و أسلماه إلی الهلکة» . * «ثلاثة یحتاج إلیها الناس طرا: الأمن، و العدل، و الخصب» . * «ثلاثة تکدر العیش: السلطان الجائر، و جار السوء، و المرأة البذیة» . * «إذا أراد اللّه برعیة خیرا، جعل لهم سلطانا رحیما و وزیرا عادلا» . * «من لم یهتم بأمر المسلمین فلیس بمسلم. إن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال: من أصبح لا یهتم بأمور المسلمین فلیس منهم، و من سمع رجلا ینادی یا للمسلمین فلم یجبه فلیس بمسلم» . * «إیاکم و ظلم من لا یجد علیکم ناصرا إلاّ اللّه» . * «العامل بالظلم و المعین له و الراضی به کلهم شرکاء» . * «اتقوا الظلم فإن دعوة المظلوم تصعد إلی السماء» . * «إن الإمامة لا تصلح إلاّ لرجل فیه ثلاث خصال: ورع یحجزه عن المحارم، و حلم یملک به غضبه، و حسن الخلافة علی من ولی حتی یکون له کالوالد الرحیم» . * «وجدنا بطانة السلطان ثلاث طبقات: طبقة موافقة للخیر و هی برکة علیها و علی الرعیة. و طبقة غایتها المحاماة علی ما فی أیدیها فتلک لا محمودة و لا مذمومة، بل هی إلی الذم أقرب. و طبقة موافقة للشر و هی مشئومة مذمومة علیها و علی السلطان» . * «نجوی العارفین تدور علی ثلاثة: الخوف، و الرجاء، و الحب. فالخوف فرع العلم، و الرجاء فرع الیقین، و الحب فرع المعرفة، فدلیل الخوف الهرب، و دلیل الرجاء الطلب، و دلیل الحب إیثار المحبوب علی ما سواه، فإذا تحقق العلم بالصدر خاف، و إذا صح الخوف هرب، و إذا هرب نجا» . * «المعروف زکاة النعم، و الشفاعة زکاة الجاه، و العلل زکاة الأبدان، و العفو زکاة الظفر، و ما أدیت زکاته فهو مأمون السلب» .

* «لو أن الناس أدوا زكاة أموالهم ما بقى مسلم فقيرا محتاجا» . * «إن من بقاء المسلمين و الإسلام أن تصير الأموال عند من يعرف حقها، و يصنع فيها المعروف. و إن من فناء الإسلام و المسلمين أن تصير الأموال فى أيدى من لا يعرف فيها الحق، و لا يصنع فيها المعروف» . * «إنما أعطاكم اللّه هذه الفضول من الأموال لتوجهوها حيث وجهها اللّه، و لم يعطكموها لتكنزوها» . * «إنما وضعت الزكاة اختبارا للأغنياء، و معونة للفقراء، و لو أن الناس أدّوا زكاة أموالهم ما بقى مسلم فقيرا محتاجا، و لا مستغن بما فرض اللّه عزّ و جل عليه. و إن الناس ما افتقروا و لا احتاجوا و لا جاعوا إلاّ بذنوب الأغنياء، و حقيق على اللّه عزّ و جل أن يمنع رحمته ممن منع حق اللّه فى ماله، و أقسم باللّه الذى خلق الخلق و بسط الرزق، أنه ما ضاع مال فى بر و لا فى بحر إلاّ بترك الزكاة، و إن أحب الناس إلى اللّه عزّ و جل أسخاهم كفّا، و أسخى الناس من أدّى زكاة ماله، و لم يبخل على المؤمن بما افترض اللّه عزّ و جل لهم فى ماله» . * «من وقف نفسه موقف التهمة فلا يلومن من أساء الظن به، و من كتم سره كانت الخيرة بيده، و كل حديث جاوز اثنين فاش، وضع أمر أخيک على أحسنه، و لا تظلبنّ بكلمة خرجت من أخيک سوءا و أنت تجد فى الخير لها محملا، و عليک بإخوان الصدق فإنهم عدة عند الرخاء، و جنة عند البلاء، و شاور فى حديثک الذين يخافون اللّه و أحب الإخوان على قدر التقوى، و اتق خيار النساء و كن من شرارهنّ على حذر، و إن أمرن بكم فى المعروف فخالفوهنّ حتى لا يطمعن منكم فى المنكر» . هذا عرض موجز لحكميات الإمام أبى عبد اللّه جعفر بن محمّد الصّادق عليه السّلام انتزعناها من الكتاب الذى أعددناه لجمع تراثه الفكرى، و أسميناه (بالأسس التربوية) .

حكمه تعاليم إسلامية:

و من المؤسف أن هذه الحكم لا تزال مبعثرة فى بطون الكتب، هنا و هناک، و لم نجد من تصدّى لجمعها و شرح غوامضها، فهى غذاء روحى، و رصيد ضخم من

الأخلاق، و الثقافة، و الآداب، و لا بد لكل منصف أن يعترف بأهمية ذلک، و عسى أن يأتى اليوم الذى تبرز فيه هذه الآثار، بالصورة المطلوبة لتكون منهجا أخلاقيا، يعتز المسلمون به، و تكون موضع اهتمام و تقدير. و هذه الفصول التى أوردناها هى بعض من ذلک الرصيد الضخم، و جزء من ذلک التراث القيّم، فإنا ذكرناها لا على سبيل الحصر بل فى معرض التمثيل عما يكشف لنا وجهة نظره فى كثير من قضايا الإنسان و المجتمع. و قد رأينا كيف كان حرصه على معالجة المشاكل الاجتماعية، و بأى طريقة يحاول أن يصلح النفوس، و يحارب العادات المضرة و يدعو إلى اعتناق الفضائل. إنه عليه السّلام يصور لنا أحوال النفس الإنسانية فى جميع حالاتها و يكشف لنا ما يكمن فيها من عقد و انفعالات، و يجعل لها حدودا و مقاييس، فى حالة اطمئنانها و قلقها، و رضاها، و غضبها، و خوفها، و أمنها. فإصلاحها صعب إذا لم تتخذ الطرق الناجحة لذلک، و قد بيّنها فى كثير من تعاليمه. و على كل حال فإن هذه الحكم التى يقرّها العقل، و يرتاح لها الضمير الحر، و يعترف بها الوجدان، و يشهد لها الواقع. هى خلاصة تعاليم إسلامية تهدف إلى سعادة الإنسان فى حياته، و بعد مماته. و الإمام الصّادق يرسل هذه النصائح لجميع المسلمين، و يضعها بين يدى الأحفاد، كما وضعها بين يدى الآباء و الأجداد، فهو ناصح يرسل عظاته عبر الدهور معلما و فيصلا بين الحق و الباطل. إنه عليه السّلام من أعظم الشخصيات التى أدّت واجبها و مثّلت دورها فى الدعوة إلى اللّه، فبرزت فى معترک الحياة ببطولة تبعث فى نفوس الأمة قوة الإيمان، و صحة العقيدة، و الإقدام على التضحية. إنه عليه السّلام يريد أن يعالج تلک المشاكل التى كان يموج بها العالم الإسلامى فى عصره على ضوء ما جاء فى الإسلام من مبادئه القويمة، و تعاليمه السمحة. فكان يدعو الناس إلى التسلح بالقوى المعنوية، التى لا تقف أمامها أى قوة، إن الإيمان باللّه و رسوله و اليوم الآخر، أعظم قوة تضمن للأمة النصر و النجاح، فإن المؤمن قوى القلب قوى الإرادة، واثق بنصر اللّه و تأييده، فهو الذى يذلل له كل صعب، و يهون عليه كل خطب، و به يستطيع الإنسان أن يتغلب على شهواته و ميوله

و نزعـاته، و ينشـأ عن ذلـک: الإيثـار و المحبـة، و التضـحية، و نكران الـذات، و التفانى فى صالـح المجتمع و كل فضـيلة يتحلى بها الفرد المسلم. و الإيمان باللّه يجعل فى نفوس المؤمنين و عيا، يبعثهم على محاولة الرذيلة بشتى أنواعها، و بالوعى الإسلامى يزول خطر العابثين بمقدرات الأمة، كما أن فقدانه يعرضـها لكل خطر، و يجعلها فريسة لكل طامع و خاضـعة لكل متسلط، و مدفوعة فى أمواج الفتن و تيارات الآراء، فلا تمييز بين الحق و الباطل و الضار و النافع.

جهاده و دفاعه عن الإسلام:

و على أى حال: فإن الإمام الصّادق عليه السّلام كان من أعظم الشخصيات الإسلامية التى خدمت الأمة بنشر العلم، و بثّ روح الفضيلة، و حثّ الناس على التمسّک بمبادئ الإسـلام التى تكفل للإنسانية سـعادتها، و تحريرها من قيود الاسـتغلال و العبودية. و إن الظروف التى تحيط بالشّخصـيات التاريخيـة هى الشاهـد على ما تتمتع به و ما تمتاز، و لقد كانت الأحداث التى واجهها الإمام الصّادق، و الظروف التى مرّ بها صـعبة و مرّة تمكن عليه السّلام من اجتيازها بمنهـج ثابت و خطـة قويمة حفظت للأمة جوهر مبادئها و لباب عقائدها. و قد حارب الخرافـات و الأوهـام، و المعتقـدات الخبيثـة، و حفر لها قبورا بمعاول الحق. كان الناس ينظرون إليه نظرة إجلال و إكبار، لما منحه اللّه من فضل القربى، و شـرف المحتـد، و طهارة النفس، و قوة الإدراک، و صـدق الحـديث، و الفقه فى الـدّين، و العمل بطاعـة اللّه، و الـدعوة إلى الحق، و مجانبة الباطل، و محاربة الظالمين. و كانت مدرسته أعظم جامعة إسلامية، يقصدها طلاّب العلم من مختلف الجهات، و قد أخذ على عـاتقه أداء الرسالـة الملقـاة على كـاهله، فى توجيه الناس توجيها صـحيحا، و سـلک بهم طريق الاسـتقامة و التماسک، و نحى ناحية الأخلاق و التهـذيب، على ضوء تعاليم الإسـلام، فكانت له شـهرة علميـة تتحدث بها الركبان، و نفوذ روحى يخضع له العدو و الصّديق. و لقد عظم ذلک على الحكام الذين أرادوا إخماد الشـعور بجرائمهم، و السـكوت عن معارضـتهم، بما ارتكبوه من العبث بكرامة الإنسانية، و إهدار القيم الرفيعة، و لا

یریـدون أن یرتفع صوت الاسـتنکار علی أعمالهم، لأنّهم یـدّعون أنّهم أئمـة عـدل، و أنصار حق، و لهم أهلیـة وراثـة النبی، و الاختصاص بسـلطانه. و الواقع أنهم علی خلاف ما یـدّعون، و لکنهم یریـدون إغراء البسـطاء من الناس. لقـد عظم علیهم مرکز الإمام الصّادق، و کانت شخصـیته تثیر مخاوفهم، و لم یسـتطیعوا أن یؤاخـذوه بما یبرّر لهم الانتقام منه، و الانتفاضـة علیه، و قد التجأ المنصور إلی خلق اتهامات و تزویر کتب، یحاول من ورائها أن یفسح له المجال فی الوقیعة فیه، و لکن محاولته باءت بالفشل و سـعیه بالخسران. و هکذا بقی علیه السّلام عرضة للخطر، و لکنه مؤمن باللّه فلا یخشـی من دونه أحدا. و فی ذلک العصـر المضطرب بدأ التنازع بین الدّین و الفلسفة، و بین الإسلام و العقائد التی جاء الإسلام لمحاربتها، و ظهرت بوادر الجدل العقلی و علم الکلام، فکان موقفه من تلک التیارات وسط ذلک النزاع و الجدل موقف العالم المناضل عن الـدّین، و المـدافع القوی بحجته و وضوح برهانه، الراجح فی عقله و اسـتدلاله یدافع عن الإسـلام بما یقرّه العلم الصحیح، و یخضع له العقل السلیم، و یرتاح له الضمیر، و یدلی بآرائه علی خصومه، بمنطق یدخل إلی آذان سامعیه، فینفذ إلی قلوبهم فلا یجدون بدا من التسلیم لقوله الحق و منطقه الصائب. فکان علیه السّلام لا یجاری فی استدلال، و لا یغلب فی برهان، بل کان هو المتفوق و السابق فی کل مضمار. و قد شعر دعاة الإلحاد بخطر موقفه لرد کل شبهة، و محاربة کل فکرة من طریق العلم و المنطق فعظم علیهم ذلک، و نظروا إلیه نظرة ملؤهـا غضب و حقـد، و حـاولوا أن یقفوا فی طریق دعوته الإصـلاحیة کمـا وقف هو علیه السّ لام فی طریق نشـر مبادئهم الإلحادیـة، و توصـلوا إلی حل ناجـح و هو انضـمام بعض دعاة الإلحاد إلی مدرسـته، و ادعاء حب أهل البیت لکی یفسـدوا بـذلک بعض الأمور بروایتهم عنه و کذبهم علیه، و ارتکابهم أمورا لا تتفق مع مبادئ الإسـلام. و بهذا یلزمنا أن نشـیر إلی مشکلة الغلاة فی عصره. و نود هنـا أن نسـتعرض حرکـة الغلاـة و نشأتهـا، و تطورها، لنقف علی العوامل التی جعلت الکثیر من المؤرخین و الکتّاب، یـذهبون إلی وجود العلاقة بینهم و بین شیعة أهل البیت، بل ذهب البعض إلی وصف الشیعة بالغلو، و کل ذلک ناشئ عن التجنی

على الحقائق، و البعد عن الواقع. فليس بين الشيعة و بين الغلاة رابطة تجمعهم، و ما تلك التهم إلاّ من أغراض السياسة العمياء، التى تريد تشويه الحقائق، و قلب الأوضاع، و اتهام الأبرياء. و قد التجأت هنا إلى ذكر مشكلة الغلاة و دوافع حملها على المذهب الشيعى بعد أن أشرت لها فى الجزء الأول، لأنى وقفت على عبارات لبعض المؤلفين و قد وصفوا الشيعة بأوصاف يندى لها الجبين، و يحترق لها قلب المسلم الحريص على جمع كلمة الإسلام، فى عصر يجب أن تتوحد الكلمة فيه و تزول الضغائن و الأحقاد التى خلقتها النعرات الطائفية الأولى، و التى يقدح زنادها أعداء الإسلام، الذين يريدون أن يفرّقوا الصفوف، لتحقيق آمالهم عند ما اندسوا فى صفوف المسلمين. و من العجب أن يبدو هذا التهجم الشائن ممن يدعى المعرفة، و يتزيّى بزى العلم، و قد دلت أقواله على ما تنطوى عليه نفسه من الخبث و الجشع، و قلة المعرفة بالأمور، إنه العار و إنه الدمار. أن تبتلى الأمة الإسلامية بأمثال هؤلاء الذين قدموا أنفسهم لخدمة أعداء الدين. و على كل حال فإنا نحاول بهذه الدراسة السريعة عن حركة الغلاة فى عصر الإمام الصّادق، أن نوفق لإقناع من استساغ الطعن على الشيعة، بوصفهم فى الغلو و دعوى التأليه لأهل البيت، و ما ذلك إلاّ تخرّصا و تقوّلا و افتراء و تزويرا، و سيقف القارئ الكريم على موقف أهل البيت و شيعتهم من الغلاة و براءتهم منهم مما لا يدع مجالا لمتقول، و لا طريقا لمفرق. و اللّه نسأل أن يمدّنا بالتوفيق و عليه الاتكال.

المؤرّخون و مشكلة الغلاة:

يأبى كثير من المؤرخين إلاّ أن يتأثّروا بالـدعايات الكاذبـة، و يأخذوا بأقوال المنحرفين عن الحق، الذين أصـبحوا آلة طيّعة بيد حكام دفعتهم شهواتهم و حرصـهم على سـلطان الاسـتبداد بأمور الأمة، ألا يروا فضيلة لأهل البيت إلاّ ضيّعوها، و لا مكرمة إلاّ أخفوها، حسدا منهم، و خوفا على سـلطانهم. نعم يأبى كثير من المؤرّخين إلاّ أن يسـيروا مع التيار الجارف من آراء قوم يصـعب عليهم وحدة الصف، و يثقل على أنفسـهم جمع الكلمـة، فتعمـدوا إثـارة الفتن، و تشويه الحقائق بالـدس و الافتراء و التقول بالباطل، و هـدفهم فى ذلک أنّهم لا يريـدون أن يحصل صـفاء بين المسـلمين، فربطوا تأريخ الغلاة بتأريخ الشيعة، و عقائدهم بعقائد الشيعة. رغم الحقائق الدالة على خلاف ما يذهبون إليه من التجنّى على الشـيعة. إن من الواجب على المؤرخ أن يتصـدّى للتمييز بين الأشـياء التى يـدوّنها، و أن يضع كـل شـىء فى مكـانه، لئلا يحصـل الخلط الشـنيع بين الأمور المتناقضـة. و إنى لا أسـتطيع أن أتصور بعـدا عن الحق، و مكابرة للواقع، مثل مكابرة من يصف الشـيعة بالغلو، لأن البعض منهم نسـبوه إليهم، و ما ذلک إلاّ خطلا فى الرأى و ابتعادا عن الحق. إن مشـكلة الغلاة هى أعظم مشكلة أوقعها خصوم الإسـلام بين أهله، و لم تعالج هذه المشـكلة بحل صـحيح، على ضوء الواقع من حيث هو، بل استمرت تعمل عملها، و تؤثر أثرها فى شق وحدة الصف، و بث روح العداء بين المسلمين. و إن مشكلة الغلاة توقع الباحث فى صعوبة لا يذلّلها إلاّ حرية رأيه و إنصافه.

و ابتعاده فی البحث عن التقلید الأعمی، و التعصّب الطائفی الذی جرّ علی هذه الأمة، بلاء الفرقة و محن البغضاء و التطاحن. إن أکثر المؤرخین لم یدرسوا الظروف التی نشأت فیها طوائف الغلاة، و لم یعرفوا أسباب ذلک، کما أنّهم لم یقفوا علی العوامل التی بعثت النشاط فی دعوتهم فأثرت أثرها فی تفریق الصفوف، و إیقاد نار البغضاء فی القلوب، و إثارة الفتن فی المجتمع، و لو أن أولئک المؤرخین الذین ربطوا تاریخ الغلاة بتاریخ الشیعة و استعملوا الأقیسة المعکوسة، و درسوا ظروف نشأة تلک الأفکار، و أسباب ذلک الاعتقاد، و بواعث ذلک النشاط، لوجدوا أنفسهم خاطئین فی سلوکهم، بعیدین عن الواقع، و لا تضح لهم البون الشاسع، بین الغلاة و بین الشیعة، و بذلک تظهر الحقیقة فی البحث -إن کانوا یطلبونها-و إذا ظهرت الحقیقة بطلت الأوهام. و قد قلت سابقا إن خصوم الإسلام فی عصر الإمام الصّادق علیه السّلام قد عظم علیهم موقفه فی نشر الدعوة الإسلامیة، عند ما نشطت الحرکة العلمیة، حیث اتجه الناس إلی التدوین و البحث، و ظهر علم الکلام و الفلسفة، و برزت مدرسة الإمام الصّادق علیه السّلام فی نشر العلم و بث تعالیم الإسلام، و کثر المنتمون إلیها، و انتشر ذکرها فی جمیع الأقطار الإسلامیة، و قام أصحابه بأداء الرسالة، و کان للکوفة النصیب الأوفی من حملة العلم، و رجال الإصلاح، المنتسبین لتلک المدرسة، فکان عددهم یربو علی الألف، منهم تسعمائة محدّث فی مسجد الکوفة، کل یقول: حدّثنی جعفر بن محمّد. و حیث کانت الکوفة مرکزا هامّا للتجارة و الصناعة ملحوظا فی حیاة المجتمع الإسلامی فی القرن الأول الهجری، و ازدهرت فیها المنسوجات الحریریة و هی ما سموها عمل الوشی و الخز، و کانت هذه المصنوعات تلقی رواجا فی الأقطار الإسلامیة (1)و کانت محاطة بقری کثیرة، و فیها من غیر المسلمین عدد کبیر کالنصرانیة فی الحیرة و غیرها، و وفد علیها أربعة آلاف من رعایا الفرس عرفوا بحمراء الدیلم (2)کما کثرت الهجرة إلیها من الأقطار النائیة من ذوی العقائد الفاسدة و الآراء الشاذة،

1- 1) الأغانی ج 2 ص 172.

2- 2) فتوح البلدان للبلاذری ص 289.

و اختلطوا بمجتمع الكوفة، فكان نشاطهم محسوسا فى استغلال الفرصة لبثّ آرائهم و نشر عقائدهم، و ربطها بالعقائد الإسلامية عن طريق الخداع و التضليل حقدا على الإسلام و أهله، و اندس البعض منهم فى حلقات العلم مدّعيا انتماءه لمدرسة الإمام الصّادق، و هم يكذبون عليه فيما ينسبونه إليه، و غرضهم فى ذلک هو الطعن على أهل البيت، و تشويه سمعة أوليائهم، لكى ينفروا القلوب، و يثيروا البغضاء، لتقع الفرقة بين صفوف المسلمين. فكان الأجدر بالمؤرخين و الكتّاب أن يتحرّوا حقيقة الأشخاص الذين بثوا تلک الأفكار و دعوا إلى تلک العقائد، و يخضعوا أقوالهم و أفعالهم للنقد و التمحيص حتى يتبيّنوا الدوافع و الأغراض التى تكمن وراء نشاطهم. و إن استعصى عليهم ذلک فما أسهل الإصغاء إلى مواقف أئمة الشيعة و آراء رجالهم فى دحض تلک الآراء و فضح تلک العقائد.

أسباب نشأة الغلاة:

و يجب أن لا يغيب عن بالنا سبق هذا العداء للإسلام و قدمه قبل عصر الإمام الصّادق عليه السّلام فهو متأصل منذ فجر الدعوة الإسلامية يتوارثه الأبناء و الأحفاد، و ذلک لأن دعوة النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم منذ البداية موجهة إلى الناس كافة، سواء منهم العرب و غير العرب، وثنيون أو يهود، نصارى أو مجوس، فهى لم تختص بطائفة دون أخرى، و لا بقوم دون قوم، و لا بقطر دون آخر، بل هى رسالة عامة، و لا بد أن تجابه دعوته صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بأقوى عدة و بأكثر عدد من المعارضين الذين قضى الإسلام على عقائدهم الفاسدة، و هدم هياكل عبادتهم التى يعبدونها من دون اللّه، كما هدم صروح الكبرياء و الأنانية و أزال عروش الظلم و الاستبداد، و أذلّ قوما اعتزوا بسلطانهم فاستذلّوا الآخرين. إلى آخر ما جاء به الإسلام من الإصلاح للعالم، الذى كان يموج بالفتن و تسوده نزعات مختلفة و نحل متنوعة، و كان الناس يتخبّطون فى ظلام حالک كله شر و مخاوف، إذ يتغلب القوى على الضعيف، فتشن الغارات لنهب الأموال و انتهاک الحرمات فى التكالب على السيادة، و الاثرة و الاستغلال. فلم يخضع لهذه الدعوة جبابرة قريش الذين ملكت الأنانية قلوبهم، و استولى حب الذات و الأثرة على مشاعرهم، و جعلوا من عبادة الأصنام قواما لحياتهم. و لأن محمّدا صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يدعو إلى عبادة رب واحد لا شريک له، كما جاء بنظام العدل

و المساواة الشاملة، و هدم الفروق الظالمة بين الناس، و سوى بينهم فى الحقوق و الواجبات، و قرّر أن أصل الإنسان واحد و الجميع أخوة فى الإنسانية، فلا فضل لأحد على أحد إلاّ بالتقوى، و جاء بأحكام شاملة لم يستثن منها إنسانا و لا طائفة، بل الكل سواء فى تطبيقها، و كان طبيعيا أن تصطدم تلك المبادئ بعادات العرب القديمة التى ورثوها عن الآباء و الأجداد شأن كل دعوة ناشئة، كما أزعجتهم سرعة انتشار الدعوة فى قلوب الناس. و قد أحست العناصر الأخرى بخطر دعوة النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فرمقت ما كسبه الإسلام من تقدم و انتشار بعين الحقد و الحسد، و كانت للنصرانية قوة فى الشمال و لها أتباع منبثّون فى مهد الدعوة، و لليهود عدة قوية فى بلد الهجرة، و للمجوس دولة و معابد، و كل هذه العناصر لا يروق لها انتشار هذا الدين و ظهوره، فتظاهر الكل بالعداء للإسلام، و انتظم عقدهم و تكتلوا لحرب محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و معارضة دعوته، و بذلوا جهودهم، و عملوا أقصى ما يمكن أن يعملوه، فكانت هناك حروب دامية و غزوات متوالية بينه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و بين المشركين و من انتظم فى عقدهم، حتى نصر اللّه النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فتيقنوا أن لا أمل لهم مطلقا فى القضاء على الإسلام، فهو يزداد قوة و ثباتا رغم المعارضة فى الحروب الدامية. و دخل البعض منهم فى الإسلام اعترافا بعجزهم عن مقاومته، و آخرون اعتقدوا صدق نبوة محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فاستجابوا له، و فئة ثالثة دخلوا نفاقا و خداعا فأظهروا الإسلام و أضمروا الكفر، و بقى الحقد يأكل قلوبهم و الغيظ يحز فى نفوسهم، فهم يتحيّنون الفرص و يتأهّبون للوثبة، و يعملون من وراء الستار، و ينتظرون اليوم الذى ينتقمون فيه من الإسلام و أهله. و بعد أن عجزوا عن مقابلة الإسلام وجها لوجه راحوا يعملون من وراء الستار بأيد عابثة، و لعل أول عهد حقق آمالهم هو العهد الأموى، لأن ملوكهم قد رفضوا الخضوع لقوانين الإسلام، و لم يلتزموا بتعاليمه، كما أنّهم من المغلوبين على أمرهم يوم أعلنوا الحرب على النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم. و كانت قيادة تلك العناصر المختلفة بيد زعيمهم أبى سفيان (1)و بهذا لا يمكننا أن نجزم بزوال تلك الأحقاد عن قلوبهم، و إن أعمالهم

1- 1) يقول الدكتور على سامى النشّار: (و لا شك أن الأمويين كانوا فى أعماقهم جزءا من مؤامرة كبرى على الإسلام، و لم يذهب على الإطلاق حقد جدهم الغنوصى القائم، و لم يكن أبو سفيان و ثنيا بل كان مانويا و زرع الحقد الدفين فى عقولهم و قلوبهم) .

شاهـدة على وجودها و ما كانت مجزرة الحرّة إلاّ جولـة من جولات المواجهـة بين الإسـلام و بقايا الشـرک. و ما مأساة کربلاء إلاّ صـفحة أخرى من صـفحات الحرب بين أئمة الإسـلام و بين المتلبسـين بلبوس الدين لإخفاء وثنيتهم و شـرکهم، فکان دورهم فتحا لتلک العناصـر المعادية للإسـلام، فقد سـنحت الفرصة و کان لهم فی الأمر متسـعا، و قد قرّب الأمويون إليهم بعض المتداخلين فی صفوف المسلمين، و جعلوا منهم أداة سياسية يستعينون بها على ترويج دعاياتهم، و إظهار مقاصدهم، کما أقام معاوية بن أبی سفيان کعب الأحبار–و هو يهودی أسـلم فی عهـد عمر–قصاصا. فغيّر مجری الحوادث و التاريـخ و أدخل الإسـرائيليات فی تاريـخ الإسـلام. و على کل حال فلا تعنينا حرکة خصوم الإسـلام فی العهد الأموی، الذی کان مسـرحا تظهر على لوحته الأمور المتناقضة للإسـلام، و المخالفة لمبادئه، و إنما الأمر الذی يهمّنـا هو التعرّض لحرکتهم فی عصـر الإمـام الصّـادق عليه السّـلام و أثر براءته منهم، و إعلاـن ذلک للملإ، و کيف أثر ذلک فی إبادتهم و محوهم من صفحة الوجود، و لـم يبق منهم إلاّ صورا خيالية ينظر إليها من أکل الغيظ قلبه.

الدعوة الإسلامية و خصومها:

تبيّن مما قدّمناه فی هذه الأبحاث أن الدعوة الإسـلامية قد ثقلت على کثير من ذوی النفوس المريضة من مختلف العناصر و شتی الطوائف، و قد قابلوا ذلک بالعداء السافر و الحرب الدموية، و لما عجزوا عن المقابلة للإسلام وجها لوجه، التجئوا إلى الحرب السرية، و حمل معاول الهـدم و التخريب، و اسـتعمال الوسائـل التی تـدعو إلى إثارة الفتنـة بين المسـلمين، و قـد وجـدوا أن أقرب طريق يوصـلهم إلى غاياتهم و تحصـيل أمنيتهم هو التدخّل فی صفوف المسلمين، و العمل على تفريق الکلمة و بث روح العداء، و تفرّقوا لهذا الغرض فرقا و أحزابا، فمن مسـتجلب ود السـلطة لينال مرکزا هاما فی الدولة يسـتطيع بواسـطته أن يفسد بعض الأمور و يغيّر بعض الحقائق. و منهم من سـلک طريق إظهار المحافظة على الإسـلام، و الانتصار له، و الرد على ما يلصـقه به إخوانه، الذين سـلکوا سبيله فی تشويه سـمعة الإسـلام. و منهم من ضرب على وتر حسّاس يسـتطيع به أن يسـتميل القلوب، و يحرک الشـعور، و هو إظهار حب أهل البيت عليهم السّـلام الذين تألّبت جميع الفئات الحاکمة على ظلمهم من دون مراقبة للّه و لا مراعاة لحرمة رسوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و صفوة القول إنهم توزعوا على جميع الطوائف الإسلامية، فاندسوا فى صفوفهم و امتزجوا فى مجتمعهم. هذا سوسن النصرانى كان أول من نطق بالقدر و قد أظهر الإسلام، و عنه أخذ معبد الجهنى و أخذ غيلان عن معبد (1)ثم عاد سوسن إلى نصرانيته بعد أن بثّ فكرته. و هذا ابن كلاّب من بابية الحشوية، و كان عباد بن سليمان يقول إنه نصرانى. قال أبو عباس البغوى: دخلنا على فيثون النصرانى و كان فى دار الروم بالجانب الغربى، فجرى الحديث إلى أن سألته عن ابن كلاّب فقال فيثون: رحم اللّه عبد اللّه (اسم ابن كلاّب) كان يجيئنى فيجلس إلى تلك الزاوية-و أشار إلى ناحية من البيعة- و عنى أخذ هذا القول، و لو عاش لنصّرنا المسلمين (2)-أى لجعلناهم نصارى-. ذكرنا هذا على سبيل المثال لما يفعله أصحاب الديانات الأخرى الذين كانوا يستغلّون الفرص للتدخل فى صفوف المسلمين، فلم يتحد غرضهم فى الدخول بطائفة أو الانضمام إلى جماعة، بل كانوا متفرقين فى أهل الحديث و الفقهاء و المؤرخين، و أهل الكلام و الفلسفة، و سائر العلوم، و ما أكثر الوسائل التى يتبعونها و الأثواب التى يتنكّرون بها لحماية أنفسهم و تحقيق أهدافهم. فقد يتنكر اليهودى فى ثوب الإسلام و يدعى لنفسه أهداف المسلمين و أساليبهم، فيندس وسط جماعات و هيئات و هو أبعد ما يكون أن يؤمن بمبادئها و مثلها، و يأخذ على عاتقه هدم هذه المبادئ و المثل و التشكيك فى قيمها و جدواها، فهو إذ يتظاهر فى الانضمام إلى طائفة معينة، و يكون حريصا على تحقيق مبادئها و نشر تعاليمها، إنما يفعل ذلک لينجح فى مهمته، و هى تحقيق أهدافه الدنيئة عن طريق آخر، و كذلک غير اليهودى من نصرانى و مجوسى و وثنى و مشرک، و كل من فى قلوبهم حقد على الإسلام و أهله. فهم يدعون الإسلام من جهة، و يعملون على هدمه من جهة أخرى، و لهم أساليب كثيرة يتوسّلون بها لتحقيق أهدافهم و تحصيل أمانيهم. و قبل أن نأتى على استقصاء أساليبهم فى المكر و الخداع و التضليل، نود أن نشير إلى إبطال حركة الغلاة

1- 1) انظر الفرق للبغدادى ص 70.

2- 2) الفهرست لابن النديم 255-256. [1]

فی عصر الإمام الصّادق علیه السّلام و معارضة دعوته الإصلاحیة، التی قام بها فی عصر ازدهار العلم و اتساع نطاق النهضة الفکریة.

رؤساء الغلاة و مواقف الإمام ضدهم:

أبو الخطاب الأسدی:

و هو محمّد بن مقلاص الأسدی الکوفی، کان رجلا من الموالی اشتهر بکنیته دون اسمه؛ فالشهرستانی یذکره علی أنه محمّد بن زینب الأسدی الأجدع. و المقریزی یثبته: محمّد بن أبی ثور، و یذکر أنه قیل فی اسمه محمّد بن یزید الأجدع. و أبو جعفر بن بابویه یذکر أن اسم أبی الخطاب زید، إلی آخر ما فیه من الاختلاف. ظهر هذا الرجل فی الکوفة، و کان المجتمع یموج بالتیارات السیاسیة، و الدعوة العباسیة تشق طریقها إلی النجاح بسرعة، فاستغل ذلک الظرف الذی یأمل فیه نجاح مهمته فی نشر دعوته الإلحادیة، فدعی إلی عقیدة عرف أتباعها بالخطابیة، و ساعدته الظروف المواتیة أن یجمع حوله تلامیذ یلقنهم تعالیمه، و یرسم لهم خطط الدعوة و التجمّع و الظهور، و کانت حرکتهم سریة محکمة و هی حرکة سیاسیة من جهة و عقائدیة من جهة أخری، و تلتقیان فی نقطة العداء للإسلام. و لم تدون عقائد أبی الخطاب فی کتاب سطرتها أقلام أتباعه، و إنما أخذت من غیرهم، و هذا ما یجعلنا نتردّد فی بعض ما نسب إلیه. و قد أجمعت الشیعة علی لعن أبی الخطاب و تکفیره و البراءة منه، و إنه غال ملعون کما هو مذکور فی کتب الرجال و الحدیث و التاریخ. قد اتسعت حرکة أبی الخطاب فی ذلک الجو المضطرب، و استغل فرصة الدعوة لأهل البیت، و الانتقام من أعدائهم، فأعلن مبدأه و أظهر عقیدته المخالفة لروح الإسلام، و التی لا تتصل بأهل البیت بأی صلة، و لما بلغ ذلک إلی الإمام الصّادق علیه السّلام اهتم غایة الاهتمام بفتنة أبی الخطاب، و خاف عاقبتها السیئة التی تعود علی صفوف المسلمین بالفرقة و علی جمعهم بالشتات، و هو علیه السّلام فی ذلک العصر یبذل جهده فی التوجیه إلی الالتزام بتعالیم الدین لتجتمع کلمة المسلمین، فیکونوا صفا واحدا یردّون کل خطر یهدد المجتمع الإسلامی.

و وقف الإمام الصّادق تجاه هـذه الدعوة الإلحادية موقفا مهمّا، و أعلن اسـتنكاره على أبى الخطاب، فكان موقفه عليه السّلام صدمة لموجة الغلو الجامحـة، و قضـاء مبرمـا على مزاعم الملحـدين، و يتجلى عظيم اهتمامه من أقواله، و أمره للناس بالابتعاد عنهم. قال عيسـى بن أبى منصور: سمعت أبا عبد اللّه الصّادق يقول-و ذكر أبا الخطاب-: «اللهم العن أبا الخطاب، فإنّه خوّفنى قائما و قاعدا و على فراشى، اللّهم أذقه حر الحديد» . و عن عنبسة بن مصـعب قال: قال لى أبو عبد اللّه: «أى شـىء سـمعت من أبى الخطاب؟» قلت: سـمعته يقول: إنک وضعت يـدک على صـدره و قلت له: عه و لا تنس. و أنت تعلم الغيب، و أنک قلت: هو عيبة علمنا و موضع سـرنا، أمين على أحيائنا و أمواتنا. فقال الإمام الصّادق: «لا و اللّه ما مسّ شىء من جسدى جسده، و أما قوله إنى قلت: إنى أعلم الغيب فو اللّه الذى لا إله إلاّ هو ما أعلم الغيب. و لا- أجرنى اللّه فى أمواتى، و لا- بـارک لى فى أحيـائى إن كنت قلت له؛ و أمـا قوله إنى قلت: هو عيبـة علمنا و موضع سـرّنا و أمين أحيائنا و أمواتنـا، فلا- آجرنى اللّه فى أمواتى و لا بارک لى فى أحيائى إن كنت قلت له من هـذا شـيئا» . و قال المفضل بن يزيـد قال لى أبو عبـد اللّه الصّادق عليه السّلام و ذكر أصـحاب أبى الخطاب و الغلاة: «يا مفضل لا تقاعـدوهم و لا تواكلوهم و لا تشاوروهم، و لا تصافحوهم و لا توارثوهم» . و قال مرازم: قال لى أبو عبد اللّه: «قل للغالية تولوا إلى اللّه، فإنكم فساق مشـركون» . و قال أبو بصـير: قال لى أبو عبد اللّه: «يا أبا محمّد أبرأ ممن يزعم أنا أرباب» ، قلت: برىء منه. قال عليه السّلام: «ابرأ ممن يزعم أنا أنبياء» . قلت: برىء منه. و عن أبى بصـير قال: قلت لأبى عبد اللّه: إنهم (أى الخطابية) يقولون: إنک تعلم قطر المطر و عدد النجوم و ورق الشـجر و وزن ما فى البحر، و عدد ما فى التراب. فرفع الإمام الصّادق يده و قال: «سبحان اللّه، سبحان اللّه، و اللّه ما يعلم هذا إلاّ اللّه» .

و عن سدير عن أبيه قال: قلت لأبى عبد اللّه عليه السّلام: إن قوما يزعمون أنكم آلهة يتلون علينا بذلک قرآنا يا أَيُّهَا اَلرُّسُلُ كُلُوا مِنَ اَلطَّيِّبَاتِ وَ اِعْمَلُوا صالِحاً إِنِّى بِما تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ قال عليه السّلام: «يا سدير سمعى و بصرى و شعرى و بشرى و لحمى و دمى من هؤلاء براء، برأ اللّه منهم و رسوله، ما هؤلاء على دينى و دين آبائى، و اللّه لا يجمعنى و إياهم يوم إلاّ و هو عليهم ساخط» . و قال ميسرة: ذكرت أبا الخطاب عند أبى عبد اللّه عليه السّلام و كان متكئا فرفع إصبعه إلى السماء ثم قال: «على أبى الخطاب لعنة اللّه و الملائكة و الناس أجمعين، فأشهد باللّه أنّه كافر فاسق مشرک، و أنه يحشر مع فرعون فى أشد العذاب غدوا و عشيا» ، ثم قال: «و اللّه و اللّه إنى لأنفس على أجساد أصيبت معه النار» . إننا نلحظ فى الفقرة الأخيرة تأسفه على أولئک القوم الذين غرر بهم دعاة الإلحاد، فأوردوهم موارد الهلكة، عند ما انضموا تحت لواء تلک الدعوة الباطلة، و لذلک وقف عليه السّلام فى أداء واجبه لشل ذلک النشاط المعادى للإسلام، فرفع صوته باستنكار مذهب الغلاة، فكان إعلان براءته صدمة للإلحاد، و قام رجال الشيعة فى شل تلک الحركة و معارضة ذلک التيار، و أبعدوهم عن مجتمعهم، و كشفوا الستار الذى كانوا يعملون من ورائه، فأحدث ذلک صدعا فى صفوف الغلاة، أدى إلى فرقتهم و إبادتهم بسرعة. و قد وقف أبو الخطاب موقف المتصلّب تجاه براءة الإمام الصّادق منه، و تمكن من إغراء البسطاء من أصحابه بأن يعلن نفسه أنه نبى رسول، و أن كلمة الرسل واجب إطاعتها، و يذهب بعض نقلة العقائد أنه أعلن عن نفسه أنه إله (1)، و طفق أبو الخطاب يدعو لعقيدته، و قد أحاط به الفشل لأن موقف الإمام الصّادق عليه السّلام و تكذيبه لما يدعيه أبو الخطاب كان له الأثر العظيم فى شل تلک الحركات التى جاءت لإغواء المسلمين، و محاربة الدعوة الإسلامية و تشويه سمعة أتباع أهل البيت، فكانت معارضة الإمام الصّادق ضربة قاضية، و خاب أمل أبى الخطاب و تفرّق أصحابه، بعد براءة الإمام الصّادق عليه السّلام منه، و قد أسف أبو الخطاب أن يتفرق الآخرون عنه فتمحى دعوته، و أراد أن يخاطر بهم فى الكريهة، و أن يوردهم حياض المنية، و هم على غير

1- 1) حركات الشيعة المتطرفين ص 77.

دين الإسلام، فحاول الخروج على الدولة بتلك القلة، و أغراهم بقوله: قاتلوهم فإن قصبكم يعمل فيهم عمل الرماح، و رماحهم و سيوفهم و سلاحهم لا تضركم و لا تعمل فيكم، و خرج بهم إلى مسجد الكوفة و دعا الناس إلى نبوته. و فى المسجد لزموا الأساطين كأنهم يرون الناس أنهم قد لزموها للعبادة. و كان عيسى بن موسى قائد المنصور المشهور واليا، و لم يكد يسمع حتى أرسل إليهم قوة من جيشه العباسى للقضاء عليهم، فحاربوا عيسى محاربة شديدة بالحجارة و السكاكين، و هم يعتقدون صدق أبى الخطاب بأن السلاح لا يضرهم، فلما قتل منهم نحو ثلاثين رجلا قالوا: ما ترى ما يحل بنا من القوم؟ فقال لعنه اللّه: إن كان قد بدا للّه فيكم فما ذنبى؟ و أسر أبو الخطاب، فأتى به إلى عيسى بن موسى فقتله فى دار الرزق، و صلبه مع جماعة من أصحابه، و ذلك سنة 138 ه. و بهذا انتهى دور أبى الخطاب و أصحابه، إذ لم يبق من جماعته سوى سالم بن مكرم الجمّال الملقب بأبى خديجة الذى سقط بين القتلى، فلما جنّه الليل خرج ثم تاب، و كنّاه الإمام الصّادق بأبى سلمة، و صلح أمره.

بزيع بن موسى:

و هو أحد أبطال الدعوة الإلحادية، و إليه تنسب الفرقة البزيعية، و قد أقروا بنبوته كما زعموا أنّهم كلهم أنبياء، و أنّهم لا يموتون، و أنّهم يرفعون، و زعم بزيع أنه صعد إلى السماء، و أن اللّه مسح على رأسه، و مج فى فيه، و أن الحكمة تنبت فى صدره، إلى آخر خرافاته و أكاذيبه. و زعم جماعة من أصحابه أنه الإمام بعد أبى الخطاب، و لهذا عدت فرقة البزيعية من فرق الخطابية، مع أن لكل منهما بدعة مستقلة و آراء على حدة (1). و لما بلغت مقالته للإمام الصّادق عليه السّلام أعلن للملإ لعنه، و البراءة منه و من أضرابه و قال: «لعن اللّه بزيعا، و السرى، و معمرا، و بشار الشعيرى، و حمزة الزيدى، و صائد النهدى» . و قال عليه السّلام: «إن بنانا و السرى و بزيعا لعنهم اللّه قد تراءى لهم الشيطان» .

1- 1) الملل و النحل للشهرستانى ج 1 ص 301. [1]

و قال علیه السّلام عند ذکر هؤلاء: «لعنهم اللّه، فإنا لا نخلو من کذاب یکذب علینا، أو عاجز الرأی، کفانا اللّه مئونة کل کذاب، و أذاقهم حر الحدید» . و لا زال الإمام یرسل کتبه و یوجه رسله للأقطار، فی التحذیر من هؤلاء الذین أقضّوا مضجعه، فی بث سمومهم فی المجتمع الإسلامی.

بشار الشعیری:

و کان بشار الشعیری من أهل الکوفة من دعاة الإلحاد، و ممن یقول بمقالة العلیاویة، و هم الذین قالوا إن علیا رب، و ظهر بالعلویة الهاشمیة، و قالوا بالتناسخ و التعطیل، و کان لبشار جماعة یتبعوه علی أضالیله و أباطیله. قال مرازم: قال أبو عبد اللّه: «یا مرازم من بشار؟» قلت: الشعیری. قال علیه السّلام: «لعن اللّه بشارا. یا مرازم قل لهم: ویلکم توبوا إلی اللّه، فإنکم کافرون مشرکون» . و کان بشار جارا لمرازم، فقال له الصّادق علیه السّلام: «یا مرازم إن الیهود قالوا و وحّدوا اللّه، و إن النصاری قالوا و وحّدوا اللّه، و إن بشارا قال قولا عظیما، فإذا قدمت الکوفة فأته و قل له یقول لک جعفر: یا فاسق، یا کافر، یا مشرک، أنا بریء منک» . قال مرازم: فلما قدمت الکوفة، فوضعت متاعی و جئت إلیه، و دعوت الجاریة، و قلت قولی لأبی إسماعیل، هذا مرازم، فخرج إلیّ. فقلت له: یقول لک جعفر بن محمّد: «یا کافر، یا فاسق، یا مشرک، أنا بریء منک» . فقال بشار: و قد ذکرنی سیدی. قال: قلت نعم ذکرک بهذا الذی قلت لک. فقال: جزاک اللّه خیرا، و جعل یدعو لی. و من هذا یتجلی لنا أن هؤلاء الناس کانوا یخفون أغراضهم وراء حب آل البیت، فمن عدم اکتراث بشّار ببراءة الإمام منه و لعنه له، ندرک أنهم یحملون عقائد غرضها الإساءة إلی الإسلام، و لیس الأمر حب أهل البیت. لأن الحب یؤدی إلی اتباع تقالیدهم و أوامرهم، و المودة تعنی عدم مخالفتهم، و إنما الأمر یتعلّق بجذور دفینة و بذور کامنة حالت دون إیمانهم الصحیح. و قال إسحاق بن عمار: قال أبو عبد اللّه لبشار الشعیری: «اخرج عنی لعنک اللّه. لا و اللّه لا یظلنی و إیاک سقف أبدا» ، فلما خرج قال أبو عبد اللّه: «ویله أ لا قال بما قالت الیهود؟ أ لا قال بما قالت النصاری؟ أ لا قال بما قالت المجوس؟ أو بما قالت الصابئة؟ و اللّه ما صغّر اللّه تصغیر هذا الفاجر أحد، إنه شیطان ابن شیطان، خرج من

البحر ليغوى أصحابى فاحذروه، و ليبلّغ الشاهد الغائب، أنى عبد اللّه بن عبد اللّه، ضمّتنى الأصلاب و الأرحام، و إنى لميت و بمبعوث، ثم مسئول، و اللّه لأسألن عما قال فىّ هذا الكذاب و ادعاه، ما له غمّه اللّه، فلقد أمن على فراشه، و أفزعنى و أقلقنى عن رقادى» . و خلاصة القول إن بشارا تزعم حركة إلحادية، و قد اهتم الإمام الصّادق بهم أعظم اهتمام كما تدل عليه أقواله فى ذلک، لأن هؤلاء الملحدين أرادوا الوقيعة فى أهل البيت، و معارضة الدعوة التى قام بها الإمام الصّادق، فى إصلاح ما أفسدته الظروف القاسية، التى مرّت بالمسلمين. أما الذين ذكرهم عليه السّلام مع بشار و لعنهم، و تبرأ منهم، و هم: بزيع و تقدمت الإشارة إليه، و معمر، و السرى، و حمزة الزيدى، و صائد النهدى و بيان، فكانوا من دعاة الإلحاد، و أبطال إثارة الفتنة بين صفوف المسلمين، و الكذب على أهل البيت. و كان لكل واحد من هؤلاء دور هام فى إثارة الفتن، و إشغال مجتمع الشيعة فى مقاومتهم، لأن أولئک النفر من الغلاة قد أجهدوا أنفسهم فى التلفيق و الكذب، و إيجاد سلسلة أفكار تنافى واقع الإسلام، فلم تنجح تلک الخطط، لأن أهل البيت أمروا أتباعهم بمقاومتهم.

معمر النهدى:

فأما معمر فهو زعيم الفرقة المعمرية التى ألفت بعد قتل أبى الخطاب، و قد ألفوا لهم عقيدة مستقلة، على نحو ما فعل بزيع، و خرج ابن (اللبان) يدعو إلى معمر، و قال إنه اللّه، و صلّى له و صام، و أحل الشهوات كلها، ما حل منها و ما حرم، كشرب الخمر، و الزنا، و السرقة، و الميتة، و لحم الخنزير، و غيرها. و قالوا بالتناسخ، و إنهم لا يموتون، و لكن يرفعون بأبدانهم إلى الملكوت، و توضع للناس أجساد شبه أجسادهم (1). إلى آخر ما هنالک من أقوالهم الفاسدة و دعاواهم الإلحادية. و أما السرى: فهو الذى قال فيه أصحابه: إنه رسول مثل أبى الخطاب: و قالوا: إنه قوى أمين، و هو موسى القوى الأمين، و فيه تلک الروح إلخ.

1- 1) انظر فرق النوبختى ص 44. [1]

حمزة الزيدى:

و أمّا حمزة الزيدى فكان يكذب على أبى جعفر الباقر عليه السّلام و قد أعلن عليه السّلام للناس لعنه و كذبه. و كان حمزة يقول لأصحابه: إن أبا جعفر يأتينى فى كل ليلة، و قد وصفه الإمام الصّادق بأنه شيطان و لعنه، و حذّر الناس من كذبه، و الذى يظهر أن الرجل استعمل سلاح الافتراء و الكذب على أهل البيت، و لا شك أن أثره عظم فى الإغراء و التضليل، و لم توجد له آثار تدل على ادعائه بعقيدة خاصة، أو مبدأ مرسوم، أو تأليف جماعة معينة، و إنما كان داعية ضلال و عدوا لأهل البيت يذيع عنهم ما لا يقولونه.

صائد النهدى:

و كذلك صائد النهدى، فالذى يظهر أنّه كان من الكذابين، و لم نقف على ترجمة وافية له نستمد منها آراءه و نزعاته (1)، و كان من جملة من لعنهم الإمام الصّادق و قال عليه السّلام لأصحابه فى قوله تعالى: هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلى مَنْ تَنَزَّلُ اَلشَّياطِينُ 221 تَنَزَّلُ عَلى كُلِّ أَفّاكٍ أَثِيمٍ قال: «هم سبعة: المغيرة بن سعيد، و بيان، و صائد، و الحارث الشامى، و عبد اللّه بن الحارث، و حمزة بن عمارة الزيدى» . و قد أظهر الإمام الصّادق عليه السّلام نوايا هؤلاء الذين اتخذوا الكذب على أهل البيت سلاحا يفتكون به. قال عليه السّلام: «إنّا أهل بيت صادقون، لا نخلو من كذّاب يكذب علينا ليسقط صدقنا بكذبه علينا عند الناس» .

بيان التبان:

و أما بيان فالذى يظهر أنه كان من الكذابين أيضا، لأن الإمام كان يقول: «لعن بيان التبان، و إن بيانا كان يكذب على أبى» . و لا بد هنا من التنبيه إلى شىء، و هو: أن هذا الاسم يشتبه مع بيان بن سمعان التميمى أو النهدى الذى قام بحركة إلحادية فى عصر الإمام الباقر و الصّادق، و إليه تنسب الفرقة البيانية، و قالوا بنبوة بيان و قالوا فى ذلك قول اللّه عزّ و جل: هذا بَيانٌ لِلنّاسِ وَ هُدىً . و ادعى بيان النبوة بعد أبى هاشم بن محمّد بن الحنفية، و كتب إلى الإمام أبى

1- 1) النوبختى ص 38.

جعفر الباقر علیه السّلام یدعوه إلی نفسه و الإقرار له؛ و یقول فی رسالته للإمام الباقر علیه السّلام: أسلم تسلم و ترتقی فی سلم، و تنج و تغنم، فإنک لا تدری أین یجعل اللّه النبوة و الرسالة و قد أعذر من أنذر. و حاول بیان أن تکون له شخصیة لترکیز دعوته و نشر مبادئه، فکان یظهر قدرته علی السحر، و أن عنده الاسم الأعظم، و به یهزم العساکر، و یدعو به الزهرة فتجیبه، و ادّعی بنفسه الربوبیة، و قال: أنا البیان، و أنا الهدی، و أنا الموعظة. و اختلف أصحابه فی عقیدتهم فیه: فمنهم من زعم أنّه کان نبیا نسخ بعض شریعة محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و منهم من زعم أنه کان إلها (1). و یقول النوبختی: إن بیانا کان تبانا یتبن التبن بالکوفة، ثم ادعی أن محمّد بن علی بن الحسین أوصی إلیه، و أخذه خالد بن عبد اللّه القسری هو و خمسة عشر رجلا من أصحابه، فشدّهم فی أطنان القصب، و صب علیهم النفط فی مسجد الکوفة، و ألهب فیهم النار، فأفلت منهم رجل فخرج بنفسه، ثم التفت فرأی أصحابه تأخذهم النار، فکر راجعا إلی أن ألقی نفسه فی النار فاحترق معهم (2).

المغیرة بن سعید:

اشارة

و هو مولی بجیلة، خرج فی أیام أبی جعفر الباقر علیه السّلام و قتل فی أیام الإمام الصّادق علیه السّلام سنة 119 ه. و قد استطاع أن یموه علی کثیر من المتطرفین، و أن یخدع جملة من الناس، و کان ماهرا فی دسّ الأحادیث و وضعها علی أهل البیت علیهم السّلام. و قد نسبت إلیه عقیدة تألیه علی علیه السّلام و لم یثبت ذلک لأن الثابت أنّه قال: بأن علیا مخلوق (و یبدو أن المغیریة ألّهوا علیا متأثّرین بالخطابیة) (3). و ذکر عنه الرواة: أنّه ذهب إلی أن ماء الفرات محرم، و أن کل نهر أو عین أو بئر وقعت فیه نجاسة فهو أیضا محرم.

1- 1) الفرق بین الفرق للبغدادی ص 145. [1]

2- 2) الفرق للنوبختی ص 28. [2]

3- 3) الملل و النحل ج 1 ص 294.

و يقول الشهرستانى: إن المغيرة ادعى لنفسه الإمامة بعد محمّد المعروف بالباقر بن على بن الحسين، و بعد ذلک ادعى النبوة لنفسه و غلا فى حق على (1). و يقول الطبرى: كان المغيرة يخرج إلى المقبرة فيتكلم، فيرى مثل الجراد على القبور. و يقول الأشعرى: إنه زعم أنه يحيى الموتى بالاسم الأعظم، و أراهم أشياء من النيرنجات و المخاريق (2). و قال جرير بن عبد الحميد: كان المغيرة بن سعيد كذابا ساحرا. و قال الجوزجانى: قتل المغيرة على ادعاء النبوة، كان أسعر النيران بالكوفة على التمويه و الشعبذة حتى أجابه خلق كثير. و قال معاوية: أول من سمعته يتنقص أبا بكر و عمر المغيرة المصلوب. و قد كانت حركة المغيرة حركة قوية، و كان لخروجه مناديا لعقيدته دوى أزعج خالد القسرى والى الكوفة و أذهله، و قد سمع به و هو على المنبر، فنادى أن أطعمونى ماء، يريد أن يشرب، فهجاه يحيى بن نوفل بقوله: تقول من النواكه أطعمونى شرابا ثم بلت على السرير

لأعلاج ثمانية و شيخ كليل الحد ذى بصر ضرير

(3)و كان المغيرة أعمى، و قول الشاعر: لأعلاج ثمانية: هو أن أصحاب المغيرة الذين خرج بهم و يدعون الوصفاء كانوا ثمانية، و قيل: سبعة.

براءة الإمامين الباقر و الصّادق من المغيرة:

و مهما يكن من حديث هذا الرجل، فإنا نود أن نكشف واقعه على أضواء أقوال أهل البيت فيه، و فى أضرابه الذين تنكروا للمسلمين، و تآمروا عليهم قصد الوقيعة فيهم. قال كثير النواء: سمعت أبا جعفر الباقر عليه السّلام يقول «برىء اللّه و رسوله من المغيرة بن سعيد، و بنان بن سمعان، فإنّهما كذبا علينا أهل البيت» (4).

1- 1) الملل و النحل ج 1 ص 294. [1]

2- 2) المقالات الإسلامية للأشعرى ج 1 ص 7-8.

3- 3) لسان الميزان ج 6 ص 76.

4- 4) لسان الميزان ج 6 ص 76.

و قال محمّد بن عيسى بن عبيد: إن بعض أصحابنا سأل يونس بن عبد الرّحمن (1)و أنا حاضر: و قال له يا أبا محمّد ما أشدک فى الحديث؟ و أشد إنكارک لما يرويه أصحابنا! فما الذى يحملک على رد الأحاديث؟ فقال يونس: حدّثنى هشام بن الحكم أنّه سمع أبا عبد اللّه الصّادق عليه السّلام يقول: «لا تقبلوا علينا حديثا إلاّ ما وافق القرآن و السنّة، و تجدون معه شاهدا من أحاديثنا المتقدمة، فإن المغيرة بن سعيد دسّ فى كتب أصحاب أبى أحاديث لم يحدّث بها، فاتقوا اللّه، و لا تقبلوا علينا ما خالف قول ربنا، و سنّة نبينا صلّى اللّه عليه و آله و سلّم» . و فى رواية أخرى: عن يونس عن هشام بن الحكم أنّه سمع أبا عبد اللّه عليه السّلام يقول: «كان المغيرة بن سعيد يتعمد الكذب على أبى، و يأخذ كتب أصحابه، و كان أصحابه المستترون بأصحاب أبى يأخذون الكتب، فيدفعونها إلى المغيرة، و كان يدس فيها الكفر و الزندقة، و يسندها إلى أبى، ثم يدفعها إلى أصحابه، ثم يأمرهم أن يبثّوها فى الشيعة، فكل ما كان فى كتب أبى من الغلو فذاک مما دسّه المغيرة بن سعيد فى كتبهم» . و عن عبد الرّحمن بن كثير قال: قال أبو عبد اللّه عليه السّلام يوما لأصحابه: «لعن اللّه المغيرة بن سعيد، و لعن اللّه يهودية كان يختلف إليها، يتعلّم منها السحر و الشعبذة و المخاريق، إن المغيرة كذب على أبى فسلبه اللّه الإيمان، و إن قوما كذبوا علىّ ما لهم؟ أذاقهم اللّه حر الحديد. فو اللّه ما نحن إلاّ عبيد خلقنا و اصطفانا، ما نقدر على ضر و لا نفع، إن رحمنا فبرحمته، و إن عذبنا فبذنوبنا، و اللّه ما بنا على اللّه من حجة، و لا معنا من اللّه براءة، و إنا لميتون، و مقبورون، و منشورون، و مبعوثون، و موقفون،

1- 1) يونس بن عبد الرّحمن، أبو محمّد مولى على بن يقطين، المتوفى سنة 208 ه كان من تلامذة الإمام موسى بن جعفر و على بن موسى الرضا عليه السّلام و كان الإمام الرضا يشير إليه فى العلم و الفتيا، و كان من خاصة الإمام الرضا و وكيله، و له تصانيف كثيرة منها: كتاب الإرث، كتاب الزكاة، كتاب جوامع الآثار، كتاب الشرائع، كتاب الصلاة، كتاب العلل الكبير، كتاب علل الحديث، كتاب الجامع الكبير فى الفقه؛ كتاب تفسير القرآن، كتاب الرد على الغلاة. و غيرها يبلغ عددها الثلاثين كتابا. قال أبو جعفر البصرى: دخلت مع يونس بن عبد الرّحمن على الرضا عليه السّلام فشكى إليه ما يلقى من أصحابه: فقال عليه السّلام: «دراهم فإن عقولهم لا تبلغ» ، توفى يونس بالمدينة المنورة سنة 228 ه.

و مسئولون، ما لهم لعنهم اللّه، فلقد آذوا اللّه، و آذوا رسول اللّه فی قبره، و أمیر المؤمنین، و فاطمة، و الحسن، و الحسین، و ها أنا ذا بین أظهرکم، أبیت علی فراشی خائفا، یأمنون و أفزع، و ینامون علی فراشهم و أنا خائف. ساهر و جل، أبرأ إلی اللّه مما قال فیّ الأجدع، و عبد بنی أسد أبو الخطاب لعنه اللّه، و اللّه لو ابتلوا بنا و أمرناهم بذلک لکان الواجب أن لا یتقبلوه، فکیف و هم یرونی خائفا و جلا أستعدی اللّه علیهم، و أبرأ إلی اللّه منهم! ! و إنی امرؤ ولدنی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و ما معی براءة من اللّه، إن أطعته رحمنی، و إن عصیته عذبنی عذابا شدیدا» . و علی أی حال فهو علیه السّلام کان مهتما غایة الاهتمام بأضرار هؤلاء المندسین بین صفوف الأمّة، فکان قلقا منهم، و یعلن للناس براءته منهم، و یبین لهم کذب ما یدعیه أولئک المخربون، الذین أرادوا أن یفسدوا المجتمع و أن یثیروا الفتنة، بادعاء التألیه لأهل البیت مع أنه علیه السّلام یعترف بأنه عبد من عبید اللّه، و أنه میت و مبعوث. کما یتجلی لنا عظیم اهتمامه بفتنة هؤلاء، و ألمه مما یقومون به من الحال التی بات علیها. فهو خائف و جل یبیت علی فراشه قلقا، لا یقر به قرار، خشیة اتساع هذه الفتنة، و تطایر شررها، فلا یعود ذلک علی المسلمین إلاّ بأوخم العواقب. هذا و قد نشط المغیرة فی دعوته الإلحادیة، کما قدمنا، و أمر أصحابه بإظهار الدعوة و الانتقال من السر إلی العلن، و کانوا سبعة نفر یدعون الوصفاء، و کان خروجهم بظهر الکوفة. فأخبر خالد القسری بخروجهم و هو علی المنبر، فقال: «أطعمونی ماء» . لانزعاجه و خوفه، فهجاه ابن نوفل کما تقدم. و لما ظفر به خالد أتی به مع سبعة نفر، ثم أمر بسریره فأخرج إلی المسجد، و أمر بأطنان القصب و نفط فأحضروا، ثم أمر المغیرة أن یتناول، فکع عنه، و تأنی. فصبت علیه السیاط، فتناول طنا فاحتضنه فشد علیه، ثم صب علیه و علی الطن نفط، ثم ألهبت فیهما النار فاحترقا، ثم أمر الرهط ففعلوا (1). و قال أبو بکر بن عیاش: رأیت خالد بن عبد اللّه القسری حین أتی بالمغیرة بن سعید و أتباعه، فقتل منهم رجلا، ثم قال للمغیرة: أحیه-و کان یریهم أنه یحیی الموتی-فقال: و اللّه ما أحیی الموتی. فأمر خالد بطن قصب، فأضرم نارا، ثم قال

1- 1) الطبری ج 8 [1] حوادث سنة 119 ه ص 241.

للمغيرة: اعتنقه. فأبى، فعدا رجل من أصحابه فاعتنقه و النار تأكله. فقال خالد: هذا و اللّه أحق منک بالرياسة، ثم قتله و قتل أصحابه، و ذلک حدود سنة 119 ه.

أبو منصور العجلى:

و هو أبو منصور مشهور بكنيته، نشأ فى البادية ثم استوطن الكوفة، و له بها دارا، و كان عربيا من عبد القيس. جاء هذا الرجل ببدع، و دخل فى ميدان ذلک الصراع العنيف، و ادعى أن اللّه عزّ و جل عرج به إليه، فأدناه منه و كلّمه، و مسح على رأسه، و قال له: أى بنى. و ادعى أيضا أنّه نبى و رسول، و أن جبرائيل عليه السّلام يأتيه بالوحى من عند اللّه عزّ و جل، و أن اللّه بعث محمّدا صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بالتنزيل، و بعثه هو «يعنى نفسه» بالتأويل. و كان يرى وجوب قتل من خالف دعوته، لأنهم مشركون فيقول لأصحابه: من خالفكم فهو مشرک كافر فاقتلوه. فإن هذا جهاد خفى. قام هذا الرجل بنشاط، و علم أصحابه الثبات و الشجاعة، و راح يطلب الوسائل التى ينجح بها فى تقوية حركته، و تركيز زعامته، و أعلن أولا أنّه من أتباع أبى جعفر محمّد بن على بن الحسين، و لكن أمله لم يتحقق، فإن الإمام أبو جعفر عند ما بلغه أمره أظهر لعنه، و البراءة منه، و طرده من حظيرة أتباعه. و لما فشل فى حيلته هذه ادعى أنه إمام وحده، و دعى الناس إلى اتباعه، و أنّه الإمام الشرعى المستقل، ثم تراءى له الأمر فأصبح نبيا، و قال: إن الرسالة لا تنقطع أبدا. بمعنى أن الأنبياء يظهرون فى جميع العصور و الأوقات. و هذه المقالة تبرر ادعاءه بالنبوة، و كذلک ادعى أن النبوة فى ستة من ولده. و قد تنبأ ابنه من بعده، و ادعى مرتبة أبيه، و تابعه على رأيه بعض السفلة، و كان مصيره القتل. و استمر أبو منصور ببدعته و غوايته، و قد لقبه الإمام الصّادق عليه السّلام بأنّه رسول إبليس عند ما أعلن للناس خبث سريرته، و عظم خطره، و قد حذر الناس منه و أمرهم بالابتعاد عنه، و لعنه ثلاثا (1)و دعا عليه، و لم يكد يوسف ابن عمر الوالى زمن هشام بن عبد الملک يقف على أمرهم، حتى تصدّى له و لأصحابه، فقتلهم صلبا،

1- 1) الكشى ص 196.

و تزعم ولده فيمن لقى من أصحاب أبيه، و ادعى النبوة أيضا، فأخذه المهدى، و قتله و تتبع أصحابه. و هكذا ينتهى آخر دور يلعبه دعاة الفرقة من أعداء الإسلام، الذين أرادوا أن يفتكوا بأهله، انتصارا لمبادئهم، و حبا للسلطة و النفوذ، فاستعملوا شتى الوسائل فى تحقيق ذلک، و لكن محاولتهم فشلت، لقيام دعاة الإصلاح فى إيضاح مفاسدهم، و بيان خطرهم، و سوء نواياهم، حتى زالوا من صفحة الوجود. و قد أخطأ الأستاذ محمّد جابر عبد العال مؤلف كتاب (حركات الشيعة المتطرفين) ، حيث يذهب إلى بقاء تلک الحركة، و أن جابر الجعفى تزعمها بقوله: قتل المغيرة و صلب بجوار بيان بواسط، كما قتل أصحابه، و لكن حركته لم تخمد، إذ تزعمها من بعده جابر الجعفى، و أنزله أصحاب المغيرة بمنزلة المغيرة نفسه (1). و هذا القول خارج عن حدود الصحة، و بعيد كل البعد عن الواقع، و هو تهجم شنيع، و افتراء فاضح، فإن علماء الحديث هم أدرى بجابر و أعرف بمنزلته، و ليعرنى الأستاذ سمعه لأنقل له شهادة علماء الرجال الأعلام: يقول ابن المهدى: ما رأيت فى الحديث أورع من جابر. و قال ابن عليه: جابر صدوق فى الحديث. و قال شعبة: إذا قال جابر حدّثنا و سمعت فهو من أوثق الناس. و قال وكيع: مهما شككتم فلا تشكوا فى أن جابرا ثقة. و قال ابن عبد الحكم: سمعت الشافعى يقول قال سفيان الثورى لشعبة: لإن تكلمت فى جابر لأتكلمن فيک (2). و لا نطيل الكلام حول منزلة جابر العلمية، فقد روى عنه خلق كثير، منهم: شعبة، و الثورى، و إسرائيل، و الحسن بن حى، و شريک، و مسعر، و أبو عوانة، و غيرهم. و خرّج حديثه الترمذى فى صحيحه و أبو داود فى سننه و ابن ماجه. هذا و إن مدحه و الثناء عليه من أهل البيت ثابت متواتر، و لا أدرى من أين جاء الأستاذ بهذه الفكرة الخاطئة، و لعله اعتمد على البغدادى فى الفرق إذ يقول عند ذكره

1- 1) حركات الشيعة المتطرفين ص 41.

2- 2) تهذيب التهذيب ج 2 ص 48. [1]

لمن ذهب إلى رجعة محمّد بن عبد اللّه بن الحسن، و يقال لهم المحمدية لانتظارهم محمّد بن عبد اللّه؛ و كان جابر على هذا المذهب، و كان يقول برجعة الأموات إلى الدنيا قبل القيامة (1)اه. و البغدادى معروف بتقوله و كذبه فى نقله، فقد أورد فى كتابه أمورا لا صحة لها. و لنفترق هنا تاركين الحديث عن كثير من الأخطاء التى وقفنا عليها فى مؤلّفه، و نقله أمورا لا صحة لها، و حكمه على أشياء بدون تثبت، و إن الأستاذ عبد العال قد خالف الحقيقة، فلقد غرب و شرق، و تقول و تأول، و الكتاب بمجموعه نقد لاذع، و كذب فظيع، و لقد مثل فى كثير من آرائه أفكاره الضيقة، و نظرته القاصرة، لأنه أثبت أشياء على غير تأمل للواقع، بل إعراضا عن الحق، و تجاوزا عن الحقيقة، و استسلاما للهدف الذى من أجله يقصده فى تأليفه. و لقد مررت على تلك الأخطاء المتراكمة مر كرام، و عسانا نلتقى به مرة أخرى، و هو واحد من مجموعة كبيرة من الكتّاب، الذين يقولون بدون تدبر، و أكثرهم يتقول انتصارا لمذهبه، أو خضوعا لعاطفته.

دراسة حركة الغلاة ناقصة:

اشارة

و على أى حال فإن حركة الغلاة هى من أخطر العوامل التى لعبت دورا هاما فى المجتمع الإسلامى، و إن دراستها لا تزال حتى اليوم ناقصة بل غامضة، لوجود الكثير من التشويه و اللبس، فالوقوف عليها ببيان و وضوح من المشقة بمكان، إذ لم تدون آراء أولئك القوم بأقلام دعاتهم، فلم تكن لهم مؤلّفات تدون بها عقائدهم، و ذلك لأن حركتهم كانت قصيرة العمر سريعة الزوال، لما قام به أهل البيت عليهم السّلام فى تفريق صفوفهم، و صدع شملهم عند ما أعلنوا البراءة منهم، و لعنوهم، و حذروا المجتمع الإسلامى من نواياهم الخبيثة، فكانت عاقبتهم إلى الزوال، و جمعهم إلى الشتات. و إن كثيرا ممن كتب فى هذا الموضوع و تناوله بالبحث، لم يقصد جلاء الغامض، و إظهار الحقيقة، و إنما القصد من ذلك هو التشويه، و التضليل، و نشر ما يساعد أعداء الدين الإسلامى على الوقيعة بأهله، لأن أولئك الذين تناولوا حركة الغلاة بالبحث لم يتحرّوا الدقة فى إيراد ما جاء فى كثير من الروايات، و لم يدرسوا الظروف التى ساعدت على نشر تلك الأفكار الخاطئة و العقائد الفاسدة، التى حاولوا نشرها فى

1- 1) الفرق بين الفرق ص 37. [1]

المجتمع الإسلامی، و إن أولئک الکتّاب یجهلون العوامل التی أدّت إلی قیام تلک الحرکة، أو أنهم یتعصّبون فیحیدون عن الواقع و یتنکرون للحقیقـة، و إن الجهـل و التعصّب هما اللـذان یجعلان کثیرا من الکتاب و المؤرّخین یتجاهلون قیمـة إظهار الحقیقـة و بیان الواقع. و أنهم یکتبون لا للتاریـخ و الحقیقـة، و إنما یکتبون للمغالطـة و الوقیعة، و لم یدرکوا خطر أخطائهم و عظیم جنایتهم علی الإسـلام، فی فتح باب التدخل لأعداء الإسلام.

الغلاة و الشیعة:

و کیف کان فقد ظهر لنا أن حرکة الغلاة کانت ضد أهل البیت علیهم السّلام بصورة خاصة، و ضد الإسلام بصورة عامة، فإن ما یدعون إلیه إنما هو ضد ما دعی إلیه الإسـلام، و أهل البیت هم أقطاب الإسـلام و دعاته، و الذین بذلوا أنفسهم فی سبیل إعلاء کلمته، و المحافظة علی مبـادئه، و نشـر تعـالیمه، و إن التشـیع بمفهومه الواقعی هو اتبـاع الإمـام علی علیه السّلام و مشـایعته، مع أن بعض الفئات من الغلاة کانوا یکفّرون علیا علیه السّلام کالکاملیة فکیف یصح عدّهم فی عداد الشیعة. و قد علمنا من أقوال الإمام الصّادق کیف کانت حالته و هو یواجه هـذه الحرکـة حتی وصف قلقه بما یعطینا صورة عن اهتمام الإمام بخطرها و اعتبارها من المحن التی أرّقته. و کیف یصـح أن تجعل البیانیة من فرق الشـیعة، و هذا زعیمهم (بیان) یحاول أن یکون الإمام الباقر من أتباعه، عند ما یکتب إلیه یدعوه لنفسه، و الإقرار له، فیقول فی رسالته للإمام الباقر: أسـلم تسلم، و تنج و تغنم، فإنک لا تدری أین یجعل اللّه النبوة و الرسالة، و قد أعذر من أنذر. فهل بعد هذا من مجال لمتقول أو زاعم، بأن تجعل هذه الحرکة من حرکات الشـیعة، و لکن الخصومة توجد من لا شـیء شـیئا، و تفسّر الحوادث بما تشتهی. و المغیریة و أتباعها یذهبون إلی تکفیر أهل البیت و الشـیعة أجمع، لأنهم یرون کفر من خالفهم، و وجوب قتله، و هل وجدت دعوتهم معارضة من قبل فئة کما وجدت من قبل الأئمة و شیعتهم، فکیف یصح عدّهم فی سجل الشیعة؟ و هکذا إلی آخر ما وقفنا علیه.

و الشیء الذی نرید أن نقوله هو: إن حرکة الغلاة قد شلت فی تلک المعارضة التی صدرت عن الإمام الصّادق و زالت آثارهم بسرعة. و لکن الأغراض السیاسیة العمیاء عند ما حاولت الحط من کرامة أهل البیت قد جعلت حرکة الزنادقة مرتبطة بالتشیع (و أنه کانت هناک رابطة بین الزندقة و الشیعة، إذ رأینا کیف کان الانتساب إلی الشیعة الرافضة دلیلا علی الزندقة، و داعیا إلی الاتهام بها) (1). و قد قامت الدولة فی أیام المهدی بمطاردة من یتهم بالزندقة و القضاء علیه، فقتل بتلک التهمة خلق کثیر، و لم یکن کل هؤلاء الذین یتهمون بالزندقة زنادقة حقا، و إنما کان منهم من یتهم بالزندقة لأسباب سیاسیة، فقد اتخذ الخلفاء من هذا الاتهام وسیلة للقضاء علی خصومهم، ممن لم یساير رکبهم أو یتحسسون فیه عدم المیل إلیهم، کما کانوا یتهمون بذلک بعض الهاشمیین الذین یریدون القضاء علیهم، فقد اتهم ابن من أبناء داود بن علی العباسی، ثم یعقوب بن الفضل و أتی بهما إلی الخلیفة المهدی. و علی هذا النحو فقد فتح باب التشفی و الانتقام بتهمة الزندقة، لیکون ذلک مبررا لقتلهم، و لم یقتصر الأمر علی الخلفاء فی اتهامهم الخصوم بالزندقة، بل کان هناک من الوزراء من یتخذون الاتهام-الباطل غالبا-بالزندقة سبیلا للکید و الوقیعة بنظرائهم، أو خصومهم الذین یحقدون علیهم (2). و بهذا فتحت أبواب التهم علی الشیعة لأنهم الحزب المعارض للدولة و الخصوم لحکام الجور، فکان ما کان من تهم و تقول و افتراء.

حرکة الغلاة ضد الإسلام:

عرفنا أن هذه الفئة الضالة، تکمن وراء قوة الدس و الوقیعة و التفرقة، و بعث الشک و الریبة فی النفوس، و لو طال بها الزمن لاستطاعت أن تؤثّر، بطریق مباشر أو غیر مباشر، علی ذوی العقول الضعیفة، و تجرفهم بتیارها، و لکن لم یثبت التاریخ أنّهم أثروا علی أحد ممن له صلة بأهل البیت، فمال إلی أقوالهم.

1- 1) تاریخ الإلحاد فی الإسلام لعبد الرّحمن بدوی ص 39.

2- 2) الطبری. و الجهشیاری ص 89-90. [1]

و ليس فى مقـدور أى أحـد أن يغفل حقيقة هامة، و هى أن هؤلاء المتداخلين فى صـفوف الأمة، قد دفعهم بغضـهم للإسـلام على أى لون كان، و أن الذين انتحلوا حب أهل البيت منهم إنما كان الباعث لهم هو العداء لأهل البيت، و بغض دعوتهم الإصـلاحية، و هم يعلمون ما لأهل البيت من أثر فى نفوس المسـلمين، و إن اتساع شـهرة الإمام الصّادق العلمية، و كثرة الوفود على مدرسته لانتهال العلم، إنما هو دليل قاطع على قوة تمسک المسـلمين بمبادئهم، و هـذا أمر لا يروق لفئة تحاول محو تلک المبادئ، و تضـليل الناس. و إنهم اتخذوا الكوفة مقرا لنشـر الدعوة الإلحادية، لأن فى الكوفة نشاطا شيعيا، و حركة فكرية، و فيها ما يزيد على ألف محدث، يحدّث عن الإمام الصّادق، و فيها من العناصـر المختلفـة، من غير المسـلمين، و لكن الكوفة، بصـفتها العامة، عربية مسـلمة، توالى أهل البيت. لهذا جعلت الدعوة فى مركز من المراكز الحساسة، لكى يبثوا سـمومهم، و ينشـروا آراءهم و عقائدهم الفاسدة، فيتناقلها الناس و مصدرها الكوفة. و الكوفة. شـيعية فتسـجل تلک العقائد على سجل الشيعة، الذين هم شوكة فى عيون السلطة، التى يحلو لها أن توسع هذه الشقة و تؤيد هذه الدعاية. و لقد راح أولئک الخصوم يشـيعون الأكاذيب و يتقولون الأقاويل على أهل البيت، طبقا للمخطط الـذى رسـموه فى محاربة الدعوة الإصـلاحية، التى قام بها الإمام الصّادق عليه السّلام-كما تقـدم ذكرها-و قد وجدوا العون و الحماية، من قوم يروق لهم ذلک، و تحلو لهم الوقيعة لشـيعة على عليه السّلام عند ما ترتبط الزمرة الملحدة بعجلة التشيع، فيكون ذلک دليلا على ما يتقولونه فى ذم الشيعة، و شل نشاط حركتهم، فى عصر تحرر الفكر و ازدهار العلم. و لا يفوتنا أن نقول بأن هذا التعاون مع خصوم أهل البيت قد بقى إلى العصور المتأخرة، فهم ينشرون تلک الافتراءات الباليـة، و يلبسونها ثوبا جديـدا، تضـليلا للناس و حبا فى إثارة الشـغب، فكلما أراد المصـلحون حل مشـكلة الفرقة و الدعوة إلى التقارب، ذهب الكثيرون-ممن لا يروق لهم الصـفاء و التقارب-إلى زيادة التعقيـد، و اتساع شـقة الخلاف، فى نشـر دفائن السـلف، و عرض الأفكار الباليـة، و هو أسـلوب يتخذونه لشل كل محاولة ساعية نحو الإصـلاح، بحيث يجعلون من المسـتحيل على القوى المتخاصـمة أن تتفق أن تتعاون.

إنهم يريدون أن نبقى متخاصمين إلى أن يحطم أحدنا الآخر، و هذا هو ما يصبو إليه أعداء الإسلام و يسعون بكل جهدهم لتحقيقه. إنهم يريدون أن يبقى المسلم لا يطمئن إلى أخيه المسلم و لا يتعاون معه. إننا فى أيامنا هذه يتهددنا عدو قد تزايد خطره، عدو قد سطى على مبادئنا و مجتمعنا، يبث سمومه و يتستر بمختلف الأثواب، و يستعمل شتّى الأساليب، فجرف بعض شبابنا بدعايته الكاذبة، و أقواله الفارغة. إننا أمام موجة إلحادية عارمة (1)تسندها أمة ذات قوة وعدة، تحاول أن تفصل بيننا و بين قوتنا الروحية، و عقيدتنا الإسلامية. إنها قوة تنذر بالخطر، و تدعو إلى الاهتمام، و اتخاذ التدابير فى ردها و دفع خطرها، و لا يمكننا ذلک و نحن يكفر بعضنا بعضا، و يبتعد بعضنا عن بعض، و يتهم بعضنا الآخر، بأمور أكل الدهر عليها و شرب، تلک أشياء وجدت لغاية التفرقة بين المسلمين، لأن فى اتحادهم هدما لمعاقل الحكم الجائر، و لا يمكن لحكام الاستبداد أن يعيشوا فى مجتمع تسوده مشاعر المحبة و الوئام. إننا أمام تيارات دولية، و أطماع استعمارية، و أعاصير فكرية، فهل ننتبه لهذه الأخطار المحيطة بنا، و يكفينا ما حل بنا من وراء المنازعات الطائفية، التى اتخذها المتعطشون على السيادة أقوى وسيلة لتحقيق أهدافهم و إشباع رغباتهم. يجب علينا أن ندرس الظروف القاسية التى حلّت بالمسلمين فأدّت بهم إلى هذا التأخر و الانحطاط، فكل ذلک ناجم عن التفرقة و الخصومة و التعصّب. يجب علينا أن نتفاهم و أن نسعى لإزالة الحواجز التى تحول بيننا و بين تقاربنا، إننا على حق و الحق يعلو و لا يعلى عليه، و الإسلام فوق كل شىء، و تحت رايته تتحقق السعادة، و فى مبادئه تسعد الإنسانية. نحن أبناء اليوم و المطلوب منا أن نحتفظ بأمانة الإسلام، و أن ندافع عنه بكل ما نتمكن، فإن أمامنا أخطار المبادئ الهدامة، التى تحارب التوحيد، و تنصر الإلحاد،

1- 1) قلنا ذلک و نحن فى خضم مواجهة مد إلحادى و موجة غريبة قذفت إلينا بالسوء و أساءت إلى مجتمعنا و قيمنا، و إذ هدأت فإن من الإلحاد ألوانا تهدد مجتمعنا الإسلامى فى الصميم يتهافت الحكام و كثير من الناس على أدواتها و وسائلها بوعى أو بدون وعى.

و قـد أعـدت العـدة و أكملت القوة و نحن نبقى عاكفين على نبش الـدفائن، و إثارة الضـغائن بأفكار باليـة و آراء شاذة. إن تلك الخرافات و الأوهام قد أصـبحت فى خبر كان، و قد زالت على أيدى دعاة هدى و أئمة رشاد، إذ حفروا لها قبورا بمعاول الحق، فزال أثرها و نسى خبرها. دعونا من فتح سـجلات الماضـى، و ليقف كل واحد منا إلى جانب أخيه المسـلم، يشد أزره، فإن الأمة الإسـلامية أحوج إلى وحدة الصف أكثر من أى وقت مضى، لأنها تمر بنفس المراحل الأولى التى تعرّضت فيها لحملات دعاة الفرقة.

حوار و تصويب:

و يطول بنا المقام إن أردنا أن نطيل الحـديث عن الأساليب التى اتخـذت لاتهام الشـيعة بأمور هى أبعـد ما تكون عن الواقع، و قـد دعانا إلى اسـتعراض هذا البحث، ما وقفنا عليه من الشذوذ عند بعض الكتّاب الذين انحرفت أقلامهم عن تسـجيل الحقائق العلمية و جرت فى ميدان التعصّب، و لم تجعل للواقع أى قيمة، و نحن لم نحاسبهم على ذلک الانحراف و الانعطاف نحو جهة معينة، لا الجهة التى يقتضيها الحق و يـدعو إليها البحث العلمى. و ليس فى اسـتطاعتى الآن تعـداد أولئک الكتّاب و مناقشـتهم، و لكنى أود أن أناقش بعضا منهم ممن صدرت كتبهم فى العهد القريب، ففيها من التعصب و التحيّز، و نكران الحق، ما يدعونا إلى الأسف الشديد أن يصدر هذا من علماء مثقفين. و على أى حال فإنا نقف معهم وقفـة قصـيرة، و نلتقى بهم لقاء وديا، و نعاتبهم عتابا أخويا، و نطلب منهم التثبت فيما ينقلونه، و أن يتحروا الصـدق فيما ينقلونه، فإن وراءهم حساب الأجيال، و حساب اللّه أعظم. و ها نحن نلتقى بالأسـتاذ الشـيخ على الغرابى، و هو أستاذ فى كلية الشريعة بمكة المكرمة، و مؤلف كتاب (الفرق الإسلامية و نشأة علم الكلام عند المسلمين) . يتحدث هذا الشيخ عن تاريخ العقيدة، و عن نشأة علم الكلام، ثم يتحـدث عن الفرق، و يطيل الحديث عن المعتزلة، و لا نود أن نطيل الوقوف معه، فالوقت أثمن من ذلک، و لكنا نريد أن نتعرّض لهفواته فى ذكر فرق الشيعة، و بذلک نعرف مدى تأثّر الأفكار بالإيحاءات الكاذبة، كما نلمس تراكم الترسبات الطائفية، التى لم يستطع

الواقع إزالتها من بعض القلوب، و إن التنور و انكشاف الأمور لم يزدها إلاّ زيفا و ضلالا. يقول الشيخ: (ب) الشيعة: 1-نبذة عن فرقهم و بعض آرائهم: أصناف الشيعة و علة تسميتهم: إنما سموا شيعة لأنهم شايعوا عليا و قدّموه على أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و هم ثلاثة أصناف: (1) الغالية و سبب تسميتهم: و إنما سموا غالية لأنهم غالوا فى على، و قالوا فيه قولا عظيما، و هم خمس عشرة فرقة. ثم يعدّد الفرق بأسمائها، و هى أسماء بلا مسميات، مع أن أكثر هذه الفرق لا ينطبق على تعريفه الأول، فهم يغالون فى على و لم يدّعوا ألوهيته، و لكن الشيخ لم يكن باحثا متثبتا. ثم ينتقل الشيخ بحديثه إلى الصنف الثانى من أصناف الشيعة، و هم الرافضة، فيقول: و إنما سموا رافضة برفضهم أبا بكر و عمر إلى أن يقول: و الرافضة أربع و عشرون فرقة سوى الكاملية، و يسمون الإمامية كقولهم بالنص على على بن أبى طالب. ثم يقول: الفرقة الأولى من الرافضة (القطعية) : و إنما سموا قطعية لأنهم قطعوا على موت (موسى بن محمّد بن على) و هم جمهور الشيعة، و هم يقولون بالنص على إمامة على بن أبى طالب، و إن عليا نص على إمامة ابنه الحسن، و إن الحسن نص على إمامة أخيه الحسين، و هكذا يقولون بانتقال الإمامة بالنص فى أبناء الحسين إلى (محمّد بن الحسن بن على) و هو الغائب المنتظر عندهم و إنه سيظهر فيملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت جورا. ثم يذكر الكيسانية و إن فرقهم إحدى عشرة فرقة. و يتحول الشيخ إلى ذكر فرقة الزيدية و يذكر بعض آرائهم. و لا يهمنا حديثه عن ذلك، و المهم أن ننبهه على بعض أخطائه و ما أكثرها، و لا نريد أن نشدد الحساب

علیه فهو مقلـد لغیره أو متعصّب، و کلا الأمرین یحولان دون إظهار الحقیقة و بیان الواقع. و نحن أولاء نترک إطالة الوقوف معه لنناقشه علی آرائه التی اسـتمدها من مصادر غیر موثوق بها إن کان ینقل عن مصدر، و إلاّ فهو جاهل بحقیقة الحال. إن الشیخ یرید أن یتحف المسلمین بهذا العصـر المکفهر بسحب العداء لهم، و المزدحم بأفواج النقمة منهم و السخط علیهم من قبل خصوم یریدون أن یفرقوا الشمل و یثیروا الفتنـة. نعم لاـ نریـد نقـاشه، و لکنـا نود أن ننبهه لبعض الأخطـاء التاریخیـة عسـاه أن یتقبل ذلک فیرجع عن طریق الانحراف: إنه یقول فی القطعیـة: إنهم قطعوا علی موت (موسـی بن محمّـد بن علی) . و هـذا خطأ من عدة جهات: 1-أنه لا یوجد إمام من أئمة أهل البیت اسـمه موسـی بن محمّد بن علی، و لا نعرفه و لا یعرفه کل أحد، فمن أین جاء الشیخ بهذا الاسم؟ ! فهل کان یقصد به الإمام موسی بن جعفر، فإن کـان کـذلک و لکنه یجهله و لم یتعرف علیه، و لاـ یـدری من هو، فکیف یرجی الصواب من باحث یجهل إماما له منزلـة عظیمـة، و مکانة اجتماعیـة، و شخصـیة أخافت الدولة، و أقضت مضاجعها، و هی فی عظمتها و أیام عزتها. فکان الرشـید أیام عظمته و قوة سـلطانه یخشـی صولـة الإمام موسـی بن جعفر و هو فی محرابه و مجلس علمه. إذا فلا یصح وصف القطعیة بأنهم قطعوا علی موت الإمام موسـی بن جعفر علیه السّلام لأن القطعیة هم الذین قالوا بأن الإمامة انقطعت علی الإمام جعفر الصّادق فی حیاته، و صارت فی ولده إسماعیل. فقول الشیخ إن القطعیة قطعوا علی موت موسـی أمر مقطوع بکذبه و بطلانه. 2-مع التنزل من أنهم قطعوا علی موت موسـی، فما معنی قوله فی وصفهم بـأنهم یقولون بانتقـال الإمامـة بالنص فی أبناء الحسـین إلی محمّـد بن الحسن بن علی، و هو الغائب المنتظر. و علی هـذا فلا یصـح القول بالقطع علی موت الإمام موسی، بل ساقوا الإمامة إلی ولده الرضا علیه السّلام و من بعده بولده الهادی، ثم إلی الإمام العسکری ثم إلی

الغائب المنتظر عليه السّلام فهم على هذا يعدّون من الشيعة الاثنى عشرية لا القطعية، فكيف يحصل الاتفاق فى قوله الأول بأنهم قطعوا الإمامة على موت موسى؟ ؟ 3-يقول: و هم-أى القطعية-جمهور الشيعة. و نحن نسائله هل وقف على مؤلفات الشيعة فوجد أثرا يذكر للقطعية، و هل عرف منهم جماعة حتى يصبح له أن يعبر عنهم بأنهم جمهور الشيعة، نعم جمهور الشيعة هم الاثنى عشرية، و لعل الشيخ لم يفرّق بين قوله بالقطع على موت الإمام موسى، و بين القول بسوق الإمامة إلى من بعده من أولاده و أحفاده.

موقف مع شيخ أزهرى:

و هذا عالم آخر من علماء الأزهر الشريف و أستاذ بكلية أصول الدين و هو الشيخ محمّد أبو زهو نلتقى معه فى كتابه (الحديث و المحدّثون. المطبوع سنة 1378 ه. 1959 م) . تعرض الأستاذ فى كتابه إلى ذكر الشيعة، و ننقل بعض ما قاله و دوّنه يقول: كانت الفكرة الأولى فى التشيّع: أن جماعة من الصحابة يرون بعد موت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن الخلافة ميراث أدبى لعلى بن أبى طالب، و أنّه أولى بها بعدة أمور منها: إنه أقرب عاصب لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بعد عمه العباس. ثم يعدد مزايا أمير المؤمنين إلى أن يقول: رأينا أن فكرة التشيع لعلى تلبس ثوبا جديدا و ينضم إليها كثير من الزنادقة، و أرباب الأهواء و المنافقين بقصد الإفساد فى الدين. ثم يقول: و على الجملة فقد افترقت الشيعة ثلاث فرق: (الكيسانية) و تولوا محمّد بن الحنفية، و الإمامية (الجعفرية) و تولوا جعفر الصّادق (و الإمامية) الزيدية و تولوا زيد بن على بن الحسين. و يذكر بعد ذلک عقائد الشيعة و يعددها: 1-الرجعة. 2-النبوة: ادعى بعض الشيعة النبوة لعلى. 3-الألوهية: ذهبت فرقة من الشيعة إلى تأليه على. إلى أن يقول فضيلته تحت عنوان التشيع ستار لأعداء الإسلام: و يقينى أن

التشيع كان ستارا احتجب وراءه كثير من أعداء الإسلام من الفرس، و اليهود، و الروم، و غيرهم، ليكيدوا لهذا الدين، و يقلبوا نظام هذه الدولة الإسلامية، فقد كان الفرس يزعمون أنّهم الأحرار و السادة، و كانت لهم الدولة من قديم الزمان، فلما بدل اللّه عزهم ذلا، و صيّر ملكهم نهبا، على يد العرب الذين كانوا فى نظرهم أقل الأمم خطرا . . . إلخ. ثم يقول: أخذوا-أى الفرس-يتحسّسون أبواب الضعف عند المسلمين فلم يجدوا بابا أنجع لهم من الحيلة و الخداع، فأظهر جماعة منهم الإسلام، و انضموا إلى أهل التشيع، مظهرين محبة أهل البيت، و سخطهم على من ظلم عليا رضى اللّه عنه. ثم يستمر أبو زهو فيذكر صفات الشيعة بما يروق له و ما يوحيه إليه وهمه، إلى أن يقول- و ما أعظم ما يقول-: كان من وراء الشيعة و الخوارج و من على شاكلتهم الجمهور الأعظم من المسلمين الذين لم يتدنسوا بالتشيع و لا بالخروج و تمسكوا بالسنن. نضع هذه الفقرات التى اقتطفناها من حديث الشيخ بين يدى كل منصف متجرد عن التعصب و التحيّز. إننا نذكر هذه الأقوال و الألم يحز بنفوسنا، و الاستغراب يستولى على مشاعرنا، عجيب-و كم أرانا الدهر من عجب-أن يصدر مثل هذا التعبير النابى! و القول الشائن، من رجل ينتمى لأكبر مؤسسة إسلامية، لها مكانتها فى المجتمع الإسلامى، و قد خدمت الأمة على ممر العصور، و لا شك أنها تحرص على جمع الكلمة، و محاربة الفرقة، إنها مؤسسة الأزهر الشريف، التى قطعت شوطا بعيدا فى خدمة الإسلام. و نشر مآثره. عجيب أن تصدر مثل هذه الهفوات، من رجل يعد من كبار علمائها، إذ أنيط به تدريس أصول الدين، و تلك أكبر مهمة ينحو الأزهر بتحقيقها. عذرنا تجاهل الشيخ بنص حديث الغدير الذى هو من أهم الأحداث الإسلامية، و الوقائع التاريخية التى لا يمكن جحودها، و من الصعب إنكارها. فلا نريد أن نذكر الشيخ بالمصادر التى ذكرت هذا النص الجلى، و لا نريد أن نقدم له قائمة بأسماء الصحابة الذين شهدوا بسماعهم من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يوم قام بذلك الحفل الرهيب، و الجمع الحاشد، و فى ذلك الهجير المضطرم، فى غدير خم حيث

مفترق المـدنيين و المصـريين، و العراقيين، و عـدد الجمع لا يقل عن مائة ألف، و أعلن للملإ الحاشد بخطبته العظيمة، التى قال فيها: «من كنت مولاه فهـذا على مولاه» . نعم لا نريـد أن ننبه الشـيخ لمراجعة الصـحاح التى روت ذلک، كصـحيح مسـلم، و الترمذى، و الحاكم و غيرها، أو نرشده إلى مراجعة الكتب التى ذكر فيها هذا الحديث، و عددها يربو على ستمائة مؤلّف و كتاب. إن حديث الغدير هو نص صريح و لم يسـتطع أحد إنكاره، و إن كان الكثيرون قد وقعوا فى كثير من التمحلات و التأويلات فى المعنى اللغوى للفظ المولى، و لكن ذلک لم يصل بهم إلى نتيجة مرضـية. نحن نترک هذا للباحث الحر المتجرد عن العاطفة و التحيّز، و لا نطيل الحديث مع الشـيخ فى هذا الموضوع، كما أننا لا نطيل الحديث فى قوله: و يقينى أن التشـيع كان ستارا احتجب وراءه أعداء الإسلام من الفرس و اليهود و الروم و غيرهم إلى آخره (1). لأن هذه العبارة قد مرّت على أسـماعنا من كثير ممن يريد أن يثير الفتنة، و ينشـر الشـغب، و قد رددها المستشرقون الذين يريدون فى أبحاثهم الوقيعة بين المسلمين، و إن فضيلة الشيخ لكثرة اتباعه لأولئک الكتّاب، و اقتباسه فى تعبيره من عباراتهم، وضع هذه الآراء الشاذة فى إطار اليقين، كما أن يقينى فيه أنّه قاصـر عن إثبات ما يدعم دعواه من الطرق العلمية. و يحق لنا أن نسأل فضـيلة الشـيخ فنقول: لأى شـىء لا يكون التـدخل من قبل أعـداء الـدين فى صـفوف سائر الطوائف هدما للدين، و تآمرا على أهله؟ أ ليست فرق الكرامية التى يبلغ عددها اثنى عشر فرقة و أصولها ستة و هم: العابدية، و النونية، و الزربنية، و الإسحاقية، و الواحدية، و أقربهم الهيصمية و هم منتسبون لأهل السنّة (2). و هؤلاء قد ابتدعوا فى الدين، و أضلّوا خلقا كثيرا، و قد اندسوا فى الحنابلة، و انتسبوا لأحمد بن حنبل. و كان مؤسس هذه الفرقة (الكرامية) هو محمّد بن كرام السجستانى المتوفى سنة

1- 1) الحديث و المحدثون ص 91.

2- 2) الملل و النحل ج 1 ص 159. [1]

255 ه كان أصله من زرنج، و نشأ بسجستان، ثم دخل بلاد خراسان، و جاور بمكة خمس سنين، ثم أظهر بدعته، و تبعه خلق كثير، و شاع ذكره، حتى قال الشاعر فى مدحه: الفقه فقه أبى حنيفة وحده و الدين دين محمّد بن كرام

إن الذين لجهلهم لم يقتدوا فى الدين بابن كرام غير كرام

(1)ذهب محمّد بن كرام إلى أن الإيمان قول باللسان، و إن اعتقد الكفر بقلبه فهو مؤمن. و زعم ابن كرام و أتباعه: أن معبودهم محل الحوادث و وصفوه-تعالى اللّه عما يصفون-بالثقل و ذلک أن ابن كرام قال فى كتاب عذاب القبر فى تفسير قوله إِذَا اَلسَّماءُ اِنْفَطَرَتْ إنها انفطرت من ثقل الرحمن عليها، و لهم مزاعم كثيرة و آراء باطلة (2)و لهم فى الفقه أقوال. منها: صلاة المسافر يكفيه تكبيرتان من غير ركوع و لا سجود، و لا قيام و لا قعود، و لا تشهّد و لا سلام. و منها: صحة الصلاة فى ثوب كله نجس، و على أرض نجسة، و نجاسة ظاهر البدن، و إنما أوجب الطهارة عن الأحداث دون الأنجاس. و منها: أن غسل الميت و الصلاة عليه سنّة غير مفروضة، و إنما الواجب كفنه، و دفنه. و منها: القول بصحة الصلاة المفروضة، و الحج المفروض بلا نية. قال الشيخ زاهد الكوثرى: و كثير من الكرامية قالوا بحلول الحوادث فى اللّه تعالى و حلوله فى الحوادث، اندسوا بين الحنابلة، فأضلوا خلائق، و للّه فى خلقه شئون، و كذلک فعل البربهارية و السالمية (3). و نحن لا نريد أن نتناول بالبحث جميع الفرق التى نسبت لأهل السنّة و تزعمها رجال من الدخلاء، كالمشبهة و المجسمة و المريسية و غيرهم، لأنا لا نود أن نتبع

1- 1) لسان الميزان ج 5 ص 354.

2- 2) الفرق للبغدادى ص 130-137. [1]

3- 3) الفرق بين الفرق ص 121.

طريقة من يسطو على القديم من الشبه و الآراء، و يطلوه بطلاء حديث، تغريرا للبسطاء، و استمالة للدهماء، فجمعوا بين جريمتين: جريمة الخيانة و جريمة الخداع، فوق ما اقترفوا من جريمة الطعن فى سيرة أهل البيت المنزّهين من كل عيب و المطهرين من كل دنس، و هم حماة الدين و أعلام المسلمين. عذرنا من ذهب لذلک من السلف، و عفى اللّه عما سلف، و لكن ما عذر أبناء العصر الحاضر الذين وقفوا على بواعث تلک الاتهامات الموجهة إلى الشيعة، و عرفوا أهداف السياسة فى ذلک؟ و هم يتجاهلون حقيقة لا يمكنهم جهلها. و على أى حال فإنا لا نريد إطالة الوقوف مع الشيخ (أبو زهو) فى هذا الموضوع، إذ الأمر يدعونا إلى إطالة البحث، و تقديم قوائم بأسماء رجال من أبناء فارس، دخلوا فى صفوف فرق المسلمين من غير الشيعة، و نشروا كثيرا من المذاهب، و لو أنه أطل ببحثه على تراجم رجال المذهب الحنفى و أعيانه، لوجدهم من أبناء فارس، فقد قاموا بنشر المذهب الحنفى، و ساندوا حركته بكل عصر، و لعل ذلک يكفى لإقناع الشيخ فى بطلان قوله. نعم لا نريد إطالة النقاش فيما تقوّله على الشيعة، و لم يكن هو أول من يسهم فى تجاهل الحقائق، فكم رأينا كثيرا من أمثاله و أعرضنا عن نقاشه. و الشىء الذى يلزمنا أن نقف عليه وقفة أسف و تألّم و هو قوله بالمبحث الرابع إذ يقول: كان من وراء الشيعة، و الخوارج و من على شاكلتهم، الجمهور الأعظم ممن لم يتدنسوا بالتشيع (1). . . هكذا يقول و ما أعظم ما يقول. إنه يرى أن الانتساب إلى التشيع دنس، و نحن لا نقول فى رده أى شىء، إلاّ أننا نطلب ممن قرظوا الكتاب و مدحوه، أن يراجعوا ضمائرهم فى صحة هذا القول و هل ارتضوا ذلک؟ و من العجيب أن يكون كذلک!! أ يكون التشيع دنس و قد انتمى إليه كبار الصحابة و خيار التابعين؟! أ يكون التشيع دنس و هو اتباع على و حبه و بغض أعدائه، و قد دعى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لذلک فى بدء دعوته؟!

1- 1) الحديث و المحدثون ص 98.

غريب و أيم الحق أن تصدر كلمة كهذه من إنسان يدعى العلم و المعرفة، و يتصدر للتدريس فى أصول الدين. إنها كلمة خرجت من قلب يحترق غيظا عند ما يبلغه تقارب المسلمين، فى عصر يلزمهم ذلک، إنه يفقد معنوية لا ينالها إلاّ بالتفرقة، و إثارة الفتنة. أى قلم استطاع أن يسطر هذه الحروف لكلمة عظيم وقعها على المنصفين من المسلمين، الذين يسوؤهم ما حل بمجتمعهم، من شحناء و بغضاء، جرتهما عليهم طائفية رعناء و عصبية عمياء. فلنترک حساب هذا الشيخ على ما تجناه فى كتابه، و ما افتعله فى أبحاثه، و لنا معه عودة إن شاء اللّه. كما أننا نترک الوقوف مع غيره من أمثاله، و من على شاكلته، ممن تجردوا للكذب و الافتراء، و نظروا إلى الشيعة من زاوية التعصب الطائفى أو غير ذلک، فسلّوا عليهم سيوف النقمة. وَ ما نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاّ أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللّهِ اَلْعَزِيزِ اَلْحَمِيدِ .

الناقمون على الإسلام و أهل البيت:

و على أى حال إننا إذا أردنا أن نحاسب الناقمين على الشيعة طبقا للمنطق الصحيح، على مواقع الخطأ فى اتهام الشيعة بأمور لا صلة لها بالواقع، و لا نصيب لها من الصحة، فإن الأرقام تقف عن مسايرتنا، و ربما تقف عن الإحصاء، و لا نريد ذلک، و لكننا نريد منهم التوسع فى التفكير الحر، و ترک المغالطات، و التثبت فى النقل، فقد مرّت العصور التى تدعوهم إلى إثارة الفتن، و إيقاد نار البغضاء بين المسلمين. لقد رأينا كيف نشأت تلک الفئات، و عرفنا الأسباب التى دعتهم إلى الادعاء بالتقرّب من أهل البيت. إن العداء المتأصل فى قلوب أولئک المنهزمين أمام قوة الإسلام الذاتية، حملهم على مقابلته من طريق غير مباشر، و إن انتحال البعض منهم حب أهل البيت، و التظاهر بالولاء لهم إنما كان هدفهم فى ذلک تغرير البسطاء، و تضليل العامة، ممن ينظرون إلى الأمور نظرة سطحية، مع أنهم لمسوا رغبة السلطة الحاكمة فى تشويه سمعة أتباع أهل

البيت، ليحملوا الناس على الابتعاد عنهم، و أن يحرموا أغلبيـة الأمـة من الأخـذ بتعاليم آل محمّد، لما يدسونه فى أحاديثهم، و ما يشوهونه من أقوالهم، و قد أدرک الأئمة عليهم السّلام هذا الخطر العظيم، فقاموا بمحاربة تلک الفئة الضالة و الزمرة الملحدة، و قد وقف الشـيعة إلى جنب أهل البيت فى إعلان الحرب على تلک الفئـة، و البراءة منهم، و حكموا بنجاسـتهم و عدم الامتزاج معهم، فكان نصـيب تلک الحركة التى قام بها الملحـدون ضد الإسـلام بصورة عامة، و ضد أهل البيت بصورة خاصة، الفشل و الانهيار، و إن نالت الفوز الموقت، و أثرت فى عقول لم يكن لها نصـيب من الرجحان، فـذلک أمر يعود للظروف، و مقتضـيات الزمان، و أنه يـدور على تلک القوة الغاشـمة، قوة السـلطة المتعسـفة، التى قضت على الأفكـار بـالجمود لكى يشـغل المسـلمون فيمـا بينهم بالتنـاحر و التطاحن، و يسـكتوا عما هو أخطر و أجـدر بالمقاومة و المحاربة، و هو نظام حكمهم الذى وضـعوه حسب أهوائهم الجائرة، و رغباتهم الجشـعة، و نزعاتهم المتعسـفة، و الذى جعلوه مرتبطا بالإسـلام، و إنه النظام الـذى لا يمكن مخالفته، لأنهم انتحلوا لأنفسـهم حق وراثة الحكم، و حماية الدين و صـيانة الإسـلام. و فى النهايـة ينبغى أن نضع أمـام أعيننا الغايـة التى من أجلها التحق أولئک الغلاة بركب الشـيعة فى نظر الكثير من الكتّاب و المؤرخين، مع بعد المسافة و عدم التقارب، فإن ذلک لا يعدو نظرة التعصّب و الانتقاص، نظرا لمقتضيات الزمن و عوامل السياسة، كما هو ملموس لمن يطلب الحقيقة، و يحاول الوقوف على الواقع، و يجعل نفسه حرا فى ميدان البحث، و لا يعتمد على أقوال من يحاولون بنشـر تلک الدعايات الكاذبة غرضا معينا، و يـدبّرون أمرا مرسوما، و هم يلتقون جميعا على هـدف واحـد، و يجتمعون على غرض واحد، و ينسون فى سبيل ذلک كل ما يقتضـيه العلم و يتطلبه الحق و الإنصاف، من عـدم التحيّز و ترک التعصّب، و البعد عن المغالطة ليبدو وجه الحقيقة سافرا و يتضح الحق (و الحق أحق أن يتبع) . و لكن بمزيد من الأسف أن يسـتولى سلطان التعصّب على بعض الناس، فيسلبهم حرية الرأى، و نزاهة النقل، فيقعون فى مأسـاة الجمود الفكرى، بفقـد المرونـة و الصـراحة و خدمـة الحقيقـة، لأـنّهم يتحرّكون وسـط غيرهم من الناس، و يتنكرون للحقائق، و يبتعدون عن الواقع، الأمر الذى أدى إلى عواقب وخيمة لا يحمد عقباها.

المنحرفون عن الحق و الشيعة:

و نعود إلى أولئک المنحرفين عن الصواب، الذين جعلوا من التشيع ستارا لأعداء الدين، بل زاد بعضهم فجعل التشيع مبدأ تفرق هذه الأمة، لأن أصول التشيع من ابتداع اليهود، كما يقول السيد رشيد رضا: (كان التشيع للخليفة الرابع على بن أبى طالب رضى اللّه عنه مبدأ ترق هذه الأمّة فى دينها و فى سياستها: و كان مبتدع أصوله يهودى اسمه عبد اللّه بن سبأ، أظهر الإسلام خداعا. و دعا إلى الغلو فى على كرّم اللّه وجهه، لأجل تفريق هذه الأمّة و إفساد دينها و دنياها) (1). نعم نعود فنسائلهم عن هذا التجنّى الفاضح هل أخذوه من مصدر يوثق به؟ أم هل وقفوا على شىء من ذلک فى كتب الشيعة مما يؤيّد ما ذهبوا إليه؟ ما ذنب الشيعة عند ما اقتضت الظروف القاسية أن تحمل أعداءهم على التدخل فى صفوفهم، لتشويه السمعة و فتح باب المؤاخذة؟ و هل كل من يدعى الانتساب لقوم يؤخذون بجرمه مع بيان الفارق، و عدم العلاقة و إظهار البراءة منه و الابتعاد عنه. أى علاقة بين الشيعة و بين الغلاة، و هل يوجد ربط فى العقائد بين الفئتين؟ اللّهم إلاّ من باب المغالطة و التجاهل، فما هذا التجنى يا أيها الكتّاب؟ لقد أبيتم إلاّ أن تجعلوا حب أهل البيت غلوا، و ثبوت الوصاية لعلى خروجا عن الإسلام. انظروا إلى عواقب هذا التطرّف و الشذوذ، و كيف أدّى إلى تفريق الصفّ و تشتيت الشمل، و تغلّب أعداء الإسلام عليهم، و حكمهم لبلادهم و استغلالهم لثرواتهم. و إن تلک الافتراءات التى يصوغها المتحاملون، و يحوكها المتعصّبون، لا تقوى على مقابلة الحق، بل تذوب أمام أضوائه، و تتحطم تحت ضرباته، و الذين يصرّون

1- 1) كتاب السنّة و الشيعة أو الوهابية و الرافضة ص 4-6 طبع مصر سنة 1366 ه 1947 و الكتاب يقع فى 281 صفحة و كله سباب و تهجم و تقول بالباطل على رجال الشيعة و أعيانهم، و قد وضع له (الشيخ أحمد حامد الفقى) خاتمة، و أى خاتمة هى أنه قد تكلم بلسان لا عهد له بالآداب، و لا صلة له بالصدق، و قد أعرضنا عن مناقشته تهاونا و احتقارا.

على مثل هذه الأمور، و يأبون التورع عن مثل هذا الانحدار، إنما هم أعداء الأمة الإسلامية جمعاء، و جعلوا من الشيعة هدفا لأغراضهم، ليثيروا الفتنة و البغضاء بين صفوف المسلمين، فتحققت بذلک أغراضهم السيئة. أما قضية ابن سبأ فهى أسطورة قديمة و لعبة سياسية، و تهمة اتهم بها كبار الصحابة من حملة لواء التشيع، كأبى ذر و عمّار و غيرهم. يقول الدكتور أحمد أمين فى فجر الإسلام بعد ذكر مزدک (1)و مذهبه الثنوى: و قد اعتنق مذهبه آلاف من الناس، و لكن قبّاذ نكل به و بقومه، و دبّر لهم مذبحة سنة 523 ه كاد يستأصلهم بها. و مع هذا فقد ظل قوم يتبعون مذهبه، حتى إلى ما بعد الإسلام، إلى أن يقول: و نلمح وجه شبه بين رأى أبى ذر الغفارى، و بين رأى مزدک فى الناحية المالية فقط، فالطبرى يحدّثنا أن أبا ذر؛ (قام بالشام و جعل يقول: يا معشر الأغنياء و اسوا الفقراء، بشّر الذين يكنزون الذهب و الفضة و لا ينفقونها فى سبيل اللّه بمكاو من نار تكوى بها جباههم و ظهورهم) (2). من هذه الدعوة التى قام بها أبو ذر الغفارى يستنتج الأستاذ أحمد أمين أن أبا ذر أخذ هذا الرأى من مزدک أو قريب من رأيه. و بعد ذلک يتساءل الأستاذ عن كيفية أخذ أبى ذر لهذا الرأى، فيستدل بما رواه الطبرى: أن ابن السوداء لقى أبا ذر فأوعز إليه بذلک ثم يقول: و نحن نعلم أن ابن السوداء هذا لقب به عبد اللّه بن سبأ، و كان يهوديا من صنعاء، أظهر الإسلام فى عهد عثمان، و أنّه حاول أن يفسد على المسلمين دينهم، و بث فى البلاد عقائد كثيرة ضارة، قد نتعرّض لها فيما بعد، و كان قد طوّف فى بلاد كثيرة: فى الحجاز و البصرة، و الكوفة، و الشام و مصر، فمن المحتمل القريب

1- 1) ظهر مزدک فى فارس سنة 487 ه و هو من أهل نيسابور، و دعا إلى مذهب ثنوى جديد، و كان يقول بالنور و الظلمة، و امتاز بتعاليمه الاشتراكية، و أحل النساء و أباح الأموال، و جعل الناس شركة فيها كاشتراكهم فى الماء و النار و الكلأ، فقوى أمره و عظمت شوكته، و اتبعه السفلة، و اغتنموا دعوته فرصة، فابتلى الناس بهم و قوى أمرهم حتى كانوا يدخلون على الرجل فى داره فيغلبونه على منزله و نسائه و أمواله. .

.

2- 2) فجر الإسلام ص 110.

أن يكون قد تلقى هذه الفكرة من مزدكية العراق أو اليمن، و اعتنقها أبو ذر حسن النية، و صبغها بصبغة الزهد التى كانت تجنح إليها نفسه. . . و يقول الدكتور حسن إبراهيم فى كتابه (تاريخ الإسلام السياسى) بعد أن ذكر بيان الحالة التى كان عليها المسلمون فى أخريات خلافة عثمان: فكان الجو ملائما تمام الملاءمة، و مهيئا لقبول دعوة عبد اللّه بن سبأ، و التأثر بها إلى أبعد حد. و قد أذكى نيران هذه الثورة صحابى قديم، اشتهر بالورع و التقوى، و كان من كبار أئمة الحديث، و هو أبو ذر الغفارى (1)الذى تحدّى سياسة عثمان، و معاوية واليه على الشام، بتحريض رجل من أهل صنعاء هو عبد اللّه بن سبأ، و كان يهوديا فأسلم، ثم تنقل فى البلاد الإسلامية، فبدأ بالحجاز، ثم البصرة، فالكوفة، و الشام و مصر. فأنت ترى أن هذا الصحابى الجليل، الذى امتاز بصدق اللهجة، و وضوح الحجة، فاستحق أن يقول الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عن أخلاقه: «ما أقلت الغبراء و لا أظلت الخضراء أصدق لهجة من أبى ذر» (2)قد تجنّى عليه بما نسبوه إليه من التأثّر بآراء مزدك بواسطة ابن السوداء عبد اللّه بن سبأ، كما يزعم هؤلاء الأساتذة الذين لا خبرة لهم بالتاريخ و لا معرفة بأحوال الرجال. و نحن إذ نستعرض مثل هذه الآراء، لا نريد من ورائها إلاّ إعطاء صورة عن الشذوذ الفكرى، و الخروج عن قواعد الاستنتاج. كيف يصح القول بأن أبا ذر قد اعتنق رأى (مزدك) ؟ ؟ و هو خريج مدرسة

1- 1) أبو ذر هو جندب بن جنادة الغفارى، المتوفى سنة 31 ه أمه أم رملة بنت الوقيعة الغفارية، و هو رابع أربعة سبقوا إلى الإسلام، و كان من المتألهين فى الجاهلية الذين عبدوا اللّه و تركوا الأصنام، و لما أسلم أجهر فى إسلامه فى البيت الحرام بمكة، فضربه رجال من قريش حتى ضرجوه بدمه، و أغمى عليه فتركوه ظنا منهم أنّه مات، و قد ورد عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أحاديث كثيرة فى مدحه، و رحل إلى الشام فى خلافة عثمان، فأنكر على معاوية سيرته و سوء عمله، و أعلن بالإنكار عليه، فشكاه معاوية إلى الخليفة، و أخرجه من الشام و نفاه إلى الربذة حيث توفى بها وحده، فكان كما قال فيه النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «رحم اللّه أبا ذر يعيش وحده و يموت وحده و يبعث وحده» . و لما انتقل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلى جوار ربه كان أبو ذر غائبا فعاد و قد ولى أبو بكر، فقال: أصبتم قناعة و تركتم قرابة، لو جعلتم هذا الأمر فى أهل بيت نبيكم ما اختلف عليكم اثنان.

2- 2) الاستيعاب بهامش الإصابة ج 1 ص 216. و [1]الإصابة ج 1 ص 64. [2]

محمّد صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم و المنتهل من علومه، و الممتثل لتعاليمه، و قد وصـفه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بما سمعت آنفا كما وصفه الإمام على عليه السّلام بقوله: «أبو ذر وعاء ملئ علما ثم أوكئ عليه» (1). و من كان كذلک أ يحتاج بآرائه و أقواله إلى يهودى، فيتأثّر بـأقواله و آرائه؟ فتكون أساسـا لـدعوته التى قـام بها. و لكن عوامل السـياسة، و مؤثرات الدعايـة قلبت المفاهيم و غيّرت من نظرة الناس إلى الحقائق، إذ اقتضت الظروف تبرير عمل معاويـة، و حمله على الصـحة، و أن إنكار أبى ذر عليه كان بدافع عن اعتقاد خارج عن الإسـلام، و لهذا فقد التجأ أنصار معاوية و المدافعون عنه إلى أن يصـبغوا دعوة أبى ذر بصـبغة التأثّر بآراء غير المسلمين. ليسلم معاوية من الطعن، و إن أصاب الطعن صـميم تعاليم الإسـلام. هذا و مع التنزل فى صـحة قصة ابن سبأ الذى جعلوا منه بطلا لجميع الحركات فى ذلک العهد، فهو الـذى رفع صوته بالكوفة إنكارا على عثمان، فاسـتجابت له الجماهير، و رحل إلى مصـر فغير القلوب، و جهز الجيوش لحرب عثمان، و أقام فى المدينة، فحوّل الأمور عن مجراها و أغرى بعض الصـحابة، أمثال أبى ذر، و عمار بن ياسـر (2)و محمّد بن حذيفة (3)و عبد الرّحمن بن عديس (4)و محمّد بن أبى بكر (5)

1- 1) الإصابة ج 4 ص 64. [1]

2- 2) هو أبو اليقظان عمار بن ياسـر بن عامر بن مالک بن قيس من بنى ثعلبة و أمه سـمية، و هو سابع سبعة أظهروا الإسلام و جاهروا به، و قد قال فيه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «إن عمارا ملئ إيمانا إلى مشاشه» . و كان من المعذبين فى اللّه هو و أبوه و أمّه، و قد مات والده متأثرا من تعذيب قريش إياه على إسـلامه، و كان عمار مع على فى حرب الجمل و صـفين؛ و قتل بصفين مساء الخميس 9 صفر سنة 37 ه قتله أهل الشام، فكان قتله مصداقا لقول رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «يا عمار تقتلک الفئة الباغية» .

3- 3) هو أبو القاسم محمّد بن حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شـمس بن عبد مناف، و أمّه سـهلة بنت سهيل بن عمر العامرية، ولد بأرض الحبشة على عهد رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم، و كان من أشد الناس إنكارا على عثمان، و ذهب إلى مصر، فأخرج نائبه عبد اللّه بن أبى سـرح من مصـر، و بايعه أهل مصـر، و لما ولى على (عليه السـلام) أقر محمّد بن حذيفة على مصر، و بقى على إمارته، و قد غدر به معاوية و سجنه بدمشق و قتله.

4- 4) عبـد الرحمن بن عديس البلوى المقتول سـنة 36 ه كان ممن شـهد الحديبيـة، و بايع تحت الشـجرة، و كان ممن أظهر الإنكار على عثمان، و قاد جيش المصريين لحربه يوم الدار، و قد سجنه معاوية، و غدر به بعد المهادنة و قتله.

5- 5) محمّد بن أبى بكر و أمه أسماء بنت عميس، نشأ فى حجر على، و شهد معه حروبه، ثم ولاه مصر سنة 37 ه فجهز إليه معاوية جيشا و قتل صبرا، و ادخلوا جسده فى بطن حمار ميت فأحرقوه، و ذلک فى سنة 38 ه.

و صعصعة بن صوحان العبدى (1)و مالک الأشتر (2): و غيرهم من صلحاء الصحابة و كبار التابعين. إلى آخر ما نسبوه إليه من أعمال، و كل ذلک لا يمتّ إلى الواقع بصلة، لأن قصة ابن سبأ هى من القصص الخرافية، و قد تفرد الطبرى بذكرها مستندا إلى سيف بن عمرو التميمى البرجمى الكوفى، و إذا رجعنا إلى ترجمته لنقف على قيمة ما يرويه، فإنا نجدهم يصفونه بالواضع للحديث، ساقط الرواية، يروى الموضوعات عن غير الثقات، عامة أحاديثه منكرة، متهم بالوضع و الزندقة (3)إلى آخر ما ورد فى وصفه عن علماء الرجال كابن معين، و أبى حاتم، و أبى داود، و الدار قطنى، و ابن عدى، و ابن يحيى، و ابن حبان و غيرهم. و ذلک لا يدع مجالا للشک بأن هذا الرجل قد وضع هذه القصة، و لا يقصد من ورائها إلاّ الوقيعة فى رجال المسلمين، و إثارة الفتنة فيما بينهم، طبقا للخطط التى وضعها الزنادقة فى ذلک العصر، و قد نجح هذا المخطط، فأصبح ابن سبأ بطلا مشهورا يردده الكتاب و المؤرخون. و تجدر الإشارة هنا إلى ارتباط هذا الاتهام بذلک التحسّس الدينى الذى أثارته سياسة عثمان، و التى كانت أول البوادر للتحكم و الاستبداد، و أول ظاهرة فى الحكم الإسلامى، و من أجل ذلک قام أولئک الصحابة الذين تخرجوا من مدرسة الرسول الأعظم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فأنكروا تلک الأفعال، و عارضوا تلک السياسة، فعظم ذلک على الأمويين، و قابلوا أعمالهم بالعنف من جهة، و بالحط من كرامتهم من جهة أخرى. و إن نظرة بسيطة إلى واقع الأمر، فإنا نجد اتهام الصحابة بتلک الأمور إنما هو من أعمال أنصار الأمويين، لتشويه سيرة أولئک العظماء الذين نقموا على عثمان، و أنكروا عليه سياسته التى جرت عليه نقد الصحابة و إعلان الثورة.

1- 1) صعصعة بن صوحان بن حجير بن الهجرس العبدى، أسلم على عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و كان خطيبا فصيحا، شهد مع على (عليه السلام) و لما استولى معاوية بعد الصلح نفاه إلى البحرين فمات بها.

2- 2) هو مالک بن الحارث بن عبد يغوث بن مسلمة بن الحرث بن جذيمة بن مالک النخعى، أدرک رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و كان رئيس قومه، شهد اليرموک فشترت عينه بها؛ و لقب بالأشتر، صحب عليا و شهد الجمل و صفين، و أرسله على واليا على مصر، فدس معاوية إليه السم فى العسل على يد رجل صحبه فى الطريق، أرسله معاوية لهذا الغرض، و توفى متأثّرا من السم و ذلک سنة 38 ه.

3- 3) ميزان الاعتدال للذهبى ج 1 ص 438. و تهذيب التهذيب ج 4 ص 297. و [1]فهرست ابن النديم ص 137.

و الحاصل أن وضع أسطورة ابن سبأ هى لغرض الحط من كرامة المنكرين على عثمان، و لكن المنصفين من الباحثين لم يستطيعوا السكوت عن هذه الخرافة البالية، و الأسطورة المضحكة، و الفرية الباطلة، فصرحوا بما هو الحق، و أظهروا للناس بطلانها، و ناقشوا نقاط الضعف التى تحوط بها، فنحن نشكر للمنصفين انتباههم، كما أننا نأسف لأولئک المخدوعين لانزلاقهم فى هوة التعصب، و انقيادهم للهوى و استجابتهم لداعية التفرقة، فنحن نمر بلغوهم مر الكرام، و لنسدل الستار عن فضائح جناياتهم على الحقيقة، و نكل أمرهم لذوى العقول الراجحة، و الأفكار الثاقبة الذين يقيسون الأمور بمقياس العلم، و تقترن أقوالهم بالواقع، و لا يقيمون للخرافات وزنا و لا يجعلون للتقليد الأعمى قيمة، على غرار ما يفعل الشيعة و هم يتلقون هذه التهم و كأنهم لا تعنيهم لأنها معروفة المنشأ و مكشوفة الغرض، و إنما تناقش من باب الغيرة على العلم الذى راح البعض ممن لا علاقة له به إلاّ بالألقاب و المراكز يستسلمون هذا الاستسلام الشنيع، و قد أشرنا فى كل مرة إلى أقوال ممن هم من بنى جلدتنا، أو تجمعنا و إياهم روابط العقيدة-إن شاءوا-و لم نقم وزنا للأصل الذى اعتمده أحمد أمين و غيره مما تجنّى به المستشرقون على تاريخ الإسلام و أهل الإيمان و الولاء للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و عترته الطاهرة. إن الشيعة يقصدون للغلاة، و يقوم أئمتهم بحملة مضادة لوأد حركتهم و القضاء عليها، و قد أقضّ مضجعهم نشاط هؤلاء و لم يستقرّوا حتى هدم وجودهم، و لكن غيرهم يستمد معلوماته من كتّاب لا تجمعهم بالإسلام جامعة و لا تربطهم رابطة، و يتقبلون ما يفعله هؤلاء المستشرقون بوقائع التاريخ و تدخّلهم فى أحداث الأمة الإسلامية. فإذا أخذنا الألمانى يوليوس فلهوزن فى كتابه: (الخوارج و الشيعة) ، لرأيناه كيف يستنتج و يربط الأحداث وفق غرض ظاهر لا يخفى على ذى نظر، فهو يسمح لنفسه أن يرجح ما بين الأكاذيب و الافتراءات، و أن مذهب الشيعة يرجع إلى اليهود أقرب من أن يرجع إلى الفرس، و لو كان لى غير البيان بأبلغ من هذا لعبّرت عن الاستخفاف و الاستهزاء العميقين لمثل هذه الأقوال، و ليتها صدرت من مسلم. ثم يؤخذ قول فلهوزن مصدرا-و ما أبعده عن الحقيقة. و سنأتى فى الجزء الخامس على مناقشة آراء المستشرقين. و لقد بحثنا فيما مضى موقف أئمة الشيعة من الغلاة بما لا مزيد عليه من

الوضوح و الواقعية و بما يجعل قول فلهوزن أضحوكة عند ما يقول: (إن عبادة الشيعة للّه كانت عبادة لبنى الإنسان، و النتيجة لذلک قيصرية بابويه معا. كانوا يعترضون على إمامة السلطة القائمة، و لكن إمامتهم الشرعية القائمة على دم الرسول (ذرية آل البيت) لم تكن أفضل منها إذ كانت تفضى إلى إهدار لقانون و كسر لشريعة) . و لا نناقش أمرا هو من مفاخرنا و رموز مسيرتنا حتى يظهر صاحب الأمر، و الذى قدّم الأئمة الأطهار أنفسهم من أجله، فأكدوا سياسة محاربة الظلم و مقاطعة الظالمين. و لا التقاء بين إمامة الدين التى هى صلة الرسالة و منهج النبوة و بين سلطة الظالمين و القتلة: وَ مَنْ يَتَوَلَّ اَللّهَ وَ رَسُولَهُ وَ اَلَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اَللّهِ هُمُ اَلْغالِبُونَ .

الإمام الصّادق

اشارة

أجوبة و مناظرات

تمهيد:

تقدم القول أن عصر الإمام الصّادق عليه السّلام كان عصر مجادلات و نظر، إذ اتسعت فيه دائرة الخلافات العقائدية، و انتشرت فيه المقالات المختلفة، و ظهرت هناک عقائد و مذاهب لا تتمشّى مع روح الإسلام، كما أن شبه الزنادقة و الملحدين قد ظهرت بصورة علنية، و وجد يومئذ من ينكر وجود اللّه، مستعينا على إثبات وجهة نظره بالمنطق اليونانى، إذ ظهرت نتائج التفاعل الفكرى بين المسلمين و حضارة اليونان، و انتشرت مبادئ المنطق اليونانى و الفكر الإغريقى. و دار الجدل و النقاش حول مسائل أهمّها مسألة التشبيه و التجسيم و الصفات و مسألة تحمل الإنسان مسئولية عمله، أو رفع كل مسئولية عنه، و براءته من كل إثم، إلى غير ذلک من المسائل: كقدم العالم و حدوثه، و فكرة العدل، و الكبائر، مما هو مذكور فى أمهات الكتب من الخلافات عند ما ظهرت التيارات المختلفة، التى ارتسمت فى آفاق الفكر الإسلامى. و قد رأينا فيما سبق موقف الإمام فى ردّ تلک المزاعم، و دفع تلک الشبهات، و أول ما كان يسعى إليه هو إثبات وجود اللّه و وحدانيته، و علاقة صفاته به، بأدلة عقلية مبتنية على أسس منطقية صحيحة، يحاول فيها إظهار الحق، و كشف الحقيقة بما أوتى من مواهب غزيرة، و مقدرة على البيان، فمرة يأتى بأوجز بيان فى برهانه مع الوفاء بالقصد، و أخرى يطنب فى الدليل و يوضح الحجة، و يسترسل فى البيان كما فى توحيد المفضل و غيره، فمن إيجازه حينما يسأل عن الدليل على الخالق يقول عليه السّلام: «ما بالناس من حاجة» .

فما أوجزها من كلمة و أكبرها من حجة، فإنا نجد الناس فی حاجة مستمرة فی کل شأن من شئون الحیاة، و هذه الحاجة تدل علی وجود مآل لهم فی حوائجهم، غنی عنهم بذاته، و أن ذلک المآل واحد، و إلاّ لاختلف السیر و النظام. و یسأله مرة هشام بن الحکم بقوله: ما الدلیل علی أن اللّه واحد؟ فیقول علیه السّلام: «اتصال التدبیر، و تمام الصنع» (1). و کان ما یوحیه وجود الإمام الصّادق من ثقة فی النفوس، و ما یبعثه من اطمئنان من أکبر عوامل التماسک و الاحتفاظ بالارتباط بالأصول و فهم المبادئ الکبری فی العقیدة الإسلامیة. و مع ما یتمتع به أفراد مدرسة الإمام الصّادق و تلامذته من قدرة علی الحجاج و المناظرة، فإن أصالة المنهج و بناء الأسلوب جعلا من تلک التیارات-التی غمرت الآخرین و راحوا معها متأثرین بها أو مقلدین لها فی منهجها مع الاحتفاظ بالمضمون الإسلامی-ضعیفة أمام قوة برهانها، غیر قادرة علی زحزحة المناظرین و المنافحین عن الفکر الإسلامی، بل إن طریقة الإمام الصّادق تمکنت من التحکم فی تأثیر تلک التیارات و ردّها.

موقف الإمام من الزنادقة و الشبه الفکریة:

و إن موقف الإمام الصّادق فی الدفاع عن الإسلام فی رد شبه الزنادقة و الدهریة، و خصومه من أهل الأدیان الأخری-و قد دبجت فیه آلاف الصفحات فی مئات الکتب- و هی ثروة فکریة لا غنی لأی أحد من المسلمین عنها، کما أنه علیه السّلام قد وجه أصحابه علی قدر کفاءتهم و مقدرتهم، لیخوضوا تلک المعارک الفکریة، و یقفوا فی صد تلک التیارات و الأعاصیر، فکانوا خیر معین علی حل المشاکل الفکریة و ما یتبعها من مشاکل اجتماعیة کان الإمام یهتم بها غایة الاهتمام، یقومون بتنفیذ الخطط التی یرسمها لهم، و تحت إشرافه یکون القیام بها و السیر علیها، فهو المصدر الأول و المنتهی الأخیر لتلک التعالیم التی تقوم بها النخبة الصالحة من أصحابه. فکانت لهم الید الطولی فی خوض تلک المعارک و محاربة أهل الإلحاد و الزندقة و مناظرة أهل العقائد الفاسدة و الفرق الشاذة. و کان علیه السّلام ینهی عن الکلام فی ذات

1- 1) الإمام الصّادق للشیخ المظفر نقلا عن توحید الصدوق. [1]

اللّه فيقول: «تكلموا فى خلق اللّه، و لا تتكلموا فى اللّه؛ فإن الكلام فى اللّه لا يزيد صاحبه إلاّ تحيرا» . و يقول عليه السّلام لمحمّد بن مسلم: «يا محمّد إن الناس لا يزال بهم المنطق حتى يتكلموا فى اللّه، فإذا سمعتم ذلک فقولوا لا إله إلاّ اللّه» . و يقول عليه السّلام: «تكلموا فى كل شىء، و لا تتكلموا فى ذات اللّه» . و يقول عليه السّلام: «إياكم و التفكر فى اللّه، و لكن إذا أردتم أن تنظروا إلى عظمته فانظروا إلى عظيم خلقه» . و أشرف عليه السّلام بنفسه على ما يدور بين أصحابه، فأخضع الجدل و المناقشة لأسس تجعل ما يدور عنده مختلفا و متميزا حتى إنه كان لا يتردد فى النهى عن علم الكلام الذى يجرى على الأهواء و الرغبات، ففى رواية يونس بن يعقوب قلت: جعلت فداک سمعتک تنهى عن الكلام و تقول: ويل لأصحاب الكلام، يقولون هذا ينقاد و هذا لا ينقاد، و هذا ينساق و هذا لا ينساق، و هذا نعقله و هذا لا نعقله، فقال عليه السّلام: «إنما قلت: ويل لقوم تركوا قولى و ذهبوا إلى ما يريدون به» (1). فهو عليه السّلام يقصد بالنهى: النهى عن الكلام الجدلى الذى تاه به كثير من الناس، لاعتمادهم فيه على خواطر توحيها إليهم نفوس ساقها إلى الكلام حب الغلبة دون أن يستندوا إلى ركن وثيق، أو يأخذوا هذا العلم من معدنه الصحيح. لقد كان الإمام الصّادق محط آمال الأمة و معقد أمانيها، و كانت مدرسته يؤمّها كبار العلماء و رجال الفلسفة و طلاّب العلوم على اختلاف أنواعها، فهو لم يختص بعلم دون آخر، و لم يقتصر على منهج واحد، فكان كل وارد يجد عنده ما يطلبه، و كل سائل يأخذ عنه أحسن الجواب، لذلک أصبحت الوفود تنهال على مدرسته من جميع الأقطار؛ لأنهم وجدوا فيه المعلّم الصادق و الإنسان الكامل. يقول الأستاذ رمضان لاوند: إن الإمام الصّادق أبا عبد اللّه هو نموذج لإنسانية المعرفة فى العصر الإسلامى الذهبى، بل بداية رائعة له، هيأت له أسباب هذه الأمة، بالإضافة إلى ذكائه الوقاد و جهوده البالغة فى البحث و التأمّل و الدراسة، كان من أولئک الملهمين الذين لا يجود

1- 1) الإرشاد للمفيد ص 241. [1]

التاريخ الإنسانى بهم، إلاّ فى فترات متباعدة، يضاف إلى هذا أيضا أنه ثمرة من ثمرات أهل البيت النبوى الشريف، ممن كانوا فى الذروة من قادة العرب و أئمتهم. و الحق أن إمامته العلمية لم تكن مقصورة على أتباعه كما ذكرت آنفا، فلقد رأينا فى مجموعة الأخبار الواردة فى الفصول السابقة أن عمرو بن عبيد، و هو من رجال السنّة، قد أتاه يسأله عن أمر دينه و يستفتيه فى شئون مختلفة، من الأوامر و النواهى الواردة فى القرآن و السنة، كما أثبتت الأخبار التى أصبحت لها صفة التواتر، و أن أبا حنيفة النعمان، و هو صاحب أحد مذاهب السنّة الأربعة، قد لازمه مدة سنتين من حياته الدراسية، و أن سفيان الثورى، و هو صاحب مذهب من مذاهب السنّة، قد لازمه و ناقشه و جاوره، و كان منه كما يكون التلميذ من أستاذه. و لئن كان سواه من علماء العصر العباسى الذين تميزوا بالثقافة الإنسانية الشاملة، قد برز فى علم دون آخر، فإن الإمام الصّادق لم يكن فى علم من هذه العلوم مقصرا به عن الآخر أبدا، لقد كانت الركائب تحمل إليه طلاّب الحكمة، و أصحاب الفقه و الفلسفة، و علم الكلام، و العلوم الطبيعية، و اللغة، و النحو، و الصرف، و البيان و الآداب فى شعرها و نثرها، و التفسير و السنّة النبوية، و أيام عرب الجاهلية و الإسلام. يضاف إلى هذا كله وقار و هيبة و استقامة، و صدق و صراحة، و حسن بيان، و تصرّف و قيادة حازمة لأتباعه، و سياسة ماهرة لأنصاره (1). و على أى حال فإن الإمام الصّادق عليه السّلام كان وحيد عصره فى مختلف العلوم و الفنون، و ظهرت فى شخصيته آثار الوراثة بأجلى صورها، و أبرز معانيها، إذ هو رضيع ثدى الإيمان، و وليد بيت الوحى و وارث علم النبى، و حافظ تراثه. لقد كان عليه السّلام علما من أعلام الهدى و دعاة الرشاد، يدعو للخير ليوجد قوة فعالة تتجه نحو الخير، ليحيى المسلمون حياة طيبة. و مهما تكن العوامل التى اتخذها أعداؤه فى صرف الناس عنه، فإنّها لم تؤثر الأثر الذى يطلبونه فى تحويل الناس عنه، إذ العقيدة أكبر مؤثر فى تكوين العقل الإنسانى-رقيا و انحطاطا-فإن الناس لا يجهلون ما لأهل البيت من الأثر العظيم فى المجتمع الإسلامى، و قد منحهم النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم صفة لا يشاركهم فيها أحد: و هى الاقتران

1- 1) الإمام الصّادق [1]لرمضان لاوند.

بالكتـاب، و عـدم افتراقهمـا إلى يوم القيامـة، و قـد مرّت الإشارة لـذلک. و لقـد انهال الناس على مدرسـة الإمام الصّادق من کل قطر على اختلاف نزعاتهم و آرائهم، فکان هو المعلم الأول، و المرشـد الناصـح، و المحـدّث الصادق. و ليس بالإمکان حصـر أجوبته عن المسائل التی وجهت إليه من طلاّب العلم، و لا بيان مناظراته التی ناظر بها أهل الأديان المختلفـة و الفرق المتفرقـة. و نحن هنا نشـير للبعض منها لئلا يخلو هذا الکتاب عن إثبات شـیء منها: سأله أبو حمزة عما يقال من أن اللّه جسم. فقال عليه السّلام: «سبحان من لا يعلم أحد کيف هو إلاّ هو، ليس کمثله شیء و هو السميع البصير، لا يحد، و لا يحس، و لا تدرکه الحواس، و لا يحيط به شیء و لا جسم و لا تخطيط و لا تحديـد» . و دخل عليه نافع بن الأزرق فقال: يا أبا عبـد اللّه أخبرنی متی کان اللّه؟ فقال عليه السّلام: «متی لم يکن حتی أخبرک متی کان، سبحان من لم يزل و لا يزال فردا صـمدا لم يتخذ صاحبة و لا ولدا» . و قال ابن أبی يعفور سألت أبا عبد اللّه عن قول اللّه: هو الأول و الآخر، فقلت أمـا الأـول فقـد عرفناه، و أما الآخر فبيّن لنا تفسـيره. . . فقال عليه السّلام: «إنه ليس شـیء يبيـد أو يتغير و يـدخل التغيير و الزوال و الانتقال من لون إلى لون، و من هيئة إلى هيئة، و من صـفة إلى صـفة، و من زيادة إلى نقصان، و من نقصان إلى زيادة، إلاّ رب العالمين، فإنه لم يزل و لا يزال بحالـة واحـدة، و هو الأول قبل کل شـیء على ما لم يزل، لا تختلف عليه الصـفات و الأسـماء» الحديث. . . (1). و قال محمّد بن مارد لأبی عبد اللّه عليه السّلام: حديث روی لنا أنک قلت: (إذا عرفت فاعمل ما شئت) . فقال عليه السّلام: «قد قلت ذلک» . قال محمّد: و إن زنوا و إن سـرقوا أو شـربوا الخمر. فقال عليه السّلام: «إنا للّه و إنا إليه راجعون، و اللّه ما أنصفونا أن نکون أخذنا بالعمل و وضع عنهم، إنما قلت: إذا عرفت فاعمل ما شئت من قليل الخير و کثيره» .

1- 1) الفصول المهمة للحر العاملی ص 56. [1]

و مثله عن فضيل بن عثمان: قال: سئل أبو عبد اللّه الصّادق عليه السّلام عما روى عن أبيه: (إذا عرفت فاعمل ما شئت) و إن بعضهم يستحل بعد ذلک کل محرم. فقال عليه السّلام: «ما لهم لعنهم اللّه؟ إنما قال أبی إذا عرفت الحق فاعمل ما شئت من خير يقبل منک» (1). و قد کان لإشاعة هذا الحديث من قبل أعداء أهل البيت أثر کبير فی نفس الإمام الصّادق، فإن أولئک القوم الذين يريدون الوقيعة و التشويه قد تأوّلوا هذا الحديث، و قلبوا حقيقته، و أذاعوا بين العامة أن معرفة الإمام کافية عن العمل، و قالوا: إنما الدين المعرفة، فإذا عرفت الإمام فاعمل ما شئت. و قد اهتم الإمام الصّادق عليه السّلام لهذه الإشاعة الکاذبة، و التأويل الباطل، فأعلن البراءة ممن ذهب لذلک، و لعنهم علی رءوس الأشهاد، و بسط القول فی معنی هذا الحديث و مدلوله، و قال عدة مرات: «إنا للّه و إنا إليه راجعون، تأول الکفرة ما لا يعلمون، و إنما قلت: أعرف و اعمل ما شئت من الطاعة، فإنه مقبول منک، لأنه لا يقبل اللّه عملا من عامل بغير معرفة، لو أن رجلا عمل أعمال البر کلها، و صام دهره، و قام ليله، و أنفق ماله فی سبيل اللّه، و عمل بجميع طاعة اللّه، و لم يعرف نبيه الذی جاء بتلک الفرائض، فيؤمن به و يصدقه، و إمام عصره الذی افترض اللّه طاعته فيطيعه، لم ينفعه اللّه بشیء من عمله، قال اللّه عزّ و جلّ فی مثل هؤلاء: وَ قَدِمْنا إِلی ما عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْناهُ هَباءً مَنْثُوراً » . و کتب إلی الآفاق بذلک کتابا قال فيه: «و إنما يقبل اللّه العمل من العباد بالفرائض التی افترضها عليهم، بعد معرفة من جاء بها من عنده، و دعاهم إليه: فأول ذلک معرفة من دعی إليه، و هو اللّه الذی لا إله إلاّ هو، و توحيده، و الإقرار بربوبيته، و معرفة الرّسول الذی بلغ عنه، و قبول ما جاء به، ثم معرفة الأئمة بعد الرّسول الذين افترض طاعتهم فی کل عصر و زمان علی أهله، و الإيمان و التصديق بجميع الرسل و الأئمة، ثم العمل بما افترض اللّه عزّ و جلّ علی العباد من الطاعات، ظاهرا و باطنا، و اجتناب ما حرّم اللّه عزّ و جلّ عليهم ظاهرا و باطنا» الخبر (2).

1- 1) الوسائل ج 1 ص 116، ص 117. [1]

2- 2) الوسائل ج 1 ص 139.

و قال سـليمان بن مهران: سألت أبا عبد اللّه الصّادق عليه السّلام عن قول اللّه عزّ و جلّ: وَ اَلْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ ؟ فقال عليه السّلام: «يعنى ملكه لا يملكها معه أحـد» و القبض من اللّه تعالى فى موضع آخر المنع، و البسط منه الإعطاء و التوسع، كما قال عزّ و جلّ: وَ اَللّهُ يَقْبِضُ وَ يَبْصُطُ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ يعنى يعطى و يوسع و يمنع، و القبض منه عزّ و جلّ فى وجه آخر الأخـذ، و الأخذ فى وجه القبول منه كما قال تعالى: وَ يَأْخُذُ اَلصَّدَقاتِ أى يقبلها من أهلها و يثيب عليها» . قال سـليمان فقلت: فقوله تعالى: وَ اَلسَّماواتُ مَطْوِيّاتٌ بِيَمِينِهِ ؟ . قال عليه السّلام: «اليمين اليد، و اليد القدرة و القوة، فقوله عزّ و جلّ: وَ اَلسَّماواتُ مَطْوِيّاتٌ بِيَمِينِهِ أى بقدرته و عونه، سـبحانه و تعالى عما يشـركون» . و سأله هشام بن الحكم بقوله: ما الدليل على أن اللّه واحد؟ فقال عليه السّلام: «اتصال التدبير و تمام الصنع» . و سأله أبو شاكر الديصانى بقوله: ما الدليل على أن لک صانعا؟ فقال عليه السّلام: «وجدت نفسـى لا تخلو من إحدى جهتين: إما أكون صـنعتها أنا أو صنعها غيرى، فإن كنت صنعتها فلا أخلو من أحـد معنيين، إما أن أكون صـنعتها و كانت موجودة، فقـد اسـتغنيت عن صـنعتها، و إن كانت معدومـة فإنک تعلم أن المعدوم لا يحدث شيئا، فقد ثبت المعنى الثالث أن لى صانعا، و هو رب العالمين» . فقال الديصانى و ما أحار جوابا. و عنه عليه السّلام فى جواب من سأله عن معنى قوله تعالى: اَلرَّحْمنُ عَلَى اَلْعَرْشِ اِسْتَوى قال: «استوى من كل شىء، فليس شىء أقرب إليه من شىء، لم يبعد منه بعيد، و لم يقرب منه قريب» ، ثم قال: «من زعم أن اللّه عزّ و جلّ من شـىء أو فى شـىء أو على شـىء فقد كفر» . فقال له السائل: فسّر لى ذلک. فقال عليه السّلام: «من زعم أن اللّه من شىء فقد جعله محدثا، و من زعم أنّه فى شىء فقد جعله محصورا، و من زعم أنّه على شىء فقد جعله محمولا» . و سئل عن شبهة المجسمة فقال عليه السّلام:

«إن الجسم محـدود متنـاه، و الصورة محـدودة متناهيـة، فـإذا احتمل الحـد احتمل الزيادة و النقصان، و إذا احتمل الزيادة و النقصان كان مخلوقـا» . فقال السائل: فما أقول؟ فقال عليه السّـلام: «لا جسم و لا صورة، و هو مجسّم الأجسام، و مصوّر الصور، لم يتجزأ، و لم يتناه، و لم يتزايد، و لم يتناقص، لو كان كما يقولون لم يكن بين الخالق و المخلوق فرق و لا بين المنشـئ و المنشأ» (1). و قال عليه السّلام: «فمن زعم أن اللّه فى شـىء أو على شـىء، أو يحول من شىء إلى شىء، أو يخلو منه شىء، أو يشتغل به شىء؛ فقد وصفه بصفة المخلوقين، و اللّه خالق كل شـىء لا يقاس بالقياس، و لا يشبه الناس، لا يخلو منه مكان، و لا يشغل به مكان، قريب فى بعده، بعيد فى قربه، ذلک اللّه ربنا لا إله غيره» (2). و سأله سـليمان بن مهران الأعمش: هل يجوز أن نقول أن اللّه عزّ و جلّ فى مكان؟ فقال عليه السّـلام: «سبحان اللّه و تعالى عن ذلـک، إنه لو كـان فى مكـان لكان محـدثا، لأن الكائن فى مكان محتاج إلى المكان، و الاحتياج من صـفات المحـدث لا من صـفات القديم» . و سـئل عليه السّلام عن قوله عزّ و جلّ: اِهْدِنَا اَلصِّرٰاطَ اَلْمُسْتَقِيمَ قال عليه السّلام: «يعنى أرشدنا إلى الطريق المؤدى إلى محبتک، و المبلغ إلى دينک، و المانع من أن نتبع أهواءنا فنعطب، أو نأخـذ بآرائنا فنهلک» (3). قال هشام بن الحكم: كنت عند الإمام الصّادق عليه السّلام إذ دخل عليه معاوية بن وهب، و عبد الملک بن أعين، فقال له معاوية: يا ابن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ما تقول فى الخبر الـذى روى أن رسول اللّه رأى ربّه؟ على أى صورة رآه؟ و عن الحـديث الذى رووه أن المؤمنين يرون ربهم فى الجنّة، على أى صورة يرونه؟ فتبسم عليه السّـلام ثم قال: «يا معاويـة ما أقبـح بالرجل يأتى عليه سـبعون سـنة أو ثمانون سـنة يعيش فى ملک اللّه و يأكل من نعمه، ثم لا يعرف اللّه حق معرفته! !»

1- 1) الكافى باب النهى عن الجسم و الصورة. [1]

2- 2) البحار ج 3 ص 90. [2]

3- 3) الإمام الصّادق لرمضان لاوند ص 63. [3]

ثم قال: «يا معاويـة إن محمّـدا لـم ير الرب تبارک و تعالى بمشاهـدة العيان، و إن الرؤية على وجهين: رؤية القلب و رؤية البصـر، فمن عنى برؤية القلب فهو مصـيب، و من عنى برؤية البصـر فقد كفر باللّه و آياته، لقول رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: من شبّه اللّه بخلقه فقد كفر. و لقد حدّثنى أبى عن أبيه عن الحسـين بن على عليهما السّـلام: سـئل أمير المؤمنين عليه السّـلام فقيل له: يا أخا رسول اللّه هل رأيت ربک؟ فقال: و كيف أعبد من لـم أره؟ لـم تره العيون بمشاهدة العيان، و لكن رأته القلوب بحقائق الإيمان، فإذا كان المؤمن يرى ربه بمشاهدة البصـر فإن كل من جاز عليه البصـر فهو مخلوق، و لا بد للمخلوق من الخالق. فقد جعلته إذن محدثا مخلوقا، و من شـبهه بخلقه فقد اتخذ مع اللّه شريكا. ويلهم أو لـم يسمعوا بقوله تعالى: لا تُدْرِكُهُ اَلْأَبْصارُ وَ هُوَ يُدْرِکُ اَلْأَبْصارَ وَ هُوَ اَللَّطِيفُ اَلْخَبِيرُ و قوله: لَنْ تَرانِى وَ لكِنِ اُنْظُرْ إِلَى اَلْجَبَلِ فَإِنِ اِسْـتَقَرَّ مَكانَهُ فَسَوْفَ تَرانِى فَلَمّا تَجَلّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا و إنما طلع من نوره على الجبل كضوء يخرج من سم الخياط، فـدكّت الأرض، و صعقت الجبال، فخرّ موسى صعقا، فلما أفاق قال: سبحانک تبت إليک من قول من زعم أنک ترى، و رجعت إلى معرفتى بک، إن الأبصـار لاـ تـدرکک، و أنـا أول المؤمنين و أول المقرين بأنـک ترى و لاـ ترى و أنت بـالمنظر الأعلى» . ثم قال عليه السّـلام: «إن أفضـل الفرائض و أوجبها معرفـة الرب، و الإقرار له بالعبوديـة، و حـد المعرفـة أن يعرف أنه لا إله غيره، و لا شبيه له و لا نظير، و أن يعرف أنه قـديم مثبت موجود غير مقيّد، موصوف من غير شبيه، ليس كمثله شـىء و هو السـميع البصـير، و بعده معرفة الرسول و الشهادة بالنبوة» . و له عليه السّـلام كثير من الحجج فى الرد على من جوّزوا الرؤية للّه فى البصر سواء فى الدنيا أو فى الآخرة، لأنهم اختلفوا فى ذلک، إذ جوّزها قوم فى الـدنيا و الآخرة، و منعها آخرون فى الدنيا و أجازوها فى الآخرة، كما هو مذهب الشافعى. و ذهب أهل البيت عليهم السّـلام إلى اسـتحالة الرؤيـة فى الدنيا و الآخرة، و عدم إمكانها مطلقا لأنه تعالى لا تُدْرِكُهُ اَلْأَبْصارُ وَ هُوَ يُدْرِکُ اَلْأَبْصارَ وَ هُوَ اَللَّطِيفُ اَلْخَبِيرُ (1). لأن الأبصار إنما تتعلق بما كان فى جهة أصلا أو تابعا، كالأجسام و الهيئات، و علل

1- 1) سورة الأنعام:102. [1]

ذلک بأن الباصرة لا تکون فی حیز الممکنات ما لم تتصل أشعة البصر بالمرئی و یمتنع اتصال شیء بذاته جلّ و علا. و لما اشتهرت مقالة المفوضة: و هم الذین یقولون بتفویض الأفعال إلی المخلوقین، و رفعوا عنها قدرة اللّه و قضاءه، عکس المجبرة الذین أسندوا الأفعال إلیه تعالی، و أنه أجبر الناس علی فعل المعاصی، و أجبرهم علی فعل الطاعات، و أن أفعالهم فی الحقیقة أفعاله، فکان أثر هاتین الفکرتین سیئا فی المجتمع الإسلامی. فتصدی الإمام علیه السّلام لرد هؤلاء، و أعلن العقیدة الصحیحة فی جوابه البلیغ و رده الشهیر و هو قوله: «لا جبر و لا تفویض، و لکن أمر بین أمرین» . و خلاصته: أن أفعالنا-من جهة-هی أفعالنا و تحت قدرتنا و اختیارنا، و من جهة أخری هی مقدورة للّه تعالی، داخلة تحت سلطانه فلم یجبرنا علی أفعالنا، حتی یکون قد ظلمنا فی عقابنا علی المعاصی، لأن لنا القدرة علی الاختیار فی ما نفعل، و لم یفوض إلینا خلق أفعالنا حتی یکون قد أخرجها عن سلطانه، بل له الخلق و الأمر و هو قادر علی کل شیء و محیط بالعباد. و بهذا تعتقد الشیعة، و مذهبهم وسط بین المذهبین کما بیّنه أئمة الهدی و دلت علیه کلمة الإمام الصّادق علیه السّلام فی جوابه هذا. و قال محمّد بن عجلان: قلت لأبی عبد اللّه الصّادق: فوض اللّه الأمر إلی العباد؟ فقال علیه السّلام: «اللّه أکرم من أن یفوض إلیهم» . قلت: فأجبر العباد علی أفعالهم؟ فقال علیه السّلام: «اللّه أعدل من أن یجبر عبدا علی فعل، ثم یعذبه علیه» . و بلغه علیه السّلام مقالة الجعد بن درهم (1)و هی أنه جعل فی قارورة ترابا و ماء، فاستحال دودا و هواما، فقال الجعد: أنا خلقت هذا لأنی سبب کونه.

1- 1) الجعد بن درهم: أصله من خراسان، و یقال أنه من موالی بنی مروان، سکن دمشق و کانت له بها دار، و إلیه ینسب مروان الحمار آخر خلفاء بنی أمیة، لأنه کان معه أو مؤدبه، فیقال: مروان الجعدی؛ و الجعد هو أول من أظهر القول بخلق القرآن، و قد غضب علیه بنو أمیة فتطلبوه و هرب إلی الکوفة، فقبض علیه خالد القسری فقتله یوم الأضحی سنة 124 ه و قال للناس: ضحوا یقبل اللّه منکم فإنی مصح بالجعد. فنزل إلیه و ذبحه تحت المنبر.

فقـال الإمام جعفر بن محمّـد الصّادق عليه السّـلام: «ليقل كم هى و كم الـذكران و الإناث إن كان خلقها، و كم وزن كل واحـدة منهنّ، و ليأمر الذى سعى إلى هذا الوجه أن يرجع إلى غيره» (1)! ! . قال ابن حجر: فبلغه ذلک-أى قول الإمام الصّادق-فانقطع و رجع. و سأله سدير الصيرفى عن معرفة اللّه تعالى. فأجابه عليه السّلام عن المعرفة بالوهم، و المعرفة بالاسم، و المعرفة بالصفة، و فصّل له جميع هذه الأنواع، و ذكر له المعرفة الصـحيحة. ثم ذكر صفة الإيمان الصحيح، و كيف يصبح الرجل مؤمنا حقا، و أن ذلک لا يحصل إلاّ بالإقرار و الخضوع للّه و التقرّب إليه، و الأداء له بما فرض من صـغير و كبير. ثم أخذ فى التفصـيل و البيان، و ذكر بعد ذلک صفات الإسلام العامة، و الأشياء التى يسـتحق الإنسـان بهـا إطلاـق الإسـلام عليه. ثم ذكر أسـباب الخروج من الإيمـان، و ذكر معنى الفسق، و بيّن الكبـائر التى يكون بها فساد الإيمان إلى آخر ما ذكر فى الجواب عن ذلک تفصيلا (2).

طرق معيشة العباد:

و سأله سائل فقال: كم جهات معايش العباد التى فيها الاكتساب و التعامل و وجوه النفقات؟ فقال عليه السّـلام: «جميع المعايش كلها من وجوه المعاملات فيما بينهم مما يكون لهم فيها المكاسب أربع جهات من المعاملات» . فقال السائل: أ كلّ هـذه الأربع جهات حلال، أو كلهـا حرام، أو بعضـها حلال و بعضـها حرام؟ فقال عليه السّـلام: «فى هـذه الأجناس الأربعـة حلال من جهـة، و حرام من جهـة، و هـذه الأجناس معروفات، فأول هذه الجهات الأربع: الولاية و تولية بعضهم على بعض.

1- 1) لسان الميزان لابن حجر ج 2 ص 105.

2- 2) تحف العقول ص 325-329.

ثم التجارة فی جمیع البیع و الشـراء بعضهم من بعض، ثم الصناعات من جمیع صنوفها. ثم الإجارات، و کل هذه تکون حلالا من جهة و حراما من جهة، و الفرض من اللّه علی العباد فی هذه المعاملات: الدخول فی جهات الحلال منها، و العمل بذلک الحلال و اجتناب جهة الحرام منها» . ثم أخذ علیه السّلام فی التفصیل: فذکر الولایة و قسمها إلی حلال، و هی ولایة ولاة العدل الذین أمر اللّه بولایتهم و تولیتهم علی الناس. و أما الحرام منها، فهی الولایـة لأئمـة الجور و العمل لهم، و الکسب معهم بجهـة الولایـة لهم، فهو حرام و محرم، معذب من فعل ذلک قلیلا أو کثیرا. و علل ذلک علیه السّلام بأن ولایة الوالی الجائر دروس للحق کله، و إحیاء الباطل کله، و إظهار الظلم و الفساد، و إبطال الکتب، و هدم المساجد، و تبدیل سنة اللّه و شرائعه، و لذلک حرم العمل معهم و معونتهم، و الکسب معهم إلاّ بجهة الضرورة، نظیر الضـرورة إلی الـدم و المیتـة. ثم ذکر التجارة و ما یحل من البیع و ما یحرم منه، فالحلال ما هو غـذاء العباد و قوامهم فی أمورهم، فی وجوه الصـلاح الذی لا یقیمهم غیره إلی آخر بیانه فی ذلک. و الحرام منه هو کل أمر یکون فیه الفساد مما هو منهی عنه من جهة أکله و شـربه، أو کسـبه أو نکاحه، أو ملکه، أو إمساکه، أو هبته أو عاریته. ثم ذکر علیه السّلام بقیة الجهات من الصـناعة و الإجارة، و وجوه إخراج الأموال و إنفاقها و ما یحل للإنسان أکله و ما لا یحل، و ما یجوز من اللباس و ما لا یجوز، إلی آخر بیانه و تفصیله فی جوابه لسائله.

سلوک الوالی مع الرعیة:

و سأله عبد اللّه النجاشی (1): عمّا یقربه إلی اللّه تعالی و إلی رسوله بما یعمله فی ولایته مع الرعیة.

1- 1) هو أبو بجیر عبد اللّه بن غنیم بن سمعان الأسدی البصری. کان والیا للمنصور علی الأهواز، و کان یری رأی الزیدیة، و قدم المدینة و دخل علی الإمام الصّادق، و [1]سأله بمسائل عدیدة فخرج منه و قد عدل عن رأیه و قال: هذا عالم آل محمّد صـلّی اللّه علیه و آله و سلّم و لا زال یراسل الإمام و یسأله عن أهم الأمور.

فأجابه علیه السّلام بجواب طویل و رسالة مفصلة منها قوله: «فإنی ملخص لک جمیع ما سألت منه، إن أنت عملت به و لم تجاوزه رجوت أن تنجو إن شاء اللّه تعالی؛ أخبرنی أبی عن آبائه عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: من استشاره أخوه المؤمن فلم یمحضه النصیحة سلبه اللّه لبه، و اعلم أنی سأشیر علیک برأی إن أنت عملت به تخلصت مما أنت متخوفه، و اعلم أن خلاصک و نجاتک فی حقن الدماء، و کفّ الأذی عن أولیاء اللّه، و الرفق بالرعیة، و التأنی و حسن المعاشرة، مع لین فی غیر ضعف، و شدة فی غیر عنف، و مداراة صاحبک و من یرد علیک من رسله، و ارتق فتق رعیتک بأن توافقهم علی ما وافق الحق و العدل إن شاء اللّه. و إیاک و السعاة و أهل النمائم، فلا یلتزقنّ منهم بک أحد، و لا یراک اللّه یوما و لیلة و أنت تقبل منهم صرفا و لا عدلا فیسخط اللّه علیک. . .» . و منها: «و لا تستصغرنّ من حلو أو فضل طعام تصرفه فی بطون خالیة، لیسکن بها غضب اللّه تبارک و تعالی، و اعلم أنی سمعت من أبی یحدث عن آبائه عن أمیر المؤمنین علیه السّلام أنه سمع النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یقول: ما آمن باللّه و الیوم الآخر من بات شبعانا و جاره جائع. فقالوا: هکلنا یا رسول اللّه. فقال صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: من فضل طعامکم و من فضل تمرکم و رزقکم تطفون بها غضب الرب. . . یا عبد اللّه إیاک أن تخیف مؤمنا، فإن أبی محمّد حدّثنی عن أبیه عن جده علی بن أبی طالب أنّه کان یقول: من نظر إلی مؤمن نظرة لیخیفه بها، أخافه اللّه یوم لا ظل إلاّ ظلّه» . ثم أخذ علیه السّلام یوجه له نصائحه، و یذکر له مکارم الأخلاق و ما یلزم أن یتحلی بها کل مسلم، و یروی له أحادیث رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی ذلک، و یختم جوابه بقوله: «أوصیک بتقوی اللّه، و إیثار طاعته، و الاعتصام بحبله، فإنه من اعتصم بحبل اللّه فقد هدی إلی صراط مستقیم، فاتق اللّه و لا تؤثر أحدا علی رضاه، و اعلم بأن الخلائق لم یوکلوا بشیء أعظم من التقوی، و أنه وصیتنا أهل البیت، فإن استطعت ألا تنال شیئا من الدنیا تسأل عنه غدا فافعل» . و ذکر الحلوانی فی نزهة الناظر أن کاتب المهدی المعروف بأبی عبد اللّه سأل الإمام الصّادق عما یستطیع به مداراة السلطان و تدبیر أمره، فأجابه الإمام علیه السّلام بما یرشده لذلک، و شرح له طرق السلوک فی مداراة السلطان، و أوصاه بأمور هامة،

و نصحه فی أشیاء کثیرة، و لا یخفی أن السائل کان کاتبا للمهدی و هو فی ولایة عهده، و کان ممن یوالی أهل البیت شأنه شأن کثیر من القواد و الأمراء و الکتّاب، الذین دخلوا فی سلطان بنی العباس لمساعدة الضعفاء، و دفع الظلم عنهم قدر استطاعتهم.

التوحید فی أجوبة الإمام للمفضل بن عمر:

اشارة

و هو جوابه للمفضل بن عمر (1)حینما سمع کلام ابن أبی العوجاء و إنکاره للصانع، فناظره المفضل، ثم بادر إلی الصادق علیه السّلام و طلب منه أن یملی علیه ما یقوی به علی مناظرة الزنادقة، فأجابه بتلک الدروس القیمة، و الحکم النافعة، التی تحتوی علی دلائل التوحید، و محکم البراهین علی وجود الصانع الحکیم، من بیان هیئة العالم، و تألیف أجزائه، مما یلزم الکل رفض فکرة المصادفة فی تجمع هذه الکائنات، و فکرة خلود المادة التی یقول بها الدهریة و الملحدون. و بعد ذلک ذکر کیفیة خلق الإنسان و تکوینه، و کیفیة ولادته و تغذیته، و غرائزه، و طبائعه، و بیان الدماغ و عظمته، و ما فیه من سائر الأعضاء من عجیب الصنع، و عظیم القدرة، إلی آخر ما یتعلّق بالحلقة الأولی من حدیثه، و هو المجلس الأول. و فی الحلقة الثانیة تحدث عن الحیوان و أنواعه، و الحکمة فی خلقه مفصلا موضحا، مفندا أقوال الخصوم، ثم ربط تفصیله لخصائص الکائنات الحیة، أنواعها و طبقاتها بفکرة اللّه و وجود الخالق و المخلوق. و فی الیوم الثالث بدأ یملی حلقته الثالثة فتحدث مطولا ـ عن نظام الکواکب العجیب، و عقلانیة تنظیم الأجواء، و علاقة الإنسان بهذه و تلک، رابطا هذا کله أیضا بفکرة الوجود الإلهی و وحدانیة اللّه. و فی الیوم الرابع تحدّث عن الأوبئة و الأمراض، و الآفات المختلفة التی تصیب الإنسان، و الحیوان و النبات، و عقلانیة علاقتها بخالق الوجود و وحدانیته أیضا.

1- 1) هو أبو عبد اللّه المفضل بن عمر الجعفی الکوفی، ولد فی الکوفة فی نهایة القرن الأول أیام الإمام الباقر علیه السّلام و توفی فی أواخر القرن الثانی عن عمر یناهز الثمانین سنة، و قد أدرک أربعة من أئمة أهل البیت، و هم: الباقر، و الصّادق، و الکاظم، و الرضا علیهم السّلام. و لم یرو عن الباقر لأنه کان صغیرا فی أیامه، و اتصل بالإمام الصّادق اتصالا وثیقا، و کان من ثقة أصحابه، و کان وکیلا علی أمواله بعد موت عبد اللّه بن أبی یعفور.

و نرى من اللازم الإشارة لـذلک اختصارا إذ لا سبيل لنقل النصوص کاملـة کما وردت لطولها، و لذلک نکتفى بذکر البعض من آيات علم الإمام الصّادق التى تحوى خصائص منطقه و مزايا أسـلوبه فى بحث دلائل التوحيـد من خلال عرض الـدقائق التى ليس بمقـدور الآخرين التعرّف عليها، فضـلا عن التـدليل و جعلها مادة فى المناظرة، و لا بـد لهـذه الأجوبة أن تجد حظها من البحث و البيان فهى من آثار الإمام التى يجدر بالباحثين تناول مضامينها و منهجها الذى قامت عليه.

المجلس الأول فى خلق الإنسان:

قال عليه السّلام بعد أن ذکر الملحدين و أسـباب شکهم و تهيئة هذا العالم و تأليف أجزائه: «نبتدى يا مفضل بذکر خلق الإنسان فاعتبر به، فأول ذلک ما يـدبر به الجنين فى الرحم، و هو محجوب فى ظلمات ثلاث: ظلمـة البطن، و ظلمـة الرحم، و ظلمة المشـيمة. حيث لا حيلة عنده فى طلب غذاء و لا دفع أذى، و لا اسـتجلاب منفعة، و لا دفع مضـرة، فإنه يجرى إليه من دم الحيض ما يغذوه کما يغذو الماء النبات، فلا يزال ذلک غذاءه حتى إذا کمل خلقه، و اسـتحکم بدنه، و قوى أديمه على مباشـرة الهواء، و بصره على ملاقات الضياء، هاج الطلق بأمّه، فأزعجه أشـد إزعاج و أعنفه حتى يولـد، و إذا ولد صـرف ذلک الدم الذى کان يغذوه من دم أمه إلى ثدييها، فانقلب ذلک الطعم و اللون إلى ضرب آخر من الغـذاء، و هو أشـد موافقـة للمولود من الدم، فيوافيه فى وقت حاجته إليه، فحين يولد تلمظ و حرک شـفتيه طلبا للرضاع، فهو يجـد ثدى أمه کإداوتين لحاجته إليه، فلا يزال يغتذى باللبن ما دام رطب البدن رقيق الأمعاء لين الأعضاء، حتى إذا تحرک و احتاج إلى غذاء فيه صـلابة ليشـتد و يقوى بدنه، طلعت له الطواحن من الأسـنان و الأضـراس، ليمضغ بها الطعام و يسـهل له إساغته، فلا يزال کذلک حتى يـدرک. . .» . ثم قال عليه السّلام: «اعتبر يا مفضل فيما يدبر الإنسان فى هذه الأحوال المختلفة، هل يمکن أن تکون بالإهمال؟» . إلى أن يقول عليه السّلام: «فمن هـذا الـذى يرصـده حتى يوافيه بکـل شـىء من هـذه المـآب؟ إلاّ الـذى أنشأه خلقا بعـد أن لم يکن، ثم توکل له بمصلحته بعد أن کان، فإن کان الإهمال يأتى بمثل هذا التدبير فقد کان يجب أن يکون العمد و التقدير يأتيان بالخطإ و المحال، لأنهما ضد الإهمال، و هذا فظيع من القول،

و جهـل من قـائله، لأـن الإهمـال لاـ يـأتى بـالصواب، و التضاد لا يأتى بالنظام، تعالى اللّه عما يقول الملحـدون علوا كبيرا» . ثم قال عليه السّـلام: «و لو كـان المولود يولـد فاهمـا عاقلا لأنكر العالم عنـد ولادته، و لبقى حيران تائه العقل إذا رأى ما لم يعرف، و ورد عليه ما لم ير مثله، من اختلاف صور العالم من البهائم و الطير، إلى غير ذلک مما يشاهـده ساعـة بعـد ساعـة و يوما بعـد يوم. ثم لو ولـد عاقلا كان يجد غضاضة إذا رأى نفسه محمولا مرضـعا، معصـبا بالخرق مسـجى فى المهد لأنه لا يسـتغنى عن هذا كله لرقة بدنه و رطوبته حين يولد، ثم لا يوجـد له من الحلاوة و الوقع من القلوب ما يوجـد للطفل، فصار يخرج إلى الدنيا غبيا غافلا عما فيه أهله، يتلقى الأشـياء بذهن ضـعيف، و معرفـة ناقصـة، ثم لا يزال يتزايد فى المعرفة قليلا قليلا، و شـيئا بعد شـىء، و حالا بعد حال، حتى يألف الأشـياء و يتمرن و يسـتمر عليها، فيخرج من حـد التأمل لها و الحيرة فيها إلى التصـرّف و الاضـطرار إلى المعاش بعقله و حيلته، و إلى الاعتبار و الطاعة، و السـهو و الغفلة و المعصـية، و فى هذا أيضا وجوه أخر: فإنه لو كان يولد أتم العقل مسـتقلا بنفسه لذهب موضع حلاوة تربية الأولاد، و ما قدر أن يكون للوالد فى الاشـتغال بالولـد من المصـلحة، و ما يوجب التربية للآباء على الأبناء من المكافأة بالبر، و العطف عليهم عند حاجتهم إلى ذلک منهم، ثم كـان الأولاـد لا يألفون آباءهم، و لا يألف الآباء أبناءهم، لأن الأبناء إذا كانوا يسـتغنون عن تربيـة الآباء و حياطتهم، فيتفرقون عنهم حين يولـدون، فلا يعرف الرجل أباه و أمّه» . ثم ذكر عليه السّـلام فوائد البكاء للطفل، و ساق البيان إلى ذكر أعضاء البدن على الشـكل الموجود. فقال المفضل: يا مولاى إن قوما يزعمون أن هذا من فعل الطبيعة. فأجابه الإمام عليه السّـلام: «سـلهم عن هذه الطبيعة أ هى شىء له علم و قـدرة على هـذه الأفعال؟ أم ليست كـذلک؟ فإن أوجبوا لها العلم و القدرة، فما يمنعهم من إثبات الخالق، فإن هذه صـفته، و إن زعموا أنّها تفعل هـذه الأفعال بغير علم و لا عمـد، و كان فى أفعالها ما قـد تراه من الصواب و الحكمة، علم أن هذا الفعل للخالق الحكيم، و أن الذى سموه طبيعة هو سنته فى خلقه الجارية على ما أجراه عليه» . و يستمر عليه السّلام فى بيان وصول الغذاء إلى البدن، و كيفية انتقال صفوه من

المعـدة إلى الكبد، فى عروق رقاق، ثم كيفية تقسـيمه فى البدن، و بروز الفضـلة منه، و ذكر نشوء الأبدان و نموها، و الحواس التى خصّ اللّه بها الإنسان. إلى أن يقول: «لو رأيت تمثال الإنسان مصورا على حائط فقال لک قائل: إن هذا ظهر هاهنا من تلقاء نفسه، لـم يصـنعه صانع. أ كنت تقبل ذلک؟ بل كنت تستهزئ به، فكيف تنكر هذا فى تمثال مصور جماد، و لا تنكر فى الإنسان الحى الناطق؟» ثم أخذ فى البيان عن خلقة الإنسان و عجيب صنعه و ما أودع فيه من القوى.

المجلس الثانى فى ذكر الحيوان:

قال عليه السّـلام: «ابتدى لک بذكر الحيوان ليتضح لک من أمره ما وضح لک من غيره، فكر فى أبنية الحيوان و تهيئتها على ما هى عليه، فلا هى فى صـلابة كالحجارة، و لو كانت كذلک لا تثنى و لا تتصـرف فى الأعمال، و لا هى على غاية اللين و الرخاوة، فكانت لا تتحامل و لا تسـتقل بأنفسـها، فجعلت من لحم رخو ينثنى، تتداخله عظام صـلاب، يمسكه عصب، و عروق تشده، و تضم بعضه إلى بعض، غلفت فوق ذلک بجلد يشمل على البدن كله» . إلى أن يقول عليه السّلام: «و فكر بعد هذا فى أجساد الأنعام، فإنها خلقت على أبدان الإنس من اللحم، و العظم و العصب، و أعطيت السـمع و البصـر، ليبلغ الإنسان حاجياته منها، و لو كانت عميا صـما لما انتفع بها الإنسان، و لا تصرفت فى شىء من مآربه، ثم منعت الذهن و العقل لتذل للإنسان فلا تمتنع عليه إذا كدّها الكدّ الشديد» . ثم أخذ عليه السّـلام يذكر مميزات كل نوع من أنواع الحيوان الثلاثـة و هى: الإنسـان، و آكلاـت اللحوم، و آكلاـت النبـات، و مـا يقتضـى كل نوع منها حاجته، من كيفيـة الأعضاء و الجوارح، فيأتيک بلطائف الحكمة و بدائع القدرة. ثم يسـتمر عليه السّـلام فى كلامه للذرة، و النملة، و الليث. و اسـتطرد ذكر الطائر و كيف خفف جسـمه، و أدمج خلقه، و جعل له جؤجؤا ليسهل عليه أن يخرق الهواء، إلى غير ذلک من خصوصيات خلقته، و هكذا فى خلق تلک الخصوصـيات، و يسـتطرد الحكمة فى خصوصـيات خلقة الدجاجة، ثم العصـفور، ثم الخفاش، ثم النحل و غيرها من صـغار الطيور، و ما جعل اللّه فيها من الطبائع، و الفطن، و الهداية لطلب الرزق.

ثم استعرض خلق السمک و مشاکلته للأمر الذی قدر أن یکون علیه فیقول: «فإذا أردت أن تعرف سعة حکمة الخالق، و قصر علم المخلوقین، فانظر إلی ما فی البحار من ضروب السمک، و دواب الماء، و الأصداف، و الأصناف، التی لا تحصی منافعها إلاّ الشیء بعد الشیء، یدرکه الناس بأسباب تحدث» . ثم ینهی کلامه علی وحدانیة واجب الوجود.

المجلس الثالث فی ذکر السماء:

قال علیه السّلام بعد أن تحدث عن السماء و لونها، و ما فیها من صواب التدبیر و عظم الحکمة: «فکر یا مفضل فی طلوع الشمس و غروبها، لإقامة دولتی اللیل و النهار، فلو لا طلوعها لبطل أمر العالم کله، فلم یکن الناس یسعون فی معاشهم و یتصرّفون فی أمورهم و الدنیا مظلمة علیهم، و لم یکن یتهنئون مع فقدهم لذة النور و روحه، و الإرب فی طلوعها ظاهر، مستغن بظهوره عن الاطناب فی ذکره و الزیادة فی شرحه، بل تأمل المنفعة فی غروبها، فلو لا غروبها لم یکن للناس هدوء و لا قرار، مع عظم حاجتهم إلی الهدوء و الراحة، لسکون أبدانهم و وجوم حواسهم، و انبعاث القوة الهاضمة لهضم الطعام و تنفیذ الغذاء إلی الأعضاء، ثم کان الحرص یستحملهم من مداومة العمل و مطاولته، علی ما یعظم نکایته فی أبدانهم، فإن کثیرا من الناس لو لا جثوم هذا اللیل لظلمته علیهم لم یکن لهم هدوء و لا قرار، حرصا علی الکسب و الجمع و الادخار، ثم کانت الأرض تستحمی بدوام الشمس، و تحمی کل ما علیها من حیوان و نبات، فقدّرها اللّه بحکمته و تدبیره، تطلع وقتا و تغرب وقتا» . ثم تعرض لبعض العقاقیر و خواصها و منافعها إلی آخر الفصل.

المجلس الرابع فی ذکر آفات الدهر:

تحدث فیه علیه السّلام عن الآفات الحادثة فی بعض الأزمان التی اتخذها الناس من الجهال ذریعة إلی جحود الخالق و الخلق، و أنکرت المعطلة و المانویة من المکاره و المصائب و ما أنکروه من الموت و الفناء، إلی أن انتهی فی البیان إلی الخالق فی شبه الملحدین، إلی آخر بیانه و نیر برهانه، و قال فی آخر کلامه للمفضل: «خذ ما آتیتک و کن للّه من الشاکرین، فقد شرحت لک من الأدلة علی الخلق، و الشواهد علی صواب التدبیر، قلیلا من کثیر، و جزءا من کل، فتدبره و فکر فیه و اعتبر به» .

و لهذه الأجوبة-الموجزة و المطولة منها-أمثال كثيرة منثورة فی کثیر من الکتب بمختلف العلوم من تفسیر وفقه، و حکمة و کلام و طب، و غیر ذلک، و قد اقتصرنا علی هذا القدر فی ناحیة واحدة و هی ناحیة التوحید، و ما یتعلّق بصفاته تعالی مما هو مذکور فی محله بکثرة، و قد ترکنا الکثیر منها نظرا لما ألزمنا أنفسنا من الاختصار.

مناظرات الإمام حول الإسلام و مبادئه:

أما مناظراته و احتجاجه علی کثیر من أهل الأدیان المختلفة؛ و الفرق المتعددة، فهی کذلک فی الکثرة و التعدد بمختلف العلوم و شتی المواضیع، فقد ناظر علیه السّلام علماء الأدیان الأخری حول الإسلام و نبیه، بأسلوب الإقناع و الحجة الدامغة. و کذلک ناظر المرتابین و أهل الزیغ و الضلال و الملحدین و الزنادقة، بمناظرات عدیدة یدعوهم فیها إلی سبیل اللّه و توحیده، و نبذ الخضوع لغیر اللّه، و عدم الشرک به، لیخرجهم بذلک من الظلمات إلی النور، و یهدیهم إلی صراط مستقیم، و الاستقامة علیه، بأسلوب قوی نافذ للعقول و القلوب معا، مراعیا فی ذلک قابلیة المخاطب و استعداده. و له مناظرات کثیرة مع رؤساء الفرق الإسلامیة، من معتزلة و مجسمة، و قدریة و جبریة، و مفوضة، و غیرهم. و هو یحاول بذلک نبذ الآراء المختلفة، و ترک الهوی و الانقسام فی الدین، و التفرّق فیه، فکان له علیه السّلام من الحجج البوالغ ما رفع به العذر، و أزال الریب، و علی سبیل المثال نذکر بعضا من مناظراته، و من أراد الاستزادة فلیرجع إلی کتب العقائد و الکلام و الحدیث، فقد تضمنت الشیء الکثیر منها. جاء أحد الزنادقة ممن یبثون الشبهات حول الدین إلی الإمام الصّادق و هو فی البیت الحرام، و بعد أن قابله و تبادلا حدیثا قصیرا قال له الإمام علیه السّلام: «انتظر حتی أفرغ من الطواف، ثم ائتنا نحدثک فنری ما عندک» . و لما فرغ أبو عبد اللّه من طوافه و صلاته، أتاه الرجل و جلس و تلامذة الإمام- و منهم هشام بن الحکم-مجتمعین عنده. فقال أبو عبد اللّه علیه السّلام: «أتعلم أن للأرض فوقا و تحتا؟» قال: نعم. قال أبو عبد اللّه: «فهل دخلت تحتها؟»

قال: لا. قال الإمام علیه السّلام: «ما یدریک ما تحتها؟» قال: لا أدری إلاّ أنی أظن أن لیس تحتها شیء. قال أبو عبد اللّه: «فالظن عجز، فلم لا تستیقن؟» . ثم أردف الإمام الصّادق یقول: «أ فصعدت إلی السماء؟» قال: لا. قال: «أ فتدری ما فیها؟» قال: لا. قال الإمام علیه السّلام: «عجبا لک لم تبلغ المشرق و لم تبلغ المغرب، و لم تصعد إلی السماء و لم تجز هناک، فلم تعرف ما خلفهنّ و أنت مع ذلک جاحد بما فیهن؟ ؟» ثم قال علیه السّلام: «أیها الرجل لیس لمن لا یعلم حجة علی من یعلم، و لا حجة للجاهل، فیا عبد الملک-و هو اسم الرجل- افهم عنّا فإنّا لا نشک فی اللّه أبدا، أ ما تری الشمس و القمر و اللیل و النهار یلجان فلا یشتبهان، و یرجعان و اضطرا لیس لهما مکان إلاّ مکانهما؟ فإن کانا یقدران علی أن یذهبا فلم لا یصیر اللیل نهارا و النهار لیلا؟ لقد اضطرا إلی دوامهما، و الذی اضطرّهما هو أعظم منهما و أکبر» . ثم أخذ علیه السّلام یناظره فی أمور کثیرة حتی أدّی به الأمر إلی الاعتراف بخطئه و رجع عن مقالته، فأمر الإمام علیه السّلام هشام بن الحکم أن یتولی توجیهه (1). و له مناظرات مع ابن أبی العوجاء (2)فی التوحید و غیره، و کان ابن أبی العوجاء

1- 1) کتاب الإمام الصّادق للأستاذ رمضان لاوند ص 183-185. و کتاب حیاة الإمام الصّادق للسبیتی ص 77-79. و کتاب الإمام الصّادق للشیخ المظفر ج 1 ص 211-212.

2- 2) ابن أبی العوجاء: هو عبد الکریم بن أبی العوجاء، خال معن بن زائدة، و کان من الزنادقة المشهورین، یقول جریر بن حازم: کان بالبصرة ستة من أصحاب الکلام: واصل بن عطاء، و عمر بن عبید، و بشار بن برد، و عبد الکریم بن أبی العوجاء، و رجل من الأزد. فکانوا یجتمعون فی مجلس الأزد، فأما عمرو و واصل فقد صارا إلی الاعتزال، و أما عبد الکریم و صالح فصححا الثنویة، و أما بشار فبقی متحیرا، و کان عبد الکریم یفسد الأحداث، فتهدده عمر بن عبید، فلحق بالکوفة، فدل علیه محمّد بن سلیمان، فقتله و صلبه و ذلک سنة 161 ه و لما أخذ لتضرب عنقه قال: لقد وضعت فیکم أربعة آلاف حدیث أحرّم فیها الحلال و أحلّ الحرام. لسان المیزان ج 4 ص 51-52.

من الزنادقة المشـهورين، و قتل على الزندقة، و اعترف عند قتله بدسّه الأحاديث الكاذبة فى أحاديث النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم. فمن تلـک المناظرات: أنّه كان هو و ابن المقفع (1)فى المسـجد الحرام يلاحظان الجمع الذى كان يقوم بالطواف حول الكعبة، فقال ابن المقفع لأصحابه: لا واحد من هؤلاء يستحق اسم الإنسانية إلاّ هذا الشيخ الجالس (و أشار إلى جعفر بن محمّد الصّادق) أما الباقون فرعاع و بهائم، فقام ابن أبى العوجاء إلى الشـيخ و تحـدث معه ثم رجع و قال: ما هـذا ببشـر! و إن كان فى الدنيا روحانى يتجسد إذا شاء ظاهرا، و يتروح إذا شـاء باطنا فهو هـذا. و حينما اقترب من الإمام و أصـبحا منفردين قال له الإمام الصّادق: «لو كان الأمر كما يقول هؤلاء (و أشار إلى الجمع القـائم بـالطواف) -و هو حق كمـا يقولون-نجا هؤلاء و عطبتم، أما إذا انعكس الحال و كان على ما تقولون-و هو ليس كما تقولون- فأنتم و إيـاهم سواء» . فسأله ابن أبى العوجاء: رحمک اللّه أيها الشـيخ أى شـىء نقوله نحن، و أى شـىء يقولونه هم؟ فأجابه الإمام جعفر: «أنى لما تقولون أن يكون كما يقولون! ؟ هم يقولون بالمعاد، و الوعد و الوعيد، و أن للسـماء إلها، و بها عمرانا، بينما تزعمون أن السماء خراب و ليس بها أحـد» . فقال ابن أبى العوجاء: لو كان الأمر كما تقول، فما منع اللّه من الظهور لجميع خلقه، و دعوتهم إلى عبادته حتى لا يصـبح اثنان فيهم على خلاف؟ لما ذا اختفى عنهم، و مع ذلک أرسل إليهم رسلا؟ لو كان قد ظهر بذاته لهم، لكان ذلک أسهل إلى الاعتقاد به.

1- 1) هو عبد اللّه بن المقفع، ولد سـنة 106 أو 107 ه فى قرية من قرى فارس اسـمها (جور) و موضـعها فيروزآباد، و يقول ابن النديم: أنه اسـمه بالفارسـية (روزبه) و معناه (المبارک) و اسم أبيه (داذويه) فلما أسـلم تسمى بعبد اللّه و تكنى بأبى محمّد، و كان حسن الأدب، واسع العلم، حاد الذكاء، و يعد فى طليعة الكتّاب الحاذقين، و قد اسـتعمله بعض الولاة و الأمراء للكتابة فى دواوينهم. رمى بالزندقة و الإلحاد، و حقد عليه المنصور لأمور كثيرة، و قد قتله سفيان بن يزيد قتلة شنيعة، و ذلک أنه أمر بتنور فاسجر، ثم أمر بابن المقفع فقطع و ألقى فى التنور و أطبق عليه.

فأجابه الإمام جعفر: «كيف اختفى عنک من أظهر قدرته فى نفسک أنت، و فى نمائک؟ !!» و كان جوابا بليغا حتى قال ابن أبى العوجاء لأصحابه: و ظل يحصى لى قدرة اللّه التى فى نفسى، و التى لم أستطع رفضها حتى ظننت أن اللّه قد نزل بينه و بينى (1). و له مناظرة أخرى: كان ابن أبى العوجاء و ابن طالوت و ابن المقفع فى نفر من الزنادقة مجتمعين فى الموسم بالمسجد الحرام، و أبو عبد اللّه جعفر بن محمّد عليهما السّلام فيه إذ ذاک يفتى الناس و يفسّر لهم القرآن، و يجيب عن المسائل بالحجج و البينات، فقال القوم لابن أبى العوجاء: هل لک فى تغليط هذا الجالس و سؤاله عما يفضحه عند هؤلاء المحيطين به، فقد ترى فتنة الناس به و هو علاّمة زمانه؟ فقال لهم ابن أبى العوجاء: نعم. ثم تقدم ففرق الناس فقال: يا أبا عبد اللّه أ فتأذن لى فى السؤال؟ فقال له أبو عبد اللّه: «سل إن شئت» . فقال ابن أبى العوجاء: إلى كم تدوسون هذا البيدر، و تلوذون بهذا الحجر، و تعبدون هذا البيت المرفوع بالطوب و المدر، و تهرولون حوله هرولة البعير إذا نفر؟ من فكّر فى هذا و قدّر علم أنه فعل غير حكيم و لا ذى نظر، فقل فإنک رأس هذا الأمر و سنامه، و أبوک أسسه و نظامه. فقال له الإمام الصّادق عليه السّلام: «إن من أظله اللّه و أعمى قلبه، استوخم الحق فلم يستعذبه، و صار الشيطان وليه، يورده مناهل الهلكة و ثم لا يصدره. و هذا بيت استعبد اللّه به عباده ليختبر طاعتهم فى إتيانه، فحثهم على تعظيمه و زيارته، و جعله محل أنبيائه و قبلة للمصلين له، فهو شعبة من رضوانه، و طريق يؤدى إلى غفرانه، منصوب على استواء الكمال، و مجتمع العظمة و الجلال، خلقه اللّه قبل دحو الأرض بألفى عام، فأحق من أطيع فيما أمر، و النهى عما نهى عنه و زجر، هو اللّه المنشئ للأرواح و الصور» . فقال له ابن أبى العوجاء: ذكرت يا أبا عبد اللّه فأحلت على غائب. فقال الإمام الصّادق عليه السّلام: «كيف يكون غائبا من هو مع خلقه شاهد، و هو أقرب إليهم من حبل الوريد، يسمع كلامهم، و يعلم أسرارهم، لا يخلو منه مكان و لا

1- 1) من تاريخ الإلحاد للأستاذ عبد الرّحمن بدرى ص 69.

يشـغل به مكان، و لا يكون إلى مكان أقرب منه إلى مكان، تشهد بذلک آثاره، و تدل عليه أفعاله، و الذى بعث بالآيات المحكمة و البراهين الواضحة محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الذى جاءنا بهذه العبادة، فإن شككت فى شىء من أمره فاسأل عنه أوضحه لک» . فأبلس ابن أبى العوجاء و لم يدر ما يقول، فانصـرف من بين يديه، فقال لأصـحابه: سألتكم أن تلتمسوا لى خمرة فألقيتمونى على جمرة. فقالوا له: اسكت فو اللّه لقـد فضـحتنا بحيرتـک و انقطاعک، و ما رأينا أحقر منک اليوم فى مجلسه. فقال: ألى تقولون هـذا؟ إنه ابن من حلق رءوس من ترون، و أومأ بيده إلى أهل الموسم. هذا أنموذج من أجوبته عليه السّلام و مناظراته فى باب التوحيد، و قد اقتصـرنا على هذا البعض و لا يسعنا ذكر أكثر منه لضيق المجال و رعاية للاختصار.

خلاصة الصراع بين دعوة الإمام الإصلاحية

و دولة المنصور العباسية

رأينا فيما مضـى من الأبحاث السابقة عن حياة الإمام الصّادق عليه السّلام كيف كانت دعوته الإصـلاحية فى ذلک العصر الذى سادت فيه موجـة عاتية من الفتن، عند ما انطلقت الأفكار، و عصـفت الآراء، و اختلف الناس فيما بينهم، فتكالبوا على حب الذات و الظفر، و تطاحنوا على الغلبة و التفوق، فانتشـرت البدع و الخرافات، و ظهرت الفرق التى تشح بثوب الإسـلام، و لكنها تتجافى عن تعاليمه و تتنكر لمبادئه، و التى هى فى الواقع أشـد ضـررا على الإسـلام من سـائر الملـل و الـديانات الأـخرى، و كـان أعظمهـا عليه أولئک المندسـين فى صـفوف المسلمين، و فيهم من يدّعى حب أهل البيت، و الانتماء إليهم، و لكنهم خصوم لهم و أعداء لدعوتهم، لذلک كان اهتمامه عليه السّلام فى أمرهم عظيما، و موقفه تجاههم حاسـما، فحاربهم حتى اسـتأصل شأفتهم و محى صفحتهم، و قد أشرنا لذلک فيما سبق. و لكن المغرضين من خصوم الشـيعة اتخذوا ذلک وسـيلة للتحامل عليهم و الوقيعة بهم، و وصـفهم بكل ما هو شائن. و بمزيد الأسف أن يتأثّر بتلک الدعاية كثير من ذوى الثقافـة، فوقعوا فى إثم الاتهام الكاذب، و تلبسوا بجريمـة مخالفـة الواقع. و على أى حال: فقـد كان الإمام الصّادق يـدعو إلى الإصلاح بين الناس و التمسک بتعاليم الدين، و الأخذ بمبادئ الإسلام لحياتهم الفردية و الاجتماعية

و الاقتصادیـة، و نبـذ الآراء المختلفة، و ترک الهوی و الانقسام فی الدین، و التفرق فیه، لتتکون وحدة إسـلامیة تجمع المسـلمین تحت رایة القرآن. و تعالیم الرسول صـلّی اللّه علیه و آله و سلّم و لتحصل الأخوة العامة، و المساواة التامة، و التضامن الاجتماعی، و ما یقوم علیه من تعاون و تعاطف، و تراحم و عـدل و إحسان، و صـدق و صبر، و بر و خیر، إذ أن الـدین الإسـلامی قـد وضع نظام المعاونة و المساعدة بین أفراده لتحصل بینهم روابط الإلفة و المحبة، و قد سـبق جمیع الأمم إلی هذا النظام. کما قد رأینا فیما سـبق کیف اعتزل الإمام الصّادق علیه السّلام السیاسة، و نهج منهج التماسک، و احتفظ بمکانته العلمیة، و هو الشخصیة التی کانت الأنظار متجهة إلیه، و الناس ینظرون إلیه نظرة إجلال و إکبار، لما منحه اللّه تعالی من طهارة النفس، و شرف المحتد، و فضل القربی، و قوة العقل و الإدراک، و الفقه فی الدین، مما جعل مدرسـته یؤمّهـا طلاب العلم من مختلف الأقطار، علی اختلافهم فی النزعات و الآراء، فکان یعلم الجاهل، و یرشـد الضال، و یهـدی إلی سواء السبیل. و حسـبنا دلالـة علی ذلک انتماء العلماء المبرزین لمدرسـته من الـذین أصـبحوا رؤساء مـذاهب، و أئمة فرق، و کلّ معترف بفضـله و مقرّ بعلمه، و مفتخر بانتمـائه لمدرسـته. حتی کان أهل العلم الـذین سـمعوا منه إذا رووا عنه قالوا: أخبرنا العالم (1). سار الإمام الصّادق فی طریق الدعوة الإصـلاحیة، و ترک الجانب السیاسـی، و لـم یزجّ نفسه فی المعترک الذی عظم خطره، لأنه کان یری أن الوقت غیر ملائم. و لـم یکن له من العـدة و العدد ما یسـتطیع أن یخوض تلک المعرکة، فأراد علیه السّـلام أن یخوض معرکة علمیة عن طریق التوجیه و الإصـلاح الاجتماعی، لیهذّب النفوس من نزعات الشر و الفساد، و قد رأینا کیف کانت دعوته، و کیف أنه ألزم الدعاة إلی العمل بما یدعون إلیه، کما عبر عن ذلک علیه السّـلام بالـدعوة الصامتـة. و قد کان أثر هذه الدعوة إلی الإصـلاح الذی کان ینشده الإمام الصّادق عظیما علی المنصور، فلم ترق فی عینه، و لـم تقع منه موقعا حسـنا، بل کان یظهر غضـبه مرة و یکتمه أخری، لأنه یعتبر إقبال الناس علی الإمام الصّادق علیه السّلام و انتشار دعوته إلی الإصلاح الاجتماعی، منهاج ثورة یستفحل خطرها، و لیس فی إمکانه إخمادها.

1- 1) تأریخ ابن واضح ج 3 ص 115.

لـذلک بقی المنصور متخوفا من آل علی بصورة عامة، و من الإمام الصّادق بصورة خاصة، و کان یعبر عنه (بالشـجی المعترض بحلقه) فلم یزل یقلّب وجوه الرأی و یدبر المکیدة و ینصب له حبال الحیل، لکی یقع الإمام الصّادق فی قبضـته، فزوّر الکتب، و أرسل إلیه من یسـتمیله إلی الثورة، و لکنه علیه السّلام کـان أمنع من عقاب الجو، فحلّق بسـداد رأیه و صـفاء تفکیره، و علمه بما وراء الحوادث، و کشف القناع عن تلک الـدسائس، و فشل المنصور بما افتعله من تهم لیـدین الإمام بـذلک فیأخذه بحجة الخروج علی الدولة التی ادعی أنها دولة شـرعیة، و الخروج علیهـا خروج علی سـلطان اللّه. و لقـد اسـتعمل المنصور تلک الخطط مع زعماء آل علی، فکانت هناک ثورات دمویـة اسـتطاع المنصور أن یقضـی بواسـطتها علی البقیـة من آل علی و الظفر بهم، و قتلهم بصورة بشـعة، بعد أن أذاقهم أنواع الأذی و ضـروب التنکیل و المحن، و هـذا ما کان یخشاه الصّادق علیهم عنـد ما أمرهم بالتریث و عدم الاسـتجابة للدعاة فی الثورة. فلقد کان الإمام الصّادق یدفع عن نفسه سـیف المنصور بکل السـبل، و یحـذر أن یصـدر منه ما یتـذرع به ذلک الطاغیـة للقضاء علیه، فکان یلـح علیه بالطلب. و لو لا معرفة المنصور و یقینه بأنه علیه السّلام کان یتحاشـی أن یجعل للسـلطان سبیلا علیه و یحذر ذلک کل الحذر لما کانت اسـتدعاءاته التی قاربت العشـرة لاستفزازه و إثارة حفیظته حتی لجأ إلی إساءة الأدب و التطاول عسی أن یبدر من الإمام ما یعتذر به المنصور لقتله. فهذا حال الإمام مع المنصور، و هو علی هذا الاحتراز و الاحتیاط، فکیف یفعل المنصور بمن یشـهر السیف؟ و کان المنصور یحج و لا یهمّه إلاّ أمر الإمام و وجوده، فروایـة الربیع صـاحب أبی جعفر: حججت مع أبی جعفر المنصور، فلمـا صـرت فی بعض الطریق قال لی المنصور: یا ربیع، إذا نزلت المدینـة فاذکر لی جعفر بن محمّد، فو اللّه العظیم لا یقتله أحد غیری، احذر أن تدع أن تذکرنی به. و فی إحدی المرات کان المنصور ینتضی سیفه شیئا فشیئا و هو یخاطب الإمام الصّادق (1). و کانت الدولة العباسیة منذ نشأتها الأولی تنتحل وراثة النبی، و أنهم أولی الناس بأمر الأمة، و هم الذین یمثلون الخلافة الراشدة، من العدل فی الحکم، و الاستقامة فی

1- 1) مهج الدعوات للسید ابن طاوس ص 184-194-195. [1]

الأمر، و المحافظة على الإسلام، لأنهم حاولوا أن يصبغوا دولتهم بصبغة الدين، و أن يظهروا أمام الناس بمظهر المحافظة على مبادئه، و أن سلطانهم هو سلطان اللّه، و يحكمون بأمره، و يسيرون على هدى الرسول، فمنحوا أنفسهم ألقاب الحماية عن الدين، و إمامة المسلمين، بدعوى احتفظوا بها لأنفسهم و أنهم يسيرون بالعدل، و يأمرون بالمعروف، و ينهون عن المنكر، و أنهم أهل بيت النبى و ورثته، إلى غير ذلک من الألفاظ الفارغة التى يحاولون من ورائها الاستئثار بالحكم، و عدم السماح لأى أحد أن يصيح فى وجوههم مطالبا بحق، أو يرفع صوته استنكارا لسوء السيرة التى ساروا عليها فى حكمهم، لأنهم يريدون أن يبقى الناس مسخّرين لإرادتهم، و أداة طيّعة لهم، إذ يزعمون أن اللّه أوجب حقهم، و أن سلطانهم هو سلطان اللّه، و أنهم جاءوا لخير الناس و لا يعملون إلاّ الصالح، و يتجنّبون الضار. فالخليفة عندهم ليس ملكا على دولة سياسية فقط، بل هو ملک على دولة دينية تحيط به رسوم دينية، و يريد أن يعتبر إماما للمسلمين، و أنه خليفة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى قيادة الأمة قيادة روحية، و أن اللّه منحه منزلة خاصة، فبينما كان الأمويون يتقلّدون الصولجان و يلبسون الخاتم رمزا على الحكم، و على أنهم ورثوا ذلک عن أسلافهم، ترى العباسيين يتقلدون البردة، التى كان الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم منحها لكعب بن زهير، عند ما مدحه بقصيدة (بانت سعاد) و كان الخليفة العباسى الأول هو أول من سن هذا التقليد، ثم ورثها الخلفاء من بعده، فكانوا يلبسون هذه البردة فى حفلات البيعة و غيرها، حتى فى الحفلات الحربية، و كثيرا ما كانوا يلبسونها فى صلاة الجماعة. يقول هلال الصّابى عند كلامه عن جلوس الخلفاء و ما يلبسونه فى المواكب: الذى جرت به العادة أن جلوس الخليفة على كرسى مرتفع، و يكون لباسه السواد، و يجعل على رأسه عمامة سوداء رصافية، و يتقلد سيف النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و يلبس خفا أحمرا، و يضع بين يديه مصحف عثمان رحمه اللّه، الموجودة فى الخزائن، و على كتفيه بردة النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم (1). و بهذه الصفة و المظاهر الخلاّبة استطاعوا التأثير على مشاعر الكثير من الناس، لينظروا إليهم نظرة التقديس و الاعتقاد بأنّهم ورثة النبى و هم أحق بالأمر، و هنا يعتبر كل من أنكر أعمالهم أو خرج عليهم خارجا على المسلمين، متعد لحدود اللّه.

1- 1) نظرة عامة فى تاريخ الفقه الإسلامى ص 193.

و سـرى هذا الاعتقاد فى نفوس البسـطاء منذ نشأة الدولة، يحدّثنا الطبرى: أن وفدا دخل على أبى العباس السفاح يقدمهم غيلان بن عبد اللّه الخزاعى، فقـال للسـفاح: أشـهد أنـک أمير المؤمنين و أنـک حبـل اللّه المتين، و أنک إمام المتقين. فقال السـفاح: حاجتک يا غيلان. قال: أسـتغفرک. قال السـفاح: غفر اللّه لک. و الواقع أن نجاح العباسـيين فى مهمة هذه الادعاءات كان بحاجة إلى بذل الجهد و إلى دعاية قوية، لتركيز هذه العقيدة، و وضع كثير من الأساطير حولها، و ادعاء البشارة بالدولة الجديدة التى تكفل للناس سـعادتهم، و تقضـى على الشـقاء الذى عاناه الناس فى العهد الأموى، و قد قام علماء السوء فى الدولة-و هم الذين تمكن الضـعف من نفوسهم و أخذ الطمع بزمام عقولهم- بنشـر تلک الدعوة الكاذبة، و حياكة الأساطير و خلق الأحاديث، حتى اسـتمر الاعتقاد يعمل عمله فى نفوس كثير من الناس، فأصبح من لا يؤمن بشـرعية السـلطان العباسـى زنديقا، و هذا ما نعبر عنه بالزندقة السياسـية التى و سم بها كثير من الناس الذين استنكروا على العباسيين سوء سـيرتهم، و أدركوا على مرور الأيام و تكرر الحوادث زيف ما يدّعونه من العدل الشامل و الحكم العادل، و أنهم ورثة النبى و أهل بيته، و هم أحق الناس بالأمر و أولاهم بالحكم، فكان المنكرون لتلک الأوضاع يتهمون بالزندقة، و يكون نصـيبهم القتل، لأنهم عارضوا سلطان اللّه و خليفـة رسوله، مع تظاهره بما يخالف ذلک، و أنهم أبعـد ما يكون عن اتباع أوامر الإسـلام، ففى عهـد السـفاح سـفكت دماء بريئة، و هدمت قرى آمنة، و استبيحت حرمات و هتكت أعراض. و كان القواد يستعملون مادة الفناء و الإبادة اتباعا لأمر الخليفة العباسى و هى: من اتهمته فاقتله (1). و لمّا ولّى يحيى بن محمّد العباسـى على الموصل من قبل أخيه السـفاح، بعد أن أنكروا أعمال عامله السابق و هو محمّد بن صول، فلما دخل يحيى بلد الموصل لم يظهر لأهله شـيئا ينكرونه، و لم يعترضـهم فيما يفعلونه، ثم دعاهم فقتل منهم اثنى عشـر رجلا، فنفر أهل البلد و حملوا السّـلاح فأعطاهم الأمان، و أمر فنودى من دخل الجامع فهو آمن، فأتاه الناس يهرعون إليه، فأقام يحيى الرجال على أبواب الجامع، فقتلوا الناس قتلا ذريعا أسرفوا فيه، فقيل أنه قتل عشرين ألفا ممن لهم

1- 1) الطبرى ج 9 ص 142 حوادث سنة 132 ه.

خواتیم، فلما کان اللیل سمع یحیی صراخ النساء اللاتی قتل رجالهنّ فسأل عن ذلک فأخبر به، فقال: إذا کان الغد فاقتلوا النساء و الصبیان. ففعلوا ذلک و استباح الزنوج نساء البلد، فلما فرغ یحیی من قتل أهل الموصل رکب فی الیوم الرابع و بین یدیه الحراب و السیوف المسلولة، فاعترضته امرأة و أخذت بعنان دابته فأراد أصحابه قتلها فنهاهم عن ذلک فقالت له: أ لست ابن عم رسول اللّه؟ أ ما تأنف للعربیات المسلمات! . فأمسک عن جوابها، و سیّر معها من یبلغها مأمنها، فلما کان من الغد جمع الزنوج للعطاء و کان عددهم أربعة آلاف فأمر بهم فقتلوا عن آخرهم (1)إلی غیر ذلک من الأمور التی جرت فی عهده علی قلة أیامه. أما فی عهد المنصور فکان الأمر أدهی و أمر، فقد واجه الناس فی عهده ألوانا من الظلم، مما لا عهد لهم به من قبل، کما صبّ جام نقمته علی العلویین، فعاملهم معاملة لم یشهد التاریخ مثلها، و طاردهم و ضیّق علیهم الدنیا، و أذاقهم أنواع الأذی و ضروب المحن، فلم یرحم کبیرا، و لم یعطف علی صغیر، و لم ینکسر لصوت ثاکل و نیاح امرأة. و مع هذا کله فقد کان یسبغ علی أعماله أبراد القداسة، و ینتحل السلطان الشرعی، و أن ما یفعله بإرادة اللّه و إذنه، فقد صرح بذلک علی المنبر فی عدة مواطن، و کما جاء فی بعض خطبه یوم عرفة بقوله: أیها الناس إنما أنا سلطان اللّه فی أرضه، أسوسکم بتوفیقه و تسدیده، و أنا خازنه علی فیئه أعمل بمشیئته، و أعطیکم بإذنه، فقد جعلنی اللّه علیه قفلا، إذا شاء أن یفتحنی لأعطیاتکم و قسم فیئکم فتحنی، و إذا شاء أن یقفلنی أقفلنی، فارغبوا إلی اللّه أیها الناس، و سلوه فی هذا الیوم الشریف أن یوفقنی للصواب، و یسددنی للرشاد، و یلهمنی الرأفة فیکم، و الإحسان إلیکم (2). فأنت تری أن المنصور یحاول أو یوجه الناس إلی الاعتقاد بشخصیته، اعتقادا یجعلهم یؤمنون بصحة أعماله، لأنها تصدر بمشیئة اللّه، إذ جعله والیا للأمر، حاکما للأمة، لیرکز بذلک عرشه الذی بات یضطرب فوق تیارات المؤاخذات، بل الثورات

1- 1) الکامل لابن الأثیر ج 5 ص 212 [1] حوادث سنة 135 ه.

2- 2) الطبری ج 9 ص 310. [2]

المتلاحقة، لسوء سيرته التى لا تتناسب مع واقع ادعائه، و مع علمه بأن قلوب أكثر الناس مع أهل البيت، كما أزعجه موقف الإمام الصّادق و انتشار ذكره. و يمكننا أن نعتبر ما يصدر منه من تقريب العلماء و التظاهر بالزهد، و الإصغاء للوعظ، إنما هى أساليب يستعين بها على تحقيق أهدافه، و ليجعل فى شخصيته ثقة للناس الذين تخدعهم المظاهر، و تسحرهم الألفاظ، كما يحاول أن يهدم ثقة الناس بمن هو أولى به من أهل البيت. فنراه يصغى لوعظ عمرو بن عبيد، و يبكى أمامه من خشية اللّه كأنه لم يرتكب جريمة، خشية من اللّه و خوفا من عقابه. و يحاول أن يؤثر على عمرو بن عبيد فلا يميل إلى ما يدعوه محمّد بن عبد اللّه الثائر الذى هزّت ثورته أركان سلطانه و جعلت المنصور لا يهدأ ليلا و لا نهارا. فقد بلغه أن محمّد بن عبد اللّه، النفس الزكية، كتب إلى عمرو بن عبيد-رئيس المعتزلة-يستميله، فضاق المنصور بذلك ذرعا و أرسل إلى عمرو بن عبيد، فلما وصله أكرمه و شرّفه، و قال: بلغنى أن محمّد بن عبد اللّه كتب إليك كتابا، قال عمرو: قد جاءنى كتاب يشبه أن يكون كتابه، فقال المنصور: فبم أجبته؟ قال عمرو: لم أجبه إلى ما أراد. ثم قال المنصور لعمرو: عظنا يا أبا عثمان. فقال عمرو: أعوذ باللّه من الشيطان الرجيم، بسم اللّه الرحمن الرحيم، أ لم تر كيف فعل ربك بعاد، إرم ذات العماد. . . إلى آخرها. فبكى المنصور بكاء شديدا كأنه لم يسمع تلك الآيات إلاّ الساعة. ثم قال عمرو: اتق اللّه قد أعطاك الدنيا بأسرها، فافتد نفسك ببعضها، و اعلم أن الأمر الذى صار إليك إنما كان بيد غيرك ممن كان قبلك، ثم أفضى إليك. إلخ. فعاد المنصور إلى بكائه حتى كادت نفسه تفيض (1). هكذا أظهر المنصور نفسه أمام رجل من العلماء، و زعيم من زعماء الطوائف بمظهر السلطان الخائف من اللّه، الباكى من خشيته، لتنطبع فى ذهنه صورة عن إمام المسلمين، فيبلغها أصحابه حتى تبرد عزائمهم عن مؤاخذته، و الإنكار على أعماله، و قد نجحت حيلة المنصور، فلم يلتحق عمرو بثورة النفس الزكية، كما أن المعتزلة لم

1- 1) حور العين [1]لأحمد بن فارس ص 210.

يخرجوا عليه و لم يستنكروا أعماله حتى مات عمرو بن عبيد. و على أى حال: فالمنصور لم يزل يقلّب وجوه الرأى، و يدبر الحيل فى القضاء على الإمام الصّادق، و لا تروق له تلك الشهرة العلمية التى اكتسبتها مدرسته، و لذلك حاول أن يحصر الفتوى بمالك بن أنس عند ما رفع منزلته، و نوه باسمه، و نادى مناديه (أن لا يفتين إلاّ مالك) كما طلب من مالك أن يضع كتابا يكون هو المرجع فى الفقه رسميا، فلا يمكن الرجوع لغيره، أو الأخذ عن أحد سواه. و إنما خص مالكا بذلك دون غيره من علماء المدينة لعلمه بانحرافه عن آل على، و أن نزعته نزعة أموية. و استمر المنصور فى تقديم العلماء ليسند عرشه الذى أصبح مهددا من خطر الدعوة لأهل البيت، و عدم الاعتراف له بأهلية الخلافة، لما اتصف به من العسف و الجور، و مخالفة أحكام الإسلام. و قد اشتهرت كلمة الإمام الصّادق عند ما سئل عمن يصلح للخلافة فأجاب عليه السّلام: «إن الإمامة لا تصلح إلاّ لرجل فيه ثلاث خصال: ورع يحجزه عن المحارم، و حلم يملك به غضبه، و حسن الخلافة على من ولّى حتى يكون له كالوالد الرحيم» . و هذه الكلمة تجرّد المنصور من أهلية الخلافة، لعدم اتصافه بواحدة منها، فلا يمكن الاعتراف له بذلك. كما أنه عليه السّلام منع الناس من الترافع إلى الحكام، و وصفهم بأنهم حكام جور و أئمة ضلال، فحكمهم غير نافذ، و طاعتهم غير لازمة، و أن الركون إليهم، و العمل لهم ضياع للحق و معاونة على الظلم. و كان يؤنب أصحابه الذين يتعاملون مع رجال الدولة، و ينهاهم عن ذلك. قال لعذافر: «بلغنى أنك تعامل أبا أيوب و الربيع (1)فما حالك إذا نودى بك فى أعوان الظلمة» .

1- 1) أبو أيوب هو سليمان بن مخلد كاتب المنصور و المقرب عنده، ثم قلّده الدواوين و الوزارة و أصبحت له عند المنصور منزلة عظيمة دون سائر الناس، حتى قالت العامة إنه قد سحر أبا جعفر، و بعد ذلك غضب عليه و نكبه و صادر أمواله، و ذلك فى سنة 153 ه. أما الربيع بن يونس: فهو الربيع بن يونس بن أبى فروة مولى كيسان، كان من أعيان الدولة و تولى نفقات المنصور، ثمّ قلّده الوزارة و قلّد ابنه الفضل بن الربيع الحجابة.

و نهی عن العمل لهم حتی فی بناء المساجد و کرایة الأنهر، و عند ما سئل عن ذلک أجاب بقوله: «ما أحب أن أعقد لهم عقدة، أو وکیت لهم وکاء» . و یقول علیه السّلام: «العامل بالظلم و المعین له و الراضی به شرکاء» . و یقول علیه السّلام: «من أعان ظالما علی مظلوم لم یزل اللّه علیه ساخطا حتی ینزع عن معونته» . و لم یهن علی الدولة کل هذه الأمور التی تقف فی سبیل تحقیق أهدافها، کما عظم علیها اختصاص مدرسة الإمام بطابع الانفصال عن الدولة، فلم یمکنهم التدخل فی شئونها، أو تکون لهم ید فی توجیهها، و تطبیق نظامها، و لم تکن بینها و بین الدولة رابطة من روابط الإلفة و الانسجام، و معنی ذلک عدم الاعتراف بشرعیة الدولة، و أنّها دولة جائرة لا یمکن الرکون إلیها، و إن تظاهر الحکام بالمحافظة علی المبادئ الإسلامیة، فتلک أمور سیاسیة لا واقع لها فی نفس الواقع. و کما قدمنا بأن الصراع بین مدرسة الإمام و بین الدولة یشتد علی مر الأیام، و قد اتخذت أنواع الأسالیب، و استعملت شتی الحیل لإخضاع تلک المدرسة لأوامر الدولة، و السیر فی رکابها، فلم تنجح الوسائل و لم تنفع الأسالیب. و هکذا یستمر هذا الصراع عبر الدهور و مدرسة الإمام الصّادق عرضة لأخطار النقمة، و هدفا لسهام الاتهام، و قد رمی المنتمون إلیها بالزندقة و الإلحاد و الخروج علی سلطان اللّه، و ذلک طبقا لمنطق السیاسة. و لعل الرجوع إلی ما کتبناه سابقا عن هذا الصراع، یغنی عن الإسهاب فی ذلک، فإنا قد ذکرنا هناک عوامل انتشار المذاهب، و مقومات شخصیات رؤسائها، و أن العامل الوحید هو قوة السلطان و مناصرة الدولة، کما أشرنا إلیه فی البحث عن عوامل المذهب الحنفی، و المالکی، و الشافعی. و الآن نشرع فی ذکر المذهب الرابع، و هو الحنبلی، فلننقل بک أیها القارئ الکریم إلی دراسة صحیحة عن حیاة رئیس المذهب الحنبلی-الإمام أحمد بن حنبل-لنری علی ضوء المعلومات التاریخیة، مقومات شخصیته، و عوامل انتشار مذهبه، و اللّه المسدد للصواب.

الإمام أحمد بن حنبل

اشارة

نسبه و نشأته

تمهيد:

نحن الآن مع الإمام أحمد بن حنبل، الإمام الرابع من أئمة المذاهب الإسلامية، و قد حاولنا قدر الجهد و الإمكان التعرف على كل واحد من أئمة المذاهب الأربعة، فى دراسة مجردة عن التحيز، كما أهملنا الكثير من الزوائد التى لا نلمس من ورائها شيئا جوهريا عن شخصية كل واحد منها، فهناك كثير من الأساطير التى وضعت فى ظروف خاصة، حول تكوين تلك الشخصية، و إبرازها فى إطار الإعجاب، و الخروج عن حدود الواقع. و قد ظهر لنا فيما سبق أسباب إيجاد تلك الأمور، كما وقفنا على عوامل انتشار مذاهبهم، دون غيرهم، و لنا فيما سبق من البحث فى الأجزاء السابقة كفاية عن الإطالة، و قد بقيت أمور تتعلق فى البحث عنهم ستأتى فى الأجزاء القادمة إن شاء اللّه. أما الإمام أحمد فإن دراسة حياته لا تخلو من الأساطير و الحكايات و الأطياف، التى جعلت فى جدول تكوين شخصيته، مما لا تتفق مع الواقع، و لا يمكن قبولها من دون تمحيص، و لا بدّ لنا من الوقوف على الحقيقة من طريق البحث العلمى، لا التخمين و الوهم. كما أن هناك آراء و عقائد نسبها الحنابلة إلى أحمد بن حنبل، و هى بعيدة عن الاعتقاد الصحيح، و قد عدّ هذا من ابتلاء أحمد فى أصحابه، لأن نسبتها إليه مما يثير الشك و الريب فى أمره. و فى عصر أحمد ماجت المدن الإسلامية بعناصر مختلفة، من أمم متباينة الأرومة، و ترجمت العلوم الفلسفية من اللغة السريانية و اليونانية و غيرهما، و امتزجت مدنيات و تصادمت حضارات.

و من طبيعة العصـر الذى تكثر فيه المنازعات، و يضطرم باحتكاک المدنيات المختلفة بعضها ببعض، أن تظهر فيه آراء و أخلاق منحرفة، و يكثر الشـذوذ الفكرى و الشذوذ الاجتماعى، حتى يصـبح الشاذ هو الكثير، و الغريب هو المألوف. فالبحث عن شخصـية علمية عاشت فى ذلک العصـر، المائـج بالاختلاف و شـذوذ الآراء، لا بـد من أن يتصف بصـعوبة أمام الباحث الذى يتجرد عن العاطفة، و الغلو و التحيز. و نحن الآن نـدرس حياة الإمام أحمـد على ضوء الواقع، تاركين وراءنا كثيرا من زوائـد المغالين، لأنها لا تكشف عن ناحيـة من نواحى تلک الشخصية التى يتطلبها البحث المتجرد عن العاطفة.

نسبه:

هو أحمـد بن محمّـد بن حنبل بن هلال بن أسـد بن إدريس بن حيان بن عبد اللّه بن أنس بن عوف بن قاسط بن مازن بن شـيبان بن ذهل بن ثعلبـة بن عكابة بن صـعب بن على بن بكر بن وائل بن قاسط بن هنب بن قصـى بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار. هكذا ساق ابن الجوزى هذا النسب فى مناقب أحمد (1)و كذلک ذكره القاضى ابن أبى يعلى فى الطبقات (2). و قد اختلف فى مازن بن ذهل بن شيبان، فبعضهم يقول: مازن بن ذهل بن شـيبان بن ثعلبة. و بعضـهم يقول: مازن بن شيبان بن ثعلبة. و لا يهمنا هذا الاختلاف فقد ورد نسبه بهذه الصورة، و لكن المهم فى ذكر هذا النسب على طوله، و الاختلاف فيه، أنه جعل من مناقب أحمد و من مؤهلاته العلمية. يقول ابن رجب بعد ذكر هذه السلسلة: و هذا النسب فيه منقبة عميمة، و رتبة من وجهين: أحدهما حيث تلاقى فى نسب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: لأن نزارا (و هو الجد السابع و العشرين لأحمد) كان له ابنان أحدهما مضر-و نبينا من ولده-و الآخر ربيعة و إمامنا أحمد من ولده.

1- 1) المناقب ص 16.

2- 2) طبقات الحنابلة ج 1 ص 4. [1]

و الوجه الثانی أنه عربی صحیح النسب، و قد قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: أحب العرب لثلاث: لأنی عربی، و القرآن عربی، و لسان أهل الجنة عربی. فهذا النسب علی ما ذکروه هو أول مناقب أحمد، لأن الاتصال برسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و إن بعدت الواسطة، و اتسعت الدائرة، هو منقبة عظیمة، و لعل ذلک هو أحد المرجحات عندهم لمذهبه، و لزوم اتباعه، و نحن لا ننکر أن الاتصال برسول اللّه شرف عظیم، و لکننا نستغرب هذا التمحل فی الاستدلال و التکلف فی الإثبات، لأن هذا أمر لا یختص به أحمد بن حنبل، فهو شامل لملایین من البشر، فلا یمکن جعله مرجحا لمذهبه، و عدّه فی مناقبه. و أما الوجه الثانی و هو کونه عربیا لیکون الحدیث المذکور کالبشارة بأحمد و لزوم محبته، مع أن هذا الحدیث قد نص کثیر من الحفاظ علی وضعه، و مع صحته فلیس من الصحیح الاستدلال به، و جعله من مقومات شخصیة الإمام أحمد.

ولادته و نشأته:

ولد أحمد فی المشهور فی ربیع الأول من سنة 164 من الهجرة النبویة، و قد ذکر ذلک ابنه صالح و حکاه ابنه عبد اللّه أیضا، قال: سمعت أبی یقول: ولدت فی شهر ربیع الأول سنة أربع و ستین و مائة، و ذلک فی عهد المهدی. و اختلفت الروایات فی محل ولادته، فقیل أنه ولد ببغداد، إذ جاءت به أمه حملا- من مرو، و قیل إنها ولدته فی مرو، و الأول أشهر کما تضافرت الروایات فی ذلک، و قد روی عنه أنه قال: قدمت بی أمی حملا من خراسان، و ولدت سنة 164 ه. و فی روایة أخری أنّه قال: قدم بی من خراسان و أنا حمل، و لم أر جدّی و لا أبی. و روی صالح العجلی عن أبیه: أن أحمد بن حنبل سدوسی بصری، من أهل خراسان، ولد ببغداد و نشأ بها. و قول العجلی إنه بصری: لأن شیبان کانت منازلها بالبصرة و بادیتها، و کان أحمد إذا جاء إلی البصرة صلّی فی مسجد مازن، و هم من بنی شیبان، فقیل له فی ذلک، فقال: مسجد آبائی (1).

1- 1) المناقب لابن الجوزی ص 21.

أما أمه فيقال أنها شيبانية أيضا، و اسمها صفية بنت ميمونة بنت عبد الملک الشيبانی، و قيل أنها ليست بشيبانية. و على الجملة فقد نشأ أحمد يتيما فی حجر أمه، و هی التی تولت تربيته، لأنها دخلت به بغداد حملا فولدته، و ليس له كافل غيرها. و ما يقال من أنه كان يعيش على عقار أبيه فی بغداد، فهو قول بغير مستند. و لا نعلم هل أن عمه تولی شئونه لأنه كان حيا عند ما قدمت أم أحمد من خراسان، و كان عمله إيصال الأخبار إلى الولاة بأحوال بغداد، ليعلم بها الخليفة إذا كان غائبا عنها، و كان أحمد يتورع عن حملها، و إيصالها إلى الولاة. و نشأ أحمد ببغداد و تربى بها تربيته الأولى، و كانت بغداد حاضرة العالم الإسلامی، و عاصمة دولته، و هی تموج بأناس اختلفت مشاربهم، و تخالفت مآربهم، و زخرت بأنواع المعارف و الفنون، و كانت تموج برجال العلم و حملة الحديث، ففيها القراء و الفقهاء و المتصوفة، و علماء اللغة، و الفلاسفة، و المحدثون، و قد توجه إلى علم الحديث، بعد أن قرأ القرآن و تعلّم اللغة و الكتابة، و لقد قال هو فی ذلک: كنت و أنا غلام أختلف إلى الكتّاب، ثم اختلفت إلى الديوان و أنا ابن عشرة سنين. ثم اتجه إلى طلب العلم و هو ابن خمس عشرة سنة، و بعد ذلک رحل إلى الأقطار، و كتب عن شيوخها، و أخذ عن الشافعی و اتصل به اتصالا وثيقا، و قويت بينهم عرى المودة، و لازمه مدة إقامته فی بغداد، و كان يعترف للشافعی بعلو المنزلة و يقول: ما من أحد مس بيده محبرة و قلما إلاّ و للشافعی فی عنقه منّة. و قال: إنه لم يبت مدة ثلاثين سنة إلاّ و يدعو للشافعی و يستغفر له. و كان أول تلقيه العلم على القاضی أبی يوسف صاحب أبی حنيفة المتوفی سنة 182 ه فقد قال: أول من كتبت عنه الحديث أبو يوسف (1). و ابتدأ رحلاته لتلقی الحديث فی سنة 186 ه فرحل إلى الحجاز، و البصرة و اليمن، و الكوفة، و كان يود أن يرحل إلى الری ليستمع إلى جرير بن عبد الحميد، و لم يكن قد رآه فی بغداد، و لكن أقعده عن الرحلة إليه عظيم النفقة عليه فی هذا السبيل، و كان يقول: لو كان عندی تسعون درهما لخرجت إلى جرير بن عبد الحميد

1- 1) المناقب لابن الجوزی ص 22.

لأنه كان فی ضـنک عیش، یتحمل فی سبیل ذلک المتاعب، إذ لـم یکن له کافل من أسـرته کما تقدم بیانه. کما أنه لـم یتمکن من الرحلة إلی الشافعی فی مصر إذ وعده بذلک.

نبوغه و شهرته:

و نبغ أحمـد فی مجتمعه، و عرف بین أقرانه، و لکن شـهرته لـم تکن تبلغ حـدها الذی بلغت إلیه فی آخر حیاته إلاّ بعد وقوع المحنة، فهو فی ذلک المجتمع الذی کان یزخر برجال العلم و حملة الحدیث لـم یکن مبرزا، أو له شهرة تفوق غیره، لذلک لـم یکن فی أول الأمر معدودا فی قائمـة الرجال من أهل العلم الذین تهتم الدولة فی موافقتهم بمشـکلة خلق القرآن، أو یسوؤها مخالفتهم، فقد جاء فی کتاب المأمون الأول ذکر جماعـة من العلماء، و لـم یکن أحمـد فیهم، و لکنه ورد بعـد ذلک. و مهما یکن من أثر الأسـباب فی شـهرة أحمد فإن ذلک لا یتعدی حـدود صـموده فی الامتنـاع عن القول بخلق القرآن، و کمـا سـیأتی أنه لـم یکن الوحیـد فی ذلک، فإن جماعـة من العلماء، قـد وقفوا موقفا مشـهودا، و قد تحملوا فی سبیل ذلک الأذی، و قد تجرعوا الغصـص؛ و کانت خاتمة المطاف أن لقوا حتفهم فی السـجون، و تحت ضـرب السـیاط و حد السیوف. و بطبیعة الحال أن یکون ذلک الصراع العقائدی قد فسح المجال لمعرفة الأشخاص الذین یبرزون فی هذا المیدان، و من حسن الحظ أن یبقی أحمد إلی عهد المتوکل، الذی غیر مجری الحوادث بمحاولته جلب الرأی العام الذی کان مسـتاء من تصـرفات المعتزلـة، و شدة سـطوتهم، و تنکیلهم بمن یخالف عقیدتهم، فکان انتصار المتوکل للمحدثین قد أحدث انقلابا فی سـیاسة الدولة و توجیه الرأی العام، فانهزم المعتزلـة، و انتصـر المحدثون، و سـطع نجم أحمد فی ذلک الأفق المتلبّد بسـحب الخلافات و المنازعات العقائدیة، و اتجه الرأی العام إلی تعظیمه، و الالتفاف حوله، و قـد أبـدی المتوکل عنایته التامـة فی احترام أحمد و تعظیمه، و أصـبحت له منزلة سامیة، و ظهر أتباعه بمظهر العظمة. کما ظهر المتوکل بمظهر محیی السـنة، و راحوا یمجّدون عرشه و یبالغون فی مدحه، و لـم یقصّر هو فی رعایتهم و الاعتماد علیهم، فبدأت موجة من الکبت و الاضطهاد کانت رد فعل لما وقع فیه المعتزلة الذین کانوا یدعون إلی حریة

الرأی و احترام العقل، لکن السلطة عدلت بهم إلی السیاسة التی کانوا یستنکرونها، و کان بطل هذا الدور القاضی أحمد بن أبی دؤاد. و کان المتوکل یصل أحمد بصلات سنیة، و یعطف علیه، و عین له فی کل شهر أربعة آلاف درهم (1)و طلبه إلی سامراء لیتبرک برؤیاه، و ینتفع بعلمه، فامتنع أحمد و لکنه أجبر علی الموافقة. و کان الأمراء یدخلون علیه و یبلغونه سلام الخلیفة، و لا یدخلون علیه حتی ینزعون ما علیهم من الزینة، و قد بلغ من تقدیر المتوکل لأحمد و احترامه أنه أصبح لا یسمع علیه وشایة، و لا یصغی لقول خصم فیه، إلاّ الاتهام بالمیل للعلویین، فإن المتوکل کان یأخذ فی ذلک علی الظنة و التهمة، و قد تمکن الوشاة بأن یبلغوا المتوکل عن أحمد بالمیل للعلویین، و أنه یبایع لرجل منهم سرّا، فکبست داره و فتشت أدق تفتیش (2). فلم یجدوا ما یدل علی ذلک. و بهذا برأت ساحته من هذه التهمة، التی کادت أن تطیح بکیانه، و تعود علیه بالعذاب و النکال، شأنه شأن غیره من العلماء، الذین أخذوا بهذا الاتهام الذی لیس من ورائه إلاّ القتل بدون رحمة.

صلته بالمتوکل:

و کان المتوکل یوصی الأمراء باحترام أحمد و تقدیره، و لما مرض أحمد کان المتوکل یبعث إلیه برسله یستعلم أخباره، و یسأل عن حاله، و لما مات اهتم أمیر البلد بأمره، و تولت رجال الدولة القیام بواجب تجهیزه، و حضر من بنی العباس نحو مائة رجل مع سائر القواد و الأعیان و الوزراء، فکان یوما مشهودا. و الذی یظهر من سیرة أحمد أنّه کان منکمشا من المتوکل، غیر مرتاح إلی مودته، فهو لا یقبل هدیته إلاّ خوفا، و یقال أنه کان یفرّقها سرا علی المحتاجین، و لا یجلس علی بساطه، و لم یظهر علیه ذلک أو یتظاهر بالمخالفة، و لکنه کان یذهب إلی صحة خلافته و إمامته و لزوم طاعته.

1- 1) تاریخ ابن کثیر ج 10 ص 239.

2- 2) مناقب أحمد لابن الجوزی ص 36.

لم تكن عناية المتوكل هذه بالإمام أحمد لدافع دينى، فهو أبعد الناس عن تعاليم الدين، و لكنها أمور سياسية دعت لذلک، و ظروف خاصة اقتضت إظهار هذه المودة، لأن العامة أصبح لهم تعلق بشخصية أحمد، الأمر الذى جعل الدولة تلحظ ذلک، و تقيم له وزنا، كما أنه كان يساير الدولة. و لقد كانت سياسة الدولة العباسية إبان قوتها تؤكد طابعها الدينى، فقربت إليها العلماء و الفقهاء و المشتغلين بالعلوم الإسلامية، و كانت ترقب أيضا حركات فريق منهم، ممن يؤدى اشتهارهم بالعلم و الورع إلى تعلق الجماهير بهم، إذ قد يؤثّر ذلک فى مركز الخلفاء، و قد يزعزع ولاء المسلمين لهم، فكان الخلفاء يهتمون بما يجرى فى حلقات الفقهاء و المحدثين، و يراقبون من يتعرّض منهم بالنقد للنظام القائم، و قد يبطشون به، كما رأينا فى اهتمام المنصور بأمر الإمام الصّادق و محاولة القضاء عليه عند ما وقف عليه السّلام موقف المعارضة لحكمهم، و وصفهم بحكام جور، و أئمة ضلال، و أمر بمقاطعتهم و الابتعاد عنهم. و كذلک فعل الرشيد مع الإمام موسى بن جعفر عليه السّلام فقد اهتم بأمره و سجنه و عذّبه، حتى مات فى السجن مسموما. و قد رأينا ما لقيه أحمد نفسه من تعذيب و تنكيل عند ما خالف رأى الدولة، و أنه امتحن و نكل به، كما ستقف عليه قريبا، و بعد أن اتحد الرأى و تغير الوضع، فلم يكن من أمر أحمد ما يخشى منه على الدولة، بل كان يؤيد موقفها و يشد أزرها، فقد جاء فى إحدى رسائله: و السمع و الطاعة للأئمة، و أمير المؤمنين، البر و الفاجر، و من ولى الخلافة فاجتمع الناس عليه، و رضوا به، و من غلبهم بالسيف حتى صار خليفة، و سمى أمير المؤمنين، و الغزو ماض مع الأمراء إلى يوم القيامة، البر و الفاجر، و قسمة الفىء، و إقامة الحدود إلى الأئمة ماض ليس لأحد أن يطعن عليهم و لا ينازعهم، و دفع الصدقات إليهم جائزة نافذة، من دفعها إليهم أجزأت عنه، برا كان أو فاجرا، و صلاة الجمعة خلفه، و خلف كل من ولّى، جائزة إمامته، و من أعادها فهو مبتدع تارک للآثار، مخالف للسنّة، ليس له من فضل الجماعة شىء، إذ لم ير الصلاة خلف الأئمة من كانوا، برّهم و فاجرهم، فالسنّة أن تصلى معهم ركعتين، و تدين بأنّها تامة، لا يكن فى صدرک شک، و من خرج على إمام من أئمة المسلمين، و قد كان الناس اجتمعوا عليه، و أقرّوا له بالخلافة بأى وجه كان بالرضا أو بالغلبة، فقد شق عصى

المسلمين، و خالف الآثار عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فإن مات الخارج عليه مات ميتة جاهلية (1). فأقوال أحمد ناطقة نطقا صريحا بأنه يرى لزوم الطاعة لمن يتولى الأمر، لا فرق بين البر و الفاجر، فطاعة الكل لازمة حتى فى أمر محض للمعصية، و لكن يؤخذ من أفعاله الخاصة كما أسندوا إليه ذلک، أنه لا يرى الطاعة فى المعصية، أما أقواله فهى عامة لا تخصيص فيها، و لم يكن له موقف معارضة أو دعوة إلى مخالفة. و يقول محمّد أبو زهرة: لم يؤثر عنه أنه عمد إلى دعوة الأمراء و الحكام إلى الامتناع عن الظلم و إلى توجيههم إلى إقامة السنة، بل كان موقفه سلبيا، لا- يسايرهم فيما هم فيه، و لا يدعوهم بالقول إلى غيره، فهل كان ناشئا من أنه كان يمتنع عن الخوض فى السياسة، و معالجة شئونها، و ترک الأمر و الدعوة إلى السياسة الصالحة للصالحين من أهل الخبرة فيها (2). و قد عرض القضاء على أحمد بن حنبل، فرفض قبوله، و ذلک أن الشافعى رشحه للقضاء فى اليمن عند ما سافر أحمد إليها، للاستماع من عبد الرزّاق بن همام، و كان الشافعى هناک يتولى بعض وظائف الدولة، فامتنع أحمد عن القبول، و لم يكن امتناعه لعدم شرعية الدولة، فهو يرى أن الخلافة فى ذلک الوقت صحيحة، و يجب الطاعة لمن يتولى الأمر برا كان أم فاجرا، و ذلک بخلاف امتناع الإمام أبى حنيفة عن تولى القضاء فى عهد الدولة الأموية، و قد ضربه ابن هبيرة ليرضخه على قبول هذه الوظيفة فامتنع؛ و فى أيام المنصور عرض عليه القضاء فرفضه حتى سجنه المنصور و ضربه بالسياط، و كان ذلک سبب موته كما يقال لأن أبا حنيفة لا يرى صحة خلافة العباسيين و الأمويين، و كان رأيه عدم المعاونة معهم. و لكن الإمام أحمد يرى لزوم المعاونة و وجوب الطاعة، فامتناعه عن قبول القضاء يبعث على التساؤل، و لعل هذه القضية لا أصل لها.

1- 1) مناقب أحمد لابن الجوزى ص 75-76. و انظر رسالة أخرى برواية الأصطخرى. طبقات الحنابلة ج 1 ص 26 و 27. [1]

2- 2) مالک ص 152.

الإمام أحمد بن حنبل

اشارة

فی محنته

المحنة:

اشارة

ظهرت مقالـة القول بخلق القرآن فی بدایـة القرن الثـانی للهجرة، فقـد أعلن بها الجعـد بن درهم، و قتل من أجلها. قتله خالـد بن عبـد اللّه القسـری حاکم العراق. و بقیت هذه الفکرة فی طی الکتمان، و لـم یکن لها أی أثر أو تطور فی التأریخ، إلی زمن هارون الرشید عند ما نبغت المعتزلة، و نشـطت الحرکة الفکریة، و ثاروا علی الجمود، و لـم یستطیعوا أن یجاهروا فی ذلک، لأن هارون الرشید کان یحارب هذه الفکرة، حتی أنّه قال یوما: بلغنی أن بشـر المریسـی یقول: القرآن مخلوق. و اللّه و اللّه لئن أظفرنی اللّه به لأقتلنه قتلـة ما قتلها أحـد. و لمّا علم بشـر بذلک ظل متواریا أیام الرشـید (1). و قال بعضـهم: دخلت علی الرشـید و بین یدیه رجل مضـروب العنق، و السـیاف یمسح سـیفه فی قفا الرجـل المقتول، فقال الرشـید: قتلته لأنه قال: القرآن مخلوق (2). و اسـتمرت المسألـة فی دور الکتمـان و التستر إلی زمن المأمون، و لما ظهرت الفلسـفة. و أثیرت مسائل حول صـفات اللّه من المتکلمین و المعتزلة، کان أهمها مسألة کلام اللّه، و خلق القرآن، و هی أبرز شـیء فی تأریخ المعتزلة، لما اتصل بها من أحداث تاریخیة و سیاسـیة. و کما قلنا أن المسألة وجدت فی آخر الدولة الأمویة، و بقیت تنمو و یدور حولها الجدل، و تتسع فیها المناظرة، و تؤلّف فیها الکتب، حتی جاء عصر المأمون فإنه کان

1- 1) النجوم الزاهرة ج 1 ص 647. [1]

2- 2) تاریخ ابن کثیر ج 1 ص 215.

يميل إلى حرية الفكر، و بذلک استطاع المعتزلة أن يواصلوا نشاطهم، فقد كانوا يتحرّقون إلى نشر أصولهم، فوجدوا فى المأمون بغيتهم، و نظروا إليه بعين الإكبار؛ لأن الإصلاح الذى يرومونه يتحقق على يديه، فالتفوا حوله، إذ وجدوا فيه ركنا شديدا. فكان مذهبهم أقرب المذاهب إلى نفس المأمون، فقربهم و أصبحوا ذوى نفوذ فى القصر، و كان من أظهرهم ثمامة بن الأشرس، و أحمد بن أبى دؤاد، و كان هو حامل لوائهم إذ رجحت كفته و تولى القضاء، و بقيت هذه المسألة من سنة 218 ه إلى 234 ه و سميت فى التاريخ بالمحنة، و هى فى الأصل الخبرة. و استغل المعتزلة الموقف، و اغتنموا فرصة استمالة المأمون و المعتصم و الواثق لهم، فأطلقوا أيديهم فى السياسة، فنكلوا بخصومهم، و أذاقوا الناس العذاب، إذ هم لم يقولوا بخلق القرآن، و أقاموا ضجة ليس لها مثيل من محاكم تقام، و يعرض فيها على العلماء و القضاء القول بخلق القرآن، فمن لم يقل عذب و أهين، و سمى المؤرخون هذه الفترة بمحنة خلق القرآن، و كانت سطوتهم-أى المعتزلة- فى ذلک بلغت الذروة، فلما بلغوها أخذوا ينحدرون عنها. و جاء المتوكل فرأى نارا تقد فى كل مكان، و امتحانات و محاكمات، و ضربا، و نفيا، و تشريدا، و الرأى العام ساخط على هذه الحالة، و من لم يقل بخلق القرآن و تحمّل العذاب عدّ بطلا. فأراد الخليفة المتوكل أن يحتضن الرأى العام، و أن يكتسب تأييده، فأبطل القول بخلق القرآن، و أبطل الامتحانات و المحاكمات، و نصر المحدثين (1). اتسع الأفق أمام المعتزلة، و واصلوا نشاطهم العلمى و السياسى، عند ما عزل يحيى بن أكثم عن منصب قاضى القضاة سنة 217 ه و تولى مكانه ابن أبى دؤاد، و هو كبير المعتزلة و فى رعيلهم الأول، و فى سنة 206 ه مات يزيد بن هارون، و كان هو و يحيى بن أكثم يحولان بين المأمون و بين إظهار القول بخلق القرآن، فقد جاء فى تصريح للمأمون قال فيه: (لو لا يزيد بن هارون (2)لأظهرت القول بخلق القرآن) .

1- 1) ظهر الإسلام ج 4 ص 8.

2- 2) يزيد بن هارون أبو خالد الواسطى، المتوفى سنة 206 ه كان من الحفاظ و العلماء المشهورين، قال على بن المدينى: ما رأيت رجلا قط أشهر من يزيد بن هارون. و كان له مكانة فى المجتمع و أثر فى قلوب الناس.

فقال له بعض جلسائه: و من يزيد بن هارون حتى يتقيه أمير المؤمنين؟ فقال المأمون: إنى أخاف إن أظهرته يردّ علىّ، فيختلف الناس، فتكون فتنـة، و أنا أكره الفتنـة. و بهـذا يظهر أن الفكرة أخـذت من المأمون مكانها من قديم، و لكنه كان يمانع من قبل خواصه، و هو يحذر الفرقة و يخشـى الفتنـة، و بعـد أن وجد الطريق قد مهد لذلک أعلن رأيه، و حمل الناس بالقوة إلى تأييده و اتباع رأيه، و بدأ بذلک فى سـنة 218 ه. و على أى حال: فإن المأمون قد اشتد فى امتحان الناس، و لزوم إقرار الفقهاء بما يراه، فجعل يرسل لعامله الكتب، و كانت تزداد شدة و عنفا و تهديـدا و توعيـدا، و كان من نتائـج هـذا الامتحان أن أجاب جميع الفقهاء لـذلک، و لـم يمتنع منهم إلاّ نفر قليل، منهم: أحمد بن حنبل، و محمّـد بن نوح، و أحمـد بن نصـر الخزاعى، و أبو يعقوب البويطى، و نعيم بن حماد. و هؤلاء قد ذاقوا حتفهم لامتناعهم عن الإجابة، و بقى أحمد و لـم يكن حظه كحظهم من السـجن و القتل، فتركزت شخصية أحمد، فكانت أنظار المحدثين تتجه إليه، بعد أن غلبوا على أمرهم، و أصـبحوا مضـطهدين أمام ذلک التيار الذى يحاول القضاء على الجمود الفكرى، و إعطاء العقل حرية التصـرّف فى نصوص الشريعة، إن لـم تكن مؤيدة بالكتاب أو صحيحة السند من السنّة.

أدوار المحنة:

اشارة

كانت الخطوة الأولى التى خطاها المأمون ليضـمن انصياع رعيته بالنحلة التى انتحلها، و الرأى الذى ارتآه، أن دعى الفقهاء و المحدثين إلى أن يقولوا بمقالته فى خلق القرآن، فيقولون إن القرآن محـدث، كما يقول المعتزلة الذين اختار منهم وزراءه و صـفوته، و جعلهم بمنزلة نفسه، فأرسل كتابا إلى عامله على بغداد: إسـحاق بن إبراهيم، و هو ابن عم طاهر بن الحسين، و قد أمره فيه أن يشخص لديه القضاة و المحدثين، و أن يمتحنهم فى موضوع خلق القرآن. كما أرسل كتبه إلى الأقطار لحمل الناس على ذلک، و إرغامهم على الأخذ بهذه الآراء، و اتباع الأمر الذى يدعو فيه إلى التفكير الحر، و اسـتخدام العقل فى فهم العقائد الدينية، كما تشـير لذلک كتبه، و خاصة كتابه الأول الذى أطال فيه بذكر السبب الذى ألجأه إلى حمل الناس على القول بخلق القرآن، حيث قال فيه:

(إن خليفة المسلمين واجب عليه حفظ الدين و إقامته، و العمل بالحق فى الرعية، و قد عرف أمير المؤمنين أن الجمهور الأعظم و السواد الأكبر من حشو الرعية، و سفلة العامة، ممن لا نظر له و لا روية، و لا استدلال له بدلالة اللّه و هدايته، و لا استضاء بنور العلم و برهانه، فى جميع الأقطار و الآفاق أهل جهالة باللّه و عمى عنه، و ضلالة عن حقيقة دينه و توحيده، و الإيمان به، و نكوب عن واضحات أعلامه، و واجب سبيله، و قصور عن أن يقدروا اللّه حق قدره، و يعرفونه كنه معرفته، و يفرقوا بينه و بين خلقه، لضعف آرائهم و نقص عقولهم، و جفائهم عن التفكر و التذكّر، و ذلک أنّهم ساووا بين اللّه تبارک و تعالى و ما أنزل من القرآن، فأطبقوا مجتمعين على أنه (أى القرآن) قديم أزلى لم يخلقه اللّه و يحدثه و يخترعه. و قد قال اللّه عزّ و جلّ فى محكم كتابه الذى جعله لما فى الصدور شفاء، و للمؤمنين رحمة: إِنّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا فكل ما جعله اللّه فقد خلقه. و قال: اَلْحَمْدُ لِلّهِ اَلَّذِى خَلَقَ اَلسَّماواتِ وَ اَلْأَرْضَ وَ جَعَلَ اَلظُّلُماتِ وَ اَلنُّورَ . و قال عز و جلّ: كَذلِکَ نَقُصُّ عَلَيْکَ مِنْ أَنْباءِ ما قَدْ سَبَقَ . فأخبر أنه قصص لأمور قد أحدثها، و تلا به متقدمها، فقال تعالى: كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ و كل محكم مفصل، و اللّه محكم كتابه و مفصله، فهو خالقه و مبتدعه، ثم همّ الذين جادلوا بالباطل فدعوا إلى قولهم، و نسبوا أنفسهم إلى السنّة، و فى كل فصل من كتاب اللّه قصص من تلاوته، مبطل قولهم و مكذب دعواهم، يرد عليهم قولهم و نحلتهم، ثم أظهروا ذلک أنّهم أهل الحق و الدين و الجماعة، و أن من سواهم أهل الباطل و الكفر و الفرقة، فاستطالوا بذلک على الناس، و غرّوا بهم الجهال، حتى مال قوم من أهل السمت الكاذب، و التخشع لغير اللّه، و التقشف لغير الدين، إلى موافقتهم عليه، و مواطأتهم على سيئ آرائهم، تزينا بذلک عندهم، و تصنعا للرئاسة و العدالة فيهم، فتركوا الحق إلى باطلهم، و اتخذوا دون اللّه وليجة إلى ضلالتهم) . ثم ذكر أن هؤلاء قد زكوا أمثالهم، و قبلت شهادتهم، و نفذت الأحكام بهم، مع دغل دينهم و فساد عقيدتهم: (و أولئک شرّ الأمة، و رءوس الضلالة المنقرضون من التوحيد، و أحق من يتهم

فی صـدقه و تطرح شـهادته، و لا یوثق بقوله و لا عمله، فإنه لا عمل إلاّ بعـد یقین، و لا یقین إلاّ بعـد اسـتکمال حقیقـة الإسـلام و إخلاص التوحید) . ثم قال: (فاجمع من بحضرتک من القضاة، و اقرأ علیهم کتاب أمیر المؤمنین هذا إلیک، فابدأ بامتحانهم فیما یقولون، و تکشیفهم عما یعتقدون فی خلق اللّه القرآن و إحداثه، و أعلمهم أن أمیر المؤمنین غیر مسـتعین فی عمله، و لا واثق فیما قلده اللّه و استحفظه من أمور رعیته بمن لا یوثق بـدینه، و خلوص توحیـده و یقینه، فإذا أقروا بـذلک. . . فمرهم و من بحضـرتهم من الشـهود علی الناس، و مسألتهم من علمهم فی القرآن و ترک إثبات شـهادة من لم یقر أنه مخلوق محـدث. . . و اکتب إلی أمیر المؤمنین بما یکون فی ذلک إن شاء اللّه) . فکان هـذا الکتاب خطوة أولی لامتحان الرعیـة فی انصـیاعهم و تسـلیمهم لما ینتحله من هـذه المقالة، التی یری القیام بها واجبا علیه، لأن ذلک یسـتلزم تصـحیح عقائد الناس، و لا سـیما إذا تغلغل الفساد إلی أصل من أصول الدین، کالإشراک مع اللّه شیئا آخر و هو القرآن، و بهذا لا یصح أن یستقضـی من ضـعفت عقیدته، و لا تقبل شـهادته، إذ لا یوثق بمن ضـعف إیمانه، و لا سـلطان لمن لا تصح عقیدته و إشـراک فی توحیـده، فهو غیر مأمون من الظلم و الحیف علی الرعیة و السـلطان مسـئول عنه أمام اللّه. و هذه الخطوة مقصورة علی التوعید و العزل عن القضـاء، و عـدم قبول شـهادة من لاـ یتبع رأی الخلیفـة، فلا تعـذیب و لا تنکیل، فهو یحاول الإصـلاح بهـذه الأمور، و إن تعـذر ذلک فإنه یسـتعمل القوة. و أرسل نسـخة من الکتاب إلی مصـر، و کان قاضـیها یومئذ هارون بن عبد اللّه الزهری، فأجاب لذلک، کما أجاب الشهود المعتمدون، و من توقف منهم أسقطت عدالته، و أبطلت شهادته. و قد أصدر المأمون أمرا عاما یأخذ الناس بالمحنة فی کافة أرجاء المملکة الإسلامیة، ففی سنة 218 ه ذهب المـأمون بنفسه إلی دمشق، و ربما کان فی طریقه و هو ذاهب إلی حملته الأخیرة علی آسـیا الصـغری. و هناک فی دمشق أشـرف بنفسه علی امتحان الفقهاء و العلماء، فی مسائل حریـة الإرادة، و وحدانیـة الـذات الإلهیـة، أی العدل و التوحید، و عنده أن عقیدة التوحید تعد اختبارا یؤدی إلی القول بخلق القرآن، و بذلک سمی المعتزلة أنفسهم أهل التوحید و العدل.

و سارع إسحاق بن إبراهيم والى بغداد إلى تنفيذ رغبة المأمون، فأحضر المحدثين و الفقهاء و المفتين، و أنذرهم بالعقوبة الصارمة و العذاب العتيـد إن لـم يقروا بما يطلب منهم، و ينطقوا بما سـئلوا أن ينطقوا به، و يحكموا بالحكم الذى ارتآه المأمون من غير تردد أو مراجعة، فنطقوا جميعـا بما طلب منهم، و أعلنوا اعتناق ذلک المـذهب. و يعلل ابن كثير: أن إجابتهم كانت مصانعـة، لأنهم كانوا يعزلون من لا يجيب عن وظائفه، و إن كان له رزق على بيت المال قطع، و إن كان مفتيا منع من الإفتاء، و إن كان شيخ حديث ردع عن الاستماع (1). و إليک ثبتا فى أسماء بعض من أجاب من العلماء منهم: يحيى بن معين المتوفى سنة 232 ه و هو من شيوخ أحمد بن حنبل و البخارى و غيرهم، و قال فيه أحمد: حديث لا يعرفه يحيى فليس بحديث. و إسـماعيل بن أبى مسعود البصرى المتوفى سنة 248 ه. و على بن الجعد الهاشمى مولاهم أبو الحسن الجوهرى المتوفى سنة 230 ه و أبو حسان الزيادى المتوفى سنة 242 ه و على بن مقاتل، و أبو معمر القطيفى المتوفى سنة 236 ه و أحمد بن الجوزى المتوفى سنة 246 ه و محمّد بن سـعد كاتب الواقدى مؤلف الطبقات المتوفى سنة 230 ه و أبو خيثمة زهير بن حرب المتوفى سنة 234 ه و أبو مسـلم المستميلى، و أحمد بن الدورقى المتوفى سنة 246 ه و قتيبة بن سعيد المتوفى سنة 240 ه و بشر بن الوليد الكندى المتوفى سنة 238 ه و أبو على بن عاصم، و أبو شـجاع، و إسـحاق بن إسرائيل المتوفى سنة 225 ه و سعدويه الواسطى المتوفى سنة 225 ه و محمّد بن حاتم بن ميمون المتوفى سـنة 235 ه و غيرهم: كابن العوام، و يحيى بن حميد العمرى، و أبو نصـر التمار. و قد ذكر ابن كثير منهم: النضر بن شميل. و هذا خطأ لأن ابتداء الدعوة إلى القول بخلق القرآن كانت فى سنة 218 ه و كانت وفاة النضر فى سنة 203 أى قبل المحنة بخمس عشرة سنة.

1- 1) تاريخ ابن كثير ج 10 ص 273.

امتحان أحمد بن حنبل:

جاء فی کتاب المأمون الرابع لعامله إسحاق یأمره بأن یستدعی بشر بن الولید، فإن أصر علی الامتناع تضرب عنقه، و کذلک أمره فی إبراهیم بن المهدی، و أما الباقون یعید علیهم الکرة، فمن أبی منهم یحمل موثقا إلی عسکر المأمون مع من یقوم بحفظهم. فجمعهم إسحاق، و قرأ علیهم کتاب المأمون، فأجاب کافة الفقهاء ما عدا أحمد بن حنبل، و سجادة، و القواریری، و محمّد بن نوح. فأمر بهم إسحاق بن إبراهیم، فشدوا فی الحدید، فلما أصبحوا أعاد امتحانهم، فاعترف سجادة بخلق القرآن فأطلقه. و بعد یوم آخر أجاب القواریری بأن القرآن مخلوق فأخلی سبیله، و لم یبق إلاّ أحمد بن حنبل و محمّد بن نوح. فکتب حاکم بغداد إلی المأمون بذلک، فأمره بأن یشخص إلیه أحمد بن حنبل، و محمّد بن نوح موثقین فی الأغلال، و لما وصلا فی طریقهما إلی قرب الأنبار، و فی أثناء الطریق جاءهم نعی المأمون. فأما محمّد بن نوح فقد مات و هو عائد إلی بغداد بعد موت المأمون، ففک قیده و صلّی علیه أحمد بن حنبل، و بهذا ینتهی دور أحمد فی عصر المأمون.

فی عهد المعتصم:

لم تنقطع المحنة عن العلماء بوفاة المأمون، بل اتسع نطاقها، و زادت ویلاتها، و کانت شرا مستطیرا، فقد بلغ البلاء أشده، و المحنة أقصاها فی عهد المعتصم، ثم فی عهد الواثق. لقد أوصی المأمون قبل وفاته أخاه المعتصم بالاستمساک بمذهبه فی القرآن، و دعوة الناس إلیه بقوة السلطة، و کأنه فهم أن تلک الفکرة دین واجب الاتباع، لا یبرأ عنقه منها من غیر أن یوصی خلفه به فوصاه، فقد جاء فی مطلع وصیته: هذا ما أشهد علیه عبد اللّه بن هارون الرشید. أمیر المؤمنین بحضرة من حضره، أشهدهم جمیعا علی نفسه. أنه یشهد هو و من حضره، أن اللّه عزّ و جلّ وحده لا شریک له فی ملکه، و لا مدبر لأمره غیره، و أنّه خالق، و ما سواه مخلوق، و لا یخلو القرآن أن یکون شیئا له مثل کل شیء، و لا شیء مثله تبارک و تعالی. و جاء فی وسط الوصیة: یا أبا إسحاق

أدن منى (كنية المعتصم) و اتعظ بما يرى، و خذ بسيرة أخيک فى خلق القرآن (1). فاشتد المعتصم فى امتحان الناس، اتباعا لسيرة أخيه و جريا على نهجه الذى لم يتصف بصفة الرأفة، و لا يحول بينه و بين إيقاع المكروه بمن يريد أى حائل، مع ما فيه من النشاط العسكرى، و قوة الإرادة و الشجاعة التى امتاز بها، لم يكن رجل علم، بل رجل سيف لا يضعه عن عاتقه. و لا حاجة لنا بذكر جميع أطراف المحنة (2)، و المؤاخذة، و لكنا نشير لما يخص صاحبنا-أحمد بن حنبل-فى ذلک، و موقفه فى مجابهة تلک الشدة، و كيف نجا من سطوة المعتصم، و شدّه ابن أبى دؤاد، و هو كبير المعتزلة، و بطل هذه المعركة، فهل أجاب أحمد لما أراد الخليفة فخلى سبيله؟ أم أن المعتصم خشى وقوع الفتنة عند ما يقتله إن أصر على الامتناع؟ أم أنه رق عليه و أعجب بشجاعته و ثباته؟ و قد ذكر بعض المؤرخين أن أحمد أجاب فى المحنة، و انقطع عن المناظرة كما سنبينه قريبا. و على وجه الإجمال فإن المعتصم اشتد فى امتحان الناس، و كان أحمد سجينا عنده فأمر بحمله إليه، و قال حاكم البلد: إن الخليفة قد أقسم إلاّ أن يقتله بالسيف، و أنه سوف يضربه ضربا بعد ضرب، و أنه سيزجّه فى مكان مظلم لا يرى فيه النور. و سار أحمد إلى المعتصم، فلما دخل عليه و ابن أبى دؤاد و أصحابه فى حضرته، و الدار غاصة بأهلها و بالقضاة و الفقهاء من أتباع الدولة، ناظروه و لم يستطيعوا إخضاعه. فقال ابن أبى دؤاد: يا أمير المؤمنين إنه ضال مضل مبتدع. و بقى أحمد ثلاثة أيام يؤتى به كل يوم للمناظرة، عسى أن يرضخ لحكم السلطة، و لكنه استعصم و لم يجب، فلما يئس المعتصم منه أمر بضربه بالسياط، و قد اختلف فى عددها، فقيل ثمانية و ثلاثين، و قيل أقل من ذلک. و على أى حال: فإن تعذيب أحمد لم يدم، بل أن المعتصم أطلق سراحه، و خلع عليه، و قد ذكر بعضهم أن السبب هو أن العامة قد تجمعوا على دار السلطان أو

1- 1) ابن حنبل لمحمّد أبو زهرة ص 47.

2- 2) مقدمة كتاب أحمد بن حنبل و المحنة ص 14 نقلا عن هامش الكامل ج 3 ص 131-139.

همّوا بـالهجوم، فـأمر المعتصم بإطلاـقه، و هـذا لاـ يتمشـى مع واقع الأمر، فإن المعتصم لم يعرف بضـعف الإرادة، و كانت دولته فى إبان عظمتها و قوة سـلطانها، فلا يؤثر فيها اسـتنكار عـدد قليل من الناس، على ما يفعله من الأمور. و ذهب بعض إلى أن أحمـد أجاب الخليفة، فأطلق سـراحه كما جاء فى رسالـة الجاحظ التى تمثل وجهـة نظر المعتزلة تمثيلا صادقا، فهى تنسب لأحمد انقطاعه عند ما ناقشه أحمد بن أبى دؤاد بمحضـر المعتصم، و أقام عليه أدلـة من الكتاب و أدلـة عقلية. قال الجاحظ فى رسالته مخاطبا أهل الحديث بعد أن ذكر المحنة و الامتحان: و قد كان صاحبكم هذا (أى الإمام أحمد) يقول: لا تقية إلاّ فى دار الشـرک، فلو كان ما أقر به من خلق القرآن، كان منه على وجه التقيـة، فلقـد أعملها فى دار الإسـلام. و قد أكذب نفسه، و إن كان ما أقر به على الصـحة و الحقيقة، فلسـتم منه و ليس منكم، على أنّه لم ير سيفا مشـهورا، و لا ضرب ضربا كثيرا، و لا ضرب إلاّ بثلاثين سوطا مقطوعة الثمار، مشبعة الأطراف، حتى أفصح بالإقرار مرارا، و لا كان فى مجلس ضـيق، و لا كانت حاله مؤيسـة، و لا كان مثقلا بالحديـد، و لا خلع قلبه بشدة الوعيد. و لقد كان ينازع بألين الكلام و يجيب بأغلظ الجواب، و يرزنون و يخف، و يحلمون و يطيش (1). هذا ما أردنا إثباته من هذه الرسالة التى تعتبر وثيقة معاصرة نجت مما أتلفه أهل السنّة من مؤلفات المعتزلـة، و هى تـدلنا على إقرار أحمـد و اعترافه بأن القرآن مخلوق، مؤيـدة بما ذكره اليعقوبى فى تاريخه. و امتحن المعتصـم أحمد بن حنبل فى خلق القرآن، فقال أحمد: أنا رجل علمت علما و لم أعلم فيه بهذا، فأحضـر له الفقهاء و ناظره عبد الرّحمن بن إسحاق و غيره، فامتنع أن يقول أن القرآن مخلوق، فضـرب عدة سـياط، فقال إسـحاق بن إبراهيم: ولنى يا أمير المؤمنين مناظرته. فقال: شأنک به. فقال إسحاق: هذا العلم الذى علمته نزل به عليک ملک أو علمته من الرجال؟ فقال أحمد: بل علمته من الرجال.

1- 1) تاريخ اليعقوبى ج 3 ص 198.

فقال (إسحاق) : شيئا بعد شيء أو جملة؟ قال: علمته شيئا بعد شيء. قال (إسحاق) : فبقى عليک شيء لم تعلمه؟ قال أحمد: بقى على شيء لم أعلمه. قال إسحاق: فهذا مما لم تعلمه، و علمكه أمير المؤمنين. قال أحمد: فإنى أقول بقول أمير المؤمنين. قال إسحاق: فى خلق القرآن؟ قال أحمد: فى خلق القرآن. فأشهد عليه و خلع عليه، و أطلقه إلى منزله. هذا ما يستدل به على إجابة أحمد للمعتصم، من أقوال رجال هم أقرب الناس من عهده، و أطلعهم على حوادثه. و بدون شک أن امتحان أحمد كان من أكبر العوامل لانتشار ذكره و اتجاه الناس إليه، و أنه بعد أن استقر فى بيته بعد ما عفى عنه المعتصم، التف حوله جماعة للسماع منه فى المسجد يدرس مدة بقاء المعتصم، و بعد وفاة المعتصم تقلد ولده الواثق الخلافة، و صار أحمد محدّثا مشهورا، فعظم ذلک على قاضى بغداد الحسن بن على بن الجعد، فكتب إلى ابن أبى دؤاد (1)بذلک، فلما سمع أحمد امتنع من تلقاء نفسه. و لما قام الواثق بالأمر، أعاد امتحان أحمد، و لكنه لم يتناوله بأذى، كما فعل المعتصم، و اكتفى بمنعه من الاجتماع بالناس، فأقام أحمد مختفيا لا يخرج إلى صلاة و لا غيرها حتى مات الواثق.

1- 1) أحمد بن أبى دؤاد بن جرير القاضى الايادى، المتوفى سنة 240 ه كان من أقوى شخصيات عصره، و له الأثر الكبير فى المجتمع، و كان من أصحاب واصل بن عطاء، فصار إلى الاعتزال. و هو بطل الثورة الفكرية أيام المحنة، لمكانته فى الدولة و نفوذه، و قد اتصل بالمأمون فأعجب به لعقله و حسن منطقه؛ فقربه و أصبح ذا نفوذ كبير فى قصره، و كان من وصية المأمون للمعتصم: (و أبو عبد اللّه أحمد بن أبى دؤاد لا يفارقک الشركة فى المشورة فى كل أمرک، فإنه موضع ذلک) . فلما ولى المعتصم جعل بن أبى دؤاد قاضى القضاة مكان يحيى بن أكثم، و كان كذلک قاضى القضاة فى أيام الواثق، فلما ولى المتوكل أصيب بالفالج و أفل نجمه، فكانت مدة عظمة بن أبى دؤاد و نفوذه نحوا من ثمان و عشرين سنة، أى من سنة 204 ه إلى سنة 232 ه. و قد تابع ابن أبى دؤاد بنفسه معاقبة الناس المخالفين للمعتزلة، و أشرف على إنزال الأذى بهم.

و من الحق و الإنصاف أن نقول أن المحنة لم تكن مقصورة على أحمد بن حنبل، و إن كان تصوير موقفه قد أخذ يتسع و يتطور، و حيكت حوله أساطير و أقوال، فإن هناك من فقهاء ذلک العصر من كان موقفهم أشد من موقف أحمد فى الامتناع، و مواجهة الخطر، و مكابدة المحنة، فقد استشهد الكثير منهم فى سبيل معتقده، و قاوم حتى لقى حتفه، كما رأينا فى موقف محمّد بن نوح و موته و هو مثقل بالحديد، و إليک ذكر البعض منهم:

شركاء فى المحنة:

1-أحمد بن نصر بن مالک الخزاعى المقتول سنة 231 ه و هو مروزى من مدينة مرو، ينتمى لإحدى العشائر الكبيرة فى قبيلة خزاعة، و من تلامذة مالک بن أنس، روى عنه ابن معين و محمّد بن يوسف الطباع. و كان من أهل العلم، صلبا فى عقيدته، قويا فى معارضته، و قال أحمد بن حنبل فيه بعد أن قتل: (لقد جاد بنفسه) كما أن له مكانة فى المجتمع، فقد شغل أبوه و جدّه المناصب العالية فى عهد الخلفاء العباسيين، كما اشتهر هو فى الوقت نفسه بالأمانة، و العدالة بين المحدثين من أهل السنّة. قبض عليه والى بغداد، و امتحنه الواثق و سأله: ما تقول فى القرآن؟ قال: كلام اللّه ليس بمخلوق. فحمله أن يقول إنه مخلوق، فأبى. و سأله عن رؤية اللّه يوم القيامة (و المعتزلة ينكرونها) فقال بها، و روى له الحديث فى ذلک. فقال الواثق: و يحک هل يرى كما يرى المحدود المتجسم، و يحويه مكان، و يحصره الناظر، إنما كفرت برب هذه صفته. و لما أصر أحمد الخزاعى على رأيه، دعا الخليفة بالسيف المسمى الصمصامة و قال: إنى احتسب خطاى إلى هذا الكافر الذى يعبد ربا لا نعبده، و لا نعرفه بالصفة التى وصفه بها. ثم مشى إليه بنفسه، فضرب عنقه، و أمر به فحمل رأسه إلى بغداد، فنصب بالجانب الشرقى أياما، ثم بالجانب الغربى أياما، و لما صلب كتب الواثق ورقة و علقت فى رأسه: (هذا رأس أحمد بن نصر بن مالک دعاه عبد اللّه الإمام هارون -و هو الواثق-إلى القول بخلق القرآن و نفى التشبيه، فأبى إلاّ المعاندة، فعجل اللّه به إلى ناره) .

و وكل بالرأس من يحفظه و يصرفه عن القبلة (1)و قد تنوقلت قصة خرافية فحواها: أن الرأس منذ أن نصب إلى أن دفن كان يتلو القرآن، و تضاهيها قصة أخرى تحكى: أنه بعد مقتل أحمد بن نصر بسنين طويلة وجد رأس أحمد بن نصر و جسده مطمورين فى الرمال، لم يلحقهما أى أثر (2). و قتل أحمد بن نصر فى آخر شعبان سنة 231 ه و ظل رأسه و الجذع الذى نصب عليه معروضين للأنظار طيلة ست سنوات، و لا يعقل ترك رأس قتل لجريمة الكفر فى نظر الدولة، يتلو القرآن طيلة هذه المدة، مما يدل على فضيحة تلك الدعوى، و استنكار الناس، و لكن الاندفاع العاطفى خلق حول كثير من الأشخاص أساطير و خرافات يكذبها الوجدان. 2-يوسف بن يحيى البويطى تلميذ الشافعى و خليفته على حلقة درسه، حمل من مصر إلى بغداد، مثقلا بأربعين رطل من الحديد، و امتحن فأبى أن يقول إن القرآن مخلوق، و قال: و اللّه لأموتن فى حديدى هذا، حتى يأتى من بعدى قوم يعلمون أنه قد مات فى هذا الشأن قوم فى حديدهم، و لئن دخلت عليه-يعنى الواثق- لأصدقنه، و مضى على امتناعه حتى مات فى سجنه سنة 232 ه. و كان و هو فى الحبس يغتسل كل جمعة، ثم يخرج إلى باب السجن إذا سمع النداء، فيردّه السجان و يقول له: ارجع رحمك اللّه. فيقول البويطى: اللّهمّ إنى أجبت داعيك فمنعونى (3). 3-عمرو بن حماد بن زهير التيمى مولى آل طلحة الكوفى، المتوفى سنة 219 ه و هو من شيوخ أحمد و البخارى و يحيى بن معين، و قد امتحن و عذّب لأجل امتناعه عن القول بخلق القرآن، لما بلغ كتاب المأمون إلى الكوفة، سئل عن فحواه فقال: إنما هو ضرب الأسواط، ثم أمسكهم بزر ثوبه، و قال: رأسى أهون علىّ من هذا. و لم يزل مصرّا على امتناعه حتى مات سنة 219 ه. 4-نعيم بن حماد بن معاوية بن الحرث الخزاعى أبو عبد اللّه المروزى،

1- 1) تاريخ بغداد ج 5 ص 177. و [1]طبقات الشافعية ج 1 ص 270.

2- 2) أحمد بن حنبل و المحنة ص 166.

3- 3) طبقات الشافعية ج 1 ص 276. [2] أحمد بن حنبل و المحنة ص 367.

المتوفى سنة 228 ه كان من الذين ثبتوا فى المحنة، و لم يجب إلى ما طلب منه عند ما أمر الواثق بحمله من مصر، و امتحن فى القول بخلق القرآن، فلم يقل أن القرآن مخلوق، و أصرّ على التمسّک بعقيدته، فزج فى السجن إلى أن مات فيه. و نعيم هذا هو الذى ألّف كتابا فى الرد على أبى حنيفة، و كان يعرف بوضع الحديث فى تقوية السنّة فى مقابل المعتزلة و غيرهم (1). 5-عفان بن مسلم بن عبد اللّه الأنصارى أبو عثمان البصرى الصفار، أحد الأئمة الأعلام، و من رجال الصحاح الستة، و عنه أخذ أحمد بن حنبل و البخارى، و ابن معين، و ابن المدينى، قال أبو حاتم: هو إمام ثقة متقن متين. و قال ابن عدى: عفان أوثق من أن يقال فيه شىء (2). نزل عفان بغداد، و نشر بها علمه، و حدّث عن شعبة و أقرانه، قال يحيى بن معين: أصحاب الحديث خمسة: ابن جريج، و مالک، و الثورى، و شعبة. قال حنبل: كتب المأمون إلى متولى بغداد يمتحن الناس، فامتحن عفان. و قال المأمون: فإن لم يجب عفان فاقطع رزقه. و كان له فى الشهر خمسمائة درهم، فلم يجبهم عفان لذلک و قال: وَ فِي اَلسَّماءِ رِزْقُكُمْ وَ ما تُوعَدُونَ (3). فقطع المأمون رزقه الذى كان يتقاضاه منه، و ثبت على عقيدته فى المحنة، و قد غضب عليه أهل بيته، لأنه حرمهم بامتناعه مما يقيم أودهم، إذ كان يعول أربعين نفسا، و لكن ذلک لم يقع عنده موقع الاهتمام، و أصرّ على امتناعه، إلى أن مات سنة 220 ه. 6-عبد الأعلى بن مسهر الغسانى أبو مسهر الدمشقى، المتوفى سنة 218 ه عالم الشام و عظيم القدر عند أهلها، و لعظيم مكانته عندهم أنه كان إذا خرج اصطف الناس يقبّلون يده، و هو من رجال الصحاح الستة، و من شيوخ أحمد بن حنبل، و ابن معين. قال أحمد: ما كان أثبته. و قال ابن معين: منذ خرجت من باب الأنبار إلى أن رجعت لم أر مثل أبى مسهر. و قال أبو حاتم: ما رأيت أفصح منه و ما رأيت أحدا فى

1- 1) شذرات الذهب ج 2 ص 67. [1]

2- 2) الخلاصة للخزرجى ص 137.

3- 3) الشذرات ج 2 ص 47. [2]

كورة من الكور، أعظم قـدرا و لا أجل عنـد أهلها من أبى مسـهر بـدمشق، إذا خرج اصـطف الناس يقبّلون يديه. و قد ثبت عبد الأعلى و لـم يجب فى المحنة، فحبسه المأمون ببغداد فى شـهر رجب لمحنة القول بخلق القرآن، و مات فى الحبس سنة 218 ه (1)و أما قول ابن سعيد أنه مات سنة 210 ه فهو خطأ، لأن المحنـة ابتدأت فى سـنة 218 ه. هؤلاء الرجال هم أشـهر من وقف فى ذلک المعترک العقائـدى، الذى أثارته الدولة، و حملت الناس على الخضوع لإرادتها بالتهديد و التوعيد، و الضـرب بالسـياط، و القتل و السجن. و إن من ظلامة التاريخ أن تخص هذه المحنة بأحمد بن حنبل فيكون فارسـها المحنّک، و بطلها الأول، و موقفه الوحيد فى نصرة الإسلام منذ بزوغ شمسه فى الجزيرة العربيـة، و نحن لا ننكر موقفه و لا نبخس حقه، و لكنا نقول: أن هناک زوائـد يجب أن تهمل، و أطياق و أساطير لا تزيـد البحث إلاّ تعقيـدا كما نشير إليها فى المناقب.

أوضاع المحنة فى عصر الإمام أحمد:

إن ما يمتاز به عصر أحمد هو وجود معسكرين متخاصمين كل يحاول أن ينال السبق و التغلب، و يحاول القضاء على الطرف الآخر، و هم: المعتزلـة، و أهل الحـديث. و لقد بلغ الصـراع أشده، و قامت ثورة فكرية، و عاطفية، و السـياسة من وراء ذلک تلعب دورها، و كان كل من المعسـكرين، يأمل آمالا واسـعة، فالمعتزلة كانوا يأملون أن يصـبح الاعتزال مذهب الدولة الرسمى، كما أن الإسلام دينها الرسمى، فإذا تم ذلک، انتشر الاعتزال تحت حماية الدولة، و أصبح أكثر المسلمين معتزلة، فوحدوا اللّه كما يوحدون، و اعتنقوا أصول الاعتزال كما يعتنقون، و تحرر المسلمون فى أفكارهم، فأصبح المشرّعون لا يتقيدون بالحديث تقيد المحدثين، و إنما يستعملون العقل، و يزنون الأمور بالمصالح العامـة، و لاـ يرجعون إلى نص إلاّـ أن يكون قرآنـا أو حـديثا مجمعـا عليه، و تحرر عقول المؤرخين من المسـلمين، فيتعرضون للأحـداث الإسلامية، بعقل صريح، و نقل حر، فيشرحون أعمال الصحابة و التابعين، و يضعونها

1- 1) الخلاصة للخزرجى ص 187. و شذرات الذهب ج 2 ص 44. [1]

فی نفس المیزان الـذی توزن به أعمال غیرهم من الناس (1). و لقد تدخلت الحکومة فی مناصـرة المعتزلة، و أخذوا الناس إلی اتباع آرائهم بالقوة. و مر المعتزلـة فی نشاطهم أیام المأمون و المعتصم و الواثق، و کان المحـدثون یقفون أمام هـذا الرأی بشتی الأسالیب، و ظهر القول بخلق القرآن و قدمه، فکانت هناک محنة عامة، فأجاب من أجاب و امتنع من امتنع، حتی جاء عهد المتوکل فأراد أن یسـتجلب الرأی العام، لأن المسألـة بلغت إلی أقصـی حـد من العنف و الشـدّة، فأعلن إبطال ذلک فی سـنة 234 ه و هـدد من أثار هـذه المسألـة، و أظهر المیل للمحدثین، و وقف بجانبهم، فکانت لأصـحابهم الغلبة، و فی ذلک العهد طلع نجم أحمد بن حنبل، و ظهر اسمه لأنه بقیة الرجال المبرزین الذین امتنعوا من الإجابة کما هو المشـهور. و انتصـر المحدثون و شـملهم المتوکل بعطفه و رعایته، و أشـخص منهم مائتین، و کان فیهم: مصـعب الزبیری، و إسـحاق بن أبی إسـرائیل، و إبراهیم بن عبـد اللّه الهروی، و عبـد اللّه و عثمان ابنا أبی شـیبة. فقسـمت بینهم الجوائز، و أجریـت علیهم، و أمرهم المتوکـل أن یجلسـوا للنـاس، و أن یحـدثوا بالأحـادیث الـتی فیهـا الرد علی المعتزلـة و الجهمیـة، و أن یحـدثوا بالأحادیث فی الرؤیة. فجلس عثمان بن أبی شـیبة فی مدینة المنصور، و وضع له منبر و اجتمع علیه الناس. و جلس أبو بکر بن أبی شـیبة فی مسـجد الرصافة، و قام القصاصون بنشاط واسع، و وضـعت الأحادیث عن صاحب الرسالة صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم و نسـبوا له زورا أنه صلّی اللّه علیه و آله و سـلّم قال: ما قیل من قول حسن فأنا قلته. و التف الناس حول أنصار الدولـة من المحدثین، و اسـتمعوا إلی القصاص الآمنین من المؤاخـذات، لأن الدولـة لهم تحرسـهم و الظروف تساعدهم، و قد أنکر أحمد بن حنبل علی ابن أبی شـیبة، و علی مصـعب و الهروی و ضـعّفهم، و کان انتصار المتوکل للمحدثین حدثا هاما، فقد أفل نجم المعتزلة، و سقطت دولتهم، و قام أهل الحدیث باغتنام هذه الفرصـة، فارتفع لواؤهم و تبوؤوا المکانـة الرفیعـة، و انتقموا من خصومهم المعتزلـة، بل من کل من یتهم بالمیل إلیهم، و حـدثت حوادث انتقامیـة بـدون تـدبر و ترو، و هکذا شأن من انتصـر بعد ظلم، و اعتز بعد ذلة، فأوقع الحنابلة نقمتهم علی کثیر ممن لم یشارک المعتزلة فی سلطانهم.

1- 1) ضحی الإسلام ج 3 ص 196.

أما الإمام أحمـد فقد علت منزلته عند المتوكل و قربه إليه و طلب منه أن يتولى تعليم ولى العهد، كما كان يتعاهده بالإكرام و يشـيد بذكره و يتشوق لرؤيته، و طلب أن يزوره فى عاصـمة ملكه ليراه و يتبرّک بقربه. و عنـد مـا لمس النـاس هـذا العطف من المتوكل الـذى عرف بقساوة القلب، و الظلم و الاسـتبداد و سفک الدماء، و الانهماک فى الشهوات، انهال الناس على أحمد من مناصريه و غيرهم، و ازدحموا على بابه، و تهـافت رجال الدولـة و أعيانها عليه، فكان الطريق إلى بيته مزدحما بالناس، و إذا سار فى الطريق احتشـدوا خلفه، و تحـدثوا فى الأنديـة و المجتمعـات عن عظمته و علو مكـانته، و يـأتون إليه بالمنامات المبشـرة و الحوادث الدالـة على عظمته، فهـذا يقول: إن أمى كانت مقعـدة فأقسـمت على اللّه بـاسم أحمـد بن حنبل فعوفيت. و هـذا يقول: إن الجنـدى المسـلم فى غزو الروم أيام أحمـد إذا رمى و ذكر اسم أحمد أصاب، و إن الفارس الرومى المتحصن بدرعه و ترسه و خوذته لا يصـيبه السـهم إلاّ إذا ذكر اسم أحمد. و من الغرائب: أنه زار تلميذه (بقى بن مخلـد) فى خان بأطراف بغـداد، فازدحم الناس عليه، و بعـد أن رجع أحمد تهافت الناس على ذلک الخان للتبرک بالمكان الذى جلس فيه، و المكـان الـذى وقف فيه، فربـح صـاحب الخان لكثرة الوفود و كتب ألواحا و علقها و فيها: هنا جلس أحمـد، و هنا تكلم، و هنا وقف إلى غير ذلک من الأمور التى شاعت فى بغداد.(1)

1- 1) الدولة العباسية لحسن خليفة ص 147.

الإمام أحمد بن حنبل

اشارة

حياته العلميّة

مناقبه:

تقدم الكلام حول المناقب، و المؤلفين فيها، و أنهم جاءوا بأشياء لا واقع لها، و أنها من نسيج الوهم و تصوير الخيال، و أن أكثرهم اندفع وراء العاطفة العمياء، فحال بينهم و بين التفكير الحر و الوصول إلى الواقع، حتى جعلوا من لا شيء شيئا، و وضعوا أحاديث تدل بمنطوقها على عظمة الشخصية التى يحاولون إبرازها فى إطار العظمة التى خرجت بهم عن نطاق البشرية، و ارتفعت بها إلى أسمى رتبة من الكمال النفسانى. و قد تعرضنا فى الأجزاء السابقة إلى ذكر بعض المناقب لرؤساء المذاهب الثلاثة بصورة إجمالية، و أنهم أوردوا أحاديث مبشرات عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كل ذلک نتيجة التطاحن الطائفى و الصراع العقائدى. أما الحنابلة فلم يأتوا بشيء من تلک المبشرات تصريحا، لتكون فى قائمة المرجحات للأتباع، و لكنهم استندوا إلى البعض منها تلميحا، أو على وجه العموم دون تخصيص، و لكنهم امتازوا بوضع المنامات، و كثرة الأطياف، و لعل الكثير منهم جعلها هى المرجحة لاتباع أحمد و اعتناق مذهبه، و يشهد لذلک قول أبى الخطاب المتوفى سنة 476 ه: و عن مذهبى إن تسألوا فابن حنبل به اقتدى ما دمت حيا أمتع

و ذاک لأنى فى المنام رأيته يروح و يغدو فى الجنان و يرتع

(1)

1- 1) طبقات الحنابلة ج 1 ص 47. [1]

و يقول بعضهم: رأيت أبا الخطاب فى المنام فقلت: ما فعل اللّه بک؟ فأنشد: أتيت ربى بمثل هذا فقال ذا المذهب السديد

محفوظ ثم فى الجنان حتى ينقلک السائق الشهيد

و محفوظ هو اسمه و هو من كلواذ، و كان من شيوخ الحنابلة و أعيانهم، لما مات دفن إلى جنب قبر أحمد. و كثرت المنامات التى تعطى بمؤداها صورة عن عظمة شخصية أحمد، و تعلق العامة به. نقل ابن الجوزى عن على بن إسماعيل أنّه قال: رأيت أن القيامة قد قامت و كأن الناس قد جاءوا إلى موضع عند قنطرة، لا يترک أحد يجوز حتى يجىء بخاتم، و رجل ناحية يختم للناس و يعطيهم، فمن جاء بخاتم جاز، فقلت: من هذا الذى يعطى الخواتيم؟ فقالوا: هذا أحمد بن حنبل (1). و قد سبقتهم الحنفية لهذه المنقبة فى الاختراع، فقد ذكر المكى فى المناقب أن أبا حنيفة رؤى على سرير فى بستان، و معه رق يكتب جوائز قوم، فسئل عن ذلک فقال: إن اللّه قبل عملى و مذهبى و شفعنى فى أمّتى، و أنا أكتب جوائزهم. فقيل له: إلى أى غاية يكون علمه حتى تكتب جائزته؟ فقال أبو حنيفة: إذا علم أن التيمم لا يجوز بالرماد (2). و ناهيک ما لهذه الأمور من أثر فى توجيه شعور العامة. و تعلق قلوبهم بمن يكون اتباعه نجاة من عذاب يوم القيامة، و ما أكثر هذه الترغيبات فى كتب المناقب، و التساهل فى نقلها، كما أن المالكية يدّعون أن مالكا يمنع منكرا و نكيرا عن مساءلة أصحابه فى القبر. و نحن لا نطيل الحديث عن هذه الأمور، و لكنا نشير للبعض منها مما جعل كالبشارة بأحمد و ترجيح اتباعه. و يقول الأسود بن سالم: أتانى آت و قال لى: يا أسود اللّه يقرأ عليک السّلام و يقول لک هذا أحمد بن حنبل يردّ الأمة عن الضلالة فما أنت فاعل؟ و إلا هلكت.

1- 1) ابن الجوزى ص 446. [1]

2- 2) مناقب أبى حنيفة للموفق ج 2 ص 207.

و يقول الحسن الصواف: رأيت رب العزة فى المنـام فقال لى يا حسن من خالف أحمـد بن حنبل عـذّب. و يقول أبو عبـد اللّه السجسـتانى: رأيت رسول اللّه فى المنام، فقلت: يا رسول اللّه من تركت لنا فى عصـرنا هذا من أمتک نقتدى به فى ديننا؟ قال: عليک بأحمد بن حنبل. إلى غير ذلـک من المنامات و الأطياف التى وضـعها أنصار المـذهب الحنبلى، ليوجهوا الناس إليه فى عصـر طغى فيه تيار التعصب، و جعلت الطائفيـة أداة لأغراض الولاة، و سـتارا تعمل من ورائه الأيـدى العابثـة التى تحمل معول الهدم و أداة التخريب. و قد حبذوا القصاصـين فى اسـتخدام هـذه الوسائل تحقيقا للهـدف، و نيلا للغرض الـذى يحصل من وراء ذلک. فتراهم يقومون فى الأنديـة، و المساجـد و الطرقات، يحـدثون بما يعضـد المـذهب و انتشاره، فهذا يقص عمن لا يعرفه: بأنه رأى فى المنام بعض الصالحين فى النوم فقيل له: ما فعل اللّه بک؟ فقال: غفر لى. قيل: من وجدت أكثر أهل الجنة؟ قال: أصـحاب الشافعى: فقال له: فأين أصـحاب أحمد بن حنبل؛ فأجابه: إنک سألتنى عن أكثر أهل الجنّة، و ما سألتنى عن أعلى عليين، أصحاب أحمد فى أعلى أهل الجنة، و أصحاب الشافعى أكثر أهل الجنة. و يقول الحسين بن أحمـد الحربى: رأيت فى المنـام كأنى فى جماعـة، و كأنا قـد اعتقلنا، و كأنى مكروب من الاعتقال، فإذا بقائل يقول: أى شـىء أنتم؟ فقلت: حنابلـة. فقال: قوموا فإن الحنابلـة لا يعتقلون، و كأن قائلا يقول: ما من أحد اشـتمل على هذا المذهب فحوسب. و عن يحيى الحمانى قال: رأيت فى المنام كأنى فى صفة لى إذ جاء النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فأخذ بعضادتى الباب، ثم أذن و أقام، و قال: نجا الناجون و هلک الهالكون. فقلت: من الناجون؟ قال: أحمد بن حنبل و أصـحابه (1). و بهـذا النشاط اسـتغل كثير من الكذابين وضع منامات لجلب قلوب العامة، كما

1- 1) المناقب لابن الجوزى ص 504.

ترى من روايـة الحمـانى، و هو المعروف بـالوضع، و المشـهور بالكـذب، كمـا نص الحفـاظ على ذلک. و على وجه الإجمال فقـد كثرت المنامات فى شخصـية أحمد مرة، و فى مذهبه أخرى، و فى قبره و فضل زيارته ثالثة. و بذلک انتشـر لأحمد ذكر، و رفعه عن مسـتوى البشر. قال أحمد بن حسـين: سـمعت رجلا من خراسان يقول: عندنا أحمد بن حنبل يرونه أنه لا يشبه البشر، يظنون أنه من الملائكة. و قال رجل: نظرة عنـدنا من أحمد تعدل عبادة سـنة. و قال بعضـهم: ما كنت أحب أن أقتل فى سبيل اللّه و لـم أصل على الإمام أحمد (1). و آخر يقول يوم دفنه: دفن اليوم سـادس خمسـة و هم: أبو بكر، و عثمـان، و على، و عمر بن عبـد العزيز، و أحمـد بن حنبـل. إلى كثير من الأـقوال التى صـدرت عن أناس تأثروا بـدعايات دعاة المـذهب عند ما سـنحت الفرصة، و رجحت الكفة و انتصـر أهل السـنة على خصومهم، و فسـح الطريق أمامهم لمناصرة السلطة لهم بكل شىء. يحدّثنا ابن الجوزى: أنه ذكر عند المتوكل بعد موت أحمد أن أصحاب أحمد يكون بينهم و بين أهل البـدع (و هم غيرهم من الطوائف) الشـر، فقال لصاحب الخبر: لا ترفع إلىّ من أخبارهم، و شد على أيديهم، فإنّهم و صاحبهم من سادة أمـة محمّد. و كذلک كان لا يصـغى لقول أى أحد فى أحمد عند ما رفع منزلته و قرّبه، يحدّثنا ابن كثير أن بعض الأمراء أخبر المتوكل أن أحمد لا يأكل لک طعاما، و لا يشـرب لک شرابا، و لا يجلس لک على فراش، و يحرّم ما تشربه. فقال المتوكل: و اللّه لو نشر المعتصم، و كلمنى فى أحمـد مـا قبلت منه. و كتب رجـل للمتوكل: إن أحمـد يشـتم آبائک و يرميهم بالزندقـة. فكتب المتوكل جوابا يتضـمن عـدم الاعتناء، و أمر أن يضـرب الرجل الذى رفع إليه الرقعة مائتى سوط، فأخذه عبد اللّه بن إسـحاق فضربه خمسمائة سوط. فقال له المتوكل: لم ضربته خمسمائة سوط؟

1- 1) المرجع السابق.

فقال: مائتين لطاعتک و ثلاثمائة لکونه قذف هذا الشيخ الصالح أحمد بن حنبل (1). و کما ذکرنا أن المتوکل أمر القصاصين و بعض الفقهاء بالحديث عن الرؤية و ما يتعلق بذم المعتزلة و الجهمية، فلا غرابة أن يتقولوا على الشافعی أنه قال: من أبغض أحمد بن حنبل فهو کافر. فقيل له: تطلق عليه اسم الکفر؟ فقال: نعم من أبغض أحمد بن حنبل عاند السنّة، و من عاند السنّة، قصد الصحابة، و من قصد الصحابة، أبغض النبی، و من أبغض النبی صلّی اللّه عليه و آله و سلّم کفر باللّه العظيم (2). فيکون الناتج: من أبغض أحمد کفر باللّه العظيم. و بعد وفاته حدثوا عن رؤيتهم أحمد بن حنبل فی النوم، عن إسحاق بن إبراهيم: رأيت أحمد بن حنبل فی النوم فقلت: يا أبا عبد اللّه أ ليس قد متّ؟ قال: بلی. قلت: فما فعل اللّه بک؟ قال: غفر لی و لکل من صلّی علیّ. قلت: يا أبا عبد اللّه فقد کان فيهم أصحاب بدع؟ قال: أولئک أجروا (3). و لسنا نريد هنا استقصاء ما وضع فی تلک الفترة حول شخصيته، و لا نطيل الحديث فی ذلک بعد أن أظهر لنا التحقيق مدی ذلک النشاط الذی سار عليه کثير من رواة المناقب، فهی لا تعطی لنا صورة واقعية. إننا نريد التعرف علی تلک الشخصيات من طريق الواقع، و ستقف علی أقوال العلماء فی الإمام أحمد کما وقفت علی أقوالهم فی غيره.

شيوخه:

ابتدأ أحمد فی طلب العلم فی سنة 179 ه أی بعد مضی خمس عشرة سنة، و أول شيخ تلقی عليه العلم هو: هشيم بن بشير السلمی المتوفی سنة 183 ه أبو معاوية الواسطی نزل بغداد و کان مدلسا. استغرقت دراسة أحمد علی هشيم ثلاث سنوات أو أکثر، و قد کتب من إملاء هشيم کتاب الحج نحو ألف حديث، و جانبا من التفسير و القضاء و کتبا صغارا.

1- 1) البداية و النهاية ج 10 ص 340. [1]

2- 2) طبقات الحنابلة ج 1 ص 13. [2]

3- 3) طبقات الحنابلة ج 1 ص 110. [3] و انظر مناقب أحمد لابن الجوزی تری سيلا من الأحلام و المنامات.

و قد رحل أحمد فی طلب الحدیث إلی الکوفة و البصرة و مکة و المدینة و الیمن و الشام و العراق، و ممن تلقی علیهم: سفیان بن عیینة، و إبراهیم بن سعید، و یحیی بن سعید القطان المتوفی سنة 198 ه و وکیع المتوفی سنة 196 ه و ابن علیة المتوفی سنة 193 ه و ابن مهدی المتوفی سنة 198 ه و عبد الرزّاق بن همام المتوفی سنة 211 ه و جریر بن عبد الحمید المتوفی سنة 188 ه و علی بن هشام بن البرید، و معمر بن سلیمان المتوفی سنة 187 ه و یحیی بن أبی زائدة، و أبو یوسف القاضی المتوفی سنة 182 ه و ابن نمیر المتوفی سنة 206 ه و الحسن بن موسی الأشیب المتوفی سنة 209 ه و إسحاق بن راهویة المتوفی سنة 238 ه و علی بن المدینی المتوفی سنة 234 ه و یحیی بن معین المتوفی سنة 233 ه. و اجتمع أحمد بالشافعی، و أخذ عنه الفقه و أصوله، و بدأت علاقته بالشافعی فی سنة 195 ه حین قدم الشافعی بغداد، و دام هذا الاتصال إلی سنة 197 ه و هی السنة التی توجه فیها الشافعی إلی مکة. و لما کان أکثر هؤلاء المشایخ قد تعرضنا لترجمتهم فی أبحاثنا المتقدمة فی الأجزاء السابقة، فقد رأینا أن لا نتعرض لترجمتهم هنا. أما الشخصیة الأولی التی استقبلته و وجهته و نمّت نزوعه. و جعلت منه طالب سنّة، دءوبا فی طلبها، یجوب الأقطار، و هی شخصیة هشیم بن بشیر بن حازم المتولد سنة 104 ه و المتوفی سنة 183 ه. کان هشیم بخاری الأصل، أقام أبوه فی واسط، و کان طباخا للحجاج بن یوسف، و لما انتقلت أسرته إلی بغداد کان یصطنع هذه الصناعة، و قد اشتهر بإعداد بعض أنواع السمک و إجادته، فلما نزع ابنه منزع العلم لم یکن ذلک مألوفا فی أسرته. و قد تلقی هشیم علی بعض التابعین کعمر بن دینار و الزهری، و مغیرة بن مقسم، و غیرهم. و روی عنه شعبة و أحمد و علی بن المثنی الموصلی و ابن معین و خلق آخرون. و قد اختص به أحمد، مدة طویلة قبل أن یتصل بالشافعی، و بعد وفاة هشیم اتصل بالشافعی عند ما التقی به فی مکة، و أثار إعجابه به، فهو یعدّ الموجّه الثانی لأحمد بن حنبل، و کانت بینهما صلة و مودة.

و قد ذكرنا أن أول شخصية تلقى أحمد عنه العلم. هو أبو يوسف القاضى، و لكن لم تطل ملازمته له كما لازم هشيم و الشافعى، فهما فى طليعة شيوخه و الموجهين له. و لكن الغريب من الحنابلة هو جعل المشايخ تلاميذ، فقد ذكروا أن الشافعى و عبد الرزّاق بن همام و ابن مهدى، و يزيد بن هارون، و الحسن بن موسى الأشيب، و هم من شيوخ أحمد، كانوا من تلامذته. و ذكروا أن البخارى من تلامذة أحمد، و أنه روى عنه الحديث، مع أن البخارى لم يرو له إلاّ حديثا واحدا فى آخر كتاب الصدقات تعليقا، و روى له مسلم و أبو داود فى صحيحيهما، و الباقون لم يخرجوا حديثه.

تلامذته:

اشارة

كان لأحمد بن حنبل أصحاب كثيرون: منهم من روى الحديث عنه، و منهم من روى الحديث و الفقه، و منهم من اشتهر برواية الفقه، و قد أحصاهم صاحب (المنهج الأحمد) فى عدد كبير، و لعل الحنابلة يبالغون العدد، و أنه إذا ذهب قدر المبالغة يبقى بعد كثيرا و لا يكون قليلا (1). و يجب أن نلحظ هنا أمرا هاما و هو: أنه لا خلاف بين العلماء فى عد الإمام أحمد من المحدثين، لكن الخلاف فى عدّه من الفقهاء، فإن أكثرهم لم يذكره فى عداد الفقهاء، فابن جرير الطبرى لم يعد مذهبه فى الخلاف بين الفقهاء، و كان يقول: إنما هو رجل حديث لا رجل فقه. و ثارت عليه الحنابلة من أجل ذلك، و لم يذكره ابن قتيبة فى كتابه (المعارف من الفقهاء) ، و ذكره المقدسى فى المحدثين لا فى الفقهاء، و اقتصر ابن عبد البر فى كتاب الانتقاء على الأئمة الثلاثة: أبى حنيفة و مالك و الشافعى. و من هذا يتبين أن مدرسته الفقهية لم تكن ذات أثر فى عصره، فمن الصعب تحديد نشاطها، و إعطاء صورة عن رجالها فى عصره، و إنما اتسعت بعد مدة من وفاته. و لذلك كان موضوع درجه مع المحدثين، و تردد بعض الأعلام فى عده من

1- 1) ابن حنبل لمحمّد أبو زهرة ص 176.

الفقهاء، فأحمد اعتنى جلّ العناية بالحديث، و صرف همّه إلى الاهتمام بالرواية و الحفظ. فكان مسنده حصيلة عمره، حرر على يد غيره من تلامذته، و لقد كان شياع ذكره و احتلاله مكانته فى بغداد لملابسات المحنة و أحداث القول بخلق القرآن. و على أى حال: فإن أشهر أصحاب أحمد و رواة حديثه هم:

أحمد بن محمّد بن هانى المعروف بالأثرم:

المتوفى سنة 261-262 ه الإسكافى، كان جليل القدر عظيما عند الحنابلة، قال سعد بن عتاب: سمعت يحيى بن معين يقول: كان أحد أبوى الأثرم جنيا (1). و قال إبراهيم بن الأصبهانى: أحفظ من أبى زرعة و أتقن. و قد نقل الأثرم عن أحمد بن حنبل مسائل كثيرة، كجواز المسح على العمامة، و إغنائه عن المسح على الرأس، و أن قراءة القرآن بالألحان بدعة لا تستحسن، و أن المضمضة و الاستنشاق ركنان من أركان الوضوء، و غير ذلك من المسائل كما ذكر ابن أبى يعلى.

أحمد بن محمّد بن الحجاج بن عبد العزيز المروزى:

المتوفى سنة 275 ه و كان أخص أصحاب أحمد به و أقربهم إليه، و أدناهم منه، و هو الذى تولى غسله لما مات، و كان عنده أثيرا، و هو الذى روى كتاب الورع عن أحمد، و نقل الخطيب البغدادى تكذيب رواية كتاب الورع عن غيره. و كان أحمد يثق بورعه و عقله، حتى أنّه كان يقول: كل ما قلت على لسانى، فأنا قلته. قال المروزى: قلت لأبى عبد اللّه أحمد بن حنبل: أ ترى أن يكتب الرجل كتب الشافعى؟ قال: لا. قلت: أ ترى أن يكتب الرسالة؟ -أى رسالة الشافعى-قال: لا تسألنى عن شىء محدث. قلت: كتبتها؟ قال: معاذ اللّه. و قال أيضا: قال أحمد: لا تكتب كلام مالك، و لا سفيان، و لا الشافعى، و لا إسحاق بن راهويه، و لا أبى عبيد. توفى المروزى فى جمادى أولى سنة 275 ه.

1- 1) طبقات الحنابلة ج 1 ص 73. [1]

إبراهيم بن إسحاق الحربى:

المتوفى سنة 285 ه كان من أعيان تلامذة أحمد و المختص به، و قد لازمه مدة عشرين سنة، و أخذ عنه الحديث و الفقه. و صنف كتبا كثيرة منها: غريب الحديث، و دلائل النبوة، و كتاب الحمام، و سجود القرآن، و ذم الغيبة، و النهى عن الكذب و غير ذلک.

صالح بن أحمد بن حنبل:

و هو أكبر أولاده، و قد تلقى الفقه و الحديث عن أبيه، و عن غيره من معاصريه، و نقل إلى الناس كثيرا من مسائل الفقه التى أفتى فيها أبوه، و كان الناس يكتبون إليه من خراسان ليسأل أباه عن مسائل، فكان يرسل إليهم الأجوبة التى يتلقاها عنه، و كان قد تولى القضاء بأصبهان و طرسوس، و مات بأصبهان سنة 266 ه.

عبد اللّه بن أحمد بن حنبل:

المتوفى سنة 290 ه روى الحديث عن أبيه و عن كثيرين غيره، كعبد الأعلى بن حماد، و كامل بن طلحة، و يحيى بن معين، و أبى الربيع و غيرهم. و هو الذى روى المسند و تممه كما سيأتى بيانه، و قد روى عن أبيه مسائل كثيرة، و من غريب ما رواه عنه أنه قال: قبور أهل السنّة من أهل الكبائر روضة، و قبور أهل البدعة من الزهّاد حفرة. فساق أهل السنة أولياء اللّه، و زهاد أهل البدعة أعداء اللّه (1). و هذا القول لا يمكن أن يصدر من رجل كأحمد بن حنبل و اتصافه بالورع و التقوى، فإن مؤدى هذا القول إبطال العمل، و ترک الواجبات، و التحلل من كل شىء، فإذا كان مرتكب الكبيرة هو ولى اللّه لأنه من أهل السنّة، فما معنى السنّة هنا، و كيف يصح ذلک؟ و العهدة على الرواة. و لنكتفى بذكر هؤلاء من أصحاب أحمد الذين نقلوا فقهه كأنموذج. و سنتعرض لذكر آخرين عند حديثنا عن رجال المذهب و المؤلّفين فيه.

1- 1) طبقات الحنابلة ج 1 ص 184. [1]

کتبه و آثاره:

اشارة

لم یصنف أحمد بن حنبل کتابا فی الفقه یعد أصلا یؤخذ من مذهبه أو یعتبر مرجعه، و لم یکتب إلاّ الحدیث، و قد ذکر العلماء أن له بعض کتابات فی موضوعات فقهیة منها: المناسک الکبیر، و المناسک الصغیر، و رسالة صغیرة فی الصلاة قصیرة، ظهرت فی عدة طبعات فی القاهرة. و هذه الکتابة هی أبواب قد توافر فیها الأثر، و لیس فیها رأی أو قیاس أو استنباط فقهی، بل اتباع لعمل، و فهم للنصوص. فرسالته فی الصلاة، و المناسک الصغیر و الکبیر و هی کتب حدیث، و إن کانت فی موضوعات مما تناولها بالبسط و الشرح (1). و علی الجملة فإن المشهور عن أحمد أنه کان یکره وضع الکتب التی تشتمل علی التفریع و الرأی. فقد قال یوما لعثمان بن سعید: لا تنظر إلی ما فی کتب أبی عبید، و لا فیما وضع إسحاق، و لا فی ما وضع سفیان و لا الشافعی و لا مالک و علیک بالأصل. قال ابن بدران الدمشقی: و حیث أن الإمام أحمد کان یحب توفر الالتفات إلی النقل، و یختار التواضع، استغل أوقاته فی جمع السنّة و الأثر و تفسیر کتاب اللّه، و لم یؤلّف کتابا فی الفقه، غایة ما کتب فیه رسالة فی الصلاة، کتبها إلی إمام صلّی وراءه فأساء فی صلاته، و هی رسالة قد طبعت و نشرت فی أیامنا هذه، فعلم اللّه من حسن نیته و قصده فکتب عنه أصحابه من کلامه و فتواه أکثر من ثلاثین سفرا انتشرت کلها فی الآفاق. ثم جاء أحمد بن هارون الخلال المتوفی سنة 331 ه فصرف عنایته إلی جمع علوم أحمد و إلی کتابة ما روی عنه، و طاف لأجل ذلک البلاد، و سافر للاجتماع بأصحاب أحمد، و کتب ما روی عنه بالإسناد و صنف کتبا فی ذلک (2). و الغرض أن أحمد کان ینهی عن التدوین لأقواله و آرائه، و قد صرح بذلک مرارا.

1- 1) أحمد بن حنبل ص 168.

2- 2) المدخل إلی مذهب الإمام أحمد بن حنبل ص 46-47.

روى ابن أبى يعلى: أن رجلا قال لأبى عبد اللّه: أريد أن أكتب هذه المسائل. فقال له أحمد: لا تكتب شيئا فإنى أكره أن أكتب رأيى. و أحس مرة بإنسان يكتب و معه ألواح فى كمه. فقال أحمد: لا تكتب رأيى، لعلى أقول الساعة بمسألة، ثم أرجع غدا عنها. و قال: إنما كانوا يحفظون و يكتبون السنن إلاّ الواحد بعد الواحد الشىء اليسير منه، فأما هذه المسائل تدون و تكتب من ديوان الدفاتر فلست أعرف فيها شيئا، و إنما هو رأى لعله قد يدعه غدا، و ينتقل عنه إلى غيره. . . انظر إلى سفيان و مالک حين أخرجا و وضعا الكتب و المسائل كم فيها من الخطأ؟ و إنما هو رأى يرى اليوم شيئا و ينتقل عنه غدا و الرأى قد يخطئ (1). هذا ما علل به من كراهيته، و مرة أخرى أنّه كان يرى أن كتابة الرأى محدثة أو بدعة.

مسند الإمام أحمد:

و المسند هو مجموعة كبيرة من جملة أصول السنّة يشتمل على أربعين ألف حديث تكرر منها عشرة آلاف، و منها ثلاثمائة حديث ثلاثية الإسناد (أى بين رواتها و الرسول ثلاثة رواة) . و قد سئل أحمد عن حديث فقال: انظروه فإن كان فى المسند، و إلاّ فليس بحجّة. و كان أحمد قد شرع فى جمع المسند فكتبه فى أوراق منفردة، و فرقه فى أجزاء متفرقة، فمات قبل تنقيحه و تهذيبه، فبقى على حاله. ثم أن ابنه عبد اللّه ألحق به ما يشاكله، و ضم إليه من مسموعاته ما يشابهه و يماثله. و كثر الخلاف حول المسند و أحاديثه، و جمعه و ترتيبه، و رتبته من كتب الأسانيد. و حكم ابن الجوزى على عدة أحاديث بالوضع، و قال الذهبى فى سيرة النبلاء: فيه-أى مسند أحمد-جملة من الأحاديث الضعيفة مما لا يسوغ نقلها و لا يجب الاحتجاج بها، و فيه أحاديث معدودة شبيهة بالموضوعة، لكنها قطرة فى بحر. و اعتذر ابن تيمية: بأن عبد اللّه بن أحمد قد زاد على مسند أحمد زيادات، و زاد

1- 1) الطبقات لابن أبى يعلى ج 1 ص 39 و 214.

أبو بكر القطيعى زيادات، و فى زيادات القطيعى أحاديث كثيرة موضوعة، فظن الجهال أنه من رواية أحمد، رواها فى المسند و هذا خطأ قبيح. و خالفه العراقى و ادعى أن فى مسند أحمد موضوعات و صنّف جزءا مستقلا. و صنّف الحافظ ابن حجر كتاب: القول المسدد فى الذب عن مسند أحمد، نقل فيه جزء شيخه العراقى حرفا حرفا، و أجاب عنه حديثا حديثا. و رتبة مسند أحمد فى الطبقة الثانية من كتب الأسانيد، و لا يلحق بالصحيحين و موطأ مالک، و قيل بعد الصحاح الخمسة، و بعد موطأ مالک، و صرح الخطيب و غيره بأن الموطأ مقدم على كل كتاب من الجوامع و المسانيد. و قال ابن حزم: أولى الكتب الصحيحان، ثم صحيح سعيد بن السكن، و المنتقى لابن الجارود، ثم بعد هذه الكتب كتاب أبى داود، و كتاب النسائى، و مصنف الطحاوى، و مسانيد أحمد و البزار (1). و نرى من المناسب نقل بعض ما ذكره الأستاذ محمود أبو رية فى كتابه (أضواء على السنة المحمدية) بعد ذكره لرتبة بقية المسانيد: أما مسند أحمد خاصة فإننا ننقل بعض كلام أئمة المحدثين فيه مبتدئين بقول شيخ الإسلام و إمام الحنابلة بعد أحمد، ابن تيمية، و ليس علينا بعد أن ننقل ما ننقل أن يغضب أحد ممن يدّعون فى عصرنا أنهم من رجال الحديث، لأن الحق أحق أن يتبع، و ما سوينا هذا الكتاب إلاّ لنرضى الحق وحده، فإذا ما غضب غاضب فليكن غضبه من الحق لا- منّا. قال ابن تيمية رحمه اللّه من كلام له عن أبى نعيم: أنه روى (أى أبو نعيم) كثيرا من الأحاديث التى هى ضعيفة، بل موضوعة باتفاق العلماء المحدثين أمثاله، يروون جميع ما فى الباب لأجل المعرفة بذلک، و إن كان لا يحتج من ذلک إلاّ ببعضه، و الناس فى مصنفاتهم، منهم من لا يروى عمن يعلم أنه يكذب، مثل: مالک و شعبة و أحمد بن حنبل. فإن هؤلاء لا يروون عن شخص ليس بثقة عندهم، و لا يروون حديثا يعلمون أنه عن كذاب، من الذين يعرفون بتعمد الكذب، لكن قد يتفق فيما يرونه ما يكون صاحبه أخطأ فيه، و قد يروى الإمام أحمد و إسحاق و غيرهما أحاديث تكون ضعيفة عندهم لاتهام رواتها بسوء الحفظ و نحو ذلک ليعتبر بها و يستشهد بها،

1- 1) قواعد التحديث للقاسمى ص 237. [1]

فإنه قد يكون لذلک الحديث ما يشهد له أنه محفوظ، و قد يكون له ما يشهد بأنه خطأ، و قد يكون صاحبه كذابا فی الباطن، ليس مشهورا بالكذب، بل يروی كثيرا من الصدق فيروی حديثه، و كثيرا من المصنفين يعز عليه ذلک علی وجهه، بل يعجز عن ذلک. فيروی ما سمعه كما سمعه، و الدرک علی غيره لا عليه (1)و قال رحمه اللّه: و ليس كل ما رواه أحمد فی المسند و غيره يكون حجة عنده، بل يروی ما رواه أهل العلم، و شرطه فی المسند أن لا يروی عن (المعروفين بالكذب عنده) و إن كان فی ذلک ما هو ضعيف. . . و أما كتب الفضائل فإنه لم يقصد أن لا يروی فی ذلک إلاّ ما ثبت عنده. ثم زاد ابن أحمد زيادات، و زاد أبو بكر القطيعی زيادات، و فی زيادات القطيعی أحاديث كثيرة موضوعة (2). و يقول رحمه اللّه، أی ابن تيمية، يرد علی من استشهد بحديث رواه أحمد و هو كذب: و بتقدير أن يكون أحمد روی الحديث، فمجرد رواية أحمد لا ـ توجب أن يكون صحيحا يجب العمل به، بل الإمام أحمد روی أحاديث كثيرة لتعرف و يبيّن للناس ضعفها. . . و هذا الكتاب (مسند أحمد) زاد فيه ابنه عبد اللّه زيادات، ثم أن القطيعی الذی روی عن ابنه عبد اللّه (أی ابن أحمد) زاد عن شيوخه زيادات فيها أحاديث موضوعة باتفاق أهل المعرفة (3). ثم ذكر بقية كلام ابن تيمية فی كتاب التوسّل و الوسيلة، و ذكر قول ابن كثير فی كتاب اختصار علوم الحديث ثم قال: و أما قول الحافظ بن موسی محمّد بن أبی بكر المدينی فی مسند أحمد أنه صحيح فقول ضعيف، فإن فيه أحاديث ضعيفة بل موضوعة كأحاديث فضائل مرو، و عسقلان، و البرث الأحمر عند حمص، و غير ذلک، كما نبه عليه طائفة من الحفّاظ. ثم إن الإمام أحمد قد فاته فی كتابه أحاديث كثيرة جدا، بل قد قيل إنه لم يقع له جماعة من الصحابة الذين فی الصحيحين إلاّ قريبا من مائتين. ثم قال: و قال بعض الناظرين فی مسند أحمد: الحق أن فی المسند أحاديث كثيرة ضعيفة، و قد بلغ بعضها فی الضعف إلی أن أدخلت فی الموضوعات.

1- 1) منهاج السنة ج 1 ص 15.

2- 2) منهاج السنّة ج 4 ص 27.

3- 3) نفس المصدر ص 61.

و لما قال الإمام أحمد: هذا الكتاب جمعته و انتقيته من 750 ألف حديث، فما اختلف المسلمون من حديث رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فارجعوا إليه، فإن وجدتموه و إلاّ فليس بحجة. قال الحافظ أبو عبد اللّه الذهبى: هذا القول منه على غالب الأمر، و إلاّ قلنا أحاديث قوية فى الصحيحين و السنن و الأجزاء ما هى فى المسند! و قدر اللّه تعالى أن الإمام قطع الرواية قبل تهذيب المسند، و قبل وفاته بثلاث عشرة سنة، فنجد فى الكتاب أشياء مكررة و دخول مسند فى مسند، و سند فى سند و هو نادر (1). و للحافظ ابن الجوزى كلمة فى كتابه (صيد الخاطر) بشأن المسند ننقلها بحروفها عن مقدمة الجزء الأول من المسند طبع دار المعارف. قال: فصل: كان قد سألنى بعض أصحاب الحديث هل فى مسند أحمد ما ليس بصحيح؟ فقلت: نعم. فعظم ذلک على جماعة ينسبون إلى المذهب، فحملت أمرهم على أنهم عوام! و أهملت فكر ذلک، و إذا بهم قد كتبوا فتاوى، فكتب فيها جماعة من أهل خراسان منهم أبو العلاء الهمدانى، يعظمون هذا القول و يردونه و يقبحون قول من قاله! فبقيت دهشا متعجبا. و قلت فى نفسى: وا عجبا صار المنتسبون إلى العلم عامة أيضا! و ما ذاک إلاّ أنهم سمعوا الحديث و لم يبحثوا عن صحيحه و سقيمه، و ظنوا أن من قال ما قلته قد تعرّض للطعن فيما أخرجه أحمد و ليس كذلک؛ فإن الإمام أحمد روى المشهور و الجيد و الردىء، ثم هو قد رد كثيرا مما روى و لم يقل به، و لم يجعله مذهبا له. أ ليس هو القائل فى حديث الوضوء بالنبيذ: مجهول! و من نظر فى كتاب العلل الذى صنفه أبو بكر الخلال رأى أحاديث كثيرة كلها فى المسند، و قد طعن فيها أحمد. قال القاضى: و قد أخبر عن نفسه كيف طريقه فى المسند، فمن جعله أصلا للصحة فقد خالفه و ترک مقصده. قلت: (القول لابن الجوزى) قد غمنى فى هذا الزمان (2)أن العلماء لتقصدهم فى العلم صاروا كالعامة، و إذا مر بهم حديث موضوع قالوا: قد روى (3)، و البكاء ينبغى أن يكون على خساسة الهمم و لا حول و لا قوة إلاّ باللّه العلى العظيم.

1- 1) ص 30 و 31 مقدمة مسند أحمد. [1]

2- 2) ولد ابن الجوزى سنة 510 ه و مات سنة 597 ه.

3- 3) مقدمة المسند ص 56-57.

هـذا مـا رأينا نقله مما قال الأئمـة الكبار فى مسـند أحمـد، و هو كاف فى التعريف به و بيان قيمته فى نفسه لا فيما هو مشـهور عنه، و أنه من المصادر التى لا يعول عليها أو يحتـج بها شأنه شأن سائر المسانيد (1). و أحاديث المسند تنقسم إلى ستة أقسام: 1-قسم رواه عبد اللّه عن أبيه سماعا، و هو المسمى بمسند الإمام أحمد. 2-و قسم سمعه عبد اللّه من أبيه و من غيره. 3-و قسم رواه عن غير أبيه و هو المسمى عند المحدثين بزوائد عبد اللّه و هو كثير بالنسبة للأقسام كلها عدا القسم الأول. 4-و قسم قرأه عبد اللّه على أبيه و لم يسمعه منه و هو قليل. 5-و قسم لم يقرأه و لم يسمعه، و لكنه وجده فى كتاب أبيه بخطه. 6-و قسم رواه أبو بكر القطيعى من غير عبد اللّه و أبيه، و كل هذه الأقسام من المسند إلاّ الثالث و السادس فإنّهما من زوائد عبد اللّه و القطيعى. و قد تولى شرحه و اختصاره جماعة من العلماء منهم: أبو الحسن بن عبد الهادى السـندى، المتوفى سنة 1129 ه نزيل المدينة المنورة. و اختصـره زين الدين عمر بن أحمد السـماع الحلبى، و سـمى مختصره (در المنتقد من مسند أحمد) و لذلک اختصره سراج الدين عمر بن على المعروف بابن الملقنى الشافعى المتوفى سنة 805 ه.

1- 1) أضواء على السنّة المحمّدية [1]للأستاذ محمود أبو ريه ص 293-298. [2]

الإمام أحمد بن حنبل

اشارة

عصره و حوادثه

عصره:

يمتد عصـر الإمام أحمد من عهد المهدى العباسى إلى عهد المتوكل، أى من سنة 164 ه إلى سنة 241 ه. و كان عصره عصر ازدهار، فقد أخذت الدولة العباسية مكانتها فى المجتمع، و ثبتت قواعدها على عهد الرشيد، و المأمون، و المعتصم، فعظم شأنها و امتد سلطانها. و فى عهده كانت حادثة الخلاف بين الأمين و المأمون سنة 195 ه و قيام حرب طاحنـة بينهما على الملك، فسالت الدماء فى العراق و خراسان، و اسـتقر الأمر للمأمون بعد ذلک. و فى أيامه ابتدأت محنة القول فى خلق القرآن سنة 218 ه التى كانت من أعظم عوامل شهرة أحمد، كما قلنا أنه لم يكن لأحمد نشاط يذكر فى أيامه الأولى، أو اشـتهر ذكره و نشـر اسمه، و إنما شهرته كانت فى أيام المحنة بعد عهد المأمون. و قد كان عصـره أزهر العصور لقوة الدولـة، و امتداد سـلطانها، و قد فاضت الثروة، و امتلأت خزائن الدولة، و زاد العمران، و امتدت الحضارة، و تنعم أرباب المناصب و المقرّبون للسـلطان بمباهـج الحياة، و نعموا بخيرات البلاد و كانت لهم الثروات الطائلة، و عمرت مجالس العلم و الأدب، و أمست دور الكبراء مـدارس يغشاها أرباب الفكر و حملـة الآثار و الأشـعار، و قادة الفكر، و أمراء البلاغـة و البيان. كما و قد تفنن أرباب النعيم و ذوى الثراء فى اتخاذ مجالس اللهو، و تباروا فى اقتناء المغنيات، و تنافسوا فى شرائها بأغلى الأثمان، كما كانت بيوت الخلفاء مجالس للغناء و الشراب، يتبارى فيها المغنون فى إطراب الخلفاء، و فى إتحافهم بكل صوت.

و قد احتفظت كتب الأدب بكثير من أخبارهم، فهم يتذوقون الغناء و يطربون عليه، و يجيزون المغنين و يصلونهم بأسنى الصلات، و كان معظمهم يحسن الغناء و يعرف أصوله، و يصنع أصواتا يغنيها هو أو يلقيها على جواريه أو على المغنين ليغنوها، كما كان هارون الرشيد و الواثق أكثر ما كان فى حاشيتهما من المغنين. و كان إبراهيم بن المهدى أخو الرشيد قد بلغ منزلة فى الغناء و عرف بشيخ المغنين، و كانت علية بنت المهدى تغنى أحسن غناء، و كان أخوها يعقوب يزمر لها على الغناء (1)و كان الرشيد يعلم ذلک، و قد غنت جارية ذات يوم: يا موری الزند قد أعيت قوادحه اقبس إذا شئت من قلبى بمقباس

ما أقبح الناس فى عينى و اسمجهم إذا نظرت فلم أبصرک فى الناس

فأراد الرشيد أن يعرف لمن الصوت، فأسرّت إليه الجارية أنه لعلية أخته. و روى أبو الفرج عن أحمد بن زيد قال حدّثنى أبى قال: كنا عند المنتصر فغناه منان لحنا من الرمل الثانى: يا ربه المنزل بالبرک و ربه السلطان و الملک

تحرجى باللّه من قتلنا لسنا من الديلم و الترک

فضحكت، فقال لى: مم ضحكت؟ قلت: من شرف قائل هذا الشعر، و شرف من عمل اللحن فيه و شرف مستمعه. قال: و ما ذاک؟ قلت: الشعر فيه للرشيد، و الغناء لعلية بنت المهدى، و أمير المؤمنين مستمعه (2). و كان اهتمام الرشيد بالغناء و المغنين عظيما، فقد قرب منهم عددا وافرا،

1- 1) الأغانى ج 9 ص 84. [1]

2- 2) الأغانى ج 9 ص 81. و [2]رحم اللّه أبا فراس الحمدانى إذ يقول مقارنا بينهم و بين بنى على: تنشى التلاوة فى أبياتهم سحرا و فى بيوتكم الأوتار و النغم منكم علية أم منهم و كان لكم شيخ المغنين إبراهيم أم لهم إذا تلوا سورة غنى أمامكم قف بالطلول التى لم يعفها القدم ما فى بيوتهم للخمر معتصر و فى بيوتكم للسوء معتصم الركن و البيت و الأستار منزلهم و زمزم و الصفا و الحجر و الحرم

و أجزل العطاء عليهم، و كان يجمعهم فى مجلس واحد و يقترح عليهم فى الأصوات ليطرب، فمن أطربه نال أسنى الجوائز و أعظم الصلات (1)و قد اختار له إسحاق الموصلى من الغناء مائة صوت، و قد عرفت بالأصوات المائة المختارة، التى وضع أبو الفرج الأصبهانى فيها كتاب الأغانى (2). كما كانت فى بغداد نواد للغناء و اللهو، فيها القيان اللاتى يحسنّ الغناء، و يقصدهنّ الفتيان الظرفاء يتغازلون و يشربون و يلهون. و كان الأمين شديد الطرب إلى الغناء، واسع العطاء إذا طرب، و قد وصفه إسحاق الموصلى فقال: ما كان (أى الأمين) يبالى أين قعد و مع من قعد، و لو كان بينه و بين ندمائه مائة حجاب خرقها كلها، و ألقاها عن وجهه حتى يقعد حيث قعدوا، و كان من أعطى الخلق لذهب و فضة، و أوهبهم للأموال إذا طرب أو لهى، و قد رأيته أمر لبعض أهل بيته بحمل زورق ذهبا، و أمر لى ذات ليلة بأربعين ألف دينار. و حتى فى أعسر ساعات حياته عند ما أحيط به كان يستمع إلى الغناء. فبينما كانت حجارة المنجنيق تصل بساطه كانت إحدى الجوارى تغنيه (3). و قد كان البذخ و الإسراف و تبذير الأموال فى وجوه الملذات أمر يبعث على الدهشة و الاستغراب، و بلغ الترف إلى أقصى حد. و لم يكن هذا الترف و البذخ يعم طبقات الناس، بل كان هناك ملايين من أبناء الأمة يعانون الحرمان، و يقاسون ألم الفاقة، و منهم المظلومون الذين جار عليهم جباة الأموال فسلبوهم ما يسدّون به الحاجة، و منهم من غصبهم السلطان و أعوانه أموالهم و ضياعهم، و لا يجدون من يسمع أصواتهم إذا رفعوها بالتظلم، كما ليس لهم طمع فى رد ظلامتهم. و سار العمال فى إرهاق الرعية على الوجه الذى يخالف نظام الإسلام، فأصبحت الأموال تجبى بأقسى وسائل الظلم، و تصرف فى ضروب من الإسراف و أنواع من الترف.

أحداث عصره:

اشارة

و ظهرت فى عصر أحمد العصبية العنصرية، فاشتد النزاع بين العرب و الفرس

1- 1) مروج الذهب ج 3 ص 278.

2- 2) الأغانى ج 1 ص 1 و ما بعدها. [1]

3- 3) التاج ص 42-43.

و الترک (و کان العرب قد ضعف أمرهم فی نزاع مع الفرس، فجاءت قوة الترک ضغثا علی إبالة) . و استولی الأتراک علی الأمور عند ما کثر جمعهم و عظمت شوکتهم، و بدأت العصبیة ضد الأتراک من عهد دخولهم بغداد فی عهد المعتصم، و شکی إلیه الناس من جورهم و سوء تصرفهم، و قد هجاه دعبل الخزاعی بقوله: لقد ضاع أمر الناس حیث یسوسهم وصیف و اشناس و قد عظم الخطب

و إنی لأرجو أن تری من مغیبها مطالع شمس قد یغص بها الشرب

و همک ترکی علیه مهانة فأنت له أم و أنت له أب

و اشتدت محنة أهل بغداد من عبث الأتراک و تعسفهم، و کانوا لا یستطیعون مقابلتهم، لأن السلطان قد لحظهم بالعنایة و جعلهم محل ثقته، حتی بلغ الأمر بالمعتصم أنه کتب إلی والیه علی مصر، و هو کیدر-و اسمه نصر بن عبد اللّه-یأمره بإسقاط من فی الدیوان من العرب و قطع أعطیاتهم. و علی أی حال: فقد أصبحت الأمور فی ید الأتراک، و أصبحوا مصدر قلق و اضطراب، فهم یکرهون العرب، و هم أنفسهم لیسوا فی وفاق بعضهم مع بعض، و هم لا ینقطعون عن المؤامرات و الدسائس، و تعصب کل فریق لقائد منهم، و بهذا أصبحت دار السلام و ما حولها لیست دار سلام، إذ غلبت علی ذوی السلطة شهواتهم الآثمة، فلا تطرق سمعهم صرخات المفجوعین و لا استغاثة المتظلمین، و لا ینفذ بصرهم إلی ما یعانیه ذلک المجتمع المنکوب الذی دب فی جسمه داء الجهل و الفوضی و حب الشهوات، و هم ساهون یعدّون أنفسهم سعداء فی شقاء الأمة و أغنیاء بافتقارها. و قد ثارت فی عصر الإمام أحمد عاصفة العداء بین الطوائف، و اشتدت الخصومة بینها. مما أدت إلی حلول الکراهیة و وقوع الشر بین أفراد و طبقات المجتمع آنذاک. و کان المحدثون یغذون روح الکراهیة تجاه أعدائهم و خصومهم، فذهبوا إلی تکفیر المعتزلة و کل من یقول بخلق القرآن. إذ یقول أبو عبد اللّه الدهلی المتوفی سنة 255 ه: من زعم أن القرآن مخلوق فقد کفر و بانت منه امرأته، فإن تاب و إلاّ ضربت عنقه، و لا یدفن فی مقابر المسلمین. و من وقف و قال: لا أقول مخلوق أو غیر

مخلوق فقـد ضاهى الكفر، و من زعم أن لفظى بالقرآن مخلوق فهو مبتدع و لا يدفن فى مقابر المسـلمين. و على أى حال: فقد قويت. روح الكراهيـة بين أفراد المجتمع فاشـتدت المنازعات و كثرت الخصومـة، و تطور الأمر و ازدادت الحوادث، و سارت العامة من أبناء الأمة على هذا النهج، حتى أن امرأة تقدمت إلى قاضى الشرقية عبد اللّه بن محمّد الحنفى فقالت: إن زوجى لا يقول بمقالة أمير المؤمنين، ففرق بينى و بينه (1). و من تلك الحوادث: أن الواثق لما استفك من الروم أربعة آلاف من الأسارى اشترط فيهم أن من قال: القرآن مخلوق يخلص من الأسـر و يعطى دينارين، و من امتنع عن ذلك فيترك فى الأسـر و لا يفك (2). و هذا محمّد بن الليث قاضـى مصر كان حنفيا، فانتهز محنة خلق القرآن فأوقع بأصـحاب الإمام مالك و الشافعى، و منع فقهاءهم من الجلوس فى المسـجد، و قال شاعر مصـر الحسين بن عبد السّلام الجمل يخاطبه: و ليت حكم المسلمين فلم تكن برم اللقاء و لا بفظ أزور

و لقد بجست العلم فى طلابه و فجرت منه ينابعا لم تفجر

فحميت قول أبى حنيفة بالهدى و محمّد و اليوسفى الأذكر

و حطمت قول الشافعى و صحبه و مقالة ابن علية لم تضجر

و المالكية بعد ذكر شائع أخملتها فكأنها لم تذكر

(3)و مما تقـدم يتبين أن مشـكلة خلق القرآن قد زادت من إحداث الفرقة فى المجتمع الإسـلامى، و من جراء هذه الحوادث التى صاحبت هـذه المحنـة العامـة و المشـكلة الاجتماعية فتح باب التدخل من قبل أعداء الإسـلام، و كانت الخصومة و الفرقة التى منى بها المسـلمون آنـذاك، هى الدافع الرئيسـى الذى نشط القوى المعادية للإسـلام، فقد عملوا على توسـيع رقعة الخلاف بين أفراد المجتمع و طبقاته، لإيقاع الفتنة تحقيقا لأهدافهم.

1- 1) تاريخ بغداد ج 10 ص 74. [1]

2- 2) طبقات الشافعية ج 3 ص 22. و تاريخ اليعقوبى ج 3 ص 194.

3- 3) القضاة للكندى ص 371. [2]

و قد نجحت أساليبهم التى اتبعوها، و الوسائل التى اتخذوها، لأنها كانت تحمل طابع الحرص على الإسلام، لتجتذب إلى صفوفهم أناس دفعتهم سلامة ضمائرهم إلى الدفاع عنها و كأنها دفاع عن الإسلام، و لم تقتصر فئاتهم على هذه الطائفة فقط، بل انضم فى سلكهم انتهازيون وجدوا بذلک خير فرصة لتحقيق أغراضهم، و نيل مآربهم للوقيعة بخصومهم، إذ خرجت المنازعات عن حدودها، فتجنى كل فريق على الآخر، و أخذ كل أحد يرمى الآخر بالكفر. و فى وسط ذلک التيار الجارف من الخصومة و العداء، استطاعت الأغراض و الأهواء أن تنفذ إلى الأحاديث النبوية، و هى إحدى الدعائم التى يقوم عليها الدستور الإسلامى، ليتم لهم آنذاک التلاعب بمقدرات الإسلام و توجيهها صوب تحقيق أغراضهم و أهدافهم. فلقد وضع الوضاعون أحاديث تتفق مع هذه النزعة، و نسبوها لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و هم يدعون أن ذلک نصرة للدين، و تقوية للمسلمين، فإذا ما حوججوا و أمروا بالكف عن ذلک قالوا: إنما نقول له لا عليه. و ناهيک بما قام به الدعاة على المنابر، لتوجيه الرأى العام نحو جهة معينة، و حصر الإسلام عليها، و تخصيصها به، فلم يكن فيه نصيب لغيرهم، و لا فى الجنة مكان لسواهم، و قد غرق الناس فى تلک المنازعات الدينية و السياسية مدة طويلة، حتى امتدت جذور تلک الفتنة إلى عصور متأخرة عن عصر الإمام أحمد، فاشتد الموقف حراجة، و وقف كل يتربص بالآخر، مما أدى إلى نشوب حروب دموية و وقوع الخراب فى كثير من البلاد الإسلامية، فأحرقت جوامع، و هدمت مساجد، و نهبت أموال، و أريقت دماء. إلى غير ذلک من الأمور التى خلفت أوضاعا سيئة، و مع كل هذا و المجال يتسع أمام المتداخلين فى صفوف المسلمين للعمل على تمزيق وحدة الصف و اتساع دائرة الخلاف. يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُا نُورَ اَللّٰهِ بِـأَفْواهِهِمْ وَ اَللّٰهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَ لَوْ كَرِهَ اَلْكـافِرُونَ (8) هُوَ اَلَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى وَ دِينِ اَلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى اَلـدِّينِ كُلِّهِ وَ لَوْ كَرِهَ اَلْمُشْرِكُونَ (1).

1- 1) سورة الصف آية 8 و 9. [1]

و بقی شیء یتعلق بعصر أحمد، و هو ترجمة الملوک الذین جرت المحنة علی أیدیهم، فلا بأس أن نلم بذلک إلماما و إن کان خارجا عما رسمناه.

المأمون:

هو عبد اللّه بن هارون الرشید، کنیته أبو جعفر أو أبو العباس، و أمّه أم ولد، یقال لها مراجل الباذغیسیة، ولد فی ربیع الأول سنة 170 ه و توفی سنة 218 ه و کان أدیبا شجاعا، له ولع و مشارکة فی کثیر من العلوم، متعطشا للآداب، محبا للنقاش و الجدل، و کان المعتزلة معروفین بالفلسفة و الأدب، مما أدی إلی تقریبهم و الأنس بمحادثتهم. و کان یجلس للمناظرة یوم الثلاثاء، فإذا حضر الفقهاء من سائر أهل المقالات ادخلوا حجرة مفروشة، و قیل لهم انزعوا أخفافکم، ثم أحضرت الموائد (1). و کان المأمون یتّهم بالتشیع مرة، و بالاعتزال أخری، و سیرته تدل علی ذلک. أما تشیعه فقد کان یحب علیا و یفضّله علی جمیع الصحابة، و قد أمر مناديه أن ینادی بأن أفضل الخلق بعد رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم علی بن أبی طالب، و أن لا یذکر معاویة بخیر. و روی ابن عساکر عن النضر بن شمیل قال: دخلت علی المأمون فقال: کیف أصبحت یا نضر؟ فقلت: بخیر یا أمیر المؤمنین. فقال: ما الإرجاء؟ فقلت: دین یوافق الملوک، یصیبون به من دنیاهم، و ینقصون به من دینهم. قال: صدقت. ثم قال: یا نضر أ تدری ما قلت فی صبیحة هذا الیوم؟ قلت: إنی من علم الغیب لبعید. فقال: قلت أبیاتا و هی: أصبح دینی الذی أدین به و لست منه الغداة معتذرا

حب علی بعد النبی و لا أش تم صدّیقا و لا عمرا

1- 1) مروج الذهب ج 3 ص 19. [1]

ثم ابن عفان فی الجنان مع الأ برار ذاک القتیل مصطبرا

ألا و لا أشتم الزبیر و لا طلحة إن قال قائل غدرا

و عائش الأم لست أشتمها من یفتریها فنحن منه برا

قال ابن کثیر فی تاریخه: و هذا المذهب ثانی مراتب الشیعة، و فیه تفضیل علی علی الصحابة. و قال بشر المریسی یمدح المأمون بما أظهره من تفضیل علی علیه السّلام: قد قال مأموننا و سیدنا قولا له فی الکتب تصدیق

أن علیا أعنی أبا حسن أفضل من قد أقلّت النوق

بعد نبی الهدی و إن لنا أعمالنا و القرآن مخلوق

(1)و فی سنة 201 ه بایع بولایة العهد من بعده للإمام علی الرضا الإمام الثامن من الأئمة الاثنی عشر، ابن الإمام موسی الکاظم علیه السّلام و أمر بخلع السواد الذی کان شعار الدولة العباسیة، و أمر بلبس الخضرة. و لقد أقدم المأمون علی هذا العمل مع شدة امتناع الإمام الرضا علیه السّلام عن ذلک. و لکنه ألزمه بالقبول، فشرط الإمام شروطا علی ذلک. و لا بد من طرح التساؤل أولا عن الأسباب التی حملت المأمون علی القیام بهذا العمل، الذی یعد من أعظم الأعمال التی قام بها. فهل أن حبه لأهل البیت دفعه إلی ذلک لأنه یعتقد أنّهم أولی بهذا الأمر؟ أو أنه فکّر فی أمر الأمة-و هو المعروف بقوة الفکر و حریته-و أراد أن یجعلها تحت رعایة رجل یصلح لذلک، و لم یر أفضل من الإمام الرضا علیه السّلام؟ أم أنها فکرة سیاسیة أراد بها جلب قلوب ملایین من الناس یدینون بالاعتراف للإمام الرضا علیه السّلام بالولایة؟ و هم أولو قوة و بأس، رغم الدعایات الکاذبة ضدهم، و اتخاذ شتی الوسائل فی القضاء علیهم، و بهذا یحاول أن یکسر شوکة بنی العباس، و ینتقم منهم فی نقل الملک من بیتهم إلی البیت العلوی، و هم خصوم لا- هوادة بینهم، و بذلک یستطیع أن یضرب المأمون ضربته، و یحقق سیاسته فی تحقیق الغرض الذی من أجله قام بهذا الأمر، و بالفعل تحققت أهدافه-إن کان یقصد ذلک- فقد خضع له کثیر من الناس و أحبّوه لهذا العمل. کما أعلن العباسیون و أنصارهم

1- 1) البدایة و النهایة ج 10 ص 276-277-279. [1]

غضبهم عليه، و نقضوا بيعته، و بايعوا شيخ المغنين إبراهيم بن المهدى، و قامت بعد ذلک حرب قضى المأمون عليها بالقوة، لضعف خصومه و كثرة أنصاره. و الذى يظهر أنّه أراد جلب الرأى العام ضد بنى العباس، و أن الأمر سياسى يقصد به توسيع قاعدة حكمه و جذب الشيعة إليه، فإن أهل البيت لهم مكانة و هم المعنيون بإسناد الخلافة إليهم عند ما قامت الثورة ضد الأمويين، و قد نص كثير من المؤرخين على تشيع المأمون و ميله إلى آل على عليه السّلام. و قد أجاب المأمون عن أسباب بيعته للإمام الرضا عليه السّلام و ذلک أنّه عند ما دخل بغداد ظافرا، اجتمعت به زينب بنت سليمان، و كانت من طبقة المنصور، و كان بنو العباس يعظمونها، فقالت: يا أمير المؤمنين ما الذى دعاک إلى نقل الخلافة من بيتک إلى بيت على؟ قال: يا عمة إنى رأيت عليا حين ولى الخلافة أحسن إلى بنى العباس، فولى عبد اللّه البصرة، و عبيد اللّه اليمن، و قثم سمرقند، و ما رأيت أحدا من أهل بيتى حين أفضى إليهم كافوه على فعله فى ولده، فأحببت أن أكافيه إحسانه. فقالت: يا أمير المؤمنين إنک على برّ بنى على و الأمر فيک أقدر منه على برّهم و الأمر فيهم. و أنت ترى أن هذا الجواب لا يتمشى مع الواقع، لعلم المأمون بأن عليا لم يكن من أولئک الحكام الذين يولون أمر الأمة أناسا لا أهلية لهم، إلاّ لأنهم أقرباء و ذوو رحم، بل كان ينظر للكفاءة و المقدرة، و الناس عنده سواء. و قضية جعل الإمام الرضا وليا للعهد ينكشف باعثها السياسى من خلال تردد الإمام الرضا عليه السّلام فى القبول و محاولته رفض ذلک، و لما وجد إصرار المأمون اشترط الرضا شروطا تنأى عن مشاركة المأمون فى سياسته و حكمه، و تجعل ولاية العهد اسمية، كما أن المأمون غلبت عليه طبيعة الحاكم و ترک تطبعه ذاک، فمات الإمام الرضا مسموما. و سنأتى على بيان ذلک فى الأجزاء القادمة. و على أى حال: فقد أظهر المأمون إحسانه إلى آل على، و قد ثار فى أيامه محمّد ابن الإمام جعفر الصّادق عليه السّلام فأرسل المأمون إليه جيشا، فكانت الغلبة للمأمون، فظفر به و عفى عنه مستمرا على سياسته من الميل إلى العلويين. قال أبو العباس أحمد بن عمار: كان المأمون شديد الميل إلى العلويين

و الإحسان إليهم، و خبره مشهور معهم، و كان يفعل ذلک طبعا لا تكلفا، فمن ذلک أنه توفى يحيى بن الحسين بن زيد بن على بن الحسين العلوى، فحضر الصّلاة عليه بنفسه، و رأى الناس عليه من الحزن و الكآبة ما تعجبوا، ثم إن ولدا لزينب بنت سليمان و هى عمة المنصور توفى بعده فأرسل له المأمون كفنا، و سيّر أخاه صالحا ليصلى عليه و يعزى أمه، فإنها كانت عند بنى العباس بمنزلة عظيمة، فأتاه و عزاها عنه، و اعتذر عن تخلفه (أى المأمون) عن الصلاة عليه، فظهر غضبها و قالت لابن ابنها: تقدم فصلى على أبيک. و تمثلت: سكبناه و نحسبه لجينا فأبدى الكير عن خبث الحديد

ثم قالت لصالح: قل له يا ابن مراجل أما لو كان يحيى بن الحسين لوضعت ذيلک على فيک و عدوت خلف جنازته (1). و فى سنة 210 ه أمر المأمون بردّ فدک إلى أولاد فاطمة عليها السّلام و كتب بذلک إلى قثم بن جعفر عامله على المدينة كتابا يقول فيه: أما بعد فإن أمير المؤمنين بمكانته من دين اللّه و خلافة رسول اللّه، و القرابة به أولى من استنّ و نفذ أمره و سلم لمن منحه منحة و تصدق عليه بصدقة؛ و منحته و صدقته باللّه توفيق أمير المؤمنين و عصمته و إليه فى العمل بما يقربه إليه رغبته، و قد كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أعطى فاطمة بنت رسول اللّه فدكا و تصدّق بها عليها، و كان ذلک أمرا ظاهرا معروفا لا اختلاف فيه بين آل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و لم تدّعى منه ما هو أولى به من صدق عليه، فرأى أمير المؤمنين أن يردّها إلى ورثتها، و يسلمها إليهم تقربا إلى اللّه بإقامة حقه و عدله، و إلى رسول اللّه بتنفيذ أمره و صدقته، فأمر بإثبات ذلک فى دواوينه و الكتاب به إلى عماله، فلئن كان ينادى فى كل موسم بعد أن قبض اللّه نبيه أن يذكر كل من كانت له صدقة أو هبة أو عدة فيقبل قوله و تنفد عدته. إن فاطمة لأولى بأن يصدّق قولها فيما جعل رسول اللّه لها، و قد كتب أمير المؤمنين (أى المأمون) إلى المبارک الطبرى مولاه بردّ فدک على ورثة فاطمة بنت رسول اللّه بحدودها و جميع حقوقها المنسوبة إليها من الرقيق و الغلاة. . . إلخ (2).

1- 1) الكامل لابن الأثير ج 6 ص 179. [1]

2- 2) فتوح البلدان للبلاذرى ص 46. [2]

و فی سنة 201 ه أحصی المأمون جمیع العباسیین، فبلغوا ثلاثة و ثلاثین إلفا بین ذکور و إناث. و کان المأمون یتحری العدل، و یتولی بنفسه الحکم بین الناس و الفصل. جاءته امرأة ضعیفة قد تظلمت علی ابنه العباس و هو قائم علی رأسه، فأمر الحاجب فأخذه بیده فأجلسه معها بین یدیه، فادّعت بأنه أخذ ضیعة لها و استحوذ علیها، فتناظرا ساعة، فجعل صوتها یعلو علی صوته، فزجرها بعض الحاضرین. فقال المأمون: اسکت فإن الحق أنطقها و الباطل أسکته. ثم حکم لها بحقها، و أغرم ابنه لها عشرة آلاف درهم (1). و اشتهر عنه أنّه کان یقول: لو یعلم الناس ما أجد فی العفو من لذة لتقرّبوا إلیّ بالذنوب. و حدّث المرزبانی: أن دعبل الخزاعی هجا المأمون بقوله: أ یسومنی المأمون خطة عاجز أو ما رأی بالأمس رأس محمّد

إنی من القوم الذین هم هم قتلوا أخاک و شرفوک بمقعد

فطلبه المأمون فاستتر منه، إلی أن بلغه أنّه هجا إبراهیم بن المهدی بقوله: إن کان إبراهیم مضطلعا بها فلتصلحنّ من بعده لمخارق

فضحک المأمون و قال: قد وهبته ذنبه فلیظهر. فسار إلیه، فکان أول داخل علیه. و لما قدم علی المأمون و أمنه استنشده القصیدة الکبیرة، و هی الرائیة و عدد أبیاتها 24 بیتا و مطلعها: تأسفت جارتی لما رأت زوری و عدّت الحلم ذنبا غیر مغتفر

فأنکرها، فقال المأمون: لک الأمان أیضا علی إنشادها فأنشدها، حتی إذا بلغ إلی قوله: یا أمة السوء ما جانیت أحمد عن حسن البلاء علی التنزیل و السور

خلفتموه علی الأبناء حین مضی خلافة الذئب فی أبقار ذی بقر

قتل و أسر و تحریق و منهبة فعل الغزاة بأرض الروم و الخزر

1- 1) تاریخ ابن کثیر ج 10 ص 277.

أرى أمية معذورين إن قتلوا و لا أرى لبنى العباس من عذر

قوم قتلتم على الإسلام أولهم حتى إذا استمكنوا جازوا على الكفر

قبران فى طوس خير الناس كلهم و قبر شرّهم هذا من العبر

ما ينفع الرجس من قبر الزكى و لا على الزكى بقبر الرجس من ضرر

هيهات كل امرئ رهن بما كسبت يداه فخذ ما شئت أو فذر

قال: فضرب المأمون بعمامته إلى الأرض و قال: صدقت يا دعبل. و لما أنشد قصيدته التائية الشهيرة أمام الإمام الرضا عليه السّلام و المأمون حاضر يسمع استحسنها، فأمر له الإمام الرضا بخمسين ألف درهم، و أمر له المأمون بمثلها (1). و مهما يكن من أمر فإن المأمون قد أثرت فيه ثقافة عصره، فمال إلى الفلسفة و حرية الرأى حتى جهر بأمور هى من عقائد الشيعة كان أسلافه و أخلافه يرونها كفرا أو زندقة، و يظهر أنه التزم الحقيقة. أما بيعته للإمام الرضا فهى خطوة سياسية عرف الإمام الرضا الغرض منها و قبلها مشترطا. و قد ختم المأمون علاقته بالإمام الرضا بخاتمة عاد بها إلى سنّة أهله و سياستهم العدائية.

المعتصم:

هو أبو إسحاق محمّد المعتصم ابن هارون الرشيد بن المهدى بن المنصور، المتوفى سنة 227 ه كان موصوفا بالشجاعة و قوة البدن، و سداد الرأى، و كان إذا غضب لا يبالى من قتل، و كان أميا لا يقرأ و لا يكتب. ذكر الخطيب أن ملك الروم كتب إلى المعتصم كتابا يهدّده فيه فقال للكاتب: أكتب: قد قرأت كتابك و فهمت خطابك، و الجواب ما ترى لا ما تسمع، و سيعلم الكفار لمن عقبى الدار. و غزا بلاد الروم فى سنة 223 ه فأنكى نكاية عظيمة فى العدو، و هو الذى فتح عمورية و قتل من أهلها ثلاثين ألفا و سبى منهم، و كان فى سبيه ستون بطريقا، قال الخطيب: و جاء بباب عمورية و هو منصوب حتى الآن على أبواب دار الخلافة مما يلى المسجد الجامع فى القصر. و كان له من المماليک الترک 50 ألف، و هو الذى بنى سامراء، و سبب ذلک أنه لما كثرت عساكره من الترک فى بغداد و زاحموا أهلها، و عاثوا فيها فسادا، فكان فى كل يوم ربما قتلوا جماعة، فركب

1- 1) المرزبانى شعراء الشيعة ص 93-104.

المعتصم يوما، فلقيه رجل شيخ فقال للمعتصم: يا أبا إسحاق. فأراد الجند ضربه، فمنعهم المعتصم و قال له: ما لک يا شيخ؟ قال: لا جزاک اللّه خيرا عن الجوار جاورتنا مدة فرأيناک شرّ جار، جئتنا بهؤلاء العلوج من غلمانک الأتراک فأسکنتهم بيننا، فأيتمت بهم صبياننا، و أرملت نساءنا، و اللّه لنقابلنّک بسهام السحر (الدعاء) . هذا و المعتصم يسمع ذلک، فدخل منزله و لم ير راکبا فی يوم مثل ذلک اليوم، ثم رکب و صلّی بالناس العيد، و سار إلی موضع سامراء فبناها و کان فی سنة 221 ه. و لم يکن المعتصم کأخيه المأمون. أو کولده الواثق فی العطف علی العلويين، و لم يکن کالرشيد فی تشدده، بل کان معتدلا وسطا. و الذی يظهر أن اعتداله کان بوصية من المأمون، فقد جاء فيها: و هؤلاء بنو عمک من ولد أمير المؤمنين علی بن أبی طالب رضی اللّه عنه فأحسن صحبهم و تجاوز عن مسيئهم، و أقبل من محسنهم، و صلاتهم فلا تغلها فی کل سنة، فإن حقوقهم تجب من وجوه شتی (1). و حدث أحمد بن سليمان بن أبی شبح قال: قدم الزبير بن بکار العراق هاربا من العلويين لأنه کان ينال منهم فهددوه فهرب منهم، و قدم علی عمه مصعب بن عبد اللّه بن الزبير، و شکی إليه حاله و خوفه من العلويين، و سأله إنهاء حاله إلی المعتصم، فلم يجد عنده (أی عند عمه) و أنکر عليه حاله و لامه. قال أحمد: فشکی ذلک إلیّ و سألنی مخاطبة عمّه فی أمره، فقلت له فی ذلک، و أنکرت عليه إعراضه فقال لی: إن الزبير فيه جهل و تسرّع فأشر عليه أن يستعطف العلويين، و يزيل ما فی نفوسهم منه، أ ما رأيت المأمون و رفقه بهم، و عفوه عنهم، و ميله إليهم؟ قلت: بلی. قال: فهذا أمير المؤمنين (أی المعتصم) مثل ذلک أو فوقه، و لا أقدر أن أذکرهم عنده بقبيح، فقل له ذلک حتی ينتهی عن الذی هو عليه فی ذمهم (2). و لما حضرت المعتصم الوفاة جعل يردد هذه الآية: حَتّی إِذا فَرِحُوا فَإِذا هُمْ مُبْلِسُونَ .

1- 1) الطبری ج 10 ص 295. [1]

2- 2) الکامل لابن الأثير ج 7. [2]

و قال: لو علمت أن عمری قصیر ما فعلت ما فعلت. و قال: ذهبت الحیل فلا حیلة. و قال: اللّهم إنی أخافک من قبلی و لا أخافک من قبلک، و أرجوک من قبلک و لا أرجوک من قبلی. و قال: إنی أخذت من بین هذا الخلق (1). و من أغرب الأمور فی سیرة المعتصم أنه قد فوّض أمر الدولة إلی أخوین مسیحیین و هما: سلمویه و إبراهیم. و کان سلمویه یشغل منصبا قریب الشبه من منصب الوزارة فی العصر الحدیث، و کانت الوثائق الملکیة لا تتخذ صفة التنفیذ إلاّ بعد توقیعه علیها، و قد عهد المعتصم إلی أخیه إبراهیم بحفظ خاتم الخلیفة کما عهد إلیه بخزانة بیوت الأموال فی البلاد، و کان المنتظر من طبیعة هذه الأموال و تصریفها أن یوکل أمر الإشراف علیها إلی رجل من المسلمین، و قد بلغ من میل الخلیفة إلی سلمویه أن عاده فی مرضه فغمره الحزن عند وفاته، حیث أقیمت الطقوس المسیحیة فی خشوع مهیب (2).

الواثق:

أبو جعفر هارون بن المعتصم بن الرشید المتوفی سنة 232 ه کان شاعرا فطنا یتشبه بالمأمون فی حرکاته و سکناته، و کان حسن السیرة مع أبناء عمه آل أبی طالب. قال یحیی بن أکثم: ما أحدث أحسن من خلفاء بنی العباس إلی آل أبی طالب ما أحسن إلیهم الواثق، ما مات و فیهم فقیر (3). و کان شدید القول بخلق القرآن، حتی بلغ الأمر به أنه لما وقع الفداء بین المسلمین و الروم فی الأسری أمر الواثق أن یمتحنوا أسری المسلمین، فمن قال القرآن مخلوق و أن اللّه لا یری فی الآخرة، فودی به و أعطی دینارین، و من لم ینل ذلک ترک فی أیدی الروم. و لما حضرته الوفاة أمر بالبسط فطویت، و ألصق خده علی الأرض، و جعل یقول: یا من لا یزول ملکه ارحم من زال ملکه، و کان یردد هذین البیتین: الموت فیه جمیع الخلق مشترک لا سوقة منهم یبقی و لا ملک

1- 1) الطبری ج 11 ص 7. [1]

2- 2) الدعوة إلی الإسلام ص 81. و ابن أبی أصیبعة ج 2 ص 164.

3- 3) ابن کثیر ج 10 ص 310. [2]

ما ضرّ أهل قليل فی تفارقهم و لیس یغنی عن الملاک ما ملکوا

(1)قال أحمد بن محمّد الواثقی، و کان فیمن یمرض الواثق: فتقدمت إلیه فلما صرت عند رأسه فتح عینیه، فکدت أموت من خوفی، فرجعت إلی خلف، فتعلقت قائمة سیفی بشیء فکدت أهلک، فما کان عن قریب حتی مات، و أغلق علیه الباب، و بقی وحده، فسمعت حرکة من داخل البیت. ، فدخلت فإذا جرذ قد أکل عینیه-التی لحظ إلیّ بها-و ما کان حولها من الخدین (2).

المتوکل:

جعفر بن المعتصم بن الرشید بن محمّد المهدی بن المنصور العباسی، المتوفی سنة 247 ه و أمه أم ولد یقال لها شجاع، و کانت ولادته بفم الصلح سنة 207 ه و بویع بالخلافة بعد أخیه الواثق، و کانت مدة خلافته أربع عشرة سنة، و کان مولعا بالشراب و باقتناء الجواری، و کان بمکانة من الترف و البذخ ربما لا یمتاز بکثیر عن جده الرشید. عرف المتوکل ببغضه لأهل البیت و مطاردته لمحبیهم، و قتل زعمائهم، و کان لا تأخذه فی ذلک رحمة، و لا یمنعه خوف من اللّه، و من یتهم بمیله للعلویین فإن مصیره القتل أو السجن المؤبد، حتی ظهر النصب فی عصره، و انتشر بغض أهل البیت فی أیامه، و تقرب الکثیر إلیه بذم أهل البیت أو محبیهم، طلبا لرفده و طمعا فی صلته. مدحه أبو السمط مروان بن أبی الجنوب بأبیات یذم فیها العلویین منها: یرجو التراث بنو البنا ت و ما لهم فیها قلامة

ما للذین تنحلوا میرا ثکم إلاّ الندامة

فخلع علیه المتوکل أربع حلل، و أمر له بثلاثة آلاف دینار، فنثرت علی رأسه، و عقد له علی البحرین و الیمامة. و تقدم إلیه هذا الشاعر مرة أخری بشعر یذم فیه آل محمّد و شیعتهم، فنثر علیه عشرة آلاف درهم (3).

1- 1) تاریخ ابن الساعی ص 60.

2- 2) الکامل لابن الأثیر ج 7 ص 12. [1]

3- 3) الکامل لابن الأثیر ج 7 ص 38. [2]

و كان يقصد من يبلغه عنه أنه يتولى عليا و أهله بأخذ المال و الدم. حتى عم الاستياء، و واجه الناس موجة تعصب فاحش، و عذب الموالون لأهل البيت أشد العذاب، و منع الناس من زيارة قبر الحسين، كما أمر بهدم ما حوله من المنازل و الدور، و أن يبذر و يسقى موضع قبره، و نادى فى الناس: من وجدناه عند قبر الحسين بعد ثلاث حبسناه فى المطبق (1)حتى هجاه الشعراء، و مما قيل فيه: تاللّه إن كانت أمية قد أتت قتل ابن بنت نبيها مظلوما

فلقد أتاه بنو أبيه بمثله هذا لعمرک قبره مهدوما

أسفوا على أن لا يكونوا شاركوا فى قتله فتتبعوه رميما

و يقول ابن الوردى: و كم قد محى خير بشر كما انمحت ببغض على سيرة المتوكل

تعمق فى عدل و لما جنى على مقام على «حطه السيل من عل»

و كان واليه على مصر يزيد بن عبد اللّه التركى يتتبع الموالين لأهل البيت بكل أذى، كما حمل جماعة منهم إلى العراق. قال الكندى فى كتاب الولاة و القضاة: إن يزيد التركى أمر بضرب جندى-فى شيء وجب عليه-عشرة درر، فتوسل الجندى إلى يزيد بحق الحسن و الحسين أن يعفو عنه فزاده ثلاثين درة، و رفع أمره إلى المتوكل فى العراق، فورد أمر المتوكل بضرب الجندى مائة سوط و حمله إلى العراق، و ذلک فى سنة 243 ه و فى سنة 248 ه أخرج جماعة من العلويين من مصر إلى العراق. و كان أخص الناس به و أقربهم عنده من اشتهر بالنصب، و عرف بالعداء لأهل البيت أمثال: على بن الجهم الشاعر الشامى (من بنى شامه بن لوى) و عمر بن فرخ الرحبى، و أبو السمط من ولد مروان بن أبى حفص من موالى بنى أمية، و غيرهم و سيأتى ذكرهم فى القائمة السوداء التى ستتضمن أسماء من عرفوا بالنصف لأهل البيت عليهم السّلام. قال المسعودى: و لم يكن المتوكل من يوصف فى عطائه و بذله فى الجود، و لا بتركه و إمساكه بالبخل، و لم يكن أحد ممن سلف من خلفاء بنى العباس، ظهر فى

1- 1) نفس المصدر ج 7 ص 24. [1]

مجلسه اللعب و المضاحک و الهزل، مما استفاض فی الناس ترکه إلاّ المتوکل، فإنه السابق إلی ذلک و المحدث له، و أحدث أشیاء من خواصه، فلم یکن من کتابه و قواده من یوصف بجود و لا- إفضال، أو یتعالی عن مجون و طرب (1)و کان منهمکا فی اللذات و الشراب انهماکا کبیرا (2)و کان بنان و زنان لا یفارقانه، هذا یضرب و ذاک یزمر (3). و لم یفارق لذاته و شرابه حتی فی آخر لحظة من حیاته، فقد قتل بین النای و العود. و لقی الناس فی عهده أنواع البلاء و الامتحان، و زلزلت الأرض و تناثرت الکواکب کالجراد، و کان أمر مزعجا، و اهتزت الأرض بتونس و أعمالها، و الری و خراسان و نیسابور و أصبهان، و شققت الأرض بقدر ما یدخل الرجل فی الشق، و ضربت المدن و القلاع و القناطر، و سقط من أنطاکیة جبل فی البحر، و رجمت قریة بناحیة مصر بحجارة من السماء وزن الواحدة منها عشرة أرطال، و هبت ریح بالعراق شدیدة السموم لم یعهد مثلها أحرقت زرع الکوفة و البصرة و بغداد، و قتلت المسافرین، و دامت خمسین یوما، و منعت الناس من طلب المعاش فی الأسواق، و المشی فی الطرقات، و زلزلت دمشق، و الجزیرة و الموصل و قوس و نیسابور و غیرها (4)فی جمیع أنحاء المملکة الإسلامیة حتی ذهب ضحیة ذلک خلق کثیر، و الخلیفة المتوکل یتنعم فی بذخه، و یمرح فی أنسه، بین رقص جواریه و غلمانه، و نغم عیدانه و مجونه بل جنونه، و مجلسه عامر بالهزل و الطرب، و قد نشط الروم فی عهده فهجموا علی دمیاط، و نهبوا و أحرقوا و سبوا ستمائة امرأة. و کان یبذل الأموال الطائلة علی القصور و العمارات، و قد أنفق ألف ألف و سبعمائة ألف دینار علی بناء قصر البرج وحده. و لما عزم علی المسیر إلی دمشق أمر باتخاذ القصور، و إعداد المنازل، و إصلاح الطریق، و إقامة المرافد (5).

1- 1) مروج الذهب ج 4 ص 47. [1]

2- 2) السیوطی تاریخ الخلفاء ص 137. [2]

3- 3) ثمار القلوب للثعالبی ص 134.

4- 4) تاریخ الخلفاء للسیوطی ص 138. و [3]الشذرات لابن العماد ج 2 ص 96. و [4]تاریخ الیعقوبی ج 3 ص 215. و [5]الطبری فی حوادث سنة 241 و 242 و غیرها.

5- 5) الیعقوبی ج 3 ص 215. [6]

و مع هذا فقد وصفوه بالصلاح و نصرة الدين، و إحياء السنّة، و إماتة البدعة. و قد مدحه ابن الخبازة بقوله: أطال لنا رب العباد بقاءه سليما من الأهوال غير مبدل

و جامع شمل الدين بعد تشتت و فارى رءوس المارقين بمنصل

و لما مات وضعت المنامات و الأطياف فى عظمته، و علو درجته فى الجنة، و قام القصاصون و الوعاظ بذلک يقصون أحلامهم لتحقيق أحلامهم. و مما لا ريب فيه فإن الفرق بين المتوكل و من سبقه من الخلفاء بيّن: فالمأمون لم يكن بالخليفة المستضعف، و المعتصم كان على جانب عظيم من القوة و حسن التدبير، و كرم الخلق، و كذلک ابنه الواثق، فقد كان يجالس العلويين و يحسن إليهم و إلى أهل الحرمين، حتى لم يبق منهم من يسأل الصدقة. و فى أيام المعتصم و الواثق لم يقتطع شىء من جسم الدولة العباسية، و لم يظهر بها أى ضعف، و لكن عهد المتوكل فتح باب الفرقة، و تقلصت أيام العز فى بنى العباس.

الدولة العباسية و بداية الضعف:

و على كل حال فقد بدأ الضعف فى جسم الدولة العباسية فى أيام المتوكل، لضعفه فى التدبير و السياسة، و إساءته لكثير من طبقات المجتمع، و بالأخص العلويين، و من عرف بموالاتهم، فكانت الرقابة عليهم شديدة، و الحساب عسيرا، فالشيعى فى نظر الخليفة و أعوانه مصدر خطر دائم، و تهديد للدولة لا ينقطع. و قام أنصاره و أعوانه بدور البطولة فى القضاء على المذهب الشيعى، و بذلوا كل جهد، و استعملوا كل وسيلة لحصول ذلک الغرض، فراحوا يهولون فى انحراف المذهب عن الحق ليغضوا من قيمته، و يشوهوا من جماله، و يستنزلوه من مستواه الرفيع، و ليس من الميسور عليهم حصول ذلک إلاّ بعد بذل جهود و مواصلة و دعاية التهويل، ليقربوا ذلک إلى العقول و لطالما سلبت أهواء السياسة من ذوى الفضل فضلهم و من أجلها جردهم أرباب اللؤم عن محامدهم، و قد استطاع المذهب الشيعى أن يتغلّب بقوته الروحية على تلک المقاومات العنيفة، و جاهد جهادا متصلا، فتخطى الحواجز و اجتاز العقبات بتلک القوة، فلا سلطان يعضده، و لا

سیف ینشره، و فشل المتوکل و أعوانه، فکان ضحیة نصبه و تعصبه، حتی قتل بید ولده و قواده، و هو أول خلیفة قتل جهرة من بنی العباس، و کثر بعد ذلک القتل فی المستخلفین من بعده. و کان المتوکل لشدة نصبه و عدائه لعلی علیه السّلام أن ندماءه فی مجلسه یفیضون فی ثلب علی علیه السّلام فینکر ولده المنتصر ذلک-و کان ولی عهده-و یتهددهم و یقول للمتوکل: إن علیا هو کبیر بیتنا، و شیخ بنی هاشم، فإن کنت لا بد ثالبه فتول ذلک بنفسک و لا تجعل لهؤلاء سبیلا إلی ذلک، فیستخف المتوکل به و یشتمه و یأمر وزیره عبید اللّه بصفعه، و یتهدده بالقتل و یصرح بخلعه عن ولایة العهد، فأعدّ المنتصر جماعة من الأتراک و بعث معهم ولده صالح و أحمد و عبد اللّه و نصر، فدخلوا علی المتوکل و هو بین ندمائه و کئوس شربه، فأخرجوا الندمان حتی لم یبق مع المتوکل إلاّ أربعة من الخاصة و أغلقوا الأبواب إلاّ باب دجلة، و قتلوا المتوکل و ألقی الفتح بن خاقان نفسه علیه لیقیه، فقتلوه (1). و رثاه البحتری فی قصیدة یقول فیها: هکذا فلتکن منایا الکرام بین نای و مزهر و مدام

بین کأسین أورثاه جمیعا کأس لذاته و کاس الحمام

لم یذل نفسه رسول المنایا بصنوف الأوجاع و الأسقام

هابه معلنا فدب إلیه فی کسور الدجی بحد الحسام

(2)و علی أی حال: فقد کان المتوکل فی جانب المحدثین، و أصبحت لهم الصولة و النفوذ، استغل العوام هذه الفرصة فأوقعوا برجال الفکر، و نشروا الخرافات، أما أصحاب أحمد بصورة خاصة، فلهم المنزلة السامیة، و المقام الرفیع لأنه رفع منزلة الإمام أحمد و قرّب أصحابه، و اتسع المجال أمامهم فی الانتقام من خصومهم و الانتصار لمبادئهم، و کما رأینا کیف کان المتوکل یعظم أحمد و یجله، و یشید بذکره و یصله بهداياه، حتی بلغ به الأمر أنه کان یستشیره فی تعیین القضاة، و قد بعث إلیه مرة یسأله فی تولیة ابن الثلجی القضاء. فقال أحمد: لا و لا علی حارس. لأن أحمد کان

1- 1) العبر لابن خلدون ج 3 ص 592. [1]

2- 2) ابن الساعی فی تاریخه ص 64.

یری أن ابن الثلجی-و هو من کبار أصحاب أبی حنیفة-مبتدع صاحب هوی (1).

اتهام أحمد بالمیل للعلویین:

و مع اتصاف المتوکل بالتودد لأحمد بن حنبل، و إظهار فضله، و عدم سماع أی وشایة علیه، فإن أحمد لم یسلم من الاتهام بالمیل للعلویین، فقد ارتأی خصومه أن یسلکوا طریقا یمکنهم أن یغیروا قلب المتوکل بتهمة لا یغفرها المتوکل، و لا یقف دون عقابه لمن اتهم بها أی حاجز، و هی الاتهام بالتشیع أو المیل للعلویین، فاخترعوا من عند أنفسهم أن أحمد یبایع لعلوی، أو أنه أخفی علویا فی بیته، لینالوا منه و یحولوا قلب المتوکل منه، فأخذ المتوکل بالتحری علی أحمد بشدة، و طوقت المحلة التی کان یسکنها، و أحاط الجند بداره و دخلوها، فقال أحمد: ما أعرف من هذا شیئا، و إنی لأری طاعته فی العسر و الیسر، و المنشط، و المکره، و الأثرة، و إنی أتأسف علی تخلفی عن الصلاة فی جماعة، و عن حضور الجمعة و دعوة المسلمین. فقال له ابن الکلبی: قد أمرنی أمیر المؤمنین (أی المتوکل) أن احلفک أن ما عندک طلبته فتحلف؟ قال: إن استحلفتمونی حلفت. فأحلفه باللّه و بالطلاق أن ما عنده طلبة أمیر المؤمنین. ثم قال له: أرید أن أفتش منزلک و منزل ابنک. فقام ابن مظفر و ابن الکلبی و امرأتان معهما فدخلا، ففتشا البیت، ثم فتش الامرأتان النساء، ثم دخلوا منزل ولده صالح ففتشوه، و دلوا شمعة فی البئر و نظروا و وجهوا النسوة، ففتشوا الحرم ثم خرجوا (2). و إن الناظر فی سیرة أحمد یجد أنه لا یستبعد اتهامه بما یسوء العباسیین عامة و المتوکل خاصة، فقد کان جریئا فی روایة مناقب أهل البیت، و قد روی فی مسنده ما لم یروه کثیر من أهل المسانید و الصحاح، کما کان یظهر فضائل علی و یحدث بها. قال عبد اللّه بن أحمد سمعت أبی یقول: ما لأحد من الصحابة من الفضائل بالأسانید الصحاح مثل ما لعلی رضی اللّه عنه.

1- 1) المنتظم لابن الجوزی ج 5 ص 57. [1]

2- 2) مناقب أحمد لابن الجوزی ص 360-362.

و قال عبد اللّه: قلت لأبی (أحمد بن حنبل) ما تقول فی التفضیل؟ قال: فی الخلافة أبو بکر و عمر و عثمان. فقلت: فعلی؟ قال: یا بنیّ، علی بن أبی طالب من أهل بیت لا یقاس بهم أحد (1). و قال محمّد بن منصور: کنا عند أحمد بن حنبل فقال له رجل: یا أبا عبد اللّه ما تقول فی هذا الحدیث الذی یروی: أن علیا قال: «أنا قسیم النار» ؟ فقال أحمد: و ما تنکرون من ذا؟ أ لیس روینا أن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال لعلی: «لا یحبک إلاّ مؤمن و لا یبغضک إلاّ منافق» ؟ قلنا: بلی. قال: فأین المؤمن؟ قلنا: فی الجنّة. قال: و أین المنافق؟ قلنا: فی النار. قال أحمد: فعلی قسیم النار (2). و قال عبد اللّه بن أحمد: کنت بین یدی أبی جالسا ذات یوم، فجاءت طائفة من الکرخیة. فذکروا خلافة أبی بکر، و خلافة عمر، و خلافة عثمان، و خلافة علی بن أبی طالب، فزادوا و أطالوا، فرفع أبی رأسه إلیهم فقال: یا هؤلاء قد أکثرتم القول فی علی و الخلافة، إن الخلافة لم تزین علیا، بل علی زینها (3). قال ابن أبی الحدید: و هذا الکلام دال بفحواه و مفهومه علی أن غیره ازدان بالخلافة، و تممت نقیصته، و إن علیا لم یکن فیه نقص یحتاج إلی أن یتمم بالخلافة، و الخلافة ذات نقص فی نفسها، فتمم نقصها فی ولایته إیاها (4). و لما سأله إسحاق بن إبراهیم-عن القرآن و أنه لیس بمخلوق-عمن تحکی أنه لیس بمخلوق؟ فقال: جعفر بن محمّد الصّادق قال: لیس بخالق و لا مخلوق. فسکت إسحاق (5). علی أن حال الأخبار عن أحمد لا تمضی علی هذا المنوال، بل نجد بینها أخبارا ربما یصعب معها الجزم أو الترجیح، و لکنّا آثرنا ما هو أقرب إلی الحق و ألیق

1- 1) المناقب ص 163. و [1]طبقات الحنابلة لابن أبی یعلی ج 2 ص 120. [2]

2- 2) طبقات الحنابلة ج 1 ص 320. [3]

3- 3) مناقب أحمد ص 163.

4- 4) شرح نهج البلاغة ج 1 ص 17.

5- 5) مناقب أحمد ص 359.

برجل عالم كأحمد، و قد تكون صحيحة لتأثّره بأجواء المتوكل، أو قد تكون من صنع آخرين. سنشير إليها فى محلها.

شيوخ الإمام أحمد من الشيعة:

كما أن لأحمد صلة برجال الشيعة، و قد أخذ العلم عن كثير منهم، فكانوا فى عداد شيوخه و أساتذته، و كذلک أخذ عن عدد وافر من العلماء الذين انتموا إلى مدرسة الإمام الصّادق عليه السّلام. و ربما لامه بعض من تأثّر بدعاية خصوم الشيعة على اتصاله بمن عرف بالتشيع. يحدّثنا الخطيب البغدادى: أن عبد الرّحمن بن صالح الشيعى (1)كان يغشى أحمد بن حنبل، فيقربه أحمد و يدنيه، فقيل له: يا أبا عبد اللّه عبد الرّحمن رافضى. فقال: سبحان اللّه؟ ! رجل أحب قوما من أهل بيت النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم نقول له لا تحبهم: هو ثقة (2). أما العلماء الذين أخذ عنهم أحمد فقد ذكر علماء الرجال كثيرا من الشيعة أنّهم كانوا من شيوخ أحمد، و كذلک ذكرهم ابن الجوزى فى مناقب أحمد، منهم: 1-إسماعيل بن أبان الأزدى أبو إسحاق الكوفى، المتوفى سنة 216 ه و هو من شيوخ البخارى و ابن معين أيضا. 2-إسحاق بن منصور السلوى أبو عبد الرّحمن الكوفى، المتوفى سنة 205 ه و قد خرّج حديثه أصحاب الصحاح الستة. 3-تليد بن سليمان المحاربى أبو سليمان الكوفى، المتوفى سنة 190 ه روى له الترمذى فى صحيحه و قال فيه أحمد: إن مذهبه التشيع و لم أر به بأسا. 4-الحسين بن الحسن الفزارى أبو عبد اللّه الأشقر الكوفى، المتوفى سنة 208 ه خرج حديثه النسائى.

1- 1) هو عبد الرّحمن بن صالح أبو محمّد الأزدى، المتوفى سنة 230 ه كان من أهل العلم سكن بغداد، و كتب عنه أهلها. قال محمّد بن موسى: رأيت يحيى بن معين جالسا فى دهليز عبد الرّحمن غير مرة، يخرج إليه أجزاء يكتب منها عنه. و قال فيه يحيى: عبد الرّحمن بن صالح ثقة صدوق شيعى، لأن يخرّ من السماء أحب إليه من أن يكذب فى نصف حرف.

2- 2) تاريخ بغداد ج 10 ص 261. [1]

5-خالد بن مخلد القطوانی أبو الهیثم، المتوفی سنة 213 ه کان من کبار شیوخ البخاری و خرّج حدیثه فی صحیحه، و مسلم و النسائی و مالک بن أنس فی مسنده. 6-سعید بن خیثم بن رشد الهلالی أبو معمر الکوفی، المتوفی سنة 180 ه خرّج حدیثه الترمذی و النسائی و ابن ماجة. 7-عبد اللّه بن داود أبو عبد الرّحمن الهمدانی، المتوفی سنة 212 ه خرّج حدیثه البخاری و أبو داود و الترمذی و قال فیه أحمد: هو أثبت من شریک. و قال ابن سعد: کان ثقة یرحل إلیه. 8-عبید اللّه بن موسی العبسی أبو محمّد الکوفی، المتوفی سنة 213 ه صاحب المسند. خرج حدیثه أصحاب الصحاح الستة. 9-عبد الرزّاق بن همام الصنعانی المتوفی سنة 211 ه من کبار شیوخ أحمد و البخاری. خرّج حدیثه أصحاب الصحاح. 10-عباد بن العوام بن عمر بن عبد اللّه بن المنذر الواسطی، المتوفی سنة 185 ه قال ابن سعد: کان یتشیع، و کان من نبلاء الرجال. و قد حبسه الرشید زمانا ثم خلی عنه، و أقام ببغداد و سمع منه البغدادیون، و هو من رجال الصحاح الستة. 11-محمّد بن فضیل بن غزوان الضبی، أبو عبد الرّحمن الکوفی، المتوفی سنة 195 ه و هو مصنف کتاب الزهد و الدعاء، قال أحمد بن حنبل: محمّد بن فضیل: حسن الحدیث، شیعی. و خرّج حدیثه أصحاب الصحاح. 12-عائذ بن حبیب الملاح الکوفی، المتوفی سنة 190 ه بیاع الأقشمة الهروی، خرّج له النسائی و ابن ماجة. 13-علی بن غراب الفزاری أبو الحسن الکوفی، المتوفی سنة 184 ه سئل عنه أحمد بن حنبل فقال: حدیثه حدیث أهل الصدق. و خرّج حدیثه النسائی و ابن ماجة. 14-علی بن هاشم بن البرید العابدی مولاهم أبو الحسن الکوفی، المتوفی سنة 180 ه خرّج حدیثه البخاری فی الأدب المفرد. و مسلم فی صحیحه، و الترمذی و النسائی، و ابن ماجة، و أبو داود.

15-على بن الجعد أبو الحسن الهاشمى مولاهم البغدادى الجوهرى، المتوفى سنة 230 ه روى له البخارى و غيره. 16-الفضل بن دكين المعروف بأبى نعيم، المتوفى سنة 219 ه من رجال الصحاح الستة، و هو شيخ البخارى و أحمد و ابن معين و إسحاق. قال فيه أحمد: الفضل ثقة يقظان عارف بالحديث. 17-محمّد بن عبد اللّه بن الزبير بن عمر أبو أحمد الأسدى الزبيرى مولاهم المكى، المتوفى سنة 202 ه. و قد نص ابن قتيبة فى معارفه على تشيع جماعة هم من كبار شيوخ أحمد أمثال: يحيى بن سعيد القطان المتوفى سنة 198 ه و وكيع بن الجراح المتوفى سنة 197 ه و حميد بن عبد الرّحمن الرواسى المتوفى سنة 190 ه و هشيم بن بشير الواسطى المتوفى سنة 183 ه (1)و غيرهم. كما أن الإمام أحمد أخذ العلم عن جماعة من تلامذة الإمام الصّادق عليه السّلام. و المنتمين لمدرسته، أمثال: إبراهيم بن سعد بن عبد الرّحمن الزهرى المتوفى سنة 183 ه و إبراهيم بن زياد المتوفى سنة 228 ه و جرير بن عبد الحميد المتوفى سنة 188 ه و مكى بن إبراهيم المتوفى سنة 215 ه و الضحاك بن مخلد الشيبانى أبو عاصم النبيل المتوفى سنة 131 ه و غير هؤلاء عدد كبير من الذين عرفوا بالتشيع و انتسبوا لمدرسة أهل البيت. و الغرض أن الإمام أحمد لم يسلم من التصاق التهمة به بالميل للعلويين، و الجنوح للشيعة و هم خصوم الدولة، و أعداء ذلك المجتمع الذى سادت به موجة من الفوضى و الإرهاب. لأنه أظهر ما يدل على اتهامه من تفضيله للإمام على و رواية مناقبه، و اتصاله برجال الشيعة و أخذه عنهم، كما أنه وضع كتابا خاصا فى فضائل على و مناقبه، خرّج أحاديثه بالطرق الصحاح، و روى عنه جمع غفير.

أقوال العلماء:

رأينا كيف امتاز أحمد من بين أقرانه، فهل كان هو المنفرد بمنزلة لا يدانيه فيها

1- 1) المعارف لابن قتيبة ص 325. [1]

أحد؟ أم أن الظروف رفعته دونهم و قدّمته على من هو أعلم منه، و لعل فيما نقدمه من أقوال معاصريه جوابا عن ذلک: قيل لأبى داود: أحمد أعلم أم على بن المدينى؟ قال: على أعلم باختلاف الحديث من أحمد. و قال أحمد بن حامد: سمعت رجاء بن جابر المرجى يقول: رأيت ابن حنبل و إسحاق، و ابن المدينى و الشاذكونى، فما رأيت أحفظ من عبد اللّه، يعنى عبد اللّه بن عبد الرّحمن الدارمى المتوفى سنة 250 ه و الذى كان يسميه أحمد بالسيد. و قال فيه ابن أبى حاتم إنه إمام أهل زمانه (1). و قال أحمد: يحيى بن معين أعلمنا بالرجال. و قال ابن المدينى: لا نعلم أحدا كتب من الحديث ما كتب يحيى بن معين (2). و قال ابن سلام: انتهى الحديث إلى أربعة: إلى أبى بكر بن شيبة، و أحمد بن حنبل، و يحيى بن معين، و على بن المدينى. و قال الدارقطنى فى إبراهيم الحربى: إنه ثقة يقاس بأحمد فى زهده و علمه و ورعه، و هو إمام مصنف عالم بكل شىء، بارع بكل علم صدوق (3). و قال أبو زرعة: ما رأيت أحفظ من أبى بكر بن شيبة. فقال له ابن خداش: يا أبا زرعة فأصحابنا البغداديون؟ قال: دع أصحابک إنهم أصحاب مخاريق، ما رأيت أحفظ من أبى بكر (4). و فى ترجمة عبد اللّه بن أحمد بن حنبل أن بعضهم قدمه على أبيه فى الحفظ و السماع و علل الحديث (5). و قال ابن المدينى غير مرة: و اللّه لو حلفت بين الركن و المقام لحلفت باللّه أنى لم أر أحدا قط أعلم بالحديث من عبد الرّحمن (6).

1- 1) تاريخ بغداد ج 10 ص 31. [1]

2- 2) تذكرة الحفاظ ج 2 ص 17.

3- 3) معجم الأدباء ج 1 ص 125. [2]

4- 4) تذكرة الحفاظ ج 2 ص 19.

5- 5) تاريخ بغداد ج 1 ص 125. [3]

6- 6) تذكرة الحفاظ ج 2 ص 19.

و قال ابن المدینی: أعلم الناس لقول الفقهاء السبعة: الزهری ثم بعده مالک ثم بعده ابن مهدی (1). و قال أحمد فی أبی الولید الطیالیسی: أبو الولید الیوم شیخ الإسلام ما أقدّم علیه من المحدثین أحدا. و قال أبو عمران الطرسوسی فی أبی مسعود الرازی: ما تحت أدیم السماء أحفظ لأخبار رسول اللّه من أبی مسعود الرازی (2). و قال أبو الخصیب فی البخاری: أنه أفقه و أبصر من ابن حنبل. و قال أبو عمر الخفاق: هو (أی البخاری) أعلم بالحدیث من إسحاق و أحمد و غیرهما بعشرین درجة (3). و قال صالح بن محمّد: أعلم من أدرکت بالحدیث و علله: علی بن المدینی، و أعلمهم بتصحیف المشایخ: یحیی بن معین، و أحفظهم عند المذاکرة: أبو بکر بن شیبة (4). و قال إسحاق بن إبراهیم: إن اللّه لا یستحی من الحق؛ أبو عبید أعلم منی، و من أحمد و الشافعی! و أبو عبید هذا من طبقة أحمد و أقرانه، فإن وفاته سنة 224 ه و أما إسحاق فهو المعروف بابن راهویه المتولد سنة 164 ه و المتوفی سنة 238 ه و هو فی سن أحمد و من أقرانه. و سئل أحمد عنه فقال: من مثل إسحاق. و قال النسائی: ابن راهویه أحد الأئمة. و قال ابن خزیمة: لو أن إسحاق بن إبراهیم کان فی التابعین لأقرّوا له بحفظه و علمه و فقهه. و قال محمّد بن یحیی الذهلی: إن إسحاق اجتمع بالرصافة مع أعلام الحدیث منهم أحمد بن حنبل، و یحیی بن معین، و غیرهما فکان صدر المجلس لإسحاق (5).

1- 1) تذکرة الحفاظ ج 1 ص 303.

2- 2) طبقات الحنابلة ج 1 ص 53. [1]

3- 3) تهذیب التهذیب ج 9 ص 67. [2]

4- 4) تاریخ بغداد ج 10 ص 70. [3]

5- 5) تاریخ بغداد ج 6 ص 353. [4]

و قال إبراهيم بن أبى طالب سألت أبا قدامة عن الشافعى و أحمد و إسحاق و أبى عبيد فقال: الشافعى أفهمهم إلاّ أنه قليل الحديث، و أحمد أورعهم و إسحاق أحفظهم، و أبو عبيد أعلمهم بلغات العرب (1). و قال محمّد بن أسلم الطوسى لما بلغه موت إسحاق بن راهويه: ما أعلم أحدا كان أخشى للّه من إسحاق يقول اللّه: إِنَّما يَخْشَى اَللّهَ مِنْ عِبادِهِ اَلْعُلَماءُ و كان أعلم الناس، و لو كان الحمادان و الثورى فى الحياة لاحتاجوا إليه. و قال أحمد بن حنبل: لا أعلم لإسحاق بالعراق نظيرا (2).

مذهبه و انتشاره:

لم ينل المذهب الحنبلى شهرة كغيره من المذاهب، و كانت خطى انتشاره قصيرة جدا، أما فى بغداد فلم تكن له شهرة إلاّ بين طبقة عرفوا بالعنف و الشدة فى سيرتهم، و تحاملهم على غيرهم من المذاهب، أما خارج بغداد فهو غير معروف و لا منتشر، و كان يعتنقه فى مصر أفراد معدودون، و ذلک فى القرن السابع. و لما ولى القضاء موفق الدين عبد اللّه بن محمّد بن عبد الملک الحجازى المتوفى سنة 769 ه انتشر المذهب بواسطته، و قرب فقهاء الحنابلة و أصبح لهم شأن يذكر. و فى سائر الأقطار الإسلامية كانت الغلبة للمذهب الحنفى و الشافعى، و فى المغرب ساد مذهب مالک، و كان فى الرى عدد قليل من الحنابلة، و كذلک فى الشام. و قد علل ابن خلدون أسباب قلة أتباع أحمد بقوله: أما أحمد فمقلده قليل لبعد مذهبه عن الاجتهاد، و أصالته فى معاضدة الرواية، و للأخبار بعضها ببعض، و أكثرهم بالشام و العراق من بغداد و نواحيها (3). و يذهب غيره إلى أن السبب يعود لعدم تقلد الحنابلة للقضاء، لأن ذلک هو سبب انتشار مذهب أبى حنيفة و مالک. و مهما تكن الأسباب فإن المذهب الحنبلى انتشر فى بغداد، و كانت الغلبة فيها

1- 1) تهذيب التهذيب ج 8 ص 316. [1]

2- 2) تذكرة الحفاظ ج 2 ص 20.

3- 3) مقدمة ابن خلدون. [2]

للمذهب الشيعى (1)و قد قام الحنابلة بدور صراع عنيف مع الشيعة، و لكن لم يستطيعوا التغلّب عليه. و فى سنة 323 ه عظم أمر الحنابلة و قويت شوكتهم و صاروا يكبسون دور القواد و العامة، و إن وجدوا نبيذا أراقوه، و إن وجدوا مغنية ضربوها فأرهجوا بغداد، و أقلقوا بال الحكومة، كما استظهروا بالعميان الذين يأوون إلى المساجد، فإذا مرّ بهم شافعى ضربوه بعصيهم حتى يموت (2). فخرج توقيع الخليفة الراضى ينكر على الحنابلة فعلهم و يوبخهم باعتقاد التشبيه و غيره، فمنه: (تارة إنكم تزعمون صورة وجوهكم القبيحة السمجة على مثال رب العالمين، و هيئتكم الرذيلة على هيئته، و تذكرون الكف و الأصابع و الرجلين و النعلين و المذهبين. . . و الصعود إلى السماء، و النزول إلى الدنيا: تعالى اللّه عما يقول الظالمون و الجاحدون علوا كبيرا، ثم طعنكم على خيار الأمة، و نسبتكم شيعة آل محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلى الكفر و الضلال، ثم استدعاؤكم المسلمين إلى الدين بالبدع الظاهرة، و المذاهب الفاجرة التى لا يشهد بها القرآن، و إنكاركم زيارة قبور الأئمة و تشنيعكم على زوارها بالابتداع، و أنتم مع ذلک تجتمعون على زيارة قبر رجل من العوام ليس بذى شرف و لا نسب و لا سبب برسول اللّه و تأمرون بزيارته، و تدّعون له معجزات الأنبياء و كرامات الأولياء، فلعن اللّه شيطانا زين لكم هذه المنكرات و ما غواه. «و أمير المؤمنين (أى الراضى) يقسم باللّه قسما جهدا إليه يلزمه الوفاء به لئن لم تنتهوا عن مذموم مذهبكم، و معوج طريقتكم، ليوسعنكم ضربا و تشريدا، و قتلا و تبديدا، و ليستعملنّ السيف فى رقابكم و النار فى منازلكم و محالكم) . و من هذا نستظهر أن أفكار المجسمة و الحشوية كان انتشارها فى الحنابلة مشهورا، و هذا مما يؤدى إلى نفرة كثيرة من النفوس على ما فى الحنابلة من شدة فى الدعاية لنشر مذهبهم و إثارة الفتن، و غلظة المعاملة و العنف. كما أن وقوع الفتن بين الحنابلة و الشافعية أدت إلى تقلصه، و وقفت دون انتشاره، و خصوصا أن العامة من الحنابلة قد اشتهروا فى الأمر الذى يعتقدونه،

1- 1) انظر أحسن التقاسيم لشمس الدين محمّد بن أحمد المعروف بالشارى.

2- 2) الكامل لابن الأثير ج 8 ص 117. [1]

و اتخذوا العنف ذريعة لإظهار ذلک التشدد، و أن مقابلتهم للشيعة و نسبتهم لهم إلى أمور لا تليق بهم قد أثر أثره فى انتكاس الحنابلة و عدم انتشار مـذهبهم، لأن أغلبية بغداد هم شـيعة و الحنابلة قلّة اتخذوا العنف وسـيلة لانتصار مذهبهم. و لما قامت الدولة الأيوبية، كان ملوكها شديـدى التعصب للمـذهب الشافعى، فحاربوا غيره من المـذاهب، و لم يسـمحوا لغيره من المـذاهب إلاّ ما كان له من العامـة كالمذهب المالكى. و عند ما أخذ نفوذ الدولة الأيوبية يضـعف، أخذ ذلک المذهب ينتشر فى مصر، و لقد جاء فى الخطط للمقريزى أنه لم يكن له و للمذهب الحنفى كبير ذكر بمصر فى الدولة الأيوبية و لم يشتهر إلاّ فى آخرها. و لما امتد سلطان العثمانيين أصاب المذهب الحنبلى ضربة قاضـية (لأن العثمانيين كانوا حنفية) و أخذ ذلک يتضاءل شيئا فشيئا. أما فى مصر فلم يكن له أى شهرة هناک، فقد كان فى العصور المتأخرة عدد شيوخ الأزهر 312 شـيخا من جميع المذاهب، و عدد طلابه 9069، و كان من بينهم 28 طالبا من الحنابلة و 3 شيوخ منهم فقط، و لكن ظهر فى القرن الثامن عشـر ميلاديـة بصورة قوية جديدة، بظهور الوهابيين الذين يتبين فى مذهبهم أثر تعاليم ابن تيمية، و قد تطرّفوا فى ذلک إلى حد بعيد.

الفقه الحنبلى:

اشارة

قلنا سابقا إن الإمام أحمـد لم يـدوّن كتابا فقهيا يأخـذ أتباعه عنه مـذهبه، و هو محدث أكثر منه فقيه، و كان ينهى عن تدوين أقواله و آرائه، و لكن أصـحابه أخـذوا آراءه الفقهيـة من أقواله و أفعاله و أجوبته و رواياته، فكانوا إذا وجـدوا عنه فى مسألة قولين عدلوا أولا إلى الجمع بينهما بطريقـة من طرق الأصول، إما بحمل خاص على عام، أو مطلق على مقيّـد، فإذا أمكن ذلک كان القولان مـذهبه، و إن تعذر الجمع بينهما و علم التاريخ فقد اختلف أصحابه فى ذلک، فقال قوم: الثانى مذهبه. و قال آخرون: الثانى و الأول. و قالت طائفة: الأول و إن رجع عنه. و من أجل هذا كانت المجموعة الفقهية المنسوبة لأحمد قد اختلفت فيها الأقوال و الروايات عن أحمد بكثرة عظيمة، فإنهم قد يستنبطون من فعل أحمد أو أجوبته قولا لا يدل عليه الجواب أو الفعل، و قد يحكى آخر خلافه، لأنه سمع من أحمد ما يناقض

استنباطه الأول، و هكذا تكثر الروايات و تختلف الأقوال المنسوبة إلى أحمد. و كذلک اختلفوا فی تعبیر عبارات جاءت علی لسان أحمد فی إجابته عن مسائل سئل عنها، فکانت عباراته لیست صریحة فی إثبات الحرمة، أو فی بیان أن الحکم هو الطلب علی سبیل الوجوب أو علی سبیل الندب، فمثلا کلمة (لا ینبغی) فی کثیر من إجاباته، فقد ذکروا أنه یستجب فراق غیر العفیفة و احتجوا بقول أحمد: لا ینبغی أن یمسکها، فحملوا ذلک علی الکراهة. و سأله أبو طالب: عن الرجل یصلی إلی القبر و الحمام و الحش. قال أحمد: لا ینبغی. قال أبو طالب: فإن کان؟ قال: یجزیه. و سأله أبو طالب فیمن یقرأ فی الأربع کلها بالحمد و سورة؟ قال: لا ینبغی أن یفعل. فحملوا هذا علی الکراهة، و کذلک قوله: أکره، أو لا یعجبنی، أو لا أحبه، أو لا أستحسنه، حملوا ذلک کله علی الکراهة. و منهم من یحمله علی الحرمة، و قد نقل ابن القیم الجوزیة روایات کثیرة عن أحمد جاءت بلفظ الکراهة، و المقصود التحریم. و إذا جاءت روایة عن أحمد بلفظ: أحب، و یعجبنی، أو أعجب إلیّ، فعند الأکثر من الحنابلة یکون ذلک محمولا علی الندب، و قیل یحمل علی الوجوب. و کذا إذا قال: هذا حسن أو أحسن. أما إذا قال أحمد: أخشی أو أخاف أو یکون أو لا یجوز، أو أجبن عنه فقیل: یحمل علی التوقف لتعارض الأدلة، و قیل: هو علی ظاهره. و إن أجاب عن شیء، ثم قال عن غیره: أهون، أو أشد، أو أشنع فقیل هما سواء، إلی آخر ما لدیهم من الاصطلاحات فی تفسیر أقوال أحمد إذ هی عمدة المذهب، و علیها ابتنی التخریج و العمل، فهی بمثابة ما یروی عن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم. قال ابن أبی یعلی: و لیست جوابات إمامنا فی الأزمنة و الأعصار إلاّ بمثابة ما یروی عن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم من الآثار، لا یسقط نهایتها موجبات بدایتها إلاّ بأمر صریح بالنسخ أو التخفیف، فإذا عدم ذلک کان علی موجبات رعایته، فکذلک فی جواباته إذ العلماء أنکروا علی أصحاب الشافعی من حیث الجدید و العتیق، و إنه إذا ثبت القول فلا یرد إلاّ بالیقین، فکذلک فی جوابات إمامنا (1).

1- 1) طبقات الحنابلة ج 2 ص 176. [1]

و على أى حال فقد وردت فى أجوبة أحمد ألفاظ حملها بعضهم على الكراهة، و بعضهم على الحرمة، فمثلا أنّه قال: أكره لحم الحية و العقرب، لأن الحية لها ناب و العقرب لها حمة. فحملوا ذلک على الحرمة. و قوله: و يكره أن يتوضأ الرجل فى آنية الذهب و الفضة، و قوله فى الجمع بين الأختين بملک اليمين: أكرهه و لا أقول هو حرام. قالوا: إن مذهبه الحرمة. و مثل لفظ أكره قوله: لا يعجبنى. و قد ساق ابن قيّم الجوزية أمثلة كثيرة لحمل ذلک على الحرمة، و من ذلک: أنه سئل عن رجل أكثر ماله حرام أ يؤكل ماله و يغصب منه؟ فقال: إذا كان أكثر مال الرجل حراما فلا يعجبنى أن يؤكل ماله. و سئل عن الخمر يتخذ ليكون خلا فقال: لا يعجبنى. إلى آخر ما ورد من تعبير هذه الألفاظ و حملها على أحد الوجهين، استنادا للقرائن. و قد ثبت عن أحمد أنه كان يجيب عن بعض المسائل بلا أدرى، نقل أبو داود أنه سئل عن المرأة تعدم الماء، و يكون مجتمع الفساق، فتخاف أن تخرج أ تتيمم؟ قال: لا أدرى (1).

كتب الفقه الحنبلى:

و قد ألّف رجال المذهب الحنبلى كتبا فى تدوين أقوال أحمد و الروايات عنه، و التخريج عليها، و من مجموع ذلک تكونت مجموعة فقهية نسبت إليه شأنه شأن غيره من المذاهب كما تقدم. و من أشهر الكتب التى تعد أصلا من أصول الفقه الحنبلى: هو مختصر الخرقى، و هو عبد اللّه بن أبى بكر بن البدر الخرقى المتوفى سنة 620 ه و قال فيه: أنه لم يخدم كتاب فى المذهب مثل ما خدم هذا المختصر، و قد توافر عليه علماء الحنابلة بالشرح و التعليق، و أعظم شروحه المغنى لموفق الدين المقدسى، قال الشيخ عبد القادر الدمشقى المعروف بابن بدران: و قد اطلعنا له (أى للمختصر) ما يقرب من عشرين شرحا، و سمعت من شيوخنا و غيرهم أن من قرأه حصل له ثلاث خصال: إما أن يملک مائة دينار، أو يلى القضاء، أو يصير صالحا.

1- 1) الطبقات ج 1 ص 83.

و منها: المستوعب، تأليف محمّد بن عبد اللّه بن الحسين السامرى المتوفى سنة 610 ه. و الكافى للشيخ موفق الدين المقدسى صاحب المغنى. و العمدة له أيضا، و الهداية لأبى الخطاب الكوذانى، و قد تقدمت ترجمته. و المحرر لابن تيمية. و المقنع لموفق الدين المقدسى، و غيرها من كتب المذهب.

أصول الفقه الحنبلى:

و قد ذكر ابن قيّم الجوزية: أن الأصول التى بنى عليها الإمام أحمد فتاويه خمسة: أحدها: النصوص، فإذا وجد النص أفتى بموجبه و لم يلتفت إلى ما خلفه، و لذلك قدم النص على فتاوى الصحابة. الثانى: ما أفتى به الصحابة، و لا يعلم مخالفا فيه، فإذا وجد لبعضهم فتوى، و لم يعرف مخالفا لها لم يعدها إلى غيرها، و لم يقل إن ذلك إجماع، بل يقول من ورعه فى التعبير: لا أعلم شيئا يدفعه. الثالث: أنه إذا اختلف الصحابة تخير من أقوالهم أقربها إلى الكتاب و السنّة، و لم يخرج عن أقوالهم، فإن لم يتبين له موافقة أحد الأقوال حكى الخلاف و لم يجزم بقول. الرابع: الأخذ بالمرسل و الحديث الضعيف إذا لم يكن فى الباب شىء يدفعه، و هو الذى رجحه على القياس. الأصل الخامس: إذا لم يكن عند الإمام أحمد فى المسألة نص، و لا قول الصحابة أو واحد منهم، و لا أثر مرسل أو ضعيف، ذهب إلى القياس فاستعمله للضرورة، و قد نقل الخلال عن أحمد أنه قال: سألت الشافعى عن القياس فقال: إنما يصار إليه عند الضرورة (1). و لكن كتب الأصول عند الحنابلة قد زادت على هذه الأصول، فذكروا الاستصحاب و المصالح و الذرائع، و ربما ذكروا الإجماع، و قبل الختام نعود إلى إيضاح الموقف بين المعسكرين، المعتزلة و المحدثين.

1- 1) أعلام الموقعين لابن قيّم ج 2 ص 22-26.

بين معسكرين:

كان النزاع بين المحدّثين و المعتزلة شديدا، و قد استطاع المعتزلة أن يتغلبوا على خصومهم، و أصبحت أمور الدولة بأيديهم، فمنهم الأمراء و القضاة، و هم أهل الحل و العقد، عند ما وقع المأمون تحت سيطرتهم، و خضع لنفوذهم، و ارتاح لأحاديثهم، لأنه كان متعطشا إلى العلم و الفلسفة و حرية العقل، و مشغوفا بالمناقشة و الجدال، و المعتزلة فى وقته هم أقطاب الأدب، و أرباب الجدل، و طلاّب العلم و الفلسفة. قال الدميرى: كان المأمون نجما لبنى العباس فى العلم، و الحكمة، و قد أخذ من العلوم بقسط وافر، و ضرب فيها بسهم، و هو الذى استخرج كتاب أقليدس، و أمر بترجمته و تفصيله، و عقد فى خلافته للمناظرة فى الأديان و المقالات، و كان أستاذه أبو الهذيل العلاف (1). و كان لأحمد بن أبى داود أكبر الأثر فى تحقيق مآرب المعتزلة و أهدافهم، فهو قاضى الدولة، و صاحب السلطة التشريعية، و له عند المأمون مكانة لا- يزاحمه بها غيره، فاستطاع بلباقته و غزارة علمه، و ذلاقة لسانه، أن يحمل المأمون على القول بخلق القرآن. و إظهار ما يذهب إليه المعتزلة من آراء. و كان المعتزلة يرون أن القول بقدم القرآن فكرة مسيحية، دست بين الجماهير الإسلامية، فيما كان يدس فيهم من أفكار، و قد تلقاها الجمهور بالقبول لما فيها من تقديس للقرآن الكريم، كما جاء فى رسالة النصارى للجاحظ المعتزلى: إن الكائدين للإسلام يرتضون و يرحبون بمقالة الفقهاء و المحدثين الذين يروجونها عند العامة، لأنهم يتخذون من الحكم بأن كل كلام اللّه قديم، سبيلا لأن يقيموا الحجة على أن المسيح قديم، و تكون تلك الحجة من الكتاب الكريم، إذ فيه أن المسيح كلمة اللّه، و كل كلام اللّه قديم، و كلمة اللّه قديمة فالمسيح قديم. و إن الأخبار الصادقة تثبت أن النصارى الذين كانوا يعيشون بين المسلمين، يؤلمهم أن يدخل المسيحيون فى دين اللّه أفواجا، و كانوا يثيرون أفكارا بين المسلمين، و يتخذون من هذه الأفكار حججا لهم يجادلون بها عن دينهم. و قد جاء فى كتاب تراث الإسلام عن يوحنا الدمشقى الذى كان فى خدمة

1- 1) حياة الحيوان ج 1 ص 72. [1]

الأمويين إلى عهد هشام بن عبد الملک: أنه کان يلقن بعض المسيحيين ما يجادلون به المسلمين فيقول: (إذا سألک العربی: ما تقول فی المسيح؟ فقل إنه کلمة اللّه، ثم ليسأل النصرانی المسلم: بم سمی المسيح فی القرآن؟ و ليرفض أن يتکلم بشیء حتی يجيبه المسلم، فإنه سيضطر إلی القول إنما المسيح عيسی ابن مريم رسول اللّه، و کلمته ألقاها إلی مريم، و روح منه. فإذا أجاب بذلک، فاسأله عن کلمة اللّه و روحه، أو مخلوقة أم غير مخلوقة؟ فإن قال مخلوقة، فليرد عليه بأن اللّه کان و لم تکن کلمة و لا روح، فإن قلت ذلک فسيفحم العربی، لأن من يری هذا الرأی زنديق فی نظر المسلمين) . فالمعتزلة يرون أن من يقول إن القرآن قديم يمد النصاری بحجة يجادلون بها، و أن من الواجب ألاّ يقال ذلک، لأنه يعطی للخصوم حجة علی الإسلام، و يفتح الثغرة لمن ينالون منه، و ليس هو الحق، و من قاله فقد ضاهی قول النصاری فی المسيح، و حکم بتعدد القدماء، و جعل القرآن الذی ينطق به الناس قديما کشأن اللّه سبحانه و تعالی (1). و کان المحدثون يرون ألا يخوضوا فی شیء لم يخض فيه السلف، کما أنّهم يمنعون عن الفلسفة و الکلام، لأنهم يرون أن العامة إذا تفلسفوا ألحدوا. و إذا قيل لهم إن القرآن مخلوق فذلک يساوی أنه يصح الرد عليه، يجوز الإتيان بمثله؛ أو أنه يؤدی إلی الاستهانة به، إلی غير ذلک مما توحيه إليهم عواطفهم و ما يرونه لازما عليهم. و هذه المسألة فی الواقع مسألة علمية يجب أن تبحث و تناقش نقاشا منطقيا، ليظهر للملإ أحقية أی الحزبين. و کذلک الخلاف فی رؤية اللّه سبحانه و تعالی و صفاته، ينبغی أن تناقش بعلمية و يترک الأمر للبراهين و الحجج ليتضح الحق. و قد سلک المعتزلة فی تأييد مذاهبهم طريق القوة، و استعملوا الشدة و أخذوا الناس بالمحنة، و جاءوا بالعلماء من أطراف البلاد، ليحاکموهم، و يمتحنوهم فی عقائدهم، و يتحکمون فی ضمائرهم. فمالوا عن توجههم الفکری، و وقعوا فی تناقض عملی صريح.

1- 1) ابن حنبل لمحمّد أبو زهرة ص 64.

فأصبح الناس لا يرون أن ذلک يرجع إلى قواعد علمية، أو أنها مسألة تنزيه اللّه سبحانه و تعالى، أو مغالبة رأى برأى، بل جعلوا ذلک محنة نزلت فى الإسلام و المسلمين، فهم يرون السجون قد ملئت برجال المحدثين، و الولاة فى كل مكان يمتحنون الناس بقوة السلطان، فالجنود يسوقون الناس بسياطهم و سيوفهم إلى مجالس الامتحان، بل إلى محاكمات المعتزلة، و بهذا فقد كره الناس الاعتزال لأن الحكومة احتضنته، و أرادت فرضه بالقوة، و العقائد لا ينشرها التعذيب و الإرهاب، و إنما ينشرها الإقناع و الدعوة بالحكمة و الموعظة الحسنة. و قد وقع المعتزلة فى سلوک يجافى ما ادعوه. و بهذا استغل المشنّعون على المعتزلة الفرصة، فأساءوا إلى سمعتهم، و شوهوا دعوتهم، و دخلوا على أذهان العامة من الباب التى يتفق و عقليتهم. كما أنهم التفوا حول المعارضين لهذه الدعوة، و الثابتين فى المحنة، و كلما ازدادت المحنة ازدادت العامة إيمانا بعقيدتهم، و تأييدا للرجال الذين لم يجيبوا إلى ما طلب منهم. و كان امتحان أحمد بن حنبل لم يصل إلى حد السيف كغيره من العلماء الذين كانت نهايتهم القتل، و التأبيد فى السجن، فقد نجا من ذلک و كان هو بقية الفئة التى ثبتت من المحدثين على الامتناع-بأى صورة كان-فكانت العامة تنظر إليه كبطل قارع خصمه و ثبت على إيمانه. فأصبح بعد رفع المحنة شخصية لها أثرها، لا سيما و أن السلطة قد لحظته بالعناية أيام المتوكل، عند ما رفع المحنة، فكان محل ثقة الجماهير، و احترام العلماء من المحدثين، حتى أصبح حبه علامة الإيمان، و بغضه علامة الكفر. و أن من وثقه ابن حنبل وثق، و من ضعفه ضعف. و انتصرت العامة أيام المتوكل بانتصار المحدثين.

انتصار المحدثين:

انتصر المحدثون بعد أن أفل نجم المعتزلة بانحراف المتوكل عنهم، و بذلک انفجر بركان غيظهم و ظهر حقدهم الدفين، و انطلقت حركة الانتقام جامحة، فجاهروا بلعن المعتزلة و وصفوهم بكل قبيح، بل تجاوزوا الحد إلى سواهم ممن لم يكونوا على رأى أصحاب ابن حنبل.

و اتخذوا تشييع الجنائز كمظاهرات لإظهار الشعور، و التظاهر بالسبّ لمن خالفهم، كما صنعوا فى تشييع جنازة أحمد بن نصر التى مشى فيها جماهير العامة فى بغداد، و صاروا يتمسّحون بالنعش حتى أن المتوكل تخوف من اجتماع العامة و تجمهرهم على ذلک النحو، فكتب إلى عامله يأمره بمنعهم من الاجتماع و الحركة فى مثل هذا و شبهه. و كذلک فعلوا فى جنازة ابن حنبل، فإنه يقال أن خلقا كثيرا مشوا فيها، و حدّث أحد الذين شهدوها قال: إنه مكث طوال الأسبوع رجاء أن يصل إلى القبر فلم يتمكن إلاّ بشق النفس لكثرة ازدحام الناس عليه. و هكذا تحولت تلک الجنازة إلى مظاهرة عظيمة، أظهر القوم فيها التفجع على الإمام الراحل، و طعنوا فى أهل البدع (كما يرون) و لعنوهم (كما يشاؤون) و لزم بعضهم القبر و باتوا عنده، و جعل النساء يأتين إليه، فاضطرت السلطة إلى أن أرسلت حامية إلى ذلک الموضع منعا لوقوع الفتنة (1). و على أى حال: فقد كان المحدثون يصبون جام غضبهم على أعدائهم لعنا و قتلا و تكفيرا، و تمادوا فى مهاجمة المعتزلة حتى قالوا: إن المعتزلى لا تجوز الصلاة عليه، و إن دماءهم و أموالهم حلال للمسلمين، و فيه الخمس، و ليس على قاتل الواحد منهم قود و لا ـ دية و لا كفارة، بل لقاتله عند اللّه القربة و الزلفى (2). و قد وضع بعضهم من الأحاديث ما شاءوا، و من المنامات ما أرادوا، و قام القصاصون فى نشرها على ذلک المجتمع الذى سادت فيه روح النقمة بعد نشوة الانتصار. كما حكموا على من لم يقل بمقالتهم فى خلق القرآن بالكفر و الخروج عن الدين، و كان أحمد نفسه يرى ذلک، فقد حكم على جماعة ممن أجاب فى المحنة بالكفر. و كان لا يرى إجزاء تحرير رقبة عبد يقول بخلق القرآن.

1- 1) المعتزلة لزهدى حسن جار اللّه ص 185-186.

2- 2) الفرق بين الفرق ص 151. [1]

روی عبـد اللّه بن أحمد قال: سـئل أبی عن رجل وجب علیه تحریر رقبة مؤمنة فکان عنده مملوک لقنه أن یقول بخلق القرآن. فقال أحمد: لا یجزی عنه عتقه، لأن اللّه تبارک و تعالی أمره بتحریر رقبـة مؤمنة و لیس هذا بمؤمن، هذا کافر (1). و سئل عمن قال لفظی بالقرآن مخلوق، فقال: هذا لا یکلم، و لا یصـلی خلفه، و إن صلّی أعاد. و بلغ أحمد أن القواریری سلم علی ابن ریاح، فلما أراد القواریری أن یزور ابن حنبل قال له: أ لم یکف ما کان من الإجابـة حتی سـلّمت علی ابن ریاح؟ ورد الباب فی وجهه، و نهی الشـهود عن أن یشـهدوا أمام قاض جهمی (یرید معتزلیا) و لو اسـتعدی علیه. و قال فی إحدی رسائله: إنهم یکفرون بالذنب. . . و حکمهم ألاّ یکلّموا و لا یناکحوا و لا تؤکل ذبائحهم و لا تقبل شهادتهم حتی یتوبوا (2). و کان یتهم من یتعرض لأصحاب الحدیث بالزندقة (3). و کان أحمد لا یشیع جنازة من یقول بخلق القرآن، و لا یصـلی علیه، و یرتب علیه أحکام الکفار. کما أن أنصاره حکموا علی من بغض أحمـد بالکفر و البدعـة. یقول قتیبـة بن سـعید: أحمد بن حنبل إمامنا، من لم یرض به فهو مبتدع (4). و راحوا یرفعون من شأن المتوکل علی ما فیه من مخالفة الدین، و بالغوا فی الثناء علیه حتی قـال قائلهم: الخلفاء ثلاثـة: أبو بکر یوم الردة، و عمر بن عبـد العزیز فی رد المظالم، و المتوکل فی إحیاء السـنّة (5). و مدحوه بأشعار کثیرة، و اغتفروا له سوء فعله، لرفعه المحنة، و رأی کثیر من المحدثین رؤی فی المنام تذکر أن اللّه غفر له.

1- 1) طبقات الحنابلة ج 1 ص 131. [1]

2- 2) المدخل إلی مذهب ابن حنبل ص 10.

3- 3) الطبقات ج 1 ص 138. [2]

4- 4) طبقات الحنابلة ج 1 ص 15. [3]

5- 5) المناقب ص 356.

و كذا نشط الحنابلة نشاطا عظيما فى نظم الشعر الذى يرفع من شأن إمامهم و يقوى دعائم مذهبهم، و يحط من شأن أعدائهم، يقول مزاحم الخاقانى فى مدح أحمد: لقد صار فى الآفاق أحمد محنة و أمر الورى فيها فليس بمشكل

ترى ذا الهوى جهلا لأحمد مبغضا و تعرف ذا التقوى بحب ابن حنبل

و يقول ابن أعين: أضحى ابن حنبل محنة مأمونة و بحب أحمد يعرف المتنسک

و إذا رأيت لأحمد متنقصا فاعلم بأن ستوره ستهتک

(1)و قال محمّد بن أحمد بن الحسين الموصلى قصيدة طويلة منها: و انظر بعين الاعتبار و لا تكن ذا غفلة عن طاعة الديّان

و اقصد لمذهب أحمد بن محمّد أعنى ابن حنبل الفتى الشيبانى

فهو الإمام مقيم دين المصطفى من بعد درس معالم الإيمان

إلى أن يقول: فعلى ابن حنبل السّلام و صحبه ما ناحت الورقاء بالأغصان

إنى لأرجو أن أفوز بحبه و أنال فى بعثى رضى الرّحمن

(2)و يقول عبد اللّه بن محمّد الأنصارى فى قصيدة يرثى أحمد: و إمامى القوام للّه الذى دفنوا حميد الشأن فى بغدان

أنا حنبلى ما حييت و إن أمت فوصيتى ذاكم إلى إخوانى

و يقول جعفر بن أحمد السراج: للّه رب الناس مذهب أحمد فإن عليه ما حييت معولى

(3)و يقول أبو على بن المتوكل على اللّه: يا ذا الذى أضحى يصول ببدعة و تشيّع و تمشعر و تمعزل

1- 1) جلاء العينين للآلوسى ص 115.

2- 2) طبقات الحنابلة ج 1 ص 257. [1]

3- 3) المناقب لابن الجوزى ص 332-333.

لا تنكرن تحنبلی و تسننی فعليهما يوم المعاد معولی

إن كان ذنبی حب مذهب أحمد فليشهد الثقلان أنی حنبلی

(1)و هكذا يستمر الحنابلة فی نصرة المذهب بالأقوال و الأفعال، فهم يبثون فضائل أحمد و مزاياه، و وجوب تفضيل مذهبه على غيره، بشتی الوسائل و الطرق. و لما قويت شوكة المحدثين-و على رأسهم الحنابلة-و تعالت سلطتهم حتی كانوا حكومة داخل حكومة، أخذوا ينشرون المذهب بكل نشاط و قوة، و يوقعون الشر بمن يخالفهم بالرأی حتی ذكروا: أن محمّد بن جرير الطبری صاحب التفسير و التاريخ ألّف كتابا فی اختلاف الفقهاء لم يذكر فيه أحمد بن حنبل، فسئل عن ذلک. فقال: لم يكن أحمد فقيها إنما كان محدثا، و ما رأيت له أصحابا يعول عليهم. فأساء ذلک الحنابلة، و قالوا: إنه رافضی. و سألوه عن حديث الجلوس على العرش؟ فقال: إنه محال و أنشد: سبحان من ليس له أنيس و لا له فی عرشه جليس

فمنعوا الناس من الجلوس إليه، و من الدخول عليه، و رموه بمحابرهم. فلما لزم داره، رموه بالحجارة حتی تكدست، و حتی ركب صاحب الشرطة، و معه ألوف من الجند لمنع العامة عنه، و رفع الحجارة. و هذا مما يدل على تعصب الحنابلة و شذوذهم فی نشر مذهبهم، و ما أكثر الحوادث التاريخية التی دلت على أن حركتهم فی غالب الأحوال حركة جماهيرية و هی لا شعورية. و كانت نشوة الانتصار على خصومهم قد جعلتهم يتشددون و يتعصبون، و قد استمسكوا بألفاظ لا يفهمون معانيها. و كان موضوع مناقشتهم مسألة خلق القرآن، فخاضوا فی هذه المسألة على غير علم، و لقد كان يكفی أن يقول الرجل القرآن غير مخلوق حتی يستجاز قوله، و إن تردد و لو للتروی و التفكير نبذ و ردّ (2). و لقد استنكر المفكرون من الأمة تلک الحال، حتی لقد ألف ابن قتيبة-الذی كان يعيش فی ذلک العصر-رسالة وصف فيها كيف كانت الاختلافات تجری بحدة و عنف، بين الذين لا يعلمون فی هذه المسألة، و يتكلمون من غير بينة، و كيف كان

1- 1) طبقات الحنابلة ج 1 ص 235. [1]

2- 2) ابن حنبل لمحمّد أبو زهرة ص 394.

المحدثون و على رأسهم الحنابلة يكفرون أو يحكمون من غير بينة على كل من لم ينطق بكلمة قديم، مضافة إلى أى شىء يتصل بالقرآن. و قال فى وصف المحدثين، ثم الحنابلة: كان آخر ما وقع من الاختلاق أمر أخص بأصحاب الحديث، الذين لم يزالوا بالسنة ظاهرين، و بالاتباع قاهرين، يداجون بكل بلد و لا يداجون، و يستتر منهم بالنحل و لا يستترون، و يصدعون بحقهم الناس و لا يستغشون لا يرتفع بالعلم إلاّ من رفعوا، و لا يتضع فيه إلاّ من وضعوا، و لا تسير الركبان إلاّ بذكر من ذكروا، إلى أن كادهم الشيطان بمسألة لم يجعلها اللّه تعالى أصلا فى الدين، و لا فرعا فى جهلها سعة، و فى العلم بها فضيلة، فنمى شرها، و عظم شأنها. حتى فرقت جماعتهم، و شتت كلمتهم، و وهنت أمورهم، و اشمتت حاسديهم. و هذه المسألة التى كانت بهذه الشدة و اللجاجة فى الخصومة و العداوة، فإنها كانت محنة لأحمد فى حياته من الأمراء و الخلفاء، ثم كانت محنة الفكر من بعده، فالعامة لا يقبلون قولا من أحد إلاّ إذا قدمه بوصف القدم لما يتصل بكتاب اللّه تعالى. و يقول ابن قتيبة: ربما ورد الشيخ المصر فقعد للحديث، فيبدءونه قبل الكتابة بالمحنة، فالويل له إن تلعثم أو تمكث، أو سعل أو تنحنح قبل أن يعطيهم ما يريدون، فيحمله الخوف من قدحهم فيه، و إسقاطهم له، على أن يعطيهم الرضا، فيتكلم بغير علم، و يقول بغير فهم، فيتباعد من اللّه فى المجلس الذى أمل أن يتقرب فيه، و إن كان ممن يعقد على مخالفتهم سام نفسه إظهار ما يحبون ليكتبوا عنه. و إن رأوا حدثا مسترشدا، أو كهلا متعلما سألوه، فإن قال: أنا أطلب حقيقة هذا الأمر، و أسأل عنه، و لم يصح لى شىء بعد، و إنما صدقهم عن نفسه، و اعتذر بعذره و اللّه يعلم صدقه، كذبوه و آذوه، و قالوا خبيث فاهجروه (1). و من هذا يظهر أن للعوام سلطة لا يمكن لأحد من ذوى الفهم أن يقف أمامها، و ليس للعلماء رأى فى ذلک الصراع، و مما يؤيد ذلک: إن شيخ الحنابلة أبو جعفر عبد الخالق بن عيسى، توفى و أراد العوام أن ينبشوا قبر أحمد و يدفنوه معه، و لم يستطع أحد أن يقول للعوام لا تنبشوا قبر أحمد و ادفنوه

1- 1) نفس المصدر.

بجنبه، فقال أبو محمّد التميمى من بين الجماعة: كيف تدفنونه فى قبر الإمام أحمد و بنت أحمد مدفونة معه! ! فإن جاز دفنه مع الإمام فلا يجوز دفنه مع بنته؟ فقال بعض العوام: اسكت فقد زوجنا بنت أحمد من الشريف (أى أبو جعفر) فسكت التميمى (1)و دفنوه مع أحمد فى قبره! و هكذا تسير الأمور على غير ترو و تدبر و يبتلى المسلمون بهذا البلاء، و تقع تلك الحوادث المؤلمة التى صدعت وحدة الصف، و فرقت الكلمة، و فسحت المجال لخصوم الإسلام للتدخّل فى ذلك المعترك، لبثّ أفكارهم المسمومة و نشر آرائهم الفاسدة. لقد كان هذان المعسكران فى صراع فكرى و نزاع عقائدى، و كان الأولى ألا يتعدى ذلك حدود المنطق و النقاش العلمى، و أن يقتصر ذلك على العلماء المفكرين، و من الخطأ أن يفرض تقبّل الآراء الفلسفية على العوام، و يراد منهم أن يعرفوا الجوهر و العرض، و الكمية و الكيفية، و المحدود و اللامحدود، و المكان و الجهة. . . فالمعتزلة-و هم قادة تلك الحملة-كانوا الداعين إلى حرية الفكر، و القائلين بسلطة العقل، قد خالفوا دعوتهم فعاملوا الناس بالشدة، و قوة السلطة، و التعذيب و التنكيل و الإهانة، مما حمل العامة على التذمّر و الالتفاف حول من يعهد به مقاومة تلك الشدة، و مخالفة السلطة حتى كان ما كان من تعلّق الجماهير بشخصية أحمد و جعلها فى هالة القداسة و العظمة، و ازداد نشاطهم فى المنامات كثرة هائلة، حتى توصلوا إلى تأييد قولهم فى خلق القرآن إلى إيجاد منام أشبه بمحاكمة، و تكون النتيجة أن اللّه سبحانه و تعالى يصدق قول أحمد، و يصوّب رأيه. و جعلوا جنة عدن وقفا على الحنابلة لا يدخلها إلاّ من أحب أحمد (2)إلى غير ذلك مما نشط فيه العوام، و تلقوه من القصاصين فى لزوم التمسك بمذهب أحمد، و اعتبار غيرهم مبتدعة كفرة، و بهذا الاندفاع فقد تغيرت الأحوال، و انعكست المفاهيم، و حدث من وراء ذلك ما لا تحمد عقباه. فعمل المعتزلة و تشددهم يعد فى الواقع هو السبب فى إثارة تلك الأعاصير،

1- 1) شذرات الذهب لابن العماد الحنبلى ج 3 ص 337. [1]

2- 2) مناقب أحمد لابن الجوزى ص 447-448-449.

و هم مسئولون عن انتكاسهم بعد ذلک النشاط، و هزيمتهم أمام قوة المحدثين، و رجوع الأكثرية إلى الجمود، و التسليم خضوعا للعاطفة، و امتثالا لأمر السلطة، يقول المسعودى: لما أفضت الخلافة للمتوكل أمر بترک النظر، و المباحثة فى الجدال، و الترک لما كان عليه الناس فى أيام المعتصم و الواثق، و أمر الناس بالتسليم و التقليد، و أمر الشيوخ المحدثين بالتحديث و إظهار السنّة و الجماعة. و قال الدكتور أحمد أمين: و لما ذهب ضوء المعتزلة، وقع الناس تحت سلطان المحدثين و أمثالهم من الفقهاء، و ظلوا تحت هذا السلطان من عهد المتوكل إلى ما قبل اليوم بقليل، فكانت النتيجة جمودا بحتا، و علم العالم أن يحفظ الأحاديث و يرويها كما سمعها و يفسّرها تفسيرا لغويا، و يشرح رجال السند كما شرحه الأقدمون: هذا ثقة، و هذا ضعيف. من غير نقد عقلى؛ و فقه الفقيه أن يروى أقوال الأئمة قبله، فإذا عرضت مسألة جديدة لم تكن، فقصارى جهد المجتهد أن يخرجها على أصول إمامه، فهذه طبائع العلماء من عهد المتوكل، تسليم بالقضاء و القدر، و تسليم بما كان و يكون، و تقليد للسابقين، و تقليد فى الفتاوى و الآراء، و من ثمة تكاد تكون الكتب المؤلّفة فى الحديث و الفقه و التفسير، بل و النحو و اللغة من عهد المتوكل صورة واحدة، و إن اختلفت فى شىء فاختلاف فى الإطناب و الإيجاز، و البسط و الاختصار، أما الترتيب فواحد و أما الأمثلة فواحدة، و أما العبارة الغامضة فى الكتاب الأول فغامضة فى الكتاب الأخير، كلها خضعت لأمر المتوكل بالتسليم و التقليد، و انعدمت فيها كلها الشخصية. لأن الشخصية عدوة التسليم و التقليد، و لو بقى الاعتزال لتلون المسلمون بلون آخر أجمل من لونهم الذى تلونوا به (1).

ملاحظات حول انتصار الحنابلة:

و على ضوء ما تقدم يجب أن نلحظ الأمور التالية: 1-إن ذلک الضغط الذى فرضه المعتزلة كان سببا فى زيادة النتائج السيئة التى أدت إلى أفول نجمهم و هدم كيانهم. كما و أن المحدثين قد نفعهم ذلک بالتفاف الجماهير حولهم، حتى اكتسبوا النصر و رجحت كفتهم، فقابلوا المعتزلة بالمثل؛ بل زادوا على ما فعل أولئک من الانتقام من خصومهم، و ازدياد نشاطهم إلى إيجاد أمور

1- 1) ضحى الإسلام، أحمد أمين ج 3 ص 203-204.

لا تتمشی مع روح الإسلام، من التهجم علی من لم یوافقهم فی الرأی، و الطعن علی کثیر من الشخصیات و إکفار من شاءوا تکفیره، بدون میزان شرعی. و لو سار المعتزلة فی غیر طریق الشدة، و لم یجعلوا للقوة دخلا فی نشر مبادئهم فی دعوة الناس إلی حریة الفکر، و إعمال العقل، لکان أولی و أجدر، و لم یحدث ما حدث من تلک الانتکاسة الفظیعة، التی کان من ورائها انطلاق الأحقاد، و انفجار الضغائن الکامنة. و کذلک المحدثون بعد انتصارهم لو أنهم نهجوا نهجهم الذی کانوا یسیرون علیه من المحافظة علی العادات و التقالید الموروثة، و عدم الخوض فی شیء لم یخض فیه السلف، لکان ذلک أجدر و أنفع، و بهذا یکون کل معسکر قد أدی واجبه و حقق أهدافه علی ضوء المنطق. و لکن ذلک الصراع الذی أوجد تلک الثورة العقائدیة، و انتصار طائفة علی طائفة، و استعمال القوة فی تطبیق المبادئ، کل ذلک أوجد تلک العوامل التی حلّت بالمجتمع الإسلامی مما أدی إلی العداء و الاتهام بالباطل، و الخروج عن الموازین العلمیة، و الحدود الشرعیة. 2-لم یکن المذهب الحنبلی من المذاهب المنتشرة أو ذات الأهمیة، و کاد یمحی أسوة بغیره من المذاهب، لو لا قیام ابن تیمیة و انتصاره لمذهب أحمد، و ربطه بعقائد السلف الذین لا یرون تأویل ما ورد فی الصفات، و مبالغته فی الإنکار علی الأشاعرة، فافترق الناس فیه إلی فرقتین، فریق یقتدی به، و یقول بأقواله، و یعمل برأیه، و یری أنّه شیخ الإسلام، و أجلّ حفّاظ الأمة الإسلامیة، و فریق یبدعه و یضلّله، و یزری علیه بإثبات الصفات، و ینتقد علیه مسائل ما له فیها سلف. و فی القرن الثانی عشر ظهر الشیخ محمّد بن عبد الوهّاب (1)المتولد سنة

---

1 - 1) ولد محمّد بن عبد الوهاب فی بلدة العینیة بنجد سنة 1115 ه 1703 م و درس الفقه الحنبلی، و اقتدی بابن تیمیة، و رحل إلی المدینة و البصرة، و بغداد، و کردستان، و همذان، و أصفهان و عاد إلی بلاده و أظهر طریقته و أنه یأمر بالمعروف و ینهی عن المنکر و یحارب البدع، و استعان بمحمّد بن سعود فی تأیید دعوته إلی أن توفی سنة 1206 ه 1791 م و اعتنق آل سعود هذه الدعوة، و حاربتهم الدولة العثمانیة و هزمهم والی مصر محمّد علی باشا، و لم یتمکن من القضاء علی هذه الحرکة و بقیت لها السیادة فی نجد و فی أصقاع المملکة العربیة السعودیة إلی الیوم.

1115 ه و المتوفی سنة 1206 ه فأنکر علی الناس استغاثتهم بالنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم عند قبره، و أظهر أنه یأمر بالمعروف و النهی عن المنکر، و کان قد درس الفقه علی أبیه الشیخ عبد الوهاب بن سلیمان علی المذهب الحنبلی، فأهل نجد حنابلة لأنهم وهابیة. قد اعتنقوا فی العقائد مذهب ابن عبد الوهّاب، و هو یعتنق فیه مذهب ابن تیمیة فی العقائد و الفقه، و ابن تیمیة لم یکن مقلدا، بل کانت له مسائل ینفرد بها، و یفتی علی رأیه، و لکنه معدود من الحنابلة، مع أن له أقوالا و فتاوی یخالف بها المذاهب الأربعة، أو یخالف المشهور منها فمن ذلک: القول بقصر الصلاة فی کل ما یسمی سفرا طویلا کان أو قصیرا، کما هو مذهب الظاهریة. القول بأن سجود التلاوة لا یشترط له وضوء کما یشترط للصلاة. و أن من أکل فی شهر رمضان معتقدا أنه لیل، فبان نهارا لا قضاء علیه. و جواز الوضوء بکل ما یسمی ماء مطلقا کان أو مضافا، و أن المائع لا ینجس بوقوع النجاسة فیه، إلاّ أن یتغیر قلیلا کان أو کثیرا. و کان یذهب إلی التکفیر بالحلف بالطلاق، و أن الطلاق الثلاث لا یقع إلاّ واحدة، و أن الطلاق المحرم لا یقع (1). و قد امتحن بسبب فتواه بالطلاق و سجن، و من هذا یظهر أن ابن تیمیة لم یکن مقیدا بمذهب معین، فقد کان یفتی فی بعض الأحکام بما أدی إلیه اجتهاده من موافقة أئمة المذاهب الأربعة، و فی بعضها یفتی بخلافهم أو بخلاف المشهور من مذاهبهم، کما کان ینهی عن التقلید، أو الالتزام بقول واحد من الأئمة (2)کأنه لم یکن حنبلیا إذا قسناه برجال المذاهب الأخری فی التزامهم و تقیدهم، و إنما کان یلتقی معهم فی مسائل الصفات و عدم تأویلها. 3-و لا یفوتنا أن نلحظ نشاط الوضّاعین للأحادیث علی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و یقصدون بذلک تأیید السنّة و الانتصار علی المبتدعة-و هم کل من خالفهم فی الرأی- فهذا أحمد بن عبد اللّه الأنصاری یحدّث عن نافع عن ابن عمر فی قول اللّه تعالی:

1- 1) العقود الدریة فی مناقب ابن تیمیة ص 332.

2- 2) جلاء العینین للآلوسی ص 107.

يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَ تَسْوَدُّ وُجُوهٌ فأما الذين ابيضت وجوههم أهل السنّة و الجماعة، و أما الذين اسودت وجوههم أهل الأهواء و البدع. و هذا أحمد بن حرب الملحمى كان من الكاذبين، و قد وضع حديثا على رأى الحنابلة بسند عن أبى هريرة مرفوعا: (من قال إن القرآن مخلوق فهو كافر) (1). و مثله أحمد بن عمر بن مصعب بن بشر بن فضالة المروزى فقيه كذاب. قال الدارقطنى: كان حافظا عذب اللسان فى السنّة و الردّ على المبتدعة، لكنه يضع الحديث. و قال ابن حيان: كان ممن يضع الحديث و يقلب الأسانيد، لعله قد قلب على الثقات أكثر من عشرة آلاف حديث (2). و من أبطال الوضّاعين لنصرة المبادئ و حب الغلبة: أحمد بن عبد اللّه الجويبارى، و يقال: الجوبارى، و جوبار من عمل هرات، نقل الحاكم عن الحافظ سهل بن السرى: أن أحمد الجويبارى، و محمّد بن عكاشة وضعوا على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عشرة آلاف حديثا. و من آفاته أنه روى أن حضور مجلس عالم خير من حضور ألف جنازة، و من ألف ركعة، و من ألف حجة، و من ألف غزوة. و روى أيضا مرفوعا: أن السنّة تقضى على القرآن. قال أبو سعيد: لا نعرف أحدا أكثر وضعا للأحاديث منه. و كان يضع الحديث لمحمّد بن كرام-رئيس فرقة الكرامية من الحنابلة-على ما يريد، فكان ابن كرام يخرجها فى كتبه، و يسميه أحمد بن عبد اللّه الشيبانى (3). و منهم أبو بشر الحافظ أحمد بن محمّد الكندى، المتوفى سنة 324 ه و كان أحد الوضاعين و مشهورا بالكذب، و كان إماما فى السنّة و الرد على المبتدعة (4)كما يقولون. و غير هؤلاء ممن يضعون الأحاديث انتصارا لمبادئهم و الوقيعة فى خصومهم. و قد سئل أحمد بن محمّد المعروف بغلام خليل، فأجاب بأننا نضعها لنرقق بها قلوب

1- 1) لسان الميزان ج 1 ص 202-259.

2- 2) انظر تذكرة الحفاظ ج 3-23. و تاريخ بغداد ج 5 ص 72. [1]

3- 3) لسان الميزان ج 1 ص 293.

4- 4) مرآة الجنان ج 2 ص 287. [2]

العامـة. و قـد وضع هؤلاء أكثر من أربعين ألف حـديث، أكثرها يعود لنصـرة المبدأ و التغلّب على الخصم. 4-إن ذلـک التهجم و الاتهام بالباطل لـم يقتصر على الفئتين المتخاصمتين، بل تعداه إلى كل من لـم يشاركهم فى الرأى حول الرؤية و خلق القرآن من جميع الطوائف، و كان للشيعة النصيب الأوفى من ذلک التهجم، و الرمى بالباطل، و إلصاق التهم زيادة على ما هم عليه من معاداة السلطة لهم، و مطاردتهم فى جميع الأدوار، لأنهم يحملون فكرة مقاطعة الدولة، إذ لا يعترفون بشـرعية سلطان يتركز على الجور و يحكم بغير ما أنزل اللّه. و كان دور المتوكل هو أعظم الأدوار، لأنه كان يبغض أهل البيت و يتبع الشـيعة بكل أذى، حتى ملأ بهم السـجون، و صـبغ الأرض من دمائهم. و لـم يخضـعوا لآرائه أو يقفوا عن مقاومته. و قد أمر عامله على مصـر، و هو يزيد بن عبد اللّه، أن يطاردهم. فكانت سـيرته معهم قاسـية، فعاقبهم أشد العقاب، و قتل أكابرهم، و حمل منهم جماعة على أخشن مركب، و سـيّرهم إلى بغداد. و لـم يزدهم ذلک إلاّ ثباتا فى العقيدة و تمسكا فى المبدأ. و معارضة لسـلطة المتوكل و إعلان الغضب عليه. كما أنه التفت إلى العلويين، فجرت عليهم منه شدائد من الضيق، و أخرجهم من مصـر و ذلک فى سنة 242 ه (1). و قد أشـرنا إلى الحوادث المؤلمة بين السـنة و الشـيعة، أو بين الشـيعة و الحنابلة على الأخص، لأن الحنابلة هم أعداء المعتزلة بصورة عامة قد ربطوا بين الاعتزال و التشيع، و لـم يجعلوا فارقا بينهم على ما بين المعتزلة و الشيعة من خلاف، و لكنه لـم يتعد حدود المنطق و الموازين العلمية، و كان أبطال الشيعة يقابلونهم بحجج واضحة و براهين قاطعة، و كان هشام بن الحكم يناظر علمـاءهم فيفحمهم. و إن كـان المعتزلـة يلتقون مع الشـيعة و يشـاركونهم فى كثير من المسائـل، و أهمهـا مسألـة خلق القرآن و الرؤيـة و التفضـيل، فجعلوا من ذلک روابط تصـلح لأن يتخـذ أساسا للتفاهم بين التشـيع و الاعتزال، أو أنهم كانت تجمعهم المصالـح المشتركة، و بهذا

1- 1) النجوم الزاهرة ج 2 ص 208. [1]

نظروا إلى الشيعة و المعتزلة بمنظار واحد، و لم يفرقوا بينهم حتى قال الذهبى: إن الرفض و الاعتزال تصادقا و تواخيا. و لما ضعف الاعتزال و زالت قوته بقى المذهب الشيعى يتمتع بقوته الروحية و صفاته المعنوية منفصلا عن السلطة، و لم يخضع لها منذ نشأته، و لم تصدّع الدعايات كيانه، و لم يهبط عن مستواه بما قوبل به من كتل معادية، تحاول نزوله عن المستوى الذى هو فيه، و بقى يصارع الحوادث، و يتلقى الصدمات، من أجل الحق. و قد اتجه الحنابلة بكل ما لديهم من قوة لمحاربة الشيعة و إلصاق التهم بهم، و وصفهم بما لا يليق بهم، فترى المؤرخين و علماء الرجال منهم إذا أرادوا أن يؤرّخوا لرجال الشيعة من أهل العلم و الأدب، تجد هناك تقوّلا بالباطل، و لعل الوقوف على ما كتبه ابن الجوزى و ابن كثير و غيرهم شاهد على ما نقول. و قد أفتى البعض منهم بكفر الشيعة و وجوب قتلهم و إبادتهم، كابن تيمية و غيره (1). و قد توارثت الأجيال تلك النعرة، و سرت تلك الفكرة فى الأدمغة التى تحكّم فيها الجمود، و وجد أعداء الإسلام فى ذلك أكبر عون لحلول الفرقة، و زيادة العداء و التباعد. و بمزيد الأسف أن بعض المؤلّفين فى العصر الحاضر لم ينظروا لتلك الظروف التى نشأت فيها الخلافات، فتقبّلوا كل ما وجدوه مكتوبا عن تاريخ الشيعة من طعون و تقوّلات، و لو أنهم وقفوا وقفة مؤرخ منصف لبان لهم الحق. 5-كان بودى أن أشرح كثيرا من الأمور التى نجمت عن مشكلة خلق القرآن، و لكنى خشيت أن يطول الموضوع و تتسع أطراف البحث. كما كنت أرغب فى الحديث عن قبر أحمد و تاريخ غرقه فى دجلة، و الإشارة إلى تعظيمه، و نقل رفات الموتى إليه، و لكنى أرجأت ذلك إلى الأجزاء القادمة إن شاء اللّه.

نظرة عامّة:

و نعود و العود أحمد، نعود لنلقى نظرة حول المذاهب و انتشارها، بعد دراسة طويلة، و بحث واسع مجهد، و ترويض للنفس على تحمّل الصعوبات، و اجتياز العقبات، التى تحول بين الباحث و بين الوصول إلى الغاية.

1- 1) الدرر البهية فى مناقب ابن تيمية ص 182-191.

و إن الناظر إلى تأريخ المذاهب يلزمه أن يروّض نفسه على أن يسير وفق الأمور التى يقتنع بصحتها، فإن هناک عاطفة و تعصبا، و هناک سياسة و تدخلا، و هناک عداء و تحزبا، فلا بد إذا من الوقوف وقفة المتبصر الطالب للحقيقة، المتجرد عن التحيّز و التعصّب، ليسهل عليه أن يقتطف زهرة الحقيقة من بين تلک الأشواک، و يعرف وجه الصواب، و تتضح له الأغراض التى كمنت وراء ستار شفاف من المظاهر. لذلک ينبغى أن أشير إلى الصعوبة التى يلقاها الباحث عن المذاهب لوجود عقبات التعصّب، و ترسبات الطائفية، و أن أكثر من كتب فى هذا الموضوع لم يساعده التوفيق على ترويض نفسه لتحمل الصعوبات، و قد استعرضنا فى أبحاثنا هذه إلى كشف الحقيقة و إظهار الواقع، و إن كنا قد تعمدنا ترک أشياء كثيرة ربما يكون بذكرها احتمال تحامل أو طعن، و نحن نبرأ إلى اللّه من ذلک، فلم نقصد إلاّ الخدمة للمصلحة العامة، و محاربة تلک النعرات التى من ورائها خصومات و تشاجر، و فرقة و تباعد، و اتهام بالباطل و هضم للحقائق و ظلم للتاريخ. و قد رأينا كيف انقسم العلماء فى القرن الثانى إلى قسمين: أهل حديث و أهل رأى. و كان أهل المدينة يمثّلون القسم الأول، و أهل العراق يمثّلون القسم الثانى، و أصبح لكل جانب أنصار و متعصّبون، و اشتهر أبو حنيفة بالقياس و قلة الحديث. سئل رقبة بن مسقلة عن أبى حنيفة فقال: هو أعلم الناس بما لم يكن، و أجهلهم بما كان. و قد روى هذا القول عن حفص بن غياث. يريد أنّه لم يكن له علم بآثار من مضى (1). و أصبح أهل الحديث ينقمون على أهل الرأى، حتى خرج ذلک النزاع عن حدود المقاييس العلمية، و بلغ إلى التهاجى و التعصّب، فكان كل فريق يحاول الانتصار على الآخر، فهذا يهجو خصمه بشعره، و ذلک يردّ عليه بالمثل، و تحيز لكل فريق جماعة، و تعددت عوامل الفرقة حتى أدّى ذلک إلى الطعن فى العقائد، و الحط من الكرامات. قال أحمد بن الحسن لأحمد بن حنبل: يا أبا عبد اللّه: ذكروا لابن أبى قتيلة بمكة أصحاب الحديث فقال: أصحاب الحديث قوم سوء. فقال أبو عبد اللّه-و هو

1- 1) تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ص 213.

ينفض ثوبه-و يقول: زنـديق، زنـديق، زنديق، و دخل البيت (1). و فى ذلـک العصـر اتسع نطاق النشاط العلمى، فكان فى كل بلـد إمام له مذهب ينسب إليه، ففى الشام مذهب الأوزاعى، و فى مصر مذهب الليث بن سعد، و فى الكوفة مذهب سفيان الثورى و ابن عيينة، و غيرها من المذاهب التى انقرضت و لم يكتب لها البقاء. و لكن المذهب الحنفى قد سـعد دون غيره برجال دونوا فيه و ألّفوا، و كانت لهم السـلطة التشريعية، فأبو يوسف قاضى قضاة الدولة العباسية كان يتولى نشر المذهب بقوة سلطانه، و نفوذ أمره. و إذا أردنا أن نقيس شهرة أبى حنيفة فى عصره، و منزلته فى مجتمعه، فلا يعدو أن يكون واحدا من الشخصيات التى نبغت فى ذلک العصر، بل كان الكثير منهم يفوقه شهرة. و لكنه على مر الزمن أصـبح أبو حنيفة يذكر اسمه بالإعجاب فى العالم الإسلامى، و يجب أن يلاحظ. و ذلک كنتيجة للعصور المتأخرة و لتلامذة أبى حنيفة، و على الأخص لمحمّد بن الحسن الشـيبانى. فقد كتبوا كتبا و دونوا فيها كل العلوم و التجارب، و أضافوها إلى السـلف و ختموا كـل ذلک بخاتم راويهم الأخير و هو أبو حنيفـة، فكان من أجل ذلک عنـد الأجيال المتأخّرة هو المبـدع الوحيـد، و المؤسّس لعلم الفقه و طريقته، و الفقهاء الكبار الذين عاشوا قبله، و الذين عاصـروه لا يعرف عنهم شـىء، من أجل نقص الكتب التى تحمل اسـمهم. و من ناحية أخرى فقد كانت مساهمة تلامذة أبى حنيفة فى تكوين الروايات و تكميلها غير منفصـلة عن عمل أسـتاذهم (2). و كان لتلامذة أبى حنيفة آراء خاصـة، فإنک تجـد فى كتب الحنفية أقوال أبى يوسف، و محمّد بن الحسن، و زفر بن الهذيل، حسب ما يظهر لهم من المعانى و الآثار فوافقوا أبا حنيفة فى بعضـها، و خالفوه فى كثير من الآراء و الأقوال، و قد حاول بعض الحنفية أن يجعل أقوالهم المخالفة لأبى حنيفة أقوالا له رجع عنها، أو أن أبا حنيفة جعل ما يصح من الحديث مذهبا له، فتكون أقوال تلامذته التى اجتهدوا فيها

1- 1) طبقات الحنابلة ج 1 ص 38. [1]

2- 2) نظرة عامة فى تاريخ الفقه الإسلامى ص 235.

و استخرجوها من الأحاديث هی أقوال أبی حنيفة و آرائه، و بهذا تكوّن المذهب و نسب المجموع إليه. و هكذا مذهب مالک بن أنس فقد تولی نشره سلطان الأندلس، عند ما بلغه ثناء مالک عليه، و كان يحيی بن يحيی المتوفی سنة 233 ه مكينا عنده، قال أحمد بن خالد: لم يعط أحد من أهل العلم بالأندلس-منذ دخلها الإسلام-من الحظوة و عظيم القدر، و جلالة الذكر ما أعطيه يحيی بن يحيی. و كان السلطان لا يولی قاضيا فی أقطار الأندلس إلاّ بمشورته و اعتباره، و لا يشير إلاّ بأصحابه، و الناس سراع إلی الدنيا. فأقبلوا علی ما يرجون به بلوغ ما يرضيهم (1). كما أن مالک نفسه كان مكينا عند العباسيين يصلونه بجوائزهم، و يرفعون من شأنه، حتی أن الأمراء كانوا يخشون سطوته، و الحرس يأتمرون بأمره، بسجن من يريد سجنه، و إطلاق من يريد إطلاقه، و كان يحضر عند الوالی، فيعرض عليه السجن فيأمره بضرب هذا مائة، و هذا مائتين، و قطع هذا، و صلب ذاک (2). و حاول المنصور أن يجعل مالک هو المصدر للتشريع، فنهی غيره من العلماء عن الإفتاء، و طلب منه أن يضع كتابا يحمل الناس علی العمل به. و قد رأينا فيما سبق أن المنصور قد غضب عليه قبل ذلک لفتوی تخالف غرضه، فعذّب مالک، و ضرب خمسين سوطا حتی انخلعت كتفه. و هذا ما يدلّنا علی أن المنصور يناصر العلماء ما لم تمس تعاليم أحدهم بصالح سلطانه، فهو يری أن مركز الخلافة فوق كل شیء، و قد طارد العلماء الذين انتقدوا أعماله. أما الشافعی-و هو تلميذ مالک و من عداد أهل الحديث-فقد انتشر مذهبه بمصر بواسطة تلامذته، و مكانتهم فی مجتمعهم، و قد زاحم مذهبه مذهب مالک حتی تعصب عليه أصحاب مالک فقتلوه شهيدا (3)و جاءت الدولة الأيوبية، و كان ملوكها شافعية، فناصروا مذهب الشافعی و نشروه، و بنوا له المدارس، فأقبل الناس عليه.

1- 1) ابن خلكان ج 2 ص 116. [1]

2- 2) مالک بن أنس لأمين الخولی ص 319.

3- 3) توالی التأسيس لابن حجر ص 86.

و قـد أشـرنا عن قريب فى هـذا الجزء إلى مـذهب أحمـد و انتشاره، و كيف تكون، فلا نطيل الحـديث بذلک. و صـفوة القول أن المذاهب الأربعة المعمول بها كانت تنتشر تحت تأثير عوامل لو ساعدت غيرها من المذاهب السنية المعمول بها فى ذلک الزمن لطال عمرها، و امتد الزمن بهـا، كمـذهب الأـوزاعى، و الظـاهرى، و ابن جرير، و الأـعمش، و الليث بن سـعد و غيرهم. و كـان من وراء تـأثير الدعايـة القوية للمذاهب الأربعة و مناصـرة السـلطات لها أن أقبل الناس عليها و هجروا ما سواها، و قد صدر مرسوم فى عهد المنتصـر العباسـى، يقضـى بالالتزام بقول المشايخ السابقين، و أن لا يذكر قول مع أقوالهم، و أفتى علماء الأمصار بوجوب اتباع المذاهب الأربعة، و تحريم ما عداها، و بهـذا أغلق باب الاجتهاد فى وجوه أتباع المـذاهب الأربعة. و لا قائل من السـلف بغلق باب الاجتهاد، و بهذا سارت المذاهب الأربعة فى طريق الانتشار دون غيرها من المـذاهب السـنية المعمول بها كما تقدم. و قد تكفلت أبحاثنا فى هذا الكتاب بأجزائه جميعا، كل ما له علاقة بتكوين المـذاهب و انتشارهـا. و فى الختـام أبتهـل إلى اللّه تعـالى أن يتقبّل أعمالنا، و منه وحـده عزّ و جل أطلب المكافأة و الجزاء، و هو حسـبنا و نعم الوكيل، كما نسأله تعالى مكافأة من شـجعنا من الأدباء فى تقريظ هذا الكتاب نظما و نثرا، و سننشـر ذلک فى كلمة الختام مع الشكر و التقدير لهم. و إلى هنا ينتهى الجزء الرابع و إلى اللقاء فى الجزء الخامس إن شاء اللّه.

وَ ما تَوْفِيقِى إِلاّ بِاللّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ إِلَيْهِ أُنِيبُ.

المجلد 3

اشارة

عنوان و نام پدیدآور:الامام الصادق و المذاهب الاربعه / اسد حیدر

مشخصات نشر:دارالتعارف للمطبوعات - بیروت - لبنان- 1422

زبان: عربی

مشخصات ظاهری:4ج

موضوع:امام صادق علیه السلام

موضوع:مذاهب اربعه - اهل سنت

ص: 1

ص :3

عنوان و نام پدیدآور:الامام الصادق و المذاهب الاربعه / اسد حیدر

مشخصات نشر:دارالتعارف للمطبوعات - بیروت - لبنان- 1422

زبان: عربی

مشخصات ظاهری:4ج

موضوع:امام صادق علیه السلام

موضوع:مذاهب اربعه - اهل سنت

ص :4

الجزء الخامس

اشارة

بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُـوا اتَّقُـوا اللّهَ وَ قُولُوا قَوْلاً سَدِيـداً. يُصْلِحْ لَكُـمْ أَعْمـالَكُـمْ وَ يَغْفِرْ لَكُـمْ ذُنُوبَكُـمْ وَ مَنْ يُطِعِ اللّهَ وَ رَسُولَهُ فَقَدْ فـازَ فَوْزاً عَظِيماً [الأحزاب:70 و 71] وَ مَنْ يُطِعِ اللّهَ وَ الرَّسُولَ فَأُولئِـکَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَ الصِّدِّيقِينَ وَ الشُّهَداءِ وَ الصّالِحِينَ وَ حَسُنَ أُولئِکَ رَفِيقاً ذلِکَ الْفَضْلُ مِنَ اللّهِ وَ کَفى بِاللّهِ عَلِيماً [النساء:69 و 70]

ص:5

تقديم و بيان

>تقـديم< رأينـا أن نخصـص هـذا الجزء-و هو الخـامس-:لأهم المسائل الفقهيـة و نضع أمام القارئ صورة حيـة واضـحة؛ تكشف لنا عن الخلافات الحاصـلة بين الشـيعة و السـنة، و بين المـذاهب السـنية أنفسـها بل بين المنتسبين للمـذهب الواحد،فى موافقة رئيس المذهب و مخالفته مما يـدل على حرية الرأى و عدم الالتزام باتباع رئيس المذهب، و ذلک قبل أن يفرض الحجر السياسـى فى وجوب اتباع أقوال أئمة المــذاهب.و إن موضـوع الكتـاب يتطلـب ذلـک مـن حيـث الوقـوف على أهـم ناحيــة يجـب أن نأخـذ عنهـا صـورة واقعيـة فى دراســة موضوعية،لإيضاح ما أحاط بها من غموض،و ما اكتنفها من عقبات و هى مسألة الخلاف بين السـنة و الشـيعة فى الفقه،فقد أصـبح من نتائج سوء الفهم بأن يقال:إن السـنة و الشـيعة يفترقون افتراقا كليا فى الفقه،و إن الفقه الإسـلامى هو للمـذاهب الأربعة فحسب،و كل ذلک نتيجة لعوامل التعصب و الجهل بحقيقة الأمر و ليس أضر على الدين من العصبية و لا أشد فتكا بالعقول من سوء الفهم.

و لهذا كان أكبر همى الوصول إلى دراسة فقه المذاهب لتوضـيح مدى الخلاف بين المذاهب السـنية و بين مذهب الشـيعة،و كلما حاولت الاختصـار فى الدراسـة التأريخيـة حول التعرف على شخصـيات أئمـة المـذاهب و الوقوف على عوامـل انتشـار مـذاهبهم دون غيرها أجد الموضوع يتسع أمـامى،و الحاجـة تـدعو إلى مزيـد من البيـان، و قـد تركت ورائى أشـياء كثيرة لم أتعرض لهـا،و رميت كثيرا منهـا فى سـلة المهملات، لعدم الاهتمام بها و طلبا للاختصار،و لأصل إلى الغاية المطلوبة.

و عند ما أخذت فى إعداد مسودات هذا الجزء،و تقديمها للطبع وصلتنى أنباء

كتاب:حياة الإمام الصادق لمؤلفه الأستاذ محمد أبو زهرة،العالم المصرى الشهير، و صاحب المؤلفات القيمة،و الدراسات الواسعة،و بالأخص فيما يتعلق بموضوع المذاهب الأربعة،فقد ألف و نشر حول هذا الموضوع،و إنى أكبره و أقدر له أتعابه و جهوده.

و قد قرأت كتابه عن الإمام الصادق-بعد مدة من صدوره-قراءة إمعان و تدبر، لا قراءة سطحية تبعد بالقارئ عن هدف المؤلف و أغراضه،و قد وقفت فيه على أمور لا يمكن أن أتخطاها بدون أن أبدى عليها ملاحظاتى.

و حيث كان موضوع الأستاذ أبو زهرة يتصل اتصالا مباشرا فى موضوع هذا الكتاب،فلذلک أدخلت تلک الملاحظات فى هذا الجزء.

و الذى تجدر الإشارة إليه هو أنى لم أذكر هنا كل ما يلزم مناقشته،و إبداء الملاحظة عليه،فهو أكثر من أن يحويه جزء،بل نعتبر ذلک مختصرا بالنسبة لما يستلزمه البحث فيما نختلف فيه أو نتفق عليه كما سيقف القراء على ذلک قريبا إن شاء اللّه بعد أن نستمر فى تمهيدنا للبحث بما يستلزم الموضوع كما هو نهجنا فى جميع الأجزاء و من اللّه أسأل العون و عليه أتوكل و هو حسبى و نعم الوكيل.

ص:8

تمهید

اشارة

إن البحث عن المـذاهب و دراسة الظروف و الملابسات التی أحاطت بها یجب أن تدرس دراسة تأریخیة بعیدة عن التعصب و التحیز،لأن التحیز لجهة و التعصب علی أخری یغیر صور الحوادث،و یشوه الحقیقة،و هذا هو الظلم الأدبی کما یقولون.و إذا کان دافع البحث هو حب الحقیقة فلا بد أن یکون بصدق و موضوعیة بعیدا عن التأثر بعوامل أخری،و بذلک یکون الباحث قد نال شرف خدمة الحق و اتباعه.

و لا بـد لنا أن نلمس خطورة البحث و أهمیته،و لهـذا یلزمنا أن نتجرد عما یخالف الحقیقـة،بل یجب أن نخوضه بروح صادقة،و نیة خالصـة لمعالجة هذا الموضوع الذی له دخل فی واقع المسـلمین فی الحاضـر و الماضـی،و إن الحوادث المؤلمة التی توالت علی مسرح حیاتنا فی جمیع الأـدوار،و مـا أدت إلیه من نتائـج سـیئة فی المجتمع الإسـلامی،و إن کـانت نتیجـة عوامـل کثیرة متداخلـة،إنما یعود إلی التعصـب المذهبی، فهو المؤثر الأکبر و العامل القوی فی تفرق المسـلمین شـیعا و أحزابا،و قد انقسـموا علی أنفسـهم انقساما شائنا،فکل یتهم الآخر بالانحراف عن الدین،و کل طائفة اعتزلت الأخری،ترمیها بما لا یتفق و روح الإسلام و نظمه.

و مما یؤسف له أنهم قـد أسـرفوا فی الجـدل إسـرافا أخرجهم عن میزان العـدل، فقـد راحوا یلتمسون علی ذلک ألوانا من الحجـج یبدو فیها التکلف و یتجلی فیها البطلان.و قـد غلب علیهم الجمود الفکری و التزموا بالتقلیـد فی أخـذ الأحکام عن أئمـة المـذاهب،إذ لا یمکن فی نظرهم أن یصل أحد إلی ما وصلوا إلیه من العلم،فهو مقصور علیهم،و الاجتهاد فی الأحکام من اختصاصهم دون غیرهم.

لقـد مرت أجيال و هم يعتقدون أن ليس لأحد بعد الأئمة الأربعة أن يجتهد فى الشـريعة الإسـلامية،و الخارج عن المذاهب الأربعة-و هو رأى الجمهور-صاحب بدعة،و كل بدعة ضلالة،و كل ضلالة فى النار.

و من المضحكات(بل المبكيات)أن تتغلغل هذه العقيدة فى الجماهير الإسلامية،حتى نجد من يسأل عن مذهب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:أ شافعى أم مالكى؟و غفلة العوام من غفلة الخواص.هكذا يقول الدكتور زكى مبارک و عليه عهدة ما يقول.

و نحن لا تعوزنا النصوص التاريخية على تأييد قوله،فقد وقفنا على رأى من يزعمون بأن رئيس مذهبهم كان أعلم من النبى صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى القضاء (1).

و آخرون يقال لهم:قال رسول اللّه فيقولون:قال فلان.كما أن الكثير منهم (تمسـكوا بأقوال أئمتهم تمسـكا جعلهم يقدمونها على كتاب اللّه و سنـة رسوله) (2)و مهمـا يكن من أمر فـإن تلـک الاتجاهـات التى سـار عليهـا المتعصـبون بعيـدة عن روح الإسـلام و مفاهيمه،فهى أمور ارتجالية،غذتها الأنانية و تولت بثها دعاية التضليل تقويضا لصرح تماسک الأمة،الذى يقف حائلا دون كل خطر يهدد المجتمع الإسلامى فى الداخل و الخارج.

نعـم ليس مـن روح الإسـلام و مفـاهيمه،تحامـل طائفـة على أخرى و اتهامهـا بالزندقـة،و الخروج عـن الإسـلام،لمجرد الخلاـف فى الرأى.فالشـافعى يكفر الحنبلى،و الحنبلى يكفر الشـافعى،و هكـذا بـدون التفـات إلى واقع الأـمر،و ما ينجم عن ذلک من خطر على الأمة الإسلامية.

و إن تلک المساجلات الجدلية حول المذاهب،قد خرجت عن النطاق العلمى إلى الأمور التافهة من الهزل و المجون،و من أظرف ما جرى بين الحنفيـة و الشافعيـة قول الحنفيـة لهم:مـا جسـر إمامكم أن يخرج إلى الوجود حتى مات إمامنا.و يجيبهم الشافعيـة:بل إمامكم ما ثبت لظهور إمامنا (3)و ذلک أن الشافعى ولد فى السنة التى مات فيها أبو حنيفة سنة 150 ه و قيل فى

1- (1) تاريخ بغداد ج 13 ص 412.

2- (2) همم ذوى الأبصار ص 51.

3- (3) الغيث المنسجم فى شرح لامية العجم ج 1 ص 165.

اليوم الذى مات فيه.و قد بقى الشافعى فى بطن أمه أربع سنين أو أقل (1).

و كذلک جرت مساجلات شعرية هى أقرب إلى المساجلات الأدبية فلا حاجة لذكرها.و قد بلغ الأمر حدا مؤسفا من تكفير طائفة لأخرى،و إباحة دماء أبنائها،كما أثبت ذلک وقوع تلک الحوادث الدامية،فى الشام،و خراسان و الرى و غيرها.

و نحن عند ما نقف على بعض الأقوال كقول المظفر الطوسى الشافعى:(لو كان لى من الأمر شىء لأخذت على الحنابلة الجزية) (2)و قول محمد بن موسى الحنفى:

(لو كان لى من الأمر شىء لأخذت على الشافعية الجزية) (3).فإننا نجد اتساع الخرق، و وقوع ما لا تحمد عقباه من الخروج عن الموازين العلمية إلى الأمور الانفعالية التى لا صلة لها بالإسلام و نظمه.

و كذلک نستوحى معلومات أكثر فأكثر عند ما نصغى إلى النداء بدمشق و غيرها:

من كان على دين ابن تيمية،حل ماله و دمه (4)و قد أفتى بعضهم بتكفير من يسمى ابن تيمية بشيخ الإسلام (5)و ابن تيمية هذا هو شيخ الحنابلة و قد لقبوه بشيخ الإسلام، و معنى هذا النداء بأن كل حنبلى كافر.و بجانب هذا نجد الشيخ أبا حاتم،يرى و يفتى:(بأنه من لم يكن حنبليا فليس بمسلم).

و هكذا أدى النشاط المذهبى إلى هذه الأمور التى فجرت المآسى المؤلمة فى المجتمع الإسلامى،من تفكک و تباعد،و وجود مشاكل يصعب حلها إلا عن طريق التروى و التنبه لأثر البعد عن روح الأخوة و السقوط فى و هدة التعصب.

و استمرت عجلة الزمن تدور و الأمر يشتد،و ظهر ذلک الانقسام فى صفوف الأمة بوضوح،و تعاقبت على المسلمين أدوار سوداء ذهبت بكثير من الأرواح و الأموال،و ملأت النفوس حقدا،و القلوب غيظا.

و أسرفت الطوائف فى الخصومة كما بالغوا فى اتخاذ وسائل الانتصار

1- (1) المنتظم ج 10 ص 239.

2- (2) مرآة الزمان ج 8 ص 44.

3- (3) تاريخ دول الإسلام للذهبى ج 2 ص 24.

4- (4) مرآة الجنان لليافعى ج 2 ص 242.

5- (5) ذيل تذكرة الحفاظ ص 316.

لمـذاهبهم،من افتراء فی القول و کـذب فی النقل،و وضع أحادیث عن النبی صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم بما یؤیـد المذهب،و یشد عضـد أنصاره،من أن النبی صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم بشـر برئیس المـذهب الـذی یتبعونه قبل ولادته،و وضع آخرون منامات مبشـرة،و هی فی الاعتبار عندهم کالیقظة من وجوب الأخذ بها،و کلا الأمرین لا یصح منه شـیء،لأنها ادعاءات وهمیة یقصدون بها تقویم شخصیة إمامهم من وفور علم،و علو منزلة،و شـرف بیت،حتی قال بعض الحنیفة:إن أهل الکوفة کلهم موال لأبی حنیفة (1).أی أنهم کانوا عبیدا فأعتقهم،مع العلم بأن أبا حنیفة کان فارسی الأصل.

و بهذه الزوائد ملأوا صـفحات کتب المناقب،کما وصـفوهم ببطولات لا یعترف التاریخ بها،و أحاطوا شخصیاتهم بهالة من آیات المدیح و الإطراء،بما یضـفی علیهم لباس قدسـیة رفعتهم عن مقام البشـریة،و صوّرتهم بمنتهی درجة من الکمال تبلغ بهم العصمة،و إن لم یصرحوا بها.

و مهمـا یکن من أمر:فـإن تلـک الأقوال الناتجـة عن مؤثرات سیاسـیة أو اجتماعیـة عقیمـة النتائـج إذ هی مبالغات و غلو أوجـدهما النشاط المذهبی،عند ما عظم الخلاف بین أتباع أئمة المذاهب(و دب التقلید فی صدورهم دبیب النمل و هم لا یشعرون، و کان سبب ذلک تزاحم الفقهاء و تجادلهم فیما بینهم) (2).

و قد مرت الإشارة إلی الظروف القاسـیة التی مرت بالمسـلمین من جراء الاختلاف بین معتنقی المذاهب فأصـبحوا أعداء متباعدین،بعد أن کانوا إخوة متحابین،و أدی الأمر إلی القتل و النهب و حرق الأسواق،و تخریب المساجـد و هـدم الـدور،و لا نـدخل هنا فی تفاصـیل تلک الحوادث المؤلمة،و نکتفی بما أشرنا إلیه فی الأجزاء السابقة.

و الآن و قـد لخصـنا باختصار أثر ذلک الانقسام الـذی حل بالمسـلمین یجـدر بنا أن نولی وجوهنا شـطر المسـلمین من أتباع مذهب أهل البیت-و هم الشـیعة-لنری ما نالهم من أثر ذلک الانقسام و ما أدی إلیه ذلک التـدخل من أعداء الدین،الذین یبثون العداء و یثیرون الأحقاد لإیقاع الفتنة و یخوضون تلک المعارک بوجه مقنع.فلا بد أن ننظر

1- (1) مناقب أبی حنیفة للمکی ج 1 ص 174.

2- (2) حجة اللّه البالغة للدهلوی ج 1 ص 123.

إليهم من زاوية الواقع لا زاوية الخيال التى فتحها المغرضون من أعداء الأمة،و رسموا للشيعة صورا غريبة،و حاكوا لهم تهما وهمية،و نسبوا لهم عقائد مفتعلة،و آراء بعيدة عن واقع الأمر،و رشقوهم بسهام نقد من هنا و هناك حتى آل الأمر إلى إبعادهم عن حظيرة الإسلام زورا و بهتانا.

و لا ذنب لهم إلا عدم مسايرتهم لحكام الجور،و تمسكهم بالانتصار لآل محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أهل الحق المضيع،و هذا أمر واقع قد يكون إنكاره من المكابرة و التعنت، و تكشف النظرة السريعة و العجلى إلى معالم تاريخ الشيعة عن أسرار موجات العداء و تيارات النقمة عليهم،و قد التقت فى قيام هذه الموجات و التيارات قوى عديدة تمثلت فيها السلطة الزمنية و القضائية و الحزبية و الاجتماعية و لا أصف من لبس لبوس الفقه و تزيا بزى العلم بالسلطة الدينية فحاشى الإسلام و سلطته الروحية أن تطلق يوما على من يناصر ظلما أو يغض عن جور أو يسهم فى انتهاك حرمة أحد،و إنما هم قوم عملوا فى الفقه فباعوا دينهم بدنياهم،و قد تقدم معنا بعض مواقفهم فى تعضيد دور الحكام-تكشف هذه النظرة عن ثبات نهج الشيعة و دوام مواقفهم،و هذا النهج و الموقف هما سبيل اتباع محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و التمسك برسالة السماء.و يبدو أن الكثيرين يهملون حقائق التاريخ و يسيئون إلى صفات التعقل و الوعى سواء كانوا حكاما أو متعاطين للعلم و الثقافة.فمن مرتكب لذات الجرائم التى ارتكبها الأمويون و العباسيون بحق الشيعة،و من معرض عن الحق مستسلم لبواعث التفرقة و العداء و لا يشينه أن يكون مع الظلمة،فأين روح العصر الحديث و الوعى الموضوعى و مسئولية القلم و التزام الكلمة؟و لا أريد أن أدخل فى تفصيل ما نال أتباع آل محمد من بلاء نتيجة للتعصب الأعمى و الطائفية الرعناء،فلنقتصر على بعض ما يهمنا عرضه الآن:

بين الواقع و الخيال:

و ليس من الغريب أن يتنكر الإنسان لما يعرف من الحقائق فيبرزها بصورة غير صورتها،إذ من السهل جدا أن يغمض الإنسان عينيه عن واقع الأمور و محاسن الأشياء،فيذم حيث لا موجب للذم،و يمدح حيث لا موقع للمدح،و ما ذلك إلا لتعصب شائن و تحامل بغيض يبتلى به كثير من الناس.

و بهذا فقد أساءوا لأنفسهم بصورة خاصة،و لمجتمعهم بصورة عامة،و راحوا

يلتمسون الحجج الواهية للضعة بمن يتعصبون عليه و لرفعة من يتعصبون له،و هم يجعلون أنفسهم حكام عدل،و رواد حقيقة،و لكنهم عكس ذلک.

و منهم من غلب عليه الجمود الفكرى فقلدوا غيرهم فى النقل بما يروق لهم و يوافق رغباتهم،و إن اتضح لهم خلاف ذلک،و بهذا فلم يعطوا الأشياء ما يلزم أن تعطى حسب الواقع.و بصورة خاصة أولئک الكتاب الذين يكتبون عن تاريخ الشيعة، فنرى أكثرهم يتخبط فى بيداء التهجم،و يسير فى طرق ملتوية لا تؤدى به إلى الغرض المطلوب منه فى أداء حق التاريخ،الذى هو مرآة الأمم السالفة للأجيال القادمة،لأنه بهذا العمل يصدأ مرآته و يذهب بمحاسنه.

و لو أنهم درسوا تلک الفترة و ما نجم عنها من آراء و أحكام تنافى روح الإخاء و روابط الإيمان و ما شاع من اتهامات دراسة مستفيضة من جميع نواحيها،و ما يحيط بها من ملابسات،و فكروا فيما يرتئون فى استخلاص النتائج لإبداء الرأى الحر الذى يبعد بهم عن المؤثرات،لكان ذلک أنفع لهم و للأمة جمعاء،و لكنهم قد تعمدوا التشويه و الخلط،لغرض فى أنفسهم و ميلا مع الأهواء.

و من نتائج توالى الملوک الجائرين و الحكام العتاة الذين ناصبوا أهل البيت العداء و نصبوا الحرب لشيعتهم،كما أن من نتائج دوام الشيعة على وقوفهم بوجه الطغاة هو انتشار آراء الملوک السابقين و شيوع أغراضهم و مواقفهم ضد الشيعة و تداولها عبر الأجيال دون انتباه إلى ما يعنيه ذلک من تأييد لسياسات الظلم و الانحراف.

و لقد أثيرت حول الشيعة عواصف اتهامات باطلة،مهدت السبيل لمن يريد أن ينفث سمومه فى جسم الأمة الإسلامية،و يطعن فى عقائدها،عند ما التبست الحقائق التاريخية بالأكاذيب،و الحوادث الواقعية بالأساطير،فاتسع المجال أمام المتداخلين و المندسين فى صفوف المسلمين؛ليعملوا عملهم،و يضربوا ضربتهم،انتصارا لمبادئهم،و انتقاما لعروشهم التى دک الإسلام صروحها،و هدم كيانها،فانهزموا أمامه مخذولين.و قد عجزوا عن مقابلته وجها لوجه،فراحوا يتلصصون فى الظلام، و يعملون من وراء الستار.

لقد اتهم اتباع مذهب أهل البيت و أنصارهم بتهم كثيرة،و وصفوا بصفات متناقضة بعيدة عن الواقع،بل هى مجرد إشاعة مغرضة،و أقوال كاذبة،و افتراءات صريحة.

و كان من أعظم تلك التهم التى وجهت إليهم هى:أن الشيعة يعبدون عليا و يؤلهونه،أو أنهم يعبدون الأئمة أجمع،و أن الأئمة عندهم أنبياء يوحى إليهم،و أن لهم أحكاما هى غير أحكام الإسلام.و إنهم يشتمون أصحاب محمد و يكفرونهم جميعا،و إنهم و إنهم...إلى آخر تلك الأقوال و التقولات التى أوحى بها الشيطان ليوقع الفتنة و ينشر الفساد.

و قد رأينا فيما تقدم أن السياسة كانت تشد أزر المتهجمين،و تحمى من تاه فى غوايته،لتنتقم من أنصار أهل البيت الذين أعلنوا انفصالهم عن الدولة التى يتحكم فيها حكام انتحلوا إمرة المؤمنين،و ادعوا الولاية على المسلمين خلافا لما يقتضيه نظام الإسلام،و تمردا على مفاهيمه،و خروجا عن حدوده و قواعده.

و قد وقف الشيعة مواقف حاسمة و بذلوا كل ما فى وسعهم أن يبذلوه فى مقاومة كل سلطان يحكم بغير ما أنزل اللّه،فكان مصيرهم السجون و التشريد و القتل.

و الخلاصة:أن عدم تعاون الشيعة مع حكام الجور و أئمة الضلال،أدى إلى اتخاذ شتى الأساليب و إيجاد مختلف العوامل للقضاء عليهم حفظا للمملكة،و صيانة لها عن المؤاخذات التى تقوم على مبادئ العدل الإسلامى.

لقد تضاعفت القوى لمحاربة الشيعة،و توالت عليهم الحملات،لأن الدولة لا تسمح لمن يخالفها فى الرأى أن يتمتع بحرية إبداء رأيه،و ترى من الحزم القضاء عليه،و قد ذهب كثير من العلماء ضحية أفكارهم و آرائهم،و لحق الاضطهاد بكثير من الفقهاء(و كان أكثرهم عرضة للقتل إذ لم يكن له أحد يحميه فى قصر الملك أو الأمير لأن القوم أصبحوا و نفوسهم لا تشتفى ممن يخالفهم فى معتقد أو فكر إلا أن تضرب عنقه) (1).

و على هذا النهج سار ولاة الأمر،و بهذه السياسة الخرقاء كانوا يعاملون حملة العلم و أبطال الفكر،و أعظم من هذا أنهم نسبوا تلك الأمور إلى الدين بدعوى أن فى قتل هؤلاء ضم شمل الجماعة،و إغلاق باب الفرقة،و القضاء على البدع و الضلالات،و قد اتخذوا من علماء السوء مطايا لأغراضهم فكانوا يستفتونهم فى إراقة الدماء،حفظا للدولة من مؤاخذه العامة.

1- (1) الحضارة العربية ج 2 ص 88.

فالمخالف للسلطة فی نظر علماء السوء و أتباعهم زندیق ملحد کافر إلی آخر ما تتسع له صحیفة الاتهامات،و کما یشاء ولاة الأمر و تقتضیه سیاستهم،و تدعو إلیه رغباتهم فی قمع أی حرکة معارضة لهم،أو أی إنکار علی سوء عملهم.

و قد استخدموا لنشر تلک الاتهامات شیوخا یقصون علی الناس بأسالیب خدّاعة،و أحادیث جذّابة،مزجوها بمناقب و فضائل تعود لمصلحة الدولة،کمناقب العباسیین و غیرهم و البشارة بدولتهم،و فضائل بعض الشخصیات التی ناقش المفکرون أعمالهم،و حاسبوهم علی سوء تصرفهم،و هذا أمر لا ترغب فیه السلطة لأنه یشد أزر المخالفین لهم.

و بهذه العوامل الخداعة صوروا مذهب الشیعة،و رسموا صورته بإطار الشذوذ، و أن أسسه قد قامت علی غیر التعالیم الإسلامیة.و تقدم الکذابون یوضع أساطیر قصدوا بها التقرب لولاة الأمر،کوضع أسطورة عبد اللّه بن سبأ الیهودی،کما صورها سیف بن عمر المشهور بالکذب و الزندقة و المعروف بالوضع،و تناولها الحاقدون علی الشیعة،و المبغضون لأهل البیت فأحاطوها بهالة من التهویل و أبرزوها بإطار ما کر خداع،و هم یقصدون توسیع شقة الخلاف،و إیقاد نار الفتنة.

و أصبح بمقتضی هذه الأسطورة و غیرها من الأساطیر أن مذهب الشیعة قامت أسسه علی التعالیم الیهودیة،و أن مؤسسه عبد اللّه بن سبأ الیهودی،و هو شخصیة موهومة رسمتها ریشة رسام البلاط العباسی.و ما أکثر البسطاء الذین یتأثرون بالقصص الوهمیة.

و قامت حول هذه الافتراءات دعایات التضلیل،و نفخت أبواق الباطل و ما أسهل الانخداع بهذه الأکاذیب ممن لا یقوی علی تمحیصها بفکر ثاقب و عقل راسخ.

و کانت السلطة من وراء ذلک تشد أزر أولئک المخدوعین،و تتولی نشر تلک التهم و تأییدها بکل حول و قوة،لترکیز فکرة خروج الشیعة عن الإسلام،و طبع عقائدهم بطابع الکفر،لیجعلوا من ذلک حصانة للدولة عن مؤاخذة المسلمین لهم و إنکارهم علیهم،و لأجل أن تصبح تلک الثورات التی قام بها الشیعة ثورات علی الجماعة الإسلامیة.حتی عرفوا فی قاموس لغة السیاسة:(أنهم أمة هدامة أو حزب ثوری لا یعترف بنظام الحکم القائم)و لهذا أصبح الانتماء إلی التشیع ذنبا لا یغفر،

لأنه ينتمى إلى جماعة مخربة تحاول القضاء على الدولة الشرعية التى يترأسها سلطان يعمل بأمر اللّه و هدايته.

و كل ذلک ادعاء باطل و تدخل شائن،كما بذلوا جهدهم فى خلق تهم و إشاعات يحاولون من ورائها إبعاد الشيعة عن المجتمع الإسلامى.

إن ذلک التدخل السياسى قد أوقع كثيرا من الكتّاب فى حدود ضيقة،و حرمهم من حرية الفكر و صواب الرأى.

و لا بد لنا فى هذا الموضوع أن نلفت أنظار القراء الكرام إلى الدور الذى لعبه المستشرقون فى كتاباتهم حول الشيعة،و التى أصبحت مصدرا يستمد منه كتّاب عصرنا الحاضر معلوماتهم بدون مناقشة،كأنها هى عين الحقيقة و الصواب،فلا يتطرق إليها وهن و لا ينال منها أى نقاش.

و صار أولئک الكتّاب يطلقون تلک الآراء الشاذة،و الأقوال التى تحمل طابع التزييف و الخداع،كدليل جاءوا به من عند أنفسهم أو نتيجة بحث موضوعى قائم على حرية الرأى و المنطق الصحيح.و لو أنهم أعطوا لعقولهم مدىّ يسيرا لتكون نظرتهم مشتملة على شىء من الواقعية و التمحيص لما تلبسوا تلک الأقوال احتراما لعقيدتهم و لأنفسهم.

و نحن إذ نقدم هنا أمثلة لما نقول-و الألم يحز فى نفوسنا-لما بلغت إليه الحالة من الانحطاط و التدهور،فى أخذ آراء قوم احترقت قلوبهم بنار الحقد على المسلمين حتى باتت رمادا،و قد وجهوا حملاتهم العنيفة ضد الإسلام و نبيه الأعظم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، باتهامات باطلة و أقوال فارغة(و قد حفلت كتبهم بالاتهامات و الشتائم،و كلها تتصف بالافتراءات الغريبة التى تدل على تفكير سقيم) (1).

فاندفعوا بأقلامهم المسمومة،و خيالهم الواسع مستغلين فرصة الخلاف بين الطوائف،و اتهام بعضهم بعضا،فراحوا يختلقون أشياء كثيرة و يضعون خططا للطعن فى العقيدة الإسلامية من طرق مختلفة حسب الخطط المرسومة،و الهدف المقصود.

1- (1) انظر حضارة الإسلام للمؤرخ الهندى خدابخش من ص 45 إلى ص 60 تجد هناک بعض تلک الاتهامات ذكرها هذا المؤرخ من مصادرها و ناقشها.

آراء المستشرقين فى التشيع:

و إن لكثير من المستشـرقين خططا يقومون بتنفيـذها عن طريق الكتابة،أو خططا اسـتعمارية يقوم بتنفيذها كثير من المستشـرقين فى البلدان الإسلامية،و المتتبع يجد ذلک فيما يكتبونه فهم يثيرون أحقادا،و يوقظون الفتنة،و كل ينتصر إلى جهة،و قد اشتدت حملتهم على الشيعة من بين الفرق الإسلامية لأسباب نوضحها فيما بعد.

و لسـنا الآن بصـدد عرض ما قاموا به من النشاط فى صـفوف المسـلمين لفتـح باب الخلافات،و لكننا نريـد أن نعطى صورة عما قاموا به من تزييف الحقائق و المغالطة، ليطعنوا فى العقائد الإسلامية من باب أين ما أصابت فتح.

و قلـدهم فى ذلک بعض الكتّاب عن درايـة أو غير درايـة،فمن تلک الآراء التى تقوم على تزييف الحقائق التاريخية،أو الجهل المزرى هو ما ذهب إليه جوبينو بقوله حول تشـيع الفرس:(كانت هذه النظرية عقيدة سياسـية(و هى التشيع)غير متنازع فيها عند الفرس،و هى أن العلويين وحـدهم يملكون حق حمل التاج،و ذلک بصـفتهم المزدوجـة لكونهم وارثى آل ساسان من جهـة أمهم بى بى شـهربانوه ابنة يزدجرد آخر ملوک الفرس،و الأئمة رؤساء هذا الدين حقا).

ثم يأتى من بعده بارون فيؤيد هذه النظرية بإيضاح السبب الذى استمال الفرس إلى التشيع معتمدا على ما قاله جوبينو فى هذا الصدد فيقول بارون:(إنى أعتقد أن جوبينو قد أصاب فيما قاله:أن نظرية الحق الإلهى و حصرها فى البيت الساسانى كان لهما تأثير عظيم فى تاريخ الفرس فى العصور التى تلتها).

إلى أن يقول:و من جهـة أخرى فإن الحسـين و هو أصـغر ولـد فاطمـة بنت النبى و على ابن عمه قد قالوا:إنه تزوج من شـهربانوه ابنة يزدجرد الثالث آخر ملوک آل ساسان.

هذا هو منطق المستشـرق جوبينو و هذه عقليته،إذ يجعل التشـيع فارسـيا بحتا و أن تشيع الفرس كان منهم تعصبا لا تدينا؛لأنهم أصهار آل على عليـه السّـلام فالـذى دفعهـم لمناصـرة آل على(فى نظره)هـو علقـة المصـاهرة؛لأـن الحسـين عليـه السّـلام قـد تزوج إحـدى بنـات يزدجرد،اللاتى جىء بهن سـبايا فى أيام خلافة عمر بن الخطاب،و كن ثلاث بنات،فاشتراهن الإمام على عليه السّلام و دفع واحدة لعبد اللّه بن عمر فأولدها سالما،

و دفع الثانية إلى محمد بن أبى بكر فأولدها القاسم،و دفع الثالثة لابنه الحسين عليه السّلام (1)فأولدها زين العابدين عليه السّلام.

فعلى بن الحسين زين العابدين عليه السّلام و القاسم و سالم هم أبناء خالة،لأنهم أولاد بنات يزدجرد.

فدليل هذا المستشرق على ارتباط التشيع بالفرس و مناصرة أبناء فارس لأهل البيت إنما كان للمصاهرة،كما يذهب جوبينو و غيره،و هذا من خطل الرأى و سقم التفكير.

و يقول(و لهو سن):إن العقيدة الشيعية نبعت من اليهودية أكثر مما نبعت من الفارسية مستدلا بأسطورة ابن سبأ الخرافية.و ما أكثر من يصدق بالأساطير و يخضع للخرافات.

و يقول(دوزى)و غيره من المستشرقين:إن أصل التشيع فارسى.مستدلين بالمصاهرة المذكورة،و إن الفرس تدين بالملک و بالوراثة فى البيت المالک،و الشيعة تقول بوجوب طاعة الإمام.

و يقول(نيبرج)فى مقدمة طبعة كتاب الانتصار للخياط:و كانت الشيعة محل امتزاج الثنوية بالإسلام خاصة...الخ.

إلى كثير من تلک الأقوال المفتعلة،و الآراء الشاذة المنافية للحقائق،من جعل التشيع فارسيا بحتا،و غرضهم فى ذلک هو أن تصبح عقيدة الشيعة ذات صلة بعقائد الفرس القديمة،و بهذا فهم يطعنون فى العقيدة الإسلامية فى الصميم كما أنهم قد جعلوا إسلام أبناء فارس إسلاما عنصريا لا إسلاما حقيقيا منبعثا عن عقيدة راسخة.

هذا هو منطقهم الخاطئ،و هذه هى آراؤهم الشاذة،و أقوالهم الكاذبة،و هم لا يلامون على ما ارتكبوه لأنهم خصوم الإسلام،و هل يرتجى الخير من خصم يحترق

1- (1) هذه القصة يرويها ابن خلكان فى الوفيات ج 3 ص 4 و ج 1 ص 455 طبعة بولاق [1]عن ربيع الأبرار و انها كانت فى خلافة عمر،و هذا بعيد جدا،لأن وفاة عمر كانت سنة 23 ه و كان يزدجرد فى ذلک الوقت حيا قوى الجانب كثير العدة و لم يذكر أحد من المؤرخين سبى بناته فى حياته و لم يقتل إلا سنة 31 ه.هذا من جهة و من جهة أخرى أن محمد بن أبى بكر كان صغير السن آن ذاک لأن ولادته كانت فى حجة الوداع.

قلبه بنـار الغيظ و قـد آن لهم أن يشـفوا غيظهم،و ينفثوا سـمومهم بين المجتمع الإسـلامى.فلا لوم عليهم و لكن اللوم كل اللوم على كتاب يـدعون الحميـة على الإسـلام و أهله،فيقررون فى بحوثهم تلـك الآـراء،و يثبتون تلـك الطعون و كأنهـا مكرمـة جاءوا بها للأمـة؛حتى بلغ الانحراف و الشذوذ ببعضـهم أنه نسب إلى أصـحاب محمد صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم و خريجى مدرسـته بأنهم قد أخذوا بآراء ابن سـبأ اليهودى و تأثروا بتعاليمه. (1)

و هذا من أعظم الجنايات و أقبح الأمور،و لكن هذا القائل قد بلغ حدا فى مناصـرة الباطل جعلنا نتهاون فى أمره،فألقيناه فى سلة المهملات غير مأسوف عليه، لأن الانشغال بكل ما بدر من أعداء الإسلام يفوق الطاقة و لذا فهو من مهمات المسلمين جميعا.

و نجد أحمد أمين فى بحوثه-و بالأخص فى فجر الإسـلام-قد أخذ بهذه الآراء و أقرها كأنها مصدر وثيق لا يتطرق إليه وهن،و لا يداخله أى نقاش.

و كـذلك الـدكتور حسن إبراهيم حسن فى تاريـخ الإسـلام السياسـى،و الشـيخ محمـد أبو زهو فى كتابه الحديث و المحدثون،و مصـطفى الشكعة و غيرهم،فالجميع قد ساروا على هذا الخط الذى رسمه أمثال هؤلاء المستشرقين بدوافع واحدة و أغراض معينة لا تبعد عن محاولة الإساءة للإسلام و تشويه عقائده بدون رجوع إلى الوثائق التاريخية التى تفند هذه المزاعم،و لا يتسع المجال إلى عرض أقوال هؤلاء الكتاب المقلدين و للمثال نضع فى هذا المورد قول أحد الكتاب المعاصـرين و هو الأسـتاذ مصطفى الشكعة إذ يقول:و المنطق فى ذلك أن الفرس يعتقدون أنهم أنسـباء الحسـين، لأنه تزوج جهان شاه(سلافة)ابنة يزدجرد بعد أن وقعت أسيرة فى أيدى المسلمين، و لقد انجبت سلافة عليا زين العابدين،و إذن فهم أخوال على،و يمكن الربط بين تحمسـهم لابن ابنتهم و بين تشيعهم.فتشيعهم و الحال كذلك لا يمكن أن يقال أنه تشـيع عقيدة خالصة،بل هو أقرب إلى تشـيع العصبية منه إلى تشـيع العقيدة،و تشـيع العصبية يساوى تشيع السياسة،ففكرة التشيع من ناحية الفرس على الأقل فكرة سياسة خالصة،

1- (1) رسالة حملة الإسلام ص 23 تأليف محب الدين الخطيب،و هو رجل معروف بشذوذه الفكرى و أسلوبه التهجمى.

بل أن بعض الفرس قد أعلن انتصاره لعلى زين العابدين لما يربط بين الفرس و بين بيت الحسين من نسب (1).

التشيع و الفرس:

هذا هو منطق الأستاذ الشكعة،يتعاطاه بدون انتباه إلى الأخطاء التى أحاطت به فأخرجته عن جادة الصواب.

لقـد أبدى الأسـتاذ رأيه و كأنه هو السابق إليه إذ لـم يذكر الذين سـبقوه بهذه الأخطاء،و كأنه يقصد بذلک أن ينفى عنه التقليد لغيره فبرز بهذه المكرمة المبتكرة، لينال الثناء على عظيم فكرته،و رجاحة عقليته.

و كان اللازم عليه و على غيره ممن اعتمدوا على آراء المستشرقين ألا يقفوا عند الحدود الضيقة،التى وقف بها أولئک المتعصبون،لأن العلم يأبى الانقياد و الأخذ دون دليل.

و كان الأجدر بهم و هم رسل الثقافة،و حملة أمانة التاريخ،بأن يفكروا فى صحة تلک الأقوال و صواب تلک الآراء.و نحن نطالب الأساتذة و منهم الدكتور حسن إبراهيم و الأستاذ الشكعة و غيرهم بأن يسائلوا أنفسهم عن صحة رأى جوبينو و بارون و غيرهم فى الأمور التالية:

1-لم ناصر الفرس ابن أختهم زين العابدين؟و لم يناصروا ابن أختهم سالما، الذى كان هو و أبوه من أنصار الدولة الأموية،و كانت لعبد اللّه بن عمر اليد الطولى فى انتصار جيش أهل الشام على جيش أهل المدينة يوم الحرة فقد كان يخذّل الناس، و يدعو إلى الوفاء ببيعة يزيد،و لما ذا لم يدخلوا فى الحزب الأموى تعصـبا لصـهرهم ابن عمر،و ابن أختهم سالما و لما ذا لم ينتصـروا لأبى بكر و هم أصـهاره؟ 2-إن انتشار المذهب الحنفى فى بلاد فارس أكثر من غيره من المذاهب الإسـلامية و إن العلماء الذين نشـروه و خدموه بمؤلفاتهم أكثرهم كان من أبناء فارس.

فهل كان ذلک أمرا واقعيا؟أم أنهم تعصـبوا له لأن أبا حنيفـة النعمان بن ثابت بن زوطى كان من بلاد فارس فاعتناقهم لمذهبه تعصـبا له لأنه ابنهم.

1- (1) إسلام بلا مذاهب ص 112.

3-هل أن إسلام رجال الحديث من العلماء الذين هم من أبناء فارس كالبخارى و الحاكم و البيهقى و غيرهم،كان واقعيا أم تعصبا لجهة،أم تقليدا لآبائهم و اتباعا لقومهم؟ و لعلهم يقولون إن إسلام العصبية كان خاصا بمن يتشيع،فهذا شىء لا نعرفه و لا نجيب عما لا نعرف مما يخرج عن قواعد التحقيق و نواميس الواقع.

4-هل كان تشيع بلاد فارس بالصورة التى هو عليها الآن فى القرون الأولى أم القرون المتأخرة؟و من هم الذين نشروا التشيع هناك؟ و لو أن هؤلاء الكتّاب كانوا يهدفون إلى الحقيقة لاستقاموا فى أبحاثهم،و نهجوا نهج المؤرخ الذى يحاول إظهار الواقع و جلاء الغامض،و لظهر لهم هناك أن انتشار التشيع فى إيران كان فى القرن السابع الهجرى و ان الذين تولوا نشره فى الزمن الأول هم الفاتحون من كبار المسلمين و دعاة أهل البيت و كانت البلاد تختلف باتجاهاتها و نزعاتها.

و باختصار إن تلك الآراء الشاذة و الأقوال التى لا تستند إلى وثائق تاريخية كان الباعث لها حقد أولئک القوم الذين تغلى قلوبهم بنار الغيظ على الإسلام.

و إن كانت هناک فئة تتصف بالاتزان و مراعاة الحقيقة فهم قليلون بالنسبة للكثرة التى يتصف بها أولئک الحاقدون،من المستشرقين و الزنادقة المتداخلين فى صفوف المسلمين.

و خلاصة القول:إن الانحراف الذى وقع فيه بعض كتّاب العصر الحاضر يرجع إلى أسباب كثيرة أهمها:عدم رعاية الأبحاث العلمية و إعطاء الموضوع حقه من النظر و التفكير،و الوقوف على مدى تأثير الوقائع فى الآراء،و أنهم قد أهملوا جانب العدل و الاستقامة،و ركنوا إلى أمور وهمية.و بعبارة أوضح إنهم يكتبون بوحى العاطفة و التعصب الأعمى،فجمدوا على ما يكتبه سلف عاش فى عصور التطاحن و التناحر.

هذا من جهة،و من جهة أخرى فإن تذوقهم لقراءة ما يكتبه أولئک الحاقدون من المستشرقين جعلهم فى غفلة عمّا اشتملت عليه كتبهم من التناقض و مخالفة الحق و لو تنبهوا لذلک لما جعلوا شيئا منها محورا لأبحاثهم،و لم يستندوا إلى تلک الأقوال و كأنها صادرة من منبع صدق لا يتطرق إليه أى شک و لا يداخله أى احتمال.

و لهذا فقد أهملوا دراسة العوامل التى انتشر بها المذهب الشيعى فى بلاد فارس فى فترات متعاقبة و أدوار مختلفة.

و لو درسوا ذلک لما ظلموا أمة تدين بالإسلام عن عقيدة خالصة و نية صادقة، و لهم مواقف مشهودة،فجعلوا إسلامها تعصبا لا تدينا:كل ذلک مما يهدف إليه المرجفون و الذين يحاربون الإسلام من طريق الطعن فى العقيدة.

الشيعة و المستشرقون:

اشارة

و إذا ألقينا نظرة سريعة على أسباب تحامل المستشرقين على الشيعة بالأخص وجدنا أنها حاصلة من مؤثرات متداخلة أهمها امتناع الشيعة عن ملامستهم و مواكلتهم مما بعث فى نفوسهم حقدا مضاعفا،و قد اشتملت مؤلفات الأوروبيين الذين عاشوا بين ظهرانى الشيعة على بيان ذلک،و نكتفى بما ذكره البعض منهم.

قال الدكتور بولاک الذى قضى أعواما طويلة فى فارس متقلدا منصب الطبيب الخاص للشاه ناصر الدين:

إذا قدم أوربى مصادفة و على غير انتظار فى بداية تناول الطعام يقع الفارسى فى الحيرة و الارتباک،و يسقط فى يده،لأن الآداب تمنعه من أن يأمر زائره بالانصراف، و إذا سمح له بالدخول تحرج؛لأن ما يلمسه الكافر من طعام تلحقه النجاسة، و الفضلات التى تبقى من طعام الأوروبيين يأبى أن يتناوله الخدم و يتركونها للكلاب.

ثم يقول:يلزم الأوربى أن لا يغفل أن يعد لنفسه إناء يشرب منه،فليس من أحد يعيره شيئا،فعقيدة الفرس أن كل إناء يتنجس إذا ما استخدمه الكافر.

و كذلک قال«فولنى»فى كتابه(رحلة فى سوريا و مصر)و قرر فى مشاهداته هذه الأمور التى تحز فى نفوسهم.

و جاء فى مشاهدة آخرين من السائحين شبيهة بهذه المشاهدات فى الحجاز من النخاولة و غير الحجاز من البلدان الإسلامية.

و بهذا وجه المستشرقون حملتهم الشعواء على الشيعة و زادوا على ما شاهدوه:

بأن هذه النزعة تشمل غير الكفار.

يقول أجناس جولد زيهر:إن هذه النزعة المتعصبة عند الشيعيين الصادقين فى

تشـيعهم لم تقتصـر على الكفار بل شـملت المسـلمين من مختلف النحل و المذاهب، و كتب الشـيعة تفيض بالدلالة على هذا البغض و التحامل (1).

و هنـا نلمس أثر ذلـک الانفعال الحاصل من رد الفعل فى نفوس هؤلاء المستشـرقين لعـدم ملامسـة الشـيعة لهم،و تجنبهم مؤاكلتهم،مما حملهم على افتعال هذه الأمور تشفيا منهم.

و هم عنـد ما يعودون من رحلاتهم يصورون الشـيعة بصور مشوهة،و يحكمون عليهم بأحكام جائرة،و لعجزهم عن الإلمام بتاريخ الشـيعة ليكتبوا وفقا لما يتطلبه منهاج البحث التاريخى،دونوا فى كتبهم ما هو بعيـد عن جوهر التشـيع،و جردوا المبـدأ من جميع مفاهيمه الدينية و أسسه الأخلاقية،فوصفوا معتنقيه بكلمات نابية،إذ فسحوا المجال لخيالهم،و انقادوا وراء شعور الحقد.

و عوضا عن أن يتأملوا بنظرات مسـتنيرة ليدخلوا باب الأبحاث التاريخية،راحوا يصورون بدون تثبت،و يتخبطون فى مجالات البحث بصورة تـدلنا على الغرض الـذى كتبوا من أجله و نسـتشف الـدافع الـذى دفعهم لـذلک،و قـد جمعوا عـدة طعون غذاها الحقد و أملاها الخيال و سجلوها فى قائمة المؤاخذات على الدين الإسلامى،ليرموا المسلمين بها عن كثب.

يضـاف إلى ذلـک أنهم اسـتمدوا أكثر معلومـاتهم من كتب أنـاس عـاشوا فى عصـر اشـتد فيه الصـراع بين الطوائف و تلاـطمت فيه أمواج الفتنة،فكان أتباع مذهب أهل البيت أشدهم عناء،و أعظمهم محنة،لتدخل السلطة حين بذلت جهدها فى القضاء على مذهب أهل البيت و من يناصره.

فكانت التهم تكال جزافا،و الحرب بين الشـيعة و بين السـلطة و نفوذها-من أعوان و مؤيدين-سـجالا،حتى حكموا عليهم بالكفر و الخروج عن الدين و اتهموهم بالشرک و إنهم يعبدون الأئمة و إن التشيع حزب سياسى...الخ فأخذ المستشرقون و غيرهم ممن يكيدون للشيعة تلک التهم فازادوها و أبرزوها للعالم بأسلوب ماكر خداع،طلبا لاتساع رقعة الخلاف و إيقاد نار الفتنة.

1- (1) العقيدة و الشريعة فى الإسلام ص 209.

و المتتبع لما يكتبونه يجد لهم كثيرا من الآراء الشاذة،فمثلا انهم يقولون:إن أصل التصوف فى الإسلام مأخوذ من أصل مجوسى.

و إذا طالبتهم بالدليل قالوا:إن عددا كبيرا من المجوس ظلوا على مجوسيتهم فى شمال إيران بعد الفتح الإسلامى،و أن كثيرا من كبار مشايخ الصوفية ظهروا من إيران.

و بهذا القياس العقيم و الاستنتاج الغريب حكموا على أن المتصوفة مجوس، و هم يحاولون أن يطعنوا الإسلام،بتجريده من الروحيات و جعله دينا جامدا لا صلة له بالروحيات و الحب الإلهى.

و على أى حال:فإن عواصف الاتهامات التى أثيرت حول الشيعة كانت من وحى الخيال،سداها الهوى و لحمتها الحقد،و إن قليلا من التأمل فى حوادث التاريخ و وقائع الزمن و اختلاف الظروف يكفى-بطبيعة الحال-للكشف عن الواقع و جلاء الغامض.

و لا أبعد عن الواقع إن قلت:إن مهمة المؤرخ عن الشيعة هى أعسر من مهمة من يؤرخ لغيرها من طوائف المسلمين،لوجود عواصف الاتهام و زوابع الافتراء.

و السبب الأساسى لذلک هو انفصال الشيعة عن الدولة،و معارضتهم للحكم القائم على الظلم،طبقا لنهج أهل البيت عليهم السّلام الذى ساروا عليه.

و الواجب يقضى على كل مؤرخ و باحث أن لا يغفل هذه النقطة الأساسية التى لها أثرها فى توجيه المجتمع،لتحقيق ما وراءها من هدف،فالاستسلام لكل قول، و الأخذ بكل رأى دون تمحيص جناية على التاريخ و تمرد على الواقع.

و مما لا جدال فيه و ما يلزمنا الاعتراف به:أن كلا من الدولتين الأموية و العباسية،قد تنكرتا لأهل البيت،و أصبح من عرف بالولاء لهم هدفا للنقمة،إذ الولاء لآل محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كما هو مفهوم تلک السياسة خطر يهدد كيان الدولة،و ذلک ذنب لا يغفر.

و كم أريقت بذلک من الشيعة دماء،و هدمت دور،و نهبت أموال،و أزهقت نفوس،و اهتزت مشانق،و ملئت سجون.

و كان أسهل شىء على من يخشى سطوة الدولة أو يتهم بالانحراف عنها،أن

يتظـاهر بالعـداء لأهـل البيت و ذم شـيعتهم،و يظهر ذلـک فی نظم أو نثر أو تأليف كتاب، أو وضع حـديث أو خلق حكايـة تحط من كرامة الشيعة.

و قد أصبح ذلک طريقا لكسب المغنم،و حصول الجوائز أيضا.

و من أظرف الأشياء ما قاله المرزبانی:إن رجلا دخل على الرشيد فقال:

لقد هجوت الرافضة-و يقصد بهم الشيعة-طبعا.

قال الرشيد:هات.فأنشد:

رغما و شما و زيتونا و مظلمة من أن تنالوا من الشيخين طغيانا

فقال الرشيد:فسّره لی.قال:لا،و لكن أنت و جيشک أجهد من أن تدری ما أقول.

قال الرشيد:و اللّه ما أدری ما هو.و أجازه بعد ذلک.

و منها:أن رجلا بالكوفة اسمه على،اشتكى إلى الحجاج بن يوسف ظلامته من أهله،فسأله عن ذلک،فأجاب:إنهم ظلمونی فسمونی عليا.

لأن التسـمية باسم على تسـتوجب الاتهام و قطع الصـلة،و هكـذا مما يطول به الحـديث،و التاريـخ حافل بالأعمال الإرهابيـة التی اتخذها الحكـام فی توجيه الطاقات الاجتماعيـة،لبناء مجتمع يخضع لإرادتهم و تكييف الجماعات لبغض أهل البيت، و كان الـدور الأموی يلقن أبناءه بغض على و يوجبون شـتمه علنا،فكان فی المملكة الأموية سـبعون ألف منبر يشـتم عليها على بن أبی طالب عليه السّـلام (1)و كان المحدثون و القصاص يختمون مجالسهم بشتم على عليه السّلام.

قال جنادة بن عمرو بن الجنيد:أتيت من حوران إلى دمشق،لأخذ عطائی فصليت الجمعة،ثم خرجت من باب الدرج،فإذا عليه شيخ يقال له أبو شـيبة يقص على الناس،فرغّب فرغبنا،و خوّف فبكينا،فلما انقضـی حديثه،قال:اختموا مجلسـنا بلعن أبی تراب.فالتفت إلى من على يمينی فقلت له:فمن أبو تراب؟! فقال:على بن أبی طالب ابن عم رسول اللّه،و زوج ابنته،و أول الناس إسلاما،و أبو الحسن و الحسين.

1- (1) تاريخ الخلفاء للسيوطی.

فقلت:ما أصاب هـذا القاص؟؟فقمت إليه و كان ذا وفرة فأخذت و فرته بيدى، و جعلت ألطم وجهه،فصاح و اجتمع أعوان المسـجد،فجعلوا ردائى فى رقبتى، و ساقونى إلى هشام بن عبـد الملک،و أبو شـيبة يقدمنى و يصـيح:يا أمير المؤمنين قاصک وقاص آبائک و أجدادک،أتى إليه اليوم أمر عظيم.

قال هشام:من فعل بک هذا؟ فقال:هذا.(و أشار إلى جنادة).

و لما سألنى هشام أخبرته بالخبر.

فقال هشام:بئس ما صـنع،ثم عقـد لى على السـند،و قال لجلسائه:مثل هذا لا يجاورنى هاهنا فيفسد على البلد فباعدته إلى السـند (1)و لم يكن بوسع هشام إلاّ أن يفعل ذلک مضطرا.

و صفوة القول إن الأمويين كانوا يبذلون جهودهم فى توجيه المجتمع لإخفاء مآثر على عليه السّلام فلا يسمح لأحد أن يروى عنه أو يتحدث بحديثه،حتى صار المحدثون يكنون عنه عليه السّلام بأبى زينب (2).

أما من يروى حـديثا فى فضـله أو فضل أهل بيته،فمصـيره إلى التعذيب،و نهايته إلى الموت و على العكس فإن من يضع رواية فى ذمه(و هو المبرأ)فذاک هو المقرب و له ما يحب من صلتهم و رفدهم.

و قـد أعلن ولاـتهم على المنابر-بشـكل رسـمى-إلزام الناس شـتم على عليه السّ لام و البراءة منه،و أثاروا الشـكوک و الريب حول أتباعه و أنصاره،و كانوا يتخـذون من تكنيـة النبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم له«بأبى تراب»ذريعـة لتنقيصه،و قـد لقى المسـلمون فى ذلک أذى و تنكيلا.

و باختصار:فإن ما نال الشيعة من وطأة الظلم بأنواعه،إنما كان لأجل انتصارهم لأهل البيت و انفصالهم عن دولة الظلمة،و إعلانهم الغضب على تلک الأعمال التى ارتكبها أولئک الحكام،و قد رفع الشيعة لواء المعارضة على ممر العصور و الأدوار،

1- (1) تهذيب تاريخ ابن عساكر ج 3 ص 407.

2- (2) مناقب أبى حنيفة للموفق ج 1 ص 171.

و قدموا التضحيات المجيدة،و هذه حقيقة يجب أن يسير الباحثون على ضوئها فى البحث عن تاريخ الشيعة.

و يلزم أن يقـدروا أثر تـدخل السـلطات فى تغيير الحقائق و تصوير الحوادث،لأنّه النول الـذى حيكت عليه التهم الكاذبة،و التى كان سداها الهوى و لحمتها الحقد،بل هو القانون الذى يستمد منه علماء السوء أحكامهم الجائرة فى حق الشيعة.

نعم إن ذلک التدخل هو مصدر الصـعوبات و المشاكل التى تقف أمام رواد الحقيقة الذين يحاولون الوصول إلى الأمر الواقع،عند ما تنطلق أقلامهم من قيود الطائفية الرعناء،و تتحرر أفكارهم من أساطير الأوهام و خرافات الماضى.

و نحن نشـتد باللائمة على رجال الفكر و أعلام الأدب،و حاملى شـهادات الدراسات العالية،إذ لم يتحملوا صعوبة البحث و مشقة التنقيب عند ما حاولوا معالجة مواضيع لها علاقة فى الشيعة،إما حول تاريخهم أو آرائهم أو فقههم أو غير ذلک.

فإنا وجـدنا الكثير منهم قـد خلطوا فى كثير من الأمور فزادوها تعقيدا و أصدروا أحكامهم بدون تحقيق علمى أو ضـبط تاريخى،و هذا نقص يؤاخذون عليه.و على سبيل المثال نضع بين يدى القراء ما يلى:

الدكتور شلبى و الشيعة:

قال الدكتور أحمد شلبى أستاذ الدراسات الإسلامية بجامعات أندنوسيا:

المصادر الرئيسـية للشـريعة الإسـلامية هى القرآن الكريم و الأحاديث الصـحيحة،إلى أن يقول:و لكن الشـيعة يعتقدون فى أئمتهم أن اللّه يؤتيهم من مخزون علمه و حكمه مـا لاـ يؤتيه غيرهم،و تنزل عليهم الملائكـة،و تـأتيهم بالأخبـار،و إذا أراد الإمام أن يعلم شـيئا أعلمه اللّه إياه،و هم من أجل هـذا لا يحتاجون إلى الرأى و القياس،فكلما جـد أمر ليس فى القرآن و لا فى أحاديث الرسول إجابـة صـريحة عنه،تلقى الإمام من اللّه الرد على هذا السؤال،كما كانت الحالة مع الرسول تماما،و من أجل هذا يبطل استعمال القياس و الرأى.

و بناء على اختلاف الأسس التى تؤخذ منها الشريعة و سبب المصدر الجديد الذى اعتمده الشيعة أصبح لهم فقه خاص بهم يختلف و يتفق مع فقه السنة؛و فيما يلى

أمثلة لفقه الشيعة مقتبسة من الترجمة العبقرية للعلامة غلام حليم بن قطب الدين الهندى:

الطهارة:طهارة الخمر.

لا يحتمون طهارة مكان الصلاة ما دامت النجاسة لا تعلق بالثوب.

الصلاة:يجيزون الجمع بين الظهر و العصر و بين المغرب و العشاء من غير عذر.

لا يجيزون القصر لصلاة المسافر إلا إذا كان مسافرا إلى مكة و المدينة أو الكوفة أو كربلاء.

تختلف عدد التكبيرات على الميت تبعا لمكانته.

الصوم:صوم اليوم الثامن عشر من ذى القعدة سنة مؤكدة.

لا يبحثون عن هلال رمضان،و لا عن هلال شوال و دائما يبدءون رمضان قبل أهل السنة بيوم أو يومين،و رمضان عندهم كامل دائما.

لا تجب الزكاة فى أموال التجارة.

النكاح:يجوزون نكاح المتعة.

لا يقع الطلاق إلا بشاهدين كالزواج.

الميراث:يقدمون القرابة على العصبة.

يقدمون البنت على الولد فى الميراث لا يورثون الجد عند وجود ابن الابن.

الأذان:يزيدون فيه عبارة:حى على خير العمل (1).

هـذا ما يقوله الدكتور الشـلبى،و لنمر أولا مر الكرام على ما قاله حول اعتقاد الشـيعة بالأئمة عليهم السّلام:من أنهم تنزل عليهم الملائكة و تأتيهم بالأخبار و أن حالهم حال النبى صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم فالحديث حول هذا يطول و هذه التهمة من محدثات عصور التطاحن و التناحر.و ليست هذه الفرية على الشيعة مما يصح السكوت عنها و قد مر بنا فى

1- (1) تاريخ التربية الإسلامية ص 345.

الجزء الرابع عند بحث مشكلة الغلاة،و فى الأجزاء السابقة أيضا.و لكن ضيق المجال يدعونا إلى الإعراض عن المناقشة هنا كما يدعونا ذلک إلى ترک التعرض لما ذکره فى مسألة القياس و رأى الشيعة فيه.و قد مر فى الجزء الثانى من هذا الکتاب بحث حول رأى الشيعة فى القياس.

و أما ما نسبه إلى الشيعة من الفروع الفقهية التى جعلها أنموذجا و مثالا فهى خلط و خبط و تزوير و جهل و تعصب،و سيقف القراء على حقيقة ذلک فى بحث الفقه المقارن.

و من أعجب الأشياء قوله:إن الشيعة لا يجيزون قصر الصلاة للمسافر إلا إذا کان مسافرا إلى مکة،و المدينة،أو الکوفة و کربلاء،و هذا قول بعيد عن الصواب تماما،فإنهم يوجبون القصر فى الصلاة إجماعا،و يقولون بالتخيير بين القصر و الإتمام فى هذه الأماکن الأربعة و القصر عندهم أفضل.

و أما قوله باستحباب صوم اليوم الثامن عشر من ذى القعدة فهذا بهتان يعجز عن إثباته،إذ لا يوجد قائل بهذا أبدا إلا الأستاذ الشلبى.

و أما طهارة الخمر فهو کذب و لا أثر لذلک،بل إن الشيعة تشددوا فى نجاسة الخمر،و قالوا بنجاسة کل مسکر مائع بالأصالة و إن صار جامدا بالعرض.و أما ما ذکر من نکاح المتعة و الجمع بين الظهرين و حضور شاهدين فى الطلاق فهذه أبحاث علمية و للمسلمين فى ذلک خلاف يأتى فيما بعد إن شاء اللّه.

و الذى نود أن نشير إليه هو أن الدکتور لم يکلف نفسه عناء البحث و لم يعط من وقته للتنقيب و إن قال إن الوقت ثمين،فيجب أن تکون الکرامة أثمن من الوقت،و إن ظهور النقص لعدم اطلاعه أو کذبه هو حط فى کرامته،إذ لا يوثق بنقله و هو موجه جيل و معلم فئة و رئيس جامعة،و ربما له عذر النقل من مصدر و هو غير معذور بصفته عالما موجها فيلزمه البحث و التدقيق.

هذه صورة من صور التجنى على الحقائق و الخروج عن القواعد العلمية، و سيجد القراء زيادة بيان فى الدراسات الفقهية الآتية،و فيها ما يفند هذه المزاعم و المفتريات،و الخلط و الخبط فى الأمور الواضحة.مما يدلنا بوضوح على عظيم

التأثر بدعايات التضليل،المسيطرة على أذهان الكثيرين من المتنورين فى البلاد الإسلامية.

مناقشة أخطاء المؤلفين:

و من المفيد فى هذا المجال توضيح ما ذهب إليه بعض المؤلفين فى حقيقة هى أجلى من رائعة النهار،و ذلک أنه مزج بين المذهب الشيعى و المذهب الشافعى اشتباها،أو جهلا بالموضوع و هو الحاج خليفة (1):

قال:و الكتب المؤلفة على مذهب الإمامية الذين ينسبون إلى مذهب ابن إدريس،أعنى الشافعى رحمه اللّه،كثيرة منها:شرائع الإسلام،و الذكرى،و القواعد، و النهاية...الخ.

و يقول تحت عنوان الكتب المؤلفة على مذهب الإمامية:البيان،و الذكرى و شرائع الأحكام،و حاشيته،و القواعد،و النهاية،و من أقوالهم الباطلة:عدم وجوب الوضوء للصلاة المندوبة،و وجوب الغسل بعد غسل الميت،و وجوبه لصوم المستحاضة،و كراهية الطهارة بماء أسخن فى غسل الميت،و وجوب المسح على القدمين،و عدم لزوم الاستيعاب فى التيمم و كفاية مسح الجبهة.و قال معلقا:

و يطلقون ابن إدريس على الشافعى.

و قال عند ذكر تفسير الشيخ الطوسى فقيه الشيعة:هو أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسى فقيه الشيعة الشافعى،كان ينتمى إلى مذهب الشافعى المتوفى سنة 460 ه سماه مجمع البيان لعلوم القرآن (2).

و نحن هنا أمام حقيقة يلزم أن نجلو عنها غشاوة الأوهام،و لا أرانى بحاجة إلى التعليق على وقوع مثل هذا الخلط بأكثر من أن أقول:إن الذى أوقع هذا المؤلف

1- (1) هو الشيخ مصطفى بن عبد اللّه الحنفى المتوفى سنة 1067 ه ولد باسطنبول سنة 1017 ه و هو معروف بين العلماء بلقب(كاتب جلبى)و بين زملائه الكتاب بلقب حاج خليفة،لقبوه بذلک بعد أن حج و ترقى بين الكتاب-فى القسم الذى كان موظفا فيه-إلى رتبة النيابة عن رئيس القسم على مصطلح العثمانيين،و ذلک ان صغار الكتاب يسمون الملازمين و فوقهم الخلفاء،فلذا سموه حاج خليفة و يسميه المستشرقون(حاجى قالفة)على طبق ما يلهج به العوام هناک و قد ألف كتبا كان أشهرها كشف الظنون [1]على أسامى الكتب و الفنون.
2- (2) كشف الظنون ج 2 ص 1281-1286 و ج 1 ص 452. [2]

بشبكة المؤاخذة:هو إغماض عينيه عن الطريق الموصل إلى الحقيقة ليسلم من ذلک.

و الذى يؤاخذ عليه الأمور التالية:

1-قوله:كتب الإمامية المنتسبين إلى محمد بن إدريس الشافعى.

2-قوله:يطلقون ابن إدريس على الشافعى.

3-قوله:عند ذكر تفسير الشيخ الطوسى،هو أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسى،فقيه الشيعة الشافعى،كان ينتمى إلى مذهب الشافعى المتوفى سنة 460 ه.

سماه مجمع البيان لعلوم القرآن.

و لنتعرض لإيضاح هذه الأمور التى وقع فيها المؤلف بشبكة المؤاخذة هنا عن دراية أو غير دراية.

1-إن الفرق بين المذهب الشيعى و المذهب الشافعى لا يحتاج إلى زيادة بيان، فلكل مذهب مقوماته و منابعه،و هذه النسبة غير صحيحة فالإمامية لا يأخذون بمذهب الشافعى،و لئن التقت أقوالهما فى بعض الموارد فلا يدل ذلک على وجود هذه الملازمة،فمذهب الشيعة هو أقدم نشأة من مذهب الشافعى،بل أقدم المذاهب كلها، و هو يستقى تعاليمه من ينبوع أهل البيت الذين هم عدل القرآن،و ورثة صاحب الرسالة،و باب الاجتهاد عندهم مفتوح على مصراعيه،و عند غيرهم موصد لا ينفذ منه قول،و لا يسمح لأحد أن يلجه.

و إن مذهب الشيعة هو كسائر المذاهب الإسلامية بعضها مع بعض فى نقطة الاتفاق و الافتراق،فربما تتفق جميعها على قول و ربما تختلف،فالقول بانتساب الشيعة إلى الشافعى خطأ بيّن و جهل صريح.

و لنقف على مبعث هذا الخلط و أسبابه و هو ما صرح به فى القول الثانى:من أن الشيعة يطلقون اسم ابن إدريس على الشافعى.

هذا هو مبعث الخلط و مثار التشكيک،و ذلک أن الحاج خليفة صاحب كشف الظنون وقف على نقل الشيعة لأقوال محمد بن أحمد بن إدريس العجلى الحلى، عالم الشيعة و فقيههم،و المبرز فى علمه و فضله؛و هو مؤلف كتاب السرائر فى فقه

الإمامية،و مختصر تبيان الشيخ الطوسى،فظن صاحب كشف الظنون أن المقصود بمحمد بن إدريس هو الشافعى.

و الإمامية إذ يستشـهدون بأقوال محمد بن أحمد بن إدريس الحلى المتوفى سـنة 598 ه فإنهم يطلقون عليه ابن إدريس و يقصدون به شـيخ فقهاء الحلة فى عصره محمد بن أحمد بن إدريس صاحب كتاب السرائر.

و بهذا الإطلاق اشتبه الأمر على صاحب كشف الظنون و ليس ذلک بغريب،إذ الأمور لم تكن مبنية على دراسة و استنطاق للحوادث و تتبع يوصل إلى النتيجة،فحكم الحاج خليفة بهذا الحكم بدون تحقيق علمى و ضبط تاريخى ظلما للعدالة و تمردا على الموازين.

مع أنا لم نجد أحدا استشهد بقول الشافعى فأطلق عليه ابن إدريس و إنما يقولون:قال الشافعى.

و لكن المؤلف اعتمد على أوهن الظنون،و خيل له أن إطلاق لفظ ابن إدريس إنما المقصود به الشافعى،و هذا اصطلاح لا يعرفه أحد بل هو من وحى الخيال.

2-قوله إن الشيخ الطوسى كان ينتمى إلى مذهب الشافعى و إن له تفسيرا سماه مجمع البيان لعلوم القرآن.

و هذا خطأ من جهتين:

1-إن الشـيخ أبا جعفر محمد بن الحسن الطوسـى شـيخ الطائفة و صاحب كتابى التهذيب و الاستبصار،اللذين هما من أهم المصادر عند الإمامية للحديث،و كونه شافعيا خطأ يتفرع إما عن اشتباهه الأول أو لأنه وجد ترجمته فى طبقات الشافعية للسبكى (1).

و هـذا لا حجة فيه لأن الشافعية قد ترجموا لكثير من العلماء و ليسوا من اتباع مذهب الشافعى،بل منهم من هو رئيس مذهب برأسه كأحمد بن حنبل إمام الحنابلة و إسحاق بن راهويه المروزى و على بن إسماعيل أبى الحسن الأشعرى و غيرهم (2).

إذا فليس من الصحيح أن يعد منهم كل من ترجم له فى طبقات المذهب.فإنا

1- (1) طبقات الشافعية للسبكى ج 3 ص 51-52.

2- (2) طبقات الشافعية ج 1 ص 199 و ج 1 ص 232.و [1]ج 2 ص 245.

نجد جميع كتاب الطبقات يعدون رجالا ليسوا من اتباع ذلک كما أن الحنابلة ترجموا للشافعی و غيره و هكذا.

و من جهـة ثانية إن الشـيخ الطوسـی كان غزير العلم واسع الاطلاع و له إحاطة بفقه جميع المذاهب.و يدل على ذلک كتابه القيم فی الفقه الإسـلامی أسـماه«الخلاف»ذكر فيه فقه الشـيعة مقارنـة مع فقه جميع المـذاهب و كان الشـيخ الطوسـی له كرسـی أيام المقتدر يلقی عليه الـدروس و يحضـره جمع من علماء الشافعيـة و غيرهم و له ببغداد مكتبة عامرة و لكنها أحرقت عند ما اشـتد المتعصـبون عليه و هاجر إلى النجف الأشرف.

2-قوله إن له تفسـيرا سـماه مجمع البيان لعلوم القرآن،و هذا خطأ فإن مؤلف مجمع البيان:هو الشـيخ أبو على الفضل بن الحسن بن الفضل المعروف بالطبرسی المتوفی سنة 548 ه أحد علماء الإسلام و فقهاء الإمامية له عدة مؤلفات.

و قبل أن نتحول من هذا الموضوع الذی أوجزنا فيه القول لا بد لنا من أن ننبه القراء الكرام بأن نسـبة كثير من الأمور إلى الشيعة تقع على هذا النمط و بهذه الصورة، لأن الدراسة حول ما يتعلق بهم هی دراسة سطحية تفتقر إلى الدقة و التحقيق،فينبغی لكل باحث أن يعطی الموضوع حقه،لأن التساهل فی الأمور يوقع فی الخطأ.

و لهـذا فـإن خطـأ صـاحب كشف الظنون كان منشأه عـدم إحاطته بالموضوع، و تساهله فی النقل،و قـد أخطأ هو و أوقع غيره فی الخطأ من كتّاب عصرنا الحاضر، و منهم:المحامی صبحی محمصانی فاستقی معلوماته من هذا الينبوع.

إذ يقول:أمـا فی فروع الفقه فمـذهب الشـيعة لاـ يختلف كثيرا عن مـذهب الشـافعی،حتى أن بعضـهم يعتبرونه مـذهبا خامسـا إلى جـانب المذاهب السنية الأربعة.

و من مسائل الخلاف فی الفروع:جواز المتعة،أو الزواج الموقت،و بعض مسائل الإرث و غيرها (1).

و يقول تحت عنوان الشـيعة الإمامية:و أدلة التشـريع فی هذا المذهب هی القرآن الكريم ثم السـنة التی تعود بإسنادها إلى أهل البيت(بيت النبی)و تسمی بالأخبار،ثم الإجماع المشتمل على قول الإمام المعصوم.أما القياس فهو مقبول عند البعض فقط.

1- (1) فلسفة التشريع فی الإسلام ص 55.

و هـذا المـذهب لاـ يختلف كثيرا عن المـذهب الشـافعى فى فروع الفقه.و هو يسـمى أحيانـا بالمـذهب الجعفرى نسـبة إلى الإمام جعفر الصادق،و قد تقرر تدريسه مؤخرا فى جامعة الأزهر إلى جانب المذاهب (1).

و لا يفوتنا هنا أن نشـير إلى ما جناه كتّاب الفرق و المؤلفون فى موضوعها من آثار،و اجترحوه من سـيئات،فجنوا على الأمـة فيما اقترفوه و ما افتعلوه،من إحـداث عقائـد لا يوجـد من يعتنقها،و أقوال لا يعرف قائلها،فألحقوها بطوائف من الأمة، و سـجلوها ضـمن سـجل الواقع ظلما للحق،و تمردا على الحقيقة،فنمت مع الأجيال و تطورت مع الزمن،و أصبحت كأنها حقيقة ملموسة و هى خيال لا واقع لها.

فلنلق نظرة سريعة على ما كتبوه و نسر معهم قليلا لنقف على حقيقة الأمر.

مع كتّاب الفرق:

لا أريـد أن أتحـدث هنا عن الفرق و تعدادها،و لا أريد أن أتعرض للحديث الوارد فى ذلک من حيث الثبوت أو النفى كلا أو بعضا،و لا نريد أن نتساءل عن المراد بالفرقـة المشار إليها فى حـديث الافتراق،هل يكون ذلک فى العقائـد أو فى الآراء،مع التسـليم لصـحة الحديث و عدم مناقشته.

و هل اسـتطاع كتّاب الفرق أن يحصروا العدد المطلوب و هو ثلاث و سبعين فرقة؟ كما هو منطوق الحديث،أم أن هناک زيادة أو نقصانا؟ و لكنا نريـد هنا أن نتساءل عن كتّاب الفرق الـذين دونوا فى هـذا الموضوع و قـد أصـبحت كتبهم مصـدرا لمن يريـد أن يتحدث عن الفرق و عقائدها!! فهل فسـروا مراد النبى صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى الحديث الوارد عنه فى افتراق أمته إلى ثلاث و سبعين فرقة،و الناجية واحدة فقط؟و هل حكموا على ما ذهبوا إليه بحجة ظاهرة ليسلموا من المؤاخذة و عظيم الحساب.

و نسأل أيضا هل تجرد أولئک الكتّاب عن العصبية الرعناء،فكتبوا للواقع من حيث هو،بدون تحيز و تحامل لتبدو الحقيقة واضحة كما هى؟

1- (1) المبادئ الشرعية و القانونية ص 31.

أهم المصادر:

و لعل أهل المصادر التى يرجع إليها فى تعيين الفرق و تعدادها هى:

1-الفرق بين الفرق:لأبى منصور عبد القاهر بن طاهر البغدادى الشافعى المتوفى سنة 429 ه له مؤلفات كثيرة،أهمها كتاب الفرق بين الفرق طبع فى مصر سنة 1367 ه 1948 م و ترجم«المستشرق هالكن»جزءا منه إلى اللغة الإنكليزية.

2-كتاب الملل و النحل:لمحمد بن عبد الكريم الشهرستانى الشافعى المتوفى سنة 548 ه طبع عدة مرات آخرها سنة 1368 ه 1948 م فى القاهرة.

3-كتاب التبصير:لأبى المظفر شاهفور بن طاهر بن محمد الأسفراينى الشافعى المتوفى سنة 471 ه.

4-الفصل:لأبى محمد على بن أحمد بن حزم الظاهرى المتوفى سنة 456 ه مطبوع بهامش الملل و النحل فى الطبعة الأولى.

هذه هى أقدم الكتب التى دونت فى الفرق،و أصبحت مصادر يرجع إليها فى البحث عن الفرق و عقائدها،و الطوائف و آرائها.

و هنا نتساءل أيضا هل كان أصحابها ممن يوثق بنقلهم تلك الأقوال وعدهم لتلك الفرق؟ و هل جرّدوا أنفسهم عن رداء العصبية العمياء؟و رفعوا عن عيونهم غشاوتها السوداء؟ و هل نقلوا تلك الآراء عن مصدر يوثق به؟و لعلنا نكتفى بالإجابة عن هذه الأسئلة بما نقدمه هنا من آراء بعض العلماء فى ذلک:

1-قال(الرازى)فى مناظرته مع أهل ما وراء النهر فى المسألة العاشرة عند ذكره لكتاب(الملل و النحل)للشهرستانى:إنه كتاب حكى فيه مذاهب أهل العالم بزعمه،إلا أنه غير معتمد عليه،لأنه نقل المذاهب الإسلامية من الكتاب المسمى (بالفرق بين الفرق)من تصانيف الأستاذ أبى منصور البغدادى،و هذا الأستاذ كان شديد التعصب على المخالفين،و لا يكاد ينقل مذهبهم على الوجه الصحيح.ثم أن

الشهرستانی نقل مذاهب الفرق الإسلامیة من ذلک الکتاب فلهذا السبب وقع فیه الخلل فی نقل هذه المذاهب (1).

هـذا ما یتعلق بـذکر هـذین الکتابین و لا حاجـة إلی نقل النصوص علی ما فیهما من التعصب،فإن نظرة واحـدة من منصف یجد صـحة ما نقول،فإنهما نسبا للشیعة بالأخص أقوالا و ابتکرا آراء لیست لها من الواقع نصیب،و لا تمت إلی اعتقاداتهم بصلة،إذ لم ینقلوا تلک الآراء من مصدر موثوق.

2-و لا أبعـد بالقارئ الکریم فی إعطاء صورة عن هؤلاء جمیعا و التعرف علیهم و لنقـدم له ما یقوله العلامـة الشـیخ محمد شـلتوت شـیخ الجامع الأزهر فی العصر الحاضر فهو یصفهم بقوله:

لقد کان أکثر الکاتبین عن الفرق الإسـلامیة متأثرین بروح التصـعب الممقوت، فکانت کتاباتهم ممّا تورث نیران العداوة و البغضاء بین أبناء الملة الواحدة،و کان کل کاتب لا ینظر إلی من خالفه إلا من زاویة واحدة،هی تسـخیف رأیه،و تسـفیه عقیدته بأسـلوب شرّه أکثر من نفعه،و لهذا کان من أراد الإنصاف لا یکون رأیه عن فرقة من الفرق،إلا من مصادرها الخاصة،لیکون هذا أقرب إلی الصواب،و أبعد عن الخطأ (2).

و یقول:و لکن عصور التعصب المـذهبی حملت للمسـلمین تراثـا بغیضا من التراشق بالتهم و الترامی بالفسوق و الضـلال،فتبادل الفقهاء-أصـحاب الفروع-نوعا من التهم،و تبادل المتکلمون-أصـحاب العقائـد-مثل ذلک،و تلقف المخدوعون من الخلف هذه التهم،و ملأوا بها کتبهم فی الاعتداد بها حتی جعلوها ما یقبل من الآراء أو یرفض... (3).

3-و یقول الکوثری فی مقدمة الفرق بین الفرق بعد مدحه لأبی طاهر البغدادی:و المؤلف شدید الصولة علی المخالفین کما هو شأن حراس العقیدة، و الحراسة غیر التاریخ المجرد لکن تعویله فی عزو الآراء إلی الفرق علی کتب الخصوم

1- (1) المناظرات ص 25 طبع حیدرآباد.

2- (2) مقدمة إسلام بلا مذاهب ص 7.

3- (3) الإسلام عقیدة و شریعة 68.

يوقع فی أخطاء،و لو اقتصر فی العزو إلی ما وجده فی کتب أهل الفرق أنفسهم لکان أحوط و أقوم حجة،لأن الخصم قد یعزو إلی خصمه ما لم یفه به من الآراء مما یعد لازم قولهم،فی حین أنه لیس یلازم قولهم لزوما بینا فلا یصح إلزامهم به و لا سیما عند تصریحهم بالتبری من ذلک اللازم (1).

هذا ما یقوله الکوثری مع تساهله مع المؤلف و مدحه و إطرائه له،و لست أدری ما معنی قوله:و الحراسة غیر التاریخ المجرد؟ و قد ظهر لنا أن أکثر کتّاب الفرق کانوا یستمدون معلوماتهم من کتاب أبی منصور البغدادی،و قد عرفنا مقدار تعصبه و تحامله،و نقله الأقوال علی غیر الوجه الصحیح کما یقول الفخر الرازی.

و أما الشهرستانی مؤلف کتاب الملل و النحل،و الذی استمد معلوماته من کتاب أبی منصور،فقد طعنوا فی اعتقاده و نسبوه إلی الإلحاد،و أنه متخبط فی اعتقاده، یمیل إلی أهل الزیغ و الإلحاد،و یناصر مذاهب الفلاسفة و یذب عنهم و من کان هذا حاله یجب أن یتریث فی قبول قوله و صحة نقله (2).

و أما کتاب التبصیر:فهو و کتاب الفرق بین الفرق توأمان،بل هما شیء واحد، إلا الاختلاف فی التسمیة و بعض الزوائد و التقولات،لأن صاحب کتاب التبصیر هو تلمیذ أبی منصور و صهره.

و إما ابن حزم فهو فارس الحلبة،و بطل المعرکة،فقد تقوّل و افتعل و تهجم علی جمیع المسلمین،و نسب لکثیر منهم أقوالا مکذوبة،و آراء مفتعلة،و کان یتحامل علی الشیعة بصورة خاصة،و ینسب إلیهم أقوالا لا قائل لها،و یلحق بهم فرقا لا وجود لها،کل ذلک تعصبا منه،لأنه کان أموی النزعة و معروفا بموالاته لبنی أمیة.

قال ابن حیان:و کان ابن حزم مما یزید فی سبابه تشیعه لأمراء بنی أمیة، ماضیهم و باقیهم،و اعتقاده بصحة إمامتهم،حتی نسب إلی النصب.و قال القاضی أبو بکر بن العربی:و زعم ابن حزم أنه إمام الأئمة یضع و یرفع،و یحکم و یشرع،ینسب

1- (1) مقدمة الفرق بین الفرق ص 3.

2- (2) الشافعیة للسبکی ج 3 ص 79.

إلى دين اللّه ما ليس فيه،و يقول عن العلماء ما لم يقولوا تنفيرا للقلوب عنهم (1).

و قال أبو العباس بن العريف:كان لسان ابن حزم و سيف الحجاج شقيقين (2).

و قال ابن العماد:و كان ابن حزم كثير الوقوع فى العلماء المتقدمين،لا يكاد يسلم أحد من لسانه،فنفرت منه القلوب (3).

و قال السبكى فى الطبقات عند ذكره لكتاب الملل و النحل للشهرستانى:

(و مصنف ابن حزم أبسط منه إلا أنه مبدد ليس له نظام،ثم فيه من الحط على أئمة السنة،و نسبة الأشاعرة إلى ما هم بريئون منه،ثم ابن حزم نفسه لا يدرى علم الكلام حق الدراية على طريق أهله) (4).

من هذا يظهر أن الخطة التى سار عليها كتّاب الفرق لم تكن خطة تحقيق و استناد إلى مصادر موثوق بها بل هى تخمين و ظنون و أساليب خداعة.

و قد انخدع الكثيرون بتلك الأساليب فجعلوها ميزانا للنقد،و مقياسا للشخصيات،و دليلا يوصل إلى معرفة أجيال مضت،و قرون خلت،و ربطوا بين الحاضر و الماضى،و قاسوا الأمة بالفرد تقليدا و محاكاة لأولئک المتعصبين،من دون إعطاء العقل حرية النظر فى تمييز الأمور،و هذا هو من أهم أسباب الخلاف،يقول الشيخ محمد أبو زهرة:

و من أسباب الخلاف تقليد السابقين و محاكاتهم،من غير أن ينظر المقلد نظرة عقلية مجردة،و إن نزعة التقليد متغلغلة فى نفوس الناس.توجههم و هم لا يشعرون، و إن سلطان الأفكار التى اكتسبت قداسة بمرور الأجيال تسيطر على القلوب،فتدفع العقول إلى وضع براهين لبيان حسنها و قبح غيرها،و من الطبيعى أن يدفع ذلک إلى الاختلاف و المجادلة غير المنتجة،لأن كل شخص يناقش و هو مصفد بقيود الأسلاف من حيث لا يشعرون؟...

و إنه ينشأ عن التقليد التعصب،فإن قداسة الآراء التى يقلدها الشخص تدفعه إلى

1- (1) تذكرة الحفاظ ج 3 ص 324-327.

2- (2) شذرات الذهب ج 3 ص 200 و [1]لسان الميزان ج 4 ص 200.

3- (3) الشذرات ج 3 ص 200. [2]

4- (4) طبقات الشافعية ج 4 ص 78.

التعصب لها و حيث كان التعصب الشديد كان الاختلاف الشديد (1).

و إن قليلا- من التأمل فيما كتبه هؤلاء المؤلفون و غيرهم حول الفرق و فرق الشيعة بالأخص يلقى أضواء على خلطهم و افتعالهم حتى بلغ بأحدهم الجهل فقال:إن فرق الشيعة تبلغ ثلاثمائة فرقة.و هو قول بلا دليل و خبط يدل على الجهل المخيم على تلك العقول التى سيطر عليها الهوى فحجبها عن النظر إلى الواقع.

و كيف كان فإن موضوع الفرق و تعددها،و مصدر ذلک و صحته هو موضوع مضطرب شائک،و لا يستطيع الكاتب أن يجزم بصحة ما نقله كتّاب الفرق عن أهل المقالات و الآراء،لأن أولئک الكتاب قد تطرفوا إلى أبعد حد،و تقبلوا كل نسبة بدون تثبت و تأمل.

و قد رأينا كيف كان تعصبهم على من يخالف آراءهم،فينقلون عنه على غير الوجه الصحيح.

و من المقرر:أنه لا يصح قول مخالف ما لم يؤيد ثبوته من غير طريقه.

و ليس باستطاعة أولئک الكتاب أن يثبتوا شيئا من الآراء التى نسبوها إلى الشيعة؛ فكوّنوا منها فرقا تجاوزت الحد المعقول من الحصر.

و قد بلغ الأمر إلى استعمال الخيال بما يغذى العاطفة فاخترعوا فرقا و ابتكروا آراء تزيّدوا فيها من الأوهام،و صقلوها بأسلوب لطيف حتى أخرجوا ذلک و كأنه حقيقة لا- نقاش فيها!! و يتضح لنا بعد التأمل بأن الدوافع التى أدت بهؤلاء الكتاب و غيرهم إلى أن يعملوا ضمن المخطط الذى ارتئوه لأنفسهم فى تعداد الفرق و التزيد فيها مع الخلط و الخبط إنما هى العصبية العمياء أو الجهل بالواقع.

و من الوهن أن نقف أمام نقلهم موقف التسليم و التصديق؛لأن ذلک يؤدى إلى العجز عن الوصول إلى الحقيقة التى يتطلبها كل منصف،و ليس من الإنصاف أن يتضح لنا شيء خلاف واقعه فنقرّه.

خذ مثلا بأن بعضهم قد نسب إلى الشيعة بأنهم يجيزون الشهادة زورا على من

1- (1) المذاهب الإسلامية ج 1 ص 8.

خالفهم فی المـذهب أو العقیـدة مع أنا لـم نجـد أثرا لهذا الزعم،و لا قائل به من الشـیعة.و نحن فی أمور الفقه نفترض فی المخالف الصدق فنعمل علی التحرّی حتی نجد أدلة ردّه.

و بعد التتبع و البحث وجدنا أن هذا ناشئ من الجهل أو التعصب.بیان ذلک:

إنهم وجـدوا بأن الخطابیـة یجیزون الشـهادة علی من خالفهم،فاسـتنتج هؤلاء بأن الخطابیة فرقة أدخلوها فی قائمة فرق الشـیعة و هذا القول لهم،فهو إذن لجمیع الشیعة.

هـذا بالإعراض عن مناقشـتهم حول الأسـباب التی دعت إلی إلحاق هـذه الفرقـة بفرق الشـیعة مع أنهم یعلمون،و یعلم کل أحد و بإجماع المؤرخین أن هذه الفرقة نشأت فی مدة قصـیرة فی أیام الإمام الصادق علیه السّـلام فأعلن براءته منها،و أمر شـیعته فی محاربتها،و قد قضـی علیها بذلک،فمحیت من صفحة الوجود.

إذا فمن هم الخطابیـة الـذین ینسب إلیهم هـذا القول؟ و الجواب:بأن الخطابیـة الـذین یذهبون لهذا الرأی هم فرقة من المجسـمة، و الذین ینتمون إلی الحنابلة،و لنترک تعریفهم و بیان ذلک إلی أحد علماء السنة المبرزین؛و هو أبو نصر عبد الوهاب بن تقی الدین السبکی (1)قال:

و قـد بلغ الحال بالخطابیـة و هم المجسـمة فی زماننا هـذا،فصاروا یرون الکذب علی مخالفیهم فی العقیدة،لا سـیما القائم علیهم بکل ما یسوؤه فی نفسه و ماله، و بلغنی أن کبیرهم استفتی فی شافعی أ یشهد علیه بالکذب؟ فقال:أ لست تعتقد أن دمه حلال!!! قال:نعم.

قال:فما دون ذلک دون دمه،فاشهد و ادفع فساده عن المسلمین.

قال السـبکی:فهـذه عقیـدتهم،یرون أنهم المسـلمون،و أنهم أهل السـنة،و لو عدوا عددا لما بلغ عماؤهم و لا عالم فیهم علی الحقیقة مبلغا یعتبر،و یکفّرون غالب علماء الأمة،ثم یعزون إلی الإمام أحمد بن حنبل و هو منهم بریء.

و بهذا یتضح أن الفرقة الخطابیة الأولی التی نشأت لأغراض سیاسیة و عقائدیة

1- (1) طبقات الشافعیة ج 1 ص 193. [1]

ضد الإسـلام عامة،و ضد أهل البيت بصورة خاصة،قد اتفقت بالتسمية مع المجسمة من الحنابلة،فإطلاق هذا الاسم يشمل الطرفين و لكن من أين لنـا الحصول على من يقف موقف المنصف المتثبت،فيعطى الموضوع حقه و لا تأخـذه فى الحق لومـة لائم، فيميز بين الصـحيح و الفاسد و الحق و الباطل.

و قد قلت سابقا:إن اتهام الشيعة بكثير من الأشياء لما لم تكن مبنية على أساس وثيق أو قاعدة بينة-كثر الخلط و الخبط،و الكذب،و الافتعال فأخذ السليم بالسقيم، و البرىء بالمتهم،و على سبيل المثال ذكرت هناك الاشتباه الحاصل من التسمية فمثلا:

أن اسم الجعفرية أصبح علما لأتباع الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السّلام.و لكن توجد هناك فرقتان للمعتزلة بهذا الاسم (1)و لهما أقوال و آراء فخلطوا أقوال الجميع و نسبوا ذلک إلى الشيعة لأنهم يعرفون بالجعفرية.

و كذلک قولهم فى المقنعية اتباع المقنع الخراسانى المقتول سنة 163 ه بأنها فرقة من الشيعة،مع عدم الصلة بين الشيعة و بين المقنع،و لكن الاشـتباه نشـأ من التسـمية،و ذلـک أن اسم المقنع هو هشام بن الحكم،و من المعروف أن هشام بن الحكم هو اسم رجل من كبار تلامـذة الإمـام الصـادق عليه السّ لام و من العلماء و المتكلمين، فاتفق اسم المقنع مع اسم هشام،فنسـبت آراء المقنع إلى هشام بن الحكم بـدون تمييز و تمحيص.

و كذلک نسـبوا إلى هشام فرقة تعرف بالهشامية،و هم أصحاب هشام بن عمر الفوطى،و هو من المعتزلة و كان معاصرا إلى هشام،و كانت له آراء و أقوال،فخلطوا بين الاسمين عن عمد أو غير عمد.

و لا يسعنا بهذه العجالة أن نلم بأطراف هذا الموضوع من حيث أهميته،فإنه موضوع مهم،و قد تلاعبت به رجال استمالهم الهوى فحادوا عن طريق الواقع، و خلطوا بين الآراء و خبطوا خبط عشواء،إذ لم يقفوا موقف المؤرخ الواقعى الذى يسـتنطق الحوادث،و يقابل و يقارن،و يقارب و يوازن،و يدرس الدوافع التى أدت إلى إيجاد كثير من تلک الأمور التى سجلت على ما فيها من نقض و مخالفات للحقيقة.

1- (1) إحداهما أتباع ابن مبشر الهمدانى المتوفى سنة 226 ه و الثانية أتباع جعفر بن حرب الثقفى المتوفى سنة 224 ه.

و النـاظر فيما سـجله كتّاب الفرق حول الآراء و المعتقـدات،و بالأخص ما نسب إلى الشـيعة يقطع بأن سـيرة هؤلاء الكتّاب هى واحـدة فى النقل،بل هى أقرب إلى التقليد و التلقين،إذ لـم نجد منهـم من يعالج الموضوع معالجة علمية،ليخرج بنتيجة مرضية.

و هكـذا بقى موضوع الفرق بدون أن يحظى بإنصاف المؤرخين و عناية المحققين،الذين يهمهم إظهار الحقيقة،حتى جاء دور المستشـرقين فزادوا الطين بلـة، و أضافوا إلى الموضوع تعقيـدا بأخطائهم،و إن أخطاء المستشـرقين قـد أوقعت كثيرا من الكتاب بأفظع الأخطاء،لما كانت تندى به أقلامهم من تعابير أو تصوير كلها لا تلتئم مع الحقيقة.

إذ من الواضـح أن الاستشـراق يرجع كله فى نشـأته الأـولى إلى التبشـير بالـدين النصـرانى،و إن معظم المستشـرقين كـانوا من الرهبان،لأن المؤسـسات الـتى أسـست للتبشـير فى النصـرانية هى المصـدر لهؤلاـء المستشـرقين،و هـم آلـة للحصـول على السـيطرة،و القضـاء على الإسلام.فهم يحرفون النصوص و يغيرون الصور.

و من المؤسف له أن أكـثر كتّابنـا اليوم يطلّون على التاريـخ الإسـلامى أو تاريـخ الفرق بالأـخص،من الزاويـة الـتى فتحهـا الغرب بواسـطة المستشرقين،و ناهيک بما وراء ذلک من صور و ألوان مخالفة للحقيقة.

و بهذا أصبح الإطار العام للأحداث هو غير الإطار الذى يجب أن توضع فيه.

و حيث كـان موضوع البحث عن الفرق يحتـاج إلى دقـة و تأمل فى سـير الحوادث و التطور،و هو إلى الآن لم ينل-بمزيـد الأسف-دراسـة عادلـة،و خوضا دقيقا و تمحيصا.فنحن نأمل أن ينال هـذا الموضوع دراسـة دقيقـة،لإخراج الزوائـد،و إيضاح ما أبهم،و بيان ما اشـتبه بعضـه ببعض،فى توجيه أشعة التاريخ الصحيح،على تلک النسب،و تدقيق تلک الأقوال،من حيث صحة أصلها و دقة روايتها،و كونها فى ذاتها قابلة للتصديق،و كذلک من حيث المستوى العقلى و الخلقى و العقائدى لكتّابها،مع البحث عن الدوافع التى تحوط بها.

و بعد هذا يمكن الحكم على كثير من تلک الأمور بأنها حقيقة،أو أنها أكاذيب لا واقع لها،بل هى أحاديث سمر و أقوال مجون.

و هناک یظهر زیف تلک الأخطاء الشائعة،و الأساطیر المشهورة،التی احتلت مکانا من التاریخ،و هی ظالمة له فترغم حینذاک علی التخلی عن ذلک الإطار الذی برزت فیه مدة من الزمن.

فیکون ذلک انتصارا للعلم و خدمة للحق و کبتا للنفوس المریضة التی تضرب علی وتر العصبیة العمیاء و تترنح لنغمات الطائفیة الرعناء.

قاتل اللّه الطائفیة التی طالت لیالیها السود،و امتد ظلها الحالک،فجنت علی الإسلام جنایة لا تغفر،و نحن نتطلع إلی الیوم الذی یتقلص فیه نفوذ سلطان الطائفیة، و یزول ظلها المخیف،فتتحرّر العقول من أوهام موروثة،و خرافات ممقوتة،و ما أحوجنا إلی التفاهم فی الوقت الذی یقف الإسلام فیه موقف الصراع مع أولئک،الذین یحاولون أن یتغلبوا علی عقول أبنائه،لیجردوهم من عقائدهم،و یسخروهم لأغراض سیاسیة أو غیر سیاسیة.

إن الواجب یقضی علینا أن نتنبه لهذا الخطر،و أن نسدل الیوم دون حوادث الماضی حجابا کثیفا،و نسعی قلبا و قالبا،لیتناسی المسلمون ما شعّب وحدتهم فی الدهر الغابر،فالخلاف مهما کان و کانت الدواعی إلیه،قد انقضی عصره،و إن أهل بیت واحد یرون الخطر یتهددهم من کل مکان،لأحریاء بأن یتناسوا ما بینهم من اختلافات طفیفة،و یهبوا یدا واحدة للقضاء علی من یرید بهم السوء،و یستغل ما شجر بینهم،لیذلهم و یجعلهم مطیة لمطامعه و أغراضه.

و إن تلک العوامل المتداخلة فی تفرق المسلمین شیعا و أحزابا،و ما کان من وراء ذلک من حوادث مؤلمة،ملأت صفحات من الکتب فغیرت مجری التاریخ،و أوقعت کثیرا من النکبات و الکوارث کان أهمها و أشدها أثرا هو التعصب للمذاهب،و الخلاف فی الرأی،و یصحب ذلک وجود الفرصة المناسبة لخصوم الإسلام الذین نظروا إلیه نظرة معادیة،فنظموا حملات الانتقام فی ظل ذلک الصراع الفکری و العقائدی،لتفرقة الصف و قطع عری الأخوة.

و نحن المسلمون بحاجة ماسة إلی أن نبنی علاقاتنا علی أسس الإیمان باللّه و ما جاء به النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و أن نزیح عن طریقنا تلک العقبات التی أوجدتها الطائفیة الرعناء، فإن الإسلام یمر الیوم بمرحلة هی من أعظم المراحل التی یجتازها فی تاریخه.

الإمام الصادق

اشارة

تاريخ محنه و مشاكله

المنصور و الإمام الصادق:

للدولـة العباسـية حلم تسـعى لتحقيقه،دعمـا لنفوذهـا،و صـيانة لسـلطانها،و هو إسـباغ أبراد القدسـية عليهـا،و إبرازها بشـكل يقضـى على المعارضين لسياستهم المعوجة،و المخالفة لنواميس الشرع و تعاليمه.

و قـد لجئوا إلى ادعاء لون من الإمامـة يتغـذى على صـفة شاحبـة و لون باهت، و اقتربوا من الكيسانية التى واجهها الأئمة بالتفنيد،و تصدوا لجعل حججهم داحضـة، و التى كان من نتائجها عـدول الكثيرين و عودتهم إلى الحق كما حدث للشاعر إسـماعيل بن محمد الحميرى،و قال العباسـيون إن أبا هاشم بن محمـد بن الحنفيـة الـذى قالت الكيسانيـة بإمامته بعـد أبيه،أوصـى إلى على بن عبـد اللّه بن العباس بن عبد المطلب،و على بن عبد اللّه أوصـى إلى ابنه محمد بن على،و إن محمدا أوصى إلى ابنه إبراهيم الملقب بالإمام،و إن إبراهيم أوصى إلى أخيه أبى العباس السفّاح.

و قـد مات أبو هاشم عنـد على بن عبد اللّه،و كانت هذه الدعوى التى جعلتهم من بين الكيسانية بحسب هذه العلقة التى يسـعون من ورائها إلى ادعاء الإمامة بأى سند كان، مع أن الكيسانية كلها لا إمام لها و إنما ينتظرون الموتى (1).

و انتهى سـعيهم إلى الراونديـة الخرمدينيـة الـذين قالوا بالغلوّ و التناسـخ،و أخـذوا بالشـطط و الشذوذ.على أن العباسـيين تكتموا على هذه الدعوى و لم يدعوا الناس إليها إلا بطريقة سرية تتماشى سوية مع الإفصاح عن وجود إبراهيم رأسا لهم و إماما.

1- (1) النوبختى ص 36. [1]

أما عند المجامع العامة و المواطن التى تحرك فيها الناس انتقاما لأهل بيت النبوة فكانوا يدارون المشاعر و لا يجرءون على القول بإمامتهم هذه التى لا ـ يعرفها الناس إلا من خلال جهد الأئمة فى علاج الكيسانية و أوهامهم التى تبعثها العاطفة المكبوتة فتؤثر فى السلوك و المواقف ثم ما تلبث أن تثوب إلى الواقع بتصدى أئمة أهل البيت لتطويعها و تخفيف غمرة الانفعال عنها،و تسكين موجة التأثر تأسيا و تألما لما أصاب آل بيت النبوة من أهوال و فجائع،فاعتاض الناس بالخيال و الأوهام و راحوا ينسجون على منوال العاطفة أحوالا من النعيم و أوضاعا من الجنة فى الجبال العالية.

و على أى حال كان العباسيون يريدون بذلک أن ينظر الناس إليهم كخلفاء للرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أمناء على شريعته،و أنهم ظل اللّه فى أرضه،و رعاة عباده،مع عدم الصفات المؤهلة لهم إذ لم يبرزوا بالشكل الذى يحقق ذلک.

و كان المنصور هو أول من جاهر بالخطة و باشر بالتنفيذ،و قد أعلن ذلک على المنبر يوم عرفة بقوله:

أيها الناس إنما أنا سلطان اللّه فى أرضه،أسوسكم بتوفيقه و تسديده،و أنا خازنه على فيئه،أعمل بمشيئته،و أقسمه بإرادته،و أعطيه بإذنه،فقد جعلنى اللّه عليه قفلا إذا شاء أن يفتحنى لأعطياتكم و قسم فيئكم فتحنى الخ (1).

و خاطب أهل خراسان بقوله:ابتعثكم اللّه لنا شيعة و أنصارا،فأحيا اللّه شرفنا و عزنا بكم و أظهر حقنا،و أصار إلينا ميراثنا من نبينا صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،فقر الحق فى قراره،و أظهر اللّه مناره،و أعز أنصاره،و قطع دابر القوم الذين ظلموا و الحمد للّه رب العالمين (2).

و هذه اللهجة كانت لهجة خادعة و مغالطة يحاول أن يسيطر بها على عقول أولئک البسطاء،ليخنق فكرة المعارضة التى تؤدى بسلطانه إلى الانهيار،و ليستغل تلک الاستعدادات التى فى نفوسهم لمناصرة الخلافة الحقة و يربط بين شعورهم و بينه،فإن هدف الثوار فى تلک النهضة التى أطاحت بالحكم الأموى،هو إقامة دولة تحكم بكتاب اللّه و سنة رسوله و كانت الهتافات للدعوة إلى الرضا من آل محمد.و ظل العباسيون فى غمار الثورة يحتفظون بادعائهم للإمامة كما أخفوا نواياهم التى بدأ

1- (1) الطبرى ج 9 ص 31. [1]

2- (2) مروج الذهب ج 3 ص 314. [2]

المنصور بإظهارها بالتدريج و يعلن عنها كما فى كلامه لأهل خراسان:

يا أهل خراسان أنتم شيعتنا و أنصارنا،و لو بايعتم غيرنا لم تبايعوا خيرا منا و إن ولد أبى طالب تركناهم،و الذى لا إله إلا هو فلم نعرض لهم بقليل و لا بكثير؛إلى أن يقول:فلما استقرت الأمور على قرارها من فضل اللّه و حكمه العدل،وثبوا علينا حسدا منهم،و بغيا لهم بما فضلنا اللّه عليهم و أكرمنا من خلافته ميراثنا من رسول اللّه (1).

و بهذا و غيره فقد تمكن من وضع طابع الدولة الشرعى صوريا،ليكسب لنفسه و لأحفاده من بعده حق وراثة النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،فإن استدراج البسطاء بأساليب التمويه و الخداع من السهولة بمكان،و لكن من العسير عليه أن يخدع ذوى الأفكار الواسعة، و العقائد الراسخة.لذلك كان يحسب لهم ألف حساب.

إنه يريد أن يتربع على دست الحكم،و يصبح خليفة للمسلمين و أميرا للمؤمنين،و بهذا يلزمه العمل بكتاب اللّه و سنة رسوله،و أن ينصح للمسلمين ما استطاع إلى ذلك سبيلا،فإمرة المسلمين ليست شيئا هينا يستطيع كل من ولى أمر المسلمين أن يتلقب بها،و إنما هى تصور الأعباء الثقال،و العناء المتصل،و الجهد الذى ليس فوقه جهد فى إقرار العدل و رفع الظلم،و إنصاف الضعفاء من الأقوياء، و تحقيق المساواة بين الناس و القيام فيهم بأمر الحزم كل الحزم حتى لا يطمع إلى ما لا ينبغى أن يبلغه،و فوق هذا كله إنصاف الناس من نفسه كإنصاف بعضهم من بعض.

و المنصور لا- يتصف بشىء من ذلك فهو ظالم فى حكمه،جائر على رعيته،قد استأثر بأموال الأمة و جعل بيت المال ملكا له دون المسلمين،و كانت سيرته لا ترتبط مع تعاليم الإسلام و مفاهيمه،و قد تعرضنا فيما سبق عن سوء سيرته و قبيح أعماله، كما و قد مرت الإشارة إلى قبضه على زعماء الطالبيين،و قتل جماعة منهم،و سجن آخرين ماتوا كلهم فى السجن نتيجة للتعذيب الوحشى،و المعاملة القاسية التى سار عليها لتثبيت دعائم ملكه.

و لم يبق أمام عينه إلا الإمام الصادق عليه السّلام و هو زعيم العلويين و سيد أهل البيت فى عصره،و قد اشتهر ذكره و أقبلت الأمة على الأخذ منه،و كانت مدرسته

1- (1) المصدر السابق. [1]

يقصدها طلاب العلم و رجال الحديث على اختلاف نزعاتهم و كان ذكره حديث الأندية،و كل ذلک يشق على المنصور و ترتعد فرائصه كلما ذكر عنده جعفر بن محمد بخير.

و كم فكر المنصور فى القضاء عليه و إلحاقه بقائمة الشهداء من أهل البيت،فلم يجد طريقا لذلک لأنه يخشى عاقبة الأمر فالإمام الصادق عليه السّلام كان يزداد على مرور الأيام تمكنا فى القلوب،و شهرة فى الشعوب،تجبى إليه الأموال،و تشد لمدرسته الرحال،و تهوى إليه الأفئدة،و لم يعرف عنه أنه دعا إلى ثورة دموية،أو نازع فى سلطان علنا ليكون ذلک من المبررات للوقيعة فيه،و قد اتخذ المنصور شتى الحيل فى اتهامه فلم يستطع لذلک سبيلا (1)لأنه يرى أن دعوة الإمام الصادق و هى الدعوة الإصلاحية من أهم المشاكل التى تقف أمام تحقيق أهدافه،من انتحال السلطان الشرعى،و أن كل ما يفعله بإرادة اللّه و إذنه كما تقدم،فهو بتلک الإيحاءات يحاول أن يوجه الناس إلى الاعتقاد بصحة خلافته و أن الخروج عليه خروج على إمام المسلمين، و قد اتخذ شتى الأساليب فى تنمية هذه الروح،ليسلم من المؤاخذة على ما يرتكبه من الفتک برجال الأمة،فهو يوجه الناس بأقواله ليجعلهم يؤمنون بصحة أعماله لأنها تصدر بمشيئة اللّه كما يزعم هو.

و كان الإمام الصادق عليه السّلام يهدم ما يبنيه المنصور و يكذب ما يدعيه،فقد كان يعبر عنه بالطاغية و لم يخاطبه بأمير المؤمنين قط،و ما ورد فى مساجلاته معه عند مقابلته بأنه خاطبه بهذا اللفظ،فإنما هو من تعبير الرواة و لهجتهم و تأتى فى النصوص المنقولة مما يجب الانتباه إليه.

كيف تتحقق أهداف المنصور و لم يكسب رضا أعظم شخصية إسلامية،و أكبر زعيم دينى،و هو الإمام الصادق الذى كان نسيجا وحده فى الاستقامة و الحرص على هداية الأمة،و لم يعرف الناس عنه إلا أنه داعية إلى اللّه مجاهد فى نصرة الدين، محافظ على وحدة المسلمين فى التمسک بتعاليم الإسلام و نبذ الحزازات و ترک الخرافات.

1- (1) راجع الجزء الرابع فى:خلاصة الصراع بين دعوة الإمام الإصلاحية و دولة المنصور العباسية.

و كـان هو بنفسه عليه السّلام يصـل من قطعه و يعفو عمن ظلمه،و لا يرى فى النهار إلا صائما و فى الليل إلا قائما،و كان من العلماء العباد الذين يخشون اللّه.كما حدث عنه تلميذه مالك (1).

فكانت شخصـيته عليه السّلام تزداد تمكنا فى القلوب و شـهرة فى جميع الأقطار الإسـلامية و سارت الركبان بذكره،و قصده كبار الفقهاء و رجال الحديث من مختلف الأقطار،على اختلاف نزعاتهم يسألونه عن مختلف المسائل و شتى العلوم.

و الشـىء الـذى نريـد أن نقوله هنـا هو أن المنصور كـان يعـد الإمـام الصادق منافسا خطيرا أعياه أمره،إذ لم يتمكن من القضاء عليه كما لم يتمكن من تحصيل تأييده، فيحقق هدفه،بل الأمر بالعكس.

فلقـد كان رأى الإمام الصادق فى الدولـة العباسـية كرأيه فى الدولـة الأمويـة،من حيث الظلم للرعية،و الاسـتبداد فى الحكم،و الابتعاد عن الإسلام.و قد نهى عن المؤازرة للدولة الجديد،كما نهى عن المؤازرة للدولة المنقرضة و صرح بذلك فى عدة مواطن.

فمثلا:سـئل عليه السّلام عن البناء لهم و كرايـة النهر فأجاب:ما أحب أن أعقد لهم عقدة،أو وكيت لهم وكاء،و لا مدة بقلم،إن أعوان الظلمة يوم القيامة فى سرادق من نار،حتى يحكم اللّه بين العباد.

كما نهى عن معاونتهم حتى فى بناء المساجد،لأنه عليه السّلام يرى أن أموالهم مغصوبة،لا يحق لهم التصرف فيها بأى نوع كان،و المعاونة لهم فى ذلك تشجيع لهم،و مضاعفة لبلاء الأمة فى تركيز عروش الظالمين.

و أعلن غضبه على الفقهاء الذين يسيرون فى ركب الدولة و حذر الناس منهم، لأن شرهم أعظم بكثير من غيرهم،عند ما يخونون أمانة العلم و رسالة الإسلام.فكان يقول عليه السّلام:الفقهاء أمناء الرسل فإذا رأيتم الفقهاء قد ركبوا إلى السلاطين فاتهموهم.

1- (1) التوسل و الوسيلة لابن تيمية ص 52،و مالک لمحمد أبو زهرة ص 28 نقلا عن المدارک للقاضى عياض ص 212.

و كان عليه السّلام ينهى عن الترافع إلى القضاة و لا يرى نفوذ حكمهم و يعتبر الترافع إليهم محرما،لأنهم يحكمون بغير ما أنزل اللّه،بل كان يؤنب من يجتمع به من القضاة،و يبين له سوء هذا العمل،و يحذره من العذاب و على سبيل المثال نذكر القصة التالية:

قال سعيد بن أبى الخضيب البجلى:كنت مع ابن أبى ليلى(القاضى)مزاملة حتى جئنا إلى المدينة،فبينما نحن فى مسجد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إذ دخل جعفر بن محمد،فقلت لابن أبى ليلى:تقوم بنا إليه.

فقال:و ما نصنع عنده؟ فقلت:نسأله و نحدثه.

فقال:قم.فقمنا إليه فسألنى(جعفر)عن أهلى،ثم قال:من هذا معک؟ فقلت:ابن أبى ليلى قاضى المسلمين.

فقال:أنت ابن أبى ليلى قاضى المسلمين!؟قال:نعم.

قال:تأخذ مال هذا و تعطيه هذا،و تفرّق بين المرء و زوجه،لا تخاف فى ذلک أحدا؟!..

ثم قال:فما تقول إذا جىء بأرض من فضة و سماء من فضة ثم أخذ رسول اللّه بيدک فأوقفک بين يدى ربک فقال:يا ربى هذا قضى بغير ما قضيت.

قال سعيد:فاصفر وجه ابن أبى ليلى مثل الزعفران (1).

و هذه الأمور-و كثير من أمثالها-تبعث فى نفس المنصور أثرا يجعله يشتد فى امتحان الإمام و الفتک به،إذ ليس من الهين عليه رد ما يدعيه من الاستقلال بالإمامة، و أنه خليفة اللّه فى الأرض و وارث نبيه،و خازن مال اللّه،ثم يبدو ما يكذب هذه الدعوى،من شخصية لها مكانتها فى المجتمع.

و لا يبعد عن تفكيرنا ما أحدثه التأثر فى نفس المنصور من شهرة الإمام الصادق عليه السّلام و اتساع مدرسته من أشياء مختلفة فى المجتمع الإسلامى أهمها

1- (1) رجال المامقانى ج 2 ص 24. [1]

محاولـة ربط العلم بعجلـة الدولـة،و تحديـد الفتوى،و حمل الناس على الأخذ بما تقره الدولة و ترتضـيه،و لا نريد هنا أن نتجاوز الموضوع بتفصيل ذلک و بيانه بعد أن مرت الإشارة إليه.

و لكننا يجب أن نتصور مدى المشكلة التى واجهها الإمام الصادق فى عصره، و ما تحمله من خصمه الألد،الذى قبض على زمام الحكم،و قضى على كل معارض،و فتک بكل من يتهمه بالمعارضة له،من دون توقف و تريث،فلا رحمة و لا عدل.

و لقد بذل كل جهده و استعمل حيله فى القضاء على الإمام الصادق و لكن جهوده باءت بالفشل.

و قد أشرنا فى الأجزاء السابقة إلى محاولات المنصور اختلاق الأعذار للقضاء على الإمام الصادق و كيف كان الإمام الصادق يحرص على أن لا يبـدر منه ما يتـذرع به المنصور و هى روايات فى مصادرها تحتاج إلى تحقيق فى بعض العبارات التى تروى على لسان الصادق.لأنها على غير المعهود عنه عليه السّلام فهو يتحاشـى اتهام المنصور و يخاطبه بعبارة بليغة لا تثير غضبه كما لا تطمعه فيه أو يلجأ إلى الاعتصام باللّه كما حـدث عنـد ما اسـتدعاه المنصور فى المرة الثالثـة بالربـذة بروايـة إبراهيم بن جبلة عن مخرمة الكندى قال أبو جعفر المنصور:من يعذرنى من جعفر هذا...يا ابن جبلة،قم إليه فضع فى عنقه ثباته ثم ائتنى به سحبا.قال إبراهيم:فخرجت حتى أتيت منزله فلم أصبه فطلبته فى مسـجد أبى ذر فوجدته فى باب المسـجد،قال:فاستحييت أن أفعل ما أمرت فأخذت بكمه فقلت له:أجب أمير المؤمنين،فقال عليه السّلام:إنا للّه و إنا إليه راجعون،دعنى حتى أصلّى ركعتين.

بقى الإمام الصادق عليه السّلام أيام المنصور تحت رقابة شديدة،و أخباره تصل إلى المنصور فى كل وقت،و لكن لـم يجد وسيلة تبرر له أن يفتک بالإمام،لأنه يخشـى العاقبة لما يعلمه من تعلق الناس بشخصية الإمام فكان المنصور على أحر من الجمر، إذ يرى أن سلطانه مهدد،و ملكه زائل إن طال الوقت و استمر الزمن.و أراد أن يقرب ما يرومه،و ذلک فى فرض الإقامة على الإمام فى الكوفة ليكون قريبا منه،و عسى أن تصدر منه بادرة لينقضّ عليه.

و لما قدم الإمام الكوفة التف الناس حوله و ازدحم رجال العلم عليه،و كان محل تقدير جميع الطبقات،مما جعل المنصور يحذر منه أشد الحذر،لأن الناس التفوا حول الإمام عليه السّلام(و فتنوا به)على حد تعبير المنصور الدوانيقى،كما حدث بذلک أبو حنيفة قال:بعث إلىّ المنصور و قال لى:إن الناس قد فتنوا بجعفر بن محمد فهيّئ له مسائل شدادا،فلخصت أربعين مسألة و بعثت بها إلى المنصور،ثم أبرد إلىّ(أى أرسل إلىّ بالبريد)فوافيته على سريره و جعفر بن محمد عن يمينه،فتداخلنى من جعفر هيبة لم أجدها من المنصور فأجلسنى.

ثم التفت إليه قائلا:يا أبا عبد اللّه هذا أبو حنيفة.

فقال عليه السّلام:نعم أعرفه.

ثم قال المنصور:سله عما بدا لک يا أبا حنيفة،فجعلت أسأله و يجيب الإجابة الحسنة حتى أجاب عن أربعين مسألة.فرأيته أعلم الناس باختلاف الفقهاء فبذلک أحكم أنه أفقه من رأيت (1).

و خاب أمل المنصور و أصبح أبو حنيفة يعلن للملإ،و يحكم بأن أفقه الأمة جعفر بن محمد الصادق عليه السّلام كما كان يرى أنه إمام الحق و يتكتم بذلک.

سأله رجل يوما فقال:يا أبا حنيفة،ما تقول فى رجل وقف ماله للإمام فمن يكون المستحق؟ فأجابه أبو حنيفة:المستحق هو جعفر الصادق لأنه هو إمام الحق (2).

قال هذا بعد أن تأكد من الرجل فى كتمان ما قاله،و هذا أحد الأسباب التى أدت إلى القضاء على أبى حنيفة بحجة امتناعه عن القضاء.

و لا أستبعد أن قصة القائد الذى دعا الإمام الصادق إلى المائدة و أحضر عليها الشراب كان بوحى من المنصور لينال من كرامة الإمام عليه السّلام،فتلک واحدة من محاولات العباسيين بدرت من غير واحد منهم.

قال هارون بن الجهم:كنا مع أبى عبد اللّه عليه السّلام بالحيرة حين أقدمه

1- (1) جامع مسانيد أبى حنيفة ج 1 ص 222 و مناقب أبى حنيفة للموفق ج 1 ص 177.

2- (2) تاريخ العلويين لمحمد أمين غالب ص 140. [1]

المنصور،فختن بعض القواد ابنا له و صنع طعاما و دعا الناس،و كان أبو عبد اللّه فيمن دعى،فاستسقى رجل ماء فأتى بقدح فيه شراب لهم،فلما أن صار القدح بيد الرجل قام أبو عبد اللّه عن المائدة.و قال:قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«ملعون ملعون من جلس على مائدة يشرب عليها الخمر».

و فى رواية أخرى:«ملعون ملعون من جلس طائعا على مائدة يشرب عليها الخمر».

و ناهيک بما أحدثته هذه القضية من أثر فى الاجتماع،عند ما يطلق أبو عبد اللّه هذه العبارة معبرا بها عن غضبه،و استهانة بكرامة ذلک القائد حفظا لكرامة الإسلام، فمن يا ترى يسمع هذه الكلمة من الصادق،و ينظر إلى تأثره،و يبقى على تلک المائدة.

فذلک نهج الإمام فى الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر الذى يرسخ أحكام القرآن و يرعى بذور الإيمان.أما الذين باعوا دينهم بدنياهم و ارتضوا أن يكونوا أتباعا لحكام الجور و الفجور فلهم أن يروا فى موقف الإمام ما يناسب مصالحهم و يحميها لتبقى بطونهم ملأى بكل عفن و عقولهم سكرى بالضلال و الانحراف.

و بالاختصار فإن وجود الإمام الصادق فى الكوفة كان أعظم على المنصور من كل شىء،فعدل عن حكمه بالإقامة الجبرية على الإمام و أرجعه إلى المدينة و هكذا عدة مرات.

و كان عليه السّلام يلجأ إلى اللّه فى مهماته و يسأله دفع شر خصمه و مكره.

قال رزام بن قيس الكاتب مولى خالد العشرى:أرسلنى المنصور إلى جعفر بن محمد بن على بن الحسين عليه السّلام،فلما أقبلت عليه و المنصور بالحيرة و علونا النجف نزل جعفر عن راحلته،فأسبغ الوضوء فصلى ركعتين،ثم رفع يديه فدنوت منه فإذا هو يقول:اللهم بک أستفتح و بک أستنجح و بمحمد عبدک و رسولک أتوسل، اللهم سهل حزونته و ذلل لى صعوبته،و أعطنى من الخير أكثر ما أرجو،و اصرف عنى من الشر أكثر مما أخاف.ثم ركب راحلته،فلما وقف بباب المنصور و أعلم بمكانه فتحت الأبواب،و رفعت الستور،فلما قرب من المنصور قام إليه فتلقاه و أخذ بيده،

و ما شاه حتی انتهی به إلی مجلسه،ثم أقبل علیه یسأله عن حاله...الـخ (1)و أنجاه اللّه من شـره،و تغیّر المنصور عما عزم علیه کل مرة یلقی فیها الإمام،من أسرار سیرة الإمام الروحیة.

و حـدث الربیع بأن المنصور أمر بإحضار جعفر بن محمـد مرارا و قال و اللّه لأقتلنه،فلما لـم یر بدا من إحضاره،و لما دنا الإمام الصادق من الباب قام یحرک شفتیه.و کان یدعو (2)...

و قـد مر تفصـیل هـذه الحوادث و بیانهـا فی الجزء الثانی و الإشارة إلیها فی الجزء الرابع من هـذا الکتاب،و أن المنصور أحضـره بین یـدیه للفتک به و القضاء علیه مرارا.

و علی کـل حـال:فـإن الإمام الصادق علیه السّـلام قـد واجه محنا و تحمل مصاعب، فی سبیل الـدعوة إلی الخیر و تهـذیب النفوس،بنشـر التعالیم الإسـلامیة الکفیلة بتنویر العقل الإنسانی،و إرشاده إلی أقوم سـبل الخیر و السعادة،فکان المنار الذی اهتدت به القافلة الضالة،فیمر تـاریخه عبر مراحل التاریـخ،و یتخطی ذکره الزمن فتخلـده الأجیال،و تعتز به العلماء،و ترجـح أقواله و أحکامه فی مثار الجـدل و مجالات النزاع العلمی،فیکون قوله الفصل و حکمه العدل.

و تمر قرون و قرون و هـو ذلـک الصـادق فی القـول،المـوجه فی دعـوته و المعلـم الأـول لجمیـع المـذاهب،و یبقی ذکره رغم الحـواجز و العقبات،و ینتشر مذهبه بقوة الحق و وضوح الحجة،لا بقوة الحکومات و نفوذ السلطة.

و من العجیب أن یسـمح البعض من کتّاب الیوم لنفسه بالتقوّل بما لیس له نصـیب من الصـحة،فیـذهب إلی ادعاء صـفاء العلاقة بین الإمام الصـادق و المنصور،و أن المنصور هو الـذی أطلق لقب الصادق علی الإمام و ذلک مما ینافی الحقیقـة،فقـد رأینا کیف کان الإمام الصادق یواجه محنة دائمة بسـبب المنصور،و کیف کان المنصور یواجه مشـکلة مستعصـیة تتمثل فی نهج الإمام و مدرسـته و سلوکه و میل القلوب إلیه حتی أعجزه أمره لأن المکانـة الروحیـة للإمام،و المنزلـة العلمیـة التی طبعت ذلک الجیل بطابعها و ترکت الناس یلهجون بذکر الإمام الصادق،لیس بسهل علی المنصور

1- (1) تاریخ ابن عساکر ج 5 ص 320. [1]

2- (2) المصدر السابق ج 4 ص 208. [2]

إنكارها أو تجاهل نتائج القضاء على الإمام الصادق بين أوساط العلماء و هو الذى يتودد إليهم و يحاول أن يركز سلطانه بصفة تتجاوز حدود الإمامة،كما يسعى إلى تركيز شخصيات عساها تؤثر على انصراف الناس إلى الإمام الصادق.

و لا ـ يعنى فى واقع الأمر شيئا ما يطلقه المنصور على الإمام الصادق قدحا أو مدحا و أنه وصف الإمام بالصادق لأنه رفض أن يستجيب لدعوة بنى عمه الحسنيين، إذ كان يرى أن بنى العباس قد تهيئوا للأمر و أكل قلوبهم حب الحكم،فصرّح عليه السّلام بأن الأمر سيكون لهم،و إنما كان ذلک من خلال حركة الدين و العلم إذ ضجت المراكز و مساجد الصلاة بالعلماء و هم يحدثون عن الإمام جعفر بن محمد فى زمن كثر فيه ادعاء العلم و نشطت فيه حركة الوضع،فكان كل منهم يقول:حدثنى الصادق،أو(أخبرنا العالم)إشارة إلى الإمام جعفر وارث علم النبيين و الراوى بسلسلة ذهبية تنمى إلى جده المصطفى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،حيث صار من يدعى العلم ممن هو إمّعة بيد السلطان الجائر يسير فى ركابه و ينفذ أغراضه الدنيئة ممن تسمّى بجعفر أيضا يرمى بالكاذب تمييزا عن جعفر الهدى و الصدق و سيد أهل عصره.

و يمكننا القول أن لقب الصادق كان أصل إطلاقه لأجل المكانة العلمية و المنزلة الروحية،ثم كان سببا فى إطلاق لقب الكاذب على من حمل اسمه و قصد الإساءة لنهج أهل البيت،فهو فى الأساس لصفة الصدق الغالبة فى العلم و الحديث،و هى من خصائص أهل البيت،ثم كانت فى مواجهة الانحراف عن السلوک المحمدى.فالواقع أن هناک من يرى أن اللقب وجد فى هذه الظروف الأخيرة و هو اشتباه أيضا.

الإمام الصادق

اشارة

لمحات من أخلاقه و آدابه

تمهيد:

و جريـا على ما نهجناه فى الأجزاء السابقـة من ذكر طرف من تعاليم الإمام الصادق عليه السّلام و سـيرته و حكمه،التى تتمثل فيها مفاهيم الإسلام،فى نهج التربية، و حسن السلوك فى الحياة،و قد رأينا هناك كيف كان حرصه على تربية من يتصل به تربية صحيحة،يوجهه و يرشده إلى طريق الحق و نهج الصواب.

فقد كان لا يدع فرصة مناسـبة إلا اغتنمها للإرشاد ببليغ قوله،و حسن بيانه و نورد هنا بعضا مما لم نذكره هناك من أخباره و حكمه،و آدابه و مواعظه و توجيهاته،تيمنا بذلك،و لئلا يخلو هذا الجزء من ذلك التراث القيم الذى أفردنا له جزءا خاصا.

تعاليمه:

قـال عنبسـة بن نجـاد:لمـا مـات إسـماعيل بن الإمـام جعفر بن محمـد عليه السّلام و فرغنا من جنازته،جلس الإمام و جلسـنا حوله و هو مطرق،ثم رفع رأسه إلينا و قال:

أيها الناس هـذه الدنيا دار فراق و دار التواء،لا دار اسـتواء،على أن لفراق المألوف حرقة لا تدفع،و لوعة لا تقلع،و إنما يتفاضل بحسن العزاء،و صحة الفكر،فمن لم يثكل أخاه ثكله أخوه،و من لم يقدم ولدا كان هو المقدم دون الولد،ثم تمثل بقول الهذلى:

فلا تحسبى أنى تناسيت عهده و لكن صبرى يا أميم جميل

و كان يقول لأصحابه:إن اللّه أوجب عليكم حبنا و موالاتنا،و فرض عليكم طاعتنا،ألا فمن كان منا فليقتد بنا،و إن من شأننا الورع،و الاجتهاد و أداء الأمانة إلى

البر و الفاجر،و صلة الرحم و إقراء الضيف،و العفو عن المسيء؛و من لم يقتد بنا فليس منا،لا تسفهوا،فإن أئمتكم ليسوا بسفهاء.

قال صفوان بن يحيى (1):جاءنى عبد اللّه بن سنان (2)فقال:هل عندک شيء؟ قلت:نعم.فبعثت ابنى و أعطيته درهما يشترى به لحما،فقال لى عبد اللّه:أين أرسلت ابنک؟فأخبرته،فقال:ردّه ردّه؛عندک زيت؟قلت:نعم.قال:هات فإنى سمعت أبا عبد اللّه عليه السّلام يقول:هلک امرؤ احتقر لأخيه ما يحضره و هلک امرؤ احتقر لأخيه ما قدم إليه.

و قال عليه السّلام:المؤمن لا يحتشم من أخيه و لا يدرى أيهما أعجب:الذى يكلف أخاه إذا دخل أن يتكلف له،أو المتكلف لأخيه.

و قال هشام بن سالم:دخلنا مع ابن أبى يعفور على أبى عبد اللّه و نحن جماعة،فدعا بالغداء فتغدينا و تغدى معنا،و كنت أحدث القوم سنا،فجعلت أقصر و أنا آكل فقال لى عليه السّلام:كل،أ ما علمت أنه تعرف مودة الرجل لأخيه بأكله من طعامه.

قال ابن أبى يعفور:رأيت عند أبى عبد اللّه عليه السّلام ضيفا فقام يوما فى بعض الحوائج فنهاه أبو عبد اللّه عن ذلک،و قام بنفسه إلى تلک الحاجة و قال عليه السّلام:نهى رسول اللّه عن أن يستخدم الضيف.

و قال الجارود بن المنذر:قال لى أبو عبد اللّه عليه السّلام:بلغنى أنه ولد لک ابنة فتسخطها،و ما عليک منها،ريحانة تشمها و قد كفيت رزقها،و قد كان رسول اللّه أبا بنات.

و قال عليه السّلام:إن أبى إبراهيم سأل ربه أن يرزقه ابنة تبكيه و تندبه بعد موته.

1- (1) صفوان بن يحيى أبو محمد البجلى المتوفى سنة 210 ه،كان من أصحاب الإمام موسى بن جعفر،و قد روى عن أربعين رجلا من رواة الإمام الصادق،و كان معروفا بالزهد و العبادة،و كان قد تعاقد هو و عبد اللّه بن جندب،و على بن النعمان؛أن من مات منهم صلى من بقى منهم صلاته و صام صيامه فماتا و بقى صفوان،فكان يصلى فى كل يوم مائة و خمسين ركعة فرضا و نفلا، و يصوم فى السنة ثلاثة أشهر،و كان مؤلفا و له كتب يربو عددها على الثلاثين ذكره النجاشى و غيره.

2- (2) عبد اللّه بن سنان بن طريف الحنظلى،كان من ثقات أصحاب الصادق عليه السّلام و قد مرت الإشارة إليه.

كلماته الحكمية:

و قال عليه السّلام لولده موسى الكاظم عليه السّلام:يا بنى افعل الخير إلى كل من طلبه منک،فإن كان من أهله فقد أصبت موضعه،و إن لم يكن له بأهل كنت أنت أهله، و إن شتمک رجل عن يمينک ثم تحول إلى يسارک و اعتذر إليک فاقبل منه.

و قال عليه السّلام:ليس شيء إلا و له حد.فقال له أبو بصير:جعلت فداک فما حد التوكل؟قال عليه السّلام:اليقين.

فقال أبو بصير:فما حد اليقين؟قال عليه السّلام:أ لا تخاف مع اللّه شيئا.

و قال عليه السّلام:من صحة يقين المرء المسلم ألا يرضى الناس بسخط اللّه،و لا يلزمهم على ما لم يؤته اللّه،فإن الرزق لا يسوقه حرص حريص و لا يرده كراهة كاره.

و قال عليه السّلام:حسن الظن باللّه أن لا ترجو إلا اللّه و لا تخاف إلا ذنبک.

و قيل له عليه السّلام:أى الجهاد أفضل؟فقال:كلمة حق عند إمام ظالم.

و قال عليه السّلام لأصحابه:لا تشعروا قلوبكم الاشتغال بما فات فتشغلوا أذهانكم عن الاستعداد لما يأتى.

و قال محمد بن العلا و إسحاق بن عمار:ما ودعنا أبو عبد اللّه الصادق قط إلا أوصانا بخصلتين:بصدق الحديث و أداء الأمانة إلى البر و الفاجر،فإنهما مفتاح الرزق.

و قال عليه السّلام:

ينبغى للعاقل أن يكون مقبلا على شأنه حافظا للسانه عارفا بأهل زمانه.

أربع يذهبن ضياعا،مودة تمنح من لا وفاء له،و معروف يوضع عند من لا يشكره،و علم يعلم من لا يستمع له،و سر يودع من لا حصانة له.

إصلاح المال من الإيمان.

أنفق و أيقن بالخلف،و اعلم أنه من لم ينفق فى طاعة اللّه ابتلى بأن ينفق فى معصية اللّه،و من لم يمش فى حاجة وليّ اللّه ابتلى بأن يمشى فى حاجة عدو اللّه.

و سئل عليه السّلام عن الزاهد فى الدنيا فقال:الذى يترک حلالها مخافة حسابه و يترک حرامها مخافة عذابه.

و وصفوا عنده رجلا بالدين و الفضل و العبادة و غيرها.

فقال عليه السّلام:كيف عقله؟إن الثواب على قدر العقل.

و قال لداود الكرخى حينما أراد أن يتزوج:انظر أين تضع نفسک.

و قال عليه السّلام:لا يصلح المرء المسلم إلا بثلاث:التفقه فى الدين و التقدير فى المعيشة و الصبر على البلايا.

اصبر على أعداء النعم فإنک لن تكافى من عصى اللّه فيک من أن تطيع فيه.

من لم يكن واعظ من قلبه و زاجر من نفسه و لم يكن له قرين مرشد استمكن عدوه من عنقه.

اجعل قلبک قرينا تزاوله،و اجعل علمک والدا تتبعه،و اجعل نفسک عدوا تجاهده و اجعل مالک عارية تردها.

جاهد هواک كما تجاهد عدوک.

العاقل من كان ذلولا عند إجابة الحق،جموحا عند الباطل،يترک دنياه و لا يترک دينه،و دليل العاقل شيئان صدق القول و صواب العمل.

الملوک حكام على الناس و العلماء حكام على الملوک.

و قال له رجل من أصحابه:جعلت فداک ما أحب إلى من الناس من يأكل الجشب،و يلبس الخشن،و ينخشع فيرى عليه أثر الخشوع.

فقال عليه السّلام:ويحک إنما الخشوع فى القلب أو ما علمت أن نبيا ابن نبى كان يلبس أقبية الديباج مزرورة بالذهب،و كان يجلس و يحكم بين الناس فما يحتاج الناس إلى لباسه،و إنما احتاجوا إلى قسطه و عدله.كذلک إنما يحتاج الناس من الإمام إلى أن يقضى بالعدل،إذا قال صدق،و إذا وعد أنجز،و إذا حكم عدل،إن اللّه عز و جل لم يحرم لباسا أحله،و لا طعاما و لا شرابا من حلال،و إنما حرم الحرام قل أو كثر، و قد قال اللّه عز و جل: قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِى أَخْرَجَ لِعِبادِهِ وَ الطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ [الأعراف:32].

و سئل عليه السّلام عن رجل دخله الخوف من اللّه تعالى حتى ترک النساء و الطعام الطيب و لا يقدر أن يرفع رأسه إلى السماء تعظيما للّه تعالى؟

فقال علیه السّلام:أما قولک فی ترک النساء فقد علمت ما کان لرسول اللّه منهن، و أما قولک فی ترک الطعام الطیب فقد کان رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یأکل اللحم و العسل،و أما قولک دخله الخوف من اللّه حتی لا یستطیع أن یرفع رأسه إلی السماء،فإنما الخشوع فی القلب،و من ذا یکون أخشع و أخوف من رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم؟!فما کان هذا یفعل؟!! و قد قال اللّه عز و جل: لَقَدْ کانَ لَکُمْ فِی رَسُولِ اللّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ کانَ یَرْجُوا اللّهَ وَ الْیَوْمَ الآخِرَ [الأحزاب:21].

و قال علیه السّلام:إن علیا کان یقول:ینبغی للرجل إذا أنعم اللّه علیه بنعمة أن یری أثرها علیه فی ملبسه ما لم یکن شهرة.

و سأله رجل فقال:یا ابن رسول اللّه هل یعد من السرف أن یتخذ الرجل ثیابا کثیرة یتجمل بها و یصون بعضها من بعض؟ فقال علیه السّلام:لا،لیس هذا من السرف.

و قال:أربع خصال یسود بها المرء:العفة،و الأدب،و الجود،و العقل.

لا ـ مال أعود من العقل،و لا ـ مصیبة أعظم من الجهل،و لا ورع کالکف،و لا عبادة کالتفکر،و لا قائد خیر من التوفیق،و لا قرین خیر من حسن الخلق،و لا میراث خیر من الأدب.

لا یتکلم الرجل بکلمة هدی فیؤخذ بها إلا کان له مثل أجر من أخذ بها،و لا یتکلم بکلمة ضلالة إلا کان علیه مثل وزر من أخذ بها.

الإمام العادل لا ترد له دعوة،و المظلوم لا ترد له دعوة و من قواصم الظهر سلطان جائر یعصی اللّه و أنت تطیعه!! هذا غایة ما یسمح لی الوقت به من ذکر بعض أخباره و حکمه و آدابه علیه السّلام، و قد مر فی کل جزء من الأجزاء السابقة بعض منها و سننشر ما بقی من ذلک و ما ذکر سابقا فی جزء مستقل لیکون أعم نفعا و أسهل تناولا فإن ذلک التراث الفکری الخالد و تلک الآداب التی کان علیه السّلام یؤدب بها من یتصل به هی أشمل لنظام الحیاة لاتصالها بواقع المسلمین من حیث الأخذ بتعالیم دینهم الذی یتکفل لهم السعادة.

صفاته:

لقـد كان الإمام الصادق عليه السّـلام مثلا أعلى للصـفات الكاملـة،و المزايا الحميدة، و الأخلاق الفاضـلة،فهو الصادق فى القول،و الناطق بالحق،و العالم العامل بعلمه، و الموجه للأمة بدعوته،و ما أجمع علماء الإسلام على اختلاف طوائفهم كما أجمعوا على فضله و علمه.

و قد كان قويا فى دينه،لا يهن لشدة،و لا يتزلزل عند النوازل،و لا يضعف عند النكبات،بل يتلقى كل ذلك بعزم راسخ و جنان ثابت.

و لقد وصفه المنصور و هو خصمه الألد بقوله:إنه ممن اصطفاه اللّه،و كان من السابقين فى الخيرات.

شهد الأنام بفضله حتى العدا و الفضل ما شهدت به الأعداء

و قد وصفه تلميذه مالک بن أنس بأنه:كان من العلماء العباد الذين يخشون اللّه.

و وصفه أبو حنيفة بأنه:أعلم أهل زمانه و ما رأى أعلم منه و أن هيبته تفوق هيبة المنصور صاحب الملک و الصولجان.

و وصفه عمرو بن المقدام بقوله:ما نظرت إلى جعفر بن محمد إلا و علمت أنه من سلالة النبيين.

و قد ثبت عن الإمام زيد بن على عليه السّلام أنه قال:إنه(أى الصادق)حجة اللّه، لا يضل من تبعه،و لا يهتدى من خالفه.

و لا بد لنا من الإيجاز هنا فيما يتعلق بصـفاته و مميزاته بعد أن ذكرنا بعضا من ذلک فى الأجزاء السابقة،و لنا عودة فى بيان صـفاته و مميزاته إن شاء اللّه.

و الآن و قد أوشـكنا على الالتقاء بالأستاذ محمد أبو زهرة الذى نوهنا عنه فى المقدمة؛لإبداء ملاحظاتنا حول ما كتبه عن الإمام الصادق عليه السّـلام،و قبل أن يضـمنا مجلس النقاش،و تبادل الآراء،نود هنا أن نقتطف من ذلک الكتاب بعض انطباعات الأسـتاذ عن شخصية الإمام،و صفاته و مميزاته،فلنترک الحديث له.

من كتاب الإمام الصادق:

ما أجمع علماء الإسلام على اختلاف طوائفهم،كما أجمعوا على فضل الإمام

الصادق و علمه،فأئمة السنة الذين عاصروه تلقوا عنه و أخذوا،أخذ عنه مالک رضى اللّه عنه،و أخذ عنه طبقة مالک کسفيان بن عيينة،و سفيان الثورى،و غيرهم کثير،و أخذ عنه أبو حنيفة مع تقاربهما فى السن و اعتبره أعلم الناس،لأنه أعلم الناس باختلاف الناس،و قد تلقى عليه رواة الحديث طائفة کبيرة من التابعين،منهم يحيى بن سعيد الأنصارى و أيوب السختيانى و أبان بن تغلب و أبو عمرو بن العلاء و غيرهم من أئمة التابعين فى الفقه و الحديث،و ذلک فوق الذين رووا عنه من تابعى التابعين و من جاء بعدهم و الأئمة المجتهدين الذين أشرنا إلى بعضهم.

و فوق هذه العلوم أوتى الإمام الصادق عليه السّلام علما بحاجات سلوک المؤمن و متطلبات الحفاظ على الأخلاق،فسدد إلى الرأى الناجع و القول الحکيم،و ألهم قدرة التقويم و التأثير فى النفوس.و قد اطلعنا على جوانب من اهتمام الإمام عليه السّلام بحياة الناس و مشاکل المجتمع فکان يبذل جهده من رأى و مال و مشارکة فعلية،و جعل علم الأخلاق فى مقدمة ما يرمى إلى شيوع أصوله و قواعده المتمثلة بدعوته إلى التمسک بتعاليم الدين الحنيف،و قد أشرق علم الأخلاق من خلال قوة البرهان و نور الوجدان الدينى و فعل مواقف الإمام و سيرته فى النفوس و کانت وجوه التقوى و الورع فى مواجهة الانحراف و تقبّل الناس للرذيلة.

و هکذا النفس المسئولة التى تتحمل أعباء دوام الدعوة تعالج الاعوجاج بالخلق القويم و تواجه الباطل بالحق المبين.

و لننقل لک وصيته لابنه موسى فهى خلاصة تجارب نفس مؤمنة مستمسکة تمرست بالحياة و علمت ما فيها،فقد جاء فى حلية الأولياء ما نصه:

حدث بعض أصحاب جعفر بن محمد الصادق،قال:دخلت على جعفر و موسى بين يديه و هو يوصيه فکان مما حفظت منها أن قال:

يا بنى اقبل وصيتى،و احفظ مقالتى،فإنک إن حفظتها تعيش سعيدا،و تموت حميدا.

يا بنى،من رضى بما قسمه اللّه له استغنى،و من مد عينيه إلى ما فى يد غيره مات فقيرا،و من لم يرض بما قسمه اللّه اتهم اللّه فى قضائه،و من استصغر زلة نفسه استعظم زلة غيره.

يا بنى، من كشف حجاب غيره انكشفت عورات بيته، و من سل سيف البغى قتل به، و من احتفر لأخيه بئرا سقط فيها، و من داخل السفهاء حقر، و من خالط العلماء وقر، و من دخل مداخل السوء اتهم.

يا بنى إياك أن تزرى بالرجال فيزرى بك، و إياك و الدخول فيما لا يعنيك فتذل لذلك.

يا بنى قل الحق لک أو عليک، يا بنى كن لكتاب اللّه تاليا، و للسلام فاشيا، و بالمعروف آمرا، و عن المنكر ناهيا، و لمن قطعک و اصلا، و لمن سكت عنک مبتدئا، و لمن سألک معطيا، و إياک و النميمة فإنها تزرع الشحناء فى قلوب الرجال، و إياک و التعرض لعيوب الناس فمنزلة المتعرض لعيوب الناس بمنزلة الهدف...

2- و يقول فى ص 99: إن الصادق كان على علم دقيق بالفلسفة و مناهج الفلاسفة و على علم بمواضع التهافت عندهم، و إنه مرجع عصره فى رد الشبهات، و قد كان بهذا جديرا، و ذلک لانصرافه المطلق إلى العلم، و لأنه كان ذا أفق واسع فى المعرفة لم يتسنّ لغيره من علماء عصره، فقد كانوا محدثين أو فقهاء، أو علماء فى الكلام، أو علماء فى الكون، و كان هو فى كل ذلک رضى اللّه عنه.

3- و لقد اشتهرت مناظرات الإمام الصادق حتى صارت مصدرا للعرفان بين العلماء، و كان مرجعا للعلماء فى كل ما تعضل عليهم الإجابة عنه من أسئلة الزنادقة و توجيهاتهم، و قد كانوا يثيرون الشک فى كل شىء، و يستمسكون بأوهى العبارات ليثيروا غبارا حول الحقائق الإسلامية و الوحدانية التى هى خاصة الإسلام.

و يقول فى ص 75: و بقى أن نقول كلمة فى صفاته و شخصيته العلمية، نتيجة لما سقناه و النتيجة دائما مطوية فى مقدماتها و كل ما أوتى به من علم، و ما أثر عنه من فقه، هو نتيجة لتلک الشخصية التى تميزها صفاته.

و أول ما يستشرف له القارئ هو أن يقدم له الكاتب وصفا جسميا يقربه إلى خياله و تصويره، و قد قال كتّاب مناقبه: أنه ربعة ليس بالطويل و لا القصير، أبيض الوجه أزهر، له لمعان كأنه السراج، أسود الشعر جعده أشم الأنف قد انحسر الشعر عن جبينه، و على خده خال أسود.

ص: 64

و يظهر أن هذا الوصف كان فى شبابه قبل أن يعلوه الشيب فيزيده بهاء و وقارا و جلالا و هيبة.

هذا وصفه الجسمى أما وصفه النفسى و العقلى فقد بلغ فيه الذروة،و ها هى ذى قبسة من صفاته التى علا بها فى جيله حتى نفس حكام الأرض عليه مكانه،و لكنها هبة السماء،و أنّى لأهل الأرض أن يسامتوا أهل السماء..

الإخلاص:

قد اتصف الإمام الصادق التقى بنبل المقصد و سمو الغاية،و التجرد فى طلب الحقيقة من كل هوى،أو عرض من أعراض الدنيا،فما طلب أمرا دنيويا تنتابه الشهوات أو تحف به الشبهات،بل طلب الحقائق النيرة الواضحة و طلب الحق لذات الحق لا يبغى به بديلا،لا تلتبس عليه الأمور و إذا ورد عليه أمر فيه شبهة هداه إخلاصه إلى لبه،و نفذت بصيرته إلى حقيقته،بعد أن يزيل عنه غواشى الشبهات، و إذا عرض أمر فيه شهوة أو إثارة مطمع بدد الظلمات بعقله الكامل،و هو فى هذا متصف بما ورد فى حديث مرسل عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إذ قال:«إن اللّه يحب ذا البصر النافذ عند ورود الشبهات،و يحب ذا العقل الكامل عند حلول الشهوات»و من غير الإمام الصادق يبدد الشهوات بعقله النير و بصيرته الهادية المرشدة؟! و إن الإخلاص من مثل الصادق هو من معدنه،لأنه من شجرة النبوة،فأصل الإخلاص فى ذلك البيت الطاهر ثابت،و إذا لم يكن الإخلاص غالب أحوال عترة النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أحفاد إمام الهدى على عليه السّلام،ففيمن يكون الإخلاص؟لقد توارثوا خلفا عن سلف،و فرعا عن أصل،فكانوا يحبون الشىء و لا يحبونه إلا للّه،و يعتبرون ذلك من أصول الإيمان و ظواهر اليقين.فقد قال النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«لا يؤمن أحدكم حتى يحب الشىء لا يحبه إلا للّه».

و قد أمد اللّه تعالى الإخلاص فى قلب الإمام الصادق بعدة عناصر غذته و نمته فآتى أكله.

أولها:ملازمته للعلم و رياضته نفسه و انصرافه للعبادة،و ابتعاده عن كل مآرب الدنيا.

و لنترك الكلمة للإمام مالك يصف حاله فيقول:كنت آتى جعفر بن محمد،

و كان كثير التبسم،فإذا ذكر عنده النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم اخضرّ و اصفرّ،و لقد اختلفت إليه زمانا فما كنت أراه إلا على إحدى ثلاث خصال:إما مصليا،و إما صائما،و إما يقرأ القرآن،و ما رأيته قط يحدث عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلا على طهارة،و لا يتكلم فيما لا يعنيه،و كان من العباد الزهاد الذين يخشون اللّه (1).

و ثانيها:الورع،و لكن ورعه لم يكن حرمانا مما أحل اللّه،فلم يكن تركا للحلال،بل كان طلب الحلال من غير إسراف و لا خيلاء،و قد أخذ بقول النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:

«كلوا و اشربوا و البسوا فى غير سرف و لا مخيلة».

و لكنه مع طلبه الحلال كان يميل إلى الحسن من الثياب،و كان يحب أن يظهر أمام الناس بملبس حسن لكيلا تكون مراءاة فيما يفعل،فكان يخفى تقشفه تطهيرا لنفسه من كل رياء.

و لقد دخل سفيان الثورى على أبى عبد اللّه الصادق فرأى عليه ثيابا حسنة لها منظر حسن،و يقول الثورى:فجعلت أنظر إليه متعجبا،فقال لى:يا ثورى مالك لا تنظر إلينا؟لعلك تعجب مما رأيت؟!قلت:يا ابن رسول اللّه ليس هذا من لباسك و لا لباس آبائك.

فقال لى:يا ثورى كان ذلك زمانا مقفرا مقترا و كانوا يعملون على قدر إقفاره و إقتاره،و هذا زمان قد أقبل كل شىء فيه،ثم حسر عن ردن جبته،و إذا تحته جبة صوف بيضاء يقصر الذيل عن الذيل و الردن عن الردن،ثم قال الصادق:يا ثورى لبسنا هذا للّه،و هذا لكم،فما كان للّه أخفيناه،و ما كان لكم أبديناه.

و ثالثها:أنه لم ير لأحد غير اللّه حسابا،فما كان يخشى أحدا فى سبيل اللّه و لا يقيم وزنا للوم اللائمين،و لم يخش أميرا لإمرته،و لم يخش العامة لكثرتهم،و لم يغيره الثناء،و لم يثنه الهجاء،أعلن براءته ممن حرفوا الإسلام،و أفسدوا تعاليمه،و لم يمال المنصور فى أمر،و كان بهذا الإخلاص و بتلك التقوى السيد حقا و صدقا.

نفاذ بصيرته و قوة إدراكه:

و إن الإخلاص إذا غمر النفس أشرقت بنور الحكمة،و استقام الفكر و القول

1- (1) المدارک مخطوط بدار الكتب المصرية الورقة رقم 210.

و العمل،و لـذلک الإخلاص نفـذت بصـيرته،فصار يعرف الحق من غير عائق يعوقه، و كان مع ذلک فيه ذكاء شديد،و إحاطة واسـعة و علم غزير...الخ.

حضور بديهته:

و كان رضـى اللّه عنه حاضر البديهة،تجيئه إرسال المعانى فى وقت الحاجة إليها من غير حبسة فى الفكر،و لا عقدة فى اللسان،و إن مناظراته الفقهيـة الكثيرة تكشف عن بديهـة حاضـرة،و انظر إليه و أبو حنيفة يسأله فى أربعين مسألة،فيجيب عنها من غير تردد و لا تلكؤ،مبينا اختلاف الفقهاء فيها،و ما يختار من أقوالهم،و ما يخالفهم جميعا فيه.

و إن مناظراته التى كان يلقم بها الزنادقة و غيرهم الحجة،ما كانت ليسـتقيم فيها الحق لو لا بديهة تسـعفه بالحق فى الوقت المناسب و لننقل لک مناظرة له فى العدل بين الأزواج أثارها زنديق.

قال الزنـديق:أخبرنى عن قول اللّه تعالى: فَانْكِحُوا ما طابَ لَكُمْ مِنَ النِّساءِ مَثْنى وَ ثُلاثَ وَ رُباعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاّ تَعْـدِلُوا فَواحِدَةً [النساء:3]و قال فى آخر السورة: وَ لَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّساءِ وَ لَوْ حَرَصْتُمْ فَلا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ [النساء:129].

قال الصادق:أما قوله تعالى: فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاّ تَعْـدِلُوا فَواحِدَةً [النساء:3]فإنما عنى النفقة و قوله تعالى: وَ لَنْ تَسْـتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّساءِ وَ لَوْ حَرَصْتُمْ [النساء:129]فإنما عنى بها المودة،فإنه لا يقدر أحد أن يعدل بين امرأتين فى المودة.

و إن حضور البديهـة من ألزم اللوازم لقادة الأفكار و الأئمـة المتبعين،فلا توجـد قيادة فكرية لعبى فى البيان و لا توجد قيادة فكرية لمن عنده حبسة فى المعانى.

جلده و صبره:

لقد كان أبو عبد اللّه الصادق ذا جلد و صبر و قوة نفس،و ضـبط لها،و إن الصابرين هم الذين يعلون على الأحداث،و لا يزعجهم اضـطراب الأمور عليهم و نيلهم بالأذى،و كان الإمام الصادق صبورا قادرا على العمل المستمر الذى لا ينقطع،فقد كان فى دراسة دائمة.

و كان مع ذلک الصبر و ضبط النفس عبدا شكورا،و إنا نرى أن الصبر و الشكر

معنیان متلاقیان فی نفس المؤمن القوی الإیمان فمن شکر النعمة فهو الصابر عند نزول النقمة بل إن شکر النعمة یحتاج إلی صبر،و الصبر فی النقمة لا یتحقق إلا من قلب شاکر یذکر النعمة فی وقت النقمة،و الصبر فی أدق معناه لا یکون إلا کذلک،إذ الصبر الحقیقی یقتضی الرضا،و هو الصبر الجمیل.

و لقد کان أبو عبد اللّه صابرا شاکرا خاشعا قانتا عابدا،صبر فی الشدائد،و صبر فی فراق الأحبة،و صبر فی فقد الولد:مات بین یدیه ولد له صغیر من غصة اعترته فبکی و تذکر النعمة فی هذا الوقت،و قال:لئن أخذت لقد أبقیت،و لئن ابتلیت فقد عافیت.

ثم حمله إلی النساء،فصرخن حین رأینه،فاقسم علیهن ألا یصرخن ثم أخرجه إلی الدفن و هو یقول:سبحان من یقبض أولادنا و لا نزداد له إلا حبا.و یقول بعد أن و اراه التراب:إنا قوم نسأل اللّه ما نحب فیمن نحب فیعطینا،فإذا أنزل ما نکره فیمن نحب رضینا.

و ها أنت ذا تری أنه رضی اللّه عنه یذکر عطاء اللّه فیما أنعم،فی وقت نزول ما یکره،و ذلک هو الشکر الکامل مع الصبر الکامل.

و إن الصبر مع التململ لا یعد صبرا،إنما هو الضجر،و الضجر و الصبر متضادان،و إنا نقول بحق إن أوضح الرجال الذین یلتقی فیهم الصبر مع الشکر؛هو الإمام الصادق.

سخاؤه:

قال کثیرون من المفسرین فی قوله تعالی: وَ یُطْعِمُونَ الطَّعامَ عَلی حُبِّهِ مِسْکِیناً وَ یَتِیماً وَ أَسِیراً [الإنسان:8]إنها نزلت فی علی بن أبی طالب کرم اللّه وجهه،و إن کانت هی فی عمومها وصفا للمؤمنین الصادقی الإیمان،لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، و مهما یکن من القول فی ذلک فإنه من المؤکد أن علی بن أبی طالب کان من أسخی الصحابة رضی اللّه عنهم،بل من أسخی العرب،و قد کان أحفاده کذلک من بعده،فعلی زین العابدین کان یحمل الطعام لیلا لیوزعه علی بیوت ما عرفت خصاصتها إلا من بعده.

و لم یکن غریبا أن یکون الإمام الصادق النابت فی ذلک المنبت الکریم سخیا

جوادا،فكان يعطى من يستحق العطاء،و كان يأمر بعض اتباعه أن يمنع الخصومات بين الناس بتحمل ما يكون فيها من الخسائر.

و كان رضى اللّه عنه يقول:لا يتم المعروف إلا بثلاثة:بتعجيله و تصغيره و ستره.و لهذا كان يسر العطاء فى أكثر الأحيان،و كان يفعل ما كان يفعله جده على زين العابدين،فكان إذا جاء الغلس يحمل جرابا فيه خبز و لحم و دراهم،فيحمله على عاتقه،ثم يذهب إلى ذوى الحاجة من أهل المدينة و يعطيهم،و هم لا يعلمون من المعطى حتى مات،و تكشف ما كان مستورا،و ظهرت الحاجة فيمن كان يعطيهم، و جاء فى حلية الأولياء:و كان جعفر بن محمد يعطى حتى لا يبقى لعياله شيئا.

و إن السخاء بالمال يدل على مقدار قوة الإحساس الاجتماعى،و إن ستره يدل على مقدار قوة الوجدان الدينى،و ملاحظته جانب اللّه وحده و ليس ذلك بعجب ممن نشأ مثل نشأة الإمام الصادق.

حلمه و سماحه:

و فى صفحة 81 قال:

و لقد كان رضى اللّه عنه سمحا كريما لا يقابل الإساءة بمثلها،بل يقابلها بالتى هى أحسن،عملا بقوله تعالى: اِدْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَ بَيْنَهُ عَداوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ [فصلت:34].

و كان يقول:إذا بلغك عن أخيك شىء يسوؤك فلا تغتم،فإن كنت كما يقول القائل كانت عقوبة قد عجلت،و إن كنت على غير ما يقول كانت حسنة لم تعملها.

و كان رقيقا مع كل من يعامله،من عشراء و خدم،و يروى فى ذلك أنه بعث غلاما له فى حاجة فأبطأ فخرج يبحث عنه،فوجده نائما فجلس عند رأسه،و أخذ يروح له حتى انتبه،فقال:ما ذلك لك تنام الليل و النهار،لك الليل و لنا النهار.

على أن التسامح و الرفق ليبلغ به أن يدعو اللّه بأن يغفر الإساءة لمن يسىء إليه، و يروى فى ذلك أنه كان إذا بلغه شتم له فى غيبة يقوم و يتهيأ للصلاة،و يصلى طويلا، ثم يدعو ربه ألا يؤاخذ الجانى،لأن الحق حقه و قد وهبه للجانى،غافرا له ظلمه، و كان يعتبر من ينتقم من عدوه و هو قادر على الانتقام ذليلا،و إذا كان فى العفو ذل فهو الذل فى المظهر لا فى الحقيقة،بل إنه لا ذل فيه،و الانتقام إذا صدر عن القوى إذ

أهانه الضعيف هو الذل الكبير،فلا ذل فى عفو،و لا عظمة فى انتقام،و لقد قال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:ما نقص مال من صدقة،و ما زاد عبد بالعفو إلا عزا،و من تواضع للّه رفعه.

و إن الحلم و التسامح خلق قادة الفكر و الدعاة إلى الحق كما قال تعالى: اُدْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّکَ بِالْحِكْمَةِ وَ الْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَ جادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ [النحل:125]و كما قال آمرا نبيه،و كل هاد بل كل مؤمن: خُذِ الْعَفْوَ وَ أْمُرْ بِالْعُرْفِ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْجاهِلِينَ [الأعراف:

199].

شجاعته:

و فى صفحة 82 قال:

أولئک ذرية على و نسله الكرام صفلتهم الشدائد،و لم تهن من عزائمهم المحن، فالشجاعة فيهم من معدنه،و هى فيهم كالجبلة لا يهابون الموت،و خصوصا من يكون فى مثل أبى عبد اللّه الصادق الذى عمر الإيمان قلبه،و انصرف عن الأهواء و الشهوات،و استولى عليه خوف اللّه وحده.و من عمر الإيمان قلبه و من لا يخش إلا اللّه فإنه لا يخاف أحدا من عباده،مهما تكن سطوتهم و قوتهم،و قد كان رضى اللّه عنه شجاعا فى مواجهته من يدعون أنهم اتباع له،و هم مع ادعاء هذه التبعية الرفيعة يحرفون الكلم عن مواضعه،فهو لم يعن عن تعريفهم الحق،و تصحيح أخطائهم و عن توجيههم حتى إذا لم يجد التوجيه و الملام أعلن البراءة منهم و أرسل من يتحدثون باسمه ليعلنوا هذه البراءة.

و كذلک كان شجاعا أمام الأقوياء ذوى السلطان و الجبروت،لا يمتنع عن تذكيرهم بالطغيان تعريضا أو تصريحا على حسب ما توجبه دعوة الحق من مراعاة مقتضى الحال،و يحكى أن المنصور سأله:لم خلق اللّه تعالى الذباب؟و ذلک عند ما وقعت ذبابة على وجه المنصور عدة مرات،فأجاب الصادق معرضا بأهل الجبروت و الطغيان:يذل به الجبارين.

و قد كان هذا فى لقائه للمنصور،و قد تقوّل عليه الذين يطوفون بالحكام الأقاويل،و إن هذه الإجابة فى هذا اللقاء لأكبر دليل على ما كان يتحلى به من شجاعة،و إنه فى هذا اللقاء لا يكتفى بذلک،بل ينصح المنصور قائلا له:عليک بالحلم فإنه ركن العلم،و أملک نفسک عند أسباب القدرة،فإنک إن تفعل ما تقدر عليه

كنت كمن يحب أن يذكر بالصولة،و اعلم أنک إن عاقبت مستحقا لم تكن غاية ما توصف به إلا العدل،و الحال التى توجب الشكر أفضل من الحال التى توجب الصبر.

و يروى أن بعض الولاة نال من على بن أبى طالب كرم اللّه وجهه فى خطبته، فوقف أبو عبد اللّه الصادق ورد قوله فى شجاعة المحق المؤمن باللّه وحده،و ختم كلامه بقوله:أ لا أنبئكم بأخلى الناس ميزانا يوم القيامة و أبينهم خسرانا،من باع آخرته بدنيا غيره و هو هذا الفاسق.

فراسته:

و فى صفحة 84 قال:

كان الصادق ذا فراسة قوية،و لعل فراسته هى التى منعته أن يقتحم فى السياسة، و يستجيب لما كان يدعوه إليه مريدوه،مع ما يراه من حال شيعته فى العراق من أنهم يكثر قولهم و يقل عملهم،و قد اعتبر بما كان منهم لأبى الشهداء الإمام الحسين رضى اللّه عنه،ثم لزيد و أولاده،ثم لأولاد عبد اللّه بن الحسن،و لذا لم يطعهم فى إجابة رغباتهم فى الخروج،و كان ينهى كل الذين خرجوا فى عهده عن الخروج.

و إن الأحداث التى نزلت بأسرته و وقعت حوله،و أحيط به فى بعضها قد جعلته ذا إحساس قوى يدرک به مغبة الأمور،مع ذكائه الألمعى و زكاة نفسه فكان بهذا من أشد الناس فراسة و ألمعية،و أقواهم يقظة حس و قوة إدراک الخ.

هيبته:

و فى صفحة 85 قال:

أضفى اللّه على جعفر بن محمد الصادق جلالا- و نورا من نوره،و ذلک لكثرة عبادته،و صمته عن لغو القول،و انصرافه عما يرغب فيه الناس،و جلده للحوادث، كل هذا جعل له مهابة فى القلوب،فوق ما يجرى فى عروقه من دم طاهر نبيل،و ما يحمل من تاريخ مجيد لأسرته،و ما آتاه اللّه من سمت حسن،و منظر مهيب،و علو عن الصغائر،و اتجاه إلى المعالى،و حسبک ما ذكرنا من أن أبا حنيفة عند ما رآه فى الحيرة و هو جالس مع المنصور الذى لا- تغيب الشمس عن سلطانه،راعه منظر الصادق و اعتراه من الهيبة له،ما لم يعتره من الهيبة للمنصور صاحب الحول و الطول

و القوة،و لقد كانت هيبته تهدى الضال،و ترشد الحائر،و تقوّم المنحرف،و كان يلقى الرجل من دعاة رءوس الفرق المنحرفة،فإذا رأى ما عليه الإمام من مهابـة و جلال و روعـة تلعثم بين يديه و هو اللجوج فى دعايته،ذو البيان القوى،فإذا جادله الإمام بعد أن أخذته مهابته لا يلبث أن يقول ما يقول الإمام،و يردد ما يرشده إليه.

قـد التقى مرة بابن أبى العوجاء،و هو داعية من دعاة الزنادقة بالعراق،فلما رأى الصادق و استرعاه ما عليه من سـمت،و أخذ الصادق يتكلم لم يحر جوابـا حتى تعجب الصـادق و الحاضـرون فقـال له:ما يمنعک من الكلام؟ و يقول الزنـديق:ما ينطق لسانى بين يـديک،فإنى شاهـدت العلماء و ناظرت المتكلمين فما داخلتنى هيبة قط مثلما داخلنى من هيبتک.

و يختم الأسـتاذ هـذا الفصل بقوله:تلک بعض سـجايا الصادق،و إنه ببعض هـذه الصـفات يعلو الرجال على أجيالهم و يرتفعون إلى أعلى مراتب القيادة الفكرية فكيف و قد تحلى بهذه الصفات و بغيرها،و قد كان عطوفا ألوفا لين الجانب حلو العشرة، و كان زاهدا عابدا قنوتا شاكرا صابرا.

هذا ما أردنا ذكره-على انفراد-من انطباعات الأستاذ أبى زهرة عن شخصية الإمام الصادق عليه السّلام فى كتابه الذى خصصه لدراسة حياته عليه السّـلام و الـذى نحن بصـدد إبـداء الملاحظات عليه،و سـننتقل بالقراء إلى مجلس المناقشة معه،بعد أن نعقب على ما كتبناه هنا ببيان موجز كتمهيد للدخول فى المناقشة مع الأستاذ.

استنتاج و تعقيب:

لعل ما قـدمناه من البيان ينتهى بنا إلى نتيجـة يحسن أن يقف عنـدها الباحثون عن تاريخ الشـيعة،و ما اعتراه من ملابسات،و ما أحيط به من غموض.و كل ذلک يعود إلى الخصومة المتكونة بين الشيعة و بين الدولتين الأموية و العباسية.لأن أهل البيت عليهم السّلام هم حملة لواء المعارضة فى جميع الأدوار،و شيعتهم ينضمون إلى جانبهم مهما كلفهم الأمر،و هم أنصار تلک المعارضة،و حملة تلک الدعوة،و قد نكل بهم الأـمويون أشـد تنكيـل و اضـطهدوهم أعظم اضـطهاد،و قـد بلغ الأمر إلى حـد مؤلم إذ أصـبحت التسـمية باسم على توجب الاتهام بالتشيع،و أصبح اسم على عليه السّلام خطرا على من يذكره بخير حتى التجأ المحدثون إلى أن يكنوا عنه.

قـال ابن عساكر (1):وفـد زريق القرشـى على عمر بن عبـد العزيز فقـال:يا أمير المؤمنين إنى رجل من أهل المدينـة و قـد حفظت القرآن و الفرائض،و ليس لى ديوان.

فقال له عمر:من أى الناس أنت؟ قال زريق:أنا رجل من موالى بنى هاشم.

فقال عمر:مولى من(أنت)؟ قال:رجل من المسلمين.

فقال عمر:أسألک من أنت و تكتمنى؟ فقال زريق:أنا مولى على بن أبى طالب و كان بنو أمية لا يذكر على بين أيديهم فبكى عمر حتى وقعت دموعه على الأرض و قال:أنا مولى على؛حدثنى سـعيد بن المسيب عن سعد أن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال لعلى:أنت منى بمنزلة هارون من موسى.

و القارئ يـدرک بهـذه القصة مدى التكتم من ذكر اسم على فى العهد الأموى و لعلنا فى غنى عن ذكر الشواهد لذلک،و بيان أعمال العنف التى ارتكبها الأمويون فى معاملة شيعة على و ما سجله التاريخ مما لا يمكن إنكاره،و إن كان هناک إنكار فهو مكابرة و مغالطة.

أما الدور العباسـى فقد اشـتدت به الخصومة،و تضاعفت المحنة،و أصبح الأمر أشد نكاية و أعظم وقعا:و قد أظهر العباسيون فى بداية الأمر عطفهم على أبناء على، و الطلب بثأرهم،و الانتقام من خصومهم،كسـبا للظرف الراهن.و لكن سـرعان ما تبـدل الأمر فقـد تنكر العباسـيون للشيعة،لأنهم قد لمسوا عدم الارتياح منهم لدولتهم،و قد فتک السفاح بمن يتهمه بالميل لآل على من القواد و الزعماء،مع تظاهره بالعطف على آل على عليه السّلام.

و انقضت أيام السـفاح،و جاء دور المنصور،و هو داهية العباسيين،و يعد فى الواقع هو مؤسس الدولة،فكان يحسب لأهل البيت و أنصارهم ألف حساب،لأنه يخشاهم أكثر من غيرهم،فكان يراقبهم عن كثب،و يغرى من يحصى عليهم المؤاخذات.

1- (1) تاريخ ابن عساكر ج 5 ص 320. [1]

و قد عامل العلويين بالشدة،و قابلهم بالنقمة،و عامل أنصارهم بأقسى أنواع الظلم و الإرهاب،و القتل و التشريد،بعد أن عجز عن جلبهم إليه و استخدامهم فى دولته ليأمن جانبهم،و يمضى فى حكمه بدون معارضة أو مؤاخذة.

و لكن الشيعة قد آثروا الانفصال عن الدولة،مهما نالهم من تعذيب و تنكيل، اتباعا لأوامر الإمام الصادق عليه السّلام زعيم أهل البيت فى عصره،عند ما أعلن غضبه على الدولة و أمر الناس بعدم الركون إلى حكامها.

و هكذا تمر الأدوار،و تعظم الأحداث،و يذهب ملك و يأتى آخر،و موقف الشيعة موقف ثبات و معارضة فى جميع الميادين،و قد رسخت أقدامهم على ما اعتقدوه،و هان عليهم فى سبيل ذلک ما يلاقونه،من ضروب المحن،و قدموا التضحيات المجيدة،حتى عرفوا فى قاموس لغة السياسة(إنهم أمة هدامة أو حزب ثورى لا يعترفون بنظام الحكم القائم).

و ليس من الصحيح أن يؤخذ مفهوم الشيعة بأمثال هذه التعريفات،فالشيعة يعترفون بنظام الحكم الإسلامى الذى تتخذه الدولة شعارا لها،و لكن المعارضة من الشيعة إنما هى لنفس الحكام،إذ لم يسيروا على ما يوجبه ذلک النظام و قد لعبت بهم الأهواء و الشهوات،و حكموا بنظم مختلفة و آراء مضطربة،لا تتفق مع نظم الإسلام و تعاليمه، و ما يدعونه من المحافظة على ذلک فهو بعيد عن الواقع.و ثورة الشيعة و معارضتهم إنما هى من أجل تطبيق نظام الإسلام الذى رفضه حكام الجور،و أن أعمالهم التى سجلها التاريخ تعطى صورة عن تلک الأمور المتناقضة،و الإنكار على ذلک من أعظم الأخطار التى تهدد الدولة،فمن واجبها أن تقضى على المنكرين لتلک الأعمال.

و الشيعة-مما لا جدال فيه-هم حملة لواء المعارضة و باسمهم تقوم الثورات المتتالية على تلک الأعمال المخالفة للإسلام،و كان شعورهم بوجوب القضاء على ذلک النظام الفاسد يبدو مرة،و يكمن أخرى،و يظهر حينا و يختفى حينا آخر،و هكذا حتى أصبحوا قادة المعارضة(و أبدوا فى ذلک ضروب البسالة فلم يثنهم إرهاب،و لم تلن لهم قناة،و لقد كانوا موضع إعجاب الناس و تقديرهم،و لذا فإن الخليفة الذى كان يشد قبضة الإرهاب على الشيعة كان يستفز بمسلكه جمهور المسلمين و يثير حفيظتهم) (1).

1- (1) ثورة الزنج ص 36.

و على سبيل الإجمال فإن المصادر التى بين أيدينا تتضمن تلك الحوادث، و تعطى صورة عن تلك الخصومة و اتساع دائرتها،و هى أصدق تفسير لما كان يرمى به أتباع أهل البيت،من تهم و ما يسند إليهم من آراء و أقوال لا وجود لها.و إن استعمال تلك الأساليب الخداعة،فى تضليل الناس عن واقع الأمر،كان أقوى سلاح تستعمله السلطة فى محاربة الشيعة،فقد كان يسلم من نقمة المخدوعين(من يعرفونه دهريا، و سوفسطائيا،و لا يتعرضون لمن يدرس كتابا فلسفيا أو مانويا،و يقتلون من عرفوه شيعيا،و يسفكون دم اسم من سمى ابنه عليا) (1).

و نتيجة لتلك الخصومة فقد استطاعت السلطة بقوة الحكم و شدة الإرهاب، و أساليب الدعاية،أن يقرن اسم الشيعة بالكفر عند ما يطلق،أو بالضلال عند ما يعرّف، أو البغى عند ما يصدر علماء السوء فتوى فى وجوب قتل الشيعة و إبادتهم. (2)

فيجب على المؤرخ أو الكاتب-إن كان هدفه الوصول إلى الحقيقة-أن يأخذ أثر تلك الخصومة التى نشبت بين الشيعة و بين ولاة الأمر على ممر الأيام،بعين الاعتبار،و يكون النظر إلى الحوادث بعين العقل من دون تقليد أو تعصب،إذ الاستسلام لكل قول،و الأخذ بكل رأى من دون تمحيص جناية على التاريخ.

و قد قلت سابقا:إن مهمة المؤرخ عن الشيعة،هى أعسر من مهمة من يؤرخ لغيرها من طوائف المسلمين؛لوجود عواطف الاتهام،و زوابع الافتراء،طبقا لرغبات ولاة الأمر،مما أوجد غموضا فى الموضوع،و تشويها للحقيقة،و قد اندفع أنصارهم لتأييد ما يقترحونه فى اتهام الشيعة،و نشرها فى المجتمع،حتى نالت تلك الأوهام على ممر الأيام صبغة الواقع،إذ لم تجد من يكشف عن واقعها بيد لم تلوث بأدران التعصب.

و المؤرخ أو الكاتب إذا كان مقلدا أو متعصبا لم يتسع أفق تفكيره،بل و يضيق مسلكه،فهو لا يؤدى حق التاريخ و أمانة الأجيال،لأن جموده على عبارات سلف نشئوا فى عصور مظلمة بتيارات الخلافات المذهبية يجعله أسير آراء شاذة،و ليس

1- (1) المصدر السابق ص 35.

2- (2) رسائل ابن عابدين ج 1 ص 368-369 تجد نص فتوى أبى السعود فى وجوب قتل الشيعة و جهادهم و مستنده أنهم بغاة على السلطان.

لعقله و حريـة تفكيره دخـل فى دراسـته،و لئن بقى الأمر على ما هو عليه،فسـتبقى القافلـة تتعثر فى الظلام،كما تبقى براكين العـداء تغلى،و يخشـى انفجارها بين آونة و أخرى، و فى كل فترة يبرز كاتب مأجور،يحمل بيده مقدحة الفتنة،ليوقد نارها فنسطلى بلهيبها،و أعداؤنا يعملون عملهم الجدى،فيما يعود عليهم بالنفع و التقدم،و لا نكسب من ذلک إلا الخسران و التأخر.

و نحن الآن،و بعـد أن لمسـنا أضـرار ذلک التفکک و الانقسام،نأمل كما يأمل كثير من الناس؛أن تطرح المغالطات جانبا،و أن يتركز البحث على إظهار الحقيقـة،ليرفع السـتار و تزول الأشـباح المخيفـة الجاثمة من ورائه،و هناک يكون التفاهم،و يحصل التقارب الواقعى،و يخسـر هنالـک المبطلـون الـذين يعظم عليهم تقـارب المسـلمين، لأـنهم يعيشـون فى المـاء القـذر،و لاـ يهمهم إلاـ الهوس و التهريـج،و إثـارة الفتنة،خدمة لأسيادهم و طمعا فى الحطام الزائل.

تلک عصور مضت و أيام خلت،و ذهبت بما فيها من آلام و محن،أيام كان المسـلمون يتخاصـمون و يتنازعون،و يكفر بعضـهم بعضا.و قد واجهت الأمة الإسلامية أعظم الأخطار،و هى تحيا حياة التفكک و الانقسام.

و الآن و قد ولت تلک الأدوار بما فيها من محن و كوارث،يلزم أن نلقى سـتارا على آثار تلک الخصومات،و أن نحلل الأمور تحليلا يوصـلنا إلى الحق الـذى يجب أن نتبعه،و أن نوجه الأضواء الكاشـفة عن حقيقة ما كتب فى تلک العصور المظلمة،حول العقائد و الآراء،و لكثير من طوائف المسلمين و بالأخص الشيعة،لتظهر لنا الحقيقة كاملة و نسير على ضوء العلم و الواقع.

و نحن بهذا الوقت الحاضر لا يسعنا إلا الاعتراف بوجود وعى عام يرجى من ورائه إزالة الحواجز،التى حالت بين المسلمين و بين تقاربهم،و الدعوة إلى التآلف و التقارب لتشق طريقها بنجاح بين المسلمين جميعا.

و قـد عظم ذلک على كثيرين من ضـعفاء النفوس،و ذوى الأقلام المسـمومة، الذين لا يروق لهم اتحاد المسـلمين و تقاربهم فراحوا يثيرون الفتن و قلوبهم توقد بنار الغيظ(قل موتوا بغيظكم)فالأمة الإسلامية قد اصطدمت بواقعها،و الشعور بوجوب بناء العلاقات الإسلامية على ما أمر اللّه به و رسوله قد انتشر،و لا يمكن مقاومة هذا

الوعی بما تبثونه من غدر و خیانة فی نشر الخلاف و بذر الحقد بین صفوف المسلمین.

و إلی اللّه نبتهل بأن یجمع کلمة الأمة الإسلامیة و یحقق آمال دعاة الإصلاح فی لمّ الشعث و جمع الشمل،بعد أن لعبت بهم الأهواء و فرقتهم الخصومة.

و علی هذا الأمل المنشود،و الأمنیة التی هی غایة کل مؤمن،نسایر الأستاذ الشیخ محمد أبو زهرة فی مناقشاتنا له،ببعض ما ورد فی مؤلفه(الإمام الصادق)فعلی بساط الواقع،یعقد مجلسنا،و علی ضوء العلم نسجل مؤاخذتنا،و خدمة الأمة هدفنا، و رضا اللّه قصدنا و هو حسبنا و نعم الوکیل.

ص:77

لقاء مع الأستاذ(أبو زهرة)

اشارة

فى كتابه الإمام الصادق

القسم الأول

اشارة

ص:79

تمهيد:

هنا نلتقى مع الأستاذ أبى زهرة فى مناقشات علمية،و إبداء ملاحظات حول بعض ما جاء فى كتابه الإمام الصادق.

و الأستاذ أبو زهرة من الشخصيات العلمية فى مصر،و يتمتع بشهرة واسعة فى مجتمعه و غيره،و قد درس الفقه الإسلامى و درّسه،و له اختصاص بتاريخ التشريع الإسلامى و مذاهبه،و ألف فى حياة أئمة المذاهب،كأبى حنيفة و مالک و أحمد و الشافعى،كتبا بسط فيها للباحثين طرق التعرف عليهم،و الوقوف على ما يتمتعون به من شهرة،و ما لهم من منزلة،و هى أوضح بكثير من تلک الطرق التى رسمها المؤلفون فى مناقبهم و تاريخ حياتهم من بعض أتباعهم،و التى تجعل الوصول إلى التعرف عليهم و أخذ صورة عنهم من الصعوبة بمكان لما أودعوا فى بطون تلک الكتب من زوائد بل خرافات لا يقرها العقل.

فكانوا يتعصبون لهم،و لهذا شذوا عن الهدف،و أخطئوا فى الدلالة؛لأن التعصب أفقدهم مقياس التعريف،و هم،كما يصفهم أبو زهرة بقوله:

و كتب المناقب كتبت بعقلية متعصبة شديدة التعصب،تبالغ فيمن ترفعه إلى درجة لا يستسيغها العقل،و يمجها كما يمج الفم ما لا يتفق مع الذوق السليم،و تبالغ فى الحط من شأن غيره (1).

1- (1) الإمام مالک،لأبى زهرة ص 15.

و هـذا التعصب يجعـل الـدارس لحيـاتهم يتحمل عناء فى البحث،و جهـدا فى التنقيب،لطول المسافـة و بعـد الهـدف،و لكن مؤلفات(أبو زهرة)تبـدو أنهـا أقرب الطرق و أوصـلها للغايـة بالنسـبة لتلك المؤلفات،فهو يعالـج كثيرا من الأمور و يوجهها حسب ما يراه،و ما يصل إليه تفكيره فيجعل من الشك يقينا و من اليقين شكا،مع تساهله فى النقل و تسامحه عما يرد فى كثير من المواضيع التى تحتاج إلى بسط و بيان.

التقيت بالشـيخ أبو زهرة فى كتبه عن حيـاة أبى حنيفـة،و الشـافعى،و مالک، و أحمـد،فوجـدته كاتبا غير متعصب على أحـد منهم،و هو إلى الإعجاب و التقـدير لهم جميعا أقرب،فلا يميل مع أحـد،و لا يتحامل على آخر،فهو كاتب للجميع لا لمـذهب دون آخر،و قـد أعرض عن كثير من الزوائـد التى ذكرها اتباع أئمـة المـذاهب الـذين خرجوا بها عن حـدود الاتزان فى الاندفاع وراء أوهام التعصب،و خداع العاطفة،و تضليل التعصب.

و الآن التقى به فى كتابه عن حياة الإمام الصادق عليه السّلام و هو آخر ما كتبه فى الدراسات عن الشخصـيات التى عنى بدراسة حياتهم،و الكتابة عنهم،و هم:أبو حنيفة،و الشافعى،و مالک،و أحمد،و ابن تيمية،و ابن حزم و زيد بن على بن الحسين عليه السّلام.

و كان هـذا التأخير مبعث اسـتغراب،إذ الواجب يقضـى عليه تقـديم الكتابـة عن الإمام الصادق قبل غيره من رؤساء المذاهب الإسـلامية و غيرهم،فهو مقدم عليهم بالرتبة الزمنية،و الرتبة العلمية،إذ هو المعلم الأول لهم و أستاذهم،فأبو حنيفة و مالک و غيرهم ممن أصبحوا رؤساء مـدارس و أئمـة حـديث قد أخذوا عنه،فليس هو دونهم بل له فضل السـبق،و لا يمكن أن يؤخر عن نقص و لا يقدم عليه غيره من فضل.كما يقول المؤلف نفسه (1).

فالتأخير يبعث على الاسـتغراب من كاتب للتشريع الإسلامى،و تاريخ تطوره، و نشأة مذاهبه،لأنه كاتب للجميع و يصف نفسه بالإنصاف و عدم التحيز،و لكنه اعتذر عن الكتابة فى حياة الإمام الصادق بقلة المصادر (2).

1- (1) الإمام الصادق لأبى زهرة ص 3.

2- (2) الإمام زيد ص 4.

و هو اعتذار ربما يكون وجيها فى ظاهره،لأن قلة المصادر تجعل الكاتب فى أفق ضيق لا يستطيع أن يستمد معلوماته الكافية للدراسة.

كما أن الشيخ أبو زهرة على علمه و مكانته لا نظنه قادرا على تجاوز ما جرى عليه الناس من تقليد المذاهب الأربعة و العمل بها كأن ليس فى تاريخ الإسلام و ميدان الفقه هذه الحركة التى تزين التاريخ الإسلامى و توشحه و التى اتسمت بالاختصاص بأهل البيت النبوى الكريم،و كان الإمام الصادق فى معترك عصره و دوامة زمنه سيد الفقهاء الآخرين.

و لا يفوتنى أن أشير إلى أن الأستاذ قد كتب عن الإمام الصادق فى كتابه محاضرات فى الميراث عند الجعفرية المطبوع سنة 1955 بترجمة موجزة (1).

و كتاب المحاضرات لا يخلو من مؤاخذات لما وقع فيه من أخطاء لا يمكن السكوت عليها،و قد أشرت إليها فى الهامش و تركت ذلك للمباحث الفقهية.

كما أنه تحدث عن حياة الإمام الصادق فى كتاب الشعب (2)الصادر فى سنة 1959 و لم يتجاوز فى حديثه ما ذكره فى محاضراته إلا القليل،و لم يأت بشىء يستحق أن يسمى دراسة عن شخصية الإمام،و كنا ننتظر منه أن يتحفنا بدراسة وافية عن الإمام الصادق.

وصلنى كتاب(الإمام الصادق حياته و عصره آراؤه و فقهه)للشيخ(أبو زهرة) فأقبلت على دراسته،و تفرغت لمراجعته،و بعد أن قرأت الكتاب بأكمله قراءة إمعان و تدبر،إذ القراءة السريعة أو النظرة الخاطفة تبعد بالقارئ عن كثير من آراء المؤلفين و أغراضهم،و ربما يخطئ القارئ بهذا الشكل فى إعطاء رأيه حول الكتاب.

وجدت أن المؤلف قد جعل من نفسه فى هذا الكتاب حاكم عدل يدرس المقدمات،و يقارن و يوازن،و يستنطق الحوادث،ثم يصدر حكمه.كما أشار إلى ذلك بقوله:

و إنا على قدر جهودنا نحاول أن نصل إلى ما تطمئن إليه نفوسنا،و نرجو ألا يضيق صدر أحد حرجا بما ننتهى إليه من نتائج على أساس نظرنا،فإنا ندرس

1- (1) المحاضرات ص 28-38.

2- (2) كتاب الشعب ص 469-489.

المقـدمات كما يدرس القاضـى البينات يسـتنطقها و لا يوجهها،و يأخذ عنها،و لا يتزيد عليها،حتى إذا انتهى إلى الحكم نطق به،و نقول إننا بشر نخطئ و نصيب (1).

فـالمؤلف فى هـذا الكتـاب يقضـى بالعـدل لاـ يميل مع أحـد إلا أن يكون الحق معه،فهو كما يقول يـدرس القضايا و المقـدمات،و ينطق بـالحكم،و لاـ بـد أن يكون حكمه عادلا،و سـنرى من سـير هـذه الملاحظات ما يؤول إليه الأمر و يكشف الواقع، فإن كانت أحكامه عادلة شكرنـاه و إن كان قـد أخطأ فنحن نبين ذلک،و الرجوع عن الخطأ فضـيلة يحمـد عليها المرء،و نحن مع الحق أين ما يكون،و لا مغضـبة فى الحق و من يغضب منه فلا كرامة له و لا اعتناء به.

و قـد قلت أنـا لاـ نعير اهتمامنـا إلاـ لرجال العلم و ذوى الفهم،و كم قـد وقفنا على عشـرات من الكتب التى حررتها أقلام مأجورة،لمن لا يعرفون من الحق موضع أقـدامهم،فتهجموا على اتبـاع أهل البيت،و كتبوا بـدون حكمـة و اتزان،و أبرزوا الأمور فى غير قالبها،أولئک قوم قد ضرب الهوى على عقولهم،فجاءوا بآراء غير سديدة، ذهابا مع أهواء النفس،و خضوعا لسـلطان الطائفية الجائر،فترفعنا عن مناقشتهم لا عجزا عن ذلک و إنما إهمالا لشأنهم.

لأننا لا نعبأ بمن يسير على غير هدى،و لا يرضخ للواقع و يهرب منه عند ما يصطدم به،و إظهار الحقيقة يشق عليه،لأن القضية قضية هوس و تهريج و هدف معين لا قضية مناقشات علمية و مبادلة آراء و معالجة للمشاكل.

و على كل حال:فإن تقديرى لشخصية الشيخ أبو زهرة و ما عهدته فيه من عدم التعصب لمذهب دون آخر،جعلنى أستغرب منه ما خالف فيه الواقع و حكم عليه بـدون بينـة،فكتابه الإمام الصادق الـذى نحن بصدده الآن هو أهم من غيره لعدة أمور لا تخفى على القارئ النبيه،لذلک أعرنـاه مزيـدا من الاهتمـام فى الدراسـة،و قـد قرأته بدقـة فظهرت لى أشـياء كـثيرة تسترعى الانتبـاه،و تسـتوجب المؤاخـذة عليهـا و إبـداء الملاحظات حولها،فسجلت عليه مؤاخذات لا تتعدى حدود النقد النزيه المتركز على الموازين الصحيحة.

1- (1) الإمام الصادق لأبى زهرة ص 184-185.

و قد اقتصرت فی مناقشاتی له علی بعض دون بعض، متحریا الأهم فالأهم، أو ما یتناسب و موضوعنا، و ترکی للبعض دون مناقشة لا یعد إقرارا له، أو اقتناعا بصحته، و لکن ترکت الاستقصاء للأساتذة الذین هم أکثر تخصصا بالبحث، و أوسع فراغا للرد.

و الذی تجدر الإشارة إلیه هو أنی ربما أتناول بعض المواضیع بالاختصار و البعض الآخر بالزیادة فی البیان، فإن ذلک یعود لمقتضی الموضوع، و اتساع الوقت، و لم یکن قصدی من إبداء هذه الملاحظات إلا خدمة الحقیقة و إظهارها. إذ المؤلف- کما یعبر عن نفسه- قد نصب نفسه قاضیا، یستنطق الحوادث، و یدرس القضایا کما یدرسها القاضی ثم یصدر حکمه بعد ذلک.

و لا بد أن یکون حکمه عادلا، إن سلم من نقاط الضعف، و کانت دراسته دراسة المتثبت الذی یعالج القضایا معالجة المتمکن من فهم الأشیاء، و استجواب البینات بالطرق العادلة، ثم یصدر حکمه و یعطی رأیه الخاص، و علی هذا نساير الأستاذ و نطالبه بالعدل و الإنصاف.

کتاب الإمام الصادق لأبی زهرة:

یشتمل الکتاب علی خمسمائة و ثلاث و خمسین صفحة و هو حجم لا بأس به.

و أول ما یطالعک من الکتاب شکله و حجمه، و قد طبع علی ورق أبیض و عنوانه (الإمام الصادق حیاته و عصره، آراؤه و فقهه) و نحن لا نعتبر الظواهر و الأشکال، فربما کبرت الأجسام عن ورم، و حسنت الصور عن تدلیس. و الذی یهمنا محتوی الکتاب، و مواده لأهمیة البحث فی دراسة حیاة الإمام الصادق و ما یحیط بها من مشاکل، و ما یکتنف عصره من أحداث و ملابسات، و إعطاء الرأی الذی یقتنع به نتیجة لدراسته، و تشبع روحه بالموضوع و قد قسم الکتاب إلی قسمین:

القسم الأول: فیما یتعلق بحیاة الإمام الصادق علیه السّلام و عصره ما بین سنة 83 ه و هی سنة ولادته علیه السّلام و بین سنة 148 ه و هی سنة وفاته.

و القسم الثانی: یبدأ من ص 183 و ینتهی إلی آخر الکتاب و هو یتعلق بآراء الإمام الصادق و فقهه.

و قد تعرض فی القسم الأول إلی ذکر الفرق و أقسامها، بموجز من البیان عن

عقائدها كما هو دأبه فى كل كتاب كتبه عن رؤساء المذاهب و غيرهم،يكرر ذلک لأن لها علاقة بما يكتبه.

و نحن هنا نساير الأستاذ فيما كتبه عن الإمام الصادق و منطقنا الصدق و هدفنا جمع الكلمة،و رضا اللّه قصدنا.

و نحن كما يقول الأستاذ و اشتراطه على نفسه:نقوم بحق العلم فإن الدارس للتراث الإسلامى عليه أن يقصد إليه فى كل نواحيه،و فى شتى مذاهبه،لا يحول بينه و بين طلب الحق عصبية و لا مذهبية،و التحيز لطائفة دون طائفة و هذا نهجنا و على هذا نسير.

من هنا نبدأ:

يفتتح الأستاذ بحثه-بعد البسملة-بالحمد للّه على نعمه،و الصلاة على محمد و على آله و عترته و صحابته...

ثم يقدم اعتذاره عن تأخير الكتابة عن الإمام الصادق عليه السّلام لأن الأجدر به أن يقدم،إذ الإمام الصادق عليه السّلام أعظم شخصية إسلامية كما يوجب العلم ذلک،و من قصر النظر و ظلم الحقيقة،أن تدرس حياته كرئيس مذهب،و إمام طائفة فحسب،بل الواقع يلزمنا أن ندرسه إماما للجميع،و موجها للأمة الإسلامية،و عميدا لأعظم مدرسة فكرية فى الإسلام،فهو مقدم على الجميع بكل ما يقتضى التقديم،و لهذا فالأستاذ يتقدم بعذره عن تأخيره الكتابة عنه،فلنصغ لحديثه و نستمع لاعتذاره إذ يقول:أما بعد فإننا قد اعتزمنا بعون اللّه و توفيقه أن نكتب فى الإمام الصادق،و قد كتبنا عن سبعة من الأئمة الكرام (1)و ما أخرنا الكتابة عنه(أى الإمام الصادق)لأنه دون أحدهم،بل إن له فضل السبق على أكثرهم،و له على الأكابر منهم فضل خاص،فقد كان أبو حنيفة يروى عنه و يراه أعلم الناس باختلاف الناس،و أوسع الفقهاء إحاطة، و كان الإمام مالک يختلف إليه دارسا راويا،و من كان له فضل الأستاذية على أبى حنيفة و مالک فحسبه ذلک فضلا،و لا يمكن أن يؤخر عن نقص،و لا يقدم غيره عليه عن فضل،و هو فوق هذا حفيد زين العابدين،الذى كان سيد أهل المدينة فى عصره؛

1- (1) و هم أبو حنيفة،و مالک،و الشافعى،و ابن حنبل و ابن تيمية و ابن حزم و زيد بن على و كلها مطبوعة منتشرة.

فضلا و شرفا و دينا و علما،و قد تتلمذ له ابن شهاب الزهرى و كثيرون من التابعين، و هو ابن محمد الباقر الذى بقر العلم و وصل إلى لبابه،فهو ممن جمع اللّه تعالى له الشرف الذاتى،و الشرف الإضافى،بكريم النسب،و القرابة الهاشمية،و العزة المحمدية.

و لكنا تأخرنا فى الكتابة عنه تهيبا لمقامه،و لأن طائفة من الناس قد غالوا فى تقديره،و منهم من انحرفوا فادعوا له الألوهية،و كثيرون ادعوا أنه فى مرتبة قريبة من مرتبة النبوة،و العلماء الذين عاصروه و الذين جاءوا من بعدهم، وصفوه بأنه فى الذروة فى العلماء،و اعترفوا له بالإمامة فى فقه الدين،و لم يتجاوزوا مرتبة العالم الإمام، و المجتهد المتبع الذى يؤخذ عنه،و أخذ عنه الأئمة الأعلام،و أضاف بذلك إلى شرف النسب و طهارة العرق فضل العلم و الإمامة فيه،فاجتمع له الفضلان (1).

المناقشة:

يباغتنا المؤلف بهذه الصدمة العنيفة،و نحن فى نقطة البداية من البحث بقوله:

(و لأن طائفة من الناس غالوا فى تقديره،و منهم من انحرفوا،فادعوا له الألوهية، و كثيرون ادعوا أنه فى مرتبة قريبة من مرتبة النبوة) (2).

و لم يكن ينتظر و لا يرتجى من المؤلف هذه المباغتة المؤلمة فى أول اللقاء.هى كلمة قالها و سجلها فى كتابه،و هى فى نظرنا لها أثرها و مغزاها،فهى تحمل فى طيّاتها التشكيك بما يوصف به الإمام الصادق من علو مرتبة،و عظيم المنزلة.

و هو بهذا القول يجعل الإمام الصادق شخصية أحيطت بأوهام و تعصب،و النظر إليه لا يعدو هذه الأمور الثلاثة:الغلو،ادعاء الألوهية،ادعاء مرتبة قريبة من مرتبة النبوة،أجل فأين الواقع و أين المعتدلون؟.

الغلو يدعو إلى التعصب،و التعصب يدعو إلى إطفاء شعلة العقل و تعطيل التفكير،أما ادعاء النبوة للشخص أو ادعاء الألوهية،فنترك تقديره للمؤلف نفسه،فإنه اعتمد على مصادر لا يصح لمثله أن يعتمد عليها،لأنها غير صالحة للاستدلال.

1- (1) الإمام الصادق ص 2-4.

2- (2) الإمام الصادق ص 2. [1]

و نعود فنسائـل المؤلف،و أملنـا أن يتسع صـدره و لا يضـيق حرجا:من هم المغالون فى تقـدير الإمام؟و ما هى هـذه المغالاة و ما الـدليل عليها؟و من هم الذين ألّهوا الإمام الصادق؟أو ادعوا له مرتبة فوق مرتبة النبوة؟ و لعل المؤلف يريد أن يرجع عجلة التاريخ فيعيدنا إلى القرن الثـانى الهجرى و يقول:كان أبو الخطاب يؤلّه الإمام الصادق،و هـذا من أغرب الأمور و أبعـدها عن الواقع،إذ يتوقف عن الكتابـة لوجود رأى طائفة نقل عنهم هذا،و قد قبرت آراؤهم فى مهدها،و الكل يعترف بذلك.

ثم ما هى الفائدة التى نحصل عليها فى عصرنا الحاضر من آراء بالية،نشأت لأغراض وقتية،و لحساب من يكون هذا.

إن تلك الآراء أوجدتها خصومة مذهبية،و قد مضى المتخاصمون،و نحن أبناء عصرنا الحاضر.

أ لست القائل يا أسـتاذ فى غير هذا الكتاب حول تاريخ فقه الشيعة:(لقد مضى الذين تخاصموا فى الدين و حسابهم عند رب العالمين و كل امرئ بما كسب رهين، و لكن علينا نحن الـذين لم نشاهـد تلك الخصومـة و لم نعانها أن ننتفع بما خلفته من أفكار،لأنها ثروة فكرية،يجب الانتفاع بها،و ليس علينا شىء مما كان بين المتخاصمين«تلك أمة قد خلت لها ما كسبت و عليها ما اكتسبت» (1)أم أنه يريد منا أن نتحول من الحقائق العلميـة إلى الأمور الوهميـة،و الأساطير الخيالية،فنبرزها كأنها أمور ملموسة مثل أسـطورة السبئية،و مع ذلك فهو يعترف بأنها انقرضت و لا بقاء لها (2).

و كـذلك يعترف المؤلف بأنه لا يوجد اليوم من الشـيعة من يؤلّه الأئمة (3).و متى ألّه الشـيعة أئمتهم؟!!و لا يمكن أن يصـدر هذا القول إلا ممن يجهـل معاناة الأئمـة من أقوال الغلاة و فضـح الإمام الصادق ادعاءاتهم و عقائـدهم و تبرؤه منهم،و إجماع الشـيعة على الطعن بتلك العقائد،و إنما كان الغلو ستارا لأعداء الإسلام و أهل

1- (1) المحاضرات ص 8.

2- (2) ابن حزم لأبى زهرة ص 119.

3- (3) المذاهب الإسلامية لأبى زهرة ص 66.

البيت عليهم السّلام،و كيف تبقى صلة بمثل هذه الفرق الضالة بعد حملة الأئمة من أهل البيت ضدهم؟و حسب هؤلاء فضيحة و بعدا عن الإسلام قول الإمام الصادق«أدنى ما يخرج الرجل به من الإيمان أن يجلس إلى غال فيستمع حديثه».

و على كل حال:فما هى الثمرة من هذه الكلمة،و ما هذا الاعتذار؟إن من واجبنا أن نشتد هنا على المؤلف،و لا معنى للتساهل مع من يتهم البرىء ركونا للظنون و الأوهام،و هو مع ذلک يجعل من نفسه حاكم عدل و من واجبه أن يكون مع المتهم حتى تظهر إدانته.نعم من حقنا أن نشتد فى المناقشة و لكننا نبتعد عنها،لأن الأمر الذى توخيناه فى نقاشنا أن تكون الحجة هى الفاصل،و العقل هو الحكم، و الخلق الأدبى هو الذى يسود النقاش.

أما ادعاء الرتبة التى هى قريبة من مرتبة النبوة فلا أدرى ما ذا يقصد بهذا القول؟؟ لأنه لم يوضح ما قال،و ترک هذا بدون بيان يوجب تهويل الأمر و إثارة الشكوک.

و لئن سكت عن هذه النقطة هنا فقد أوضحها فى غير هذا الكتاب و كان ذكرها هنا أولى و أجدر به.

يقول فى محاضراته الميراث عند الشيعة:إنهم يرون(أى الشيعة)أن الأحاديث المروية عن هؤلاء الأئمة من السنة،إذ هم الذين حملوا إلى الناس علم النبى فما عندهم من علم فهو من علم الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم متبع،فعلمهم متبع أيضا.

و هكذا نرى هذه الفرقة ترفع الأئمة إلى هذه المرتبة التى لا تعلو عليها إلا مرتبة النبوة،فهم يعطون الإمام ما يعطونه للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و يعصمونه عن الكبائر و الصغائر،و عن الخطأ و النسيان و الغفلة،و لا يعلو عليه النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلا بأنه يوحى إليه،و أنه النبى المبعوث،و أن كل علم لهم مشتق من علمه الشريف (1).

هذا ما يقوله حول ادعاء المرتبة المقاربة من مرتبة النبوة،و لا أدرى ما هو مورد الاستنكار من ذلک،و ما معنى الإمامة إن لم تكن كذلک،فالإمام هو ممثل النبى، و المبلغ عنه أحكام اللّه سبحانه و تعالى،و هو أعلم الأمة و أورعهم،و أزهدهم و أتقاهم،و هو متصف بجميع صفات الكمال،و منزه عن شوائب الأعمال،و معصوم

1- (1) المحاضرات ص 23-34.

من الزلـل إلى آخر صـفاته،و إذا لـم يكن الإمـام كـذلك-كمـا نعتقـد-فمـا الفرق بينه و بين غيره،و مـا هو اختصاصه فى تحمل عبء تبليغ الأحكام و رعاية الأمة.

و أعود فأقول إن الأسـباب التى ذكرها فى اعتذاره عن تأخير الكتابة عن الإمام الصادق هى أسـباب واهية،لا تصلح أن تكون فى نظر الاعتبار مانعـة،و لئن كان الغلو و ادعاء الألوهيـة و ادعاء الرتبـة المقاربـة لرتبـة النبوة مانعة،فإن التأخير عن الكتابة فى أبى حنيفة أولى لأن أخباره قد رفعته إلى أسـمى درجـة من الكمال،و هى قريبـة من مرتبة النبوة،بل فوقها،و المؤلف مع ذلك يقول:إن اتباع مذهبه غالوا فى الثناء عليه حتى تجاوزوا فيه رتبة الفقيه المجتهد (1).

و هـذه الكلمـة لا تثير التشـكيك،و لا تبعث على الدهشـة،مع أنا وجـدناهم يرفعون مقام أبى حنيفـة إلى درجـة لا يقاربها أحد،فهو بصورة الإنسان و سيرة الملك، كما يقول الأستاذ السيد عفيفى المحامى (2).

و إنه وضع ستين ألف مسألة فى الإسلام،ثمانية و ثلاثين ألفا فى العبادات، و الباقى فى المعاملات،و لولاها لبقى الناس فى الضلالة (3).

و إنه سـراج الأمـة.و معنى ذلـك أنه دليل الهدايـة فاتباعه نجاة،و مفارقته وقوع فى ظلمات الضـلالة،إلى كثير من أقوال الغلو التى يقصـد بها تقويم شخصـيته،و إعلاء مكانته،و هـذا كله هين بالنسـبة إلى ادعاء مرتبة تعلو على مرتبة الصـحابة،بل مرتبة النبوة،و إنه كلقمان الحكيم فى عصره.

كمـا قـالوا بأن النبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم أسف أن لا يكون فى أمته مثل لقمان فى حكمته، فأخبره جبرئيل إن كان فى أمـة داود مثل لقمان يتكلم بعدد كل حبة من الصبرة حكما، فنحن نجعل فى أمتك نعمان يتكلم بعدد كل حبة من الصبرة مسائل و أجوبة...

الخ (4).

أى أن أبا حنيفة يصبح ملهما من اللّه فى علمه،يتكلم بما لم يتكلم به غيره،

1- (1) مقدمة كتاب(أبو حنيفة)لأبى زهرة.

2- (2) مقدمة كتاب(أبو حنيفة)للسيد عفيفى.

3- (3) مفتاح السعادة ج 1 ص 71. [1]

4- (4) المناقب للمكى ج 1 ص 12.

و هو بهذا يرتفع إلى درجة النبوة،و أعلى من درجة الصحابة،إذ لم يكن فيهم مثل لقمان فأسف النبى لذلک،فكان أبو حنيفة سلوته.

و أعظم من هذا أنهم ادعوا له منزلة من العلم فوق منزلة الأنبياء،فإنهم قالوا:

إن أبا حنيفة كان يعلم الخضر عليه السّلام فى حياته و لما مات أسف الخضر عليه السّلام و ناجى ربه و قال:إلهى إن كان لى عندک منزلة فأذن لأبى حنيفة حتى يعلمنى من القبر على حسب عادته حتى أتعلم شرع محمد على الكمال،فأحياه اللّه و تعلم منه العلم إلى خمس و عشرين سنة إلى آخره (1).

و قالوا:إن النبى افتخر بأبى حنيفة.و تقوّلوا عليه:بأنه يقول:إن آدم افتخر بى، و أنا أفتخر برجل من أمتى اسمه النعمان بن ثابت.

و بصورة أخرى:الأنبياء يفتخرون بى و أنا أفتخر بأبى حنيفة،و من أحبه فقد أحبنى و من أبغضه فقد أبغضنى (2).

و يطول بنا المدى إن أردنا أن نقدم للقراء نماذج من الغلو فى وضع أحاديث، و خلق حكايات،و تلفيق أقوال تستوجب تأخير الكتابة عن أبى حنيفة،و استخراج صورة صحيحة له من التاريخ و المناقب ليس الطريق لها معبدا،كما اعترف المؤلف نفسه.

و كذلک القول فى استخراج صورة صحيحة لغيره من رؤساء المذاهب،فالجميع قد أحيطوا بهالة من الغلو و التقدير.

فمالک قد هجر أتباعه الأخذ بكتاب اللّه و سنة رسوله،و أخذوا بقوله فكان يقال لهم:قال رسول اللّه فيقولون قال مالک.إلى غير ذلک.

و الشافعى قد حصروا العلم به و أوجبوا اتباعه و التقيد بمذهبه،و أنه عالم قريش و أنه و أنه...

و أحمد ادعى له أنه قام فى الأمة مقام النبوة و أن اللّه أعز هذا الدين به و بأبى بكر

1- (1) الياقوتة لابن الجوزى ص 48 و كتاب إشراط الساعة ص 120.

2- (2) الدر المختار فى شرح تنوير الأبصار ج 1 ص 54،52.

فقط و ليس فى الإسلام مثل أحمد بن حنبل (1)و أن حبه علامة السنة و بغضه علامة البدعة،و أن الصلاة عليه أفضل من الجهاد فى سبيل اللّه (2)و أن من أبغضه كافر و لو لا أحمد لذهب الإسلام (3)و أن من لم يرض بإمامته فهو مبتدع (4).إلى آخر ما هنالک من أقوال،و بهذا العرض السريع أمام القراء أترک لهم الحكم و إذا ما كان الغلو يدعو إلى تأخير الكتابة عن الشخص،فلما ذا لا يدعو ذلک إلى تأخير من هو محاط بهالة من الغلو أكثر من غيره؟و بهذا يظهر من الأستاذ أبو زهرة أن هؤلاء الذين كتب عنهم هم أقل غلوا،و الطريق إلى معرفتهم أسهل بكثير من طريق معرفة شخصية الإمام الصادق عليه السّلام.

هذا ما ينم عنه قوله،و ما يعبر عنه تعبيره،و لكننا لا نترک هذا الموضوع إلا بأن نستفهم من الأستاذ عن معالجته لموضوع الغلو و لم لم يتعرض له؟ و أما التأليه للأئمة-و العياذ باللّه-فلم يذكر عنه شيئا-لأنه لم يكن هناک من شيء سوى أبواق دعاية التضليل،و خرافات و أقوال واهية لا تصلح أن تكون محل اعتبار.

أما غلو أصحاب المذاهب فقد وجهه المؤلف و عزاه إلى التعصب.و استخرج ما شاء و ترک ما شاء،و دافع أكثر من غيره،و له رأيه،و لا نتشدد فى المؤاخذة عليه فنحن نخالفه فى الرأى،و سنعطى رأينا حول أسباب تأخيره الكتابة كما نراه.

تمهيد الأستاذ أبى زهرة:

مهد الأستاذ لدراسته عن الإمام بتمهيد لطيف بعد ذكره لكلمة الإمام الصادق عليه السّلام:(إياكم و الخصومة فإنها تحدث الشک و تورث النفاق)و ذلک التمهيد يتضمن سوء عاقبة الخصومة فى الدين،لأنها تحدث تشكيكا فى الحقائق،و حيث كان التشكيک كان الاضطراب النفسى،و إن طلب الحق يجب أن يكون لذات الحق،فلا يستقيم الفكر إلا إذا أخلص القلب،و لا يخلص القلب إلا إذا اتجهت النفس بكليتها

1- (1) تهذيب تاريخ ابن عساكر ج 2 ص 32.

2- (2) نفس المصدر ص 34.

3- (3) طبقات الحنابلة ج 1 ص 13. [1]

4- (4) نفس المصدر ص 15. [2]

نحو الحقيقـة،و لـذلک يضـيع الحق دائما وسط ما تثيره الخصومات من لجاجـة،و ما يجتهـد کل خصـم من أن يـدحض حجة صاحبه،غير ملتفت لما يکون فی قوله،أو ادعائه من صواب.

و إن الخصومـة حول الحقائق،و خصوصا الدينيـة هی آفـة الأمم فی قـديمها و حـديثها،و إن کلمة الإمام الهاشـمی العلوی الفاطمی(جعفر الصادق)کلمة مصورة تمام التصوير لتلک الحقائق،و کأنها نور يشق حجب الغيب،و يصور ما وقع؛و يهدی إلی التی هی أقوم.

ثم يذکر الفرق بين الخصومة فی الدين،و اختلاف الفقهاء حول استنباط الأحکام التی ليس فيها نص قطعی الدلالة و الثبوت.

و يسـتمر فی البيـان فيقول:و إننـا وجـدنا بعـد أن ذهبت الخصومـة التی صـحبت فتنـا کانت تموج کموج البحر،و قـد ظهرت کقطع الليل المظلم،أن الفرق التی حملت هـذه الخصومات حملت مع الافتراق علما فيه بيان وجهات النظر المختلفـة،ففی کل فرقـة من الفرق ميراث لعلم غزير يجب أن يدرس،و يمکن أن نسـتخلص منه حقائق تفيد الإسلام،و قد تتخذ سلاحا للدفاع عنه کتلک الفلسفة التی ترکها المعتزلة فی تنزيه اللّه تعالی.

و إن فی الآـراء الفقهيـة التی وصـلت إليهـا بعض الفرق الإسـلامية،کالزيديـة و الإماميـة مـا يصـح الأخـذ به،و يکون علاجا لبعض أدوائنا الاجتماعية،و هو فی ذاته لا يخالف کتابا و لا سـنة،بل اسـتنباط حسن علی ضوئهما،و قد أخذت قوانين مصر بالفعل من آراء الإمامية،وقوع الطلاق الثلاث بلفظ الثلاث طلقـة واحدة،نعم صـرحت المذکرة التفسـيرية أنها أخذته من ابن تيمية،و لکن ابن تيمية صـرح بأنه أخذها من أقوال الأئمـة من آل البيت،و أخذ قانون الوصـية رقم 71 سنة 1946 بإجازة الوصـية لوارث، و هو رأی عنـد الإماميـة،و إن کان المأثور عن الإمام جعفر خلافه.

الملاحظة:

نتفق مع الأستاذ فی کثير من أقواله،و هو بحديثه هذا يبعث الأمل فی النفس بتحقيق ما يجب علی کل مسلم تحقيقه،من الدعوة إلی الألفة و نبذ الخصومات، و ترک الحزازات،ليخف المصاب و يهون الخطب،و يزول سوء التفاهم،بالدعوة إلی

التقارب فی عصر أحوج ما نکون فیه إلی التفاهم و التقارب.

فقد حلت بنا مشاکل متشابکة.و فرقتنا عوامل مختلفة،و هی لا تزال تفتک بدائها رغم الوعی الذی حصل فی الآونة الأخیرة عند أکثر المفکرین،و دعاة الإصلاح،و نحن نشکر الأستاذ لهذا الشعور.

و الذی یلزمنا أن نؤاخذه فیه علمیا هو نسبة الأثر عن الإمام الصادق بعدم الوصیة للوارث،و الذی یظهر من الأستاذ جزمه بهذا،و الواقع خلاف ما ذهب إلیه،فإن الأثر الصحیح عن الإمام الصادق هو إجازة الوصیة للوارث.

قال أبو بصیر:سألت أبا عبد اللّه علیه السّلام عن الوصیة للوارث؟فقال:تجوز.

و قال محمد بن مسلم:سألت أبا عبد اللّه علیه السّلام عن الوصیة للوارث؟فقال:

تجوز.

أما ما رواه القسم بن سلیمان قال:سألت أبا عبد اللّه عن رجل اعترف لوارث بدین فی مرضه،فقال:لا تجوز وصیته لوارث و لا اعتراف له بدین.

فقد حمل ذلک علی نفی الوصیة بالزائد عن الثلث،کما فی الحدیث النبوی المروی عن تحف العقول أنه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال:إن اللّه قد قسم لکل وارث نصیبه المیراث، و لا تجوز وصیة الوارث بأکثر من الثلث.

و الذی تجدر الإشارة إلیه-هنا قبل مغادرتنا هذا الموضوع-هو أن عبارة الأستاذ حول إجازة الوصیة للوارث فی المذهب الجعفری توهم بأن ذلک مخالف لکتاب اللّه العزیز،و الحقیقة أن القول بعدمها خلاف لکتاب اللّه إذ یقول عز من قائل:

کُتِبَ عَلَیْکُمْ إِذا حَضَرَ أَحَدَکُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَکَ خَیْراً الْوَصِیَّةُ لِلْوالِدَیْنِ وَ الْأَقْرَبِینَ [البقرة:

180]،فهذا نص،و ادعاء نسخه بالحدیث الذی رواه أبو قلابة عن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنه قال:«لا وصیة لوارث»فهو خبر آحاد،و الکتاب لا ینسخ بخبر الآحاد،و علی مذهب الشافعی أن القرآن لا ینسخ بالسنة (1)و لذلک ادعی بعضهم الإجماع علی مضمون الخبر و ذهب بعضهم إلی أن الحدیث مخصص للآیة (2).

1- (1) نیل الأوطار للشوکانی ج 6 ص 40.

2- (2) بدائع الصنائع للکاسانی الحنفی ج 7 ص 331.

و نحن نأمل من الأستاذ أن يترک التعبير بما يثير الشک و يطمس الحقيقة و کان الأجدر به أن يشير إلی الخلاف ليسلم من المؤاخذة فی مخالفة ما وعد فيه بتمهيده السابق.

و بعد ذلک ينتقل إلی البحث حول المتعة و ينسب إلی الإمام الصادق عن کتب الزيدية بأنه قال:هی الزنا،و يذهب لتأييده و يبدی رأيه بأن المتعة من المخادنة التی نهی اللّه عنها.

و هذه المسألة قد حررها العلماء و بسطوا القول فيها،و کثر فيها النقاش و الجدل،و لا جدال فی مشروعيتها فی عهد النبی صلّی اللّه عليه و آله و سلّم،و ادعی بعد ذلک نسخها،و قد ثبت علی تحليلها بعد رسول اللّه صلّی اللّه عليه و آله و سلّم جماعة من السلف،منهم من الصحابة:أسماء بنت أبی بکر،و جابر بن عبد اللّه،و ابن مسعود،و ابن عباس،و معاوية،و عمرو بن حريث،و أبو سعيد و سلمة ابنا أمية بن خلف،و رواه جابر بن عبد اللّه عن جميع الصحابة مدة حياة رسول اللّه صلّی اللّه عليه و آله و سلّم و مدة أبی بکر و عمر إلی قرب آخر خلافة عمر (1).

و قال الحافظ فی التلخيص:و من المشهورين بإباحتها ابن جريح فقيه مکة و لهذا قال الأوزاعی:يترک من قول أهل الحجاز خمس منها متعة النساء (2).

و روی عن عمر بن الخطاب أنه إنما أنکرها إذا لم يشهد عليها عدلان (3).

و قال ابن بطال:روی أهل مکة و اليمن عن ابن عباس إباحة المتعة و روی عنه الرجوع بأسانيد ضعيفة،و إجازة المتعة عنه أصح و هو مذهب الشيعة (4).

و قال الشوکانی:و ممن حکی القول بجواز المتعة عن ابن جريح،الإمام المهدی فی البحر،و حکاه عن الباقر و الصادق و الإمامية (5).

و من هذا يظهر أن کتب الزيدية تنص علی أن الإمام الباقر و الصادق عليه السّلام کانا يقولان بجواز المتعة.

1- (1) المحلی لابن حزم ج 9 ص 519.
2- (2) نيل الأوطار ج 6 ص 135.
3- (3) المحلی ج 9 ص 520.
4- (4) العدة لمحمد بن إسماعيل الصنعانی ج 4 ص 195.
5- (5) نيل الأوطار ج 6 ص 136.

أما ما ذكره المؤلف هنا من أن الإمام الصادق قال عن المتعة إنها الزنا،فهو لا صحة له و مكذوب عليه،و ليت المؤلف ذكر المصدر لذلک.

و الـذى أراه أنه اشـتبه على المؤلف الأمر فيما ذكره الشوكانى عن الخطابى إذ يقول:و البيهقى نقل عن جعفر بن محمـد أنه سـئل عن المتعة فقال:هى الزنا بعينه.

فظن المؤلف أن هذا النقل عن الشوكانى،و يعتبر ذلک كرواية يرويها عن الإمام الصادق عليه السّلام و قد ذكر ذلک محمد بن إسماعيل فى العدة (1)و لا أسـتبعد ذلک من تساهل الشـيخ فى النقل و تسرعه فى الحكم،و لنترک الحديث فى الموضوع لمحله فى المباحث الفقهية،و نفسح المجال للأسـتاذ فى حديثه،و نحن نصـغى إلى ما يقول معرضين عن مناقشته فى أمور كثيرة نتحمل ما يمر على أسماعنا من أقوال هى أبعد ما تكون عن الحق،و لا نحب أن نقطع حديثه فيما نسـتنكره خشـية طول المكث،فالنقاش معه طويل،و نحن فى أول مرحلة من مراحل البحث،كما لا نحب مبادرته فى المناقشـة،و الرد حول أمور نحاول أن نجـد لها عـذرا من جانبه،و لأننا نحب أن نخطو معه خطوات يسودها الاتزان،و التجرد عن النقد المرير.

خطوات تحقيق هـدف سام،و غايـة شـريفة،و أمل منشود من قديم الزمن،و هو رفع الالتباس،و إزالة الحواجز عن طريق التقارب و التفاهم و نحن نود أن ينتهى بنـا السـير و لا نتفرق من مجلس النقاش إلا على ما نحب من الوصول إلى الحقيقـة،و لا سـلطان للعاطفـة علينا،و لا أثر لغبار الطائفية فى أبرادنا.

نريد أن نتفاهم،و نريد أن نصل إلى الواقع،عسـى أن يزول كابوس الطائفية الرعناء،التى مزقت جسم الأمة و نهشت عظامها و فرقت شملها،و من اللّه نستمد العون و عليه الاتكال.

بيت الإمام الصادق من سنة 80 ه إلى سنة 148 ه

>بيته:< يتكلم المؤلف تحت هـذا العنوان عن بيت الإمـام الصـادق عليه السّلام فيقول:كـان الـبيت العلوى أكبر مصـادر النور و العرفـان بالمدينة المنورة،فإنه منذ نكبة الإسلام

1- (1) العدة ج 4 ص 195. [1]

بمقتل الشهيد و أبى الشهداء الحسين بن على رضى اللّه عنهما انصرف آل البيت إلى العلم النبوى يتدارسونه...

ثم يتحول إلى الإشارة لجده زين العابدين و أبيه الباقر عليه السّلام و قال:و كان يقصده-أى الإمام الباقر عليه السّلام-من أئمة الفقه و الحديث كثيرون:منهم سفيان الثورى،و سفيان بن عيينة محدّث مكة،و منهم أبو حنيفة فقيه العراق،و كان يرشد كل من يجىء إليه و يبين له الحق الذى لا عوج فيه.و لنذكر لک مناقشة جرت بينه و بين أبى حنيفة فقيه العراق،و كان أبو حنيفة قد اشتهر بكثرة القياس،حتى تناولته الألسن، و إليک بعض ما جرى بينهما.

قال محمد الباقر:أنت الذى حولت دين جدى و أحاديثه إلى القياس!! قال أبو حنيفة:اجلس مكانک كما يحق لى،فإن لک عندى حرمة كحرمة جدک صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى حياته على أصحابه،فجلس ثم جثا أبو حنفية بين يديه،ثم قال:إنى سائلک عن ثلاث كلمات،فأجبنى:الرجل أضعف أم المرأة؟ قال الباقر:المرأة أضعف.

قال أبو حنيفة:كم سهم المرأة فى الميراث؟ قال الباقر:للرجل سهمان و للمرأة سهم.

قال أبو حنيفة:هذا علم جدک و لو حولت دين جدک لكان ينبغى فى القياس أن يكون للرجل سهم،و للمرأة سهمان،لأن المرأة أضعف،ثم الصلاة أفضل أم الصوم؟ قال الباقر:الصلاة أفضل.

قال أبو حنيفة:هذا قول جدک،و لو حولت قول جدک لكان أن المرأة إذا طهرت أمرتها أن تقضى الصلاة و لا تقضى الصوم،ثم البول أنجس أم النطفة؟ قال الإمام الباقر:البول أنجس.

قال الإمام أبو حنيفة:لو كنت حولت دين جدک بالقياس لكنت أمرت أن يغتسل من البول،و يتوضأ من النطفة و لكن معاذ اللّه أن أحول دين جدک بالقياس.

فقام الإمام الباقر و عانقه و قبل وجهه،و من هذا الخبر تتبين إمامة الباقر للعلماء

يحضرهم إليه و يحاسبهم على ما يبلغه عنهم أو يبدر منهم،و كأنه الرئيس يحاكم مرءوسيه ليجعلهم على الجادة...انتهى.

هذه القصة:

ذكرها الأستاذ هنا بدون مصدر و لا سند،و هى مقلوبة و مفتعلة،و القضية كانت بين الإمام الصادق عليه السّلام و بين أبى حنيفة،و كان الإمام الصادق هو الذى ساق هذه المسائل على أبى حنيفة مستنكرا عمله بالقياس،و أبو حنيفة يجيب،و قد ذكرها المؤلف على وجهها الصحيح (1)كما يلى:

عن عيسى بن عبد القرشى قال:«دخل أبو حنيفة على أبى عبد اللّه(أى الصادق)فقال له:«يا أبا حنيفة بلغنى أنک تقيس.قال:نعم.

قال:لا تقس فإن أول من قاس إبليس حين قال:خلقتنى من نار و خلقته من طين،فقاس ما بين النار و الطين،و لو قاس نورية آدم بنورية النار لعرف فضل ما بين النورين و صفاء أحدهما.

ثم قال الأستاذ:و جاء فى الكافى أيضا عن أبى حنيفة:«استأذنت عليه(أى الصادق)فحجبنى و جاء قوم من الكوفة...إلى آخر ما ذكره،و إن الإمام الصادق أنكر على أبى حنيفة قياسه و أورد عليه مسألة المقايسة بين البول و المنى،و مسألة الصلاة و الصوم و الحيض،و مسألة ميراث الأنثى،و ميراث الذكر...الخ.

فالقصة إذن مختلفة و لا بد للأستاذ بأن يستنطق ثم يحكم حسب ما يؤدى إليه رأيه،و ما أدى إليه تتبعه،و هل القصة كانت بين الإمام الباقر و أنه هو المسئول و بين أبى حنيفة و هو السائل؟أم كانت بين الإمام الصادق و بين أبى حنيفة كما هو الصحيح؟ و هنا يصدر المؤلف حكمه بصفته قاضيا فيقول:

إن لهذه القصة روايتين:إحداهما فى كتب أخبار أبى حنيفة،و تروى القصة مع أبى جعفر الباقر رضى اللّه عنهما،و تذكر أن أبا حنيفة هو الذى ساق مسألة قضاء الحائض للصوم دون الصلاة،و مسألة الاغتسال من المنى دون البول،و مسألة نصيب البنت دون الذكر.

1- (1) الإمام الصادق لأبى زهرة ص 291.

و الثانية رواية الإمامية بين أبى عبد اللّه و أبى حنيفة،و أن السؤال كان من الصادق (1).

و بعد أن حصر المؤلف الرواية بطريقين لا ثالث لهما أخذ يقارن و يوازن ليصدر حكمه فى ذلك فيقول:

هذه الرواية لم يسندها الكلينى إلا إلى أبى حنيفة،و من حقنا أن نوازن بينها و بين المروى عن أبى حنيفة رضى اللّه عنه فى مناقبه،أن المناقشة بينه و بين الباقر، و أن أبا حنيفة هو الذى أورد مسألة المقايسة...

و ما دامت الرواية مستندة إلى أبى حنيفة فإنا نقبل كلام الرواة عنهم،لأنهم أعلم به و لأن الكلينى ليس فى درجة أبى حنيفة فى الفقه... (2).

و بهذا تصح الرواية الأولى و هى أن أبا حنيفة هو السائل و المنتصر فى نظر المؤلف.

و نحن من حقنا أن نقارن و نوازن و من حقنا أن ندافع و نناقش،و لم يكن غرضنا هنا إلا إعطاء صورة عن تسرع الشيخ فى حكمه و تساهله فى نقله،و ليصغ لنا كما أصغينا له فنقول:قارن المؤلف هنا بين الطريقين عند ما حصر الرواية فيهما:أولهما كتب المناقب،و ثانيهما كتاب الكافى للشيخ الكلينى رحمه اللّه.

و قد اعتبر ما جاء فى كتب المناقب صحيحا،و هو أوثق مما جاء عن الكلينى، إذ المؤلف متحامل عليه و ما دام كذلك فهو لا يثق بما يرويه،كما صرح مرارا و هاجمه فى عدة مواطن ظلما و عدوانا.

و نحن ننبه الأستاذ لوقوعه فى هذا الخطأ الشائن،و إن دل على شىء فإنما يدل على عدم تتبعه و إحاطته،و يكشف عن تسرعه فى حكمه.

و القصة لم تكن منحصرة فى هذين الطريقين فقط،فقد رواها الكثيرون بأنها كانت بين الإمام الصادق و أبى حنيفة،و ما جاء فى كتب المناقب غير صحيح.

و لا نبعد بالقارئ فنقدم له مصادر أخرى،و لكنا نذكر هنا واحدا منها و هو

1- (1) الإمام الصادق لأبى زهرة ص 517.

2- (2) المصدر السابق ص 293.

كتاب الحلية؛لعلم من أعلام السنة،و محدث من محدثيهم،و هو أبو نعيم (1)فقد أوردها (2)بسند عن عبد اللّه بن شبرمة (3)قال:

دخلت أنا و أبو حنيفة على جعفر بن محمد،فقال لابن أبى ليلى:من هذا معک؟قال ابن أبى ليلى:هذا رجل له بصر و نفاذ فى أمر الدين.

قال:لعله يقيس الدين برأيه؟قال:نعم.

فقال جعفر لأبى حنيفة:ما اسمک؟قال:نعمان...ثم قال له:حدثنى أبى عن جدى أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال:أول من قاس أمر الدين برأيه إبليس قال اللّه تعالى له:اسجد لآدم.فقال:(أنا خير منه خلقتنى من نار و خلقته من طين)فمن قاس الدين برأيه قرنه اللّه يوم القيامة بإبليس،لأنه اتبعه بالقياس.

ثم قال جعفر:أيهما أعظم،قتل النفس أو الزنا؟ قال أبو حنيفة:قتل النفس.

قال الصادق:فإن اللّه عز و جل قبل فى قتل النفس شاهدين،و لم يقبل فى الزنا إلا أربعة.

قال الصادق:أيهما أعظم الصلاة أم الصوم؟ قال أبو حنيفة:الصلاة.

قال الصادق:فما بال الحائض تقضى الصوم،و لا تقضى الصلاة؟!فكيف ويحک يقوم لک قياسک؟..اتق اللّه و لا تقس برأيک.

هكذا يروى أبو نعيم فى كتاب الحلية هذه القصة،و هو أوثق و أشهر من كتاب المناقب لأبى حنيفة.

1- (1) أبو نعيم هو أحمد بن عبد اللّه بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهانى المتولد سنة 336 ه و المتوفى سنة 430 ه له كتب كثيرة منها كتاب الحلية فى عشرة أجزاء و هو من حفاظ الدنيا و قد تعصب عليه الحنابلة فهجر.

2- (2) حلية الأولياء ج 3 ص 196.

3- (3) عبد اللّه بن شبرمة الضبى الكوفى المتوفى سنة 144 ه قاضى الكوفة،و أحد الأعلام،روى عن أنس،و أبى الطفيل،و الشعبى،و عنه شعبة و السفيانان،و ابن المبارک،قال العجلى كان فقيها عاقلا عفيفا،ثقة شاعرا حسن الخلق.

فحكم الشيخ بانحصار طريق هذه القصة غير صحيح،و لأن قدّم الشيخ كتب المناقب على كتاب الكافى و ذهب لصحتها دونه،ففى ذلک أمر لا ـ يخفى و قصد لا ـ يجهل،دائما يتراءى من وراء الألفاظ،و لنفرض تنزلا ـ عدم الوثوق بما ينقله الشيخ الكلينى فكيف خفيت عليه المصادر الأخرى،كدعائم الإسلام،للقاضى أبى حنيفة النعمان المغربى،و هو أقدم من كتاب المناقب و غيره من كتب التاريخ و الحديث.

و على أى حال:فالمؤلف مؤاخذ هنا فى عدة أمور نرجو أن يتنبه لها و لا يضيق صدره حرجا لأن تساهله فى نقله من أهم ما يؤاخذ عليه.

و لقد عرتنى دهشة عند ما وقفت على نقل المؤلف لهذه المحاورة المحورة،إذ المشهور أنها بين الإمام الصادق و أبى حنيفة فكيف استساغ نقلها و أخفى مصدرها ثم بعد ذلک يوازن و يقارن و يحكم بصحتها...غريب ذلک.

لقد أخفى المؤلف مصدر المحاورة و نحن لا نخفيه على القراء،إن هذه القصة أو هذه المحاورة المقلوبة ذكرها الكردرى فى مناقب أبى حنيفة (1)و الخوارزمى فى مناقب أبى حنيفة أيضا (2)و كلاهما يرويانها بسند عن عبد اللّه بن المبارک فهو شاهد عيان لهذه القصة،و هى تبدأ بمكاتبة أبى المحاسن،و سند هذه المحاورة كلهم من الحنفية،و لا نكلف أنفسنا بالبحث عنهم و لكننا نكتفى باستنطاق عبد اللّه بن المبارک،فهل شاهد هذه القصة أم رواها عن أحد؟! و لا يمكن أن يكون هو المشاهد و ذلک لأنا إذا وجهنا أشعة التاريخ فإنها تكشف أن ولادة عبد اللّه بن المبارک كانت فى سنة 118 ه و وفاته فى سنة 181 ه (3)و بهذا يثبت أن ابن المبارک لم يشاهد القصة،و أنها مكذوبة عليه،إذ كيف يعقل أن يدعى مشاهدة شىء و هو فى بطون الأرحام،لأن وفاة الإمام الباقر عليه السّلام كانت سنة 114 ه أى قبل ولادة ابن المبارک بثلاث سنين و على ما يرويه الكردرى من أنه قيل إن ولادة ابن المبارک سنة 129 ه فيكون الفرق أربع عشرة سنة بين ولادة ابن المبارک و وفاة الإمام الباقر.

1- (1) المناقب للكردرى ج 1 ص 208.

2- (2) المناقب للخوارزمى ج 1 ص 167-197.

3- (3) شذرات الذهب ج 1 ص 295 و الخلاصة للخزرجى ص 179 و مناقب أبى حنيفة للكردرى ج 2 ص 167.

و على كل حال:فإن مقارنة الأستاذ و حكمه بعد ذلک غير صحيح،لأن كتّاب المناقب قد وضعوا أشياء كثيرة،و خلقوا حكايات و قالوا فيها أقوالا مغرقة فى الكذب،و مسرفة فى المبالغة،و دافعهم فى ذلک تعصبهم لإمامهم،و إعجابهم به، و هذا يستوجب التثبت فى الحكم بصحة ما ينقلونه و تحقق صدق ما يقولونه.

و لقد دفعهم التعصب إلى تغيير بعض المحاورات و المناظرات عن أصلها،أمثال هذه المحاورة و غيرها،و على سبيل المثال نشير هنا إلى ما ذكره الكردرى فى محاورة (1)مؤمن الطاق مع أبى حنيفة على غير صورتها الواقعية و قد ذكر هذه المناظرة ابن النديم فى الفهرست و هو أقدم من الكردرى و أوثق،و إليک نصها:

قال ابن النديم المتوفى سنة 378 ه فى ترجمة مؤمن الطاق:و كان حسن الاعتقاد و الهدى،حاذقا فى صناعة الكلام،سريع الخاطر و الجواب،و له مع أبى حنيفة مناظرات منها:

لما مات جعفر الصادق عليه السّلام قال أبو حنيفة لشيطان الطاق:قد مات إمامک! قال:لكن إمامک لا يموت إلا يوم القيامة.يعنى إبليس (2).

و لكن الكردرى يقلب هذه المحاورة على غير واقعها؛تعصبا و من دون مراعاة للحقيقة و التفات للأمانة.

و لإظهار الحقيقة أطلنا النقاش هنا مع الأستاذ،و إلا فالقصة لا ترفع من مقام الإمام فى واقعها،و لا تضع إن غيرت عنه،لأنا دائما يجب أن نراعى الحقيقة، و نجهد فى إظهارها من بين حجب التمويه،و غبار الشكوک.

و الذى يظهر جليا أن أبا حنيفة أخذ بأمر الإمام الصادق عليه السّلام و انتفع بوصيته عند ما أقام فى المدينة مدة سنتين و لهذا أعلن بقوله:(لو لا السنتان لهلک النعمان).

شيوخه:

يقول الأستاذ فى ص 87:هنا يختلف تفكيرنا عن تفكير إخواننا الإمامية،فهم يرون أن علمه إلهامى لا كسب فيه،و نحن نقول:إن علمه كسبى فيه إشراق

1- (1) المناقب للكردرى ج 1 ص 162.

2- (2) تكملة الفهرست ص 8.

الإخلاص،و نور الحكمة،و رياضة النفس على التقوى،و الفضيلة و السمو الروحى، و العزوف عن مناعم الدنيا و مشاغلها،و لذلک نحن نفرض أنه تلقى على شيوخ،و أخذ عنهم و دراسهم،و أنه بهذا جمع علوم الحديث،و الفقه،و القرآن،و اتصل بمعاصريه فى سبيل الحصول على هذه المجموعة العلمية،كما كان بيته بيت الحكمة و العلم.

ثم يقول الأستاذ ص 87.

و إننا لا بد أن نفرض أن أساتذته ثلاثة،تلقى عليهم،و كلهم له قدم ثابتة فى العلم،و كلهم إمام يؤخذ عنه.

أولهم جده على زين العابدين رضى اللّه عنه،فقد مات زين العابدين و الصادق فى الرابعة عشرة من عمره أو حولها،و هذه السن هى سن التلقى و الأخذ،فلا بد أنه أخذ عنه،و خصوصا أنه بقية السيف من أولاد الحسين رضى اللّه عنهم.

و إن زين العابدين هذا كان يأخذ علم آل البيت و يضيف إليه علم التابعين الذين عاصروه،و كان يدخل مسجد رسول اللّه و يجلس فى حلقاتهم و قد روى أنه قال له نافع بن جبير بن مطعم القرشى عاتبا:غفر اللّه لک،أنت سيد الناس تأتى تتخطى خلق اللّه و أهل العلم من قريش حتى تجلس مع هذا العبد الأسود!!فقال له على بن الحسين:إنما يجلس الرجل حيث ينتفع،و إن العلم يطلب حيث كان.

و روى أنه كان يسعى للالتقاء مع سعيد بن جبير التابعى و كان من الموالى،فقيل له ما تصنع به؟قال:أريد أن أسأله عن أشياء ينفعنا اللّه بها،و لا ينقصه أنه ليس عندنا ما يرمينا به هؤلاء (1).

المناقشة:

كنا نصغى لحديث الشيخ و هو يصور الشيعة بأنهم ينفون أخذ الإمام الصادق عليه السّلام عن جده زين العابدين و أبيه الباقر عليه السّلام،و هذا أمر لا تقول به الشيعة الإمامية،فهم متفقون على أخذ الأئمة بعضهم من بعض،و رواية بعضهم عن بعض،فأهل البيت حلقة متماسكة،و مدرسة مستقلة تتصل برسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بأوضح السبل،و أقرب الطرق.

1- (1) ابن كثير ج 9 ص 107. [1]

و الشيخ يعد هذا الاستقلال غريبا لا يهضمه التفكير و لا يقبله ذوقه،و لهذا أصبح فى موضوع علم الإمام عليه السّلام فى لف و دوران،و يحوم حول الظنون و التخمينات و الافتراض و اللاّبدية،فهو بهذا قد خرج عن دائرة الإثبات إلى خضمّ الفروض و التخمينات،و هو لا يتفق بتفكيره مع تفكير إخوانه الإمامية فى مسألة استقلال علم أهل البيت و أخذ بعضهم عن بعض،إلا أن يضم إليهم بعضا آخر من غيرهم.

و قد فرض فرضا فأدخل القاسم بن محمد بن أبى بكر فى شيوخ الإمام الصادق لأنه جده فلا بد أنه روى عنه.

و لا محل للاّبدية،و لا مجال للافتراض،فإن الأمر يدور حول الثوابت و الوقائع.

و لا نبخس حق القاسم فهو علم من أعلام الأمة،و من الفقهاء السبعة،و من تلامذة الإمام زين العابدين عليه السّلام،و لكن لم نجد للإمام الصادق عنه رواية أو نقل قول،فالافتراض عجز،و للاّبدية تحكم.

و نحن لا نقيم للافتراض وزنا،فإنما المدار مدار الثبوت و الواقع،و قد سلك الأستاذ طريقا آخر فى إثبات أخذ أهل البيت عن غيرهم،فحدثنا برواية نافع بن جبير أن الإمام زين العابدين قد حضر عند زيد بن أسلم،و هذه الرواية قد ذكرها أيضا فى صفحة 200 و عقبها بقوله:و قد رواها صاحب حلية الأولياء بسند متصل نعتبره نحن سندا صحيحا صادقا.

و لا نتجاوز الموضوع بدون بيان،و لا بد لى أن أسارع هنا فأجيب عمّا يدّعيه هناك،من اتصال السند و صحته و صدقه.

الراوية:

قال أبو نعيم حدثنا عمر بن أحمد بن عثمان،قال حدثنا الحسين بن محمد بن سعيد،قال حدثنا الربيع بن سليمان،قال حدثنا بشر بن بكر و الخصيب بن ناصح،قالا حدثنا عبد اللّه بن جعفر عن عبد الرحمن بن حبيب بن أزدك،قال سمعت نافع بن جبير يقول لعلى بن الحسين:غفر اللّه لك أنت سيد الناس و أفضلهم تذهب إلى هذا العبد فتجلس معه-يعنى زيد بن أسلم-فقال:ينبغى للعلم أن يتبع حيث ما كان (1).

1- (1) الحلية ج 3 ص 137-138.

هذه هی الروایة الصحیحة السند،الصادقة المتن کما یقول،و قبل الخوض فی المناقشة نلفت نظر القارئ إلی الخلاف بین نقل الأستاذ و بین من نقل عنه فلیس فی أصل الروایة(تتخطی خلق اللّه)،و لیس فیها لفظ(عابثا)،و لیس فیها(إنما یجلس الرجل حیث ینتفع).فهذه الأمور لم تأت بلفظ الروایة المنسوبة إلی نافع کما ذکرها المؤلف هنا.

و نعود فنسائل الأستاذ عن حکمه السریع العاجل باتصال السند و صحته و صدق الروایة فهل عرفهم و قاس ذلک بمقیاس العلم؟إذ من الخطأ الحکم علی شیء قبل معرفته،و نحن بعد أن وجهنا أشعة التاریخ و إجراء الفحص الدقیق،تبین علة هذه الروایة فی موضعین.

الأول-رجال السند:فقد ظهر أن هذا السند الذی وصفه الأستاذ بالصحة فیهم من لم یعرف أو هو فی طیات الجهالة،و لیس له ذکر فی کتب الرجال و الحدیث إلا الربیع بن سلیمان و هما اثنان:

الأول الربیع بن سلیمان بن داود الجیزی المتوفی سنة 256 ه و لم یوثقه أحد إلا یونس.

و الثانی الربیع بن سلیمان بن داود المرادی مولاهم المصری مؤذن الفسطاط المتوفی سنة 270 ه.

و أما عمر بن أحمد بن عثمان فهذا الاسم ینطبق علی رجلین،أحدهما الحضرمی و الثانی النهروانی،و کلاهما مجهولان و أحدهما متهم بالوضع،فلا یمکن وصف هذا السند بالصحة و ذاک القول بالصدق.

أما الحسین بن محمد بن سعید فلا یعرف من هو حتی یوصف نقله بالصحة و قوله بالصدق،و لعل الأستاذ الذی صحح حدیثه یوافینا بترجمة فنشکر له ذلک.

و أما بشر بن بکر فلیس له منزلة یتحلی فیها بالصدق فیوصف حدیثه بالصحة، فهو مجهول لا یعرف،بل منکر الحدیث کما نص علی ذلک الأزدی و غیره إلی آخر السلسلة کابن أزدک و ابن ناصح.

أما اتصال السند فنرجو من الأخ المؤلف أن یوصل لنا السلسلة بین ابن أحمد و بین الربیع بن سلیمان،فإن التحقیق قد أظهر لنا الانفصال،و ذلک بطول المدة و تفاوت الوقت،و هذا من أعظم الموهنات.

الثانی-إننا یجب أن نحترم الحقائق قبل أن نحترم الشخصیات،و الحقیقة التی لا غبار علیها أن القول بحضور الإمام زین العابدین علیه السّلام فی حلقة زید کان من أعظم ضروب التجنی علی الحقائق،لأنه أبعد ما یکون عن الواقع،و ذلک بغض النظر عن علو منزلة الإمام زین العابدین:إذ هو أفقه قریش فی عصره،بل أفقه الأمة علی الإطلاق.و لیس فی عصره من یدانیه فی منزلته،أو یماثله فی علمه و معارفه.

و بعد أن فحصنا سند الروایة،و ظهرت علتها یلزمنا أن نفحص الروایة نفسها، و قد انکشف لنا أن زید بن أسلم لم تکن له حلقة درس فی عصر الإمام زین العابدین، لأن زیدا کان حدث السن لم یتجاوز عمره الخامسة و العشرین عند وفاة الإمام زین العابدین علیه السّلام فإن ولادة زید سنة 66 ه و وفاته سنة 126 ه.و کانت ولادة الإمام زین العابدین علیه السّلام سنة 38 ه و وفاته سنة 92 ه فالإمام زین العابدین علیه السّلام أکبر من زید بثمان و عشرین سنة.

فهل یستطیع أحد أن یفرض حلقة درس لشاب حدث السن مع وجود شیوخ المدینة،و سادات قریش،و کبار رجال العلم،مع أن علماء الرجال قد ذکروا زید بن أسلم فی عداد تلامذة الإمام زین العابدین و رواة حدیثه (1)و هو أصغرهم سنا،و إن أبی الشیخ إلا الإصرار علی رأیه فإنی لا أتهمه هنا فی علمه،بل أتهمه فی عاطفته و جدله، فهو یقر بهذا الأمر،کما یقول فی کتاب الإمام زید (2)بعد أن ذکر التقاء زید بواصل بن عطاء:أ یصح أن نقول إن زیدا تتلمذ علی واصل؟إن الرجلین فی سن واحدة،فقد ولد کلاهما فی سنة 80 من الهجرة النبویة أو قریبا من ذلک (3)،و یظهر أنهما عند ما التقیا کان زید فی سن قد نضجت،لأن واصلا (4)لا یمکن أن یکون فی مقام من یدرس،إلا إذا کان فی سن ناضجة.

1- (1) الخزرجی فی خلاصة تذهیب الکمال ص 131 و تذکرة الحفاظ ج 1 ص 124 و تهذیب الأسماء و اللغات للنووی ج 1 ص 200 و غیرها من کتب الرجال.

2- (2) کتاب الإمام زید لأبی زهرة ص 39.

3- (3) الصحیح أن ولادة زید کانت سنة 66-67 و ما ذکر هنا غیر صحیح،و إن ذکر ذلک بعض المؤرخین،لأن الثابت أن أم زید اشتراها المختار بن أبی عبیدة،و کان قتل المختار سنة 67 ه.

4- (4) هو أبو حذیفة واصل بن عطاء الغزال المتولد سنة 80 ه و المتوفی سنة 131 ه رئیس المعتزلة الأول،و هو واضع الأصول الخمسة التی یرتکز علیها الاعتزال،و روی الجاحظ عنه أنه کان یزعم أن جمیع المسلمین کفروا بعد رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و هو تلمیذ الحسن البصری،و اختلف معه فی مسألة مرتکب الکبیرة و اعتزل عنه،فقال الحسن:اعتزل عنا واصل،فسمی هو و أصحابه معتزلة.

هكـذا يقرر الأسـتاذ هـذه الحقيقة،و نحن نشـكره للتنبيه عليها،فقد نسب كتّاب الفرق-الذين يكتبون بدون تثبت-لزيد أنه أخذ الاعتزال عن واصل بن عطاء و تلمذ له،و هذا بعيد عن الصحة.

و ما أجـدر ذلک بالمؤلف لو التفت فی المورد الـذی نبحثه من کتابه:الإمام الصادق لهـذه الحقيقة فيقررها،فإن حضور الإمام زين العابدين عليه السّلام فی حلقـة زيـد و هو شـيخ قـد قارب الستين،و زيـد شاب لم يتجاوز السادسـة و العشـرين من عمره، شـیء لا يمكن،هذا مع الإعراض عما يحوط الرواية من الأمور النافية لذلک.

و إن استدلال المؤلف بهذه الرواية،و تكريره لها فی عدة مواطن من كتابه أمر لا يتفق مع الواقع،و هو مكذوب و لا أصل له.

و أما الرواية الثانية فهی مرسـلة لا تصلح للاستدلال،و لا أتردد فی القول إن كلا الروايتين هما من وضع الموالی،إذ الرواة كلهم منهم،و هم يحاولون رفع مكانة أبناء قومهم بكل وسـيلة،لأن زيد بن أسـلم كان من الموالی،فأرادوا أن يرفعوا من شأنه فجعلوه أستاذ حلقة يحضرها كبار قريش و علماؤهم،و من الأمور المستغربة حكم المؤلف بصحة الرواية و استنتاجه ما يؤيد به قوله،و هو أوهی من بيت العنكبوت.

و الخلاصـة:أن الشـيخ حكم بصـحة هـذه الرواية بدون التفات إلی ما يحوط بها من أمور يجب أن يلاحظها قبل إطلاق حكمه ثم يأتی بعد ذلک بأمر لا نعرفه و لا ندری ما يقصد به و هو قوله:

و لا يضـيق صـدر إخواننا حرجا،إذا استشـهدنا بكتب ليست من كتبهم،فإنا قد رأينا أفاضل من كتّابهم يستشـهدون علی فضل الصادق نقلها عنها،و لا بد أنه اعتبره صادقا فی نقله،و من وصف بالصدق فهو صادق فی كل ما ينقل،فالصدق خلة فی الصادق لا تتجزأ (1).

و نحن نقول:

لا يضـيق صدر أخينا حرجا إذا استشـهدنا لرد قوله بكتب ليست من كتبه،فإنا قد رأيناه يستشهد علی تأييد أقواله نقلها عنها،و لا بد أنه اعتبرها صادقة.

1- (1) الإمام الصادق لأبی زهرة ص 201.

و أما قوله:و من وصف بالصدق فهو صادق فی کل ما ینقل فالصدق خلة فی الصادق لا تتجزأ.

فهذا قول یثیر الدهشة،و یبعث علی الاستغراب و هو حکم یقرره الشیخ بدون دلیل،و لا أدری ما یرید بذلک،أ یرید منا أن نسلم لکل کتاب ننقل منه شیئا من باب الإلزام بأن جمیع ما فیه صادق،لأنا صدقناه فی البعض مما ینقل،و یلزم ذلک التصدیق بباقیه؟ و هل التزم فضیلته بهذه القاعدة؟أم أنه یلزم غیره و لا یلتزم،و قد رأیناه یستشهد بکتب لا یقرها و لا یعترف بصحتها،ککتاب الکافی،فهو یطعن فیه و یتهجم علی مؤلفه ظلما و عدوانا،و لا تخفی علینا بواعث ذلک التهجم.

و نسائله أیضا أنک اعتمدت علی کتاب مسند الإمام الصادق و قد جمعه مؤلف مجهول،و علیه بنیت أکثر أبحاثک فهل تصدق بکل ما ینقل؟و لا تتهم صاحبه بالکذب؟و لکنه لا یلتزم و یرید أن یلزم غیره؟! و نعود و العود أحمد:

نعود لنستمع بقیة حدیث الأستاذ بعد أن قطعنا علیه حدیثه،و سارعنا لإتمام المناقشة،و أوضحنا للقراء مدی صحة استدلاله،و قوة برهانه حول استنکاره لعلم الأئمة الاستقلالی.

و قد فاتنا أن ننبه علی ما جاء فی صفحة 63 تحت عنوان وفاة الإمام الصادق علیه السّلام إذ یقول:

و قد قال بعض الإمامیة،إن أبا جعفر المنصور دس له السم فی طعامه و لا دلیل علی هذا القول،بل إن الذی یذکره المؤرخون خلافه،لأن المنصور بکی عند ما بلغه نعیه،حتی أخضلت لحیته...و استشهد بما یرویه الیعقوبی من بکاء المنصور و قد مر بیانه.

ثم یستمر فی کلامه حول فراسة المنصور،و أن عیونه کانت یقظة متبعة،فکان علی علم باعتزال الصادق السیاسة العملیة و جنوحه إلی العلم،یغترف من مناهله و یسقی الناس من موارده و مصادره.

و لهذا نرجح أنه مات(أی الإمام الصادق)غیر مقتول بسم أو غیره انتهی.

و لا نود أن نقول كل ما يلزم أن نقوله،عما تنطوى عبارته:باعتزال الصادق السياسة العملية و جنوحه إلى العلم يغترف من مناهله...

فهى عبارة ساقها بلباقة،و ظاهرها المدح،و لكنها تنطوى على تدعيم رأيه بعدم استقلال علوم أهل البيت عن غيرهم،فلا نطيل المقالة هنا حول بقية أقواله.

و لكنا نؤاخذه بما رجّح به رأيه من نفى وفاة الإمام بالسم.فهو ترجيح بدون مرجح و تحكم على التاريخ،و لقد ذكر ذلك منهم جماعة و صرح بعضهم بأن المنصور هو الذى دس إليه السم و إليک منهم:

1-المسعودى فى مروج الذهب ج 2 ص 212.

2-ابن حجر فى صواعقه صفحة 120.

3-ابن الصباغ المالكى فى الفصول المهمة صفحة 243.

4-الشبراوى فى الاتحاف لحب الأشراف صفحة 54.

5-الشبلنجى فى نور الأبصار صفحة 144.

6-7-و القرمانى فى تاريخه،و الخفاجى فى شرح الشفاء و غيرهم مما يطول ذكره،و بهذا يظهر نسبة القول للإمامية فقط غير صحيح،و نفى وفاة الإمام الصادق غير مسموم جناية على التاريخ و ترجيح للافتراضات و اللاّبدية.

لو لا السنتان لهلک النعمان:

هذه كلمة مشهورة قالها أبو حنيفة تلميذ الإمام الصادق عليه السّلام لأنه صحبه عامين،و يعد ذلک نجاة له كما هو مدلول اللفظ،و لكن الأستاذ أبو زهرة أراد أن يموه أو يشكک فى صحة نسبة هذا القول لأبى حنيفة،فنسب نقل هذه العبارة لكتب الإمامية،كما يقول فى ص 38:و أبو حنيفة كان يروى عنه كثيرا(أى عن الصادق عليه السّلام)و اقرأ كتاب الآثار لأبى يوسف،و الآثار لمحمد بن الحسن الشيبانى،فإنک واجد فيهما رواية أبى حنيفة عن جعفر بن محمد فى مواضع ليست غير قليلة.

و يقول كتّاب الإمامية إنه قد صحبه عامين،و يقولون:إن أبا حنيفة قال فى هذين العامين:(لو لا السنتان لهلک النعمان).

المصدر:

لا أكلف الأستاذ بتتبع المصادر لهذه الكلمة المشهورة فى كتب السنة،لأن ذلک يشق عليه،إذ هو مطبوع على التساهل فى النقل،و لهذا أضع بين يديه أقرب كتاب إليه هو(مختصر التحفة الاثنا عشرية)لمحمود شكرى الآلوسى ففى صفحة 8 من الطبعة الأولى سنة 1301 ه فى الهند يقول:(و هذا أبو حنيفة رضى اللّه عنه و هو من بين أهل السنة كان يفتخر و يقول بافصح لسان:لو لا السنتان لهلک النعمان يريد السنتين اللتين صحب فيهما لأخذ العلم الإمام جعفر الصادق رضى اللّه تعالى عنه).

هذا نص العبارة فى الطبعة الأولى الحجرية و لعل تحصيلها يشق عليه،و لا يتكلف فإنى أضع بين يديه الطبعة الثانية المطبوعة فى مصر سنة 1373 ه فى المطبعة السلفية و العبارة موجودة فى الصفحة الثامنة أيضا.

و الشىء الذى يبعث على الاستغراب هو عدم وقوف الأستاذ على هذا الكتاب و اطلاعه عليه،إذ الكتاب له صدى فى العالم الإسلامى بما أحدثه من ضجة،و ما أثاره من فتنة،يوم أراد الاستعمار أن يحقق أهدافه فى بلاد الهند فى إثارة الطائفية، فانتدب لهذه المهمة رجلا يسمى شاه ولى اللّه الهندى فألف كتابا أسماه التحفة الاثنى عشرية و ملأه طعونا على الشيعة،و مات قبل أن يتمه فاتمه ولده و ترجمه إلى العربية رجل يسمى غلام محمد سنة 1227 ه و اختصره محمود شكرى الآلوسى،و حدث من وراء نشر هذا الكتاب ما حدث من مآسى لحساب الاستعمار فى البلاد الإسلامية، مما يؤلم ذكره،و بعد أن هدأت الفتنة و مر الزمن،و أفلس الاستعمار و أحس بشعور التقارب و التفاهم بين المسلمين،أراد أن يرجع عجلة التاريخ،فيلعب لعبته لتربح ورقته فأعيد طبع هذا الكتاب على يد السادة السلفية عسى أن يعيد التاريخ نفسه، و لكن خاب الأمل و كفى اللّه المؤمنين القتال و خسر هنالک المبطلون.

و بعد ذلک يقول:

و لعل هاتين السنتين كانتا عند ما خرج أبو حنيفة من العراق مهاجرا بدينه،و فرارا من تعذيب ابن هبيرة له،فإنه أقام حينئذ ببلاد الحجاز،و لعله قد لازم الإمام جعفرا فى هذه المدة.

و قد جاء فى حلية الأولياء ما يؤكد رواية هؤلاء الأعلام و غيرهم عن الإمام

الصادق فقد جاء فيها:و روى عن عدة من التابعين،منهم يحيى بن سعيد الأنصارى، و أيوب السختيانى،و أبان بن تغلب و أبو عمر بن العلاء و يزيد بن عبد اللّه الهادى، و حدث عنه من الأئمة الأعلام مالک بن أنس و شعبة بن القاسم و سفيان بن عيينة، و سليمان بن بلال و إسماعيل بن جعفر (1).

و قد رأينا كيف غالى بعض المنتسبين إلى مذهب الإمام جعفر فادعوا له علما لم يكن قد تلقاه بطرق العالم عند البشر،و من الغريب أننا نجد بجوار هؤلاء من محدثى القرن الثالث من يتشكک فى رواية الإمام الصادق عترة النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،و يتكلم فى الثقة بحديثه«كبرت كلمة تخرج من أفواههم ان يقولوا إلا كذبا»و لكنه التعصب المذهبى يعمى و يصم،و ليس فى قول المغالين،و لا فى قول المتشككين ما ينقص من مقام الإمام الصادق الجليل،فلم ينقص من مقام جده على بن أبى طالب كرم اللّه وجهه كذب الكذابين عليه،كما لم يضر عيسى بن مريم عليه السّلام افتراء المفترين عليه ما بين منكر لرسالته و مدع لألوهيته.

المؤلف سامحه اللّه قد تركزت فى ذهنه فكرة الغلو فهو يرددها بين آونة و أخرى،ليبعث التشكيک فى كثير من الأمور،و قد مر بيان ذلک،و نحن هنا نسائل المؤلف عن الغلو و عن المغالين فى الإمام بعد أن أشرنا لذلک؛و لكننا نريد أن نسائله عمن يتشكک فى رواية الإمام الصادق من المحدثين؛فإنا لم نجد منهم من يذهب إلى ذلک أبدا،نعم يسبق إلى الذهن ما ينسب إلى البخارى فى توقفه عن تخريج أحاديث الإمام الصادق عليه السّلام و قد قلنا إن عدم تخريج البخارى لحديث الإمام الصادق لا يضر بمقامه عليه السّلام بعد أن رأينا البخارى قد خرج أحاديث عن أناس لا يتصفون بالصدق و العدالة،و منهم المتهم فى عقيدته و الكاذب فى لهجته.

و المؤلف لم يذكر اسم البخارى،و ربما يتبادر إلى الذهن أن هناک من المحدثين من يتشكک فى رواية الإمام الصادق عليه السّلام فأحببنا أن يذكره للاطلاع،و بعد أن نساير الأستاذ مراحل عديدة،نجده يصرح بقوله تحت عنوان فقه الصادق صفحة 252:

«و كان(أى الإمام الصادق)من الثقات عند أهل الحديث...

و قد قالوا إن البخارى لم يقبل الأحاديث المنسوبة إليه،و أن ذلک يحتاج إلى

1- (1) حلية الأولياء ج 3 ص 199.

نظر،و قـد أشـرنا من قبل إلى أن عدم قبول البخارى للمرويات التى تنسب إليه لا يمكن أن ينال من إمامته،و الآن نقول:إنه لا يمكن أن يكون البخارى يجعل صدق من لقبه المسـلمون جميعا بالصادق موضع كلام و نظر،و أنه روى عمن دونه من التابعين فضلا.ثم يوجه ذلك برأيه و رأيه محترم».

و نحن نقول:إن عدم تخريج البخارى لأحاديث الإمام هو لشـىء فى نفس البخارى لا فى الإمام الصادق عليه السّلام،فقد روى البخارى عن أناس كذابين و آخرين منحرفين و قد مر الكلام حوله فى الجزء الأول فى هذا الكتاب.

و الخلاصـة:أن صـحيح البخارى قـد أحيط بهالـة من التعظيم و الإجلال و الإكبار، فهو عـدل القرآن،و كل ما فيه صـحيح،و قد تهيب أكثر الحفاظ عن نقـد أحاديثه،و من أقدم على ذلك عنف (1)و من أظرف ما نقل فى ذلك أن مجلس المبعوثان فى عهـد الأتراك بالعراق قد قرر مبلغا جسـيما لوزارة الحربية جعلوه لقراءة البخارى فى الأسـطول.فقال الزهاوى و كان عضوا فى المجلس:أنا أفهم أن هذا المبلغ فى ميزانية الأوقاف،أما فى الحربية فالمفهوم أن الأسطول يمشى بالبخار لا بالبخارى فثار عليه المجلس و شغب عليه العامة (2).

و لا نطيل الحديث حول البخارى فنجرح عاطفة كثير من الناس كما جرح المؤلف عواطف ملايين منهم بتهجمه على الشـيخ الكلينى بدون حجة،و نسبه لما لا يليق بشأنه،فهى كلمة لعمر اللّه قالها المؤلف بدون تأمل و تريث.

يقول المؤلف فى ص 71:

«و لو قلنـا إن علمه(أى الإمـام الصـادق)كـان إلهاميا خالصا ما كان مجتهـدا و ما كان متعرفا للأحكام،بل كانت تلقى عليه إلقاء كما يتلقّى الوحى».

ذكر هذا بعد أن مهد له تمهيدا لطيفا حول الإشـراق النفسـى،و بيان الإلهام الذى فسـره بقوله:و ما من عالم باحث إلا شـعر بأن وراء جهوده إلهاما من اللّه تعالى نسمّيه توفيقا منه و هو ولى التوفيق انظر ص 69 إلى ص 71.

1- (1) تهذيب التهذيب ج 8 ص 146.

2- (2) مجلة الرسالة ص 402 السنة الخامسة.

أقول:

و لا أدرى كيف يصح للأستاذ أن يسمى،الإلهام بأنه وحى ينزل على الأئمة كما ينزل على الأنبياء!؟و لا أدرى من أين أخذ هذا و بأى دليل يؤيده؟!فإن الشيعة لم تدّع للأئمة نزول الوحى عليهم،إذ لا نبى بعد خاتم الأنبياء،و إنما استقوا علمهم من الرسول الأعظم الذى لا ينطق عن الهوى بل هو وحى يوحى.

فدعوى أن الشيعة يدّعون نبوة الأئمة و أن علمهم وحى كالأنبياء،دعوى باطلة لا تستند إلى برهان و لا يؤيدها دليل،و ما أكثر ما رميت به الشيعة من التهم،و إن ربک لبالمرصاد.

و الذى أراه أن الكاتب قلد فى هذا الرأى بعض الكتّاب من الغربيين أو غيرهم، من الذين درسوا تاريخ الشيعة تحت ضغط التيارات الطائفية،فنقلوا و تقولوا كلما دعت الظروف القاسية لاختراعه حول الشيعة،لإبرازهم بالصورة التى يحب خصومهم أن يبرزوا للمجتمع فيها.

و لا أبعد عن الواقع إن قلت إنه أخذ هذا الرأى من كاتب مشهور و هو الأستاذ أحمد شلبى الأستاذ فى الجامعة الإسلامية بأندنوسيا كما تقدم ذكره،أو من كتب المستشرقين الذين يثيرون الشكوک و الريب.

حول الانحراف:

يبذل المؤلف جهده هنا فى بيان ظهور الانحراف فى العقائد و الآراء فى عامة المسلمين فيقول فى صفحة 121 تحت عنوان:الانحراف بين بعض الذين يدعون التشيع:و قد ظهرت تلک الحركات فى عهد الإمامين محمد الباقر و جعفر الصادق الذى نشأ فوجد أباه فى أمر مرير من هؤلاء الذين يدعون التبعية له،و هو منهم برىء، إذ كانوا يحاولون الاتصال به و بالصادق من بعده،و لكن كان ينفر منهم نفورا شديدا.

إلى أن يقول:و كان ظهور ذلک الانحراف مع آراء أخرى حول القرآن،فقد ظهر القول بخلق القرآن الذى يقصد به إثارة الفتن لا بيان الحقيقة،و قد قاله الجعد بن درهم، و منها القول بالجبر إلى آخر بيانه من ذكر فرق الغلاة و غيرهم من خطابية و بيانية...

و يذكر آراءهم و يبين الأسباب من ذكرهم هنا إلى أن يقول:و إذا كان هؤلاء قد تفرقوا فى الفرق الإسلامية ما بين مرجئة و حشوية و غيرهم،فلا بد أن نتصور أنهم قد نقلوا

الأكـاذيب على جعفر الصـادق الإمـام المفـترى عليه،و لاـ بـد أنهم دسوا فى الأحـاديث المرويـة عنه ترهـات من أبـاطيلهم،و أخبـارا من أكـاذيبهم،و أن الخطابيـة أول من تكلم فى الجفر،و نسب فيه الكلام إلى الصادق،فهل لنا أن نتصور أنه وصل إلى الكافى منهم؟و هل لنا أن نتصور أن الكلام فى نقص القرآن قد سـرى إلى الكافى منهم؟ لا نقول هذا تشـكيكا فى المصادر التى يسـتمسک بها إخواننا الإمامية،و لكنا نقوله مخلصين لنتحرى الصادق النسبة إلى الإمام الصادق،الذى هو إمام من أكبر أئمة المسلمين،و ليس إماما للاثنى عشرية فقط...الخ.

هكذا يطل بنا المؤلف على ذلک العصر،و يطلعنا على صور مؤلمة و أشباح هائلة،و هو يريد أن نتحرى الحق و أ لا نخدع بتلک الآراء.

و هكـذا يتحدث المؤلف عن ظهور الآراء المنحرفة و العقائد الشاذة،و هو يظهر الأسـى و الأسف عما ابتلى به أئمة أهل البيت ممن يتشـيع لهم.

إنه يصور لنـا عظيم الموقف و خطره،و يطيل فى بيانه،و ينتهى إلى نتائـج،منها أن هـذه الانحرافات كانت محصورة فى التشـيع كما يفهم من عباراته و تعبيره.و منها أن وضع هؤلاء الأحاديث المكذوبة كانت فى كتب الشيعة،ثم يتحول بلباقة و مهارة إلى الطعن فى الكافى إذ يقول:

(فهل لنا أن نتصور أنه وصل إلى الكافى منهم).

و يحـذف فاعل وصل و بحـذفه تعبير عما يقصـده،و كـذلک فى الجملـة التى بعـدها فهو يكتم أمرا و يعبر عن قصد،و ليس هذا أول طعونه الخفية،فله أشياء كثيرة أسدلنا الستار بيننا و بينها،و كذلک نفعل هنا.

كما نسدله على مؤاخذته فى قوله تحت عنوان الخوارج:هذه هى الطوائف التى كانت تدعى التشـيع لآل على.كما فى صـفحة 130،فما كان قصـده من ذلک؟هل أن الشـيخ تعمد أن يدخل ما يخص الطوائف التى ذكرها سابقا و يدرجها فى الخوارج؟، و هل وضع العنوان هنا خطأ عن غير قصد؟أم كان هناک قصد و اللّه من وراء القصد.

و منها:أنه يجعل الفحص و الدراسة للأخبار المدسوسة لازمة لكتب الشـيعة، و كأن الشـيعة قد أهملوا هذه الناحية فليس لهم شروط لقبول الرواية و صفات الراوى و مؤهلاته لتصديق ما يروى،مع العلم بأنهم أشد الطوائف فحصا و أعظمهم تدقيقا فى قبول المرويات،فلم يقفوا أمام كتاب موقف قدسية و تحاش عن رد رواية يرويها ما لم

تجمع شـرائط القبول،و ليس فيهم من يقول:و لو لا هيبة هذا الكتاب لقلت إن هذا الحديث غير صحيح،كما يقوله غيرهم أمام كتب ألبسوها أبراد القدسـية،و أضـفوا عليها ثياب الصـحة،و برأوها من كل ما يشين بسمعة أصحابها من القول بأن فيها ما لا يصح.و لا يجرأ أحدهم على التصـريح بالطعن فى الحديث،لأنه ورد فى كتاب الصحيح كما يدعى،فعلامة صحة الحديث عند أكثرهم هو وروده فى ذلک الكتاب، و أن الشـيعة يتشددون فى قبول الروايات،و باب الاجتهاد مفتوح عندهم،و لهم أصول قوية،و هم أقدم الفرق فى وضع الأصول.و ليس هذا محلا لبيان ما يتعلق بهذا الباب،و الغرض أن المؤلف يطعن فى كتب الشيعة بصورة جلية،و لكنه يحاول أن لا يظهر عليه ذلک و قد قلت سابقا إنه يتستر بأبراد تم عما تحتها.

المختار الثقفى:

اشارة

ثم يتحـدث المؤلف هنا عن أثر مقتل الحسـين عليه السّـلام فى النفوس المؤمنـة فيقول:«و إن هذا الأثر قد اسـتغله بعض من أولئک الذين يسـتغلون العاطفة القوية البريئة لينصروها،و يعلنوا انحرافهم من وراء نصرها،و قد كان الاستغلال شديدا بعد مقتل الحسين رضى اللّه عنه و صلى اللّه على جده و سلم.

ذلک أن المختار الثقفى الذى كان من الخوارج،ثم انتقل إلى الذين يتشـيعون لعلى كرم اللّه وجهه،و أولاده الكرام من بعده،كان قدم الكوفة مع مسلم بن عقيل بن أبى طالب عند ما جاءها من قبل الحسين رضى اللّه عنه».

ثم يتحدث عن آراء المختار (1)التى كان يبثها،و أن فرقـة تسـمى بالكيسانية قد تكونت تحمل آراءه،و إنها لا تقوم على ألوهية أحد من أهل البيت كالسبئية،ثم يذكر بعض الآراء إلى أن يقول فى صفحة 121:

(إن تفكير المختـار لم ينته،بل كان كالبـذر الخبيث الـذى يلقى فلا ينتـج إلا نكـدا) و يسـتمر فضـيلته فيسود صـحائف من كتابه بـدون أن يستخلص النتائج التى تحجب وراءها،و هنا نلمس مهارة المؤلف و لياقته فى سلوک موارد الطعن من حيث يخفى كما

1- (1) هو المختار بن أبى عبيدة بن مسـعود بن عمر الثقفى،و كنيته أبو إسـحاق ولد عام الهجرة،و أمه دومة بنت وهب،و قتل سنة 67 ه قتله مصعب بن الزبير،و قتل من أصحابه سبعة آلاف رجل كلهم خرجوا معه للطلب بدم الحسين عليه السّلام.

يظن،فأنت لا تنتهى من جملة حتى يصدمک بجملة أخرى بلهجة قاسية و تعبير شائن، و خلط فى الحوادث و مزج فى الآراء،و كل ذلک نستنكر منه،و إبداء الملاحظات على كل ما جاء يطول،و نقتصر على ما يلى:

أولا:إن حكم المؤلف على المختار بكونه كان خارجيا هو حكم قاس لا يستند إلى مادة علمية،و إنما أخذه عن قائل مجهول لا يعرف،كما نقل صاحب الإصابة بقوله:و يقال إنه كان فى أول أمره خارجيا ثم صار زيديا ثم صار رافضيا (1).

و إذا أردنا أن نسلّم كل ما يقال،فما الداعى لموازين العلم و مقاييس الرجال إذن؟،مع أن هذه العبارة هى من المضحكات،إذ ورد فيها أنه صار زيديا،و متى كانت الزيدية فى عصر المختار؟فهو فى القرن الأول و الزيدية عرفت فى القرن الثانى، إذ المختار قتل سنة 67 هجرية و زيد بن على بعد لم يولد،و هو الذى تنسب إليه فرقة الزيدية،و قتل سنة 122 ه و لنفرض أن هذا غلط مطبعى فما القول فى كونه صار رافضيا؟!لأن هذه الكلمة لم تعرف إلا فى عهد زيد بن على عليه السّلام بإجماع المؤرخين.و لكن الشيخ أخذ من هذا القول الكاذب بعضا منه و ترک البعض الآخر، فجزم بصحته و أصدر حكمه.

و يلزمنا هنا أن نقيس أحكامه الآتية على المختار على هذا النمط من التساهل و عدم التثبت.

ثانيا:قوله قدم الكوفة مع مسلم بن عقيل،و هذا غير صحيح أيضا،و لا أدرى من أين أخذه،لأن المختار كان متوطنا فى الكوفة و نزل مسلم بن عقيل عليه ضيفا.

ثالثا:كان الأجدر به و اللائق بمكانته أن يدرس الحوادث و يستنطق البينات،لأن المختار قد أثيرت حوله ضجة،و اتهم بأشياء كان اللازم على من يتصدر للحكم فى محكمة التاريخ أن يدرس ملابسات حياته،إذ المختار له أثره فى التاريخ،فهو الثائر على الأمويين،و المنتقم من أعداء أهل البيت،فما أكثر الموتورين منه.و ما أعظم خطره على الدولة الأموية،هذا من جهة و من جهة أخرى،نرى أن المؤلف كثيرا ما يعطى النتيجة بدون مقدمات،و يحكم بدون بينة،و هذا شىء لا نقرّه و نؤاخذه عليه،

1- (1) الإصابة ج 3 ص 519. [1]

لأنه قد أخذ على نفسه بدراسته عن المذاهب:(أن يستخلص الحق مما تأشب به و اختلط،كما يستخلص الذهب مما اختلط به من مواد غريبة عنه،و إن تم بينه و بينها المزج و الاتحاد،و فى هذا السبيل نرد بعض الأقوال و نقبل بعضها كما يفعل الصيرفى، إذ يرد الزيوف من النقود و يقبل النافقة الرائجة) (1).

و ليس من الحق هنا أن يعرض عما تأشب به،و ليس من الحق هنا أن تقبل المزيف و لا ترده،و إنک يا فضيلة الشيخ نصبت نفسک هنا حاكما لا مدعيا،فكان الأجدر بک ألا تأخذ بكل ما يقال فتحكم به،و إن جزمک بوجود الفرقة السبئية يهدم أملنا بک و بأمثالک من دعاة الوحدة الإسلامية،ممن نرجو بهم إظهار الحقيقة، و القضاء على الأساطير و الخرافات،التى وضعت حجر عثرة فى طريق تقارب المسلمين،و إن أسطورة ابن سباء قد آن الأوان لانتزاعها من الأذهان،فهى حديث خرافة لا يليق برجال العلم أن يعتنوا بها.فهى من وضع الزنيدقة الذين كان جل قصدهم إثارة الفتنة بين المسلمين.

كما أن اتهام المختار بما لا يليق به هو من الأمور المزيفة التى يلزم استخلاصها و عدم قبولها على ما ألحقته به الأغراض و النوايا التى عارضتها ثورته.

هذا كله بالنظر إلى قضية اتهام المختار من حيث ذاتها مجردة عن كل الملابسات،أما إذا نظرنا إليها من حيث ما جره عداء الأمويين له،و تحزبهم عليه و ساعدهم على ذلک قوم موتورون،لأنه قد حكم السيف منتقما ممن أراق دم أبناء رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فإذا تعمق الباحث فى بحثه،و مشى على ضوء الأدلة متجردا عن الهوى و العصبية،فلا يجد أى سبب لتلک الاتهامات،و المختار برىء مما علق بأبراده من درن،و كان من الواجب أن يعطى موقفه ضد أعداء أهل البيت،و موقف أبيه من قبل ضد أعداء الإسلام مزيدا من التريث فى إعطاء الحكم عليه بدون درس لقضيته و استنطاق للحوادث (2).

و إن حكم الشيخ أبى زهرة بهذه الصورة المؤلمة،فى إسناد الأفكار الخبيثة إليه،و أن المختار هو مصدر اختلاف الآراء،و نشر العقائد أمر مخالف للحق،و بعيد

1- (1) كتاب مالک لأبى زهرة ص 15.

2- (2) أضفنا بابا عن ثورة المختار فى كتابنا(مع الحسين فى نهضته)بطبعته الجديدة إنشاء اللّه.

عن الواقع.و قـد اعتمد على قول لا يعرف قائله،و ناهيک بما للاستسـلام فى الأقوال و الانقياد فى الآراء من جناية على التاريخ و الأحداث،و التخلص من قيودهما من أولى مستلزمات البحث الهادف و الدراسة العلمية.

الكيسانية:

يقول المؤلف:و قد تكونت من آراء المختار التى كان يبثها فرقة تسمى الكيسانية حملت آراءه.

ثم يـذكر عقائـدهم و بعـد ذلک يقول:و هـذه الآراء منحرفـة بلا شک،و إنها و إن كانت لفرقـة قـد قل الذين اعتنقوها،قد فتحت بابا للأخيلة الفاسدة التى جاءت من بعد.

و إذا كان الذى أثار هذا التفكير قد ثار للحسين،و أرضى قلوب قوم مؤمنين، فقد كان بهذه الآراء مثيرا لأفكار وجد من بنى عليها،و وسع فيها و استرسل فى الخيال إلى درجة الكفر،و لذلک نقول فى المختار إنه خلط عملا صالحا بعمل كثير سيئ.

و نحن نقول:

إن عمـل المختار لم يخالطه ما يسوء،و هو صالـح فى نفسه و فى عمله و ما نبز به من الاتهام،و ما رمى به من سوء الاعتقاد،فهو مفتعل عليه وضـعه أعداؤه،و لفقه خصومه،و غذته سياسة عصره بروايات موضوعة،و أخبار مفتراة،تشويها لسمعته وشلا لاتساع حركته الانتقامية،من قتلة آل محمد.

و قد دعا له الإمام السـجاد و شـكره الإمام الباقر على صـنيعه و أطراه و ترحم عليه، و كذلک الإمام الصادق عليه السّلام و تواتر الثناء عليه و الذب عنه من علماء الشيعة،و لم يغمزه إلا من لم يقف على حاله (1).

و أما قول المؤلف:قـد تكونت من آراء المختار التى كان يبثها فرقة تسـمى الكيسانية حملت آراءه:فهو قول بعيد عن الصواب،لأنا لم نجد فى المصادر الموثوق بها شيئا من ذلک.

1- (1) كتاب فرق الشيعة ص 23 تعليق العلامة الجليل السيد محمد الصادق آل بحر العلوم.

فهذا شيخ الطائفة أبو جعفر الطوسى قد ذكر الفرقة الكيسانية فى الغيبة و لم يذكر انتسابها إلى المختار.

و السيد الجزائرى ذكر(فى الأنوار)جملة من الفرق و لم يذكر انتماءهم إلى أحد،مع ذكره لكثيرين تعزى إليهم المذاهب.

و السيد مرتضى الرازى«فى تبصرة العوام»ذكر أن الفرقة الكيسانية تزعم أن أبا مسلم الخراسانى منها،و قال:إنه غير صحيح،و لم يذكر المختار أصلا.

و لو سلمنا جدلا أن الفرقة الكيسانية تنسب إلى المختار فلا موجب لتلويث سمعته،و الحط من موالاته،و إلا لجرى ذلک فى حق إسماعيل بن الصادق لانتساب الإسماعيلية إليه (1).

و قال النوبختى:إنما لقب المختار كيسان لأن صاحب شرطته المكنى بأبى عمرة كان اسمه كيسان (2).

و الحاصل أن انتساب الكيسانية إليه لا يدل على أنه صاحب المذهب و إن كانوا قد انضموا لجيشه،و تابعوه على أخذ الثار،فهو بعيد عن تلک الآراء التى تنسب إليه، و نسبتها إليه نشأت عن ضيق فى النظر،و تعصب أعمى،و فساد فى الذوق،و انحراف عن الأصول التى يجب أن يتبعها الباحث،و أن التثبت فى عزو الآراء و نسبة العقائد لازم قبل الحكم بذلک،كما أن فرقة الكيسانية ليس لها وجود معيّن و هى من وحى الخيال أسهمت فى رسم صورتها الدوافع السياسية.

و أعود فأقول:إن فضيلة الشيخ قد جعل من آراء المختار(التى هى كالبذر الخبيث)-على حد تعبيره-أساسا لجميع العقائد الفاسدة،و الآراء الشاذة،و على ذلک نهج فى ذكر العقائد و بيان الآراء،و هو يقصد أمرا و يشير إلى شىء من طرف خفى،و يحسب أنه قد أصاب الهدف و نال الغرض،و لكنه أخطأ الغرض،و ظلم فى الحكم،و هو كمن يبنى قصورا فى الهواء،أو يخط صحائف فى الماء.

1- (1) انظر رسالة تنزيه المختار المطبوعة مع كتاب زيد الشهيد لمؤلفهما العلامة السيد عبد الرزاق المقرم،و قد تكفلت هذه الرسالة- على صغرها-ترجمة المختار ورد الشبه عنه بالطرق العلمية بأوجز عبارة و أوضح بيان.

2- (2) الفرق للنوبختى ص 22. [1]

إننا لم نقصد بهذا العرض الموجز تنزيه المختار-و هو المنزه-و لكن الغرض خدمة الحقيقة و التاريخ،فنحن نكتب للحقيقة و التاريخ و لم ننكر على الشيخ تهجمه على المختار بدافع العاطفة-معاذ اللّه من ذلک-و إنما ننكر عليه لمخالفته للحقيقة، لأنا بحثنا كل ما ورد فى المختار من طعون،و ما رمى به من تهم،فوجدنا ذلک بعيدا عن الواقع،و إنما هى أمور أوجدها التحامل عليه،و البغض له من قوم موتورين،و قد استخدمت الدولة الأموية دعاتها،و اتسعت دعايتها ضده بوضع أشياء و خلق أحاديث، لتشويه سمعته و رميه بما هو برىء منه،و سنوضح ذلک فى محله (1).

و الخلاصة:أن كثيرا من الكتاب يدرسون الأمور دراسة سطحية فيقعون فى الخطأ و الظلم الفاحش،إذ يتقبلون كل قول،و يحكمون بدون تثبت.نسأل اللّه لهم الهداية لطريق الصواب و خدمة الأمة الإسلامية.

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جاءَكُمْ فاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلى ما فَعَلْتُمْ نادِمِينَ (2).

الإمام الصادق و انصرافه إلى العلم:

يتحدث المؤلف عن الإمام الصادق عليه السّلام و انصرافه للعلم-بعد أن مهد للبحث-و إنه عليه السّلام قد انصرف إلى العلم انصرافا كليا إلى أن يقول:

و لقد خاض فى عدة علوم،و بلغ فى أكثرها الذروة(بل فى جميعها)فهو نجم بين علماء الحديث،قد علم أحاديث آل البيت العلوى،و علم أحاديث غيرهم، و خصوصا أحاديث عائشة،و عبد اللّه بن عباس عن جده أبى أمه القاسم بن محمد، و استمر على منهاجه فى إلقاء الحديث.

إلى أن يقول فى ص 95:و ساد علماء عصره فى الفقه حتى كان يعلم اختلاف الفقهاء،و كان العلماء يتلقون عنه التخريجات الفقهية،و تفسير الآيات القرآنية المتعلقة بالأحكام الفقهية...

1- (1) ستأتى ترجمة المختار فى كتابنا تاريخ الكوفة،الذى وضعناه حول حوادث الكوفة و نسأل اللّه إكماله و إنجازه.

2- (2) الحجرات:6. [1]

و قد عنى بدراسة علوم القرآن،فكان على علم دقيق بتفسيره،و كان على علم بتأويله،يعلم الناسخ و المنسوخ،و كان ذلک مما تناول العلماء الكلام فيه،و قد قلنا إن القاسم بن محمد روى عن ابن عباس،و كان ابن عباس أشد المتأخرين من الصحابة الذين عنوا بالقرآن الكريم حتى وصف بأنه ترجمان القرآن،و نحن قد فرضنا فرضا صادقا أن علم القاسم بن محمد قد آل إلى حفيده الإمام الصادق فيما آل إليه من علم التابعين.

و نقول بصراحة:

إن أمر الأستاذ لمريب،و إن موقفه ليبعث على الدهشة،نحن نسير على المنهج الواقعى،و هو يبتعد عن ذلک،إننا نحاول أن نصل إلى الأمور بالبرهان،و هو يريد الفرض و التخمين،و مع ذلک يصف ما يذهب إليه بالصدق،فما أدرى أى الأمرين أعجب:افتراضه فى تصوره؟!أم وصف ذلک بالصدق،و إسباغه صبغة القبول عليه؟! هذه أمور لا ترجع إلى تصور و لا تخمين،بل هى تعود للواقع من حيث هو.

و لما ذا هذا التمحل و لأى شىء هذا الابتعاد عن الواقع؟!و ما الضير فى قول الحقيقة الصارخة بتلقى الإمام الصادق علم على عليه السّلام من جده زين العابدين،و أبيه الباقر فقط و أنه استقى من ذلک المنهل كما استقى ابن عباس و غيره.

و قد قلت سابقا فى الجزء الثالث من هذا الكتاب:إن القول بحضور الإمام الصادق عند أحد من التابعين،أو روايته عنهم لا يثبته التتبع،و هو بعيد عن الصواب، بل هى كلمات يلوكها من يرسل القول على عواهنه،و يعطى الآراء جزافا،و ينقل الأقوال بدون تثبت و تمحيص،لأننا لم نجد فى حديثه،و ما أكثر حديثه و أصدقه،أنه أسند عن أى واحد من الناس سوى آبائه الطاهرين عليهم السّلام،فإذا أراد أن يسند فسلسلة حديثه هكذا.

حدثنى أبى الباقر،قال:حدثنى أبى زين العابدين،قال:حدثنى أبى الحسين، قال حدثنى أبى على بن أبى طالب،قال حدثنى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و هو أصح الأسانيد عند علماء الحديث كما تقدم،و هو الترياق المجرب كما سماه العلماء.

و ربما أرسل حديثه عليه السّلام بدون إسناد،و لكنه أعطى قاعدة مشهورة إذ قال:

حـديثی حديث أبی،و حديث أبی حديث جدی،و حديث جدی حديث أبيه،و حديث أبيه حديث علی بن أبی طالب،و حديث علی حديث رسول اللّه صلّی اللّه عليه و آله و سلّم.

و نحن علی هـذا النهـج نسـير،فلا دخل للافتراض،و لا معنی للالتزام بالتصورات الخياليـة،و ليس بمسـتطاع أی أحد أن يأتينا برواية للإمام الصادق و فی سندها أحد غير آبائه الذين هم أصدق الناس قولا،و أعلمهم بما جاء به النبی صلّی اللّه عليه و آله و سلّم.

و من المؤسف أن الأستاذ يبرز نفسه بمظهر الاعتزاز بها،و الاعتماد علی ما توحيه إليه مخيلته من دون التفات إلی ما وراء ذلک من نقص.

إنه يری علم أهل البيت لا يكمل حتی يـدخل معهم غيرهم و لو كان واحـدا، و إننا ننفی ذلک،و هو مصـر علی رأيه،و لا ندری إلی أی حد يصـل بنا هـذا الافتراق، إذ لا نسـلم له حتی من باب الجـدل و التنازل.و نحن نطلب منه التوسع فی الدراسـة و الرجوع إلی المصادر و ترک الاـفتراض و التخمين،لأـن الحقيقـة أولی من الاـفتراض و ليس للشـيخ اسـتخدام هـذا الفرض أمـام أمر هـو فی أحـاديث أهـل الـبيت من الخصـائص و المميزات إلاـ أن يرد إقحام القاسم بن محمـد بن أبی بكر فی أمر هو فی غنی عنه، و قـد أشـرنا إلی علمه و مكانته فی أكثر من موضع فی هذا الكتاب و هو الثقة.

علم المدينة ص 158:

يتحول الأستاذ بالحديث عن علم المدينة الفاضلة،و يذكر عهد الراشدين و ما قاموا به من نشر الأحكام...

إلی أن يأتی إلی رأی ابن القيم فی حصـر الدين و الفقه و انتشاره فی الأمة بأربعة و هم:ابن مسـعود،و زيد بن ثابت،و عبد اللّه بن عمر،و عبد اللّه بن عباس إلی آخره...

و يبدأ المؤلف ملاحظته حول هذا الرأی المخالف للحقيقة لكثرة أصـحاب محمد صـلّی اللّه عليه و آله و سلّم و هم حملة رسالة الإسلام و فيهم الإمام علی بن أبی طالب،و لننقل للقراء كلمته فی ذلک بطولها.

فيقول فی ص 161:ثم إن هناک علی بن أبی طالب مكث نحوا من ثلاثين سـنة بعـد أن قبض اللّه رسوله إليه يفتی،و يرشد،و يوجه،و قد كان غواصا طالبا للحقائق، و قد أقام فی الكوفة نحو خمس سنوات،و لا بد أنه ترک فيها فتاوی و أقضية،و كان

فيها المنفرد بالتوجيه و الإرشاد، و إنه قد عرف بغزارة العلم كرم اللّه وجهه. و عمق انصرافه إلى الإفتاء فى مدة الخلفاء قبله، و المشاركة فى كل الأمور العميقة التى تحتاج إلى فحص و تقليب للأمور من كل وجوهها، مع تمحيص و قوة استنباط.

و إنه يجب علينا أن نقرر هنا أن فقه على و فتاويه و أقضيته لم تر و فى كتب السنة بالقدر الذى يتفق مع مدة خلافته، و لا مع المدة التى كان منصرفا فيها إلى الدرس و الإفتاء فى مدة الراشدين قبله، و قد كانت حياته كلها للفقه و علم الدين، و كان أكثر الصحابة اتصالا برسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فقد رافق الرسول و هو صبى قبل أن يبعث عليه السّلام و استمر معه إلى أن قبض اللّه تعالى رسوله إليه، و لذا كان يجب أن يذكر فى كتب السنة أضعاف ما هو مذكور فيها.

و إذا كان لنا أن نتعرف السبب الذى من أجله اختفى عن جمهور المسلمين بعض مرويات على و فقهه فإنا نقول: إنه لا بد أن يكون للحكم الأموى أثر فى اختفاء كثير من آثار على فى القضاء و الإفتاء، لأنه ليس من المعقول أن يلعنوا عليا فوق المنابر، و أن يتركوا العلماء يتحدثون بعلمه، و ينقلون فتاويه و أقواله للناس، و خصوصا ما كان يتصل منها بأساس الحكم الإسلامى.

و العراق الذى عاش فيه على رضى اللّه عنه و كرم وجهه، و فيه انبثق علمه، كان يحكمه فى صدر الدولة الأموية و وسطها حكام غلاظ شداد، و هم الذين يخلقون الريب و الشكوك حوله، حتى أنهم يتخذون من تكنية النبى له «بأبى تراب» ذريعة لتنقيصه، و هو رضى اللّه عنه كان يطرب لهذه الكنية و يستريح لسماعها لأن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قالها فى محبة كمحبة الوالد لولده.

و لكن هل كان اختفاء أكثر آثار على رضى اللّه عنه و عدم شهرتها بين جماهير المسلمين سبيلا لاندثارها، و ذهابها فى لجة التاريخ إلى حيث لا يعلم بها أحد...!! إن عليا قد استشهد و قد ترك وراءه من ذريته أبرارا أطهارا كانوا أئمة فى علم الإسلام و كانوا ممن يقتدى بهم، ترك ولديه من فاطمة الحسن و الحسين، و ترك رواد الفكر محمد بن الحنفية فأودعهم رضى اللّه عنه ذلك العلم...

أقول:

ذكرنا هذه الملاحظة مع طولها باختصار و فيها تقرير لحقائق يجب مراعاتها و الالتفات إليها بدون تحيز.

و نحن نأمل أن تلاحظ هـذه الملاحظات عنـد كل باحث لإعطاء البحث عن تاريخ أهل البيت و أتباعهم مزيدا من التأمل و التريث،و عدم إرسـال القول بسـرعة، و إعطاء الحكم بعجالـة،فإن تأثير ذلک التـدخل الجائر فی شـئون الأمـة قـد غير كثيرا من الحقائق،و أوجـد كثيرا من المشاكل فی طريق الباحث المتحرر.

و إن الحصر الذی ذكره ابن القيم الجوزية (1)كان من جراء ذلک التأثر،شأنه شأن كثير من المؤرخين.

و علی كل حال:فإن اتجاه الأمويين فی سياسـتهم ضـد أهل البيت،قـد وجهوا به كثيرا من الناس فی طريق الانحراف عن الواقع؛لأنهم كانوا يحاولون القضاء علی مآثر أهل البيت،فلا يسمحون لأحد أن يذكرهم بخير،أو يروی عنهم شيئا،و من خالف عوقب بأشد العقاب.

و يعطينا الحسن البصری صورة جلية عن ذلک.فإنه علی عظم منزلته فی الدولة الأموية كان لا يذكر عليا،و إذا حدث عنه يقول:قال أبو زينب و يظهر الابتعاد عن علی عليه السّلام حتی ظهر منه ما يوجب الإنكار عليه،فقال له أبان بن عياش:ما هذا الذی يقال عنک أنک قلته فی علی؟ فقال:يا ابن أخی أحقن دمی من هؤلاء الجبابرة-يعنی بنی أمية-لو لا ذلک لسالت بی أعشب (2).

و قال أبو حنيفـة النعمان بن ثابت:إن بنی أمية كانوا لا يفتون بقول علی،و لا يأخذون به،و كان علی لا يذكر فی ذلک باسـمه،و كانت العلامة باسمه بين المشايخ أن يقولوا قال الشيخ (3).

و لعل من المسـتحسن أن نعود لمناقشة الأستاذ حول كثير من آرائه،و إصدار أحكامه بدون دراسة للأمور،و معالجة للموضوع،استسلاما لما نقله بعض،أو قاله

1- (1) هو محمد بن أبی بكر بن أيوب بن سـعد بن حريز الزرعی الدمشـقی الحنبلی،المتولد سـنة 690 ه و المتوفی سـنة 751 ه كان من تلامذة ابن تيمية،و سجن معه،و له حملات علی سائر الطوائف بلهجة قاسية،و له قصيدة نونية يذكر فيها عقائد الفرق و ينتصر بها للمجسمة.
2- (2) الحسن البصری لابن الجوزی ص 7.
3- (3) مناقب أبی حنيفة للمكی ج 1 ص 171.

بعض آخر،فإن وجود مشكلة الضغط الأموى،و حجر الأفكار عن حريتها،يوجب التشكيک على الأقل فى كل ما يوجد من نقول غير لائقة بمن عرف بالعداء للأمويين و موالاته لآل على.

فهذا الحسن البصرى و هو فى ثغر البصرة يعدّ بقوة الدفاع عنهم أعظم من الجيوش المدربة فى ساحات الحرب،حتى قالوا:«لو لا لسان الحسن،و سيف الحجاج لوئدت الدولة المروانية فى لحدها،و أخذت من كرها»مع ذلک يخشى وقوع النقمة عليه إن ذكر عليا بخير،و قد ألجأه الأمر إلى أن ينال من على.

و على هذا سارت الأمور،و اتسع الخرق،و اختلط الحابل بالنابل،و ظهرت المشاكل،و سار أكثر الناس زرافات و وحدانا فى ركب تلک السياسة الجائرة،يعلنون ولاءهم للدولة بإظهار البراءة من خصومهم،و يسارعون لنشر الأباطيل و خلق التهم، و وضع الحكايات.

نعم من المستحسن أن نعود و لكن المجال لا يسع لذلک،و الذى نريد أن نقوله هنا:إنه يجب على كل كاتب أن يتحرى الواقع،و أن يحسب للظروف حسابها، و يعالج الأمور معالجة المتمكن فى دراسة عميقة،و فطرة مستقيمة فى فهم الأشياء و إصدار الأحكام.

و الشيخ المؤلف قد أصدر أحكاما كثيرة بدون مراعاة للموازين،و أظهر شىء فى ذلک إصدار حكمه فى حق الثائر المجاهد المختار بن أبى عبيدة كما تقدم،و لا نطيل الحديث هنا فيطول المكث،و الوقت من ذهب.

الفقهاء السبعة:

اشارة

و بعد ذلک يتحول المؤلف إلى ذكر الفقهاء السبعة فيقول ص 165:و لا بد أن نشير إليهم بكلمة لأنهم يصورون فقه المدينة،و هم كانوا أبرز أساتذته،و من جهة أخرى فأحدهم كان جد الإمام جعفر الصادق لأمه.

إن انحصار الفقه الإسلامى فى مهد تشريعه و محل تنزيله بهؤلاء السبعة فقط يبعث على الاستغراب،فالمدينة المنورة كانت تزخر برجال الأمة من أهل العلم، و فيها حلقات الفقه،و إليها يفد طلابه من مختلف الأقطار الإسلامية،و يتخرج منها حفاظ الحديث و حملة الفقه،لأنها دار هجرة الرسول الأعظم،و موطن الشرع و مبعث

النور،و عاصمة الحكم الإسلامی الأول،و فيها أهل بيت النبی و عترته«الذين أذهب اللّه عنهم الرجس و طهرهم تطهيرا»فهم حملة العلم«و أعلام الأنام و حكام الإسلام» قوم بنور الخلافة يشرقون و بلسان النبوة ينطقون.

و إن الحصـر بهؤلاء السبعة أمر يبعث على التساؤل عن أسباب ذلک مع وجود تلک الفئة الصالحة،و لعل الجواب لا يعسر على من يدرس تلک الأوضاع،و يقف على حوادث الزمن الذی من أجله كان ذلک الحصر.

و لا نعدو الواقع إن قلنا إنه حصـر سياسـی يعود لمصـلحة الأمويين لصرف الناس عن الاتصال بأهل البيت،و قد مرت الإشارة من المؤلف لذلک.

و أری من اللازم الإشارة لكل واحد من الفقهاء السبعة بترجمة موجزة و هم:

1-سعيد بن المسيب:

هو أبو محمد سعيد بن المسيب بن حزن بن أبی وهب المخزومی المتوفی سنة -93-94 ه.

تزوج بنت أبی هريرة الدوسی،و كانت جل روايته عنه،و قد ضرب فی السياط مرتين لمخالفته الحكام فيما يرونه.

2-عروة:

أبو عبد اللّه المدنی عروة بن الزبير بن العوام المتوفی سنة 92 ه.

كان من المبرزين فی الدولة،و كان كثير الرواية عن خالته أم المؤمنين عائشة، و كان عبد الملک يشـيد بذكره حتی قال:من سـره أن ينظر إلی رجل من أهل الجنة فلينظر إلی عروة بن الزبير و قد حضر الجمل مع أبيه الزبير فی حرب علی.

3-عبد الرحمن:

أبو بكر عبد اللّه بن الحارث المتوفی سنة 94 ه.

كان أبوه الحارث أخا لأبی جهل لأمه،و كان عبد الرحمن فی جيش البصرة مع عائشة،و كان صغيرا فرد هو و عروة بن الزبير عن القتال و كان أعمی.

4-عبيد اللّه:

أبو عبد اللّه عبيد اللّه بن عبد اللّه بن عتبة بن مسعود المتوفى سنة 98 ه.

كان أكثر ما يروى عن عائشة،و أبى هريرة و ابن عباس،و قد تتلمذ له عمر بن عبد العزيز،فكان بذلک موضع إجلال و تقدير،و كان أديبا شاعرا،و من شعره ما ذكره ابن الجوزى فى كتاب ذم الهوى قال:قدمت امرأة من هذيل المدينة،فخطبها الناس،و كادت تذهب بعقول أكثرهم لفرط جمالها فقال فيها عبيد اللّه بن عبد اللّه بن عتبة:

أحبک حبا لو علمت ببعضه لجدت و لم يصعب عليک شديد

أحبک حبا لا يحبک مثله قريب و لا فى العاشقين بعيد

و حبيک يا أم الصبى مدلهى شهيدى أبو بكر فذاک شهيد

و يعلم وجدى قاسم بن محمد و عروة ما ألقى بكم و سعيد

و يعلم ما عندى سليمان علمه و خارجة يبدى بنا و يعيد

متى تسألى عما أقول فتخبرى فللّه عندى طارف و تليد (1)

و هؤلاء الذين استشهد بهم و هو معهم هم الفقهاء السبعة.

5-سليمان:

أبو أيوب سليمان بن يسار أخو عطاء،مولى ميمونة المتوفى سنة 100 ه أو 107 ه كان أكثر ما يروى عن عائشة و أبى هريرة.

6-خارجة:

أبو زيد المدنى خارجة بن زيد بن ثابت الأنصارى المتوفى سنة 99-100 ه أحد الفقهاء السبعة كان قليل الحديث و كان فقيه رأى و لم يذكره الذهبى فى حفاظ الحديث،لأنه قليل الرواية،و لكن الأستاذ أبو زهرة حكم له بكثرة الرواية و كثرة الإفتاء بالرأى.

1- (1) شذرات الذهب ج 1 ص 104. [1]

تنبيهات:

1-إننا لم نتعرض لترجمة هؤلاء الفقهاء بالتفصيل حذرا من الإطالة فى الموضوع،و إن ذلک يجرنا إلى البحث حول سعيد بن المسيب و الاختلاف فى نزعته،فقد ورد فى بعض الروايات أنه كان من حواريى الإمام زين العابدين،و أخص تلامذته كرواية على بن أسباط عن أبى الحسن.

و كان يظهر المعارضة للأمويين،و ينقم على معاوية ما خالف فيه أحكام الإسلام،كإلحاقه زياد بن سمية بأبى سفيان و قد ولد من الزنا على فراش أبى عبيد، و خالف بذلک الحديث المشهور(الولد للفراش و للعاهر الحجر).

و يستدل بعضهم بهذه المعارضة أنه كان على صلة تامة بأهل البيت،و إن هناک روايات تدل على ابتعاده عنهم،و الأمر يدعو إلى مزيد من البيان و لا يمكن ذلک بهذه العجالة و إعطاء الرأى الصحيح فيه.

2-إننا تركنا التعرض لترجمة القاسم بن محمد بن أبى بكر اكتفاء بما سبق.

3-إن قول المؤلف أبو زهرة فى أول ذكره للفقهاء السبعة:إنهم كانوا من أبرز أساتذة الإمام الصادق،لم يكن مبنيا على حجة و لا مستندا إلى دليل بل هو قول يفرضه،و رأى يرتئيه و لا يقره التتبع،و ما أكثر ما يفترضه الأستاذ و ما يتخيله و لا يثبت ذلک أمام الحقائق.

و الخلاصة أن هؤلاء الفقهاء السبعة لم يكن الإمام الصادق راويا عن واحد منهم،و لم يأخذ العلم عنهم بل كان أكثر هؤلاء رواة لحديث أبيه و جده و من تلامذتهما،و قد ذكرنا فى الجزء الثالث من هذا الكتاب رد قول من يزعم أن الإمام الصادق كان يروى عن عروة بن الزبير.

و على كل حال:فإن القول بأخذ الإمام الصادق عن هؤلاء إنما هو من باب التخمين و الافتراض،و ذلک لا يثبت حقيقة و لا يدل على واقع.

4-إن حصر الفقه فى هؤلاء السبعة أمر يدعو إلى الاستغراب و التساؤل،فهل كان ذلک أمرا واقعيا بحيث أن هؤلاء هم المبرزون فى عصرهم و المجمع على فقاهتهم؟.

و هل أقر لهم أقرانهم بذلک،و شهد لهم أساتذتهم به؟

نحن لا نعرف لهـذا أسـبابا واقعية،و إنما يغلب على الظن و يتبادر إلى الذهن أنها فكرة سياسـية لاسـتخدام التشـريع الإسـلامى فى أغراض الولاة،تأييدا للدولة و كسبا لرضا الأمة الناقمة على وضع النظام القائم،لانحرافه عن نظم الإسلام،و ابتعاد رجال السلطة عن العمل به.

فكان لجوؤهم إلى تعيين رجال يؤخذ العلم عنهم،و أحكام التشريع منهم،أمرا يأملون به رد المؤاخذات،و صرف الناس عن الالتقاء بمن هو خصم لهم،و لا يحبون أن يظهر أمره أو ينتشر ذكره.

و إذا أردنـا أن نلقى نظرة فاحصـة عن أسـباب الاختصـاص بهؤلاء دون سواهم فإنا نجـد ذلک يرجع إلى صـفات يتحلى بها هؤلاء أكثر من غيرهم.

فسـعيد بن المسـيب مثلاـ كان جل روايته عن صـهره أبى هريرة الدوسـى،و كان يأخـذ بقضاء عمر و فقهه حتى قيل إنه روايـة عمر و حامل علمه،و كل ذلک لا يعارض أهداف السلطة الحاكمة،لأنها تهتم إذا ما ذكر على عليه السّلام و نشر علمه،أو كان لأهل بيته ذكر فى المجتمع العلمى.

و عروة بن الزبير هو راويـة أم المؤمنين خالته عائشـة،و كان يتألف الناس بالرواية عنها،و هو من أعوان الدولة الأموية،و السائرين فى ركابها و قد روى عن أم المؤمنين عائشة أشياء لا يقبلها العقل.

و أما القاسم بن محمد فهو حفيد أبى بكر الصديق و له منزلة علمية،و مكانة لا تجهل،و إشادة الدولة بذكره يعود عليها بالنفع،و إن لم يرتض ذلک أو يقبله هو، فالسياسة تهدف إلى منافعها قبل كل شىء و هكذا بقية الجماعة من الفقهاء السبعة.

و الغرض أن هـذا الحصـر كان أمرا مقصودا و شـيئا مـدبرا،و ربما يلمـح له شـعر عبيـد اللّه بن عبد اللّه السابق الذكر فى استشـهاده بهؤلاء الجماعة إذ يتجلى منه أنه أمر مقرر،و شىء مشهور.

كما أن ابتعاد الناس عن الفتوى فى ذلک الزمان و دفع السائل إلى أحد هؤلاء يستنتج منه الإلزام و التعين.

قال أبو إسحاق:كنت أرى الرجل فى ذلک الزمان و إنه ليدخل يسأل عن الشىء

فيدفعه الناس من مجلس إلى مجلس،حتى يدفع إلى مجلس سعيد بن المسيب كراهية للفتيا (1).

5-عقب الأستاذ أبو زهرة هذا الموضوع بأشياء لا نتعرض لها و كل ذلک يدور حول أخذ الإمام الصادق عن غير أهل بيته،و لكنه لم يهتد للطريق و لم يصل إلى الهدف.

6-إننا لم نتعرض فى إبداء الملاحظات حول موضوع الرأى و الحديث الذى جاء بعد هذا الموضوع،لأننا قد أشرنا إليه فى الجزء الأول فلا نحب الإعادة و الإطالة.

1- (1) أعلام الموقعين ج 1 ص 18.

القسم الثانى من:

اشارة

لقاء مع الأستاذ(أبو زهرة)

فى كتابه الإمام الصادق

>القسم الثانى<

ص:131

آراء الإمام الصادق:

نتحول مع المؤلف من القسم الأول من كتابه إلى القسم الثانى و هو البحث عن آراء الإمام الصادق و فقهه.

و هذا القسم هو أهم من القسم الأول بكثير،نمضى مع المؤلف على منهج الدقة فى النقاش،و هنا نشتد معه فى الحساب،و لا نعنى أننا نريد أن نغير من منهجنا الـذى التزمنا أن ننهجه معه فى القسم الأول،من التقيـد بآداب البحث،و شـروط النقد، أو نتعدى حدود خدمة الحقيقة و إظهار الواقع.

إن هـذا القسم-كما قلت-مهم فى حـد ذاته،و المؤلف يريد أن يتحدث عن آراء الإمام الصادق و فقهه،و نحن نصـغى لحديثه،لنعرف مدى إلمـامه بـالموضوع،و إحاطته بأطرافه،فهل تشـبعت روحه و هضم مادته ليسـتخلص النتائـج التى تعطى عن الموضوع صورة واقعيـة؟ و هل خضع لما تقتضـيه النتائج فسار على ذلك؟أم أنه يريد أن يخضع الموضوع لطبيعته من التساهل و استعمال الافتراض،و اللابدية،و إمكان ما لا يمكن،فيتساهل فى النقل و يتسـرع فى الحكم و إعطاء النتيجة من دون قياس،و يتصـرف حسب ذوقه الخاص؟! و هل فكر قبل أن ينسب الفكرة للإمـام الصـادق ليتحقق صـدق النسـبة إليه؟ و هـل يحاول أن يكشف على أضواء الأدلـة الصـحيحة حقائق كانت وراء ظلمات من الأوهام و التخيلات؟ و هل عالج المواضيع أو المشاكل-كما يقول-بعلاج ناجع؟!

ص:133

و ما هی النتائـج التی اسـتخرجها من بحثه و تنقیبه؟،و نحن نسایره هنا و ملء صـدورنا أمل بأن یکون مؤدیا ما یجب علیه من بـذل الجهد و اسـتفراغ الوسع لحل هذه المشاکل التی یقف أمامها لاسـتخلاص الآراء الثابتة کما یقول فی ص 184:و إن استخلاص الآراء الثابتة للإمام من أعسر الأمور علی الکاتب الذی یرید تحری الحقیقة بعد أن ینحی أفکار الذین غالوا فی تقدیره حتی رفعوه إلی مرتبة النبوة.

و نحن هنا ندعو اللّه للکاتب المحترم و الشیخ(المحقق)بأن یمده بالعون و یلهمه الصواب للوصول إلی الحقیقة التی یتطلبها کل منصف.

کما ندعو اللّه بأن یوفق الشـیخ لنبذ أفکار منحرفة عن الواقع فی فهم حقیقة التشیع و جوهره،لیخفف من تکرار عبارات الغلو فی تقدیر الإمام و یهون من خطب دعایات السوء التی أحیطت بها مفاهیم المذهب الشیعی.

و إن الذی یحقق الأمل فی هذا الفصل هو أن الشـیخ المؤلف قد جعل من نفسه قاضیا فی محکمة التاریخ کما یقول:(فإنا ندرس المقدمات کما یدرس القاضی البینات یستنطقها و لا یوجهها و یأخذ عنها و لا یتزید علیها حتی إذا انتهی إلی الحکم نطق به).

و حیث إن الشـیخ قد جعل من نفسه قاضـیا فی محکمة التاریخ،فلا بد أن یتسع صدره لمشـقة الدراسة،لیقضـی بالحق،و یحکم بالعدل،إن الواجب یقضـی علیه أن یحاسب نفسه قبل أن یخط أی کلمـة،و یتحری الحقیقـة فی نسـبة الآراء و العقائـد،و أن لا یعتمد إلا علی المراجع المعتبرة،و أن یتجنب الأخذ بالشائعات،و لا یأخذ بأقوال المخالفین و المتحاملین.

و أن یجعـل نصب عینه سـیاسة الحکام الـذین تـدخلوا فی شـئون الأمـة فأثاروا الخلاف،و روجوا الشائعات و اسـتعملوا دعایتهم ضـد من یعارض سیاسـتهم،و قد اسـتخدموا أقلاما مسـمومة،سـخروها لأغراضهم،فکانت أمضی جرحا من السیف، و قد ذهبوا جمیعا و بقیت تلک الآثار السیئة،یستعملها من یرید تفرق الأمة طمعا فی تحقیق أهدافه.

فاللازم علیه بأن یتثبت قبل الحکم و یتأکـد من صـدق البینات،و أن تکون له خلوة مع أوراقه و مع ضـمیره و مع ربه،و یجعل حسابه نصـب عینیه.

ص:134

و نود هنا أن نسائل فضيلة الأستاذ المؤلف أو القاضى المحترم عن بينته الصادقة فى قوله ص 195 بعد ذكره لحديث الوصاية:«هذا خبر روى عن الصادق نفسه».

نسائله بوجـدانه و بحرمـة العدل هل قرأ هذا الخبر فى الكافى نفسه فأصدر حكمه فيه؟إنه يجيب بأنه لم يقرأ الخبر و لم ينقله عن الكافى كما يقول فى صدر الصحيفة:

(و قد نقلنا هذا من قبل و ننقله هنا فقد روى الكلينى...الخ).

و إذا رجعنا إلى الوراء نجده قد نقله فى ص 35 من القسم الأول و لكن عمن نقله و أى إنسان حدثه به!!؟نعم مصدره كتاب الوشيعة لموسى جار اللّه.

و هنا يحق لنا أن نطالب الشـيخ بالعـدل و الإنصاف لتساهله فى قبول البينات و نقله عن كتاب خصم للشـيعة،و قد سود صـحائفه بالطعن و الافتراء فى القول و الكذب فى النقل،فهو ناقد حاقد و كاتب متطرف لا يتقيد بأصول النقد و لا يتثبت فى النقل.

كتاب حاول فيه مؤلفه أن يعيـد مآسـى التاريـخ المؤلمة،و يشـهر المسـلم سـيفه على أخيه بدل أن يشـهره على عدوه،و يثير الحرب بين أبناء التوحيد بدل أن تثار فى محاربة المشركين.

كتاب رقمه صاحبه بقلم يقطر سما،و قلب يمتلئ حقدا،و يكاد يتميز من الغيظ لتقارب المسلمين بعد التباعد.

كتاب أوحته طائفية رعناء بل رجة عصبية و حركة لا شعورية،و هو يأمل من ورائها تحقيق قصد،و اللّه من وراء القصد،و اللّه يدافع عن الذين آمنوا،و كفى اللّه الأمة الإسلامية شر ذلک الكتاب.

و المؤلف فى اعتماده على ما ينقله صاحب كتاب الوشيعة لا بد و أنه يصدقه بكل ما قال كما قرر ذلک فى ص 201.

و بـالطبع إنه باعتماده على كتاب الوشـيعة لا بـد و أن يتأثر،لما فيه من مغالطـة للحقيقـة،و اتهام للأبرياء،و وصف الشـيعة بصـفات تؤثر فى النفس،و تحدث ثورة يكون أثرها محسوسا فى حكمه.

و على كل حال:فإن جعل كتاب الوشـيعة مصدرا للبحث و بينة للحكم أمر مخالف للعدل،و شـىء نسـتغربه و نؤاخذ الأستاذ عليه،لأنه فى ذلک يصبح مشجعا

لهؤلاء المتمردين على مفاهيم الإسلام،و الضاربين على وتر الطائفية ليثيروا أحقادا كامنة و يفتحوا أبواب فتن موصدة.

و نسائله أيضا-و أملنا أن يتسع صدره و لا يضيق حرجا-عن البينة التى حكم بها على الدكتور الهاشمى بأنه شيعى اثنا عشرى و ذلک قوله فى ص 198:هذا كلام عالم محقق فاضل و هو اثنا عشرى.

أطلق فضيلته هذا القول بعد البحث فى التشكيک بما يروى فى كتب الشيعة، و بالأخص الكافى فيقول فى ص 196:(و إننا نشک فى صدق هذه الأخبار لأن رواية أكثرها عن طريق الكافى و نحن نضع رواياته دائما فى الميزان).

و إنى لأعجب من الأستاذ فى إطلاق هذا القول من فمه و تحريره له بقلمه، و كأنه يصدر ذلک و هو الحافظ الحجة،الذى خاض فى علم السنة،و عرف الصحيح و الضعيف،و الموضوع و المسند و المرسل،و نقد الأسانيد بقانون علمى،و وزنها بميزان صحيح.

إنى لأعجب و أبتسم لذلک،لأنى أعرف أن المؤلف لم يقرأ كتاب الكافى،و لم يطلع عليه،بل نقل عنه بوسائط غير صحيحة كما سيتضح ذلک فيما بعد.

كما أنى أعرف عن المؤلف أنه ليس له خبرة بعلم الحديث و لا دراية له بعلم الدراية،و لست بظالم له فى ذلک.

و المؤلف كأنه يريد أن يبين لقرائه أمورا هامة فى هذا الموضوع،و لكن القارئ عند ما يقف على ما كتبه هنا،فإنه لا يعدو التشكيک فيما تعتقده الشيعة فى الإمامة و منزلة الإمام و علمه و عصمته،فيسوق أقوالا و يورد أحاديث،فيوجه و يشکک،و هو يظن بأنها هى أدلة الشيعة على ذلک لا غير،حتى يأتى إلى حديث الثقلين و هو الحديث المشهور عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بلزوم التمسک بالكتاب و العترة للنجاة من الضلال بعده و الابتعاد عن الهلكة.

و هنا يلتوى الطريق بالمؤلف و تتحكم فيه عاطفة التأثر و تتلاطم به أمواج التفكير فتلقيه على ساحل التحريف لهذا الحديث و تغييره عن أصله فيقول سلمه اللّه فى ص 199:

و نقول إن إخواننا الإمامية يقولون إن رواية(و عترتى)هى شبه متواترة،و لكنا

نقول إن كتب السنة التى ذكرته بلفظ سنتى أوثق من الكتب التى روته بلفظ عترتى.

حديث الثقلين و أسانيده:

اشارة

هكذا يطلق الأستاذ حكمه بأن قول النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:إنى مخلف فيكم الثقلين كتاب اللّه و عترتى أهل بيتى.قد نقلته كتب غير موثوق بها،و لكن الكتب الموثوقة نقلته بلفظ:كتاب اللّه و سنتى.

فأين هى هذه الكتب و كيف حكم بأنها أوثق من الكتب التى روتها بلفظ عترتى؟ أ ليس هذا شىء يبعث على الدهشة،أ ليس هذا تجنيا على الحقائق العلمية،و ما ذا نقول حول هذا الحكم يا أخى القارئ؟! نحن فى معرض تقرير حقائق نعرضها أمامك و إليك الحكم بكل حرية و اختيار.

نحاسب الشيخ على استنباطه هنا،و لا نوجه إليه أى كلمة،و إنما نحن مع القراء فى بيان هذه الحقيقة،و هم يحاسبونه.

الشيخ يقول:إن كتب السنة التى ذكرته(أى هذا الحديث)بلفظ سنتى أوثق من الكتب التى روته بلفظ عترتى.انتهى.

و لعل هناك من يثق بقوله و لكن له أن يطالبه بالكتب التى روت بلفظ سنتى، و هو لم يشر إلى واحد منها،لأنه فى معرض لف و دوران.

و هنا نوقف القارئ على تلك الكتب التى يفهم من لفظ المؤلف أنها غير موثوقة،و غيرها أوثق منها.فصح له أن يطعن فيها و يصدر حكمه،و هذه الكتب هى:

1-صحيح مسلم:

لمسلم بن الحجاج المتوفى سنة 261 ه،و هو أحد الصحيحين المعمول بكل ما فيها،و الموثوق عند الجميع،و قد قالوا فيه:ما تحت أديم السماء أصح من كتاب مسلم (1).

أخرج مسلم فى صحيحه عن زيد بن أرقم خطبة النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يوم الغدير و قوله فيها:

1- (1) تذكرة الحفاظ ج 1 ص 104.

«و أنا تارک فیکم الثقلین کتاب اللّه فیه الهدی و النور فخذوا بکتاب اللّه و استمسکوا به،فحث علی کتاب اللّه و رغب فیه ثم قال:و أهل بیتی أذکر کم اللّه فی أهل بیتی أذکرکم اللّه فی أهل بیتی أذکرکم اللّه فی أهل بیتی (1).

2-الترمذی:

صحیح محمد بن عیسی المعروف بالترمذی المتوفی سنة 271 ه.

و قد وصفوه بأنه أنور من کتاب البخاری،و قد أخرج الحدیث فی صحیحه:أن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال:إنی تارک فیکم الثقلین ما إن تمسکتم بهما لن تضلوا بعدی، أحدهما أعظم من الآخر:کتاب اللّه ممدود من السماء إلی الأرض،و عترتی أهل بیتی،و لن یفترقا حتی یردا علیّ الحوض،فانظروا کیف تخلفونی فیهما (2).

3-المسند:

للإمام أحمد بن حنبل أخرج بسنده عن أبی سعید الخدری أن النبی قال:إنی تارک فیکم الثقلین کتاب اللّه و عترتی أهل بیتی،و إنهما لن یفترقا حتی یردا علیّ الحوض.

و أخرجه أیضا عن أبی سعید عن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنه قال:إنی أوشک أن أدعی فأجیب و إنی تارک فیکم الثقلین کتاب اللّه و عترتی أهل بیتی،کتاب اللّه حبل ممدود من السماء إلی الأرض،و عترتی أهل بیتی،و إن اللطیف الخبیر أخبرنی أنهما لن یفترقا حتی یردا علیّ الحوض،فانظروا بم تخلفونی فیهما.

و أخرجه أیضا بهذا اللفظ فی ص 26.

4-المستدرک:

لأبی عبد اللّه الحاکم أخرجه من طریق زید بن أرقم رضی اللّه عنه:قال لما رجع رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم من حجة الوداع و نزل غدیر خم،أمر بدوحات فقمن فقال:

«کأنی قد دعیت فأجبت،إنی قد ترکت فیکم الثقلین،أحدهما أکبر من الآخر:

1- (1) صحیح مسلم ج 7 ص 122 مطبوعات مکتبة محمد علی صبیح و أولاده 24 ربیع الأول سنة 1334.
2- (2) صحیح الترمذی ج 2 ص 208. [1]

کتـاب اللّه و عترتی،فـانظروا کیف تخلفونی فیهمـا،فإنهمـا لن یفترقا حتی یردا علیّ الحوض،ثم قال:إن اللّه مولای،و أنا مولی کل مؤمن،ثم أخذ بید علی فقال:من کنت مولاه فهذا علیّ مولاه،اللهم وال من والاه و عاد من عاداه-الحدیث (1).

5-تفسیر ابن کثیر:

و أخرجه أبو الفدا إسماعیل بن کثیر الدمشقی المتوفی سنة 774 ه:

قام صـلّی اللّه علیه و آله و سلّم خطیبا بماء یدعی بخم بین مکة و المدینة فحمد اللّه و أثنی علیه و وعظ و ذکر ثم قال صلّی اللّه علیه و آله و سلّم:

«أما بعـد ألا أیها الناس فإنما أنا بشـر یوشک أن یأتینی رسول ربی فأجیب،و أنا تارک فیکم ثقلین أولهما کتاب اللّه تعالی فیه الهـدی و النور فخذوا بکتاب اللّه و استمسکوا به-و رغّب ثم قال:و أهل بیتی أذکرکم اللّه فی أهل بیتی أذکرکم اللّه فی أهل بیتی ثلاثا» (2)6-الصواعق:

و أخرجه الحافظ ابن حجر فی صواعقه بطرق مختلفة،و قال:و لهذا الحدیث طرق کثیرة عن بضع و عشرین صحابیا (3).

7-الجامع الصغیر:

و أخرجه جلال الـدین عبد الرحمن بن أبی بکر السـیوطی فی الجامع الصـغیر، و قال الشـیخ أحمد بن علی الشافعی فی شـرحه:إنه حدیث صحیح و المراد أن العلماء منهم أی من عترة النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یستمرون آمرین بما فی الکتاب إلی قیام الساعة (4).

8-المواهب اللّدنیة:

للحافظ ابن حجر العسقلانی و رواه عن أحمد بن حنبل من طریقین و قال

1- (1) مستدرک الحاکم ج 3 ص 109.

2- (2) تفسیر ابن کثیر ج 3 ص 486. [1]

3- (3) الصواعق المحرقة ص 136 [2] ط 1.

4- (4) السراج المنیر فی شرح الجامع الصغیر ج 2 ص 56.

محمد بن عبد الباقی فی شرحه للمواهب:الروایة ثقلین بدون ألف و فی روایة خلیفتین.

و قال بعد ذکر لفظ عترتی:فی الحدیث تفصیل بعد إجمال أو بیان یعنی:إن ائتمرتم بأوامر کتاب اللّه و انتهیتم بنواهیه و اهتدیتم بهدی عترتی و اقتدیتم بسیرتهم اهتدیتم فلم تضلوا (1).

و قال القرطبی بعد ذکر هذا الحدیث بلفظ عترتی:

و هذه الوصیة و هذا التأکید العظیم یقتضی وجوب احترام آله و برهم و توقیرهم و محبتهم،وجوب الفرائض التی لا عذر لأحد فی التخلف عنها،هذا مع ما علم من خصوصیتهم به صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و بأنهم جزء منه کما قال صلّی اللّه علیه و آله و سلّم:فاطمة بضعة منی.و مع ذلک قابل بنو أمیة هذه الحقوق بالمخالفة و العقوق فسفکوا من أهل البیت دماءهم،و سبوا نساءهم و أسروا صغارهم،و جحدوا شرفهم و فضلهم و استباحوا سبهم و لعنهم، فخالفوا وصیته صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و قابلوا بنقیض قصده،فما أخزاهم إذا وقفوا بین یدیه و یا فضیحتهم یوم یعرضون علیه.

و قال الشریف السمهودی:هذا الخبر یفهم وجود من یکون أهلا ـ للتمسک به من عترته فی کل زمن إلی قیام الساعة،حتی یتوجه الحث المذکور علی التمسک به،کما أن الکتاب کذلک،و لذا کانوا أمانا لأهل الأرض فإذا ذهبوا ذهب أهل الأرض (2).

و قال الزرقانی بعد شرحه لهذا الحدیث الشریف:

قوله أولا:إنی تارک فیکم.تلویح بل تصریح بأنهما کتوأمین خلفهما،و وصی أمته بحسن معاملتهما،و إیثار حقهما و التمسک بهما فی الدین.

أما الکتاب فلأنه معدن العلوم الدینیة و الأسرار و الحکم الشرعیة،و کنوز الحقائق،و خفایا الدقائق.

و أما العترة فلأن العنصر إذا طاب أعان علی فهم الدین،فطیب العنصر یؤدی إلی حسن الأخلاق و محاسنها یؤدی إلی صفاء القلب و نزاهته و طهارته،و أکد تلک

1- (1) شرح المذاهب ج 8 ص 7.

2- (2) انظر شرح المواهب اللدنیة ج 8 ص 7. [1]

الوصية و قواها بقوله:(فانظروا بما ذا تخلفونی فیهما)هل تتبعونی فتسرونی أو لا فتسیئونی؟ (1).

و ربما یختلج فی نفس بعض القراء بأن هناک مصادر موثوقا بها تذکر هذا الحدیث بلفظ سنتی بدل عترتی،و دفعا لذلک نشیر إلی ما یحضرنا الآن من بقیة المصادر التی روته بلفظ عترتی.

9-الخطیب البغدادی أخرجه عن حذیفة بن أسید ج 8 ص 443.

10-الدارمی فی فضائل القرآن ج 2 ص 431.

11-و أخرجه الطبرانی من طریق زید بن أرقم فی الذخائر.

12-السیوطی فی جامعه من ثلاث طرق:عن زید بن ثابت،و زید بن أرقم، و أبی سعید الخدری.

و قال المناوی فی شرحه ج 3 ص 15،قال الهیتمی:رجاله موثوقون.

13-الشیخ حمزة العدوی فی مشارق الأنوار ص 146.

14-الشیخ محمد أمین المعروف بابن عابدین فی رسائله ص 4.

15-الشیخ عبد اللّه الشبراوی فی کتاب الأتحاف بحب الأشراف ص 6 و هامشه إحیاء المیت بفضائل أهل البیت للسیوطی.

16-السید خیر الدین أبی البرکات نعمان الآلوسی فی غالیة المواعظ ج 2 ص 87.

17-الشیخ عبد الرحمن النقشبندی فی کتاب العقد الوحید ص 78.

18-الحافظ الطبری فی ذخائر العقبی ص 16 من عدة طرق.

19-و قد أفرد هذا الحدیث بالتألیف:الحافظ محمد بن طاهر بن علی المعروف بابن القیصرانی فی کتاب خاص جمع فیه طرق هذا الحدیث،و قد خرجه عن 27 صحابیا.

20-و کذلک خرجه إسحاق بن راهویه فی مسنده.

1- (1) انظر شرح المواهب اللدنیة ج 8 ص 7. [1]

21-و الحافظ ابن عقدة فی الموالاة.

22-و أخرجه فقیه الحرمین محمد بن یوسف بن محمد الشافعی الکنجی المتوفی سنة 658 ه فی کتابه کفایة الطالب.

23-الفصول المهمة لعلی بن محمد المالکی المکی المتوفی سنة 855 ه فی ص 22 عند ذکره لخطبة یوم الغدیر.

24-ابن حجر الهیتمی فی شرح الهمزیة ص 278.

25-إسعاف الراغبین المطبوع علی هامش نور الأبصار.

26-علی بن محمد بن إبراهیم البغدادی المعروف بالخازن المتوفی سنة 725 ه أخرجه فی تفسیره المعروف:بتفسیر الخازن فی الجزء الأول الصفحة الرابعة.

27-مقدمة تفسیر الجامع المحرر الصحیح لعبد الحق بن أبی بکر بن عبد الملک الغرناطی بن عطیة المتوفی سنة 543 ه المطبوعة مع مقدمة کتاب المبانی ص 257.

28-دلیل مباحث علوم القرآن المجید لمحمد العربی الغزوزی ص 12.و غیرها من کتب التفسیر و الحدیث مما یطول بیانه.

حدیث الثقلین فی اللغة:

و قد نصت کتب اللغة المعتمد علیها بورود هذا الحدیث بلفظ العترة نذکر منها:

القاموس المحیط فی مادة ثقل قال:و الثقل محرک متاع المسافر و حشمه،و کل شیء نفیس مصون،و منه الحدیث:(إنی مخلف فیکم الثقلین کتاب اللّه و عترتی).

و قال محب الدین فی التاج:فی مادة ثقل عند ذکر الحدیث:جعلهما ثقلین إعظاما لقدرهما و تفخیما لهما.و قال ثعلب:سماهما ثقلین لأن الأخذ بهما ثقیل و العمل بهما ثقیل.

و قال ابن الأثیر فی النهایة بعد أن ذکر قوله صلّی اللّه علیه و آله و سلّم:«إنی تارک فیکم الثقلین کتاب اللّه و عترتی:سماهما ثقلین لأن الأخذ بهما و العمل بهما ثقیل،و یقال لکل شیء نفیس مصون خطیر ثقل...الخ.و یقول فی الجزء الثالث بعد التعرض لاحتمالات اللفظ التی تقع فی نفوس انطوت علی المناوأة و المعارضة لصالح الظلمة:«و المشهور المعروف أن عترته أهل بیته الذین حرمت علیهم الزکاة».

و قال الشيخ عبد اللّه البستانى فى معجمه اللغوى البستان:الثقلان كتاب اللّه و عترة نبى المسلمين و منه الحديث.

و قال ابن منظور فى لسان العرب فى مادة ثقل:روى عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنه قال فى آخر عمره:(إنى تارک فيكم الثقلين كتاب اللّه و عترتى)قال ابن الأعرابى:إن العترة ولد الرجل و ذريته من صلبه و لا تعرف العرب من العترة غير هذا.

مقاصد المؤلف من التشكيک بالروايات:

هذا ما يحضرنا من المصادر الآن فى بيان هذا الحديث،و لم أكن الآن بمعرض الاستدلال حول الإمامة و عقيدة الشيعة فى ذلک،و الرد على المؤلف،إذ يحاول هدم عقيدة الشيعة فى الإمامة بأمور افتراضية و أشياء غير واقعية.

أنا لا أريد ذلک فللشيعة حججهم من الكتاب و السنة و العقل ما لا تخدش بأمثال هذه الافتراضات و التخمينات،و قد ملأت كتب الأخبار،و الفلسفة،و الكلام،فى النقاش و الجدل،و لم يكن نصيب الشيعة إلا الثبات و الغلبة لقوة الحجة و وضوح البرهان،و إن التعرض لذلک يجرنا إلى اتساع الموضوع و إطالة البحث.

فلسنا الآن بمعرض الاستدلال على إمامة أهل البيت عليهم السّلام و عصمتهم،و أن الهدى باتباعهم،و أنهم حملة علم الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و هديهم من هديه و علمهم من علمه، و قد طهرهم اللّه و أذهب عنهم الرجس،و هم كسفينة نوح من ركبها فقد نجا و من تأخر عنها غرق و هوى (1)و مودتهم أجر الرسالة،و هم العاملون بالكتاب و هم عدله و حملته.

1- (1) قال ابن حجر فى شرح الهمزية ص 279:و صح حديث أهل بيتى سفينة نوح من ركبها نجا و من تخلف عنها هلک. و قال الثعالبى فى ثمار القلوب ص 29:قال رسول اللّه إن عترتى كسفينة نوح.من ركب فيها نجا و من تأخر عنها هلک،و أخذ هذا المعنى أبو عثمان الخالدى فقال: أعاذل إن كساء التقى كسانيه حبى لأهل الكساء سفينة نوح فمن يعتلق بحبلهم يعتلق بالنجاء و قال الشيخ الحفنى فى تعليقه على هذا الحديث:و ما ألطف قول بعضهم فى مدح آل البيت: يا بحار الندى أ أخشى و أنتم سفن للنجاة يوم المعاد لست أخشى يا آل أحمد ذنبا مع حبى لكم و حسن اعتقادى و سيأتى بيان مخارج هذا الحديث.

و الأخبار متواترة،و الآيات متضافرة فى الدلالـة على علو قدرهم،و عظيم شأنهم،و أهليتهم لتحمل عبء الإمامة و إن تمحل من تمحل فى القول،و تأول من تأول فى الاستدلال،فتلك أمور لا تقف أمام الواقع،و لا تحجب الحقيقة.

و إن الشـيخ أراد أن يهدم عقيدة الإمامة أو يشـكك فى الاسـتدلال على ذلک،بما لا يصـلح للاستدلال فإنه متساهل فى أموره،متسامح فى نقله،يستوحى من جدران مكتبته خواطر لا تتعداها،نسأل اللّه لنا و له التوفيق.

و يسـتمر فضـيلة الشـيخ أو القاضـى المحترم فى تأييد رأيه و دعم حكمه الصادر بنفى العلم الاسـتقلالى-كما بيناه-لأهل البيت،و الوصاية لهم،و أنهم مبلغون للرسالـة المحمدية.بما يسـتأنس من مصادر يتعرف عليها الحق و يطبق بذلک قواعد العدل،فيذكر الرواية التى يسـتأنس من مصادر يتعرف عليها الحق و يطبق بذلک قواعد العدل،فيذكر الرواية التى ناقشـناها من قبل،و أثبتنا كذبها لبعدها عن الحقيقة و الواقع، و إن سـندها غير صحيح فهى لا تصلح للاستدلال،و هى الرواية القائلة بأن الإمام زين العابدين(شيخ العلويين و سيد الهاشميين و أعلم أهل عصره)كان يحضر فى حلقة درس زيد بن أسلم،الشاب الذى لم تكن له أهلية التدريس فى ذلک العصر.

و لكن المؤلف اسـتأنس لهـذه الروايـة،و جعلها فى درجـة من الصـحة،لا بصـحة السـند و لا بـدلالتها و لكن لأنها مرويـة فى كتاب حلية الأولياء.و إليک نص قوله:

و قد رواها-أى الرواية-صاحب حلية الأولياء بسـند متصل نعتبره نحن سـندا صحيحا صادقا،إلى أن يقول:و لا يضيق صدر إخواننا حرجا إذا استشـهدنا بكتب ليست من كتبهم،فإنا قد رأينا أفاضل من كتّابهم يستشـهدون على فضل الصادق، بنقول نقلها عنها،و لا بد أنه اعتبره صادقا فى نقله،و من وصف بالصدق فهو صادق فى كل ما ينقل،فالصدق خلة فى الصادق لا تتجزأ.

و قد رددنا هذا من قبل فلا حاجة إلى الإعادة و لكنا نقول:إن هذا الحكم الذى نطق به الشـيخ،و هو أن كل من نقل عن أحد خبرا يستشهد به فلا بد أن يلتزم بتصديق كل ما ينقل،و ما أدرى من يقول هذا و من يقرره و يقره؟أهم البيانيون أم المحدثون أم الفقهاء أم المؤرخون؟؟ و لعل الشيخ وحده يلتزم بهذه القاعدة و على هذا يلزمه أن يصدق بكل ما جاء فى كتب جابر الجعفى رحمه اللّه،لأنه استشهد بما يرويه عن الإمام الباقر عليه السّلام على

فضل أبی بکر و عمر،و استشهد بکتاب الإمام الصادق للشیخ المظفر،و استشهد بکتاب دعائم الإسلام و غیرها،فلا بد أنه اعتبرها صادقة،و لا حق له أن یقبل البعض و یرد البعض الآخر،إذ الصدق خلة لا تتجزأ کما یقول.

و هو لا یعترف بذلک و لکنها کلمة قالها،و نترک تقدیرها و إیضاحها لعلماء البیان،و أهل الأدب من الکتّاب و المؤرخین.

و لعلنا فی عودتنا لمناقشته نورد من کتاب الحلیة الذی اعتبره بالذات صادقا فیما ینقل أحادیث لا یمکنه الاعتراف بها،و لا التصدیق بموادها.

و لنطو صفحة المناقشة هنا و نتابع خطواتنا مع الأستاذ فی قراراته و أحکامه،و هنا یفتح لنا الأستاذ جهة للاستدلال علی ما یدعیه من نفی الاعتقاد بالإمامة.

اتجاه آخر فی التشکیک بالروایات:

یحاول المؤلف أن یدعم حکمه بأدلة یظن أنها تنفع فی طریق الاستدلال،و تنتج فی أسلوب المقارنات،فهو هنا یذهب إلی أن الإمام الصادق ما کان یری نفسه إماما فی عصره،و أن منصب الإمامة مملوء بوجوده،و یستدل المؤلف علی هذا الرأی بحادثة الأبواء عند ما اجتمع بنو هاشم للبیعة لمن یرتضونه،و أن الإمام الصادق علیه السّلام قد امتنع عن بیعة محمد ذی النفس الزکیة لصغر سنه،و أنه علیه السّلام استعد لبیعة عبد اللّه بن الحسن،و قال له:امدد یدک أبایعک (1)إلی آخر ما یذکره من جهة نظره.

إن أخبار یوم الأبواء مشهورة،و حوادثه متکررة،و القول بأن الإمام الصادق علیه السّلام قال لعبد اللّه بن الحسن:امدد یدک أبایعک.إنما ذلک من وحی الخیال و الکذب فی القول،و هو افتراء محض و تقوّل باطل،و النصوص التی تتکفل بیان هذا الحادث لا تذکر ذلک،و إن أصح کتاب یعتمد علیه فی هذا:هو کتاب الإرشاد للشیخ المفید،لأنه ینقل عن نسخة مقاتل الطالبیین التی هی بخط المؤلف، و قد أشار لذلک ناشر کتاب مقاتل الطالبیین فی مصر السید أحمد صقر سنة 1368 ه 1949 م بقوله:و لکتاب الإرشاد هذا أهمیة خاصة لأنه ینقل عن نسخة أبی الفرج الأصفهانی نفسه.

1- (1) الإمام الصادق لأبی زهرة ص 203.

و لنضع بين يدى القراء النص الكامل لهذه القضية:

نص الرواية:

قال فى الإرشاد:وجدت بخط على بن الحسين بن محمد الأصفهانى فى أصل كتابه المعروف بمقاتل الطالبيين:

أخبرنى عمر بن عبد اللّه العتكى،قال حدثنا عمر بن شيبة،قال حدثنى فضل بن عبد الرحمن الهاشمى و ابن داجة،قال أبو زيد و حدثنى عبد الرحمن بن عمر بن جبلة،قال حدثنى الحسن بن أيوب مولى بنى نمير عن عبد الأعلى بن أعين،قال و حدثنى إبراهيم بن محمد بن أبى الكرام الجعفرى عن أبيه،قال و حدثنى محمد بن يحيى عن عبد اللّه بن يحيى،و قال و حدثنى عيسى بن عبد اللّه بن محمد بن على عن أبيه،و قد دخل حديث بعضهم فى حديث الآخرين أن جماعة من بنى هاشم اجتمعوا بالأبواء،و فيهم إبراهيم بن محمد بن عبد اللّه بن عباس،و أبو جعفر المنصور،و صالح بن على،و عبد اللّه بن الحسن،و ابناه محمد و إبراهيم و محمد بن عبد اللّه بن عمر بن عثمان.

فقال صالح بن على:قد علمتم أنكم الذين يمد الناس إليهم أعينهم،و قد جمعكم اللّه فى هذا الموضع فاعقدوا بيعة لرجل منكم،تعطونه إياها من أنفسكم، و تواثقوا على ذلک حتى يفتح اللّه و هو خير الفاتحين.

فحمد اللّه عبد اللّه بن الحسن و أثنى عليه ثم قال:قد علمتم أن ابنى هذا هو المهدى فهلم فلنبايعه.

قال أبو جعفر(أى المنصور):لأى شىء تخدعون أنفسكم؟و اللّه لقد علمتم ما الناس أميل أعناقا و لا أسرع إجابة منهم إلى هذا الفتى.يريد به محمد بن عبد اللّه.

قالوا:قد و اللّه صدقت إن هذا الذى نعلم.فبايعوا محمدا جميعا و مسحوا على يده.

قال عيسى:و جاء رسول عبد اللّه إلى أبى أن ائتنا فإنا مجتمعون لأمر،و أرسل بذلک إلى جعفر بن محمد عليه السّلام.

و قال غير عيسى:إن عبد اللّه بن الحسن قال لمن حضر:لا تريدوا جعفرا فإنا نخاف أن يفسد عليكم أمركم.

قال عیسی بن عبد اللّه بن محمد:فأرسلنی أبی أنظر ما اجتمعوا له فجئتهم و محمد بن عبد اللّه یصلی علی طنفسة مثنیة،فقلت لهم أرسلنی أبی إلیکم أسألکم لأی شیء اجتمعتم؟ فقال عبد اللّه:اجتمعنا لنبایع المهدی محمد بن عبد اللّه.

قال:و جاء جعفر بن محمد علیه السّلام فأوسع له عبد اللّه بن الحسن إلی جنبه، فتکلم بمثل کلامه.

فقال جعفر علیه السّلام:لا تفعلوا فإن هذا الأمر لم یأت بعد،إن کنت تری أن ابنک هذا المهدی فلیس به و لا هذا أوانه،و إن کنت ترید أن تخرجه غضبا للّه،و لیأمر بالمعروف و ینهی عن المنکر،فإنا و اللّه لا ندعک فأنت شیخنا و نبایع ابنک فی هذا الامر!!! فغضب عبد اللّه،و قال:لقد علمت خلاف ما تقول و و اللّه ما أطلعک اللّه علی غیبه،و لکنه یحملک علی هذا الحسد لابنی.

فقال(الصادق):و اللّه ما یحملنی،و لکن هذا و إخوته و أبناؤهم دونکم،و ضرب بیده علی ظهر أبی العباس(السفاح)ثم ضرب بیده علی کتف عبد اللّه بن الحسن و قال:إیها و اللّه ما هی إلیک،و لا إلی ابنیک،و لکنها لهم،و إن ابنیک لمقتولان.

ثم نهض و توکأ علی ید عبد العزیز بن عمران الزهری فقال:أ رأیت صاحب الرداء الأصفر یعنی أبا جعفر فقال له:نعم.فقال إنا و اللّه نجده یقتله.

هذا هو نص روایة الإرشاد عن مقاتل الطالبیین کما هو موجود بکامله فی الطبعة الأولی و الطبعة الثانیة و لیس فیه کلمة(و إن شئت بایعتک) (1).

و المؤلف قد أضاف العبارة بعد ذلک ببیانه:إن الإمام الصادق علیه السّلام قال لشیخ بنی علی:امدد یدک أبایعک.

و إنا قد ذکرنا هذا النص بطوله لیتضح للقراء هل کان فیه ما یدل علی الحکم الذی حکم به الشیخ فی نفی الإمامة بالوصایة،و ما تعتقده الشیعة؟ و کان الأجدر به و اللائق بمقامه،أن یعطی کلمة الإمام الصادق علیه السّلام حقها

1- (1) إرشاد المفید ص 259 و 260.

من الواقع و هى قوله لعبد اللّه:«إيها و اللّه ما هى إليک،و لا إلى ابنيک»،فكيف ينفيها عنه و يدعو عبد اللّه لقبول البيعة،إن هذا من التناقض بمكان،ثم إن قوله:فإنا و اللّه لا ندعک و أنت شيخنا.بعد قوله تريد أن تخرجه غضبا،لم يكن المراد منه لا ندعک عن البيعة كما ذكره،بل العبارة تدل على أنا لا ندعک تخرجه و تنصبه للخلافة و نبايعه.

و الخلاصة:

أن المؤلف يحاول فيما أورده نفى الإمامة كما تعتقد الشيعة،و أنه لا وصاية هناک،و لا شىء يدل على أنها بالوراثة.

و قد أورد كلمة تقوّل فيها على الإمام الصادق و هى قوله:بل قال أولا لشيخ بنى على عبد اللّه بن الحسن:امدد يدک أبايعک.

و هذا القول لم يصدر من الإمام الصادق عليه السّلام،بل هو استنتاج من الشيخ و افتراض،كما هو دأبه فى كثير من أبحاثه،و على هذا الافتراض،و تلک المقدمات العقيمة الإنتاج،يحاول أن يصدر حكما و هو يظن أنه أصاب الهدف،و وصل إلى الغاية المطلوبة،و هى نفى الإمامة،سواء بالوراثة أو الوصاية.فيقول:

و ننتهى من ذلک إلى أن الإمام الصادق رضى اللّه عنه و عن آل بيته الكرام،لم يثبت ثبوتا قاطعا أنه اعتبر الإمامة تكون بالوصاية،و إن ثمة اثنى عشر منصوصا عليهم، و إننا فى حل من أن نقول:إن نسبة هذا إليه موضع نظر (1).

و نقول:بأن الشيخ لم يطلع على نصوص الوصاية و الوراثة،و لم يقف على أقوال الإمام الصادق عليه السّلام فى ذلک،و نحن فى حلّ لنقول:إن هذا الحكم و هذا الاستنتاج،يدلان على قصر النظر و ضيق أفق التفكير.

و من الغريب أن الشيخ يظن أنه لا أثر وارد حول هذه المسألة،و لا رواية تدل على ذلک،و لا نص فيه إلا ما حدثه به الشيخ موسى جار اللّه فى كتاب الوشيعة،نقلا عن الكافى حول حديث الوصاية الذى ذكره فى أول الكتاب-إن صح ذلک-فإذا أبطله أو نقضه انتهى كل شىء.

1- (1) الإمام الصادق لأبى زهرة ص 205.

و كتاب الوشيعة لموسى جار اللّه هو من أبرز الشواهد على الجهود السيئة و الأعمال المرفوضة التى تكشف عن الجهات التى تسعى إلى تفريق صفوف الأمة، و تمزيق وحدة المسلمين،لأن مضامينه لم تقم على وقائع مقررة و لا حقائق ثابتة إنما احتوت و شيعة جار اللّه خيوطا من اتهامات باطلة و مسمومة لا تنسج إلا على منوال التعصب و التحامل على آل البيت و قد تولى السيد عبد الحسين شرف الدين رحمه اللّه تعالى مهمة نقض الوشيعة ورد مسائلها،فكان الحجة شرف الدين بأسلوبه الرصين و علمه الفائق قد خدم الحقيقة و أدى ما عليه من أمانة.و لو استمع الشيخ أبو زهرة إلى نبرة التعصب و لهجة التعدى التى استولت على موسى جار اللّه لتردد كثيرا فى الاعتماد عليه و استخلاص النصوص التى يحتاجها من بين ركامات الابتعاد عن الحق و الشذوذ عن الواقع الذى يتصف به كتاب جار اللّه.

و أود أن أنبه المؤلف أن الأحاديث الواردة فى ذلک هى من الكثرة بمكان،و هى واردة بطرق معتبرة صحيحة،و كتب موثوق بها،لا ككتاب الوشيعة،و قد ألف جماعة من العلماء فى ذلک كتبا خاصة فى الوصاية.منهم:هشام بن الحكم،و الحسين بن سعيد،و الحكم بن مسكين،و على بن المغيرة،و على بن الحسين بن الفضل، و محمد بن على بن الفضل،و أحمد بن محمد بن خالد البرقى،و على بن رئاب، و يحيى بن المستفاد،و محمد بن أحمد الصابونى،و محمد بن الحسين بن فروخ، و على بن الحسين المسعودى،و محمد بن الحسن الطوسى.

و كل هؤلاء من علماء القرن الثانى و الثالث و الرابع و غير هؤلاء من القدماء و المتأخرين،و باستطاعة المؤلف أن يرجع إلى مصادر أخرى فيما يكتب حول هذه الأمور الهامة،و إن كان الأولى و الأجدر به ترک الخوض فى أمر لم يهضم مادته،و لم تتشبع روحه موضوعه،و لذلک فقد تحكم فى شىء لا يصح له أن يتحكم فيه،و ليس من صلاحيته ذلک.

إن عقيدة الشيعة فى الإمامة،هى أمر جوهرى،و فيه تختلف عن سائر الفرق، و لا يكون هذا إلا عن حجة قوية،و أدلة ظاهرة،و آراء صحيحة،و هى أهم مسألة كلامية تضاربت فيها الأفكار،و كثر حولها الجدل و النقاش على ممر العصور و الأيام.

و كأن المؤلف يجهل هذا!!فاعتبرها قضية اعتيادية،أو مسألة من مسائل التاريخ تدحض بقوله فارغ،و حجة لفظية.و لا يسعنا أن نعتذر له بقصر الباع و ضيق الاطلاع

فی مثل هـذا الأمر و هو یکتب عن أحـد أئمة أهل البیت الذین تری الشـیعة أن إمامة الاثنی عشـر منهم من أرکان الدین و هی من الأصول التی بنی علیها الاعتقاد.

إن المسألة ذات أهمیة کبری،و لیس تأییدها أو نقضها یعود إلی نقل أبی الفرج و أمثاله أو کتاب الوشیعة،أو تبتنی علی ظنون و تخمینات.

و باسـتطاعتنا أن نقدم له بعض النصوص الصـریحة فی الأئمة الاثنی عشـر علیهم السّلام،و ما ورد عن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی ذلک،و ما جاء عن الإمام الصادق علیه السّلام من الروایات الکثیرة.

و لکن الشیخ إنما یکتب بنظره کما یشیر إلی ذلک فی ص 205 بقوله:و إننا کما قررنا نکتب عن الصادق بنظرنا لا بنظر إخواننا وحدهم-و لا ندری من هم إخوانه-؟ و مع هذا فلا یصح أن نطیل المقام معه،لأن فی نظره التشکیک فیما یروی فی ذلک من أحادیث فی الوصایة للأئمة.

و هل أشـهر من حدیث الغدیر و الوصایة لعلی علیه السّ لام مما ملأ سـمع الدنیا، و شـهد به جماعة من الصـحابة یربو عددهم علی المائة صحابی،و ألفت فیه کتب قیمة، من جمیع علماء الإسلام،و مع ذلک فهو عند الشیخ موضع نظر.

و کـذلک حـدیث الثقلین و وروده فی کتب صـحیحة موثوق بها،و هو یراها غیر موثوقـة،بدون حجة کما تقدم،فلنترک الحدیث هنا،و نتجاوز هذا الموضوع؛و نغض الطرف عما فیه من و خزات و طعون تخالف ما یتظاهر به من الدعوة لترک الحزازات و الخصومة.

حول الصحابة:

اشارة

لیست دراسة الآراء حول الصحابة بالیسیرة الممهدة،لوجود عقبات تعترض السبیل و لا یمکن التغلب علیها بسهولة.

و قد أشرت لما یتعلق فی هذه المسألة فی الجزء الثانی من هذا الکتاب بموجز من البیان،و کان بودی عدم التعرض لها،إذ هی مشکلة وقف التاریـخ أمامهـا ملجمـا، و اختفت الحقیقـة فیهـا وراء رکام من الآراء،فالتوت الطرق الموصـلة إلیها،کما أثیرت حولها زوابع من المشاکل و الملابسات،و لم تعالج القضیة بدراسة علمیة،لیبدو جوهر المسألة واضحا،و تبرز الحقیقة کما هی.

ص:150

و حيث إن المؤلف تحول إلى بيان رأى الإمام الصادق عليه السّلام فى الصحابة و بالطبع أن رأيه عليه السّلام هو ما عليه أهل البيت أجمع،فلنر ما هو رأى الإمام الصادق عليه السّلام الذى يريد أن يبينه الأستاذ لقرائه و بعده نعود لأصل المسألة و بيان الحقيقة فيها.

يقول فى ص 207 تحت عنوان:رأيه فى الصحابة.

و كان الصادق كآبائه يعتبر الطعن فى أبى بكر و عمر و عثمان رضى اللّه عنهم مخالفا للسنة؛ و قد أثر ذلک عن جده زين العابدين،كما أثر ذلک عن أبيه الباقر،و قد أثر عنه أيضا أو على الأقل لم يوجد دليل على المخالفة،و الأصل الموافقة.

و إلى هنا لم يظهر لنا ما ينطبق على العنوان من بيان رأى الإمام الصادق عليه السّلام فى الصحابة،و ما ذكره لا يصلح أن يكون عاما،إذ هو لجهة خاصة فليس الكلام يدور حول الخلفاء الثلاثة،و مع ذلک فلم يبين رأى الإمام الصادق و ما ذكره عن الإمام زين العابدين من الأثر فهو لا يدل على ذلک حتى يقيس عليه-إن صح الأثر-.

ثم ننتظر من الأستاذ أن يبين لنا رأى الإمام الصادق فى الصحابة،فيذكر لنا رواية عن الحلية بأن الإمام الصادق عليه السّلام كان يستشهد بأعمال أبى بكر بعد أن ذكر رواية جابر الجعفى،و هى عن الحلية أيضا فى النهى عن تناول أبى بكر و عمر.

و نحن لا نريد هنا أن نناقش ما رواه صاحب الحلية،و لكنا نريد أن يبين لنا ما يدل عليه العنوان بعمومه،فليست القضية قضية أفراد،و لا قضية الطعن فى أبى بكر و عمر.

و بعد ذلک يقرر الأستاذ،و ينطق بالحكم و هو قوله فى ص 208:

إن أصحاب محمد جميعا كانوا محل تقدير جعفر و أبيه الباقر،رضى اللّه عنهما.

و نحن هنا نتساءل من أين استنتج هذا الحكم؟و على أى بينة اعتمد،أ يكون التقدير للبعض تقديرا للجميع؟و هل يجعل تقدير الخلفاء الثلاثة تقديرا لباقى الصحابة أجمع،كما أن الطعن على البعض طعن على الجميع؟هذا أمر لا نعرفه و ليس من رأى شيعة أهل البيت.

و لنصغ لبقية قوله بعد هذا فيقول:و قد سئل الإمام محمد الباقر عن قوله تعالى:

إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَ رَسُولُهُ وَ الّذِينَ آمَنُوا الّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكاةَ [المائدة:55].

فقال عليه السّلام:أصحاب محمد.

فقال السائل:يقولون هو على.فقال الإمام المتبع:على منهم.

رأى الشيعة فى الصحابة:

إنه ليست المسألة مسألة بيان رأى الإمام الصادق عليه السّلام فى الصحابة و إنما الأمر يدور حول عقيدة الشيعة فى الصحابة،فإذا ثبت أن جميع الصحابة محل تقدير الإمام الصادق و أبيه الباقر عليه السّلام،فإن الثابت أن الشيعة لا يذهبون إلى ذلک،و لا بد هنا أن نذكر بعض ما يتعلق بهذه المسألة و فروضها ثلاثة:

الأول:إن الصحابة كلهم عدول أجمعين،و ما صدر منهم يحتمل لهم،و هم مجتهدون و هذا هو رأى الجمهور من السنة.

الثانى:إن الصحابة كغيرهم من الرجال و فيهم العدول،و فيهم الفساق،فهم يوزنون بأعمالهم،فالمحسن يجازى لإحسانه،و المسىء يؤخذ بإساءته.و هذا رأى الشيعة.

الثالث:إن جميع الصحابة كفار-و العياذ باللّه-و هذا رأى الخارجين عن الإسلام و لا يقوله إلا كافر،و ليس من الإسلام فى شىء.

هذه ثلاثة فروض للمسألة و هنا لا بد أن نقف مليا لنفحص هذه الأقوال:أما القول الثالث فباطل بالإجماع و لم يقل به إلا أعداء الإسلام أو الدخلاء فيه.و أما القول الأول و هو أشبه شىء بادعاء العصمة للصحابة،أو سقوط التكاليف عنهم،و هذا شىء لا يقره الإسلام،و لا تشمله تعاليمه.

بقى القول الوسط و هو ما تذهب إليه الشيعة،من اعتبار منازل الصحابة حسب الأعمال،و درجة الإيمان و ذلک:

إن الصحبة شاملة لكل من صحب النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أو رآه أو سمع حديثه،فهى تشمل المؤمن و المنافق،و العادل و الفاسق،و البر و الفاجر،كما يدل عليه قول النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى غزوة تبوک عند ما أخبره جبرئيل بما قاله المنافقون:إن محمدا يخبر بأخبار السماء و لا يعلم الطريق إلى الماء،فشكا ذلک إلى سعد بن عبادة.

فقال له سعد:إن شئت ضربت أعناقهم.قال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه و لكن نحسن صحبتهم ما أقاموا معنا».

فالصحبة إذن لم تكن بمجردها عاصمة تلبس صاحبها أبراد العدالة؛و إنما تختلف منازلهم و تتفاوت درجاتهم بالأعمال.

و لنا فى كتاب اللّه و أحاديث رسوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كفاية عن التمحل فى الاستدلال على ما نقوله؛و الآثار شاهدة على ما نذهب إليه؛من شمول الصحبة و أن فيهم العدول من الذين صدقوا ما عاهدوا عليه اللّه،و رسخت أقدامهم فى العقيدة،و جرى الإيمان فى عروقهم،و أخلصوا للّه فكانوا بأعلى درجة من الكمال،و قد وصفهم اللّه تعالى بقوله:

أَشِدّاءُ عَلَى الْكُفّارِ رُحَماءُ بَيْنَهُمْ تَراهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللّهِ وَ رِضْواناً سِيماهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْراةِ وَ مَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوى عَلى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفّارَ وَعَدَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَ أَجْراً عَظِيماً (1).

و هم المؤمنون اَلَّذِينَ آمَنُوا بِاللّهِ وَ رَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتابُوا وَ جاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أُولئِكَ هُمُ الصّادِقُونَ (2).

و قد أمر اللّه تعالى باتباعهم و الاقتداء بهم بقوله تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللّهَ وَ كُونُوا مَعَ الصّادِقِينَ .

و فيهم وَ السّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهاجِرِينَ وَ الْأَنْصارِ وَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسانٍ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ وَ أَعَدَّ لَهُمْ جَنّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (3).

هؤلاء من أصحاب محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و من يستطع أن يقول فيهم ما لا يرضى اللّه تعالى و يخالف قوله.

كما أن الصحبة تشمل من مردوا على النفاق،و الذين ابتغوا الفتنة من قبل و قلبوا

1- (1) سورة الفتح،آية:29. [1]

2- (2) سورة الحجرات،آية:15. [2]

3- (3) سورة التوبة،آية:100. [3]

لرسول اللّه الأمور،و أظهروا الغدر،حتى جاء الحق و ظهر أمر اللّه و هم كارهون.

و فيهم من كان يؤذى رسول اللّه و قد وصفهم اللّه بقوله: وَ مِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَ يَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ (1)إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللّهَ وَ رَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللّهُ فِي الدُّنْيا وَ الآخِرَةِ وَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذاباً مُهِيناً [الأحزاب:57] وَ الَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللّهِ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ [التوبة:61].

و فيهم المخادعون و الذين يظهرون الإيمان،و قد وصفهم اللّه تعالى بقوله:

وَ مِنَ النّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنّا بِاللّهِ وَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَ ما هُمْ بِمُؤْمِنِينَ. يُخادِعُونَ اللّهَ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ ما يَخْدَعُونَ إِلاّ أَنْفُسَهُمْ وَ ما يَشْعُرُونَ [البقرة:8 و 9] وَ إِذا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قالُوا آمَنّا وَ إِذا خَلَوْا إِلى شَياطِينِهِمْ قالُوا إِنّا مَعَكُمْ إِنَّما نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُنَ [البقرة:14].

وَ مِنْهُمْ مَنْ عاهَدَ اللّهَ لَئِنْ آتانا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَ لَنَكُونَنَّ مِنَ الصّالِحِينَ. فَلَمّا آتاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَ تَوَلَّوْا وَ هُمْ مُعْرِضُونَ. فَأَعْقَبَهُمْ نِفاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِما أَخْلَفُوا اللّهَ ما وَعَدُوهُ وَ بِما كانُوا يَكْذِبُونَ [التوبة:75-77].

و الحاصل أن الصحبة منزلة عظيمة،و فضيلة جليلة،و هى بعمومها تشمل من امتحن اللّه قلبه للإيمان،و أخلص للّه،و جاهد و ناصر،و من رقى درجة الكمال النفسانى،فكان مثالا لمكارم الأخلاق،و هم يخشون اللّه و يمتثلون أوامره،كما وصفهم تعالى بقوله: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَ إِذا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آياتُهُ زادَتْهُمْ إِيماناً وَ عَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ. اَلَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَ مِمّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ. أُولئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ (2).

كما أنها تشمل من لم يدخل الإيمان قلبه يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ ما لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ [الفتح:11]و اِتَّخَذُوا أَيْمانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللّهِ إِنَّهُمْ ساءَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ. ذلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ [المنافقون:2 و 3].

فنحن لا نرتاب فى ديننا،و لا نخالف قول ربنا و ما جاء عن رسوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أهل بيته،فى تمييز منازل الصحابة،و درجاتهم فنتبع الصادقين و نوالى المؤمنين،و ندين اللّه

1- (1) سورة التوبة،آية:61. [1]

2- (2) سورة الأنفال،آية:2 و 3 و 4. [2]

بحب من رضـى اللّه عنهم،بما أحسـنوا الصـحابة،و أبلوا البلاء الحسن فى نصرة الدين،و ندعو اللّه فى كل آن عن عقيدة خالصة بدعاء سيدنا الإمام زين العابدين عليه السّلام فى صحيفته المعروفة بزبور آل محمد فى دعائه لاتباع الرسل:

اللهم و أتبـاع الرسـل و مصـدقوهم من أهل الأرض بالغيب،عنـد معارضـة المعانـدين لهم بالتكـذيب،و الاشتياق إلى المرسـلين بحقائق الإيمان،فى كل دهر و زمان،أرسـلت فيه رسولا،و أقمت لأهله دليلا،من لدن آدم إلى محمد صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم من أئمة الهدى،و قادة أهل التقى على جميعهم السلام.

اللهم و أصحاب محمد خاصة،الذين أحسنوا الصحابة،و الذين أبلوا البلاء الحسن فى نصره،و كانفوه،و أسرعوا إلى وفادته،و سابقوا إلى دعوته و استجابوا له حيث أسمعهم حجة رسالاته؛و فارقوا الأزواج و الأولاد فى إظهار كلمته،و قاتلوا الآباء و الأبناء فى تثبيت نبوته،و انتصروا به،و من كـانوا منطوين على محبته يرجون تجارة لن تبور فى مودته،و الـذين هجرتهم العشائر إذ تعلقوا بعروته،و انتفت منهم القرابات إذ سـكنوا فى ظـل قرابته فلاـ تنس لهم اللهم مـا تركوا لـک و فيـک،و أرضـهم من رضوانک،و بما حاشوا الخلق عليک،و كانوا مع رسولک دعاة لک و إليک،و أشكرهم على هجرتهم فيک ديار قومهم،و خروجهم من سعة المعاش إلى ضيقه...

هؤلاء هم محل تقدير أهل البيت،و شيعتهم لا يتعدون ما رسموه لهم و أوضحوه بتعاليمهم؛و نشكو إلى اللّه ما تجناه المغرضون،و ما يقوله المهرجون من أن الشـيعة يطعنون بجميع الصـحابة أو يكفرونهم-و العياذ باللّه-و نحن نـدين اللّه بموالاة أصـحاب محمـد الـذين أحسـنوا الصـحابة و مدحهم اللّه تعالى فى كتابه العزيز،كما نتبرأ ممن أساء إلى رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم و آذاه و من ارتكب الجرائم و خالف أوامر الإسلام.

و نحن لاـ نتنـازل عن بغض من ظلم أهل البيت و عاداهم،و أعلن الحرب عليهم، و آذى رسول اللّه فيهم،فأولئک لا نتبرأ من البراءة منهم،و نتقرب إلى اللّه فى معاداتهم،لأنهم ظالمون.

مناقشة أبى زهرة بمسألة الصحابة:

و نعود إلى الحـديث مع الشـيخ و مناقشـته بعد أن ذهبنا فى الموضوع إلى بيان ما يتعلق بمسألة الصـحابة من حيث هى،إجمالا فى البيان،و اختصارا للكلام،و إلا

فالأمر يدعو إلى مزيد من البيان،وسعة فى البحث،لأنها أعظم مشكلة حلت فى الجامعة الإسلامية،فقد أريقت دماء أتباع أهل البيت بحجة سب الصحابة،أو سب الشيخين،و قد أفتى علماء الدولة بأن ساب الشيخين يقتل و لا تقبل توبته،إلى آخر ما هنالک من أمور كانت أعظم سبب فى تفرقة الصف الإسلامى،و هى مثار لكثير من المشاكل التى أحاطت بالمجتمع.

نعم نعود فنسائل فضيلة الشيخ عن قوله:إن أصحاب محمد جميعا كانوا محل تقدير جعفر و أبيه.فما هو الدليل على ذلک؟و أى أثر استنتج منه هذا القول؟و كيف صح هذا التعبير؟!! أ يصح أن يقال:إن جميع الصحابة كانوا محل تقدير جعفر و أبيه؟!و إن كل من و سم فى الصحبة هو عادل،كما هو رأى الجمهور من السنة،و بهذا تظهر مخالفة الشيعة لأهل البيت و ذلک قول لا يسنده برهان و لا تدعمه حجة.

أ يكون أولئک الذين وصفهم القرآن بصفات الكمال و العدالة و حقيقة الإيمان، هم و أهل الجرائم و من يراءون الناس فيقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم على حد سواء!!! أ نقول بعدالة الجميع و نعصب عيوننا عن تلک المشاهد المؤلمة،التى مثلها بعض من وسم بالصحبة؟!أم نصم أسماعنا عن أصوات المظلومين الذين تجرعوا الغصص و المصائب من سوء أعمال من وسموا بالصحبة؟!.

و إن أجلى مثال لما نقوله،و أصدق صورة لما نبينه،هو عهد معاوية،ذلک العهد الظالم،و الدور المظلم و هو معدود من الصحابة،و قد وازره على ذلک عدد يعدون منهم:كمروان بن الحكم،و المغيرة بن شعبة،و سمرة بن جندب،و بسر بن أرطاة،و عمرو بن العاص،و غيرهم.

و لنترک الحديث للمؤلف نفسه عن ذلک العهد الأسود،و نرجع إلى الوراء قليلا،و نصغ لبعض حديثه هناک عن أعمال معاوية و أعوانه،إذ يقول فى ص 114:

لقد ارتكب معاوية بن أبى سفيان أشد ما ارتكب لطمس معالم الشورى فى الحكم الإسلامى،فقد عهد إلى ابنه يزيد بن معاوية،فحول الخلافة إلى ملک عضوض،بل إلى ملک فاجر،و قد زعم و هو يعهد إلى ابنه بأنه يقتدى فى أبى بكر و عمر...

ص:156

و يقول:أما معاوية بن أبى سفيان فقد علم فيه التاريخ ما علم،و قد قال فى هذا المقام الحسن البصرى:«أربع خصال فى معاوية لو لم تكن إلا واحدة لكانت موبقة:

خروجه على هذه الأمة بالسفهاء حتى ابتزها بغير مشورة منهم،و استخلافه يزيد و هو يسكر و يلبس الحرير،و يضرب بالطنابير،و ادعاؤه زيادا و قد قال النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:الولد للفراش،و للعاهر الحجر،و قتله حجر بن عدى» (1).

و يقول فى ص 116:و هنا مثل آخر لتأثير الوقائع على الآراء:ما سنه معاوية من سنة سيئة:و هى لعن على سيف الإسلام على المنابر،فإن ذلک له تأثير شديد فى نفوس المؤمنين،لأن ما ثبت لعلى من سابقات مكرمات،لا يمكن أن يذهب إذا وقف منافق يلعنه،بل إن ذلک يزيد منزلته فى النفوس تمكينا،إذ يحس الناس بغضاضة الظلم،و فحش العمل،فيلعنون فى نفوسهم و مناجاتهم-من يلعن سيف اللّه الذى سله على الشرک،و لذلک سادت النقمة و لم تعلن الحروب على من يأمرون بلعن الإمام العالم،التقى رضى اللّه عنه،و عن آله الأطهار،و إذا كان قد روى عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنه قال لعلى كرم اللّه وجهه:«لا يحبک إلا مؤمن،و لا يبغضک إلا منافق» (2)فقد علم الذين شاع بينهم الخبر وصف النبوة لهؤلاء الذين سنوا سنة السوء.

و قال فى ص 112:و قد لام كثيرون معاوية على ذلک العمل(أى سب على عليه السّلام)البالغ أقصى حدود الحقد،و لقد أرسلت أم المؤمنين السيدة أم سلمة تقول له:«إنكم تلعنون اللّه و رسوله؛إذ تلعنون على بن أبى طالب و من يحبه،و أشهد أن اللّه و رسوله يحبانه».

و قال فى ص 116:و لكن تعلل معاوية فى خروجه بأن الاختيار لمن فى المدينة و غيرها من الأمصار،و لا حكم لعلى ما دام اختياره لم يتم بالعرب فى جميع الأمصار الإسلامية كلها،و لكن ذلک التعلل لم يمنع من أن يحكم عليه بالإجماع أنه كان باغيا، و إن ترفق بعضهم فسماه متأولا،و لكن يجب على المترفق أن يقول:إن تأويله كان

1- (1) المنية و الأمل و [1]حجر بن عدى خرج على معاوية ثم آمنه ثم قتله غدرا.

2- (2) روى هذا الحديث مسلم فى صحيحه ج 1 ص 64 و النسائى فى الخصائص ص 27 و الطبرى فى ذخائر العقبى ص 91 و [2]ابن عبد البر فى الاستيعاب ج 1 ص 37 [3] بهامش الإصابة و الخفاجى فى شرح الشفاء ج 3 ص 457 و غيرهم.

باطلا لا يبرر خروجه على مثل إمام الهدى على بن أبى طالب،إن كان للدين سلطان على نفسه.

هذا بعض ما حدثنا به المؤلف عن أعمال معاوية و حزبه،و فيهم من وسموا بالصحبة و كانوا فى عداد الصحابة؛و على هذا أ يصح أن يكون أمثال هؤلاء محل تقدير جعفر و أبيه؟و هم يعلنون سب على عليه السّلام حتى ورد أنه كان فى أيام بنى أمية أكثر من سبعين ألف منبر يلعن عليها على عليه السّلام بما سنه لهم معاوية بن أبى سفيان.

و أخرج الدار قطنى:إن مروان بن الحكم قال:ما كان أحد أدفع عن عثمان من على.

فقيل له:ما لكم تسبونه على المنابر؟فقال:إنه لا يستقيم لنا الأمر إلا بذلك.

و قد أشار إلى ذلك العلامة أحمد الحفيظ الشافعى فى أرجوزته:

و قد حكى الشيخ السيوطى أنه قد كان فيما جعلوه سنه

سبعون ألف منبر و عشره من فوقهن يلعنون حيدره

و هذه فى جنبها العظائم تصغر بل توجه اللوائم

فهل ترى من سنها يعادى أم لا و هل يستر أو يهادى

أو عالم يقول عنه نسكت أجب فإنى للجواب منصت

و ليت شعرى هل يقال اجتهدا كقولهم فى بغيه أم ألحدا

أ ليس ذا يؤذيه أم لا فاسمعن إن الذى يؤذيه يؤذى من و من

بل جاء فى حديث أم سلمه هل فيكم اللّه يسب منه له (1)

عاون أخا العرفان فى الجواب و عاد من عادى أبا تراب

فكيف يكون هؤلاء محل تقدير جعفر و أبيه كما يقرره المؤلف؟؟!! أ يكون المغيرة بن شعبة الذى كان يلعن عليا على منبر الكوفة؛و يدعو الناس إلى البراءة منه محلا للتقدير؟؟.

أم سمرة بن جندب الذى أراق دماء المسلمين؛و هتك الحرمات عند ولايته على البصرة من قبل زياد فى عهد معاوية؟و كان ممن يحث الناس على الخروج

1- (1) هكذا ورد الأصل و الوزن لا يستقيم و المعنى غير واضح.

لحرب الحسين عليه السّلام؛و قد وضع أحاديث فيما يؤيد معاوية و يشد عضده.

أم بسر بن أرطاة ذلک السفاک لدماء المسلمين؛و من هتک حرماتهم و قد سبى نساء المسلمين فى اليمن؛و أقامهن فى الأسواق للبيع؛فكان يكشف عن سوقهن فأيهن أعظم ساقا اشتريت (1).

أم أبو الغادية قاتل عمار بن ياسر رضوان اللّه عليه و قد قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:يا عمار تقتلک الفئة الباغية.

و هكـذا مما لا يسع المقام تعـدادهم؛و هم الـذين آزروا الحكم الأموى الغاشم، و أعلنوا الحرب على أهل البيت؛و اشتركوا فى إراقـة تلک الدماء الزكية.

و لا نريد هنا أن نعود إلى زمان النبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم فنعطى صورة عمن و سـموا بصـحبته و لكنهم انحرفوا عن الحق و خالفوا أوامره (2).

و نحن ندين اللّه بحب من أحسن الصحبة؛و نتبرأ ممن أساء و انحرف عن الحق.

و نعود مع الشيخ من جديد إلى الرواية التى أوردها حول آية الولاية و لعله استنتج منها حكمه السابق و إن كانت لا تنتج شيئا.

آية الولاية:

هذه الآية الكريمة و هى قوله تعالى: إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَ هُمْ راكِعُونَ. وَ مَنْ يَتَوَلَّ اللّهَ وَ رَسُولَهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللّهِ هُمُ الْغالِبُونَ (3).

هـذه الآية الكريمة نزلت فى الإمام على عليه السّـلام؛و يكاد المفسـرون يجمعون على ذلک؛و رواه كثير من حفاظ الحديث عن على عليه السّلام؛و عبد اللّه بن عباس؛ و عمار بن ياسر،و أبى رافع.

و أخرجه الخطيب فى المتفق؛و ابن مردويه فى مسنده،و كنز العمال و منتخبه، و إسحاق النيسابورى فى تفسيره.

و قد نقل إجماعهم هذا القوشجى فى مبحث الإمامة من شرح التجريد.و أخرج

1- (1) الاستيعاب بهامش الإصابة ج 1 ص 158. [1]

2- (2) قد ذكرنا فى الجزء الثانى من هذا الكتاب بعضا منهم فراجع.

3- (3) سورة المائدة،آية:55 و 56. [2]

الطبرانی فی الأوسط بسند عن عمار بن یاسر قال:وقف سائل علی علی بن أبی طالب و هو راکع فی تطوع فنزع خاتمه فأعطاه السائل؛فنزلت إِنَّما وَلِیُّکُمُ اللّهُ وَ رَسُولُهُ .

و قال السیوطی فی اللباب:و له شاهد:قال عبد الرزاق:حدثنا عبد الوهاب بن مجاهد عن ابن عباس فی قوله تعالی: إِنَّما وَلِیُّکُمُ اللّهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِینَ آمَنُوا الآیة.

و أخرج ابن جریر عن مجاهد و ابن أبی حاتم عن سلمة بن کهیل مثله فهذه شواهد یقوّی بعضها بعضا (1).

و قال الواحدی فی أسباب النزول:إن هذه الآیة نزلت فی علی بن أبی طالب لأنه أعطی خاتمه سائلا و هو راکع؛و عن ابن عباس:إن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم خرج إلی المسجد و الناس بین قائم و راکع فنظر سائلا فقال صلّی اللّه علیه و آله و سلّم:هل أعطاک أحد شیئا؟.

قال:نعم خاتم.

قال صلّی اللّه علیه و آله و سلّم:من أعطاکه؟ قال:ذاک القائم و أشار بیده إلی علی علیه السّلام.

فقال صلّی اللّه علیه و آله و سلّم:علی أی حال أعطاکه؟ قال:أعطانی و هو راکع فکبر رسول اللّه ثم قرأ: وَ مَنْ یَتَوَلَّ اللّهَ وَ رَسُولَهُ وَ الَّذِینَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللّهِ هُمُ الْغالِبُونَ [المائدة:56].

هذا بعض ما ورد حول هذه الآیة نذکره بإیجاز للتنبیه علی عدم صحة ما نسب للإمام أبی جعفر الباقر علیه السّلام حول آیة الولایة أنها لجمیع الصحابة.

و قد ورد عنه علیه السّلام بطرق صحیحة،أنه علیه السّلام قال:أمر اللّه عز و جل بولایة علی علیه السّلام و أنزل قوله تعالی: إِنَّما وَلِیُّکُمُ اللّهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِینَ آمَنُوا الَّذِینَ یُقِیمُونَ الصَّلاةَ وَ یُؤْتُونَ الزَّکاةَ وَ هُمْ راکِعُونَ [المائدة:55].

و کذلک ورد عن ولده أبی عبد اللّه الصادق علیه السّلام کما رواه عبد الأعلی قال:

قلت لأبی عبد اللّه الصادق علیه السّلام:الأوصیاء طاعتهم مفترضة؟.

قال:نعم هم الذین قال اللّه عز و جل فیهم: إِنَّما وَلِیُّکُمُ اللّهُ وَ رَسُولُهُ الآیة.

1- (1) اللباب للسیوطی ص 9.

و عن الحسين بن أبى العلاء قال:ذكرت لأبى عبد اللّه قولنا فى الأوصياء:إن طاعتهم مفترضة.

فقال عليه السّلام:نعم هم الذين قال اللّه عز و جل فيهم: أَطِيعُوا اللّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولِى الْأَمْرِ مِنْكُمْ [النساء:59]و هم الذين قال فيهم: إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا [المائدة:55].

و على أى حال:فإن المؤلف لم يبين لقرائه رأى الإمام الصادق عليه السّلام فى الصحابة،و لم يأت بأثر عنه فى ذلك،و الواقع أن الغرض لم يتعلق ببيان رأى الإمام الصادق عليه السّلام فى ذلك،و لكن الغرض يدور حول معتقد الشيعة-و قد أشرنا إليه- و هل أنهم يتبعون أهل البيت أم لا؟.

أما الجهة التى تعرض لها و هى الطعن فى الشيخين أو الخلفاء فإنا نقول:من هو الذى يقول إن الأئمة يجوزون ذلك؟و إن الشيعة يعتقدون هذا؟و لنترك الجواب لسماحة الأستاذ الأكبر المغفور له حجة الإسلام الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء رحمه اللّه.

قال بعد ذكر الاختلاف فى الخلافة فى بحث الفروق الجوهرية بين الطائفتين (1):«نعم و نريد أن نكون أشد صراحة من ذلك،و لا نبقى ما لعله يعتلج أو يختلج فى نفس القراء فنقول:لعل قائلا يقول:إن سبب العداء بين الطائفتين أن الشيعة ترى جواز المس من كرامة الخلفاء،أو الطعن فيهم،و قد يتجاوز إلى السب و القدح،مما يسىء الفريق الآخر و يهيج عواطفهم فيشتد العداء و الخصومة بينهم.

و الجواب أن هذا لو تبصرنا قليلا و رجعنا إلى حكم العقل،بل و الشرع أيضا لم نجده مقتضيا للعداء أيضا.

أما أولا:فليس هذا من رأى جميع الشيعة،و إنما هو رأى فردى من بعضهم، و ربما لا يوافق عليه الأكثر،كيف و فى أخبار أئمة الشيعة النهى عن ذلك؟!فلا يصح معاداة الشيعة أجمع لإساءة بعض المتطرفين منهم.الخ.

و ما أكثر الشواهد على تفنيد تلك المزاعم و كذب تلك الأقوال حول عقيدة الشيعة فى الصحابة.

1- (1) مجلة الإسلام السنة الثانية العدد 2 ص 227-228 تحت عنوان:بيان للمسلمين.

و مما تجدر الإشارة إليه أن المؤلف يوافق القائلين بأن الشيعة يطعنون على جميع الصحابة بدون استثناء،كما أشرنا لذلک،و لكنه بعد برهة من المضى فى بحثه يعترف بخطئه و يستغفر من ذنبه،و ذلک بعد أن وقف على ما نقله عن ابن أبى الحديد و أورده فى ص 209 عقبه بقوله:و لا شک أن هذا الرأى معتدل فى هذا الجزء كل الاعتدال،و يكون تعميم الحكم عليهم بأنه فى ماضيهم يستسيغون سب الصحابة،و إذا كانت بعض عباراتنا فيما كتبنا تفيد التعميم فإنا نستغفر اللّه عنها،و نقول:يجب تخصيص هذا العام.

و هكذا يتراجع الشيخ عن رأيه و ينقض حكمه،و يعترف بخطئه و يستغفر من ذنبه.و أن هذا الحكم الجائر:و هو تعميم سب الشيعة لجميع الصحابة أو بعضهم هو أمر دبّر بليل،و خطة مرسومة من قبل ولاة أمر حاولوا القضاء على أتباع آل محمد، فقد جعلوا ذلک وسيلة للقضاء عليهم،إذ رموهم بالزندقة و الكفر و قد وجدت السياسة بهذا الحكم الجائر أقرب طريق للقضاء على الشيعة،و هم خصوم لا تلين قناتهم،و لا يرهبهم الموت،و لا تفزعهم أهوال الإشاعات الكاذبة،ما داموا على بينة من أمرهم فى المحافظة على وصية النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى آله،فهم أهل الحق و أئمة الهدى و مهما كلفهم الأمر فى ذلک من تحمل المحن،و مواجهة المصاعب فهم لا يزدادون إلا إيمانا، و رسوخ عقيدة،و لم تقعد بهم تلک الإشاعات المغرضة،و الأقوال المكذوبة التى كان يروجها دعاة السوء و أعوان الظالمين.

و إن الشيخ أبو زهرة قد أطلق حكمه بدون دراسات للبينات،أو وقوف على حقيقة الأمر،و إنما كان ذلک لتأثره بتلک الدعايات الكاذبة،و قد اعترف بخطئه و استغفر من ذنبه.

و فيما قدمناه كفاية عن الإطالة،لأننا قررنا الاختصار فى البحث و ترک المناقشة لأمور استوجبت ذلک.إننا نترک الكثير من الأشياء التى تلفت النظر و تستوجب المناقشة،و نشير للبعض بموجز من القول حتى ننتهى إلى الحد الذى تقرر الوقوف عليه و الافتراق منه.

و لهذا فإنا نسرع الخطى،و لا نقف عند أكثر نقاط المناقشة،فنمر على ما يذكره حول رأى الإمام الصادق عليه السّلام فى شروط الإمامة ص 211 و قوله:إننا لا نتفق مع

إخواننا الإماميـة فی الإمامة کانت بالنص إلی آخر ما یقوله و لا نتعرض له بشـیء،لأنا قد بینا هناک ضـعف أدلته،و عقم اسـتنتاجه،فلنترکه و رأیه.

کما أننا نترک التعلیق علی ما یقوله فی ص 212:إننا لا نعرف للإمام رأیا مقطوعا بنسبته فی ذلک،لأن الذین کانوا یتشیعون له...الخ.

و هنا لا نقف معه،لأن المقطوع به أن الأخ المؤلف لم یصل بدراسته إلی إیضاح رأی من آراء الإمام الصادق علیه السّلام،و لم یوضح لقرائه من ذلک شیئا.

و من الحق أن نقول:إن المؤلف قلیل العدة من المصادر التی یتعرف علی آراء الإمام الصادق علیه السّلام منها،و لهذا أصبح فی دائرة ضیقة مع فسحة المجال فی ذلک.

و نسـتمر مع الأستاذ بعجالة فنمر علی کلمته التی تحز فی النفس و تبعث علی الأسف لما وصل إلیه من التساهل فی الحکم و هی قوله فی ص 213:و قد مد یده (أی الإمام الصادق علیه السّلام)لیبایع عبد اللّه بن الحسن.

و هذا أمر لم تشر إلیه المصادر التاریخیة مطلقا،و لا یکون أبدا،و لکن المؤلف استنتجه بدون مقدمات،و قد أشرنا له.

و بعد هذا نسـرع أکثر من قبل،و نعرض عن ذکر أی شیء فنتحول من ص 213 إلی 252 و إنما قطعنا هذه المسافة بسرعة لأن الحدیث فیها یدور حول آراء الإمامیة بالذات،و یذکر آراء الإمام الصادق علیه السّلام بالعرض،و هو خلاف موضوع البحث فنترکه عن النقاش،و نصل إلی موضوع:

فقه الإمام الصادق:

و هو موضوع مهم،و عنوان شـیّق،إنه یرید أن یحدثنا عن فقه الإمام الصادق علیه السّلام،و بدون شک،إننا نهتم بهذا غایة الاهتمام،و هو مدار بحثنا.

ما ذا یریـد أن یقول المؤلف تحت هـذا العنوان؟أ تراه یریـد أن یقدم دراسة تاریخیة عن مدرسة الإمام،و نشاطها و کثرة المنتمین؟أم تراه یرید أن یتحـدث عن تراث الإمـام العلمی،و مکـانته فی المجتمع،و أثره فی بعث الفکر الإسـلامی؟و هـل یحـاول أن یقـدم لقرائه عن فقه الإمام الصادق علیه السّلام ما یتفق مع الواقع؟ نرید أن نتریث و نترک الاستعجال و لنصغ لبعض حدیثه حول الموضوع إذ یقول:

إنه بلا ریب کان الإمام الصادق من أبرز فقهاء عصره إن لم یکن أبرزهم،و قد شهد له

بالفقه فقيه العراق الإمام أبو حنيفة،الذى قال فيه الشافعى:الناس فى الفقه عيال على أبى حنيفة.

ثم يستمر بالحديث حول رواية الإمام الصادق،و الرواة عنه،و يتعرض للتشكيک فى صحة ما يروى عنه عليه السّلام،لا من حيث ذاته،و لكن من حيث سند الرواية،ثم يمزج بين الخطابية و أصحاب المغيرة و غيرهم فيمن روى عنه الأكاذيب.

إلى أن يأتى لتأييد ما يراه و قرره فى نظره سابقا من أن الإمام الصادق كان يروى عن غير آبائه الكرام و يورد رواية كتاب الآثار لأبى يوسف عن أبى حنيفة عن جعفر عن سعيد بن جبير عن ابن عمر.الخ.كما فى ص 253 و هكذا حتى ننتهى إلى آخر البحث ص 255.

و لنقف هنا مليا-رغم إصرارنا على عدم الوقوف-و نشر إلى ما تجدر الإشارة إليه بدون إسهاب،و بعد فحص ما ذكره الأستاذ لم نلمس شيئا حول بيان فقه الصادق،و لم يتبين لنا ما يندرج تحت العنوان،سوى ألفاظ لا تؤدى إلا إلى التشكيک،و لا تخلو من و خزات.

و الذى نود التنبيه عليه هو رواية أبى حنيفة،فإنه أسند عن جعفر بن محمد عن سعيد بن جبير،و هذا أمر لا يخلو من مناقشة،فإن التاريخ لم يثبت لنا التقاء سعيد بن جبير بالإمام الصادق عليه السّلام لأن ولادة الإمام الصادق عليه السّلام كانت سنة 83 ه و كان سعيد مع ابن الأشعث فى حربه على الحجاج،و قد شهد وقعة دجيل سنة 82 ه و وقعة دير الجماجم سنة 83-85 ه و هرب سعيد إلى بلاد إيران،و بقى متخفيا هناک خائفا من الحجاج و اعتمر متخفيا و كان يأوى إلى الشعاب و الوديان،و ألقى عليه القبض، و قتله الحجاج فى شهر شعبان سنة 95 ه و كانت مدة اختفائه اثنتى عشرة سنة،و لم يلتق بالإمام الصادق عليه السّلام و كان عمره عليه السّلام،يوم قتل سعيد أحد عشر عاما.

و الغرض نحن نشک فى صدق هذه الرواية،كما نشک فى صدق ما أورده من قول الشافعى فى أبى حنيفة.

و ننتهى من الحديث عن فقه الإمام الصادق،و لكن بدون نتيجة لأنه لم يتعرف على فقه الإمام الصادق عليه السّلام لما ساوره من تشكيک،و ما اعترض طريقه من عقبات و بدون شک أنها وهمية.

ص:164

و هنا يحاول أن يتصل به من طريق آخر و هو طريق الشيعة فيضع العنوان المتقدم و يقول فى ص 156:

و لـذلک لا بـد لتعرف فقه الإمام الصادق من الشـيعة،و نخص منهم بالـذكر الاثنى عشـرية،لأنهم متمسـكون بالقول:بأن فقههم ينتهى إلى الإمام الصادق و سائر الأئمة الأحد عشر عليهم السّلام؛لأن الثانى عشر مغيب لا يعرف علمه فى غيبته.

ثم يمضـى المؤلف فى كلاـمه حول الروايـة عن الإمـام الصـادق عليه السّـلام بمـا يشاء أن يتكلم به،مما يطول نقله و نبعـد عن الطريق فى نقاشه،إلى أن يقول فى صفحة 258:

الأمر الثانى الـذى يعترض الباحث عنـد ما يـدرس الروايات عن الإمام الصادق عليه السّـلام و غيره أنه إن طبق أصول الإسـناد التى يطبقها علماء الحـديث لا يجـد السـند متصـلا بينها و بين الإمام فى كل الأحوال،ذلک أن أقدم المؤلفين الذين جمعوا أحاديث الصادق و أفعاله و أقواله هو الكلينى فى كتابه الكافى،و إذا لو حظ أن الكلينى توفى سـنة 329 ه أى بعد وفاة الإمام الصادق رضـى اللّه عنه بنحو من 181 و لـم يـذكر السـند المتصل إلى الإمام الصادق فى كل الأحوال.نعم إنه يروى الكثير عن تلاميـذه و لكن من المؤكـد أنه لـم يلتق بتلاميـذه إلا إذا فرضـنا أن تلاميذه امتدت أعمارهم إلى أكثر من مائة سـنة أو فرضنا عنده سندا متصلا غير منقطع و من تلاميذه من مات فى حياته كالمعلى بن خنيس.

قـد يقال:إن تلک الأحاديث و الأخبار كانت مدونـة عنـد تلاميذ الصادق و إنه نقل هذه المدونات،و لكن يجب أن تكون هذه المدونات قد اشـتهرت و عرفت،و تكون هى الأصل الـذى يعتمـد عليه،و لا يكون الأصل هو الكافى وحـده،أو غيره من الكتب التى جاءت من بعده،بل يعد الأصل تلک المدونات التى دونها أصـحابه كالشأن فى المجموعين اللذين أسـندا إلى الإمام زيد رضـى اللّه عنه،فإنهما نسب جمعهما إلى تلميـذه أبى خالد،و عرف من تلقاهما عن أبى خالد،و من تلقاهما منه جيلا بعد جيل حتى اشـتهرا و صارا ككل كتاب مشـهور معروف تتوارثه الأجيال بعد هذا الاشـتهار،و قد يقول قائل:إن هذه الكتب قد اشتهرت و توارثتها الأجيال جيلا بعد جيل.و نقول:إن الكلام فى الفترة ما بين الكلينى و من بعـده من الرواة و بين الصادق رضـى اللّه عنه،فإن هـذه الفترة فجوة ربما تقطع السـند و يمنع اتصاله،إلا إذا كان السـند موصولا بطرق أخرى.

ص:165

و مهما يكن فإنا نريد أولا أن ندرس رواية فقه الإمام الصادق دراسة موضوعية، و لا مانع من أن نبدى رأينا فيما تواضع عليه إخواننا من غير أن نجرح مبادئهم، و لا نمس اعتقادهم، و لكن نقول: بنظرنا دون نظرهم عند ما نتجه إلى إبداء رأينا، و اختلاف أوجه النظر لا ضرر فيه و إنما الافتراق هو الذى يكون فيه الضرر من غير ريب. انتهى.

هنا يجب على المؤلف أن يستغفر اللّه ألف مرة لهذا الحكم المرتجل بوصفه للأسانيد بأنها مقطوعة فلا يصح الاعتماد عليها كما يراه، و الصحيح أنه لم يستنطق البينات و لم يتريث فى الحكم. و هو- غفر اللّه له- قد جاء هنا بأمر لا يمكن السكوت عنه، و إسدال الستار عليه، إنه يتحدث عن فقه الشيعة بالذات، و لكنه يطعن فى أسانيدهم إلى الإمام الصادق، و إذا و هن السند فلا قيمة للاستدلال.

المؤلف- هداه اللّه- يعتبر نفسه باحثا و منقبا و يريد أن يصل إلى الواقع من أوضح الطرق، و هو هنا يظهر لقرائه مشكلة تقف أمامه عند البحث عن فقه الإمام الصادق حينما يطبق أصول الإسناد.

و كأنه قد درس دراسة موضوعية صحيحة، فلم يجد اتصالا بين الإمام الصادق عليه السّلام و بين من يروى عنه فى كل الأحوال، و بالأخص ما يرجع إلى رواية الكلينى، و أنه يروى عن أناس لم يلتق بهم، و يعطى صورة أوضح من ذلک و هى:

إن الكلينى يروى عن أناس ماتوا فى حياة الإمام الصادق عليه السّلام كالمعلى ابن خنيس، فالشيخ الكلينى يروى عن المعلى بدون إسناد.

هذا ما يورده المؤلف و لا نتعب أنفسنا بعناء الرد عليه فيما أورده.

و لكن نحيل القراء إلى كتاب الكافى ليقفوا على صحة هذه الفروض التى افترضها المؤلف أو صدق الأقوال التى قالها.

نعم ربما يظن أن المؤلف على حق فيما يقول حول الكافى؛ و لكن بعد الفحص و التتبع يجد القارئ أن ما قاله المؤلف أبعد ما يكون عن الحق. لأننا إذا رجعنا إلى الكافى نفسه نجد السند متصلا و لا صحة لما جزم من عدم الاتصال.

فمثلا يقول: إن الكلينى يروى عن المعلى بن خنيس، و قد مات المعلى فى حياة الإمام الصادق عليه السّلام و قد أكد ذلک فى آخر الكتاب ص 437 بقوله: و يجب أن

ننبه هنا إلى أن الكلينى قـد يروى عن أشـخاص قد ماتوا فى حياة الصادق،كروايته عن المعلى بن خنيس،فقد روى عنه عدة أخبار من غير أن نرى من توسـط بينه و بين الكلينى فيما تحت أيـدينا من إسـناد،و لنضـرب لـذلک مثلا قـد نقلناه فى ما مضـى من قولنا و هو:عن المعلى بن خنيس قال قلت لأبى عبد اللّه:إذا جاء حديث عن أولكم،و حديث عن آخركم،بأيهما نأخذ؟فقال:خذوا به حتى يبلغكم عن الحى.

قال:ثم قال أبو عبد اللّه:إنا و اللّه لا ندخلكم إلا فيما يسعكم،و فى حديث آخر خذوا بالأحدث.

و إنه ثبت أن المعلى قتل فى عهد الصادق،قتله داود بن على والى المدينة من قبل المنصور.

هـذا ما يقوله المؤلف حول روايـة الكافى،و انقطاع السـند فيما يرويه،و لنرجع إلى الكافى نفسه يتضح لنا الأمر إذ الشـيخ أبو زهرة لـم يراجع الكـافى عنـد نقلـه.و لـو راجـع لوجـدها كمـا يلى:روى الكلينى عن على بن إبراهيم،عن أبيه،عن إسـماعيل بن مرار،عن يـونس،عن داود بن فرقد،عن المعلى بن خنيس،قال:

قلت لأبى عبد اللّه عليه السّلام:إذا جاء حديث عن أولكم،و حديث عن آخركم بأيهما نأخذ؟ (1).

فأنت ترى أن سند الرواية هم على بن إبراهيم و أبوه،و إسماعيل بن مرار، و يونس،و داود بن فرقد،هؤلاء خمسة رواة بين الشيخ الكلينى رحمه اللّه و بين الإمـام الصـادق عليه السّـلام و لكن المؤلف أنكر الخمسـة و أبرز الروايـة بـدون واسـطة،و على هـذا قرر حكمه السـابق فى ص 458«بأن الباحث لا يجد السند متصلا بينها و بين الإمام».

و لا ندرى ما معنى هذا التساهل،و ما هو هذا التسرع،فى إعطاء النتائج التى تدعو إلى التشكيک فى أخبار الكافى.

و نحن نناشـد المؤلف:هـل وقف على كتـاب الكـافى،و اطلع على أسانيـده فبان له عـدم الاتصال فيها حتى يوجه هـذا النقـد و يورد هـذا التشكيک؟أم أنه نقل ذلک بالواسطة،و ادعى الإشراف و الاطلاع عليه؟فإن كان قد قرأ كتاب الكافى فكيف يصح

1- (1) الكافى ج 1 ص 67 طبعة دار [1]الكتب الإسلامية.

له أن يصف أسانيده بعدم الاتصال فى جميع الأحوال!!إذ الأمر خلاف ما يقول،كما ذكرنا فى رواية المعلى بن خنيس،و أنها متصلة السند،و لكن المؤلف يدعى بأنها غير متصلة فما أدرى بأى منظار ينظر.و كيف أسقط عدة رواة فجزم بحكمه الجائر.

و إن كان لم يطلع بل اعتمد على نقل الغير،فليس من شأن الباحث الفاحص أن يحكم على شىء بدون اطلاع عليه.

و من المؤسف له أن المؤلف يدعى قراءة الكافى و الاطلاع عليه،إذ يقول فى ص 438:هذه نظرات فى كتاب الكافى ألقيناها،و نقلنا إلى القارئ صورة ما انطبع فى نفوسنا عند قراءته.

هذا ما يقوله المؤلف بأنه أعطى صورة عن الكافى عند قراءته و لعل قرّاءه يصدقون ذلک.

و نحن نقول:إنه لم يقرأ الكافى و لو قرأه لما حكم على بعض الروايات بأنها مقطوعة السند،و على الأقل أنه لا يصدق بمن نقل ذلک،إذ الروايات التى ادعى أنها مقطوعة السند عند قراءته للكافى أو قراءة من نقل ذلک هى متصلة الإسناد غير منقطعة،و إليک بيان ما ذكره المؤلف فى ص 435 عن الكافى:

1-الكافى عن أبى بصير عن أبى عبد اللّه قال:من زعم أن اللّه يأمر بالفحشاء فقد كذب على اللّه،و من زعم أن الخير و الشر إليه فقد كذب على اللّه.

هكذا يورد المؤلف هذه الرواية و يقول بعد ذلک:و نرى فى هذا أن الذى يصل السند واحد فقط،و ليس من المعقول أن يكون قد لقيه؛لأن ما بين وفاة الصادق و وفاة الكلينى نحو 180 سنة.

و نحن نقول:ليس من المعقول أن الشيخ المؤلف قد قرأ كتاب الكافى فيورد هذا النقد إذ لو قرأه لوجد السند متصلا و إلى القراء ذلک.

سند الرواية:

الكلينى عن الحسين بن محمد،عن معلى بن محمد عن الحسين بن على الوشاء عن حماد بن عثمان،عن أبى بصير عن أبى عبد اللّه قال:من زعم (1)..

1- (1) الكافى ج 1 ص 156 طبعة دار [1]الكتب الإسلامية.

الرواية.فهؤلاء الرواة قد أنكر المؤلف وجودهم،و حكم على أن السند منقطع بدون حجة ظاهرة.

و لزيادة البيان نـذكر ما أورده على الروايـة الأخرى (1)و هى:الكـافى عن حفص بن قرط عن أبى عبـد اللّه عليه السّـلام،قال:قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:من زعم أن اللّه يأمر بالسوء و الفحشاء فقد كذب على اللّه.الحديث.

و هذه الرواية أوردها المؤلف على أنها منقطعة السند و الصحيح أنها متصلة السند و هى:

الكلينى عن على بن إبراهيم،عن محمـد بن عيسـى،عن عبـد الرحمن عن حفص بن قرط،عن أبى عبـد اللّه عليه السّـلام قـال:قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:من زعم أن اللّه يأمر بالفحشاء..الحديث.

و بهـذا يظهر كلامـه حول روايـة الكـافى بـدون رويـة و تريث،فهو يصف كل رواياته بالإرسال،و ضـرب لنا مثلا فى ذلك و نسـى نفسه،بأنه يتصف بصفة الباحث المنقب، أو القاضى العادل،إذ لم يسلك المسلك الذى يلزمه أن يسلكه بما وصف نفسه فيه.

و لنتحول مع القراء إلى نقـده للشـيخ الصـدوق عليه الرحمـة صاحب كتاب من لا يحضـره الفقيه،لنعطى للقراء صورة عن تساهل الشـيخ و تسرعه فى حكمه،و إن هذا الكتاب تتصف رواته بالإرسال.

فيقول فى ص 445:

و للصدوق كتاب آخر غير من لا يحضـره الفقيه اسمه التوحيد،كل ما فيه رواية، و فيه ذكر لكلام الصادق فى العقائد،و المسلك الذى سلكه فى كتاب من لا يحضـره الفقيه هو المسـلك الـذى سـلكه فى كتابه التوحيـد،من حيث الإرسال،و الاعتماد على الكتب التى قبله،و لنقبض قبضة منه.تريك منهاجه فى الرواية..انتهى.

و إن القارئ يتصور عنـد ما يقف على تعبير الشـيخ فى نقـده،بأنه يتحدث عن خبرة و دراية،و أنه نقل من الكتاب ما يريد أن يصور فيه منهاج الشيخ الصدوق فى كتاب التوحيد،و إن مسلكه هنا هو مسلكه فى كتاب من لا يحضره الفقيه من حيث

1- (1) الإمام الصادق لأبى زهرة ص 435.

الإرسال (1)و قد قبض قبضة من مرويات كتاب التوحيد و قدمها لقرائه،دليلا على ما يقول،و حجة على ما يذهب إليه من ادعاء الإرسال فى الروايات.

فلنصغ لحديثه عن روايات التوحيد،و نعده لمعرفة واقع الحال،و حقيقة الأمر، و هل كان الأمر كما حدث به الشيخ أم لا؟ قال المؤلف:

1-جاء فى كتاب التوحيد عن هشام بن الحكم قلت لأبى عبد اللّه عليه السّلام:ما الدليل على أن اللّه واحد؟.

قال:اتصال التدبير،و تمام الصنع،كما قال عز و جل: لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلاَّ اللّهُ لَفَسَدَتا [الأنبياء:22].

2-و فى كتاب التوحيد قال قوم للصادق:ندعو فلا يستجاب لنا؟.فقال:

لأنكم تدعون من لا تعرفون.

و نرى أنه من هذا لم يذكر حتى من روى عن الصادق،فدل هذا على أنه أخذ من كتاب لا من سند مرسل أو متصل.

3-و جاء فى التوحيد عن أبى بصير عن أبى عبد اللّه قال:قلت:أخبرنى عن اللّه عز و جل هل يراه المؤمنون يوم القيامة؟فقال:نعم.و قد رأوه قبل يوم القيامة.

فقلت:متى؟ قال:حين قال لهم:أ لست بربكم؟قالوا:بلى،ثم سكت(الإمام الصادق) ساعة ثم قال:و إن المؤمنين ليرونه فى الدنيا قبل يوم القيامة،أ لست تراه فى وقتك هذا؟.قال أبو بصير:فقلت له:جعلت فداك فأحدث بهذا عنك؟فقال:لا،فإنك إذا حدثت أنكره منكر جاهل بمعنى ما نقوله.

4-و فى التوحيد عن الصادق عليه السّلام أنه قيل له:إن رجلا منكم ينتحل موالاتكم أهل البيت يقول:«إن اللّه تبارك و تعالى لم يزل سميعا بسمع و بصيرا ببصر

1- (1) من المؤسف له أن الشيخ أبا زهرة يتحدث عن مسلك الصدوق فى الرواية بدون وقوف على الحقيقة،و ذلك أن الشيخ الصدوق حذف الأسانيد اختصارا و ذكرها فى آخر الكتاب،و لو أن أبا زهرة وقف على كتاب من لا يحضره الفقيه لعرف مسلكه و لم يقع فى هذا الخطأ.

و علیما بعلم و قادرا بقدرة فغضب علیه السّلام و قال:من قال ذلک ودان به فهو مشرک و لیس من ولایتنا علی شیء،إن اللّه تعالی ذاته علیمة سمیعة بصیر قادرة.

و نری أن هذه الروایة لم تذکر بسند قط،فهی من القسم الذی أخذه من الکتب.

هذا ما ذکره المؤلف عن دراسته لکتاب التوحید و ألقاه علی تلامذته و حدث قرّاءه.و کأنه واثق من صحة ما یقوله،لأنه اعتمد علی کتاب جاءت هذه الأخبار مرسلة نقلا عن کتاب الصدوق،و قد حذف الناقل إسنادها.

فإن هذه الأخبار التی ساقها المؤلف أو القبضة التی قبضها من کتاب التوحید لیبین للقراء منهاج الصدوق،لم تکن مرسلة کما یدعی المؤلف،بل هی مسندة،و إلی القراء بیان ذلک بعد مراجعة کتاب التوحید،و الوقوف علیها و هی کما یلی:

الخبر الأول:

قال الصدوق:حدثنا محمد بن الحسن بن أحمد بن الولید(ره)،قال:حدثنا محمد بن الحسن الصفار،عن أحمد بن محمد بن عیسی،عن محمد بن عمیر عن هشام بن الحکم قال:قلت لأبی عبد اللّه علیه السّلام:ما الدلیل علی أن اللّه واحد؟ قال:اتصال التدبیر،و تمام الصنع،کما قال عز و جل: لَوْ کانَ فِیهِما آلِهَةٌ إِلاَّ اللّهُ لَفَسَدَتا [الأنبیاء:22].

هذا هو الخبر الأول الذی یدعی المؤلف أنه مرسل،و هو کما تری موجود فی کتاب التوحید صفحة 178 طبع طهران سنة 1375.

الخبر الثانی:

قال الصدوق:حدثنا أحمد بن محمد بن عبد الرحمن المروزی المقری،قال:

حدثنا أبو عمرو محمد بن جعفر المقری،قال:حدثنا محمد بن الحسن الموصلی ببغداد،قال:حدثنا عیاش بن یزید بن الحسن بن علی الضحاک مولی زید بن علی، قال:حدثنی أبی،قال:حدثنی موسی بن جعفر قال:قال قوم للصادق علیه السّلام:

ندعو فلا یستجاب لنا؟قال:لأنکم تدعون من لا تعرفونه.

هذا هو الخبر الثانی أورده الصدوق علیه الرحمة بهذا الإسناد فی کتابه التوحید کما فی صفحة 206 منه.

الخبر الثالث:

قال الصدوق:حدثنا أحمد بن محمد بن عمران الدقاق(ره)قال:حدثنا محمد بن أبی عبد اللّه الکوفی،قال:حدثنا موسی بن عمران النخعی عن الحسین بن یزید النوفلی،عن علی بن أبی حمزة،عن أبی بصیر عن أبی عبد اللّه قال:قلت له:أخبرنی عن اللّه عز و جل هل یراه المؤمنین یوم القیامة؟قال:نعم و قد (رآه) (1)قبل یوم القیامة.

فقلت:متی؟.

قال حین قال لهم:أ لست بربکم؟قالوا:بلی..ثم سکت ساعة(أی الإمام الصادق)ثم قال:و إن المؤمنین لیرونه فی الدنیا قبل یوم القیامة.أ لست تراه فی وقتک هذا؟.

قال أبو بصیر:فقلت له:جعلت فداک فأحدث بهذا عنک؟فقال:لا،فإنک إذا (أحدثت) (2)به فأنکر منکر جاهل بمعنی ما نقوله(ثم قدر أن ذلک تشبیه کفر،و لیست الرؤیة بالقلب کالرؤیة بالعین،تعالی اللّه عما یصفه المشبهون و الملحدون).

هذا هو الخبر الثالث أورده الصدوق رحمه اللّه بهذا الإسناد کما جاء فی کتاب التوحید فی صفحة 70 منه.و لیس الأمر کما یقول المؤلف و قد حذف أبو زهرة-عن قصد أو غیر قصد-من هذا الخبر ما فیه تمام فائدته و قد جعلنا ما حذفه بین قوسین و إن الحذف یغیر معنی الخبر و یکون دالا علی معنی رؤیة الباصرة کما تدعیه بعض الفرق،و هذا لم یکن من رأی أهل البیت علیهم السّلام.

الخبر الرابع:

قال الصدوق:حدثنا محمد بن علی بن ماجیلویه رضی اللّه عنه،قال:حدثنی عمی محمد بن أبی القاسم،قال:حدثنی محمد بن علی الصیرفی الکوفی،قال:

حدثنی محمد بن سنان عن أبان بن عثمان الأحمر،قال:قلت للصادق جعفر بن محمد علیهم السّلام:أخبرنی عن اللّه تبارک و تعالی لم یزل سمیعا بصیرا علیما قادرا؟قال:

نعم.

1- (1) هکذا فی الأصل و الصحیح رأوه.

2- (2) هکذا فی الأصل و الصحیح بحذف الهمزة.

فقلت له:إن رجلا ينتحل موالاتكم أهل البيت يقول:إن اللّه لم يزل سميعا بسمع و بصيرا ببصر و عليما بعلم و قادرا بقدرة.فغضب عليه السّلام ثم قال:من قال ذلک ودان به فهو مشرک و ليس من ولايتنا على شیء إن اللّه تبارک و تعالى ذاته عليمة سميعة بصيرة قادرة.

هذه هی الأخبار التی أوردها المؤلف لبيان منهاج الصدوق فی رواياته و أنها مرسلة،و ها أنت ذا قد رأيت أن الصدوق عليه الرحمة يروی الحديث بسند متصل، و هو يذكر الرجال و آباءهم،و صفاتهم،و ألقابهم،و لكن المؤلف ينكر ذلک،و نحن ننكر عليه أشد الإنكار،لأن ما ذهب إليه و ما حكم به أمر يثير التشكيک و يبعث على عدم الثقة،و إن كان المؤلف يدعی البراءة من ذلک،كما يقول بعد إيراده لهذه الأخبار ص 447:هذه نظرات ألقيناها على رواية من لا يحضره الفقيه،و كتاب التوحيد، و كلاهما لابن بابويه القمی،و قد قصدنا بهذه النظرات أن ننقل صورة للكتاب فی روايته و فی منهاجه،و ما قصدنا أن نثير غبارا من الشک أو التشكيک حوله،و ليس لنا أن نتهجم على مقدسات إخواننا و لكننا أردنا التوضيح و البيان.

هذا ما يقوله!!و هو يحاول إقناع قرّائه بأن يأخذوا برأيه حول طعنه فی روايات هذه الكتب،و يدعی أن قصده الإيضاح و البيان فی إعطائه هذه الصورة،و هو يزعم أنها طبق الأصل.و بمزيد من الأسف إن الأستاذ لم يقل الحقيقة،فهو يدعی اطلاعه على هذه الكتب،و نقله منها و لكنه لم يطلع عليها،بل نقل عنها بالواسطة.

و نظرا لحصول أشياء كثيرة من أمثال هذه الأمور التی خالف المؤلف فيها ما يوجبه عليه الحق من سعة الاطلاع و التتبع،فإن متابعة ذلک يدعو إلى اتساع البحث، و استيعاب هذا الجزء كله،و ربما يتعداه إلى الجزء السادس فآثرنا الاختصار،و الاكتفاء بالإشارة لما يلزم التنبيه عليه.و قد ألف الأستاذ الكبير الشيخ عبد اللّه السبيتی كتابا فی الرد على أبی زهرة و كذلک الأستاذ العلامة السيد حسين بن يوسف المكی العاملی.

و فی الختام نقول:

كنا نأمل من الشيخ المحترم أن يكون قلمه رائدا لحرية الفكر،لأنه يتحدث عن نفسه فی هذه الدراسة:إنها بروح خالية من الطائفية (1)و إنه يدرس و يوازن،و يختار

1- (1) الإمام الصادق لأبی زهرة ص 13.

فيأخـذ ما هو الأصـلح لغذاء العقول و النفوس،و أقواها فی بناء المجتمع علی أسـس تشـتق من الماضـی قوتها،و تلائم الحاضـر،و لا تنافی الصالح العام (1)و هو کقـاض یـدرس البینات یسـتنطقها و یأخـذ عنها حتی إذا انتهی إلی الحکم نطق به (2)إلی کثیر من أقواله التی تـدل بظاهرها علی حرصه الشدیـد فی إظهار الحقیقـة،و مناصـرة الحق بدراسـة عمیقـة،و تتبع واسع،و بـذل جهـد فی الحصول علی ما یتفق مع الحقیقة.

و لقد ساءنا-کما ساء کثیرا من القراء-ما لمسـناه من تساهله فی النقل و اعتماده علی مصادر لا یلیق بالباحث المنقب الاعتماد علیها،و کان الأجـدر به أن یتأمـل فیما یکتب،و یتوثق ممن ینقل عنه،لأنه یبحث عن أمور لها أهمیتها من الواقع و ما یترتب علیها فی بناء المجتمع بإزالة رواسب خلقتها أفکار بالیة و غذتها طائفیة رعناء.

و علی کل حال:فإن جوهر الخلاف بیننا و بین المؤلف فی إبداء هذه الملاحظات هو ما استنکرناه من الأمور المخالفة للحقیقة و البعیدة عن الصـحة لأنی لمست منه الاسترسال و عـدم التتبع،فی حکمه علی کثیر من الأمور بـدون بینة، و إعطاء النتائج بدون مقدمات،مما أوقعه فی أخطاء کثیرة،و هو مؤاخذ علی ذلک، و لا یغفر له و لأمثاله،ممن نأمل منهم أن ینظروا إلی الأمور بمنظار الواقع،و یتأملوا فیما یسـجلونه،فإن الإسـفاف وراء سراب الخداع و الإشاعات المغرضة،لیس من شأن العلماء الذین یعتصمون بغزارة علمهم لأنهم یحترمون الحقائق أکثر من غیرهم، و یحاولون رفع ما یتأشب به الحق من الأباطیل.

و لهذا فقد ترفعنا عن مناقشة من یدعی العلم و هو جاهل،و ینتحل الدفاع عن الإسـلام و یطعنه فی الصـمیم،لأن هؤلاء یبذرون الشـقاق،و یوقـدون نار الفتنة،بما تقذفه أقلامهم من سـموم،و لم یتعظوا بمآسـی التاریخ،و ما حل بالمسـلمین من ویلات الدمار،و عوامل الانهیار،و ما جلبه علیهم انشقاق کلمتهم من الذل و الهوان.

و الغرض أننا نظرنا إلی الشـیخ بعین الإکبار و التقـدیر و سایرناه فی بحوثه نظرا لشـهرته الواسـعة و کثرة إنتاجه،و لکنه بمزید الأسف لم یعط الموضوع ما یستحقه من التتبع و کثرة المصادر،بل أقول بکل صراحة إن دراسته هذه أعطتنا عنه صورة غیر ما

1- (1) نفس المصدر ص 11.

2- (2) نفس المصدر ص 185.

كنا نتصوره،و الشـيء الـذى نود التنبيه عليه هو اعتماد المؤلف على مصادر لا يصح الاعتماد عليها ككتاب الوشـيعة لموسـى جار اللّه و قد أشرنا له من قبل.

كما أنه جعل المرآة الكاشـفة عن كتب الحديث عند الشيعة:كتاب المسند المنسوب للإمام الصادق،و هو كتاب مجهول المؤلف،و ليس له مقدمة و لا تقديم من أحد،و لا يعرف منهاجه و لا يدرى قصده،و ليس فيه ما يدل على جعله فى ميزان الاعتبار.

و هو كمجموع لبعض الأحاديث اختارها مؤلفه المجهول من كتب الحديث و حذف إسنادها،و مع هذا سماه(مسند الإمام الصادق).

و إن الأستاذ أبو زهرة تصور فى خياله الواسع،أن هذا الكتاب لجماعة فى النجف إذ يقول فى ص 435:و لقد وجدنا إخوانا بالنجف يجمعون الكتب الأربعة فى كتاب سموه المسند،و قد صدر عدة أجزاء منه من دار الفكر ببيروت (1).

و هذا القول جدير بالتأمل و التعجب،لأنا لا ندرى بأى دليل يسـتدل الأسـتاذ على أن المسـند لجماعة من إخوانه فى النجف،و هل استنتج ذلـك من مقدمـة الكتـاب و ليس له مقدمـة،أم من تقـديم لأحـد و لا ـ تقـديم له،أم تقريـظ له و كل ذلك لم يكن أبـدا!!! و إنما هى ظنون و تساهل،و لا نقول:إنه تعمـد ذلك حتى يتسـنى له النقـد،و الطعن فى أمور لا يصـح له نقـدها،و لكنه يعتذر بأنه اعتمد على كتاب إخوانه فى النجف الـذين أخفوا أسـماءهم فى هـذا الكتاب كما يزعم المؤلف،و إن اعتماده على أمثال ذلك هو من الغرابة بمكان و ليس هذا من شأن المحققين.

و لنترك الحـديث عن المسـند و حـديثه شـجون-و لا نطيل الوقوف مع أبى زهرة بعـد أن قررنا أن نفترق فلنطو بساط البحث،و أملنا أن نعود لمناقشته فى كتاب الإمام الصادق و غيره من مؤلفاته التى تعرض بها لذكر الشيعة،أو أفردها للبحث عن فقههم

1- (1) أصـدرت دار الفكر بـبيروت كتابـا فى جزءين مجموع صـفحاته 244 بقطع الربع كتب عليه:الإمـام الصادق-المسـند-دار الفكر بيروت-دار الولاء النجف،و ليس للكتاب مقدمة،و لا تقديم،و لم يذكر اسم مؤلفه،و قد جمع أخبارا من الكتب الأربعة بدون إسناد،و ما كنا نعتقـد أن أحـدا يأخذ مثل هذا الكتاب بعين الاعتبار و لكن أبو زهرة اسـتأنس له،و اعتمد عليه و جعل ينظر إلى الكتب الأربعة بواسـطة هذا الكتاب.

و أصوله،فإنه عافاه اللّه قـد ارتكب–فی كثير منها–أخطاء لا يصـح لمثله أن يرتكبها، لما اتصف به من كثرة التأليف و هو–بمزيد الأسف–قد بنی أبحاثه على التساهل و عدم التعمق بالبحث،فذكر أشـياء على غير وجهها الصـحيح،و قد تركت هنا كثيرا من الأمور التی أخطأ فيها،لأن استقصاءها يقصينا عن منهج البحث،و ما ذكرناه فی هذا العرض إنما هو صورة مصغرة عن متطلبات الموضوع قدمناها للقراء و لهم الحكم، و من اللّه نسأل أن يجمع شمل المسلمين و يوحد كلمتهم و ينصرهم و ما النصر إلا من عند اللّه.

ص:176

اشارة

بین الشیعة و السنّة

من أهم المواضیع التی یجدر بنا التعرض لها بالبحث هو موضوع الخلافات فی المسائل الفقهیة بین الشیعة و السنة؛ لإیضاح ما أبهم أمره علی کثیر من الناس، حتی تسرب سوء الفهم إلی بعض الأدمغة و أثمرت حملات الظالمین و أقوال المفترین، فجعل الشیعة بمعزل عن فقه المسلمین، و أنهم ینفردون بمذهب خاص لا یلتقی مع غیرهم، أو کما یذهب ابن خلدون: إلی شذوذ أهل البیت فی مذاهب ابتدعوها و فقه انفردوا به.

کلمة قالها ابن خلدون، و مرت مع الزمن تعمل عملها فی نفوس البسطاء کما تعمل غیرها من کلمات الکذب و الافتراء، التی تطلق بدون قید و شرط.

غریب و أیم الحق أن یصل الأمر إلی هذا الحد و لکن للعلم کلمته الفاصلة، و ما دام هو المتکفل بوضع الأشیاء فی مواضعها، فالحکم للعلم و حکمه العدل، و قوله الفصل. و لا حاجة بنا إلی الإطالة فی عرض الأقوال، و بیان الآراء حول فقه الشیعة و أصوله، مما یبعث علی العجب و الاستغراب، لصدورها من أناس یدعون المعرفة، وسعة الاطلاع.

و أمر آخر یحضرنی الآن و أود أن أنبه علیه: ذلک أن أکثر من کتب عن التشریع الإسلامی یقصرون الفقه الإسلامی علی المذاهب الأربعة، و لا یبحثون عن سواها، کأن لم یکن الفقه للجمیع، فلم یتعرضوا إلی فقه الشیعة بما یکشف عن واقعه، کأن الشیعة لیسوا من المسلمین، أو أنهم أمة انقرضت فلا یعتنی بالبحث عن فقههم، و ربما تعرض أولئک الکتاب إلی فقه المذاهب البائدة التی لا یوجد بها عامل واحد الیوم.

أما الشیعة الذین یزید عددهم علی المائة ملیون فلم یکن لهم نصیب من

الاشتراک فی بیان التشریع الإسلامی و ذکر فقههم،و ما عندهم من ثروة فقهیة هی أعظم ثروة إسلامیة،و ینبوع متدفق یتصل بالمشرع الأول و الرسول الأعظم،بواسطة آله الأطهار.

و لئن تعرض لهم کاتب فإنما هو تعریض بهم إذ یأخذ بأقوال شاذة و آراء فاسدة، و ینهج نهج المقلد الذی لیس لتفکیره حظ من التصرف،کأن لم تکن الشیعة فی طلیعة الفرق الإسلامیة إلی جمیع العلوم،و هم السابقون إلی التدوین،و المحافظون علی التراث الإسلامی،و بفتح باب الاجتهاد قد صانوا الفقه عن الجمود الفکری،و وسعوا مجاله جریا مع الزمن و تطورا مع الحوادث،إذ لم یهمل الإسلام حکمها،فلکل واقعة حکم،و لکل قضیة قاعدة إذ هو عام شامل لجمیع أدوار الحیاة الإنسانیة.

إنهم أهملوا فقه الشیعة و هو فقه أهل البیت أوصیاء النبی و حملة علمه،و أهل البیت أدری بالذی فیه.

کأن الذین أهملوا فقه الشیعة أو طعنوا فیه قد خدموا الإسلام،أو جردوه عن زوائد لیست لها صلة فیه،و فی الحق-و ما أضیع الحق-أنهم قد جنوا علی الإسلام جنایة لا تغفر،إذ خضعوا لعوامل زمن اشتد فیه الصراع بین طوائف المسلمین،فکفر بعضهم البعض،و ابتعد بعضهم عن بعض،کأن الإسلام لم یأمرهم بالتمسک بحبل اللّه، و الاعتصام به،و أن یکونوا جمیعا و لا یتفرقوا،لیصبحوا قوة متماسکة،تقضی علی کل محاولة ضد الإسلام لینتشر العدل،و تجف الأرض من الدموع و الدماء،و یصبح الناس إخوانا و لیس فی قلوبهم غل،و لا أثر للأثرة،و لا مکان للاستغلال فی المجتمع.

إن تلک الرواسب التی خلفتها عصور التطاحن یجب أن یخلو الطریق منها، و نزعات یجب أن تقبر،و هیاکل و همیة یجب أن تزول.و قد نسبوا إلی الشیعة آراء فی الفقه لیست هی آراؤهم،و لا یقول بها أحد أبدا،و إن وجدوا قولا شاذا لواحد ینسب إلیهم جعلوها للمجموع و ادعوا علیه الإجماع،و إذا نسب لفرد رأی فی عقیدة کان ذلک الرأی للجماعة کأن الجماعة هی الفرد،و الفرد هو الجماعة.

کل ذلک مبعثه التعصب الذی ضرب ستارا بین الواقع و بین ما یقولون،و قد مرت الإشارة لبعض ذلک،و من المؤسف و المؤلم أن یمضی الکثیر علی ما اختلقه طغاة الأمس و بغاة الماضی و یبقوا غشاوة التحامل علی عیونهم فیحکموا مقلدین بدون

دليل و يهجروا ما فى أيدى الشيعة من فقه و علم و أدب،و سنشير لبعض الآراء الفقهية أو الفتاوى الشاذة التى نسبت إلى الشيعة و لا قائل منهم فى ذلک.و قد لعبت الدعايات الكاذبة دورها فى الأفكار و اتجاه الجماعات حتى أصبح الرجل يهون عليه أن يتهم بالزندقة و الإلحاد و لا يتهم بالتشيع.و اشتهر قول بعض من ينسب إلى العلم:آكل ذبيحة اليهودى و النصرانى و لا آكل ذبيحة الشيعى أو الرافضى.

و ما أكثر الأقوال فى ذلک و لا ذنب للشيعة من حيث الواقع،و لكنها السياسة التى أعلن الشيعة الانفصال عنها،و استقلوا بتعاليمهم من دون مؤثرات على نهج تعاليمهم،و نفضوا أيديهم من غبار أطماعها،فانفصلت مدرستهم انفصالا تاما فى جميع الأدوار،فلا مدارس تشاد لهم من قبل الحكومات،و لا وظائف تدريس،و لا رواتب لطلاب،و لا تشجيع لهم من جميع الجهات التى لها اتصال بتلک السياسة الجائرة.

نعم كانت هناک مراقبة و معارضات،و مقاومة شديدة،تحاول القضاء عليهم.

و قد اجتازت مدرستهم فى أدق المراحل و أقسى الظروف خطوات واسعة،و عقبات شديدة،و دكت صروحا،و أحرزت النصر،فكان لهم أثر عظيم فى خدمة الإسلام، و انتشار علومه،و نمو فقهه و باب الاجتهاد مفتوحا عندهم.

و إن ما خلفته أقلام أعلام الشيعة من تراث علمى فى جميع المجالات شىء يبعث على الفخر،و يفوق حد الحصر،و إن مؤلفاتهم التى نشرت و التى لم تنشر هى من الكثرة بمكان،و هذه المؤلفات الموجودة هى بقية التلف إذ صارت مؤلفات الشيعة وقودا للحمامات،و طعمة للأنهار،فى أيام تحكم الطائفية و انتشار التعصب المذهبى، الذى لعب دورا فى التاريخ.

و الشىء الذى تجدر الإشارة إليه-لأهميته-هو ما بلغت إليه الحالة من جراء التعصب و اشتباک عوامل الخلافات،أن بعضهم قد التزم مخالفة الشيعة فيما يفتون به مع وضوح الدليل،و قوة المأخذ،و هو يرى أن ذلک أولى من القول بما تقوله الشيعة، و يظهر أثر ذلک فى كثير من المستحبات و الواجبات.

يقول ابن تيمية فى منهاجه-عند بيان التشبه بالشيعة-:و من هنا ذهب من ذهب من الفقهاء إلى ترک بعض المستحبات،إذ صارت شعارا لهم(أى للشيعة)فإنه و إن لم

یکن الترک واجبا لذلک لکن فی إظهار ذلک مشابهة لهم فلا یتمیز السنی من الرافضی، و مصلحة التمییز عنهم لأجل هجرانهم،و مخالفتهم أعظم من مصلحة المستحب.

و قال مؤلف کتاب الهدایة:إن المشروع التختم بالیمین و لکن لما اتخذته الرافضة(أی الشیعة)جعلناه فی الیسار.

و قال الزرقانی فی شرح المواهب اللدنیة فی صفة عمامة النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کما روی الإمام علی علیه السّلام فی إسدالها علی منکبه حین عممه رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم:إن الحافظ العراقی قال:إن ذلک أصبح شعار کثیر من فقهاء الإمامیة فینبغی تجنبه لترک التشبه بهم.

و قال الشیخ محمد بن عبد الرحمن فی کتاب رحمة الأمة:السنة فی القبر التسطیح و هو أولی علی الراجح من مذهب الشافعی و قال أبو حنیفة و أحمد:التسنیم أولی لأن التسطیح صار شعارا للشیعة.

و قال الغزالی:إن تسطیح القبور هو المشروع و لکن لما جعلته الرافضة شعارا عدلنا عنه إلی التسنیم.

و غیر ذلک مما ستقف علیه فی هذا الموضوع فی کثیر من المسائل الفقهیة.

و إن موضوع البحث عن آراء رؤساء المذاهب و اتباعهم أمر لیس من السهل الإحاطة فیه،لأنا نجد أن أقوال صاحب المذهب مختلفة،کما أن أصحابه الذین علیهم المعول فی أخذ الأحکام و نشر المذهب تختلف أقوالهم،فمرة یوافقونه و مرة یخالفونه.و هناک آراء فردیة یذهب إلیها البعض.

فالحنفیة یوردون فی کتبهم أقوال أئمتهم الأربعة:أبو حنیفة،و أبو یوسف، و محمد بن الحسن،و زفر،فربما یکون فی مسألة واحدة أربعة أقوال لکل واحد منهم قول یخالف فیه الآخر،حسب ما یظهر لهم من الآثار و المعانی.و یأتی المتأخرون بآراء یخالفون بها سلفهم.

و قد حاول بعض الحنفیة أن یجعل أقوالهم المختلفة أقوالا لأبی حنیفة رجع عنها،و الواقع إنا نجد هؤلاء یخالفون أبا حنیفة عن أدلة و استنتاج،و هم غیر مقلدین له فی ذلک (1).

1- (1) انظر هذا المبحث فی الجزء الأول من هذا الکتاب فی مواضیع متفرقة.

كما أن الشافعى له أقوال مختلفة و فقهه يعرف بالقديم و الجديد،أى أن له فقها رجع عنه فسمى بالقديم،و قد نهى عن العمل به (1).

و كذلک جميع أئمة المذاهب لا تتفق أقوالهم،و كثير من أصحابهم يخالفونهم فى كثير من المسائل،و هذا أمر مجهد لا يمكن استقصاؤه،و نحن نحاول قدر الاستطاعة أن نتعرض لأشهر الأقوال عندهم.

و ناحية أخرى و هى اختلاف المذاهب فيما بينها كما أن كثيرا من العلماء ألفوا كتبا للرد على رؤساء المذاهب بما خالفوا فيه الكتاب و السنة،و أول من كتب فى هذا الليث بن سعد أحد رؤساء المذاهب البائدة فى رسالته للإمام مالک يرد عليه.

و قد ذكر يحيى بن سلام قال:سمعت عبد اللّه بن غانم فى مجلس إبراهيم بن الأغلب يحدّث عن الليث بن سعد أنه قال:أحصيت على مالک بن أنس سبعين مسألة كلها مخالفة لسنّة النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مما قال مالک فيها برأيه.

و الشافعى وضع كتبا فى الرد على مالک و معارضة أقواله،و كان يقول:قدمت مصر و لا أعرف أن مالكا يخالف من أحاديثه إلا ستة عشر حديثا،فنظرته و إذا به يقول بالأصل و يدع الفرع،و يقول بالفرع و يدع الأصل.و تعرض الشافعى فى رده على مالک للمسائل التى ترک فيها الأخبار الصحيحة بقول واحد من الصحابة،أو بقول واحد من التابعين،أو لرأى نفسه (2).

و لعل هذا هو الذى حمل أكثر المالكية فى وضع الكتب للرّد على الشافعى فيما خالف الكتاب و السنة،و قد ألف جماعة منهم فى ذلک:كأحمد بن مروان المتوفى سنة 289 ه،و أحمد بن يعلى المتوفى سنة 399 ه،و حماد بن إسحاق المتوفى سنة 269 ه،و أبو عمر يوسف بن يحيى المتوفى سنة 288 ه،و يحيى بن عمر بن يوسف الكنانى المتوفى سنة 289 ه.

و لإسماعيل بن إسحاق القاضى كتاب الرد على الشافعى،و كتاب الرد على أبى حنيفة (3)و غير ذلک مما يمثّل الصعاب التى تواجه الباحث عن الفقه الإسلامى

1- (1) فصلنا ذلک فى الجزء الثالث من هذا الكتاب فى ترجمة الشافعى.

2- (2) انظر جامع بيان العلم و فضله لابن عبد البر.ج 2 منع القول بالرأى.

3- (3) انظر الديباج المذهب تجد الكثير من ذكر الكتب المؤلفة فى الرد على أئمة المذاهب.

و اختلاف الآراء فی کثیر من مسائله،و منشأه الاختلاف فی الأصول و المبانی العامة التی یعتمدون علیها فی استنباطهم.و اختلافهم فی مدی انطباق القاعدة أو النص أو الأصول التی یتخذونها طریقا للاستدلال.

اختلاف الفقهاء فی الفتوی:

اشارة

و نظرا للاختلاف الحاصل من تفهم أدلة الاستنباط،فقد انفرد رؤساء المذاهب بمسائل لا یقول بها صاحب المذهب الآخر،کما انفرد بعض أعیان المذاهب بأقوال لا یقول بها رئیس مذهبه و لا غیره،و هذا شیء کثیر یمکن حصره من تتبع الأقوال المختلفة.

و قد حاول بعضهم حصر تلک الأقوال المنفردة،و لکن التتبع یضیف إلی ذلک کثیرا منها.و قد نقل صاحب کتاب الفوائد العدیدة عن کتاب الإفصاح للوزیر عون الدین یحیی بن هبیرة،ما انفرد کل مذهب فیه عن سائر المذاهب،و نظرا لما فی ذلک من الفائدة و الإیضاح ننقل هنا تلک الأقوال التی اختص بها کل واحد عن غیره،بدون تعلیق علی ذلک أو بیان لما یحتاج إلی بیان.

أبو حنیفة:

قال فی الإفصاح:اعلم أن الإمام أبا حنیفة تفرد بخمس عشرة مسألة:

1-العفو عن مقدار الدرهم من النجاسات،و الأئمة یوافقونه فی الدم.

2-عدم النیة فی الوضوء و الطهارة.

3-جواز التوضؤ بالمائعات.

4-الخروج من الصلاة بما لیس منها.

5-عدم الطمأنینة فیها،إلا ما رواه أبو یوسف.

6-کل إهاب یطهر بالدباغ عنده.

7-جواز الربا فی دار الحرب.

8-إن للمرأة ولایة النکاح.

9-قتل النفس بالنفس مطلقا.

10-عدم جواز الوقف فی المنقول.

11-عدم القضاء على الغائب.

ص:182

12-ميراث الذين عقدت أيمانكم.

13-طهارة الخمر بالمعالجة.

14-عدم جواز الجمع إلا فى عرفة و مزدلفة.

15-ثبوت الربا فى الجص،و النورة،و الزرنيخ.

مالك بن أنس:

و أما ما اختص به الإمام مالك:

1-الإرسال فى الصلاة(أى إرسال اليدين).

2-طهارة الكلب.

3-جواز القراءة للحائض خوف النسيان.

4-عدم التوقيت للمسح على الخفين.

5-قتل المرتد من غير استتابة.

6-وجوب الغسل للجمعة.

7-تفضيل المدينة على مكة.

8-تجاوز الميقات بلا إحرام،إذا مر عليه و لم يكن له.

الشافعى:

و أما ما اختص به الإمام الشافعى:

1-وجوب قراءة الفاتحة على المأموم.

2-وجوب التشهد الأخير.

3-زواج البنت من الزنا.

4-اتخاذ أوانى الذهب و الفضة من غير استعمال.

5-لعب الشطرنج.

6-نجاسة الأوراق مطلقا.

أحمد:

و أما ما اختص به الإمام أحمد:

1-وجوب المضمضة و الاستنشاق.

ص:183

2-وجوب غسل اليدين عند القيام من النوم.

3-الاقتصار على المفصل فى اليد فى مسح التيمم قياسا على السرقة.

4-مؤاخذة المقر بإقراره،و إن استثنى أنه أعطى فلا يقبل منه و إن كانت البينة.

ما انفرد به ابن تيميّة:

1-القول فى قصر الصلاة فى كل ما يسمى سفرا طويلا كان أو قصيرا،و هو مذهب الظاهرية.

2-إن البكر لا تستبرئ و إن كانت كبيرة،و هو قول ابن عمر و اختاره البخارى.

3-إن سجود التلاوة لا يشترط له وضوء،و هو مذهب ابن عمر و اختاره البخارى.

4-القول بأن من أكل فى شهر رمضان معتقدا أنه ليل،فبان نهارا لا قضاء عليه،كما هو الصحيح عن عمر،و ذهب إليه بعض الفقهاء و التابعين.

5-إن المتمتع يكفيه سعى واحد بين الصفا و المروة،كالقارن و المفرد و هو قول ابن عباس و رواية عن أحمد.

6-جواز المسابقة بلا محلل.

7-القول باستبراء المختلعة بحيضة،و كذلك الموطوءة بشبهة و المطلقة آخر ثلاث تطليقات.

8-إباحة وطى الوثنيات بملك اليمين.

9-جواز عقد الرداء فى الإحرام و لا فدية.

10-جواز طواف الحائض و لا شىء عليها إذا لم يمكنها أن تطوف طاهرة.

11-القول بجواز بيع الأصل بعصيره كالزيت بالزيتون و السمسم بالشيرج.

12-جواز الوضوء بكل ما يسمى ماء مطلقا كان أو مقيدا.

13-جواز بيع ما يتخذ من الفضة للتحلى و غيره بالفضة متفاضلا و جعل الزيادة فى الثمن فى مقابلة الصنعة.

14-المائع لا ينجس بوقوع النجاسة فيه إلا أن يتغير قليلا كان أو كثيرا.

15-جواز التيمم لمن خاف فوات العيد و الجمعة باستعمال الماء.

16-جواز التيمم فى مواضع معروفة.

17-الجمع بين الصلاتين فى أماكن مشهورة.

18-و كان يميل أخيرا إلى القول بتوريث المسلم من الكافر.

19-و من أقواله المشهورة التى جرى بسببها و الإفتاء بها محن:قوله بالتكفير بالحلف و إن الطلاق لا يقع إلا واحدة،و إن الطلاق المحرم لا يقع و إن جميع أيمان المسلمين مكفر (1).

الخلاف بين المذاهب:

و إذا أردنا أن نتابع للوقوف على الأقوال التى ربما يقال إن أصحابها انفردوا عن مذاهبهم بالذهاب إليها،فإن طول المسافة يبعدنا عن الهدف المقصود.كما أن الخلاف بين المذاهب بعضهم مع بعض شىء لا يمكن إنكاره لكثرته،و قد أحصى الخلاف بين مذهب أحمد بن حنبل و مذهب الشافعى فكانت المسائل المختلف فيها أكثر من عشرة آلاف مسألة.

و صنف القاضى عز الدين الحنبلى فى المفردات المخالف للمذاهب الثلاثة كتابا ذكر فيه أكثر من ثلاثة آلاف مسألة.

و ذكر صاحب الفواكه العديدة:أن مذهب الإمام أحمد وسط بين المذاهب فى كثير من المسائل مما تدعو حاجة الناس إليه من مذهب الإمام أحمد؛منها:

1-القول بطهارة بول جميع الحيوانات المأكولة اللحم،و روثها كالغنم، و البقر،و الخيل،و الدجاج،و الإبل،و الإوز،و غير ذلك.

2-إن منى الآدمى و منى ما يؤكل لحمه طاهر و هذا أيضا فيه رخصة.

3-جواز المسح على العمامة و الجورب و فيه أيضا رخصة.

4-صوم رمضان بالغيم و القتر ليلة الثلاثين من شعبان.

1- (1) الفوائد العديدة فى المسائل المفيدة لأحمد بن محمد التيمى النجدى ص 48-50،نقلا عن كتاب الإفصاح للوزير عون الدين يحيى بن هبيرة.

5-صحة البيع بالمعاطاة.

6-للوالد أن يتملک من مال ولده ما شاء.

7-إن الخلع فسخ لا ينقص به عدد الطلاق.

8-عدم وقوع الطلاق من السکران.

9-الرد فی باب الفرائض و توريث ذوی الأرحام.

10-إن الکافر إذا مات حکم بإسلام من لم يبلغ من ولده.

11-جواز الاستمناء (1)باليد و نحوها لمن خاف العنت و هی رخصة عظيمة و کذلک المرأة بشیء.

12-جواز الوقف فی إحدی الروايتين عن أحمد.

13-جواز بيع الوقف و المناقلة إذا تعطلت منافعه و بيع المسجد و نقله إذا تعطل نفعه أو لم ينتفع به.

14-فسخ النکاح لعدم النفقة و الوطء.

15-الحکم بالشهادة علی الخط و غير ذلک.

و علی أی حال:فإن الاختلاف بين المذاهب فی الفقه أمر لا يمکن حصره، و نحن بهذا العرض نحاول إعطاء صورة عن البعض من ذلک،و قد ألف علماؤنا الأعلام کتبا فی الخلافات الفقهية بين السنة و الشيعة،و بين المذاهب السنية أنفسها.

و لما کان هذا الموضوع من أهم الأمور التی يلزمنا البحث فيها،رأينا أن نختصر البحث،و نقتصر علی ما يتعلق بالصلاة و مقدماتها،و أفعالها،و نذکر طرفا من مسائل الطهارة فی هذا الجزء،و أفعال الصلاة فی الجزء السادس،و نستدرک بقية المباحث الفقهية فی کتاب مستقل يرتبط بهذه السلسلة کمستدرک لها،و إنی لا أضمن لنفسی السلامة من الخطأ،فربما يکون هناک شیء لم أتعمده،و أمر لم أقصده،و من اللّه أطلب التسديد و عليه أتوکل و هو حسبی و نعم الوکيل.

1- (1) الاستمناء باليد هو المعروف بالعادة السرية المنهی عنها شرعا،و قد أيد الطب ذلک و أنها تورث (الهستيريا)و لعل المراد بقوله و نحوها هو:جواز التفکر بجمال امرأة أو النظر إليها لإنزال الشهوة أو العبث بالذکر،و قد جوز الأحناف ذلک لمن کان أعزب لتسکين شهوته کما جاء فی شرح مراقی الفلاح ص 17 و عندنا کل ذلک حرام مخالف للأدلة.

الطهارة

اشارة

الوضوء و الغسل و التيمم

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَ أَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرافِقِ وَ امْسَحُوا بِرُؤُسِكُمْ وَ أَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَ إِنْ كُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا وَ إِنْ كُنْتُمْ مَرْضى أَوْ عَلى سَفَرٍ أَوْ جاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّساءَ فَلَمْ تَجِدُوا ماءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَ أَيْدِيكُمْ مِنْهُ ما يُرِيدُ اللّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَ لكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَ لِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ [المائدة:6].

أجمع المسلمون على وجوب الطهارة للصلاة:

و هى فى اللغة النظافة و النزاهة من الأدناس،و فى الشرع:اسم للوضوء،أو الغسل أو التيمم،على وجه له تأثير باستباحة الصلاة.

و عرفها الشهيد الأول:بأنها استعمال طهور مشروط بالنية،و الطهور هو الماء و التراب.

و قال فى التذكرة:إنها وضوء،و غسل،و تيمم يستباح به عبادة شرعية.

و قال القرطبى:الطهارة من الحدث ثلاثة أصناف:وضوء،و غسل،و بدل منهما،و هو التيمم.و قال ابن حمدان الحنبلى:الطهارة تحصل عند وجود سببها قصدا و اتفاقا.

و قال الشوكانى:إنها صفة حكمية تثبت لموصوفها جواز الصلاة به أو فيه أو له.

و قال فی الروض الندی:هی ارتفاع حدث و ما فی معناه،و زوال خبث أو ارتفاع حکم ذلک.

و قال فی شرح مراقی الفلاح:حکم یظهر بالمحل الذی تتعلق به الصلاة لاستعمال المطهر (1).

و الطهور اسم للماء و التراب لقوله تعالی: وَ أَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً طَهُوراً .

و قال صلّی اللّه علیه و آله و سلّم:«جعلت لی الأرض مسجدا و طهورا»و سیأتی بیان ذلک.

و مهما یکن من اختلاف فی تعبیر الفقهاء فی تعریف الطهارة،فلا خلاف بینهم فی وجوبها للصلاة،و أنها اسم للوضوء،و الغسل،و التیمم،و إن الصلاة تتوقف علی إزالة الحدث فی ذلک.

و قد وقع الخلاف فی هذه الأشیاء لا من حیث وجوبها،بل من حیث موجبها و واجباتها و سننها و شرائطها.

الوضوء

اشارة

لا خلاف بین جمیع المسلمین فی وجوب الوضوء للصلاة لقوله تعالی: إِذا قُمْتُمْ إِلَی الصَّلاةِ... و لقوله صلّی اللّه علیه و آله و سلّم:لا یقبل اللّه صلاة أحدکم إذا أحدث حتی یتوضأ.

کما لا خلاف بینهم فی أن أعضاء الوضوء مغسولة و ممسوحة،و إنما الخلاف فی الرجلین کما سیأتی:

و للوضوء فروض،و سنن،و شروط و قد وقع الخلاف فی ذلک بین جمیع المذاهب.

فروضه:

اشارة

فروض الوضوء عند الشیعة خمسة:

1-النیة و هی:الإرادة،أو القصد إلی الفعل علی أن یکون الباعث إلیه أمر اللّه

1- (1) شرائع الإسلام للمحقق الحلی ص 2 و شرح اللمعة الدمشقیة للشهید الثانی طبع مصر ص 12 و تذکره الفقهاء ص 1 و [1]بدایة المجتهد للقرطبی ص 6 و الروض الندی شرح کافی المبتدی ص 21 و الفواکه العدیدة ص 6 و شرح مراقی الفلاح ص 2 و غیرها.

تعالى،و لا بد فيها من الإخلاص،فلو لم يكن مخلصا لا يصح على تفصيل يذكره الفقهاء فى باب النية بداعى امتثال أمر اللّه،و إطاعته.

2-غسل الوجه:و هو ما دارت عليه الإبهام.و الوسطى عرضا،و ما بين قصاص الشعر إلى طرف الذقن طولا،و يجب الابتداء بأعلى الوجه إلى الأسفل.

3-غسل اليدين من المرفقين إلى أطراف الأصابع،و المرفق مجمع عظمى الذراع و العضد و يجب غسله مع اليد.

4-مسح مقدم الرأس و يكفى فيه المسمى،و لو قدر أصبع إلى ثلاثة أصابع.

5-مسح الرجلين من أطراف الأصابع إلى الكعبين،و هما قبتا القدم.

و شرائط الوضوء:طهارة الماء و إطلاقه،و عدم استعماله فى التطهير من الخبث،و طهارة أعضاء الوضوء،و عدم المانع من استعمال الماء لمرض أو عطش، و الموالاة و الترتيب كما سيأتى بيانه.

هذه هى فروض الوضوء عند الشيعة كما دلت عليه الأدلة من الكتاب و السنة النبوية بما هو مذكور فى محله من كتب الفقه (1)فهم يتفقون مع المذاهب فى أمور و يفترقون عنها فى أمور،فلننظر فى ذلک لنرى مدى الاتفاق و الافتراق بينهم و بين غيرهم من المذاهب،كما ننظر إلى الاتفاق و الافتراق بين المذاهب الأربعة نفسها.

اتفق جميع العلماء على اشتراط النية فى الوضوء و غيره من أنواع الطهارة من الحدث،و إنها فرض كما تقول به الشيعة،إلا أبو حنيفة فإنه لم يشترط النية فى الوضوء و الغسل و اشترطها فى التيمم.

و حجته أن المكلف إنما أمر بغسل جسمه أو غسل هذه الأعضاء،و لو غسلهما للتبرد أو التنظيف فقد فعل ما أمر به،و قاس ذلک على إزالة النجاسة،فإنها تجزى بلا نية عند الجميع.

و قال مالک،و الشافعى،و أحمد بن حنبل،و الليث بن سعد:بوجوب النية.

1- (1) شرائع الإسلام للمحقق الحلى،و التذكرة للعلامة الحلى،و الخلاف للشيخ الطوسى،و العروة الوثقى للسيد اليزدى،و المستمسک للسيد الحكيم،و المختصر النافع للمحقق،و غيرها من كتب الفقه.

و عقد الإجماع على اشتراط النية لقوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:إنما الأعمال بالنيات و لكل امرئ ما نوى.

غسل الوجه:

لا خلاف بين جميع المسلمين فى وجوب غسل الوجه مرة واحدة و قد اختلفوا فى تحديده.

فمذهب الشيعة:أن حده من قصاص الشعر إلى منتهى الذقن طولا،و ما دارت عليه الإبهام و الوسطى عرضا.

و مذهب مالک أن البياض الذى بين العذار و الأذن ليس من الوجه،و بهذا يتفق مع الشيعة،و لكنه فرّق بين الأمرد و الملتحى،كما هو مذكور فى محله (1).

و ذهب أبو حنيفة،و الشافعى (2)،و أحمد إلى أن البياض الذى بين العذار و الأذن من الوجه فيجب غسله (3).

و كذلک اختلفوا فيما تحت الذقن،فالمشهور عن الشافعى أنه يوجب غسل ما تحت الذقن،و عند الحنفية أن حد الوجه ما بين قصاص الشعر و أسفل الذقن(طولا) و شحمتى الأذنين (4)(عرضا).

و سبب هذا الاختلاف هو خفاء تناول اسم الوجه لهذه المواضع.

غسل اليدين:

اتفق المسلمون على أن غسل اليدين و الذراعين من فروض الوضوء،و اختلفوا فى موضعين:

الأول:فى إدخال المرافق فيها،فذهب الجمهور،و مالک،و الشافعى،و أبو حنيفة (5)و أحمد بن حنبل (6)،إلى وجوب إدخالها فى الغسل،و هو مذهب الشيعة

1- (1) المنتقى فى شرح موطأ مالک ج 1 ص 35.

2- (2) بداية المجتهد ج 1 ص 10.

3- (3) الروض الندى ص 35.

4- (4) غنية المتملى فى شرح منية المصلى ص 8.

5- (5) بداية المجتهد ج 1 ص 10.

6- (6) الروض الندى ص 36.

و ذهب بعض أهل الظاهر،و بعض متأخرى أصحاب مالک،و زفر بن الهذيل-من أصحاب أبى حنيفة-و الطبرى إلى أنه لا يجب إدخالها فى الغسل.

الثانى:كيفية الغسل؛فمذهب الشيعة أن الابتداء بالغسل من المرافق إلى أطراف الأصابع،و لا يجوز غسلها من الأصابع إلى المرافق،لأن إلى فى الآية الكريمة بمعنى مع كقوله تعالى: تَأْكُلُوا أَمْوالَهُمْ إِلى أَمْوالِكُمْ و قوله تعالى: مَنْ أَنْصارِي إِلَى اللّهِ و أراد بذلک(مع).

و إنها لبيان المغسول لا لكيفية الغسل و يحتاج ذلک إلى بيان،و قد ثبت عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من طريق أهل البيت أنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم غسل من المرافق إلى أطراف الأصابع.

مسح الرأس:

أجمع المسلمون على وجوب مسح الرأس للآية الشريفة و لفعل النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى ذلک،و لكنهم اختلفوا فى مقدار المسح فهل يمسح كله أو بعضه؟.

فالإمامية أوجبوا مسح البعض من مقدم الرأس و قالوا:يجزى ما يسمى مسحا، و يشترطون أن يكون ذلک بنداوة الوضوء،فلو استأنف ماء جديدا بطل الوضوء.

و احتجوا بقوله: وَ امْسَحُوا بِرُؤُسِكُمْ و الباء للتبعيض.

و لأن ذلک من المعروف من فعل النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كما رواه المغيرة بن شعبة أن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم توضأ فحسر العمامة عن رأسه و مسح على ناصيته.

و روى عن أبى جعفر الباقر عليه السّلام قال:يجزى من المسح على الرأس موضع ثلاث أصابع.

و عن الإمام الصادق عليه السّلام أنه قال:امسح على مقدم الرأس و امسح على القدمين و ابدأ بالشق الأيمن (1).

و وافقهم الشافعية فى ذلک،إذ الواجب عندهم ما يقع عليه اسم المسح و إن قل،قال أبو العباس بن القاص:أقله ثلاث شعرات كما نقول فى الحلق فى الإحرام.

و قال فى المهذب:إنه لا يتقدر لأن اللّه أمر بالمسح و ذلک يقع على القليل و الكثير و المستحب أن يمسح جميع الرأس (2).

1- (1) الكافى ج 3 ص 29. [1]

2- (2) المهذب للشيرازى ج 1 ص 17.

أما الحنفيـة فاختلفوا فی المقدار،فعن أبی حنيفة و أبی يوسف أن المفروض ربع الرأس،و عن محمد بن الحسن أن المفروض ثلاثة أصابع إذا اعتبر الممسوح به عشرة أصابع،و ربعها إصبعان و نصف،إلا أن الاصبع الواحد لا يتجزأ فجعل المفروض ثلاثة أصابع (1).

و قال زفر:يجوز أن يمسح باصبع واحد مقدار ربع الرأس (2).

و ذهب مالک إلی أن الواجب مسح الرأس كله،و خالفه بعض أصحابه و جعل فرض المسح بعض الرأس،و من أصحاب مالک من حد هذا البعض بالثلث و بعضهم بالثلثين (3).

و أوجب الحنابلـة مسـح جميع الرأس،و يكره غسـله بدلا من المسح إن أمرّ يديه (4).و فی إحـدی الروايتين عن أحمـد بن حنبل أنه اكتفی بمقدم الرأس (5).

قال النووی فی شـرح مسلم:و أجمعوا علی وجوب مسح الرأس و اختلفوا فی قدر الواجب فيه،فذهب الشافعی فی جماعة إلی أن الواجب ما يطلق عليه الاسم و لو شعرة واحدة،و ذهب مالک و أحمد إلی وجوب استيعابه و قال أبو حنيفة فی رواية الواجب ربعه (6).

و كذلک وقع الاختلاف فی عدد المسح،فقال الشافعی و جماعة إن المستحب ثلاث مرات،و ذهب أبو حنيفة و مالک و أحمد إلی أن السنة مرة واحدة و لا يزاد عليها.

و قال الإمامية:لا تكرار فی المسح.

الأرجل:

اختلف علماء الإسلام فی نوع طهارة الأرجل من أعضاء الوضوء،فذهب

1- (1) انظر المبسوط للسرخسی ج 1 ص 65.
2- (2) بدائع الصنائع ج 1 ص 5.
3- (3) بداية المجتهد ج 1 ص 11.
4- (4) غاية المنتهی ص 31.
5- (5) نيل الأوطار:ج 1 ص 155.
6- (6) شرح صحيح مسلم للنووی ج 4 ص 107.

الكثيرون منهم إلى وجوب الغسل،و منهم الأئمة الأربعة،إلا ما ينقل عن أحمد بن حنبل فى إحدى الروايات،بأنه جوز المسح (1).

و عند الأوزاعى،و الثورى،و ابن جرير،و الجبائى،و الحسن البصرى إن الإنسان مخير بين الغسل و بين المسح.

و قال بعض علماء أهل الظاهر بوجوب المسح و الغسل (2).

و أجمعت الشيعة تبعا لأهل البيت على وجوب المسح و دليلهم على ذلک کتاب اللّه و سنة نبيه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لما روى عن الأئمة عليهم السّلام فى بيان کيفية وضوء النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أنه مسح على رجليه کما يأتى.

أما الکتاب فقوله تعالى: وَ امْسَحُوا بِرُؤُسِکُمْ وَ أَرْجُلَکُمْ إِلَى الْکَعْبَيْنِ قرىء بنصب أرجل و خفضها،أما قراءة الخفض فهى الحجة،و أما النصب فکذلک منصوبة إما على إسقاط الخافض أو أنها بفعل محذوف.

فأوجب سبحانه و تعالى على الوجوه بظاهر اللفظ الغسل،ثم عطف الأيدى على الوجوه،و أوجب لها بالعطف مثل حکمها و هو الغسل فکأنه قال:اغسلوا وجوهکم و اغسلوا أيديکم،ثم أوجب مسح الرءوس بصريح اللفظ کما أوجب غسل الوجوه کذلک،ثم عطف الأرجل على الرءوس،فوجب أن يکون لها حکم الرءوس و هو المسح بمقتضى العطف،و لو جاز أن يخالف فى الحکم المذکور الرءوس الأرجل جاز أن يخالف حکم الأيدى فى الغسل الوجوه.

و سواء قرىء بنصب الأرجل أم خفضها فکلا القراءتين يدلان على وجوب المسح،کما ذهب إليه کثير من الصحابة و التابعين،و دلت عليه الآثار الصحيحة من صفة وضوء النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بأنه مسح على رجليه،کما روى ذلک عنه أهل بيته صلوات اللّه عليهم أجمعين.

و أما القول بأن قراءة الخفض فى أرجلکم إنما کان للمجاورة فهو غير صحيح، لأن ذلک لا يجوز إلا مع ارتفاع اللبس،فأما مع حصوله فلا يجوز (3).

1- (1) رحمة الأمة فى اختلاف الأئمة ج 1 ص 19 بهامش ميزان الشعرانى.

2- (2) نيل الأوطار للشوکانى ج 1 ص 168.

3- (3) انظر هذا المبحث فى کتاب المسائل الناصرية،و کتاب الانتصار للسيد المرتضى،و تفسير التبيان لشيخ الطائفة محمد بن الحسن الطوسى ج 3 ص 152-157،و [1]تفسير مجمع البيان لأبى على بن الفضل بن الحسن الطبرسى ج 6 ص 37 ط دار الفکر،و الغنية لأبى المکارم عز الدين حمزة بن على بن زهرة الحلبى،و غيرها من کتب الفقه و التفسير.

و أما حمل بعضهم الأمر بالمسح هنا على الغسل فهو بعيد جدا و هو تعسف و صرف لظواهر الكتاب عما تدل عليه.

و على كل حال:فإن كلا القراءتين يفهم منهما وجوب مسح الرجلين و قد وافقنا على ذلک جماعة من علماء المسلمين ممن لا يقول به و لنترک الحديث لبعضهم:

قال الفخر الرازى فى تفسيره حول الاحتجاج بهذه الآية الكريمة:

حجة من قال بوجوب المسح مبنى على القراءتين المشهورتين فى قوله تعالى:

وَ أَرْجُلَكُمْ فقرأ ابن كثير،و حمزة،و أبو عمر،و عاصم-فى رواية أبى بكر-بالجر، و قرأ نافع،و ابن عامر،و عاصم-فى رواية حفص عنه- بالنصب.

ثم قال:فنقول أما القراءة بالجر فهى تقتضى كون الأرجل معطوفة على الرءوس،فكما وجب المسح فى الرأس فكذلک فى الأرجل.

فإن قيل:لم لا يجوز أن يقال:هذا كسر على المجاورة كما يقال:جحر ضب خرب.

قلنا:هذا باطل من وجوه:(الأول)أن الكسر على الجوار معدود فى اللحن الذى قد يتحمل لأجله لضرورة فى الشعر،و كلام اللّه منزه عنه.

و ثانيها:أن الكسر على الجوار إنما يصار حيث يحصل الأمن من الالتباس، كما فى قوله:جحر ضب خرب،فإن من المعلوم بالضرورة،أن الخرب لا يكون نعتا للضب بل للجحر،و فى هذه الآية الأمن من الالتباس غير حاصل.

و ثالثها:أن الكسر بالجوار إنما يكون بدون حرف العطف،و أما مع حرف العطف فلم تتكلم به العرب.

و أما القراءة بالنصب فقالوا أيضا توجب المسح و ذلک لأن قوله: وَ امْسَحُوا بِرُؤُسِكُمْ فرؤوسكم فى محل النصب بامسحوا لأنه المفعول به،و لكنها مجرورة لفظا بالباء،فإذا عطفت الأرجل على محل الرءوس جاز فى الأرجل النصب عطفا على محل الرءوس،و جاز الجر عطفا على الظاهر.

فإذا ثبت هذا فنقول:ظهر أنه يجوز أن يكون عامل النصب فى قوله تعالى:

و أرجلكم هو قوله:و امسحوا.و يجوز أن يكون هو قوله فاغسلوا،لكن العاملان إذا اجتمعا على معمول واحد كان إعمال الأقرب أولى،فوجب أن يكون عامل النصب فى قوله تعالى:و أرجلكم هو قوله تعالى:و امسحوا.

فثبت أن قراءة و أرجلكم بنصب اللام توجب المسح أيضا (1)..

هذا ما قرره عالم من كبار علماء الشافعية،و من أشهر المفسرين،و هو موافق لما يذهب إليه الشيعة،و ما أجمعوا عليه من وجوب المسح للأرجل،كما دلت عليه آية الوضوء،و إن كان هذا العالم ذهب إلى الغسل نظرا لوجود أخبار تدل عليه إذ يقول:

إن الأخبار الكثيرة وردت بإيجاب الغسل و الغسل مشتمل على المسح،و لا ينعكس،فكان الغسل أقرب إلى الاحتياط،فوجب المصير إليه،و على هذا الوجه يجب القطع بأن غسل الأرجل يقوم مقام مسحهما.

و أنت ترى ما فى هذا الاستدلال من البعد عن الواقع،و هو تمحل و تكلف، و ستأتى الإشارة إلى الأخبار فى هذا الباب.

و قال الجصاص:

أحمد بن الرازى الحنفى المتوفى سنة 370 ه فى كتابه أحكام القرآن:

و لا ـ يختلف أهل اللغة أن كل واحدة من القراءتين محتملة للمسح بعطفها على الرأس،و يحتمل أن يراد بها الغسل بعطفها على المغسول،لأن قوله تعالى:

و أرجلكم،بالنصب يجوز أن يكون مراده فاغسلوا أرجلكم،و يحتمل أن يكون معطوفا على الرأس فيراد بها المسح،و إن كانت منصوبة فيكون معطوفا على المعنى لا على اللفظ،لأن الممسوح مفعول به كقول الشاعر:

معاوى إننا بشر فاسجح فلسنا بالجبال و لا الحديدا

فنصب الحديد و هو معطوف على الجبال بالمعنى.

و يحتمل قراءة الخفض معطوفة فيراد به المسح،و يحتمل عطفه على الغسل

1- (1) تفسير الرازى ج 3 ص 37. [1]

و يكون مخفوضا بالمجاورة كقوله تعالى: يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدانٌ مُخَلَّدُونَ ثم قال تعالى:

وَ حُورٌ عِينٌ فخفضهم بالمجاورة.

إلى أن يقول:فثبت بما وصفنا احتمال كل واحدة من القراءتين للمسح و الغسل.. (1).

و قال إبراهيم الحلبى:

قرأ السبعة بالنصب و الجر،و المشهور أن النصب بالعطف على وجوهكم و الجر على الجوار،و الصحيح أن الأرجل معطوفة على(برءوسكم)فى القراءتين،و نصبها على المحل،و جرها على اللفظ،و ذلك لامتناع العطف على المنصوب للفصل بين العاطف و المعطوف بجملة أجنبية،و الأصل أن لا يفصل بينهما بمفرد فضلا عن الجملة،و لم يسمع فى الفصيح نحو ضربت زيدا و مررت بعمرو و بكرا،بعطف بكر على زيد،و أما الجر على الجوار فإنما يكون على قلة فى النعت كقول بعضهم:هذا جحر ضب خرب،بجر خرب و فى التأكيد كقول الشاعر:

يا صاح بلغ ذوى الزوجات كلهم أن ليس وصل إذا انحلت عرى الذنب

بجر كلهم على ما حكاه القراء.

و أما فى عطف النسق فلا يكون،لأن العاطف يمنع المجاورة (2).

و قال ابن حزم:

و أما قولنا فى الرجلين فإن القرآن نزل بالمسح قال اللّه تعالى: وَ امْسَحُوا بِرُؤُسِكُمْ وَ أَرْجُلَكُمْ و سواء قرىء بخفض اللام أو بفتحها هى على كل حال عطف على الرءوس:إما على اللفظ و إما على الموضع لا يجوز غير ذلك،لأنه لا يجوز أن يحال بين المعطوف و المعطوف عليه بقضية مبتدأة،و هكذا جاء عن ابن عباس:نزل القرآن بالمسح.يعنى فى الرجلين فى الوضوء (3).

1- (1) أحكام القرآن للجصاص ج 2 ص 422. [1]

2- (2) هامش غنية المتملى ص 8.

3- (3) المحلى لابن حزم ج 1 ص 207.

الأخبار:

إن أخبار الغسل لا يمكن أن يخصص بها الكتاب إذ هى أخبار آحاد،و منها ما لا دلالة فيه على المدعى،كخبر عبد اللّه بن عمرو بن العاص فى الصحيحين أنه قال:تخلف عنا النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى سفر سافرنا معه فأدركنا و قد حضرت صلاة العصر، فجعلنا نمسح على أرجلنا،فنادى ويل للأعقاب من النار.

و هذا الخبر كما ترى يدل على مسح الأرجل و شهرته بين المسلمين،و لم يصدر من النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إنكار عليه،و إنما أنكر عليهم قذارة أعقابهم،و لا سيما فى السفر،و قد نالها فى الطريق أوساخ و قذارات لا يجوز الدخول فى الصلاة معها،إذ فيهم أعراب جفاة،لا يتنزهون عن قذارة.

و يؤيد هذا ما قاله ابن رشد القرطبى بعد إيراد هذا الحديث:قال:و هذا الأثر و إن كانت العادة قد جرت بالاحتجاج به فى منع المسح،فهو أدل على جوازه منه فى منعه،لأن الوعيد إنما تعلق فيه بترك التعميم،لا بنوع الطهارة،بل سكت عن نوعها، و ذلک دليل على جوازه و وجوب المسح هو أيضا مروى عن بعض الصحابة و التابعين (1).

و منها ما حكاه حمران مولى عثمان بن عفان من وضوء مولاه عثمان،و أنه غسل كل رجل ثلاثا،ثم قال رأيت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يتوضأ مثل وضوئى.

و مثله ما روى عن عبد اللّه بن زيد بن عاصم،و قد قيل له توضأ لنا وضوء رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فتوضأ ثم غسل رجليه إلى الكعبين،كما روى ذلک مسلم فى صحيحه (2).

و الحاصل أن عمدة ما فى الباب هو هذه الأخبار،و الأصل المعتمد عليه هو خبر حمران مولى عثمان بن عفان؛و كل ذلک لا يصلح أن يكون مقابلا لحكم الآية أو ناسخا لها.

و عليه فقد صرح بالمسح جماعة من السلف كابن عباس،و أنس بن مالک و الشعبى و عكرمة و غيرهم.

1- (1) بداية المجتهد ج 1 ص 15.

2- (2) صحيح مسلم شرح النووى ج 4 ص 121-123.

و قد اشتهر عن ابن عباس إنكاره على من يغسل رجليه فكان يقول:الوضوء غسلتان و مسحتان.

و كان يقول:افترض اللّه غسلتين،و مسحتين،أ لا ترى أنه ذكر التيمم فجعل مكان الغسلتين،و ترك المسحتين (1).

و قال الشعبى:إنما هو المسح على الرجلين،أ لا ترى أن ما كان عليه الغسل جعل عليه التيمم و ما كان عليه المسح أهمل.

و قال عكرمة:ليس فى الرجلين غسل،إنما نزل فيهما المسح (2).

و قال موسى بن أنس لأنس:يا أبا حمزة إن الحجاج خطبنا بالأهواز و نحن معه فذكر الطهور فقال:اغسلوا حتى ذكر الرجلين و غسل العراقيب.

فقال أنس:صدق اللّه و كذب الحجاج.قال اللّه سبحانه: فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَ أَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرافِقِ وَ امْسَحُوا بِرُؤُسِكُمْ وَ أَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ .

فكان أنس إذا مسح قدميه بلهما و قال نزل القرآن بالمسح.و جاءت السنة بالغسل (3).

و نحن لا نستبعد تدخل السلطات فى هذه القضية،فالحجاج عند ما يأمر الناس بحكم فبدون شك أنه لا يوجد من يخالف،و كثير من يؤيده،و من تكلم بغير ما يأمر فمصيره إلى الفناء،و ليس لمحتج عليه من سبيل،و لا لقائل على خلاف قوله إلا أن يكذب،إن كانت له بقية من حياة و امتداد فى عمر.

و على أى حال:فإن لنا بكتاب اللّه العزيز،و ما ورد عن عترة رسوله العظيم،ما يكفينا عن الاستدلال فى الحكم،فإن القرآن ناطق بذلك و لا سبيل إلى صرفه إلى غيره و لا تنسخه أخبار آحاد لا تصلح للاستدلال.

و قد أخرج أبو داود من حديث أوس بن أبىّ الثقفى أنه قال:رأيت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أتى كضامة قوم و مسح على نعليه و قدميه.

1- (1) تفسير الخازن ج 2 ص 16 و [1]معالم التنزيل للبغوى ص 16 ج 1 [2] بهامش الخازن.

2- (2) تفسير الخازن ج 2 ص 16. [3]

3- (3) أحكام القرآن [4]لابن الغربى ج 2 ص 574.

و جاء من طريق همام عن إسحاق بن أبی عبد اللّه:حدثنا علی بن خلاد عن أبيه عن عمه-هو رفاعة بن رافع-أنه سمع رسول اللّه صلّی اللّه عليه و آله و سلّم يقول:(إنها لا تجوز صلاة أحدكم حتی يسبغ الوضوء كما أمره اللّه عز و جل:يغسل وجهه و يديه و يسمح رأسه و رجليه إلی الكعبين.

و عن إسحاق بن راهويه:حدثنا عيسی بن يونس،عن عبد خير عن علی عليه السّلام(كنت أری باطن القدمين أحق بالمسح،حتی رأيت رسول اللّه صلّی اللّه عليه و آله و سلّم يمسح ظاهرهما).

و روی شعبة عن عبد الملک بن ميسرة،عن النزال بن ميسرة أن عليا عليه السّلام صلی الظهر ثم قعد فی الرحبة،فلما حضرت العصر،دعا بكوز من ماء فغسل يديه و وجهه،و ذراعيه،و مسح برأسه و رجليه و قال:هكذا رأيت رسول اللّه صلّی اللّه عليه و آله و سلّم فعل.

و روی الحسن بن علی الطوسی فی مجالسه عن أبيه بسند عن أبی إسحاق الهمدانی،عن أمير المؤمنين عليه السّلام فی عهده إلی محمد بن أبی بكر حين ولاه مصر أن قال فيه:و انظر إلی الوضوء فإنه من تمام الصلاة:تمضمض ثلاث مرات، و استنشق ثلاثا،و اغسل وجهک،ثم يدک اليمنی ثم اليسری ثم امسح رأسک و رجليک،فإنی رأيت رسول اللّه صلّی اللّه عليه و آله و سلّم يصنع ذلک،و اعلم أن الوضوء نصف الإيمان (1).

و أما ما أخرجه ابن ماجة من طريق أبی إسحاق عن أبی حية قال رأيت عليا عليه السّلام توضأ فغسل قدميه إلی الكعبين ثم قال أردت أن أريكم طهور نبيكم.

فهو مما تفرد به أبو إسحاق،و قد ترک الناس حديثه لأنه اختلط و نسی،و أن أبا حية،راوی هذا الحديث،نكرة لا يعرف،و لا ذكر له فی رواة الحديث،و لعله شخصية و همية برزت فی إطار الخيال لغاية فی نفس المصور لها.

و روی الكلينی بسند عن بكير بن أعين أن أبا جعفر الباقر عليه السّلام قال:أ لا أحكی لكم وضوء رسول اللّه صلّی اللّه عليه و آله و سلّم فأخذ بكفه اليمنی كفا من ماء فغسل به وجهه،ثم أخذ بيده اليسری كفا من ماء فغسل به يده اليمنی،ثم أخذ بيده اليمنی كفا من ماء

1- (1) الوسائل ج 1 ص 377. [1]

فغسل به یده الیسری،ثم مسح بفضل یدیه رأسه و رجلیه (1).

و مثله عن زرارة بن أعین و محمد بن مسلم عن أبی جعفر الباقر علیه السّلام.

و روی الکلینی بسند عن حماد بن عثمان قال:کنت قاعدا عند أبی عبد اللّه الصادق علیه السّلام فدعا بماء فملأ به کفه فعم به وجهه،ثم ملأ کفه فعم به یده الیمنی، ثم ملأ کفه فعم به یده الیسری،ثم مسح علی رأسه و رجلیه (2).

و فی الخصال للصدوق بإسناده عن الأعمش عن جعفر بن محمد الصادق علیه السّلام أنه قال:هذه شرائع الدین لمن أراد أن یتمسک بها و أراد اللّه هداه.

إسباغ الوضوء کما أمر اللّه فی کتابه الناطق،غسل الوجه و الیدین إلی المرفقین،و مسح الرأس و القدمین إلی الکعبین مرة مرة،و مرتان جائز،و لا ینقض الوضوء إلا البول و الریح و النوم و الغائط و الجنابة.

و من مسح علی الخفین فقد خالف اللّه و رسوله و کتابه و وضوؤه لم یتم (3).

المسح علی الخفین:

هذه المسألة من المسائل التی وقع الخلاف فیها بین الشیعة و غیرهم من المذاهب،و قد تطورت الحالة حتی أصبح المسح علی الخفین من علامة السنة، و عدمه من علامات البدعة،و أصبحت هذه المسألة من أصول الاعتقاد.

و نحن نذکر ذلک بإیجاز:

قالت الشیعة،لا یجوز المسح علی الخفین،أو الجورب مطلقا،سواء فی حضر أم سفر،لأن ذلک خلاف ما نزل به القرآن فی بیان الوضوء،و هو قوله تعالی:

وَ امْسَحُوا بِرُؤُسِکُمْ وَ أَرْجُلَکُمْ فأوجب تعالی إیقاع الفرض علی ما یسمی رجلا،و الخف لا یسمی بذلک،کما أن العمامة لا تسمی رأسا.

کما أن الأخبار الواردة فی ذلک لا تقابل دلالة الآیة علی وجوب المسح علی الرجل،و عمدة ما فی الباب هو حدیث جریر بن عبد اللّه:

1- (1) الکافی ج 3 ص 24. [1]

2- (2) الکافی ج 3 ص 27. [2]

3- (3) الوسائل طبع مصر ج 1 ص 376-377.

روى الجماعـة أن جريرا بال ثم توضأ و مسح على خفيه،فقيل له تفعل هكذا؟ قال:نعم رأيت رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم بال ثم توضأ،و مسح خفيه،و قد أنكر المسح على الخفين جماعة من الصحابة،و كان على عليه السّلام يقول:سبق الكتاب المسح على الخفين.

و روى زرارة عن أبى جعفر الباقر عليه السّـلام قال،سـمعته يقول:جمع عمر بن الخطاب أصـحاب النبى صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم و فيهم على عليه السّلام،فقال:ما تقولون فى المسح على الخفين؟فقام المغيرة بن شعبة و قال:رأيت رسول اللّه يمسح على الخفين.

فقال على عليه السّـلام قبل المائدة أو بعدها؟فقال المغيرة:لا أدرى.فقال على عليه السّلام:إنما نزلت المائدة قبل أن يقبض النبى بشهرين أو ثلاثة.

و قال أبو الورد:قلت لأبى جعفر الباقر عليه السّـلام:إن أبا ضبيان حدثنى أنه رأى عليا عليه السّـلام أراق الماء ثم مسح على الخفين،فقال عليه السّلام:كذب أبو ضبيان...

الحديث.

و روى إسحاق بن عمار عن الإمام الصادق عليه السّلام:النهى عن المسح على الخفين.

و عن الحلبى قال:سألت أبا عبد اللّه عليه السّلام عن المسح على الخفين فقال:لا تمسح و قال:إن جدى قال:سبق الكتاب (1).

فالشيعة الإمامية يذهبون-تبعا للعترة الطاهرة-إلى عدم جواز المسح على الخفين لما ذكرناه و ما سيأتى بعد.

و قد وقع الاختلاف فى هذه المسألة على أقوال:

1-الجواز مطلقا سفرا و حضرا.

2-الجواز فى السفر دون الحضر.

3-عـدم الجواز بقول مطلق لعـدم ثبوته فى الـدين،و أن القرآن على خلافه، و على كل حال فإن الاختلاف فى هـذه المسألة وقع فى الصدر الأول،فمنهم من يرى

1- (1) الوسائل [1]طبع مصر ج 2 ص 27 و الخلاف للشيخ الطوسى ج 1 ص 22 و الكافى ج 3 ص 32 و [2]المعتبر للمحقق الحلى ص 41 و [3]غيرها.

عدم مشروعية المسح على الخفين،و ما يروى فى ذلک معارض لآية الوضوء،و هى متأخرة عما يروى فى ذلک،و لم تكن منسوخة إذ المائدة لم تنسخ منها آية واحدة.

و كان فى طليعة المنكرين لذلک الإمام على عليه السّلام و كفى بذلک ردا للمدعى، إذ هو باب مدينة علم النبى،و هو أعرف الناس بما يصدر عن الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،لملازمته إياه فى حضره و سفره،و لما سألت عائشة عن المسح على الخفين قالت:سلوا عليا فإنه كان أكثر سفرا مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و قد ثبت عن على عليه السّلام أنه كان ينهى عن المسح على الخفين.

و كذلک حبر الأمة عبد اللّه بن عباس،فقد ورد عنه أنه كان يقول:لأن أمسح على جلد حمار أحب إلىّ من أن أمسح على الخفين.

و كانت عائشة تنكر المسح على الخفين أشد الإنكار و تقول:لأن تقطع قدماى أحب إلىّ من أن أمسح على الخفين،و فى لفظ:لأن أقطع رجلى أحب إلىّ من أن أمسح عليهما (1).

و كان ابن عمر يخالف الناس فى المسح على الخفين،و إن ادعى أنه رجع عن ذلک قبل موته فهى دعوى لم تثبت.

و سئل ابن عباس:هل مسح رسول اللّه على الخفين؟فقال:و اللّه ما مسح رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم على الخفين بعد نزول المائدة،و لان أمسح على ظهر عير فى الفلاة أحب إلىّ من أن أمسح على الخفين،و فى رواية:لأن أمسح على جلد حمار أحب إلىّ من أن أمسح على الخفين (2).

و قد روى عن مالک بن أنس فى العتيبية ما ظاهره المنع من المسح على الخفين.و قال الشيخ أبو بكر فى شرح المختصر الكبير إنه روى عن مالک:لا يمسح المسافر و لا المقيم،و كذلک روى عن ابن وهب فى النوادر عن مالک أنه قال:لا مسح فى سفر و لا حضر،و يقال إن منعه كان على وجه الكراهية لما لم ير أهل المدينة يمسحون،ثم رأى الآثار فأباح المسح على الإطلاق (3).

1- (1) نيل الأوطار ج 1 ص 177 و تفسير الرازى ج 3 ص 371 [1] بداية المجتهد ج 1 ص 17.
2- (2) بدائع الصنائع للكاسانى ج 1 ص 7.
3- (3) المنتقى لابن الباجى ج 1 ص 77.

و على كل حال:فإن فعل جرير و استنكار الناس عليه عند ما مسح على الخفين، يؤيد أن هذا لم يكن معهودا،و مثله يلزم أن يكون مشهورا شهرة عظيمة،لا تخفى على الأكثرين.

و إن ما ذهبت إليه الشيعة فى عدم الجواز مطلقا هو الموافق لكتاب اللّه،و مبرئ للذمة،لأن المسح على الخفين لا يصدق عليه مسحا على الرجلين لا ـ لغة و لا ـ شرعا، كما أن العمامة لا تسمى رأسا،و البرقع لا يسمى وجها،و ما يقال فى الاحتجاج بصحة القول: وطأت كذا برجلى.و إن كان لابسا للخف فإن ذلک مجاز و اتساع بلا خلاف.و المجاز لا يحمل عليه الكتاب،إلا بدليل ظاهر.

و قد صح عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنه لم يمسح على خفيه،و ربما وقع اشتباه من الراوى فى مسحه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم على رجله،و هو لابس للحذاء الذى لا يمنع من المسح،و إن كان هذا بعيدا لأنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مشرع و وضوؤه لا بد أن يأتى بصورة أكمل و بيان أفضل.

ثم إن الوضوء لم يكن من الأعمال التى يمكن أن تخفى لكثرة تردده و استعماله حتى يختص جرير بن عبد اللّه بهذا الحكم،و يتفرد بها البيان كما تقدم.

و على كل حال:فالشيعة لم تنفرد بالمنع و لم يستدلوا فى هذا الحكم بغير الكتاب و سنة الرسول،و كفى بذلک أمنا من العقاب و براءة للذمة.

و مهما يكن من أمر فقد وقع الاختلاف بين القائلين بجواز المسح من حيث توقيته و كيفيته مما لا حاجة إلى ذكره.

و الشىء الذى نود التنبيه عليه هو أن مسألة المسح على الخفين أصبح لها أثر فى المجتمع الإسلامى،مما دعا إلى حجر الأفكار عن الخوض فى صحتها،حتى ادعى أن روايتها متواترة،و أنها ناسخة لكتاب اللّه،مع أنها متقدمة على نزول الآية.

و كان مالک لا يرى جواز المسح على الخفين و لكنه يجيزه لأصحابه،و قد جعل إنكار المسح طعنا على الصحابة،و نسبتهم إلى الخطأ،و لهذا قال الكرخى:أخاف الكفر على من لا يرى المسح على الخفين (1).

1- (1) بدائع الصنائع ج 1 ص 7.

و إن المسح على الخفين من شـرائط السـنة،و قال أبو حنيفة:من شـرائط السنة و الجماعة تفضيل الشيخين،و محبة الختنين،و أن ترى المسح على الخفين،و أن لا تحرم نبيذ التمر (1).

و قال ابن العربى:إذا ثبت وجه التأويل فى المسح على الخفين،فإنهما أصل فى الشريعة،و علامة مفرقة بين أهل السنة و البدعة (2).

و ذلک أن ابن العربى قد أول قراءة الخفض فى أرجلكم،و هى قوله تعالى:

وَ امْسَحُوا بِرُؤُسِكُمْ وَ أَرْجُلَكُمْ بكسر لام أرجلكم،إن ذلک لبيان أن الرجلين يمسحان حال الاختيار على حائل،و هما الخفان بخلاف سائر الأعضاء،فعطف بالنصب مغسولا على مغسول(أى الوجه و الأيـدى)و عطف بالخفض ممسوحا على ممسوح(أى الرأس و الخفين)و صـح المعنى.

و أنت ترى ما فى هذا التأويل من البعد عن الحق،فاللّه سبحانه و تعالى يقول:

رءوسكم و أرجلكم و هم يقولون رءوسكم و نعالكم.

و إن هذه القضية قد ارتكب فيها ما لا يتفق مع الحقيقة و الواقع،إذ أصبحت بشكل يدعو إلى الاستغراب و التعجب،حتى ذهب بعضهم إلى لزوم الأخذ و الالتزام بما يدل على مسح الخفين مهما كان،هو أفضل لأن فيه تأييدا للسنة و طعنا فى البدعة.

قال ابن المنـذر:اختلف العلماء أيهما أفضل المسـح على الخفين أم نزعهما، و غسل القـدمين؟و الـذى أختاره أن المسح أفضل،لأجل من طعن فيه من أهل البدع و الروافض،و إحياء ما طعن فيه المخالفون من السنن أفضل من تركه (3).

فلا نستغرب إذا عند ما يدعى إجماع الصحابة على جواز المسح من مخالفة أكثرهم،إن لم نقل كلهم إلا فردا نادرا.

و ليس من الغريب على من يجوز نصر السنة و محاربة البدعة-كما يقولون-مع

1- (1) المصدر السابق.

2- (2) أحكام القرآن ج 2 ص 576. [1]

3- (3) الشوكانى ج 1 ص 176.

مخالفة الواقع أن ينسب جواز المسح للإمام على عليه السّلام مع أن المقطوع به أنه لا يجوّز ذلک،و كان ينكر على من يقول به.

و من العجيب ارتكاب أعظم المخالفات فى التفسير،لما ورد عن أبى إمامة فى صفة وضوء النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كما أخرجه أبو داود من أنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان يمسح على المأقين،و هما مؤخر العين،ففسروا المأقين بالخفين (1)حتى تكون فيه دلالة جواز المسح عليهما و أين المأقين من الخفين!!! و التحكم ظاهر إن تسامحنا فى القول و إلا فهو اختلاق تم اللجوء إليه لمعالجة وضوح السياق الذى يناقض مدّعاهم.على أن من قلدهم من الأمة لم يتخلص من دلالة الصحة فى قول من خالفهم،فيروى أن أحد علمائهم سئل عن الرجل يرى المسح على الخفين إلا أنه يحتاط و ينزع خفّيه عند الوضوء و لا يمسح عليهما؟فقال:

أحب إلى أن يمسح على خفّيه إما لنفى التهمة عن نفسه أن يكون من الروافض،و إما لأن قوله تعالى: وَ أَرْجُلَكُمْ قرىء بالخفض و النصب،فينبغى أن يغسل حال عدم اللبس و يمسح على الخفين حال اللبس ليصير عاملا بالقراءتين (2).

فانظر كيف تحمل الأمة على الحرج و تدفع إلى المشقة مكابرة و عنادا.و ما أولى العلماء برفع الالتباس و بيان الغامض لا خلق الاختلاف و التلبيس و جعل الحرج فى الدين و المشقة فى أداء الفرائض«ما جعل عليكم فى الدين من حرج».

مسح الأذنين:

اختلف الفقهاء فى مسح الأذنين هل هو سنة أم فريضة؟و هل يجدد له الماء أم لا؟ ذهب الإمامية إلى أنه لا يجوز مسح الأذنين و لا غسلهما فى الوضوء،لأن الآية لم تتعرض لذلک،و لم يثبت من فعل النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنه مسح أذنيه و لما ورد عن أهل البيت عليهم السّلام فى ذلک:

روى زرارة قال سألت أبا جعفر الباقر عليه السّلام:أن أناسا يقولون:إن بطن

1- (1) تيسير الوصول للشيبانى ج 3 ص 76.

2- (2) شرح العناية على الهداية للبابرتى ج 1 ص 100.

الأذنين من الوجه و ظهرهما من الرأس.فقال عليه السّلام:ليس عليهما غسل و لا مسح (1).

و ذهب أبو حنيفة و أصحابه إلى أن مسح الأذنين سنة إلا أنهما يمسحان مع الرأس بماء واحد (2).

و قد نسب ابن رشد إلى أبى حنيفة و أصحابه أن مسح الأذنين فرض و الصحيح ما نقلناه.

و الحنابلة يوجبون مسح الأذنين مع الرأس.قال ابن قدامة فى صفة الوضوء:ثم يمسح رأسه مع الأذنين يبدأ بيده من مقدمه،ثم يمرهما من قفاه،ثم يردهما إلى مقدمه ثم يغسل رجليه... (3).

و المعروف عن مالک أن الأذنين من الرأس،و اختلف أصحابه بين الفرض و السنة (4).

قال ابن ماجة بعد أن أورد حديث ابن عباس:و لا يعرف مسح الأذنين من وجه يثبت إلا من هذا الطريق،و قال ابن الصلاح:إن الأخبار ضعفها لا ينجبر بكثرة الطرق،و قال ابن حزم فى المحلى:و أما مسح الأذنين فليسا هما فرضا،و لا هما من الرأس لأن الآثار فى ذلک كلها واهية،قد ذكرنا فسادها فى غير هذا المكان.

و قال:فلو كان الأذنان من الرأس لوجب حلق شعرهما فى الحج،و هم لا يقولون هذا،و قد ذكرنا البرهان على صحة الاقتصار على بعض الرأس فى الوضوء، فلو كان الأذنان من الرأس لأجزأ أن يمسحا بدلا عن مسح الرأس و هذا لا يقوله أحد.

و يقال لهم إن كانتا من الرأس فما بالكم تأخذون لهما ماء جديدا،و هما بعض الرأس؟!و أين رأيتم عضوا يجدد لبعضه ماء غير الماء الذى مسح به سائره؟! (5).

و قال الشوكانى:قال من أثبت الوجوب:إن أحاديث الأذنين من الرأس يقوى

1- (1) الخلاف للشيخ الطوسى ص 6 ج 1.

2- (2) الهداية شرح بداية المبتدى ج 1 ص 4.

3- (3) عمدة الفقه على مذهب أحمد ص 9.

4- (4) بداية المجتهد ج 1 ص 13.

5- (5) المحلى لابن حزم ج 2 ص 56.

بعضها بعضها،و قد تضمنت أنهما من الرأس،فيكون الأمر بمسح الرأس أمرا بمسحهما،فيثبت وجوبه بالنص القرآنى.

و أجيب بعـدم انتهاض الأحاديث الواردة لـذلک،و المتيقن الاسـتحباب،فلا يصار إلى الوجوب إلا بدليل ناهض،و إلا كان من التقول على اللّه بما لم يقل (1).

و قال الشافعى:السنة أن يأخذ لكل واحد منهما ماء جديدا.

و قال الكاسانى:وجه قول الشافعى:إنهما عضوان منفردان و ليسا من الرأس حقيقـة و حكما،أما الحقيقـة فإن الرأس منبت الشـعر و لا شـعر عليهما،و أما الحكم فلأن المسـح عليهما لا ينوب عن مسـح الرأس،و لو كانا فى حكم الرأس لناب المسـح عليهما عن مسح الرأس كسائر أجزاء الرأس (2).

و قال القاضـى أبو الوليد المالكى:فهل يمسـحان فرضا أم نفلا؟ذهب محمد بن مسـلمة و أبو بكر الأبهرى إلى أنهما يمسحان فرضا.و ذهب سائر أصحابنا(أى المالكة) أنهما يمسحان نفلا و هو الظاهر من مذهب مالک (3).

المسح على العمامة:

لا يجوز المسـح على العمامـة و القناع و غيرهما من الحائل عنـد الشـيعة إجماعا، لأن اللّه تعالى أمر بمسـح الرءوس،و العمامة ليست من الرأس.

و لأن النبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم كان يمسح على ناصـيته،و على رأسه العمامة.قال أنس بن مالک:رأيت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و عليه عمامة قطرية،فأدخل يده تحت العمامة،فمسح بمقدم رأسه،و لم ينقض العمامة (4).

و سئل جابر بن عبد اللّه عن المسح على العمامة فقال:لا حتى يمسح الشعر بالماء.أخرجه مالک.

1- (1) نيل الأوطار للشوكانى ج 1 ص 161.

2- (2) بدائع الصنائع للكاسانى ج 1 ص 23.

3- (3) المنتقى ج 1 ص 75.

4- (4) تيسير الوصول ج 3 ص 77.

و سئل الإمام الصادق علیه السّلام:عن رجل توضأ و هو معتم و ثقل علیه نزع العمامة:فقال لیدخل إصبعه (1).

و به قال أبو حنیفة،و الشافعی،و مالک.و جوزه الحنابلة بثلاثة شروط:

أحدها کون العمامة علی ذکر،الثانی کونها محنکة(أی ذات حنک)الثالث أن تستر غیر ما جرت العادة بکشفه (2).

و قال ابن قدامة فی عمدة الفقه الحنبلی:و یجوز المسح علی العمامة إذا کانت ذات ذوابة ساترة لجمیع الرأس،إلا ما جرت العادة بکشفه (3).

فظهر أن الخلاف فی هذه المسألة لم یکن إلا من الحنابلة،و أما بقیة المذاهب فمتفقة علی ما تقول به الشیعة.

قال الکاسانی الحنفی:لا یجوز المسح علی العمامة،و القلنسوة،لأنهما یمنعان إصابة الماء الشعر (4).

و قال أبو إسحاق الشیرازی الشافعی:و إن کان علی رأسه عمامة(أی المتوضإ) و لم یرد نزعها مسح بناصیته،و المستحب أن یتمم المسح بالعمامة،لما روی المغیرة:

أن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم توضأ و مسح بناصیته،و علی عمامته فإن اقتصر علی مسح العمامة لم یجزه،لأنها لیست برأس،و لا تلحق المشقة بإیصال الماء إلیه (5).

و سئل مالک عن المسح علی العمامة و الخمار فقال:لا ینبغی أن یمسح الرجل و لا المرأة علی عمامة،و لا خمار،و لیمسحا علی رءوسهما (6).

و قال الترمذی:و قال غیر واحد من الصحابة لا یمسح علی العمامة،إلا أن یمسح علی رأسه مع العمامة،و هو قول سفیان الثوری،و مالک بن أنس،و ابن المبارک،و الشافعی،و إلیه أیضا ذهب أبو حنیفة،و احتجوا بأن اللّه فرض المسح علی

1- (1) الخلاف للشیخ الطوسی ص 6.

2- (2) الروض الندی ص 38.

3- (3) عمدة الفقه ص 10.

4- (4) بدائع الصنائع ج 1 ص 5.

5- (5) المهذب ج 1 ص 18.

6- (6) المنتقی ج 1 ص 75.

الرأس،و الحديث فی العمامة محتمل التأويل،فلا يترک المتيقن للمحتمل،و المسح علی العمامة ليس بمسح علی الرأس.

و أما ما ورد من الأخبار فی جواز ذلک فهی أخبار آحاد معلولة لا تصلح للاستدلال،کحديث المغيرة بن شعبة الذی أخرجه مسلم فی صحيحه،فقد نص ابن عبد البر علی علته.

و ما روی عن سلمان الفارسی فی جواز المسح علی الخف و علی العمامة،فهو غير صحيح لأن فی إسناده أبو شريح،و هو مجهول لا يعرف،کما قال البخاری و فيه أيضا أبو مسلم مولی زيد،و هو مجهول کذلک.

و أما حديث ثوبان الذی رواه أحمد و أبو داود من أن النبی صلّی اللّه عليه و آله و سلّم أمرهم أن يمسحوا علی العصائب،فإنه معلول،لأن الراوی عن ثوبان راشد بن سعد،و قد قال فيه أحمد:لا ينبغی أن يکون راشد سمع من ثوبان لأنه مات قديما.

مسح العنق:

و هو المعروف بالتطويق فلم يرد فيه أثر،قال أحمد بن شهاب الرملی المعروف بالشافعی الصغير فی شرحه لمنهاج النووی:و لا يسن مسح الرقبة،بل قال المصنف إنه بدعة قال(أی النووی):و أما خبر(مسح الرقبة أمان من الغسل)فموضوع (1).

و قال بعض الحنفية:إنه أدب و ليس بسنة.و قال قاضی خان:إنه ليس بأدب و لا سنة (2).

و قال ابن تيمية:لم يصح عن النبی صلّی اللّه عليه و آله و سلّم أنه مسح علی عنقه فی الوضوء،بل و لا روی عنه ذلک فی حديث صحيح،بل الأحاديث الصحيحة التی فيها صفة وضوء النبی صلّی اللّه عليه و آله و سلّم لم يکن يمسح علی عنقه،و لهذا لم يستحب ذلک جمهور العلماء:کمالک، و الشافعی،و أحمد،فی ظاهر مذهبهما،و من استحبه فاعتمد علی أثر يروی عن أبی هريرة،أو حديث يضعف نقله،أنه مسح رأسه حتی بلغ القذال،و مثل ذلک لا يصلح

1- (1) نهاية المحتاج ج 1 ص 177.

2- (2) المنية ص 11.

أن يكون عمدة،و لا يعارض ما دلت عليه الأحاديث،و من ترک مسح العنق فوضوؤه صحيح باتفاق العلماء (1).

و قال ابن القيم:و لم يصح عنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى مسح العنق حديث البتة.و قال السيد على زاده من الحنفية:و أما مسح الحلقوم فمكروه.كذا فى النقاية،و تحفة الفقهاء، و غنية الفتاوى (2).

الموالاة:

و هى التتابع بين الأعضاء فى الغسل و المسح بنحو لا يلزم جفاف تمام السابق فى الحال المتعارفة،فلا يقدح الجفاف لأجل حرارة الهواء أو البدن الخارجة عن المتعارف و هى واجبة عند الإمامية.

و الحنابلة يوافقونهم فى ذلک،قال فى غاية المنتهى:و هى(أى الموالاة)أن لا يؤخر غسل عضو حتى يجف ما قبله بزمن معتدل (3)(أى معتدل الحرارة و البرودة).

و قال فى العمدة:و ترتيب الوضوء على ما ذكرناه أن لا يؤخر غسل عضو حتى ينشف ما قبله (4).

و للشافعى قولان:ففى القديم أن عدم الموالاة مبطل للطهارة،لأنها عبادة يبطلها الحديث،فأبطلها التفريق كالصلاة.

و فى الجديد أن التفريق غير مبطل،لأنها عبادة لا يبطلها التفريق القليل،فلا يبطلها التفريق الكثير كتفرقة الزكاة (5).

و عند الحنفية أن الموالاة سنة و ليس بفرض (6)و عند مالک هى فرض لا سنة (7)و ذكر الشيخ خليل أن فيها خلافا(بين أصحاب مالک).

1- (1) فتاوى ابن تيمية ج 1 ص 47.

2- (2) كتاب شرعة الإسلام ص 92.

3- (3) غاية المنتهى ص 25.

4- (4) عمدة الفقه ص 10.

5- (5) المهذب لأبى إسحاق الشيرازى ج 1 ص 19.

6- (6) غنية المتملى ص 11.

7- (7) بدائع الصنائع للكاسانى ج 1 ص 22.

فظهر مما ذكرناه أن الاتفاق حاصل فى وجوب الموالاة فى الوضوء إلا من الحنفية،فإنهم يذهبون إلى الاستحباب.

الترتيب:

و هو البدء بالوجه فاليدين،فالرأس فالرجلين،و قد أجمعت الإمامية على وجوب الترتيب،للآية الكريمة: إِذا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَ أَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرافِقِ وَ امْسَحُوا بِرُؤُسِكُمْ وَ أَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ .

فبدأ تعالى فى إيجاب الطهارة بغسل الوجه،ثم عطف باقى الأعضاء على بعضها بالواو،و كذلك يدل عليه فعل النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و ما جاء عن آل بيته عليهم السّلام فيما روى عن أبى جعفر الباقر عليه السّلام أنه قال لزرارة:ابدأ بالوضوء كما قال اللّه تعالى.

ثم قال عليه السّلام:ابدأ بالوجه،ثم باليدين ثم امسح الرأس و الرجلين،و لا تقدمن شيئا بين يدى شىء تخالف ما أمرت به،فإن غسلت الذراع قبل الوجه فابدأ بالوجه،ثم أعد على الذراع،و إن مسحت بالرجل قبل الرأس فامسح على الرأس قبل الرجل،ثم أعد على الرجل،ابدأ بما بدأ اللّه تعالى به.

و الحنفية لم يشترطوا الترتيب فى الوضوء فهو سنة لا فرض،و استدلوا بما رواه أبو داود فى سننه أن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم تيمم فبدأ بذراعيه ثم بوجهه،و الخلاف فيهما واحد...إلى آخره.و عندهم أن من بدأ بغسل رجليه و ختم بوجهه فوضوؤه صحيح (1).

أما الشافعية فقد ذهبوا إلى أن الترتيب واجب (2)و كذلك الحنابلة و انه فرض لا سنة (3).

و قد خالف أبو الخطاب و هو أحد أعيان المذهب الحنبلى،فذهب إلى عدم وجوب الترتيب،و انه خرّج رواية عن أحمد فى ذلك.و وافقه ابن عقيل و اتفقا على

1- (1) المبسوط للسرخسى ج 1 ص 55 و الهداية ج 1 ص 5 و غيرها.

2- (2) نهاية المحتاج للرملى ج 1 ص 160 و عمدة الفقه لابن قدامة ص 4.

3- (3) عمدة الفقه ص 8 و زوائد الكافى و المحرر على المقنع ص 7.

تخریجها من روایة سقوط الترتیب بین المضمضة و الاستنشاق،و سائر أعضاء الوضوء (1)و لکن المشهور عندهم خلافه.

و ذهب مالک:إلی أن الترتیب من الشروط.روی علی بن زیاد عن مالک أن الترتیب شرط فی صحة الطهارة.

و ذهب بعض أصحاب مالک إلی أنه لیس بشرط فی صحة الطهارة،مستدلین بأن العطف بالواو فی الآیة الکریمة لاعضاء الوضوء بعضها علی بعض،لا یدل علی الترتیب،و أنها تقتضی الجمع دون الترتیب (2).

و قد رد ابن حزم فی المحلی علی المالکیة لعدم اشتراطهم الترتیب بقوله:و من عجب أن المالکیة أجازوا تنکیس الوضوء الذی لم یأت نص من اللّه تعالی و لا من رسوله فیه،ثم أتوا ما أجاز اللّه تنکیسه فمنعوا من ذلک،و هو الرمی و الحلق و النحر و الطواف و الذبح!!!...الخ (3).

و قال الفخر الرازی فی رده علی الحنفیة لعدم اشتراطهم النیة و الترتیب فی الوضوء،للمقارنة بین مذهب الشافعی و مذهب أبی حنیفة،و ترجیح مذهب الشافعی.

المسألة الثانیة:مذهب الشافعی أنه لا یجوز الوضوء إلا مع النیة و الترتیب، و قالوا:(أی الحنفیة)یجوز.

دلیلنا أن وضوء رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کان منویا مرتبا،فوجب وضوؤنا کذلک.

(بیان الأول):أنه لو کان غیر مرتب و لا منوی لوجب علینا کذلک لقوله تعالی:

فاتبعوه.و حیث لم یجب ذلک علمنا أنه کان منویا مرتبا،و إذ ثبت هذا وجب أن یجب علینا لقوله تعالی:فاتبعوه،و أقصی ما فی الباب أن قوله تعالی:فاتبعوه عام مخصوص،لکن العام المخصوص حجة فی غیر محل الخصوص،و إذا ثبت الوجوب ثبت أنه شرط،لأنه لا قائل بالفرق.ثم نقول:سواء صح هذا المذهب أو فسد،فإن العمل به متروک،فإنک لا تری أحدا فی الدنیا من العوام فضلا عن العلماء أن یأتی بوضوء خال من النیة و الترتیب،بل لو رأوا إنسانا یأتی بوضوء منکس لتعجبوا

1- (1) ذیل طبقات الحنابلة ج 1 ص 271.

2- (2) المنتقی للباجی ج 1 ص 47.

3- (3) المحلی لابن حزم ج 2 ص 68.

منه،فكان مذهبه(أى أبو حنيفة)فى هاتين المسألتين متروكا غير معمول به البتة (1).

و قال أيضا:إن الوضوء شطر الإيمان بفتوى النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و معلوم أنه إنما يكون كذلك إذا كان مقرونا بالنية،لأنه على هذا التقدير يكون الوضوء عبادة،فيكون جعل الوضوء شطر الإيمان،و على هذا التقدير فإن إيمان أصحابنا أكمل و عبادتهم أشرف، و إن الوضوء العارى عن النية و الترتيب و الموالاة ليس إلا أعمال أربعة،و مع هذه الأعمال سبعة و الأكثر أشق،و الأشق أكثر ثوابا،و إن النية عمل بالقلب،و هو أفضل من عمل الجوارح،لقوله تعالى: وَ ما أُمِرُوا إِلاّ لِيَعْبُدُوا اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فكان الإخلاص كالروح لجميع الأعمال،فالوضوء مع النية كالجسد مع الروح،و الوضوء بدون النية كالجسد الخالى عن الروح،و العين الخالية عن النور...الخ (2).

نواقض الوضوء:

اشارة

النواقض جمع ناقض و هو مأخوذ من الإزالة،و النقض إزالة الشىء من أصله، و المراد بها هنا الأسباب الموجبة للوضوء.

و قد وقع الاختلاف فيها بين المسلمين،فمنها ما هو مجمع عليه كالنوم و خروج الريح و البول و الغائط مع خلاف بينهم فى كيفية النوم الناقض.

و النواقض للوضوء عند الشيعة خمسة:

1-2-البول و الغائط،من الموضع المعتاد بالأصل أو بالعارض.

3-الريح الخارج من مخرج الغائط.

4-النوم الغالب على العقل،و يعرف بغلبته على السمع من غير فرق بين أن يكون قائما أو قاعدا و مثله كلما غلب على العقل،من جنون أو إغماء،أو سكر أو غير ذلك.

5-الاستحاضة كما يأتى بيانها.

النوم:

اتفق المسلمون على أن النوم ناقض للوضوء فى الجملة إلا أنهم اختلفوا فى

1- (1) مناقب الشافعى للرازى ص 148.

2- (2) المصدر السابق ص 154.

الكيفية الموجبة لنقض الوضوء فيه،و هناک قول شاذ بعدم ناقضيته مطلقا.

و مذهب الشيعة أن النوم ناقض مطلقا،من غير فرق بين الاضطجاع و غيره إجماعا.

قال الإمام الصادق عليه السّلام:من نام و هو راكع،أو ساجد،أو ماش أو على أى الحالات فعليه الوضوء.

و عن زيد الشحام قال:سألت أبا عبد اللّه الصادق عليه السّلام عن الخفقة و الخفقتين.

فقال عليه السّلام:ما أدرى ما الخفقة و الخفقتين،إن اللّه تعالى يقول: بَلِ الْإِنْسانُ عَلى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ فإن عليا كان يقول من وجد طعم النوم قائما،أو قاعدا فقد وجب عليه الوضوء (1).

و قد اختلف العلماء فى مسألة ناقضية النوم على مذاهب ثمانية ذكرها النووى فى شرح صحيح مسلم:

1-إن النوم لا ينقض الوضوء على أى حال كان،و هذا محكى عن أبى موسى الأشعرى،و سعيد بن المسيب،و أبى مجلز،و حميد الأعرج،و شعبة.

2-إن النوم ينقض الوضوء بكل حال،و هو مذهب الحسن البصرى و المزنى و القاسم بن سلام،و إسحاق بن راهويه،و هو قول غريب للشافعى قال ابن المنذر و به أقول،و روى معناه عن ابن عباس و أبى هريرة.

3-إن كثير النوم ينقض بكل حال و قليله لا ينقض بحال،و هذا مذهب الزهرى،و ربيعة،و الأوزاعى،و مالک،و أحمد فى إحدى الروايتين.

4-إنه إذا نام على هيئة من هيئات المصلين،كالراكع،و الساجد،و القائم، و القاعد،لا ينتقض وضوؤه،سواء كان فى الصلاة أو لم يكن،و إن نام مضطجعا،أو مستلقيا على قفاه انتقض و هذا مذهب أبى حنيفة،و داود،و هو قول للشافعى غريب.

5-إنه لا ينقض إلا نوم الراكع و الساجد،روى هذا عن أحمد بن حنبل.

6-إنه لا ينقض إلا نوم الساجد،و روى أيضا عن أحمد.

1- (1) الوسائل ج 1 ص 242. [1]

7-إنه لا ينقض النوم فى الصلاة بكل حال،و ينقض خارج الصلاة،و هو قول ضعيف للشافعى.

8-إذا نـام جالسـا ممكنـا مقعـدته من الأـرض لـم ينتقض و إلا انتقض،سواء قل أو كثر،و سواء كان فى الصـلاة أو خارجها،و هـذا مـذهب الشافعى،و عنـده أن النوم ليس حـدثا فى نفسه،و إنما هو دليل على خروج الريـح،فإذا نام غير ممكن المقعدة غلب على الظن خروج الريح فجعل الشرع هذا الغالب كالمحقق،و أما إذا كان ممكنا فلا يغلب على الظن الخروج و الأصل بقاء الطهارة.

و قال النووى:و اتفقوا على أن زوال العقل بالجنون و الإغماء،و السـكر،بالخمر أو بالبنـج،أو الدواء ينقض الوضوء،سواء قل أو كثر،سواء كان ممكنا المقعدة أو غير ممكنها (1).

هذا ما ذكره النووى عن مذاهب العلماء فى ناقضية الوضوء أوردناه بطوله،لننبه على أمرين:

الأول-اختلاف أقوال العلماء و موافقة أكثرهم لما تقول به الشيعة،و أن فى هذه المسألة للشافعى أربعة أقوال و لأحمد قولين.

الثانى-أن بعضهم نسب إلى الشيعة القول بعدم ناقضية الوضوء مطلقا،و هو على العكس،فإن الشيعة أجمعوا على ناقضية الوضوء كما تقدم.

و منشأ هـذا هو الاشـتباه الحاصل مما ذكره النووى فى بيان المـذهب الأول،و هو قوله:إن النوم لا ينقض الوضوء على أى حال كان،و هـذا محكى عن أبى موسى الأشعرى،و سعيد الأعرج و أبى مجلز و شعبة.

فاشتبه الأمر على الشوكانى،و جعل اسم شعبة شيعة،فذكر ذلك فى كتابه نيل الأوطار،و إليک نص قوله فى بحث ناقضية النوم للوضوء:(و قد اختلف الناس فى ذلک على ثمانية مذاهب ذكرها النووى فى شـرح مسلم)الأول:أن النوم لا ينقض الوضوء على أى حال كان،و هو محكى عن أبى موسى الأشعرى،و سعيد بن

1- (1) شرح صحيح مسلم ج 4 ص 73.

المسيب،و أبی مجلز و الشيعة يعنی الإمامية،و زاد فی البحر عمر بن دينار و استدلوا بحديث أنس (1).

فصاحب نيل الأوطار قد اشتبه عليه الأمر بين كلمة الشيعة و كلمة شعبة بن الحجاج العتكی المتوفی سنة 160 ه و هو أحد الأعلام المشهورين،فظن أن هذا القول هو للشيعة و أضاف منه بأنهم الإمامية.

كما اشتبه الأمر علی صاحب كتاب البحر الزخار يحيی بن أحمد الزيدی المتوفی سنة 957 ه فإنه بعد أن ذكر نسبة القول بعدم ناقضية النوم للوضوء إلی أبی موسی،و حميد الأعرج-كما ذكره النووی-قال:و الإمامية (2)و لم يذكر اسم شعبة بل ذكر مكانه الشيعة الإمامية اشتباها منه.

و علی كل حال:فإن العلماء قد اختلفوا فی ناقضية النوم علی أقوال كثيرة، فمنهم من يری ناقضيته بمجرد حصوله،إذ هو حدث برأسه،كما هو أحد قولی الشافعی،و إذا نام علی الأرض فله فيه قولان.

و الذی يظهر من الشافعية أن النوم لم يكن حدثا برأسه،بل هو مظنة لخروج الريح من غير شعور به،فإذا نام ممكنا مقعده من الأرض فلا ينتقض وضوؤه (3)و لهذا ذهب الحنفية بأن من نام مضطجعا انتقض وضوؤه،لأن الاضطجاع سبب لارتخاء المفاصل (4)و منه ذهبوا إلی ناقضية ما يزيل العقل بأنه ناقض فی جميع الحالات،لأنه فی استرخاء المفاصل فوق النوم (5).

و ذهب أبو يوسف إلی أن الإنسان إذا نام ساجدا غير متعمد فوضوؤه باق،و إن تعمد ذلک فوضوؤه غير باق.

و عن أحمد بن حنبل روايات،المختار منها:أنه إذا طال نوم القائم،أو القاعد،و الراكع و الساجد فعليه الوضوء.

1- (1) نيل الأوطار للشوكانی ج 1 ص 190.

2- (2) البحر الزخار ج 1 ص 88.

3- (3) مغنی المحتاج للنووی ج 1 ص 34.

4- (4) شرح الهداية ج 1 ص 6.

5- (5) بدائع الصنائع للكاسانی ج 1 ص 30.

قال الخطابی هـذا أصح الروایات (1)و قال الدمشـقی فی الزوائـد:إذا تغیر النائم عن هیئته انتقض وضوؤه (2).و فی غایـة المنتهی:أن النوم الیسیر من جالس لا ینقض، و ینقض الیسیر منه وضوء الراکع،و الساجد،أو المضطجع،أو المتکی (3).

أما الخارج من السبیلین:فقد أجمع الفقهاء علی ناقضیته،إلا المنی فإنه عند الشافعی غیر ناقض،و إن أوجب الغسل.

أما الودی و الوذی فهما غیر ناقضین عند الشیعة (4)و وافقهم مالک فی غیر المعتاد.

و اختلف العلماء فی انتقاض الوضوء مما یخرج من النجس من غیر السبیلین علی ثلاثة مذاهب:فاعتبر قوم فی ذلک وحده من أی موضع،و علی أی جهة خرج، و هو مذهب أبی حنیفة و أصحابه،فإنهم یوجبون الوضوء من کل نجاسة تسیل من الجسد،و تخرج منه،کالدم،و الرعاف الکثیر و الفصـد،و الحجامـة،و خالفهم زفر بن الهـذیل،فإنه ذهب إلی نقض الوضوء بهـذه الأشـیاء سواء سالت أو لـم تسل،و کـذلک القیء ناقض بمجرد حصوله،و عند أصحابه الثلاثة لا یکون ناقضا إلا إذا ملأ الفم (5).

و ذهب الشـافعی و أصـحابه إلی عـدم اعتبار ما یخرج من غیر السبیلین من النجاسـة،و غیرها،و کل شـیء یخرج منهما من دم،أو حصاة،أو بلغم،و علی أی وجه خرج علی سبیل الصحة أو علی سبیل المرض فهو ناقض (6).

و ذهب مالک و أصحابه إلی عدم ناقضیة الوضوء بالقیء و غیره،و لا ینقضه خروج نجاسة من غیر السبیلین،و قالوا باستحباب المضمضة من القیء (7).

1- (1) رحمة الأمة ص 14.

2- (2) زوائد الکافی لعبد الرحمن الحنبلی ص 8.

3- (3) غایة المنتهی ص 37.

4- (4) الودی:ماء کدر یخرج عقیب البول أحیانا.الوذی(بالمعجمة)ماء یخرج بعد خروج المنی. المذی:ماء لزج یخرج بلا شهوة.

5- (5) بدائع الصنائع للکاسانی ج 1 ص 26،و الاختیار لتعلیل المختار ج 1 ص 9.

6- (6) المهذب للشیرازی ج 1 ص 24.

7- (7) الجواهر الزکیة فی حل ألفاظ العشماویة ص 26.

و اعتبر الحنابلة خروج النجاسة من غير السبيلين كما ذهب إليه الحنفية و لم يعتبروا القيء ناقضا (1).

و ذهب أبو حنيفة إلى ناقضية الوضوء بالقهقهة فى الصلاة استحبابا و الأثر الوارد فى ذلک صحيح،كما ذكر فى محله،و قد انفرد بهذا كما انفرد من بين المذاهب بجواز الوضوء بنبيذ التمر،و خالفه أبو يوسف و قال:لا يجوز التوضؤ به،و ذكر فى الجامع الصغير:أن المسافر إذا لم يجد الماء و وجد نبيذ التمر توضأ به.

كما أجاز أبو يوسف أن يتوضأ الإنسان بماء العنب الذى يخرج من دون علاج، و كذلک يجوز عندهم الوضوء بماء خالطه شيء طاهر فغير أحد أوصافه،كاللبن،أو الزعفران،أو الصابون،أو الأشنان.

و على هذا فلا ينتقل حكم من لم يجد ماء إلى التيمم مع وجود ماء العنب أو نبيذ التمر،أو الماء مع اللبن و الزعفران و الصابون و الأشنان،فإنه يجوز التوضؤ بهذه الأشياء،و يأتى حكم التيمم بعد ذلک،و هو خلاف ما أمر اللّه به لقوله تعالى:فإن فَلَمْ تَجِدُوا ماءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فإنه تعالى نقل الحكم من الماء المطلق إلى التراب، و لا يجوز أن ينقل الحكم من النبيذ أو ماء العنب أو غيرها إلى التراب.و سيأتى بيان ذلک إن شاء اللّه.

الشک:

من تيقن الطهارة و شک فى الحدث بنى على طهارته،و لا يجب عليه الوضوء، و من تيقن الحدث و شک فى الطهارة تطهر عملا باليقين،و إلغاء الشک بدون خلاف بين الشيعة.

قال الإمام الصادق عليه السّلام لبكير:إذا استيقنت أنک توضأت،فإياک أن تحدث وضوءا أبدا،حتى تستيقن،أنک قد أحدثت.

و قال عبد الرحمن بن الحجاج سألت أبا عبد اللّه الصادق عليه السّلام:أجد الريح فى بطنى حتى أظن أنها قد خرجت.

فقال عليه السّلام:ليس عليک وضوء،حتى تسمع الصوت أو تجد الريح.

1- (1) العمدة لابن قدامة ص 11 و التنقيح ص 26.

و عن زرارة عن أبی جعفر الباقر علیه السّلام:لا ینقض الیقین أبدا بالشک،و لکن ینقضه بیقین آخر.

و یظهر أنه لا خلاف بین المسلمین أن من تیقن الطهارة و شک فی الحدث حکم ببقائه علی الطهارة،و لا فرق بین حصول هذا الشک فی نفس الصلاة،و حصوله خارج الصلاة.

و عن مالک روایتان:إحداهما أنه یلزمه الوضوء إن کان شکه خارج الصلاة،و لا یلزمه إن کان فی الصلاة،و الثانیة یلزمه بکل حال،و الذی یظهر من عبارة الشیخ عبد الباری المالکی:أن الشک فی الطهارة ناقض للوضوء عند المالکیة (1).

و قد فصل القاضی أبو الولید المالکی الأقوال فی هذه المسألة و اختلاف الروایات عن مالک،و منها ما هو موافق لمذهب الشیعة (2).

أما الشافعیة فالظاهر إجماعهم علی ذلک کما ذکر النووی بقوله:إن من تیقن الطهارة و شک فی الحدث حکم ببقائه علی الطهارة،و لا فرق بین حصول هذا الشک فی نفس الصلاة،و حصوله خارج الصلاة،هذا مذهبنا،و مذهب جماهیر العلماء من السلف (3).

و قال أبو إسحاق الشیرازی:و من تیقن الطهارة و شک فی الحدث بنی علی یقین الطهارة،لأن الطهارة یقین فلا یزول ذلک بالشک،و إن تیقن الحدث و شک فی الطهارة بنی علی یقین الحدث...الخ (4)من حیث أثرها فی النقض و عدمه.

السنن أو المستحبات:

اشارة

و نری من اللازم ذکر السنن أو المستحبات للوضوء،عند المذاهب الخمسة، إتماما للفائدة و بیانا لبعض الاختلافات فی ذلک.

1- (1) حاشیة الصفتی علی الجواهر السنیة فی حل ألفاظ العشماویة ص 36.

2- (2) المنتقی ج 1 ص 54 تجد البحث مفصلا.

3- (3) شرح صحیح مسلم للنووی ج 4 ص 49.

4- (4) المهذب ج 1 ص 5.

الشيعة:

يستحب عندهم للوضوء أشياء منها:

1-السواک و هو دلک الأسنان بعود،و أفضله الغصن الأخضر،و أکمله الأراک، و هو سنة مطلقا،و لکنه یتأکد فی الوضوء.

2-وضع الإناء الذی یغترف منه علی الیمین.

3-التسمیة و صورتها:بسم اللّه و باللّه.و یستحب إتباعها بقوله:

اللهم اجعلنی من التوابین،و اجعلنی من المتطهرین.

4-غسل الیدین من الزندین قبل إدخالهما الإناء الذی یغترف منه لحدث البول مرة،و للغائط مرتین.

5-المضمضة و الاستنشاق و تثلیثهما،و تقدیم المضمضة.

6-تثنیة الغسلات.

7-بدأة الرجل بظاهر ذراعیه،و المرأة تبدأ بالباطن (1).

الحنفیة:

سنن الوضوء أو مستحباته عندهم أشیاء منها:

1-غسل الیدین قبل إدخالهما الإناء ثلاثا إلی الرسغ.

2-السواک،و عند فقده یستاک بالاصبع.

3-المضمضة و الاستنشاق.

4-النیة إذ هی لیست بواجبة عندهم،و کذلک الترتیب و الموالاة کما تقدم.

5-تکرار الغسل إلی الثلاث.

6-استیعاب المسح للرأس.

7-التسمیة (2).

1- (1) اللمعة الدمشقية للشهيد الأول و شرحها للشهيد الثانى،و الشرائع،و البيان،و المختصر النافع للمحقق الحلى،و النهاية للشيخ الطوسى،و الغنية لعز الدين زهرة الحلى،و المقنع للشيخ الصدوق و غيرها من كتب الفقه عند الشيعة.

2- (2) البحر الزاخر و كتاب الاختيار لتعليل المختار و مراقى الفلاح و غيرها.

المالكية:

1-التسمية.

2-غسل اليدين ثلاثا.

3-المضمضة و الاستنشاق.

4-و تثليث الغسلات و تكره الرابعة.

5-السواك و لو بإصبع.

6-الابتداء بالميامن.

7-و مسح وجهى كل أذن،و تجديد مائهما (1).

الشافعية:

1-السواك عرضا بكل خشن لا اصبعه.

2-التسمية فى أوله فإن ترك ففى أثنائه.

3-غسل كفيه فإن لم يتيقن طهرهما كره غمسهما فى الإناء.

4-المضمضة و الاستنشاق.

5-و تثليث الغسل،و المسح المفروض،و المندوب.

6-مسح كل رأسه،ثم أذنيه ظاهرهما و باطنهما.بماء جديد،و لا يسن مسح الرقبة فإنه بدعة.

7-تخليل اللحية الكثة من كل شعر يكتفى بغسل ظاهره،و تخليل أصابعه.

8-و غسل الزائد على الواجب من جميع جوانبه،و كذلک اليدين و الرجلين.

9-الموالاة و هى التتابع و فى قول الشافعى القديم إنها واجبة.

10-ترک الاستعانة بصب الماء عليه من غير عذر.

11-الدعاء بعد الوضوء (2).

1- (1) المختصر ص 8 و المنتقى و الجواهر الزكية فى حل ألفاظ العشماوية.

2- (2) منهاج الطالبين للنووى ص 4 و نهاية المحتاج لابن شهاب الرملى ج 1 ص 162.

الحنابلة:

1-استقبال القبلة.

2-السواک.

3-غسل اليدين لحدث النوم،و المبالغة فی المضمضة و الاستنشاق.

فرع:

من كان على بعض أعضاء وضوئه جبيرة،فإن تمكن من غسل ما تحتها بنزعها أو بغمسها بالماء وجب،و إن لم يتمكن لخوف الضرر،أو لعدم إمكان إزالـة النجاسـة، أو لعـدم إمكان إيصال الماء تحت الجبيرة اجتزأ بالمسح عليها و صـلی و لا إعادة لقوله تعالى: وَ ما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِی الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ .

و فی الصـحيح عن الإمـام الصادق عليه السّـلام أنه سـئل عن الرجل تكون به القرحـة فی ذراعه،أو نحو ذلک من مواضع الوضوء فيعصـبها بالخرقة و يتوضأ و يمسح عليها إذا توضأ؟ فقال عليه السّلام:إن كان يؤذيه الماء فليمسح على الخرقة،و إن كان لا يؤذيه الماء فلينزع الخرقة ثم ليغسلها.

و عن الإمام الصادق عليه السّـلام أيضا أنه قال له عبـد الأعلى مولى آل سام:عثرت فانقطع ظفری فجعلت على إصـبعی مرارة فكيف أصـنع بالوضوء؟ فقال عليه السّلام يعرف هذا و أشباهه من كتاب اللّه.قال اللّه تعالى: وَ ما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِی الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ امسح عليه.

و ليس عليه إعادة الصلاة،إذ لا دليل عليه،و الأصل براءة الذمة...

و قالت الحنفية:و يجوز المسح على الجبائر و إن شدها على غير وضوء،فإن سـقطت عن غير برء لم يبطل المسح،و إن سقطت عن برء بطل المسح.لزوال العذر (1).

1- (1) القدوری ص 9 طبع الهند،و بدائع الصنائع للكاسانی ج 1 ص 51.

و قال السرخسی:و إن کانت الجبائر فی موضع الوضوء مسح علیها،و الأصل فیه ما روی أن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم شج وجهه یوم أحد فداواه بعظم بال،و عصب علیه،فکان یمسح علی العصابة،و لما کسرت إحدی زندی علی رضی اللّه تعالی عنه یوم حنین حتی سقط اللواء من یده،قال النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم:اجعلوها فی یساره،فإنه صاحب لوائی فی الدنیا و الآخرة.

فقال(علی)ما ذا أصنع بجبائری؟قال:امسح علیها (1).

و أجاز ذلک الحنابلة،قال ابن قدامة یجوز المسح علی الجبیرة إذا لم یتعد بشدها موضع الحاجة إلی أن یحلها (2).

و الشافعیة یرون لزوم التیمم مع المسح،قال ابن القاسم فی شرحه لغایة الاختصار:و صاحب الجبائر جمع جبیرة بفتح الجیم،و هی أخشاب أو قصب تسوی و تشد علی موضع الکسر لیلتحم یمسح علیها بالماء إن لم یمکنه نزعها لخوف ضرر مما سبق و یتیمم صاحب الجبائر فی وجهه و یدیه (3).

1- (1) المبسوط للسرخسی ج 1 ص 73-74.

2- (2) عمدة الفقه ص 11.

3- (3) مخطوط ص 11.

الغسل و التيمم

اشارة

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَ أَنْتُمْ سُكارى حَتّى تَعْلَمُوا ما تَقُولُونَ وَ لا جُنُباً إِلاّ عابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَ إِنْ كُنْتُمْ مَرْضى أَوْ عَلى سَفَرٍ أَوْ جاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّساءَ فَلَمْ تَجِدُوا ماءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَ أَيْدِيكُمْ إِنَّ اللّهَ كانَ عَفُوًّا غَفُوراً [النساء:43].

الغسل

اشارة

اتفق المسلمون على أن الغسل منه واجب،و منه مستحب،و لا خلاف بينهم فى وجوب غسل الجنابة،و الحيض،و النفاس،و الأموات.

و اختلفوا فيما عدا هذه الأربعة،فأوجب الشيعة غسل مس الأموات و غسل الاستحاضة كما يأتى بيان ذلک.

و أوجب الحنابلة و المالكية غسل الكافر،و ذهب الشافعية إلى استحباب ذلک، و الحنفية يوجبون الغسل للكافر إن أسلم جنبا أو أسلمت الكافرة حائضا،و قيل يجب غسل النفاس عليها أيضا.

و الكلام هنا يقع فى غسل الجنابة،و موجباته،و شرائطه،و مستحباته.

غسل الجنابة

لا خلاف فى وجوب الغسل لحدث الجنابة لقوله تعالى: وَ إِنْ كُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا و قوله تعالى: إِلاّ عابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا .

و الغسل اسم لإجراء الماء على المحل،و هو بفتح الغين مصدر غسل،و اسم مصدر لاغتسل،و بضمها مشترک بينها و بين الماء الذی يغتسل به،و بكسر الغين اسم لما يغسل به الرأس من سدر و نحوه.

و الجنابة دالة على البعد و منه قوله تعالى: وَ الْجارِ الْجُنُبِ أی البعيد فی نسبه و إن كان قريبا فی داره.

و عن الشافعی أنه قال:إنما سمی جنبا من المخالطة.و من كلام العرب:أجنب الرجل إذا خالطه امرأته.

و كيف كان فإن موجبها عند الشيعة أمران:الأول خروج المنی.و الثانی:

الجماع و لو لم ينزل،فإذا تحقق ذلک وجب الغسل للفاعل و المفعول.لقوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:

«إذا التقى الختانان وجب الغسل».

واجباته:

1-النية و لا بد من استدامتها إلى آخر الغسل.

2-غسل ظاهر البشرة على وجه يتحقق به مسمى الغسل،و لا بد من تخليل ما يمنع وصول الماء إليها.

3-أن يبدأ أولا بغسل الرأس و الرقبة،ثم يغسل الجانب الأيمن،ثم الجانب الأيسر،و يسقط الترتيب بالارتماس.

و يشترط فيه إطلاق الماء و طهارته و إباحته،و إباحة الآنية و المصب،و أن يباشر الغسل بنفسه إلا فی حالة الاضطرار،و أن لا يكون هناک مانع من استعمال الماء لمرض و نحوه،و أن يكون العضو طاهرا.

و يستحب فيه غسل اليدين من الزندين،و قيل من المرفقين ثلاثا،و المضمضة ثم الاستنشاق ثلاثا ثلاثا،و الاستبراء بالبول قبل الغسل،و فائدته أن البلل المشتبه لا يحكم بأنه منی،لعدم بقاء شیء منه فی المجری بعد الاستبراء.

هذا موجز ما عليه مذهب الشيعة فی موجبات غسل الجنابة،و واجباته بدون إطالة و تفصيل،و ذلک مذكور فی كتبهم الفقهية المتكفلة لبسط الكلام و ذكر الأقوال

و الآراء من حيث الأدلة و التفريع،و جميع ما يتعلق به من الكليات و الجزئيات (1).

و كيف كان فإن أكثر المذاهب تتفق مع الشيعة فى كثير من الأمور المذكورة، و تختلف عنها فى بعضها،كما تختلف بعضها عن بعض فى ذلک.

و قد اتفق الجميع على إيجاب الغسل بمجرد الإدخال،و عقد الإجماع على ذلک،و لم يشترطوا إنزال المنى.

و اتفقوا على أن خروج المنى بشهوة يوجب الغسل،و لكنهم اختلفوا فى انفصال المنى عن شهوة،و خروجه لا عن شهوة،فأبو حنيفة يوجب الغسل،و وافقه صاحبه محمد بن الحسن،و خالفه أبو يوسف فى ذلک إذ لم يوجب الغسل فيه.

و الحنابلة يختلفون لاختلاف الروايات عن أحمد فى إيجاب الغسل و عدمه، و كذلک المالكية،لاختلاف الروايات عن مالک.

أما إذا انفصل المنى لا عن شهوة،فالشافعية يوافقون الشيعة فى إيجاب الغسل، و خالفهم الحنفية،و المالكية فى ذلک،لأنهم يشترطون اقتران الشهوة فى إيجاب الغسل.

و ذهب الحنفية إلى عدم إيجاب الغسل بإدخال الذكر فى الفرج ملفوفا بخرقة، كما ذكره ابن عابدين فى حاشيته و غيره.

كما لا يوجبون الغسل بمجرد الإدخال فى الميتة و البهيمة،و ربما وافقهم الحنابلة فى مسألة الخرقة،كما هو ظاهر عبارة الروض الندى (2).

و من الشافعية من يذهب إلى ذلک،فلا يوجب الغسل و لا الحد على من لف ذكره بحريرة و أولجه فى فرج و لم ينزل (3)و سيأتى الكلام حول هذه المسألة فى باب النكاح إن شاء اللّه.

1- (1) كتاب مدارک الأحكام للسيد محمد بن على الحسينى العاملى،و رياض المسائل فى بيان الأحكام بالدلائل للسيد على الطباطبائى،و جواهر الكلام فى شرح شرائع الإسلام للشيخ محمد حسن صاحب الجواهر،و هداية الأنام للشيخ محمد حسين الكاظمى،و مستمسک العروة الوثقى للسيد محسن الحكيم،و طهارة الشيخ الطوسى و شرائع الإسلام،و نكت النهاية لأبى القاسم جعفر بن سعيد الحلى، و كتاب الوسيلة لعماد الدين جعفر محمد بن على بن حمزة،و غيرها من كتب الفقه الشيعى.

2- (2) الروض الندى ص 43.

3- (3) طبقات الشافعية،ج 3 ص 241.

>الغسل:< اتفق الجميع على وجوب النيـة فى الغسل إلا الحنفيـة،فلم يوجبوا النيـة كما تقـدم فى الوضوء،و قال بعضـهم:لو احتاج إلى نية لاحتاجت النيـة إلى نيـة و هكـذا.و هـذا القول مردود بالتزامهم وجوب النيـة للتيمم،و للصـلاة،فما هو الفارق؟ و جميع المذاهب يوافقون الشيعة فى وجوب النية لغسل الجنابة،و انها شرط فى صحة الغسل كما هو مفصل فى محله.

أما الترتيب:فقد أوجبه الشيعة و هو الابتداء بغسل الرأس،ثم الجانب الأيمن، ثم الجانب الأيسر،لأنه الثابت من فعل النبى صلّى اللّه عليه و آله و سـلّم،كما تدل عليه الأخبار الصـحيحة، و قد خالف الحنفية فذهبوا إلى عدم الوجوب،مع أن الثابت عندهم أن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان يفعل ذلک (1)و قد جعلوه من السنن لا من الفروض.

و اختلفت أقوالهم فى الابتداء،و انه بالجانب الأيمن مرة،و بالرأس مرة أخرى، و هو الأصح عندهم (2).

و قسم الحنابلة الغسل إلى قسمين:كامل و مجزى،فالكامل:هو ما يحصل به الترتيب كما ذهب إليه الشيعة.

و المجزى:هو أن ينوى،و يسمى،و يعم بالماء بدنه (3)و قالوا إن الغسل الكامل:هو أن يأتى بالنية و التسمية،و غسل يديه ثلاثا،و غسل ما به من أذى و يحثى على رأسه ثلاثا،و يفيض الماء على سائر جسده،و يبدأ بشقه الأيمن...و هذا هو الغسل الأكمل و الأفضل.

أما إذا غسل مرة،و عم بالماء رأسه و جسده،و لم يتوضأ اجزأه بعد أن يتمضمض و يستنشق و ينوى به الغسل،و كان تاركا للاختيار (4).

و قال المالكية:باسـتحباب الترتيب،للأخبار الواردة عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى غسله بتقديم الرأس و بدأه بالميامن،و مع ثبوت ذلک فالترتيب عندهم غير واجب (5).

1- (1) حاشية الطحاوى على مراقى الفلاح.
2- (2) حاشية ابن عابدين ج 1 ص 164.
3- (3) الروض الندى ص 45.
4- (4) المغنى لابن قدامة ج 1 ص 217-218.
5- (5) المنتقى ج 1 ص 96.

و قال الشافعية:باستحباب الترتيب،و تقديم الشق الأيمن على الأيسر (1)و ان ذلک هو الغسل الکامل کما قال النووی فی شرح صحیح مسلم.

أما وجوب الدلک فلم يقل به إلا مالک بن أنس و المزنی من أصحاب الشافعی، و ذهب الجميع إلى استحبابه،و کذلک الوضوء فی غسل الجنابة،فلم يوجبه أحد من أئمة المذاهب إلا داود الظاهری،فإنه أوجبه،و من سواه يقولون هو سنة،فلو أفاض الماء على جميع بدنه من غير وضوء صح غسله.و استباح به الصلاة،و غيرها،و لكن الأفضل عندهم أن يتوضأ،و تحصل الفضيلة بالوضوء قبل الغسل أو بعده (2).

و على هذا فإن غسل الجنابة لا يحتاج معه إلى وضوء للصلاة،و هو مذهب الشيعة.

هذا فی الغسل الترتيبی،و أما الارتماس فالظاهر أنه لا خلاف بين الجميع بالاكتفاء به إذا استوعب جميع البدن و نوی الغسل.

الأحكام:

يحرم عند الشيعة على الجنب أمور:

1-الصلاة مطلقا عدا صلاة الجنائز لقوله تعالى: وَ إِنْ كُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا و ذلک بعد قوله تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ (3)و على هذا إجماع المسلمين.

2-اللبث فی المساجد،بل مطلق الدخول فيها،إلا اجتيازا بحيث يدخل من باب،و يخرج من آخر،أو لأخذ شیء منها بدون مكث،إلا المسجدين الشريفين فی مكة و المدينة،فإنه لا يجوز الاجتياز بهما و لا المكث.

و ذهب الحنفية إلى عدم الدخول إلى المساجد،و لكنه إذا احتاج إلى ذلک يتيمم سواء كان لقصد المكث أو للاجتياز (4).

1- (1) ابن القاسم على غاية الاختصار ص 8 خط.

2- (2) شرح النووی لمسلم ج 3 ص 229.

3- (3) المائدة،آية:6. [1]

4- (4) الكاسانی ج 1 ص 38.

و قال الشافعی یجوز له الدخول بدون تیمم إذا کان مجتازا.لقوله تعالی: وَ لا جُنُباً إِلاّ عابِرِی سَبِیلٍ حَتَّی تَغْتَسِلُوا و المراد من الصلاة فی الآیة مکانها،و هو المسجد کما روی عن ابن مسعود (1).

و أجاز أحمد بن حنبل المکث للجنب فی المسجد بشرط أن یتوضأ،و لو کان الغسل یمکنه بدون مشقة (2)و إذا احتاج إلی اللبث جاز عندهم بدون تیمم (3)و ذهب مالک إلی عدم جواز المرور فی المسجد،و لکنه إذا اضطر إلیه وجب علیه التیمم (4).

3-یحرم مس کتابة القرآن،أو شیء علیه اسم اللّه تعالی،تعظیما له و إجلالا حتی الدراهم التی علیها اسمه تعالی،قال الإمام الصادق علیه السّلام:(لا یمس الجنب درهما و لا دینارا علیه اسم اللّه).

4-یحرم قراءة سور العزائم.و هی:الم السجدة،و حم السجدة،و النجم، و العلق حتی البسملة منها،و قیل إنما یحرم قراءة آیة السجدة فقط.

و یکره قراءة غیرها من القرآن.

و القول بالکراهة مروی عن جماعة من الصحابة و التابعین للأصل،و لقوله تعالی: فَاقْرَؤُا ما تَیَسَّرَ مِنْهُ .و کان ابن عباس لم یر فی القراءة للجنب بأسا.

و فی الباب أخبار تدل علی الحرمة مطلقا،و لکنها أخبار لم تسلم من خدشة و طعن فی السند،کحدیث ابن عمر عن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنه قال:لا یقرأ الجنب و لا الحائض شیئا من القرآن (5).

و قد تکلم العلماء فی هذا الحدیث لأن فی رواته من لیس بثقة،و فیه إسماعیل بن عیاش،و روایاته عن الحجازیین ضعیفة.

و قال أبو حاتم:إن هذا لیس بحدیث و لکنه من کلام ابن عمر.

1- (1) الکاسانی ج 1 ص 38.

2- (2) حاشیة نهایة المحتاج ج 1 ص 302.

3- (3) غایة المنتهی ص 46.

4- (4) المنتقی ج 1 ص 112.

5- (5) أخرجه أبو داود،و الترمذی،و ابن ماجة.

و قال أحمد بن حنبل:هذا حديث باطل أنكره على إسماعيل بن عياش و أما ما يروى عن على عليه السّلام أن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان لا يحجزه عن القرآن شىء ليس الجنابة (1)فقد قال الشافعى:أهل الحديث لا يثبتونه.

و قال الخطابى:كان أحمد يوهن هذا الحديث.و قال الشوكانى:إن هذا الحديث ليس فيه ما يدل على التحريم،لأن غايته أن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ترك القراءة حال الجنابة،و مثله لا يصلح مستمسكا للكراهة فكيف يستدل به على التحريم؟ (2).

و كيف كان فإن الشيعة يذهبون إلى كراهة قراءة ما زاد على سبع آيات و يحرمون قراءة سور العزائم،و غيرهم من المذاهب لم يفرقوا بين العزائم و غيرها.

و ذهب الحنفية إلى منع الجنب من القراءة،و أجاز أبو يوسف كتابة القرآن للجنب،و ذهب محمد بن الحسن الشيبانى إلى الكراهة،لأن الكتابة تجرى مجرى القراءة.و زاد بعضهم تحريم مس التوراة،و الإنجيل،و سائر الكتب الشرعية (3).

و منع الشافعى القراءة مطلقا،إذا كان بقصد التلاوة،أما إذا قصد الذكر لا التلاوة فيجوز له ذلك،و يظهر من الحنابلة موافقتهم له.

أما مالك فقد منع ذلك إلا المتيمم،فيجوز له أن يقرأ حزبه من القرآن،و يتنفل ما لم يجد ماء (4).

5-يحرم على الجنب تعمد البقاء على الجنابة لمن وجب عليه الصوم،كما يأتى تفصيل ذلك فى محله،و كذلك الطواف الواجب إن شاء اللّه.

و أما ما يكره للجنب فهى أشياء منها الأكل و الشرب و النوم،ما لم يتوضأ، و تفصيل ذلك فى الرسائل العملية لعلماء الشيعة و غيرها من كتبهم الاستدلالية ليس هذا محل ذكرها.

و أما السنن عند المذاهب الأخرى لغسل الجنابة فهى كثيرة لا مجال لذكرها،إذ الخلاف فى ذلك غير مهم و اللّه الموفق للصواب.

1- (1) أخرجه الخمسة.

2- (2) نيل الأوطار ج 1 ص 226.

3- (3) كتاب ضوء الشمس لأبى المدى ج 1 ص 148.

4- (4) المنتقى ج 1 ص 112.

غسل الحيض:

و هو واجب عند الجميع و كيفيته كغسل الجنابة،و هو فى اللغة السيل تقول العرب:حاضت الشجرة إذا سالت رطوبتها،و حاض الوادى إذا سال،و فى الشرع هو الدم الذى له تعلق بانقضاء العدة،إما بظهوره أو انقطاعه،و قيل إنه اسم لدم مخصوص من موضع مخصوص.كما عرفه السرخسى.و له تعاريف أخرى لا حاجة لبيانها.

و الكلام هنا يقع بما وقع الخلاف فيه،و هو تحديد مدته و زمانه و الأحكام المتعلقة به على وجه الإجمال:

مدته:

اختلف العلماء فى مدة الحيض،فقال الإمامية:بأن أقل مدة الحيض ثلاثة أيام و أكثره عشرة.و ما نقص عن الثلاثة أو زاد عن العشرة فليس بحيض إجماعا،و وافقهم الحنفية فى ذلك.

و كان أبو حنيفة يقول:إن أقل الحيض يوم و ليلة،و أكثره خمسة عشر ثم رجع (1)إلى ما قلناه من موافقة ما يقوله الشيعة،بأن أقله ثلاثة أيام،و أكثره عشرة.

و قال الشافعى:إن أقله يوم و ليلة و أكثره خمسة عشر يوما،و قيل يوما واحدا و قال أصحابه:هما قولان له و منهم من قال:هو قول واحد لدخول الليلة فى اليوم (2).

و قال مالک:إنه بقدر ما يوجد و لو ساعة،لأنه حدث لا يتقدر أقله بسائر الأحداث (3)و يروى عنه أنه قال:لا وقت لقليل الحيض و لا لكثيره.

و حكى عبد الرحمن بن المهدى عنه بأنه كان يرى أن أكثر الحيض خمسة عشر يوما (4).

1- (1) أحكام القرآن للجصاص ج 1 ص 400. [1]

2- (2) المهذب ج 1 ص 38.

3- (3) المبسوط للسرخسى ج 3 ص 147.

4- (4) الجصاص ج 1 ص 400. [2]

و قال أحمد بن حنبل:إن أقل الحيض يوم و ليلة،و أكثره خمسة عشر يوما، و قال الخلال:إن مذهب أحمد لا اختلاف فيه،إن أقل الحيض يوم و أكثره خمسة عشر يوما.

و قيل عنه:إن أكثره سبعة عشر يوما (1)و بهذا القول يخالف ما ذهب إليه الشافعى.

أيام الطهر:

قال الشيعة:بأن أقل الطهر عشرة أيام،فإذا رأيت دم الحيض و انقطع مدة عشرة أيام،فالثانى حيض مستقل،و ليس لأكثره حد،و قال أبو حنيفة:أقل الطهر خمسة عشر يوما.و به قال الشافعى.

و قال مالک بن أنس:بعدم التوقيت.و فى رواية عبد الملک بن حبيب عنه أن الطهر لا يكون أقل من خمسة عشر يوما.

و عند الحنابلة:أن أقل الطهر بين الحيضتين ثلاثة عشر يوما،لأن كلام أحمد لا يختلف أن العدة تصح أن تنقضى فى شهر واحد إذا قامت به البينة (2)و قال إسحاق بن راهويه:و توقيت هؤلاء بالخمسة عشر باطل.

سن الحائض:

و هو الزمان الذى يحكم على الدم الخارج من المرأة بصفات الحيض أنه حيض.فقد اتفق المسلمون على أن ما تراه الأنثى قبل بلوغها تسع سنين لا يكون حيضا،و كذا ما تراه بعد اليأس.

و من الحنفية من قدر سن الحائض بسبع سنين،مستدلا بقوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:مروهم بالصلاة إذا بلغوا سبعا،و الأمر حقيقة للوجوب،و ذلک بعد البلوغ.

و سئل أبو نصر عن ابنة ست سنين:إذا رأت الدم هل يكون حيضا؟فقال:نعم إذا تمادى بها مدة الحيض (3).

1- (1) المغنى لابن قدامة ج 1 ص 308.

2- (2) المغنى لابن قدامة ج 1 ص 310.

3- (3) السرخسى ج 1 ص 149.

أما سن اليأس:فقد وقع الخلاف فيه بين المسلمين:

فـذهب الشـيعة:إلى أن الحـد الـذى يتحقق فيه اليأس هو بلوغ سن المرأة خمسـين سـنة،إن لـم تكن قرشـية،و هو المروى عن أبى عبـد اللّه الصادق عليه السّلام أنه قال:حد التى تيأس من الحيض خمسون.

و عنه أيضا:المرأة التى تيأس من الحيض حدها خمسون سنة.

و قال عليه السّلام:إذا بلغت المرأة خمسين سنة لم تر حمرة إلا أن تكون امرأة من قريش.

و ذهب الحنفيـة إلى أن حـد اليأس خمس و خمسون سـنة،و فى روايـة عن أبى حنيفـة:أن اليأس لا يحد بحد،بل هو أن تبلغ من السن ما لا تحيض مثلها (1).

و قال محمـد بن الحسن الشـيبانى:أن العجوز الكبيرة إذا رأت الـدم مـدة الحيض كان حيضا.و كان محمد بن مقاتل الرازى يقول:هذا إذا لـم يحكم بإياسها،أما إذا انقطع الدم زمانا حتى حكم بإياسها،و كانت بنت تسعين سنة أو نحو ذلك فرأت الدم بعد ذلك لـم يكن حيضا (2).

و ذهب الشافعية إلى أن حد اليأس اثنان و ستون سنة،و يلغى هذا التحديد إن رأت دما فيحكم بكونه حيضا (3).

و عنـد المالكيـة أن حـد اليأس سـبعون سـنة قطعا،و إن بلغت الخمسـين و رأت دما يسأل عنه النساء،فإن جزمن بأنه حيض أو شـككن فهو حيض،و إلا فلا،أما إذا بلغت السبعين فليس بحيض قطعا (4).

و اختلفت الروايـات عن أحمـد بن حنبـل فمنهـا:أن المرأة لا تيأس من الحيض يقينا إلى ستين سـنة،و ما تراه فيما بين الخمسـين و الستين مشكوك فيه لا تترك له الصلاة و لا الصوم،لأن وجوبهما متيقن فلا يسقط بالشك.

و منها:أنه جعل الحد خمسين سنة لأن المرأة بعد الخمسين لا تحيض،و بهذا

1- (1) حاشية ابن عابدين ج 1 ص 212.

2- (2) المبسوط ج 1 ص 149-150. [1]

3- (3) نهاية المحتاج،ج 1 ص 308.

4- (4) الجواهر الزكية ص 84.

قال إسحاق بن راهويه:بأنه لا يكون حيضا بعد الخمسين،و يكون حكمها فيما تراه من الدم حكم المستحاضة،لما روى عن عائشة رضى اللّه عنها أنها قالت:«إذا بلغت خمسين سنة خرجت من حد الحيض» (1).

و الـذى يظهر أن العمل عنـدهم على رواية الخمسـين لإطلاق بعضـهم ذلک بدون ذكر لمورد الشک،قال موفق الدين بن قدامة:كل دم تراه الأنثى قبل تسع سنين و بعد الخمسين فليس بحيض (2)و كذلک قال صاحب الروض الندى و لم يقيد بالشک (3).

و على كل حال فهم يوافقون ما عليه المشهور عند الشيعة من تحديد اليأس بالخمسين فى غير القرشية.

أمـا فى القرشـية فقـد قـال فى المغنى:إن نسـاء الأعاجم ييأسن من المحيض فى خمسـين،و نساء بنى هاشم و غيرهم من العرب إلى ستين سنة،و هو قول أهل المدينة، لما روى الزبير بن بكار فى كتاب النسب،عن بعضهم أنه قال:لا تلد لخمسين سنة إلا العربية،و لا تلد لستين إلا قرشية.

و قال أحمـد فى امرأة من العرب رأت الـدم بعد الخمسـين:إن عاودها مرتين أو ثلاث فهو حيض،و ذلک لأن المرجع فى هذا إلى الوجود،و قد وجد حيض من نساء ثقات اخبرن به عن أنفسهن بعد الخمسين،فوجب الاعتقاد بكونه حيضا،كما قبل الخمسين (4).

و المشهور عند الشيعة فى القرشية أنها لا تيأس،إلا إذا بلغت ستين،و قد وردت بذلک عن أهل البيت عليهم السّلام أخبار كما تقدم.

الأحكام:

أجمع المسلمون على أن الحائض يحرم عليها العبادة المشروطة بالطهارة، كالصلاة،و الصوم،و الطواف.

1- (1) المغنى لابن قدامة ج 1 ص 263.

2- (2) كتاب الهادى أو عمدة الحازم ص 14 لابن قدامة.

3- (3) الروض الندى ص 54.

4- (4) المغنى ج 1 ص 263.

كما أجمعوا على أنها تقضى الصوم دون الصلاة،و الخوارج يخالفون المسلمين بوجوب قضاء الصلاة عليها.

و كيف كان فإن العلماء اتفقوا على تحريم أمور على الحائض كمس كتابة القرآن،و اللبث فى المساجد،و غير ذلک.

أما قراءة القرآن فقد حرم الشيعة سور العزائم أو آيات السجدات فقط،كما تقدم فى الوضوء،أما قراءة غيرها على كراهية،و أجاز مالک بن أنس قراءة القرآن للحائض دون الجنب،لأن الجنب قادر على تحصيل صفة الطهارة بالاغتسال،فيلزمه تقديمه على القراءة،و الحائض عاجزة عن ذلک،فكان لها أن تقرأ،و قد تقدم الكلام فى بحث الجنابة،و إن عمدة ما يستدل به المانعون هو حديث ابن عمر،و قد ذكرنا ما فيه من عدم صلاحيته للاستدلال،و كل حكم بلا دليل إنما هو تحكم.

و لا حاجة إلى بسط القول فى الموضوع.بقى الكلام فى حرمة وطء الحائض و وجوب الكفارة فى ذلک.

حرمة الوطء:

اتفق المسلمون على حرمة وطء الحائض،و اختلفوا فى جواز الاستمتاع فيها بما دون ذلک.كما اختلفوا فى جواز الوطء بعد انقضاء الحيض و قبل الغسل.

أما حرمة وطئها.فمجمع عليه لأن اللّه تعالى أمر باعتزال النساء بقوله عز اسمه:

قُلْ هُوَ أَذىً فَاعْتَزِلُوا النِّساءَ فِي الْمَحِيضِ قيل المراد:أن الأذى يكون فى موضع الدم، و هو منهى عنه،و مأمور بالاعتزال منه،أما سائر جسدها فغير مشمول.و قيل بالعموم إلا ما خصصته السنة كما سيأتى.

و كيف كان فإن من وطأ زوجته فى زمان الحيض عالما بالحكم و الموضوع،فإن عليه الكفارة،و هى دينار فى أوله،و نصف دينار فى وسطه،و ربع دينار فى آخره، يتصدق به عينا أو قيمة.هذا هو المشهور عند الشيعة.

أما الحنفية فالمروى عن أبى حنيفة أنه قال لا كفارة،و ذهب أكثر علماء الحنفية إلى استحباب التصدق بدينار أو نصفه،و يتوب و يستغفر.

و صرح بعض الحنفية بكفر مستحل الوطء فى الحيض،و قيل لا يكفر و عليه العمل عندهم.

و قال الحصكفی فی شرح التنویر:و یندب الصدقة بدینار،أو نصفه،و مصرفه کالزکاة.و هل علی المرأة تصدق؟قال فی الضیاء لا (1).

و عند المالکیة:أن الوطء ممنوع،فمن فعل ذلک أثم،و لا غرم علیه،و دلیلهم من جهة القیاس أن هذا محرم لا لحرمة عبادة،فلم تجب فیه کفارة کالزنی (2).

و للشافعی قولان:أحدهما لیس علیه کفارة،و الآخر أن علیه کفارة و هی دینار، یتصدق به،إن کان فی أوله،و إن کان فی آخره یتصدق بنصف دینار،لما روی عن ابن عباس أن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال:«فی الذی یأتی امرأته و هی حائض یتصدق بدینار أو بنصف دینار» (3).

و بهذا قال أحمد بن حنبل فی إحدی الروایات عنه،لما رواه النسائی و أبو داود فی ذلک.

قال ابن قدامة:و فی قدر الکفارة روایتان:إحداهما أنها دینار أو نصف دینار، علی سبیل التخییر أیهما أخرج أجزأ.روی ذلک عن ابن عباس.

و الثانیة:أن الدم إن کان أحمر فهی دینار،و إن کان أصفر فنصف دینار و هو قول إسحاق.

و قال النخعی إن کان فی فور الدم فدینار،و إن کان فی آخره فنصف دینار،لما روی ابن عباس عن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنه قال:إن کان دما أحمر فدینار،و إن کان دما أصفر فنصف دینار،رواه الترمذی (4).

قبل الاغتسال:

و اختلف الفقهاء فی وطء الحائض فی طهرها و قبل الاغتسال،فذهب أبو حنیفة و أصحابه إلی أن ذلک جائز،إذا طهرت لأکثر أمد الحیض،و هو عنده عشرة أیام (5)و به قال الأوزاعی.

1- (1) حاشیة ابن عابدین.

2- (2) المنتقی ج 1 ص 117.

3- (3) المهذب للشیرازی ج 1 ص 38.

4- (4) المغنی ج 1 ص 236.

5- (5) مراقی الفلاح ص 44 و ملتقی الأبحر ص 7.

و ذهب مالک و الشافعی و أحمد إلی عدم الجواز حتی تغتسل و سبب اختلافهم الاحتمال الذی فی قوله تعالی: فَإِذا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللّهُ [البقرة:222] فهل المراد به الطهر الذی هو انقطاع دم الحیض أم الطهر بالماء؟ ثم إن کان الطهر بالماء فهل المراد طهر جمیع الجسد أم طهر الفرج.کما ذهب إلیه الأوزاعی؟لأن الطهر فی کلام العرب و عرف الشرع اسم مشترک یقال علی هذه المعانی الثلاثة.

و قد رجح المانعون بأن صیغة التفعل إنما تنطلق علی ما یکون من فعل المکلفین لا علی ما یکون من فعل غیرهم،فیکون قوله تعالی: فَإِذا تَطَهَّرْنَ أظهر فی معنی الغسل بالماء منه فی الطهر الذی هو انقطاع الدم،و الأظهر یجب المصیر إلیه حتی یدل الدلیل علی خلافه (1).

و غسل الحیض کغسل الجنابة فی الکیفیة من الارتماس و الترتیب،نعم المشهور عند الشیعة أنه لا یجزی عن الوضوء.

غسل الاستحاضة:

اختلف المسلمون فی وجوب غسل الاستحاضة،فمنهم من أوجبه لکل صلاة، و منهم من لم یوجبه،و منهم من أوجب علیها طهرا واحدا فی الیوم و اللیلة،و منهم من أوجب علیها ثلاثة أطهار للصبح غسل،و لصلاة الظهر و العصر غسل،و لصلاة المغرب و العشاء غسل،و بهذا قال الشیعة و أوجبوه فی الاستحاضة الکثیرة.

أما المتوسطة فعلیها مع الوضوء غسل واحد لصلاة الصبح فقط،و القلیلة منها لیس علیها شیء إلا الوضوء لکل صلاة،فریضة کانت أو نافلة،کما هو مذکور مفصل فی محله من کتب الفقه.

و کیف کان فإن الشیعة یذهبون لوجوب غسل الاستحاضة إن کانت متوسطة أو کثیرة مع الوضوء،و إن کانت قلیلة فلا یجب إلا الوضوء کما تقدم.

و قال بوجوب الغسل جماعة من السلف کابن الزبیر و عطاء بن أبی رباح و عائشة،و هو المروی عن علی علیه السّلام.

1- (1) ابن رشد فی البدایة ج 1 ص 56.

و قال سعید بن المسیب و الحسن البصری:بوجوب الغسل من صلاة الظهر إلی صلاة الظهر.

و فی الباب أحادیث صحیحة تدل علی وجوب الغسل،و لکنهم حملوها علی الاستحباب،منها حدیث عائشة أنها قالت:استحیضت زینب بنت جحش فقال لها النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم:اغتسلی لکل صلاة (1).فکانت عائشة تذهب إلی وجوب الاغتسال کما فی بعض الروایات عنها.

و منها حدیث أسماء بنت عمیس:أن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أمر فاطمة بنت أبی حبیش أن تغتسل للظهر و للعصر غسلا واحدا،و تغتسل للمغرب و العشاء غسلا واحدا، و تغتسل للفجر غسلا واحدا (2)أخرجه أبو داود.

و منها حدیث عائشة عن أم حبیبة بنت جحش أنها استحاضت فأمرها رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أن تغتسل لکل صلاة (3).

و منها حدیث عائشة أیضا قالت:استحیضت امرأة علی عهد رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

فأمرت أن تعجل العصر،و تؤخر الظهر حتی تغتسل لهما غسلا،و أن تؤخر المغرب و تعجل العشاء و تغتسل لهما غسلا،و تغتسل لصلاة الصبح غسلا (4).

و مثله حدیث سهلة بنت سهیل أن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أمرها أن تجمع بین الظهر و العصر بغسل،و المغرب و العشاء بغسل،و تغتسل للصبح (5).

فإن هذه الأحادیث و غیرها تدل بمجموعها علی التفصیل الذی ذهبت إلیه الشیعة،مضافا لما ورد عن أهل البیت علیهم السّلام بالطرق الصحیحة،من حیث وجوب الغسل علی المستحاضة کما ذهب إلیه کثیر من علماء السلف.

قال ابن رشد القرطبی:فلما اختلفت ظواهر هذه الأحادیث ذهب الفقهاء فی تأویلها أربعة مذاهب:مذهب النسخ،و مذهب الترجیح،و مذهب الجمع،و مذهب

1- (1) سنن أبی داود ج 1 ص 68.
2- (2) سبل السلام للأمیر الصنعانی ج 1 ص 101.
3- (3) صحیح مسلم شرح النووی ج 4 ص 22.
4- (4) سنن أبی داود ج 1 ص 70.
5- (5) المصدر السابق.

بناء،و الفرق بين الجمع و البناء:أن البانى ليس يرى أن هناک تعارضا فيجمع بين الحديثين،و أما الجامع فهو يرى أن هنالک تعارضا فى الظاهر.الخ (1).

و قال ابن دقيق العيد:و ذهب قوم إلى أن المستحاضة تغتسل لكل صلاة،و قد ورد الأمر بالغسل لكل صلاة فى رواية ابن إسحاق خارج الصحيح،و الذين لم يوجبوا الغسل لكل صلاة حملوا ذلک(أى الأخبار الدالة على الوجوب)على مستحاضة ناسية للوقت و العدد،يجوز فى مثلها أن ينقطع الدم عنها فى وقت كل صلاة (2).

و على كل حال:فإن التفصيل الذى ذهب إليه الشيعة فى الاستحاضة،و وجوب الغسل عليها لم يذهب إليه أحد من أئمة المذاهب،و حملوا أخبار الوجوب على الاستحباب،أو أنهم ذهبوا إلى الترجيح،و أن الأصل عدم الوجوب.

قال النووى:و اعلم أنه لا يجب على الاستحاضة الغسل لشىء من الصلاة،و لا فى وقت من الأوقات،إلا مرة واحدة فى وقت انقطاع حيضها،و بهذا قال جمهور العلماء من السلف و الخلف،و هو مروى عن على و ابن مسعود،و ابن عباس،و عائشة رضى اللّه عنهم،و هو قول عروة بن الزبير،و أبى سلمة و مالک و أبى حنيفة و أحمد.

و روى عن ابن عمر،و ابن الزبير،و عطاء بن أبى رباح أنهم قالوا:يجب عليها أن تغتسل لكل صلاة،و روى هذا أيضا عن على و ابن عباس.

و روى عن عائشة أنها قالت:تغتسل كل يوم غسلا واحدا،و عن المسيب و الحسن قالا:تغتسل من صلاة الظهر دائما.

و قال ابن حزم بعد أن أورد الأخبار الدالة على وجوب الغسل:هذه آثار فى غاية الصحة،رواها عن رسول اللّه أربع صواحب:عائشة أم المؤمنين،و زينب بنت أم سلمة،و أسماء بنت عميس و أم حبيبة بنت جحش،و رواها عن كل واحدة من عائشة و أم حبيبة:عروة،و أبو سلمة،و رواه أبو سلمة عن زينب بنت سلمة،و رواه عروة عن أسماء،و هذا نقل تواتر يوجب العلم.

و بعد أن ذكر الأخبار التى تدل على ما أفتى به بعض الصحابة فى وجوب الغسل،كعلى عليه السّلام و ابن عباس،و أم حبيبة،و ابن الزبير،و ابن عمر.

1- (1) بداية المجتهد ج 1 ص 29.

2- (2) العدة ج 1 ص 484.

ثم قال:فهؤلاء من الصحابة:أم حبيبة و على بن أبى طالب و ابن عباس،و ابن عمر،لا مخالف لهم يعرف من الصحابة رضى اللّه عنهم،إلا رواية عائشة أنها تغتسل كل يوم عند صلاة الظهر،و رويناه هكذا من طريق معمر عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة مبينا:كل يوم عند صلاة الظهر.و من التابعين عطاء،و سعيد بن المسيب و النخعى و غيرهم،كل ذلک بأسانيد فى غاية الصحة.

ثم أخذ ابن حزم فى الرد على من يترک الأخذ بالسنة الصحيحة تقليدا لإمامه، و توجيها لموافقة آرائه،و بين فى رده فساد أدلتهم على عدم الوجوب (1).

و على كل حال:فإن مسألة وجوب غسل الاستحاضة قد وردت فيه نصوص صريحة تقول بالوجوب كما مر بيانه،و القول بأن الأصل عدم الوجوب لعدم ورود أمر من الشارع فى ذلک مردود بالسنة الصحيحة،و المسألة تحتاج إلى مزيد بيان لا يسمح به الوقت و لا يتسع له المجال.

غسل النفاس:

قال الجرجانى:هو دم يعقب الولادة،و قيل:إنه مشتق من تنفس الرحم به، و قيل هو النفس الذى هو عبارة عن الدم،و قيل هو من النفس التى هى الولد، فخروجه لا ينفک عن دم يتعقبه،و قيل:إنه دم حيض مجتمع يخرج بعد فراغ جميع الرحم.و قيل غير ذلک.

اتفق الجميع على وجوب غسل النفاس،و اختلفوا فى تحديده قلة و كثرة، فالشيعة يقولون:لا حدّ لقليله،و حد كثيره عشرة أيام من حين الولادة لا قبلها،و إذا رأته بعد العشرة لم يكن نفاسا،و كذا إن لم تر دما أصلا.

هذا هو المشهور عند الشيعة،و وافقهم الشافعية،و المالكية،و الحنابلة.أما الحنفية فقد نقل عن أبى حنيفة أنه قال:إن أقل مدة النفاس خمسة و عشرون يوما، و نقل عن أبى يوسف أنه قال:إن أقله أحد عشر يوما،ذكر ذلک أبو موسى فى مختصره،و ابن رشد فى بداية المجتهد (2).

1- (1) المحلى ج 2 ص 213-218.

2- (2) البداية ج 1 ص 50.

و لكن الحنفية اتفقوا على عدم التحديد (1)و قالوا:إن المراد بقول أبى حنيفة إن أقله خمسة و عشرون يوما هو إذا وقعت الحاجة إلى نصب العادة لهذا فى النفاس،لا ينقص ذلک من خمس و عشرين يوما إذا كانت عادتها فى الطهر خمسة عشر،لأنه لو نصب لها دون هذا القدر أدى إلى نقص العادة...الخ (2).

و بهذا فقد حصل الاتفاق من الجميع على عدم التحديد،لأقل مدة النفاس.

و اختلفوا فى أكثره فقال الشيعة:بأن أكثره عشرة أيام.و ما ذكره صاحب البحر:

من أن أكثره عند الإمامية نيف و عشرون يوما (3)و تبعه الشوكانى فى قوله:و قالت الإمامية نيف و عشرون و النص يرد عليهم (4)فهو غير صحيح إذ المشهور عند الإمامية أنه أكثر النفاس عشرة أيام،نعم هناک قول متروک ينسب إلى ابن أبى عقيل أنه قال:إن أيامها أيام حيضها،و أكثره واحد و عشرون يوما.

و إن نسبة ذلک إلى جميع الشيعة،و إنه مذهبهم فغير صحيح،و أمثال هذه الأمور التى تنسب إلى الشيعة بدون صحة كثيرة،و سنفرد لها فصلا خاصا إن شاء اللّه تعالى.

و كذلک نسب صاحب البحر و تبعه الشوكانى إلى الإمام موسى بن جعفر عليهم السّلام أنه قال:أكثر النفاس أربعون يوما،و هو غير صحيح،و لم يثبت عن الإمام موسى ذلک.

و ذهب الحنفية إلى أن أكثر النفاس أربعون يوما،و ما زاد فهو استحاضة على خلاف بين أبى حنيفة و أصحابه فى تخلل الطهر الفاصل بين هذه المدة (5).

و قالوا:إن أكثر أيام النفاس أربعة أمثال أكثر الحيض (6)و هم يقولون بأن أكثر أيام الحيض عشرة.و من يقول بأن أكثره خمسة عشر يلزمه القول بأن أكثر أيام النفاس ستين.

1- (1) القدورى ص 10 طبع الهند و شرح الهداية ج 1 ص 20 و ملتقى الأبحر ص 7 و غيرها.

2- (2) المبسوط ج 3 ص 211. [1]

3- (3) البحر الزخار ج 1 ص 146.

4- (4) نيل الأوطار ج 1 ص 283.

5- (5) ذكر ذلک السرخسى فى المبسوط مفصلا ج 3 ص 112-119.

6- (6) حاشية ابن عابدين ج 1 ص 309.

و المالكيـة عنـدهم أن أكثر مـدة النفاس سـتون يوما،و هو أحـد أقوال مالک،و مرة يقول:إنه أربعون،و رجع عن ذلک و قال تسأل النساء عن ذلک،و أصحابه ثابتون على القول الأول (1)و هو الستون.

و الشافعيـة يوافقون المالكيـة فى ذلـک،و قـال المزنى بقول الحنفيـة إنه أربعون، و كـذلک الحنابلـة يقولون:إنه أربعون يوما،فإن تجاوز دمها الأربعين و صادف عادة حيضها و لـم يزد،أو زاد و لـم يجاوز أكثره فحيض،و إلا فاستحاضة (2).

و هذا الاختلاف حاصل لعدم ورود حديث صـحيح عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى ذلک،و ما روى عن أم سلمة أنها قالت:كانت النفسـاء تجلس على عهـد رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم أربعين يومـا،و كنـا نطلى وجوهنا بالورس من الكلف.رواه الخمسـة إلا النسائى فقد ناقش الحفاظ هذا الحديث و ضعفوه،لأن فيه من هو ضعيف الرواية،و منه مجهول الحال.

و روى من طريق آخر كما أخرجه ابن ماجة من طريق سلام عن حميد عن أنس و سلام هذا ضعيف،كذبه ابن معين.

و فى الباب عن أبى الدرداء و أبى هريرة قالا:قال رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم:تنتظر النفساء أربعين يوما.و فيه العلاء بن كثير و هو ضعيف جدا،و بهذا لا يصح أن يقال بورود أثر صحيح.

قال ابن رشد:و سبب الخلاف عسر الوقوف على ذلک بالتجربة،لاختلاف أحوال النساء فى ذلک،و لأنه ليس هناک سنة يعمل عليها،كالحال فى اختلافهم فى أيام الحيض و الطهر (3).

و قال ابن حزم:فأما من حد ستين يوما فما نعلم لهم حجة.و أما من قال:

أربعين يوما فإنهم ذكروا روايات عن أم سلمة من طريق مسة الأزدية،و هى مجهولة...الخ.

و قال:فلما لـم يأت فى مدة النفاس نص قرآن،و لا سنة،و كان اللّه تعالى قد

1- (1) البداية للقرطبى ج 1 ص 50.

2- (2) البداية ج 1 ص 51.

3- (3) غاية المنتهى لابن يوسف الحنبلى ج 1 ص 83.

فرض عليها الصلاة و الصيام بيقين،و أباح وطأها لزوجها لم يجز لها أن تمتنع من ذلک،إلا حيث يمتنع بدم الحيض،لأنه حيض (1).

و على أى حال:فإن القول بالتحديد المذكور إما على القياس و هو باطل،أو اعتماد على أثر و هو غير صحيح.

أما الشيعة فقد صح عندهم ما روى عن أهل البيت صلوات اللّه عليهم.قال شيخنا المحقق فى المعتبر:لنا مقتضى الدليل لزوم العبادة و ترک العمل به فى العشرة إجماعا فيما زاد،و لأن النفاس حيضة حبسها الاحتياج إلى غذاء الولد،فانطلاقها باستغنائه عنها،و أقصى الحيضة عشرة.و يؤيد ذلک المستفيض عن أهل البيت:منه ما رواه الفضيل عن أحدهما(الباقر أو الصادق عليهم السّلام)قال:النفساء تكف أيام أقرائها التى كانت تمكث فيها،ثم تغتسل،و تعمل ما تعمله المستحاضة.

و الخلاصة:أن المشهور عند الشيعة أن أكثره عشرة أيام لورود النصوص المستفيضة عن أهل البيت،و إن كان هناک ما يدل على الأكثر فلم يشتهر بها العمل.

و النفساء بحكم الحائض،فيحرم عليها ما يحرم على الحائض،و يكره لها ما يكره للحائض،و تقضى الصوم دون الصلاة،و لا يصح طلاقها إلى غير ذلک من أحكام الحائض.

غسل الأموات:

اتفق الجميع على وجوب غسل الميت المسلم،ما عدا الشهيد المقتول فى المعركة فى حفظ بيضة الإسلام،و اتفقوا على أن غير المسلم لا يجوز تغسيله،و أجاز الشافعية ذلک (2).

و اختلفوا فى نزع قميص الميت هل ينزع إذا غسل،أم يغسل فى قميصه؟فقال الشيعة:ينزع قميصه من طرف رجليه،و إن استلزم فتقه،بشرط إذن الوارث،و تستر عورته.

1- (1) المحلى ج 2 ص 203 و 205.

2- (2) المهذب لأبى إسحاق ج 1 ص 128.

و قال مالک:تنزع ثیابه و تستر عورته،و به قال أبو حنیفة.أما الشافعی فقال:

یغسل المیت فی قمیصه.

و قال الحنابلة:باستحباب تجریده من ثیابه،و ستر ما بین سرته و رکبته،و ستره عن العیون تحت ستر أو سقف.

و کیف کان فالکلام هنا یقع فی أمرین وقع الاختلاف فیهما بین الشیعة و غیرهم من المذاهب و هما:کیفیة غسل المیت،و وجوب الغسل علی من مس میتا.

1-کیفیة الغسل:

أما کیفیة الغسل ففیه واجب و مستحب:أما الواجب عند الشیعة فهو إزالة النجاسة عن جمیع بدن المیت قبل الشروع،کما یجب فیه طهارة الماء و إباحته، و إباحة السدر و الکافور.بل الفضاء الذی یشغله الغسل.

و أن یغسل ثلاث مرات:الأولی بماء السدر،و الثانیة بماء الکافور و یعتبر فی کل من السدر و الکافور ألا یکون کثیرا بمقدار یوجب خروج الماء عن الإطلاق إلی الإضافة،و لا قلیلا بحیث لا یصدق أنه مخلوط بالسدر و الکافور.و الثالثة بماء القراح،و یشترط فیه الترتیب:بأن یغسل فی کل مرة رأسه ثم الجانب الأیمن،ثم الجانب الأیسر،و لا بد فیه من النیة.

و یستحب أن یغسل رأسه برغوة السدر و أن یبدأ بغسل یدیه إلی نصف الذراع، و أن یقف الغاسل علی الجانب الأیمن من المیت،و غیر ذلک مما ذکره العلماء.

و یکره إقعاده حال الغسل و ترجیل شعره،و قص أظافره،و حلق عانته،و قص شاربه،و غسله بالماء الساخن،و جعله بین رجلی الغاسل.

أما المذاهب الأخری فلم یوجبوا شیئا من ذلک و إنما هی أمور مستحبة لأن الأکثر منهم لا یرون وجوب کیفیة خاصة لغسل المیت،بل المطلوب هو تطهیره بالماء (1).

و ما ذهبوا إلیه من الغسل بالسدر و الکافور،فهو علی جهة الاستحباب و الحنفیة

1- (1) ملتقی الأبحر ص 24 و القدوری ص 24 طبع الهند و الاختیار لتعلیل المختار ج 1 ص 92 و الهدایة ج 1 ص 23 و [1]غنیة المتملی ص 352 و غیرها من کتب الفقه الحنفی.

يوجبون النيـة لإسـقاط الفرض عن الجميع لأنه واجب كفائى،و إذا وجـد غريق فإنه يجزى فى غسـله عندهم أن يحرک فى الماء بنية الغسـل (1).

و قال فى مراقى الفلاح:و النية فى تغسيله لإسقاط الفرض عنا،حتى إذا وجد غريقا يحرک فى الماء بنية غسله.

و على قول أبى يوسف أنه يحرک ثلاثا كما فى الفتـح،و عن محمـد الشـيبانى أنه إن نوى الغسل عنـد الإخراج من الماء يغسل مرة على وجه السنة،و الفرض قد سقط بالنية عند الإخراج (2).

و قال الكاسانى:الواجب هو الغسل مرة واحدة،و التكرار سـنة،و ليس بواجب حتى لو اكتفى بغسـلة واحدة،أو غسـلة واحدة فى ماء حار،لأن الغسل إن وجب لإزالـة الحـدث-كما ذهب إليه بعضـهم-فقـد حصل بالمرة الواحـدة كما فى غسل الجنابـة،و إن وجب لإزالـة النجاسـة المتشـربة كرامـة له على مـا ذهب إليه العامـة، فالحكم بالزوال بالغسل مرة واحـدة أقرب إلى معنى الكرامـة،و لو أصابه المطر لا يجزى عن الغسـل،لأـن الواجب فعـل الغسـل،و لـم يوجـد و لو غرق فى الماء فأخرج إن كان المخرج حركه كما يحرک الشـىء بقصـد التطهير سـقط الغسل،و إلا فلا... (3).

و الشافعية لا يوجبون النية فى غسل الميت فى قول،لأن القصد منه التنظيف فلم تجب فيه النية كإزالة النجاسة.و قول:بأنها تجب،لأنه تطهير لا يتعلق بإزالة عين،فوجبت فيه النية كغسل الجنابة (4).

و لهذا اختلفوا فى الغريق فقول:بأنه لا يغسل،و غرقه يكفى عن غسله،إذ النية ليست بشرط.و قول آخر أنه يجب غسل الغريق (5).

و الغسل الأكمل عندهم أن يغسل بسدر و كافور بماء بارد،خلافا للحنفية إذ

1- (1) حلية الناجى ص 531.

2- (2) حاشية الطحاوى على مراقى الفلاح ص 312.

3- (3) بدائع الصنائع ج 1 ص 300.

4- (4) المهذب للشيرازى ج 1 ص 128.

5- (5) منهاج الطالبين للنووى ص 21 و السراج الوهاج للغمراوى.

قالوا باستحبابه و استحباب الترتيب فی الغسل،و تنظيف أسنانه و منخريه إلی آخر ما ذكروه من المستحبات.

المالكية:

قال مالک:ليس لغسل الميت عندنا شیء موصوف،و لا لذلک صفة معلومة و لكن يغسل و يطهر.

قال القاضی أبو الوليد الباجی:هذا كما قال(مالک):إنه ليس لغسل الميت صفة لا يجوز أن تتعدی فتكون شرطا فی صحة غسله،لكن الغرض من ذلک تطهيره، و يستحب أن يبدأ فی المرة الأولی من غسله فيصب عليه الماء،و يبدأ بغسل رأسه و لحيته،ثم بجسده يبدأ بشقه الأيمن ثم الأيسر.

و علی هذا فالغسل عند المالكية هو تطهير جسد الميت بالماء كيف اتفق،و ليس له صفة مخصوصة.

و الحنابلة يشترطون النية فی الغسل كبقية المذاهب فی الاكتفاء بمجرد الغسل بالماء،و لا يجب فيه فعل مخصوص،فلو ترک الميت تحت ميزاب و نحوه و حضر من يصلح لغسله،و نوی و مضی زمن يمكن غسله فيه صح (1).

و علی هذا فإن كل ما يجرونه فی غسل الميت هو علی طريق الاستحباب لا الوجوب،كغسله بماء السدر و الكافور عند الجميع،و الترتيب فيه،أما بقية الأمور من تقليم الأظفار و تسخين الماء عند الحنابلة و الحنفية،فقد كرهها المالكية و الشافعية إلی غير ذلک من الأمور الاستحسانية فی زيادة تطهيره.

فتبين مما ذكرناه أن الشيعة لا تتفق مع جميع المذاهب فی حكم غسل الميت، فی أن المطلوب هو تطهيره بدون صفة خاصة،كما تطهر الأشياء النجسة بأی كيفية اتفق مع اشتراط النية من المطهر عند بعضهم،بل الواجب عند الشيعة تطهير الميت بصفة خاصة،بينها الشارع المقدس فوجب اتباعه.

أخرج مسلم فی صحيحه بسند عن أم عطية الأنصارية قالت:دخل علينا النبی صلّی اللّه عليه و آله و سلّم و نحن نغسل ابنته(زينب)فقال صلّی اللّه عليه و آله و سلّم:اغسلنها ثلاثا أو خمسا أو أكثر-إن

1- (1) التنقيح المشبع ص 70.

رأيتن ذلک-بماء و سدر،و اجعلن فی الأخيرة كافورا أو شيئا من كافور...

الحديث (1).

و مثله عن يحيى بن يحيى،عن حفصة بنت سيرين،و بهذا اللفظ أخرجه مسلم أيضا عن أيوب،عن محمد،عن أم عطية،و به فی حديث ابن علية (2).

و أخرجه الجماعة بهذا اللفظ،و فی رواية لهم ابدأن بميامنها و مواضع الوضوء منها.

و بهذا استدل جماعة علی وجوب غسل الميت بالسدر و الكافور،كما هو ظاهر الأمر علی ذلک.

قال ابن دقيق العيد:و الاستدلال بصيغة هذا الأمر علی الوجوب عندی يتوقف علی مقدمة أصولية،و هی جواز إرادة المعنيين المختلفين بلفظة واحدة من حيث أن قوله صلّی اللّه عليه و آله و سلّم ثلاثا غير مستقل بنفسه،فلا بد أن يكون داخلا تحت صيغة الأمر،فتكون محمولة فيه علی الاستحباب،و فی أصل الغسل علی الوجوب،فيراد بلفظ الأمر علی الوجوب بالنسبة إلی أصل الغسل،و الندب بالنسبة إلی الإيثار (3).

و قال الأمير الصنعانی فی تعليقته:إنه صلّی اللّه عليه و آله و سلّم قيد بقوله اغسلنها فهو داخل تحت الأمر،أی مأمور به (4).

و قال الزين بن المنير فی هذا الحديث:ظاهره أن السدر يخلط فی كل مرة من مرات الغسل،لأن قوله بماء و سدر يتعلق بقوله اغسلنها.قال و هو مشعر بأن غسل الميت للتنظيف لا للتطهير،لأن الماء المضاف لا يتطهر به.

و تعقبه الحافظ بمنع لزوم مصير الماء بذلک،لاحتمال أن لا يغير السدر وصف الماء بأن يمعک بالسدر ثم يغسل بالماء فی كل مرة،فإن لفظ الخبر لا يأباه (5).

و أخرج أحمد عن ابن عباس قال:بينما رجل واقف بعرفة إذ وقع عن راحلته

1- (1) صحيح مسلم شرح النووی ج 7 ص 2.

2- (2) صحيح مسلم ج 7 ص 3 و 4.

3- (3) انظر العدة ج 1 ص 239.

4- (4) المصدر السابق.

5- (5) نيل الأوطار للشوكانی ج 4 ص 31.

فوقصته-أی صرعته فکسرت عنقه-فقال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم:اغسلوه بماء و سدر، و کفنوه فی ثوبیه و لا تحنطوه.

و فی هذا دلیل علی وجوب الغسل بالماء و السدر،و ان المحرم لا یحنط کما هو مذهب الشیعة،و وافقهم الشافعی لأن عنده المحرم إذا مات یبقی فی حقه حکم الإحرام،و خالف فی ذلک مالک،و أبو حنیفة،و هو مقتضی القیاس عندهم لانقطاع العبادة بزوال محل التکلیف،و هو الحیاة،و لکن الشافعی اتبع الحدیث،و هو مقدم علی القیاس عنده.و بذلک قالت الحنابلة (1)..

و الخلاصة:أن الأثر الوارد عن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بالأمر فی غسل المیت،هو بالکیفیة التی علیها مذهب الشیعة مضافا إلی ما استفاض عن أهل بیت النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی ذلک.

قال الإمام الصادق علیه السّلام فی کیفیة غسل المیت:اغسله بماء و سدر،ثم اغسله علی أثر ذلک مرة أخری بماء و کافور،و ذریرة إن کانت،و اغسله الثالثة بماء قراح ثلاث غسلات لجسده.

و قال علیه السّلام:یغسل المیت ثلاث غسلات،مرة بالسدر و مرة بالماء یطرح فیه الکافور و مرة أخری بالماء القراح.

هذا ما یتعلق بالأمر الأول مما اختلف فیه،ذکرناه بصورة موجزة،أما الأمر الثانی فهو غسل المس.

2-غسل المس:

أوجب الشیعة الغسل علی من مس میتا من الناس بعد برده و قبل تطهیره، و ذهب بقیة المذاهب إلی الاستحباب،و قال الشافعی فی الجدید:الغسل من غسل المیت آکد من غسل الجمعة،لأن غسل الجمعة غیر واجب،و الغسل من غسل المیت متردد بین الوجوب و غیره.

و قال البویطی:إن صح الحدیث قلت بوجوبه (2)و هو ما رواه أبو هریرة عن

1- (1) عمدة الفقه لابن قدامة ص 31.

2- (2) المهذب ج 1 ص 129.

النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنه قال:من غسل میتا فلیغتسل،و من حمله فلیتوضأ،أخرجه الجماعة، و لم یذکر ابن ماجة الوضوء.

و قد وقع الاختلاف فی صحة هذا الحدیث،فحسنه الترمذی،و الحافظ ابن حجر،و قال الذهبی:هو أقوی من عدة أحادیث احتج بها الفقهاء،و ذکر الماوردی:

أن بعض أصحاب الحدیث خرج لهذا الحدیث مائة و عشرین طریقا.

و الحدیث یدل علی وجوب الغسل.و فی الباب عن علی علیه السّلام عند أحمد أنه قال:من غسل میتا فلیغتسل.و رواه أبو داود،و النسائی،و أبو یعلی و البزار، و البیهقی.

و عن مکحول أن حذیفة سأله رجل مات أبوه.فقال حذیفة اغسله،فإذا فرغت فاغتسل.

و عن عائشة عن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال:یغتسل من أربع:من الجمعة،و الجنابة و الحجامة،و غسل المیت.

و قد ورد عن أهل البیت ذلک قال الإمام الصادق علیه السّلام:من غسل میتا فلیغتسل.فقال له حریز:فمن مسه قال علیه السّلام:فلیغتسل.

و قال علیه السّلام:من مسه(أی میت الإنسان)و هو سخن فلا غسل علیه:فإذا برد علیه الغسل.إلی غیر ذلک من النصوص المتواترة فی وجوب الغسل علی من مس میتا،و هو المشهور عند الشیعة،بل قیل إنه إجماع.إلا ما ذهب إلیه السید المرتضی من القول بالاستحباب.

و لا یعارض هذه الأدلة ما ورد عن أسماء بنت عمیس أنها غسلت أبا بکر فلما فرغت قالت لمن حضرها من المهاجرین:إنی صائمة،و إن هذا یوم شدید البرد.فهل علی من غسل؟قالوا:لا،و غیر ذلک مما یمکن أن یتمسک به المانعون.

فإن حدیث أسماء بعد التسلیم بأنها تولت غسل الخلیفة دون غیرها من المهاجرین و الأنصار،و أقربائه من الصحابة،فإن ذلک لا یثبت للمانعین به شیئا،لأن الراوی له هو القاضی عبد اللّه بن أبی بکر بن عمرو بن حزم و لا یصح ذلک عنه لأنه ولد سنة 65 من الهجرة،و کانت هذه القضیة سنة 13 من الهجرة أی سنة وفاة أبی بکر

فكيف تصح روايته عن أسماء بنت عميس و هو لم يولد بعد!!!و القضية قبل ولادته باثنتين و خمسين سنة.

و حديث أسماء هو عمدة ما فى الباب،و هو كما ترى من عدم الصحة على ما فيه من موهنات أخرى.

و الحاصل أن بعضهم حمل أحاديث الباب على المعنى المجازى،لما فيه من الجمع بين الأدلة بوجه مستحسن عندهم،و هو الاستحباب،و به قال مالک و أصحاب الشافعى (1)،و الحنابلة.

و قال أبو حنيفة و أصحابه:إنه لا يجب و لا يستحب،لحديث(لا غسل عليكم من غسل الميت).كما أخرجه البيهقى عن ابن عباس،و لم يرفعه إلى النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،و لا حجة فى ذلک،و لا يصلح لصرف تلک الأحاديث الصحيحة عن معناها الحقيقى، و هو الوجوب،و لو حملها على الاستحباب كغيره لكان أليق.

و على كل حال:فإن مس ميتة الإنسان توجب الغسل على الماس،اختيارا كان المس أم لا،و سواء كان صغيرا أم كبيرا،و كذلک يجب الغسل بمس القطعة المبانة من الحى أو الميت،إذا كانت مشتملة على العظم دون الخالية منه،و دون العظم المجرد من الحى هذا هو المشهور عند الشيعة (2).

و هم يعتبرون مس الميت كحكم الحدث الأصغر فيمنع من الأعمال التى يشترط فيها الوضوء فقط،فيجوز لمن عليه غسل المس دخول المساجد،و المكث فيها، و قراءة العزائم،و لا يجوز مس كتابة القرآن و نحوها،مما لا يجوز للمحدث.

الصلاة على الميت :

أما الصلاة على الميت فقد وقع الخلاف بين الشيعة و غيرهم من المذاهب فى عدد التكبيرات،إذ الشيعة يوجبون خمس تكبيرات.و غيرهم يراها أربعا،كما اختلفت المذاهب فيما بينها فى قراءة الفاتحة فى الأولى،كما ذهب الشافعى لذلک، و به قالت الحنابلة.

1- (1) نيل الأوطار ج 1 ص 238.

2- (2) غاية المنتهى ج 1 ص 48.

أما المالكية و الحنفية فهم يتفقون مع الشيعة فى عدم وجوب قراءة الفاتحة،إذ لم يثبت ذلک بأثر صحيح.

أما التكبيرات فإن الشيعة يخالفون جميع المذاهب فى وجوب الخمس،لأن ذلک هو الثابت من فعل النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،و أهل بيته،و كثير من أصحابه،كابن عباس، و أبى ذر،و زيد بن أرقم،و حذيفة اليمانى و غيرهم.

و كبر زيد بن أرقم على جنازة خمس تكبيرات،فسألوه فقال:كان رسول اللّه يكبرها.رواه مسلم و الترمذى و أبو داود و النسائى.

و صلى حذيفة على جنازة فكبر خمسا،ثم التفت فقال:ما نسيت،و لا و همت،و لكن كبرت كما كبر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،صلى على جنازة فكبر خمسا.رواه أحمد.

و روى ابن المنذر عن ابن مسعود:أنه صلى على جنازة رجل من بنى أسد، فكبر خمسا.

و غير ذلک من الآثار الدالة على تعين الخمس،مضافا لما روى عن أهل البيت عليهم السّلام فى ذلک.

و أما ما يروى من أن عمر بن الخطاب هو الذى جمع الناس على أربع تكبيرات،لاختلاف الناس فى ذلک،كما رواه الطحاوى فى معانى الآثار (1)،فهذا شىء لا يمكن الركون إليه،لعدم الثقة بالراوى و جهله أولا،و بتنزيه عمر عن إحداث فريضة لم تكن على عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،إذ ليس له حق التشريع،و لو فعل فلا يجب اتباعه،لأن ذلک من وظيفة النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فنحن نتبع ما ورد عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،دون سواه.و لم يرد عنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ذلک و سيأتى تفصيل صلاة الميت فى كتاب الصلاة و نلفت أنظار القراء الكرام إلى ما افتراه بعض الكتّاب على الشيعة،بأن صلاة الميت عندهم تختلف عدد ركعاتها عليه،تبعا لمكانته،و هذا شىء لم يقل به أحد منهم،و إجماعهم على وجوب خمس تكبيرات،كما ذكرنا و ما يأتى تفصيله.

1- (1) معانى الآثار ج 1 ص 288.

و إنما اختلاف عدد الركعات عند غيرهم،و لكن أولئک الكتاب لم يراعوا الصدق،و لم يحتفظوا بأمانة التاريخ،فويل لهم مما كسبت أيديهم من افتراء فى القول،و كذب فى النقل،و ويل لهم مما يكتبون،بدون تثبت و عن غير دراية،و قد أشرنا لهذا القول من قبل.

أما الصلاة على الغائب فذهب الشيعة إلى عدم جوازها،و وافقهم الحنفية و المالكية،و ستأتى الإشارة لذلک إن شاء اللّه تعالى.هذا ما يتعلق به الكلام فى هذا الباب،و قد أعرضنا عن كثير من المسائل خشية الإطالة إذ الاستقصاء ليس من شرط هذا الكتاب.

التيمم

اشارة

و هو فى اللغة القصد،يقال يممت فلانا أى قصدته.و منه قول الشاعر:

تيممتكم لما فقدت أولى النهى و من لم يجد ماء تيمم بالترب

و فى الشرع:قصد الصعيد الطاهر،و استعماله بصفة مخصوصة،لإزالة الحدث،أو أنه:مسح الوجه و اليدين بالصعيد،و قيل:إيصال التراب إلى الوجه و اليدين بشرائط مخصوصة،و قيل غير ذلک.

و قد أجمع المسلمون على مشروعية التيمم فى الجملة.لقوله تعالى: فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً .

و اختلفوا فى مسوغاته و كيفيته،هل هو بدل عن الطهارة الكبرى و الصغرى؟أم عن الصغرى فقط؟و فى صفة الصعيد الذى يتيمم به،و هل النية شرط فيه أم لا؟و هل يصح قبل دخول الوقت أم لا؟و هل هو رافع أم مبيح؟إلى غير ذلک مما يطول الكلام فيه و نقتصر هنا على بيان مسوغاته و كيفيته.

مسوغاته:

اتفقت المذاهب الإسلامية على أن عدم وجدان الماء،أو عدم التمكن من الوصول إليه،أو حصول الضرر فى تحصيله أو استعماله مسوغ للتيمم.

و اختلفوا فى وجوب الطلب لفاقد الماء،فمنهم من لم يحدد مقداره،فذهب

مالک أنه لا یحد بحد.و قال:إنه کل ما یشق علی المسافر طلبه،و الخروج إلیه و إن خرج فاته أصحابه،و المشهور من مذهبه أن طلب الماء شرط فی صحة التیمم،و به قال أبو حنیفة (1).

و قال الشافعی:یجب الطلب للماء بعد دخول الوقت،سواء فی رحله أو مع رفقته،فیسأل رفیقه عن الماء،فإن بذله لزمه قبوله فإنه لا منة علیه،و کیفیة الطلب أن ینظر عن یمینه،و شماله،و أمامه،و وراءه،فإن کان بین یدیه حائل من جبل أو غیره صعده (2).

و قال الحنفیة:بوجوب الطلب علی فاقد الماء فی المصر مطلقا،ظن قربه أو لم یظن،أما إذا کان مسافرا فإن ظن قربه منه بمسافة أقل من میل وجب علیه.

و قال الکاسانی:و الأصح أنه قدر ما لا یضر بنفسه و رفقته بالانتظار.و نقل عن أبی یوسف أنه قال:إن کان الماء بحیث لو ذهب إلیه لا تنقطع عنه جلبة العیر، و یحس بأصواتهم و أصوات الدواب.إلی آخر ما هنالک من الاختلاف عند الحنفیة فی تحدیث الطلب (3).

و الحنابلة یذهبون:إلی وجوب مطلق الطلب،و هو شرط فی جواز التیمم،فلا یجوز التیمم حتی یطلب الماء فی رحله،و رفقته،و ما قرب منه،فإن بذل له أو بیع بزیادة یسیرة علی مثله لا یجحف بماله لزمه قبوله،و إن علم بماء لزمه قصده،ما لم یخف عن نفسه و ماله،و لم یفت الوقت (4)و خالفهم الشافعی فقال:لا یلزمه شراؤه بزیادة یسیرة و لا کثیرة لذلک (5).

و بهذا یظهر أن المذاهب تتفق مع الشیعة فی وجوب الطلب،و هو الفحص عن الماء إلی الیأس أو ضیق الوقت،و إذا کان فی مفازة فیکفی الطلب عندهم مقدار غلوة سهم فی الأرض الحزنة،و غلوة سهمین فی الأرض السهلة.فی الجوانب الأربع،

1- (1) المنتقی ج 1 ص 110.
2- (2) المهذب للشیرازی ج 1 ص 34.
3- (3) بدائع الصنائع للکاسانی ج 1 ص 46.
4- (4) الهادی أو عمدة الحازم ص 13.
5- (5) المغنی لابن قدامة ج 1 ص 241.

بشرط وجود الماء فی الجمیع،و إلا اختص الطلب بما یحصل الرجاء به،و بشرط عدم الخوف فی الطلب،علی النفس،أو العرض،أو المال.

و ذهب الشیعة أیضا إلی أن وجدان المقدار من الماء غیر الکافی للغسل أو الوضوء کعدمه،فیجب التیمم،و وافقهم الحنفیة و المالکیة فی ذلک.

و ذهبت الشافعیة و الحنابلة إلی وجوب استعمال ما تیسر له منه،فی بعض أعضاء طهارته،ثم یتیمم عن الباقی.

و الحنابلة و الشافعیة یتفقون مع الشیعة بأن حصول المنة و الهوان فی استیهاب الماء مسوغ للتیمم (1).

و اتفقوا علی أن خوف الضرر من استعمال الماء مسوغ للتیمم کمن یخاف حدوث المرض أو بطء البرء من استعماله.

و کیف کان فإن مسوغات التیمم عند الشیعة سبعة،و هی عدم ما یکفیه من الماء لوضوئه أو غسله،و عدم التمکن من الوصول إلی الماء لعجز أو خوف علی نفسه أو ماله أو عرضه،و منه ما لو کان الماء فی إناء مغصوب،و أن یکون هناک واجب یتعین صرف الماء فیه علی نحو لا یقوم غیر الماء مقامه،مثل إزالة الخبث،و ضیق الوقت عن تحصیل الماء أو عن استعماله بحیث یلزم من الوضوء وقوع الصلاة أو بعضها خارج الوقت،و تحصیل الماء علی الاستیهاب الموجب للذلة و الهوان،أو شرائه بثمن یضر بحاله،و خوف الضرر من استعمال الماء بحدوث مرض أو زیادته أو بطئه، و خوف العطش علی نفسه أو علی نفس محترمة.

و إذا لخصنا موارد الخلاف فإنا نجد أن المذاهب تتفق کلها فی بعض المسوغات و تختلف فی البعض الآخر،و کذلک خلافهم مع الشیعة مرة و اتفاقهم أخری، لاختلاف الآثار الواردة و المبانی العامة.

کیفیته:

اتفق المسلمون علی أن الواجب فی التیمم هو مسح الوجه و الیدین،و لکنهم اختلفوا فی کیفیة المسح،هل یمسح الوجه کله أم بعضه؟و هل تمسح الیدان کلها إلی

1- (1) انظر المهذب ج 1 ص 34 و المغنی لابن قدامة ج 1 ص 240.

المرافق كما فى الوضوء،أم يكفى مسـح الكف؟كما أنهم اختلفوا فى عـدد الضـربات هل تكفى الواحدة أم الاثنتان أو ثلاث؟ و لا بد لنا هنا من الوقوف على كيفية التيمم عند المذاهب،لنعرف مدى الخلاف بينهم.

الشيعة:

قالوا بأن كيفية التيمم:أن يضـرب بيديه على الأرض دفعة واحدة،و أن يكون بباطنهما،ثم يمسح بهما جميعا تمام جبهته،و جبينه من قصاص الشـعر إلى الحاجبين،و إلى طرف الأنف الأعلى المتصل بالجبهة،ثم مسح تمام ظاهر الكف اليمنى من الزند إلى أطراف الأصابع،ثم مسح تمام ظاهر الكف اليسرى كذلك بباطن الكف اليمنى.

الحنفية:

و عند الحنفية:وضع اليدين على الأرض ثم يرفعهما و ينفضـهما،و يمسح بهما وجهه،ثم يضع يديه ثانية على الأرض،ثم يرفعهما فينفضهما ثم يمسح بهما كفيه و ذراعيه من المرفقين (1).

المالكية:

و عند المالكية:أن التيمم ضـربة للوجه،و ضربة لليدين،يمسحهما إلى المرفقين،و فى رواية أن فرض اليدين مسحهما إلى الكوعين (2)و هما طرف الزندين مما يلى الإبهام،و فسره فى العشماوية:بأنه مفصل الكف من الساعد.

الشافعية:

و عند الشافعية:التيمم مسح الوجه و اليدين مع المرفقين بضـربتين أو بأكثر.قال الشـيرازى:و الدليل عليه حديث أبى أمامة و ابن عمر رضـى اللّه تعالى عنهما:أن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال:التيمم ضربتان ضربة للوجه،و ضربة لليدين.

1- (1) المبسوط ج 1 ص 106. [1]

2- (2) المنتقى ج 1 ص 114.

و حكى بعض أصحابنا عن الشافعى رحمه اللّه قال فى القديم:التيمم ضربتان:

ضربة للوجه،و ضربة للكفين (1).

و فى المنهاج أن الضرب مستحب،بل يكفى عندهم نقل التراب مع النية (2).

و قال النووى عن الشافعى:إنه يكفى مسح اليدين إلى الكوعين،و هما طرف الزندين،و رجحه فى شرح المهذب،و التنقيح،و قال فى الكفاية:إنه الذى يتعين ترجيحه 3.

الحنابلة:

و عند الحنابلة:التيمم مسح الوجه و اللحية،حتى مسترسلها،لا ما تحت الشعر و مسح يديه إلى كوعيه (3).

و قال الخرقى:و التيمم ضربة واحدة،يضرب بيديه على الصعيد الطيب و هو التراب،فيمسح بهما وجهه و كفيه.

و قال ابن قدامة:و يجب مسح اليدين إلى الموضع الذى يقطع منه السارق.أومأ أحمد إلى هذا لما سئل عن التيمم فأومأ إلى كفه،و لم يجاوزه،و قال:قال اللّه تعالى:

وَ السّارِقُ وَ السّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُما من أين تقطع يد السارق أ ليس من هاهنا؟و أشار إلى الرسغ (4).

و الجميع يشترطون فيه النية،حتى الحنفية الذين لم يقولوا بوجوبها للوضوء و الغسل،و لم يخالف منهم إلا زفر،فإنه ذهب إلى أن النية ليست بشرط،و الشيعة يشترطون الترتيب و الموالاة و وافقهم المالكية،فإنهم يشترطونهما (5).

و الشافعية يقولون بالموالاة للضرورة فتجب على صاحب الضرورة،و تندب لغيره،و فى قول للشافعى:إنها تجب،أما الترتيب فيوجبونه بين الوجه و اليدين،

1- (1) المهذب ج 1 ص 32.

2- ((2)و(3)) مغنى المحتاج للنووى ج 1 ص 99.

3- (4) غاية المنتهى ج 1 ص 62.

4- (5) المغنى ج 1 ص 255.

5- (6) الجوهرة ص 99.

فيلزم تقديم الوجه،و أما اليدان فيستحب أن يقدم اليمنى على اليسرى (1).

و الحنابلة يشترطون الترتيب و الموالاة (2).أما الحنفية فإن الترتيب و الموالاة عندهم من السنن لا الواجبات (3).

الاتفاق و الافتراق بين المذاهب:

رأينا فيما سبق من عرض صور كيفية التيمم أن الأكثر يتفق مع مذهب الشيعة فيه،فالمالكية لهم قول فى الاكتفاء بمسح الكفين،و كذلك الشافعية على قول للشافعى،و أما الحنابلة فلا خلاف عندهم فى وجوب مسح الكفين كما هو مذهب الشيعة.

نعم الحنفية يرون لزوم مسح اليدين إلى المرفقين،و لهم قول بالاكتفاء بمسح أكثر الوجه و اليدين،و صحح هذا القول عندهم،و روى الحسن عن أبى حنيفة:أن مسح الكفين إلى الرسغين،و روى الحسن أيضا عن أبى حنيفة:أن الاستيعاب ليس بواجب،حتى لو ترك شيئا أقل من الربع من الوجه أو اليدين-الواجب مسحهما فى التيمم-يجزيه (4).

و قد احتج القائلون بمسح اليد إلى المرفقين بالآية،و بالقياس على الوضوء بأن المرفقين ممسوحين فى التيمم فكان فى الوضوء كغسله،و لأن اللّه تعالى أمر بمسح الأيدى فلا يجوز التقيد بالرسغ-و هو ما بين الساعد و الكف-إلا بدليل،و قد قام دليل التقيد بالمرفق،و يعنون بالدليل المقيد بالمرفقين ما روى عن ابن عمر مرفوعا بلفظ:

ضربة للوجه و ضربة لليدين إلى المرفقين.

و قد تكلم الحفاظ فيه،و طعنوا فى إسناده،لأن فيه على بن ضبيان.و قال أبو زرعة:حديث باطل.و قال أحمد بن حنبل:ليس بصحيح عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إنما هو عن ابن عمر.و هو عندهم حديث منكر.

و قال الخطابى:(هذا الحديث)يرويه محمد بن ثابت،و هو ضعيف.

1- (1) السراج الوهاج ص 28 و المهذب ج 1 ص 35.

2- (2) الروض الندى ص 63.

3- (3) مراقى الفلاح ص 37.

4- (4) مراقى الفلاح ص 36 و المنية ص 32.

و قال ابن عبد البر:لم يروه غير محمد بن ثابت و به يعرف،و من أجله ضعف عندهم،و هو عندهم حديث منكر (1).

و كـل ما ورد عن ابن عمرو و غيره بتعين المسـح إلى المرفقين،فهو غير صـحيح كما نص عليه كثير من الحفاظ،و قـد ناقش ابن حزم جميع الأحاديث التى احتج بها القائلون بالمسح إلى المرفقين (2)بما لا حاجة إلى التعرض لذكرها.

و قال الحافظ بن حجر فى الفتـح:لم يصـح فى التيمم سوى حديث أبى جهم و حديث عمار،فحديث أبى جهم ورد مجملا،و حديث عمار يذكر الكفين فى الصحيحين.

و قال الشافعى:و مما يقوى الاقتصار على الوجه و الكفين أن عمارا ما كان يفتى بعد النبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم إلا بالوجه و الكفين ضربة واحدة،و راوى الحديث أعرف بالمراد به من غيره،و لا سيما الصحابى المجتهد (3).

و باختصـار إن عمـدة مـا يسـتدل به القائلون بوجوب المسـح إلى المرافق،هو القياس على الأمر بالوضوء،و حـديث ابن عمر و حـديث أبى أمامة.و حديث الأسلع بأن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال:فى المسح إلى المرفقين.

و كـل هـذا لا حجـة فيه:أما حـديث ابن عمر فقـد مرت مناقشـته،و أما حـديث أبى أمامـة الباهلى يرويه جعفر بن الزبير عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبى أمامة.

فـإن جعفر بن الزبير ضـعيف الحـديث،بل وضاع كما قال ابن حيان:إنه يروى عن القاسم و غيره أشـياء موضوعـة،و روى عن القاسم عن أبى أمامة نسخة موضوعة.

و قال شعبة:إنه وضع على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أربعمائة حديث كذب.و كذلك أن بين الراوى جعفر بن الزبير و بين محمد بن عمر اليافعى رجل مجهول لم يسمه الراوى،بل قال:عن رجل عن جعفر بن الزبير.

و أما حديث الأسـلع(أو الأشـلع)كما فى مبسوط السرخسى فهو حديث لا يصح الاحتجاج به،لأن سنده مظلم،و كلهم لا يعتمد عليهم،و لأن أسلع شخصية يصعب

1- (1) المغنى لابن قدامة ج 1 ص 245 و نيل الأوطار للشوكانى ج 1 ص 264.

2- (2) انظر المحلى ج 1 ص 146-152.

3- (3) تعليقة كتاب تيسير الوصول ج 3 ص 98 و نيل الأوطار ج 1 ص 265.

إثباتها.إذ لم يعرفه حفاظ الحديث،و لم يرو عنه أحد إلا هذا الحديث رواه البيهقى، و مثل هذا لا يصح أن يعتمد عليه،و لا تصلح هذه الأحاديث الواهية لمعارضة حديث عمار بن ياسر رضوان اللّه عليه،الذى نص الحفاظ على أنه أصح حديث فى هذا الباب،أخرجه أصحاب الصحاح،و فيه أن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال له فى صفة التيمم:إنما يكفيك هكذا و ضرب النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بكفه الأرض،و نفخ فيهما،ثم مسح بهما وجهه و كفيه.

و فى لفظ:إنما يكفيك أن تضرب بكفيك فى التراب،ثم تنفخ فيهما،ثم تمسح بهما وجهك و كفيك إلى الرسغين.رواه الدار قطنى بهذا اللفظ.

و قد أجاب الحنابلة على تلك الأحاديث التى جاء فيها ذكر المسح إلى المرفقين كما أشرنا لبعضه و قال الخلال:الأحاديث فى ذلك ضعيفة جدا لم يرو منها أصحاب السنن إلا حديث ابن عمر.

و أجاب ابن قدامة عن الاحتجاج بالقياس بقوله:و قياسهم ينتقض بالتيمم عن الغسل الواجب،فإنه ينقص عن المبدل،و كذلك فى الوضوء فإن فيه أربعة أعضاء و التيمم فى عضوين،و كذا نقول فى الوجه فإنه لا يجب مسح ما تحت الشعور الخفيفة،و لا المضمضة و الاستنشاق (1).

و أما استيعاب الوجه فى المسح كما ذهب إليه الشافعية،و الحنابلة،و المالكية فإنهم و إن قالوا بوجوب مسح الوجه كله،إلا أنهم لا يوجبون تتبع غضون الوجه، و الحنفية يجوزون الإخلال ببعض الوجه،و كل ذلك لا يتفق مع مذهب الشيعة،فإنهم أوجبوا مسح الجبين و استدلوا بالآية الكريمة: فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ و إن الباء للتبعيض،و لو لم تكن للتبعيض لبطلت فائدتها،إذ لا وجه للزيادة إذ الزيادة لها لغو، و إلغاؤها خلاف الأصل،و أنها استعملت مع الفعل المتعدى للتبعيض،فيكون حقيقة فيه، دفعا للمجاز كما فى قوله تعالى: وَ امْسَحُوا بِرُؤُسِكُمْ فى آية الوضوء،و الكل قائل بأن الواجب فى المسح هو البعض،كما روى عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و دلّت الأخبار الواردة عن أهل البيت فى ذلك؛روى عن الإمام الباقر و الصادق عليهم السّلام رواه الصدوق و غيره،فى بيان كيفية التيمم،و فيه مسح الجبهة كما هو منصوص عليه مما يطول بيانه.

1- (1) المغنى لابن قدامة ج 1 ص 246.

مع أنّ أخبار التيمم لا تعين كيفية مسح الوجه هل كله أو بعضه؟و الآية دالة على التبعيض،و إنكار ورود الباء للتبعيض غير مسموع بشهادة أكثر اللغويين.

و قد قال الإمام الباقر عليه السّلام:إن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم وصف التيمم لعمار بقوله:أ فلا صنعت كذا ثم أهوى بيديه إلى الأرض،فوضعهما على الصعيد،ثم مسح جبينيه بأصابعه،و كفيه إحداهما بالأخرى (1).

و عن زرارة أنه سأل الإمام الصادق عليه السّلام عن التيمم؟فضرب عليه السّلام بيديه الأرض،ثم رفعهما،و مسح بهما جبهته مرة واحدة.

كما أن العرف يقضى بأن إطلاق الوجه على الجبهة مستعمل كما يقال:سجد وجهى،و ضرب وجهه.

و قال بعض الصحابة لرجل رآه ساجدا و قد جعل بينه و بين التراب وقاية:ترب وجهك (2).و لا يريد منه إلا وضع الجبهة على الأرض.

و الخلاصة:أن الخلاف فى أن مطلق الوجه و اليدين هل يدل على مجموع العضو فيلزم تعميمه بالمسح؟و إذا كان كذلك لزم مسح اليد إلى الإبط كما ذهب إليه الزهرى،و يلزم مسح الوجه حتى مواضع التحذيف،و هم لم يلتزموا بذلك لأن اليد عند الإطلاق تحمل على الكفين،كما فى آية السرقة،و قيل إن اليد حقيقة فى الكف، و فيما فوقها مجاز (3)و قياس التيمم باطل كما تقدم،و قد ذهب الظاهرية إلى مسح الجبهة فى التيمم،و ما روى عن على أنه كان يرى مسح الذراعين فى التيمم فذلك غير صحيح.

ما يصح التيمم به:

اتفقت المذاهب الإسلامية على أن التيمم لا يصح إلا بالصعيد،للآية الكريمة، و الصعيد هو التراب أو وجه الأرض،لقوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:جعلت لى الأرض مسجدا و طهورا.

1- (1) من لا يحضره الفقيه ج 1 ص 57.

2- (2) القياس فى الشرع الإسلامى لابن تيمية ص 19.

3- (3) العدة لابن دقيق العيد ج 1 ص 439.

و قـد وقع الخلاف بينهم فی مصـداق اسم الأرض،هل هو التراب فقط؟أم هو ما تصاعـد علیها حتی الثلج و المعادن؟ أما الشـیعة فقالوا:إنه التراب أو ما یصدق علیه اسم الأرض سواء أ کان ترابا،أم رملا أم جصا،مدرا أم صخرا أملس،و قیل منه أرض الجص و النورة قبل الإحراق.

و لا یجوز التیمم بما لا یصـدق علیه اسم الأرض،و إن کان منها کالرماد و النبات، و المعادن کالعقیق و الفیروزج و نحوهما.مما لا یسـمی أرضا و یشترط فیما یتیمم به أن یکون طاهرا،و مباحا،إذ لا یصح بالنجس و لا بالمغصوب.

أمـا الحنفیـة فجوزوا التیمم بکل جنس الأرض:کالتراب و الرمل و الزرنیـخ و النورة و المغرة-و هی الطین الأحمر-و الکحل و الکبریت،و الفیروزج و العقیق و سـائر أحجـار المعادن،و الملـح الجبلی (1)علی خلاـف من أبی یوسف،فـإنه لاـ یجوز إلاـ بالتراب و الرمل.ثم رجع (2)إلی قول الشافعی بأنه لا یجوز إلا بالتراب.

و أجاز أبو حنیفة التیمم علی حجر الجدران،و إن لم یکن فیها غبار،و لصاحبه محمد قولان،الجواز و عدمه.

أما المالکیـة:فیجوزونه علی التراب و الرمل و الحجارة،و کل ما تصاعد من الأرض من ثلج أو سـبخة،أو خضـخاض-و هو المکان المترب تبله الأمطار-و بکل معدن غیر نقد و جوهر،إلا أن لا یجد غیرهما و أدرکته الصلاة،و هو بأرض ذهب و فضة أو جوهر فیتیمم علیها (3).

و ذهب مالک إلی أن العادم للماء و التراب کالمریض و المربوط لا تجب علیه الصلاة،لأنه محدث لا یقدر علی رفع الحدث،و لا استباحة الصلاة بالتیمم،فلم تکن علیه صلاة کالحائض (4).

و الشافعیة یجوزونه بکل تراب طاهر حتی ما یداوی به(کالأرمنی و السبخ الذی

1- (1) مراقی الفلاح ص 36 و المبسوط ج 1 ص 108. [1]

2- (2) المبسوط ج 1 ص 108. [2]

3- (3) المنتقی ج 1 ص 116 و العشماویة ص 97.

4- (4) المنتقی ج 1 ص 116.

لا ينبت)و بالرمل إن كان فيه غبار و لا يصح عندهم بالمعدن،و لا بسحاقة الخزف، و لا المختلط بدقيق و نحوه،و قيل:إن قل الخليط جاز.

و الحنابلة يوافقون الشافعية فى اشتراط التراب،و يجوزونه فى الرمل على رواية عن أحمد،و رواية أخرى أنه جوز التيمم فى السبخة و الرمل،و إذا اضطر يجوز له فى النورة و الجص (1).

و قال ابن قدامة:فإن ضرب بيده على لبد أو ثوب أو جوالق،أو برذعة،أو فى شعير فعلق يده غبار فتيمم به جاز.نص على ذلک أحمد (2).

و انفرد أحمد بن حنبل بأن المكلف إذا كانت على بدنه نجاسة و عجز عن غسلها لعدم الماء تيمم لها و صلى،إذ هو بمنزلة الجنب عنده.

نواقضه:

ينتقض التيمم بما ينتقض به الوضوء و الغسل من الأحداث،كما أنه ينتقض بوجدان الماء،أو زوال العذر.

هذا هو المشهور عند الشيعة و ادعى عليه الإجماع،و قد اتفقت المذاهب على ذلک،و اختلفوا فى جواز الجمع بين صلاتين بتيمم واحد،فأجازه الحنفية و منعه المالكية،و قال الحنابلة:فى جواز الجمع فى القضاء لا فى الأداء،و زاد بعض الحنابلة:أن التيمم ينتقض بظن وجود الماء،و قال بعضهم:إنه لو نزع عمامة،أو خفا يجوز المسح عليه فإنه يبطل تيممه.نص على ذلک أحمد،لأنه مبطل للوضوء فأبطل التيمم كسائر المبطلات.

هذا ما يتعلق الكلام به حول التيمم،و ما وقع الاختلاف فى بعض مسائله،و ما اتفقوا عليه،و قد تركنا كثيرا من ذلک،لضيق المجال و الاكتفاء بالبعض عن ذكر الجميع.

1- (1) نهاية المحتاج ج 1 ص 273.

2- (2) المغنى لابن قدامة.

النجاسات

اشارة

النجاسة:فی اللغة اسم لکل مستقذر.و فی الشرع:قذارة خاصة،اقتضت وجوب هجرها فی موارد مخصوصة،فکل جسم خلی عن تلک القذارة فهو طاهر.

و قیل هی الخبث.و هی کل عین مستقذرة شرعا،إلی غیر ذلک من التعریفات.

و الفقهاء یقسمون النجاسة إلی قسمین:نجاسة حکمیة،و نجاسة حقیقیة.

و کذلک قسموا الطهارة إلی قسمین:طهارة حکمیة،و هی الطهارة عن الحدث و قد مر الکلام حولها،و القسم الثانی هی الطهارة الحقیقیة،و هی الطهارة عن الخبث.

و الحنفیة قسموا النجاسة إلی قسمین:غلیظة باعتبار قلة المعفو عنها کالخمر، و الدم المسفوح،و لحم المیتة و إهابها قبل دبغه،و خفیفة:باعتبار کثرة المعفو عنه منها بما لیس فی المغلظة:کبول الفرس،و بول ما یؤکل لحمه من النعم الأهلیة، و الوحشیة کالغنم،و الغزال...الخ.

و علی کل حال:فإن الخلاف بین المذاهب فی تعداد النجاسة،و کیفیة تطهیرها،و ما یتعلق بذلک أمر یطول البحث باستقصائه،و لیس من غرضنا ذلک، و لکننا نستعرض المهم فی الموضوع من بیان الخلاف بین المذاهب أجمع،بعد أن نعطی صورة موجزة عما ذهب إلیه الشیعة فی تعداد الأعیان النجسة،ثم نستعرض ما اتفقوا علیه و ما اختلفوا فیه لنعرف مدی الخلاف فی ذلک،بدون إطالة و استقصاء.

الشیعة:

قالوا بأن عدد الأعیان النجسة اثنا عشر:

1-2:البول و الغائط من کل حیوان له نفس سائلة محرم الأکل،بالأصل أو بالعارض کالجلال،و الموطوء،أما ما لا نفس له سائلة،أو کان محلل الأکل فلیس کذلک.

3-المنی من کل حیوان له نفس سائلة،و إن حل أکل لحمه.

4-المیتة من الحیوان ذی النفس السائلة إنسانا کان أو غیره،حل أکله أو حرم، بریا أم بحریا،و کذا أجزاؤها المبانة منها.

5-الدم من ذی النفس،أما ما لا نفس له سائلة کدم السمک و نحوه فدمه طاهر.

7-6:الكلب،و الخنزير البريان،بجميع أجزائهما،و فضلاتهما، و رطوباتهما.

8-الخمر بل كل مسكر مائع بالأصالة بجميع أقسامه.

9-الفقاع و هو شراب مخصوص متخذ من الشعير.

10-الكافر بجميع أقسامه:أصليا أو مرتدا،فطريا أو مليا،حربيا أو ذميا، كتابيا أو غير كتابى،جاحدا للّه تعالى أو لوحدانيته أو لرسالة محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

12-11-عرق الجنب من الحرام،و عرق الإبل الجلالة.

هذه هى الأعيان النجسة التى يجب الاجتناب عنها،و إزالة ما يتعلق منها فى بدن المصلى أو ثيابه أو مكانه،كما يأتى بيانه إن شاء اللّه تعالى،و عن الأوانى لاستعمالها،فيما يتوقف على طهارتها،و عن المساجد و الأماكن المقدسة و المصاحف المشرفة.

كما أنه عفى عما دون الدرهم البغلى،من غير الدماء الثلاثة،كما عفى عن دم الجرح و القرح مع السيلان،دائما أو فى وقت لا يسع زمن فواته الصلاة،كما سيأتى بيانه.

البول و الغائط:

اتفق الجميع على نجاستهما من الآدمى،و اختلفوا فيما عداه من الحيوانات، فقال أبو حنيفة بنجاسة بول الفرس،و بول ما يؤكل لحمه من النعم الأهلية و الوحشية كالغنم و الغزال نجاسة مخففة.

أما روث الخيل،و البغال،و الحمير،و خثى البقر،و بعر الغنم،فإن نجاسته مغلظة عنده،و قد ذهب صاحبه محمد بن الحسن الشيبانى إلى خلافه فقال بطهارتها (1).

و قال زفر:ما يؤكل لحمه طاهر،و هو قول مالک،و قال:إنه وقود أهل المدينة،يستعملونه استعمال الحطب.

1- (1) مراقى الفلاح ص 47،و بدائع الصنائع ج 1 ص 62.

و الشافعية يذهبون إلى ترادف الروث و العذرة،أى نجاسة الروث و لو من طير مأكول اللحم أو مما لا نفس له سائلة أو سمک أو جراد (1).

و كيف كان فقد اختلفوا فى تطهير الثوب و البدن من البول على مذاهب:

1-وجوب غسله عن الثوب و البدن،إلاـ إذا كان بول رضيع ذكرا،أما الأنثى فلا،فإن الأول يكتفى بالنضح عليه،و به قال عطاء و الزهرى،و أحمد و إسحاق بن راهويه.

2-يكفى النضح فيهما،و هو مذهب الأوزاعى،و حكى ذلک عن مالک و الشافعى.

3-هما سواء فى وجوب الغسل،و لا فرق بين الصبى و الجارية،و هو مذهب الحنفية و المالكية.

المنى:

اختلفت فيه أقوال أئمة المذاهب،فأبو حنيفة و مالک يذهبان لنجاسته،إلا أنهما اختلفا فى تطهيره،فأبو حنيفة يذهب إلى وجوب غسله،رطبا،و فركه يابسا،و ذهب مالک إلى غسله مطلقا.

و قال الشافعى:بطهارة المنى مطلقا،إلا من الكلب و الخنزير،و الأصح من مذهب أحمد بن حنبل أنه طاهر من الآدمى.

و تمسک من ذهب إلى طهارة المنى مطلقا،بل جعله بعضهم هو مثل البصاق بلا فرق،بما روى عن عائشة:أنها كانت تفرک المنى عن ثوب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،و فى خبر آخر أنها قالت:لقد رأيتنى و إنى لأحكه عن ثوب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بأظفرى،إلى غير ذلک مما هو منقول من فعل عائشة،و لا يدل ذلک على الالتزام به،فإنه لم يكن من فعل النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،أو تقريره.

و نحن ننزه مقامه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من ذلک،بأن تبقى قذارة المنى فى ثوبه حتى تجمد، و هو المنزه،و الكامل بكل صفاته و كيف يكون ذلک منه؟!و هو صلّى اللّه عليه و آله و سلّم تنام عيناه و لا ينام قلبه.

1- (1) نهاية المحتاج ج 1 ص 224.

و قد ورد عنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أحاديث تنص على نجاسة المنى،و وجوب غسله.

و من الافتراء الواضح أيضا نسبة ذلک للإمام على عليه السّلام و أنه قائل بطهارة المنى،كيف و قد استفاض عنه عليه السّلام و عن أبنائه الطاهرين ما يدل على النجاسة للمنى!!!و هذا الباب واسع،و قد أفضى الأمر إلى تلفيق حجج واهية،و أقوال فارغة، كتكريم ابن آدم،و بكون الآدمى طاهر كما يدعى من يقول بالطهارة فى محاورة خيالية بين القائل بها و بين المانع كما ذكرها ابن القيم الجوزية (1).

الكلب و الخنزير:

الكلب نجس عند الشافعى و أحمد،و يغسل الإناء من ولوغه فيه سبعا لنجاسته.

و قال أبو حنيفة بنجاسته و لم يشترط فى غسل ما تنجس به بل جعل غسله كغسل سائر النجاسات،فإذا غلب على ظنه زواله و لو بغسله كفى،و إلا فلا بد من غسله حتى يغلب على ظنه إزالة نجاسته و لو عشرين مرة.

و قال مالک هو لا ينجس ما ولغ فيه لكن يغسل الإناء تعبدا.

و الخنزير حكمه كالكلب،و ذهب الشافعى إلى وجوب غسل ما تنجس به سبعا،و قال أبو حنيفة:يغسل كسائر النجاسات.

قال ابن تيمية:أما الكلب فللعلماء فيه ثلاثة أقوال معروفة:

أحدها:أنه نجس كله حتى شعره كقول الشافعى و أحمد فى إحدى الروايتين عنه.

و الثانى:أنه طاهر حتى ريقه كقول مالک و المشهور عنه.

و الثالث:أن ريقه نجس و أن شعره طاهر،و هذا مذهب أبى حنيفة و المشهور عنه،و هو الرواية الأخرى عن أحمد،و المشهور عنه و له(أى لأحمد)فى الشعور الثابتة على محل نجس ثلاث روايات أحدها:أن جميعها طاهر حتى شعر الكلب و الخنزير،و هو اختيار أبى بكر عبد العزيز،و الثانية:أن جميعها نجس كقول الشافعى،و الثالثة:أن شعر الميتة إن كانت طاهرة فى الحياة كالشاة،و الفأرة،طاهر، و شعر ما هو نجس فى حال الحياة نجس كالكلب و الخنزير و هى المنصورة عند أكثر

1- (1) بدائع الفوائد لابن القيم ج 3 ص 119-126.

أصحابه،و القول الراجح هو طهارة الشعور كلها،الكلب و الخنزير و غيرهما،بخلاف الريق،و على هذا فإذا كان شعر الكلب رطبا و أصاب ثوب الإنسان فلا شيء عليه، كما هو مذهب جمهور الفقهاء أبى حنيفة،و مالک،و أحمد فى إحدى الروايتين عنه (1).

أما الشيعة فيذهبون إلى أن الكلب نجس بالإجماع سواء،أكان شعره أم ريقه، و يوجبون غسل ما ولغ به من الأوانى ثلاث مرات،أوّلهن بالتراب،و كذلک الخنزير نجاسته إجماعا،و يجب غسل الإناء الذى شرب منه بالماء سبع مرات.

و الشافعى يوافقهم فى القول بالنجاسة مطلقا،و كذلک أحمد فى إحدى الروايتين،و كذلک أبو حنيفة إلا أنه يختلف فى القول بطهارة شعره كما نقل عنه.

أما مالک فخالف فى هذه المسألة جميع فقهاء الإسلام،و ذهب إلى أن الكلب طاهر كله،و سيأتى بقية الكلام حول رأيه فى الكلب،و حرمة أكله و حليته.

الميتة:

نجسة من كل ماله نفس سائلة،حلالا كان أو حراما،و كذا أجزاؤها المبانة منها،و إن كانت صغارا،عدا ما لا تحله الحياة فيها،كالصوف و الشعر و الوبر و العظم و القرن و المنقار،و المخالب و الريش و السن،و البيضة إذا اكتست القشر الأعلى.

و هذا الحكم مجمع عليه عند الشيعة،تبعا لأئمة أهل البيت عليهم السّلام،فلا يجوز استعمال جلد الميتة و لا يطهرها شيء،و الروايات بذلک عنهم عليهم السّلام كثيرة،و هذا هو رأى عمر بن الخطاب و ابنه عبد اللّه و عائشة،و من أئمة المذاهب أحمد بن حنبل فى أشهر الروايتين عنه،و مالک ابن أنس؛و نجاسة جلد الميتة وقع فيه الاختلاف و الأقوال فيه سبعة.

الأول:قول الشيعة و هو أن نجاسته عينية لا تطهر.

الثانى:أن جميع جلود الميتة تطهر بالدباغ ظاهرا و باطنا إلا الكلب و الخنزير و المتولد من أحدهما،و هو مذهب الشافعى.

1- (1) فتاوى ابن تيمية ج 1 ص 37-38.

الثالث:يطهر بالدباغ جلد مأكول اللحم،و لا يطهر غيره،و هو مذهب الأوزاعى و ابن المبارک و أبى ثور و إسحاق بن راهويه.

الرابع:يطهر جلود جميع الميتات بالـدباغ إلا الخنزير،و هو مـذهب أبى حنيفـة، و خالفه أبو يوسف فقال:إن جلـد الخنزير يطهر بالدباغـة و يجوز بيعه،و الانتفاع به و الصلاة فيه (1).

الخـامس:يطهر بالـدباغ جميع جلود الميتـة،من غير فرق بين مأكول اللحم و غيره إلا أنه يطهر ظاهره دون باطنه،فلا ينتفع به فى المائعات،و هذا محكى عن مالک أيضا.

السادس:يطهر الجميع حتى الكلب و الخنزير ظاهرا و باطنا قال النووى:و هو مذهب داود و أهل الظاهر.و حكى عن أبى يوسف كما تقدم.

السابع:أنه ينتفع بجلود الميتة و إن لـم تدبغ،و يجوز استعمالها فى المائعات و اليابسات قال النووى:و هو مذهب الزهرى.

أجزاء الميتة:

اختلفوا فى أجزاء الميتة مما تحله الحياة و ما لا تحله،و من حيث الطهارة و النجاسة.

ذهب الشافعية إلى نجاسة جميع أجزاء الميتة من لحم و عظم و شعر و وبر و غير ذلک،لأنها تحلها الحياة عندهم.

و خالفهم بقية المذاهب،و لكنهم اختلفوا فى تحديد ما لا تحله الحياة.

قـال الحنفيـة:إن لحم الميتـة و جلـدها ممـا تحله الحيـاة فهما نجسان،بخلاف نحو العظم و الظفر و المنقار و المخلب،و الحافر و القرن و الظلف و الشعر،إلا شعر الخنزير،فإنها طاهرة لأنها لا تحلها الحياة،و استدلوا بقوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى شاة ميمونة:

(إنما حرم أكلها)و فى رواية«لحمها».

و المالكية قالوا:إن أجزاء الميتة التى تحلها الحياة هى اللحم و الجلد و العظم

1- (1) غنية المتملى ص 74.

و العصب و نحوها،بخلاف الشعر و الصوف و الوبر و زغب الريش،فإنها لا تحلها الحياة فليست بنجسة.

و الحنابلـة قالوا:إن جميع أجزاء الميتة تحلها الحياة،فهى نجسة إلا الصوف و الشـعر و الوبر،فإنها طاهرة،و اسـتدلوا على طهارتها بعموم قوله تعالى: وَ مِنْ أَصْوافِها وَ أَوْبارِها وَ أَشْعارِها أَثاثاً وَ مَتاعاً إِلى حِينٍ لأن ظاهرها يعم حالتى الحياة و الموت، و قيس الريش على هذه الثلاثة.

الخارج من الميتة:

و اختلفت المذاهب فى الخارج من الميتة من لبن و أنفحة و بيض رقيق القشر أو غليظه،و نحو ذلک مما كان طاهرا فى حال الحياة.

الحنفيـة قالوا:بطهارة ذلک،و هو قول أبى حنيفة،و خالفه أبو يوسف و محمد فذهبا إلى نجاسة اللبن و الإنفحة و قالا:إن اللبن و إن كان طاهرا فى ذاته لكنه صار نجسا لمجاورة النجس (1).

الشافعية قالوا:بنجاسة اللبن فى الضـرع،لأنه ملاق للنجاسة فهو كاللبن فى إناء نجس،و أما البيض فى الدجاجة الميتة فإن لم يتصـلب قشـره فهو كاللبن نجس،و إن تصلب قشره لم ينجس،كما لو وقعت بيضة فى شىء نجس (2).

الدم:

قال الشيعة:إن الدم من كل نفس سائلة نجس.إنسانا أو غيره،كبيرا أو صغيرا،قليلا كان الدم أو كثيرا.

و أما دم ما لا نفس له كالسمک و البق و البرغوث،فطاهر،و يستثنى من الحيوان الدم المتخلف فى الذبيحة بعد خروج المتعارف،سواء أ كان فى العروق أم اللحم أو فى القلب أو الكبد.

و وافقهم الحنفية فى ذلک،إلا ما يروى عن أبى يوسف بأنه قال:بنجاسة دم السمک و به أخذ الشافعى،اعتبارا بسائر الدماء.و عند أبى حنيفة،و محمد أنه طاهر

1- (1) بدائع الصنائع ج 1 ص 63.

2- (2) المهذب ج 1 ص 21.

لإجماع الأمة على إباحة تناوله مع دمه،و كذلک الدم الذی یبقی فی العروق،و اللحم بعد الذبح طاهر عندهما،لأنه لیس بمسفوح.

و قال أبو یوسف إنه معفو عنه فی الأکل دون الثیاب،لتعذر الاحتراز منه فی الأکل،و إمکانه فی الثوب (1).

و اختلفت الروایات عن مالک بن أنس فمنها أنه قال:ما قل من الدم أو کثر یغسل.و محصلها أن الدماء علی ثلاثة أضرب:ضرب یسیر جدا لا یجب غسله،و لا یمنع الصلاة،کقدر الأنملة و الدرهم،و ضرب ثالث کثیر جدا یجب غسله،و یمنع الصلاة (2).

و عن الشافعی القول بنجاسة الدم مطلقا،و فی دم السمک وجهان:الطهارة لأنه لیس أکثر من المیتة،و میتة السمک طاهرة،و القول الثانی أنه نجس کغیره (3).

و أما الدم الباقی علی اللحم و عظامه من المذکاة فنجس.معفو عنه کما قال الحلیمی.و معلوم أن العفو لا ینافی النجاسة (4)و کذلک الکبد،و الطحال طاهران، لأنهما لیسا بدم مسفوح.

و الحنابلة یقولون:بنجاسة جمیع الدم إلا الکبد و الطحال و دم السمک،و أما دم البق و البراغیث و الذباب ففیها روایتان؛و الدم المتخلف فی اللحم معفو عنه،و إن علت حمرته القدر (5).

و علی کل حال:فإنهم اتفقوا علی نجاسة دم الحیوان و اختلفوا فی دم السمک، فمن قائل بطهارته،لأنه دم غیر مسفوح،و لا میتة داخلة تحت عموم التحریم،جعل دمه کذلک،فأخرجه عن النجاسة کما أخرج المیتة قیاسا علیها.

و منهم من قال بنجاسته علی أصل الدماء،و هو قول مالک فی المدونة.و کذلک اختلفوا فی العفو عن قلیل الدماء،فمن قائل بالعفو عن القلیل،و من قائل بأن الدماء

1- (1) بدائع الصنائع ج 1 ص 61 و مراقی الفلاح ص 46.

2- (2) المنتقی ج 1 ص 43.

3- (3) المهذب ج 1 ص 47.

4- (4) نهایة المحتاج ج 1 ص 222.

5- (5) زوائد الکافی و المحرر علی المقنع ص 13.

حكمها واحد،لورود تحريم الدم مطلقا،و لم يفرق بين المسفوح و هو الكثير،و غير المسفوح و هو القليل،و لكل حجته و دليله،مما لا حاجة إلى التعرض لها.

الخمر:

و هو نجس بإجماع المسلمين،و إن الشيعة زادوا قيدا فقالوا:بنجاسة الخمر بل نجاسة كل مسكر مائع بالأصالة،و إن صار جامدا بالعرض فإنه يبقى على النجاسة،أما الجامد كالبنج و إن غلى و صار مائعا بالعارض،فهو طاهر و إن كان حراما.و بهذا قالت الشافعية؛و أن البنج و الأفيون و الحشيشة و إن أسكرت فإنها طاهرة عندهم.

قال شهاب الدين المعروف بالشافعى الصغير:و ما وقع فى بعض شروح الحاوى من نجاسة الحشيشة غلط،و قد صرح فى المجموع:بأن البنج و الحشيش طاهران مسكران... (1).

هذا ما دعت الحاجة إلى عرضه من مسائل الأعيان النجسة باختصار دون استقصاء.أما المطهرات فهى:

المطهرات

اشارة

اتفق المسلمون على وجوب إزالة النجاسة عن الأبدان و الثياب و المساجد،كما اتفقوا على أن الماء الطاهر يزيل النجاسة،و اختلفوا فيما سوى ذلك،كما اختلفوا فى كيفية التطهير.أما غير الماء من المائعات فاتفقت الشيعة،و المالكية،و الشافعية، و الحنابلة،بأنها لا تزيل حدثا و لا خبثا.

و أما الحنفية فقال أبو حنيفة:إن المائعات الطاهرة تحصل بها الطهارة الحقيقية.

و هى الطهارة من الخبث.و وافقه أبو يوسف،و لكنه فرّق بين الثوب و البدن،فقال:

بأنها تطهر الثوب دون البدن.و خالف فى ذلك محمد بن الحسن و زفر.

و روى عن أبى يوسف:أنه لو غسل الدم عن الثوب بدهن أو سمن أو زيت، حتى ذهب أثره جاز.

فعلى قول أبى حنيفة و هو القول الأصح عندهم أن إزالة النجاسة تحصل بكل

1- (1) نهاية المحتاج للرملى ج 1 ص 218.

مزيل من المائع الطاهر،كالخل،و ماء الورد،و المستخرج من البقول.كما عدوا من المطهرات بغير الماء أن الثدى إذا تنجس بالقىء فطهارته رضاع الولد له ثلاث مرات، و فم شارب الخمر يطهر بترديد ريقه و بلعه،و لحس الأصبع ثلاثا إذا تنجس.

و الخلاصة أنه لا خلاف فى تطهير الماء المطلق للنجاسة،أما المائع فالخلاف فيه من الحنفية،و هم كما ترى فى الخلاف حوله.أما بقية المطهرات فقد وقع الخلاف بين المذاهب كما و كيفا،فلنستعرض ذكر بعضها بموجز من البيان.

الشمس:

تطهر الأرض و كل ما لا ينقل من الأبنية،و ما اتصل بها من أخشاب و أعتاب و أبواب و أوتاد،و كذلك الأشجار و الثمار و النبات،و الخضروات و إن حان قطفها.

هذا هو المشهور عند الشيعة بشرط زوال عين النجاسة،و أن يكون المحل رطبا عند إشراق الشمس عليه،فإذا كانت الأرض النجسة جافة و أريد تطهيرها صب عليها الماء،فإذا يبس بالشمس عرفا و إن شاركها غيرها فى الجملة من ريح و غيره طهرت الأرض.

و الحنفية يكتفون بتطهير الأرض بمطلق الجفاف،و ذهاب أثر النجاسة عن الأرض بالشمس و غيرها (1).

و لكن عبارة القدورى تومى إلى اشتراط الجفاف بالشمس إذ يقول:و إذا أصابت الأرض نجاسة فجفت بالشمس،و ذهب أثرها جازت الصلاة على مكانها،و لا يجوز التيمم عليها (2).

و قال الفرغانى فى الهداية:و إن أصابت الأرض نجاسة فجفت بالشمس و ذهب أثرها،جازت الصلاة على مكانها.

و استدل بقوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:(زكاة الأرض يبسها)و قال:و إنما لا يجوز التيمم بها،لأن طهارة الصعيد ثبتت شرطا بنص الكتاب،فلا تتأدى بما ثبت بالحديث (3).

1- (1) حاشية ابن عابدين ج 1 ص 319 و مراقى الفلاح ص 50.

2- (2) القدورى ص 11.

3- (3) الهداية فى شرح بداية المبتدى ج 1 ص 21.

و بهذا يظهر أنهم يتفقون مع الشيعة فى الجملة بتطهير الشمس للأرض النجسة.

أما المالكية و الشافعية،و الحنابلة فإنهم يخالفون فى ذلک.

الأرض:

تطهر باطن القدم و ما توقى به كالنعل و الخف و نحوهما،بالمسح بها،أو المشى عليها،بشرط زوال عين النجاسة بهما،هذا هو المشهور عند الشيعة،أو المجمع عليه.

و وافقهم الحنفية فى الجملة،قال الفرغانى:إذا أصاب الخف نجاسة لها جرم كالروث،و العذرة،و الدم،و المنى فجفت فدلكه فى الأرض جاز،و هذا استحسان، و قال محمد رحمه اللّه لا يجوز و هو القياس إلا فى المنى...الخ (1).

و أما الشافعية فإنهم يفصلون فيما إذا كانت النجاسة رطبة لم تطهرها الأرض و إن كانت يابسة فللشافعى قولان:ففى الإملاء و القديم أن الأرض تطهر أسفل الخف، مستدلا بما روى عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنه قال:إذا جاء أحدكم إلى المسجد فلينظر نعليه، فإن كان بهما خبث فليمسحه فى الأرض.ثم ليصلّ فيهما (2)و لأنه تتكرر فيه النجاسة، فأجزأ فيه المسح كموضع الاستنجاء.

أما المالكية فقد اختلفت الروايات عن مالک فى الخف،فقال مرة إنه يغسل.

و جعله مثل الثوب المتنجس،و مرة قال:إنه لا يغسل،لأنه لا يمكن حفظ الخف من النجاسات،و يمكن حفظ الثوب،مع أن الخف يفسده الغسل (3).

أما الحنابلة فعن أحمد روايتان:إحداهما يجب غسل الخف،و الثانية يجزى دلكه فى الأرض (4).

الاستحالة:

ذهب الشيعة إلى أن الاستحالة إلى جسم آخر هو مطهر،فيطهر الجسم النجس

1- (1) الهداية ج 1 ص 21.

2- (2) المهذب ج 1 ص 50.

3- (3) المنتقى للباجى ج 1 ص 45.

4- (4) عمدة الحازم ص 14.

أو المتنجس إذا أحالته النار رمادا،أو دخانا أو بخارا،إلى غير ذلک مما ذکر فی کتب الفقه و الحنفية يوافقونهم فی کثير من موارد الاستحالة.

و الشافعية قالوا:لا يطهر شیء من النجاسات بالاستحالة إلا شيئان:أحدهما جلد الميتة إذا دبغ.و الثانی الخمر إذا استحالت بنفسها خلاّ فتطهر بذلک.

و وافقهم الحنابلة فی استحالة الخمر خلا،لأن عندهم لا يطهر شیء من النجاسات بالاستحالة إلا الخمر إذا انقلبت بنفسها،فإن خللت قيل تطهر و قيل لا تطهر.

و الجميع يتفقون مع الشيعة فی طهارة الخمر إذا انقلبت خلا.

الدبغ:

و من المطهرات الدبغ فإذا دبغت جلود الميتة بالدباغة الحقيقية کالعفص، و قشور الرمان،أو بالدباغة الحکمية کالتتريب و التشميس،و الإلقاء فی الهواء،فهی طاهرة عند الحنفية،و تجوز بها الصلاة إلا جلد الخنزير،و جلد الآدمی (1).

و وافقهم الشافعية فی طهارة الدبغ فی الجملة إلا أن لهم شرائط فی ذلک، و تطهر الجلود کلها بالدباغ عندهم إلا الکلب و الخنزير.

و اتفقت الشيعة،و الحنابلة،و المالکية،على عدم تطهير جلد الميتة بالدباغ، و کذلک الذکاة مطهرة للجلود و إن کانت غير مأکولة اللحم عند الحنفية.

أما عند مالک إن الذکاة تعمل إلا فی الخنزير.

و عنده:إذا ذکی سبع أو کلب فجلده طاهر يجوز بيعه،و الوضوء فيه و إن لم يدبغ،أما اللحم فعند أبی حنيفة إنه محرم و عند مالک إنه مکروه.

الفرک و المسح:

ذهبت الحنفية إلى نجاسة المنی و لکنه يطهر الثوب منه بالفرک إن کان يابسا، و يغسل إن کان رطبا.

أما إذا کان على البدن فهل يکون حکمه حکم الثوب؛المروی عن أبی حنيفة

1- (1) مراقی الفلاح ص 50.

أنه لا يطهر البدن من المنى إلا بالغسل،و ذكر الكرخى إنه يطهر (1).

و الحنفية لعلهم ينفردون بهذا الحكم عن جميع المذاهب.فالشيعة يحكمون بنجاسة المنى،و لا يطهر إلا بالماء و وافقهم المالكية.

و أما الشافعية فقالوا:بطهارة منى الآدمى،و وافقهم الظاهرية،و البصاق مثله فلا تجب إزالته (2).

أما الحنابلة فإنهم يوافقون الشافعية فى طهارة المنى،و إن اختلفت الروايات فيه،قال الخرقى:و المنى طاهر.و هى الرواية الصحيحة اختارها الوالد السعيد و شيخه،و بها قال الشافعى و داود،لما روى ابن عباس رضى اللّه عنه قال:سئل النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عن المنى يصيب الثوب؟فقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:إنما هو بمنزلة البصاق و المخاط، و إنما يكفيك أن تمسحه بخرقة أو اذخرة.

و نقل الخرقى رواية أخرى:إنه كالدم.و قال أبو بكر فى(التنبيه)إن كان رطبا غسل،و إن كان يابسا فرك،فمتى لم يفعل و صلى فيه أعاد الصلاة،و به قال أبو حنيفة و قال مالک يغسل المنى بكل حال (3).

فالحنابلة تختلف عندهم الروايات فى المنى،و لكن العمل عندهم على أنه طاهر،و أما الفرک أو الغسل فهو اختيار أبى بكر عبد العزيز غلام الخلال،و قد أخذ بحديث عائشة إذ قالت:أمرنى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بغسل المنى من الثوب،إذا كان رطبا، و بفركه إذا كان يابسا.

و هذا الحديث غريب لا ـ أصل له كما نص عليه كثير من الحفاظ.و على كل حال:فإن الحنفية ينفردون بالتطهير بالفرک و هو عندهم من المطهرات.

و ذهب الحنفية إلى أن النجاسة إذا أصابت المرآة أو السيف اكتفى بمسحهما (4)و المروى عن مالک أن السيف يطهر بالمسح (5).

1- (1) الرحمة فى اختلاف الأئمة بهامش الميزان ج 1 ص 11.

2- (2) المحلى ج 1 ص 125.

3- (3) مسائل عبد العزيز غلام الخلال ص 16.

4- (4) مراقى الفلاح ص 47.

5- (5) المنتقى ج 1 ص 51.

و قد عد بعض الحنفية المطهرات إلى نيف و ثلاثين و جعلوا منها طهارة القطن بالندف و الحنطة المتنجسة بالقسمة،و التصرف و الأكل و غير ذلک (1).

و الخلاصة أن المذاهب تختلف فی تعداد المطهرات و کیفیة التطهیر،و عدد الأعیان النجسة،و قد تعرضنا لذکر البعض و لا یتسع الوقت لبسط الکلام فیها،کما أننا لم نتعرض لبقیة المطهرات عند الشیعة کالانتقال،و الإسلام إذ هو مطهر للکافر؛ و التبعیة کطهارة ولد الکافر لأبیه،و استبراء الحیوان الجلال،إذ الإطالة تدعو إلی اتساع الموضوع.

و سیأتی فی لباس المصلی ما له صلة بالموضوع،من حیث العفو عن قلیل النجاسة،دون کثیرها و التفصیل فی ذلک.

و سنوضح هناک آراء المذاهب فی إزالة النجاسة عن بدن المصلی و مکانه و ثوبه، هل هی واجبة أم مستحبة؟.أما ما یتعلق بهذا الباب،و ما یلحق به من الکلام حول المیاه،و أقسامها،و الأسآر و أحکامها،و غیر ذلک فقد ترکناه اختصارا.

و لننتقل الآن إلی البحث عن الصلاة،و واجباتها،و شروطها،و أحکامها و ما یتعلق بالموضوع من اتفاق،و افتراق بین المذاهب،و سنبذل قدر الاستطاعة جهدنا، فی بیان أهم المسائل و من اللّه نستمد التوفیق.

1- (1) حاشیة ابن عابدین ج 1 ص 323.

الصّلاة

اشارة

فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ كانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتاباً مَوْقُوتاً [النساء:103] قُلْ لِعِبادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاةَ وَ يُنْفِقُوا مِمّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وَ عَلانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَ لا خِلالٌ [إبراهيم:31] اُتْلُ ما أُوحِيَ إِلَيْکَ مِنَ الْكِتابِ وَ أَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَ الْمُنْكَرِ وَ لَذِكْرُ اللّهِ أَكْبَرُ وَ اللّهُ يَعْلَمُ ما تَصْنَعُونَ [العنكبوت:45]

تمهيد:

الصلاة لغة:هى الدعاء.و الصلاة من اللّه تعالى الرحمة.و شرعا:الأعمال المخصوصة بأداء المكتوبة أو الفرض.

الصلاة أحب الأعمال إلى اللّه تعالى،و هى أول ما ينظر فيه من عمل ابن آدم، فإن قبلت قبل ما سواها و إن ردت رد ما سواها.

و قد ورد فى الحث عليها و الاهتمام بها،و تهويل العقوبة على تركها من الشارع المقدس أخبار سارت مسار الأمثال،و اشتهرت فى الأمة شهرة عظيمة كقوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:

«الصلاة عمود الدين إن قبلت قبل ما سواها و إن ردت رد ما سواها».

و قوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«ليس منى من استخف بصلاته».

و قوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«لا ينال شفاعتى من استخف بصلاته».

و قوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«لا تضيعوا صلاتكم فإن من ضيع صلاته حشر مع قارون و هامان و كان حقا على اللّه أن يدخله النار مع المنافقين».

و كان صلّى اللّه عليه و آله و سلّم جالسا فى المسجد إذ دخل رجل فقام فصلى فلم يتم ركوعه و سجوده فقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:نقر كنقر الغراب!؟لئن مات هذا و هكذا صلاته ليموتن على غير دينى.

إلى كثير من وصاياه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و هى أكثر من أن تحصى.

و لما دنت الوفاة من الإمام الصادق عليه السّلام قال:أجمعوا كل من بينى و بينه قرابة،فلما اجتمعوا نظر إليهم و قال:إياكم و ظلم من لا يجد عليكم ناصرا إلا اللّه، و إن شفاعتنا لا تنال مستخفا بالصلاة.

و لا يمكن حصر ما ورد من الحث عليها و وجوب المحافظة على إقامتها من الشارع المقدس فى الكتاب العزيز و سنة الرسول الأعظم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و لم يكن ذلك الاهتمام منه و شدة تأكيده لإقامة هذا الفرض و أداء هذا الواجب لغرض يعود إليه أو غاية تؤول بالمنفعة عليه،و إنما هو لما يعلم فيه من ضمان الصالح العام،و حفظ نظام الجامعة البشرية إذ وصفها تعالى:بأنها تنهى عن الفحشاء و المنكر،إذ هى صلة بين العبد و بين ربه،و مناجاة المخلوق لخالقه،اعترافا له بالعبودية،و إقرارا له بالوحدانية،و تقربا إليه تعالى،و طلبا لمرضاته،و خوفا من سخطه و عقوبته،و كل ذلك يمنح الإنسان قوة الإرادة،و رسوخ ملكة ضبط النفس عن الرذائل،و ترويضها على الفضائل،و ناهيك بما وراء ذلك من النفع العام،و ما يؤول إليه من الصلاح بما ينفع المجتمع فى النظام،و عدم الجرأة على ارتكاب ما حرمه تعالى؛و كم بها من فوائد و فوائد،فهى سعادة فى الدنيا بحصول الكرامة،لأنها تؤدى إلى التقوى: إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللّهِ أَتْقاكُمْ و سعادة فى الأخرى،لأنها تؤدى إلى دخول الجنة و نعم أجر المتقين.

و لا خلاف بين جميع المسلمين فى وجوب الصلاة،و إن جحودها مخرج عن الإسلام.

و اختلفوا فى حكم تارك الصلاة لا عن إنكار و جحود،بل تهاونا و كسلا،

فذهب مالک،و الشافعی،إلی أنه لا یکفر بل یفسق،فإن تاب و إلا قتلناه بالسیف حدا،کالزانی المحصن.

و ذهب جماعة من السلف إلی أنه یکفر،و هو إحدی الروایتین عن أحمد بن حنبل،و به قال عبد اللّه بن المبارک،و إسحاق بن راهویه.

و ذهب أبو حنیفة و جماعة من أهل الکوفة،و المزنی صاحب الشافعی:إلی أنه لا یکفر،و لا یقتل بل یعزر و یحبس حتی یصلی،و لکل منهم دلیل لما یذهب إلیه فی احتجاجه،و لا مجال لذکر ما احتج کل طرف لما ذهب إلیه و تجد ذلک مفصلا فی محله من کتب الفقه (1).

و الشیعة یحکمون بکفر کل من أنکر ضروریة من ضروریات الدین،أما المتهاون و المتکاسل فقیل یؤدب بما یراه الحاکم الشرعی،فإن ارتدع.و إلا أدبه ثانیة فإن تاب، و إلا أدبه ثالثا،و إن استمر قتل فی الرابعة (2).

و قال المحقق الحلی:من ترک الصلاة مستحلا قتل إن کان ولد مسلما، و استتیب إن کان أسلم عن کفر،فإن امتنع قتل،فإن ادعی الشبهة المحتملة درئ عنه الحد.

و إن لم یکن مستحلا عزر،فإن عاد ثانیة عزر و إن عاد ثالثة قتل،و قیل بل یقتل فی الرابعة (3).

و علی کل حال:فلا خلاف بین المسلمین فی وجوب الصلاة علی کل مکلف، جامع لشرائط التکلیف.

کما لا خلاف بینهم فی أن الصلاة تنقسم إلی واجبة و مندوبة،و الصلاة الواجبة أهمها الفرائض الخمس الیومیة،و أنها أحد الأرکان التی بنی علیها الإسلام،و لنقتصر هنا علی ذکر بعض ما یتعلق بها من شروط و مقدمات،و جملة من أحکامها،مقتصرین علی أهم المسائل المتعلقة بها،و ما وقع فیها من اتفاق و افتراق بین المذهب الشیعی

1- (1) نیل الأوطار للشوکانی،و المحلی لابن حزم،و البدایة للقرطبی،و رحمة الأمة لعبد الرحمن الدمشقی و غیرها.

2- (2) کشف الغطاء للشیخ جعفر الکبیر تحت عنوان حکم تارک الصلاة.

3- (3) شرائع الإسلام ج 1 ص 35. [1]

و المذاهب الأخرى،أو بينها أنفسـها،و نحن نحاول الاختصار فى الموضوع قدر الاستطاعة إلا بما تدعو الحاجة إليه فى الإطالة للموضوع،و من اللّه نطلب التوفيق، و هو المسدد للصواب.

الصلاة اليومية:

اشارة

لا خلاف بين المسـلمين بأن الصـلاة اليومية خمس،و عدد ركعاتها سبع عشرة ركعة:الصبح ركعتان،و الظهر أربع،و العصر مثلها،و المغرب ثلاث،و العشاء أربع، و فى السفر و الخوف تقصر الرباعية،فتكون ركعتين.

هـذا ما عليه إجماع المسـلمين فى عدد الركعات الواجبة،و الفرائض الموقتة إلا ما ينقل عن أبى حنيفة،بأنه يذهب إلى وجوب صـلاة الوتر،و هى عنـده ثلاث ركعات بتسـليمة واحدة،و وقتها بعد العشاء مرتبة عليها،فلا يجوز إتيانها قبل العشاء و آخر وقتها ما لم يطلع الفجر،و يجب فيها القنوت،و لا تتعين فيها قراءة،و بهذا تصبح الصلاة اليومية الواجبة عند أبى حنيفة ست صلوات.

و قـد اختلفت الروايات عنه فى ذلک،فروى يوسف بن خالـد عن أبى حنيفـة أنه قال:صـلاة الوتر واجبـة.و روى حماد بن زيد عنه بأنه قال:إن الوتر فرض.و فرق بين الواجب و الفرض عندهم.

و روى نوح بن أبى مريم:أن أبا حنيفة قال:بأن الوتر سنة و بهذا أخذ أبو يوسف،و قال:إن الوتر سنة مؤكدة آكد من سائر السنن الموقتة.

و أما سـقوط الركعتين فى السـفر فعليه إجماع المسـلمين،إلا أن الخلاف واقع فى كيفية سـقوطهما،هل هو على سبيل الوجوب كما تقول به الشيعة،و وافقهم أبو حنيفة و جميع الكوفيين،أم أنه غير واجب،بل هو على سبيل الرخصة لا العزيمة كما سنذكره؟.

الوقت:

لا خلاف بين المسـلمين بأن الصـلاة موقتة بأوقات لا يجوز للمكلف تقديمها عليها،أو تأخيرها عنها،و إنما الخلاف بينهم فى تحديد أوقات الصلاة بعد دخولها

و اختصاص كل فريضة بوقتها،و اشتراكها مع اللاحقة فيه،و بيان الوقت المختار و غيره.

و قد أجمعوا على أن أول وقت الظهر إذا زالت الشمس،و أنها تجب بالزوال وجوبا موسعا إلى أن يدخل وقت العصر،فيتعين الوقت لها.

أما أبو حنيفة فإنه قال:بأن وجوب صلاة الظهر متعلق بآخر وقتها،و أن الصلاة فى أوله نفل (1).

و كذلك اتفقوا على أن وقت المغرب من غروب الشمس،و يدخل وقت العشاء بعد مضى وقت المغرب،على اختلاف فى تعيين وقت العصر و العشاء من حيث الاختيار و الاضطرار.

فالشيعة يقولون:وقت الظهرين من الزوال إلى المغرب،و تختص الظهر من أوله بمقدار أدائها،كما تختص العصر من آخره كذلك.

و وقت العشاءين للمختار من المغرب إلى نصف الليل،و تختص المغرب من أوله بمقدار أدائها،كما يختص العشاء بآخره كذلك،و ما بين الزوال و الغروب،و بين الغروب و نصف الليل،وقت مشترك.

و وقت صلاة الصبح:من طلوع الفجر الصادق،إلى طلوع الشمس.

و المراد من اختصاص الظهر و المغرب بأول الوقت،أنه لو صلى العصر أو العشاء عمدا أو سهوا،بأول الوقت فلا تصح صلاته،كما أنه إذا صلى الظهر و لم يبق من الوقت إلا مقدار أربع ركعات،فلا تصح صلاته،بل يصلى العصر،و يقضى الظهر.كما أنه يجب الترتيب بأن يقدم الظهر على العصر،و المغرب على العشاء.

و بقية المذاهب يتفقون مع الشيعة فى كثير من أحكام الوقت،و يختلفون فى بعضها.

فالحنفية يرون أن أول وقت الظهر زوال الشمس و آخر وقتها إذا صار ظل شىء مثليه سوى فى الزوال.

و خالف أبو يوسف و محمد فقالا:إذا صار الظل مثله،و أول وقت العصر إذا

1- (1) رحمة الأمة فى اختلاف الأئمة ج 1 ص 47.

خرج وقت الظهر على القولين،و أول وقت المغرب إذا غربت الشمس،و آخر وقتها ما لم يغب الشفق،و اختلف أبو حنيفة و صاحباه فى الشفق،فقال أبو حنيفة:إن الشفق هو البياض الذى فى الأفق بعد الحمرة،و قال صاحباه هو الحمرة.

و أول وقت العشاء إذا غاب الشفق،و آخر وقتها ما لم يطلع الفجر (1).

و المالكية و الحنابلة يجعلون لكل صلاة وقتين،وقت اختيار و وقت اضطرار، على خلاف فى تحقيق الوقت فى زيادة الظل عند المالكية (2).

و عند الشافعية أول وقت العصر إذا صار ظل كل شىء مثله،و زاد أدنى زيادة، و آخره إذا صار ظل كل شىء مثليه،ثم يذهب وقت الاختيار و يبقى وقت الجواز و الأداء إلى غروب الشمس،و قال أبو سعيد الاصطخرى:إذا صار ظل كل شىء مثليه،فاتت الصلاة،و يكون ما بعده وقت القضاء.

و أول وقت المغرب من غروب الشمس بمقدار أدائها.

و أول وقت العشاء إذا غاب الشفق و هو الحمرة،و قال المزنى:الشفق البياض (3)كما أنه يجوز تأخير الصلاة إلى آخر الوقت.

القبلة:

استقبال القبلة شرط فى صحة الصلاة الواجبة،بإجماع المسلمين،لقوله تعالى:

فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَ حَيْثُ ما كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ [البقرة:144].

و القبلة هى الكعبة-زادها اللّه شرفا-و من كان قريبا منها،فعين الكعبة قبلته بإجماع المسلمين،أما البعيد عنها فقيل إن المسجد الحرام قبلة من فى الحرم، و الحرم من بعد عن المسجد.

و المشهور عند الشيعة أن البعيد عن الكعبة فقبلته جهتها لا عينها،لأن ذلك متعذر،و وافقهم الحنفية،و المالكية،و الحنابلة.

قال فى ملتقى الأبحر:و قبلة من بمكة عين الكعبة و من بعد جهتها،فإن جهلها

1- (1) الهداية ج 1 ص 24. [1]

2- (2) المختصر للشيخ خليل بن إسحاق ص 15.

3- (3) المهذب للشيرازى ج 1 ص 52.

و لم يجد من يسأله عنها تحرى و صلى،فإن علم بخطئه بعدها لا يعيد (1).

و قال فى الجوهرة الزكية:و استقبال القبلة و هى الكعبة البيت الحرام،فيجب استقبال عينها على من بمكة،و جهتها على من كان خارجا عنها (2).

و فى عمدة الفقه:أن المصلى إن كان قريبا من الكعبة لزمته الصلاة إلى عينها، و إن كان بعيدا فإلى جهتها،و إن خفيت القبلة فى الحضر سأل و استدل بمحاريب المسلمين،و إن أخطأ فعليه الإعادة،و إن خفيت فى السفر اجتهد و صلى،و لا إعادة عليه (3).

أما الشافعى فاشترط التوجه إلى عين الكعبة،و إن ذلک فرض كما جاء فى كتاب الأم.

و قال المزنى:إن الفرض هو الجهة،لأنه لو كان الفرض هو العين لما صحت صلاة الصف الطويل،لأن فيهم من يخرج عن العين (4).

و قال الدمياطى:يجب استقبال عين القبلة،فلا يكفى جهتها خلافا لأبى حنيفة، إلا فى حق العاجز (5).

و كيف كان فإن المذاهب أكثرها تتفق فى استقبال القبلة،و لا خلاف إلا من الشافعى،إذ اشترط استقبال العين دون الجهة،و خالفه صاحبه المزنى فى ذلک.

و أجمع العلماء على أن من ترک الاستقبال أعاد فى الوقت و خارجه،و قال أبو حنيفة:بأن من ترک الاستقبال متعمدا فوافق ذلک الكعبة،فهو كافر باللّه تعالى (6).

ستر العورة:

ستر العورة عن العيون واجب بالإجماع،و هو شرط فى صحة الصلاة إلا عند مالک فإنه قال:إنه واجب و ليس بشرط فى صحة الصلاة.

1- (1) ملتقى الأبحر للشيخ إبراهيم الحنفى ص 11.

2- (2) الجوهرة للشيخ أحمد بن تركى المالكى ص 110.

3- (3) عمدة الفقه لابن قدامة الحنبلى ص 17.

4- (4) المهذب للشيرازى ج 1 ص 67.

5- (5) الفتح المبين ج 1 ص 123.

6- (6) غنية المتملى فى شرح منية المصلى ص 113.

و اختلفوا فی تحدید العورة من الرجل و المرأة فحد العورة من الرجل عند أبی حنیفة ما بین السرة و الرکبة (1).

و عند الشافعی کذلک،إلا أن الرکبة و السرة لیستا من العورة،و من أصحابه من ذهب إلی أنهما من العورة (2).

و عن مالک و أحمد روایتان:إحداهما ما بین السرة و الرکبة،و الأخری أنهما القبل و الدبر.

و أما عورة المرأة الحرة،فقال أبو حنیفة:کلها عورة إلا الوجه،و الکفین، و القدمین (3).

و قال مالک و الشافعی:إنها کلها عورة إلا وجهها و کفیها.

و عند الحنابلة:أن الحرة جمیعها عورة إلا الوجه و فی الکفین روایتان عن أحمد.و أما الأمة فعورتها کعورة الرجل،و عن أحمد روایة أنها الفرجان فقط (4).

و قال مالک و الشافعی:إن عورة الأمة کعورة الرجل.و قال بعض أصحاب الشافعی:إن الأمة کلها عورة،إلا مواضع التقلیب،و هی التی تقلب فینظر باطنها و ظاهرها عند الشراء،و الأصح عندهم أنها ما بین السرة و الرکبة کعورة الرجل (5).

أما عند الشیعة:فعورة الرجل التی یجب سترها فی الصلاة هی عورته فی حرمة النظر.

أما المرأة فکلها عورة حتی الرأس و الشعر فیجب ستره فی الصلاة،ما عدا الوجه بالمقدار الذی یغسل فی الوضوء،و عدا الکفین إلی الزندین،و القدمین إلی الساقین،و لا بد من ستر شیء مما هو خارج عن الحدود من غیر فرق بین الحرة و الأمة،نعم لا یجب علی الأمة ستر الرأس و شعره و العنق.

و ستر العورة مع الاختیار واجب فی الصلاة و توابعها من الرکعات الاحتیاطیة

1- (1) الهدایة ج 1 ص 28. [1]

2- (2) المهذب ج 1 ص 64.

3- (3) رحمة الأمة ج 1 ص 53.

4- (4) عمدة الحازم لابن قدامة ص 18.

5- (5) منهاج الطالبیین للنووی ج 1 ص 11.

و الأجزاء المنسية،حتى مع الأمن من الناظر.

أما لباس المصلى مطلقا فيشترط فيه أمور،على خلاف بين المذاهب فى ذلک، و شروطه هى:

الطهارة:

اتفقت المذاهب الإسلامية على اشتراط الطهارة فى لباس المصلى،فلا تصح الصلاة فى النجس أو المتنجس إلا ما عفى عنه.

و قد اختلفت أقوال العلماء فى قليل النجاسات على ثلاثة أقوال:فمنهم من قال:إن قليلها و كثيرها سواء،و بهذا قال الشافعى.و قد فصل الشافعية القول فى ذلک،إذ النجاسة لا بد أن تكون من الدماء أو غيرها،فإن كانت من الدماء فلا يعفى عن قليله و كثيره إلا أن يكون دم برغوث و غيره مما يشق الاحتراز منه.

و أما غير الدم:فإن كانت النجاسة بقدر يدركه الطرف لم يعف عنه،و إن كان لا يدركه الطرف ففيه تفصيل فى العفو عنه و عدمه (1).

و القول الثانى:إن قليل النجاسات معفو عنه،و حدوده بقدر الدرهم البغلى، و بهذا قال أبو حنيفة،و عنده إذا كانت النجاسة بقدر الدرهم،و كانت متراكمة بذلک المقدار بحيث لو بسطت لعمت جميع الثوب،فإنه لا يجب غسلها (2).

و قال صاحبه محمد بن الحسن:إذا كانت النجاسة ربع الثوب فما دونه جازت به الصلاة.

و القول الثالث:إن قليل النجاسة و كثيرها سواء،إلا الدم،و مذهب الشيعة أن ما كان منه أقل من الدرهم البغلى معفو عنه،بشرط أن لا يكون دم نجس العين،أو دم حيض أو استحاضة أو نفاس،كما عفى عندهم عن دم الجروح و القروح مع السيلان، و مع ضيق الوقت،و حصول المشقة بالإزالة أو التبديل،و لا فرق بين أن يكون ذلک فى الثوب أو البدن،و وافقهم بعض الشافعية فى ذلک (3).

1- (1) المهذب للشيرازى ج 1 ص 10.

2- (2) المنتقى ج 1 ص 43.

3- (3) ضوء الشمس لأبى الهدى ج 1 ص 160.

كما عفى عن ثوب المربية للصبى،إذا لم يكن عندها غيره،بشرط غسله فى اليوم و الليلة،و لا يتعدى العفو عن نجاسة البول إلى غيره،كما أنه مختص بالثوب دون البدن،و كذلك عفى عما لا تتم به الصلاة على تفصيل فى محله.

و أما المالكية فمذهب مالک أن النجاسات قليلها و كثيرها سواء،إلا الدم،فإن قليله مخالف لكثيره،و الدماء عنده كلها سواء،دم الحوت و غيره،إلا دم الحيضة فاختلفت أقواله:فمرة أنه كسائر الدماء يعفى عن قليله،و أخرى أن قليله و كثيره سواء تجب إزالته.

و أما مقدار الدم اليسير المعفو عنه عند مالک فقيل:إنه إذا كان قدر الدرهم فلا تعاد منه الصلاة،و قيل إنه يعفى عنه إذا كان بقدر الخنصر (1).

و روى أبو طاهر عن ابن وهب:أنّ من صلى بدم حيضة،أو دم ميتة،أو بول أو رجيع،أو احتلام،فإنه يعيد أبدا.

و قد وقع الخلاف عند المالكية فى وجوب إزالة النجاسة،هل هى واجبة وجوب الفرائض،و يكون من صلى بها عامدا ذاكرا أعاد؛أم أنها من السنن،فيكون من صلى بها عامدا أثم و لا إعادة عليه.

و عند الحنابلة أن الطهارة من النجاسة فى بدن المصلى و ثوبه و موضع صلاته شرط،إلا المعفو عنها كيسير الدم و نحوه،و إن صلى و عليه نجاسة لم يكن يعلم بها، أو علم بها ثم نسيها فصلاته صحيحة،و إن علم بها فى الصلاة أزالها و بنى على صلاته (2).

الإباحة:

أن يكون مباحا،فلو صلى فى الثوب المغصوب بطلت صلاته عند الشيعة من غير فرق بين الساتر و غيره،و ما لا تتم به الصلاة و غيره بشرط العلم بالغصبية،كما لا فرق فى الغصب بين أن يكون عين المال مغصوبا أو منفعته أو تعلق فيه حق الغير.

أما الحنفية فتصح عندهم الصلاة فى الثوب المغصوب على كراهية (3).

1- (1) المصدر السابق.

2- (2) عمدة الفقه على مذهب الإمام أحمد ص 26.

3- (3) مراقى الفلاح ص 78.

و عند الشافعية أن المصلى لو أخذ الثوب قهرا من مالكه،-و إن كان لا يجوز- و صلى به صحت صلاته مع الحرمة (1).

و الحنابلة يتفقون مع الشيعة فى بطلان الصلاة بالثوب المغصوب،فإذا صلى فيه عالما ذاكرا تجب عليه الإعادة (2)و بطلان الصلاة فى الثوب المغصوب هى الرواية الصحيحة عن أحمد،و اختارها الخلال و قال:إنها صحيحة (3).

و قال ابن قدامة:و من صلى فى ثوب مغصوب أو دار مغصوبة لم تصح صلاته (4)إلا أن أحمد أجاز صلاة الجمعة فى مواضع الغصب،لأنها تختص بموضع معين،فالمنع من الصلاة فيه إذا كان غصبا يفضى إلى تعطيلها،و لهذا أجاز صلاة الجمعة خلف الخوارج و أهل البدع و الفجور (5).

الحرير:

لا خلاف بين المسلمين فى حرمة لبس الحرير للرجال دون النساء،أما الصلاة فقد اختلفوا فى صحتها.

فذهب الشيعة إلى الحرمة مطلقا فى الصلاة و غيرها،فلو صلى الرجل فيه لا تصح صلاته.نعم يباح لهم لبسه فى الحرب أو للضرورة،كالبرد و المرض حتى فى الصلاة.

و وافقهم الحنابلة فى إحدى الروايتين عن أحمد بن حنبل و نقل صاحب البحر عنه أنه قال:من لم يجد غير الحرير يصلى عاريا.

و قد نص صاحب الروض الندى على لزوم إعادة الصلاة فى الحرير،أو الذهب،و الفضة على الرجال (6).

و أما الحنفية و الشافعية:فإنهم لا يرون بطلان الصلاة فيه،و لكن يكره ذلك،

1- (1) حاشية إعانة الطالبين للدمياطى ج 1 ص 114.

2- (2) الروض الندى ص 65.

3- (3) مسائل عبد العزيز الخلال ص 78.

4- (4) عمدة الفقه ص 16.

5- (5) المغنى لابن قدامة ج 1 ص 588.

6- (6) الروض الندى ص 65.

لأن التحريم عندهم لا يختص بالصلاة،و لا النهى يعود إليها،فلم يمنع الصحة،كما لو غسل ثوبه من النجاسة بماء مغصوب،و كما لو صلى و عليه عمامة مغصوبة.

أما مالک فإن الصلاة لا تجزى عنده بالحرير،و تلزم الإعادة فى الوقت كما نقل ذلک الحافظ ابن حجر فى الفتح.

و على كل حال:فإن الأخبار صريحة بحرمة لبس الحرير على الرجال.

روى عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنه قال:«أحل الذهب و الحرير للإناث من أمتى،و حرم على ذكورها».

رواه أحمد و النسائى و الترمذى،و صححه و أخرجه أبو داود و الحاكم.

و ذكر ابن حازم الهمدانى أخبار جواز لبس الحرير،ثم ذكر الأخبار الناسخة لها،و منها قوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:إنه ليس من لباس المتقين (1).

و جاء عن أهل البيت صلوات اللّه عليهم النهى عن الصلاة فى الحرير حتى القلنسوة.

أما لبسه للمرض فاختلفت فيه أقوال العلماء:فعن الشافعية أنه يجوز إذا كان فى السفر،لحديث أنس:أن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم رخص لعبد الرحمن بن عوف و الزبير فى لبس الحرير لحكة كانت فيهما،رواه الجماعة،أو للقمل كما عند الترمذى،و أن ذلک فى غزاة لهما.

و منع مالک بن أنس ذلک مطلقا،و عن أحمد روايتان الجوز للمرض.

الذهب:

لا- تصح الصلاة فى الذهب عند الشيعة لباسا أو لبسا،كالخاتم حلة أو حلية خالصا أو ممزوجا،تمت الصلاة به أو لا تتم كالزر و نحوه،فجميع ذلک مبطل لصلاة الرجال دون النساء،و أما لبسه فى غير الصلاة حرام يؤثمون عليه.

قال الإمام الصادق عليه السّلام:جعل اللّه الذهب فى الدنيا زينة النساء فحرم على الرجال لبسه و الصلاة فيه.

1- (1) كتاب الاعتبار لابن حزم ص 230.

أما بقيـة المـذاهب فلا خلاف عنـدهم فى حرمـة لبسه،و إنما الخلاف فى الصـلاة فيه،قال ابن قدامة:و لا نعلم فى تحريم ذلک على الرجال اختلافا إلا لعارض أو عذر.قال ابن عبد البر:هذا إجماع،فإن صلى فيه فالحكم فيه كالصلاة فى الثوب الغصب (1).

الميتة:

و يشترط فى لبـاس المصـلى أن لاـ يكون من أجزاء الميتـة التى تحلهـا الحياة،كما مر بيان ذلک و الخلاف فيه،و الشـيعة يحكمون ببطلان الصلاة فى شىء منها و كذلک الكلام فيما لا يؤكل لحمه،و لا فرق بين ذى النفس و غيره و بين ما تحله الحياة من أجزائه و غيره.

المكان:

يشترط فى مكان المصـلى أن يكون مباحا،فلا تجوز الصلاة فى المكان المغصوب،عينا أو منفعة،للغاصب و لا لغيره،ممن علم بالغصب،و إن صلى عامدا عالما و الحال هذه كانت صلاته باطلة.

هذا ما عليه إجماع الشيعة.و وقع الخلاف بين المذاهب فى هذه المسألة:

فمنهم من قال بالبطلان،و منهم من قال بالصحة.مع الكراهة و عدمها.

و قال فى البحر الزخار:الشـرط السادس إباحة المكان فيحرم المنزل الغصب إجماعا،و لا تجزى الغاصب و غيره،إذ المعصية نفس الطاعة،و لاقتضاء النهى الفساد، و عند الفريقين(الحنفية و الشافعية)تجزى من حيث كونها صلاة،و يعاقب للغصب.

ثم أجاب عن أدلتهم على الجواز بما لا حاجة إلى ذكره (2).

و قـد صـرح الحنفيـة بالكراهة فى الصـلاة فى أرض الغير بلا رضا،و لو ابتلى بين الصـلاة فى أرض الغير أو فى الطريق،فإن كانت مزروعة أو لكافر فالطريق أولى و إلا فهى (3).

1- (1) المغنى ج 1 ص 588.

2- (2) البحر الزخار ج 1 ص 218.

3- (3) غنية المتملى ص 177 و مراقى الفلاح ص 63.

و فی خزانة الفتاوی:الصلاة فی أرض مغصوبة جائزة،و لکن یعاقب لظلمه، فإن کان بینه و بین اللّه تعالی یثاب،و ما کان بینه و بین العبد یعاقب (1).

و قد خالف بشر بن غیاث المریسی أحد أئمة الحنفیة،و ذهب إلی عدم جواز الصلاة فی الأرض المغصوبة،أو فی ثوب مغصوب،لأن الصلاة عبادة،لا تتأدی بما هو منهی عنه (2).

و الشافعیة یوافقون الحنفیة فی صحة الصلاة فی الأرض المغصوبة،و إن کان اللبث فیها یحرم فی غیر الصلاة (3).

و قال الرملی المعروف بالشافعی الصغیر:الصلاة فی الدار المغصوبة مظنة أن یثاب فاعلها و أن لا یثاب،إذ یحتمل أن یعاقب علی الغصب بحرمان ثواب العبادة، و أن یعاقب بغیر الحرمان،فمن أطلق أنه لا یثاب قصد بالإطلاق الورع عن إیقاع الصلاة فی المغصوبة،مریدا أنه قد لا یثاب،و من قال:یثاب أراد أنه لا مقتضی لحرمان الثواب کله بکونه عقوبة الغصب (4).

و أنت خبیر بما فی هذا القول من مخالفات للواقع،إذ الصلاة تقرب للّه تعالی، و طلب لمرضاته،فکیف یتقرب إلیه ما لا یحب،و تطلب مرضاته فیما یغضب علی فعله،و هو الغصب،و التصرف فی أموال الناس.من دون طیب نفس،و لا یطاع اللّه من حیث یعصی،و النهی فی العبادة یقتضی الفساد؟!.

و عند الحنابلة أن الصلاة فی الدار المغصوبة لا تصح،لأن الصلاة قربة و طاعة، و هی منهی عنها علی هذا الوجه،فکیف یتقرب بما هو عاص به،أو یؤمر بما هو منهی عنه؟.

و عن أحمد روایتان فی ذلک:الصحة و عدمها (5)کما أنه حکم ببطلان الصلاة فی مواضع ورد النهی عن الصلاة فیها،کالمجزرة،و الحمام و المزبلة،و قارعة الطریق

1- (1) فتاوی شیخ الإسلام علی أفندی ج 1 ص 4.

2- (2) الکاسانی ج 1 ص 116.

3- (3) المهذب ج 1 ص 64.

4- (4) فتاوی الرملی بهامش فتاوی ابن حجر ج 1 ص 116.

5- (5) عمدة الحازم ص 20 و المغنی لابن قدامة ج 1 ص 587.

و معاطن الإبل،فی روایة عنه،و فی روایة أخری أنه حکم بالکراهة کما تقول به سائر المذاهب الذین حملوا أخبار النهی علی الکراهة.

مسجد الجبهة:

أجمع المسلمون علی اشتراط الطهارة لموضع الجبهة فی السجود،إلا ما یروی عن أبی حنیفة فی إحدی الروایتین عنه:أنه ذهب إلی عدم اشتراط ذلک،و خالفه صاحباه أبو یوسف و محمد،و قولهما الأصح فی ذلک عند الحنفیة (1).

و قد وقع الخلاف فیما یصح السجود علیه و فی أعضاء السجود هل هی سبعة أم ثمانیة،یجعل الأنف واحدا منها؟و هل السجود علی الأنف واجب أم مستحب؟ و علی القول بالوجوب فهل یجزی السجود علیه دون الجبهة،کما ذهب إلیه أبو حنیفة و بعض أصحاب مالک أم لا یجزی (2)؟.

إلی کثیر من مسائل الخلاف فی هذا الموضوع،کالسجود علی کور العمامة کما ذهب إلیه أبو حنیفة و مالک،و أحمد فی إحدی الروایتین عنه.

و ذهب الشیعة إلی عدم الجواز،و وافقهم الشافعی و أحمد فی إحدی الروایتین عنه،لأنه لم یثبت عن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنه سجد علی کور عمامته و کان ینهی عن ذلک.

نعم روی عبد اللّه بن محرر عن أبی هریرة:أن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم سجد علی کور عمامته.و هذا غیر صحیح،لأن عبد اللّه متروک الحدیث کما قال ابن حجر و أبو حاتم،و الدار قطنی،و قال البخاری:إنه منکر الحدیث،و هو أحد قضاة الدولة،و لم یذکر علماء الرجال سماعه من أبی هریرة.

و قال الحافظ ابن حجر:لم یذکر عن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنه سجد علی کور عمامته، و لم یثبت ذلک عنه فی حدیث صحیح و لا حسن (3).

و علی کل حال:فالخلاف فی مسألة السجود فی عدة مواضع أهمها فیما یصح السجود علیه.

1- (1) حاشیة الطحاوی علی مراقی الفلاح ص 114 و نور الإیضاح بهامش مراقی الفلاح ص 37.

2- (2) النووی فی شرح مسلم ج 4 ص 208.

3- (3) شرح المواهب اللدنیة للزرقانی ج 7 ص 321. [1]

و الشيعة يشترطون فى مسجد الجبهة-مضافا إلى طهارته و إباحته-أن يكون على الأرض أو ما أنبتته، من غير المأكول و الملبوس، و لا يجوز السجود على ما خرج عن اسم الأرض من المعادن، كالذهب، و الفضة، و لا على الملبوس من القطن و الكتان و غيرهما، مما يكون منه اللبس، و السجود على الأرض أفضل، لأنه أبلغ فى التواضع و الخضوع للّه عز و جل.

الأذان و الإقامة:

اختلف العلماء فى الأذان و الإقامة، هل هما من الواجبات أم من السنن و المشهور عند الشيعة أنهما من السنن لا الواجبات، بل مستحبان استحبابا مؤكدا، و منهم من ذهب إلى الوجوب.

و وافقهم بالقول بالاستحباب مالک و أبو حنيفة، و الشافعى، فقالوا: بأنهما مستحبان لكل صلاة، فى الحضر و السفر، للجماعة و المنفرد، لا يجبان بحال (1).

و عن أحمد بن حنبل: انهما فرض كفاية و اختار أكثر أصحابه أنهما من السنن.

و قال بعض أصحاب الشافعى، و أصحاب مالک: بأنهما فرض كفاية. و عن مالک: إنما يجبان فى مسجد الجماعة.

و عن محمد بن الحسن الشيبانى القول بالوجوب، و قيل: إن المراد من قول أبى حنيفة انهما من السنن المؤكدة، أراد بذلک الوجوب، و لكن المشهور عند الحنفية أنهما من السنن لا الواجبات.

و لا فرق عندهم بين الأذان و الإقامة من حيث تكرار الألفاظ، و عند المالكية، و الحنابلة، و الشافعى: أن الإقامة بالإفراد إلا لفظ قد قامت الصلاة، فقال أحمد، و الشافعى: إنها مرتان (2).

ألفاظ الأذان:

لا خلاف بين المسلمين بأن للأذان و هو الإعلام بدخول وقت الصلاة، ألفاظا

1- (1) الترهيب و الترغيب للمنذرى ج 1 ص 106 فى التعليقة.

2- (2) غنية المتملى ص 177.

مخصوصة،و لكن الخلاف فی لفظتین و هما:حی علی خیر العمل،بعد قول حی علی الفلاح،کما یذهب إلیه الشیعة.

و الثانیة قول:الصلاة خیر من النوم بعد قول:حی علی الفلاح.

و صورة الأذان عند الشیعة بالإجماع:اللّه أکبر أربع مرات،أشهد أن لا إله إلا اللّه مرتان،و أشهد أن محمدا رسول اللّه مرتان،حی علی الصلاة مرتان،حی علی الفلاح مرتان،ثم حی علی خیر العمل مرتان،ثم اللّه أکبر مرتان،ثم لا إله إلا اللّه مرتان.

و الإقامة کذلک إلا أن فصولها مرتان،و قول لا إله إلا اللّه فی آخرها مرة واحدة،و یزاد فیها بعد حی علی خیر العمل و قبل التکبیرات:قد قامت الصلاة مرتان.

و لا خلاف عند جمیع المذاهب فی ذلک إلا فی أمرین.

1-تکرار الألفاظ فی الأذان و الإقامة،فمنهم من یوافق الشیعة فی ذلک،و منهم من یقول بأن الأذان مرتان،و الإقامة مثله،و منهم من یقول إن الأذان مرتان و الإقامة مرة،و عند المالکیة أن التکبیر الأول فی الأذان مرتین.

2-کلمة حی علی خیر العمل کما تذهب الشیعة إلی وجوبها،و کلمة الصلاة خیر من النوم کما تذهب إلیه بقیة المذاهب،و لا بد لنا من الإشارة هنا حول ذلک.أما کلمة حی علی خیر العمل،فإن الثابت من طریق أهل البیت علیهم السّلام أنها جزء من الأذان و الإقامة،و قد قال الإمام زین العابدین علیه السّلام:أنه هو الأذان الأول(أی علی عهد رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم)کما أخرجه البیهقی فی سننه الکبری.

و قال الإمام الباقر علیه السّلام:و کانت هذه الکلمة(حی علی خیر العمل)فی الأذان،فأمر عمر بن الخطاب أن یکفوا عنها مخافة أن تثبط الناس عن الجهاد، و یتکلوا علی الصلاة (1).

و حکی سعد الدین التفتازانی فی حاشیته علی شرح العضد:عن عمر أنه کان یقول:ثلاث کن علی عهد رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنا أحرمهن و أنهی عنهن:متعة الحج، و متعة النکاح،و حی علی خیر العمل.

1- (1) البحر الزخار ج 1 ص 192.

و روی البیهقی بسند صحیح عن ابن عمر أنه کان یؤذن بحی علی خیر العمل.

و قال ابن حزم:و قد صح عن ابن عمر و أبی أمامة أنه کانوا یقولون حی علی خیر العمل (1).

و روی المحب الطبری فی أحکامه عن زید بن أرقم:أنه أذن فی حی علی خیر العمل.

و قال الشوکانی:نقلا عن کتاب الأحکام:و قد صح لنا أن حی علی خیر العمل کانت علی عهد رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یؤذن بها،و لم تطرح إلا فی زمان عمر.و هکذا قال الحسن بن یحیی (2).

و روی محمد بن منصور فی کتابه الجامع عن أبی محذور،أحد مؤذنی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنه قال:أمرنی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أن أقول فی الأذان:حی علی خیر العمل.

و فی الشفاء عن هذیل بن بلال المدائنی قال:سمعت ابن أبی محذور یقول:

حی علی خیر العمل (3).

و فیه أیضا عن الإمام علی علیه السّلام أنه قال:سمعت رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یقول:(إن خیر أعمالکم الصلاة)و أمر بلالا أن یؤذن:حی علی خیر العمل.

و قال برهان الدین الشافعی فی سیرته:و نقل عن ابن عمر و عن علی بن الحسین أنهما کانا یقولان:حی علی خیر العمل.بعد حی علی الفلاح (4).

و الخلاصة:أن الشیعة قد أجمعوا علی لزوم الإتیان بلفظ:حی علی خیر العمل،لأنها ثابتة علی عهد الرسول الأعظم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و قد أمر أهل البیت علیهم السّلام أتباعهم بذلک،فکانت شعارهم فی جمیع أدوار التاریخ.

و لا نود أن نطیل الکلام فی هذا الموضوع،و قد أشرنا له فی الجزء الأول من هذا الکتاب.

1- (1) المحلی ج 3 ص 160.

2- (2) نیل الأوطار ج 2 ص 32.

3- (3) البحر الزخار ج 1 ص 192.

4- (4) السیرة ج 2 ص 105.

و الأمر الثانی:هو کلمة الصلاة خیر من النوم،و الشیعة لا یجیزون ذلک، و ذهب الشافعی فی قوله الجدید إلی الکراهة.

إذ من المعلوم أن هذه اللفظة لم تکن علی عهد رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و أول من جعلها فی الأذان عمر بن الخطاب.

جاء فی موطأ مالک أن المؤذن جاء عمر بن الخطاب یؤذنه لصلاة الصبح فوجده نائما فقال المؤذن:الصلاة خیر من النوم،فأمره عمر أن یجعلها فی نداء الصبح (1).

و قال الإمام علی علیه السّلام عند ما سمع ذلک:لا تزیدوا فی الأذان ما لیس منه.

و أما ما یدعی من أن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أمر بلالا ـ أن یقول:الصلاة خیر من النوم فی الأذان فهو غیر صحیح لا ـ یقره التحقیق،لأن الذی روی عن بلال ذلک هو عبد الرحمن بن أبی لیلی،و هذا غیر صحیح،لأن ولادة عبد الرحمن کانت سنة 17 (2)من الهجرة النبویة،و توفی سنة 84 ه و وفاة بلال سنة 20 من الهجرة،فکیف یصح أن یروی عن بلال و عمره ثلاث سنین،هذا شیء غریب؟! و ادعی أیضا أن بلالا أتی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فوجده راقدا،فقال:الصلاة خیر من النوم.

فقال النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم:ما أحسن هذا اجعله فی أذانک.و هذا لا یصح أیضا،لأن الراوی هو عبد الرحمن بن زید بن أسلم المتوفی سنة 282 ه عن أبیه زید بن أسلم عن بلال؛و عبد الرحمن ضعیف الحدیث لا یعتمد علیه کما نص علی ذلک أحمد، و ابن المدینی،و النسائی،و غیرهم.

هذا من جهة،و من جهة أخری فإن زیدا لم یسمع من بلال،لأن ولادة زید کانت سنة 66 ه و وفاته سنة 126 ه (3).

فکیف یصح سماعه من بلال،و هو لم یولد إلا بعد وفاة بلال بست و أربعین سنة؟!!!

1- (1) موطأ مالک [1]فی هامش مصابیح السنة للبغوی ج 1 ص 37.

2- (2) تهذیب الأسماء و اللغات لمحیی الدین النووی ج 1 ص 304. [2]

3- (3) تذکرة الحفاظ للذهبی ج 1 ص 124،و تهذیب الأسماء و اللغات للنووی ج 1 ص 200،و الخلاصة للخزرجی ص 131،و غیرها من کتب التراجم و الرجال.

و على أى حال:فإن المقطوع به أن التثويب لم يكن على عهد النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أن هذه الكلمة كانت فى أيام عمر.و بدون شک أن الأذان كان بأمر من اللّه و وحى أنزله على نبيه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،و أما ما يقال فى إحداث الأذان بأنه كان لرؤيا رآها عبد اللّه بن زيد، و عمر بن الخطاب،فأقرها النبى إلى غير ذلک.فهى أمور بعيدة عن الواقع،و نحن فى غنى عن إعطاء صورة لرواة هذه الأمور لنعرف مقدار الاعتماد عليهم،و منهم عبد اللّه بن خالد الواسطى،و قد نص الحفاظ على كذبه،و أقل صفاته أنه رجل سوء،كما قال يحيى بن معين.

و قد أنكر الحسين بن على عليه السّلام عند ما سمع الناس يتحدثون عن رؤيا عبد اللّه بن زيد فى تشريع الأذان فغضب و قال:الوحى ينزل على الرسول و يزعمون أنه أخذ الأذان عن عبد اللّه بن زيد؟!و الأذان وجه دينكم،و لقد سمعت أبى على بن أبى طالب يقول:أهبط اللّه ملكا عرج برسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلى السماء...الحديث.

و كيف كان فقد اختلفت أقوال أئمة المذاهب فى كلمة:الصلاة خير من النوم، هل تقال فى جميع الأوقات؟أم فى وقت دون وقت،أم تقال للأمير دون غيره؟مما يطول شرحه.

و قد أجمع المسلمون على عدم جواز تقديم الأذان على أوقات الصلاة،و لا يكون إلا بلفظ العربية،و أجاز المالكية و الشافعية الأذان بغير العربية للأعجمى،إذ يجوز له أن يؤذن بلغته لنفسه.و لجماعته الأعاجم.

و الشيعة لا يجوزون الأذان بغير العربية مطلقا و وافقهم الحنابلة على ذلک.

و للأذان عند المسلمين شروط و مستحبات،للأذان و للمؤذن،أعرضنا عن ذكرها اختصارا.

و بهذا ينتهى البحث فى هذا الجزء عن الفقه الإسلامى،إذ لم يتسع نطاقه لأكثر من هذا،و سنلتقى بعون اللّه فى الجزء السادس للبحث عن بقية ما يتعلق بمسائل العبادات و المعاملات.و اللّه ولى التوفيق.

و لا يفوتنى أن ألفت نظر القارئ الكريم إلى الأمور التالية:

1-أن البحث عن المذاهب كما قلت مرارا بحث شائک،و يتصف بصعوبة لا

يستهان بها،و قد واجهت مصاعب لا يعلمها إلا اللّه،و عنده احتسب ذلک بالأخص موضوع فقه المذاهب،إذ ليس من السهل إعطاء صورة واقعية عنه،لأن أقوال أئمة المذاهب تختلف،و ربما يکون فی المسألة الواحدة أقوال متعددة حسب الرواية عنه، و ربما يکون لأعيان المذاهب رأی يخالف فيه إمامه،کما و أن الذين ينقلون رأی صاحب المذهب أو عمل أهله کثيرا ما يخطئون فی النقل،لأنی وقفت حسب تتبعی علی کثير منه مما دعانی إلی أن أعزو القول المنسوب للمذهب إلی کتبهم الخاصة قدر جهدی و استطاعتی،و لا أضمن لنفسی السلامة من الخطأ فی ذلک.

أما فقه الشيعة الإمامية فإنی قد اقتصرت علی مسائل منه بدون تفصيل،لأنه غير مستطاع،لاتساع موضوعه و شدة اهتمامهم فی تدوين الفقه،و استنباط الأحکام،إذ باب الاجتهاد مفتوح عندهم علی مصراعيه.

و إن تعبيری بالشيعة هو أوضح من غيره،و طبعا،أقصد بهم الإمامية الاثنی عشرية، أما الفرق المنحرفة عن مبدأ التشيع إن کان لهم آراء فلا أقصد التعبير عنهم فی شیء.

2-إن کثيرا من کتّاب عصرنا لا زالوا يعيشون بعقلية عصور الظلمة،تلک العصور التی استغل ظروفها المندسون فی صفوف المسلمين لنشر المفتريات،و خلق الأکاذيب،ليفرقوا بين الأخ و أخيه بتوسيع شقة الخلاف،و قد جر ذلک علی المسلمين مآسی من جراء الانقسام و التفکک،أشرت له فی عدة مواضع.

نعم إن أولئک الکتاب قد جمدوا علی عبارات سلف عاشورا فی عصور التطاحن و التشاجر،فقلدوهم بدون تفکير أو تمييز،حتی أصبحت القضية خارجة عن نطاق الأبحاث العلمية،و هی إلی المهاترات أقرب منها إلی المناقشات المنطقية.

کل ذلک من أثر التعصب المردی و التقليد الأعمی،و لعلنا قد أوضحنا للقارئ الکريم جانبا کبيرا من تلک الأمور فی هذا الجزء و ما سبقه من أجزاء،ليکون علی بينة من الأمر.و نحن نأمل أن يکون هدف الکتاب أشرف هدف و أنبل غاية،و هو إظهار الحقيقة و استخلاص الحق مما خالطه به من باطل،و أن يکون الحکم للعلم لا للمغالطات،فحکمه العدل و قوله الفصل.

3-ربما يکون هناک أناس يؤمنون بصحة قول القائل حول فقه الشيعة و أنه غير فقه المسلمين،و قد أوضحنا هذا الجانب و الحکم للقارئ المتحرر.

كما يظهر الجواب على ما ذهب إليه صاحب كشف الظنون من امتزاج المـذهب الشـيعى و المذهب الشافعى،و أن الإمامية يتبعون محمد بن إدريس الشافعى.و قد أوضحت أسباب هذا الاشتباه فيما سبق كما نبهت على خطأ بعض الأساتذة فى تقليده لصاحب كشف الظنون.

و سـنوضح فيما بعـد-إن شاء اللّه-أخطاء الكثيرين ممن يسـيرون على غير هـدى فيما يكتبونه حول الشـيعة،سواء فى المعتقدات و الآراء أو الفقه و الأحكام،مما يبعث على الأسف لما يتصف به أولئک الكتّاب من التغاضى عن الحقيقة،و التجاهل أمام الواقع.

فهم عند ما يتناولون موضوع البحث عن الشـيعة بالذات،أو بالعرض سواء فى المعتقدات أو الآراء الفقهية،أو الحوادث التاريخية،فلا تجد إلا ما يخالف الحقيقة، و أكثرهم يكتب بلغة الكذب و الافتراء و التهجم،كل ذلک نتيجة للتعصب البغيض الذى أسـر عقولهم،و حرمهم حرية التفهم للحوادث طبقا لواقعها الذى يجب أن يزول عنه قناع التضليل،و يجلى عن جوهره غبار الخداع و التمويه.

و نحن نأمل أن تكون الدراسات للحوادث على نهج التحرر من قيود التقليد الأعمى،لتبدو الأمور على ما هى عليه،و لعل القارئ الكريم قد وقف على كثير من الأمور التى سـجلت فى تاريخ الشـيعة على غير واقعها تجنيا و افتئاتا فيما تعرضنا له فى أبحاثنا السابقة،و أزلنا الستار عن كـثير من الأـمور اتخـذها المهرجـون وسـيلة للدعايـة ضـد الشـيعة،و نحن نقول لأولئـک المتقولين بـأن العلم سـيخمد أصواتهم،و الوعى الإسـلامى بوجوب التقارب و التفاهم سـيظهر قبـح ما انطوت عليه ضـمائرهم،من البغض لوحـدة المسـلمين و تقاربهم،على ضوء الكتاب الكريم و تعاليم الرسول الأعظم.

و نحن نسأل اللّه الهداية للجميع و التوفيق لما يحبه و يرضاه،كما نسأله تعالى أن يتقبل أعمالنا و يجعلنا ممن يدعو للحق و يتبعه.

و إلى هنا ينتهى البحث فى الجزء الخامس من كتابنا الإمام الصادق و المـذاهب الأربعة،و إلى اللقاء فى الجزء السادس إن شاء اللّه،و أسأله الهداية و السداد إنه سميع مجيب.

الجزء السادس

اشارة

بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَ اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَ لا تَفَرَّقُوا وَ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْداءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْواناً وَ كُنْتُمْ عَلى شَفا حُفْرَةٍ مِنَ النّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْها كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ [آل عمران:103].

ص:301

تقديم و تمهيد

بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

-1- فی آخر الجزء الخامس من هذا الکتاب وعدت القراء بأن نلتقی فی هذا الجزء و هو السادس لمواصلة البحث عما یتعلق فی بقیة أبواب الفقه.

و قد تعرضت هناک-بعرض سریع و بیان موجز-لبعض المسائل من کتاب الطهارة،و مقدمات الصلاة إذ لم یتسع المجال لأکثر من ذلک.

و کنت مصـممـا علی المضـی فی إکمال الموضوع بدراسة مسـتفیضة تکشف عن کثیر من الخلافات الحاصـلة فی أکثر المسائل من حیث الاختلاف فی المبانی و الآراء.

و حیث کان الموضوع له أهمیـة فقـد توسـعت فی البحث مما أدی إلی الخروج عن دائرة الاختصار التی نهجتها فی أول البحث.و بهذا فإن هـذا الجزء لم یتسع نطاقه لـذکر جمیع الأمور التی یلزم ذکرها فنتجاوز حـدود سلسـلة الکتاب بتعدد أجزائه،أو أن نهمل کثیرا من الأبحاث التی لا یمکن إهمالها.

و لهـذا فإنی قـد ارتأیت بأن اقتصـر هنا علی إکمال ما یتعلق بمسائل الصـلاة و کیفیتها،و ما یتعلق بها کمسألة القصـر و الإتمام،و الجمع و التفریق،لنعرف مدی الخلاف الحاصل فی هذه المسائل بین المذاهب بعضها مع بعض،و بینها و بین مذهب الشیعة.

أما بقیة أبواب الفقه فإنی قررت-بعون اللّه-بأن أبرز فیها کتابا مستقلا لیعم نفعه و یسهل تناوله.

ص:303

-2- و نحن نأمل أن نوفق إلى إيضاح ما أحاط بهذه الأمور من غموض،و ما اكتنفها من سوء فهم بحقيقة الأمر،مما أدى بالبعض إلى حصر الفقه الإسلامى بجهة دون أخرى،أو بمذهب دون غيره.

أما ما يتعلق بفقه الشيعة قد جهلوا حقيقته،و أساءوا فيما وصفوه،بما لا يليق به،و ما تقولوه عليه بدون دراية.

و قد أعطينا فيما مضى صورة-موجزة-عن الفقه الشيعى،و مقارنة فقه بقية المذاهب به،من حيث الاتفاق و الافتراق.

و سنعود إن شاء اللّه بعد إكمال هذه السلسلة إلى دراسة واسعة توضح لنا جانبا كبيرا عما أدى إليه سوء الفهم من الحكم على الشىء قبل معرفته.

و سنتعرض به إلى الحديث و المحدثين،و بيان أثر الشيعة فى ذلک،و ذكر رجال الحديث منهم،ممن أصبحوا أئمة فى الحديث و مرجعا فى الفقه و أساتذة لكبار العلماء و أعيان المحدثين.

-3- كما و أنى لم أستوف الغرض فى بحثى حول المستشرقين فى الجزء الخامس و ما ارتكبوه من جناية فى أبحاثهم التى يحورون بها الحقائق،و يبدلونها لتلبس تلک القوالب التى يفرضونها فرضا،و هى قوالب أفكار لا تمت إلى الواقع بشىء بل هى تخيلات وهمية،ترسم لنا صورة الاندفاع وراء مضللات العاطفة و مرديات التعصب الأعمى.

و قد سلكوا فى كثير من أبحاثهم ما يكدر الصفو من إبراز الخلافات المذهبية بإطارات يروق لهم إبرازها فيها،من حيث التشويه و التهويل كما أنهم خلقوا خلافات أخرى.

و لهذا رأيت نفسى مضطرا لأن أعود إلى الحديث عن عظيم جنايتهم على الأمة الإسلامية،بكثير من أبحاثهم التى لم يقصدوا بها إلا إثارة الفتنة و خلق عقبات فى طريق وحدة الصف،و تأليف القلوب،و جمع الكلمة.

و لم أنفرد بهذا الرأى بل هناك جمع غير قليل من قادة الفكر و رجال الأدب قد استشهدت بأقوالهم،و إن كان أمر أولئک الكتاب من المستشرقين لا يحتاج إلى أكثر من مراجعة أقوالهم،و تصفح بحوثهم،فهى تعطى تلک الحقيقة التى نقولها و يقررونها بأقوالهم،فهم مدفوعون بدافع الحقد على الإسلام ليشفوا غليلهم بإثارة الفتن بين أبنائه لتفريق صفوفهم.

>تمهيد:< تقدم البحث عن مقدمات الصلاة و ما يتعلق بها من خلاف بين المذاهب فى تلک المسائل،و قد أوضحنا مذهب الشيعة فى كثير مما ينفردون به للأدلة التى تأولها غيرهم فذهبوا إلى خلاف ما ذهبوا إليه.

و نحن هنا نذكر بقية ما يتعلق بأحكام الصلاة من أفعال و غيرها،كمسألة القصر و الإتمام،و الجمع و التفريق،مع استعراض يسير للأدلة و مناقشات علمية لا تتعدى حدود إظهار الحقيقة،و بيان ما هو الواقع.

و قد سلكت فى بحثى هنا-و فيما سبق-طريق النقل عن أهل المذاهب من كتبهم الخاصة،دون اعتماد على نقل الغير عنهم،إلا فيما هو مشهور لا يحتمل الخطأ فى النقل،و ذلک لأنى وجدت كثيرا من النقل لا يستند إلى صحة،إما عن اشتباه أو غير ذلک.

كما و إنى لم أقف موقف نقد ورد،و إنما كان عرضا لإيضاح المسألة دون ترجيح لرأى على رأى،أو تقديم قول على آخر،لأنى لم أقصد الإحاطة بجميع ما يتعلق بموضوع الخلاف،و إنما هى مسائل أردت بها تصوير الخلاف الحاصل بين المذاهب أجمع،و قرب بعضها من بعض مرة و بعدها أخرى،و أن الخلاف لم يقتصر بين الشيعة و السنة فحسب-كما يتوهمه البعض-بل هو حاصل بين المذاهب السنية نفسها.

و إننا لعلى يقين من أن القارئ الكريم يستطيع أن يتبين بهذا النزر القليل-خطأ أولئک الذين نظروا لفقه الشيعة من زاوية الجهل،فحكموا عليه بالشذوذ و الانفراد أو أنه لا يلتقى مع بقية المذاهب بقليل و لا كثير و يذهب إلى اتصاله بالمذهب الشافعى

دون غيره و كل ذلک لا نصيب له من الواقع و حكم على الشيء بدون معرفة،و الحكم على الشيء قبل معرفته خطأ لا يغتفر،و جناية على العلم.

و قد مرت الإشارة إلى بعض تلک الأخطاء التى ارتكبها البعض فى نقل أشياء ليس لها نصيب من الصحة.

كما أشرنا إلى خطأ من جعل الفقه الشيعى مستمدا من الفقه الشافعى،و قد أوضحنا أن ذلک ناشئ عن جهل أو اشتباه إلى غير ذلک.

و لسنا الآن فى معرض ما توالى على المذهب الشيعى من حملات،و ما تعرض له من طعون نتيجة للتعصب الأعمى يوم كانت الأمور تسير على نهج التضليل و الخداع،و المكر و التمويه،لتسود الفرقة و يعظم التباعد بين المسلمين الذين هم كجسم واحد إن تألم البعض تألم الكل فقد أشرنا إليها عبر الأجزاء السابقة كلها.

و نتيجة لتلک الخلافات-قد تبدلت الوحدة بالفرقة،و المحبة بالبغضاء و نمت بينهم روح التباغض و لم يشعروا بخطر ذلک إلا بعد أن أثر أثره،و ضرب العدو ضربته.و إن ما ترتب على ذلک التفرق من الضرر الذى أفضى إلى ضعف المسلمين، و تمكن الأجانب من الاستيلاء على بلادهم،و إغراء عوامل نفور بعضهم من بعض إنما هو نفع للعدو الذى يتربص بهم الدوائر.

و يجب أن نتساءل عن الفائدة التى حصلنا عليها من الفرقة و الخلافات، و لحساب من يكون ذلک؟كما يجب أن نتساءل عن عواملها و أسباب اتساعها؟و ننظر بعين الحقيقة إلى الأضرار الناجمة من ورائها،و هناک يتضح لنا الطريق إلى الحلول الجذرية التى يجب أن تتخذ لرفع أثرها،و لا يكون ذلک إلا أن نفهم الأمور عن طريق الواقع،و التماس الحلول على ضوء الواقع لتزول الشوائب التى تطمس معالم الحق، و تضلل من ينشدونه.

و بدون شک إن الأمور إذا سارت فى طريقها الصحيح ارتفع الالتباس و حلت جميع المشاكل،و إننا نود أن نؤكد هنا بأن دراسة الفقه الشيعى من قبل من يتحاملون عليه لم تكن دراسة صحيحة كاملة،بل هى دراسة ناقصة،لأنهم لم يأخذوا عنه من مصادره،أو لم يفهموا أصوله و مبانيه،فكان تحاملهم عاطفيا خالصا و العاطفة عمياء، كما تحكمت فيهم آراء مسبقة و وجهات نظر مغرضة.

و إننا لنأمل أن تتوسع دائرة دراسة الفقه المقارن بين المذاهب فيعم الانتفاع، و تتجلى الحقيقة التى طالما حجبتها سحب الأباطيل.

كما نأمل أن تزول أشباح المآسى الهائلة التى وقفت فى طريق وحدة المسلمين، و أدت إلى ذلک التفکک فى الرابطة الإسلامية،فنحن اليوم نمر فى مرحلة حاسمة و معرکة خطيرة،و لا نکسب المعرکة إلا بوحدة الصف،و جمع الکلمة،و نبذ أحقاد الماضى،و الالتقاء على صعيد تعاليم الإسلام الصحيحة،فإن خطر الموقف بتدخل دعاة الفرقة و ذوى الغايات الاستعمارية و ذلک يدعو إلى طرح الخلافات،و الاعتصام بحبل اللّه و ما النصر إلا من عند اللّه.

ص:307

أفعال الصلاة

اشارة

واجباتها-مستحباتها-مبطلاتها

واجبات الصلاة

النية:

وقع الخلاف فى النيـة و وجوبها،فهل هى شـرط فى الصـلاة؟أم ركن؟و هل يشترط التلفظ بها أم يكفى الاخطار فى القلب؟ أما وجوب النية فلاـ خلاـف فيه،لأـن الأعمـال بالنيـات،و لكل امرئ ما نوى، و لكنهم اختلفوا فى أمور تتعلق بها من حيث إنها شـرط أم ركن؟و هل يجب موافقـة نية المأموم للإمام و هل يجب تعين الفرض أم مطلق النية بإتيان الصـلاة يكفى،إلى غير ذلک من موارد الخلاف،مما يطول شـرحه و نبعد عن الاختصار فى بيانه.

و كيف كان فإن النيـة هى القصد إلى الفعل بعنوان الامتثال و القربة،و لا يجب التلفظ بها بل يكفى إحضار صورة الفعل فى أول الصـلاة،و اسـتدامة حكمها،بمعنى أنه لا ينوى قطعها،و إذا تردد بين المضـى و القطع بطلت الصـلاة و إن لم يقطعها كما هو مذهب الشـيعة و وافقهم الحنابلة و الشافعية.

قال ابن قدامـة:و إذا دخل الرجل فى الصـلاة بنيـة مترددة بين إتمامها و قطعها لم تصح،لأن النية عزم جازم،و مع التردد لا يصح الجزم،و إن تلبس بها بنية صـحيحة ثم نوى قطعها و الخروج منها بطلت،و بهذا قال الشافعى،و قال أبو حنيفة:لا تبطل بذلک لأنها عبادة صح دخوله فيها فلم تفسد بنية الخروج منها كالحج (1).

و قال أبو إسحاق الشافعى:و لو نوى الخروج من الصلاة أو نوى أنه سيخرج أو

1- (1) انظر ج 1 ص 466 المغنى فى الفقه الحنبلى.

شک یخرج أم لا بطلت صلاته،لأن النیة شرط فی جمیع الصلاة؛و قد قطع ذلک بما أحدث کالطهارة؛إذا قطعها بالحدث (1).

و یشترط فی النیـة أن تکون مقارنـة لتکبیرة الإحرام فلا تصح أن یفصل بینها و بین التکبیرة بشـیء کما لا یصح الإتیان بها بعد التکبیر و علی هذا اتفاق الشیعة و المالکیة و الشافعیة.

أما الحنفیة فإن الأفضل عندهم المقارنة للتکبیر و لو نوی قبله حین توضأ و لم یشتغل بعده بعمل یقطع نیته جاز (2).

قال فی الغنیة:روی عن محمد بن الحسن؛أن المصـلی لو نوی عند الوضوء أن یصـلی الظهر أو العصـر مع الإمام و لم یشـتغل بعد النیة بما لیس من جنس الصلاة یعنی سوی المشی إلا أنه لما انتهی إلی مکان الصلاة لم تحضر النیة جازت صلاته بتلک النیة و مثله عن أبی حنیفة و أبی یوسف رحمه اللّه فعلم بهذا جواز الصلاة بالنیة المتقدمة (3)و ذهب الکرخی من الحنفیة إلی جواز الاعتداد بالنیة المتأخرة.

و کـذلک یجزی عنـد الحنابلة إن تقدمت النیة قبل التکبیر و بعد دخول الوقت لأنها عبادة فجاز تقدیم النیة علیها کالصوم و تقدیم النیة علی الفعل لا یخرجه عن کونه منویا...الخ (4).

قال الشافعی و ابن المنـذر:یشترط مقارنة النیة للتکبیر لقوله تعالی: وَ ما أُمِرُوا إِلاّ لِیَعْبُدُوا اللّهَ مُخْلِصِینَ لَهُ الدِّینَ فقوله مخلصـین حال له فی العبادة فإن الحال وصف هیئة الفاعل وقت الفعل و الإخلاص هو النیة.و قال النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم:«إنما الأعمال بالنیات»و لأن النیة شرط فلم یجز أن تخلو العبادة منها کسائر شروطها.

و قال الشـیخ الطوسی فی الخلاف:وقت النیة مع تکبیرة الافتتاح لا یجوز تأخیرها و لا تقدیمها علیها..إلی أن یقول:دلیلنا أن النیة إنما یحتاج إلیها لیقع الفعل علی وجه دون وجه،و الفعل فی حال وقوعه یصح ذلک فیه،فیجب أن یصاحبه

1- (1) انظر المهذب ج 1 ص 70.

2- (2) انظر المبسوط للسرخسی 1-10.

3- (3) غنیة المتملی 127.

4- (4) المغنی 1-469.

مـا يؤثر فيه حتى يصـح تأثيره فيه؛لأنها كالعلـة فى إيجاد معلولها فكما أن العلـة لا تتقـدم على المعلول فكـذلک ما قلناه،و أيضا فإذا قارنت صحت الصلاة و إذا تقدمت لـم يقـم دليل على صحتها.

تكبيرة الإحرام:

و هى التى يحصـل الـدخول بهـا فى الصـلاة و يحرم مـا كـان محللا-قبلهـا من الكلام و غيره،و يجب التلفظ بها باللفظ العربى و هو:(اللّه أكبر)فلا-يجزى غيره كمـا لا-يجزى غير لفظ(اللّه أكبر)من سائر ألفاظ التعظيم،لأنه الوارد عن صاحب الشـرع فلا تجوز مخالفته.هـذا هو مذهب الشيعة.و عليه إجماعهم.

و وافقهم مالک و ذهب إلى أنه لا يجزى غير هذا اللفظ (1).و كذلک أحمد بن حنبل فإن الصلاة لا تنعقد عنده إلا بلفظ:اللّه أكبر (2).

أما الشافعى فهو موافق فى الجملة،و أن الصلاة لا تنعقد عنده إلا بلفظ:اللّه أكبر.و لكنه جوز أن يقال:اللّه الأكبر،لأن الألف و اللام عنده لـم تغيره عن بنيته و معناه،و إنما أفادت التعريف (3).

أما أبو حنيفة فقد ذهب إلى انعقاد الصلاة بكل اسم على وجه التعظيم كقول:

اللّه العظيم،أو كبير،أو جليل،أو سبحان اللّه و الحمد للّه،و لا إله إلا اللّه و نحوه و وافقه صاحبه محمد بن الحسن الشيبانى.

أمـا أبو يوسف فإنه يوافق بقيـة المـذاهب فى اشتراط لفظ:اللّه أكبر،إلا أنه يجيز قول:اللّه الأكبر أو الكبير و زاد فى الخلاصـة جواز اللّه الكبار (4).

و أجاز أبو حنيفـة إتيان التكبيرة بالفارسـية نحو(خداى بزرگست).كما أجاز الاكتفاء عن التكبير بقول:اللّه أجل أو أعظم،أو رحمن أكبر أو لا إله إلا اللّه أو تبارک اللّه أو غيره من أسماء اللّه و صفاته أجزأ (5)و وافقه محمد بن الحسن.

1- (1) شرح الموطأ للباجى ج 1 ص 142.

2- (2) المغنى لابن قدامة ج 1 ص 460.

3- (3) المصدر السابق.

4- (4) انظر غرر الحكام فى شرح درر الأحكام للقاضى محمد بن فراموز الحنفى ج 1 ص 66.

5- (5) غنية المتملى ص 128.

و الحنابلة يوافقون الشيعة فى تعيين صيغة التكبير و هى:اللّه أكبر و لا يجزى غيرها من أسماء اللّه و صفاته.

قال فى المغنى:(لنا)أن النبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم قال:«تحريمها التكبير»رواه أبو داود، و قال صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم-للمسىء فى صلاته-:إذا قمت إلى الصلاة فكبر.متفق عليه.

و فى حديث رفاعة أن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال:لا يقبل اللّه صلاة امرئ حتى يضع الوضوء مواضعه،ثم يستقبل القبلة،فيقول:اللّه أكبر،و كان النبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم يفتتح الصلاة بقوله:اللّه أكبر،و لم ينقل عنه عدول عن ذلك،حتى فارق الدنيا و هذا يدل على أنه لا يجوز العـدول عنه،و ما قاله أبو حنيفـة يخالف دلالة الأخبار فلا يصار إليه و لا يصح القياس على الخطبة لأنه لم يرد عن النبى صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم فيها لفظ بعينه فى جميع خطبه و لا أمر به و لا يمنع من الكلام فيها و الصلاة بخلافه (1).

و التكبيرة ركن عند الشـيعة فتبطل الصلاة بالإخلال بها عمدا أو سهوا و وافقهم مالک و أحمد و الشافعى و بهذا قال أكثر العلماء كالثورى و ربيعة و إسحاق و أبى ثور و ابن المنذر و غيرهم.

و ذهب الحنفيـة إلى أن تكبيرة الافتتاح شـرط حتى لو كان حاملا للنجاسـة عند ابتداء التكبير أو مكشوف العورة أو منحرفا عن القبلة أو قبل دخول الوقت فألقاها(أى النجاسة)و استتر بعمل يسير و استقبل و دخل الوقت مع انتهائه جاز و صح شروعه (2).

و ذهب مالک بن أنس إلى استئناف الصلاة لمن نسى تكبيرة الافتتاح (3).

و الـذى يظهر أن النسـيان عمدا أو سـهوا للتكبيرة مبطل للصـلاة عندهم و قد أشار لذلک أبو الوليد بقوله:لأن تكبيرة الإحرام ركن من أركان الصلاة فإذا أسقطها الإمام ساهيا أو عامدا لم تصح صلاته و تعدى فساد ذلک إلى صلاة المأموم كما لو ترک الركوع و السجود (4).

1- (1) المغنى ج 1 ص 460. [1]

2- (2) غنية المتملى 128.

3- (3) شرح الموطأ للباجى 1-146.

4- (4) نفس المصدر.

و كذلک عند الحنابلة أن الصلاة لا تنعقد إلا بتكبيرة الإحرام سواء تركها عمدا أو سهوا (1).

و قال الشافعی:فيمن أغفل التكبيرة فصلی فأتی علی جميع عمل الصلاة منفردا أو إماما أو مأموما أعاد الصلاة...الخ (2).

و بهذا يظهر الاتفاق بين الشيعة و بقية المذاهب فی ركنية التكبيرة للصلاة-ما عدا الحنفية-و أن تركها عمدا أو سهوا مبطل للصلاة و علی ذلک إجماع الشيعة.

سئل الإمام الصادق عليه السّلام عن رجل سها خلف الإمام فلم يفتتح الصلاة؟ قال عليه السّلام:يعيد و لا صلاة بغير افتتاح،و غير ذلک من الأخبار المستفيضة،كصحيح زرارة عن أبی جعفر الباقر عليه السّلام عن الرجل ينسی تكبيرة الافتتاح؟.قال عليه السّلام:

يعيد الصلاة.

أما رفع اليدين فی تكبيرة الإحرام فهو مستحب عند الشيعة و وافقهم مالک، و ادعی الإجماع علی استحبابه،حكاه النووی،و ابن حزم،و ابن المنذر و ذهب بعضهم إلی الوجوب،و لكن لا تبطل الصلاة بتركه،كما عن أحمد بن حنبل،و داود الظاهری.و نقل عن أبی حنيفة ذلک.و بعضهم يذهب إلی بطلان الصلاة بتركه،أما القول بحرمته و عدم جوازه فلا قائل به و ما يدعی عن الزيدية بأنهم يحرمونه فغير صحيح و ادعاء باطل.

و ذهب جمهور من العلماء من الصحابة رضی اللّه عنهم فمن بعدهم:يستحب أيضا رفعهما عند الركوع و عند الرفع منه و هی رواية عن مالک...الخ (3).

و بهذا يحصل الاتفاق بين الشيعة و بين سائر المذاهب،لأن ذلک هو الثابت من فعل النبی صلّی اللّه عليه و آله و سلّم.

و روی معاوية بن عمار قال:«رأيت أبا عبد اللّه الصادق عليه السّلام يرفع يديه إذا ركع و إذا رفع رأسه من الركوع و إذا سجد و إذا رفع رأسه من السجود و إذا أراد أن يسجد الثانية».

1- (1) المغنی لابن قدامة 1-461.

2- (2) الأم 1-101.

3- (3) شرح صحيح مسلم للنووی 4-95.

القيام:

لا- خلاف بين المسلمين فى وجوب القيام و هو عند الشيعة ركن فى حال تكبيرة الإحرام،و عند الركوع و هو المعبر عنه بالقيام المتصل بالركوع،فمن كبر للافتتاح و هو جالس بطلت صلاته،أو ركع لا عن قيام فكذلك.

أما فى حال القراءة،فهو واجب غير ركن و كذلك هو بعد الركوع.و يجب فيه الاعتدال و الانتصاب عرفا.

و لا خلاف فى ركنية القيام عند جميع المذاهب على تفصيل عندهم،فلا تجوز الصلاة بدونه من غير عذر عند الجميع،إلا أبو حنيفة فقد أجاز الصلاة فى السفينة قاعدا بدون عذر،و خالفه صاحباه أبو يوسف،و محمد بن الحسن الشيبانى،و قالا:

لا تصح إلا من عذر،لحديث ابن عمر:أن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم سئل عن الصلاة فى السفينة؟ فقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:صل فيها قائما إلا أن تخاف الغرق.

و استدل أبو حنيفة لرأيه بفعل أنس إذ صلى فى السفينة جالسا من دون عذر.و لا حجة فى فعل صحابى بعد ورود الأمر من الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،و إن قوى بعض الحنفية هذا القول على قول أبى يوسف (1)فلا وجه لذلك،و الأكثر على خلافه.

فإن عجز المكلف عن القيام أصلا و لو منحنيا أو مستندا إلى شىء صلى قاعدا، و يجب الانتصاب و الاستقرار،و الطمأنينة،و الاستقلال،هذا مع الإمكان و إلا اقتصر على الممكن،فإن تعذر الجلوس حتى الاضطرارى صلى مضطجعا على الجانب الأيمن و وجهه إلى القبلة كهيئة المدفون،و مع تعذره فعلى الأيسر عكس الأول،و إن تعذر صلى مستلقيا و رجلاه إلى جهة القبلة كهيئة المحتضر.

هذا ما عليه مذهب الشيعة و وافقهم جميع المذاهب،فالمالكية يذهبون إلى هذه الكيفيات مع اختلاف يسير،كمن عجز أن يصلى على جنبه الأيمن فهل يصلى على جنبه الأيسر أو على ظهره؟قال ابن القاسم:يصلى على ظهره و قال ابن المواز:

يصلى على جنبه الأيسر (2).

1- (1) انظر مراقى الفلاح ص 76.

2- (2) شرح الموطأ لابن الباجى 1-242.

و كذلک عند الشافعية فی العجز عن الجانب الأيمن يصلی مستلقيا علی ظهره و أخمصاه للقبلة (1).

أما الحنفية فالفرض عندهم أنه إذا عجز عن الصلاة قاعدا فإنه يستلقی علی ظهره،و جعل رجليه إلی القبلة فأومأ بهما،و إن استلقی علی جنبه الأيمن و وجهه إلی القبلة جاز.و الاستلقاء أفضل عند القدرة عليه (2).

و الحنابلة يوافقون الشيعة فی الانتقال عند العجز عن الجانب الأيمن إلی الجانب الأيسر،و عن أحمد رواية فی صحة صلاة من صلی علی ظهره مع إمكان الصلاة علی جنبه لأنه نوع استقبال.

قال ابن قدامة الحنبلی:و الدليل يقتضی أنه لا يصح لأنه خالف أمر النبی صلّی اللّه عليه و آله و سلّم فی قوله صلّی اللّه عليه و آله و سلّم:«فعلی جنب (3)»و لأنه نقله إلی الاستلقاء عند عجزه عن الصلاة علی جنبه،فيدل علی أنه لا يجوز ذلک مع إمكان الصلاة علی جنبه،و لأنه ترک الاستقبال مع إمكانه (4).

و علی أی حال:فالاتفاق حاصل فی هذه المسألة فی الجملة،و قد وردت أحاديث عن صاحب الرسالة صلّی اللّه عليه و آله و سلّم فی ذلک.

أما الصلاة فی السفينة فإن العلماء أجازوا القعود فيها للضرورة،و ذلک لخوف الغرق،أو لدوران الرأس،أو غير ذلک من الأعذار،و لم يقل أحد بجوازها مطلقا إلا أبو حنيفة و قد مر ذلک.

القراءة:

اشارة

اختلف المسلمون فی القراءة هل تتعين الفاتحة فی كل الركعات؟أم فی

1- (1) انظر مغنی المحتاج للشربينی 1-155.

2- (2) الغنية-131.

3- (3) الحديث أخرجه البخاری و أبو داود و النسائی و هو قوله صلّی اللّه عليه و آله و سلّم-لعمران بن حصين-:(صل قائما، فإن لم تستطع فقاعدا؛فإن لم تستطع فعلی جنب)و زاد النسائی:(فإن لم تستطع فمستلقيا).

4- (4) المغنی لابن قدامة 2-146.

الركعتين الأوليين فقط؟أو لا تتعين فى شىء من ذلک؟و هل البسملة جزء منها أم لا؟.

أما تعيين الفاتحة دون غيرها فى الصلاة فذهب إلى ذلک الشيعة،و المالكية و الشافعية،و الحنابلة؛و عن أحمد بن حنبل رواية بعدم التعيين و الاجتزاء بآية من القرآن من أى موضع كان (1)و هذا مذهب أبى حنيفة كما سيأتى:

و قد وردت أحاديث عن صاحب الرسالة صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بتعيين قراءة الفاتحة دون غيرها:

فمنها ما رواه عبادة بن الصامت أن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال:«لا صلاة لمن لا يقرأ بفاتحة الكتاب»رواه البخارى،و مسلم،و أصحاب السنن،و هو متفق عليه.

و عن عائشة قالت:سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يقول:«من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهى خداج».

رواه أحمد و ابن ماجة،و عن أبى هريرة،أن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أمره أن يخرج فينادى:

«لا صلاة إلا بقراءة فاتحة الكتاب»رواه أحمد و أبو داود.و إن كان حديث أبى هريرة لا يصح الاستدلال به،و لكن شواهده كثيرة و فى حديث أبى هريرة هذا من لا يعتمد على روايته (2).

و كيف كان فإن الأحاديث متواترة فى تعيين فاتحة الكتاب فى الصلاة،و أنه لا يجزى غيرها؛و قد ذهب علماء المسلمين من الصحابة،و التابعين،فمن بعدهم إلى ذلک.

أما أبو حنيفة فذهب إلى عدم التعيين،و الاكتفاء بقراءة آية واحدة و دليله فى ذلک قوله تعالى: فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ و هو أمر بمطلق القراءة من دون تعيين للفاتحة.(و ليس فى شىء من الصلوات قراءة سورة بعينها) (3).

و لا حجة فيما احتج به و قد أبطله علماء المذاهب بأدلة كثيرة (4)يطول التعرض لها و الأحاديث النبوية شاهدة على التعيين بالفاتحة.

1- (1) المغنى لابن قدامة 1-476.

2- (2) نيل الأوطار 2-214.

3- (3) الهداية ج 1 ص 36.

4- (4) نيل الأوطار 2-214.

و اختلف مشايخ الحنفية فى الآية القصيرة كقوله تعالى: ثُمَّ نَظَرَ فعند أبى حنيفة -فى أظهر الروايات عنه-أنها تجزى.و عند صاحبيه أبى يوسف و محمد لا يجزى إلا ثلاث آيات قصار نحو ثُمَّ نَظَرَ. ثُمَّ عَبَسَ وَ بَسَرَ. ثُمَّ أَدْبَرَ وَ اسْتَكْبَرَ ،أو آية طويلة هو مقدار ثلاث آيات قصار.

أما الآية التى هى حرف واحد أو كلمة واحدة مثل(ق،ص،ن)فإن كل حرف منها آية عند بعض القراء،أو كلمة(مدهامتان).فمنهم من جوز ذلک،و منهم من لم يجوز.

و كذلک اختلف الحنفية فى الآية الطويلة،كآية المداينة و هى قوله تعالى:

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا تَدايَنْتُمْ بِدَيْنٍ الآية.فلو قرأ المصلى نصفا منها فى ركعة،و البعض الآخر منها فى الركعة الأخرى.فقال بعضهم:لا يجوز لأنها دون آية.و قال بعضهم:

بالجوز على قول أبى حنيفة (1).

وجوب القراءة بالعربية:

تجب القراءة باللغة العربية،و لا يجزى غيرها من اللغات،و يجب التعلم على ما لا يحسنها،هذا ما عليه مذهب الشيعة،و وافقهم الشافعية و الحنابلة (2)و هو قول مالک.

أما الحنفية فقد أجاز أبو حنيفة القراءة بالفارسية مطلقا،كما أجاز بها الأذان، و التلبية،و التسمية فى الذبح (3).

و أجاز أبو حنيفة قراءة التوراة فى الصلاة،إذا كان ما يقرؤه موافقا لما فى القرآن،لأنه يجوز عنده قراءة القرآن بالفارسية و غيرها من الألسنة،فيجعل كأنه قرأ القرآن بالسريانية فتجوز الصلاة عنده لهذا (4).

و خالفه أبو يوسف و محمد،لأن القرآن اسم لمنظوم عربى كما نطق به النص.

إلا أنه عند العجز يكتفى بالمعنى كالإيماء (5).

1- (1) انظر الغنية 137 و 138. [1]

2- (2) انظر المهذب 1-73 و المغنى لابن قدامة 1-487.

3- (3) المبسوط 1-37.

4- (4) انظر المبسوط 1-234.

5- (5) الهداية 1-30.

و لا يسع المقام استيفاء جميع موارد الخلاف فى المسألة،لأن فيها مسائل كثيرة وقع الاختلاف بها.

و قد أجمع الشيعة على وجوب الفاتحة فى صلاة الصبح و الركعتين الأوليين من سائر الفرائض،و قراءة سورة كاملة غيرها بعدها،إلا فى المرض،و الاستعجال، و ضيق الوقت،فيجوز الاقتصار على الحمد.

و لا يجوز تقديم السورة على الحمد،و لا يجوز قراءة السور الطوال التى يفوت الوقت بقراءتها.

و البسملة جزء من كل سورة،فيجب قراءتها إلا سورة براءة،و تجب القراءة بالعربية و لا يجوز غيرها،كما تجب عليه القراءة الصحيحة بأداء الحروف و إخراجها من مخارجها على النحو اللازم من لغة العرب،و أن تكون هيئة الكلمة موافقة للأسلوب العربى من حركة البنية و سكونها،و حركات الإعراب و البناء و سكناتها، و الحذف و القلب،و الإدغام،و المد الواجب فإذا أخل بشىء بطلت.

و يجب على الرجال الجهر فى الصبح و الأوليين من المغرب و العشاء، و الإخفات فى الظهر و العصر.

و يتخير المصلى فى ثالثة المغرب و أخيرتى الرباعيات بين الفاتحة و التسبيح و صورته:

سبحان اللّه و الحمد للّه و لا إله إلا اللّه و اللّه أكبر.و يجزى مرة واحدة و قيل ثلاثة و تجب المحافظة على العربية فيها.

و أما الخلاف فى<بسم الله الرحمن الرحيم

و قد ذهب العلماء فيها إلى مذاهب:فأبو حنيفة و مالک و أحمد-فی روایة عنه- أن بسم اللّه الرحمن الرحيم ليست بآية فی الفاتحة و لا أوائل السور.

و قال الشافعی:هی آية فی أول الفاتحة قولا واحدا،و أن من تركها فی الصلاة أو حرفا واحدا منها لم تجزه الركعة التی تركها فيها (1).و اختلف قوله فی غيرها من السور (2).

و كان مالک يستفتح القراءة بالحمد دون البسملة،و يقرؤها بعد ذلک بين كل سورتين إلا سورة براءة،و أصحابه يقرءونها فی النوافل (3).

و أما كيفية قراءتها على جهة الوجوب أو الاستحباب؟فقد اختلفوا فی ذلک أيضا فمذهب أبی حنيفة و أحمد:أن قراءتها سرا لا جهرا،و مذهب الشافعی الجهر بها فی الجهرية،و مذهب مالک عدم قراءتها سرا و جهرا.

و ذهب ابن أبی ليلى و إسحاق و الحكم،إلى التخيير فمن شاء جهر،و من شاء خافت.

و عند الشيعة هی جزء من كل سورة،فيجب قراءتها عدا سورة براءة.و وافقهم الشافعية،فإن الصحابة أجمعوا على إثباتها فی المصحف بخطه فی أوائل السور سوى براءة فلو لم تكن قرآنا لما أجازوا ذلک لكونه يحمل على اعتقاد ما ليس بقرآن قرآنا،و لو كانت لمجرد الفصل لأثبتت أول براءة.

و لا حجة للنافين بحديث أنس أن النبی صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أبا بكر و عمر كانوا يفتتحون الصلاة بالحمد للّه رب العالمين.

و فی رواية عنه:صليت مع أبی بكر،و عمر و عثمان،فلم أسمع أحدا منهم يقرأ بسم اللّه الرحمن الرحيم.

و فی رواية عنه أيضا:لا يذكرون بسم اللّه الرحمن الرحيم فی أول قراءتها و لا فی آخرها.

فهذه الروايات لا تدل على شیء يصح الاستدلال به هذا بالإعراض عن مناقشتها سندا.

1- (1) العدة 2-410.

2- (2) أحكام القرآن لابن العربی. [1]

3- (3) المنتقى 1-151.

قال ابن عبد البر فی الاستذکار بعد سرده روایات حدیث أنس ما لفظه:هذا اضطراب لا یقوم معه حجة لأحد الفقهاء الذین یقرءون«بسم اللّه الرحمن الرحیم» و الذین لا یقرءون بها و قد سئل أنس عن ذلک فقال:کبرت و نسیت (1).

و عن أبی سلمة سعید بن زید قال:سألت أنس بن مالک أ کان رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یستفتح بالحمد للّه رب العالمین أو بسم اللّه الرحمن الرحیم؟فقال:إنک تسألنی عن شیء لا أحفظه،و لا سألنی عنه أحد قبلک (2).

و قد روی البخاری عن قتادة قال:سئل أنس کیف کانت قراءة النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم؟ فقال:کانت مدا،ثم قرأ(بسم اللّه الرحمن الرحیم...الخ)و فی هذا دلالة علی مشروعیة البسملة،و أن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کان یمد قراءته بها،و قد استدل به القائلون باستحباب الجهر بقراءة البسملة فی الصلاة.

و أما ما ذکروه عن ابن مغفل و نهی أبیه له عن قراءة بسم اللّه الرحمن الرحیم فلا حجة فیه لجهالة الراوی و ضعف الحدیث و طعن الحفاظ بصحته.

و إن الأحادیث التی وردت عن قراءة الرسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لها و انها من القرآن کثیرة منها:

حدیث أم سلمة عند ما سئلت عن قراءة رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم؟فقالت:کان یقطع قراءته آیة آیة بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ. اَلْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعالَمِینَ. اَلرَّحْمنِ الرَّحِیمِ. مالِکِ یَوْمِ الدِّینِ .

رواه أحمد و أبو داود و منها حدیث ابن عباس قال:کان رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یفتتح ببسم اللّه الرحمن الرحیم.أخرجه الترمذی.

و غیر ذلک من الأحادیث الواردة عن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و قد جاء من طریق أهل البیت ما یؤیدها و یدل دلالة صریحة علی أنها جزء من کل سورة.

قال الشوکانی و ذکر البیهقی فی الخلافیات أنه أجمع آل رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم علی الجهر ببسم اللّه الرحمن الرحیم.و مثله فی الجامع الکافی و غیره من کتب العترة،و قد

1- (1) انظر سبل السلام فی شرح بلوغ المرام للکحلانی 1-172.

2- (2) العدة للسید محمد بن إسماعیل الصنعانی 1-410.

ذهب جماعة من أهل البيت إلى الجهر بالبسملة (1).

و قد أنكر الصحابة على معاوية عند ما ترک قراءة البسملة قبل السورة و قالوا:

سرقت الصلاة أم نسيت؟!و بهذا استدل الشافعى و بغيره من الأحاديث (2).

قال الشيخ محمد رشيد:فالحق الصريح مع القائلين بأن البسملة آية من الفاتحة،و أن قراءتها واجبة،فإنه لا يوجد فى ديننا و لا فى شىء مما تناقله البشر خلفا عن سلف أصح من نقل هذا القرآن بالكتابة،ثم بحفظ الألوف له،و لا سيما فاتحته فى عصر التنزيل ثم حفظ كل ما دخل فى الإسلام لها جيلا بعد جيل.

و أظهر ما قيل فى الأحاديث النافية لقراءة بسملتها فى الصلاة أن المراد عدم الجهر بها،و عدم سماع الراوى،و أكثر الناس لا يسمعون أول قراءة الإمام لاشتغالهم بالتكبير و دعاء الافتتاح،و لأن العادة الغالبة على الناس أن القارئ يرفع صوته بالتدريج.ثم إن هذا النفى معارض بإثبات قراءتها و سماع المأمومين لها و منهم أنس (3)الذى اعتمد النافون على روايته.و هذه المسألة من المسائل التى كثر فيها الخلاف حتى قالوا:هل يكفر من يقول بجزئيتها أو نفيها لأنه إثبات ما ليس من القرآن أو نفى ما هو منه؟و لكنهم نقلوا الإجماع على عدم التكفير لكثرة الخلاف.

الركوع:

و هو التواضع و التذلل و فى الصلاة الانحناء بصورة مخصوصة و قد اتفق المسلمون على وجوبه فى الصلاة و اختلفوا فى مقدار الواجب منه و الطمأنينة و هى السكون و استقرار جميع الأعضاء حين الركوع.

و هو ركن عند الشيعة تبطل الصلاة بزيادته و نقيصته عمدا أو سهوا عدا صلاة الجماعة فلا تبطل بزيادته للمتابعة بمعنى لو رفع رأسه قبل الإمام ظانا أنه رفع رأسه ثم عاد للركوع.

و كذلک النافلة فلا تبطل بزيادته سهوا،و يجب فيه أمور:

1- (1) انظر نيل الأوطار 2-200.

2- (2) انظر الأم 1-108.

3- (3) انظر المغنى لابن قدامة 1-478 تعليقة.

1-الانحناء بقصد الخضوع قدر ما تصل أطراف الأصابع إلى الركبتين.

2-الذكر و يجب منه سبحان ربى العظيم و بحمده،أو سبحان اللّه ثلاثا و يشترط فيه العربية.

3-الطمأنينة كما تقدم.

4-رفع الرأس منه حتى ينتصب قائما.

5-الطمأنينة حالة القيام.

و يستحب فيه التكبير،و رفع اليدين حال التكبير،و وضع الكفين على الركبتين، اليمنى على اليمنى،و اليسرى على اليسرى،ممكنا كفيه من عينيهما،ورد الركبتين إلى الخلف،و تسوية الظهر؛و مد العنق موازيا للظهر،و أن يكون نظره بين قدميه،و أن يجنح بمرفقيه و تكرار التسبيح ثلاثا،أو خمسا،أو سبعا،و أن يدعو بالمأثور:اللهم لک ركعت...الخ،و أن يقول بعد الانتصاب:سمع اللّه لمن حمده.

و يكره فيه أن يطأطئ رأسه أو يرفعه إلى فوق و يضم يديه إلى جنبيه و أن يقرأ القرآن فيه و أن يجعل يديه تحت ثيابه فيه.

و لا خلاف بين المذاهب فى ركنية الركوع،و ركنيته عند أبى حنيفة و محمد متعلقة بأدنى ما يطلق عليه اسم الركوع،و على هذا فلا يشترط الطمأنينة (1).

و بهذا يظهر خلاف أبى حنيفة لبقية المذاهب فى اشتراط الطمأنينة لأنها عنده سنة،و عند الشيعة و المالكية و الشافعية و الحنابلة الطمأنينة فرض (2)و عند أبى يوسف الطمأنينة مقدار تسبيحة واحدة فرض (3).

أما رفع الرأس من الركوع و الاعتدال فهو واجب عند الشيعة و به قال الشافعى، و أحمد،و هو المشهور و المعول عليه من مذهب مالک.

و قال أبو حنيفة:لا يجب بل يجزى أن ينحط من الركوع إلى السجود (4).

1- (1) الغنية-139.

2- (2) الرحمة فى اختلاف الأئمة لعبد الرحمن الدمشقى 1-45. [1]

3- (3) بدائع الصنائع 1-162.

4- (4) المصدر السابق 1-75.

و أما الذكر فهو واجب عند الشيعة و وافقهم الحنابلة فی وجوبه.

و صورته عندهم:سبحان ربی العظيم و بحمده ثلاثا و هی أدنی الكمال و إن قال مرة أجزأه.

و عند الشافعية أن ذلک علی الاستحباب (1)و ليس بواجب و قال مالک:ليس عندنا فی الركوع و السجود شیء محدود،و قد سمعت أن التسبيح فی الركوع و السجود (2).

و قد ذهب إلی وجوب التسبيح إسحاق بن راهويه و عنده أن تركه عمدا موجب للإعادة.

و قال الظاهری:إنه واجب مطلقا.

و احتج الحنابلة للوجوب برواية عقبة بن عامر قال:لما نزلت فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّکَ الْعَظِيمِ قال النبی صلّی اللّه عليه و آله و سلّم:اجعلوها فی ركوعكم.

و عن ابن مسعود أن النبی صلّی اللّه عليه و آله و سلّم قال:«إذا ركع أحدكم فليقل ثلاث مرات (سبحان ربی العظيم)و ذلک أدناه»؛أخرجهما أبو داود و ابن ماجة.

و روی حذيفة أنه سمع رسول اللّه صلّی اللّه عليه و آله و سلّم يقول إذا ركع:(سبحان ربی العظيم) ثلاث مرات رواه الأثرم و رواه أبو داود و لم يقل ثلاث مرات و يجزئ تسبيحة واحدة لأن النبی صلّی اللّه عليه و آله و سلّم أمر بالتسبيح فی حديث عقبة،و لم يذكر عددا،فدل علی أنه يجزی أدناه...الخ (3).

و قال الشوكانی:و الحديث(أی حديث حذيفة)يدل علی أن التسبيح فی الركوع و السجود بهذا اللفظ فيكون مفسرا لقوله صلّی اللّه عليه و آله و سلّم فی حديث عقبة:اجعلوها فی ركوعكم، اجعلوها فی سجودكم،و إلی ذلک الجمهور من أهل البيت و به قال جميع من عداهم.

و قال الهادی و القاسم و الصادق:إنه سبحان اللّه العظيم و بحمده فی الركوع و سبحان اللّه الأعلی و بحمده فی السجود،و استدلوا بظاهر قوله تعالی: فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّکَ الْعَظِيمِ و سَبِّحِ اسْمَ رَبِّکَ الْأَعْلَی ...الخ (4).

1- (1) المهذب 1-75.

2- (2) المغنی لابن قدامة.

3- (3) المغنی لابن قدامة 1-501.

4- (4) نيل الأوطار 2-245.

أقول:و الصحيح هو قول سبحان ربى العظيم و بحمده و سبحان ربى الأعلى و بحمده كما هو المشهور عند الشيعة و المروى عن أهل البيت و عليه العمل.

و قد وافقهم أحمد بن حنبل بذلک و أنه لا بأس به،و قد سأله أحمد بن نصر عن تسبيح الركوع و السجود أيهما أحب أو أعجب إليک؟سبحان ربى العظيم أو سبحان ربى العظيم و بحمده؟.

فقال أحمد بن حنبل:قد جاء هذا و جاء هذا و ما أدفع منه شيئا.و قال أيضا:إن قال(المصلى):و بحمده فى الركوع و السجود أرجو أن لا يكون به بأس،و ذلک لأن حذيفة روى فى بعض طرق حديثه أن النبى عليه السّلام كان يقول فى ركوعه:سبحان ربى العظيم و بحمده و فى سجوده سبحان ربى الأعلى و بحمده و هذه زيادة يتعين الأخذ بها...الخ (1).

السجود:

و هو سجدتان فى كل ركعة و هما ركن من أركان الصلاة و لا خلاف بين المسلمين فى وجوبهما و لكن الخلاف فى الكيفية.

و قد اتفق علماء الإسلام على وجوب السجود على الجبهة و وضعها على الأرض و لم يخالف فى ذلک إلا أبو حنيفة فإنه ذهب إلى التخيير بين الجبهة و الأنف (2).

أما بقية أعضاء السجود و هى الكفان و الركبتان و إبهاما الرجلين،فقد اختلفوا فى وجوب السجود عليها،فعند الشيعة و الحنابلة و الشافعى فى أحد قوليه أنه واجب و عند مالک أن الفرض يتعلق بالجبهة و الأنف فإن أخل به أعاد فى الوقت.

و عند الحنفية:أن وضع اليدين و الركبتين فى السجود ليس بواجب بل يجب وضع القدمين أو أحدهما،فلو سجد و لم يضع قدميه أو أحدهما على الأرض لا يجوز سجوده،و لو وضع أحدهما جاز كما لو قام على قدم واحدة (3).

1- (1) المغنى 1-502.

2- (2) المجموع للنووى 3-424.

3- (3) الغنية 140. [1]

و الأحاديث الواردة عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم تدل على وجوب وضع الأعضاء السبعة على الأرض منها قوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:(أمرت أن أسجد على سبعة أعظم:اليدين،و الركبتين، و القدمين،و الجبهة)و هذا الحديث متفق عليه و أخرجه البخارى و مسلم و الجماعة.

و قوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:(إذا سجد العبد سجد معه سبعة أراب:وجهه،و كفاه و قدماه)رواه الجماعة إلا البخارى.

و قال الإمام الباقر عليه السّلام:قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«السجود على سبعة أعظم:

الجبهة،و اليدين،و الركبتين،و الإبهامين من الرجلين،و ترغم أنفك إرغاما»أما الفرض فهذه السبعة و أما الإرغام بالأنف فسنة.

و أما ما روى من أحاديث فيها ذكر الأنف كحديث عكرمة فهو لا يصح الاستدلال به لإرساله و لا يقاوم الأحاديث الصحيحة،و حمل ورود السجود على الأنف فى بعض الأخبار على الاستحباب.

و قد تمسک أبو حنيفة ببعضها و لعله ذهب إلى أن الجبهة و الأنف عضو واحد و لم يذهب إلى ذلک أحد.

قال ابن المنذر:لا أعلم أحدا سبقه إلى هذا القول و لعله ذهب إلى أن الجبهة و الأنف عضو واحد،لأن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لما ذكر أشار إلى أنفه،و العضو الواحد يجزئه فى السجود على بعضه،و هذا قول يخالف الحديث الصحيح و الإجماع الذى قبله فلا يصح (1).

و قد نقل ابن المنذر إجماع الصحابة على أنه لا يجزى السجود على الأنف وحده.

و خالفه صاحباه أبو يوسف و محمد الشيبانى فقالا:لا يجوز إلا من عذر (2).

و أما مباشرة الجبهة للأرض فهو واجب عند الشيعة و قال النووى:إن العلماء مجمعون على أن المختار مباشرة الجبهة للأرض و أما المروى عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنه سجد على كور عمامته فليس بصحيح،قال البيهقى:فلا يثبت فى هذا شىء،و أما القياس

1- (1) ابن قدامة 1-517. [1]

2- (2) الاختيار لتعليل المختار 1-50.

على باقى الأعضاء أنه لا يختص وضعها على قول،و إن وجب ففى كشفها مشقة بخلاف الجبهة (1).

و على أى حال:فإن عمل النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أقواله تدل على ذلک و كان الصحابة يسجدون على الأرض و شكوا إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حر الرمضاء فلم يشكهم و كانوا يسوون التراب للسجود عليه (2)و كان بعضهم إذا خرج يخرج بلبنة يسجد عليها فى السفر (3).

و قد تقدم الكلام فى هذا الكتاب (4)حول موضع الجبهة فى السجود فلا حاجة إلى الإطالة.

أما واجبات السجود عند الشيعة فهى:

1-وضع المساجد السبعة على الأرض كما تقدم الكلام فيه.

2-الذكر الواجب و الكلام فيه كالركوع.

3-الطمأنينة بمقدار الذكر الواجب و خلاف المذاهب كالخلاف فى الركوع.

4-رفع الرأس ثم الجلوس بعده مطمئنا ثم الانحناء للسجدة الثانية.

و وافقهم الشافعى و مالک و أحمد و قال أبو حنيفة:لا يجب ذلک بل هو سنة.

و وافقهم الشافعى و مالک و أحمد و قال أبو حنيفة:لا يجب ذلک بل هو سنة.

5-كون المساجد السبعة فى محالها إلى تمام الذكر الواجب فلو رفع بعضها بطل و أبطل إن كان عمدا،و يجب تداركه إن كان سهوا.

6-مساواة موضع الجبهة للموقف بمعنى عدم علوه و انخفاضه أزيد من مقدار لبنة أو أربع أصابع.و عند الحنفية مقدار ارتفاع لبنتين منصوبتين و المراد بهما لبنة بخارى و هى ربع ذراع عرضه ست أصابع فمقدار ارتفاع اللبنتين المنصوبتين نصف ذراع اثنتا عشرة إصبعا.

7-وضع الجبهة على ما يصح السجود عليه من الأرض و ما نبت منها غير المأكول و الملبوس،و قد تقدم الخلاف فيه.

1- (1) المجموع 3-426.

2- (2) شرح صحيح مسلم 5-37.

3- (3) طبقات ابن سعد 6-79 [1] ط 2.

4- (4) انظر 5-281 من هذا الكتاب.

8-طهارة موضع الجبهة (1).

9-المحافظة على العربية،و الموالاة فى الذكر.

التشهد:

و اختلفوا فى التشهد الأول فقال الشيعة بوجوبه و وافقهم أحمد بن حنبل و قال أبو حنيفة و مالک و الشافعى باستحبابه.

و صورة التشهد الواجب عند الشيعة:أشهد أن لا إله إلا اللّه وحده لا شريک له، و أشهد أن محمدا عبده و رسوله،اللهم صل على محمد و آل محمد.

أما غيرهم فاتفقوا على أنه يجزى كل واحد من التشهد الوارد من طريق الصحابة:عبد اللّه بن عمر،و عبد اللّه بن مسعود،و عبد اللّه بن عباس.

فاختار الشافعى و أحمد تشهد ابن عباس،و أبو حنيفة تشهد ابن مسعود و مالک تشهد ابن عمر.

فتشهد ابن عباس صورته:التحيات المباركات الصلاة الطيبات،السلام عليک أيها النبى و رحمة اللّه و بركاته،السلام علينا و على عباد اللّه الصالحين،أشهد أن لا إله إلا اللّه و أشهد أن محمدا رسول اللّه،رواه مسلم فى صحيحه.

و أ ما تشهد ابن مسعود:التحيات للّه و الصلاة و الطيبات السلام عليک أيها النبى و رحمة اللّه و بركاته،إلى آخر ما رواه البخارى.

و تشهد ابن عمر:بسم اللّه التحيات للّه الصلوات للّه الزاكيات للّه السلام على النبى و رحمة اللّه و بركاته السلام علينا و على عباد اللّه الصالحين،شهدت أن لا إله إلا اللّه شهدت أن محمدا رسول اللّه.يقول هذا فى الركعتين الأوليين (2).

التسليم:

اختلفوا فى وجوب التسليم فهو عند الشيعة واجب و جزء من الصلاة فيجب فيه جميع ما يشترط فيها،و به يخرج المصلى من الصلاة و تركه عمدا مبطل،و وافقهم فى الوجوب مالک،و الشافعى،و أحمد.

1- (1) انظر الجزء الخامس من هذا الكتاب 293-394.

2- (2) شرح الموطأ للزرقانى 1-188.

و قال أبو حنيفة:هو سنة لو تركه صحت صلاته،و لو فعل فعلا منافيا للصلاة من حدث و غيره فى آخرها صحت صلاته.

و صورة التسليم عند الشيعة،أن يقول المصلى-بعد أن يفرغ من صلاته و يشهد الشهادتين و يصلى على النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم- كما فى التشهد الأول-:السلام عليک أيها النبى و رحمة اللّه و بركاته،السلام علينا و على عباد اللّه الصالحين،السلام عليكم و رحمة اللّه و بركاته.

و الواجب منه إحدى الصيغتين فإن قرأ الصيغة الأولى-و هى السلام علينا و على عباد اللّه الصالحين-كانت الثانية مستحبة،و إن قرأ الثانية و هى:السلام عليكم و رحمة اللّه و بركاته اقتصر عليها،و أما السلام عليک أيها النبى و رحمة اللّه و بركاته فليس من صيغ السلام بل هو من توابع التشهد و ليس واجبا بل هو مستحب،و قيل:إنه واجب.

و يجب فيه المحافظة على أداء الحروف و الكلمات على النهج الصحيح مع العربية و الموالاة.

و اختلفوا فى الواجب من السلام فقال أبو حنيفة و أحمد:هو تسليمتان و قال مالک:واحدة.و للشافعى قولان أصحهما تسليمتان،و قال مالک:التسليمة الأولى فرض على الإمام و المنفرد،و زاد الشافعى و على المأموم،و قال أبو حنيفة:ليست بفرض و عن أحمد روايتان المشهور منهما أن التسليمتين جميعا واجبتان،و التسليمة الثانية سنة عند أبى حنيفة.

نية الخروج من الصلاة:

اختلفوا فى نية الخروج من الصلاة،فالشيعة لم يشترطوا ذلک لأن السلام هو المخرج قهرا،إذ الصلاة تحريمها التكبير و تحليلها التسليم،و وافقهم الشافعى فى أصح الأقوال عنه.

و عند أبى حنيفة:الخروج من الصلاة بفعل المصلى فرض،و خالفه صاحباه (1)و مراده بفعل المصلى:هو كل فعل اختيارى بأى وجه كان من قول،أو فعل ينافى الصلاة بعد تمامها،أو يضحک قهقهة،أو يحدث عمدا،أو يتكلم أو يذهب (2).

1- (1) الغنية-144.

2- (2) انظر ضوء الشمس لأبى المهدى 1-175.

و اختلف الحنفية فی فرضيته فذهب البردعی إلی ذلک،و تبعه کثير منهم،و إذا قعد المصلی قدر التشهد فأحدث عمدا،أو تکلم،أو عمل عملا ينافی الصلاة، کالأکل و الشرب،تمت صلاته بالاتفاق عندهم،لتمام جميع فرائضها،و إن سبقه الحدث من غير تعمد منه فی هذه الحالة فکذلک تمت صلاته عند أبی يوسف و محمد:

و قال أبو حنيفة:يتوضأ،و يخرج عن الصلاة بفعله قصدا،فلو لم يتوضأ و لم يخرج بصنعه تبطل صلاته (1).

و هذه المسألة عندهم أصل يبتنی عليه مسائل تلقب بالاثنی عشرية (2).

الصلاة علی النبی صلّی اللّه عليه و آله و سلّم:

و أما وجوب الصلاة علی النبی صلّی اللّه عليه و آله و سلّم فی الصلاة فقد أوجبه الشيعة کما تقدم فی التشهد،و التسليم،و وافقهم الشافعية و الحنابلة.

قال الشافعی:فرض اللّه الصلاة علی رسوله فقال: إِنَّ اللّهَ وَ مَلائِکَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَی النَّبِيِّ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَ سَلِّمُوا تَسْلِيماً .

فلم يکن فرض الصلاة عليه أولی منه فی الصلاة...الخ (3).

و قال أبو إسحاق فی المهذب:فإذا فرغ(المصلی)من التشهد صلی علی النبی صلّی اللّه عليه و آله و سلّم و هو فرض فی الجلوس،لما روت عائشة رضی اللّه عنها:أن النبی صلّی اللّه عليه و آله و سلّم قال:(لا يقبل اللّه صلاة إلا بطهور و بالصلاة علی)و الأفضل عندهم أن يقول:اللهم صلی علی محمد و علی آل محمد کما صليت علی إبراهيم و آل إبراهيم و بارک علی محمد و علی آل محمد کما باررکت علی إبراهيم و آل إبراهيم إنک حميد مجيد (4).

و أما الحنابلة فيوجبون هذه الصورة و هی التی رواها کعب بن عجرد (5).

و ممن قال بوجوب الصلاة علی النبی صلّی اللّه عليه و آله و سلّم بعد التشهد:عمر بن الخطاب و ابنه

1- (1) الغنية 144.

2- (2) نفس المصدر.

3- (3) الأم 1-117.

4- (4) المهذب 1-79.

5- (5) انظر عمدة الفقه-19.

عبد اللّه و ابن مسعود و جابر بن زيد و الشعبى و محمد بن كعب القرضى و غيرهم (1).

و ذهب الشافعى و أحمد فى قوله الأخير إلى بطلان الصلاة بتركه فى التشهد و قال:كنت أتهيب ذلك فإذا الصلاة واجبة (2).

و قد اختلفوا فى صورة الصلاة على النبى فمنها ما رواه البخارى و مسلم و بقية الجماعة ما صورته عن كعب بن عجرد قال:قلنا يا رسول اللّه قد علمنا أو عرفنا كيف السلام عليك فكيف الصلاة؟قال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:قولوا:اللهم صل على محمد و على آل محمد (3)...الخ.و هى الصورة المتقدمة التى اختارها الشافعى و أحمد.

و منها ما أخرجه البخارى فى الأدب المفرد ص 63 من طريق أبى هريرة عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من قال:(اللهم صل على محمد و على آل محمد كما صليت على إبراهيم و على آل إبراهيم و بارك على محمد و على آل محمد كما باركت على إبراهيم و على آل إبراهيم و ترحم على محمد و على آل محمد كما ترحمت على إبراهيم و على آل إبراهيم)شهدت له يوم القيامة بالشهادة و شفعت له.

و منها:ما رواه أبو بكر قال:كيف يصلى عليك يا رسول اللّه؟قال:يقول:

اللهم صلى على محمد و على آل محمد فى الأولين و الآخرين و فى الملأ الأعلى إلى يوم الدين (4).

و منها:عن زيد بن خارجة قال:سألت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كيف الصلاة عليك؟ قال:صلوا و اجتهدوا ثم قولوا:اللهم بارك على محمد و على آل محمد كما باركت على إبراهيم إنك حميد مجيد (5).

و مثله عن بريدة الخزاعى،و طلحة بن عبيد اللّه أخرج ذلك أحمد فى مسنده، و كثير من الأخبار فى ذلك مع اختلاف فى الألفاظ.

1- (1) نيل الأوطار 2-285.

2- (2) المغنى لابن قدامة 1-542.

3- (3) و أخرجه الخطيب فى ج 6-216.

4- (4) كشف الغمة للشعرانى 2-220. [1]

5- (5) أخرجه أحمد فى مسنده ج 2-162 [2] ط 2.

و ذكر الفيروزآبادى فى سفر السعادة قول الإمام إبراهيم المروزى أن أفضلها اللهم صلى على محمد و آل محمد.

و هذا ما اختارته الشيعة و نحن لا نقف هنا طويلا حول بيان المقصود من الآل المشمولين لهذا الحكم،فإن ذلک يستوجب نقاشا طويلا،إذ البحث يدعو إلى استعراض الأقوال الشاذة التى نجمت عن التعصب،و ظهرت على صفحة الأغراض السياسية،و المطامع الدنيوية،فى تحريف لفظ الآل عن مصداقه الصحيح،و انطباقه الحقيقى على أهل البيت الذين أنزل اللّه فيهم: إِنَّما يُرِيدُ اللّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً و قد بين صلّى اللّه عليه و آله و سلّم المقصود منهم فى عدة بيانات و هم:على و فاطمة و الحسن و الحسين صلوات اللّه عليهم و قد تقدم بيان ذلک (1).

مستحبات الصلاة:

اشارة

أما مستحبات الصلاة فهى كثيرة،و لا يسعنا بسط القول فيها،و نحن هنا نذكر مستحبات الصلاة عند كل مذهب من المذاهب،إتماما للفائدة فقد ذكرنا الواجبات قبلها-التى مر بعضها-على سبيل الاختصار و بعدها المستحبات ليطلع القارئ على المفارقات بين كل مذهب،أما الواجبات عند الحنفية فاقتصرنا على ذكر الأركان منها لكثرة الخلاف فيها،و اكتفينا بما ذكرناه مفصلا فى فصل البحث عن الواجبات.

الشيعة:

واجبات الصلاة عند الشيعة أحد عشر:

النية،و القيام،و تكبيرة الإحرام،و الركوع،و السجود،و القراءة،و الذكر، و التشهد،و التسليم،و الترتيب،و الموالاة.

منها أربعة هى أركان تبطل الصلاة بتركها عمدا أو سهوا و هى:تكبيرة الإحرام، و القيام،و الركوع،و السجود.و الباقى أجزاء غير ركنية تبطل الصلاة بتركها عمدا.

و فى ضمن هذه الواجبات واجبات يجب الإتيان بها،و الإخلال بها عمدا

1- (1) تقدم البحث حول آية التطهير [1]فى الجزء الأول من هذا الكتاب.

مبطل،كوجوب الطمأنينة فى أداء الأفعال من ركوع و سجود و غيرها،و قد تقدم ذلک.

و كذلک واجبات القراءة،و تكبيرة الإحرام،مما لا حاجة لإعادته.

>المستحبات:< و هى كثيرة منها ما يأتى فى كل فعل من أفعال الصلاة.

و منها ما هو مستقل كالقنوت فى كل ثانية قبل الركوع و بعد القراءة.

و منها التوجه بست تكبيرات مضافة إلى تكبيرة الإحرام،بأن يكبر ثلاثا،ثم يدعو،ثم يكبر اثنتين،ثم يدعو،ثم يكبر اثنتين،ثم يدعو و يتوجه.

و منها شغل النظر فى حال قيامه إلى موضع سجوده،و فى حال القنوت إلى باطن كفيه،و فى حال الركوع إلى ما بين رجليه،و فى حال السجود إلى طرف أنفه، و فى حال التشهد إلى حجره.

و منها شغل اليدين:بأن يكونا فى حال قيامه على فخذيه بحذاء ركبتيه،و فى حال القنوت إلى تلقاء وجهه،و فى حال الركوع على ركبتيه،و فى حال السجود بحذاء أذنيه و فى حال التشهد على فخذيه.

و منها التعقيب بالأدعية و الأذكار الواردة،و تسبيح الزهراء صلوات اللّه عليها.

و أما بقية المستحبات التى هى فى ضمن الأفعال فكثيرة و قد ذكرنا بعضا منها.

الحنفية:

أركان الصلاة عندهم ثمانية،ستة على الوفاق بين أئمتهم،و اثنان على الخلاف بينهم.

أما المتفق عليها فهى:تكبيرة الافتتاح.و هى شرط لا ركن،و لكنها عدت مع الأركان لشدة اتصالها بها،و القيام،و القراءة،و الركوع،و السجود و القعدة الأخيرة مقدار قراءة التشهد.

أما المختلف فيها فهى:الخروج من الصلاة بصنعة،و الطمأنينة فى الصلاة فذهب أبو يوسف إلى أنها فرض،و عند غيره أنها ليست بفرض،إذ المقصود إيجاد مسمى الركوع أو السجود و غيره.

و أما السنن فهى كثيرة لأن أكثر أفعال الصلاة مستحبة غير واجبة،بمعنى يجوز

ترکها،و لیس علیه شیء فی عدم فعلها،و قد ذکر بعضهم أنها خمسون،و لکن الصحیح أن أکثرها لیست سننا و لکنها آداب کما یقولون و ذکر صاحب المنیة أنها عشرون و هی:الأذان،و رفع الیدین عند تکبیرة الافتتاح مع التکبیر،و نشر الأصابع عند التکبیر،و جهر الإمام بالتکبیر،و الثناء و هو قول:سبحانک اللهم...الخ، و التعوذ،و التسمیة،و التأمین،و الإخفاء بهن،و وضع الیمین علی الشمال،و کون ذلک الوضع تحت السرة للرجل و علی الصدر للمرأة،و التکبیرات التی یؤتی بها فی خلال الصلاة،و تسبیحات الرکوع و السجود،و أخذ الرکبتین بالیدین فی الرکوع، و افتراش الرجل الیسری و القعود علیها،و الصلاة علی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بعد التشهد فی القعدة الأخیرة،و الدعاء فی آخر الصلاة بما یشبه القرآن،و الإشارة بالمسبحة(و هی السبابة) عند الشهادتین.

و اختلفوا فی قراءة الفاتحة فی الرکعتین الأخیرتین.فقیل سنة،و قیل واجب، و کذلک الخروج من الصلاة بلفظ السلام،و قد تقدم و السلام عن الیسار سنة.

و من السنن رفع الرأس من الرکوع،و القیام بعده مطمئنا و غیر ذلک.

و ذکرها بعضهم و بلغ عددها إلی خمسین أو أکثر و لکن فی ضمنها آداب لا سنن.

الشافعیة:

فروض الصلاة عند الشافعیة أربعة عشر:

النیة،و تکبیرة الإحرام،و القیام،و قراءة الفاتحة،و الرکوع مطمئنا و الرفع من الرکوع معتدلا،و السجود مطمئنا و الجلوس بین السجدتین کذلک و الجلوس فی آخر الصلاة،و التشهد فیه،و الصلاة علی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و التسلیمة الأولی،و نیة الخروج،و ترتیب أفعالها.

>السنن:< و سنن الصلاة عندهم خمس و ثلاثون:رفع الیدین فی تکبیرة الإحرام و عند الرکوع،و الرفع منه،و وضع الیمین علی الشمال،و النظر إلی موضع السجود،و دعاء الاستفتاح،و التعوذ،و التأمین،و قراءة السورة بعد الفاتحة و الجهر و الإسرار،

و التكبيرات،سوى تكبيرة الإحرام،و التسميع و التحميد فى الرفع من الركوع، و التسبيح فى الركوع،و التسبيح فى السجود،و مجافاة المرفق عن الجنب فى الركوع و السجود،و إقلال البطن عن الفخذ فى السجود و الدعاء فى الجلوس بين السجدتين، و جلسة الاستراحة،و وضع اليدين على الأرض عند القيام و التورک فى آخر الصلاة، و الافتراش فى سائر الجلسات و وضع اليد اليمنى على الفخذ اليمنى مقبوضة، و الإشارة بالمسبحة(و هى السبابة)و وضع اليد اليسرى على الفخذ اليسرى مبسوطة، و التشهد الأول،و الصلاة على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فيه،و الصلاة على آله فى التشهد الأخير،و الدعاء فى آخر الصلاة،و التسليمة الثانية.

المالكية:

و عند المالكية فروض الصلاة ثلاثة عشر وعدها بعضهم خمسة عشر و هى النية، و تكبيرة الإحرام،و القيام لها،و قراءة الفاتحة،و القيام لها،و الركوع،و الرفع منه، و السجود،و الرفع منه،و الجلوس بقدر السلام،و السلام المعرف بالألف و اللام، و الطمأنينة،و الاعتدال فى الفصل بين الأركان،و منها نية الصلاة المعينة،و نية الاقتداء،و ترتيب الأداء،يعنى أداء الأفعال بأن يأتى بالنية قبل الإحرام،و الإحرام قبل القراءة،و هكذا.

>السنن:< و أما السنن فهى اثنتا عشرة:السورة بعد الفاتحة،و القيام لها،و السر فيما يسر فيه و الجهر فيما يجهر فيه و هو الصحيح و أولتا المغرب و أولتا العشاء،و كل تكبيرة سنة إلا تكبيرة الإحرام،و قول سمع اللّه لمن حمده للإمام و المفرد،و الجلوس الأول على المشهور و قيل واجب و الزائد على قدر السلام من الجلوس الثانى ورد المقتدى على إمامه السلام،و كذا رد السلام على من على يساره إن كان على يساره أحد،و السترة للإمام و الفذ،و أما المأموم فالإمام سترته.

الحنابلة:

و عند الحنابلة فروض الصلاة أربعة و عشرون،خمسة عشر منها أركان و الباقى واجبات و عددها فى العمدة اثنا عشر و الواجب سبعة و فى غاية المنتهى الأركان أربعة عشر،أما الأركان فهى:

القيـام مع القـدرة،و تكبيرة الإـحرام،و قراءة الفاتحـة،و الركوع و الطمأنينـة فيه، و الرفع منه،و السـجود على سـبعة أعضـاء،و الجلوس عنه،و الطمأنينة فى هذه الأركان،و التشهد الأخير،و الجلوس له،و التسليمة الأولى،و ترتيبها على ما ذكر.

فهذه الأركان لا تتم الصلاة إلا بها و لا تسقط عمدا أو سهوا أو جهلا.

و الواجبات سـبعة و قيل تسـعة و هى:التكبير غير تكبيرة الإحرام،و التسبيح فى الركوع و السـجود مرة مرة،و التسميع،و التحميد فى الرفع من الركوع و قول ربى اغفر لى بين السجدتين،و التشهد الأول،و الجلوس له و الصلاة على النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى التشهد الأخير.

فهذه الواجبات إن تركها بطلت صلاته،و إن تركها سهوا سجد لها و ما عدا هذا فسنن و هى:

الاسـتفتاح،و التعوذ،و قراءة بسم اللّه الرحمن الرحيم،و قول آمين،و قراءة السورة بعـد الفاتحة،و قول ملء السـماء بعد التحميد،و ما زاد على التسبيحة الواحدة على الركوع،و السـجود على أنفه،و جلسة الاستراحة على إحدى الروايتين فيها، و الدعاء فى التشـهد الأخير،و القنوت فى الوتر.

مبطلات الصلاة:

اشارة

و هى أمور كثيرة متفق عليهـا و منهـا مختلف فيهـا،و نحن نتعرض هنا للبعض اختصارا للموضوع ثم نفرد لكل مـذهب ما يـذهبون إليه فى ذلک مقتصرين على نقل عبارة كتب المذاهب:

1-الكلاـم:و أقله مـا كـان مركبا من حرفين و لو مهملين غير مفهمين للمعنى،أو بحرف واحـد مفهم للمعنى إن كان عن عمـد هـذا ما عليه الشيعة،و وافقهم الشافعى، و أحمد،و مالک.

أما الحنفية فلم يفرقوا فى الحكم ببطلان الصلاة بالكلام بين صدوره عمدا،أو سهوا.

2-كل فعل ماح لصورة الصلاة،و هذا مبطل بالاتفاق و منهم قيده بالكثرة، و منهم من قيد العمل باليدين كبعض الحنفية.

3-الأكل و الشرب بالاتفاق،و لكن الخلاف فی المقدار المبطل منهما و السهو و العمد.

4-الحدث الأكبر و الأصغر باتفاق،أينما وقع،و لو قبل الأخير بحرف من غير فرق بين العمد و السهو و الاضطرار عدا المسلوس و للشافعی قولان فی الاضطرار، و الأصح البطلان.

و عند الحنفية أن الحدث إذا حدث قبل القعدة بقدر التشهد و إذا طرأ بعده فلا.

و اختلفوا هل يقتضی الإعادة من أولها إذا كان قد ذهب منها ركعة أو ركعتان قبل طروء الحدث،أم يبنی علی ما قد مضی و إليک تفصيل ذلک عند كل مذهب:

الحنفية:

و يفسد الصلاة عندهم أمور هی:

التكلم بحرفين أو حرف مفهم،عمده و سهوه قبل قعوده قدر التشهد،ورد السلام بلسانه لا بيده.

و التنحنح بلا عذر بحرفين،أو غرض صحيح كتحسين صوته أو للإعلام و الدعاء بما يشبه كلام الناس،و الأنين،و التأفيف،و البكاء،إلا لذكر جنة أو نار.

و يفسدها تسميت العاطس لغيره،و جواب خبر سوء بالاسترجاع،و كذا كل ما قصد به الجواب أو الخطاب يا يَحْيى خُذِ الْكِتابَ بِقُوَّةٍ و فتحه علی غير إمامه،بخلاف فتحه علی إمامه.

و الأكل و الشرب مطلقا،إلا إذا كان بين أسنانه مأكول فابتلعه،و القراءة فی المصحف،و كل عمل كثير،و السجود علی نجس،و عند أبی يوسف أن الصلاة لا تفسد بل تفسد السجدة،فلو أعاد السجدة علی طاهر لم تفسد،و يفسدها أداء ركن، أو تمكنه منه مع كشف عورة،أو نجاسة عند أبی يوسف.

و أن يصلی علی مصلی مضرب نجس البطانة بخلاف غير مضرب،و مبسوط علی نجس،إن لم يظهر لون أو ريح،و تحويل صدره عن القبلة بغير عذر،و المشی الكثير،و لو كان معه حجر فرمی به طائرا لم تفسد،و لو رمی إنسانا تفسد،و ارتداد بقلبه،و موت،و جنون،و إغماء؛و كل موجب لوضوء،و ترک ركن بلا قضاء،و شرط

بلا عذر،و مسابقة المؤتم بركن لم يشاركه فيه إمامه،كأن ركع و رفع رأسه قبل إمامه و لم يعد معه (1).

الشافعية:

مبطلات الصلاة عندهم هى:

النطق بحرفين أو حرف مفهم؛و كذا مده بعد حرف فى الأصح،و التنحنح، و الضحک؛و البکاء،و الأنين،إن ظهر به حرفان و إلا فلا،و يعذر فى يسير الكلام،إن سبق لسانه أو نسى الصلاة،أو جهل تحريمه؛إن قرب عهده بالإسلام لا كثيره فى الأصح،و لو أكره على الكلام بطلت فى الأظهر،و لو نطق بنظم القرآن بقصد التفهيم،ک يا يَحْيى خُذِ الْكِتابَ ،إن قصد معه قراءة لم تبطل،و إلا بطلت و لا تبطل بالذكر و الدعاء،إلا أن يخاطب كقوله للعاطس:يرحمک اللّه،و لو سكت طويلا بلا غرض لم تبطل فى الأصح.

و يسن لمن نابه شىء كتنبيه إمامه،و إذنه،و إنذاره أعمى أن يسبح و تصفق المرأة بضرب اليمين على ظهر اليسار،و لو فعل فى صلاته غيرها،إن كان من جنسها بطلت إلا أن ينسى و إلا فتبطل بكثيره لا قليله،و الكثرة بالعرف،فالخطوتان أو الضربتان قليل و الثلاث كثير إن توالت،و تبطل بالوثبة الفاحشة،لا الحركات الخفيفة المتوالية، كتحريک أصابعه أو حک فى الأصح.

و سهو الفعل الكثير كعمده فى الأصح،و تبطل بقليل الأكل إلا أن يكون ناسيا أو جاهلا تحريمه،فلو كان بفمه سكرة فبلع ذوبها بطلت فى الأصح (2)...الخ.

و قال أبو إسحاق الشيرازى:إذا قطع شرطا من شروطها كالطهارة و الستار و غيرهما،بطلت صلاته،فإن سبقه الحدث ففيه قولان قال فى الجديد:تبطل صلاته، لأنه حدث يبطل الطهارة.و قال فى القديم:لا تبطل صلاته،بل ينصرف و يتوضأ و يبنى على صلاته (3)...الخ.

1- (1) انظر حاشية ابن عابدين:شرح تنوير الأبصار 1-641.

2- (2) انظر منهاج الطالبيين للنووى-11.

3- (3) المهذب 1-88.

المالكية:

و المبطلات عند المالكية هى:

ترک رکن من أرکانها عمدا،و ترک رکن من أرکانها سهوا،و لم یتذکر حتی سلم معتقدا الکمال و طال الأمر عرفا.

أما إذا سلم معتقدا الکمال ثم تذکر عن قرب فإنه یلغی رکعة النقص،و یبنی علی غیرها،و تصح صلاته،و أما إذا لم یسلم معتقدا الکمال بأن لم یسلم أصلا أو سلم غلطا-فإن کان الرکن المتروک من الرکعة الأخیرة فإنه یأتی به و یتمم صلاته،و إن کان من غیر الأخیرة إن لم یعقد رکوع الرکعة التالیة لرکعة النقص فإن عقد رکوع الرکعة التالیة ألغی رکعة النقص،و لا یأتی بالرکن المتروک(و عقد الرکوع یکون برفع الرأس منه مطمئنا إلا فی ترک الرکوع فإن عقد التالیة یکون بمجرد الانحناء فی رکوعها).

و منها:رفض النیة و إلغاؤها،و زیادة رکن،و القهقهة عمدا أو سهوا،و الأکل و الشرب عمدا،و الکلام لغیر إصلاح الصلاة عمدا،فإن کان الکلام لإصلاحها:فإن الصلاة تبطل بکثیره دون یسیره،و تعمد النفخ بالفم،و التصویت و القیء عمدا و لو کان قلیلا،و السلام حال الشک فی تمام الصلاة،و طروء ناقض للوضوء،و سقوط النجاسة علی المصلی أو علمه بها أثناء الصلاة و فتح المصلی علی غیر إمامه،و العمل الکثیر الذی لیس من جنس الصلاة،و طروء شاغل عن إتمام فرض کاحتباس بول یمنع من الطمأنینة مثلا.

و ترک ثلاث سنن من سنن الصلاة سهوا (1)مع ترک السجود لها حتی سلم و طال الأمر عرفا.

الحنابلة:

تبطل الصلاة عندهم بأمور هی:

من زاد فعلا من جنس الصلاة عمدا بطلت،و سهوا یسجد له،و إن قام لزائدة

1- (1) انظر مختصر خلیل فی الفقه المالکی ص 24 و الجواهر الزکیة فی حل ألفاظ العشماویة 151 و الفقه علی المذاهب الأربعة 1-222. [1]

جلس متی ذکر و تشهد إن لم یکن تشهد و سجد و سلم،و إن نبهه ثقتان فلم یرجع بطلت صلاته إن لم یجزم بصواب نفسه،و صلاة من تبعه عالما لا جاهلا أو ناسیا، و لا من فارقه و عمل متوال مستکثر عرفا من غیر جنسها بلا ضرورة سهوا،و لا تبطل بیسیر أکل و شرب سهوا،و لا نفل بیسیر شرب عمدا.

و إن سلم قبل إتمامها عمدا بطلت،و سهوا فإن ذکر قریبا و لو خرج من المسجد أو شرع فی أخری،و بقطعها تکلم یسیر لمصلحتها أتمها و سجد،و إن أحدث أو قهقه بطلت کفعلهما فی صلبهما،و إن نفخ أو انتحب لا من خشیة اللّه تعالی أو تنحنح بلا حاجة فبان حرفان بطلت،و من ترک رکنا غیر تکبیرة الإحرام فذکره بعد شروعه فی قراءة رکعة أخری بطلت المتروک فیها،و صارت التی شرع فی قراءتها مکانها،و إن قبله یعود فیأتی به و بما بعده و بعد سلامه فکترک رکعة ما لم یکن تشهدا آخر،و کره إن استتم قائما،و حرم رجوعه،و بطلت إن شرع فی القراءة لا إن نسی أو جهل تحریم رجوعه،و یجب السجود لذلک السهو مطلقا.

و یبنی علی الیقین من شک فی رکن أو عدد،و لا سجود لشک فی ترک واجب أو زیادة،إلا إذا شک فی وقت فعلها،و لا علی مأموم إلا تبعا لإمامه لکن لو ترک الإمام السجود المترتب علیه سجد المأموم و هو لما تبطل بعمده واجب،و کذا اللحن فی السورة یحیل المعنی سهوا أو جهلا.

و تبطل بترک ما قبل السلام إن کان واجبا،ما لم یأت به مع قرب،و یکفی لجمیع السهو سجدتان،و محله قبله(أی قبل السلام)ندبا،إلا إذا سلم عن نقص رکعة فأکثر،فالسجود بعد السلام ندبا،و متی سجد بعده،کبر و سجد ثم جلس فتشهد وجوبا و سلم،و قبله یسجد بعد التشهد الأخیر و یسلم (1).

الشیعة:

مبطلات الصلاة عندهم هی:

فقد بعض الشرائط فی أثناء الصلاة کالستر،و إباحة المکان،و اللباس و نحو ذلک و قد تقدم بیانه.

1- (1) الروض الندی 85-88.

الحدث الأكبر و الأصـغر فإنه مبطل أينما وقع فيها و لو قبل الآخر بحرف،من غير فرق بين أن يكون عمدا أو سهوا أو اضطرارا،عدا المسلوس و المبطون و المستحاضة.

تعمد الالتفات بتمام البدن إلى الخلف أو اليمين أو اليسار بل و إلى ما بينهما على وجه يخرج عن الاستقبال.

تعمد الكلام بحرفين و لو مهملين غير مفهمين للمعنى أو بحرف واحد بشرط كونه مفهما للمعنى نحو«ق»فعل أمر من وقى.

و يجوز رد التحيـة فى أثناء الصـلاة،بل يجب و يكون الرد بمثل ما سـلم،و لو سـلم على جماعة منهم المصـلى فرد الجواب غيره لم يجز له الرد،و يكره السلام على المصلى.

تعمد القهقهة،و هى الضحک المشتمل على الصوت و المد.

تعمد البكاء المشتمل على الصوت،إلا أن يكون من خوف اللّه و لأمور الآخرة.

كل فعل ماح لصورة الصلاة قليلا كان أو كثيرا مما هو مناف للصلاة،و كذا السكوت الطويل الماحى لصورة الصلاة.

الأكل و الشرب عمدا كانا أو سهوا.

الشک فى ركعات الثنائية و الثلاثية و الأوليين من الرباعية،على ما سنبينه إن شاء اللّه.

زيادة جزء أو نقصانه عمدا،إن لم يكن ركنا و مطلقا إن كان ركنا.

تنبيه:

لم نتعرض هنا لكثير من المسائل التى وقع الخلاف فيها بين المـذاهب خشـية الإطالة فى الموضوع،كبيان الاختلاف فى وضع اليمين على الشمال فى الصلاة،إذ الشيعة يرون بطلانه،أو أن حرمته حرمة تشريعية.

كما أن الخلاف واقع بين المذاهب الأخرى،فمنهم من يرى استحبابه،كأبى حنيفة و الشافعى و أحمد و إسحاق و أبى ثور و غيرهم.

و منهم من لا يرى استحبابه و كان يرسل يديه فى الصلاة،كالحسن البصرى، و النخعى؛و ابن سيرين و غيرهم.

و قال الأوزاعى بالتخيير،و روى ابن القاسم عن مالک:الإرسال و هو الأشهر و عليه جميع أهل المغرب من أصحابه،و احتجوا بحديث المشى صلاته و بأن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم علمه الصلاة و لم يذكر اليمين على اليسار (1).

و قال ابن المنذر فى بعض تصانيفه:لم يثبت عن النبى فى ذلک شىء فهو مخير.

و المسألة تحتاج إلى نقاش للأحاديث الواردة من طريق أبى هريرة،و قد صح عند الشيعة من طريق أهل البيت حرمة ذلک و انه لم يرد فيه عن النبى شىء.

و أما ما رواه أبو داود عن على عليه السّلام أن من السنة فى الصلاة وضع الأكف على الأكف فى الصلاة،فإن هذا لم يوجد إلا فى نسخة ابن الأعرابى دون غيرها، و مع ذلک فإن الراوى لا يعتمد على حديثه،و قد ورد عن الإمام على عليه السّلام ما يدل على حرمته و المشهور أن حقيقته الشرعية قائمة على استحسان عمر بن الخطّاب للتكفير لما رأى أسارى العجم كفروا-وضع اليد على الأخرى-أمامه،فسأل عن ذلک،فأجابوه بأنا نستعمله خضوعا و تواضعا لملوكنا،فرأى أن يكون فى الصلاة و لنترک هذا لمناسبة أخرى.

كما إننا لم نتعرض للحديث حول كلمة(آمين)بعد الفاتحة و انها مستحبة للإمام أو المأموم أو للجميع و الأحاديث الواردة لا تصلح للمشروعية فذهب الشيعة إلى البطلان؛و حكى المهدى فى البحر عن العترة جميعا:أن التأمين بدعة و استدل بحديث معاوية بن الحكم السلمى.

و الموضوع يدعو إلى بسط القول فى الدلالة،فلنترک ذلک،كما نترک كثيرا من المسائل،و نتحول إلى البحث عن صلاة المسافر و من اللّه التوفيق.

1- (1) المجموع للنووى 3-312.

صلاة المسافر

اشارة

اختلف المسلمون فى حكم قصر الصلاة فى السفر على أقوال:

أحدها:أن المسافر فرضه المتعين عليه هو قصر الصلاة،و هو مذهب الشيعة و وافقهم أبو حنيفة و أصحابه،و الكوفيون بأسرهم على خلاف فى تحقيق المسافة الموجبة لقصر الصلاة كما سيأتى.

الثانى:أن القصر و الإتمام كلاهما فرض مخير له كالخيار فى واجب الكفارة، و بذا قال بعض أصحاب الشافعى.

الثالث:انه سنة،و به قال مالک فى أشهر الروايات عنه.

الرابع:أن القصر رخصة،و ان الإتمام أفضل،و إليه ذهب الشافعى فى أشهر الروايات عنه.

الخامس:جواز القصر،و أنه أفضل من الإتمام،و إليه ذهب الحنابلة.

و هذه المسألة من مهمات المسائل التى وقع فيها الخلاف بين السنة و الشيعة حتى ظن بعض الناس أن ذلک من المسائل التى انفرد بها الشيعة.

و لا بد لنا هنا من استعراض المسألة،لينكشف لنا كثير من المفارقات فيها باستعراض الأدلة من الكتاب و السنة و الإجماع فى أصل هذه المسألة.

أما الكتاب فقوله تعالى: وَ إِذا ضَرَبْتُمْ فِی الْأَرْضِ فَلَیْسَ عَلَیْکُمْ جُناحٌ أَنْ تَقْصُرُوا ...

الآية.

قال يعلى بن أمية:قلت لعمر بن الخطاب:ليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا،و قد أمن الناس؟!.

فقال عمر:عجبت مما عجبت منه،فسألت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،فقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:صدقة تصدق بها اللّه عليكم،فاقبلوا صدقته (1).

و روى أن زرارة بن أعين و محمد بن مسلم سألا الإمام أبا جعفر محمد الباقر عليه السّلام:

فقالا له:ما تقول فى الصلاة فى السفر؟كيف هى؟و كم هى؟ قال عليه السّلام:إن اللّه سبحانه يقول: وَ إِذا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاةِ فالتقصير واجب فى السفر كوجوب التمام فى الحضر.

قالا:إنه تعالى قال:لا جناح عليكم أن تقصروا من الصلاة و لم يقل قصروا فكيف أوجب ذلک كما أوجب التمام؟ قال عليه السّلام:أو ليس قال تعالى فى الصفا و المروة:فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما.أ لا ترى أن الطواف واجب مفروض لأن اللّه ذكره فى كتابه و صنعه نبيه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و كذا التقصير فى السفر شيء صنعه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و ذكره اللّه فى الكتاب.قالا:قلنا فمن صلى فى السفر أربعا أ يعيد أم لا؟ قال عليه السّلام:إذا كانت قرئت عليه آية التقصير و فسرت له فصلى أربعا أعاد، و إن لم يكن قرئت عليه و لم يعلمها فلا إعادة عليه و قال عليه السّلام:الصلاة فى السفر كل فريضة ركعتان،إلا المغرب فإنها ثلاث ليس فيها تقصير تركها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى السفر و الحضر ثلاث ركعات (2).

قال الشيخ الطبرسى-بعد إيراد هذا الخبر-:و فى هذا دلالة على أن فرض المسافر مخالف لفرض المقيم،و قد أجمعت الطائفة(الشيعية)على ذلک(و أجمعت) على أنه ليس بقصر و قد روى عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنه قال:فرض المسافر ركعتان غير قصر.

>و أما السنة:< فهى كثيرة تدل بصراحة على وجوب التقصير و قد رويت من طريق صحاح الجمهور و نصوص أهل البيت عليهم السّلام.

1- (1) صحيح مسلم 5-196 شرح النووى.

2- (2) مجمع البيان ج 5 ص 211 ط بيروت.

فمن الصحاح ما أخرجه مسلم عن ابن عمر أنه قال:صحبت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى السفر فلم يزد على ركعتين حتى قبضه اللّه،و صحبت أبا بكر فلم يزد على ركعتين حتى قبضه اللّه،و صحبت عمر فلم يزد على ركعتين حتى قبضه اللّه،ثم صحبت عثمان فلم يزد على ركعتين حتى قبضه اللّه،و قد قال اللّه تعالى: لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ (1).

و أخرج عن ابن عباس أنه قال:إن اللّه فرض الصلاة على لسان نبيكم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم على المسافر ركعتين و على المقيم أربعا و فى الخوف ركعة (2).

و أخرج البخارى عن أنس قال:خرجنا مع النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من المدينة إلى مكة فكان يصلى ركعتين ركعتين،حتى رجعنا إلى المدينة (3).

و قال ابن مسعود:صليت مع النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ركعتين،و مع أبى بكر ركعتين،و مع عمر ركعتين،ثم تفرقت بكم الطرق و وددت أن لى من أربع ركعتين متقبلتين (4).

و قال أنس:خرجنا مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلى مكة فصلى ركعتين حتى رجع و أقمنا بمكة عشرا نقصر الصلاة.متفق عليه (5).

و قال ابن قدامة:و شدد ابن عمر على من أتم الصلاة فروى أن رجلا سأله عن صلاة السفر؟ فقال ابن عمر:ركعتان فمن خالف السنة كفر.و قال بشر بن حرب:سألت ابن عمر:كيف صلاة السفر يا أبا عبد الرحمن؟ قال:اما أنتم تتبعون سنة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أخبرتكم و اما لا تتبعون سنة نبيكم فلا أخبركم.

قلنا:فخير ما نتبع سنة نبينا يا أبا عبد الرحمن.قال:كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إذا خرج من المدينة لم يزد على ركعتين حتى يرجع إليها (6).

1- (1) النووى شرح صحيح مسلم 5-198.

2- (2) نفس المصدر.

3- (3) صحيح البخارى 2-51.

4- (4) المغنى لابن قدامة ج 2 ص 255.

5- (5) البخارى ج 3 ص 51.

6- (6) المغنى لابن قدامة ج 2 ص 270.

و روی مسلم بسند عن یحیی الهنائی قال:سألت أنس بن مالک عن قصر الصلاة.

فقال:کان رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم إذا خرج مسیرة ثلاثة أمیال أو ثلاثة فراسخ(الشک من الراوی)صلی رکعتین.

و روی البخاری عن عبد الرحمن بن یزید یقول:صلی بنا عثمان بن عفان بمنی أربع رکعات فقیل ذلک لعبد اللّه بن مسعود فاسترجع ثم قال:صلیت مع رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بمنی أربع رکعات الحدیث (1).

و أخرج مالک عن عمر بن الخطاب أنه صلی بالناس بمکة رکعتین فلما انصرف قال:یا أهل مکة أتموا صلاتکم فإنا قوم سفر (2).

و عن حارثة بن وهب قال:صلی بنا رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم-و نحن أکثر ما کنا قط و آمنه-بمنی رکعتین.أخرجه مسلم (3)و أصحاب السنن.

و عن ابن عباس قال:خرج رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم من المدینة إلی مکة لا یخاف إلا رب العالمین فصلی رکعتین رکعتین.أخرجه الترمذی و صححه النسائی.

و أخرج مسلم عن حفص بن عاصم عن ابن عمر قال:صلی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بمنی صلاة المسافر و أبو بکر و عمر و عثمان ثمانی سنین أو قال ست سنین(و هو قید لصلاة عثمان).

قال:حفص و کان ابن عمر یصلی بمنی رکعتین ثم یأتی فراشه فقلت:أی عم لو صلیت بعدها رکعتین.

قال:لو فعلت لأتممت الصلاة (4).

و عن کعب بن عجرد قال:قال عمر بن الخطاب صلاة الأضحی رکعتان و صلاة الفطر رکعتان و صلاة المسافر رکعتان تمام غیر قصر علی لسان نبیکم و قد خاب من افتری (5).

1- (1) المصدر السابق 20.

2- (2) تیسیر الوصول للشیبانی ج 2:286.

3- (3) انظر صحیح مسلم 5:205 شرح النووی.

4- (4) المصدر السابق 204 و صحیح البخاری 2:51.

5- (5) انظر المحلی لابن حزم 4:265.

و عن محمد بن المنكدر و إبراهيم بن ميسرة سمعا أنس بن مالک يقول:صليت مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الظهر بالمدينة أربعا و العصر بذى الحليفة ركعتين (1).

و أخرج الدارمى فى سننه عن أنس قال:صلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بالمدينة أربعا بذى الحليفة ركعتين (2).

و أخرج عن سالم عن أبيه أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم صلى بمنى ركعتين و أبو بكر ركعتين،و عمر ركعتين،و عثمان ركعتين صدرا من إمارته ثم أتمها بعد ذلک (3).

و أخرج مالک فى الموطأ عن ابن شهاب،عن أمية بن عبد اللّه بن خالد ابن أسيد أنه سأل عبد اللّه بن عمر فقال:يا أبا عبد الرحمن إنا نجد صلاة الخوف، و صلاة الحضر فى القرآن،و لا نجد صلاة السفر.

فقال ابن عمر:يا ابن أخى إن اللّه عز و جل بعث إلينا محمدا صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و لا نعلم شيئا فإنما نفعل كما رأيناه يفعل (4).

و على هذا فإن صلاة السفر فى نظر ابن عمر هى ثابتة بالسنة لا بالقرآن و هو خلاف ما يذهب إليه الصحابة،و منهم أبوه و قد تقدم جوابه ليعلى بن أمية قريبا.

و كيف كان فالأحاديث متواترة من صحاح الجمهور،و نصوص أهل البيت عليهم السّلام بأن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ما سافر إلا صلى ركعتين إلا المغرب و لم يثبت عنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنه أتم فى السفر،و لو كان هناک تخيير لما ترک صلّى اللّه عليه و آله و سلّم العمل به،و لاختار الإكمال فى كثير من أسفاره،تعليما لذلک فى حق الأمة.

و لما صلى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بمكة قاصرا قال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«أتموا يا أهل مكة،فإنما نحن قوم سفر» فلو جاز الأربع لما اقتصر على الركعتين(أولا-)لاغتنام زيادة العمل فى الحرم،لما للعبادة فيه من تضاعف.(و ثانيا)إنه كان إماما،و خلفه المقيمون من أهل مكة،فكان ينبغى أن يتم كيلا يحتاج أولئک القوم إلى الانفراد و تفوتهم فضيلة الإتمام معه (5).

1- (1) أخرجه أبو داود فى سننه 1:274 و الدارمى ج 1:354. [1]

2- (2) سنن الدارمى 1:354. [2]

3- (3) نفس المصدر.

4- (4) شرح الموطأ للزرقانى 1:295.

5- (5) بدائع الصنائع 1:92.

و أما ما يروى أن عثمان أتم فى السفر،و كذلک روى عن عائشة أنها قالت:

أفطرت و صـمت و قصـرت و أتممت...الخ مع أن المشهور عنها أنها قالت:فرضت الصلاة ركعتين ركعتين فى الحضر و السفر،فأقرت صلاة السفر،و زيد فى صلاة الحضر.

قال الزهرى:قلت لعروة:فما بال عائشة تتم؟!قال:تأولت كما تأول عثمان رحمه اللّه.

قال القاضى أبو الوليد المالكى:و قد اختلف فى تأويل ذلک.

فقيل:تأول(أى عثمان)أنه لما كان الخليفة،و أن كل موضع يمر فيه فهو قطره،و إن من فيه ملتزم لطاعته،فهو بمنزلة استيطانه فيه،فحكمه لذلک أن يتم.

و تأولت عائشة:أنها لما كانت أم المؤمنين و أن كل منزل تنزله فهو منزل لمن يحرم عليها بالبنوة،كان حكمها لذلک أن تتم (1).

و قال أبو الوليـد:و يحتمل عندى أن يكون عثمان و عائشة اعتقدا فى ذلک التخيير على ما ذهب إليه الشافعى فآثرا الإتمام،و تأولا أفعال النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى القصر أنه قصد به التخفيف عن أمته كالفطر (2).

و أنت ترى مـا فى هـذه التأويلات من البعـد عن الواقع،فلم يک عثمان أولى من النبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم بالمؤمنين،و لم لم يكن صاحباه بهذه المنزلة؟فقد كانا يقصـران الصـلاة فى السـفر؟!! و قد اسـتغرب ابن مسـعود فعل عثمان،و استرجع عند ما بلغه أن عثمان صلى أربعـا فى السـفر،و قال:صـليت مع رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم ركعتين،و مع أبى بكر ركعتين، و مع عمر ركعتين،ثم تفرقت بكم الطرق.

و أما أم المؤمنين عائشة فليس لها مزيد اختصاص عن سائر أزواج النبى صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و هن أمهات المؤمنين،و لم يعرف عن واحدة منهن أنها أتمت فى السفر.

و أحسن وجه يتأول به فعل عثمان و عائشة فى إتمام الصلاة فى السفر هو:

1- (1) شرح موطأ مالک 1:261.

2- (2) نفس المصدر.

احتمال أن يكون عثمان و عائشة إنما أتمّا بمنى بعد المقام بمكة مدة الإتمام كما لم يكن فى الخروج إلى عرفة مسافة قصر لمن احتسب فى القصر بالخروج خاصة دون الرجوع.كما ذكر ذلک القاضى أبو الوليد المالكى (1).

و يؤيد ذلک ما روى أن عثمان لما أتم الصلاة بمنى فأنكر عليه أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حتى قال لهم:إنى تأهلت بمكة،و قد سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يقول:

من تأهل بقوم فهو منهم (2).

و على أى حال لا يصلح الاستدلال بفعل عثمان،فإن إنكار الصحابة عليه، و اعتذار عثمان يدلان على أن الفرض هو القصر دون التمام،و لو لا ذلک لما كان محلا للإنكار،و لا موجب للاعتذار عن شىء جائز فى الشرع،و مرخص على فعله.

و قد روى عن ابن عباس أنه قال:لا تقولوا قصرا فإن الذى فرضها فى الحضر أربعا هو الذى فرضها فى السفر ركعتين (3).

و روى عن عمر بن الخطاب أنه قال:صلاة المسافر ركعتان،و صلاة الجمعة ركعتان،تمام غير قصر،على لسان نبيكم محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم (4).

حجة الشافعى:

و ذهب الشافعى إلى عدم وجوب القصر فى السفر،و أن قوله تعالى فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاةِ إنما هو تخفيف من اللّه عز و جل عن خلقه،لا أن فرضا عليهم أن يقصروا.

و قال:فالاختيار و الذى أفعل مسافرا،و أحب أن يفعل قصر الصلاة فى الخوف و السفر،و فى السفر بلا خوف،و من أتم الصلاة فيهما لم تفسد عليه صلاته،جلس فى مثنى قدر التشهد أو لم يجلس،و أكره ترک القصر..الخ (5).

و قال:و أكره ترک القصر رغبة عن السنة،فأما أنا فلا أحب أن أقصر فى أقل من

1- (1) شرح الموطأ ج 1 ص 261.

2- (2) بدائع الصنائع ج 1 ص 92.

3- (3) المصدر السابق.

4- (4) بدائع الصنائع ج 1 ص 92.

5- (5) كتاب الأم ج ص 179.

ثلاثة أيام احتياطا على نفسى،و إن كان ترک القصر مباح لى قصر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أتم (1).

و الصحيح أن النبى لم يتم فى السفر و لم يرو عنه ذلک أبدا،إلا ما أخرجه الدار قطنى عن عائشة أن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان يقصر فى السفر،و يتم،و يفطر و يصوم.

و قد أنكر الحفاظ هذا الحديث و كذبوه،و لأنه مخالف لما عليه فعل النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى جميع أسفاره.

و قد أجاب ابن حزم عن جميع ما احتج به الشافعية فيما ذهبوا إليه بقوله:

احتج الشافعيون فى قولهم:إن المسافر مخير بين ركعتين،أو أربع ركعات، بهذه الآية و إنها جاءت بلفظ(لا جناح)و هذا يوجب الإباحة لا الفرض.

و بخبر رويناه من طريق عبد الرحمن بن الأسود،عن عائشة(أنها اعتمرت مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من المدينة إلى مكة،فلما قدمت مكة قالت:يا رسول اللّه بأبى أنت و أمى قصرت و أتممت،و أفطرت و صمت.قال:أحسنت يا عائشة).

و من طريق عطاء عن عائشة:كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يسافر فيتم الصلاة و يقصر.

و بأن عثمان أتم الصلاة بمنى بحضرة جميع الصحابة رضى اللّه عنهم فأتموها معه.

و بأن عائشة-و هى روت(فرضت الصلاة ركعتين ركعتين)كانت تتم فى السفر.

قال على بن حزم:هذا كل ما احتجوا به،و كله لا حجة فيه:أما الآية فإنها لم تنزل فى القصر المذكور بل فى غيره على ما نبينه بعد هذا إن شاء اللّه.

أما الحديثان فلا خير فيهما:

أما الذى من طريق عبد الرحمن بن الأسود فانفرد به العلاء بن زهير الأزدى، لم يروه غيره و هو مجهول.

و أما حديث عطاء فانفرد به المغيرة بن زياد و لم يروه غيره،و قال فيه أحمد بن حنبل:هو ضعيف كل حديث أسنده فهو منكر.

1- (1) مختصر المزنى ص 24.

و أما فعل عثمان و عائشة(رضى اللّه عنهما)فإنهما تأولا تأويلا خالفهما فيه غيرهما من الصحابة (1).

ثم أورد ابن حزم أخبارا خرجها من طرقه منها:قول صفوان بن محرز:قلت لابن عمر حدثنى عن صلاة السفر قال:أ تخشى أن تكذب على؟قلت:لا.قال ابن عمر:ركعتان من خالف السنة كفر.

و منها قول ابن عباس:من صلى فى السفر أربعا كمن صلى فى الحضر ركعتين.

و منها ما أخرجه من طريق سفيان بن عيينة عن جعفر بن محمد الصادق عليه السّلام عن أبيه عليه السّلام قال:اعتل عثمان و هو بمنى فأتى على فقيل له:صل بالناس.

فقال على عليه السّلام:إن شئتم صليت لكم صلاة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.يعنى ركعتين.

قالوا لا:إلا صلاة أمير المؤمنين يعنون عثمان-فأبى عثمان (2)(و فى نسخة فأبى بدون ذكر عثمان أى فأبى على عليه السّلام)و هكذا عمن بعدهم روينا عن عمر بن عبد العزيز و قد ذكر له الإتمام فى السفر لمن شاء؟فقال:لا.الصلاة فى السفر ركعتان حتمان لا يصح غيرهما.

فإذا اختلف الصحابة فالواجب رد ما تنازعوا فيه إلى القرآن و السنة (3).

و الحاصل:أن القصر هو الواجب على المسلم لأن فعل النبى كان فى جميع أسفاره هو قصر الصلاة و لم يتمها يوما ما و لم يثبت عنه غير قصر الصلاة فى السفر البتة و لنا فى رسول اللّه أسوة حسنة.

قال الخطابى:كان مذاهب أكثر علماء السلف و فقهاء الأمصار على أن القصر هو الواجب فى السفر،و هو قول على عليه السّلام و عمر و ابن عمر و ابن عباس(و أكثر الصحابة)و روى ذلک عن عمر بن عبد العزيز و قتادة و الحسن.

و قال حماد بن أبى سليمان:يعيد من يصلى فى السفر أربعا و قال مالک:يعيد ما دام فى الوقت.

1- (1) انظر المحلى ج 4 ص 269.

2- (2) انظر المحلى ج 4 ص 270.

3- (3) نفس المصدر ص 271.

حجة الحنابلة:

المشهور عن أحمد بن حنبل:أن المسافر إن شاء صلى ركعتين و إن شاء أتم، و روى عنه أنه توقف و قال:أنا أحب العافية من هذه المسألة.

و استدلوا على جواز الإتمام بالآية الكريمة و هى قوله تعالى: فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَقْصُرُوا .

و كذلک استدلوا بما ورد عن عائشة أنها قالت:خرجت مع رسول اللّه فى عمرة رمضان فأفطر و صمت،و قصر و أتممت،فقلت:يا رسول اللّه،بأبى أنت و أمى أفطرت و صمت،و أتممت و قصرت فقال أحسنت.

رواه أبو داود الطيالسى فى مسنده و قالوا:هذا صريح فى الحكم و روى أيضا بإسناد عن عطاء عن عائشة أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان يتم فى السفر و يقصر.

و كل هذا لا يصح الاحتجاج به:أما الآية فقد تقدم الجواب عنها فى حجة الشافعية.

و أما ما ورد عن عائشة فأما الحديث الأول ففيه العلاء بن زهير و هو لا يحتج بحديثه لأنه كان يروى عن الثقات ما لا يشبه حديث الإثبات،فبطل الاحتجاج به مع أن فيه مخالفة صريحة من عائشة لفعل النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،و الواجب يقضى عليها اتباعه، فكيف يصح أن النبى كان يفطر و تصوم هى،و يقصر و تتم؟!هذا من جهة و من جهة أخرى أن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لم يعتمر إلا أربع عمر ليس منهن شىء فى شهر رمضان.

قال فى البدر المنير:إن فى متن هذا الحديث نكارة و هو كون عائشة خرجت معه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى عمرة رمضان،و المشهور أنه لم يعتمر إلا أربع عمر ليس منهن شىء فى رمضان،بل كلهن فى ذى القعدة إلا التى مع حجته فكان إحرامها(أى العمرة)فى ذى القعدة،و فعلها فى ذى الحجة قال:هذا هو المعروف فى الصحيحين و غيرهما...

الخ.

و أما الخبر الثانى:فهو كالأول لا يصلح للاستدلال لمعارضته لما فى الصحاح و مخالفته لعمل النبى و الصحابة،و عمل أم المؤمنين عائشة و قد طعن فيه بطعون توجب سقوطه زيادة على ما فيه من المخالفات.يقول ابن تيمية:

إن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى جميع أسفاره كان يصلى الرباعية ركعتين،و لم ينقل عنه أحد

أنه صلى الرباعية أربعا،بل و كذلک أصحابه معه،و الحديث الذى يروى عن عائشة أنها أتمت،و أفطرت،حديث ضعيف،بل قد ثبت عنها فى الصحيح:أن الصلاة أول ما فرضت كانت ركعتين ركعتين،ثم زيد فى صلاة الحضر و أقرت صلاة السفر.

و ثبت فى الصحيح عن عمر بن الخطاب أنه قال:صلاة السفر ركعتان،و صلاة الجمعة ركعتان،و صلاة الأضحى و صلاة الفطر ركعتان تمام غير قصر على لسان نبيكم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و أما قوله تعالى: وَ إِذا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فإن نفى الجناح بيان الحكم و إزالة الشبهة،لا يمنع أن يكون القصر هو السنة كما قال تعالى: إِنَّ الصَّفا وَ الْمَرْوَةَ مِنْ شَعائِرِ اللّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُناحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِما نفى الجناح لأجل الشبهة التى عرضت لهم من الطواف بينهما، لأجل ما كانوا عليه فى الجاهلية من كراهية بعضهم للطواف بينهما،و الطواف بينهما مأمور به باتفاق المسلمين،و هو إما ركن و إما واجب،و إما سنة مؤكدة،و هو سبحانه ذكر الخوف فى السفر لأن القصر يتناول قصر العدد،و قصر الأركان،فالخوف يبيح قصر الأركان،و السفر يبيح قصر العدد...الخ (1).

المسافة:

وقع الخلاف بين علماء الإسلام فى مقدار المسافة التى يقصر فيها الصلاة و ورد فيها نحو من عشرين قولا.

أما الخلاف بين المذاهب فى ذلک فقد ذهب الحنفية إلى أن المسافة التى يصير بها المقيم مسافرا سير ثلاثة أيام سير الإبل،و مشى الأقدام،قال الكاسانى:

«و أما بيان ما يصير به المقيم مسافرا:فالذى يصير به المقيم مسافرا نية مدة السفر،و الخروج من عمران المصر،فلا بد من اعتبار ثلاثة أشياء:

أحدها:مدة السفر و أقلها غير مقدر عند أصحاب الظواهر،و عند عامة العلماء مقدر،و اختلفوا فى التقدير قال أصحابنا(أى الحنفية):ثلاثة أيام سير الإبل و مشى الأقدام،و هو المذكور فى ظاهر الروايات،و روى عن أبى يوسف يومان و أكثر

1- (1) فتاوى ابن تيمية ج 1 ص 122.

الثالث،و كذا روى الحسن عن أبى حنيفة،و ابن سماعة عن محمد(الشيبانى)و من مشايخنا من قدره بخمسة عشر فرسخا،و جعل لكل يوم خمسة فراسخ،و منهم من قدره بثلاث مراحل... (1).

و أكثر الحنفية لا يعتبر التقدير بالفراسخ،و قدر أبو حنيفة المسافة بالمراحل و أبو يوسف قدرها بيومين،و أكثر اليوم الثالث.و دليلهم فى تقدير المسافة بثلاثة أيام بلياليها-و منهم من حذف الليالى-هو ما ورد عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:يمسح المقيم كمال يوم و ليلة،و المسافر ثلاثة أيام و لياليها (2).

و قوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:لا يحل لامرأة تؤمن باللّه و اليوم الآخر أن تسافر ثلاثة أيام إلا مع محرم أو زوج (3).

و ليس فيما أوردوه ما يصلح للاستدلال:فخبر المسح لا يصح مطلقا و إن صح فهو بيان الفعل و ليس فيه بيان لحد السفر.

و أما الدليل الثانى فإنه لم يكن لبيان مسافة السفر،بل لبيان النهى للمرأة عن الخروج وحدها،هذا إن كان بلفظ ثلاثة أيام و إلا فإن ألفاظ الحديث مختلفة فمنها يوم و ليلة كما روى عن أبى هريرة.

و فى آخر عن أبى هريرة أيضا(تسافر مسيرة يوم و فى لفظ تسافر بريدا)و فى آخر (لا تسافر إلا ليلة)الخ.

فاضطراب الحديث و اختلاف ألفاظه لا يصلح للاستدلال،إن كان يصح ذلك.

و قد ورد هذا الحديث عن ابن عباس عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنه قال:(لاى خلون رجل بامرأة،إلا و معها ذو محرم،و لا تسافر المرأة إلا مع ذى محرم)بدون تقييد فى مدة بل هو لعموم السفر.

و كيف كان فما استدلوا به من ألفاظ حديث أبى هريرة لا يصح.

و قال الشافعى:فللمرء عندى أن يقصر فيما كان مسيرة ليلتين قاصدتين و ذلك

1- (1) بدائع الصنائع 1:93.

2- (2) بدائع الصنائع 1:93.

3- (3) الهداية 1:56.

ستة و أربعون ميلا بالهاشمی و لا یقصر فیما دونها (1)...

و نقل النووی عن الشافعی:أنه لا یجوز القصر إلا فی مسیرة مرحلتین قاصدتین،و هی ثمانیة و أربعون میلا هاشمیة،و المیل ستة آلاف ذراع و الذراع أربع و عشرون إصبعا معترضة،و الأصبح ست شعیرات معترضات معتدلات (2).

و جاء فی نهایة المحتاج أن المسافة ثمانیة و أربعون میلا ذهابا تحدیدا لا تقریبا (3).

و قال أبو إسحاق الشیرازی:و لا یجوز ذلک(أی القصر)إلا فی مسیرة یومین و هو أربعة برد و کل برید أربعة فراسخ فذلک ستة عشرة فرسخا لما روی عن ابن عمر و ابن عباس(رضی اللّه عنهما)کانا یصلیان رکعتین و یفطران فی أربعة برد فما فوق ذلک...الخ (4).

و المشهور عن مالک أنه یوافق الشافعی فی ثمانیة و أربعین میلا.

و روی عن مسیرة یوم و لیلة،و روی ابن القاسم أن مالکا رجع عنه.

و عن مالک أنه بلغه أن عبد اللّه بن عباس کان یقصر الصلاة فی مثل ما بین الطائف و مکة،و فی مثل ما بین مکة و عسفان،و فی مثل ما بین مکة و جدة،قال مالک:و ذلک أربعة برد،و ذلک أحب ما تقصر إلیّ فیه الصلاة (5).

قال الزرقانی-فی شرحه:أحب عائد لاختیاره یعنی أنه لا یقصر فی أقل منها و هی:ستة عشر فرسخا ثمانیة و أربعون میلا.

و روی أشهب عن مالک القصر فی خمسة و أربعین میلا،و روی أبو زید عن ابن القاسم أن من قصر فی ستة و ثلاثین میلا لا یعید.

و قال ابن المواز یعید و عن ابن الحکم یعید فی الوقت فإن قصر فی أقل من ذلک أعاد أبدا (6).

1- (1) الأم 1:182.

2- (2) شرح مسلم للنووی 5:195.

3- (3) انظر ج 2:245.

4- (4) المهذب 1:102.

5- (5) موطأ [1]مالک شرح الزرقانی 1:299.

6- (6) المنتقی 1:292.

و وافقهم أحمد بن حنبل فی تحدید المسافة بستة عشر فرسخا أو ثمانیة و أربعین میلا بالهاشمی فإنه سئل فی کم تقصر الصلاة؟قال:فی أربعة برد.

قیل له مسیرة یوم تام؟قال:لا،أربعة برد ستة عشر فرسخا و مسیرة یومین.

قال ابن قدامة:فمذهب أبی عبد اللّه-أحمد بن حنبل-:إن القصر لا یجوز فی أقل من ستة عشر فرسخا،و الفرسخ ثلاثة أمیال فتکون ثمانیة و أربعین میلا.قال القاضی و المیل اثنا عشر ألف قدم و ذلک مسیرة یومین قاصدین (1).

و لا یخفی ما فی المسألة من خلاف و کثرة أقوال،فإنهم اختلفوا فی تحدید المسافة بالزمن و بالتقدیر بالأمیال أو الفراسخ.

أما التقدیر فی الزمن فهو یوم و لیلة أو یومان و أکثر الثالث أو ثلاثة أیام بلیالیها کما تقدم.

و أما الاختلاف فی تقدیر المسافة فإن اختلافهم فی المیل و تحدیده و مقداره.

فمنهم من قال:إن المیل هو من الأرض منتهی مد البصر لأن البصر یمیل عنه علی وجه الأرض حتی یفنی إدراکه.

و قیل أن ینظر إلی الشخص فی أرض مستویة فلا یدری أرجل هو أم امرأة أو ذاهب أو آت.

و قال النووی:المیل ستة آلاف ذراع و الذراع أربعة و عشرون إصبعا متراصة معتدلة،و الإصبع ست شعیرات معترضة معتدلة.

و منهم من عبر عن ذلک باثنی عشر ألف قدم بقدم الإنسان.

و قیل هو أربعة آلاف ذراع و قیل ثلاثة آلاف ذراع و قیل خمسمائة و قیل ألفا ذراع،و منهم من عبر عن ذلک بألف خطوة للجمل (2).

و قیدوا الأمیال بالهاشمیة و حدوده باثنی عشر ألف قدم ستة آلاف ذراع أربعة آلاف خطوة.

1- (1) المغنی لابن قدامة 2:255.

2- (2) نیل الأوطار 4:205.

أما الأميال الأموية فالميل منها ينقص عن الهاشمى بنسبة واحد من ستة،أى أن الفرسخ الأموى ميلان و نصف (1).

أما المسافة التى يجب معها القصر عند الشيعة فهى:ثمانية فراسخ امتدادية أو ملفقة من أربعة ذهابا و أربعة إيابا،و الفرسخ ثلاثة أميال و الميل أربعة آلاف ذراع بذراع اليد و هو من المرفق إلى أطراف الأصابع.

و ذلک هو الوارد عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من طريق أهل البيت عليهم السّلام.

الإقامة:

اختلف علماء الإسلام فى تحديد المدة التى يصير بها المسافر مقيما فيجب عليه إتمام الصلاة و أداء الصيام على أقوال:

فعند الشيعة أن المسافر إذا عزم على الإقامة عشرة أيام متوالية فى مكان واحد أو أنه يعلم ببقائه المدة المذكورة فيجب عليه الإتمام و الصيام؛لانقطاع السفر فى ذلک.

و كذا لو تردد فى البقاء و عدمه ثلاثين يوما فإنه يجب عليه القصر إلى نهاية الثلاثين،و بعدها يجب عليه التمام إلى أن يسافر سفرا جديدا.

و ذهب أبو حنيفة إلى أن مدة الإقامة خمسة عشر يوما،و هو أحد قولى ابن عمر (2)و له قول آخر و هو:إذا أجمعت إقامة اثنتى عشرة ليلة فأتم الصلاة،و به قال سعيد بن المسيب فى أحد أقواله،و قوله الآخر:إذا أقمت أربعا فصل أربعا،و له قول آخر إذا أقمت ثلاثا فأتم.

و ذهب مالک بن أنس إلى أن مدة الإقامة التى يباح بها التمام هى أربع ليال.

حدث يحيى عن مالک عن عطاء الخراسانى أنه سمع سعيد بن المسيب قال:

من أجمع إقامة أربع ليال و هو مسافر أتم الصلاة.قال مالک:و ذا أحب ما سمعت إلى (3).

قال ابن حزم:-بعد أن ذكر قول ابن المسيب:إذا أقمت أربعا فصل أربعا-و به

1- (1) غاية المنتهى 1:195.

2- (2) المبسوط للسرخسى 1:236.

3- (3) شرح الموطأ للزرقانى 1:301.

يأخذ مالک،و الشافعی؛و اللیث،إلا أنهم یشترطون أن ینوی إقامة أربع فإن لم ینوها قصر حولا (1).

و قال أبو الولید:اختلف أصحابنا(أی المالکیة)فروی ابن القاسم أنه یراعی فیها أربعة أیام کاملة.قال عنه عیسی و لا یعتد بیوم دخوله إلا أن یدخل فی أوله.و قال الماجشون و سحنون:إذا نوی مقام زمان تجب فیه عشرون صلاة فإنه یتم.

قال أبو الولید:وجه روایة ابن القاسم أن الخبر المستفاد منه حکم المقام إنما ورد بلفظ الأیام،و ذلک یقتضی تعلق الحکم بها.

و وجه الروایة الثانیة:أن الحکم إنما یتعلق بالأیام من أجل الصلاة فوجب أن یعتبر بها (2).

و لا یخفی أن لفظ الخبر الوارد فی قول أبی الولید لم یکن خبرا عن النبی إذ ربما أن یتوهم ذلک،إذ لا خبر فی الموضوع و إنما یقصد الخبر الوارد عن مالک، فلیتأمل.

و الشافعی یختار تحقیق الإقامة فی أربعة أیام کما جاء فی کتاب الأم و حکی عنه ذلک،قال فی الأم:

إذا أزمع المسافر بموضع أربعة أیام و لیالیهن لیس فیهن یوم کان فیه مسافرا فدخل فی بعضه و لا یوم یخرج فی بعضه أتم الصلاة،و استدلالا بقول رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم:یقیم المهاجر بمکة بعد قضاء نسکه ثلاثا.و إنما یقضی نسکه فی الیوم الذی یدخل فیه و المسافر لا یکون دهره سائرا و لا یکون مقیما مقام سفر و سائرا (3)...الخ،و هذا عین ما استدل به مالک.

و أجیب عن هذا الاستدلال:بأنه لا حجة لهم فیه لأنه لیس فی هذا الخبر نص و لا إشارة إلی المدة التی إذا أقامها المسافر أتم،و إنما هو فی حکم المهاجر،فما الذی أوجب أن یقاس المسافر یقیم علی المهاجر یقیم؟!هذا لو کان القیاس حقا، و کیف و کله باطل؟!

1- (1) المحلی ج 5:23.

2- (2) شرح الموطأ لابن الباجی 1:265.

3- (3) الأم 1:186.

و المشهور عن أحمد بن حنبل أن المدة التی تلزم المسافر الإتمام بنیة الإقامة فیها هی:ما کان أکثر من إحدی و عشرین صلاة.

و عنه أیضا إذا نوی إقامة أربعة أیام أتم،و إن نوی دونها قصر،و هذا قول مالک و الشافعی و أبی ثور.

و استدلوا له بدلیل قول النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یقیم المهاجر بعد قضاء منسکه ثلاثا.

و استدلوا أیضا بأن عمر لما أخلی أهل الذمة ضرب لمن قدم منهم تاجرا ثلاثا و قال إن الثلاث بحکم السفر و ما زاد فی حکم الإقامة (1).

و کیف کان فقد اختلفت أقوال الصحابة و التابعین فی هذه المسألة فعن ابن عباس القول بأن الإقامة عشرة أیام و المتردد إلی تسعة-عشرة یقصر فإذا زاد أتم.و له قول آخر و هو:إن الإقامة خمسة عشر یوما و له قول:بأن المتردد إلی سنة یصلی قصرا.

و قال ابن عمر بمثل قوله هذا و له قول آخر و هو إن الإقامة اثنتا عشرة لیلة و له قول إن المتردد إلی ستة أشهر یصلی قصرا.

و ذهبت عائشة إلی أن وضع الزاد و المزاد موجب للتمام و إلیه ذهب الحسن البصری فقال:صل رکعتین رکعتین إلی أن تقدم مصرا فأتم الصلاة و صم.

و قال ربیعة الرأی:إن الإقامة یوم و لیلة.

و قال الأوزاعی:إن الإقامة ثلاث عشرة لیلة.

و قال سعید بن المسیب:إن الإقامة أربع.و له قول آخر:إنها ثلاثة.

و قال سعید بن جبیر:إن الإقامة أکثر من خمسة عشر،و له قول آخر إن الإقامة تحصل بمجرد وضع الرحل إلی آخر الأقوال و الآراء التی لا یعرف لهم فیها مستند شرعی و إنما ذلک اجتهاد من أنفسهم کما قیل عنهم ذلک.

و صفوة القول إن الأقوال فی هذه المسألة مختلفة و لا یکاد الإنسان أن یلمس منها قولا یمکن أن یکون عمدة فی الباب و لم یکن هناک أثر یدل علی ما تطمئن النفس

1- (1) المغنی لابن قدامة 1:288.

إليه و حيث كان الأمر كذلک فلا بد من الرجوع إلى أهل البيت و هم أدرى به لأن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قرنهم بكتاب اللّه فمن اتبعهم اهتدى،فهم أعلام الإسلام و حكام الأنام و لهذا فإن الشيعة يأخذون بما ورد عنهم عليهم السّلام و يستمدون تعاليمهم منهم.

و قد وردت فى هذه المسألة نصوص عن أهل البيت أخذ بها الشيعة و عملوا بموجبها،فقد روى عن الإمام على عليه السّلام أنه قال:يتم الذى يقيم عشرا،و الذى يقول اليوم أخرج غدا أخرج يقصر شهرا (1).

قال الشوكانى:و ذهبت القاسمية و الإمامية و الحسن بن صالح و هو مروى عن ابن عباس أنه لا يتم الصلاة إلا من نوى إقامة عشر و احتجوا بما روى عن على عليه السّلام(و ذكر الحديث).

و قال ابن قدامة:و روى عن على رضى اللّه عنه قال:يتم الصلاة الذى يقيم عشرا و يقصر الصلاة الذى يقول:أخرج اليوم أخرج غدا شهرا.و هذا قول محمد بن على(الباقر)و ابنه(جعفر الصادق)و الحسن بن صالح (2).

قال الإمام الباقر عليه السّلام:و إن لم تدر ما مقامكم بها،تقول غدا أخرج أو بعد غد فقصر ما بينک و بين أن يمضى شهر فإذا تم لک شهر فأتم الصلاة و إن أردت أن تخرج من ساعتک.

و قال الإمام الصادق عليه السّلام:«إن شئت فانو المقام عشرا و أتم،و إن لم تنو المقام فقصر ما بينک و بين شهر فإذا مضى لک شهر فأتم الصلاة (3).

و فى بعض الأخبار عنهما عليه السّلام تحديد مدة التردد ثلاثين يوما.

و روى معاوية بن وهب عن الإمام الصادق عليه السّلام قال:و إن أقمت تقول غدا أخرج أو بعد غد و لم تجمع على عشر فقصر ما بينک و بين شهر فإذا تم الشهر فأتم الصلاة».

و قال عليه السّلام:إذا عزم الرجل أن يقيم عشرا فليتم الصلاة و إن كان فى شک لا

1- (1) انظر نيل الأوطار للشوكانى ج 3:208 و المغنى لابن الحنبلى 2:288.

2- (2) المغنى ج 2:288. [1]

3- (3) المستمسک للإمام الحكيم 8:138. [2]

يدرى ما يقيم فيقول:اليوم أو غدا فليقصر ما بينه و بين شهر فإن أقام بذلک البلد أكثر من شهر فليتم الصلاة.

و بهذا أخذ الشيعة و عليه العمل فهم يحكمون على من نوى إقامة عشرة أيام يجب عليه القصر و إن كان مترددا فإنه يقصر حتى يمضى شهر فإذا مضى شهر أتم.

و وافقهم سفيان الثورى و جماعة آخرون و الذى يظهر من الخرقى الحنبلى اختيار القول فى مدة التردد إلى شهر دون تحديد الإقامة بعشر كما جاء فى مختصره قال:

و إذا نوى المسافر الإقامة فى بلد أكثر من إحدى و عشرين صلاة أتم،و إن قال:اليوم أخرج غدا أخرج قصر و إن أقام شهرا (1).

و ذهبت الحنفية إلى أن المسافر الذى لم ينو إقامة خمسة عشر يوما و يقول غدا أخرج أو بعد غد أخرج و استمر على ذلک لا يصير مقيما عندهم و لو بقى سنين عديدة (2).

و للشافعية أقوال فى ذلک:إنه إذا أقام فى بلد على حاجة إذا تنجزت رحل و لم ينو مدة فقيل إنه يقصر سبعة عشر يوما.و قيل يقصر أبدا و خرج أبو إسحاق قولا ثالثا أنه يقصر إلى أربعة أيام (3).

و عند الحنابلة:أن من لم يجمع الإقامة مدة تزيد على إحدى و عشرين صلاة فله القصر و لو أقام سنين،و الذى يظهر من عبارة ابن قاسم الخرقى أن مدة التردد إلى الشهر.

السفر المبيح للقصر:

اختلفوا فى السفر المبيح للقصر،فعند الشيعة أن سفر المعصية لا تقصر فيه الصلاة لأنه سفر محرم،سواء أ كان بنفسه حراما كالفرار من الزحف و إباق العبد، و سفر الزوجة بدون إذن زوجها فى غير الواجب،و سفر الولد مع نهى الوالدين فى غير الواجب،و كما إذا كان مضرا لبدنه.

1- (1) المغنى 1:292.

2- (2) الغنية 241.

3- (3) المهذب للشيرازى 1:103.

أم كان السفر غايته أمرا محرما:كما إذا سافر لقتل نفس محرمة،أو للسرقة أو للزنى،أو لإعانة الظالم،أو لأخذ أموال الناس ظلما و نحو ذلک.و وافقهم الشافعی و أحمد.

قال الشافعی:و لیس لأحد سافر فی معصیة أن یقصر،و لا یمسح مسح المسافر،فإن فعل أعاد (1).

و قال الرملی-المعروف بالشافعی الصغیر-:لا یترخص العاصی بسفره کآبق، و ناشزة،و قاطع طریق و مسافر بلا إذن،إذ مشروعیة الترخص فی السفر للإعانة، و العاصی لا یعان،لأن الرخص لا تنال بالمعاصی...الخ (2).

و أما أحمد بن حنبل فإنه نص علی عدم جواز القصر لمن کان سفره سفر معصیة کإباق العبد،و قطع الطریق؛و التجارة فی الخمر و المحرمات (3).

و قال أیضا:إذا خرج الرجل إلی بعض البلدان تنزها و تلذذا،و لیس فی طلب حدیث و لا حج و لا عمرة و لا تجارة فإنه لا یقصر الصلاة،لأنه إنما شرع إعانة علی تحصیل المصلحة،و لا مصلحة فی هذا.

أما الحنفیة فذهبوا إلی الجواز و أن العاصی و المطیع فی سفرهما واحد و یستوی المقدار المفروض علی المسافر من الصلاة سفر الطاعة من الحج و الجهاد،و سفر المباح کسفر التجارة و نحوه،و سفر المعصیة کقطع الطریق و البغی (4).

و عن مالک روایتان:فالمشهور من مذهبه أن سفر المعصیة لا تقصر فیه الصلاة،لأن سفر المعصیة ممنوع منه مأمور بالرجوع عنه،فلا یصح تناول النیة الشرعیة لمسألة القصر فیه.

و الروایة الثانیة:جواز القصر لأن هذا معنی یترخص به سفر الطاعة فجاز أن یترخص به فی سفر المعصیة.

1- (1) مختصر المزنی:25.

2- (2) نهایة المحتاج 2:253.

3- (3) المغنی لابن قدامة 1:262.

4- (4) انظر بدائع الصنائع 1:93 و الهدایة 1:57. [1]

هذا ما تعلق الغرض ببيانه حول صلاة المسافر و أن فرضه المتعين هو القصر كما أجمعت عليه الشيعة و وافقهم كثير من علماء المسلمين فى ذلک و أن الذى يتم فى السفر مع حصول شرائط القصر عليه الإعادة.

و هنا لا بد أن نشير بإيجاز إلى حكم الصائم فى السفر،و قد أجمع المسلمون على جواز الإفطار فى شهر رمضان لكل من سافر فيه سفرا تقصر فيه الصلاة،كما جاء فى كتاب اللّه العزيز بقوله تعالى: فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَ مَنْ كانَ مَرِيضاً أَوْ عَلى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَ لا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ الآية.

و قد اختلفوا فى الإفطار فى السفر هل هو رخصة أم عزيمة؟فذهب الشيعة إلى أنه عزيمة،و لا يصح الصوم فى السفر،كما لا يصح إتمام الصلاة فيه،لأنه هو الذى شرعه اللّه فى دين الإسلام،و أن المقتضى من السفر لأحدهما هو بعينه المقتضى للآخر.كما ورد ذلک عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إذ قال:(إن اللّه وضع عنه الصيام و نصف الصلاة)أخرجه النسائى عن عمر بن أمية الضمرى.

و أخرج مسلم فى صحيحه عن جعفر بن محمد الصادق عن أبيه محمد الباقر عن جابر بن عبد اللّه الأنصارى أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم خرج عام الفتح إلى مكة فى رمضان فصام حتى بلغ كراع الغميم فصام الناس،ثم دعا بقدح من ماء فرفعه حتى نظر الناس إليه ثم شرب،فقيل له بعد ذلک إن بعض الناس قد صام.فقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«أولئک العصاة أولئک العصاة» (1).

و أخرج البخارى عن جابر بن عبد اللّه الأنصارى قال:كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى سفر فرأى زحاما و رجلا قد ظلل عليه فقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:ما هذا؟فقالوا صائم.فقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:

(ليس من البر الصوم فى السفر) (2).

و أخرج أبو داود عن قزعة قال أتيت أبا سعيد الخدرى و هو يفتى الناس و هم مكبون عليه،فانتظرت خلوته،فلما خلا سألته عن صيام رمضان فى السفر؟ فقال:خرجنا مع النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى رمضان عام الفتح،فكان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يصوم و نصوم،حتى بلغ منزلا من المنازل فقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:إنكم قد دنوتم من عدوكم،و الفطر

1- (1) صحيح مسلم شرح النووى 7:232.

2- (2) صحيح البخارى 3:43.

أقوى لكم،فأصبحنا منا الصائم،و منا الفاطر.قال:ثم سرنا فنزلنا منزلا فقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:

(إنكم تصبحون عدوكم و الفطر أقوى لكم فأفطروا)فكانت عزيمة من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم (1).

و أخرج الترمذى عن رجل من بنى عبد اللّه بن كعب بن مالک اسمه أنس بن مالک قال:قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:(إن اللّه وضع شطر الصلاة عن المسافر و رخص له فى الإفطار) (2).

و أخرج مسلم عن ابن عباس أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم خرج عام الفتح فصام حتى بلغ الكديد ثم أفطر،و كان صحابة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يتبعون الأحدث فالأحدث من أمره (3)و فى لفظ و إنما يؤخذ من أمر رسول اللّه بالآخر فالآخر (4).

و كيف كان فإن الشيعة قد أجمعوا على أن الإفطار فى السفر عزيمة و لا يجزى الصوم عن الفرض،بل من صام فى السفر وجب عليه قضاؤه فى الحضر.

و قال الشوكانى:و هذا هو قول بعض الظاهرية،و حكاه فى البحر عن أبى هريرة و داود و الإمامية،قال فى الفتح:و حكى عن عمرو ابن عمر،و أبى هريرة،و الزهرى، و إبراهيم،و النخعى و غيرهم (5).

و قال ابن حزم-بعد أن استدل على وجوب الإفطار فى السفر-:و لم يبق علينا إلا أن نذكر من قال بمثل قولنا لئلا يدعى علينا خلاف الإجماع،فالدعوى لذلک منهم سهلة،و هم أكثر خلافا للإجماع..

روينا من طريق سليمان بن حرب نا حماد بن سلمة عن كلثوم بن جبر عن رجل من بنى عبد القيس أنه صام فى السفر فأمره عمر بن الخطاب أن يعيد.و من طريق

1- (1) سنن أبى داود 1:560. [1]

2- (2) تيسير الوصول للشيبانى 2:337.

3- (3) صحيح مسلم 7:130.

4- (4) انظر نيل الأوطار 4:223.

5- (5) نيل الأوطار 4:223.

سفیان بن عیینة عن عاصم بن عبید اللّه عن عبد اللّه بن عامر بن ربیعة عن عمر بن الخطاب أنه أمر رجلا أن یعید صیامه فی السفر.

و روی عن عبد الرحمن بن عوف قال:نهتنی عائشة أم المؤمنین عن أن أصوم فی السفر.و عن ابن عمر أنه سئل عن الصوم فی السفر فقال:(من کان منکم مریضا أو علی سفر فعدة من أیام أخر).

و سئل عن الصوم أیضا فقال:إنما هو صدقة تصدق بها اللّه علیک،أ رأیت لو تصدقت بصدقة فردت علیک؟أ لم تغضب؟ و أن امرأة صحبته فی السفر فوضع الطعام فقال لها:کلی.فقالت إنی صائمة.

قال ابن عمر:لا تصحبینا.

و عن ابن عباس أنه سئل عمن صام رمضان فی السفر؟قال:لا یجزئه.یعنی لا یجزئه صیامه.

و عن عبد الرحمن بن عوف أنه قال:الصائم فی السفر کالمفطر فی الحضر.

و عن سعید بن المسیب أن رجلا سأله:أتم الصلاة فی السفر و أصوم؟قال:

لا.فقال:إنی أقوی علی ذلک.فقال سعید:رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کان أقوی منک،قد کان یقصر و یفطر.

و عن الزهری قال:کان الفطر آخر الأمرین من رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم،و إنما یؤخذ من رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بالآخر.

و عن عبد الرحمن بن عوف عن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنه قال:الصائم فی السفر فی رمضان کالمفطر فی الحضر.

و عن محمد بن علی بن أبی طالب أن أباه کان ینهی عن صیام رمضان فی السفر...الخ (1).

و علی أی حال:فإن الأخبار متواترة فی وجوب الإفطار علی المسافر فی شهر رمضان و حسبنا حجة لذلک قوله تعالی: فَمَنْ شَ هِدَ مِنْکُمُ الشَّهْرَ فَلْیَصُمْهُ وَ مَنْ کانَ مَرِیضاً أَوْ عَلی سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَیَّامٍ أُخَرَ یُرِیدُ اللّهُ بِکُمُ الْیُسْرَ وَ لا یُرِیدُ بِکُمُ الْعُسْرَ .

1- (1) انظر المحلی 256:5-258 [1] ذکرنا هذه الأخبار بحذف الإسناد اختصارا.

قال سيدنا شرف الدين:فإن فى الآية دلالة على وجوب الإفطار من وجوه:

أحدها:أن الأمر بالصوم فى الآية إنما هو متوجه للحاضر دون المسافر،و لفظه كما تراه:فمن شهد منكم الشهر-أى حضر فى الشهر-فليصمه و إذا فالمسافر غير مأمور، فصومه إدخال فى الدين ما ليس من الدين تكلفا و ابتداعا.

ثانيها:أن المفهوم من قوله تعالى: فَمَنْ شَ هِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُ مْهُ .أى من لم يحضر فى الشهر لا يجب عليه الصوم،و مفهوم الشرط حجة كما هو مقرر فى أصول الفقه،و إذا فالآية تدل على عدم وجوب الصوم فى السفر بكل منطوقها و مفهومها.

ثالثها:أن قوله عز و جل: فَمَنْ كانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلى سَ فَرٍ فَعِ دَّةٌ مِنْ أَيّامٍ أُخَرَ تقديره فعليه عدة من أيام أخر،هذا إن قرأت الآية برفع عدة،و إن قرأتها بالنصب كان التقدير فليصم عدة من أيام أخر و هذا يقتضى وجوب إفطار السفر إذ لا قائل بالجمع بين الصوم و القضاء على أن الجمع ينافى اليسر المدلول عليه بالآية.

رابعا:قوله تعالى: يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْ رَ وَ لا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْ رَ و اليسر هنا إنما هو الإفطار،كما أن العسر هنا ليس إلا الصوم،و إذا فمعنى الآية يريد اللّه منكم الإفطار و لا يريد منكم الصوم (1).

الجمع بين الصلاتين:

لا خلاف بين المسلمين فى جواز الجمع بعرفة وقت الظهر بين الفريضتين- الظهر و العصر،كما لا خلاف بينهم فى جواز الجمع فى المزدلفة وقت العشاء للحجاج بين الفريضتين-المغرب و العشاء.

و اختلفوا فيما عدا ذلك فمنهم من جوز الجمع بين الظهر و العصر و بين المغرب و العشاء تقديما و تأخيرا بعذر السفر عند مالك و الشافعى و أحمد.

أما أبو حنيفة فمنع من ذلك و قال:لا يجوز الجمع بين الصلاتين بعذر السفر بحال.

قال فى الغنية:و لا يجوز الجمع عندنا(الحنفية)بين صلاتين فى وقت واحد، سوى الظهر و العصر بعرفة،و المغرب و العشاء بمزدلفة و عند الثلاثة يجوز الجمع بين

1- (1) انظر مسائل فقهية 51-52.

الظهر و العصر و بين المغرب و العشاء فى وقت واحد بعذر السفر أو المطر،تقديما أو تأخيرا،بأن يصلى المتقدمة فى وقت المتأخرة (1).

أما عذر المطر فقد أجاز الشافعى الجمع بين الصلاتين تقديما فى وقت الأولى منهما.

قال أبو إسحاق الشيرازى:و يجوز الجمع بين الصلاتين فى المطر لما روى ابن عباس رضى اللّه عنه قال:صلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الظهر و العصر و المغرب و العشاء جمعا من غير خوف و لا سفر،قال مالک:أرى ذلک فى وقت المطر...الخ.

و حديث ابن عباس-الذى سيأتى-لا حجة لهم فى جعل المطر مسوغا للجمع بل هو مطلق و إنما كان رأى مالک أن يكون الجمع لعلة المطر و الحديث كما ترى دليل لمن يقول بجواز الجمع مطلقا لأن تعليل ابن عباس لذلک هو أن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أراد أن لا يحرج أمته (2).

قال ابن المنذر:لا معنى لحمل الأثر على عذر من الأعذار،لأن ابن عباس أخبر بالعلة و هو قوله:أراد أن لا يحرج أمته.

مع أن مالک بن أنس لم يجز الجمع بين الظهر و العصر بعذر المطر و قد اختلف أصحابه فى ذلک فقال أشهب:أحب إلى أن لا يجمع بين الظهر و العصر فى سفر و لا حضر إلا بعرفة.

و قد روى عن ابن قاسم فى المجموعة ما يقرب من قول أبى حنيفة أنه قال:من جمع بين المغرب و العشاء فى الحضر لغير عذر مرض أعاد العشاء أبدا (3).و كذلک روى عن مالک كراهية جمع الظهر و العصر بضرورة المطر أو أنه لا يجوزه كما تقدم.

و أحمد يوافق مالک فى جواز الجمع بين العشاءين فقط لعذر المطر لا بين الظهر و العصر سواء قوى المطر أو ضعف إذا كان المطر يبل الثوب و يوجد معه مشقة و كذلک يجوز للوحل و ريح باردة شديدة فى ليلة مظلمة (4).

1- (1) غنية المتملى 244.

2- (2) انظر الجوهر النقى فى الرد على البيهقى 1:226.

3- (3) شرح الموطأ للباجى 1:257.

4- (4) الروض الندى-111.

قال النووی فی شرح صحیح مسلم:-بعد ذکر أخبار الجمع-و أما حدیث ابن عباس فلم یجمعوا علی ترک العمل به بل لهم أقوال:منهم من تأوله علی أنه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم جمع بعذر المطر،و هذا مشهور عن کبار المتقدمین و هو ضعیف بالروایة الأخری:

(من غیر خوف و لا مطر).

و منهم من تأوله علی أنه کان فی غیم فصلی الظهر ثم انکشف الغیم،و بأن وقت العصر دخل فصلاها.و هذا أیضا باطل،لأنه و إن کان فیه أدنی احتمال فی الظهر و العصر،لا احتمال فیه فی المغرب و العشاء.

و منهم من تأوله علی تأخیر الأولی إلی آخر وقتها،فلما فرغ منها دخلت الثانیة فصلاها فصارت صلاته صورة جمع،و هذا أیضا ضعیف أو باطل لأنه مخالف للظاهر مخالفة لا تحتمل،و فعل ابن عباس الذی ذکرناه حین خطب،و استدلاله بالحدیث لتصویب فعله،و تصدیق أبی هریرة له،و عدم إنکاره صریح فی رد هذا التأویل.

و منهم من قال:هو محمول علی الجمع بعذر المرض أو نحوه مما هو فی معناه عن الأعذار،و هذا قول أحمد بن حنبل و القاضی حسین من أصحابنا و اختاره الخطابی و المتولی،و الرویانی من أصحابنا و هو المختار فی تأویله لظاهر الحدیث، و لفعل ابن عباس،و موافقة أبی هریرة و لأن المشقة فیه أشد من المطر.

و ذهب جماعة من الأئمة إلی جواز الجمع فی الحضر للحاجة لمن لا یتخذه عادة،و هو قول ابن سیرین،و أشهب من أصحاب مالک،و حکاه الخطابی عن القفال،عن أبی إسحاق المروزی،عن جماعة من أصحاب الحدیث،و اختاره ابن المنذر و یؤیده ظاهر قول ابن عباس:أراد أن لا یحرج أمته.فلم یعلله بمرض و لا غیره و اللّه أعلم (1).

و قال أشهب:إن للمقیم رخصة الجمع بین الصلاتین لغیر عذر مطر و لا مرض.

قال الباجی:و هذا هو قول ابن سیرین (2).

و قال الفخر الرازی-فی تفسیر قوله تعالی: أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوکِ الشَّمْسِ إِلی غَسَقِ اللَّیْلِ..... الآیة-بعد أن فسر الدلوک و الغسق-ما هذا لفظه:فإن فسرنا الغسق بظهور

1- (1) شرح النووی لصحیح مسلم 5:218-219.

2- (2) شرح موطأ مالک،1:255.

أول الظلمـة كان الغسق عبارة عن أول المغرب و على هـذا التقدير يكون المذكور فى الآية ثلاثة أوقات وقت الزوال و وقت المغرب و وقت الفجر و هذا يقتضـى أن يكون الزوال وقتا للظهر و العصـر،فيكون هذا الوقت مشتركا بين الصـلاتين و أن يكون أول المغرب وقتا للمغرب و العشاء،فيكون هذا الوقت مشتركا أيضا بين هاتين الصلاتين فهذا يقتضى جواز الجمع بين الظهر و العصر و بين المغرب و العشاء مطلقا،إلا أنه دل الدليل على أن الجمع فى الحضر من غير عذر لا يجوز فوجب أن يكون الجمع فى السفر و عذر المطر و غيره (1).

و قال البغوى:حمل الدلوک على الزوال أولى القولين لكثرة القائلين به و لأنا إذا حملنا عليه كانت الآية جامعة لمواقيت الصـلاة كلها،فدلوک الشمس يتناول صلاة الظهر و العصر،و إلى غسق الليل يتناول المغرب و العشاء و قرآن الفجر هو صلاة الصبح (2).

>الأخبار:< أخرج مسـلم عن أنس قال:كان النبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم إذا أراد أن يجمع بين الصـلاتين فى السـفر أخّر الظهر حتى يدخل وقت العصر،ثم يجمع بينهما.

و أخرج عن ابن شـهاب عن أنس:أن النبى صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم إذا عجل به السفر يؤخر الظهر إلى أول وقت العصر،فيجمع بينهما،و يؤخر المغرب حتى يجمع بينها و بين العشاء حين يغيب الشفق (3).

و أخرج البخارى عن أنس بن مالک قال:كان النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يجمع بين صلاة المغرب و العشاء فى السفر (4).

و أخرج مسلم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال:صلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الظهر و العصر جميعا،و المغرب و العشاء جميعا،من غير خوف و لا سفر.

و أخرج أيضا عن سعيد بن جبير عن ابن عباس بلفظ:صلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم

1- (1) التفسير الكبير 21-22. [1]

2- (2) معالم التنزيل [2]بهامش تفسير الخازن 4:141. [3]

3- (3) صحيح مسلم ج 5 ص 114-215 شرح النووى.

4- (4) البخارى ج 2 ص 55.

الظهر و العصر جميعا فی المدينة من غير خوف و لا سفر و أخرجه مالک فی الموطأ.

قال أبو الزبير فسأل سعيدا لم فعل ذلک؟فقال سعيد سألت ابن عباس كما سألتنی فقال:أراد أن لا يحرج أحدا من أمته (1).

و أخرج عن معـاذ قال:خرجنا مع رسول اللّه صـلّی اللّه عليه و آله و سـلّم فی غزوة تبوک فكان يصـلی الظهر و العصـر جميعا،و المغرب و العشاء جميعا.و عن عامر بن واثلـة-أبو الطفيل- حـدثنا معاذ بن جبل قال جمع رسول اللّه صـلّی اللّه عليه و آله و سـلّم فی غزوة تبوک بين الظهر و العصر،و بين المغرب و العشاء (2).

قال أبو الطفيل فقلت له ما حمله علی ذلک؟فقال:أراد أن لا يحرج أمته.

و أخرج عن ابن عباس قال:صليت مع النبی صلّی اللّه عليه و آله و سلّم ثمانيا جميعا و سبعا جميعا.

و أخرج مالک بن أنس عن أبی هريرة:أن رسول اللّه صلّی اللّه عليه و آله و سلّم كان يجمع بين الظهر و العصر فی سفره إلی تبوک (3).

و أخرج مالـک عن معاذ بن جبل أنهم خرجوا مع رسول اللّه صـلّی اللّه عليه و آله و سـلّم عام تبوک فكان رسول اللّه صـلّی اللّه عليه و آله و سلّم يجمع بين الظهر و العصـر،و المغرب و العشاء قال:فأخر الصلاة يوما، ثم خرج فصلی الظهر و العصر جميعا،ثم خرج فصلی المغرب و العشاء جميعا (4).

و أخرج أبو داود عن جابر أن رسول اللّه صـلّی اللّه عليه و آله و سـلّم غابت له الشمس بمكة فجمع بينهما بسرف (5)(و هو موضع قريب من مكة).

و أخرج مسـلم عن جابر بن زيد عن ابن عباس:أن رسول اللّه صـلّی اللّه عليه و آله و سـلّم صـلی بالمدينة سـبعا و ثمانيا الظهر و العصـر،و المغرب و العشاء (6).

و عن عبد اللّه بن شقيق قال:خطبنا ابن عباس يوما بعد العصر حتی غربت الشمس،و بدت النجوم،و جعل الناس يقولون الصلاة الصلاة.قال فجاء رجل لا يفتر

1- (1) مسلم ج 5 ص 215 شرح النووی.

2- (2) المصدر السابق ص 216.

3- (3) موطأ مالک ج 1:291 [1] شرح الزرقانی.

4- (4) المصدر السابق. [2]

5- (5) سنن أبی داود ج 1:277.

6- (6) صحيح مسلم 5:217.

و لا ينثنى فقال:الصلاة الصلاة.فقال ابن عباس:أ تعلمنى بالسنة لا أم لک؟!ثم قال:رأيت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم جمع بين الظهر و العصر و المغرب و العشاء.

و قال عبد اللّه بن شقيق فحاک من ذلک فى صدرى شىء فأتيت أبا هريرة فسألته فصدق مقالته (1).

و فى رواية أخرى قال رجل لابن عباس:الصلاة فسكت ثم قال:الصلاة فسكت،ثم قال:الصلاة،فسكت،ثم قال ابن عباس:لا أم لک أ تعلمنا بالصلاة؟! كنا نجمع بين الصلاتين على عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم (2)أخرجه مسلم من طريق عبد اللّه بن شقيق.

و أخرج البخارى عن سهل بن حنيف قال سمعت أبا أمامة يقول:صلينا مع عمر بن عبد العزيز الظهر ثم خرجنا حتى دخلنا على أنس بن مالک فوجدناه يصلى العصر،فقلت يا عم ما هذه الصلاة التى صليت؟ قال العصر و هذه صلاة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم التى كنا نصلى معه (3).

و أخرج ابن جرير عن ابن عمر قال:خرج علينا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فكان يؤخر الظهر،و يعجل العصر،فيجمع بينهما،و يؤخر المغرب و يعجل العشاء،و يجمع بينهما (4).

و عن أبى الشعثاء أن ابن عباس صلى بالبصرة الظهر و العصر ليس بينهما شىء، و المغرب و العشاء ليس بينهما شىء فعل ذلک من شغل (5).

هذه الآثار تدل بصراحة على جواز الجمع بين الصلاتين و أنه مشروع و علة تشريعه هى التوسعة على الأمة و عدم إحراجها بسبب التفريق.

و هذه الآثار منها ما يدل على الجواز فى السفر و منها ما هو مطلق لا يختص

1- (1) المصدر السابق.

2- (2) المصدر السابق 218.

3- (3) البخارى 1:137.

4- (4) نيل الأوطار 3:217.

5- (5) شرح الموطأ للزرقانى 1:294.

بمورد،و هـذا يـدل على ما نقوله و أن تأويلها على خلاف ذلک أو حملها على شـيء غيره أمر لا يتفق مع الواقع و قـد تقـدم ذلک فيما ذكره النووى.

و الأحاديث الواردة فى جواز الجمع متفق على صـحتها،و لزوم الأخـذ بها و إن كان البخارى قـد أهمل الكثير منها،فذلک لا يضـر بعد أن كان تخريجها على شرطه.

و كيف كـان فـإن النبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم شـرع ذلـک لئلا يحرج أمته،كما نطقت به الأخبار السابقـة و ورد ذلک عن أهل البيت عليهم السّلام.

قال الإمام الصادق عليه السّلام:إن رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم جمع بين الظهر و العصـر بأذان و إقامتين،و جمع بن المغرب و العشاء فى الحضر من غير علة بأذان واحد و إقامتين.

و عنه عليه السّلام قـال:إن رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم صـلى الظهر و العصـر فى مكـان واحـد من غير علـة و لا سـفر،فقال له عمر:أحدث فى الصلاة شيء؟قال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:لا و لكن أردت أن أوسع على أمتى.

و عنه عليه السّلام قال:صـلى رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم بالناس الظهر و العصـر حين زالت الشمس فى جماعة من غير علة و صلى بهم المغرب و العشاء الآخرة قبل سـقوط الشـفق من غير علـة فى جماعـة،و إنما فعل رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم ليتسـع الوقت على أمته (1)إلى غير ذلک من الأخبار الواردة فى الباب.

و على أى حال:فإن المتتبع المنصف لا يجـد دليلا على منع الجمع فى الحضـر من غير عذر،و إنما كانت هناک تأويلات و ظنون،أو حمل للأخبار على غير مؤداها.

و قد جمع النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى حال العذر كما جمع فى حال عدمه لئلا يحرج أمته، و قد وردت عنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم سـنة صـحيحة صـريحة،و نطق الكتـاب به كقوله تعـالى: أَقِمِ الصَّلاةَ لِـدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلى غَسَقِ اللَّيْلِ وَ قُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كانَ مَشْهُوداً كما تقدم بيانه فى كلمة الرازى السابقة و عليه جمع من المفسرين.

و قد أخذ الشيعة بتلک النصوص الصريحة فجوزوا الجمع،و وافقهم جمع من علماء المسلمين،و لا خلاف بينهم بأن التفريق أفضل.

1- (1) انظر الوسائل ج 5:277 طبع مصر. [1]

و الذی یظهر من مجموع الأقوال و موارد الخلاف أن المراد بالجمع بین الصلاتین هو إیقاعهما فی وقت واحد تقدیما أو تأخیرا من غیر وقوع شیء بینهما من نافلة و أوراد مستحبة.

و إذا نظرنا بعین الواقع فإن عمل أکثر الشیعة یقع علی جهة التفریق من حیث الالتزام بالنوافل،و أداء المستحبات،و بذلک تقع الصلاة فی وقت الفضیلة،و یحصل التفریق.و سنوضح ذلک إن شاء اللّه فی بیان أوقات الصلاة فی الأبحاث الفقهیة المستقلة عن هذا الکتاب.

و لنقف عند هذا الحد من البحث فی موضوع الفقه،لأننا قد آثرنا أن نبرز کتابا مستقلا فی الفقه الإسلامی،و نستعرض فیه آراء علماء المذاهب الإسلامیة فی جمیع أبواب الفقه،من عبادات،و معاملات و غیر ذلک.و لعل ما نقوم به فی البحث حول موضوع الفقه الإسلامی،و التعرض لآراء علماء المذاهب هو أعظم خدمة للأمة الإسلامیة،من حیث التقارب و التفاهم فی أمر لا بد و أن یکشف الخلاف حوله للوقوف علی الحقیقة التی احتجبت وراء سحب النعرات الطائفیة،و حملات المعادین للشیعة ممن هدد منهج الشیعة مصالحهم و أغراضهم.

و لا أقول بأن ما قمت به الآن أو أقوم به فیما بعد-إن شاء اللّه-قد انفردت به:

أو أننی السابق لسد تلک الثغرة،بل أنا أحد من ساهم فی هذه الخدمة،و قد سبق إلی ذلک رجالنا من علماء الدین،ممن لهم السبق فی معالجة مشاکل الخلافات الطائفیة، و ممن أوقفوا أنفسهم لخدمة المسلمین،فألفوا کتبا فی الفقه المقارن قدیما و حدیثا.

و نحن نأمل أن یتسع هذا المجال و أن لا یستغل الفقه لطائفة دون أخری و أن یدرس هذا الموضوع بعنایة خاصة،بجمیع نواحیه،لنصل إلی نتائج مثمرة،تعود علی الأمة بالنفع الکثیر من حیث التقارب و التفاهم،و أن یعطی الدارس لنفسه حریة الرأی، و الابتعاد عن نزعات الطائفیة،و مردیات التعصب.

و إن الفقه الشیعی الذی یستند إلی کتاب اللّه و سنة رسوله،و یستمد من ینبوع أهل البیت الذین هم عدل القرآن،و ورثة صاحب الرسالة،قد أهمله کثیر من الکتاب

غير المنصفين،و منهم من حكم عليه بأحكام خاطئة،مما يدل على الجهل الناشىء من عدم الاطلاع على مصادر الفقه الشيعى،أو الاكتفاء بالاطلاع على مصادر خصومهم،من دون تحرى الصدق فيما يجدونه فى كتب الخصوم،تحريا دقيقا يوصلهم إلى الحقيقة ذاتها.

و قد تعرضنا فيما سبق إلى بعض الأحكام الجائرة التى حكموا بها على الشيعة، سواء فى عقائدهم،أو فقههم،مما لا يستند إلى أدلة أو شواهد نقلية جديرة بالثقة، و قد تداول بعض الناس ذلک دون أن يسائلوا أنفسهم عن صحتها أو خطئها.و ما الفائدة من التجافى عن العدل و إغفال الأمانة و إهمال روابط الإخاء فليس عن ضعف يصدر القول منا فى إهمال أو إغفال الفقه الشيعى،فكل ما يتصل بالشيعة فقها و تاريخا واجه ما هو أعظم من الإهمال و الإغفال،فليس وراء الحرب و استهداف القضاء على وجود الشيعة من قبل الحكام و المتسلطين وسيلة أشد و أبلغ،و كلنا ندعو-رعاية للعلم و حرصا على عطاء أمة الإسلام-شباب المسلمين أن يلقوا نظرة على الفقه الشيعى و يحكموا بأنفسهم على ما تضمه أصولهم و مصادرهم،و أن ينزعوا قيود التقليد و التأثر بمواقف آخرين وقعوا فى فخ التفرقة و التعصب دون أن يدركوا ما ذا يعنى إهمال ثروة من العلم و كنوز من المعرفة و ذخيرة من الحكم تنبع كلها من ينبوع الرسالة.فلقد كان رجال الشيعة أسبق الناس عملا لنصرة الحق و حرية العقول و الحضّ على العطاء.

و نأمل أن لا تكون خطوة وحيدة لا أخت لها تلک التى أقدمت عليها حكومة مصر،فأخذت من الفقه الجعفرى أحكاما و أدخلتها فى قانون الأـحوال الشخصية،كما أن طبع كتاب(المختصر النافع)و هو من كتب فقه الشيعة،من قبل وزارة الأوقاف المصرية يحيى الأمل فى إدانة سياسة الحكّام الأقدمين الذين سنّوا سنّة سيئة بمحاربتهم الفقه الشيعى.

و لا تعجب إذا قلت إن شيخ السلفية و التعصب أخذ ببعض آراء الشيعة و أحكامهم،و يبدو أنها كانت بادرة وعى قصيرة الأمد.

و لعل فى هذا البيان من ذكر اختلاف الآراء و كثرة الأقوال التى تعرضنا لها فى الموضوع يسهل على من يستوعبها أن يتبين انحراف من صوّر الفقه الشيعى فى غير

صورته الواقعية و أبرزه على خلاف أغراضه و مبانيه،و ما ذلک إلا من جراء التعصب الأعمى.

و لسنا نشک بأن الحقيقة ستنكشف على نحو لا يقبل الدجل و التمويه،و ذلک لما نلمسه من الوعى الإسلامى،و الشعور المتزائد بوجوب تدارک خطر الفرقة، و أضرار التعصب الطائفى،و إن ذلک الركام الذى حجب الحقيقة أخذ ينهار يوما بعد آخر،و يندک ساعة بعد ساعة.

إن تلک الأقوال التى أطلقها أصحابها حول الشيعة من دون قيد أو شرط لم تكن صادرة عن تفكير و تدبر،بل أطلقها متحيز غير منصف،أو جامد لا يتمتع بحرية الرأى بل هو آلة صماء تتحرک فى حيز محدود من غير أن يكون لها دافع أو ضابط من عقل، و ذوق سليم.

و لا أشک بأن أكثر المنحرفين عن الواقع قد سلكوا فى أبحاثهم،طريق التقليد للمستشرقين الذين هم دعاة الفرقة،و خدمة الاستعمار و أبطال معركة الخلاف،و هم كما يقول الدكتور أبو الوفاء التفتازانى:

و كان من بين العوامل التى أدت إلى عدم إنصاف الشيعة أيضا أن الاستعمار الغربى أراد فى عصرنا هذا أن يوسع هوة الخلاف بين السنة و الشيعة،و بذلک تصاب الأمة الإسلامية بداء الفرقة و الانقسام،فأوحى إلى بعض المستشرقين من رجاله بتوخى هذا الغرض باسم البحث الأكاديمى الحر،و مما يؤسف له أشد الأسف أن بعض الباحثين من المسلمين فى العصر الحاضر تابع أولئک المستشرقين فى آرائهم دون أن يتفطن إلى حقيقة مراميهم (1).

و قد تعرضت فى الجزء الخامس لبعض ما يتعلق بآراء بعض المستشرقين و نواياهم السيئة و لهذا آثرت أن أعود-و العود أحمد-إلى البحث عن نهجهم فى دراساتهم لأنهم قد دسوا السم بالعسل و لقنوا كثيرا من كتّابنا ما يكدر صفو الإخوة الإسلامية.

1- (1) انظر مقدمة وسائل الشيعة ج 3 طبع مصر.

أهم المراجع:

اشارة

إن الكتب الفقهيـة التى اعتمدنا عليها فى نقل الأقوال-فى هذا الجزء و فى الجزء الخامس-كثيرة لا يمكن حصـرها و نحن نشـير إلى الأهم منها:

مصادر الجمهور:

1-المهذب لأبى إسحاق الشيرازى الشافعى-مطبعة الحلبى.

2-شرح موطأ مالک للزرقانى-مطبعة الاستقامة.

3-شرح موطأ مالک للقاضى أبى الوليد الباجى-مطبعة السعادة.

4-غنية المتملى شرح منية المصلى لإبراهيم الحلبى الحنفى-طبع استانبول.

5-الهداية للشيخ على الفرغانى الحنفى-مطبعة الحلبى.

6-بدائع الصنائع لعلاء الدين أبى بكر الكاسانى-مطبعة شركة المطبوعات العلمية سنة 1327-1328 ه.

7-حاشية ابن عابدين الطبعة الأولى.

8-بداية المجتهد لابن رشد القرطبى المالكى-مطبعة الاستقامة بالقاهرة سنة 1371.

9-المغنى لابن قدامة الطبعة الثالثة-مطبعة دار المنار سنة 1367.

10-أحكام القرآن لأبى بكر ابن العربى-مطبعة الحلبى 1376.

11-المبسوط لشمس الدين السرخسى-مطبعة السعادة سنة 1324.

12-شرح صحيح مسلم للنووى-مطبعة حجازى بالقاهرة.

13-شرح العشماوية-المطبعة العلمية سنة 1316.

14-زوائد الكافى و المحرر على المقنع لعبد الرحمن بن عيدان الحنبلى المطبوع بدمشق.

15-مختصر خليل فى الفقه المالكى-مطبعة محمد على صبيح سنة 1346.

16-ضوء الشمس للسيد محمد أبو الهدى الرفاعى الحنفى المطبوع سنة 1301.

17-نيل الأوطار لمحمد بن على الشوكانى-الطبعة الأولى سنة 1357.

18-المحلى لعلى بن حزم الأندلسى-إدارة الطباعة المنيرية بمصر.

19-غاية المنتهى للشيخ مرعى بن يوسف الحنبلى-مطبعة دار السلام بدمشق.

ص:376

20-التنقيح المشبع فى تحرير أحكام المقنع لعلاء الدين على بن سليمان المرداوى الحنبلى-المطبعة السلفية.

21-الروض الندى فى شرح كافى المبتدى لمفتى الحنابلة بدمشق أحمد بن عبد اللّه البعلى-المطبعة السلفية.

22-السراج الوهاج فى شرح متن المنهاج للشيخ محمد الزهرى طبع مصر سنة 1352.

23-مغنى المحتاج إلى معرفة ألفاظ المنهاج شرح الشيخ محمد الشربينى الشافعى- مطبعة مصطفى البابى 1377 ه.

24-نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج لأحمد بن حمزة الرملى الشهير بالشافعى الصغير-مطبعة الحلبى 1357.

25-الجوهر النقى فى الرد على البيهقى لعلاء الدين على بن عثمان بن إبراهيم المارديني الشهير بابن التركمان الحنفى.

26-شرح المواهب اللدنية لمحمد بن عبد الباقى الزرقانى.

27-الهادى أو عمدة الحازم فى المسائل الزوائد عن مختصر أبى القاسم لابن قدامة.

و غيرها من كتب الحديث و الفقه كالصحاح و كتب السنن مما لا يسعنا ذكره كمدونة مالک،و الأم للشافعى،و مختصر المزنى،و المجموع للنووى و الوجيز للغزالى و شرحه،و منهاج الطالبين و ما يتعلق به من شروح،و ملتقى الأبحر،و مراقى الفلاح و غير ذلک و قد أشرنا للبعض منها فى هامش الصفحات.

المصادر الشيعية:

أما مصادرنا فى البحث عن فقه الشيعة فهى من الكثرة بمكان و لا يمكن عدها هنا و لكن أهمها هى:

1-شرائع الإسلام للشيخ المحقق أبو القاسم الحلى المتوفى سنة 676.

2-المعتبر له رحمه اللّه طبع إيران.

3-المختصر النافع له طبع مصر نشرته وزارة الأوقاف بمصر.

4-الخلاف لشيخ الطائفة أبى جعفر الطوسى المتوفى سنة 460 ه.

5-الانتصار لعلم الهدى الشريف المرتضى المتوفى سنة 436 ه.

6-كشف الغطا:للشيخ الأكبر الشيخ جعفر الكبير المتوفى سنة 1228 ه.

7-وسائل الشيعة:للمحدث الشهير الحر العاملى المتوفى سنة 1104 (1).

8-جواهر الكلام فى شرح شرائع الإسلام للشيخ المحقق الشيخ محمد حسن النجفى المتوفى سنة 1266 (2).

9-الحدائق الناضرة فى أحكام العترة الطاهرة للفقيه المحدث الشيخ يوسف البحرانى المتوفى سنة 1186 (3).

10-تذكرة الفقهاء للشيخ جمال الدين الشهير بالعلامة الحلى المتوفى سنة 726 (4).

11-تبصرة المتعلمين له تغمده اللّه برحمته.

12-اللمعة الدمشقية للشهيد الأول و شرحها للشهيد الثانى المتوفى سنة 786 ه.

13-الوسيلة لعماد الدين محمد بن على بن محمد بن حمزة الطوسى من أعيان القرن الخامس.

14-رياض المسائل فى بيان الأحكام بالدلائل للحجة السيد على الطباطبائى طبع إيران.

15-نكت النهاية لأبى القاسم جعفر بن سعيد الحلى.

16-مستمسک العروة الوثقى للإمام الحكيم دام ظله.

17-منهاج الصالحين له أيضا.

18-الغنية لعز الدين حمزة بن على بن زهرة الحلبى-طبع إيران.

19-النهاية لشيخ الطائفة أبى جعفر الطوسى-طبع إيران.

و غير هذه الكتب التى لا نستطيع تعدادها الآن.

1- (1) يقع الكتاب فى أكثر من عشرين مجلدا و قد أعيد طبعه فى مصر و لم ينته.

2- (2) يقع فى أكثر من أربعين مجلدا و قد أعيد طبعه فى النجف الأشرف-مطبعة النجف.

3- (3) يقع فى أكثر من عشرين مجلدا و قد أعيد طبعه فى النجف الأشرف-مطبعة النجف.

4- (4) طبع فى إيران فى مجلدين و أعيد طبعه فى النجف فى عدة أجزاء-مطبعة النجف.

كتّاب و مؤلّفون

اشارة

لا ـ تمر فترة من الزمن إلا ـ و يطالعنا كتاب يحمل بين طياته أفكارا هدامة لكيان المجتمع الإسلامى بعبارات مسمومة و وخزات مؤلمة و حملات ظالمة و أقوال فارغة لا تقف أمام الواقع إلا كما يقف الرماد إذا اشتدت به الريح.

و لقد تطرقت لهذا الموضوع أكثر من مرة و قضيت وقتا طويلا أتصفح تلك الصفحات التى سودت بمداد الحقد و رقمت بأقلام شط بأصحابها سوء التفكير عن الخط الذى يجب أن تسير عليه لخدمة الأمة و صالح المجموع.

كنت أفكر فى الأسباب التى دعت لهذه التهجمات و أتعرف على الوسائل المبررة لما يرتكبه هؤلاء الكتاب من سوء الصنع مع إخوان لهم فى الدين يقرون للّه بالوحدانية و لمحمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بالرسالة و يؤدون فرائض الإسلام و هم مائة مليون أو يزيدون.

و قد قلت:إن مهمة المؤرخ عن الشيعة هى أشد صعوبة من مهمة من يؤرخ لغيرهم من طوائف المسلمين،لوجود عوامل و عقبات يجب أن يجتازها المؤرخ بنفسه،لا أن يقطعها على أجنحة التقليد و الاتباع بدون معرفة و تدبر.

و إن انفصال الشيعة عن الدولة القائمة آنذاك،و عدم مؤازرتها هو السبب الوحيد لكل ما علق بهذه الطائفة من عيوب هم براء منها،حتى تحامى الناس الميل إليهم، فكانت التهم تكال جزافا.

و أصبح بحكم الظروف القاسية أن تنسب إليهم فرق لا تمت إليهم بصلة، و يلصق بهم أناس لا تربطهم و إياهم روابط الاعتقاد.

و إن من يقف على أسماء الفرق المنسوبة للشيعة يجد هناك أسماء بلا مسميات، أو أشخاصا وهمية،و من الغريب أن تعداد فرق الشيعة لا زال بين المد و الجزر فهى

تبلغ بالعد إلى عشرين ثم يترقى الأمر و يرتفع العدد إلى أكثر فأكثر حتى يبلغ ثلاثمائة كما ذكرها بعضهم لأنهم يكتبون بدون تثبت و تدبر.

و ما دام الخيال واسعا،و البحث لم يكن على أسس عملية،و الأقوال تطلق بدون قيد فلا يستغرب أن يصل العدد إلى الألف.

و قد وضحنا فيما سبق أخطاء كتّاب الفرق،و ما ارتكبوه من الخلط و الخبط، و إنهم قد تعصبوا تعصبا دفعهم إلى ارتكاب ما لا يغتفر لهم فى حق الأمة،مما خلفوه للأجيال من تلك الافتعالات،و ما أثبتوه من خرافات،و ما جنوه من أخطاء فى تشويه الحقائق بدافع من الميول و التعصب و الاتجاه فى الأبحاث على غير ما تقتضيه الأصول و القواعد.

و لقد كان لتحوير الحقائق،و التلاعب بالنصوص التاريخية،دور فعال فى بث روح البغضاء بين طوائف المسلمين،مما أدى إلى تفكك أوصال ذلك المجتمع،و قد عاش المسلمون فى ظروف ساد فيها القلق،و تركزت فيها عوامل الحقد،فتبدلت الوحدة بالفرقة،و الاخاء بالعداء،و الوصل بالقطيعة.

فيجب علينا أن نتساءل عن الفائدة التى حصلنا عليها من هذه الفرقة كما يجب أن نتساءل عن عواملها و أسباب اتساعها،و ننظر بواقعية إلى تلك الأضرار الناجمة عن ذلك التباعد،و هناك يتضح لنا الطريق إلى الحول الجذرية التى يجب أن تتخذ لرفع تلك الآثار السيئة التى خلفها سوء الفهم،و عدم الخضوع للواقع.

و على أى حال فإن كثيرا من الكتّاب و المؤلفين قد تعرضوا للبحث عن تاريخ الشيعة من حيث عقائدهم،أو آدابهم،أو تاريخ نشأتهم،أو غير ذلك،و لكن بمزيد الأسف-أن الغالب من هؤلاء لم يتجهوا بإخلاص للبحث،أو حرية فى الرأى، ليدركوا الأشياء على حقيقتها،و يتركوا وراء ظهورهم رؤيا الخيال المريض،و وحى العاطفة الكاذب ليسلموا من ارتكاب الأخطاء و خيانة أمانة التاريخ،لأن السير على غير منهج العلم السديد يوقع صاحبه فى شباك أخطاء تنحرف به عن الواقع.

و من المؤسف له أيضا أن أكثر أولئک الكتاب يولعون بتتبع الأساطير و القصص التى لا تثبت صحتها،ليبنوا منها أحكاما كلها أوهام و خيالات،و إسراف فى إصدار النتائج و الأحكام بما لا يسيغه العقل و لا يقره الوجدان.

و للإيضاح نضع بين يدى القراء ما أورده الدكتور محمد حسين الذهبى فى كتابه التفسير و المفسرون دليلا لما احتج به على وضع الشيعة للحديث،و اتهم جابر بن يزيد الجعفى التابعى الكبير بوضع الحديث و هو قول انفرد به الدكتور لأن جابر قد شهد له أقرانه بفضله.و لما أعوزت الدكتور الحجة استدل بأسطورة من وضع الجاحظ و دعابته.

قال الدكتور:و يعجبنى هنا ما ذكره أبو المظفر الأسفراييني فى كتابه التبصير فى الدين و هو:

إن الروافض-و المقصود بهم الشيعة طبعا-(لما رأوا الجاحظ يتوسع فى التصانيف و يصنف لكل فريق،قالت الروافض:صنف لنا كتابا،فقال لهم:لست أدرى لكم شبهة حتى ارتبها و أتصرف فيها،فقالوا له:إذا دلنا على شىء نتمسک به.

فقال لا أرى لكم وجها إلا أنكم إذا أردتم أن تقولوا شيئا تزعمونه تقولون إنه قول جعفر بن محمد الصادق،لا أعرف لكم سببا تستندون إليه إلى غير هذا الكلام...

فتمسكوا بحقهم و غباوتهم بهذه السوأة التى دلهم عليها،فكلما أرادوا أن يختلقوا بدعة،أو يخترعوا بدعة نسبوا إلى ذلک السيد الصادق،و هو عنها منزه،و من مقالتهم فى الدارين برىء) (1).

هذه هى الأضحوكة التى أعجب بها الدكتور أو الكاتب أو أستاذ علوم القرآن و الحديث أو الأستاذ بكلية الشريعة بالأزهر الشريف.

لقد أعجب الأستاذ بما نقله نتيجة لقوة إدراكه،و اتساع تتبعه،حتى جاءنا بما لا يتناوله الشک،و لا يهبط إلى مستوى النقد!! و ما عشت أراک الدهر عجبا،لقد بلغت الحالة فى الأبحاث العلمية إلى هذا

1- (1) التفسير و المفسرون ج 2 ص 39. [1]

المستوى الشائن و هل هذا إلا لغة الماجن العاجز،الذى لا يستطيع أن يدعم قوله بحجة منطقية،و أدلة عقيلة؛و قد كشف الدكتور الشيخ عن مستوى مداركه و أعلن عن براعته و معلوماته.

و قبل أن أناقش الدكتور-مرغما-أود أن أذكر استشهادا آخر بأساطير الجاحظ و دعابته لمؤلف أراد أن يدعم قوله بما ذكره من الأسطورة و لعله أعجب بذلک كما أعجب الدكتور الذهبى.

هذا الأستاذ عبد الحسيب طه حميدة المدرس فى كلية اللغة العربية يذكر فى كتابه(أدب الشيعة)-مستدلا على أن التشيع أصبح بغيضا إلى النفس و سبيلا إلى السخرية و التهكم-يقول الأستاذ نقلا عن الجاحظ:كان معنا شيخ شرس الأخلاق، طويل الأطراف،و كان إذا ذكر له الشيعة غضب و أربد وجهه و زوى عن حاجبه.

قال الجاحظ:فقلت له يوما:ما الذى تكرهه من الشيعة؟!فإنى رأيتک إذا ذكروا غضبت،و قبضت،فقال:(ما أكره فيهم إلا هذه الشين فى أول اسمهم فإنى لم أجدها قط إلا فى كل شر،و شؤم،و شيطان و شغب)ووو....الخ.

قال أبو عثمان:فما ثبت بعدها لشيعى قائمة (1).هذا ما ذكر الأستاذ حميدة.

و لست أدرى هل حاسب الأستاذ نفسه عن مؤدى هذه السخافة و ما هو مورد ذكر هذه الدعابة فى موضوع بحث الأدب.

و لا أستبعد أن الأستاذ المؤلف قد أثارت بنفسه هذه الأسطورة من الاشمئزاز و البغض ما جعله يخرج عن ميزان الاعتدال فى كثير من أبحاثه حول الشيعة،و لئن أودع هذا الشيء فى نفسه ما أودعه فى قلب ذلک الشيخ الشرس فلما ذا لم تنشرح نفس الأستاذ لما فى هذا الشين من صفات:الشرف و الشهامة،و الشجاعة و الشهادة و الشفاء و الشفاعة و.و.و.

و أنت تستطيع أيها القارئ أن تدرک مدى ما بلغت إليه الحالة من التفكک و الانهيار،و كيف أصبحت الأكاذيب و الأباطيل تحتل مكانا فى عقول من نأمل فيهم

1- (1) انظر أدب الشيعة 20-21. [1]

التحرر و الانطلاق من عقال التعصب؟!سواء نظرنا إليهم من زاويـة دينيـة علميـة مشـفوعة بالشـهادة-الدكتوراه-و الزى-العمّة-أو من زاوية المراكز و الألقاب كحميـدة،أم أن الـدين لـم يبق منه إلا الزى،و العلم لـم يترک منه الزمن إلا التكسب و الارتزاق؟ و لقـد ظل الجهل يغذى تلک الخرافات التى سادت فى عصور التطاحن المـذهبى و امتـد أجلها إلى القرن العشـرين و كانت الطائفية تصونها و تحميها و تغذى بها عقول من تعطلت فيهم ملكات التفكير فساروا وراء دعاتها سير الأغنام.

و إن أمثال هذه الأقاويل لها أثر فى السيطرة على عقول السذج من الناس يوم كان الصراع محتدما،و الفتنة ترمى بشررها كانت مدرسة الإمام الصادق عليه السّلام تشق طريقها بقوتها الروحية،و تجتاز مرحلة بعد أخرى فى الانتشار،و لم يستطع أى أحد أن ينسب للإمام الصادق عليه السّلام ما يشين بسمعته فهو الصادق فى لهجته-حتى لقب بذلک-القوى فى حجته حتى خضع له كل معاند،و كان المنتمون إليه هم حملة الحديث و أوعية العلم.

و لكن خصومه جاءوا من طريق حاولوا فيه الوصول إلى الطعن فيه عبر النيل من أتباعه ليشوهوا سمعة هذه المدرسة،فقالوا إن الإمام الصادق مكـذوب عليه،و روجوا ذلک بدعايات و دعابات و سـخافات و أساطير و تقولات و أكاذيب ليصـرفوا الوقائع عن وجهتها و يشوهوا الحقائق ليطعنوا فى أصحاب الإمام الصادق و شيعته،إذا أعجزهم علم الصادق و تقواه كما أعجزتهم عقيدة الشيعة و متانة أصولها.

و قـد مر بنا فى الجزء الرابع من الكتاب كيف كان الغلاة يـدعون حب أهل البيت و هم يخفون أغراضـهم و يضـعون الأحاديث و يكـذبون على الإمام الصادق و هو يتبرأ منهم و يشن حملته عليهم.

كما اشـتهر جماعة كعمر و النبطى باختصاصـهم بوضع الأحاديث على الإمام الصادق،و تحفظ لنا التراجم و السـير اسم أحد الضعفاء فى الحديث و قيل:فيه اجتمعت كل عيوب الضـعفاء و كان اسـمه جعفر بن محمد،و هو مولى يروى عن المجاهيل،جاز على ضعفة العقول أو اتخذه ضـعفاء الإيمان وسيلة للطعن،و لعل الأستاذ الذهبى أراد أن يلعب ذلک الدور،فبادر لنقل هذه الأكذوبة ليكون لها أثر فى نفوس من لا حصانة لها عن تقبل الأكاذيب و التأثر بالدعايات الساقطة.

و صفوة القول إن كثيرا من الكتاب الذين تطالعنا كتبهم بين آونة و أخرى و هى تحمل تلك الأفكار التى تضر بصالح المسلمين،و تهدم وحدتهم لا يشعرون بالأضرار الناجمة من وراء ما يكتبون من أمور لا تستند إلى أدلة أو شواهد جديرة بالثقة،و قد أثبتوا أشياء دون أن يسائلوا أنفسهم عن صحتها أو خطئها،لأنهم لم يتجردوا عن التعصب الطائفى و الهوى المذهبى.

كما أنهم قد استعذبوا ما كتبه المستشرقون فأعجبوا بذلک الأسلوب الساحر، و اعتقدوا بصحة ما يكتبون فحملوا و نقلوا بدون تفكير و تمحيص.

و مما لا جدال فيه أن المستشرقين أصحاب هوى يصدرون أحكامهم عن عصبية و تحامل على الإسلام،و هم يتبعون الشاذ من الروايات التى أخطأ فيها بعض الرواة، أو الذى تعمده الوضاعون،مما أوضحه علماء الإسلام،فجعلوا من هذا الشاذ المنكر أصلا يبنون عليه قواعدهم،التى افتعلوها و نسبوها للإسلام و علماء الإسلام و هم يغمضون أعينهم عن الحقائق.

يقول الأستاذ مالک بن نبى:و إنه لما يثير العجب أن نرى كثيرين من الشباب المسلم المثقف،يتلقون اليوم معتقداتهم الدينية،و أحيانا دوافعهم الروحية نفسها من خلال كتابات المتخصصين الأوروبيين (1).

و يقول الأستاذ السباعى:و من المؤلم أن طلاب العالم الإسلامى الذين يدرسون باللغة الإنجليزية فى بلادهم لا يزالون مضطرين إلى دخول الجامعات الإنجليزية،فلا يجد طلاب الدراسات الإسلامية أمامهم مراجع لدراساتهم التى ينالون بها الدكتوراه غير تلک المراجع المسمومة و هم لا يعرفون اللغة العربية فتقرر عندهم أن تلک الدسائس مأخوذة من كتب الفقهاء و العلماء المسلمين أنفسهم (2).

و قد أوضحت فيما سبق أن الآراء التى ذهب إليها بعض الكتاب للطعن على الشيعة ليست من وحى أفكارهم و لا نتيجة لتتبعهم و إنما هى من مفتريات المستشرقين و افتعالاتهم و بالأخص ما كتبه أحمد أمين و هو كما يصفه الأستاذ فتحى عثمان:بأنه ضالع فى الدراسات الغربية ترجم عن كتابات الغربيين ترجمة مباشرة،و صنف جامعا

1- (1) انظر الظاهرة القرآنية ص 19.

2- (2) كتاب السنة 28.

لآـرائهم المتنـاثرة-بعـد أن هضـمها-بين دفتى مؤلف واحـد،و بلسان عربى مبين،و قـد رجع لـدراسات المستشـرقين فى عيون إنتاجه فجر الإسـلام و ضـحاه و ظهره!!!و الأسـتاذ أحمـد يحق له أن ينعى على الاقتصـار على النقل و القصور فى التعليق و إبراز الرأى الشخصـى،فقد جرى-رحمـه اللّه-فى مؤلفـاته على أن يمتص مـا يقرأ ثـم يعرضه بأسـلوبه و منطقه لاحمـا بين النقـل و النقـد،غير زاخم للكتـاب بأرقـام الحواشـى،و تتابع النصوص،و الاقتباسات مكتفيا بإيراد ما رجع إليه من كتب فى آخر الباب جملـة مسـتغنيا بـذلک عن إيضاح ما رجع إليه صفحة صفحة و فقرة فقرة (1).

هذا ما يقوله الأستاذ فتحى عثمان و نحن نزيد و لا نبعد عن الواقع إن قلنا:إن المتتبع لما كتبه أحمد أمين لا يخالطه شک بأن الرجل مترجم للرأى و ناقل لآراء المستشـرقين بـدون أن ينسـبها إليهم بصـراحة على أنها بحث من عنـده و يلبسـها ثوبا رقيقا و بـدون ريب إنه كان مقلـدا للغربيين فى آرائه و ناقلاـ لأـقوالهم كأنهـا له دونهم و أن جميع مـا كتبه حول الشـيعة إنمـا هو للمستشـرق(ولهوسن)و(دوزى)و غيرهما من المستشرقين الحاقدين على الإسلام و ليس له إلا النقل و المشاركة فى الخطأ.

و مما يؤيد ذلک ما نقله السـباعى:بأن الأسـتاذ أحمد أمين قال للدكتور على حسن عبد القادر-و هو الذى أثيرت حوله الضجة-:بأن الأزهر لا يقبل الآراء العلمية الحرة،فخير طريقة لبث ما تراه مناسـبا من أقوال المستشـرقين أ لا تنسـبها إليهم بصـراحة و لكن ادفعها إليهم على أنها بحث منک و ألبسها ثوبا رقيقا لا يزعجهم مسها كما فعلت أنا فى فجر الإسلام و ضحى الإسلام (2).

و كيف كان فإن أكثر المستشـرقين لم تتحرر عقليتهم من نظرة التعصب و يتوسـلون بفروض و همية ليصـلوا إلى تشويه الحقائق العلميـة و تتجلى من خلال سـطور ما يكتبونه عن الإسـلام و بنى الإسـلام روح العداء المسـتحكم للدين الإسلامى و هذه الروح العدائية للإسلام و المسلمين بقية من بقايا العداء الصليبى.

و هؤلاء كما يصفهم المستشرق النمساوى بقوله:إن أبرز المستشرقين

1- (1) انظر أضواء على التاريخ الإسلامى-174.

2- (2) السنة للسباعى 214.

الأوروبيين جعلوا من أنفسهم فريسة التحزب غير العلمى،فى كتاباتهم عن الإسلام و يظهر فى جميع بحوثهم كما لو أن الإسلام لا يمكن أن يعالج على أنه موضوع بحث فى البحث العلمى،بل أنه متهم يقف أمام قضاته!! و إن بعض المستشرقين يمثلون دور المدعى العام الذى يحاول إثبات الجريمة و بعضهم يقوم مقام المحامى فهو مع اقتناعه شخصيا بإجرام موكله،لا يستطيع أكثر من أن يطلب له مع شىء من الفتور اعتبار الأسباب المخففة (1).

و حيث كانوا هم الداء الفاتک و علة العلل فى تغذية روح العداء فى العصر الحاضر رأيت أن أعود للبحث عنهم.

من هم المستشرقون؟؟

اشارة

المستشرقون قوم من أوروبا نسبوا أنفسهم إلى العلم و البحث،و شغلوها فى أغلب الأحيان بالبحث فى التاريخ و الدين و الاجتماع،و لكل منهم لغته الأصلية التى رضع لبانها من أمه و أبيه،و مجتمعه،و بيئته،فصارت له«اللغة الأم»كما يعبرون فهو يغار عليها و يتأثر بها و يستجيب لموحياتها،و لكن المستشرقين تعلموا اللغة العربية بجوار لغاتهم الأصلية،و مع أن كثيرين منهم قضوا شطرا كبيرا من تعلم العربية و فى القراءة بها،و عاشوا فى أوساط عربية ردحا من الزمن،نلاحظ أن نطقهم بالعربية لم يخل من لكنة و رطانة،و كذلک حين يكتبون بها فما تكاد تسمع المستشرق أو تقرأ له حتى تحس من نبرات صوته أو طريقة كتابته أنه دخيل فى العربية طارئ عليها،و أن العربية عنده لغة ثانية لا تسرى أصولها و روحها فى عقله أو وجدانه أو شعوره كما تجرى لغته الأصلية«اللغة الأم».

و من هنا كان طبيعيا أن نجد هؤلاء المستشرقين لا يجيدون فهم النصوص العربية فقد يفوتهم عند مطالعتها الكثير من مجازاتها و استعاراتها و خصائصها الأسلوبية و المعنوية،و نجد بعضهم أحيانا يفهم النص العربى فهما مضحكا،و لعل هذا من الأسباب التى جعلت هؤلاء يفسرون تلک النصوص العربية تفسيرا مضحكا كذلک أو يصدرون عليها أحكاما مضحكة كذلک.

1- (1) الإسلام على مفترق الطرق.

و الاستشـراق لـم ينشأ اعتباطا و لا مصادفة بل أغلب الظن أنه نشأ حسب خطة موضوعة،فإن الغرب قد انتهز الفرصة حينما رأى الشـرق غارقا فى خلافاته و فتنه و اضطراباته،فأقبل عليه بخيله و رجله يحمل دياره،و يستعبد أهله و يستثمر خيراته و طاقاته،و يستبد بثمراته و بركاته،و يشوه معالم عقائده و مبادئه،و خصائص أهله، و كان المسيّر لهذا الاحتلال و الاستبداد هو الأحقاد الدينية،و الثارات الصليبية، و الضغائن الغربية العميقة الجذور ضد الإسلام و العرب...

و تراهم يولعـون بتنـاول مـواطن خاصـة،ينـالون فيهـا من الإسـلام،و يعرضون به، كمـا يولعون بتتبع الأسـاطير و القصـص الـتى لاـ تثبت صحتها،ليبنوا منها أحكاما كلها أوهام و خيالات و إسراف فى إصدار النتائج و الأحكام.

و يولعون بتصوير الإسـلام فى صورة الدين الجامد الذى لا يصـلح للتطور أو التجديد،و من كيدهم فى هذا الباب أنهم يحكمون دائما على الإسـلام من واقع المسـلمين فهم لا يصورون الإسـلام من منابعه و مصادره،بل يصورونه من واقع المسـلمين السـيئ،و هم بطبيعـة الحال يختارون البيئات الإسلامية التى نالها الضعف، أو الهزال لهذا السبب أو ذاك و يجعلون هذه البيئات الضعيفة نموذجا للإسلام...الخ.

هكذا عرفهم الأستاذ أحمد الشرباصى المدرس بالأزهر و الرائد العام لجمعيات الشبان المسلمين (1).

دراسة المستشرقين:

لقد قام المستشرقون بدراسات واسعة حول الإسلام،فنشروا كتبا كثيرة، و توسعوا فى الدراسات إلى حد بعيد،و بذلوا جهودا،و لكن أكثرهم- إن لـم يكن كلهم-لـم يسلم من التحامل على الإسلام،و العداء لأهله،و إن تحقق ذلك فى شخص تخلف عن كثيرين.

و لو أنهم كانوا قد جردوا تلك الدراسات عن التحيز و التحامل و التزموا الإنصاف

1- (1) انظر التصوف عند المستشرقين ص 6-10 العدد 27 من سلسلة الثقافة الإسلامية.

فی أبحاثهم و لم یندفعوا وراء عواطفهم،و لم یبتغوا غیر الحق لذات الحق،لکانت تلک الدراسات نافعة،و جهودهم مشکورة.

لکن دراساتهم لم تکن خالیة من التحامل و الطعن،بل تکون فی غالب الأحیان عند أکثرهم منصبة علی الإسلام بالدس و التقول بالباطل،لأنها لم تکن للعلم من حیث العلم،بل کانت أولا بوحی من الکنیسة الکاثولیکیة خاصة،للانتقاص من تعالیم الإسلام و إهدار قیم تعالیمه،حرصا علی مذهب«الکثلکة»من جانب و تعویضا عن الهزائم الصلیبیة فی(تحریر بیت المقدس)من جانب آخر.

ثم تبنی الاستعمار الغربی هذه الدراسة فی الجامعات العربیة نفسها حتی یقوی القائمون بأمرها علی تصدیرها إلی الشرق الإسلامی... (1).

و الاستشراق أول ما ظهر بین الرهبان عند ما قامت روما تحاول تنصیر العرب، فاعدت لهم الوعاظ علمتهم العربیة،و انشأت مدرسة للدعایة سنة 1627 سبقتها مدرسة لیسوعیین و غیرهم،و هذه المدرسة أسسها البابا الثامن،و جعلها مرکزا لدراسات اللغات السامیة،ثم أنشأ الکاردینال(یورمیو)مکتبة(امبروزیانا)تحت إشراف الدکتور جیجو.

و أنشأ الأب ماتوریبا المعهد العالی للغات الشرقیة فی نابلس سنة 1732.ثم أنشئ المعهد البابوی للغات الشرقیة،و ألحقت به مکتبة غنیة بالمخطوطات العربیة، و تبعه مؤسسة کایتانی و المعهد الشرقی المنشأ فی روما سنة 1921 و یتولی نشر مجلة الحدیث.

فلا غرو إن کان ظهور الاستشراق أول ما ظهر بین الرهبان (2).

و لقد قام بعضهم بأعمال خطیرة هی أکثر مما تقوم بها الجیوش.فهذا الکاردینال(لافیجری)کما یحدث هو عن نفسه فی الجزائر و تونس فی رسالة له:أنه قام بأکثر مما یقوم به جیش بأکمله.و لم یکن عمله ذلک لخدمة الدیانة المسیحیة بل کان لخدمة الاستعمار،و محاولة محو الإسلام من نفوس الجزائریین لأنه هو المؤجج لروح المقاومة فیهم (3).

1- (1) انظر الفکر الإسلامی الحدیث للدکتور محمد البهی ص 5.

2- (2) انظر أضواء علی التاریخ الإسلامی ص 153.

3- (3) انظر مجلة البینة السنة الأولی العدد 6 ص 30.

لقد شوه المستشـرقون كثيرا من الحقائق و ادخلوا فى التاريخ الإسـلامى ما ليس منه،و كانت لهم اليد الطولى فى توسـعة شـقة الخلاف بين طوائف المسـلمين بما ينشرونه من دفائن،و يبرزونه من أقوال شاذة،و آراء مقبورة،بأسلوب ماكر خداع، كما أنهم قاموا بنشاط واسع فى خدمة الاستعمار،و قد وصفهم الدكتور مصطفى السباعى بأنهم:عملاء الاستعمار،و هم أداة هدم الإسلام،و تشويها لسمعة المسلمين.

و لا بد لنا هنا بأن نترك الموضوع للأدباء و الكتاب ليتحدثوا عن المستشـرقين و ما قاموا به من نشاط فى محاربة الإسـلام،و ما نجم من وراء ذلک و كيف انخدع بهم كثير من الكتاب،و كيف أصبحت كتبهم مصدرا يستمد منه كتّابنا معلوماتهم عما يتعلق بتاريخ الإسلام و ما يتعلق به من بحوث،فلنصغ لحديث الأدباء و الكتّاب ممن تحضرنا كتبهم الآن.

حديث عن المستشرقين:

يقول الأستاذ السباعى:اتضحت لى-عن المستشرقين-الحقائق التالية:

أولا:أن المستشرقين-فى جمهورهم-لا يخلو أحدهم من أن يكون قسيسا أو يهوديا و قد يشذ عن ذلک أفراد.

ثانيا:أن الاستشراق فى الدول الغربية غير الاستعمارية-كالدول الاسكندينافية أضعف منه عند الدول الاستعمارية.

ثالثا:أن المستشرقين المعاصرين فى الدول غير الاستعمارية يتخلون عن(جولد تسهير)و آرائه بعد أن انكشفت أهدافه.

رابعا:أن الاستشراق بصورة عامة ينبعث من الكنيسة و فى الدول الاستعمارية يسير مع الكنيسة و وزارة الخارجية جنبا إلى جنب يلقى منهما كل تأييد.

رابعا: أن الاستشـراق بصورة عامـة ينبعث من الكنيسـة و فى الـدول الاسـتعمارية يسـير مع الكنيسة و وزارة الخارجية جنبا إلى جنب يلقى منهما كل تأييد.

خامسـا:أن الـدول الاسـتعمارية كبريطانيا و فرنسا ما تزال حريصـة على توجيه الاستشـراق وجهته التقليديـة،من كونه أداة هـدم للإسـلام،و تشويها لسمعة المسلمين.

ففى فرنسا لا يزال«بلا شير»و«ماسينيون»و هما شيخا المستشرقين فى وقتنا الحاضر يعملان فى وزارة الخارجية الفرنسية كخبيرين فى شئون العرب و المسلمين.

و فی إنجلترا رأینا-کما ذکرت-أن الاستشراق له مکان محترم فی جامعات لندن،و أکسفورد،و کمبردج و أدنبره و جلاسجو و غیرها،و یشرف علیها یهود و إنجلیز استعماریون و مبشرون و هم یحرصون علی أن تظل مؤلفات جولد سهیر، و مرجلیوث (1)-ثم شاخت من بعدهما- هی المراجع الأصلیة لطلاب الاستشراق من الغربیین،و للراغبین فی حمل شهادة الدکتوراه عندهم من العرب و المسلمین،و هم لا یوافقون أبدا علی رسالة لطلب الدکتوراه یکون موضوعها إنصاف الإسلام،و کشف دسائس أولئک المستشرقین.

إلی أن یقول:

و من المؤلم أن طلاب العالم الإسلامی الذین یدرسون باللغة الإنجلیزیة فی بلادهم لا یزالون مضطرین إلی دخول الجامعات الإنجلیزیة،فلا یجد طلاب الدراسات الإسلامیة أمامهم مراجع لدراساتهم التی ینالون بها الدکتوراه غیر تلک المراجع المسمومة و هم لا یعرفون اللغة العربیة،فتقرر عندهم أن تلک الدسائس مأخوذة من کتب الفقهاء و العلماء المسلمین أنفسهم (2).

هذا بعض ما ذکره الدکتور مصطفی السباعی عن حقیقة المستشرقین و قد ذکر أشیاء کثیرة ینقم فیها علیهم لسوء ما ارتکبوه فی حق المسلمین من تحامل و عداء، و تشویه للحقائق،و تحریف للنصوص،و تأویل للوقائع التاریخیة وفق مخطط مرسوم و هدف معین و هو العداء للإسلام...

و یقول الأستاذ مالک بن نبی (3):

و إنه لمما یثیر العجب أن نری کثیرین من الشباب المسلم المثقف یتلقون الیوم معتقداتهم الدینیة،و أحیانا دوافعهم الروحیة نفسها من خلال کتابات المتخصصین الأوروبیین.إن الدراسات الإسلامیة التی تظهر فی أوروبا بأقلام کبار المستشرقین

1- (1) مرجلیوث:المتولد سنة 1858 و المتوفی سنة 1940 من أشهر أئمة مستشرقی الإنجلیز و کان فی المجمع العلمی بدمشق له مؤلفات کثیرة منها عدة رسائل عن الدین و التاریخ الإسلامی.

2- (2) انظر کتاب السنة 26-28.

3- (3) الظاهرة القرآنیة 19-21.

واقع لا جـدال فيه،و لكن هل يمكن أن نتصور المكانة التى يحتلها هذا الواقع فى الحركة الفكرية الحديثة فى البلاد الإسـلامية؟ إن الأعمال الأدبية لهؤلاء المستشـرقين قد بلغت فى الواقع درجة خطيرة من الإشـعاع لا نكاد نتصورها،و حسـبنا دليلا على ذلک أن يضم مجمع اللغة العربيـة فى مصـر بين أعضائه عالما فرنسـيا،و ربما أمكننا أن نـدرک ذلک إذا لاحظنا عـدد رسالات الـدكتوراه،و طبعـة هذه الرسالات التى يقـدمها الطلبـة السوريون و المصـريون كل عام إلى جامعـة باريس وحـدها.و فى هذه الرسالات كلها يصـر أساتذة الثقافة العربية فى الغد أولئک الذين سيكونون باعثى النهضة الإسلامية يصرون-كما أوجبوا على أنفسهم على ترديد الأفكار التى زكاها أساتذتهم الغربيون.

و عن هذا الطريق أوغل الاستشراق فى الحياة العقلية للبلاد الإسلامية محددا لها اتجاهها التاريخى إلى درجة كبيرة.

و أيا ما كان الأمر فإن الشباب المسلم المثقف فى بعض ديار الإسلام يرى نفسه مضطرا إلى أن يلجأ إلى مصادر المؤلفين الأجانب خضوعا لمقتضـيات عقلية جديدة، و لعله يقدم إلى حد كبير منهجها الوضـعى الديكارتى و هناک أيضا قضاة و شيوخ و معممون مدرسون يتذوقون فيها رشاقتها الهندسية.

هذا كله لا غبار عليه لو لـم يضم الاستشـراق بمناهجه سوى الموضوع العلمى و لكن الهوى السياسى الدينى قد كشف عن نفسه بكل أسف فى تأليف هؤلاء المتخصصين الأوروبيين فى الدراسات الإسلامية برغم أنها تدعو إلى الإعجاب حقا.

فلم يكن الأب لامانس (1)الذى ظل نموذجا للمستشـرق الطاعن على الإسـلام و رجاله-الحالة الوحيدة التى يمكن أن تلحظ فيها العمل الصامت لتقويض دعائم الإسلام فقد كان لهذا الرجل(الشاطر)فصل فى الكشف عن بغضه الشديد للقرآن و لمحمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

1- (1) هو هنرى لامنس اليسوعى 1862-1937 بلجيكى المولد فرنسى الجنسية من أوائل الجامعة اليسوعية ببيروت تنقل شرقا و غربا ما بين سنة 1891-1897 فـدرس اللاـهوت فى إنجلترا و تولى إدارة التبشـير فى بيروت. له مؤلفـات كثيرة:الحكام الثلاثـة أبو بكر و عمر و أبو عبيدة و منها كتاب فاطمة بنت محمد عليه السّلام و السيرة،و موقف الإسلام من الفنون المصورة،و مهد الإسلام و غير ذلک.

و يوضح لنا الأمير شكيب ارسلان جانبا مهما من دسائسهم و يحذر المسلمين عن الانخداع بما يكتبون فيقول:

(إنه مما يجدر بأن يطلع عليه الشرقيون و المسلمون خاصة، ما يصدر فى أوروبا من الكتابات المتعلقة بهم، و التصانيف الباحثة عن مصيرهم، و المقالات المصورة لأحوالهم و شئونهم بلون مخيلات الكتّاب الذين حرروها، الناطقة عن هوى الأحزاب التى ينتمى هؤلاء الكتّاب إليها، بحيث يعرف منها الشرقى أو المسلم أو المستضعف على أمره كائنا من كان ما ذا يطبخ له فى الخفاء و ما ذا يدس بحقه تحت الستار، و ما ذا يدبر عليه بدون علمه، مما لا يطلع عليه إلا فى الندرى و مما هو رام إلى إدامة استغلاله) (1).

و فى موضع آخر يوضح لنا الأمير صورة عن دراستهم و أنهم: إذا عثروا على حكاية شاذة؛ أو نكتة فاردة فى زاوية كتاب قد يكون محرفا سقطوا عليها تهافت الذباب على الحلوى، و جعلوها معيارا و مقياسا- لا بل صيروها محكا يعرضون عليه سائر الحوادث، و يغفلون أو يتغافلون عن الأحوال الخاصة، و الأسباب المستثناة، و يرجع كل هذا التهور إلى قلة الاطلاع فى الأصل، هذا إذا لم يشب ذلک سوء قصد، لأن الغربى لم يبرح عدوا للشرقى و رقيبا له و النادر لا يعتد به (2).

و يقول الأستاذ أحمد شاكر- حول نظرة المستشرقين للقرآن-:

فهم (المستشرقون) يرون أن علماء الإسلام، و قراء القرآن كاذبون مفترون اخترعوا هذه الروايات و هذه القراءات توجيها لما يتحمله رسم المصحف تشكيكا منهم فى هذا الكتاب المحفوظ بحفظ اللّه و تكذيبا للوعد بحفظه، و بأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه و ثأرا من المسلمين باتهامهم بالتحريف كما اتهم الذين من قبلهم بأنهم يحرفون الكلم عن مواضعه إلى أن يقول:

ذلک بأنهم أصحاب هوى، و ذلک بأنهم لا يؤمنون بصدق رسالة الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و ذلک بأنهم يؤمنون بأن أصحاب رسول اللّه و تابعيهم من بعدهم لا خلاق لهم،

1- (1) انظر حاضر العالم الإسلامى ج 1 ص 304.

2- (2) المصدر السابق ج 1 ص 100.

يصدرون عن هوى و عصبية فيظنون فيهم ما فى غيرهم من الكذب على الدين، و الجرأة على اللّه و حاشا اللّه.

و ذلک بأنهم-أى المستشرقون-يتبعون الشاذ من الروايات الذى أخطأ فيها بعض رواتها أو الذى كذب فيها بعض الوضاعين،و هما اللذان بينهما علماء الإسلام و خاصة علماء الحديث أدق بيان و أوثقه و أوضحه،فيجعلون هذا الشاذ المنكر أصلا يبنون قواعدهم التى افتعلوها و نسبوها للإسلام و علماء الإسلام،و يدعون الجادة الواضحة وضوح الشمس،و يغمضون عنها أعينهم و يجعلون أصابعهم فى آذانهم،ثم يستهوون منا من ضعفت مداركهم،و ضؤول علمهم بقديمهم من المعجبين بهم، و المعظميهم الذين نشئوا فى حجورهم و رضعوا من لبانهم،فأخذوا عنهم العلوم حتى علوم الفقه،و القرآن،فكانوا قوما لا يفقهون (1).

و يقول الشيخ محمد زاهد الكوثرى حول نظرة المستشرقين للقرآن أيضا:

و نرى فى المدة الأخيرة اهتماما خاصا لمستشرقى الغرب بنشر مؤلفات علماء الإسلام الأقدمين مما يتعلق بالقرآن الكريم و علومه،من كتب القراءات و كتب الطبقات،بل يواصلون سعيهم فى ذلک،و فى نشر ما للأقدمين من المؤلفات فى الحديث و الفقه و اللغة،إلى غير ذلک من المشرقيات،و مسعى أغلبيتهم قصدهم لإحياء عهد الصليبيين بطريقة أخرى فى الحملات الممتلئة تعصبا و جهلا نحو النور الوضاء، الذى أشرق من القرآن على هذه الكرة المظلمة حتى استنارت بذلک النور الوهاج، فدخل الناس فى دين اللّه أفواجا،فتبدلت الأرض.

و غاية هذا الفريق مكشوفة جدا مهما تظاهر بمظهر البحث العلمى البرىء كذبا و زورا و خداعا.

و بتلک الإلمامة اليسيرة فى تاريخ القرآن الكريم يظهر أن محاولتهم هذه ما هى إلا محاولة خائبة منكوسة،و أنهم لو ابتغوا نفقا فى الأرض أو سلما فى السماء ليأتوا بما له مساس بكتاب اللّه المنزل على حبيبه المرسل-صلوات اللّه عليه و على سائر الأنبياء-من قرب أو بعد لما وجدوا إلى ذلک أدنى سبيل...الخ (2).

1- (1) الشرع و اللغة للأستاذ أحمد شاكر ص 26،28.

2- (2) مقالات الكوثرى ص 17.

و يقول الأستاذ عبد الباقى سرور-فى حديثه عن المستشرقين و بالأخص المستشرق اليهودى جولد تسهير-:و من الأفق الغربى تأتى حملة أخرى على الروحانية الإسلامية،حملة أشد خبثا و أدهى أسلوبا،حملة سحرت أعين الناس، و جاءت بما يستهوى الأفئدة لأنها تتقنع بالعلم و تتستر بالمعرفة،و تتوارى وراء كلمات براقة خداعة هى حرية البحث أو قداسة العلم!! فرأينا يهوديا هو-جولد تسهير (1)-يكتب عن العقيدة و الشريعة فى الإسلام، و يفسر القرآن كما يهوى،و يجرح صحابة الرسول كما يحب،و يخطئهم فى فهمهم لدينهم،ثم يبتدع هو ما يشاء تفسيرا لروح القرآن و هدى الرسول،و نهج العقيدة فى الإسلام.

إلى أن يقول:و يأتى فى أعقاب هذا اليهودى إخوان له خدع بهم الشرق،بل خدعت بهم طائفة غير قليلة من رجال القلم و الفكر عندنا فظنوهم سدنة العلم الإسلامى و حملة مفاتيح كنوزه (2).

و يقول الأستاذ أحمد فارس الشدياق عن المستشرقين و كيفية خبطهم فى الأبحاث و خلطهم للأشياء:إن هؤلاء الأساتيذ لم يأخذوا العلم عن شيوخه...و إنما تطفلوا عليه تطفلا،و توثبوا توثبا،و من تخرج فيه بشىء فإنما تخرج على القسس...

إذ أدخل رأسه فى أضغاث أحلام أو أدخل أضغاث أحلام فى رأسه،و توهم أنه يعرف شيئا و هو يجهله،و كل منهم إذا درس فى إحدى لغات الشرق أو ترجم شيئا منها تراه يخبط فيها خبط عشواء فما اشتبه عليه منها رقعه من عنده بما شاء و ما كان بين الشبهة و اليقين حدس فيه و خمن فرجح منه المرجوح و فضل المفضول (3).

و يصف الأستاذ قدرى حافظ طوقان تحامل المستشرقين على العرب خاصة بقوله:

1- (1) جولد تسهير هو من أسرة يهودية ولد سنة 1850 فى بلاد المجر و توفى سنة 1921-13 نوفمبر و سافر إلى الشرق سنة 1873 و دخل القاهرة فأقام بها مدة و له مؤلفات منها:الجدل عند الشيعة، و العقيدة و الشرعية فى الإسلام و مذاهب التفسير الإسلامى و غيرها و ناهيك ما حوته هذه الكتب و غيرها من الدس و التضليل و القول بالباطل بالأخص ما يخص الشيعة.

2- (2) انظر رابعة العدوية ص 24.

3- (3) المستشرقون للعفيفى ص 200 نقلا عن ذيل الفازياق ص 2.

و نظرة بسيطة إلى ما ألفه الغربيون فى التراث اليونانى،ولدى الاطلاع على آرائهم فى نتاج القريحة العربية يظهر التحامل جليا واضحا،و يثبت الإجحاف،و إن بعض علماء الغرب عمدوا إلى الانتقاص من قدر الحضارة العربية،و قد قصدوا تشويه صفحات لامعات فى تاريخ العرب لمآرب غير خافية على أحد (1).

و يقول الأستاذ إبراهيم هاشم:

لقد اشتهر كتّاب الغرب بعمق التفكير،و غزارة المادة و دراسة الموضوع الذى يريدون الكتابة عنه دراسة مستفيضة حتى لا تفوتهم صغيرة و لا كبيرة من شئونه.

هذه حقيقة لا سبيل إلى نكرانها،و لكن لمست إلى جانب هذه الحقيقة حقيقة أخرى و هى:أنهم لم يستطيعوا على غزارة علمهم أن يتخلوا و لو قليلا عن ماديتهم.

إلى أن يقول:

و يفترضون فروضا وهمية،ليصلوا إلى بعض الحقائق العلمية،و قد تؤدى تلك الفروض الوهمية إلى النتائج المطلوبة،يرون كل ذلك و يؤمنون به ثم يقفون جامدين مكابرين لبعض الحقائق التى عجزت عقولهم عن إدراكها فى مجال العقائد الدينية، و لا يكلفون أنفسهم عناء النقاش،و قرع الحجة بالحجة خشية الاندحار...

و آفة أخرى تتبين لنا خلال سطورهم فى كل ما يكتبون عن الإسلام و نبى الإسلام،تلك هى:روح العداء المستحكم للدين الإسلامى و معتنقيه،و هذه الروح العدائية للإسلام و المسلمين بقية من بقايا العداء الصليبى ما استطاعوا أن ينقوا أعماقهم منها،رغم تمدحهم بالتسامح الذى يزعمونه لأنفسهم،و إلى أن يخلصوا من هاتين الآفتين،و نرجو أن تتخلص عقليتهم مما يزرى بها فى مجال التفكير السليم (2).

و الخلاصة:

إننا نستوضح من هذه الأقوال و نستكشف من هذه الآراء التى قدمناها هنا للقراء عن هؤلاء الأساتذة:أن كتابة المستشرقين عن الإسلام لم يكن مقصودا بها خدمة الحق و التاريخ،-إلا المنصفين منهم و قليل ما هم-بل إنما كانت كتاباتهم بدافع

1- (1) الخالدون العرب ص 3.

2- (2) انظر كتاب أين نحن اليوم،ص 36.

الحقد و العداء للإسلام و أهله،و إن ذلک يدعو إلى ضياع الحق و تشويه الحقيقة التى هى رائد كل كاتب حر.

و إن الـذى يعنينا الآن هو الإشارة إلى الأثر السيئ الـذى ترتب على انخـداع كثير من كتّابنا بتلک الآراء،و أخـذهم بتلک الأقوال المخالفة للواقع،و كأنها عندهم هى الصواب بعينه أو اليقين الذى لا يتطرق إليه شک،و لعل الكثير منهم كان يتعمد الاعتماد عليها لما فيها من الحط فيمن يتحامل عليه،انصياعا لنزعة الطائفية أو الخلافات المذهبية.

و نود أن نعود للأسـتاذ مصـطفى السباعى لتكملة ما يتعلق بهذا الموضوع فى حديثه إذ هو قد أعطى صورة واضحة عن هؤلاء المستشرقين،و من تابعهم بالقول،ثم نعود لبيان الموضوع.

يقول الـدكتور السـباعى-بعـد بيان طويل-:لا يزال حتى اليوم أكثر الـذين يشـتغلون منهم بهـذه الـدراسات من رجال الـدين،الذين يعنون بتحريف الإسـلام و تشويه جمـاله،أو من رجـال الاسـتعمار الـذين يعنون ببلبلـة بلاـد الإسـلام فى ثقافتهـا،و تشويه حضارتهـا فى أذهان المسلمين،و تتسم بحوث هؤلاء بالظواهر الآتية:

1-سوء الظن و الفهم لكل ما يتصل بالإسلام و أهدافه و مقاصده.

2-سوء الظن بالمسلمين و علمائهم و عظمائهم.

3-تصوير المجتمع الإسلامى فى مختلف العصور و خاصة فى العصر الأول بمجتمع متفكک تقتل الأنانية رجاله و عظماءه.

4-تصوير الحضارة الإسلامية تصويرا دون الواقع بكثير تهوينا لشأنها،و احتقارا لآثارها.

5-جهلهم بطبيعة المجتمع الإسلامى على حقيقة،و الحكم عليه من خلال ما يعرفونه من أخلاق شعوبهم،و عادات بلادهم.

6-إخضاعهم النصوص للفكرة التى يفرضونها حسب أهوائهم،و التحكم فيما يفرضونه،و يقبلونه من النصوص.

7-تحريفهم للنصوص فى كثير من الأحيان تحريفا مقصودا و إساءتهم فهم العبارات حين لا يجدون مجالا للتحريف.

8-تحكمهم بالمصادر التى ينقلون منها،فهم ينقلون مثلا من كتب الأدب ما

يحكمون به فی تاريخ الحديث،و من كتاب التاريخ ما يحكمون به فی تاريخ الفقه، و يصححون ما ينقله«الدميری»فی كتاب الحيوان،و يكذبون ما يرويه«مالک»فی «الموطأ»كل ذلک انسياقا مع الهوی،و انحرافا عن الحق.

و بهذه الصفات المشوبة بروح العداء للإسلام و المعبرة عن جهلهم الفاضح عبر السباعی عن هؤلاء الكتّاب من المستشرقين الذين أصبحت مؤلفاتهم مصدرا لكتّاب عصرنا الحاضر-إلا القليل منهم-و قد أوضح الأستاذ ذلک أيضا بقوله:

و قد أتاح لهم أی للمستشرقين تشجيع حكوماتهم،و وفرة المصادر بين أيديهم، و تفرغهم للدراسة،و اختصاص كل واحد منهم بفن أو ناحية من نواحی ذلک الفن، يفرغ له جهده فی حياته كلها،ساعدهم ذلک كله علی أن يصبغوا بحوثهم بصبغة علمية،و أن يحيطوا بثروة من الكتب و النصوص ما لم يحط به علماؤنا الذين يعيشون فی مجتمع مضطرب فی سياسته و ثروته و أوضاعه،فلا يجدون متسعا للتفرغ لما يتفرغ له أولئک المستشرقين،و كان من أثر ذلک أن أصبحت كتبهم و بحوثهم مرجعا للمثقفين منا ثقافة غربية،و الملمين بلغات أجنبية،و قد خدع أكثر هؤلاء المثقفين ببحوثهم، و اعتقدوا بمقدرتهم العلمية و إخلاصهم للحق..و جروا وراء آرائهم ينقلونها كما هی و منهم من يفاخر بأخذها عنهم،و منهم من يلبسها ثوبا إسلاميا جديدا،و لا أريد أن أضرب لک الأمثال فقد رأيت من صنيع الأستاذ«أحمد أمين»فی فجر الإسلام مثلا لتلامذة مدرسة المستشرقين من المسلمين (1).

هذا ما قرره السباغی و قد وصفهم من قبل أنهم عملاء للاستعمار يرتبطون ارتباطا مباشرا بوزارة الخارجية الاستعمارية كما وصفهم غيره بذلک.

و قد اتضح لنا مما سبق انخداع كثير من الكتّاب بما يدسه المستشرقون فی كتبهم من الطعن علی الإسلام و ما أكثر الشواهد علی ذلک.

و لا نعدو الحقيقة إن قلنا إن الأستاذ أحمد أمين من أشد أولئک الكتّاب الذين تعرضوا للشيعة فی كتبهم مستندين علی أقوال المستشرقين.

1- (1) انظر كتاب السنة للدكتور السباعی ص 366.

و القارئ لما كتبه أحمد أمين يجد هناک عظيم تعصبه على الشيعة و انحرافه عن الحق فيما ذكره حولهم لأنه أخذ كل معلوماته عن أساتذته المستشرقين و الذى كان من أبرز تلامذتهم.

و قد تعرضنا لبعض أقواله فى الشيعة التى استمدها من أستاذه(ولهوسن) و(دوزى) (1).

و كتاب أحمد أمين فجر الإسلام قد تضمن تلک الآراء مصبوغة بعباراته و تعبيره مما يدل بوضوح على عدم تعمقه و قلة اطلاعه و قد أصبح كتابه مصدرا لكتّاب آخرين و هكذا تتوسع دائرة الابتعاد عن الحق.

و هكذا هو فى بقية كتبه يقدم للأمة ما يثير الضغائن و يبعث فى نفوس بعضهم الحقد على البعض الآخر.

و هو فى جميع مؤلفاته يسير على نهج واحد من اتباع المستشرقين و التقليد لهم.

و قد جاء فى فجر الإسلام أيضا كثير من ذلک و للمثال هنا نذكر ما يلى:

يقول الدكتور أحمد أمين-بعد أن يذكر قول المستشرق(برون)فى نظرية الحق الإلهى لملوک الفرس-:

هذه مذاهب الفرس الدينية و قد ذابت فى المملكة الإسلامية بعد الفتح و كثير منهم أسلموا و لم يتجردوا من كل عقائدهم التى توارثوها أجيالا،و بمرور الزمان صبغوا آراءهم القديمة بصبغة إسلامية فنظرة الشيعة فى على و أبنائه هى نظرة آبائهم الأولين من الملوک الساسانيين و ثنوية الفرس كانوا منبعا يستقى منه«الرافضة»فى الإسلام...الخ (2).

و هذه النظرية استقاها من أساتذته و لا زال يردد هذه النغمة المؤلمة و قد صرح بهذا أساتذته و من امتص آراءه منهم (3).

1- (1) انظر ج 3:30-36 ط 1 من هذا الكتاب.

2- (2) انظر ظهر الإسلام.

3- (3) انظر الخوارج و الشيعة للمستشرق«فلهوزن»ص 235-249 تجد ذلک و ان أحمد أمين ليس له إلا الترجمة و بعض التعبير.

و أنت ترى فى تعبير أحمد أمين فى قوله:فنظرة الشيعة فى على و أبنائه هى نظرة آبائهم الأولين...الخ.

اعتقاده أن التشيع فارسى فى الأصل فارسى فى العقيدة إلى آخر ما يتذوقه الأستاذ فى اتباعه لأساتذته.و قد أسهم فى الجناية على التاريخ و أساء للعلم الذى يحمل صفته بما جرى عليه من متابعة المستشرقين و تقليدهم فى جهله لمذهب الشيعة و مقوماته.

و كأن التشيع نشأ فى عصور متأخرة و ليس له قبول فى النفوس إلا عند الفرس فقط،و قد خلت منه البلاد العربية و لم يكن منشأه الحجاز فى عهد صاحب الرسالة صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و انتشر فى البلاد الإسلامية على أيدى كبار قادة المسلمين و عظماء الأمة.

و على أى حال فما تقدم كاف للجزم بمنحى التعصب الذى نحاه و الكشف عن مصادر آرائه و أصول اعتقاداته فى التشيع التى لا تمت إلى الإسلام بصلة بل تنتسب إلى أعدائه و الحاقدين عليه.

و لئن كان أحمد أمين من أبرز تلامذة مدرسة المستشرقين فى عصره-على حد تعبير السباعى-فإنا نرى أن الأستاذ(الذهبى)مؤلف كتاب(التفسير و المفسرون)من أولئک التلامذة الذين انخدعوا بتلک الأساليب،و تشبعت روحهم بتلک الأبحاث، و انعكست فيهم تلک الآراء الشاذة،و لعبت بعقولهم تلک الأهواء المردية،فراحوا يحققون ما للمستشرقين من أهداف.

و لقد تجلت فى هذا الرجل روح شيخ المستشرقين فى الجيل الماضى و هو المستشرق اليهودى المجرى« جولدتسيهر»الذى كان أشدهم خطرا و أوسعهم باعا و أكثرهم خبثا و إفسادا،و أشدهم طعنا فى العقائد الإسلامية.

فلقد كانت بحوث هذا المستشرق مرجعا خصبا و مصدرا للدكتور الذهبى و إن من يقارن بين ما كتبه فى كتابه(التفسير و المفسرون)حول الشيعة و بين ما كتبه المستشرق« جولدتسيهر»فى كتابه مذاهب التفسير الإسلامى فإنه يجد روح ذلک المستشرق و نزعته تتجلى فيما كتبه الذهبى.و لا يجد الذهبى غضاضة فى كيل المديح

و زيادة الإطراء و هو يذكر أستاذه اليهودى هذا و كأنه يطرى واحدا من علماء الإسلام لا يهوديا جمع بين حقد اليهودية و أغراض الاستشراق الغربية.

لقد أخذ كثيرا من الأبحاث عن أحمد أمين الذى تأثر بتلك الروح،و ظهر فى كتاباته ما يدل على أن المشرب واحد.

و أود هنا إعطاء نظرة عن كتاب التفسير و المفسرون للأستاذ الذهبى و ليس بوسعنا نقد جميع أخطائه و بيان الأمور التى ارتكبها متبعا خطى المستشرقين الذين زلت أقدامهم عن طريق الصواب،و أود أن أشير بإيجاز إلى منهجه فى البحث و بيان اتجاهه فى دراسته و المخطط الذى سار عليه فى ذلك،و لعل الفرص تواتينا فنعود لمناقشته و نسأل اللّه أن يفسح لنا فى الأجل لإدراك هذا الغرض.

التفسير و المفسرون:

الكتاب يقع فى ثلاثة أجزاء و مؤلفه محمد حسين الذهبى أستاذ فى علوم القرآن و الحديث؛و هذا الكتاب فيه عرض لنشأة التفسير و تطوره،و ألوانه و مذاهبه،مع عرض شامل لأشهر المفسرين،و تحليل كامل لأهم كتب التفسير على حد تعبير المؤلف.

و الذى يهمنا حول هذا الكتاب هو ما تعرض له فى الجزء الثالث من العرض لتفسير القرآن عند الشيعة،و ما قدم لذلك فى كلامه عنهم و عن عقائدهم،و قد اعترف فى بدء حديثه:أن الشيعة هم الذين شايعوا عليا و أهل بيته،و قالوا:إن عليا هو الإمام بعد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أن الخلافة حق له استحقها بوصية من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم...الخ.

ثم يمضى المؤلف فى بيانه حتى يأتى حول تفرق الشيعة فى الآراء و يقصر بحثه على الزيدية و الإمامية و يقول:فى ص 5 و لست بمستوعب كل هذه الفرق و لكن سأقتصر على فرقتين هما الزيدية و الإمامية(الاثنا عشرية و الإسماعيلية)لأنى لم أعثر على مؤلفات فى التفسير لغير هاتين الفرقتين من الشيعة.

ثم يعرف الإمامية الاثنى عشرية:بأنهم الذين يرون أن الإمامة بعد جعفر الصادق انتقلت إلى ابنه موسى...الخ.

و بعدها يأتى فى البيان إلى أشهر تعاليم الإمامية فيحصرها فى أربعة:العصمة، و المهدية،و الرجعة،و التقية.

ثم يأخذ فی بيان ذلک حسب ذوقه و تفکيره و يملی بما أدی إليه نظره.و نحن نترکه يستمر فی بيانه من باب(خل سبيل من و هی سقاؤه).

إلی أن يـأتی آخر هـذا الفصل و يختمه بکلمـة للاسـفرائينی و بها يحاول أن يعطی صورة عن الشـيعة الإماميـة،بالأخص تلک الصورة التی يحاول بها أن تکون صورة واقعيـة عن الشـيعة إذ أنهم کفرة يسـتحلون محارم الشـريعة،و لا يعتمدون علی القرآن إلی آخر ما وراء ذلک من أغراض و أهداف.(کبرت کلمة تخرج من أفواههم).

>يقول المؤلف:< و قبل أن أخلص من هذه العجالة أسوق کلمة أنقلها بنصها عن أبی المظفر الأسفراييني فی کتابه التبصير فی الدين:

(و اعلم أن الزيديـة و الإماميـة منهم يکفر بعضـهم بعضا و العـداوة بينهم قائمـة دائمة،و الکيسانية يعدون فی الإمامية،و اعلم أن جميع من ذکرناهم من فرق الإمامية متفقون علی تکفير الصـحابة و يدعون أن القرآن قد غير عما کان و وقع فيه الزيادة و النقصان من قبل الصـحابة.و يزعمون أنه قـد کان فيه النص علی إمامـة علی فأسـقطه الصـحابة منه،و يزعمون أنه لا اعتماد علی القرآن الآن،و لا علی شـیء من الأخبار المروية عن المصـطفی صـلّی اللّه عليه و آله و سـلّم و يزعمون أنه لا اعتماد علی الشريعة التی فی أيدی المسلمين،و ينتظرون إماما يسمونه المهدی يخرج و يعلمهم الشريعة،و ليسوا علی شیء من الدين،و ليس مقصودهم من هذا الکلام فی الإمامة و لکن مقصودهم إسقاط کلفة تکليف الشـريعة عن أنفسهم حتی يتوسعوا فی استحلال المحرمات الشرعية، و يعتذرون عند العوام من تحريف الشريعة و تغيير القرآن من عند الصحابة،و لا مزيد علی هذا النوع من الکفر،إذ لا بقاء فيه علی شیء من الدين).

هذا ما نقله المصـنف عن الأسـفراييني معتقدا صـحة هذا القول و صدقه و ما أبعده عن ذلک و الباحث المنصف بقليل من التأمل-لا يسعه إلا أن يری الشطط الفکری و الخطأ التاريخی الذی وقع فيه الأستاذ مدرس علوم القرآن و الحديث فيما کتبه حول هذا الموضوع.

و إن هذه الکلمة التی ساقها تمهيدا لبحثه نقلها عن أحد کتّاب الفرق الذين

اتسـموا بمعاداة و مهاجمة كل من خالفهم فى الرأى،فارتكبوا من الافتعالات اندفاعا وراء عواطفهم و نصرة لمذاهبهم ما جعلهم فى موضع النقد،و عدم الثقة بما يكتبون.

و قد وصفهم العلامة شيخ الجامع الأزهر فى العصر الحاضر الشيخ محمود شلتوت بقوله:

لقـد كان أكثر الكاتبين عن الفرق الإسـلامية متأثرين بروح التعصب الممقوت، فكانت كتاباتهم مما تورث نيران العداوة و البغضاء بين أبناء الملة الواحدة،و كان كل كاتب لا ينظر إلى من خالفه إلا من زاوية واحدة،هى تسـخيف رأيه،و تسـفيه عقيدته، بأسلوب شره أكثر من نفعه،و لهذا كان من أراد الإنصاف لا يكون رأيه عن فرقة من الفرق إلا من مصادرها الخاصة ليكون هذا أقرب إلى الصواب و أبعد عن الخطأ (1).

فهل كانت هذه النزعة إلى الخير فى مدرس الأزهر اقتداء بشـيخ الأزهر؟!و هل أنصف المؤلف فى اعتماده على نقل ما قاله رجل فى عصور مظلمة يسود فيها الصـراع العقائدى مما يبعث على التألم مما حل بالمسـلمين من ذلک و ما جره عليهم النزاع من ويلات الدمار،و عوامل الانهيار؟ و لا بـد أن نلقى على هـذه الكلمـة نظرة خاطفـة و نتبين ما هو محلها من الصدق؟! -و ما أبعدها عن ذلک-لنعرف اتجاه الأسـتاذ المؤلف و منحاه فى تفسيره و مقدار تعمقه فى البحث و تأكده فى النقل و إلى القراء النقاط التالية:

1-يقول:إن الزيدية و الإمامية منهم يكفر بعضهم بعضا و العداوة بينهم قائمة دائمة.

و نقول:هل اسـتطاع صاحب هذا القول أن يدعمه و لو بحادث واحد أو شاهد من قول لإحدى الطائفتين؟! و هل اشتهر عنهم ذلک الخلاف حتى أدى إلى تكفير بعضـهم بعضا؟!كما اشـتهر بين غيرهم من طوائف المسـلمين حتى اشـتهرت كلمات التكفير لبعضـهم البعض كقول المظفر الطوسى الشافعى:

1- (1) انظر إسلام بلا مذاهب ص 7.

(لو كان لی من الأمر شیء لأخذت علی الحنابلة الجزیة) (1)و قول محمد بن موسی الحنفی:(لو كان لی من الأمر شیء لأخذت علی الشافعیة الجزیة) (2)و قول الشیخ أبی حاتم الحنبلی:(من لم یكن حنبلیا فلیس بمسلم) (3).و اشتهر عن الشیخ أبی بكر المقری الواعظ فی جوامع بغداد بأنه كفر جمیع الحنابلة (4).

و نودی بدمشق و غیرها:من كان علی دین ابن تیمیة حل ماله و دمه.و أفتی بعضهم بتكفیر من یطلق علی ابن تیمیة أنه شیخ الإسلام (5)و ابن تیمیة هو شیخ الحنابلة و مقدمهم و معنی هذا أن كل حنبلی كافر.إلی غیر ذلک مما لا أود استقصاءه.

ثم نقول للمؤلف:أین هذه العداوة التی دامت بین الزیدیة و الإمامیة؟فهل سمع أن فتنة قامت بینهم فأغلقت الأسواق و هدمت الدور كما حدث بین الشافعیة و الحنابلة فی فتنة القشیری (6)،و ذلک فی سنة 469،و كما اضطرمت الفتنة بین الحنفیة و بین الشافعیة بسبب تحویل أبی سعد المتوفی سنة 562 من مذهب الحنفی إلی مذهب الشافعی و قامت الحرب علی ساق و اضطرمت نیران الفتنة بین الفریقین فكانت تملأ ما بین خراسان و العراق (7)،إلی غیر ذلک مما یحز فی النفس و یعظم استقصاؤه.

2-یقول:و اعلم أن جمیع من ذكرناهم من فرق الإمامیة متفقون علی تكفیر الصحابة.

هكذا نقل الأستاذ عن الأسفراینی و لم یقصد بذلک إلا الطعن علی الشیعة و إثارة البغضاء نحوهم بما افتراه الأسفراینی و قرره الذهبی و هما فی الوزر سواء.

و من الخیر أن نلفت نظر الأستاذ المدرس بالأزهر الشریف إلی ما یجب علیه من تحری الصدق فهو مسئول عن هذا الجیل الذی یغذیه بأفكاره،نسأل اللّه لهم العصمة و الوقایة من تلک السموم القاتلة التی یبثها بهذه الأكاذیب و الافتراءات.

1- (1) مرآة الزمان ج 8 ص 44 القسم الأول.

2- (2) مختصر تاریخ دول الإسلام للذهبی 1:24.

3- (3) تذكرة الحفاظ ج 3:357.

4- (4) شذرات الذهب 3:252.

5- (5) ذیل تذكرة الحفاظ 320.

6- (6) ذیل طبقات الحنابلة لابن رجب 1:22.

7- (7) طبقات الشافعیة 3:22. [1]

أ لا كانت من الأستاذ الذهبی صبابة إنصاف و مسكة من عقل و قليل من تتبع فيعرف رأی الإمامية فی الصحابة؛و متی كفروهم جميعا؟و مع التنازل كيف يصح أن تكفر الشيعة صحابة محمد الذين مدحهم اللّه بكتابه،و لا أقل إن أغلبهم عرف بالولاء لعلی عليه السّلام و شهد معه حروبه و منهم أبطال التشيع.

و علی سبيل المثال أود أن أذكر للقارئ الكريم بعضا من أولئک البررة تشيعوا لعلی و وازروه و الذين شهدوا معه حروبه،و ناصروه علی الباغين عليه،و فی طليعتهم:

1-عمار بن ياسر المعذب فی اللّه،و الممتحن لإسلامه،و من قال فيه رسول اللّه:يا عمار تقتلک الفئة الباغية،و عن أبی هريرة أن النبی قال له: (ابشر عمار تقتلک الفئة الباغية) (1).

و أخرج الترمذی بسند عن عائشة قالت:قال رسول اللّه صلّی اللّه عليه و آله و سلّم:ما خير عمّار بين أمرين إلا اختار أرشدهما (2).

2-و أبو ذر الغفاری المتوفی سنة 32 و هو من كبار الصحابة و فضلائهم و كان من شيعة علی عليه السّلام و وسمه رسول اللّه صلّی اللّه عليه و آله و سلّم بالصدق فقال صلّی اللّه عليه و آله و سلّم:ما أظلت الخضراء و أقلت الغبراء من ذی لهجة أصدق من أبی ذر.و قال صلّی اللّه عليه و آله و سلّم:أبو ذر فی أمتی علی زهد عيسی بن مريم.

و قال الإمام علی عليه السّلام:وعی أبو ذر علما عجز الناس عنه ثم أوكئ عليه فلم يخرج منه شيئا (3).

3-خزيمة بن ثابت بن الفاكه ذو الشهادتين شهد بدرا و ما بعدها من المشاهد كلها،و قد جعل رسول اللّه صلّی اللّه عليه و آله و سلّم شهادته بشهادة رجلين،و حضر مع علی صلّی اللّه عليه و آله و سلّم حرب الجمل،و صفين و بها قتل سنة 37 (4).

4-أبو قتادة الحارث بن ربعی حارس النبی ليلة بدر و قال النبی صلّی اللّه عليه و آله و سلّم:اللهم

1- (1) أسد الغابة 4:46. [1]

2- (2) انظر أسد الغابة 4:45. [2]

3- (3) المصدر السابق 5:187. [3]

4- (4) الإصابة لابن حجر 1:426. [4]

احفظ أبا قتادة كما حفظ نبيک هذه الليلة،و شـهد مع علی علیه السّلام مشاهده کلها، و مات بالکوفة سـنة أربعین و هو الذی قال له معاویة حین قدم المدینة:تلقانی الناس غیرکم یا معاشر الأنصار.

قال أبو قتادة:لم یکن معنا دواب.قال معاویـة:و أین النواضح؟!! قال:عقرناها فی طلبک و طلب أبیک یوم بدر.ثم قال:إن رسول اللّه صـلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال لنا:إنا سنری بعده أثرة.قال معاویة:فما أمرکم به عند ذلک؟قال:أمرنا بالصبر.

قال معاویة:فاصبروا حتی تلقوه.فبلغ ذلک عبد الرحمن بن حسان بن ثابت فأنشأ أبیاته المشهورة(ألا أبلغ معاویة ابن صخر...الخ) (1).

5-کعب بن عمرو بن عباد شـهد بدرا و العقبة-و هو آسـر العباس بن عبد المطلب یوم بدر،و هو الذی انتزع رایة المشرکین یوم بدر و کانت بید عزیز بن عمیر، و شهد صفین مع علی علیه السّلام و مات فی المدینة سنة 55.

6-سلمان الفارسی الذی قال فیه رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم سلمان منا أهل البیت.

7-عمیر بن قرة اللیثی شـهد مع علی علیه السّلام صـفین،و کـان شدیـدا علی معاویـة و أهـل الشام حتی حلف معاویـة إن ظفر به لیـذیبن الرصاص فی أذنیه.

8-أبو عمرة الأنصاری شهد العقبة و بدرا،و شهد مع علی علیه السّلام صفین و کان یقاتل و هو صائم (2).

9-أبو الهیثم مالک بن التیهان شهد العقبة و بدرا،و شهد مع علی علیه السّلام صفین و بها قتل.

10-قیس بن سـعد بن عبادة شهد مع رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم مشاهده کلها و کان حامل الرایة یوم الفتح و شهد مع علی علیه السّلام صفین و الجمل.

11-عبد اللّه بن العباس بن عبد المطلب المتوفی سنة 68 حبر الأمة شهد مع علی علیه السّلام صفین و الجمل و النهروان.

1- (1) الاستیعاب ج 3:402. [1]

2- (2) الإصابة 4:140. [2]

12-عبد اللّه بن بديل قتل هو و أخوه بصفين.

13-قيس بن المكشوح و هو أحد الذين قتلوا الأسود العنسى فى حياة النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم شهد صفين مع على عليه السّلام و معه راية بجيلة و قتل بها.

14-يزيد بن حويرث الأنصارى شهد أحدا و ما بعدها و شهدا صفين مع على عليه السّلام.

15-جبلة بن ثعلبة الأنصارى الخزرجى البياضى شهد بدرا مع النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و شهد صفين مع على عليه السّلام.

16-الحارث بن عمر الخزرجى شهد أحدا مع النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و شهد صفين مع على عليه السّلام.

17-ربعى بن عمر الأنصارى شهد بدرا مع النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و شهد صفين مع على عليه السّلام.

18-زيد بن أرقم بن زيد بن قيس غزا مع النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم سبع عشرة غزوة و شهد صفين مع على عليه السّلام.

19-أسيد بن ثعلبة الأنصارى شهد بدرا مع النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،و شهد صفين مع على عليه السّلام.

20-أبو بردة الحارث بن عمر الأنصارى شهد بدرا و ما بعدها مع النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و شهد صفين و الجمل مع على عليه السّلام.

21-أبو حبة البدرى شهد بدرا مع النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و شهد صفين مع على عليه السّلام (1).

22-أبو فضالة الأنصارى شهد بدرا مع النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و شهد صفين مع على عليه السّلام.

23-أبو أيوب الأنصارى شهد العقبة و بدرا و أحدا و الخندق مع النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و شهد مع على عليه السّلام صفين و الجمل و كان على مقدمة الجيش يوم النهروان.

1- (1) أنكر الواقدى أن أبا حبة شهد بدرا؛و إنكاره لا يضر،فقد صح ذلک ممن هو أوثق منه.

24-أبو محمد الأنصارى شهد بدرا مع النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و شهد صفين مع على عليه السّلام.

25-أبو ليلى الأنصارى شهد مع النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أحدا و ما بعدها و شهد مع على عليه السّلام مشاهده كلها.

26-زبيد بن عبد الخولانى شهد صفين مع معاوية و كانت معه الراية فلما قتل عمار تحول إلى معسكر على عليه السّلام لأن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال لعمار: يا عمار. تقتلك الفئة الباغية.

27-جبلة بن عمر الأنصارى-الساعدى-كان من فضلاء الصحابة و فقهائهم شهد صفين مع على عليه السّلام.

و غير هؤلاء كالمقداد بن الأسود هو من الصحابة الذين أمر اللّه رسوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بحبهم و هم:على عليه السّلام و أبو ذر و المقداد و سلمان.

و منهم وهب بن عبد اللّه أبو جحيفة، و أبو عطية الوداعى، و أبو الورد المازنى، و أبو قدامة بن الحارث، و عبد اللّه بن ذئاب بن الحارث، و يعلى بن عمير بن حارثة النهدى، و يزيد بن قيس الهمدانى، و عدى بن حاتم بن عبد اللّه الطائى، و الفاكه بن سعد بن جبير الأنصارى، و قرضة بن كعب الأنصارى الخزرجى، و المغيرة بن نوفل بن الحارث، و مخنف بن سلم الغامدى، و محمد بن بديل، و المهاجر بن الوليد المخزومى، و يزيد بن طعمة بن جارية الأنصارى، و يعلى بن أمية، و قد شهد الجمل مع عائشة، و شهد صفين مع على عليه السّلام و بها قتل، و نهشل بن جرى بن حمزة رئيس بنى حنظلة، و أبو الطفيل عامر بن واثلة، و البراء بن عازب، و ثعلبة بن عمرو الأنصارى، و هند بن أبى هالة، و عبد اللّه بن أبى طلحة و غيرهم (1).

قال عبد الرحمن بن أبزى الخزاعى: شهدنا مع على عليه السّلام صفين فى ثلاثمائة ممن بايع الرضوان قتل منهم ثلاثة و ستون منهم عمار بن ياسر (2).

1- (1) انظر أسد الغابة لابن الأثير، و [1]الجرح و التعديل لابن أبى حاتم، و الإصابة لابن حجر و طبقات ابن سعد، و الاستيعاب [2]بهامش الإصابة لابن عبد البر القرطبى و غيرها من كتب الرجال و التاريخ.

2- (2) الاستيعاب 2:478. [3]

و عبد الرحمن هذا هو ممن حضر صفين مع على عليه السّلام و هو الذى قال فيه عمر بن الخطاب:إنه ممن رفعه اللّه بالقرآن.

و على كل حال فإنه لم يتأخر عن مناصرة على عليه السّلام إلا نفر قليل منهم:

عبد اللّه بن عمر بن الخطاب و قد ندم بعد ذلک على ترک القتال معه،و لما حضرته الوفاة قال:ما أجد فى نفسى من أمر الدنيا شيئا إلا أنى لم أقاتل الفئة البغية مع على بن أبى طالب (1).

أما معاوية فلم يحضر معه صفين إلا نفر ممن لفظهم الإسلام و لم يتمكن من قلوبهم الإيمان أمثال عمرو بن العاص.و أبى الغادية قاتل عمار،و أبى الأعور السلمى الذى كان على عليه السّلام يدعو عليه.

و على أى حال:فإن الطعن على الشيعة بدعوى تكفيرهم الصحابة إنما كان لغرض فى نفوس حكام ذلک العصر الذى كانوا يصبغون فيه التاريخ بالصبغة التى يميلون إليها من الطعن فى أعدائهم بما ليس فيهم،و كان الطعن على الشيعة-و هم من أشد المعارضين لحكام الجور-هو الثمن الذى يقدمه المتزلفون للحكام لينالوا قربهم، و جزيل صلاتهم و قد(استحال التاريخ تاريخا رسميا يكتبه الوزير،و ينقحه النديم،و يقره الملک،و بلغ من الضعف أن يصانع القابض على القلم لكتب الحوادث بغمزة تصدر له من صاحب الشأن،و أما إذا كان هناک مغنم فالمؤرخ ينسى نفسه و يستهويه تهافته).

و إن هذا الموضوع و هو موضوع-الشيعة و الصحابة-لا زال بحاجة إلى مزيد من البيان و كثير من الإيضاح فهو النافذة التى يدخل منها أولئک المتداخلون فى صفوف المسلمين،و قد تعرضت لهذا الموضوع أكثر من مرة فلا حاجة إلى الإطالة فيه (2).

و حسبنا كتاب اللّه حكما فهو الحكم العدل و القول الفصل-فإنا نبرأ إلى اللّه من المنافقين الذين مَرَدُوا عَلَى النِّفاقِ (3)و ممن كان يؤذى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم وَ الَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللّهِ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (4)و ممن اِتَّخَذُوا أَيْمانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللّهِ إِنَّهُمْ ساءَ ما كانُوا

1- (1) أسد الغابة 3:228 و [1]الاستيعاب 2:345. [2]

2- (2) انظر الجزء الثانى من هذا الكتاب ص 587-623.

3- (3) التوبة:101. [3]

4- (4) التوبة:61. [4]

يَعْمَلُونَ وَ لا يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلاّ قَلِيلاً مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذلِکَ لا إِلى هؤُلاءِ وَ لا إِلى هؤُلاءِ (1).

و ممن خالفوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أحدثوا من بعده ما استوجبوا فيه عذاب اللّه و قد أشار إليهم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بقوله:(أنا فرطكم على الحوض و لأنازعن أقواما ثم لأغلبن عليهم فأقول:يا ربى أصحابى.فيقول:لا تدرى ما أحدثوا بعدک) (2).

و عنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بلفظ:و إنى ممسک بحجوركم ان تهافتوا فى النار كتهافت الفراش (3)أخرجه أحمد من طريق عبد اللّه بن مسعود.

و أخرج الترمذى عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم(و يؤخذ بأصحابى ذات اليمين و ذات الشمال فأقول:يا ربى أصحابى فيقال:إنک لا تدرى ما أحدثوا بعدک فإنهم لن يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم فأقول كما قال العبد الصالح:إن تعذبهم فإنهم عبادک) (4).

و أخرج مسلم مثله من طريق عائشة ج 4 ص 65 و من طريق أم سلمة ص 67 مثله،فنحن فى تمييز الصحابة لا نتعدى حدود القرآن و لا نقول بعد التهم أجمع،و لنا مع القرّاء فى هذا الموضوع لقاء آخر إن شاء اللّه.

3-يقول:و ينتظرون إماما يسمونه المهدى يخرج و يعلمهم الشريعة...الخ.

>أقول:< الشيخ الذهبى ينكر على الشيعة قولهم فى خروج المهدى عليه السّلام و قد تقدم منه فى هذا الجزء من تفسيره ص 8 أن أول من قال بخروج المهدى كيسان مولى على بن أبى طالب بأن المهدى يخرج فى آخر الزمان فيملأ الأرض أمنا و عدلا بعد أن ملئت خوفا و جورا.

و لا أريد أن أناقش أستاذ الحديث و حامل الشهادة العالمية فيه حول هذا الموضوع و لكن أود أن أوضح للقارئ الكريم زيف ما يدعيه و أن ذلک لم يكن من قول كيسان،و قد وردت عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أحاديث تشير إلى خروج المهدى عليه السّلام

1- (1) النساء:142-143. [1]

2- (2) مسند أحمد 5:231. [2]

3- (3) مسند أحمد 6:51. [3]

4- (4) صحيح الترمذى 2:68.

و منها قوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«لو لم يبق من الدنيا إلا يوم لبعث اللّه رجلا من أهل بيتى يملؤها عدلا كما ملئت جورا»أخرجه الترمذى و أبو داود و ابن ماجة.

و الشيخ الذهبى ينقم على الشيعة القول بخروج المهدى عليه السّلام لأنه ينكر ذلک و نحن نكل الجواب لعالم من كبار علماء السنة و هو:ابن حجر فقد أجاب فى فتاواه الحديثية عند ما سئل:عمن يدعون أن المهدى الموعود قد مات و هم بذلک ينكرون خروج المهدى المنتظر.

قال ابن حجر:فهؤلاء منكرون للمهدى الموعود به آخر الزمان و قد ورد فى حديث عند أبى بكر الإسكافى أنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال:من كذب بالدجال فقد كفر،و من كذب بالمهدى فقد كفر،و هؤلاء مكذبون به صريحا،فيخشى عليهم الكفر،فعلى الإمام أيد اللّه به الدين،و قصم بسيف عدله رقاب الطغاة...إلى أن يقول..

فنملى عليک من الأحاديث المصرحة بتكذيب هؤلاء و تضليلهم و تفسيقهم ما فيه مقنع و كفاية لمن تدبره:

أخرج أبو نعيم أنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال:يخرج المهدى و على رأسه عمامة و معه مناد ينادى:هذا المهدى خليفة اللّه فاتبعوه.

و أخرج هو و الخطيب رواية أخرى:يخرج المهدى و على رأسه ملک ينادى:إن هذا المهدى فاتبعوه.و الطبرانى فى الأوسط أنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أخذ بيد على عليه السّلام فقال:

يخرج من صلب هذا فتى يملأ الأرض قسطا و عدلا فإذا رأيتم ذلک فعليكم بالفتى التميمى،فإنه يقبل من قبل المشرق و هو صاحب راية المهدى.

و أخرج أحمد،و نسيم بن داود،و الحاكم و أبو نعيم أنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال:إذا رأيتم الرايات السود قد أقبلت من خراسان فأتوها و لو حبوا على الثلج،فإن فيها خليفة اللّه المهدى.و هكذا يستمر ابن حجر فى ذكر الأحاديث الواردة فى ذكر المهدى كحديث حذيفة و ما فيه وقعة الزوراء،و كحديث نزول عيسى،و خروج المهدى إلى مكة و مبايعة الناس له،و ان المهدى من ولد فاطمة إلى كثير من الأحاديث التى تتضمن خروج المهدى و نسبه،و صفته و علامات خروجه.

إلى أن يقول:و بقيت علامات أخر تعرف من كتابى:(المختصر فى علامات المهدى المنتظر)....الخ.

هـذا جواب ابن حجر و به نكتفى بالإجابة عن ذلک؛فإن الشـيعة لـم تختص وحدها بانتظار المهدى و لكن الإنكار عليهم جاء لأنهم يقولون بأنه عليه السّلام من ولد على و فاطمة كما نطقت به أحاديث الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من الفريقين.

و أما قول:يعلمهم الشريعة فذلک صحيح إنما يعلمهم شريعة الإسلام و يطبق أحكام اللّه و يسير بسيرة جده صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.فلا فرق و لا مذاهب خلافا لبعض الحنفية فإنهم يدعون بأن المذهب الحنفى هو المذهب الوحيد الذى يكون حكم الشريعة الإسلامية عليه.

و قد تقدم من أسـطورة تعلم الخضـر عليه السّـلام العلم من أبى حنيفة فى حياته و بعد مماته و إنه كان يجلس الخضـر على قبر أبى حنيفة و يتعلم منه العلم و يكون الحكم به فى آخر الزمان (1).

و قال القاضـى زاده شـريف:و قيل إن الخضـر عليه السّـلام تعلم الأحكام الشرعية منه و إن الإمام المهدى بعد خروجه يعمل بطريقته،و إن عيسى يحكم بمذهبه (2).

و قال أيضا:و اعلم أن المذهب لا يقلده الصحابة و التابعون إلا أبو حنيفة،فإن عيسى حين ينزل من السماء يحكم بمذهبه (3).

>و بعد ذلک:< يسـتمر الأسـتاذ فى بحثه حول موقف الشـيعة من التفسير ص 12 إلى ص 22 و هو يحاول أن يـذكر الفرق المنسوبـة إلى التشيع،كفرقة السبئية.

تلک الفرقة كونتها عوامل سياسـية للحط من اتباع أهل البيت،كالسبائية و البيانية و المغيرية و غيرها،و يذكر تأويلهم للقرآن إلى أن يأتى إلى آخر الفصل فيقول:إذا فالأجـدر أن نمسک عن موقف هـذه الفرق البائـدة من تفسـير القرآن ما دامت قد بادت، و لـم يبق لها أثر،و ما دمنا لـم نقف على شىء فى التفسير أكثر من هذه النبذ المتفرقة،

1- (1) انظر الجزء الأول من هذا الكتاب ط 3 ص 312.

2- (2) انظر مقدمة جامع الرموز للقاضى زاده شريف مخدوم 1:3.

3- (3) جامع الرموز 1:11.

التی وجدناها للبعض منهم و جمعناها من بطون الکتب المختلفة.

و الـذی یسـتحق عنایتنـا و بحثنـا بعـد ذلک هو تلک الفرق الثلاث التی لا تزال موجودة إلی الیوم محتفظـة بتعالیمها و آرائها،و سـنبدأ أولا بالإمامیة الاثنی عشریة،ثم بالإمامیة الإسماعیلیة ثم بالزیدیة.

>و نحن نقول:< إن الأستاذ قد استمر ببحثه الطویل و غرب و شرق و جاء بأشیاء مخالفة للحقیقة، و هو یحاول أن یعطی عن الغلاة صورة و یجعلها فی إطار التشیع.

و إن قوله فی الأخیر:إن الذی یستحق عنایتنا هو تلک الفرق الثلاث التی لا تزال موجودة.و منها الإمامیة الاثنا عشریة.

فهـل یـا تری أن المؤلف أعطی الإمامیـة الاـثنی عشـریة ما یسـتحقه البحث الحر؟ و هل تجرد الأسـتاذ من العاطفـة و جعل بحثه للحق و التاریخ؟ و هل بحث عن کل فرقة من هذه الفرق الثلاث:الاثنی عشریة،و الإسماعیلیة و الزیدیة،کل علی حدة؟ و هل ترک آراء الغلاة جانبا و إنها قد بادت مع فرقهم؟ هذه أسـئلة یسـتطیع القارئ النبیه أن یحصل علی الجواب عنها فیما جاء من بحثه بعد هذا الفصل بعنوان:موقف الإمامیة الاثنی عشریة من تفسیر القرآن الکریم.

و تحت هذا العنوان یتحدث من ص 23 إلی 41 و هو بهذا البحث الطویل قد خرج عما رسمه لنفسه من البحث عن الإمامیة الاثنی عشریة فقد عاد إلی آراء تلک الفرق البائدة من الغلاة،فنسب آراءهم للاثنی عشریة کما فی ص 34 إذ یقول:

و أعجب من هذا أنهم جعلوا لفظ الجلالة و الإله و الرب مرادا به الإمام،و کذا الضمائر الراجعة إلیه سبحانه...الخ.

و المؤلف-عافـاه اللّه-یکتب و لاـ یـدری مـا یکتب،إنمـا هو کحـاطب لیـل إنه یریـد أن یحمل الشـیعة کل تبعـة،و یریـد أن یبرزهم بأقبح صورة،خضوعا لنزعته أو طعما فی الشهرة.

أنـا لاـ أريـد أن أقف معه فـالوقت أثمن،و لاـ أود أن أنـاقشه هنـا،بـل أترك تقـدير هـذا الخبـط للقارئ النبيه،و كـذلک أترک بيان خلطه بين الإسماعيلية و الاثنى عشرية فى هذا الموضوع بالأخص.

و لنقف مليا عند قوله فى ص 26:(و أما السنة فهم-أى الشيعة-غير أمناء،و لا ملتزمين ما صح منها،و سنتعرض لها فيما بعد أيضا).

هـذا ما يقوله.و لا أدرى و لا المؤلف يدرى،لما ذا أطلق هذا القول:أ كان عن خبرة و دراية،و تتبع و تعمق فى البحث؟أم أنه قلد غيره؟ أو هى فكرة يحـاول أن يصـل بها إلى هـدف معين؟!! إن المرء لتأخـذه الحيرة فى أمر من يطلق القول بـدون حجـة،و هو يـدعى أنه ممن له إلمام و معرفة!! لنسأل الأستاذ:لما ذا لم يكن الشيعة أمناء على السنة؟و لما ذا لم يلتزموا بما صح منها؟!! و لعله أراد أن يكون جوابا عن ذلک ما ذكره فى ص 27 تحت عنوان:(موقفهم من الأحاديث النبوية)و هو قوله:

و لقد رأى الإمامية الاثنا عشـرية أنفسـهم أمام كثرة الأحاديث المروية عن رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم،و أمام كثرة من الروايات المأثورة عن الصـحابة رضوان اللّه عليهم (أجمعين)و فى تلک الآثار ما يخالف تعاليمهم مخالفـة صـريحة لذا كان بديهيا أن يتخلص القوم من كل هـذه الروايات،إما بطريق ردها و إما أن يكون قولا لصـحابى، و إما أن يكون قولا لرسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم عن طريق صحابى،و هم يجرحون معظم الصحابة؛بل و يكفرونهم لمبايعتهم أبا بكر..

ثم يمضى أستاذ الحديث فى بيانه و يتعرض لمسألة المتعة و المسح على الخفين ورد الشيعة له،لأن رواية المغيرة بن شعبة رأس المنافقين-على حد تعبيره-إلى أن يقول:

و ليت الأمر وقف بهم عنـد هـذا الحـد-حد الثقة بأشـياعهم و الاتهام لمن عداهم، بل وجدنا رؤساء من الشـيعة كجابر بن يزيد الجعفى و غيره،قد استغلوا أفكار

الجمهور الساذجة،و قلوبهم الطيبة الطاهرة،و حبهم لآل بيت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، فراحوا يضعون الأحاديث على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و على آل بيته و يضمنونها ما يرضى ميولهم المذهبية،و أغراضهم السيئة الدنية.و لم يفتهم أن يحكموا أسانيد هذه الأحاديث الموضوعة حتى اغتر بها العامة لسلامة نواياهم،و سكت عنها الشيعة لأنها وجدوها مؤيدة لدعواهم...

>أقول:< لقد طغى الحقد على قلب المؤلف حتى ملكه،فأصبح قلبه وراء لسانه لا لسانه وراء قلبه.و لهذا وجد الشذوذ مرتعا خصبا فى لسانه و قلمه و لعله ما كان يؤمن بما يقول،و لكنه يقصد أن يقال إنه جاء بشيء جديد عن خصمه.

إن ما أورده فى هذا الفصل و الذى قبله و ما بعده-بعيد كل البعد عن روح الحق و أمانة التاريخ و منهج العلم.

و لعله كما قلت إنه لا يؤمن بصحة ذلک و لا يعتقده،و لكن هناک دواعى أدت إلى ذكره،أمور استوجبت أن ينهج هذا النهج فى دراسته التى كشف عن نفسه بأنه لم يكن مؤرخا يتحرى الصدق،أو كاتبا يمسک قلمه عن الخطأ،بل هو متحامل حاقد، و كاتب لا يتأمل فيما يكتب،و فى ذلک تساهل معه كبير و إلا فهو جاهل يقحم نفسه فى مجال يعجز عن الخروج منه.

إنه ملأ هذه الصحائف و سودها بمداد الافتراء،و نسب الشيعة إلى أمورهم أبعد ما يكونون عنها،كالقول بتحريف القرآن و نقصانه،مع أن إجماعهم خلاف ذلک.

و المؤلف يتبع نهج المستشرقين فى الاعتماد على الشاذ النادر أو المحرف فيكون اعتمادهم على ذلک من دون التفات إلى واقع الأمر.

و لا أريد أن أرجع إلى ما ذكره فى أول هذا الفصل من مخالفات و بعد عن الواقع،و أكتفى هنا فى التنبيه على النقاط التالية:

1-يقول:لقد رأى الإمامية الاثنا عشرية أنفسهم أمام كثرة من الأحاديث المروية عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أمام كثرة من الروايات المأثورة عن الصحابة،و فى تلک الأحاديث ما يخالف تعاليمهم مخالفة صريحة...

هذا ما يقوله الأستاذ حول موقف الإمامية من الأحاديث النبوية و آثار الصحابة.

و لعل القارئ يظن أن أستاذ علم الحديث الذهبى قد قال هذا عن خبرة و دراية، و تتبع فى الدراسة حتى أصدر حكمه على الشيعة بأنهم يرون تلك الأحاديث و الآثار المخالفة لتعاليمهم مخالفة صريحة.

و لا أدرى ما ذا يقصد فى ذلك؟أ كان يريد بأن الشيعة يردون أحاديث جميع الصحابة،أم يردون البعض دون البعض الآخر؟فإن كان يريد الأول فهو أمر يكذبه الوجدان.

و إن كان يريد الثانى و هو أنهم يأخذون عن بعض و يتركون آخرين فهذا شىء لا تنكره الشيعة،لأنهم لا يقولون بعدالة جميع الصحابة كما هو مقرر عندهم،و قد تعرضنا لذلك و قلنا:إن أصالة العدالة فى حق الصحابة لا أصل لها و إثبات ذلك يحتاج إلى مشقة،و النتيجة لا تثبت أى ثمرة هناك.

أما السنة فقد أثبتوا العدالة لكل صحابى-و إن ارتكب ما يخالفها-بحجة أنه مجتهد و الاجتهاد فى مقابلة النص لا يصح-و استدلوا بأدلة ذكرت فى محلها و مع ذلك فقد اختلفوا فذهبت طائفة إلى عدالة الصحابة أجمع بدون استثناء و آخرون ذهبوا إلى عدالة من لم يلابس الفتنة(أى من حين مقتل عثمان).

و ذهبت المعتزلة إلى فسق من قاتل عليا منهم.و حكى ابن الصلاح الإجماع على تعديل من لم يلابس الفتنة.

و حكى الآمدى و ابن الحاجب قولا:إنهم كغيرهم فى لزوم البحث عن عدالتهم.إلى غير ذلك من الأقوال (1).

أما الشيعة-كما تقدم-فإنهم لا يذهبون لعدالة الجميع فلا يروون إلا عن ثقة، و لهم شروط فى قبول الرواية مقررة فى محلها،إذا الحديث هو دستور المسلمين-بعد القرآن-و فيه منهاج حياتهم الدينية و الاجتماعية لذلك اجتهد المسلمون فى دراسته من حيث السند و الدلالة.

و الشيعة يتشددون أكثر من غيرهم فى قبول الرواية،و تمحيصها بكل دقة

1- (1) انظر شرح ألفية العراقى 4:35 و كفاية الخطيب البغدادى 81-83.

و اعتدال،فلا يأخذون إلا عن الصادق الثقة،و لم يقفوا أمام كتب الحديث وقفة تهيب عن مناقشتها كما يقف إخوانهم السنة أمام صحيح البخارى و من بعده صحيح مسلم وقفة تهيب،و ينظرون إليها نظرة إكبار و تقديس،و أن جميع ما فيها صحيح...إلى آخر ما هنالک من اعتقاد راسخ فى كتب الصحاح و بالأخص البخارى.

و لكن الشيعة يتوقفون عن قبول الرواية ما لم تكن صحيحة من حيث السند و الدلالة،و لا يشترط أن تكون عن شيعى-كما يقال عنهم-أو إلا أن تكون فى الكتب الأربعة من كتب الحديث،بل المدار عندهم هو الصدق و الوثاقة و العدالة؛و قد جعلوا الكذب على اللّه و على رسوله من مفطرات الصيام.

و إن اختصاصهم بالأخذ عن أهل بيت الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هو الذى جعلهم عرضة لهجمات المغرضين،و مؤاخذة من لا يعرف من الحق موضع قدمه.

2-يقول المؤلف:فمثلا-نجدهم يردون الأحاديث و الآثار التى تثبت فى تحريم نكاح المتعة و نسخ حله،كما نجدهم يردون أحاديث المسح على الخفين و يقولون إنها من رواية المغيرة بن شعبة رأس المنافقين...الخ.

أورد الأستاذ هذه الأمثلة كدليل لما يقوله فى رد الشيعة للأحاديث و أنهم غير أمناء عليها،و لعل المؤلف لم يجد غير ذلک،فإن كانت هذه مؤاخذته فما أقل تتبع أستاذ الحديث؟؟لأن الشيعة لم ينفردوا برد ما ورد فى تحريم المتعة،بل قد ردها جماعة من الصحابة و التابعين و ثبتوا على تحليلها،منهم:

جابر بن عبد اللّه،و أسماء بنت أبى بكر،و ابن مسعود،و ابن عباس و معاوية، و عمرو بن حريث،و أبو سعيد و سلمة ابنا أمية بن خلف،و رواه جابر بن عبد اللّه عن جميع الصحابة مدة حياة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،و مدة أبى بكر إلى قرب آخر خلافة عمر بن الخطاب (1).

و أما من التابعين فمنهم ابن جريح فقيه مكة و لهذا قال الأوزاعى:يترک من قول

1- (1) انظر المحلى لابن حزم 9:519.

أهل الحجاز خمس:متعة النساء (1)و منهم ابن جريح (2)و طاوو و عطاء و غيرهم.

و روى عن عمر بن الخطاب أنه إنما أنكرها إذا لم يشهد عليها عدلان (3).

و قال ابن بطال:روى أهل مكة و اليمن عن ابن عباس إباحة المتعة و روى عنه الرجوع بأسانيد ضعيفة،و إجازة المتعة عنه أصح و هو مذهب الشيعة (4).

و أخرج مسلم فى صحيحه عن نظرة قال:كنت عند جابر بن عبد اللّه فأتاه آت فقال إن ابن عباس و ابن الزبير اختلفا فى المتعتين.

فقال جابر:فعلناهما مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ثم نهانا عنهما عمر فلم نعد لهما.

و نهى عمر بن الخطاب عن المتعتين مشهور و هو قوله:(متعتان كانتا على عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنهى عنهما و أعاقب عليهما).

و أخرج عبد الرزاق و ابن المنذر من طريق عطاء عن ابن عباس قال:يرحم اللّه عمر ما كانت المتعة إلا رحمة من اللّه رحم بها أمة محمد،و لو لا نهيه عنهما ما احتاج إلى الزنا إلا شقى (5).

و قال على عليه السّلام:لو لا أن عمر نهى عن المتعة ما زنى إلا شقى (6).

و أسباب نهى عمر عن المتعة مشهورة كما رواه البيهقى فى السنن و غيره من المحدثين و المفسرين فلا حاجة لنقل ذلک (7)كما لا حاجة إلى المضى فى بسط القول حول هذا الموضوع إذ المسألة قد حررها العلماء،و بسطوا القول فيها و كثر حولها النقاش و الجدل و لا خلاف فى مشروعيتها على عهد الرسول،و إنما الخلاف فى نسخها فالشيعة يردون أخبار النسخ تمسكا بالكتاب و سنة الرسول و وافقهم جماعة من الصحابة و التابعين و علماء الأمة.

1- (1) نيل الأوطار 6:135.

2- (2) نيل الأوطار 6:136.

3- (3) المحلى 9:520.

4- (4) العدة لمحمد بن إسماعيل الصنعانى 4:195.

5- (5) الدر المنثور 2:41. [1]

6- (6) الدر المنثور للسيوطى 2:43. [2]

7- (7) بحثنا تشريع المتعة فى الجزء الأول من الكتاب و فى مواضع أخرى كثيرة منها المزيد.

و أما المسح على الخفين فقد تعرضنا له فى الجزء الخامس ط 3،ص 200- 205 و ملخص القول فيه:

إن هذه المسألة قد وقع فيها الخلاف بين المسلمين على أقوال:

1-الجواز مطلقا.

2-الجواز فى السفر دون الحضر.

3-عدم الجواز بقول مطلق و هو ما تذهب إليه الشيعة لا لأن الرواية عن المغيرة بن شعبة رأس المنافقين كما يقول الأستاذ و إن كان هذا هو وحده كاف فى الرد،و لكن منع ذلك لعدم ثبوته فى الدين،و أن القرآن على خلافه هو معارض لآية الوضوء و لم تكن منسوخة و لا آية واحدة منها.

و قد أنكر جماعة من الصحابة المسح على الخفين و فى طليعتهم الإمام على بن أبى طالب عليه السّلام و كان يقول:سبق الكتاب المسح على الخفين.

و لما سئلت عائشة عن المسح على الخفين،قالت:سلوا عليا فإنه كان أكثر سفرا مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و ورد عن ابن عباس أنه كان ينهى عن المسح على الخفين و كان يقول:لأن أمسح على جلد حمار أحب إلى من أن أمسح على الخفين.

و ورد النهى أيضا عن أبى هريرة و عائشة و كانت تقول:لأن تقطع قدماى أحب إلى من أن أمسح على الخفين.

و فى لفظ لأن أقطع رجلى أحب إلى من أن أمسح عليهما (1).

و سئل ابن عباس هل مسح رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم على الخفين؟فقال و اللّه ما مسح رسول اللّه على الخفين بعد نزول المائدة و لأن أمسح على ظهر عير فى الفلاة أحب إلى من أن أمسح على الخفين (2)و جاء فى العتيبية عن مالک بن أنس ما يدل على المنع.و قال الشيخ أبو بكر فى شرح المختصر الكبير:إنه روى عن مالک:لا يمسح المسافر و لا المقيم.

1- (1) نيل الأوطار 1:177 و تفسير الرازى 3:371. [1]

2- (2) بدائع الصنائع 1:7.

و قد سبق من الأستاذ فی ص 27 ج 2 أنه نسب الشیعة إلی الشذوذ و التعصب فی المسائل الفقهیة إذ یقول:

و فی الفقه لهم مخالفات یشذون بها،فمثلا نراهم یقولون:إن فرض الرجلین هو المسح دون الغسل؛و لا یجوزون المسح علی الخفین،و جوزوا نکاح المتعة، و جوزوا أن تورث الأنبیاء....إلی أن یقول:

لهذا کان طبیعیا أن یقف الإمامیة الاثنا عشریة من الآیات التی تتعلق بالفقه و أصوله موقفا فیه تعصب و تعسف،حتی یستطیعوا أن یخضعوا هذه النصوص و یجعلوها أدلة لآرائهم و مذهبهم...إلی أخره.

و هکذا عبر الأستاذ و نسب القول بمسح الرجلین،و عدم المسح علی الخفین و جواز نکاح المتعة إلی الشذوذ،و کأن ذلک لم یکن له دلیل من الکتاب و لا قائل به من الأصحاب،و قد أوضحنا فی الجزء الخامس ط 3،ص 192-200 بعض ما یتعلق بمسألة فرض الأرجل فی الوضوء و اختلاف العلماء فیه.

و الذی یهمنا ذکره هنا هو قوله:لهذا کان طبیعیا أن یقف الإمامیة الاثنا عشریة...الخ.و لا أدری ما هذا التعسف و التعصب؟و ما معنی إخضاع النصوص لجعلها أدلة للمذهب؟ و الشیخ مصرّ علی مخالفة الواقع و تستبد به روح التحکم بالنصوص و یستسهل طرح الأدلة و تحکیم الرأی،و هی مذاهب یلجأ إلیها غالبا عند ما تأبی النصوص و الأدلة التحریف لأنها ظاهرة شأنها شأن اللجوء إلی التفسیر بغیر الواقع کما فسر غیرهم المأقین بالخفین،عند الاستدلال علی جواز المسح علیهما،فیما أخرجه أبو داود:

من أن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کان یمسح المأقین-و هما مؤخر العینین (1)-قالوا إنهما الخفّان،و أین المأقین من الخفین؟؟ و قد حکم بعضهم بأفضلیة المسح علی الخفین لا للدلیل،و إنما کان ذلک

1- (1) انظر تیسیر الوصول 3:76 و انظر الحدیث فی سنن أبی داود 1:34 ط 1.

الحكم لأجل طعن الشيعة فى أدلة المسح،و قال:و إحياء ما طعن فيه المخالفون من السنن أفضل من تركه (1).

و قد طغت موجة التعصب على كثير من الفقهاء فتركوا أشياء قد ورد الدليل من الشارع فى استحبابها أو وجوبها،و لكنهم رجحوا الترك لأن العمل بها يدعو إلى التشبه بالشيعة،و التشبه بالشيعة ينبغى تجنبه،كما أفتى بذلك الحافظ العراقى (2).

و قد أشار ابن تيمية لذلك إذ يقول فى منهاجه:-عند بيان التشبه بالشيعة-:

و من هنا ذهب من ذهب من الفقهاء إلى ترك بعض المستحبات،إذ صارت شعارا لهم(أى للشيعة)فإنه و إن لم يكن الترك واجبا لذلك،لكن فى إظهار ذلك مشابهة لهم.

فلا يتميز السنى من الرافضى،و مصلحة التمييز عنهم لأجل هجرانهم و مخالفتهم،أعظم من مصلحة المستحب.

و هنا يجب الالتفات إلى هذا الأمر،و ما حدث من ورائه من ترك للأعمال المستحبة و لعله أدى إلى ترك بعض الواجبات استنادا إلى هذه الحجة و هى مراعاة المصلحة،و بالطبع انها مهمة،لأن من مصلحة الإنسان المحافظة على نفسه،و ما يصل بذلك من مقومات حياته،من استقرار و مال و تقرب للولاة الذين نظروا إلى الشيعة نظرة خصم يجب القضاء عليه.

نعم إن مصلحة التمييز عن الشيعة أهم من مصلحة المستحبات الشرعية عندهم و لعله من هذا الباب ينفتح ترك الأخبار الصحيحة الواردة عن صاحب الرسالة لأن فى نقلها و إثباتها يثبت التشيع و المصلحة تدعو إلى التمييز عنهم فيلزم تركها،كحديث الغدير و حديث أنا مدينة العلم و علىّ بابها و غير ذلك من الأحاديث الصحاح،و من المصلحة تأويل بعض الآيات و وضع الأحاديث بما يدعو إلى إظهار التجنب عن تهمة التشيع.

1- (1) نيل الأوطار 1:176.

2- (2) شرح المواهب اللدنية للزرقانى.

و من المصلحة قالوا:بمنع المصلى عن اختصاص جبهته بما يسجد عليه من أرض و غيرها،لأن ذلک الاختصاص من شعار الشيعة (1).

و طبعا إن اتخاذ شعار الشيعة فيه خطر،فمن المصلحة تركه،لأن الشيعة قد التزموا بالسجود على الأرض أو ما أنبتته الأرض لقوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:(جعلت لى الأرض مسجدا و طهورا).

و كان أصحاب محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يسجدون على الأرض فأثر ذلک فى جباههم،و قد مدحهم اللّه تعالى إذ يقول: سِيماهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ و كان يقال لهم ذوو الثفنات،و كان على بن الحسين عليه السّلام يعرف بذى الثفنات لكثرة سجوده.

و قد أدت الحالة نظرا لرعاية مصلحة التمييز بين السنة و الشيعة-كما يقولون- بأن يترک السجود على الأرض و أصبح ذلک-على ممر الزمن-من المنكرات لأن الشيعة يلتزمون بذلک،و يحملون معهم حجرا طاهرا-كما كان بعض العلماء من التابعين يحمل معه فى السفر لبنة يسجد عليها-إذ ربما لا يتسنى لهم الحصول على أرض طاهرة فى السفر و غيره فالتزموا بذلک.

و حيث كان الشيعة يفضلون السجود على تربة أرض كربلا المقدسة و هى التربة الحسينية حملهم بعض من يحمل أسوأ البغض للشيعة على أنهم يسجدون للصنم- معبرين عن تلک التربة الطاهرة التى يسجدون عليها للّه جل و علا بأنها صنم،متناسين أن الشيعة فى سعة،فإذا لم توجد التربة التى يطمئن لطهارتها و التى اختارها المسلم الشيعى موضعا لجبهته،يسجد الشيعة على الأرض أو ما أنبتت.

و قد عبر بعض من أكل الحقد قلبه عنها بلفظ:إنها وثن إذ يقول:لا تجد شيعيا يصلى فى بقعة من بقاع الأرض حتى المسجد الحرام بمكة،و مسجد الرسول إلا- و يضع وثنا من شقفة طين كربلا- تحت جبهته تقديسا لها،و اعتقادا أنها أفضل بقاع الأرض لأن دم الحسين اختلط بها...الخ (2).

1- (1) انظر غاية المنتهى فى الجمع بين الإقناع و المنتهى 1:135 فى الفقه الحنبلى.

2- (2) انظر خاتمة كتاب السنة و الشيعة تأليف السيد رشيد رضا بقلم أحمد حامد الفقى و هذا الرجل قد تحامل تحاملا أخرجه عن اتزانه و لم يحسب للمؤاخذة أى حساب و نحن نعرض عما كتبه فى الخاتمة تهاونا بشأنه و ترفعا عن نقده.

و غير ذلک من الألفاظ التی لا ترتبط مع الواقع بصلة،و لم يکن مبعثها إلا الجهل و سوء الظن بهذه الطائفة،و کيف يحسنون بها الظن و يقول بعضهم:إنه لا يحل و اللّه حسن الظن بمن يترفض (1).و الرفض و التشيع عندهم شیء واحد.

و علی کل حال فإن الشيعة قالوا باستحباب السجود علی تربة أرض کربلا اقتداء بأئمتهم عليهم السّلام و لا يضرهم ما يرميهم به الجاهلون.

3-يقول الأستاذ:و ليت الأمر وقف بهم عند هذا الحد-حد الثقة بأشياعهم و الاتهام لمن عداهم-بل وجدنا رؤساء من الشيعة کجابر بن يزيد الجعفی و غيره قد استغلوا أفکار الجمهور الساذجة،و قلوبهم الطيبة الطاهرة،و حبهم لآل بيت رسول اللّه صلّی اللّه عليه و آله و سلّم،فراحوا يضعون الأحاديث علی رسول اللّه صلّی اللّه عليه و آله و سلّم و علی آل بيته..

الخ.

أقول:

بعد أن تکلم الأستاذ حول الحديث و الفقه بما يخص الشيعة فی قضية ردهم لروايات بعض الصحابة،و ضربه المثل فی مسألة المتعة و المسح علی الخفين و قد رأينا مدی اطلاعه و اتساع معلوماته.

راح يتکلم عما وجده عند الشيعة من وضع الحديث و يقول:وجدنا رؤساء من الشيعة کجابر بن يزيد الجعفی و غيره...الخ.

و لم يذکر هنا إلا جابر بن يزيد الجعفی المتوفی سنة 127 و هو أحد حفاظ الحديث،و قد روی عنه شعبة،و سفيان الثوری،و سفيان بن عيينة،و زهير بن معاوية،و إسرائيل،و شريک،و الحسن بن حی،و معمر،و أبو عوانة و غيرهم.

و قد خرج حديثه الترمذی،و أبو داود،و ابن ماجة.

و قال عبد الرحمن بن المهدی:سمعت سفيان الثوری يقول:کان جابر ورعا فی الحديث ما رأيت أورع فی الحديث من جابر.

1- (1) طبقات الحنابلة 1:273. [1]

و قال إسماعيل بن علية:سمعت شعبة يقول:جابر الجعفى صدوق فى الحديث (1).

و قال وكيع:مهما شككتم فى شىء فلا تشكوا فى أن جابرا ثقة (2).

و قال ابن أبى الحكم سمعت الشافعى يقول:قال سفيان الثورى لشعبة:لئن تكلمت فى جابر لأتكلمن فيک،و كان جابر يحفظ مائة ألف حديث (3).

و قال يحيى بن أبى كثير:كنا عند زهير بن معاوية فذكروا جابر الجعفى فقال زهير:كان جابر إذا قال سمعت أو سألت فهو من أصدق الناس (4).

و بهذا وصف العلماء جابر الجعفى و هكذا قال عنه معاصروه و تلامذته و لم يقل أحد إنه كان يضع الحديث.

و سئل أحمد بن حنبل عن جابر الجعفى،فقال:تركه عبد الرحمن.و قصارى ما ورد فى حقه من خصومه بأنه ضعيف أولين الحديث،و قال أبو حاتم:يكتب حديثه على الاعتبار.

و ليس لمن رماه بالكذب حجة يدعم بها ما يدعيه إلا أنه يقول بالرجعة أو أنه شيعى،لأنه يعلن بالرواية عن أهل البيت و يقول-عند ما يحدث عن الإمام الباقر عليه السّلام-:حدثنى وصى الأوصياء.

و هذا أمر يعظم تحمله فى عصر هبت فيه زوبعة الخلافات،و اشتد غضب السلطة على اتباع أهل البيت و أنصارهم،و كان جابر فى طليعتهم،و بطبيعة الحال أن يبتعد الناس عمن يتهم فى معارضة الدولة،و يرمى بكل كريهة تقع موقع الرضا من ولاة الأمر،و لهذا كانت كلمات من اتهم جابر بالكذب مشوشة،و أدلتهم واهية.

أما الأستاذ الذهبى-على ما يظهر-فإنه استند فى هذا القول إلى حجة هو معجب بها و جعلها دليلا قاطعا على ما يقوله فى نسبة وضع الحديث إلى الشيعة،

1- (1) انظر الجرح و التعديل لابن أبى حاتم القسم الأول من المجلد الأول ص 497 و تذهيب الكمال للخزرجى ص 51.

2- (2) تهذيب التهذيب 2:48. [1]

3- (3) نفس المصدر. [2]

4- (4) الجرح و التعديل لابن أبى حاتم.

و ذلک ما عقب کلامه و ختم هذا الفصل بذکره و هو ما نقلناه آنفا و نحب أن نکرره هنا.

یقول الأستاذ:

و یعجبنی هنا ما ذکره أبو المظفر الأسفراییننی فی کتابه التبصیر فی الدین هو:أن الروافض(لما رأوا الجاحظ یتوسع فی التصانیف،و یصنف لکل فریق قالت له الروافض:صنف لنا کتابا.فقال لهم الجاحظ:لست أدری لکم شبهة حتی أرتبها و أتصرف فیها.فقالوا له:إذا دلنا علی شیء نتمسک به،فقال:لا أری لکم وجها إلا أنکم إذا أردتم أن تقولوا شیئا تزعمونه تقولون إنه قول جعفر بن محمد الصادق لا أعرف لکم سببا تستندون إلیه غیر هذا الکلام...فتمسکوا بحمقهم و غباوتهم بهذه السوءة التی دلهم علیها،فکلما أرادوا أن یختلقوا بدعة،أو یخترعوا کذبة.نسبوها إلی ذلک السید الصادق،و هو عنها منزه،و من مقالتهم فی الدارین بریء).

هذا ما ذکره الأستاذ و أعجب به و نحن لا نعجب من مؤثرات العاطفة و بواعث الحقد.

لقد أعجب الأستاذ بهذه الدعابة و هی من سخریة الجاحظ-إن صح ذلک-التی یضل بها البسطاء،و تشکیک الضعفاء،یضعها فی کتبه للمضاحیک و العبث،یرید بذلک استمالة الأحداث و شراب النبیذ (1).

و من العجیب أن تکون هذه الدعابات دلیلا فی الأبحاث العلمیة،و حجة یستدل بها علی المقصود،و أعجب من ذلک أن مثل هذا یصدر ممن یفترض فیه أن یکون أستاذا متحررا و مثقفا متنورا،و هو الأستاذ الذهبی المدرس بالأزهر،و الأزهر هو الجامعة الإسلامیة الکبری؛التی أسست علی التقوی،و خدمت العلماء و نشرت الثقافة،و قامت بالإصلاح.

إننا لنفخر بها و نعتز و هی مسئولة عن تصفیة الخلافات بین المسلمین،و إیضاح الحق دون تعصب و تحیز،لیتقارب المسلمون،و تتوحد کلمتهم لیکونوا قوة متماسکة،تتسلح بالإیمان باللّه،و تهتدی بهدی الرسول،لرد هجمات المعتدین،

1- (1) انظر مختلف الحدیث لابن قتیبة 71 تجد وصف الجاحظ بذلک.

و صد تيارات الملحدين،فى هذا العصر الذى انتشرت فيه الدعوة لغير اللّه تعالى و تتضاعف فيه الحملات المعادية للإسلام.

من المؤسف حقا أن الشيخ المدرس فى الأزهر الشريف يحاول بهذه الدعابة المضحكة أن يبرز لقرائه أو يغذى عقول تلامذته بأن جميع ما عند الشيعة من أخبار و تراث علمى إنما هو موضوع حسب ما أقره الأسفراييني بأسطورته،و ذكره فى خرافته،و أعجب به الأستاذ فى دراسته!! غريب و أيم الحق فهل كانت الشيعة أمة يسودها الجهل أو يضفى عليها النسيان ذيله،و ليس لهم فى الحركة الفكرية الإسلامية أى أثر؟!! أتجاهل الأستاذ أم جهل مدرسة الشيعة التى غذّت الفكر الإسلامى بعلومها، و خدمت الأمة بآثارها؟ أ ليس من رجال الشيعة من كانوا حملة حديث،و أئمة فقه،و إليهم تشد الرحال من البلدان الإسلامية لأخذ العلوم منهم،و الرواية عنهم،فى عصر الجاحظ و قبله و بعده.

و كان منهم عدد غير قليل من كبار شيوخ البخارى صاحب الصحيح و المعبر عنه (بأمير المؤمنين فى الحديث)فقد أخذ عن الشيعة،و حضر عند جماعة منهم،و روى فى صحيحه عنهم أمثال:

خالد بن مخلد القطوانى المتوفى سنة 213.

إسماعيل بن أبان الوراق المتوفى سنة 216.

جرير بن عبد الحميد بن قرط المتوفى سنة 188.

عبد اللّه بن موسى المتوفى سنة 213.

مالک بن إسماعيل النهدى المتوفى سنة 217.

سعيد بن كثير بن عفير المتوفى سنة 226.

سعيد بن محمد بن سعد الجرمى المتوفى سنة 233.

الفضل بن دكين المتوفى سنة 218.

و غير هؤلاء كما ستقف على تراجمهم فى هذا الجزء إن شاء اللّه.

و كذلک الإمام أحمد بن حنبل حضر عند جماعة منهم و أخذ العلم عنهم، منهم:

سعيد بن خيثم بن رشد بن هلال أبو معمر الكوفى المتوفى سنة 180.

عبد اللّه بن داود أبو عبد الرحمن الهمدانى المتوفى سنة 212.

عبد الرزاق بن همام الصنعانى المتوفى سنة 211.

محمد بن فضيل بن غزوان المتوفى سنة 195.

عائذ بن حبيب الملاح الكوفى المتوفى سنة 190.

على بن غراب أبو الحسن الفزارى الكوفى المتوفى سنة 184.

تليد بن سليمان المحاربى أبو سليمان الكوفى المتوفى سنة 205.

على بن هشام بن البريد العابدى أبو الحسن الكوفى المتوفى سنة 180.

على بن الجعد أبو الحسن الهاشمى المتوفى سنة 230.

الفضل بن دكين المعروف بأبى نعيم المتوفى سنة 219.

هشيم بن بشير الواسطى المتوفى سنة 183.

و غير هؤلاء من رجال الشيعة الذين كانوا قبل أن يولد الجاحظ،و بعضهم كان معاصرا له فهل يصح يا أستاذ الحديث أن يكون مثل هؤلاء الذين هم أئمة الفقه و علم الحديث،أن يقال ليس لديهم شىء فالتجئوا إلى الجاحظ ليضع لهم شيئا فلم يجد إلا أنه دلهم على الكذب؟!! ثم نعود و نقول إن الإمام الشافعى قد أخذ العلم عن الشيعة و كان فى طليعة شيوخه إبراهيم بن محمد بن أبى يحيى الأسلمى المدنى المتوفى سنة 184 و هو من تلامذة الإمام الباقر عليه السّلام و ولده الإمام الصادق عليه السّلام،و له كتاب مبوب فى الحلال و الحرام فى فقه الشيعة،و قد أكثر الشافعى من النقل عنه و روى عنه أيضا ابن جريح،و الحسن بن عرفة و هو من شيوخهما و ستقف قريبا إن شاء اللّه على ترجمته و تراجم غيره من رجال الشيعة الذين روى عنهم أصحاب الصحاح و السنن.

و بعد هذا نقول:

إن الأستاذ حكم هواه فوجد رؤساء من الشيعة يضعون الحديث نصرة

للمذهب،و لم يذكر منهم إلا جابر الجعفى المحدث الكبير،و لم يأت بدليل على ما يقول،و لم يسند ذلک لمصدر.

و لو سلمنا جدلا أن هناک من يضع الحديث من الشيعة لنصرة المذهب فنحن نستحلفه بما يدين هل سلمت بقية الفرق و المذاهب من ذلک؟؟عند ما هبت عواصف الآراء فى المجتمع و تحكمت الأهواء،و اشتدت الخلافات و لعبت الضغائن لعبتها، و تدخلت الفتنة المحمومة تدخلها.

لا أظن أن أحدا له أدنى معرفة أو إلمام ينكر ما بلغت إليه الحالة من الافتراء و التزوير و الكذب على اللّه و على رسوله،تقوية للمبدإ و انتصارا للمذهب،يوم تحكمت الخلافات و اشتد الصراع العقائدى.

يقول الأستاذ عبد اللطيف دراز-مدير الأزهر و المعالم الدينية-:و قد غذيت هذه الخلافات و هذه السياسات بكثير من الروايات الملفقة و الأحاديث الموضوعة، و الأخبار المفتراة،و امتلأت كتب التفسير و المغازى و المناقب بما لا يحصى من الأكاذيب،و أصبح بجوار كل آية فى كتاب اللّه تعالى رواية من الروايات تحمل عليها، و فسر القرآن بما يوافق أصحاب الآراء و قبل من الأحاديث ما يؤيدهم،و طعن فيما يخالفهم،و اشتبه الأمر فيما يقبل و فيما يرضى،و فيما يصح ليس على الوسط من الناس فحسب و لكن على بعض ذوى العقول الراجحة و الذكاء الألمعى أيضا،و لم يسلم من ذلک إلا من عصم اللّه و قليل ما هم.

و قد شهدت الأمة الإسلامية مع هذا نوعا آخر من أنواع الخلاف و التفرق هو خلاف الاتباع و المتعصبين للأئمة الذين ظنوا التزام مذهب من المذاهب بعينه دينا لا يجوز للمسلم أن يخالفه،و أدرجوا ذلک فى حكم العقائد،و رتبوا عليه مسائل فقهية حكم من قلد غير الأربعة،و من قلد غير إمامه من الأربعة و من لفق فى العبادة أو المعاملة بين مذاهب عدة،و من أفتى بغير الراجح أو المعول عليه أو المفتى به،أو بتعبير أدق بغير ما وصف فى الكتب بأنه كذلک إلى غير هذا من المسائل التى ما أثارها إلا العصبية المذهبية و التى قامت بنصيبها فى تفريق الأمة الإسلامية...الخ (1).

1- (1) رسالة الإسلام العدد الثالث السنة الأولى 1368.

فكم حدثنا التاريخ عن أناس تعمدوا الكذب على اللّه و على رسوله انتصارا لمذاهبهم و طعنا على مخالفيهم.

فهذا محمد الثلجى شيخ الحنفية المتوفى سنة 266 قالوا عنه بأنه كان يضع أخبار التشبيه و ينسبها إلى أصحاب الحديث ذكر ذلك ابن العماد نقلا عن ابن عدى (1).

و نعيم بن حماد المتوفى سنة 218 كان يضع الحديث فى تقوية السنة و يذكر حكايات مزورة فى ثلب أبى حنيفة (2).

و أبو العشائر البلوى المتوفى سنة 610.كان غاليا فى التسنن شديد التعصب، متحاملا على آل البيت و شيعتهم،و كان يقول أشياء منكرة لا نحب ذكرها (3).

و أحمد بن عبد اللّه الأنصارى:كان من الوضاعين لنصرة السنة و كان يفسر قوله تعالى:يوم تبيض وجوه(يعنى أهل السنة)و تسود وجوه يعنى أهل البدعة (4).

و أبو بشر أحمد بن محمد الكندى المتوفى سنة 324 كان إماما فى السنة و الرد على المبتدعة،و كان وضاعا للحديث كذابا (5).

و عبد العزيز بن الحارث التميمى المتوفى سنة 371 من رؤساء الحنابلة وضع فى مسند أحمد بن حنبل حديثين منكرين (6).

و أبو عبد الرحمن السلمى محمد بن الحسين النيسابورى المتوفى سنة 412.

كان مصنفا و محدثا،صنف فى التفسير و التاريخ و غيره،و كان يضع الحديث للصوفية (7).

و أحمد بن محمد بن حرب كان وضاعا للحديث و قد وضع لنصرة الحنابلة

1- (1) شذرات الذهب 2:151. [1]

2- (2) المصدر السابق 2:67. [2]

3- (3) شذرات الذهب 5:43. [3]

4- (4) لسان الميزان 4:193.

5- (5) مرآة الجنان لليافعى 2:287. [4]

6- (6) الخطيب 10:462.

7- (7) شذرات الذهب 3:196. [5]

حديثا عن أبی هريرة أن النبی صلّی اللّه عليه و آله و سلّم قال:من قال القرآن مخلوق فهو كافر (1).

و إسماعيل بن عبد اللّه بن أويس الأصبحی المتوفی سنة 227 ابن أخت مالک بن أنس و نسيبه،كان يضع الحديث لأهل المدينة إذا اختلفوا فيما بينهم (2).

و أحمد بن محمد بن عمر بن مصعب بن بشر بن فضالة المروزی المتوفی سنة 323 هو أحد الوضاعين و الكذابين،مع كونه كان محدثا إماما فی السنة و الرد علی المبتدعة (3).

و قال الدار قطنی:كان حافظا عذب اللسان و الرد علی المبتدعة،لكنه يضع الحديث (4).

و قال ابن حبان:كان ممن يضع المتون و يقلب الأسانيد.لعله قد قلب علی الثقات أكثر من عشرة آلاف حديث و فی الآخر ادعی شيوخا لم يرهم،فصرت أنكر عليه،فكتب يعتذر إلی،علی أنه من أصلب أهل زمانه فی السنة،و أبصرهم بها، و أذبهم لحريمها،و أقمعهم لمن خالفها (5).

و أحمد بن الصلت بن المغلس أبو العباس الحمانی المتوفی سنة 280.

كان يضع الأحاديث فی مناقب أبی حنيفة،و منها ما يضعه عن النبی صلّی اللّه عليه و آله و سلّم و منها ما يضعه عن العلماء فی فضل أبی حنيفة كما حدث عن سفيان بن عيينة أنه قال:

العلماء ابن عباس فی زمانه،و الشعبی فی زمانه،و أبو حنيفة فی زمانه،و الثوری فی زمانه.

و إنما وضع ابن المغلس هذا القول عن لسان ابن عيينة لأن ابن عيينة كان سيئ الرأی فی أبی حنيفة و يعلن بذمه و سوء القول فيه (6).

1- (1) لسان الميزان 1:218.

2- (2) تهذيب التهذيب 1:311. [1]

3- (3) الشذرات 2:298. [2]

4- (4) تذكرة الحفاظ 3:24.

5- (5) تذكرة الحفاظ 3:14 و ميزان الاعتدال 1:70.

6- (6) تأريخ بغداد 4:208. [3]

و قد توسعت دائرة الوضع فی المناقب لأصحاب المذاهب إلی حد بعید خرجوا فیه عن حدود المعقول،و قد سبقت الإشارة لذلک.

و کان من أعظم الجرأة علی اللّه و رسوله هو وضع الأحادیث فی نصرة المذهب أو تأیید القول الذی یخالف الآخرین حبا للغلبة حتی لو کان الخلف بین أهل المذهب الواحد.

فهذا أصبغ بن خلیل القرطبی المتوفی سنة 272 کان حافظا للرأی علی مذهب مالک،و دارت علیه الفتیا.

قال الذهبی:و لم یکن له علم بالحدیث و لا معرفة بطرقه و کان یعادیه و یعادی أصحابه و بلغ من عصبیته لروایة ابن القاسم فی عدم ترک رفع الیدین فی الصلاة؛أن افتعل حدیثا فی ترک رفع الیدین.

و الغریب أن بعضهم اعتذر عن هذا الافتعال و الکذب علی اللّه و علی رسوله بأنه لم یقصد الکذب،و إنما قصد تأیید مذهبه.

قال القاضی عیاض:و هذا کلام لا معنی له،و کل من کذب علی النبی فإنما کذب لتأیید غرضه (1).

و من الخیر أن نشیر إلی الروایة التی وضعها أصبغ عن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی ترک رفع الیدین.

و هی عن عبد اللّه بن مسعود أنه قال:صلیت خلف النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم،و خلف أبی بکر و عمر اثنتی عشرة سنة و خمسة أشهر،و خلف عثمان اثنتی عشرة سنة،و خلف علی بالکوفة خمس سنین،فلم یرفع أحد منهم یدیه إلا فی تکبیرة الافتتاح.

هذه هی الروایة التی وضعها أصبغ لتأیید مذهبه،و نود أن نوضح بعض ما فیها من مخالفات للواقع بالإعراض عن مناقشة السند فإن فیه رجالا لم یسمع بعضهم من بعض،و لکننا نشیر لمخالفات المتن و هی:

1- (1) انظر لسان المیزان 1:458.

إن عبد اللّه بن مسعود توفى سنة 32 و كانت وفاة عثمان سنة 35 أى أنه مات قبل وفاة عثمان بثلاث سنين.

و أيضا هو لم يدرک زمن على عليه السّلام بالكوفة،لأن وفاته كانت سابقة عليه.

قال الذهبى:و ابن مسعود ما صلى خلف عمر و عثمان إلا قليلا لأنه كان فى غالب دولتهما فى الكوفة فهذا(الحديث)من وضع أصبغ (1).

و لعلنا فيما أوردناه على سبيل المثال قد أوضحنا جانبا مهما نستطيع أن نعرف مدى التعصب الذى ابتليت الأمة بسببه،و ما خلفته آثاره السيئة من خلاف و تشويه للحقائق.

إن افتعال عشرة آلاف حديث أو تغيير متونها و تقليب أسانيدها نصرة للمبدإ، و تعصبا على من خالفه لهو أمر عظيم و حدث جسيم فى إثارة الضغائن و إيقاد نار الفتنة بين الطوائف كما فعله المروزى الآنف الذكر.

و أعظم من هذا أنه يرى ذلک نصرة للسنة،و محاربة للبدعة،و كم مثله من أناس وضعوا الأحاديث لغرض فى نفوسهم.

نقل الحاكم عن الحافظ سهل بن السرى أن أحمد الجويبارى و محمد بن تميم و محمد بن عكاشة،و ضعوا على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عشرة آلاف حديث.

و كثير أمثال هؤلاء الذين اجترءوا على وضع الأحاديث،نصرة لمبادئهم و كانوا يرون هذا حسنا يتقربون به إلى اللّه،كما يقول ابن كادش- عند ما وضع حديثا فى فضل أبى بكر،مقابلة لحديث ورد فى فضل على عليه السّلام-:أ ليس فعلت جيدا؟ و لا نريد أن نمضى فى البيان عما وجدنا من الوضاعين للحديث تعصبا و عسى أن يقتنع الأستاذ بهذا النزر فيعترف بخطئه عما نسبه للشيعة وحدهم من الوضع-أو وجدهم كذلک على حد تعبيره-.و هذه النسبة مجرد ادعاء فارغ من دون تثبيت و روية بل هو مقلد لغيره فى الافتراء و الكذب على الشيعة و عساه يرجع إلى ما يفرضه عليه العلم من التتبع خدمة للعلم و هناک يتضح له خطأ ما ذهب إليه و كذب ما ادعاه.

1- (1) ميزان الاعتدال 1:125.

و إذا أردنا أن نولی وجه البحث شطر المتعصبين للمذاهب الأربعة بصورة خاصة فإنا نجد هناک ما يبعث علی الاستغراب-بل الألم الذی يحز فی النفوس-مما أدت إليه سوء الحال خضوعا للعصبية و انقيادا للعاطفة العمياء حتی(تمسکوا بأقوال أئمتهم تمسکا جعلهم يقدمونها علی کتاب اللّه و سنة رسوله) (1).

و أصبحوا(إذا قيل لهم:قال رسول اللّه صلّی اللّه عليه و آله و سلّم يقولون قال(فلان) (2)أی رئيس المذهب و کانوا يأنفون أن تنسب إلی أحد من العلماء فضيلة دون إمامهم (3).

و يقول السيد محمد صديق حسن-حول التمسک بآراء المتأخرين من الفقهاء-:

و قد ابتلی بهذه البلية من متأخری المقلدة للمذاهب الأربعة المشهورة فابرزوا من التفريعات و التخريجات ما لا تظله السماء،و لا تقله الأرض،و منذ حدثت هذه البدع رفعت من السنة غالبها،حتی أن الجاهل من هؤلاء يزعم أن کل مسألة فی کل کتاب فقهی من المذهب الحنفی مثلا و الشافعی مثلا هی فی أم الکتاب.

و يتحرج عن العمل بما ثبت من القرآن و الحديث صراحة و نصا،و ظاهرا و لا يتحرج عن العمل بما قاله إمامه.

و منهم من يؤول الحديث إلی مؤدی المذهب،و لا يصرف المذهب إلی مدلول الحديث (4).

و يقول أيضا:و اتخذوا مقالات الأئمة الکرام ديانة لهم،و منهاجا ينهجون إليه، و شرعة يسلکونها.

إذا وقفوا علی آية محکمة أو سنة قائمة،أو فريضة عادلة تخالف مذهبهم صاروا يؤولونها علی غير تأويلها،و يصرفونها عن ظاهرها إلی ما تقرر عندهم من المذاهب و المشارب،و طفقوا يطعنون علی من عمل بفحواها الظاهر،و مبناها الباهر.

مع أن کتاب اللّه سابق علی وجود إمامهم و مقالاته،و سنة رسوله سابقة علی هذه المجتهدات (5).

1- (1) انظر همم ذوی الأبصار 51.

2- (2) توالی التأسيس لابن حجر 76.

3- (3) الاعتصام للشاطبی 3:259.

4- (4) انظر الدين الخالص 3:245.

5- (5) المصدر السابق 3:263.

>ملاحظة:< إن أهم ما نلاحظه فی منهج الأستاذ المؤلف تنكّره لفضائل أهل البيت عليهم السّلام، لأنه يرى أن كل آية جاءت فی حقهم هی موضوعة،و هو بذلک يتأسی برجال قبله أساءوا إلی أنفسهم و فسدت دنياهم و ضاعت جهودهم و انعكست عليهم كأنما كانوا يسعون إلی إحياء ذكر أهل البيت و إفشاء محبتهم بين الناس كلما ازدادوا نصبا لهم و افتراء عليهم.

و عند كلامه حول تفسير الطبرسی يقول فی ص 137 ج 2:

هذا و لا يفوتنا أن نقول إن الطبرسی رحمه اللّه لم يكن صادقا فی وصفه لكتابه هذا بأنه محجة للمحدث،ذلک لأنا تتبعناه فوجدناه غير موفق فيما يروی من الأحاديث فی تفسيره،فقد أكثر من ذكر الموضوعات خصوصا ما وضعه الشيعة و نسبوه إلی النبی صلّی اللّه عليه و آله و سلّم أو إلی أهل البيت،مما يشهد لمعتقداتهم و يدل علی تشيعهم.

إلی أن يقول:فمثلا عند تفسيره لقوله تعالی: إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرٌ وَ لِكُلِّ قَوْمٍ هادٍ نجد أنه يذكر من الروايات ما هو موضوع علی ألسنة الشيعة ثم يمر عليها بدون تعقيب منه، مما يدل علی أنه يصدقها و يقول بها،فهو بعد أن ذكر أقوالا أربعة فی معنی هذه الآية نقل عن ابن عباس أنه قال:لما نزلت الآية قال رسول اللّه صلّی اللّه عليه و آله و سلّم:أنا المنذر و علی الهادی من بعدی؛ يا علی،بک يهتدی المهتدون.

و نقل بسنده إلی أبی بردة الأسلمی أنه قال:دعا رسول اللّه صلّی اللّه عليه و آله و سلّم بالطهور و عنده علی فأخذ رسول اللّه صلّی اللّه عليه و آله و سلّم بيد علی بعد ما تطهر فألزمها بصدره ثم قال صلّی اللّه عليه و آله و سلّم:إنما أنت منذر و لكل قوم هاد..

و مثلا عند تفسيره لقوله تعالی: قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِی الْقُرْبی نجده يذكر أقوالا ثلاثة...إلی أن يقول:و هنا يسوق(أی الطبرسی)الروايات عن أهل البيت و غيرهم ما يصرح بأن الذين أمر اللّه بمودتهم علی و فاطمة و ولداهما...الخ.

و فی حديثه عن تفسير فتح القدير للشوكانی يؤاخذه فی نقله روايات تدل علی فضل أهل البيت عليهم السّلام و أنها موضوعة فيقول:

غير أنی آخذ عليه-كرجل من أهل الحديث-أنه يذكر كثيرا من الروايات الموضوعة أو الضعيفة،و يمر عليها بدون أن ينبه عليها.

فمثلا نجده عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية:(55)من سورة المائدة: إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَ رَسُولُهُ... الآية.و قوله فى الآية:(67)منها: يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْکَ مِنْ رَبِّکَ... الآية يذكر من الروايات ما هو موضوع على ألسن الشيعة،و لا ينبه على أنها موضوعة...الخ.

>و نحن نقول:< إن ما ذكره الأستاذ فى هذا المورد من المؤاخذات هو غير صحيح،لأن هذه الروايات لم تكن واردة فى تفسير الشيعة فقط أو من تخريجهم فحسب،حتى توصف بأنها موضوعة كما يدعى المؤلف مغالطة منه و نصبا.

فقد وردت فى تفاسير إخواننا أهل السنة و خرجها العلماء الذين هم أعلم بصحة الروايات من الأستاذ و أعرف بالرجال منه و توضيحا للقارئ نقتطف فيما يلى ما رواه بعض المفسرين من غير الشيعة فى هذا الموضوع.

أخرج ابن جرير و ابن مردويه و أبو نعيم فى المعرفة،و الديلمى و ابن عساكر و ابن النجار،قال:لما نزلت: إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرٌ وَ لِكُلِّ قَوْمٍ هادٍ وضع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يده على صدره فقال أنا المنذر و أومأ بيده إلى منكب على رضى اللّه عنه،فقال:أنت الهادى،يا على بک يهتدى المهتدون من بعدى.

و أخرج ابن مردويه عن أبى برزة الأسلمى رضى اللّه عنه سمعت رسول اللّه يقول:إنما أنت منذر و وضع يده على صدر نفسه،ثم وضعها على صدر على و يقول:لكل قوم هاد.

و أخرج ابن مردويه و الضياء فى المختارة عن ابن عباس رضى اللّه عنهما فى الآية قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم المنذر،و الهادى على بن أبى طالب رضى اللّه عنه.

و أخرج عبد اللّه بن أحمد فى زوائد المسند و ابن أبى حاتم و الطبرانى فى الأوسط و الحاكم و صححه و ابن مردويه و ابن عساكر عن على بن أبى طالب رضى اللّه عنه فى قوله:إنما أنت منذر و لكل قوم هاد.قال:قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم المنذر، و الهادى رجل من بنى هاشم يعنى نفسه (1).

1- (1) انظر الدر المنثور 4:45. [1]

و روى ابن كثير فى تفسيره عن ابن أبى حاتم بسند عن على عليه السّلام وَ لِكُلِّ قَوْمٍ هادٍ قال عليه السّلام:الهاد رجل من بنى هاشم،قال الجنيد:هو على بن أبى طالب.

قال ابن أبى حاتم:و روى عن ابن عباس فى إحدى الروايات عنه و عن أبى جعفر محمد بن على نحو ذلک (1)أى أن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هو المنذر و على الهادى.

و قال الفخر الرازى-فيما نقله عن المفسرين-:القول الثالث المنذر النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الهادى على.

قال ابن عباس رضى اللّه عنهما:وضع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يده على صدره فقال:

أنا المنذر،ثم أومأ إلى منكب على رضى اللّه عنه و قال:(أنت الهادى يا على بک يهتدى المهتدون) (2).

و لا نطيل بذكر الشواهد على عدم صحة ما يقوله المؤلف فنخرج عن الغرض و نكتفى بهذا النزر القليل حول ما ورد فى هذه الآية و قد ذكرها أكثر المفسرين و أوردوا الروايات مما يدل على شهرة ذلک.

أما ما يتعلق بالآية الثانية و هى:

>آية المودة فى القربى:< لم يختلف المفسرون فى أن هذه الآية نزلت فى قرابة النبى و مودتهم و إنما الخلاف بينهم فى المقصود منهم.

قال علاء الدين المعروف بالخازن:و اختلفوا فى قرابته صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فقيل:على و فاطمة و الحسن و الحسين رضى اللّه عنهم.

و قيل:من تحرم عليهم الصدقة من أقاربه و هم بنو هاشم و بنو المطلب (3).

و قال أبو محمد الحسين الفراء:و اختلفوا فى قرابته فاطمة الزهراء و على

1- (1) تفسير ابن كثير 2:502. [1]

2- (2) تفسير الفخر الرازى 19:14. [2]

3- (3) تفسير الخازن 6:102. [3]

و ابناهما و فيهم نزل: إِنَّما يُرِيدُ اللّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً.

و قيل هم الذين تحرم عليهم الصدقة من أقاربه و يقسم فيهم الخمس (1).

و قد أخرج الحفاظ عن ابن عباس قال:لما نزلت هذه الآية قيل يا رسول اللّه من قرابتک هؤلاء الذين وجبت علينا مودتهم؟فقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:على و فاطمة و ابناهما.

أخرجه أحمد فى المناقب و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى و الواحدى و الثعالبى و أبو نعيم و البغوى و غيرهم.

و رواه السيوطى عن ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى و ابن مردويه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس (2).

و رواه ابن حجر عن أحمد و الحاكم و الطبرانى عن ابن عباس (3)ثم ذكر أبيات ابن العربى و هى:

رأيت ولائى آل طه فريضة على رغم أهل البعد يورثنى القربى

فما طلب المبعوث أجرا على الهدى بتبليغه إلا المودة فى القربى

قال:و أخرج أحمد عن ابن عباس فى قوله تعالى: وَ مَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً قال هى المودة لآل محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

روى النيسابورى فى تفسيره عن سعيد بن جبير لما نزلت هذه الآية قالوا يا رسول اللّه:من هؤلاء الذين وجبت علينا مودتهم لقرابتک فقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:على و فاطمة و ابناهما.

قال النيسابورى:إن هذا فخر عظيم و شرف تام،و يؤيده ما روى أن عليا رضى اللّه عنه:شكا إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حسد الناس فيه.

فقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:أ ما ترضى أن تكون رابع أربعة أول من يدخل الجنة أنا و أنت و الحسن و الحسين و أزواجنا عن أيماننا و شمائلنا.

1- (1) انظر تفسير معالم التنزيل 6:101 [1] بهامش تفسير الخازن.

2- (2) انظر الدر المنثور 6:7. [2]

3- (3) انظر الصواعق المحرقة 101. [3]

و عنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حرمت الجنة على من ظلم أهل بيتى،و آذانى فى عترتى،و من اصطنع صنعة إلى أحد من ولد عبد المطلب و لم يجازه عليها فأنا أجازيه عليها.

و كان يقول:فاطمة بضعة منى يؤذينى ما يؤذيها،و ثبت بالنقل المتواتر أنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان يحب الحسن و الحسين و إذا كان كذلک وجب علينا محبتهم لقوله تعالى:

فَاتَّبِعُوهُ و كفى شرفا لآل رسول اللّه و فخرا ختم التشهد بذكرهم و الصلاة عليهم (1).

هذا ما يقوله النيسابورى نظام الدين الحسن بن محمد فى تفسيره لهذه الآية و هو باعتراف المؤلف ليس من تفاسير الشيعة و لا شىء يدل على تشيعه فيه.

و أخرج ابن جرير فى تفسيره بسنده عن أبى الديلم قال:لما جىء بعلى ابن الحسين عليه السّلام فأقيم على درج دمشق قام رجل من أهل الشام فقال:الحمد للّه الذى قتلكم و استأصلكم و قطع قرنى الفتنة.

فقال له على بن الحسين رضى اللّه عنه:أقرأت القرآن،قال نعم.قال:

أقرأت؟قال قرأت...

قال:قرأت،قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة فى القربى؟ قال:و إنكم لأنتم هم؟!!.قال نعم (2).

و أخرج الحافظ الكنجى فى الكفاية:

عن جابر بن عبد اللّه:جاء أعرابى إلى النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و قال:يا محمد أعرض على الإسلام.

فقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:تشهد أن لا إله إلا اللّه وحده لا شريک له و أن محمدا عبده و رسوله.

قال:تسألنى عليه أجرا؟قال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:لا إلا المودة فى القربى.

قال:قرابتى أو قرابتک؟ قال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:قرابتى.قال:هات أبايعک فعلى من لا يحب قرابتک لعنة اللّه.

فقال النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:آمين (3)

1- (1) انظر تفسير غرائب القرآن ج 25 ص 31 [1] بهامش تفسير الطبرى ط 1 الميمنية بمصر.

2- (2) تفسير الطبرى 14:25. [2]

3- (3) كفاية الطالب. [3]

و قال الزمخشری فی تفسیره:و القربی کالزلفی مصدر بمعنی القرابة،و المراد فی أهل القربی:روی أنها لما نزلت قیل:یا رسول اللّه من قرابتک هؤلاء الذین وجبت علینا مودتهم؟ قال صلّی اللّه علیه و آله و سلّم:علی و فاطمة و ابناهما.

و یدل علیه ما روی عن علی علیه السّلام.شکوت إلی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم حسد الناس لی.

فقال صلّی اللّه علیه و آله و سلّم:أ ما ترضی أن تکون رابع أربعة أول من یدخل الجنة-أنا و أنت و الحسن و الحسین.و أزواجنا عن أیماننا و شمائلنا،و ذریتنا خلف أزواجنا.

و روی أن الأنصار قالوا:فعلنا و فعلنا،کأنهم افتخروا،فقال عباس و ابن عباس:لنا الفضل علیکم،فبلغ ذلک رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فأتاهم فی مجالسهم.

فقال:یا معشر الأنصار أ لم تکونوا أذلة فأعزکم اللّه بی؟ قالوا:بلی یا رسول اللّه.

قال صلّی اللّه علیه و آله و سلّم:أ لم تکونوا ضلالا فهداکم اللّه بی؟قالوا:بلی یا رسول اللّه.

قال صلّی اللّه علیه و آله و سلّم:تقولون:أ لم یخرجک قومک فآویناک؟!أولم یکذبوک فصدقناک؟أو لم یخذلوک فنصرناک؟فما زال یقول حتی جثوا علی الرکب،و قالوا:أموالنا و ما فی أیدینا للّه و لرسوله.فنزلت هذه الآیة (1)و هی: قُلْ لا أَسْئَلُکُمْ عَلَیْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِی الْقُرْبی .

و قال الفخر الرازی:-فی تفسیر هذه الآیة-المسألة الثالثة نقل صاحب الکشاف عن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنه قال:

من مات علی حب آل محمد مات شهیدا،ألا و من مات علی حب آل محمد مات مغفورا له،ألا و من مات علی حب آل محمد مات تائبا،ألا و من مات علی حب آل محمد مات مؤمنا مستکمل الإیمان،ألا و من مات علی حب آل محمد بشره ملک

1- (1) الکشاف 2:296 ط بولاق. [1]

الموت بالجنة ثم منكر و نكير،ألا و من مات على حب آل محمد يزف إلى الجنة كما تزف العروس،ألا و من مات على حب آل محمد فتح اللّه له فى قبره بابين إلى الجنـة، ألا و من مات على حب آل محمـد جعل اللّه قبره مزار ملائكـة الرحمة،ألا و من مات على حب آل محمد مات على السنة و الجماعة.

ألا و من مات على بغض آل محمد مات كافرا،ألا و من مات على بغض آل محمد لا يشم رائحة الجنة.

قال الفخر الرازى:هذا هو الذى رواه صاحب الكشاف و أنا أقول:آل محمد هم الذين يؤول أمرهم إليه،فكل من كان أمرهم إليه أشد و أكمل كانوا هم الآل.

و لا شک أن فاطمة و عليا و الحسن و الحسين كان التعلق بينهم و بين رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أشد التعلقات،و هذا كالمعلوم بالنقل المتواتر فوجب أن يكونوا هم الآل.

و أيضا اختلف الناس فى الآل فقيل:هم الأقارب و قيل هم أمته فإن حملناه على القرابـة فهم الآل و إن حملناه على الأمـة الذين قبلوا دعوته فهم أيضا آل فثبت على جميع التقديرات هم الآل أى على و فاطمة و الحسن و الحسين عليهم السّلام.

و أما غيرهم فهل يدخلون تحت لفظ الآل؟فمختلف فيه.

و روى صاحب الكشاف أنه لما نزلت هذه الآية قيل:يا رسول اللّه من قرابتک هؤلاء الذين وجبت علينا مودتهم؟ فقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:على و فاطمة و ابناهما.

فثبت أن هؤلاء الأربعـة أقارب النبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم و إذا ثبت هـذا وجب أن يكونوا مخصوصـين بمزيـد التعظيم،و يدل عليه وجوه:

الأول:قوله تعالى: إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى و وجه الاستدلال به ما سبق.

الثانى:لا شک أن النبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم كان يحب فاطمـة عليها السّلام قال صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم:«فاطمة بضـعة منى يؤذينى مـا يؤذيهـا»،و ثبت بالنقل المتواتر عن محمـد صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم أنه كان يحب عليا و الحسن و الحسـين و إذا ثبت ذلک وجب على كل الأمة مثله(حب على و فاطمة و الحسن و الحسين)لقوله تعالى: وَ اتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ و لقوله تعالى:

فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ و لقوله تعالى: قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ ،و لقوله سبحانه: لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ .

الثالث:أن الدعاء للآل منصب عظيم،و لذلک جعل هذا الدعاء خاتمة التشهد فی الصلاة و هو قوله:اللهم صل علی محمد و علی آل محمد و ارحم محمدا و آل محمد.

و هذا التعظيم لم يوجد فی حق غير الآل فكل ذلک يدل علی أن حب آل محمد صلّی اللّه عليه و آله و سلّم واجب و قال الشافعی:

يا راكبا قف بالمحصب من منی و اهتف بساكن خيفها و الناهض

سحرا إذا فاض الحجيج إلی منی فيضا كما نظم الفرات الفائض

إن كان رفضا حب آل محمد فليشهد الثقلان أنی رافضی (1)

هذا ما ذكره الفخر الرازی فی تفسيره و هذا ما استدل به علی أن لفظ الآل و القربی هو منحصر فی علی و فاطمة و الحسن و الحسين عليهم السّلام و قد وردت فی ذلک روايات كثيرة عن صاحب الرسالة الأعظم صلّی اللّه عليه و آله و سلّم.

قال السيد صديق بن حسن القنوجی البخاری فی تفسيره لهذه الآية:و عن ابن عباس قال:قال رسول اللّه صلّی اللّه عليه و آله و سلّم فی هذه الآية:تحفظونی فی أهل بيتی و تودّوهم بی، أخرجه الديلمی و أبو نعيم (2).

و عنه-أی عن ابن عباس-قال:لما نزلت هذه الآية قالوا:يا رسول اللّه،من قرابتک هؤلاء الذين وجبت علينا مودتهم؟ قال صلّی اللّه عليه و آله و سلّم:علی و فاطمة و ولداهما.أخرجه ابن المنذر،و ابن أبی حاتم، و الطبرانی،و ابن مردويه (3).

و رواه ابن حيان فی تفسيره الكبير عن ابن عباس بلفظ:من قرابتک الذين أمرنا

1- (1) انظر التفسير الكبير للفخر الرازی 165:27-166. [1]

2- (2) تفسير فتح البيان [2]المقاصد القرآن للسيد صديق بن حسن 8:270.

3- (3) نفس المصدر. [3]

بمودتهم؟فقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:على و فاطمة و ابناهما (1)و رواه أيضا الشيخ إسماعيل حقى البروشوى المتوفى سنة 1137 فى تفسيره عن ابن عباس بهذا اللفظ و قال و يدل عليه ما روى عن على عليه السّلام أنه قال شكوت إلى رسول اللّه حسد الناس لى فقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:أ ما ترضى أن تكون رابع أربعة أول من يدخل الجنة أنا و أنت و الحسن و الحسين.الحديث (2).

ثم ذكر بعض الأحاديث الواردة عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و منها يقول قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:

من مات على حب آل محمد مات شهيدا ألا و من مات على حب آل محمد مات مغفورا له ألا و من مات على حب آل محمد مات تائبا...الخ كما تقدم ذكره عن الفخر الرازى.

و عقبه بقوله:و آل محمد هم الذين يؤول أمرهم إليه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فكل من كان مآل أمرهم إليه أكمل و أشد كانوا هم،و لا شك أن فاطمة و عليا و الحسن و الحسين كان التعلق بينهم و بين رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أشد التعلقات بالنقل المتواتر فوجب أن يكونوا هم الآل (3).

و لو أردنا أن نمضى فى هذا الموضوع من تتبع أقوال المفسرين و تخريج الحفاظ لطال بنا المدى و اتسع الموضوع و لكنا نكتفى بهذا القدر القليل من أقوال هؤلاء العلماء.

و قول المؤلف بأن ما أورده الطبرسى و غيره من مفسرى الشيعة فى هذه الآية، أنها نزلت فى على و فاطمة و الحسن و الحسين من الأخبار الموضوعة أمر يدعو إلى الاستغراب.

لذا لا نعجب منه إذ لم يأت بدليل يثبت ما يدّعيه،و إنما كل ما يحاوله أنه وارد من طريق الشيعة فحسب،و ما أوردناه هنا يكفى أن يكون مقنعا له،إن كان هدفه الحقيقة،و هى هدف كل باحث منصف.

1- (1) انظر تفسير البحر المحيط 7:516. [1]

2- (2) انظر تفسير روح البيان 8:311. [2]

3- (3) روح البيان 8 ص 312. [3]

و لا أدری لما ذا یستنکر الأستاذ ورود أمثال هذه الآیة و غیرها فی أهل البیت؟! و قد وردت عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی لزوم حبهم أحادیث هی أکثر من أن تحصی و قد خرجها حفاظ الحدیث من علماء السنة. منها:

أخرج الترمذی عن علی علیه السّلام أن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أخذ بید حسن و حسین فقال من أحبنی و أحب هذین و أباهما و أمهما کان معی فی درجتی یوم القیامة (1).

و أخرج من طریق أسامة بن زید قال: طرقت باب النبی ذات لیلة فی بعض الحاجة، فخرج النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و هو مشتمل علی شیء لا أدری ما هو، فلما فرغت قلت:

ما هذا الذی أنت مشتمل علیه؟ قال: فکشفه فإذا حسن و حسین علی ورکیه.

فقال صلّی اللّه علیه و آله و سلّم هذان ابنای، و ابنا ابنتی، اللهم إنی أحبهما و أحب من یحبهما (2) و أخرج من طریق أبی هریرة مثله.

و روی ابن کثیر أن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بینما هو یخطب إذ رأی الحسن و الحسین علیهم السّلام فنزل إلیهما، فاحتضنهما، و أخذهما معه إلی المنبر و قال صلّی اللّه علیه و آله و سلّم صدق اللّه أَنَّما أَمْوالُکُمْ وَ أَوْلادُکُمْ فِتْنَةٌ. إنی رأیت هذین یمشیان و یعثران فلم أملک أن نزلت إلیهما. ثم قال صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: إنکم لمن روح اللّه و إنکم لتبجلون و تحببون (3).

و روی ابن کثیر عن أحمد بن حنبل بطریق عن أبی هریرة قال: نظر رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم إلی علی و حسن و حسین و فاطمة فقال صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: أنا حرب لمن حاربتم و سلم لمن سالمتم (4).

و عن أبی هریرة أیضا أن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال: «الحسن و الحسین من أحبهما فقد أحبنی و من أبغضهما فقد أبغضنی» (5).

و أخرج البخاری عن البراء بن عازب قال: رأیت النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و الحسن علی عاتقه یقول اللهم إنی أحبه فأحبه (6).

1- (1) صحیح الترمذی 2:301. [1]

2- (2) صحیح الترمذی 2:309.

3- (3) تاریخ ابن کثیر ج 8:33.

4- (4) تاریخ ابن کثیر ج 8 ص 368.

5- (5) المصدر السابق.

6- (6) البخاری 5:33 و [2] أخرجه مسلم 7:127. [3]

و أخرجه مسلم عن أبی هریرة عن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنه قال للحسن علیه السّلام:اللهم إنی أحبه فأحبه و أحب من یحبه (1).

و أخرج البخاری فی ج 5 ص 26 أن النبی قال:فاطمة بضعة منی فمن أغضبها أغضبنی.و مثله رواه فی ص 36.

إلی غیر ذلک من الأحادیث الصحیحة و الآیات الشریفة الواردة فی حقهم علی العموم کحدیث الثقلین و غیره.

و آیة التطهیر و أمثالها أو علی خصوص کل واحد منهم صلوات اللّه علیهم مما نطق به رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم إلزاما للأمة بمحبتهم و اتباعهم لأنهم أزمة الحق و أعلام الدین و ألسنة الصدق کما یقول الإمام علی علیه السّلام.

و هم کسفینة نوح من رکبها نجا و من تخلف عنها غرق و هوی و وصایا رسول اللّه فی آله کثیرة لا تحصی،و لو اتسع المقام لذکرنا شطرا منها و لکنها نظرة خاطفة و قبسة عجلان.

>آیة الولایة:< یزعم الأستاذ أن نزول آیة الولایة-فی الإمام علی عند ما تصدق بخاتمه-و هی قوله تعالی: إِنَّما وَلِیُّکُمُ اللّهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِینَ آمَنُوا الَّذِینَ یُقِیمُونَ الصَّلاةَ وَ یُؤْتُونَ الزَّکاةَ وَ هُمْ راکِعُونَ إنما کان من وضع الشیعة و أکاذیبهم،و هو إذ یطلق هذا القول و یصدر هذا الحکم و لا یحسب للمؤاخذة علیه أی حساب و هو رجل له منزلة فی مجتمعه إذ هو یتولی تدریس الحدیث و التفسیر فلا بد أن یکون له علم بکتب التفسیر أو له إلمام بما ذکره المفسرون و الحفاظ من علماء السنة حول نزول هذه الآیة.

أقول لا یعقل ذلک حسب رتبته و شهادته التی أهلته لأن یکون مدرسا فی أکبر مؤسسة إسلامیة و یربی جیلا یتولی توجیه الأمة و إرشادها.و من الغریب أن الأستاذ المؤلف فی کثیر من أبحاثه یتواری وراء ستار شفاف ینم عما وراءه فیفضح أسراره و یکشف نوایاه،کما لا تخفی عمته و زیه شیئا من حقیقته.

1- (1) صحیح مسلم 7:127.

إنه يؤاخذ المفسرين من الشيعة كرجل من أهل الحديث (1)و إذا كان كذلک كيف يجهل ما ذكره المفسرون و الحفاظ حول هذا الموضوع؟!!و لا أعتقد أنه يتجاهل و إنما ذلک أقصى جهده و غاية علمه،و إلا فانه تجاهل بقصد العناد الذى ينعكس عن روح التعصب الأعمى الذى يذهب بكل رونق للمسلم و يبطل أثر التحصيل فى الفكر.

و نحن هنا نقدم للقراء-كدليل على ما نقوله-بعضا من أولئک الرجال الذين ذكروا أن نزول هذه الآية فى الإمام على عليه السّلام ملتزمين طريقة الاختصار على البعض خشية الإطالة و اتساع الموضوع.

قال الواحدى فى أسباب النزول:إن هذه الآية نزلت فى على بن أبى طالب لأنه أعطى خاتمه سائلا و هو راكع.

و عن ابن عباس أن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم خرج إلى المسجد و الناس بين قائم و راكع فنظر سائلا فقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:هل أعطاک أحد شيئا؟ قال:نعم خاتم.

قال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:من أعطاكه؟ قال:ذاک القائم و أشار بيده إلى على عليه السّلام.

فقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:على أى حال أعطاكه؟ قال:أعطانى و هو راكع فكبر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ثم قرأ:و من يتولى اللّه و رسوله و الذين آمنوا فإن حزب اللّه هم المفلحون.ا ه (2).

و قال السيوطى فى اللباب:و له شاهد قال عبد الرزاق حدثنا عبد الوهاب عن مجاهد عن ابن عباس فى قوله تعالى: إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا الآية نزلت فى على بن أبى طالب.

و أخرج ابن جرير عن مجاهد و ابن أبى حاتم عن سلمة بن كهيل مثله (3).

1- (1) التفسير و المفسرون 2:288. [1]

2- (2) أسباب النزول للواحدى-148. [2]

3- (3) لباب النقول فى أسباب النزول للسيوطى-9.

و ذکر محب الدین أبو العباس الطبری أن هذه الآیة نزلت فی علی و هی من بعض الآی الذی نزل فی حقه (1).

أخرج ابن جریر (2)بطریق عن مجاهد أنه قال:فی قوله تعالی: إِنَّما وَلِیُّکُمُ اللّهُ ... الآیة:إنها نزلت فی علی بن أبی طالب.

و أخرج عن عبد الملک أنه قال:سألت أبا جعفر عن قول اللّه: إِنَّما وَلِیُّکُمُ اللّهُ وَ رَسُولُهُ... الآیة.

قال:نزلت فی علی بن أبی طالب تصدق و هو راکع.و أخرج مثله عن هناد عن عبد الملک.

و أخرج بطریق عن عتبة بن حکیم فی هذه الآیة: إِنَّما وَلِیُّکُمُ اللّهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِینَ آمَنُوا قال:هو علی بن أبی طالب.

و قال نظام الدین الحسن بن محمد النیسابوری فی تفسیره:روی أن عبد اللّه بن سلام قال:لما نزلت هذه الآیة قلت:یا رسول اللّه أنا رأیت علیا تصدق بخاتمه علی محتاج و هو راکع فنحن نتولاه.

و روی عن أبی ذر أنه قال:صلیت مع رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یوما صلاة الظهر فسأل سائل فی المسجد فلم یعطه أحد فرفع یده إلی السماء و قال:اللهم اشهد أنی سألت فی مسجد الرسول فما أعطانی أحد شیئا.و علی علیه السّلام کان راکعا فأومأ إلیه بخنصره الیمنی و کان فیها خاتم فأقبل السائل حتی أخذ الخاتم ثم قرأ النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فقال اللهم إن أخی موسی سألک فقال:رب اشرح لی صدری:إلی قوله و أشرکه فی أمری.فأنزلت قرآنا ناطقا:سنشد عضدک بأخیک و نجعل لکما سلطانا،اللهم و أنا محمد نبیک و صفیک فاشرح لی صدری و یسر لی أمری و اجعل لی وزیرا من أهلی علیا أشدد به أزری.

1- (1) انظر ذخائر العقبی-88. [1]

2- (2) تفسیر الطبری ج 6 ص 165. [2]

قال أبو ذر:ما أتم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هذه الكلمة حتى نزل جبرائيل فقال يا محمد اقرأ: إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللّهُ... الآية (1).

و قال الزمخشرى:إنها نزلت فى على كرم اللّه وجهه حين سأله سائل و هو راكع فى صلاته فطرح له خاتمه،كأنه كان مرجا فى خنصره فلم يتكلف لخلعه كثير عمل تفسد فيه صلاته.

ثم أورد على نفسه فقال:فإن قلت:كيف صح أن يكون لعلى رضى اللّه عنه و اللفظ لفظ جماعة؟ قلت:جىء به عن لفظ الجمع و إن كان السبب فيه رجلا واحدا ليرغب الناس فى مثل فعله،فينالوا ثوابه و لينبه على أن سجية المؤمنين يجب أن تكون على هذه الغاية من الحرص على البر و الإحسان و تفقد الفقراء حتى إن لزمهم أمر لا يقبل التأخير و هم فى الصلاة لم يؤخروه إلى الفراغ منها (2).

و قال أبو بكر الجصاص الحنفى:روى عن أبى جعفر و عتبة بن حكيم أنها نزلت فى على بن أبى طالب حين تصدق بخاتمه.

و قال-بعد ذكره لقوله تعالى: وَ يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَ هُمْ راكِعُونَ :يدل على أن صدقة التطوع تسمى زكاة لأن عليا تصدق بخاتمه تطوعا (3).

و قال السيوطى:أخرج الخطيب فى المتفق عن ابن عباس قال تصدق على بخاتمه و هو راكع فقال النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم للسائل:من أعطاك هذا الخاتم؟ قال:ذاك الراكع فأنزل اللّه تعالى: إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَ رَسُولُهُ .

و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن جرير و أبو الشيخ و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَ رَسُولُهُ... الآية قال:نزلت فى على بن أبى طالب.

و أخرج الطبرانى فى الأوسط و ابن مردويه عن عمار بن ياسر قال وقف بعلى سائل و هو راكع فى صلاة تطوع فنزع خاتمه فأعطاه السائل فأتى رسول اللّه فأعلمه ذلك فنزلت على النبى هذه الآية: إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَ رَسُولُهُ الآية.

1- (1) تفسير النيسابورى 6:145 بهامش تفسير ابن جرير.

2- (2) الكشاف 1:218. [1]

3- (3) أحكام القرآن للجصاص 2:542-543. [2]

و أخرج ابن مردويه و أبو الشيخ عن على مثله...و ذكر السيوطى عدة طرق فى أسباب نزول هذه الآية و أنها نزلت فى على عليه السّلام (1).

و قد خرج حديث نزول هذه الآية كثير من الحفاظ و المفسرين ما يربو عددهم على الستين.

كالحافظ أبى عبد الرحمن النسائى المتوفى سنة 303 فى سننه.

و الحافظ أبى القاسم الطبرانى المتوفى سنة 360 فى الأوسط.

و الفقيه ابن المغازلى الشافعى المتوفى سنة 483 من خمسة طرق.

و الحافظ أبى عبد اللّه محمد بن عمر الواقدى المتوفى سنة 207.

و غيرهم ممن ذكرناهم آنفا و ممن لم نـذكرهم اختصارا للموضوع و فى هذا القدر -بل بعضه-كفاية على رد ما يزعمه الأسـتاذ حول وضـع حديث نزول هذه الآية فى الإمام على و انها من موضوعات الشيعة و لم يكن لقوله هذا حجة و لا لحكمه برهان.

و الدعاوى إن لم تقام عليها بينات أبناؤها أدعياء

و غريب من الأستاذ هذا الجمود الفكرى الذى لا يتناسب مع ألقابه العلمية و هو مع كثرة ما دبج يراعه من مؤلفات لم يجعل لتفكيره مجالا للخروج من ربقة التعصب و قيود الاستسلام،لأن الذهبى-و لو أضفنا ميما فى أول لقبه لكان أدل-له مؤلفات أخرى.

>آية التبليغ:< و هى قوله تعالى: يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْکَ مِنْ رَبِّکَ وَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ وَ اللّهُ يَعْصِمُکَ مِنَ النّاسِ (2).

و قد صدع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بتبليغها يوم غدير خم،و أقام فى ذلک الهجير، و خطب هناک و بلغ،و قال صلّى اللّه عليه و آله و سـلّم فيما قال:(من كنت مولاه فهـذا على مولاه)،و حديث الغدير حديث شـجون فقد تنكر له بعض و حرفه آخرون و لا نسـتطيع هنا إيراد نصوصه و ذكر أسانيده.

1- (1) الدر المنثور 2:293. [1]

2- (2) سورة المائدة:67. [2]

و قد ذكر أكثر المفسرين نزول هذه الآية يوم الغدير،و أنكرها آخرون و قد تعرضنا لهذا الموضوع فى الجزء الأول،و هو أعظم من أن يدرس بمثل هذه السرعة.

و قد تكفل شيخنا العلامة الأمينى فى كتابه(الغدير)جميع ما يتعلق بهذا الموضوع و استخراج أحاديثه ببحث علمى يتركز على المنطق الصحيح و نكتفى فى الإشارة بالرجوع إليه فى هذا الموضوع (1).

و إننا-كما قلنا-لم نتعرض لرد ما أورده من المخالفات جملة جملة و فقرة فقرة.

و أود هنا أن ألفت نظر المؤلف حول التأويل للأحاديث عند الشيعة نصرة للمذهب-كما يقول و لا صحة لقوله-فهل خفى عليه أبواب التأويل التى فتحت عند غيرهم لحمل الأخبار بل الآيات القرآنية على غير مؤداها.

و للمثال نذكر ما قال النووى فى صحيح مسلم عند تخريجه لرواية سعد بن أبى وقاص فى مناقب الإمام على عليه السّلام و أن معاوية أمر سعدا أن يسب عليا فامتنع سعد فقال معاوية:ما منعك أن تسب أبا تراب؟ فقال:أما ما ذكرت ثلاثا قالهن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم له فلن أسبه،لأن تكون لى واحدة منهن أحب إلى من حمر النعم:

سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يقول له:أ ما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبى بعدى.

و سمعته يقول له يوم خيبر:(لأعطين الراية رجلا يحب اللّه و رسوله و يحبه اللّه و رسوله).فتطاولنا لها فقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:ادعو لى عليا فأتى به أرمد فبصق فى عينه،و دفع الراية إليه.

و لما نزلت هذه الآية: فَقُلْ تَعالَوْا نَدْعُ أَبْناءَنا وَ أَبْناءَكُمْ ...الآية دعا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عليا و فاطمة و حسنا و حسينا،فقال:اللهم هؤلاء أهلى (2)

1- (1) الكتاب موسوعة كبيرة يقع فى عشرين مجلدا.

2- (2) شرح صحيح مسلم للنووى 15:177.

قال النووی:قال العلماء:الأحادیث الواردة فی ظاهرها دخل علی صحابی یجب تأویلها..

ثم أخذ النووی فی التأویلات المبررة من أمر معاویة سعدا بالسب و ذکر وجوها.

و ما أوسع هـذا الباب الـذی تدخل فیه الأحادیث بصورة و تخرج بصورة أخری و کذلک الحوادث التاریخیة تصب فی غیر قالبها و تبرز فی غیر إطارها تقویة للرأی و نصرة للمذهب و ما أکثر الأمثال علی ذلک و لنترک الخوض فی مثله،و قد ترفّع الشیعة عن هذا المسلک،و امتنعوا عن نصرة التشیع بما لم یتأید دلیله و برهانه..

>و قبل الختام نقول:< إن الذین یسترعی الانتباه:هو أن المؤلف قسم التفسیر بالرأی إلی قسمین:

الأول:التفسیر بالرأی الجائز و فیه یذکر کتب التفسیر للسنة کتفسیر الرازی و البیضاوی و غیرهما من ص 288 إلی ص 362 ج 1.

الثانی:التفسیر بالرأی المذموم،أو تفسیر الفرق المبتدعة،و تبتدئ من ص 363 إلی ص 482 من الجزء الأول.

و هنا یتکلم أولا عن المعتزلـة و موقفهم من تفسـیر القرآن،و أول ما یذکر من تفاسـیرهم:تفسـیر القاضـی عبد الجبار،ثم یذکر أمالی السـید المرتضـی علم الهدی المتوفی سنة 436 و هو من کبار علماء الشـیعة الإمامیة،و علم من أعلامهم،و لکن الأسـتاذ نسـبه للاعتزال و جعل أمالیه من تفاسیر المعتزلة بدون استناد.

نعم ذهب لهذا المستشـرق جولد تسهیر فی کتابه مذاهب التفسیر الإسلامی عند ما ذکر اتحاد طریقة السید المرتضی فی التفسیر مع طریقة أبی علی الجبـائی من حیث اللغـة،و حمـل العبـارات الدالـة علی التشبیه،أو التی لاـ تلیق بمقـام الألوهیـة،علی تأویلاـت ألیق و أبعـد عن التشبیه...الخ (1).

و الأستاذ المؤلف سار علی ذلک الفرض فجزم بأن السید المرتضی معتزلی

1- (1) انظر کتاب مذاهب التفسیر الإسلامی 136:140.

و جعل تفسيره لهم تقليدا للمستشرقين و اتباعا لهم فيما يذهبون إليه فى آرائهم المخالفة للحقيقة.

ثم ذكر تفسير الكشاف للزمخشرى و ينتهى فى آخر الجزء من البحث حول المعتزلة أو الفرقة المبتدعة.

و فى أول الجزء الثانى يأتى دور الفرقة الثانية و هم الشيعة و منهم الإمامية الاثنا عشرية،و هناك يتكلم الأستاذ حسب ذوقه و إدراكه،و هو إذ يتناول البحث عنهم فإنما يرى أن طعنهم شىء مستحسن،بل من الدين ذلک كما يراه،لأنهم مبتدعة،و كل بدعة ضلالة فهم ضالون فى نظره و الإسلام محتكر له-عافاه اللّه-و من دين الذهبى أن يبرزهم فى إطار التضليل و الابتعاد عن الإسلام.

و على هذا التفكير وضوء هذه النظرة سار فى بحثه معتمدا على أباطيل المستشرقين،و خرافات المغرضين.و كلما توغلنا فى بحثه ازددنا ثقة بخطل رأيه و قصر نظره.

و من هذا و ذاک-فإنه لم ينظر إلى الحقائق بصفته أستاذا فى علوم القرآن و الحديث،بل سار فى طريق بحثه مكبلا بقيود التعصب،ينظر الأمور بمنظار قاتم، و قد ترک الحقيقة وراء ظهره،فلم يسند أقواله بدليل استقاه من تعمقه بالبحث،أو استنتجه من تتبعه فى دراسة الموضوع،و لم يقف على الأمور التى هى جديرة بالنظر موقف متأمل ليعرف الحق لأنه حق بالبرهان و يعرف الباطل لأنه باطل بالبرهان من دون تحيز و تعصب.

إن الواجب يقضى عليه أن لا يتعصب أو يتحيز،لأنه أستاذ فى جامعة إسلامية كبرى تعدّ طلابا ستقع عليهم مسئولية عظيمة،و يجب عليه أن يدلهم على طريق الاستقامة،و الحيطة فى النقد و الدعوة إلى الحق لذات الحق.

و إلى هنا ينتهى حديثنا مع الأستاذ و هنا أسدل الستار عن بقية أخطائه لأنى لم أجد وقتا يساعد على الاستمرار معه،و عسى أن تسمح الظروف بالعودة إلى مناقشته و العود أحمد و نسأل اللّه لنا و له الهداية و التوفيق و إلى اللقاء-إن شاء اللّه-أيها الأستاذ المحدث.

ص:450

أدب الشيعة:

اشارة

إذا أردنا أن تحدث عن أدب الشيعة فإن أهم سماته و أبرز ملامحه هى شدة تأثره بآداب الإسلام و ثقافته أحسن تأثر،و اتصف شعراؤهم بذهنية صقلتها التجارب فكانت أكثر ما تعنى بالأفكار العميقة،و المعانى الدقيقة،و هم يمتازون بالعواطف الثورية الهائجة،لاستنهاض الأمة من كبوتها،و إيقاظها من غفلتها.

و ضمّن شعراء الشيعة قصائدهم تلك الصور الفريدة التى تعبر عن مآسى الدهر و أفعال أعداء الرسول بأهل بيته الكرام.و لئن كانت فاجعة كربلاء و استشهاد السبط الإمام الحسين فى نهضة الإباء ضد ظلم أمية،مصدر إلهام ثر و عطاء فياض رسم صور البطولة و جسّد ألوان التضحية،فإن سير الأئمة من أهل البيت كانت هى الأخرى توحى للشعراء بألوان من الحكمة و ضروب من التبصّر مما يجعل بناء القصيدة قائما على الفكرة الهادفة،و العاطفة الهياجة و المشاعر النبيلة،و ترى الجزالة فى النظم و التفوق فى القول،و غاية ما يرجوه الشاعر أن ينشد شعره بين يدى إمامه و مرجعه من أئمة الهدى فى وقت يتهافت فيه الشعراء على أعتاب الحكام بنماذج من المديح الكاذب و التملق الدنىء و الود الزائف فتنهمر الهدايا و الجوائز من قبل الملوك و كلها من بيت مال المسلمين.

لقد كان شعراء الشيعة يأبون الانحدار إلى الكذب،و اللجوء إلى التزلف للطغاة و الظالمين طمعا فى حطام و رغبة فى دنيا.

و قد منحهم ابتعادهم عن الدولة و انتصارهم لآل البيت أسلوبا صريحا لا أثر فيه للخداع و التملق،و لا يشوهه الحرص الممقوت على الصلات و الجوائز.

و إن نظرة خاطفة على موافق أولئک الأبطال-فى مقابلة حكام عصرهم و ولاة الأمور الذين انحرفوا عن طريق الحق و ساروا بالأمة كما يريدون لا-كما يريد العدل- تعطينا صورة صادقة عن موقف البطولات التى يتصف بها العربى المخلص لأمته، و المسلم المتفانى فى عقيدته،و قد اشتهر منهم رجال كانت لهم زعامة الأدب و قد حازوا قصب السبق فى جميع الأدوار حتى قيل:و هل ترى أديبا غير شيعى؟.

و إذا أرادوا أن يبالغوا فى رقة شعر الرجل و حسن إبداعه،و مهارته فى التصوير، قالوا:يترفض فى شعره.

و لشعراء الشيعة و أدبائهم فى المجتمع العربى الأصيل مكانة هامة،فهم من أعيان تلك المدرسة،و فرسان تلك الحبلة منهم:

الفرزدق بن همام بن غالب التميمى المتوفى سنة 110.

و أبو صخر كثير-بالتصغير-بن عبد الرحمن المعروف بكثير عزة المتوفى سنة 105.

و الكميت بن زيد الأسدى صاحب الهاشميات المتوفى سنة 126.

و إسماعيل بن محمد المعروف بالسيد الحميرى توفى ببغداد سنة 179.

و دعبل بن على الخزاعى و قيل اسمه الحسن و لقبه دعبل المتوفى سنة 246.

حبيب بن أوس أبو تمام الطائى صاحب ديوان الحماسة المتوفى سنة 231.

و أبو الفضل منصور بن سلمة المتوفى فى عصر الرشيد.

و السيد الشريف أبو الحسن محمد بن الحسين الرضى المتوفى سنة 406.

و أمير الشعراء أبو فراس الحمدانى المتوفى سنة 375.و غيرهم:

كابن التعاويذى المتوفى سنة 428 و الحسين بن الحجاج المتوفى سنة 391.

و مهيار الديلمى المتوفى سنة 428 و الحسن بن هانى المتوفى سنة 196.و الوزير الصاحب بن عباد المتوفى سنة 326 و الحسن بن هانى الأندلسى المتوفى سنة 362.

و الناشىء الصغير المتوفى سنة 366 و غيرهم من شعراء و كتاب و خطباء.

و ليس الحديث هنا عن أدب الشيعة و أثره فى المجتمع كما يقتضيه العنوان.

و يتبادر إلى ذهن القارئ،و لكننا تحت هذا العنوان نريد أن نشير إلى كتاب صدر بهذا الاسم و هو:(أدب الشيعة إلى نهاية القرن الثانى عشر الهجرى)طبع فى القاهرة سنة 1376 ه 1956 م.

و مؤلف هذا الكتاب هو الأستاذ عبد الحسيب طه أحميده المدرس فى كلية الأدب العربى بمصر.

و الكتاب لم يكن موضوعه أدب الشيعة فحسب،و لكنه يتعرض إلى تاريخ التشيع و تطوره،و نشأته،و عقائد الشيعة و فرقهم،فهو كتاب تاريخ أكثر منه كتاب أدب.

و الشـيء الذى يسترعى الانتباه هو:أن المؤلف قد اعتمد على آراء المستشـرقين فى أبحاثه،و اقتبس عبارات كتّاب رددوها من قديم فلم يأت بشيء جديد فى بداية بحثه،و جزم بأشياء كان الأجدر به إما تركها،أو مناقشتها حسب ذوقه الأدبى أو التاريخى.

و لا أقصد هنا أن أنقد الكتاب أو أطريه،فهو لا يخلو من دواعى النقد أو الإطراء فى آن واحد،و عسى أن تتاح لنا فرصة نستوفى الكلام حوله.

إن قصدى-و اللّه من وراء القصد-تنبيه الأسـتاذ على أشياء تستوجب التنبيه عسى أن يتدارک ذلک فيما بعد،ليؤدى بذلک خدمة للحق الذى ينشـده كل مسـلم، و إظهارا للحقيقة التى هى هدف كل باحث منصف،فقد انحجبت أنوارها عن أعين عشاقها بسـحب الدجل و التمويه و الافتراء،و القول بالباطل،فإننا فى عصـر كئود يجب أن نهـدف إلى تحقيق مبادئ الإسـلام،لنجلو عن الحقيقة تلک الغشاوة التى حجبتها عن بعض الأنظار مدة من الزمن،و نتبع الحق و الحق أحق أن يتبع.

و كيف كان فإنى أبـدى بعض ملاحظاتى على ما ورد فى هـذا الكتاب و كلى أمل أن يتسع صـدر الأسـتاذ لما أبـديه،و لا يحمل ذلک على تحامل أو حقد،فلست بالناقد الحاقد.

و أهم شـيء أحاول تحقيقه فى هذا البحث هو:رفع سوء الفهم لقضية ابن سبأ، و اتخاذها عند كثير من الكتّاب كأساس تبنى عليها حقائق،و يستنتج منها نتائج يحسبونها صحيحة تقع فى أدلة الاحتجاج، مع أن كبرى ذلک القياس و صغراه غير صحيحتين فالنتيجة باطلة.

و قد آن الأوان لتقرير هذه الحقيقة التى يزداد الانتباه إلى وجودها بإدراک بواعثها و الإصـغاء إلى القرائن و الأدلة على اختلاق سيف بن عمر الكذاب لقضية ابن سبأ، و انها لـم يكن لها ذرة من الواقع قبل وضعها من قبله.

و سـنتناول هنا قضـية ابن سبأ-و إن أشرنا إليها من قبل و لكن الأستاذ الأديب قد اعتمد عليها أكثر من غيره،و جعلها دليلا يسير عليه ليصل إلى الغاية.و ما هى إلا كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء.

مقدمة الكتاب:

و لنقتطف هنا من مقدمة الكتاب بعض ما جاء فيها مما يدلنا بوضوح على منهجه فى بحثه،و خطته التى سار عليها بعنوان أنه أديب:

يقول:يرجع ألفى إلى هذا النوع من الأدب السياسى إلى السنة الثانية من سنى دراستى فى كلية اللغة العربية،حينما كنت مكلفا فى دراسة الأدب الأموى،و الوقوف على قديمه و جديده،فإذا أنا أمام ثروة مشرقة من آدابنا الحزبية،تظاهرت على إنضاجها عقول صقلها الإسلام،و هذبها كتّابه،و أقامتها حياة اجتماعية و سياسية...

و يقول:ثم كانت دعوة كريمة،ناشدت أبناء الأزهر و علماءه أن يدرسوا الأحزاب الإسلامية،و يقفوا على طريق الجدل و الحجاج فيها،و ناشدتهم-بوجه خاص-أن تكون دراستهم لنشدان الحق،و وجه العلم بعيدة عن التعصب و الهوى...

أما لما ذا اخترت أدب الشيعة موضعا لرسالتى؛فلأنه-أولا-أدب يمجد آل الرسول-صلّى اللّه عليه و سلم-و ينتصر لحقهم،و يبكى مصارع قتلاهم و لأنه-ثانيا- أدب يصور العاطفة المتأججة،و الحب الصادق،و الأدب إذ تظاهرت على إبرازه:

عاطفة و إحساس،و عقيدة...كان فى عرف المتأدبين جديرا بالبحث و حقيقا بالحياة...

و بعد ذلک يبين منهجه فى البحث ثم يقول:و خصصت فصلا ثالثا للعقائد الشيعية و أثرها فى الأدب.

و هنا غلبتنى أزهريتى فوقفت قليلا عند جمهرة من هذه العقائد أناقشها و استدل لها،و عليها،و هنا كذلک و ضحت الفكرة الشيعية و استبانت أطوارها فأوجزتها فى كلمات قدمت بها رسالتى.

أما قسم الأدب،فله منهج فى البحث،و سبيل جديد عمدت إلى أدب الشيعة فنثرته بين يدى متوخيا عصوره،مستقصيا مناهجه و أصوله،فإذا أنا أمام أدب يتدرج فى حجاجه و مناحيه،تدرج الفكرة الشيعية فى سذاجتها و عمقها،فهو عربى صريح أيام أن كانت الفكرة الشيعية عربية صريحة،و هو عنيف،ثائر،فى الوقت الذى

تغلغلت فيه الفكرة الشيعية،و أبزرتها الفواجع العلوية فى صور من العقائد،فاستقل لتبيان ذلک الفصل الرابع...الخ.

هذا بعض ما اقتطفناه من مقدمة الكتاب لنستنتج منه بعض ما لا بد من إيضاحه قبل الدخول فى صميم الموضوع،و هنا أمور يدركها القراء:

1-إن الأدب الأموى تظاهرت على إنضاجه عقول صقلها الإسلام،و هذبها كتّابه.

2-و إلى جانب الأدب الأموى الأدب الشيعى،أو بعبارة أصح الأدب العلوى فهو فى نظر الأستاذ لم يكتسب تلک الدرجة،و لم تصبغه تلک الصبغة الإسلامية من حيث الصقل و الإنضاج-كما اتصف الأدب الأموى-فالأدب الشيعى أدب عاطفة متأججة،و حب صادق يتدرج تدرج الفكرة الشيعية فى سذاجتها...الخ.

3-إن الأستاذ فى دراسته هذه ينشد الحق لذات الحق و وجه العلم و هذا هو أمنية كل مسلم،و هدف كل منصف،و سنرى فيما بعد هل تحقق عند المؤلف ما كان ينشده؟أم أن ذلک لا يعدو إلا القول دون العمل؟أو أنه حبر على ورق؟.

تعقيب:

و لا أدرى ما هو قصد الأستاذ من قوله:إن الأدب الأموى الذى تظاهرت على إنضاجه عقول صقلها الإسلام و هذبها كتاب اللّه؟ أ كان يقصد أدب الخطباء الذين كانوا ينالون من أهل البيت و يعلنون سبهم؟أ هذه هى العقول التى صقلها الإسلام،و هذبها كتاب اللّه؟!!!!أم يقصد أدب الشعراء الذين يتقربون للأمويين فى هجاء العلويين و أنصارهم؟أم العقول التى صقلها الإسلام و هذبها كتاب اللّه عقل حكيم بن عباس الأعور الكلبى الذى يفتخر بقتل زيد فيقول:

صلبنا لكم زيدا على جذع نخلة و لم نر مهديا على الجذع يصلب

و قستم بعثمان عليا سفاهة و عثمان خير من على و أطيب؟!

قال ابن عساكر:فلما بلغ شعره إلى أبى عبد اللّه جعفر بن محمد الصادق عليه السّلام رفع يديه إلى السماء و هما تنتفضان رعدة فقال عليه السّلام:اللهم إن كان كاذبا فسلط عليه كلبا من كلابک،فخرج حكيم من الكوفة فأدلج فافترسه الأسد

فأكله،و أتى البشير أبا عبد اللّه و هو فى مسجد النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فخر للّه ساجدا،و قال:

الحمد للّه الذى أصدقنا وعده (1).

أ هـذا الأدب الـذى أنضـجته عقول صـقلها الإسـلام،و هذبها كتاب اللّه؟!و يكون شـعر الكميت الشاعر الشـيعى فى رثاء زيد بن على عليه السّلام شعرا عاطفيا محضا فمن قوله:

يعز على أحمـد بالـذى أصـاب ابنه أمس من يوسف -يقصـد يوسف بن عمر الثقفى عامـل هشام-و لا نضـرب الأمثال،إذ ليس من قصـدنا التوسع فى المقارنـة و ضـرب الأمثلة فى هذا الموضوع فهو واسع لا يحاط به بقليل من البيان.و ما ضـمته كتب الأدب و الدواوين يعد ثروة أدبية متميزة.

و أصارح الأستاذ بأن ما ذهب إليه فى هذا الموضوع خطأ و إن حصلت عنده قناعة شخصية فهى تزول بقليل من التأمل.

أما قوله:إن الأدب الشيعى يصور العاطفة المتأججة و الحب الصادق و إنه أدب يمجد آل الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

فهذا هو الواقع فإن الشيعة قد أحبوا أهل البيت حبا صادقا،و اعتقدوا بهم اعتقادا لم يخرجوا به عن حدود ما رسمه الإسلام.

فهم أهـل بيت الرسـول الـذين أمر اللّه بمودتهم،و الرسول صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم أوحى بـإكرامهم، و حفظهم،و قـد قرنهم بالكتـاب العزيز،و هم حبل اللّه الذى أمر بالاعتصام به،و هم كسفينة نوح من ركبها نجا،و من تأخر عنها غرق و هوى و...و...

فحبهم كان للّه و رسوله لا حب دنيا و فى ذلک يقول الشاعر العبلى الأموى النسب،و العلوى العقيدة:

شرّدوا بى عند امتداحى عليا و رأوا ذاک فىّ داء دويا

فو ربى لا أبرح الدهر حتى تختلى مهجتى بحبى عليا

و بنيه لحب أحمد أنى كنت أحببتهم لحب النبيا

حب دين لا حب دنيا و شر ال حب حب يكون دنياويا

1- (1) تهذيب تاريخ ابن عساكر 4:423.

و يقول شاعرهم الكميت:

ما أبالى إذا حفظت أبا الق اسم فيهم ملامة اللوّام

لا أبالى و لن أبالى فيهم أبدا رغم ساخطين رغام

و على هذا يسير الأدب الشيعى فى طريق أهل البيت،و ما أكثر الأمثال على ذلک و لا أخطئ إن قلت إنه أكثر من أن يحصى.فحب الشيعة لأهل البيت إنما هو حب للّه و لرسوله،امتثالا لأمره صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إذ يقول:

«أحبوا اللّه لما يغذوكم به من نعمه،و أحبونى بحب اللّه و أحبوا أهل بيتى بحبى» أخرجه الترمذى عن ابن عباس (1).

و قوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:أيها الناس إنى أوشک أن أدعى إلى لقاء ربى فأجيب و إنى تارک فيكم الثقلين كتاب اللّه و عترتى أهل بيتى،و إن اللطيف الخبير أخبرنى:أنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض فانظروا بما ذا تخلفونى فيهما (2).

إلى كثير من وصاياه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم التى أكد فيها وجوب المحافظة على العترة،و الولاء لهم بما يطول المقام بذكر بعضها و قد أشرنا إلى البعض من وصاياه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فيما سبق.

و الخلاصة:إن حب الشيعة حب صادق لا لغرض من حطام الدنيا و قد تحمل الشيعة فى سبيل المحافظة على وصايا الرسول ما لا يمكن إنكاره.

و إن العاطفة التى يذكرها الأستاذ إنما هى شعور بالمسؤولية التى تدعو إلى التضحية و تحمل على الوقوف إلى جانب الحق.و هذا الشعور هو الذى جعل الشيعة أمة ثورية مما دعا إلى تجمع القوى المختلفة ضدها،فكان ما كان من دعاية و تهريج و اتهام بالباطل،و الرمى بكل كريهة...الخ.

و الأستاذ يدرک هذا و قد أشار إليه فى بعض أبحاثه و تعرضنا له من قبل.

و قد نوّهنا برقة الشعر الشيعى أو فقل برقة المشاعر الشيعية عامة لأن المآسى و الأهوال التى أصابت أهل البيت عليهم أفضل الصلاة و السلام تثير مشاعر مصحوبة

1- (1) انظر صحيح الترمذى 13:201 فى مناقب أهل البيت و شرح المواهب اللدنية 7:9. [1]

2- (2) مصادر هذا الحديث كثيرة و صحيحة و قد رواه مسلم و الترمذى و النسائى و غيرهم كما ذكره المفسرون و قد أشرنا له فى الجزء الأول و الخامس ط 1 من هذا الكتاب و ذكرنا بعض مصادره فلا حاجة إلى التكرار.

بعواطف مشبوبة و أحزان متدفقة تجعل من الشاعر الشيعى مصورا للأحداث بقصيده و ناطقا بالحق بعواطفه حيث تتداخل العقيدة و ما تبثه النفس فهؤلاء أئمتهم عترة المصطفى و هم أثر وجوده و بقية نسبه تتلاقفهم السيوف و تغصّ بهم السجون و تزدحم برفاتهم ساحات الحروب ففى كل زاوية نص من عقيدة يحضّ على ولايتهم و حبهم و فى كل ناحية من الدنيا ألوان من الفجائع و المآسى التى تثير عواطف ممن ليسوا على دين الإسلام فكيف بمن ينذر نفسه لصاحب الرسالة و للذب عن مبادئ القرآن و حملتها من أهل البيت النبوى الكريم؟لا بد أن يكون الشعر الشيعى فياضا بالعاطفة مملوء بالإيمان.

3-و أما النقطة الثالثة فإنها بادرة حسنة،و الأزهر الشريف جدير بأن يقوم بهذا العبء و نحن نناشد المصلحين من الكتاب و المؤلفين الذين يدرسون تاريخ الشيعة أن تكون دراستهم لنشدان الحق،و وجه العلم،بعيدة عن التعصب و التحيز،و لا سيما فى هذا العصر الذى اشتد فيه وعى المسلمين-بعد طول تجارب-بالحاجة إلى الدعوة لجمع كلمة الأمة الإسلامية،و قد سعى المصلحون إلى تقاربهم عن طريق التفاهم، و الشعور بوجوب ترک ما خلفته العصبية السوداء و الطائفية العمياء،و نسيان مآسى الماضى فى عصور اشتد بها النزاع الحاد بين المسلمين،و ما جرى بسببه من دمار و انهيار.

و نسأل اللّه جلت قدرته أن يهيئ للمسلمين من أمرهم رشدا،و أن يجمع بين قلوبهم،و ينزع ما فى صدورهم من غل-على بعضهم البعض- فيصبحوا بنعمته إخوانا كما أراد اللّه لهم ذلک،و جاء به رسوله الأعظم.

ثم يتحول الأستاذ من اختصاصه بالأدب إلى محدث ناقد،و راوية مختص فهل يجوز علميا بحكم تخصصه بالأدب أن يتجاوز ذلک فيتناول موضوع الأحاديث الموضوعة،و يسير على نفس الطريقة التى سار عليها غيره من الكتاب فى اتهام الشيعة بوضع الحديث دعما لما يدعونه،و حجة يقصدون بها تقوية مذهبهم كما يقول فى ص 14:

و هذه الدعاوى(أى الشيعية)لا بد لها من حجج تعضدها و تقويها،فالتمسوها

فی القرآن یؤولون آیاته،و الحدیث یفسرون نصوصه،و لیس من سبیل إلی اختراع قرآن یتفق مع مذهبهم،و یسد حاجة نفوسهم،فعصم اللّه قرآنه منهم،و لکن السبیل سهل میسور إلی اختراع الأحادیث،و الکذب علی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و التقول علی أبنائه علیهم السّلام فوضع الشیعة الأحادیث فی فضل علی...الخ.

>و نحن نقول:< و لذلک وضعنا کتاب حمیدة فی جملة من رأینا ضرورة ردهم من بین عشرات أو مئات الکتب التی تقطر حقدا و کذبا،و مثل هذا القول من أوضح آیات العجز و من أدل الأمور علی القصور عن سلوک طرق العلم و اتباع أسالیبه فهذه العبارات أو هذا التعبیر لم یکن بالشیء الجدید و لم یکن هو صاحب هذه الفکرة و إنها ولیدة دراسته الأدبیة.

إنها ألفاظ مجها السمع لکثرة ترددها،و ملت الصحائف منها لکثرة سوادها،و إلا فإن العلم الذی أهّل أصحاب الشهادات لحمل الألقاب و تبوّأ المناصب یقضی بالإنصاف و الاطلاع علی الآثار و الأفکار بتجرد،و من أبسط مواصفات المثقف طرح التعصب لأنه عدو العلم و لا یؤدی بمن سلک طریقه إلا البوار.

هذا عین ما نطق به المستشرقون (1)و تبعهم المقلدون،و کنا قریبا نناقش الأستاذ الذهبی حول هذه الفکرة و التی لا یخلو منها کتاب جدید و ما هو بالشیء الجدید.

و أقول لما ذا یتکلف محبو علی علیه السّلام وضع أحادیث فی فضله حتی(تتحمل وزره إلی یوم الدین)کما یقول المؤلف.

کأن الإمام علیا علیه السّلام لم تکن له فضائل واقعیة حتی یلجأ محبوه إلی الفضائل الادعائیة؟!و هل هناک مسلم ینکر ما جاء لعلی من الفضائل؟! إن قول المؤلف هذا بعید عن الواقع،و لو أنه تعمق فی الدراسة،و نظر الموضوع بعین الإنصاف لما عبر بقوله فی ص 15:فما لعلی و المهدی المنتظر،و ما لعلی و التحدث عن الدول المستقبلة،و موقعة کربلا،و ولایة الحجاج،و ما سیکون! و لکن الشیعة ترید أن تدعی لعلی من الفضائل ما لا یتحمله بشر،و تضعه فی منزلة- تساوی-إن لم تفق مقام الرسالة...

1- (1) انظر حضارة الإسلام ص 250.

إنها لعمر اللّه جرأة على الحق،إنه يشير بطرف خفى إلى التشكيک فى نهج البلاغة،و الذى أحدث هذا التشكيک هو ابن خلكان فى القرن السابع الهجرى، و أخذه من بعده المغرضون،فوسعوا دائرته من دون رعاية للحق.

و لهذا فقد التزم المنصفون بردّ ابن خلكان،و إثبات ما أورده الشريف الرضى من مصادر قبله بعدة سنين.

و قد كانت خطب الإمام على فى القرون السالفة هى المعول عليها عند الخطباء و عليها تدور خطاباتهم.

(و قد حفظ الناس عنه الخطب،فإنه خطب بأربع مائة خطبة،حفظت عنه و هى التى تدور بين الناس،و يستعملونها فى خطبهم و كلامهم) (1).

هكذا يقول المؤرخ ابن واضح و هو من أعلام القرن الثالث الهجرى و ليس من قصدنا فى هذا العرض أن نتعرض لهذه المسألة،و لكن المؤلف طلع علينا بصورة من ينشد الحق و وجه العلم،و من الحق تنبيهه على خطئه و سوء تعبيره.

و ما أبعد قوله هذا عن الحق و وجه العلم و رميه الشيعة بادعاء الفضائل لعلى عليه السّلام...الخ لم يكن إلا انصياعا للعاطفة،و خروجا على الحق و ابتعادا عن العلم.

إن على بن أبى طالب لم يكن بحاجة إلى الفضائل الادعائية،فهو أجل من ذلک.

و لنترک ما جاء من طريق الشيعة و نولى وجهنا شطر ما ورد فى كتب المسلمين من غير الشيعة،فهل بإمكان أحد أن يدعى ذلک بأنه من الأمور الادعائية نصرة للمذهب بقول الإمام أحمد بن حنبل:ما ورد لأحد من الصحابة من الفضائل بالأسانيد الصحاح مثلما ورد لعلى عليه السّلام (2).

و بهذا قال إسماعيل القاضى و النسائى و أبو على النيسابورى و غيرهم (3).

1- (1) انظر مشاكلة الناس لزمانهم-15. [1]

2- (2) مناقب أحمد لابن الجوزى 163.

3- (3) مناقب الإمام على للعينى-12.

و على أى حال:فإن على بن أبى طالب عليه السّلام قد اختص بمزيد فضل و علو منزلة لا يدانيه فيها أحد فقد رباه النبى فى حجره و نشأ فى ظله و تغذى تعاليمه منه، و أودعه أسراره (1)و لازمه طول حياته،و سبق إلى تصديقه فى الرسالة قبل كل أحد و لبى دعوته فى مؤازرته يوم نزلت وَ أَنْذِرْ عَشِيرَتَکَ الْأَقْرَبِينَ و فداه بنفسه يوم أزمع كفار قريش على قتله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أمره اللّه بالهجرة (2).

و اختصه النبى بمواخاته يوم آخى بين أصحابه فأخذ بيد على عليه السّلام و قال:هذا أخى (3)و هو منه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بمنزلة هارون من موسى (4)و كان أصحاب محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يعبرون عمن سب عليا بأنه قد سب النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم (5)كما كانوا يعرفون المنافقين ببغضهم لعلى بن أبى طالب عليه السّلام لأن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال:«يا علىّ،لا يحبک إلا مؤمن و لا يبغضک إلا منافق» (6).

قال جابر بن عبد اللّه،ما كنا نعرف المنافقين إلا ببغضهم عليا و مثله عن أبى سعيد الخدرى (7).

و قد شهد النبى لعلى فى إقدامه و شدة بلائه فى اللّه و قوة إيمانه و محبته للّه و رسوله و محبة اللّه و رسوله بقوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يوم خيبر«لأعطين الراية غدا رجلا يحبه اللّه و رسوله و يحب اللّه و رسوله يفتح اللّه على يديه».

أخرجه البخارى فى عدة مواضع من صحيحه و مسلم و أحمد بن حنبل و أبو داود و الترمذى و ابن ماجة و غيرهم.

إن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم شهد لعلى عليه السّلام بهذه الشهادة فى أحرج المواقف عند ما اعتصم اليهود فى حصونهم و لم يستطع أحد من الإقدام فيكون الفتح على يديه فأعلن

1- (1) انظر مناقب الإمام على عليه السّلام للعينى.

2- (2) انظر سيرة ابن هشام 2:95.

3- (3) الرياض النضرة و كنز العمال،الإصابة و غيرها.

4- (4) أخرجه البخارى و مسلم و خرجه الحفاظ بطرق متعددة.

5- (5) الرياض النضرة 2:219 و [1]خصائص النسائى 24. [2]

6- (6) أخرجه مسلم 2:64 من شرح النووى.

7- (7) صحيح الترمذى 2:298. [3]

رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بأن الفتح لا يكون إلا عند رجل هذه صفته و هو على عليه السّلام الذى يحبه اللّه و رسوله،و يحب اللّه و رسوله.

قال ابن تيمية:إن فى ذلک شهادة لعلى عليه السّلام بإيمانه باطنا و ظاهرا و إثباتا لموالاته للّه تعالى و رسوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و وجوب موالاة المؤمنين له (1).

و يمكننا أن نقول بإيجاز:لو لم تكن السياسة قد كمنت وراء الواقع و نصبت حبالها لمن ينطق بالحق لما تجرأ أحد على كثير من الحقائق و لما استطاع أحد أن يتجاهل أمورا هى كالشمس فى رائعة النهار أو تحدثه نفسه بالتشكيک أو التطاول، و لو لا بقايا تلک الأعمال التى لجأ إليها الطغاة و الخوارج فى النيل من الإمام على علامة استفهام و تعجب.

و إن الأستاذ الأديب فى إثارته لهذا الموضوع ليثير عندنا كثيرا من الشكوک فى تفهمه للقضايا و تعمقه فى دراسة الموضوع و حيث كنا بمعزل عن قصد الخوض فى مثل هذه الأبحاث فإنا نترک بسط القول فيه و نكتفى بأن نلفت نظر الأستاذ إلى التوسع فى الدراسة ليقف على أمور تكشف له حقيقة الواقع.

و إذا أردنا الخوض فى هذا الموضوع فباستطاعتنا أن نقدم له آلاف المناقب المفتعلة لأناس هم دون على و لا يجارونه فى الفضل و شرف المحتد و علو المنزلة و نحن نؤثر أن نترک هذا الموضوع فما هو بالشىء الجديد أو البحث الذى لم يدرس، و لا تجنّيه و افتئاته بغريب على واقع العلم و الأدب.

>يقول المؤلف فى ص 16:< اقرأ-إن شئت-فى أوثق كتبهم و أصحها عندهم لترى كيف أصبح التشيع بعد القرن الثانى-خاصة-عقيدة تشل الفكر و تميت العقل كما أصبحت خطرا على الإسلام و المسلمين و شرا مستطيرا على الدين...ثم ينقل عن أحمد أمين فى ضحى الإسلام 3:213 حديثا عن الكافى و إن الكافى هو كالبخارى عند أهل السنة.

1- (1) انظر فتح المجيد لعبد الرحمن حفيد محمد بن عبد الوهاب-90.

>أقول:< أورد المؤلف هـذا بعـد كلام طويل أعرضـنا عنه لأن الخوض فيه يـدعو إلى الإطالة و فيه أيضا تعبير عما يحمله الأسـتاذ من فكرة خاطئـة حول الشـيعة و تطور نظريـة الإمامة،و هو بهذه الأفكار يلتحق بالجماعات الذين شـهدناهم على مر التاريخ و قد ملأوا الصـفحات الطوال للإساءة للشيعة،فرأينا الإعراض عنها أولى من التعرض لها.

و هنا يحكم الأستاذ الأديب بأن عقيدة الشيعة-أو التشيع-تشل الفكر و تميت العقل بمعنى أنها عقيدة جامدة لا مجال فيها للعقل و حكمه و لا حق للتفكير فيها هكذا يقول.

و الأسـتاذ لـم يحسن التبعير فإن هـذا القول المفتعل أو هـذه النظرة لـم تكن من بنات أفكاره و إنما هو مقلـد فيها للمستشـرقين فهم قد ادّعوا ذلك (1)و لـم يسـتطع الأستاذ أن يطلق لفكره العنان فى صحة ذلك و نكتفى بالجواب عما أورده هنا برد الأستاذ عباس محمود العقاد لهذه الشبهة التى أثارها المستشرقون إذ يقول-فى بحثه حول الاختلاف فيما يتعلق بمواضع النظر و أسباب الفهم و التفكير-:

هكذا خطر لبعض المستشـرقين و كتاب الغرب،الذين بحثوا فى علاقة اختلاف الشـعوب باختلاف مذاهب النظر و الاجتهاد،فظن بعضـهم أن طوائف الشـيعة آمنت بالإمام،لأنها ورثت تقـديس الرؤساء و الأحبار،و قيـدت من حق العقل فى البحث و الفهم،بمقـدار ما اطلقت من سلطان الإمام،و وكلت إليه من حق القيادة و الإرشاد.

و فى هذا الظن من المستشرقين و هم لا شك فيه،لأن هذه المسألة بذاتها- مسألة الدراسة العقلية-قد كانت فى طليعة المسائل التى اشتغل بها الشـيعة الإماميون، و من أفوه الشـيعة الإماميين تلقى أساطين الفلسـفة الإسـلامية كلامهم فى العقل و النفس، و فى مذهب الافلاطونية الحديثة،و مذهب افلوطين منها على التخصيص،و يقول الشيخ الرئيس ابن سينا فيما رواه عنه تلميذه الجوزجانى«كان أبى ممن أجاب داعى المصريين و يعد من الإسماعيلية،و قد سمعت منهم ذكر النفس و العقل،على الوجه الذى يقولونه،و يعرفونه و كذلك أخى».

1- (1) الإسلام للمستشرق هنرى ماسية 195.

و الفارابی أستاذ ابن سینا بالاطلاع و القدوة نشأ فیما وراء النهر،و وعی أقوال الشیعة الإمامیة فی شروط الإمامة،و مزج بینها و بین شروط افلاطون فی کتاب الجمهوریة،فجعل الإمام صفوة الخلق فی کمال الصفات،و اجتماع الفضائل العقلیة و النفسیة،بل فضائل الجسد التی نزهت عن شوائب الضعف و المرض،و کان إخوان الصفا یدینون بمذهب فی الإمامة کهذا المذهب،و یؤلفون الرسائل مع هذا فی المنطق،و فی علوم الریاضة،و الفلک و ما إلیها،من علومهم العقلیة.

فالدراسات المنطقیة،و سائر الدراسات العقلیة-کانت من شواغل الشیعة الإمامیین،و لم یکن إیمانهم بالإمامة مما یصرف العقل عن التوسع فی علم من العلوم،و ربما أخذت علیهم طوائف المسلمین افراطا فی هذا الباب،و لم تأخذ علیهم تفریطا فیه یتعمدونه أو یساقون إلیه علی غیر عمد (1).

هذا ما اقتطفناه من کلمة الأستاذ العقاد فی رده علی المستشرقین حول فکرتهم الخاطئة-و کم لهم من أخطاء-فیما یکتبونه عن الإسلام بصورة عامة،و عن الشیعة بصورة خاصة،للأسباب التی مر ذکرها (2).

و من المؤسف له-أن کثیرا من الکتّاب قد تأثروا تأثرا أخرجهم عن حدود ما یجب علیهم أن یتبعوه فی کتاباتهم و منهم المؤلف.

و إن القول بأن الشیعة قد قیدوا العقل أو أنهم جامدون إلی آخر ما فی حقیبتهم من أفکار خاطئة ینطوی علی غرض لا یخفی علی أی منصف فقد رأینا أصل مثل هذا الاتهام؟و جاء البعض و سمح لنفسه بأن یأخذ أفکاره من المستشرقین و هم من قادة حملة السیطرة الأجنبیة و أدوات النهب الاستعماری و من السهل أن یعتذر الإنسان للأجانب و یتسامح معهم لأن عوائق کثیرة تحول دون استیعابهم للأمور و تمثلهم للمسائل؟و لکن بما ذا نعتذر لمن هم من أبناء الإسلام.

و یبقی الباحث بین ترديد هذه الدعاوی و جریانها علی أقلام إخواننا و أبنائنا و بین صفات التخصص و المراکز و الألقاب العلمیة فی حیرة.

1- (1) انظر التفکیر فریضة إسلامیة للأستاذ عباس محمود العقاد ص 60-61.

2- (2) انظر الجزء الخامس من هذا الکتاب ط 3 ص 23 و الجزء السادس ص 384 و 400.

فإذا جهل الأستاذ حميدة أن الشيعة كيما يخففوا من آثار سياسة الحاكمين فى تقييد العقل و حرية الرأى جعلوا العقل قبل القياس فى حركة الرأى و لم يطمئنوا إلى القياس خشية أن لا يكون ضابطا قويا فى استنباط الأحكام فجعلوا العقل محل ذلک فهل جهل الأستاذ ما تناوله العلماء و الباحثون فى الحركة العقلية فى الإسلام كحقيقة ثابتة و مساهمات الشيعة الكبرى فى كل نتاجات العقل الإسلامى.

يقول الدكتور محمد ضياء الدين الريس،أستاذ التاريخ الإسلامى بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة:

إن أول من كتبوا فى«الإمامة»كتابة علمية،و أول من تصدوا إلى إثبات مذهبهم بالأدلة المنطقية،سواء أ كانت الأدلة مبنية على أساس«دينى»-ثيولوجى-أم عقلى هم:الشيعة،فالشيعة لهم الفضل فى خلق هذا النوع من العلم المسمى بالإمامة و هم الذين أوجدوه،و أفردوا له مكانا بين مباحث علم الكلام،و إذا كان من المعروف أن «علم الكلام»فيما يختص بالعقائد الدينية إنما نشأ كنتيجة للمناقشة و الجدل بين الشيعة و المعتزلة و أهل الحديث،فكذلک مباحث الإمامة-و هى الجانب السياسى منه-إنما وجدت للنقاش بين الشيعة و مخالفيهم:من خوارج،و معتزلة،و أهل السنة.

و هذه الحقيقة ذات دلالة كبيرة،إذ أنه ترتب على أن الشيعة هم الذين أوجدوا هذا العلم و أنهم طبعوه بطابعهم،و صاغوه الصياغة التى ارتضوها.

و مراعاة هذه الفكرة تفسير لنا أشياء كثيرة:فالشيعة-فى الغالب-هم الذين اختاروا للإمامة مصطلحاتها الفنية،بل هم الذين سموها بهذا الاسم،و هم الذين قسموا العلم و بوّبوا أبوابه و عينوا مجاله،و رسموا حدوده،و هذا يشرح:لما ذا ظل علم الإمامة أو علم«النظريات السياسية الإسلامية»محصورا هكذا فى نطاق محدود لا يعدوه،و لما ذا لم يتسع نطاق البحث فيه حتى يشمل مسائل هامة كان ينبغى لمفكرى الإسلام أن يبحثوها؟فالحقيقة أن الشيعة هم الذين وضعوا الأساس،و أنه كان على غيرهم من أهل الفرق الأخرى أن يملئوا الفراغ الذى حدد بها الأساس،و أن يقيموا البناء معتمدا عليه،أو قل بتعبير آخر:إن أبحاث الفرق الأخرى إنما كانت محصورة فى أنها أجوبة على الأسئلة التى يضعها الشيعة،و لم تكن إلا مجموعة من الردود على الدعاوى التى كان الشيعة يبدءون بإثارتها.بهذا شابهت صيغة الجواب صيغة السؤال،

و جاء مطابقا للدعوى التى أريد منه أن يدفعها (1).

و لو أطلق الأستاذ مؤلف كتاب أدب الشيعة عقله من عقاله،و جعل لأدبه دورا فى هذا الموضوع لما وقف جامدا على أقوال المستشرقين فى اتهامهم للمسلمين بكل ما يوافق نعراتهم التعصبية و الأغراض التى بيتوها.

و إن هذا القول الذى تقبّله بدون تمحيص،و جزم بصحته لدليل واضح على عدم خبرته و عدم تعمقه فى الدراسة،و إلا كيف يعقل أن تكون عقيدة الشيعة فى الإمامة(تشل الفكر و تميت العقل)-على حد تعبير المؤلف-و قد كان القرن الثانى عصر جدل و مناظرات حادة و كانت المجالس تعقد للمناظرة؛و تشد الرحال للمدارسة و الاحتجاج،لا سيما فى الإمامة.

و قد انبرى للرد على الشيعة كل من الخوارج،و المعتزلة،فكانت مناظرات و جدل و قد اشتهرت مناظرات هشام بن الحكم المتكلم الشيعى المتوفى سنة 197 و هو من كبار تلامذة الإمام الصادق عليه السّلام فقد ناظر علماء المعتزلة كعمر بن عبيد، و أبى الهذيل،و أبى بكر الأصم.

و كان هشام متفوقا فى علم الكلام،و سرعة الجواب،و ممن فتق الكلام فى الإمامة،و هذب المذهب و النظر،و كان حاذقا بصناعة الكلام (2)و وضع كتابا فى الإمامة.

و لسنا بحاجة إلى التعرض إلى رجال الشيعة المتكلمين الذين تفوقوا بوضوح البرهان و قوة الحجة،كعلى بن إسماعيل التمار مؤلف كتاب الإمامة و الاستحقاق، و هشام بن سالم و محمد بن النعمان و آل نوبخت الذين اختصوا بعلم الكلام و خاضوا تلك المنازعات الكلامية و غيرهم كنصير الدين الطوسى الذى(كان آية فى التحقيق و حل المواضع المشكلة،سيما لطف التحرير الذى لم يلتفت إليه المتقدمون) (3)،لأن الأمر بات من الحقائق التى لم يملك أعداء الشيعة من قبل إلا الاعتراف بها،سواء كان ذلك منهم على كره و مضض أو عن صدق و أمانة،فإن الدور السيئ للمستشرقين

1- (1) النظريات السياسية فى الإسلام للدكتور محمد ضياء الدين الريس 81-82.

2- (2) فهرست ابن النديم 249. [1]

3- (3) مفتاح السعادة 1:261. [2]

بعد فضحه يبين لنا فيما جرى عليه المحدثون الذين رضوا لأنفسهم الانقياد لأعد الإسلام و الامتثال لأوامرهم و تقليد أفكارهم.

أسطورة:

و يختم المؤلف هذا الفصل بأسطورة ينقلها ابن عبد ربه،عن الجاحظ و الجاحظ ينقلها عن رجل من التجار:انه حدثه عن شيخ كان معهم فى السفينة،شرس الأخلاق،يربد وجهه لذكر الشيعة،فلما سئل عن السبب؟قال:ما أكره فيهم إلا هذه (الشين)التى فى أول اسمهم فإنى لم أجدها قط إلا فى كل شر،و شؤم وو...الخ.

قال أبو عثمان(أى الجاحظ)فما ثبت لشيعى بعدها قائمة (1).

هذه الأسطورة أو الدعابة التى ذكرها المؤلف كدليل على قوله:بأن التشيع أصبح بغيضا إلى النفس،و سبيلا إلى السخر و التهكم (2).

و كان الأجدر بالمؤلف و هو يدرس هذا الموضوع بروحه الأدبية كما يقول:

(نسير فى التاريخ السياسى للشيعة بروح الأديب لا بروح المؤرخ)،أن يترك الخوض فى مثل هذه الأكاذيب التى اخترعوها للدعابة و المجون للحط من خصومهم، و السيطرة على عقول السذج،لأنها أساليب تنافى العلم و تكشف عن العجز و لكن الأستاذ حميدة ما دام قد ارتضى لنفسه منهج الاتباع الذى يلغى العقل و العلم،فلا غرابة أن تكون مادته من ذلك و لا مانع من أن نحاربه.

و أقول للمؤلف الأديب،لو أن السنة كانت موجودة فى عصر الجاحظ و كان هذا الاسم معروفا فى ذلك الوقت لوضع الجاحظ إلى جنب هذه الأسطورة أسطورة أخرى،و اخترع من بنات أفكاره وجود شيخ يكره السنة و يبغضهم لأن السين فى أول اسمهم لا يجدها الا فى كل سوء،و سقم،و سهاد،و سقر،و سل و.و.

و لكن اشتهار السنة كان فى عصر متأخر عن عصر الجاحظ لأن هذا الاسم لم يظهر إلا بعد الثلاث مائة من الهجرة و إنما ظهر هذا الاسم فى القرن الرابع الهجرى.

عند ما قام أبو الحسن الأشعرى فى أول القرن الرابع الهجرى فى الرد على

1- (1) انظر العقد الفريد 1:360. [1]

2- (2) انظر أدب الشيعة 20. [2]

المعتزلة-بعد أن كان منهم فأظهر دعوته إلى السنة،و مذاهب السلف (1)فانتشر مذهبه،و أظهر فيه مذهب السنة،و عرف اتباع عقيدته بهذا الاسم.

و قد انتشر مذهب الأشعرى أيام وزارة نظام الملک،الذى كان أشعرى العقيدة، و كان صاحب الكلمة النافذة أيام السلجوقيين و أصبحت عقيدة الأشعرى شبه عقيدة رسمية تتمتع بحماية البلاط.

و زاد فى انتشارها و قوتها مدرسة بغداد النظامية التى كانت أكبر جامعة فى العالم الإسلامى،كان الانتساب إليها شرفا و فخرا للطالب و المتخرج،و كانت وظيفة التدريس فيها مجدا للعالم،و شهادة علمية،فكان طبيعيا أن ينتشر المذهب الأشعرى و يسود فى العالم الإسلامى (2).

و الغرض أن أمثال هذه الأمور ليس من العسير اختراعها فى عصور اشتد فيها الخصام حتى اختل فيها توازن النقد و التهجم.

و من الغريب إيراد أمثال هذه الأساطير فى معرض الاستدلال و الأبحاث الأدبية؛ و لا أدرى ما معنى قوله:(فما ثبتت لشيعى بعدها قائمة)هل أن أثر هذه الأسطورة قضى على دعوة التشيع فاستراح خصومهم،و هدأ جو المنازعات،إذ انتهى الدور الذى كان يدعو لذلک بمجرد أن تكلم ذلک الشيخ المجهول؟!! أ كانت هذه الكلمات أقوى من سيف معاوية بن أبى سفيان و أدهى من سياسة زياد تجاه الشيعة،تلک السياسة التى يصفها المؤلف نفسه فى ص 31:بأنها قامت على العسف و التنكيل،بكل من يحس فيه روح التشيع،و قد كان زياد من شيعة على عليه السّلام فكان بالشيعة أعرف،فأخذ يتتبعهم فى كل سبيل،حتى أباد الألوف من شيعة الكوفة و البصرة،و مثل بهم أشنع تمثيل،فقطع الأيدى،و الأرجل،و سمل العيون،و صلبهم فى جذوع النخل.

و ناهيک بما فعلته غارات معاوية و حملاته على بلدان الشيعة الآمنة من قتل و نهب،و تخريب،و أعظمها غارة بسر بن أرطاة فى اليمن و غيرها.

و استمرت الحالة بعد معاوية حتى جاء عهد الحجاج ذلک العهد الأسود فحكم

1- (1) مفتاح السعادة 2:37.

2- (2) رجال الفكر و الدعوة فى الإسلام للنووى-138.

السيف فی رقاب الشيعة،فكان أحب إلی الرجل أن يقال له زنديق و كافر،من أن يقال له شيعی.و قد وصفه المؤلف بقوله:

و لكن الحجاج و إن غلت يده عن الهاشميين فقد انطلقت فی شيعتهم يقتلهم، و يسفک دماءهم،حتی أن الرجل ليقال له زنديق أو كافر أحب إليه من أن يقال له شيعة علی و حتی خشی الناس من أن يتسموا بأسماء علوية.

وقف رجل فی طريق الحجاج فقال:أيها الأمير،إن أهلی عقونی فسمونی عليا،و إنی فقير بائس،و أنا إلی صلة الأمير محتاج،فتضاحک الحجاج و قال:بلطف ما توسلت به قد وليتک موضع كذا.

كل ذلک لم يخمد جذوة التشيع و لم يقعد بعزائمهم عن المضی فی مناصرة أهل البيت،و المناوأة لخصومهم،و كانت دماء شهدائهم تسقی بذور شجرة العقيدة-حتی استطاعوا أن يهدموا صرح الدولة الأموية قبل أن تهدم صرح التشيع.

و هكذا تمر الأيام و لهم فی كل دور مواقف مشهودة و واجهوا من النكبات و عسف الولاة ما لم تواجهه طائفة أخری،و ليس بالإمكان عرض تلک الحوادث بهذه العجالة،و قد احتفظ التاريخ بها.

كل هذا و هم لم يخضعوا لسلطان جائر،و لم ينقضوا العهد الذی عاهدوا اللّه عليه،فی سبيل المحافظة علی وصايا رسوله الأعظم فی آله الكرام.

و لم يترک خصوم الشيعة وسيلة فی القضاء عليهم إلا استعملوها،حتی اتهموهم بالزندقة،و الخروج عن الدين،علی خلاف المعقول و الواقع كل ذلک تشويها للدعوة التی قام بها الشيعة،بإلقاء الشبهات عليهم من الوجهة الدينية،و صدرت الفتاوی بحقهم فی الإبادة،قتل الآلاف منهم بسبب ذلک،مما يطول بيانه-و ليس بالشیء الجديد ذكره-فلم يقعد بالشيعة عن مواصلة الجهاد شیء من ذلک.

و أخيرا نأمل من المؤلف و غيره من إخواننا الكتّاب-الذين يسوقون فی معرض حديثهم عن الشيعة أمثال هذه الأساطير،فالأمر أرفع من ذلک-أن يخوضوا هذه الأبحاث أحرارا غير مقيدين فی حدود ضيقة لا توصلهم إلی الحق و العدل،و أن لا يقبلوا كل شیء وقفوا عليه إلا بعد التمحيص فما أكثر الأمور الملفقة،التی كانت من وراء الدوافع النفسية،و العوامل السياسية و قد تحمل تبعتها قوم خضعوا لذلک،و نقلها

آخرون و هكذا ضاعت الحقيقة وراء حجب الأغراض و اللّه حسبنا و نعم الوكيل.

التاريخ السياسى للشيعة:

يقول المؤلف فى بداية الحديث تحت هذا العنوان:

نسير فى التاريخ السياسى للشيعة بروح الأديب لا بروح المؤرخ.نسجل أثره الأدبى،و فواعله النفسية،فذلک بموضوعنا أليق:

منذ وفاة الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم-و شيعة على تتطلب الخلافة له و لنسله-لأمور تجلت قبل،لذلک ظلت حياتهم بين وثبة و استعداد للوثبة،و غدا تاريخهم صفحة دامية، تذيب القلب و تستنزف الدمع.

ثم يستمر الأستاذ فى الحديث فيتعرض لخلافة على عليه السّلام و نكث طلحة و الزبير للبيعة،و يمضى للحديث عن صفين و بيان التحكيم...و كل هذا لا نريد أن نتحدث عنه،و لا نناقش الأستاذ فى شىء منه لا لأن كل ما ذكره هو وجه الصواب ففيه ما يستوجب النقاش و لفت النظر،و لكن ضيق المجال يدعو لأن نقتصر على أمور نشير إليها بإيجاز لأن استيعاب ذلک أمر ليس من الممكن حصوله الآن،لأننا فى معرض التنبيه عن أمور خاصة فلا نتعرض لأخطائه فى سياسة الإمام على عليه السّلام كما فى ص 35 و لنترک حديثه حول الصلح كما أننا نستدل الستار بيننا و بين حديثه حول واقعة كربلا و استشهاده على صفة قتل الحسين عليه السّلام بقول زجر بن قيس إذ يصف ذلک عند يزيد كما فى ص 37 ذلک الوصف الذى يمثل الحسين عليه السّلام و أصحابه فى معرض الهزيمة و الاندحار،و لكن الأديب المؤلف قد دله ذوقه الأدبى أن يستشهد بأحد قواد المعركة و هو رجل بمنتهى الإجرام،و قد مثل دور الوثنية،و عهود الجاهلية فيها.

أ لا كان من المناسب-أو حسن الأدب-أن يستعرض واقعة كربلا بدراسة واقعية،بعيدة كل البعد عن اتباع ذوى الآراء الشاذة،ممن انغمسوا فى أتون العصبية، فافترضوا بتحاملهم البغيض فروضا بعيدة عن الحق لا تتفق مع مقام الحسين عليه السّلام و مكانته.

نعم لو درس دراسة واقعية لأعطى البحث حقه،و لوقف على حقيقة الأمر، و ظهر له أن من النقص أن يستشهد بقول رجل مجرم-كزجر بن قيس الذى اشترک فى

قتل ابن بنت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و سبى عياله،و حمل رأسه،إلى يزيد طاغية زمانه،و عدو الإسلام اللدود،لنترک مناقشة المؤلف هنا و نعرض عن هذا الحديث-فهو حديث شجون-كما أننا نفضل الاختصار فى الرد و الإيجاز فى النقد،و نمضى بسرعة و نترک المؤلف حائرا يجيل و جهات النظر فى المعاذير لمعاوية بن أبى سفيان فى إعلانه سب على بن أبى طالب عليه السّلام على المنابر و يحلو له أن تعج تلک المنابر بسب على و آله.

و يقف المؤلف هنا حائرا و هو يخاطب نفسه فيقول فى ص 30:لن نستطيع أن نجمع بين أمرين،دين معاوية و حلمه،و دهائه يحسبه الجاهل خورا،حلما يتسع به صدره إلى أن يسمع الاقذاع من الناس،و النقد لسياسته،فيقابل إساءتهم بالصفح، و اقذاعهم بالعطاء ثم هو مع ذلک يحلو له أن تعج منابره بسب على و آله.

بهذا كان يفكر الأستاذ و يجيل النظر حتى اهتدى إلى حل هذه المشكلة بقوله:

و لعل معاوية-كساسة اليوم-قد علم أن الدعاية من أشد أسلحة الحرب مضاء، و أبلغها نفاذا،فاستعمل هذا السلاح ليصرف الناس عن آل البيت و يحول قلوبهم عنهم،و فى هذا دوام ملكه،فاستحل سياسيا ما حرمه الدين،و وضع لمن بعده شرعة السباب لهذا البيت الكريم،فاستعملها خلفاء بنى أمية حتى غدت سخرية الناس و تندرهم إلى أن أبطلها إمام عادل....الخ.

و بهذا انحلت تلک المشكلة التى تقف أمام الأستاذ فى دراسته،فمعاوية استساغ سب على لأجل الدعاية و ذلک لا ينافى الدين كما يظن الأستاذ و هكذا يبدو المؤلف بهذا الموضوع بتفكيره الجديد فى حل هذه المشكلة رغم عظيم وقعها.

و نحن كما قلنا لا نريد أن نقف هنا طويلا،و من الخير أن نشير إلى إنكار الصحابة؛منهم:أم المؤمنين أم سلمة رضى اللّه عنها فقد انكرت على معاوية فيما ارتكبه،فإنها أرسلت إلى معاوية تقول له:

(إنكم تلعنون اللّه و رسوله،إذ تلعنون على بن أبى طالب و من يحبه و أشهد أن اللّه و رسوله يحبانه).

و مر ابن عباس بقوم يسبون عليا عليه السّلام فقال لقائده:أ ما سمعت هؤلاء ما يقولون؟!

قال:سبوا عليا.

قال:فردنى إليهم.فرده.

فقال:أيكم الساب لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم؟! قالوا:سبحان اللّه من سب رسول اللّه فقد كفر!! فقال:أيكم الساب لعلى؟ قالوا:أما هذا فقد كان.قال ابن عباس:فأنا أشهد باللّه لسمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يقول:من سب عليا فقد سبنى،و من سبنى فقد سب اللّه و من سب اللّه عز و جل أكبه اللّه على منخريه فى النار (1).

و لدينا أمثلة أخرى من إنكار الصحابة على معاوية فيما ارتكبه من سب على عليه السّلام،و أصبح ذلك أمرا عاما فى جميع أطراف المملكة،و لكن المسلمين كانوا يقابلون ذلك بالإنكار،لأن صوت رسول اللّه يقرع أسماعهم فى إعلانه بأن عليا نفسه،و هو منه كما أخرج البخارى أن النبى قال لعلى:(أنت منى و أنا منك) (2)و أخرج ابن النجار عن ابن عمر و النضيرى عن عائشة أن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال:(على نفسى).

و لسنا بحاجة إلى إيراد كل ما صرح به صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من بيان منزلة على عليه السّلام و أنه نفسه و أنه(منه بمنزلة رأسه من بدنه) (3).

و قد شهد أصحابه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بشتى المناسبات بأنه كان يشرك عليا فى عمله،و ينزله منزلة نفسه.

قال غرقة بن الحرث الكندى:شهدت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أتى بالبدن فقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:

ادعو لى أبا حسن.فدعى له.فقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:خذ بأسفل الحربة،و أخذ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بأعلاها،ثم طعنا بها البدن.(يوم النحر)فلما فرغ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ركب و أردف عليا (4).

قال الحافظ:اشترك صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هو و على فى نحر ثلاث و ثلاثين بدنة.فهو صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان

1- (1) النسائى فى الخصائص 24 و الرياض النضرة 2:219. [1]

2- (2) البخارى 5:22. [2]

3- (3) الخطيب 7:41.

4- (4) شرح المواهب 8:194. [3]

ينزل عليا منزلة نفسه كما خصه اللّه تعالى فى ذلک بقوله عز و جل:قال تعالوا ندعو أبناءنا و أبناءكم و نساءنا و نساءكم و أنفسنا و أنفسكم.

و يحدثنا البيهقى:أن رجلا قام فى مجلس ابن أبى عائشة فقال:يا أبا عبد الرحمن،من أفضل أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم؟فقال:أبو بكر،و عمر،و عثمان، و طلحة،و الزبير.

فقال الرجل:فأين على بن أبى طالب؟!!فقال ابن أبى عائشة:تستفتينى عن أصحابه أم عن نفسه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم؟ فقال الرجل:عن أصحابه.فقال ابن أبى عائشة:إن اللّه تبارک و تعالى يقول:

فَقُلْ تَعالَوْا نَدْعُ أَبْناءَنا وَ أَبْناءَكُمْ وَ نِساءَنا وَ نِساءَكُمْ وَ أَنْفُسَنا وَ أَنْفُسَكُمْ... الآية فكيف يكون أصحابه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مثل نفسه؟ إذا فكيف يجتمع الدين مع إعلان السب للّه و رسوله!و هل يكون الإنسان معذورا إذا وجد طريقا سياسيا لمخالفة الدين؟هذا من جهة،و من جهة أخرى فإن ذلک السب منبعث عن البغض لعلى عليه السّلام و بغض على علامة النفاق،أخرج الترمذى عن عدى بن ثابت عن زرّ بن حبيش عن الإمام على قال:لقد عهد إلى النبى الأمى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنه لا يحبک إلا مؤمن و لا يبغضک إلا منافق قال عدى بن ثابت:أنا من القرن الذى دعا لهم النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم (1).و إن المنافقين فى الدرک الأسفل من النار.

و كذلک نترک الأستاذ المؤلف يماشى الشيخ الخضرى و يذهب مذهبه فى توجيه اللائمة على الحسين عليه السّلام فى خروجه على يزيد بن معاوية (2)،لأننا نفضل ترک الخوض فى هذا الموضوع لأنه يخرجنا عن الصدد فى استعراض أخطاء الشيخ الخضرى،و تهجمه على مقام الحسين عليه السّلام مما يدل على نزعته،و انحرافه عن طريق الصواب.

1- (1) صحيح الترمذى ج 13 ص 177.

2- (2) محاضرات الشيخ محمد الخضرى ج 1 ص 129.

و المؤلف فيما يظهر يؤيد ما ذهب إليه عن قناعة غير ناشـئة عن تفهم الموضوع تفهما واقعيا،لكنه اسـتعذب القول فنقله بدون تريث كما هو شأنه فى كثير من آرائه التى لا يعترف بها العقل و لا يقرها المنطق.

و على أى حال فليس من قصدنا أن نستوعب جميع ما فى الكتاب من أشياء تستوجب النقد و الرد.

و لنتحول الآن إلى أهم ما قصـدناه فى هذا العرض و أردنا إيضاحه و هو قضـية ابن سـبأ فلنجعلها بعنوان مسـتقل و نبحثها على ضوء الواقع لنقف على الحقيقة التى هى أسمى هدف للمنصفين.

ص:474

ابن سبأ

اشارة

مرة أخرى

تمهيد:

اشارة

قلما يصدر كتاب يتناول البحث عن تاريخ الإسلام إلا و عبد اللّه بن سبأ يحتل مكانا فى البحث و يشغل صحائف من الكتاب.

إن هذا الرجل الموهوم قد صوروه بألوان من الصور و أبرزوه بمختلف الأشكال.

و قد وصفوه بأنه بطل يخوض غمار الأهوال،و يتحمل متاعب الانتقال،و مشقة الأسفار-فمن المدينة لمكة،و منها إلى البصرة،ثم الكوفة فالشام،ثم يجوب البرارى و يقطع القفار.فلا يخلو منه مكان:هو موج ساحر أو برق خاطف يسير بسرعة الصوت.

إنه داعية إلحاد و شرك،يضلل الناس بآرائه،و يسمم العقول بقوله.يدعو إلى المبادئ اليهودية،و العقائد الزرادشتية له سيطرة على العقول،و هيمنة على الأفكار، يقول فيصدق و يأمر فيطاع،يسوق العرب بعصاه،حتى انصاع له جمع من الصحابة- و العياذ باللّه-و اعتنقوا مبادئه-كما يقولون و ما أعظم ما يقولون-و أصبح أبو ذر خريج مدرسة محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و من شهد له الرسول بالصدق و عمار بن ياسر،المعذب-هو و أبوه و أمه-فى اللّه من أنصار دعوته،و حملة عقيدته،و المتأثرين بأفكاره.

فثورة أبى ذر على ذوى الأثرة الذين جعلوا مال اللّه دولا ـ و عباده خولا ـ كانت من آثار ابن سبأ!!-كما يفترون-و الثورة على عثمان من دسائسه،و حرب الجمل من تصلبه،و وقعة صفين عن أمره،و مبادئ التشيع من تفكيره و آرائه!!!و.و.و.

ص:475

فيا لمهزلة العقل و إسفاف الآراء،و خفة الأحلام!و يا لضياع الحق و ظهور الباطل.

إن أعظم شـيء أن يحـال بين العقل و بين الحقيقـة و يزج به فى متاهات من الاختلافات و التزييف و التضـليل ليكون من نتائجه التصـديق بأكذوبة ابن سبأ و ظهور نتاجات و كتابات كالتى نحن بصدد تفنيدها.

لقـد حان الوقت لأن نلتفت إلى الوراء لنكشف حقيقـة نشأة هذه الأسـطورة، و نقف على عوامل تلك الأباطيل التى طالما ظلت أيد سوداء ممتدة فوقها فى سكون و صمت.

إن تلك الأيـدى العابثـة بمقـدسات الدين،و التى تثير الغبار فى طريق وحدة المسـلمين،تتحرك اليوم بارتجاف و اهتزاز،لأن الوقت قد حان لرفع الستار الذى تكمن وراءه،و افتضاح أولئک المحركين لها،لأن الوعى بوجوب تدارک خطر الفرقة أصبح ينذر أولئک الدساسين بالخطر.

و يخطئ من يقول:بأن بحث قضـية ابن سـبأ من الأمور التى لا جـدوى من بحثها الآن و إثارتها فى هـذا العصـر،فالزمن قد تغير،و هذه من دفائن الماضى و ليس من الصحيح نبش تلک الدفائن و نشر صحائف مطوية،أكل الدهر عليها و شرب.

و إننا نقول:إن هذه القضـية ليست كما يتوهم المتوهمون بأنها من الصحائف المطوية،و الآثار المنسية،بل هى فى كل وقت غضة جديدة لا تغيرها الأيام مهما طال زمانها،فهى تنشـر فى كل وقت و تجعل من الأسس التى يستند إليها أكثر كتّاب عصرنا الحاضر كوسيلة لطعن على الشيعة،و فى طليعة أولئک الكتّاب شيوخ يرجى بهم سد ثغرة الخلاف،و السعى فى إصلاح ما أفسدته ظروف قاسية،و عصور مظلمة.

و هناک أساتذة يؤمل بهم تنوير عقول الناشئة الإسلامية،بما يعود على الجميع بالنفع.

و لكنهم بمزيـد الأسـف استسـلموا لعوامل كان أليق بهم أن يقفوا أمامها موقفا واعيا يتمشـى مع مسـئوليتهم الملقاة على عواتقهم فى تربية النشء و خدمة الأمة الإسلامية،فى اتباع مناهج الإسلام فى التثبت فى النقل،و الاعتدال فى النقد.

إنهم قد نقلوا أشياء كثيرة بدون تثبت من صحتها،أو رجوع إلى مصادرها

الموثوق بها.و أجلى مثال لذلک الاسترسال فی تقبل کل شیء هو إیراد أسطورة ابن سبأ کدلیل قاطع،و برهان واضح لا یمکن رده و لیس من المستطاع تکذیبه.

فقد توالت العصور و الناس تتداول هذه الأکذوبة و تردد هذه الأسطورة و لا بد من النظر إلی الغد عند ما تنجاب هذه الغمامة و تلک الحجب عن العقول و البصائر و یأخذ الجیل الواعی بنقد ما لا یقرّه العقل و المنطق،و نحن نری الیوم الکثیر من الکتّاب و الأساتذة الذین حکّموا العقل و نزعوا قیود الاستسلام یبادرون إلی رفض قصة عبد اللّه بن سبأ و کشف زیفها و التباسات قیامها،عند ذاک ما ذا ستکون النظرة لمن أسهم فی ترویج هذه الأکذوبة و نشر هذه الأسطورة؟.

نحن نری أن لا مندوحة من التأکید علی الحقائق التی تضمها وقائع التاریخ منذ مبعث النبی المصطفی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم،و لا نری بحال أن ذلک نبشا للماضی،لأن جذور التشیع نمت فی ظل الرسالة و ولدت بذرته معها،فحقائق الرسالة و السیرة النبویة و ولایة الإمام علی علیه السّلام و دور الأوصیاء فی حفظ الدین و رعایة الدعوة هی الوقائع التی تصاحب تطورات الأحداث و تختزن جوهر التاریخ.و لو نظرنا إلی حملات العداء و الکراهیة لآل البیت الأطهار و من یتولاها علی امتداد العصور و الأدوار لعلمنا أن القصد مصالح کاد یمحقها الإسلام،و أغراضا سیاسیة یحاربها الدین.و لقد کانت قصة عبد اللّه بن سبأ واحدة من محاولات أعداء الحق و أهله و محاربی دعاة العدل بقصد الإساءة إلی مبادئ أهل البیت و تلطیخ تاریخهم الناصع الوضّاء.

و من المؤسف أن نری الیوم من یستسلم لمثل هذه الأسطورة و یتخلی عن الأخذ بمقاییس العلم و أحکام العقل مستسلما للنقل رغم وضوح جوانب الوضع و تهافت هذه القصة الأکذوبة.

و للمثال نذکر ما کتبه بعض أولئک الرجال حول قضیة ابن سبأ و استنتاجهم منها أمورا ترکز بحثهم علیها فمنهم:

أبو زهو:

الشیخ محمد أبو زهو-من علماء الأزهر الشریف و أستاذ کلیة أصول الفقه فی الوقت الحاضر-قال تحت عنوان(التشیع ستار لأعداء الإسلام):

و یقینی أن التشیع کان ستارا احتجب وراءه کثیر من أعداء الإسلام،من الفرس

و اليهود،و الروم،و غيرهم ليكيدوا لهذا الدين و يقلبوا نظام هذه الدولة الإسلامية...

إلى أن يقول:أخذوا(أى أعداء الإسلام)يتحسسون أبواب الضعف،فلم يجدوا بابا أنجح لهم من الحيلة و الخداع،فاظهر جماعة منهم الإسلام،و انضموا إلى أهل التشيع مظهرين محبة أهل البيت،و سخطهم على من ظلم عليا رضى اللّه عنه،ثم أخذوا يسلكون به مفاوز الفتن و المهالك،حتى أبعدوا كثيرا منهم عن التدين الصحيح،بما بثوه فيه من العقائد الزائفة،التى يدور معظمها على هدم قواعد الدين، و التحلل من تعاليم الإسلام و أحكامه،و أصل هذه الفتنة على ما ذكره المؤرخون:

رجل يهودى يدعى عبد اللّه بن سبأ،غلا فى حب على حتى زعم أن اللّه تعالى حل فيه،و أخذ يؤلب الناس على عثمان...الخ.

هذا ما يقره أخونا الشيخ المعاصر محمد أبو زهو و يرسله إرسال المسلّمات، فيلقيه على طلابه ليؤدى رسالة الأجيال التى تحمل فى طياتها انتصار اليهود على المسلمين،و أن رجلا واحدا منهم استطاع بمكره و خداعه،أن يسوق أصحاب محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و يستدرجهم لأغراضه،و يفتنهم بدعوته فيستسلمون له بدون تدبر و تفكير، و يقومون بأمر لا باعث له إلا دعاية رجل يهودى فاستجابوا لدعوته،و خضعوا لإرادته و حاشاهم من ذلك،و هم أجل و أسمى،من أن ينزلوا إلى هذا الحضيض.و لكن الشيخ(سلمه اللّه)اقتنع بدون ما يوجب ذلك فنسأل اللّه لنا و له الهداية.

محمد أبو زهرة:

الشيخ محمد أبو زهرة أستاذ الشريعة الإسلامية بكلية الحقوق،جامعة القاهرة، يقول- (1)بعد ذكر الأسباب التى أدت إلى الفتن فى عهد عثمان-:و لقد كان من نتائج هذا تولية(عثمان)ولاة من أقاربه،أن حرك عوامل الاتهام بالمحاباة،و بعض هؤلاء لم يكونوا من ذوى السبق فى الإسلام و بعضهم كان النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قد أباح دمه إذ ارتد بعد إيمان«كعبد اللّه ابن سعد بن أبى سرح»و قد ولاه(عثمان)بعد عمرو بن العاص و قد أخذ هذا(أى ابن العاص)يؤلب الناس على«عثمان»بسبب ذلك حتى كان يقول:

«و اللّه إن كنت لألقى الراعى فأحرضه عليه»(أى على عثمان)و انتشرت بتولية عبد اللّه

1- (1) انظر المذاهب الإسلامية 46:47.

قالة السوء عنه:إذ أخذ الناس يتحدثون عنه،و هو الرجل الذى آمن ثم كفر ثم كذب على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم...

إلى أن يقول:و من الأسباب و هو أعظمها وجود طوائف من الناقمين على الإسلام الذين يكيدون لأهله،و يعيشون فى ظله،و كان أولئک يلبسون لباس الإسلام، و قد دخلوا فى الإسلام ظاهرا،و اضمروا الكفر باطنا،فأخذوا يشيعون السوء عن ذى النورين«عثمان»و يذكرون«على بن أبى طالب»رضى اللّه عنه بالخير و ينشرون روح النقمة فى البلاد،و يتخذون مما يفعله بعض الولاة ذريعة لدعايتهم،و كان الطاغوت الأكبر لهؤلاء:عبد اللّه بن سبأ و قد قال فيه ابن جرير الطبرى:

كان عبد اللّه بن سبأ يهوديا من أهل صنعاء أمه سوداء فأسلم زمان عثمان ثم تنقل فى بلدان المسلمين يحاول ضلالهم فبدأ ببلاد الحجاز،ثم البصرة ثم الشام فلم يقدر على ما يريد عند أحد من أهل الشام فأخرجوه حتى أتى مصر فقال لهم فيما يقول:لعجب ممن يزعم أن عيسى يرجع و يكذب بأن محمدا يرجع،و قد قال اللّه تعالى إن الذى فرض عليک القرآن لرادک إلى معاد،ثم محمد أحق بالرجعة من عيسى...

ثم قال لهم بعد ذلک:إنه كان ألف نبى،و لكل نبى وصى،و كان على وصى محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ثم قال:محمد خاتم النبيين و على خاتم الأوصياء.

ثم قال بعد ذلک:إن عثمان أخذها بغير حق،و هذا وصى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

فانهضوا فى هذا الأمر فحركوه،و أيدوه بالطعن على أمرائكم،و أظهروا الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر،لتستميلوا الناس...فبث دعاته و كان ممن استفسد فى الأمصار و كاتبوه و دعوا فى السر إلى ما عليه رأيهم،و أظهروا الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر،و جعلوا يكتبون إلى الأمصار كتبا،يضعونها فى عيوب ولاتهم،و يكاتبهم إخوانهم بمثل ذلک،و وسعوا الأرض إذاعة،و هم يريدون غير ما يظهرون و يسرون غير ما يبدون.

و هكذا نرى شيخ المؤرخين«الطبرى»بين كيف كانت مؤامرة هؤلاء لإفساد المسلمين و اتخذوا من الشكوى من بعض ولاة عثمان ذريعة للدعوة إلى الانتفاض و بث الأفكار المنحرفة،المفرقة إلى أن يقول:

و فی ظل هذه الفتن نبت المذهب الشیعی و إن کان الشیعة و معهم غیرهم یقول:

إن جذوره تمتد إلی وقت وفاة النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم...انظر المذاهب الإسلامیة ص 46-47.

أحمد أمین:

و هذا الأستاذ أحمد أمین یصفه بأنه ممن أوعز إلی أبی ذر-صاحب رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم-بتعالیمه فتأثر بها إذ یقول:

و نلمح وجه الشبه بین رأی أبی ذر الغفاری و بین رأی مزدک فی الناحیة المالیة فقط،فالطبری یحدثنا:«أن أبا ذر قام بالشام و جعل یقول:یا معشر الأغنیاء و اسوا الفقراء،بشر الذین یکنزون الذهب و الفضة و لا ینفقونها فی سبیل اللّه بمکاوی من نار تکوی بها جباهم و ظهورهم.فما زال حتی ولع الفقراء بمثل ذلک،و أوجبوه علی الأغنیاء،و حتی شکا الأغنیاء ما یلقونه من الناس»ثم بعث به معاویة إلی عثمان بن عفان بالمدینة حتی لا یفسد أهل الشام.و لما سأله عثمان:ما لأهل الشام یشکون ذربک؟قال:لا ینبغی للأغنیاء أن یقتنوا مالا.

یقول أحمد أمین-فنری من هذا أن رأیه قریب جدا من رأی مزدک فی الأموال.

و لکن من أین أتاه هذا الرأی؟ و بعد أن یوجه الأستاذ أحمد أمین هذا السؤال و یفکر عن وجود هذه الفکرة عند الصحابی الجلیل أبی ذر الغفاری رحمه اللّه و هنا ینقدح له الجواب عن ذلک فیقول:

یحدثنا الطبری أیضا عن جواب السؤال فیقول:«إن ابن السوداء لقی أبا ذر فأوعز إلیه بذلک،و إن ابن السوداء هذا أتی أبا الدرداء و عبادة بن الصامت،فلم یسمعا لقوله،و أخذه عبادة إلی معاویة و قال له:هذا و اللّه الذی بعث علیک أبا ذر (1).

ثم یقول بعد ذلک:و نحن نعلم أن ابن السوداء هذا لقب لقّب به عبد اللّه بن سبأ،و کان یهودیا من صنعاء،أظهر الإسلام فی عهد عثمان،و إنه حاول أن یفسد علی المسلمین دینهم،و بث فی البلاد عقائد کثیرة ضارة قد نعرض لها فیما بعد، و کان قد طوف فی بلاد کثیرة-فی الحجاز،و البصرة،و الکوفة،و الشام،و مصر، فمن المحتمل القریب أن یکون قد تلقی هذه الفکرة من مزدکیة العراق أو الیمن،

1- (1) الفجر 110 ط 2.

و اعتنقها أبو ذر حسن النية فى اعتقادها و صبغها بصبغة الزهد التى كانت تجنح إليها نفسه،فقد كان من اتقى الناس،و أورعهم و أزهدهم فى الدنيا،و كان من الشخصيات المحبوبة،التى أثرت فى الصوفية (1).

الخطيب:

و نرى أنفسنا مضطرين لأن ننقل ما كتبه الخطيب المعروف(بمحب الدين) ليستبين القارئ ما بلغته الحالة من الاعتماد على الأكاذيب،و الأخذ بالأساطير، و جعل ذلك فى طريق الحجاج كما يتجلى التحدى لمقام الصحابة الكرام،و الطعن عليهم بدون مبرر و إنما هو جرأة على مخالفة الحق و الانصياع لداعية الهوى.

و هذا الرجل قد صب هذه الأسطورة بقالب رغباته،و أبرزها فى إطار هواه- و كم له من اختراع فى شتى المجالات-بدون أن يستند إلى دليل،أو يعتمد على مصدر.

يقول:-بعد ذكره لابن سبأ-إن هذا الشيطان هو عبد اللّه بن سبأ من يهود صنعاء،كان يسمى ابن السوداء،و كان يبث دعوته بخبث و تدرج و دهاء،و استجاب له ناس من مختلف الطبقات...

إلى أن يقول:و عنى بالتأثير على أبناء الزعماء من قادة القبائل،و أعيان المدن، الذين اشترك آباؤهم فى الجهاد و الفتح،فاستجاب له من بلهاء الصالحين،و أهل الغلو من المتنطعين جماعات-كان على رأسهم فى الفسطاط:الغافقى ابن حرب العلكى، و عبد الرحمن بن عديس البلوى التجيبى الشاعر،و كنانة بن بشر،و سودان بن حمران،و عبد اللّه بن زيد بن ورقاء،و عمرو بن الحمق الخزاعى،و عروة بن النباع الليثى و قتيرة السكونى...

و كان على رأس من استغواهم ابن سبأ فى الكوفة:عمر بن الأصم،و زيد بن صوحان العبدى،و الأشتر مالك النخعى،و زياد بن النظر الحارثى و عبد اللّه بن الأصم.

1- (1) المصدر السابق-111.

و من البصـرة:حرقوص بن زهير السـعدى،و حكيم بن جبلة العبدى،و ذريح بن عباد العبدى،و بشر بن شريح،و الحطم ضبيعة القيسى،و ابن المحرش بن عبد.

أما المدينة فلم يندفع فى هذا الأمر من أهلها إلا ثلاث نفر:محمد بن أبى بكر،و محمد بن أبى حذيفة،و عمار بن ياسر.

و من دهاء ابن سـبأ و مكره:أنه كان يبث فى جماعـة الفسـطاط الدعوة لعلى،و فى جماعة الكوفة الدعوة لطلحة،و فى جماعة البصـرة الدعوة للزبير..ثم يذكر تزوير الرسائل من قبل ابن سبأ.

ثم يوجه(الخطيب)لومه على أهل المدينـة بل نقده للصـحابة فيقول:و كان ينبغى أن يكون ذلک سـببا ليقظتهم و يقظة على أيضا إلى أن بين المسـلمين من يزور عليهم الفساد لخطة مرسومة تنطوى على الشـر الدائم و الشـرر المسـتطير،و كان ذلک كافيا لإيقاظهم إلى أن هذه اليد الشـريرة هى التى زورت الكتـاب على عثمـان،بـدليل أن حـامله كـان يتراءى له معتمـدا ثم يتظـاهر بـأنه يتكتم عنهم،ليثير ريبتهم فيه،فراح المسلمون إلى يومنا هذا ضحية سلامة قلوبهم فى ذلک الحين...الخ (1).

و هكذا رسـخت هذه الأسطورة فى أدمغة كثير من الكتّاب المعاصرين و غيرهم، و لا نود الاستمرار بأقوال الآخرين منهم،و بما ذكرنا كفاية لإيضاح الموقف و خطره.

فابن سبأ-كما مر عليک من الأقوال و كما تقف عليه فى غير هذه الكتب-هو الذى حرک أبا ذر على معارضة معاوية فى تصرفه بالأموال،و أن تلک الفكرة لم تكن من روح الإسـلام و تعاليمه،و إنما هى فكرة مزدكية و كأن الآيات التى استشـهد بها أبو ذر كانت من تعاليم ابن سـبأ لا من تعاليم الإسلام.

كمـا أن هؤلاـء الـذين ذكرهم الخطيب من صـحابة و تـابعين،أصـبحو يترأسون دعوة ابن سـبأ و هم(البلهاء،أو أهل الغلو)-على حـد تعبير الخطيب-كعمار بن ياسر الذى ستقف على ترجمته قريبا و عبد اللّه بن زيد،و عمرو بن الحمق الخزاعى، و حكيم بن جبلة العبدى و زيد بن صوحان و.و.

1- (1) حملة رسالة الإسلام 23-24.

و أی جنایة أعظم من هذه الجنایة فی هذا التهجم العظیم علی رجال الأمة و عظمائها.

و لا ندری ما هو دلیل هذا الحکم،و سند هذه الأقوال.نعم لیس له مصدر إلا الطبری کما سیأتی.

و هـذا الکـاتب بالأـخص-و هو الخطیب-لاـ یثق بـأقوال الطـبری إلاـ بشـروط سـتقف علیهـا.و لکن قضـیة ابن سـبأ قـد وافقت هوی فی نفسه،فأصبح فیها-کحاطب لیل- خضوعا لهواه.

من أین و إلی أین...

إن قضـیة ابن سـبأ قـد لاـقت هوی فی قلوب کثیر من الکتاب من مستشـرقین و غیرهم فأحاطوها بعنایـة خاصـة،و منحوها مزیـدا من البیان فأسبغوا علیها ألفاظا براقة خلابة دبجتها أقلامهم و صاروا یقررونها و یرددونها ترديد المؤمن بصحتها الواثق بوقوعها،و کأنها من الحقائق التی لا تقبل التشکیک،و لا ینالها النقاش من دون التفات إلی ما وراء الأکمة من الخطر.

و بمزیـد الأسف انهم غفلوا أو تغافلوا عن مصـدر هـذه القضـیة من أین ابتدأت و إلی أین انتهت بأثرها العظیم و ما کان من ورائها من نتائج سیئة و عواقب و خیمة.

فابن سـبأ یقولون عنه-کما تقدم-هو مثیر الخلافات بین المسـلمین و هو مؤسـس مذهب یربو علی مائة ملیون،و هو البطل الذی استطاع أن یحقق آماله فی مصـر-بعـد أن فشل فی غیرها من البلدان الإسـلامیة-فجمع الجموع،و توجه إلی عاصـمة المسـلمین،و فیها الخلیفة عثمان لیقلب نظام الحکم،و قد تم له ما أراد کما ذکره الشیخان أبو زهو و أبو زهرة و غیرهما.

و هو الذی سـیطر علی مشاعر أبی ذر الصـحابی الجلیل-الذی وصـفه رسول اللّه صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم بالصدق-فأعلن علی معاویة إنکاره فی احتکار الأموال.

و إن ابن سبأ لقن أبا ذر فکرة مزدک المجوسی الإباحی-نعوذ باللّه من خطل الرأی-.

و إن ابن سـبأ اسـتطاع أن یجعل من کبار الصـحابة أعضاء لدعوته،و دعاة لفکرته، إلی آخر ما أحیطت بهذه القضیة من مبالغات،و هی تزداد علی ممر الأیام و لا نعلم إلی

أين ينتهى ذلک ما دام ضوء البحث و التتبع لم يتوجه إليها و ما دامت الأقلام تكتب بدون مراعاة لحق العلم.

و يجب على كل مفكر أن يتساءل عن مصدر هذه القصة،و ما هو المنبع الذى استقى منه المؤرخون،و من بعدهم الكتّاب من مستشرقين و غيرهم.

و هل تواتر النقل من طرق متعددة حتى يصبح الاعتماد عليها و تكون ذات قابلية لاعتبارها من الأمور التاريخية التى تعالج بعناء من حيث الدقة فى تعيينها.لما فيها من ملابسات،و ما تضمنته من أمور لا يقبلها العقل حتى لو وردت بطرق متعددة موثوق بها.

ربما يظن أن لهذه القضية مصدرا موثوقا به نظرا لشهرتها و انتشارها،فى عدة كتب من كتب التاريخ و الأدب،و لكن كل ذلک لم يكن،و ليس لها أى مصدر يمكن الركون إليه كما سنبينه إن شاء اللّه.

و بغض النظر عن مصدر القصة،و البحث عن سندها،و معرفة رجالها فإن العقل يحكم بسقوطها عن الاعتبار،لما فيها من مخالفة للعقل و بعد عن الحق و عدم ارتباطها بالواقع.

و لهذا فإن اللائق بمقام الأديب الباحث،أو المؤرخ المنصف،أو الأستاذ المثقف،أن يقف موقف المتثبت كما يقتضيه الحق و يفرضه الواجب العلمى،إذ المسألة ذات أهمية كبرى،لأنها تضمنت الحط من مقام المسلمين و سلبتهم ميزة التفكر،و النظر فى الأمور عند ما أطاعوا رجلا لم يعرفوه،و ساروا وراء خداعه سير الأغنام.

و فيها طعن على كبار الصحابة،و توهين لرجال الإسلام،و وصفهم بالبلاهة- على حد تعبير بعضهم-و انصياعهم لأقوال وافد غريب،و داعية شرک و إلحاد،هذا من جهة.

و من جهة ثانية أن فكرته لم تلق نجاحا إلا فى مصر،فإنهم انخدعوا فيه بسرعة، و مالوا إليه بأقصر وقت،و هو داعية مجهول،و رائد غريب كيف يقوم فيهم بكل صراحة،و من دون حذر،يدعوهم و يؤلبهم على الانتفاضة ضد سلطان قائم،و يحثهم على العصيان،بدون سبب و لا سابقة.!!

فـأين أهـل الرأى و ذوو الحزم و ذوو التفكير،أ كانوا كلهم(بلهاء) (1)لا يعقلون؟! إن هـذا ليس من العقل و لا من المنطق أن تخضع مصـر بهـذه السـرعة و هى الأمة المسـلمة،و فيها أصـحاب محمد صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم من ذوى العقول الراجحة،و الفكر الثاقب، و ذوى الخبرة و التجارب.

و لنترك الحديث للدكتور طه حسين حول أسطورة ابن سبأ و ما فيها من مخالفات للواقع(باختصار).

يقول الدكتور فى كتابه الفتنة الكبرى عثمان الفصل 14:

و هناك قصـة أكبر الرواة المتأخرون من شأنها،و أسـرفوا فيها حتى جعلها كثير من القدماء مصدرا لما كان من الاختلاف على عثمان،و لما أورث هذا الاختلاف من فرقة بين المسلمين لم تمح آثاره،و هى قصة عبد اللّه بن سبأ الذى يعرف بابن السوداء.

قال الرواة:كان عبد اللّه بن سـبأ يهوديا من أهل صـنعاء حبشى الأم فأسلم فى أيام عثمان،ثم جعل يتنقل فى الأمصار يكيد للخليفة و يغرى به،و يحرض عليه، و يذيع فى الناس آراء محدثة أفسدت عليهم رأيهم فى الدين و السياسة جميعا...

و إلى ابن السوداء يضـيف كثير من النـاس كـل ما ظهر من الفساد و الاختلاف فى البلاد الإسـلامية،أيام عثمان،و يـذهب بعضـهم إلى أنه أحكم كيده إحكاما،فنظم فى الأمصار جماعات خفية تستتر بالكيد؛و تتداعى بينها إلى الفتنة،حتى إذا تهيأت لها الأمور و ثبت على الخليفة فكان ما كان من الخروج و الحصار و قتل الإمام.

و يخيل إلىّ أن الذين يكبرون من أمر ابن سـبأ إلى هذا الحد يسـرفون على أنفسـهم و على التاريخ إسرافا شديدا،و أول ما نلاحظه أنا لا نجد لابن سـبأ ذكرا فى المصادر المهمـة التى قصت أمر الخلاف على عثمان،فلم يذكره ابن سـعد حين قص ما كان من خلافة عثمان،و انتقاض الناس عليه،و لم يذكره البلاذرى فى أنساب الأشـراف،و هو فيما أرى أهم المصادر لهذه القصة و أكثر تفصيلا.و ذكره الطبرى عن سيف بن عمر و عنه أخذ المؤرخون الذين جاءوا بعده فيما يظهر.

1- (1) هكذا يعبر الخطيب المعروف(بمحب الدين).

و لست أدرى أ كـان لابـن سـبأ خطر أيـام عثمان أم لـم يكن؟و لكن اقطع بأن خطره -إن كان له خطر-ليس ذا شأن،و ما كان المسـلمون فى عصر عثمان ليعبث بعقولهم و آرائهم و سلطانهم طارئ من أهل الكتاب أسلم أيام عثمان...

و من أغرب ما يروى من أمر عبد اللّه بن سبأ هذا أنه هو الذى لقن أبا ذر نقد معاوية فيما يقولون من أن المال هو مال اللّه،و علمه أن الصواب أن يقول:إنه مال المسلمين.و من هذا التلقين إلى أن يقال إنه هو الذى لقن أبا ذر مذهبه كله فى نقد الأمراء و الأغنياء...

فالذين يزعمون أن ابن سـبأ قد اتصل بأبى ذر فألقى إليه بعض مقاله يظلمون أنفسهم،و يظلمون أبا ذر و يرقون بابن السوداء هذا إلى مكانة ما كان يطمع فى أن يرقى إليها.

و الرواة يقولون:إن أبـا ذر قال ذات يوم لعثمان بعـد رجوعه من الشام إلى المدينـة:لا ينبغى لمن أدى زكاة ماله أن يكتفى بـذلك حتى يعطى السائل،و يطعم الجائع،و ينفق فى سبيل اللّه،و كان كعب الأحبار حاضـرا هذا الحديث.فقال:من أدى الفريضة فحسـبه.فغضب أبو ذر و قال لكعب:يا بن اليهوديـة!ما أنت و هـذا؟ أ تعلمنا ديننا؟!ثم وجأه بمحجنه.فأبو ذر ينكر على كعب الأحبار أن يعلمه دينه،بل أن يدخل فى أمور المسلمين حتى بإبداء الرأى،مع أن كعب الأحبار مسلما أبعد عهدا بالإسلام من ابن سبأ و كان مجاورا فى المدينة...

و أكبر الظن أن عبد اللّه بن سـبأ هذا إن كان كل ما يروى عنه صـحيحا إنما قال ما قال و دعا إليه بعد أن كانت الفتنة،و عظم الخلاف،فهو قد اسـتغل الفتنة و لـم يثرها، و أكبر الظن كذلك أن خصوم الشيعة أيام الأمويين و العباسيين قد بالغوا فى أمر عبد اللّه بن سبأ هذا ليشككوا فى بعض ما نسب من الأحداث إلى عثمان و ولاته من ناحية و ليشنعوا على على و شيعته من ناحية أخرى،فيردوا بعض أمور الشيعة إلى يهودى أسلم كيدا للمسلمين..إلى أن يقول:

هذه كلها أمور لا تستقيم للعقل و لا تثبت للنقد،و لا ينبغى أن تقام عليها أمور التاريخ..

ثم يأخذ الدكتور فى بيان أسباب الثورة على عثمان.تركنا التعرض لها.

المدينة المنورة:

ثم نعود لعاصمة المسلمين المدينة المنورة و فيها المهاجرون و الأنصار الذين خاضوا غمار الحرب فى سبيل إعلاء كلمة الإسلام،و فى طليعتهم الإمام على بن أبى طالب.

كيف يصح أن يقال بأنهم استسلموا و لم يقفوا موقف الحزم أمام جيش قاده ابن سبأ،و قطع به تلك المسافة البعيدة من مصر إلى المدينة،فيحتلها،و يقلب نظام الحكم،و يقتل الخليفة،و لم يقف المسلمون موقف الدفاع،لإنقاذ الموقف و دفع هذه الكارثة.

و لكن الواقع هو غير هذا؛فإن الثورة لم تكن من مصر فقط،و لم يكن القائد لها ابن سبأ إذ لا وجود له و إنما كانت من المدينة للاستياء العام الذى انتشر فى بلاد الإسلام من سوء تصرف الأمويين،و أعمال مروان خاصة،مما دعا إلى تداول الرأى بين الصحابة لإصلاح الوضع الراهن كما ذكر ذلك أكثر المؤرخين.

و لنترك الحديث للأستاذ أحمد أمين فى آخر مؤلف ظهر له و هو(يوم الإسلام) يقول أحمد أمين:و قد سار عثمان فى السنين الست الأولى سيرة عادلة رحيمة،و لكنه فى الست الأخيرة كانت قد كبرت سنه،و خضع لأقاربه من الأمويين،فترك تصرف الأمور لرئيسهم مروان بن الحكم الأموى...فاغضب ذلك كثيرا من الصحابة، و خصوصا عليا و الزبير و طلحة و غيرهم،فأرادوا أول الأمر أن يحرروا الخلافة من هذه السلطة،فنصحوا عثمان بالاعتزال فأبى،و لم تمض إلا فترة قصيرة حتى كان عثمان فى المدينة،و ليس معه إلا نفر قليل من الأصدقاء،و كان من أكبر الشخصيات فى محاربته و تأليب الناس عليه-عائشة بنت أبى بكر،و استطاع خصومه جميعا أن يثيروا الأمصار عليه،و اجتمع أهل المدينة حول بيته،و رفضوا أن يتزحزحوا عنه،و ثار المصريون أيضا لما علموا أن كتابا كتب باسم عثمان إلى عامله عبد اللّه بن أبى سرح يأمره فيه بالفتك بالزعماء عند عودتهم.. (1).

و يقول:و كان من أهم ما نقم الناس على عثمان أن طلب منه عبد اللّه بن خالد بن أسيد الأموى صلة فأعطاه أربعمائة ألف درهم،و أعاد الحكم بن أبى العاص

1- (1) انظر يوم الإسلام لأحمد أمين-57.

بعد أن نفاه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،و أعطاه مائة ألف درهم،و تصدق رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بموضع سوق المدينة على المسلمين فاقطعه عثمان الحارث بن الحكم،و اقطع مروان فدک، و قد كانت فاطمة طلبتها بعد وفاة أبيها،تارة بالميراث،و تارة بالنحلة،فدفعت عنها و حمى المرعى حول المدينة كلها،من مواشى المسلمين كلهم إلا عن بنى أمية، و أعطى عبد اللّه بن أبى سرح جميع ما أفاء اللّه عليه من فتح إفريقيا بالغرب،و هى من طرابلس إلى طنجة من غير أن يشركه أحد من المسلمين.

و أعطى أبا سفيان مائتى ألف من بيت المال فى اليوم الذى أمر فيه لمروان بن الحكم بمائة ألف و قد كان زوج ابنته أم أبان،فجاء زيد بن أرقم صاحب المال بالمفاتيح فوضعها بين يدى عثمان و بكى.

فقال عثمان:أ تبكى إن وصلت رحمى؟قال:لا و لكن أبكى لأنى أظنک أخذت هذا المال عوضا عما كنت أنفقته فى سبيل اللّه فى حياة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،و اللّه لو أعطيت مروان مائة درهم لكان كثيرا.فقال(عثمان):الق المفاتيح فإنا سنجد غيرک.

و أتاه أبو موسى الأشعرى بأموال كثيرة من العراق فقسمها كلها فى بنى أمية.

و زوج الحارث بن الحكم فأعطاه مائة ألف من بيت المال،و نفى أبا ذر رحمه اللّه إلى الربذة لمناهضته لمعاوية فى الشام فى كنز الذهب و الفضة.

و ضرب عبد اللّه بن مسعود حتى كسر أضلاعه،و عدل عن طريق عمر فى إقامة الحدود،ورد المظالم،و كف الأيدى العابثة،و الانتصاب لسياسة الرعية..

الخ (1).

و كيف كان فإن الثورة ابتدأت من المدينة،و قام جل الصحابة فى المعارضة لإصلاح الوضع مما ارتكبه الأمويون عند ما استغلوا تلک الفرصة.و قد كاتب الصحابة أهل الأمصار:إن أردتم الجهاد فهلموا فإن دين محمد قد أفسده خليفتكم (2)

1- (1) يوم الإسلام لأحمد أمين ص 58:59.

2- (2) انظر البلاذرى 5-60 و ابن الأثير و الطبرى و غيرهم.

المصدر:

اشارة

نرى أنفسنا ملزمين بأن نستعرض مصدر هذه القصة،و نقف على المنبع الذى استقى منه الكتّاب معلوماتهم عنها،لأنا قد وجدنا بعض الكتّاب ممن يميل إلى التشكيک فى صحتها و لكنهم لا يستطيعون أن يقولوا ذلک بصراحة لأنهم يظنون أنها متعددة الروايات متواترة عن الثقات،من المؤرخين،الأمر الذى يدعو إلى عدم طرحها و لكنه ينفى المبالغات التى فيها.

و يذهب بعضهم إلى الجزم بصحتها لأنها وردت عن راو خرج حديثه الترمذى و من هذا و ذاک اختلط الأمر على كثير منهم.

يقول الدكتور ضياء الدين الريس:و قد أخذ بعض المؤلفين يميل إلى الشک فى شخصية هذا الرجل(و هو عبد اللّه بن سبأ)و لكن تعدد الروايات عنه،و تواتر أنباء الثقات من المؤرخين تؤيد القول بوجوده،و إن كان محل المبالغة أنه ينسبون إليه كل ما حدث فى عهد عثمان و يحملونه تبعته...الخ (1).

فالدكتور الريس هو واحد من أولئک الذين اشتبه عليهم الأمر فظن تعدد طرق الروايات لقضية ابن سبأ إذ وجدها مذكورة فى عدة كتب و لكنه لا يرى صحة ما أحاط بهذه الشخصية من حكايات،فهو يذهب إلى وجود شخصيته مجردة من المبالغات، و كل اعتماده فى هذا القول هو أن الروايات متعددة،و الأنباء عن ابن سبأ متواترة،قد نقلها الثقات من المؤرخين.

و نحن هنا نستشعر إدراكه للحقيقة و ميله إلى الشک بوجود شخصية فى التأريخ اسمها عبد اللّه بن سبأ،غير أنه لا يقوى على الافلات من تأثير الأساليب القديمة و قواعدها و التى أخذت من طبيعة العمل بالرواية و اتصالها بالحديث الشريف،فكان ما يرويه(الثقات)قطعيا و إن كان الأمر يتعلق بحوادث أو أفكار أو أشخاص لكل الناس الحق فى النظر إليها نظرة واقعية،و نرى أن واجبنا العلمى يقضى بتوجيه أشعة البحث العلمى لنرى على ضوئه ما كمن فى ظلمات الجهالة من حقائق يلزم إبرازها،و إزالة كل ما يعتريها من خفاء.

1- (1) النظريات السياسية الإسلامية-41.

و لا شک أن مسألة کهذه یجب علی کل باحث حر أن یعطیها مزیدا من الوقت، لأنها ذات نتائج و خیمة أدت بالمجتمع إلی أضرار و وقوع فوادح یذوب لها قلب کل مسلم،فلننظر علی ضوء البحث ما هو مصدرها؟ إنه المصدر الأول لهذه القضیة التی لم یسبقه أحد إلی ذکرها هو:

أبو جعفر محمد بن جریر الطبری المتوفی سنة 310 صاحب التفسیر الکبیر و مؤلف تاریخ الأمم و الملوک المعروف بتاریخ الطبری.و هو المصدر الوحید لهذه القصة و جمیع ما یتعلق بأخبار عبد اللّه بن سبأ.

و أخذ عن ابن جریر کل من ابن الأثیر المتوفی سنة 630 و ابن کثیر المتوفی سنة 774 و ابن خلدون المتوفی سنة 808 و غیرهم.

و کل ما أورده ابن جریر حول أخبار ابن سبأ و حوادث عهد عثمان و أخبار الردة إنما کان مصدره سیف بن عمر المتوفی فی عهد الرشید أو بعده.

و لیس لنا أن نتکلم حول ابن جریر و نقله لأمثال هذه الأسطورة،فإنه نقل أقوالا و ذکر ما بلغه و سمی قائلیها،و ترک للباحث الحکم لها أو علیها و قد خرج الطبری عن عهدة المؤاخذات بما ذکره فی مقدمة کتابه بقوله:

(فما یکن فی کتابی هذا من خبر ذکرناه عن بعض الماضین مما یستنکره قارئه، أو یستشنعه سامعه،من أجل أنه لم یعرف له وجها فی الصحة،و لا معنی فی الحقیقة فلیعلم أنه لم یؤت فی ذلک من قبلنا،و إنما من قبل بعض ناقلیه إلینا،و انا إنما أدینا ذلک علی نحو ما أدی إلینا) (1).

و بهذا فهو لم یقرر صحة کل ما نقل إلیه-و قد ترک باب النقاش مفتوحا للباحث-کما أنه یأتی فی کتابه بالأخبار المتعارضة التی یستحیل أن تصح معا و لا یتعرض لها بالموازنة و الترجیح إلا إذا دعت الحاجة لذلک.

و الطبری،لا شک مؤرخ جلیل و فقیه عالم،نذر نفسه للعلم و المعرفة و من وجوه علمه أن یجعل فی المقدمة تنبیها علی طریقة کتابته لتاریخ الأمم و الملوک و بیان أنه أخذ أخبار الماضین کما نقلت إلیه و بذلک فهو ینأی بنفسه عن مؤاخذات عدم

1- (1) تاریخ الطبری 1:5. [1]

الصحة و الاختلاق و الوضع،و لم يجعل نفسه وراء نقوله و الأخبار التى أثبتها،و لم يطالبنا بتصديق كل ما ورد فى كتابه و الاعتراف منا بصحة ما ضمّه تاريخه.

أخبار الطبرى:

اشارة

و نرى من الأنفع هنا أن ننقل للقارئ الكريم ما كتبه الخطيب(المعروف بمحب الدين)حول تاريخ الطبرى.يقول الخطيب:

إنما ينتفع بأخبار الطبرى من يرجع إلى تراجم رواته فى كتب الجرح و التعديل، فتراجم شيوخه مباشرة و شيوخهم توجد فى مثل تذكرة الحفاظ للذهبى،و تراجم الرواة الذين كانوا إلى أواخر المائة الثانية توجد فى خلاصة تهذيب الكمال للصفى الخزرجى،و تهذيب التهذيب للحافظ ابن حجر،و الذين تناولهم الجرح من الضعفاء يترجم لهم الحافظ الذهبى فى ميزان الاعتدال،و فى طبقات ابن سعد،و تاريخ بغداد للخطيب،و تاريخ دمشق لابن عساكر،و تاريخ الإسلام للذهبى،و البداية و النهاية لابن كثير،و ان كتب مصطلح الحديث تبين الصفات اللازمة للراوى و متى يجوز الأخذ برواية المخالف و لا نعرف أمة عنى مؤرخوها بتمحيص الأخبار و بيان درجاتها، و شروط الانتفاع بها كما عنى بذلک علماء المسلمين،و إن العلم بذلک من لوازم الاشتغال بالتاريخ الإسلامى.

أما الذين يحتطبون الأخبار بأهوائهم،و لا يتعرفون إلى رواتها و يكتفون بأن يشيروا فى ذيل الخبر إلى الطبرى رواه فى صفحة كذا من جزئه الفلانى،و يظنون أن مهمتهم قد انتهت بذلک فهؤلاء من أبعد الناس عن الانتفاع بما حفلت به كتب التاريخ الإسلامى من ألوف الأخبار.

و لو أنهم تمكنوا من علم مصطلح الحديث و أنسوا بكتب الجرح و التعديل و اهتموا برواة كل خبر كاهتمامهم بذلک الخبر،لاستطاعوا أن يعيشوا فى جو التاريخ الإسلامى،و لتمكنوا من التمييز بين غث الأخبار و سمينها و لعرفوا للأخبار أقدارها، بوقوفهم على أقدار أصحابها .(1)

1- (1) مجلة الأزهر المجلد 24 ص 210 سنة 1372.

هذا ما يقرره الكاتب الخطيب.و قبل أن ندخل فی موضوع البحث عن سند الروايات فی قضية ابن سبأ نود أن نسائل هذا الكاتب:

هـل التزم هو بمـا قرره هنـا فبحث عن رجـال السـند لما ينقله عن الطبری و غيره؟! و هل تمكن من علم مصـطلح الحـديث؟و أنس بكتب الجرح و التعـديل فوقف عن قبول روايـة من جرحوه؟و تقبل روايـة من عـدلوه؟ فإن أجاب بنعم فالواقع يكـذبه،لأنه أورد فی كتاباته أشـياء لا تستند إلی مصدر موثوق به،فقرر قبولها طاعة لهواه.

و أجلی مثال لذلک هو ما ذكرناه هنا عن قضية ابن سبأ التی انفرد بها الطبری و لـم يكن فی سند الرواية من يتصف بصفة القبول فكيف اعتمد عليهـا؟! و لا أدری أن ما ذكره هنا لما ذا لا يطبقه علی نفسه بل يريـد ذلک للغير و ما هو إلا من(الآمرين بالمعروف التاركين له الناهين عن المنكر الفاعلين له).

و إلی القراء بيان سند الرواية ليتضح لهم أن ما كتبه الخطيب لا يعدو حبرا علی ورق.

السند:

رأينا فيما سـبق كيف أخذت أسطورة ابن سبأ مأخذها فی التاريخ الإسلامی و شقت طريقها إلی الهدف الذی وضعت من أجله،و هو الطعن فی عقائد المسـلمين، و إبرازهم فی إطار الجهالة و الانخداع،ممن يتظاهر لهم بأمور ينسـبها إلی الدين،و قد عبر كثير من الكتّاب عن أولئک الرجال العظام الذين يدعی بعض الكتّاب أنهم اسـتجابوا لابن سـبأ:بأنهم تقبلوا ذلک عن حسن نية.و بعضـهم يصـفهم بالبلاهة، و بعضهم بالغلو إلی آخر ما عندهم من سوء التعبير.

و قد رأينا أيضا أن ابن سـبأ أصـبح ذا قوة و سـلطان ينشـر عقائده،و يبث مفاسده فی المجتمع الإسلامی،بدون خوف من سلطان،أو حذر من مؤاخـذة الرأی العام،حتی اسـتطاع أن ينحرف بأكثر المسـلمين عن جادة الحق بدون أن تمسه عقوبة،أو يناله ضـرر من ولاة الأمصار الذين عرفوا منه السعی بما يضر بالدولة،فی دعوة الناس إلی ثورة ضد الخليفة عثمان.

و قد ذكروا أن والى البصرة اكتفى بإخراجه من البلد،و أن معاوية عند ما علم بأمره لم يعمل معه أى شىء،و ابن أبى سرح فى مصر لم يؤاخذه بشىء،و هو يرى تحشد جموعه،و تأهبهم لغزو المدينة،لحدوث انقلاب إلى آخر ما ذكروه من تهويل أمره و رفع شأنه.

يقول الدكتور طه حسين-بعد ذكره لقضية ابن سبأ و استبعاده صحتها-:

فلنقف من هذا كله موقف التحفظ،و التحرج و الاحتياط،و لنكبر المسلمين فى صدر الإسلام عن أن يعبث بدينهم،و سياستهم،و عقولهم رجل أقبل من صنعاء، و كان أبوه يهوديا،و كانت أمه سوداء و كان هو يهوديا ثم أسلم لا رغبا و لا رهبا،و لكن مكرا و كيدا و خداعا، ثم أتيح له من النجح ما كان ينبغى،فحرض المسلمين على خليفتهم حتى قتلوه و فرقهم بعد ذلك أو قبل ذلك شيعا و أحزابا.

هذه كلها أمور لا تستقيم للعقل،و لا تثبت للنقد،و لا ينبغى أن تقام عليها أمور التاريخ... (1)

نعم إن هذه الأمور التى أحاطت بهذه القصة و ما تضمنته من أشياء لا يمكن تصديقها-و هى كافية فى طرحها،و عدم الاعتماد عليها،و لا حاجة بعد هذا إلى البحث عن السند و معرفة حالة الرواة،لأن ذلك-كما هو الواقع-شىء زائد لا يحتاج إليه.

و لكن نظرا لما لهذه القصة من أهمية،و أن بعضهم يظن أن رواتها ثقات فقد دعت الحاجة إلى معرفة حالة رجال السند،و الاستماع لأقوال علماء الرجال ليتضح الأمر،و تظهر الحقيقة،و يكون الحكم للعقل لا للعاطفة،و للعلم لا للجهل،و للحق لا للباطل.

و إن مستند هذه القصة هو واحد لا غير و هو سيف بن عمر و قد انفرد الطبرى بذلك و عنه أخذ بقية المؤرخين كما سبق.و الآن نضع رجال السند أمام القراء و لهم الحكم.

1- (1) الفتنة الكبرى-134.

رجال السند:

الطبری-فی حوادث سنة 30-یقول:و فی هـذه السـنة کان ما ذکر من أمر أبی ذر،و إشـخاص معاویة إیاه من الشام إلی المدینة،و قد ذکر فی سبب إشـخاصه إیـاه منها (من الشام)إلیها(إلی المدینـة)أمور کثیرة کرهت ذکر أکثرها،فأما العاذرون معاویـة فی ذلک فإنهم ذکروا فی ذلک قصة کتب بها إلی السـری یذکر أن شـعیبا حدثه عن سیف، عن عطیة عن یزید الفقعسی قال:لما ورد ابن السوداء الشام لقی أبا ذر فقال:یا أبا ذر أ لا تعجب إلی معاویـة یقول:المال مال اللّه...الـخ (1)کما ذکره أحمـد أمین فی اسـتدلاله علی أن ابن السوداء لقن أبا ذر مبادئ مزدک المجوسی إذ یقول أحمد أمین:

و نلمح وجه الشبه بین رأی أبی ذر و بین رأی مزدک فی الناحیة المالیة فقط فالطبری یحدثنا:

أن أبا ذر قام بالشام و جعل یقول:(یا معشر الأغنیاء و اسوا الفقراء.بشر الذین یکنزون الذهب و الفضة)...الخ کما تقدم.

ثم یقول أحمد:و لکن من أین أتاه هذا الرأی؟(أی أبا ذر)یحدثنا الطبری أن ابن السوداء لقی أبا ذر فأوعز إلیه بذلک... (2).

و هو ما أشرنا إلیه الآن،فحدیث الطبری کان عن مکاتبة من السری أن شعیبا حدثه عن سیف عن عطیة عن یزید الفقعسی.

فهؤلاء هم رجال سند هذه القصة و مستند حکم أحمد أمین علی أبی ذر بأنه یری رأی مزدک،و أنه أخذه عن ابن السوداء!.

فمن هم هؤلاء الرجال؟و ما هی منزلتهم؟و ما محلهم من الصدق؟!ستأتی الإجابة عن ذلک قریبا إن شاء اللّه.

و لا یفوتنا هنا أن نلفت نظر القارئ إلی أن الطبری یجعل هذه القصة من قبل العاذرین لمعاویة،و هم المتعصـبون له و ناهیک ما للتعصـب من أثر فی الافتعال.

1- (1) الطبری 5:66 [1] ط 1.

2- (2) انظر فجر الإسلام-110.

أمـا مـا يتعلق بقضـية ابن السوداء و تجواله فى الأمصـار الإسـلامية و فشـل محاولاته، و أخيرا يحط رحله فى مصـر و أنه أظهر قوله فيها فى الرجعة و الوصاية و أنه بث دعاته- كما يروى الطبرى-و كاتب من كان اسـتفسد فى الأمصار و كاتبوه و دعوا فى السر إلى ما عليه أمرهم إلى آخر ما رواه الطبرى (1)و ذكره الشيخ أبو زهرة و غيره من الكتّاب.

و إذا رجعنا لمصدر القصة فحديث الطبرى هكذا يقول:فيما كتبه إلى السرى:

عن شـعيب،عن سـيف،عن عطية،عن يزيد الفقعسى قال كان عبد اللّه بن سبأ يهوديا من أهل صنعاء،أمه سوداء فأسلم زمان عثمان،ثم تنقل فى بلدان المسلمين يحاول ضلالهم فبدأ بالحجاز،ثم البصرة ثم الكوفة.إلى آخر ما ذكر فى ج 5 ص 98- 99 ط 1.

فالحديث يدور حول الطبرى،و السرى،و شعيب و سيف و عطية و يزيد الفقعسى.هؤلاء هم رجال سند الرواية و هؤلاء مستند من ذكروا ابن سبأ فى كتبهم و عظموا أمره فى كتاباتهم و خلقوا منه شخصية قوية ذات أثر فى تاريخ المسلمين بل غير مجرى التاريخ.

و أصـبحت الرواية متواترة و مشهورة و قد لعبت طريقة الاتباع دورها فى تجميد العقل و ترك التحقيق على ما فيها من مخالفة لقواعد التطور و قوانين الحياة التى تقضـى باستخدام مقاييس العقل فيما يروى و يصدر عن الناس فأى مقنع فى أن تكون أقوى دعامة لعدم الرد على صحة قضية ابن سبأ تواترها أو صدورها من ثقات كالطبرى و هو راوية و لم يفصح عن تقرير كل ما حواه تاريخه؟و لم يقل بصحة ما ضمه.

كما أن أى رواية فى قيمتها تتأثر بسـندها.و قد انحصـرت قصة ابن سـبأ فى دائرة الطبرى و بدأ عرضـها على لسان سيف و لم يشارك الطبرى أحد من المؤرخين الثقات الآخرين كما أن الفجوة الزمنية تبقى قائمة لا تغلقها أو تملأها ذيول من الأكاذيب.

فأين كان ذكر ابن سبأ قبل رواية سيف؟ و نتنزل لمقتضيات الأمانة و مستلزمات التحقيق و نسلط أشعة التحقيق على رجال فصة ابن سبأ.

1- (1) الطبرى 5-98 [1] ط 1.

و الواجب يقضى علينا عدم التصديق بأمثال هذه المفتريات و لكن لزيادة الإيضاح و التنازل للحصول على ما هو الواقع نجعل هؤلاء الرجال تحت أشعة التحقيق العلمى.

التحقيق:

اشارة

الطبرى:أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى المتوفى سنة 310 صاحب التأريخ الكبير المعروف بتاريخ الطبرى،و لا يتعلق لنا غرض بالبحث عن شخصيته فهو شخصية معلومة و من رؤساء المذاهب البائدة،و قد تبرأ من عهدة النقل بقوله الآنف الذكر:فما يكن فى كتابى هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكره قارئه، أو يستشنعه سامعه،من أجل أنه لم يعرف له وجها فى الصحة،و لا معنى فى الحقيقة،فليعلم أنه لم يؤت فى ذلك من قبلنا،و إنما أتى من قبل بعض ناقليه إلينا، و إنما أدينا ذلك على نحو ما أدى إلينا (1).

و على هذا أصبحت المسئولية على عاتق الرواة الذين روى عنهم،و هنا نجرى التحقيق العلمى عن رجال سند هذه القصة الذين روى عنهم الطبرى و هم:

السرى،و شعيب،و سيف بن عمر،و عطية،و يزيد الفقعسى.فمن هم هؤلاء و ما مقدار تحملهم للرواية؟و ما ذا يقول عنهم علماء الرجال؟

1-السرى:

هذا هو أول سلسلة الرواية،و الطبرى عند ما يروى عنه يقول:كتب إلىّ السرى،أو فيما كتب إلىّ به السرى.من دون أن ينسبه إلى أبيه أو عشيرته.

و لكنه روى عنه مرة مشافهة فقال:حدثنى السرى بن يحيى (2).

فظهر أن الذى يحدث عنه الطبرى هو السرى بن يحيى،و هو مع ذلك مجهول لا يعرف و يتردد هذا الاسم بين جماعة هم:

السرى بن يحيى بن اياس و هذا لم يعاصر الطبرى،لأن وفاة السرى بن يحيى

1- (1) الطبرى 1-5. [1]

2- (2) تاريخ الطبرى 3:213.

سنة 167 أی قبل ولادة الطبری بسبع و خمسین سنة إذ ولادة الطبری سنة 224 و وفاته سنة 310 فهذا لا یمکن أن یکون هو.

السری بن یحیی بن السری ابن أخی هناد بن السری ذکره ابن أبی حاتم المتوفی سنة 327 و هذا کان فی عصر الطبری لأنه عاصر ابن أبی حاتم و لکن لم تذکر له روایة،أو یشیر أحد إلی من روی عنه و لم یصفه أحد بأنه محدث أو حدث عن أحد أو حدثوا عنه و بهذا فهو مجهول.

و علی أی حال لا یوجد بهذه النسبة من عرف بالحدیث أو اشتهر بالروایة.

و بعضهم یری أن السری الذی یروی عنه الطبری هو السری بن إسماعیل الهمدانی الکوفی ابن عم الشعبی و کاتبه،و هذا أیضا لا یصح لأن وفاة الشعبی سنة 103 و ولادة الطبری 224 و لا یمکن أن یمتد عمر السری هذا إلی زمن الطبری فیحدثه،و مع هذا فقد اتصف بصفات توجب رد ما یرویه فهو ضعیف و متروک الحدیث کما یقول ابن المبارک و أبو داود و النسائی و هو لیس بثقة و أحادیثه التی یرویها لا یتابعه علیها أحد کما یقول ابن عدی.و قال ابن حبان:کان یقلب الأسانید،و یرفع المراسیل إلی آخر ما وصفوه به (1).

و یری بعضهم أن السری الذی یروی عنه الطبری هو:السری بن عاصم ابن سهل أبو عاصم الهمدانی مؤدب المعتز باللّه،و قد ینسب إلی جده،و هذا معاصر للطبری لأن وفاته سنة 258 فی بغداد و کان عمر الطبری عند وفاة السری هذا ثلاثین سنة فیمکن أن یکون هو.

و مع هذا فقد کذبه ابن خراش و وهاه بن عدی،و قال:یسرق الحدیث و قال النقاش:إنه وضاع،و ذکر الذهبی حدیثین من وضعه (2).

و کیف کان فإن الجهالة تحیط بهذا الراوی الذی یروی عنه الطبری،و لو فرضنا أنه معروف و أنه ثقة،و لکن یلزمنا أن نحقق عن شیخه الذی یروی عنه و هو شعیب.

1- (1) انظر تهذیب التهذیب 3:459-460،و [1]میزان الاعتدال 1:270.

2- (2) میزان الاعتدال 1:270 و لسان المیزان 3:12.

2-من هو شعيب؟

شعيب بن إبراهيم و هو مجهول،قال الـذهبى:شـعيب بن إبراهيم روايـة كتب سـيف عنه:فيه جهالة؛و ذكره ابن عدى و قال ليس بالمعروف و هذا لا يحتاج إلى إطالة بحث،لأن الجهالة قد أرخت عليه سدولها و لا يعرف إلا أنه راوية سيف بن عمر.

3-من هو سيف؟

سيف بن عمر الضبى الأسـدى و يقـال التميمى البرجمى و يقال السـعدى الكوفى المتوفى بعـد سـنة 170 و هو راوية أحاديث السـقيفة و الردة،و حوادث عهد عثمان، و هو نقطة انطلاق أسـطورة ابن سـبأ،و عليه تدور أخبار السبئية،و نشأتهم و أثرهم فى المجتمع الإسلامى،و ما أحدثوه من بدع،و ما أوجدوه من خلاف.

إنه هو المبدع لهذه الأساطير،و الموجد لتلك الحوادث،و المنفرد بتصوير شخصية ابن سبأ،و البانى لكيانه.

و قد وصـفوه بأنه وضاع كذاب،زنديق يروى الموضوعات عن الاثبات،و لننظر أولا إلى من يروى عنهم سيف أو بعبارة أوضح من يضع عنهم الروايات،ثم نعود إلى الحديث عن سيف.

4-من هو عطية؟

لا يـدرى من هو عطيـة الـذى يروى عنه سـيف فهل هو عطيـة العوفى المتوفى سـنة 110 أم عطيـة بن قيس الكلابـى المتوفى سـنة 121 أم غيرهما؟فإن كان المراد به العوفى فذلك شـىء بعيد جدا لأن عطية العوفى كان من التابعين و توفى سـنة 110 فسيف بن عمر لم يدركه لأنه متأخر عنه بل كان فى بطون الأرحام و ليس من الصـعب على سـيف أن يـدعى الروايـة عنه و هو لم يـدركه.أما عطيـة بن قيس الكلابى فهو شامى و لم يتصل به سيف،و نحن لا ندرى من هو و لئن حصلت لنا دراية فما ذا تنفع و سيف ثبت أنه وضاع.

و من جهـة ثانية ان يزيد الفقعسـى و هو نهاية السلسـلة و بداية الأسـطورة لم يعرف من هو،و لا يوجد فى الرجال من يسـمى بهذا الاسم و يلقب بالفقعسـى،و هنا تنقطع السلسـلة،و لا يبعد أنه شخصـية و همية كشخصـية عبد اللّه بن سـبأ فسـيف بن عمر قادر على أن يخلق ألف شخصية و شخصية،و يخترع آلاف الأساطير.فهو وضاع بارع و يوجد من لا شىء أشياء كثيرة و إليک بعض ما وصف به:

ص:498

سیف بن عمر فی المیزان:

و بعد أن کشف التحقیق عن رواة هذه القصة،أی قصة ابن سبأ نود أن نضع بطل هذه الأسطورة سیف بن عمر فی المیزان،لنعرف قیمة روایته مما بینه علماء الرجال من حاله.

قال ابن حجر:سیف بن عمر التمیمی البرجمی و یقال السعدی،و یقال الضبعی،و یقال الأسدی الکوفی صاحب کتاب الردة و الفتوح روی عن عبد اللّه بن عمر العمری و أبی الزبیر...

قال ابن معین:ضعیف الحدیث و قال مرة فلیس خیر منه(أی لا یأتی منه خیر) و قال أبو حاتم:متروک الحدیث یشبه حدیثه حدیث الواقدی و قال أبو داود لیس بشیء.

و قال النسائی و الدار قطنی:ضعیف،و قال ابن عدی:بعض أحادیثه مشهورة، و عامتها منکرة لم یتابع علیها،و قال ابن حبان یروی الموضوعات عن الاثبات.و قال (ابن حبان أیضا)و قالوا عنه إنه کان یضع الحدیث،و اتهم بالزندقة،و قال البرقانی عن الدار قطنی:متروک.و قال الحاکم:اتهم بالزندقة (1).

و قال الذهبی:سیف بن عرم الضبی الأسدی التمیمی البرجمی و یقال السعدی الکوفی مصنف الفتوح و الردة.

ثم یذکر أقوال علماء الرجال کما ذکر ابن حجر و نقل عن جعفر بن أبان أنه سمع ابن نمیر یقول:کان سیف یضع الحدیث،و قد اتهم بالزندقة (2).

و قال ابن أبی حاتم:سیف بن عمر الضبی:عن یحیی بن معین أنه قال:

سیف بن عمر الضبی الذی یحدث عنه المحاربی ضعیف الحدیث.و قال سئل أبی عن سیف بن عمر الضبی فقال متروک الحدیث یشبه حدیثه حدیث الواقدی (3).

و فی ترجمة القعقاع عند ابن أبی حاتم أورد له حدیثا رواه سیف بن عمر،عن عمر بن تمام،عن أبیه عن القعقاع،و قال ابن أبی حاتم:و سیف متروک الحدیث

1- (1) تهذیب التهذیب 4:291. [1]

2- (2) میزان الاعتدال 1:438.

3- (3) الجرح و التعدیل لابن أبی حاتم 2 قسم 1 ص 278.

فبطل الحديث.و إنما كتبنا ذلک للمعرفة (1)و الحديث هو ما رواه سيف عن القعقاع بن عمر قال:شهدت وفاة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فلما صليت الظهر جاء رجل حتى قام فى المسجد فأخبر بعضهم أن الأنصار قد أجمعوا أن يولوا سعدا-يعنى ابن عبادة-و يتركوا عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فاستوحش المهاجرون (2).

قال ابن السكن:سيف بن عمر ضعيف.و ذكر ابن حجر قول ابن أبى حاتم سيف بن عمر متروک الحديث،و كذلک ذكره ابن عبد البر فى الاستيعاب ج 3 ص 263 بهامش الإصابة.

و قال السيوطى:سيف و ضاع.و ذكر حديثا من طريق السرى بن يحيى عن شعيب بن إبراهيم عن سيف فقال السيوطى:موضوع فيه ضعفاء أشدهم سيف.

و لعلنا فيما أوردناه من أقوال علماء الرجال هو كاف لمعرفة سلسلة هذه الأسطورة،و بالأخص بطلها الأول سيف بن عمر،فقد استبان وزنه،و عرفت حالته، و لم يرد عن أحد منهم فيه كلمة ثناء كما وقفت عليه.

و ربما يقال إن سيف بن عمر خرج له الترمذى و روى له فى صحيحه فيظن أن له أحاديث فى الأحكام و غيرها،أو أن الترمذى صحح حديثه و بهذا يتثبت من يريد أن يخلق لسيف بن عمر شخصية يوثق بها.

و لكن الترمذى لم يرو له إلا حديثا واحدا و قال-بعد أن ذكره-:و هذا منكر.

و الحديث الذى رواه الترمذى هو عن أبى بكر بن نافع عن سيف بن عمر السعدى،عن عبيد اللّه بن عمر،عن نافع،عن ابن عمر،عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال:قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:إذا رأيتم الذين يسبون أصحابى فالعنوه.

قال الترمذى:و هذا الحديث منكر.و بهذا فهو ساقط عن الاعتبار.

1- (1) الجرح و التعديل 3:136 قسم 2.

2- (2) انظر الإصابة لابن حجر 3:239 [1] ط 1.

و لسنا بحاجة إلى أكثر من هذا البيان لمعرفة حالة سيف بن عمر و مقدار تحمله للرواية؛فهو كما رأيت:و ضاع كذاب،زنديق متروك الحديث،أحاديثه منكرة و.و.

الخ.

و نحن إذ نتكلف البحث عن سند هذه الأسطورة و غيرها من أحاديث سيف التى هى أبعد ما تكون عن الواقع،فكل قصدنا التنبيه على ما يظن أو يتبادر إلى ذهن البعض بأن تلك الأساطير قد اشتهرت و ذكرها كثير من المؤرخين فلا بد أنهم وثقوا من الناقلين فأثبتوها،فنالت هذه الشهرة.

و الواقع أن هذه الشهرة لم تكن للتواتر،و لا لصحة ما يروى عن سيف و إنما المصدر الوحيد هو الطبرى كما قدمنا،و قد أخذ عنه كل من ابن الأثير،و ابن كثير، و ابن خلدون،و أبو الفداء و غيرهم.

فأما ابن الأثير فقد صرح فى مقدمة تاريخه بأنه أخذ ما فى كتاب الطبرى و زاد عليه...الخ (1).

و أما ابن كثير فقد ذكر فى تاريخه عن سيف بن عمر-فقط-أن سبب تألب الأحزاب على عثمان:أن رجلا يقال له عبد اللّه بن سبأ،كان يهوديا فأظهر الإسلام، و صار إلى مصر،فأوحى إلى طائفة من الناس كلاما اخترعه من نفسه،مضمونه أنه يقول للرجل...الخ (2)ثم ينقل القصة و بعد ذلك ينقل عن سيف وحده بعض الحوادث كما فى ص 169 ثم يمضى فى ذكر الحوادث،حتى يأتى إلى صفحة 246 فيقول:هذا ملخص ما ذكره أبو جعفر محمد بن جرير رحمه اللّه.

و أما ابن خلدون فإنه ذكر السبئية فى حادثة الدار و الجمل و قال:هذا أمر الجمل ملخصا من كتاب أبى جعفر الطبرى (3).

و قال فى ص 457 منه:هذا آخر الكلام فى الخلافة الإسلامية و ما كان فيها من الردة،و الفتوحات ثم الاتفاق و الجماعة،أوردتها ملخصة من كتاب محمد بن جرير الطبرى،و هو تأريخه الكبير...الخ.

1- (1) انظر الكامل لابن الأثير 1:3 الطبعة الأولى [1]سنة 1301.

2- (2) تاريخ ابن كثير 7:167.

3- (3) تاريخ ابن خلدون 2:425. [2]

أما ابن عساكر فی تاریخه مدینة دمشق و هو مرجع لکثیر من الکتّاب:إما إلیه نفسه أو إلی تهذیبه لابن بدران،و قد یرجعون إلیهما معا.

فإن ابن عساکر فی حدیثه عن السبئیة ینقل عن الطبری بل ینقل نفس العبارة کما فی تهذیبه (1)لابن بدران و لکنه یترک السند و فی ج 7 ص 429 یقول و روی سیف بن عمر عن أبی حارثة و أبی عثمان.ثم یذکر قصة ورود ابن سبأ إلی مصر.

و یروی ابن عساکر فی تاریخه عن أبی القاسم السمرقندی،عن أبی الحسین النقور عن أبی طاهر المخلص،عن أبی بکر سیف،عن السری بن یحیی،عن شعیب بن إبراهیم،عن سیف بن عمر.

فهذا هو سند ابن عساکر لجمیع ما ینقله حول ابن سبأ و أنت تراه یلتقی مع الطبری فی السند الذی أورد فیه تلک الحوادث.

و صفوة القول ان الجمیع عیال علی الطبری فی إیراد حوادث ابن سبأ،و الطبری کما تقدم لم یضمن أصلا صحة ما أورده فی تاریخه،بل هو ناقل و ترک لقرائه البحث و التنقیب لأنه تبرأ من عهدة روایاته فی التاریخ و حملها علی أکتاف رواتها له،و قد تقدم،و ان الراوی هو سیف به عمر و لا طریق غیره.

هذا و نری أنفسنا فی غنی عن التوسع فی البحث حول هذه القضیة إن کان الأمر یدور حول الواقع،و معرفة الحقیقة،و إن الحکم للعلم من دون مغالطة و تعصب.

و قد أثبت التحقیق العلمی مقدار ما لهذه الأسطورة من الواقع،فهی بعیدة کل البعد عنه.

و ما أوردته هنا من الموهنات لهذه الأسطورة و ما ورد فی نقد سلسلة رجالها لیس کل ما ورد فیها،بل هناک أشیاء کثیرة لم نذکرها اختصارا.

و من الحق و الإنصاف أن نشیر إلی ما کتبه العلامة السید المرتضی العسکری حول أحادیث سیف بن عمر و أسطورة ابن سبأ،فی کتاب عبد اللّه بن سبأ (2)بصورة

1- (1) انظر تهذیب تاریخ ابن عساکر 7:428.

2- (2) طبع منه الجزء الأول الطبعة الأولی فی النجف الأشرف و الطبعة الثانیة فی القاهرة.

واسعة مستقصيا أحاديثه فى الحوادث التاريخية،و ماله من افتعالات و أحداث.

و قد تعرض إلى أسماء الصحابة الذين افتعل سيف بن عمر أسماءهم و لم توجد إلا من طريقه بل ابتكاره.

و قد سبق أن العلامة الأمينى فى الجزء الثامن من كتابه الغدير قد تعرض لأحاديث سيف بن عمر الموضوعة و أحصاها و هى 701 و قال:تحت عنوان:نظرة فى تاريخ الطبرى:

شوه الطبرى تاريخه بمكاتبات السرى الكذاب الوضاع عن شعيب المجهول الذى لا يعرف،عن سيف الوضاع المتروك،الساقط المتهم بالزندقة؛و قد جاءت فى صفحاته بهذا الإسناد المشوه 701 رواية وضعت للتمويه على الحقائق الراهنة فى الحوادث الواقعة من سنة 11 إلى 37 عهد الخلفاء الثلاثة،و لا يوجد شىء من هذا الطريق الوعر فى أجزاء الكتّاب كلها غير حديث واحد ذكره فى السنة العاشرة.

و إنما بدأ برواية تلكم الموضوعات من عام وفاة النبى الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و بثها فى الجزء الثالث،و الرابع،و الخامس،و انتهت بانتهاء خامس الأجزاء:

ذكر فى الجزء الثالث من ص 210 فى حوادث سنة 67،11 حديثا.

أخرج فى الجزء الرابع فى حوادث سنة 427،12 حديثا.

أورد فى الجزء الخامس فى حوادث السنة ال-23-37-207 أحاديث فيكون المجموع 701 حديث (1).

و على أى حال فإن هذه الأسطورة التى أخذت مفعولها فى المجتمع و أثرت أثرها السيئ،هى نتيجة للتعصب الأعمى الذى ينحرف بأصحابه عن جادة الصواب و يطلق الأوهام و الخرافات من عقالها،و قد مرت قرون و هى تحتل مكانا من الكتب التاريخية،بدون أن ينالها التحقيق أو تسأل عن كفاءتها لاحتلال ذلك المكان.

و قد تصرف فيها كثير من الكتّاب،وفقا لأهوائهم،و طبقا لرغباتهم و لم يهتدوا بهدى عبقرياتهم،و مواهبهم العلمية.

1- (1) الغدير 8:335-336. [1]

و إنا لا ننكر أن هناک من أنكر وجود هـذه الأسـطورة فی صـفحات الكتب و اسـتنكر وجودها،و انها لا تسـتحق أن تحتل ذلک المحل من التاريخ الإسلامی،فأخذ يحارب وجودها،و يطالب بإبعادها،و بعض يشک فی أمرها،و يتوقف عن نفيها أو إثباتها.

و من الغريب أن نجـد من يتعصب لابن سـبأ و يثبت وجوده و سـعيه المنكر فی إثارة الفتنـة بين الصـحابة،و يتحامل علی من ينكر ذلک،و يصـل به تعصـبه لابن سـبأ إلی حـد القول بأن إنكاره كمن ينكر وجود عيسـی بن مريم،أو ينكر الشـمس،و هـذا قول بـدون دليل،بل هو من المتناقضات كما سنبينه،فمن هو هذا المنكر؟هو محمد زاهد كوثری (1)و إليک نص قوله:

يقول الكوثری:

عبد اللّه بن سـبأ المعروف بابن السوداء اليمانی،كان يتعثر فی اذياله فی سبيل الركض وراء إثارة فتن بين الصحابة رضی اللّه عنهم،متنقلا بين اليمن،و الحجاز، و البصـرة و الكوفة،و مصـر و الشام،للدس و تعكير الصفاء بين المسلمين فی عهد عثمان و علی رضی اللّه عنهما،أيام كان المسـلمون ما خبروا أساليب الماكرين، و طرق فتن الفاتنين،من قوم بهت،أهل غـدر و كذب و فجور،علی ما فی صـحيح البخاری و غيره،و نتائـج تلک الفتن ماثلـة أمام كل باحث،مدونـة فی كتب ثقات المؤرخين من علماء هـذه الأمـة،من أمثال ابن أبی خيثمـة،و ابن جرير،و ابن عساكر،و ابن كثير،و ابن السمعانی و غيرهم رغم محاولة بعض المسفسطين من أبناء اليوم إنكار وجود شخص يقال له عبد اللّه بن سبأ،فضلا عن أن يكون أحدث تلک الأحداث،ضاربا أقوال هؤلاء السادة عرض الحائط،فيما يمس بنی العمومة- و العرق دساس-و شأن هذا الصـنف من الكتّاب شأن من ينفی صلة إسماعيل عليه السّلام

1- (1) الشـيخ محمد زاهد بن حسن الكوثری أصـله من القوقاز ولد فی الأستانة المتولّد سنة 1296 ه و المتوفی فی القاهرة سـنة 1371 ه وكيل المشـيخة الإسـلامية فی الخلافـة العثمانيـة و صاحب المؤلفات الكثيرة فی المذهب الحنفی و غيره.و له تعليقات علی بعض الكتب ينتصر بها للحنفية و هو شديد التحامل علی من خالف مذهبه.و له رد علی الخطيب البغدادی حول ما ذكره فی ترجمة أبی حنيفة.

بمكة،و شأن من ينكر وجود شخص يقال له عيسى بن مريم،فى محاولة إنكار الشمس فى رابعة النهار...

إلى أن يقول:فاستبعاد سعى ابن سبأ فى الفتنة فى عهد عثمان بعد اعتراف جولد زيهير اليهودى بذلك تحزبا لليهود فوق اليهود أنفسهم و سيف بن عمر من رجال جامع الترمذى فلا يستغنى عن أنبائه...الخ (1).

هذا هو حكم الشيخ الكوثرى على قضية ابن سبأ،و أنها كالشمس فى رائعة النهار،و أن من أنكرها من الكتّاب يكون من أبناء عمومة سيف بمعنى أنه يهودى إذ العرق دساس-على حد تعبيره-و أن سيف بن عمر لا يستغنى عن أنبائه و هو من رجال جامع الترمذى،و الراوى و هو الطبرى و هو ثقة و أن جولد تسهير ذكرها.

و هذه أدلة يسوقها الكوثرى لإثبات قضية ابن سبأ بطل الفتنة،و قائد جيش الانقلاب على الخليفة عثمان.

و لعل هناك ممن يطلع على هذا القول فيظن أن الكوثرى حكم بهذا نتيجة لتتبعه و قناعته فى الموضوع،و كل ذلك لم يكن.

و إنما كان هذا الحكم نتيجة لتعصبه و تعمده لإخفاء الحقائق و التمويه و الجدل و نحن من فمه ندينه فى نقض هذا الحكم.

من فمك أدينك..

بين أيدينا مقال للشيخ الكوثرى عنوانه:(كلمة عن خالد بن الوليد و قتل مالك بن نويرة).

يتحدث الشيخ فى هذه الكلمة حول حادثة مالك بن نويرة،و قتل خالد له و دخوله على زوجة مالك فى ليلة قتله كما ذكرها المؤرخون.

يقف للدفاع عن خالد و يندد فى كتب الغربيين الذين نقلوا هذه الحادثة و يقول:

و كانت طريقة كتّاب الغرب فى النيل من الإسلام طريقة الإقذاع المجرد...

ثم يطعن فى كتب السير أمثال كتّاب محمد بن إسحاق فيكذبه،و يكذب رواته.

1- (1) انظر تقديم كتاب المقدمات الخمس و العشرين 3-5.

و كتّاب الواقدى و أنه غير متثبت بل يروى عن كل من هب و دب و يروى الأخبار الكاذبة.

إلى أن يأتى إلى الطبرى و هو أحد رواة تلك الحادثة فيقول:و ابن جرير الطبرى عمدة أمثال ابن الأثير،و أبى الفداء،و ابن كثير،و ابن الوردى و أن الطبرى لم يضمن صحة ما أورده فى تاريخه و أنه تبرأ من عهدة رواياته فى التاريخ و حملها على أكتاف رواتها له.

و هكذا يقف الشيخ فى الدفاع عن خالد و يطعن فى كتب التاريخ و يكذب الرواة.

و ليس هذا محل القصد من ذلک بل نريد أن نستمع فى دفاعه حول سيف بن عمر و شيوخه،و من روى عن سيف و قد تقدم قوله مما يشعر بأنه من رجال جامع الترمذى و يؤخذ بأحاديثه.

فلنترک الشيخ يتحدث عن سيف فى مقام دفاعه عن خالد فيقول:سيف بن عمر التميمى صاحب كتّاب الردة و الفتوح،يقول عنه أبو حاتم:متروک الحديث يشبه حديثه حديث الواقدى.و قال الحاكم:اتهم بالزندقة و هو فى الرواية ساقط.و قال ابن حبان:إنه كان يضع الحديث،يروى الموضوعات عن الاثبات،اتهم بالزندقة و ضعّفه غير واحد.

و راويته شعيب بن إبراهيم يقول عنه الذهبى:فيه جهالة.

و يقول ابن عدى:ليس بالمعروف و له أحاديث و أخبار فيها ما فيه تحامل على السلف.

و الراوى عنه السرى بن يحيى غير موثق،و هو شيخ ابن جرير فى رواياته عن سيف،و أما من فوق سيف من الرجال مجاهيل فى الغالب (1).

هذا ما جاء فى دفاع الكوثرى عن خالد بن الوليد و قد ظهر لنا أنه يطعن فى مرويات سيف و يكذبه،و هذا السند هو نفسه الذى خرج الطبرى فيه أحاديث و حوادث السبئية.

فما معنى جزمه بصحة ما جاء فى هذا السند عن حوادث السبئية و انها كالشمس

1- (1) انظر مقالات زاهد كوثرى 455-462.

فی رائعة النهار،و فی قضیة خالد بن الولید و قتله لمالک و نزوه علی امرأته یحکم بکذبه،و یجزم بتوهینه کما مر،علی أن قضیة خالد و زنائه بزوجة مالک بن نویرة قد خرجه الطبری من طریق آخر و هو:عن عبد الحمید بسند عن عبد الرحمن بن أبی بکر:و فیه قول عمر بن الخطاب- لأبی بکر فی ذم خالد بن الولید:عدو اللّه عدا علی امرئ مسلم فقتله ثم نزی علی امرأته.و أقبل خالد بن الولید قافلا،فلما أن دخل المسجد قام إلیه عمر و قال:ارثأ قتلت امرأ مسلما ثم نزوت علی امرأته و اللّه لأرجمنک بأحجارک...الخ (1).

و لسنا بصدد إیراد هذه القصة و البحث عن ورودها و لکننا نرید أن نبین مدی ما بلغت إلیه الحالة من التنکر للحقائق،و الابتعاد عن الواقع،نتیجة للتعصب الأعمی، و انقیادا للهوی المردی.

و لعل الشیخ الکوثری یعتذر بأمر واجب و هو أن روایة قتل مالک بعد ثبوت إسلامه و قد شهد له جماعة عند خالد و نزوه علی امرأته و بذلک طعن علی خالد و هو صحابی،و لا یصح الطعن،و حینئذ یجب تأویل کل روایة تتضمن ذلک و قد تقدم قول النووی:قال العلماء:الأحادیث الواردة فی ظاهرها حمل علی صحابی یجب تأویلها (2).

و الشیخ الکوثری قام بواجبه فی الدفاع عن خالد فی ارتکابه لتلک الفعلة الشنیعة.و لأن سیفا فی بعض طرق الطبری لروایة خالد انهال علیه الکوثری ببراهین الحق،و لکن التعصب أو العناد یحول سیفا إلی راویة ثقة و لا یستغنی عن أنبائه لأنه مصدر قصة ابن سبأ،فهل هذا من العلم و الأمانة فی شیء؟! و علی أی حال:فإن قضیة ابن سبأ تتضمن الطعن علی أغلبیة الصحابة، و وصفهم فی اتباع رجل یهودی یضلهم عن دینهم،و یدعوهم إلی ما نهی الإسلام عنه،و فیها أن أبا ذر تلقن مبادئ الزرادشتیة و التعالیم الیهودیة من ابن سبأ،و عمار بن یاسر من استهواه ابن سبأ،فأصبح علی رأس الدعاة لابن سبأ و مبادئه.

1- (1) الطبری 3:243. [1]

2- (2) شرح صحیح مسلم للنووی 15:177.

و بهذا تكذيب لأقوال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و وصفه لأبى ذر بالصدق و لعمار بأنه مع الحق و الحق معه و أنه ما خير بين أمرين إلا اختار أشدهما و أن عمارا هو ميزان لمعرفة الفئة المحقة و لا تقتله إلا الفئة الباغية.

و نرى من اللازم هنا ختاما لهذا الموضوع أن نشير لبعض الأحاديث الواردة من صاحب الرسالة الأعظم نبينا محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى أبى ذر و عمار بن ياسر.

أبو ذر الغفارى:

أبو ذر جندب بن جنادة بن سكن المتوفى سنة 31-32 بالربذة هو رابع الإسلام،و المعذب فى سبيل نشر الدعوة الإسلامية،و هو الزاهد المشهور الصادق اللهجة،الذى قال فيه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:ما أقلت الغبراء و لا أظلت الخضراء،أصدق لهجة من أبى ذر (1).

و أخرج الترمذى بلفظ:ما أظلت الخضراء و لا أقلت الغبراء من ذى لهجة أصدق و لا أوفى من أبى ذر شبيه عيسى بن مريم.

و هذا الحديث مشهور رواه جماعة و خرجه الحفاظ كالترمذى،و ابن ماجة، و الحاكم،و أبو نعيم،و غيرهم (2).

و كان أبو ذر هو رابع الإسلام،و أول من جهر فى الدعوة،و أعلن الإسلام بين قومه،و فى مكة حتى ناله العذاب،و هو ممن أمر اللّه تعالى نبيه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بحبه كما عن بريدة:عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنه قال:إن اللّه عز و جل أمرنى بحب أربعة،و أخبرنى أنه يحبهم:على،و أبو ذر،و المقداد،و سلمان.أخرجه الترمذى فى صحيحه،و ابن حجر فى الإصابة،و أبو نعيم فى الحلية.و أبو عمر فى الاستيعاب و غيرهم.

و قال النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:أبو ذر فى أمتى على زهد عيسى بن مريم (3).و قال على عليه السّلام:أبو ذر وعاء ملئ علما ثم أوكئ عليه (4)

1- (1) الإصابة لابن حجر 4:64. [1]

2- (2) انظر صحيح الترمذى 2:221 و مستدرک الحاكم 3:342.

3- (3) انظر أسد الغابة 5:187. [2]

4- (4) الإصابة 4:24 و [3]أسد الغابة 5:187. [4]

و روى ابن عبـد البر عن الأعمش بسـند عن عبـد الرحمن بن غنم قال:كنت عند أبى الدرداء إذ دخل رجل من أهل المدينة فسأله أبو الدرداء فقال:أين تركت أبا ذر؟ فقال:بالربذة.

فقال أبو الدرداء:إنا للّه و إنا إليه راجعون،لو أن أبا ذر قطع منى عضوا ما هجته لما سمعت رسول اللّه يقول فيه (1).

و أخرج الطبرانى من طريق ابن مسعود مرفوعا:من سره أن ينظر إلى شبه عيسى خلقا فلينظر إلى أبى ذر (2).

و الأحاديث فى فضـله و زهده و علمه كثيرة،و مواقفه فى الذب عن الإسـلام و الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر مشهورة لا تحصى بهذه العجالة.

و بمزيـد الأسف أن ذلک الرجل المجاهـد قد وصـفوه بما لا يليق به،و أصـبح ممن تسـتهويه الدعايات الكاذبة فيكون ممن لقنه ابن سـبأ و استهواه و صار ينطق بلسانه و يعبر عن فكره كما هو منطوق أسطورة ابن سبأ.

فأين حمل الأخبار أو الأحاديث التى فيها حمل على الصـحابة،على غير الوجه التى تـدل عليه،و كأن أبا ذر لا يشـمله ذلک مع أنهم صدقوا فى حقه من لا يصدق كيف يكون أبو ذر يحمل فكرة ابن سبأ و يدعو لها و هو الصادق اللهجة؟!و فى ذلک نصر لليهود،بأن يميل إليهم رجل وصفه رسول اللّه بالصدق و الأمانة و الزهد.

عمار بن ياسر:

أبو اليقظان عمار بن ياسر المقتول فى صفين سنة 36.

و كان عمار بن ياسر قد عذب هو و أبوه فى أول الدعوة الإسلامية و تمسكوا بإسلامهم،رغم ما واجهوا من المحن و البلاء.

و كـانت بنو مخزوم يخرجون بعمـار و بـأبيه و أمه،و كانوا أهل بيت إسـلام-إذا حميت الظهيرة يعـذبونهم برمضاء مكـة،فيمر بهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فيقول:صبرا آل

1- (1) الاستيعاب 1:217. [1]

2- (2) الاستيعاب 1:216. [2]

یاسر موعدکم الجنة،صبرا آل یاسر موعدکم الجنة (1).

و قد وردت عن صاحب الرسالة الأعظم کلمات الثناء علی عمار مما یدل علی عظیم منزلته،و جلالة قدره کقوله صلّی اللّه علیه و آله و سلّم:

ملئ عمار إیمانا إلی أخمص قدمیه.و فی حدیث عائشة تقول سمعت رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یقول:عمار ملئ إیمانا إلی مشاشه.

و أخرج ابن ماجة و أبو نعیم من طریق هانی بن هابی قال:کنا عند علی علیه السّلام فدخل علیه عمار فقال مرحبا بالطیب المطیب،سمعت رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یقول:عمار ملئ إیمانا إلی مشاشه (2).

و عن خالد بن الولید قال:کان بینی و بین عمار کلام فاغلظت فشکانی إلی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فلما جئت رفع رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم رأسه،فقال صلّی اللّه علیه و آله و سلّم:من عادی عمارا عاداه اللّه،و من أبغض عمارا أبغضه اللّه (3).قال خالد فما زلت أحبه یومئذ.

و قد حث النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم علی اتباع عمار عند نزول الفتن،و أن عمارا لا یکون إلا مع الحق.

روی البیهقی عن الحاکم و غیره بسند عن ابن مسعود قال:سمعت رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یقول لعمار:إذا اختلف الناس کان ابن سمیة مع الحق (4).

و جاء رجل إلی عبد اللّه بن مسعود فقال:إن اللّه قد آمننا أن یظلمنا،و لم یؤمنا أن یفتنا،أ رأیت إذا نزلت فتنة کیف أصنع؟قال ابن مسعود:علیک بکتاب اللّه.فقال الرجل:أ رأیت إن جاء قوم کلهم یدعون إلی کتّاب اللّه؟ فقال ابن مسعود:سمعت رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یقول:إذا اختلف الناس کان ابن سمیة مع الحق (5).

و لما احتضر حذیفة بن الیمان و قد ذکر الفتنة قالوا له:إذا اختلف الناس بمن

1- (1) انظر سیرة ابن هشام 1:342 و [1]حلیة الأولیاء 1:141.

2- (2) انظر الإصابة 2:512. [2]

3- (3) الإصابة 2:512.و [3]الاستیعاب [4]بهامش الإصابة. [5]

4- (4) تاریخ ابن کثیر 7:270.

5- (5) نفس المصدر.

تأمرنا؟قال:عليكم بابن سمية فإنه لن يفارق الحق حتى يموت.أو قال:فإنه يدور مع الحق حيث دار (1).

و أخرج ابن سعد فى الطبقات عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:ان عمارا مع الحق و الحق معه، يدور مع الحق أينما دار و قاتل عمار فى النار (2).

و قد اشتهر قول النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بأن عمارا تقتله الفئة الباغية.و قد ورد هذا الحديث من طرق متعددة رواه جماعة من الصحابة منهم:عثمان بن عفان،و عائشة أم المؤمنين،و أنس بن مالک،و أبو هريرة،و جابر بن سمرة،و عبد اللّه بن مسعود و غيرهم.

و منهم معاوية بن أبى سفيان،و عمرو بن العاص،و أبو الغادية قاتل عمار.

و كان الناس يعرفون ذلک و لكن معاوية موّه على الناس بتأويل هذا الحديث تأويلا باطلا ليتستر بذلک عن المؤاخذة عند ما قتل عمارا و ارتبک جيش الشام،و علموا أنهم الفئة الباغية على لسان النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

فلجأ معاوية إلى حيلة تؤثر على البسطاء السذج فقال:نحن لم نقتل عمارا و إنما قتله من جاء به حتى أوقعه بين رماحنا.

و هذا من حيل ابن العاص و دهائه و قد أثرت هذه المغالطة أثرها على ضعفاء النفوس.

يقول ابن قيم الجوزية تلميذ ابن تيمية:و من التأويل الباطل تأويل أهل الشام قول النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لعمار:تقتلک الفئة الباغية.فقالوا نحن لم نقتله إنما قتله من جاء به حتى أوقعه بين رماحنا.و هذا التأويل مخالف لحقيقة اللفظ و ظاهره،فإن الذى قتله هو الذى باشر قتله،لا من استنصر به،و لهذا رد عليهم من هو أولى بالحق و الحقيقة منهم،فقالوا:أ فيكون رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أصحابه هم الذين قتلوا حمزة و الشهداء معه حتى أوقعوهم تحت سيوف المشركين؟ (3)

1- (1) الاستيعاب 2:480. [1]

2- (2) طبقات ابن سعد 3:187 ط ليدن. [2]

3- (3) الصواعق المرسلة لابن قيم الجوزية-10. [3]

و إن الاستمرار فی مناقب عمار و ذکر مواقفه و ما ورد فیه من أحادیث و ما نزل فیه من آیات لا یتسع المقام لاستطرادها و لیس من غرضنا أن نترجم له هنا.

إن الشیء الذی نود أن نقوله:إن من أعظم الجرأة علی اللّه و علی رسوله أن ینسب لهذا الرجل الذی بدأ حیاته فی الجهاد و ملاقاة العذاب و ختمها فی الشهادة، دفاعا عن الإسلام،و اتباعا لحق و إحقاقه،مثل هذه الإساءات،أو یوصف بأنه ممن استهواه ابن سبأ فسار فی رکابه و کان من دعاته!حتی یسلم خصومه من المؤاخذات و یتبرّءوا مما ارتکبوه من مخالفات؟ و لیت أنهم استدلوا بما یوجب الشبهة فی ذلک فضلا عن الجزم بالحکم فیما وصفوه فیه،فرحم اللّه عمارا،فلقد لزم الحق و حارب الباطل و مات شهیدا بسیوف الفئة الباغیة کما أخبر الرسول المعظم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

إن الذین وصفوا عمارا بما وصفوه من اتباع ابن سبأ قد ارتکبوا إثما لا یغتفر، و قد ردوا علی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أقواله فی عمار.

و کذلک جنایتهم بحق الصحابی الجلیل زید بن صوحان فجعلوه علی رأس الدعاة لابن سبأ؛و من الخیر أن نشیر إلی زید بن صوحان بموجز من البیان إیضاحا لما قد یتوهم صحة ما قاله أولئک المفترون فی حقه.

زید بن صوحان:

زید بن صوحان بن حجر بن الحارث أبو سلمان العبدی المقتول سنة 36 و قد سماه رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بزید الخیر.

و کان زید ممن یصوم النهار و یقوم اللیل،و إذا کانت لیلة الجمعة أحیاها.

و أخرج ابن حجر و ابن سکن،و ابن أبی شیبة و غیرهم أن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أخبر عن زید بن صوحان بأنه یسبق عضو من أعضائه الجنة.و قد قطعت یده فی حرب المشرکین و قیل فی نهاوند (1).

و قال ابن عبد البر:روی عن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم من وجوه أنه کان فی مسیر له فهوّم فجعل یقول:زید و ما زید زید جندب و ما جندب فسئل عن ذلک؟

1- (1) انظر تهذیب ابن عساکر 3:410 و الإصابة 1:250 فی ترجمة جندب بن کعب.

فقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:رجلان من أمتى أما أحدهما فتسبقه يده أو قال:بعض جسده إلى الجنة،و أما الآخر فيضرب ضربة يفرق فيها بين الحق و الباطل.

قال أبو عمر:أصيبت يد زيد يوم جلولاء ثم قتل يوم الجمل مع على عليه السّلام، و جندب بن كعب قاتل الساحر...الخ (1)و قد شهد كعب حرب الجمل مع على عليه السّلام.

و كان زيد وجيها مقداما،و قد وفد على عمر بن الخطاب فأكرمه،و جعل يرحل لزيد بيده،و يطأ على ذراع راحلته و يقول:يا أهل الكوفة هكذا فاصنعوا بزيد.

و لما أراد زيد أن يركب دابته أمسک عمر بركابه،ثم قال لمن حضره:هكذا فاصنعوا بزيد و إخوته و أصحابه (2).

و كان سلمان يقدمه للصلاة و الخطابة و هو أمير،و أخرج الحافظ و ابن عدى عن على عليه السّلام قال،قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:من سره أن ينظر إلى من يسبقه بعض أعضائه إلى الجنة فلينظر إلى زيد بن صوحان.

قال ابن عساكر و رواه الخطيب البغدادى،و أبو يعلى،و قال قطعت يده فى جهاد المشركين،و عاش بعد ذلک دهرا حتى قتل يوم الجمل (3).

و لما قتل زيد أوصى بأن يدفن فى ثيابه،و قال قبل أن يقتل:إنى رأيت يدا خرجت من السماء تشير إلىّ أن تعال،و أنا لا حق بها يا أمير المؤمنين (4).

و مهما يكن من أمر فإنا نأسف الأسف الشديد لغفلة كثير من الكتّاب الذين تناولوا البحث عن التاريخ الإسلامى و لم يقفوا أمام هذه الأسطورة موقف الباحث المتثبت و تساهلوا فى نقلها و التعليق عليها بما يزيد جذورها تشبثا فى المجتمع و يضاعف شرها على الأمة و هم يحسبون أنهم يحسنون صنعا.

و لو رجعوا إلى الواقع لوجدوا أنفسهم أمام صورة جامدة منحوتة بيد الأغراض

1- (1) الاستيعاب 1:560. [1]

2- (2) ابن عساكر 6:11. [2]

3- (3) المصدر السابق...

4- (4) ذكرنا ترجمة زيد مفصلة فى كتابنا تاريخ الكوفة.

السياسية لتحقيق أهدافهم فى تضليل الناس بأوهام باطلة تنشر هنا و هناک و تملأ أوهام الصغار و الكبار بمشاعر لا أصل لها.

و نحن نأمل أن تدرس هذه القصة و غيرها من الخرافات التى اختفى من ورائها النزاع السياسى و الصراع العقائدى دراسة واقعية على ضوء التحقيق العلمى المجرد من التعصب و التحيز ليظهر الحق و الحق أحق أن يتبع.

و إن تلک الأباطيل لا تقف أمام الواقع بل هى أشباح خيالية لا بد لها من الزوال.

و إنا لواثقون بأنها لن تدوم فهى سحب تنجلى،و عقبات تندک،و حجب ترفع، ما دام للعلم كلمته،و للعدل حكمه.

إننا نكتب للعلم و للعدل،و ليس أجمل بالمرء من أن يتكلم على موازين العلم و لا أبهى من العدل فى الحكم بعد أن يعرفها العلم،فالحكم على الشىء قبل معرفته خطأ لا يغتفر.

خلاصة البحث:

هذه دراسة قدمناها باختصار عن أثر المستشرقين فى ثقافتنا الإسلامية و تاريخنا الذى نستمد منه معلومات أسلافنا الماضين.

و قد رأينا بهذه العجالة كيف كانت دراسة أولئک الكتّاب،و أنها لم تكن دراسة تتركز على أسس علمية،و قواعد منطقية،و أمور واقعية بل كانت دراسة محدودة لا تتجاوز التعصب أو التساهل فى النقل،بل دراسة تقليد لا تعتمد على تحقيق، و ملاحظة للأمور الواقعية.

إنهم ينظرون إلى الحوادث بمنظار غيرهم من الذين يحورون الحقائق، و يبدلونها لتلبس تلک القوالب التى يفرضونها فرضا و هى قوالب أفكار لا تمت إلى الواقع بشىء،بل تخيلات و همية ترسم لنا صورة الاندفاع وراء مضللات العاطفة، و مرديات التعصب الأعمى.

و قد أشرت سابقا إلى ضرورة الالتفات إلى الخطر الذى يحدق بنا من أثر ما يبثه أولئک المستشرقون من سموم الفرقة،بضروب مختلفة،فى تحطيم بناء وحدة

المسلمين،و الحيلولة بينهم و بين تمسكهم بتعاليم دينهم،ليقيموا على أنقاضها معاقل تضمن لهم تنفيذ ما يطلبه خصوم الإسلام،و تحقيق ما يرجونه.

و لا أحيد عن الواقع إن قلت:إن الاستشراق؟؟؟ أصبح طريقا ينفذ منه المستعمرون لأغراضهم،و وسيلة من وسائل سيطرتهم على الشعوب المسلمة و قد رأينا كيف كانوا يتوارون من وراء البحث عن الإسلام لينفثوا سمومهم،و يحققوا أهدافهم.

كما اتضح لنا إعجاب كثير من الكتّاب بأساليبهم الخداعة،و ألفاظهم البراقة، فنقولها كما هى بدون تمحيص،بل اجتروا آرائهم و سكبوها فى أبحاثهم،و لم يجعلوا للبحث عن الواقع محلا،و لم يحفلوا بما يتصف به أولئک من التعصب على الإسلام.

و إنا لنرجو أن يتنبه الكتّاب لخطر تلک الآراء،و أضرار تلک الأبحاث التى يشوبها الخلط و الخبط و التشويه و التمويه.

و قد تعرضت هنا-و فى الأجزاء السابقة-لمناقشة بعض الكتّاب الذين تناولوا الشيعة بما لا يتفق مع الواقع،و تهجموا عليهم دون ما إنصاف و تدبر.

و لم أكن فى مناقشتى قد جنيت على نفسى بإهمالها أو أفسح لها المجال فى ميدان العاطفة و التأثر،مما وقفت عليه من عبارات الغمز و الطعن و القول بالباطل،و لم أتخل عن المنهج الذى نهجته و هو الاستقامة فى النقد و الاتزان فى الرد.

و قد خف وزن البعض فانحدروا إلى مستوى المهاترات و الجدل العقيم و يريدون أن يحشروا ألفاظا فارغة فى تلفيق التهم؛و قد أعرضنا عن أقوالهم و ألقيناها فى سلة المهملات.

و فى الختام نقول:لقد ذهب الزمن بما فيه و مرت الحوادث بما فيها من آلام، و مضى زمن تلاعب ذوى الأغراض بمقدرات الأمة،و تكالبهم على السيادة بوسائل التفرقة بين صفوف الأمة.

و لقد فتک داء الفرقة بجسم الأمة و لم تنل من ذلک إلا الخسارة و الدمار؛و من اللّه نسأل أن يوحد كلمتهم و يجمع شملهم و أن تنمو بينهم روح المحبة و التسامح و يحصل بينهم كل ما يوصلهم إلى رضاء اللّه و إلى سعادة الأمة إنه سميع مجيب.

رجال الصحاح من الشيعة

تمهيد:

تقدم الكلام حول تدوين العلم،و فى أى عصر بدأ،و قد وقع الخلاف بين المؤرخين فى ذلک،فهل هو فى الصدر الأول،أم فى العهد الأموى،أم فى العهد العباسى؟ و قد تقدم بيان ذلک و ذكرنا سبق الشيعة إلى التدوين،فلا حاجة لإعادة القول فيه (1).

أما علم الحديث فقد اعتنى رجال الأمة بمعرفة الأحاديث النبوية و اهتموا به، لأنه المقدار لتفصيل الأحكام،و تبيين الحلال من الحرام.و كان الشيعة أعظم الجميع اهتماما و أشدهم محافظة،لأنهم قد تلقوا تلک الثروة العظيمة عن الإمام على عليه السّلام فى عصره،و هو باب مدينة العلم؛و من بعده أخذوا عن أبنائه.

يقول الأستاذ مصطفى عبد الرازق-عند ذكره لأول من دون الفقه-:و على كل حال فإن ذلک لا يخلو من دلالة على أن النزوع إلى تدوين الفقه كان أسرع إلى الشيعة،لأن اعتقادهم العصمة فى أئمتهم،أو ما يشبه العصمة كان حريا أن يسوقهم إلى الحث على تدوين أقضيتهم،و فتاواهم (2).

و الذى يقرره الواقع التأريخى،أن العهد الأموى قد منع الناس عن التحدث بعلم على عليه السّلام أو نقل فتاويه و أقواله للناس.

1- (1) انظر الجزء الثانى من هذا الكتاب 274-302 ط 3،تحت عنوان:تدوين العلم.

2- (2) تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية،252.

فقد كان لاضطهاد الأمويين لأهل البيت و أتباعهم أثر كبير فى منع الناس عن الحديث عنهم،و كانوا لا يتمكنون أن يتحدثوا عن على فالتجئوا إلى التورية بقولهم قال:أبو زينب (1)كما يحدثنا الحسن البصرى بذلک لأنه يريد أن يحقن دمه.

و قد كانت العلامة بين المشايخ إذا حدثوا عن على عليه السّلام قالوا:قال الشيخ (2).لأنهم لا يستطيعون أن يذكروا اسمه.

و كيف يستطيع أحد أن يذكره بخير أو يسند عنه حديثا و منابرهم تعج بسبه، و مشايخهم تلهج بذمه،و قصاصهم يختمون أحاديثهم بلعنه (3)،إلى غير ذلک من الوسائل التى حاولوا فيها القضاء على مآثر على عليه السّلام فهل يستطيع أحد من المحدثين أن يروى عن على عليه السّلام،أو يروى فى فضله شيئا و قد نكلوا بالحافظ النسائى عند ما حدث فى الشام بفضل على عليه السّلام حتى مات من جراء ذلک.

و لهذا فقد أكب الشيعة على تدوين قضايا على عليه السّلام و أحاديثه،و أخذوا عن أهل بيته الذين أودعهم تلک الثروة العظيمة،و استمر الشيعة على التدوين فى كل عصر.

و قد ابتدأ التدوين عند الشيعة فى عصر الإمام على عليه السّلام و أول من دون الحديث أبو رافع من خواص الإمام على عليه السّلام و شيعته،و ابنه عبيد اللّه ابن أبى رافع كاتب أمير المؤمنين و أحد خواصه،و محمد بن قيس البجلى و غيرهم.

و على أى حال:فإن اهتمام الشيعة بحفظ الحديث و تدوينه كان أكثر من غيرهم،كما تعرضنا لذلک فيما سبق.

و نحن لا نريد أن نخوض فى علم الحديث و تدوينه،و تبويبه و تقسيمه و لكننا نود أن نتعرض لأثرهم العظيم فى التشريع الإسلامى،رغم تلک المعارضات و الحواجز التى كانت تقف أمام نشر ما تحملوه من رسالة الإسلام يوم كانت السياسة تقف وراء تلک العقبات،و تثير تلک الشكوک فى اتهام الشيعة بأمور هى خلاف المعقول،و لا

1- (1) انظر الحسن البصرى لابن الجوزى 7.

2- (2) مناقب أبى حنيفة للمكى 1:171.

3- (3) انظر تهذيب تاريخ ابن عساكر 3:407.

يقرها المنطق،و كان القصد من ذلک هو تشويه سمعتهم بإلقاء الشبه عليهم من الوجهة الدينية،لأنهم أنصار العلويين فى مقاومة الدولة.

و لهـذا فقد غذت تلک الشـکوک عقول کثير من المؤرخين،فاسـتعملوا ألفاظا فارغة عند ما يترجمون لشـيعى کقولهم:مبتدع،زائغ عن الحق سيئ المذهب و غير ذلک.

و لکنا إذا أردنا أن نسأل عن مصـداق ذلک ما هو الموجب لهـذا فلا نجـد جوابا إلا الخضوع لدعايـة خصومهم الذين تجاوزوا فى اضـطهاد الشيعة أبعد الحدود.

و حيث کانت تلک الأقوال لا تقوم على أسـس صـحيحة،فقد اضـطربت أقوال علماء الرجال فى قبول رواية الشيعى و عدمها،و من هو الذى تقبل روايته و من ترد روايته.

و ما هى البدعة التى ابتدعها الشيعة فاستوجبوا رد أحاديثهم و عدم قبولها و ستقف على الجواب فى ترجمة أبان بن تغلب.

و قد هبت زوبعة أقوال حول رواية الشـيعة للحديث و لکنها لم تؤثر إلا على ضـعاف النفوس،و من لا يقفون أمام الافتعالات موقف تثبت و تدبر.

و مع کل تلک الحملات على الشـيعة فقد أصـبح لمدرسـتهم مکان فى التشـريع، رغم محاولة السـلطة و أعوانهم،لأن الشيعة يحملون من الآثار النبوية فى الأحکام الشرعية ما لا يمکن الاستغناء عنه و لم يجد العلماء بديلا منه.

قال على بن المدينى:لو ترکت أهل الکوفة لذلک الرأى يعنى التشيع خربت الکتب.

قال الخطيب البغدادى:قوله خربت الکتب يعنى لذهب الحديث (1).

و روى الخطيب عن محمد بن أحمد بن يعقوب عن محمد بن نعيم الضبى قال سـمعت أبا عبد اللّه محمد بن يعقوب و سئل عن الفضل بن محمد الشعرانى؟فقال:

صدوق فى الرواية إلا أنه کان من الغالين فى التشيع.

1- (1) انظر کفاية الأصول للخطيب-129.

قيل له فقد حدثت عنه فى الصحيح.فقال:لأن كتّاب أستاذى-ملآن من حديث الشيعة.يعنى مسلم بن الحجاج (1).

و رجال الحديث الثقات من الشيعة الذين اعتمدهم رجال الصحاح منبثين فى الأسانيد و الطرق.أما كتب الجرح و التعديل فقد مر فى ثنايا البحث طريقتهم فى الخضوع للحق و أن لا مندوحة من الاعتراف بقول الرواية إذا كان شيعيا و ذكر صفاته من الورع و الصدق إلا أن ذلک لا يعفى أحدا من ذكر التهمة و الإشارة إلى تشيعه.

و لقد اضطر بعض العلماء-و حتى رؤساء المذاهب-إلى التعبير عن الثقة الشيعى بالقول:حدثنى من لا أتهمه...إشارة إلى الرواية الشيعى و ما ذلک إلا امتداد لضرورات سياسة النصب التى أشرنا إلى نتائجها فى منع الرواية عن أمير المؤمنين الإمام على،و لجوء العلماء إلى الإشارة إليه بالكنية أو بلقب آخر.

و بالجملة فإن تلک الخصومة التى نشبت بين الشيعة و بين الدولة قد أثرت هذا الأثر السيئ على عقول كثير من الناس،و قد سرى ذلک إلى بعض المحدثين و علماء الرجال،ممن لم يذكروا الشيعة إلا مع التقبيح و التشنيع،فأعطوا عنهم فكرة سيئة، و صورة مشوهة كما ذكرنا ذلک مرارا.

و قد أخذ القصاصون نصيبهم فى نشر تلک الصور،و استغل الوضاعون تلک الفرص فكثرت الحكايات،و انتشرت الأحاديث الموضوعة و السياسة من وراء ذلک تشد أزرهم،و تتولى نشر ما يفترون.

و قد وضعوا على ألسنة أئمة المذاهب أقوالا مؤداها الامتناع عن قبول رواية الشيعة،كما نجد فى أكثر كتب الأصول كثيرا من ذلک؛فمثلا يقولون إن أبا حنيفة كان لا يجيز أخذ الآثار عن الشيعة كما أوردوا ذلک عن أبى عصمة،أنه سأل أبا حنيفة ممن تأمرنى أن أسمع الآثار؟ فقال أبو حنيفة من كل عدل فى هواه إلا الشيعة،فإن أصل عقيدتهم تضليل أصحاب محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و هذه الكلمة قد أخذت مكانتها من أدمغة كثير من كتّاب الأصول و الحديث فى

1- (1) كفاية الأصول للخطيب 131.

السابق و الحاضر،و بنوا عليها تأييد ما يدعونه على الشيعة من الطعن على الصحابة.

و تلک أمور تخضع لدرجة علم المرء و إيمانه فإذا غلب العلم على ذهن الإنسان و ساده الإيمان تحرّج من النيل من الآخرين،و هؤلاء لو أنهم قصدوا الخير و خدمة الحقيقة لبحثوا عن أصل هذه الفرية و الأكذوبة،التى نسبوها لأبى حنيفة،و ذلک أن أبا عصمة (1)كان من أشهر الوضاعين،و كان يرى ذلک حسبة،و أنه ينال أجرا على كذبه فيما يؤيد مذهبه،فيا لضياع العلم!! و كذلک نجد أقوالا عن الشافعى و مالک و أحمد شبيهة بهذا و الكل لا أصل له لأنا لم نجد طريقا يصح فى الإسناد إليهم،مع أنهم-أى أئمة و رؤساء المذاهب-لم ينفصلوا عن مدرسة الشيعة،فكلهم قد أخذوا الحديث منهم و رووا عنهم.

و أبو حنيفة كان من تلامذة الإمام الباقر و ولده الإمام الصادق عليهم السّلام و مالک من تلامذة الإمام الصادق عليه السّلام و الشافعى تلميذ لمالک،و أحمد تلميذ للشافعى،و الكل قد رووا عن رجال الشيعة و خرجوا أحاديثهم.

و هؤلاء الأئمة لم يرد عنهم حول رواية الشيعة ما يدل على الطعن،و كل ما نقل عنهم إنما هى أشياء انتحلها أناس لا يتورعون عن الكذب كما كذبوا على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أهل بيته من قبل،تهزهم جوائز الحكام و تطربهم انفعالات العامة فيتحللون من كل قيد و يتخلون عن كل وازع.

ثم نأتى إلى رواة الحديث و أهل الصحاح فنجد كتبهم ملآنة برواية الشيعة و أحاديثهم،فهذا البخارى و هو أمير المؤمنين فى الحديث-كما يسمونه-كان شيوخه من الشيعة (2)يربو عددهم على العشرين رجلا،و كذلک مسلم،و الترمذى و غيرهم من رواة الحديث.

1- (1) أبو عصمة هو نوح بن مريم المروزى المتوفى سنة 173 كان من الحنفية و لكنهم تركوا حديثه مع شهرته لأنه كان من الوضاعين و له مجالس يحدث فيها و هو واضع فضائل سور القرآن عن عكرمة و غيرها انظر ترجمته فى الفوائد البهية فى تراجم الحنفية 221 و شرح ألفية العراقى 1:268 و غيرها.

2- (2) انظر 411-413 من هذا المجلد.

و إننا نجـد اليوم كتّابا فى علوم الحـديث أو التاريـخ يتغافلون عن الحقائق الراهنـة، و يلبسونها أبرادا من التمويه،ليغذوا عقول الناشـئة بأباطيل عصور التطـاحن،فينـالون بأقلاـمهم المسـمومة الحـديث عن الشـيعة بكـل مـا توحيه إليهم عاطفتهم و يصـفون الشـيعة بما يروق لهم من الأوصاف التى لا يصح إطلاقها و لا يجوز ذكرها لو كان هناک أدنى أثر للروح الإسـلامية أو ذمة الإيمان وصفهم بها و لكن التعصب يوجد من لا شىء شيئا.

و كيف كان فإن الباحث المنصف لو أعطى من وقته شـيئا يساعـده على دراسـة موضوع الحـديث عند الشـيعة و تشددهم فى قبول الرواية و تثبتهم فى النقل لحكم بالعدل و بذل قليلا من الجهد فى التحقيق لخرج بنتيجة على عكس ما ادعوه.

و نحن هنا نقـدم طائفـة من الرجال الذين حملوا الحديث فكان منهم أئمة تشد إليهم الرحال،و تقصدهم طلاب العلوم من الأقطار النائية،و قد التزمنا بذكر بعض تلامذتهم،و من خرج حديثهم من كتب الصحاح الستة و ذكرنا أقوال علماء الرجال فيهم.

و أشرنا قبل قليل إلى تعبير بعضهم عند ما يترجمون لرجل من الشيعة فيقولون:

صدوق و لكن مذهبه مذهب الشيعة أو أنه صدوق و لكنما نقموا عليه التشيع،أو أنه سيئ المذهب أو مبتدع إلى غير ذلک مما ستقف عليه.

و من الحق أن نتساءل ما هو الموجب فى مثل هذه الأمور،و هل التشيع لعلى عليه السّلام و أهل بيته بدعة فى الإسلام؟!و لما ذا هذه النقمة على من يتشـيع؟!و لا نجد جوابا إلا الاتهامات التى تكمن ورائها أغراض الخصوم لأهل البيت عليهم السّلام الذين رموا أتباعهم بالزندقة.و قد مر تفصيل ذلک.

و من السفه و الجهل معا-أن يكون الاقتناع بكل ما ورد فيكون عقبة فى طريق البحث و النظر،و لئن أخطأ بعض الباحثين الطريق إلى الواقع لتقليدهم الغير فيما ينقلونه،فإنهم قد أساءوا لأنفسهم أولا،و لأمتهم ثانيا.

و إن تلک النظريات الخاطئة التى تصور الشيعة بغير صورتها الواقعية إنما كان من أسبابها تلک الغشاوة التى أرختها العصبية الرعناء،و قد آن الأوان لأن ننظر إلى الأمور

بمنظار الواقع،و أن نترک وراء ظهورنا ما ورثناه من عصور التطاحن،فإنا أحوج ما نکون إلی ذلک الیوم.

و سیتضح بهذه الدراسة خطأ القائلین بأن السنة لا یروون عن الشیعة،أو أن الشیعة لیس لمدرستهم الفقهیة فی التشریع أثر محسوس.

و هـذه النظرة الخاطئة التی تصور الشـیعة بمعزل عن المجتمع الإسـلامی،و أنهم صـفر الأکف من العلوم،و بالأخص الفقه و الحدیث هی ولیدة ظروف خاصة، و أغراض مقصودة،قد تعرضنا لها مرارا من قبل.

و لا بأس أن نشـیر هنا إلی ما أدت إلیه مواقف الحکّام و الظلمـة الـذین اصـطنعوا رجالا تزیّوا بزی العلم و لبسوا لبوس الورع،و لکنهم کانوا أعوان الفسـقة و رجال الجور،فخانوا مبادئ دینهم،و تنکروا لقیم الرسالة فأصـبحوا أدوات بید الجبارین و المتسلطین،و راحوا یضفون سمات الإسـلام علی النظم التی لم تتورع عن قتـل الأبریـاء و سـفک الـدماء و هتک الأعراض و انتهاب الأموال التی هی حق للمسـلمین، و کان هؤلاء الـذین استسـلموا لأغراض الحکام یؤثرون فی عقول العامة و یشـنون حربا علی مبادئ أهل البیت و یرمون من نبغ منهم بالضـلالة و البـدع،و نجحوا فی تـألیب الناس و إخضاعهم لأغراض الحکّام.و لکن علماء الشـیعة علی مر العصور لم تفتر هممهم،و لم یصـدهم عنف الطغاة،فکانت لهم هیئاتهم الخاصة التی تتصل بالأئمة من أهل البیت و نوابهم حسب المراحل الزمنیة.کما أن نتاج علماء الشـیعة و مبادئ أهـل البیت کـانت تجـد طریقهـا إلی النفوس فهی قرین الإیمان الحق،و کم انطوت الجوانـح و ضـمت الصـدور میولا و مشاعر لو لا قسوة الحکام،لوجدت طریقها و أفصحت عن نفسها فی مجامع الملوک المتسلطین و قصورهم عبر کل العهود.

و نحن بهـذا البیان عن حملـة العلم من الشـیعة و من کانت تشـدّ لهم الرحال للانتفاع منهم و الأخـذ عنهم نقـدم جانبا واحدا من جوانب الحرکة العلمیة عند الشـیعة و نعطی صورة مبسـطة لرجال الشـیعة الذین اقتحموا حواجز العداء و اجتازوا أسوار المقاطعة فوردت أسماؤهم عسی أن نوفق لتصحیح بعض أخطاء الکتّاب الذین أخطئوا الصواب فی تحاملهم علی الشیعة حول الحدیث بالأخص و اللّه الموفق.

و الآن نقدم جملة من أولئک العلماء الذین روی لهم أصحاب الکتب الستة

البخارى،و مسلم،و الترمذى،و النسائى،و ابن ماجة،و أبو داود مع ذكر بعض من روى عنهم.

كما أننا لم نتعرض لأقوال الشيعة و آرائهم فيهم،بل اقتصرنا على ما ذكره علماء السنة،من منصفين و متحاملين كالجوزجانى الذى لا يذكر الشيعة إلا بسيئ العبارة، لأنه شديد النصب لعلى عليه السّلام و كذلك لم نستوف جميع من خرج لهم أصحاب الكتب الستة،بل اقتصرنا على البعض منهم و هم:

أبان بن تغلب:

أبو سعيد أبان بن تغلب بن رباح الحريرى المتوفى سنة 141 (1).

خرج حديثه مسلم،و الترمذى،و أبو داود،و النسائى،و ابن ماجة و روى عنه موسى بن عقبة الأزدى،و شعبة بن الحجاج و حماد بن زيد بن درهم الأزدى، و سفيان بن عيينة،و محمد بن حازم التميمى،و عبد اللّه بن المبارک،و زهير، و على بن عابس،و غيرهم.

كان أبان من أصحاب الإمام الصادق عليه السّلام و قد تقدمت ترجمته فى ج 3 ص 51-57 ط 3 من هذا الكتاب.

قال ابن أبى حاتم:سئل أبى عن أبان فقال ثقة.و قال ابن حجر:أبان ثقة تكلم فيه للتشيع.و قال أحمد بن حنبل و ابن معين أبان ثقة و قال محمد بن سعيد المقرى:

سمعت عبد الرحمن بن الحكم يذكر عن أبان صحة حديث و أدب و عقل.

و قال ابن عدى:أبان بن تغلب له نسخ عامتها مستقيمة،إذا روى عنه ثقة،و هو من أهل الصدق فى الرواية و إن كان مذهبه مذهب الشيعة،و هو فى الرواية صالح لا بأس به.

و قال الذهبى:أبان بن تغلب الكوفى شيعى جلد لكنه صدوق فلنا صدقه و عليه بدعته،و قد وثقه أحمد بن حنبل،و ابن معين،و أبو حاتم و أورده ابن عدى،و قال:

1- (1) انظر ترجمته فى تهذيب التهذيب 1:93 و [1]طبقات ابن سعد 6:250 و فهرست ابن النديم 308 و معجم الأدباء 1:107 و [2]بغية الوعاة 176 و [3]مرآة الجنان 1:210 و [4]الجرح و التعديل 1:196 قسم 1 و ميزان الاعتدال 1:4 و غيرها من كتب الرجال و الحديث و التاريخ.

كان غاليا فی التشیع.و قال السعدی (1):زائغ مجاهر فلقائل أن یقول:کیف ساغ توثیق مبتدع و حد الثقة العدالة و الاتقان فکیف یکون عدلا من هو صاحب بدعة؟ و جوابه أن البدعة علی ضربین:فبدعة صغری کغلو التشیع،أو کالتشیع بلا غلو و لا تحرق،فهذا أکثر فی التابعین و تابعیهم مع الدین و الورع و الصدق،فلو رد حدیث هؤلاء لذهب جملة الآثار النبویة،و هذه مفسدة بینة.

ثم بدعة کبری:کالرفض الکامل و الغلو فیه،و الحط علی أبی بکر و عمر، و الدعاء إلی ذلک،فهذا النوع لا یحتج بهم و لا کرامة....

فالشیعی الغالی فی زمان السلف و عرفهم هو من تکلم فی عثمان،و الزبیر، و طلحة،و معاویة،و طائفة ممن حارب علیا و تعرض لسبهم،و الغالی فی زماننا و عرفنا هو الذی یکفر هؤلاء السادة،و یتبرأ من الشیخین أیضا،و لم یکن أبان یعرض للشیخین أصلا بل قد یعتقد علیا أفضل (2).

أقول:هذا هو جواب الأسئلة المتقدمة و قد أورد الذهبی هذا الجواب و ظهر من فحواه أن مطلق التشیع هو بدعة و لکن هذه البدعة تختلف شدة و ضعفا،فالبدعة الصغری غلو التشیع أو التشیع بلا غلو بمعنی مطلق الحب لعلی و مشایعته.

و لا أدری هل یبقی بعد هذا التقسیم أحد من المسلمین غیر متلبس بهذه البدعة إلا المنافقون الذین وصفهم الحدیث النبوی بقوله صلّی اللّه علیه و آله و سلّم:(یا علی لا یحبک إلا مؤمن و لا یبغضک إلا منافق)و نعوذ باللّه من النفاق.

و اتضح لنا أن هذه البدعة و هی التشیع مع الغلو-و معناه حب علی علیه السّلام و الإجهار فیه-کانت کثیرة فی التابعین و تابعیهم مع أنهم من أهل الورع و الدین فکیف یوسمون بالبدع؟!

1- (1) السعدی هو إبراهیم بن یعقوب أبو إسحاق السعدی الجوزجانی.المتوفی سنة 256 کان حروری المذهب شدید العداء لعلی علیه السّلام و قد وصفوه بأنه صلب فی السنة و قال ابن عدی:کان شدیدا إلی مذهب أهل دمشق علی علی علیه السّلام و لکنهم وثقوه لأن أحمد بن حنبل کان یکاتبه و إبراهیم هذا کان شدید الحمل علی رجال الشیعة فلا یصفهم إلا بسیئ القول لسوء عقیدته و انحراف نزعته.
2- (2) میزان الاعتدال 4:1-5.

يقول أبو قيس الأودى (1)المتوفى سنة 120:أدركت الناس و هم ثلاث طبقات:أهل دين يحبون عليا،و أهل دنيا يحبون معاوية،و الخوارج (2).

و على أى حال:لا نريد أن نخوض فى هذا الموضوع و نسأل من أين جاء هذا التحديد؟و لما ذا اختص الشيخان بهذه المنزلة دون غيرهم من أصحاب محمد؟و لما ذا لا يطبق ذلک على من أعلن شتم على عليه السّلام و انتقاصه؟!و كيف تقبل رواية من عرف بالعداء له مع أنهم لم يسموه بالبدعة و لم يتوقفوا عن قبول روايته أمثال عثمان بن حريز و الحصين بن نمير و الهيثم بن الأسود و.و.

أحمد بن المفضل:

أبو على الكوفى أحمد بن المفضل القرشى الأموى الحفرى-محله بالكوفة المتوفى سنة 215 مولى عثمان بن عفان.

خرج حديثه مسلم و أبو داود و النسائى (3)و روى عنه أبو زرعة و أبو حاتم و ابنا أبى شيبة و أحمد بن يوسف السلمى (4).

و قال ابن حاتم:سمعت أبى و أبا زرعة يقولان:كتبنا عنه و سئل أبى عنه؟ فقال:كان صدوقا من رؤساء الشيعة (5).

و قال ابن حجر:أحمد بن المفضل الحفرى صدوق شيعى و أشار إلى تخريج مسلم و أبى داود و النسائى لحديثه (6).

و قال صفى الدين الخزرجى:أحمد بن المفضل روى عنه أبو بكر و عثمان ابنا أبى شيبة و أبو حاتم كان صدوقا من الشيعة مات سنة 215.

1- (1) أبو قيس الأودى هو عبد الرحمن بن ثروان الكوفى المتوفى سنة 120 و هو من رجال الصحيح البخارى و مسلم و الترمذى و أبى داود و النسائى.

2- (2) أخرجه بن عبد البر بسند عن سفيان الثورى فى الاستيعاب 3:51. [1]

3- (3) الخلاصة لصفى الدين الخزرجى-11.

4- (4) تهذيب التهذيب 1:81. [2]

5- (5) الجرح و التعديل 1:77-قسم 1.

6- (6) التقريب 1:26.

إبراهيم بن يزيد:

أبو عمران ابراهيم بن يزيد بن قيس النخعى الكوفى المتوفى سنة 96.

خرج حديثه البخارى،و مسلم،و الجماعة،و روى عنه الأعمش و منصور بن عون،و زبيد البامى،و حماد بن سليمان،و مغيرة بن مقسم الضبى و غيرهم.

ذكره ابن قتيبة فى رجال الشيعة،و ترجم له سيدنا شرف الدين فى مراجعاته (1)و مات إبراهيم مختفيا من الحجاج و لم يشيعه إلا سبعة رجال...

إبراهيم بن محمد

(2)

:

أبو إسحاق المدنى إبراهيم بن أبى يحيى المتوفى سنة 184 شيخ الإمام الشافعى و ابن جريح-و أبو يحيى اسمه سمعان-خرج حديثه ابن ماجة،و روى عنه الحديث داود بن عبد اللّه الجعفرى،و يحيى بن آدم،و ابراهيم بن موسى السدى، و الحسن بن عرفة،و إبراهيم بن طهمان،و ابن جريح الشافعى،و سعيد بن أبى مريم،و أبو نعيم و طائفة غيرهم.

و قد تحامل على إبراهيم كثير من الحفاظ و اتهموه بالكذب،و وثقه آخرون.قال الذهبى:إبراهيم بن أبى يحيى الفقيه المحدث،أبو إسحاق الأسلمى،أحد الأعلام، حدث عنه الشافعى،و ابن جريح،و هو من شيوخه و إبراهيم السدى،و الحسن بن عرفة و طائفة،و كان الشافعى يمشيه و يدلسه فيقول:أخبرنى من لا أتهم.

و قال:ما كان ابن أبى يحيى فى وزن من يضع الحديث و كان من أوعية العلم، و عمل موطأ كبيرا،و لكنه ضعيف عند الجماعة و لو كان عند الشافعى ثقة لصرح بذلك،كما يقول فى غيره:أخبرنى الثقة.و لكنه عنده غير متهم بالكذب،كما حط عليه بذلك بعضهم.

و قال الشافعى:لإن يخر إبراهيم من بعد أحب إليه من أن يكذب و هو ثقة فى الحديث،و قال الشافعى أيضا فى كتّاب اختلاف الحديث:ابن أبى يحيى أحفظ من الدراوردى.

1- (1) المراجعات 42.

2- (2) انظر ترجمته فى تهذيب التهذيب 1:158-161 و [1]الخلاصة للخزرجى 18 و تذكرة الحفاظ للذهبى 1:227.

و قال أبو أحمد بن عدی:سألت أحمد بن سعید یعنی بن عقدة فقلت له تعلم أحدا أحسن القول فی إبراهیم غیر الشافعی؟ فقال:نعم حدثنا أحمد بن یحیی الأودی سمعت حمدان بن الأصبهان قلت أ تدین بحدیث إبراهیم؟قال نعم.و قال ابن عقدة نظرت فی حدیث إبراهیم کثیرا و لیس بمنکر الحدیث.

قال ابن عدی:و هذا الذی ابن عقدة هو کما قال و قد نظرت أنا أیضا فی حدیثه الکثیر فلم أجد فیه منکرا،إلا عن شیوخ یحتملون،و إنما یروی المنکر من قبل الراوی عنه،أو من قبل شیخه،و هو فی جملة من یکتب حدیثه،و لو الموطأ أضعاف موطأ مالک (1).

أقول کان إبراهیم من تلامذة الإمام الباقر علیه السّلام و ولده الإمام الصادق علیه السّلام و کان من شیوخ الإمام الشافعی،و ابن جریح و غیرهما من المحدثین.و قد أکثر الشافعی عنه،و لشدة ما تحامل الناس علی إبراهیم فقد کان الشافعی لا یحدث عنه باسمه فی بعض المواطن،فیقول حدثنی الثقة أو یقول حدثنی من لا اتهمه و یصرح باسمه فی مواطن أخر.

و قد روی الشافعی عن إبراهیم عن الصادق علیه السّلام فی عدة أحادیث.

قال إسحاق بن راهویه:ناظرت الشافعی بمکة،فی کری بیوت مکة فاحتج بالحدیث(هل ترک لنا عقیل من ظل)؟ قال إسحاق فقلت للشافعی-فیما کنت احتج فیه علیه-:کیف جعفر بن محمد الصادق عندک؟ فقال:ثقة کتبنا عن إبراهیم بن یحیی عند العمارة حدیثا عنه فقال إسحاق:

حدثنی حفص بن غیاث القاضی عن جعفر بن محمد..و سردت الباب فی کری بیوت مکة (2).

و علی أی حال:فإن إبراهیم هذا من الشیعة و له کتّاب مبوب فی الحلال و الحرام و هو أول من وضع موطأ أضعاف موطأ مالک.

1- (1) تهذیب التهذیب 1:159 [1]

2- (2) أخبار الشافعی و مناقبه للرازی 2:187.

و لم يكن لمن تحاملوا عليه حجة إلا ما ادعاه بعض الناس عليه من أنه كان ينال من الشيخين كما ذكر ذلک يعقوب بن سفيان فی تاريخه (1).

أجلح

(2)

:

أبو حجية الكندی أجلح و قيل اسمه يحيی بن عبد اللّه و الأجلح لقب،المتوفی سنة 145.

خرج حديثه البخاری فی الأدب المفرد و مسلم فی صحيحه و الأربعة.و روی عنه الثوری و ابن المبارک و يحيی القطان و شعبة و أبو أسامة و جعفر بن عوف.

قال ابن حجر:أجلح يقال اسمه يحيی صدوق شيعی مستقيم الحديث من الطبقة السابعة مات سنة 145.

و قال ابن عدی:أجلح شيعی صدوق.و قال الجوزجانی:أجلح مفتر.و قال النسائی له رأی سوء (3).

و قال ابن معين:أجلح صالح،ثقة،و ليس به بأس.و قال ابن عدی:أجلح له أحاديث صالحة و يروی عنه الكوفيون و غيرهم و لم أر له حديثا منكرا مجاوزا للحد لا إسنادا و لا متنا إلا أنه من شيعة الكوفة و هو عندی صدوق (4).

و ذكره الشيخ الطوسی فی عداد تلامذة الإمام الصادق عليه السّلام و أسماه يحيی بن عبد اللّه بن معاوية الكندی الأجلح.

إسحاق بن منصور:

أبو عبد الرحمن إسحاق بن منصور السلولی الكوفی المتوفی سنة 205.

خرج حديثه البخاری و مسلم و الترمذی و أبو داود و النسائی و ابن ماجة.و روی عنه أبو نعيم و هو من أقرانه،و ابنا أبی شيبة،و عباس العنبری،و أبو كريب،و ابن

1- (1) فهرست الشيخ الطوسی 3. [1]

2- (2) انظر ترجمته فی تهذيب التهذيب 1:189 و [2]الجرح و العديل 1:346 قسم 1 و التقريب 1:49 و غيرها.

3- (3) انظر ميزان الاعتدال 1:27.

4- (4) التهذيب 1:189-190.

نمير،و القاسم بن زكريا،و أحمد بن سعيد الرباطى و عباس الدورى،و يعقوب بن شيبة السدوسى و جماعة (1).

قال ابن حجر:إسحاق بن منصور السلولى مولاهم أبو عبد الرحمن صدوق، تكلم فيه للتشيع،مات سنة 204 و قيل بعدها (2).

إسماعيل بن أبان:

أبو إسحاق إسماعيل بن أبان الأزدى الوراق الكوفى المتوفى سنة 216.

خرج حديثه البخارى،و الترمذى فى الصحيح،و أبو داود فى مراسيله و كان من شيوخ البخارى.

روى عنه أحمد بن حنبل،و ابن معين،و الدارمى،و أبو حاتم و أبو زرعة،و أبو خيثمة،و عثمان بن أبى شيبة،و القاسم بن زكريا بن دينار،و الذهلى،و يعقوب بن شيبة،و جماعة آخرهم إسماعيل سمويه،و أبو إسماعيل الترمذى (3).

قال ابن حجر:إسماعيل بن أبان الأزدى أبو إسحاق أو أبو إبراهيم كوفى ثقة، تكلم فيه للتشيع مات سنة ست عشرة من الطبقة التاسعة (4).

و قال الذهبى:إسماعيل بن أبان الكوفى الوراق شيخ البخارى حدث عنه يحيى و أحمد.و قال البخارى:صدوق.و قال غيره،كان يتشيع (5).

و قال الجوزجانى:كان مائلا عن الحق و لم يكن يكذب.قال ابن عدى:حول هذا القول:الجوزجانى كان مقيما بدمشق يحدث على المنبر و كان أحمد يكاتبه فيتقوى بكتّابه،و يقرأه على المنبر،و كان شديد الميل إلى مذهب أهل دمشق فى التحامل على على عليه السّلام فقوله فى إسماعيل مائل عن الحق يريد به ما عليه الكوفيون من التشيع (6).

1- (1) تهذيب التهذيب 1:250. [1]

2- (2) التقريب 1:61 و الخلاصة لصفى الدين 25.

3- (3) تهذيب التهذيب 1:229 و [2]الجرح و التعديل 1:160.

4- (4) التقريب 1:65.

5- (5) الميزان 1:99.

6- (6) ميزان الاعتدال 1:26.

و قال ابن حجر:الجوزجانی کان ناصبیا منحرفا عن علی فهو ضد الشیعی، المنحرف عن عثمان و الصواب موالاتهما جمیعا،و لا ینبغی أن یسمع قول مبتدع فی مبتدع (1).

و قال البزاز:إنما کان عیبه(أی إسماعیل)شدة تشیعه لعلی انه عیر(أو عیب) علیه فی السماع،و قال الدار قطنی:ثقة مأمون.

إلی آخر ما جاء حول أبان شیخ البخاری و أحمد و غیرهما و قد وصفوه بالصدق و الأمانة إلا أن عیبه هو حبه لعلی علیه السّلام.

و قال ابن أبی حاتم سمعت أبی یقول:إسماعیل بن أبان الوراق ثقة.صدوق و الأمانة إلا أن عیبه هو حبه لعلی علیه السّلام.

و قال ابن أبی حاتم سمعت أبی یقول:إسماعیل بن أبان الوراق ثقة.صدوق فی الحدیث صالح الحدیث،لا بأس به کثیر الحدیث.

تمییز:

ربما اشتبه بعضهم فی ترجمة إسماعیل بن أبان الوراق بإسماعیل بن أبان الخیاط الغنوی الکوفی المتوفی سنة 210.

فإسماعیل بن أبان الوراق ثقة صدوق شیعی کما تقدم و إسماعیل بن أبان الخیاط کان کذابا.

قال عثمان بن أبی شیبة:إسماعیل بن أبان الوراق ثقة صحیح الحدیث قیل له:

فإن إسماعیل بن أبان عندنا غیر محمود؟ قال هاهنا إسماعیل آخر یقال له:ابن أبان غیر الوراق و کان کذابا (2).

و قال الذهبی:إسماعیل بن أبان الخیاط الغنوی:کذبه یحیی بن معین،و قال أحمد بن حنبل کتبنا عنه عن هشام بن عروة ثم روی أحادیث موضوعة.

ثم ذکر الذهبی الأحادیث الموضوعة عنه و إن کان یضعها علی الثقات و منها حدیث السابع من ولد العباس یلبس الخضرة.

و کان أبان هذا یضع الأحادیث علی سفیان الثوری و جابر الجعفی و غیرهم من الثقات (3).

1- (1) هدی الساری 88.

2- (2) تهذیب التهذیب 1:270. [1]

3- (3) میزان الاعتدال 1:98.

و على أى حال:فإن زمن ابن الوراق و الغنوى واحد و ربما وقع الاشتباه بين الاسمين.

إسماعيل السدى:

أبو محمد إسـماعيل بن عبد الرحمن بن أبى كريمة السدى-نسبة إلى سدة مسجد الكوفة-المتوفى سنة 127 من تلامذة الإمام الصادق عليه السّلام.

خرج حديثه مسـلم،و الترمذى،و ابن ماجة،و أبو داود،و النسائى و روى الحديث عنه حملة الآثار منهم:سماك بن حرب،و إسماعيل بن أبى خالـد، و عيسـى بن عمر الهمذانى،و سـليمان التميمى،و عثمان بن ثابت،و مالك بن مغول، و سـفيان الثورى،و زائدة،و زيد بن أبى أنيسة،و زياد بن أبى خيثمة،و أبو إسـرائيل الملائى،و إسرائيل بن يونس،و حسن و على ابن صالح،و شريك بن عبد اللّه،و أبو عوانة و أبو الأحوص،و أبو بكر بن عياش (1).

قال ابن حجر:إسماعيل السدى أبو محمد الكوفى صدوق يتّهم و رمى بالتشيع من الطبقة الرابعة (2).

و قال الخزرجى:رمى بالتشيع.و قال ابن عدى:مستقيم الحديث صدوق.

و قال على بن المدينى:سمعت يحيى بن سعيد يقول:ما رأيت أحدا يذكر السدى إلا بخير (3).

و سـئل القطان عن السـدى؟فقال:لا بأس به،ما سـمعت أحدا يذكر السدى إلا بخير و ما تركه أحد ثم قال:روى عنه شـعبة،و الثورى و زائدة (4).

و قال أحمد بن حنبل:قال يحيى بن معين يوما عند عبد الرحمن بن المهدى:

السدى ضعيف،فغضب عبد الرحمن و كره ما قال (5).

1- (1) انظر الجرح و التعديل 1:184 ق 1.

2- (2) التقريب 2:22.

3- (3) ميزان الاعتدال 1:11.

4- (4) الجرح و التعديل 1:184 ق 1.

5- (5) نفس المصدر.

و كان السدى من المفسرين المشهورين و من الثقات فى الحديث و خرج حديثه الجماعة إلا البخارى،و لكنه كان شيعيا و لهذا قال فيه الجوزجانى المتعصب:حدثت عن معمر عن ليث:كان بالكوفة كذابان فمات أحدهما السدى و الكلبى (1).

و قد لفق خصومه حوله تهما و نسبوا إليه أشياء حسب ما توحيه إليهم نزعتهم المنحرفة عن الحق.

و إلا فإن الرجل من حملة الحديث،و كان يقصده العلماء للأخذ عنه،و قد وثقه جماعة منهم:أحمد بن حنبل،و ابن مهدى،و أبو حاتم و غيرهم.

و قال شريک ما ندمت على رجل لقيته الا أكون كتبت كل شىء لفظ به،إلا السدى.قال أبو محمد:يعنى السلف الماضى (2).

إسماعيل بن خليفة:

أبو إسرائيل إسماعيل بن خليفة العبسى الملائى الكوفى المتوفى سنة 169.

خرج حديثه الترمذى،و ابن ماجة،و روى عنه الثورى،و عبد الرحمن الرازى،و وكيع و أبو نعيم،و إسماعيل بن صبيح اليشكرى،و أبو أحمد الزبيرى و أبو الوليد الطيالسى.

قال ابن حجر:إسماعيل بن خليفة صدوق سيئ الحفظ نسب إلى الغلو فى التشيع.

و قال أبو زرعة:إسماعيل صدوق إلا أن فى رأيه غلوا (3)و قال يحيى بن معين:

أبو إسرائيل صالح.و قال عمر بن على:أبو إسرائيل الملائى ليس من أهل الكذب.

و قال ابن أبى حاتم:كان من الثقات روى عنه أبى و أبو زرعة رحمهم اللّه (4).

و قال ابن حبان فى الضعفاء:روى عنه أهل العراق،و كان رافضيا شتاما،و هو مع ذلک منكر الحديث،حمل عليه أبو داود الطيالسى حملا شديدا (5).

1- (1) ميزان الاعتدال 1:110.

2- (2) الجرح و التعديل.

3- (3) تهذيب التهذيب 1:293. [1]

4- (4) الجرح و التعديل 1:167 ق 1.

5- (5) تهذيب التهذيب 1:294. [2]

و قال ابن سعد:إسماعيل بن خليفة يقولون إنه صدوق و كان بهز بن أسد يحكى أنه سمع أبا إسرائيل تناول عثمانا (1).

و قال الجوزجانى:إسماعيل بن خليفة مفتر زائغ.أى أنه شيعى لأن هذه لهجة الجوزجانى فى تراجم الشيعة.

و كيف كان فالرجل وثقه العلماء و أخذ عنه جماعة منهم و قد اتهموه بالحمل على الخلفاء.

إسماعيل بن زكريا:

أبو زياد إسماعيل بن زكريا بن مرة الخلقانى المتوفى سنة 174.

خرج حديثه البخارى،و مسلم،و الترمذى،و أبو داود،و النسائى و ابن ماجة و روى عنه سعيد بن سليمان سعدويه،و محمد بن الصباح الدولابى و أبو الربيع الزهرانى،و محمد بن بكار بن الريان،و محمد بن سليمان و سعيد بن منصور، ولوين وعدة (2).

قال الذهبى:إسماعيل بن زكريا الخلقانى الكوفى صدوق شيعى لقبه شقوصا، قال أحمد:ما به بأس و قال مرة حديثه حديث مقارب و قال مرة ضعيف الحديث، وثقه ابن معين (3)و قال ابن خراش:إسماعيل صدوق.و قال الدورى و ابن أبى خيثمة عنه:إنه ثقة.

إسماعيل بن موسى:

أبو محمد إسماعيل بن موسى الفزارى الكوفى المتوفى سنة 245.

روى له البخارى فى أفعال العباد و خرج حديثه أبو داود،و الترمذى و ابن ماجة.

و روى عنه ابن خزيمة،و الساجى،و أبو يعلى،و أبو عروبة،و مطين و بقى بن مخلد،و أبو حاتم،و أبو زرعة (4).

1- (1) طبقات ابن سعد 6:380 [1] ط 2.

2- (2) تاريخ بغداد 6:115 و [2]تهذيب التهذيب 1:297. [3]

3- (3) ميزان الاعتدال 1:106.

4- (4) تهذيب التهذيب 1:335. [4]

قال ابن أبی حاتم:سألت أبی عنه؟فقال صدوق.و روی عنه أبی و أبو زرعة.

و قال ابن حجر:إسماعیل بن موسی نسیب السدی صدوق یخطئ و رمی بالرفض،من الطبقة العاشرة (1).

و قال الذهبی:إسماعیل بن موسی الفزاری الکوفی روی عنه أبو داود و أبو عروبة،و ابن خزیمة و خلائق،قال أبو حاتم:صدوق،و قال النسائی لیس به بأس.

و قال ابن عدی:أنکروا منه غلوه فی التشیع (2).

و قال مطین:کان إسماعیل بن موسی صدوقا و قال أبو داود:إسماعیل صدوق فی الحدیث و کان یتشیع (3).

و قد اتهموه بشتم السلف و کان هناد ینهی عن الحضور عند إسماعیل بن موسی لأنه یشتم السلف.و شتم السلف فی عرفهم یدخل فیه نقل کل روایة فیها حط علی واحد منهم حتی لو قال أحد إن معاویة خالف الکتّاب و السنة بإلحاقه زیاد بن سمیة بأبی سفیان،أو یقال بأنه سلط بسر ابن أرطاة علی المسلمین فقتل الأطفال، و الشیوخ،و النساء،أو یقال:إنه سم الحسن بن علی علیه السّلام،أو یقال إن المغیرة بن شعبة زنی بأم جمیل و خالد بن الولید قتل مالک بن نویرة ظلما و نزی علی امرأته إلی غیر ذلک.فالتعرض لأمثال هذه الحوادث یرمی صاحبها بالفسق کما نقل الذهبی عن ابن أبی شیبة أو هناد أنه قال لمن یذهب لسماع الحدیث من إسماعیل هذا(أیش عملتم عند ذاک الفاسق الذی یشتم السلف) (4).

إسماعیل بن عبد اللّه:

إسماعیل بن عبد اللّه بن جعفر بن أبی طالب الهاشمی المتوفی سنة 145.

خرج حدیثه ابن ماجة.و روی عنه ابن أخیه صالح بن معاویة و الحسین بن زید بن علی بن الحسین و عبد اللّه بن مصعب الزبیری.

و وقع اشتباه فی خلاصة الخزرجی بقوله و روی عنه الحسین بن علی و هذا خطأ

1- (1) التقریب 1:75.

2- (2) میزان الاعتدال 1:117.

3- (3) التهذیب 1:336.

4- (4) انظر میزان الاعتدال 1:117.

و الصحيح ما بيناه و هو الحسين بن زين بن على و لهذا ذكرناه هنا لأنا لم نذكر حملة الحديث من العلويين فى هذا العرض.

إسماعيل بن سلمان:

إسماعيل بن سلمان بن المغيرة الأزرق التميمى الكوفى.

خرج حديثه ابن ماجة،و البخارى فى الأدب المفرد،و روى عنه إسرائيل و وكيع،و محمد بن أبى ربيعة،و عبيد اللّه بن موسى.قال ابن أبى حاتم:سمعت ابن نمير يقول:إسماعيل بن الأزرق الذى يروى عن أبى عمر كان من غلاة الشيعة،و أبو عمر صاحب ابن الحنفية (1).

و قد تحامل الحفاظ على إسماعيل هذا لأنه أحد رواة حديث الطائر المشوى، الذى أخرجه الترمذى،و البغوى فى المصابيح الحسان،و أخرجه الخربى،و ابن البخارى و غيرهم عن أنس بن مالک قال:قدمت لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم طيرا،أو كان عند النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم طير فقال اللهم ائتنى بأحب خلقک إليک،ليأكل معى هذا الطير فجاء على عليه السّلام فأكل معه.

و حديث الطائر مشهور،و أحد رواته إسماعيل بن سلمان و من أعجب الأمور أن يكون سبب تضعيف هذا الرجل لروايته لهذا الحديث و لم ينفرد هو به بل روى من طرق متعددة ليس هذا محل التعرض لها حتى أن الذهبى صححه،و جعل فيه جزءا منفردا.

و من أظرف الأشياء:أن الحافظ عبد اللّه بن محمد بن عثمان الواسطى المتوفى سنة 373 كان من العلماء الأعلام،و له حلقة درس،و من الحفاظ المتقنين، فاتفق أنه أملى على تلامذته حديث الطير،فلم تحمله نفوسهم،فوثبوا به و أقاموه، و غسلوا موضعه،فمضى و لزم بيته،و لم يحدث أحدا.

قال الذهبى:و لهذا قل حديثه عند الواسطيين (2).

و من هذا و أمثاله يتجلى لنا شدة الأمر على الحفاظ الذين يحملون الآثار

1- (1) تقدمة المعرفة لكتاب الجرح و التعديل-325.

2- (2) انظر تذكرة الحفاظ 3:165.

الصحيحة فى فضائل أهل البيت،مما يدعو إلى التكتم و ترک ذلک،و لهذا قال بعض الحفاظ فى الإمام على عليه السّلام:ما ذا أقول فى رجل كتم أعداؤه فضائله حسدا له و كتم أولياؤه فضائله خوفا من أعدائه،فظهر له ما بين ذا و ذا ما ملأ الخافقين.

أصبغ بن نباتة

(1)

أبو القاسم أصبغ بن نباتة التميمى ثم الحنظلى الكوفى.خرج حديثه ابن ماجة روى عنه سعيد بن طريف،و الأجلح و فطر بن خليفة و محمد بن السائب الكلبى و غيرهم.

كان من خواص الإمام على عليه السّلام و كان على شرطته.قال ابن حبان:أصبغ فتن بحب على فأتى بالطامات.

و قال ابن عدى عامة ما يرويه عن على عليه السّلام لا يتابعه عليه أحد،و هو بين الضعف ثم قال:و إذا حدث عنه ثقة فهو عندى لا بأس بروايته.

و قال العجلى:أصبغ كوفى تابعى ثقة.و قال ابن سعد:أصبغ كان شيعيا و كان يضعف فى روايته و كان على شرطة على عليه السّلام.و قال أبو أحمد الحاكم:ليس بالقوى عندهم.و قال الجوزجانى:زائغ.

و لا بد هنا بأن نشير إلى ما يبدو من كلمة ابن عدى بأن:أصبغ بن نباتة ثقة و لكنه مكذوب عليه و هذا غير بعيد أن يضع المغرضون عنه أخبارا غير صحيحة لتنسب إلى شيعة على عليه السّلام حتى يكون طريقا للوقيعة فيهم و هذا كثير فى تلک العصور.

و الغرض أن أصبغ من الثقات و من خواص أمير المؤمنين و لكن تحاملهم عليه لشدة حبه لعلى عليه السّلام.و لا يضر مكانته ما سدده القوم إليه،و لعمرى فإنها عليهم و ليست لهم ما دام أصبغ على بينة من دينه و على ثقة من علمه.

بسام الصيرفى:

أبو الحسن بسام بن عبد اللّه الكوفى من تلامذة الإمامين الباقر و الصادق عليهما السّلام خرج حديثه النسائى.و روى عنه حاتم بن إسماعيل،و خلاد بن

1- (1) انظر ترجمته فى تهذيب التهذيب 1:362 و [1]ميزان الاعتدال 1:165 و الخلاصة للخزرجى 33 و تقريب التقريب 1:81 و الجرح و التعديل لابن أبى حاتم 1-قسم 1 و غيرها.

يحيى،و ابن المبارک و وکيع،و أبو نعيم،و الحسن بن عطية،و عبيد اللّه الأشجعى (1).

قال يحيى بن معين:بسام الصيرفى صالح.و قال مرة إنه ثقة.

و قال أبو حاتم:بسام الصيرفى لا بأس به،صالح الحديث.

و قال الحاکم فى المستدرک:هو من ثقاة الکوفيين ممن يجمع حديثه و لم يخرجاه(أى مسلم و البخارى)و ذکره ابن عقدة فى رجال الشيعة و کذلک الطوسى و ابن النجاشى (2).

تليد بن سليمان

(3)

أبو سليمان أو أبو إدريس تليد بن سليمان المحاربى الکوفى المتوفى سنة 190.

خرج حديثه الترمذى فى صحيحه،و روى عنه هشيم بن أبى ساسان و أحمد بن حاتم الطويل،و أحمد بن حنبل،و إسحاق موسى الأنصارى و محمد بن عبد اللّه بن نمير،و أبو سعيد الأشج،و يحيى بن يحيى النيسابورى.

قال أحمد بن حنبل:تليد کان مذهبه التشيع.و قال البخارى:تليد تکلم فيه يحيى بن معين و رماه.و قال العجلى:تليد کوفى روى عنه أحمد بن حنبل لا بأس به کان يتشيع و يدلس.

و قال أحمد بن حنبل:کتبت عنه حديثا کثيرا.و قال يعقوب بن سفيان:تليد رافضى خبيث.

و أخرج الخطيب البغدادى عن تليد بن سليمان عن أبى الجحاف عن أبى حازم عن أبى هريرة قال:نظر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلى على و فاطمة و الحسن و الحسين فقال:

«أنا حرب لمن حاربکم سلم لمن سالمکم».

و قد اتهم تليد بأنه يشتم عثمان،و لهذا حملوا عليه فکذبوه يقول عباس بن

1- (1) انظر تهذيب التهذيب 1:434 و [1]الجرح و التعديل 1:433 ق 1.

2- (2) تهذيب التهذيب 1:435. [2]

3- (3) انظر تاريخ بغداد 7:136 و [3]الجرح و التعديل 1:471 ق 1 و تهذيب التهذيب 1:509 [4] ميزان الاعتدال 1:166 و غيرها.

محمد:سمعت يحيى بن معين يقول:تليد كذاب كان يشتم عثمان،و كل من شتم عثمان أو طلحة،أو أحدا من أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم دجال لا يكتب عنه،و عليه لعنة اللّه و الملائكة،و الناس أجمعين (1).

هـذا ما نقل عن ابن معين و هو الرجل الحافظ المتضـلع بعلم الرجال،و لكن لا نـدرى هل أن ما ذهب إليه ابن معين من هذا الرأى هو عام لكل من شـتم أحدا من أصـحاب محمد صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم،أم خاص بالبعض دون البعض؟ فإن كان ذلک على وجه العموم فبأى وجه يصدق من يحمل على أول الصـحابة إسـلاما،و أعلمهم بأحكام القرآن،و أقضاهم بالحكم،و أعدلهم فى الرعية،و أقربهم من رسول اللّه بل هو نفسه،و هو الإمام على!! فإنا نجد كتب الحديث مملوءة من روايات من نصب العداء لعلى و ولديه أمثال الخوارج كعمران بن حطان و ثور بن زيد الديلى و الجوزجانى و غيرهم فقد وثقوهم و أخذوا عنهم.

و كذلک النواصب كإسماعيل بن سميع الحنفى و أزهر بن عبد اللّه و.و.و.

ثم مـا ذا يقول ابن معين فى الروايـة عمن اتخـذ شـتم أهل البيت سـنة فهل تركوه أم خرجوا أحاديثه و وسـموه بأنه صـلب فى السـنة ثقـة فى الحديث؟!! و إن كان هذا شيئا يخص جماعة دون آخرين فهذا أمر لا نعرفه و ليس له دليل.

و نحن لا نريد أن نخرج عن الصدد فى الخوض بهذا الموضوع و نترک تقديره للقراء المنصفين.

ثابت بن أبى صفية:

أبو حمزة ثابت بن أبى صفية الثمالى المتوفى فى خلافة أبى جعفر المنصور.

خرج حديثه الترمذى،و ابن ماجة،و النسائى فى مسند على عليه السّلام،و هو من تلامذة الإمام الباقر عليه السّلام.

1- (1) تاريخ بغداد 7:136. [1]

روی عنه الثوری،و شریک،و حفص بن غیاث،و أبو أسامة و عبد الملک بن أبی سلیمان و أبو نعیم،و وکیع،و عبید اللّه بن موسی،و زافر بن سلیمان.

قال ابن حجر:ثابت بن أبی صفیة الثمالی-بضم المثلثة-أبو حمزة و اسم أبیه دینار-و قیل سعید-کوفی رافضی من الخامسة مات فی خلافة أبی جعفر المنصور (1).

و قال الخزرجی:ثابت بن أبی صفیة الثمالی أبو حمزة رافضی (2).و علی أی حال فقد ذکروا أبا حمزة بالتضعیف و لیس لهم حجة إلا أنه رافضی کان یحمل علی عثمان.

ثویر بن أبی فاختة:

أبو الجهم ثویر بن أبی فاختة سعید بن علاقة الهاشمی أبو الجهم الکوفی مولی أم هانی و قیل مولی زوجها جعدة.

خرج حدیثه الترمذی فی صحیحه،و روی عنه الأعمش،و الثوری و إسرائیل، و شعبة و حجاج بن أرطاة و غیرهم.

قال یونس بن أبی إسحاق:کان رافضیا و قال ابن معین؛لیس بشیء و قال أبو حاتم و غیره ضعیف (3).

و قد نقموا علی ثویر هذا تشیعه لعلی علیه السّلام و روایته عن أبیه أبی فاختة و کان أبوه من کبار التابعین و وثقه جماعة.

و قد روی ثویر عن أبیه-کما حدث عنه أبو مریم الأنصاری-أنه سمع علیا علیه السّلام یقول:لا یحبنی کافر و لا ولد زنی (4).

جعفر بن زیاد:

أبو عبد اللّه-و قیل أبو عبد الرحمن-جعفر بن زیاد الأحمر الکوفی المتوفی سنة 167.

1- (1) التقریب 1:116.

2- (2) الخلاصة-48 و طبقات ابن سعد 6:364.

3- (3) میزان الاعتدال 1:174.

4- (4) نفس المصدر.

خرج حديثه أبو داود،و الترمذی،و النسائی،و روی عنه سفيان بن عيينة، و وكيع بن الجراح،و عبيد اللّه بن موسی،و أبو غسان النهدی،و أسود بن شاذان، و ابن إسحاق،و إسحاق بن منصور السلولی و عبد الرحمن بن مهدی و قبيصة وعدة غيرهم (1)و هو من تلامذة الإمام الصادق عليه السّلام.

قال ابن حجر:جعفر بن زياد صدوق يتشيع من الطبقة السابعة (2).

و وثقه أحمد بن حنبل و ابن معين و أبو زرعة (3)و قال أبو داود صدوق شيعی حدث عنه ابن مهدی،و قال ابن أبی شيبة:جعفر بن زياد صدوق ثقة و قال العجلی:

كوفی ثقة (4).

و يقول الجوزجانی:جعفر بن زياد مائل عن الطريق.قال الخطيب البغدادی -بعد نقله لكلمة الجوزجانی-:قلت:يعنی فی مذهبه و ما نسب إليه من التشيع.

و لقد تحمل جعفر بن زياد فی سبيل حبه لآل محمد و تشيعه لهم الكثير من جور السلطة و عنف الولاة،لأنه كان من رؤساء الشيعة فی خراسان.فقد كتب المنصور إلی هراة بإشخاصه مع جماعة من الشيعة فحبسوا فی المطبق دهرا طويلا و كان إشخاصه من الإهانة و التحقير و ذلک أنهم أشخصوه فی ساجور و الساجور خشبة تعلق فی عنق الكلب أو قلادة تجعل فی عنقه و المراد هنا أنهم أشخصوه و فی عنقه حبل يجربه (5)و قد كان لا يصلی مع الولاة و لا يميل إليهم.

و كان الحسن بن صالح يصلی الجمعة مع الأمراء و كان الحسن من الشيعة فمنعه جعفر بن زياد عن صلاة الجمعة معهم فقال له الحسن أصلی معهم ثم أعيدها.

فقال له جعفر:يراک إنسان فيقتدی بک (6)و لهذا فقد وصفوه بالغلو مع توثيقهم له.

1- (1) انظر تاريخ بغداد 7:159 و [1]تهذيب التهذيب 2:92. [2]

2- (2) التقريب 1:130.

3- (3) الجرح و التعديل 1:180 ق 1.

4- (4) تهذيب التهذيب 2:93. [3]

5- (5) انظر تاريخ بغداد 7:150. [4]

6- (6) تهذيب التهذيب 2:93. [5]

جعفر بن سليمان:

أبو سليمان البصرى جعفر بن سليمان الضبعى المتوفى سنة 178 و هو من تلامذة الإمام الصادق عليه السّلام.

خرج حديثه البخارى فى الأدب المفرد،و مسلم،و الترمذى،و أبو داود، و النسائى،و ابن ماجة.

روى عنه هلال بن بشر،و بشر بن آدم،و الحكم بن ظبيان،و محمد بن عبد الملك بن زنجويه،و أبو حاتم الرازى،و ابن المبارک،و أبو الوليد الطيالسى، و الحسن بن الربيع،و مسدد،و عبيد اللّه القواريرى و عبد السلام بن مطهر و غيرهم (1).

قال أحمد بن حنبل:جعفر بن سليمان لا بأس به.فقيل له إن سليمان بن حرب يقول لا يكتب حديثه.

فقال أحمد:إنما كان(جعفر)يتشيع.و أهل البصرة يغلون فى على عليه السّلام (2).

و لما قدم جعفر بن سليمان إلى صنعاء حدثهم حديثا كثيرا و كان عبد الصمد بن معقل يجىء فيجلس إليه.

و قد وثقه ابن معين،و أحمد بن حنبل،و ابن سعد و غيرهم.و حمل بعضهم عليه لتشيعه أو ميله لأهل البيت عليهم السّلام.

قال ابن حبان:كان جعفر(بن سليمان)من الثقات فى الروايات غير أنه ينحل الميل إلى أهل البيت،و لم يكن بداعية إلى مذهبه،و ليس بين أهل الحديث من ائمتنا خلاف أن الصدوق المتقن إذا كانت فيه بدعة و لم يكن يدعو إليها الاحتجاج بخبره جائز (3).

أقول:من هذا يتضح لنا أن الشيعة إنما وسموا بالبدعة لأنهم مع أهل البيت عليهم السّلام،و هذه الكلمة التى ذكرها ابن حبان بمنتهى الغرابة،و ذلک بأن يكون

1- (1) المصدر السابق(95 و الجرح و التعديل 1:481 ق 1).

2- (2) تهذيب التهذيب 2:95. [1]

3- (3) المصدر السابق-97. [2]

مطلق الميل إلى أهل البيت بدعة،و مفهومه أن عدم الميل إليهم يكون سنة؟!!و من هنا تغذت آفة التعصب و نمت سموم الفرقة.

و أى جريمة ترتكب بحق الإسلام و العلم عند ما تترك أقوال الثقات أو يغفل شأن العلماء لتشيع فيهم.و لو تساءلنا:إذا كان المرء على ورع و تقوى يشهد بهما الناس و يجمعون و لهم فى الصدق منزلة فما الضير فى الأخذ عنهم؟أ ليس مصدر علمهم هو القرآن و منبع صدقهم هو الاتصال بمدرسة أهل البيت و الأخذ بمبادئهم؟.

و لا ندرى ما نقول حول هذه الأمور،و كيف نتصور الحالة التى بلغ إليها المسلمون من الخلاف الذى هو خلاف تعاليم الإسلام و نظمه؟! و قال الذهبى فى ترجمة جعفر بن سليمان:روى عنه سيار بن حاتم و عبد الرزاق،و عنه أخذ بدعة التشيع (1).

و عبد الرزاق هو ابن همام المحدث أحد الأعلام،و هو شيعى كما سيأتى فى ترجمته،فهو فى نظر الذهبى مبتدع لأنه شيعى أخذ التشيع عن جعفر لأنه من تلامذته.

و ستقف على ترجمة عبد الرزاق بن همام،و أقوال العلماء فى مدحه.

و على أى حال فإن جعفر بن سليمان إنما جرحه البعض لأنه ممن يحب أهل البيت،و هو أحد رواة حديث الطير المشهور الذى رواه جماعة من الحفاظ.

و لأن حب أهل البيت و الميل إليهم كان بدعة فإن الشيعة تفتخر بهذه البدعة التى جرت فى عروقهم،و انطبعت فى قلوبهم،و قد اتبعوا فيها صاحب الرسالة النبى الأعظم محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فهم يحبون آله لحب اللّه و حبه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و قد تقدم بيان ذلک فى ثنايا أجزاء هذا الكتّاب.

جميع بن عمير:

أبو الأسود جميع بن عمير التيمى الكوفى من بنى تيم اللّه ابن ثعلبة من تلامذة الإمام الصادق عليه السّلام.

خرج حديثه الترمذى،و النسائى،و أبو داود،و ابن ماجة.و روى عنه:

1- (1) تذكرة الحفاظ 1:222.

الأعمش،و العوام بن حوشب،و العلاء بن صالح،و صدقة بن سعيد الحنفى،و كثير النواء،و حكيم بن جبير،و ابنه محمد بن جميع و أبو إسحاق الشيبانى (1).

قال ابن أبى حاتم:سألت أبى عن جميع؟فقال:(هو)من عتق الشيعة و محله الصدق؛صالح الحديث،كوفى من التابعين.

و قال العجلى:تابعى ثقة،و قال الساجى:له أحاديث مناكير و فيه نظر و هو صدوق.

أقول:إنهم أنكروا على جميع روايته فى فضائل على عليه السّلام منها ما رواه على بن صالح.عن حكيم بن جبير عن جميع عن ابن عمر أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال لعلى عليه السّلام:أنت أخى فى الدنيا و الآخرة (2).

و لهذا حملوا عليه.قال فيه ابن نمير:إنه كان من أكذب الناس و قالوا فيه:كان رافضيا يضع الحديث إلى غير ذلك.

جميع العجلى:

أبو بكر جميع بن عمير بن عبد الرحمن العجلى الكوفى.

خرج حديثه مسلم و الترمذى و روى عنه عمرو بن محمد العنقرى،و مالك بن إسماعيل،و محمد بن يزيد الرفاعى،و عبد اللّه بن إسماعيل الهبارى،و أبو غسان النهدى،و سفيان بن وكيع بن الجراح،و يحيى بن عبد الحميد الحمانى،و عدة (3).

قال ابن حجر:جميع-بالتصغير-بن عمير-كذلك-أبو بكر الكوفى ضعيف رافضى،و أشار إلى تخريج مسلم و الترمذى لحديثه (4).

و قال العجلى:جميع لا بأس به يكتب حديثه،و ليس بالقوى و ذكره ابن عدى فى الكامل،و ابن حبان فى الثقات.

1- (1) الجرح و التعديل 1:532 ق 1 و تهذيب التهذيب 1:133. [1]

2- (2) ميزان الاعتدال 1:195.

3- (3) انظر الجرح و التعديل 1:532 ق 1 و تهذيب التهذيب 2:111. [2]

4- (4) التقريب 1:133.

جابر بن يزيد:

أبو يزيد جابر بن يزيد بن الحارث بن عبد يغوث الجعفى الكوفى المتوفى سنة 128.

خرج حديثه أبو داود،و الترمذى،و ابن ماجة.

و روى عنه:الثورى،و شعبة،و إسرائيل،و الحسن بن حى،و شريک، و مسعر،و معمر،و أبو عوانة،و زهير،و إسرائيل و غيرهم.

و قد تقدمت الإشارة إليه فى هذا المجلد ص 410-411 فى اتهام الذهبى له بالوضع.

جرير بن عبد الحميد:

أبو عبد اللّه جرير بن عبد الحميد بن قرط-بالضم-الضبى الكوفى المتوفى سنة 188 من تلامذة الإمام الصادق عليه السّلام.

احتج به البخارى،و مسلم،و الترمذى،و ابن ماجة،و أبو داود،و النسائى.

و روى عنه:إسحاق بن راهويه،و ابنا أبى شيبة،و قتيبة،و عبد ان المروزى، و أبو خيثمة،و محمد بن قدامة الطوسى،و محمد بن قدامة السلمى،و على بن المدينى و يحيى بن معين،و يحيى بن يحيى و يوسف بن موسى القطان و أبو الربيع الزهرانى،و على بن حجر و جماعة (1).

قال ابن حجر:جرير أجمعوا على ثقته و قال ابن سعد:كان ثقة يرحل إليه، و قال ابن معين و أحمد:هو أثبت من شريک،و وثقه العجلى و النسائى،و أبو حاتم، و قال يحتج بحديثه،و نسبه قتيبة إلى التشيع المفرط (2).

و قال ابن حبان فى الثقات:كان جرير من العباد الخشن.و قال أبو أحمد الحاكم:هو عندهم ثقة.و قال قتيبة:حدثنا جرير الحافظ المقدم لكن سمعته يشتم معاوية علانية (3).

1- (1) تهذيب التهذيب 2:75. [1]

2- (2) هدى السارى-392.

3- (3) تهذيب التهذيب 2:77. [2]

الحارث الهمدانی:

أبو زهیر الحارث بن عبد اللّه الأعور الهمدانی الخارقی الکوفی المتوفی سنة 65.

خرج حدیثه الترمذی،و النسائی،و أبو داود و ابن ماجة و روی عنه الشعبی، و إسحاق السبیعی،و أبو البختری و الطائی،و عطاء بن أبی رباح،و الضحاک بن مزاحم و غیرهم (1).

کان الحارث من أصحاب الإمام علی علیه السّلام،و من رجال الشیعة،و قد وثقه ابن معین،و النسائی،و أحمد بن صالح،و ابن أبی داود و غیرهم.

و کان یحیی بن سعید القطان یحدث من حدیث الحارث،و کان أبو إسحاق یصلی خلف الحارث و کان إمام قومه و کان أبو إسحاق السبیعی یقول:لیس بالکوفة أعلم بفریضة من عبیدة و الحارث (2).

و قال محمد بن سیرین:کان من أصحاب ابن مسعود خمسة یؤخذ عنهم فأدرکت منهم أربعة،و فاتنی الحارث و کان یفضل علیهم.

و قد حمل علیه الشعبی فکذبه بدون حجة إلا أنه شیعی کما أشار لذلک الحافظ بن عبد البر إذ یقول:و أظن الشعبی عوقب لقوله فی الحارث الهمدانی:أحد الکذابین.و لم یبن من الحارث کذب و إنما نقم علیه إفراطه فی حب علی علیه السّلام و تفضیله له علی غیره،و من هنا و اللّه أعلم کذبه الشعبی،لأن الشعبی یذهب إلی تفضیل أبی بکر و إلی أنه أول من أسلم،و الشعبی کذبه إبراهیم النخعی عند ما ذکر عنده،فقال إبراهیم:الشعبی ذاک الکذاب لم یسمع من مسروق (3).

و من هذا یظهر أن الطعون علی رجال الشیعة لم تکن مفسرة للجرح فیهم،و إنما جرحوهم للتشیع فقط.

و الشعبی غیر صادق فیما یدعیه من التباعد عن الشیعة،و إظهاره عدم المیل لأهل البیت،لأنه کان یخشی الدولة،و یرجو نوالها فی آن واحد و هو القائل:ما ذا

1- (1) انظر الجرح و التعدیل 1:78 ق 2 و تهذیب التهذیب 2:145. [1]

2- (2) طبقات ابن سعد 6:168 [2] ط 2.

3- (3) جامع بیان العلم و فضله 1:154. [3]

نقول فی آل أبی طالب إن أحببناهم قتلنا،و إن بغضناهم دخلنا النار.

لأن حب آل البیت فی تلک العصور فیه خطر علی النفس و الأهل و المال.

قال الریاشی:سمعت محمد بن عبد الحمید قال:قلت لابن أبی حفص، الشاعر:ما أغراک ببنی علی؟ قال:ما أحد أحب إلیّ منهم،و لکن لم أجد شیئا أنفع عند القوم منه:أی من بغضهم،و التحامل علیهم (1).

و کان ابن أبی حفص یهجو آل علی علیه السّلام و قد هجاهم بقصیدة فأجازه المهدی العباسی مائة ألف دینار لکل بیت ألف دینار.

الحارث بن حصیرة:

أبو النعمان الحارث بن حصیرة الکوفی.

خرج حدیثه البخاری فی الأدب المفرد،و النسائی فی سننه و خصائص الإمام علی علیه السّلام.

و روی عنه:عبد الواحد بن زیاد،و الثوری،و مالک بن مغول،و عبد السلام بن حرب،و عبد اللّه بن نمیر،و أبو إسرائیل الملائی،و محمد بن کثیر الکوفی،و جعفر بن زیاد الأحمر،و علی بن عابس (2).

قال یحیی بن معین:الحارث بن حصیرة لیس به بأس.و قال أبو غسان سألت جریر بن عبد الحمید فقلت له الحارث بن حصیرة لقیته؟ فقال:نعم شیخ طویل السکوت یصر علی أمر عظیم (3)و قال الدار قطنی:

الحارث بن حصیرة شیخ للشیعة یغلو فی التشیع.و قال أبو داود:شیعی صدوق و وثقه العجلی،و ابن نمیر و ذکره ابن حبان فی الثقات (4).

و لما کان الحارث من رجال الشیعة فقد وصفه المتعصبون بأنه:زائغ أو مذموم

1- (1) العقد الفرید 3:287. [1]

2- (2) انظر الجرح و التعدیل لابن أبی حاتم 1:73-ق 2 و تهذیب التهذیب 2:140. [2]

3- (3) شرح صحیح مسلم للنووی 1:103.

4- (4) تهذیب التهذیب 2:140. [3]

و سيئ المذهب،و يعنون بذلک مذهب التشيع.و معنى قول الدار قطنى أنه يغلو يريد أنه يقدم عليا على الخلفاء الثلاثة كما هو مذهب الشيعة و لهذا و صفوهم بالغلو فى الخلافة.

حبيب بن أبى ثابت:

أبو يحيى حبيب بن قيس أبو ثابت بن دينار الكوفى المتوفى سنة 119.

خرج حديثه البخارى،و مسلم،و الترمذى،و أبو داود،و النسائى و ابن ماجة.

و روى عنه:عطاء بن أبى رباح،و منصور،و الأعمش،و حصين و ابن عون، و مسعر،و الثورى،و شعبة،و العوام،و حوشب،و إسماعيل بن سالم،و أبو بكر بن عياش،و زيد بن أبى أنيسة،و المسعودى و ابن جريح،و حكيم بن حزام، و مطرف بن طريف،و أبو الزبير و غيرهم (1)و هو من تلامذة الإمام الباقر و ولده الإمام الصادق عليهما السّلام وثقه العجلى و النسائى و ابن معين.

نص الشهرستانى على تشيعه (2)و كذلک ذكره ابن قتيبة فى معارفه من رجال الشيعة.

و مما يثبت تشيع حبيب بن أبى ثابت ما ذكره ابن أبى حاتم عن شعبة بن الحجاج لما ورد البصرة قالوا له:حدثنا عن ثقات أصحابک.

فقال:إن حدثتكم عن ثقات أصحابى فإنما أحدثكم عن نفر يسير من هذه الشيعة(و هم):الحكم بن عتيبة،و حبيب بن أبى ثابت و سلمة بن كهيل، و منصور بن المعتمر (3).

و ذكره الشيخ الطوسى من أصحاب الإمام زين العابدين و الإمام الباقر و الإمام الصادق عليهم السّلام.

الحسن بن صالح:

أبو عبد اللّه الحسن بن صالح بن حى الكوفى الفقيه العابد المتوفى سنة 167.

1- (1) تهذيب التهذيب 2:178 و [1]الجرح و التعديل 1:107 ق 2.

2- (2) انظر الملل و النحل 1:325.

3- (3) تقدمة المعرفة لكتاب الجرح و التعديل-139.

خرج حديثه مسلم،و أبو داود،و الترمذى و النسائى و ابن ماجة.

و روى عنه:وكيع بن الجراح،و يحيى بن آدم،و يحيى بن فضيل و عبيد اللّه بن موسى،و قبيصة،و أحمد بن يونس،و على بن الجعد و ابن المبارک، و عبد اللّه بن داود الحريبى،و أبو أحمد الزبيرى،و طلق بن غنام،و حميد بن عبد الرحمن الرواسى،و الأسود بن عامر و غيرهم (1).

قال العجلى:كان الحسن حسن الفقه من أسنان الثورى أو أفقه من الثورى،ثقة ثبتا متعبدا و كان يتشيع إلا أن ابن المبارک كان يحمل عليه لمحل التشيع (2).

و قال ابن حبان:كان الحسن بن صالح فقيها،ورعا من المتقشفة الخشن، و ممن تجرد للعبادة و رفض الرئاسة على تشيع فيه (3).

و قال ابن سعد:كان الحسن ثقة صحيح الحديث كثيره،و كان متشيعا (4).

و قال أبو نعيم:ما كان(الحسن)بدون الثورى فى الورع و القوة ما رأيت إلا من غلط فى شىء إلا الحسن بن صالح (5).

و قال أبو زرعة:اجتمع فى الحسن بن حى إتقان،وفقه،و عبادة (6).

و قال ابن قتيبة:الحسن بن صالح يكنى أبا عبد اللّه،و كان يتشيع و زوج عيسى بن زيد ابنته و استخفى معه حتى مات عيسى،و كان المهدى قد طلبهما فلم يقدر عليهما،و مات الحسن بعد عيسى بستة أشهر (7).

حماد بن عيسى:

حماد بن عيسى بن عبيدة بن الطفيل الجهنى،و قيل البصرى غريق الجحفة المتوفى سنة 208.

1- (1) انظر تذكرة الحفاظ 1:201 و تهذيب التهذيب 2-284. [1]

2- (2) تهذيب التهذيب 2:288. [2]

3- (3) نفس المصدر. [3]

4- (4) طبقات ابن سعد 6:375. [4]

5- (5) تذكرة الحفاظ 1:201.

6- (6) المصدر السابق.

7- (7) المعارف 222 [5] ط 1.

خرج حديثه الترمذی،و ابن ماجة،و روی عنه الحسن بن علی الحلوانی، و أحمد بن سعید الدارمی،و عبد بن حمید،و أبو موسی،و محمد بن إسحاق الصغانی،و الدوری،و إبراهیم الجوزجانی،و محمد بن بکار،و محمد بن المثنی و غیرهم (1).

قال ابن معین:حماد بن عیسی شیخ صالح،و ضعفه أبو حاتم و الدار قطنی.

و لعل تضعیفهم له إنما کان لتشیعه و انتمائه لمدرسة الإمام الصادق و له مؤلفات علی مذهب الشیعة منها کتّاب النوادر و کتّاب الزکاة و کتّاب الصلاة ذکر ذلک الشیخ الطوسی فی الفهرست.

الحکم بن ظهیر:

أبو محمد الحکم بن ظهیر الفزاری الکوفی المتوفی سنة 180.

خرج حدیثه الترمذی.و روی عنه الثوری،و هو أکبر منه و ابنه إبراهیم بن الحکم،و أبو معمر القطیعی،و وهب بن بقیة،و یوسف بن عدی،و أبو توبة، و إسماعیل بن موسی،و إسحاق بن شاهین الواسطی،و محمد بن حاتم الزمی و الحسن بن عرفة و جماعة آخرون (2).

قال ابن حجر:الحکم بن ظهیر-بالمعجمة مصغرا-الفزاری متروک رمی بالرفض (3).

و قال ابن معین:لیس بثقة و قال البخاری منکر الحدیث ترکوه.

و کذبه یحیی بن معین و قال ابن حبان:کان یشتم الصحابة إلی غیر ذلک من الأقوال،و کل هذه الأمور تعود لتشیعه،و أنه حدث عن عاصم عن ذر عن عبد اللّه عن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنه قال:إذا رأیتم معاویة علی منبری فاقتلوه (4).فلیس من الغریب أن تقوم حوله ضجة الأکاذیب و الاتهامات فإن التشیع فی ذلک العصر یرهب السلطة و أعوانهم لهذا سلکوا طریق التشویه و التهویل.

1- (1) تهذیب 3-19 و الجرح و التعدیل 1:145 ق 2.

2- (2) تهذیب التهذیب 2-428. [1]

3- (3) التقریب 1-291.

4- (4) انظر میزان الاعتدال 1-268.

حکیم بن جبیر:

حکیم بن جبیر الأسدی الکوفی و یقال مولی الحکم بن أبی العاص الثقفی الکوفی.

خرج حدیثة الأربعة و روی عنه:الأعمش،و السفیانان،و زائدة،و فطر بن خلیفة،و شعبة،و شریک،و علی بن صالح،و إسرائیل (1).

قال عبد الرحمن:سألت أبا زرعة عن حکیم بن جبیر؟فقال:فی رأیه شیء.

قلت ما محله؟قال:الصدق.

قال ابن أبی حاتم:قلت لأبی:حکیم بن جبیر أحب إلیک أو ثویر؟-یعنی ابن أبی فاختة- قال:ما فیهما إلا ضعیف غال فی التشیع،و هما متقاربان (2).

و قال أبو حاتم:حکیم بن جبیر ضعیف الحدیث،منکر الحدیث له رأی غیر محمود-نسأل اللّه السلامة-غال فی التشیع (3).إلی آخر ما قال فیه و أن القصد من سؤال السلامة لم یکن سلامة الدین بل سلامة النفس،و الأهل و المال و الولد،فإن من یعرف بالتشیع فی ذلک العصر یکون عرضة للخطر.

و إن حکیم لم یکن من الغلاة و إنما کان محبا لأهل البیت و نسبة الغلو إلیه لأجل ما یرویه من الأحادیث فی فضل علی علیه السّلام.

منها:ما رواه حکیم عن إبراهیم عن علقمة عن علی علیه السّلام أنه قال:أمرت بقتال الناکثین و القاسطین،و المارقین.

و منها:ما رواه محمد بن عبد الحمید،عن سلمة بن إسحاق،عن حکیم بن جبیر عن سفیان،عن عبد العزیز بن هرون،عن أبی هریرة عن سلمان الفارسی قال:

قلت یا رسول اللّه لم یبعث نبیا إلا بین له من یلی بعده فهل بین لک؟قال صلّی اللّه علیه و آله و سلّم:نعم علی (4)

1- (1) الجرح و التعدیل 1:201 ق 2 و تهذیب التهذیب 2:445. [1]

2- (2) نفس المصدر..

3- (3) تهذیب التهذیب. [2]

4- (4) میزان الاعتدال 1:274.

و قد طعنوا فی هذا الحدیث لا- من جهة رجاله بل استبعدوا أن یکون أحد رواته عبد العزیز بن مروان،و هو منحرف عن علی علیه السّلام،فکیف یروی مثل هذا؟

الحکم بن عتیبة:

أبو محمد الحکم بن عتیبة الکندی الکوفی المتوفی سنة 114،115.

خرج حدیثه البخاری،و مسلم،و الترمذی،و أبو داود،و النسائی،و ابن ماجة و روی عنه مسعر،و الأوزاعی،و حمزة الزیات،و شعبة،و أبو عوانة،و منصور و خلق.

ذکره ابن قتیبة من رجال الشیعة و نص علی ذلک شعبة بن الحجاج (1).

و ذکره سیدنا شرف الدین من رواة الشیعة (2).

خالد بن طهمان:

أبو العلاء خالد بن طهمان السلوکی الخفاف الکوفی.

خرج حدیثه الترمذی و روی عنه:ابن المبارک،و أبو نعیم،و یحیی بن عباد و سفیان الثوری،و وکیع،و أحمد بن عبد اللّه بن یونس و أبو أحمد الزبیری و الفریابی،و عبید اللّه بن موسی،و یحیی بن هاشم السمسار و هو خاتمة أصحابه و غیرهم. (3)

قال الخزرجی:کوفی شیعی.و قال أبو حاتم:خالد بن طهمان من عتق الشیعة،و ذکره ابن حبان فی الثقات،و لم یذکره أبو داود إلا بخیر.

خالد بن مخلد:

أبو الهیثم خالد بن مخلد القطوانی البجلی الکوفی المتوفی سنة 213.

خرج حدیثه البخاری،و أبو داود،و الترمذی،و النسائی،و ابن ماجة.

و روی عنه البخاری و روی له مسلم،و أبو داود فی مسند مالک،و محمد بن

1- (1) تقدمة المعرفة لکتاب الجرح و التعدیل-139.

2- (2) المراجعات 55.

3- (3) الجرح و التعدیل 1:337 ق 2 و الخلاصة 86 و تهذیب التهذیب 3:98. [1]

عثمان بن كرامة،و أبو كريب،و ابن نمير،و القاسم بن زكريا و عبد بن حميد،و أبو بكر بن أبى شيبة،و أحمد بن عثمان بن حكيم الأودى،و صالح بن محمد بن يحيى بن سعيد القطان و على بن عثمان النفيلى،و عباس الدورى،و إبراهيم بن عبد الرحمن بن مهدى و أحمد بن فضالة النسائى و أحمد بن الخليل،و عباس بن عبد العظيم العنبرى،و معاوية بن صالح الأشعرى،و أحمد بن يوسف السلمى.

و حدث عنه أيضا عبيد اللّه بن موسى و هو أكبر منه،و أبو أمية الطرسوسى و إسحاق بن راهويه،و عثمان بن أبى شيبة،و يوسف بن موسى القطان و غيرهم.

و قال أبو داود صدوق شيعى.و قال يحيى بن معين:صدوق لا بأس به.و قال ابن عدى:هو من المكثرين لا بأس به إن شاء اللّه.و قال ابن سعد:منكر الحديث مفرط فى التشيع. (1)

و قال ابن حجر:خالد بن مخلد القطوانى الكوفى أبو الهيثم من كبار شيوخ البخارى،روى عنه.و روى عن واحد عنه.قال العجلى:ثقة فيه تشيع.و قال ابن سعد:كان متشيعا مفرطا.و قال صالح جزرة:خالد بن مخلد ثقة إلا أنه كان متهما بالغلو فى التشيع و قال أحمد:له مناكير.

يقول ابن حجر:أما التشيع فقد قدمنا أنه إذا كان ثبت الأخذ و الأداء لا يضره.

لا سيما و لم يكن داعية إلى رأيه.و أما المناكير فقد تتبعها أبو أحمد بن عدى فى حديثه.و أوردها فى كامله.و ليس فيها شىء مما أخرجه له البخارى.بل لم أر له عنده من افراد سوى حديث واحد سوى حديث أبى هريرة:من عادى لى وليا.و روى له الباقون سوى أبى داود (2).

و قال الجوزجانى:و كان خالد شتاما معلنا سوء مذهبه توفى سنة 213 (3)(أى التشيع).

و هذه هى لهجة الجوزجانى فى سوء تعبيره.و أما قوله شتاما فإنهم يقصدون

1- (1) ميزان الاعتدال 297 و غيرها.

2- (2) تهذيب التهذيب 3:116-117. [1]

3- (3) ميزان الاعتدال 1:300.

مطلق ذكر أحد الصحابة بشيء.أو رواية قضية أو حديث فيها حمل عليهم.لأنهم لا بد أن يتأولوا ذلک.و هذا أوضح شيء فی ادعاء العصمة مع ظهور ما ينافيها.

خلف بن سالم:

أبو محمد خلف بن سالم المخرمی المتوفی سنة 231.

خرج حديثه النسائی و وثقه،و روی عنه إسماعيل بن أبی الحارث و حاتم ابن الليث،و يعقوب بن شيبة،و أحمد بن خيثمة،و جعفر الطيالسی و عباس الدوری، و يعقوب بن يوسف المطوعی،و الحسن بن علی المعمری،و أحمد بن الحسن بن عبد الجبار الصوفی،و يحيی بن عبدک القزوينی،و أبو حاتم،و أبو زرعة،و أحمد بن علی المروزی،و أحمد بن علی الأبار،و أبو القاسم البغوی و غيرهم (1).

قال علی بن سهل البزاز:سمعت أحمد بن حنبل-و سئل عن خلف بن سالم- فقال:لا يشک فی صدقه.و قال عبد الخالق بن منصور:سألت يحيی بن معين عن خلف المخرمی،فقال صدوق.فقلت له:يا أبا زكريا إنه يحدث بمساوی أصحاب رسول اللّه صلّی اللّه عليه و آله و سلّم؟فقال:قد كان يجمعها و أما أن يحدث بها فلا (2).

و قال ابن سعد:كان قد صنف المسند،و كان كثير الحديث.و قال حمزة الكنانی:خلف بن سالم ثقة مأمون.من نبلاء المحدثين.

و قال ابن حجر:ابن سالم ثقة حافظ صنف المسند.عابوا عليه التشيع (3).

داود بن أبی عوف:

أبو الجحاف داود بن أبی عوف سويد التميمی البرجمی.

خرج حديثه الترمذی،و النسائی،و ابن ماجة،و روی عنه الثوری و تليد بن سليمان،و عبد السلام بن حرب،و سفيان بن عيينة،و شريک و إسرائيل (4).

1- (1) انظر تاريخ بغداد 8:328 و [1]تهذيب التهذيب 3:152 و [2]الجرح و التعديل 1:371 ق 2.

2- (2) تاريخ بغداد 8:329،7. [3]

3- (3) التقريب 1:226.

4- (4) تهذيب التهذيب 3:196. [4]

قال عبد اللّه بن داود:كان سفيان يوثق داود و يعظمه و قال ابن حجر:داود بن أبى عوف التميمى هو صدوق شيعى ربما أخطأ من(الطبقة السادسة) (1).

و قال الذهبى:داود وثقه أحمد و يحيى،و قال النسائى:ليس به بأس.و قال أبو حاتم صالح الحديث.و أما ابن عدى فقال:ليس هو عندى ممن يحتج به شيعى عامة ما يرويه فى فضائل أهل البيت (2).

و ذكره الشيخ الطوسى فى رجاله من تلامذة الإمام الصادق عليه السّلام (3).

الربيع بن أنس:

الربيع بن أنس البكرى و يقال الحنفى المتوفى سنة 139،140.

خرج حديثه:الترمذى،و أبو داود،و النسائى،و ابن ماجة.

و روى عنه:سليمان التيمى،و يعقوب بن القعقاع،و أبو جعفر الرازى،و كتب عنه بمرو عبد العزيز بن مسلم،و أخوه المغيرة بن مسلم و ابن المبارك،و سليمان بن عامر،و حسين بن واقد،و الأعمش و سليمان بن عامر البزرى،و عيسى بن عبيد الكندى،و مقاتل بن حيان و غيرهم (4).

قال ابن حجر:الربيع بن أنس البكرى أو الحنفى بصرى نزل خراسان صدوق له أوهام رمى بالتشيع من الطبقة الخامسة.

زبيد بن الحارث:

أبو عبد الرحمن زبيد-بموحدة مصغرا-بن الحارث بن عبد الكريم اليامى و يقال الأيامى الكوفى المتوفى سنة 122،123.

خرج حديثه البخارى،و مسلم،و الترمذى،و أبو داود،و النسائى و ابن ماجة.

و روى عنه:مالك بن مغول،و العوام بن حوشب،و الثورى و شعبة،و محمد بن طلحة بن مصرف،و ابن شبرمة،و الحريش بن سليم،و الحسن بن صالح،

1- (1) التقريب 1:233.

2- (2) ميزان الاعتدال 1:323.

3- (3) رجال الشيخ 189.

4- (4) انظر تهذيب التهذيب 3:239. [1]

و زهير بن معاوية،و شريک،و قيس بن الربيع (1).

وثقه أبو حاتم.و النسائی و العجلی و ابن حبان و غيرهم.

و قال يعقوب بن سفيان:زبيد ثقة خيار إلا أنه كان يميل إلی التشيع،و قال ابن سعد:كان زبيد ثقة و كان فی عداد الشيوخ.

و قال العجلی:زبيد ثقة ثبت فی الحديث و كان علويا (2)(أی محبا لعلی عليه السّلام فی مقابل العثمانی).

و حكی ابن أبی خيثمة عن شعبة قال:ما رأيت بالكوفة شيخا خيرا من زبيد.

و قال سعيد بن جبير:لو خيرت عبدا ألقی اللّه فی مسلاخه اخترت زبيد اليامی.و قال ابن حبان:كان زبيد من العباد الخشن،مع الفقه فی الدين و لزوم الورع الشديد.و قال البخاری:قال عمرو بن مرة كان زبيد صدوقا (3).

و نص الذهبی علی تشيعه ثم قال-بعد أن نقل توثيقه-:و قال أبو إسحاق الجوزجانی-كعوائده فی فظاظة عبارته-:كان بالكوفة قوم لا يحمد الناس مذاهبهم، هم رءوس محدثی الكوفة مثل أبی إسحاق،و منصور،و زبيد اليامی،و غيرهم من أقرانهم احتملهم الناس لصدق ألسنتهم فی الحديث و توقفوا عند ما أرسلوا (4).

و يقصد الجوزجانی أن مذهبهم التشيع و هو أن الناس لا يحمدونها و لا ندری أی ناس هم؟نعم هم من تعاون مع أعداء أهل البيت طمعا فی الدنيا و زهدا فی الآخرة.

زياد بن المنذر:

أبو الجارود زياد بن المنذر الهمدانی و يقال النهدی توفی سنة 150 تقريبا.

خرج حديثه الترمذی،و روی عنه مروان بن معاوية الفزاری و يونس بن بكير، و علی بن هاشم بن البريد،و عمار بن محمد بن أخت سفيان،و محمد بن بكر البرسانی،و محمد بن سنان العوفی و غيرهم (5).

1- (1) الجرح و التعديل 1:623 ق 2.

2- (2) تهذيب التهذيب 3:311. [1]

3- (3) نفس المصدر. [2]

4- (4) ميزان الاعتدال 1:345.

5- (5) تهذيب التهذيب 3:386. [3]

قال أبو حاتم:كان زياد رافضـيا يضع الحديث فى مثالب الصحابة و يروى فى فضائل أهل البيت رضى اللّه عنهم مالها وصول،لا يحل كتب حديثه.

و قال ابن عدى:عامة أحاديثه غير محفوظة،و عامة ما يرويه فى فضائل أهل البيت،و هو من المعدودين من أهل الكوفة المغالين.

أقول:قد أشرنا فيما سبق بأننا لن نتعرض لأقوال الشيعة حول ما نذكره من أحوال هؤلاء الرجال من حيث الوثاقة و غيرها.

و ان أبا الجارود مهما كانت حالته فقد نقموا عليه تحامله على الصـحابة الذين لم يقوموا بحق الصـحبة و رواياته فى فضل أهل البيت عليهم السّلام كثيرة.و أنكروا عليه ذلک، لأن الأمر يدعو لمخالفة السلطة الحاكمة التى حاولت أن تطفئ شعلة فضائل آل محمد،و يأبى اللّه لها الا الظهور و الانتشـار.و من المتقين أن نقـده و الأقوال فيه و هو على الحال الأول من الولاء لأهل البيت و القرب من الشـيعة و قبل أن يتغير و يعرف عنه الحال الثانى الـذى يبعده عن أسـماء الرجال الشـيعة المعتمدين،و قد ترجمنا له هنا لأن ما كان عليه من علم الرواية لحاله الأول فى التشيع و قبل أن يضعف و يتغير،و كان سلوكه مسلک الشيعة هو سبب اشتهاره و وثاقته.

سالم العجلى:

أبو يونس سالم بن أبى حفصة العجلى المتوفى سنة 140.

خرج حديثه البخارى فى الأدب المفرد،و الترمذى فى صـحيحه،و روى عنه إسـرائيل،و سـفيان الثورى،و سـفيان بن عيينة،و عبد الواحد بن زياد،و محمد بن فضيل (1).

قال أحمد بن حنبل:سالم بن أبى حفصة أبو يونس كان شيعيا،ما أظن به بأسا فى الحديث.و قال أبو حاتم:سالم بن أبى حفصة من عتق الشيعة صدوق.

و قال ابن عدى:إنما عيب عليه الغلو و أما حديثه فأرجو أنه لا بأس به (2).

و معنى الغلو الذى يقصده ابن عدى هو كثرة رواياته عن أهل البيت عليهم السّلام كما

1- (1) الجرح و التعديل 2:180 ق 1 و تهذيب التهذيب 4:433. [1]

2- (2) الخلاصة لصفى الدين-111.

نقـل ابن حجر عن ابن عـدی أنه قـال:سـالم له أحـادیث و عامـة ما یرویه فی فضائل أهل البیت.و قال الجوزجانی زائغ و بالغ فیه کعادته فی أمثاله (1).

و قـد نسـبوا له أنه کان من رءوس من ینتقص أبا بکر و عمر،و أنه کان أحمق طویل اللحیـة إلی غیر ذلک.و مع هـذا فقـد روی له الترمذی و البخاری فی الأدب المفرد.

سعید بن خثیم:

أبو معمر سعید بن خثیم بن رشد الهلالی الکوفی المتوفی سنة 180.

خرج حدیثه الترمذی و النسائی،و روی عنه أحمد بن حنبل،و عبد اللّه بن أبی شیبة،و محمد بن عمران بن أبی لیلی،و خالد بن یزید الأسدی و عمر بن محمـد الناقـد،و عثمان بن أبی شـیبة،و أبو سـعید الأشج،و إسـحاق بن موسـی،و إسـماعیل بن موسـی الفزاری،و محمد بن عبید المحاربی،و ابن أخیه أحمد بن رشد بن خثیم و غیرهم (2).

و هو من تلامذة الإمام الصادق علیه السّلام وثقه ابن معین،و ابن حبان و العجلی.

و قال النسائی و أبو زرعة لا بأس به.

قال ابن حجر:سعید بن خثیم بمعجمة و مثلثة-بن رشد-بفتح الراء الهلالی الکوفی صدوق رمی بالتشیع له أغالیط (3).

و قیل لیحیی بن معین:خثیم هو شیعی،فقال:و شیعی ثقة (4).لأنهم أنکروا علیه توثیقه له فأجابه بأنه ثقة مع تشیعه.

أقول:أما قول ابن حجر له أغالیط فلم یثبت ذلک و لعلهم یعدون أحادیثه عن أهل البیت و فضائلهم من الأغلاط نظرا للظروف القاسـیة التی عاش فیها،فإن عصره کان یقضی علی کل مفکر أن یکون جامدا لا یتحرک إلا فی الدائرة التی تسیر علیها

1- (1) تهذیب التهذیب 3:434. [1]

2- (2) تهذیب التهذیب 4:22 و [2]الجرح و التعدیل.

3- (3) التقریب 1:294.

4- (4) میزان الاعتدال 1:378.

سياسة الدولة،و من البين أنهم يقاومون أهل البيت بشتى الوسائل،فكان ذكر فضائلهم خرقا لأوامر الدولة،و انحرافا عن خطتها المرسومة.

سعيد بن عمرو:

سعيد بن عمرو بن أشوع الهمدانى الكوفى المتوفى سنة 120.

خرج حديثه البخارى،و مسلم،و الترمذى،و روى عنه:سعيد بن مسروق الثورى و ولده سفيان،و خالد الحذاء،و زكريا بن أبى زائدة و ليث بن أبى سليم،و حبيب بن أبى ثابت،و سلمة بن كهيل،و أبو إسحاق الهمدانى و أشعث بن سوار و غيرهم (1).

و حدث عنه أبو إسحاق السبعى،و عبد الملك بن عمير،و هما أكبر منه.

قال البخارى فى التاريخ الأوسط:رأيت إسحاق بن راهويه يحتج بحديثه.

و قال ابن حجر:سعيد بن عمرو بن أشوع الهمدانى الكوفى قاضيها ثقة رمى بالتشيع (2).

و قال الحاكم:سعيد بن عمرو هو شيخ من ثقات الكوفيين يجمع حديثه.

و ذكره ابن حبان فى الثقات و قال النسائى ليس به بأس و لكن الجوزجانى يصفه بقوله:

سعيد بن عمرو:غال زائغ زائد التشيع (3).

قال ابن حجر:سعيد بن عمرو بن أشوع الكوفى من الفقهاء وثقه ابن معين و النسائى و العجلى،و إسحاق بن راهويه،و أما أبو إسحاق الجوزجانى فقال:كان زائغا غاليا يعنى فى التشيع.و الجوزجانى غال فى النصب.و احتج به-أى بسعيد-الشيخان و الترمذى (4).

سعيد بن فيروز:

أبو البخترى سعيد بن فيروز بن أبى عمران الكوفى المقتول بدير الجماجم بدجيل سنة 83 ه.

1- (1) تهذيب التهذيب 4:67 و [1]الجرح و التعديل.

2- (2) التقريب 1:302.

3- (3) ميزان الاعتدال 1:375.

4- (4) هدى السارى 404.

أخرج له البخاری،و احتج به الباقون.و روی عنه عمرو بن مرة و عبد الأعلی بن عامر،و عطاء بن السائب،و سلمة بن کهیل،و یونس بن خباب، و حبیب بن أبی ثابت.و یزید بن أبی ذئاب،و مسلم البطین (1).

وثقه أبو زرعة و أبو حاتم و ابن معین قال العجلی:تابعی ثقة فیه تشیع،و نقل ابن خلفون توثیقه عن ابن نمیر.

و قال ابن حجر:سعید بن فیروز أبو البختری-بفتح الموحدة-ثقة ثبت فیه تشیع قلیل (2).

سعید بن محمد:

أبو محمد سعید بن محمد بن سعید الجرمی الکوفی.

حدث عنه البخاری،و مسلم،و خرج له أبو داود،و ابن ماجة بواسطة الذهلی.

و روی عنه أبو زرعة،و عبد اللّه بن أحمد،و عبد الأعلی بن واصل و ابن أبی الدنیا،و عباس الدوری (3).

قال ابن حجر:سعید بن محمد بن سعید الجرمی صدوق رمی بالتشیع من کبار الحادیة عشرة (4).

و قال ابن أبی حاتم:سئل أحمد بن حنبل عنه؟فقال:ثقة.و أثنی علیه ابن نمیر،و ابن أبی شیبة،و قال أبو حاتم:سعید بن محمد الجرمی شیخ (5).

سعید بن کثیر:

أبو عثمان سعید بن کثیر بن عفیر المصری المتوفی سنة 226.

خرج حدیثه البخاری فی الأدب المفرد و مسلم،و ابن ماجة،و أبو داود، و النسائی،و هو من شیوخ البخاری (6).

1- (1) تهذیب التهذیب 4:72. [1]

2- (2) التقریب 1:303.

3- (3) تهذیب التهذیب 4:76. [2]

4- (4) التقریب 1:304.

5- (5) الجرح و التعدیل 2:59 ق 1.

6- (6) هدی الساری 404.

و حدث عنه البخارى،و روى له فى الأدب المفرد،و مسلم،و أبو داود فى القدر،و النسائى بواسطة أحمد بن عاصم البلخى،و محمد بن إسحاق الصغانى، و محمد وزير المصرى،و عبد الرحمن بن عبد اللّه بن الحكم،و بكار بن قتيبة، و عبد اللّه بن حماد الآملى،و يونس بن عبد الأعلى و غيرهم (1).

قال ابن حجر:سعيد بن كثير بن عفر رمى بالتشيع (2).

و قد تحامل عليه الجوزجانى و قال:سعيد بن كثير فيه غير لون من البدع و كان مخلطا غير ثقة (3).

و بالطبع إنه يقصد ببدعه ما نسب إليه من التشيع،و أما أنه غير ثقة فذلک فى نظر الجوزجانى أما غيره فقد وصفوه بالصدق و الوثاقة،و كان من أعلم الناس بالأنساب، و الأخبار الماضية،و أيام العرب،و مآثرها و وقائعها،و المناقب و المثالب،و كان فى ذلک كله شيئا عجيبا،و كان أديبا فصيح اللسان،حسن البيان لا تمل مجالسته و لا ينزف علمه (4).

سعاد:

سعاد بن سليمان الجعفى الكوفى.

خرج حديثه ابن ماجة،و روى عنه على بن ثابت الدهان،و أبو عتاب الدلال، و الحسن بن عطية القرشى،و جبارة بن المغلس و غيرهم.

وثقه ابن حبان،و قال ابن أبى حاتم:سمعت أبى يقول:سعاد كان من عتق الشيعة،و ليس بقوى فى الحديث (5).

و قال ابن حجر:سعاد بن سليمان كوفى صدوق يخطئ و كان شيعيا من الطبقة الثامنة (6).

1- (1) تهذيب التهذيب 4:74. [1]

2- (2) هدى السارى 406.

3- (3) انظر تذكرة الحفاظ 2:14 و تهذيب التهذيب 4:74. [2]

4- (4) انظر تهذيب التهذيب 4:75. [3]

5- (5) نفس المصدر. [4]

6- (6) التقريب 1:285.

و ذكره الشيخ الطوسى فى رجاله من أصحاب الإمام الصادق عليه السّلام.

سلمة بن كهيل:

أبو يحيى سلمة بن كهيل الحضرمى المتوفى سنة 113.

خرج حديثه البخارى،و مسلم،و الترمذى،و أبو داود،و النسائى و ابن ماجة.

و روى عنه:سعيد بن مسروق الثورى،و ابنه سفيان،و الأعمش،و شعبة،و الحسن و على و صالح بنو حى،و زيد بن أنيسة،و إسماعيل بن أبى خالد،و عقيل بن خالد، و أبو المحياة يحيى بن يعلى التيمى و منصور و مسعر،و حماد بن سلمة و غيرهم (1).

و ذكره الشيخ الطوسى فى تلامذة الإمام الصادق عليه السّلام.

قال الثورى:سلمة بن كهيل كان ركنا من الأركان-و شد قبضته.

و قال عبد الرحمن بن المهدى:أربعة فى الكوفة لا يختلف فى حديثهم فمن اختلف عليهم فهو يخطئ،منهم سلمة بن كهيل،و قال أحمد بن حنبل سلمة متقن الحديث.

و وثقه ابن معين و أبو حاتم،و أبو زرعة (2)و قال يعقوب بن أبى شيبة:سلمة بن كهيل ثقة ثبت على تشيعه.و قال أبو داود:سلمة يتشيع (3).

سلمة بن الفضل:

أبو عبد اللّه سلمة بن الفضل الأبرش الأنصارى المتوفى سنة 191.

خرج حديثه أبو داود،و الترمذى،و ابن ماجة فى التفسير،و روى عنه كاتبه عبد الرحمن بن الرازى،و يحيى بن معين،و عبد بن محمد المسندى،و عثمان بن أبى شيبة،و محمد بن حميد الرازى،و محمد بن عمرو زنيج،و وثيمة بن موسى المصرى،و يوسف بن موسى القطان و على بن بحر و على بن هاشم بن مرزوق، و مقاتل بن محمد و غيرهم (4).

1- (1) تهذيب التهذيب 4:156. [1]

2- (2) انظر الجرح و التعديل 2:170 ق 1.

3- (3) تهذيب التهذيب 4:157. [2]

4- (4) تهذيب التهذيب 4:153 و [3]الجرح و التعديل 2:139 ق 1 و ميزان الاعتدال و غيرها.

قـال ابن معين:كتبنا عنه و ليس به بأس و كان يتشـيع و كان يحيى يقول:ليس من لـدن بغـداد إلى أن يبلغ خراسان أثبت فى ابن إسـحاق من سلمة.

سليمان بن قرم:

أبو داود سليمان بن قرم بن معاذ التميمى و منهم من ينسبه إلى جده.

خرج حديثه البخارى،و مسلم،و أبو داود و الترمذى،و النسائى.و كان تخريج البخارى تعليقا.

روى عنه سـفيان الثـورى و هـو من أقرانه،و أبو الجواب،و حسـين بن محمـد المروزى.و يعقوب بن إسـحاق الحضـرمى،و يونس بن محمد المؤدب و أبو الأـحوص.و بكر بن عياش.و أبو داود الطيالسـى.و يحيى بن آدم.و سـلمة بن الفضل (1)و ذكره الشـيخ الطوسى فى رجاله من تلامذة الإمام الصادق عليه السّلام.

قال ابن حجر:سليمان سيئ الحفظ يتشيع (2).

قال عبد اللّه بن أحمد:كان أبى يتتبع حديث قطبة بن عبد العزيز و سليمان بن قرم،و يزيد بن سياه و قال:هؤلاء قوم ثقات.و هم أتم حديثا من سفيان و شعبة و هم أصحاب كتب.و قال أحمد أيضا:لا أرى به بأسا لكنه كان يفرط فى التشيع (3).

و قال الحاكم-فى باب من عيب على مسـلم إخراج حديثهم-:سـليمان غمزوه فى الغلو و التشيع و سوء الحفظ جميعا (4)و قال ابن حبان كان رافضيا غاليا.

و لعـل تحامل بعض الحفاظ عليه أنه كان يروى عن الأعمش عن عمر بن مرة عن عبـد اللّه بن الحارث عن زهير بن الأقمر عن عبـد اللّه بن عمر قال:كان الحكم بن أبى العاص يجلس إلى رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم و ينقل حديثه إلى قريش،فلعنه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،و ما يخرج من صلبه إلى يوم القيامة (5).

أقول:لم ينفرد سليمان برواية هذا الحديث فقد ورد من طرق متعددة أشهرها ما

1- (1) تهذيب التهذيب 4:213 و [1]الجرح و التعديل 2:136 ق 1.

2- (2) التقريب 1:226.

3- (3) تهذيب التهذيب 4:213. [2]

4- (4) نفس المصدر. [3]

5- (5) ميزان الاعتدال 1:421.

رواه ابن أبی خیثمة عن عائشة بأنها قالت لمروان بن الحکم:أما أنت یا مروان فأشـهد أن رسول اللّه صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم لعن أباک و أنت فی صلبه (1).

و أخرج ابن عبد البر بسند عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص قال:قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم:(یدخل علیکم رجل لعین).

قـال عبـد اللّـه:و کنـت قـد ترکـت عمرا یلبس ثیـابه لیقبـل إلی رسـول اللّه صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم فلم أزل مشـفقا أن یکـون أول من یدخل.فدخل الحکم بن أبی العاص (2).

سلیمان بن مهران:

أبو محمد سلیمان بن مهران الکوفی الأعمش المتوفی سنة 148.

خرج حدیثه البخاری،و مسلم و الترمذی،و أبو داود،و النسائی و ابن ماجة.

و روی عنه:أبو إسـحاق السبیعی،و سلیمان التیمی،و الحکم بن عتیبة،و زبید الیامی،و سهیل بن أبی صالح،و سفیان الثوری،و شعبة و زائدة،و شیبان بن عبـد الرحمن،و عبـد الواحد بن زیاد،و سـفیان بن عیینة،و علی بن مسـهر،و أبو معاویة، و حفص بن غیاث،و وکیع و جریر بن عبد الحمیـد،و عبـد اللّه بن إدریس، و عیسـی بن یونس،و عبد الرحمن المحاربی،و عبد بن سـلیمان،و یحیی بن سـعید القطان،و عمر و یعلی و محمد بنو عبید الطنافسی،و أبو أسامة،و عبد اللّه بن نمیر و غیرهم (3).

و هو من تلامـذة الإمام الصادق علیه السّـلام و قد ذکرناه سابقا.و کان من أقرأ الناس للقرآن،و أعرفهم بالفرائض،و أحفظهم للحدیث،و وثقه ابن معین و العجلی و النسائی.

قال العجلی:کان الأعمش ثقة ثبتا فی الحدیث،و کان محدث أهل الکوفة فی زمانه یقال إنه ظهر له أربعة آلاف حدیث،و لم یکن له کتّاب و کان رأسا فی القرآن عسرا سیئ الخلق عسرا عالما بالفرائض،و کان لا یلحن حرفا و کان فیه تشیع (4).

1- (1) الإصابة 1:346 و [1]الاستیعاب [2]بهامش الإصابة 1:218. [3]

2- (2) الاستیعاب 1:217-219. [4]

3- (3) انظر تاریخ بغداد 9:3. [5]

4- (4) تهذیب التهذیب 4:223 و [6]تاریخ بغداد 9:5. [7]

وعده الشهرستانی من رجال الشیعة (1)و کذلک ابن قتیبة ذکره فی معارفه من الشیعة (2).

و قـد تقـدم فی ترجمة زبید الیامی أن الجوزجانی قال:کان من أهل الکوفة قوم لا تحمد مذاهبهم،هم رءوس محدثی الکوفة مثل زبید،و أبی إسـحاق،و منصور، و الأعمش،و غیرهم...الخ (3)و زبیـد کان من الشـیعة و الجوزجانی یقصـد بسوء المذهب هو التشـیع لا غیر کما ذکر الذهبی.

و أراد هشام بن عبد الملک امتحانه فی تشیعه فکتب إلیه:اکتب لی فضائل عثمان،و مساوئ علی.

فأخذ الکتّاب و لقمه شاة عنده فقال للرسول:هذا جوابک.فألح علیه الرسول فکتب:بسم اللّه الرحمن الرحیم.

أما بعد فلو کان لعثمان مناقب أهل الأرض ما نفعتک،و لو کانت لعلی مساوئ أهل الأرض ما ضرتک.فعلیک بخویصة نفسک (4).

و کان الأعمش قویا لا یعبأ بالسلاطین،قال عیسی بن یونس:ما رأیت الأغنیاء و السلاطین أحقر منهم عند الأعمش.

و قال أبو هشام سـمعت عمی یقول:قال عیسـی بن موسی لابن أبی لیلی اجمع الفقهاء،فجمعهم فجاء الأعمش فی جبة فرو،و قد ربط وسطه بشریط،فأبطئوا فقام الأعمش فقال:إن أردتم أن تعطونا شیئا و إلا فخلوا سبیلنا.

فقال عیسی:یا بن أبی لیلی قلت لک تأتی بالفقهاء تجیء بهذا؟!قال هذا سیدنا هذا الأعمش (5).

و کان الأعمش یقال له علامة الإسلام.و کان یسمی المصحف لصدقه (6)

1- (1) الملل و النحل 1:375.

2- (2) المعارف 268.

3- (3) میزان الاعتدال 1:345.

4- (4) شذرات الذهب 1:221. [1]

5- (5) تاریخ بغداد 9:8. [2]

6- (6) تهذیب التهذیب 4:223. [3]

سوار:

أبو إدريس سوار المرهبى الكوفى و قيل اسمه مساور.

خرج حديثه الترمذى،و ابن ماجة،و روى عنه سلمة بن كهيل و الأجلح، و حكيم بن جبير،و غيرهم.

قال ابن أبى حاتم:سئل أبى عن أبى إدريس المرهبى فقال:هو من عتق الشيعة (1).

و قال ابن حجر:أبو إدريس المرهبى-بضم أوله و كسر الهاء بعدها موحدة- الكوفى اسمه سوار أو مساور صدوق يتشيع (2).

و قال الذهبى:سوار أبو إدريس المرهبى الكوفى شيعى جلد يكتب حديثه (3).

سليمان بن طرخان:

أبو المعتمر سليمان بن طرخان التيمى البصرى المتوفى سنة 143.

خرج حديثه البخارى،و مسلم،و الترمذى،و أبو داود،و النسائى و ابن ماجة.

و روى عنه:ابنه معتمر،و شعبة،و السفيانان،و زائدة،و زهير و حماد بن سلمة،و ابن علية،و ابن المبارک،و عبد الوارث بن سعيد،و إبراهيم بن سعد...

و غيرهم (4).

قال الربيع بن يحيى عن سعيد:ما رأيت أحدا أصدق من سليمان التيمى.

و وثقه أحمد،و العجلى،و ابن معين،و النسائى.

و قال ابن سعد:كان ثقة كثير الحديث و كان من العباد المجتهدين و كان يصلى الليل كله بوضوء العشاء،و كان مائلا إلى على بن أبى طالب (5).و نص ابن قتيبة على تشيعه.و ذكره سيدنا شرف الدين من رواة الشيعة (6).

1- (1) الجرح و التعديل 2:170 ق 1.

2- (2) التقريب 2:389.

3- (3) ميزان الاعتدال 1:433.

4- (4) تهذيب التهذيب 4:201. [1]

5- (5) المصدر السابق. [2]

6- (6) المراجعات-63. [3]

شریک بن عبد اللّه:

أبو عبد اللّه شریک بن عبد اللّه بن أبی شریک النخعی الکوفی المتوفی سنة 177.

خرج حدیثه مسلم،و الترمذی،و أبو داود،و النسائی،و ابن ماجة،و البخاری تعلیقا.

و روی عنه ابن أبی مهدی،و وکیع،و یحیی بن آدم،و یونس بن محمد المؤدب و الفضل بن موسی السینانی،و عبد السلام بن حرب،و هشیم و أبو النظر هاشم بن القاسم،و أبو أحمد الزبیری،و إسحاق الأزرق،و ابنا أبی شیبة،و قتیبة بن سعید، و خلق کثیر (1).

و ذکر له الخطیب عددا آخر ممن روی عنه.و کذلک ابن أبی حاتم فی الجرح و التعدیل.

و قد وثقه غیر واحد.قال یحیی بن معین:شریک ثقة.و قال العجلی:شریک کوفی ثقة،و کان حسن الحدیث،و کان أروی الناس عنه إسحاق الأزرق،و قال الطبری:کان فقیها عالما.و قال أبو داود ثقة.و قال ابن سعد:کان شریک ثقة مأمونا و کان یغلط (2).و قال ابن العماد:سمع منه إسحاق الأزرق تسعة آلاف حدیث (3).

و قال ابن المبارک:شریک أعلم بحدیث أهل الکوفة من سفیان و مثله عن إسحاق بن إسرائیل.

و قال محمد بن عیسی:رأیت شریکا و قد أثر السجود فی جبهته.و قال الساجی کان ینسب إلی التشیع المفرط (4).

و عده ابن قتیبة من رجال الشیعة و ذکر الذهبی قول عبد اللّه بن إدریس بأنه أقسم باللّه أن شریکا لشیعی (5)و وصفه الجوزجانی بأنه مائل.و هذا هو تعبیره عن الشیعة.

1- (1) تهذیب التهذیب 4:334 و [1]تاریخ بغداد 9:279. [2]

2- (2) المصدر السابق. [3]

3- (3) الشذرات 1:287. [4]

4- (4) تهذیب التهذیب 4:337. [5]

5- (5) میزان الاعتدال 1:446.

و لا جدال بأن شريكا كان يروى فضائل على عليه السّلام و يراه أفضل الخلق بعد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

روى أبو داود الرهاوى أنه سمع شريكا يقول:على خير البشر فمن أبى فقد كفر.

و جاء إليه عتاب و رجل آخر فقال له:الناس يقولون:إنک شاک...؟ فقال شـريک:يا أحمق كيف أكون شاكا؟!لوددت أنى كنت مع على عليه السّلام فخضبت يدى بسيفى من دمائهم (1)!! و ذكر قوم معاوية بن سـفيان عند شـريک فقيل كان معاوية حليما.فقال:ليس بحليم من سفه الحق (2).

و روى الخطيب قال:اسـتأذن شـريک على يحيى بن خالد،و عنده رجل من ولد الزبير بن العوام،فقال الزبيرى ليحيى:أصلح اللّه الأمير ائذن لى فى كلام شريک.

فقال:إنک لا تطيقه.قال:ائذن لى.قال:شأنک.

فلما دخل شريک و جلس،قال له الزبيرى:يا أبا عبد اللّه إن الناس يزعمون أنک تسب أبا بكر و عمر.

قال:فاطرق(شريک)مليا،ثم رفع رأسه فقال:و اللّه ما استحللت ذاک من أبيک،و كان أول من نكث فى الإسلام (3).

تولى شريک القضاء بواسط سنة 155 و عزله المهدى العباسى كما ذكر الخطيب قال:

دخل شريک على المهدى فقال له:ما ينبغى أن تقلد الحكم على المسلمين.

قال شريک:و لم؟ قال:لخلافک على الجماعة،و قولک بالإمامة.

قال شريک:أما قولک بخلافک على الجماعة فعن الجماعة أخذت دينى فكيف

1- (1) نفس المصدر.

2- (2) نفس المصدر.

3- (3) تاريخ 9:387.

أخالفهم!و هم أصلی و دینی؟!و أما قولک:و قولک بالإمامة فما أعرف إلا کتّاب اللّه تعالی و سنة رسوله صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.و أما قولک مثلک ما یقلد الحکم بین المسلمین فهذا شیء أنتم فعلتموه فإن کان خطأ فاستغفروا اللّه منه،و إن کان صوابا فامسکوا علیه.

قال المهدی:ما تقول فی علی بن أبی طالب؟ قال شریک:(أقول)ما قال فیه جدک العباس و عبد اللّه.

قال المهدی:ما قالا فیه؟ قال:فأما العباس فمات و علی عنده أفضل الصحابة،و قد کان یری کبراء المهاجرین یسألونه عما ینزل من النوازل،و ما احتاج هو إلی أحد حتی لحق باللّه.

و أما عبد اللّه فإنه کان یضرب بین یدیه بسیفین و کان فی حروبه رأسا متبعا، و قائدا مطاعا،فلو کانت إمامته علی جور کان أول من یقعد عنها أبوک،لعلمه بدین اللّه،و فقهه فی أحکام اللّه.فسکت المهدی و لم یمض بعد هذا المجلس إلا قلیل حتی عزل شریک (1).

و علی أی حال:فإن شریکا من العلماء،و وثقه جماعة و حمل علیه آخرون لتشیعه،و کان من أوعیة العلم،حمل عنه إسحاق الأزرق تسعة آلاف حدیث (2).

شعبة بن الحجاج:

أبو بسطام شعبة بن الحجاج بن الورد العتکی الواسطی ثم البصری المتوفی سنة 160.

خرج حدیثة البخاری،و مسلم،و الترمذی،و النسائی،و أبو داود،و ابن ماجة.

و روی عنه خلق کثیر منهم أیوب السختیانی،و الأعمش،و محمد بن إسحاق، و إبراهیم بن سعد،و سفیان الثوری،و سفیان بن عیینة و عبد اللّه بن المبارک،و ابن علیة،و وکیع،و خالد بن الحارث و یزید بن هارون و غیرهم.

1- (1) تاریخ بغداد 39،29. [1]

2- (2) میزان الاعتدال 2:446.

ذکر منهم الخطیب أکثر من عشرین (1)و ذکر ابن حجر جماعة آخرین لا یمکن ذکرهم لکثرتهم (2).

قال أحمد بن حنبل:کان شعبة أمة وحده،و قال الشافعی:لو لا شعبة لما عرف الحدیث بالعراق،و قال سفیان الثوری:شعبة أمیر المؤمنین فی الحدیث.و قال حماد بن سلمة:إذا أردت الحدیث فالزم شعبة.و قال حماد بن زید:ما أبالی بمن خالفنی إذا وافقنی شعبة فإذا خالفنی شعبة فی شیء ترکته (3)إلی غیر ذلک من أقوال العلماء فیه.

و کان شعبة من تلامذة الإمام الصادق علیه السّلام و ذکره ابن قتیبة فی معارفه من رجال الشیعة (4)و کذلک الشهرستانی (5)و یقول یزید بن زریع قدم علینا شعبة و رأیه رأی سوء خبیث یعنی الرفض (6)و معنی ذلک أنه کان یفضل علیا علی جمیع الصحابة و هذا عندهم رفض جریا علی ما سنته السیاسة و ابتدعه علماء السوء.

عائذ بن حبیب:

أبو أحمد عائذ بن حبیب بن الملاح العبسی المتوفی سنة 190.

خرج حدیثه النسائی،و ابن ماجة،و روی عنه أحمد بن حنبل،و إسحاق، و محمد بن الصباح الجرجرائی،و أبو کریب،و محمد بن طریف،و محمد بن یحیی بن کثیر الحرانی،و أبو خیثمة،و أبو سعید الأشج و غیرهم (7).

قال الخزرجی:وثقه ابن حبان و قال الجوزجانی:غال زائغ (8).

و قال الأثرم:سمعت أحمد بن حنبل ذکره فأحسن الثناء علیه،و قال کان شیخا

1- (1) تاریخ بغداد 9:255. [1]

2- (2) تهذیب التهذیب 4:340-343. [2]

3- (3) نفس المصدر. [3]

4- (4) المعارف 268.

5- (5) الملل و النحل 324.

6- (6) تاریخ بغداد 9:260. [4]

7- (7) انظر تهذیب التهذیب 5:88. [5]

8- (8) الخلاصة 157.

جليلا عاقلا.و قال عبـد اللّه بن أحمـد عن أبيه:ليس به بأس.و ذكره ابن حبان فى الثقات،و قال أبو زرعـة:عائذ بن حبيب صدوق فى الحديث (1).

عباد بن العوام:

أبو سهل عباد بن العوام بن عمر بن عبد اللّه بن المنذر الكلابى المتوفى سنة 185.

خرج حديثه البخارى،و مسـلم،و الباقون،و احتجوا به و روى الحديث عنه أحمد بن حنبل،و ابنا أبى شيبة،و سعيد بن سليمان الواسطى و أبو الربيع الزهرانى، و على بن مسـلم،و عمران بن ميسرة،و محمد بن عيسى الطباع،و محمود بن خداش،و محمد بن الصباح الدولابى،و أحمد ابن منيع،و غيرهم.

و حدث عنه ابن علية،و هو من أقرانه،و وثقه ابن معين و العجلى و أبو داود، و النسائى،و أبو حاتم،و قال ابن خراش عباد صدوق.

و قال ابن سعد:كان عباد يتشيع فأخذه هارون فحبسه و كان ثقة و ذكره ابن حبان فى الثقات (2).

عباد بن يعقوب:

أبو سعيد الكوفى عباد بن يعقوب الرواجينى المتوفى سنة 250.

خرج حـديثه البخارى و الترمـذى و ابن ماجـة.و روى عنه أبو حاتم و أبو بكر بن البزاز و على بن سـعيد بن بشـر الرازى،و محمد بن على بن حكيم الترمذى و صالح بن محمد جزرة،و ابن خزيمة،و القاسم بن زكريا (3).

و قال ابن حجر:عباد بن يعقوب الرواجينى الكوفى أبو سعيد رافضى مشهور إلا أنه كان صدوقا،وثقه أبو حاتم (4).

1- (1) تهذيب التهذيب 5:88. [1]

2- (2) انظر تهذيب التهذيب 5:99-100 و [2]تاريخ بغداد 11:106 و [3]تذكرة الحفاظ 1:241.

3- (3) تهذيب التهذيب 5:109. [4]

4- (4) هدى السارى 140.

و قال ابن العماد:عباد بن يعقوب الأسدى الرواجينى الكوفى الحافظ الحجة.

قال ابن حبان:كان داعية للرفض (1).

و قال الذهبى فى الميزان:عباد بن يعقوب من غلاة الشيعة و رءوس البدع، و لكنه صادق فى الحديث.

و قال ابن عدى:و عباد فيه غلو فى التشيع،و روى أحاديث أنكرت عليه فى الفضائل و المثالب،و قال صالح بن محمد:كان يشتم عثمان قال:و سمعته يقول:اللّه أعدل أن يدخل طلحة و الزبير الجنة لأنهما بايعا عليا ثم قاتلاه (2).

و كان ابن خزيمة إذا حدث عنه يقول:حدثنا الثقة فى روايته المتهم فى رأيه (3).

و أيا كان فإن عبادا كان من الثقات و أهل الصدق،إلا أنه شيعى أو رافضى و التشيع محبة على و تقديمه على الصحابة،فإن قدمه على أبى بكر و عمر فهو غال فى الشيع أو رافضى.كما يقول ابن حجر (4).

و بدون شك أن عبادا كان يقدم عليا على جميع الصحابة،فلهذا و سم بالرفض، و نسبه ابن حبان إلى أنه يروى المناكير عن المشاهير،و ليس له حجة فى هذه الدعوى إلا ما رواه عباد عن شريک،عن عاصم عن ذر عن عبد اللّه عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنه قال:

إذا رأيتم معاوية على منبرى فاقتلوه (5).

و كل هؤلاء الرواة من أهل الصدق و الوثاقة،و لم ينفرد عباد بهذه الرواية،فقد رواها غيره،و بسبب هذه الرواية قالوا إنه يستحق الترک،و إن كان ثقة صدوقا.

و قد وضعوا عليه حكايات لا تتناسب و مقامه و منزلته بين المحدثين لأجل أن يضعوا من مقامه عند ما أعلن بصراحة البراءة من أعداء آل محمد و أن من لم يتبرأ يحشر مع أعداء آل محمد.

1- (1) شذرات الذهب 2:121. [1]

2- (2) تهذيب التهذيب 5:109. [2]

3- (3) هدى السارى 411.

4- (4) هدى السارى 460.

5- (5) تهذيب التهذيب 5:110. [3]

عبد اللّه بن عمر:

أبو عبد الرحمن عبد اللّه بن عمر بن محمد بن أبان بن صالح بن عمير الأموى مولاهم المتوفى سنة 239 الكوفى و يقال له الجعفى نسبة إلى خاله حسين الجعفى.و يعرف-بمشكدانه-و هو وعاء المسک.

خرج حديثه مسلم،و أبو داود،و النسائى فى خصائص على.و روى عنه أحمد بن على المروزى،و زكريا بن يحيى خياط السنة (1)و أحمد بن بشير الطيالسى، و ابن أبى الدنيا،و محمد بن أبى إسحاق السراج،و البغوى و أبو حاتم،و أبو زرعة سماعا (2).

قال ابن حجر:عبد اللّه بن عمر بن محمد صدوق فيه تشيع من الطبقة العاشرة (3)و قال فى التهذيب:و ذكره ابن حبان فى الثقات.و قال صاحب حماه:كان غاليا فى التشيع،فكان يمتحن كل من يجيئه من أهل الحديث،و حكى العقيلى عن بعض مشايخه أنه كانت فيه سلامة يروى عنه مسلم اثنى عشرا حديثا.

عبد اللّه بن زرير:

عبد اللّه بن زرير الغافقى المصرى المتوفى سنة 83.

خرج حديثه أبو داود،و النسائى و ابن ماجة.و روى عنه أبو الخير البزنى،و أبو أفلح الهمدانى،و أبو على الهمدانى،و بكر بن سوادة الجذامى و عبد اللّه بن الحارث،و عبد اللّه بن هبيرة،و غيرهم.

قال العجلى:مصرى تابعى ثقة.و قال ابن يونس:كان من شيعة على عليه السّلام و الوافدين إليه من مصر،و قال ابن سعد:شهد مع على صفين.و قال البرقى نسب إلى التشيع و لم يضعف.و ذكره ابن حبان فى الثقات.

قال عبد اللّه:قال لى عبد الملک بن مروان:ما حملک على حب أبى تراب الا أنک أعرابى جاف؟قال:فقلت له و اللّه لقد قرأت القرآن قبل أن يجتمع أبواک.فى قصة ذكرها ابن سعد.

1- (1) زكريا بن يحيى المتوفى سنة 289 المعروف بخياط السنة لأنه كان يخيط أكفان الموتى من السنة.

2- (2) تهذيب التهذيب 5:333. [1]

3- (3) التقريب 1:425.

و عن يزيد بن أبى حبيب قال:بعث عبد العزيز بن مروان إلى عبد اللّه بن زرير فسأله عن عثمان؟فاعرض عنه،فقال له عبد العزيز:و اللّه إنى لأراك جافيا لا تقرأ القرآن.

فقال:بلى و اللّه إنى لأقرأ القرآن،و أقرأ منه ما لا تقرأ.

قال:و ما هو؟قال:القنوت،أخبرنى على بن أبى طالب أنه من القرآن (1).

عبد اللّه بن شداد:

أبو الوليد عبد اللّه بن شداد بن الهاد الليثى المدنى المتوفى سنة 81 قتل بدجيل.

خرج حديثه أصحاب الصحاح و روى عنه:سعد بن إبراهيم و معبد بن خالد و الحكم بن عتيبة،و ذر بن عبد اللّه المرهبى،و ربعى بن خراش،و طاوس، و محمد بن كعب القرضى،و أبو جعفر الفراء،و محمد بن عبد اللّه بن أبى يعقوب الضبى و الشعبى و عبد اللّه بن شبرمة،و أبو عون الثقفى و غيرهم (2).

قال الواقدى:خرج مع القراء أيام ابن الأشعث على الحجاج فقتل يوم دجيل، و كان ثقة فقيها كثير الحديث متشيعا،و قال يعقوب ابن أبى شيبة فى مسند عمر:كان عبد اللّه بن شداد يتشيع.

و قال ابن سعد:كان ثقة فقيها كثير الحديث متشيعا (3)و قد وقع من الغلط أنه عثمانى كما جاء فى خلاصة الخزرجى ص 170 نقلا عن ابن سعد أنه قال:و كان عبد اللّه عثمانيا.فإن عبارة ابن سعد:و كان شيعيا كما نقلناها و كذلك وقع الخطأ فى تهذيب الكمال و لهذا قال ابن حجر:و ما فى الأصل عن ابن سعد كان عثمانيا فيه نظر.و نقل ابن حجر أقوال القائلين فى تشيعه.

و قد ذكره الشيخ الطوسى فى أصحاب الإمام على عليه السّلام (4).

1- (1) تهذيب التهذيب 5:216-217 و [1]الخلاصة 167.

2- (2) تاريخ بغداد 9:473 و [2]تهذيب التهذيب 5:252. [3]

3- (3) طبقات ابن سعد 6:126 [4] ط 2.

4- (4) رجال الشيخ الطوسى 47.

و قال الخطيب و كان عبد اللّه ممن نزل الكوفة و ورد المدائن فى صحبة الإمام على لما خرج إلى الخوارج.

و على كل فإن ما ذكره صفى الدين الخزرجى بأنه كان عثمانيا خطأ و لهذا تعرضنا لذكره هنا لأنا لم نلتزم بذكر التابعين من الشيعة و لا الصحابة لأن ذلك شيء يدعو إلى التوسع فى الموضوع لكثرتهم.

عبد اللّه بن شريك:

عبد اللّه بن شريك العامرى الكوفى.

خرج حديثه النسائى،و روى عنه:إسرائيل،و فطر بن خليفة،و شريك، و أجلح بن عبد اللّه الكندى،و جابر النخعى،و أبو الأحوص،و السفيانان.

و ثقة أحمد بن حنبل و ابن معين و أبو زرعة،و قال البرقانى عن الدار قطنى:لا بأس به.و ذكره ابن حبان فى الثقات،و قال العقيلى:أسدى كوفى كان يغلو،و قال أيضا:كان غاليا فى التشيع.و قال يعقوب بن سفيان:عبد اللّه بن شريك ثقة من كبراء أهل الكوفة يميل إلى التشيع.

أما الجوزجانى فيقول:مختارى كذاب.و معنى قوله مختارى أنه كان مع الجيش الذى سار لمحمد بن الحنفية لخلاصه من ابن الزبير،و بهذا استحق أن يوصف بالكذب،و يتوقف عنه بعض المحدثين.

عبد اللّه بن الجهم:

أبو عبد الرحمن عبد اللّه بن الجهم الرازى.

خرج حديثه الترمذى فى صحيحه،و روى عنه أحمد بن أبى شريح، و يوسف بن موسى القطان،و نوح بن أنس،و أبو هارون الخزاز،و على بن شهاب و محمد بن بكير الحضرمى و جماعة.

قال أبو زرعة:رأيته و لم أكتب عنه،و كان صدوقا.و قال أبو حاتم:رأيته و لم أكتب عنه،و كان يتشيع.

قال ابن حجر:عبد اللّه بن الجهم الرازى صدوق فيه تشيع (1).

1- (1) انظر الجرح و التعديل 2:27 ق-2 و تهذيب التهذيب 5:177 و [1]التقريب 1:407.

عبد اللّه بن عبد القدوس:

أبو محمد عبد اللّه بن عبد القدوس التميمى السعدى.

خرج حديثه الترمذى،و البخارى تعليقا،و روى عنه عباد بن يعقوب، و محمد بن حميد الرازى،و محمد بن عيسى بن الطباع،و عبادة بن زياد الأسدى و الوليد بن صالح النخاس،و سعيد بن سليمان و أبو موسى الهروى و غيرهم.

قال البخارى فى تأريخه:عبد اللّه بن عبد القدوس صدوق. وثقه ابن حبان.

و قال ابن معين خبيث رافضى ليس بشىء (1).

و قال ابن حجر:صدوق رمى بالرفض (2)و قال أبو داود:ضعيف الحديث يرمى بالرفض.و قال ابن عدى:عامة ما يرويه فى فضائل أهل البيت.

عبد اللّه بن أبى عيسى:

أبو محمد عبد اللّه بن أبى عيسى بن عبد الرحمن بن أبى ليلى الكوفى المتوفى سنة 136.

خرج حديثه البخارى،و مسلم،و الترمذى،و النسائى،و أبو داود،و ابن ماجة.

و روى عنه إسماعيل بن أبى خالد،و السفيانان و شعبة،و شريک و عمار بن زريق الضبى،و الحسن بن صالح،و زهير بن معاوية،و أبو فروة مسلم بن سالم الجهنى،و أبو جناب الكلبى و غيرهم و كان من تلامذة الإمام الصادق عليه السّلام.

قال ابن حجر:عبد اللّه بن أبى عيسى ثقة فيه تشيع (3).و قال النسائى:ثقة ثبت.و قال ابن خراش و الحكم:هو أوثق آل بيته.و قال العجلى و ابن معين:ثقة.

و زاد ابن معين و كان يتشيع (4)و قال ابن أبى حاتم سألت أبى عنه فقال:صالح.

عبد اللّه بن لهيعة:

أبو عبد الرحمن عبد اللّه بن لهيعة الحضرمى قاضى مصر و عالمها المتوفى سنة 170،174.

1- (1) تهذيب التهذيب 5:303 و [1]الجرح و التعديل 2:104 ق 2 و الخلاصة 174.

2- (2) التقريب 1:430.

3- (3) التقريب 1:439.

4- (4) هدى السارى 414.

خرج حديثه مسلم،و أبو داود،و الترمذى،و ابن ماجة.و روى عنه الثورى، و شعبة و الأوزاعى،و الليث بن سعد و هو من أقرانه و آخرون ذكر منهم ابن حجر أكثر من خمسة و عشرين من الحفاظ. وثقه أحمد بن صالح.و كان ابن وهب يقول:

حدثنى الصادق البار عبد اللّه بن لهيعة.و قال سفيان:عند ابن لهيعة الأصول و عندنا الفروع (1).

قال ابن عدى:إنه مفرط فى التشيع.و ذكره ابن قتيبة فى رجال الشيعة و قال الجوزجانى:لا ينبغى أن يحتج به،و لا يغتر بروايته.و لعل الجوزجانى يشير إلى ما رواه ابن لهيعة بسند عن ابن عمر:أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال فى مرضه:ادعوا لى أخى.

فدعى له أبو بكر فأعرض عنه،ثم قال:ادعوا لى أخى.فدعى عثمان فأعرض عنه، ثم دعى له على عليه السّلام فستره بثوبه و أكب عليه،فلما خرج عليه السّلام قيل له:ما قال لك؟قال على عليه السّلام:علمنى ألف باب يفتح لى من كل باب ألف باب (2).

و قد روى له مالك فى الموطأ و لم يذكر اسمه بل قال عن الثقة قال ابن عبد البر هو ابن لهيعة و كذلك البخارى روى له و لم يصرح باسم (3).

عبيد اللّه:

أبو محمد عبيد اللّه بن موسى بن أبى المختار العبسى المتوفى سنة 213.

خرج حديثه البخارى و مسلم فى الصحيح و الأربعة و روى عنه البخارى و هو من كبار شيوخه و إسحاق الحنظلى،و ابن أبى شيبة و غيرهم ذكر منهم فى تهذيب التهذيب أكثر من أربعين من الحفاظ.

قال الذهبى:عبيد اللّه بن موسى الحافظ الثبت المقرى العابد من كبار علماء الشيعة (4)و قال اليافعى عبيد اللّه بن موسى كان إماما فى الفقه و القرآن،موصوفا بالعبادة و الصلاح لكنه من رءوس الشيعة (5)و قال أبو داود:عبيد اللّه كان شيعيا

1- (1) تهذيب التهذيب 5:376 و [1]شذرات الذهب 1:284. [2]

2- (2) ميزان الاعتدال 2:67.

3- (3) تهذيب التهذيب 5:376. [3]

4- (4) تذكرة الحفاظ 1:322.

5- (5) مرآة [4]الحنان.

محترفا.و قال أحمد بن يوسف كتبت عن عبيد اللّه ثلاثين ألف حديث (1)و قال ابن حجر:عبيد اللّه بن موسى من كبار شيوخ البخارى وثقه ابن معين،و أبو حاتم، و العجلى و ابن أبى شيبة و آخرون (2).

عبد الجبار:

عبد الجبار بن العباس الشبامى الكوفى.

خرج حديثه الترمذى فى صحيحه،و البخارى فى الأدب المفرد و روى عنه:

الحسن بن صالح،و أبو أحمد الزبيرى،و عبيد اللّه بن موسى،و أبو نعيم،و ابن المبارک و سلمة بن قتيبة و غيرهم.

و قال عبد اللّه بن أحمد:سألت أبى عن عبد الجبار بن العباس فقال هو رجل من أهل الكوفة لا يكون به بأس حدثنا عنه وكيع و أبو نعيم لكنه كان يتشيع و قال ابن معين:عبد الجبار ليس به بأس و وثقه أبو حاتم (3).

و قال الجوزجانى:كان غاليا فى سوء مذهبه يعنى التشيع (4)و قال ابن حجر صدوق يتشيع من الطبقة السابعة.

عبد الرحمن:

أبو محمد عبد الرحمن بن أبى الموالى المدنى المتوفى سنة 173.

خرج حديثه البخارى و الأربعة،و روى عنه:سفيان الثورى،و أبو عامر العقدى، و القعنبى،و يحيى بن صالح الوضاحى،و ابن المبارک،و النسائى،و أبو زرعة.

و كان من تلامذة الإمام الباقر و الإمام الصادق عليه السّلام و ممن ناصر محمد بن عبد اللّه ذا النفس الزكية،و ضربه المنصور أربعمائة سوط على أن يدله على عبد اللّه بن الحسن فلم يفعل،و تحمل العذاب و السجن (5)

1- (1) تذكرة الحفاظ 1:322.

2- (2) هدى السارى 423.

3- (3) الجرح و التعديل 3:31 ق 1.

4- (4) ميزان الاعتدال 2:91.

5- (5) شذرات الذهب 1:283. [1]

وثقه أحمد و ابن معين،و النسائی و أبو زرعة،و قال ابن خراش:صدوق و قال ابن عدی مستقیم الحدیث،و قال فی المغنی:عبد الرحمن بن أبی الموالی مشهور ثقة خرج مع ابن الحسن(أی ذی النفس الزکیة).

و قال الذهبی:عبد الرحمن بن أبی الموالی ثقة مشهور لکنه خرج مع محمد بن عبد اللّه بن الحسن (1).

و هذا الاستدراک من الذهبی فیه ما یدل علی أن خروج عبد الرحمن کان مخالفا فی نظره لوثاقته کأنه لیس من الدین الإسلامی الخروج علی الظالمین و الانتصار لدعوة الإصلاح،و قد کان عبد الرحمن یحدث بسند عن عائشة أن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال:ستة لعنهم اللّه و کل شیء مجاب الدعوة:الزائد فی کتّاب اللّه،و المکذب بقدر اللّه، و المتسلط بالجبروت لیذل ما أعز اللّه،و المستحل لحرم اللّه و من عترتی ما حرم اللّه، و التارک لسنتی (2).

و قال الخطیب:و کان عبد الرحمن قد حمل من المدینة إلی بغداد هو و محمد بن عبد اللّه الدیباج و بعض الطالبیین فحبسوا ببغداد،و قیل بل حبسوا بالهاشمیة.

و قال أحمد بن حنبل:و کان ابن أبی الموالی عندنا محبوسا فی المطبق ثم خلی عنه و رجع إلی المدینة (3).

عبد الرحمن بن صالح:

أبو محمد عبد الرحمن بن صالح الأزدی العتکی الکوفی نزیل بغداد المتوفی سنة 235.

خرج حدیثه النسائی.و روی عنه:أبو حاتم و أبو زرعة،و عباس الدوری،و أبو قلابة الرقاشی،و عبد اللّه بن أحمد الدورقی،و أبو بکر ابن أبی الدنیا و أحمد بن الحسن بن عبد الجبار الصوفی،و عمر بن أیوب السقطی،و عبد اللّه بن محمد البغوی و غیرهم (4)

1- (1) میزان الاعتدال 2:116.

2- (2) نفس المصدر.

3- (3) تاریخ بغداد 10:226-227. [1]

4- (4) تاریخ بغداد 10:261. [2]

قال ابن حجر:عبد الرحمن بن صالح صدوق يتشيع من الطبقة العاشرة (1).

و قال يحيى بن معين:يقدم عليكم رجل من أهل الكوفة يقال له عبد الرحمن بن صالح ثقة صدوق شيعى،لأن يخر من السماء أحب إليه من أن يكذب فى نصف حرف (2)و قال ابن أبى حاتم:روى عنه أبى و أبو زرعة،و سئل أبى عنه فقال:صدوق.

و قال يعقوب بن يوسف المطوعى:كان عبد الرحمن بن صالح رافضيا و كان يغشى أحمد بن حنبل فيقربه و يدنيه.فقيل له:يا أبا عبد اللّه إن عبد الرحمن رافضى؟!فقال أحمد:سبحان اللّه رجل أحب قوما من أهل بيت النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم نقول له لا تحبهم!!هو ثقة (3).

و قال محمد بن موسى:رأيت يحيى بن معين غير مرة جالسا فى دهليز يكتب عنه.و قال ابن عدى:عبد الرحمن معروف مشهور فى الكوفيين،لم يذكر بالضعف فى الحديث و لا اتهم فيه،إلا أنه محترق فيما كان فيه من التشيع (4).

عبد الرزاق:

أبو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميرى الصنعانى المتوفى سنة 211.

خرج حديثه البخارى،و مسلم و الجماعة،و روى عنه ابن عيينة،و معتمر و هما من شيوخه و أحمد و إسحاق،و أحمد بن صالح،و آخرون ذكر منهم ابن حجر فى تهذيب التهذيب ج 6 ص 311 أكثر من ثلاثين رجلا و هو من كبار شيوخ أحمد بن حنبل،و إسحاق بن راهويه،و ابن المدينى،و ابن معين.

قال ابن عدى:رحل إليه أئمة المسلمين و ثقاتهم و لم نر بحديثه بأسا إلا أنهم نسبوه للتشيع،و هو أعظم ما ذموه به.

و قال ابن حجر:عبد الرزاق أحد الحفاظ الاثبات صاحب التصانيف وثقه الأئمة كلهم (5).

1- (1) تقريب التهذيب 1:481.

2- (2) تاريخ بغداد 10:262. [1]

3- (3) تاريخ بغداد 10:262. [2]

4- (4) تهذيب التهذيب 6:198. [3]

5- (5) هدى السارى 418.

و قال الذهبی: وثقه غیر واحد و حدیثه مخرج فی الصحاح،و له ما ینفرد به و نقموا علیه التشیع و ما کان یغلو بل کان یحب علیا رضی اللّه عنه و یبغض من قاتله (1).و قال العجلی:عبد الرزاق ثقة یتشیع.و قال إبراهیم بن عباد:و کان عبد الرزاق یحفظ نحوا من سبعة عشر ألف حدیث (2).

و قال ابن ناصر: وثقه غیر واحد لکن نقموا علیه التشیع و ذکره ابن حبان فی الثقات.

و علی أی حال:فإن عبد الرزاق کان من أئمة الحدیث و أوعیة العلم،رحل إلیه العلماء و وثقوه.منهم یحیی بن معین و أحمد بن حنبل (3).و کان شیعیا یحب علیا و یبغض من قاتله و بهذا استحق أن یطعن به العباس العنبری و لم یوافقه أحد علی ذلک (4).

عبد السلام:

أبو الصلت عبد السلام بن سلیمان الهروی نزیل نیسابور المتوفی سنة 236.

خرج حدیثه ابن ماجة،و روی عنه ابنه محمد،و محمد بن إسماعیل الأحمسی،و سهل بن زنجلة،و محمد بن رافع النیسابوری،و الدوری،و ابن أبی داود،و أحمد بن منصور الرمادی،و أحمد بن سیار المروزی و علی بن حرب الموصلی و عمار بن رجاء،و محمد بن عبد اللّه الحضرمی و آخرون (5).

قال یحیی بن معین:و قد سئل عن أبی الصلت؟فقال:صدوق إلا أنه یتشیع.

و قال الحاکم: وثقه إمام أهل الحدیث یحیی بن معین (6).

و قال الحاکم:أبو الصلت ثقة مأمون و سئل صالح بن حبیب الحافظ عن أبی

1- (1) تذکرة الحفاظ 1:331.

2- (2) تهذیب التهذیب 6:314. [1]

3- (3) انظر قصة رحلتهما فی طبقات الحنابلة ج 1 ص 175. [2]

4- (4) حذفنا فی ترجمة عبد الرزاق الشیء الکثیر حبا للاختصار کما حذفنا من تراجم غیره المثبتة فی أصل الکتاب.کما ترکنا أسماء کثیر من الرواة.

5- (5) تهذیب التهذیب 6:329. [3]

6- (6) نفس المصدر.

الصلت الهروی؟فقال:دخل یحیی بن معین و نحن معه علی أبی الصلت فسلم علیه فلما خرج تبعته فقلت له:ما تقول رحمک اللّه فی أبی الصلت؟ فقال:هو صدوق.فقلت إنه روی حدیث أنا مدینة العلم و علی بابها.فقال ابن معین:قد روی هذا الحدیث ذاک الفیدی عن أبی معاویة عن الأعمش کما رواه أبو الصلت.

و روی الخطیب عن العباس بن محمد الدوری قال:سمعت یحیی بن معین یوثق أبا الصلت عبد السلام بن صالح فقلت له:إنه یحدث عن أبی معاویة بحدیث أنا مدینة العلم و علی بابها.

فقال ابن معین:ما تریدون من هذا المسکین أ لیس قد حدث به محمد بن جعفر الفیدی عن أبی معاویة هذا و نحوه.

أقول:

و هذا الحدیث الشریف قد رواه أبو الصلت الهروی عن أبی معاویة عن مجاهد عن ابن عباس عن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنه قال:«أنا مدینة العلم و علی بابها فمن أراد المدینة فلیأت الباب».

أخرجه الحاکم فی المستدرک و قال هذا صحیح الإسناد و لم یخرجاه(أی البخاری و مسلم)لأنه علی شرطهما.

و أخرجه الطبرانی بسند عن أبی الصلت عن أبی معاویة عن الأعمش عن مجاهد عن ابن عباس.

و رواه عمر بن إسماعیل بن مجاهد عن أبی معاویة عن مجاهد عن ابن عباس أن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال:(أنا مدینة العلم و علی بابها)الحدیث (1).

و رواه الذهبی عن إسحاق بن یحیی بسند عن أبی الصلت عن أبی معاویة عن الأعمش عن مجاهد عن ابن عباس عن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنه قال:(أنا مدینة العلم و علی بابها فمن أراد بابها فلیأت علیا).قال الذهبی هذا الحدیث صحیح (2)

1- (1) الجرح و التعدیل 3:ق 1-99.

2- (2) تذکرة الحفاظ 4:28.

و سئل يحيى بن معين عن هذا الحديث(أنا مدينة العلم و على بابها)الحديث؟ فقال يحيى بن معين هو صحيح (1).

و قد اشتهر هذا الحديث شهرة عظيمة و رواه جماعة من الحفاظ من طرق متعددة منها ما أخرجه الحاكم عن عبد الرحمن بن بهمان التميمى سمعت جابر بن عبد اللّه يقول:سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يوم الحديبية و هو آخذ بيد على يقول:هذا أمير البررة و قاتل الفجرة منصور من نصره مخذول من خذله-يمد بها صوته-أنا مدينة العلم و على بابها فمن أراد العلم فليأت الباب.

كما أن هذا الحديث ورد متابعة عن أبى معاوية من غير طريق أبى الصلت من طرق متعددة و قد أرسله ابن عبد البر فى الاستيعاب إرسال المسلّمات.

و قال ابن حجر:فى شرح الهمزية فى تعداد فضائل الإمام على عليه السّلام:منها العلوم التى أشار إليها النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بقوله:(أنا مدينة العلم و على بابها)و فى رواية:فمن أراد العلم فليأت الباب.

و فى أخرى عند الترمذى:(أنا دار الحكمة و على بابها).و قال ابن حجر أيضا:

تنبيه-مما يدل على أن اللّه سبحانه و تعالى اختص عليا من العلوم ما تقصر عنه العبارة قول النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:(أقضاكم على)و هو حديث لا نزاع فيه و قوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:(أنا مدينة العلم و على بابها) (2).

و على أى حال:فإن هذا الحديث الشريف قد ورد من طرق متعددة و اشتهر شهرة عظيمة و قد ألف فيه جماعة رسائل خاصة منها:(فتح الملک العلى بصحة حديث باب مدينة العلم على)لأحمد بن محمد بن صديق المغربى نزيل القاهرة (3).

و لا مجال هنا إلى التوسع فى ذكر طرق هذا الحديث و بيان شهرته حتى أن بعض الحنفية جعل الأخذ بمذهب أبى حنيفة أولى لأن أبا حنيفة كان يعتمد على قول على عليه السّلام و قد قال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:(أنا مدينة العلم و على بابها) (4)

1- (1) تهذيب التهذيب 6:320. [1]

2- (2) انظر شرح همزية البوصيرى لابن حجر 302-303.

3- (3) طبع الكتاب فى القاهرة ب 102 صفحة سنة 1354.

4- (4) أحسن التقاسيم المقدسى.

و لم يكن هذا الحديث منحصرا فى طريق أبى الصلت فطرقه متعددة.

و قد كان أبو الصلت يناظر أهل الأهواء فى مجلس المأمون قال الخطيب:و كان عبد السلام يرد على أهل الأهواء من المرجئة و الجهمية و الزنيدقة و القدرية و كلم بشر المريسى غير مرة بين يدى المأمون مع غيره من أهل الكلام كل ذلک كان الظفر له و كان يعرف بكلام الشيعة .(1)

و لهذا حمل عليه أهل الأهواء المنحرفة كالجوزجانى و غيره فوصفوه بما لا يليق به،و كان أبو الصلت من تلامذة الإمام الرضا عليه السّلام و من أهل الصدق.

عبد العزيز:

عبد العزيز بن سياه الأسدى الحمانى الكوفى.

خرج حديثه البخارى،و مسلم،و الترمذى،و النسائى،و ابن ماجة،و روى عنه ابنه يزيد،و عبد اللّه بن نمير،و أبو معاوية،و يعلى بن عبيد و يونس بن بكير، و عبيد اللّه بن موسى،و وكيع،و غيرهم.

وثقه ابن معين،و أبو داود،و العجلى،و ابن نمير،و يعقوب بن سفيان،و ذكره ابن حبان فى الثقات.و قال أبو زرعة:هو من كبار الشيعة و قال أبو حاتم:

صدوق (2).

و لعبد العزيز هذا ولد اسمه قطبة هو من العلماء و المحدثين و رجال الصحاح و كذلک ولده يزيد أيضا كان من الحفاظ و رجال الصحاح.

عبد الملک:

عبد الملک بن أعين الكوفى الشيبانى.

خرج حديثه البخارى،و مسلم،و الأربعة،و روى عنه ابن إسحاق و عبد الرحمن بن المهدى،و إسماعيل بن سميع،و عبد الملک بن سليمان،و سفيان الثورى و ابن عيينة و غيرهم و هو من تلامذة الإمام الباقر و ولده الإمام الصادق عليه السّلام و توفى فى عهده و دعا له و ترحم عليه.

1- (1) تاريخ بغداد 11:47. [1]

2- (2) انظر الجرح و التعديل 2:383-ق 2 و تهذيب التهذيب 7:340. [2]

قال ابن أبی حاتم سمعت أبی یقول:عبد الملک بن أعین من عتق الشیعة محله الصدق و قال ابن حجر فی التقریب:عبد الملک بن أعین صدوق شیعی (1)و قال فی هدی الساری:عبد الملک بن أعین الکوفی وثقه العجلی.و قال أبو حاتم:شیعی محله الصدق (2)و ذکره ابن حبان فی الثقات و قال و کان یتشیع.و قال الساجی:کان یتشیع و یحمل فی الحدیث.

عبد الملک بن مسلم:

أبو سلام عبد الملک بن مسلم بن سلام الحنفی الکوفی.

خرج حدیثه الترمذی و النسائی،و روی عنه الثوری و هو من أقرانه و عبد الرحمن بن المحاربی،و وکیع،و أبو قتیبة،و علی بن نصر الجهضمی و زید بن هارون و عبد اللّه بن موسی و أبو نعیم و غیرهم (3).

قال ابن أبی حاتم سمعت أبی یقول:لا بأس به.و کذلک قال أبو داود و قال ابن معین ثقة و قال ابن خراش:لیس به بأس کان من الشیعة و ذکره ابن حبان فی الثقات و قال روی عنه ابن المبارک (4).

عثمان:

أبو الیقظان عثمان بن عمیر الکوفی البجلی الثقفی المتوفی سنة 125 تقریبا.

خرج حدیثه:أبو داود و الترمذی،و ابن ماجة و روی عنه الأعمش،و سفیان و شعبة،و شریک و حجاج بن أرطاة،و لیث بن أبی سلیم،و مهدی بن میمون و غیرهم (5).

قال الخزرجی:عثمان بن عمیر کوفی یتشیع یؤمن بالرجعة.و قال ابن حجر:

یغلو فی التشیع.و قال ابن عدی ردیء المذهب یؤمن بالرجعة علی أن الثقات رووا عنه (6)

1- (1) انظر التقریب 2:626 و 638.

2- (2) هدی الساری-420.

3- (3) الجرح و التعدیل 2:368 ق 2 و تهذیب التهذیب 7:424. [1]

4- (4) تهذیب التهذیب 7:425. [2]

5- (5) تهذیب التهذیب 7:145. [3]

6- (6) میزان الاعتدال 2:187.

عدی بن ثابت:

عدی بن ثابت الأنصاری الکوفی المتوفی سنة 116.

خرج حدیثه البخاری،و مسلم و الأربعة و روی عنه أبو إسحاق السبیعی،و أبو إسحاق الشیبانی،و یحیی بن سعید الأنصاری،و الأعمش،و زید بن أبی أنیسة، و حجاج بن أرطاة،و إسماعیل السدی،و شعبة،و مسعر،و فضیل بن مرزوق و غیرهم من الحفاظ.

وثقه أحمد،و العجلی،و النسائی،و الدار قطنی و غیرهم.قال ابن أبی حاتم:

سألت أبی عن عدی بن ثابت؟فقال:هو صدوق و کان إمام مسجد الشیعة و قاضیهم (1).

و قال فی المغنی:عدی بن ثابت هو کوفی شیعی جلد ثقة مع ذلک و کان قاضی الشیعة و إمام مسجدهم قال المسعودی:ما أدرکنا أحدا أقول بقول الشیعة من عدی بن ثابت (2)و قال ابن حجر:عدی بن ثابت وثقه أحمد و النسائی،و الدار قطنی إلا أنه کان یغلو فی التشیع و کذا قال ابن معین.و قال أبو حاتم:صدوق و کان إمام مسجد الشیعة و قاضیهم و قال الجوزجانی مائل عن القصد.و قال عفان عن شعبة کان من الرفاعین (قلت)احتج به الجماعة... (3).

علی بن بذیمة:

أبو عبد اللّه علی بن بذیمة الجزری الکوفی المتوفی سنة 131.

خرج حدیثه الترمذی،و النسائی،و أبو داود،و ابن ماجة،و روی عنه الأعمش، و شعبة،و المسعودی،و الثوری،و عبد الرحمن بن یزید بن جابر،و عبد الرحمن بن یزید بن تمیم،و یونس بن راشد الجزری،و أبو سعید المؤدب،و معمر،و إسرائیل و غیرهم (4)

1- (1) الجرح و التعدیل 3:2 ق 2.

2- (2) شذرات الذهب 1:252. [1]

3- (3) هدی الساری 423-424.

4- (4) الجرح و التعدیل 3:175 ق 1.

وثقه ابن معين و النسائی و أبو زرعـة و ابن سـعد و ابن عمار و قال ابن حجر:ثقـة رمی بالتشـيع،و قال أحمـد بن حنبل:علی بن بذيمة صالح الحديث و لكن كان رأسا فی التشيع،و قال أيضا:ثقة و فيه شیء.و قال الجوزجانی:زائغ عن الحق.بمعنی أنه شيعی يحب علی بن أبی طالب.

علی بن الجعد:

أبو الحسن علی بن الجعد بن عبيد الجوهری البغدادی المتوفی سنة 230.

خرج حـديثه البخاری و أبو داود و روی عنه أبو بكر بن أبی شـيبة و إسـحاق بن إسـرائيل و الحسن بن محمـد الزعفرانی،و محمد بن إسـحاق الصاغانی و محمد بن إسـماعيل البخاری،و أبو زرعة و أبو حاتم و خلق ذكر منهم الخطيب فی تاريخه ما يقارب العشرين من الحفاظ و زاد ابن حجر فی تهذيب التهذيب بأكثر من ذلک.

و هو من كبار شـيوخ البخاری،و أحمد بن حنبل،و يحيی بن معين،قال عبد الخالق بن منصور سمعت يحيی بن معين يقول:كتبت عن علی بن الجعد أكثر من ثلاثين سنة (1).

قال ابن حجر:علی بن الجعد ثقة ثبت رمی بالتشـيع (2)و قال أبو حاتم:لم أر من المحـدثين من يحـدث بالحديث علی لفظ واحد لا يغيره سوی علی بن الجعد (3).

و قال الذهبی:قال ابن معين:هو أثبت البغداديين فی شـعبه و هو صدوق و قيل إنه مكث ستين سنة يصوم يوما و يفطر يوما،و كان عالما نبيلا متمولا فيه ابتداع نال من بعض السلف (4)و ذلک أنه ذكر عنده حديث ابن عمر كنا نفاضل علی عهد رسول اللّه صلّی اللّه عليه و آله و سلّم فنقول خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر و عمر و عثمان فقال علی بن الجعد:انظروا إلی هذا الصبی هو لم يحسن أن يطلق امرأته (5)يقول:كنا

1- (1) تاريخ بغداد 11:361. [1]

2- (2) التقريب 2:33.

3- (3) هدی الساری 429.

4- (4) تذكرة الحفاظ 1:361.

5- (5) يشـير إلی حـديث ابـن عمر أنـه طلـق امرأتـه فی الحيض فـأمر النـبی صـلّی اللّه عليه و آله و سـلّم عمر بن الخطـاب أن يـأمره أن يراجعها.أخرجه البخاری.

نفاضل!! (1)و كان على بن الجعد من حفاظ الحديث و أعلام الأمة و ربانى العلم كما يقول ابن معين (2)و كان من شيوخ أحمد بن حنبل و لكنه تركه بعد ذلک من أجل التشيع و من أجل وقوفه فى القرآن (3)و ذلک أنه قال:من قال إن القرآن مخلوق لم أعنفه.

على بن زيد:

أبو الحسن على بن زيد بن عبد اللّه بن أبى مليكة زهير بن عبد اللّه البصرى المتوفى سنة 129.

خرج حديثه مسلم فى صحيحه و الأربعة و البخارى فى الأدب المفرد و روى عنه:قتادة و الحمادان،و زائدة،و زهير بن مرزوق،و السفيانان و سفيان ابن حسين و شعبة،و همام بن يحيى،و مبارک بن فضالة،و ابن عون،و ابن علية و آخرون.قال العجلى:على بن زيد يتشيع لا بأس به يكتب حديثه.و قال ابن عدى:لم أر من البصريين و غيرهم امتنع من الرواية عنه.و قال ابن العماد:كان على بن زيد أحد أوعية العلم،قال فى العبر:كان أحد علماء الشيعة (4).

على بن غراب:

أبو الحسن على بن غراب الفزارى و يقال أبو الوليد الكوفى المتوفى سنة 184.

خرج حديثه النسائى،و ابن ماجة،و روى عنه مروان بن معاوية و هو من أقرانه، و عمار بن خالد الواسطى،و أبو الشعثاء على بن الحسن،و إبراهيم بن موسى الرازى،و محمد بن عبد اللّه بن شابور،و أحمد بن حنبل و غيرهم.

قال المروزى عن أحمد:كان حديث على بن غراب حديث أهل الصدق و قال ابن معين:هو المسكين صدوق لم يكن به بأس و لكنه كان يتشيع.و قال:إنه ثقة.

و قال ابن أبى حاتم عن أبيه لا بأس به.و قال أبو زرعة على بن غراب هو صدوق

1- (1) تاريخ بغداد 11:363. [1]

2- (2) تاريخ بغداد 11:366. [2]

3- (3) هدى السارى 429.

4- (4) تهذيب التهذيب 7:322 و [3]تذكرة الحفاظ 1:133 و شذرات الذهب 1:176 و [4]غيرها.

عندی و أحب إلی من علی بن عاصم (1).

و قال الجوزجانی:علی بن غراب ساقط.قال الخطیب البغدادی بعد نقله لقول الجوزجانی:قلت:أحسب أن إبراهیم(الجوزجانی)طعن علیه لأجل مذهبه،فإنه کان یتشیع و أما روایته فقد وصفوه بالصدق (2).

علی بن قادم:

أبو الحسن علی بن قادم الخزاعی الکوفی المتوفی سنة 213.

خرج حدیثه أبو داود،و الترمذی،و النسائی فی الخصائص،و روی عنه أبو قریب،و أحمد بن الفرات،و أبو بکر ابن أبی شیبة،و محمد بن عبد اللّه بن أبی الثلج،و وهب الفامی،و المنذر بن شاذان،و القاسم بن زکریا و غیرهم (3).

وثقه العجلی و قال أبو حاتم محله الصدوق.و قال ابن سعد:کان شدید التشیع.و ذکره ابن حبان فی الثقات و قال ابن حجر:علی بن قادم صدوق یتشیع من الطبقة التاسعة (4).

علی بن المنذر:

أبو الحسن علی بن المنذر بن زید الأودی و یقال الأسدی الکوفی الطریقی المتوفی سنة 256.

خرج حدیثه الترمذی،و النسائی،و ابن ماجة،و هو من شیوخهم.و روی عنه الهیثم بن خلف،و أحمد بن الحسین و خلق کثیر ذکر منهم ابن حجر أکثر من عشرین من الحفاظ (5).

قال ابن أبی حاتم:سمعت منه مع أبی و هو صدوق ثقة سئل عنه أبی فقال:

محله الصدق.و قال النسائی شیعی محض ثقة.و قال ابن نمیر:هو ثقة صدوق و قال

1- (1) الجرح و التعدیل 3:200 ق 1 و تهذیب التهذیب 7:371. [1]

2- (2) تاریخ بغداد 12:46. [2]

3- (3) انظر الجرح و التعدیل 3:201 ق 1.

4- (4) التقریب 2:42

5- (5) تهذیب التهذیب 7:386. [3]

ابن ماجة سمعت على بن المنذر يقول،حججت ثمانيا و خمسين حجة أكثرها راجلا و قال ابن قاسم كان يتشيع (1).

على بن هاشم:

أبو الحسن على بن هاشم بن البريد العائدى الكوفى الخزاز المتوفى سنة 181.

خرج حديثه مسلم و الأربعة،و البخارى فى الأدب المفرد،و روى عنه أحمد بن حنبل و ابن معين،و أبو معاوية،و أبو بكر بن أبى شيبة و غيرهم.

قال ابن حجر:على بن هاشم صدوق يتشيع.و قال على بن المدينى كان صدوقا و كان يتشيع.و قال الجوزجانى:هاشم بن البريد و ابنه على بن هاشم غاليان فى سوء مذهبهما.يعنى انهما شيعيان حسب تعبير الجوزجانى.

قال أبو حاتم:و كان على يتشيع و يكتب حديثه،و قال أبو داود:على من أهل بيت يتشيع (2).

عطية بن سعد:

أبو الحسن عطية بن سعد بن جنادة العوفى الجدلى المتوفى سنة 111.

خرج حديثه أبو داود،و الترمذى،و ابن ماجة،و روى عنه ابناه الحسن و عمر، و الأعمش،و الحجاج بن أرطاة،و آخرون. وثقه ابن سعد و قال ابن معين:صالح الحديث.و قال أبو داود:ليس بالذى يعتمد عليه.قال أبو بكر البزار كان يعده فى التشيع.و قال الساجى:ليس بحجة و كان يقدم عليا على الكل و لهذا قال الجوزجانى:

مائل.

و قد امتحن عطية فى حبه لعلى عليه السّلام فإن الحجاج كتب إلى محمد بن القاسم الثقفى:أن ادع عطية فإن لعن على بن أبى طالب و إلا فاضربه أربعمائة سوط،و احلق رأسه و لحيته،فلم يفعل عطية فضربه أربعمائة سوط (3)

1- (1) نفس المصدر و ميزان الاعتدال 2:239.

2- (2) ترجمته فى تاريخ بغداد 12:116 و [1]الجرح و التعديل 3:175 ق 1 و تهذيب التهذيب 7:392 و [2]تقريب التهذيب 1:45 و غيرها.

3- (3) انظر طبقات ابن سعد 6:304 و [3]شذرات الذهب 1:144. [4]

عمار بن زريق:

أبو الأحوص عمار بن زريق الضبى التميمى الكوفى المتوفى سنة 159.

خرج حديثه مسلم،و أبو داود،و النسائى،و ابن ماجة،و روى عنه:سلام بن سليم الكوفى و أبو أحمد الزبيرى،و زيد بن الحباب،و يحيى بن آدم و معاوية بن هشام و غيرهم.

وثقه ابن معين و أبو زرعة،و ابن المدينى،و ذكره ابن حبان فى الثقات و قال أبو حاتم:لا بأس به (1)قال الذهبى:عمار ثقة ما رأيت فيه تليينا إلا قول السليمانى إنه من الرافضة فاللّه أعلم بصحة ذلك.

أقول لم يجد الذهبى طعنا فى عمار من أحد إلا من السليمانى فإن نسبته إلى الرفض.و التشيع و الرفض شىء واحد فى أكثر الموارد عندهم،و هذه النسبة من السليمانى غير بعيدة عن عمار فإن عمار بن زريق كان من تلامذة الإمام الصادق عليه السّلام (2).

عمرو بن حماد:

أبو محمد عمرو بن حماد بن طلحة القناد الكوفى المتوفى سنة 222.

خرج حديثه مسلم،و أبو داود،و النسائى،و ابن ماجة،و روى عنه عبد اللّه بن محمد السندى،و سليمان بن عبد الرحمن الصلحى،و جعفر بن محمد الدهلى و أحمد بن عثمان بن حكيم،و إبراهيم الجوزجانى و إسحاق بن راهويه،و أبو حاتم و غيرهم (3).

و ثقة ابن معين،و ابن سعد،و ذكره ابن حبان فى الثقات،و قال ابن أبى حاتم:

صدوق كان من الرافضة ذكر عثمان بشىء فهرب.و قال ابن حجر:صدوق رمى بالرفض.

1- (1) تهذيب التهذيب 7:400. [1]

2- (2) انظر منهج المقال 343 و رجال الشيخ الطوسى 250.

3- (3) انظر تهذيب التهذيب 8:22 و [2]الخلاصة 344 و الجرح و التعديل 3:228 و التقريب 2:68.

عمرو بن ثابت:

أبو محمد عمرو بن ثابت بن هرمز البكرى المعروف بعمرو بن أبى المقدام المتوفى سنة 172.

خرج حديثه أبو داود و ابن ماجة فى التفسير و روى عنه أبو داود الطيالسى، و عيسى بن موسى،و يحيى بن بكير،و يحيى بن آدم،و عبد اللّه بن صالح العجلى، و موسى بن داود الضبى و آخرون.و هو من تلامذة الإمام الصادق عليه السّلام.

قال أبو داود:هو رافضى خبيث و كان رجل سوء و لكنه كان صدوقا.و قال ابن سعد:كان متشيعا مفرطا (1)،و قال ابن حجر:عمرو بن ثابت و هو ابن أبى المقدام، رمى بالرفض.

و قد كثرت حملة البعض عليه لأنهم يقولون:إنه ينال من عثمان،و يقدم عليا على الشيخين.

عمارة بن جوين:

أبو هارون عمارة بن جوين العبدى البصرى المتوفى سنة 134.

خرج حديثه الترمذى،و ابن ماجة،و البخارى تعليقا.و روى عنه عبد اللّه بن عون،و عبد اللّه بن شوذب،و الثورى،و الحمادان،و الحكم بن عبده،و خالد بن دينار،و جعفر بن سليمان،و صالح المرى و نوح بن قيس،و هيثم و على بن عاصم (2).

قال ابن حجر:عمارة بن جوين أبو هارون العبدى مشهور بكنيته متروك و منهم من كذبه (3)و قد أوضح ابن عبد البر أسباب تكذيبهم لعمارة بقوله:و قد تحامل بعضهم فنسبه إلى الكذب روى ذلك عن حماد بن زيد و كان فيه تشيع و أهل البصرة يفرطون فيمن يتشيع بين أظهرهم لأنهم عثمانيون.

1- (1) تهذيب التهذيب 8:9 [1] التقريب 2:66.

2- (2) تهذيب التهذيب 7:412. [2]

3- (3) تقريب التهذيب 2:49.

عمار بن معاوية:

أبو معاوية عمار بن معاوية البجلى الكوفى المتوفى سنة 133.

خرج حديثه مسلم و الأربعة،و روى عنه ابنه معاوية،و شعبة و السفيانان و إسرائيل،و عبيدة بن حميد،و زهير بن معاوية،و عتبة بن سعيد قاضى الرى و أبو صخر حميد بن زياد و غيرهم (1).

وثقه أحمد بن حنبل و ابن معين و أبو حاتم.و قال ابن حجر:صدوق يتشيع (2).و كان عمار من تلامذة الإمام الباقر عليه السّلام و ولده الإمام الصادق عليه السّلام و قد عذب لتشيعه.نقل ابن المدينى عن سفيان أن عمارا قطع بشر بن مروان عرقويه فى التشيع.

الفضل بن دكين:

أبو نعيم الفضل بن دكين-و هو عمر بن حماد و لقبه دكين-بن زهير التيمى المتوفى سنة 118،119.

خرج حديثه البخارى،و مسلم،و الأربعة و هو من كبار شيوخ البخارى و أحمد بن حنبل روى عنه جماعة من الحفاظ ذكر منهم ابن حجر أكثر من أربعين و ذكر الخطيب (3)منهم أكثر من عشرين كلهم من كبار المحدثين و الحفاظ.

و كان أبو نعيم من رجال الشيعة و علماء الأمة و أعلام المحدثين و هو غاية فى الإتقان و الحفظ و قال الذهبى:الفضل بن دكين حافظ حجة إلا أنه يتشيع (4)و قال أحمد بن حنبل:أبو نعيم صدوق ثقة موضع للحجة.و قال:إذا مات أبو نعيم صار كتّابه إماما إذا اختلف الناس فى شىء فزعوا إليه (5)و قال ابن حجر:الفضل بن دكين أبو نعيم الكوفى أحد الاثبات قرنه أحمد فى التثبت بعبد الرحمن بن مهدى إلا أن بعض الناس تكلم فيه بسبب التشيع و مع ذلک فقد صح عنه أنه قال:ما كتبت على

1- (1) الجرح و التعديل 3:390 ق 1.

2- (2) تهذيب التهذيب 7:306. [1]

3- (3) انظر تهذيب التهذيب 8:370 و [2]تاريخ بغداد 12:346. [3]

4- (4) ميزان الاعتدال 2:326.

5- (5) تهذيب التهذيب 6:320. [4]

الحفظة أنى سببت معاوية احتج به الجماعة (1)و قال أيضا:الفضل بن دكين رمى بالتشيع (2).

و إن تشيع أبى نعيم لم يكن لسبه معاوية بل كان شيعيا واقعا و قد اشتهر عنه ذلک و عرف به مع شدة تكتمه.

لما قدم بغداد فنزل الرميلة و نصب له كرسى عظيم فجلس عليه ليحدث فقام إليه رجل فقال:يا أبا نعيم أ تتشيع؟فصرف وجهه عنه و تمثل:

و مال زال بى حبک حتى كأننى برجع جواب السائلى عنک أعجم

لأسلم من قول الوشاة و تسلمى سلمت و هل حى من الناس يسلم

فلم يفقه الرجل مراده،فعاد سائلا فقال:يا أبا نعيم أ تتشيع؟ فقال أبو نعيم:يا هذا كيف بليت بک؟؟و أى ريح هبت إلى منک.سمعت الحسن بن صالح يقول:سمعت جعفر بن محمد يقول:حب على عبادة و أفضل العبادة ما كتم (3).

و حدث الخطيب:أن أبا نعيم جاءه ولده يبكى فقال:مالک؟فقال الولد:الناس يقولون أنک تتشيع (4).

و هنا يتضح لنا ما بلغت إليه الحالة من الخطر على من يعرف بالتشيع لأن التشيع كان طريقا للمحنة و شدة الابتلاء من مجتمع غذته روح السياسة ببغض أهل البيت حتى أصبح حبهم من أعظم الأخطار،و النفوس تبتعد عن الخطر و تسعى لحب السلامة، إلا من امتحن اللّه قلبه بالإيمان.

و قد ضويق أبو نعيم فأعلن بأنه:ما كتبت عليه الحفظة أنه سب معاوية.و هو صادق فى ذلک.

و لأبى نعيم حفيد هو من كبار علماء الشيعة و مصنفيهم و هو:أحمد بن ميثم بن أبى نعيم قال الشيخ الطوسى كان من ثقات أصحابنا و فقهائهم و له مصنفات منها:

1- (1) هدى السارى:434.

2- (2) هدى السارى:461.

3- (3) تاريخ بغداد للخطيب 12:351. [1]

4- (4) نفس المصدر.

كتّاب الدلائل،و كتّاب المتعة،و كتّاب النوادر و كتّاب الملاحم،و كتّاب الشراء و البيع.

فضيل بن مرزوق:

أبو عبد الرحمن فضيل بن مرزوق الرقاشى الكوفى المتوفى سنة 160.

خرج حديثه مسلم و الأربعة و البخارى فى رفع اليدين و روى عنه سفيان الثورى و يحيى بن آدم،و يزيد بن هارون،و قبيصة و عبد اللّه بن صالح بن مسلم و الحسن بن عطية،و على بن الجعد و غيرهم و هو من تلامذة الإمام الصادق عليه السّلام.

وثقه الثورى و أبو حاتم و ابن معين و قال:إنه شديد التشيع (1).

و قال ابن حجر:فضيل بن مرزوق رمى بالتشيع (2)و قال الهيثم:كان من أئمة الهدى زهدا و فضلا.و قال العجلى:كان فيه تشيع (3).

فطر بن خليفة:

أبو بكر فطر بن خليفة الحناط المخزومى المتوفى سنة 150.

خرج حديثه البخارى و الأربعة و روى عنه سعيد القطان و وكيع،و أبو نعيم و عبيد اللّه بن موسى و مصعب بن المقدام و غيرهم.قال ابن حجر: وثقه أحمد، و الدار قطنى،و ابن معين و النسائى و قال العجلى:كان فيه تشيع (4)و قال الجوزجانى:

إنه زائغ غير ثقة.و قال ابن حجر:صدوق رمى بالتشيع (5)و كان فطر من رواة حديث الإمام الباقر و ولده الإمام الصادق عليه السّلام.

عبد الملك بن مسلم:

أبو سلام عبد الملك بن مسلم بن سلام الحنفى الكوفى.

خرج حديثه الترمذى و النسائى و روى عنه الثورى و هو من أقرانه و عبد

1- (1) الجرح و التعديل 3:75 ق 2.

2- (2) التقريب 2:113.

3- (3) تهذيب التهذيب 8:299. [1]

4- (4) هدى السارى:434.

5- (5) تقريب التهذيب.

الرحمن بن المحاربی،و وکیع،و أبو قتیبة،و علی بن نصر الجهضمی و زید بن هارون و عبد اللّه بن موسی و أبو نعیم النظر الرقاشی،و علی بن نصر و غیرهم (1).

قال ابن أبی حاتم سمعت أبی یقول:لا بأس به.و کذلک قال أبو داود و قال ابن معین ثقة و قال ابن خراش:لیس به بأس کان من الشیعة و ذکره ابن حبان فی الثقات و قال روی عنه ابن المبارک (2).

محمد بن عبد اللّه:

أبو أحمد محمد بن عبد اللّه بن الزبیر بن عمر بن درهم المعروف بالزبیری المتوفی سنة 203.

خرج حدیثه البخاری،و مسلم،و الترمذی،و الباقون.و روی عنه محمود بن غیلان،و أحمد بن الفرات،و محمد بن رافع،و محمد بن عبد اللّه بن نمیر و ابنا أبی شیبة،و عمر الناقد،و نصر بن علی،و القواریری،و غیرهم (3).

و هو من کبار شیوخ أحمد بن حنبل قال ابن حجر:محمد بن عبد اللّه الزبیری أحد الاثبات المشهورین من شیوخ أحمد بن حنبل (4)و وثقه ابن نمیر و ابن معین و قال العجلی ثقة یتشیع.و قال بندار ما رأیت أحفظ منه (5)و قد ذکر ابن حجر القول فی تشیعه عند ذکره لشیوخ البخاری و کذلک ابن الأثیر فی تهذیب الأنساب (6).

محمد بن جحاده:

محمد بن جحادة الأودی الأیامی الکوفی المتوفی سنة 131.

خرج حدیثه البخاری،و مسلم،و الترمذی،و أبو داود،و النسائی و ابن ماجة و روی عنه ابنه إسماعیل،و شعبة،و إسرائیل،و همام،و عمران القطان و السفیانان و زهیر بن معاویة و شریک و غیرهم.

1- (1) الجرح و التعدیل 2:368 ق 2 و تهذیب التهذیب 7:424. [1]

2- (2) تهذیب التهذیب 7:425. [2]

3- (3) انظر الجرح و التعدیل 3:297 ق 2.

4- (4) هدی الساری 439.

5- (5) تذکرة الحفاظ-325.

6- (6) اللباب فی تهذیب الأنساب 1:496. [3]

و قال أحمد بن حنبل: جحادة من الثقات. و وثقه النسائی، و العجلی و ابن أبی شیبة، و قال یعقوب بن أبی سفیان، قال أبو عوانة: کان یغلو فی التشیع (1).

و قال ابن حجر فی هدی الساری: محمد بن جحادة الکوفی رمی بالتشیع.

محمد بن فضیل:

أبو عبد الرحمن محمد بن فضیل بن غزوان بن جریر الضبی المتوفی سنة 195.

خرج حدیثه البخاری، و مسلم و الترمذی و الباقون، و هو من شیوخ أحمد بن حنبل و إسحاق بن راهویه، و روی عنه الثوری- و هو أکبر منه-، و أحمد بن أشکاب الصفار، و أبو خیثمة و غیرهم من الحفاظ ذکر منهم ابن حجر فی تهذیب التهذیب أکثر من ثلاثین کلهم من رجال الصحاح.

قال أحمد بن حنبل: محمد بن فضیل کان شیعیا حسن الحدیث. و قال أبو زرعة: صدوق من أهل العلم لا بأس به (2). و قال فی المغنی: محمد بن فضیل ثقة مشهور لکنه یتشیع.

و قال ابن سعد: محمد بن فضیل کان ثقة صدوقا کثیر الحدیث و بعضهم لا یحتج به. و قد رد ابن حجر علی ابن سعد بقوله: إنه احتج به الجماعة (3).

و کان محمد بن فضیل من تلامذة الإمام الصادق علیه السّلام و رواة حدیثه و کان أبوه فضیل بن غزوان من الحفاظ و رجال الصحاح خرج حدیثه البخاری و مسلم و الأربعة و کذلک جده غزوان من رجال أبی داود خرج حدیثه و روی عنه جماعة.

محمد بن موسی:

أبو عبد اللّه محمد بن موسی الفطری المدنی.

خرج حدیثه مسلم و الأربعة و روی عنه ابن أبی فدیک و قتیبة، و ابن مهدی، و أبو عامر العقدی، و أبو المطرف و غیرهم.

1- (1) انظر تهذیب التهذیب 8:92. [1]

2- (2) هدی الساری 423-441.

3- (3) انظر تهذیب التهذیب 9:406 و [2]الجرح و التعدیل 4:82 ق 1 و الخلاصة 394.

قال أبو حاتم صدوق يتشيع،و وثقه الترمذى،و أحمد بن صالح و ذكره ابن حبان و ابن شاهين فى الثقات (1)و قال ابن حجر:محمد بن موسى الفطرى-بكسر الفاء و سكون الطاء-المدنى صدوق رمى بالتشيع (2).

مالک بن إسماعيل:

أبو غسان مالک بن إسماعيل الكوفى المتوفى سنة 217.

خرج حديثه مسلم،و البخارى،و أبو داود،و الترمذى و النسائى و ابن ماجة و روى عنه البخارى و هو من كبار شيوخه (3)و أبو حاتم و أبو زرعة و خلق كثير.قال ابن معين ليس بالكوفة أتقن من أبى غسان.و قال أبو حاتم:كان أبو غسان يملى علينا من أصله،و لا يملى حديثا حتى يقرأه و لم أر بالكوفة أتقن من أبى غسان لا أبو نعيم و لا غيره و أبو غسان أوثق من أبى إسحاق منصور السلولى و هو متقن ثقة،و كان له فضل و صلاح و عبادة،و صحة حديث و استقامة،و كانت عليه سجادتان،كنت إذا نظرت إليه كأنه خرج من قبر (4)و قال ابن ناصر الدين:مالک بن إسماعيل النهدى مولاهم الكوفى ثقة متقن ذو فضل و أمانة،و عبادة و استقامة على تشيع فيه.و قال أبو داود:

مالک بن إسماعيل كان شديد التشيع (5).و قال ابن حجر:مالک بن إسماعيل:من كبار شيوخ البخارى مجمع على ثقته ذكره ابن عدى فى الكامل من أجل قول الجوزجانى إنه كان خبيثا يعنى شيعيا و قد احتج به الأئمة (6).

مخول بن راشد:

أبو راشد مخول-على وزن محمد-النهدى المتوفى سنة 141.

خرج حديثه البخارى و مسلم و الترمذى و النسائى و ابن ماجة.و روى عنه سفيان الثورى و شعبة،و شريک و غيرهم و هو من تلامذة الإمام الباقر عليه السّلام.

1- (1) تهذيب التهذيب 9:480. [1]

2- (2) التقريب 2:211.

3- (3) هدى السارى 442.

4- (4) الجرح و التعديل 4:407 ق 1.

5- (5) شذرات الذهب 2:46.

6- (6) هدى السارى 442.

قال ابن حجر أبو راشد النهدى ثقة نسب إلى التشيع (1). وثقه ابن معين و ابن سعد و قال أحمد ما علمت إلا خيرا و سئل عنه أبو حاتم فقال يكتب حديثه (2).

منصور بن المعتمر:

أبو عتاب منصور بن المعتمر السلمى أحد الحفاظ الكوفى المتوفى سنة 132.

خرج حديثه البخارى و مسلم و الأربعة و روى عنه سليمان التيمى،و أبو أيوب و حجاج بن دينار و إسرائيل و زائدة،و حماد بن زيد و غيرهم.

و قال عبد الرحمن بن المهدى:أربعة بالكوفة لا يختلف أحد فى حديثهم،فمن اختلف عليهم فهو يخطئ منهم منصور بن المعتمر و لم يكن بالكوفة أحفظ من منصور (3).و قال ابن العماد:منصور بن المعتمر الحافظ أحد الأعلام و كان أحفظ أهل الكوفة،صام أربعين سنة و قامها و عمى من البكاء.قال فى العبر:يقال فيه يسير تشيع (4).و قد نص ابن قتيبة على تشيعه،و كذلك الجوزجانى،و قال العجلى:و فيه تشيع قليل (5).

منصور الليثى:

منصور بن أبى الأسود الليثى-و يقال اسم أبيه حازم-الكوفى.

خرج حديثه أبو داود و الترمذى و النسائى و روى عنه عبد الرحمن بن مهدى، و أبو نعيم،و أبو غسان،و محمد بن الصلت و أبو الربيع الزهرانى و معن بن عيسى القزاز و غيرهم و هو من تلامذة الإمام الصادق عليه السّلام.

قال يحيى بن معين:منصور بن أبى الأسود ثقة شيعى (6).و قال الخزرجى:

منصور وثقه ابن معين و رماه بالتشيع.و قال ابن حجر:صدوق رمى بالتشيع (7)

1- (1) التقريب 2:336.

2- (2) الجرح و التعديل 4:398 ق 1.

3- (3) الجرح و التعديل 4:177.

4- (4) شذرات الذهب 1:189. [1]

5- (5) تذكرة الحفاظ 1:135.

6- (6) الجرح و التعديل 4:170 ق 1.

7- (7) التقريب 2:572.

نوح بن قيس:

أبو روح نوح بن قيس بن رباح الأزدى البصرى المتوفى سنة 184.

خرج حديثه مسلم و أبو داود و الترمذى و ابن ماجة و النسائى و روى عنه عفان بن مسلم و مسلم بن إبراهيم،و موسى بن إسماعيل و نصر بن على و مسدد و غيرهم.

قال الخرزجى:نوح بن قيس روى عنه سعيد بن منصور و طائفة.وثقه ابن معين و قال أبو داود ثقة و كان يتشيع (1)و قال ابن حجر:نوح بن قيس أخو خالد صدوق رمى بالتشيع (2)و وثقه أحمد بن حنبل و يحيى بن معين (3).

يعقوب بن سفيان:

يعقوب بن سفيان بن حران الفارسى أو الفسوى المتوفى سنة 277.

خرج حديثه النسائى و ابن ماجة،و روى عنه أبو بكر بن داود،و الحسن بن سفيان،و ابن خراش،و ابن خزيمة،و أبو عوانة الأسفراييني و غيرهم.

قال الحاكم النيسابورى:يعقوب بن سفيان الفارسى هو إمام أهل الحديث بفارس،قدم نيسابور،و سمع منه مشايخنا و قد نسبه بعضهم إلى التشيع.و قال ابن الأثير فى تاريخه فى حوادث سنة 277 و فيها مات يعقوب بن سفيان الفسوى و كان يتشيع.و قال ابن كثير:و بلغ يعقوب بن الليث صاحب فارس عنه أنه يتكلم فى عثمان فأمر بإحضاره فقال له وزيره:أيها الأمير إنه لا يتكلم فى شيخنا عثمان بن عفان السنجرى و إنما يتكلم فى عثمان الصحابى فقال الأمير دعوه ما لنا و للصحابى إنما حسبته يتكلم فى عثمان السنجرى (4).

يزيد بن أبى زياد:

أبو عبد اللّه يزيد بن أبى زياد القرشى الكوفى المتوفى سنة 137.

خرج حديثه مسلم و الأربعة و روى عنه إسماعيل بن خالد و شعبة و أبو عوانة

1- (1) الخلاصة 347.

2- (2) التقريب 1:308.

3- (3) الجرح و التعديل 4:483 ق 1.

4- (4) البداية و النهاية 11:59. [1]

و غیرهم قال ابن فضیل:کان من کبار الشیعة و قال ابن عدی یکتب حدیثه و قال الذهبی صدوق ردیء الحفظ (1).

یحیی بن عثمان:

أبو زکریا یحیی بن عثمان بن صالح المصری السهمی المتوفی سنة 228.

خرج حدیثه ابن ماجة و روی عنه أبو غسان و موسی بن إسماعیل و مسلم بن إبراهیم و غیرهم.قال ابن أبی حاتم کتبت عنه و کتب عنه أبی و تکلموا فیه (2).قال ابن حجر صدوق رمی بالتشیع.

یحیی بن عیسی:

یحیی بن عیسی التمیمی الکوفی نزیل الرملة المتوفی سنة 201.

خرج حدیثه مسلم و أبو داود و الترمذی و ابن ماجة و البخاری فی الأدب المفرد و روی عنه ابنا أبی شیبة و مهدی بن جعفر الرملی و سعید بن أسد و غیرهم.وثقه العجلی و أحسن الثناء علیه أحمد بن حنبل و قال ابن حجر صدوق یتشیع (3)

یونس بن خباب:

أبو حمزة بن خباب الأسدی و یقال أبو الجهم الکوفی.

خرج حدیثه الترمذی و أبو داود و النسائی و ابن ماجة و البخاری فی الأدب المفرد و روی عنه ابنه محمد و منصور بن المعتمر و أبو الزبیر و هما من أقرانه و حماد بن زید و معتمر بن سلیمان و غیرهم.حدث عنه سفیان الثوری.قال الساجی تکلموا فیه من جهة رأیه السوء و وثقه ابن معین و ابن أبی شیبة.و قال الدار قطنی:رجل سوء فیه شیعیة مفرطة و قال العجلی:شیعی غال و قال الجوزجانی کذاب مفتر و قال أبو داود لیس فی حدیثه نکارة إلا أنه زاد فی حدیثه عذاب القبر و علی علیه السّلام ولی (4)و ذکره الشیخ الطوسی فی رجال الباقر علیه السّلام.

1- (1) تهذیب التهذیب 11:330 و [1]الخلاصة 371.

2- (2) الجرح و التعدیل 4:175 ق 2.

3- (3) الجرح و التعدیل 4:178 ق 2 و تقریب 2:355.

4- (4) تهذیب التهذیب 11:438. [2]

يونس بن أبى يعفور:

يونس بن أبى يعفور العبدى الكوفى.خرج حديثه مسلم فى صحيحه و ابن ماجة و روى عنه محمد بن سعيد الأصبهانى و عثمان بن أبى شيبة و سعد بن منصور و جماعة قال أبو حاتم صدوق و وثقه الدار قطنى و قال العجلى لا بأس به و قال الساجى فيه ضعف و كان ممن يفرط فى التشيع (1).

و لضيق المجال نقف عند هذا الحد من ذكر حملة الحديث و أعلام الأمة من رجال الصحاح،الذين عرفوا بتشيعهم لأهل البيت عليهم السّلام و أكثرهم كانوا من خريجى مدرسة الإمام الصادق عليه السّلام.

و نود أن نوضح هنا:أولا-بأنا قد اقتصرنا على ذكر بعض رجال القرن الثانى، و الثالث،و لم نتعرض للتابعين إلا- من يتعلق لنا غرض بذكره،لأن ذكر التابعين من الشيعة الذين حملوا تراث الإسلام،فأصبحوا أعلاما يهتدى بهم،و مرجعا يرحل إليهم،يدعو لوضع كتّاب خاص فيهم.

كما أننا لم نتعرض لذكر أعلام الإسلام من أهل البيت عليهم السّلام و هم زعماء الشيعة،و أعيان الأمة،و لهم المكانة و الأثر العظيم فى التشريع الإسلامى و أحاديثهم مشهورة خرجها أصحاب الصحاح و غيرهم.و لضيق المجال تركنا ذلك.

ثانيا:إننا لم نستوعب جميع الرواة من رجال الشيعة فى الصحاح فلم نذكر الكثير منهم:أمثال:على بن صالح الهمدانى المتوفى سنة 151 و هشام بن سعد المدنى المتوفى سنة 160 و هارون بن سعيد العجلى المتوفى سنة 151 و على بن عاصم الواسطى المتوفى سنة 201 و عمر بن عبد اللّه أبو إسحاق السبيعى الهمدانى المتوفى سنة 127 و معاوية بن عمار الدهنى المتوفى سنة 175 و موسى بن قيس الحضرمى،و هانى بن هانى الهمدانى.

كذلك نفيع بن الحارث و محمد بن السائب بن بشر الكلبى النسابة المتوفى سنة 146 و غالب بن الهذيل الكوفى،و غيرهم ممن تعمدنا تركهم لضيق المجال.

1- (1) تهذيب التهذيب 11:428. [1]

كما أن هناک جماعة من الحفاظ قد نسبوهم إلى التشيع و لكننا لم نتعرض لذكرهم لأنا لا نأخذ بمطلق النسبة و من هؤلاء الحفاظ:

محمد بن إدريس الرازى المعروف بأبى حاتم المتوفى سنة 277 و كذلک ولده شيخ الإسلام عبد الرحمن صاحب الجرح و التعديل المتوفى سنة 337 و هو أشهر من أبيه فى نسبة التشيع (1)و كذلک الحافظ على بن عمر بن أحمد الدار قطنى المتوفى سنة 376 (2)و أبو عروبة محدث حران المتوفى سنة 317 (3).و غير هؤلاء من حفاظ الحديث ممن قالوا عنهم بأنهم شيعة و لكننا لا نأخذ بمجرد القول فى ذلک.نعم كان ابن أبى حاتم يتهم بالميل للإسماعيلية و قد ذكروه فى كتبهم و انه من فلاسفتهم و كبار علمائهم و لهذا نسبوه للتشيع لأن فرقة الإسماعيلية تعد من فرق الشيعة و إن خرجت عن تعاليمهم و تنكرت لمبادئهم.

و لا بد لنا من القول هنا:بأن هذا العرض لرجال الصحاح من الشيعة لم يكن على سبيل الحصر للموضوع،و إنما كان من باب إقامة الحجة على من يدعى أو يحكم على الشيعة بأنهم لا أثر لهم فى الحياة العلمية،أو أنهم صفر الأكف من تراث الإسلام،أو أن أبناء السنة لا يروون عن الشيعة إلى غير ذلک من تلک الادعاءات الكاذبة،و الأقوال الفارغة،كما رأينا قريبا من تهجم الأستاذ الذهبى،و وصفه للشيعة بما يتنافى مع الحقيقة،و قد استدل بأسطورة الجاحظ مما لا فائدة فى إعادة القول فى ذلک،و هو بهذا قد ظلم العلم حقه،و حجب عن العقل نوره.

و قد رأينا فيما قدمناه من الحديث عن رجال الصحاح من الشيعة بأنهم حملة علم،و حفاظ حديث،و منهم من كان من كبار شيوخ البخارى،و مسلم،و الشافعى، و أحمد بن حنبل و غيرهم من حفاظ الحديث،و أعلام الأمة كسفيان الثورى،و ابن عيينة،و عبد الرحمن بن المهدى،و ابن معين و القطان،و ابن المدينى،و أبو زرعة، و أبو حاتم،و آخرون كما تقدم بيانه ممن أخذوا عن رجال الشيعة،و احتجوا بهم.

و لا يفوتنى أن أشير إلى وجود جماعات من الحفاظ و أعلام الأمة من الشيعة لم تكن لهم رواية فى الصحاح لتأخرهم فى الزمن،و منهم:

1- (1) تهذيب التهذيب 8:34. [1]

2- (2) تذكرة الحفاظ 3:186.

3- (3) تذكرة الحفاظ 3:94.

الحافظ المسند أحمد بن محمد بن السرى محدث الكوفة المتوفى سنة 351 سمع منه جماعة من الحفاظ كالحاكم،و ابن مردويه،و أبو بكر الحيرى (1).

و الحافظ أحمد بن محمد بن عمران بن موسى بن عروة المتوفى سنة 396 المعروف بابن الجندى أخذ عنه جماعة من المحدثين،كالحسين بن محمد الخلال و محمد بن على بن مخلد الوراق،و البرذعى،و العتيقى.و عدة غيرهم قال العتيقى:

كان يرمى بالتشيع و له أصول حسان (2).

و الحافظ أبو العباس أحمد بن محمد بن سعيد المعروف بابن عقدة المتوفى سنة 332 فقد كان إليه المنتهى فى قوة الحفظ،و كثرة الحديث،و صنف و جمع و ألّف فى الأبواب و التراجم (3)و كان يحفظ مائة ألف حديث باسنادها و يذاكر بثلاثمائة ألف حديث و يجيب بثلاثمائة ألف حديث من حديث أهل البيت و بنى هاشم،و لم ير بالكوفة من زمن ابن مسعود إلى زمنه أحفظ منه (4)و هو الذى جمع من تلامذة الإمام الصادق عليه السّلام أربعة آلاف من ثقاتهم.

و الحافظ المحدث محمد بن إبراهيم بن حبون المتوفى سنة 305.

محدث الأندلس و لم يكن فيها قبله أبصر بالحديث منه،حدث عنه جماعة:

منهم قاسم بن أصبغ،و أحمد بن سعيد بن حزم،و خالد بن سعد.

رحل إلى العراق و الحجاز و اليمن قال الذهبى:و كان من كبار عصره لكنه فيه تشيع.قال خالد بن سعد:لو كان الصدق إنسانا لكان بن حبون (5).

و قال ابن العماد:محمد بن إبراهيم بن حبون الأندلسى الحجازى أبو عبد اللّه ثقة صدوق (6)

1- (1) تذكرة الحفاظ 3:94.

2- (2) تاريخ بغداد 5:77. [1]

3- (3) تذكرة الحفاظ 3:55.

4- (4) شذرات الذهب 3:94. [2]

5- (5) تذكرة الحفاظ 3:4.

6- (6) شذرات الذهب 3:246. [3]

و الحسن بن أحمد بن صالح الهمدانی السبیعی الحلبی المتوفی سنة 371.

روی عنه الدار قطنی،و عبد الغنی الأزدی،و أبو طالب بن بکیر و الشیخ المفید محمد بن النعمان و غیرهم.قال ابن أسامة الحلبی:لو لم یکن للحلبیین من الفضیلة إلا الحسن بن أحمد السبیعی لکفاهم.و کان وجیها عند الملک سیف الدولة،و کان یزور السبیعی فی داره،و صنف له(کتّاب التبصرة فی فضل العترة المطهرة)و إلیه ینسب درب السبیعی الذی بحلب،قال الذهبی:هو من أئمة هذا الشأن علی تشیع فیه.وثقه أبو الفتح ابن أبی الفوارس (1).

و أحمد بن عبد اللّه بن جلینی المروزی البغدادی المتوفی سنة 379 روی عنه القاضی أبو القاسم التنوخی و کان مشهورا بالتشیع أو الرفض کما یقولون (2).

و الحافظ المتجول أبو محمد الفضل بن المسیب المعروف بالشعرانی المتوفی سنة 320،و روی عنه خزیمة و محمد بن المؤمل،و حفیده إسماعیل و غیرهم،و کان کثیر التجوال للإفادة و الاستفادة.قال ابن المؤمل:کنا نقول:ما بقی بلد لم یدخله الفضل الشعرانی فی طلب الحدیث إلا الأندلس.

و الحافظ عبد الرحمن بن یوسف المعروف بابن خراش المتوفی سنة 283 صاحب الجرح و التعدیل،قال أبو نعیم بن عدی:ما رأیت أحفظ منه و رحل فی طلب العلم ما بین مصر و خراسان،و لقی متاعب فی ذلک و قد حملوا علیه لأنه صنف جزءین فی المثالب،و کان ینفی صحة حدیث(ما ترکناه صدقة)و یحتج علی ذلک.

و غیر هؤلاء من رجال القرون المتأخرة،ممن کانت لهم مکانة علمیة و قد أفرد الشیعة عدة معاجم و فهارس،تتضمن تراجم أولئک الأعلام،و ما لهم من نشاط فی الحیاة الفکریة،و الصفات التی یتحلون بها.

و ما دمنا نحرص علی الاختصار فی الموضوع فلنکتف بما قدمناه علی سبیل المثال لا علی سبیل الحصر کما بینت ذلک.

1- (1) تذکرة الحفاظ 3:152.

2- (2) اللباب لابن الأثیر 1:234. [1]

و بعد هذا نقول:

إن ما قدمناه من تراجم أولئک الرجال من أعلام القرون الأولى،و أهل السبق فی تدوین الکتب،قبل أن یولد الجاحظ-یرینا أن فیما ذهب إلیه الأسفراییني و تبعه الأستاذ محمد حسین الذهبی و غیره محاولة مکشوفة لطمس مکانة رجال الشیعة،و ما لهم من أثر فی النهضة العلمیة.

و لیست محاولة الأستاذ الذهبی هی الأولی،فقد وقفنا علی کثیر من أمثالها ممن یحاولون التمویه علی عقول البسطاء فی تلک المغالطات،التی لا تقف أمام الأبحاث العلمیة،إذ لیس لأی کاتب یلتزم بشروط البحث،و یتجرد عن التحیز و التعصب،أن ینکر ما للشیعة من آثار دوّنها التاریخ،و هی مصادر تستقی منها الأجیال رغم الحملات الظالمة التی یشنها دعاة الفرقة من ذوی الآراء المنحرفة عن الواقع،خدمة لسلطة الاستبداد التی تحاول القضاء علی أبطال المعارضة من دعاة الحق.و قد لا حظنا ما انطوت علیه عبارات أهل الجرح و التعدیل من تناقض یفضح أسباب ما استسلمت له الأذهان و تقلدته الأفکار،فقد طبقوا قواعد علم الحدیث و أصول مصطلحاته و تحروا الطرق و وجدوا کتب الصحاح الستة ملیئة برجال الشیعة و لا یملکون إنکار صلة أئمة المذاهب الأربعة و تلقیهم عن علماء الشیعة فأرغمهم ذلک علی الإتیان بخصائص هؤلاء العلماء من الشیعة لکنهم أساءوا و لم یتمکنوا من التخلص من العقلیة الضیقة فألصقوا بهم الزیغ أو البدع.

نقول هذا و الواقع التاریخی یقرر ذلک،و قد تطرقنا للبحث حول مناهضة الشیعة لسلطان الأمویین و غیرهم انتصارا لأهل البیت،الذین وقفوا أمام تلک السلطات الجائرة،موقف البطولة،فبذلوا کل إمکانیاتهم فی سبیل إعلاء کلمة الإسلام.

کما تطرقنا فی کثیر من أبحاثنا لبیان خطر ذلک الانقسام،و ما تکمن من ورائه من أهداف یحاول أعداء الدین تحقیقها لنیل مأربهم.

و إن الواجب یدعو بأن نوحد صفوفنا،و نعمل بوحی من مبادئ دیننا،و نوجه شبابنا بتعالیم الإسلام،و إننا مسئولون أمام اللّه عن ذلک و إن فتح باب الخلافات، و توسیع شقة الفرقة یفسح المجال أمام أعداء الدین لتدخلهم فی صفوف المسلمین للعمل علی تصدیع وحدة الصف.

إن دعوتنا إلى وحدة الصف،و التحلى بمبادئ الإسلام التى تحقق التكافل الاجتماعى،هى من متطلبات ظروفنا الحاضرة فهى أخطر مرحلة يجتازها المسلمون اليوم،فعلينا أن نصغى لنداء الإسلام(و كونوا جميعا و لا تفرقوا)و لننزع من قلوبنا كل حقد،و نزيل كل ضغن،و نرفع عن طريقنا عقبات خلفتها أحقاد سالفة،و أهواء منحرفة،و بذلک نحقق مبادئ ديننا فى الإخاء و المحبة،و التعاون على البر و التقوى.

إننا اليوم فى مرحلة تتطلب منا أن ننظر إلى الواقع،و نلتزم بحدود البحث العلمى المتجرد من كل تحامل و تحيز،لنرتفع بأبحاثنا إلى المستوى الذى تتطلبه طلائع الجيل المسلم،فليس أضر على العلم،و لا أضيع للحق من الانقياد وراء العاطفة.

و أملنا فى الوصول إلى ما نطلبه ينعقد على حملة رسالة الفكر الإسلامى من ذوى الأقلام الحرة،و مربى جيلنا الحاضر،الذين يشعرون بمسئولية أمانة التاريخ، و تحمل أعبائها و مصاعبها.

و لا تصيبنا الخيبة،أو يعترينا الفشل عند ما نقف على بعض ما يكتبه أساتذة أساءوا لأمتهم،فى استذواقهم لما دبجته أقلام المستشرقين أو جمودهم على نقل عبارات سلف خضع لظروفه الخاصة،و بيئته المتفككة،فتخلى عن شروط البحث، و أصول التحقيق العلمى،فإن أملنا-و من اللّه نطلب تحقيق الآمال-بأن تزول غشاوة التمويه عن كثير من الحقائق،و أن يزول ذلک الركام عن طريق الوصول إلى الواقع، لتزول عوامل الخلافات،و تقلع جذور التفرقة،ليصبح المسلمون إخوانا كما أراد اللّه و رسوله،و دعا إليه المصلحون من هداة الأمة،و رجال الإصلاح.و من اللّه نسأل أن يوفق المسلمين لاتباع أوامر الدين و السير على هدى الرسول الأعظم و أن ينصرهم على أعدائهم-و ما النصر إلا من عند اللّه-إنه سميع مجيب و إلى اللقاء و اللّه ولى التوفيق.

المؤلف

المجلد 4

اشارة

عنوان و نام پدیدآور:الامام الصادق و المذاهب الاربعه / اسد حیدر

مشخصات نشر:دارالتعارف للمطبوعات - بیروت - لبنان- 1422

زبان: عربی

مشخصات ظاهری:4ج

موضوع:امام صادق علیه السلام

موضوع:مذاهب اربعه - اهل سنت

ص :1

ص :3

عنوان و نام پدیدآور:الامام الصادق و المذاهب الاربعه / اسد حیدر

مشخصات نشر:دارالتعارف للمطبوعات - بیروت - لبنان- 1422

زبان: عربی

مشخصات ظاهری:4ج

موضوع:امام صادق علیه السلام

موضوع:مذاهب اربعه - اهل سنت

ص :4

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وصلّى الله علىٰ سيد الأنبياء والمرسلين محمد بن عبد الله وعلىٰ آله الطيبين الطاهرين وصحبه المنتجبين ومن سار علىٰ هديهم إلى قيام يوم الدين.

أما بعد.. فقد وفقنا العلي القدير إلى طباعة الجزئين السابع والثامن من كتاب **الإمام الصادق والمذاهب الأربعة** الذي أبدعه يراع الأستاذ المرحوم العلامة المحقق أسد حيدر، بعد الإقبال الكبير الذي شهدته الأجزاء السابقة، وتهافت القراء عليه طلباً للحقيقة الكاملة، حيث ندر أن تناول كاتب واع هذا الموضوع بسعة وتجرّد، وثراء مادة ومصادر. مع الإصرار الشديد الذي بذله المؤلف رغم تدهور صحته في السنوات الأخيرة من عمره وغربته عن وطنه وضعف بصره ووهن جسده. لكن الإرادة الصلبة والرغبة في اتمام البحث دفعاه إلى تحرير هذا المجلد بجزئيه الحاضرين.

نتمنى للقارىء العزيز كمال الاستفادة منه، والانتهال من معينه، ونسأل المولى عز وجل أن يديم علينا منّه، ويوفقنا للاستمرار في نشر الكلمة السواء، التي فيها رضاه وصلاح الدارين لنا ولجميع المسلمين، إنه سميع مجيب. والحمد لله رب العالمين.

الناشر

الجزء السابع

اشارة

ص :6

بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

رَبَّنـا إِنَّنا سَـمِعْنا مُنادِياً يُنادِى لِلْإِيمانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنّا رَبَّنا فَاغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا وَ كَفِّرْ عَنّا سَـيِّئاتِنا وَ تَوَفَّنا مَعَ الْأَبْرارِ. رَبَّنا وَ آتِنا ما وَعَـدْتَنا عَلى رُسُلِکَ وَ لا تُخْزِنا يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّکَ لا تُخْلِفُ الْمِيعادَ [آل عمران:193 و 194]

ص:7

بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

و ما توفيقى إلا باللّه عليه توكلت و إليه أنيب

تقديم:

اشارة

كان تأخر صدور هذا الجزء من كتابنا(الإمام الصادق و المذاهب الأربعة)-و هو السابع-فترة انقطاع بيننا و بين القراء،لم تكن مقصودة و كنا ننوى أن يكون الجزء السابع نهاية البحث و خاتمة المطاف فى سفر كلّفنا ثمنا غاليا من الجهد و العناء،و قد خفف عنا ما لقيه من استجابة و إقبال لدى القراء،كم حاولت أن أتخطى عوائق العمل،و أذلل ما أواجه من صعاب لمواصلة و إكمال البحث فيه،ليخرج هذا الجزء إلى أيدى القراء قبل هذا الوقت،إلا أن العوائق تلك و الصعاب كانت تزداد اتساعا و تعقيدا،و ها أنا ذا أزاول نشاطى لإكمال السلسلة،فأتناول أهم الأبحاث المخصصة للحديث عن كل واحد من أئمة المذاهب الأربعة بإيجاز استكمالا لما سبق و استدراكا لأمور لم نذكرها،إذ لم نتعرض لها من قبل كمعرفة الأولاد و الأحفاد،و الوقوف على بعض الآثار و الآراء و أمور فكرية و فقهية أخرى مما يضيق بها حيز الجزء السابع فأتبعناه بثامن.

نرجو اللّه أن يكون به كمال الفائدة و نهاية القصد.و قد آثرت تأخير الحديث عن الإمام الصادق عليه السّلام لما يتطلبه ذلک من إفاضة فى بعض الأمور كالإشارة إلى أولاده و أحفاده الذين ورثوا مدرسته،و ما يتعلق بذلک من استطراد يقتضيه البحث فى الحديث عن الطائفة الإسماعيلية التى تنسب إلى إسماعيل ابن الإمام جعفر بن محمد الصادق،و ما يحيط حياته من ملابسات،و ما وقع فى ذلک من اختلاف.

و ألتزم هنا نهج البحث فی عوامل التعصب الطائفی و أسباب الخلاف المذهبی کمشکلة تاریخیة سببت الفرقة بین المسلمین و فککت وحدتهم و باعدت بینهم،و قد خصصت فی الأجزاء السابقة من الکتاب حیزا کبیرا لدراسة نتائج التعصب و عوامل قیامه،و أوضحت ما علق بفعل ذلک فی أذهان الناس من أمور تسیء إلی مفهوم الانتماء إلی المذاهب و غلبة نزعة العداء علی جوهر المبادئ،حتی أدی ظاهر الالتزام بها إلی الخروج عن میزان الشرع،و حدوث انعکاسات سلبیة علی المجتمع فأحدثت خللا فیه،إذ خرجت المنازعات عن حدود التوازن الفکری أو الخلاف الواعی، فتعددت حدود الاستقامة و الاعتدال-فی السلوک و التصرف-إلی الاعتقاد،حتی أصبح النص الوارد فی الکتاب(عند بعضهم)لا یعمل به إن خالفه رئیس المذهب الذی أصبحت أقواله سنة،و مخالفته بدعة،و عدم اتباعه کفرا،حتی قالوا أن الکتاب تنسخه مخالفة أقوال علماء المذهب،یقول الکرخی (1):«الأصل أن کل آیة تخالف قول أصحابنا فإنها محمولة علی النسخ،أو علی الترجیح و الأولی علی التأویل،من جهة التوفیق.الأصل أن کل خبر یجیء بخلاف قول أصحابنا فإنه یحمل علی النسخ،أو یحمل علی أنه معارض بمثله،ثم صار إلی دلیل آخر أو ترجیح فیه،بما یحتج به أصحابنا من وجوه الترجیح،أو یحمل علی التوفیق» (2).

و یبین لنا هذا النص مدی الارتباط بالمذهبیة و الالتزام بأقوال الأئمة حتی و إن خالفت الواقع،و یخضعون الکتاب لموافقة أقوالها،و إذا امتنع النص القرآنی فإنهم ینسخون و یعملون بما جاء عن أصحاب المذاهب«فهم مدفوعون وراء المذهبیة تعصبا،و یطرحون الدلیل و یؤوّلونه تأویلا بعیدا لا یتفق مع الحقیقة.فهذه هی المذهبیة التی یبغضها اللّه و رسوله» (3).

و لقد أدت شئون الحکم و مقتضیات السلطان إلی تبنی التمذهب و جعل الرئاسة فی الفقه من أعمدة السیاسة،فتأثر-تبعا لمواقف الملوک و الحکام،وجود و نشاط

1- (1) عبید اللّه بن الحسن أبو الحسن الکرخی.ولد سنة ستین و مائتین،و مات سنة أربعین و ثلاثمائة، انتهت إلیه رئاسة الحنفیة،کان من المجتهدین فی المسائل علی مذهب أبی حنیفة،و له المختصر و شرح الجامع الصغیر و شرح الجامع الکبیر.

2- (2) الدکتور مصطفی سعید الجن،نقلا عن أصول الکرخی،ص 84 القاهرة 1972.

3- (3) الدکتور مصطفی سعید الجن،أثر الأخلاق فی القواعد الأصولیة،ص 9.

و انتشار المذاهب إذ لم يجر الحكام على مذهب بعينه،و إنما يتقرر ذلک بحسب الظروف و الملابسات و عوامل النفوذ و الغلبة سيما و إن العالم الإسلامی بات مسرحا للقوة يشهد نتائج الغلبة على شكل دول و وزارات و جيوش.و لا بد أن يكون القضاء- و هو من أكثر الوظائف استقرارا لأصوله المعروفة و أهميته فی حياة الناس-من أوليات شئون السلطان التی تتسرب إليها موجات التمذهب،و تتطلع إليها الرغبات،فحصرت بعد زمن بالمذاهب الأربعة،و سارت الأمور على الاستعانة بما كان من مقتضيات السلطان فی الأساس،و هو تحديد المراتب الفقهية و المراجع فی أشخاص بأعيانهم.

يحكی عن أبی زرعة-تلميذ البلقينی-أنه سأل أستاذه عن المانع للشيخ تقی الدين السبكی عن الاجتهاد و هو جامع للشروط.فسكت البلقينی و لم يجب.فقال أبو زرعة:«فما عندی ان الامتناع عن ذلک ليس إلا للوظائف التی قدرت للفقهاء على المذاهب الأربعة،و إن من خرج عن ذلک و اجتهد لم ينل شيئا من ذلک،و حرم ولاية القضاء،و امتنع الناس عن استفتائه،و نسبت إليه البدعة.فتبسم و وافقنی على ذلک».

و امتد تأثير ذلک لينعكس على نهج التعامل مع وقائع التاريخ و روح المبادئ، فراح أغلب المؤرخين ينقادون للنزعة الطائفية المشبعة بالعصبية الإقليمية أو القبلية معتمدين على الخرافات و الادعاءات التی تؤجج نار الفرقة و تزيد الانقسام،لتطغی حدة الخلاف على الحقيقة،و تدفع الأمور فی مسار لا يخضع لمنطق و لا يأبه بالشواهد إرضاء لرغبة الحكام،و تزلفا لذوی السلطة،و بذلک عجّ التاريخ بما نجم عن تلک النزعات،فأصبح البحث عن الحقيقة و التوسل إلى استخلاص الواقع،أو استنباط الجوهر محاطا بعوائق و صعوبات،بعد أن أدى تقادم الزمن و استمرار القناعة بما صدر عن مصادر التعصب و جهات الانقسام،إلى أن تكتسب شكلا ثابتا يقف بوجه موجات الوعی التی تنمو بين شبابنا المسلم المتصف بروح العلم و الموضوعية.

لقد كان التحيّز فی طرح مواضيع لها أهميتها لتعلّقها بحياة المسلمين و تفاصيل وجودهم هوية الباحثين المرتبطين بالسلطة،و كانت نبرة الفرقة و دعوة الانقسام،بطاقة الدخول إلى عالم القصور و الرفاه السلطوی،و بذلک ارتكب هؤلاء جناية على أجيالنا إذ تنصلوا من مهمات الباحث و مسئولياته،و تخلوا عن أصول الأمانة فی نقل الأحداث و تصوير الظروف و العوامل،فساقوا الآراء دون تمحيص أو تقدير لمرحلة أو وضع تاريخی معين.و أنّی لنا الحصول على نهج تاريخی يراعی مصلحة الأمّة و يقدّر

ضرورات الدين أو الدّعوة، ما دامت أهواء السلطة و التحكم كامنة وراء ما يصدر عن الباحثين.

و رغم ذلک، لم يتعدّ الخلاف بين المسلمين المسائل الثانوية و الفقهية، إذ لم يكن الخلاف يوما فى التوحيد أو الكتاب أو السنة، فهم بحمد اللّه متفقون على توحيد اللّه و على كتابه، و مجمعون على أن ما بين الدّفتين هو القرآن بدون زيادة أو نقصان، و لم يختلفوا فى وجوب الأخذ بسنة النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و إن اختلفوا فى الفهم أو التفسير، أو توقفوا فى تحقيق الطريق الموصل إلى أخذ الحديث صدر عن الرسول أو لم يصدر.

و لقد هيأ اللّه لهذه الأمة علماء جنّدوا أقلامهم لمواجهة نتائج دعوات التعصب و الانقسام، فكتب الكثير منهم فى ذلک حرصا على سنة النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و منعا لأيدى العابثين من الوصول إليها، و دحضا للكذابين و الجهال.

و قد ركزنا فى البحث حول الخلافات المذهبية و النزعات الطائفية التى أدت إلى الفتنة و الشقاق، فعطلت قوى الأمة و شلّت طاقاتها.

و إذا كان التاريخ الإسلامى قد شهد منذ فجر الدعوة بذور الفرقة و الشقاق، فإننا لا نود أن نتعرض فى بحثنا إلى مجريات عهد الخلافة و آثار الخلافات على المجتمع الإسلامى، و بروز النزعات الشخصية و المصالح الذاتية. و لا للخصومة فى مرتكب الكبيرة و غيرها. و إنما بحثنا فى المذاهب و اتساع عوامل الفرقة و الخلاف التى أدت إلى فتن غذّاها الاختلاف فى الآراء، و ما رافق ذلک من مهاترات و خصومات تطورت إلى حروب سالت فيها دماء، و أهينت كرامات، و انتهكت حرمات.

و قد رأينا فيما سبق من أجزاء البحث، كيف تضافرت عوامل عديدة على إثارة المشاكل، و كيف وقعت الأمة فى امتحان قاس، و قد كانت ظروف الفتنة و شيوع الاضطراب، فرصة للجهلة و الغوغاء من الناس للظهور و احتلال مواقع، فيما اضطهد المفكرون و كمّت أفواههم، و نورد هنا قول العلامة المصلح الشيخ محمد عبده الذى يعكس هذا الظرف فيقول: «و السبب فى بقاء قوة سلطان الخلاف و النزاع هو تفشى الجهل، و تعصب أهل الجاه من العلماء لمذاهبهم التى ينتسبون إليها، و بجاهها يعيشون و يكرمون، و تأييد الأمراء و السلاطين لهم، استعانة بهم على إخضاع العامة، و قطع طريق الاستقلال العقلى على الأمة. لأن هذا أعون على الاستبداد، و أشدّ

تمكينا لهم مما يحبون من الفساد و الإفساد.فاتفاق كلمة علماء الأمة و اجتماعها على أن الحق كذا بدليل كذا ملزم للحاكم باتباعهم فيه،لأن الخواص إذا اتحدوا اتبعهم العوام،و هذه هى الوسيلة الوحيدة لمنع استبداد الحكام،فالدّين يأمر برفع الشقاق و التنازع و بالاعتصام بحبل الوحدة،و هذا معنى قوله تعالى: وَ اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَ لا تَفَرَّقُوا و قوله تعالى: وَ لا تَنازَعُوا فَتَفْشَلُوا و قول النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«و لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم أعناق بعض».

ثم يقول المرحوم الشيخ محمد عبده:و قد خالفنا كل هذه النصوص،فتفرقنا و تنازعنا،و حارب بعضنا بعضا باسم الدين،لأننا سلكنا مذاهب متفرقة،كل فريق يتعصب لمذهبه،و يعادى سائر إخوانه المسلمين لأجله،زاعما أنه بهذا ينصر الدين، و ليس فى ذلک إلا خذلانه بتفريق كلمة المسلمين،هذا سنّى يقاتل شيعيا،و هذا شافعى يغرى التتار بحنفى،و هذا حنفى يقيس الشافعية على الذمية» (1).

و يقول السيد رشيد رضا:«حتى أن من اتباعهم(أى أئمة المذاهب)من قدّمهم على الأنبياء عند تعارض كلامهم مع الحديث الصحيح،فإنهم يردّون كلام النبى المعصوم-مع اعتقاد صحة سنده-بقول نقل عن إمامهم،و يتعللون باحتمالات ضعيفة» (2).

و لا أملک أن أستطرد دون أن أشير إلى أن هذا القول هو تعبير عن واقع يأتى مصحوبا بخروج عنه،و ميل إلى ما استنكر فيه،إذ أن السيد رشيد رضا شهد فترة نضج جهود المصلحين المحدّثين،و تبلور أفكار الوعى،غير أنه أسهم هنا و هناک فيما يخالف اتجاه التحرر من التعصب و نهج التحقق و البحث اللذين اتسم بهما فكر الفترة الدينية التى يتصدرها المرحومان السيد جمال الدين الأفغانى و تلميذه الشيخ محمد عبده،و الذى تلاقح و تمازج مع تيارات الوعى و دعوات الوحدة الإسلامية.

و هناک صور من حالات الانقسام و الشقاق ذكرها ابن قدامة:«ففى طرابلس الغرب،ذهب بعضهم إلى المفتى و قال له:اقسم المساجد بيننا و بين الحنفية،لأن فلانا من فقهائهم يعبر عنا كأهل الذمة،بما أذاع فى هذه الأيام من اختلاف الأحناف

1- (1) ما لا يجوز فيه الخلاف بين المسلمين ص 65-66.

2- (2) انظر مقدمة المغنى لابن قدامة.

فی:هل یجوز للحنفی أن یتزوج الشافعیـة؟فقال بعض الأحناف:لا یصـح لأنها تشک فی إیمانها،لأن الشافعیة یجیزون أن یقول المسـلم:أنا مؤمن إن شاء اللّه.و هذا یدل علی عدم تیقنها فی إیمانها فی اللّه،و الإیمان لا بد له من الیقین.

و أن بعض الأتباع سـمع رجلا یصـلی مأموما یقرأ الفاتحة،فضربه بیده علی صدره ضربة قویة وقع منها علی ظهره و کاد یموت.و أن بعضهم کسـر سـبّابة رجل لأنه رفعها فی التشـهد،بفتوی أحـد علماء الحنفیة-و هو الکیدانی-بحرمة رفع السـبابة، و اعتبروا ذلک نصا إلهیا،و حکما قطعیا فمن خالفه عوقب علی جریمته» (1).

و یـذکر العلامـة العز بن عبـد السـلام الشافعی فی أمور الأخـذ بما فیه اختلاف، و أن لا بأس بفعل أو ترک ما لا ینقض الحکم الشـرعی:أن النـاس لم یزالوا علی ذلـک یسـألون من اتفق من العلمـاء من غیر تقییـد بمـذهب و لا-إنکار علی أحـد من السائلین، إلی أن ظهرت هـذه المـذاهب و متعصـبوها من المقلدین،فإن أحدهم یتبع إمامه مع بعد مذهبه عن الأدلة مقلدا له فیما قال،فکأنه نبی أرسل إلیه.و هذا نأی عن الحق،و بعد عن الصواب لا یرضی به أحد من أولی الألباب...الخ (2).

و یقول التاج السبکی:و لقد رأیت فی طوائف المذاهب من یبالغ فی العصبیة بحیث یمتنع بعضهم عن الصلاة خلف بعض إلی غیر هذا مما یستقبح ذکره،و یا ویح هؤلاء أین هم من اللّه.و لو کان الشافعی و أبو حنیفة رحمهما اللّه حیین لشددا النکیر علی هذه الطائفة (3).

کمـا یـذکر ابن قدامـة أن أربعمائـة قـاض حنفی و شافعی هاجروا فرارا من تحکم الغوغاء.و حـدثت بـدمشق عـدة حوادث بین الشافعیـة و الحنابلـة،و بین الشافعیـة و الحنفیة،کل ذلک بسـبب الطعن فی المعتقدات لأمور تافهة.فمثلا أن ابن القشـیری- و هو أحد علماء الشافعیة- یدخل بغداد،و یرقی المنابر للوعظ،فتقوم قائمة الحنابلة، و تقع بینهم و بین الشافعیة فتنة،و بسبب ذلک یسجن بعض العلماء لإطفاء نارها.

و فی سنة 421 هجری بین بعض الأتراک و بعض الهاشمیین منازعة،فاجتمع

1- (1) المصدر السابق.

2- (2) انظر عقد الجید فی أحکام الاجتهاد و التقلید للدهلوی ص 12.

3- (3) الإعلان بالتوبیخ لمن ذم التاریخ للسخاوی ص 130 و 131. [1]

الهاشميون و من والاهم من الشيعة و غيرهم فى مسجد المدينة،و رفعوا المصاحف و استفزوا الناس،فاجتمع لهم العدد الكبير من الكرخ.و اجتمع الأتراک و هم جند الدولة و أعيان بغداد فى ذلک اليوم و اشتد القتال بين الطرفين (1).

و لا يخفى دور السلطة فيما يحدث،و أن الفتن التى تجرى-و ما يتخللها من نيل من مقامات العلم،و تعد على أصحاب المكانات الدينية- من صنعها،فينحاز الحكام إلى طرف دون آخر.فى حين يعلم أن ذلک من تعاطى السفهاء-كما ينص ابن كثير فى وصفهم-و إلا كيف يضرب خطيب جامع بالآجر و يكسر أنفه و يخلع كتفه؟و لما ذا يقبل آخرون على أناس يحيون ذكرى عاشوراء بالحديد،فيقتتلون اقتتالا شديدا، و يقتل من الفريقين طوائف كثيرة،و تجرى بينهم فتن و شرور مستطيرة.

و يحدثنا ابن الجوزى فى حوادث سنة 494 ه أن السلطان قتل خلقا من الباطنية يبلغ عددهم ثلاثمائة و نيفا،و كتب بذلک كتابا للخليفة،فتقدم بالقبض على قوم يظن فيهم ذلک المذهب،و زاد تتبع العوام لكل من أرادوا،و صار كل من فى نفسه شىء من إنسان يرميه بهذا المذهب،فيقصد و ينهب (2).

كما وقع كثير من الفتن بين الناس بسبب اختلاف الآراء بين العلماء من فقهاء و مفسرين،فبدلا من أن تعقد المجالس لرفع ذلک الالتباس و إزالة الخلافات، أصبحت مثار فتن و سببا لتدخل الغوغاء و أصحاب الأهواء الفاسدة،المندسّين فى صفوف المسلمين.

و قد حدث أن اختلف الحنابلة و غيرهم من السنة فى تفسير قوله تعالى: عَسى أَنْ يَبْعَثَکَ رَبُّکَ مَقاماً مَحْمُوداً فقالت الحنابلة أن المقصود من هذه الآية أن يقعد اللّه نبيه على عرشه.و قال غيرهم:أن المقصود هو الشفاعة،و احتدم الجدل،و اتسع النزاع بسبب ذلک الخلاف،و اقتتل الحنابلة مع خصومهم (3)إذ كانت لهم القوة فى بغداد لمساندة السلطة لهم و التفاف العامة حولهم و انضمام كثير من الجند إليهم.و قتل منهم قتلى كثيرة، و كان جماعة أبى بكر المروزى أبطال هذه الفتنة (4)و اعتمدوا على القوة.

1- (1) ابن كثير،البداية و النهاية ج 12 ص 26 و 28. [1]

2- (2) المنتظم ج 9 ص 120. [2]

3- (3) السيوطى،تاريخ الخلفاء ص 154. [3]

4- (4) الكامل لابن الأثير ج 8 ص 132. [4]

و استمر مدة من الزمن يرهبون قلوب الناس،و يتعرضون بالشرّ لغيرهم من الطوائف،و إغراء بعضهم بعضا.مما حمل الخليفة الراضى على إصدار منشور فى ردعهم بالقتل إن لم يرجعوا عن غيّهم (1).

و من الملاحظ أن هذا المنشور قد أوقف نشاطهم.عن إثارة الفتن و الوقيعة بغيرهم،و خفف عن الناس بعض تلك الشرور التى لحقتهم بفعل التعصب لعقائد فى التجسيم و آراء واهية مشبهة تجعل اللّه كالمخلوقات و المحدثات،و من نيل لمقامات الأولياء و مظاهر الاحتفال بسيرهم.و كان الراضى صريحا فى إعلانه و شديدا فى بيانه و قد توعّدهم فى ختامه بالعقوبات الصارمة.و مما جاء فى منشوره:«ثم استدعاؤكم المسلمين إلى الدين بالبدع الظاهرة و المذاهب الفاجرة التى لا يشهد بها القرآن، و إنكاركم زيارة قبور الأئمة و تشنيعكم على زوّارها بالابتداع،و أنتم مع ذلك تجتمعون على زيارة قبر رجل من العوام...الخ»و مضمون البيان يعبّر عن عودة إلى أصول الحق و قواعد التفكير السليم.

و فى أحضان الحكام و المتنفّذين،نشأ التعصب عنيفا،و غدا من أسلحتهم الفتاكة،فاستغل الحنابلة وجود من يتعصب لمذهبهم فى فترة ردود الفعل و انعطاف الخلفاء الحكام لاستمالتهم فى مواجهة آثار التطرف و التجاوز التى ارتكبت من المعتزلة عند ما ركنوا إلى السلطان و تناءوا عن مصادر الفكر.فكان الوزير يحيى بن محمد بن هبيرة حنبليا متعصبا لمذهبه،فنعموا فى ظل سلطته،و تصرفوا فى أمور لا يسوغ لهم الدخول بها.و لم تعدم المذاهب الأخرى من مناصرين لها باستعمال سلاح التعصب و الطائفية،فكان من يعهد إليه بوظيفة يوجه جهوده لنصرة مذهبه،و التحامل على غيره.فكان مرجان الخادم شافعى المذهب،تعصب على الحنابلة،و كان بينه و بين الوزير بن هبيرة عداء لأنه حنبلى و يتعصب لهم،كما نصب العداء لابن الجوزى، -و هو عالم الحنابلة و المبرز فى عصره-و كان فى عصرهما الأمير محمد بن موسى التركى أمير دمشق-و هو حنفى المذهب-و يتعصب للحنفية تعصبا مفرطا،و يعادى بقية المذاهب،و بالأخص الشافعية،و كان يعلن بأنهم ليسوا من المسلمين،و يقول:

لو كانت لى الولاية لأخذت من الشافعية الجزية (2)و عند ما برز الوزير نظام الملك فى

1- (1) ابن مسكويه،تجارب الأمم ج 1 ص 322.

2- (2) ابن كثير ج 12 ص 175. [1]

محافل الملوک لم یقدر علی تحقیق السیادة للشافعیة،و الحدّ من تعصّبات الجماعات التی عکفت علی حسّ المعاداة،فکان یختار من العلماء من یستشعر فیه القدرة و المنزلة،و یبعثه إلی بغداد.و لکن الحنابلة کانوا لا یترددون عن استخدام الشتم و السب،و دفع الأمور إلی الاضطراب و الهیاج.و قد تکلمنا غیر مرة عن الأسباب التی أدت بالمسلمین إلی هذه الحالة التی أصبحوا علیها من تباعد و تباغض و تراشق بالکفر و الزندقة.

و لنمضی قلیلا مع ألوان الأحداث و صور المجتمع و هو یقاسی الفرقة،و ما أحدثه التعصب من تباعد و عداء و تباغض تسیء إلی رابطة العقیدة،و تبعد عن روح الإسلام و نظمه التی تجعل لکل حقه،و قد کان أبطال التعصب و دعاة الفرقة و جنود الشغب یتعاهدون عوامل معینة بالرعایة،و یعملون علی إذکائها و یحاربون کل ما من شأنه العودة إلی روح الدین و فضح البواعث و کشف الدوافع التی تقف وراء تلک الأحداث.

فهی إذا ما قامت من مستوی السلاطین،تلونت بحسب الرغبات و مصالح الحکم التی تمحورت حول أغراض ضیقة و غایات خاصة،و هی إذا ما بدرت من أصحاب المواقع علی اختلافها و هیئاتها،کانت ستارا للإبقاء علی واقع التمتّع و النفوذ،فیما نری الناس تکتوی بنار الفرقة،و یتمزّق کیان المجتمع الإسلامی، و تسود روح من العداء التی تنکرها أبسط روابط الإنسانیة،فکیف إذا کان الأمر بین أقوام و طوائف تجمعهم کلمة التوحید،و یفترض أن تشدّ قلوبهم و تجمعها شریعة النبی المصطفی محمد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

و سنعرض فیما یلی بإجمال بعض العوامل الکثیرة الأخری:

1-الجمود الفكرى

فقد ضـمن الإسـلام بمبادئه و قيمه وضعا فكريا يؤدى إلى تطور حالات الإنسان و تقدمه الحضارى،و يدفع بمن امتلک قدرة الفكر و موهبة العلم إلى اغتراف مناهـل المعرفـة و الأخـذ بمضامينها،فكان التفاعل الفكرى و العطاء العلمى سـمة المجتمع فى صـدر الإسـلام،و صـفة الدعوة المحمدية التى بدّلت أوضاع الإنسانية،و أحدثت الثورة فى حياة الشعوب التى آمنت بها و انشدّت إليها.

و كان التطور الفكرى مقياسا أساسـيا فى التعامل الحياتى و الوجود الإنسانى للمجتمع المسـلم،حتى إذا حدثت الفرقة بعد استحكام النزعة الطائفية،و استفحال التعصب المذهبى،برزت عناصر كثيرة تقف بوجه ذلک التطور و التقدم الفكرى،إذ لا يمكن للآراء المنحرفة و الدعاوى الفارغـة أن تجـد لهـا موقع قـدم أمـام مـا بلغه المسـلمون من مسـتوى فكرى.فكان الجمود العقائـدى أو الفكرى أقرب إلى الجهلـة و ذوى الأغراض و الأفكار المنحرفـة،و أنفع لهم،فلقى المفكرون ضـروبا من المقاومة الشديدة و الجفاء الظاهر،لكى يعطل وعيهم،و يبعد أثرهم،و تتاح لأولئک الذين يعملون على نشر الفرقة الفرصة ليغطوا جهلهم،و يحققوا لأنفسهم مكانة على حساب وحدة المسلمين و مصلحتهم.

و نحن عند ما نستعرض جوانب و صورا من هذا الواقع-بعد قرون طويلة و مراحل متعددة-نرمى إلى كشف عوامل ذلک و عواقبه فى مرحلة يتصاعد فيها وعى نشئنا المسلم و أجيالنا الواعية،حتى يتبينوا واقع الدعوات و التيارات التى تحاول تجديد تلک الفرقة،و إعادة ذلک الخلاف بعقليـات متحجّرة و دعوات متخلّفـة،لاـ تختلف فى دوافعهـا و حقيقتهـا عن عوامـل و أسـباب قيـام الفرقـة فى المراحل الأولى من التاريخ الإسلامى.

ص:19

و الـدعوة الصادقـة تبقى محتفظـة بتأثيرها و نقائها،و دعوات الفرقـة مفضوحـة مهما تلبّست سـتار العلم أو برقع الثقافة،و إسـهاما فى تحمل مسئولية نشر الألفة و المحبة، نبعد عن التحامل على أحد،و لا نتجاهل واقعا نقف عليه،أو برهانا يفرض نفسه.

فالتزام النظرة الصائبـة و الـدعوة الصادقة يجعل ترسّبات الماضـى موضـعا للانتقاء و الاختيار،فيهمل ما كان منه مشوبا بهذه الصـفحات،و يعتمد ما كان منها مدعاة للوحدة و الائتلاف.

لقد عصـفت بالمجتمع الإسـلامى عواصف الخلاف،و ظهر التصدّع فى الصـفوف بعد أن منى الإسلام بداء عصبية عمياء،و مذهبية ما أنزل اللّه بها من سـلطان،و كثرت عوامل الخلاف،و قويت شوكـة الجهلـة عند ما حورب العلماء،و رمى الفلاسـفة بوجه عام بالزندقة،و تشـعّبت فروع ذلک،و أصبح المجال واسعا لزرع بذور الفرقة،و كثر الصراع فى مسائل افترق المجتمع حولها،فتفرّقت الكلمة،فمنها الجمود الفكرى.

و الجمود الفكرى-كمـا تقـدم-كظـاهرة قويـة فى هـذا الواقع المؤلم،بعـد أن جعـل الإسـلام حريـة الفكر نبراسا للعقول و الأفهام،و طريقا للاهتداء إلى عالم الحق،و أصـبح المفكرون فى نظر ذوى الجمود و فى نظر من آثر التسـرّع فى الحكم على الأشياء قبل معرفتها،لعجزه عن المجاراة و المساهمة فى حركة الفكر أهواء أو زندقة،فذهبت الدعوة الصادقة ضـحية الحجر على حرية العقل،أو نتيجة الجمود الفكرى الذى أقرّته سلطات جائرة و أوضاع منحرفة و تدخلات مختلفة،فكان ذلک حائلا دون تمتع الناس بحقوقهم.

و كان الذين يلتزمون نهج التحرّر الفكرى و الاحتكام إلى العقل كالشيعة و المعتزلة و غيرهم من رجال الفكر قد لاقوا فى سبيل حرية الفكر بلاء،و واجهوا محنا،لأنهم لم يحجبوا نور العقل بظلمـة التبعيـة العمياء،فربطوا بينهم و بين من شذّ فى علم الكلام عن النهج القويم،و ذلک عند ما أقبل المسـلمون على دراسة الكتب المنقولة من كتب الأوائل من:منطق و رياضـيات و طبيعيات و العلوم الإلهية و الطب و الحكمة العمليـة و غيرها من علوم الأوائل التى نقل شـطر منها فى عهـد الأمويين،ثم أكمل فى عهد العباسـيين.فقد ترجموا مئات الكتب اليونانية و الرومية و الهندية و الفارسية و السريانية إلى العربية،و أقبل الناس يتدارسون مختلف العلوم،و لم يلبثوا كثيرا حتى استقلوا بالنظر،و صنّفوا فيها كتبا و رسائل،و كان ذلک يغيض علماء

الوقت،و لا سيما ما كانوا يشاهدونه من تظاهر الملاحدة و الدهريين،و الطبيعية و المانوية الخ (1).

و من المظاهر المؤلمة ما تعرّض له أبو جعفر بن جرير الطبرى-صاحب التاريخ و التفسير المشهورين-سواء فى حياته أو فى مماته،فنحن نعلم أن للأموات حرمة، و لأن كانت غريزة الكره و الحقد تجد مجالها بين الأحياء،فإن ارتحال الطرف الآخر كاف للكفّ عن استمرار الغرائز الملتوية.يقول ابن كثير:«و دفن فى داره لأن بعض عوام الحنابلة و رعاعهم منعوا من دفنه نهارا،و نسبوه إلى الرفض.و من الجهلة من رماه بالإلحاد،و حاشاه من ذلک كله.بل كان أحد أئمة الإسلام علما و عملا بكتاب اللّه و سنة رسوله،و إنما تقلدوا ذلک عن أبى بكر محمد بن داود الفقيه الظاهرى، حيث كان يتكلم فيه و يرميه بالعظائم و بالرفض.و لما توفى اجتمع الناس من سائر أقطار بغداد،و صلوا عليه بداره،و دفن بها،و مكث الناس يترددون إلى قبره شهورا يصلون عليه.و قد رأيت له كتابا جمع فيه أحاديث غدير خم فى مجلدين ضخمين، و كتابا جمع فيه طريق حديث الطير.و نسب إليه،أنه كان يقول بجواز مسح القدمين فى الوضوء،و إنه لا يوجب غسلهما»و بمرور الوقت عجز خصومه عن طمس شواهد علمه،فأخذوا بالقول بأن هناک طبريين أحدهما شيعى يستحق هذا العداء.و إن كل ما جاء من الحق على لسان الطبرى،و كل ما ذكره هذا المؤرخ و المفسر الكبير من الحقائق هو من الطبرى الآخر،يقصدون محمد بن جرير بن رستم المحدث الإمامى الثقة،و قد اشتهر بكتابه(المسترشد فى الإمامة)و عرف بالمناظرة و الكلام،و ليس هناک ما يساعد على الخلط بين الاثنين،فآثار كلّ منهما مستقلة و معروفة،و القول بمثل هذا ينمّ عن القصد السيئ.

و كان للمسلمين مكانة فى علم الكلام و غيره،و امتازوا عن سواهم بأمور كثيرة.

و كانت مقاومة المفكرين بأساليب مختلفة و عبارات لا تعبّر إلا عن سوء الفهم.فقد رمى المتكلّمون بالكفر و الزندقة و الخروج عن الدين حسب ما ترتضيه السياسة،و ما تراه فى خدمة مصالحها،فوسعت شقّة الخلاف بين المتكلّمين و بين الفقهاء،و شجعت الحملة على المتكلمين و رميهم بالكفر.فكانت تلک الحركة ضد علم الكلام سببا فى تضييق آفاق الفكر،و سد أبعاده،و تقييد روح الإبداع،حتى هدّد العلماء من المتكلمين.

1- (1) الطباطبائى،الميزان ج 5 ص 179. [1]

و قد ساعد على ذلک آراء بعض أئمة المذاهب و أتباعهم،إذ کان بعضهم یری لزوم تعزیر أهل الکلام و ضربهم و إهانتهم،و أن یطاف بهم فی العشائر.و اشتهر عن الشافعی أنه قال:إیاکم و الکلام.و قال:لأن یبتلی اللّه المرء بکل ما نهی عنه ما عدا الشرک به خیر من أن ینظر فی علم الکلام.

و وجد زعماء الفتن و عناصر الشغب فیما أوثر عن الإمام الشافعی و غیره سلاحا مجردا یستخدمونه لتحقیق أغراضهم،و تغییر الواقع إلی جمود و تخلف.رغم أن هذه الآراء فی حقیقتها و ظروفها تعبّر عن حریة الرأی و قدرة الاجتهاد،و مع هذا نجد أن الإمام الشافعی ینص علی دوافع مثل هذا التوجه،و یلتفت إلی تلک الأجواء،إذ قال للربیع:إیاک و علم الکلام.و علیک بالاشتغال بالفقه و الحدیث.و لئن یقال لک أخطأت خیر من أن یقال لک کفرت (1).

و قد نضج علم الکلام فی عصر الشافعی،و اتسع نشاط المتکلمین،و أثیرت هناک مسائل کثیرة دار حولها النقاش و الجدل.و لا بد لکل عالم أن یلتمس الدلائل و البراهین من طریق المعقول لتقویة جانبه،و الردّ علی مخالفیه،و لکن من باب درء الخطر من الانهزام أمام المفکرین،أغلق الباب بحرمة تعلم علم الکلام،بل حرمة الاستماع إلیه،و حکموا بکفر من یتعلمه.

و کان للفلسفة فی أول زمن الدولة العباسیة سوقا رائجا،فقد کانت بغداد فی أواسط القرن الثانی إلی أواخر القرن الخامس میدان الأفکار الجدیدة،کما کانت البصرة کذلک منذ القرن الأول،یقصدها العلماء من البلدان القاصیة،و یتذاکرون صنوف العلم،و یتقارضون بأنواع الحکمة.و کانت بغداد مدة ثلاثة قرون مبعث الحرکات الفکریة،و العلماء فیها یوحدون صفوفهم.

و کانت الحکومة لا تعارض مجالس النظر و الحجاج ما لم یضر بمصالحها،أما إذا کان البحث فی الإمامة و ما یتعلق بها من إعطاء الفکر مجالا فی أمور یتطلب البحث فیها إیضاحا لما أبهم منها؛فإن ذلک محظور لا تسمح الدولة فی خوضه.

و اشتدت الحکومات فی القرن السادس بمطاردة علوم الحکمة.و حرّم ابن الصلاح المنطق و الفلسفة،و لم یتمکن أحد فی دمشق من قراءة کتبها،و کان المنادی

1- (1) الجواهر و الیواقیت ج 1 ص 17.

ينادى:من ذكر غير التفسير و الحديث و الفقه،و تعرّض لكلام الفلاسفة ينفى.و أفتى الذهبى بتحريق كتب علوم الفلسفة،و إعدام علمائها و القائمين عليها،إذ يقول:و ما دواء هذه العلوم،و علمائها القائمين بها علما و عملا إلا التحريق و الإعدام من الوجود (1).حتى عدّ الاضطهاد فى سبيل المذاهب و الأفكار سمة السياسة لأنه«منذ ظهر الإسلام كان من يخالف الجمهور فى المعتقدات و الآراء يحمل إلى الولاة،فإما أن يستتيبوه أو يعاقبوه،و ما فتئ المهيمنون على الشريعة يثيرونها حربا شعواء على كل من جاهر بفكرة دعا إليها أو لم يدع،و يكفى فى بلائه خروجه عن المألوف و العرف» (2).

و انتهز العوام و المتفقهة فرصة غضب الملوك على الفلاسفة،فراحوا يروّجون التهم حول كثير من علماء الأمة إذا وجدوا ميلا من السلطان نحوهم،و كان شهاب الدين السهروردى من الحكماء الذين قربه الملك الظاهر غازى ولد السلطان صلاح الدين،فحسده علماء عصره،و ناظروه فانتصر عليهم.فالتجئوا إلى الدسّ و الكذب، و رموه بالكفر و الإلحاد،و طلبوا استئصال الشرّ بقتله حتى لا ينفذ إلحاده،فتمّ لهم ما أرادوا،و أمر السلطان ولده بقتله بلا مراجعة،فقتله سنة 586 ه عن 36 سنة،و عرف فى التاريخ بالشاب المقتول.

و قد أورد ابن أبى أصيبعة أن الظاهر غازى بن صلاح الدين،دعا الفقهاء إلى مساجلة السهروردى،فانتصر عليهم و أفحمهم،فزاد حقدهم عليه،فدبروا له تهمة المروق عن الدين،و عملوا محاضرة بكفره،و سيّروها إلى الملك الناصر صلاح الدين و قالوا:إن بقى هذا فإنه يفسد اعتقاد الملك الظاهر،و كذلك إن أطلق فإنه يفسد أى ناحية يكون بها من البلاد.و زادوا عليه أشياء كثيرة من ذلك،فبعث صلاح الدين إلى ولده الملك الظاهر بحلب كتابا فى حقّه بخط القاضى الفاضل و هو يقول فيه:إنّ هذا الشاب السهروردى لا بد من قتله (3).

و مكانته فى الفلسفة لا ينكرها حتى أعداؤه،فهى من أبرز صفاته عندهم،كما

1- (1) كرد على،الحضارة الإسلامية 43/2.

2- (2) المصدر نفسه ج 2 ص 69.

3- (3) ابن أبى أصيبعة،الطبقات ص 642.

أن من أبرز معالم سيرته هو قتله دون بينة.حتى أن السلطان الذى غلب عليه الذين ساءهم انتصار السهروردى عليهم ندم و نقم على الذين أفتوا فى دمه،و قبض على جماعة منهم و أهانهم و أخذ منهم أموالا عظيمة (1)كذلک فإنّ الذين يرمونه بالزندقة من المؤرخين لا يملكون إنكار براعته فى علم الكلام،و كونه مناظرا محجاجا زاهدا من أذكياء بنى آدم و رأسا فى معرفة علوم الأوائل (2).

و ذكر العماد الأصفهانى-المعاصر له-أن الفقهاء دعوا السهروردى للمناقشة فى المسائل الفقهية،و فى مسائل الأصول،فظهر عليهم،فحقدوا عليه،و بيّتوا أمرهم إلى الثأر منه،فدعوه إلى مناقشة علنية أخرى فى مسجد حلب،و سألوه:هل يقدر اللّه على أن يخلق نبيا آخر بعد محمد؟فأجابهم الشيخ:بأن لا حدّ لقدرته.ففهموا من إجابته أنه يجيز خلق نبى بعد محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و هو خاتم النبيين،و من ثمة أعلنوا مروقه من الدين،و كتبوا محضرا بكفره،سيروه إلى السلطان،فأمر بإعدامه و إحراق كتبه (3).

و استمر أعداء حرية الفكر و دعاة الخضوع لسلطان الجهل و التقليد الأعمى بالحرب لعلماء الأمر،فثارت الأحقاد،و ظهرت العداوات و الانتقام.فهذا الفيلسوف ابن رشد-و كان مالكى المذهب و من فقهائهم-تولى القضاء بإشبيلية مدة تزيد على عشر سنوات،و قد قربه الملک أبو يوسف الملقب بالمنصور،مما أثار حسد الفقهاء و المتزمتين،فرموه بالكفر و الزندقة،و تمكنوا من تغيير الخليفة،فنقم عليه و استجوبه فقهاء قرطبة،و قرروا أن تعاليمه كفر،و لعنوا من يقرأها،و حكموا عليه بالكفر و النفى من بلده.و أمر الخليفة بحرق كتبه و كتب الفلسفة فى جميع البلاد،و لعن ابن رشد، و نفى إلى جزيرة فى قرطبة.و إنما لم يحكم على ابن رشد بالقتل أسوة بغيره ممن اتهم بسوء الاعتقاد لأن الذى يرأس المحكمة و يصدر الأحكام كان من علماء المالكية، فكانت المحكمة التى تعقد لمحاكمة المتهمين بالبدعة أو الضلالة أو الزندقة إنما يسند أمرها إلى القضاة المالكية لأنهم يخالفون سائر المذاهب فى هذه التهم التى تلصق بمن تحاول الدولة قتله باسم الدين.

1- (1) المصدر نفسه ص 644.

2- (2) شذرات الذهب ج 2 ص 290. [1]

3- (3) انظر مقدمة كتاب هياكل النور.

فعند المالكية يقتل المتهم بالضلال أو الزندقة أو البدعة أو ما شئت فقل من مقررات الحكم الجائر.فيصدر الحكم فى حقه و إن تاب،بخلاف بقية المذاهب.

لأن رأى مالک أن المبتدع أو الزنديق ينفذ فيه حكم الإعدام و إن تاب.

لقد أدى شيوع ذلک إلى حالات من الجهل و الجمود و تحكم الفوضى.فنشط العامة بما يرضى أطماعهم و يجلب عليهم نعم السلطة و المتحكمين،فأصبحت الطبقات الحاكمة هى التى تقرّ العقائد التى تراها أكثر نفعا لها و أقرب إلى الاستجابة عليها،فتلتقى إرادة المتحكمين مع رغبة المتنفّذين و المستفيدين من تيارات التعصب هذه.ففى سنة 433 ه تصدر الدولة أمرا باتّباع ما تراه من العقائد،فكان منشورها يتضمن أهم المسائل العقائدية التى هى محور الخلاف فى ذلک العصر،فهو يتضمن بعد التوحيد و الأقرار لمحمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بالرسالة:عقائد مذاهب أهل السنة.و جاء فيه:أن من قال أن القرآن مخلوق فهو كافر حلال الدم.و أن يلتزم الناس بحب الصحابة كلهم.و أنهم خير الخلق بعد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أن خيرهم كلهم و أفضلهم بعد رسول اللّه أبو بكر الصديق،ثم عمر،ثم عثمان،ثم على،و أن يشهدوا للعشرة المبشّرة بالجنة،و أن يترحّموا على أزواج النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و من سبّ عائشة فلا حظّ له فى الإسلام،و لا يقول فى معاوية إلاّ خيرا،و لا يدخل فى شىء شجر بينهم (1).

و وقع المنشور فى أغلب ما تضمنه موافقا لرغبة العامة،حيث يؤدى بمحتواه إلى شلّ الحركة العلمية التى تخالف آرائهم.فاتباع ذلک النظام لازم،و مخالفه يعدّ كافرا،و قد كتب الفقهاء خطوطهم،و حكموا بفسق و كفر المخالف.كما أصبحت السلطة القضائية تخضع لهذا المرسوم،و تعاقب بموجبه،فمن اتهم بالمخالفة حكم بكفره،و حلّية دمه،فأصبح العلماء بين خوف العامة و غضب السلطة،و ليس وراءه إلاّ سيف النقمة،فلا يستطيع أحد أن يبدى رأيا فيما توصّل إليه من وراء تفكيره و النظر العقلى،و لا يستطيع المؤرخ أن يسجّل حادثة فيها مخالفة لرأى السلطة،و ليس لباحث أن يثبت شيئا بعد تحقيقه و صحته،كما ليس للمحدّث أن يناقش حديثا أو يثبت ما لا يتفق و آراء العامة.فكم ضاع من وراء هذا التحجير من الأفكار الحرّة و الحقائق التاريخية التى أهملها العلماء مخافة أن يعرفوا بها فيهلكوا،و بذلک حقنوا دماءهم،

1- (1) المنتظم ج 8 ص 110-111. [1]

و اتقوا تقـاة أنجتهم من تسـلط العتاة.فضـاعت أخبـار كثيرة،و خمـدت القرائـح،و شاع الجمود الفكرى،و فشـى الجهل.و السـلطة من وراء الجهّـال تشـدّ أزرهم،و تفتك بمن يحاول الخروج عن الطاعـة«و إنه لطبيعى كـذلك فى أن يكون الملك عـدوا لـدودا لكل بحث و لو كان علميا يتخيل أنه قد يمس قواعد ملكه و تقويض كرسـيّه و لهذا ضـغطوا على حرّيّة العلم،و استبدّوا بمعاهد التعليم،و ربطوها بعجلة الدولة» (1).

و برغـم ركام الأهواء تجـد الحقيقـة لها ألسـنة و أقلاما تعبّر عن جوهر الدافع فى الإبقاء على الجمود و بواعث سـياسة الحكام الذين أحكموا إغلاق منافذ الفكر ليهيمنوا على الأمة،و أغلقوا باب الاجتهاد الذى تشـبّث الشيعة لفتحه حماية للفكر و إغناء للفقه،فلما رأى بنو العباس أن وسـائلهم فى القهر لاـ تجـديهم،أرادوا أن يـأتوا النـاس من بـاب التعليم،فيتولوا أمره بأنفسـهم،ليربوا العلماء على الخضوع لهم،و يملكوهم بالمال من أول أمرهم،و كانت الأمـة هى التى تتولى أمر التعليم بعيدا عن الحكومة، كما تتولاه الآن الأمم الراقية..فيقوم فى المساجد حرا لا يخضع لحكم ملـك أو أمير،و يتربى العلمـاء بين جـدرانها أحرارا لاـ يرقبون إلاـ اللّه فى علمهم،و لا يتأثرون بهوى حاكم،و لا تلين قناتهم لطاغية أو ظالم.فأراد بنو العباس أن يقضوا على هذا التقليد الكريم،و يتولوا بأنفسـهم أمر التعليم بين المسـلمين،فأخذوا ينشئون له المدارس بدل المساجد،و يحبسون عليها من الأوقاف الكثيرة ما يرغب العلماء فيها، و يجعل لهم سلطانا عليهم،و أخذت الممالك التابعة لهم تعمل فى هـذا بسـنّتهم،حتى صـار التعليم خاضـعا للحكومـات بعـد أن كان أمره بيـد الرعيـة،و كان لهـذا أثره فى نفوس العلماء فنزلوا على إرادة الملوك،و لم تقو نفوسـهم على مخالفتهم فى رأيهم أو توجيه شـىء من النصـح إليهم (2)فلما انتشـرت المدارس الحكومية قام بنو العباس بالخطوة المكمّلة،فطلب من المنفّذين لسياسـتهم المشتغلين بالعلم ألا يذكروا شيئا من تصانيفهم،و ألا يلزموا الفقهاء بحفظ شىء منها؛بل يذكروا كلام الشيوخ السابقين تأدّبا معهم،و تبرّكا بهم.فأجاب جمال الدين عبد الرحمن بن الجوزى الحنبلى بالسمع و الطاعة.

1- (1) كرد على:الحضارة الإسلامية.

2- (2) انظر:عبد المتعال،الصعيدى،فى ميدان الاجتهاد ص 7.

فيما كان نهج الشيعة منذ صدر الإسلام حتى يومنا هذا يقوم على إثبات مذهبهم بالأدلة المنطقية،و الكتابة العلمية،و كان مدار الإمامة و مصطلحاتها الفنية من أكبر ما اهتموا به لأنها من أركان الدين،و هى أصل إقامة المجتمع و مصدر بناء هيئاته،و هم الذين قسّموا علمها،و بوّبوا أبوابه،و عيّنوا مجاله،و رسموا حدوده (1).

و كان للشيعة بتلك العصور ألمع الشخصيات الإسلامية كهشام بن الحكم، و كان يرأس مدرسة فكرية إسلامية أخذ تعاليمها من أستاذه الإمام الصادق عليه السّلام و يقول فيه ابن النديم:أنه هو الذى فتق الكلام فى الإمامة،و هذّب المذهب،و سهّل طريق الحجاج.و كان حاذقا بصناعة الكلام،حاضر الجواب (2).و من جرّاء شهرته فى الكلام مع علوّ رتبته بالفقه و سائر العلوم،فقد تحاملوا عليه،و نسبوه إلى سوء الاعتقاد،كما طاردته السلطة أيام هارون الرشيد،فهرب و مات متخفيا.و هكذا غيره من فلاسفة الشيعة و علمائها الذين امتحنوا فى سبيل عقيدتهم أمثال:مؤمن الطاق محمد بن النعمان،و أبو يوسف الكندى،و بنى نوبخت،و الرازى،و الهمدانى و غيرهم من متكلمى الشيعة و فلاسفتهم.و كان اشتهارهم بعلم الكلام مهّد لأعدائهم أن يتّهموهم بسوء الاعتقاد،و البدعة و الكفر،و هذه البدعة هى بدعة سياسية،لإن مخالفتهم لنظام الحكم السائد جعلتهم مبتدعة فى نظر أعوان السلطة.و نتيجة لذلك التعصّب الأعمى شاعت الافتراءات،و موّهت فى إطار فقهى أو مذهبى.لأن الشيعة التزموا نهج أهل البيت كأئمة هداة و صفوة معصومة تمثّل الرسالة فى أصولها و المبادئ فى نقائها.و الذين كان نصيبهم الاضطهاد و الظلم،و الابتعاد عن السلطة التى انجرّت إلى القيم الدنيوية و المادية.فوضعت السلطة مخططا لمواجهة التيار الذى يمثل الالتزام بخط أهل البيت،و التخلص من رجالات الشيعة و أفكارهم بكل السبل، سواء كانت بالقتل و الاعتداء،أو التحريف و قلب الحقائق،و العمل على نبذ كل ما يمتّ لهم بصلة.فوصل الأمر بالمتفقّهين إلى الدعوة إلى ترك أحكام الشرع إذا كانت تشبه أحكام الشيعة.فعلى سبيل المثال لا الحصر:

1-قالوا:و من المصلحة أن يمنع المصلى عن اختصاص جبهته بما يسجد عليه

1- (1) النظريات السياسية الإسلامية ص 81-82.

2- (2) الفهرست ص 249-250. [1]

من أرض و غيرها لأن ذلک الاختصاص من شعار الشيعة (1).

2-حکم بعضهم بأفضلية المسح على الخفّين بدون دليل،و إنما کان ذلک الحکم،لأن الشيعة طعنوا فی المسح على الخفّين،و إحياء ما طعن فيه المخالفون من السنن أفضل من ترکه (2).

3-يقول ابن تيمية فی منهاجه-عند بيان حرمة التشبه بالشيعة-:و من هنا ذهب من ذهب من الفقهاء إلى ترک بعض المستحبّات.إذ صارت شعارا لهم(الشيعة)فإنه و إن لم يکن الترک واجبا لذلک،لکن فی إظهار ذلک مشابهة لهم،فلا يتميّز السنّی من الرافضی،و مصلحة التميز عنهم لأجل هجرانهم و مخالفتهم أعظم من مصلحة المستحب.و إن هذا لمن الإفراط فی الانحراف و الغفلة عن أکبر خطأ يرتکب فی ترک أوامر اللّه سبحانه.

و لا زالت الحالة هذه تشقّ طريقها حتى فی العصور المتأخرة،کما يحدثنا الشيخ القاسمی عنهم بقوله:

«يدرّس کثير من العلماء للطلبة فی المساجد،و هؤلاء المدرّسون ندر من يکون منهم غير متعصب أو لا يوجد،و لذلک لا تخلو المساجد العامة التی يکثر مدرّسوها من ثورات تتناقلها الأفواه،و ما منشؤها إلا التعصب،و هاک بيان ذلک:نری مدرّس الفقه غير الحکيم يقرأ الفروع قراءة مشوبة بهضم المخالف لمذهبه و عدم رؤياه بشیء، و عدم الاعتداد بمذهبه کليا إلا ظاهرا،فلا ينصرف تلامذته من دراسة إلا و هم مملوءون قوة بها،يدفعون من خالفهم فی تلک الفروع،و قد يرون بطلان ما عليه غيرهم.کما يعلّمونه کراهة الاقتداء بالمخالف،مما يتبرّأ منه هدی السلف و الأئمة المتبوعين عليهم الرحمة و الرضوان.و کما يحاولون دليلا ضعيفا فی مقابلة قوی کمرسل فی مقابل مسند،و إيثار ما رواه غير الشيخين على ما رويا مما يتبرّأ منه الإنصاف» (3).

و على أی حال فإنّ التعصب المذهبی قد أحدث مظاهر شاذة فی المجتمع الإسلامی،و ولّد مراحل سوداء،سادتها ظروف سيئة و متباينة،و قد رأينا ما أحدث

1- (1) انظر غاية المنتهی فی الجمع بين الإقناع و المنتهی ج 1 ص 135.

2- (2) نيل الأوطار ج 1 ص 176.

3- (3) إصلاح المساجد ص 164.

التعصب من فرقة و انقسام بين صفوف أمة واحدة ذات كتاب واحد و نبى واحد،و لكنه -و الحمد للّه-لم يبلغ الخلاف إلى مستوى العقائد الأساسية التى هى دعامة الإسلام و ركيزة وحدة الأمة.و رغم أن روح التعصّب و نزعات التحكّم قد أدّت إلى اختلال القيم و تشويه المبادئ من خلال إخضاعها للأهواء و التعصب و التحزب؛فإن روح الحرص و الإيمان بقيت تواجه حملات التضليل و تيارات الانقسام،فراح الكثيرون من علماء هذه الأمة و رجالاتها ينبذون الخصومة،و يرفضون التحزّب و إثارة روح الحقد، و يتمسّكون بروح الإخاء إطاعة لأمر اللّه و عملا بمبادئه،و يبثّون روح التفاهم،لتنمو من جديد.و عملوا جاهدين لحفظ تراث الإسلام،و إزالة كل ما يحول دون التقاء أبنائه على صعيد الأخوة الإسلامية.

و لو حاول مثير و الفتنة الاحتكام إلى مبادئ الإسلام و إلى روح الرسالة فيما يدّعون من أمور و مسائل،لباءت حملاتهم و تحرّكاتهم بالفشل و الخسران.لكنّهم توسّلوا بأمور اختلفوها،و نصوص أوّلوها لترضى مراميهم و أغراضهم؛فضاعت فى غمرة الفهم و التقوّلات أسس و أصول الحياة التى أرسى دعائمها الإسلام،فكان من البديهى أن يكون الجمود الفكرى غطاء لموجات التعصّب و التحزّب التى أحالت الألفة إلى تناحر،و الأخوّة إلى عداء.

و من تلك المشاكل مسألة خلق القرآن.و قد أشرنا لها سابقا،و زيادة فى البحث نذكر هنا بعض ما تدعو الحاجة لذكره:

2-خلق القرآن

تأثر المأمون بحركة العلوم التى كانت سائدة فى عصره،و كانت حالة الأمة الفكرية قد اتسمت بخصائص و ظواهر مهمة،أثرت فى السياسة من خلال شخصية الحاكم الذى نشأ و ميله إلى العلوم ينمو معه،حتى تفرّد بمواقف تكشف عن وعى و تصوّر خضوعا للمنطق،و إذعانا للحق،خاصة فى الأمور و الأحداث التى اكتنفت مسيرة الخلافة منذ قيام نظام الخلافة.

و كان من أبرز جوانب الحياة الفكرية،ظهور تيارات و اتجاهات كلامية و عقلية اهتمّت بعقائد و أديان الأمم الأخرى،التى راحت بقاياها تكيد للإسلام.فتعرّف المسلمون على مضامين و مناهج النشاطات المعادية،و تمثّلوها،و صاغوها.فماجت مواطن الفكر الإسلامى بدراسات و أصناف من العلوم،عبّرت عن قدرات العلماء و المتكلمين الإسلاميين،فأسهموا مساهمة كبرى فى ردّ كيد الأعداء إلى نحورهم، و مناجزتهم بنفس السلاح الذى أشهروه بوجه الإسلام.

و لمّا تسلّم المأمون سدّة الحكم-بعد الأحداث الدامية المعروفة-مال بالنظام إلى الجهة التى تنسجم مع ميوله،و تناسب ما نطلق عليه«الحركة الفكرية»حيث غلبت صفة البحث و الطابع العلمى،فكان المعتزلة فى هذه الفترة من أبرز المناظرين و أنشط المتكلمين،فكانوا أصحاب جدل و أنصار رأى.غير أنهم فى الفقه و الأصول لم يتفقوا على قواعد ثابتة،لذلک لم يخرجوا من تيار الجدل و النظريات،و قد حسبوا كثيرا على الشيعة،بل أن البعض نظر إلى الأمر معكوسا و تناسى أصول الشيعة و وجودها التأريخى الذى يسبق ظهور المعتزلة.و ظل الالتباس قائما حتى اليوم من جرّاء اشتراک المعتزلة مع الشيعة فى بعض الخصائص الفكرية:من اهتمامهم بالعقل،و رعايتهم

الفكر.و قد أسهم المأمون نفسه فی إثارة القضايا التی تخصّ عقيدة الشيعة،منها:

مسألة الخلافة،و الأحقّيّة و الأفضلية؟و لكن العمل السياسی كان يتمثّل فی الموقف من العلويين،و إرساء قواعد الحكم علی أساس رضا الناس و قبولهم النظام العباسی عن قناعة،بعد أن فضحت سياسة السابقين من آبائه خدعة الدعوة إلی الرضا من آل محمد،و كيف كشّر العباسيون عن أنياب حقد أشدّ و أدهی علی العلويين من حقد الأمويين.فكان أن حمل المأمون العلويين من المدينة و فيهم الإمام الرضا علی بن موسی،و جاء بهم إلی خراسان.و كان غرضه شخص الإمام الرضا عليه السّلام فأنزل العلويين دارا،و أنزل الإمام الرضا دارا و أكرمه و عظم أمره.

و اختار المأمون أن يعلم الإمام الرضا بقصده من وراء ذلک عن طريق الوسطاء، و ادّعی أنه يريد أن يخلع نفسه من الخلافة و يقلّدها إلی الرضا عليه السّلام و كل الدلائل تشير إلی كذب هذا الادعاء.فالمأمون حاكم لم يتورّع عن قتل أخيه فی سبيل كرسی الخلافة،و لا يمكن بأی حال أن يخرج عن أهم قواعد الحكم الجائر،و يتخلّص من كره آل علی،و إن ادعی ذلک و جاهر بأنه وجد أن العباسيين قد ظلموا و غصبوا آل علی حقهم.هذا من جهة،و من جهة ثانية فإن الإمام الرضا فی سيرته و وجوده،هو امتداد حی و استمرار متوقّد لسيرة ابن الشهيد الإمام موسی بن جعفر،لم يحفل بالدنيا،و لم تبعده نوائب الدهر عن أمور دينه و رعاية أهل الإسلام بالدعوة إلی التمسّک بالعقيدة و الاتجاه إلی الإخلاص فی الدين.

و إن قدّر المأمون بعض نظرة الإمام الرضا إلی السلطة السياسة من حيث تصنيفات الواقع،فليس من السهولة بمكان تناسی حقائق التاريخ الأسود للعباسيين و فظائعه.

و يروی الشيخ المفيد-قدس سره-فی الإرشاد،أن الإمام الرضا أنكر هذا الأمر و قال:«أعيذک باللّه يا أمير المؤمنين من هذا الكلام،و أن يسمع به أحد»فردّ عليه الرسالة:فإذا أبيت ما عرضت عليک،فلا بد من ولاية العهد من بعدی.فأبی عليه الرضا أباء شديدا.فاستدعاه،و خلا به و معه الفضل بن سهل ذو الرئاستين،ليس فی المجلس غيرهم و قال:إنی قد رأيت أن أقلّدک أمر المسلمين،و أفسخ ما فی رقبتی و أضعه فی رقبتک.فقال له الرضا عليه السّلام:«اللّه اللّه يا أمير المؤمنين،إنه لا طاقة لی بذلک،و لا قوة لی عليه..»قال له:فإنی مولّيک العهد من بعدی.فقال له:«اعفنی

من ذلک یا أمیر المؤمنین».فقال له المأمون کلاما فیه تهدید له علی الامتناع علیه، و قال فی کلامه:إن عمر بن الخطاب جعل الشوری فی ستة أحدهم جدّک أمیر المؤمنین علی بن أبی طالب علیه السّلام و شرط فیمن خالف منهم،أن یضرب عنقه،و لا بد من قبولک ما أریده منک،فإننی لا أجد محیصا عنه.

فکان جواب الإمام الرضا أبلغ تعبیر عن فهم البواعث التی وراء مثل هذا الأمر، و خیر ردّ یعرّی الخطة التی ترمی إلی ترمیم کیان الظلم بالإساءة إلی نهج آل البیت، و محاولة ثنیهم عن الابتعاد عن الرکون إلی الظلمة،و جهادهم للإبقاء علی سلطان الدین فی روحانیة النفوس و علاقات المجتمع.و لما لم یجد الإمام الرضا أمامه إلا سیف الحکام قال للمأمون:«فإنی أجیبک إلی ما تریده من ولایة العهد علی أننی لا آمر و لا أنهی،و لا أقضی،و لا أولی و لا أعزل،و لا أغیّر شیئا مما هو قائم».فأجابه المأمون إلی ذلک کله،لکی یحقق الغرض السیاسی الذی أراده،و زیّن له و همه ذلک، فظن أن خدعة ولایة العهد تنطلی علی الناس فیما جعلها فارغة لیست بشروطه التی عوّل علیها،بل بشروط الإمام الرضا.

و علی هذا المنوال،عالج الجانب الفکری و الحیاة العقلیة النشطة،فأقحمها فی دوائر السیاسة و الحکم،و جعل رجال الفکر و أصحاب الاتجاهات العقلیة-التی یفترض فیها ممارسة الدفاع عن الرأی-أعمدة للتحکم،فأوقع الحرکة الفکریة فی تناقض.و هکذا استطاع المأمون أن یستفید من میوله و اهتماماته،و یؤثر فی أولئک الذین ارتضوا أن یکونوا جزءا من السلطة علی ما هم علیه من صفات و سمات فکریة، تجعلهم من أهل العدل.

فی سنة 212 ه أظهر المأمون القول بخلق القرآن،و تفضیل الإمام علی بن أبی طالب علیه السّلام و قال:هو أفضل الناس بعد رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم (1).

و فی سنة 218 ه أعلن وجوب الاعتقاد بخلق القرآن،و أنه حادث غیر قدیم، و ذلک لنفی التشبیه عن ذات اللّه،و نفی الصفات عن الذات العلیة،لئلا تتصف الذات بما یعددها.و نفی المعتزلة و من وافقهم من المسلمین الاعتقاد بقدم الصفات کقدم

1- (1) الطبری ج 10 ص 279. [1]

الذات،لأن الذات هی وحدها متّصفة بالقدم،و من أجله کانت الصفات محدثة ظاهرة فی الغیر،و الکلام محدث،و القرآن محدث لأنه من الکلام.

و لجأ المأمون إلی استخدام القوة لفرض هذا الرأی،و أعدّ لسیاسته فی هذا المجال العدة زمنا طویلا،و نصب دیوانا للمحنة،و حمل الناس علی هذا الاعتقاد، و محاربة من یقول بأن القرآن قدیم.لأنه من صفات اللّه،و الذین لم یروا بدّا من إثبات الصفات للذات و إنها قدیمة قدمها الخ...

فحصل الانقسام،و عقد مجلس للامتحان،و اختارت الدولة له أشد الناس جدلا من المعتزلة و غیرهم،کما اختار جماعة من الجلاّدین الأشداء الجفاة الذین مرنوا علی الضرب بالسیاط،و الحراس الغلاظ،و جعل فی الدیوان عقابا لکل ممتنع عن الأقرار(و تبتدئ العقوبة بالحرمان من الحق-الذی نسمیه فی حیاتنا-بالحق المدنی فی الحیاة،و تنتهی بخشبة الصلب،فإذا لم یکن للرجل رزق و وظیفة عوقب عقوبة بدنیة بقدر ما یمتنع عن الإجابة أو یحتال فی الإنکار،أو یصطنع الخلاص) (1).

و هنا لا بد من الإشارة إلی التقاء المعتزلة مع الشیعة فی القول فی کون کلامه تعالی لا یکون إلا بکلام محدث،لأن حقیقة المتکلم من وقع منه الکلام الذی هو هذا المعقول بحسب دواعیه و أحواله،و الکلام المعقول ما انتظم من حرفین فصاعدا من هذه الحروف المعقولة التی هی ثمانیة و عشرون حرفا،إذا وقع ممن یصح منه أو من قبیل الإفادة.و الدلیل علی ذلک أنه إذا وجدت هذه الحروف علی هذا الوجه سمّی کلاما،و إذا اختلّ واحد من الشروط لا یسمی بذلک.فعلمنا أنه حقیقة الکلام،و متی ما وقع ما سمیناه کلاما بحسب دواعیه و أحواله سمی متکلما،فعرفنا بذلک حقیقة المتکلم (2).

و لکن الشیعة لا یطلقون صفة«مخلوق»علی القرآن،فکانوا أکثر حرصا علی التنزیه و قالوا:ینبغی أن یوصف کلام اللّه بما سمّاه اللّه تعالی به من کونه محدثا،قال اللّه تعالی: ما یَأْتِیهِمْ مِنْ ذِکْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ .و قال عز و جل: وَ ما یَأْتِیهِمْ مِنْ ذِکْرٍ مِنَ الرَّحْمنِ مُحْدَثٍ .

1- (1) عبد العزیز سید الأهل،شیخ الأمة أحمد بن حنبل ص 218.

2- (2) الشیخ الطوسی،الاقتصاد ص 65-67. [1]

و الـذكر هو القرآن بدلالـة قوله تعالى: وَ أَنْزَلْنا إِلَيْکَ الـذِّكْرَ و قوله تعالى: إِنّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَ إِنّا لَهُ لَحافِظُونَ .و قد روى عن الإمام الصادق عليه السّلام قوله:«القرآن محـدث غير مخلوق و غير أزلى مع اللّه سـبحانه».كمـا ورد عن غيره من أئمـة الهـدى النهى عن جعل اسم آخر للقرآن غير ما ورد عن اللّه.

لقد وصف الشيعة القرآن بما وصفه اللّه تعالى،فقالوا عربى لقوله تعالى:

بِلِسـانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ و العربيـة محدثـة.و منعوا وصـفه بـأنه مخلوق،لأـنه يوهم بـأنه مكـذوب أو مضاف إلى غير قائله،لأنه كالمعتاد من هـذه اللفظـة،قال اللّه تعالى: إِنْ هـذا إِلاّ اخْتِلاقٌ و: إِنْ هـذا إِلاّ خُلُقُ الْأَوَّلِينَ .و قال تعالى: وَ تَخْلُقُونَ إِفْكاً فنرى أن وصف الكلام بالخلق يأتى إذا أريد به الكذب أو الانتحال،كما يقولون هذه قصيدة مخلوقة و مختلقة،إذا كانت منتحلة مضافة إلى غير قائلها (1).

أما الأشـعرية فيقولون إن الصـفات التى أنيطت بها الأقوال و ابتنيت عليها المسألـة هى صـفات معنوية،و هى صـفات زائدة على ذاته،و بيان وجوب المشـكلة يقتضـى التفصـيل،و نحن نقصـد هنا الإشارة و ذكر إحـدى القضايا التى نجم عنها أضـرار و فرقـة اسـتمرت قرونا عديـدة بآثارها،و توارثها حتى اليوم خلق عن أسلاف أورثوهم التعصب،و راحوا يستهزءون بما منّ اللّه عليهم من عقل و إدراك،و يؤثرون الجمود و التوقف عن النمو.

و القصـد فـإن المأمون أظهر من ألوان الاعتماد على المعتزلـة و تقريبهم،ما جعلهم أعلى الناس مكانـة و أوفرهم حظا،و خضـعت مجالس المناظرات و النقاش لأهواء الحاكم،فكان مدارها المواضيع التى يرغب بها المأمون.و لا جدال فى تبنى المأمون لفكر المعتزلة،لكن نزعات الحاكم أو السلطان قد تغلبت على شخصية التلميذ أو ميول المتعلم،بل جعلها مادة للسياسة.

و المؤسف المؤلم أن توضع عناصـر الغنى الفكرى و مناهج البحث فى خدمة أغراض السـلطان،و تصـبح من أسباب التدهور،و من وسائل الحاكمين و المتنفـذين، فتؤدى إلى نتائـج و عواقب لا تليق بالفكر الحر و العقل النير.و مع ما اتصف به المأمون من إلمام و دراية،فإن كتابه السلطانى الذى أصدره سنة 218 ه كان فى حقيقة أمره

1- (1) أيضا نفس المصدر.

تصـرفا إداريا لا يختلف بشـيء عن بقيـة إرادات الحكام،و لكنه تضـمّن أفكار المعتزلة و آراءها،مما أساء إلى أهدافهم الأخرى التى تتصـل بالعقل و حرية الفكر.

أما تنزيه اللّه سـبحانه و تعالى عن الصـفات التى يتصف بها المخلوقون،فالقرآن عندهم مخلوق و ليس بقديم،فاللّه وحده قديم،و ما ورد فى القرآن هو كلام اللّه، و لكن عندهم أن الكلام لا يمكن أن يكون صـفة للّه تعالى هى ذاته كالعلم و القدرة، و أنكروا أن تكون الصفات أشياء و ذواتا قديمـة قائمـة وراء الذات،لأن هذا يؤدى إلى تعدد القدماء،لذا فإن الذات و الصـفات شـيء واحد.و يردّ الفلاسـفة أن ذلک بعيد من المعـارف،بـل يظن أنه مضادّ لها،و ذلک أن العلم يجب أن يكون غير العالم،و إنه ليس يجوز أن يكون العلم هو العالم إلا إذا جاز أن يكون أحد المتضايفين قرينة مثل أن يكون الأب و الابن معنى واحدا بعينه (1)بالنسبة لعقيدة الثالوث.

و أدت السـياسة إلى أن يكون ذلک مثار فتنة شـملت أيام المأمون و المعتصم و الواثق،و حصـلت من ورائها فرقة و تباعد،و وصل الأمر إلى أن من يذهب إلى قدم القرآن يكفّر من يقول بأنه مخلوق،و ذلک فى عهد المتوكل،حيث ارتد عن تلک السـياسة إلى منحى آخر،بعد أن كان بعض القضاة يسأل الشاهد عن هذه القضية،فإن أقر بأنه مخلوق قبلت شهادته و إلا ردّها (2).

ثم أفتى-بعضـهم و بتأثير السـلطة-بوجوب قتل من يقول بخلق القرآن،و بـديهى أن هذا المفتى لم يسـتند بفتواه إلى دليل عقلى أو نقلى،بل كان مسـتندا إلى أمر تافه، و ذلک أنه عنـد ما سـئل عن دليل هـذه الفتوى أجاب:أن رجلا رأى من منامه إبليس قـد اجتاز بباب المدينـة و لم يدخلها،فقيل لم لم تدخلها؟قال إبليس:أغنانى عن دخولها رجل يقول بخلق القرآن (3).

و نظير هذا ما حدثنا به التاريخ عن المهدى العباسـى عند ما دخل عليه شـريک بن عبد اللّه القاضـى،فلما رآه المهدى،قال:علىّ بالسـيف و النطع.قـال شـريک:و لم يـا أمير المؤمنين؟قـال:رأيت فى منـامى كأنک تطأ بساطى،و أنت معرض عنى، و قصـصت رؤياى على من عبّرها فقال:إنه يظهر لک طاعة،و يضمر لک معصية ما.

1- (1) ابن رشد،الكشف عن مناهج الأدلة فى عقائد الملة ص 84-85. [1]

2- (2) الكندى،كتاب القضاة ص 447. [2]

3- (3) الاعتصام للشاطبى ج 1 ص 262.

فقال له شـريک:و اللّه ما رؤياک برؤيا إبراهيم الخليل،و لا كأن معبّرک بيوسف الصديق،فبالأحلام الكاذبة تضرب أعناق المؤمنين؟فاستحى المهدى و قال:أخرج عنى.ثم صرفه عن القضاء و أبعده (1).

و مرّت مشكلة خلق القرآن عبر التاريخ تتوارثها الأجيال،و استغل الحنابلة ميول بعض الأمراء إليهم فراحوا يوقعون المكروه بمن يخالفهم،و قد اسـتمالوا الملک الأشـرف فأصـبح يعتقد بأن من يخالف عقيدة الحنابلة فهو كافر حلال الدم،و أصـبح هذا الاعتقاد هو الاعتقاد الرسمى (2).

و كـان العز بن عبـد السـلام المتوفى سـنة 660 ه من العلمـاء المبرزين،و من الـدعاة إلى التحرر من نير التقليـد الأـعمى،و كـان أشـعرى العقيدة،فتقدم الحنابلة إلى الملک الأشرف بأن الشيخ العز زائغ العقيدة،منحرف عمّا صحّ من العقائد الدينية الصحيحة،و أن الدين الذى هم عليه هو اعتقاد السلف و الإمام أحمد و فضلاء أصحابه،و على هذا الاعتقاد الذى فرضه السلطان يقول الرستمى:

الأشعرية ضلاّل زنادقة إخوان من عبد العزّى مع اللات

بربّهم كفروا جهرا و قولهم إذا تدبّرته أسوأ مقالات

ينفون ما أثبتوا عودا لبدئهم عقائد القوم من أوهى المحالات

(3)و قد امتحن العز بن عبد السلام و غيره ممن يخالف الحنابلة فى شىء من الاعتقاد،و كانت السلطة هى العامل الوحيد فى بعث نشاطهم و امتداد حركاتهم،و بها ينتصـرون على خصومهم الذين نبذوا الجمود و آثروا التدبّر و الاحتكام إلى القرآن و السنّة،فالشيخ عز الدين بن عبد السلام إنما كان غرضا لهم لما عرف عنه من أقوال و مواقف ثابتة تغاير ما يدعون إليه-و قد ذكرنا بعض أقواله-و التى نذكر منها قوله:

(و من العجب العجيب أن الفقهاء المقلدين يقف أحدهم على ضـعف مأخذ إمامه بحيث لا يجد لضعفه مدفعا،و هو مع ذلک يقلده فيه،و يترک من شهد الكتاب و السنّة

1- (1) المصدر السابق.

2- (2) هامش ذيل تذكرة الحفاظ ص 263.

3- (3) المصدر السابق.

و الأقيسة الصحيحة لمذهبهم جمودا على تقليد إمامه،بل يتحيل لدفع الكتاب و السنّة و يتأولها بالتأويلات البعيدة الباطلة نضالا عن مقلّده).

و فى بغداد جلس أحد الحنفية المقربين عند السلطان بجامع القصر و جامع المنصور،و أخذ يلعن الأشعرى على المنبر و يقول:كن شافعيا و لا تكن أشعريا،و كن حنفيا و لا تك معتزليا،و كن حنبليا و لا تكن مشبّها،و أخذ يذم الأشعرى و يمدح المذاهب الأربعة (1).

و شاعت الاتهامات بالباطل،و مضى الحنابلة فى نشاطهم،فارتكبوا أعمال الفتك بمن لم يكن على عقيدتهم لأنه عندهم كافر حلال الدم استنادا إلى فتوى أحمد بن حنبل،فقد جاء عنه أنه يذهب إلى كفر من يقول بخلق القرآن،و سئل يوما عن رجل وجب عليه تحرير رقبة مؤمنة و كان عنده مملوك يقول بخلق القرآن؟فقال:

لا يجزى،لأن اللّه تبارك و تعالى أمر بتحرير رقبة مؤمنة و ليس هذا بمؤمن هذا كافر (2).

و قال أبو الوليد:من قال:القرآن مخلوق فهو كافر،و من لم يعقد عليه قلبه على أن القرآن ليس بمخلوق فهو خارج عن الإسلام (3).

و قال على بن عبد اللّه:القرآن كلام اللّه،من قال أنه مخلوق فهو كافر لا يصلّى خلفه.

و قال أبو عبد اللّه الذهلى المتوفى سنة 255 ه:من زعم أن القرآن مخلوق فقد كفر،و بانت منه امرأته،فإن تاب و إلاّ ضربت عنقه،و لا يدفن فى مقابر المسلمين، و من وقف و قال:لا أقول مخلوق:و قد ضاهى الكفر،و من زعم أن لفظى بالقرآن مخلوق فهو مبتدع،و لا يدفن فى مقابر المسلمين.

و سئل أحمد بن حنبل عمن قال:لفظى بالقرآن مخلوق.فقال:هذا لا يكلّم و لا يصلّى خلفه،و إن صلّى أعاد.و ان لا يسمح لأصحابه بالسلام على من يخالفه فى رأيه.

1- (1) المنتظم ج 9 ص 107. [1]

2- (2) ذيل طبقات الحنابلة ج 1 ص 133.

3- (3) ابن العماد،شذرات الذهب ج 2 ص 322. [2]

و على أى حال،فإن مشكلة القول بخلق القرآن-كما مرت الإشارة إليها-بلغت حدّا يستغرب فيه الإنسان وقوع تلك الأحداث المؤلمة فى زمن اشتدت الصراعات فأصبحت فيه مقياسا يقاس به إيمان المرء و كفره،و بهذا انعطفت موجة الصراع المذهبى نحو مرحلة جديدة من الخلاف،خلّفت وراءها مادة أخرى،و محورا جديدا تدور عليه مشاكل الأمة فى خلافاتها المتواصلة.

و فى عهد المتوكل العباسى،عند ما أفل نجم المعتزلة،و أفلت منهم زمام الحكم،و انحازت السلطة لجانب أهل الحديث و هو الجانب المعارض الذى يمثله جماعة أحمد بن حنبل،فانصبّ الغضب على المعتزلة بعد أفول نجمهم،و استغل دعاة الفرقة فرصة انتصار جانب المعارضة،و طلوع نجم أحمد بن حنبل باعتباره من الشخصيات المعارضة للدولة فى فرض القول بخلق القرآن.

فكثر أتباع هذا الجانب،و ظهرت الضغائن،و نبشت الدفائن،و سارت جموع مختلفة الاتجاهات،متباينة القوميات فى ركاب اتباع أحمد بن حنبل إذ كان لهم دور السلطة فى الدولة،و قد تجاوزوا أقصى حدّ فى العقوبة و الانتقام ممن خالفهم و بالأخص من المعتزلة و الشيعة لعنا و قتلا و تكفيرا،و تمادوا فى مهاجمة المعتزلة حتى قالوا:أن المعتزلى لا تجوز الصلاة عليه،و أن دماءهم حلال للمسلمين،و فى أموالهم الخمس،و ليس على قاتل الواحد منهم قود و لا دية و لا كفارة،بل لقاتله عند اللّه القربة و الزلفى (1).

و قد ابتعدوا عن كل مبادئ العدالة،و خالفوا قواعد العلم مع المنطق،ففى سنة 323 ه أحرق الحنابلة فى الكرخ طرف البزازين،فذهبت فيه أموال كثيرة للتجار، و أطلق لهم الراضى ثلاثة آلاف دينار،و كان العقار لقوم من الهاشميين،فأعطاهم عشرة آلاف دينار،و احترق ثمانية و أربعون صنفا من أسواق الكرخ طرح فيه النار قوم من الحنابلة،حيث قبض بدر الخرشى على رجل من أصحاب البربهارى يعرف بالدلاّل،و احترق خلق من الرجال و النساء (2).

و خلفت الانفعالات و حالات التعصب و الجهل جنودا و أبطالا ماهرين فى الأذى

1- (1) انظر الفرق بين الفرق ص 151. [1]

2- (2) تكملة تاريخ الطبرى ص 93.

و شـجعانا فی الأضرار.و فی هذا الخضمّ استبیحت الدماء و الأموال ففی سنة 495 ه قدم بغداد عیسی بن عبد اللّه الغزنوی،فوعظ الناس–و کان شافعیا أشعریا–فوقعت فتنة بین الأشعریة و الحنابلة (1)إذ لا یروق لهم أن یکون أشعری أو شافعی بوظیفة الوعظ فی تلک الأیام.فهاجوا لذلک،و وقعت الفتنة،و وقع فیها حریق ببغداد.

و فی سـنة 513 ه دخل أبو نصـر القشـیری بغـداد،فوعظ بها،فثارت الحنابلـة و وقعت فتنة بینهم و بین الشافعیة،و أخرج القشـیری من بغداد (2).و فی خوارزم أحرق الحنابلة جامعا عظیما فی مرو بناه نظام الدین مسعود بن علی المتوفی سنة 596،بناه للشافعیة،فحسدتهم الحنابلة و أحرقوا الجامع.

یقول أبو حامد الغزالی المتوفی سنة 505 ه:و قد سلمت المدارس لأقوام قل من اللّه خوفهم،و ضعفت فی الدین بصیرتهم،و قویت فی الدنیا رغبتهم،و اشـتدّ علی الاسـتتباع حرصـهم،و لم یتمکنوا من الاسـتتباع و إقامة الجاه إلا بالتعصب،فحبسوا ذلک فی صدورهم،و لم ینبهوهم علی مکایـد الشـیطان فیه،بل نابوا عن الشـیطان فی تنفیـذ مکیدته،فاسـتمرّ الناس علیه،و نسوا أمهات دینهم.فقد هلکوا و أهلکوا،فاللّه تعالی یتوب علینا و علیهم.

و قال ابن کثیر و هو فی واقعه و حقیقته من کبار علماء الحنابلـة رغم صـبغة الشافعیـة بعـد ذکره لهذا الحادث فی تاریخه:(و هذا إنما یحمل علیه قلة الدین و العقل).

و الواقع أن قضـیة خلق القرآن،هیـأت للحنابلـة عهـدا بعث لهم النشاط فی أعمالهم التی لا تـدخل تحت نطاق الـدین،و لا تخضع لحکم العقل،لأنهم قاموا بـدور الغوغاء من الهمجیة فی کثیر من القضایا،فقد کمّوا أفواه العلماء بغوغائهم من الردّ علیهم.خذ مثلا قضـیة الشـریف عبد الخالق بن عیسی شیخ الحنابلة عند ما توفی و أراد العوام أن ینبشوا قبر أحمد بن حنبل و یدفنوه معه،و لم یستطع أحد من العلماء أن یردّ علیهم و یمنعهم عن نبش القبر،فقال أبو محمد التمیمی من بین الجماعة:کیف

1- (1) راجع الطبری 286/10 و ابن طیفور 181 و 182.

2- (2) راجع ابن کثیر ج 12 ص 162. [1]

تدفنونه فی قبر أحمد و ابنة أحمد مدفونة معه؟فإن جاز دفنه مع الإمام،لا یجوز دفنه مع ابنته.فقال بعض العوام:أسکت فقد زوّجنا بنت أحمد من الشریف،فسکت التمیمی و دفنوه مع أحمد فی قبره (1).

و نشط العوام فی شذوذهم،فقابلوا حملة الفکر،و علماء الأمة بالعنف، و عاملوهم بالغلظة،و حجبوهم عن الاتصال بالمجتمع.

فهذا محمد بن أحمد المعتزلی الفیلسوف المتکلم،لزم داره مدة من السنین، لم یستطع الخروج لأنهم غضبوا علیه.

و الحافظ أبو نعیم صاحب الحلیة المتوفی سنة 430 ه تعصّب الحنابلة علیه، فهجره الناس خوفا منهم.

قال محمد بن عبد الجبار:حضرت مجلس أبی بکر بن علی المعدّل،و کان بین الأشعریة و الحنابلة تعصّب زائد،فقام إلی ذلک الرجل أصحاب الحدیث بسکاکین الأقلام،و کاد أن یقتل (2).

کما أنهم رجموا أبا الفرج الأسفرایینی الواعظ فی الأسواق مرات عدیدة، و أظهروا لعنه و سبّه لأنه لم یکن منهم.کما تعصبوا علی الفقیه جعفر بن محمد الشافعی الموصلی و کان مقدما عند السلطان،فحسدوه،و کتبوا محضرا نسبوه لکل قبیح،فنفی من الموصل سنة 323 ه.

و لقی ابن عساکر شیخ الشافعیة المتوفی سنة 620 ه من الحنابلة أذی کثیرا، تعصبا علیه و تحدّیا لمقامه،و کان یتجنّب المرور بهم خشیة إیقاع المکروه به منهم.

و کان ابن قدامة عالم الحنابلة بدمشق یذهب إلی عدم إسلام ابن عساکر،لأنه یقول بالکلام النفسی،فلا یرد السلام علیه (3).

و کذلک الخطیب البغدادی المتوفی سنة 463 ه تحامل علیه الحنابلة و اتهموه بالمیل إلی المبتدعة،و یقصدون المبتدعة المتکلمین و الأشاعرة،و قد حملهم التعصب

1- (1) شذرات الذهب ص 337. [1]

2- (2) تذکرة الحفاظ ج 3 ص 277.

3- (3) طبقات الشافعیة ج 5 ص 69.

فقالوا:إن الكتب التى تنسب إليه ليست له،و إنها للصولى،فسرقها و نسبها لنفسه (1).

و اتسع نشاطهم فعمّت الفوضى فى البلاد،و ذلک فى عهد الراضى،فأصدر منشورا يردّ عليهم و يعدّد مساوئهم،و يهدّدهم بالعقاب،و النكال.و جاء فى المنشور الذى وجهه إليهم قوله:

و قد تأمل أمير المؤمنين أمر جماعتكم،و كشفت له الخبرة عن مذهب صاحبكم.... (2)زيّن لحزبه المحظور،و يدلى لهم حبل الغرور،فمن ذلک تشاغلكم بالكلام فى ربّ العزّة تباركت أسماؤه،و فى نبيّه و العرش و الكرسى، و طعنكم على خيار الأمة،و نسبتكم شيعة أهل بيت رسول اللّه إلى الكفر و الضلال، و إرصادهم فى الطرقات و المحال،ثم استدعاؤكم المسلمين إلى التدين بالبدع الظاهرة و المذاهب الفاجرة التى لا يشهد بها القرآن.إلى آخر ما يتضمنه المنشور من تعداد مساوئ تلک الخصال،و التهديد لهم بالعقوبة و عظيم النكال.

إذن،تمكّن التعصب من نفوس العامة،و اشتدّ أمر الحنابلة،و كان منهجهم يتّسم بالعنف،و التعدى على كل من خالفهم الرأى.و هكذا تلونت الأحداث بتعدد الحكام و تغيّر الأغراض،فإذا ارتأى المأمون أن تكون قضايا الفكر و العمل شعارا لدولته فقد كان ينزع إلى خدمة الحكم و توطيد أركان السلطان،حتى استطاع أن يجعل المتعلقين بالحكم و المستفيدين من الخلافة تبعا له فى رأيه.

و يقتضى البحث أن نشير دون تفصيل إلى أوامره فى هذه المشكلة،و هى إن أدرجت فى عرض للمقارنة نراها تضمّ أفكار المعتزلة،و هذه الأوامر تذكر دوما فى المراجع و الكتب التى تؤرخ لهذه القضية،و تجدها مبسوطة فيها،و نحن نختار ما صدر من المأمون عند ما كان فى الرّقة،و نقتصر منه على الجزء الذى يتناول مسألة خلق القرآن،و كان ذلک سنة 218 ه-كما ذكرنا-فقد قرر المأمون أن يتولى إلزام الناس بالقول فى خلق القرآن،و اختار أن يبدأ بأنفار عيّن أسماءهم،منهم:محمد بن سعد كاتب الواقدى،و أبو مسلم مستملى يزيد بن هارون،و يحيى بن معين، و زهير بن حرب أبو خيثمة،و إسماعيل بن داود،و إسماعيل بن أبى مسعود،

1- (1) ابن مسكويه،تجارب الأمم ج 1 ص 322.

2- (2) بياض فى الأصل.

و أحمد بن الدورقی.فأشخصوا إليه،فامتحنهم و سألهم عن خلق القرآن،فأجابوا جميعا أن القرآن مخلوق.و تبنّت سلطته فی بغداد أمر إشاعة ذلک عنهم و تقرير قولهم بحضور الفقهاء و رجال أهل الحديث (1).

و اتخذت أفكار المعتزلة و معتقداتهم صفة الأمر السلطانی كما جاءت على لسان المأمون فی أمره إلى إسحاق بن إبراهيم(...و اللّه عز و جل يقول: إِنّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا و تأويل ذلک:إنا خلقناه.كما قال جل جلاله: وَ جَعَلَ مِنْها زَوْجَها لِيَسْكُنَ إِلَيْها و قال: وَ جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِباساً. وَ جَعَلْنَا النَّهارَ مَعاشاً وَ جَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ فسوّى عز و جل بين القرآن و بين هذه الخلائق التی ذكرها فی مشيئة الصنعة،و أخبر أنه جاعله وحده فقال: بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ. فِی لَوْحٍ مَحْفُوظٍ فقال ذلک على إحاطة اللوح بالقرآن،و لا يحاط إلا بمخلوق.و قال لنبيه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَکَ لِتَعْجَلَ بِهِ و قال: ما يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ و قال: وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآياتِهِ و أخبر عن قوم ذمهم بكذبهم أنهم قالوا: ما أَنْزَلَ اللّهُ عَلى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ ثم أكذبهم على لسان رسوله فقال لرسوله: قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتابَ الَّذِی جاءَ بِهِ مُوسى فسمى اللّه تعالى القرآن قرآنا و ذكرا و إيمانا و نورا و هدى و مباركا و عربيا و قصصا فقال: نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْکَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِما أَوْحَيْنا إِلَيْکَ هذَا الْقُرْآنَ و قال: قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ و قال: قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَياتٍ و قال: لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ لا مِنْ خَلْفِهِ فجعل له أولا و آخرا،و دلّ عليه أنه محدود مخلوق.و قد عظم هؤلاء بقولهم فی القرآن المتكلم فی دينهم و الحرج فی أمانتهم،و سهلوا السبيل لعدو الإسلام،و اعترفوا بالتبديل و الإلحاد على قلوبهم،حتى عرفوا و وصفوا خلق اللّه و فعله بالصفة التی هی للّه وحده،و شبّهوه و الأشباه أولى بخلقه،و ليس يرى أمير المؤمنين لمن قال بهذه المقالة حظا فی الدين،و لا نصيبا من الإيمان و اليقين،و لا يرى أن يحل أحدا منهم محل الثقة فی أمانة و لا عدالة و لا شهادة و لا صدق فی قول و لا حكاية،و لا توليه لشیء من أمر الرعية...) إلى آخر كتابه.

و مع هذه الحالة الفكرية و الصياغة الدينية،و ما اتصف به حكم المأمون من

1- (1) راجع الطبری 286/10 و [1]ابن طيفور 181 و 182.

ظاهر الميل إلى العلويين،فإن أغراض الحكام الشخصية تكاد فى دوافعها تكون واحدة على مرّ الأجيال فى التاريخ الإسلامى،فعندنا أن القالب جديد،غير أن الجوهر واحد،و هو استخدام الدين للمصالح و المنافع،و تأكيد السيطرة و الهيمنة.فها نحن أولاء أمام الحكام و هم يعرّضون الأمة للبلاء مرة أخرى،و يعدّون لأخصامهم النقمة و المحن.و عند ما يبدأ معاوية بإسقاط من يرى فضل على أو يروى حديثه من الديوان،و يأمر بهدم دار من يوالى عليا،حتى كانت النقمة على الزنادقة أهون من أفعال السلطة بمن يودّ أهل البيت.فقد كان رجال أهل البيت و الأئمة منهم قد تعاهدوا أمر أصحابهم بالسياسة الملائمة،أو بالثورة و السيف منذ عهد الإمام الحسن حتى نهاية عهد الإمام الصادق عليه السّلام ثم جاءت الفترة العباسية،فكانت القيادة للإمام موسى بن جعفر بتقواه و زهده،ثم للإمام الرضا بعلمه و حكمته.فلم تحدث النتائج التى سنراها فيما بعد هذه الفترة،و قد استعرضنا فى الأجزاء السابقة من كتابنا آثار مواقف الأئمة و على الأخص موقف الإمام الصادق و كيف اتّجه إلى تربية النفوس و شدّ القلوب بروابط الإيمان و العلم،و كان سلطانه على أتباعه و محبيه سلطان دين و عقيدة،فكانت طرقه فى الدعوة إلى الدين و منهجه فى الأحكام و الفقه منهلا أغنى الأمة،و اغترفت منه فطاحل الرجال.

و فى مشكلة خلق القرآن،اتبع المأمون السياسة ذاتها،لأن الظاهر قد يتغير،أما الجوهر و حقيقة الدوافع فليس لها على صعيد الحكم غير القوة و التعدّى و العنف و إراقة الدماء،فكأننا إذا ما قرأنا أوامر المأمون نقرأ تعليمات الأمويين و أوامرهم،فتراه يتّهم بالكفر من يخالفه،و يأمر بضرب الأعناق.ليتسلّى برؤية الرءوس.و لا نريد أن نذكر أوامره لطولها و تفاصيلها،إنما نذكر شيئا يسيرا(...و من لم يرجع عن شركه ممن سمّيت لأمير المؤمنين فى كتابك و ذكره أمير المؤمنين لك أو أمسك عن ذكره فى كتابه هذا و لم يقل أن القرآن مخلوق بعد بشر بن الوليد و إبراهيم بن المهدى، فاحملهم أجمعين موثقين إلى عسكر أمير المؤمنين،مع من يقوم بحفظهم و حراستهم فى طريقهم،حتى يؤديهم إلى عسكر أمير المؤمنين،و يسلمهم إلى من يؤمن بتسليمهم إليه،لينصحهم أمير المؤمنين،فإن لم يرجعوا و يتوبوا حملهم جميعا على السيف).

و لقد فتح المأمون على الأمة بابا من البلاء لم يغلق،فقد بلغت سياسة حدّ الولع بما تواضع عليه الناس و استلموه و توارثوه ناجزا،عملت على تكوين عوامل

السلطة و أصحاب الأغراض المختلفة،فعمد إلى سلطة الحكم لأحداث هزّة فی طریقة بقاء الناس علی استسلامهم و استمرارهم علی موروثهم،و فکّر فی المجاهرة بأمور ینتهی إلیها النظر الجریء و الحرّ،لکن حرکة الرأی و نشاط العقل مهما شهدت من ألوان و ضروب متطورة،لم تشمل المجتمع بأسره،و لم تسع الناس جمیعا،و لا بد أن یبرز للموروث موقف،کما أنها لیست هی الدین کله.و قد أساء بذلک.

لقد تهیأت الظروف لأن یبرز أحمد بن حنبل.و کان وراءه شیوخ آخرون دفعوه إلی الثبات بوجه المأمون و عدم الإذعان،کأبی جعفر الأنباری الذی لحق بابن حنبل لمّا حمل إلی المأمون و قال له:یا هذا،أنت الیوم رأس و الناس یقتدون بک،فو اللّه لأن أجبت إلی خلق القرآن لیجیبنی بإجابتک خلق من خلق اللّه،و إن أنت لم تجب لیمتنعنّ خلق من الناس کثیر،و مع هذا فإن الرجل إن لم یقتلک فأنت تموت،و لا بد من الموت،فاتق اللّه و لا تجبهم إلی شیء.فجعل أحمد یبکی و یقول:ما شاء اللّه،ما شاء اللّه.ثم قال أحمد:یا أبا جعفر،أعد علیّ ما قلت.فأعاد علیه،فجعل یقول:ما شاء اللّه،ما شاء اللّه (1).

و قد انتهی الأمر إلی أن یبقی أحمد بن حنبل وحده فی امتحان السلطة له، حیث تخلّی کل نفر عن الثبات،و لم یبق معه إلا محمد بن نوح الذی کان معه فی الاقتیاد إلی المأمون،و قام محمد بن نوح بما یقوم به الآخرون و هم خارج الاعتقال، و الذین أخذوا یرون فی أحمد رمزا لبقاء مناهجهم و طرقهم فی القول و الحکم.و قد کان محمد بن نوح حدثا و هو یمثل حالة أو مرحلة عمریة تشد إلیها من کانوا فی عمره،فکیف إذا کانت نهایته الموت و هو فی ظل الاعتقال و التعذیب،فقد مات و هما فی الطریق إلی المأمون.و لکن محمد بن نوح کان یقول لأحمد بن حنبل:یا أبا عبد اللّه اللّه اللّه،إنک لست مثلی،أنت رجل یقتدی بک،و قد مدّ الخلق أعناقهم إلیک بما یکون منک.فاتق اللّه و اثبت لأمر اللّه (2).

و توفی المأمون فی السنة نفسها،و خلفه المعتصم،و کان المأمون قد وضع لأخیه السیاسة التی یلتزمها،و قد کان استمراره علی القول بخلق القرآن لا عن وعی

1- (1) ابن الجوزی،مناقب الإمام أحمد بن حنبل ص 314.

2- (2) أیضا ص 315.

و إلمـام،و إنمـا سـياسة و تقليـدا،فهو لاـ يرقى إلى درجـة أخيه فى الاطلاع،فقـد عرف عنه قلـة علمه،و يروى أن أباه كان عنى بتأديبه فى أول أمره،فمرّت به جنازة لبعض الخدم فقال:ليتنى كنت هذه الجنازة،لأتخلص من همّ المكتب.فأخبر الرشـيد بذلک،فقال:و اللّه لأعذّبنه بشـىء يختار الموت من أجله.و أقسم ألا يقرأ طول حياته، و يبـدو أنه كان قريبا من الأمية كما وصف نفسه فى بعض الروايات،و لهذا فإن بقاء القول بخلق القرآن يفقد فى عهده الجوانب الفكرية،و يبقى الدافع السياسـى الذى شمل المتنفذين من المعتزلة أيضا ممن أغرتهم السلطة كأحمد بن أبى دؤاد الـذى كان يمثل عامل بقاء سـياسة المأمون،و فى الوقت الـذى نجد فيه إشارات إلى خروج المعتصم عن نهج العنف،نجد ابن أبى دؤاد يـذكّر المعتصم أنه لو سـلّم و لان،فسـيقال حتما عن المعتصم أنه ناهض مـذهب المأمون،و أن الناس سـيرون أن أحمد قد أحرز نصرا على خليفتين،و هى نتيجة قد تحفّز أحمد بن حنبل على أن يعدّ نفسه زعيما،مما يفضى بدولة الخلفاء إلى أوخم العواقب،و هو ما نص عليه المقريزى فى المقفى الـذى نقل عنه المستشـرق الأمريكى ولتر ملفيل و الذى نحن فى سـياق قوله الآن (1)ذكر المقريزى:قال أبو عبد اللّه و جعلت بين العقابين.فقلت:يا أمير المؤمنين إن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال:«لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا اللّه و إنى رسول اللّه إلا بإحـدى ثلاث...»الحـديث (2)و قال رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم«أمرت بأن أقاتل الناس..» الحـديث (3)فبم تسـتحل دمى،و لـم آت شيئا من هذا؟يا أمير المؤمنين أذكر وقوفک بين يدى اللّه عز و جل كوقوفى بين يديک،يا أمير المؤمنين راقب اللّه.فلمـا رأى المعتصم ثبوت أبى عبـد اللّه و تصـميمه،لاـن لأـبى عبـد اللّه،فخشـى ابن أبى دؤاد من رأفته عليه فقـال:يـا أمير المؤمنين،إن تركته،قيـل أنـک تركت مـذهب المـأمون و سـخطت قوله، و أنه غلب خليفتين.فهاجه ذلک و طلب كرسـيا،جلس عليه و قام ابن أبى دؤاد و أصحابه على رأسه.انتهى.

و من الصورة التى نطلع عليها،و فى وسطها أحمد بن حنبل،نرى أن ابن حنبل

1- (1) ولتر ملفيل پاتون،أحمد بن حنبل و المحنة،ترجمة عبد العزيز عبد الحق ص 150.

2- (2) تكملة الحديث:«كفر بعد إيمان،و زنا بعد إحصان،و قتل النفس بدون نفس»و فى بعضها غيره.

3- (3) تكملة الحديث:«حتى يقولوا لا إله إلا اللّه،فإن قالوها عصموا منى دماءهم و أموالهم»و فى بعضها غير هذا النص.

فی السلوک و التصرّف یلتزم بتعالیم السنة،و یحتج بأحادیث النبی محمد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و یحاول بهما أن یحمی نفسه و یصون کرامته،و یلوذ بالعلم،و یتوسّل بالفقه لیردّ عنه کید السلطة،حتی لتطالعنا من بین ملامح تلک الصورة أن أحمد بن حنبل ساير قوة السلطان،و أظهر ما یرید الحکام تحت وقع السیاط،لیکفّ الأذی و یدفع العذاب، فهذا مؤرخنا الیعقوبی یقول:و امتحن المعتصم أحمد بن حنبل فی خلق القرآن، فقال:أنا رجل علمت علما،و لم أعلم فیه بهذا.فأحضر له الفقهاء،و ناظر عبد الرحمن بن إسحاق و غیره،فامتنع أن یقول أن القرآن مخلوق،فضرب عدة سیاط.

فقال إسحاق بن إبراهیم:ولّنی یا أمیر المؤمنین مناظرته.فقال:شأنک به.فقال إسحاق:هذا العلم الذی علّمته نزل به ملک،أو علمته من الرجال؟فقال:بل علّمته من الرجال.فقال:شیئا بعد شیء أو جملة؟فقال:علمته شیئا بعد شیء.قال:فبقی علیک شیء لم تعلمه؟قال:بقی علیّ.قال:فهذا مما لم تعلمه،و قد علمک أمیر المؤمنین.قال:فإنی أقول بقول أمیر المؤمنین.قال:فی خلق القرآن؟قال:فی خلق القرآن.قال:فأشهد علیه،فخلع علیه و أطلقه.انتهی.و هنا نلاحظ أن أحمد بن حنبل بعد خروجه من السجن و امتحان القوة له،قد وجد العامة التی تضرّرت بمواقف و سیاسة المأمون و خلفه تنتظر خروجه و تتشوق للقیاه،فیبالغ فی الرد،و یسمح لنفسه بالحکم علی مخالفیه بما لم یرد به نص،و بما یخالف ما احتج به أمام قوة السلطان و هو یمتحن أمام خلفاء بنی العباس و یتقی اعتداءهم.کما نلاحظ فی عموم سیرته غموضا،و أحیانا خفاء فی رأیه فی الإمام علی علیه السّلام أو یزید بن معاویة،إذ تضطرب کما فی الروایات،و مهما یکن من أمر،فإن العامة قد وجدت نفسها مستهدفة من قبل سیاسة بنی العباس فی عهد المأمون و خلفیه حیث ظهرت السلطة بمظهر العلم و صفة المتکلّمین.و قد کان المأمون شدیدا علیهم و هو یستعیر منطق المعتزلة و أفکارهم،و یصدر أوامره السلطانیة من مرو لیلبس حکمه لبوس المرحلة،فیقول فی أول کتاب له:و قد عرف أمیر المؤمنین أن الجمهور الأعظم و السواد الأکبر من حشو الرعیة و سفلة العامة فمن لا نظر له،و لا رؤیة و لا استدلال له بدلالة اللّه و هدایته،و لا استضاء بنور العلم و برهانه فی جمیع الأقطار و الآفاق،أهل جهالة باللّه و عمی عنه، و ضلالة عن حقیقة دینه و توحیده و الإیمان به،و نکوب عن واضحات إعلامه و واجب سبیله،و قصور عن أن یقدروا اللّه حق قدره،و یعرفوه کنه معرفته،و یفرقوا بینه و بین

خلقه بضعف آرائهم و نقص عقولهم،و خفائهم عن التفكير و التذكر (1).هذا و السلطة تتحول إلى الخضرة و تغيّر شعارها الأسود تقربا إلى الشيعة،و قضية إسناد ولاية العهد إلى الإمام الرضا ما زالت فى الأذهان،و لا بد أن قضية سمّه و قتله لا تهمّ الآخرين أكثر مما تهمّهم المظاهر،و بين فترة و أخرى يهمّ المأمون فى القول بمسألة على رأى الشيعة،بينما قضية امتحان السلطة للعلماء لها طابع معتزلى،و العامة أخذت تنظر إلى أهل الرأى و الفكر نظرة واحدة،لأن الفترة حديثة عهد،و الحركة ما زالت فى بواكيرها،و مناهج الكلام و أساليب القول قامت كالموجة التى تهدد ركود الغدران بالتحول أو الفناء.

لقد أعلنت السلطة طابعها أو انحيازها إلى أهل الفكر و تيارات الكلام،و جاء بيانها شديدا استفزّ العامة الذين كانوا قاعدة الحكام منذ عهد معاوية،و تهيأ على مر المراحل ممن لبس لبوس الدين،و تجلبب بجلباب العلم،أن يبذل أقصى ما يستطيع ليرضى السلطان،و يجعل الجمهور ينظر إلى حال الحاكم من خلال ما يصوّرونه لهم، فاحتل الحكام فى أنظارهم موقع القداسة،و أحنوا الرءوس برغم ما يسفك من دماء، و تنتهك من حرمات،و يستباح من أعراض،فألفوا أمورا فى كل شأن من شئون الاعتقاد و الحياة،و ورثوها على نمط الحكام و صياغة المنتفعين.

و للأسف،فإن تحوّل السياسة و انعطاف المأمون إلى أوجه جديدة فكرية متكلّفة،و ما أحدث ذلک من هزّة عنيفة،لم تعالج بما يساعد على كبح جماع الانفعالات و لجم الجهل،فإضافة إلى توافر أسباب الهياج و شيوع مضمون سياسة السلطة،و ما يوفره ذلک من مادة غنية لشدّ الجمهور و التلاعب بعواطفه،و دفع مشاعره إلى أشد حالات النقمة،أصبحت كلمة الجهل أو الأوصاف التى يطلقها رجال المناظرات و أساتيذ الكلام على خصومهم الذين يسترون جهلهم بالعناد و التعصب، أدلة أخرى ألّبت الناس على أهل الفكر قبل أن تألبهم على العباسيين و أغراضهم السياسية،فضاعت فى وسط ذلک الأسباب الحقيقية لقيام مثل هذه المرحلة،و كان تقصير الجهات فيها متماثلا،إذ لم يبذل المعتزلة ما يكفى من جهد بعيدا عن السلطة، بل انتقلت حصيلة اعتقاداتهم إلى الحكام و ألحقتهم السلطة بها.

1- (1) ابن طيفور،ص 181.

كما كان الطرف الآخر يعتمد على الاستشارة و الاستفزاز،ليستفيد من نتائجهما فى الإبقاء على ممسک الجمهور و محافظتهم على الأوضاع التى ألفوها و عاشوها، و لمّا اجتاز أحمد بن حنبل الأزمة صبّ جام غضبه على أصل القضية،فأباح لنفسه الفتوى و القول بكفر من يقول بخلق القرآن.و قد مرّ بنا ذلک و أشرنا إلى ما جاء عنه فى كفر من يقول بخلق القرآن،إذ سئل عن رجل وجب عليه تحرير رقبة مؤمنة و كان عنده مملوک يقول بخلق القرآن؟فقال:لا يجزى،لأن اللّه تبارک و تعالى أمر بتحرير رقبة مؤمنة.

و لم يكن أحمد بن حنبل أو الجمهور فى حال يجاهرون بها بالخروج على رأى الحاكم أيام المعتصم،إذ يروى أن أحمد أمسک فى عهد المعتصم حتى عن رواية الحديث الذى هو عماد مكانته و مقوم شخصيته،فهو الحافظ الذى ينبسط فى الرواية و يتقيد بها حتى قيل:إنه أقرب إلى الحديث منه إلى الفقه.و لا ننسى أن هذه الفترة شهدت غياب الإمام الرضا،و كون ابنه الإمام محمد الجواد ما زال فى مقتبل العمر، و تتضافر الروايات على ما بلغه فى العلم و الحكمة و الأدب و كمال العقل،حتى أن المأمون أراد أن يوجد للصبغة التى أرادها لحكمه دلالة جديدة،فزوّجه ابنته أم الفضل،و اتجه إلى المدينة،و ابتعاده عن العراق أمر له مغزى كبير،اختيارا منه و عملا بنهج أبيه،و كيف حمل ولاية العهد اسما،و لم تنجح وسائل المأمون مع الإمام الرضا فى زجّه فى شئون السلطان،و إذا كان أهل البيت قد عملوا على تهذيب النفوس بتعاليم الإسلام و ترسيخ الأحكام فى المجتمع بتربية النشأ و إرشاد الناس،فقد كان الرضا عليه السّلام يقول:«إنما يؤمر بالمعروف و ينهى عن المنكر مؤمن فيتعظ،فأما صاحب سيف و سوط فلا».و كان قوله المشهور للمأمون:«ما التقت فئتان قط إلا نضر اللّه أعظمهما عفوا».فعاد الإمام الجواد إلى مهبط الوحى و مهد النبوة، و سعى عليه السّلام إلى توجيه الناس و بث العلم و نشر الأحكام،و كانت الوفود تأتيه من الأقطار النائية لأنه وارث علم أهل البيت عن أبيه الرضا عليه السّلام غير أن المعتصم أعاده إلى بغداد و انتهى شهيدا مسموما على يد بنى العباس.

فكأن الناظر إلى أعمال بنى العباس فى هذه الفترة يجد تقربا و رعاية إلى آل على،فى حين أن حقيقة ما يعيشونه مكابدة رهيبة تنتهى بهم إلى الموت.كما أن العلويين استمروا فى مناهضتهم للسلطة،و لم تنطل عليهم خدع الحكام و تكريم

المأمون للطالبيين أو العلويين،و عـدم منعهم من الـدخول عليه؛ حتى ثار عبـد الرحمن بن أحمـد بن محمـد بن عمر بن على بن أبى طالب ببلاـد اليمـن و دعـا إلى الرضـا مـن آل محمـد.فأرسل إليـه المـأمون جيشـا كثيفـا تحت قيـادة دينـار بن عبـد اللّه، و كتب معه أمانـا لعبد الرحمن،فقبله و سـار إلى المأمون،فمنع المأمون عنـد ذلک الطالبيين من الـدخول عليه،و أمرهم بلبس السواد (1)و امتنع أكثرهم عن لبس السواد، فكان عقابهم السـجن.فهذا عبد اللّه بن الحسين بن عبد اللّه بن إسماعيل بن عبد اللّه بن جعفر بن أبى طالب امتنع عن لبس السواد و حرّمه لمـا طولب به،فحبس بسـر من رأى فى أيـام المعتصم حتى مـات فى الحبس (2)كما اسـتمر على رفض سلطة العباسيين جماعة من العلويين و لجئوا إلى الثورة.و يمكننا القول أن محاولات بنى العباس بلونها هذا قد استطاعت أن تجعل الرقابة و القيود التى اعتاد عليها أئمة أهل البيت و المفروضة عليهم من قبل الحكام مناسبة لأصول اتجاهات الرأى و مدارس الكلام،لكنها فى حقيقتها واحدة.فعلم أهل البيت و تعليمات الأئمـة كانت منهلا و ينبوعا لهـذه الاتجاهات،و كان المعتزلة على الأخص من أقرب الناس رأيا إلى فقه أهل البيت،و إن ضـمّت صفوفهم رجالا أبعـد ما يكونون عن الولاء،حيث تأثر معتزلـة البصـرة بما يحيط بهم،و تأثر معتزلـة بغداد بغير ذلک،و بناء عليه فكيف يدّعى المـأمون العلم و الانتصـار للفكر،و يتبع سـياسة السـجن و اعتقال رجال أهل البيت الـذين لا ينكر المعتزلـة تأثرهم و اقتـدائهم بهم؟فأخذ بالتظاهر الذى يصعب معه الاطمئنان إلى زوال نوازع الكره و العداء لأهل البيت.

و كان المعتصم مقلدا و منفذا لسـياسة المأمون بجوانبها المختلفة فى الموقف من رجال الفكر و معاملة أهل البيت،ثم جاءت مرحلة الواثق التى تمثل المرحلة الوسـطى التى تسـبق عودة السياسة العباسية إلى عهدها على يد المتوكل.و مع أن رجل المعتزلة السلطانى أحمد بن أبى دؤاد قـد تمكّن من إبقـاء قضـية خلق القرآن على واجهـة الحكم، إلا أن الواثق لم يتعرّض إلى أحمـد بسوء،و أرسل إليه و قال له:لا تساكنّى بأرض، فاختفى أحمد بقية حياة الواثق.

1- (1) ابن الأثير 156/4. [1]

2- (2) المقاتل 385. [2]

و نحن نجد فی أحداث هذه المشکلة من مظاهر الظلم و العنف ما تأباه النفوس، لکنها تصبح غیر ملفتة إذا ما قورنت بأهوال السجون و مصائب التعذیب التی یلقاها آخرون،فدع عنک کیف استشهد الإمامان الرضا و الجواد علی ید حکام یتظاهرون بالودّ،و خذ مثلا من عرف من العباسیین بعدائه لأهل البیت.و مع ذلک فلا یقرّ ما یجری فی ظل الحکام من اعتداء علی حرمة الرأی أو العلماء،بل نذکره للإدانة و نسطّره لتعرف الأجیال ما ارتکب الحکام.و من أحداث هذه الفترة التی تتصل بالقول بخلق القرآن أن شیخا من الشام جیء به إلی الواثق،فلما دار النقاش اتفق الواثق مع رأی الشیخ فی جواز الإمساک عن هذه المقالة ما اتسع لهم کما اتسع لرسول اللّه و أبی بکر و عمر و عثمان و علی،و أمر الواثق بقطع قید الشیخ،فلما قطعوا القید ضرب الشیخ بیده إلی القید حتی یأخذه،فجاز به الحداد،و أخذه من الحداد قائلا:لأنی نویت أن أتقدم إلی من أوصی إلیه أن یجعله بینی و بین کفنی حتی أخاصم به هذا الظالم عند اللّه یوم القیامة و أقول:یا ربّ،سل عبدک هذا لم قیدنی و روّع أهلی و ولدی و إخوانی بلا حق أوجب ذلک علیّ؟ ثم جاءت فترة عهد المتوکل الذی استلم الحکم فی سنة 232 ه فعاد النصب بأوضح صوره (1)و تجدّد العداء لآل البیت بأقبح أشکاله،و لیس ذلک بردّ فعل لما سبق،و إنما ردود الفعل تمثلت فی موقعه فی مسلسل الحکام من بنی العباس.یقول ابن کثیر:و کان المتوکل محببا إلی رعیته؟قائما فی نصرة أهل السنة،و قد شبهه بعضهم بالصدّیق فی قتله أهل الردّة لأنه نصر الحق و ردّه علیهم حتی رجعوا إلی الدین،و بعمر بن عبد العزیز حین ردّ مظالم بنی أمیة،و قد أظهر السنّة بعد البدعة، و أخمد أهل البدع و بدعتهم بعد انتشارها و اشتهارها.

و أکرم المتوکل أحمد بن حنبل،و کتب إلی نائبه ببغداد أن یبعثه إلیه،و کان حتی وفاة أحمد یتفقده و یوفد إلیه فی أمور یشاوره فیها و یستشیره فی أشیاء تقع له (2).

و بدأ الحنابلة مع السلطة منذ هذا التاریخ یسهمون فی تعمیق روح الخلاف،و نحن -و إن قلنا برد الفعل-إلا أن الأمر تجاوز ذلک لاستسهال أمر الاتهام بالکفر و الخروج

1- (1) انظر الجزء الأول من الإمام الصادق و المذاهب الأربعة.

2- (2) ابن کثیر 340/10. [1]

على الـدين.فاهتزّ كيان الأمـة،و اختلّ بناء المجتمع،و قـد أطلعنا فيما مضـى على جانب من الأحداث التى تقوم بتأثير العصبية و الجهل.و اسـتمر الحنابلـة يعنون بالهيمنة على الحكم،حتى أن المطيع باللّه كان يتقرّب إليهم بالتظاهر بسـماعه و ترديده أقوالا لأحمد بن حنبل،و قد كان يحـدّق به خلق كثير من الحنابلـة قدروا بثلاثين ألفا،فأراد أن يتقرب إليهم،فى حين كان الناس يأكلون الأطفال و الجيف لشدة الجوع،و إذا رأثت الـدواب اجتمع جماعـة من الضـعفاء على الروث،فـالتقطوا مـا فيه من حبّ الشـعير فأكلوه،و كانت الموتى مطرحين فربما أكلت الكلاب لحومهم (1).

و امتدت مشـكلة خلق القرآن لعهود طويلة،و بتأثير الحنابلة شـملت الاتهامات أغلب الطوائف،ففى سنة 408 ه استتاب القادر باللّه فقهاء المعتزلـة الحنفيـة،فـأظهروا الرجوع و تبرّءوا من الاـعتزال،ثم نهـاهم عن الكلاـم و التـدريس و المنـاظرة فى الاعتزال و الرفض و المقالات المخالفة للإسلام،و أخذ خطوطهم بذلك،و إنهم متى خالفوه حلّ بهم من النكال و العقوبة ما يتّعظ به أمثالهم،و امتثل يمين الدولة و أمين الملـة أبو القاسم محمود أمر أمير المؤمنين و اسـتنّ بسـنّته فى أعماله التى اسـتخلفه عليها من خراسان و غيرها فى قتل المعتزلة و الرافضة و الإسـماعيلية و القرامطة و الجهمية و المشـبّهة،و صـلبهم و حبسـهم و نفاهم،و أمر بلعنهم على منابر المسلمين،و إبعاد كل طائفة من أهل البدع،و طردهم من ديارهم،و صار ذلك سنّة فى الإسلام (2).

ثم تبادل الناس فيما بينهم الاتهامات،و غدت سـنّة الحكام شاملة،و شاع التعصب مع سـعى حثيث إلى إدخال الحكام فى صـميم الأمر،و الاستعانة بقوة السلطان،و نحن سنعرض إلى جوانب من ذلك بحسب مواقعها من الكتاب.

1- (1) المنتظم 344/6. [1]

2- (2) المنتظم 287/7. [2]

3-البدع و الضلالات

اشارة

و هكـذا أدّت تـدخلات الحكام إلى نتائـج أساءت كثيرا إلى حركة الفكر و الكلام، و شـجعت قيام ظروف ملائمة للاتهامات و العداء.و إذا نظرنـا إلى تاريـخ الحكـام فى الإسـلام و موقفهم من أعـدائهم،رأينا أن سـلاح التكفير و الخروج عن الـدين كان من أهم ما يشـهره الحكام لاجتناب العامة و اسـتغلال مشاعرهم المختلفة،و البروز بمظهر دينى غير حقيقى،و لما حدثت هذه الأحداث و تحكّمت النزعات و هيمن التعصب على النفوس،تبادلت الطوائف الاتهامات،و أصـبح الاتهام بالبدعة و الضـلالة أمرا مألوفا،كما أصبح استحلال الدم و ما يتبع ذلک من فظائع الأمور التى تشلّ حركة الفكر و تمزّق المجتمع شـرّ ممزّق،إذ لم يكن اسـتخدام لفظى البدعة و الضلالة قائما على أساس صحيح مجرد من العواطـف و النزعـات الخاصة.فقـد تـدخلت الأـغراض المختلفـة:أغراض الملوک،و أغراض المتنفـذين و المـتزعمين فى شـتى الميـادين.و قوبـل استسـهال الحكم بـالكفر أو الضـلال بأعمال و فتاوى مقابلـة،و مرّت الأعوام و لفظ الضـلالة و البدعـة يسـتخدمان وفق الأغراض،و كل جهة يصدر منها الاتهام يصدر من أختها فى الدين ما يقابل ذلک.

و أصـبحت حركة المذاهب تتبادلها بسهولة،و هى فى كل الأحوال تحدث فى حالة تتغلب فيها العواطف على حكم الدين،فعقيدة الإسلام واضحة جلية و إن استجد ما يخرج على القواعد و الأصول و روح الإيمان،فالتصدى لهذا الخروج و إطفاء باطله واجب على كل مسلم،فإذا كانت مبادئ الإسـلام واضـحة و عقائده جلية،فما لا يجرى على منواله و يقتدى بروح القرآن بيّن معروف يكون من السهولة الإجماع عليه، أما إذا كان تحكما و خضوعا للأهواء فهو المصيبة التى نحن بصدد بيان بعض أجزائها و جوانبها.

فالمذاهب أصبحت تدّعی أن کلاّ منها علی حق،و غیرها علی الضلالة.

و البدعـة لغویا کل شـیء أحدث علی غیر مثال سابق،سواء کان محمودا أو مذموما.و البدیع:محدث عجیب غیر معروف،و هی تفید معنی الأحداث و الاختراع.أما البدعة اصـطلاحا فهی مدار اختلاف الفقهاء شرعا،و یمیل أغلب العلماء إلی أنها إحداث فی الشرع،و عند بعضهم قد یکون مذموما أو محمودا.و لکن روح العداء أخضـعت اللفظین لأغراضها،فاتهمت کل طائفة الأخری بالبدعة و الضلالة دون تمییز و هو انحراف عن واقع الحـال،و بعـد عن الحقیقـة،و من هـذا مـا ذهب إلیه ابن المقری الشـافعی فی تمثیله للمبتـدع بالحنفی،و صاحب البزازیة الحنفی یمثل المبتدع بالشافعی،و أمثال هؤلاء کثیرون بین المذاهب الأربعة (1).

کما و قد وضعت کتب تتضمن بیان الفرق الإسلامیة و شرح عقائدها و تصف الکثیر منها بالبدعة أو الضلالة أو الکفر أخیرا.

و تمرّ السـنون،و تکثر الکتب من دون جـدوی فی تحدیـد هذین الاصـطلاحین لنعرف ما هی البدعة التی یسـتوجب صاحبها النار،بسـبب الضـلال عن الهدی؟کما ورد فی الحدیث:«کل بدعة ضلالة،و کل ضلالة فی النار».فکیف نتعرف علی البدعة و نجتنبها؟و ما هی الضلالة الـتی توجب دخول النـار؟هـل لهـا حـدّ شـرعی أو تعریف لغوی؟و قـد اختلفت المصـادیق و تعـدّدت الأـقوال.و حـدیث الفرق أن النبی قـال:«سـتفترق أمتی علی ثلاـث و سـبعین فرقـة،اثنتـان و سـبعون فی النار،و واحـدة فی الجنـة»و بلفظ آخر«کل علی الضـلالة إلا السواد الأعظم»فلهذا الحدیث شأن و قد تعرّضـنا له سابقا و شـکّکنا فی صحة نسبته إلی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم علی إجماله بدون بیان،و هذا ما یوجب إغراء الأمة بعضها ببعض،و تحامل الناس بعضهم علی بعض،و سنعود للحدیث عنه إن شاء اللّه.

و بقی تعریف البدعـة هو ما اخترع علی غیر مثال سابق،فهی لغویا کما فی لسان العرب:بـدعه أنشأه کابتـدعه.و بـدع اللّه الخلق أحدثهم لا علی مثال سابق.و بـدع سـمن،و بدع بداعة و بدوعا صار بدیعا،و أبدع أبدا و الشاعر أتی بالبدیع فهو مبدع، و منه البدیع الخالق المخترع،و فی المذهب أنها إیراد أقوال لم یستند فاعلها أو قائلها

1- (1) سر انحلال الأمة ص 189.

فيها لصاحب الشريعة لأن أصل مادة بدع الاختراع على غير مثال سابق،كقوله تعالى:

قُلْ ما كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ و لكن مجريات الأحداث و تطورات الأمور جعلت التعريف فى اختلاف و مذاهب،فمنهم من جعلها فى العبادات خاصة،و منهم من جعلها فى العبادات و العادات.

فتعدّدت وجهات النظر فى إطلاق البدعة أو الضلالة،و استهل الناس قذف الآخرين بها مما عمّق الخلاف بين المذاهب أو الطوائف،فطائفة تتهم الأخرى بالبدعة و الضلالة و تتوهم أنها تحتكر،الهدى و تسيطر على الحق دون غيرها،و هذا يحدث ردّ فعل عند الطائفة الأخرى،فيردّ الاتهام على الطائفة بنفس الأسلوب،و بأنها مبتدعة خارجة عن الدين،و هى على الهدى.و بهذا فقد اشتدّ الهياج،و كثرت الفتن، و انتشرت الفوضى،و هنا نرى لزوم الحديث عن الفوارق التى حلت بين المسلمين، و كيف أصبحت كلمة بدعة أو مبتدعة سلاحا يوجه للناس و هم فى حالات أقرب بها إلى اللّه و مبادئ الإسلام من أولئک الذين يستخدمونها لتغطية ضعفهم و انهزامهم.

و كيف وجّهت إلى الجماعات التى تهدّد مناهج الجمود و الانغلاق ظلما،كما وجّهت توجيها سليما إلى الجماعات التى لا غبار على بعدها عن السنة و خروجها على ما جاء به صاحب الشريعة صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

من هو المبتدع

؟ لقد حدثت أمور بسبب الاختلاف فى تمييز البدعة و من هو المبتدع فخلطوا بين السقيم و الصحيح و سارت الأمور على غير المنهج العلمى،فكانت هناک أشياء هى مدعاة للأسف لأنها تعكس سلوک رجال لم يسلكوا مع خصومهم الطريق التجرّدى المعقول،بل التجئوا إلى استخدام القوة و كل ما يتعارض مع حرية الفكر التى ضمنها الإسلام،و جعلها إحدى مقومات المجتمع الإسلامى،و لنقف على بعض الأقوال فى لزوم تجنب صاحب البدعة،و لنأخذ صورة عن تلک العصور المظلمة،و الوقوف على تلک المفارقات التى حدثت بالمجتمع.

يقول بعضهم:من جالس صاحب بدعة،نزعت منه العصمة و وكل إلى نفسه.

و عن يحيى بن كثير أنه قال:إذا لقيت صاحب بدعة فى طريق،فخذ طريقا آخر.

و عن الفضيل أنه قال:من جلس مع صاحب بدعة لم يعط الحكمة،و الماشى إليه معين على هدم الإسلام.

و قال هشام بن حسان:لا يقبل اللّه من صاحب بدعة صلاة و لا صياما،و لا زكاة و لا حجا،و لا جهادا،و لا عمرة،و لا صرفا،و لا عدلا (1).

و قد أوردوا عن صاحب الرسالة صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أحاديث تدعم هذه الآراء،فعن هشام بن عرفة مرفوعا«من وقّر صاحب بدعة فقد أعان على هدم الإسلام».

و عنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«من أتى صاحب بدعة ليوقّره فقد أعان على هدم الإسلام،و من أعرض عن صاحب بدعة بغضا له فى اللّه ملأ اللّه قلبه أمنا و إيمانا،و من انتهر صاحب بدعة آمنه اللّه يوم الفزع الأكبر،و من أهان صاحب بدعة رفعه اللّه مائة درجة،و من سلّم على صاحب بدعة أو استقبله بالبشر،أو استقبله بما يسرّه،فقد استخفّ بما نزل على محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم».

و جاء عن عائشة،أنها سألت النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عن قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَ كانُوا شِيَعاً ؟فقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«هم أصحاب الأهواء و أصحاب البدع و أصحاب الضلالة من هذه الأمة،يا عائشة:إن لكل ذنب توبة،ما خلا أصحاب الأهواء و البدع ليس لهم توبة، و أنا برىء منهم،و هم براء منى».

و غير ذلک من الآثار التى أسندت إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.و لسنا فى معرض نقدها من حيث الصحة أو الدلالة،و بيان علتها،و لكن الأمر المهم أن ننظر إلى الواقع العملى و كيف استعملت كلمة البدعة فى معان مختلفة،و اتّهم بها رجال هم مثال التمسک بالسنّة.و نود هنا استكشاف الواقع حول انطباق هذه التسمية لنخرج بنتيجة و هى:من هو الذى تنطبق عليه هذه السمة فى الإسلام؟و من هو صاحب السنّة المتمسک بها؟ 1-فهذا أحمد بن حنبل فى معرض كلامه عن الفرق المبتدعة يقول:ذكر محاسن أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كلهم أجمعين،و الكف عن مساوئهم،و الخلاف الذى يشجر بينهم،فمن سبّ أصحاب رسول اللّه،أو واحدا منهم،أو تنقّصهم أو طعن عليهم أو عرض بعيبهم،أو عاب أحدا منهم فهو مبتدع رافضى خبيث مخالف، لا يقبل اللّه منه صرفا و لا عدلا،بل حبهم سنّة،و الدعاء لهم قربة،و الاقتداء بهم وسيلة،و الأخذ بآثارهم فضيلة.

1- (1) الشاطبى ج 1 ص 60 و 107.

2-و قال:من زعم أنه لا يرى التقليد،و لا يقلد دينه أحدا فهو قول فاسق عند اللّه و رسوله،إنما يريد بذلک إبطال الأثر،و التفرّد بالرأى و الكلام و البدعة.

3-و أصحاب الرأى و هم مبتدعة ضلال،أعداء للسنة و الأثر،و يبطلون الحديث،و يردّون على الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و يتّخذون أبا حنفية و من قال بقوله إماما و يدينون بدينه،و أى ضلالة أبين ممن قال بهذا و ترک قول رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أصحابه.

4-و الولاية بدعة،و البراءة بدعة،و هم الذين يقولون:نتولى فلانا و نتبرأ من فلان،و هذا القول بدعة فاجتنبوه.

فمن قال بشىء من هذه الأقاويل أو رآها،أو صوّبها،أو رضيها،أو أحبها فقد خالف،و خرج من الجماعة و ترک الأثر،و قال بالخلاف،و دخل فى البدعة و زلّ عن الطريق،و ما توفيقى إلا باللّه.

و بهذا ختم الإمام أحمد هذا الفصل من رسالته أو اعتقاده الذى رواه عنه أحمد بن جعفر الأصطخرى و التى يقول فى أولها:هذه مذاهب أهل العلم و أصحاب الأثر.(إلى أن يقول)فمن خالف شيئا من هذه المذاهب أو طعن فيها،أو عاب قائلها فهو مبتدع خارج عن الجماعة.ثم يعدّد العقائد أولا مما ينطبق على ما تذهب إليه الحنابلة فقط.و يذكر الأقوال ثم يعدد الفرق المبتدعة و منهم المرجئة و الخوارج و المعتزلة إلى آخر ما ورد فى الرسالة من أمور هامة.

و إذا وقفنا وقفة المتأمل فى عبارات هذه الرسالة،أو المرسوم الذى اتخذه الحنابلة منهجا و دستورا يسيرون عليه فى معاملة المسلمين و بيان منزلتهم الدينية،يبدو لنا جليا أنه لم يسلم أحد من جميع الأمة الإسلامية من الضلالة،و ارتكاب البدعة.أو بعبارة أوضح،لم تسلم فرقة من فرق المسلمين من ذلک،إلا الحنابلة أنفسهم فهم المسلمون،و لهم الإسلام وحدهم دون سواهم كما يدّعون و يصرّحون بذلک.فهذا الشيخ عبد الغنى المقدسى من أشهر علماء الحنابلة،ذكر شيئا من العقائد أنكرها عليه بقية المذاهب،فعقدوا له مجلسا،و أصرّ على رأيه،فقال له الأمير برغش:كل هؤلاء ضلاّل و أنت وحدک على الحق؟قال:نعم.فغضب الأمير،و أمر بنفيه من البلد، و كسر منبر الحنابلة.

قال ابن كثير:و جرت خبطة شديدة نعوذ باللّه من الفتن ما ظهر منها و ما بطن (1)و يؤيد ذلک تصريح شيوخهم بأن غير الحنابلة مبتدعة.يقول قتيبة بن سعيد:أحمد بن حنبل إمام،و من لا يرضى بإمامته فهو مبتدع.و ادعوا على الشافعى أنه قال:من أبغض أحمد بن حنبل فهو كافر.فقيل له:تطلق اسم الكفر عليه؟فقال:نعم،من أبغض أحمد بن حنبل عائد السنة،و من عائد السنّة قصد الصحابة،و من قصد الصحابة أبغض النبى،و من أبغض النبى كفر باللّه العظيم (2).

و قال أحمد الدورقى:من سمعتموه يذكر أحمد بن حنبل بسوء،فاتهموه على الإسلام.

و قال بعض الحنابلة:إذا رأيت البغدادى يحبّ أبا الحسن بن بشار،و أبا محمد البربهارى-و هما من شيوخ الحنابلة-فاعلم أنه صاحب سنّة.

و من الصعب الإحاطة بما خلّفته تلک الظروف من ادعاءات و تقوّلات،و قد أعرضنا عن كثير مما وصلنا من ادعاءات الحنابلة فى علمائهم عامة و ابن حنبل خاصة، و سواء صحّت تلک الأقوال أم لم تصح،فالعامة يأخذون بها و يجعلونها شعارا فى مسيرتهم نحو أهدافهم،و قد أوردوا عن أحمد بن حنبل و غيره أمورا لا يمكننا أن نصدّقها،فهى بعيدة كل البعد عمّا اتصف به أحمد من العلم،و الاتزان.و لكن الحنابلة جعلوا ذلک دستور حياتهم،بدون تثبّت،و قد دعمت تلک الأقوال حركاتهم فى مقابلاتهم لجميع الفرق،و اشتدوا بصورة خاصة على الشيعة.

أما المعتزلة-و هم خصوم الحنابلة السياسيين-فقد نالوا من الأذى ما لا يوصف،و كذلک الأشعرية الذين اختلفوا معهم فى العقائد،و قد صرّحوا بالطعن على الأشعرى و نسبوا له أقوالا مخالفة لروح الإسلام،و ذهب بعضهم إلى كفر أصحابه، و خروجهم عن حظيرة الإسلام نظرا لما يعتقدونه مما يخالف عقائد الحنابلة،و بهذا وصفوا الأشعرى نفسه بأنه مبتدع،ففى سنة 445 ه أعلن بنيسابور لعن الأشعرى رسميا،و كان قد رفع إلى السلطان طغرلبک من مقالات الأشعرى،فأمر بلعنه.

1- (1) البداية و النهاية ج 13 ص 2. [1]

2- (2) طبقات الحنابلة ج 1 ص 136. [2]

و وقعت فتنة عظيمة بين الحنابلة و الأشعرية حتى تأخر الأشاعرة عن حضور الجمعات خوفا من الحنابلة.

و خلاصة القول،أن الحنابلة يرون من خالفهم من المسلمين كفارا.و يقابلهم الأشعرية كلهم أو بعضهم بتكفير شامل لمن لا يعرف وجود البارى بالطرق التى وضعوها،و قد خالفهم الحنابلة فى جميع ذلک.

و ذهبوا إلى أن العدول عن مذهب الأشعرى و لو قيد شبر فهو كفر،و لو كان العدول فى شىء نزر فهو ضلال و خسر.و هكذا فالأشعرية و الحنابلة يكفّر بعضهم بعضا،و قد لقى الأشعرى من الحنابلة فى حياته،عنتا و تحاملا عليه و على أتباعه و مؤيدى أفكاره و آرائه،و لشدّة تعصّبهم عليه أخفى أصحابه قبره بعد وفاته سنة 333 ه حذرا من أن تنبشه الحنابلة،لأنهم حكموا بكفره و إباحة دمه.و لقد وقعت بين الحنابلة و الأشاعرة حوادث كثيرة و حروب و قتال فى شوارع بغداد،أهمها يوم دخلها القشيرى،و وعظ بها.فاضطر إلى الخروج من بغداد،و كانت اللعنات تنهال على الأشعرى،و نسبوا إليه بعض الآراء الشاذة ليوجهوا الرأى العام ضد الأشعرية،و قد اتخذ الحنابلة يوم الجنائز إعلانا لمبدئهم،و تكفيرا لمن خالفهم،و قد كانوا يردّدون فى تشييع الجنائز هتافات معادية للأشعرية و غيرهم من خصومهم،و بهذه الأمور المحزنة يستمر الوضع السيئ بين جماعات المسلمين،و تنتشر الفرقة بين صفوفهم،و الأمر يشتد كلّما مرّ الزمن.و قد قطع الحنابلة فى مسيرتهم أشواطا بعيدة فى الدعوة لآرائهم بعنف و قوة،كما صبّوا جام غضبهم على من خالف بعض تلک الآراء.

و قد أفتى بعض علمائهم-و هو الشيخ عبد اللّه الأنصارى الملقب بشيخ السنّة فى خراسان-بعدم حلّية ذبائح الأشعرية،لأنهم كفار فى نظره تبعا لرأى العامة من الحنابلة.

و قد امتحن كثير من العلماء،و راحوا ضحية الجهل و الفوضى،و اتّهم كثير منهم بسوء الاعتقاد،كما رمى الكثير منهم بالكفر و الزندقة.

و كان ابن جرير الطبرى المتوفى سنة 340 ه من أولئک الرجال الذى نالهم غضب الحنابلة-كما أشرنا سابقا-مع عظيم منزلته و مكانته العلمية،و هو صاحب التفسير الشهير و المؤلفات القيّمة،فرموه بالإلحاد و الزندقة لأنه خالفهم فى مسألة

الیـدین،فقال فی قوله تعالی: یَـداهُ مَبْسُوطَتانِ أی نعمتاه.و هم یرون أن الیـد هی الید الجارحة،کما زادوا فی اتهامه أنه رافضـی،لأنه کان یری جواز المسح بالوضوء علی القدمین،کما ألّف کتابا جمع فیه أحادیث غدیر خم،و آخر جمع فیه طرق حدیث الطائر المشوی (1).

و من هـذا و ذاک،فقـد امتحن و غضـبوا علیه،و رموا داره بالحجارة حتی علت علی الباب،و منع من التحدیث،و لما مات منعوا دفنه نهارا،و دفن لیلا خوفا منهم.و کان أبو الحسن الآمدی حنبلیا،ثم انتقل لمذهب الشافعی،و حدث بمدرسة الشافعیة بالقرافة الصـغری،و اشتهر فضله و انتشـرت فضائله،فتعصّبوا علیه و کتبوا محضرا بخطوطهم،و اتهموه بمذاهب التعطیل و الانحلال،و خرج إلی دمشق و انعزل و لزم بیته إلی أن مـات.و ألقی القبض علی ظهیر الـدین الأـردبیلی الشـهیر بقاضـی زاده،و هـو حنفی المـذهب،و قطعت رقبته و علقت علی بـاب زویلة بالقاهرة،لأنه ذهب إلی عـدم وجوب ذکر الصـحابة فی الخطبة،فاتهموه بالبدعة،أو أنه یتشـیّع،فعوقب لذلک.و حکم علی الحسن بن أبی بکر السـکاکینی بالزندقة و أنه یسبّ الصـحابة،و أقیمت علیه الشـهادة عند القاضی شرف الدین المالکی،فحکم علیه بالقتل،فضربت عنقه بسوق الخیل.

و اتّهم لسان الدین بن الخطیب-عالم الأندلس-بالزندقة،فحکم علیه بالقتل.

و ذلـک أنهم أحصوا علیه کلمـات فی مؤلفـاته و رفعوهـا إلی القاضـی،فسـجّل علیه الحکم بالزندقـة،و أفتی بعض الفقهاء بقتله،فطرقوا علیه السجن فخنقوه و أخرجوا شلوه و أحرقوه.

و قـد أشـرنا سابقا إلی أن المحکمـة التی تعقد لمحاکمة المتّهمین بالبدعة أو الضـلالة عن الدین هی تحت رئاسة قاض مالکی،و الزندیق أو المبتدع عن المالکیة ینفّذ فیه الحکم و إن تاب،بخلاف بقیّة المذاهب،و هو رأی مالک،و قد خالف ابن مخلد و ابن الموازی ذلک.

قال الشوکانی:أبتلی أهل تلک الدیار بقضاة من المالکیة یتجرءون علی سفک

1- (1) و قـد رواه عـدة من الصـحابة عن أنس بن مالک:أن النبی أهدی إلیه طائر مشوی،فقال:«اللهم ائتنی بأحبّ خلقک إلیک یأکل معی من هذا الطائر»فجاء علی علیه السّلام فأکل معه.رواه الترمذی و قال الحاکم فی المستدرک رواه عن أنس أکثر من ثلاثین.

الدماء بما لا يحلّ به أدنى تعزير،فأراقوا دماء جماعة من أهل العلم بجهالة و ضلالة و جرأة على اللّه،و مخالفة لشريعة رسول اللّه،و تلاعبا بدينه بمجرد نصوص فقهية و استنباطات فرعية ليس عليها آثار من علم،و إنّا للّه و إنّا إليه راجعون.

و ربما كان حكم المالكى عن غضب و تأثر،فإن الباجريقى الشافعى الذى اتهم بانحلال العقيدة،حكم الحنبلى بعصمة دمه،فغضب قاضى المالكية و حكم بقتله.

و قدم رجل متّهم بالبدعة،و لما أحضر أنكر ذلک.فحكم بقتله،فقال:كيف تقتلوننى و أنا أقول:لا إله إلا اللّه محمد رسول اللّه؟ قال ابن أبى عقيل:أنا أقتلک.

قال:بأى حجّة؟ قال:يقول اللّه تعالى: فَلَمّا رَأَوْا بَأْسَنا قالُوا آمَنّا بِاللّهِ وَحْدَهُ .

و من الفظائع المؤلمة،إنهم حكموا على إبراهيم الضبّى بالسجن،فضمّ إليه فى السجن رجل يعرف بابن الهذيل،ثم صدر حكم بأن يضرب ابن الهذيل خمسمائة سوطا،و أن تخبط رقبة إبراهيم ليلا،فاشتبه العامل و ضرب إبراهيم خمسمائة سوطا و أعاده إلى السجن،و أخرج ابن الهذيل فضربت عنقه،ثم انتبه الوالى للغلطة،فأخرج إبراهيم و ضربت عنقه،ثم ربطت أرجلهما بالحبال و جرّا مكشوفين غير مستورين من دار الإمارة،ثم صلبا ثلاثة أيام.

و استمر الحال على هذه الفوضى و التحكّم بأرواح الناس باسم حماية الدين و مقاومة المبتدعة و المفسدين،و كانوا يرون مؤاخذة هؤلاء بالشدّة،و معاملتهم بالعنف انتصارا لمبادئهم،و إنجاحا لمخططاتهم،فلا يسمعون قول أحد فى الدفاع عن نفسه، و ربما لم يسمحوا له بالدفاع عن نفسه،و لا يلتفت إلى ما يكتبه بالردّ على ما اتهم به خوفا من وضوح الحجة و عجزهم عن نقضها،و عمدوا إلى الاستعانة بالسلطة ليرغّبوها فى إبادة المفكرين حماية لأنفسهم،فأخذوا بفتوى مالک و من رافقه من أصحاب الشافعى إلى قتل الداعية إلى البدع،فلا توبة له،و أعرضوا عن نصوص الدين فى قبول توبة المؤمن.

4-القصص و القصاصون

أدى تحول النظام الإسـلامى إلى الملک،و تحکّم الأفراد،إلى ظهور وسيلة جديدة من وسائل أصحاب السلطان فى توطيد دعائم حکمهم و تثبيت نفوذ عوائلهم، فاسـتحدث القصـص مرادفا لدور الخطباء أو الشـعراء الذين انزلقوا مع الحکام فى سياساتهم التى استخدموا بها الدين لأغراضـهم و مصالحهم.و لا نعرف أثرا متفقا عليه يشـير إلى وجود القصص أو ظهور القصاصين کظهور الشعراء قبل الإسلام أو بعده،أو أن العرب عرفوا هـذا النوع بمـا يقرب من الأـلوان التى عرفتها الشـعوب الأخرى،فليس فى الجزيرة من أمثال تلک الأساطير أو الحکايات،و ما کان فيها محـدود التفاصـيل و الأثر،أما فى الإسـلام فقـد تميّز عن الأديان السابقـة بوحدة العلاقة و الواسـطة،و عدم وجود وساطات أخرى تفسح المجال للاستعانة بالخيال.و ما طرأ فى العقائد کان من مخلفات بنى إسرائيل التى منع الرسول محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من سلوک طريقها حيث يذکر أنه قال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«إن بنى إسرائيل هلکوا لما قصّوا».

و نودّ هنا أن نشـير بعجالة إلى مبدأ هذا الأسلوب الذى وضع لخدمة أغراض الحکام،و الذى لعب دورا کبيرا فى إثارة الفوضى و إشاعة الفرقة و تأجيج نار العداء، و تطور إلى صنعة يتکسب منها من لم يفلح فى المجالات الأخرى،أو من لم ينجح فى أمور الحياة،أو تدفعه نيات خبيثة و أحقاد على الإسـلام.إضافة إلى کونها وظيفـة من وظائف الدولة يتصل من خلالها القاصّ بأصـحاب السـلطة و الخلفاء من خلال ما يقوم بإشاعتها،و بقدر ما يحرّک فيهم الإعجاب،و هو يعبر عن أغراضهم و ما يعملون على إشاعته و نشره.

و کان هذا النوع من النشاط من أشد الأساليب فتکا فى جسد الأمة و تأثيرا سلبيا

فی واقع الناس،و قد کانت لحمته مختلطة و متنوعة تجافی المنطق و العقل،و لعبت فی عقول الناس و میولهم،ثم جرأت السلطة القصاصین علی أن یتناولوا کل ما من شأنه خدمة دولهم و حکم أسرهم.

و القصاصون استعملوا قصصا تحمل الناس علی ارتکاب المعاصی،أو تدفعهم إلی القتال و النزاع.ففی سنة 284 ه أثار القصّاصون الفتن بین أتباع المذاهب الدینیة، مما حمل الخلیفة المعتضد علی منعهم (1).

و قد وصفوهم بالکذّابین،و أنهم یروون الأعاجیب (2)و منع عضد الدولة ظهورهم فی المساجد سنة 267 ه و غیرها،و اعتبرهم آفة المجتمع لأن أحادیثهم کانت سببا فی إثارة الناس (3).

و لم یعهد فی صدر الإسلام وجود قصاصین،و لکن الأمر محدث فی العهد الأموی،أحدثه معاویة حین کانت الفتنة،فکان للقصّاصین نشاط سیاسی یقومون به لتقویم دعائم الملک،إذ هم یحرّضون الناس علی تأیید الدولة،و یوغرون قلوب الناس بما یخترعونه من القصص،و یلهبون شعورهم بما یضعونه من الأحادیث، فیزداد نشاط الناس بالغیظ و حب الانتقام.

و کان الحکم الأموی منذ لحظاته الأولی یخطط لکسب الأکثریة من الناس، و إیهام الرعیة بشرعیة سلطانهم،فلجئوا إلی أسالیب کثیرة أهمها الدعایات الملفقة، و من صور الدعایة التی ابتکروها کان تجنید القصّاص لترسیخ دعائم حکمهم علی حساب مکانة الرسول و أصحابه الأخیار،و لکی یضمن الأمویون الإفادة من جهود القصاص ألزموا الناس بلزوم الاستماع إلیهم.

و لقد قام أولئک القصّاصون بکل جهدهم بصیاغة القصص و تلفیق الأحادیث.

قال حبیب بن الحرث الثمالی:بعث إلیّ عبد الملک بن مروان فقال:یا أبا

1- (1) الطبری ص 182.و المنتظم ج 7 ص 88.

2- (2) مروج الذهب ج 5 ص 86 ط أوروبا.و المقدسی فی البدء و التاریخ ج 1 ص 199.

3- (3) العبر ص 65-66.

أسماء،إنّا قد جمعنا الناس على أمرين.فقلت:و ما هما؟قال:رفع الأيدى على المنابر يوم الجمعة،و القصص بعد الصبح و العصر (1).

كما اتخذت السلطات فى العهد الأموى استخدام القصاص وسيلة لتشويه مبادئ الإسلام و تعضيد حكمهم و اختلاق النصوص و القصص بما ينسجم مع سياستهم فى العنف و التحكم و إخماد حرية الرأى؛فكان القصّاصون ركيزة الدولة الأساسية فى مواجهة القوى التى أخذت تكتشف حقيقة تركيب النظام الأموى و سياسته الظالمة،فبذل القصّاص غاية جهدهم فى تشويه الحقائق،و السماح لهم باختلاق الروايات و وضع الأحاديث،و الإغضاء عن الافتعالات المفضوحة التى انضم بها القصاص إلى ركب المدّاحين و أهل الخطب الذين شوّهوا دور المنابر،و أساءوا إلى مهمة رجال العلم بصمتهم المطبق،و هم يرون سفک الدماء و انتهاک الحرمات، و التعدّى على تعاليم صاحب الرسالة و مبلّغ الشريعة و أهل بيته الأطياب،و بجلجلة ألسنتهم و هم يركبون الكذب،و يجمعون الموضوعات،و يسوقون الخرافات و المنامات و الأساطير تزلفا و تكسّبا،فباعوا دينهم بأبخس الأثمان،و عند اللّه الجزاء.

ثم انتشرت خرافات القصص الإسرائيلية المعروفة بالإسرائيليات،و قد قام بذلک جماعة من اليهود،و فى طليعتهم كعب الأحبار،تلک الشخصية اليهودية التى دخلت الإسلام و هو يحمل على كتفيه مهمة نشر الإسرائيليات و بثّها فى ثنايا علوم الإسلام و فنون القرآن،فكان أكبر و أخطر مصدر لهذا الفن.و قد سفنا الحديث المروى عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الذى يشير فيه إلى أن اليهود فى قصصهم قد هلكوا،و قصدنا إظهار ما فيه من تحذير،و قد جاء كعب ليكون من دعائم بنيان فن القصص الذى عملوا على توسيعه،فالتقت الأغراض.

فاليهود هم أكبر عامل لإثارة الحزازات و النعرات و النزعات العصبية بين القوميات التى تعيش فى المجتمع الإسلامى،و طريقتهم فى تآمرهم على الإسلام هى:

التظاهر باعتناقهم إياه،ثم يبدءون ببثّ سمومهم بما يلقونه من قصص و أخبار و هى ليست بذات قيمة؛لكنهم يجيدون استغلال الظروف و التحرک المناسب.

و قد حذّر النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من خطرهم،و أمر بإجلائهم،و كانت آخر وصية له صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن

1- (1) الباعث على إنكار البدع و الحوادث لشهاب الدين أبو شامة 66.

قال:«اللّه فی أهل بیتی،أوصیکم فی أهل بیتی خیرا،و أخرجوا الیهود من جزیرة العرب»و لکن المسلمین لم یأخذوا هذه الوصایا بعین الاعتبار،فکان ما کان من عواقب وخیمة.

و قد أجلی عمر بن الخطاب جماعة من الیهود،فسکنوا الکوفة،فکانوا قطب رحی الخلافات،و قد شوّهوا سمعة هذا البلد العربی المسلم.حتی عرف بالمکر و الخیانة،و الغدر،و الخدیعة.و لعب هؤلاء الیهود دورا مهما فی نشر الخلافات فی جیش الإمام الحسن علیه السّلام و تمزیق وحدة الصف،و إثارة النعرات.

و لا یتّسع المجال لشرح مواقفهم من قضیة الحسین علیه السّلام بدفع عجلة الحوادث،و تطویر الوقائع،للإسراع فی القضاء علی الحسین علیه السّلام لأنهم یعدّون ذلک نصرا لهم،و فتحا جدیدا فی موقفهم العدائی للإسلام،و استمرّت أعمالهم فی العهد الأموی یوسّعون دائرة الخلافات،و یقیمون العراقیل فی طریق التفاهم بین الفئات المتناحرة.

و علی کل حال،فقد استمر القصّاص بمساندة السلطة و تأییدهم الحاکم الذی یصبح وضعه ینذر بالخطر لسوء السیرة و قبح المعاملة،فیلجأ إلی استعمال سلاح الحمایة باسم الدین بشتی الوسائل،فیوعز إلی القصّاص بالنزول إلی غمار العامة یقصّون علیهم ما یحرّک شعورهم ضد الفئة المعارضة للدولة،أو یشغلونهم بحدوث فتنة.و قد استطاعوا أن یجلبوا أذهان السذّج،و یؤثروا علی تلک العقول فی وضع الأحادیث و اختراع القصص،فکانوا أداة فرقة،و أکبر عامل لإثارة الفتن.

قال ابن الجوزی:و کان القصّاص فی أواخر القرن الرابع أکبر مثیری الفتن بین السنة و الشیعة.

و یقول أیضا فی موضوعاته:إن معظم البلاء فی وضع الحدیث إنما یجری من القصّاص،لأنهم یروون أحادیث ترفق و الصحاح تقل فی هذا.و اختلف أهل البصرة فی القصص،فأتوا أنس بن مالک فسألوه:أ کان النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یقص؟قال:لا.

و أخرج الزبیر بن بکار فی أخبار المدینة عن نافع و غیره-من أهل العلم-أنهم قالوا:لم یقصّ فی زمان النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و لا زمان أبی بکر و لا زمان عمر؛و إنما القصص محدثة،أحدثها معاویة حین کانت الفتنة.

و لا شک أن معاوية استعمل تلک الفئة المرتزقة کما قدّمنا لیستعین بها فی وضع الأحادیث لدعم ملکه،و حمایته بوجه موجة الاستنکار،و قد استطاع أن ینشر بین الناس مناقب عثمان الموضوعة،و مناقب البلدان،و مناقب بعض الرجال و العشائر کما یشاء.

کما أنه استطاع أن یختلق لخصومه مثالب أبرزها فی قالب الابتکار و الخیال الواسع،و تمکّن بهذه القوة،أن یزوی ما لعلی علیه السّلام من مناقب و ما ورد فیه من أحادیث صحاح،فکان بحکم تلک الدعایات التی هی کأوامر رسمیة أن أصبح الخطباء یعلنون سبّ علی علیه السّلام و شیعته،و کان الوعّاظ یختمون مجالسهم بشتمه علیه السّلام و کان یلزم الناس بإعلان سبّه و البراءة منه،و فرض علیهم تعلیمه لأبنائهم،و أصبح معاویة بمقتضی تلک الأسالیب و بتلک الأکاذیب هو:أمین الأمة،و کاتب الوحی، و خال المؤمنین،إلی آخر ما هنالک من أساطیر.

و مهما حاول معاویة إخفاء فضل علی علیه السّلام فقد انهار ما بنی،و بقی ذکر علی و أهل بیته علیه السّلام تردّده الأجیال بفخر و اعتزاز علی مرّ العصور و الأیام.

إذا ما بناء شاده الدین و التقی تهدّمت الدنیا و لم یتهدّم

و لسنا هنا بمعرض البحث عن تلک الأزمنة،فقد أشرنا إلی بعضها فی الأجزاء السابقة،و جلّ اهتمامنا فی جمیع ما ذکرناه هنا و هناک،هو إعطاء صورة عن الأمور المحزنة التی تحزّ بالنفس،و التی حدثت فی أزمنة متأخرة من الزمن.الذی کان ظرف تلک الحوادث و هی امتداد لما حدث فیها من خلافات.

و علی أی حال،إن الأثر الذی أحدثه القصّاصون فی ذلک المجتمع من إثارة فتن،و إیقاد نار البغضاء بین طوائف المسلمین،و إشعال حروب طاحنة؛هو من أعظم الأمور التی ابتلی بها المسلمون فی تلک الفترة المظلمة.

لقد کان أولئک النفر یحرّضون الناس علی القتال و النهب،و یحرّکون القلوب، و یثیرون الشعور بما یفتعلونه من أقوال و یضعون من أحادیث،یغذّون بها أدمغة العامة،کما قاموا فی المساجد و الجوامع و الطرقات و الأندیة یبثّون سمومهم.

فاتخذتهم السیاسة سلاحا فاتکا-کما قدمنا-و هم ینتشرون فی ساحات الحرب

يشـجعون الجند على القتال.و لقد خضعت العامة لتصديقهم و قبول مفترياتهم،حتى أصبح من العسير الإنكار على واحد منهم.و من تجرأ فأنكر،يكون عرضـة لسـخط العامـة.و حيث عظم خطرهم و فشا كذبهم و ظهر تلاعبهم بتفسـير الكتاب العزيز،فأراد بعض العلماء أن يقوم بتوجيه الناس بحملـة إنكار على هؤلاء الذين فتكوا بجسم الأمة بأكاذيبهم،و لكن أقعد أولئک العلماء خوف العامة،فتركوا الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر تقية و خشية من السلطان،لأنهم تحت رعاية الدولة.و ربما خرج القاصّ محاطا بالجند و مزوّدا بالسلاح.

ففى سنة 475 ه عبر قاصّ من الأشـعرية-يقال له البكرى-إلى جامع المنصور و معه الشـحنة و الأتراک بالسـلاح،و كان البكرى فى حدة و طيش،و كان النظام أنفذ ابن القشيرى،فتلقاه الحنابلة بالسبّ،فأرسل إليهم النظام هذا القاصّ،فأخذ يسبّ الحنابلة،و يستخفّ بهم،و قد أحيط بالسـلاح من الأتراک،و صـعد المنبر و قال: وَ ما كَفَرَ سٌ لَيْمانُ وَ لكِنَّ الشَّياطِينَ كَفَرُوا ما كفر أحمد بن حنبل،و لكن أصحابه كفروا.و حكى على الحنابلة فى صفات اللّه عز و جل ما لا يليق،فأغرى بهم الناس، و أعلن شتمهم (1).

و أراد جماعة من العلماء الإنكار على محمد السـمرقندى لأنه كان يقصّ و يحدّث بأحاديث منكرة،فلما حضروا عنده،اجتمع العامة،فخاف العلماء من شرّه.

و نزل قـاصّ فى دار الحـذائين و روى أحـاديث منكرة،فـأراد يحيى بن معين أن ينكر عليه،و لكنه ترک ذلک تقيـة خشـية أن يقتله الحـذائون بشفارهم.

و حكى السـيوطى قصـته مع القصاص الـذى حـدّث الناس بحديث لا أصل له، و كذّبه السـيوطى،و أفتى بأن هذا الحديث لا أصل له و هو باطـل لا تحلّ روايته و لا ذكره و خصوصا بين العوام،و السوقـة،و النساء،و أنه يجب على هـذا الرجل أن يصـحح الأحاديث التى يرويها فى مجلسه على مشايخ الحديث.

فنقل كلام السـيوطى إلى ذلک القاص،فاسـتشاط غيظا و قام و قعد،و قال:مثلى من يصحح الحديث عن المشايخ؟!مثلى يقال له فى حديث رواه أنه باطل؟!أنا أصحح على الناس،أنا أعلم أهل الأرض بالحديث.ثم أغرى الناس بالسيوطى

1- (1) تحذير الخواص للسيوطى ص 50. [1]

فهاجت العامة،و قامت الغوغاء،و تناولوه بألسنتهم،و توعّدوه بالقتل و الرجم (1).

و أنكر على بن نبال على قاص بما حدّث،فعظم ذلک على العامة و همت بإيقاع المكروه فيه،فاختفى عنهم و توارى فى بيته.و سمع الأعمش أحد القصاص يقول:

حدثنا الأعمش.فقام و توسط الحلقة،و جعل ينتف شعر إبطه.فقال القاص:

يا شيخ،أ لا تستحى نحن فى حلقة علم،و أنت تفعل مثل هذا؟!! فقال الأعمش:الذى نحن فيه خير من الذى أنت فيه.

قال:كيف؟ قال:إنى فى سنّة،و أنت فى كذب.أنا الأعمش،ما حدّثتک مما تقول شيئا (2).

و تجنّب العلماء معارضة القصّاصين،و الردّ عليهم تقية و خوفا على أنفسهم، لأن العامة ارتبطوا بالقصاص،و أقبلوا عليهم و تقبلوا كل ما يلقونه من الموضوعات، و القصص الخرافية.و قد قام أحد القصّاصين فحدّث عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنه قال:من بلغ لسانه أرنبة أنفه لم يدخل النار.فلم يبق أحد منهم إلا و قد أخرج لسانه يومىء بها إلى أرنبة أنفه.و من هذا الباب تسرّبت أكثر الأحاديث المرغّبة فى كثير من الأعمال.

و دخلت أذهان العامة تلک الخرافات و الأباطيل،و أصبحت و كأنها حقائق لا تقبل الشک و لا تخضع للجدل،كما أدخلوا كثيرا من العقائد المفتعلة ضمن أحاديث مكذوبة أحدثوها،و ربما خلقوا لها أسانيد من أنفسهم.و من أغرب ما ورد عنهم أن أحدهم قام فحدّث عن أبى خلفة أنه قال:حدثنا الوليد بن سعيد،عن قتادة،عن أنس،عن النبى.فقام إليه أبو حاتم البستى و قال له:رأيت أبا خلفة؟قال:لا.فقال له كيف تروى عنه و لم تره؟ فقال القاص:إن المناقشة معنا من قلة المروة،أنا أحفظ هذا الإسناد الواحد، و كلما أسمع حديثا ضممته إلى هذا الإسناد.

و من ذلک أن قاصّا حدّث بحديث و أسنده عن أحمد بن حنبل و يحيى بن معين

1- (1) المصدر السابق فى المقدمة.

2- (2) الأسرار المرفوعة لعلى القارى 55.و الأحياء للغزالى 58/1. [1]

و كانا حاضرين بالمجلس.و بعد أن فرغ أوحى إليه ابن معين بيده،فأقبل متوهّما لنواله،لأن القصاص كانوا ينالون الأموال من المستمعين،فلما جلس قال ابن معين:

من حدثک بهذا الحديث؟قال:حدثنى يحيى بن معين و أحمد بن حنبل.

فقال ابن معين:هذا أحمد بن حنبل و أنا ابن معين،ما سمعنا بهذا قط فى حديث رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فإن كان و لا بد من الكذب فعلى غيرنا.فقال له:أنت يحيى؟ قال:نعم.

قال القاص:لم أزل أسمع أن يحيى بن معين أحمق،ما حققت إلا الساعة.

فقال له يحيى:كيف علمت أنى أحمق؟ فقال:كأنّ ليس فى الدنيا أحمد بن حنبل و ابن معين غيركما؟قد كتبت عن سبعة عشر أحمد بن حنبل و يحيى بن معين،فوضع أحمد بن حنبل كمّه على وجهه.

و قال:دعه يقول.

و لم يستطع أحدهما و الحالة هذه أن يشتد فى الإنكار عليه مع عظيم منزلتهما و اشتهارهما بين الناس خوفا من الغوغاء (1).

و حدّث بعضهم عن الأعمش بلا سند قال:خرجت فى ليلة مقمرة أريد المسجد فإذا أنا بشىء عارضنى،فاقشعرّ منه جسدى،فقلت:أ مؤمن أنت أم كافر؟فقال:بل مؤمن.فقلت:أمن الأنس أنت أم من الجن؟ قال:بل من الجن.

فقلت:فيكم من هذه الأهواء و البدع شىء؟ قال:نعم.

ثم قال:وقع بينى و بين عفريت من الجن اختلاف فى أبى بكر و عمر فاحتكمنا لإبليس.

قال العفريت:إنهما ظلما علينا و اعتديا علينا.فحكينا ذلک لإبليس فضحک و قال:هؤلاء-أى الذين يقولون بهذه المقالة-من شيعتى و أنصارى و أهل مودتى.ثم قال:أ لا أحدّثكم بحديث؟قلنا:بلى.قال إبليس:إنى عبدت اللّه فى سماء الدنيا ألف عام،ثم رفعت إلى الرابعة،و رأيت فيها سبعين ألف صف من الملائكة يستغفرون

1- (1) الأسرار المرفوعة 53-55.

لمحبی أبی بکر و عمر،ثم رفعت إلی الخامسة فرأیت سبعین ألف ملک یلعنون مبغضی أبی بکر و عمر.

بهـذا یتقـدم قاصّ یعهـد إلیه توجیه المجتمع حسب رغبات الدولـة،و أی خدمـة أعظم من هذه،و هی إبراز خصوم الدولة و هم الشـیعة-أو المبتدعة فی منطق السـیاسة -بمظهر یشـمئز منه کل واحد،و قد وسـموهم بأنهم یلعنون الشـیخین و یبغضونهما، و شاع ذلک فی المجتمع بدون وقوف علی واقع الحال.

کما اتخذوا من القصص وسائل تدخل فی أذهان العوام عند ما یسندون ذلک إلی عالم الغیب أو الخضر علیه السّلام و هو یتردّد علی ألسنة القصّاص فی أکثر المناسبات لتوجیه الشعور إلی ما یمکن قبوله.

لقد حدّثوا عن بلال الخوّاص أنه قال:کنت فی تیه بنی إسـرائیل،فإذا رجل یماشـی،فتعجبت منه،ثم إنی ألهمت أنه الخضر علیه السّلام فقلت له:بحق الحق من أنت؟ فقال:أخوک الخضر.

فقلت له:أرید أن أسألک.

فقال:سل.

فقلت:ما تقول فی مالک بن أنس؟ قال:هو إمام الأمة.

فقلت:ما تقول فی أحمد بن حنبل؟ فقال:رجل صدق.

قلت:فما تقول فی بشر الحافی؟ فقال:لم یخلق بعده مثله (1).

و هکـذا تـدور هـذه المحاورة الخیالیة،و تبرز للوجود بهذا الشـکل،لتلعب دورا فی مجال الدعایة المذهبیة،و تأخذ طریقها إلی عقول تتقبل الخرافات و الأباطیل.

1- (1) أحمد بن زین،شرح العینیة 511.

و لقد ابتلى الخضـر عليه السّلام بأولئک القصاصين،فهم يزجّون بشخصه، و يدخلون اسمه فى كثير من قصص الدعاية المذهبية،كما جعله بعض الأحناف تلميذا لأبى حنيفة فى حياته و بعد مماته كما تقدم.

كما استعمل الصوفية من شخصيته وسيلة إعلام لبعض شخصيّاتهم أو شاهدا على صحة طريقتهم (1).

لقـد دخل نشاط القصّاصـين فى أغلب زوايا المجتمع،و اسـتخدمه الناس فى أغراضـهم المختلفـة،و لجأ إليه أصـحاب المـذاهب.و كانت القصص تتبدل شخصياتها بحسب تغيّر المتنفّذين و الصنعة التى يحملونها:مذهبية أو عرقية أو إقليمية.و لكن الأمر الذى لا يتغير هو العداء للشـيعة و الهجوم عليهم تحت سـتار سبّ الصـحابة أو بغض الشيخين،لأن الحكام منذ عهد معاوية اعتمدوا هذه التهم،و راحوا يستميلون الأمة،و يجعلون اتجاه وجودها و اسـتمرارها عدائيا تجاه الشـيعة،و تأكيد سـلطة الحكام و صـفتهم الدينية من خلال أصـحاب الصـنعة فى الخطابة و الحديث و القصص.

كان مجلس القصّاصـين يضمّ الرجل و المرأة و الطفل،و كلهم على مسـتوى واحـد من حيث قبول تلک القصـص،و لا تتعـدى أنظارهم و مـدركاتهم حـدود المنابر التى يرقاها مرّة الوعاظ المرتزقـة،و مرّة العلماء المأجورون،و مرّة القصّاص الكذبة و هو يسـبّحون بحمد الظلمة و يـأتمرون بـأمر البغـات منـذ أن قـامت الفتنـة على يـد الطلقـاء مـن الأـمويين، و منـذ أن اشـرأبت الجاهليـة مـن على دست حكمهم فى الشام،فراحت هـذه الزمر و مؤسـساتها تؤثر فى أذهان الناس،و تبنى عقائـدهم كما تشاء.بحيث يصحّ الحاكم الظالم و الفاسق الفاجر إماما بنص مكذوب و أثر موضوع،فيتقبل الناس ما يلقونه إليهم من سموم.

و فتح من جراء ذلک شدة البغض لهؤلاء الذين يوصفون أو يتهمون ببغض الشيخين أو لعنهما،و بالأخص تضاعف التهم على الشيعة حتى أصبحت من الأمور الارتكازية.لهذا ثبت فى أذهان السذّج أن بغض الشيعة من السنة،و أنه خير عمل يقدمه الإنسان لربه.

1- (1) انظر المصدر السابق 534.

و جاء فی النجوم الزاهرة فی ترجمة الخفّاف أنه کان شدیدا من السنّة،و لما مات ابن المعلم فقیه الشیعة-و هو الشیخ المفید رحمه اللّه- جلس للتهنئة و قال:ما أبالی أی وقت مت بعد أن شاهدت موته.

قال مؤلف النجوم الزاهرة:و مما یدل علی دینه و حسن اعتقاده بغضه للشیعة، و لو لم یکن من حسناته إلا ذلک لکفاه عند اللّه (1).فلا غرابة أن یصبح بغض الشیعة سنّة معمولا بها،و هی عندهم خیر ما یلقی الإنسان بها ربه.و قد أصبح الکثیر من هذه البدع من المسلّمات عن العوام لا تقبل الجدل و النقاش،و أن الکثیر من الخرافات قد ارتکزت فی الأذهان کحقیقة واقعیة لا لبس فیها و لا غموض.

و قد خفیت تلک الخرافات علی أکثر الناس،و أصبح لها مکانة.و هی عنصر فعّال فی توجیه الشعور ضد الخصوم،لا سیما أنهم أشرکوا الشیاطین و الجنّ فی المعاونة معهم بالعمل ضدّ کل من یخالف المتسلطین و دعاة التحجر و الجمود.

حدّث أحمد بن نصر قال:رأیت مصابا بالصرع،فقرأت فی أذنه،فکلّمتنی الجنیة من جوفه فقالت:یا أبا عبد اللّه،دعنی أخنقه،فإنه یقول بخلق القرآن (2).

و أحمد بن نصر هو من کبار العلماء،و ممن یقول بقدم القرآن،و قد امتنع عن القول بخلقه،فأحضره الواثق فقال له:ما تقول فی القرآن؟ فقال:کلام اللّه.

قال الواثق:افتری ربک یوم القیامة؟ قال:کذا جاءت الروایة.

فقام الواثق إلیه بنفسه،فقتله صبرا 3.

و یروی الخطیب البغدادی فی التاریخ أن الواثق قال له:ویحک یری کما یری المحدود المتجسّم؟یحویه مکان و یحصره الناظر.أنا أکفر برب هذه صفته (3)و قد کان أحمد بن نصر من ضحایا السلطان،نصب رأسه ببغداد علی رأس الجسر،و استخدم القصّاص من الحنابلة طریقة موته،و ادخلوا المنامات،و کم للمنامات و الرؤی من أهمیة عند ما یعزّ الأثر و تنعدم المادة،و هی من أسهل الأسالیب.و قد عجّت بها

1- (1) النجوم الزاهرة ج 4 ص 161. [1]

2- ((2)و(3)) طبقات الحنابلة ج 1 ص 81. [2]

3- (4) انظر:الإمام الصادق و المذاهب الأربعة، [3]محنة خلق القرآن/الجزء الأول.

المصـنّفات المختلفة،فأحاط القصّاص موت أحمد بن نصـر بما يخدم عقيدة التجسـيم،إذ يروى الخطيب البغدادى عن الحنابلة:رأى بعض أصـحابنا أحمد بن نصـر فى النوم بعد ما قتل،فقال:ما فعل بک ربک؟فقال:ما كانت إلا غفوة حتى لقيت اللّه،فضحک إلى.أخبرنا أبو عبد اللّه محمـد بن أحمـد بن محمد بن أحمد بن طاهر الدقاق،أخبرنا أبو بكر النجاد،حدثنا عبد اللّه بن أحمد،حدثنا أبو الحسن بن العطار محمد بن محمد قال:سمعت محمد بن عبيد-و كان من خيار الناس-يقول:

رأيت أحمد بن نصر فى منامى فقلت:يا أبا عبد اللّه،ما صنع بک ربک؟فقال:

غضـبت له،فأباحنى النظر إلى وجهه(انتهى).ثم ينشـرها المختصّون و يذيعونها.و قد ذكرنا فيما سـبق أن الواثق كان يمثّل المرحلة الوسـطى التى تجمع بين المأمون فى شدّته و بين المتوكل فى إدنائه الحنابلة و العامة،أو أن هناک ما يشير إلى ميل لتبرئة آل العباس من دماء الأبرياء و إبقاء صـلة القرابة بالرسول صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم معتمدا لمكانتهم المقدسة،فوضعوا على لسانه أن أحدهم سأله و هو عليه السندس و الاستبرق و على رأسه تاج:ما فعل اللّه بک يا أخى؟قال:غفر لى و أدخلنى الجنة،إلا أنى كنت مغموما ثلاثة أيام.قلت:

و لم؟قال رأيت رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم مرّ بى،فلما بلغ خشبتى حوّل وجهه عنّى،فقلت له بعد ذلک:يا رسول اللّه،قتلت على الحق أو على الباطل؟فقال:أنت على الحق، و لكن قتلک رجلا من أهل بيتى،فإذا بلغت أستحيى منک.

و يعقـد ابن الجوزى بابين مسـتقلّين فى المناقب يـذكر فيهما المنامات التى رؤى فيها أحمد بن حنبل،و بابا آخر يذكر فيه تأثير موت أحمد عنـد الجن،نذكر منها على لسان رجل بطرسوس:أنا من اليمن و كانت لى بنت مصابة،فجئت بالعزّامين،فعزموا عليها.ففارقها الجنّى على أن لا يعاود،فعاود بعد سـنة.فقلت:أ ليس قد فارقت على أن لا تعاود؟قال:بلى.و لكن مات اليوم رجل بالعراق يقال له أحمد بن حنبل، فذهبت الجن كلها تصلّى عليه إلا المردة و أنا منهم،و لست أعود بعد يومى.فما عاد.

و من المضـحک،بل المخزى فى آن واحد ما وقع فى سنة 456 ه أن قوما من الأكراد خرجوا متصـيّدين،فرأوا بالبرية خيما سودا سمعوا فيها لطمـا شديـدا و عويلاـ كـثيرا و قائلاـ يقـول:مـات سـيدوک ملـک الجـن،و أى بلـد لـم يلطم عليه و لـم يقم له فيه مـأتم قلـع أصـله و هلک أهله.فخرجت النساء من حريم بغداد إلى المقابر يلطمن ثلاثة

أيام و يخرّقن ثيابهنّ و ينشرن شعورهنّ،و خرج الرجال يفعلون مثل ذلک،و فعل هذا فی واسط و غيرها من البلدان (1).

بمثل هذه العقلية الضحلة،أصبح الناس يعيشون تحت ظلال علماء و قادة يدفعون بهم إلى مهاوى الجهل و التعصب،و يقبعون فی ظلمات الفرقة،و قد نشرت تحت ستار الوعظ خرافات و أوهام و أباطيل،و طغت موجة الغلو و التحدی لتعاليم الإسلام،و انتشرت عقائد بعيدة عن روح الإسلام و نظمه،و مصدر ذلک تلک الحلقات التی اتخذت لأغراض خاصة و أبواق المأجورين.

و لقد أخذت تلک الخرافات مكانتها فی أدمغة السذّج،و هی السمّ القاتل، و السلاح الفاتک،ثم تحولت إلى مادة يشطح فيها الخيال،و يحاط بها الأشخاص.

و تظهر على الساحة جماعات بمسوح دينية و شعائر مبالغ فيها،تجعل لها قادة من الرجال الأحياء أو الأموات،فتنسب إليها الأعمال أو تصوّر سيرهم بأوضاع لا تجد لها مستندا من عقل أو حقيقة،و ما هی إلا أوهام تنجم عن حالات خاصة يمارسها الأشخاص،فتخلق أجواء يبرز بها مختصّون فی الأداء و التوجيه،تجتذب أفعالهم السذّج و البسطاء،فتصبح عندهم عقيدة و طريقة.و قد جاءوا بمناقب لمن و سموهم بالأولياء أو الشيوخ ذوی الكرامات.

فهذا يدّعی له بأن الشمس وقفت له إكراما حتى يصل إلى وطنه عند ما ضايقه الليل كالشيخ محمد الحضرمی حتى قالوا فی ذلک:

و من جاهه أومأ إلى الشمس أن قفی فلم تمش حتى أنزلوه بمقعد

(2)و قالوا:أنّ الكعبة توهّدت و هی تطوف بسريره.

و أوردوا عن النبی صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:أن من قبّل يد الشيخ الحضرمی دخل الجنة.إلى غير ذلک من خرافات و أوهام (3).

و كذلک أدعى للسيد أحمد الرفاعی أن الشمس وقفت فی قرصها إلى أن دخل قرية أم عبيد (4)و أكثروا عن المشايخ نقل كرامات تدل على مبلغ ما وصل إليه

1- (1) طبقات الحنابلة ج 1 ص 81.

2- (2) اليافعی،مرآة الجنان 188/4. [1]

3- (3) ابن العماد،شذرات الذهب 262/5.

4- (4) الشيخ أحمد الوتری،روضة الناظرين 99.

الانحطاط الفكرى،و قد جعلوا الاعتراف بها و الخضوع لها من عقائد الإسلام،فمن مارى فيها شكّوا فى دينه (1).

فكانوا يلزمون الناس بالاعتقاد بأن شيبان العجمى سخرت السماء لخدمته، عند ما يريد أن يغتسل،فهناک تأتى سحابة تمطره فيغتسل،و نسبوا لآخر منهم أنه يخرج فى القافلة من البصرة يوم التروية،فيدرک الحج أول النهار.

و قالوا:أن إبراهيم الخراسانى كان يمشى على البحر بين الأمواج،و أحمد بن خضير البلخى كان يفرش بساطه على البحر (2).

و غير ذلک من ادّعاءات كاذبة و مناقب مفتعلة،و ليت الأمر اقتصر على تخيّل الكرامات و ادعاء المعجزات التى يسهل أمرها عند تحكيم العقل و تدقيق النظر،فإن قائمة الموضوعات امتدت إلى الأحكام الشرعية و ابتغائها على نتاج هذه الأمراض التى تكبّل طاقات البشر و تشلّ قدراتهم،فيعلم العيد من امتناع الوليد عن الرضاع و هو فى حضن أمه.أو ما أوردوا للسيد البدوى من أنه بعد أن مات قام فغسّل نفسه،و بعد انتهائه من الغسل مات ثانية.

و قد ابتنى على هذا نزاع فقهى كما أورده الشيخ الباجورى و غيره فى تغسيل الجنائز فقالوا:إن الميت لو غسّل نفسه لا يحتاج إلى من يغسله ثانية كما وقع للسيد أحمد البدوى.

و يروون أن جماعة من الفقهاء و الفقراء اجتمعوا عنده فى المدرسة النظامية،فتكلم فى القضاء و القدر،بينما هو يتكلم إذ سقطت عليه حية من السقف،ففرّ منها كل من كان حاضرا عنده و لم يبق إلا هو،فدخلت الحية تحت ثيابه،و مرت على جسده،و خرجت من طوقه،و التوت على عنقه،و هو لا ـ يقطع كلامه و لا غيّر جلسته،ثم نزلت على الأرض و قامت على ذنبها بين يديه،فصوتت،ثم كلّمها بكلام ما فهمه أحد من الحاضرين،ثم ذهبت.فرجع الناس و سألوه عما قالت؟فقال:قالت لى لقد اختبرت كثيرا من الأولياء فلم أر مثل ثيابک.فقلت لها:و هل أنت إلا دويدة يحرّکک القضاء و القدر الذى أتكلم فيه (3).

1- (1) محمد الغزالى،الإسلام و الطاقات المعطلة 124.

2- (2) المناوى،الكواكب الدرية 192/1-198.

3- (3) انظر:طبقات الشعرانى، [1]ترجمة الجيلى،الجزء الأول.

و من الغريب أنهم يربطون بين خرافاتهم و بين واقع الإسلام،كما أنهم اخترعوا أسطورة لرقصتهم فى مجالس الذكر،و أنهم يفعلون ذلک اقتداء بأبى بكر،و قالوا:

حدّث الأشنانى عن ابن عباس عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:هبط علىّ الأمين جبريل و عليه طنقسة و هو متخلل بها.فقلت:يا جبريل،ما نزلت إلى بزىّ مثل هذا الزىّ؟ قال:إن اللّه أمر الملائكة بأن تتخلل بالعباءة إكراما لأبى بكر.و رواها العلاء بسند عن ابن عمر.بينما الناس عند النبى و عنده أبو بكر و عليه عباءة،قد خللها على صدره بخلال،إذ نزل جبرئيل و قال:مالى أرى أبا بكر عليه عباءة قد خللها؟فقال النبى:يا جبرئيل قد أنفق ماله علىّ.قال جبرئيل:فأقرأه من اللّه السلام و قل له:يقول ربک:أراض أنت أم ساخط؟قال ابن حجر فى بقية الحديث:فبكى أبو بكر و قال:

أعلى ربى أغضب؟ و قد أورد هذه المنقبة صاحب الذهب الأبريز فى شرح الوجيز ص 392،و هى أن أبا بكر أنفق ماله فى سبيل اللّه،و أعتق عبيده حتى تخلل بالعباءة،و نزل جبرئيل و قال يا محمد:إن ملائكة السموات تخللت بالعباءة إكراما لأبى بكر من اللّه،و قل له:

إن ربک عليک راض فهل أنت عنه راض؟ فقال أبو بكر:إنى عن ربى راض.و صار يفتل(يفتر)كالدولاب.و عنه أخذت الصوفية الدوران و الرقص.

و نسبوا إلى أبى بكر أنه ألبس أحدهم الخرقة فى المنام و هو ابن هواد البطائحى و كان شاطرا يقطع الطريق،فكان أول من ألبسه أبو بكر-كما يروى الشعرانى-ثوبا و طقية فى النوم،فاستيقظ فوجدهما عليه؛و يرقى بهم الحال،فيدّعون للشيخ عبد القادر منزلة النبوة و درجة المناجاة مباشرة من دون واسطة،فيقول:يا رب.فيقول اللّه:لبيک.و قد جمعت هذه المناجاة و الوحى الإلهى فى رسالة أسموها:الرسالة الغوثية.نقتطف منها ما يلى:

قال الشيخ عبد القادر الكيلانى:

الحمد للّه كاشف الغمّة،باسط النعمة،و الصلاة و السلام على نبيه خير البرية.

قال الغوث الأعظم المستوحش بغير اللّه و المستأنس باللّه.

قال اللّه تعالى:يا غوث الأعظم.

قلت:نبیک یا رب،الغوث.

قال:کل طور بین الناسوت و الملکوت فهو شریعة،و کل طور بین الجبروت و الملکوت فهو طریقة،و کل طور بین الجبروت و اللاهوت فهو حقیقة.

و قال لی:یا غوث الأعظم،ما ظهرت فی شیء کظهوری فی الإنسان.

ثم سألت فقلت:یا رب هل لک مکان؟ فقال لی:یا غوث الأعظم،إنا مکان المکان،و لیس لی مکان.و أنا سرّ الإنسان.

ثم سألت فقلت:یا رب هل لک شرب و أکل؟ قال:أکلی أکل الفقیر،و شربه شربی.

ثم سألت و قلت:یا ربّ من أی شیء خلقت الملائکة؟ إلی آخر ما جاء فی هذا الباب من المناجاة التی تضمنتها«الرسالة الغوثیة»و قد طبعت باللغة الترکیة،و ترجمت إلی العربیة،و یأتی ذکرها فی تعداد مؤلفات الشیخ عبد القادر (1)و فیها تلک المناجاة،أو المقابلة بین الشیخ و ربه.

و قالوا عنه:أنه کان فی حفرة أیام رضاعه دلیلا علی هلال شهر رمضان،لأنه

1- (1) هو الشیخ عبد القادر بن موسی بن عبد اللّه.أمه أم الخیر فاطمة بنت السید عبد اللّه الصومعی الزاهد.ولد فی بنیق قصبة من بلاد جیلان وراء طبرستان سنة 470 ه 1077 میلادیة،و دخل بغداد فی سنة 488 ه 1095 میلادیة،فقرأ الفقه و الأصول،و سمع الحدیث،و اشتغل بالوعظ،و لازم الانقطاع و الخلوة،و أسند له الولایة.و عرف بالشیخ عبد القادر الکیلانی،و له مؤلفات کثیرة،کما ذکروا له کرامات و معاجز خصص لها کتب تنوف علی أکثر من 30 کتابا.توفی فی بغداد سنة 561 ه و قبره ظاهر یزار،و محلة تعرف بمحلة باب الشیخ نسبة له. جاء فی النظرات ج 2 ص 91 الطبعة 6-مطبعة الرحمانیة فی مصر سنة 1930 م.تحت عنوان: دمعة إلی الإسلام،یقول فیه: إنه ورده کتاب من الهند یصف کاتبه مؤلفا موضوعه تاریخ حیاة عبد القادر الجیلانی و ذکر مناقبه و کراماته و ما وصفه بصفات و ألقاب هی بمقام الألوهیة ألیق منها بمقام النبوة فضلا عن مقام الولایة. کقوله:سید السماوات و الأرض،النفاخ الضرّار المتصرّف فی الأکوان و المطلع علی أسرار الخلیفة محیی الموتی و مبرئ الأعمی و الأبرص و الأکمه،و أمره من أمر اللّه...إلی آخر تلک الألفاظ. و هلم معی فاقرأ بقیة الکتاب ص 93 یصف الکاتب أمة من الناس یسجدون لقبر ینسب لأولاد عبد اللّه سجود رق من دون اللّه،و إن فی کل بلاد صورة مزار لقبر عبد القادر،فیکون القبلة التی یتوجه إلیها المسلمون فی تلک البلاد الخ.أ صحیح هذا؟نحن قرأنا کما قرأت و السلام.

كان يمسک عن الرضاع فی شـهر رمضان نهارا،و لأنه صائم و رضاعه فی آخر الشـهر دلالـة علی هلال شوال!! و صادف أن غمّ الهلال علی الناس فی آخر الشـهر،فسألوا أمه:هل رضع الیوم؟ قالت:نعم.فعلموا أنه العید!!! و بعض المصادر الصوفیة تروی ذلک علی لسان والدته التی یصفونها بأنها:لها قدم فی الطریق.و أنها قالت:لما وضعت ولدی عبد القادر کان لا یرضع ثدیی فی نهار رمضان،فأتونی و سألونی عنه؟فقلت لهم:إنه لم یلتقم له ثدیا،ثم اتضح ذلک الیوم کان من رمضان (1).

لقـد أدی إقبال العامـة علی القصّاص،و وضوح أهـداف مجالس القصّ فی تمجیـد الحکّام و الـدفاع عن أصـحاب القوة و النفوذ إلی ظاهرة أخری،هی التی نحن بصددها حیث نجمعها فی التأثیر السلبی مع القصاص.

و مع تباین الأغراض و النزعات فإننا إذا أخـذنا بمقاییس البدعة و معاییر الأحداث،فإن ما یجمع بین هذه الأعمال هو تجاوز الحد و المبالغة فی السـلوک،سواء فی الدفاع عن الظلمة و الکذب علی الرسول محمد صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم أو فی تعظیم الأشـخاص و نسبة الأمور العظیمة إلیهم و التقیّد بشعائر تخرج الإنسان المسلم من حال الاتّزان و القبول.

و لا تحول صفة الزهد و التقشف أو أغراض الوعظ دون نظرنا إلی النتیجة.

یقول الإمام الحافظ أحمد بن محمد بن الصدیق فی کتابه(فتح الملک العلی بصـحة حدیث باب مدینة العلم علی):و قد نص السـلف علی أن القصـص بدعة،و أن التزهّد و التقشّف الخارج عن السنّة بدعة أیضا،فکان مقتضی هذا أن تردّ روایة کل زاهد و مذکر،و یعلق ذلک بزهده و تذکیره،لأنه وجد الکذب شائعا،و وصفوا بالبدعة کما هو حال الآخرین.

(فإن قیل):لم یصدر الکذب إلا من جهلة الزهاد و من لا تقوی عنده من القصّاص و الوعاظ.

1- (1) طبقات الشعرانی ج 1 ص 91. [1]

(قلنا):و كـذلک المبتدعة،فإنّا لـم نجد الكذب شائعا إلا فی فسـقتهم،و من لا يخشـی اللّه منهم.أما أهل الدين و التقوی فوجدناهم فی نهاية الصدق و غاية التحرّز من الكذب.انتهی.و بما أن المصـنف من أصـحاب التصوّف،فهو لـم يتطرّق إلی الكرامات،و تناول الجانب الذی يهمّ بحثه فقط،و قـد كان متّصـفا فی محاولته تطبيق الأحكام التی تصـدر بفعل العوامل التی ذكرناها و الظروف التی بيناها من تسـلط الحكام و تأثيرهم علی أصـحاب الفتوی و الحديث،و اسـتخدام البدعة فی الاتجاه الذی ترغب به السـلطة.فهو يذكر ما ورد فی ترجمة أحمد بن عطاء الهجيمی الزاهـد.قال ابن المـدينی:أتيته يوما فجلست إليه،فرأيت معه درجا يحـدّث به،فلما تفرقوا عنه،قلت له:هـذا سـمعته؟قال:لا و لكن اشتريته و فيه أحـاديث حسـان أحـدّث بها هؤلاء ليعملوا بها و أرغّبهم و أقرّبهم إلی اللّه،ليس فيه حكم و لا تبـديل سـنّة.قلت له:أ ما تخاف اللّه،تقرّب العباد إلی اللّه بالكذب علی رسول اللّه صلّی اللّه عليه و آله و سلّم؟.

كما يذكر ما ورد فی ترجمة زكريا بن يحيی الوقار:كان يتهم بوضع الأحاديث لأنه يروی عن قوم ثقات أحاديث موضوعة قال:و الصالحون قد وسموا بهذا أن يرووا أحاديث فی فضائل الأعمال موضوعة،و يتهم جماعة منهم بوضعها (1).

و لقد ظلت الصوفية تحتفظ بعناصـرها العلمية و فلسفتها،و هی كطريقة فی الحياة أو فی العبادة لا نتناولها،فلا يعنينا ذلک،فهی قد تكون من أصول قديمـة أبعـد من الإسـلام،ثم تجـددت بعـد فجر الإسـلام،فوجـدت فی المنهـج الحيـاتی للإمـام علی عليه السّـلام خير تعـبير عن اتجاهها،فجعلته القـدوة.أو قـد تكون إسـلامية بحتة لها صـفة العلم،و حمل ما جاء به رسول اللّه صـلّی اللّه عليه و آله و سـلّم و إن اللّه أعد لقبول ما جاء به الرسول أصـفی القلوب و أزكی النفوس،فظهر تفاوت الصـفاء،و اختلاف التزكيـة فی تفاوت الفائدة و النفع.و سوقهم حديث أبی حمزة الثمالی:حدثنی عبد اللّه بن الحسن قال:

حين نزلت هـذه الآيـة: وَ تَعِيَها أُذُنٌ واعِيَةٌ قال رسول اللّه صـلّی اللّه عليه و آله و سـلّم لعلی:سألت اللّه سـبحانه و تعالی أن يجعلها أذنک يا علی.قال علی:فما نسيت شيئا بعد،و ما كان لی أن أنسی.قال أبو بكر الواسطی:آذان وعت عن اللّه تعالی أسراره (2).

1- (1) فتح الملک العلمی ص 60.

2- (2) السهروردی،عوارف المعارف ص 12 و 13. [1]

و حرصهم على الاتصال بالإمام على عليه السّلام شديد، حتى شملهم نصب ابن تيمية فتناولهم بلسانه و دبجت يراعه فى النيل، فهم جزءا من تراثه الحنبلى السلفى.

و أيا كان، فإن الكرامات و الأحوال و تناقل خوارق الأعمال، يؤدى إلى بقاء المتعلقين بهم فى حالة من ضعف الإدراك و وهن العزيمة، و طريقة أداء الأذكار قد شجعت على الحلول، و أدت إلى اعتقادات بعيدة عن الإسلام. و فى موضوع التصوف نتلمّس آثار القصّاص بمحاولات إبعاد طرق المتصوّفة أو حالات الزهد الكامل و التقشف المقبول عن أى صبغة شيعية. و الشيعة ليس لهم رغبة أو يد فى ذلك، لكن الكثير من طوائف المتصوفة مقيمون على ولائهم للإمام على و لآل البيت صلوات اللّه عليهم أجمعين، و عبر المراحل الزمنية و اختلاط المحدثين و القصاص بأهل الذكر، و تطور أحوال المتصوفة نبع بينهم من أصناف إلى «الهوس» أصلا «سيئا» حرصا منه، ثم انتهت المجالس إلى غاية بذاتها تفوق أو تعلو على أية غاية. لتكون مسرحا لرواية الخوارق، و إقامة الحركات، و الدقّ التى يعجز أى عاقل عن اختلاق أصل إسلامى لها.

و على أى حال، فلقد اشتد نشاط القصّاص، و أخذوا مكانتهم من السلطتين الزمنية و التشريعية، فهم ينشرون بين الناس أحكاما ما أنزل اللّه بها من سلطان، كما أنهم يتمتعون باحترام العامة و تقديرهم، لأنهم يمثّلون الجانب الروحى. و إلى جانب ذلك، لهم نفوذ إرادة، إذ الدولة تمنحهم رعايتها، و تعتنى بشئونهم، و قد استعملوا نفوذهم هذا ضد كثير من الطوائف و جماعات من الناس. و بدأت روح الاستياء تسرى فى جسم الأمة، و نمت خلال ذلك فكرة إيجاد مجالس لذكر اللّه و للوعظ، ليشغل الناس عن مجالس القصّاص، فاتجه الأفراد إلى هذا اللون الجديد. وصفها أبو طالب المكى بقوله: إن مجالس أهل العلم باللّه و أهل التوحيد و المعرفة، هى مجالس الذكر (1).

و تطوّرت هذه المجالس، و تسرّبت إليها يد القصّاصين، فتدخلوا فيها، و قد وضعت فيها أحاديث، و أحيطت بهالة من التعظيم و التقديس تشجيعا للناس و الالتفاف حولها، حتى أصبح لها بين العامة شأن من الشأن، و تعلقوا بها و جعلوا الحضور فيها

1- (1) أبو طالب المكى، قوت القلوب ج 1 ص 152. [1]

من أعظم الطاعات و أفضل القربات،و تزاحم الناس على تلك المجالس،و لا نـدرى هل اسـتغل المتصوفـة هـذه الفرصـة،و من هنا انتشـر ذكرهم؟و هـل كان ظهور التصوف قبل انتشار هـذه المجالس،أم أنه انطلق منها فكانت نقطـة بدايـة؟و من المسـتحسن هنا الإشارة إلى نشأة التصوف و تطوره،و كيف أصبح وسيلة لنشر الخرافات و بعث الحزازات.

و الذى يظهر أن بداية التصوف كان سنة 200 ه فى الاسكندرية عند ما ظهرت طائفة يسمّون الصوفية،يأمرون بالمعروف و ينهون عن المنكر فيما زعموا،و يعارضون السلطان فى أمره،و ترأس عليهم رجل منهم يسمى أبو عبد الرحمن الصوفى (1).

و يقول القشـيرى:انفرد خواصّ أهل السّنة المراعون أنفاسهم مع اللّه تعالى، الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة باسم التصوف،و اشتهر هذا الاسم بهؤلاء الأكابر قبل المائتين من الهجرة (2).

و أول من سـلك طريق الملامة:أبو صالح حمدون بن عمارة القصّار المتوفى سنة 271 ه و كان يفضل أن يكون مظهره مظهر المذنبين على أنه يخشى أن يصرفه تعظيم الناس له عن اللّه.

و قيل:إن فكرة الملاقية قديمة،فقد وصفها أفلاطون فى أول الكتاب الثانى من الجمهورية،العادل:الحق الذى يظن الناس أنه ليس عادلا.

و كان التصوّف قد شـغل ناحية هامة من نواحى الحركة العقلية الإسـلامية،بل العالمية من جهة،و كان لأعلام مفكرى الإسـلام كالفارابى و إخوان الصفا و ابن سينا و الغزالى و الحلاّج و ابن العربى فى التصوف آراء نظرية و خطط عملية.

و لسـنا بهـذا العرض نريـد-كما قلنا-أن نتعمّق فى البحث عن التصوّف،و نشأته و تطويره فى مجال الفكر،و قد تناولت ذلك أقلام الكتّاب و المؤرخين.و الـذى يغنينا هنا،هو أن نعرف كيف تطوّر التصوّف،و متى حصـلت فيه تلك الآراء الخاطئة، و تحول إلى ادعاءات فارغة و وقوع أعمال منكرة،و قد أصـبح ضـرره على المجتمع لا يقل عن أضـرار القصّاصين؛بل ربما اختلط المنهجان،و انطلقا سوية فى طريق البعد عن كثير من المدّعين الصلة به،إذ أصبح فيه من الدخلاء و دعاة السوء ما تشوّه

1- (1) الكندى،الولاة و القضاة ص 162. [1]

2- (2) الرسالة ص 17.

حقیقته،و فتح علی المجتمع حکایات خرافیة و أساطیر ادّعوا أنها دینیة،و وضـعوا أحادیث الرقائق،و یرون فی ذلک طاعة اللّه و نصرة الدین،و أصـبحت فکرة الاتحـاد أو الحلول خارجـة عما کان یسـلکه القـدماء من طریق النور و البصـیرة الـذی لا یتیسـر إلا بطریقـة العبادة،فکثرت ادّعاءاتهم فی قربهم للّه،و وضع الکرامات الخارقة للعادة فی حق أصـحابهم الذین لهم مراتب و أسـماء و منازل و ألقاب تجعل منهم نظاما متکاملا فی الأفضـلیة و التأثیر و المقامات و الـدرجات،طالما تـدخلت الأهواء الخاصـة و الرغبات الشخصـیة فی إبرازها فی زمننا لتحقیق المصالح و التظاهر بالعظمة الروحیة و الخصائص الذاتیة التی تجعل له مقدرة علی الأعمال فی أمور الدعاء أو الشفاء،و اللّه أعلم بسرّ تلک الحالات التی اشتهرت بین الناس و أصبحت عندهم بمستوی الیقین.

و إضافـة إلی مـا أدی إلیه التصوف و مـا قام علی حالاته من اعتقادات و أفکار،فإن من دواعی الإشارة إلیه فی کتابنا و فی هـذا الموضع،تلک الأفکار التی وجـدت مع البدایات،و لقد لمّحنا إلی الاختلاف فی أصل أو مصدر التصوّف،و کان هذا الاختلاف موضع نقاش واسع و کبیر اختص به کتّاب کثیرون،و قـد کان المتحاملون منهم یتّبعون الأسـس التی وضـعها المستشـرقون للطعن فی الإسـلام و الـدخول إلی أفکار الطبقـة المثقفة منهم بطابع جدید،و علی الأخص أولئک الذین تلقّوا دراساتهم فی أروقة الغرب،و تلمذوا علی أساتذة الجامعات الإنکلیزیة و الألمانیة و الفرنسیة و الأمریکیة،و کان مذهب أهل البیت غرضهم الأول الذی وجهوا إلیه سهام الاتهام، فاختلقوا الأفکار الساذجة التی لا تسـتقیم و لاـ تثبت أمـام الحقائق المعروفـة،فادّعوا أن موقع القیادة التی أحل بها الشـیعة أئمتهم،و نظرة الاحترام و الإجلال التی أحاطوا بها زعماءهم من أهل بیت النبی صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم لها مصادرها الأجنبیة.و فی ذلک خروج علی المنطق،و تجاوز و تعدّ علی أبسط قوانین البحث و النظر،احتاج دحضه و الردّ علیه إلی جهود کبیرة،و ذلک لاتساع الجهات التی تولّت القول،و نصـبت نفسها بالنیابة عن أعداء الأمـة لترویـج هـذه الأقوال،و قـد جئنا علی بعضـها فی الأجزاء السابقـة من الکتاب،لکن الملاحظة الهامة أن أتباع الغرب من أبناء الیوم أو غیرهم من حشویة السـلف و عاشـقی الجمود لا یصـرّحون بالتجریح،و یتردّدون فی الشتم و الاتهام فی عرضهم لحالات الهوس،و الأفکار التی جعلتنا نضمّ نتائج التصوف إلی العوامل التی أدت إلی تخلف و فرقة شدیدین.و لا بد أن نذکر أن«الشیخ»ابن تیمیة یکشف فی رده

على ابن عربی و محتویات کتابه«فصوص الحکم»عن غرضه الحقیقی،و هو تناول الشیعة و الإساءة إلیهم،إذ ینسب کبارهم کالتلمسانی و ابن سبعین إلی الفرق الغالیة التی اقتضت الأغراض السیاسیة أن تحسب علی الشیعة و تقرن بالإمامیة،و کان یکفی «لشیخهم»ابن تیمیة ذرّة من إنصاف أو اطلاع و تحقیق لیعلم الفرق،و لو تخلی لحظة عن مرض الحقد الأعمی،و أنصت إلی ما یقوله الشیعة عن مذهبهم،لبعد عن الزلل و الخطأ الذی هو فیه و لو بقید شعرة.

و عندنا أن حالات الحلول و المعتقدات الأخری التی اتّسم بها التصوف،تعود إلی الوضع النفسی الذی یتخلل أوقات القیام بطقوس الصوفیة،و هی لا شک متفرعة عن تصرفات أشیاخهم الأوائل الذین فی نظرهم أمسکوا بأصول المعرفة و مفاهیم المحبة الإلهیة،و راحوا یبیحون لأنفسهم تصرفات و أفعالا غزت عقول مریدیهم، و حجبت الأصول الحقیقیة و المفاهیم الجلیة التی سنطّلع علیها فی مظانّها الصافیة و مصادرها النقیة عند رجالات أهل البیت النبوی،و موقع الإمام الصادق علیه السّلام فی هذه السلسلة.

و نقف قلیلا لنوضّح بموجز من البیان منشأ کلمة الصوفی فی الإسلام،و مبدأ اشتقاقها،فإنا نجد هناک زخما من الأقوال فلا حاجة للبسط فی ذلک،و لعل أهمها أنها نسبة إلی الصفّة الأولی التی کان المتنسّکون یجتمعون علیها فی عهد النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و أکثرهم من الفقراء،حتی نسب إلیها جماعة فیقال فلان من أهل الصفة،و الصفة مکان فی مسجد النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم عند یمین الداخل من باب جبرئیل،و هناک قوم یقولون أنها نسبة إلی الصفاء-کما قلنا سابقا-أو انها نسبة من صافا ربّه فصوفی،و قیل أنها الصف الأول فی الصلاة،و قیل نسبة إلی بنی صفة.و فریق یقولون إنها مشتقة من لفظة یونانیة الأصل هی صوفینا و معناها الحکمة،فیکون الصوفیة قد لقبوا به نسبة إلی الحکمة لأنهم کانوا یبحثون فیما یقولونه بحثا فلسفیا،و آخرون یقولون نسبة إلی الصوف الذی اشتهر المتنسکون به،و قد اختار هذا الاسم جماعة منهم.

و نجد التنسّک فی الإسلام حیث تنسّک جماعة من الصحابة فی عهد النبی و عرفوا به کأبی ذر و حذیفة و أویس القرنی و غیرهم.و کان المتصوّفون فی أول نشأتهم یتنسّکون و یتعبّدون من دون إطلاق لتسمیة المتصوّفة علیهم،لأن تنسّکهم و زهدهم من وجوه إیمانهم بأحکام القرآن و عقائد الإسلام،و هو ما کان سبب مأساة أبی ذر

الذی قصد إلی تطبیق نظام الإسلام و ضمان حق الفقراء.و تمسک بمبدإ الآخرة و زوال الدنیا،فکان شعاره قول اللّه سبحانه و تعالی: وَ الَّذِینَ یَکْنِزُونَ الـذَّهَبَ وَ الْفِضَّةَ وَ لا یُنْفِقُونَها فِی سَبِیلِ اللّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَـذابٍ أَلِیمٍ فامتدت إلیه ید الأغنیاء.و رمته فی أحضان حکم معاویة،فکان لا یخفی إنکاره لما فیه معاویـة من بذخ و ترف یتعارض مع الإسـلام، و زاد علی ترذیده قول اللّه،قوله لمعاویة جهارا:إن کان ما أنفقت من مال اللّه فهو خیانة، و إن کان من مالک فإسراف.

و لقد أدت أوضاع الدعوة فی زمن الرسالة و ضـرورات نشر الدین إلی معاناة کبیرة و تضحیة بالغة شملت الأهل و المال و المسکن،فقد کان أهل الصّفة(غرباء فقراء مهاجرین أخرجوا من دیارهم و أموالهم)و وصفهم أبو هریرة و فضالة بن عبید فقالا:

یخرّون من الجوع حتی تحسـبهم الأعراب مجانین،و کان لباسـهم الصوف حتی أن کان بعضـهم یعرق فیه فیوجـد منه ریح الضأن إذا أصابه المطر.هذا وصف بعضـهم لهم حتی قال عینیة بن حصن للنبی صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم:أنه لیؤذینی ریح هؤلاء،أ ما یؤذیک ریحهم؟ و المتصوفة یتمسّـکون بنسـبتهم إلی حال أهل الصّـفة،و أن التسـمیة منها،غیر أن ذلک لا یتفق مع اللغة،و تأباه قواعد الصـرف.أما النسـبة إلی الصوف فقـد تکون من حیث اتفاقها مع قواعـد اللغـة و التاریخ هی الأصح.و لا نعنی بالقطع و اختیار أحدها علی وجه الیقین،فلیس لذلک أهمیـة فی نظرنا،و قـد یخرج عن صـلب البحث.کما أن الصوفیـة یریدون أن یجمعوا بین کل التسـمیات،و ربطها بالصّـفة و الصوف اللذین یتوحّـدان فی نظرهم،و من نسـبهم إلیهما فإنه عبّر عن ظاهر أحوالهم،و ذلک أنهم قـد ترکوا الـدنیا فخرجوا عن الأوطان،و هجروا الأخدان،و ساحوا فی البلاد،و أجاعوا الأکباد،و أعروا الأجساد،لم یأخذوا من الدنیا إلا ما لا یجوز ترکه من ستر عورة و سدّ جوعة (1).

و نختصـر القول فی نصّین کلیهما لأحمد أمین،لأنی فی دار الغربة و الابتعاد عن الوطن حیث داری و مکتبتی،أعانی معاناة لا یعرفها إلا اللّه من توفیر ما احتاج إلیه من ضرورات البحث و أمهات المصادر التی کانت متیسرة فی داری فی النجف الأشرف، و أنفقت بین ریاض الأفکار الشطر الأوفی من عمری،کان حصیلته الأجزاء الستة

1- (1) انظر:أبو بکر محمد الکلاباذی،التعرف لمذهب أهل التصوف ص 31،30،29.

الماضية من كتاب الإمام الصادق و المذاهب الأربعة و مخطوطاتى الأخرى.ناهيک عن و هن البدن و ضعف البصر حتى الكلل.لک الحمد اللهم أولا و آخرا.

يقول أحمد أمين:و من ناحية أخرى تغالى الصوفية فى الأعمال النفسية الروحية،و لم يضغطوا ضغطا كافيا على الأعمال الظاهرة،فكان هناک فقهاء و صوفية، و عداء بين الفقه و التصوف.الصوفية يرمون الفقهاء بأنهم لا يعبئون إلا بالقشور من مظاهر الأمور،و الفقهاء يرمون الصوفية بأنهم غلوا فى أحوال الروح أكثر مما كان يعرفه الإسلام و سمّوهم أهل الباطن (1).

و يقول الدكتور أحمد أمين:و كان التصوّف يغلو فى الباطن،و كان مرتعا خصبا للخرافات و الأوهام و التحرّر من الشعائر،و ارتكاب الموبقات،و اخترعوا بجانب التصوف الموسيقى و الذكر و الشطح و الرقص و غير ذلک،و كان لهم أثر كبير فى النظام الاجتماعى المتهافت،و كان من نتائج الصراع الشديد بين الفقهاء و المتصوّفة أن آل الأمر إلى سجن بعضهم (2).

و هذا ما يكشف لنا جانبا من جوانب الصراع الحاد،مما يحدث رد فعل فى نفوس أكثر الناس،فالمتصوفة سلكوا الجانب الروحى ادّعاء،و دعوا الناس إلى الاعتقاد بما لا يقبله العقل و لا ينطبق مع نظم الإسلام،و أصبح جانب التصوّف يدعم تلک الخرافات التى انثالت على المجتمع بسمّ قاتل،و كانت تلک الرباطات مصدرا لأمور لا رابطة لها بالإسلام.و وجهوا الناس إلى تعظيم قبور من يسمونهم بأولياء على طرقهم المعروفة و أساليبهم الخاصة،يكمل هذا و ذاک ادّعاءات الأحداث و الأفعال للأموات و الأحياء الذين يتّصلون بهم،فتسود حالة من الإيمان بقدرات المخلوقين و الاعتقاد بكرامات أوليائهم،و تتحجّر الأذهان و الأفهام على ألوان من الإيحاء التى يستفيد منها الذين يحتلّون الصدارة.

و فى وسط فوضى القيام بأعمالهم و أشكال طرقهم،كان الناس يساقون إلى مستويات عقلية واهية،و يرفعون إلى مهاوى الجهل كما علمنا سابقا و مرّ بنا فى ثنايا البحث.

1- (1) ظهر الإسلام 57/2.

2- (2) أحمد أمين،يوم الإسلام 101.

خلاصة البحث

إن روح العـداء التی سـقط بها المجتمع فی مخالفـة صـریحة لأحکام الشـریعة و تعالیم السـنة النبویـة، تظافر علی ظهورها عوامل عدیدة و أسباب شتی، کانت ید المصالح الخاصة و أغراض السلطان هی الأقوی و الأغلب.

و من عوامل نجاح الدعوة إلی القضاء علی محاولات اسـتمرار العداء و الانقسام، قیامها علی التحقیق و التثبّت و الابتعاد عن حمی الفرقة و داء التعصب الذی ما زال ینخر فی نفوس بعض الناس فی عصرنا الحاضر.

و قـد بحثنا الجمود الفکری، و اطلعنا علی آثار الجهل و نتائج مقاومة روح العقل و حریة الأفکار، و کیف التقت مصالح الحکام و أصـحاب السـلطان مع ذوی النفوذ و المکانات، و اجتمعت الجهود و الطاقات للوقوف بوجه انفتاح آفاق الفکر، و أسـهم کلّ من موقعه و مسئولیاته فی محاربة أصحاب الأفکار و العقائد، و احتل التعصب المنزلة العالیة لدی الذین یخشون آراء الناس و إطلاق حریتهم، و تکوّنت لدی السلطان و الحکام فکرة تحدّد الخطر فی جهة النظر و الاعتماد علی الفکر، و تماسـکت فی العهد العباسی الأجزاء التی أوجدها الحکام المتسلّطون منذ أن انحرفوا بالنظام الإسلامی و استبدّوا بالحکم بعد الإمام علی علیه السّلام و أصبحت مساهمتها فی إرساء الظلم أعظم من السابق، فإننا نلاحـظ أن معاویـة کـان یملی إرادته دومـا علی فقهـائه و خطبائه و المنضـمّین إلی سـلطانه، أما فی حکم بنی العباس فقـد بات الاتجاه إلی تأسیس المذاهب أولا، و کانت العلاقات متبادلة و متوازنة فی کثیر من الأحیان بین تدخل الخلیفة و رأی رجال الفقه، ثم برز علی السطح من استهان بروابط العقیدة و روح الأخوة فی الدین و أغرته السلطة بمنافعها و ملاذها.

ص:87

کـذلک بحثنـا مسألـة خلق القرآن،و هی من أعظم المشاکـل و أشـدّها تعقیـدا،و من وجوه تعقیـدها أن تحسب من عوامـل الانحطـاط فی المجتمع،و من أسـباب دفعه إلی التفرقة،فهی قد تکون مشـکلة تتجه إلیها الأفکار و تعقد حولها المناظرات لتکون مادة تسـلک بها مسالک الاسـتدلال و طرق الاسـتنتاج،و تقابل الحجـة بالحجـة،و یلاقی الرأی بالرأی علی منهـج التیارات الفکریة التی ظهرت فی تلک المرحلة،و تمثلت فی أفکار و اعتقادات کان حافزها الـدفاع عن الإسـلام و دحض افتراءات أهل الکتاب.لکن أغراض أهل الحکم و السـلطان جعلتها کبقیـة الأفکار و التیارات،و سـلبتها میزتها و أهم خصائصـها،فباتت واحـدة من أسـلحة الخلفاء التی تنتهک بسـببها الحرمات و الأموال و الدماء،و أحدثت نتائج بالغة الضـرر ترتّبت علی أسالیب السـلطة الملتویة و السـیئة فی تبنّیها لأفکار المعتزلة،و قد أشرنا إلی مسئولیة رجال العقل من المعتزلة فی ذلک و کأنهم التذّوا بالسلطة کما التذّ بها من سبقهم.

و کانت مرحلـة المأمون و خلفیه،قـد أدت إلی زیادة و ترسـیخ علاقة العامة بالسـلطة،و استسـلامها للنظرة التقلیدیة التی عمل علی رسـمها بصفتها الدینیة و صلاحیاتها الواسعة رجال متعددون،ارتبطوا بالخلفاء،و أذعنوا لرغبات الحکام فکانوا من أسباب الفرقة و حمایة الظلم.

ثم اخترنا قضیة البدع و الضلالات،و التی أصبحت تطلق بلا رویة،و تخضع للأهواء حتی شملت الطوائف جمیعها.

کما اخترنا من عوامل تخلف المجتمع و انقسامه مسألة القصّاص و دورهم فی اسـتماله العامة و خدمة الحکام و جبروت الملوک،ثم ألحقنا بهذا العامل-من حیث التأثیر-قضیة التصوّف و ما أدت إلیه من مستوی عقلی یتقبّل الخرافات و یقبل علی الأوهام.

و من یبحث یر أمورا أخری عملت فی جسم المجتمع تمزیقـا،و دفعت به إلی مهاوی التخلف.غیر أنّا اخترنا هـذه العوامل من غیر أن ننکر دور العوامـل الأخری، و هی فی عمومها ما زالت آثارها باقیـة حتی الآن نسـعی-و اللّه من وراء القصـد-إلی إظهار ظروف قیامها و تحکیم العقـل و النظرة الواعیـة التی تسـمو عن التعصب و الجهـل لنعود إلی أصول العقیـدة،و البحث المنصف یسـهم بتحقیق هـذا الهـدف،لأن الکشف

عن ملابسات وجود هذه العوامل،و التأكيد على حقائق قيامها،من أهم أسباب النجاح فى إدانة الطائفية و التخلى عن التعصب و العناد.

و قد بحثنا مشـكلة خلق القرآن،و طرفا من أثر القصّاصـين و الوضّاع فى عقول العامة فى الجزء الأول من كتابنا،و زدنا هنا ما اقتضـته ضرورة البحث و متطلبات اكتمال كل جزء من الأجزاء الأخيرة السابع و الثامن بمواد البحث المطلوبـة التى تتيح الفائدة.و فى هذا الجزء مهّدنا من خلال التطرّق للبدع التى طرأت على الصوفية إلى التفسير الصوفى لسيرة الأئمة الأطهار.

ص:89

الإمام الصادق و التفسير الصوفى

اشارة

من الأمور التى ثبتت و استقرت على أسسها،و احتفظت بملامحها الأصلية، و قاومت موجات العداء،هى سيرة الأئمة الطاهرين من أهل البيت عليهم أفضل الصلاة و السلام،فظلت شخصياتهم الفذّة مصادر إلهام تستمدّ منها الأمة العبر و الدروس،و تتأسى بمواقفها و تجربتها.و بقى الشيعة يتلقون أمور دينهم من هؤلاء الرجال الذين تعرضوا لمختلف أنواع المحن و ضروب التجارب القاسية،فرسم الأئمة عليهم السّلام لمحبيهم و أتباعهم فى كل مرحلة طريق العمل،و وضعوا لهم سبل النجاة من خلال نماذج سلوكية و مواقف جهادية و فكرية تنير الطريق أمام شيعتهم، و هم يعانون الويلات على أيدى الحكام و الملوك و أصحاب السلطان و الجبروت.

و لا تحتكر الشيعة طرق الاتصال بتاريخ الأئمة الطاهرين،و لا تدّعى اختصاص الأخذ عن تراث و أحكام أهل البيت بأحد،بل يرون أنهم رجال الإسلام و أعلام الهدى الذين تتجه رسالتهم إلى كل الطوائف من المسلمين،و تسع تعاليمهم جميع المسلمين.

و قد واجه الشيعة حملات ظالمة،و موجات عنيفة تزعّمها رجال مختلفون على مرّ العصور،و إن لم تكن على هيئة حملات الحكام و موجات ظلمهم المتكررة ضد أهل البيت و أتباعهم،و ما يعنى ذلک من ألسن ترقى منابر يفترض أن تقوم بمهمات المنبر المحمدى،و قصاصات و مراسيم،و جنود و دماء و أسلحة تلاحق أهل البيت و شيعتهم.إلا أن الحملات التى يقوم بها نفر بين فترة زمنية و أخرى،و بين مرحلة و مرحلة،تجد لها آذانا صاغية لما تتستّر به من مراكز احتلتها بفعل ظروف سياسية و اجتماعية غلب عليها الطابع الدينى،و قد مهروا فى دفع العامة إلى الإيمان بأقوالهم

و الاـعتراف بوجهـات نظرهم التى هى فى حقيقتهـا غير سـليمة لقيامهـا على الاجتراء و التحكم.و قـد تطرّقنا إلى ما انتهى إليه التصوّف من طقوس أسـهمت فى تخلف العامـة،و تشـجيع ظهور حالاـت يؤدون بهـا حركـات تخرجهم عن الاتزان و السـلامة،أو ادّعاء الكرامات التى يرافقها بيان و شرح تجعلها بمستوى المعجزات.

فكانت هـذه النهايات فى المتصوفـة،إضافـة إلى الأفكار و المعتقدات التى تأولوها عن شواهد و أحداث لآل بيت الرسول محمد صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم مادة تعميق الانقسام فى المجتمع الإسلامى،و تأكيد الفرقة بين السنة و الشيعة و ذلک لضياع التحقيق و فقدان التدقيق.

و لئن أدت حركـة العلم و النشاط الفكرى إلى اختلاط و تداخل بين دوائر الشـيعة الفكرية و بين المعتزلة،فقد حسـمتها دلائل كثيرة مادية و معنوية فى الفكر و التصـرف، و بات واضحا لكل ذى بصر ينظر بتجرد،أن تشابه المناهج و تقارب المنحى الفكرى بين الشيعة و المعتزلة،لا يعنى اتحادهما المطلق أو تشابههما التام،و مع هذا بقيت إلى يومنا هذا،كمثل قضـية تشيّع ابن أبى الحديد شارح كتاب نهج البلاغة،و عدم الالتفـات إلى اعتزاله،و مـا ينطوى ذلـک على أمور لا تقرّها الشـيعة،و ما ذلک إلا من نتائـج إغفال التحقيق و إهمال أمانـة البحث.و إلا فإن أصول التشـيّع تقترن بأصول الدعوة الإسـلامية وجودا و مضـمونا،و كان أهل البيت من أئمة الشـيعة قد امتازوا عبر كل عهود الحكام-و قبل ظهور تيارات الجـدل و الكلام-برعاية الفكر و تحفيز الرأى فى حدود الشـريعة و الأحكام،و ضـرورة العقل.و كانت مدرسة الإمام الصادق عليه السّلام من أعظم صـروح الفكر الإسـلامى،لما اضـطلعت به من نشاطات و مهمات تعنى بالفكر و الـدين،و قـد تقـدمت الإشارة فى الأجزاء السابقة من الكتاب-و سـنأتى على ذكرها فى موضـعها فى الجزء الثامن إن شاء اللّه-إلى اتصال رجال المعتزلة بالإمام الصادق عليه السّلام و لقـد أصـبحت مسألـة تأثر الشـيعة بالمعتزلـة و أخذهم عنها من جملة المحاولات التى ترمى إلى الإساءة إلى مذهب الشـيعة،و التقليل من شأنه،فالنظرة العجلى تظهر الحقائق،فما ظنّک بالتحقيق و رعايـة الأمانـة؟ فما المعتزلـة إلا تيار لا يختلف عن بقية التيارات التى تهب بعوامل مختلفة لفترة معينة،و قد نمت فى ظل المماحكات و المناظرات،و قامت على أسـس المناظرة و الجدل،فهى فى إطار الكلام و فى مناحى العقيدة،تمثل مجموعة من الأفكار و النشاطات التى تتصل بالعقيدة،و القصد منها الردّ على جهات داخل صفوف الأمة

الإسلامية أو خارجها،و تبنّى اعتقادات جديدة و اجتهادات فى الجزئيات و الفروع و أقوال فى الصفات،إلى غيرها من أبواب نشاط المعتزلة،و لا ندرى كيف يسمح لنفسه منصف أن يجعل الشيعة بفكرهم و بفقههم و برجال مذهبهم من أئمة الهدى و سادة أهل البيت تابعا و متأثرا بالمعتزلة،الذين كان أفضل رجالهم تبعا لأفكار الشيعة.و هو ما تميّزت به مدرسة بغداد الاعتزالية.و لقد كان من أخص الخصائص فى وجود الشيعة تاريخيا و دينيا،استقلالهم بالفقه و الرواية،و قيام أسسها على مدرسة أهل البيت الطاهرين عليهم أفضل الصلاة و السلام.و ما انتظم فكر المعتزلة من قضايا رئيسية انطوى فكر الشيعة على أصولها و أمهاتها قبل أن تستجد عوامل انبعاث تيار المعتزلة و ظهور أصولهم التى نادوا بها.

و فى الحقيقة،فإن قضية العلاقة بين الشيعة و المعتزلة،تبقى قضية من قضايا الفكر،تبرز فى مستويات للبحث تستلزم الأمانة و تتطلب الموضوعية،و أى تناول يزلّ عن غرض العلم،و يلجأ إلى أساليب التهجّم و الاتهام،يفضح دوافعه و يعرى أغراضه،و لهذا وجدنا الكثير من الباحثين المعاصرين،يتناولون القضية بطابعها الفكرى و فى حدود ظروف قيامها،و انتهاء تيار المعتزلة و بقاء طائفة الشيعة.

أما القضية ذات الخطر الجسيم،فهى قضية التصوف التى قصد فى كثير من استخداماتها إلى الطعن بالشيعة،و إبقاء الخلط بين الفرق التى تحسب على الشيعة، و بين طائفة الشيعة الإمامية.

يقول ابن تيمية فى ردّه على ابن عربى:

(ما تضمّنه كتاب«فصوص الحكم»و ما شاكله من الكلام فإنه كفر باطنا و ظاهرا،و باطنه أقبح من ظاهره.و هذا يسمى مذهب أهل الوحدة و أهل الحلول، و أهل الاتحاد،و هم يسمون بالمحققين...فأقوال هؤلاء و نحوها باطنها أعظم كفرا و إلحادا من ظاهرها،فإنه قد يظن أن ظاهرها من جنس كلام الشيوخ العارفين أهل التحقيق و التوحيد.

و أما باطنها فإنه أعظم كفرا و كذبا و جهلا من كلام اليهود و النصارى و عبّاد الأصنام.

و لهذا فإن كل من كان منهم أعرف هؤلاء بهذا المذهب و حقيقته،كان أعظم كفرا و فسقا.

ص:93

كالتلمسانی،فإنه کان من أعرف هؤلاء بهذا المذهب،و أخبرهم بحقیقته.

فأخرجه ذلک إلی الفعل،فکان یعظّم الیهود و النصاری و المشرکین،و یستحل المحرمات،و یصنف للنصیریة کتبا علی مذهبهم،یقرّهم فیها علی عقیدتهم الشرکیة.

و کذلک ابن سبعین کان من أئمة هؤلاء،و کان له من الکفر و السحر الذی یسمی «السیمیا»و الموافقة للنصاری و القرامطة و الرافضة ما یناسب أصوله) (1).

و لا نحتاج إلی بیان القصد عند ما أوضح ابن تیمیة و جاء علی أسماء الفرق لیجعل من إدراجه«الرافضة»بهذا الشکل دلالة علی لون من ألوان نیله من الشیعة، و کم له من نصوص لا یتردد فیها فی ذلک دون روية أو معتمد أو مسوّغ.

أما ابن خلدون،فهو أیضا من أبطال الدعوة و رجال الحملة الظالمة علی الشیعة،و کغیره من الذین استسلموا لأسلافهم،و لعبت بعقولهم الأهواء،یجد فی الصوفیّة مادة للطعن علی الشیعة و یساهم فی إثارة الغبار الذی یحجب الفوارق و الحدود بین الشیعة و من ینسب إلیهم،و لو طبقت المناهج المحدثة التی استمدّت من ابن خلدون أفکارها الاجتماعیة علی هذا الجانب،لأصبحت قضیة ما یحمل علی الشیعة و ما یتّهمون به من الأفکار الغالیة و الحلولیة من أسس مناهج البحث التأریخی المعاصر،و لأدی تطبیقها إلی زوال ما ألصق بالشیعة ظلما،غیر أن ابن خلدون اتّخذ حجة و علما فی فن-کما یرون-و أسهم فی أمر لا یقوم علی فن أو شیء من الصحة، فمتی کان التعصب علما،و متی کان الهوی منهجا؟فما التعصب إلا من صور الجهل، و ما المیل إلی الهوی إلا من قلة الإدراک،و لکنها إرادة الحکام و سیاساتهم فی التأثیر علی أفکار العامة،و حملهم علی الاعتقاد بأن کلما یصدر عن السلطان هو الحق،و ما یقوم به حاکم الزمان هو العدل،فکان ابن خلدون و غیره من خدمة حضرات الملوک و المتزلّفین لکراسی السلاطین من الدعاة إلی ذلک.فانظر مقدمة مقدمته و ما خلع من ألقاب علی الذین جعلهم کعبة تطلعه و مهوی أحلامه،و لقد کان أبعد الناس عن منهج التاریخ الذی أورده فی فصل علم التاریخ،لأنه راعی الملوک فی دولهم و الحکام فی سیاستهم علی مدی الأقطار،فأخلاقه تجعله یمدّ لکل حاکم یدا لأجل أن یستقرّ یوما فی أحد الدواوین أو یضمّه أحد القصور،و ما التزم بما قال من أن فن التاریخ(محتاج

1- (1) ابن تیمیة،الصوفیة و الفقراء ص 44 و 55.

إلى مآخذ متعددة و معارف متنوعة و حسن نظر و تثبت يفضيان بصاحبهما إلى الحق و ينكبان به عن المزلات و المغالط).

يقول ابن خلدون:

(ثم إن هؤلاء المتأخرين من المتصوّفة،المتكلمين فى الكشف و فيما وراء الحسّ توغّلوا فى ذلک،فذهب الكثير منهم إلى الحلول و الوحدة كما أشرنا إليه، و ملأوا الصحف منه،مثل الهروى فى كتاب المقامات له،و غيره،و تبعهم ابن العربى و ابن سبعين و تلميذهما ابن العفيف،و ابن الفارض،و النجم الإسرائيلى فى قصائدهم،و كان سلفهم مخالطين للإسماعيلية المتأخرين من الرافضة،الدائنين أيضا بالحلول و ألوهية الأئمة مذهبا لم يعرف لأولهم،فأشرب كل واحد من الفريقين مذهب الآخر،و اختلط كلامهم،و تشابهت عقائدهم،و ظهر فى كلام المتصوّفة القول بالقطب و معناه رأس العارفين) (1).

لقد حاولنا الاقتصار على بعض أهم الأمور التى لا بد منها فى تناولنا للتصوف، و على أبرز الجوانب التى جعلوها فى طرقهم،و قلنا فى السابق أنهم أوجدوا لهم نظاما متكاملا-على رأيهم حسب المراتب و الدرجات و المقامات و الأحوال،كالمريد و الغوث و القطب و الأبدال.و هى منازل وضعوا رجالهم بها،اصطلحوا على خصائصها،و اتفقوا على ماهيتها بحسب تكوين عقائدهم،و ظروف نشأتهم و مع وضوح اختصاص المراتب بالتدرج الذى يدخل فى أساليب الدعوات السرية و التعاليم الباطنية،فإن ابن خلدون يرى أن ذلک هو ما تقوله الشيعة فى النقباء.

يقول ابن خلدون:

(و هذا كلام لا تقوم عليه حجة عقلية و لا دليل شرعى،و إنما هو من أنواع الخطابة،و هو بعينه ما تقوله الرافضة،و دانوا به،ثم قالوا بترتيب وجود الإبدال بعد هذا القطب كما قاله الشيعة فى النقباء،حتى أنهم لمّا أسندوا لباس خرقة التصوّف ليجعلوه أصلا لطريقتهم و تخليهم،رفعوه إلى على رضى اللّه عنه،و هو من هذا المعنى أيضا،و إلا فعلى رضى اللّه عنه لم يختص من بين الصحابة بتخلية و لا طريقة فى لباس و لا حال؛بل كان أبو بكر و عمر رضى اللّه عنهما أزهد الناس بعد

1- (1) مقدمة ابن خلدون ص 396. [1]

رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم و أكثرهم عبادة،و لم يختص أحـد منهم فى الدين بشـىء يؤثر عنه فى الخصوص،بل كان الصـحابة كلهم أسوة فى الـدين و الزهـد و المجاهـدة،يشـهد لذلک من كلام هؤلاء المتصوفة فى أمر الفاطمى و ما شـحنوا كتبهم فى ذلک مما ليس لسلف المتصوفة فيه كلام بنفى أو إثبات،و إنما هو مأخوذ من كلام الشيعة و الرافضة و مذاهبهم فى كتبهم و اللّه يهدى إلى الحق) (1).

و يضـطرنا تحامل ابن خلـدون فى الأمور الاعتقادية و التاريخية التى تخص الشـيعة، إلى مناقشـته بنصوصه،و الجدير بالذكر،أن تحامل ابن خلـدون كان من أسـباب أقدامنا على تأليف الكتاب،فهو يقول عن مذاهب الشـيعة فى حكم الإمامة(إن الإمامة ليست من المصالح العامة التى تفوّض إلى نظر الأمـة،و يتعين القائم بها بتعيينهم،بل هى ركن الـدين و قاعـدة الإسـلام،و لا يجوز لنبى إغفاله و لا تفويضه إلى الأمة) (2).

و لنوضح أن لا حجة و لا دليل لابن خلدون فى الربط بين عقائد الشيعة و أقوال المتصوفة عن رجالاتهم و النظام الذى وصفوهم فيه:

1-إن أمر الرسالة يحتاج إلى دوام فى الدعوة،و بقاء فى التوجيه يقوم على ميزات و صـفات تتصل بصاحب الرسالة و القائم بالدعوة،و تنتمى إليه فى التوجه و المضـمون،لـذلک فهى من أركان الـدين.و حديثه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم:«من مات و لم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية»و يروى:«من مات بغير إمام مات ميتة جاهلية»صريح فى الدلالة على وجوب معرفة الإمام لأغراض الدين و استيضاح الأحكام.

لـذلک نرى الإمام أمير المؤمنين يقول:«و إنما الأئمـة قوام اللّه على خلقه، و عرفاؤه على عباده،و لا يدخل الجنة إلا من عرفهم و عرفوه،و لا يدخل النار إلا من أنكرهم و أنكروه».

و قـد كـان الإمـام على عنـد مـا آلت إليه الخلافـة،قـد أرسـى حكمه على نظـام الإمامـة لأنهـا أقرب إلى جوهر الإسـلام،و تمثل سـلطانه الروحى.قال اللّه تعالى: وَ جَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا (3)و قال اللّه تعالى: إِنِّى جاعِلُکَ لِلنّاسِ إِماماً قالَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِى قالَ لا يَنالُ

1- (1) أيضا ص 397.

2- (2) المقدمة أيضا ص 164.

3- (3) سورة الأنبياء،آية:73. [1]

عَهْدِی الظّالِمِینَ (1)و قد أوضح الإمام علی علیه السّلام الحالات التی تخرج صاحبها عن حدود رعایة الدین عند ما بیّن أصناف الناس فی حدیثه لکمیل بن زیاد،و بیّن أصل الإمامة الدینی حیث قال:«اللهم بلی لا تخلو الأرض من قائم للّه بحجة إما ظاهرا مشهورا و إما خائفا مغمورا،لئلا تبطل حجج اللّه و بیناته،و کم ذا و أین أولئک،أولئک و اللّه الأقلّون عددا،الأعظمون عند اللّه قدرا،بهم یحفظ اللّه حججه و بیناته حتی یودعها إلی نظرائهم، یزرعوها فی قلوب أشباههم،هجم بهم العلم علی حقیقة البصیرة،و باشروا روح الیقین، و استلانوا ما استوعره المترفون،و أنسوا بما استوحش منه الجاهلون،و صحبوا الدنیا بأبدان أرواحها معلقة بالمحل الأعلی،أولئک خلفاء اللّه فی أرضه و الدعاة إلی دینه» (2).

کما أوضح الإمام أمیر المؤمنین علیه أفضل الصلاة و السلام أن الضلال فی عدم التعرّف علی الإمام،فلما سئل علیه السّلام:ما أدنی ما یکون به الرجل ضالا؟ قال علیه السّلام:«أن لا یعرف من أمر اللّه بطاعته،و فرض ولایته،و جعله حجته فی أرضه،و شاهده علی خلقه».

فإذن،اتصال الإمامة بشئون الدین و أصوله یجعلها من أرکان الدین،فهی لحفظ الشریعة و تدبیر أمر الناس و استمرار الدعوة إلی الهدی و الإیمان و النیابة عن صاحب الأمر و إبقاء مقام النبوة من حیث بیان الأحکام و إیضاح علوم الشریعة و حفظ السنن،و الفرائض و الدعوة إلی الحق و العمل بالصدق.

فالأئمة علیهم السّلام هم الأوصیاء و ورثة الأنبیاء الذین خصّهم اللّه بالکمالات و العصمة،فقال الإمام الصادق علیه السّلام:«أمر اللّه کل واحد من الأئمة أن یسلّم الأمر إلی من بعده».

یقول الفضل بن شاذان فی الجواب عن علة نصب الأئمة و الأمر بطاعتهم:أن الخلق لما وقفوا علی حدّ محدود،و أمروا أن لا یتعدّوا تلک الحدود لما فیه من فسادهم،لم یکن یثبت ذلک و لا یقوم إلا بأن یجعل علیهم فیها أمینا یأخذهم بالوقف عند ما أبیح لهم،و یمنعهم من التعدّی علی ما خطر علیهم،لأنه لو لم یکن ذلک، لکان أحد لا یترک لذته و منفعته لفساد غیره،فجعل علیهم قیما یمنعهم من الفساد

1- (1) سورة البقرة،آیة:124. [1]

2- (2) شرح نهج البلاغة 311/4.و حلیة الأولیاء 80/1. [2]

و يقيم فيهم الحدود و الأحكام.و فيها:أنا لا نجد فرقة من الفرق و لا قلة من الملل بقوا و عاشوا إلا بقيّم و رئيس لما لا بد لهم منه فى أمر الدين و الدنيا،فلم يجزى فى حكمة الحكيم أن يترك الخلق مما يعلم أنه لا بد لهم منه،و لأقوام لهم إلا به، فيقاتلون به عدوّهم،و يقسّمون به فيئهم،و يقيمون به جمعتهم و جماعتهم،و يمنع ظالمهم من مظلومهم.و منها إنه لو لم يجعل لهم إماما أمينا حافظا مستودعا لدرست الملة،و ذهب الدين،و غيّرت السنن و الأحكام،و لزاد فيه المبتدعون،و نقص من الملحدون،و شبّهوا ذلک على المسلمين،إذ قد وجدنا أن الخلق منقوصون محتاجون غير كاملين مع اختلافهم و اختلاف أهوائهم،و تشتت حالاتهم،فلو لم يجعل فيها قيما حافظا لما جاء به الرسول الأول،لفسدوا على نحو ما بيناه،و غيّرت الشرائع و السنن و الأحكام و الإيمان،و كان فى ذلک فساد الخلق أجمعين..الخ (1).

2-إن أمرا بمثل هذه الأهمية و على مثل هذه الصفة الدينية،لا يمكن أن يهمله النبى المصطفى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و فحوى الاختلاف هى التى تعيّن الصفة الدينية أو الصفة الزمانية، لأن الأخذ بالوصية وفق منظور الأئمة،و الهداية الدينية يجنّب الأمة ما انتهت إليه الأحوال فى عهد بنى أمية أو بنى العباس.و لا يدع مجالا لغلبة الأهواء أو تحكّم المصالح،و عندنا أن الناس عند التحاق النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بالرفيق الأعلى و انقطاع الوحى بموته،لم يكونوا جميعهم على درجة واحدة من الإيمان،بل كانت المدينة المنورة و الجزيرة العربية تضمّ أناسا من الذين أسلموا فحسب،و آخرين من المنافقين و ذلک بنص القرآن و شهادة النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال اللّه تعالى: إِذْ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هؤُلاءِ دِينُهُمْ وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ فَإِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (2)و قال سبحانه:

فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشى أَنْ تُصِيبَنا دائِرَةٌ فَعَسَى اللّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلى ما أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نادِمِينَ (3).

و قال تعالى أيضا: وَ إِذْ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ما وَعَدَنَا اللّهُ وَ رَسُولُهُ إِلاّ غُرُوراً و قال: يَحْسَبُونَ الْأَحْزابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَ إِنْ يَأْتِ الْأَحْزابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بادُونَ فِي

1- (1) علل الشرائع. [1]

2- (2) سورة الأنفال،آية:49. [2]

3- (3) سورة المائدة،آية:52. [3]

اَلْأَعْرابِ يَسْئَلُونَ عَنْ أَنْبائِكُمْ وَ لَوْ كانُوا فِيكُمْ ما قاتَلُوا إِلاّ قَلِيلاً (1)و قال تعالى:

وَ مِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرابِ مُنافِقُونَ وَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ (2)صدق اللّه العلى العظيم.

ثمّ هل تخفى على ذى عقل دلالـة ما نزل به جبرائيل أن يكون إشـهار البراءة و إعلان انتهاء العهد مع المشـركين على يد الإمام على بن أبى طالب،لأن ذلک يقتضى أن يكون على يد صاحب الشريعة أو واحد من أهل بيته يمثله (3)لإعلام المشركين ما ستكون عليه علاقتهم بأهل الإسـلام بعد أن تمكنت الدعوة و أصـبح لها من القوة ما تستطيع به أن تهاجم المشركين،و تتحول إلى محاربة وجودهم و عقائدهم؟ و لكن الأهواء و التعصب تجعل من كل حقيقة مثارا للجدل.

فأخذ الأمر بالصـفة الدينية التى تتظافر عليها الأدلة القاطعة و النصوص الصـريحة، يجعل مهمات الدعوة قائمة،و لا بد أن يكون لهذا الدين من أئمة يقومون بالأمر، و ينشـرون أحكام الدين و يبيّنون أصوله.فمن أولى من عترة النبى محمد صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم؟و ما قيل فيهم من قبـل الشـيعة ليس من أنواع الخطابـة-كما يقول ابن خلـدون-التى هى بضاعـة خطباء الحكام أو نكايا المتصوفـة،بل هى نصوص معتبرة تصف حال القائمين بالأحكام و الداعين إلى الإسلام و انتهاجهم منهجا يحيى سنة الرسول الأعظم.

قال الإمام على بن موسى الرضا عليه السّلام:

«إن الإمامـة منزلـة الأنبياء و إرث الأوصـياء،إن الإمامـة خلافـة اللّه و خلافة رسوله صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم و مقام أمير المؤمنين عليه السّلام و خلافة الحسن و الحسين عليهم السّلام.

إن الإمام زمام الدين و نظام المسـلمين و صلاح الدنيا و عزّ المؤمنين.الإمام أس الإسلام النامى و فرعه السامى.بالإمام تمام الصلاة و الزكاة و الصيام و الحج و الجهاد و توفير الفىء و الصدقات و إمضاء الحدود و منع الثغور و الأطراف.

1- (1) سورة الأحزاب،آية:20. [1]

2- (2) سورة البراءة،آية:101.

3- (3) فى ذخائر العقبى للمحب الطبرى [2]بإسـناده عن أبى هريرة،و فى رواية من حديث أحمد عن على أن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لما راجعه أبو بكر قال له:«جبريل جاءنى فقال لن يؤدى عنک إلا أنت أو رجل منک». و فى صحيح البخارى:«إلا أنا أو رجل منى».

الإمام يحلل حلال اللّه و يحرم حرامه،و يقيم حـدود اللّه،و يذبّ عن دين اللّه، و يدعو إلى سبيل اللّه بالحكمة و الموعظة الحسـنة و الحجة البالغة».

فيكون السـلوک و النسب من جنس الدعوة و صاحب الدعوة.فإذا كان أصحاب الطرق و مريد و بعض الأشخاص قد أرادوا أن يتقربوا من آل البيت،أو يتظـاهروا بـذلک على مختلف الأـغراض و الـدوافع،فليس إلى تسـاويهم مع الأئمـة الأطهـار من سبيل يقرّه المنطق،إلا إذا غلب التعصب و الهوى.فكل غوث أو بـدل أو أى مرتبـة عندهم لا تسـمو إلى أى فرد من أهل بيت النبوة الأئمة الأطهار عليهم السّـلام حتى و إن سـاقوا أحـاديث صـحّحوها و حسّـنوها و رواهـا أحمـد كحـديث:الإبـدال فى هـذه الأمـة ثلاـثون رجلاـ قلوبهم على قلب إبراهيم خليل الرحمن،كلما مات رجل أبدل اللّه مكانه رجلا.

و حـديث:الأبـدال فى أمتى ثلاـثون بهم تقوم الأـرض و بهم تمطرون و بهم تنصـرون.أو الـذى رواه الطبرانى عن عوف بن مالـک و وصـفه السـيوطى بـالحسن:الأبـدال فى أهل الشام،و بهم تنصـرون،و بهم ترزقون.فإذا قيل أن المقصود بهم يشـمل أئمـة أهل البيت فإن خصائص الأئمة الأصلية التى بيّناها هى الأحق.

و لو أعدنا النظر فى قول ابن خلدون لنتناول نقطة أخرى من بين النقاط التى تسـتدعى التوقف و المناقشة،فابن خلدون هكذا شأنه فى كل أمر يتعلق بآل البيت الأطهار،فهذا النص على قصره يضمّ عدة نقاط نترک مناقشتها للقارئ الكريم، و لضيق ما نخصصه لابن خلدون هنا،و هى فى أغلبها باديـة النصب و العـداء،و لنعد إلى قوله:ثم قالوا بترتيب الإبدال بعد هذا القطب كما قاله الشـيعة فى النقباء حتى أنهم لما أسـندوا لباس خرقة التصوف ليجعلوه أصـلا لطريقتهم و تخليهم رفعوه إلى على رضـى اللّه عنه،و هو من هذا المعنى أيضا،و إلا فعلى رضى اللّه عنه لم يختص من بين الصـحابة بتخلية و لا طريقة فى لباس و لا حال،بل كان أبو بكر و عمر رضـى اللّه عنهما أزهد الناس بعد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أكثرهم عبادة...إلى آخر كلامه.

و ابن خلدون على الانحراف و التحوّل عن أهل بيت النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم اللذين دفعا من سبقه و من اتبعه إلى أن يبعدوا أصول التصوف التى اتفق عليها المتصوفـة و أدعوها عن مجالات أهل البيت و مواقع القرب منهم،و مـدى صـحة ذلک و قربه أو بعده عن الحقيقة من شئون المتصوفة و طوائفهم لا من شأن الشيعة،لأن الشيعة هم أتباع الأصل و أنصار الجوهر.و كما حفلت صفحات المناقب التى يقصد بها المضاهاة أو التأثير

على مناقب أهل البيت و عظيم منزلتهم،حفل تيار الانحراف فى اهتمامه بما يتعلق بالتصوف و أصوله التى أقيم عليها بما ينجم عن هذا القصد منها:أن أبا بكر لما أنفق ماله فى سبيل اللّه و أعتق عبيده حتى تخلل بالعباءة،نزل جبرائيل و قال:يا محمد:إن ملائكة السموات تخللت بالعباءة إكراما لأبى بكر من اللّه،و قل له:إن ربک عليک راض فهل أنت عليه راض؟فقال أبو بكر:إنى عن ربى راضى (1).

و سرى ذلک إلى صفوف المتصوّفة،و سمح لكثير من أشياخهم باحتلال المراتب التى يسعون إليها،مع أن القسم الأعظم-و على الأخص فى مصر-بقى محتفظا بصورة الأصول التى أقاموا عليها طرقهم،و جعلوا من سيرة أهل البيت الأطهار مصدرا ثابتا،و أقاموا على الولاء الذى خالطته حالات الطرق التى أشرنا إليها،و بعض من آثار التيارات الأخرى التى ظهرت على ساحة الإسلام.

كما أن الصوفية يأخذون بالإمامة لتكون على معنى الدرجات التى تكوّن نظامهم غير أنهم يختلفون فى شرط النسب.

و إذا نظرنا إلى نظرياتهم و قواعد سلوكهم،لوجدناهم يستخلصون أغلبها من أحداث تاريخ أهل البيت،إذ لديهم فى الولاية نظرية ولاية العلم و ولاية الحكم أو خلافة الحكم،و أن الإمام على اختص بالأولى.

و فى مجال الإمامة يقولون بإمامة الأشباح و الأرواح،و هى ما تقصده فى الحديث عن السلطان الروحى لأهل البيت و أئمتهم الأطهار،و كيف أقاموا منزلهم فى نفوس شيعتهم و محبيهم على أساس النصح و الإرشاد و الوعظ و التبليغ،و عزفوا عن سلطان الحكم،و وجهوا أتباعهم إلى عوالم دينية و روحية تجعل من الأحكام و الفرائض دينا و مجتمعا قائما.يروى الشيخ الصدوق رحمه اللّه عن جابر عن أبى جعفر عن أبيه عليه السّلام أنه قال:«إذا كان أول يوم من شهر شوال نادى مناد أيها المؤمنون اغدوا إلى جوائزكم»ثم قال أبو جعفر عليه السّلام:«يا جابر جوائز اللّه عز و جل ليست كجوائز هؤلاء الملوک».ثم قال:«هو يوم الجوائز».

كما يروى عن الإمام الباقر عليه السّلام أيضا:«ما من عيد للمسلمين أضحى و لا فطر إلا و هو يجدّد لآل محمد فيه حزن،لأنهم يرون حقهم فى يد غيرهم».

1- (1) الذهب الأبريز فى شرح الوجيز.

يقول أبو المعالى محمد سراج الدين الرفاعى عن الإمامة عند الصوفية:و جعلها إطار الدرجات و المنازل التى لديهم،و اشتراط النسب الشريف:و هى الإمامة التى عناها حجاجة الصوفية،و وسموها بالقطبيّة الكبرى،و الغوثية العظمى،و الإمامة الجامعة،و قالوا لصاحب مرتبتها:الغوث،و قطب،و الإمام الجامع،و الإنسان الكامل،و أطبق جماهير الصوفية سلفا و خلفا أن الغوث هذا المعنى بهذه الإمامة لا يكون من غير أهل البيت النبوى أبدا،و قالوا:إن أهل البيت النبوى لمّا فاتتهم إمامة الأشباح التى هى الخلافة الظاهرة،عوّضهم اللّه سبحانه و تعالى ما هو خير منها، و ذلک إمامة الأرواح،فإمامهم هذا أعنى القطب الغوث يتصرّف فى ذرّات الأكوان، و صاحب خلافة الظاهر ذرة منها...

ثم يورد قول السيد إبراهيم أبو إسحاق الأعزب الرفاعى:كلمتان مردودتان عند أهل البساط:كلمة شريف يطلب نيل الإمامة الظاهرة بعد أن انعقدت على الإمامة الجامعة الروحية بيعة الأرواح لأهل البيت،و أمضى اللّه تعالى و رسوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لهم ذلک، و ها هى تنقلب بحمد اللّه تعالى فيهم،و لا تنزع منهم حتى تختم بسيدنا الإمام ولى اللّه المهدى عليه السّلام.و الكلمة الثانية كلمة رجل قال أن قطبية الأقطاب يعنى الغوثية و الإمامة الكبرى الروحية،تكون فى غير أهل البيت،فإن هذه الكلمة من عثرات ألسن بعض أهل الرى لا يلتفت إليها و لا يعول عليها.نعم إن المحاذاة للغوث ثابتة عند المتمكنين،فقد يحاذى الولى الذى ليس بشريف-بمحض فضل اللّه و توفيقه-مرتبة الغوث الجامع،و لكن لا ينزل تلک المنزلة بعينها أبدا (1)بسبب منزلة أهل البيت فى قلوب الناس،و ميل النفوس إليهم لم يكن من السهل إغفال هذا الشرط،و لكن من السهل ادّعاء النسب و الالتصاق بالشجرة الطاهرة المباركة النقية.و ظل الصوفية يرون آل البيت بمنظار طرقهم و عقائدهم.اقرأ هذا النص الصوفى:

(و ذكر بعضهم أنها تروى-الطرق-من جهة الحسن عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و من جهة عن على،لأن الحسن كان أول فتحه و مدده من يد النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ثم صحب و اقتدى بوالده عليه السّلام كما وقع لكثير من أهل اللّه تعالى حصل لهم الفتح من يده صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مباشرة، برؤيا منامية أو اجتماع روحانى،ثم صحبوا بعد ذلک الشيوخ للسلوک و التهذيب،أو انتسبوا إليهم للأدب مع الشريعة و الركون إلى الواسطة.

1- (1) صحاح الأخبار فى نسب السادة الفاطمية الأخيار ص 50 و 51.

و ذكر بعضهم أن الحسن ورث القطبية من والدته سيدة نساء أهل الجنة صلّى اللّه عليها و سلّم،و هى أول الأقطاب على الإطلاق،و كل هذا صحيح،فإنهم بيت النبوة، و منبع المعارف و الكمالات و الأسرار،و قد ألبسهم النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم جميعا بكسائه الشريف، و سقاهم بمدده العظيم،و شملهم بنوره الفخيم،فحازوا منه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أعلى مراتب الولاية.

و أقصى ما يصله البشر من درجات العرفان)انتهى.

ثم يطلّ المتصوّفة على مأساة كربلاء و فاجعة الطف،حيث مسرح ثورة أبى الأحرار الحسين بن على عليهما السّلام و موضع نهضة سيد الشهداء،و صفحات البطولة، و مواقف الجهاد،فيروون بطرقهم أن الإمام الحسين لما انكشف له فى سرّه تدلى الخلافة الروحية التى هى الغوثية و الإمامة الجامعة فيه و فى بنيه على الغالب،استبشر بذلك،و باع فى اللّه نفسه لنيل هذه النعمة المقدسة،فمنّ اللّه عليه بأن جعل فى بيته كبكبة الإمامة،و ختم ببنيه هذا الشأن،على أن الحجة المنتظر الإمام المهدى عليه السّلام من ذريته الطاهرة و عصابته الزاهرة (1).

فإذا كان النظر فى جوانب عظمة الإمام على عليه السّلام كان التأثر على أشده، و راحوا يقتبسون من سيرته،و يؤسسون على فضائله،و يصفونه بحسب أوصافهم التى قد يلتقون عبرها مع شيعة أهل البيت أو ينفردون بها،كما أنهم لا يطبقون على رأى و ليسوا كالشيعة فى الوصية و الإمامة،فمنهم من يجعل الإمام فى الطبقة الأولى من طبقات المتصوفة،و يمضى فى ذلك حسب ترتيب الخلفاء،و منهم من يقول أن الأفضيلة التى يراها السنّة فى الخلفاء لا تستلزم الأعلمية،و يسوقون أدلة على ذلك كقصة الخضر مع موسى عليهما السّلام فإن القرآن أثبت أعلمية الخضر بالحقائق على موسى،مع أن موسى أفضل منه بلا خلاف بين أحد يعرفونه.و يقولون:و يكفى أن الخضر نبى و موسى عليه السّلام رسول،بل من أفضل الرسل،و لا يوجد من يقول بأن هناك نبى أفضل من بعض أولى العزم من الرسل عليهم السّلام.

و فى الإمام على يقولون:

بأنه مدينة العلوم و المواهب،ولى المتقين و إمام العادلين،أقدمهم إجابة و إيمانا،و أقومهم قضية و إيقانا،المنبئ عن حقائق التوحيد،المشير إلى لوامع بوارق

1- (1) المصدر نفسه،ص 50.

علم التفريد،ذو القلب العقول و اللسان السئول.و الآذان الواعية و العهود الوافية.

ختم اللّه به الخلافة كما ختم بمحمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم النبوّة،الأخيشن فى دين اللّه،الممسوس فى ذات اللّه.و قد قيل:التصوف مرافقة المودود و مصارمة المعهود.قال حذيفة:قالوا يا رسول اللّه:أ لا تستخلف علينا؟قال:«إن تولوا عليا و ما أراكم فاعلين تجدوه هاديا مهديا».و سئل المصطفى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عنه فقال:«قسّمت الحكمة عشرة أجزاء،فأعطى تسعة و الناس واحدا»و قدم عليه يوما فقال:«مرحبا بسيد المسلمين و إمام المتقين.إن اللّه أمرنى أن أدنيک و أعلمک لتعى»و قال:«من كنت مولاه فعلى مولاه،اللّهم وال من والاه و عاد من عاداه»و قال:«على منى و أنا منه»و قال:«أنا مدينة العلم و على بابها» و قال:«لا يحبه إلا مؤمن و لا يبغضه إلا منافق».و قال:«من آذى عليا فقد أذانى، و من سبّه فقد سبّنى،و من أبغضه فقد أبغضنى،و من أحبّه فقد أحبّنى»و قال:«على مع القرآن و القرآن مع على»و قال ابن عباس رضى اللّه عنه:ما نزل فى أحد من كتاب اللّه ما نزل فى على رضى اللّه عنه،و كان إذا غضب المصطفى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لم يجسر أحد أن يكلّمه إلا على.و قال:لعلى ثمانى عشرة منقبة ما كانت لأحد من هذه الأمة.و قال يوم خيبر:«لأعطينّ الراية رجلا يحبّ اللّه و رسوله،و يحبه اللّه و رسوله».و جعل حبه علامة الإيمان و بغضه إمارة النفاق.و قال الإمام أحمد:ما ورد لأحد من الصحابة من الفضائل ما ورد لعلى رضى اللّه عنه.رواه الحاكم و غيره،و كان رضى اللّه عنه الانقياد و الاستسلام شأنه،و التبرّى من الحول و القوة مكانه.و قد قيل:التصوف إسلام الغيوب إلى مقلب القلوب،و إذا أردت أن تعرف منزلته من المصطفى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فتأمل صنيعه فى المؤاخاة بين الصحابة،جعل يضم الشكل إلى الشكل،و المثل إلى المثل، فيؤلف بينهما إلى أن آخا بين أبى بكر و عمر رضى اللّه عنهما،و ادّخر عليا كرم اللّه وجهه لنفسه،و اختصه بأخوّته،و ناهيک بها من فضيلة،و أعظم بها من شرف (1).

ثم يستمدّون من سيرته ما يؤيد المقالات الصوفية،و من أقوال أئمة المسلمين فيقول المناوى:و قد شهد له بكمال الزهد الإمام الشافعى رضى اللّه عنه.قيل له:ما نفّر الناس عن على رضى اللّه عنه إلا أنه كان لا يبالى بأحد.فقال الشافعى رضى اللّه عنه:كان عظيما فى الزهد،و الزاهد لا يبالى بأحد،و كان بذات اللّه عليما،و عرفان

1- (1) الكواكب الدرية ص 38 و 39 الجزء الأول. [1]

اللّه فی صدره عظیما.و قد قیل:التصوف البروز من الاحتجاب إلی رفع الحجاب.

و أعیان رجالهم و کبارهم المشهور عندهم أن طریقتهم تتصل بالإمام أمیر المؤمنین علیه السّلام یقول الوتری:نعم،إن خرقة الصوفیة رضی اللّه عنهم تتصل بالخلیفة الرابع أسد الملاحم و المعامع،شیخ أئمة الآل،فحل الرجال،صهر رسول الثقلین،والد الریحانتین،إمام المشارق و المغارب،أمیر المؤمنین أسد اللّه سیدنا علی بن أبی طالب کرم اللّه وجهه و رضی اللّه تعالی عنه،و قد ندر اتصال خرقة بغیره، و کلهم علی هدی یتصلون بسید المخلوقین حبیب رب العالمین صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و لا یلتفت لما تقوّله البعض فی شأن خرقة الصوفیة،فإن ذلک قد نشأ عن هفوات لا تعتبر،و لا یبنی علیها الشک بعد الیقین بصحة الخبر (1).

ثم یحسبون الأئمة من آل البیت صلوات اللّه علیهم أجمعین أعیانا لخرقتهم، فیقول الوتری:و إن أعیان أهل الخرقة ساداتنا أهل بیت النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و أعیانهم أئمة الآل الأعلام علیهم الرضوان و السلام،و هم:السبط الجلیل القدر،الوفیر المنن أمیر المؤمنین الإمام أبو محمد الحسن،و السبط العظیم المقام،قرة عین سید الکونین أمیر المؤمنین الإمام أبو عبد اللّه الحسین،و سیدنا الإمام علی زین العابدین،و سیدنا الإمام محمد الباقر،و سیدنا الإمام جعفر الصادق،و سیدنا الإمام علی الهادی،و سیدنا الإمام الحسن العسکری،و سیدنا الإمام الخلف الصالح قرة عین الأئمة الهادین الإمام محمد المهدی سلام اللّه علیه و علیهم أجمعین،فهؤلاء السادات الأعیان،أحوالهم مذکورة، و أعلامهم منشورة،و تراجمهم أشهر من أن ینبّه علیها،و فضائلهم أفعمت بها الدفاتر، و جفّت لها المحابر،و هم سادات السادات،و أعیان الأولیاء،الذین خرق اللّه لهم العادات.

ما ذا یقول المادحون بوصفهم و هم السراة خلائف المختار

ضربت قباب فخارهم و سمّوهم بین البتول الطهر و الکرّار

للّه جعفر طاب من أنسابهم عقدت علیه سلاسل الأقمار

(2)

1- (1) أحمد بن محمد الوتری،روضة الناظرین و خلاصة مناقب الصالحین.

2- (2) المصدر نفسه.

و لا نطيل فى تفاصيل مقالات الصوفيين أو تعريفاتهم،و نقتصر على أمرين نراهما المدخل الذى جاء منه الصوفية إلى رياض أهل البيت فى سيرهم،و راحوا يعقدون أكاليل معتقداتهم منها.

الأول:الحب

:

و جعل مـدار الحب إلهيا،يصـبغ علاقة المسـلم بربه،و هى فى أشـكالها تقوم على فكرة الإمام على عليه السّلام و تحديده ماهية العبادة أن تكون عبادة أحرار،لا طمعا فى ثواب أو خوفا من عقاب،و عليها أسسوا ذلک،و لا تبعد بأى حال عن ثواب أو خوفا من عقاب،و عليها أسوسا ذلک،و لا تبعد بأى حال عن أصلها الحقيقى مهما تعدّدت الأقوال.

يقول القشيرى:من عرف اللّه عن طريق المحبة دون خوف هلک بالبسط و الإدلال،و من عرفه من طريق الخوف من غير محبّة انقطع عنه بالبعد،و من عرف اللّه من طريق المحبة و الخوف أحبه اللّه فقرّبه و علّمه و مكّنه.

أما أبو طالب المكى فيقول:و كل محب للّه خائف،ليس كل خائف محبا.

و ربما كانت المحبة ثوابا للخوف و مزيدا له،و هذا فى مقام رب العالمين.و ربما كان الخوف مزيدا للمحبة و ثوابها،و هذا فى مقام العالمين.فمن كانت المحبة مزيدة بعد الخوف فهو من المقربين.و من كان الخوف مزيد محبته،فهذا من الأبرار المحبين و هم أصحاب اليمين (1).

و أرى من المستحسن هنا أن نذكر شيئا من نصوص التراث الشيعى القائم على أفكار أئمتهم صلوات اللّه عليهم و مواعظهم،بعد الإشارة إلى تعلق هذا المدخل بالجانب الإشراقى الذى أغناه الرئيس ابن سينا فى الإشارات:

يقول الشيخ الجليل محمد مهدى النراقى فى«جامع السعادات»و تحت فصل المنكرين لحب اللّه:(قد ظهر مما ذكر ثبوت حقيقة المحبة و لوازمها من:الشوق و الأنس للّه تعالى،و أنه المستحقّ للحب دون غيره.و بذلک ظهر فساد زعم من أنكر إمكان حصول محبة العبد للّه تعالى و قال:لا معنى لها إلا المواظبة على طاعة اللّه،

1- (1) قوت القلوب،الجزء الثانى [1]ص 58 و 59.

و أما حقيقة المحبة فمحال إلا مع الجنس و المثل.و لما أنكروا المحبة أنكروا الأنس و الشوق و لذة المناجاة و سائر لوازم الحب و توابعه،و يدل على فساد هذا القول، مضافا إلى ما ذكر،إجماع الأمة على كون الحب للّه و لرسوله فرضا،و ما ورد فى الآيات و الأخبار و الآثار من الأمر به و المدح عليه و اتصاف الأنبياء و الأولياء به).

انتهى.

قال الإمام الصادق عليه السّلام:«حب اللّه،إذا أضاء على سرّ عبد أخلاه عن كل شاغل و كل ذكر سوى اللّه،و المحب أخلص الناس سرّا للّه،و أصدقهم قولا،و أوفاهم عهدا،و أزكاهم عملا،و أصفاهم ذكرا،و أعبدهم نفسا،تتباهى الملائكة عند مناجاته،و تفتخر برؤيته،و به يعمر اللّه بلاده،و بكرامته يكرم اللّه عباده،و يعطيهم إذا سألوه بحقه،و يدفع عنهم البلايا برحمته،و لو علم الخلق ما محله عند اللّه و منزلته لديه،ما تقربوا إلى اللّه إلا بتراب قدميه».

و قوله عليه السّلام يعطينا صورة واضحة عن منهجه فى الدعوة إلى التمسک بالدين، و الانصراف لمرضاة اللّه،فى وسط تلک المعترکات و المحن التى تشهدها الأمة على أيدى المتسلطين،الذين يتخذون من دين اللّه ستارا لأغراضهم و أطماعهم،فاختط لنفسه و لمريديه طريق الإخلاص للّه،و التقرّب منه،الذى يبعث فى النفوس الطمأنينة.و يحيى الأمل بعد تلک النکبات و الفواجع التى ألمّت بأهل البيت الکرام صلوات اللّه عليهم،و امتدت إلى المؤمنين من أتباعهم.

و يوضّح الإمام الصادق عليه السّلام أصول اتجاهه الروحى،و يجعل شيعته و مريديه على معرفة و بيّنة من خصائص السلوک الذى يدعوهم إليه،و دقائق المنهج الذى يحملهم عليه،فيقول عليه السّلام:«نجوى العارفين تدور على ثلاثة أصول:الخوف و الرجاء و الحب.فالخوف فرع العلم،و الرجاء فرع اليقين،و الحب فرع المعرفة.

فدليل الخوف الهرب،و دليل الرجاء الطلب،و دليل الحب إيثار المحبوب على ما سواه.فإذا تحقق العلم فى الصدر خاف،و إذا صح الخوف هرب،و إذا هرب نجا، و إذا أشرق نور اليقين فى القلب شاهد الفضل،و إذا تمکن من رؤية الفضل رجا،و إذا وجد حلاوة الرجاء طلب،و إذا وفّق للطلب وجد،و إذا تجلى ضياء المعرفة فى الفؤاد هاج ريح المحبة،و إذا هاج ريح المحبة استأنس فى ظلال المحبوب على ما سواه، و باشر أوامره و اجتنب نواهيه،و اختارهما على کل شىء غيرهما،فإذا استقام على

بساط الأنس بالمحبوب مع أداء أوامره و اجتناب نواهيه وصل إلى روح المناجاة و القرب.و مثال هـذه الأصول الثلاثة كالحرم و المسـجد و الكعبة،فمن دخل الحرم أمن من الخلق،و من دخل المسـجد أمنت جوارحه أن يسـتعملها فى المعصـية،و من دخل الكعبة أمن قلبه من أن يشغل بغير ذكر اللّه» (1).

كان الصادق عليه السّلام فى مركزه الـدينى و مكانته العلمية،يتصدى لمهمات القيادة الروحية،و يضع لأصـحابه الإمارات التى يميزون بها فى خضم ذلـك المعترك.من أقبـل على نهجه بإخلاص،و يطلب من أصـحاب البحث عن الصـفات بطريق العمل و الالتزام بين صـفوف شيعته فيقول عليه السّلام:

«امتحنوا شـيعتنا عند ثلاث:عند مواقيت الصلوات كيف محافظتهم عليها، و عند أسرارهم كيف حفظهم لها من عدوّنا،و إلى أموالهم كيف مواساتهم لإخوانهم بها».

الأمر الثانى: الزهد

الذى راح الصوفية ينهلون منه ما يشاؤون،و يضعونه فى أوعية خاصة بهم من شأنها أن تحوّل طعم المحتوى،و تغيّر لونه هو:الزهد.

و للعلماء فى حقيقـة الزهد اختلاف كبير،فكيف إذا كان الأمر يتعلق بالخرقة و الطريقة،فلا بد أن يؤخذ الظاهر الذى يعضد الأقوال أو يدعّم الأسس.و نحن هنا نعرض القليل القليل مما يتحاشاه الذين يسوؤهم ذكر الحقيقة على حالها.

فالإمام على أمير المؤمنين عليه السّلام فى حياته الشـريفة و سـيرته الطاهرة،قـد أخـذ منـذ آلت إليه الخلافة و انتهى إليه الحكم بجعل فترة إمامته فترة تتولى معالجة آثار التطورات الماضـية،و تتجه إلى المستقبل لأحكام الصلة بين عهد الرسالة و حياة النبى محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بإشراقهما و نورهما،و بين أسس سياسته،حتى تهدأ النفوس و تستقر على الهدى،و لو لا فترة حكمه و تطبيقات إمامته لكانت عودة الجاهلية و أحقاد المشـركين بأعنف مما كانت عليه،و لما راعت أحدا من أهل الإسلام،و لذلك فإن الإمام عليا فى سلوكه لم يدع إلى ابتعاد عن الحياة،و لا إلى انغلاق.و إنما هو المكلف بحفظ السنّة على أصولها،و إبقاء الشريعة على مقاصدها.

1- (1) الاثنى عشرية [1]فى المواعظ العددية للعيناثى ص 72.

عن أنس قال:جاء ثلاثة رهط إلى أزواج النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يسألون عن عبادة النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فلما أخبروا بها كأنهم تقالوها،فقالوا:أين نحن من النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و قد غفر اللّه له ما تقدم من ذنبه و ما تأخر؟فقال أحدهم:أمّا أنا فأصلى الليل أبدا.و قال الآخر:

أنا أصوم النهار و لا أفطر.و قال الآخر:أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا.فجاء النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فقال:«أنتم الذين قلتم كذا و كذا؟أما و اللّه إنى لأخشاكم للّه،و أتقاكم له، و لكنّى أصوم و أفطر،و أصلى و أرقد،و أتزوّج النساء.فمن رغب عن سنّتى فليس منى».

و ما يبنى عليه من مظاهر سيرة الإمام على عليه السّلام لدى الصوفية،و خاصة فى القرن الثانى الهجرى،و بدايات اتساع طرقها و شيوع تعاليمها،يغفل المقاصد الحقيقية التى تكمن فى كل ناحية من حياة الإمام على عليه السّلام و تتعلق بما ينسجم مع نزعتها.

فإذا قيل:إن الإمام عليا كان يلبس إزارا خلقا مرقوعا،فذلک نصف الحقيقة،لأن تصرف الإمام و جوانب سيرته،تظهر فلسفتها فى أقواله.فعند ما قيل له فى ذلک الإزار،قال عليه السّلام:«يخشع له القلب،و تذلّ به النفس،و يقتدى به المؤمنون».

و قوله عليه السّلام:«...إن اللّه تعالى فرض على أئمة الحقّ أن يقدروا أنفسهم بضعفة الناس كيلا يتبيغ بالفقير فقره»أى يجب على الإمام العادل أن يشبّه نفسه فى لباسه و طعامه بضعفة الناس،لكيلا يهلک الفقراء من الناس،فإنهم إذا رأوا إمامهم بتلک الهيئة و بذلک المطعم،كان ادعى لهم إلى سلوان لذّات الدنيا،و الصبر عن شهوات النفوس.

و من أحكام القرآن يتخذ الإمام عليه السّلام سياسته الاجتماعية و الاقتصادية و يقول:

«إن اللّه سبحانه فرض فى أموال الأغنياء أقوات الفقراء،فما جاع فقير،إلا بما متّع به غنى،و اللّه تعالى سائلهم عن ذلک».

و فى ثنايا أقواله المأثورة،نجد تناوله للفقر من نواحى عديدة،أولها:الناحية الدينية،ثم وجوده الاجتماعى،و يجعل عليه السّلام من الفقر إلى اللّه أصلا،ثم يعرض جوانب الفقر الأخرى،و فى نهجه ما يغنى و ما لا يحاط به بمثل هذا العرض الموجز.

و لكن من المهم القول،أن حياة الإمام على من زاوية التصوف،ينظر إليها بأكثر من زاوية،أهمها جميعا ما يأخذ بالظاهر و يتشبث بإبقاء الصفات و الصلة إلى الحد الذى يضع على لسانه تعريفا للتصوف،ليس فيه أى صفة أو علامة من صفات أو علامات

منهج الإمام فی بلاغته و أفکاره،و إنما هی من صفات المقالات الصوفیة.فیروی علی لسانه علیه السّلام:التصوف ثلاثة أحرف:الصاد صبر و صدق و صفاء،و الواو ودّ و ودّ و ودّ،و الفاء فرد و فقر و فناء.

و الزاویة الثانیة التی ینظر منها،هی زاویة المتخصصین و أصحاب التجربة المقرونة بالنظر،کما هو الحال عند الرئیس أبی علی بن سینا فی کتاب الإشارات الذی ینقل عنه ابن أبی الحدید.قال أبو علی فی مقامات العارفین:العارفون قد یختلفون فی الهمم بحسب ما یختلف فیهم من الخواطر،علی حسب ما یختلف عندهم من دواعی العبر،فربما استوی عند العارف القشف و الترف،بل ربما آثر القشف،و کذلک ربما استوی عنده التفل و العطر،بل ربما آثر التفل،و ذلک عند ما یکون الهاجس بباله استحقار ما عدا الحق،و ربما صغا إلی الزینة،و أحب من کل شیء عقیلته،و کره الخداج و السقط،و ذلک عند ما یعتبر عادته من صحبته الأحوال الطاهرة،فهو یرتاد إلیها فی کل شیء،لأنه مزیة حظوة من العنایة الأولی،و أقرب إلی أن یکون من قبیل ما عکف علیه بهواه،و قد یختلف هذا فی عارفین،و قد یختلف فی عارف بحسب وقتین.انتهی.

و ینقل الصوفیة المتأخرون قول العارف باللّه المعروف بالباقی باللّه شیخ السادة النقشبندیة فی کتابه(المثوی)عن جعله تکنیة النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم للإمام علی علیه السّلام بأبی تراب-و قصتها معروفة-أصلا یتفق مع خواطرهم و مقاصدهم و معناه:أن التراب إشارة إلی وجود أهل التوحید و الفناء،فیکون حاصل معنی أبی تراب:أنه علیه السّلام هو الأصل المقتدی به فی هذا المعنی،و المرجع لطائفة الفقراء أرباب الفناء الکمّل.

و من جهة أخری یحملون معانی الأحادیث و الأخبار النبویة فی الإمام علی علیه السّلام علی مقاصدهم و طبیعة نهجهم،و هی أحادیث رواها و صحّحها کبار المحدثین من أهل السنّة،و جاءت فی مصنفات علمائهم کمسند الإمام أحمد و منها:

«یا علی أن اللّه قد زیّنک بزینة لم یزیّن العباد بزینة أحب إلیه منها،هی زینة الأبرار عند اللّه تعالی فی الدنیا،جعلک لا ترزأ من الدنیا شیئا،و لا ترزأ الدنیا منک شیئا.و وهب لک حب المساکین،فجعلک ترضی بهم أتباعا و یرضون بک إماما،فطوبی لمن أحبّک و صدّق فیک،و ویل لمن أبغضک و کذّب فیک».

و هی نبوءة کشفت عمّا سیقع من أمر،و کیف سیکون الحال بین جنده و محبیه

و هم يستميتون من أجل صون الرسالة و حفظ مبادئ العدل فى مواجهة البغى و الأثرة و الجاهلية الجديدة التى تتخذ من الإسلام ستارا و هى ستارا و هى تشيد حكمها و ملكها على الأثرة و الاستغلال،و النهب و القتل.

و إذا عدنا إلى سيرة الإمام الصادق عليه السّلام وجدنا-أن منهجها الفكرى و الدينى الذى شدّ إليه الناس،و جذب نحوه رجالات الأقطار و علماءها،فتتلمذوا على يديه، و تخرّجوا من مدرسته،يتّسم ببناء دقيق،لأنه يتجه إلى بناء المسلم من الداخل، فيتكلم عليه السّلام بألفاظ و مفردات توضّح القصد،كما تسهّل التّأثير و الفعل.و فى مجال الإيضاح و التفسير،يتحدث أبو عبد اللّه الصادق عليه السّلام بصور و بيان يجسّد المطلوب و يجلو ما يخفى على الآخرين.فهو عليه السّلام فى خضم المعترك السياسى و المآسى الكبرى،يتجه إلى داخل النفوس و ما نجم عن معاناة الرعية بأشكالها المختلفة، و يهتم عليه السّلام بطهارة الأرواح و استقامة السلوك.

قال الإمام الصادق:

«المرضى ثلاثة،عن النفس،و عن القلب،و عن الروح.فمرض المنافق عن النفس،و مرض المؤمن عن القلب،و مرض العارف عن الروح.فدواء المنافق دار جهنم،و دواء المؤمن معرفته و حبّه،و دواء العارف لقاؤه و قربه» (1).

و قوله عليه السّلام:

«من خاف اللّه أخاف اللّه منه كل شىء،و من لم يخفف اللّه أخافه اللّه من كل شىء» (2)يقصد به أن يعلّم الناس أن قوة الحكام الظلمة لا تطال المؤمنين،و أن اللجوء إلى اللّه هو الحصانة و المنجى من كل متسلّط جبّار.و قد اخترنا هذين القولين، لنخلص إلى أن الإمام الصادق عليه السّلام فى حياته قد صبّ جهوده على أمرين،الأول:

النضج و الإرشاد و وعظ الناس و الدعوة لدين الإسلام.و الثانى:التأكيد على السلطان الروحى و العبودية للّه تعالى التى تجعل من أشكال اضطهاد الرعية و ألوان عنف المتجبّرين و قوتهم امتحانا زائلا و مأزقا طارئا،و أن المواجهة الدامية بعد التجارب التى

1- (1) الاثنى عشرية [1]فى المواعظ العددية.

2- (2) أصول الكافى.

مرّت بها الأمـة و روّع بها الناس،لا تؤدى فى مثل تلک الظروف التى يعيشـها إلاّ إلى الهلاک على يد الحكام،لذلک سـلک مع العباسـيين مسلكا يجنّب أهل بيته و شيعته مخاطر سلطانهم.

فلمّا اتخـذ رأيه فى عـدم لبس السواد ذريعـة من قبل الأعـداء،أتقاهم بما يزيل التهمـة و يحفظ حياته،فأخذ يلبس جبة سوداء.و روى أنه كان يلبس خفا أسودا مبطنا بسواد و فتق مرة ناحية منه و قال:«أما إن قطنه أسود»و أخرج منه قطن أسود،ثم قال عليه السّلام:«بيّض قلبک و ألبس ما شئت» (1).

أما إذا أضـفنا الأقوال الأخرى للإمام الصادق،فإن الصوفية لا يكتفون بالتأسيس عليها أحوالا لهم و مقامات،بل إن ما نراه من أحداث طبيعية تحفل بها سيرة الأئمة الطاهرين من أهل البيت.يرون فيها كرامات لتعزيز أقوالهم بأصحابهم،و ادّعاء الأعمال الجليلة لهم.

قال الإمام الصادق عليه السّلام:«من أدخل قلبه صافى حب اللّه شغله عمّا سواه» (2).

و هو قول من مصادر الصوفية لا يخرج عن مضامين مدرسة الإمام الصادق أو أقواله،إلا أن ما يجعلونه أساسا للمقامات و الأحوال عندهم،و ما يصـرفون إليه كلام الإمام عليه السّلام يسـىء كثيرا إلى الموقف الـدينى و الفكرى الـذى اقتضـته مصـلحة الأمـة، و الـذى اختطّه الإمام الصـادق،و أطلقنا عليه«الـدعوة الصامتـة»و يظهر أن الصوفيـة تنسـج على نزعتها و تحيک على هواها المقاصـد و المعانى،لأن واقع الإمام الصادق و حركته الدائبـة و نشاطه المعطاء،يفنّد الغرض الذى يختفى وراء القول بالتخلى أو الخمول.إذ لا يهدأ بحال فى أذهان الشـيعة قول الإمام الصادق:«كونوا لنا دعاة صامتين»و اقتران الـدعوة بالصـمت يشـير إلى منهج الصادق فى الابتعاد عن مواجهة الحكام بما يحمى دماء الناس و أعراضـهم و وجودهم،فيما أوّلوا بعض أقواله عليه السّلام تأويلات اعتبروها أساسا لأوضاع قادتهم و هو:«عزّت السـلامة حتى لقد خفى مطلبها،فإن تک فى شىء فيوشک أن تكون فى الخمول،فإن لم توجد فيه ففى التخلى،و ليس كالخمول،فإن

1- (1) علل الشرائع للشيخ الصدوق.

2- (2) الكواكب الدرية. [1]

لم تكن فيه ففى الصمت،فإن لم تكن فيه ففى كلام السلف الصالح،و السعيد من وجد فى نفسه خلوة (1).

و هذا من النصوص التى لعب الخيال فى إيجادها،و كانت نتيجة الغرض الذى.

انطوت عليه نفوس قائليها،فجعلوا من أصل الفكرة فى توخّى السلامة وسط مجمع مائج بالأهوال و المحن و الابتلاءات،و مقتضيات الإمام و مسئولياته تجاه ربه و دينه منوالا لأفكارهم،و تنادى ألفاظ القول على بعدها عن البناء اللغوى و التوجه الوعظى الذى تمتاز به أقوال الإمام الصادق عليه السّلام.و المقارنة بالأصل تظهر الفارق،فقد قال عليه السّلام فى السلامة:«أطلب السلامة أينما كنت،و فى أى حال كنت لدينك و لقلبك و عواقب أمورك فى اللّه،فليس من طلبها وجدها...و السلامة قد عزّت فى الخلق و فى كل عصر،خاصة هذا الزمان و سبيل وجودها فى احتمال جفاة الخلق و أذيتهم،و الصبر عن الرزايا و حقيقة الموت،و الفرار من أشياء تلزمك رعايتها، و القناعة بالأقل من الميسور،فإن لم يكن؛فالعزيمة،فإن لم تقدر فالصمت،و ليس كالعزيمة،فإن لم تستطع فالكلام ينفعك و لا يضرّك،و ليس كالصمت،فإن لم تجد السبيل إليه فالانقلاب و السفر من بلد إلى بلد،و طرح النفس فى بوارى التلف بسرّ صادق و قلب خاشع و بدن صابر،قال اللّه عز و جل: إِنَّ الَّذِينَ تَوَفّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظالِمِي أَنْفُسِهِمْ قالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قالُوا كُنّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قالُوا أَ لَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ واسِعَةً فَتُهاجِرُوا فِيها .

و انتهز مقسم عباد اللّه الصالحين،و لا تتنافس الأشكال،و لا تدّع فى شىء و إن أحاط به علمك و تحققت به معرفتك،و لا تكشف به سرّك إلاّ على أشرف منك فى الدين،و أنى تجد المشرف،فإذا فعلت ذلك أصبت السلامة».

و من أقواله عليه السّلام:

«ثلاثة أشياء لا ينبغى للعاقل أن ينساهنّ على كل حال:فناء الدنيا،و تصرّف الأحوال،و الآفات التى لا أمان لها» (2).

فهل كانت مثل هذه الأقوال دافعا لأصحابه على اعتزال الدنيا و ترك مهمات الحياة،أم أن الرجل منهم كان يدعو أهل زمانه و يتصدّى لنشر تعاليم دينه و هو محمّل

1- (1) الكواكب الدرية 95/1 و [1]صفة الصفوت.

2- (2) تحف العقول. [2]

بمهمات الإرشاد و الهداية، مقبل على الدنيا لأنها تربة يزرع بها الإنسان الخير بتمسكه بدينه، و نصرة عقيدة الإسلام، و تولى أهل بيت الرسالة الذين خصّهم اللّه بالإمامة، فجعلهم ينابيع هدى و تقوى، يغذوهم بالعلم، و يمدّهم بالسداد و التوفيق.

قال الإمام الصادق عليه السّلام: «إنّ اللّه تبارک و تعالى أعطى محمدا صلّى اللّه عليه و آله و سلّم شرائع نوح و إبراهيم و موسى و عيسى: التوحيد و الأخلاص و خلع الأنداد، و الفطرة الحنيفية السمحة لا رهبانية و لا سياحة، أحلّ فيها الطيبات، و حرّم فيها الخبائث، و وضع عنهم إصرهم و الأغلال التى كانت عليهم، ثم افترض عليه فيها الصلاة و الزكاة و الصيام و الحج و الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر و الحلال و الحرام و المواريث و الحدود و الفرائض و الجهاد فى سبيل اللّه و زاده الوضوء» (1).

و ما تراه الشيعة من خصائص أهل البيت لمنزلتهم الدينية و مكانتهم الروحية التى يعزّهم اللّه من أجلها، و يكلؤهم لحماية دينه، يدرجه المتصوّفة فى باب الكرامات الصوفية، فمثلا: موقف المنصور العباسى منه، و مسلک الإمام الصادق عليه السّلام فى اتقاء شره، و ننقله هنا حسب مصنفات رجالهم: عند ما حجّ المنصور سنة سبع و مائة، قدم المدينة، فقال للربيع: ابعث إلى جعفر بن محمد من يأتينا به متعبا، قتلنى اللّه إن لم أقتله. فتغافل الربيع عنه و تناساه، فأعاد عليه فى اليوم الثانى و أغلظ فى القول، فأرسل إليه الربيع. فلما حضر، قال له الربيع: يا أبا عبد اللّه، أذكر اللّه تعالى فإنه قد أرسل لک من لا يدفع شرّه إلا اللّه، و إنى أتخوّف عليک. فقال الإمام: «لا حول و لا قوة إلا باللّه العظيم». و لمّا دخل على المنصور، أغلظ له فى القول و قال: يا عدو اللّه، اتخذک أهل العراق إماما يجبون إليک زكاة أموالهم، و تلحد فى سلطانى، و تتبع لى الغوائل، قتلنى اللّه إن لم أقتلک. و أحضر الرجل الذى سعى به إلى المنصور، فقال له المنصور: أ حقا ما حكيت لى عن جعفر؟ فقال: نعم يا أمير المؤمنين. فقال الإمام الصادق: «استحلفه» فبادر الرجل و قال: و اللّه العظيم الذى لا إله إلا هو عالم الغيب و الشهادة الواحد الأحد، و أخذ يعدّد فى صفات اللّه تعالى. فقال الإمام: «يحلف بما أستحلفه» فقال: حلّفه بما تختار، فقال الإمام: «قل: برئت من حول اللّه و قوّته، و التجأت إلى حولى و قوتى لقد فعل جعفر كذا و كذا». فامتنع الرجل، فنظر إليه

1- (1) الفصول المهمة للحر العاملى، باب إباحة الطيبات. [1]

المنصور نظرة منكرة.فحلف بها.فما كان بأسرع من أن ضرب برجله الأرض و خرّ ميتا.فلما خرج الإمام لحقه الربيع و قال له:يا أبا عبد اللّه رأيتک تحرّک شفتيک، و كلما حركتها سكن غضب المنصور،بأى شىء كنت تحركها؟قال:«بدعاء جدّى الحسين:يا عدّتى عند شدّتى،و يا غوثى عند كربتى،احرسنى بعينک التى لا تنام، و اكنفنى بركنک الذى لا يرام،و ارحمنى بقدرتک علىّ،فلا أهلک و أنت رجائى،اللهم إنک أكبر و أجلّ و أقدر مما أخاف و أحذر،اللهم بک أدرأ فى نحره،و أستعيذ من شرّه، إنک على كل شىء قدير» (1).و يضيف المناوى إلى هذه الحادثة و هو يقول:و له كرامات كثيرة و مكاشفات شهيرة،منها ما أخرجه الطبرى من طريق ابن وهب قال:

سمعت الليث بن سعد يقول:حججت سنة ثلاث عشرة و مائة،فلما صليت العصر، رقيت أبا قبيس،فإذا رجل جالس يدعو فقال:«يا رب يا رب»حتى انقطع نفسه،ثم قال:«يا حى يا حى»حتى انقطع نفسه،ثم قال«إلهى إنى أشتهى العنب فأطعمنيه،و إن بردى قد خلق فاكسنى»قال الليث رضى اللّه عنه:فما تم كلامه حتى نظرت إلى سلّة مملوءة عنبا و ليس على الأرض يومئذ عنب،و إذا ببردين لم أر مثلهما،فأراد الأكل، فقلت:أنا شريکک لأنک دعوت و أنا أؤمن.قال«كل و لا تخبئ و لا تدّخر»ثم دفع إلىّ أحد البردين،فقلت:لى عنه غنى،فأتزر بأحدهما و ارتدى بالآخر،ثم أخذ الخلقين و نزل،فلقيه رجل فقال:أكسنى يا ابن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فدفعهما إليه.فقلت:من هذا؟ فقال:جعفر الصادق (2).و هى لا شک من وحى الخيال الذى يرجون به أضفاء الواقعية على ما ينسبونه إلى أوليائهم و رجالهم،لأن الحال الذى تصوّر الرواية فيه الإمام الصادق بعيد عن شواهد حاله المعروفة،أو رغباته التى تدور فى طاعة اللّه و مناجاته ربه فيما يهمّ المسلمين و صالح الأمة.فإذا ما قارنّا بين الأحداث و هى تروى بطرقنا، و صورتها و هى تفرّغ فى قوالب خاصة بهم،نجد أن الأمر فيما يتعلق بالإمام الصادق أو غيره من أئمتنا،يمثل لجوء الأئمة إلى اللّه فيما يهمّهم،و لواذهم بقوته و عظمته.فلما قتل داود بن على والى المدينة المعلى بن خنيس مولى الإمام الصادق الأثير عنده، هلک داود تلک الليلة،و أن الإمام الصادق قال فى دعائه:«اللهم إنى أسألک بنورک

1- (1) الشيخ الشبلخى،نور الأبصار [1]فى مناقب آل بيت النبى المختار، [2]بتصرف بسيط.و انظر الكواكب الدرية. [3]

2- (2) الكواكب الدرية. [4]

الذی لا یطفی،و بعزائمک التی لا تخفی،و بعزّک الذی لا ینقضی،و بنعمک التی لا تحصی،و بسلطانک الذی کففت به فرعون عن موسی»و دعا علی داود حتی سمعوه یقول:«الساعة الساعة»فما استتم دعاءه حتی سمعت الصیحة فی دار داود (1).

و قد قلنا فی الجزء الثانی أن المنصور اقتضت سیاسته عند اشتداد ملکه بأن یقضی علی الإمام الصادق،و اتخذ شتی الوسائل فی ذلک،فکم مرة یحضره للفتک به،و کانت سلامته فی تلک المواقف أعجوبة،لأن المنصور لا یتورّع عن إراقة الدماء،و لکن عنایة اللّه و عینه التی کانت ترعی الإمام دفعت عنه کیده فی کل مرة کان المنصور ینوی بها الفتک بالإمام الصادق.

یحدثنا علی بن مسیرة،قال:لما قدم أبو عبد اللّه علی أبی جعفر،أقام أبو جعفر مولی له علی رأسه،و قال له:إذا دخل جعفر بن محمد فأضرب عنقه.فلما دخل أبو عبد اللّه نظر إلی أبی جعفر و أسرّ شیئا فی نفسه ثم أظهره:«یا من یکفی خلقه کلهم و لا یکفیه أحد،اکفنی شرّ عبد اللّه بن علی»فسلّمه اللّه من شرّه و استجاب دعاءه (2).

و خلاصة القول،أن الإمام الصادق لم یکن یری التصوّف أو یقصد تأیید ما ظهر من أفکاره فی عصره،بل ما رأته الصوفیة و أوّلته و صبّته فی قوالب أفکارها،هی معالم سیرة طاهرة عرف بها أهل البیت فی کل عصر کقادة للأمة و هداة و أئمة.فلذلک لما جاء قوم-ممن یظهرون التزهّد،و یدعون إلی التقشّف-إلی الإمام الصادق،کما رواها الحسن بن علی بن شعبة الحرّانی الحلبی فی تحف العقول کان مما خاطبهم به الإمام الصادق علیه السّلام«هاتوا حججکم»فقالوا:إن حجّتنا من کتاب اللّه.قال لهم علیه السّلام:«فأدلوا بها فإنها أحق ما اتبع و عمل به»قالوا:یقول اللّه تبارک و تعالی یخبر عن قوم من أصحاب النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: وَ یُؤْثِرُونَ عَلی أَنْفُسِهِمْ وَ لَوْ کانَ بِهِمْ خَصاصَةٌ وَ مَنْ یُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِکَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ فمدح فعلهم.و قال فی موضع آخر: وَ یُطْعِمُونَ الطَّعامَ عَلی حُبِّهِ مِسْکِیناً وَ یَتِیماً وَ أَسِیراً فنحن نکتفی.فقال الإمام علیه السّلام:«أخبرونی أیها النفر أ لکم علم بناسخ القرآن من منسوخه،و محکمه من متشابهه الذی فی مثله ضلّ من ضلّ و هلک

1- (1) الکافی ج 2 ص 557 [1] ط 2.

2- (2) الکافی ج 2 ص 561. [2]

من هلک من هـذه الأمة؟»فقالوا:بعضه،فأما کلّه فلا.فقال لهم علیه السّلام:«من هاهنا أتیتم،و کذلک أحادیث رسول اللّه صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم أمـا ما ذکرتم من إخبار اللّه إیانا فی کتابه عن القوم الـذین أخبر عنهم بحسن فعالهم،فقـد کان مباحا جائزا و لـم یکونوا نهوا عنه،و ثوابهم منه علی اللّه،و ذلـک أن اللّه جـلّ و تقـدّس أمر بخلاف ما عملوا به،فصار أمره ناسـخا لفعلهم، و کان نهی اللّه تبارک و تعالی رحمة للمؤمنین لکی لا یضرّوا بأنفسهم و عیالاتهم،فهم الضعفة الصغار و الولدان،و الشیخ الفان،و العجوز الکبیرة الذین لا یصبرون علی الجوع، فإن تصدّقت برغیفی و لا رغیف لی غیره ضاعوا و هلکوا جوعا،فمن ثم قال رسول اللّه صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم:خمس تمرات أو خمس قرص أو دنانیر أو دراهم یملکها الإنسان و هو یریـد أن یمضـیها،فأفضـلها ما أنفقه الإنسان علی والدیه،ثم الثانیة علی نفسه و عیاله،ثم الثالثة علی القرابـة و إخوانه المؤمنین،ثم الرابعة علی جیرانه الفقراء،ثم الخامسة فی سبیل اللّه».ثم ساق علیه السّلام جملة من أحادیث جدّه النبی الأعظم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و قال بعد أن رواها:

«فهـذه أحادیث رسول اللّه صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم یصدّقها الکتاب،و الکتاب یصدّقه أهله من المؤمنین،ثم من قد علمتم فی فضـله و زهده سلمان و أبو ذر،فأما سلمان فکان إذا أخذ عطاءه،رفع منه قوته لسنته حتی یحضره عطاؤه من قابل،فقیل له:یا أبا عبد اللّه،أنت فی زهدک تصـنع هـذا و إنک لا تـدری لعلک تموت الیوم أو غـدا؟فکان جوابه أن قال:ما لکم لا ترجون لی البقاء کما خفتم علی الفناء،أو ما علمتم یا جهلـة أن النفس قـد تلتاث علی صاحبها إذا لم یکن لها من العیش ما تعتمد علیه،فإذا هی أحرزت معیشـتها اطمأنت.و أما أبو ذر فکانت له نویقات و شویهات یحلبها و یذبح منها إذا اشـتهی أهله اللحم،أو نزل به ضـیف،أو رأی بأهل الماء الذین هم معه خصاصة نحر لهم الجزور أو من الشاء علی قدر ما یذهب عنهم قرم اللحم(الشهوة إلی اللحم)فیقسّمه بینهم،و یأخذ کنصیب أحدهم لا یفضل علیهم، و من أزهد من هؤلاء و قـد قال فیهم رسول اللّه صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم ما قال،و لم یبلغ من أثرهما أن صارا لا یملکان شـیئا البتـة،کما تأمرون الناس بإلقاء أمتعتهم و شیئهم،و یؤثرون به علی أنفسهم و عیالاتهم...

أخبرونی لو کان الناس کلهم کما تریدون زهّادا لا حاجة لهم فی متاع غیرهم، فعلی من کان یتصدّق بکفارات الأیمان و النذور و الصدقات من فرض الزکاة،إذا کان الأمر علی ما تقولون لا ینبغی لأحـد أن یحبس شـیئا من عرض الدنیا إلا قدّمه و إن کان به خصاصة،فبئس ما ذهبتم إلیه،و حملتم الناس علیه من الجهل بکتاب اللّه و سنة

نبیه،و أحادیثه التی یصدّقها الکتاب المنزل،أو ردّکم إیاها بجهالتکم،و ترککم النظر فی غرائب القرآن من التفسیر بالناسخ من المنسوخ و المحکم و المتشابه و الأمر و النهی...» إلی أن یقول لهم علیه السّلام:

«فتأدبوا أیها النفر بآداب اللّه للمؤمنین،و اقتصروا علی أمر اللّه و نهیه،ودعوا عنکم ما اشتبه علیکم مما لا علم لکم به،و ردّوا العلم إلی أهله تؤجروا و تعذروا عند اللّه،و کونوا فی طلب الناسخ من القرآن من منسوخه،و محکمه من متشابهه،و ما أحلّ اللّه فیه ما حرّم،فإنه أقرب لکم من اللّه،و أبعد لکم من الجهل،و دعوا الجهالة لأهلها فإن أهل الجهل کثیر و أهل العلم قلیل،و قد قال اللّه عز و جل: وَ فَوْقَ کُلِّ ذِی عِلْمٍ عَلِیمٌ ».

و إذا کان المتصوّفة لا یتزحزحون عن الخرقة فی انتسابهم إلی الإمام علی علیه أفضل الصلاة و السلام،فلا بد أن تکون سیرة زهده و معالم ورعه من الأمور التی یتوهم بها المتصوفة أنهم یحجّون بها غیرهم حتی و إن کان ولده إمام الأمة و علم الهدی جعفر بن محمد الصادق علیهم السّلام فتکثر الروایات التی تدل علی ذلک،و قد أشرنا إلی أن ما رواه الصوفیة فی باب الکرامات یبعد عن صفته فی اللباس و أحواله فی المعاش،و من هذه الروایات:أن رجلا قال للإمام الصادق علیه السّلام:أصلحک اللّه، ذکرت أن علی بن أبی طالب کان یلبس الخشن،یلبس القمیص بأربعة دراهم و ما أشبه ذلک،و نری علیک اللباس الجید؟فقال له الإمام علیه السّلام:«إن علی بن أبی طالب صلوات اللّه علیه کان یلبس ذلک فی زمان لا ینکر،و لو لبس مثل ذلک الیوم لشهّر به فخیر لباس کل زمان لباس أهله».

و علی أی حال،فإن الإمام الصادق قد تزعّم الحرکة الدینیة و الفکریة فی زمنه، و قاد أنصار العلویین عبر عهدین،و استطاع أن یواجه مشکلة الحکام بما یخفّف عن العلویین أعباء التضحیات و سفک الدماء.

و کانت شخصیة المصلح التی تمثّلت به علیه السّلام قد اجتمعت فیها مؤهلات کبری و صفات عالیة،جعلته یحتلّ تلک المکانة السامیة و المنزلة المرموقة فی

المجتمع،و احتل موقع القيادة و الأعلمية؛فاتجهت إليه الأنظار،و قصدته الوفود من كل الأمصار.

و قد شهد فی حياته فترة من العصر الإسلامی اشتدت فيها التحولات السياسية و نمت فيها بذور التطورات الفكرية،و استطاع الإمام الصادق عليه السّلام أن يقف فی زحمة الأحداث و وسط تلک المعتركات على اختلاف صورها،و يترک آثاره فی كل جانب من حياة المجتمع،و يؤثر فی كل ناحية فكرية،فلا غرو أن تكون سيرته مصدر إلهام و معين علم.أما إذا تحكّم الهوى و غلبت الرغبات،فلا عجب أن تخرج شواهد سيرته و أحداث حياته عن إطارها الحقيقی،و تصرف أقواله عن مقاصدها الأصلية،و أن تبرز عبر فترات متفاوتة و متوالية آراء تبغی الإساءة،و تنفضح مقاصدها و أغراضها.

و لا ننسى أن نذكر من يضاف إلى هؤلاء من المستشرقين (1)الذين بثوا سموم دعاواهم و نظرياتهم بين أبناء أمتنا،حتى أن البعض منهم عند ما يرى الجوانب العظيمة فی شخصية الإمام الصادق،يحاول أن يرجعها إلى أصول يونانية.و هو قول نراه من السخف بحيث لا يستحق أی عناء فی الرد.

لقد كان لأبی عبد اللّه الإمام جعفر بن محمد الصادق من البيان و الحكمة ما جعله متميزا فی الفقه،و منهج الوعظ،و خطة الإصلاح.

سئل أبو حنيفة:من أفقه من رأيت؟قال:ما رأيت أفقه من جعفر بن محمد الصادق،لما أقدمه المنصور بعث إلیّ فقال:يا أبا حنيفة إن الناس قد فتنوا بجعفر بن محمد،فهيّئ له من المسائل الشداد.فهيأت له أربعين مسألة،ثم بعث إلى أبو جعفر -و هو بالحيرة-فأتيته،فدخلت عليه و جعفر بن محمد جالس عن يمينه،فلما بصرت به دخلتنی من الهيبة لجعفر بن محمد الصادق ما لم يدخلنی لأبی جعفر،فسلّمت عليه و أومأ إلیّ فجلست،ثم التفت إلیّ فقال:يا أبا حنيفة.ألق على أبی عبد اللّه من

1- (1) لم نخض فی افتراءات المستشرقين على شخصية جابر بن حيان أبی الكيمياء و تلميذ الإمام الصادق عليه السّلام و سلوكهم مختلف الوسائل للإساءة إلى أستاذ جابر و إمامه من تشكيک و نسبة إلى الصوفية أو الإسماعيلية أو إنكار وجوده و غيرها،و جميعها لم تؤثر على مكانة الإمام الصادق، و اتصال جار بمدرسته عليه السّلام و التخرّج على يديه.و من الجلیّ أنهم استعظموا أن يكون فی الإسلام رجل كجابر الذی أنكروا وجوده،فكيف لا- يهولهم أن يكون فی تاريخنا من هو أعظم من جابر و صاحب فكر تخرّج عليه العلماء.راجع الجزء الثانی من هذا الكتاب.

مسائلک.فجعلت ألقی علیه،فیجیبنی فیقول:«أنتم تقولون کـذا،و أهل المدینة یقولون کذا،و نحن نقول کذا»فربما تابعنا و ربما تابعهم،و ربما خالفنا جمیعا،حتی أتیت علی الأربعین مسألة ما أخلّ منها بمسألة.ثم قال أبو حنیفة رحمه اللّه:ألسنا روینا أن أعلم الناس أعلمهم باختلاف الناس (1).

و للإمـام الصـادق علیه السّـلام بنـاء بلاـغی فی المواعـظ یقـوم علی عوامـل من الفقه و التصویر و البیـان،لیجعـل منهـا وسـیلة للنفوس و الأفهام،کقوله علیه السّـلام:«التقوی علی ثلاثة أوجه:تقوی باللّه فی اللّه،و هو ترک الحلال فضـلا عن الشـبهة،و هو تقوی خاص الخالص.و تقوی من اللّه،و هو ترک الشبهات فضلا عن الحرام،و هو تقوی الخاص.

و تقوی من خوف النار و العقاب و هو ترک الحرام،و هو تقوی العام.و مثل التقوی کماء یجری فی نهر،و مثل هذه الطبقات الثلاث فی معنی التقوی کأشـجار مغروسة علی حافة ذلک النهر من کل لون و جنس،و کل شـجرة منها تسـتمص الماء من ذلک علی قدر جوهره و طعمه و لطافته و کثافته،ثم منافع الخلق من تلک الأشجار و الثمار علی قدرها و قیمتها».

فکان هذا البناء البلاغی مادة للادعاء بتفسـیرات صوفیة للقرآن تنسب إلی الإمام الصادق علیه السّـلام تولّی إشاعتها و الإقدام علی وضـعها الصوفی أبو عبد الرحمن السلمی (2)فی طبقاته،و فی حقائق التفسیر.

و من رجال الصوفیة الکبار ممن صـنّفهم السـلمی فی الطبقة الأولی کأبی یزید البسـطامی،من راح یتعلق بمناسـبة و بدون مناسبة بالاتصال بالإمام الصادق،و یزید فی ذلک و یبالغ،کما راح أبو یزید یأخذ أقوال الأئمة لیصوغها بألفاظه،و علی الأخص أقوال الإمام أمیر المؤمنین علیه السّلام منها:«عرفت اللّه باللّه،و عرفت ما دون اللّه بنور اللّه».

و سئل:ما علامة العارف؟فقال:أن لا یفتر عن ذکره،و لا یملّ من حقه،و لا یستأنس بغیره.

و هم أرادوا أن یقحموا الإمام الصادق فی حالاتهم،و یدّعون علیه زورا ما

1- (1) مناقب الإمام أبی حنیفة للموفق المکی ط 1 ص 173 ج 1.

2- (2) محمد بن الحسین بن موسی الأزدی النیسابوری المتوفی سنة 412.

درجوا عليه من الحلول أو التجسيم التى كان يغالى بها البسطامى،و من أخفّها قوله:

إنه ضرب الخيمة محاذاة العرش.و أنه يرى اللّه فى المنام،و أنه مرة جلس فى محرابه فمدّ رجله،فهتف به هاتف:من جالس الملوك ينبغى أن يجالسهم بحسن الأدب.

و حكى عنه أنه كان يقول:سبحانى سبحانى.

فيقولون أنه نقل عن الإمام جعفر الصادق عليه السّلام أنه خرّ مغشيا عليه و هو فى الصلاة،فسئل عن ذلک،فقال:«ما زلت أردد الآية حتى سمعتها من المتكلم بها» (1).

و إذا استعصى عليهم القول،ساقوه عن الإمام الصادق بنصه،ثم ألحقوا به إشارة أو بيانا يفيد ما يقصدون،كذكرهم قول الإمام الصادق:«لقد تجلّى اللّه تعالى لعباده فى كلامه،و لكن لا يبصرون».فيبيّنون بعد النصّ قصدهم بالقول:فيكون لكل آية مطلع من هذا الوجه،فالحدّ:حد الكلام،و المطلع:الترقى عن الكلام إلى شهود المتكلم!مما يوهم بالاعتقاد بالرؤية،و القول فى اللّه بمشابهته عز و جل للمخلوقات من حيث النظر إليه سبحانه كما ينظر الإنسان إلى جسم محدود،تعالى اللّه عن ذلک، و حاشا أئمة أهل البيت و أعمدة الهدى و نواب صاحب الرسالة من قول ذلک.

و السلمى من أكثرهم نقلا للأقوال التى تنسب للإمام الصادق عليه السّلام و هى تتراوح بين الإيغال فى الغوامض و الإشارات على طريقتهم المعهودة،و بين محاكاة الرموز،كذكره لقول الإمام عليه السّلام الحمد للّه:من حمده بصفاته كما وصف نفسه فقد حمد،لأن الحمد حاء و ميم و دال.فالحاء من الوحدانية و الميم من الملک و الدال من الديمومة.

و لقد حسم الإمام الصادق عليه السّلام هذه المسألة بقول يغلق أبواب التأويل و يفضح التقوّل و الادّعاء،إذ قال عليه السّلام:«و اللّه لقد تجلّى اللّه عز و جل لخلقه فى كلامه،و لكنهم لا يبصرون».و نجد أن التعقيب على النص و الإشارات القائمة عليه غريبة و أجنبية لا تؤثر فى عقيدة التنزيه و ردّ التجسيم و التشبيه.

كذلک فإنهم فى النصوص ينتزعون ما يوافق هواهم و مقاصدهم و لا يذكرون النص بكامله،و لا يوردون القول بتفاصيله،فقوله عليه السّلام الذى مرّ بنا و هو يردّد الآية جاء مبتورا،إذ حقيقة قوله:«ما زلت أردّد الآية على قلبى،حتى سمعتها من المتكلم

1- (1) السهروردى،عوارف المعارف.و [1]الإحياء للغزالى ج 3 ص 520. [2]

بها،فلم يثبت جسمى لمعاينة قدرته»أى أنه عليه السّلام كان يتدبّر فى وجوه القدرة و جوانب العظمة و دلالة الوجود.

و عن أبى بصير عن الإمام الصادق عليه السّلام قال:قلت له:أخبرنى عن اللّه عز و جل هل يراه المؤمنون يوم القيامة؟قال«نعم،و قد رأوه قبل يوم القيامة»فقلت:

متى؟قال عليه السّلام:«حين قال عز و جل لهم:أ لست بربكم قالوا:بلى»ثم سكت ساعة،ثم قال عليه السّلام:«و إن المؤمنين ليرونه فى الدنيا قبل يوم القيامة،أ لست تراه فى وقتك هذا؟»قال أبو بصير:فقلت له جعلت فداك،فأحدّث بهذا عنك؟ فقال عليه السّلام:«لا،فإنك إذا حدّثت به فأنكره منكر جاهل بمعنى ما تقوله،ثم قدّر أن ذلك تشبيه كفر،و ليست الرؤية بالقلب كالرؤية بالعين،تعالى اللّه عما يصفه المشبّهون و الملحدون».

كما أن الإمام الصادق كان يأمر أصحابه بمنع الزكاة عمن قال بالجسم.

إن التدقيق فى أقوال الإمام جعفر بن محمد الصادق،و الإمعان فى معرفة منهجه فى الوعظ و الإرشاد،يؤدى إلى معرفة ما يرمى إليه الإمام عليه السّلام من إصلاح الأمة و توجيه الرعية بسبل واضحة و ألفاظ جلية،تستمد من القرآن و السنة معانيها و مضامينها،فليس للخيال الذى يفلت من النص أثر فى جوامع كلمه عليه السّلام كما أنه عليه السّلام يتقيد بالنص و مناسبته أو علته،لكى لا يدع للآخرين مجالا يتذرعون به، فيتركون العنان لشطحاتهم و نزعاتهم تنال من أسباب التشريع أو تنحرف عن أغراض التنزيل ينتحلون ما يشاؤون.

و من حق الصوفية أن يثنوا على نظرية الإمام فى المعرفة،و أقواله فى التوبة و محاسبة النفس،لكن ليس من حقهم أن يجعلوا تراثه الفكرى مادة لبناء مصطلحاتهم و مباحثهم،فالإمام تناول كل ما يتعلق بسلوك المؤمن و علاقة المسلم بربه،و أوضح بمزيد من البيان كل ما يتعلّق بوجود المؤمن فى مجتمعه،و علاقة المسلم بإخوانه، فليس هناك من أحاديث الصادق عليه السّلام المأثورة ما يشبه فى صياغته و بنائه بيان الصوفية و صورهم و أخيلتهم،فمنها ما لدينا عن الشيخ الصدوق فى معانى الأخبار، أن الإمام الصادق قال فى قوله عز و جل: اِهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ قال عليه السّلام:

«يقول:أرشدنا إلى الصراط المستقيم،أرشدنا للزوم الطريق المؤدى إلى محبتك و المبلّغ إلى دينك،و المانع من أن نتّبع أهواءنا فنعطب،أو نأخذ بآرائنا فنهلك».

و لأن هـذا القول مشـهور لـدينا و صـحيح بسـنده لا يكاد يـذكر أو يأتى محرّفا،مما يـدل على أن أصل أقوالهم هو من نسـج الخيال و التأثر بشخصـية الإمام الصادق و عظيم منزلته فى عصـره.و كذلک غيره من تفاسير الإمام الصادق،و التى إما أن تكون بيانا لدلالة المعنى و شرحا للمفردات القرآنيـة التى تتعلّق بالقصـد و الإـرادة.أو شـرحا لمناسـبتها و حادثتها،كقوله عليه السّـلام فى قول اللّه عز و جل: لا تُضَارَّ والِـدَةٌ بِوَلَـدِها وَ لا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَـدِهِ كانت المراضع،مما تـدفع إحـداهنّ الرجل إذا أراد الجماع تقول:لا أدعک،إنى أخاف أن أحبل،فأقتل ولدى هذا الذى أرضعه.و كان الرجل تدعوه المرأة فيقول:إن أجامعک فيقتل ولدى.فيدعها و لا يجامعها،فنهى اللّه عز و جل عن ذلک،أن يضارّ الرجل المرأة،و المرأة الرجل».

و روى عنه عليه السّلام تفسيره لقوله تعالى: إِنَّ ناشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَ أَقْوَمُ قِيلاً قال عليه السّلام:«يعنى بقوله:و أقوم قيلا،قيام الرجل عن فراشه بين يدى اللّه عز و جل لا يريد به غيره».

و قال فى قوله تعالى: وَ بِالْأَسْحارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ «كانوا يستغفرون اللّه فى آخر الوتر، فى آخر الليل سبعين مرة».

أما غيرها كما فى مورد تفسـير قوله تعالى حكاية عن سليمان: يا أَيُّهَا النّاسُ عُلِّمْنا مَنْطِقَ الطَّيْرِ يورد المفسّرون رواية الإمام الصادق عن جدّه الإمام زين العابدين عليهما أفضل الصلاة و السّلام قال:«إذا صاح النسر قال:يا ابن آدم،عش ما عشت آخره الموت.

و إذا صاح العقاب قال:البعد من الناس أنس.و إذا صاح القنبر قال:إلهى العن مبغض محمد و آل محمد.و إذا صاح الخطّاف قال:الحمد للّه رب العالمين،و يمـد العالمين كما يمد القارئ (1)و قـد أوردوا عن ابن عبـاس أيضا أن القنبر يقول:اللهم العن مبغض محمـد و آل محمد (2).

و لا نعلّق على ذلک بشىء،لأننا فى مقام إظهار منزلة أهل البيت،و أنهم ينبوع الأحكام و مناط الإيمان.فلا غرابة أن ينهل الناس منهم فيحلو المشرب و يصفو إذا كان فى وعاء الولاية و الولاء،و فى صحف الدراية و المعرفة فيقر منها ما كان موافقا

1- (1) انظر تفسير الخازن و [1]تفسير البغوى/ [2]سورة النمل.

2- (2) المصدر نفسه ج 5 ص 111.

للأصول و متفقا مع بداهة العقول،و يغفل أو يهمل ما خالف الأحكام و ناقض العقول، و يشمل ذلک کل ما نسب إلی أهل البیت بغضّ النظر عن الصبغة و المذهب.

و لا نلتفت إلی من ینسب إلیه حفظ التفسیر و نسخته،و إنما یهمّنا الادّعاء بوجود تفسیر صوفی للآیات لدی الإمام الصادق علیه السّلام علی طریقة أقوال الصوفیة، و منهجهم فی تأویل النصوص و المغالاة فی الباطنیة،و إلا فلیخبرنا من یدّعی علما، متی أضاف الإمام الصادق کلمة آمین فی نهایة الفاتحة حتی تصبح من جملة ألفاظ و مفردات سورة الفاتحة التی یذکرها التفسیر فیقول:قال جعفر:[«آمین»أی قاصدین نحوک،و أنت أکرم من أن تخیّب قاصدا].لأن الشیعة فی صلاتهم لا یجوّزون قول آمین فی آخر الحمد و ذلک اتباعا لإمامهم جعفر الصادق و أهل بیت النبوّة.

فمن المسائل الفقهیة فی المذهب الجعفری،أن لا یصل الإمام و لا غیره قراءته «و لا الضالین»بآمین،لأن ذلک یجری مجری الزیادة فی القرآن مما لیس منه،و أن الإمام الصادق نهی عنها لأن الیهود و النصاری یقولون فی طقوس صلاتهم«آمین».

و قد تواترت عند غیرهم من المذاهب الإسلامیة حتی أصبحت و کأنها من التنزیل، و هو ما کان یخشاه أئمة الشیعة،و نبّهوا إلی عدم جواز ذکرها بعد قراءة الفاتحة لکی لا یسمعها الجاهل فیراها من التنزیل و هی لیست من التنزیل،فإن قال:«آمین»تأمینا علی ما تلاه الإمام،صرف القراءة إلی الدعاء الذی یؤمّن علیه سامعه،قال الإمام الصادق:

«إذا کنت خلف إمام فقرأ الحمد و فرغ من قراءتها،فقل أنت:الحمد للّه ربّ العالمین و لا تقل آمین».

و کل ما وصلنا من تفسیر عن الإمام الصادق فی مصادرنا المعتبرة،لا یتطرق إلیه التکلّف الواضح لتحصیل صرف المعانی إلی ما یمیل إلیه الصوفیة،و نری أن الانتحال واضح و صریح،سواء من جهة النصوص نفسها و ما تدل علیه المقارنة،أو من جهة المصادر التی هی أدنی من الصوفیة إلی الإمام الصادق و أوثق فی النقل عنه.

و من الملاحظة البسیطة للنصوص التی جاءت بطرقها الحسنة و إسنادها المعتبر یظهر الفرق بین النوعین.

ذکر الشیخ الطبرسی فی الاحتجاج:عن حفص بن غیاث (1)قال:شهدت

1- (1) النخعی توفی سنة 194 ه خرّج حدیثه أصحاب الصحاح.انظر ترجمته فی الجزء الأول من هذا الکتاب.

المسجد الحرام و ابن أبی العوجاء یسأل أبا عبد اللّه علیه السّلام عن قوله تعالی: كُلَّما نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْناهُمْ جُلُوداً غَيْرَها لِيَذُوقُوا الْعَذابَ ما ذنب الغیر؟قال:«ویحک هی هی، و هی غیرها».

قال:فمثّل لی ذلک من أمر الدنیا.

قال:«نعم،أ رأیت لو أن رجلا أخذ لبنة فکسرها،ثم ردّها فی ملبنها،فهی هی و هی غیرها».

و هذا فی مورد الاحتجاج علی الزنادقة.و ردّ أقوالهم و محاولاتهم فی الطعن و التشکیک،و هی تجمع الوضوح و عمق الدلالة.

أما الأقوال الأخری للإمام فی التفسیر،فهی تظهر أمورا لا یلتفت إلیها غیر من تمتّع بعلم خاص،و الغرض هنا إیضاح المنهج فی التفسیر،و بیان بنائه فی القول،لأن الأمر الأول یحتاج إلی بحث آخر.فقد سئل الإمام الصادق عن قول اللّه عز و جل فی قصة إبراهیم علیه السّلام: قالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا فَسْئَلُوهُمْ إِنْ كانُوا يَنْطِقُونَ قال:

«ما فعله کبیرهم،و ما کذب إبراهیم؟»قیل:و کیف ذلک؟فقال:«إنما قال إبراهیم:

فاسألوهم إن کانوا ینطقون،فإن نطقوا فکبیرهم فعل،و إن لم ینطقوا فکبیرهم لم یفعل شیئا،فما نطقوا،و ما کذب إبراهیم علیه السّلام».

و سئل عن قوله تعالی فی سورة یوسف: أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسارِقُونَ ؟قال:

«إنهم سرقوا یوسف من أبیه».

فسئل عن قول إبراهیم: فَنَظَرَ نَظْرَةً فِی النُّجُومِ. فَقالَ إِنِّی سَقِيمٌ .

قال:«ما کان إبراهیم سقیما،و ما کذب،إنما عنی سقیما فی دینه أی مرتادا».

و فی قوله تعالی: اِتَّقُوا اللّهَ حَقَّ تُقاتِهِ قال علیه السّلام:«یطاع فلا یعصی،و یذکر فلا ینسی،و یشکر فلا یکفر».إلی غیرها من الأقوال التی تفسّر الآیات،و جمیعها لیس فیها تعیین لحالات و أوضاع علی حسب الخیال،أو تشبیه و تقریب إلی حدّ التجسیم و التحدید بالجهة،تعالی اللّه سبحانه،و حاشا أئمتنا الأطهار.

و لنلاحظ ادّعاء التفسیر الصوفی فی آیة: هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللّهُ فِی ظُلَلٍ مِنَ الْغَمامِ و أن الإمام الصادق علیه السّلام قال:هل ینظرون إلا إقبال اللّه علیهم بالعصمة و التوفیق،فیکشف عنهم أستار الغفلة،فیشهدون برّه و لطفه،بل یشهدون البار اللطیف.

و فی تفسیر قوله تعالی: وَ طَهِّرْ بَيْتِیَ لِلطّائِفِينَ أنه علیه السّلام قال:طهّر نفسک عن

مخالطـة المخالفين،و الاختلاط بغير الحق،و القائمين مع فؤاد العارفين،المقيمين معه على بساط الأنس و الخدمة. وَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ :الأئمة السادة الذين رجعوا إلى البداية عن تناهى النهاية.

فجميعها من صور الأحوال لـديهم،و صـياغتها لا تختلف فى شـىء عن مقالات رجالهم،بل ما أبعدها عن أقوال الأئمة و مشاهد مناجاتهم للّه،أو تضـرّعهم بين يـديه بمـا لا يشـعر إلا بالعبوديـة و تنزيه الله تعالى عن كل مشابهـة بالمخلوقات،و التبرؤ عن أدنى ميل إلى الحلول أو الاتحاد أو التجسيم.

و لقـد أوضـحنا سابقا أن الإمام الصادق احتج على الصوفية فى أمهات أفكارهم و أسـس طريقتهم،و رأينا كيف ميّز موقفه،فقد يكون من بين الذين يدخلون عليه جماعة يرون فى الذى عليه الصوفية متفقا مع عبادته و نسكه و أجواء الانقطاع للّه التى يحسّونها فى كل حركة و إشارة.و الإمام الصادق يدعو إلى أن يكون الإيمان و العمل شعار حياة المسلم،فلا تحول عبادة و أداء فريضة عن مسئوليات الحياة العملية، و ينزوى الناس عن حياة مجتمعهم و هى الصعيد الحقيقى للدعوة و البناء.

و نحن شيعة أهل البيت عليهم السّلام و أصحاب المذهب الجعفرى نعلم أن هناك من بين كتبنا ما فيه بعض الأقوال التى تدرج فى التفسير أو تنسب إليه،و هى فى حقيقتها أقوال تنطلق من واقع ولاء يأخـذ الصورة التى تطلّ من وراء نص أو حـديث،و يرفعها بوجه تيارات العـداء و النصب التى لعبت فى عقول خـدم الحكام و عبيـد الخلفاء،و على قلة هذه الأقوال أو ندرتها،فما أعتبر منها لا يخرج عن باعث الولاء لأهل البيت و التعبّـد ببعض الصور المأثورة،كما قيل فى: مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيانِ (1).و ليس هنا موضع بحث ذلک،فهو يحتاج إلى سعة فى القول يوفى بـالغرض و يوضّـح الفرق بين قول لاـ يقصـد به إلا الصورة و ليس الحال و أسـباب النزول،و بين النحل أو الادعاء للاسـتفادة من موقع الإمـام الصـادق و منزلته العظيمـة فى النفوس،و إن كنّـا لا ننفى وجود الحب و الولاء لـدى أهل الصوفيـة و ميلهم إلى الإمام الصادق عليه السّلام كما لا تفوتنا

1- (1) و هى مشـهورة بسـندها عن ابن عباس،و لم يختص بإيرادها الشـيعة وحـدهم،بل علماء السـنة أيضا كالخوارزمى.و هى تشبيهات يساعد عليها اللفظ،و قد أدّت سياسات النّصب و حملات العداء لآل البيت إلى الاستشهاد بها و ذكرها محرّفة.

الإشارة إلى وجود محاولات لإدخال التعابير الصوفية فى العقائد الشيعية و فى مجال التفسير،و هى قائمة على أساس واضح من فهم عقائد أهل البيت و أحكامهم،لذلک فهى لا تتعدى استعارة الألفاظ الصوفية و استعمالها فى الكتابة بسبب من الاتجاه و السلوک فى الحياة،و الرغبة فى الزهد الظاهر و التقشّف الغالب،و هى محاولات تفسيرية متأخرة رأت فى اتجاهها و سلوکها ما يجمعها مع مفاهيم التصوّف و صيغه التعبيرية،و لكنها تعتمد عقائد الإمامية ركنا و أساسا يضبط استعمالها فى الكتابة مما ينسجم مع بيئات الزهد فى خراسان و المشرق،و التى قامت على أساس جهاد النفس و قمع هواها تزكية،لها لتكون أهلا لمعرفة اللّه و حمل رسالة الإسلام و أحكام المصطفى الهادى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و هو الأساس الذى يمكن أن يعزى إليه،و يوافق القبول روح الزهد فى الدنيا و العزوف عن ملذّاتها و زخرفها،و الإقبال على الآخرة بالطاعات و العمل الصالح من دون انقطاع عن وتيرة الحياة و مسلک العيش و البقاء فى صميم المجتمع.

و نورد بعض أقوال تفسير الإمام الصادق المعروفة بطرقها من مختلف المذاهب الإسلامية،كقوله عليه السّلام:«نحن حبل اللّه الذى قال اللّه فيه: وَ اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَ لا تَفَرَّقُوا ».لأن الإمام الصادق عليه السّلام تبوء موقع الإمامة فى ذلک المنعطف الحاسم الذى يشهد غليان الأطماع و تكالب الناس على الدنيا،و اتجاههم إلى الحكام، فكان عليه أن يواجه ذلک بنهجه فى توحيد صفوف الأمة و جمعها حول ما يمثّل روح القرآن و رسالة محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و يصون كيانها من سيوف الظلمة،و حرمات المؤمنين من تعدّيات الحكام و عقائد الأمة من انحرافات القصور.

لقد كان عليه السّلام يوجّه الناس فى ضوء الأحداث،و يوصى أصحابه بما عليهم أن يقوموا به،و قد يصل به الأمر إلى أن يطلب من أصحابه أن يعتزلوا لأمر يخشى منه إما من جور أو فساد كما فى وصيته لحفص بن غياث:«إن قدرت أن لا تخرج من بيتک فافعل،فإن عليک فى خروجک أن لا تغتاب و لا تكذب و لا تحسد و لا ترائى و لا تتصنّع».

و يجعل الناس على ثقة من زوال البلوى السياسية،و يتّخذ من سلاح الدين وقاية،إذ يقول لسفيان الثورى (1):«إذا أحزنک أمر من سلطان أو غيره فأكثر من:لا

1- (1) الكوفى.ثقة و حافظ و فقيه و حجة.توفى سنة 161 ه مرّت ترجمته فى الجزء الأول.

حول و لا قوة إلا باللّه.فإنها مفتاح الفرج» (1).

إن الإمـام الصادق يقيم سـلطته الروحيـة على نصوص من القرآن،يسوق تفسـيرها و يجهر بها،و قـد كانت من أعظم الأخطار التى هـددت الأمويين و العباسيين.

و لكنه عليه السّـلام يعلن مقاصد الشريعة،و يحرص على إظهار تفاسير النصوص التى تلاعب بها موالى الحكام و أذناب الولاة فى كل عهد و مرحلـة.دخل عليه الحسن بن صالـح بن حيّ فقـال له:يـا ابن رسول اللّه،مـا تقول فى قوله تعالى: أَطِيعُوا اللّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ من أولو الأمر الذين أمر اللّه بطاعتهم؟قال«العلماء»فلما خرجوا قال الحسن:ما صـنعنا شيئا،أ لا سألناه من هؤلاء العلماء؟فرجعوا إليه فسألوه،فقال:

«الأئمة منّا أهل البيت».

و نسـتظهر من تفسـير الإمام الصادق أن معتمده فى إمامته،و منزلته الروحية نص صريح يفصح عنه الإمام الصادق بكل ثقة و قدرة،و هو فى سلطانه الروحى هذا غير منازع،فقد أعجز السلطة حصر تأثيره أو حجزه عن الناس،و قد كان من متطلبات خطته فى الإصلاح و قيادته العمل ضد الجائرين.أن يكون منهجه واضـحا و قويا و سـهلا،حتى أصـبح من الممكن التفريق بين ما صدر عنه و ما أسند إليه من غير صحة تحت تأثير مختلف العوامل.و أقوال التفسـير المرويـة عن الإمام الصادق كثيرة جـدا، و لا نجـد فى ما نقل منها-خلا ما تقول الصوفيـة-بعـدا عن دلالات المعنى و الأغراض القرآنيـة كقوله عليه السّـلام فى تفسـير قول اللّه عز و جل: فَلِلّهِ الْحُجَّةُ الْبالِغَـةُ :«إن اللّه سـبحانه يقول للعبد يوم القيامـة:عبـدى أ كنت عالما؟فإن قال نعم،قال له سـبحانه:أ فلا عملت بما علمت؟و إن قال:كنت جاهلا،قال له سـبحانه:أ فلا تعلّمت حتى تعمل».

و أيضا ما فى الكافى:قال عليه السّـلام:«إذا أراد اللّه بعبد شرّا،فأذنب ذنبا اتبعه بنعمة،لينسيه الاستغفار.و يتمادى بها و هو قوله: سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ بالنعم عنـد المعاصـى»ثم قال عليه السّـلام فى الاسـتدراج:«هو العبد يذنب الذنب،فيملى له،و يجدّد له النعم،فيلهيه عن الاستغفار عن الذنوب،فهو مستدرج من حيث لا يعلم».

و خلاصـة القول،أن منحى التفسـير الصوفى يوافق رغبـات أصـحابه فى ظروفهـا كمـا يوافق اليوم أصـحاب النظريات التى تبحث عن أصول العقائد الحلولية و مصادرها

1- (1) حلية الأولياء ج 3 ص 193.

اليهودية و المسيحية،فتأتى نسبة التفسير الصوفى زورا ليتلقّفها الذين فى قلوبهم زيغ و أمراض،و يستمدّوا منها أقوالهم فى الطعن بعقائدنا و أئمتنا.و لو تحلّى البعض بيسير من قيم الأمانة،لما نازعوا الأمر أهله،و لأخذوا ببينة دامغة و شواهد ناصعة،إن لم يناد بها الشيعة فإن كتبهم تصرخ فى نفيها و دحضها،و إذا قبلنا من المتصوفة حب آل البيت،فلا يقبل أحد-يحرص على الإسلام و ملته-أن يمدّ الأعداء بما يشفى غليلهم و ضغينتهم،و يجعلوا من آل بيت النبى و عترته-و هم عدل الكتاب-غرضا لأعداء الدين و المستشرقين.

و يجمع هؤلاء ما انتحله المتصوّفة إلى أفانين الغلاة و أقوالهم،ليقيموا و همهم و آراءهم على أحاسيس و تخيّلات تبعد عن واقع الأئمة،فإن النظرة المتزنة و الاطلاع على تاريخ الشيعة و عقائدهم،يكشفان عن الفروق و الاختلافات،و إن التعميم بتأثير عدم التمييز ما هو إلا افتراء محض و خيانة للأمانة التاريخية التى يجب أن يتحلّى بها المختص إن كان من غير أهل الإسلام،و خيانة للأخوّة الدينية إن كان من أهل الشهادة.

فيجمعون نصوص المتصوّفة فى الحلول و الاتحاد إلى نصوص الفرق الأخرى التى يتجاهلون اختلافها فى العقائد عن الشيعة،و ينمّقون التّهم،و هى على هذا النمط الذى قدمناه كثيرة.و غيرها من الكتب الأخرى لغير المتصوفة من الفرق الأخرى، كالنصوص التى تجدها موضوعة على لسان الإمام الصادق عليه السّلام برواية المفضل الجعفى،نذكر منها هذه النبذة القصيرة:

قال المفضل:

أخبرنى يا مولاى عن قصة الحسين كيف اشتبه على الناس قتله و ذبحه كما اشتبه على من كان قبلهم فى قتل المسيح؟قال الصادق:يا مفضل،هذا سرّ من أسرار اللّه، أشكله اللّه على الناس،فعرفه خاصة أوليائه و عباده المؤمنون المختصّون من خلقه...

إن الإمام يدخل فى الأبدان طوعا و كرها،و يخرج منها إذا شاء طوعا و كرها،كما ينزع أحدكم جبته و قميصه بلا تكلف و لا ريب... (1).

إلى آخر ما فى الكتاب من أقوال باطنية نسجتها الخيالات،و أدّت إليها ظروف

1- (1) انظر:الهفت الشريف،تقديم و تحقيق مصطفى غالب ط بيروت 1964.

و أوضاع الحركة الباطنية التى سمحت لنفسها بالتغذى من الأوهام،و الابتعاد عن جوهر أفكار الإمام الصادق و تعاليم أهل البيت،فاستقبلها أعـداء الإسـلام ليحكموا على حركـة التشـيّع و ما قـدّمه الشـيعة عبر التاريخ من خلال نصوص الآخرين المختلفة،و لم يحكّموا العقل،بل غلبهم الحقـد و الهوى.غير أن من نواميس الحياة و سـنن الكون بأن يعمل العقل و يطلق،فإن عطل فى فترات،و فرضت مصالـح الحكام أن يقمع الشـيعة و تكبّل اتجاهات النظر و التـدبر،فليس للشذوذ عن النواميس و السـنن بقاء.و لذلک فمن حق كل نص ناقض العقل أن يردّ أو يهمل،أما التى تخالف الأصول فشأنها أخطر و أعظم.

و مما قـدمناه من تفاسـير مأثورة،و بطرقها المعتبرة توضـح لنا نهـج أهل البيت، و طريقة الإمام الصادق عليه السّـلام فى بيان وجوه النص و تفسـير القرآن،و إذا ما ورد استشـهاد بآى من القرآن فى موارد تعين أحوال الأئمـة من أهل البيت،فإن المعروف منها بأنها نزلت فى حق أهل البيت،و لـم يشـک فيهـا إلاـ من أفسـد قلبه المرض،و شوّه عقله الزيغ،فراح لا يأبه بأقوال الحق و بالإذعان للصـدق،حتى و إن كانت من غير الشـيعة،بل غلبه التعصّب و صرعه النّصب،فأدّى به جهله إلى الإنكار،و عناده إلى الافتعال،و ما نراه إلا من سلالة الذين ارتوى سيف الإمام على من دمائهم،و اختص بقطع أعناقهم،أو من الذين أعمى اللّه بصيرتهم؛فضلّوا و حبطت أعمالهم.

أمـا تلـک الجوانب من أحوال أهل البيت عليهم السّـلام التى تروى عن الإمام الصادق، فإنها تقوم على التشبيه و التمثيل الـذى لا يمنع منه مانع،سـيما و أن وجوه الشـبه ظاهرة، و أمارات التقارب واضحة،فإن من لـم يقرّ بولاية على بن أبى طالب أو ينصب له العداء،ليس أصدق من وصف حـاله بأنه:بطل عمله مثل الرماد الـذى تجىء الريـح فتحمله.و هو أخـذ من الآيـة الكريمـة: مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمالُهُمْ كَرَمادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ لتصوير الإحباط.

و صـفوة القول أن دعاوى الاتجاه الصوفى أو صـدور التفسـير الـذى يتعلق بهـذا الاتجاه ما هى إلا تأولات بعيدة بنيت على ظاهر اختص به أهـل بيت النبى الأطهار و هو فى حـدود واقعهم و حياتهم اليوميـة يقوم على أساس من القرآن و الإيمان،و لكن أصـحاب الاتجاه الصوفى أخذوا ظواهر التقشف و الزهد فى سـير أهل البيت و التى تعنى التهيؤ لأعباء المهمات الدينية،و الاستعداد لتحمّل الرسالة،و مواجهة الحياة على

أساس خصائص الوصايـة و خصال الإمامـة،لا الانقطاع و الاعتكاف الـذى تميّز به التيار الصوفى.و لا نـذهب بعيدا فنورد ما جاء فى بعض الروايات التى تنص على تبرؤ الإمام الصادق من دعاوى هذه الجماعة،إلا أنه عليه السّلام يشـير إلى أنه«سـيكون منهم أقوام يدّعون حبّنا،و يميلون إلينا،و يتشـبّهون بنا»و يحذّر من ذلک.و كذلک وردت بعض الروايات عن أبنائه الطيبين الأئمة الميامين و الأوصياء من بعده،إذ كان اتجـاه التصوّف يتّسع و هو يتّخـذ أوصـاف العزلـة،و يجعـل له مظاهر مفتعلـة،فيما كان الأئمـة من أهل البيت فى مراحل حياتهم يواجهون أوضـاع الأمـة،و يضـطلعون بأعباء الإمامـة و الحفاظ على بقاء نهـج الحق و الصـدق بطرق من الاتجاه إلى اللّه و الاعتماد على تسديـده و الانقطاع إليه،تجعلهم موضع خطر يتهدد عروش الطغاة.

أئمة المذاهب

اشارة

نعود مرة أخرى إلى الحديث عن أئمة المذاهب لاستكمال جوانب البحث عن حياتهم،و قبل البدء فى الحديث عن شخصيات أئمة المذاهب،لا بد من القول أن لكل شخصية من شخصياتهم مقوّماتها و ميزاتها الخاصة،و لكل منهم سيرة يهتزّ فيها الواقع و تنغمر فيها الحقائق أمام الغلوّ أو التطرّف فى العداء،شأنهم شأن كل ما يرتبط بفترات الانقسام و الاختلاف.لذا أصبح البحث عن حياتهم يتّصف بالصعوبة و التعقيد،و لكنا حاولنا أن نستخرج شخصياتهم فى إطارها العلمى و ظرفها التاريخى دون التأثر بموجات الغلو أو العداء.فهم فى مواقعهم و مراكزهم الحقيقية و الواقعية لم يكونوا بحاجة إلى مثل هذه التيارات لو أن عناصر الفتنة و العداء تعاملت مع سلوكهم و سيرهم و مآثرهم تعاملا نزيها ينبع من الحرص على الإسلام،و الالتزام بمبادئ الإخاء فى الدين،و المحافظة على وحدة الأمة.و لكنا رأينا فيما مرّ كيف عملت المصالح على دفع الأمة إلى أوضاع سيئة،فتفرّق الشمل،و تمزّق الجمع،و اختلطت الأغراض،و الحكام وراء ذلک يتابعهم أقوام غلب عليهم التعصّب و تحكّمت فيهم الأهواء.

و حقّا إنها لأحداث مؤسفة ينزف لها القلب دما،و قد حكم الدين و التاريخ أن الجهل آفة،و من الجهل أن يتحكّم العداء فى نفوس أهل الإسلام و دين الإخاء و الوحدة،و كلنا أمل أن تكون الاستجابة إلى داعى الحق و نبذ التعصّب و مظاهر الجهل الأخرى خاتمة لعهود الانقسام،و نهاية لأغراض الحكام.

و قبل البدء فى البحث عن أئمة المذاهب،لا بد من الإشارة إلى أمر مهم ما زلنا نعانى من نتائجه و آثاره،و قد رأينا فى موضوع البدع و الضلالات كيف أطلقت

و تبودلت من غير دليل واضح،و دون وجود سبب معلوم خروجه على السنة،أو ما علم من الدين بالضرورة،و من التفاصيل التى أوردناها علمنا أن المذاهب قد شملتها حرب الاتهامات،و كان الشيعة دون هذه المذاهب فى أتون الفرقة و الانقسام،يتألب الحكام ضدهم،و يوجّهون إليهم سيوفهم،و قد مرّت السنون و تعاقبت القرون،فإذا الحكام ما زالوا يرون فى الشيعة خطرا،و يؤلّبون عليهم المذاهب الأخرى،فيبذلون الأموال الطائلة،و يستأجرون الأقلام الرخصية.و لو لا مصالح المتحكّمين لرأينا أن الروح الإسلامية التى تجمعنا إلى إخواننا فى الدين و نعيشها فى حياتنا اليومية و فى المحافل و اللقاءات،و ما تقود إليه نظرة الحق و الإنصاف من علاقات تستهين ببعد الديار،و تنائى الأقطار هى الغالبة.و قد عشت علاقات من الودّ و الإخاء تجمعنى مع إخوان علماء و مختصين فى الأقطار الإسلامية،كان سبب تعارفنا هو تبادل الرأى و المناظرة الحرّة،و كم واجهت حروبا من الجهلة المتعصبين الذين تحجّروا و أغلقوا على أنفسهم منافذ الرأى و طريق التدبّر.

و لا نريد هنا أن نهمل ذكر الدوافع الأساسية على نهجنا فى العرض لأئمة المذاهب،فنحن نعترف بالمكانة العلمية و المنزلة التاريخية لكل منهم،و نجهد فى إبراز جوانب حياتهم،و التى تكشف لنا أن أئمة المذاهب بعلمهم و دينهم لم يباشروا بأنفسهم العداء للشيعة،و لم يسهموا فى إقامة العداء بين المذاهب،فإن حدث اختلاف فى الرأى فهو فى مجالس العلماء و أصحاب الشأن،يتم بتقاليد المناظرة و طرق الاحتجاج و يبقى الحكم للحق.كما أن أئمة المذاهب لم يعرف عنهم بعدّ يؤدى إلى العداء،بل كانوا ما بين متلق مباشرة عن الإمام الصادق،أو متعلم من مدرسة أهل البيت و فقههم،و ممن لا يتجاهلون مكانة الصادق و أهل بيته.و قد كان للحكام أثرهم فى اتجاهات الناس و مشاعرهم،فيما كان الإمام الصادق يتمتع بذلك السلطان الروحى،و يقوم بأعباء الرئاسة الدينية فى إمامته.

و رأينا بعد هذه الفترة من الانقطاع بين صدور آخر جزء من الكتاب و صدور الجزء السابع و الثامن،أن نجعل كل جزء يتضمّن بحثا عن حياة إمامين من أئمة المذاهب.

و نبدأ بالبحث عن حياة الإمام أبى حنيفة:

أبو حنيفة

اشارة

:

ذكرنا فى الجزء الأول من كتابنا بعضا من جوانب شخصية الإمام أبى حنيفة و عوامل شهرته،و يواجه الباحث فى ذلک أكثر أنواع الإعجاب و أشدّ أشكال العداء.فقد أطلق عليه أنصاره كل ما يخطر ببال من مفردات الإطراء و الإعجاب، فرفعوه إلى مستوى الأنبياء،و فوق درجة الأولياء.بينما هبط خصومه بشخصيته إلى مستوى الدون،فجرّدوه من كل فضيلة،و سلبوه كل ما يؤهله لمنزلة علمية أو مكانة دينية.

و نحن فى خضمّ هذه التناقضات،نستخلص شخصية النعمان كرئيس مذهب و صاحب مدرسة،لنكشف بعض العوامل التاريخية التى بقيت مهملة عن قصد،أو لم تتضح للكثيرين ممن تصدّوا للبحث،و لم يتمثلوا عناصر التاريخ أو يستوعبوا طبيعة الظرف.

و الإمام أبو حنيفة من أقرب الناس إلى أهل البيت،و أكثر أئمة المذاهب اتصالا بالإمام الصادق عليه السّلام و لقد انعكس ذلک بآثاره الواضحة فى أفكاره و مواقفه.

و ما كان الإمام أبو حنيفة ليظهر فى نظر البعض بعيدا عن أهل البيت لو لا نظرة المنصور السياسية.و محاولته التأثير فى مواقف أبى حنيفة و تصرّفاته،و الاستفادة من علمه فى التأثير على مكانة الإمام الصادق عليه السّلام و دفعه إلى خط العداء لآل البيت.

و لقد مرّ أبو حنيفة بظرف يقرب من المحنة،استطاع أن يجتازها،و أن يحمى نفسه من عذاب الحكام و لذعات عنفهم.

تمتع أبو حنيفة بشهرة تظافرت على قيامها عوامل كثيرة،أهمها قدرته فى القياس،و استطاع أن تكون له مدرسة متميزة هى التى خدمت شخصيته،و عملت على شهرته و رفع مكانته،فقد كان أبو حنيفة محور دائرة الخلافات بين أهل الرأى و أهل الحديث،إذ عرف بالرأى و كثرة القياس،مع قلة العمل بالحديث،و قد اشتهرت مدرسته بذلک،و لقيت معارضة شديدة من حملة العلم و أهل الحديث لاقترانها بالرأى و القياس.

و سار أصحاب أبى حنيفة على رأيه،و طبقوه فيما عرض لهم من مسائل.و قام

تلامذته بنصـرة مذهبه،و فی طليعتهم القاضی أبو يوسف،و بواسطته نالت المدرسة شهرة واسعة.إذ كانت بيده تولية القضاة،و هو بمنزلة وزير العدل فی العصر الحاضر فهو لا يولّی إلاّ من كان علی مذهبه.كما قام جماعة بنصرة المذهب و نشره،منهم:

زفر بن الهذيل،و محمد بن الحسن الشـيبانی،و الحسن بن زياد اللؤلؤی.و غير هؤلاء من أهل العراق الذين عرفوا بأهل الرأی كابن سماعة،و عافية القاضـی،و مطيع البلخی و بشر المريسی...و منشأ تسميتهم بأصحاب الرأی،هو أن عنايتهم بتحصيل وجه القياس و المعنی المستنبط من الأحكام و بناء الحوادث عليها،و ربما يقدّمون القياس الجلی علی أخبار الآحاد كما اشتهر عن أبی حنيفة أنه قال:

علمنا هذا رأی،و هو أحسن ما رأينا،فمن قدر علی غير ذلک فله ما رأی و لنا ما رأينا (1).

و جاء عن أبی يوسف أنه قال قبيل وفاته:كلما أفتيت به؛فقد رجعت عنه (2).

و جاء عن أبی حنيفة أنه قال لأبی يوسف:ويحک يا يعقوب لا تكتب كلما تسمع منی،فإنی قد أری الرأی اليوم و أتركه غدا،و أری الرأی غدا و أتركه بعد غد (3).

و قـد اشـتهر عن أبی حنيفة قوله:لا يحلّ لمن يفتی من كتبی أن يفتی حتی يعلم من أين قلت (4).و فی رواية:حرام علی من لا يعرف دليلی أن يفتی بكلامی.و قد زيد فی رواية قوله:فإننا بشر نقول القول اليوم و نرجع عنه غدا.

و لقد تشدد أبو حنيفة فی الحديث،و كان لذلک أسـبابه،إذ إن تلک الفترة قد شـهدت موجات الوضع فی الحديث،و لكی يضـمن أصـحاب المسائـل القبول،كانت فتاواهم تساق إلی الناس بصـيغ الحـديث بالنص أو بالمعنی أو بغيرها من الطرق التی شاعت،فأصـبح الكـذب علی الرسول الأعظم سهلا و تكسّب به لإرضاء الحكام، و وضع الأحاديث وفق أهوائهم حتی بلغ الأمر حدا يثير سخرية الحكام،كما يثير

1- (1) فريد وجدی،دائرة المعارف ج 4 ص 156.

2- (2) شيخ الأمة لسيد الأهل ص 138.

3- (3) الاجتهاد و المجتهدون ص 102.

4- (4) الانتقاء لابن عبد البر ص 145.

الأذی فی نفوس المؤمنین (1).و کان أبو حنیفة لا یری أن یروی الحدیث إلا ما حفظه عن الذی سـمعه منه،و هی روایة أبو یوسف.أما روایة أبو حمزة فبعضـها:سمعت أبا حنیفة یقول:إذا جاء الحدیث الصحیح الإسناد عن النبی علیه السّلام أخذنا به،و إذا جاء عن الصحابة تخیرنا،و إن جاء عن التابعین زاحمناهم و لم نخرج عن قولهم.و فی أخری:و ما جاءنا عن أصـحابه رحمهم اللّه اخترنا منه و لم نخرج عن قولهم،و ما جاء عن التابعین فهم رجال و نحن رجال (2).و الأخیرة أقرب إلی حقیقة موقف أبی حنیفة و أخذه بالرأی.

و قـد توافر لمدرسة أبی حنیفة أنصار عملوا بالرأی و أخذوا بالقیاس،و أعلنوا اختلافهم عن أهل الحدیث.فاشـتهرت مدرسة الرأی،و ارتبطت باسمه و تزعّم تیارها.

و لأن تلامذة أبی حنیفة و أنصاره کانوا من النشاط و الفعالیة بالدرجة الملحوظة؛فقد استقرت مدرسة الرأی و انتشرت فی العراق.

و هناک خلاف حول الشـخص الـذی أرسـی دعائم مدرسة الرأی و أعلی بنیانها؟ هل هو إبراهیم،أم حمّاد؟و یذهب بعضـهم إلی القول بأن مؤسسها هو الخلیفة عمر بن الخطاب.فیقول أحمد أمین:و کان حامل لواء هذه المدرسة عمر بن الخطاب،و أشهر من سار علی طریقته عبد اللّه بن مسعود فی العراق،فکان یتعشّق عمر و یتعجب بآرائه.و جاء فی أعلام الموقعین:أن ابن مسعود کان لا یکاد یخالف عمرا فی شیء من مذاهبه.

و قـد انطوی عهد عمر إلی أبی موسـی عبد اللّه بن قیس الأشـعری علی إشارات تحضّ علی القیاس عند ما قال:الفهم الفهم فیما تلجلج فی صدرک مما لیس فی کتاب و لا سنّة،ثم أعرف الأشباه و الأمثال،و قس الأمور عند ذلک،و أعمد إلی أشبهها بالحق.

1- (1) نضـرب مثلاـ بـأبی البختری و غیره ممن جـاء بعـده فی مسألـة إقبال خلفاء بنی العباس علی تطییر الحمام. دخل أبو البحتری علی هارون و هو یطیر الحمام،فقال له:تحفظ فی هذا شـیئا؟فقال:حدثنی هشام بن عروة عن أبیه عن عائشة:أن النبی صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم کان یطیر الحمام.و یأتی غیره فیضع بلا حیاء حدیثا علی لسان النبی الأعظم بإضافة«جناح»إلی حدیثه صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم:لا سبق إلا فی خف أو حافر.لیرضی خلیفة آخر من بنی العباس.

2- (2) الانتقاء لابن عبد البر.

و مع أن صحة هذا العهد موضع نظر،إلاـ أنه من أكبر دعائم القول بقدم الرأى عند القائلين به،رغم أن الطرف الآخر ينسب إلى عمر قولا يعارضه.

و قال الشعبى:كان عبد اللّه لا يقنت،و لو قنت عمر لقنت عبد اللّه (1)و يظهر من هذا أن عمر كان يعمل بالرأى،و هو مؤسس هذه المدرسة،و سار عبد اللّه بن مسعود على منهجه،فكانت فتواه هى فتوى عمر بن الخطاب،فالرأى متحد.

أخذ أبو حنيفة العلم عن حمّاد بن سليمان،و أخذ حمّاد عن إبراهيم النخعى، و أخذ إبراهيم عن علقمة بن قيس،و علقمة هو تلميذ ابن مسعود،فكان إبراهيم لا يعدل بقول عمر و ابن مسعود،و إذا اجتمعا كان قول عبد اللّه أعجب لأنه كان ألطف.

و من هذا اشتهرت مدرسة الرأى فى العراق لأن عبد اللّه بن مسعود كان قد أقام فى الكوفة مدة من الزمن،و كان يفتى الناس و يحدّثهم.

قال أبو عمر الشيبانى:كنت أجلس إلى ابن مسعود حولا لا يقول:قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فإذا قالها استقلّته الرعدة (2).

فإذا كان إبراهيم ألزم لأقوال ابن مسعود،فأبو حنيفة كان يلازم أقوال إبراهيم و أقرانه،و لا يجاوز إلا ما شاء اللّه،و كان عظيم الشأن فى التخريج على مذهبه،دقيق النظر فى وجوه التخريجات.و إذا أردت أن تعلم حقيقة ذلك،فلخّص أقوال إبراهيم من كتاب الآثار لمحمد،و جامع عبد الرزاق،و مصنّف أبى بكر بن أبى شيبة،ثم قايسه بمذهبه؛تجده لا يفارق تلك المحجة إلا فى مواضع يسيرة،و هو فى تلك الموارد اليسيرة لا يخرج عمّا ذهب إليه فقهاء الكوفة (3).

و لقد أعلنت المدينة غضبها على أهل الرأى و بالأخص الكوفة و العراق بصورة عامة،و من شدّة الصراع و تفاقم الخلافات،تحامل حملة الآثار على أهل العراق.

فقالوا بعدم علمهم بالحديث،الأمر الذى ألجأهم إلى التمسّک بالرأى و العمل بالقياس.

1- (1) فجر الإسلام ص 240 ط 7.

2- (2) نفس المصدر السابق.

3- (3) ولى اللّه دهلوى،رسالة الإنصاف.و دائرة المعارف،فريد وجدى ج 3 ص 206.

و قد صدرت عن مالک بن أنس ألفاظ تعبّر عن عمق التأثر،فقد قیل عنه أنه قال:أنزلوهم-أی العراقیین-منزلة أهل الکتاب،لا تصدّقوهم و لا تکذّبوهم، و قولوا آمنا بالذی أنزل إلینا و أنزل إلیکم،و إلهنا و إلهکم واحد (1).

و دخل علیه محمد بن الحسن الشیبانی فسمعه یقول هذه المقالة،ثم رفع رأسه فقال للشیبانی:یا أبا عبد اللّه،أکره أن تکون غیبة،کذلک أدرکت أصحابنا یقولون.

و کان مالک إذا نظر إلی أصحاب الرأی من العراقیین یقرأ: تَعْرِفُ فِی وُجُوهِ الَّذِینَ کَفَرُوا الْمُنْکَرَ (2).

و کان یسمی الکوفة:دار الضرب.یعنی أنها تضع الأحادیث و تخرجها کما تخرج دار الضرب الدراهم و الدنانیر.

و قال عطاء لأبی حنیفة:من أین أنت؟ قال:من أهل الکوفة.

قال:أنت من أهل القریة الذین فرّقوا دینهم و کانوا شیعا؟و إن صدور أمثال هذه الأقوال من رجل کمالک بن أنس-الشخصیة الدینیة و السیاسیة فی آن واحد-لها أثرها،و إن شیوع أشیاء کهذه لها نتائجها الخطیرة التی تستلزم حشد الجهود و تعبئة القوی لردّ خطر ما ینجم من ورائها من تفاعلات.فکانت مقابلات حادة و مواجهات تتصف بالعنف و الخروج عن قواعد المساجلات العلمیة.

و قد کانت شهرة أصحاب الرأی سریعة،استطاعت أن تکون بإزاء مدرسة الحدیث بتاریخها و مواقعها،و لما کان أبو حنیفة ینتقی أصحابه و یختارهم فیتعاهدهم بالرعایة و العنایة کاختیاره لأبی یوسف و رعایته للآخرین،لذا فقد تأثروا به غایة التأثّر، و أصبحوا متفرغین لتطبیق منحی الرأی و الدفاع عنه.

کما کان أبو حنیفة یشجّع الجدل بین تلامذته،و یترکهم یتبادلون الأقوال و الحجج،و قد یستغرق ذلک وقتا طویلا فی جلسة واحدة و بإشراف أبی حنیفة.حتی نبغ تلامذته،و کانوا من أعمدة القیاس،و أصبحت صورة حلقة أبی حنیفة فی أذهان الناس تتکون من أجزاء بعضها یکمل بعضا،حتی قال وکیع لرجل قال أخطأ أبو

1- (1) ابن عبد البر،جامع بیان العلم و فضله ج 2 ص 157. [1]

2- (2) ضحی الإسلام ج 2 ص 152.

حنيفة:كيف يقدر أبو حنيفة أن يخطئ و معه مثل أبى يوسف و زفر فى قياسهما؟ (1).

و لكن الأمر فى المدينة غيره فى العراق،فقد كانت الصورة تظهر أبا حنيفة و هو يقود حركة القياس.فيروى عن الشافعى رحمه اللّه أنه قال:قيل لمالک بن أنس:هل رأيت أبا حنيفة؟قال:نعم،رأيت رجلا لو كلمک فى هذه السارية أن يجعلها ذهبا لقام بحجته.

لقد بلغ أبو حنيفة من حضور الذهن و توقّد الذّكاء مستوى جعله يتغلب على منافسيه بطرقه و قياسه،كابن أبى ليلى،الذى كان اختلافه معه فى المسائل مادة كاملة ضمها مصنف كامل.و منها عند ما اجتمع أبو حنيفة و ابن أبى ليلى عند أبى جعفر المنصور فسأل ابن أبى ليلى أبا حنيفة عمن باع ثوبا و تبرأ من العيب؟فقال:إذا برأه فقد برىء.و قال ابن أبى ليلى:لا يبرأ حتى يضع يده على العيب.فلم يزل يدخل عليه أبو حنيفة حتى قال:لو أن امرأة[و ذكر ما يعنى أنها من العباسيين]باعت عبدا و على رأس ذكره برص،أ يجب عليها أن تضع يدها على رأس ذكره؟فقال ابن أبى ليلى:يجب عليها ذلک.فغضب المنصور عند ذلک و أهانه،فظفر به أبو حنيفة.

لقد كان أبو حنيفة محور دائرة الخلافات،و الهدف الذى يوجه إليه الطعن.و قد حمل العلماء على أهل الرأى حملة شعواء،و أورد أهل الحديث روايات عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى ذم الرأى،منها:

«إن اللّه لا ينزع العلم من الناس بعد إذ أعطاهموه انتزاعا،و لكن ينتزعه منهم مع قبض العلماء بعلمهم،فيبقى أناس جهّال يستفتون برأيهم فيضلّون و يضلّون» (2).

و حدثوا عنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«تفترق أمتى على بضع و سبعين فرقة،أعظمها فتنة قوم يقيسون الدين برأيهم،يحرّمون به ما أحلّ اللّه،و يحلّون به ما حرّم اللّه» (3)و أوردوا عن عمر بن الخطاب قوله:إياكم و أصحاب الرأى،فإنهم أعداء السنن،أعيتهم الأحاديث أن يحفظوها؛فقالوا بالرأى،فأخلّوا و أضلّوا.

1- (1) تاريخ بغداد ج 14 ص 247. [1]

2- (2) أخرجه الحافظ ابن عبد البر بطريق عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص.

3- (3) أخرجه الحافظ ابن عبد البر بطريق عن ابن مالک الأشجعى.

إلى كثير من الأحـاديث التى أوردوهـا،و الأـقوال التى نقلوهـا عن الصـحابة و التابعين و أتباعهم.و اشـتد النزاع و تحوّل إلى تعصّب قبلى و تحزّب إقليمى،و أصبح من المحتّم على أصحاب الرأى و على العراقيين و الكوفة بالأخص أن تردّ على تلك الهجمات،و أن تنتصر لوطنها و آرائها.

و على هـذا النحو اسـتمر الوضع من تربّص كـل فريق بالآخر،فتنابزوا و تقابلوا بانتقاص البعض للبعض،و عيّروا أهل الكوفـة بالنبيـذ،و أهل المدينة بسماع الغناء.

و اشتدّت عصبية كل قوم لبلدهم،و كان للأدب قسط وافر فى هذا الصراع فى عصر أبى حنيفة و بعده.

قال عمار الكلبى يذم أهل الحديث:

إن الرواة على جهل بما حملوا مثل الجمال عليها يحمل الودع

لا الودع ينفعه حمل الجمال له و لا الجمال بحمل الودع تنتفع

و يقول بعضهم:

يحمل أسفارا له و ما درى إن كان ما فيها صوابا أو خطأ

إن سئلوا قالوا كذا روينا ما ان كذبناه و لا اعتدينا

و قال بكر بن حماد قصيدة منها:

و كل شياطين العباد ضعيفة و شيطان أصحاب الحديث مريد

و أثارت هذه القصيدة حميّة كثير من الشعراء المنتصرين لأهل الحديث، فعارضوها بعدة قصائد كابن غياث عبد السلام بن يزيد إذ يقول:

تعرّضت يا بكر بن حمّاد حطة بأمثالها فى الناس شاب وليد

فذمّک هذا فى المقال مذمّم و ذمّک هذا فى الفعال حميد

و هى قصيدة طويلة (1).

و منها قول أحمد بن عصفور يعارض ابن حمّاد:

1- (1) جامع بيان العلم و فضله ج 2 ص 126. [1]

أيا قادحا فى العلم زند عمائه رويدا بما تبدى به و تعيد

جعلت شياطين الحديث مريدة ألا إن شيطان الخلال مريد

و جرّحت بالتكذيب من كان صادقا فقولك مردود و أنت عنيد

و مهما كان الشعر فى معركة الرأى و الحديث فإنه لا يبلغ فى تأثيره و فعله ما يصدره أصحاب الحديث أنفسهم و الذين يتصدّون للردّ على أهل العراق و إعلان سخطهم على أبى حنيفة لأنه يتزعم حركة القياس بإزائهم.

و قد أجحف خصومه فى نقده و التحامل عليه و الطعن فى معتقده حتى قالوا عنه:إنه استتيب من الكفر مرتين (1).و إنه إذا جاء الحديث عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فيخالفه إلى غيره (2)و قد خالف مائتى حديث عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم (3).

و قد حددوا كفره بالقرآن بآيتين،كما ورد عن شريک أنه قال:كفر أبو حنيفة بآيتين من كتاب اللّه... (4).

و قد جعلوا وجوده ضررا على الإسلام،و بقاءه هدما للدين و فتكا بالمسلمين، لأنه يهدم الإسلام عروة عروة،و أنه شر مولود ولد فى الإسلام (5).

و قد أورد الخطيب فى تاريخه،و ابن عبد البرّ فى انتقائه أقوالا كثيرة أطلقها خصومه،و شاعت فى أندية المجتمع،حتى بلغت إلى المنامات و الأطياف،إذ كان لها سوق رائج فى عصور التطاحن المذهبى،و لا أرى داعيا لاستعراض تلک الأقوال مناقشا لها أو مؤيدا.و سنعاود بحث أمرها فى الجزء الثامن.

و على أى حال،فقد دلنا التتبع على أن شخصية أبى حنيفة لمعت بعد أن رسخت قدم تلامذته فى الدولة،و أصبح لهم النفوذ التام عند ما ارتبطوا ارتباطا وثيقا بسياستها،و كان فيهم القضاة و ذوو النفوذ،فانتشر المذهب المنسوب إليه،و اتسعت مدرسته بقوة تلامذته،و قد أدت عوامل التضارب و شدة الخلافات إلى إيجاد جو

1- (1) الانتقاء لابن عبد البر ص 150.

2- (2) مختلف تأويل،الحديث ص 63.

3- (3) ابن عبد البر،الانتقاء ص 150.

4- (4) الخطيب،تاريخ بغداد ج 13 ص 372. [1]

5- (5) الانتقاء ص 150.

مضطرب حمل بعض الاتباع على أن يضعوا الأخبار،و يختلفوا الحكايات.بل وضعوا كتبا مطولة لإعلاء شأنه.مما أدى بالباحث عنه أن يجد الصعوبة فى بحثه عن الحقيقة الكامنة وراء أكداس من الدعايات.فإذا أردنا الوقوف على حقيقة ما يدّعى له من سعة العلم،و أن الناس عيال عليه،و إنه وضع سبعين ألف مسألة فى الفقه،فإنّا نجد أقرانه و معاصريه لم يعرفوا عنه ذلک،كما أن تلامذته و المنتسبين لمدرسته قد خالفوه فى كثير من الآراء،و ردّوا الكثير من أقواله.و أقوالهم فى جميع الأبواب الفقهية إلى جنب أقواله.فمرة يتّفقون معه،و مرة يخالفونه.و قد بيّنا منزلته فى الحديث،و ما قالوه عنه:بأنه لم يكن صاحب حديث بل قيّاسا.و أنه لم يعرف إلا سبعة أحاديث.و قد وجدنا أكثر الرواة و المحدّثين لم يرووا عنه،و ضعّفه البخارى (1)و ترک حديثه،و كذلک بقية أصحاب الصحاح الستة.و قال يحيى بن معين:لم يكن أبو حنيفة صاحب حديث.و قد مرّت الأقوال فى ذلک.و نحن لا نذهب لتأييدها، لأنها كانت مصوغة بقالب التحامل عليه.

لقد كان أبو حنيفة حريصا على طلب العلم،عرف بقدرته على المناظرة و ذكائه و نباهته،و كان محمد يختلف إلى الإمام الصادق عليه السّلام و يسأله عن كثير من المسائل مع أدب و احترام،و لا يخاطبه إلا بقوله:جعلت فداک يا ابن رسول اللّه.و قد روى أبو حنيفة عن الإمام الصادق.و كان الإمام الصادق ينهاه عن القياس،و يشدّد الإنكار عليه و يقول:«بلغنى أنک تقيس الدين برأيک،لا تفعل فإن أول من قاس إبليس».

و قد علم الإمام الصادق صفات أبى حنيفة و قدراته،فكان عليه السّلام يوجّه إليه المسائل التى تتفق مع ما عرف عن أبى حنيفة من الذكاء.قال له الإمام عليه السّلام:«يا أبا حنيفة ما تقول فى محرم كسر رباعية ظبى؟قال:يا ابن رسول اللّه ما أعلم فيه.فقال:

أنت تتداهى و لا تعلم أن الظبى لا يكون له رباعية،و هو ثنى أبدا» (2).

1- (1) كان طعن البخارى فى أبى حنيفة فى كتابه الضعفاء لا يقل نقمة و سخطا عن منهج الخطيب البغدادى على قلة العبارة و موجز القول.و قد كان النسائى فى كتابه الموسوم بالضعفاء و المتروكين أقل سخطا.

2- (2) المصايد و المطارد لكشاجم ص 202.و وفيات الأعيان ج 1 ص 212.و [1]مرآة الجنان ج 1 ص 305.

و يظهر لنا تاريخ حياة أبى حنيفة،أنه كان من الشخصيات المرموقة فى عصره، و كانت له حلقة درس يرتادها جماعة و فى طليعتهم تلميذه الأول أبو يوسف.

و أصبحوا من بعده علماء و لهم أراؤهم الخاصة و أقوالهم المنفردة عن قوله،و لأن أبا حنيفة قد عرف بالقياس؛فقد نقم عليه علماء عصره،و شدّدوا عليه النكير.فلم يخضع لواحد منهم إلاّ للإمام الصادق عليه السّلام كما يستدل من قوله المشهور:لو لا السنتان لهلك النعمان.و المراد بالسنتين هما اللتان قضاهما فى المدينة مع الإمام الصادق عليه السّلام فى آخر أيامه،و أخذ عنه العلم،و قد نهاه عن استعمال القياس و قال له:«إنه أول من قاس إبليس»فى قصة طويلة.و مما يدلّ من بعض آثاره أنه ترك القياس،إلاّ أن مدرسته ظلّت تأخذ به،و كما اشتهرت مدرسة أبى حنيفة بالقياس، فقد اشتهرت باستعمال الحيل الشرعية،و قد نسبوا له كتاب الحيل الشرعية.و من المستحسن الإشارة لذلك بموجز من البيان لتظهر لنا حقيقة لها أهميتها فى تاريخ حياة الإمام أبى حنيفة.فهل كان أبو حنيفة يستعمل الحيل،و أنه وضع فى ذلك كتابا تداوله الناس،أم أنها نسبة لا أصل لها؟.

الحيلة الشرعية

:

الحيلة مأخوذة من الاحتيال،و هى الحذق و جودة النظر،و القدرة على التصرّف.

و أكثر استعمالها فيما فى تعاطيه خبث،و قد تستعمل بما فيه حكمة،و لقد غلب فى العرف اللغوى إطلاقها على ما يكون من الطرق الخفية التى يتوصل بها إلى حصول الغرض،بحيث لا يتفطّن له إلا بنوع من الذكاء و الفطنة،و تنصرف أيضا إلى الطرق الخفية التى يتوصل بها إلى الغرض الممنوع منه شرعا أو عقلا،أو عادة.و يقصد بها الحيل التى تستحلّ بها المحارم،و أطلقها الفقهاء على المخارج من المضايق بوجه شرعى لمن ابتلى بحادثة دينية.و الحيلة ترتبط بالرأى،و حيث كانت مدرسة أبى حنيفة معروفة بالرأى،فقد عرفت هذه المدرسة بالحيل الشرعية.و قد اشتهر عن أحمد بن حنبل أنه قال:هذه الحيل التى وضعها أبو حنيفة و أصحابه،عمدوا إلى السنن فاحتالوا فى نقضها،أتوا إلى الذى قيل إنه حرام احتالوا فيه حتى أحلّوه.

و يظهر من كلمة الإمام أحمد هذه أنهم-أى أصحاب أبى حنيفة-استعملوا الحيل غير الجائزة و الممنوعة شرعا،و قد اهتم المذهب الحنفى من بين المذاهب

بالحيل،فقـد ألفوا كتبا فی الحيلة،و قد نسب لأبی يوسف كتاب فی الحيل (1)و لكنه مفقود الآن،و كذلک لمحمد بن الحسن الشيبانی كتابا فی الحيل رواه عنه معاصـره أحمد بن حفص البخاری.و رواه أيضا موسـی بن سليمان الجوزجانی المتوفی سنة 244 ه كتابا ألّف أحمد بن عمر الشيبانی الخصّاف-أحد قضاة الدولة المتوفی سنة 261 ه-كتابا فی الحيل،و كثير من الكتب فی هذا الموضوع نسبت إلی الحنفية.

أما أبو حنيفة،فلا يعلم بالضبط أن له كتابا فی الحيل كان أبو حنيفة يستعمله، و قد نسب لابن المبارک أنه قال:من استعمل كتاب الحيل لأبی حنيفة أو أفتی بما فيه؛ فقد بطل حجّه،و بانت منه امرأته.

و لا نعلم مقدار صحة هذا القول من ابن المبارک،فهو من أصحاب أبی حنيفة و مناصريه،و لا ندری هل أن أبا حنيفة استعمل الحيل الجائزة أم المحرمـة.فإن كان الأول،فليس لنا أن نحصـر الأمر به،فإن حـدّة الـذهن و التخلّص من المشاكل لم يكن من امتياز أبی حنيفـة وحده،إذ الأمور المشـروعة فی الحيل قـد سـبق العمل بها فی العصـر الـذی سـبق عصـر أبی حنيفـة.أما إذا كان اسـتعماله للحيل غير الجائزة و هی الاحتيال علی حلّية ما هو حرام،أو علی إسـقاط ما هو واجب أو غير ذلک،فهل يمكننا أن نحمّل أبا حنيفة مسئولية فتح هذا الباب،و لم يصل إلينا كتاب يدل علی استعماله للحيل غير الجائزة؟فهو لم يؤلف فی ذلک كتابا لا فی الحيل و لا غيرها،أما كتاب العالم و المتعلم فهو كتاب صغير لا يدل علی مكانته العلمية و منزلته التی وصفوه بها،و لم يتفق علی صحّة نسبته إلی أبی حنيفة.

و ليس ببعيد أن يكون أصـحابه قد اسـتعملوا الحيل غير الجائزة و نسـبوها لرأيه، كما هو شأنهم فی كل مسائل المذهب،فإنهم يسـتخرجون المسألـة الشـرعية حسب نظرهم و رأيهم،و يقولون هـذا رأی أبی حنيفـة،مسـتندين إلی قاعـدة:أنه يعمـل بما صـحّ عنـده من الحـديث.فهم يصحّحون الأحاديث لتقويم فتاواهم،و يسندون الكل لأبی حنيفة.و قد عقد ابن قيم الجوزية فصلا طويلا فی كتابه(أعلام الموقعين)ذكر فيه

1- (1) الحيوان للجاحظ ج 3 ص 11.

الحيل المحلّلة و الحيل المحرّمة،و ذكر الأخبار فى ذلک،و أفاض فى البيان فأكثر و قال فيما قال:

و المقصود أن هذه الحيل لا تجوز أن تنسب إلى إمام،فإن ذلک قدح فى إمامته، و ذلک القدح يتضمّن القدح فى الأمة،حيث ائتمّت بمن لا يصلح للإمامة،و هذا غير جائز.و لو فرض أنه حكى عن واحد من الأئمة بعض هذه الحيل المجمع على تحريمها،فإما أن تكون الحكاية باطلة،أو يكون الحاكم لم يضبط لفظه،فاشتبه مع بعد ما بينهما.و لو فرض وقوعها منه فى وقت ما فلا بد أن يكون قد رجع عن ذلک.

و ليس الأمر هنا للافتراض و اللاّبدية،و إنما المدار على الواقع.فإن الأكثر ينسبون لأبى حنيفة فتاوى بالحيل الممنوعة،كما نسبوا إليه كتابا فى ذلک،و الأمر يحتاج إلى تدقيق و تمحيص،لا للافتراض و اللاّبدية.

و قال ابن قيّم:فهذه الحيل و أمثالها لا يحلّ لمسلم أن يأتى بها فى دين اللّه،و من استحلّ الفتوى بهذه،فهو الذى كفّره الإمام أحمد و غيره من الأئمة حتى قالوا:(إن من أفتى بهذه الحيل؛فقد قلب الإسلام ظهرا لبطن،و نقض عرى الإسلام عروة عروة).

و إلى هذا الحد لم تتعين الفرقة التى اتسعت دائرة الحيل باستعمالها،هل هم الحنيفية فقط؟أم يشاركهم غيرهم فى ذلک؟و قد نقل عن بعضهم أنهم قالوا:ما نقموا علينا من أنّا عمدنا إلى أشياء كانت حراما عليهم،فاحتلنا فيها حتى صارت حلالا؟ و قال آخرون منهم:إنّا نحتال للناس منذ كذا و كذا سنة فى تحليل ما حرّم اللّه عليهم.

و لا ندرى من هو القائل،و إلى أى فرقة ينتسب،و إلى أى مذهب يرجع.

قال أحمد بن زهير:كانت امرأة هاهنا بمرو،أرادت أن تختلع من زوجها، فأبى زوجها عليها.فقيل لها:لو ارتددت عن الإسلام لبنت منه.ففعلت،فذكر ذلک لعبد اللّه بن المبارک فقال:من وضع هذا الكتاب فهو كافر،و من سمع به فهو كافر، و من حمله من كورة إلى كورة فهو كافر،و من كان عنده فرضى به فهو كافر.قيل له:

يا أبا عبد الرحمن:إن هذا الكتاب وضعه إبليس؟قال:إبليس من الأبالسة.و قال النضر بن شميل فى كتاب الحيل ثلاثمائة و عشرون أو ثلاثون مسألة كلها كفر.و ذكر كتاب الحيل لشريک بن عبد اللّه القاضى فقال:من يخادع يخدعه.و قال إسماعيل بن حمّاد:قال القاسم بن معن قاضى الكوفة:كتابكم هذا الذى كتبتموه فى الحيل

كتاب الفجور.و إسـماعيل بن حمّاد هو حفيد النعمان بن ثابت أبى حنيفة.و من هنا يظهر أن الكتاب الذى يتضـمن الحيل المحرمة هو من وضع الحنيفة،لا من وضع أبى حنيفة نفسه.

قال يزيـد بن هارون:لقد افتى أصـحاب الحيل بما لو أفتى به النصـرانى أو اليهودى كان قبيحا (1).و نقل عن أحمـد بن حنبل عن محمد بن مقاتل قال:شهدت هشاما و هو يقرأ كتابا،فانتهى بيده إلى مسألة فجازها،فقيل له فى ذلک فقال:دعوه.

و كره مكانى،فتطلعت فى الكتاب فإذا فيه:لو أن رجلا لفّ على ذكره حريرة فى شـهر رمضان،ثم جامع امرأته نهارا فلا قضاء عليه و لا كفارة (2).

فالحيلة فى فسخ المرأة النكاح:أن ترتدّ،ثم تسلم.

و الحيلة فى سقوط القصاص عمن قتل أم امرأته:أن يقتل امرأته إذا كان لها ولد منه.

و الحيلة فى سقوط الكفارة عمن أراد الوطى فى رمضان:أن يتغدّى،ثم يطأ بعد الغداء.

و الحيلة لمن أراد أن يفسخ نكاح امرأته و يحرّمها على نفسه على التأبيد:أن يطأ حماته أو يقبّلها.

و الحيلة لن أراد سقوط حدّ الزنا:أن يسكر،ثم يزنى.

و الحيلة لمن أراد سقوط الحج عنه مع قدرته:أن يملّک ماله لابنه عند خروج الركب،فإذا أبعد استردّ ماله.

و الحيلة لمن أراد أن يملک مال غيره بغير رضاه:أن يفسد عليه،أو يغيّر صورته فيملكه،فيذبح شاته،و يشقّ قميصه،و يطحن حبه.

و الحيلة لمن أراد قتل غيره و لا يقتل به:أن يضربه بدبوس أو مرزبة حديد،ينثر دماغه فلا يجب عليه القصاص.

1- (1) أعلام الموقعين ج 3 ص 148.

2- (2) أعلام الموقعين ج 3 ص 150.

و الحيلة لمن أراد أن يسقط عنه حدّ السرقة:أن يدّعى أن المال له،و أن له فيه شركة،فيسقط عنه الحد بمجرد دعواه.

و الحيلة لمن أراد سقوط حدّ الزنا عنه بعد أن يشهد عليه أربعة عدول غير متّهمين،أو أن يصدّقهم فيسقط عنه الحدّ بمجرد تصديقهم.

و الحيلة لمن أراد الصيد فى الأحرام:أن ينصب الشباک قبل أن يحرم،ثم يأخذ ما وقع فيها حال إحرامه بعد أن يحلّ.

هذا بعض ما ذكروه من استعمال الحيل.و قد نقل عن أبى حنيفة أنه يفتى ببعضها كاستئجار الجارية لكنس البيت.و حوادث أخرى مشهورة ذكرتها المصادر.

منها:ما ذكره ابن عبد البر فى الانتقاء عن شريک أنه قال:كنا فى جنازة غلام من بنى هاشم،و قد تبعها وجوه الناس و أشرافهم،فأنا إلى جنب ابن شبرمة أماشيه إذ قامت الجنازة،فقيل:ما للجنازة لا يمشى بها؟قيل:خرجت أمه والهة عليه سافرة وجهها فى قميص.فحلف أبوه بالطلاق لترجعنّ،و حلفت هى بصدقة ما تملک لا رجعت حتى تصلى عليه،و كان يومئذ مع الجنازة ابن شبرمة و نظراؤه،فاجتمعوا لذلک، و سئلوا عن المسألة،فلم يكن عندهم جواب حاضر.قال:فذهبوا،فدعوا بأبى حنيفة -و هو فى عرض الناس-فجاء مغطّيا رأسه و المرأة و الزوج و الناس وقوف،فقال للمرأة:علام حلفت؟قالت:علىّ كذا كذا.و قال للزوج بم حلفت؟قال:بكذا.قال ضعوا السرير فوضع،و قال للرجل تقدّم فصلّ على ابنک.فلما صلّى قال:ارجعى، فقد خرجتما عن يمينكما،احملوا ميّتكم.فاستحسنها الناس.

و كان المنصور يعرف عنه هذه القدرة فى إيجاد المخارج.يروى حمزة بن عبد اللّه الخزاعى أن أبا حنيفة هرّب من بيعة المنصور جماعة من الفقهاء،ثم قال أبو حنيفة:لى فهم أسوة.فخرج مع أولئک الفقهاء،فلما دخلوا على المنصور أقبل على أبى حنيفة وحده من بينهم فقال له:أنت صاحب حيل،فاللّه شاهد عليک أنک بايعتنى صادقا من قلبک؟قال:اللّه يشهد علىّ حتى تقوم الساعة.فقال:حسبک.فلما خرج أبو حنيفة قال له أصحابه:حكمت على نفسک ببيعته حتى تقوم الساعة؟قال:إنما عنيت حتى تقوم الساعة من مجلسک إلى بول أو غائط أو حاجة،حتى يقوم من

مجلسه ذلک (1).و علی کل حال فقد اشتهر المذهب الحنفی بالعمل بالحیل الشرعیة.

یقول الدکتور علی عبد القادر:بقی أبو حنیفة فی نظر أتباعه صاحب الفضل فی الحیل المتعلقة بالحلف،و من هنا أخذ الأحناف یذکرون عن إمامهم ماله من حدة ذکاء فی مسائل الحلف،و قد کانت کتب الحنفیة فی الحیل قد انتشرت بین الناس،فکان من أثر هذا أن أخذ الشافعیة کذلک ینافسونهم فی هذا المیدان،و یؤلفون فی الحیل.

هذا فی رأینا هو الباعث علی وجود کتب الحیل فی مذهب الشافعی بعد إن کان إمامهم یحکم علیها بالحرمة أو الکراهة،بالرغم من الاعتراف بصحتها من حیث الظاهر،و قد استمر علی مخاصمة الحیل فی المذهب کل من:الغزالی و عبد الرحمن بن زیاد.و لکن ابن حجر نازعهم فی هذا فی فتاویه،و بقی رأیه هو الذی علیه العمل فی المذاهب (2).

و من مسائل الحیل التی کثر الاختلاف بها هی الحیلة علی إسقاط حق الشفعة، و قد أقرّت الشریعة الإسلامیة حق الشفعة للشریک.و قام الدکتور عبد السّلام ذهنی بتناولها فی کتابه(الحیل المحظور منها و المشروع).

و ذهب بعض العلماء الأول إلی أن القیاس یأبی ثبوت حق الشفعة،لأنه یتملک علی المشتری ملکا صحیحا له بغیر رضاه،و ذلک لا یجوز،فإنه من نوع الأکل بالباطل،و تأیید هذا بقول النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم:«لا یحلّ مال امرئ مسلم إلا بطیب نفس منه» و لأنه بالأخذ یدفع الضرر علی نفسه علی وجه یلحق الضرر بالمشتری فی إبطال ملکه علیه،و نقل هذا الوجه عن أبی بکر الأصمّ (3)و قیل فی الشفعة بأن فیها رفعا لضرر موهوم عند الشفیع،فی مقابل ضرر محقق لدی المشتری (4).و لذا تجب العنایة بالضرر الواقع،و صرف النظر عن الضرر الموهوم.و قیل فیها بأن حکمة الشارع منها اقتضت رفع الضرر عن المکلفین ما أمکن (5).

1- (1) الانتقاء،ص 159 و 161.

2- (2) نظرة عامة ص 241.

3- (3) انظر:نیل الأوطار.

4- (4) ابن عابدین ج 5 ص 143.

5- (5) أعلام الموقعین ج 3 ص 247.

و قد اختلفوا بجواز التحايل فيها،و صوّروا لذلک صورا منها:إذا ترک البائع قطعة أرض علی ملکه بين العقار المبيع و الشفيع حتی لا يستطيع هذا الأخير الادعاء بالجوار.أو أن يهبه تلک القطعة الفاصلة لتحول دون الشفعة بسبب الهبة.

و قال أبو حنيفة و الشافعی بجواز الاحتيال فی الشـفعة لإسـقاطها،لأنها من الحقوق غير المستحبّة.و قال بذلک مالک،و أحمد،و حجتهم أن الحيلة أمر مسـتنبط من الکتاب و السـنّة؟! و يقول فريق آخر:بعدم جواز الحيلة فی سبيل إسقاط الشفعة،لأن الحيلة إنما هی رخصة لضعفاء المؤمنين،و لأن التحيّل لإبطال الشـفعة شـرّعت لدفع الضـرر.فلو شـرّع التحيّل لإبطالها،لکان عودا علی مقصود الشريعة بالإبطال،و يلحق الضرر الذی قصد إبطاله (1).

و اتفق علماء المسـلمين علی ثبوت الشـفعة للشريک،أما الشفعة بالجوار فقد اختلفوا علی ثلاثة أقوال:فأهل الکوفة يثبتون شفعة الجوار و لو مـع تمييز الطريـق و الحقوق.و أهـل المدينـة يسـقطونها و لو مع الاـشتراک.و أهـل البصـرة يثبتونهـا إذا وقع الاـشتراک فی حق من حقوق الأملاک.

و علی أی حال،فإن هذه المسألة هی من المسائل الهامة التی اشـتهرت بها مدرسة أبی حنيفة،و قد ضاعف ذلک تفاقم النقمة عليها و توجيه الانتقاد إليها،و قد نسبوا إلی أبی حنيفة أنه وضع کتابا فی الحيل فهم يستمدّون منه و يأخذون عنه،و لا بد من التحقق من ذلک و ثبوته،و ربما أنهم أخـذوا من فتاوی أبی حنيفة و قواعده و زادوا،فسوّغوا اسـتعمال الحيل بشتی أنواعها،کما هو الشأن فی جميع أبواب الفقه المنسوب لأبی حنيفة،فإسناد الفتوی له إنما هو استنتاج يکشف عن رأيه،بمعنی أنه لو عاش أبو حنيفة لکان هو رأيه،أو علی قاعدة الترخص منه بقوله:إذا صحّ الحديث فهو مذهبی.

1- (1) أعلام الموقعين ج 3 ص 229.و الميزان للشعرانی ج 2 ص 87.

صلته مع العلويين

اشارة

:

نشأ أبو حنيفة فى الكوفة،و كانت منبعا للحركات الثورية،فكم من ثورة عارمة قامت ضد سلطة فأخمدتها القوة،و أخرى استطاعت أن تخمد قوة السلطة و تقيم دولة مستقلة زمنا طويلا،و الحركة التى أطاحت بالدولة الأموية كان منشؤها الكوفة،البلدة التى ولد فيها أبو حنيفة و نشأ فيها،و كان يشارك الثوار فى حركاتهم سرا أو علانية، و قد نكل به ابن أبى هبيرة عامل بنى أمية،و ضربه بالسياط.

و عاش أبو حنيفة وسط أحداث سياسية،كان لها الأثر فى نبوغه و معرفة اتجاهه و منحاه السياسى الذى ينتهجه.

و قد تجلّت موهبته،و ظهر نشاطه و ميله للعلويين عند ما ظهر زيد بن على بالكوفة سنة 124 ه فكان يرى إمامة زيد،و أنه على الحق،فأرسل إليه زيد رسالة مع الفضل ابن الزبير يدعوه إلى بيعته،فلما بلّغه الفضل رسالة زيد،ذكره أبو حنيفة بكل جميل،و ألزم الخروج معه،و قال:لو علمت أن الناس لا يخذلونه كما خذلوا أباه لجاهدت معه لأنه إمام الحق،و لكن أعينه بمالى.ثم بعث إليه بالمال و هو ثلاثون ألف درهما،و قيل ثلاثون ألف دينارا،و قال للرسول:أبسط عذرى عنده..

و سئل أبو حنيفة عن خروج زيد فقال:ضاهى خروج رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يوم بدر.

فقيل له:لم تخلّفت عنه؟قال:حبستنى عنه ودائع الناس،عرضتها على ابن أبى ليلى فلم يقبل،فخفت أن أموت محمّلا.و كان كلما ذكر خروج زيد بكى.

كما إنه انتصر لمحمد بن عبد اللّه بن الحسن و أخيه إبراهيم،و كان يحثّ الناس على الخروج للحرب مع إبراهيم و كان يقول:غزوة مع إبراهيم أفضل من خمسين حجة بعد حجة الإسلام (1).و كان الإمام أبو حنيفة عند ذكر مصاب محمد النفس الزكية،يفعل كما يفعل عند ذكر استشهاد زيد،فتدمع عيناه..

و جاءت إليه امرأة فقالت:إن ابنى يريد هذا الرجل-أى إبراهيم-و أنا أمنعه؟ فقال:لا تمنعيه (2).

و قال أبو إسحاق الفزارى:جئت إلى أبى حنيفة فقلت له:أما اتقيت اللّه!أفتيت

1- (1) المكى ج 2 ص 84.

2- (2) المصدر السابق.

أخی بالخروج مع إبراهیم بن عبد اللّه بن الحسن حتی قتل؟فقال:قتل أخوک حیث قتل،یعدل قتله لو قتل یوم بدر،و شهادته مع إبراهیم خیر له من الحیاة (1).فکان إسحاق یبغض أبا حنیفة.

و من هذا نستظهر أن أبا حنیفة معروف بمیله للعلویین،و لذا وجه إلیه زید الدعوة للخروج معه،و جاء فی اعتذار أبی حنیفة فی بعض الروایات أنه کان مریضا.

أو أن لدیه ودائع للناس ملزم بحفظها أو ردّها،کما أن استفتاء الناس له بالخروج مع إبراهیم،یدلّ علی مکانته الاجتماعیة فی ذلک المجتمع.و بجانب ذلک،فقد کانت له مکانة سیاسیة و ید فی الثورة،و قد أرسل رسالة إلی إبراهیم،یشیر علیه أن یقصد الکوفة لیعینه الزیدیة،و قال:ائتها سرا،فإن من فیها من شیعتکم یبیّتون أبا جعفر فیقتلونه أو یأخذون برقبته فیأتونک به.

و لما توجه إبراهیم لمقابلة عیسی بن موسی-القائد العباسی-و قامت الحرب بینهما،کان أبو حنیفة یدعو الناس للخروج معه.قال أبو نعیم:سمعت زفر بن الهذیل یقول:کان أبو حنیفة یجهر فی أمر إبراهیم جهرا شدیدا،و یفتی الناس بالخروج معه.فقلت له:و اللّه ما أنت بمنّته عن هذا،حتی توافی فتوضع فی أعناقنا الحبال (2).

و حدّث محمد بن الحسن و غیره من أصحابه:أن أبا حنیفة کتب إلی إبراهیم بن عبد اللّه لمّا توجّه إلی عیسی بن موسی:إذا أظفرک اللّه بعیسی و أصحابه فلا تسر فیهم سیرة أبیک فی أهل الجمل،فإنه لم یقتل المنهزم و لم یأخذ الأموال،و لم یتّبع مدبرا، و لم یذفّف علی جریح،لأن القوم لم یکن لهم فئة.و لکن سر فیهم بسیرته یوم صفین،فإنه سبی الذریة،و ذفّف علی الجریح لأن أهل الشام کانت لهم فئة،و کانوا فی بلادهم (3).

فظفر أبو جعفر بکتابه،فکان الهدف الرئیسی من عرض القضاء علی أبی حنیفة -بعد مدة-هو اتخاذ وسیلة للقضاء علیه بحجة امتناعه عن معاونة الدولة،و کان أبو

1- (1) المقاتل ص 246. [1]

2- (2) المقاتل و [2]تاریخ بغداد ج 13 ص 329 و 330. [3]

3- (3) المصدر السابق ص 247. [4]

حنيفة يرى حرمة التعاون معهم لأنهم أئمة جور.و قد كان لأبى حنيفة اتصال بالإمام الباقر عليه السّلام و ولده الإمام الصادق عليه السّلام و يعدّ من تلامذتهما،كما أنه اتصل بعبد اللّه بن الحسن و كان يعدّ من شيوخ أبى حنيفة.

و يقول الأستاذ محمد أبو زهرة

:

لقد كان أبو حنيفة يميل إلى أولاد على،و يرى أنهم أحقّ بالخلافة من بنى العباس،و كانت لرابطة العلم تأثير فى ولائه و اتجاهه السياسى،إذ كان تلميذا لعبد اللّه بن الحسن،كما أنه على علاقة وثيقة بزيد و جعفر الصادق،و لذلك لمّا خرج إبراهيم بن عبد اللّه بن الحسن على المنصور،كان هوى أبى حنيفة معه،و لم يكتف بذلك،بل ثبّط أحد قوّاد المنصور-و هو الحسن بن قحطبة-عن الخروج لحرب إبراهيم.

و يبدو تأثير الإمام الصادق على أبى حنيفة من خلال مقاطعته الدولة العباسية، فقد صرّح الإمام الصادق-كما رأينا-بعدم معاونة الظالمين،و قطع الصلة بين الرعية و بين السلطة الحاكمة،و هو ما يسمى ب(العصيان المدنى) (1).فعند ما أراد المنصور أن يختبر طاعته و ولائه عرض عليه القضاء،فامتنع أبو حنيفة.ثم أراد إخراجه،فطلب منه الاشتراك بالعمل فى بناء مدينة بغداد-و هى ما زالت تبنى-فأبى أبو حنيفة.

و أقسم المنصور أن يفعل،و أبو حنيفة يأبى.ثم قبل منه أن يعدّ اللبن فى بناء بغداد، و أبرّ بذلك قسم المنصور (2)و لكنه لم يثبت هذا القول،و لم يرد فيما ورد عن أبى حنيفة فى أقواله و آرائه.

و على أى حال،فإن أبا حنيفة كان ذا صلة بآل البيت،إذ أخذ عن الإمام محمد الباقر و ولده الإمام الصادق،و عن زيد بن على،و عبد اللّه بن الحسن.و كان يحتجّ بقول الإمام على،و ربما كان يروى عنه بقوله:عن أبى زينب.خشية من الأمويين.

كما أنه لم يسالم الأمويين،و اشترك فى حركة الشيعة للإطاحة بحكمهم،فقدّم لثورة زيد دعما ماليا،كما أن المعروف عنه أنه لم يسالم العباسيين،و لذا فإن فتواه التى كان

1- (1) انظر الجزء الثانى من الإمام الصادق المذاهب الأربعة.

2- (2) تاريخ ابن خلدون ج 3 ص 418. [1]

يفتى بها،و نقده الشديد للأحكام التى كان يصدرها الحكّام كانت تثير السخط عليه.

فمن ذلک أن المنصور استفتاه فى الذين انتفضوا عليه من أهل الموصل،هل تحلّ له دماؤهم؟فأجابه أبو حنيفة:

إنهم شرطوا لک ما لا يملكونه،و شرطت عليهم ما ليس لک،لأن دم المؤمن لا يحلّ إلا بثلاث.فقال له المنصور:يا شيخ،القول ما قلت،و لكن لا تفت الناس بما هو شين على إمامک.

و الحقيقة أن المنصور من خلال إصراره على تولى أبى حنيفة القضاء يكشف عن نيته فى الإيقاع به،و ليس الأمر إلا العامل السياسى الذى كان يستفزّ المنصور و يجعله يقدم على قتل الناس و سفک الدماء.لذا فإن امتناع أبى حنيفة عن تولى القضاء لا يجعل المنصور يقتله هذه القتلة الشيعة،و إنما أرسل المنصور ليحضر أبا حنيفة من الكوفة ليقتله و يرتاح منه لأن أبا حنيفة كان يتعاون مع العلويين،و يساعد الثوار منهم، و يقوّى إبراهيم أحمر العينين.و كان مقام أبى حنيفة فى الكوفة يؤدى إلى إثارة الرأى العام،لأنه مقبول القول عند الناس،ذو حال واسعة من التجارة.فكان المنصور يخشى من اتساع دعوة أبى حنيفة لإبراهيم و أخيه محمد،و طلبه من الكوفة إلى بغداد، و لم يجسر على قتله علنا (1).

و على الجملة فإن ميل أبى حنيفة لأهل البيت كان أمرا يبعث السلطة على العداء له و ترصّد الدوائر به.و سنأتى على مزيد من القول فيه.

يقول الأستاذ محمد أبو زهرة:

(و ننتهى من الكلام أن أبا حنيفة شيعى فى ميوله و آرائه فى حكام عصره،أى أنه يرى الخلافة فى أولاد على من فاطمة،و أن الخلفاء الذين عاصروه قد اغتصبوا الأمر و كانوا لهم ظالمين) (2).

و أن الشىء المهم الذى يلزم أن نقف إمامه وقفة تأمل هو:شهرة أبى حنيفة العلمية التى اكتسبت طابع الانتشار بعد موته،حتى أصبح مرجعا لملايين المسلمين،

1- (1) انظر:السيد عفيفى المحامى،حياة الإمام أبى حنيفة.

2- (2) أبو حنيفة ص 165.

فما هی العوامل التی ساعدته،و أدّت إلی هذا الاشتهار؟فإنّا إذا لحظنا أبا حنیفة ذاته وجدنا أنه لم یکن له امتیاز علی کثیر من العلماء المبرزین من أقرانه فی عصره،نعم کان مشهورا بالقیاس،و هذا ما أوجب نقمة کثیر من العلماء علیه.

أما تفوقه العلمی و شهرته،و بقاء مذهبه و انتشاره فی الأقطار الإسلامیة،فیرجع إلی شهرة أبی یوسف،فهو تلمیذ أبی حنیفة و قد نال أبو یوسف مودّة الرشید،فکان یحبّه حبّا شدیدا و یقول:لو جاز أن أدخلک فی نسبی لفعلت.فکان لأبی یوسف المنزلة و الکلمة النافذة فی الدولة.

و لو لا أبو یوسف لما ذکر أبو حنیفة،و لکن منزلة أبی یوسف فی الدولة،و تولیته رئاسة القضاء جعلت ذکر أبی حنیفة ینتشر،و قد التفّ حوله جمیع المنتمین لمدرسة أبی حنیفة و تلامذتهم،فکان نشاطهم محسوسا،و نالت أقوالهم الصبغة الرسمیة.ثم عمدوا لنشر مذهب أبی حنیفة،فکانوا لا یقرّبون إلاّ من کان علی طریقتهم فی الاجتهاد و الفتیا،و هم علی طریقة أبی حنیفة فی الاستنباط.

و یمکننا أن نعتبر تمکّن أبی یوسف و سلطته التشریعیة نقطة بدایة وضع أسس المذهب،فتطورت فی المستقبل،إذ وجدت الظروف و الإمکانیات اللازمة.

و علی هذا فقط نشط أصحاب أبی حنیفة بتولیتهم القضاء،و نشر أقوال أبی حنیفة و آرائه،و کانوا یسیرون علی قواعد مذهبیة فی الحدیث،و منهم المجتهدون، و أکثرهم ینفرد بقول،و یذهب إلی رأی غیر رأی أبی حنیفة.

و قد اعتبروا استنباطهم للمسائل التی لم یکن لأبی حنیفة قول فیها هو رأیه و قوله،کما هو واضح لمن تتبع موارد الاستنباط عندهم،فیرون عن أبی حنیفة أنه قال لأبی یوسف:و یحکم،کم تکذبون علیّ فی هذه الکتب ما لم أقل.و کیفما کان فقد تکوّن المذهب بجهود أصحابه الذین ینتمون لمدرسته،و یعرفون بالانتساب إلیه،و کان عددهم ستة و ثلاثین رجلا،و فی طلیعتهم أبو یوسف،فهو الذی تزعّم هذه المجموعة،و ساعدته الظروف بأن یتولی منصب رئاسة قضاة الدولة فی إبان قوتها، فقرّب أصحابه و تقرّب الناس إلیهم حبّا لما فی أیدیهم من الدنیا،فوسّعوا دائرة المذهب،و نشروا الأحکام باسم أبی حنیفة،و توارث تلامذتهم نصرة المبدء و نشر المذهب حتی جاء عصر التطاحن و التکالب علی الدنیا،فکان هناک تعصب أعمی،

و طائفیـة حمقی،و تحامل بـدون مبرر،و مدح بدون لیاقة،و شـتم بدون ذنب.فاتسـعت دائرة الدعوة إلی المذاهب،حتی جاء دور التحجیر و الإلزام بالأخذ عن هذه المذاهب دون غیرها،و کان للمذهب الحنفی شأن واسع و ذکر منتشر.

أبو یوسف

:

و لیس من المبالغـة أن یقول عمار بن أبی مالک:لو لا أبو یوسف ما ذکر أبو حنیفـة.لأن ارتباطه بالحکم هیأ له نفوذا شخصـیا و سیاسـیا کبیرا ساعـد علی أن یکـون رأیه فی الفقه و مـذهبه هـو المـذهب الرسـمی.فأبو یوسف هو أول من وضع الکتب فی أصول الفقه علی مـذهب أبی حنیفة،و أملی المسائل و نشرها،و بثّ علم أبی حنیفة فی أقطار الأرض (1).

لقـد کان أبو یوسف أول من دعی بقاضـی القضاة،ولاّه موسـی الهادی و هارون الرشـید.و کان یفهم من ذکر(قاضـی القضاة)أن المراد به أبو یوسف.و لم یکتف أبو یوسف بنفسه،بل أسـتخلف ابنه یوسف علی الجانب الغربی،فأقره الرشـید علی عمله،و قد غلب علیه الاهتمام بشئون الحکـام،و لم یکن من الفقه بتلـک المنزلـة التی تشـیر الناس إلیه،و تضـمن له موقعا علمیا.فیروی الخطیب البغـدادی بسـنده قول هلال بن یحیی:کان أبو یوسف یحفظ التفسیر و المغازی و أیام العرب،و کان أقل علومه الفقه (2).

و لهذا کان ما اشـتهر من کتبه هو من شـئون الحکم أکثر منه أن یکون من قضایا الفقه،فالخراج کان من تنظیمات السـلطة،و تخطیط اقتصاد الحکام،و کذلک(الرد علی سـیر الأوزاعی)فلیس هو من فقهه،و إنما صـنّفه أبو یوسف للرد علی الأوزاعی الذی صنف کتابا ردّ فیه علی سیر أبی حنیفـة،و لیس فیه إلا المسائل التی کان أبو یوسف قد تلقّاها علی أبی حنیفة.و کذلک الأمالی و هی الطریقة نفسـها التی اتبعها فی نشـر أصول الفقه من خلال موقعه و اتصاله بالحکام.فکان نفوذ المذهب یسـتمدّ من نفوذ السـلطة.و لأبی یوسف کتب کثیرة دوّن فیها أراؤه و آراء شیخه،ذکرها ابن الندیم

1- (1) الخطیب البغدادی 246/14. [1]

2- (2) الخطیب و شذرات الذهب ج 1 ص 299.و [2]وفیات الأعیان ج 5 ص 425. [3]

منهـا:كتـاب الصـلاة،كتـاب الزكاة،كتاب الصـيام،كتاب الفرائض،كتاب البيوع، كتاب الخراج،كتاب الوكالـة،كتاب الوصايا،كتاب اختلاف الأنصار،كتاب الرد على مالک و غيرها.و له إملاء رواه بشر بن الوليد القاضى يحتوى على ستة و ثلاثين كتابا.

قال رجل لأبى يوسف:رجل صـلى مع الإمام فى مسجد عرفة،ثم وقف حتى دفع بدفع الإمام؟قال:ما له؟قال:لا بأس به.فقال:سبحان اللّه،قد قال ابن عباس:

من أفاض من عرفة فلا حجّ له،مسجد عرفة فى بطن عرفة؟فقال:أنتم أعلم بالأحكام،و نحن أعلم بالفقه.قال:إذا لم تعرف الأصل فكيف تكون فقيها؟ (1).

إن أبا حنيفـة قد رعى أبا يوسف رعاية خاصة.و كان يتفقّده و يتعاهده و يمدّه بالمال حتى اسـتغنى و تموّل بعد أن كان فى ضـيق و فقر،و كان أبوه ينهـاه عن طلب العلم على أبى حنيفـة لئلا يؤثر ذلک على رزقهم و تحصـيل قوتهم.و يروى أبو يوسف ذلک:(توفى إبراهيم بن حبيب،و خلّفنى صـغيرا فى حجر أمى،فأسـلمتنى إلى قصّار أخـدمه،فكنت أدع القصّار و أمرّ إلى حلقة أبى حنيفة،فأجلس أسـتمع.فكانت أمى تجىء خلفى إلى الحلقـة،فتأخـذ بيـدى و تـذهب بى إلى القصّار.و كان أبو حنيفة يعنى بى لما يرى من حضورى و حرصـى على التعلم.فلما كثر ذلک على أمى،و طال عليها هربى،قالت لأبى حنيفـة:ما لهذا الصبى فساد غيرک،هذا صبى يتيم لا شـىء له، و إنما أطعمه من مغزلى،و آمل أن يكسب دانقا يعود به على نفسه.فقال لها أبو حنيفة:مرى يا رعناء هذا هو ذا يتعلم أكل الفالوذج بدهن الفسـتق)ثم يقول:إنه ضحک عند ما كان يجالس الرشيد و يأكل معه فالوذجة بدهن الفستق.

و قـد أشـرنا إلى طريقـة أبى حنيفـة فى الـدرس،و كـان يقرّب كلاـ من أبى يوسف و زفر أحـدهما عن يمينه و الآـخر عن يسـاره،و يـدعهما يتجادلان.و تختتم الروايات عن أستاذية أبى حنيفة بعبارة واحدة لها معناها،إنه كان يضرب بيده على فخذ زفر قائلا:

لا يطمع فى رئاسة فيها أبو يوسف.و هى برواية عمر بن حمّاد بن أبى حنيفة (2).

و يروى ابن إبراهيم بن عمر عن فراسة أبى حنيفة التى ينظر بها فيرى ما سيصير

1- (1) الخطيب البغدادى ج 14 ص 256. [1]

2- (2) الخطيب و ابن العماد فى الشذرات و ابن خلكان.

إليه أبو يوسف:كان أبو حنيفة حسن الفراسة،فقال لداود الطائى:أنت رجل تتخلى للعبادة.و قال لأبى يوسف:تميل إلى الدنيا.

و محمد بن صبيح بن السماک-الذى كان يعظ الرشيد-ينظر إلى موقع أبى يوسف فى السلطان و مكانته فيقول:لا أقول إن أبا يوسف مجنون،و لو قلت ذاک لم يقبل منى،و لكنه رجل صارع الدنيا فصرعته.

و لكنّ شخصية أبى يوسف أثّرت فى النظر إلى المذهب الحنفى أو إلى فقه أبى حنيفة نفسه من ناحية،كما أن روح اتباع الحكام و سيرة الخضوع للسلطة و خلفائها المتجبّرين،عزلت أبا يوسف عن أبى حنيفة و أصحابه الآخرين،لكى يكون متميزا عن مواقف إمامه التى ذكرناها فى الابتعاد عن الحكّام و التعامل معهم بحذر.أو أنها ظلت شيئا من سيرة أبى حنيفة لا تلزم أصحابه،فيما ظل المذهب فى أصوله من اختصاصه و هو فى السلطان،و أصبح جزءا من الحكم حتى قيل:و قد تجد الرجل يطلب الآثار و تأويل القرآن و يجالس الفقهاء خمسين عاما و هو لا يعدّ فقيها،و لا يجعل قاضيا،فما هو إلا أن ينظر فى كتب أبى حنيفة و أشباه أبى حنيفة،و يحفظ الشروط فى مقدار سنة أو سنتين،حتى تمر ببابه فتظنّ أنه من بعض العمال،و بالحرى ألاّ يمر عليه من الأيام إلا اليسير حتى يصير حاكما على مصر من الأمصار أو بلد من البلدان (1).

و الاتجاه الأول يمثله عبد اللّه بن المبارک الذى كان من علمه ما أثّر كثيرا على منزلة أبى حنيفة،و راح يطعن فيه.غير أن أصحاب المذهب عمدوا إلى وضع أقوال مخالفة تماما لما اشتهر عن ابن المبارک،حتى تجدها فى ترجمة أبى حنيفة فى تاريخ بغداد،أو الانتقاء متناقضة متباينة.

فعن عبد الرزاق بن عمر قال:كنت عند عبد اللّه بن المبارک،فجاءه رجل فسأله عن مسألة،فأفتاه فيها.فقال له:قد سألت أبا يوسف فخالفک.فقال له:إن كنت صليت خلف أبى يوسف صلوات تحفظها فأعدها.

كما يروى عن ابن المبارک أنه سئل:أيّما أصدق أبو يوسف أو محمد؟قال:لا تقل أيهما أصدق،قل أيهما أكذب؟!

1- (1) الحيوان للجاحظ ج 1 ص 87. [1]

و سئل یزید بن هارون: ما تقول فی أبی یوسف؟قال: لا تحلّ الروایة عنه،إنه کان یعطی أموال الیتامی مضاربة،و یجعل الربح لنفسه.

أما الذین أسلموا دینهم و دنیاهم إلی أهواء الحکام،فیهبّون للدفاع عن أبی یوسف،و إبعاد صلته عن أبی حنیفة،و یختارون لذلک تهمة الجهمیة،اتباع الجهم بن صفوان الذی قال من جملة ما قال:بأن لا فعل و لا عمل لأحد غیر اللّه تعالی،و إنما تنسب الأعمال إلی المخلوقین مجازا،و أنه لا یصف اللّه بوصف یجوز إطلاقه علی غیره.

قالوا:کان أبو حنیفة جهمیا،و کان محمد بن الحسن جهمیا،و کان أبو یوسف سلیما من الجهم.و هو لأبی الزرعة الرازی.

و عمر الناقد قال:ما أحب أن أروی عن أحد من أصحاب الرأی إلا عن أبی یوسف،فإنه کان صاحب سنّة.

و الدار قطنی کان یقول:هو(أبو یوسف)أقوی من محمد بن الحسن.کما یروی عنه أنه قال:أعور بین عمیان.

و لسنا هنا فی معرض ذکر أصحاب أبی حنیفة،و إنما ذکرنا أبا یوسف لغرض بیان علاقته بالسلطان،و انضمامه إلی الحکم علی نحو یخالف فیه رأی أبی حنیفة و سیرته.و لذلک نسوق بعضا من أوجه خضوعه لخلفاء بنی العباس،و العمل علی إرضائهم،فیما کان یمدّ فی رقعة اتساع مذهبه،و یوسّع من نطاق انتشاره من خلال سلطته و نفوذه،و علی طریقة استنباطه و صوغ أفکاره التی وضعت أصول المذهب الحنفی و رسّخت کیانه.و قد ذکر الخطیب البغدادی أن البخاری قال:حکی لنا عن النعمان أنه قال:(أ لا تعجبون من یعقوب؟یقول علیّ ما لم أقل).مما یظهر أن أبا یوسف کان یسمح لنفسه فی حیاة شیخه أن یستنبط ما یشاء،و یدخل فی المذهب ما یراه.ففی کتاب الخراج یذکر رأی أبی حنیفة،ثم یصرّح برأیه علی خلافه،کما أنه لم یکن لأبی حنیفة کتاب مستقل فی الفقه،نعم نسب إلیه کتاب(العالم و المتعلّم)و قد بیّنا الاختلاف حوله،و أنه لیس له.

یقول الشیخ محمد الخضری:و قد حاول بعض الحنفیة أن یجعل أقوالهم المختلفة أقوالا للإمام رجع عنها.

و الحاصل،إن مذهب أبی حنيفة لم يكن هو مجموع أقواله و آرائه،قد رأينا أصحابه ينفردون بأقوالهم.و لكن حاول الحنفية جعل جميع الأقوال منسوبة إليه لأنها على قواعده و أصوله.

يقول ابن عابدين:(إن ما خالف فيه الأصحاب إمامهم الأعظم لا يخرج عن مذهبه،إذا رجّحه المشايخ المعتبرون.و كذا ما بناه المشايخ على العرف الحادث لتغيير الزمان،أو للضرورة،أو نحو ذلک،لا يخرج عن مذهبه أيضا،لأن ما رجّحوه لترجيح دليله عندهم مأذون فيه من جهة الإمام.و كذا ما بنوه عليه من تغيير الزمان و الضرورة،باعتبار أنه لو كان حيا لقال بما قالوه،لأن ما قالوه إنما هو مبنی على قواعده أيضا،فهو مقتضى مذهبه....)الخ (1).

لقد ابتليت الأمة بحكّام أسرفوا فی البذخ و التمتع من الدنيا،كما أسرفوا فی الظلم و التعدّی على الرعية.و قد قام كل من أهل البيت بما يجب عليه فی نصرة العدل و محاربة الظلم،و بذلوا أنفسهم لتحقيق ما دعا إليه الإسلام بما يكفل للأمة السعادة، لذلک كانوا طعمة لسيوف الظالمين،لأنهم كانوا حربا على الطغاة و الجبارين،و لم يركنوا إلى الظلمة،و لم يتعاونوا معهم امتثالا لأمره تعالى: وَ لا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النّارُ و إذ رأينا اتصال أبی حنيفة بأهل البيت و ميله السياسی إلى حركة زيد الشهيد،و اعترافه بأن الإمام الصادق أفقه الناس،و إقباله على الأخذ عنه،فإن رفض أبی حنيفة العمل للحكام قد يكون من نتائج تمسّكه بنهج أهل البيت فی التباين مع الظالمين و عدم الدخول فيما هم فيه.

و لئن نشأ أبو حنيفة فی أجواء مغرية و ظروف مواتية،فإن ما عاناه كان شاقا و عسيرا،إذ كان عليه أن يوفق بين وجوده وسط تلک الأجواء،و بين اعتقاداته و قناعاته.و اكتشف أن السياسة لها نهجها الثابت فی معاداة أهل البيت بالرغم من تغيّر الرجال و ما تبعثه القربى من احتمالات بعد أن جاء بنو العباس إلى الحكم تحت ستار الرضی من آل محمد،و هم أقرب نسبا و أولى بالبر،فرأى كيف تزهق الأرواح و تداس الكرامات و ترتكب المجازر بحق آل البيت.ثم وقع عليه اختيار السلطة فی أن يكون

1- (1) ابن عابدين،رسم المفتی ص 25.

أداتها فی الإساءة إلی علم الإمام جعفر بن محمد الصادق عند ما کلفه المنصور بأن یحضّر من المسائل ما یتوهّمه صعبا علی الإمام الصادق.و کان حقد المنصور علی الإمام قد سوّغ له أن یتوسل بأمر لیس للإمام الصادق منازع فیه أو صنو.و نعلم أن لقاء أبی حنیفة هذا الذی تم بإشراف المنصور،قد فتح لأبی حنیفة مرحلة جدیدة فی علمه و سیر حیاته.فکان لا یدع فرصة تقرّبه من الإمام إلا استغلها خاصة فی الموسم، و لیس بخاف أن الإمام الصادق کان لا یقرّب أحدا إلا أن یکون ذا نفع،حتی أنه أبعد عنه المتقربین إلی الحکام و حرّم الولایة لهم،لأنه علیه السّلام کان یری:«أن ولایة الجائر دروس الحق کله،و إحیاء الباطل کله،و إظهار الظلم و الجور».و مما ورد عنه أیضا:

«العامل بالظلم و المعین له و الراضی به شرکاء».و دخل علیه عذافر فقال علیه السّلام:

«بلغنی أنک تعامل أبا أیوب و الربیع،فما حالک إذا نودی بک فی أعوان الظلمة؟» و نهی یونس بن یعقوب عن معاونتهم،حتی علی بناء المساجد (1).

و إذا نظرنا إلی الفترة التی برز فیها أبو یوسف،لم نجد من أسباب للبعد عن مواقف أبی حنیفة و التحوّل عن نهجه تحت ظروف الخوف أو الإکراه،و هی فترة خطیرة الأثر فی حیاة المسلمین،إذ علی یدیه أرسیت قاعدة المذهب الرسمی للدولة، و بفعل منصبه کقاضی للقضاة اقترنت بشکل جذری حرکة المذاهب بأغراض السیاسة و مشیئة الحکام.

و لیس هناک فارق زمنی کبیر یبرّر ما حدث من تفاوت بین سیرة و سلوک رئیس المذهب الذی تعرّض للتعذیب و القتل علی ید الحکام،و بین أبرز تلامذته الذی انضمّ إلی الحکّام،فکان واحدا منهم.

و إذا تغیّر الحاکم العباسی بعد المنصور،فیأتی الهادی،ثم الرشید،فإن أسس السیاسة و أغراضها واحدة،و بإزائها نری مسیرة الأئمة من أهل البیت ثابتة و راسخة، فبعد وفاة الإمام الصادق علیه السّلام قام مقامه فی الإمامة ابنه العبد الصالح (2)الإمام موسی بن جعفر الکاظم،الذی عانی من أهوال بنی العباس و ظلمهم الأمرین حتی استشهد.

1- (1) للمزید راجع الجزء الثانی من الکتاب.

2- (2) کان الإمام موسی یعرف بالعبد الصالح لکثرة عبادته.

عن صفوان الجمّال قال:دخلت على الإمام موسى بن جعفر عليه السّلام فقال لى:«يا صفوان،كل شىء منک حسن جميل خلا شيئا واحدا».

قلت:جعلت فداک،أى شىء؟ قال:«كراک جمالک من هذا الرجل»-يعنى هارون- قلت:و اللّه ما أكريته أشرا و لا بطرا،و لا للصيد و لا للّهو،و لكن أكريته لهذا الطريق-يعنى طريق مكة-و لا أتولاّه بنفسى،و لكن أبعث معه غلمانى.

قال:«يا صفوان،أيقع كراک عليهم؟» قلت:نعم جعلت فداک.

قال:«أ تحب بقاءهم حتى خرج كراک؟» قلت:نعم.

قال:«فمن أحب بقاءهم فهو منهم،و من كان منهم فهو كمن ورد النار».

قال صفوان:فذهبت و بعت جمالى.

و قد حاول الرشيد أن يسىء إلى الإمام موسى الكاظم،و على طريقة أسلافه، فاستدعى رجلا ليجمعه بالإمام موسى الكاظم لغرض الإساءة إلى الإمام فى المجلس، و لعلّه يقطعه أو يحرجه،فكانت الغلبة الباهرة للإمام موسى الكاظم.

و لقد عانى الإمام موسى الكاظم منذ زمن خليفة بنى العباس(المهدى)و تعرّض إلى صنوف من التعذيب و الأذى،لأنه كان يمثل لبنى العباس هاجسا و خطرا يتهدد كراسى حكمهم كل حين،لما فى منزلته التى يحتلها فى قلوب الناس من منافسة،و ما يسببه سلطان الإمامة الروحى من عوائق تؤثر على سياستهم و تسلطهم على الرعية.

و قد استدعاه المهدى إلى بغداد فحبسه،فلما كان فى بعض الليالى رأى المهدى الإمام على بن أبى طالب و هو يقول له:«يا محمد فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَ تُقَطِّعُوا أَرْحامَكُمْ فاستيقظ مذعورا،و أمر به،فأخرج من السجن ليلا،فأجلسه معه و عانقه و أقبل عليه،و أخذ عليه العهد أن لا يخرج عليه و لا على أحد من أولاده.

فقال:«و اللّه ما هذا من شأنى،و لا حدّثت فيه نفسى»فقال:صدقت (1).

1- (1) البداية و النهاية ج 10 ص 183. [1]

و أسـهم الرشيد بدوره فى اضطهاد أولاد النبى و عترته الطاهرة،إذ حمله خوفه على سلطان بنى أبيه،و حقده على الإمام موسى بن جعفر على أن يذيقه ألوانا من العذاب و التنكيل و أن يدسّ له السم.

و فى معاملة الرشيد للإمام موسى بن جعفر،يتضافر عداء الحكام لمن يرونهم خطرا،و الحقد الشخصى المحض.

ذكر ابن عمار و غيره ممن كانوا على اطلاع:أنه لما خرج الرشـيد إلى الحج و قرب من المدينة،استقبله الوجوه من أهلها،و تقدمهم موسى بن جعفر عليهما السّـلام على بغلـة،فقال له الربيع:ما هذه الدابة التى تلقيت عليها أمير المؤمنين؟و أنت إن طلبت عليها لم تدرک،و إن طلبت لم تفت؟فقال عليه السّـلام:«إنها تطأطأت عن خيلاء الخيل، و ارتفعت عن ذلة العير،و خير الأمور أوساطها»قال:و لما دخل هارون الرشيد المدينة،توجه لزيارة النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و معه الناس،فتقدم إلى قبر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فقال:

السـلام عليک يا رسول اللّه،السـلام عليک يا ابن عم-مفتخرا بذلک عليه-فتقدم الإمام فقال:«السـلام عليک يا رسول اللّه،السـلام عليک يا أبة.فتغيّر الرشيد،و تبين الغيظ فيه.

و فى إضافة تبين لنا مبلغ ما كان يحسّه الرشـيد من خيبة،و ما سببه له ذكر الحقيقة التى عجز عن طمس إشعاعها و فعلها فى النفوس عشرات الحكام.يذكر ابن كثير أن الرشيد قال:هذا هو الفخر يا أبا الحسين.ثم لم يزل ذلک فى نفسه حتى استدعاه فى سنة تسع و ستين و سجنه (1).

هـذا الحاكم الذى هو على هذه الدرجة من الكراهية لأهل البيت كان أبو يوسف يعمل جهده على إرضائه،و يبذل ما فى وسـعه للتقرّب من عائلته و أهله،لينعم بما يدرّه عليه ذلک.فلا عجب أن يكون من الرشـيد بذلک الموقع،و يحبه ذاک الحب الذى تمنّى معه أن يشركه فى نسبه فقـال:لو جـاز أن أدخلک فى نسبى لفعلت.و لا عجب أن ينحو أبو يوسف بأول مـذهب رسـمى للدولـة ذلک المنحى فى اتّباع الحكّام من الأمويين و العباسيين فى معاداة اتباع أهل البيت،و تعاطى اتهامات الحكام المعهودة

1- (1) البداية و النهاية ج 10 ص 183.و [1]الأصح يا أبا الحسن.

للشيعة بأمور هم منها براء.فشبّ فی ظل مذهب أبی یوسف أناس تابعوه علی الارتباط بمثل هؤلاء الخلفاء و إرضائهم.

و مع کل ما هم فیه من نفوذ و جاه،فإنهم لم یأمنوا غدر الخلفاء،و یبقون کبقیة الرعیة معرّضین لنزول الأذی بهم،فحتی أبو یوسف نفسه یصبّ الماء و یتخبّط توقعا لکل مکروه عند ما دعاه الرشید فی إحدی اللیالی (1).و لننظر ما ذا کان یرید الرشید من أبی یوسف عند ما جاءه هرثمة بن أعین و علی لسان أبی یوسف:(فقلت:تأذن لی أصبّ علیّ ماء و أتحنّط،فإن کان أمر من الأمور کنت قد أحکمت شأنی،و إن رزق اللّه العافیة فلن یضرّ.فأذن لی،فدخلت فلبست ثیابا جددا،و تطیّبت بما أمکن من الطیب، ثم خرجنا فمضینا حتی أتینا دار أمیر المؤمنین الرشید،فإذا مسرور واقف،فقال له هرثمة:قد جئت به؟فقلت لمسرور:یا أبا هاشم خدمتی و حرمتی و میلی،و هذا وقت ضیق،فتدری لم یطلبنی أمیر المؤمنین؟قال:لا.قلت:فمن عنده؟قال عیسی بن جعفر.قلت:و من؟قال:ما عنده ثالث.قال:مرّ،و إذا صرت إلی الصحن فإنه فی الرواق و هو ذاک جالس،فحرّک رجلک بالأرض،فإنه سیسألک،فقل:أنا.فجئت ففعلت،فقال من هذا؟قلت:یعقوب.قال:أدخل.فدخلت،فإذا هو جالس و عن یمینه عیسی بن جعفر،فسلّمت فردّ علیّ السلام،و قال:أظننا روّعناک.قلت:إی و اللّه و کذلک من خلفی.قال:أجلس.فجلست حتی سکن روعی،ثم التفت إلیّ فقال:یا یعقوب،تدری لم دعوتک؟قلت:لا.قال:دعوتک لأشهدک علی هذا،إن عنده جاریة،سألته أن یهبها لی فامتنع،و سألته أن یبیعها فأبی،و اللّه لئن لم یفعل لأقتلنّه.قال:فالتفتّ إلی عیسی،و قلت:و ما بلغ اللّه بجاریة تمنعها أمیر المؤمنین، و تنزل نفسک هذه المنزلة؟قال فقال لی:عجلت علیّ فی القول قبل أن تعرف ما عندی؟قلت:و ما فی هذا من الجواب؟قال:إن علیّ یمینا بالطلاق و العتاق و صدقة ما أملک أن لا أبیع هذه الجاریة و لا أهلها.فالتفت إلیّ الرشید فقال:هل له من ذلک مخرج؟قلت:نعم!قال:و ما هو؟قلت یهب لک نصفها،و یبیعک نصفها،فتکون لم تبع و لم تهب.قال عیسی:و یجوز ذلک؟قلت:نعم!قال فأشهد أنی قد وهبت له نصفها و بعته النصف الباقی بمائة ألف دینار.فقال:الجاریة.فأتی بالجاریة و بالمال،

1- (1) تاریخ الخطیب ج 14 ص 250.و [1]وفیات الأعیان ج 5 ص 247. [2]

فقال:خذها يا أمير المؤمنين بارک اللّه لک فيها.قال:يا يعقوب بقيت واحدة.قلت:

و ما هی؟قال هی مملوکة و لا بد أن تستبرأ،و و اللّه إن لم أبق معها ليلتی إنی أظن أن نفسی ستخرج.قلت:يا أمير المؤمنين تعتقها و تتزوجها،فإن الحرة لا تستبرأ.قال:

فإنی قد أعتقتها،فمن يزوجنيها؟قلت:أنا.فدعا بمسرور و حسين،فخطبت و حمدت اللّه،ثم زوجته علی عشرين ألف دينار.و دعا بالمال فدفعه إليها ثم قال لی:يا يعقوب انصرف.و رفع رأسه إلی مسرور فقال:يا مسرور.قال:لبيک يا أمير المؤمنين.قال:

أحمل إلی يعقوب مائتی ألف درهم و عشرين تختا ثيابا فحمل معی).

و كان الرشيد يقول لأبی يوسف فی الأحوال التی تتطلب مخرجا:اذهب فاحتل (1).

و يقول الغزالی فی وصف هذا المنحی بأنه من فتنة الدنيا،فی مساق قوله أن الفقيه فی الزكاة ينظر إلی ما يقطع به مطالبة السلطان،حتی إذا امتنع عن أدائها، فأخذها السلطان قهرا؛ حكم بأنه برئت ذمته.و حكی أن أبا يوسف القاضی كان يهب ماله لزوجته آخر الحول،و يستوهب مالها إسقاطا للزكاة.فحكی ذلک لأبی حنيفة رحمه اللّه فقال:ذلک من فقهه.و يعقّب الغزالی:صدق،فإن ذلک من فقه الدنيا، و لكن مضرّته فی الآخرة أعظم من كل جناية.و مثل هذا هو العلم الضار (2).

و لا نظن أن حكم الغزالی متعلّق بهذه الحادثة فحسب،لأنها حادثة تهون أمام بقية الأحداث،و إذا كان الغزالی علی غير علم ببقية الحوادث و قال هذا القول،فما الظن به عندئذ؟ و بين حريم القصور العباسية كان أبو يوسف يتمتع بمكانة ما هی إلا امتداد لموقعه عند الرشيد،يذكر الخطيب أن أم جعفر كتبت إلی أبی يوسف:ما ترى فی كذا،و أحب الأشياء إلیّ أن يكون فيه كذا؟فأفتاها بما أحبّت.فبعثت إليه بحقّ فضة فيه حقاق فضة مطبقات فی كل واحدة لون من الطيب،و فی جام دراهم وسطها جام فيه دنانير.فقال له جليس له:قال رسول اللّه صلّی اللّه عليه و آله و سلّم:«من أهديت له هدية فجلساؤه شركاؤه فيها»فقال أبو يوسف:ذاک حين كانت هدايا الناس التمر و اللبن.

1- (1) تاريخ الخطيب ج 14 ص 254. [1]

2- (2) إحياء علوم الدين ج 1 ص 32. [2]

و رويت هذه الحادثة بإضافات أخرى و تفاصيل تولّد فى النفس أحاسيس نكفّ عن التعليق عليها،و ندع الأمر على ما يوحيه،و نتركه على ما تصوّره الأحداث.

و لكن لا بـد من الإشارة إلى أن عصور الانحطاط و التردّى التى وقعت بها الأمـة على أيـدى الحكام و الجبابرة،كانت نتيجـة معلومة سـلفا لمقدمات لا تقتصر على مبادئ حكم العباسيين،بل تتعدّاها لتستغرق عودة الجاهلية الأولى فى حكم معاوية بن أبى سفيان.

و لهـذا قلنـا إن أبـا حنيفـة كـان يسـتغفر اللّه من تركه الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر،و تلك من أهم أوجه الاختلاف بين أبى حنيفـة و تلامذته المقرّبين.و من أظهر الصفات التى اكتسبها من هدى آل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم على أن ذلك لم يمنع من أن تشمله النظرة التى ينظر بها إلى أصـحابه،فعدّ أبو حنيفة إلى جانب أصحابه ممن اتصلوا بخدمة هارون الرشيد،و قوّوا مذهبهم،و حصل لهم العلم و السلطنة (1).

و لا بـد هنا من التعرّض إلى موقف الأنصار و الخصوم،و اسـتعراض الأقوال فيه و آراء الناس حوله،لنقف على ركام من الأخبار المختلفـة و الآراء المتناقضـة،فهناك تعصّب و غلوّ فى شخصـيته،و إعجاب مفرط فى مواهبه.و هناك نقد مرّ لأعماله، و تحامل شديد عليه،و وصف بما لا يليق بشخصية رئيس مذهب و إمام طائفة.

فطائفـة محبّيه و مريديه قد رفعوه إلى منازل النبيين،و زعموا أن التوراة بشّـرت باسـمه،فذكر اسـمه إلى اسم اليهوديين:وهب بن منبّه و كعب الأحبار.و أنه وجـد فى بعض الكتب المنزلـة صـفة ثلاثة رجال من أمة محمد صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم يفوقون أهل زمانهم فقها و علما (2).

و أن النبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم أخبر به قبـل ولادته،فروى مشايخهم بسـندهم عن أبى هريرة أن رسول اللّه قال:يكون فى أمتى رجل يقال له أبو حنيفة هو سراج أمتى يوم القيامة (3).

و عن أبى هريرة أيضا:يكون فى أمتى رجل اسمه النعمان،و كنيته أبو حنيفة هو سراج

1- (1) مناقب الشافعى للرازى ص 139.

2- (2) مناقب الموفق.

3- (3) جامع مسانيد الإمام الأعظم ج 1 ص 141.

أمتی،هو سراج أمتی (1).و بسندهم عن ابن عمر:یظهر من بعدی رجل یعرف بأبی حنیفة یحیی اللّه سنتی علی یدیه.

و یجعل لأمیر المؤمنین علیه أفضل الصلاة و السلام نصیب فی ذلک،فبسندهم عن عبد اللّه بن مغفل قال:سمعت أمیر المؤمنین علی بن أبی طالب رضی اللّه عنه یقول:أ لا أنبئکم برجل من کوفان،من بلدتکم هذه،أو من کوفتکم هذه،یکنّی بأبی حنیفة قد ملئ قلبه علما و حکما،و سیهلک به قوم آخر الزمان،الغالب علیهم التنابز، یقال لهم البنانیة کما هلکت الرافضة بأبی بکر و عمر رضی اللّه عنهما (2).

و کذلک لابن عباس بسندهم عن الضحاک عن ابن عباس قال:یطلع بعد النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بدر علی جمیع خراسان یکنّی بأبی حنیفة.

و إذا توصّل أنصاره إلی إشاعة ذلک،غلب الهوی کل میل للحق،و تحکّم التعصب فی القول،و أغلقوا کلّ منفذ.قال خلف بن أیوب:صار العلم من اللّه تعالی إلی محمد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم ثم صار إلی أصحابه،ثم صار إلی التابعین،ثم صار إلی أبی حنیفة و أصحابه.فمن شاء فلیرض،و من شاء فلیسخط (3).

و یرفعونه فوق منزلة الأنبیاء،لأن عیسی إذا رجع یقلّده و یحکم بمذهبه،و أن الخضر تعلّم أحکام الشریعة منه.

یقول قاضی زاده:اعلم أن المذهب لا یقلّده من الصحابة و التابعین إلا أبو حنیفة،فإن عیسی لمّا ینزل یحکم بمذهبه (4).

و لم یأبه المغالون بشیء،فوصفوا إمامهم بصفات لا یمکن تصدیقها فی حدود إمکانات البشر،کقراءة القرآن سبعین ألف مرة فی محل واحد،و صلاته فی کل لیلة رکعتین یختم القرآن فی کل رکعة،و صلاته الفجر بوضوء العشاء أربعین سنة.و قد سوّی الغلوّ و التعصّب بین أبی حنیفة و بین آخرین اندفع أصحابهم فی ادعاء العبادات لرجالهم علی هذا النمط.

1- (1) نفس المصدر.و تاریخ بغداد.و [1]مناقب الموفق.

2- (2) جامع المسانید.

3- (3) الخطیب البغدادی. [2]

4- (4) جامع الرموز ج 1 ص 2.

و مهما بذل الباحث من جهد فی تحلیل الاعتماد علی ما یمجّه الذوق و ینبو عن العقل فلا یتجاوز الهیاج العاطفی و غلیان الهوی،إذ تتصارع الانفعالات و یعمد إلی الإسفاف و الابتعاد عن الحقیقة،و مهما جهد المرء فی مواجهة اضطراب المنفعل،فلا یلق إلا انفعالا و زیادة فی الاضطراب تدفعه إلی الإغراق أکثر و الإسفاف إلی أبعد مما فی ذهنه،و فی نهایة الأمر تصبح الإساءة عن طریق الهوی و الغلو هی الحصیلة الدائمة.

قالوا:إن اللّه خصّ أبا حنیفة بالشریعة و الکرامة.و من کرامته أن الخضر علیه السّلام کان یجیء إلیه کل یوم وقت الصبح و یتعلم منه أحکام الشریعة إلی خمس سنین.فلما مات أبو حنیفة ناجی الخضر ربه و قال:إلهی،إن کان لی عندک منزلة فأذن لأبی حنیفة حتی یعلّمنی من القبر علی حسب عادته حتی أتعلّم شرع محمد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم علی الکمال.

فأحیاه اللّه،و تعلّم منه العلم إلی خمس و عشرین سنة.و بعد أن أکمل الخضر دراسته، أمره اللّه أن یذهب إلی القشیری و یعلّمه ما تعلّم من أبی حنیفة.و صنّف القشیری ألف کتاب،و هی لا تزال ودیعة فی نهر جیحون،إلی رجوع المسیح،فیحکم بتلک الکتب.لأنه یأتی فی زمان لیس فیه من کتب شرع محمد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فیتسلم المسیح أمانة نهر جیحون،و هی کتب القشیری (1).

و فی وفاة أبی حنیفة یذکرون بکاء الجنّ له،و لهم أسانیدهم أن الجن بکت أبا حنیفة لیلة مات،و کانوا یسمعون الصوت و لا یرون الشخص.

ذهب الفقه فلا فقه لکم فاتقوا اللّه و کونوا خلفا

مات نعمان فمن هذا الذی یحیی اللیل إذا ما سدفا

(2)أما الطائفة الثانیة من معاصریه و غیرهم فقد رموه بالزندقة،و الخروج عن الجادّة،و وصفوه بفساد العقیدة،و الخروج علی نظام الدین،أو مخالفة الکتاب و السنة.و طعنوا فی دینه و جرّدوه من الإیمان (3).

و قالوا:اجتمع سفیان الثوری،و شریک،و حسن بن صالح،و ابن أبی لیلی

1- (1) الإشاعة فی أشراط الساعة ص 120.و الیاقوتة لابن الجوزی ص 45.

2- (2) آکام المرجان للقاضی الشبلی ص 149.

3- (3) انظر أبو حنیفة،محمد أبو زهرة ص 5.

فبعثوا إلى أبى حنيفة فقالوا:ما تقول فى رجل قتل أباه،و نكح أمه،و شرب الخمر فى رأس أبيه؟فقال:مؤمن.فقال ابن أبى ليلى:لا قبلت لک شهادة أبدا.و قال له سفيان الثورى:لا كلمتک أبدا (1).

و حكى عن أبى يوسف،قيل له:أ كان أبو حنيفة مرجئا؟قال:نعم.قيل:أين أنت منه؟قال:إنما كان أبو حنيفة مدرّسا،فما كان من قوله حسنا قبلناه،و ما كان قبيحا تركناه عليه (2).

و حدّث إبراهيم بن بشار،عن سفيان بن عيينة أنه قال:ما رأيت أحدا أجرأ على اللّه من أبى حنيفة.و عنه أيضا:كان أبو حنيفة يضرب لحديث رسول اللّه الأمثال فيبرره بعلمه (3).

و عن الوليد بن مسلم قال:قال لى مالک بن أنس:أ يذكر أبو حنيفة فى بلادكم؟قلت:نعم.قال:لا ينبغى لبلادكم أن تسكن (4).

و عن الأوزاعى يقول:إننا لا ننقم على أبى حنيفة أنه رأى،كلنا يرى،و لكننا ننقم عليه أنه يجيئه الحديث عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فيخالفه إلى غيره (5).

قال ابن عبد البر فى الانتقاء:و ممن طعن عليه و جرحه:محمد بن إسماعيل البخارى،فقال فى كتابه(الضعفاء و المتروكين):أبو حنيفة النعمان بن ثابت الكوفى، قال نعيم بن حماد:حدثنا يحيى بن سعيد و معاذ بن معاذ،قالا:سمعنا سفيان الثورى يقول:استتيب أبو حنيفة من الكفر مرتين.و قال نعيم الفزارى:كنت عند سفيان بن عيينة،فجاء نعى أبى حنيفة،فقال:....كان يهدم الإسلام عروة عروة، و ما ولد فى الإسلام مولود أشرّ منه.و قال ابن الجارود فى كتابه(الضعفاء و المتروكين):النعمان بن ثابت جلّ حديثه و هم.

1- (1) الخطيب ج 13 ص 374.

2- (2) نفس المصدر.

3- (3) الانتقاء لابن عبد البر ص 148.

4- (4) ميزان الشعرانى ج 1 ص 59.

5- (5) تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص 63.

و قد روى عن مالک رحمه اللّه أنه قال فى أبى حنيفة نحو ما ذكره سفيان:إنه شرّ مولود ولد فى الإسلام،و أنه لو خرج على هذه الأمة بالسيف كان أهون.و روى عنه أنه سئل عن قول عمر بن الخطاب:بالعراق الداء العضال؟فقال مالک:أبو حنيفة.و روى ذلک كله أهل الحديث.

و عن وكيع بن الجرّاح أنه قال:وجدت أبا حنيفة خالف مائتى حديث عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.و قيل لابن المبارک:كان الناس يقولون إنک تذهب إلى قول أبى حنيفة؟قال:ليس كل ما يقول الناس يصيبون فيه،كنّا نأتيه زمانا و نحن لا نعرفه،فلما عرفناه تركناه (1).

و لقد جمع ابن عبد البر بعضا من أقوال المادحين و الطاعنين أخذنا منها ما تقدم و سواها كثير بإمكان القارئ الرجوع إليها فى الانتقاء،فى مظانّها الأخرى كالخطيب البغدادى الذى طعن علماء الحنفية فيما أورده،و نسبوه إلى التعصب الأعمى،و أجابوا عما ذكره،و ألفوا فى(تأنيب الخطيب على ما ساقه فى ترجمة أبى حنيفة من الأكاذيب).على أن أعظم الأقوال تأثيرا ما ضمّته مصنّفات أصحاب الصحاح و السنن و التى تتخذ مستمسكا و أصلا يعملان فى النفوس و الأذهان،فكان ما ذكره النسائى عن أبى حنيفة من أكبر ما يرفع فى الحملة ضد أبى حنيفة حيث قال:و قال لنا أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب:و أبو حنيفة ليس بالقوى فى الحديث،و هو كثير الغلط و الخطأ على قلة روايته.ثم يصنّف أصحابه إلى ضعفاء و ثقات (2)فتضم هذه الأقوال إلى بعضها،و تكون مادة للطاعنين.

و صفوة القول،أن دراسة حياة أئمة المذاهب تقتضى التوقف كثيرا عن ركامات ما أنتجته العاطفة و ما أفرزه التعصب،و كما أسلفنا فليس من سبل الحق و طرق الأمانة الاعتماد على ذلک،إذ لا يجنى أحد إلا أمورا لا تمتّ إلى الحقيقة،و لا صلة لها بالواقع.و هى تسىء أكثر مما تنفع،و تضعّف أكثر مما تعضد،و الطرفان فى غنى عن ذلک لو أخلصوا فى المأخذ،و اتخذوا من خصائص الرجال و مكانات أئمة المذاهب مادة لا يتعدّوها إلى نزغات التعصب أو التحامل الفظّ.فمن محب مغال يفتح أبواب

1- (1) الانتقاء لابن عبد البر ص 151.و الخيرات الحسان ص 76.

2- (2) كتاب الضعفاء و المتروكين ص 124.

الخيال و يتخلّى عن الواقع فيسمح لنفسه بإشراک الجن أو المخلوقات الأخرى التى تتخذ وسيلة إلهية فى سياق رسالة نبى أو إظهار معجزة لولى بدونها قد يلحق بالشريعة أذى و قد يصيب دين اللّه الضرر،و من متحامل ناقم يتخلى عن روابط العقيدة و يتناسى و شائج الدين،فيخرج هدفه من حظيرة الإسلام.أما المنامات فأمرها عجب،حيث لا يلتفت أحد من مستخدميها-مادح أو قادح-إلى سخف تعبيرها أو تدنى تأليفها، فظلّت مادة متيسرة لا تكلف ثمنا،يتناولها ذوو الأغراض بيسر و سهولة،و يتلقاها الواقعون تحت تأثير مروّجيها و باعثيها بثقة و استسلام،و تصبح سلاحا بيد العامة، فتهيج على سطح المجتمع لغة المنامات و ما يلحق بها من ادعاءات و كرامات.

أما المصنّفات التى تشتمل على المناقب،فهى جمع لكل ما أشرنا إليه،و أخذ بكل ما راج و كثر،و هى كثيرة،و مع كثرتها فهى لا تهدى السبيل و لا تنير الطريق،إذ أنها-كما يقول الشيخ أبو زهرة-طوائف من الأخبار يسودها المبالغة،و لا يكاد يخلو خبر منها من الإغراق،فتمييز صحيحها من سقيمها يحتاج إلى مقاييس النقد المستقيمة،فأخبارها لا ترفض جملة و لا تؤخذ جملة،إذ هى بلا شک فيها الحق و الباطل،و أخذ الحق من بينها يحتاج إلى نظر فاحص (1).

لقد وجد بعض أتباع أبى حنيفة فى حقيقة كونه فارسيا أمرا غير مرض فحاولوا وضع نسب عربى فقالوا:إن ثابت هو ابن طاوس بن هرمز ملک بنى شيبان.

و قالوا أيضا:إنه من الأنصار،فهو النعمان بن ثابت بن زوطا بن يحيى بن رشاد الأنصارى.

أو أنه تيمى كوفى من رهط حمزة الزيات.

و المشهور من نسب أبى حنيفة أنه:النعمان بن ثابت بن زوطى بن ماه.ولد سنة 80 ه و توفى سنة 150 ه.

و الذين توقفوا عن التلاعب بحقيقة النسب قالوا:بأنه من نسل أفريدون-من ملوک العجم-و وضعوا لذلک حديث:لو كان العلم فى الثريا لتناوله أبناء فارس،أو قوم من أبناء فارس،فخصّصوا عمومه فى أبى حنيفة.

1- (1) أبو حنيفة ص 7.

و فی نهجنا هنا تجرید البحث عن حیاة أبی حنیفة من زوائد فرضتها المیول و الأغراض المتعددة،فقد غلبت علی أکثر کتّاب حیاة أبی حنیفة من أتباعه عاطفة قویة،و سیطر علیهم الاندفاع،حتی أنهم لم یتردّدوا فی استخدام الأساطیر و الخرافات،فهو إمام الأئمة،و أعلم الأمة،و ما من عالم من علماء الدنیا إلا و هو تحت ختمه،و ما من فقیه إلا و هو عیال علیه،و أنه نودی من زاویة البیت الحرام:

عرفت فأحسنت المعرفة،و خدمت فأخلصت الخدمة،غفرنا لک و لمن اتبعک و لمن کان علی مذهبک إلی یوم القیامة (1).

و قد کنا هناک مضطرین إلی ذکر ما أوردوه من أحادیث عن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و مناقشتها،و عند ما وضعناها فی میزان الاعتبار،لم تحرّک کفة عن مستواها فضلا عن ترجیحها،لأن الدوافع واضحة و الأغراض جلیّة،و هی ناجمة عن أوضاع سادت فیها الفرقة و تعرّضت شخصیة أبی حنیفة إلی الانتقاد،فنالوا منه،و وصفوه بکل مکروه.

و قد قطعت خطة تأسیس المذاهب شوطا کبیرا علی الساحة،و أخذت ترسی دعائمها، فتقتطع من أجزاء المجتمع و تسری فی أحشائه،و ینشأ جیل و آخر علی مثل هذه العلاقات.و عبر کل المراحل تختبئ أغراض الحکام وراء کل جانب من جوانب العداء و الفرقة،کما کانت أغراضهم وراء تصنیف الناس و تقسیم دینهم.

و لقد کانت الخصائص التی تجاهلها الکثیرون و لم یذکروها بحقائق أسمائها و دلالة وجودها فی شخصیة أبی حنیفة و مواقفه تمثّل مشکلة للمنصور الدوانیقی (2)الذی عرف بعدائه للعلویین،و میل أبی حنیفة و اتصاله بهم معروف،فتعارضت أغراض المنصور و أهدافه فی إدناء أبی حنیفة،و توجیه الأنظار إلیه،لیقف بإزاء شخصیة الإمام جعفر الصادق،إذ قال له المنصور:یا أبا حنیفة إن الناس قد فتنوا بجعفر بن محمد،فهیّئ له من المسائل الشداد (3).تعارضت هذه الأغراض مع خصائص أبی حنیفة و سلوکه،حتی أنه عجز عن تحویله و إبعاده عن توجیه النقد اللاذع الذی کان شیئا من الأمر بالمعروف و النهی عن المنکر الذی لا یطبقه المنصور

1- (1) مفتاح السعادة 82/2.و [1]مقدمة المناقب للخوارزمی.

2- (2) الدوانیقی أو أبو الدوانیق من الألقاب و الکنی التی أطلقت علی المنصور لشحّه و بخله.

3- (3) المناقب [2]للموفق.

على أصوله،و لا يقوى على مواجهـة أهله،الـذين قلّ عـددهم،و انزوت جموعهم تحت ضـغط أفعال الحكّام و سـياسة بنى العباس.و هكذا ضاق المنصور بأبى حنيفة، و قرر الخلاص منه،و كان لا بدّ له من سـبب ظاهرى يأخذه به أمام الناس،فعرض عليه قضاء بغداد ثانية،و رفضـه أبو حنيفة.و وصـله بهدية أرسـلها إليه،فردّها عليه، فحبسه و ضـيّق عليه،و جعل يضـربه كل يوم عشـرة أسواط،حتى ضرب عشرة و مائة سوطا (1).

إن الأفكار وليدة التجارب،و للبيئة أثرها فى توجيه سـلوك الأفراد،و قد كانت لأبى حنيفة تجارب كثيرة،فقد ولد و نشأ فى الكوفة،و هى البلدة العربيـة التى عرفت بنزعتها الثوريـة و اتجاهها السياسـى ضـد الحكم الأموى و ميلها للعلويين،و قـد شبّ أبو حنيفـة فى عهـد الحجاج بن يوسف.فرأى قسوته و اسـتبداده و سيرته السيئة و حكمه القاسى،و معاملته للناس بما لا يطيقونه من الأذى و العسف،و مات الحجاج و عمر أبى حنيفة حينها خمسة عشر عاما،و شاهد ولاة الأمويين يسيرون بالأمة بالجور، و يخالفون نظم الإسلام اتباعا لملوكهم و طبقا لرغباتهم.

و أصـبحت الكوفـة قاعدة الثورة ضد الظلم الأموى،و مركزا تتجمع فيه القوات الموالية للعلويين و العباسـيين معا.أضف إلى ما احتفظت به الكوفة من نشاط فكرى و صراع عقائدى أورثها مشاكل كثيرة،و أصبح مجتمعها مسرحا للخلافات.

و فى عصر أبى حنيفة،نشطت الدعوة العلوية لوجود كتلة شيعية قوية أثّرت تأثيرا غالبا فى الحركات الفكرية و السياسية،و مع أن الدعوة للثورة كانت مشتركـة بين العلويين و العباسـيين،فإن الدعاية العباسـية كانت محدودة الأثر بالرغم من اسـتغلال العباسـيين لشـعار الدعوة إلى آل محمد صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم و إقامة تنظيماتهم على هامش المناداة بالرضا من آل محمد،فتعاطف الناس معهم و دخلوا فى صفوفهم و هم يظنون بهم خيرا،و أنهم لا يختلفون عن الشـيعة الـذين كـانوا يسـعون بإخلاص إلى الانتصاف لآل بيت نبيهم الأطهار الـذين ينطبق عليهم لفظ آل محمد،و أن الخلافة من أمور الدين، و هم أحق الناس بالقيام بأمر رسالة جدّهم المصطفى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و عند ما نزلت بالأمة كارثة استشهاد سيد الشهداء الإمام أبى عبد اللّه

1- (1) انظر:مقدمة«العالم و المتعلم»للقلعجى و عبد الوهاب الندوى.

الحسین علیه السّلام علی أیدی یزید،کابد الشیعة من نتائجها السیاسیة و النفسیة أهوالا و آلاما دفعتهم إلی مواصلة الجهاد ضد الظلمة و تفجیر الثورات،و کانت السلطة بتجبّرها و طغیانها لا تتورع عن سفک الدماء و إزهاق الأرواح و انتهاک الحرمات، و الشیعة لا یکفّون عن التفانی و تقدیم التضحیات.و لما قامت ثورة زید بن علی،شاع بین الناس من جدید تیار ثورة الإمام الحسین،و انتشر بین صفوفهم نداء نهضة السبط الشهید مرة أخری.فکان أبو حنیفة من المتحمّسین لثورة زید الشهید،و قد مرّ بنا جانب من وجوه انحیازه إلی جانبه،و قد حثّ علی الالتحاق بجیش إبراهیم،کما أفتی بالخروج مع الثوار من أهل البیت بعد أن بایعه (1).

و جاءت إلیه امرأة فقالت له:إنک أفتیت ابنی بالخروج مع إبراهیم فخرج فقتل.

فقال لها:لیتنی کنت مکان ابنک (2).

و قال أبو إسحاق الفزاری:جئت إلی أبی حنیفة فقلت له:ما اتقیت اللّه،أفتیت أخی بالخروج مع إبراهیم بن عبد اللّه حتی قتل؟! فقال:قتل أخیک حیث قتل یعدل قتله یوم بدر،و شهادته مع إبراهیم خیر له من الحیاة (3).

و غیر ذلک من الإجابات و الأقوال-کما ألمحنا إلیه سابقا-و التی تکشف انحیازه للثورة،و تعلّقه بقادتها إلی حدّ تتضح فیه ظروف إقامة أبی حنیفة فی ظل المنصور الذی أقضت مضجعه تلک الثورة،و بقی کأنه یتقلب علی ألسنة النیران أو یبیت علی حسک السعدان،حتی اتّسخت ثیابه،و زری مظهره،و هو یتلظّی یطلب رءوس أهل البیت.و أبو حنیفة یکتب إلی إبراهیم یشیر علیه أن یقصد الکوفة و یقول:ائتها سرا،فإن من هاهنا من شیعتکم یبیتون أبا جعفر فیقتلونه أو یأخذون برقبته فیأتونک به (4).و یجهّزه بأربعة آلاف درهم لم یکن عنده غیرها (5)و یقول له:

فإذا لقیت القوم و ظفرت بهم فأفعل کما فعل أبوک فی أهل صفین،أقتل مدبرهم،

1- (1) عمدة الطالب ص 109. [1]

2- (2) مراقد المعارف 97/1.و عمدة الطالب. [2]

3- (3) المقاتل ج 2 ص 712. [3]

4- (4) المقاتل. [4]

5- (5) عمدة الطالب. [5]

و أجهز على جريحهم.و لا ـ تفعل كما فعل أبوک فی أهل الجمل،فإن القوم لهم فئة (1)فلا يفرق بين دولة معاوية و بين دولة المنصور،مما يجعل تقدير خفاء وضعه على المنصور بعيدا.و هو الملک الذی عدّ من دهاة عصره،و قد أخّر تنفيذ حکمه إلى حين الانتهاء من الأوضاع المعقدة و الظروف الشائکة التی يسببها له أهل البيت عليهم السّلام سواء بمکاناتهم الدينية أو سلطانهم الروحی أو حرکاتهم الثورية و تصدّيهم لظلمه بحد السيف.و مهما يکن الاختلاف و کثرة الأقوال عن الأسباب التی دعت المنصور إلى الحقد عليه،فمما لا شک فيه أن السبب الأساس الذی يعنی السلطة هو صلة أبی حنيفة بالعلويين و ميله إليهم.و قد مرّ بنا المزيد من ذلک بما لا زيادة عليه فی رأينا (2).

و يبدو أن مدرسة أبی حنفية-برغم وجوده حيا-کانت تتأثر بالسلطة،يتتلمذ الأصحاب على إمامهم فی العلم و الفقه،و ينفتحون على الحکام و الساسة فی المواقف و السلوک.و قد رأينا مدى التحوّل فی خط أبی يوسف.أما زفر بن الهذيل فيقول:

کان أبو حنيفة يجهر فی أمر إبراهيم جهرا شديدا،و يفتی الناس بالخروج معه.فقلت له:و اللّه ما أنت بمنة عن هذا حتى نؤتی،فتوضع فی أعناقنا الحبال (3).

و فی الجملة،فإن موقف امتناعه عن تقلّد القضاء من أهم شواهد السلوک الذی تميز بها أبو حنيفة،و هو يشتمل على دلالات لم تغب عن بال المنصور.لأن الرفض يفسد خطة المنصور السياسية التی وضعها لمواجهة نفوذ أهل البيت عليهم السّلام و لذلک فإن فکرة المذاهب الرسمية أو السلطوية لم تلصق بأبی حنيفة،إذ أعاقها رفضه و امتناعه، و إنما ترتبط بأعمدة مدرسته.کذلک فإن امتناع أبی حنيفة عن تولی القضاء يعنی منع التعاون معهم و حجب التأييد عنهم،و ما يحمل ذلک على أنه يرى عدم صحة إمامة المنصور فلا يجوز تولی القضاء لهم.و کيف لا يعتقد ذلک منه،و قد تأثر بأساتذته من سادة أهل البيت،حيث حضر عند الإمام الباقر عليه السّلام المتوفی 114 ه زيد الشهيد عليه السّلام المتوفی سنة 122 ه و الإمام الصادق عليه السّلام المتوفی سنة 148 ه.

1- (1) مراقد المعارف.و المقاتل.و العمدة. [1]

2- (2) انظر ج 1 من الکتاب.

3- (3) المقاتل. [2]

و حقيقة الأمر أن جلّ ما تشير إليه أخباره فى هذا المقام يبين منه أنه كان قلبه مع العلويين فى خروجهم أولا- على الأمويين، ثم فى خروجهم ثانيا على العباسيين، و كان لا يرى لبنى أمية على أى حال حقا و لا سلطانا من الشرع أو الدين، و لكنه لا يحمل السيف، و لا يثور، لاعتبارات لها مقامها (1).

و يبدو أن ذلک كان مشهورا منه منذ عهد الأمويين، فتوحّدت وسيلة الإيقاع به من قبل النظامين، و اتّخذ القضاء محكا لأنه منصب دينى و سلطة تشريعية تسند إلى من يتميّز بالعلم و المكانة الدينية، فضلا عن أن توليها يعنى التحاق صاحبها بالملوک و الحكام، و قد ألمحنا إلى محنته مع ابن هبيرة والى الأمويين حتى لتكاد تتساوى العقوبة كأنها تصدر عن وال واحد، و ليس ذلک بغريب لأن التهمة واحدة. يروى الحسن بن زياد- صاحب أبى حنيفة- عن أبى حنيفة قال: كان بنو أمية يطلبون الفقهاء للإفتاء، فدعانى واحد منهم و كان أول ما دعيت، و عن يمينه و شماله ابن أبى ليلى و ابن شبرمة، فقال لأحدهما: ما تقول فى امرأة زوّجت نفسها فى عدّتها؟ قال: تفرق و تضرب ضرب النكال، و المهر فى بيت المال. و قال الآخر مثل ذلک. فقال: يا نعمان، ما تقول أنت؟ فاسترجعت و قلت: هذا أول ما دعيت، كيف لا أقول ما أدين به، و قولى فيها قول على رضى اللّه عنه، و بنو أمية لا يذكر عندهم على و لا يفتون برأيه، فقلت: أصلحک اللّه، اختلف فيها بدريّان من أصحابه عليه السّلام فقال عمر رضى اللّه عنه بما قالا، و قال الآخر تفرق، و تتم عدة الأول و عليها عدة مستأنفة من الثانى إذ دخل بها، و عليه المهر بما استحل من فرجها، و لا يجعل فى بيت المال.

قال: من قال هذا؟ قلت: على بن أبى طالب رضى اللّه عنه. قالوا: أبو تراب؟ قلت نعم. فنكس رأسه و قال لأشبه القولين بالحديث... ا ه. و فى أخرى زيادة قال (ابن هبيرة) بأى القولين تأخذ أنت؟ قال: قلت: عمر عندى أفضل من على، لكن برأى على آخذ.

و جلى أن أبا حنيفة إضافة إلى ما صرح به من خشيته جانب الحاكم الأموى.

و تدرّجه فى الإجابة الحذرة، فإنما بادر إلى تقديم ذكر الأفضلية لتهدئة نفس الحاكم، و من ثم التحوّل إلى الرأى. حكى أن الكردرى يعقبه بالقول: و إنما ذكر حديث

1- (1) أبو حنيفة لأبى زهرة ص 31.

الأفضلية-و إن لم يكن له دخل فى المقصود-لئلا يتهم بالرفض أو الاعتزال،و كان بنو أمية لا يذكر عندهم علىّ،و كل من ذكره عندهم عاقبوه.و كانت العلامة فيه أن يقولوا:قال الشيخ كذا،و كان الحسن البصرى إذا ذكره قال:قال أبو زينب كذا (1).

و من المعروف عن رأى أبى حنيفة أنه:ما قاتل أحد عليا،إلا و علىّ أولى بالحق منه.عن الحسين بن زياد قال:سمعت أبا حنيفة يقول:لا شك أن أمير المؤمنين عليا إنما قاتل طلحة و الزبير بعد أن بايعاه و خالفاه.و فى رواية أنه قال:و هو (الإمام على)علّم المسلمين السنّة فى قتال أهل البغى (2).

كما أنه كان يروى عن أسانيده،و يبدو لعلّة لا تعدو الحكام و الإشفاق منهم، و كأنه يهرب من بلائهم،فيروى عن حمّاد قال:قال إبراهيم:علىّ أحبّ إلينا من عثمان (3)و معلوم علاقة حمّاد و إبراهيم و دورهما فى تكوين مكانة أبى حنيفة و الصلة التى تجمعهم.

و قد حضر أبو حنيفة عند علماء الشيعة،و أخذ عنهم العلم،و روى أحاديثهم، نذكر منهم على سبيل الإشارة لا الاستقصاء:

جابر بن يزيد بن الحارث الجعفى المتوفى سنة 128 ه.

حبيب ابن أبى ثابت أبو يحيى بن قيس الكوفى المتوفى سنة 119 ه.

فحول بن راشد،أبو راشد النهدى المتوفى 141 ه.

عطية بن سعد العوفى المتوفى سنة 111 ه.

أجلح الكندى،و قيل اسمه يحيى بن عبد اللّه،و لقبه الأجلح المتوفى سنة 145 ه.إسماعيل بن أبى عبد الرحمن بن أبى كريمة المتوفى سنة 127 ه.

المنهال بن عمر الكوفى التابعى.

عدى بن ثابت الأنصارى الكوفى المتوفى سنة 119 ه.

زبيد بن الحارث الأيامى المتوفى سنة 122 ه.

1- (1) المناقب 173/1. [1]

2- (2) المناقب [2]للموفق 84/2.

3- (3) المصدر السابق.

و غيرهم من رجال الحديث،و قد خرّج أحاديثهم كبار المحدّثين،و ضـمّت كتب الرجال تراجمهم و أسـماء من حضـر عندهم من العلماء (1).

وفاته

:

توفى أبو حنيفة سنة 150 ه ببغداد،و دفن بالجانب الشـرقى بمقبرة الخيزران، و فيها قبر محمد بن إسـحاق صاحب السيرة(و كانت قبلا مقبرة للمجوس تسمى أيضا الحضرية) (2).

و فى سبب وفاته ثلاث روايات:

الأولى:أن أبا حنيفة بقى فى السجن مضيّقا عليه إلى أن وافته المنية.

و الثانية:أن المنصور أخرجه من السجن،و فرض عليه الإقامة الجبرية فى المدينة،و منعه من الاتصال بالناس إلى أن توفى.

و الثالثة:أن المنصور دسّ له السم.

و جميعها تدين الحكام بموته،لإن ذنبه فى نظر المنصور لا يغتفر.

أولاده و أحفاده

:

لم يكن لأبى حنيفة عقب مشـهور أو ذرية واسعة.أما الشهرة بكنيته(أبى حنيفة) فليست قائمة على اسم لبنت له،فليس له بنت تسمى حنيفة،و إنما كنّى بأبى حنيفة لملازمته لدواة على هيئة خاصة و تعرف بحنيفة،فهو دائما يستصـحب تلك الدواة ذات الشكل المستطيل الذى يجلب انتباه الناظر إليه.

و لم نعثر على ولد له غير حمّاد.

و كان حمّاد قد تفقه على يد أبيه،و ولّى قضاء الكوفة بعد القاسم بن معين تلميذ أبى حنيفة.

1- (1) انظر الخلاصة للخزرجى.و ميزان الاعتدال للذهبى.و لسان الميزان لابن حجر.و هداية البارى لشرح صحيح البخارى و غيرها.

2- (2) تاريخ جامع الإمام الأعظم للشيخ هاشم الأعظمى ص 21.

قال الذهبى:حمّاد بن أبى حنيفة النعمان بن ثابت الكوفى ضعّفه ابن عدى و غيره من قبل حفظه،و توفى سنة ست و سبعين و مائة.

و كان لحمّاد بن أبى حنيفة ولد يسمى إسماعيل،روى عن أبيه عن جده أبى حنيفة.

قال ابن عدى:ثلاثتهم ضعفاء.

و قد ولّى قضاء الرصافة و قضاء البصرة،و كان عارفا بالقضاء،و مات سنة 212 و هو شاب و قد تفقه على يد أبى يوسف.و لم نعثر على شىء له يعتبر.

قبره

:

أما قبره فكان أول رواق بنى عليه سنة 379 ه و يروى أنه فى سنة ست و ثلاثين و أربعمائة وضع أساس مسجد بالكلس و النورة فى موضع ضريحه،و كان المنفق عليه تركى قدم حاجا.

و يذكر ابن خلكان أن شرف الدين الملك أبو سعد محمد بن منصور الخوارزمى مستوفى مملكة السلطان ملك شاه السلجوقى بنى على قبر أبى حنيفة مشهدا أو قبة نيابة عن الملوك السلاجقة،و بنى عنده مدرسة كبيرة للحنفية،و لما فرغ من عمارة ذلك،ركب إليها فى جماعة من الأعيان ليشاهدوها (1).و يقول ابن الجوزى:و ان حنفيا متعصبا.و كان ذلك سنة ثلاث و خمسين و أربعمائة،فهدم جميع الأبنية التى فى المسجد و ما يحيط بالقبر و بنى القبة،و قد جاء بالقطّاعين و المهندسين،و قدّر لها ألوف،و ابتاع دورا من جوار القبر،و حفر أساس القبة، و كانوا يطلبون الأرض الصلبة،فلم يبلغوا إليها إلا بعد حفر سبعة عشر ذراعا،فى ستة عشر ذراعا فخرج من الحفر عظام الأموات الذين كانوا يطلبون جوار النعمان (2).

و قد تكوّنت حوله محلة عرفت بمحلة أبى حنيفة،و اسم الأعظمية حادث.

و عنى الأتراك عناية فائقة بالقبر و صاحبه،و بذلوا جهدا كبيرا فى إعلاء شأن

1- (1) وفيات الأعيان ج 5 ص 46. [1]

2- (2) انظر:المنتظم ج 8 ص 245 و 246. [2]

المذهب.فلما احتل السلطان سليمان القانونى بغداد سنة إحدى و أربعون و تسعمائة هجرية أقام مسجد الإمام الأعظم و مشهده،و باشر بإصلاح ما تهدّم من قبره أيام الفرس،و بنى عليه قبة و مدرسة،و عمّر فى أطرافها قلعة و اتخذها جامعا و دار ضيافة و حماما و خانا،و عيّن للقلعة محافظا و جنّد لحراستها مائة و خمسين،و وضع فيها معدات كافية.كما بنى مسناة فى الأعظمية لحفظها من الفيضان.

و إضافة إلى قيام الأتراک بتشييد مرقد أبى حنيفة و اهتمامهم بأمره،فقد أعلنوا اتخاذ مذهبه مذهبا رسميا،و أصبحوا يرجعون الناس إليه،و يلزمون الأمة باتباعه، حتى وازى وجود المذهب و مناطق انتشاره حدود و نفوذ العثمانيين و مناطق احتلالهم، و سبب ذلک أنهم وجدوا فى عدم اشتراط القرشية فى الخلافة عند أبى حنيفة مقوّما لاستيلائهم و تحكمهم برقاب المسلمين،فاحتل أبو حنيفة المكانة السامية فى نفوس العثمانيين،و تعلقت به أفئدة العائلة الحاكمة.فنجد أم السلطان عبد العزيز السيدة الصالحة تنذر فى مرضها إن شفاها اللّه عز و جل لتشيدنّ مسجد الإمام الأعظم مجددا (1).

كما كان الحنفية أنصارا للأتراک و اتباعا للباب العالى،ففى مصر وجد منهم نصيرا قويا أطلق يده فى حكم وادى النيل و فى تقرير مصيره،و كان من نتيجة تفضيل السلطات الرسمية لأتباع المذهب الحنفى أن تحوّل إليه كثير من أتباع المذاهب الأخرى (2).

أحمد بن حنبل 164-241 ه

اشارة

و نعاود الحديث عن أحمد بن حنبل،و قد رأينا بحث بعض جوانب شخصيته فى هذا الجزء لتقدم الإشارة إليه فى بدء الجزء السابع،و نرجو أن لا يعدّ ذلک خروجا على قواعد الأفضلية أو الرتبة الزمنية،فأنا لا نراها كانت فى يوم مناط إجماع أو إلزام فى غيره أو فى شخصه.كما إن تقديمه لا يعنى خلاف ذلک؟

1- (1) المقدسى،أحسن التقاسيم.

2- (2) دائرة المعارف الإسلامية/مادة الأزهر.

و نتبع منهجنا التحليلى فى نهاية البحث لنكمل ما سلف من إشارة عنه و عن الحنابلة،و نبدأ ببعض المعلومات و الصور عنه.

و قد مرّ بنا شىء من هياج الحنابلة الذين تجاوزوا القصد و ألحقوا بالمسلمين الآخرين البلاء،و نرغب عن الخوض فى عوامل اتخاذ العامة للحنبلية شعارا يوحى بالعناد و التزمّت و الأذى.و نعمل على سوق الأحداث و الاتجاه إلى دراسة شخصية الإمام أحمد فى عناصرها الأساسية،و لا نفيض فى البحث بأكثر مما يقتضيه الغرض.

و أحمد بن حنبل فى مكانته و شهرته،هو نتاج مشكلة(خلق القرآن)و هى المشكلة التى اتخذها المأمون وسيلة لإقامة سلطانه حسب ميوله الفكرية و تكوينه المتأثر بروح العصر،ليواجه ما توارثته العقول و استقر فى الأذهان على أنماط الحكّام و طرق الموجهين و لكن بأساليب قمعية كان ضحيتها الفكر و روح التحرر قبل أن يضحّى بسببها بأى شىء آخر.و لأن الإمام أحمد كان رجل المحنة،و تعرّض إلى الأذى الجسدى و النفسى،و تجرّع آلام السجن؛اتصلت به عواطف الناس و تعلقت به مشاعرهم،بعد أن وجدوا أنفسهم معرّضين إلى السخط،و قد اضطرب كيانهم، و اهتزت شبكة معتقداتهم التى وجدوا عليها أباءهم و ألفوها عبر عشرات السنين متعارف عليها بين أوساط الحكّام و الخطباء و المتنفذين.

و بدءا نقول:إن نتائج المحنة تركت آثارا قوية لفّت كل جوانب حياة أحمد بن حنبل،و أدت فى كثير من الأحيان إلى الغموض أو التعارض ليتحاشى ما يشبه الهاجس فى الداخل.

و لنرافق أحمد بن حنبل فى ترجمته فهو:

أحمد بن محمد بن حنبل الشيبانى المروزى،كان جده حنبلا واليا من قبل الأمويين على سرخس،و يقال:إنه دخل بعد ذلک فى سلک الدعوة العباسية،فكان من دعاتها المبرّزين،و بذلک فإن الإمام أحمد ينسب إلى جده حنبل،و قد يكون ذلک لوفاة أبيه و نشوئه فى ظل جده أو عمه.

و قد وقع الاختلاف فى موت محمد والد أحمد،هل مات فى مرو،أو أنه نزح

إلى بغداد مع زوجته والدة أحمد و هى:صفية بنت عبد الملک بن سوادة بن هند الشيبانى،و نقل عن أحمد ما يؤيد القول الأول،و أنه قال:قدم أبى من خراسان و أنا حمل،و ولدت هاهنا-ببغداد-و لم أر جدّى و لا أبى،و لا تزوجت إلا بعد الأربعين (1).

نشأ أحمد فى بغداد،و اتجه لطلب العلم،و حضر عند علمائها.و له رحلات متعددة،و اتصل بالشافعى محمد بن إدريس،و حضر عنده كما حضر عند أبى يوسف،فكتب فقه أهل الرأى (2).

و روى عنه أنه قال:أول ما طلبت الحديث ذهبت إلى أبى يوسف القاضى،ثم طلبنا بعده فكتبنا عن الناس.ثم قال:أول من كتبت عنه الحديث أبو يوسف،و أنا لا أحدّث عنه (3).

و ذلک أنه رأى أبا حنيفة و أتباعه يقدّمون الرأى (4)و أقبل أحمد على الحديث حتى عدّ من المحدّثين لا الفقهاء،و هذا ما آثار غضب الحنابلة على الطبرى و غيره من الذين قالوا بهذا الرأى.

و قد مرّ الحديث عن حياة الإمام أحمد منذ نشأته،و رافقناه فى محنته،تلک المحنة التى هبّت عواصفها السياسية و العقائدية،فأحدثت انقساما فى صفوف المسلمين،و ذلک عند ما أعلن المأمون سنة 218 ه وجوب الاعتقاد بخلق القرآن،و أنه حادث غير قديم كما يراه المعتزلة و غيرهم،و قد فرض المأمون القول بخلق القرآن بالقوة،و عقد مجلسا للامتحان كما اختار جماعة من الجلاّدين الجفاة الذين مرنوا على الضرب بالسياط.

و قد امتحن جماعة من العلماء،فامتنع بعض و أقرّ آخرون.

و قد أوجدت هذه المحنة مشكلة كلامية تحتاج إلى دراسة واسعة فى علم

1- (1) طبقات الحنابلة 1:63. [1]

2- (2) المدخل إلى فقه الإمام أحمد ص 38.

3- (3) أحمد بن حنبل لسيد الأهل ص 36.

4- (4) نفس المصدر.

الكلام،و بيان المراد من الكلام النفسانى و تعلقه بالـذات،و قـد تناولتها الأقلام قـديما و حـديثا،و ربما وقع و هم من بعض من تعرّض لهذه المسألة تاريخيا فسار وراء ظواهر الأقوال،و عبّر عن الخلق بالمعنى اللغوى و هو الكذب،فيقال إنه مخلوق أى مكذوب.

و كان الخليل بن أحمد يمنع أن يوصف الكلام بالمخلوق،و يقول:إن الكلام متى أطلق عليه الخلق فالقصد الكذب،و لهذا يقال:كلام خلقه فلان أى تقوّله.و كان ذلک من رأى الشيعة كما تقدم فى أول الكتاب.

و قـد ورد فى كثير من أقوال العرب:اختلق كـذا أى كذب فيه.و سـئل بعض الفقهاء فى المحنة فقال:أصـفه بأنه محدث،و لا أقول إنه مخلوق لقوله تعالى: ما يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ فمعنى أنه مخلوق و هو غير منزل.و بهـذا أخـذ العوام فى إثارة البغضاء و إيقاد نار الفتنـة و نشـر الدعاية ضد المعتزلة بأنهم يذهبون إلى خلق القرآن أى إلى عدم كونه منزلا من اللّه تعالى،و اتسعت شقة الخلاف،و حدث فى صفوف الأمـة الانقسام.و كان الإمام أحمـد قـد امتحن و ثبت،فاجتاز المحنـة عند ما اعتلى الحكم المتوكل العباسـى،فكان انتصارا لأحمد و لمن اتصل به،و بخروجه باتت المحنة تشمل العامة، فاحتفلت بالانتصار بعواطف هيّاجة و نقمة عارمة طافت على سطحها و ركبت موجها وجوه تضـررت مصالحها و تضاءلت مكانتها،فانـدفعت بكل ما أوتيت من قـدرات إلى تمجيـد المتوكل و تعظيمه،و اتبعهم على ذلک بإخلاص أخلافهم.

قال ابن الجوزى:أطفأ المتوكل نيران البدعـة،و أوقـد مصابيـح السـنّة،و قد قال من سـبقوه:الخلفاء ثلاثة أبو بكر الصديق قاتل أهل الردّة حتى استجابوا له،و عمر بن العزيز ردّ مظالم بنى أمية،و المتوكل محا البدع و أظهر السنّة.كما خلقوا له مناقب و أطيافا،و رفعوا شعار العدالة باسمه و هو أظلم خليفة من بنى العباس،فأسدلوا على ظلمه سـتار المدح الزائف،و جعلوا سـيئاته حسـنات،و أخذ القصّاصون بنشر الأطياف بحقه حيا و ميتا.

أما الإمام أحمد،فإنه أصبح إمام السنّة و بطل الإسلام،و أنه ما قام أحد بأمر الإسلام كما قام به أحمد.

و قالوا:أحمد بن حنبل إمام،و من لا يرضى بإمامته فهو مبتدع ضال.

و قالوا:أحمد بن حنبل إمام المسلمين و سيد المؤمنين،و به نحيا و نموت،و به نبعث.فمن قال غير هذا فهو من الجاهلين (1).

و جعلوا بغضه كفر،و حبّه من السنّة.

و قالوا:إذا رأيت الرجل يحب أحمد بن حنبل،فأعلم أنه صاحب سنّة و جماعة (2).

و أسندوا إلى الشافعى أنه قال:من أبغض أحمد بن حنبل فهو كافر.فقيل له:

تطلق عليه اسم الكفر باللّه العظيم؟فقال:نعم،من أبغض أحمد بن حنبل قصد الصحابة،و من قصد الصحابة أبغض النبى،و من أبغض النبى كفر باللّه العظيم (3).

فيكون الناتج من هذه القضية،أن من أبغض أحمد بن حنبل كفر باللّه العظيم.و هذا غريب من الشافعى،إذ يعتمد على نتيجة مقدمة كاذبة.

و قد رأينا فيما تقدم من بيان الإغراق فى المدح من قبل أتباع أئمة المذاهب ما خرجوا به عن طريق المعقول و تجاوزوا فيه حدود المنطق.على أن جولة الحنابلة فى عصر التطاحن المذهبى،خلقت كثيرا من الأمور المناقضة للحقيقة و المخالفة لما يقتضيه واقع الإمام أحمد و سيرته،فقد اندفعوا بصورة واسعة إلى خلق مشاكل فى المجتمع،و أرهبوا الناس،و اضطرب حبل الأمن من جرّاء نشاطاتهم حول نشر مذهبهم مما لا ربط له بإمامهم.

و فى عصر المتوكل كان نشاطهم سياسيا أكثر من أن يكون عقائديا،و قد شدّ المتوكل أزرهم،و أخبر المتوكل بعد موت أحمد أن الحنابلة يكون بينهم و بين أهل البدع(و هم غيرهم من الطوائف)الشر،فقال لصاحب الخبر:لا ترفع إلىّ من أخبارهم،و شدّ على أيديهم فإنهم و صاحبهم من سادة أمة محمد.

و استغل الحنابلة هذه الفرصة،فراحوا فى ذلك الودّ يتنفّسون حرية الكلام

1- (1) ذيل طبقات الحنابلة ج 1 ص 136.

2- (2) الجرح و التعديل ج 1 ص 308.

3- (3) طبقات الحنابلة ج 1 ص 13. [1]

و حرية الانتقام من خصومهم أيام المحنة،فلم يسلكوا طريقة أحمد فى حياته فى الصفح و التجاوز،لأنهم خضعوا لأناس آخرين كان نفعهم فى الأذى و مصلحتهم فى الأضرار،و منه من رأى فى التحول على يد المتوكل و العودة إلى ما كان عليه الأمر قبل المأمون فرصة تسمح لهم بأن يفعلوا بالآخرين ما فعله المأمون،و هكذا تنتهى محنة لتبدأ أخرى.

و قد أخذ المتوكل بإضفاء الطابع الحنبلى على حكمه من خلال قوله و إذاعته المسائل التى يتميز بها أحمد،فقسّم الجوائز على فقهاء و محدّثين،و أجرى عليهم الأرزاق،و أشخصهم،و كان فيهم مصعب الزبيرى،و إسحاق بن أبى إسرائيل، و إبراهيم بن عبد اللّه الهروى،و عبد اللّه و عثمان ابنا أبى شيبة.و أمرهم المتوكل أن يجلسوا للناس،و أن يحدّثوا بالأحاديث التى فيها الرد على المعتزلة و الجهمية،و أن يحدّثوا فى الرؤية (1).و هى الأمور التى اشتغل بها أحمد،و أثرت عنه رسالة اشتملت على آرائه و معتقداته فى البدعة و السنّة و الرؤية و إجابات ضمّنها أقواله،أشرنا إليها فيما مضى.

و يبدو أن المتوكل أراد أن يستكمل خطته فى تبنّى المذهب الحنبلى،فعزم على استقدام أحمد بن حنبل إلى مقرّ ملكه فى سامراء.و هى و إن لم تكن على طريقة أسلافه،لأن عمله و ميله إلى أحمد بن حنبل تتداخل فيه عوامل كثيرة،هى مزيج من مشاعر و أهواء و أغراض.إلا أن أحمد نفسه كان غير مستعد لمثل هذا العمل،فهو يتردد أو يحذر من مخالفة الحكام لسبب لا يتفق مع الأسباب التى يدعو إليها أصحاب مبدأ مقاطعة سلطان الظلمة،إذ هو يدعو إلى إطاعة«الإمام»البر و الفاجر مما يجعله بعيدا عن أصحاب الدعوة إلى الثورة على الظلمة،و يحصر القضية فى أمور هى من أكبر عوامل الظلم و الجور،و لكنه لا يقرّ بها أسبابا للثورة أو الخروج على حكم المتسلطين.

كان إسحاق بن إبراهيم من كبار رجال الدعوة العباسية،فأمره المتوكل بإشخاص أحمد بن حنبل من بغداد إلى سامراء بعد انتهاء المحنة،فأخبره إسحاق

1- (1) مناقب أحمد لابن الجوزى ص 357.

بذلک،ثم قال لأحمد:أسألک عن القرآن مسألة مسترشد لا مسألة امتحان،و لیکن ذلک عندک مستورا،ما تقول فی القرآن؟قال أحمد:القرآن کلام اللّه غیر مخلوق.

قال إسحاق:من أین قلت:غیر مخلوق؟ فأجاب أحمد:إن اللّه عز و جل یقول: أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَ الْأَمْرُ ففرّق بین الخلق و الأمر.

فقال:الأمر مخلوق؟ فقال أحمد:یا سبحان اللّه،أ مخلوق یخلق مخلوقا؟! قال إسحاق:و عمن تحکی أنه غیر مخلوق؟ قال أحمد:جعفر بن محمد الصادق قال:لیس بخالق و لا مخلوق.فسکت إسحاق (1).

و هذا یدلنا علی شدة التکتّم فی المسألة،و عدم الخوض فی شیء من ذلک، لأنه یؤدی إلی مخالفة رأی السلطة.و هذا الرجل أی إسحاق هو من رجال الدولة یسأل مسترشدا أو یطلب ستر ذلک،لأن إظهاره یجرّه إلی نکال المؤاخذة.

و مهما یکن من أمر،فقد سکت إسحاق مقتنعا بظاهر القول و دلالة اللفظ.

و الغرض أن المسألة هی من المسائل العلمیّة الهامة،و هی علی جانب کبیر من الخطر،فلم یکن هناک مجال لعرض الآراء و استماع الحجج و إقامة البرهان من کلا الطرفین،و بهذا أصبح الأمر فوضی،فقد استساغ المعتزلة حمل خصومهم علی الاعتقاد بالقوة،و لهذا باءت سیاستهم بالخیبة و الخذلان،و انتصرت علیهم قوی العامة التی آثرت التمسک بالسنن و الآثار،و ترک الخوض فی علم الکلام،و تحکیم العقل.

و قامت هناک عاطفة دینیة تدعوا إلی صیانة کتاب اللّه عن الطعن فیه،أو عدم نزوله.

کما حرّفوا مدلول المسألة.

و فی مواجهة المشکلة،کان أحمد یری أن الخوض فی قضیة خلق القرآن لم تکن مطروقة و لیست من السنة،حتی أنه کان یطالب مناظریه بشیء من السنة فیما

1- (1) ابن الجوزی،مناقب أحمد ص 359.

يـدعونه إليه.و لاـ ننكر أن دافع الحرص على قدسـية النص كـان وراء موقف أحمـد و إجاباته،غير أن الإمام أحمـد بالغ فى انتهاج النصـيّة و الاعتمـاد على السـلف إلى حـدّ ألغى فيه فرص التحـاور و إمكانيـة المناظرة،و أدى به إصـراره إلى تحاشـى الرأى كليا، حتى لكأنه حاول أن يجعل نفسه بعيـدا عن الأحداث و لا يقرّ بتحولات الظروف و تطورات الوقائع التى وضع الاجتهاد لمعالجتها و هدى الأمة بالاسـتنباط من الأصول،و إرشادها باسـتخراج الأحكام من النصوص،حتى يجد المسـلمون فى كتاب اللّه و سنّة نبيّه مصدرا يسع كل ما يجدّ من أحداث،و ينطوى على كل ما يقع من الوقائع.

لقد غلب على الإمام أحمد التقيّد بالنص و الاتباع و التقليد،و لم يدع مجالا للرأى،و كان يتحرّى المسائل على ما سمعه و روى له،و يحذر من إجالـة الرأى أو التقـدير،و لاـ يجيب إلاـ فى مسألـة وقعت.فـإن كـان احتمالا أو توقّعا امتنع،و لا يحفل إن كان ذلک على أشـباه الوقائع القريبة،أو بعيدا عنها.

و على يديه وضـعت مبادئ ما عرف عن ابن تيمية و ابن قيّم الجوزية من تعنّت و تزمّت.و يثير قولنا هذا-السلفية و الوهابية-و لا شک،لأنهم أخذوا ما رآه الإمام أحمد وقاية و تحصـنا.و جعلوه أساسا لمنطقهم القائم على الإفهام بالابتداع، و استسـهال إطلاق الكفر على غيرهم،فيما تركوا الكثير من أقوال الإمام أحمد التى تأتى مرادفة للنصوص التى احتوت أصول أفكارهم،منها:أن الرجل لا يخرجه من الإسلام إلا الشرک العظيم،أو ردّ فريضـة جاحـدا لهـا فيمـا أخـذوا معتمـدا لهم و أصـلا قـوله:(فمن قـال مخلـوق فهـو كـافر بـاللّه العظيم،و من لـم يكفّره فهو كافر)فاستسهلوا تكفير غيرهم.و منهجه فى غلق أبواب النقاش توقّيا و حذرا بقوله:(و لا يقال لم و لا كيف)لأن الأمور التى تبحث العقول عن حقيقتها فى ظل ظروف المحنة يراها ليست من السـنن،و الكلام فيها مكروه،بل منهى عنه:(لا يكون صاحبه-و إن أصاب بكلامه السنّة-من أهل السنة حتى يدع الجدال و يسلّم و يؤمن بالآثار)فجعلوا ذلک مسوّغا لجمودهم و انغلاقهم.

و خلاصة القول:إنه تمسّک بالأثر دون تمحيص،و اعتمد على السـلف،و حكم بأن من يخالف شيئا من هذه المذاهب أو طعن فيها أو عاب قائلها؛فهو مبتدع خارج

عن الجماعة،زائل عن منهج السنة.و اتجه هذا الاتجاه فی حیاته،و أخذ به،فتمسّک بحرفیة النص و ظاهره،و لا یسمح لنفسه تخریج أو تفسیر أو جدل ینمّ عن تصد للاجتهاد،أو تصدّر للإفتاء،و لا یتعدّی الأخذ بالأثر و الجمود علی النصوص و العمل بظاهرها.و قد نسب إلیه ذلک فی شعر و هو قوله:

یا طالب العلم صارم کل بطّال و کلّ غاد إلی الأهواء میّال

و أعمل بعلمک سرّا أو علانیة ینفعک یوما علی حال من الحال

و لا تمیلنّ یا هذا إلی بدع تضلّ أصحابها بالقیل و القال

خذ ما أتاک به ما جاء من أثر شبها بشبه و أمثالا بأمثال

إلا فکن أثریا خالصا فهما تعش حمیدا،ودع آراء ضلاّل

و قد اتجه إلی الحدیث،فروی أنه کان یحفظ ألف ألف حدیث،و یأخذ بالضعیف منها و یعلم به إذا لم یکن ما یعارضه،و أصبحت له خبرة بالحدیث،وسعة اطلاع جعلت له منزلة بین المحدثین.و إذا صحّ ما کان یحفظه،فإنّا نمیل إلی أن تکوینه النفسی قد طغت علیه ملکة الحفظ،و آنس فی نفسه قوتها دون غیرها؟ و ساعدت علی ذلک اعتبارات الفترة و نتائج المحنة،و لذلک لم یکن له فی حیاته مدرسة فقهیة،حتی أن ابن عبد البر لم یجعله مع مالک و الشافعی و أبی حنیفة فی کتابه (الانتقاء فی فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء)و أن عنوان الکتاب ینطوی علی هذا القصد، و لا بد أن المالکیة علی هذا الرأی جمیعهم،فإن القاضی عیّاض قال عنه:إنه دون الإمامة فی الفقه،و جودة النظر فی مأخذه.

و قد مرّ بنا ما ذا فعل الحنابلة بابن جریر الطبری،فهو لم یعدّ مذهبه فی الخلاف بین الفقهاء و قال:إنما هو رجل حدیث.و علی هذا الرأی غیره من الشافعیة.

و من تتبّع سیرة الإمام أحمد،یترجّح لدینا أنه لم یقصد إلی تأسیس مذهب خاص به،و لم یستجب إلی إغراءات السلطان.و لکن تلامذته قد أفرغوا تعالیمه و أقواله بعد موته فی قوالب محدودة هی قواعد و مبادئ لفقه ینسب إلی الإمام أحمد، فتألفت جماعة فقهیة کان رجالها أصحابه من ذوی الإحاطة،فکان نشوء المذهب الحنبلی.کما أن المسند کان من جمع ابنه و أصحابه.و یعتقد أحمد أن منحاه فی التقیّد بالحرفیة و الظاهر هو المنهج الأقوم و الطریقة المثلی،و یردّ بها علی اتجاهات

الرأی و تیارات الجدل.و وضع بذلک المنحی مسوّغا للاحتماء بالتقلید،و مبررا للاتهام بالمروق.و لو قابل الاتجاهات و المدارس الفکریة التی نجمت عنها المسائل التی کره الخوض فیها و أنکر شیوعها،و أدت به إلی المحنة بطرق مماثلة تقابل الحجة بالحجّة، و تعتمد الاستدلال و المنطق؛لما استغلت أقواله ذلک الاستغلال الذی أطلق العامة من عقالها،فراحت تعرّض أمن الناس للخطر،و تنزل بهم الویلات،و تصف الناس بالکفر.

یقول الإمام أحمد:(الدین إنما هو کتاب اللّه عز و جل،و آثار و سنن و روایات صحاح عن الثقات بالأخبار الصحیحة المعروفة،یصدّق بعضها بعضا حتی ینتهی ذلک إلی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و أصحابه و التابعین و تابعی التابعین،و من بعدهم الأئمة المعروفین المقتدی بهم،المتمسّکین بالسنة و المتعلقین بالآثار،لا یعرفون بدعة،و لا یطعن فیهم بکذب،و لا یرمون بخلاف،و لیسوا بأصحاب قیاس و لا رأی،لأن القیاس فی الدین باطل،و الرأی مثله و أبطل منه،و أصحاب الرأی و القیاس مبتدعة ضلاّل،إلا أن یکون فی ذلک أثر عمّن سلف من الأئمة) (1).

و هو یری نفسه دائما متّبعا،فلا یتحدث إلا بما أخبر و حدّث،و یدعو إلی الاتباع:(هذه مذاهب أهل العلم و أصحاب الأثر و أهل السنة و المتمسکین بعروقها المعروفین بها،المقتدی بهم فیها من لدن أصحاب النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم إلی یومنا هذا،و أدرکت من أدرکت من علماء أهل الحجاز و الشام و غیرهم علیها،فمن خالف شیئا من هذه المذاهب أو طعن فیها أو أعاب قائلها،فهو مبتدع خارج من الجماعة،زائل عن منهج السنة و سبیل الحق) (2).

أولاده

اشارة

:

ولد لأحمد بن حنبل عدة أولاد و هم صالح و عبد اللّه من أم،و حسن و محمد و سعید من جاریة تسمی حسن،و ولدت له بنتا سمّاها زینب،و قبل ولدت له ولدا رابعا سمّاه حسنا أیضا:

1- (1) طبقات الحنابلة ج 1 ص 31. [1]

2- (2) المدخل إلی مذهب الإمام أحمد بن حنبل لابن بدران ص 26.

صالح بن أحمد بن حنبل

:

ولد سنة 203 ه و توفی سنة 265 ه و هو أکبر أولاد أحمد،کان راویة لأبیه.

و حدّث کثیرا عن سیرته و أحواله و تاریخ حیاته،و یبدو علی صالح رفضه لمسلک التقشّف الذی أخذ أبوه به،و عدم القناعة بموقف الانصراف عن الحکام فی أمر المنح و العطایا التی توالت علی أحمد فی عهد المتوکل،حتی إنه کان یتصرّف فی الأموال التی یتحرّج فی أخذها بدون موافقة أبیه عند ما یراه یمتنع أن یقدم منها إلی أحفاده (1).

و کذلک عند ما صارحه أبوه فی أن یدع الرزق الذی یأتی من المتوکل فلا یأخذه و لا یوکل فیه أحدا،فرفض ذلک.فقد کان معیلا.و کان الإمام أحمد یدعو له.و کان الناس یکتبون إلیه من خراسان-حیث موطنهم الأول-یسأل لهم أباه عن المسائل.

ولّی القضاء بأصبهان،کما ولّی القضاء بطرسوس.نقل إلیها من أصفهان.قال صالح:کان أبی یبعث خلفی إذا جاءه رجل زاهد متقشّف لأنظر إلیه،یحبّ أن أکون مثلهم،أو یرانی مثلهم.و لکن اللّه یعلم ما دخلت فی هذا الأمر إلا لدین غلبنی، و کثرة عیال (2).

حدّث عنه ابنه زهیر،و روی عنه ابن أخیه محمد بن أحمد بن صالح، و أحمد بن سلیمان النجار.و توفی زهیر سنة 330 ه.

و أما أحمد بن صالح فقد روی عن جده أحمد حدیث عائشة:کنت أغتسل أنا و رسول اللّه من إناء واحد.

و لأحمد بن صالح ولد اسمه محمد کان یروی عن عمه زهیر،و روی عن أبیه قول عائشة کما ذکره،و رواه عنه الدار قطنی و توفی سنة 330 ه.

عبد اللّه بن أحمد بن حنبل

:

ولد سنة 213 ه و توفی سنة 290 ه و کان أعلم أولاد أحمد و أکثرهم روایة عنه، و هو الذی جمع مسند أبیه،و زاد فیه کثیرا من الأحادیث التی لم یأخذها عن أبیه، و رواه عنه أبو بکر القطیعی و زاد فیه أیضا،فالمسند یرویه عبد اللّه عن أبیه سماعا،

1- (1) انظر البدایة و النهایة 338/10.

2- (2) طبقات الحنابلة 174/1.و [1]تهذیب تاریخ ابن عساکر ج 6 ص 364.

و قسم رواه عن غير أبيه و هو المسمى عند المحدثين بزوائد عبد اللّه،و قسم لم يسمعه من أبيه بل وجده بخطّه،و قسم رواه القطيعى عن غير عبد اللّه و أبيه.

و أول من سمعه منه:حنبل بن إسحاق بن حنبل-و هو ابن عم أحمد- و عبد اللّه بن أحمد،و صالح بن أحمد.قال ابن السماک:حدثنا حنبل بن إسحاق قال:جمعنا أحمد بن حنبل أنا و صالح و عبد اللّه،و قرأ علينا المسند،و ما سمعه منه غيرنا (1).

و ذكر الشيخ محمد أبو زهو فى كتابه(الحديث و المحدّثون)أنه سمع المسند من الإمام أحمد أولاده الثلاثة:صالح و عبد اللّه و حنبل.ثم ذكر رواية ابن السماک(أو السبّاک)و هذا خطأ فإن حنبلا لم يكن ولدا لأحمد،بل هو ولد عمه إسحاق كما ذكره ابن الجوزى و غيره،و جاء فى ترجمته فى طبقات الحنابلة،قال حنبل بن إسحاق:

جمعنا عمى لى و لصالح و لعبد اللّه،و قرأ علينا المسند و ما سمعه منه غيرنا (2).

و نقل ابن الجوزى عن ابن السمّاک قال:حدثنا حنبل بن إسحاق قال:جمعنا أحمد بن حنبل،أنا و صالح و عبد اللّه،و قرأ علينا المسند و ما سمعه منه غيرنا (3).

فقول الشيخ أبو زهو أن حنبل من أولاد أحمد خطأ،و ما هو بأول خطأ يرتكبه، و قد أشرنا لكتابه و أخطائه فيما سبق.

و مهما يكن من شىء،فإن عبد اللّه كان أشهر أولاد أحمد بن حنبل،و أكثر رواية عنه،و قد ولّى القضاء فى خلافة المكتفى،و توفى فى جمادى الآخرة سنة 290 ه.و لما مرض قيل له:أين تحب أن تدفن؟فقال:صحّ عندى أن بالقطيعة نبيا مدفونا،و لأن أكون بجوار نبىّ أحب إلىّ من جوار أبى.

سعيد بن أحمد

:

ولد سعيد قبل موت والده بنحو من خمسين يوما،و توفى سنة 303 ه و قيل:

بل توفى قبل هذا التاريخ بمدة طويلة فى حياة أخيه عبد اللّه.و قد ولّى سعيد قضاء الكوفة،و أما بقية أولاد أحمد،فلا يعرف من أخبارهم شىء.

1- (1) مناقب أحمد ص 191.

2- (2) الطبقات ج 1 ص 143.

3- (3) المناقب ص 191.

وفاته

:

توفی أحمد بن حنبل فی ربیع الأول سنة 142 ه و قیل 12 منه،و صلّی علیه الأمیر محمد بن طاهر.و دفن بمقبرة باب حرب (1).و قد وصفوا تشییعه بأنه ما کان فی الجاهلیة و لا فی الإسلام جمع أکثر منه،و قد اشترک فیه النساء و الرجال یتبادلون النوح و الصراخ،و أعلن الحنابلة اللعنة علی من خالفهم،و علت الهتافات بلعن بشر المریسی و الکرابیسی.فسأل المتوکل عن الکرابیسی (2)من هو؟قالوا هو رجل أحدث قولا لم یتقدمه أحد.فأصدر المتوکل أمره إلیه بلزوم بیته،فلزمه إلی أن مات.

و ینقل الحنابلة عن یوم الجنازة ما لا یقبله العقل و یقرّه المنطق کقول الورکانی:

أسلم یوم مات أحمد بن حنبل عشرون ألفا من الیهود و النصاری و المجوس.و وقع المأتم و النوح فی أربعة أصناف من الناس:المسلمین و الیهود و النصاری و المجوس (3).

و منذ و وری ابن حنبل،لزم بعض الناس القبر و باتوا عنده،و جعل النساء یأتین، فأرسل السلطان أصحاب المسالح،فلزموا ذلک الموضع حتی منعوهم مخافة الفتنة (4).و یبدو أن الجنازة تحولت إلی مناسبة أظهر فیها الحنابلة أنفسهم و الدعوة إلی منهجهم و الطعن علی غیرهم،حتی قال ابن الجوزی:(فسرّ اللّه المسلمین بذلک علی ما عندهم من المصیبة لما رأوا من العزّ و علوّ الإسلام،و کبت اللّه أهل البدع و الزیغ و الضلالة).

و یذکر المسعودی أن اجتماع الجنازة کان للعامة فیه کلام کثیر جری بینهم بالعکس و الضدّ فی الأمور منها:أن رجلا منهم کان ینادی:العنوا الواقف عند الشبهات.و هذا بالضدّ عمّا جاء عن صاحب الشریعة صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.و کان عظیم من عظمائهم و مقدّم فیهم یقف موقفا بعد موقف إمام الجنازة،و ینادی بأعلی صوته:

1- (1) باب حرب تنسب إلی حرب بن عبد اللّه-أحد أصحاب المنصور-أو حرب بن عبد الملک، و إلیه تنسب محلة الحربیة،و فیها أیضا قبر بشر الحافی.

2- (2) المناقب لابن الجوزی 417.

3- (3) طبقات الحنابلة 16/1. [1]

4- (4) المناقب 418.

و أظلمت الدنيا لفقد محمد و أظلمت الدنيا لفقد ابن حنبل

يريد بذلک أن الدنيا أظلمت عند وفاة محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أنها أظلمت عند موت ابن حنبل كظلمتها عند موت الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم (1).

و ازدحم الناس على قبر أحمد يتبرّكون به،و يقصدونه للزيارة،و هنا تجدّدت نشاطات الدعايات المذهبية،و طغت موجة المناقبية،و قام القصّاصون و الوعّاظ -الذين هم من قبل الدولة-بنشر خرافات لو كان أحمد حيا لخجل منها و تبرّأ من قائلها.و إليک نموذجا منها:

1-ادّعى أحدهم أنه زار قبر أحمد،فرأى القبر قد التصق بالأرض،و سمع صوتا من القبر يقول:هذا من هيبة الحق،لأنه عز و جل زارنى فسألته عن سرّ زيارته إيّاى فى كل عام.فقال:لأنک نصرت كلامى...

2-أن من يدفن فى مقبرة أحمد يكسى حلّتين من حلل الجنة،و يوضع على قبور مجاوريه قناديل،و من يعذّب يرحم لأجله (2)و كان فيهم رجل محنث فشمله العفو (3).

3-حدّث على بن إسماعيل السجستانى:كأن القيامة قد قامت و كان الناس يزدحمون عن قنطره،لا يترک أحد يجوز حتى يجىء بخاتم،و رجل ناحيه يختم للناس و يعطيهم،فسألت عنه فقالوا:هذا أحمد بن حنبل (4).

4-أن أبواب السماء تفتّح لزوّار قبر أحمد بن حنبل،و الملائكة تنزل عليهم بثياب خضر تطير بهم فى الهواء.و كان قبره يقصد للزيارة من ستمائة فرسخ (5)و لا يتسع المجال لعرض ما ادّعى من منامات و أحلام فى قبر أحمد و زيارته،و عظيم الأثر الذى خلفته الدعاية فى قلوب الناس من تعظيم قبره و التبرک به و تقبيله.و قد سأله رجل فى الرؤيا:لم يقبّل قبر إلا قبرک؟فأجاب:هذا ليس كرامة لى،و لكن كرامة

1- (1) مروج الذهب 102/4 و 103. [1]

2- (2) تاريخ بغداد ج 1 ص 22.

3- (3) ابن الجوزى،المناقب ص 463.

4- (4) ابن الجوزى،المناقب ص 446.

5- (5) ابن الجوزى،المناقب ص 482.

لرسول اللّه،لأن معی شعرات من شعره،ألا و من یحبنی لم لا یزورنی فی شهر رمضان.

و قد بقی قبر أحمد بن حنبل مقصدا لمحبیه،و یتبرکون بزیارته،و ادّعی أن الماء حار حول قبره عند طغیان دجلة سنة 725 ه فغمر جمیع الأمکنة إلاّ قبر أحمد،فلم تبلّ الحصر کما یدّعون.و لکن دجلة أعاد الکرة،فاکتسح القبر و ابتلعه،و ذهب به و بآثاره إلی الیوم.

و قد دفن فی مقبرته خلق کثیر،و نقل إلیه من الأماکن النائیة جثث کثیرة لأموات أمثال:عبد المغیث بن زهیر الحربی الحنبلی محدّث بغداد.و من الغریب بل من الشذوذ الفکری أن یوصف هذا الرجل بأنه صالح متدین أمین مجتهد فی السنّة،حافظ زاهد یشبه أحمد بن حنبل،مع اعترافهم بأنه وضع جزء فی فضائل یزید بن معاویة أتی فیه بالموضوعات کما یقول الذهبی (1).

و من أعیانهم:عبد الرحمن بن الجوزی المتوفی سنة 597 ه و صاحب المؤلفات الکثیرة،دفن عند أبیه بباب حرب عند قبر أحمد،و کان یوم تشییعه یوما مشهودا و ذلک فی شهر رمضان،و قد أفطر جماعة من الناس من کثرة الزحام و شدّة الحرّ (2).

و لعل المسوّغ لإفطارهم اعتقادهم بأن تشییع ابن الجوزی أعظم ثوابا من صیام شهر رمضان،لأنه کان ناصرا للسنّة محاربا للبدعة.و قد وصف بأنه کحاطب لیل، و هو لا یفرّق بین الضارّ و النافع،و الحقّ و البطّال،و کانت مؤلفاته تناقض بعضها بعضا،و هو یورد الشّبه،و لیس له قدرة علی ردّها،و قد نقم علیه العلماء،و لکن لا ینفع ذلک مع تجمع العوام علیه.

و کثیر من العلماء الحنابلة دفنوا عند قبر أحمد تبرکا بجواره،و منهم من نقل إلی مقبرة أحمد بعد مدة من دفنه کسعد اللّه الحنبلی المتوفی سنة 564 ه دفن بمقبرة الرباط،ثم نقل بعد خمسة أیام و دفن فی مقبرة أحمد.و کمال الدین بن وضّاح الحنبلی المتوفی سنة 627 ه دفن عند رجلی أحمد.و منهم:محمد بن محمد بن

1- (1) الشذرات ج 4 ص 275. [1]

2- (2) البدایة و النهایة ج 13 ص 331. [2]

الحسين الحنبلى المتوفى سنة 527 و نقل إلى مقبرة أحمد بن حنبل سنة 534 أى بعد مضى سبع سنوات على موته.و غير هؤلاء خلق كثير أحصينا عددهم بما يقارب الخمسين شخصا.و بطبيعة الحال فإن قبورهم ذهبت فى طغيان دجلة كما سبق و ذكرنا.

و لا بد من التعرّض لما جاء فى لغة العرب المجلد الخامس من السنة الثامنة ما ذكره الدكتور مصطفى جواد:أن عبد الحميد عيادة نشر فى لغة العرب أن فى جامع حاج أفندى-و يسمى مسجد اللالات بمحلة كوك نفر ببغداد أن رخامة فى الجوار الذى يلى الباب،مكتوب عليها ما صورته:(هذا قبر المرحوم المغفور له الدارج فى رحمة اللّه الشيخ المجتهد السيد أحمد من الأربعة المجتهدين و ذلک فى 13 ربيع الأول سنة 562 ه)ثم قال:توارد إلى خاطرى أنه قبر الإمام المشار إليه،أى أحمد بن حنبل إذ لا يبعد أنه نقل إلى محله الحالى لسبب غرق بغداد الخ.

و هذا بعيد كل البعد،لأن التاريخ إما أن يكون تاريخ الوفاة أو تاريخ النقل، فتاريخ الوفاة سابق عليه،لأن وفاة أحمد سنة 241 ه و أما تاريخ النقل عند الغرق، فهو متأخر عن هذا التاريخ.

و قد نقل لقبر أحمد رجال من الحنابلة بعد هذا التاريخ منهم:كمال الدين على بن وضّاح المتوفى سنة 672 ه و فى سنة 765 ه دفن القاضى جمال الدين بن خليل الخضرى الحنبلى محدّث بغداد،و فى سنة 766 ه دفن الشيخ نور الدين الحنبلى،و فى سنة 784 ه دفن أبو طالب عبد الرحمن بن عمر الحنبلى نزيل بغداد.

و الحاصل أن مقبرة أحمد بن حنبل بقيت مدة من السنين مهوى أفئدة الحنابلة، و مقصد الزوار،و تدفن حوله الأموات تدينا و تقربا لنيل ما أعدّ من الجزاء لمن يدفن حوله.فقد أشاع الحنابلة أن من يدفن حول قبر أحمد يكسى حلتين من حلل الجنة، و يوضع على قبر مجاوريه قناديل،و من يعذب يرحم لأجله (1).إلا أن ذلک القبر قد غمره الفيضان فانهار،و لم يبق له أثر،إذ امتلأت مقبرة أحمد كلها،و لم يسلم منها إلا موضع قبر بشر الحافى لأنه على نشز من الأرض،و كان من يرى مقبرة أحمد بعد أيام

1- (1) ابن الجوزى،المناقب ص 463.

من مضى الفيضان ليدهش عند ما يرى القبور قد قلّبت،و جمعت العظام كالتل،جمعها السيل-سيل الماء-و كذلک ألواح القبور (1).

و قال اليافعى:إن دجلة زادت زيادة مفرطة حتى أخرجت مقبرة أحمد بن حنبل، و دخل الماء فى دهليز البيت،و ذلک فى سنة 725 ه.و قال ابن العماد نقلا عن الذهبى:إن مقبرة أحمد بن حنبل غرقت سوى البيت الذى فيه ضريحه،فإن الماء دخل الدهليز علو ذراع،و وقف بإذن اللّه تعالى،و بقيت البوارى عليها الغبار حول القبر.

و لقد علق المرحوم السماوى على هذا القول بقوله:

ألا من عذيرى يا بنى العلم و الحجى من الياوفى الحنبلى المجلل

يكذّبنى إن قلت قبر ابن فالهم عليه استدار الماء للمتوكل

و يزعم حارّ الماء ثمّ تجل غبرة على حصر كانت بقبر ابن حنبل

هذه لمحة موجزة عن السيرة المستمرة فى نقل الأموات و نبشهم بعد دفنهم، و هى باقية حتى يومنا هذا عند إخواننا السنة،فإنهم ينقلون الموتى من الأماكن.فمن مات خارج العراق نقل إليه،و من مات فى العراق فإما أن ينقل إلى بلده و مسقط رأسه،أو يدفن فى مقبرة ولىّ كأبى حنيفة و الإمام الأعظم و الشيخ معروف ببغداد، و البعض ينقل من بغداد إلى مقبرة الخاتونة فى السماوة إن كان من أهلها،و أغلب أهل الجنوب من إخواننا السنّة ينقلون موتاهم إلى بلد الزبير،و دفنهم هناک تبركا بالقبر المنسوب للزبير بن العوّام.

و قد ذكرنا سابقا أن هذه النسبة غير صحيحة،و أن هذا القبر بنى على الظنة و التخمين،كما نص على ذلک بعض المؤرخين (2).

و من الجدير بالذكر،أن النقل بعد الموت عند المسلمين شائع معمول به منذ الصدر الأول عند جميع الفرق و المذاهب.

و نذكر ما يحضرنا ذكره الآن فمنهم:

1- (1) فيضانات بغداد،الدكتور سوسه ص 220.

2- (2) انظر الجزء الأول من هذا الكتاب.

1-جعفر بن الفضل بن موسى بن الفرات أبو الفضل المتوفى سنة 391 ه وزير الديار المصرية،توفى بمصر،فنقل إلى المدينة.يقول ابن عساكر:و خرجت الأشراف إلى لقائه وفاء بما أحسن إليهم،ثم يقول:فحجوا به و طافوا و وقفوا فى عرفات،ثم ردّوه للمدينة،و دفنوه فى دار اشتراها من الأشراف بالمدينة (1).و لا ندرى هل كان ورود جنازته أيام الحج فحجوا به،أم أنهم خلقوا له حجا و وقفوا بعرفات فى غير وقت الموسم؟! 2-القاضى أبو بكر محمد بن الطيب الباقلانى المتوفى سنة 404 ه دفن فى داره بنهر طابق،ثم نقل إلى جوار قبر أحمد بن حنبل فى مقبرة باب حرب،و يؤم الناس قبره،و يتبركون به.يروى أن أحد شيوخ الحنابلة(أبو الفضل التميمى)حضر يوم وفاته حافيا مع أصحابه،و قعد معهم للعزاء ثلاثة أيام،و كان يزور قبره كل يوم جمعة.

3-أبو البقاء محمد بن المبارک المعروف بابن الخل الشافعى المتوفى ببغداد سنة 552 ه و نقل إلى الكوفة و دفن فيها.

4-صدر الدين أبو بكر الشافعى خرج من بغداد،فنزل بقرية بين همدان و الكرج،فأصبح ميتا،فحمل إلى أصفهان و دفن بسيلان.

5-و كذلک ولده عبد المطلب مات بهمدان سنة 580 ه بعد عودته من الحجاز،و حمل إلى أصفهان،و دفن فيها.

6-أحمد الحريزى المتوفى سنة 550 ه و كان عاملا للمقتضى على نهر الملک و كان من أظلم العالم،و مع هذا يظهر التدين،و كان يجلس على السجادة و بيده سبحة يسبّح فيها و يقرأ القرآن،و الناس يعذّبون بين يديه.و كان يعلّق الرجال بأرجلهم، و النساء بأثدائهن،و يضربون بين يديه و هو يومى إلى الجلاد:الرأس،الوجه.و قد سئم الناس حياته،فدخل عليه ثلاثة رجال،فضربوه بالسيوف فمات،و حمل إلى بغداد،و دفن فيها،فأصبح و قد خسف بقبره (2).

7-الملک المظفر على كوجک التركمانى المتوفى سنة 620 ه ملک أربل،

1- (1) شذرات الذهب ج 3 ص 135. [1]

2- (2) شذرات الذهب. [2]

مات فيها فی رمضان،و أوصی أن یحمل إلی مکة فیدفن فی حرم اللّه تعالی،و قال:

استجیر به.فحمل فی تابوت إلی الکوفة،و لم یتفق خروج الحاج فی تلک السنة، فدفن عند أمیر المؤمنین علی بن أبی طالب علیه السّلام.

8-کمال الدین محمد بن علی الشافعی یعرف بابن الزلمکان المتوفی سنة 727 ه بدبیس،و حمل إلی القاهرة،و دفن إلی جوار الشافعی.

9-إمام الحرمین أبو المعالی الجوینی عبد الملک بن عبد اللّه الفقیه الشافعی المتوفی سنة 478 ه و دفن بداره فی نیسابور،ثم نقل منها بعد سنتین.

و کان لموته یوما مشهودا،فلقد أغلقت أبواب البلد،و کشف الناس رءوسهم حتی ما اجترأ أحد أن یغطی رأسه،و صلّی علیه ولده أبو القاسم بعد جهد عظیم من الزحام،و کسر منبره فی الجامع،و قعد الناس للعزاء أیاما،و کان طلبته أربعمائة یطوفون فی البلد نائحین علیه (1)و قد وصف السبکی یوم موته،و أن الطلبة تجوب موکبهم البلد نائحین علیه مکسّرین المحابر و الأقلام،مبالغین فی الصیاح و الضجر (2).و قال الذهبی:استمرت الحالة سنة.

10-أبو الحسین بن سمعون الواعظ المتوفی سنة 387 ه و دفن فی داره بشارع العباس،ثم نقل یوم الخمیس 11 رجب سنة 426 ه و دفن بباب حرب،و کان الباقلانی یقبّل یده لعظیم منزلته.و حکی الخطیب أن ابن سمعون خرج من المدینة الشریفة إلی بیت اللّه،فاشتهی الرطب،فلما کان وقت الإفطار صار الثمر رطبا فلم یأکله،فعاد إلیه من الغد فإذا هو تمر.

11-ابن طولون خمارویه بن أحمد حمو المعتضد.فتک به غلمان بدمشق سنة 212 ه و حمل تابوته إلی مصر،و دفن عند أبیه بسفح المقطم.

12-محمود بن السلطان ملک شاه.مات بأصفهان سنة 487 ه و حمل إلی بغداد،و دفن بالنظامیة.

13-أحمد بن محمد غلام خلیل.المتوفی سنة 275 ه ببغداد،و حمل فی

1- (1) الشذرات ج 3 ص 360. [1]

2- (2) الطبقات ج 3 ص 257.

تـابوت إلى البصـرة.قال الخطيب:غلقت له أسواق مدينـة بغـداد،و خرج الرجال و النساء لحضور جنازته و الصـلاة عليه،فأدرک ذلک بعض الناس وفات بعضهم لسرعة السير به،و دفن بالبصرة،و بنيت عليه قبة.

يـذكر الخطيب فى ترجمته عن عبـد اللّه النهاوندى:قلت لغلام الخليل:ما هذه الأحاديث الرقائق التى تحدّث بها؟قال:وضـعناها لنرقق بها قلوب العامـة.و عن ابن عـدى:سـمعت عبـدان الأهوازى يقول:قلت لعبـد الرحمن بن خراش:هـذا الحـديث الذى يحدّث به غلام الخليل لسـليمان بن بلال من أين له؟قال:سرقه من عبد اللّه بن شيب،و سرقه عبد اللّه بن شبيب من النضر بن سلمة،و وضعه شاذان (1).و كان أكثر ما يتحدّث به بالموضوعات فى مناقب الصـحابة و غيرهم من الرجالات،و يتخذها وسـيلة لمعاشه،و من وضـعه حديث:(اقتدوا باللذين من بعدى أبى بكر و عمر) (2).

و هو من المحدّثين و الوعّاظ القصّاصين.

و لا يتّسع المجال لأكثر مما ذكرنا فى هـذا الاسـتطراد الذى لا تخفى دواعيه و أسـبابه إذا ما استحضـرنا ما شذّ به أقوام جعلوا من أحمد بن حنبل إماما و قدوة، و راحوا يطلقون التهم و التخرّصات فى قضايا الأموات و القبور،و قضية النقل بعد الموت،و ما يتعلق بالدفن أمر معروف منذ صدر الإسـلام إلى يومنا هذا،و قد سار عليه السـلف و الخلف،فمن ينقل إلى المدينة،و من ينقل إلى دمشق،و من ينقل إلى بغداد،و من ينقل إلى القاهرة،و من ينقل من رمسه القديم إلى مكان آخر كما رأينا من نقل إلى مقبرة أحمد..

و مقبرة أحمد بن حنبل فى محلة الحربية التى تقع وراء مقابر قريش،و فيها الباب الذى كان بنو شيبان قد اتخذوها مقبرة لمن يموت منهم،ثم لمن يموت من أهل الحديث.فدفن أحمد بن حنبل فى هذا الباب،لأنه إمام الحديث-كما قالوا-و لأنه من بنى شيبان.

أما الحربية أو باب حرب،فقد نسب إلى حرب بن عبد اللّه أو حرب بن عبد

1- (1) تاريخ بغداد 79/5. [1]

2- (2) لسان الميزان 272/1.

الملک أحد قواد المنصور،ثم غلب علیها اسم أحمد فصارت تسمی مقبرة أحمد.

و أصبحت مزارا تهفو إلیه قلوب الحنابلة و تعجّ بالدعاء،و بقعة مقدسة توضع فی زوارها المنامات،حتی جرفتها السیول-کما علمنا-و غرق قبر أحمد علی اختلاف فی تعیین سنة الغرق فی القرن السادس أو السابع؟ و لما غرق القبر،تحوّل الناس إلی زیارة قبر ولده عبد اللّه فی القطیعة،یؤدّون الزیارات،و یدعون لقضاء الحوائج.

و أحمد بن حنبل هو آخر رؤساء المذاهب وفاة.توفی أبو حنیفة سنة 150 ه و مالک سنة 179 ه و الشافعی سنة 204 ه ثم أحمد سنة 241 ه و مذهبه قلیل الانتشار، محدود الاتباع.فهو لیس کمذهب أبی حنیفة عددا فی البلاد الإسلامیة،و لا کمذهب الشافعی فی مصر.

الحنابلة فی ظل المتوکل

سبق أن أشرنا إلی مشاعر المتوکل تجاه أحمد،و کونها واحدة من عوامل المیل إلی أحمد بن حنبل،إضافة إلی الأغراض السیاسیة،و قد قلنا إن أحمد لم یستجب تماما لرغبة المتوکل فی(تنصیبه)رئیسا مذهبیا،و لو لا التهمة التی غیّرت مجری السعی السلطانی إلی ضمّ أحمد فی تلک المرحلة،لاکتملت مقتضیات السیاسة فی تبنی أحمد تماما و هو فی حیاته،و قد کانت التهمة خطیرة تهتزّ لها أبدان بنی العباس غیظا،و هی التعاون مع العلویین،فداهموا منزله و منزل ابنه،و دلوا شمعة فی البئر، و وجهوا النسوة ففتشن الحرم،مما أخر فی إعلان المذهب رسمیا.

و بعد ثبوت براءته،لم یعد أمام المتوکل من مانع یمنعه من الاهتمام بأحمد اهتماما بالغا،فکان یأمر بالمال،و یتوجّع لما یصیبه،و اقتنع قناعة تامة بأحمد بن حنبل.و یبدو أن الموت عاجله،فاستأنف ما أراد منه فی غیابه.

و لو بحثنا فی اتجاه أحمد بن حنبل و آرائه فی الحکام،لوجدنا أن ابن حنبل یری أن من صفة المؤمن من أهل السنة و الجماعة:صلاة العیدین و الخسوف و الجمعة و الجماعات مع کل أمیر برّ أو فاجر،و الدعاء لأئمة المسلمین بالصلاح،و عدم الخروج

علیهم بالسیف (1).و عند ما داهموا بیته بتهمة،إیوائه علویا کان یقول:ما أعرف من هذا شیئا،و إن لأری طاعته فی العسر و الیسر و المنشط و المکره و الأثرة.و إنی أتأسف علی تخلّفی عن الصلاة فی جماعة،و عن حضور الجمعة و دعوة المسلمین (2).

و لما جاء المتوکل،أظهر ما یتّفق مع آراء أحمد و معتقداته و منهجه،فأمر بترک النظر و المباحثة فی الجدال،و أمر الناس بالتسلیم و التقلید،و الترک لما کان علیه الناس فی أیام المعتصم و الواثق و المأمون.و أمر شیوخ المحدّثین بالتحدیث و إظهار السنة و الجماعة (3).و أشخص الفقهاء و المحدّثین،و کان فیهم:مصعب الزبیری، و إسحاق بن أبی إسرائیل،و إبراهیم بن عبد اللّه الهروی،و عبد اللّه و عثمان-ابنا أبی شیبة-فقسّمت بینهم الجوائز،و أجریت علیهم الأرزاق،و أمرهم المتوکل أن یجلسوا للناس و یحدّثوا بالأحادیث التی فیها الرد علی المعتزلة و الجهمیة،و أن یحدّثوا بالأحادیث فی الرؤیة.فجلس عثمان بن أبی شیبة فی مدینة المنصور،و وضع له منبر،و اجتمع علیه نحو من ثلاثین ألفا من الناس.و جلس أبو بکر بن أبی شیبة فی مسجد الرصافة،و اجتمع علیه نحو من ثلاثین ألفا.

و قد کان من نتائج تقیّد أحمد بالمأثور عنده و تقلیده أن یری الحاکم قد ولاه اللّه.و لذلک نجده یدعو إلی:السمع و الطاعة للأئمة،و أمیر المؤمنین البرّ و الفاجر، و من ولّی الخلافة،و من اجتمع الناس علیه و رضوه،و من غلبهم بالسیف حتی صار خلیفة و یسمی أمیر المؤمنین ا ه.

و لا بد أن تکون للمتوکل أولیة فی ذلک بالنسبة للإمام أحمد،فإذا کان یعتقد بالحکام الذین ملکوا الأمر و السلطة بعد الإسلام بعمومهم،فإن المتوکل أولی بکل ما کان یراه و یعتقده،غیر أن التردّد و السلوک الذی سلکه أحمد ینمّ عن أمر نستشعر منه الإحراج إن لم یکن به غناء عن الکنایة أو التلمیح؟و قد کتب إلیه المتوکل بعد أن استیقن من وضعه و قال:إنی أحب أن آنس بقربک و بالنظر إلیک،و یحصل لی برکة دعائک.و لکنّا نجده لا یقرب أکل المتوکل،و لا یمسّ منه شیئا.و یطوی صائما حتی

1- (1) المدخل إلی فقه أحمد بن حنبل:19.

2- (2) المناقب:360.

3- (3) مروج الذهب. [1]

جاع-و هو عند المتوكل-جوعا عظيما،و كاد أن يقتله الجوع.و قد قال بعض الأمراء للمتوكل:إن أحمد لا يأكل لک طعاما،و لا يشرب لک شرابا،و لا يجلس على فراشک،و يحرّم ما تشربه.فقال:و اللّه لو نشر المعتصم،و كلّمنى فى أحمد؛ما قبلت منه (1).و يروى أنه كان يتألم من هذا اللقاء و يقول:سلمت منهم طول عمرى،ثم ابتليت بهم فى آخره (2).فلما ذا هذا الألم؟و كيف يتفق ذلک مع الدعوة إلى الطاعة و الاستسلام إذا كان الاتصال بالحكام ابتلاء؟و من يكن سببا فى البلاء لا بد أن حاله على غير ما يدعو إليه الإسلام،و بخلاف ما يستريح إليه المؤمن.بل أن أحمد بن حنبل يرى أن تكريم المتوكل له يجعله فى غم،ففى رواية أن عمّ أحمد قال له:لو دخلت على الخليفة،فإنک تكرم عليه؟فقال:إنما غمّى من كرامتى عليه.

و نرى الإمام أحمد يصرف همّه إلى ما أحاطه به المتوكل من منح و عطايا، و يصبح شغله الشاغل أن يمنع أهله و عمّه-الذى يرافقه دوما-من أخذها،و يلومهم و يعظهم فى كلام طويل.فيحتجّون عليه بالحديث:«ما جاءک من هذا المال و أنت غير سائل و لا مستشرف؛فخذه».و أن ابن عمر و ابن عباس قبلا جوائز السلطان.و يقول:

و ما هذا و ذاک سواء.و لو أعلم أن هذا المال أخذ من حقه و ليس بظلم و لا جور؛لم أبال.

فكيف يقرّ الظلم و الجور،و تصبح الطاعة من صفات المؤمن؟و رغم أن أحمد حصر سبب رفضه و ابتعاده عن الحاكم المتوكل بالناحية المالية،فإنه لم يتمكن أن يعزلها عن أسس و حقيقة الحكم القائم.و خلاصة الأمر،أن الإمام أحمد يدعو إلى السمع و الطاعة على الطريقة التى مرّت بنا متأثرا بدعاة السلاطين و سدنة الملوک الذين دسّوا فى الأثر ما ليس له علاقة بمبادئ الإسلام و عدالة السنّة،و يعارض دعوته بسلوكه هذا الذى تقتضيه بدائه العقول،فضلا عن تعاليم الإسلام.ثم لا يتجاوز دائرة السلبية و ضيق المجال الذى يتصرّف فيه إلى رحاب المسئولية الدينية فى الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر لدى السلطان الجائر باعترافه هو،و ليس هناک ما يمنع من خشية عليه شخصية أو عداء من جانب المتوكل يمكن أن يؤدى به

1- (1) البداية و النهاية 339/10.و [1]المناقب لابن الجوزى 369.

2- (2) البداية و النهاية. [2]

إلى التلف و الهلاک.فجسور الودّ قائمة،و حبال الوصل ممدودة،و الفترة تشهد سواه ممن يقوم بهذا الواجب.و فى سيرة إسحاق بن حنبل عمّه-ما يشير إلى مخالفة أحمد ليس فى أمر المال فحسب،بل فى نظرته إلى ما يتاح له من عمل.

فيسأله الدخول على الخليفة ليأمره و ينهاه قائلا له:إنه يقبل منک.و هذا إسحاق بن راهويه يدخل على ابن طاهر فيأمره و ينهاه،فيجيبه أحمد بالسلبية التى لا يرجى تغييرها:الدنو منهم فتنة،و الجلوس معهم فتنة،نحن متباعدون منهم و ما أرانا نسلم،فكيف لو قربنا منهم؟هذا و الإمام أحمد فى ظل دولة تكاد تعلن آراءه و نهجه مذهبا لها،و يتقرّب إليه ملكها بودّ كبير،و ليس للحكام معه عداء أو مع أهله،و لا يشكل وجوده خطرا عليهم.

و هنا نشير إلى منهج أهل البيت النبوى الكرام،و أولاد الإمام أمير المؤمنين على عليه السّلام و نسوق مثالين:أحدهما فى عصر الأمويين،و الآخر فى عهد العباسيين، إذ لم يتخلّ الحكام عنهم فى كلا العصرين،و استمروا فى معاملتهم بقسوة دموية و سياسة لا إنسانية،لأنهم يشكلون خطرا يتهدّد كيانهم الجائر و سلطانهم الظالم.

عن المسئولية الدينية و وجه القيام بها فى العصر الأموى نشير إلى الإمام على بن الحسين زين العابدين،الذى عاش مأساة الطف،و شبّ و جريمة الأمويين تصبغ بالعار كل أوجه الحياة،فسلک طريق الانقطاع إلى اللّه،و توجيه الأمة بالنصح و الإرشاد،و هو فى ظل حكم السلالة الأموية،فيرى أن التارک للأمر بالمعروف و النهى عن المنكر كنابذ كتاب اللّه وراء ظهره،إلاّ أن يتّقى تقاة.قيل:و ما تقاته؟قال:

«يخاف جبارا عنيدا أن يفرط عليه أو أن يطغى» (1).

و عن الضرورة التى تجعل التقية جنّة المؤمن عملا بقوله تعالى: لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكافِرِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَ مَنْ يَفْعَلْ ذلِکَ فَلَيْسَ مِنَ اللّهِ فِى شَىْءٍ إِلاّ أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقاةً نحيل إلى ما ضمّه هذا الكتاب من صفحات من سيرة الإمام الصادق عليه السّلام و هو يواجه الطغيان العباسى،و يرى أن التعرّض للدولة قتل للنفس،و اللّه سبحانه و تعالى يقول: وَ لا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ فتحامى الحكام،و دعا إلى وقاية الأنفس و حفظ

1- (1) حلية الأولياء 140/3.

الدماء،لأن العباسيين شأنهم شأن من سبقهم من الظلمة لا يتورّعون عن سفک دماء آل البيت بسبب أو بدون سبب.و مع شدّة حذره عليه السّلام تعرّض إلى القتل على يد المنصور تسع مرات،غير أنه عليه السّلام وضع قواعد الدعوة الصامتة،و خاطب أصحابه بأن يكونوا دعاة صامتين لآل البيت،ثم رسم للعلماء و المتكلمين من أصحابه الأدوار،و حدد المسئوليات كما مر بنا فی هذا الجزء من الكتاب و الأجزاء السابقة.

لم يؤثّر تردّد أحمد بن حنبل،فقد كان سلوكا لا يجاوز الأسرة،يجری كشأن عائلی بحت مناطه المال.أما آراء أحمد السابقة فهی شائعة عن مريديه و معروفة لالتماع شخصه و اشتهار اسمه فی المحنة،و المتوكل يعمل على إلباس عهده صفة الحنبلية،و أحمد يتعاون مع هذا الاتجاه،و يستجيب برغم نفوره من المخالطة؛إلا أنه كان له الرأی فی الأمور المذهبية،و كان المتوكل يستشيره فی التعيين للقضاء،و يأخذ برأی أحمد كما حدث عند ما بعث المتوكل إلى أحمد يستشيره فی تولية محمد بن شجاع الثلجی من فقهاء الحنفية.فقال:لا،و لا على حارس.و رأی أحمد فيه:إنه مبتدع صاحب هوی (1)و أنفذ إليه المتوكل بصاحب لم يعلمه-و نورد القصة بسياقها و هی جديرة بالبحث و التعليق-:أن له جارية بها صرع،و سأله أن يدعو اللّه لها بالعافية.فأخرج له أحمد نعل خشب بشراک خوص للوضوء،فدفعه إلى صاحب له، و قال له:تمضی إلى دار أمير المؤمنين،و تجلس عند رأس الجارية،و تقول له:يقول لک أحمد أيما أحب إليک،تخرج من هذه الجارية أو أصفع الآخر بهذه النعل؟فمضى إليه،و قال له مثل ما قال أحمد،فقال المارد على لسان الجارية:السمع و الطاعة،لو أمرنا أحمد أن لا نقيم فی العراق ما أقمنا به،إنه أطاع اللّه،و من أطاع اللّه أطاعه كل شیء.و خرج من الجارية،و هدأت و زوّجت و رزقت أولادا (2).

و على عهد أحمد بزغ نجم الحنابلة،و طلع فجر ليلهم الدامس بفضل انتصار المتوكل للإمام أحمد.و يحلو للحنابلة أن يصوّروا أحمدا وحيدا فی المحنة، ليتدرّجوا فی غلوّهم،متناسين أن الأمر صنعته أهواء الحكام و أغراض السياسة.

1- (1) المنتظم 57/5. [1]

2- (2) طبقات الحنابلة 233/1. [2]

فتحوّل البعض عن طريقة السلطة العباسية،و بقى أحمد وحيدا فى أجواء التحوّل و التغيير،مستمسكا بالطريقة التى تهاب البحث و تخشى النقاش،و إن كانت تحرز كنزا و تدّخر ثروة من فهم الكتاب بأى طريقة كانت،و تمثّل السنة بأىّ صورة تمّت، لأن الظاهر القائم على وضوح النص و تحرىّ السبب معين فيّاض يوفّر الحجة و يغنى فى الجدل.

بإسناده قال الميمونى:سمعت على بن المدينى يقول:ما قام أحد بأمر الإسلام بعد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كما قام أحمد بن حنبل.قال:قلت له:يا أبا الحسن و لا أبو بكر الصديق؟قال:و لا أبو بكر الصديق.إن أبا بكر الصديق كان له أعوان و أصحاب، و أحمد بن حنبل لم يكن له أعوان و لا أصحاب ا ه.

سبق أن قدّمنا أن الكرابيسى كان أول ضحايا السلطة بعد جنازة ابن حنبل،و قد بدر من المتوكل من مشاعر التقديس و الإجلال لأحمد بن حنبل ما لم يحظ به أحمد من رؤساء المذاهب الذين سبقوه،فيقول لمحمد بن عبد اللّه بن طاهر:طوبى لک، صلّيت على أحمد بن حنبل.

و بعد موت أحمد اندفع أصحابه تحت شعار-إحياء السنّة و محاربة البدع-إلى إيذاء الناس و الاعتداء على الآخرين.و لمّا تصل الأخبار إلى المتوكل يقول لصاحب الخبر:لا ترفع إلىّ من خبرهم شيئا،و شدّ على أيديهم فإنهم و صاحبهم من سادات أمّة محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم (1).

يقول ابن كثير:(كان المتوكل محببا إلى رعيته،قائما فى نصرة أهل السنة،و قد شبّهه بعضهم بأبى بكر فى قتله(أهل الردة)لأنه نصر الحق و ردّه عليهم حتى رجعوا إلى الدين،و بعمر بن عبد العزيز حين ردّ مظالم بنى أمية،و قد أظهر السنّة بعد البدعة،و أخمد أهل البدع و بدعتهم بعد انتشارها و اشتهارها،فرحمه اللّه).

و تولى الحنابلة-و على رأسهم صالح بن أحمد-نشر المنامات التى تصوّره بأنوار قدسية و بين يدى ربه،لأنه محيى السنة ردا لرعايته و تبنّيه لأمرهم.فقد بلغ الأمر بالمتوكل أنه أرسل جماعات تحصى عدد المصلّين أو المشيعين.

1- (1) المصدر نفسه 15/1. [1]

و أخذ المتوكل يروّج المنامات عن نفسه على طريقتهم،فيدّعى أنه رأى النبى الأعظم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى المنام،و قام إليه فقال له صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:تقوم إلىّ و أنت خليفة.و يعبّر له الحاشية ذلک بقولهم:أبشر يا أمير المؤمنين،أما قيامک إليه فقيامک بالسنة،و قد عدّک من الخلفاء.فيسر بذلک (1).

و هکذا حصرت السنّة فى رعاية الحنابلة،و ترک حبلهم على الغارب يعيثون فى الأرض و يرتکبون ما حمل ابن تيمية-أبا بدعة الوهابية و شيخ مذهبهم-أن يقول:بأنهم أتوا من المنکرات و الإمام أحمد برىء منهم (2).و هو قول يرمى به إلى نفى المسئولية عن أسلافه،و يفتقر إلى الصحة،لأن رجال أحمد کالمروذى و أصحابه کانوا على رأس العامة يهيّجونهم إذا هدأوا،و يستفزّونهم إذا خمدوا.و قد کانت البداية فى عهد المتوکل،ثم توالت عهود هيمنتهم و تحکمهم و إلزام الناس بأفکارهم المجسّمة و غيرها،حتى بلغ الأمر تهديد من يخالفهم،و استعداء الحکام عليه،و استخدام قوتهم لأغراض مذهبهم.فکان من وجوه ابتلاء الأمة أن يتعرّض کل من لا يرى رأيهم فى التجسيم و الرؤية (3)للأذى،فى حين يبقى يحيى بن أکثم-و هو من أرکان الحکم فى عهد المأمون-على مکانته،و يظل فى منزلته من الخليفة،لأن أحمد بن حنبل راض عنه.قال المأمون ليحيى بن أکثم:من الذى يقول-و هو يعرّض به-:

قاض يرى الحدّ فى الزناء و لا يرى على من يلوط من بأس

قال:أو ما يعرف أمير المؤمنين من قاله؟قال:لا.قال:يقوله الفاجر أحمد بن أبى نعيم الذى يقول:

حاکمنا يرتشى،و قاضينا يلوط،و الرأس شرّ ما راس

لا أحسب الجور ينقضى،و على ال أمة وال من آل عباس

(4)و لمّا کان يحيى بن أکثم قاضيا للبصرة،رفع الناس إلى المأمون أنه أفسد أولادهم بکثرة لواطه،و بلغ من إذاعته و مجاهرته باللواط فى بغداد أن المأمون أمره أن

1- (1) راجع:المناقب لابن الجوزى.و البداية و النهاية.351/10.

2- (2) قواعد المنهج السلفى 113.

3- (3) انظر:المنتظم 172/6.

4- (4) تاريخ الخطيب 196/14.و [1]مروج الذهب 22/4. [2]

يفرض لنفسه فرضا يركبون بركوبه،و يتصرّفون فی أموره.ففرض أربعمائة غلام مردا اختارهم حسان الوجوه،فافتضح بهم.

قال عبد اللّه بن أحمد بن حنبل:ذكر يحيى بن أكثم عند أبی فقال:ما عرفت فيه بدعة.فبلغت يحيى فقال:صدق أبو عبد اللّه،ما عرفنی ببدعة قط.قال:و ذكر ما يرميه الناس به فقال:سبحان اللّه!سبحان اللّه،و من يقول هذا؟و أنكر ذلک أحمد إنكارا شديدا (1).

و علی شاكلة يحيى بن أكثم كانت دفّة حكم المتوكل،فلم يكن فی وزرائه و المتقدّمين من كتّابه و قوّاده من يوصف بجود و لا إفضال،أو يتعالی عن مجون و طرب.

يظهر لنا من ذلک أن صفة إحياء السنة التی تعنی الالتزام بأهداب الدين و محاربة الخروج عن أصول الإسلام تخفی تحتها واقعا سيئا كأی حاكم آخر ممن تستروا بالدين و اتخذوا شعائر الإسلام غطاء لجرائمهم.و هذا الواقع بعيد عن أنظار العامة،فهم فی انفعال لا يكاد يخفّ حتی يشتدّ،و انقيادهم إلی الذين أطلقوا هذه الصفة انقياد أعمی، حتی كأن العامة تنظر و تنطق بأنظار و ألسنة النابهين فی تلک الفترة و المتزعمين الذين راحوا يكيلون المدائح للمنقذ المتوكل،و يشيعون الأخبار و المنامات عن جزائه عند اللّه،و مكانته فی الدين،فتأخذ سياسته علی أنها السنّة،و يحسب كل ما يصدر عنه من الدين و التقوی،و كان من سمات حكمه الغالبة عداؤه الشديد لآل علی،و نقمته الشديدة علی الشيعة،و من سوء حظ الأمة أن يتاح للحكام مثل هذه الأدوار ليؤثروا فی العامة بصفاتهم الدينية،و هم فی غفلة عن حقيقة و دوافع من يحكمهم،لأن الوسطاء الذين يقومون بذلک يحجبون بمكاناتهم و منازلهم الدينية الحقيقية،و لا يرغبون فی خروج العامة عن أغراضهم.

حدّث نصر بن علی الجهضمی بحديث:أن رسول اللّه صلّی اللّه عليه و آله و سلّم أخذ بيد حسن و حسين فقال:«من أحبنی و أحب هذين و أباهما و أمهما؛كان معی فی درجتی يوم القيامة»فأمر المتوكل بضربه ألف سوط،فكلّموه بأن الرجل من أهل السنة،و لم يزالوا

1- (1) الطبقات:412/1. [1]

به حتی ترکه،و یعقّب الخطیب البغدادی:إنما أمر المتوکل بضـربه لأنه ظنه رافضیا، فلما علم أنه من أهل السنة ترکه!!و أصاب أهل البیت فی ظل المتوکل محنة قاسـیة و بلاء عظیم،و کان الإمام علی الهادی یقیم فی المدینة،و یقوم مقام الإمامة و حوله شـیعته و أصـحابه.فکتب عبد اللّه بن محمد بن داود العباسی إلی المتوکل عن حاله.

فکتب المتوکل إلی الإمام الهادی بالشـخوص من المدینة،فشخصه عبد اللّه بن محمد بن داود و معه یحیی بن هرثمة،و قد اضطر إسحاق بن إبراهیم أن یـدخله إلی بغـداد فی اللیـل لمّا رأی تشوّق الناس إلیه و اجتماعهم لرؤیته،فأقام إلی اللیل،و دخل به فی اللیل،فأقام ببغـداد بعض تلک اللیلة،ثم نفذ إلی سرّ من رأی (1).ثم کان من المتوکل فی الإساءة إلی الإمام الهادی ما تجاوز به کل حدّ الأدب و اللیاقة.

و شارک المتوکل یزید بن معاویة فی جریمته النکراء التی سوّدت وجوه بنی أمیة و من والاهم إلی یوم الدین،فأمر المتوکل سـنة 236 ه بهدم قبر أبی الأحرار الإمام الحسین علیه السّلام و محو أرضه و إزالة أثره،و أن یعاقب کل من وجد به.

و لا نعقّب بشیء آخر،فلا مزید لمستزید أمام ما تصرخ به شواهد سیرته و أفعاله.

یقول الأستاذ حسن خلیفة:و قد کان قاسی القلب،ظالما،حتی أطلق علیه المؤرّخون اسم(نیرون المسلمین) (2).

أحمد و الشیعة

:

کان أحمـد فی کلّ ما یعرض له من المسائل یتوجّس من القول فیها،سواء کانت فی مسائل واقعـة تـدخل فی الخلاف،أو مسائل عامـة تمسّ المعاملات و الحیاة،حتی قلنا إنه یعانی من هاجس یعبّر عنه هو:العلم الذی علمه،أو المذاهب التی أدرک أصـحابها و حدّث بها.مما جعله فی کثیر من الأمور یغمض فی الجواب،و یبعد کثیرا عن القطع و الجزم.و قد أسـهمت خشیته من السلطان فی إضعاف الأحکام التی تترتب علی أفعال المتوکل،کإقدامه علی حرث قبر الإمام الحسین علیه السّلام.فلم نعلم له

1- (1) تاریخ الیعقوبی 209/3. [1]

2- (2) الدولة العباسیة ص 147 نقلا عن محمد البیومی:ابن حنبل.

موقفا يليق برجل فى منزلته.و بتأثير هذا الموقف راحت توجه الأسئلة إليه:هل يلعن يزيد؟فقد تظافرت أراؤه السابقة فى إطاعة الحكام و عدم الخروج عليهم مع صمته على التجرؤ على مثل هذه الأسئلة.و أغلب الروايات أنه كان يجيب بلعن يزيد،و يقول:

كيف لا ألعنه من لعنه اللّه فى ثلاث آيات من كتابه العزيز فى الرعد و القتال و الأحزاب.

و أحمد بن حنبل مبالغ فى تقرير شرف الصحبة،فيرى أن الصحابى هو كل من صحب الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم سنة أو شهرا أو يوما أو ساعة أو رآه فهو من أصحابه.و هو ما يتّفق مع نزعته فى تقديس السلف،و ميله إلى الأخذ بما عدّ من الأثر،و المشهور الذى تعاهده حكام بنى أمية و بنى العباس بالرعاية و الحماية و الترغيب فى الوضع و الانتحال.

فكان على عهد معاوية الحديث:أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم.و هنا على رأى أحمد،و عملا بهذا الحديث فإن معاوية صحابى و إمام من أولئک الذين يعنيهم فى السمع و الطاعة.

و فى عهد بنى العباس كانوا يجعلون المحدّثين يقولون:معاوية بن أبى سفيان ستر أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فإذا كشف الرجل الستر اجترئ على ما ورائه (1).و اللّه أعلم بدوافع قول أحمد:خير هذه الأمة بعد نبيها أبى بكر الصديق،ثم عمر بن الخطاب،ثم عثمان بن عفان.و يتوقف،ثم يجعل الإمام على ضمن أصحاب الشورى:الزبير و طلحة و عبد الرحمن بن عوف و سعد (2).

و يرى الشيخ محمد أبو زهرة أن أحمد فى ذلک يقف موقفا وسطا بين أبى حنيفة و مالک(فأبو حنيفة فى رواية صحيحة عنه يفضّل عليا على عثمان رضى اللّه عنه...

و مالک يعدّ السبق فى ثلاثة:أبى بكر و عمر و عثمان،ثم يذكر أن بعدّ ذلک يستوى الناس، أما أحمد فإنه لا يعدّ سيف الإسلام فى سائر الناس،بل يجعله فى أصحاب الشورى الخمسة بعد رفع عثمان رضى اللّه عنه،و الناس بعد ذلک دونهم على مراتب) (3).

و نحن نرى باعتماد الأقوال الأخرى لأحمد أن أحمد واقع تحت تأثير الخوف من المتوكل الذى كان من أشدّ النواصب و المعادين للإمام على و آل بيته،و هو مشفق

1- (1) تاريخ بغداد ج 1 ص 209. [1]

2- (2) ابن حنبل ص 147. [2]

3- (3) ابن حنبل ص 147.

من هـذا الطـاغی،أو عامـل بما دعا إلیه من الطاعـة التی یبرّرها لنفسه.فعبـد اللّه بن أحمـد یسأل أباه:یا أبی،ما تقول فی التفضـیل؟فیقول:فی الخلافـة أبو بکر و عمر و عثمان.فیقول عبـد اللّه:فعلی بن أبی طالب؟فیقول أحمد:یا بنی،علی بن أبی طالب من أهل بیت لا یقاس بهم أحد (1).و لعلنا لو ناقشناه لقال:ذلک ما علمته من السلف فی التفضیل،و أما القول الآخر فهو ما یقتضیه الحق.و عن عبد اللّه أیضا قال:کنت بین یدی أبی جالسا ذات یوم،فجاءت طائفة من الکرخیة،فذکروا خلافة أبی بکر و خلافة عمر و خلافة عثمان فأکثروا،و ذکروا خلافة علی بن أبی طالب فزادوا و أطالوا،فرفع أبی رأسه إلیهم فقال:یا هؤلاء قـد أکثرتم القول فی علی و الخلافـة،إن الخلافة لم تزیّن علی،بل علیّ زیّنها (2).و للعلاّمة المعتزلی ابن أبی الحدید قول فی ذلک فیقول:و هذا الکلام دال بفحواه و مفهومه:أن غیره ازدان بالخلافة و تممت نقیصـته،و إن علیا لم یکن فیه نقص یحتاج إلی أن یتمم بالخلافة،و الخلافة ذات نقص فی نفسها،فتمم نقصها فی ولایته إیاها...

ثم لا نعدم أن نری أقوالا تومئ إلی ردّه علی زمرة المتوکل و النواصب کقوله:

من لم یثبت الإمامة لعلی فهو أضلّ من حمار (3).

و علی ذلک،فإن تهمـة إیواء العلوی لها مغزی کبیر إن لم تکن حقیقة واقعة، و نحن بذلک لا نرید تحویل صورة أحمد،أو نرمی إلی إخراجه مما هو فیه؟بل إن الموقف من العلویین هو المعیار الثابت لمن کان مثله فی الزهد و التدیّن.

و ابن حنبل لم یکن منقطعا عن الشـیعة،بل کان علی صـلة مع رجالهم رغم الإجراءات التی اتخـذها المتوکل فی تتبع الشـیعة.و ربما وجّه بعض المخلصـین للإمام أحمد لوما شدیدا علی اتصاله بمن عرف فی التشـیع،فکان جوابه:سبحان اللّه،رجل أحبّ قوما من أهل بیت النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم نقول له لا تحبهم؟هو ثقة (4).

کما أنه أخذ العلم عن کثیر من رجال الشیعة و کانوا من شیوخه،و قد ذکرهم ابن

1- (1) المناقب 163. [1]

2- (2) المصدر السابق.

3- (3) المناقب أیضا.

4- (4) تاریخ بغداد 261/10. [2]

الجوزی فی المناقب،و غیره ممن کتب فی رجال الحدیث،ذکرهم فی تعداد شیوخ أحمد مع ثبوت تشیّعهم.منهم:

-إسماعیل بن أبان الأزدی المتوفی سنة 216 ه و هو من شیوخ البخاری و ابن معین أیضا.

-إسحاق بن منصور السلوی المتوفی سنة 205 ه خرّج حدیثه أصحاب الصحاح الستة.

-تلید بن سلیمان المحاربی المتوفی سنة 110 ه خرّج حدیثه الترمذی و قال فیه أحمد:إن مذهبه التشیع،و لم أر فیه بأسا.

و لسنا هنا فی موضع استقصائهم،و إنما أوردنا أسماءهم کأمثلة.و تسمع عن رحلة أحمد لطلب الحدیث،فقد کانت إلی عبد الرزاق بن همام الصنعانی،و هو من رجال الشیعة و محدّثیهم ترجمه الذهبی:أحد الأعلام الثقات...و هو خزانة علم، و رحل الناس إلیه:أحمد و إسحاق و یحیی و الذهلی جعفر بن أبی عثمان الطیالسی قال:سمعت ابن معین یقول سمعت من عبد الرزاق کلاما یوما،فاستدللت به علی تشیّعه،فقلت،إن أساتذتک الذین أخذت عنهم کلهم أصحاب سنة:معمر و مالک و ابن جریج و سفیان و الأوزاعی،فعمّن أخذت هذا المذهب؟فقال:قدم علینا جعفر بن سلیمان الضبعی،فرأیته فاضلا حسن الهدی،فأخذت هذا عنه.و ذکر رجل معاویة فی مجلسه،فقال عبد الرزاق:لا تقذر مجلسنا بذکر ولد أبی سفیان.قال أحمد بن صالح:قلت لأحمد بن حنبل:هل رأیت أحسن حدیثا من عبد الرزاق؟ قال:لا .(1)

و أحمد بن حنبل یقرن عزمه علی الخروج إلی مکة لیقضی حجة الإسلام بالمضی إلی عبد الرزاق إلی صنعاء بعد الحج،و کان یرافقه یحیی بن معین،و یشدّ الرحال علی ذلک،بل إنه یبقی علی نیته و هو یلتقی بعبد الرزاق فی مکّة.و إلیک نص صالح بن أحمد:عزم أبی علی الخروج إلی مکة لیقضی حجة الإسلام،و رافق یحیی بن معین،فقال:نمضی إن شاء اللّه،فنقضی حجتنا،و نمضی إلی عبد الرزاق

1- (1) میزان الاعتدال ج 2 ص 126-129.

إلى صنعاء نسمع منه.فوردنا مكة،و طفنا طواف الورود،فإذا عبد الرزاق فى الطواف يطوف،فطاف و خرج إلى المقام فصلى ركعتين و جلس،فتممنا طوافنا أنا و أحمد و جئنا و عبد الرزاق جالس عند المقام،فقلت لأحمد:هذا عبد الرزاق قد أراحك اللّه من مسيرة شهر ذاهبا و جائيا و من النفقة.فقال:ما كان اللّه يرانى و قد نويت له نية أفسدها و لا أتمها (1).

توفى عبد الرزاق سنة 211 ه و لذلک ترى أن فى مسنده أحاديث تشتمل على فضائل أهل البيت.يقول الأستاذ محمد رجب البيومى فى كتابه(ابن حنبل):(و قد لحظ بعض كتّاب المغرب أن فى مسند أحمد ما يدل على شجاعته الأدبية،فقد ذكر أحاديث تشتمل على فضائل على و آل بيته مما لا نجد نظيرها فى صحيح البخارى، و ذلک فى عصر يضطهد العلويين و يناوئهم،و يقف بالمرصاد لمن ينسب إليهم بعض الخير فى قليل أو كثير...)و معلوم أن المسند روى عن أولاده و أصحابه،و جمع من قبلهم.

و صفوة القول،أن أحمد فى سعيه و طلبه للحديث و العلم اتصل بالشيعة، و تتلمذ على رجالهم.و إن كانت هذه العبارة لا تغنى عن نتائج البحث و التعمّق فى حياته،و قد اكتفينا بهذا القدر.

خاتمة و خلاصة

رأينا أحمد فى حياته،و رافقناه فى محنته (2)و ذكرنا بعضا من أخباره و سيرته، و اتضح لنا نهجه و منحاه العلمى،و أن كثيرا من أخباره و ما تتضمن صور عظمته كانت من إغراق الحنابلة فى مدحه،لأن أكثر ما أوردوه فى ذلک هو من وحى الخيال و بدافع التعصب،و قد نوّهنا بالمنامات و غيرها و التى يقصد الحنابلة فى كثير منها ليس إلى رفع منزلة أحمد و تهويل مكانته فحسب؛بل و إلى خدمة معتقداتهم فى التجسيم.نورد لک منها زيادة،فقد اشتهر عن أحمد الجهر بالرؤية حتى ينقطع نفسه،و الإصرار على ذلک.و راح أحمد يعضّد الرؤية فى الآخرة برؤيا له إذ قال أحمد:رأيت اللّه عز و جل

1- (1) الطبقات 175/1.

2- (2) راجع الجزء الرابع من«الإمام الصادق و المذاهب الأربعة».

فی المنام!!فقلت:یا رب ما أفضل ما تقرّب به المتقرّبون إلیک؟قال:بکلامی یا أحمد (1).

و بإسناده قال أحمد بن محمد الکعدی:رأیت أحمد بن حنبل فی المنام، فقلت:یا أبا عبد اللّه،ما صنع اللّه بک؟قال:غفر لی،ثم قال:یا أحمد ضربت فیّ؟قال:قلت:نعم یا رب.قال:یا أحمد،هذا وجهی،فانظر إلیه،قد أبحتک النظر إلیه!!!! قال عبد اللّه بن الحسین بن موسی:رأیت رجلا من أهل الحدیث-توفی- فیما یری النائم،فقلت له:باللّه علیک ما فعل اللّه بک؟قال:غفر اللّه لی.فقلت:

باللّه؟فقال:باللّه إنه غفر اللّه لی.فقلت:بما ذا غفر اللّه لک؟قال:بمحبتی لأحمد بن حنبل.فقلت:فأنت فی راحة؟فتبسم و قال:أنا فی راحة و فی فرح (2).

و یحدث أحد شیوخهم:رأیت رجلا بجامع الرصافة فی شهر ربیع الآخر من سنة ستین و أربع مائة.فسألته فقال:قد جئت من ستمائة فرسخ.فقلت فی أی حاجة؟قال:

رأیت و أنا ببلدی فی لیلة جمعة کأنی فی صحراء أو فی فضاء عظیم،و الخلق قیام، و أبواب السماء قد فتحت،و ملائکة تنزل من السماء تلبس أقواما ثیابا خضرا و تطیر بهم فی الهواء.فقلت:من هؤلاء الذین قد اختصوا بهذا؟فقالوا لی:هؤلاء الذین یزورون أحمد بن حنبل.فانتبهت و لم ألبث إن أصلحت أمری،و جئت إلی هذا البلد،و زرته دفعات،و أنا عائد إلی بلدی إن شاء اللّه ا ه.إلی ما هنالک من أمور لا تدخل فی دائرة البحث التاریخی،و هی عندهم من الأسس المعتمدة فی تکوین شخصیة أحمد.

فرؤیاهم النبی المصطفی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم-کما یدّعون-و أنه أمرهم باتباع أحمد.هو عندهم کأمره فی الیقظة،و قد أثر ذلک فی التحقیق التاریخی عن ترجمة أحمد.

و انتصار المحدّثین علی خصومهم المعتزلة خلق جوا من الاضطراب فی أخباره و سیرته،فتحامل خصومه و مغالاة أنصاره مع إقبال الدولة علیه،أوجد فجوة کبیرة.

کما أن إهمال العامل السیاسی من قبلهم أدی إلی تعدّد وجهات النظر فی الواقع

1- (1) الإحیاء ج 3 ص 497. [1]

2- (2) الجرح و التعدیل ج 1 ص 308.

التاريخی،علی أن مشکلة خلق القرآن و قیام المأمون بإلزام الفقهاء فی ذلک أوجد مشکلة کلامیة تحتاج إلی دراسة واسعة فی علم الکلام،و بیان الکلام النفسانی، و تعلّقه بالذات.

کما أن الأسباب التی دعت المأمون إلی هذا الإلزام،و حملته علی نشر ذلک بالقوة کذلک تحتاج إلی دراسة واسعة.

ثم القول بخلق القرآن،هل هو الإحداث،و لا شک أنه محدث،أم أرادوا الخلقة أو التکوین الحادث للکلام و هو من صفات اللّه،و إن صفاته عین ذاته،و قد عرضناها فی هذا الجزء بقدر ما تقتضیه ضرورة البحث.

و غیر بعید أن الحنابلة قد أوهموا علی الناس فی هذه المسألة،و جعلوها فی قالب آخر،و أوردوها لهم بصورة ینکرها الجمیع،و ذلک بتفسیرهم المخلوق بالمکذوب.فقد ورد فی کثیر من أقوال العرب اختلق کذا أی کذب فیه.و قد ورد عن الخلیل بن أحمد-صاحب کتاب العین-أنه کان یمنع أن یوصف الکلام بالمخلوق و یقول:إن الکلام متی وصف بالخلق فالقصد به الکذب،و لهذا یقال:

کلام خلقه فلان أی تقوّله-و قد مر بنا ذلک سابقا-.

و فی أیام المحنة أن بعض الفقهاء لما سئل فی القرآن قال:أصفه بأنه محدث، و لا أقول بأنه مخلوق لقوله تعالی: ما یَأْتِیهِمْ مِنْ ذِکْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ .

فمعنی أنه مخلوق أی مکذوب و هو غیر منزل.و غیر بعید علی قوة دعایة الحنابلة و تغلغلهم فی المجتمع أنهم أفهموا الناس بأن المعتزلة یذهبون إلی خلق القرآن أی إلی عدم کونه منزلا- من اللّه سبحانه و تعالی.و بهذا هبّت عواصف الغضب علی المعتزلة،و انتصر علیهم المحدّثون.

کما لا أستبعد أن أکثر الحنابلة-الذین یقومون بنشر هذه الدعایة-لا یفهمون إلاّ المعنی اللغوی،و هو أن المخلوق هو المکذوب،و لم یذهبوا مذهب المعتزلة فی الکلام و ما هو معنی ذلک.

و کیف یستبعد انتشار أمثال هذه الدعایة فی عصر انتشر فیه الجهل و الجمود الفکری،و أصبح الناس یسیر أکثرهم وراء عاطفة عمیاء لا یمیز بین الحق و الباطل،

و لكن هلم فاعجب من رجل يدّعى الإمام بالتاريخ، و كلّف نفسه كتابة التاريخ الإسلامى، و لكنه محى أكثر مما كتب، و أفسد أشياء كثيرة، و عقد مسائل واضحة.

هذا الرجل هو جرجى زيدان، يعيش فى القرن العشرين، و لكنه يعيش فى عقلية قرون الجهل و الجمود، فهو يذكر لنا فى تاريخه الذى أسماه(التمدن الإسلامى) 141/3 ط 1 أن المأمون تمسّك بمذهب الاعتزال، و قرّب إليه أشياخه، و صرح بأقوال لم يقو هؤلاء على التصريح بها خوفا من غضب الفقهاء، و فى جملتها القول بخلق القرآن، أى أنه غير منزل.

فأنت ترى أن جرجى زيدان ينسب للمعتزلة إنكار نزول القرآن، و هذا كفر محض، و هو افتراء محض ناشئ من سوء الفهم، و عدم الإلمام بأطراف المسألة، و جهل بالمسائل الكلامية.

و لا نودّ هنا أن نقف مع مؤلف التمدّن الإسلامى فنكشف أخطاءه المتعمدة و غيرها. فنحن قد سجلنا عليه الكثير من ذلك، و يكفى هنا تغييره لهذه المسألة، و تحويلها من الصراع الفكرى الحاد إلى جمود لا يتعدى الخلاف بمفهوم اللفظ اللغوى الذى يجعل المسألة من أبسط المسائل و أوضحها. و إن إطلاق المخلوق على المكذوب أمر لا يحتاج إلى أبحاث علمية و منازعات كلامية بين المعتزلة و المحدثين.

و كما قلنا إن الحنابلة قد انتصروا على خصومهم بما كان لكلمة مخلوق من دلالة، و هى أنه مكذوب. و بهذا استطاعوا أن يحرّكوا شعور المجتمع ضدّهم. و لكن قوة الحكم و عنف المؤاخذة و حمل الناس قسرا على القول بخلق القرآن جعل للمعتزلة قوة يتحصّنون بها. حتى إذا حان الوقت، و زال ذلك الحكم، و تبدّل وضع الدولة؛ فشل المعتزلة فشلا ذريعا، و نالهم الأذى، و نسب الناس إليهم كل قبيح. و كان لثبات أحمد، و للظروف التى ساعدته على ذلك أثر فى طلوع نجمه، بعد أن أفل نجم المعتزلة بقيام المتوكل العباسى، و رفعه للمحنة. و لعل من هذا الفهم لكلمة مخلوق، و اتهام المعتزلة بأنهم ينفون وجوده و تنزيله، كان للمتوكل شأن بين المحدّثين، فجمع العلماء من الفقهاء و المحدثين و كان فيهم- كما مر بنا- مصعب الزبيرى، و إسحاق بن أبى إسرائيل، و إبراهيم الهروى، و عبد اللّه و عثمان ابنا أبى شيبة، فقسمت بينهم الجوائز، و أجريت عليهم الأرزاق، و أمرهم المتوكل أن يجلسوا للناس، و أن يحدّثوا

بالأحاديث التى فيها الرد على المعتزلة و الجهمية،و أن يحدثوا بالأحاديث فى الرؤية.

فجلس عثمان بن أبى شيبة فى مدينة المنصور،و وضع منبرا،و اجتمع عليه نحو من ثلاثين ألفا.و جلس أبو بكر بن أبى شيبة فى مسجد الرصافة،و اجتمع عليه نحو من ثلاثين ألفا.

و يلاحظ من هذا أن مشكلة خلق القرآن كانت قضية سياسية بدءا و ختاما،فقد قام المأمون بفرض ما يرتئيه،و حمل الناس قسرا على معتقده،و امتحن الناس بعنف و شدة،فقرّب من يقول بمقالته،و عاقب من يخالفه بألوان العذاب.و على ذلک سار خلفه،و قد حاولوا جعل الاعتقاد بخلق القرآن عقيدة رسمية،فقد كان أحمد بن أبى دؤاد يأمر المعلمين فى الكتاتيب أن يلقنوا الصبيان أن القرآن مخلوق،و أن يصبح ذلک من الدروس التى يلزم تدريسها فى معاهد التعليم،لينشأ الجيل الجديد على عقيدة الاعتزال التى فرضتها الدولة،و امتحن الناس بها.

أما فى النهاية،أى فى دور المتوكل،فكان الأمر كسابقه يتّصف بالقهر و العنف و الشدة،و حمل الناس على ما ترتضيه الدولة من القول:بأن القرآن غير مخلوق.

و هكذا ضاع جوهر المسألة،و ابتعدت عن مقوماتها العلمية و ما تحتاج إليه من دراسة، و تقديم الطرق العلمية نفيا و إثباتا،بل زاد الأمر تعقيدا باستعمال لفظة مخلوق أى مكذوب،و أشيع فى الناس أن المعتزلة يذهبون إلى أن القرآن غير منزل من اللّه تعالى.

و المعروف أن المعتزلة على اختلاف فرقهم و متكلّميهم لم يكن أحد منهم يذهب إلى ما اتهموا به من الطغى فى القرآن و التشكيک فى أنه منزل من عند اللّه،و قد صدروا فى نظريتهم عن الصفات،و منها صفة الكلام التى ترتب عليها قولهم بأن القرآن مخلوق عن إيمان صادق حرصوا فيه على تأكيد وحدانية اللّه و تنزيهه،حتى وسموا بأهل العدل و التوحيد.

و فى عهد المتوكل سار الناس على غير هدى و لا وضوح للمسألة،بل كان الأمر سياسيا و خارجا عن دائرة النزاع العلمى الذى يؤدى إلى نتائج واضحة سلبا أو إيجابا،و لعل أكثرهم يودّ التعرّف على حقيقة الأمر،و يكتم ذلک خوفا من السلطة.

و من الأحداث ما يصرّح باعتلاج النفوس و ازدحام الأذهان بالتساؤلات التى تدور بين طبقى رحى السلطة و التعنّت.فالإمام أحمد لاينى عن تكفير من تسوّل له نفسه الاستفسار أو تحرّى الحق،و لا يتردد فى معاملتهم كالمرتدّين،فكلام اللّه غير

مخلوق،و من قال أنه مخلوق فهو كافر باللّه العظيم،و من لم يكفّر قائله فهو كافر،أو إنهم كفار يستتابون.

و استمرّ أصحابه على نهجه،كما باتت فرص تحكّمهم فى الناس من خلال السلطة أكبر.و ورث أنصارهم هذا المنحى فى التعنّت و التزمّت.

و إلى هنا نتوقف عن الحديث عن أحمد...و ننهى الجزء السابع من كتاب «الإمام الصادق»و سيليه الجزء الثامن بعونه تعالى و توفيقه.

ص:217

الجزء الثامن

اشارة

ص:219

بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِی أَنْزَلَ عَلی عَبْدِهِ الْکِتابَ وَ لَمْ یَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً

[الکهف:1]

- وَ قُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّکُمْ فَمَنْ شاءَ فَلْیُؤْمِنْ وَ مَنْ شاءَ فَلْیَکْفُرْ إِنّا أَعْتَدْنا لِلظّالِمِینَ ناراً [الکهف:29]

- وَ مَنْ یَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصّالِحاتِ فَأُولئِکَ لَهُمُ الدَّرَجاتُ الْعُلی [طه:75]

- وَ الَّذِینَ آمَنُوا بِاللّهِ وَ رُسُلِهِ وَ لَمْ یُفَرِّقُوا بَیْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولئِکَ سَوْفَ یُؤْتِیهِمْ أُجُورَهُمْ وَ کانَ اللّهُ غَفُوراً رَحِیماً [النساء:152]

- وَ مَنْ یَتَوَلَّ اللّهَ وَ رَسُولَهُ وَ الَّذِینَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللّهِ هُمُ الْغالِبُونَ [المائدة:56]

مقدمة و تمهيد

بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الحمد للّه على هدايته لدينه،و التوفيق لما دعا إليه من سبيله،و أصلى على محمد خاتم الأنبياء و خير الخلق،و على آله الطيبين الطاهرين،و من اتّبعه و والاه.

هـذا هو الجزء الثامن من كتابنا(الإمام الصادق و المـذاهب الأربعة)و قد أكملته و أنا فى سنّ ألمّت بى الأعراض و الأمراض،و فى حال من الغربـة يزيد من موانع التواصل بالكتابة و التأليف،و لكنّى تحاملت على الأيام،و ناجزتها بقوى واهنة و ذهن مكدود،و أنا مؤمن بأن ضـعف البدن و فتور البال يتحوّلان بالإيمان إلى طاقة خلاّقة، و قد قال الإمام الصادق عليه السّلام:«ما ضعف بدن عما قويت عليه النيّة».

و لم يكن الجزء الثامن وحـده هو ما انعقـدت عليه النيّـة،و إنما بين يـدى كتبى الأخرى التى لم تر النور بعـد،و أمامى تنقيح و إضافة بعض الزيـادات إلى مـا طبع منهـا ككتابنـا:(مع الحسـين فى نهضـته).و أنـا فى ظرف اقتضـى أن أتجه فيه إلى مهمـات الإرشاد و واجبات العمل الدينى،فقد واجهت صـعيدا يسـتلزم الجهد الذى يضـنى،و فيه كل ما تضمّه القربة إلى اللّه دون بهارج الدنيا و منافع المادة التى تؤثر فى قوة العمل.

و إذا ما استراح الذهن من الأفكار التى تلحّ عليه،تعلّق بماضـى الأيام حيث كان الوقت مستغرقا فى البحث و الكتابة،و ما هى إلا أيام تفرغ و فترات تخصـص يركض طالب العلم فيها بنهم وراء المعرفـة،و يسـعى كل يوم للحصول على المادة التى يحتاجها فى بحثه،فإن عـدمت فى داره؛اتجه إلى مجامع الفكر و مؤسـسات العلم.فسـلام على مدينـة العلم،و تحيّـة مقرونـة بآهـة و دمعـة و حسـرة،و صـلوات اللّه على أمير المؤمنين و وصـى رسول رب العالمين،صلوات دائمة حتى يتشرّف جسدى بتراب.أرضه،فإن الأيام تمرّ،و العوارض تزداد،و العمر إلى نفاد،و لم تتحقق بعد أمنية العودة.

و لقد عانيت كثيرا و أنا أعمل على إكمال الجزء الثامن من كتاب الإمام الصادق فقد رأيت أن ما أكملته من كتب و بحوث-على شدّة حرصى و كثرة متابعتى فى إنجازها-قد ضمّت بعض الأخطاء الإملائية و غيرها التى لا تخلّ بالسياق.فبذلت جهدى فى التصحيح كما حدث فى كتابنا المخطوط:(الجريمة بين الشرع و القانون) و كتاب(العلوى الثائر)و قد كنت أتمتع ببقايا البصر،فكيف الآن و قد أصبحت أعانى من(الزرقاء)معاناة شديدة مما اضطرنى إلى الاعتماد على الإملاء على الأحبة و الأصدقاء،و إذا ما أمسكت بالقلم لأكتب،فإن القدرة لا- تتجاوز بضع كلمات.و قد نظرت فيما لفت نظرى من تلك الأخطاء،فوجدتها بسبب النقل و الجمع و التصنيف و نسخها بأكثر من يد.فأرجو مراعاة ما فاق الطاقة و هى فى أواخرها،و النظر فيما عجزت عنه القدرة و هى فى ضعفها،و اللّه ولى التوفيق.

و تصبح الكتابة صعبة و شاقة عند التحوّل إلى طريقة الإملاء على الغير،و البحث فى المصادر بواسطة و عون،أضف إلى ذلك أن ما معى من الكتب و المصادر قليل جدا،و لم يتيسّر فى نطاق العلاقات هنا ما يسدّ الحاجة،فألجأ إلى الذهاب إلى المكتبات للاستعارة،و لم أجد فى هذا المجال ما يقتضى التنويه أو يستحق الشكر إلا ما قدّم لى من يد فى النسخ و الكتابة،أضرع إلى اللّه أن يسدّد و يوفق كل من قدّم يد العون من الأهل و الأصدقاء.

و القصد،فإن هذا الجزء الذى أقدّمه إلى القرّاء كان من أكثر الأجزاء تطلبا للجهد و المعاناة،و كنت عند ما أجد فى نفسى الضعف-بفعل عوامل السن و مقتضيات العمر-اتجه إلى الأعمال الأخرى،فأبحث فيها،و أدوّن مادّتها،لأن هاجس الأجل و انقضاء العمر يحملانى على أن أوزّع ما استشعره من إمكانية على كتبى،و يعلم اللّه أنى أنظر إلى فراقها كما أنظر إلى فراق الأهل،و أرجو لها كما أرجو لهم أن أتركها على حال يمكنها من تحقق الغرض و تحقيق الأمل.

و فى الجزء الثامن من(الإمام الصادق و المذاهب الأربعة)تناولنا أهم المواضيع التى تتعلق بحياة الإمام الصادق،و بحثنا حياة الإمام مالك و الإمام الشافعى،بعد أن عدنا إلى الحديث عن حياة الإمام أبى حنيفة و الإمام أحمد فى الجزء السابع،و تناولنا بعض الأمور التى لم نبحثها عن أئمة المذاهب الأربعة فى الأجزاء السابقة من الكتاب.

و لأن امتداد حياة الإمام الصادق عليه السّلام كان عبر عهدين و نظامين للحكم،فقد كانت حياته غنيّة بالأحداث و التحوّلات و المواقف،كما أن حياته عليه السّلام قد امتدت

عبر سیرتین و مرحلتین لنظام الإمامة و تاریخ أهل البیت النبوی علیهم أفضل الصلاة و السّلام.فتعلّق جزء منها بحیاة جدّه الإمام زین العابدین علیه السّلام،کما تعلق شطر منها بحیاة أبیه الإمام الباقر علیه السّلام،فکانت حیاته علیه السّلام من هذا الجانب زاخرة بالمواقف و الأفعال و المبادئ،حتی جاءت شخصیته علیه السّلام و أفکاره و تعالیمه علی مستوی من التکامل و النضج،و من العمق و الغنی،ما جعلها مکافئة للأخطار و المهالک التی تحیط بالإمامة و تهدّد الأمة و المجتمع الإسلامی،فقد تسلّم الزعامة الروحیة و تولی الإمامة فی مرحلة شدیدة الصعوبة،و لو لا آثار الإمام الصادق علیه السّلام و ما نتج عن نهجه الفکری و نشاطه العلمی،لکانت آثار النظامین الحاکمین،و نتائج أعمال الطغاة،و ما وجّه إلی الأمة الإسلامیة من ضربات تستهدف عقیدتها و سلوکها من قبل أعداء الدین، قد أسلمت الکیان الإسلامی بکل جوانب وجوده و وجوه بقائه إلی أزمة حادة أو مشکلة مستدیمة.لکن جهد الإمامة،و حکمة استمرار الرسالة فی وصایة الولایة،أبقت جذور العقیدة راسخة،و حفظت أرکان الدین قائمة برغم انشغال حکّام الزمان بحمایة سلطانهم،و انتهاجهم البطش و القسوة،حتی کانت صورة المجتمع الإسلامی محاطة من جهة بظلم الحکام و جبروتهم،و من جهة أخری بأعداء الإسلام و أفکارهم،و من جهة ثالثة بألوان ضعف الإیمان و البعد عن الدین.و یبرز فی قلب هذه الصورة شخصیة المصلح الفذّ و القائد المخلص،فیحیل ظلمات الجهل إلی مشارق أنوار،و یخلق تلک النهضة الفکریة و الحیاة العقلیة التی نهل منها أئمة المذاهب و علماء المسلمین،و التی حصّنت الأمة ضد حرکات الأعداء،و حفظت الفکر من تیارات الإلحاد و الزندقة.

و قد رأیت أن أبدأ الکتاب بشیء من سیرته یلخّص ما بسطنا به القول فی الجزءین الأول و الثانی من الکتاب،و قدّمت عرضا للفترة السیاسیة الزمنیة،و أسماء الملوک الحکام الذین عاصرهم الإمام الصادق علیه السّلام حتی تکون أمام القارئ الذی لم یتهیأ له قراءة أجزاء الکتاب التی ضمّت تفاصیل القول فی هذه الفترة الزمنیة السیاسیة،صورة عن الأحداث و التحولات التی عاشها الإمام الصادق.ثم سقنا نظرة إلی حوادث عصره لتکون عقب الشیء الذی قدّمناه من سیرته متکاملة فی إطار الصورة التی نرید.

و لمّا کنت قد أنهیت کتاب:(حیاة الإمام الصادق) (1)فقد نهجت فی هذا الجزء

1- (1) سنقدمه للطبع إن شاء اللّه بعد الفراغ من طبع الجزءین السابع و الثامن من الإمام الصادق و المذاهب الأربعة. [1]

على عرض المواضيع التى تتصل بإبراز شخصية الإمام الصادق فى إطار المقارنة أو فى سياق المرحلة السياسية مما لم يدخل فى أغراض الكتابة عن حياة الإمام بشكل منفرد.

و لهذا ضمّ الجزء الثامن عرضا لمنهج العمل عند الإمام الصادق فى مواجهة الطغاة، و المسلك الذى اتبعه عليه السّلام فى تجنيب الأمة المآسى،و إبعاد أنياب الحكّام و مخالبهم عن جسد المجتمع الإسلامى،و الاتجاه إلى المستقبل ببناء النفوس و عمارة الأذهان بذكر اللّه و التمسّک بتعاليم الدين،و هو ما ميّزه ليس على صعيد الأمة الإسلامية،بل و فى داخل الدوحة المحمدية و الشجرة العلوية،حتى استطاع أن يقيم صرحا فكريا شامخا تمثّل فى مدرسته التى انتسب إليها علماء الأمة و رجالها،و أن يجعل من(الدعوة الصامتة)التى وضع بذرتها جدّه الإمام زين العابدين عليه السّلام منهجا و نظاما.

كما تضمّن الجزء الثامن بحثا فى(الدعوة الإسماعيلية)و قد كان ذلک مما تفرّع عن البحث فى أبناء الإمام الصادق عليه السّلام حيث تناولنا موضوع الإمامة بعد الإمام الصادق عليه السّلام و دلائل النص على إمامة ابنه موسى بن جعفر.إلى غيرها من الأمور التى قامت الإسماعيلية على إنكارها،و المواضيع التى تطورت منها،و قد حرصنا على تجنب الخوض فيما يمكن أن يستغنى البحث عنه،و اقتصرنا على القضايا الأساسية فى ابتعاد الدعوة الإسماعيلية عن مذهب الإمام جعفر الصادق و عقائد الشيعة الإمامية، و لم ندخل فى تفاصيل و دقائق ذلک لظرف قدّرناه،فأهملنا الكثير،و لكن لم نقف دون ذكر الحقائق أو الإتيان بالوقائع.

و أخيرا،فلا بد من كلمة سبق أن نوّهت بمعناها فى أكثر من مورد فى ثنايا البحث عن حياة الإمام الصادق،فإن شخصية الإمام الصادق تبقى بحاجة إلى مزيد و مزيد من البحوث و التصانيف،و خاصة أفكاره و تعاليمه التى تضمّ ثروة كبرى.

كما لا بد من القول أن سمو منزلته العلمية و علو مكانته الدينية لا تؤثر فيهما دواعى التعصب أو بواعث الإساءة،فلقد عفى التاريخ ما أراد له أعداؤه من صورة،و أتت الأيام على محاولات الحكام و أنصار الظلمة،و بقيت صورة الإمام الصادق التى يجمع العلماء على إشراقها و نورها.فهو أعلم زمانه،و إمام علماء عصره،و سيّد أمة جده.

و أرجو من اللّه أن لا يكون هذا آخر العهد بخدمة أهل البيت عليهم أفضل الصلاة و السّلام،و أن يمنّ علىّ بالقوة و الطاقة لإكمال المسيرة و تحقيق الآمال،و اللّه من وراء القصد.

الكويت/محرم الحرام1404/

الإمام الصادق

اشارة

شیء من سیرته،و نظرة إلی حوادث عصره

الإمام الصادق هو أعظم شخصیة فی عصره و بعد عصره،و سیبقی مثالا للعالم الذی استطاع أن یؤدی للأمة خدمات لم یمحها بعد الزمن و تقلّب الحوادث و اختلاف الظروف.فقد واجه علیه السّلام مسئولیات جسام و مخاطر عظیمة تهدّد مبادئ العقیدة الإسلامیة و وجود المجتمع الإسلامی،و تتجلی عظمة الإمام الصادق فی تصدّیه لتلک الأخطار علی تعدد مصادرها و اختلاف عناصرها،فلم یهدأ فی صد هجمات الأفکار و موجات التشکیک و الإلحاد.

و لم یقعده الضغط السیاسی الذی استعمله أولئک الحکام الذین حاولوا أن یخضعوا لسلطانهم الروح المعنویة التی یتصف بها علماء الإسلام،فیربطوا العلم بعجلة مسیرتهم،و یسخّروا الدّین لأغراضهم.

و قد حفظ التاریخ لنا ملامح شخصیة الإمام الصادق واضحة جلیة و هو فی خضم ذلک المعترک القاسی.و یبرز دوره علیه السّلام فی الحفاظ علی أصالة الفکر الإسلامی،و فی الذود عن کیان الأمة،و فی حمایة الرعیة من ظلم الحکّام و الطغاة، إلی غیر ذلک من جوانب الحیاة الإسلامیة،و هو فی ذاته هدف السیاسة و غایة الحکم، حیث کان الطغاة علی اختلافهم یسعون إلی القضاء علی شخصیته لما تمثّله من قوة روحیة و سلطة دینیة.

و من عظیم الآثار و المفاخر الفکریة،أن یتمکن عظیم کالإمام الصادق-و هو علی مثل تلک الأخطار و مواجهة سیاسة الحکام-من تأسیس مدرسة إسلامیة استطاعت أن تطلق الفکر الإسلامی من عقال الجمود،و توسّع دائرة المعرفة بنشر العلوم الإسلامیة،و الدعوة إلی التمسّک بتعالیم الدین و أفکار العقیدة الإسلامیة حتی

سارت بذكره الركبان،و ازدحمت على مجلسه الوفود من شتى الأقطار،فكان بحق أعلم أهل عصره،و لم يكن هناك أعلم منه.و قد أعلن عليه السّلام للملإ بقوله:«سلونى قبل أن تفقدونى فإنكم لن تجدوا أحدا مثلى» (1).

و قد شهد له علماء عصره من تلامذته و روّاد مجلسه كمالک ابن أنس و أبى حنيفة و السفيانى 2.

و كان عصره يتّصف بمفارقات أوجدت مشاكل عديدة أثقلت كاهل كل مسلم يحسّ بواجبه تجاه أمته عند ما اصطدمت بأمور محدثة يغلب عليها طابع المصالح الذاتية،و شاعت مظاهر الفساد و ترسّخت اتجاهات الشذوذ عن العقيدة و الابتعاد عن الإسلام،رغم أبراد التديّن التى لبسها الحكام و رسوخ دعائم سلطانهم باسم الدعوة إلى الإسلام و القيام بأمر الخلافة و شئون النظام.

و كان للتحول السياسى الذى شهده عصر الإمام الصادق أثر فى تعقيد الأوضاع و قيام موجة من الاضطراب،هددت أمن المجتمع الإسلامى،و رمت به إلى معترک هام قضى على بقايا استقراره.

و عند ما ظهرت الدعوات المختلفة،و قامت الثورات المتلاحقة،و كلّ يدعى المحاماة عن الدين و الدفاع عن شريعة محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم وقف الإمام الصادق عليه السّلام وسط تراكم الأحداث و انعطاف الأسباب و حدوث التطورات موقف مسئولية كبرى من حيث التصرف الذى تقتضيه المرحلة و المسئوليات التى تطرحها الظروف القائمة على أهل بيت النبوة،و العمل المطلوب أمام تلک المشاكل.فهم رجال رضعوا لبن الفضيلة،و تشرّبت دماؤهم العقيدة الإسلامية،و قدّموا فى ميادين الفداء أعظم التضحيات،و بذلوا كل إمكانياتهم فى سبيل نشر الدعوة الإسلامية.فقد واكبوا تلک الدعوة فى يومها الأول،و عاصروها على مرّ الزمن،حتى باتت لباسهم الحق و سمتهم الأصيلة.

و الإمام الصادق ولد فى مهبط الوحى،و ترعرع فى مهد الرسالة،و تدرّج فى

1- ((1)و(2)) الذهبى تذكرة الحفاظ ج 1 ص 157.و مناقب أبى حنيفة للموفق المكى ج 1 ص 173.و انظر الجزء الأول و الثانى من الإمام الصادق و المذاهب الأربعة.

ربوع النبوة يتفيأ ظلال الإيمان،و يتغذّى تعاليم الإسلام من مصدرها الأول و منبعها الطاهر،و لما قام بأعباء الإمامة كانت الأمة الإسلامية تمرّ فى هذا المنعطف،و تنحدر إلى التفرّق و التمزّق.فوقف الإمام الصادق عليه السّلام موقف المصلح العظيم و الزعيم المحنک،و نظر إلى واقع الأمة و ما يحيط بها من مشاكل و أخطار نظرة متفحّصة و عميقة،فأخذ نفسه بمنهج فكرى و عملى يتعاهد المسلمين بالرعاية و يتكفّلهم بالحماية.و لو لا العناية الإلهية التى تتجلى فى سرّ الإمامة و اختيار صاحب نصها و ولايتها،لما تمكن بشر من النهوض بتلک الأعباء و المسئوليات التى تترتب على الزعامة الدينية و المنزلة الروحية.و يمكننا القول أن عصر الإمام الصادق كان حلقة التواصل فى حياة الأمة الإسلامية.

و هنا نقدم أضواء من سيرته و حياته.

ولادته:

فهو أبو عبد اللّه جعفر الصادق،بن محمد الباقر،بن على زين العابدين،بن الحسين سبط رسول اللّه،بن على بن أبى طالب عليهم السّلام.ولد بالمدينة المنورة يوم الجمعة أو الاثنين عند طلوع الفجر يوم 17 ربيع الأول سنة 83 ه و قيل سنة 80 ه و قيل غرة رجب أو غرة شهر رمضان.و المعتمد الأول هو يوم 17 ربيع الأول يوم ولادة رسول اللّه كما عليه عمل كثير من المسلمين.

أمه:

أم فروة،و قيل أم القاسم،و اسمها قريبة أو فاطمة بنت القاسم بن محمد بن أبى بكر.

أمها:أسماء بنت عبد الرحمن بن أبى بكر.و كانت أم فروة قد ولدت للإمام الباقر ولدين هما:الإمام الصادق و عبد اللّه أو عبيد اللّه.و أم فروة كانت امرأة ذات معرفة و علم بأمور الدين،أخذت عن الإمام الباقر ما أهّلها لمكانة سامية و دراية كبيرة بالعقيدة و الرسالة،و قد تلقّت عنه أحاديث متنوعة،و روتها عنه.

روى عبد الأعلى حادثة تدل على مكانتها و علمها،قال:رأيت أم فروة تطوف بالكعبة عليها كساء متنكرة،فاستلمت الحجر بيدها اليسرى،فقال لها رجل ممن يطوفون:يا أمة اللّه أخطأت السنّة؟

فقالت:إنّا لأغنياء عن علمک.

أبوها:القاسم بن محمد بن أبی بکر.کان من الفقهاء السبعة،و قد روی له أصحاب الصحاح الستة،کان قریبا من الإمام علی زین العابدین و من ثقاته.أما جدّها فهو ربیب أمیر المؤمنین الإمام علی.و کان منه بمنزلة أحد أولاده،اتصف بالثورة علی الانحراف،و لعب دورا مهما فی إبعاد الأذی عن المسلمین.

کنیته و ألقابه:

یکنّی علیه السّلام بأبی عبد اللّه،و یلقب بالصابر و الفاضل و الطاهر (1).و العالم (2)و أشهر ألقابه الصادق لصدق حدیثه،و عرف بذلک،و اشتهر بین علماء عصره و بعده، لأنه ما جری علیه قط زلل،و لم یتوقف أحد عن روایة حدیثه و الأخذ بقوله،و لم یستطع أحد الطعن فی أقواله و روایته.و أما قول البخاری:فی النفس منه شیء،فلم یخرج حدیثه،فذلک یعود لنفسیة البخاری و ما فیها،و لا یؤثر ذلک علی ما أطبق علیه العلماء،و یکاد یکون العصر کله شاهدا،و قد تعرضنا للبخاری فلا حاجة إلی العودة إلیه مرة أخری.فالإمام الصادق(نقل عنه من العلوم ما لم ینقل عن غیره،و کان إماما فی الحدیث) (3).

صفته:

و وصفوه علیه السّلام بأنه ربع القامة،أزهر الوجه،حالک الشعر،أشم الأنف، تکسوه الهیبة،و یعلوه الوقار،حسن المجالسة،کثیر النوال.و لم یخل عن ذکر اللّه و الثناء علیه،و کان لا یخلو من ثلاث خصال:إما قائما و إما صائما و إما ذاکرا.کان من أکابر العبّاد و عظماء الزهّاد الذین یخشون ربهم،کثیر الحدیث عن رسول اللّه، کثیر العواد.کان نقش خاتمه(ما شاء اللّه لا قوة إلا باللّه).

و کما أشرنا،نشأ علیه السّلام فی المدینة المنورة عاصمة الإسلام و موطن الصحابة و التابعین.و قد شهدت هذه المدینة أوج عظمة النظام الإسلامی،فهی مهبط الوحی و التنزیل،تقصدها الوفود من جمیع الأقطار،و ینتهل منها علماء الأمة.

1- (1) تذکرة سبط ابن الجوزی ص 351.

2- (2) تاریخ ابن واضح.

3- (3) سبائک الذهب فی معرفة قبائل العرب.

كـان الإمـام الصـادق يحظى برعايـة جـدّه لأبيه الإمـام على بن الحسـين زين العابـدين،و هو معلّمه الأول حيث لازمه مـدة ثمانى عشـرة سنة،فترعرع فى ذلک الجو الذى يفيض بعبق النبوة،و يستلهم دروس التضحية الكبرى،حيث يهزّ الناس أثر الفجيعة و المأساة،و يرتسم على كل وجه ألم المصاب عنـد ما تطوف ذكرى استشـهاد الحسـين و خروجه من المدينـة،و ذكرى يوم الحرّة و إباحتها،فتلتهب النفوس و ترتبط برابطـة الاتصـال بـآل محمـد كلمـا أوغـل الحكـام فى الظلم و سـفک الـدماء و مطـاردة الأحرار من المسـلمين،و هـدم دور الصـلحاء و المتعبدين،و ذلک فى العهد الأموى الأسود.

توفى جده الإمام زين العابدين سـنة 94 ه فعاش مع أبيه الإمام الباقر الـذى كان موضع اهتمام العلماء و موئل الفقهاء،و كانت حلقـة درسـه تعقد بالمسجد النبوى-و هى المدرسة الكبرى لطلاّب العلم و رجال الحديث-فلا تعقد هناک حلقة إلا بعد انتهاء الباقر من حديثه.

و حضـر عنـده جمع من الفقهـاء أمثال:عمرو بن دينار الجمحى،و عبـد الرحمن الأوزاعى،و ابن جريـج،و محمـد بن المنكـدر،و يحيى بن كثير،و زيد بن على.

و خلال تلک الفترة كان الإمام الصادق على اتصال مباشـر بالحركة الثورية و النهضة العلمية،و إليه تتجه الأنظار من بعد أبيه لنبوغه و تضلّعه فى الفقه و تبحّره فى الدين،و لكثرة ملازمته لأبيه فى حلّه و ترحاله؛إذ دخل معه الشام و مكة المكرمة، و ظهرت عليه علائم الفضل و شـرف العلم،و عزة النفس و صدق اللهجة،و المهابة و الجود و كرم الأخلاق.

و يقول عمرو بن المقدام:(إذا نظرت إلى جعفر بن محمد،علمت أنه من سـلالة النبيين) (1)حتى إذا وافى أباه الباقر الأجل،و انتقل إلى جوار ربه،قام بأعباء الإمامة و تفرّد بالزعامة،و كانت مدة إمامته أربعا و ثلاثين سنة.

و قد كابد مرارة النكبات الواحدة تلو الأخرى،و عاصـر آثار الفجيعة التى منيت بها الأمة بعد استشـهاد الإمام الحسـين عليه السّـلام و إباحة المدينة ثلاثة أيام فى وقعة الحرّة،

1- (1) صفة الصفوة لابن الجوزى ج 2 ص 94. [1]ينابيع المودة للقندوزى الحنفى ص 457.و [2]تهذيب التهذيب ج 2 ص 104. [3]

و رمی الکعبة و الاستهانة بحرمة الحرم،کما شاهد موقف عمّه زید و نهایته المفجعة التی انتهت إلیها ثورته.

لقد جرّب الإمام الصادق شراسة السلطة و عنفها و اضطهاد الأمة و الاستهانة بحقوقها و عدم المبالاة بالدماء،فسلک طریقا لمحاربتها و الوقوف بوجهها یحول بین الحکام و بین ما یعملون من أجله فی سیاستهم و سلوکهم.

أکد الإمام علی نشر الوعی،و حثّ الأمة علی التسلح بسلاح العقیدة،فکان رائدا صادقا،و دلیلا خبیرا فی مجال العمل و حفظ التراث الإسلامی فی عصر تطور الحرکة الفکریة،و التحولات السیاسیة الحدیثة،و أن المکانة الحیویة التی یتبوؤها بمزایاه العالیة و غزارة علمه،قد جعل الکثیر من الناس یتوقعون منه أن یسهم فی المعترک السیاسی الذی اشتد فی عصره و الذی تمخض عن ثورات متتالیة.

و ظنوا أنه سیشارک فی أحداث ذلک المعترک،و تعدی موقف الکثیرین من الصمت إلی المصارحة،فحرّضوه علی الثورة و البدء بالانتفاضة،ظنا منهم بأن الزمن قد حان لقیام حکومة عادلة و دولة تسیر وفق نظام الإسلام و قوانینه،بعد أن تجرّدت الدولة الأمویة من کل المقومات الروحیة،فعبثت بمقدرات الأمة،و هتکت مقدّسات الإسلام و حرماته،و لا یزال یوم الحسین ماثلا لا یمحی أثره،و صرخته مدوّیة علی مرّ الزمن،و وقعة یوم الحرّة لا زالت شاخصة أمام الأعین،و حوادثه تحدث عاصفة غضب و هزّة استنکار،و لا تخلو جدران المدینة و لا الحرم الشریف من قطرات الدماء الزکیة.

و لکن الإمام الصادق لم یمل إلی جانب من استماله،فهو لم یخدع بالآمال البرّاقة،و لقد عرف نزعات الناس و میولهم،و طبیعة الموقف الذی یتخذونه،و الغایات التی من أجلها کان تحریضه،و قد زودته تجربته الکبری و علمه بما وراء الحوادث بالقدرة علی تمییز بواعث تلک التحرکات،و معرفة مقتضیات الحال،و التی کان یجهلها الکثیرون ممن راحت تضطرب نفوسهم بمشاعر صادقة تتأثر بالأحداث و تنفعل.

فکانت نظرته جوهریة مبنیة علی استیعاب تام لدور الدین فی الحیاة،و مقدار تأثر تلک الجموع به و خضوعهم له.

و قد شخّص خطورة الموقف،و عرف غایات الدعوة و أهداف القادة،فکان رفضه لطلباتهم من أهم ما یحتّمه علیه واجب الدعوة لمصالح الأمة.

فقد أدت غلبة المصالح و تنازع الأسر إلى ضياع الناس،و ارتباطهم بما قام فى المجتمع من تيارات منحرفة و مبادئ نفعية تستخدم الإسلام تعـديا و ظلما،فكان لا بـد من أن يهيء اللّه لهـذه الأمـة قائـدا يمثل المبادئ الحقـة،و يكشف-من خلال الالتزام المطلق و النهج الروحى القويم-عقم الحركات التى لا ترى أبعد من المصالح القريبة، و تعجز عن استشـفاف الآفاق،و تمثّل النتائج البعيدة.فكان الإمام الصادق فى نظرته العميقة و تحسّسه لضرورات الدعوة و متطلبات استمرار الرسالة.يدعو إلى عدم الإسهام فى الاضطرابات،و حماية المجتمع،و تجنيبه خطر الحروب التى يجنى ثمارها أعداء الدين.و لما عهد عنه من علم و مكانة دينية،فهو مرهوب الجانب يحسب لرأيه ألف حساب.و قد كان تحركه و نشاطه يلقى رعبا فى قلوب أولئک الحكّام كما عبر المنصور عنه بقوله:(بأنه الشّجى المعترض حلقه)لموقفه المؤثر الحساس،و لميل الناس إليه.

وقف الإمام الصادق فى تلک الظروف القاسية موقف الصلابة فى إيمانه، و الثبات فى عقيدته،و الإخلاص فى أداء رسالته،فكان رائدا كبيرا فى مجال مواجهته الفعليـة ضـد السـياسة التى تأخـذ آفاقا جديـدة،و تلجأ إلى أساليب بعيدة عن روح الإسـلام و مبادئه.و قد امتدت حياته عبر عصـرين متناحرين سياسـيا و فكريا،فقد عاش فى آخر خلافة عبد الملک بن مروان إلى وسط خلافة المنصور الدوانيقى-العصـر العباسى- أى من سنة 83 ه إلى سنة 148 ه إذ أدرک من خلافة الأول ثلاث سـنين أو ست سنين أى من سنة 80 ه أو 83 ه إلى سنة 86 ه و هى السنة التى توفى فيها عبد الملک بن مروان،و مدة خلافته ثلاث عشـرة سـنة و أشـهر،ثم ملک الوليد بن عبد الملک سنة 86 ه و توفى سنة 96 ه و كانت مدة خلافته تسع سنين و ثمانية أشهر.

ثم ملک أخوه سليمان بن عبد الملک،و توفى سنة 99 ه و كانت مدة خلافته سنتين و ثمانية أشهر.

ثم ملک بعده عمر بن عبد العزيز بن مروان المتوفى سنة 101 ه و مدة خلافته سنتين و ستة أشهر.

و ملک بعده يزيد بن عبد الملک بن مروان المتوفى سنة 105 ه و كانت مدة خلافته أربع سنين و شهرا.

و ملک بعده هشام بن عبد الملک المتوفی سنة 125 ه و کانت مدة خلافته عشرین سنة إلا شهرا.

و ملک بعده الولید بن یزید بن عبد الملک الفاسق المتوفی سنة 126 ه و مدة خلافته سنة و ثلاثة أشهر.

و ملک من بعده یزید بن الولید بن عبد الملک المتوفی سنة 126 ه.

و ملک بعده أخوه إبراهیم،و لم تطل أیامه،و تنازل لمروان الحمار بن محمد بن مروان بن الحکم سنة 127 ه و کان مروان آخر خلفاء بنی أمیة،و قتل سنة 132 ه و کانت مدته خمس سنین و عشرة أشهر،و هی فترة الانحدار و السقوط التی شهدت حروبا متوالیة و ثورات متعددة لتنتهی الدولة الأمویة بنهایة مروان.

کانت المدة التی عاصر الإمام فیها هؤلاء الحکّام-الذین سبق ذکرهم من الأمویین-لا تقل عن ثمان و أربعین سنة و هی بأشخاصها و زمانها تکفی لکشف المراحل التی عاشها الإمام الصادق علیه السّلام،و هی حافلة بالمآسی و الویلات التی منیت بها الأمة.إذ انجرف الأمویون وراء شهوات الحکم،و راحوا یسخّرون الدولة لأغراضهم و توطید نظامهم،فعمّ الظلم جمیع الطبقات و کل المسلمین،و لم یسلم من شرّهم إلا من سار فی رکابهم،و جار عن سواء السبیل.

لقد کانت لغة الدم هی السائدة و کانت وسیلة العنف هی المتبعة،و کم من إمام و عالم و فقیه قتل علی أیدیهم و استشهد فی عهدهم.و أولی الحکم الأموی أهمیة بالغة للطالبیین،فرصدوا حرکاتهم،و قمعوا کل موقف بینهم لصد العدوان و مواجهة الظلم،و خرّ الشهید منهم تلو الشهید،و کان همّهم قتل أعیان العلویین و سحقهم، و النیل من الإمام علیّ،إلا الخلیفة عمر بن عبد العزیز الذی منع سب علی علیه السّلام بعد أن کان قد أدخل فی مناهج التعلیم،و أعلنوا به علی المنابر فی الأندیة و المجتمعات،لینشئوا جیلا تربّی علی بغض علی و أولاده.

قال أبو یحیی السکری:(دخلت مسجد دمشق فقلت:هذا بلد دخله جماعة من الصحابة،فملت إلی حلقة فیها شیخ جالس،فجلست إلیه.فقال له رجل جالس أمامه:من هو علی بن أبی طالب؟فقال الشیخ:خفّاق کان بالعراق،اجتمعت علیه جماعة،فقصد أمیر المؤمنین-یعنی معاویة-أن یحاربه،فنصره اللّه علیه.

قال يحيى:فاستعظمت ذلک،و قمت فرأيت فی جانب المسجد شيخا يصلّی إلی سارية و هو حسن السمت و الصلاة و الهيئة،فقلت له:يا شيخ،أنا رجل من أهل العراق جلست إلی تلک الحلقة ثم قصصت عليه القصة،فقال الشيخ:فی هذا المسجد عجائب،بلغنی أن بعضهم يطعن علی أبی محمد الحجّاج بن يوسف.

فعلی بن أبی طالب من هو؟) (1).

و إذا كان لنا من تعليق علی هذه الحادثة،فهو لا يتعدی الصمت الذی يكشف ما فعلته السلطة،و مبلغ الجهل و العداء التی جنّدت له أجهزتها للنيل من الإمام علی عليه السّلام،حيث لم يكن الأمر مقصورا علی ضرب القوی التی يدفعها إيمانها إلی الوقوف بوجه الظلم،بل راح الأموي‌ون خلال ذلک يذهبون إلی ارتكاب الجرائم و خلق الأهوال.و لقد عانی الناس الضيم و العوز،إذ عملوا علی زيادة الخراج،و اتباع الطرق الظالمة،و أخذ الجزية ممن لا تجب عليهم الجزية.

لقد كان الأموي‌ون يرون فی العلويين منافسين أقوياء لهم،يستأثرون بقلوب الناس و حبّهم،و قد حاول جهازهم الدينی و التشريعی و الجنائی أن يعمل علی إضفاء صفة التكامل و النضوج و القسوة علی الحكم الأموی دون هوادة و بمختلف الأساليب.

و كان العلويون-عبر نشاطهم العلمی و موقعهم الدينی-يتوغّلون فی نفوس الناس،و تنشدّ إليهم الجموع،و تدين لهم بالولاء،إذ تمتعوا بقوة دون دولة،و عاشوا فی منعة دون عنف؛بل كان سلاحهم الإيمان،و درعهم التقوی،و رغم انتهاء السلطة إلی الأمويين و تمتعهم بالقوة،لم يستطيعوا أن يغيّروا من الموقع الذی يحتله العلويون فی نفوس الناس،فكانت حركاتهم و ثوراتهم المستمرة-رغم نهاياتها المفجعة-تزيد من تقرّب الناس إليهم،و دنو المسلمين منهم.

نظرة إلی حوادث عصره

اشارة

:

و لا بد للباحث عن حياة الإمام الصادق من مواجهة عدة مشاكل تعترض سير البحث و تقف فی طريق المؤرخ لحياة هذا الإمام العظيم.

و هی مشاكل كثيرة متشابكة،تكتنف البحث و تحيط بالموضوع،كما أن هناک

1- (1) المدخل إلی مذهب أحمد بن حنبل ص 5.

عدة أسئلة تفرض نفسها على الباحث،و تحتاج منه إلى إجابة تكشف عما استتر وراءها من أمور.

المشاكل-كما قلنا-كثيرة،منها:مشكلة الثوار الذين يرمقونه بأبصارهم من بعيد و يأملون إسناد الحكم إليه،و مشكلة النزعات الفكرية و الصراع العقائدى، و مشكلة الغلاة،و لعلها أهم مشكلة تقف فى طريق الباحث،بل أهم مشكلة تعترض سير الحقائق التاريخية،حيث استطاع التلاعب السياسى أن يوجد منها عوامل يتمكن من خلالها تحقيق أغراضه و أهدافه.و سنأتى لعرض موجز فى البيان هنا لأنا قد أوضحنا فى بحثنا الموسع ما يتعلق بهذه المشكلة (1).

و عصر الإمام الصادق يتصف-دون غيره من عصور الأئمة-بعوامل كثيرة، أهمها:التحول السياسى الذى حصل فى أيامه،بل خلال أهم أدوار حياته،و ذلک بانتقال السلطة من الأمويين إلى العباسيين بعد أن انتصرت ثورتهم باسم أهل البيت عليهم السّلام ذلک التحول الذى أحدث تغييرا جذريا فى المجتمع الإسلامى،و فتح أمام المسلمين آفاقا بعيدة المدى.

و لم تكن نتائج الثورة مجرد انتقال الحكم من أسرة إلى أسرة،بل هى فى الواقع ثورة لها أثرها فى تاريخ الإسلام،تعنى نقطة فاصلة فيه لفعاليتها و آثارها،حيث أحدثت فى المجتمع تغيّرا عميقا و تحولا سياسيا و اجتماعيا اتسعت آثاره.

و لم يكن الإمام الصادق عليه السّلام بالرجل الذى تهمل الأحداث موقفه،أو بمعزل عن ذلک المجتمع أو فى منأى عن التأثر بتلک الحوادث المحيطة به،فهو كفرد يشمله ما يشمل سائر الناس،يعيش مع الأمة و يشاطرها آلامها و يتعرف على أحوالها.و قد كانت الأحداث تنتهى إليه لمكانته الاجتماعية و السياسية،فالثورة قامت على أساس دعوة دينية نظمت تنظيما دقيقا يضمن لها النجاح،و يمكّن جذورها من النمو فى أرض زرعت بجثث الأبرياء و سقيت بدماء الشهداء.و الدعوة قامت تحت شعار أخذ الثأر من مرتكبى المجازر و المظالم بحق العلويين،و كان يقوم ذلک على تنظيم سرّى يعمل بتكتم شديد،و هو يدور حول الدعوة لأهل البيت،و إسناد الحكم إليهم لأنهم أصحابه الشرعيون،و لا بد من الأخذ بثأرهم و الانتصار لمظلوميتهم،لأن الدولة الأموية

1- (1) انظر الجزء الرابع من الإمام الصادق و المذاهب الأربعة.

عمدت إلى تصفية الحركات العلوية و القضاء على زعمائها بكل وسيلة.و قد جعل السواد لباس الدعاة،و شعارا يرفع العرب إعلانا للحداد على الحسين عليه السّلام،فاندفع الناس لخوض تلك المعارك،لأنها معارك تهدف إلى القضاء على معاقل الظلم و رموز الضلالة و البدع،فانتشرت الدعوة،و كان أبناؤها على اتصال بالإمام الصادق عليه السّلام، و دعاتها أكثرهم يأملون بإسناد الحكم للعلويين.فالعباسيون أنصار دعوة و جنود حركة و ليسوا رؤساء! فالدعوة إسلامية المبدأ،شيعية النزعة،لم يتمكن العباسيون من الإعلان عن نواياهم العدائية تجاه أهل البيت،بل عرفوا كيف يستغلون مشاعر الناس و تعاطفهم مع العلويين،و تستروا بدعوة الرضا من آل محمد.فسارت الجموع بحماس شديد سعيا وراء هدف سام هو جعل الإمامة فى أهلها الذين يستحقونها بجدارة من أهل بيت النبوة،حتى يصلح اللّه بهم ما فسد من الأمور و ما اختلف فيه الناس.

و فى البيت العلوى رجال يصلحون لتولى الإمامة بظاهرها من حيث الدين و التقوى،و لكن ليس فيهم النص،و لم تكن إليهم الوصية،و إنما كانت لمن شملته العصمة وفاقهم فى الخصال.و كلهم لا ـ ينازع الإمام الصادق موقعه أو مكانته،و عند ما بلغت الأمور-من الجانب السياسى-حدا يساعد على التغيير و التحول فى السلطان، كان الإمام الصادق يمد ببصره إلى ما وراء الأحداث و المصالح القريبة،فما كان من أبناء عمه ممن نظروا إلى التحول و التغيير فى حدوده المحسوسة،إلاّ أن طلبوا منه الدخول فى ما عزموا عليه من إعلان الثورة و إسناد الثوار منهم،و لكنه عليه السّلام رفض رفضا باتا.

و قد ذكرنا آنفا أنه طلب من الثوار العلويين التريث فى الأمر-و لأهمية هذا الموضوع سنخصص له بابا آخر نبحث فيه الدقائق و التفاصيل- لأن قضية التفريق بين دواعى الموقفين و اختلاف النظرتين قضية هى من الأهمية بمكان لا تنتهى بانتهاء ظرفها،و لأن الإمام الصادق دفع بجوهرها إلى آفاق واسعة ما زلنا حتى اليوم نعيش حقيقة ذلك الجوهر و واقع تلك النظرة،و سيأتى بحث ذلك قريبا.

و من ملامح النظرة التى اتسم بها الإمام الصادق.أن الأمة تحتاج إلى الرجال فى مجال الإصلاح و الدعوة،و أن المسلمين يواجهون حكاما عتاة و سلاطين متجبرين، فما كان فى عهد الأمويين سيتكرر لأنه عليه السّلام لمس من العباسيين مذهبهم فى توسّل كل الطرق إلى سدّة الحكم و عملهم على الصعود إلى السلطان بوسائل تضمن لهم

ذلک ما دام النظام الأموی قد انحدر إلی نهایته.و فی عهد العباسیین،فقد رأی الإمام الصادق أن قوة النظام الجدید،و وحشیة الحکام الجدد ستدفع بالأمة إلی أوضاع سیئة.و ستعود علی أهل البیت بفظائع أخری و مجازر تزهق فیها أرواحهم و تهرق دماؤهم.

أما فی بدء الأمر،و قبل قیام حکم العباسیین،فإن الأوضاع التی ستؤول إلیها الأحداث واضحة،فلا بد من انتهاء حکم الأمویین و زوال ظلمهم،و التحول آت بکل الأحوال،و قد رأی الإمام الصادق مبلغ الاستجابة للدعوة،و تعاطف الناس مع الثورة،و الکل فی عینیه مرأی مظالم آل محمد،و مناظر المصائب و المآسی التی حلت بهم علی ید الأمویین،فراح الناس یؤیدون الثوار.بید أن علم الإمامة قد عین هذه الفترات،و قسّم هذه الأدوار.فلیس الأمر کما یظن ذوو الأنظار القصیرة من الناس مهما اتسعت تجاربهم و نمت مداارکهم،کما أن الثورة ضمت فی تنظیماتها عناصر بعیدة کل البعد عن الأهداف التی من أجلها نظمت الدعوة،و أعلنت الثورة،و قد تستّر وراءها کثیر من النزعات المختلفة و الآراء المنحرفة،و هتافاتهم للرضا من آل محمد لم تدفع به إلی تعریض المجتمع الدینی لخطر السیاسة الغاشمة،فقد کان أبعد نظرا مما یری فی النتائج،فهو ینظر بالفکر الثاقب و النظر الدقیق المسدّد من اللّه تعالی لعواقب الأمور،و العلم الشامل،و مراعاة المصلحة العامة،و السیر وفق الخطط المحکمة و الآراء السدیدة فی تقدیر الظروف و مناسباتها.

و هو رأس الأمة و إمام الناس و زعیم العلویین،یری آیات رعایة اللّه،و یلمس وجوه کلاءته له،لیسلّمه من بطش الطغاة و محاولات الظالمین.علیه دور القیادة، و توجیه دفة السفینة،و لیس العکس.

و هو علیه السّلام لم یندفع وراء تیار الأقوال البرّاقة،و لم یجر فی میدان السیاسة و مخاتلتها،و قد حاول الکثیر من أتباعه و غیرهم و خلّص أصحابه و المنتمین إلیه أن یثیروا عواطفه عند ما استعرت نار الثورة فی البلاد الإسلامیة،و انتشرت تلک الشعارات التی تدعو للرضا من آل محمد.

و سعی بعضهم بکل جهده إلی أن یحمل الإمام و أنصاره علی الثورة،و لکنهم کانوا ینظرون إلی الأمور نظرة سطحیة،فتغلب علیهم سلامة النیّة و سرعة التصدیق بالأمور الظاهرة کبشر یحکمهم الواقع و التأثر بمجریات الأحداث،و لیس کما یری الإمام

و هو صاحب الولاية الشرعية و قد خصته العناية الإلهية بالأمر،و جعلت فی شخصه الإمامة،و الوقائع عنده کما قضت بها الحکمة الإلهية و قدّرتها المصلحة الدينية.

دخل عليه سهل بن الحسن الخراسانی فسلّم عليه و قال له:يا ابن رسول اللّه، لکم الرأفة و الرحمة،و أنتم أهل بيت الإمامة،ما الذی يمنعک أن يکون لک حق تقعد عنه؟و أنت تجد من شيعتک مائة ألف يضربون بين يديک بالسيف؟ و دخل عليه سدير الصيرفی فقال:يا أبا عبد اللّه ما يسعک القعود؟ فقال عليه السّلام:«و لم يا سدير؟» فقال:لکثرة مواليک و شيعتک و أنصارک.

فقال:«يا سدير،و کم عسی أن يکونوا؟» قال:مائة ألف.

فقال الإمام الصادق:«مائة ألف؟!!» قال:نعم (1).

فکان جوابه عليه السّلام من باب الامتناع عن ذلک،و أشار إلی أن تلک الکثرة التی يتخيّل أنها تحقق الأهداف التی يتطلبها واقع الثورة و النهضة بالمسلمين ليست کذلک، لأن أولئک لم يکونوا من الرجال المخلصين الذين تمکنت العقيدة من نفوسهم،اللهم إلا نفر قليل،فلا يمکنه أن يخوض معرکة حاسمة کما يريد أولئک الذين حاولوا إثارة حفيظته مع عدم وجود العدة الکافية من المخلصين الذين يمکن الرکون إليهم و التعويل عليهم.کما أن أهل البيت الکرام لهم فی کل عصر دور و رسالة،فلقد کانت ثورة الإمام الحسين من أکبر العوامل التی فضحت الردة و عرّت الأمويين،کما أنها أصبحت ينبوع وعی و معين هدی يحمل الناس علی الاقتداء بتعاليم الرسالة و الاهتداء بمبادئ العقيدة،و کان من بعد مأساة الطف و ما أثارته فی النفوس أن تجد الأمة من يعزّز فی کيانها ذلک التحوّل و يرسّخ نتائج الثورة،فکانت دعوة الإصلاح و منهج الإرشاد.

و قد بلغ منهج الإصلاح الدينی و الفکری و الاجتماعی علی يد الإمام الصادق درجة من النمو و التکامل،فامتلک قدرة التأثير فی النفوس،و اتصف بالروحانية و الحس الدينی الذی يجتذبها.

1- (1) الکافی ج 2 ص 243.

و کـان علیه السّـلام فی الوقت الـذی یحـاور فیه دعاة الثورة،یمارس مسـئولیاته فی وجه السـلطة و انحراف الحکّام،و یقاوم نزعات الهـدم و موجات القمع و تیارات التشویه و الانحراف.

و کـان نهـج الحوار طریقـة العمل الفکری لـدی الإمام الصادق،تتسم بالشـمول وسـعة الرأی،و قوة الإقناع التی تقوم علی علم ثابت،و رأی سدید.لذا فقد تولّی رد تلک الهجمات،فکان دفاعه عن الإسلام فی درء شبه الزنادقة و الدهریة من أهل الأدیان الأخری قد خلّف ثورة فکریة مهمة ضمّنها عشرات من الکتب.

و کان قـد بدأ التنازع فی ذلک العصـر بین الفلسـفة و بین الإسـلام و العقائد التی جاء الإسـلام لمحاربتها،و ظهرت بوادر الجدل العقلی،و اتخذ علم الکلام کوسیلة للحجاج.

و کان موقف الإمام الصادق من تلک التیارات و وسط ذلک الجـدال و النزاع موقف العالم المنافـح عن الـدین و المدافع القوی عن العقیدة الذی لا یغلب فی مناظرة و لا ینقطع فی محاورة،و کان لحجّته و وضوح برهانه و رجاحة عقله و قوة استدلاله الأثر الحاسم فی أن یخضع له العقل السلیم و یرتاح له الضمیر،و تفنید آراء الأعداء و دحض أفکارهم،و توفیر أسس یرکن إلیها المسلم و یعتمد علیها فی الدفاع عن دینه و عقیـدته.و کان یـدلی بآرائه أمام خصومه بمنطق یـدخل إلی آذان سامعیه فینفذ إلی قلوبهم،فلا یجدون بدّا من التسـلیم لقوله الحق و منطقه الصائب.و قـد حفظ لنا التاریـخ خصائص منهـج الإمام و میزات منطقه الـذی لا یجاری فی اسـتدلالاته،و لا یغلب فی براهینه؛بل کان هو المتفوّق و السابق فی کل مضمار.

و بهذه المواقف،و بتلک الشـهرة التی نالتها مدرسته،و المهمة التی قام بها أصحابه فی محاربة الإلحاد و الملحدین کان لزاما علی دعاة تلک المبادئ الذین دخلوا الإسـلام أن یتستروا باعتناقه لبثّ سمومهم،و شعروا بخطر موقف الإمام الصادق و محاربته لکل فکرة من طریق العلم و المنطق،فنظروا إلیه نظرة ملؤها الحقد علی الإسـلام و انتصاره علی عقائدهم الفاسدة و أدیانهم الباطلة،و لما وجدوا أنفسهم عاجزین عن المجاهرة بما فی نفوسـهم من أضـغان و عداوة،و أن انتصارات الإسـلام دائمة لأن عقیدته هی مصدر هذه الانتصارات،لجئوا إلی التلبّس،و استخدموا أسالیب

التستر و الادعاء،و اختطوا لأنفسهم طريقا يقوم على وسائل و شعارات لا حظّ لها من الصحة و لا نصيب،يمنّون أنفسهم باستعادة أمجادهم و الوقوف بوجه الإسلام.

و كيف يجديهم ذلک و ينطلی علی المؤمنين خداعهم بعد أن ظهرت آثاره فی حربهم و انتشرت أخباره فی صدودهم،فحاولوا عن طريق الدسّ أن ينتصروا لمبادئهم الإلحادية،و توصلوا إلی ما توهموه حلا ناجحا و انتقاما سريعا و ذلک عن طريقين:

الأول:انضمام بعض دعاة الإلحاد إلی مدرسة الصادق ظاهرا،و ادعاء حب أهل البيت نفاقا،لکی يعملوا من الداخل علی الفساد و الإفساد.

الثانی:استعمال الکذب و الدسّ علی أهل البيت.و من هذا و ذاک کوّنوا طريقا، و صلوا من خلاله إلی غاية فی نفوسهم،و هی إظهار الغلوّ فی أهل البيت،و الغلوّ کما قدّمنا هو أعظم مشکلة اصطدمت بها قافلة التشيّع،و أدهی مصيبة نکبت بها هذه الطائفة،و حرکة الغلوّ هی حرکة إلحادية منشأها معارضة الإسلام من جهة،و تشويه مذهب أهل البيت من جهة أخری،لذلک ربط کثير من المؤرخين و الکتّاب بين التشيّع و بين الغلوّ؛بل ذهب بعضهم إلی وصف التشيّع بالغلوّ.و السبب فی ذلک قصور نظرتهم و عجزهم عن التحلّی بالموضوعية التی تقتضی جهدا لسير تفاصيل و أحداث تلک المرحلة.فليس بين الشيعة و بين الغلاة ما يجمعهم،کيف ذلک و قد کان ظهور دعوات الغلاة و تسللهم قد سبّب لأئمة أهل البيت و قادة الشيعة قلقا و إزعاجا لم يهدأ، حتی أحبطت حرکاتهم و فشلت مخططاتهم،و قد تناولنا فی الجزء الرابع من الکتاب جوانب قيام هذه الحرکة و اعتبارها مشکلة.و لا غرابة فی وصفها بالمصيبة التی عولجت بجهود الأئمة أهل البيت،و بمزيد الأسف أن يتغاضی البعض عن هذه الحقائق و ينکروا الوقائع و يتلذذوا بالطعن علی الشيعة،و هم بذلک ضحايا دعاوی الحکام و المناهضين لأهل البيت سواء من جهة تلقی الدين أو من جهة الأغراض السياسية العمياء التی تريد تشويه الحقائق و قلب الأوضاع و اتهام الأبرياء لإضعاف أثر أهل البيت فی المجتمع و النيل من مکانتهم السامية فی النفوس.

کان دخول الغلاة فی صفوف الشيعة خطوة سياسية أوجدتها عوامل متعددة کما أشرنا إلی ذلک،و فی مقدمتها:النيل من الإسلام.و قد عالج أهل البيت هذه المشکلة الخطرة،فعرفوا الدوافع التی دعت هؤلاء إلی الالتحاق بصفوف الشيعة،کما اتضحت لهم غايات خصومهم.فکانوا يعلنون للملإ البراءة من الغلوّ و الغلاة،و جاهروا

بلعنهم،و أمروا شيعتهم بالتبرؤ منهم.و تلقى الشيعة تلك الأوامر بالقبول و الامتثال، فأعلنوا البراءة منهم،و ملأوا كتبهم بلعن الغلاة و التبرؤ منهم.و أفتوا بحرمة مخالطتهم،و أجمعوا على نجاستهم،و عدم جواز تغسيل و دفن موتاهم،و تحريم إعطائهم الزكاة،و لم يجوّزوا لمن يقول بالغلو أن يتزوّج بالمسلمة،و لا المسلم أن يتزوج بالمغالية،و لم يورّثهم من المسلمين،و هم لا يرثون منهم.

و لكن يأبى بعض الكتّاب المعاصرين إلاّ الإصرار على الخطأ،و الاستسلام للروح الطائفية،و السير فى ركاب العصبية،فيتّبعوا أهوائهم دون أن يكلّفوا أنفسهم عناء البحث فى حقائق التاريخ،و الاطلاع على وقائعه من مصادرها الصافية.

و هناك قضية أخرى أهملت براهين وضعها،و غضّوا الطرف عن أدلة اختلافها، فتمسكوا بها،و هى:قضية عبد اللّه بن سبأ التى شهدت الوقائع التاريخية بأنها لا تعرف حادثا من تلك الحوادث التى أسندها المؤرخون لعبد اللّه بن سبأ.و قد بسطنا القول فيه فى عدة مناسبات،فى بحثنا الموسع عن الإمام الصادق فى موارد عديدة من الأجزاء السابقة،و مواضع كثيرة سقنا خلالها الحجج و الأدلة على اختلاق شخصية عبد اللّه بن سبأ.

لقد نسبوا مبدأ التشيّع إلى شخصية و همية رسمتها السياسة فى عصور التطاحن بريشة مصوّر مغرض،بهدف الطعن على أهل البيت،الذين هبّ علماؤهم لبيان زيفها مبيّنين أن من العار التماشى مع تلك الأسطورة لما فيها من احتقار للأمة و تصغير لقدرها،عند ما تصوّر قطيعا جرى خاضعا لتقبّل تعاليم ذلك اليهودى و هو عبد اللّه بن سبأ المخلوق من أهواء السياسة و أغراض التطاحن،بهدف تمزيق صفوفها و إذهاب ريحها،و ذلك للتفريق بين الأخ و أخيه.

و على كل حال لا بد من أن نشير إلى بعض ما جرى للإمام الصادق من محاورات مع أولئك المنحرفين عن الإسلام و دعاة الإلحاد و الزنادقة،و هى محاورات غنية زخرت بها كتب الكلام و الفلسفة،و سنأتى على ذكرها فى الباب الخاص بالبحث عن الجوانب الفكرية فى تراث الإمام الصادق و منهج مدرسته.و هنا نذكر ما كان مع الجعد بن درهم الذى نشأ و كلّه دعوة ضلالة و إلحاد،كان يغوى الناس و يضلّهم، و هو من الزنادقة الذين استفحل أمرهم،و قد أراد أن يوهم الناس بما يبديه من احتيال، فأخذ قارورة و جعل فيها ترابا و ماء،فاستحال ذلك بعد مدة دودا و هواما،فقال

لأصحابه:أنا خلقت هذا لأننى كنت سبب كونه.فأرجف بذلک المرجفون،و لمّا بلغ الإمام الصادق ذلک قال عليه السّلام:«ليقل كم هى،و كم الذكران منه و الإناث؟و ليأمر الذى يسعى إلى هذا أن يرجع إلى غيره» (1)قال ابن حجر:فبلغه ذلک-أى قول الإمام الصادق-فرجع.

دعوة الغلاة

:

و لعل أكثر الدعوات شرّا و أسوأها أثرا و أهمها عند الإمام الصادق هى دعوة الغلاة-كما قدّمنا-الذين طمحوا فى تلک العاصفة الهوجاء إلى بثّ روح التفرقة بين المسلمين،و شاعت أفكارهم تحت ستار حب آل محمد ليصلوا إلى ما يرمون إليه من إساءة.فبثوا الأحاديث الكاذبة،و أسندوها إلى حملة العلم من آل محمد،و تخلّقوا بأخلاقهم ليعمّوا بها على أتباع أهل البيت.و جاءوا بمفتريات حملوها على مبدأ الشيعة،و أراد أكثرهم أن يلبس نفسه لباس قدسيّة،فموّه على الناس بأن له صلة بالإمام الصادق و علاقة.

و قد أعلن عليه السّلام براءته منهم،و نشر فى العالم الإسلامى كذبهم و زيف أقوالهم و قال:

«لا تقاعدوهم،و لا تواكلوهم،و لا تصافحوهم و لا توارثوهم».

و من هذه الفقرات التى أعلنها عليه السّلام يتبين لنا شدّة اهتمامه بكشف هؤلاء.و قد جعلهم فى عداد الكفّار الذين تحرم مواكلتهم و مصافحتهم،كما أنه عليه السّلام باين بينهم و بين المسلمين بعدم التوارث،فكان فى هذا الموقف من الشدة ما يلزم بالتعرف على جذور هذه الدعوة و الاطلاع على أسرار معتقداتها و حقيقة أقوالها.و قد قمنا بما نعتقده وافيا بذلک فى بحثنا عن هذه الحركة سابقا.و اهتمام الإمام الصادق و حكمه عليهم و عمله على إشاعة هذا الحكم فى الأقطار يدلل على عظيم خطر هذه الحركة،و العمل على فضح ادعائها الحب لأهل البيت.كما أن استقراء عداء الإمام الصادق لهذه الحركة و موقفه منها يقودنا إلى نتائج و دلالات كثيرة منها:

1-إن هذه الحركة تعمد-عن طريق الحب العنيف المصطنع-إلى تشويه العقائد الإسلامية،و إشاعة الكفر و الزندقة تحت ستار الإسلام.

1- (1) لسان الميزان لابن حجر ج 2 ص 105.

2-إن هؤلاء الغلاة تنطوى نفوسهم عن بغض دفين للإسلام و المسلمين، و إنهم قوم يتحيّنون الفرص للانتقام منه و منهم،و قد لمسوا- حسب تجاربهم و اختلاطهم بالعالم الإسلامى-موقع حب أهل البيت من نفوس المسلمين،و عرفوا منزلتهم عند الناس و خضوعهم لهم،فسلكوا طريق حبّهم الادعائى الكاذب تمهيدا لتنفيذ أغراض خبيثة فى نفوسهم،و كان من أهم ما يقومون به:حركة الإساءة لرجال الإسلام،و نسبة أشياء إليهم تحطّ بسمعتهم،كما أنهم يبذلون قصارى جهدهم فى خلق الفوضى فى المجتمع الإسلامى،و بلبلة أفكار الناس بواسطة دعاواهم التى تعارض التوحيد،و تناقض الإيمان.و اختيارهم أشخاص أهل البيت مدخلا لتحقيق مآربهم و أغراضهم.و تلبّسهم بالولاء و ادعائهم التديّن،و لكن حقيقة ما يدّعون و جوهر ما يدعون إليه مناقض للإسلام،و مجاف لعقائد أهل البيت.

3-إن العناصر التى تبنّت هذه الدعوات الضالة،و التى نشرت الغلو،كانت ممن ضرب الإسلام مصالحهم،و ضيّع عليهم فرص النفوذ إلى أهدافهم،و هدم معالم مجدهم،و سفّه أحلامهم،و ظهر على أديانهم.و بالطبع فإن هؤلاء لا يدينون للإسلام مخلصين،بل يحقدون عليه و إن طال الزمن و بعد العهد،فإنهم لا ينظرون إليه إلا بعين الحقد و الغضب،و يضحّون بكل ما يملكونه فى سبيل نجاح مؤامراتهم ضده.

فما أبعدهم عنه،و ما أشدّ بغضهم لآل محمد،و لكنهم امتزجوا بالمجتمع الإسلامى لأن انفصالهم عنه يجعلهم بمعزل عن تحقيق مآربهم،فتوزعوا كتائب،و تفرقوا جماعات يظهرون حبّ هذا و يقدّسون ذاك،و يحامون عن هذه الشخصية،و ينظّمون إلى ما يعادى الأخرى،و هكذا،و لكن أشد محاولاتهم هى ادّعاء الصلة بأهل البيت، لأن لأهل البيت أثرهم فى الحياة العامة.فهم يميلون إليهم،و يحاربون أعداءهم ادعاء و تسترا ليصلوا إلى أهدافهم من خلال أوسع قاعدة.ثم تأتى الجماعات التى تتجه إلى أقرب الشخصيات إليها فى مجال السياسة أو صعيد الإقليم،فتتعلق بها و تخلع عليها صفات القدسية،و تؤدى لها شعائر العبادة،و ما هى إلا فرق قديمة أتى الإسلام على وجودها و محا ذكرها.و لكن من حملهم سوء حظ الأمة إلى أن يؤرخوا،و يكون لهم دور فى التأثير على الناس لأنهم أتباع الملوك و جنود الظلمة،أهملوا الحركات التى اتخذت من شخصيات عصرها شعارا و هم ليسوا من أهل البيت،و انصبّ جلّ اهتمامهم فيما ابتلى به أهل البيت و شيعتهم من دعاوى الغلاة.

لقد كان فی طليعة حركة الإلحاد و الزندقة رجال لا ينكر أنهم اتصلوا بمدرسة أهل البيت،فانكشف حالهم فيما بعد.و هناک آخرون قد ادعوا الاتصال بتلک المدرسة ليضعوا الأحاديث الكاذبة.و قد أعلن الإمام الصادق كذب هؤلاء و براءته منهم،و كان على رأس هذه الفرقة:المغيرة بن سعيد.فقد كان يدّعی الاتصال بأبی جعفر الباقر،و يروی عنه الأحاديث المكذوبة،فأعلن الإمام الصادق كذبه و البراءة منه،قال الإمام الصادق عليه السّلام لأصحابه فی قوله تعالى: هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّياطِينُ. تَنَزَّلُ عَلى كُلِّ أَفّاكٍ أَثِيمٍ قال«هم سبعة:المغيرة بن سعيد،و بنان،و صائد، و الحارث الشامی،و عبد اللّه بن الحارث،و حمزة بن عمارة الزيدی».

و كان المغيرة حاذقا فی وضع الأحاديث،و ماهرا فی الدس و الكذب على أهل البيت،و إليه تنسب عقيدة تأليه الإمام على عليه السّلام و هو أمر لا غرابة فيه إن صحّ.لأن ليس هناک ما يمنع من قول المغيرة بذلک و الدعوة إليه ما دام أحد أركان حركة الغلاة و الألحاد المعادين لأهل البيت،و لكن الأشهر أنه قال أنه مخلوق و لا بد أن معتقداته حملت على ما اعتقدته الخطابية أو تأثروا بهم فعلا،فهم من جنس واحد.يقول الأشعری:إن المغيرة زعم أنه يحيی الموتى بالاسم الأعظم،و أراهم أشياء من النرنجات و المخاريق (1).

لقد حمل أئمة أهل البيت سلاح العقيدة كعادتهم فی مواجهة هؤلاء الأعداء الجدد،و اهتموا أشدّ الاهتمام بمقابلة دعاواهم،و إشعار أصحابهم و محبيهم بخروج هؤلاء و كفرهم و شذوذهم.فالباقر عليه السّلام كان يقول:«برىء اللّه و رسوله من المغيرة بن سعيد و بنان بن سمعان،فإنهما كذبا علينا أهل البيت» (2).

و عن عبد الرحمن بن كثير قال:قال أبو عبد اللّه الصادق عليه السّلام يوما لأصحابه:«لعن اللّه المغيرة بن سعيد،و لعن اللّه يهودية كان يختلف إليها يتعلم منها السحر و الشعبذة و المخاريق.إن المغيرة كذب على أبی،فسلبه اللّه الإيمان.و إن قوما كذبوا علیّ ما لهم؟أذاقهم اللّه حرّ الحديد.فو اللّه ما نحن إلا عبيد خلقنا و اصطفانا،ما نقدر على ضرّ و لا نفع،إن رحمنا فبرحمته،و إن عذّبنا فبذنوبنا،و اللّه ما بنا على اللّه

1- (1) المقالات الإسلامية ج 1 ص 7.

2- (2) لسان الميزان ج 1 ص 76.

من حجة و لا معنا من اللّه براءة،و أنا لميتون و مقبورون و منشورون و مبعوثون و موقفون و مسئولون،ما لهم لعنهم اللّه،فلقد آذوا اللّه،و آذوا رسول اللّه فى قبره،و أمير المؤمنين،و فاطمة،و الحسن و الحسين،و ها أنا ذا بين أظهركم أبيت على فراشى خائفا،يأمنون و أفزع،و ينامون على فراشهم،و أنا خائف ساهر وجل».

ثم أراد عليه السّلام أن يلفت نظر العالم الإسلامى إلى قاعدة لها أهميتها فى قبول الرواية عن أهل البيت و العمل بها،لكى يحول دون حملة الكذب و الدسّ عليه و على آبائه الكرام،و يدفع الناس إلى التمحيص و النظر فيما يروى عن الأئمة عليهم السّلام فكان قوله القاعدة أشبه ما تكون بالصرخة التى قصد أن يكون دويّها فى كل نفس،و تبلغ عن طريق أصحابه كل قطر،فقال عليه السّلام:«لا تقبلوا علينا حديثا إلاّ ما وافق القرآن و السنة،أو تجدون معه شاهدا من أحاديثنا المتقدمة،فإن المغيرة بن سعيد لعنه اللّه دسّ فى كتب أصحاب أبى أحاديث لم يحدّث بها،فاتقوا اللّه و لا تقبلوا علينا ما خالف قول ربنا و سنّة نبينا صلّى اللّه عليه و آله و سلّم».

و جملة أقوال الإمام الصادق فى المغيرة،تظهر لنا بوضوح عظيم ألمه و شدة غمّه لما قام به الغلاة،و ما اقترفوه من أكاذيب،و ما اعتقدوه من عقائد الغرض منها الإساءة إلى أهل البيت النبوى الكريم،و خلق الريب و الشكوك فى نفوس الناس.و لقد رأينا وصف الإمام الصادق للحال الذى هو عليه بسبب ما قام به الغلاة فهو عليه السّلام ساهر وجل يهمّه ما يفعله أولئک الكفرة و ما يشيعوه بين الناس من مفتريات و عقائد فاسدة.

لقد قلنا أن مشكلة الغلاة هى من أدهى ما حلّ بتاريخ العقيدة الإسلامية،و من أفظع ما أصاب تاريخ الشيعة،و لو حسنت النوايا و تجرّدت من سخائم الحقد،لنظر إلى المشكلة بعموم نشأتها،لا بخصوص مدّعاها،و بحثت على أساس أغراض أصحابها و بواعث رجالها،فهى إذا دققنا تاريخ نشوئها و مصادر أفكارها،و اعتبر الإنصاف فى القول و روعى الحق،لم تكن حول أهل البيت فحسب-كما أشرنا-بل إن من أصحاب العقائد الفاسدة الذين هاجت فى حناياهم الجذور التى قطع الإسلام عنها ماء الحياة،فرق(الخرمدينية)أصحاب أبى مسلم الخراسانى،و منهم كان بدء الغلو فى القول،و معلوم بعد أبى مسلم عن الإمام الصادق و عدم التقائه به،و إنما كان أبو مسلم من دعاة العباسيين الخلّص الذين بنوا إيمانهم فى الدعوة على أساس ما تعنيه

الـدعوة إلى آل البيت بحسب ما يضـمره العباسـيون و ما وضـعوه فى نظامهم السـرى،و قـد قالت هـذه الفرقـة:أن الأئمـة آلهة.و الأئمة فى مفهومهم ليسوا أئمـة الهدى من أهل البيت النبوى الذين انعقدت إليهم الإمامة بالنص و الوصـية،و الذين هم قادة الشـيعة و رموز هداها.و قالت هذه الفرقة أيضا:أن الأئمة أنبياء،و إنهم رسل،و إنهم ملائكة.

و هم الـذين تكلموا بالأظلـة و التناسخ فى الأرواح،و هم أهل القول بالدور فى هذه الدار،و إبطال القيامة و البعث و الحساب،و زعموا أن لا دار إلا الـدنيا،و أن القيامـة هى خروج الروح من البدن و دخوله فى بدن آخر غيره،إن خيرا فخيرا و إن شـرّا فشـرّا، و أنهم مسـرورون فى هذه الدنيا بالأبدان أو معذبون فيها،و الأبدان هى الجنان أو هى النار،و أنهم منقولون فى الأجسام الحسـنة الأنسية المنعمة فى حياتهم،و يعذبون فى الأجسـام الرديّـة المشوّهـة من كلاـب و قردة و خنازير و حيات و عقارب و خنافس و جعلان محوّلون من بـدن إلى بـدن معـذبون فيها هكـذا،فهى نعيمهم و نـارهم لا قيامـة و لا بعث و لا جنـة و لا نار غير هـذا على قـدر أعمالهم و ذنوبهم و إنكارهم لأئمتهم و معصـيتهم لهم.إلى آخر أقوالهم الباطلة و معتقداتهم الفاسدة.

و من فرق الغلاة(الروندية)الذين قالوا:إن أبا مسـلم نبى مرسل يعلم الغيب، أرسـله أبو جعفر المنصور.و قالوا:إن المنصور هو اللّه،و أنه يعلم سرّهم و نجواهم.

و أعلنوا القول بذلک،و دعوا إليه.و لمّا أمرهم المنصور بالرجوع عن قولهم،قالوا:

المنصور ربنـا،و هو يقتلنا شـهداء كما قتل أنبياءه و رسـله على يـد من شاء من خلقه، و أمات بعضـهم فجأة و بالعلل و كيف شاء،و ذلک له يفعل ما يشاء بخلقه لا يسأل عمّا يفعل (1).و كـانوا يعينون من انتقلت إليه روح آدم،فيقولون:انتقلت إلى فلان رجل من كبارهم،و أن ربهم الـذى يطعمهم و يسـقيهم هو المنصور،و أن جبرائيل هو فلان- رجل آخر منهم-و لمّا ظهروا أتوا قصـر المنصور،فطافوا حوله،و قالوا:هـذا قصر ربنا (2).

إذا،فإن حقيقة أفكار الغلاة تقوم على بواعث مختلفة و أغراض عديدة،لا تمتّ إلى الإسـلام و التوحيد بصـلة،و من الصـحة بمكان القول بأن أخطر جماعاتهم و أكثرها

1- (1) فرق النوبختى ص 36 و 52 و [1] 53.

2- (2) الفخرى ص 143. [2]

ضررا هم أولئک الذین استغلوا الصلة بأهل البیت أو انتحلوها،لأن الدخول علی المجتمع الإسلامی من خلال الأئمة و سادة أهل البیت یحدث أثرا سیئا و بلیغا فی کیان المجتمع الإسلامی،و یقرّب هؤلاء الکفرة من تحقیق أغراضهم و تنفیذ مآربهم،فلا عجب أن نری من الأئمة مثل هذا الاهتمام،لأن أمر الغلاة أخافهم و أسهرهم و أفزعهم،فلا بد من مقابلة نشاطهم و ملاحقة أفکارهم دفعا للفتنة و حمایة للعقیدة، فکان تشدیده علی روایة الحدیث،و التأکد من صحة ما یروی عن أهل البیت،و ما صحب ذلک من أقوال له علیه السّلام فی فضحهم و کشف حقیقة دعاواهم فی محبة أهل البیت،إذ یقول علیه السّلام:«...و اللّه لو ابتلوا بنا،و أمرناهم بذلک،لکان الواجب أن لا یتقبّلوه،فکیف و هم یرونی خائفا وجلا استعدی اللّه علیهم،و أبرأ إلی اللّه منهم.

إنی امرؤ ولدنی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و ما معی براءة من اللّه،إن أطعته رحمنی،و إن عصیته عذبنی عذابا شدیدا».

و قال الإمام الصادق لمرازم-و هو جار بشار الشعیری أحد دعاة الألحاد و من الغلاة-«یا مرازم،إن الیهود قالوا و وحدوا اللّه،و إن النصاری قالوا و وحدوا اللّه،و إن بشارا قال قولا عظیما،فإذا قدمت الکوفة فأته و قل له:یقول لک جعفر:یا فاسق،یا کافر،یا مشرک،أنا بریء منک».

قال مرازم:فلما قدمت الکوفة،فوضعت متاعی و جئت إلیه و دعوت الجاریة، و قلت قولی لأبی إسماعیل،هذا مرازم،فخرج إلیّ.فقلت له:یقول لک جعفر بن محمد«یا کافر یا فاسق یا مشرک أنا بریء منک».

فقال بشار:و قد ذکرنی سیدی؟قال:قلت:نعم ذکرک بهذا الذی قلت لک.

فقال:جزاک اللّه خیرا،و جعل یدعو لی (1).

لقد أراد الإمام الصادق أن یحفظ تراث أهل البیت أیضا إلی جانب حمایة العقیدة،فعمل علی ترسیخ قاعدة الروایة عن أهل البیت بشروطها فقال:«فاتقوا اللّه و لا تقبلوا ما خالف قول ربنا و سنّة نبینا صلّی اللّه علیه و آله و سلّم».و هی القاعدة التی قام علیها منهاج

1- (1) انظر الجزء الرابع من الکتاب،فصل مشکلة الغلاة.و فیه ذکر رؤسائهم،و عوامل نشأة حرکاتهم، و بحث جوانب النقص فی دراسة حرکة الغلاة من قبل المؤرخین،و موقف الشیعة و أئمتهم من المغالین،و غیرها من النقاط.

مدرسته فی العلم و الحدیث،و التزمت بها التزاما شدیدا.و قد قال علیه السّلام مرارا و تکرارا:«حدیثی حدیث أبی،و حدیث أبی حدیث جدّی،و حدیث جدّی حدیث علی بن أبی طالب أمیر المؤمنین،و حدیث علی أمیر المؤمنین حدیث رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم،و حدیث رسول اللّه قول اللّه عز و جل».

أضواء من سیرته علیه السّلام

:

قدّمنا فیما سبق نظرة إجمالیة لحوادث عصره أو أهمها مما یتعلق بمنهجه الفکری و مسئولیاته الدینیة و مهامه المتعددة،و نقتبس الآن بعض الأضواء من سیرته علیه السّلام و نقدم شیئا من الجوانب التی تتصل بالجانب الاجتماعی أو النشاط العام،و العلاقة بین نظرة الفرد المسلم إلی موقعه فی المجتمع،و بین تکوینه الدینی و بنائه الأخلاقی.

لقد عرف الإمام الصادق بحسن البیان و نفاذ البصیرة و کرم الأخلاق و صدق الحدیث،و اتجه إلی الفرد و المجتمع،و عنی بالأوضاع الاجتماعیة و الخلقیة، و معالجة ما یعانی منه المجتمع،و تهیئة وسائل الإعداد و التربیة السلوکیة و الفکریة، و خلق المناسبات للوعظ و النصح و الإرشاد.و کان مقصده یتخلّص فی قوله علیه السّلام:

«أن یسلم الناس من ثلاثة أشیاء کانت سلامة شاملة:لسان السوء،ید السوء،و فعل السوء».

و کان إقبال الناس علیه لانتهال العلم،و اختلافهم إلی مجلسه قد هیأ مناخا دائما للدعوة،و العمل علی إبراز الجوانب المهمة التی تتکون منها شخصیة المسلم.و من جوانب عظمة شخصیة الإمام الصادق و تمیّزه فی نهجه الإصلاحی و مسیرته الدینیة، مباشرته ما یدعو إلیه من مکارم الأخلاق بنفسه،و عمل ما یراه و یحضّ الآخرین علی عمله،و ممارسته فی الحیاة،فهو بذلک کان بحق المصلح الاجتماعی العظیم، و المرشد الدینی الکبیر.فجعل من نفسه قدوة لیحفّز الآخرین علی اتباعه و الاقتداء بفعله.فکان یحثّ علی العمل،و یعمل بنفسه،و قد تضافرت الأخبار بأنه کان یعمل بیده و یتّجر بماله.

و قد عالج بالدعوة و العمل ظواهر التکاسل و صور الابتعاد عن طلب الرزق،و ما تطور فی المجتمع بتأثیر حب الانقطاع إلی اللّه،و قیام الجدل فی استحباب الانقطاع

التام،و ترک مجال العمل و اکتساب الرزق،لأنه یدعو إلی الانشغال،و هو من مقومات الدنیا.و رأی الإمام الصادق أن الإیمان الحق فی أن یغدو المسلم إلی عمله کل یوم،و یکدّ فی تحصیل رزقه،و أن یقوم بدوره فی هذه الحیاة،و یری أن قیمة الإنسان فی عمله،إذ لم یرض للمسلم البطالة و ترک العمل،و کل ما یدعو إلی الاستهانة بالشخص و تحقیره.و فی الحدیث:«ملعون ملعون من ألقی کلّه علی الناس،ملعون ملعون من ترک من یعول به».و قد قرن الإسلام العمل لطلب الرزق للولد و للعیال بما یصلحهم بالجهاد فی سبیل اللّه.

قال الإمام علی علیه السّلام:«ما غدوة أحدکم للجهاد فی سبیل اللّه بأعظم من غدوة من یطلب لولده و عیاله ما یصلحهم».

و کان الإمام الصادق یروی ما کان جدّه الإمام زین العابدین یفعله و یقول:«کان علی بن الحسین إذ أصبح خرج غادیا فی طلب الرزق،فقیل له:یا ابن رسول اللّه أین تذهب؟ فقال:أتصدّق لعیالی.

قیل له:أ تتصدّق؟ قال:من طلب الحلال،فهو من اللّه عز و جل صدقة علیه» (1).

و کان علیه السّلام یروی قول جده الإمام زین العابدین علیه السّلام:«ضمنت علی ربی ألا یسأل أحد من غیر حاجة إلا اضطرّته المسألة إلی أن یسأل عن حاجته».

و کان یخاطب أصحابه:«إیاکم و سؤال الناس،فإنه ذلّ فی الدنیا،و فقر تعجّلونه،و حساب طویل یوم القیامة».

و علی ضوء هذا الإیمان العمیق بالعمل،کان الإمام الصادق یعمل بنفسه لیکون مثالا لغیره.فقد حثّ علی طلب الرزق لیرفع من مستوی أخلاقهم و المحافظة علی القیم الروحیة لدیهم،فکان یسمّی التجارة و دخول السوق بالعزّ،کما یحدّثنا المعلّی بن خنیس قال:رآنی أبو عبد اللّه و قد تأخرت عن السوق،فقال لی:«أغد إلی عزّک».

1- (1) فروع الکافی ج 4 ص 12. [1]

و قال لآخر-و قد ترک غدوّه إلی السوق-:«مالی أراک ترکت غدوّک إلی عزّک؟» قال:جنازة أردت أن أحضرها.قال:«فلا تدع الرواح إلی عزّک».

و عن سلیمان بن معلی عن أبیه قال:سأل أبو عبد اللّه عن رجل-و أنا عنده- فقیل:أصابته الحاجة.قال:«فما یصنع الیوم؟»قیل:فی البیت یعبد ربه.قال:«فمن أین قوته؟»قیل:من بعض إخوانه.قال أبو عبد اللّه:«للذی یقوته أشدّ عبادة منه».

و قال لمعاذ-بیّاع الأکسیة عند ما ترک التجارة-:«لا تترکها،فإنّ ترکها مذهبة للعقل،اسع علی عیالک،و إیاک أن یکونوا هم السعاة علیک».

و سأل عن رجل من أصحابه،فقیل:ترک التجارة و قل شیئه.فاستوی الإمام جالسا-و کان متکئا-ثم قال:«لا تدعوا التجارة فتهونوا،اتّجروا بارک اللّه لکم».

و قال معاذ:قلت لأبی عبد اللّه:إنی هممت أن أدع السوق؟فقال:«إذا یسقط رأیک، و لا یستعان بک علی شیء».

یحدثنا أبو عمرو الشیبانی:قال رأیت أبا عبد اللّه الصادق،و بیده مسحاة یعمل فی حائط له،و العرق یتصبّب منه.فقلت:جعلت فداک أعطنی أکفک.فقال:«إنی أحبّ أن یتأذّی الرجل بحرّ الشمس فی طلب المعیشة».

لقد هدف الإمام علیه السّلام إلی أن یزرع حبّ العمل فی نفوس الناس،و أن یدفعهم إلی الاعتماد علی أنفسهم من خلال الشعور بالمسؤولیة.فإنّ التواکل أو الکسل المتعمّد ظاهرة تحط من قیمة الإنسان،و تکشف عن نقص فی مستوی وعیه و إدراکه،و کلما کان المجتمع ینطوی علی قاعدة واسعة من الأفراد الذین یدرکون قیمة العمل و أهمیته فی الرخاء،و تأکید قدرة الفرد و عدم عجزه؛کان ذلک مؤشرا إیجابیا علی مستوی الوعی الذی یسود المجتمع،و مدی تحمل الأفراد لمسؤولیاتهم فی حفظ البلد و الدفاع عن عقائدهم،فالإسلام بنظامه رعی حقوق العامل بما لم تأت به أی نظم أخری.

و علی أی حال فقد کان الإمام الصادق یرکّز علی تجسید ضرورة العمل، و توضیح العلاقة بین الإیمان و بین الإنتاج.و لقد هدف الإمام الصادق إلی أن یحبط روح الکسل،و یقضی علی التواکل،لأنه یری فی الفرد العامل أنموذجا للعضو الصالح الذی یؤکد ذاته و موقعه من خلال ما ینتج للمجتمع بما منحه اللّه تعالی من موهبة و حباه من نعمة.و إیضاحا للمقام،و زیادة للمعلومات،نسوق بعض القضایا التی تبعث فی روح المسلم نشاطا لمواصلة عمله علی ضوء سیرة الإمام الصادق علیه السّلام:

خرج الإمام الصادق فی یوم شدید الحر،فاستقبله عبد الأعلی-مولی آل سام- فی بعض طرق المدینة فقال:یا ابن رسول اللّه حالک عند اللّه عز و جل،و قرابتک من رسول اللّه،تجهد نفسک فی مثل هذا الیوم!!! فقال علیه السّلام:«یا عبد الأعلی خرجت فی طلب الرزق لأستغنی عن مثلک».

فهو علیه السّلام یضرب لعبد الأعلی المثل الأعلی فی إعزاز النفس الذی یحققه المسلم من وراء العمل،و فی نفس الوقت یعکس أولا أهمیة اعتماد المسلم و استغنائه عن الآخرین مهما کانت منزلته و عظمة رتبته.

و ثانیا:إن استغلال الفرد و کسبه لرزقه یؤکد عزّة نفسه،و یحفظ کرامته،و یعیش سعیدا لا یذلّ لأحد،و لا یستهین بکرامته أحد.

و قد کانت الفترة التی مرّ بها الإمام الصادق قد شهدت نوعا من التطور الفکری الذی نجم عن التفاعل و الحوار بین الحضارات القدیمة و بین الفکر الإسلامی،و أخذ الوضع الاقتصادی بالتدهور نتیجة سیاسة القمع و الضرائب و النهب التی مارسها الحکام لسدّ متطلبات بذخهم و لهوهم،و کذلک الولاة فقد أجهدوا الرعیة یأخذ الأموال من غیر حقها،کما بیّنا ذلک.

و الإمام الصادق فی ذلک العصر حاول أن یقود الأمة إلی کل خیر،و فی هذا المجال بالذات یبذل جهده بأن یجعل من الفرد المسلم فردا متمکنا متجاوزا عوائق الضیق و آلام الفاقة،فقام بتوعیة الناس لمباشرة العمل و تحبیبه للنفوس،و بتنمیة الشعور بالمسؤولیة لکی لا تلجیء الظروف أولئک الأفراد-الذین فقدوا خیرات بلادهم-إلی الاضطرار للاستجداء من السلطة و الرکوع علی أعتابها و الخنوع لها تحت وطأة قسوة ظروف الحیاة و مرارة الجوع.

عن هشام بن سالم قال:کان أبو عبد اللّه إذا أعتم اللیل و ذهب شطره،أخذ جرابا فیه خبز و لحم و دراهم،فحمله علی عنقه،ثم ذهب به إلی أهل الحاجة من أهل المدینة،فقسّم فیهم و لا یعرفونه،فلما مضی أبو عبد اللّه علیه السّلام فقدوا ذاک،فعلموا أنه کان أبا عبد اللّه علیه السّلام.

و عـن المعلى بن خنيس (1)قال:خرج أبو عبـد اللّه عليه السّـلام فى ليلـة قـد رشت -أمطرت-و هو يريد ظلة بنى ساعدة،فاتبعته،فإذا هو قد سقط منه شىء فقال:

«بسم اللّه اللهم ردّه علينا».قال:فأتيته فسلّمت عليه.

قال:فقال:«معلى»:قلت:نعم جعلت فداک.فقال لى:«التمس بيدک فما وجدت من شـىء فادفعه إلى»فإذا أنا بخبز منتشـر كثير،فجعلت أدفع إليه ما وجدت، فإذا أنا بجراب أعجز عن حمله.فقلت:جعلت فداک،أحمله على رأسى؟فقال:

«لاـ أنـا أولى به منـک،و لكن امض معى»قـال:فأتينـا ظلـة بنى ساعـدة،فإذا نحن بقوم نيام،فجعل يـدسّ الرغيف و الرغيفين حتى أتى على آخرهم،ثم انصرفنا.فقلت:

جعلت فداک يعرف هؤلاء الحق؟فقال:«لو عرفوه لواسـيناهم بالدقة-و الدقة هى الملح-إن اللّه تبارک و تعالى لـم يخلق شـيئا إلا و له خازن يخزنه،إلا الصدقة،فإنّ الرب يليها بنفسه،و كان أبى إذا تصدق بشـىء وضـعه فى يد السائل،ثم ارتدّه منه، فقبّله و شـمّه ثم ردّه فى يد السائل» (2).

و إزاء ظـاهرة ابتعـاد كثيرين عن العمـل،و انزوائهم فى بيوتهم منقطعين للعبادة مع تفاقم أزمـة العيش،كان عليه السّـلام يفضّل العامل على ذلـک الفرد المنزوى و المنقطع إلى العبادة.فعنـد مـا قيل له:أن رجلا قال لأقعـدنّ فى بيتى،و لأصـلينّ و لأصومنّ و لأعبـدنّ اللّه،فأما رزقى فسيأتينى.

فقال عليه السّلام:«هذا أحد الثلاثة الذين لا يستجيب اللّه دعاءهم».

فالإمام رغم معرفته بأهمية العبادة،إلا أنها لا تجوز إلا فى موقعها فى حياة الفرد المؤمن،بحيث تكون صـلة المؤمن بربّه و هويته و سـلوكه.و هوية المؤمن العزّة، و سلوكه العطاء و العمل.

يقول إسماعيل بن جابر (3)أتيت أبا عبد اللّه،و إذا هو فى حائط(بستان)له، و بيده مسحاة،و هو يفتح بها الماء.

1- (1) مولى الإمام الصادق [1]قتله داود بن على العباسى-والى المدينة-فغصب الإمام الصادق،و [2]دعا على الوالى،فسمعت الصيحة فى داره.انظر الجزء الثانى من الكتاب.

2- (2) فروع الكافى ج 4 ص 8 و 9. [3]

3- (3) ذكره الشيخ فى الفهرست،و قال:له كتاب ذكر سنده.

و عن الفضل بن أبی قرة (1)قال:دخلنا علی أبی عبد اللّه فی حائط له،و بیده مسحاة یفتح بها الماء،و علیه قمیص،و کان یقول:«إنی لأعمل فی بعض ضیاعی، و إن لی من یکفینی،لیعلم اللّه عز و جل أنی أطلب الرزق الحلال».

و کان علیه السّلام یرمی إلی حمل الناس علی الخلال الطیبة و الأخلاق الکریمة لیقوم ذلک المجتمع الذی تسوده قیم التکافل و الإخاء الدینی.فقال علیه السّلام لبعض جلسائه:

«أ لا أخبرک بشیء یقرّب من اللّه،و یقرّب من الجنة،و یباعد من النار؟»فقال:بلی.

قال علیه السّلام:«علیک بالسخاء،فإن اللّه خلق خلقا برحمته لرحمته،فجعلهم للمعروف أهلا و للخیر موضعا،و للناس وجها یسعی إلیهم لکی یحیوهم کما یحیی المطر الأرض المجدبة،أولئک هم المؤمنون بالآخرة،الآمنون یوم القیامة».

لقد کان الإمام الصادق علیه السّلام مثالا کاملا لدعاة الإصلاح،و علما شامخا من أعلام رجال الصلاح،فهو یأمر بالأخلاق الفاضلة و السجایا الحمیدة،و اکتساب الفضائل،و الابتعاد عن الرذائل،فکان من مأثور أقواله:«بنی الإنسان علی خصال، فما بنی علیه أنه لا یبنی علی الخیانة و الکذب» (2).

و لا یدخر علیه السّلام النصح عن أحد،و هو من أعظم القادة الذین تحتل سیرتهم مکانة مهمة تنعکس آثارها علی الناس و المؤمنین فی ظل دعواتهم إلی الخیر،و علی مرّ التاریخ.

کان من أهم العوامل الحیویة فی إنجاح الدعوات و استمرارها هو الإیمان المطلق بالمبادئ،و مبادرة القادة للالتزام بها فی خط من التوافق التام بین الدعوة و السلوک،و لقد کان سلوک حملة رسالة محمد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و انتشار الإسلام و اتساع رقعته دلیلا حیا علی إیمانهم العظیم بالدعوة،و من خلال هذا الترابط بین سلوکیة القادة و موقف الناس یمکن أن نلحظ علی مدی المراحل التاریخیة تأثیر الرجال البارزین فی نفوس الآخرین،و انجذابهم إلی صفوف الدعوة.

و قد عرف عن الإمام الصادق أقواله الجامعة و توجیهاته الشاملة التی تنیر الطریق و تهدی إلی الرشاد،و التی تؤثر فی نفوس و سلوک أصحابه.

1- (1) التفلیسی من أصحاب الإمام الصادق، [1]انتقل إلی إرمینیا.له کتاب ذکره الشیخ فی الفهرست.

2- (2) حلیة الأولیاء ج 1 ص 194.

يقول عليه السّلام:«الصلاة قربان كل تقى،و الحج جهاد كل ضعيف،و زكاة البدن الصيام،و الداعى بلا عمل كالرامى بلا وتر».

و جاء فى وصيته عليه السّلام لعبد اللّه بن جندب:«يا ابن جندب،لو أن شيعتنا استقاموا؛لصافحتهم الملائكة،و لأظلّهم الغمام،و لأكلوا من فوقهم و من تحت أرجلهم،و لما سألوا اللّه شيئا إلا أعطاهم.يا ابن جندب بلّغ معاشر شيعتنا و قل لهم لا تذهبنّ بكم المذاهب،فو اللّه لا تنال ولايتنا إلا بالورع و الاجتهاد فى الدنيا،و مواساة الإخوان،و ليس من شيعتنا من يظلم منا بريا».

و قد بيّنا فى عدة مواضع ما يكشف لنا طرفا من الجوانب المهمة من جوانب شخصية الإمام الصادق عليه السّلام و قيامه بالدعوة للإسلام،و التقيّد بتعاليمه،و العمل بأوامره و نواهيه،و الالتزام بالسير على نهج هداه و نور عقيدته فكان التطابق بين المبادئ و بين السلوك من أهم صفات حياته،رغم أن أوضاع عصره تبعث الاضطراب فى الحياة لاشتداد الصراع الفكرى و السياسى.و قد اهتزت أفكار الناس،فوقف موقف البطل المؤمن بعقيدته،الذى أعاد بموقفه التوازن فى الفكر و السلوك لأفراد الأمة و المجتمع،و خفف من الضغوط و الأخطار التى تهدد وجودهما.فقد عانى المجتمع فى هذه المرحلة،و تعرّضت الأمة الإسلامية خلالها إلى سياسات أنهكت الرعية،و إلى حملات معادية مختلفة اللبوس و الإشكال.و الخلاصة فإن مجمل العوامل التى واجهت الأمة،و تعرّض لها المجتمع الإسلامى كانت كافية لانتشار القلق و الاضطراب و توغّل جذورهما،حتى أن الناظر إلى الأحداث-و لو ببساطة و عجالة- يلحظ أن فوق عناصر القلق و مظاهر الاضطراب تنمو و ترتفع صور لحركة العلم و الدعوة الإسلامية تطغى عليها و تكاد تخفيها،و بصور الدعوة الدينية و مظاهر الحركة العلمية يتمثل موقف الإمام الصادق عليه السّلام و بروزه فى مجتمعه،رغم عداء الملوك له،و عملهم الدائم على إنهاء ذكره.فكان أن أكتسب من التجارب-مضافا إلى جوهر الإمامة-ما جعله يعيّن طرق تحاشى الأمة ضربات الحكام و تجنّب سيوفهم و رماحهم،و احتل موقعا فى وسط الأحداث هو موقع تكامل و خبرة،فإن فى سيرته تتجسد أعلى مستويات الكفاءة و القيادة،إلى جانب علمه و جهاده.

كان عليه السّلام يحرص على أن تكون صلته بأصحابه قوية و مؤثرة.فعن صفوان،

عن خالد بن نجيح قال:قال أبو عبد اللّه عليه السّلام:«أقرءوا من لقيتم من أصحابكم السّلام،و قولوا لهم:إن فلان بن فلان يقرئكم السّلام.و قولوا لهم:عليكم بتقوى اللّه عز و جل،و ما ينال به ما عند اللّه،إنى و اللّه ما آمركم إلا بما نأمر به أنفسنا، فعليكم بالجد و الاجتهاد،و إذا صلّيتم الصبح و انصرفتم،فبكّروا فى طلب الرزق، و اطلبوا الحلال فإن اللّه عزّ و جل سيرزقكم و يعينكم عليه».

كان فى سيرته و سلوكه يمثل جوانب سامية من التواضع و البساطة مع عظمته و علو شأنه،و كان يعامل الناس بالعطف و التسامح.كل ذلك كان له تأثير فى نفوس تلامذته و مريديه،و قد وقف أمام التيارات السياسية يوم اجتاحت البلاد ثورة من جميع جوانبها،و قد دعاه القادة-كما أسلفنا-إلى تولّى الأمر و إسناد الحكم إليه،كما أن أبا مسلم الخراسانى كتب له يدعوه بأن يدعو الناس إلى بيعته،و ينتزع الأمر من بنى العباس.فأجابه بقوله:«ما أنت من رجالى،و لا الزمان زمانى».

و قبل ذلك رجعت رسل أبى سلمة الخلاّل بالخيبة عند ما وجّههم بكتاب الدعوة إلى الإمام الصادق بأن يكون الأمر له دون بنى العباس.فكان جوابه أن أحرق الكتاب أمام الرسل،لأنه كان يقدّر أبعاد المعركة،و ينظر العواقب،و يحاول أن يؤثر فى انفعالات الناس،و يقلل من اندفاعهم على طريق تؤدى نهايتها إلى تعريض المسلمين إلى الأخطار و دفع الأبرياء إلى الموت.و ذلك لأن الظروف غير مواتية،رغم ظاهر مناسبتها و ملائمتها.و سنبحث موضوع موقفه من الثورة مفصلا فى فصل لاحق.

و الغرض،فإن وجوده فى منصب الإمامة و تبوءه موقع القيادة و الإصلاح يجعله أقرب الأطراف إلى حدّ السيوف،و أدناهم إلى شبا الرماح،و هو من أهل البيت الذين ابتلوا بمصالح الرعية،و جعل فيهم دوام الرسالة المحمدية.فمن خصوص أعمالهم مناهضة الظلم،و من صميم دعوتهم رعاية أمور المسلمين،و هم مكلفون بما كتب عليهم و قدّر لهم من وجوه المسئولية و الأفعال.

فكان عليه السّلام يعمل بوحى ذلك،فلا يرى فى ضوء ما يحمله من الأخبار و العلم أن طريق الخلاص فى التعرّض إلى السلطان،بل فى الابتعاد عن مواطن الأذى و موارد الهلكة،و الوقوف بوجه الظلم و الجبارين بوسائل يضمن نفعها،و يؤمن سلامة الناس فيها.

كما كان عليه السّلام يشدّد على وحدة الأمة،و يدعو إلى توثيق روابط الإخوة الإسلامية و إلى الألفة و التقارب،و ينهى عن التباغض و التباعد،و يحاول تأليف القلوب بمختلف الطرق،و يدرک أثر التکاتف و التآلف.فبذل ماله للقضاء على کل أسباب الخلاف بين المسلمين و العمل على جمع صفهم و تآلفهم حرصا على وحدة الکلمة.

قال أبو حنيفة-و اسمه سعيد بن بيان-المعروف بسابق الحاج:(مر بنا المفضّل بن عمر و أنا و ختن لی نتشاجر على ميراث فی الطريق،فوقف علينا ساعة ثم قال لنا:تعالوا إلى المنزل،فأتيناه فأصلح بيننا بأربعمائة درهم،فدفعها إلينا من عنده، حتى إذا استوثق کل واحد منّا صاحبه،قال المفضل:أما إنها ليست من مالی،و لکن أبا عبد اللّه الصادق أمرنی إذا تنازع رجلان من أصحابنا أن أصلح بينهما و أفتديهما من ماله،فهذا مال أبی عبد اللّه (1).

فکان عليه السّلام يتّخذ السبل العملية الکفيلة بتحقيق مبادئ الإسلام،و يستعين برجاله لکی يقضی على عوامل الفرقة و مظاهر الشقاق،و يحقق مبدأه الذی سار عليه فی الإصلاح.و دعا إلى عدم التعاون مع السلطة،فنهى عن المرافعة إلى حکّام اتخذوا السلطة غنيمة يستغلونها لأغراضهم،بعد أن أعلن مقاطعتهم،و صرّح على ملأ من الناس بأن يرجعوا إلى سلطة الحق و ميزان العدل فيما ينشأ بينهم من الخلافات،فإن سلطة الحق مفتوحة الأبواب،و مبادئ الدين لا تعطلها عوائق أو ظروف صعبة،إذ الإيمان يرسم الخطوط العامة لدور المؤمن و القائد على السواء،فقال عليه السّلام:«أيّما رجل منکم کانت بينه و بين أخ له مماراة فی حق،فدعاه إلى رجل من إخوانکم ليحکم بينه و بين أخيه،فأبى إلاّ أن يرفعه إلى هؤلاء،کان بمنزلة الذين قال اللّه عز و جل فيهم: أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِما أُنْزِلَ إِلَيْکَ وَ ما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِکَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحاکَمُوا إِلَى الطّاغُوتِ وَ قَدْ أُمِرُوا أَنْ يَکْفُرُوا بِهِ ».

و عن عمر بن حنظلة-من أصحاب الإمام الصادق-قال:سألت أبا عبد اللّه عليه السّلام عن رجلين من أصحابنا بينهما منازعة فی دين أو ميراث،فتحاکما إلى السلطان أو إلى القضاة أ يحل ذلک؟ قال الإمام الصادق:«من تحاکم إليهم فی حق أو باطل،فإنما تحاکم إلى

1- (1) الکافی ج 2 ص 209 [1] ط 2.

الجبت و الطاغوت المنهى عنه،و ما حكم له به،فإنما يأخذ سحتا و إن كان حقه ثابتا له،لأنه أخذه بحكم الطاغوت،و من أمر اللّه عز و جل أن يكفر به،قال اللّه عز و جل:

يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحاكَمُوا إِلَى الطّاغُوتِ وَ قَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ ».

قلت:فكيف يصنعان و قد اختلفا؟ قال عليه السّلام:«ينظران من كان منكم ممن قد روى حديثنا،و نظر فى حلالنا و حرامنا،و عرف أحكامنا،فليرضيا به حكما،فإنى قد جعلته عليكم حاكما،فإذا حكم بحكم و لم يقبله منه،فإنما بحكم اللّه استخفّ و علينا ردّ.و الرادّ علينا كافر و رادّ على اللّه،و هو على حدّ من الشرك باللّه».

و النوعية التى هدف الإمام إليها،و التعبئة التى قام بها كانت تنزع عن السلطة قاعدتها،و تضع الحواجز بينها و بين الناس،و تكشف للمسلمين انغماس الحكّام فى ملاذّهم،و مدى ابتعادهم عن الإسلام و استعدادهم لإنزال الأذى بالمسلمين، و استخدام قوتهم الغاشمة.فقرر الإمام أن يباشر دعوة الحق،و يقوم بإعداد الأمة، و يتبنى مهمة الإصلاح إلى حين استكمال عوامل الثورة-و لأنه لا يرى ما يراه الآخرون من ملائمة الظرف-أصرّ على هذا النهج حماية لأرواح المسلمين،لأن إعلان الثورة كان يعنى سفك الدماء على أيدى الحكام الذين يتمتعون بالقوة و يتصفون بالقسوة و لا يتورعون عن انتهاك المحارم و إزهاق الأرواح فى سبيل الحفاظ على سلطانهم و صيانة ملكهم،ثم إن النفوس امتلأت جراحا،و الأمر كما تبيّنه الأخبار و تعيّنه الآثار، فالإمامة معقودة لرعاية الدين و حماية العقيدة،و الأحداث تجرى على نماذج من التضحيات،و أمثال من المواقف التى تشحذ الهمم و تؤجج المشاعر،و الخلافة العظمى بإمامتها الروحية تتبوأ المحل الذى وضعها اللّه فيه.و لكل فترة دور و حال.

و على ذلك يفسر الإمام الصادق قول اللّه تعالى: ذلِكَ وَ مَنْ عاقَبَ بِمِثْلِ ما عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ فيقول:«إن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لما أخرجته قريش من مكة،و هرب منهم إلى الغار،و طلبوه ليقتلوه فعوقب،ثم فى بدر عاقب،لأنه قتل عتبة بن ربيعة و شيبة بن ربيعة و الوليد بن عتبة و حنظلة بن أبى سفيان و أبو جهل و غيرهم،فلما قبض رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بغى عليه ابن هند بنت عتبة بن ربيعة بخروجه عن طاعة أمير المؤمنين عليه السّلام و بقتل ابنه يزيد الإمام الحسين عليه السّلام بغيا و عدوانا و قائلا شعرا:

ليت أشياخى ببدر شهدوا (جزع)الخزرج من وقع الأسل

لأهلّوا و استهلّوا فرحا ثم قالوا يا يزيد لا تشل

لست من خندف إن لم أنتقم من بنى أحمد ما كان فعل

قد قتلنا القرم من ساداتهم و عدلناه ببدر فاعتدل

ثم قال تعالى:لينصرنه اللّه.يعنى بالقائم المهدى من ولده صلّى اللّه عليه و آله و سلّم (1)».

و من المعلوم أن التقية كانت من دين الإمام الصادق،جعلها فى مكان من عمله رفيع و بارز لاتقاء شرور الحكام و دفع ظلمهم،إلى ما فيها من الإبقاء على الصلات بالأولياء الحقيقيين الذين يتخذهم المسلمون بإيمان و نص من دين اللّه،و إلا فإن الحديث عن بنى العباس صريح تصرخ به أفعالهم و تصرّح به سياستهم.

و فى سيرة الإمام الصادق تتمثل أيضا الأعمال التى على المصلح الدينى أن يقوم بها،و الاتجاه إلى الإصلاح بالعمل الدينى يقود إلى الإصلاح الاجتماعى و الأخلاقى، و قد قلنا أن الإمام الصادق كان يقرن دعوته بصور عملية حيث يبادر بنفسه إلى العمل لكسب الرزق،و يكفّ نفسه عمّا نهى اللّه عنه،فيجد المسلم فى سلوك الإمام تطابقا تاما و ائتلافا كاملا يجسّد العقائد و المبادئ و الأفكار التى يدعو إليها،فيطمئن الناس إلى صدق النية،و يقبلون على عالم من القول و العمل فيه القربة إلى اللّه لنيل رضاه و فيه السلامة فى الدنيا لنيل السعادة.

سئل عليه السّلام عن قوله تعالى: فَلِلّهِ الْحُجَّةُ الْبالِغَةُ ؟فقال:«إن اللّه سبحانه يقول للعبد يوم القيامة:عبدى،أ كنت عالما؟فإن قال:نعم.قال له:أ فلا عملت بما علمت؟ و إن قال:كنت جاهلا.قال:أ فلا تعلّمت حتى تعمل؟فيخصم.فتلك الحجة...»ا ه.

و يسعى الإمام الصادق عليه السّلام إلى معالجة الشذوذ فى التصرفات التى تحدث بدافع الجهل،فإن كانت لأجل الإساءة إلى الدين و الطعن فى العقائد،فإنها تدخل فى جملة القضايا و الأعمال التى يستهدفها جهده عليه السّلام فى حملة فكرية و عقلية يقابل بها أفكار الزندقة و الألحاد و أهل الأهواء و الآراء.و إذا تحدّث جمع بين التفسير و الوعظ و الوقائع.و إليک ما يضمّ خلاصة ما قدمناه.

1- (1) ينابيع المودة [1]للحافظ سليمان بن إبراهيم القندوزى الحنفى ص 510.

قال علیه السّلام فی قوله عز و جل: اِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ «یقول:أرشدنا للزوم الطریق المؤدی إلی محبتک،و المبلّغ إلی جنتک من أن نتّبع أهوائنا فنعطب،و نأخذ بآرائنا فنهلک،فإن من اتبع هواءه و أعجب برأیه کان کرجل سمعت غثاء الناس تعظّمه و تصفه،فأحببت لقاءه من حیث لا یعرفنی لأنظر مقداره و محله،فرأیته فی موضع قد أحدق به جماعة من غثاء العامة،فوقفت منتبذا عنهم،متغشیا بلثام أنظر إلیه و إلیهم،فما زال یراوغهم حتی خالف طریقهم و فارقهم،و لم یقرّ،فتفرّقت جماعة العامة عنه لحوائجهم،و تبعته أقتفی أثره،فلم یلبث أن مرّ بخباز،فتغفله فأخذ من دکانه رغیفین مسارقة،فتعجبت منه،ثم قلت فی نفسی:لعله معامله.ثم مرّ بعده بصاحب رمان،فما زال به حتی تغفله فأخذ من عنده رمانتین مسارقة،فتعجبت منه،ثم قلت فی نفسی:لعله معامله.ثم أقول:و ما حاجته إذا إلی المسارقة؟ثم لم أزل أتبعه حتی استقرّ فی بقعة من صحراء.فقلت له:یا عبد اللّه لقد سمعت بک،و أحببت لقاءک،فلقیتک لکنی رأیت منک ما شغل قلبی،و إنی سائلک عنه لیزول به شغل قلبی.

قال:ما هو؟ قلت رأیتک مررت بخباز و سرقت منه رغیفین،ثم بصاحب رمان فسرقت منه رمانتین؟ فقال لی:قبل کل شیء حدثنی من أنت؟ قلت:رجل من ولد آدم من أمة محمد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

قال:حدثنی ممن أنت؟ قلت:رجل من أهل بیت رسول اللّه.

قال:أین بلدک؟ قلت:المدینة.

قال:لعلک جعفر بن محمد بن علی بن الحسین بن أبی طالب علیهم السّلام.

قلت:بلی.

قال لی:فما ینفعک شرف أصلک مع جهلک بما شرّفت به،و ترکک علم جدک و أبیک،لأنه لا ینکر ما یجب أن یحمد و یمدح فاعله.

قلت:ما هو؟ قال:القرآن كتاب اللّه.

قلت:و ما الذى جهلت؟ قال:قول اللّه عز و جل: مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها وَ مَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزى إِلاّ مِثْلَها و إنى لمّا سرقت الرغيفين،كانت سيئتين.و لمّا سرقت الرمانتين،كانت سيئتين.فهذه أربع سيئات.فلمّا تصدّقت بكل واحد منها كانت أربعين حسنة،أنقص من أربعين حسنة أربع سيئات،بقى ست و ثلاثون.

قلت:ثكلتک أمک،أنت الجاهل بكتاب اللّه،أ ما سمعت قول اللّه عز و جل:

إِنَّما يَتَقَبَّلُ اللّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ إنک لمّا سرقت رغيفين،كانت سيئتين،و لما سرقت الرمانتين كانت سيئتين.و لما دفعتها إلى غيرها من غير رضا صاحبها كنت إنما أضفت أربع سيئات إلى أربع،و لم تضف أربعين حسنة إلى أربع سيئات.فجعل يلاحينى،فانصرفت و تركته» (1).ا ه.

الشذوذ فى الأعمال استدعى من الإمام ما رأيناه من ملاحظة و تتبع،أما الوجه الآخر فهو الجهل الحقيقى الذى يدور بين الناس على شكل أشخاص يدّعون العلم بالكتاب و الفهم بالدين،و هو وجه يسبب أخطارا و أخطاء تجرّئ الناس على النصوص و الأحكام،و تضع عراقيل تؤثر فى سير دعوة الإمام الصادق.

و يروى للإمام الصادق تعقيب يبيّن ما ترتّب على ذلک من أضرار فى تاريخ الإسلام،فيقول عليه السّلام:«بمثل هذا التأويل القبيح المستكره يضلّون و يضلّون..» فقد لجأ الظالمون و البغاة إلى مثل ذلک و أباحوا لأنفسهم التقوّل على اللّه،و الكذب على النبى الكريم.

لقد اهتم الإمام الصادق بالأصحاب الذين ينقلون عنه الحديث،و بالأقارب الذين يعملون بنهجه فى طبقات المجتمع،و يجنّدون أنفسهم لدعوة الإصلاح و التمسّک بالدين،و يعنى بطريقة مخاطبتهم الناس،و أسلوب حملهم على العمل بالفرائض و الأحكام.قال الإمام الصادق لأحد أصحابه:«وضع الإسلام على سبعة أسهم:على الصبر و الصدق و اليقين و الرجاء و الوفاء و العلم و الحلم.ثم قسم ذلک

1- (1) معانى الأخبار للصدوق و الاحتجاج. [1]

بین الناس،فمن جعل فیه هذه السبعة الأسهم فهو کامل الإیمان محتمل،و قسم لبعض الناس السهم،و لبعض السهمین،و لبعض الثلاثة أسهم،و لبعض الأربعة أسهم،و لبعض الخمسة أسهم،و لبعض الستة أسهم.فلا تحملوا علی صاحب السهم سهمین،و علی صاحب السهمین ثلاثة أسهم،و علی صاحب الثلاثة أربعة أسهم،و لا علی صاحب الأربعة خمسة أسهم،و لا علی صاحب الخمسة ستة أسهم،و لا علی صاحب الستة سبعة أسهم،فتثقلوهم و تنفّروهم،و لکن ترفّقوا بهم،و سهّلوا لهم المداخل.و سأضرب لک مثلا تعتبر به:إنه کان رجل مسلم،و کان له جار کافر(و فی روایة نصرانی)و کان الکافر یرفق بالمؤمن،فأحب المؤمن للکافر الإسلام،و لم یزل یزیّن الإسلام و یحببه إلی الکافر حتی أسلم،فغدا علیه المؤمن فاستخرجه من منزله، فذهب به إلی المسجد لیصلی معه الفجر فی جماعة،فلمّا صلّی قال له:لو قعدنا نذکر اللّه عز و جل حتی تطلع الشمس.فقعد معه،فقال له:لو تعلمت القرآن إلی أن تزول الشمس و صمت الیوم کان أفضل.فقعد معه و صام حتی صلی الظهر و العصر.

فقال له:لو صبرت حتی تصلی المغرب و العشاء الآخرة.ثم نهضا و قد بلغ مجهوده، و حمل علیه ما لا یطیق.فلما کان من الغد،غدا علیه و هو یرید به مثل ما صنع بالأمس،فدق علیه بابه،ثم قال:أخرج حتی تذهب إلی المسجد.فأجابه:أن انصرف عنی،فهذا دین لا أطیقه» (1).

و عن عقبة بن خالد (2):دخلت أنا و المعلاّ و عثمان بن عمران علی أبی عبد اللّه علیه السّلام فلما رآنا قال:«مرحبا مرحبا بکم،وجوه تحبّنا و نحبّها،جعلکم اللّه معنا فی الدنیا و الآخرة»فقال له عثمان:جعلت فداک.فقال أبو عبد اللّه علیه السّلام:

«نعم مه»قال:إنی رجل موسر،فقال له:«بارک اللّه لک فی یسارک»و قال:و یجیء الرجل فیسألنی الشیء،و لیس هو إبان زکاتی.فقال له أبو عبد اللّه علیه السّلام:«القرض عندنا بثمانیة عشر،و الصدقة بعشرة،و ما ذا علیک إذا کنت کما تقول لا تردّه،فإن ردّه عند اللّه عظیم.یا عثمان،إنک لو علمت ما منزلة المؤمن من ربّه ما توانیت فی حاجته،و من أدخل علی مؤمن سرورا،فقد أدخل علی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم» (3).

1- (1) الاثنی عشریة فی المواعظ العددیة للحافظ العیناثی الجزینی.

2- (2) عقبة بن خالد الأسدی الکوفی من أصحاب الإمام الصادق.

3- (3) الکافی للکلینی. [1]

و بهذه السيرة و التعاليم يقيم الإمام الصادق واقعا محسوسا و معاشا من الألفة و التعاون و التكافل،و فى كل جانب من حياته اليومية عليه السّلام عليه سيماء الدين و صفة الفقه و الدعوة الإسلامية،فلا غرو أن نجده مهوى أفئدة محبى الحكمة،و مقصد طلاب العلم،كما نجده ملجأ المحتاجين،فهو عليه السّلام لا يكتفى بتهيئة أصحابه و محبيه لأداء ما أمر به الإسلام من حقوق للفقراء،بل يجعل من بيته أيضا المقام الأول الذى تجرى فيه تطبيقات أحكام الإسلام و تعاليمه.

جاء إليه عليه السّلام رجل فقال له:يا أبا عبد اللّه،قرض إلى ميسرة.فقال له أبو عبد اللّه عليه السّلام:«إلى غلّة تدرک؟»فقال الرجل:لا و اللّه.قال:«فإلى تجارة تؤوب؟»قال:لا و اللّه.قال:«فإلى عقدة تباع؟»فقال:لا و اللّه.فقال أبو عبد اللّه عليه السّلام:«فأنت ممن جعل اللّه له فى أموالنا حقا».ثم دعا بكيس فيه دراهم، فأدخل يده فيه،فناوله منه قبضة.

و يدعو عليه السّلام إلى أن يسعى المؤمن فى حاجة أخيه،و يظهر شديد اهتمامه فى التكاتف و التكافل الذى دعا إليه الإسلام،و يبيّن جزاء ذلک عند اللّه ليصبح عمل المسلم فى إطار مجتمعه عملا دينيا و له الصفة الشرعية.فمن أقواله عليه السّلام:«قضاء حاجة المؤمن خير من عتق ألف رقبة،و خير من حملان ألف فرس فى سبيل اللّه».

و كذلک قوله عليه السّلام:«لقضاء حاجة امرئ مؤمن أفضل من ألف حجة متقبلة بمناسكها،و عتق ألف رقبة».

و من المعلوم أن الإمام الصادق فى حضّه على إقامة العلاقات بين المسلمين على مثل هذه الصورة من التعاون و المساعدة،يعالج فى أعماله و أقواله تلک الظاهرة التى أشرنا إليها سابقا من الانصراف إلى الأعمال العبادية،أو الانقطاع عن طلب الرزق تحت تأثير فهم محدود،أو حالة خاصة،و التى تشمل أيضا أداء المناسک و الأعمال الخيرية بقصد التظاهر و تمدّح الناس و السمعة.و هنا محک هام يضعه الإمام عليه السّلام لتوجيه المجتمع إلى الرفاه و التآلف.

و نرى الإمام الصادق يزيد فى القول من ذكر المعروف و فضله ليحبب إلى الناس فعل الخير و يشيعه بينهم،و هو يبدأ بالدعوة إلى المعروف بدون تقييده،فيقول عليه السّلام داعيا أصحابه:«اصنع المعروف إلى كل أحد،فإن كان أهله و إلا فأنت أهله».

ثم يتّجه فى دعوته إلى عمل المعروف بين المؤمنين فيقول:«أيما مؤمن أوصل إلى أخيه المؤمن معروفا،فقد أوصل ذلک إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم».

و من صور حثّه على المعروف قوله عليه السّلام:«ليس شيء أفضل من المعروف إلا ثوابه».

ثم يضع الإمام الصادق لهذا العمل-الذى يكشف عن حب الخير فى نفس المؤمن،و عن روح المحبة فى صدر المسلم-شروطا،فيرى أن المعروف لا يصلح إلا بثلاث خصال:«تصغيره فى ستره،و تعجيله،فإن المسلم إذا صغّره عظّمه عند من صنعه إليه،و إذا ستره تمّمه،فإذا عجله هنأه،و إن كان غير ذلک محقه و نكده» (1).

أما الزكاة فإن الإمام الصادق عليه السّلام فيما استفاض عنه من أخبار يشرح وجوبها و علل فرضها،و يبدأ بمن وجبت عليه ليؤدى ما افترض اللّه عليه.قال عليه السّلام لعمّار بن موسى الساباطى (2):«يا عمار أنت ربّ مال كثير؟»قال:نعم،جعلت فداک.

قال:«فتؤدى ما افترض اللّه عليک من الزكاة؟»فقال:نعم.قال«فتخرج الحق المعلوم من مالک؟»قال:نعم.قال:«فتصل قرابتک؟»قال:نعم.قال«فتصل إخوانک؟» قال:نعم.فقال«يا عمار إن المال يفنى،و البدن يبلى،و العمل يبقى،و الديّان حىّ لا يموت.يا عمّار أما أنه ما قدمت فلم يسبقک،و ما أخّرت فلن يلحقک» (3).

و يبيّن الإمام الصادق علّة فرض الزكاة و وجوبها فيقول:«إنما وضعت الزكاة اختبارا للأغنياء،و معونة للفقراء.و لو أن الناس أدّوا زكاة أموالهم،ما بقى مسلم محتاجا و لا مستغنى بما فرض اللّه عز و جل له،و إن الناس ما افتقروا و لا احتاجوا و لا جاعوا و لا عروا إلا بذنوب الأغنياء،و حقيق على اللّه عز و جل أن يمنع رحمته من منع حق اللّه فى ماله.و أقسم بالذى خلق الخلق و بسط الرزق إنه ما ضاع مال فى بر و لا بحر إلاّ بترک الزكاة،و ما صيد صيد فى بر و لا بحر إلاّ بترک التسبيح فى ذلک اليوم.

و إن أحب الناس إلى اللّه عز و جل أسخاهم كفا،و أسخى الناس من أدّى الزكاة فى ماله،و لم يبخل على المؤمنين بما افترض اللّه عز و جل لهم فى ماله...»ا ه.

و عن زرارة (4)و محمد بن مسلم (5)أنهما قالا لأبى عبد اللّه عليه السّلام:أ رأيت

1- (1) فروع الكافى ج 4 ص 8. [1]

2- (2) من أصحاب الإمام الصادق و الإمام الكاظم.أخواه قيس و صباح كانوا جميعهم من الثقات.

3- (3) فروع الكافى و [2]من لا يحضره الفقيه للصدوق.

4- (4) زرارة بن أعين الشيبانى من أصحاب الإمام الباقر و الصادق قال النجاشى:(شيخ أصحابنا فى زمانه و متقدمهم.قد اجتمعت فيه خلال الفضل و الدين)ابنه محمد ثقة روى عنه جماعة.

5- (5) محمد بن مسلم بن رباح أبو جعفر الأوقص الطحّان فقيه ثقة.من أصحاب الباقر و الصادق.

قول اللّه عز و جل: إِنَّمَا الصَّدَقاتُ لِلْفُقَراءِ وَ الْمَساكِينِ وَ الْعامِلِينَ عَلَيْها وَ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَ فِي الرِّقابِ وَ الْغارِمِينَ وَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللّهِ أ كلّ هؤلاء يعطى و إن كان لا يعرف؟فقال:«إن الإمام يعطى هؤلاء جميعا لأنهم يقرّون له بالطاعة».قال زرارة:

قلت:فإن كانوا لا يعرفون؟فقال:«يا زرارة،لو كان يعطى من يعرف دون من لا يعرف، لم يوجد لها موضع.و إنما يعطى من لا يعرف ليرغب فى الدين،فيثبت عليه،فأما اليوم فلا تعطها أنت و أصحابک إلا من يعرف،فمن وجدت من هؤلاء المسلمين عارفا؛فأعطه دون الناس»ثم قال:«سهم المؤلفة قلوبهم و سهم الرقاب عام،و الباقى خاص»قال:

قلت:فإن لم يوجدوا؟قال:«لا تكون فريضة فرضها اللّه عز و جل،و لا يوجد لها أهل» قال:قلت:فإن لم تسعهم الصدقات؟قال فقال:«إن اللّه عز و جل فرض للفقراء فى مال الأغنياء ما يسعهم،و لو علم أن ذلک لا يسعهم لزادهم،إنهم لم يؤتوا من قبل فريضة اللّه عز و جل،و لكن أوتوا من قبل من منعهم حقهم،لا ـ مما فرض اللّه لهم،و لو أن الناس أدّوا حقوقهم لكانوا عائشين بخير،فإما الفقراء فهم أهل الزمانة و الحاجة،و المساكين أهل الحاجة من غير الزمانة،و العاملون عليها هم السعاة،و سهم المؤلفة قلوبهم ساقط بعد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،و سهم الرقاب يعان به المكاتبون الذين لا مأوى له و لا مسكن،مثل:

المسافر الضعيف و مارّ الطريق.و لصاحب الزكاة أن يضعها فى صنف دون صنف متى لم يجد الأصناف كلها»ا ه.

و عن عمار الساباطى قال:قال لى أبو عبد اللّه عليه السّلام«يا عمار الصدقة و اللّه فى السرّ أفضل من الصدقة فى العلانية،و كذلک و اللّه العبادة فى السرّ أفضل منها فى العلانية».

و قال عليه السّلام:«إن الصدقة تقضى الدين،و تخلف البركة».

و تضعنا أقوال الإمام الصادق إزاء الغرض الذى يسعى إليه،و يعمل من أجل تحقيقه،و هو صورة المجتمع المسلم الذى تنفّذ فيه أحكام الإسلام و تطبّق تعاليمه، و هو عليه السّلام فى طريقة الدعوة و أسلوب الحثّ على هدى آبائه الطيبين فى البناء و الصياغة،فنراه يقول ليحبّب الصدقة و يحفّز على التصدّق:«إن الصدقة تدفع ميتة السوء عن الإنسان».

ثم يسوق هذه الحادثة:«مرّ يهودى بالنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فقال:السام عليک.فقال له رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:عليک.فقال أصحابه:إنما سلم عليک بالموت؟قال:الموت عليک.قال النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:كذلک رددت عليه.ثم قال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:إن هذا اليهودى يعتضّه

أسود (1)فی قفاه،فیقتله.قال:فذهب الیهودی،فاحتطب حطبا کثیرا،فاحتمله،ثم لم یلبث أن انصرف.فقال له رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم:ضعه.فوضع الحطب،فإذا أسود فی جوف الحطب عاضّ علی عود.فقال:یا یهودی ما عملت الیوم؟قال:ما عملت عملا إلا حطبی هذا احتملته و جئت به و کان معی کعکتان،فأکلت واحدة و تصدّقت بواحدة علی مسکین.فقال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم:بها دفع اللّه عنک» (2).

و من وجوه عمله علی سدّ حاجة الفقراء،و ضمان ما یقیم صلبهم بأداء ما أمر به اللّه و دعا إلیه الإسلام،مخاطبته أصحابه بما یرید منهم أن یفعلوه.و هو عند ما یصدر منه،فإن الأصحاب و المحیطین به ینظرون إلی قوله نظرة الأمر،لأنه إمام مفترض الطاعة،و هم بظل إمامته یتفیّئون،و بنهج هداه یعملون،فیخاطبهم علیه السّلام:«بکّروا بالصدقة و رغّبوا فیها،فما من مؤمن یتصدق بصدقة یرید بها ما عند اللّه لیدفع بها عنه شرّ ما ینزل من السماء إلی الأرض فی ذلک الیوم،إلا وقاه اللّه شرّ ما ینزل من السماء إلی الأرض فی ذلک الیوم».

و قال علیه السّلام:«استنزلوا الرزق بالصدقة،و حصّنوا أموالکم بالزکاة» (3).

و بالإسناد عن أبان بن تغلب أنه (4)أمره أن یقطع الطواف،و یذهب إلی رجل أشار إلی أبان لیری حاجته.قلت:فأقطع الطواف؟قال علیه السّلام:«نعم»قلت:و إن کان طواف فریضة؟قال علیه السّلام:«نعم».

قال:فذهبت معه،ثم دخلت علیه بعد،فسألته،فقلت:أخبرنی عن حق المؤمن علی المؤمن؟قال علیه السّلام:«یا أبان،دعه لا تزده».قلت:بلی،جعلت فداک.فلم أزل أردد علیه.

فقال علیه السّلام:«یا أبان أن تقاسمه شطر مالک»ثم نظر إلیّ فرأی ما دخلنی، فقال:«یا أبان،أ ما تعلم أن اللّه عز و جل قد ذکر المؤثرین علی أنفسهم؟»قلت:بلی جعلت فداک.

1- (1) الأسود هو العظیم من الحیات.

2- (2) فروع الکافی ج 4 ص 5. [1]

3- (3) حلیة الأولیاء ج 3 ص 195.

4- (4) أبان بن تغلب الربعی من تلامذة الإمام الصادق و أصحابه المقربین.ذکر له ابن الندیم کتاب: معانی القرآن،و القراءات،و کتابا من الأصول علی مذهب الشیعة.

فقال:«إذا قاسمته لم تؤثره بعد،إنما أنت و هو سواء،إنما تؤثر إذا أعطيته من النصف الآخر».

و يقول لأصحابه:«إن صدقة الليل تطفئ غضب الرب،و تمحو الذنب العظيم،و تهوّن الحساب.و صدقة النهار تثمر المال و تزيد فى العمر.إن عيسى بن مريم عليه السّلام لمّا أن مرّ على شاطئ البحر رمى بقرص من قوته فى الماء.فقال له بعض الحواريين:يا روح اللّه و كلمته لم فعلت هذا و إنما هو من قوتك؟فقال:فعلت هذا لدابة تأكله من دوابّ الماء،و ثوابه عند اللّه عظيم».

و يروى عليه السّلام من أحاديث جدّه النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى ذلك الكثير منها:قال عليه السّلام:

«قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:تصدقوا فإن الصدقة تزيد فى المال كثرة».

و قال عليه السّلام:«قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:إن اللّه لا إله إلاّ هو ليدفع بالصدقة الداء و الدبيلة (1)و الحرق و الغرق و الهدم،و عدّ سبعين بابا من السوء».

فكيف يتوانى المسلم عن ثواب ذلك و فوائده الدنيوية و الأخروية و هو يسمع بأذنيه هذه الأحاديث و الأحداث.و يرى أمام عينيه مبادرة الإمام إلى تطبيق تعاليم الإسلام،و مباشرته بنفسه سدّ حاجة الناس.و يراعى الإمام مشاعر الناس،و منهم طائفة ترى فى أخذ الزكاة حطا من مكانتها،و تخجل أن يكون قبولها إمارة عوز و فقر، فأمر عليه السّلام أن يعطى من يستحيى،و لا تسمّ له الزكاة لكى لا يذلّ المؤمن.

و قال عليه السّلام:«لو يعلم السائل ما عليه من الوزر،ما سأل أحد أحدا.و لو يعلم المسئول إذا منع،ما منع أحد أحدا» (2).

و نضع آخر قبس من سيرته الكريمة عليه أفضل الصلاة و السّلام أمام القارئ الكريم،و فيها جوامع النظرة و مضامين الفكرة.فعن المعلى بن خنيس (3)قال:قلت للإمام الصادق عليه السّلام:ما حق المسلم على المسلم؟قال:«سبع حقوق و واجبات،

1- (1) الدبيلة:الداهية.فى الصحاح:هى مصغرة للتكبير يقال(دبلتهم الدبيلة)أى أصابتهم الداهية.

2- (2) فروع الكافى. [1]

3- (3) أبو عبد اللّه مولى الإمام الصادق،كان مولى لبنى أسد فى الكوفة.قتله داود بن على والى المدينة،فغضب الإمام الصادق و دعا على داود بن على،فما أستتم دعاءه عليه السّلام حتى سمعت الصيحة فى دار داود.

ما منهنّ حقّ إلاّ و هو عليه واجب،إن ضيّع منها شيئا خرج من ولاية اللّه و طاعته،و لم يكن للّه فيه من نصيب»قلت له:جعلت فداک و ما هى؟.قال:«يا معلّى إنى عليک شفيق،أخاف أن تضيّع و لا تحفظ،و تعلم و لا تعمل»قال قلت له:لا قوة إلا باللّه.

قال:«أيسر حق منها أن تحبّ له ما تحبّ لنفسک،و تكره له ما تركه لنفسک.الحق الثانى:أن تجتنب سخطه،و تتبع مرضاته،و تطيع أمره.و الحق الثالث:أن تعينه بنفسک و مالک و لسانک و يدک و رجلک.و الحق الرابع:أن تكون عينه و دليله و مرآته.

و الحق الخامس:أن لا تشبع و يجوع،و لا تروى و يظمأ،و لا تلبس و يعرى.و الحق السادس:أن يكون لک خادم و ليس لأخيک خادم،فواجب أن تبعث خادمک،فيغسل ثيابه،و يصنع طعامه،و يمهد فراشه.و الحق السابع:أن تبرّ قسمه،و تجيب دعوته، و تعود مريضه،و تشهد جنازته،و إذا علمت أن له حاجة تبادر إلى قضائها،و لا تلجأه أن يسألكها،و لكن تبادره مبادرة.فإذا فعلت ذلک وصلت ولايتک بولايته و ولايتى بولايتک».

و نختم ما يحتمله وسع هذا الفصل بالإشارة إلى تصدّى الإمام الصادق إلى تحقيق هذه الجوانب الحياتية التى تستمد من العقيدة بشعور الزعامة الروحية و قيادة شئون تنفيذ هذه التعاليم،فهو عليه السّلام جعل أمر الحاجة عند المؤمن و مساعدة الضعفاء منهم خاصا به و شأنا يمسّه.

كان عنده جماعة من أصحابه،فقال لهم:«مالكم تستخفّون بنا؟»فقام إليه رجل من أهل خراسان فقال:معاذ اللّه أن نستخفّ بک أو بشىء من أمرک.

فقال:«إنک أحد من استخفّ بى».

فقال الرجل:معاذ اللّه أن أستخفّ بک.

فقال عليه السّلام:«ويحک أ لم تسمع فلانا-و نحن بقرب الجحفة-و هو يقول لک:

احملنى قدر ميل،فقد و اللّه أعييت.فو اللّه ما رفعت له رأسا،لقد استخففت به،و من استخفّ بمؤمن فبنا استخفّ،و ضيّع حرمة اللّه عز و جل».

و بذلک يجعل عليه السّلام إعانة المؤمن و مساعدة الضعيف على اختلاف وجوههما و أحوالهما متصلا بمنزلته عليه السّلام،و استخدامه لصيغة الجمع تأكيد لعظيم هذا الجانب من حياة المجتمع،و خطر هذا الوجه من العلاقات بين المؤمنين.

و إلى هنا نكتفى بما قدمناه من قبسات من سيرة الإمام الصادق،و نظرة سريعة إلى ظروف عصره و أحداثه،فقد ضمّت الأجزاء السابقة من الكتاب مزيدا من البحث و بسطنا فيه القول.

و نتحول الآن إلى مدرسة الإمام الصادق عليه السّلام لنقف على الجهود العلمية التى بذلها عليه السّلام و نتعرف على تفاصيل أخرى عن منهج هذه الجامعة الإسلامية الكبرى التى أمّها علماء الأمة من مختلف الأقطار،و تتلمذ فيها كبار الأئمة،و هى المأثرة العظمى و المفخرة الكبرى التى تدلل بآثارها و نتائج أعمالها على دور الإمام الصادق فى حفظ التراث العلمى الإسلامى و إغنائه.

ص:269

مدرسة الإمام الصادق

المنهج و التكوين

تتظافر الروايات على أن عدد الذين تتلمذوا على الإمام الصادق و انتسبوا إلى مدرسته هو أربعة آلاف طالب من مختلف الأقطار،فقد جمع أصحاب الحديث أسماء الرواة عنهم من الثقات على اختلافهم فى الآراء و المقالات فكانوا كذلک،فقد كان عليه السّلام أفضل أهل زمانه،و برز على أقرانه بالفضل و السؤدد فى الخاصة و العامة، و نقل الناس عنه من العلوم ما لم ينقل عن أحد من أهل بيته (1).

كان الصادق عليه السّلام أفضل الناس و أعلمهم بدين اللّه،و كان أهل العلم الذين سمعوا منه إذا رووا عنه قالوا:أخبرنا العالم (2).قال أبو الحسن الوشّاء:(أدركت فى جامع الكوفة تسعمائة شيخ من أهل الدين و الورع كلهم يقول:حدثنى جعفر الصادق).و قد كانت الكوفة و المدينة تضمّان أكبر عدد من هؤلاء لانتشار التشيّع فى الكوفة.و لأن المدينة كانت أرض تكوين و مهد دعوته.

و لا نجد من يجرأ على إنكار مكانة الإمام الصادق فى زمانه و زعامته فى ذلک العصر،و قد عودتنا الأيام أن يكابر الكثيرون و يعاند العديدون استجذاء للحكام و اتّباعا للأهواء و الأحقاد،لأن الحقائق كانت تقمع ما تطويه دخائلهم و تضمّه جوانحهم،فقد كان بيته و مجلسه عليه السّلام يزدحمان بطلبة العلم و أهل الفقه،يقبلون على الإمام للانتهال من معين علمه و حكمته،حتى أن الروايات تصف ضيق داره لعظم الوفود و العلماء من مختلف الأقطار،حتى صعب على أصحابه أن يجدوا لهم مجلسا.

1- (1) روضة الواعظين للفتال النيسابورى ج 1 ص 207.

2- (2) تاريخ ابن واضح ج 3 ص 115.

و لم يعرف لأحد غيره مثل هذه الشهرة.فقد كان تلاميذه من العراق و مصر و خراسان و حمص و الشام و حضرموت و غيرها.

و قد تصدّر الإمام الصادق حركة المجتمع بجدارة،و تزعم الحركة العلمية بتفرّد،فقد(نقل الناس عنه من العلوم ما سارت به الركبان،و انتشر صيته فى جميع البلدان) (1).و كان ينذر نفسه لهذه الأغراض،و يتّجه إلى الناس قائلا:«سلونى قبل أن تفقدونى،فإنه لا يحدّثكم أحد بعدى بمثل حديثى» (2).و لذلک:(روى حديثه خلق لا يحصون) (3).و انتشر فقهه فى الآفاق،و إذا استعصى الحصر و صعب العدّ لتحديد كل من روى عنه عليه السّلام فإن الأربعة آلاف كانوا المتميزين،و إلا فإن الصورة التى لا تقبل المماراة هى شيوع ذكره بين سائر الناس و علوّ مكانته فى نفوس المسلمين على مختلف أصنافهم و أجناسهم.و على ذلک فلا يستغرب أن يعجز الكثير عن إحصاء كل من نقل عنه أو روى حديثه عليه السّلام.

ثم حلقات فقهه من أصحابه و تلامذته المقرّبين و عددهم أربعمائة ممن نبهوا فى العلوم و عرفوا بالفقه،و هم رجال مدرسته و هيئتها العلمية الذين اختصوا بفقه الإمام الصادق،و كانوا من العدالة و الثقة بمكان لا ترقى إليه سهام الحقد و الحسد،و قد ألّفوا فى فقه الإمام جعفر الصادق و الرواية عنه أربعمائة كتاب،و هى الأصول الفقهية للمذهب الجعفرى (4).

و قد تحرّى الإمام الصادق كفاءة الأصحاب و قدرات المتعلّقين به،و وجّه كلا- إلى حيث العمل الذى يتّفق و مواهبه و ينسجم مع استعداده،فكان البعض منهم مختصا بتنفيذ التعاليم التى تتعلق بواقع الأسر و الأفراد،أو تتصل بالظواهر الاجتماعية و العلاقات.و قد مرّ بنا طرف من هذه المهمات التى توكل إليهم فى الفصل السابق و الأجزاء السابقة من الكتاب.

أما الناحية الفكرية-التى تمثل منهج مدرسته-فقد عيّن الإمام الصادق من بين

1- (1) الصواعق المحرقة لابن حجر ص 120. [1]

2- (2) تذكرة الحفاظ للذهبى ج 1 ص 157.

3- (3) خلاصة تذهيب الكمال للخزرجى ص 54.

4- (4) انظر التراجم و البحوث الخاصة بهم فى الجزء الثالث و الرابع.

هيئة المدرسة العلمية الرجال الذين توكل إليهم المهمات.و تسند شئون المنهج و تطبيقاته،و هى تتجه إلى الأهداف التالية:

1-مناظرة أهل العقائد الفاسدة.

2-محاربة أهل الألحاد و الزندقة.

3-محاورة أهل الكتاب.

4-مواجهة الفرق الشاذة.

5-مقاتلة الظلمة بشدة الإنكار عليهم و توجيه الانتقاد إليهم و فضح سياساتهم.

فجعل أبان بن تغلب للفقه،و أمره أن يجلس فى المسجد فيفتى الناس.و كان أبان بن تغلب من الشخصيات الإسلامية التى امتازت باتقاد الذهن و وفور العقل و بعد الغور،و الاختصاص بعلوم القرآن،و هو أول من ألف فى ذلک،و كان فقيها يزدحم الناس على أخذ الفقه عنه،و إذا دخل مسجد المدينة المنورة أخليت له سارية النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فيحدّث الناس،و يسألونه فيخبرهم على اختلاف الأقوال،ثم يذكر قول أهل البيت،و يسوق أدلته و مناقشته على طريقة الإمام الصادق عليه السّلام فى الإجابة،إذ كان عليه السّلام أعلم الناس باختلاف الناس و أفقههم (1).

و وكل لحمران بن أعين الأجوبة عن مسائل علوم القرآن.و قد كان أحد حملة القرآن،و ممن يحتج بهم فى القراءات،فهو من القرّاء المشهورين،و ممن يعد و يذكر فى كتب القراءة،و كان عالما بالنحو و اللغة،و هو من عائلة مشهورة فى الكوفة و لهم منزلة.و أخوه زرارة-و قد مرت الإشارة إليه فى آخر الفصل السابق-أوكل إليه المناظرة فى الفقه تحت إشراف الإمام الصادق و توجيهه.

و مؤمن الطاق كان للمساجلة فى الكلام.و حمزة بن الطيار للمناظرة فى الاستطاعة و غيرها.و هشام بن الحكم للمناظرة فى الإمامة و العقائد.و كان منهم جماعة يتجوّلون فى الأمصار،أمدّهم الإمام بالأموال.

و تظهر لنا شهادات التاريخ بحق الرجال مكانة الإمام الصادق،و اتجاه الأنظار إليه،و اختلاف الناس إلى مجلسه على اختلاف أغراضهم و مقاصدهم.كذلک تبين لنا المصادر أسلوب الإمام و منهجه و توزيع المهمات على أصحابه و الإشراف على ما

1- (1) انظر مناقب أبى حنيفة للمكى ج 1 ص 173.و جامع مسانيد أبى حنيفة لقاضى القضاة الخوارزمى ج 1 ص 222-223.

يدور فی حلقات درسهم و مجالس مناظراتهم.

ورد رجل من أهل الشام،فاستأذن علی الإمام الصادق،و کان معه جماعة من أصحابه،فإذن له.فلما دخل سلّم.فأمره أبو عبد اللّه علیه السّلام بالجلوس ثم قال له:

«حاجتک؟» قال:بلغنی أنک عالم بکل ما تسأل عنه،فصرت إلیک لأناظرک.

فقال علیه السّلام:«فیما ذا؟» قال:فی القرآن و قطعه و خفضه و نصبه و رفعه.

فقال علیه السّلام:«یا حمران دونک الرجل».

فقال:إنما أریدک لا حمران.

فقال علیه السّلام:«إن غلبت حمران فقد غلبتنی».

فأقبل الشامی فسأل حمران حتی ضجر و ملّ،و حمران یجیبه.

فقال علیه السّلام:«کیف رأیته یا شامی؟» قال:رأیته حاذقا،ما سألته عن شیء إلا أجابنی فیه.

فقال علیه السّلام:«یا حمران سل الشامی»فما ترکه یکثر.

فقال الشامی:أرید یا أبا عبد اللّه أن أناظرک فی العربیة.

فقال علیه السّلام:«یا أبان بن تغلب ناظره»فناظره فما ترک الشامی یکثر.

قال الشامی:أرید أن أناظرک فی الکلام.

قال علیه السّلام:«یا مؤمن الطاق ناظره»فسجل الکلام بینهما.ثم تکلم مؤمن الطاق بکلام،فغلبه.

فقال الشامی:أرید أن أناظرک فی الاستطاعة.

فقال علیه السّلام للطیار:«کلّمه فیها».

فکلّمه،فما ترکه یکثر.

فقال الشامی:أرید أن أکلمک فی التوحید.

فقال علیه السّلام لهشام بن سالم:«کلّمه».

فسجل الکلام بینهما،ثم خصمه هشام.

قال الشامی:أرید أن أناظرک فی الفقه.

فقال علیه السّلام:«یا زرارة ناظره».فما ترک الشامی یکثر.

ص:274

قال الشامی:أرید أن أناظرک فی الإمامة.

فقال علیه السّلام لهشام بن الحکم:«کلّمه یا أبا الحکم»فکلّمه فما ترکه یدیم.

فقال الشامی:کأنک أردت أن تخبرنی أن فی شیعتک مثل هؤلاء الرجال.

فقال علیه السّلام:«هو ذاک...یا أخا أهل الشام،أمّا حمران فحرفک،فحرت له، فغلبک بلسانه،فسألک عن حرف الحق،فلم تعرفه.

و أما زرارة فقاسک،فغلب قیاسه قیاسک.

و أما هشام بن الحکم فتکلم بالحق،فما سوّغک ریقک.

یا أخا أهل الشام،إن اللّه تعالی أخذ ضغثا من الحق و ضغثا من الباطل فمغثهما،ثم أخرجهما إلی الناس.ثم بعث أنبیاء یفرّقون بینهما.ففرقتهما الأنبیاء و الأوصیاء،فبعث الأنبیاء لیعرّفوا ذلک،و جعل الأنبیاء قبل الأوصیاء لیعلم الناس من یفضل اللّه و من یختص.و لو کان الحق علی حدة و الباطل علی حدة کل واحد منهما قائم بنفسه،ما احتاج الناس إلی نبی و لا وصی،و لکن اللّه خلطهما و جعل تفریقهما إلی الأنبیاء و الأئمة من عباده».

فقال الشامی:قد أفلح من جالسک.

فقال أبو عبد اللّه علیه السّلام:«إن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کان یجالسه جبرئیل و میکائیل و إسرافیل،فیصعد إلی السماء فیأتیه الخبر من عند الجبار،و إن کان ذلک کذلک فهو کذلک» (1).

و عن یونس بن یعقوب قال:کنت عند أبی عبد اللّه علیه السّلام فورد علیه رجل من أهل الشام فقال له:إنی رجل صاحب کلام وفقه و فرائض،و قد جئت لمناظرة أصحابک.فقال له أبو عبد اللّه علیه السّلام«کلامک هذا من کلام رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أو من عندک؟»فقال:من کلام رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بعضه،و من عندی بعضه.فقال له أبو عبد اللّه علیه السّلام:«فأنت إذن شریک رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم؟»قال:لا.قال:«فسمعت الوحی من اللّه؟»قال:لا.قال:«فتجب طاعتک کما تجب طاعة رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم؟» قال لا.قال:فالتفت أبو عبد اللّه علیه السّلام إلیّ،فقال لی«یا یونس بن یعقوب،هذا قد خصم نفسه قبل أن یتکلم».ثم قال:«یا یونس لو کنت تحسن الکلام کلّمته».قال

1- (1) رجال الکشی [1]لمحمد بن عمر بن عبد العزیز ص 124.

یونس:فیا لها من حسرة.فقلت:جعلت فداک سمعتک تنهی عن الکلام و تقول:

«ویل لأصحاب الکلام یقولون هذا ینقاد و هذا لا ینقاد،و هذا ینساق و هذا لا ینساق، و هذا نعقله و هذا لا نعقله؟»فقال أبو عبد اللّه علیه السّلام:«إنما قلت:ویل لقوم ترکوا قولی،و ذهبوا إلی ما یریدون به».ثم قال:«أخرج إلی الباب فانظر من تری من المتکلمین فأدخله».قال:فخرجت،فوجدت حمران بن أعین-و کان یحسن الکلام-و محمد بن النعمان الأحول(مؤمن الطاق)و کان متکلما،و هشام بن سالم، و قیس الماصر-و کانا متکلمین-فأدخلتهم علیه،فلما استقرّ بنا المجلس کنّا فی خیمة لأبی عبد اللّه علیه السّلام علی حرف جبل فی طرف الحرم،و ذلک قبل أیام الحج بأیام، أخرج أبو عبد اللّه علیه السّلام رأسه من الخیمة،فإذا هو ببعیر یخبّ فقال:«هشام و رب الکعبة».قال:فظننا أن هشاما رجل من ولد عقیل،کان شدید المحبة لأبی عبد اللّه علیه السّلام،فإذا هشام بن الحکم قد ورد و هو أول ما اختطت لحیته،و لیس فینا إلا من هو أکبر سنّا منه،قال:فوسّع له أبو عبد اللّه علیه السّلام و قال:«ناصرنا بقلبه و لسانه و یده»ثم قال لحمران:«کلّم الرجل»-یعنی الشامی-فکلّمه حمران،فظهر علیه.

ثم قال:«یا طاقی کلّمه».فکلّمه،فظهر علیه محمد بن النعمان.

ثم قال:«یا هشام بن سالم»کلّمه،فتعادیا.

ثم قال لقیس الماصر:«کلّمه»فکلّمه.

و أقبل أبو عبد اللّه علیه السّلام یبتسم من کلامهما،و قد استخذل الشامی فی یده، ثم قال للشامی:«کلّم هذا الغلام»-یعنی هشام بن الحکم-فقال:نعم.ثم قال الشامی لهشام:یا غلام سلنی فی إمامة هذا-یعنی أبا عبد اللّه علیه السّلام-فغضب هشام حتی ارتعد،ثم قال له:أخبرنی یا هذا أ ربّک أنظر لخلقه أم هم لأنفسهم؟ فقال الشامی:بل ربی انظر لخلقة.

قال:ففعل بنظره لهم فی دینهم ما ذا؟ قال:کلّفهم و أقام لهم حجة و دلیلا علی ما کلفهم،و أزاح فی ذلک عللهم.

فقال له هشام:فما هذا الدلیل الذی نصبه لهم.

قال الشامی:هو رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

قال له هشام:فبعد رسول اللّه من؟

قال:الكتاب و السنّة.

قال له هشام:فهل ينفعنا اليوم الكتاب و السنة فيما اختلفنا حتى يرفع عنّا الاختلاف و مكننا من الاتفاق؟ قال الشامى:نعم.

قال له هشام:فلم اختلفنا نحن و أنت،و جئتنا من الشام تخالفنا،و تزعم أن الرأى طريق الدين،و أنت تقرّ بأن الرأى لا يجمع على القول الواحد المختلفين.

فسكت الشامى كالمفكر،فقال له أبو عبد اللّه عليه السّلام:«مالک لا تتكلم».

قال:إن قلت أنّا ما اختلفنا كابرت،و إن قلت أن الكتاب و السنة يرفعان عنا الاختلاف أبطلت،لأنهما يحتملان الوجوه،و لكن لى عليه مثل ذلک.

فقال له أبو عبد اللّه عليه السّلام:«سله تجده مليئا».

فقال الشامى لهشام:من أنظر للخلق ربهم أو أنفسهم.

فقال هشام:بل ربهم أنظر لهم.

فقال الشامى:فهل أقام لهم من يجمع كلمتهم و يرفع اختلافهم،و يعيّن لهم حقهم من باطلهم؟ قال هشام:نعم.

قال الشامى:من هو؟ قال هشام:أمّا فى ابتداء الشريعة فرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أما بعد النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فغيره.

قال الشامى:و من هو غير النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم القائم مقامه فى حجته.

قال هشام:فى وقتنا هذا أم قبله؟ قال الشامى:بل فى وقتنا هذا.

قال هشام:هذا الجالس-يعنى أبا عبد اللّه عليه السّلام-الذى تشدّ إليه الرحال، و يخبرنا بأخبار السماء،وراثة عن أب عن جدّ.

قال الشامى:و كيف لى بعلم ذلک؟ قال هشام:سله عما بدا لک.

قال الشامى:قطعت عذرى فعلىّ السؤال.

فقال له أبو عبد اللّه عليه السّلام:«أنا أكفيک المسألة يا شامى،أخبرک عن مسيرک و سفرک:خرجت يوم كذا،و كان طريقک كذا،و مررت على كذا،و مرّ بک كذا.

فأقبل الشامی کلما وصف له شیئا من أمره یقول:صدقت و اللّه.ثم قال له الشامی:أسلمت للّه الساعة.فقال له أبو عبد اللّه علیه السّلام:«بل آمنت باللّه الساعة،إن الإسلام قبل الإیمان،و علیه یتوارثون و یتناکحون،و الإیمان علیه یثابون».

قال الشامی:صدقت،فأنا الساعة أشهد أن لا إله إلا اللّه،و أن محمدا رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و أنک وصی الأوصیاء.

قال:و أقبل أبو عبد اللّه علی حمران فقال:«یا حمران تجری الکلام علی الأثر،فتصیب»فالتفت إلی هشام بن سالم فقال«ترید الأثر و لا تعرف»ثم التفت إلی الأحول(مؤمن الطاق)فقال:«قیّاس روّاغ».

ثم التفت إلی قیس الماصر فقال:«تتکلم و أقرب ما تکون من الحق و الخبر عن الرسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم...»و قلیل الحق یکفی من کثیر الباطل،أنت و الأحوال قفازان حاذقان.

قال یونس بن یعقوب:فظننت و اللّه أنه یقول لهشام قریبا مما قال لهما.فقال:

«یا هشام لا تکاد تقع تلوی رجلیک،إذا هممت بالأرض طرت،مثلک فلیکلّم الناس، اتق اللّه الزلّة و الشفاعة من ورائک» (1).

و یتّضح جلیا أن وقوع هذه المناظرة و ما تشتمل علیه من ملاحظات الإمام الصادق علیه السّلام کان فی مبدأ نهوض مدرسة الإمام الصادق بخططها و تنفیذ نهجها، فإن الإشارة إلی عمر هشام تدلّ علی أول خطوات المدرسة علی طریق العمل العلمی و الفکری الشاق.إذ ینبغی أن نتخیل أحوال تلک الفترة و ما اعتری الأمة الإسلامیة علی مختلف المستویات،فإن النهضة العلمیة و النشاط الفکری خلق موجات من الجدل و تیارات من الکلام لم تخضع لحدود،لأن الحکام من العهدین کانوا یشجعون ألوان النشاط الفکری المتعددة لأغراض تتعلق بمصلحتهم،فما ینجم من تفوق الفکر الإسلامی و امتداد الحرکة العلمیة،یدخل فی إهاب دولتهم و ینطبع بطابعهم.و لمّا بدأ الإمام الصادق سیرته الشریفة بعد تولیه الإمامة جرّد کل ما یستطیع لمعالجة ما یعانی من المجتمع الإسلام و ما یتهدد أمة جده المصطفی علیه أفضل الصلاة و السّلام، و باشر المنهج الروحی و الفکری المعروف عن أهل البیت،و وضع له قواعد من العمل

1- (1) الإرشاد للمفید ص 240-243. [1]

و أركانا.و كان من أهم صفات منهج المدرسة و كلما يتعلق بها من وسائل مادية و معنوية هو الاستقلال التام عن السلطة و الابتعاد عن مؤثراتها.فرأسها الإمام الصادق عليه السّلام،و موقف الحكام منه معروف،و موقفه من ظلمهم و بطشهم من أبرز ملامح تاريخ الشيعة فى تلك الفترة.أما رجال هذه المدرسة فهم أنصار أهل البيت، و من عرفوا بالولاء و التضحية فى سبيل التشيّع،فتعاهدهم الإمام بإعداد شامل و توجيه مباشر،حتى يكونوا بمستوى ما يعهد لهم من مهمات و يوكل إليهم من أعمال،و كان نصب عينيه أن يكونوا الأسوة و القادة،و أن يقال عنهم:«رحم اللّه جعفر بن محمد ما أحسن ما أدّب به أصحابه».

و بمرور الأيام،نجد أن رجال المدرسة-أو من سمّيناهم بالهيئة العلمية- يتبوؤن مواقعهم بكفاءة عالية،و تمكن باهر.و لأن الإمام الصادق علم استعداد كل منهم و رعى مواهبهم فوجهها إلى ما يجلو فيها القدرة و يصقل الإمكانية،و نتج من ذلك مجموعة من كبار العلماء الذين خدموا الأمة الإسلامية كمجاهدين تحت عين الإمام الصادق،و عكفوا على حفظ تراثه الفقهى و ثروته العلمية فى كتب ضمّت المسائل و الأحكام و التعاليم و الأحاديث يفتخر بها الفكر الإسلامى،و يعتز بها الشيعة.

و يتباهون،لأن دقائق المسائل و غنى الأحكام و وضوح البراهين و الحجج،و بيان العلل و حكمة التشريع؛تجعل الفقه الجعفرى وعاء العلم الإسلامى،و من الطبيعى جدا أن تأخذ بعض الحكومات بأحكام الفقه الجعفرى لمعالجة بعض المسائل التى تتعلق بأحوال الأفراد لما فيها من رعاية لمصالح الناس و رفع الحرج عنهم،كما فعلت الحكومة المصرية.و كم بين الناس من يلجأ إلى اعتناق المذهب الجعفرى منقادا إلى روح العدل و الصواب.

و القصد،أن تعقيب الإمام الصادق على اتجاه أصحابه فى المحاورة و المناظرة كان على سبيل بلوغ ما يرجوه و ما يسعى إلى تحقيقه بواسطتهم من خلال تبنى المنهج بطرق للحوار و الاستدلال عميقة و مؤثرة.و هو من ناحية أخرى يعدّهم بوصاياه فيقول:

«لا تتكلم فيما لا يعنيك،ودع كثيرا من الكلام فيما يعنيك حتى تجد له موضعا،فربّ متكلّم تكلّم بالحقّ بما يعنيه فى غير موضعه فتعب.و لا تمارينّ سفيها و لا حليما،فإن الحليم يغلبك و السفيه يرديك».

و من أقواله عليه السّلام التى توضّح منهج مدرسته و أسس حركتها العلمية:«دعامة

الإنسان العقل،و بالعقل يكمل،و هو دليله و مبصره و مفتاح أمره».

و يبيّن عليه السّلام أصناف طلبة العلم قائلا:

«طلبة العلم على ثلاثة أصناف،فاعرفهم بأعيانهم و صفاتهم:صنف يطلبه للجهل و المراء،و صنف يطلبه للاستطالة و الختل،و صنف يطلبه للفقه و العقل.

فصاحب الجهل و المراء متعرّض للمقال فى أندية الرجال،يتذاكر العلم و صفة الحلم،قد تسربل بالخشوع،و تخلى عن الورع،فدقّ اللّه من هذه خيشومه.

و صاحب الاستطالة و الختل ذو خب (1)و ملق،يستطيل على مثله من أشباهه، و يتواضع للأغنياء من دونه.

و صاحب الفقه و العقل ذو كآبة و حزن،يعمل و يخشى،وجلا داعيا مشفقا على شأنه،عارفا بأهل زمانه،مستوحشا من أوثق إخوانه».

و مما أوضحه الإمام الصادق عليه السّلام من خصائص منهجه،هو اعتماد العقل مع وجوه ما قام به من حركة علمية و اقتران صفاتها العامة به،و قد كان لذلك أثره فى تجنب المزالق التى يحدثها القياس الذى على الرأى الذى ينزع كثيرا إلى الهوى و الميل.أما العقل فهو من صفات الاكتمال فى شخصية المؤمن،و من مصادر دوام الشرائع و الأحكام.و كبقية القضايا المهمة فى وجود الإنسان المسلم،يعرض الإمام الصادق منزلة العقل:فعن محمد بن سليمان عن أبيه قال:قلت لأبى عبد اللّه الصادق عليه السّلام:فلان من عبادته و دينه و فضله كذا و كذا؟قال:فقال:«كيف عقله؟» فقلت:لا أدرى.فقال:«إن الثواب على قدر العقل.إن رجلا من بنى إسرائيل كان يعبد اللّه عز و جل فى جزيرة من جزائر البحر،خضراء نضرة كثيرة الشجر طاهرة الماء،و إن ملكا من الملائكة مرّ به فقال:يا رب أرنى ثواب عبدك هذا.فأراه اللّه عز و جل ذلك.فاستقله الملك،فأوحى اللّه عز و جل إليه أن أصحبه.فأتاه الملك فى صورة أنسى،فقال له:من أنت؟قال:أنا رجل عابد،بلغنا مكانك و عبادتك بهذا المكان،فجئت لأعبد معك.فكان معه يومه ذلك،فلما أصبح قال له الملك:إن مكانك لنزهة.قال:ليت لربنا حمار لرعيناه فى هذا الموضع،فإن هذا الحشيش

1- (1) الخبّ:الخداع.

يضيع.فقال له الملک:و ما لربک حمار؟فقال:لو کان له حمار ما کان يضيع مثل هذا الحشيش.فأوحی اللّه عز و جل إلی الملک:إنما أثيبه علی قدر عقله» (1).

بهذا المنهج سعی الإمام الصادق إلی إغناء واقع الأمة،و حملها علی الالتزام بالمنهج الإسلامی و السنّة النبوية الشريفة،فقد أثر عن النبی محمد صلّی اللّه عليه و آله و سلّم قوله:«قوام المرء عقله،و لا دين لمن لا عقل له».و قوله صلّی اللّه عليه و آله و سلّم:«سيد الأعمال فی الدارين العقل، و لکل شیء دعامة،و دعامة المؤمن عقله،فبقدر عقله تکون عبادته لربه».

و يوضح الإمام الصادق للناس نعمة العقل قائلا:«إذا أراد اللّه أن يزيل من عبد نعمة کان أول ما يغيّر منه عقله».

و يقول عليه السّلام:«کمال العقل فی ثلاث:التواضع للّه،و حسن اليقين، و الصمت إلا من خير»عليه السّلام و فی مقابله يضع عليه السّلام«الجهل و يقول:الجهل فی ثلاث:الکبر و شدة المراء و الجهل باللّه.فأولئک هم الخاسرون».

و ما يتعلق بالمختصّين من هيئة مدرسته،فإن صياغة أقواله عليه السّلام تفی بالغاية و الغرض فيقول:«يغوص العقل علی الکلام،فيستخرجه من مکنون الصدر،کما يغوص الغائص علی اللؤلؤ المستکنة فی البحر»و إن«العاقل إن کلّم أجاب،و إن نطق أصاب.و إن سمع وعی».

و يقيد الإمام الصادق السلوک المتعلق بالمنهج بالعقل فيقول:«التودّد نصف العقل».و يخاطب رجال مدرسته بأن لا يثقلوا علی الناس،و لا ينفّروهم،و أن يترفّقوا بهم،و يسهّلوا لهم المداخل.و يقول لهم:«فرغّبوا الناس فی دينکم،و فيما أنتم فيه».

و يراجعه الأصحاب فيما يهمّهم من شئون عملهم فی تطبيق المنهج.فعن إسحاق قال:قلت لأبی عبد اللّه عليه السّلام:الرجل آتيه أکلمه ببعض کلامی فيعرفه کله،و منهم من آتيه فأکلمه بالکلام فيستوفی کلامی کله ثم يردّه علیّ کما کلمته، و منهم من آتيه فأکلّمه فيقول:أعد علی؟فقال:«يا إسحاق،أو ما تدری لم هذا؟» قلت:لا.قال«الذی تکلمه ببعض کلامک فيعرف کله،فذاک من عجنت نطفته بعقله.و أما الذی تکلمه،فيستوفی کلامک:ثم يجيبک علی کلامک؛فذاک الذی رکّب عقله فی بطن أمه.و أما الذی تکلمه بالکلام فيقول:أعد علیّ.فذاک الذی رکّب عقله فيه بعد ما کبر.فهو يقول:اعد علیّ».

1- (1) بحار الأنوار للمجلسی ج 1 ص 84. [1]

و يتكفل الإمام الصادق ببيانه و حكمة أقواله إيضاح أهم الخصائص فى خطة العمل و الدعوة فيقول عليه السّلام:«العاقل من كان ذلولا عند إجابة الحق، منصفا بقوله، جموحا عند الباطل، خصما بقوله، يترک دنياه و لا يترک دينه.و دليل العاقل شيئان:

صدق القول و صواب الفعل.و العاقل لا يتحدث بما ينكره العقل،و لا يتعرّض للتهمة،و لا يدع مداراة من ابتلى به،و يكون العلم دليله فى أعماله،و الحلم رفيقه فى أحواله،و المعرفة تعينه فى مذاهبه.و الهوى عدو العقل،و مخالف الحق،و قرين الباطل».

أما إذا أردنا أن نعلم ما هو الطريق إلى تحصيل هذه الملكة،و رعاية هذه النعمة،فإن الإمام الصادق عليه السّلام يجيبنا بوجيز قول و عظيم معنى يغنى عن كل سؤال فيقول:«كثرة النظر فى العلم تفتح العقل».

و لأن الإمام الصادق هو عالم الأمة و صاحب الولاية الشرعية،فقد أقبل عليه الأصحاب فيما يهمّهم و يشغل بالهم،و عرضوا عليه المسائل التى يكثر فيها الجدل، و قصده الكثير للتخلص من الحيرة و الغموض.و كان الإمام الصادق يعلم ما يدور فى زوايا المجتمع من محاورات و أحاديث تسبب ارتباكا و اضطرابا،فانفتح على الناس قائلا:«سلونى قبل أن تفقدونى»فأقبل الناس عليه من مختلف الطبقات و المراتب، و كانوا يجدون عنده علما غزيرا،و خلقا يعجز المرء عن وصفه.لأن شخصية فى علمها و ورعها كشخصية الإمام الصادق لا يقارن بها معاصروه،إنما هناک صور للرعاية الإلهية و الحكمة العليا فى خصال الإمام الصادق عليه السّلام و علمه و تقاه.فحلمه يسع جميع ضروب أهل الأهواء و المقالات و الجدل،و علمه يفيض على كل سائل و طالب علم،حتى فرض على الحذّاق من المتكلمين و الزنادقة و الملحدين و اضطرّهم إلى الإذعان ليشهدوا:(إنه الحليم الرزين العاقل الرصين،لا يعتريه خرق و لا طيش و لا نزف،يسمع كلامنا و يصغى إلينا،و يستعرف حجّتنا،حتى إذا استفرغنا ما عندنا، و ظننا أنا قد قطعناه؛أدحض حجتنا بكلام يسير و خطاب قصير،يلزمنا به الحجة.

و يقطع العذر،و لا نستطيع لجوابه ردا).

سأله أبو حمزة عما يقال من أن اللّه جسم.

فقال عليه السّلام:«سبحان من لا يعلم أحد كيف هو إلاّ هو،ليس كمثله شىء

و هو السميع البصير،لا يحدّ،و لا يحسّ،و لا تدركه الحواس،و لا يحيط به شيء و لا جسم و لا تخطيط و لا تحديد».

و دخل عليه نافع بن الأزرق فقال:يا أبا عبد اللّه،أخبرنى متى كان اللّه؟ فقال عليه السّلام:«متى لم يكن حتى أخبرک متى كان،سبحان من لم يزل و لا يزال فردا صمدا لم يتخذ صحابة و لا ولدا».

و قال ابن أبى يعفور:سألت أبا عبد اللّه عن قول اللّه: هُوَ الْأَوَّلُ وَ الآخِرُ فقلت:أما الأول فقد عرفناه،و أما الآخر فبيّن لنا تفسيره.

فقال عليه السّلام:«إنه ليس شيء يبيد أو يتغير و يدخل التغيير و الزوال و الانتقال من لون إلى لون أو من هيئة إلى هيئة،و من صفة إلى صفة،و من زيادة إلى نقصان،و من نقصان إلى زيادة،إلا ربّ العالمين.فإنه لم يزل و لا يزال بحالة واحدة،و هو الأول قبل كل شيء على ما لم يزل،لا تختلف عليه الصفات و الأسماء» (1).

فإن أردنا التعرف على الآثار اللاحقة فى طرق مناظرة أصحاب الإمام الصادق، و كيف استقرّ ما رعاه الإمام و عمل على تحقيقه فى وسائل الحجاج و طرق محاورة أهل الأهواء و الفرق و الأديان،نلمسها واضحة فى أقوالهم و منطق تعرّضهم.

اجتمع هشام بن الحكم فى إحدى رحلاته إلى البصرة بعمرو بن عبيد المتوفى سنة 144 ه و هو من شيوخ المعتزلة،و تناظرا فى الإمامة.و كان عمرو يذهب إلى أن الإمامة اختيار من الأمة فى سائر الأعصار.و هشام يذهب إلى أنها نص من اللّه و رسوله على على بن أبى طالب و على من يلى عصره من ولده الطاهرين.

فقال هشام لعمرو بن عبيد:أ ليس قد جعل لک عينين.

قال:بلى.

قال:و لم؟ قال:لأنظر بهما فى ملكوت السماوات و الأرض فأعتبر.

قال:فلم جعل لک سمعا؟ قال:لأسمع به التحليل و التحريم و الأمر و النهى.

1- (1) الفصول المهمة للحر العاملى. [1]

قال:فلم جعل لک فما؟ قال:لأذوق المطعوم،و أجیب الداعی.

ثم عدّد الحواس کلها.

قال:و لم جعل لک قلبا؟ قال:لتؤدی إلیه الحواس ما أدرکته،فیمیّز بین مضارّها و منافعها.

قال هشام:فکان یجوز أن یخلق اللّه سائر حواسک،و لا یخلق لک قلبا تؤدی هذه الحواس إلیه؟ قال عمرو:لا.

قال:و لم؟ قال:لأن القلب باعث لهذه الحواس علی ما یصلح لها.

فقال هشام:یا أبا مروان-یعنی عمرو-إن اللّه تبارک و تعالی لم یترک جوارحک حتی جعل لها إماما یصحّح لها الصحیح،و یترک هذا الخلق کله لا یقیم لهم إماما یرجعون إلیه؟! قال المسعودی:فتحیّر عمرو،و لم یأت بفرق یعرف (1).

و عن الإمام موسی بن جعفر علیهما السّلام قال:دخل عمرو بن عبید البصری علی أبی عبد اللّه علیه السّلام فلمّا سلّم و جلس عنده تلا هذه الآیة قوله تعالی: اَلَّذِینَ یَجْتَنِبُونَ کَبائِرَ الْإِثْمِ وَ الْفَواحِشَ ثم أمسک عنه،فقال أبو عبد اللّه«ما أسکتک؟»قال:أحب أن أعرف الکبائر من کتاب اللّه.فقال:«نعم یا عمرو،أکبر الکبائر الشرک باللّه،یقول اللّه تبارک و تعالی: إِنَّهُ مَنْ یُشْرِکْ بِاللّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللّهُ عَلَیْهِ الْجَنَّةَ وَ مَأْواهُ النّارُ و بعده الأیاس من روح اللّه،لأن اللّه تعالی یقول: وَ لا تَیْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللّهِ إِنَّهُ لا یَیْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْکافِرُونَ و الأمن من مکر اللّه،لأن اللّه یقول: فَلا یَأْمَنُ مَکْرَ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخاسِرُونَ و منها عقوق الوالدین،لأن اللّه تعالی جعل العاق جبارا شقیا.و قتل النفس التی حرّم اللّه إلا بالحقّ لأن اللّه تعالی یقول: فَجَزاؤُهُ جَهَنَّمُ خالِداً فِیها و قذف المحصنات،لأن اللّه تعالی یقول: اَلَّذِینَ یَرْمُونَ الْمُحْصَناتِ الْغافِلاتِ الْمُؤْمِناتِ إلی قوله: لُعِنُوا فِی الدُّنْیا وَ الآخِرَةِ وَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِیمٌ و أکل مال الیتیم ظلما لقوله تعالی: إِنَّ الَّذِینَ یَأْکُلُونَ أَمْوالَ الْیَتامی ظُلْماً

1- (1) مروج الذهب ج 4 ص 55.و علل الشرائع للصدوق ص 194.و احتجاج الطبرسی ص 200. و أمالی المرتضی و غیرها.

إِنَّما يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ ناراً وَ سَيَصْلَوْنَ سَعِيراً و الفرار من الزحف،لأن اللّه تعالى يقول:

وَ مَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاّ مُتَحَرِّفاً لِقِتالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلى فِئَةٍ فَقَدْ باءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللّهِ وَ مَأْواهُ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ و أكل الربا:لأن اللّه عز و جل يقول: اَلَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبا لا يَقُومُونَ إِلاّ كَما يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطانُ مِنَ الْمَسِّ و السحر لأن اللّه تعالى يقول:

وَ مَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ يَلْقَ أَثاماً يُضاعَفْ لَهُ الْعَذابُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ يَخْلُدْ فِيهِ مُهاناً. إِلاّ مَنْ تابَ و اليمين الغموس،لأن اللّه عز و جل يقول: إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللّهِ وَ أَيْمانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً أُولئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ و الغلول،يقول اللّه عز و جل: وَ مَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِما غَلَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ و منع الزكاة المفروضة،لأن اللّه تعالى يقول: فَتُكْوى بِها جِباهُهُمْ وَ جُنُوبُهُمْ و شهادة الزور و كتمان الشهادة،لأن اللّه عز و جل يقول: وَ مَنْ يَكْتُمْها فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ و شرب الخمر،لأن اللّه عز و جل عدل بها عبادة الأوثان.و ترک الصلاة متعمدا،فقد برىء من ذمة اللّه و ذمة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و نقض العهد.و قطيعة الرحم،لأن اللّه عز و جل يقول:

أُولئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَ لَهُمْ سُوءُ الدّارِ .

قال:فخرج عمرو،و له صراخ من بكائه،و هو يقول:هلک من قال برأيه و نازعكم فى الفضل و العلم.

و عن أبى مالک الأحمسى قال:خرج الضحّاک الشارى(الخارجى)بالكوفة فحكم و تسمّى بإمرة المؤمنين،و دعى الناس إلى نفسه.

فأتاه مؤمن الطاق.فلما رأته الشراة وثبوا فى وجهه،فقال لهم:جانح.فأتوا به صاحبهم،فقال له مؤمن الطاق:أنا رجل على بصيرة من دينى،فأحببت الدخول معكم.

فقال الضحّاک لأصحابه:إن دخل هذا معكم نفعكم.ثم أقبل مؤمن الطاق على الضحّاک فقال:لم تبرأتم من على بن أبى طالب،و استحللتم قتله و قتاله؟ قال الضحّاک:لأنه حكم فى دين اللّه.

قال مؤمن الطاق:و كل من حكم فى دين اللّه استحللتم دمه و قتاله و البراءة منه؟ قال:نعم.

قال:فأخبرنى عن الدين الذى جئت أناظرک عليه،لأدخل معک إن غلبت حجتى حجتک أو حجتک حجتى،من يوقف المخطئ على خطأه و يحكم للمصيب

بصوابه؟فلا بد لنا من إنسان يحكم بيننا،فأشار الضحّاک إلى رجل من أصحابه و قال:

هذا الحكم بيننا،فهو عالم بالدين.

قال مؤمن الطاق:و قد حكّمت هذا فى الدين الذى جئت أناظرک فيه؟قال:

نعم.فأقبل مؤمن الطاق على أصحاب الضحّاک فقال:إن صاحبكم قد حكّم فى دين اللّه فشأنكم به.فاختلف أصحابه و أسكتوه،و خرج مؤمن الطاق منتصرا (1).

و كنا فى الأصل قد خصصنا لحملة الإمام الصادق على الغلاة جزءا من هذا الفصل،غير أننا وجدنا أن البحث قد يطول و يتعدّى حدود ما نرجو له من عدم التكرار،و اكتفينا بما سبق من بحث لمشكلة الغلاة،و ما قام به الإمام الصادق من دحض لأقوالهم و فضح لمعتقداتهم،و فيه غنى و بيان واف لمنهج الإمام فى ذلک،و قد كان جهده عليه السّلام فى هذا المجال مصحوبا بآلام نفسية.فهو يواجه أعداء تلبّسوا بروابط و ادّعاءات،و وجد نفسه عليه السّلام هو و آباءه الكرام غاية أولئک الكفرة و غرض مسعاهم.

قلنا إن عصر الإمام الصادق شهد تيارات من الألحاد و الزندقة و غيرها،و قد كانت حركة الزندقة ذات خطر شديد،لأنها عبارة عن تنظيم اجتمع فيه حذّاق الكلام و الخائضون فى المقالات و المذاهب،و وضعوا لأنفسهم خطة لإفساد العقائد،و زرع الشكوک فى نفوس المؤمنين.و قد لفتت شخصية الإمام الصادق انتباههم و راحوا فى مناسبات عديدة يقصدونه و هم على كفرهم،فيخرجون مقطوعين مدحورين.

و كان من أبرز قادتهم ابن أبى العوجاء (2)و قد أشرنا إليه فى أكثر من مورد سابقا و فى أجزاء الكتاب السابقة.و قد اجتمع مرّة هو و نفر من الزنادقة منهم:ابن طالوت، و ابن الأعمى،و ابن المقفع فى الموسم بالمسجد الحرام،و كان الإمام الصادق فيه إذ ذاک يفتى الناس،و يفسّر لهم القرآن،و يجيب عن المسائل بالحجج و البينات.فقال القوم لابن أبى العوجاء:هل لک فى تغليط هذا الجالس،و سؤاله عما يفضحه عند

1- (1) انظر:رجال الكشى.و [1]مناقب ابن شهر أشوب المازندرانى.

2- (2) يذكر الشيخ الصدوق أن ابن أبى العوجاء دخل مكة تمرّدا و إنكارا على من يحجّ،و كان يكره العلماء مسائلته إياهم و مجالسته لهم لخبث لسانه و فساد سريرته.

هؤلاء المحيطين به،فقد ترى فتنة الناس به،و هو علاّمة زمانه.

فقال لهم ابن أبى العوجاء:نعم.ثم تقدم،ففرّق الناس،فقال:يا أبا عبد اللّه إن المجالس أمانات،و لا بد لكل من كان به سعال أن يسعل،أ فتأذن لى فى السؤال؟ فقال له أبو عبد اللّه عليه السّلام:«سل إن شئت».

فقال له ابن أبى العوجاء:إلى كم تدرسون هذا البيدر،و تلوذون بهذا الحجر، و تعبدون هذا البيت المرفوع بالطوب و المدر،و تهرولون حوله هرولة البعير إذا نفر؟ من فكر فى هذا أو قدّر،علم أنه فعل غير حكيم و لا ذى نظر،فقل فإنك رأس هذا الأمر و سنامه،و أبوك أسّه و نظامه.

فقال له الصادق عليه السّلام:«إن من أضلّه اللّه و أعمى قلبه استوخم الحق فلم يستعذبه،و صار الشيطان وليّه و ربّه،يورده مناهل الهلكة و لا يصدره،و هذا بيت استعبد اللّه به خلقه ليختبر طاعتهم فى إتيانه،فحثّهم على تعظيمه و زيارته،و جعله قبلة للمصلين له،فهو شعبة من رضوانه،و طريق يؤدى إلى غفرانه،منصوب على استواء الكمال و مجمع العظمة و الجلال،خلقه اللّه تعالى قبل دحو الأرض بألفى عام،فأحق من أطيع فيما أمر،و انتهى عما زجر اللّه المنشئ للأرواح و الصور».

فقال له ابن أبى العوجاء:ذكرت يا أبا عبد اللّه،فأحلت على غائب.

فقال الإمام الصادق عليه السّلام:«كيف يكون يا ويلك غائبا من هو مع خلقه شاهد،و إليهم أقرب من حبل الوريد،يسمع كلامهم،و يعلم أسرارهم،لا يخلو منه مكان،و لا يشتغل به مكان،و لا يكون له مكان أقرب من مكان،تشهد له بذلك آثاره،و تدل عليه أفعاله.و الذى بعثه بالآيات المحكمة و البراهين الواضحة محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم جاءنا بهذه العبادة،فإن شككت فى شىء من أمره فاسأل عنه أوضحه لك.

فأبلس ابن أبى العوجاء،و لم يدر ما يقول،فانصرف من بين يديه.فقال لأصحابه:سألتكم أن تلتمسوا لى خمرة،فألقيتمونى على جمرة.

قالوا له:أسكت،فو اللّه لقد فضحتنا بحيرتك و انقطاعك،و ما رأينا أحقر منك اليوم فى مجلسه.

فقال لهم:ألى تقولون هذا؟إنه ابن من حلق رءوس من ترون،و أومأ إلى أهل

الموسم (1).

و فی روایة الطبرسی زیادة:أن ابن أبی العوجاء قال:فهو فی کل مکان؟أ لیس إذا کان فی السماء کیف یکون فی الأرض؟و إذا کان فی الأرض کیف یکون فی السماء؟فقال الإمام الصادق علیه السّلام:«إنما وصفت المخلوق الذی إذا انتقل من مکان اشتغل به مکان،و خلا منه مکان،فلا یدری فی المکان الذی صار إلیه ما حدث فی المکان الذی کان فیه.فأما اللّه العظیم الشأن،الملک الدیّان،فلا یخلو منه مکان،و لا یشتغل به مکان،و لا یکون إلی مکان أقرب منه إلی مکان».

و عن هشام بن الحکم قال:کان زندیق بمصر یبلغه عن أبی عبد اللّه علیه السّلام علم،فخرج إلی المدینة لیناظره.فلم یصادفه بها.و قیل:هو بمکة.فخرج إلی مکة و نحن مع أبی عبد اللّه علیه السّلام فانتهی إلیه-و هو فی الطواف-فدنا منه و سلّم.

فقال له أبو عبد اللّه:«ما اسمک؟» قال:عبد الملک.

قال:«فما کنیتک؟» قال:أبو عبد اللّه.

قال أبو عبد اللّه علیه السّلام:«فمن ذا الملک الذی أنت عبده،أمن ملوک الأرض أم من ملوک السماء؟و أخبرنی عن ابنک أعبد إله السماء،أم عبد إله الأرض؟» فسکت.

فقال أبو عبد اللّه:«قل».فسکت.

فقال:«إذا فرغت من الطواف فأتنا».فلما فرغ أبو عبد اللّه علیه السّلام من الطواف أتاه الزندیق.فقعد بین یدیه،و نحن مجتمعون عنده،فقال أبو عبد اللّه علیه السّلام:

«أ تعلم أن للأرض تحتا و فوقا؟».

فقال:نعم.

قال:«فدخلت تحتها؟».

قال:لا.

قال:«فهل تدری ما تحتها؟».

1- (1) علل الشرائع.و الإرشاد.و الاحتجاج. [1]

قال:لا أدرى،إلا أنى أظن أن ليس تحتها شىء.

فقال أبو عبد اللّه:«فالظن عجز ما لم تستيقن».ثم قال له:«فصعدت إلى السماء؟».

قال:لا.

قال:«أ فتدرى ما فيها؟».

قال:لا.

قال:«فالعجب لک،لم تبلغ المشرق،و لم تبلغ المغرب،و لم تنزل تحت الأرض،و لم تصعد إلى السماء،و لم تخبر ما هناک فتعرف ما خلفهن،و أنت جاحد بما فيهن،و هل يحجد العاقل ما لا يعرف؟».

فقال الزنديق:ما كلمنى بهذا غيرک.

قال أبو عبد اللّه عليه السّلام:«فأنت من ذلک فى شک،فلعل هو،و لعل ليس هو».

قال:و لعل ذلک.

فقال أبو عبد اللّه عليه السّلام:«أيها الرجل،ليس لمن لا يعلم حجة على من يعلم،و لا حجة للجاهل على العالم.يا أخا أهل مصر،تفهّم عنّى،أ ما ترى الشمس و القمر و الليل و النهار يلجان و لا يستبقان،يذهبان و يرجعان،قد اضطرا ليس لهما مكان إلا مكانهما،فإن كانا يقدران على أن يذهبا فلم يرجعان؟و إن كانا غير مضطرين فلم لا يصير الليل نهارا و النهار ليلا؟اضطرا و اللّه يا أخا مصر،أن الذى تذهبون إليه و تظنون من الدهر،فإن كان هو يذهبهم فلم يردّهم؟و إن كان يردّهم فلم يذهب بهم؟ أ ما ترى السماء مرفوعة،و الأرض موضوعة،لا تسقط السماء على الأرض،و لا تنحدر الأرض فوق ما تحتها،أمسكها و اللّه خالقها و مدبّرها».

قال:فآمن الزنديق على يدى أبى عبد اللّه.فقال عليه السّلام:«هشام خذه إليک و علّمه».

و من الزنادقة الذين تظهر أسماؤهم كثيرا غير ابن أبى العوجاء هو:أبو شاكر الديصانى.منها ما يرويه الطبرسى و الشيخ المفيد:أنه دخل مرة على أبى عبد اللّه و قال:يا جعفر بن محمد دلّنى على معبودى.

فقال أبو عبد اللّه عليه السّلام:«اجلس.من أقرب الدليل على ذلک ما أظهره.لک ثم دعى ببيضة،فوضعها فى راحته،فقال أبو عبد اللّه:«يا ديصانى،هذا حصن

مکنون،له جلـد غلیظ،و تحت الجلـد الغلیظ جلـد رقیق،و تحت الجلـد الرقیق ذهبـة مائعة،و فضة ذائبة.فلا الذهبة المائعة تختلط بالفضـة الذائبة،و لا الفضة الذائبة تختلط بالذهبة المائعة،فهی علی حالها،لا یخرج منها خارج مصـلح،فیخبر عن صـلاحها، و لا یدخل إلیها داخل مفسد فیخبر عن فسادها.لا یدری للذکر خلقت أم للأنثی، تنفلق عن مثل ألوان الطواویس.أ تری له مدبرا؟».

قال:فأطرق ملیا ثم قال:أشـهد أن لا إله إلا اللّه،وحده لا شریک له،و أشهد أن محمدا عبده و رسوله،و أنک إمام و حجة من اللّه علی خلقه،و أنا تائب مما کنت فیه.

و ما دمنا لا نقصـد الإحاطـة بکل ما جری بین الإمام الصادق و بین حرکة الزنادقة، فإنها من الکثرة و السـعة بحیث یضـیق بها ما خصصـناه لموضوع البحث فی منهج الإمام الصادق و منشأ مدرسته الفکریة؛فإننا نکتفی بهذا القدر و هی مبسوطة فی مظانها.

و یتجه منهـج الإمـام الصادق إلی المسألـة الثانیـة بعـد التوحیـد و الاسـتدلال علی وجود الخالق فی مواجهـة شـکوک الملحـدین و أقوال الزنادقة،و هی مسألة الإمامة،أو السلطة الروحیة،فیقول علیه السّلام:

«نحن نزعم أن الأـرض لاـ تخلو من حجـة،و لا تکون الحجـة إلا من عقب الأنبیاء.ما بعث اللّه نبیا قط من غیر نسل الأنبیاء،و ذلک أن اللّه شرع لبنی آدم طریقـا منیرا،و أخرج مـن آدم نسـلا طـاهرا طیبـا،أخرج منـه الأنبیـاء و الرسـل هـم صـفوة اللّـه و خلّص الجـوهر،طهروا فی الأصـلاب،و حفظوا فی الأرحام،لم یصبهم سفاح الجاهلیة و لا شاب أنسابهم،لأن اللّه عز و جل جعلهم فی موضع لا یکون أعلی درجة و شرفا منه.فمن کان خازن علم اللّه و أمین غیبه و مسـتودع سـره و حجته علی خلقه و ترجمانه و لسانه،لا یکون إلا بهـذه الصـفة.و الحجة لا یکون إلا من نسـلهم،یقوم مقام النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی الخلق بالعلم الذی عنده و ورثه عن الرسول.إن جحده الناس سکت،و کـان بقـاء مـا علیه النـاس قلیلا مما فی أیـدیهم من علم الرسول علی اختلاف منهم فیه،قـد أقاموا بینهم الرأی و القیاس.و إنهم إن أقرّوا به و أطـاعوه و أخـذوا عنه، ظهر العـدل و ذهب الاختلاـف و التشاجر،و اسـتوی الأمر و أبان الـدین،و غلب علی الشک الیقین.و لا یکاد أن یقرّ الناس به و لا یطیعوا له أو یحفظوا له بعد فقد الرسول.

و ما مضى رسول و لا نبى قط لم يختلف أمته من بعده.و إنما كان علة اختلافهم على الحجة و تركهم إياه».

قال:فما يصنع بالحجة إذا كان بهذه الصفة؟ قال:«قد يقتدى به و يخرج عنه الشيء بعد الشيء مكانه منفعة الخلق و صلاحهم،فإن أحدثوا فى دين اللّه شيئا أعلمهم،و إن زادوا فيه أخبرهم،و إن نفدوا منه شيئا أفادهم..»ا ه.

تلك هى قاعدة المنهج و أصل الدعوة،و هى محفوفة بالصعاب و العوائق،و ما يسّره اللّه له من علم و زوّده به من رفعة و خصال،و ما اختصه به من مزايا الإمامة،كافية لقيام الحجة بالأمر و ظهورها فى الواقع،لكن سبيلها وعر،و قد امتلأت الآفاق بالأخطار و أحاطت الصعاب سيرة الإمام من كل الجهات،و لذلك فإن الرسالة بغاية الصعوبة،و قد أشار الإمام الصادق مرارا إلى المصاعب التى تكتنفه،و إلى ما يحيط بالدعوة.روى المفضل بن عمر أن الإمام الصادق قال:

«إن أمرنا صعب مستصعب لا يحتمله إلاّ:صدور مشرقة،و قلوب منيرة، و أفئدة سليمة،و أخلاق حسنة.لأن اللّه تعالى قد أخذ على محبّنا الميثاق،فمن وفى لنا؛و فى اللّه له بالجنة،و من أبغضنا و لم يؤدّ إلينا حقّنا فهو فى النار،و إنّ عندنا سرّا من اللّه ما كلف اللّه أحدا غيرنا ذلك.ثم أمرنا بتبليغه،فبلّغناه،فلم نجد له أهلا و لا موضعا و لا حملة يحملونه،حتى خلق اللّه لذلك قوما خلقوا من طينة محمد و ذريته صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و من نورهم،صنعهم اللّه بفضل صنع رحمة،فبلّغناهم عن اللّه ما أمرنا، فقبلوه و احتملوا ذلك و لم تضطرب قلوبهم،و مالت أرواحهم إلى معرفتنا و سرّنا، و البحث عن أمرنا.

و إن اللّه خلق أقواما للنار،و أمرنا أن نبلّغهم ذلك،فبلغناهم،فاشمأزّت قلوبهم منه،فنفزوا عنه،و ردّوه علينا،و لم يحتملوه،و كذّبوا به،و طبع اللّه على قلوبهم؛ ثم أطلق ألسنتهم ببعض الحق،فهم ينطقون به لفظا،و قلوبهم منكرة له...»ا ه.

و ينبط عليه السّلام أغلب مناظراته و أقواله التى تنعكس عن منهجه بهذا المقصد، فعند ما يتحدث عليه السّلام عن التفاضل بالتقوى،و أن ولد آدم كلهم سواء فى الأصل،و يردّ على أقوال من يتحرّى مظانّ التدافع و شبه الوهن كما يوهمه الشيطان،يقول عليه السّلام:

«نعم،إنى وجدت أصل الخلق التراب،و الأب آدم،و الأم حواء،خلقهم إله

واحـد،و هم عبيـده.إن اللّه عز و جـل اختـار من ولـد آدم أناسـا طهّر ميلادهم،و طيّب أبـدانهم،و حفظهم فى أصـلاب الرجـال و أرحـام النساء،أخرج منهم الأنبياء و الرسل فهم أزكى فروع آدم،فعل ذلک لأمر اسـتحقوه من اللّه عز و جل،و لكن علم اللّه منهم حين ذرأهم أنهم يطيعونه و يعبـدونه و لا يشـركون به شـيئا،فهؤلاء بالطاعة نالوا من اللّه الكرامة و المنزلة الرفيعة عنده،و هؤلاء الذين لهم الشـرف و الفضل و الحسب.و ساير الناس سواء،إلا من أتقى اللّه أكرمه،و من أطاعه أحبه،و من أحبه لم يعذبه بالنار».

و توحى النظرة فى حدود مدرسة الإمام الصادق و ضروب مساعى أصحابه، باستقرار الأمر و استتباب الحال،لأن مظاهر العمل تجرى بنظام واسع حتى كأن الحكام لا وجود لهم.و ذلک ما يدعو إلى التأمل فى سرّ هذه القوة،و إلى التفكر- لمن يراودهم الشک-فى أصل هذه القدرة و قيامها كسـلطة قواعـدها فى القلوب و الصـدور،و تعتمـد تسديـد اللّه لها و تأييـده،و تضع سـياساتها فى مجال الطاعـة و العبودية للخالق الواحـد.و قد تقدّم كثير من الموارد فى ما مضـى من الكتاب عن الحالات التى كان سـلاح الإمام الصادق فيها هو اللجوء إلى اللّه و التوكل عليه.و قد جعل الإمام الصادق ذلک من أهم مكوّنات منهجه،فيقول لبعض أصـحابه:«إذا خفت امرأ يكون، أو حاجة تريدها،فابدأ باللّه عز و جل،فمجّـده،واثن عليه كما هو أهله،و صلّ على النبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم و اسأل حاجتک،و تباک و لو مثل رأس الـذباب،إن أبى عليه السّلام كان يقول:

إن أقرب ما يكون العبد من الربّ عز و جل و هو ساجد باک» (1).

و سـئل عليه السّـلام:مـا العلّـة التى من أجلهـا لا يصـلى الرجـل و هو متوشـح فوق القميص؟فقال عليه السّـلام:«لعله التكبر فى موضـع الاستكانة».

أما الغرض ذاته،فإن الإمام الصادق يصف واجباته بشرح يدخل فى عوالم العبودية للّه التى تؤدى إلى إشعار المؤمن بالقوة و التفوق فى وسط ذلک الخضمّ من الأحداث.

ففى الركوع يقول عليه السّـلام:«لا يركع عبـد اللّه ركوعا على الحقيقة؛إلاّ زيّنه اللّه بنور بهائه،و أظلّه فى ظل كبريائه،و كساه كسوة أصـفيائه.و الركوع أول،و السـجود ثـان،فمن أتى بمعنى الأول صـلح للثـانى.و فى الركوع أدب،و فى السـجود قرب، و من لا يحسن الأدب لا يصـلح للقرب،فاركع ركوع خاشع للّه عز و جل بقلبه،متذلل

1- (1) جواهر الكلام ج 11 ص 73. [1]

و جل تحت سلطانه، خافض له بجوارحه خفض خائف حزن على ما يفوته من فائدة الراكعين».

و فى السجود يقول عليه السّلام:

«ما خسر و اللّه تعالى قط من أتى بحقيقة السجود و لو كان فى العمر مرة واحدة، و ما أفلح من خلا بربه فى مثل ذلک الحال شبيها بمخادع نفسه، غافل لاه عمّا أعدّ اللّه تعالى للساجدين من أنس العاجل و راحة الآجل، و لا بعد عن اللّه تعالى أبدا من أحسن تقرّبه فى السجود، و لا قرب إليه أبدا من أساء أدبه و ضيّع حرمته بتعليق قلبه بسواه فى حال سجوده. فاسجد سجود متواضع للّه ذليل، علم أنه خلق من تراب يطأه الخلق، و أنه ركّب من نطفة يستقذرها كل أحد، و كوّن و لم يكن. و قد جعل اللّه معنى السجود سبب التقرب إليه بالقلب و السرّ و الروح، فمن قرب منه بعد من غيره. أ لا ترى فى الظاهر أنه لا يستوى حال السجود إلا بالتوارى عن جميع الأشياء، و الاحتجاب عن كل ما تراه العيون. كذلک أراد اللّه تعالى أمر الباطن، فمن كان قلبه متعلقا فى صلاته بشىء دون اللّه فهو قريب من ذلک الشىء، بعيد عن حقيقة ما أراد اللّه منه فى صلاته.

قال اللّه تعالى: ما جَعَلَ اللّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِ و قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «قال اللّه عز و جل ما اطّلع على قلب عبد فأعلم فيه حبّ الإخلاص لطاعتى لوجهى و ابتغاء مرضاتى، إلاّ تولّيت تقويمه و سياسته. و من اشتغل فى صلاته بغيرى فهو من المستهزئين بنفسه، و اسمه مكتوب فى ديوان الخاسرين».

أما التشهد فى الصلاة فيصفه عليه السّلام:

«التشهد ثناء على اللّه، فكن عبدا له فى السرّ، خاضعا له فى الفعل، كما أنک عبد له فى القول و الدعوى. و صل صدق لسانک بصفاء صدق سرّک، فإنه خلقک عبدا، و أمرک أن تعبده بقلبک و لسانک و جوارحک، و أن تحقق عبوديتک له و ربوبيته لک، و تعلم أن نواصى الخلق بيده، فليس لهم نفس و لا لحظة إلا بقدرته و مشيّته، و هم عاجزون عن إتيان أقل شىء فى مملكته إلا بإذنه و إرادته. قال اللّه عز و جل:

وَ رَبُّکَ يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَ يَخْتارُ ما كانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحانَ اللّهِ وَ تَعالى عَمّا يُشْرِكُونَ فكن للّه عبدا شاكرا بالقول و الدعوى، و صل صدق لسانک بصفاء سرّک، فإنه خلقک، فعزّ و جلّ أن تكون إرادة و مشية لأحد إلا بسابق إرادته و مشيته، فاستعمل العبودية فى الرضا بحكمته، و بالعبادة فى أداء أوامره. و قد أمرک بالصلاة على حبيبه محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فأوصل

صلاته بصلاته،و طاعته بطاعته،و شهادته بشهادته.و انظر ألاّ تفوتک برکات معرفة، حرمته فتحرم عن فائدة صلاته.و أمره بالاستغفار لک و الشفاعة فیک إن أتیت بالواجب فی الأمر و النهی و السنن و الآداب،و تعلم جلیل مرتبته عند اللّه عز و جل».

و قبل أن نأتی إلی التسلیم أو استقبال القبلة،فإن ما یطلع علیه المؤمن فی عالم العبودیة من وجوه الحریة و مظاهر العزّة و أسباب القوة،و ما یراه فی دنیا الطاعة من أشکال النفع و عوامل السیادة،و بواسطة بیان الإمام الصادق و بنائه اللغوی و صیاغته البلاغیة،یلمس المسلم فی ظل الظرف أن عالم الإمامة و منهج الحجة هو الطریق إلی الصمیم و الغور،و أن عالم السلطان و سیاسة خلفاء الزمان هو فی الشکل و المظهر، و الأول فیه من القوة و المنعة ما یکسر السیوف،و یبطل مکاید الحکام،لأنه متصل باللّه و متعلق بهداه.

و لهذا رأینا الإمام الصادق-کما فی روایة عمّار الساباطی-ینهی أن یتوشّح الإمام.و فی روایة أخری عن الهیثم بن واقد أن الإمام قال:«إنما کره التوشّح فوق القمیص لأنه من فعل الجبابرة».

و أی مؤمن مسلم یستغنی علی مرّ الدهور عن أضواء الصادق علیه السّلام؟و هو یقود الألباب،و یوجه النفوس إلی عوالم الإسلام و روحانیة الرسالة المحمدیة التی استملی منها قواعد منهجه،و استمد من بهائها لوائح نهجه.و ما أوردناه متعلق بالأجزاء القلیلة التی اخترناها،أما غیرها من أقوال الإمام الصادق فهی من السعة و الکثرة بحیث قامت علیها أصول کتب الفقه الشیعی،و أغنت مصنّفات علمائهم عبر المئات من السنین،و ضمّت أبواب الصلاة بیان علل الأرکان و الرکعات و الأحکام المتعلقة بها،و ما إلیها من مستحبات و مبطلات،و کافة المسائل المتعلقة بها مما یحمل المسلم إلی بحر زخّار بالعلم و الهدایة.

فی التسلیم یقول الإمام الصادق علیه السّلام:

«معنی التسلیم فی دبر کل صلاة:الأمان،أی من أتی أمر اللّه و سنّة نبیه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم خاضعا له خاشعا منه؛فله الأمان من بلاء الدنیا،و البراءة من عذاب الآخرة.و السّلام اسم من أسماء اللّه تعالی،أودعه خلقه لیستعملوا معناه فی المعاملات و الأمانات، و تصدیق مصاحبتهم فیما بینهم،و صحة معاشرتهم.فإن أردت أن تضع السّلام

موضعه،و تؤدی معناه،فاتق اللّه تعالی لیسلم منک دینک و قلبک و عقلک،ألاّ تدنسها بظلمة المعاصی.و لتسلم منک حفظتک ألا تبرمهم و تملّهم و توحشهم منک بسوء معاملتک معهم،ثم مع صدیقک،ثم مع عدوک.فإن من لم یسلم منه من هو الأقرب إلیه فالأبعد أولی،و من لا یضع السّلام مواضعه فلا سلام و لا إسلام و لا تسلیم،و کان کاذبا فی سلامه و إن أفشاه فی الخلق».

أما الاستقبال،فإن الإمام الصادق یجعله خروجا من مشاغل الدنیا و همومها، و تطلّعا إلی عالم اللّه:«إذا استقبلت القبلة فآیس من الدنیا و ما فیها،و الخلق و ما هم فیه،و استفرغ قلبک من کل شاغل یشغلک عن اللّه تعالی،و عاین بسرّک عظمة اللّه عز و جل،و اذکر وقوفک بین یدیه،قال اللّه تعالی: هُنالِکَ تَبْلُوا کُلُّ نَفْسٍ ما أَسْلَفَتْ وَ رُدُّوا إِلَی اللّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ وقف علی قدم الخوف و الرجاء».

إذا من المکوّنات الأساسیة للمدرسة و المنهج هو العمل علی الطاعة،و الدخول إلی عالم العبودیة المطلقة للّه،و فی ذلک سرّ هذا التکامل فی المنهج و القوة فی الموقف إذا نظرت إلی ذلک العصر بنظرة العموم،من حیث أن الدنیا موضع ابتلاء لامتلائها بالمفاسد و الأهواء التی لها سلطان علی الأنفس فی کل الأحوال،إلاّ من رحم اللّه،فقاده إلی الإیمان و هداه إلی الحجة.أما إذا نظرت إلی العصر بخصائصه و أحواله،فهو ملئ بالأحداث کما رأیت،فإن وضعنا مدرسة الإمام الصادق وسط هذه الأحداث،وجدنا أن المدرسة فی معرکة لا تهدأ،و جهاد لا یفتر.و قد جلبت شهرة الإمام الصادق و شیوع ذکره أفرادا من الناس لهم أغراض مختلفة،فمنهم الباحث عن الحق الذی یرجوه لشفاء نفسه مما ألم بها لتعرّضها إلی الأفکار و الأقوال التی یموج بها المجتمع،و منهم المتبحّر فی علوم الکلام و فنون الفکر و مذاهب الأولین،و منهم الملحد الزندیق،إلی غیرهم من الأصناف.و الکثیر منهم یتّصل بفرقة و ینتمی إلی مذهب،فالحروریة و غیرها ما زالت فی ثنایا المجتمع تعمل بفسادها، و العثمانیة و نحوها موغلة فی جسم الأمة بعنادها،و المعتزلة و أصنافها متسابقة فی المضمار ساعیة إلی الانتصار،و الجبریة و سلطانها تؤثر فی النفوس بأفکارها.

و قد مرّ بنا ذکر أغلبها فی معرض أقوال الإمام الصادق و أجوبته،أو مناظرات أصحابه،و حصرنا علاقة الإمام الصادق بالمعتزلة فی أجواء هذا العصر بالجانب الذی یتعلق بموقف الإمام الصادق من الحکام و الظلم کما سیأتی.أما أقوالهم الأخری

و أهمها:أن الإنسان يخلق أعماله،و أن ليس للّه فی ذلک صنع أو تقدیر.و یقابلهم الجبریة الذین ینفون قدرة الإنسان،و یضیفون الفعل إلی اللّه حقیقة و إضافة.

ففی وسط احتدام الجدل فی ذلک،و تحکّم العناد و الانفعال،قال الإمام الصادق مقالة الحق التی تقوم علی حقائق التنزیل و دلائل الواقع،فقال علیه السّلام:«لا جبر و لا تفویض.لأن اللّه أعدل من أن یجبرهم علی المعاصی ثم یعذّبهم علیها».

و کان ذلک فی مبدأ ظهور الجدل فی هذه المسألة،و بقی قوله علیه السّلام قاعدة ثابتة و عقیدة راسخة.فالإمام علی بن موسی الرضا عند ما یسأل عن قول جدّه الصادق علیه السّلام و ما معناه؟یقول الرضا:«من زعم أن اللّه عزّ و جل فعل أفعالنا،ثم یعذبنا علیها؛فقد قال بالجبر.و من زعم أن اللّه عزّ و جل فوّض أمر الخلق و الرزق إلی حججه؛فقد قال بالتفویض.فالقائل بالجبر کافر،و القائل بالتفویض مشرک» (1).

و القصد أن تلک الفترة التی عاشها الإمام الصادق شهدت مقالات و اعتقادات و آراء شتی وجدت طریقها إلی عقول الناس،و تباینت آثارها،و اختلف أثرها.و من الحق فإن العنایة الإلهیة فی توجیه الإمامة و نهوض الإمام الصادق بأعباء مسئولیاتها قد حفظ تماسک الأمة و بقاء معتقداتها الأصلیة،و لا یمکن أن نتصوّر شخصا أو جهات متعددة-و إن تظاهرت و اتحدت-بقادرة علی القیام بمثل هذه المهمة،و مواجهة ما یجری علی الساحة و ما یزرع فیها من أفکار،غیر من یشرق بنور النبوة و یفرغ من معین حکمتها عالما بأسرار الملة،عارفا بدقائق الحکمة الإلهیة،محیطا بتاریخ الشرائع و الأدیان و الأمم کالإمام الصادق علیه السّلام.فتجد فی کل رأی حجة،و فی کل إجابة له مستند یناسب القول و یدعمه.

فعند ما یسأله أعداء الإسلام:کیف یجیء من لا شیء شیء؟یقول علیه السّلام:

«إن الأشیاء لا تخلو إما أن تکون خلقت من شیء أو من غیر شیء،فإن کان خلقت من شیء کان معه،فإن ذلک الشیء قدیم،و القدیم لا یکون حدیثا،و لا یفنی و لا یتغیّر.و لا یخلو ذلک الشیء من أن یکون جوهرا واحدا و لونا واحدا.فمن أین جاءت هذه الألوان المختلفة و الجواهر الکثیرة الموجودة فی هذا العالم من ضروب شتی؟ و من أین جاء الموت إن کان الشیء الذی أنشئت منه الأشیاء حیا؟و من أین جاءت

1- (1) روضة الواعظین. [1]

الحیاة إن کان ذلک الشیء میتا؟و لا یجوز أن یکون من حی و میت قدیمین لم یزالا، لأن الحی لا یحیی منه میت و هو لم یزل حیا.و لا یجوز أیضا أن یکون المیت قدیما لم یزل لما هو به من الموت،لأن المیت لا قدرة له و لا بقاء».

و فی مورد الردّ علی القول بأن الأشیاء أزلیة.قال علیه السّلام:

«هذه مقالة قوم جحدوا مدبّر الأشیاء،فکذّبوا الرسل و مقالتهم،و الأنبیاء و ما أنبئوا عنه،و سمّوا کتبهم أساطیر،و وضعوا لأنفسهم دینا بآرائهم و استحسانهم.إن الأشیاء تدل علی حدوثها:من دوران الفلک بما فیه،و هی سبعة أفلاک.و تحرّک الأرض و من علیها،و انقلاب الأزمنة،و اختلاف الوقت،و الحوادث التی تحدث فی العالم:من زیادة و نقصان و موت و بلی،و اضطرار النفس إلی الإقرار بأن لها صانعا و مدبّرا.أ لا تری الحلو یصیر حامضا،و العذب مرّا،و الجدید بالیا،و کلّ إلی تغیر و فناء» (1).

و نورد هنا أمثلة بسیطة للإشارة فحسب و لیست للاستقصاء و الإحاطة لیحصل للقارئ ما یومیء إلی أغوار العلوم التی قامت علیها شخصیة الإمام الصادق علیه السّلام لأن الإحاطة بالجانب العلمی من شخصیته علیه السّلام و آثاره فی منهجه،أکبر من اختصاص فصل من الفصول،بل هو أکبر مما علیه وسع الطاقة.

فانظر إلی قوله علیه السّلام:«إنی رأیت الرجل الماهر فی طبّه إذا سألته لم یقف علی حدود نفسه،و تألیف بدنه،و ترکیب أعضائه،و مجری الأغذیة فی جوارحه، و مخرج نفسه،و حرکة لسانه،و مستقرّ کلامه،و نور بصره،و انتشار ذکره،و اختلاف شهواته،و انسکاب عبرته،و مجمع سمعه،و موضع عقله،و مسکن روحه،و مخرج عطسته،و هیج غمومه،و أسباب سروره،و علة ما حدث فیه من بکم و صمم و غیر ذلک.لم یکن فی ذلک أکثر من أقاویل استحسنوها،و علل فیما بینهم جوّزوها».

و لکنه علیه السّلام یحتجّ بعلمه بتألیف الأبدان و حکمة الخلق فی أمور الفقه بقصد التنبیه علی تجنّب القول فی الدین بالرأی.و یصرّح أن علمه أخبره به أبوه عن جدّه أن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال:«إن اللّه تعالی بمنّه و فضله جعل لابن آدم الملوحة فی العینین

1- (1) الاحتجاج للطبرسی.

لأنهما شحمتان،و لو لا ذلک لذابتا.و جعل المرارة فی الأذنین من الدواب،فإن دخلت دابة و التمست الدماغ،فإذا ذاقت المرارة التمست الخروج.و جعل الحرارة فی المنخرین یستنشق بهما الریح،و لو لا ذلک لأنتن الدماغ.و جعل العذوبة فی الشفتین یجد بهما استطعام کل شیء،و یسمع الناس بهما حلاوة منطقه».

و تکشف الأسئلة التی توجّه إلیه عن نمط من الفکر،متأثر بنتائج الاطلاع علی مدارس القدماء و فلسفة الأولین،و هم فی تردّدهم و قصدهم الإمام الصادق کانوا یستشعرون ضعف أقوالهم و بطلان حججهم،فیزدادون إلحافا.

روی أن المفضّل لما سمع من ابن أبی العوجاء بعض ما رشح منه من الکفر و الإلحاد،لم یملک غضبه فقال:یا عدو اللّه،ألحدت فی دین اللّه و أنکرت البارئ...

قال له ابن أبی العوجاء:یا هذا،إن کنت من أهل الکلام کلّمناک،فإن ثبتت لک الحجة تبعناک.و إن لم تکن منهم فلا کلام لک،و إن کنت من أصحاب جعفر بن محمد الصادق فما هکذا یخاطبنا و لا بمثل ذلک یجادلنا.و لقد سمع من کلامنا أکثر ما سمعت،فما أفحش فی خطابنا،و إنه الحلیم الرزین العاقل الرصین،لا یعتریه خرق و لا طیش و لا نزق،یسمع کلامنا و یصغی إلینا،و یستعرف حجّتنا،حتی إذا استفرغنا ما عندنا،و ظننا أننا قد قطعناه،أدحض حجّتنا بکلام یسیر و خطاب قصیر،یلزمنا الحجة،و یقطع العذر،و لا نستطیع لجوابه ردا.

سألوا الإمام الصادق:فیم استحق الطفل الصغیر ما یصیبه من الأوجاع و الأمراض صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بلا ذنب عمله و لا جرم سلف منه؟ قال علیه السّلام:«إن المرض علی وجوه شتی:مرض بلوی،و مرض عقوبة، و مرض جعل للفناء.و أنت تزعم أن ذلک من أغذیة ردیة و أشربة و بیّنة،أو من علة کانت بأمه.و تزعم أن من أحسن السیاسة لبدنه،و أجمل النظر فی أحوال نفسه، و عرف الضارّ مما یأکل من النافع لم یمرض.و تمیل فی قولک إلی من یزعم:أنه لا یکون المرض و الموت إلا من المطعم و المشرب؟قد مات أرسطوطالیس معلم الأطباء،و أفلاطون رئیس الحکماء،و جالینوس شاخ و دقّ بصره،و ما دفع الموت حین نزل بساحته،و لم یألوا حفظ أنفسهم و النظر لما یوافقها.کم مریضا زاده المعالج

سقما،و كم من طبيب عالم،و بصير بالأدواء و الأدوية ماهر مات،و عاش جاهل بالطب بعده زمانا،فلا ذاك نفعه علمه بطبّه عند انقطاع مدته و حضور أجله،و لا هذا ضرّه الجهل بالطب مع بقاء المدة و تأخر الأجل».

ثم قال عليه السّلام:«إن أكثر الأطباء قالوا:إن علم الطب لم تعرفه الأنبياء،فما نصنع على قياس قولهم بعلم زعموا ليس تعرفه الأنبياء الذين كانوا حجج اللّه على خلقه و أمناءه فى أرضه و خزّان علمه،و ورثة حكمته،و الإدلاء عليه،و الدعاة إلى طاعته.ثم إنى وجدت أن أكثرهم يتنكب فى مذهبه سبل الأنبياء،و يكذّب الكتب المنزلة عليهم من اللّه تبارك و تعالى.فهذا الذى أزهدنى فى طلبه و حامليه»...ا ه.

و يظهر لنا من أجوبة الإمام الصادق عليه السّلام و مناظراته،أن المسائل التى احتوتها لم تترك ضربا من التساؤل و التفكر يتعلق بعلم أو تاريخ أو دين أو فقه إلاّ و أشبعته إيضاحا و بيانا،و يجرى الكلام فى منهج يعتبر القصد و يراعى الغرض،لأن طريقة الاحتجاج و الردّ فى منهج الإمام الصادق هى غير طريقة الإرشاد و النصح و التعليم، و علامات كل منهما واضحة.

روى محمد بن مسلم و الحلبى عن أبى عبد اللّه الصادق عليه السّلام فى قول اللّه عز و جل: اَلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُوماتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَ لا فُسُوقَ وَ لا جِدالَ فِى الْحَجِّ فقال:«إن اللّه عز و جل اشترط على الناس شرطا،و شرط لهم شرطا،فمن وفى له وفى اللّه له».فقالا له:فما الذى اشترط عليهم،و ما الذى شرط لهم؟فقال:

«أما الذى اشترط عليهم،فإنه قال الحج أشهر معلومات،فمن فرض فيهن الحج فلا رفث و لا فسوق و لا جدال فى الحج.و أما الذى اشترط لهم،فإنه قال:فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه،و من تأخر فلا إثم عليه لمن أتقى.فقال:يرجع و لا ذنب له».

فقالا:أ رأيت من أبتلى بالفسوق ما عليه؟قال:«لم يجعل اللّه عز و جل له حدا، يستغفر اللّه و يلبى».فقالا:فمن أبتلى بالجدال فما عليه؟فقال:«إذا جادل فوق مرتين،فعلى المصيب دم يهريقه شاة و على المخطئ بقرة»ا ه.

و حين يتدرج الزنادقة و الملحدون فى محاورته،و يسأله المشككون و الكفار بكل ما يعنّ لهم،ترى جوابه عليه السّلام بشىء من الإيجاز المذهل الذى يجمع أطراف المعرفة و يضمّ الأدلة الشافية.

فمن جملة حوار طويل. يسأل عليه السّلام:فما قصة مانى؟ و يجيب عليه السّلام:«متفحّص أخذ بعض المجوسية فشابها ببعض النصرانية، فأخطأ الملّتين،و لم يصب مذهبا واحدا منهما،و زعم أن العالم دبّر من إلهين نور و ظلمة،و إن النور فى حصار من الظلمة على ما حكينا منه،فكذّبته النصارى،و قبلته المجوس».

قال:فأخبرنى عن المجوس،أ فبعث اللّه إليهم نبيا؟فإنى أجد لهم كتبا محكمة و مواعظ بليغة،و أمثالا شافية،يقرّون بالثواب و العقاب،و لهم شرايع يعملون بها.

قال عليه السّلام:«ما من أمة إلا خلا فيها نذير.و قد بعث إليهم نبى بكتاب من عند اللّه فأنكروه و جحدوا كتابه».

قال:و من هو،فإن الناس يزعمون أنه خالد بن سنان؟ قال:«إن خالدا كان عربيا بدويا،ما كان نبيا،و إنما ذلک شىء يقوله الناس».

قال:أفزردشت؟ قال:«إن زردشت أتاهم بزمزمة،و ادعى النبوة،فآمن منهم قوم و جحده قوم، فأخرجوه،فأكلته السباع فى برية من الأرض».

قال:فأخبرنى عن المجوس،كانوا أقرب إلى الصواب فى دهرهم أم العرب؟ قال عليه السّلام:«العرب فى الجاهلية كانت أقرب إلى الدين الحنيفى من المجوس،و ذلک أن المجوس كفرت بكل الأنبياء و جحدت كتبهم و أنكرت براهينهم.

و لم تأخذ بشىء من سننهم و آثارهم.و إن كيخسرو-ملک المجوس فى الدهر الأول- قتل ثلاثمائة نبى،و كانت المجوس لا تغتسل من الجنابة،و العرب كانت تغتسل من الجنابة،و الاغتسال من خالص شرائع الحنيفية.و كانت المجوس لا تختن،و هو من سنن الأنبياء،و أول من فعل ذلک إبراهيم خليل اللّه،و كانت المجوس لا تغسل موتاها و لا تكفنها،و كانت العرب تفعل ذلک.و كانت المجوس ترمى الموتى فى الصحارى و النواويس،و العرب تواريها فى قبورها و تلحدها و كذلک السنّة على الرسل،إن أول من حفر له قبر آدم أبو البشر و ألحد له لحد.و كانت المجوس تأتى الأمهات و تنكح البنات و الأخوات،و حرمت ذلک العرب.و أنكرت المجوس بيت اللّه الحرام و سمّته

بیت الشیطان،و العرب کانت تحجّه و تعظّمه و تقول:بیت ربنا.و تقرّ بالتوراة و الإنجیل و تسأل أهل الکتب،و تأخذ.و کانت العرب فی کل الأسباب أقرب إلی الدین الحنیفی من المجوس...».

قال:فإنهم احتجوا بإتیان الأخوات أنها سنّة آدم.

قال:«فما حجتهم فی إتیان البنات و الأمهات (1)،و قد حرّم ذلک آدم،و کذلک نوح و إبراهیم و موسی و عیسی و سائر الأنبیاء و کل ما جاء عن اللّه عز و جل».

قال:و لم حرّم اللّه الخمر،و لا لذة أفضل منها؟ قال:«حرّمها لأنها أم الخبائث و أسّ کل شر،یأتی علی شاربها ساعة یسلب لبّه،و لا یعرف ربه،و لا یترک معصیة إلا رکبها،و لا حرمة إلا انتهکها،و لا رحما ماسة إلا قطعها،و لا فاحشة إلا أتاها.و السکران زمامه بید الشیطان إن أمره أن یسجد للأوثان سجد،و ینقاد حیثما قاده».

قال:فلم حرّم الدم المسفوح؟ قال:«لأنه یورث القساوة.و یسلب الفؤاد رحمته،و یعضّ البدن،و یغیر اللون، و أکثر ما یصیب الإنسان الجذام یکون من أکل الدم».

1- (1) معلوم أن الإمام الصادق علیه السّلام ساق الزواج بالمحارم من البنات و الأمهات فی الاستدلال لیکون الردّ أشمل،فقد بیّن علیه السّلام خطأ القول بأن اللّه أوحی إلی آدم أن یزوج بناته بنیه،و روایة زرارة بن أعین أن الإمام الصادق سئل عن ذلک فأجاب: «تعالی اللّه عن ذلک علوا کبیرا یقول من قال هذا:بأن اللّه عز و جل خلق صفوة خلقه و أحبائه و أنبیائه و رسله المؤمنین و المؤمنات و المسلمین و المسلمات من حرام،و لم یکن له من القدرة ما یخلقهم من حلال.و قد أخذ میثاقهم علی الحلال الطهر الطاهر الطیب.إن اللّه أمر القلم،فجری علی اللوح المحفوظ بما هو کائن إلی یوم القیامة قبل خلق آدم بألفی عام،و إن کتب اللّه کلها فیما جری فیها العلم فی کلها تحریم الإخوة مع ما حرم.لما قتل قابیل هابیل جزع آدم علی هابیل جزعا قطعه عن إتیان النساء،ثم تخلی ما به من الجزع،فغشی حواء فوهب اللّه له شیئا وحده و لیس معه ثانی.ثم ولد له من بعد شیت یافث لیس معه ثانی،فلما أدرکا و أراد اللّه عز و جل أن یبلغ بالنسل ما ترون،و أن یکون ما قد جری به القلم من تحریم ما حرّم اللّه عز و جل من الأخوات علی الإخوة أنزل بعد العصر فی یوم الخمیس حوراء من الجنة،فأمره اللّه عز و جل أن یزوجها من شیت،فزوجها منه.ثم أنزل بعد العصر من الغد حوراء من الجنة،فأمره اللّه عز و جل أن یزوجها من یافث.فزوجها منه...»الروایة.

قال:فالميتة لم حرّمها؟ قال عليه السّلام:«فرقا بينها و بين ما يذكر اسم اللّه عليه،و الميتة قد جمد فيها الدم،و تراجع إلى بدنها،فلحمها ثقيل غير مرىء،لأنها يؤكل لحمها بدمها.

و أخيرا فإن الإنسان يجد نفسه و هو يبحث فى منهج الإمام الصادق و مدرسته العلمية عاجزا عن تخيّل حدّ يعتقد أن الوقوف عنده يكون ختاما مناسبا لما بدأه،لأن شخصية كالإمام الصادق،لا يفى الكلام على نهجها العلمى و ما تركته من مآثر مثل هذا الجهد المتواضع.

ص:302

الإمام الصادق

اشارة

و موقفه من الحكام الظالمين

وَ لا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النّارُ [هود:113].

وَ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللّهُ فَأُولئِکَ هُمُ الظّالِمُونَ [المائدة:45].

من أبرز سمات تاريخ أهل البيت،و أظهر خصائص سيرهم،هو النهى عن الظلم و محاربة الظالمين.و قد قام رجال أهل البيت النبوى بما يجب عليهم من نصرة العدل و الوقوف بوجه الطغاة،و كانت مواقفهم كما تقتضيه المصلحة الدينية و تحتمه ضرورات الرسالة و الدعوة.

كانوا عليهم السّلام يعظمون على الإنسان ارتكاب العدوان على الغير و ظلم الناس، فهذا إمام أهل العدل أمير المؤمنين عليه السّلام يقول:«و اللّه لئن أبيت على حسک السعدان مسهدا،أو أجرّ فى الإغلال مصفدا؛أحبّ إلىّ من أن ألقى اللّه و رسوله ظالما لبعض العباد و غاصبا لشىء من الحطام».

و قد اتفقت الشرائع و تطابقت الأديان كما تسالمت العقول على قبح الظلم، فسعى سيد الخلق و خاتم النبيين محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلى إرساء قواعد العدل فى حياته،و تأكيد مبادئ المساواة على عهده،ثم وضع الناس فى صورة ما ستكون عليه الحال و ما ستؤول إليه.فعن كعب بن عجرة قال:قال لى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«أعيذک باللّه يا كعب بن عجرة من أمراء يكونون بعدى،من غشى أبوابهم و صدّقهم فى كذبهم، و أعانهم على ظلمهم فليس منى و لست منه،و لا يرد علىّ الحوض.و من لم يغش أبوابهم و لم يصدّقهم فى كذبهم،و لم يعنهم على ظلمهم فهو منى و أنا منه،و سيرد علىّ الحوض» (1).

1- (1) تيسير الوصول للشيبانى ج 2 ص 40.

و قد خرج الإمام أحمد و الترمذی و النسائی و ابن حیان فی صحیحه ذلک.

مرحلة الثورة و مرحلة الدعوة

اشارة

:

و قد کان من عظیم منزلة أهل البیت عند اللّه و خطورة شأنهم أن یکونوا مناط الرسالة و وسیلة استمرار الدعوة،فکانت الإمامة مشتملة علی صفات العصمة التی تفیض بنور من الجلالة و بسلطة من النبوة حتی تکون الدعوة فی حفظ و تبقی فی حرز، و للأئمة من أهل البیت أدوارهم و مهمّاتهم التی ینهضون بها فی کل مرحلة،فکان صلح الحسن حمایة للأمة،بعد ما أظهرت الوقائع أن سیاسة الختل و حکم الطلقاء هیمنا علی الناس و أفسدا النفوس،و أن معسکر العراق غلبت علیه أهواء أهل النفوس المریضة و الهمم الضعیفة،و بات المخلصون قلة لا یرجی بهم نصر،فهادن الحسن بشروط معروفة،و استقبلها معاویة بنیّة العذر و الخیانة.

ثم کانت ثورة الإباء و نهضة الإیمان علی ید أبی الشهداء الإمام الحسین،التی قامت منذ ساعة خروج الحسین من المدینة علی بیّنة کاملة و صورة واضحة من التفاصیل و المجریات،فلا بد من تلک الدماء و التضحیات للوقوف بوجه الانحراف و الردّة و ترسیخ مبادئ العقیدة فی النفوس،و قد کانت الجولة الثانیة بین الوثنیة التی اضطرت إلی الإسلام لتسلم،و بین رسالة محمد،و کان من نتائج هذه الجولة أن تسفک دماء أهل بیت محمد،و تسبی نساؤه و ذراریه،و ترتکب أمیة تلک المجزرة، و کان ذلک کله وفق تخطیط السماء لمسیرة البشریة و سلسلة الرسل و الأنبیاء و الأوصیاء عبر التاریخ.

روی أحمد،و أخرج البغوی فی معجم الصحابة،و الطبرانی عن أنس قال:

استأذن ملک القطر ربه أن یزور النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فأذن له.و کان فی یوم أم سلمة،فقال النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لأم سلمة:«احفظی الباب لا یدخل علینا أحد،فبینما هی علی الباب،إذ دخل علیه الحسین فاقتحم یتوثب علی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فجعل النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یلثمه و یقبّله» فقال له الملک:أ تحبه؟قال«نعم»قال:إن أمتک ستقتله،و إن شئت أریتک المکان الذی یقتل به.فأراه إیّاه،فجاء بطینة حمراء،فأخذتها أم سلمة فصرّتها فی خمارها.

قال ثابت:بلغنا أنها کربلاء (1).

ص:304

1- (1) مسند أحمد ج 2. [1]

و أخرج الطبرانی عن أبی الطفیل قال:استأذن ملک القطر بأن یسلّم علی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی بیت أم سلمة،فقال:«لا یدخل علینا أحد»فجاء الحسین فدخل، فقالت أم سلمة:هو الحسین.فقال:«دعیه»فجعل یعلو رقبة رسول اللّه و یعبث به، و الملک ینظر.فقال الملک:أ تحبه یا محمد؟قال:«أی و اللّه إنی لأحبه»قال:أما أن أمتک ستقتله،و إن شئت أریتک المکان.فقام بیده فتناول کفا من تراب،فأخذت أم سلمة التراب،فصرّته فی خمارها،فکانوا یرون أن ذلک التراب من کربلاء (1).

و عن عبد اللّه بن نجی عن أبیه أنه سافر مع الإمام علی-و کان صاحب مطهرته -فلما جاءوا نینوی و هو منطلق إلی صفین نادی علی:«صبرا أبا عبد اللّه،صبرا أبا عبد اللّه لشط الفرات»قلت:و من ذا أبو عبد اللّه؟قال الإمام:«دخلت علی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و عیناه تفیضان،فقلت:یا نبی اللّه،أغضبک أحد،ما شأن عینیک؟ قال صلّی اللّه علیه و آله و سلّم:بلی قام من عندی جبریل قبل،فحدثنی أن الحسین یقتل بشط الفرات، و قال:هل لک أن أشمّک من تربته؟فقلت:نعم.فمدّ یده،فقبض قبضة من تراب فأعطانیها،فلم أملک عینی أن فاضتا (2)».

و لذلک تری الحسین یجیب من یریده علی العدول عن مواجهة بنی أمیة بالقول:

«و مهما یقض اللّه یکن».فهو علیه السّلام یعلم رسالته کیف تکون و ما هو مقدم علیه،و لا بد من مقاومة الظلم،بعد أن أدی البغی علی أبیه و أخیه علیهم السّلام إلی قوة غاشمة و سلطان جائر.فکان یردّ علی ابن عباس:«لأن أقتل و اللّه بمکان کذا أحب إلیّ من أن استحل بمکة».و فی لفظ:«أحب إلیّ من أن یستحلّ بی حرم اللّه و رسوله» (3).

و أتاه رجل من مشایخ العرب فقال له علیه السّلام:أنشدک اللّه تعالی إلا انصرفت، فو اللّه ما تقدم إلاّ علی الأسنّة و حدّ السیوف،فإن هؤلاء الذین بعثوا إلیک لو کانوا کفوک مئونة القتال و وطئوا لک الأمور،و قدمت من غیر حرب کان ذلک رأیا،و أما علی هذه الحالة التی تری فلا أری لک أن تفعل.

فقال له الحسین علیه السّلام:«لا یخفی علیّ شیء مما ذکرته،و لکنی صابر محتسب حتی یقضی اللّه أمرا کان مفعولا» (4).

1- (1) الحبائک فی أخبار الملائک للسیوطی ص 44 و 45.

2- (2) تهذیب الکمال فی أسماء الرجال ج 6 ص 401.و [1]المعجم الکبیر للطبرانی ج 3 ص 106.

3- (3) مروج الذهب ج 3 ص 65.و [2]الکبیر للطبرانی ج 3 ص 199.

4- (4) نور الأبصار للشبلنجیّ ص 129. [3]

و قال الحسين عليه السّلام فى وصيته لأخيه محمد بن الحنفية:

«إنى لم أخرج أشرا و لا بطرا و لا مفسدا و لا ظالما،و إنما خرجت أطلب الإصلاح فى أمة جدّى محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أريد أن آمر بالمعروف و أنهى عن المنكر،و أسير بسيرة جدّى محمد،و سيرة أبى على بن أبى طالب.فمن قبلنى بقبول الحق فاللّه أولى بالحق،و من ردّ علىّ هذا،صبرت حتى يقضى اللّه بينى و بين القوم بالحق و يحكم بينى و بينهم و هو خير الحاكمين» (1).

و يستشهد الحسين عليه السّلام هو و أصحابه،و تجرى تلك الفظائع،و يرتكب آل أبى سفيان قبائح لم تعهد حتى فى الجاهلية،و قد أحزنت قلوب أهل الكتاب،و توجّع لها أصحاب الشرائع و الملل الأخرى.و بثورة الطف حيل بين أمية و بين العودة بالحكم إلى الجاهلية و الارتداد بالأمة إلى الشرك،لأن مظاهر الفداء و صور البطولة و التضحية التى زخرت بها سيرة الإمام الحسين،و ظهرت ببهائها على أرض كربلاء بإزاء قوات الشرك و الضلالة جدّدت مسيرة الجهاد و أحيت فى النفوس روح الرسالة،و وضعت الأمة على طريق الهداية و الحق (2).

الإمام زين العابدين

:

و لننظر إلى نهاية المعركة بين الثورة و بين الظالمين،فإن أشكال الحقد التى انطوت عليها نفوس الظالمين و أعوانهم،و مشاعر الحقد و العداء التى تجسدت بتلك الفظائع و الانتهاكات.لا يمكن أن يقف أمامها مرض فتى للحسين و يمنعها من قتله.

فكل الأفعال تشهد بانعدام الذمة،و خلوّهم من الرحمة،و تجرّدهم من الأخلاق.فلم يسلم طفل الحسين الرضيع عبد اللّه،فقتلوه بسهم،و كان أبوه يطلب الماء له.

و تجرءوا بكل خسّة على انتهاك حرمة الخدور،فأفزعوا ربّات الحجال و الطهر و العفاف،و يمسك القلم هنا استعظاما.

أقول:نحن مع صفحة من صفحات العناية الربانية لتحفظ الإمام على بن الحسين و يخرج من المعركة،و هو مملوء بالحزن و الآلام،و ينجيه اللّه من المواقف الأخرى التى أعقبت المعركة.فقد أمر ابن زياد بقتل الإمام لو لا تدخل بطلة الطف

1- (1) مقتل الحسين للخوارزمى.

2- (2) انظر كتابنا:مع الحسين فى نهضته،بيروت 1394 ه و فيه تبادلنا الأحداث بتبسيط و يسر.

العقيلة زينب و قالت له:«حسبک من دمائنا،أسألک باللّه إن قتلته إلا قتلتنى معه» فتركه (1).

و كان الإمام الحسين عليه السّلام قد أخبر بنجاة الإمام زين العابدين من مذبحة كربلاء،و برعاية اللّه لولده على من سيوف الأمويين و محاولاتهم حفظا لمقام الإمامة التى أعدّ لها و تهيأ و تأهب فى ظل السبط المنتجب.و قد ذكر الطبرى فى دلائل الإمامة كما فى رواية السيد ابن طاوس فى اللهوف إشارة الإمام الحسين إلى مصرع أصحابه، و أنه لا ينجو منهم إلا ولده على عليه السّلام (2).

و فى رواية المقتل:أن الإمام الحسين منع زين العابدين من أن يشترک فى قتال الفجرة أعوان الأمويين و جنودهم،فقد حاول الإمام زين العابدين-لما رأى وحدة أبيه-أن يقاتل برغم مرضه،فمنعه الإمام الحسين رعاية لأمر اللّه فى بقاء الرسالة فى نسل النبى المصطفى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،فلا اعتبار لمحاولات الاعتذار التى سلكها بعض المؤرخين لتبرير تولى من أسهم فى جريمة قتل آل محمد و الأجهاز على أبناء بيت النبوة إرضاء للحكام و عصبية للإماء الذين ينتسب إليهم قادة محاربى العترة الطاهرة و رسالتهم السماوية،فيتقولون أن عمر بن سعد قال يوم كربلاء:لا تعرضوا لهذا المريض (3).

و سرعان ما تقلّد الإمام زين العابدين أعباء الإمامة،و نهض بمهمات الدعوة، فوقف بصلابة و هو فى بلاط أمية و فى عاصمة ملكها.و به تبدأ مرحلة الدعوة فى ظل آثار ثورة أبيه الشهيد،فالدماء التى أهرقت فى كربلاء سرت بأوصال التاريخ و شرايين الأيام،فإن بقى للأمويين الظالمين ذكر فهو؛لا يمت للعقيدة بصلة،و إنما فى ظل الحكم و السلطان،و ما ينمو فى ضلالهما من المظالم و المفاسد.أما ثورة الحسين فهى إطار العقيدة الإسلامية،و مدخل انتصار العقيدة فى النفوس فى ظل الإمامة و الولاية.

لما أراد يزيد من الإمام زين العابدين أن يصعد المنبر و يتكلم بما يريده،قال يزيد:أصعد المنبر فأعلم الناس حال الفتنة و ما رزق اللّه أمير المؤمنين من الظفر.فقال الإمام على زين العابدين:«ما أعرفنى بما تريد».

1- (1) الطبقات الكبرى ج 5 ص 212. [1]

2- (2) اللهوف ص 26. [2]

3- (3) انظر سير أعلام النبلاء للذهبى ج 4 ص 388.

فصعد المنبر،فحمد اللّه و أثنى عليه.و صلى على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ثم قال:«أيها الناس من عرفنى فقد عرفنى،و من لم يعرفنى فأنا أعرّفه بنفسى.أنا ابن مكة و منى،أنا ابن المروة و الصفا،أنا ابن محمد المصطفى،أنا ابن من لا يخفى.أنا ابن من علا فاستعلا،فجاز سدرة المنتهى،فكان من ربّه قاب قوسين أو أدنى».فضج أهل الشام بالبكاء حتى خشى يزيد أن يرحل من مقعده،فقال للمؤذن:أذّن.فلما قال المؤذن:

اللّه أكبر،اللّه أكبر.جلس على بن الحسين على المنبر.فقال المؤذن:أشهد أن لا إله إلا اللّه و أشهد أن محمدا رسول اللّه.بكى الإمام زين العابدين عليه السّلام ثم التفت إلى يزيد فقال:

«يا يزيد هذا أبى،أم أبوك؟» قال:بل أبوك،فأنزل.

فنزل عليه السّلام فأخذ بناحية باب المسجد،فلقيه مكحول-صاحب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم-فقال:

كيف أمسيت يا ابن رسول اللّه؟ قال عليه السّلام:«أمسينا بينكم مثل بنى إسرائيل فى آل فرعون،يذبّحون أبنائهم و يستحيون نساءهم،و فى ذلكم بلاء من ربكم عظيم (1)».

و فى أشهر الروايات،أن المنهال بن عمرو لقى الإمام زين العابدين فى دمشق فقال له:كيف أمسيت يا ابن رسول اللّه قال:«أمسينا كمثل بنى إسرائيل فى آل فرعون يذبّحون أبناءهم و يستحيون نسائهم.يا منهال أمست العرب تفتخر على العجم بأن محمدا منها،و أمست قريش تفتخر على سائر العرب بأن محمدا منها،و أمسينا معشر أهل بيته و نحن مقتولون مشرّدون،فإنا للّه و إنا إليه راجعون مما أمسينا فيه» (2).

هكذا كانت بداية مسيرة الإمام زين العابدين،و هكذا كان بدء إمامته و منهج دعوته.و كانت فترة إمامته أربعا و ثلاثين سنة،أدرك الإمام الصادق سنوات منها.

قال الإمام الباقر عليه السّلام:«إن أبى على بن الحسين عليه السّلام ما ذكر نعمة اللّه عليه إلاّ سجد،و لا قرأ آية من كتاب اللّه عز و جل فيها سجود إلا سجد،و لا دفع اللّه تعالى عنه سوءا يخشاه أو كيد كايد إلا سجد،و لا فرغ من صلاة مفروضة إلا سجد،

1- (1) الاحتجاج للطبرسى ج 2 ص 29. [1]

2- (2) مثير الأحزان للشيخ ابن نما الحلى ص 84 و اللهوف للسيد ابن طاوس ص 81. [2]

و لا وفّق لإصلاح بين اثنين إلا سجد،و كان أثر السجود فی جميع مواضع سجوده، فسمی السجّاد لذلک».

و عنه علیه السّلام أيضا قال:«كان لأبی علیه السّلام فی موضع سجوده آثار ناتئة،و كان يقطعها فی السنة مرتين فی كل مرة خمس ثفنات،فسمّی ذا الثفنات لذلک».

قال الزهری:ما رأيت قرشيا أفضل من علی بن الحسين.و قال:بلغنی أنه كان يصلی فی اليوم و الليلة ألف ركعة إلی أن توفی،و سمّی زين العابدين لكثرة عبادته.

و كان الزهری إذا ذكر علی بن الحسين يبكی.

و سيأتی ذكر علاقة الزهری بالإمام زين العابدين،و قد انخرط الزهری فی حاشية الملوک و التحق بالأمويين فی مقر ملكهم بالشام (1).

و عن سفيان بن عيينة قال:حج زين العابدين،فلما أحرم اصفرّ لونه،و عرضت عليه الرعدة،و لم يستطع أن يلبّی،فسئل عنه؟قال:«أخشی أن أقول:لبيک.فيقول:

لا لبيک»فلما لبّی غشی عليه،و سقط من راحلته،فلم يزل يعترضه ذلک حتی قضی حجّه (2).قال رجل لسعيد بن المسيب:ما رأيت أحدا أورع من فلان.قال:فهل رأيت علی بن الحسين؟قال:لا.قال:ما رأيت أحدا أورع منه.

قال طاوس:سمعته و هو ساجد عنه الحجر يقول:«عبيدک بفنائک،سائلک بفنائک».قال طاوس:فو اللّه ما دعوت بها فی كرب إلا كشف عنی.

قال محمد بن إسحاق:كان ناس بالمدينة يعيشون لا يدرون من أين يعيشون و من يعطيهم،فلما مات علی بن الحسين فقدوا ذلک،فعرفوا أنه هو الذی كان يأتيهم فی الليل بما يأتيهم به،و لما مات وجدوا فی ظهره و أكتافه أثر حمل الجراب إلی بيوت الأرامل و المساكين فی الليل.و كان يعول مائة أهل بيت بالمدينة و لا يدرون بذلک حتی مات (3).ففقد أولئک ما كان يأتيهم من معاش،لذا كانت آثار جراب الدقيق علی جسده الطاهر (4).

و لا بد من القول أن الإمام زين العابدين يلقی ربه و علی ظهره آثار تقواه

1- (1) انظر الجزء الثانی من الكتاب.

2- (2) ينابيع المودة.و [1]تذكرة سبط ابن الجوزی. [2]

3- (3) البداية و النهاية 9 ص 105.و [3]تذكرة سبط ابن الجوزی.و ينابيع المودة.و الإتحاف.و نور الأبصار.

4- (4) صفة الصفوة ج 2 ص 54. [4]

و صلاحه،كما يلقى ربه و على ظهره آثار مظلمته و جريمة بنى أمية،و كان مرأى آثار الجامعة فى عنقه عليه السّلام،و آثار جرح القيد فى ساقيه قد أبكى ولده الإمام الباقر لمّا وضعه على المغتسل.و كيف تندمل تلك الجراح و الأمويون على كراسى الحكم، و دستورهم ظلم أهل البيت؟فعبد الملك بن مروان على نهج يزيد يحمل الإمام زين العابدين مقيدا من المدينة و يثقله حديدا (1).

ينقل شيخنا المفيد رحمه اللّه فى الإرشاد و مصادر كثيرة أخرى قول الإمام زين العابدين:«أحبونا حبّ الإسلام،فما زال حبّكم لنا حتى صار شينا علينا» (2).و يأتى مجرّدا دون الإشارة إلى بواعث مثل هذا القول،و هى أن عصره عليه السّلام شهد بدايات ظهور أقوال الغلاة،و ما تحدّثنا عنه فى مشكلة الغلاة فى الأجزاء السابقة (3)و المتعلق بالأفراد الذين كانت لهم علاقة وصلة بالأئمة الأطهار،و سقطوا فى درك الغلو و الإساءة إلى أهل البيت،يتصل وجودهم بهذه الفترة،و قد عظم أمرهم و اشتد فى زمن الإمام الباقر و الصادق.

و تشعر الروايات الأخرى بردّ الإمام زين العابدين مزاعم هؤلاء و كفرهم،فيروى أنه قال لهم:«ما أجرأكم و أكذبكم على اللّه،نحن من صافى قومنا،فحسبنا أن نكون من صالحيهم».و من اللازم تقييدها بأسبابها،ليبطل تعميم الرواية لأغراض سيئة و خبيثة.و الرواية التى تطلق هى:أنه مرض عليه السّلام فدخل عليه جماعة من أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يعودونه،فقالوا:كيف أصبحت يا ابن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فدتك أنفسنا؟ قال«فى عافية،و اللّه المحمود على ذلك.فكيف أصبحتم أنتم جميعا؟»قالوا:

أصبحنا و اللّه يا ابن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم محبّين وادّين.فقال لهم عليه السّلام:«من أحبنا للّه أسكنه اللّه فى ظل ظليل يوم القيامة يوم لا ظل إلا ظله،و من أحبنا يريد مكافأتنا كافأه اللّه عنا الجنة،و من أحبنا لغرض دنيا آتاه اللّه رزقه من حيث لا يحتسب» (4).

و ليس من قصدنا التوسّع فى البحث عن حياة الإمام السجاد زين العابدين،و إنما الإشارة إلى ما يقتضيه المقام فى بيان مراحل عمل الإمامة و وجوه رسالتها،فكما أن

1- (1) تذكرة سبط ابن الجوزى.و ينابيع المودة للقندوزى.

2- (2) الإرشاد ص 238.و [1]راية ابن كثير عن يحيى بن سعيد:«حتى صار علينا عار...»

3- (3) انظر الجزء الثانى و الثالث عن الكتاب.

4- (4) الفصول المهمة لابن الصباغ. [2]

حياة الإمام زين العابدين تتصل بحياة عمّه الإمام الحسن،و حياة أبيه الإمام الحسين، كذلک فإن حياة الإمام الصادق عليه السّلام تتصل بحياة الإمام زين العابدين و حياة أبيه الإمام الباقر.

و نختار من أنوار سيرته و عبق ذكره هذه الآثار القليلة و هى غيض من فيض،لأن سيرته عليه السّلام و وقائع عصره حافلة بكل ما يعنى من الجلالة و العظمة،بحيث يكتشف الباحث أن أهل هذا البيت لهم دور بإزاء انجرار الناس إلى السلطان و التهافت على الدنيا،و أن ذلک الدور هو الذى أبقى على الأصول و القواعد الدينية و الشرعية.

لقد جسّد عليه السّلام وقع المأساة التى اجتازها فقال كلمته:«فقد الأحبة غربة» و كان صوته عليه السّلام يسمع فى جوف الليل و هو يقول:«أين الزاهدون فى الدنيا، الراغبون فى الآخرة».

و هو من خشية اللّه يمنع نفسه من ضرب ناقته،فقد روى أنه حج مرة فالتاءت الناقة عليه فى سيرها،فأشار إليها بالقضيب،ثم قال«آه لو لا القصاص»و ردّ يده عنها.

قال عليه السّلام مبيّنا ولايته الدينية و سلطته الروحية:

«نحن أئمة المسلمين و حجج اللّه على العالمين،و سادة المؤمنين و قادة الغرّ المحجلين،و موالى المؤمنين،و نحن أمان أهل الأرض كما أن النجوم أمان لأهل السماء،و نحن الذين بنا يمسک اللّه السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه،و بنا يمسک الأرض أن تميد بأهلها،و بنا ينزل الغيث،و بنا ينشر الرحمة و يخرج بركات الأرض، و لو لا ما فى الأرض منّا لساخت بأهلها» (1).

ثم يقول عليه السّلام قولا لرجل يعيّن فيه مسلک الناس إلى نيل الولاية:«بلّغ شيعتنا أنّا لا نغنى عنهم من اللّه شيئا،و أن ولايتنا لا تنال إلا بالورع».

و يقول عليه السّلام لجابر الجعفى:«بلّغ شيعتى منّى السّلام،و أعلمهم أنه لا قرابة بيننا و بين اللّه عز و جل،و لا يتقرب إليه إلا بالطاعة.يا جابر،من أطاع اللّه و أحبنا فهو ولينا،و من عصى اللّه لم ينفعه حبنا،و من أحبنا و أحب عدوّنا فهو فى النار.يا جابر

1- (1) روضة الواعظين.و [1]احتجاج الطبرسى. [2]

من هـذا الـذى سأل اللّه تعالى فلم يعطه،و توكل عليه فلم يكفه،و وثق به فلم ينجه.يا جابر أنزل الـدنيا منک كمنزل نزلته،فإن الدنيا للتحويل عنها،و هل الـدنيا إلا دابـة ركبتها فى منامک،فاستيقظت و أنت على فراشک؟هى عند ذوى الألباب كفىء الظلال،لا إله إلا اللّه إعذار لأهل دعوة الإسلام،و الصلاة تثبيت للإخلاص و تنزيه عن الكبر،و الزكاة تزيد فى الرزق،و الصيام و الحج لتسكين القلوب،و القصاص و الحدود لحقن الدماء،فإن أهل البيت نظام الدين.جعلنا اللّه و إياكم من الذين يخشون ربهم بالغيب و هم من الساعة مشفقون».

و من أقواله ما يعتبر من أهم أركان دعوته و قواعد نهجه كقوله:«التارک للأمر بالمعروف و النهى عن المنكر كالنابذ كتاب اللّه وراء ظهره،إلاّ أن يتّقى منهم تقاة» قالوا:و ما تقاة؟قال:«يخاف جبارا عنيدا أن يسطو عليه و أن يطغى».

و روى الطبرانى عنه أنه قـال عليه السّـلام:«إذا كـان يوم القيامـة نـادى منـاد:ليقم أهـل الفضـل.فيقوم ناس من الناس،فيقال لهم:انطلقوا إلى الجنة.فتلقّاهم الملائكة فيقولون:إلى أين؟فيقولون:إلى الجنة.فيقولون:قبل الحساب؟قالوا:نعم.قالوا:

من أنتم؟قـالوا نحن أهـل الفضل.قـالوا:و مـا كـان فضـلكم؟قـالوا:كنّـا إذا جهـل علينا حلمنا،و إذا ظلمنا صبرنا،و إذا أسـىء إلينا غفرنا.قالوا لهم:ادخلوا الجنـة فنعم أجر العاملين.ثم ينادى مناد:ليقم أهل الصبر،فيقوم ناس من الناس فيقال لهم:انطلقوا إلى الجنـة.فتتلقاهم الملائكة فيقولون لهم مثـل ذلـک فيقولون:نحن أهـل الصبر، قـالوا:فما كان صبركم؟قالوا:صبرنا أنفسـنا على طاعـة اللّه،و صبّرناها عن معصـية اللّه،و صبّرناهـا على البلاء.فقـالوا لهم:ادخلوا الجنـة،فنعم أجر العـاملين.ثم ينـادى المنـادى:ليقم جيران اللّه فى داره،فيقوم ناس من الناس و هم قليل،فيقال لهم:

انطلقوا إلى الجنة فتتلقاهم الملائكة فيقولون لهم مثل ذلک،فيقولون:بم اسـتحققتم مجاورة اللّه عز و جل فى داره؟فيقولون:كنّا نتزاور فى اللّه و نتجالس فى اللّه و نتباذل فى اللّه عز و جل.فيقال لهم:ادخلوا الجنة فنعم أجر العاملين» (1).

و إذا ما دخل الحرم كان عبيد بنى أمية يؤذونه.يذكر ابن سـعد:كان الإمام زين العابدين يمشـى إلى الحجار،و كان له منزل بمنى،و كان أهل الشام يؤذونه،فتحوّل

1- (1) البداية و النهاية. [1]

إلى قرين الثعالب أو قريب من قرين الثعالب،و كان يركب.فإذا أتى منزله مشى إلى الجمار (1).

و لم تتمكن سياسة البغاة من الحدّ من أثر الإمام زين العابدين أو تأثيره فى النفوس،و لم يخف وجوده فى مواطن العلم و نبوغه فى حلقات الفقه و الحديث.فهو بما حباه اللّه و بما أورثه من وصاية و سداد لا يرقى إلى عتبة علمه أو درجة كماله أحد من أصحاب الفقه و الحديث و الفتوى و الدين.و كان الإمام زين العابدين-و هو فى دوائر التضييق التى يخلقها الحكام الأمويون-يتصدّى لدوره الإيمانى،و يدعو إلى إمامته فيقول:«فمن سلّم لنا سلم،و من اقتدى بنا هدى،و من يعمل بالقياس و الرأى هلك،و من وجد فى نفسه شيئا مما نقوله أو نقضى به حرجا،كفر بالذى أنزل السبع المثانى و القرآن العظيم».

و يبقى فى وسط مدينة جدّه و مهبط الوحى تنوشه سهام الأمويين و تنبحه كلابهم، فكان الإمام زين العابدين يذكر حال من مسخهم اللّه قردة من بنى إسرائيل و يحكى قصتهم،فلما بلغ آخرها قال:«إن اللّه تعالى مسخ أولئک القوم لاصطيادهم السمک، فكيف ترى عند اللّه عز و جل يكون حال من قتل أولاد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و هتک حريمه؟ إن اللّه تعالى و إن لم يمسخهم فى الدنيا،فإن المعدّ لهم من عذاب الآخرة أضعاف أضعاف عذاب المسخ».فقيل له:يا ابن رسول اللّه،فإنّا قد سمعنا منک هذا الحديث.

فقال لنا بعض النصّاب:فإن كان قتل الحسين باطلا فهو أعظم عند اللّه من صيد السمک فى السبت،أ فما كان اللّه غضب على قاتليه كما غضب على صيادى السمک؟ قال الإمام زين العابدين عليه السّلام:«قل لهؤلاء النصّاب:فإن كان إبليس معاصيه أعظم من معاصى من كفر بإغوائه،فأهلک اللّه من شاء منهم كقوم نوح و فرعون و لم يهلک إبليس،و هو أولى بالهلاک،فما باله أهلک هؤلاء الذين قصروا عن إبليس فى عمل الموبقات،و أمهل إبليس مع إيثاره لكشف المحرمات،أ ما كان ربنا عز و جل حكيما تدبيره حكمة فيمن أهلک و فيمن استبقى؟فكذلک هؤلاء الصائدون فى السبت، و هؤلاء القاتلون للحسين.يفعل فى الفريقين ما يعلم،أنه أولى بالصواب و الحكمة، لا يسأل عمّا يفعل و عباده يسألون».

1- (1) الطبقات الكبرى ج 5 ص 219. [1]

كما واجه عليه السّلام أنصار البغاة و أتباع الطلقاء،فقد جاءه رجل من أهل البصرة و قال له:يا على بن الحسين،إن جدّک على بن أبى طالب قتل المؤمنين.فهملت عينا على بن الحسين دموعا حتى امتلأت كفّه منها.ثم ضرب بها على الحصى.

ثم قال:

«يـا أخا أهل البصـرة،لا و اللّه ما قتل علىّ مؤمنا،و لا قتل مسـلما،و ما أسـلم القوم و لكن استسـلموا و كتموا الكفر و أظهروا الإسـلام،فلما وجدوا على الكفر أعوانا أظهروه،و قد علمت صاحبة الجدب و المستحفظون من آل محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن أصحاب الجمل و أصحاب صفين و أصحاب النهروان لعنوا على لسان النبى الأمى و قد خاب من افترى».

فقال شيخ من أهل الكوفة:يا على بن الحسين،إن جدّک كان يقول:«إخواننا بغوا علينا».

فقال الإمام زين العابدين عليه السّلام:«أ ما تقرأ كتاب اللّه وَ إِلى عادٍ أَخاهُمْ هُوداً فهم مثلهم،أنجى اللّه عز و جل هودا و الذين معه و أهلک عادا بالريح العقيم».

و قد تعرّض له البعض بالإساءة فأغلظوا له القول و أساءوا معه الأدب،فكان ردّه عليهم آية من آيات خلقه و محمود صفاته.

و لم تنل من هيبته و لا مكانته جميع الأفعال التى اعترضته،فقد كان الإمام على بالمدينة محترما معظما (1)و كان الناس يقبّلون يده (2).

فهو ممن من اللّه عليهم بالهدايـة التامة و العصـمة الخالصة،و جعلهم فى الأرض أصـحاب الولاية و حملة الرسالة و حماة الشـريعة،إليهم الأمر،و فيهم العلم و النبوة، و قد حفظ اللّه الإمام زين العابدين من مكائد البغاة و سـيف يزيد بن معاوية إبقاء لنور الرسالة و صيانة للشريعة فى عهـد تغلّب فيه الطلقاء،و تحكّم فيه الفسّاق،فترک الإمام زين العابـدين و هو يكابد النكبة و يواجه أقسـى محنة أثارا كبرى فى السـلوک و الفكر فى العمل و الذكر.

1- (1) ابن كثير ج 9 ص 104. [1]

2- (2) القعد الفريد ج 1 ص 180.

كان الإمام على بن الحسين عليه السّلام يتّصف بصفات الإمامة و يتحلّى بخلق النبوة.إذا مشى لا تجاوز يده فخذه و لا يخطر بيده (1)و يخشى أن يؤذى أى مخلوق فى زمن ديست فيه المقدسات و انتهكت الحرمات و أسفرت الأيام عن أحقاد جاهلية و عودة إلى الشرك خمدت زمنا ثم هبّت و هاجت تكالبا على الدنيا و لجوءا إلى القوة و إسرافا فى الجبرية و التسلط،فكان عليه السّلام إذا سار فى المدينة على بغلته لم يقل لأحد:الطريق.و يقول:«هو مشترک،ليس لى أن أنحّى عنه أحدا».

و كان عليه السّلام مهتما بمصالح الأمة و دفع شرور الحكام عنها،فكان يفكر بأحوال الناس أيام أحداث الحرم و حركة ابن الزبير (2).

و لما قامت ثورة المدينة المنورة ضد الأمويين،و أخرج أهلها عامل يزيد عثمان بن محمد بن أبى سفيان،و أظهر و أخلع يزيد بن معاوية سنة ثلاث و ستين، طلب مروان بن الحكم من الإمام زين العابدين أن يترک نساءه عنده،و قد كان مروان قد كلّم عبد اللّه بن عمر بذلک فأبى ابن عمر أن يفعل.قال مروان للإمام زين العابدين:أن لى رحما و حرمى تكون مع حرمک،فقال:«أفعل»فبعث بحرمه (3).

و هكذا هى أخلاق أولاد النبيين و حجج اللّه على خلقه،لا كما فعل مروان و أهله بحرم رسول اللّه و ما صنعوا بأهل بيته.و ما يدّعيه الطبرى من صداقة كانت بينهما قديمة لا نصيب له من الصحة،كما أنها ليست من أشكال العلاقات التى استحالت بحلم الإمام و عظيم خلقه من روح العداوة إلى الاحترام و الاعتراف بمنزلة الإمام.كقصة ذلک الرجل الذى سب الإمام زين العابدين و هو خارج من المسجد، فأراد العبيد أن يثوروا به (4)ففى رواية الشبلخى عن درر الأصداف:بالغ فى سبّه و أفرط،فعاد إليه العبيد و الموالى،فكفّهم عنه،و أقبل عليه و قال له:«ما ستر عنک من أمرنا أكثر،أ لک حاجة نعينک عليها؟»فاستحيا الرجل،فألقى إليه خميصة،و ألقى إليه خمسة آلاف درهم.فقال:أشهد أنک من أولاد المصطفى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.و فى رواية ابن كثير:فكان الرجل بعد ذلک إذا رآه يقول:إنک من أولاد الأنبياء.

1- (1) انظر الطبقات الكبرى ج 5 ص 212-220. [1]

2- (2) الإتحاف للشبراوى ص 50 و ابن كثير.

3- (3) تاريخ الطبرى ج 7 ص 7. [2]

4- (4) صفة الصفوة ج 2 ص 56. [3]

و لا نظن أن يصدر مثل ذلک من الطريد بن الطريد،و إنما مروان و غيره من الأمويين يعلمون أن آل عبد المطلب أقرب إلى شرائع السماء و أخلاق الأنبياء،و هو و غيره من الأمويين ألصق بطبائع السوقة و أخلاق أهل الغدر،فلاذ بمكانة أهل البيت، و دفع بحرمه إلى حمى حرمتهم،أولئک الذين أذهب اللّه عنهم الرجس و طهّرهم تطهيرا.و ما هو إلاّ العدو الحاقد الذى يرى فى على و ولده صورة النبى الأعظم الذى فضح أباه و أبعده ليخلص المسلمين من شرّه،فلما كان واليا على المدينة لمعاوية كان يسبّ عليا كل جمعة على المنبر،و قال له الحسن عليه السّلام:«لقد لعن اللّه أباک الحكم، و أنت فى صلبه على لسان نبيه» (1).

فمن أين قدم الصداقة بين زين العابدين و مروان بن الحكم،و الأخير من أكثر الأمويين تشفّيا بقتل الإمام الحسين (2)ينقل الشيخ ابن نما عن تاريخ البلاذرى:أنه لما وافى رأس الحسين عليه السّلام المدينة.سمعت الواعية من كل جانب،فقال مروان بن الحكم:

ضربت دوسر فيهم ضربة أثبتت أوتاد حكم فاستقرّ

ثم أخذ ينكت وجهه بقضيب و يقول:

يا حبّذا بردک فى اليدين و لونک الأحمر فى الخدين

كأنه بات بمجسدين شفيت منک النفس يا حسين

(3)و تحسين صورة هؤلاء الطرداء و أبناء الطلقاء لا تغيّر واقع الأمر و حقيقة التصرّف الجاهلى الذى واجهوا به أهل بيت النبوة،فنرى كبار من تولّى هذه المهمة لا يفلح

1- (1) ابن كثير ج 8 ص 259. [1]

2- (2) و كذلک الأمر فيما يدّعيه الذهبى فى تذكرة الحفّاظ من وجود ودّ فى قلب عبد الملک بن مروان و أن زين العابدين كان أحب بنى هاشم إلى عبد الملک(ج 1 ص 70)-و ابن كثير فى البداية و النهاية (ج 9 ص 104)-و [2]ابن عبد ربه فى العقد(ج 1 ص 268)فمن المشهور عداؤه و محاولته الإساءة إلى الإمام زين العابدين فى كل مرة،و الصحيح لجوء عبد الملک إلى التشبّه بسلطة الإمام للتدليس و التلبّس بها أمام ملک الروم،فكتب إلى الحجاج أن يتوعّد و يتهدّد الإمام زين العابدين و أخذ جوابه،فكاتب عبد الملک بما قاله الإمام زين العابدين إلى الحجاج و بعث به إلى ملک الروم على أنه صادر منه.

3- (3) مثير الأحزان.

فیما أخذ به نفسه،و یعثر و یسقط ما یحمله من أکاذیب.فقد عرف الإمام زین العابدین بالانقطاع إلی اللّه،و الإکباب علی العبادة بعد مذبحة الطف و قتل الأحبة،فکانت میاسم التقوی و سمات الإیمان فی وجهه و جسمه،فأطلق علیه:السجاد و ذی الثفنات.و من المعلوم أن مواصلته العبادة و مداومته علی الأدعیة و الأذکار لم یترک حیزا لما کان یشغل بال الملوک من الأمویین و العباسیین بدواعی الشهوة.و نورد هنا أنموذجا سار علیه الذهبی فی الترجمة للأعلام فی(سیر أعلام النبلاء)حیث یورد ما یخالف الحقائق فی کثیر من الموارد،فیردّ المفضوح منها الذی لا یمکن السکوت عنه فی بعضها،و لا یقوم بشیء فی کثیر منها یقول:(قال الأصمعی:لم یکن له عقب- یعنی الحسین-إلا من ابنه علی،و لم یکن لعلی بن الحسین ولد إلا من أم عبد اللّه بن الحسن و هی ابنة عمه.فقال له مروان:أری نسل أبیک قد انقطع،فلو اتخذت السراری لعلّ اللّه أن یرزقک منهن.قال:قال ما عندی ما اشتری.قال:فأنا أقرضک،فأقرضه مائة ألف،فاتخذ السراری و ولد له جماعة من الولد،ثم أوصی مروان لما احتضر أن لا یؤخذ منه ذلک المال).و یعقّب الذهبی:إسنادها منقطع، و مروان ما احتضر،فإن امرأته غمته تحت و سادة هی و جواریها...الخ (1).و قیل سمیة و هی أم خالد بن یزید بن معاویة،أضمرت له السوء بعد أن وجّه لابنها کلمات بذیئة ساقطة.

و یذکر المسعودی أن أسباب ثورة أهل المدینة کانت:جور یزید و عمّاله و ما عمّهم من ظلم و ما ظهر من فسقه من قتله ابن بنت رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و ما أظهر من شرب الخمور و سیره بسیرة فرعون.

و قد انتقم یزید من أهل المدینة،و أمر بإباحتها،فکانت مذبحة الحرّة التی قتل فیها أکثر من أربعة آلاف ممن أحصوا من بنی هاشم و سائر قریش و الأنصار و من سائر الناس.و قیل حتی أن الأقدام ساخت فی الدم.

و دعا مسلم بن عقبة-المسرف فی القتل و الدماء-الناس للبیعة علی أنهم خول لیزید بن معاویة یحکم فی دمائهم و أموالهم و أهلیهم ما شاء (2).

1- (1) السیر ج 4 ص 390.

2- (2) الطبری ج 7 ص 13. [1]

أو أن كل من استبقاه من الصحابة و التابعين على أنه عبد قن ليزيد،إلا الإمام على زين العابدين (1)و قد أورد ابن أبى الحديد ما ينافى الحقيقة،و يبدو أنها من جملة ما حواه و جمعه بدون تحقق و تدبر،فكانت بقية روايته للحادث نقلا عنه كتبة السلطان و مؤرخى الدولة الذين لا تهمّهم الحقائق،و لا يهتمون بالنظر إلى الحادثة فى إطار الواقع.

و أقرب الروايات و أصدقها تروى أن الإمام زين العابدين قد لاذ بقبر النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و هو يدعو.فأتى به إلى مسرف-و هو مغتاظ عليه-فتبرأ منه و من آبائه،فلما رآه و قد أشرف عليه ارتعد،و قام له،و أقعده إلى جانبه و قال له:«سلنى حوائجك».فلم يسأله فى أحد ممن قدّم إلى السيف إلا شفعه فيه،ثم انصرف عنه.فقيل لعلى:رأيناك تحرك شفيتك،فما الذى قلت؟قال:«قلت:اللهم ربّ السموات السبع و ما أظللن، و الأرضين السبع و ما أقللن،ربّ العرش العظيم،ربّ محمد و آله الطاهرين،أعوذ بك من شرّه،و أدرأ بك فى نحره،أسألك أن تواتينى خيره،و تكفينى شره».و قيل لمسلم:رأيناك تسبّ هذا الغلام و سلفه،فلما أتى به إليك رفعت منزلته؟فقال:ما كان ذلك لرأى منى،لقد ملئ قلبى منه رعبا (2).

و قد حرسته عين اللّه و رعته،و جعلت لهيبة الإمامة فى شخصه سلطة أقوى من سلطة الحكام.فهذا هشام بن إسماعيل المخزومى والى المدينة فى عهد عبد الملك كان يؤذى الإمام زين العابدين و يشتم عليا على المنبر و ينال منه،فلما ولى الوليد بن عبد الملك عزله و أمر به أن يوقف للناس.قال هشام:و اللّه ما أخاف إلا من على بن الحسين إنه رجل صالح يسمع قوله،فأوصى على بن الحسن أصحابه و مواليه و خاصته أن لا يتعرّضوا لهشام،ثم مرّ على فى حاجته فما عرض له،فناداه هشام و هو واقف للناس: اَللّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ (3).

و ردّد هذه الآية أيضا الزهرى لمّا قارف ذنبا.

قال له الإمام زين العابدين:«يا زهرى قنوطك من رحمة اللّه التى وسعت كل

1- (1) شرح نهج البلاغة ج 1 ص 306.

2- (2) مروج الذهب ج 3 ص 79 و 80. [1]

3- (3) الطبقات الكبرى لابن سعد ج 5 ص 219.و [2]تذكرة سبط ابن الجوزى ص 338. [3]

شیء أعظم من ذنبک».فقال الزهری: اَللّهُ أَعْلَمُ حَیْثُ یَجْعَلُ رِسالَتَهُ و کان یقول:علی بن الحسین أعظم الناس علیّ منه (1).

و الزهری أحد تلامیذ الإمام زین العابدین،و بسبب ذلک أصبحت له مکانة فی علم الحدیث حتی قال ابن أبی شیبة:أصحّ الأسانید(کلها)الزهری عن علی بن الحسین عن أبیه عن جدّه.

و لکن الأیام حملته إلی بلاط بنی أمیة،فأصبح من بطانة عبد الملک و من عاصرهم من الملوک من بعده.و ولاّه یزید بن عبد الملک القضاء،و کتب عمر بن عبد العزیز یوصی بالأخذ عنه.و یبدو أنه غلّب مقتضیات الدنیا علی واجبات الدین و العلم،فظهر منه بسبب علقته ببنی أمیة انحراف عن أهل البیت یتمثّل فی المجاراة و السکوت عن الظلم.و یروی عنه أنه فی بعض المواقف لم یذهب إلی مجاراة بنی أمیة فی تأویلهم القرآن و تلاعبهم به کما فی حادثة دخول سلیمان بن یسار علی هشام فقال له:یا سلیمان من الذی تولی کبره منهم؟یعنی قوله تعالی: وَ الَّذِی تَوَلّی کِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذابٌ عَظِیمٌ فقال ابن سلول:قال کذبت،بل هو علی،فدخل ابن شهاب فقال:یا ابن شهاب،من الذی تولی کبره؟قال ابن أبیّ.فقال له:کذبت بل هو علی.قال:أنا أکذب...؟الخ (2).

و لم یتأثر عن طریق الروایة للمضاهاة و للتمویه علی الحقیقة التی هی من أکبر حقائق الإسلام فی کون الإمام علی أول الناس إسلاما،فکان ابن شهاب و جماعة من المحدثین و العلماء یقولون:أول من أسلم من الرجال علی (3).

و الغرض أن الإمام زین العابدین تعقّب الزهری بالنصح و الإرشاد،فقد کتب إلیه رسالة یعظه فیها و یحذّره الحکام الذین استمالوه و قرّبوه لأغراضهم.و قد عکست الرسالة عمل الإمام زین العابدین علی تجرید الحکّام من المظاهر الدینیة.و اصطناع من عرف بالعلم و الروایة للتستر علی باطلهم و تمویه أفعالهم.

و مما جاء فی رسالة الإمام زین العابدین إلی الزهری:

1- (1) الطبقات الکبری لابن سعد ج 5 ص 214. [1]

2- (2) انظر تاریخ الإسلام للذهبی ج 5 ص 145 و 149. [2]

3- (3) انظر الاستیعاب لابن عبد البر بهامش الإصابة ج 3 ص 29. [3]

«کفانا اللّه و إیاک من الفتن،و رحمک من النار،فقد أصبحت بحال ینبغی لمن عرفک أن یرحمک،فقد أثقلتک نعم اللّه بما أصحّ من بدنک و أطال من عمرک،و قامت علیک حجج اللّه بما حمّلک من کتابه،و فقّهک فیه من دینه،و عرّفک فیه من سنّة نبیه، فانظر أی رجل تکون غدا إذا وقفت بین یدی اللّه،فسألک عن نعمه علیک کیف رعیتها...و لا تحسبنّ اللّه قابلا منک بالتعذیر،و لا راضیا منک بالتقصیر.هیهات هیهات..لیس کذلک أخذ علی العلماء فی کتابه إذ قال: لَتُبَیِّنُنَّهُ لِلنّاسِ وَ لا تَکْتُمُونَهُ .

و اعلم أن أدنی ما کتمت و أخفّ ما احتملت أن آنست وحشة الظالم،و سهّلت له طریق الغیّ بدنوک منه حین دنوت،و إجابتک له حین دعیت.فما أخوفنی بإثمک غدا مع الخونة.و أن تسأل عما أخذت بإعانتک علی ظلم الظلمة أنک أخذت ما لیس لک ممن أعطاک.و دنوت ممن لم یردّ علی أحد حقا و لم تردّ باطلا حین أدناک، و أحببت من حادّ اللّه.أو لیس بدعائه إیاک حین دعاک جعلوک قطبا أداروا بک رحی مظالمهم،و جسرا یعبرون علیک إلی بلایاهم،و سلّما إلی ضلالهم،داعیا إلی غیّهم سالکا سبیلهم،یدخلون بک الشک علی العلماء،و یقتادون بک قلوب الجهّال إلیهم، فما أقل ما أعطوک قدر ما أخذوا منک،و ما أیسر ما عمروا لک فکیف ما خربوا علیک؟ فانظر لنفسک فإنه لا ینظر إلیها غیرک،و حاسبها حساب رجل مسئول،و انظر کیف شکرک لمن غذّاک فی نعمه صغیرا أو کبیرا.فما أخوفنی علیک أن تکون کما قال اللّه تعالی فی کتابه: فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ (1)».

و لا یفوتنا أن ننوّه برسالة الحقوق التی اشتملت علی تصنیف دقیق و تبویب جامع لما یهمّ المرء من أمور دینه و دنیاه و مجتمعه و عائلته،و هی تتولی بیان علم الإمام زین العابدین،و نظرته إلی ما عهد إلیه فی ولایة الإمامة و الخلافة الکبری.کما تتولی (الصحیفة السجادیة)بیان طرق الانقطاع إلی اللّه و الاعتماد علی الخالق،و اللجوء إلی قوته،و إذا کانت الصحیفة(زبور آل محمد)فرسالة الحقوق(منهاج آل محمد)و هی من أکثر مآثر آل محمد حاجة إلی البیان و البحث.

و قد حفظ لنا التاریخ أقواله علیه السّلام التی یجد الناس علی مختلف مشاربهم فیها صورة الإمام الهادی و الخلیفة الداعی الذی ینظر إلی الوجود بمنظار العقیدة،و یصف الدنیا کما هی حقیقتها إذا ما تمکن الهدی من النفس و أسبغ علیها الإیمان أبراده.

1- (1) تحف العقول لابن شعبة. [1]

قال لجابر الجعفی:«یا جابر إنی لمحزون،و إنی لمشتغل القلب»قلت:و ما حزنک و ما شغل قلبک؟قال:«یا جابر،إنه من دخل قلبه صافی خالص دین اللّه، شغله عما سواه.یا جابر ما الدنیا،ما عسی أن تکون؟هل هو إلا مرکب رکبته،أو ثوب لبسته،أو امرأة أصبتها.یا جابر،إن المؤمنین لم یطمئنوا إلی الدنیا لبقاء فیها، و لم یأمنوا قدوم الآخرة علیهم،و لم یصمّهم عن ذکر اللّه ما سمعوا بآذانهم من الفتنة، و لم یعمهم عن نور اللّه ما رأوا بأعینهم من الزینة،ففازوا بثواب الأبرار.إن أهل التقوی أیسر أهل الدنیا مؤونة،و أکثرهم لک معونة،إن نسیت ذکّروک،و إن ذکرت أعانوک.قوّالین بحقّ اللّه،قوّامین بأمر اللّه.فانزل الدنیا کمنزل نزلت به و ارتحلت عنه،أو کمال أصبته فی منامک،فاستیقظت و لیس معک منه شیء،و احفظ اللّه فی ما استرعاک من دینه و حکمته» (1).

و یتتبع علیه السّلام أمراض المجتمع،و یعمل علی إصلاح العلاقات،و إقامة مودة بین النفوس.سمع رجلا یغتاب آخر فقال علیه السّلام:«إن لکل شیء إداما،و إدام کلاب النار الغیبة».و قال علیه السّلام:«نظر المؤمن فی وجه أخیه المؤمن للمودة و المحبة عبادة».و قال أیضا:«من کمال العقل کفّ الأذی،فإن فیه راحة للبدن آجلا و عاجلا».

و یحذّر علیه السّلام من العداوة:فیقول:«لا تعادینّ أحدا و إن ظننت أنه لا یضرّک».

إن الإمام زین العابدین باشر مرحلة الدعوة بعد مرحلة الثورة،و هو علی هدی من رسالته و بیّنة من أمره.و من یتوهم أن الأمر عدول عن الثورة و ترک للجهاد،فلیس له علم بأسرار الإمامة و مکاشفات الولایة،کالذی کان من عبّاد البصری عند ما لقی الإمام زین العابدین فی طریق مکة فقال له:

یا علی بن الحسین،ترکت الجهاد و صعوبته،و أقبلت علی الحج و لینه،و إن اللّه عز و جل یقول: إِنَّ اللّهَ اشْتَری مِنَ الْمُؤْمِنِینَ أَنْفُسَهُمْ وَ أَمْوالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ یُقاتِلُونَ فِی سَبِیلِ اللّهِ فَیَقْتُلُونَ وَ یُقْتَلُونَ -إلی قوله- وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِینَ ؟ فقال الإمام زین العابدین:«إذا رأینا هؤلاء الذین هذه صفتهم فالجهاد معهم أفضل من الحج».

1- (1) صفة الصفوة لابن الجوزی. [1]

و خلاصة القول،فإن الإمام زين العابدين الذى كان لا تبرح ذاكرته مأساة الطفّ،و يديم البكاء حتى قال:«إن يعقوب عليه السّلام بكى حتى ابيضت عيناه على يوسف،و لم يعلم أنه مات.و إنى رأيت بضعة عشر من أهل بيتى يذبحون فى غداة واحدة،فترون حزنهم يذهب من قلبى أبدا؟»يحمل أعباء الإمامة فى ظروف أدّت بالحكام إلى أن يرتكبوا جريمتهم النّكراء بحق أهل بيت النبى.و لمّا سئل:كيف أصبحت؟قال عليه السّلام:«أصبحنا فى قومنا بمنزلة بنى إسرائيل فى آل فرعون،يذبّحون أبناءنا،و يلعنون سيدنا و شيخنا على المنابر،و يمنعونا حقّنا» (1).

و لقد كانت فترة إمامته فترة صعبة و حرجة لم يتغير من السياسة شىء،بل إن المجازر اتسعت و طالت الحرمين،فيشكو بثّه و يدعو ربه:«حتى عاد صفوتك و خلفائك مغلوبين مقهورين مبتزّين يرون حكمك مبدّلا و كتابك منبوذا و فرائضك محرّفة عن جهات أشراعك،و سنن نبيك متروكة.اللهم العن أعداءهم من الأولين و الآخرين،و من رضى بفعالهم و أشياعهم و أتباعهم»و فى وسط ذلك كان عليه أن يمضى فى رسالته بالأمر بالمعروف و النهى عن المنكر،و يحدّث الناس بحديث جده.

فكانت فيما يهمّهم من أمور دينهم و أحكام شريعته،و تبصيرهم بالمصلحة و ما يعود عليهم بالنفع و البقاء.

و إذا كانت هذه الأوضاع التى يعيشها قد حالت دون أن يتّخذ حلقة،إذ كيف يتسنّى له العمل كالآخرين و هو مثقل بهذه الأعباء و الأحزان و الهموم،فإن مآثره فى الفكر و العمل كانت قدوة الصالحين،و أسوة الزهّاد المتعبّدين،و منهجه فى الحياة مثل للأئمة الطاهرين فى أن يكون الدين غاية الدعوة و العدل عمادها،فكانت وصيته إلى ولده،و وصيّه الإمام الباقر عليه السّلام:«يا بنى أوصيك بما أوصانى به أبى،فقد قال لى:

يا بنى إياك و ظلم من لا يجد عليك ناصرا إلا اللّه».

و من وصاياه لخليفته الإمام الباقر ما يزن به أصناف الناس،و يرسم صور تصرّفاتهم بميزان العاقل الحكيم و بريشة الخبير المفن.قال الإمام الباقر«أوصانى أبى قال:

لا تصحبنّ خمسة،و لا تحادثهم و لا ترافقهم فى طريق.قال:قلت:جعلت فداءک يا أبت من هؤلاء الخمسة؟

1- (1) تذكرة سبط ابن الجوزى. [1]

قال:لا تصبحنّ فاسقا،فإنه يبيعک بأكلة فما دونها.

قال:قلت:يا أبة،و ما دونها؟ قال:يطمع فيها ثم لا ينالها.

قال:قلت:يا أبة،و من الثانى؟ قال:لا تصحبنّ البخيل،فإنه يقطع بک فى ماله أحوج ما كنت إليه.

قال:قلت:يا أبة:و من الثالث؟ قال:لا تصحبنّ كذابا،فإنه بمنزلة السراب يبعد منک القريب،و يقرّب منک البعيد.

قال:قلت:يا أبة و من الرابع؟ قال:لا تصحبنّ الأحمق،فإنه يريد أن ينفعک فيضرّک.

قال:قلت:يا أبة و من الخامس؟ قال:لا تصحبنّ قاطع رحم،فإنى وجدته ملعونا فى كتاب اللّه فى ثلاث مواضع» (1).

و يروى أن نقش خاتمه عليه السّلام كان«علمت فأعمل»و كفى بذلک دلالة على سبيل العصمة و منهج الإمامة و بيان حاله من التقوى و الإيمان.

استشهد عليه السّلام مسموما بأمر من الوليد بن عبد الملک سنة 95 ه.

الإمام الباقر:

تولى الإمام الباقر الإمامة فى عصر قوة الدولة الأموية و امتداد سلطانها و شدّة نفوذها،و لم يمنعه ذلک من دعوته الدينية و عمله فى نشر تعاليم الإسلام و الاضطلاع بمهام الإمامة (2).بل اتجه إلى العلوم الدينية و الحثّ على التمسّک بالدين،و جعل لدعوته أسلوبا يظهر الحقائق التى حاول الأمويون إخفاءها.و لقد ازدحم العلماء على أبواب مدرسته و انتشروا فى الآفاق يحملون عنه أصدق الحديث.

1- (1) صفة الصفوة ج 2 ص 56 و 57. [1]

2- (2) عقدنا فى الجزء الثانى فصلا عن حياة الإمام الباقر(الإمام الصادق [2]فى ظل أبيه الباقر)ضمّ نبذا من سيرته،و إشارات إلى مدرسته و تلاميذه،و نتناول هنا بعض الأمور التى لم نتعرض لها،متحاشين التكرار و الإعادة إلا للضرورة.

و كان عصره يشهد بداية نشاط الآراء و الأقوال التى تعددت مصادرها و تباينت أغراضها،و أهل البيت فى صميم هذا النشاط موضع اهتمام القائمين به و الساعين إليه، لأنهم يريدون أن يكون للدين فى آرائهم ممسک و لأقوالهم مرجع،أو لأنهم من أهل الفرق و البدع الذين يرمون إلى التشكيک و الطعن،فقصده العلماء للسؤال و كشف الحقائق كعمرو بن عبيد،و الحسن البصرى و نافع مولى ابن عمر (1)و غيرهم ممن يطول ذكرهم.و لكن نورد هنا ما كان من عمرو بن عبيد-شيخ المعتزلة-عند ما و فد على الإمام الباقر عليه السّلام ليسأله لا لغرض طلب العلم،و إنما بوهم أن يفاجئ الإمام الباقر بما يعجز عن الإجابة عنه،فقال له عمرو:

جعلت فداک ما معنى قوله تعالى: أَ وَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ كانَتا رَتْقاً فَفَتَقْناهُما وَ جَعَلْنا ما هذا الرتق؟ قال الإمام الباقر:«كانت السماء رتقا لا تنزل القطر،و كانت الأرض رتقا لا تخرج النبات،ففتق اللّه السماء بالقطر،و فتق الأرض بالنبات»فانقطع عمرو،و مضى ثم عاد إليه فقال:

خبرنى عن قوله تعالى: وَ مَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوى ما غضب اللّه؟فقال له أبو جعفر عليه السّلام:«غضب اللّه تعالى عقابه.يا عمرو،و من ظن أن اللّه يغيره شىء فقد هلک».

و دخل عليه أعرابى،و قيل رجل من الخوارج-و لا فرق فهم من أشدّ الأعراب بعدا عن الدين-و قال له:هل رأيت اللّه حين عبدته؟فقال:«لم أكن لأعبد من لم أره».قال:فكيف رأيته؟قال:«لم تره الأبصار بمشاهدة العيان،و رأته القلوب بحقائق الإيمان،لا يدرک بالحواسّ،و لا يشبّه بالناس،معروف بالآيات،منعوت بالعلامات،لا يجوز فى القضيات.ذلک اللّه الذى لا إله إلا هو»فقال الأعرابى:اللّه أعلم حيث يجعل رسالته (2).

و مما يحسب الآن من أعمال مجيدة فى مجال الملک و تعريف مظاهر السلطان و سک العملة،فهو فى حقيقته يعود لإمامنا الباقر عليه السّلام.فعبد الملک بن مروان تعاطى العلم،و انخرط فى سلک الفقه و الرواية،حتى جاءته فرصة التحكّم و التسلّط، فتخلّى عن الحديث و ما يقتضيه تعاطى العلم من سمات دينية،و تحوّل إلى الدم

1- (1) انظر احتجاج الطبرسى.و البحار ج 4.و [1]الكافى فى احتجاجات الصادق.

2- (2) زهر الآداب ج 1 ص 77. [2]

و الظلم،و هو يستشعر منزلة أهل البيت و مكانتهم،فكان يلجأ إليهم فى أكثر الأمور التى تهمّه،و يبدو أن عداوته تدفعه إلى إخفاء ما يرجوه منهم،لأن التظاهر باللجوء إلى أهل البيت يسىء إليه كثيرا.لمّا كتب ملك الروم لعبد الملك بن مروان يتهدّده أن يذكر النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى الدنانير بما يكرهون،فعظم ذلك على عبد الملك،و استشار الناس فلم يجد عند أحد منهم رأيا (1)فقال له روح بن زنباع:إنك لتعلم المخرج من هذا الأمر.و لكنك تتعمد تركه.فقال:ويحك من؟فقال:عليك بالباقر من أهل بيت النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.قال:صدقت،و لكنه ارتجّ الرأى فيه.

فكتب إلى عامله بالمدينة:أن أشخص إلى محمد بن على بن الحسين مكرّما، و متّعه بمائة ألف درهم لجهازه،و بثلاثمائة ألف لنفقته،و أرح عليه فى جهازه و جهاز من يخرج معه من أصحابه.و حبس عبد الملك رسول ملك الروم إلى موافاة الإمام الباقر،فلما وافاه،أخبره الخبر.فقال له الإمام الباقر:«لا يعظم عليك،فإنه ليس بشىء من جهتين:

إحداهما:إن اللّه عز و جل لم يكن ليطلق ما تهدّد به صاحب الروم فى رسول اللّه عليه السّلام.

و الثانى:وجود الحيلة فيه».

قال:و ما هى؟ قال:«تدعو بصاغة،فيضربون بين يديك سككا للدراهم و الدنانير،و تجعل النقش عليها سورة التوحيد» (2).

و يتلبّس عبد الملك بما يصدر عن الإمامة،و يتطفّل على منهجها،و قد أشرنا إلى ذلك سابقا،و يستخدم عماله-عمال السوء و البغى- للاتصال بمقام أهل البيت و تلقّى ما يصدر عنهم للتظاهر به أو استعماله فى معالجة ما هم فيه.و قد مرّ بنا قبل قليل كيف فعل عبد الملك لمّا كتب ملك الروم يتوعّده،فضاق عليه الجواب.و كتب إلى الحجاج-و هو إذ ذاك على الحجاز-أن أبعث إلى على بن الحسين،فتوعّده و تهدّده،و أغلظ له.ثم أنظر ما ذا يجيبك،فاكتب به إلىّ.ففعل الحجاج ذلك،فقال

1- (1) شذور العقود للمقريزى ص 7.

2- (2) حياة الحيوان للدميرى ج 2 ص 55.و [1]المحاسن و المساوئ للبيهقى.و [2]العقد المنير ص 18. و هامش شذور العقود ص 7.

له على بن الحسين عليه السّلام:«إن للّه فى كل يوم ثلاثمائة و ستين لحظة،و أرجو أن يكفينيک فى أول لحظة من لحظاته»و كتب بذلک إلى عبد الملک.فكتب به إلى صاحب الروم كتابا فلمّا قرأه قال:ليس هذا من كلامه،هذا من كلام عترة نبى (1).

و القصد،أن رجال الحكم الأموى نظروا إليه نظرة تهيّب و تحفظ،و وقفوا أمام نشر تعاليمه و انتشار ذكره و عارضوها،لأن ذلک يهدّد ملكهم،فسلكوا كل سبيل للإساءة،و قد كان هشام بن عبد الملک من أكثرهم بغضا و أشدهم عداوة لآل البيت النبوى الكريم.

حج هشام بن عبد الملک،فدخل المسجد الحرام متكئا على يد سالم مولاه و الإمام الباقر جالس فى المسجد الحرام،فقال له سالم:يا أمير المؤمنين هذا محمد بن على بن الحسين عليهم السّلام.قال هشام:المفتون به أهل العراق؟قال:نعم.

قال:اذهب إليه فقل له:يقول لک أمير المؤمنين ما الذى يأكل الناس و يشربون إلى أن يفصل بينهم يوم القيامة؟فقال له الإمام أبو جعفر:«يحشر الناس على مثل قرص النقى،فيها أنهار متفجرة يأكلون و يشربون حتى يفرغ من الحساب»فرأى هشام أنه قد ظفر به،و إن فى ذلک فرصة لإشاعة حاله،لينفر عنه أهل العراق.فقال:اللّه أكبر، اذهب فقل له:يقول لک ما أشغلهم عن الأكل و الشرب يومئذ؟فقال له أبو جعفر عليه السّلام:«هم فى النار أشغل،و لم يشغلوا عن أن قالوا أَفِيضُوا عَلَيْنا مِنَ الْماءِ أَوْ مِمّا رَزَقَكُمُ اللّهُ .فسكت هشام (2).

و ليس أقبح من بذاءته و هو يتنمّر على الإمام الشهيد زيد بن على،و ينال من أخيه الإمام الباقر و يقول له:ما يصنع أخوک البقرة؟!.

فيجيبه الإمام زيد:سمّاه رسول اللّه الباقر،و تسمّيه البقرة؟لشد ما اختلفتما، لتخالفنّه فى الآخرة كما خالفته فى الدنيا،فيرد الجنّة و ترد النار (3).

و لما انصرف هشام من حجّه أنفذ إلى عامل المدينة بإشخاص الإمام الباقر و ولده الصادق،و أبقاهم ثلاثة أيام،و أذن لهم فى اليوم الرابع.و بقى على هذه السياسة التى تستهدف الإساءة و القضاء على الإمام الباقر.

1- (1) تاريخ ابن واضح ج 3 ص 47.

2- (2) الإرشاد و [1]الإتحاف.و [2]روضة الواعظين. [3]

3- (3) انظر طرق الحديث النبوى إلى جابر بن عبد اللّه الأنصارى:«يوشک أن تبقى،حتى تلقى ولدا لى من الحسين يقال له:محمد.يبقر العلم بقرا،فإذا لقيته فأقرأه منى السّلام»فى الجزء الثانى من الكتاب.

و لما بدرت من الحكّام الأمويين بادرة على يد عمر بن عبد العزيز، تغيّرت العلاقة بين السلطة و بين الأئمة.فنرى عمر بن عبد العزيز يطلب من الإمام الباقر أن يوصيه بما ينفعه فى آخرته و دنياه،فقال له عليه السّلام:«أوصيک أن تتخذ صغير المسلمين ولدا،و أوسطهم أخا،و أكبرهم أبا.فارحم ولدک،و صل أخاک،و برّ والدک.و إذا صنعت معروفا فربّه»(أى أدمه).

و دخل عمر بن عبد العزيز المدينة و اجتمع بالإمام الباقر عليه السّلام فأوصاه الإمام بقوله:

«إنما الدنيا سوق من الأسواق،يبتاع فيها الناس ما ينفعهم و ما يضرّهم،و كم قوم ابتاعوا ما ضرّهم فلم يصبحوا حتى أتاهم الموت فخرجوا من الدنيا ملومين،و لما لم يأخذوا ما ينفعهم فى الآخرة.فقسّم ما جمعوا لمن لم يحمدهم،و صاروا إلى من لم يعذرهم.فنحن و اللّه حقيقون أن ننظر إلى تلک الأعمال التى نتخوف عليهم منها، و اتق فى نفسک اثنتين:إلى ما تحب أن يكون معک إذا قدمت على ربک فقدّمه بين يديک.و انظر إلى ما تكره أن يكون معک إذ قدمت على ربک فارمه وراءک.و لا ترغبنّ فى سلعة بارت على من كان قبلک فترجو أن يجوز عنک.و افتح الأبواب و سهّل الحجاب و أنصف المظلوم و ردّ المظالم.ثلاثة من كن فيه استكمل الإيمان باللّه:من إذا رضى لم يدخله رضاه فى باطل،و من إذا غضب لم يخرجه غضبه من الحق،و من إذا قدر لم يتناول ما ليس له».

و لقد كانت فترة عمر بن عبد العزيز يقظة و عى بما ألمّ بالأمة من جور الأمويين و ما لحق بالمسلمين بفعل ظلمهم،حاول فيها أن يضفى على سلطان بنى أبيه شيئا من أبراد التقى و أثواب الدين،و لكن هيهات له ذلک،لأن أساس الملک قائم على الظلم، و تاريخ بنى أمية بعمومه تاريخ شذوذ و انحراف،و لكن الأيام حفظت لعمر بن عبد العزيز ما رفع من سنّتهم السيئة،و ما بدر منه من عدل.

أما الإمام الباقر عليه السّلام فقد أفاض على ابن عبد العزيز من إشراق الإمامة و معين الخلافة الكبرى،فأعطاه تلک الصورة الرائعة عن الحكم و سياسة الرعية،و الإمام أدرى بأن عمر لا يحقق ما يوصيه به لأسباب كثيرة.

و الإمام الباقر فى إمامته و منزلته بين شيعته،يعمل بمنهج الدعوة فى التفريق بين

السلطان الزمنی و السلطة الروحیة فی الإمامة.روی الصدوق بسنده عن جابر عن الإمام الباقر عن أبیه علیهم السّلام أنه قال:«إذا کان أول یوم من شهر شوال نادی مناد:أیها المؤمنین اغدوا إلی جوائزکم»ثم قال أبو جعفر علیه السّلام:«یا جابر،جوائز اللّه عز و جل لیست کجوائز هؤلاء الملوک».و روی أیضا بسنده عن عبد اللّه بن سنان عن الإمام الباقر أنه قال:«یا عبد اللّه ما من عید للمسلمین أضحی و لا فطر،إلا و هو یجدّد لآل محمد فیه حزن»قال:قلت:و لم؟قال:«لأنهم یرون حقهم فی ید غیرهم» (1).

و لقد انضم إلی الإمام الباقر من التابعین و غیرهم رجال من الثقات و العلماء و الفقهاء ممن احتج بهم رجال الصحاح الستة،و أجمعوا علی تقدمهم و شهرتهم (2)و أصبح لأصحاب الإمام الباقر منزلة و أثر فی الحیاة العلمیة یومئذ،و کان الإمام یوجّههم لإفتاء الناس،فکان یقول لأبان بن تغلب:«إنی أحب أن أری فی شیعتی مثلک»بعد أن أمره أن یجلس فی مسجد المدینة و یفتی الناس.

و ازدهرت مدرسة الإمام الباقر بفکره علیه السّلام و توجیهه،إذ جذب علمه الرجال من مختلف الأقطار الإسلامیة،و توجه إلی مدرسته الرواة.ینقل سبط ابن الجوزی عن ابن سعد:کان(الإمام الباقر)عالما عابدا ثقة،روی عنه الأئمة أبو حنیفة و غیره.قال أبو یوسف:قلت لأبی حنیفة:لقیت محمد بن علی الباقر؟فقال:نعم،و سألته یوما فما رأیت جوابا أفخم منه.و قال عطاء:ما رأیت العلماء عند أحد أصغر علما منهم عند أبی جعفر،لقد رأیت الحکم عنده کأنه(عصفور)مغلوب،و یعنی بالحکم:

الحکم به عیینة،و کان عالما نبیلا جلیلا فی زمانه (3).و فی روایة:رأیت الحکم عنده کأنه متعلم (4).و یقول القندوزی:قال بعضهم:ما رأیت العلماء کانوا أقل علما إلا عند الإمام الباقر.

و یبین الإمام علیه السّلام کیف تکون النسبة بین مقومات الشخصیة العلمیة فیقول:

«إنی لأکره أن یکون مقدار لسان الرجل فاضلا علی مقدار علمه،کما أکره أن یکون مقدار علمه فاضلا علی مقدار عقله» (5).

1- (1) من لا یحضره الفقیه ج 2 ص 62.

2- (2) انظر تلامذة الإمام الباقر و رواة حدیثه فی الجزء الثانی.

3- (3) تذکرة الخواص ص 347. [1]

4- (4) البدایة و النهایة ج 9 ص 311. [2]

5- (5) شرح ابن أبی الحدید ج 2 ص 191. [3]

و خلاصة القول:إن علم الإمام الباقر و عظيم منزلته الدينية جعلا منه قائدا روحيا اتجهت إليه الأنظار و مالت إليه القلوب،فاحتل منها ذلک المكان السامی و المنزلة الرفيعة.و قد احتفظ لنا التاريخ بكثير من تراثه الفكری،فقد كان يفيض على سامعيه من الخواطر و الحكم متوجها بالنصح و الإرشاد لمجتمعه.

و قد كان عليه السّلام يؤدب أصحابه بآداب الإسلام و يحثّهم على الطاعة و مكارم الأخلاق.فمن وصيته لجابر الجعفی:«و اعلم أنک لا تكون لنا وليا حتی لو اجتمع عليک أهل مصرک و قالوا:إنک رجل سوء.لم يحزنک ذلک.و لو قالوا أنک رجل صالح.لم يسرّک ذلک.و لكن أعرض نفسک على كتاب اللّه،فإن كنت سالكا سبيله زاهدا فی تزهيده راغبا فی ترغيبه خائفا من تخويفه فاثبت و أبشر.فإنه لا يضرک ما قيل فيک»و قد مرّ ذكرها فی الجزء الثانی.

و ينبه عليه السّلام اتباعه إلى جوهر التشيع و معدن الولاء لأهل البيت كما فی رواية جابر عن أبی عبيدة الحذّاء قال عليه السّلام:«تتجافی جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا و طمعا.لعلک ترى أن القوم لم يكونوا ينامون؟»قال:قلت:اللّه و رسوله أعلم.قال:فقال:«لا بد لهذا البدن من أن تريحه حتی يخرج نفسه،فإذا خرج النفس استراح البدن و رجع الروح فيه قوة على العمل،فإنما ذكرهم تتجافی جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا و طمعا أنزلت فی أمير المؤمنين عليه السّلام و أتباعه من شيعتنا،ينامون فی أول الليل،فإذا ذهب ثلثا الليل أو ما شاء اللّه،فزعوا إلى ربهم راغبين مرهبين طامعين فيما عنده،فذكرهم اللّه فی كتابه،فأخبرک اللّه بما أعطاهم أن أسكنهم فی جواره،و أدخلهم فی جنته،و آمن خوفهم،و أذهب رعبهم» قال قلت:جعلت فداک،إن أنا قمت فی آخر الليل أی شیء أقول إذا قمت؟قال:

«قل الحمد للّه رب العالمين،و الحمد للّه الذی يحيی الموتی و يبعث من فی القبور.

فإنک إذا قلتها ذهب عنک رجز الشيطان و وسواسه إن شاء اللّه».

و يتحسّس ظروف الإرهاب الأموی و أصناف البلاء و ألوان الرعب التی خيّمت على قلوب محبی أهل البيت بعد سياسة معاوية و يزيد و بقية الأمويين فيقول:«إن اللّه يلقی فی قلوب شيعتنا الرعب.فإذا قام قائمنا و ظهر مهديّنا كان الرجل منهم أجرأ من ليث و أمضی من سيف».و ذلک ليجعل أمر الحكام الظلمة غير دائم،و أن الإمامة نظامها سماوی مبشّر به من النبی الأعظم و يقول:الإيمان ثابت فی القلب،و اليقين

خطرات،فيمرّ اليقين بالقلب فيصير كأنه زبر الحديد و يخرج منه،فيصير كأنه خرقة بالية،و ما دخل قلب عبد شيء من الكبر إلا نقص من عقله بقدره أو أكثر منه» (1).

و قال عليه السّلام:«اصبر للنوائب،و لا تتعرض للحقوق،و لا تعط أحدا من نفسك ما ضرّه عليك أكثر من نفعه» (2).

و يتصدّى لمهماته و قيامه بالدعوة لأن اللّه عز و جل قال: فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ فيقول عليه السّلام:«نحن أهل الذكر».

و قال عليه السّلام:«شيعتنا من أطاع اللّه عز و جل و أتقاه».لكنه عليه السّلام يبين شرط هذه الطاعة،فيقول صلوات اللّه عليه:«أما لو أن رجلا قام ليله و صام نهاره و تصدق بجميع ماله و حج جميع دهره و لم يعرف ولاية ولى اللّه فيواليه و تكون جميع أعماله بدلالته ما كان له على اللّه حق فى ثوابه و لا كان من أهل الإيمان»و قال عليه السّلام:

«إياكم الخصومة فإنها تفسد القلب،و تورث النفاق».

لقد كان الإمام الباقر يبنى النفوس بالإيمان و يربيها على تعاليم الإسلام،و يوجه الأنظار إلى حق الإمامة و سلطة الخلافة الكبرى الدينية التى تقوم على القاعدة الدينية و الأصول الشرعية.

روى عنه عليه السّلام أن قوما أقبلوا من مصر،فمات رجل فأوصى إلى رجل بألف درهم للكعبة،فلما قدم مكة سأل عن ذلك،فدلوه على بنى شيبة،فأتاهم،فأخبرهم الخبر،فقالوا:قد برئت ذمتك ادفعها إلينا.فقام الرجل فسأل الناس،فدلوه على الإمام الباقر.قال الإمام عليه السّلام:«فأتانى فسألنى،فقلت له:إن الكعبة غنية عن هذا، انظر إلى من أمّ هذا البيت و قطع،أو ذهبت نفقته،أو ضلّت راحلته،أو عجز أن يرجع إلى أهله فادفعها إلى هؤلاء الذين سمّيت لك»قال:فأتى الرجل بنى شيبة، فأخبرهم بقول الإمام عليه السّلام فقالوا:هذا ضال مبتدع،ليس يؤخذ عنه،و لا علم له، و نحن نسألك بحق هذا البيت و بحق كذا و كذا لما أبلغته عنّا هذا الكلام.قال:فأتيت أبا جعفر محمد عليه السّلام فقلت له:لقيت بنى شيبة فأخبرتهم،فزعموا أنك كذا و كذا، و أنك لا علم لك.ثم سألونى باللّه العظيم لما أبلغك ما قالوا.قال:«و أنا أسألك بما سألوك لما أتيتهم فقلت لهم:إن من علمى لو وليت شيئا من أمور المسلمين لقطعت

1- (1) البداية و النهاية. [1]

2- (2) تاريخ ابن واضح.

أيديهم، ثم علقتها فى أستار الكعبة، ثم أقمتهم على المصطبة، ثم أمرت مناديا ينادى:ألا إن هؤلاء سرّاق اللّه فاعرفوهم».

ثم تأتى مرحلة الدعوة فى عهد الإمام الصادق بعد أن تولى الإمامة و تبوء مكان الزعامة بعد مرافقة للإمامة فى أحداثها، و إعداد لدوره و عهده فى ظلالها. و قد مرّ بنا فى أجزاء الكتاب السابقة فصول من حياته عليه السّلام، و علمنا اتجاهه إلى حفظ شريعة الإسلام و دعوته إلى التمسّک بأحكام الدين. و قد تلقى الإمام الصادق انتقال الإمامة إليه و هو يمتلک تجربة غنية و دراية تامة بطبيعة الأحداث و تصاريف الأيام، فظهرت حكمته و بدت حنكته، و قد كانت أيام حياته من أشدّ الأيام صعوبة و هو يتحمل أعباء الدعوة و يقوم بواجبات الإمامة، كان فيها التحوّل السياسى من جهة إلى جهة، و كان فيها النمو الفكرى و اتساع الخلاف، و علو موجات الآراء المقالات، و كان فيها إيغال الحكام الجدد بدماء آل البيت و اضطراب أنحاء البلاد الإسلامية. إلى غيرها من الظروف، و ما انطوت عليه من محن و مآزق و معتركات.

روى الشيخ المفيد بسنده عن أبى الصباح الكنانى قال:نظر أبو جعفر عليه السّلام إلى ابنه أبى عبد اللّه عليه السّلام فقال:«ترى هذا، هذا من الذين قال اللّه عز و جل:

وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِى الْأَرْضِ وَ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَ نَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ ».

و الإمام الصادق هو السادس من الذين يخلفون النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم على أمور شريعته و حفظ رسالته، و الذين أخبر النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عنهم بطرق أهل السنّة أنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال:«فى كل خلف من أمتى عدول من أهل بيتى، ينفون عن هذا الدين تحريف الضالين، و انتحال المبطلين، و تأويل الجاهلين. ألا و إن أئمتكم وفدكم إلى اللّه عز و جل، فانظروا من توفدون» (1). و إلى جانب النص على إمامته و الوصية، فقد كان الإمام الصادق أعلم أهل زمانه و أجلّهم قدرا و أعلاهم منزلة، فاختص بالقيام بالنظر فى مصالح المسلمين الدينية، و قد رأينا أنه عاش فى صميم الأحداث و الوقائع التى مرّت بأهل البيت عليهم السّلام و وعى وجوهها و طابعها الذى كانت عليه. فأحاط بالأخبار و تزوّد بالآثار، فكان كل قول منه عن علم مسبق، و كل أمر سار عليه يعلم ما يقضى إليه كأن العواقب ترتسم فى مرآة أمامه.

1- (1) الصواعق المحرقة لابن حجر ص 90. [1]

فكان أن اتجه إلى محاربة الظالمين،و سار على هدى الإمامة و نهج آبائه فى الدعوة إلى أحكام القرآن و تعاليم الإسلام فى المودة و العدل و مكارم الأخلاق.

فأمر الإمام الصادق بعدم التعاون مع حكام الظلم و الانحراف.فقال:«العامل بالظلم و المعين له و الراضى به شركاء».

و سأله رجل من أصحابه عن البناء لهم و كراية النهر؟فأجابه عليه السّلام:«ما أحبّ أن أعقد لهم عقدة،أو وكيت لهم وكاء و لا مدّة بقلم،إن أعوان الظلمة يوم القيامة فى سرادق من نار حتى يحكم اللّه بين العباد» (1).

و سئل عليه السّلام عن رجلين من أصحابه يكون بينهما منازعة فى دين أو ميراث، فتحاكما إلى السلطان أو إلى القضاء،أ يحلّ ذلك؟فقال عليه السّلام:«من تحاكم إلى الطاغوت فحكم له،فإنما يأخذ سحتا و إن كان حقه ثابتا،لأنه أخذ بحكم الطاغوت و قد أمر أن يكفر به».قيل:كيف يصنعان؟قال عليه السّلام:«انظروا إلى من كان منكم قد روى حديثنا،و نظر فى حلالنا و حرامنا،و عرف أحكامنا،فارضوا به حكما؛فإننى قد جعلته عليكم حاكما،فإذا حكم بحكمنا فلم يقبله منه،فإنما بحكم اللّه استخفّ، و علينا ردّ،و الرادّ علينا كالراد على اللّه» (2).

و سئل عليه السّلام عن قاض بين قريتين يأخذ من السلطان على القضاء الرزق؟ فقال:«ذلك السحت» (3).

و يتكلم عليه السّلام بسلطة الولاية و الخلافة الدينية التى اختص بها،فيقول فى حديثه لعمّار بن أبى الأحوص عن الإسلام و إنه وضع على سبعة أسهم،و قد مرّ ذكره عند الحديث عن سيرته عليه السّلام فى أول هذا الجزء فقال فى آخره:«فلا تخرقوا بهم،أ ما علمت أن إمارة بنى أمية كانت بالسيف و العسف و الجور،و إن إمامتنا بالرفق و التآلف و الوقار و التقية و حسن الخلطة و الورع و الاجتهاد،فرغّبوا الناس فى دينكم و فيما أنتم فيه» (4).

1- (1) راجع الجزء الثانى،فصل:الإمام الصادق مدرسته و تعاليمه.

2- (2) الوسائل [1]صفات القاضى ج 18 و الاحتجاج للطبرسى ج 2. [2]

3- (3) الوسائل. [3]

4- (4) المواعظ العددية.

و الإمام الصادق فی دعوة الإمامة یعطی لنهج الدعوة مجالا فی التطبیق هیأته شهرة الإمام العلمیة،و إقبال الناس علیه،و تأثر المجتمع به لینشأ مجتمع الإمامة بخصائصه.عن محمد بن علی الحلبی قال:استودعنی رجل من موالی بنی مروان ألف دینار،فغاب فلم أدر ما أصنع بالدنانیر،فأتیت أبا عبد اللّه الصادق علیه السّلام فذکرت ذلک له و قلت:أنت أحق بها.فقال:«لا،لأن أبی کان یقول:إنما نحن فیهم بمنزلة هدنة،نؤدی أمانتهم،و نردّ ضالّتهم،و نقیم الشهادة لهم و علیهم،فإذا تفرّقت الأهواء لم یسع أحد المقام» (1).

و یرد ذلک فی مورد التأکید علی أداء الأمانات،فیظهر فی سیاقها خصائص مجتمع الإمامة و سمات الدعوة.و نحوها روایة الحسین الشیبانی أنه قال للإمام الصادق:إن رجلا من موالیک یستحلّ مال بنی أمیة و دماءهم،و أنه وقع له عنده ودیعة؟فقال علیه السّلام:«أدّوا الأمانات إلی أهلها و إن کانوا مجوسا،فإن ذلک لا یکون حتی یقوم قائمنا فیحلّ و یحرّم».لأن ذلک من حقوق الأشخاص،و یندرج فی باب الأمانة التی یجب الحرص علیها لضمان الأمن فی المجتمع،أما الأعمال التی تتعلق بالعدل و لها مساس بمصلحة المجتمع،فتکون من الحقوق العامة،و أمرها إلی الإمام الصادق یحکم فیها بحکم الدین.

و یبین الإمام الصادق ولایته فیقول:«الناس کلهم یعیشون فی فضل مظلمتنا،إلا أنّا أحللنا شیعتنا من ذلک» (2).

و عن عمر بن أذینة قال:رأیت أبا سیار مسمع بن عبد الملک بالمدینة،و قد کان حمل إلی أبی عبد اللّه علیه السّلام مالا فی تلک السنة فردّه علیه،فقلت له:لم ردّ علیک أبو عبد اللّه علیه السّلام المال الذی حملته إلیه؟فقال:إنی قلت له حین حملت إلیه المال:إنی کنت ولیت الغوص،فأصبت أربعمائة ألف درهم،و قد جئت بخمسها ثمانین ألف درهم،و کرهت أن أحبسها عنک،أو أعرض لها و هی حقک الذی جعله اللّه لک فی أموالنا؟فقال:«و مالنا من الأرض و ما أخرج اللّه منها إلا الخمس؟یا أبا سیّار،الأرض کلها لنا ما أخرج اللّه منها من شیء فهو لنا»قال قلت له:أنا أحمل

1- (1) تذکرة الفقهاء للعلامة الحلی-کتاب الأمانات. [1]

2- (2) من لا یحضره الفقیه للشیخ الصدوق.

إلیک المال کله.فقال لی:«یا أبا سیّار قد طیّبناه لک،و أحللناک منه،فضمّ إلیک مالک،و کلّ ما فی أیدی شیعتنا من الأرض فهم فیه محلّلون،و یحلّ لهم ذلک إلی أن یقوم قائمنا»ا ه.

و تمضی الإمامة علی عهد جعفر بن محمد الصادق فی إقامة سلطانها الروحی و مجتمعها الدینی،و ینتصب الإمام فی وسط عالم ینوء بالجور و أفعال الطغاة،یتصرف بما أوجبته الأحکام من حقوق للولایة الدینیة و الإمامة الشرعیة،و فیما هو حق للإمام.

عن عبد العزیز بن نافع قال:

طلبنا الإذن علی أبی عبد اللّه علیه السّلام و أرسلنا إلیه،فأرسل إلینا:«ادخلوا اثنین اثنین»فدخلت أنا و رجل معی،فقلت للرجل:أحب أن تستأذنه بالمسألة،فقال:

نعم.فقال له:جعلت فداک:إن أبی کان ممن سباه بنو أمیة،و قد علمت أن بنی أمیة لم یکن لهم أن یحرّموا و لا یحللوا،و لم یکن لهم مما فی أیدیهم قلیل و لا کثیر،و إنما ذلک لکم،فإذا ذکرت الذی کنت فیه دخلنی من ذلک ما یکاد یفسد علیّ عقلی.ما أنا فیه؟فقال له علیه السّلام:«أنت فی حلّ مما کان من ذلک،و کلّ من کان فی مثل حالک من ورائی فهو فی حلّ من ذلک»قال:فقمنا و خرجنا،فسبقنا معتّب (1)إلی النفر القعود الذین ینتظرون إذن أبی عبد اللّه علیه السّلام فقال لهم:قد ظفر عبد العزیز بن نافع بشیء ما ظفر بمثله أحد قط.فقیل له:و ما ذاک؟ففسّره لهم.فقام اثنان،فدخلا علی أبی عبد اللّه علیه السّلام فقال أحدهما:جعلت فداک،إن أبی کان من سبایا بنی أمیة، و قد علمت أن بنی أمیة لم یکن لهم من ذلک قلیل و لا کثیر،و أنا أحب أن تجعلنی من ذلک فی حلّ؟فقال:«و ذلک إلینا؟»ما ذلک إلینا،مالنا أن نحلّ و لا أن نحرّم.فخرج الرجلان،و غضب أبو عبد اللّه علیه السّلام فلم یدخل علیه أحد فی تلک اللیلة إلا بدأه أبو عبد اللّه علیه السّلام فقال:«أ لا تعجبون من فلان،یجیئنی فیستحلّنی من ما صنعت بنو أمیة،کأنه یری أن ذلک إلینا!».و لم ینتفع أحد فی تلک اللیلة بقلیل و لا کثیر إلا الأوّلین،فإنهما عنیا بحاجتهما.و ذلک لأن الأوّلین کانا قد سئلا فیما هو من حق الإمام و ما یقع فی باب ما أوجبه اللّه للقائمین بالأمر من أهل بیت النبوة.

و من عموم الأخبار،یبدو لنا بوضوح أن الإمام الصادق وضع السلطة الروحیة

1- (1) أحد الموالی القائمین بخدمة الإمام الصادق،روی عنه الأصحاب،و هو ثقة.

التی تقوم علی الإیمان بالعقیدة فی مواجهة کیان الملک و السلطان الزمنی الذی یتلبّس بالدین،و یدّعی الولایة معتمدا علی زبانیة الجور و لعقة الصحون ممن یتزیّون بزی الفقه و لباس العلم،و لهذا کان الإمام الصادق ینبه علی أولئک الذین یرتضون لأنفسهم أن یکونوا بالمحل الذی نبّه علیه جدّه الإمام السجاد فی رسالته إلی الزهری و هو فی ظل الأمویین.

یذکر هشام بن عباد أنه سمع الإمام الصادق یقول:«الفقهاء أمناء الرسل،فإذا رأیتم الفقهاء قد رکنوا إلی السلاطین فاتهموهم» (1).و قد یحسب الذهبی نفسه قد أتی بشیء بقوله:مناقب جعفر کثیرة،و کان یصلح للخلافة لسؤدده و فضله و علمه و شرفه.

فذلک ما علیه النص،و ما تواترت به الروایات،إلا أنها الخلافة الکبری فی الدین، و لیست خلافة الملک و القوة،تلک الخلافة التی فیها دوام الرسالة و بقاء الدعوة،و لها هیئاتها و رجالها من أهل العلم و الفقه الذین یعظم أمر انحرافهم علی الأئمة،و رکونهم إلی الطغاة،لأن سلطان الدین لسعادة البشریة و رعایة مصالح الأمة و دفع الضرر عنها، فحرص الأئمة علیهم السّلام علی إبعاد شئون الدین من علم وفقه و حدیث و سائر وجوه الکیان الروحی للإسلام عن السلطان القائم علی القهر و انتهاک الحرمات.

إنه علیه السّلام أدار إمامته علی قواعد الإصلاح و الإرشاد و إقامة مجتمع دینی مستقل بروحیته عن مبادئ السیاسیة و قیم الملک الدنیوی،لا یتصل بالسلطان الزمنی إلا ـ بقدر الضرورة أو تحت تأثیراتها.و أراد أن یکون القضاء بحکم اللّه بین شیعته و مریدیه،و ینأی عن دواوین الحکّام و عمّال الملوک الذین یندر فیهم وجود من یلتزم الحق و لا یغلّب مصلحته الشخصیة علی مصالح الناس.فراح یقول علیه السّلام- کما مر بنا قبل قلیل-:«من تحاکم إلیهم فی حق أو باطل،فإنما تحاکم إلی الجبت و الطاغوت المنهی عنه،و من أمر اللّه أن یکفر به».

و جعل علیه السّلام من المتخاصمین من کان قد روی حدیث أهل البیت و نظر فی حلالهم و حرامهم و عرف أحکامهم هو الحکم و قال:«فلیرضیا به حکما،فإنی قد جعلته علیهم حاکما»و أن الحکم ما حکم به أعدلهما و أفقههما،و أصدقهما فی الحدیث و أورعهما،فإن لم یتیسر للمتخاصمین،و هما علی صفة الولاء للإمام و التعلّق

1- (1) الذهبی:تاریخ الإسلام ج 6 ص 48. [1]

بحبل ولايته،و لم يظهر لهما ممسک يقدم لهما الحکم،فيأمرهما الإمام بالتوقف عنده حتى يلقيا الإمام،فإن الوقوف عند الشبهات خير من الاقتحام فى الهلکات.

و لم ترهب الإمام الصادق عليه السّلام عداوات الحکام و الإحن الحى تملأ نفوسهم،و قام بمسئوليته فى أداء الرسالة و توجيه الأمة إلى ما فيه خيرها و سعادتها.

فانقادت إليه النفوس،و آمنت بإمامته،فکان اتجاه الناس إلى حضرته لا يقارن به تهافت العامة على أبواب الحکام،بل تسمو العلاقة عن مثل هذا الانحدار،و الأمر واضح بين الاتجاهين بفروقهما،فمع الإمام دين و تقوى،و مع الحکام دنيا و طمع.

قال إسحاق بن إبراهيم:کنت عند أبى عبد اللّه الصادق عليه السّلام إذ دخل عليه رجل من خراسان فقال:يا ابن رسول اللّه،أنا من مواليکم،و بينى و بينکم شقّة بعيدة،و قد قلّ ذات يدى،و لا أقدر أن أتوجه إلى أهلى،أ لا أن تعينونى؟فنظر أبو عبد اللّه و قال:«أ ما تسمعون ما يقول أخوکم؟إنما المعروف ابتداء،فأما ما أعطيت بعد ما سأل؛إنما هو مکافأة لما بذل من ماء وجهه،أ فيبيت ليلته متأرّقا متململا بين اليأس و الرجاء،لا يدرى أين يتوجه بحاجته فيعزم على القصد إليک،فأتاک و قلبه يجب، و فرائصه ترتعد،و قد نزل دمه فى وجهه،و بعد هذا فلا يدرى أ ينصرف من عندک بکآبة الرد،أم بسرور النجح،فإن أعطيته رأيت أنک قد وصلته،و قد قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:

و الذى فلق الحبة،و برأ النسمة،و بعثنى بالحق نبيا لما يتجشّم من مسألته إياک أعظم مما ناله من معروفک».

و على أى حال،فإن سلطان الإمامة أصبح له کيان روحى معروف يقصده الناس من کل الأقطار،و تؤمن من کل البلدان.يروى عبد الرحمن بن سيّابة:لما هلک أبى سيابة،جاء رجل من إخوانه إلىّ فضرب الباب على،فخرجت إليه،فعزّانى و قال:

هل ترک أبوک شيئا؟فقلت له:لا.فدفع إلىّ کيسا فيه ألف درهم و قال لى:أحسن حفظها و کل فضلها.فدخلت على أمى و أنا فرح،فأخبرتها،فلما کان بالعشى أتيت صديقا کان لأبى فاشترى لى بضائع سابرى،و جلست فى حانوت،فرزق اللّه فيها خيرا کثيرا.و حضر الحج،فوقع فى قلبى،فجئت إلى أمى و قلت لها:قد وقع فى قلبى أن أخرج إلى مکة.فقالت لى:فردّ دراهم فلان عليه فهاتها،و جئت بها إليه،فدفعتها إليه فکأنى وهبتها له فقال:لعلک استقللتها فأزيدک؟قلت:لا،و لکن قد وقع فى قلبى الحج فأحببت أن يکون شيئک عندک.ثم خرجت و قضيت نسکى.ثم رجعت إلى المدينة فدخلت مع الناس على أبى عبد اللّه عليه السّلام و کان يأذن إذنا عاما،فجلست فى

مآخير الناس و كنت حـدثا،فأخذ الناس يسألونه و يجيبهم،فلما خفّ الناس أشار إلىّ، فدنوت إليه،فقال لى:«أ لک حاجة؟»فقلت له:جعلت فداک،أنا عبد الرحمن بن سيّابة.فقال لى:«ما فعل أبوک؟»فقلت:هلک.قال:فتوجّع و ترحّم،ثم قال لى:

«أ فترک شـيئا؟»قلت:لا.قـال:«فمن أين حججت؟»قـال:فابتـدأت فحـدثته بقصـة الرجـل،فما تركنى أفرغ منها حتى قال لى:«فما فعلت فى الألف؟»قلت:رددتها على صاحبها،فقال لى:«قد أحسـنت».و قال لى:«إلا أوصيک؟».قلت:بلى جعلت فداک،قال«عليک بصدق الحديث و أداء الأمانة»الرواية...

قال أبو ربيع الشامى:دخلت على أبى عبـد اللّه عليه السّ لام و البيت غاصّ،فيه الخراسانى و الشامى و من أهل الآفاق،فلم أجد موضـعا أقعد فيه،فجلس أبو عبـد اللّه متكئا ثم قال:«يا شـيعة آل محمد،إنه ليس منّا من لم يملک نفسه عند غضـبه،و من لم يحسن صـحبة من صـحبه،و مخالفة من خالفه،و مرافقة من رافقه.يا شيعة آل محمد، اتقوا اللّه ما استطعتم،و لا حول و لا قوة إلا باللّه العظيم».

و القصـد هنـا من تقـديم الروايتين بيـان اتجاه الأنظار إلى الإمام الصادق و مـدى اتساع دعوته و إقبال الناس عليه،و هو يتمتع بكيان روحى يفوق فى تأثيره سـلطان القوة و نفوذ الحكم،و هو عليه السّ لام يعيّن خصائص هـذا الكيان المسـتقل و الـذى يشـتمل على الوجود العلمى لمدرسـته،و على النشاط الفكرى لجماعته،و يبيّن اسـتقلالها و تفرّدها عن الحكام بالمصدر و المضـمون.قال أبو بصـير:سمعت أبا عبد اللّه الصادق يقول:

«اتقوا اللّه،و عليكم بالطاعة لأئمتكم،قولوا ما يقولون،و اصـمتوا عمّا صمتوا،فإنكم فى سلطان من قال اللّه تعالى: وَ إِنْ كانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبالُ فاتقوا اللّه، فإنكم فى هدنـة،صـلّوا فى عشائرهم،و اشـهدوا جنائزهم،و أدّوا الأمانة إليهم،و عليكم بحج البيت؛فإن فى إدمانكم الحج دفع مكاره الدنيا عنكم و أهوال يوم القيامة».

ثم يصف الإمـام الصادق الطوائف التى يختلف عنها و ينفصل اتجاهه عن اتجاهها و يقول:«إنى لأرجو النجاة لهـذه الأمـة لمن عرف حقنا منهم إلا لأحد ثلاث:

صاحب سلطان جائر،و صاحب هوى،و الفاسق المعلن.

أمـا توجيهاته عليه السّ لام و وصاياه لأصـحابه فمنها:«اجعلوا أمركم هـذا للّه و لا تجعلوه للناس،فإنه ما كان للّه فهو للّه،و ما كان للناس فلا يصعد إلى السماء،و لا

تخاصموا بدينكم،فإن المخاصمة ممرضة للقلب،إن اللّه عز و جل قال لنبيه عليه السّلام:

أَ فَأَنْتَ تُكْرِهُ النّاسَ حَتّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ .ذروا الناس فإن الناس قد أخذوا عن الناس،و إنكم أخذتم عن رسول اللّه و عن على و لا سواء،و إنى سمعت أبى يقول:

إذا كتب اللّه على عبد أن يدخله فى هذا الأمر كان أسرع إليه من الطير إلى وكره».

إن أهل البيت عليهم السّلام جوّزوا الولاية إذا كان فيها صيانة العدل و إقامة حدود اللّه،و الإحسان إلى المؤمنين و السعى فى الإصلاح و مناصرة المظلومين و الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر.فإلى جانب الأحاديث الواردة عن الأئمة عليهم السّلام التى تبيّن ما على الولاة و الموظفين ممن لهم من الأمر شىء،فإن مشاعر الناس التى هاجت للمظالم التى لحقت بأل البيت و قيام الدعوة إلى الرضا من آل بيت النبى محمد،تخلق البواعث على الظهور فى مواجهة الظالمين إلى السيف و اعتباره وسيلة الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر،أما فعل الإمامة و توجيه صاحب الأمر الشرعى فيتمثل فى جوانب من دعوة الإمام الصادق فى قوله:«من تولى أمرا من أمور الناس فعدل،و فتح بابه و رفع ستره،و نظر فى أمور الناس كان حقا على اللّه عز و جل أن يؤمّن روعته يوم القيامة و يدخله الجنة».

و قال عليه السّلام:

«إذا أراد اللّه برعيته خيرا جعل لها سلطانا رحيما،و قيّض له وزيرا عادلا» (1).

و كان عبد اللّه النجاشى واليا للمنصور على الأهواز،و كان يرى رأى الزيدية، و قدم المدينة و دخل على الإمام الصادق،و سأله بمسائل عديدة،فخرج منه و قد عدل عن رأيه و قال:هذا عالم آل محمد،و لا زال يراسل الإمام و يسأله عن أهم الأمور و ما يقرّبه إلى اللّه و إلى رسوله و هو بعمله فى الولاية (2).فبعث إليه برسالته المشهورة و هى الميثاق الدائم الذى عليه سيرة الأئمة الطاهرين.و من جوابه عليه السّلام:«اعلم أن خلاصك و نجاتك فى حقن الدماء و كفّ الأذى عن أولياء اللّه و الرفق بالرعية،و التأنى و حسن المعاشرة مع لين فى غير ضعف و شدّة فى غير عنف».

«يا عبد اللّه إياك أن تخيف مؤمنا،فإن أبى محمد حدّثنى عن أبيه عن جدّه

1- (1) روضة الواعظين. [1]

2- (2) انظر الجزء الثانى و الجزء الرابع من الإمام الصادق و المذاهب الأربعة. [2]

علی بن أبی طالب أنه کان یقول: من نظر إلی مؤمن نظرة لیخیفه بها أخافه اللّه یوم لا ظل إلا ظلّه».

و ذکر الحلوانی فی نزهة الخاطر، أن کاتب المهدی المعروف بأبی عبد اللّه سأل الإمام الصادق عمّا یستطیع به مداراة السلطان و تدبیر أمره، فأجابه الإمام علیه السّلام بما یرشده لذلک، و شرح له طرق السلوک فی مداراة السلطان، و أوصاه بأمور هامة، و نصحه فی أشیاء کثیرة. و لا یخفی أن السائل کان کاتبا للمهدی و هو فی ولایة عهده. و کان ممن یوالی أهل البیت شأنه شأن کثیر من القوّاد و الأمراء و الکتّاب الذین دخلوا فی سلطان بنی العباس لمساعدة الضعفاء، و دفع الظلم عنهم قدر استطاعتهم بعد أن کان أساس التحاقهم بهم هو الظنّ بأنّ سلطانهم قام لنصرة آل البیت و الرضا منهم.

أما ولاة الجور فی عموم حکمهم و نظام سلطانهم، فإن الإمام الصادق سنّ قاعدة التعامل معهم و التعاون و إیاهم فی حدود الضرورة، و الإلجاء لدفع ضررهم و شرّهم، و اتقاء ظلمهم، فقال علیه السّلام و هو یجیب سائله عن جهات معاش العباد التی فیها الاکتساب و التعامل بینهم و وجوه النفقات:

«جمیع المعایش کلها من وجوه المعاملات فیما بینهم مما یکون لهم فیه المکاسب أربع جهات، و یکون منها حلال من جهة، و حرام من جهة.

فأول هذه الجهات الأربعة: الولایة، ثم التجارة، ثم الصناعات، ثم الإجارة.

و الفرض من اللّه تعالی علی العباد فی هذه المعاملات: الدخول فی جهات الحلال، و العمل بذلک الحلال منها، و اجتناب جهات الحرام.

فإحدی الجهتین من الولایة، ولاة العدل الذین أمر اللّه بولایتهم علی الناس.

و الجهة الأخری ولایة ولاة الجور، فوجه الحلال من الولایة ولایة الوالی العادل، و ولایة ولاته بجهة ما أمر به الوالی العادل بلا زیادة و لا نقصان. فالولایة له و العمل معه، و معونته و تقویته حلال محلل.

و أما وجه الحرام من الولایة فولایة الوالی الجائر، و ولایة ولاته، فالعمل لهم و الکسب معهم بجهة الولایة لهم محرم حرام، معذّب فاعل ذلک، علی قلیل من فعله أو کثیر. لأن کل شیء من جهة المعونة له معصیة کبیرة من الکبائر، و ذلک أن فی

ولایـة الوالی الجائر دروس الحق کله،فلـذلک حرّم العمل معهم و معونتهم و الکسب معهم إلا بجهـة الضـرورة،نظیر الضـرورة إلی الدم و المیتة» (1).

و هنا مقتضـی القاعدة إقامة المعاملات لیس علی أساس الإقرار بشـرعیة سلطانهم و ولایتهم،و لا علی أساس التعاون معهم فی کل شأن و فی کل ما یأمرون به،و إنما الأمر هدنة تقدم فیها الروابط و الصـلات الاجتماعیة،و ما اتصل بالولایة فیجری مجری الضرورة و أحکامها التی لا تتعدی الحدود التی أباحها الشرع فی دفع الهلاک و المضرّة،و قد جعل الإمام الصادق لذلک کفارة من جنس العمل،فقال علیه السّلام:

«کفارة عمل السلطان:قضاء حوائج الإخوان».

و هناک بعض الأقوال للإمام الصادق التی تتعلق بهذه القاعدة کقوله:«من عذر ظالما بظلمه؛سلّط اللّه علیه من یظلمه.و إن دعا لم یستجب له،و لم یؤجره اللّه علی ظلامته».

قوله علیه السّلام:من ولّی شیئا من أمور المسلمین و ضیّعه،ضیّعه اللّه»و قوله:«من ظلم مظلمة أخذ بها فی نفسه أو فی ماله أو فی ولده».

و فی وصیته إلی محمد بن علی بن النعمان-مؤمن الطاق-:

«إن من کان قبلکم کانوا یتعلّمون الصـمت و أنتم تتعلمون الکلام.کان أحدهم إذا أراد التعبّد یتعلم الصمت قبل ذلک بعشر سنین،فإن کان یحسنه و یصبر علیه تعبّد، و إلا قال:ما أنا لما أروم بأهل».

«إنمـا ینجو من أطـال الصـمت عن الفحشاء،و صبر فی دولـة الباطل علی الأذی، أولئک النجباء الأصـفیاء الأولیاء حقا و هم المؤمنون.إن أبغضکم إلیّ المتراسون المشّاءون بالنمائم،الحسدة لإخوانهم لیسوا منی و لا أنا منهم.إنما أولیائی الذین سلّموا لأمرنا،و اتبعوا آثارنا».

«و اقتـدوا بنـا فی کـل أمورنا...یـا ابن النعمان،إذا کانت دولـة الظلم فامش و اسـتقبل من تتقیه بالتحیـة،فإن المعترض للدولـة قاتل نفسه و موبقها،إن اللّه یقول:

وَ لا تُلْقُوا بِأَیْدِیکُمْ إِلَی التَّهْلُکَةِ (2).

1- (1) تحف العقول. [1]

2- (2) تحف العقول.

و يبدو جليا أن الإمام يحذر من مواجهة دولة الظلم،لأن رجالها فی کلا العهدين انطوت نفوسهم علی کره شديد لأهل البيت خصوصا،و حقد أسود لکل مناصر لهم فی دعوتهم إلی إقامة الحق و إطفاء الباطل،و ما زال الإمام تحفّه المخاطر و تبقی بکل وسيلة محاولات الظلمة للقضاء علی ذکر أهل بيته ورثة علم المصطفی، هذا و الأمر موصول کما جرت به الأقدار و أراده اللّه،فدولة الظلم بإزائها دعوة الحق و حملة الإيمان التی يقوم بها حجج اللّه المکلّفون بالخلافة الدينية حتی يقضی اللّه بخروج حجته القائم،فکان الإمام الصادق کثيرا ما يقول:

«لکل أناس دولة يرقبونها و دولتنا فی آخر الدهر تظهر»

.(1)

و يقول عليه السّلام:

«إذا قام القائم عليه السّلام،دعا الناس إلی الإسلام جديدا،و هداهم إلی أمر قد دثر،و ضلّ عنه الجمهور،و إنما سمّی المهدی مهديا لأنه يهدی إلی أمر مضلول عنه و سمی القائم لقيامه بالحق».

و من قوله عليه السّلام:

«إذا أذن اللّه تعالی للقائم فی الخروج،صعد المنبر و دعا الناس إلی نفسه، و ناشدهم باللّه،و دعاهم إلی حقّه،و أن يسير فيهم بسيرة رسول اللّه،و يعمل فيهم بعمله،فيبعث اللّه جبرئيل عليه السّلام حتی يأتيه،فينزل علی الحطيم،ثم يقول له:إلی أی شیء تدعو؟فيخبره القائم.فيقول جبرئيل:أنا أول من يبايعک،فيمسح علی يده، و قد وافاه ثلاثمائة و بضعة عشر إلی المدينة».

و قال عليه السّلام فی تفسير قوله تعالی: ذلِکَ وَ مَنْ عاقَبَ بِمِثْلِ ما عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِیَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ «إن رسول اللّه صلّی اللّه عليه و آله و سلّم لما أخرجته قريش من مکة،و هرب منهم إلی الغار،و طلبوه ليقتلوه فعوقب.ثم فی بدر عاقب لأنه قتل عتبة بن ربيعة و شيبة بن ربيعة و الوليد بن عتبة و حنظلة بن أبی سفيان و أبو جهل و غيرهم،فلما قبض رسول اللّه صلّی اللّه عليه و آله و سلّم بغی عليه ابن هند بنت عتبة بن ربيعة بخروجه عن طاعة أمير المؤمنين عليه السّلام و بقتل ابنه يزيد الإمام الحسين عليه السّلام بغيا و عدوانا،و القائل شعرا:

1- (1) روضة الواعظين ص 212 و 267. [1]

لیت أشیاخی ببدر شهدوا جزع الخزرج من وقع الأسل

لأهلّوا و استهلّوا فرحا ثم قالوا یا یزید لا تشل

لست من خندف إن لم أنتقم من بنی أحمد ما کان فعل

قد قتلنا القوم من ساداتهم و عدلناه ببدر فاعتدل

ثم قال تعالی: لَیَنْصُرَنَّهُ اللّهُ یعنی بالقائم المهدی من ولده صلّی اللّه علیه و آله و سلّم (1)و یروی عن أبیه الباقر علیه السّلام فی قوله تعالی: وَ لَقَدْ کَتَبْنا فِی الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّکْرِ أَنَّ الْأَرْضَ یَرِثُها عِبادِیَ الصّالِحُونَ هم القائم و أصحابه.

ثورات العلویین

:

و بمرور الأیام تزداد الشقّة بین حملة الرسالة و بین حکام الأمة بالباطل بعدا، و تصبح سیرة العلویین مآثر خالدة من التضحیات و البطولة التی تحیی فی النفوس مبادئ العدل و عقائد الإیمان،و قد بات أساس حکم الأمویین معروفا،و سیاستهم واضحة فی قیامها علی استهداف شخصیة أمیر المؤمنین الإمام علی بن أبی طالب، و النیل من مکانته فی النفوس بعد أن أمّن معاویة التأثیر فی العوام و الجهلة من أهل الشام،ممن تحکمهم الأطماع و المنافع و بواسطة علماء السوء الذین جعلوا لباس صحبة معاویة للنبی محمد و غیره من الطلقاء ستارا للجاهلیة التی استسلمت یوم الفتح،و أعطت عن ید صاغرة لتهدأ إلی حین،و قد وضعت فی حسابها مسایرة الأحداث و مماشاة الإسلام،فکانت تلک الأحداث التی اتجهت إلی إبعاد أهل بیت النبوة عن منازلهم الحقیقیة و مراکزهم التی أرادها اللّه لهم،لتأمین دوام الدعوة و بقاء الرسالة علی أصولها و مبادئها،و کلما اتسعت مجالات الانحراف عن قواعد الإسلام و أحکامه،أصبحت الدعوة إلی مقاومة الباطل و القضاء علی الانحراف شدیدة تنطلق بها الحناجر،و تزهق من أجلها الأرواح و تهرق الدماء،و قد جعل اللّه لأمناء دعوة الإسلام فی مواجهة الباطل و الضلال أزمانا هم بالغوها بما عهد إلیهم،و جرت به مقادیرهم التی تمضی فی مسلک الإمامة و الخلافة الکبری.

غیر أن العلویین و قد باتوا فی مواجهة الجاهلیة بأصنافها و الباطل بطوائفه،کانوا سیاج الإمامة و جندها،فملئوا الأرض بآثار التقوی و شواهد الحق،و وضعوا نصب

1- (1) ینابیع المودة للقندوزی الحنفی ص 510. [1]

أعينهم ما قـدّر لأهل بيتهم و ما وضع فی أعناقهم و ما وجب علی أمتهم من الأمر بالمعروف و النهی عن المنکر.و هم قدوة الناس و قادتها تتطلع إليهم النفوس فی المهمات،و تشـرئب إليهم الأعناق فی الملمات،فلمّا وجـدوا أن أميّـة لا تقف عند حد فی عدائها لأهل البيت،و لا ترعوی و تترک المجاهرة بالضلال و المعالنة بالباطل، نهضوا بنداء أبيهم الحسين مرة أخری،و أعادوا صفحات البطولة و الفداء.

و قد سـلک الأمويون مسلکا حاولوا فيه تشتيت العلويين و تمزيق صفوفهم،بعد أن أحاطوهم بما يبقی نشاطهم تحت أعين عمّالهم،بتوجيه رقابة شديدة،و الاحتيال للتقرب منهم طمعا فی إزالة صفات النقمة و الابتعاد عن حکم الأمويين.تلک الصفات التی تضعف موقع الأمويين فی النفوس التی تتقرب منها،و تلهب المشاعر فی القلوب التی تقف إلی صف أهل البيت.

و قد کان هشام بن عبد الملک يزيدا آخر فی سلسلة الطغاة الأمويين،اتسم بکل قبائحه،و اتصف بالبذاءة و الحقد و اللؤم،و قد أدت السياسة التی يتبعها إلی أن يسـمع ما يکشف الغشاوة و يزيلها عن عينيه لما دخل عليه الشـهيد زيـد بن علی فقال له:ليس أحد من عباد اللّه دون أن يوصی بتقوی اللّه سبحانه،و لا أحد فوق أن يوصی بتقوی اللّه سبحانه،و أنا أوصيک بتقوی اللّه.

فقال هشام:أنت زيد المؤمّل للخلافة،الراجی لها،و ما أنت و الخلافة،لا أم لک،و أنت ابن أمة.

فقال زيد:لا أعلم أحدا أعظم منزلة عند اللّه من نبی بعثه و هو ابن أمة إسـماعيل بن إبراهيم عليهما السّـلام ما يقصرک برجل جدّه رسول اللّه صلّی اللّه عليه و آله و سلّم و أبوه علی بن أبی طالب.

فوثب هشام و وثب الشاميون و دعی قهرمانه و قال:لا يبيتن هـذا فی عسـکری الليلـة.فخرج زيد عليه السّـلام و هو يقول لهشام:أخرج ثم لا ترانی إلا حيث تکره.ثم قال هشام:أ لستم تزعمون أن أهل هذا قد بادوا،و لعمری ما انقرض من حقل هذا خلفهم (1).

و کانت قضية الخلاف فی أوقاف الإمام علی و ولايتها مدخلا عتّبته أرجل

1- (1) للمزيد انظر الجزء الأول ص 124-127 و قد ضمّ کتابنا الذی أنجزناه(العلوی الثائر)ترجمة و بحثا عن الشهيد زيد.

الأمويين الدنسة،و امتدت من طريقه أيديهم القذرة لإذكاء الخصومة بين بنى الحسين و بنى الحسن.و لا ندخل فى تفاصيل هذا الخلاف الذى أسهبت المصادر فى ذكرها و الكثير منها يحتاج إلى تدقيق و أناة فى النظر،لتبيّن دور الأمويين فى كل ما نسب إلى أىّ من الطرفين،و عندى أن هذه السبيل التى سلكها الأمويون كان الغرض منها حمل العلويين على اللجوء إلى بنى أمية،و فى ذلک خدمة لسياستهم،إذ تظهر العلويين بمظهر الاعتراف بسلطان الأمويين و التحاكم إليهم،و قد أبطل الطرفان ما استتبع ذلک من سياسة و أغراض أرادها الأمويون،فقد فطن عبد اللّه بن الحسن و زيد بن على لشماتة الوالى بهما،فذهب عبد اللّه ليتكلم،فطلب إليه زيد فسكت،و قال زيد للوالى:أم و اللّه لقد جمعتنا لأمر ما كان أبو بكر و عمر ليجمعانا على مثله،و إنى أشهد اللّه أن لا أنازعه إليک محقّا و لا مبطلا ما كنت حيا.ثم قال لعبد اللّه:انهض يا ابن عم.فنهضا و تفرّق الناس (1).و قد كان من فعل الوالى لشدّ الأنظار إلى هذا الخلاف إن كانت المدينة تغلى كالمرجل،يقول قائل كذا،و قائل كذا،قائل يقول قال زيد كذا،و قائل يقول قال عبد اللّه كذا.

و يتخوّف هشام بن عبد الملک من دخول زيد العراق،فيكتب إلى عامله(أنه رأى زيدا رجلا جدلا لسنا خليقا لتمويه الكلام و صوغه،و اجترار الرجال بحلاوة لسانه و بكثرة مخارجه فى حججه،و ما يدلى به عند لدد الخصام من السطوة على الخصم بالقوة الحادة لنيل الفلج)و هشام بذلک يفصح عن خذلان منطقه و عجزه عن الوقوف أمام كلام زيد الذى يستمد من القرآن حججه،فيملأ قوله آيات بينات،و يستملى من الحقائق لغته،أما السطوة فهى من فيض النبوة و تسديد اللّه مما منع منه هشام و أهله لفسقهم و ظلمهم.فتراه مذعورا يكتب إلى عامله بهذا،و منه:(فعجّل بإشخاصه-أى زيد-إلى الحجاز،و لا تخله و المقام قبلک،فإنه إن أعاره القوم أسماعهم فحشاها من لين لفظه و حلاوة منطقه مع ما يدلى به من القرابة برسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم وجدهم ميّلا إليه).

ثم قامت ثورة الشهيد زيد فى سنة 124 ه على اختلاف فى الروايات،منها إحدى و عشرين و مائة و ما بين ذلک.فلما خفقت الراية على رأسه قال:(الحمد للّه الذى أكمل لى دينى،و اللّه إنى كنت أستحيى من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إن أرد عليه الحوض

1- (1) الطبرى ج 8 ص 262. [1]

غدا و لم آمر فی أمته بمعروف و لا أنهی عن منکر) (1).

و حینما أخبر الإمام الصادق علیه السّلام عن مقتله و ما جری علیه،بکی بکاء شدیدا و قال:«إنا للّه و إنا إلیه راجعون،عند اللّه احتسب عمی»ثم قال:«مضی و اللّه شهیدا، کشهداء استشهدوا مع رسول اللّه و علی و الحسین».و قال علیه السّلام:«فلعن اللّه قاتله و خاذله،و إلی اللّه أشکو ما نزل بأهل بیت نبیه بعد موته،و نستعین اللّه علی عدوّنا و هو المستعان» (2).

و هکذا حلّت بالمسلمین فاجعة أخری،و إن کان أمرها معروفا فیما کان لدی الأئمة الأطهار من علم،إذ قال له أبوه الإمام زین العابدین:«أعیذک باللّه أن تکون زیدا المصاب بالکناسة».و بلفظ:«أعیذک باللّه أن تکون صلیب الکناسة».

و ثورة الشهید زید هی من مقتضیات الحال،و من الأعمال التی تنجم عن جور الحکام و ظلمهم لآل بیت النبی محمد،و هی إحیاء للحق،و عمل بأمر اللّه فی الأمر بالمعروف و النهی عن المنکر.و لذلک قال الإمام الصادق:«إن زیدا کان عالما،و کان معروفا،و لم یدعکم إلی نفسه،و إنما دعاکم إلی الرضا من آل محمد.و لو ظهر لوفی بما دعاکم إلیه،إنما خرج علی سلطان مجتمع ینقضه».

و ما اعتقده البعض من إمامته کان سببه(خروجه بالسیف یدعو إلی الرضا من آل محمد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فظنّوه یرید بذلک نفسه و لم یکن یریدها به،لمعرفته باستحقاق ابن أخیه (الصادق)علیه السّلام للإمامة من قبله،و وصیته عند وفاته إلی أبی عبد اللّه علیه السّلام) (3).

و قول زید بن علی مشهور:(فی کل زمان رجل منّا أهل البیت،یحتج اللّه به علی خلقه،و حجة زماننا ابن أخی جعفر،لا یضلّ من تبعه،و لا یهتدی من خالفه) (4).

و قد کان وقع المأساة عظیما فی نفس الإمام الصادق،و أثرها شدیدا فی نفسه، فلما بلغه قول الحکم بن عباس الکلبی:

صلبنا لکم زیدا علی جذع نخلة و لم أر مهدیّا علی الجذع یصلب

1- (1) عمدة الطالب ص 256.و [1]صحاح الأخبار لأبی المعالی الرفاعی ص 36.

2- (2) انظر الجزء الرابع من هذا الکتاب.

3- (3) الإرشاد ص 251. [2]

4- (4) المناقب لابن شهر أشوب ج 2 ص 147. [3]و انظر الجزء الرابع من الإمام الصادق و المذاهب الأربعة. [4]

رفع الإمام يـديه إلى السـماء و قال:«اللهم سـلّط عليه كلبا من كلابک»فبعثه بنو أمية إلى الكوفة،فافترسه الأسد فى الطريق،فبلغ الإمام ذلک فخرّ ساجدا و قال:

«الحمد للّه الذى أنجزنا وعده» (1).

و يستفاد من الروايات أنه عليه السّلام جلس للعزاء،و دخل الناس عليه يعزّونه.

يقول فضيل الرسان:دخلت على جعفر بن محمد أعزّيه عن عمّه زيد،ثم قلت له:

أ لا أنشدک شعر السيد-الحميرى-؟فقال:«أنشد».فأنشدته:

فالناس يوم البعث راياتهم خمس فمنها هالک أربع

قائدها العجل و فرعونهم و سامرىّ الأمة المفظع

و مارق من دينه مخرج أسود عبد لكع أو كلع

و راية قائدها وجهه كأنه الشمس إذا تطلع

و روى الشـيخ أبو نصـر البخارى عن محمد بن عمير أنه قال:قال عبد الرحمن ابن سـيّابة:أعطانى جعفر بن محمد الصادق عليه السّلام ألف دينار،و أمرنى أن أفرّقها فى عيال من أصيب مع زيد،فأصاب كل رجل أربعة دنانير (2).

و تكفل الإمام الصادق بالحسـين بن زيـد،و ربّاه و علمه.أما يحيى فخرج إلى المدائن،ثم إلى الرى،و منها إلى نيسابور و سـرخس،حتى قتل بالجوزجان.

يروى عمير بن متوكل الثقفى عن أبيه قال:لقيت يحيى بن زيد بن على عليه السّلام و هو متوجه إلى خراسان بعد قتل أبيه،فسلّمت عليه،فقال لى:من أين أقبلت؟قلت من الحـج.فسألنى عن أهله و بنى عمه بالمدينـة،و أخفى السؤال عن جعفر بن محمـد عليه السّلام فأخبرته بخبره و خبرهم و حزنهم على أبيه زيد بن على،فقال لى:قد كان عمى محمد بن على عليه السّلام أشار على أبى بترک الخروج،و عرّفه إن هو خرج و فـارق المدينـة مـا يكون إليه مصـير أمه،فهـل لقيت ابن عمى جعفر بن محمـد عليه السّلام؟قلت:نعم.قـال:فهـل سـمعته يـذكر شـيئا من أمرى؟قلت نعم.قال:

بم ذكرنى؟خبّرنى.قلت:جعلت فداک ما أحب أن أستقبلک بما سمعته منه.فقال:

أ بالموت تخوفنى؟هات ما سمعته.فقلت:سمعته يقول:إنک تقتل و تصلب كما قتل

1- (1) الكواكب الدرية للمناوى و نور الأبصار للشبلنجىّ ص 147. [1]

2- (2) عمدة الطالب و [2]صحاح الأخبار.و رجال الشيخ محمد طه نجف فى ترجمة عبد الرحمن.

أبوک و صلب.فتغير وجهه و قال:يمحو اللّه ما يشاء و يثبت و عنده أم الكتاب،يا متوكل إن اللّه عز و جل أيد هذا الأمر بنا،و جعل لنا العلم و السيف،فجمعنا لنا و خص بنو عمنا بالعلم وحده (1).فقلت:جعلت فداک،إن رأيت الناس إلى ابن عمک جعفر عليه السّلام أميل منهم إليک و إلى أبيک؟فقال:إن عمى محمد بن على و ابنه جعفرا عليهما السّلام دعوا الناس إلى الحياة،و نحن دعوناهم إلى الموت.فقلت:يا ابن رسول اللّه أهم أعلم أم أنتم،فأطرق إلى الأرض مليا،ثم رفع رأسه و قال:كلنا له علم،غير أنهم يعلمون كلما نعلم،و لا نعلم كلما يعلمون.ثم قال:أ كتبت من ابن عمى شيئا؟قلت:نعم (2).

و تنتشر ثورات العلويين و تمتد،فهم سلالة أمير أهل العدل و يعسوب الدين و أول المسلمين إسلاما الإمام على بن أبى طالب عليه السّلام و هم جند الدعوة و رجال الحق و الآباء الذين يأبون الضيم و يأنفون الاستكانة للظالمين.و قد ارتكب الأمويون من المجازر و المظالم ما يهزّ ضمائر أهل الذمة و أصحاب الملل و الشرائع الأخرى فضلا عن استثارتها مشاعر المؤمنين و استهوالهم ما حدث،و جنّدوا كل ما تحت أيديهم للقضاء على ذكر الإمام على بن أبى طالب عليه السّلام و قتل و تشريد أهل بيته و أصحابه و شيعته، فكانت النفوس تغلى بنار النقمة،و لما أخذت دولة الأمويين تنحدر إلى نهايتها و يظهر ضعفها،نمت حركة التحوّل و التغيّر فى ظل الاتجاه الذى تنحدر إلى نهايتها و يظهر ضعفها،نمت حركة التحوّل و التغيّر فى ظل الاتجاه الذى اتخذه العلويون،و كانت مظالمهم مادة الحركة و مدارها.يقول أبو الفرج:فكان أول ما يظهرونه فضل على بن أبى طالب و ولده و ما لحقهم من القتل و الخوف و التشريد،فإذا استتب لهم الأمر ادعى كل فريق منهم الوصية لمن يدعو إليه (3).و قد ذكرنا و بيّنا فى الأجزاء السابقة من الكتاب أن العباسيين دخلوا فى ثنايا هذه الدعوة،و أظهروا ما أظهر الآخرون و هم فى قرارات أنفسهم يخفون وراء الدعوة إلى الرضا من آل محمد أطماعا خاصة،و أغراضا سلطوية لو أبدوها للفظهم الناس من بين صفوفهم و رفضهم كافة بنى هاشم.

1- (1) سيأتى ذكر سيف النبى محمد و وجوده عند الإمام الصادق بعد قليل إن شاء اللّه.

2- (2) وردت الرواية فى التقديم للصحيفة السجادية،و إنما سقتها هنا للتدليل على أن العلم الذى يختص به الإمام لا ينازع حتى أن يحيى باستفساره الأخير كان يطلب التواصل مع ما يصدر عن الإمام الصادق.

3- (3) مقاتل الطالبيين ص 233. [1]

و كان اجتماع الأبواء (1)و حضره جماعة من بنى هاشم،فقال صالح بن على:

قـد علمتم أنكم الـذين تمـدّ الناس أعينهم إليهم،و قد جمعكم اللّه فى هذا الموضع، فاعقدوا بيعة لرجل منكم تعطونه إياها من أنفسـكم،و تواثقوا على ذلک حتى يفتح اللّه و هو خير الفاتحين.

و يروى أبو الفرج أن أبا جعفر المنصور قال:لأى شـىء تخدعون أنفسـكم، و و اللّه لقد علمتم ما الناس إلى أحد أميل أعناقا و لا أسرع إجابة منهم إلى هذا الفتى- يريد محمد بن عبد اللّه بن الحسن- و إذا نظرت فإن أبا جعفر ثانى الخلفاء العباسـيين و ممن أسسوا الدولة العباسية و هو قاتل محمـد بن عبـد اللّه النفس الزكيـة و أخيه إبراهيم،و لكنه يومئـذ لا يعـدّ له وزن و لا تحسب له قيمة،بل هو ليس بشـىء إذا ما قورن بمحمد النفس الزكية بفقهه و ورعه وجوده.و قد أظهر ذلک لأمر،بل أكثر منه ما يحدث به عمير بن الفضل الخثعمى، قال:

رأيت أبا جعفر المنصور يوما،و قـد خرج محمـد بن عبد اللّه بن الحسن من دار ابنه،و له فرس واقف على الباب مع عبد له أسود،و أبو جعفر ينتظره،فلما خرج وثب أبو جعفر فأخـذ بردائه حتى ركب،ثم سوّى ثيابه على السـرج،و مضـى محمـد فقلت-و كنت حينئذ أعرفه و لا أعرف محمدا-:من هذا الذى أعظمته هذا الإعظام حتى أخذت بركابه،و سوّيت عليه ثيابه؟قال:أو ما تعرفه؟قلت:لا.قال:هذا محمد بن عبد اللّه بن الحسن بن الحسن،مهديّنا أهل البيت.

و قد علمنا سابقا كيف كان الإمام الصادق يبين مسألة المهدى،كما أن حقيقة هذه الدعوى من جهة الأغراض السياسية معلومة،أما حقيقتها من جهة العلويين فليست محققة و لا مضمونة الصحة،لأن الحسينيين-من آباء عبد اللّه و ابنه محمد- لم يدّع أحد منهم الإمامة،و قد قضى الحسن المثنى و لم يظهر منه ما يخالف النص و الولايـة،و حاشاهم ذلک،فظهور الفضل فى أبناء عمهم جلى(و إلا فمن يخفى عليه فضـل زين العابدين على بن الحسـين السجّاد عليه السّلام على الحسن بن الحسن و عبد اللّه بن الحسن.و فضل الباقر محمد بن على عليه السّلام على محمد بن

1- (1) موضع بين مكة و المدينة.

عبـد اللّه بن الحسن و إبراهيم بن عبد اللّه بن الحسن) (1)أما الإمام الصادق فلا يمكن أن ينعقد أمر يخص الأمة و مصالح المسـلمين دون رأيه،فهو الـذى يمثـل الإمامـة و له بين النـاس الأـثر البـالغ.و لمـا اجتمع بنو هاشم،و خطبهم عبـد اللّه بن الحسن،فحمـد اللّه و أثنى عليه قال:إنكم أهل البيت قد فضّ لكم اللّه بالرسالة و اختاركم لها،و أكثركم بركة يا ذرية محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.إلى آخر الخطبة التى قال فيها:فهلم نبايع محمدا،فقد علمتم أنه المهدى.فلا يعتقد منه الظاهر من القول،لأن كثيرا من الروايات عن عبد اللّه نفسه تدفع ذلک،منها رواية المقانعى بسنده عن محمد بن بشر قال:قال رجل لعبد اللّه بن الحسن:متى يخرج محمد؟قال:لا يخرج حتى أموت.و هو مقتول.

و كان عمرو بن عبيد ينكر أن يكون محمد بن عبد اللّه هو المهدى و يقول:

كيـف و هـو يقتـل؟ و إذا سـلّمنا صـحة القـول،فلاـ وجـه لـه إلاـ الـتيمن بـاسم المهـدى،أو الإشـارة إلى صـفة محمـد فى الهدايـة و الورع،كتسمية(النفس الزكية)التى هى أوضح و لا تفضى إلى لبس،و كذلک وصفه بالشبه.

و بعد أن انتهى عبد اللّه بن الحسن من خطبته فى الاجتماع قالوا:لم يجتمع أصحابنا بعد،و لو اجتمعوا فعلنا،و لسنا نرى أبا عبد اللّه جعفر بن محمد (2).

و فيما وراء العلويين كان العلماء و أصـحاب الفكر كالمعتزلة الذين كانوا أبرز الجماعات الفكرية فى هذه الفترة،بلغ من شـهرتهم أن نسـبوا الإمام زيـد إلى حركتهم، و كذلک محمد النفس الزكية،و هى نسـبة لا أساس لها من الواقع،و لا تتم فى إطار المنطق،لأن الأولى أن ينسـب بعض وجوه فكر المعتزلة إلى هذين الرجلين لا العكس.

يروى عبـد الكريم بن عتبـة الهاشـمى قال:كنت عنـد أبى عبـد اللّه عليه السّلام بمكة إذ دخل عليه أناس من المعتزلة،فيهم:عمر بن عبيد،و واصل بن عطاء،

1- (1) انظر المسائل الجارودية [1]فى تعيين الخلافة و الإمامة فى ولد الحسين بن على عليه السّلام للشيخ المفيد ص 52. [2]

2- (2) مقاتل الطالبيين. [3]

و حفص بن سالم و أناس من رؤسائهم.و ذلک أنه حین قتل الولید،و اختلف أهل الشام بینهم فتکلموا فأکثروا،و خطبوا فأطالوا.

فقال لهم أبو عبد اللّه جعفر بن محمد علیه السّلام:«إنکم قد أکثرتم علیّ فأطلتم، فاسندوا أمرکم إلی رجل منکم،فلیتکلم بحجتکم أو لیوجز».

فاسندوا أمرهم إلی عمرو بن عبید فأبلغ و أطال.فکان فیما قال أن قال:قتل أهل الشام خلیفتهم،و ضرب اللّه بعضهم ببعض،و تشتّت أمرهم،فنظرنا فوجدنا رجلا له دین و عقل و مروة و معدن للخلافة و هو محمد بن عبد اللّه بن الحسن،فأردنا أن نجتمع معه فنبایعه،ثم نظهر أمرنا معه،و ندعو الناس إلیه،فمن کنا معه کان منّا، و من اعتزلنا کففنا عنه،و من نصب لنا جاهدناه و نصبنا له علی بغیه و نردّه إلی الحق و أهله،و قد أحببنا أن نعرض ذلک علیک،فإنه لا غنی بنا عن مثلک لفضلک و لکثرة شیعتک (1).و جرت بذلک مناظرة احتج فیها الإمام بما عهد عنه من الوضوح و السطوة و الفلج،و لو لا أخذنا بالإیجاز و تجاوزنا فی هذا الفصل ما قرر له من حدود لأوردناها بطولها لغناها و شمولها،و لکن نکتفی بما ختم به الإمام الصادق قوله،إذ أقبل علی عمرو و قال:

«اتّق اللّه یا عمرو،و أنتم أیها الرهط فاتقوا اللّه،فإن أبی حدثنی-و کان خیر أهل الأرض و أعلمهم بکتاب اللّه و سنة رسوله-أن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال:من ضرب الناس بسیفه و دعاهم إلی نفسه،و فی المسلمین من هو أعلم منه فهو ضال متکلّف».

و الظاهر أن بنی هاشم عقدوا أکثر من اجتماع،منها ما حضره الإمام الصادق، و منها ما لم یحضره،و النوع الأخیر حال دون انعقاد أمرهم علی شیء لغیاب الإمام عنه.أما أن یکون اجتماعا واحدا،و هو ما تشعر به روایة ابن الطقطقی فهو بعید،و لا بد أن ابن الطقطقی جمع الأحداث فی مدلول واحد،و من الخیر إیراد روایته:

یقول ابن الطقطقی:کان بنو هاشم الطالبیون و العباسیون قد اجتمعوا فی ذیل دولة بنی أمیة،و تذاکروا حالهم و ما هم علیه من الاضطهاد،و ما قد آل إلیه أمر بنی أمیة من الاضطراب،و میل الناس إلیهم و محبتهم لأن تکون لهم دعوة،و اتفقوا علی أن یدعوا الناس سرا،ثم قالوا:لا بد لنا من رئیس نبایعه.فاتفقوا علی مبایعة النفس

1- (1) الاحتجاج للطبرسی.

الزكية محمد بن عبد اللّه بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب عليهم السّلام و كان محمد بن سادات بنى هاشم و رجالهم فضلا و شرفا و علما،و كان هذا المجلس قد حضره أعيان بنى هاشم من علويهم و عباسيهم،فحضره من أعيان الطالبيين:الصادق جعفر بن محمد عليهما السّلام،و عبد اللّه بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب، و ابناه محمد النفس الزكية و إبراهيم قتيل باخمرى و جماعة من الطالبيين.و من أعيان العباسيين:السفاح و المنصور و غيرهما من آل العباس.فاتفق الجميع على مبايعة النفس الزكية،إلا الإمام جعفر بن محمد الصادق...الخ (1).

و الغرض فإن العباسيين حاولوا دفع العلويين بالاتجاه الذى يمكنهم من تحقيق أغراضهم،و زجّهم فى المعترك السياسى،لأنهم يعلمون بالخطة التى اختطها الإمام الصادق لنفسه و لأبناء عمومته،من الانعزال عن تلك الاتجاهات،و الاحتفاظ بمركزهم الدينى،لأن الظروف غير مؤاتية للثورة،و كل شىء يقع قبل أوانه يؤدى به التعجيل إلى الفشل،و لكن العباسيين استطاعوا صدع الصف العلوى بجلب البعض إليهم من بنى الحسن.

و يذكر أبو الفتح الشهرستانى-بعد ذكره لمقتل يحيى بن زيد و محمد و إبراهيم(رض)-أن الإمام الصادق عليه السّلام أخبرهم بجميع ما تمّ عليهم،و عرّفهم أن آباءه عليه السّلام أخبروه بذلك كله،و أن بنى أمية يتطاولون على الناس حتى لو طاولتهم الجبال لطالوا عليها،و هم يستشعرون بغض أهل البيت،و لا يجوز أن يخرج واحد من أهل البيت حتى يأذن اللّه تعالى بزوال ملكهم.و كان يشير إلى أبى العباس و أبى جعفر ابن محمد بن على بن عبد اللّه بن العباس:«أنا نخوض الأمر حتى يتلاعب بها هذا و أولاده»إشارة إلى المنصور (2).

و صفوة القول أن الإمام الصادق هو الوحيد الذى لا يقع تحت تأثير المنافع القريبة و المصالح الظاهرة،فهو الإمام الذى أهّله اللّه للقيادة و العلم بعواقب الأمور، و استشفاف ما وراء الحوادث،فلم يخدع بتلك المغريات و يعرّض نفسه و أهل بيته،بل المجتمع الإسلامى كله لخطر لا قبل لهم على دفعه.

1- (1) الفخرى ص 146 و 147. [1]

2- (2) الملل و النحل ج 2 ص 252-253. [2]

ذكر كثير من المؤرخين أن أبا سلمة (1)كاتب ثلاثة من أعيان العلويين و هم:

جعفر بن محمد الصادق،و عمر الأشرف بن زين العابدين.و عبد اللّه المحض، و أرسل الكتب مع رجل من مواليهم يسمى محمد بن عبد الرحمن بن أسلم مولى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و قال أبو سلمة للرسول:العجل العجل،فلا تكونن كوافد عاد.و قال له:أقصد أولا- جعفر بن محمد الصادق،فإن أجاب فأبطل الكتابين الآخرين،و إن لم يجب فالق عبد اللّه المحض،فإن أجاب فأبطل كتاب عمر،و إن لم يجب فالق عمرا:

فذهب الرسول إلى جعفر بن محمد أولا،و دفع إليه كتاب أبى سلمة،فقال الإمام عليه السّلام:«مالى و لأبى سلمة؟و هو شيعة لغيرى»فقال له الرجل:اقرأ الكتاب.

فقال عليه السّلام لخادمه:«أدن السراج منّى»فأدناه.فوضع الكتاب على النار حتى احترق،فقال الرسول:أ لا تجيبه؟قال عليه السّلام:«قد رأيت الجواب،عرّف صاحبك بما رأيت».

فخرج الرسول من عنده،و أتى عبد اللّه بن الحسن،و دفع إليه الكتاب و قرأه، و ابتهج،فلما كان غد ذلك اليوم الذى وصل إليه فيه الكتاب،ركب عبد اللّه حتى أتى منزل أبى عبد اللّه جعفر بن محمد الصادق،فلما رآه أبو عبد اللّه أكبر مجيئه و قال:

«يا أبا محمد(كنية عبد اللّه المحض)أمر ما أتى بك؟»قال:نعم هو أجلّ من أن يوصف.فقال له:«و ما هو يا أبا محمد؟»قال:هذا كتاب أبى سلمة يدعونى إلى الخلافة،و قد قدمت عليه شيعتنا من أهل خراسان.فقال له أبو عبد اللّه:«يا أبا محمد،و متى كان أهل خراسان شيعة لك؟»أنت بعثت أبا مسلم إلى خراسان،و أنت أمرتهم بلبس السواد؟و هؤلاء الذين قدموا العراق أنت كنت سبب قدومهم أو وجّهت فيهم؟و هل تعرف منهم أحدا؟»فنازعه عبد اللّه بن الحسن الكلام إلى أن قال:إنما يريد القوم ابنى محمدا لأنه مهدى هذه الأمة.فقال أبو عبد اللّه جعفر الصادق:«ما هو مهدى هذه الأمة،و لئن شهر سيفه ليقتلنّ» (2).

1- (1) انظر ترجمته فى الجزء الرابع من هذا الكتاب.

2- (2) إن عدم احتجاج الإمام الصادق [1]بالمعروف من الأحاديث عن القائم المهدى،و ردّ قول عبد اللّه بالنصوص التى يعرفها عبد اللّه أيضا،يحمل على الاعتقاد بأن القول بمهدية محمد ليس بما يعنيه الاعتقاد الحقيقى بالإمام المهدى،و إنما لأغراض جذب الناس إليه و زيادة التعريف به.

فقال عبد اللّه:كان هذا الكلام منک لشیء؟فقال الصادق:«قد علم اللّه أنی أوجب النصح علی نفسی لکل مسلم،فکیف أدّخره عنک،فلا تمنّ نفسک بالأباطیل، فإن هذه الدولة ستتم لهؤلاء.و قد جاءنی مثل الکتاب الذی جاءک» (1).

لقد بذل الإمام لأبناء عمه النصح،و جهد أن یجنّبهم المهالک،و یبصّرهم بعاقبة ما یقدمون علیه،بعد أن مرّت الأیام،و حدث التحوّل السیاسی.فقد جاءت محاولة أبی سلمة متأخرة،لذا نری الإمام الصادق علیه السّلام یشیر إلی أبی مسلم و أهل خراسان و لبس السواد،فکان علیه أن یحذّر الحسینیین،فلقی منهم استنکارا و اتهاما.

و لکنه علیه السّلام کان یری ما لا یرونه،و یعجزون عن معرفته،حتی کأن العواقب و مجریات الأحداث القادمة یقرأها فی کتاب أمامه.

کما إنه علیه السّلام لم یکشف من قبل عن رأیه فی صور من التقرب کانت تبدر من أبناء عمومته تجاه الحکام الظلمة و التقائهم بالأمویین،فیما کان علیه السّلام مشغولا بالواجبات الدینیة و معالجة ما یعانی منه المسلمون،و حمایة نفسه و شیعته من سلطان الجور و حکم الطغاة،فلما قتل زیدا یوسف بن عمرو صلب جثته بالکناسة،و بعث برأسه مع شبّة بن عقال،و کلّف آل أبی طالب البراءة من زید،و قام خطباؤهم،فکان أول من قام عبد اللّه بن الحسن،فأوجز فی کلامه،ثم جلس.و قام عبد اللّه بن معاویة بن عبد اللّه بن جعفر،فأطنب (2).و إن صحّ ذلک،ففیه تجاوز لمقتضیات الحیطة و ضرورات التقیة.

و إن الإمام الصادق فی کیانه الروحی و الفکری کان علی نهجه فی عدم التقرب إلی الحکام و الالتقاء معهم إلا فی حدود دفع الخطر و الهلاک،و کانت مصیبة زید- کما أشرنا-قد آلمته کثیرا و أحزنته،و لکنه علیه السّلام أظهر موقع ثورة زید و الموقف منها.و لما بدأت فی ظل العباسیین بوادر ثورة جدیدة هی ثورة النفس الزکیة بعد جهده فی حملهم علی العدول عن فکرة التعرّض لبنی العباس بدولتهم،و أن فی طرق الإصلاح سعة،و الدعوة بین المسلمین بمبادئ العدل و الإیمان هی أمان الأمة.و من نتائج منهج الإمام أن یکون المسلم علی علم بانحراف الحکام،و یتعقب جورهم و فسادهم و باطلهم بالقول و الوعی،حتی کانت بیئة مدرسته علیه السّلام و أوضاع حیاته

1- (1) الآداب السلطانیة ص 137.و [1]مروج الذهب ج 3 ص 269.

2- (2) زهر الآداب ج 1 ص 79. [2]

إطارا لسلطة الإمامة الروحية التى لها فى الأحداث رأى يصيب كبد الحقيقة،فرأى الإمام أن البيت العلوى مقبل على مأساة أخرى سيقدّم فيها الدماء و الأرواح،و كان عليه أن يسعى إلى حفظ هذه الدماء و حماية أهله،فأتى محمدا النفس الزكية و قال له:

«تحب أن يصطلم أهل بيتك؟»و لو لا حرصه على ذلک لكان أول من يعلن الثورة، و لكن كيف يدفع بأهله و الناس إلى التهلكة؟و لقد كان عليه السّلام من وفائه لأغراض العدل أن ترک ولديه موسى و عبد اللّه،و لم يبخل بهما على الثورة العلوية التى أدى استئثار العباسيين و تنصلهم من أقرب الناس إليهم إلى إصرار محمد و اندفاعه فى الخروج لأنه يرى نفسه صاحب الأمر و المنصور قد بايع له.

كما كان الإمام يرمى إلى أن يحفظ مكانة البيت العلوى الذى تمثلت به القيادة الروحية.غير أن حقد المنصور قد وجد الذريعة للاعتداء على مكانة أهل البيت و سفک دمائهم،فعن الحسين بن زيد:إنى لواقف بين القبر و المنبر،إذا رأيت بنى الحسن يخرج بهم من دار مروان مع أبى الأزهر،يراد بهم الربذة.فأرسل إلىّ جعفر بن محمد فقال:«ما وراءک؟»قلت:رأيت بنى الحسن يخرج بهم فى محامل.

فقال:«أجلس»فجلست.قال:فدعا غلاما له،ثم دعا ربّه كثيرا،ثم قال لغلامه:

«اذهب،فإذا حملوا فات فأخبرنى».قال:فأتاه الرسول فقال:قد أقبل بهم.فقام جعفر،فوقف وراء ستر شعر أبيض من ورائه،فطلع بعبد اللّه بن الحسن و إبراهيم بن الحسن و جميع أهلهم،كل واحد منهم معادله مسوّد (1)فلما نظر إليهم جعفر،هملت عيناه حتى جرت دموعه على لحيته،ثم أقبل علىّ فقال:«يا أبا عبد اللّه و اللّه لا تحفظ للّه حرمة بعد هؤلاء،و اللّه ما وفت الأنصار و لا أبناء الأنصار لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بما أعطوه من البيعة على العقبة» (2).

و نال حقد المنصور من الإمام الصادق نفسه؛بل انفلت عداؤه،و حدث ما كان يخشاه الإمام،فكلّم الإمام بكلام غليظ و نهره و قال:يا جعفر،قد علمت بفعل محمد بن عبد اللّه الذى تسمّونه النفس الزكية،و ما نزل به،و إنما انتظر الآن أن يتحرک منكم أحد فألحق الصغير بالكبير (3).

1- (1) أى أن كل واحد منهم جلس على الجهة الأخرى من محمله شخص من العباسيين أو أنصارهم الذين يلبسون السواد شعارا لهم- للمعادلة فى حفظ استقرار المحمل-.

2- (2) الطبرى ج 9 ص 194.و [1]مقاتل الطالبين 219.

3- (3) نور الأبصار. [2]

و عن على بن عمر بن على قال:سمعته-أى الإمام الصادق-حين أمره أبو جعفر أن يسير إلى الربذة فقال:«يا على...سر معى»فسرت معه إلى الربـذة،فـدخل على أبى جعفر،و قمت أنتظره،فخرج علىّ جعفر و عيناه تذرفان،فقال لى:يا على ما لقيت من ابن الخبيثة،و اللّه لا أمضـى،ثم قال:رحم اللّه ابنى هند،إنهما إن كانا لصابرين كريمين.و اللّه لقد قضيا و لم يصبهما دنس...ا ه.

و نحن إذا نظرنا فى التاريخ لرأينا أن سـنة معاوية و سـياسة الحجاج باقيتان متأصلتان فى الملك رغم التحول السياسى.فالمنصور بعد مذبحة أحجار الزيت التى استشـهد فيها محمـد النفس الزكية،و مذبحة باخمرى التى استشـهد فيها أخوه إبراهيم يقول لجلسائه:تاللّه ما رأيت رجلا أنصـح من الحجـاج لبنى مروان.فقام المسـيّب بن زهير الضبى فقال:يا أمير المؤمنين ما سـبقنا الحجاج بأمر تخلّفنا عنه،و اللّه ما خلق على جديد الأرض خلقا أعزّ علينا من نبينا صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و قد أمرتنا بقتل أولاده فأطعناك و فعلنا ذلك،فهل نصحناك أم لا؟فقال له المنصور:اجلس لا جلست (1).

قال الأصـمعى:أحضـر يوما إلى أبى جعفر هريسة الفسـتق،و معها مصارين الدجاج محشوة بشـحم البط و السـكر و دهن الفستق.فقال:إن إبراهيم و محمد أرادا أن يسبقانى إلى هذا،فسبقتهما إليه.

و ذكر أيضا أن المنصور هيئت له عجة من مخ و سكر،فاستطابها فقال:أراد إبراهيم أن يحرمنى هذا و أشباهه (2).

لقـد كـان الإمام الصادق يقول:«إن اللّه أخبر نبيه بما يلقى أهل بيت محمـد و أهل مودتهم و شـيعتهم»و الإخبار هـذا اشـتملت عليه علوم الإمامة التى وصلت إلى الإمام الصادق بالوصاية و النص.

و قـد كان الإمام على وارث علم محمـد و سـلاحه،و هما مع الإمامـة و من علاماتها أن من صار إليه السـلاح أوتى الإمامـة،للدلالـة على الأهلية بالخلافة عن الرسول فى الرئاسة الدينية و الزعامة الروحية.كذلك درعه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و لامته و مغفرته.

و لذلك كان الادعاء بحيازة عبد اللّه بن الحسن لهذا السيف من ضروب الدعاوى لهم

1- (1) مروج الذهب. [1]

2- (2) مروج الذهب ج 3 ص 309. [2]

كقضية التشبّه بالمهدى،و نفى الإمام الصادق ذلک قائلا:«...ما رآه عبد اللّه بعينيه،و لا بواحدة من عينيه،و لا رآه أبوه.اللهم إلاّ أن يكون رآه عند على بن الحسين عليه السّلام...إن عندى لسيف رسول اللّه،و إن عندى لراية رسول اللّه و درعه و لامته و مغفرته» (1).

و خلاصة القول،فإن موقف الإمام الصادق من الحكام الظالمين هو الموقف الذى يثير فى نفوس الحكام المخاوف،و يخلق لهم المصاعب من خلال بناء النفوس و الأفكار على قيم العدل و شجب الباطل و الفساد،و العمل على تحقيق علاقات فى التعامل بين الأفراد تسودها روح المحبة و الإخاء و عزة النفس و الإباء.دخل عليه رجل فقال:يا ابن رسول اللّه أخبرنى بمكارم الأخلاق؟فقال عليه السّلام:«هى العفو عمن ظلمک،و صلة من قطعک،و إعطاء من حرمک».

و قال يوما لأصحابه:

«إنّا لنحبّ من كان عاقلا فهما حليما مداريا صبورا صدوقا وفيا،إن اللّه عز و جل خصّ الأنبياء بمكارم الأخلاق،فمن كان فيه،فليحمد اللّه على ذلک.و من لم تكن فيه فليتضرّع إلى اللّه عز و جل و ليسأله إياها».

و قال غير مرة:«ما قدّست أمة لم تأخذ لضعيفها من قويّها بحقّه».

و قال عليه السّلام:«اتقوا اللّه و اعدلوا،فإنكم تعيبون على قوم لا يعدلون» فيسعى عليه السّلام إلى تحقيق العدل فى السلوک و التعامل و التزام العباد أولا-فيما بينهم بذلک،لأن الإصلاح بالأقوال و المواعظ الخلقية و الاجتماعية لا- تحقق أثرها،إلا- إذا كانت الأعمال مظاهرها.فوضع العمل الصالح و العدل و الخلق الطيب قواعد لدعوته فى مكافحة الظلم بكافة أنواعه و الوقوف إلى جانب المظلومين،ليظهر بذلک خطأ أولئک الذين اغتصبوا حقوق الأمة و ترأسوا عليها،و قد انحرفوا كل الانحراف عن مبادئ الإسلام و تعاليمه (2).

و لقد أراد بعض أصحابه-كما ذكرنا فى أول هذا الجزء-حمله على إعلان الثورة،و ذكروا له أن مائة ألف يضربون بين يديه.فرفض لأنه يعوّل على دعوته فى هزّ

1- (1) انظر إرشاد المفيد و [1]احتجاج الطبرسى. [2]

2- (2) انظر الإمام الصادق، [3]الدعوة الصامتة،الجزء الرابع من هذا الكتاب.

أركان الظالمين،و يرى مواصلة الجهاد بالطرق التى تضمن سلامة المجتمع و حماية أبناء الأمة الإسلامية من الملوك الذين لا تخفّ شهوتهم للدماء،و لا يفتر ظلمهم للرعية و انتهاك الحرمات و سلب الأموال و الحقوق.

لقد كان عليه السّلام يولى العدل أهمية كبرى،و يسعى إلى فضح سيرة الملوك الذين تسلّطوا على رقاب الأمة و أعوانهم الظلمة،و يكشف حقيقة حكمهم و واقع نظامهم الذى تلبّس بالإسلام و تستر بشعاراته.فعند ما تمرّ الأيام و تحدث فى بعض النفوس الصحوة ممن ارتضت إقرار الظلم و مساعدة الجبارين،يجعل الإمام ضمان حقوق الأمة و معالجة ما لحق بها من الظلم هو الأصل فى السلامة و العودة إلى جادة الدين.

فقد جاءه رجل ممن عمل للأمويين،و كان فى معاونة الحجاج،فقال الإمام عليه السّلام:

إنى لم أزل واليا منذ زمن الحجاج إلى يومنا هذا،فهل لى من توبة؟فسكت الإمام عليه السّلام.ثم أعاد عليه الرجل،فقال عليه السّلام:«لا،حتى تؤدى إلى كل ذى حق حقه» (1).

و الذين شاركوا فى سلب أموال المسلمين،كانوا لا يجدون من الإمام الصادق عليه السّلام ذلك التسامح الذى يظهره غير أهل البيت عليهم السّلام فى إبقاء الصبغة الدينية على حكم الظلمة و الفساق،و هو تسامح على حساب العقيدة و الأحكام ليكون إزهاق الأرواح تأويلا،و سلب الأموال و انتهاك حرمات المسلمين اجتهادا.و لكنها عند الإمام الصادق حفظ الدين،و صون الحقوق و المصالح،و الحكم بما أمر اللّه و رسوله.سئل عليه السّلام عن رجل أصاب مالا من عمّال بنى أمية و هو يتصدق منه و يصل قرابته و يحج ليغفر له ما اكتسب و يقول:إن الحسنات يذهبن السيئات.فقال الإمام عليه السّلام:«إن الخطيئة لا تكفّر الخطيئة،و إن الحسنة تحطّ الخطيئة».فقيّد الإمام الصادق الفعل الذى يعين على التوبة بالحسنة،و أن يكون خالصا ليس من جنس أموال الظلمة و أعمالهم،و أن بالطيب من الأفعال تحط الخطيئة.فكل ما يتصل بحال السلطان الظالم الغشوم و واقع ملكه قائم على غير هدى الإسلام و تعاليمه،فلا يمتّ إلى عمل الخير بصلة،و لا يحصل من الاتصال به حسنة تنال من اللّه القبول و تمحى بها السيئات.

1- (1) انظر الفصول المهمة للحر العاملى،باب جهاد النفس. [1]

رؤساء المذاهب

اشارة

ص:359

مالک بن أنس

اشارة

و نعود إلی الحدیث عن المذاهب الأربعة و رؤسائها.و نبدأ فی البحث عن حیاة الإمام مالک بن أنس.

و تختلف المصادر فی سنة ولادته،و لم تقطع کتب المناقب بصحة أحدها،فظل الاختلاف فی سنة مولده کالاختلاف فی مدة حمله.فقیل أنه ولد سنة 90 ه،و قیل سنة 93 ه،و قیل سنة 94،أو 95،أو 96 فی المدینة المنورة.کما قیل فی مدة بقائه فی بطن أمه:سنتین،أو ثلاث،أو أربع.و قد تناولنا ذلک فی القسم السابق من حیاة مالک الذی تضمنه الجزء الثانی من الکتاب.

من هو الإمام مالک

:

هو أبو عبد اللّه بن أنس بن مالک بن أبی عامر بن عمر بن الحارث بن عثمان بن عمر بن الحارث،و هو ذو أصبح من حمیر بن سبأ و هی قبیلة یمنیة،و أمه أزدیة و هی العالیة بنت شریک (1).

و طعن فی صحة هذا النسب،فقال محمد بن إسحاق:إن مالکا و أباه و جده و أعمامه موالی لبنی تیم بن مرة (2).

و قد ادعی أن حصول هذه الشبهة فی نسب مالک و عدم کونه عربیا أن مالک بن أبی عامر قدم المدینة متظلما من بعض ولاة الیمن،فمال إلی بعض بنی تیم بن مرّة فعاقده،و صار معهم.و یلزم من ذلک أنه حلیف لیصرف معنی المولی إلی المناصرة.

1- (1) و قیل الغالیة بالغین المعجمة.

2- (2) الانتقاء لابن عبد البراص.

و ليس الطعن مقتصرا على ابن إسحاق،فإن ابن شهاب أستاذ مالک حدّث عن أبی سهيل نافع بن مالک-عم مالک بن أنس-فقال:حدثنی نافع بن مالک مولی التيميين.

كما يروی ابن عبد البر عن البخاری بسند عن نافع بن مالک بن أبی عامر قال:

قال لی عبد الرحمن بن عثمان بن عبيد اللّه و هو ابن أخی طلحة:هل لک إلی ما دعانا إليه غيرک فأبينا عليه،أن يکون هدمنا هدمک و دمنا دمک ترثنا و نرثک؟و ينسب هذا إلی الربيع بن مالک-عم مالک-أيضا.

و كما طعن فی أبی مالک و عدم صحة عروبته،فكذلک الحال فی أمه العالية، و قيل إنها طليحة مولاة عبيد اللّه بن معمر.حكاه القاضی عيّاض (1)و ابن عائشة.

و قال ابن عمران التميمی:ما بيننا و بينه نسب،إلا أن أمه مولاة لعمی عثمان بن عبد اللّه (2).

و قد أثّرت هذه الأقوال علی مالک،و كانت السبب فی تكذيب مالک لمحمد بن إسحاق و طعنه عليه (3).و لما بلغ مالک قول ابن شهاب قال:ليته لم يرو عنه شيئا (4).

عصر مالک و علمه

:

قلنا فيما مرّ من الأجزاء السابقة،إن النزاعات الفقهية و المشكلات التی طرأت كانت سببا فی ظهور الأسماء،و تغلّب جماعة دون أخری.و قد كان النزاع بين أهل العراق و بين أهل الحجاز سببا فی ظهور مدرسة الرأی و مدرسة الحديث،و تزعّم أبی حنيفة للأولی،و تزعّم مالک للثانية.و كانت مصالح الحكام قد اقتضت أن تقف إلی جانب أبی حنيفة،و تشدّ أزر أصحابه،و تقدّم الموالی لتحط من قيمة العرب.ثم اقتضت أن توجّه الأنظار إلی مالک و تتبناه و تجعل منه إمام الدولة المطاع.

ثم لعب الغلوّ دوره فی تعزيز اتجاه كل من الطرفين،فوضعت الأحاديث و المنامات علی لسان النبی محمد صلّی اللّه عليه و آله و سلّم كما فی حديث:يكون فی أمتی رجل اسمه

1- (1) تزيين الممالک فی مناقب الإمام مالک للسيوطی ص 4.

2- (2) الديباج المذهب لابن فرحون ص 17.

3- (3) الانتقاء ص 11.

4- (4) الديباج المذهّب.

النعمـان و كنيته أبو حنيفـة هو سـراج أمتى،هو سـراج أمتى،هو سـراج أمتى (1).و غـالطوا الحقـائق فقالوا:إن أهل الكوفـة كلهم موالى لأبى حنيفة-أى عبيد-فأعتقهم (2).

يريدون نفى حقيقة أن أبا حنيفة كان مولى لبيت من بيوت الكوفة و كان لهم ولاؤه.

و قد دخل التعصب فى إطار الأشـخاص و تقديس الرؤساء،لأن الأحوال أدّت إلى اصـطناع المذاهب و تعيين الرؤساء،و راح الناس فى ظل التنـازع و التعصّب يلتحمون بالطائفـة التى شـبّوا فى أفيائهـا و عـاشوا بأوساطهـا،و قـد لجـأ المالكيـة إلى حـديث عـالم المدينـة،فـإن كان صحيحـا،فـأين ذهب عن مالـك فى حينها ليحتـج به لنفسه؟ و ذلك أول ما يتبادر،لأن عموم حـديث مالك و غايـة جهـده أن يجعل موقع المدينة و منزلتها الشـرعية فى المكان الأول،و عمل أهل المدينة متبعا بحكم تشـرّفها بهجرة الرسول محمد و هبوط الوحى،و مكانة المدينة تجيب عليها السـرائر و تعبّر عنها المشاعر قبل أن تنص عليها الأقوال و الأفعال،إلا أنها جعلت فى صيغة يلتمس بها الظفر و الفلج فى وجوه و موارد هى من التصرف و السلوك،و ليس من مضامين العلم أو أغراض الشريعة المحضة.

لقـد جعلوا من الحديث النبوى معتمدا فى ترجيح المذهب المالكى من خلال ترجيح شخصـية مالك و انطباقه عليه وحده،و هو أنه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم قـال:يوشك أن تضـرب الناس أكباد الإبل فى طلب العلم.و فى روايـة:يلتمسون العلم،فلا يجـدون عالما أعلم.و فى رواية:أفقه من عالم المدينة.و فى رواية:من عالم بالمدينة.و فى بعضها:آباط الإبل،مكان:أكباد الإبل.و قد رواه البخارى عن ابن جريج موقوفا على أبى هريرة،و محمد بن عبد اللّه الأنصارى عن ابن جريج،و رواه أيضا المقبرى عن أبى هريرة:لا تنقضى الساعة حتى يضرب أكباد الإبل من كل ناحية إلى عالم المدينة يطلبون علمه.و خرّجه النسائى مرفوعا إلى أبى هريرة:يضربون أكباد الإبل و يطلبون العلم و لا يجدون عالما أعلم من عالم المدينة.و روى عن أبى موسـى الأشعرى بلفظ:يخرج ناس من المشرق و المغرب فى طلب العلم،فلا يجدون عالما أعلم من عالم المدينة.إلى آخر الروايات التى ذكرها كتّاب المناقب كابن فرحون.

1- (1) جامع مسانيد أبى حنيفة ج 1 ص 15.

2- (2) مناقب أبى حنيفة للمكى ج 1 ص 174.

و قد قلنا فی القسم الأول،إن الحدیث لا یخلو من خدشة فی السند،فإن أبا الزبیر-و هو أحد رواة هذا الحدیث-قد تکلموا فیه و طعنوا.

کما أن صرف الحدیث إلی إرادة مالک دون غیره یبقی ضعیفا و لا یتجه.لأن الحدیث یراد به المنزلة العلمیة للمدینة أولا،و لرجل العلم فیها ثانیا الذی عیّن بصفات عامة تدور مع حرکتها العلمیة و منزلتها،و لا یتمکن شیوخ المالکیة من نفی ذلک و هم یسوقون الحدیث،فابن فرحون یذکر تأویل محمد بن إسحاق المخزومی:(ما دام المسلمون یطلبون العلم فلا یجدون أعلم من عالم المدینة،کان بها أو بغیرها،فیکون علی هذا سعید بن المسیب-کما یری-لأنه النهایة فی وقته.ثم من بعده غیره ممن هو مثله من شیوخ مالک،ثم بعدهم مالک،ثم بعده من قام بعلمه و کان أعلم أصحابه بمذهبه،ثم هکذا،ما دام للعلم طالب و لمذهب أهل المدینة إمام،و یجوز علی هذا أن یقال هو ابن شهاب فی وقته،و العمری فی وقته،و مالک فی وقته).

و تعلّق المالکیة بدار الهجرة و شهادة السلف.قال القاضی عبد الوهاب:لا ینازعنا فی هذا الحدیث أحد من أرباب المذاهب،إذ لیس منهم من له إمام من أهل المدینة فیقول هو إمامی.و نحن نقول إنه صاحبنا بشهادة السلف له،و بأنه إذا أطلق بین العلماء قال عالم المدینة و إمام دار الهجرة فالمراد به مالک دون غیره من علمائها، و قال القاضی عیاض:فوجه احتجاجنا بهذا الحدیث من ثلاثة أوجه،الأول:تأویل السلف أن المراد به مالک،و ما کانوا لیقولوا ذلک إلا عن تحقیق.الثانی:شهادة السلف الصالح له و إجماعهم علی تقدیمه یظهر أنه المراد إذا لم تحصل الأوصاف التی فیه لغیره و لا أطبقوا علی هذه الشهادة لسواه.الثالث:ما نبّه علیه بعض الشیوخ أن طلبة العلم لم یضربوا أکباد الإبل من شرق الأرض و غربها إلی عالم،و لا رحلوا إلیه من الآفاق رحلتهم إلی مالک (1).

و قد ذکرنا طائفة من العلماء فی ذلک الوقت هم من شیوخ مالک و أعلم منه (2)کربیعة الرأی بن أبی عبد الرحمن،و الذی أراده العباسیون فی مطلع دولتهم أن یدلی

1- (1) شرح الموطأ للزرقانی ج 1 ص 4.

2- (2) انظر الجزء الثانی من الکتاب.

بـدلوه بين الدلاء فى تعضـيد دولتهم و خدمتهم.و يروى مالک عن سـيرة أسـتاذه:لما قدم ربيعة بن أبى عبد الرحمن على أمير المؤمنين أبى العباس أمر له بجائزة،فأبى أن يقبلها،فأعطاه خمسـة آلاف درهم يشترى بها جارية حين أبى أن يقبلها،فأبى أن يقبلها.قال ابن وهب:و حدثنى مالک عن ربيعـة قال:قال لى حين أراد الخروج إلى العراق:إن سـمعت أنى حدثتهم شـيئا أو أفتيتهم،فلا تعدّنى شـيئا.قال:فكان كما قال،لما قـدمها لزم بيته فلم يخرج إليهم و لـم يحدّثهم بشـىء حتى رجع (1).و لا بد أن روايته عن سـيرة أسـتاذه جاءت عقب وفاة ربيعة،و مالک لـم يتحول بعـد إلى صف العباسـيين و يتخلى عن ميوله و عواطفه السابقـة التى تشـده إلى الأـمويين و تجعله يتغاضـى عن جرائمهم و ما فعلوا بالحرمين و ما ارتكبوا من مجازر بحق أهل المدينـة،فهو يبنى تفوقه و يرجـح نفسه بانتسابه إلى المدينة،و يرى أن ينقاد غيره إليه كما يقول فى رسالته إلى الليث بن سعد (2):

(اعلم رحمـک اللّه أنه بلغنى أنـک تفتى الناس بأشـياء مختلفـة،مخالفـة لما عليه الناس عنـدنا و ببلـدنا الـذى نحن فيه،و أنت فى أمانتک و فضـلک،و منزلتـک من أهـل بلـدک،و حاجـة من قبلـک إليک،و اعتمادهم على ما جاء منک حقيق بأن تخاف على نفسک،و تتبع ما ترجو النجـاة باتبـاعه،فـإن اللّه تعالى يقول فى كتابه: وَ السّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهاجِرِينَ وَ الْأَنْصارِ و قال تعالى: فَبَشِّرْ عِبادِ اَلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ فإنما الناس تبع لأهل المدينة،إليها كانت الهجرة،و بها نزل القرآن،و أحلّ الحلال و حرّم الحرام...)الخ رسالته.

قال أبو مصـعب:قدم علينا ابن مهدى (3)فصـلّى خلف مالک،و وضع رداءه بين يدى الصف،فلما سـلّم الإمام رمقه الناس بأبصارهم،فقال مالک:من هنا من

1- (1) تاريخ بغداد ج 2 ص 425. [1]

2- (2) أبو الحرث-الحارث-ابن عبد الرحمن الفهمى من أصـبهان،ولد بمصـر سـنة أربع و ستين،روى عن الزهرى و عطاء و نافع كانت له حظوة و خضع القضـاء لأـوامره،فكـان إذا رابه من أحـد شـىء كاتب فيه فيعزل،و فى الشـذرات أن المنصور أراده لولايـة مصـر،فأبى و تولى قضاءها.

3- (3) هو الحافظ عبد الرحمن بن مهدى بن حسان الأزدى،مولاهم أبو سـعيد البصرى اللؤلؤى روى عن شعبة و الثورى و مالک،وثقه أبو حاتم و أحمد،قال القواريرى:أملى علينا ابن مهدى عشرين ألفا من حفظه،كان يحج كل سنة،توفى سنة 198 ه.

الحرس؟فجاءه نفسان.فقال:خذا صاحب هذا الثوب فاحبساه.فحبس،فقيل له:

إنه ابن مهـدى.فوجه إليه و حضـر عنده فقال له:أ ما خفت اللّه و اتقيته إن وضـعت ثوبک بين يديک فى الصف و أشـغلت المصـلين بالنظر إليه،و أحدثت فى مسجدنا شيئا ما كنا نعرفه،و قد قال النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:من أحدث فى ديننا شيئا فعليه لعنة اللّه و الملائكة و الناس أجمعين (1).

و يروى كتّاب مناقب مالک،أن أمه قالت له:اذهب إلى ربيعـة،فتعلّم من أدبه قبل علمه.قال مالک:كان لى أخ فى سن ابن شـهاب (2)فألقى أبى يوما علينا مسألة،فأصاب أخى و أخطأت،فقال لى أبى:ألهتک الحمام عن طلب العلم.فغضبت، و انقطعت إلى ابن هرمز 3سبع سنين.و فى رواية ثمان سـنين لم أخلطه بغيره،و كنت أجعل فى كمى تمرا و أناوله صبيانه و أقول لهم:إن سألكم أحد عن الشـيخ فقولوا مشـغول!يريد أن ينفرد بالشيخ و لا يشاركه أحد بمجلسه،و لا بد أن الصبيان قالوا بما أراد لهم أن يقولوا.

و يذكر مالک مدة اختلافه إلى ابن هرمز ثلاثين سنة،فيشير إلى المدة دون ذكر ابن هرمز كما أراد،و الناس تعرف منه الإشارة.

كذلک أخذ مالک عن نافع مولى بن عمر،و قال:كنت آتى نافعا نصف النهار و ما تظلنى الشـجر من الشـمس،أتحيّن خروجه،فإذا خرج أدعه ساعة كأنى لم أره،ثم أتعرض له فأسلّم عليه و أدعه،حتى إذا دخل البلاط أقول له:كيف قال ابن عمر فى كذا و كذا؟فيجيبنى،ثم أحبس عنه،و كان فيه حدّة،و كنت آتى ابن هرمز من بكرة فما أخرج من بيته حتى الليل.

و القصد أن مالكا أراد أن يتهيأ للفتيا،و أن يتأهل للحديث.و لكن موهبة الحفظ و الذاكرة عنده كانت أظهر من غيرها،فيروى أنه قال:(حدثنى ابن شهاب أربعين حديثا و نيفا فيها حديث السقيفة،فحفظت،ثم قلت:أعدها علىّ فإنى نسيت النيف.

فأبى،فقلت:أ ما كنت تحب أن يعاد عليک؟قال:بلى.فأعاد،فإذا هو كما حفظت).و اشـتهر عنه ذلک و كان من أخص صـفاته.يقول سفيان بن عيينة:دارت

1- (1) الاعتصام ج 2 ص 68.و المدارک ص 130.

2- ((2)و(3)) انظر ترجمتهما فى الجزء الثانى.

مسألـة فی مجلس ربیعـة.فتکلم فیهـا ربیعـة.فقال مالک:ما تقول یا أبا عثمان؟فقال ربیعـة:أقول فلا تقول،و أقول إذ لا تقول،و أقول فلا تفقه ما أقول.و مالک ساکت، فلم یجب بشیء و انصرف (1).

و أخرج الخطیب عن إبراهیم المزنی قال:حججت سـنة،فأتیت المدینـة، فحـدثنی إسـماعیل بن جعفر الخیاط فقال:نزلت بی مسألة،فأتیت مالکا فسألته فقال:

انصـرف حتی أنظر فی مسألتک.فانصـرفت و أنا متهاون بعلمه،و قلت:هذا الذی تضرب إلیه المطی لم یحسن مسألتی.فأتانی آت فی منامی فقال:أنت المتهاون بعلم مالک،أما إنه لو نزل بمالک أدق من الشعر،و أصلب من الصخر،لقوی علیه باستعانته علیه بما شاء اللّه لا حول و لا قوة إلا باللّه العلی العظیم (2).

و قد لجأ مالک إلی المنامات بنفسه،فکان یقول:ما بتّ لیلة إلا رأیت رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم (3).و عن خلف بن عمر:دخلت علی مالـک فقـال لی:انظر ما تری تحت مصـلای.فنظرت فإذا أنا بکتاب،قال:اقرأه.فإذا فیه رؤیا رآها له بعض إخوانه.فقال:رأیت النبی صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم فی المنـام فی مسـجده قـد اجتمع الناس علیه،فقال لهم:إنی قـد خبأت لکم طیبا و علما،و أمرت مالکا أن یفرّقه علی الناس.فانصرف الناس و هم یقولون:إذن ینفذ مالک ما أمره رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم،ثم بکی،فقمت عنه (4).

و قال محمد بن رمح:حججت مع أبی و أنا صبی لم أبلغ الحلم،فنمت فی مسجد النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بین القبر و المنبر،فرأیت النبی صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم قد خرج من القبر متکئا علی أبی بکر و عمر رضی اللّه عنهما،فسلّمت علیهم،فردوا علیّ السلام،فقلت:یا رسول اللّه،أین أنت ذاهب؟فقال أقیم لمالک الصراط المستقیم.فانتبهت،فأتیت أنا و أبی مالکا،فوجدنا الناس مجتمعین علیه،و قد أخرج لهم الموطأ أول ما خرج (5).

و قال محمد بن رمح أیضا:رأیت النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی المنام منذ أربعین سنة فقلت:

1- (1) الدیباج ص 21.

2- (2) مناقب مالک للسیوطی ص 12.

3- (3) حلیة الأولیاء ج 6 ص 317.

4- (4) مناقب مالک ص 8.و حلیة الأولیاء ج 6 ص 317.

5- (5) مناقب مالک لعیسی بن مسعود الزواوی ص 17.

یا رسول اللّه مالک و اللیث یختلفان فی المسألة؟فقال النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم:مالک مالک ورث جدّی یعنی إبراهیم (1).

و قال بشیر بن أبی بکر:رأیت فی النوم أنی دخلت الجنة،فرأیت الأوزاعی و سفیان الثوری،و لم أر مالک بن أنس.فقلت أین مالک؟قالوا:و أین مالک؟رفع مالک رفع مالک.فما زال یقول:و أین مالک،و أین مالک،رفع مالک حتی تسقط قلنسوته 2.

و روی أبو نعیم عن إبراهیم بن عبد اللّه قول إسماعیل بن مزاحم المروزی قال:رأیت النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی المنام فقلت:یا رسول اللّه من نسأل بعدک؟قال:مالک بن أنس (2).

و عن مصعب بن عبد اللّه الزبیری قال:سمعت رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم إذ أتاه رجل فقال:أیّکم مالک؟فقالوا:هذا.فسلّم علیه،و اعتنقه،و ضمه إلی صدره و قال:و اللّه لقد رأیت رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم البارحة جالسا فی هذا الموضع،فقال:ائتوا بمالک.فأتی بک ترعد فرائصک،فقال:لیس بک بأس یا أبا عبد اللّه.و کنّاک و قال:اجلس.

فجلست.قال:افتح حجرک.ففتحته،فملأه مسکا منثورا،و قال:ضمه إلیک،و بثّه فی أمتی.قال:فبکی مالک و قال:الرؤیا تسر و لا تغر و إن صدقت رؤیاک فهو العلم الذی أودعنی اللّه (3).

و یطول بنا المقام لو أحصینا الرؤی و المنامات و ما تفیض به الأحلام.و قد أوردنا بعضا مما کان علی عهد مالک نفسه،و بذلک أصبح من حقهم أن یعتمدوا المنامات رکنا،و یلجأ و إلیها فیما یریدون ترجیحه و شیوعه،و خلاصة القول؛إن مالکا عرف بالحفظ و الذاکرة،فاتجه إلی المنحی الذی یتفق مع موهبته،ثم ظهر منه کراهیة للسؤال،فمال إلی استخدام سلاح الاتهام بالبدعة.و غالبا ما یظن بالسائل أنه یرید المغالطة،و یقوم بردّه بهذه الآیة: وَ لَلَبَسْنا عَلَیْهِمْ ما یَلْبِسُونَ و الحال یقتضی التهیؤ للمناظرة،و الإقبال علی الحوار،لأن الفترة قد شهدت بوادر اتساع الأقوال فی الصفات و إثباتها أو تعطیلها،و لیس من الحکمة فی شیء الزجر دون اقناع،أو التعنیف و ترک الحجاج،مما یترک فی نفس السائل الحیرة،أو یؤکد فی عقله المیل و من ثم الانجراف.

1- ((1)و(2)) الجرح و التعدیل ج 1 ص 28.

2- (3) حلیة الأولیاء ج 6 ص 317.

3- (4) الانتقاء ص 39.و شرح الموطأ للزرقانی ج 1 ص 4.

يروى حفص بن عبد اللّه قال:كنّا عند مالک،فجاء رجل،فقال:يا أبا عبد اللّه اَلرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى كيف استوى؟فقال:الكيف غير معقول، و الاستواء غير مجهول،و الإيمان به واجب،و السؤال عنه بدعة.و أظنک صاحب بدعة.

و أمر به،فأخرج.

و الجواب بلا أدرى أهون بكثير حتى و إن بات قاعدة يورثها مجلسه،فلا عيب فى ذلک،لأن السائل يتحرى عند غيره الإجابة،و هو المعروف عن مالک أيضا،فعن الهيثم بن جميل قال:شهدت مالكا سئل عن ثمان و أربعين مسألة،فقال فى اثنين و ثلاثين منها:لا أدرى.و غالبا ما يلجأ إلى(لا أدرى)فعن ابن وهب أنه قال:لو شئت أن أملأ ألواحا من قول مالک(لا أدرى)فعلت (1)و من علماء المالكية من يتعجب من قول لا أدرى (2).

إن عصر مالک كان من أكثر العصور ازدهارا،و قد أصبحت المدينة موطنا للعلم و موئلا لطلابه من مختلف الأقطار الإسلامية،و امتازت بالتمسّک بالحديث فى مقابلة العراقيين و امتيازهم بالرأى و القياس،و عظم العداء بين البلدين،و أدى إلى اتهامات و خصومات ابتعدت كثيرا عن العلم.

كان أبو سعيد الرأى يمارى أهل الكوفة،و يفضّل أهل المدينة،فجاءه رجل من أهل الكوفة و اسمه شرشيرا و قالوا كلب فى جهنم يسمى شرشيرا فقال:

عندى مسائل لا شرشير يعرفها إن سيل عنها و لا أصحاب شرشير

و ليس يعلم هذا الدين يعلمه إلا حنيفية كوفية الزور

لا تسألن مدينيا فتكفره إلا عن البم و المثنى و الزير

فكتب أبو سعيد إلى أهل المدينة:إنكم قد هجيتم،فردّوا.فردّ عليه رجل من أهل المدينة يقول:

لقد عجبت لغا و ساقه قدر و كل أمر إذا ما جمّ مقدور

قالوا المدينة أرض لا يكون بها إلا الغناء و إلاّ البم و الزير

لقد كذبت لعمر اللّه إن بنا قبر النبى و خير الناس مقبور

(3)

1- (1) المناقب للسيوطى ص 12 و ص 16.و حلية الأولياء ج 6 ص 323.

2- (2) انظر المجلد الأول/الجزء الثانى من هذا الكتاب.

3- (3) العقد الفريد ج 3 ص 408. [1]

أما فی المدینـة،فکان مالک بمنزلته یوجه الناس ضـد أهل العراق،و کان یقول لرجل من أهل الکوفـة:لم یأخـذ أوّلونا عن أوّلیکم،فکذلک لا یأخذ آخرونا عن آخریکم.و وصـفها مالک بدار الضـرب،فقال:هی دار الضـرب،یضـربون باللیل ما ینفقون.و کان ینسب إلی ربیعة القول:ما رأیت عراقیا تام العقل.

و نسب إلی أحد علماء المدینة قوله:کأن النبی الذی بعث إلینا غیر النبی الذی بعث إلیهم.

و کان یقال بالمدینة:اترکوا أحادیث أهل العراق منزلة أحادیث أهل الکتاب، فلا تصدّقوهم و لا تکذّبوهم (1).

و فی وسط هـذه المنازعات و الخصومات التی اسـتباحت الکثیر من عصم الإیمان و روابط العقیـدة،کانت مدرسـة الإمام الصادق تفیض بإشـراقها من علم أهـل بیت النبوة،و تغنی بإلهامهـا عقول العلمـاء،فکان الإمام الصادق محیطا بموارد النزاع و عارفا بوجوه الخلاف بصورها علی المسائل و الآراء،و صـبغتها التی مضت علیها فی المجالس و الحلقات.و یجری علمه فی أوساط الأمـة بأصوله من الکتاب و أدلته من السنّة،بشمول لا یتهیأ لبشر،و درایة یعجز عنها غیره،فکان أفقه الناس و أعلم أهل زمانه.

و کان أبو جعفر المنصور أول ما أراد أن یجعل أبا حنیفة وسیلته فی التأثیر علی مکانة الإمام الصادق فی النفوس و النیل من منزلته العلمیة،و ذلک قبل أن یتحول إلی الإمام مالک.

قـال الحسن بن زیـاد اللؤلؤی:سـمعت أبـا حنیفـة-و سـئل من أفقه من رأیت-؟ قـال:ما رأیت أفقه من جعفر بن محمـد الصادق،لمّا أقـدمه المنصور بعث إلی فقال:

یـا أبـا حنیفـة إن النـاس قـد فتنـوا بجعفر بـن محمـد،فهیّئ لـه من المسائـل الشـداد،فهیـأت له أربعین مسألـة.ثم بعث إلیّ أبـو جعفر و هو بالحیرة،فأتیته،فدخلت علیه، و جعفر بن محمد جالس عن یمینه،فلما بصـرت به دخلتنی من الهیبة لجعفر بن محمد الصادق ما لم یدخلنی لأبی جعفر،فسلّمت علیه،و أومأ إلی فجلست،ثم التفت إلیه فقال:یا أبا عبد اللّه هذا أبو حنیفة.فقال:«نعم»ثم اتبعها:قد أتانا،کأنه

1- (1) مناقب الزواوی ص 55-56-57.

كره مـا يقول فيه قوم أنه إذا رأى الرجـل عرفه،ثم التفت إلى فقال:يا أبا حنيفـة ألق على أبى عبـد اللّه من مسائلک.فجعلت ألقى عليه،فيجيبنى فيقول:«أنتم تقولون كـذا،و أهـل المدينـة يقولون كـذا،و نحن نقول كـذا»فربمـا تابعنـا،و ربمـا تابعهم،و ربما خالفنا جميعا،حتى أتيت على الأربعين مسألة،ما أخل منها بمسألة.ثم قال أبو حنيفة:ألسنا روينا أن أعلم الناس أعلمهم باختلاف الناس...ا ه (1).

و مما علم من منهـج الإمام الصادق و منطق قوله،فإن تفسـير الكتاب عنـده ليس بالأخـذ من الغير،و الحديث هو بإسـناد آبائه الطيبين.فمن المؤكد هنا أن المسائل التى كانت عدة السلطان أبى جعفر و سلاحه فى مواجهة الإمام الصادق كان يعرضها الإمام الصادق على مصادره و أصوله و يناقشـها،فما وافق منها حسـبه أبو حنيفـة متابعـة،و ليس الأمر كذلک.لأن الإمام الصادق فى علمه لا يتّبع إلاّ القرآن و سـنّة النبى و الأئمة من أهل بيته،أما المخالفة فأمرها معروف.

و كما رأينا فإن مالكا كان من طلاب مدرسـة الإمام الصادق و من تلاميذه،قال مالک عن صـلته بالإمام الصادق:(جعفر بن محمد اختلفت إليه زمانا،فما كنت أراه إلا على إحدى ثلاث خصال:إما مصلّ،و أما صائم،و إما يقرأ القرآن) (2).

و قوله:(ما رأت عين،و لا سـمعت أذن،و لا خطر على قلب بشـر أفضل من جعفر بن محمد الصادق علما و عبادة و ورعا) (3)و قال مالک: (لقد كنت أرى جعفر بن محمد و كان كثير الدعابة (4)و التبسّم،فإذا ذكر عنده النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم اصفرّ،و ما رأيته يحدّث عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلا على طهارة،و لقد اختلفت إليه زمانا،فما كنت

1- (1) المناقب للموفق المكى ج 1 ص 173.و [1]سير أعلام النبلاء ج 6 ص 256.

2- (2) تهذيب التهذيب ج 2 ص 104. [2]

3- (3) المجالس السنية للعاملى ج 5.و التوسل و الوسيلة لابن تيمية ص 52.

4- (4) تروى عند بعض المالكية«كثير المزاح»و لا نستغرب الوصف بالمزاح أو الدعابة،لأن عمر بن الخطاب وصف بها الإمام على،و كان قوله موضع نظر ورد،إلا أن يبتـدع بها اصـطلاحا و يحـدث بها مسـمى جديد فيكون معناها التقوى و شدة الالتزام بالدين،أو حسن الخلق و المعاشـرة،فإن كان القصد ظاهر معناها،فهى من الفلتات،و لا يحمل عليهما إلا قصد الإساءة و النيل،و دون ذلک عصـمة اللّه و رعايته من دين راسخ و علم وافر و منزلة سامية و خصائص عالية هى الغاية فى الكمال و النهاية فى الرفعة.

أراه إلا على ثلاث خصال:إما مصـلّيا أو صائما و إمّا يقرأ القرآن.و لا يتكلم فيما لا يعنيه و كان من العلماء و العبّاد الـذين يخشون اللّه عز و جل) (1).

و من المحـدثين كثير يحملهم التقليـد و التعصب على إغفال الجوانب المهمة فى اختلاف مالک إلى الإمام الصادق و الأخذ عنه و الرواية له،و يخال بعضـهم كمصـطفى الشكعة أن إظهار الصحبة يؤدى إلى المقارنة بينهما بميزان الاستواء و التعادل،و ليس الشكعة أول من يفعل ذلک،و لا هـذه أول النزعات المعلنـة،فقد علمناها منه فى كتبه السابقة،و قد وصـلنى كتابه(الأئمة الأربعة)فأثار فى نفسـى تساؤلات كثيرة،و كلما تصـفّحته كثرت الملاحظات و تعدّدت المؤاخذات،و لو أشـرت إلى بعضـها لطال بنا الحديث،نرجو اللّه أن ييسـر و يعين لتحرير الردّ عليه،فقـد بنى كتابه فى الطعن على الشـيعة على أساس الوهم و الادعاء الباطل بوجود«التشـيع المذهبى»و هى مقولة فتن بها الناظرون إلى التاريخ بمنظار الهوى و مصـطلحات السـياسة،ممن عظم عليهم كون التشـيع وعاء الإسـلام و إطاره،و أن رجاله و قادته هم سادة العرب و فرسانها رفعهم اللّه بعز الإسـلام إلى موكب الدعوة و جيش الولاء لصاحب الرسالة النبى الهادى المصطفى،و نبذوا حمية الجاهلية و نعرات القبلية،فأصبحوا دعاة حق و حملة رسالة يتهافتون على الموت فى سبيلها.

و مهما كان من أمر الشـكعة فهو لا يقوى على إنكار الحقائق الناصعة التى تقود إليها و تنتهى جهوده فى البحث عن الأئمة الأربعة فيقول:(و لـم يكن مالک و أبو حنيفـة وحدهما الآخذين من فيض الإمام جعفر من بين أئمة أهل السـنّة،و إنما أخذ عنه و اتصل به السـفيانان الثورى و ابن عينية و شعبة بن الحجاج و غيرهم) (2).

و مما يقوله الشـكعة:لقد تأثر مالک بكثير مما فى جعفر.تأثر به فى الحديث فروى له،و لقد ضـمّن مالک كتابه«الموطأ»عددا من الأحاديث التى رواهـا.و لقـد تـأثر به مالک فى أنه لـم يجلس ليحـدّث حـديث رسول اللّه إلا و هو على الطهارة.و القصـد أننا أردنا الإشارة إلى كتاب الشكعة،و نتركه أمل تحرير الردّ عليه و إلحاقه بالمناقشات المجموعة.

1- (1) مناقب الزواوى ص 33 و 34.

2- (2) د.مصطفى الشكعة:الأئمة الأربعة ص 317،مصر 1979.

أما تأثر مالک بالإمام الصادق فإن مجالاته واسعة،و لقد استمر المالکیة علی تعضید مذهبهم بعد وفاة إمامهم،معتمدین علی حضور مالک عند الإمام الصادق و الاستماع إلی حدیثه،و تلقّی تعالیمه فی مدرسته،فسمحوا لأنفسهم أن یتخیلوا أمورا لتکون لهم شهادة تؤید المذهب،فادّعوا أن الإمام الصادق أوصی إلی مالک عند وفاته،و رووا عنه أنه دخل علیه قوم من أهل الکوفة فی مرضه الذی توفی فیه،فسألوه أن ینصّب لهم رجلا یرجعون إلیه فی أمر دینهم،فقال:علیکم بقول أهل المدینة، فإنها تنفی خبثها کما ینفی الکیر خبث الحدید،علیکم بآثار من مضی،فإنی أعلمکم أنی متبع غیر مبتدع،علیکم بفقه أهل الحجاز،علیکم بالمیمون المعین المبارک فی الإسلام،المتبع آثار رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فقد امتحنته فوجدته فقیها فاضلا متبعا مریدا لا یمیل به الهوی،و لا تزدریه الحاجة،و لا یروی إلا عن أهل الفضل من أصحاب رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فإن اتبعتموه أخذتم بحظکم من الإسلام،و إن خالفتموه ضللتم و هلکتم،أ لستم تقولون إنی هیئ من العلم غیر محتاج إلی أحد من الخلق؟فإنه قد أخذ عنی کل ما یحتاج إلیه،فلا یمیل بکم الهوی فتهلکوا،إنی أحذرکم عذاب اللّه یوم القیامة،یوم لا ینفع مال و لا بنون إلا من أتی اللّه بقلب سلیم،أحذرکم،فقد أرشدتکم إلی رجل نصّبته لکم،فإنه أمین،مولود فی زمانه،قالوا:من هو بیّنه لنا؟قال:ذلک مالک بن أنس،علیکم بقول مالک.ثم رفع یدیه إلی السماء و قال:اللهم إنی بریء من ظنّهم و تخرّصهم و من رواة السوء منهم،اللهم إنک تعلم أنه قد قیل عن عیسی بن مریم ما لم یقل،و روی عن مالک ما لم یکن،و قیل عن عزیز ما لم یقل،و روی عنه ما لم یکن،و قیل عن علی بن أبی طالب ما لم یقل،و روی عنه ما لم یکن،فمن روی عنّی ما لم نقل،فعلیه لعنة اللّه و لعنة اللاعنین و الملائکة و الناس أجمعین (1).

و الروایة صریحة الوضع،نقلناها کاملة للتدلیل علی مسلک النزاع و الخصام فی استحلال الوضع،و التماس الظفر بالإقرار بالوقائع العلمیة للبناء علیها فی مورد، و إنکارها و تجاهلها فی مواضعها الأصلیة،لأنها فی سیاقها حجة لغیرهم.و صفوة القول،فإن أصحاب الحدیث أرادوا أن یثقلوا موازینهم بهذه المبتدعات،حتی اضطرهم الأمر إلی الوضع لادناء مالک من منزلة الإمام الصادق،و وضعه فی التأهل

1- (1) المناقب للزواوی ص 10.

لاحتلال تلک المنزلـة بعد وفاته،و لتکون له الرئاسة بوصـية و عهد من الإمام الصادق، و ذلک من الجهل بمکان فإذا اتسع المجلس لمالک فی مجـال التلمـذة و الأخـذ العلمی، فلاـ تتسع الوصايـة له أو لغيره من الناس إلا من نص عليه فی خبر الإمامـة،و جاء ذکره فی آثار الولاية المحفوظة و المعهودة عند أولياء الأمر من الأئمة الهداة المعصومين.

و کـذلک فإن کتّاب المناقب جعلوا من اسم الإمام الصادق وسـيلة لإضـفاء القدسـية علی سـيرة مالک کما فعل القاضـی عياض بدعواه أن الإمـام الصادق قال:قيل لمالک اخترت مقامک بالمدينـة و ترکت الريف و الخصب؟فقال:و کيف لا أختاره و ما بالمدينـة طريق إلا سـلک عليها رسول اللّه صـلّی اللّه عليه و آله و سـلّم و جبريل عليه السّلام ينزل عليه من عند رب العالمين فی أقل من ساعة (1).و لا نعلم مناسبة لذلک و لا وجها،و الدعوی لا تساعد المالکية فی تشبّثهم بدار الهجرة لأن الإمام الصادق أعرق أصلا و علما فيها.

و بالجملة فإنا قد اعتمدنا فی بيان منازل رؤساء المذاهب علی أقوال معاصريهم و أقرانهم من العلماء،فإن فعلنا لا نجد ما يدل علی امتيازه و تفرّده بخصائص تؤهله للمرجعية دون غيره،و قد ذکرنا الکثير منها لتکوين الاطلاع و العلم اللازم للموازنة و المقارنة بين شخصـيات رؤساء المذاهب و أئمتها.

سئل أحمد بن حنبل عن مالک؟فقال:حديث صحيح و رأی ضعيف (2).

قال يحيی بن بکير:الليث أفقه من مالک،لکن الحظوة لمالک (3).

قال الشافعی:الليث أفقه من مالک إلا أن أصحاب لم يقوموا به.

و فی رواية:الليث أفقه من مالک إلا أنه صنيعة أصحابه 4.

و قال سـعيد بن أيوب:لو أن الليث و مالکا اجتمعا،لکان مالک عنـد الليث أبکم،و لباع الليث مالکا فيمن يريد (4)و قد اطلعنا-سابقا-علی بعض رسالة مالک إلی الليث و منها:

ثم کان التابعون من بعـدهم يسـلکون تلک السبيل،و يتّبعون تلک السـنن،فإذا کان الأمر بالمدينة ظاهرا معمولا به،لم أر لأحد خلافه للذی فی أيديهم من تلک

1- (1) ترتيب المدارک ج 1 ص 59.

2- (2) مناقب الشافعی للفخر الرازی.

3- ((3)و(4)) شذرات الذهب ج 1 ص 288. [1]

4- (5) الرحمة الغيثية لابن حجر ص 6.و تذکرة الحفاظ ج 1 ص 209.

الوراثـة التی لا یجوز انتحالها و لا ادعاؤها،و لو ذهب أهل الأمصار یقولون:هذا العمل ببلدنا،و هذا الذی مضـی علیه من مضـی لـم یکونوا فیه من ذلک علی ثقة،و لـم یکن لهم من ذلک الذی جاز لهم.

و کـان من ردّ اللیث علی مالـک:إن کثیرا من أولئـک السابقین الـذین عناهم بقول اللّه تعالی: وَ السّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهاجِرِینَ وَ الْأَنْصارِ خرجوا إلی الجهاد فی سبیل اللّه ابتغاء مرضاة اللّه،فجنـدوا الأجناد،و اجتمع إلیهم الناس،فأظهروا بین ظهرانیهم کتاب اللّه و سـنّة نبیّه.و أن أصحاب رسول اللّه قد اختلفوا بعده فی الفتیا فی أشیاء کثیرة،و یقول له:

(و لو لا أنی قـد عرفت أن قـد علمتها لکتبت بها إلیک.ثم اختلف التابعون فی أشـیاء بعد أصـحاب رسول اللّه صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم سعید بن المسیب و نظراؤه أشد الاختلاف،ثم اختلف الذین کانوا من بعدهم،فحضرتهم بالمدینة،و رأسهم یومئذ ابن شهاب و ربیعة بن أبی عبـد الرحمن،و کان من خلاف ربیعـة لبعض من قد مضـی ما قد عرفت و حضـرت و سـمعت قولک)مشـیرا إلی تلمذته علیهما و حضوره عندهما.

و سأل علی بن المدینی یحیی بن سعید:أیما أحبّ إلیک،رأی مالک أو رأی سفیان؟قال:رأی سفیان،لا یشک فی هذا.

و قال:سفیان فوق مالک فی کل شیء.

و دخل علیه محمد بن الحسن صاحب أبی حنیفة-و هو حدث-فقال:ما تقول فی جنب لا یجد الماء إلا فی المسجد؟فقال مالک:لا یدخل الجنب المسجد.قال:

فکیف یصنع و قد حضرت الصلاة و هو یری الماء؟قال:فجعل مالک یکرر:لا یدخل الجنب المسجد.فلما أکثر علیه قال له مالک:فما تقول أنت فی هذا؟قال:یتیمم و یدخل فیأخذ الماء من المسجد و یخرج فیغتسل.قال:من أین أنت؟قال:من أهل هذه-و أشار إلی الأرض-فقال:ما من أهل المدینة أحد لا أعرفه.فقال:ما أکثر من لا تعرف؟ثم نهض.قالوا لمالک:هذا محمد بن الحسن صاحب أبی حنیفة.فقال:

محمـد بن الحسن،کیف یکـذب و قـد ذکر أنه من أهل المدینـة؟قالوا:إنما قال من أهل هذه،و أشار إلی الأرض.قال:هذا أشدّ علیّ من ذلک (1).

و إذا عدنا إلی الحدیث و اعتمدنا رأی أحمد بن حنبل بعد أن اطلعنا علی وصفه

1- (1) تاریخ بغداد ج 2 ص 174 و 175. [1]

مالكا بالضعف فى الرأى،فإن أحمد يقول:كان مالک من أثبت الناس،و كان يخطئ (1).

و هو فى جميع الأـحوال لا يسـلم سـنده و لا يخلو طريقه من اختلاف،و لـذلک يرجـح الحفاظ فى كثير من الأحاديث سـند غيره كما فى حديث«أنا و كافل اليتيم فى الجنة...الحديث»فرجح أبو زرعة و أبو حاتم سند ابن عيينة على رواية مالک (2).

و قـد اختـار مالک حبيب بن أبى حبيب الورّاق كاتبا له،و هو معروف بالكـذب و متروک.قال ابن حبان:كان يورق بالمدينـة على الشـيوخ،و يروى عن الثقات الموضوعات كان يدخل عليهم ما ليس من حديثهم.و قال ابن معين:كان يقرأ على مالک و يتصـفّح ورقتين ثلاثة،فسألونى عنه بمصر،فقلت:ليس بشىء.و قد كذّبه أبو داود و آخرون،و هو متروک إلا أنه كان قريبا من مالک،و جعله وسيلة عرضه للحديث (3).

مالک بين الأموية و العباسية

:

لقد اتصف مالک بميول أموية واضـحة،و قد رأينا أنه أدرک من العهد الأموى أربعين سنة،و من العهد العباسى أكثر من ذلک.و لا بد أن هذه الميول كانت متوارثة فى عائلته منذ جد أبى مالک،و هو أبو عامر الذى برز من بيت مالک بسـبب دعاوى الصـحبة التى ليست بشـىء،و لكن أبرز أعمال جد أبى مالک كونه أحد الأربعة الذين حملوا عثمان ليلا إلى قبره (4)،و هى رواية يبادر بها أبو عامر قال:(كنت أحد حملة عثمان حين قتل،حملناه على باب،و إن رأسه لتقرع الباب لإسراعنا به،و إن بنا من الخوف لأمرا عظيما،حتى وارياه فى قبره فى حش كوكب).

أما الروايـة عن عبد اللّه بن ساعدة فهى:لبث عثمان بعد ما قتل ليلتين،لا يسـتطيعون دفنه،ثم حمله أربعة:حكيم بن حزام و جبير بن مطعم و نيّار بن مكرم و أبو جهم بن حذيفة (5).فأين جدّ أبى مالک؟

1- (1) شرح علل الترمذى ج 1 ص 437.

2- (2) أيضا ج 2 ص 842.

3- (3) تهذيب التهذيب 181/2.و [1]ميزان الاعتدال 210/1.و المجروحين لابن حبان 260/1.و شرح علل الترمذى 830/2.

4- (4) مناقب السيوطى ص 4.

5- (5) الطبرى ج 5 ص 144. [2]

أما مالک،فإن حرصه و توخّيه فی الروايـة أدّياه إلی أن يکون رکيزة لحديث موضوع فی معاوية أخذه عن أسـتاذه نافع،عن ابن عمر و هو:کنت عند رسول اللّه صلّی اللّه عليه و آله و سلّم فأهدی إليه سفر جل،فأعطی أصحابه واحدة واحدة،و أعطی معاوية ثلاث سفرجلات و قال:ألقنی بهنّ فی الجنة.

و يتقلد مالک حديث الوضوء من مسّ الذکر،و بإسناده مروان و بسرة بنت صفوان و أنها سمعت رسول اللّه صلّی اللّه عليه و آله و سلّم يقول إذا مسّ أحـدکم ذکره فليتوضأ.و بسـرة مجهولـة لم تکن صـحبتها أو مکانتها إلا من صـنع الأمويين و حاشـيتهم،و لکن مالک بن أنس يری مکانتها فی علاقتها بالأمويين،لـذا فهی مقبولـة عنـده و غير مجهولة،و لا يفيد طعن رجال الحديث فی روايتها و قلة صـحبتها-إن وجدت- فيقول مالک:أ تـدرون من بسـرة بنت صـفوان؟هی جدة عبد الملک بن مروان أم أمّه فاعرفوها (1)فکأن(إمام المدينة)نسـی الزرقاء؟!! و يتبع الأمويين بميوله،و يتمنی أن يکون فی المدينة مثل عبد الرحمن بن معاوية الداخل إلی الأندلس،و يقول مالک:ليت أن اللّه زيّن حرمنا بمثله (2)کأن لم يکف ما فعل أسـلاف الـدّاخل و أبناء معاويـة الأول من جرائم،و ما انتهکوا من حرمات،حتی کان الرجل من أهل المدينـة بعد وقعة الحرّة إذا زوّج ابنته لا يضمن بکارتها،و يقول:

لعلها قـد افتضّت فی وقعة الحرة (3).و المدينـة التی يحتج بفضـلها مالک و يسـعی إلی أن يقتدی به الآخرون لأن فيها الصـحابة و هو من أهلها أيضا،ختم الحجاج أعناق الصحابة من أهلها کجابر بن عبد اللّه الأنصاری و أنس بن مالک و سهل بن سعد الساعدی ليذلّهم.

أما رأيه فی التفضيل،فهو من آثار هذه الميول.فهو يری أن الإمام عليا کسائر الصحابة.روی مصعب-و هو أحد تلامذة مالک-أنه سأل مالکا:

من أفضـل النـاس بعـد رسول اللّه صـلّی اللّه عليه و آله و سـلّم؟فقـال مالک:أبو بکر قال:.ثم من؟ قال:عمر.قال:ثم من؟قال:عثمان.قال:ثم من؟قال:هنا وقف الناس.

1- (1) کتاب الاعتبار لابن حازم الهمذانی ص 43.

2- (2) مالک لأمين الخولی ص 200 نقلا عن شرح العيون [1]لابن نباته.

3- (3) الفخری ص 107. [2]

و لكنه أخـذ يتردّد فى ضمّ عثمان إلى الشـيخين لأنه التحق بركب العباسـيين فيما بعـد-كما سـيأتى-و سار على ما يسـير عليه المنصور فى ذلک،فإنه لما دخل عليه مالک قال له المنصور:من أفضل الناس بعد رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم؟قال مالک:أبو بكر و عمر.فقال المنصور:أصـبت،و هـذا رأى أمير المؤمنين-يعنى نفسه-و كـانت موافقـة مالک للمنصور و اتباعه السـلطة من المحفزات على اتخاذ مالک عالما لها.

قال الشـيخ أبو زهرة:إن مالكا يخالف بـذلک-أى التفصـيل-إمامين آخرين عاصـراه:أحـدهما أسنّ منه و مات قبله و هو أبو حنيفـة.و ثانيهما أصـغر منه و هو تلميـذه الشافعى.فإن أبا حنيفة لا يعد عليا كسائر الناس بل«يرفعه»إلى مرتبة الراشدين من الخلفاء،و يقدمه فى الترتيب على عثمان.و الشافعى يعلن محبته لعلى،و يحكم على خصومه بأنهم بغاة... (1).

و نحن نقول أنه خـالف إماما ثالثا و هو أحمـد بن حنبل،فما كان رأيه كرأى مالک،بل كان يعـدّ عليا من أهل بيت لا يجارون،و لا يقاس بهم أحـد،و ذلک عنـد ما سأله ولـده عبد اللّه:من أفضل الناس؟قال:أبو بكر و عمر،و عثمان.ثم سـكت، فقال له فعلى:فقال:يا بنى،على من أهل بيت لاـ يقـاس بهم أحـد.و له كثير من الآـراء فى تفضـيل الإمـام على.حتى أنه ألف كتابـا فى مناقب الإمام على،فهو يرى أن ما لأحـد من الصحابة من الفضائل بالأسانيد الصحاح مثل ما لعلى (2).

و لا يصح اعتبار التفضـيل سـببا فى تعرّضه إلى الأذى على يد جعفر بن سـليمان و الى المدينة سنة 146 ه و إطلاق اسم المحنـة على هذه الحادثـة التى تعرض بها إلى الأذى،فقـد جرّد من ثيابه،و مدّت يداه،و ضـرب بالسـياط حتى انخلعت كتفاه لعدم رضا الطالبيين عن مذهب مالک بهذا الخصوص.

و علينا أن نقف عنـد هـذه الحادثـة لأنها الفاصل بين الميول الأموية فى حياة مالک و الميول العباسـية التى ظهرت عليه بما لا ينسـجم مع ماضـيه.إذ أن دخوله فى أمر ثورة محمد النفس الزكية أمر غير متوقع،فلذلک لا غرابة فى عدم الإجماع على سبب واحد لهذه الحادثة.فإضافة إلى ما ذكرناه من القول فى أن عدم الرضا من قبل

1- (1) مالک ص 70.

2- (2) مناقب أحمد لابن الجوزى ص 163.

الطالبيين كان سببا فى ذلک لرأى مالک فى التفضيل.فهناک قول أن السبب هو مجاهرة مالک بمخالفة ابن عباس فى جواز نكاح المتعة،فقيل له فى قول ابن عباس فيها، فقال:كلام غيره فيها أوفق لكتاب اللّه.و أصرّ على القول بتحريمها،فطيف به على ثور مشوّها،فكان يرفع القذر عن وجهه و يقول:يا أهل بغداد أنا مالک بن أنس فعل بى ما ترون لأقول بجواز المتعة (1).

و هذا بعيد عن الواقع،لأن الحادثة وقعت فى المدينة،و إذا سلّمنا صحة هذا السبب،فهل أصرّ مالک على رأيه فيما بعد؟و وافقته الدولة و تخلّت عن رأيها و قرّبته؟ أم أنه وافق رأيها و تنازل عن إصراره،و ترک ما وافق كتاب اللّه لما وافق رأيهم؟ و لا يبعد أن يكون وراء وضع هذه الصور المتعددة أنصار مالک لغرض اشتهاره و توسيع دائرة ذكره.

و مهما يكن،فإن سبب الحادثة الأقرب،هو التظاهر بتأييد ثورة محمد النفس الزكية.و الرواية كما فى الطبرى و ابن الأثير:أن مالک بن أنس استفتى فى الخروج مع محمد و قيل له:إن فى أعناقنا بيعة لأبى جعفر.فقال:إنما بايعتم مكرهين و ليس على كل مكره يمين.فأسرع الناس إلى محمد،و لزم مالک بيته (2).أما ابن عبد البرّ فيروى -من بين ما يروى-أن أبا جعفر نهى مالكا عن الحديث(ليس على مستكره طلاق)ثم دسّ إليه من يسأله عنه،فحدّث به على رءوس الناس،فضربه بالسياط (3).

و الفرق بين الروايتين كبير،فإذا اعتبرنا الثانية،فإن رواية مالک للحديث تأتى من اختصاصه فى حفظ الحديث و الرواية،و تشدّده فى رواية الحديث الذى يرتئيه و يصحّحه.فهو يجمع لموطئه،و عامل موهبته هو الحفظ.و يأتى نهى المنصور فى ظروف بحثه عن محمد النفس الزكية و استعداد العلويين للثورة.

أما الرواية الأولى فليس دور مالک فى الثورة بهذا الشكل،فقد علمنا ظروف الثورة و الحركة العلوية التى يناهضها مالک،و من المبالغة بمكان أن يكون رأى مالک هو سبب إسراع الناس،و ذلک ما ينفرد به الطبرى و من ورائه ابن الأثير.

1- (1) شذرات الذهب ج 1 ص 290. [1]

2- (2) الطبرى ج 9 ص 206.و [2]ابن الأثير ج 5 ص 251. [3]

3- (3) الانتقاء ص 43 و 44.

و خلاصة القول،أن الحديث الصحيح الذى منع المنصور مالكا من روايته كان مصداقا للتحلل من بيعة المنصور.و إنما كان مالک يرويه لكونه حديثا و ليس لغرض يخدم حركة العلويين،فلما قامت الثورة،قال مالک بما كان يرويه.و تظاهره بذلک لا يخلو من كراهيته لما فعل العباسيون بالأمويين.و من ثم كان انصرافه إلى بيته بانتظار ما سيسفر عنه الأمر.و لو صحّ هذا التأييد فما هو عذره فى السكوت عن جرائم أبى جعفر المنصور فى بنى الحسن،و دفنهم و هم أحياء،و قتل النفس الزكية؟! و المنصور هو هو من شدّة عدائه و حقده على من يناوئ حكمه و يمالىء أعداءه،و لو كان هناک ما يشمّ من مالک غير نشاطه اليومى فى الرواية التى خشى أثرها المنصور،لما كان هذا الاعتذار منه لمالک،و بهذا الشكل الذى يصفه لنا مالک بلسانه:(لما دخلت على أبى جعفر،و قد عهد إلىّ أن آتيه فى الموسم.قال لى:و اللّه الذى لا إله إلا هو ما أمرت بالذى كان،و لا علمته،إنه لا يزال أهل الحرمين بخير ما كنت بين أظهرهم،و إنى أخالک أمانا لهم من عذاب،و لقد رفع اللّه بک عنهم سطوة عظيمة،فإنهم أسرع الناس إلى الفتن،و قد أمرت بعد و اللّه أن يؤتى به من المدينة إلى العراق على قتب،و أمرت بضيق محبسه،و الاستبلاغ فى امتهانه،و لا بد أن أنزل به من العقوبة أضعاف ما نالک).

و لا نكتشف أى إشارة للاتهام أو الاعتذار فى سبب معين،و قول مالک أو روايته يأتى مبينا لرأى المنصور فى مالک،لا يشوبه غضب متجبر أو ظالم كالمنصور، بل هو يشعر مالک بأن لوجوده بين أهل المدينة أثرا فى التخفيف من نقمته،أولئک الذين يصفهم المنصور بأنهم أسرع إلى الفتن.و الأمر بمقتضى الرواية المالكية لا يعدو رواية الحديث و التظاهر،و قد يكون من مالک بفتحة ضيقة من وراء بابه،يرفع بها صوته،مردّدا ما منعه المنصور من روايته فى تلک الظروف،و بعدها إحكام رتاج الباب حتى انتهاء الأحداث.

و لو كانت هذه الحادثة لعلوية أنزلها اللّه فى قلب مالک،لكان مصيره بلا شک كمصير الآخرين من الفقهاء و الرجال الذين سلط المنصور عليهم نقمته لانحيازهم إلى محمد النفس الزكية،و كابن هرمز الذى اختلف إليه مالک ثلاثين سنة للتفقه-كما مر بنا-و عبد العزيز بن محمد الدراوردى،و عبد الرحمن بن أبى الموالى الذى ضربه المنصور أربعين سوطا لكى يدله على محمد فلم يدله،و عبد اللّه بن عمر بن حفص

الـذی أخذ أسـیرا،فأتی به المنصور فقال له:أنت الخارج علیّ؟قال:لم أجد إلا ذلک أو الکفر بما أنزل اللّه علی محمد.و عثمان بن محمد بن خالـد بن الزبیر الـذی هرب بعـد قتـل محمـد،فـأتی البصـرة فأخـذ منهـا و أتی به المنصور فقـال له:هیه یـا عثمـان،أنت الخـارج علیّ مع محمد؟قال:بما بایعته أنا و أنت بمکة،فوفیت بیعتی،و عذرت بیعتک.قال المنصور:یا ابن اللخناء،قال:ذاک من قامت عنه الإماء.فأمر به فقتل.

و غیرهم کثیر.

و لا نریـد أن نبرئ المنصور تماما من بعض الأسـباب التی تتعلق بروایـة الحـدیث و لا تتعداه،و هو أمر عابر لم یترک أثرا فی نفس المنصور التی تتسم بالحقد،و إلا فهناک روایة تبین أن جعفر بن سـلیمان هو الطرف فی منع روایة الحدیث،و قد تصـرّف بعقلیة العباسی الذی ینتمی إلی أسـرة لها الحکم و الطاعـة،و روایة حدیث:(لیس علی مسـتکره طلاق)یؤدی إلی تبریر نقض إیمان بیعة بنی العباس (1).و قیل له:إنه لا یری خلافتکم.فضربه سبعین سوطا،و مدّت یده حتی انخلعت (2).

کما لا نریـد أن نظلم مالکا،فقـد دافع عن الفقهاء الـذین یغلی صدر المنصور علیهم بحقده الأسود عند ما قال له:ما هذا الذی یبلغنا عنکم معاشـر الفقهاء و أنتم أحق الناس بالطاعة،و أعرفهم بما یلزم من حق الأئمة؟فقال مالک:فقلت یا أمیر المؤمنین إن اللّه تعالی یقول فی کتابه: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا إِنْ جاءَکُمْ فاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَیَّنُوا أَنْ تُصِـیبُوا قَوْماً بِجَهالَةٍ فَتُصْـبِحُوا عَلی ما فَعَلْتُمْ نادِمِینَ فجری بینهما کلام و مذاکرة،إلی أن ذکر له مالـک أنه لما بعث إلیه لیلا و طلبه خاف منه القتل علی نفسه.فقال أبو جعفر:حاشا للّه یا أبا عبـد اللّه أن أثلم رکنا للمسـلمین،فإن لم أکن بالذی أبنیه لهم،فلست بهادمه لهم.ثم عرض علیه الذهاب معه إلی بغداد.

و بالجملة.فإن کل آراء المنصور فی مالک هی آراء حسـنة،و من ینظر إلی موقف المنصور و ثباته إزاء مالک،یعلم أن«أمر المحنة»لیس کما صوّره الطبری و ابن الأثیر و غیرهما.و ما اختیار المنصور لمالک فی أمر الفقهاء إلاّ لما عهده من مالک من موافقة فی الاعتقادات التی علیها الحکم العباسی،و قد رأینا قول مالک فی التفضیل،

1- (1) الانتقاء 44.

2- (2) شذرات الذهب ج 1 ص 290. [1]

و فی عثمان.کما أن من لواحق قول مالک المعروفة-و التی تنم عن الأموية الواضحة- و جعله الإمام علی کسائر الصحابة الآخرين هو قول مالک:و ليس من طلب الأمر کمن لم يطلبه.و محمد النفس الزکية تتناوله و لا شک هذه القاعدة،فکل الوجوه فی سيرة مالک تنفی الميل العلوی،و إنما نمو ميل عباسی ليس علی بقايا الميل الأموی و لکن إلی جانبه(لأن رأی مالک فی الإمام علی متفق مع الولاة و الخلفاء) (1).و مما يلاحظ أن مالکا لم يسطع نجمه إلا بعد أن احتصنته الدولة و ذلک فی سنة 149 ه أی بعد وفاة الإمام الصادق عليه السّلام بسنة.فقد کانت الشهرة التی تلفّ مدرسة الإمام الصادق هی معارضة الدولة،و تطبيق منهج إصلاحی يبصّر الأمة،و يحملها علی الالتزام و التمسّک بأحکام الدين،و لم يؤثر موقف الحکام العباسيين علی انتشار مذهب أهل البيت،فقد کانت مدرسة الإمام الصادق من أبرز الحرکات الفکرية،و من أشهر معالم النهضة العلمية.و کانت الدولة العباسية فی طفولتها تعارض حرکة انتشار المذهب-من وراء الستار-إذ ليس فی إمکانها التظاهر بالمعارضة،لأنهم کانوا بحاجة ملحّة لاستمالة أعيان أهل البيت،للتأثير فی نفوس الناس الذين يدينون لهم بالولاء،و يتفجّعون لما أصابهم من ويلات و ما لحقهم من مصائب،و ليس للعباسيين نفوذ يستطيعون به حماية الدولة،فکان لا بد من الاستعانة بزعماء الشيعة لتثبيت أرکانها و حمايتها.

و لم يکن هناک شهرة لأحد سوی الإمام الصادق،و قد رأينا کيف کان الإمام الصادق يمثّل خطرا أتعب المنصور أمره،فحاول مرات أن يقتل الإمام،و قد کلأه اللّه بعنايته و نجّاه من شرّه.و يذکر أن المنصور وصف الإمام الصادق بالشجی المعترض حلقه.

أما مالک بن أنس،فقد کان فی حياة الإمام الصادق کأحد رجال المدينة،قادته شهرة مدرسة الإمام الصادق إلی ما بين يدی الإمام،فکان أحد طلابها،و لم ينتشر ذکره إلا بعد سنة 148 ه و هی سنة وفاة الإمام الصادق.

و لا يخفی أن غرض المنصور من وراء إظهار مکانة مالک و إبرازه،هو منزلة الإمام جعفر بن محمد الصادق.فقد علمنا محاولته فی استعمال فقه أبی حنيفة و مکانته للتأثير علی منزلة الإمام الصادق،و مرّ بنا أمر هذه المحاولة.و يتّجه المنصور

1- (1) مالک لأبی زهرة ص 72.

بنفس تلک الدوافع إلی مالک لأن من قام بأمر الإمامة بعد الصادق هو وصیّه الإمام موسی بن جعفر.رجل الصلاح و الدین و العبد الصالح کما وصفه الناس و هم ملتفّون حوله و لقّبوه بالعالم.

فلاحت للمنصور فکرة إخضاع العلم الدینی للحکم،و ربطه بالدولة بتوحید الأحکام و استعمال القوة،فروی أبو مصعب أن أبا جعفر المنصور قال لمالک:ضع للناس کتابا أحملهم علیه.فکلمه مالک فی ذلک.فقال:ضعه،فما أحد الیوم أعلم منک.فوضع الموطأ (1).

و لم یغب عن مالک مغزی ذلک،فأجابه:یا أمیر المؤمنین لا تفعل.أما هذا الصقع فقد کفیتکه،و أما الشام ففیه الرجل الذی علّمته-یعنی الأوزاعی-و أما أهل العراق فهم أهل العراق.

فکان المنصور یشدّ أزر الأوزاعی و یراسله.

و اخبر المنصور مالک أن من لا یرضی سیضرب علیه بالسیف و یقطع علیه ظهورهم بالسیاط (2)و فی روایة:کتب به إلی أمراء الأجناد و إلی القضاة فیعملون به، فمن خالف ضربت عنقه (3).و کان عند الرشید محل إجلال و تقدیر،و له علاقة مع الرشید قویة و حمیمة،و کان لا یتردّد فی الشکوی إلی الرشید مما یهمه،فکان یشکو إلیه ما علیه من دین،و یطلب المساعدة فی زواج ابنه محمد (4).

موطأ مالک

:

یتضح أن موطأ مالک کان الکتاب الذی طلبه العباسیون،و قد وضع المنصور بنفسه خطة الکتاب،فبعث إلی مالک حین قدم،فقال له:إن الناس قد اختلفوا بالعراق،فضع للناس کتابا تجمعهم علیه.فوضع الموطأ (5)و الظاهر أن بعض کتّاب المناقب من المالکیة حاولوا التمویه علی اشتراط المنصور أو خطته الکتاب الذی یریده

1- (1) الدیباج ص 25.

2- (2) أیضا.

3- (3) الزواوی ص 24.

4- (4) العقد الفرید ج 1 ص 110. [1]

5- (5) الجرح و التعدیل ج 1 ص 12.

من مالـک،فوضـعوا روایـات أخری منها:أن المنصور قال:یا أبا عبـد اللّه ضع هـذا العلم و دوّن کتابا و جنّب فیه شدائـد عبـد اللّه بن عمر،و رخص عبد اللّه بن عباس و شواذّ ابن مسعود،و أقصد أواسط الأمور و ما أجمع علیه الصحابة (1).

أما الروایة التی تتضافر علی صحتها المدلولات و الأقوال،فهو قول المنصور:

یا مالک علیک بما تعرف أنه الحق عندک،و لا تقلدنّ علیا و ابن عباس أو نحو هذا.

و نری أن ذکر ابن عباس من الزوائـد أیضا التی قام بها کتّاب المناقب،و لعلهم اسـتعظموا أن یکون أساس کتاب المـذهب هو التحـذیر من الإمام علی.

إن العباسـیین تخلّوا عن ذاک الاـلتزام بسـیرة الإمام علی،و انتهت أغراضـهم من ذکر فضائله و معالم سـیرته،فتحوّلوا-بعـد قیام دولتهم-إلی العداء و النصب.أما ابن عباس فقد بقی رمزا لدیهم تجرّهم إلیه العصبیة و تشدّهم إلی ذکره مصالح حکمهم، و لیس لعلم أو منزلة،فهم علی حلیـة نکاح المتعـة لا لعـدم النص علی نسـخها و عـدم جواز منعها أو تحریمها من قبل أحـد غیر النبی محمد،و لکن لأن ابن عباس یقول بجواز نکاح المتعة،و قد رأینا أن مسألة نکاح المتعة کان من جملة الأسباب التی احتملت فی تعرّض مالک للأذی.

و لهذا فاشتراط المنصور أو خطته کانت موضع تنفیذ،و وفی مالک بالشـرط،إذ لم یرو عن علی علیه السّلام فی موطأه،و یروی أن الرشید قال له:لم نر فی کتابک ذکرا لعلی و ابن عباس؟فقال:لم یکونا ببلدی و لم ألق رجالهما.و یعتذر الزرقانی فیقول:

فإن صحّ هذا فکأنه أراد ذکرا کثیرا.و إلا ففی الموطأ أحادیث عنهما (2).

و نال الکتاب شـهرة،و أصـبح موضع تقـدیس حتی أطلقوا علیه اسم الصـحیح و قالوا:إنه لا مثیل له،و لا کتاب فوقه بعد کتاب اللّه عز و جل (3).

و وضـعوا عن رسول اللّه منامات فی مدحه،و أنه قال:لیس بعد کتاب اللّه عز و جل و لا سنّتی فی إجماع المسلمین حدیث أصحّ من الموطأ (4).و قالوا:إن النبی سمّی الکتاب بهذا الاسم...إلی غیر ذلک.

1- (1) الدیباج و شرح الموطأ للزرقانی ج 1 ص 7.
2- (2) شرح الموطأ ج 1 ص 8.
3- (3) مقدمة النص لابن عبد البر ص 9. [1]
4- (4) کشف المغطی فی فضل الموطأ ص 2.

و قد روى عن مالک أنه قال:عرضت کتابی هذا علی سبعین فقیها من فقهاء المدینة،فکلهم واطأنی علیه،فسمّیته الموطأ.و قیل:لما ألف الموطأ،ألقاه فی الماء و قال:إن ابتلّ فلا حاجة لی به.فلم یبتل منه شیء.

و کان قد جمع فیه عشرة آلاف حدیث،ثم هذّبه و نقّحه،فلم یبق من ذلک العدد إلا ألف و سبعمائة حدیث.و قیل:خمسمائة (1).و قیل:أقل و أکثر لاختلاف النسخ زیادة و نقصا و إسنادا و إرسالا.

و جملة ما فی الموطأ 1720 حدیثا،المسند منها 600،و المرسل 288 و الموقوف 613.و من قول التابعین 285.

و قد بلغ من اهتمام العباسیین بالموطأ أنهم عرضوا علی مالک أن یکتب بماء الذهب و یعلّق فی الکعبة.و أن الرشید قام یمشی مع مالک إلی منزله لیسمع منه الموطأ،فأجلسه معه علی المنصة،فلما أراد أن یقرأه علی مالک قال له:تقرؤه علی؟ قال مالک:ما قرأته علی أحد منذ زمان،قال:فیخرج الناس عنی حتی أقرأه أنا علیک.

فقال:إن العلم إذا منع من العامة لأجل الخاصة لم ینفع اللّه تعالی به الخاصة (2).

سیرة مالک

:

و کیف کان،فإن مالک بن أنس نال الحظوة عند بنی العباس.فقد مکّنه المنصور فی الحجاز من أن یتمتع بسلطة تنفیذیة مع ما خوّله من السلطة التشریعیة، و کان من أهم مظاهر إلحاق مالک بالدولة العباسیة و اعتباره عالمهم،أن منادی المنصور کان فی أیام الحج یعلن:بأن لا یفتی إلا مالک.

و لما قام المهدی بالأمر بعد أبیه،عظمت منزلة مالک،و کان یحترمه و یصله بهدایا جزیلة،و یعطیه عطاء وافرا،و یقرّب مجلسه،و ینفّذ ما یریده،و کان المهدی یشید بشأن مالک.

و لما جاء الرشید لم تتغیر منزلة مالک،بل کانت تزداد،و کان الرشید یقصده إذا دخل المدینة و یجلس بین یدیه إظهارا لمنزلة مالک و جلبا لأنظار الناس إلیه.و أمر عامله ألا یقطع أمرا دون مالک.

1- (1) شرح الزرقانی علی الموطأ ج 1 ص 7.

2- (2) شذرات الذهب ج 1 ص 291. [1]

و قد رأينا مالكا قبل إلحاقه بالدولة و هو يسعى إلى العلم،فلم يظهر عليه إلا الرغبة فى السماع.و من المفاخر أن يؤدى به طلب العلم إلى أن ينقض سقف بيته و يبيع خشبه-كما يروى ابن فرحون-غير أن إقبال الحكّام عليه أحدث انقلابا فى مسلكه و سيرته و استجاب لما تضفيه عليه السلطة.

فعند ما يحاول أولياء و أقرباء بعض المسجونين فى سجون المدينة المنورة التوسط لدى المنصور،و يلجأ المنصور إلى الصيغة التى تجنّبه اللوم و نسبة الظلم إليه بإدخال العلماء و أهل الدين فى المعاينة،نجد مالك يجيب وفق ما يريد المنصور.

و معلوم أن أمر المدينة كان يشقّ على المنصور،و كانت السجون التى فيها تعكس مشاعر المنصور تجاه أهلها،فلما ولى عبد الصمد على المدينة عاقب بعض القرشيين و حبسه حبسا ضيّقا،فكتب بعض قرابته إلى المنصور و شكى ذلك إليه و أخبره.فكتب المنصور إلى المدينة و أرسل رسولا و قال:اذهب فانظر قوما من العلماء،فأدخلهم عليه حتى يروا حاله و تكتبوا إلى بها،فأدخلوا عليه فى حبسه مالك بن أنس،و ابن أبى ذئب،و ابن أبى سيرة و غيرهم من العلماء فقال:اكتبوا بما ترون إلى أمير المؤمنين.

قال:و كان عبد الصمد لما بلغه الخبر حلّ عنه الوثاق،و ألبسه ثيابا،و كنس البيت الذى كان فيه،و رشّه،ثم أدخلهم عليه.فقال لهم الرسول:اكتبوا بما رأيتم.فأخذوا يكتبون:يشهد فلان و فلان.فقال ابن أبى ذئب:لا تكتب شهادتى،أنا أكتب شهادتى بيدى إذا فرغت،فارم إلىّ بالقرطاس.فكتبوا:محبسا لينا،و رأينا هيئة حسنة.و ذكروا ما يشبه هذا الكلام،ثم دفع القرطاس إلى ابن أبى ذئب،فلما نظر فى الكتاب فرأى هذا الموضع قال:يا مالك داهنت و فعلت و ملت إلى الهوى.اكتب:رأيت محبسا ضيقا،و أمرا شديدا.و جعل يذكر شدّة الحبس (1).

و أخذ مالك باستعمال العنف و المعاملة بالقسوة،فكان إذا حدّث يقوم على رأسه الحرس،فإذا تكلم أحد أو اعترض عليه،أشار للحرس فيسحبون المتكلم و يخرجونه من المجلس،و إن اقتضى السجن سجن،و قد رأينا سابقا كيف أمر بحبس ابن مهدى و كان يصلى خلفه،و من سياق القصة يتبين لنا أن الحرس كان معه حتى

1- (1) تاريخ بغداد ج 2 ص 299. [1]

و هو يؤم الناس فى صلاتهم،لأن مالک سأل:من هنا من الحرس؟فجاءه نفسان، و طلب منهما أن يحبسا ابن مهدى (1).

و مما يؤلم أن تتعدى الشدّة الحدود إلى القسوة التى لا علاقة لها بحكمة تشريع الحدود،كما كان عليه الحال فى قصة الرجل الذى عدا على أخيه،حتى إذا أدركه دفعه فى بئر،و أخذ رداءه و أبوا الغلامين حاضران،فقال جماعة من أهل العلم:

الخيار للأبوين فى العفو أو القصاص.فقال مالک:أرى أن تضرب عنقه الساعة.فقال الأبوان:أ يقتل ابن بالأمس،و نفجع فى الآخر اليوم؟نحن أولياء الدم،و قد عفونا.

فقال الوالى:يا أبا عبد اللّه،ليس ثمّ طالب غيرهما و قد عفوا.فقال مالک:و اللّه الذى لا إله إلا هو لا تكلمت فى العلم أبدا أو تضرب عنقه.و سكت،فارتجّت المدينة-فلما رأى الوالى عزمه،قدّم الغلام،فضرب عنقه،فلما سقط رأسه،التفت مالک إلى من حضر فقال:إنما قتلته بالحرابة حين أخذه ثوب أخيه،و لم أقتله قودا، إذ عفا أبواه.

و يسرى تأثير السلطة إلى منهجه،دخل عليه رجل فقال:ما تقول فيمن قال:

القرآن مخلوق؟فقال مالک:زنديق اقتلوه.فقال:يا أبا عبد اللّه،إنما أحكى كلاما سمعته؟قال:لم أسمعه من أحد،إنما سمعته منک (2).

و قال سحنون:أخبرنى بعض أصحاب مالک أنه كان عنده جالسا،فأتى رجل فقال:يا أبا عبد اللّه مسألة.فسكت ثم قال:مسألة.فسكت،ثم أعاد عليه،فرفع رأسه كالمجيب له فقال له السائل: اَلرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى كيف استواؤه؟ قال:فطأطأ مالک رأسه ساعة،ثم رفعه فقال:سألت عن غير مجهول،و تكلمت فى غير معقول،و لا أراک إلا أمرا سوء،أخرجوه (3).و وردت سابقا بلفظ آخر،و لكن تجمعهما النهاية.و فى الحلية:و أظنک صاحب بدعة.و أمر به فأخرج (4).

و ما كان يتهيأ لأحد بالمدينة أن يقول قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلا حبسه مالک فى الحبس،فإذا سئل فيه،قال:يصحّح ما قال ثم يخرج.و لقد كان ابن كنانة و ابن أبى

1- (1) مالک للخولى ص 274 نقلا عن ترتيب المدارک.

2- (2) مناقب السيوطى ص 14.

3- (3) الزواوى ص 32.

4- (4) حلية الأولياء ج 6 ص 325.

حازم و الدراوردی و غیرهم سمعوا مع مالک من مشایخ،و ترکوا الحدیث عنهم هیبة له حتی مات ففشا ذلک فیهم (1).

و ابن فرحون ینقل فی وصفه:کان کالسلطان له حاجب یأذن علیه،فإذا اجتمع الناس ببابه أمر آذنه فدعاهم،فحضر أولا أصحابه،فإذا فرغ من یحضر،أذن للعامة.

و إذا أتاه الناس خرجت إلیهم الجاریة فتقول لهم:یقول لکم الشیخ تریدون الحدیث أو المسائل؟فإن قالوا:المسائل.خرج إلیهم و أفتاهم.و لا بد هنا من ملاحظة قول ابن القاسم الذی یورده ابن فرحون بعد أسطر قلیلة من النصوص التی تصف مالک.قال ابن القاسم:سمعت مالکا یقول:إنی لأفکر فی مسألة منذ بضع عشرة سنة،ما اتفق لی فیها رأی إلی الآن.و کان یقول:ربما وردت علیّ المسألة فأسهر فیها عامة لیلتی.

و قال ابن عبد الحکم:کان مالک إذا سئل عن المسألة،قال للسائل:انصرف حتی انظر.فینصرف و یتردد فیها!!ا ه.

أما إذا طلب الناس الحدیث،قیل لهم:اجلسوا.فیدخل مغتسله،فیغتسل و یتطیب،و تلقی له المنصة،فیخرج إلیهم،و یوضع عود،فلا یزال یتبخّر حتی یفرغ من حدیث رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و کان لا یوسع لأحد فی حلقته و لا یرفعه،یدعه یجلس حیث انتهی به المجلس.و مع هذا کان إذا استزاده أحد من الناس فی الحدیث یشیر إلی السودان الذین یقفون عند رأسه،فیخرجونه من الدار (2).

و کان یلبس طیلسانا طرازیا و قلنسوة مترّکة و ثیابا مرویة جیادا،و فی بیته وسائد یقعد علیها أصحابه و قوّم الطیلسان بخمسمائة،و کان یقع جناحه علی عینیه،و قیل فی هذه الهیئة:إنه أشبه شیء بالملوک.و وصف منزله بأنه کان مبسوطا بأنواع المعارش (3).

و لقد کان متأنقا فی ملبسه و مأکله أیضا،فقد مات و ترک مائة عمامة و خمسمائة زوج نعل،و کان یهدی إلیه الهدایا الفاخرة،و اشتهی یوما کساء قرمزیا،فأهدی إلیه سبعة منها.

و أهدی إلیه یحیی بن یحیی النیسابوری هدیة باع من فضلتها ثمانین ألفا.قال

1- (1) الدیباج ص 24.

2- (2) الانتقاء 42.

3- (3) البدایة و النهایة ج 10 ص 174. [1]

قتيبة:كنّا إذا أتينا مالكا خرج إلينا مطيبا،قد لبس من أحسن ثيابه،فتصدّر و دعا بالمراوح،فأعطى كل إنسان مروحة (1).

و قد نصح بعضهم مالكا بالتواضع،و ترك ما هو عليه.فكتب إليه يحيى بن يزيد بن عبد الملک النوفلى المدنى-و كان من أهل الحديث- :بسم اللّه الرحمن الرحيم،و صلى اللّه على رسوله محمد فى الأولين و الآخرين،من يحيى بن يزيد بن عبد الملک إلى مالک بن أنس،أما بعد فقد بلغنى أنک تلبس الدقاق،و تأكل الرقاق، و تجلس على الوطء،و تجعل على بابک حاجبا،و قد جلست مجلس العلم،و قد ضربت إليک المطى،و ارتحل إليک الناس،و اتّخذوک إماما رضوا بقولک؛فاتق اللّه يا مالک،و عليک بالتواضع،كتبت إليک بالنصيحة كتابا ما أطلع عليه غير اللّه سبحانه و تعالى و السّلام.

و يكتب إليه مالک كتابا يقرّ فى آخره بما آخذه به يحيى و يقول:فنحن نفعل ذلک،و نستغفر اللّه تعالى،فقد قال اللّه تعالى: قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِى أَخْرَجَ لِعِبادِهِ وَ الطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ و إنى لأعلم أن ترک ذلک خير من الدخول فيه (2).

و الخلاصة،إننا لم نجد عند أحد من رؤساء المذاهب أو العلماء الذين كان لهم حظ وافر من تقريب السلطة لهم ما وجدناه عند مالک،فهذا الإمام أحمد كان يتحلى بروح إنسانية عالية بعيدة عن الميل و العنف-مع تشدده-فقد سئل يوما عن حبس أهل البدع،فأنكر ذلک بحجة أن لهم والدات و أخوات.أى أنه كره أن يتعدى عقابهم إلى الأبرياء من ذويهم ممن ليس لهم ذنب أو جريمة،و ما خلا القول بخلق القرآن و الرؤية،فإنا نرى الإمام أحمد يسمح بالمناظرة و القول.

و من العجب أن يستجيب رجل الدين للدولة و يؤثر فيه ميلها إليه بحكم مصالحها و احتضانها له لأغراضها،و يسمح لنفسه بأن يعامل الآخرين بهذا الشكل من النكال.فيشمل ذلک طلبة العلم أو العلماء،و أنهم-كما رأينا-تركوا أن يحدّثوا بشىء لأنه كان يعاقب من يروى عن النبى حديثا فيسجنه ما لم يصح عنده.فما ذا يعتذر له بذلک؟فليسوا أصحاب جدل و لا شبهة هوى أو بدعة،و إنما علماء عاصروه و هم أعلم منه أو فى طبقته،و ما علمنا ذلک إلاّ من شئون الملوک و سلاطين الزمان.و لكن

1- (1) تذكرة الحفّاظ ج 1 ص 196.

2- (2) إحياء علوم الدين ج 1 ص 114. [1]

أدى رضا السلطان و احتضانه لمالک إلى أن يكون مثله فيزدحم الناس على بابه،و يقف الحجّاب عليها يمنعونهم من الدخول عليه،فإذا أذن لهم ازدحموا.

قال أبو مصعب:كانوا يزدحمون على باب مالک،فيقتتلون على بابه من الزحام،و كنّا عنده فلا يكلم هذا هذا،و لا يلتفت ذا إلى ذا،و الناس قائلون برءوسهم هكذا(مبالغة فى الإنصات)و كان الأمراء تهابه،و هم مستمعون،و كان يقول فى المسألة:لا أو نعم.فلا يقال له:من أين لک هذا.

و قد أنكر عليه بعض العلماء ما رأوه من حاله و أعماله،و ترک الحديث عنه الحكم بن نافع الحمصى و هو أحد العلماء،و من احتج الشيخان بحديثه،فإنه رأى مالكا و لم يسمع منه لما رأى من الحجّاب و الفرش (1).

و تكلم فيه أيضا إلى جانب ابن أبى ذؤيب و ابن إسحاق عبد العزيز بن أبى سلمة و عبد الرحمن بن زيد بن أسلم و ابن أبى يحيى و ابن أبى الزناد،و عابوا أشياء من مذهبه،و تكلم فيه غيرهم.و تحامل عليه الشافعى و بعض أصحاب أبى حنيفة،و عابه قوم فى قعوده عن مشاهدة الجماعة فى مسجد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم (2)و قال الخطيب:قد ذكر بعض العلماء أن مالكا عابه جماعة من أهل العلم فى زمانه بإطلاق لسانه فى قوم معروفين بالصلاح و الديانة و الثقة و الأمانة (3).

و ما يرويه الإمام الشافعى فى أول اتصاله بمالک يؤيد ذلک،عند ما أخذ من والى مكة وصية إلى والى المدينة يطلب منه إيصال الشافعى إلى مالک.

قال الشافعى:

فأوصلت الكتاب إلى الوالى،فلما قرأه قال:يا فتى،إن مشيى من جوف المدينة إلى جوف مكة حافيا راجلا أهون على من المشى إلى باب مالک بن أنس، فلست أرى الذلة حتى أقف على بابه.فقلت:أصلح اللّه الأمير إن رأى أن يوجه إليه ليحضر؟قال:هيهات،ليت إنى إذا ركبت أنا و من معى،و أصابنا من تراب العقيق نلنا بعض حاجتنا.قال:فواعدته العصر،و ركبنا جميعا،فو اللّه لكان كما قال،لقد أصابنا

1- (1) ميزان الاعتدال 272/1.

2- (2) جامع بيان العلم ج 2 ص 161. [1]

3- (3) تاريخ بغداد ج 1 ص 223. [2]

من تراب العقيق.قال:فتقدم رجل،فقرع الباب،فخرجت إلينا جارية سوداء،فقال لها الأمير:قولى لمولاک أنى بالباب.قال:فدخلت،فأبطأت،ثم خرجت فقالت:

إن مولاى يقرئک السلام و يقول:إن كانت مسألة فارفعها فى رقعة يخرج إليک الجواب،و إن كان للحديث فقد عرفت يوم المجلس فانصرف.فقال لها:قولى له:

إن معى كتاب والى مكة إليه فى حاجة مهمة.فدخلت و خرجت و فى يدها كرسى، فوضعته،ثم إذا أنا بمالک...إلخ الرواية (1).

و لنتأمل تهيّب الوالى من الوصول إلى مالک،فهو أمر غير معهود،بل و غريب، و لكن مصلحة الملوک اقتضت ذلک.فقد نقل أن المنصور كان يطلب من مالک أن يبدى رأيه فى ولاته على الحجاز.و قال له:

إن رابک ريب من عامل المدينة أو عامل مكة أو أحد من عمّال الحجاز فى ذاتک أو ذات غيرک،أو سوء أو شرّ فى الرعية،فاكتب إلىّ بذلک،أنزل بهم ما يستحقّون.

فامتناع مالک فى أول الأمر كان لظنّه أن الطارق من طلبة العلم.أما عند ما علم بأنه من قبل والى مكة فقد تغيّر الحال،لأن ذلک من شئون الدولة.و لذلک فإن العلم يفرض علينا أن نستغرب صدور مثل هذه التصرفات فى السلوک و المظهر من رجل له مكان الصدارة فى مجلس العلم.و يبوّئ نفسه مقام المرجعية لأحكام الشريعة،لأنها أمور لا يتوقع صدورها إلا من الحكام الذين عدمت عندهم مقاييس العدل و المساواة.

و على أى حال،فإن الإمام مالک انتشر ذكره فى الحجاز بعوامل السلطة،فقرّبه الحكّام و الزموا الناس بالرجوع إليه،فأقبلت عليه الدنيا و استجاب هو لأشكال هذا الإقبال.

و نرى فيما قدّمناه كفاية،و قد أصبحت الصورة عن الإمام مالک متكاملة،و كان القسم الأول فى الجزء الثانى قد ضمّ الأمور الفقهية،و لم نأت هنا على ما بحثناه فى السابق من الجوانب التى تتعلق بالمذهب المالكى.

1- (1) معجم الأدباء 275/17.و [1]مناقب الشافعى للفخر الرازى و توالى التأسيس.

وفاته

:

كثر الاختلاف فی وفاة مالک کاختلافهم فی ولادته،فقیل أنه مات فی 10 ربیع الأول،و قیل 14 منه،و قیل 13،و قیل 12 من شهر رجب سنة 199 ه أو سنة 198 ه و قیل من صفر 199 ه أو فی سنة 180 ه.

و شیّع جثمانه،و صلّی علیه الخلیفة العباسی،و دفن بالبقیع،و نصبوا علی قبره فسطاطا،و رثاه الشعراء منهم ابن أبی المعافی:

ألا قل لقوم سرّهم فقد مالک إلا إن فقد العلم إذ مات مالک

فمالی لا أبکی علی فقد مالک و فی فقده سدّت علینا المسالک

و مالی لا أبکی علیه و قد بکت علیه الثریا و النجوم الشوابک

و قالوا أن امرأة رثته بقولها:

بکیت بدمع و اکف فقد مالک و فی فقده ضاقت علینا المسالک

و ما لی لا أبکی علیه و قد بکت علیه الثریا و النجوم الشوائک

إلی آخر الأبیات و هی مشابهة لأبیات ابن أبی المعافی،و لا نستغرب هذا الاختلاف،فقد اشتبه الرواة أو نسبوا شیئا غیر صحیح.

أولاده و أحفاده

:

خلف مالک ولدین هما:یحیی و محمد،و ابنة اسمها فاطمة،زوّجها لابن أخته إسماعیل بن أبی أویس،و کان یحیی یروی عن أبیه نسخة من الموطأ و هی التی تروی عنه بالیمن.

قال العقیلی:إن یحیی بن مالک حدّث عن أبیه بالمناکیر (1)و قال القروی:کنا نجلس عند مالک،و ابنه یحیی یدخل و یخرج،و لا یقعد،فیقبل علینا مالک،و یقول:

إن مما یهون علیّ أن هذا الشأن لا یورّث،و أن أحدا لم یخلف أباه و مجلسه إلا عبد الرحمن بن القاسم.

1- (1) الذهبی،میزان الاعتدال ج 3 ص 301.

و قال مصعب الزبیری:کان محمد بن مالک یجیء و هو یحدّث و علی یده باشق و نعل کیسانی و أرخی سراویله علیه (1).

و کان لمحمد هذا ولد اسمه أحمد،سمع من جده مالک،و هو معدود من رواته،و لکنهم ضعّفوه و ترکوه،بل ترکوا أباه و عمه کذلک.

و لیس لمالک غیر هؤلاء،و قیل:إن له ولدا رابعا اسمه حمّاد و لیس له ذکر.

و لا عقب لمالک یذکر فی التاریخ.

1- (1) الدیباج المذهب 18.

الإمام الشافعی

اشارة

لم نفرغ من حياة الإمام الشافعی ببحثنا عنه فی الجزء الثالث،لأن كثرة ما ذكر عنه،و سعة مواطن حياته،و تعدد مزاياه يحتاج إلى استفاضة و إسهاب،و أغلب المسائل التی تتعلق بمراحل عمره لفّها اللّبس و أحاطتها التناقضات،لأن الحقيقة غشيتها سحب العاطفة،أو لوّنتها ردود الأفعال المختلفة.و شعورنا بإجلال شخصية أو حبّها ربما يكون لعوامل هی بعيدة عن واقعها،كما أن البعد عنها و النفرة منها ربما تكون لردّ فعل و هی لا تستحق ذلک،و ربما يكون أيضا عن واقع يحمل على عدم الرضا و يبعث على النفور إذا كان الشعور نابعا عن عقل و رويّة،كما تبرز ما للشخصية من خصال.أما إذا غلبت الميول و سيطرت العاطفة أو تحكمت ردود الفعل،فهناک تقع الحيرة،و يحدث التناقض،لأن الحقيقة استكنّت بمعزل عن العاطفة و ردود الأفعال.

و ها نحن نستأنف البحث عن حياة الإمام الشافعی بمنهجنا القائم على اتباع الحق و التماس الحقيقة.

نسبه

:

هو أبو عبد اللّه محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف.

ولد سنة 150 ه نهار الجمعة آخر يوم من رجب،و قيل فی اليوم الذی مات فيه أبو حنيفة،و قيل غير ذلک على اختلاف الأقوال.

و المطلب الذی ينتهی إليه نسب الشافعی،هو أحد أولاد عبد مناف الأربعة.

و هم المطلّب و هاشم و عبد شمس جدّ الأمويين و نوفل.و المطلّب هو الذی ربّی عبد المطلب ابن أخيه هاشم جدّ النبی صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

ص:395

فالشافعی بهذا قرشی النسب،یلتقی مع النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی عبد مناف،و هذا ما علیه الأکثر.

و یأبی التعصب إلا الغلوّ.فقالوا:لم تنل رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم طهارة فی مولده و فضیلة فی آبائه إلا و هو قسیمه فیها،إلی أن افترقا من عبد مناف،فزوّج المطلب ابنه هاشما الشفاء بنت هاشم بن عبد مناف،فولدت له عبد یزید جدّ الشافعی.و کان یقال لعبد یزید المحض لا قذی فیه،فقد ولد الشافعی الهاشمان:هاشم بن المطلب، و هاشم بن عبد مناف.و الشافعی ابن عم رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و ابن عمته،لأن المطلب عمّ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و الشفاء بنت عبد مناف أخت عبد المطلب عمّة رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.و لم یکن نسب الشافعی مسلّما به و مجمعا علیه،فذهب بعضهم إلی أن الشافعی لم یکن قرشیا بالنسب،بل کان قرشیا بالولاء.فهو مولی لهم و لیس منهم،لأن شافعا جدّه کان مولی لأبی لهب،فطلب من عمر أن یجعله من موالی قریش فامتنع،فطلب من عثمان ذلک ففعل.و نسب ذلک إلی المالکیة و الحنفیة (1).

أما أمه فإنها من الأزد و کنیتها أم حبیبة.

و قیل إنها أسدیة،مستدلین علی ذلک بما روی عن الشافعی أنه لما قدم مصر سأله بعضهم أن ینزل عنده،فأبی و قال:أنزل علی أخوالی الأسدیین.و نزل علیهم (2).فیما یستدل برواية أبی الیمن یاسین بن زرارة و مکانها مصر،أنها أزدیة و هی الأظهر.و قال:أرید أن أنزل علی أخوالی الأزد.فنزل فیهم.

و تحلّق العواطف بأصحابها،و تنأی بهم عن الواقع بجناحها،فیدّعون أنها قرشیة علویة.فقیل:إنها فاطمة بنت عبد اللّه أو عبید اللّه بن الحسین بن الحسن بن علی بن أبی طالب.قال الرازی:و هذا القول شاذ،رواه الحاکم و ضعّفه البیهقی، و ذهب المقری إلی نفیه،و لکن السبکی ذهب إلی تأییده،و لیس له شاهد علی ذلک.

و قیل أیضا:إنها فاطمة بنت عبد اللّه المحض بن الحسن المثنی بن الحسن السبط (3).و الحافظ الشافعی ابن کثیر یقول بأزدیة أم الشافعی کما هو المعروف،

1- (1) مناقب الشافعی للفخر الرازی 3-5.و هامش الانتقاء.و الشافعی لمحمد أبو زهرة.

2- (2) طبقات الشافعیة ج 1 ص 100. [1]

3- (3) مناقب الرازی 6.و طبقات السبکی ج 1 ص 100-249.و توالی التأسیس ص 46.و مشارق الأنوار للعدوی ص 181 و إسعاف الراغبین للصبّان و غیرها.

و يروى أنهـا قـد رأت حين حملت به كأن المشترى خرج من فرجها حتى انقضّ بمصـر، ثم وقع فى كل بلـد منه شـظية! أما أبوه إدريس،فلم يفصح التاريخ عن شـىء من حياته و سيرته و وفاته،و لم يحتفظ إلا بالاسم فقط،فليس له ترجمة فى جميع الكتب التى ذكرت الشافعى،و لا فى غيرها من كتب الحديث و الرجال و الأدب.

و ما ذكر عنه أو أشير إليه بعيد عن الصحة،كقول هداية اللّه الحسينى أن والد الشافعى سلّمه للتفقه إلى مسلم بن خالد الزنجى-مفتى مكة-و هـذا غير صـحيح بالإجمـاع،لأن الروايات متضافرة على أن الشافعى نشأ يتيما فى حجر أمه،و تولت تربيته،و عنـد ما خشـيت عليه الضـيعة أرسلته إلى مكة و هو ابن عشر سنين.

فالشافعى لم يتربّ فى ظلال أبيه،و لم يتولّ ذلک إلا أمه،و لا نعلم أنه عرف أباه و حدّث عنه،كما لا نعلم هل ولد الشافعى فى حياة أبيه أم أن أباه مات و هو حمل فى بطن أمه؟و هل أن إدريس كان فى مكـة و رحل إلى اليمن،و ما هى أسـباب رحلته؟ و جاء فى مقدمـة كتاب الأم:أن والد الشافعى كان رجلا حجازيا فقيرا،خرج مهاجرا من مكة إلى الشام،و أقام بغزّة و عسقلان ببلاد فلسطين،ثم مات بعد ولادة الشافعى.

لكن هـذا القول لم يسـتند إلى نص تـاريخى.و أيـا كان،فالروايات مختلفـة و الأقوال متفرقـة فى ولادته و محلها،و هجرته و وقتها،و كـذلک رحلاته المتعـددة و تحصـيله للعلم بأى زمن،فهل كان من صـغر سـنه أم بعـد نشأته،و كـذلک دخوله إلى مكـة،فقيل إنه لما بلغ من العمر سنتين،و أصـبح قرة عين والـدته،فرأت أن تحمله إلى مكة المكرمة صونا لنسـبه من الضـياع إذا بقى فى غزة،فهاجرت به،و نزلت بجوار الحرم بحى يقال له(شـعب الخيف)و لمّا ترعرع،أرسـلته أمه إلى الكتّاب،و حفظ القرآن و عمره سـبع سـنوات،و قيل:إن الشافعى ولد بغزّة،و حمل إلى عسقلان، و دخل مكة و هو ابن عشر.

طلبه العلم

:

و قـد تكون هذه النقاط غير مهمة فى سـياق الأحداث أحيانا إذا ما جاءت مجردة لا يعتمد عليها جانب من السـيرة المتعلقة بها،أما فى حياة الإمام الشافعى فهى تكتسب

أهمیـة لأن الاختلاف کبیر فی تحدیـد سنّ تأهله للعلم أو تبوئه مکان الفتیا،و قد قادت العواطف و أدی التعصب إلی إظهار علمه و اجتهاده فی سن مبکرة أو نبوغه فی فترة قصیرة (1).

و الذی نستظهره أن اتجاه الشافعی لطلب العلم کان فی العقد الثالث من عمره، و علی روایة ابن کثیر أن بقاءه فی البادیة عشرین سنة،فیکون طلبه للفقه فی العقـد الرابع،أی بعـد تجـاوزه الثلاـثین من عمره،فتکون ملاـزمته لمسـلم بن خالـد الزنجی الـذی أخـذ الشـافعی عنه الفقه (2)قصیرة جدا.حیث روی أن مسلم بن خالد قال له:

أفت.و هو ابن خمس عشـرة سـنة،و فی روایة الخطیب البغدادی عن الحمیدی ما یشـعر أن مسلم الزنجی مرّ علی الشافعی و هو یفتی (3)و أن الشافعی یقوم بالفتیا فعلا،و لیس کما فی الروایات الأخری أن مسلما أذن للشافعی بالفتیا بعد درسه علیه و ملازمته له.

و کما قلنا فی بدء الحدیث عن الإمام الشافعی،فإن العواطف أو ردودها العکسـیة هی وراء مثل هذه المبالغات،أو الاتهامات،و ما بین أیدینا من الأدلـة التاریخیة،یصـرّح بأن الشافعی لم یعرف بالفقه إلا بعد مدة طویلة،مع أن الحمیدی لم یدرک مثل هذا التاریخ،و أن الخطیب بعد نقل الحکایة یقول:و لیس ذلک بمستقیم لأن الحمیدی کان یصغر عن إدراک الشافعی و له تلک السن.

و مهما یکن من أمر،فإن الشافعی لم یعرف الفقه و الحدیث و هو فی مکة.

و لکن رحل إلی المدینة،و واصل دراسته،فأصاب الشهرة بعد المدة التی استغرقها طلب العلم.

قال ابن حجر:انتهت رئاسة الفقه فی المدینة إلی مالک،و رحل الشافعی إلیه و لازمه،و أخذ عنه.و انتهت رئاسة الفقه إلی أبی حنیفة،فأخذ عن صاحبه محمد حملا لیس فیها شیء إلا و قد سمعه علیه،فاجتمع له علم أهل الرأی و علم أهل الحدیث.

1- (1) انظر التفاصیل:الإمام الصادق و المذاهب الأربعة،مجلد 2 جزء 3. [1]

2- (2) مسـلم بن خالد بن سـعید مولی لآل سفیان بن عبد الأسد المخزومی و هو من الشام،کان مسلم أبیض مشربا حمرة،و الزنجی لقب لقب به و هو صـغیر.و فی الطبقات الکبری لابن سعد: [2]کان کثیر الحـدیث،کثیر الغلط و الخطأ فی حـدیثه،و کان فی بدنه نعم الرجل،و لکنه کان یغلط ا ه.ضعّفه أبو داود و غیره.

3- (3) تاریخ بغداد ج 2 ص 64. [3]

لأن الشافعی-مع أخـذه العلم علی مالک-کان یتمتع بقـدرة علی المناظرة و معرفة باللغة و مزایا أخری تبعده عن حدود الروایة و التقیّد بها فقط.قال هارون بن سـعید الأیلی:(لو أن الشافعی ناظر علی هـذه العمود التی من حجارة أنها من خشب، لغلب لاقتـداره علی المناظرة).و نری أن الرحلـة إلی العراق کـانت بـدوافع علمیـة،بعـد أن أتقـن علم الحـدیث،لیطلـع علی أهـل الرأی و هم فی مصـرهم فقـال:(سـمّیت ببغداد:ناصر الحدیث)فیما کان إقباله علی الأخذ من محمد بن الحسن یفوق إقباله فی المدینة علی أصحاب الحدیث.

و مما لا شک فیه أن الشافعی کان ذکیا فی صـباه،إلی جانب الحفظ،فکان معلمه کلما علّم صبیا شـیئا کان الشافعی یتلقف ذلک الکلام،ثم إذا قام المعلم من مکانه،أخـذ الشافعی یعلّم الصبیان تلک الأشـیاء،فنظر المعلم فرأی الشافعی یکفیه أمر الصبیان أکثر من الأجرة التی کان أهل الشافعی لا یجدونها لفقر حالهم.و کان فی کل أحواله و هو فی طلب العلم فهما مدرکا.

لقد أدی الإعجاب بالشافعی و التعامل بالمذهبیة إلی تکلّف أمور لا نشکّ بأنها أصبحت من أمارات السیادة و علامات الرئاسة،رغم علمهم بأن استسـهال الوسائل کالمنامات لإیجاد الصـلة بالنبی محمـد لا یخفی حقیقة الغرض و البواعث،بدلیل تقلیدهم غیرهم فیما یعملون،فهم لیسوا بـدعا فی ذلـک،و سـیر رؤساء المـذاهب التی أکملها الأصـحاب و الأتباع،ممن سـبق الشافعی قـد أخـذت بالظهور فی المجالس و الحلقات،و عانی من بواعثها المتعصبة الإمام الشافعی نفسه عند ما استقرّ بمصر أو خلال وجوده فی بغداد.

و قد کان أولی بأهل العلم أن یدعوا الشافعی یأخذ منزلته بما وهبه اللّه من علم، و یتبوّأ مکانته بما یسـتحقّه.فالمزنی یقول:رأیت النبی صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم فی المنام،فسألته عن الشافعی.فقال لی:من أراد محبتی و سـنّتی فعلیه بمحمد بن إدریس الشافعی المطّلبی فإنه منی و أنا منه.

و بعض هذه المنامات یتجاوز حدود اللیاقة اللازمة لذکر المصطفی،مما یجعل منام المزنی الآنف متمیزا بمراعاة الحضرة النبویة.أما أحمد بن حسن الترمذی-علی ما رواه الخطیب البغدادی-ففیه من الإساءات ما یحتاج إلی قول أوسع و أشمل.قال:

کنت فی الروضة فأغفیت،فإذا النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قد أقبل،فقمت إلیه فقلت:یا رسول اللّه قد

كثر الاختلاف فی الدین،فما تقول فی رأی أبی حنیفة؟قال:أف و نفض یده.قلت:

فما تقول فی رأی مالک؟فرفع یده و طأطأ و قال:أصاب و أخطأ.قلت:فما تقول فی رأی الشافعی؟قال:بأبی ابن عمی-هکذا العبارة فانظر-أحیی سنتی (1).

و فی تفسیر الأحلام-أو تعبیرها-التی تروی عن الشافعی نفسه یذهبون بعیدا أیضا،فعن المزنی:سمعت الشافعی یقول:رأیت علی بن أبی طالب فی النوم، فسلّم علیّ و صافحنی،و خلع خاتمه و جعله فی إصبعی،و کان لی عم ففسّرها لی فقال لی:أما مصافحتک لعلی فأمان من العذاب،و أما خلع خاتمه فجعله فی أصبعک فسیبلغ اسمک ما بلغ اسم علی فی الشرق و الغرب!؟ و مما تواضع علیه منتسبو المذاهب کعلامات للرئاسة إلی جانب المنامات-و قد أطلعنا علی المنامات التی وضعت لکل رئیس مذهب-هو الحدیث النبوی بحق رئیس المذهب،فمنها ما یصرّح بالاسم و الصفة،و منها ما یتبنّی تخصیصه علی صرف الصفات الواردة فیه بدون دلیل.و قد کانت حصة الإمام الشافعی الحدیث:(اللهم اهد قریشا فإن عالمها یملأ طباق الأرض علما،اللهم کما أذقتهم عذابا فأذقهم نوالا).و لا نرید أن نناقش الأحادیث الأخری و باختلاف الألفاظ،کما نترک الخوض فی طرقها و أسانیدها.و نتنزل فالحدیث عن عالم من قریش إن لم یوقت فهو یتناول عالما من قریش.

و نتفق فی القول أنه:(علامة بیّنة للممیز،أن المراد بذلک رجل من علماء هذه الأمة من قریش قد ظهر علمه،و انتشر فی البلاد،و کتبوا تآلیفه کما تکتب المصاحف، و استظهروا أقواله).و إلی هنا فإن من أئمة قریش و علمائها من هو أحق و أولی من الشافعی.و ما القول:بأن هذه صفة لا نعلمها قد أحاطت إلا بالشافعی.إلاّ تحکّم بدون دلیل،لأن الدلیل مع منهم أعلم من الشافعی و أحق بهذه الصفة،ممن وضع اللّه فیهم رسالته و أورثهم أمین السماء علمه و ولایته.

فقد أحتجّ به الإمام علی یوم حروراء،عند ما بعث إلیهم ابن عباس و قال:«قل لهم:علام تتهمونی و أشهد،فسمعت رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یقول ذلک».

و وجوه الاستدلال لدیهم تجهر بأن القصد هو الانتصار فی معرکة تنازع

1- (1) تاریخ بغداد ج 2 ص 69. [1]

المـذاهب،فمن نصوصـهم:(أن هذا الخبر يتناول رجلا اجتمعت فيه خصال ثلاثة إحداها:أن يكون من قريش،و بهذا الطريق يخرج عن هذا الحـديث مالک و أبو حنيفـة و أحمد بن حنبل و أبو يوسف و محمد.و ثانيهما:أن يكون ذلک الرجل كثير العلم بحيث يكون قد وصل علمه إلى أهل الشرق و الغرب،و الشخص الموصوف بهذه الصفات ليس إلا الشافعى.و ذلک لأن جماعة من رجال قريش كانوا قد بلغوا فى العلم مبلغا،إلا أن أحدا منهم لم يبلغ علمه إلى جميع أهل الأرض،و أما الشافعى فإنه هو الذى صنّف فى أصول الشريعة و فروعها،و انتشرت تلک التصـانيف و العلوم فى الشـرق و الغرب،و لم يبق بيت فى الـدنيا من بيوت الموافقين و المخـالفين و المنكرين إلاـ وصـلت تلـک العلوم و الكتب فيه،أمـا الأصـحاب و الأتبـاع و الموافق فلتقرير الإثبـات،و أما المخالفون فللطعن فيه،و الجواب عنه،و الناس كتبوا تلک الكتب كما تكتب المصـاحف التى تتلى و الأخبار التى تروى،و كل يوم تزداد قبولا و إقبالا.فكان اللائق بقوله صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم و إن عالمها يملأ طبقات الأرض علما ليس إلا الشافعى)ا ه.

و لسـنا بصدد الإطالة فى البحث عن ثمرات العواطف،و لكنا نحاول هنا أن نأتى على الأشـياء التى نستكمل بها ما بحثناه من حياة الشافعى فى القسم الأول،و قد أخذنا بتجنب التكرار إلا ما كان لضرورة اقتضتها (1).

و قـد أشـرنا فى القسم الأـول أن التأسـى بأئمـة المـذاهب كان وراء هـذه التكلّفات و الأقوال،فأبو حنيفـة قتل مسـموما بـدعوى أنه لـم يقبل القضاء.و مالک بن أنس ضـرب بالسياط لفتوى تخالف السلطان،أو لاشتراكه فى ثورة العلويين.و من بعده أحمد بن حنبل امتحن فى مسألة خلق القرآن.فإذن لم يبق من أمارات الرئاسـة إلا المحنة.فبادر كتّاب المناقب إلى ذلک،و قد اطلعت على الطعون التى وجهناها إلى الرواية فى الجزء الثالث من الكتاب،و مهما يكن من قول فإن المناقب احتوت على باب يحكى المحنة التى مرّ بها الإمام الشافعى،و عقدت فصول فى بيانها و كيفية وقوعها،و أشهرها فى كتبهم:(إنه جىء بالشافعى رضى اللّه عنه إلى العراق،و أدخل ليلا،و كان فى رجله حديد،لأنه كان من أصـحاب عبد اللّه بن الحسن بن على بن أبى طالب،و كان ليلة الاثنين لعشـر خلون من شـعبان سـنة أربع و ثمانين و مائة و فى ذلک الوقت كان أبو

1- (1) انظر التنبيه فى الجزء الثالث.

یوسف علی قضاء القضاة،و محمد علی المظالم).و لا نزید فی الاقتباس علی هذا، لأن وفاة أبی یوسف مع الاختلاف فی سنة 182 أو 183 ه و الثابت أنه لم یلتق بالشافعی،و تختلف الروایات هل حمل من الیمن أو من مکة؟و هل کان فی الیمن والیا أو مقیما؟ و یضمّن ابن کثیر روایته إشارة إلی موت أبی یوسف،و أن الاجتماع اقتصر علی محمد بن الحسن،و تبین للرشید براءته مما نسب إلیه،و أنزله محمد بن الحسن عنده و أکرمه (1).

و لا یغیر ذلک منه أن المحنة قد وضع حکایتها عبد اللّه بن محمد البلوی،و قد تضمّنت أشیاء کثیرة لا أصل لها (2).و لم تکن إلا- من تلاطمات المناقبیة،و موجات العواطف،و لا نذکر ما للشافعی فیه تضلّع و بصر کالأحکام و الشعر و صنوف الأدب الأخری التی جاءت علی لسان الشافعی و هو یجیب الرشید،لکنا نذکر طرفا من أسئلة الرشید و أقوال الشافعی و هو یجیبه.قال الرشید:فکیف علمک بالنجوم؟قال الشافعی:أعرف الفلک الدائر و النجم السائر،و الرجوع و الاستقامة و السعود و النحوس و هیئاتها و طبائعها و ما أهتدی به فی بر و بحر،و ما یستدلّ به فی أوقات الصلاة و أحوال الفصول و الأوقات.قال الرشید:فکیف علمک بالطب؟قال الشافعی:أعرف ما قالت الروم مثل أرسطاطالیس و بقراط و جالینوس و قرقوریوس و ابنه قلیس بلغاتها،و ما نقله أطباء العرب و قننته فلاسفة الهند،و نمّقته علماء الفرس مثل جاماسب و ساهمرد و بزرجمهر...الخ الروایة.إلی غیرها من رغبات التابعین الذین یحملهم الهوی علی وضع صورة لشخصیة محبوبهم و مقتداهم تفوق مواهب الآخرین و قدرات البشر علی التعلم مما لم یدّعیه الشافعی و لم ینطق به.فقالوا فی معرفته بالطب أنه کان یقول:

العلم علمان:علم الأبدان و علم الأدیان.ثم تارة یقول:علم الأبدان هو الطب، و علم الأدیان هو الفقه.و أخری یقول:علم الأبدان هو الفقه،لأنه یحثّ علی التکالیف المتوجهة علی الأعضاء و الجوارح.و علم الأدیان هو علم الباطن،و هو معرفة اللّه تعالی و کیفیة الدواعی و الصوارف و النیات فی الأعمال.

1- (1) البدایة و النهایة ج 10 ص 252. [1]

2- (2) انظر قصتها فی الحلیة ج 9 ص 85.و المناقب للرازی ص 23-27.و معجم الأدباء ج 17.

و لم يدعوا أقواله فى الفرق بين الفقه و الطب و منازعهما على ما وردت به مما يعلمه كل فقيه عالم بالأحكام عارف بالحديث،غير أنهم ادعوا معرفته بالطب و احتجوا بمزيد من الأقوال كقوله:لا تسكن بلدة لا يكون فيها عالم يخبرك عن دينك،و لا طبيب يخبرك عن أمر بدنك.و إنه كان يتلهّف على إعراض المسلمين عن علم الطب.

و إذا نظرنا إلى عصر الرشيد،رأينا أن ظهور النصارى بالطب،و دخولهم فى خدمة الرشيد،و حذقهم فى ذلك قد حمل المسلمين على التلهف على كون الطب فى غير المسلمين،و أن ادعاءهم مبنى على استشعار المسلمين هذه الحاجة.فالشافعى يعرف الطب فى هذه الظروف التى أدت إلى استخدام النصارى،لأن المسلمين جهلوا ما فى دينهم من وجوه الاهتمام بالبدن و وصايا الطب،فقد روى الثعلبى فى تفسيره أن بختيشوع بن جبريل المتطبب النصرانى كان يخدم الرشيد،و كان حاذقا،فقال يوما بحضرة الرشيد لعلى بن الواقد الواقدى:ليس فى كتابكم من علم الطب شىء، و العلم علمان علم الأبدان و علم الأديان.فقال له على بن واقد:قد جمع اللّه الطب فى نصف آية من كتابه و هو قوله تعالى: كُلُوا وَ اشْرَبُوا وَ لا تُسْرِفُوا فقال النصرانى:أو لا يروى عن نبيكم شىء من الطب؟فقال الواقدى جمع النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الطب فى كلمات و هى قوله:«المعدة بيت الداء،و الحمية رأس كل دواء،و أعط كل بدن ما عوّدته».

فقال النصرانى:ما ترك كتابكم و لا نبيكم لجالينوس طبا (1).

و برواية المحنة تكتمل شروط الرئاسة المذهبية،و بتفاصيل تفرّده فى النبوغ و المعرفة يصبح مؤهلا إلى أن يبعث لهذه الأمة،و يكون بمقتضى رواية أبى هريرة أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال:«يبعث اللّه لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدّد لها دينها» هو المقصود،و ينسب إلى أحمد بن حنبل ترويج ذلك و أنه قال:نظرت فى سنة مائة فإذا هو رجل من آل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و نظرت فى رأس المائة الثانية فإذا هو رجل من آل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم محمد بن إدريس رحمه اللّه.

ثم يمضون،فيضعون فى رأس كل مائة أحد شيوخهم من الشافعية،و قد

1- (1) المواعظ العددية.

يختلفون إذا تكافأ الاثنان كأبى حامد الاسفراييني و سهل بن أبى سهل الصعلوكى أو الفخر الرازى و الرافعى (1).

بين الحديث و الرأى:

ذكرنا سابقا رأى ابن حجر فى اجتماع الحديث و الرأى فى الشافعى،و خلصنا إلى أن الرحلة إلى العراق حقيقتها كانت لدوافع علمية،لأن الشافعى-و هو يتلقى على مالک-كان قادرا على المناظرة،و مستعملا الرأى الذى يخالف به أستاذه،و يقوم بالاستنباط،فقد روى عنه أنه كان جالسا بين يدى مالک بن أنس،فجاء رجل إلى مالک فقال:يا أبا محمد،إنى رجل أبيع القمرى،و إنى بعت يومى هذا قمريا،فبعد زمان أتانى صاحب القمرى و قال:إن قمريک هذا لا يصيح،فتشاجرنا إلى أن حلفت بالطلاق أن قمريى ما يهدأ من الصياح؟فقال مالک:طلقت امرأتک.فانصرف الرجل حزينا،فقام الشافعى إليه و قال للسائل:أ صياح قمريک أكثر من سكوته أم سكوته أكثر؟فقال السائل:بل صياحه.فقال الشافعى:انصرف،فإن زوجتک ما طلقت.ثم رجع الشافعى إلى الحلقة فعاد السائل إلى مالک.فقال:يا أبا عبد اللّه تفكر فى واقعتى لتستحق الثواب.فقال مالک:الجواب ما تقدم.فقال:فإن عندک من قال الطلاق غير واقع.فقال مالک:و من هو؟فقال السائل:هو هذا الغلام.و أومأ إلى الشافعى،فغضب مالک عليه و قال له:من أين لک هذا الجواب؟فقال الشافعى:إنى سألته أن صياحه أكثر أم سكوته؟فقال:إن صياحه أكثر.فقال مالک:و هذا الدليل أقبح،و أى تأثير لكثرة صياحه أو قلة سكوته فى هذا الباب؟فقال الشافعى:إنک حدثتنى عن عبد اللّه بن يزيد عن أبى سلمة بن عبد الرحمن عن فاطمة بنت قيس أنها أتت النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فقالت:يا رسول اللّه أن أبا جهم و معاوية خطبانى،فأيّهما أتزوج؟ فقال النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:أما معاوية فصعلوک،و أما أبو جهم فرجل لا يضع عصاه عن عاتقه.

و قد علم النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن أبا جهم كان يأكل و ينام و يستريح،فعلمنا أنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عبّر بقوله- لا يضع عصاه عن عاتقه-على تفسير أن الأغلب من أحواله ذلک اه.

و اشتهر منه ذلک و هو فى الحجاز،حتى لفت أنظار أهل الرأى كبشر المريسى (2)

1- (1) انظر مفتاح السعادة لطاش كبرى زادة ج 2 ص 94. [1]

2- (2) بشر بن غياث بن عبد الرحمن المريسى المعتزلى أدرک أبا حنيفة و أخذ عنه،ثم لازم أبا يوسف و أخذ عنه،و صار من أخص أصحابه،و اشتهر بعلم الكلام و الفلسفة،و قال بخلق القرآن،و إليه تنسب المريسية من المرجئة،و كفّره أكثرهم.و نسبته إلى مريسة توفى سنة 219 ه.

فكانت مناظراته مع الشافعی من أشهر ما ذكر عن المريسی و قالوا:حج بشر المريسی فرجع فقال لأصحابه:رأيت شابا من قريش بمكة ما أخاف على مذهبنا إلا منه (1).

و فی رحلته إلی بغداد ينزل الشافعی علی بشر المريسی،فقالت له أم بشر:لم جئت إلی هذا؟فقال أسمع منه العلم.فقالت:هذا زنديق.و فی رواية أن أم بشر جاءت إلی الشافعی فقالت:يا أبا عبد اللّه أری ابنی يهابک و يحبّک،و إذا ذكرت عنده أجلّک،فلو نهيته عن هذا الرأی الذی هو فيه،فقد عاداه الناس عليه،و يتكلم فی شیء يواليه الناس عليه و يحبونه؟فقال لها الشافعی:أفعل.فقال الشافعی لبشر:

أخبرنی عمّا تدعو إليه أ كتاب ناطق،أم فرض مفترض،أم سنّة قائمة،أم وجوب عن السلف البحث فيه و السؤال عنه (2)؟و لا نستطرد فی ذكر أقوالهما لأن ذلک ليس فی نطاق البحث.

و الغرض أن الشافعی نهج مع بشر منهج الحوار و القول بالحق،و ناظره فی مسائل كثيرة،فتبدّلت علاقتهما و ساءت،لأن الناس مالت إلی الشافعی،و خفّوا عن بشر،فلما قيل لبشر:هذا الشافعی الذی كنت تزعم قد قدم؟فقال:إنه قد تغيّر عمّا كان عليه (3).

و فی المرة الأولی من قدومه بغداد انقطع الشافعی إلی محمد بن الحسن، فحمل عنه (4)و قد قدّر ما كتبه بوقر بعير،و كان الناس يعظمون محمد بن الحسن لقربه من الرشيد،و قد اجتمعا علی باب هارون،فاندفع محمد يعرّض بالشافعی و يذم أهل المدينة بقوله:من أهل المدينة؟و أی شیء يحسن أهل المدينة؟و اللّه لقد وضعت كتابا علی أهل المدينة كلها لا يخالفنی فيه أحد،و لو علمت أن أحدا يخالفنی فی كتابی هذا تبلغنی إليه آباط الإبل،لصرت حتی أردّ عليه.

و ينتبه الشافعی إلی أصل التحامل و مداره بين الأشخاص،فيروی الشافعی:

فتقدمت إليه فقلت:أصلحک اللّه-طعنک علی أهل المدينة و ذمک لأهل المدينة إن

1- (1) تاريخ بغداد ج 2 ص 65. [1]

2- (2) راجع تاريخ بغداد ج 7 ص 59. [2]

3- (3) أيضا ج 2 ص 65.

4- (4) معجم الأدباء ج 17 ص 283. [3]

كنت أردت رجلا واحدا و هو مالک بن أنس فألا ذکرت ذلک الرجل بعینه و لم تطعن علی أهل حرم اللّه و حرم رسوله و کلهم علی خلاف ما ادعیته.و أما کتابک الذی ذکرت أنک وضعته علی أهل المدینة،فکتابک من بعد«بسم اللّه الرحمن الرحیم»خطأ إلی آخره.ثم یذکر الشافعی أقوال ابن الحسن و ردّه علیها (1).

و عند ما یسمع الناس عن منحی الشافعی فی محاورة أهل الرأی یطلقون علیه (ناصر السنة)أو(ناصر الحدیث)علی اختلاف فی التسمیة بین ما ذکره ابن کثیر و هو الأول بسنده عن الشافعی،و ما ذکره الخطیب بسنده عن الشافعی أیضا و هو الآخر.

و من الواضح أن الشافعی یأخذ بالرأی و یقوم بالاستنباط فی عموم آرائه بعد تردّده علی بغداد لعدة مرات و لسنین،و لکنه یبقی للحدیث الشریف الأولیّة،فقد قالوا عنه:إذا صحّ عندکم الحدیث عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فقولوا به ودعوا قولی،فإنی أقول به،و إن لم تسمعوا منی-و فی روایة-فلا تقلدونی،و فی روایة فلا تلتفتوا إلی قولی، و فی روایة فاضربوا بقولی عرض الحائط.فلا قول لی مع قول رسول اللّه (2).

و تلک من مزایا الإمام الشافعی،لأن صحة الحدیث النبوی الشریف و التحقق من طرقه من أعظم الأمور التی یتحرّاها الفقیه للاتباع أو للاستنباط.

و صفوة القول،فإن الإمام الشافعی کان طلاّبة علم و بحّاثة یرود المواطن التی یری فیها لفکره فائدة،إما اطلاعا أو أخذا،فهو کثیر السؤال،و یدلنا قوله:(ما رأیت أحدا سأل عن مسألة فیها نظر،إلا رأیت الکراهة فی وجهه إلا محمد بن الحسن) (3).

و مع تحوطه و تحرّزه،فإنه یثنی علی مقاتل بن سلیمان (4)و قول الشافعی مشهور:(الناس کلهم عیال علی ثلاثة:علی مقاتل فی التفسیر،و علی زهیر بن أبی

1- (1) المرجع السابق. [1]

2- (2) تاریخ ابن کثیر ج 10 ص 254.

3- (3) الانتقاء ص 69.

4- (4) مقاتل بن سلیمان بن بشر أبو الحسن البلخی،قدم بغداد و حدّث بها،و اشتهر بالتفسیر.قال ابن المبارک:ما أحسن تفسیره لو کان ثقة،قال بالتشبیه و أفرط فی إثبات الصفات و تشبیه اللّه عز و جل بالمخلوقات.قال أبو حیان:کان یأخذ من الیهود و النصاری من علم القرآن الذی یوافق کتبهم توفی سنة 150 ه.

سلمی فی الشعر،و علی أبی حنیفة فی الکلام) (1).کما أن قراءته لتفسیر مقاتل بن سلیمان معروفة کما فی أشکال المعنی علیه فی قوله تعالی: وَ قَدْ خابَ مَنْ دَسّاها (2).

و لا ندری هل تضافر التفسیر و الشعر و الکلام علی تمکّنه من ضرب من الألغاز یرد فی التفسیر؟نسوق بعض نصوص دون تعلیق:

قیل له-أی الشافعی-کم قرء أم فلاح؟فأجاب:علی البدیهة من ابن ذکا إلی أم شملة.و المراد بالقرء الوقت،و أم فلاح الفجر،و هو کنیة الصلاة.و السؤال واقع عن مدة وقت صلاة الفجر،و قول الشافعی رضی اللّه عنه:من ابن ذکا.أی من وقت الصبح،و إلی أم شملة،و هی کنیة الشمس،أی إلی طلوع الشمس.و هذا التفسیر منسوب إلی الخطابی.

و ثانیها:سئل نسی أبو دارس درسه قبل غیبة الغزالة بلحظة،ما ذا یجب علی أمه؟فقال:علیها قضاء وظیفة العصرین.قال السائل:لجنایة جناها أبو دارس؟قال الشافعی:بل لکرامة استحقّتها أمه.و تفسیره أن نقول:أبو دارس:کنیة فرج النساء، و الدارس:الحیض.فقال:نسی درسه،أی ترک حیضه.و الغزالة:الشمس،و المراد بأم دارس:المرأة،إذ أم الشیء أصله...سئل:هل تسمع شهادة الخالق؟قال:

لا،و لا روایته.و الخالق:الکاذب،قال اللّه تعالی:إن هذا خلق الأولین...الخ.

و قد حرص تلامذته علی حفظ نزعة الشافعی فی غرض لا یؤاخذ علیه کأحمد بن حنبل إذ یقول:خیر خصلة فی الشافعی أنه ما کان یشتهی الکلام،إنما کان همّته الفقه.و قد بات علم الکلام یومئذ محذورا،و أصبح یعنی الأهواء و النحل المختلفة،و یصف الشافعی الظرف الذی کان فیه فیقول:رأیت أهل الکلام یکفّر بعضهم بعضا،و رأیت أهل الحدیث یخطئ بعضهم بعضا،و التخطئة أهون من الکفر.و عرف عن الشافعی طعنه فی علم الکلام و بغضه لأهله،و أحاطه الأصحاب بما یوحی بأن الشافعی اقتصر علی ما بأیدیهم من طرق و لم یجاوز الأثر و الحدیث، و لم یخض فی جدل أو حوار،و أنه انتهی من اطلاعه إلی أن أهل الکلام علی شیء ما توهمه،و لئن یبتلی المرء بجمیع ما نهی اللّه تعالی عنه سوی الشرک باللّه،خیر من أن یبتلی بالکلام.و کان ذلک بتأثیر العصر الذی عاش فیه الشافعی،إذ ارتأی الأصحاب

1- (1) تاریخ بغداد ج 13 ص 161. [1]

2- (2) مناقب الرازی.

و التلاميـذ أن يبعـدوا اسم رئيسـهم عن مجالات النقاش و الجدل،و لا نريد أن نخوض فى الأسـباب،و إنما نقول أن طرق الكلام تقوم على المناظرة و الحوار و إجادة الحجاج و المجادلـة،و قـد شـهد الميدان رجالا تسـلّحوا بالإيمان و تزوّدوا بالأحكام و اقتحموا تلك المعتركات للذبّ عن العقيدة و فضح أهل الأهواء و البدع.

أمـا الأتبـاع بعـد عصـر الشـافعى فـإنهم لاـ ينفون الحقـائق،و لا ينكرون ما كان عليه الشافعى فيقولون:إن الشافعى كان قويا فى المناظرة و المجادلة.بل أنهم يرون تمكنه من ذلک سببا فى رجوع الناس عن قول أبى حنيفة و قول مالک لمخالفته لهما (1).

و لاـ نريـد أن نتوسع فى القول،فقـد ذكرنا قبل قليل بعض ما يشـير إلى خوضه فى الرأى و المناظرة،و فيه مجال لمزيـد من القول،و لكنّا آثرنا الاختصـار،لأـن غايـة البحث فى أغراض أخرى،و لا مانع من القول أن الشافعى-فى طلبه و بحثه-كان لا يتوقف عنـد التهم،و لا يمتنع من الاتصال و الاطلاع بنفسه.لأن سـلاح الاتهام بالبدع و الأهواء اسـتعمل فى مناسبات و أغراض اختلطت فيها الصور،و مرّت الموجة لتشمل آخرين لا ذنب لهم،و قد ذكرنا طرفا من علاقته بالمريسى،و أنه جاء إليه للعلم، و مضى الشافعى فى مجادلته لمّا تبيّن له ضلاله.

عن أبى ثور قـال:سـمعت الشـافعى يقول:قلت لبشـر المريسـى:ما تقول فى رجل قتل،و له أولياء صـغار و كبار،و هل للأكابر أن يقتلوا دون الأصاغر؟فقال:لا.

فقلت له:فقـد قتل الحسن بن على بن أبى طالب ابن ملجم و لعلى أولاد صـغار؟ فقال:أخطأ الحسن بن على.فقلت:أ ما كان جواب أحسـن من هذا اللفظ؟قال:

و هجرته من يومئذ.فنرى أن الإمام الشافعى يهجر من كان يتوسّم فيه العلم و هو من أهل الكلام لأنه أساء اللفظ فى وصف السـبط الزكى.و يذمّ الآخرين ممن اسـتهواهم الجدل و غلب عليهم الرأى،فأباحوا لأنفسهم ما لا يرضى اللّه أو أدتهم أهواءهم إلى الخروج إلى غيرها.و من الأسـباب التى يمكن أن يحتـج بهـا لأـقوال الشـافعى و من جملتهـا أيضـا مـا ذكرناه من هوى الأصـحاب و الأتباع فى الحفاظ على منهج الشافعى فى سـياقهم،و لا نرى وجها للتعليل بأن نهى الشافعى عن علم الكلام و التحذير منه كان لما بدر من المعتزلة،لأنهم كانوا القوامين عليه.

1- (1) مناقب الرازى ص 139.

و لقـد بحثنا فی الجزء الثالث آراء الإمام الشافعی فی علم الکلام و خلق القرآن و الصـفات و الإمامة.و نری ما حررناه فی هذا الجزء جدیرا باستکمال الفائدة (1).

الانتقال إلی مصر:

لاـ شـک أن الشافعی کان طموحا،فلم یتمکن من الإقامـة فی بغـداد إلی جانب محمـد بن الحسن الشـیبانی و صـفته فیها طالب علم،حتی قـال:حملت عن محمـد بن الحسن حمـل بختی.و مرة قـال:وقر بعیر لیس علیه إلاـ سـماعی منه (2).و کـان فی قـدومه الأول منقطعا إلی الحسن.

و تختلف الروایات فی الأسـباب التی حملت الشافعی علی الانتقال إلی مصر، و نحن نرجح أن یکون اصطدامه بحواجز الشهرة و السلطان التی کانت تقف أمامه و تحیط مکانـة محمـد بن الحسن،و بلوغه درجـة علمیـة تجعله یطمـح إلی مکانـة أعلی لا یبلغها بوجود محمـد بن الحسن.

و قد قیل:إنه کان یتشوق إلی مصر،و رووا له شعرا بذلک:

أری النفس قد أضحت تتوق إلی مصر و من دونها قطع المهامة و القفر

فو اللّه ما أدری أ للفوز و الغنی أ ساق إلیها أم أ ساق إلی القبر؟

و هذه الأبیات تنسب إلی الحسن بن هانی المعروف بأبی نؤاس،و إن الشافعی تمثّل بها.

و قیل إنه قـدم مصـر رغبة منه فی معارضة انتشار أقوال أبی حنیفة و مالک-کما حدّث الربیع-قال:سألنی الشافعی عن أهل مصـر،فقلت:هم فرقتان فرقة مالت إلی قول مالک و ناضلت علیه،و فرقة مالت إلی قول أبی حنیفة و ناضلت علیه.فقال:

أرجو أن أقدم مصر إن شاء اللّه فآتیهم بشیء أشغلهم به عن القولین.

و الحقیقة إنه قوبل فی مصـر کتلمیذ لمالک،و کان لمالک ذکر فی مصـر و تلامذته ینشـرون أقواله و یتبعونه،و نزل ضیفا علی محمد بن عبد اللّه بن عبـد الحکم،فکرّم مثواه،و کانت لمحمـد هـذا مکانة فی مصـر،و هو من تلامذة مالک و إلیه انتهت الرئاسة فی مصـر و لا یعدلون به أحدا.

1- (1) تاریخ بغداد ج 7 ص 60.

2- (2) الانتقاء.

و كان نزول الشافعى عنده من عوامل ظهور الشافعى،فهو معدود من تلامذة مالک،و آل الحكم كذلک فقدموا له كلما يحتاجه،و الأغلب أن للشافعى قدومين إلى مصر،الأول كان سنة 188 ه و فيه كان نزوله عند آل الحكم،و بعده عاد إلى بغداد للمرة الثانية سنة 195 ه فاختلف إليه جماعة من العلماء منهم:أحمد بن حنبل و أبو ثور الكرابيسى و الزعفرانى،و أملى أقواله و آراءه،و هو ما يعرف بمذهبه القديم.ثم رجع إلى مكة و عاد إلى العراق سنة 198 ه للمرة الثالثة،فأقام بها مدة يسيرة،و فى آخر سنة 199 ه عاد إلى مصر و أملى مذهبه الجديد.و هذه التواريخ تقوّيها أحداث حياة الشافعى المعروفة،و لقد ضمّت كتب المناقب و السير أن القدوم إلى مصر كان مرة واحدة،و أن بقاءه فى بغداد-آخر قدوم له-كان شهرا،و لكن بعض الوقائع تخلّ بهذا الترتيب.

و الظاهر أن ابن عبد الحكم و أهله لمسوا من الشافعى طموحه،فأخذوا فى الأعداد لشهرة الشافعى و لرئاسة،فنرى ابن عبد الحكم يقول:لمّا أن حملت أم الشافعى به رأت كأن المشترى خرج من فرجها حتى انقضّ بمصر،ثم وقع فى كل بلد منه شظية (1).

و فى مصر ظهرت مواهب الشافعى العلمية و مقدرته وسعة اطلاعه،و قصده الناس،و أصبح له تلامذة،و أملى مذهبه الجديد،و كان ابن الحكم المساعد الأول له.فقد أقبل على مذهب الشافعى و تحمّس له،و تحوّل عن مذهب مالک،و لمّا استخلف الشافعى البويطى فى حلقته،نقم ابن الحكم،و عاد إلى المذهب المالكى، و تحوّل عن الشافعى تماما،و وضع كتاب الردّ على الشافعى فيما خالف الكتاب و السنّة.و فى مصر تنكّر الشافعى لأستاذه مالک،فردّ أقواله.و عظم ذلک على المالكية و تعصبوا عليه،وسعوا به عند السلطان،و قالوا له:أخرجه و إلا أفتتن به البلد.فأتاه الشافعى فكلّمه فامتنع الوالى و قال:إن هؤلاء كرهوک،و أخشى الفتنة.فقال له الشافعى:أجّلنى ثلاثة أيام،فمات الوالى فيها (2)و كان الشافعى لما دخل مصر حضر إلى السيدة نفيسة بنت الحسن بن زيد بن على،و سمع عليها الحديث،و كانت لها منزلة فى مصر (3)و هى زوجة إسحاق بن الإمام جعفر بن محمد الصادق.

1- (1) تاريخ بغداد. [1]

2- (2) توالى التأسيس ص 84.

3- (3) وفيات الأعيان ج 5 ص 57. [2]

و أدى اتساع حلقة الشافعى فى مصر إلى سخط المالكية،و إلى تعرّضه إلى مسلک من التعصب.فذكر الساجى:إن الشافعى إنما وضع الكتب على مالک بسبب أنه بلغه أن قلنسوة لمالک يستسقى بها،و كان يقال لهم:قال رسول اللّه.فيقولون:

قال مالک.فقال الشافعى:إنما مالک بشر يخطئ.فدعاه ذلک إلى تصنيف الكتاب فى اختلافه معه و كان يقول:استخرت اللّه فى ذلک مدة سنة.

و فى مصر بلغ الشافعى درجة من الاجتهاد و النضج العلمى.و لا نشک فى ذلک،فإن القول القديم و هو العراقى،و القول الجديد و هو المصرى،أو مذهبه الجديد و مذهبه القديم،ينمّان عن تطور فى المدارک،وسعة فى التحصيل.و لقد قيل أن السبب فى هذا التحول فى الأقوال هو من عوامل البيئة و من مظاهر التأثر بالأوضاع،و الأمر قد يتسع للأقوال بهذا الخصوص،و لكنها لا تتسع للادعاء بأنه أعلم الأمة،و أن أمر التشريع انحصر به،و انتهى إليه الفقه.فإذا نظرنا إلى المدة فإن الشافعى رحمه اللّه توفى سنة 204 ه فهى لا- تكفى ليتحقق هذا الادعاء،و قد وجدنا من المبالغات فى مواهبه ما لا- يقرّه الواقع،و لا- يحتمله العقل.و لكن عواطف الأصحاب،و الإيقاع،و مماحكات التعصب،و ظروف التنازع المذهبى أدت إلى تعاطى ما يخالف الحقائق.

و من الإنصاف القول أنه لم يبلغ الدرجة التى يستحق أن يكون بها عند أتباعه، لأن الإساءة بوضع الأقوال بتأثير ردود الأفعال واضحة،و الإمام الشافعى له من العلم و الفضل الحقيقيين ما يغنى،و احتلاله المنزلة التى يراها هو لنفسه خير من عواطف و ردود أفعال مرتجفة.

و قد قلنا و تحدثنا مرارا عن أمواج الادعاءات،و قد كان الشافعى يعترف لأحمد بن حنبل بأنه أعلم منه فى الحديث.

لقد امتاز الشافعى عن غيره من أئمة المذاهب بتدوين مذهبه و تأليف كتبه.و قد ذكر له كثير من الكتب،ذكرها ابن النديم و البيهقى و ياقوت،و نسب له المسند،و ليس من تأليفه،و إنما استخرجه بعض أصحابه من أسانيد الأم.و قد كان تدوين المذهب، سببا فى الادعاء أن الشافعى هو أول من قعّد القواعد و أصّل الأصول،و هو ما يجافى الحقيقة و لا يتفق مع الواقع،لأن التدوين لا يعنى السبق فى تقعيد القواعد و تأصيل الأصول،و إنما هو تحرير للمذهب و تقرير للرأى،و قد ناقشنا فى فصل(تدوين العلم) فى الجزء الثانى ذلک،فلا حاجة إلى ذكر المزيد هنا.

و القصد،فإن الانتقال إلى مصر لم يكن كرحلاته السابقة لطلب العلم،إنما اختار بلدا و هو عازم على أن يكون محلا لإقامته ليس فيه من ينازعه.فقد حلّ بين رجال يجمعهم اتّباع مالک،و لما استقرّ أخذ فى الردّ على أستاذه،و قد انتهى إلى مذهبه الجديد و قد كلفه ذلک حياته،إذ اعتدى عليه أتباع مالک.

و كيف كان فقد جاء الشافعى بمذهبه الجديد،و كان قد درس المذهبين:مذهب أهل الرأى و مذهب أهل الحديث.و قد لاحظ ما فيهما من نقص،فبدا له أن يكمل ذلک،و أخذ ينقص بعض التعريفات منه ناحية خروجها من متابعة نظام متحد فى طريقة الاستنباط،و ذلک يشعر باتجاهه فى الفقه اتجاها جديدا لا يكاد يعنى بالجزئيات و الفروع.

و خير ما يلخّص مسلكه هو أنه قال:الأصل قرآن و سنة،فإن لم يكن،فقياس عليهما.و إذا اتصل الحديث عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و صحّ الإسناد فهو سنّة،و الإجماع أكبر من الخبر المفرد،و الحديث على ظاهره،و ما احتمل معانى فما اشتبه منها ظاهر أولاها به،و إذا تكافأت الأحاديث فأصحها إسنادا أولاها،و ليس المنقطع بشىء ما عدا منقطع ابن المسيب،و لا يقاس أصل على أصل،و لا يقال للأصل لم و كيف.

و إنما يقال للفرع،فإذا صحّ قياسه صحّ و قامت به الحجة.

فهو بهذا المسلک و بهذا المنحى قد ردّ على مالک،لتركه الأحاديث الصحيحة لقول واحد من الصحابة أو التابعين أو رأى نفسه.

و هاجم أبا حنيفة و أصحابه لأنهم يشترطون فى الحديث أن يكون مشهورا، و يقدّمون القياس على خبر الآحاد و إن صح سنده،و أنكر عليهم تركهم لبعض السنن لأنّها غير مشهورة،و عملهم بأحاديث لم تصحّ عند علماء الحديث،بدعوى أنها مشهورة.و وقف فى القياس موقفا وسطا،فلم يتشدّد فيه تشدّد مالک،و لم يتوسّع فيه توسّع أبى حنيفة (1).

و يقول إمام الحرمين الجوينى:فمالک أفرط فى مراعاة المصالح المطلقة

1- (1) انظر تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية للأستاذ مصطفى عبد الرازق ص 225.و ضحى الإسلام لأحمد أمين ج 2 ص 224.

المرسلة غير المستندة إلى شواهد الشرع،و أبو حنيفة قصر نظره على الجزئيات و الفروع و التفاصيل من غير مراعاة القواعد و الأصول.

ثم يتعقب ذلک الجوينى-كشافعى-فيقول:و الشافعى(رض)جمع بين القواعد و الفروع،فكان مذهبه أقصد المذاهب،و مطلبه أسدّ المطالب.

و تدلنا الحوادث بوضوح أنه لقى أذى كثيرا فى إظهار مخالفته لمالک و ردّه عليه، كما أنه لم يلق فى مصر الإقبال الذى كان يرجوه و يأمله رجل مثله،فقد جفاه الناس و لم يجلس إليه أحد،فقال له بعض من قدم معه:لو قلت شيئا يجتمع إليک الناس.

فقال:إليک عنى و أنشأ:

أ أنثر درّا بين سارحة النعم و أنظم منثورا لراعية الغنم

(1).

و كان يظهر التذمّر و التألّم،و يدلنا على ذلک قوله:

و أنزلنى طول النوى دار غربة إذا شئت لاقيت امرأ لا أشاكله

أجامعه حتى تقال سجيّة و لو كان ذا عقل لكنت أعاقله 2

و قال الكندى:لما دخل الشافعى مصر كان ابن المنكدر يصيح خلفه:يا كذا....دخلت هذه البلدة و أمرنا واحد و رأينا واحد؛ففرّقت بيننا و ألقيت بيننا الشرّ،فرّق اللّه بين روحک و جسمک (2).

أدبه و شعره

:

كان الشافعى على درجة عالية من المعرفة فى اللغة العربية،و اطلاع كبير على معانيها و علومها،و كان أحمد بن حنبل يقول:الشافعى فيلسوف فى أربعة أشياء:فى اللغة و أيّام الناس و المعانى و الفقه.و نسب إليه أنه قال:(أقمت فى بطون العرب عشرين سنة،آخذ أشعارها و لغاتها)و ذلک لإظهار طول المدة التى استغرقها كدليل على تمكنه من اللغة و معرفته بها،و هى فترة تترک ثغرة فى مسار حياة الشافعى كما رأيناها،فليست إلا من عواطف الأتباع،و إنما الحقيقة التى تكفى لإظهار ما عليه

1- ((1)و(2)) معجم الأدباء. [1]

2- (3) الولاة و القضاة ص 438. [2]

الشافعی أنه عاش بین القبائل فی البدایة لیأخذ المعانی و الألفاظ الفصحی،و قد ظهر ذلک مع مفرداته و أقواله و تحصیله موهبة الشعر،و قد کان غرض إقامته بین القبائل أن یستعین باللغة علی الفقه (1).

و منهم من یقول أن الأصمعی صحّح أشعار هذیل علی فتی من قریش یقال له محمد بن إدریس الشافعی،و منهم من یروی قول الأصمعی دون ذکر عبارة:یقال له و ما بعدها،و إنما قال الأصمعی:صححت أشعار هذیل علی فتی من قریش.

و مهما یکن من قول فإن الشافعی حفظ أشعار العرب و شعر هذیل.یقول یاقوت:و حکی لنا عن مصعب الزبیری قال:کان أبی و الشافعی یتناشدان،فأتی الشافعی علی شعر هذیل حفظا و قال:لا تعلم بهذا أحدا من أهل الحدیث،فإنهم لا یحتملون هذا (2).

فهو یخشی مجتمعه.و لقد التمس وسیلة تساعده فی اتجاهه للفقه و سعیه إلی العلم،فأخضع موهبته الشعریة لهذه الضوابط فقال:

و لو لا الشعر بالعلماء یزری لکنت الیوم أشعر من لبید

فهو یری أن منزلة العالم أسمی من کل منزلة،و قد ترک الشعر مع تمکنه من أدواته و قدرته علی نظمه،و قد ظهر قبل سنوات قلیلة دیوان شعر للشافعی جمعه:

محمد عفیف الزعبی فی أقل من خمسین ورقة طبع فی سنة 1391 ه.

إلا أن الشافعی یقول الشعر بعاطفة خالصة،کشعره فی حب آل البیت الذی کان سببا فی اتهامه بالتشیّع،و ینظم الشعر فی تجاربه مع الحیاة و الناس کما مرّ بعض ذلک.

قال الربیع بن سلیمان:حججت مع محمد بن إدریس الشافعی إلی مکة،فما کان یصعد شرفا و لا یهبط وادیا إلا أنشأ یقول:

یا راکبا قف بالمحصّب من منی و اهتف بساکن خیفها و الناهض

1- (1) مناقب الرازی ص 89.

2- (2) معجم الأدباء ج 17 ص 299. [1]

سحرا إذا فاض الحجيج إلى منى فيضا كملتطم الفرات الفائض

إن كان رفضا حبّ آل محمد فليشهد الثقلان أنى رافضى

(1)و يروى ابن عبد البرّ أنه قيل للشافعى إن فيك بعض التشيّع؟قال:و كيف؟ قالوا:ذلک لأنک تظهر حب آل محمد.فقال:يا قوم،أ لم يقل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبّ إليه من والده و ولده و الناس أجمعين».و قال:«إن أوليائى من عترتى المتّقون»فإذا كان واجبا علىّ أن أحبّ قرابتى و ذوى رحمى إذا كانوا من المتقين،أ ليس من الدين أن أحبّ قرابة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إذا كانوا من المتقين،لأنه كان يحب قرابته؟و أنشد:يا راكبا قف بالمحصّب من منى.

و من شعره فى موالاة أهل البيت:

إذا فى مجلس نذكر عليا و سبطيه و فاطمة الزكيّة

يقال تجاوزوا يا قوم هذا حديث من حديث الرافضيّة

برئت إلى المهيمن من أناس يرون الرفض حبّ الفاطميّة

(2)و كان يجيب على تهمة التشيّع بجرأة فى ظروف كانت فيها التهمة بالتشيع تعنى الهلاک و الحرمان،و لا يكتم رأيه فيقول:

أنا الشيعى فى دينى و أصلى بمكة،ثم دارى عسقلية

بأطيب موطن و أعزّ فخر و أسمى مذهب يسمو البريّة

1- (1) الانتقاء و معجم الأدباء. [1]

2- (2) ذكر القندوزى الحنفى فى ينابيع المودة [2]نقلا عن البيهقى عن الربيع بن سليمان الأبيات الشعرية و فيها زيادة رأينا ذكرها فى الهامش،لأن ما ورد فى المتن هى الأشهر:قيل للإمام الشافعى رحمه اللّه إن أناسا لا يصبرون على سماع منقبة أو فضيلة لأهل البيت الطيبين،فإذا رأوا واحدا منّا يذكرها يقولون هذا رافضى. فأنشأ الشافعى: إذا فى مجلس ذكروا عليا و سبطيه و فاطمة الزكية فأجرى بعضهم ذكرا سواه فأيقن أنه سلقلقية إذا ذكروا عليا أو بنيه تشاغل بالروايات العلية و قال تجاوزوا يا قوم عن ذا فهذا من حديث الرافضية برئت إلى المهيمن من أناس يرون الرفض حب الفاطمية على آل الرسول صلاة و لعنته لتلک الجاهلية .

و له أيضا:

قالوا:ترفّضت.قلت:كلا ما الرفض دينى و لا اعتقادى

لكن توليت غير شک خير إمام و خير هادى

إن كان حب الولى رفضا فإن رفضى إلى العباد

و قوله:

يا آل بيت رسول اللّه حبكمو فرض من اللّه فى القرآن أنزله

يكفيكم من عظيم الفخر أنكمو من لم يصلّ عليكم لا صلاة له

و له أيضا:

لم يبرح الناس حتى أحدثوا بدعا فى الدين بالرأى لم يبعث بها الرسل

حتى استخفّ بدين اللّه أكثرهم و فى الذى حملوا من حقّه شغل

و له فى الدعاء:

بموقف ذلى عند عزتک العظمى بمخفىّ سرّ لا أحيط به علما

بإطراق رأسى باعترافى بزلتى بمدّ يدى استمطر الجود و الرحما

بأسمائک الحسنى التى بعض وصفها لعزّتها تستغرق النثر و النظما

بعهد قديم من أ لست بربّكم بمن كان مجهولا فعلمته الأسما

أذقنى شراب الأنس يا من إذا سقى محبّا شرابا لا يضام و لا يظما

و منه ما رواه الربيع بن سليمان أنه كتب إلى محمد بن الحسن،و قد طلب منه كتبا ليستنسخها فتأخرت عنه:

قل لمن تر عينا من رآه مثله

و من كان من رآه قد رأى من قبله

العلم ينهى أهله أن يمنعون أهله

لعله يبذله لأهله لعله

و عن الربيع أيضا أن الشافعى قال يعزّى ببعض إخوانه:

إنى أعزّيک لا إنى على طمع من الحياة و لكن سنّة الدين

فما المعزّى بباق بعد صاحبه و لا المعزّى و إن عاشا إلى حين

و لا بد للشافعى أن لا يدع من يستفزّهم ذكر آل محمد و يغضبهم موالاة من

ص:416

أوصى بموالاتهم صاحب الرسالة،فهو على الاعتقاد الذى أجمعوا عليه،غير أنه يرى حب آل محمد فيقول:

إذا نحن فضّلنا عليّا فإننا روافض بالتفضيل عند ذوى الجهل

و فضل أبى بكر إذا ما ذكرته رميت بنصب عند ذكرى للفضل

فلا زلت ذا رفض و نصب كلاهما بحبيهما حتى أوسّد فى الرمل

و منها:

شهدت بأن اللّه لا ربّ غيره و أشهد أن البعث حق و أخلص

و أن عرى الآيات قول مبيّن و فعل زكىّ قد يزيد و ينقص

و أن أبا بكر خليفة ربه و كان أبو حفص على الخير يحرص

و أشهد ربى أن عثمان فاضل و أن عليا فضله متخصّص

أئمة حق يهتدى بهداهم لحى اللّه من إياهم يتنقّص

و أشعار الشافعى كثيرة فى مدح آل البيت عليهم أفضل الصلاة و السّلام،و لكن ذلک لا يجعله فى عداد الشيعة،و مع كونه قد أخذ كثيرا من الأحكام عنهم،و ضعّف بسبب ذلک،لأننا لم نجد صلة حقيقية بينه و بين الشيعة و لا اتصالا مع الأئمة فى عصره.و قد عقدنا له بحثا فى الجزء الثالث،و أدخلناه فى قفص الاتهام،و بعد الحوار و المناقشة أخرجناه ببراءة من تهمة التشيّع.

و يقتضى ذلک أن نقول:إن البعض يقع فى خطأ،و منهم الكتّاب و المؤرخون أو عامة الناس،فيذكرون أن الشيعة يأخذون بقول الشافعى،و يذكرون فى كتبهم أقواله فيقولون:قال محمد بن إدريس،أو أن المذهب الشيعى يلتقى بالمذهب الشافعى فى كثير من الموارد دون غيره من مذاهب السنة.و هو خطأ أوضحناه فى مكانه،و قلنا إنه ناشئ من عدم التحقيق،و لأن الشيعة يذكرون أقوال محمد بن إدريس الحلى-عالم الشيعة فى عصره و مؤلف كتاب السرائر-فيقولون:قال محمد بن إدريس،أو قال ابن إدريس.فيظنّون أن المقصود هو محمد بن إدريس الشافعى.

و لكن الشافعية زعموا أن الشيعة قالوا إن الشافعى منهم (1)و أنهم احتجوا بهذه

1- (1) مناقب الرازى.

الأشعار.و لا نستغرب ذلک،لأن الخشية من تهمة التشيّع شملت أصحاب الشافعی و تلامذته بينما کان آخرون بخلاف ذلک فقد روی أن المزنی قال:قلت للشافعی:أنت توالی أهل البيت،فلو عملت فی هذا الباب أبياتا فقال:

و ما زال کتمانيک حتی کأننی بردّ جواب السائلين لأعجم

و أکتم ودّی فی صفاء مودّتی لتسلم من قول الوشاة فأسلم

و اتهمه يحيی بن معين بالتشيّع و قال:طالعت کتابه السير،فوجدته لم يذکر إلا علی بن أبی طالب.و قوله:نظرت فی قتال أهل البغی،فرأيته قد احتج من أوله إلی آخره بعلی بن أبی طالب.و کان يأخذ بحديث الإمام الصادق و خاصة بأحکام الصلاة (1).

و قد أکثر الشافعی من الرواية عن إبراهيم بن محمد بن أبی يحيی أبو إسحاق المدنی أحد تلامذة الإمام الصادق عليه السّلام روی أحاديث أهل البيت و له مؤلف مبوّب فی الحلال و الحرام علی مذهب أهل البيت،و هو أستاذ الواقدی و کتب الواقدی مأخوذة عنه.و کان الشافعی يقول:لأن يخرّ إبراهيم أحبّ إليه من أن يکذب.

و لأن الشافعی أکثر فی الرواية عن إبراهيم و هو(متهم بالتشيع)کان الشافعی يذکر اسمه مرة و يورّی عنه أخری و يقول:حدثنی الثقة،حدثنی من لا اتهمه.إذا فالشافعی يأخذ من رجال الشيعة،و ينهل من مصادرهم،و يستقی من منابعهم، و لکنهم لا يدّعون أنه منهم.

لقد کانت مصر هی المکان الذی صدر عنه المذهب الشافعی،و منه انتشر فی الأقطار،و ذلک بفضل جهود تلامذته المخلصين الذين شغلوا الناس عن دراسة المذهب المالکی و المذهب الحنفی،و کانا قد انتشرا هناک.

قال السبکی فی الطبقات عن مصر و الشام بالنسبة للمذهب الشافعی:

هذان الإقليمان مرکز ملک الشافعية،منذ ظهر المذهب الشافعی،اليد العالية لأصحابه فی هذه البلاد.لا يکون القضاء و الخطابة فی غيرهم،أما الشام فقد کان

1- (1) انظر مناقب الرازی ص 84.

مـذهب الأوزاعى حتى ولى القضاء أبو زرعـة محمـد بن عثمان الدمشـقى الشافعى و يقول:كان(محمـد بن عثمان)رجلا رئيسا يقال أنه هو الذى أدخل مذهب الشافعى إلى دمشق،و أنه كان يهب لمن يحفظ مختصر المزنى منه مائة دينار.

و على أى حال فإن المذهب الشافعى كانت بذرته الأولى فى مصـر،و منها انتشـر بفضل جهود أصـحاب الشافعى،و لو لا هـم لكان أثرا بعد عين.و لكـان مصـيره مصـير مـذهب الليث بن سـعد الـذى لـم يتهيأ له أصـحاب مخلصون يقومون بنشـره،و لعل أهم العوامل التى هيأت للشافعى أسباب النجاح فى مصر هى:

1-إنه كان معروفا بأنه تلميذ مالک و خرّيج مدرسته،و كان لمالک هناک ذكر و لمذهبه انتشار،فقوبل بالعناية،و ذلک قبل إظهاره المعارضة لمذهب مالک و الردّ عليه.

2-نشاط الشافعى و علوّ همّته و تفوّقه بالأدب و معرفة اللغة،و إحاطته بأقوال مالک و أهل العراق،و ما عرف عنه من انتصار لأهل الحديث و الردّ على أهل الرأى.

3-اشتهار قرشيته و اعتصامه بالانتساب للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و هذا له أثره فى قلوب المصريين.

4-صـلته بحاكم مصـر الجديد عبد اللّه بن العباس بن موسـى،و معرفته به يوم كان بمصر،و أنه سافر معه من بغداد عند تعيينه،أو أنه حمل له وصية من الخليفة على اختلاف الروايات.

5-اختياره النزول عند أقوى بيت فى مصر و أعزّهم جانبا و هم بنو الحكم، و التفاف أعيان أصحاب مالک حوله كأشهب و ابن القاسم و ابن المواز و غيرهم.

تغلب المذهب الشافعى على المذهب المالكى بمصـر بعد أن كان هو السائد و له السـلطان هناک.و ذكرنا مقابلة أنصار المذهب المالكى لأصـحاب الشافعى،و قد تمت له الغلبة هناک أيام الدولة الأيوبية،لأنهم كانوا جميعا شافعية إلا عيسـى بن الملک العادل سـلطان مصر فإنه كان حنفيا،و لم يكن فيهم حنفى سواه،ثم تبعه أولاده و كان شديـد التعصب لـذلک المـذهب،و يعدّه الحنفية من فقهائهم،و له شـرح على الجامع الكبير فى عدة مجلدات.

و لما خلفت دولة المماليک البحرية دولة الأيوبيين،لم تنقص حظوة المذهب

الشافعی،فقد کان سلاطینها من الشافعیة إلاّ سیف الدین الذی حکم قبل بیبرس فقد کان حنفیا،و لکن لم یکن له أثر فی الدولة لقصر مدته.و لم یختلف بشیء عن سیاسة الأیوبیین تجاه المذهب،و عملهم علی نشر المذهب و تشجیع المنتمی إلیه،و جعل القضاء للشافعیة،و علی غرار ما عملت به الدولة العباسیة فی المشرق و حصره بالحنفیة.

و بقیت صبغة المذهب صبغة رسمیة حتی قیام الظاهر بیبرس و قیامه بتطبیق فکرة توزیع منصب القضاء علی المذاهب الأربعة،فتأثرت مکانة المذهب الشافعی و نفوذه عمّا کانا علیه من قبل،و لکنه ظل یحتفظ بمکانة أعلی من غیره من المذاهب.

و کذلک استمر المذهب فی عصر الممالیک الجرکسیة،حتی جاء دور العثمانیین و استیلائهم علی مصر،فأبطلوا القضاء بالمذاهب الأخری و حصروه بالمذهب الحنفی لأنه المذهب الرسمی للدولة.و قد بیّنا أسباب اعتناق الأتراک للمذهب الحنفی دون غیره من المذاهب،لأنه لا یشترط القرشیة فی الخلافة،و سلاطین آل عثمان ادعوا الخلافة علی المسلمین،و المذهب الحنفی یجوّز ذلک دون غیره.

و خلاصة القول،إن المذهب الشافعی شارک المذهب الحنفی و المذهب المالکی فی اهتمام السلطان و الرعایة،و أن العلاقة بالحکم کانت من أعظم مقومات الانتشار و الوجود کالمذهب الحنفی و المذهب المالکی اللذین انتشرا بقوة السلطة و مشیئتها،و کان مذهب أبی حنیفة فی بغداد یسمی مذهب السلطان (1).

وفاته

:

لعل وفاة الشافعی من أغرب أعمال التعصّب.لأن أرجح الروایات و أقربها إلی الصحة هی موته بسبب الاعتداء علیه من جماعة تعصبوا لفتیان-الرجل المالکی- الذی کان یناظر الشافعی کثیرا و یجتمع الناس علیهما،و قد کان فی فتیان حدّة و طیش و هو من أصحاب مالک بن أنس.و قد هجموا علی الشافعی و ضربوه،فحمل إلی منزله،فلم یزل علیلا حتی مات.

و لمّا توفی أدخلت جنازته علی السیدة نفیسة بنت الحسن التی تلمذ لها فی

1- (1) معجم الأدباء ج 6 ص 11-12. [1]

الحديث،و صلّت عليه فی دارها.هكذا حكاه ابن خلكان و ابن كثير (1).

و قد وضعت نبوءة لإبراز أدوار و منازل أصحاب الشافعی التی كانت بعد موته علی أنها تجری كما علمها الشافعی و تنبأ بها.يقول الربيع:دخلنا علی الشافعی أنا و البويطی و محمد بن عبد اللّه بن الحكم و المزنی،فنظر الشافعی إلينا ساعة ثم قال للبويطی:أما أنت يا أبا يعقوب،فستموت فی حديدک.و أما أنت يا مزنی فستدرک زمانا تكون أقيس أهل ذلک الزمان.و أما أنت يا محمد فسترجع إلی مذهب أبيک أی مذهب مالک.و أما أنت يا ربيع فأنفع لی فی نشر كتبی.

توفی الشافعی رحمه اللّه فی شهر رجب سنة 204 بمصر.

و بعد وفاته يقول الربيع:

رأيت الشافعی بعد وفاته فی المنام فقلت:يا أبا عبد اللّه ما صنع اللّه بک؟قال:

أجلسنی علی كرسی من ذهب،و نثر علیّ اللؤلؤ الرطب (2).

أولاده

:

و للشافعی ولدان كل منهما اسمه محمد،أما الأصغر فتوفی بمصر صغيرا، و محمد الثانی يلقب أبو عثمان ولی قضاء الجزيرة و توفی سنة 241 ه (3).

1- (1) وفيات الأعيان ج 5 ص 57.و [1]البداية و النهاية ج 10 ص 262. [2]

2- (2) تاريخ بغداد ج 2 ص 70. [3]

3- (3) النجوم الزاهرة ج 2 ص 306. [4]

الإمام الصادق

اشارة

أولاده و أحفاده

إن البحث فی حیاة أولاد الإمام الصادق و أحفاده له أهمیة کبیرة،سواء من حیث متطلبات موضوع الکتاب و اکتمال أجزائه،أو من الناحیة الدینیة و التاریخیة،لأن المرحلة التی جاءت بعد الإمام الصادق کانت من أکبر المراحل خطورة و أهمیة:کما أن البحث فی الأولاد و الأحفاد یستلزم جهودا مضنیة إذا ما أردنا الإیفاء بکل ما یندرج فی سلسلة النسب و الأسماء،فهو یعنی الحدیث عن الأئمة المعصومین صلوات اللّه علیهم و هو ما بقی مجال جهد و بحث للعلماء و الرجال منذ مئات السنین و حتی الیوم، و لم تتوقف البحوث و لن تکف الجهود عن کشف صفحات الأئمة المعصومین من أبناء محمد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لأنهم نبراس الهدی،و منار الحق الذی یهتدی به الناس.و لذلک اقتصرت علی أولاده و أحفاده رضوان علیهم حسب مجریات الأحداث و سیاق البحث،و أعطینا سردا مختصرا یوفی بغرض إعطاء صورة عن عقبة علیه السّلام و باستخلاص واقع الملابسات فی مجری الإمامة و التی ظهرت بعد وفاته علیه السّلام و اقتبسنا شیئا من أنوار سیر الأئمة و اضمامات قلیلة من أزاهیر حیاة بعضهم علیهم السّلام.

أولاد الإمام

اشارة

:

قال الشیخ المفید:کان لأبی عبد اللّه عشرة أولاد:إسماعیل،و عبد اللّه،و أم فروة.أمهم فاطمة بنت الحسین بن علی بن الحسین السبط علیه السّلام.

و موسی علیه السّلام و إسحاق،و محمد،لأم ولد.و العباس،و علی،و ،أسماء و فاطمة.لأمهات شتی.

و قال ابن عنبة الحسنی:و أعقب جعفر الصادق علیه السّلام من خمسة رجال:

موسی الکاظم،و إسماعیل،و علی العریضی،و محمد المأمون،و إسحاق،و لیس له

ولد اسـمه ناصـر،معقب و لا غير معقب بإجماع علماء النسب،و بأسفزار من ولاية هراة خراسان قوم يدّعون الشّرف،و ينتسبون إلى ناصر بن جعفر الصادق عليه السّلام و هم أدعياء كذّابون لا محالة،و هم هناک يخاطبون بالشرف على غير أصل،و يعرف هؤلاء القوم ببارسا و كذبهم أظهر من أن ينبه عليه (1).

و قال سـراج الدين الرفاعى:و كان له عشـرة أولاد:إسـماعيل و عبد اللّه و أم فروة،أمهم فاطمة بنت الحسـين الأشرف بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب.و موسى الكاظم الإمام المعصوم رضى اللّه عنه،و إسحاق المؤتمن،و محمد الديباج،لأم ولد يقال لها حميدة البربرية.

على بن جعفر عليه السّلام

:

يكنى أبا الحسن،و يلقب بالعريضى نسبة إلى العريض(بضم العين المهملة و فتح الراء)قرية على أربعة أميال من المدينة كان يسكنها و أمه،و يقال لولـده العريضـيون و هم كثير هناک (2)و هو أصـغر أولاـد الإمـام الصادق عليه السّـلام مات أبوه و هو طفل،و روى عن أخيه موسـى الكاظم،و له كتاب ما سأله به،و روى عن أبيه عليه السّـلام على صـغر سنه،و له كتاب فى مسائل الحلال و الحرام عنه،و كذلک روى عن ابن أخيه الرضا،و ابنه الجواد.و طال عمره إلى أيام الإمام الهادى عليه السّلام فكانت وفاته سنة 210 ه.

روى العميرى أن أبـا جعفر الجواد دخل على على بن جعفر،فقام له قائما و أجلسه فى موضـعه و لـم يتكلم حتى قام،فقال له أصـحابه:أ تفعل هذا مع أبى جعفر و أنت عمّ أبيه؟ فضرب بيده على لحيته و قال:إذا لـم يرها اللّه أهلا للإمامة أراها أنا أهلا للنار؟ (يعنى بادعاء الإمامة و هى ليست له)و قد ناصر أخاه محمد بن جعفر الصادق الثائر فى أيام المأمون و الذى أسس دولة فى مكة المكرمة.و بعد أن أسر محمد،نزل علىّ بالكوفة،ثم استدعاه القمّيون،و نزل قم و مات و قبره مشهور يزار.

قال الشيخ المفيد:على بن جعفر رضى اللّه عنه رواية للحديث،سديد الطريقة

1- (1) عمدة الطالب. [1]

2- (2) صحاح الأخبار ص 48.

شديد الورع،كثير الفضل.و لزم أخاه موسى عليه السّلام و روى عنه شيئا كثيرا من الأخبار.

و قال الشيخ الطوسى:على بن جعفر جليل القدر،ثقة،له كتاب المناسک و مسائله لأخيه موسى الكاظم سأله عنها.

و قال الشريف أحمد بن زين باعلوى فى شرح العينية عند ذكر على العريضى:

خلف أولادا أعقب منهم أربعة رجال:أحمد و الحسن و جعفر الأصغر و محمد.

و قال فى العمدة-فى عقب الإمام الصادق-:و أما على العريضى بن جعفر الصادق عليه السّلام و يقال لولده العريضيون و هم كثيرون متفرّقون فى البلاد،و منهم بالمدينة الشريفة أولاد يحيى المحدث بن يحيى ابن أبى الحسن عيسى الردمى الأكبر بن محمد بن على العريضى،و إليه يرجع نسب السادة أهل حضرموت.يقول الشريف أحمد بن محمد:أعقب على بن جعفر الصادق أبناءه...على و جعفر و الحسن و محمد و أحمد،و فى محمد نسب السادة الحضارمة العلويين.و يجمعهم بن جعفر بن محمد بن على الحسينى،و هم فروع متوسعة إلا أننا سنذكر من يوجد منهم فى المدينة و مكة المكرمة،و ممن يسكن المدينة قديما:آل جميل الليل،و آل مشيخ بن أحمد بن حسين(و غيرهم)و منهم بمكة المكرمة:بيت السيد الحبش من علماء مكة المكرمة و أجلاّئها و بيت السيد عقيل (1).

قال الذهبى:على بن جعفر روى عن أبيه و أخيه موسى و الثورى،و روى عن الجهضمى و البزى و الأوسى و جماعة،و روى له الترمذى فى كتابه.

و أسند الذهبى عنه فى الميزان عن آبائه أن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أخذ بيد الحسن و الحسين و قال:«من أحبنى و أحب هذين و أبويهما كان معى يوم القيامة».

و خرّج له الإمام أحمد فى مسنده،و عدّه ابن حجر فى الطبقة العاشرة.و قال أحمد بن زين الحبش:السيد على بن جعفر فهو أبو الحسن شمس أهل البيت كان رحمه اللّه جوادا سخيا عالما كبيرا،و هو أصغر أولاد أبيه سنّا و أطولهم عمرا،أخذ عن أبيه و صحبه،و أخذ عن أخيه موسى الكاظم،عن الحسن بن زيد،و روى عنه ابناه أحمد و محمد و حفيده عبد اللّه بن الحسن و إسماعيل بن محمد بن إسحاق بن جعفر الصادق.

1- (1) انظر الدرر السنية للشريف أحمد بن محمد بن صالح.

وردت مسائله لأخيه الإمام الكاظم فى كتب علمائنا و روى له الشيخ الصدوق و الشيخ الطوسى و العلاّمة الحلى و غيرهم من علمائنا.

قال المخزومى أعقب على بن جعفر أربعة رجال هم:محمد و أحمد و الحسن، و جعفر الأصغر.و هذه العشيرة أفخاذ و فصائل،ضمّت جماعة كثيرة فى العراق و الشام و اليمن و الحجاز،و لهم ذيل بشيراز،و الدينور،و منهم بواسط،و قد أنجبت قبيلتهم فأتت بالكثير الطيب.قال العمد:من أشياخ أهل البيت،إن السبب فى ذلک إذعان على العريض بإمامة محمد بن أخيه.

أما عقب أولاده الأربعة كما يلى باختصار:

1-أحمد المعروف بالشعرانى،فإنه أعقب من عبد اللّه،و عقبه بالمراغة.

و يعرفون ببنى الحسنية و الحسين،و عقبه بالرقة.

و محمد و على:و لهم جماعة بالبصرة و مرو و قم و شيراز.

2-و أما محمد بن على بن جعفر فإن فى ولده العدد المتفرق فى البلاد،أعقب من خمسة و هم:

عيسى النقيب،و يحيى،و الحسن،و الحسين،و لكل واحد من هؤلاء عقب منتشر فى مصر و الرى و بغداد و اليمن و الشام و الكوفة و أصفهان و قزوين و الديلم.

3-جعفر بن على بن جعفر،فعقبه من ابنه عبد اللّه،و عبد اللّه أعقب من على و موسى،و لهما عقب منتشر فى البلاد الإسلامية.

محمد

:

محمد بن جعفر الصادق،و يلقّب الديباج،و كان وجيها محبوبا عند الناس شجاعا كريما ورعا تقيا،و كان يصوم يوما و يفطر يوما،و كان يرى الخروج بالسيف على الظالمين،و بايعه أهل مكة سنة 200 ه.

قال ابن الأثير:كان يروى العلم عن أبيه،و كان الناس يكتبون عنه،و قال ابن خلدون:كان محمد بن جعفر عالما زاهدا.

و قال الشيخ المفيد:كان محمد بن جعفر سخيا شجاعا،و روى عن زوجته خديجة بنت عبد اللّه بن الحسين أنها قالت:ما خرج من عندنا محمد يوما قط،

فرجع حتی یکسوه.و کان یذبح کل یوم کبشا لأضیافه،و خرج علی المأمون فی سنة تسعة و تسعین و مائة بمکة،و اتبعته الزیدیة الجارودیة،فخرج لقتاله عیسی الجلودی، و بعد قتال طویل تفرّق جمع محمد،فأخذه المأمون،و لما وصل إلیه أدنی مجلسه منه و أکرمه و أحسن جائزته،و کان مقیما معه بخراسان،یرکب إلیه فی موکب من بنی عمه،و کان المأمون یحتمل منه ما لا یحتمله السلطان من رعیته.

و قد أنکر المأمون رکوبه إلیه فی جماعة من الطالبیین الذین خرجوا علی المأمون سنة مائتین فآمنهم،فخرج التوقیع إلیهم:لا ترکبوا مع محمد بن جعفر،و ارکبوا مع عبد اللّه بن الحسین.فأبوا أن یرکبوا و لزموا منازلهم،فخرج التوقیع:ارکبوا مع من أحببتم.فکانوا یرکبون مع محمد بن جعفر إذا رکب،و ینصرفون بانصرافه.

و أخبر محمد بن جعفر:أن غلمان ذی الرئاستین قد ضربوا غلمانک علی حطب اشتروه.فخرج مؤتزرا ببردین و معه هراوة و هو یقول:

الموت خیر لک من عیش بذلّ و تبعه الناس حتی ضرب غلمان ذی الرئاستین،و أخذ الحطب منهم.فرفع الخبر إلی المأمون،فبعث إلی ذی الرئاستین فقال له:ائت محمد بن جعفر،فاعتذر إلیه و حکّمه فی غلمانک.فخرج ذو الرئاستین إلی محمد بن جعفر.قال موسی بن سلمة:فکنت عند محمد بن جعفر جالسا حتی أتی،فقیل:هذا ذو الرئاستین.فقال:

لا یجلس إلا علی الأرض،و تناول بساطا فی البیت،فرمی به،و لم یبق فی البیت إلا وسادة،و جلس علی الأرض،فاعتذر إلیه و حکّمه فی غلمانه.

و توفی محمد بن جعفر سنة 203 ه،فرکب المأمون لیشهد جنازته،و قد خرجوا به،فلما نظر إلی السریر نزل فترجّل و مشی حتی دخل بین العمودین،فلم یزل بینهما حتی وضع،فتقدم و صلّی علیه،ثم حمله حتی بلغ به القبر،ثم دخل قبره،فلم یزل فیه حتی بنی قبره،ثم خرج فقام علی القبر حتی دفن،فقیل له:لو رکبت؟فقال:

هذه رحم قطعت منذ ثمانین سنة،فأحببت أن أصلها (1).و مات محمد بن جعفر عن عمر ینیف علی السبعین کما ذکره الذهبی فی المیزان،و قبره بجرجان (2).و ما ذکره

1- (1) الإرشاد للمفید 169.و صحاح الأخبار لسراج الدین ص 54.

2- (2) .35/3.

بعضهم من أنه مات و له تسع و أربعون سنة فهو غلط،و الصحيح ما ذكرناه،لأن وفاة الإمام الصادق كانت سنة 148 ه.

و ذكر الشيخ المفيد:أن إسماعيل بن محمد بن جعفر قال:قلت لأخي و هو لجنبي و المأمون قائم على القبر:لو كلّمناه في دين الشيخ،فلا نجده أقرب منه في وقته هذا.فابتدأنا المأمون فقال:كم ترك أبو جعفر من الدّين؟فقلت له:خمسة و عشرين ألف دينار.فقال:قد قضى اللّه عنه دينه.إلى من وصّى؟قلنا:إلى ابن يقال له يحيى بالمدينة.فقال:ليس هو بالمدينة،و هو بمصر،و قد علمنا بكونه فيها،و لكن كرهنا أن نعلمه بخروجه من المدينة لئلا يسوؤه ذلك لعلمه بكراهتنا لخروجه عنها (1).

و أعقب محمد بن الإمام الصادق عليه السّلام:علي و القاسم و الحسين،و عقب القاسم من ولده:يحيى و علي و عبد اللّه.و القاسم يعرف بالطيّب،و ابنه يحيى يعرف بيحيى الشبيه.

قال السخاوي:هو يحيى بن القاسم الطيب بن محمد المأمون بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي اللّه عنهم،قيل كان شبيها برسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و كان له خاتم بين كتفيه كخاتم النبوة،و كان الناس إذا شاهدوه أكثروا من الصلاة على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و كان ابن طولون أقدمه من الحجاز،و لما سمع أهل مصر بقدومه،خرجوا إلى ظاهر مصر يتلقونه،و كان يوم قدومه يوما مشهودا.و بالقرافة بمصر قبر أبي عبد اللّه محمد بن القاسم بن محمد بن جعفر الصادق صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.و دفن يحيى بمصر،و قبره مشهور يعرف بمشهد يحيى الشبيه.و دفن معه أخوه عبد اللّه بن القاسم الطيّب.

و قبره في وسط القبة،و عند وسطه لوح رخام فيه نسبه،و كانت وفاته يوم الاثنين 13 من شهر رمضان سنة 261 ه.

و كان عبد اللّه كأخيه في العبادة و الخير و العفّة و الصلاح،و هم بيت عظيم معروفون بإجابة الدعاء (2).و في نفس التربة دفنت أم عبد اللّه زوجة القاسم الطيب.

و في مصر أيضا:الحسن بن يحيى الشبيه بن القاسم الطيّب،و عليه رخامة

1- (1) الإرشاد ص 269. [1]

2- (2) انظر تحفة الأحباب و بغية الطلاب [2]للسخاوي.

مكتوب فيها اسمه و اسم آبائه الطاهرين.و فى القرافة مشهد يعرف بمشهد السيدة العيناء،و هى السيدة كلثم أو أم كلثوم بنت محمد بن جعفر الصادق عليه السّلام و قبرها معروف بإجابة الدعاء.

و فى القرافة أيضا مشهد يعرف بمشهد الحسن و المحسن،و هما أولاد القاسم الطيب بن محمد بن جعفر (1).

و ذكر أبو نصر البخارى:أن جميع بنى محمد بن جعفر لصلبه سبعة:على و إسماعيل من أم ولد،و القاسم أمه أم الحسن بنت حمزة بن القاسم بن الحسن بن زيد..

و يحيى و جعفر أمهما خديجة بنت عبيد اللّه.و موسى و عبد اللّه من أم ولد.

عبد اللّه

:

ابن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السّلام و كان أكبر إخوته بعد إسماعيل، و لم تكن منزلته عند أبيه كمنزلة غيره من ولده فى الإكرام،و ادّعى الإمامة بعد أبيه لأنه الأكبر،و جلس مجلس أبيه مدّعيا وصايته،فمال إليه كثير من الناس بادعاء أن الإمامة فى أكبر الأولاد.

و حيث لم يكن بمنزلة من العلم،فقد امتحنه جماعة ممن اتبعه بمسائل فى الحلال و الحرام و الصلاة و الزكاة و غير ذلك،فلم يجد عنده علما،فنفروا منه،و عادوا إلى الإمام موسى بن جعفر عليه السّلام و بقى جماعة على القول بإمامته و يعرفون (بالفطحية)لأن عبد اللّه يكنى بالأفطح،كان أفطح الرأس،و قيل كان أفطح الرجلين، و هم فرقة قليلة رجعوا عن القول بإمامته.مات و لم يعقب،فقالوا بإمامة موسى بن جعفر عليه السّلام.و لم يبق من هذه الفرقة أحد.و مات عبد اللّه بعد وفاة أبيه بسبعين يوما.

إسحاق

:

ابن الإمام الصادق عليه السّلام كان رواية للحديث و من أهل العلم.

1- (1) نفس المصدر.

قال الشيخ المفيد:و كان إسحاق بن جعفر من أهل الفضل و الصلاح و الورع و الاجتهاد،و كان ابن كاسب (1)إذا حدّث عنه يقول:حدثنى الثقة الرضى إسحاق بن جعفر،و كان إسحاق يرى إمامة أخيه موسى بن جعفر عليه السّلام و روى عن أبيه النص بالإمامة.

و قال المخزومى:ولد لإسحاق:عبد اللّه و الحسن،و لهما عقب بهمدان و جيرفت.و فى عمدة الطالب:و أما إسحاق بن جعفر الصادق و يكنى أبا محمد و يلقب بالمؤتمن،فقد ولد بالعريض و هو واد بالمدينة،و كان من أشبه الناس برسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و كان محدثا جليلا و ادعت فيه طائفة من الشيعة الإمامة.و كان سفيان بن عيينة شيخ الإمام الشافعى رضى اللّه عنهما إذا ما روى عنه يقول:حدثنى الثقة الرضا إسحاق بن جعفر بن محمد بن على بن الحسين رضى اللّه عنهم، و هو أقل المعقبين من ولد جعفر الصادق عددا،إذ أعقب ثلاثة رجال:محمدا و الحسن و الحسين.و تعرف ذريته بالإسحاقيين.

يقول المقريزى فى خططه:و تزوّج-إسحاق-بنفيسة (2)رضى اللّه عنها،و كان يقال له إسحاق المؤتمن،و كان من أهل الصلاح و الفضل و الخير و الدين،روى- الناس-عنه الحديث،و كان ابن كاسب إذا حدّث عنه يقول:حدثنى الثقة الرضا إسحاق بن جعفر.و كان له عقب بمصر،فهم بنو الرقى،و بحلب بنو زهرة.

الإمام موسى بن جعفر عليهما السّلام

اشارة

كان موسى بن جعفر على جانب عظيم من العلم و الكمال،فقد أشبه بمواهبه و أخلاقه،و كان أبوه الإمام الصادق إذا ما اجتمع أولاده يقول:هؤلاء أولادى و هذا

1- (1) هو يعقوب بن حميد بن كاسب المدنى المتوفى 241 ه و ينسب إلى جده،و كان من المحدثين الإعلام. [1]قال القاسم بن عبد اللّه بن مهدى:قلت لأبى مصعب،بمن توصينى بمكة و عمن أكتب؟فقال عليك بشيخنا أبى يوسف يعقوب بن حميد.و قد روى الحديث عنه جماعة،و خرّج له البخارى فى أفعال العباد.

2- (2) نفيسة بنت الحسن بن زيد بن الحسن السبط عليه السّلام و هى المعروفة بالسيدة نفيسة المتوفاة سنة 206 ه و قبرها بمصر يزار و يعرف باستجابة الدعاء،و لها كرامات،و كانت عالمة جليلة القدر عظيمة الشأن يحترمها العلماء و يعظمها الأمراء.قالوا أن الشافعى كان يزورها و يسمع منها الحديث،و قد زار قبرها أكابر العلماء و أعيان [2]الدولة،و ظهرت لها كرامات فى حياتها و بعد وفاتها رضى اللّه عنها.

سیدهم.و روی أن أبا حنیفة قال:دخلت المدینة فأتیت أبا عبد اللّه الصادق علیه السّلام فسلّمت علیه و خرجت من عنده،فرأیت ابنه موسی فی دهلیز داره قاعدا فی مکتب -و هو صغیر السن-فقلت له:أین یحدث الغریب عندکم إذا أراد ذلک؟فنظر إلی ثم قال:«تجنّب شطوط الأنهار،و مسقط الثمار،و فیء النزال،و أفنیة الدور،و الطرق النافذة و المساجد،و یرفع و یضع بعد ذلک حیث شاء».فلما سمعت هذا القول نبل فی عینی و عظم فی قلبی،فقلت له:فممن المعصیة؟فنظر إلیّ ثم قال:«أجلس حتی أخبرک»فجلست فقال:«إن المعصیة لا بد أن تکون من العبد أو من ربه أو منهما جمیعا،فإن کانت من اللّه عزّ و جلّ فهو أعدل و أنصف من أن یظلم عبده بما لم یفعله، و إن کانت منهما فهو شریکه و القوی أولی بإنصاف عبده الضعیف.و إن کانت من العبد وحده فعلیه وقع الأمر و إلیه توجه النهی و له حق الثواب و العقاب،و لذلک وجبت الجنة و النار»قال:فلما سمعت ذلک قلت:ذریة بعضها من بعض و اللّه سمیع علیم (1).

فقد کشف الإمام موسی الکاظم-علی صغر سنّه-عن المسألة التی استعصی فهمها علی الناس،و کانت مثار جدل و سببا فی العداوات و القتل و الطعون،حتی شملت أبا حنیفة نفسه.

لقد کان المجتمع ینظر إلی الإمام موسی نظرة إکبار و تقدیر،و لما آلت إلیه الإمامة و تسلّم زعامة البیت العلوی،صادف علی الحکم بعد المنصور حکاما کالمهدی و الرشید ترتعد فرائصهم خوفا و رعبا من البیت العلوی،إذ مضی زمن المنصور الداهیة الذی استطاع أن یواجه البیت العلوی،و یلجأ إلی کل السبل و الوسائل للوقوف بوجه الإمامة و المنزلة الروحیة،و یستخدم الوحشیة و القتل لیقضی علی ثوراتهم و حرکاتهم.

فکان البیت العلوی شغل الدولة الشاغل و هاجسهم الدائم،یقضّ مضاجعهم، و یکدّر أوقات سکرهم و ملذاتهم و تبذّلهم فی الملاهی و الشهوات.

و من المتسالم علیه،أن الملوک الذین عاصرهم الإمام الکاظم علیه السّلام کانوا قد شدّدوا الرقابة علیه و اتهموه بأنه مصدر حرکات الثوار و محل تجمع الفئات التی لا تعترف بشرعیة الدولة،و کذلک الذین ینقمون علی الحکام سوء تصرفهم فإنهم یجدون

1- (1) روضة الواعظین ج 1 ص 39-40. [1]

فی الإمام موسی الکاظم شخصیة الخلیفة العادل و الحاکم الذی تحتاج الأمة رعایته و قیادته.

فکان محل تخوّف الحکام.فهم یحذرونه أشدّ الحذر،فهو أکبر العلویین و أعلمهم،و الشیعة تغدو و تروح إلیه،و هم یقصدونه من سائر البلاد الإسلامیة،و لا یملک بنو العباس أنفسهم تجاه هذه المکانة.فیروی المأمون عن أبیه هارون أنه قال لبنیه فی حق الإمام الکاظم:أنا إمام الجماعة فی الظاهر و الغلبة و القهر،و إنه-أی الکاظم علیه السّلام-و اللّه لأحق بمقام رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم منّی و من الخلق جمیعا،و و اللّه لو نازعنی هذا الأمر لأخذت بالذی فیه عیناه فإن الملک عقیم (1).

و سنطلع علی نبذ أخری من سیرته الزکیة.

ولادته

:

ولد الإمام موسی بن جعفر سنة 128-129 ه یوم الأحد سابع صفر بالأبواء- قریة بین مکة و المدینة-عند رجوع أبیه و أمه من الحج فی تلک السنة،فبشّر الإمام الصادق أصحابه الذین کانوا معه فی ذلک الموضع و أخبر خواصّ أصحابه بأنه الإمام من بعده،ثم أجری جمیع المراسیم الشرعیة لمولده الجدید،فأذّن فی أذنه الیمنی، و أقام فی أذنه الیسری،و أولم بعد ولادته،فأطعم الناس ثلاثا.

و عند ما دخل المدینة المنورة،أقبلت الوفود إلیه یهنئونه بمولوده و یشارکونه أفراحه،و کان علیه السّلام یظهر لهم فرحه بهذا المولود،و یشید به و أنه الخلف الصالح و الإمام من بعده.و نشأ صلوات اللّه علیه تحت رعایة أبیه نشأة صالحة،و اتصف بخصال الکمال،و لقّب بالعبد الصالح،و ینعت بالکاظم،و یکنی بأبی إبراهیم و بأبی الحسن.

و أمه أم ولد اسمها حمیدة الأندلسیة أو البربریة،و مدحها الإمام الصادق علیه السّلام بأنها مصفّاة من الدنس کسبیکة الذهب.و مات أبوه الصادق و له من العمر تسع عشر سنة.

و حصل بعد موت الإمام الصادق علیه السّلام خلاف بین أتباعه،فمنهم من قال

1- (1) روضة الواعظین ج 1 ص 39-40.

بإمامة محمد بن إسـماعيل بن الإمام الصادق و هؤلاء قلة،و لـم يسـمعوا النص على الإمام موسى من أبيه،و بعد مدة رجع أكثرهم إلى القول بإمامته.و منهم من قال بإمامة موسى عليه السّلام للنص عليه من أبيه،و سيأتى بيان ذلک.

و كان عبد اللّه الأفطح قد ادّعى الإمامة و اتبعه البعض،و لم يكن عنده علم، و لـم يجدوا فيه مؤهلات الإمامة،فرجعوا عنه.

و قام الإمام موسـى عليه السّـلام بأعباء الإمامة فى ذلک العصـر المضـطرب بالفتن،و قد كثرت فيه الخلافات فى الآراء،و ظهرت فيه العقائد المختلفـة،و نبغ أناس حادوا عن طريقـة المسـلمين،فجاءوا بآراء إلحاديـة،و نشـروا أقوالا تثير الشک.فكانت مدرسـته التى تزعّمها بعـد أبيه تواصل نشاطها فى قمع تلک الحركات،و صدّ تلک الهجمات عن الدين الإسـلامى.و خرج دعاة الإمام موسـى إلى الأقطار الإسلامية لنشر الدعوة و التصدّى لردّ تلک الأقوال،و تنفيذ تلک الآراء التى انتشرت فى المجتمع الإسلامى.

و الذى يظهر من تتبع الروايات أنه فى بدء أمره كان يحذر أشدّ الحذر من المنصور الدوانيقى،لأن المنصور ملأ المدينة بالجواسـيس ليعرف على من يجتمع الناس بعد جعفر بن محمد الصادق عليه السّـلام فإذا عرفه فهناک سيحتال لقتله لعلمه بتعلق الناس بأهل البيت،و أن الإمام الصادق قد انتشر ذكره،و تفرّقت دعاته فى جميع الأقطار و لا بد أن يقوم مقامه أحد،فرأى عليه السّلام فى بدء الأمر،أن يحذر و يحسب لنقمة المنصور حسابها،و لكن بعد وفاة المنصور سنة 152 ه خفّت الوطأة و قل الحـذر عند ما ولى المهدى،لأنه أقل شدة من أبيه فى معاملة أهل البيت عليه السّلام.

و لكن التفـاف النـاس حول الإمـام موسـى بن جعفر عليه السّـلام و إقبـالهم على أخـذ الأحكام منه و الروايـة عنه،جعل المهـدى قلقا من أمره،لأنه أعرف الناس بمنزلة أهل البيت فى قلوب الأمة.فهم الساسة الذين ابتعدوا عن الاسـتغلال و الأثرة،و جانبوا كلما من شأنه أن يضـع من قيمـة تلک المنزلة السامية،و هم يحتفظون بمكانتهم الروحية و رتبهم العلمية،لم يطلبوا بذلک جاها،أو يحاولوا جمع الأموال و صـرفها فى غير ما شرعه اللّه.

و قد أوضـحوا فى سـيرتهم أنهم ينهجون نهج جدّهم الرسول الأعظم فى إقامة العدل و نصرة المظلوم و إعلان الحرب على الظالمين و بذل النصح لجميع المسلمين.

و كان الإمام موسى عليه السّلام تتمثل فيه خصال الكمال،و تتجسّم فيه شخصية الإمام الحق،و لعظم الأهوال و شدّة المحن،غلبت عليه صفة الكاظم،و كان من خصاله:التجاوز عن المعتدين (1).

و كان يدعى بالعبد الصالح لعبادته و اجتهاده،و كان سخيا كريما،و كان يبلغه عن الرجل أنه يؤذيه؛فيبعث إليه بصرّة فيها ألف دينار (2).

و بقى عليه السّلام مدة فى أيام المهدى فى المدينة،يقوم بإرشاد الناس و هداية الخلق،الأمر الذى جعل المهدى يتخوّف من انتشار دعوته و قوة جانبه،فلم يأمن وثبة الشيعة بقيادة الإمام موسى،فعمد إلى إبعاده عن المدينة و إقامته فى بغداد تحت رقابة شديدة،أو أنه سجنه كما هو المشهور.

و مكث عليه السّلام فى السجن مدة أشهر،ثم أطلقه المهدى لرؤيا رآها كما حدّث الفضل بن الربيع عن أبيه أنه لما حبس موسى بن جعفر عليه السّلام رأى فى النوم على ابن أبى طالب و هو يقول:يا محمد(أى المهدى) فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَ تُقَطِّعُوا أَرْحامَكُمْ .قال الربيع:فأرسل إلىّ ليلا فجئته،فإذا هو يقرأ هذه الآية، و كان أحسن الناس صوتا و قال:علىّ بموسى بن جعفر،فجئته فعانقه و أجلسه إلى جانبه و قال:يا أبا الحسن إنى رأيت أمير المؤمنين على بن أبى طالب فى النوم يقرأ علىّ كذا، فتؤمننى أن لا تخرج علىّ أو على أحد من ولدى.

فقال عليه السّلام:«و اللّه لا فعلت ذاک و لا هو من شأنى».

قال:صدقت.يا ربيع أعطه ثلاثة آلاف دينار،و ردّه إلى أهله إلى المدينة (3).

و على رواية الجنابذى فى المعالم أنه وصله بعشرة آلاف.

و من هنا نستظهر أن المهدى لم يسجن موسى لشىء فى نفسه من عداء أو اعتداء،و إنما كان يحذره على ملكه من الزوال،و لم يخش أى شخصية فى عصره من جميع الطوائف و البيوت سوى الإمام موسى لمؤهلاته و مكانته فى نفوس الأمة،فهو يخشى من نهضة تطيح بعرشه،و لا تكون إلا على يد الإمام.

1- (1) سبائک الذهب فى معرفة قبائل العرب لأبى الفوز البغدادى.

2- (2) الخطيب البغدادى،تاريخ بغداد 257/13. [1]

3- (3) نفس المصدر 26/13. [2]

و يمكننا القول بأن المهدى فرض عليه الإقامة الجبرية فى بغداد،و هيأ له مكانا يسكن فيه،كما يدل عليه قوله للربيع:و ردّه إلى أهله فى المدينة.إذ لو اقتصر على قوله:إلى أهله.فالمتبادر إلى محله المعدّ له فى بغداد.فأكد عليه بقوله:أن ردّه إلى المدينة.فأسرع الربيع تجهيزه بسرعة خشية تبدّل الأمر،و يندم المهدى إلى إطلاقه.

و أقام صلوات اللّه عليه بالمدينة مدة أيام المهدى،و لما ولىّ موسى الهادى فكانت واقعة فخ المروعة و قتل الحسين بن على صاحب فخ،و حمل رأسه و الأسرى من أصحابه إلى موسى الهادى،و أمر برجل من الأسرى،فوبخه ثم قتله،ثم صنع ذلک بجماعة من الطالبيين،و جعل ينال منهم،إلى أن ذكر موسى بن جعفر عليه السّلام و قال:و اللّه ما خرج حسينى إلا من أمره،و لا اتّبع إلا محبّته،لأنه صاحب الوصية فى أهل هذا البيت،قتلنى اللّه إن أبقيت عليه.

فقال له أبو يوسف القاضى:يا أمير المؤمنين أقول أم أسكت؟ فقال موسى:قتلنى اللّه إن عفوت عن موسى بن جعفر،و لو لا ما سمعت من المهدى فيما أخبر به المنصور ما كان به جعفر من الفضل عن أهله فى دينه و علمه و فضله،و ما بلغنى عن السفّاح فيه من تقريضه و تفضيله لنبشت قبره.

فقال أبو يوسف:نساؤه طوالق،و عتق جميع ما يملک من الرقيق،و تصدّق بجميع ما يملک من المال،و حبس دوابه،و عليه المشى إلى بيت اللّه الحرام إن كان مذهب موسى الخروج،و لا يذهب إليه و لا مذهب أحد من ولده،و لا ينبغى أن يكون هذا منهم.

و لم يزل أبو يوسف يخاطب الهادى،و يخفّف حدّة غضبه بكلام رقيق،حتى سكن غضبه.

و كتب على بن يقطين (1)إلى أبى الحسن موسى بن جعفر عليه السّلام فلما وصل

1- (1) من أكبر أصحاب الإمام الكاظم و أعظمهم منزلة،و كان أبوه من وجوه الدعوة إلى الرضا من آل محمد،فطلبه مروان،فهرب.و لما قامت دولة بنى العباس عمل يقطين مع السفاح و المنصور، و كان شيعيا يقول بالإمامة،و يحمل الأموال إلى الإمام الصادق،و [1]كان على من كبار رجال دولة بنى العباس فى عهد هارون الرشيد.و لما توفى صلى عليه ولى العهد محمد.له كتب منها:ما سئل عنه الصادق من الملاحم،و كتاب مناظرة الشاک بحضرته،و له مسائل عن الإمام الكاظم.ولد رحمه اللّه فى الكوفة سنة 124 ه و توفى فى بغداد سنة 182 ه.

الخبر أخبر عليه السّلام أهل بيته و شيعته، و قال لهم:«ما تشيرون فی هذا؟»فأشاروا عليه بأن يتوارى و يباعد بشخصه عن الطاغية.

فتبسم عليه السّلام ثم تمثّل ببيت كعب بن مالک أخو بنی سلمة:

زعمت سخينة أن ستغلب ربّها فليغلبنّ مغلّب الغلاّب

ثم أقبل على من حضر من مواليه، و أهل بيته و قال:«ليفرخ روعكم، إنه لا يرد أول كتاب من العراق إلا بموت موسى الهادی و هلاكه».

فقالوا:و ما ذاک أصلحک اللّه؟ثم أخبرهم بأنه رأى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فی المنام و شكى إليه موسى بن المهدی.و ما جرى منه فی أهل بيته.فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم «لتطب نفسک يا موسى، فاجعل اللّه لموسى عليک سبيلا»ثم قال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«قد أهلک اللّه آنفا عدوک، فلتحسن للّه شكرک».

و فی رواية الحافظ ابن شهرآشوب أنه عليه السّلام تمثّل بقول الشاعر:

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعا أبشر بطول سلامة يا مربع

ثم رفع رأسه إلى السماء و قال:

«إلهی كم من عدو شحذ لی ظبة مديته، و أرهف لی شبا حدّه، و داف لی غوائل سمومه، و لم تنم عنّی عين حراسته، فلما رأيت ضعفی من احتمال الفوادح، و عجزی عن ملمّات الجوائح، صرفت ذلک عنّی بحولک و قوتک، لا بحولی و قوتی...»إلى آخر الدعاء.

ثم أقبل على أصحابه فقال لهم:«إنه لا يأتی أول كتاب من العراق إلا بموت موسى بن المهدی».ثم تفرّق القوم، فما اجتمعوا إلا لقراءة الكتب الواردة بموت موسى بن المهدی، و فی ذلک يقول شاعر أهل البيت فی وصف سرعة استجابة الدعاء:

و سارية لم تسر فی الأرض تبتغی محلا و لم يقطع بها البعد قاطع

سرت حيث لم تحد الركاب و لم تنخ لورد و لم يقصد بها البعد مانع

تمرّ وراء الليل و الليل ضارب بجثمانه فيه سمير و هاجع

تفتح أبواب السماوات دونها إذا قرع الأبواب منهنّ قارع

إذا وفدت لم يردد اللّه وفدها على أهلها و اللّه راء و سامع

و إنى لأرجو اللّه حتى كأنما أرى بجميل الظنّ ما اللّه صانع

و كـان الإمـام من جرّاء حب النـاس له و تقديسـهم إياه يرجو أن لا يظنّ به فوق مرتبته الدينيـة و مهمات إمامته،و يبعـد بالناس عن أسـباب الغلوّ،سأله أحدهم:

إنى رأيت الليلة فى منامى أنى سألتک کم بقى من عمرى،فرفعت يدک اليمنى و فتحت أصابعها فى وجهى مشيرا إلىّ،فلم أعلم خمس سنين أم خمسة أشـهر أم خمسة أيام؟فقال عليه السّـلام:«و لا واحدة منهن،بل ذاک إشارة إلى الغيوب الخمسة التى استأثر اللّه تعالى بها فى قوله: إِنَّ اللّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السّاعَةِ ...»

من حكمه و مواعظه

:

«إياک أن تمنع فى طاعة اللّه،فتنفق مثليه فى معصية اللّه».

و قال له وكيله: ما خنتک.فقال:«خيانتک و تضييعک علىّ ما لى سواء، و الخيانة أشرّهما عليک».

و قال عليه السّلام:«ليس حسن الجوار كفّ الأذى،و لكن حسن الجوار الصبر على الأذى».

و قال عليه السّلام:«لا تذهب الحشمة بينک و بين أخيک،و أبق منها،فإن ذهابها ذهاب الحياء».

و قال عليه السّـلام لبعض ولده:«يا بنى إياک أن يراک اللّه فى معصية نهاک عنها،و إياک أن يفقدک اللّه عند طاعة أمرک بها،و عليک بالجدّ و لاـ تخرجنّ نفسـک من التقصـير فى عبـادة اللّه و طـاعته،فـإن اللّه لا يعبـد حق عبادته.و إياک و المزاح فإنه يـذهب بنور إيمانک و يسـحن مروّتک.و إياک و الضجر و الكسل فإنهما يمنعان حظک من الدنيا و الآخرة».

و قال عليه السّلام:«إذا كان الجور أغلب من الحق،لم يحلّ لأحد أن يظن بأحد خيرا حتى يعرف ذلک منه».

و قال لعلى بن يقطين:«كفّارة عمل السلطان الإحسان إلى الإخوان».

و قال عليه السّلام:«كلما أحدث الناس من الذنوب ما لم يكونوا يعملون،أحدث اللّه لهم من البلاء ما لم يكونوا يعدّون».

و قال عليه السّلام:«إذا كان الإمام عادلا كان له الأجر و عليک الشكر،و إذا كان جائرا كان عليه الوزر و عليک الصبر».

«إن صلاحكم من صلاح سلطانكم،فإن السلطان العادل بمنزلة الوالد الرحيم، فأحبّوا له ما تحبّون لأنفسكم،و أكرهوا له ما تكرهون لأنفسكم».

و قال عليه السّلام:«أخذ أبى بيدى و قال:إن أبى محمد بن على أخذ بيدى و قال:

إن أبى على بن الحسين أخذ بيدى و قال:يا بنى افعل الخير إلى كل من طلبه منك، فإن كان من أهله فقد أصبت موضعه.و إن لم يكن له بأهل فكن أنت من أهله،و إن شتمك رجل عن يمينك،ثم تحول إلى يسارك و اعتذر إليك؛فاقبل منه».

«إن أهل الأرض لمرحومون ما تحابّوا و أدّوا الأمانة و عملوا بالحق».

«لا تضيّع حق أخيك اتكالا على ما بينك و بينه،فإنه ليس بأخ من ضيّعت حقّه، و لا يكونن أخوك أقوى على قطيعتك منك على صلته».

«من طلب هذا الرزق من حلّه ليعود به على نفسه و عياله،كان كالمجاهد فى سبيل اللّه،فإن غلب عليه فليستدن على اللّه و على رسوله،فإن مات و لم يقضه كان على الإمام قضاؤه،فإن لم يقضه كان عليه وزره،إن اللّه عز و جل يقول: إِنَّمَا الصَّدَقاتُ لِلْفُقَراءِ وَ الْمَساكِينِ وَ الْعامِلِينَ ...الخ و هذا فقير مسكين مغرم».

«الناس أشكال،و كلّ يعمل على شاكلته،و الناس إخوان فمن كانت أخوته فى غير ذات اللّه فإنها تعود عداوة،و ذلک قوله تعالى: اَلْأَخِلاّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ ».

«من استحسن قبيحا كان شريكا فيه».

«كفر النعمة داعية المقت،و من جازاک بالشكر فقد أعطاک أكثر مما أخذ منک».

«لا تضمر نفسک الظنّ على صديق قد أصلحک اليقين له،و من وعظ أخاه سرا فقد زانه،و من وعظه علانية فقد شانه».

«لا يزال العقل و الحمق يتغالبان على الرجل إلى أن يبلغ ثمانى عشرة سنة،فإذا بلغها غلب عليه أكثرها فيه».

«و ما أنعم اللّه عز و جل على عبد نعمة،فعلم أنها من اللّه،ألاّ كتب اللّه على اسمه شكرها له قبل أن يحمده عليها».

«الشريف كل الشريف من شرّفه علمه،و السؤدد كل السؤدد لمن اتقى ربه».

«لا تعاجلوا الأمر قبل بلوغه فتندموا،و لا يطولنّ عليكم الأمل فتقسو قلوبكم، و ارحموا ضعفائكم،و اطلبوا الرحمة من اللّه بالرحمة منكم».

«من أمّل فاجرا،كان أدنى عقوبته الحرمان».

«موت الإنسان بالذنوب أكبر من موته بالأجل».

«لو كانت السموات و الأرض رتقا على عبد،ثم اتقى اللّه يجعل اللّه له منهما فرجا».

«من وثق باللّه و توكّل على اللّه نجّاه اللّه من كل سوء و حرسه من كل عدو.

و الدين عزّ،و العلم كنز،و الصمت نور،و غاية الزهد الورع،و لا هدم للدين مثل البدع،و لا أفسد للرجال من الطمع.و بالراعى تصلح الرعية،و بالدعاء تصرف البلية.

و من ركب مركب الصبر اهتدى إلى مضمار النصر.و من غرس أشجار التقى اجتنى ثمار المنى».

و قال عليه السّلام لبشر بن سعد:«يا بشر،للمحن أخريات،فيجب على العاقل أن ينام لها إلى إدبارها،فإن مكابدتها بالحيل عند إقبالها زيادة فيها» (1).

«كيف يضيع من اللّه كافله،و كيف ينجو من اللّه طالبه».

«إن للّه عبادا يخصّهم بدوام النعم،فلا تزال فيهم ما بذلوها؛فإن منعوها نزعها اللّه عنهم و حولها إلى غيرهم».

«ما عظمت نعمة اللّه على أحد إلا عظمت إليه حوائج الناس،فمن لم يتحمل تلك المئونة عرّض تلك النعمة للزوال.أهل المعروف إلى ما يصطنعون أحوج من أهل الحاجة إليه،لأن لهم أجره و فخره و ذكره،فمهما اصطنع الرجل من معروف فإنما يبتدئ فيه نفسه».

«من أجلّ إنسانا هابه،و من جهل شيئا عابه،و الفرصة خلسة».

«من استغنى باللّه افتقر الناس إليه،و من اتقى اللّه أحبه الناس».

«الجمال فى اللسان،و الكمال فى العقل».

1- (1) الشبلخى 164.

«العفاف زينـة الفقر،و الشـكر زينة البلاء،و التواضع زينة الحسب،و الفصاحة زينة الكلام،و الحفظ زينة الرواية،و حفظ الجناح زينة العلم،و حسن الأدب زينة الورع،و بسط الوجه زينة القناعة».

«حسب المرء من كمـال المروة أن لا ـ يلقى أحـدا بمـا يكره،و من حسن خلق الرجل كفّه أذاه،و من سـيمائه برّه بمن يجب حقّه عليه،و من إنصافه قبول الحق إذا بان له،و من نصحه نهيه عمّا لا يرضاه لنفسه،و من حفظه لجواره،تركه توبيخه،و من رفقه تركه عذلک بحضرة من تكره،و من حسن صـحبته لک إسـقاطه عنک مؤونـة التحفّظ،و من علامة صداقته كثرة موافقته و قلة مخالفته،و من شـكره معرفة إحسان من أحسـن إليه،و من تواضعه معرفته بقدره،و من سلامته قلّة حفظه لعيوب غيره و عنايته بصلاح عيوبه».

«من أخطأ وجوه المطالب خذلته الحيل،و الطامع فى وثاق الذل».

«العلماء غرباء لكثرة الجهال بينهم».

«الصبر على المصيبة مصيبة على الشامت».

«ثلاث يبلغن بالعبد رضوان اللّه كثرة الاستغفار،و لين الجانب،و كثرة الصدقة».

«ثلاث من كنّ فيه لم يندم:ترک العجلة،و المشورة،و التوكل على اللّه عند العزم».

«لو سكت الجاهل ما اختلف الناس».

«مقتل الرجل بين فكّيه،و الرأى مع الأناة،و بئس الظهر الرأى الفطير».

«ثلاث خصال تجتلب بهنّ المودّة:و الإنصاف فى المعاشرة،و المواساة فى الشدّة،و الانطواء على قلب سليم».

و قال عليه السّ ـلام لهشام:«من أراد الغنى بلا مال،و راحة القلب من الحسد، و السلامة فى الدين؛فليتضرّع إلى اللّه عز و جل فى مسألته بأن يكمل عقله.فمن عقل قنع بما يكفيه،و من قنع بما يكفيه استغنى،و من لم يقنع بما يكفيه لم يدرک الغنى».

أولاده:

أنجب الإمام موسى بن جعفر عدة أولاد ذكورا و إناثا،و كانوا مثالا للفضل و صورة صادقة للخلق الإسلامى الكامل،يقول الشيخ الطوسى:إن لكل واحد من أولاد أبى الحسن موسى فضلا و منقبة مشهورة.

و قـد وقع اختلاف فى تحديد عدد تلك الذرية الطيبة،فمن قائل أنهم ثلاث و ثلاثون الذكور منهم،و الإناث سـتة عشـر.و قيل:الذكور 37 و الإناث 19.أو أن الذكور 38 و الإناث 18.و المشهور أن ذريته عليه السّلام سبعة و ثلاثون ولدا ذكرا و أنثى.

أما الـذكور فهم:إبراهيم و العباس و القاسم،لأمهات أولاد،و إسـماعيل و جعفر، و هارون و الحسن لأم ولـد،و أحمـد و محمد و حمزة لأم ولد،و عبد اللّه و إسحاق و عبيد اللّه و زيد و الحسن و الفضل و سليمان لأمهات أولاد.

أما البنات فهن:فاطمة الكبرى،و فاطمة الصـغرى،و كلثم،و أم جعفر،و لبابة، و زينب،و خديجة،و عليّة،و آمنة،و حسنة،و بويهة،و عائشة،و أم سلمة،و ميمونة، و أم كلثم.

هكذا ذكرهم الشيخ المفيد عليه الرحمة.و قال ابن الخشّاب:ولد له عشرون ولدا ذكرا و ثمانية عشر بنتا.

و عدّهم فى صحاح الأخبار سبعة و ثلاثين ولدا بين ذكر و أنثى،ثم ذكرهم مع اختلاف بسيط بين ما ذكرهم و بين ما قدمناه.

و قد اختلفوا فيمن أعقب من أولاده عليه السّلام و قد اتفقوا على أن عقبه من عشرة من أولاده،و قيل أربعة عشر.

الإسماعيلية و الإمامة

اشارة

مرت الإمامة فی عهد أبی جعفر المنصور بأدوار غاية فی الصعوبة-كما رأينا- و قد تمكن الإمام الصادق عليه السّلام أن يجتاز دوائر الهلاک التی وضعها الحاكم الظالم و أن يجنّب أصحابه و شيعته ابتلاءات الحديد،و أن لا يعضّ هم سيف الحكام قدر الإمكان، و قد علم الإمام الصادق-بما وهبه اللّه من حكمة و معرفة بالأحوال-إن غدر المنصور لن ينتهی،و أنه يتربّص الفرص للانتقام من أهل بيت النبوة،فكان تدبيره الوصية بالشكل الذی يفوّت علی المنصور الفرصة،فلما توفی الإمام الصادق عليه السّلام و بلغ المنصور الخبر،كتب:إن كان أوصی الإمام الصادق إلی رجل بعينه يقدّم و يضرب عنقه.فرجع إليه الجواب أنه أوصی إلی خمسة نفر أحدهم أبو جعفر المنصور و محمد بن سليمان و عبد اللّه و موسی و حميدة.و فی رواية أخری:إن الإمام الصادق عليه السّلام أوصی إلی أبی جعفر المنصور و موسی و محمد بن جعفر أولاده،و مولی لأبی عبد اللّه عليه السّلام.

فقال أبو جعفر المنصور:ليس إلی قتل هؤلاء سبيل (1).

و سنری أن أمر الوصية و تدبيرها علی هذا الشكل قد مرّ بمرحلتين:

الأولی:الإعداد للوصاية و التهيؤ للإمامة،و إظهار ابنه موسی فی منزلتهما لدی شيعة أهل البيت،حتی إذا وضح فی أذهان الناس النص و استقروا علی الأمر،أتبعه الإمام الصادق بالتدبير التالی و المرحلة الثانية:التی قصد بها كفّ الأذی عن وصيّه و إمام الناس من بعده،و هو تدبير أحبط مسعی عدوّهم،و أسقط فی يده.و لو لا هذا التدبير الذی أراده اللّه،لنفّذ الدوانيقی ما كان يتمنّاه،فكان الرشيد من تولی الجريمة، و لكن بعد أن قام الإمام الكاظم بالتبليغ،و نفذ الرسالة و الأحكام،و هكذا الحكام من

1- (1) الغيبة للشيخ الطوسی.و منهج الدعوات للسيد ابن طاوس.

الأمويين و العباسيين يتوارث الخلف عن السلف مهمة قتل أبناء النبوة و إنزال المصائب بأهل البيت الكرام.

روى ابن شهرآشوب فى المناقب عن داود بن كثير الرقى قال:أتى أعرابى إلى أبى حمزة الثمالى فسأله خبرا فقال:توفى جعفر الصادق،فشهق شهقة و أغمى عليه.

فلما أفاق قال:هل أوصى إلى أحد؟قال:نعم،أوصى إلى ابنه عبد اللّه و موسى و أبى جعفر المنصور.فضحک أبو حمزة و قال:الحمد للّه الذى هدانا إلى الهدى، و بيّن لنا عن الكبير،و دل على الصغير،و أخفى عن أمر عظيم.فسئل عن قوله؟ فقال:بيّن عيوب الكبير،و دل على الصغير لإضافته إياه،و كتم الأمر بالوصية للمنصور،لأنه لو سأل المنصور عن الوصى.لقيل:أنت (1).

و يورد الشيخ المفيد أمر الوصية مورد الدلالة على النص بالوصية للإمام موسى بن جعفر،و ينفى-رحمه اللّه-ذكر الإمام الصادق لأحد من أولاده مع ولده موسى،و يقول:

و قد تظاهر الخبر فيما كان عن تدبير أبى عبد اللّه جعفر بن محمد عليه السّلام و حراسة ابنه موسى بن جعفر عليه السّلام بعد وفاته من ضرر يلحقه بوصيته إليه،و أشاع الخبر عن الشيعة إذ ذاک باعتقاد إمامته من بعده،و الاعتماد على حجتهم،لذلک على إفراده بوصية مع نصه عليه بنقل خواصه،فعدل عن إفراده بالوصية عند وفاته،و جعلها إلى خمسة نفر أولهم المنصور،و قدّمه على جماعتهم،إذ هو سلطان الوقت و مدبر أهله،ثم صاحبه الربيع من بعده،ثم قاضى وقته،ثم جاريته و أم ولده حميدة البربرية،و ختمهم بذكر ابنه موسى بن جعفر عليه السّلام يستر أمره و يحرس بذلک نفسه، و لم يذكر مع ولده أحدا من أولاده لعلمه بأن منهم من يدّعى مقامه من بعده،و يتعلق بإدخاله فى وصيته،و لو لم يكن موسى عليه السّلام ظاهرا مشهورا فى أولاده،معروف المكان منه و صحة نسبه و اشتهار فضله و علمه و حكمته و امتثاله و كماله،بل كان مثل ستر الحسن عليه السّلام ولده لما ذكره فى وصيته،و لاقتصر على ذكر غيره ممن سميناه، لكنه ختمهم فى الذكر به كما بيناه (2).

1- (1) أعيان الشيعة للسيد العاملى ج 4 ص 226. [1]

2- (2) الفصول العشرة فى الغيبة للشيخ المفيد.

و يتجه القول إذا علمنا أن عبـد اللّه كان يظهر المخالفـة لأبيه الإمام الصادق، روى الفضل عن طاهر بن محمد عن أبى عبد اللّه عليه السّـلام قـال:رأيته يلوم عبـد اللّه ابنه و يعظه و يقول له:«ما يمنعک أن تکون مثل أخيک،فو اللّه إنى لأعرف النور فى وجهه؟»فقال عبـد اللّه:و کيف أ ليس أبى و أبوه واحدا،و أصلى و أصله واحدا؟فقال له أبو عبد اللّه عليه السّلام:«إنه من نفسى،و أنت ابنى» (1).

و إن عبد اللّه أفطح الرجلين،ناقص التکوين.يروى الشـيخ المفيد أن جماعة من أصـحاب الإمام الصادق کانوا فى المدينة،فسألوا عبد اللّه-و قـد اجتمع عليه من ظن بإمـامته بعـد أبيه-فسـألوه عن الزکاة فى کم تجب؟فقال فى کل مائتى درهم خمسـة دراهم،فقالوا له:ففى مائـة؟قال درهمان و نصف،فقالوا:و اللّه ما تقول المرجئة هذا.فقال:و اللّه ما أدرى ما تقول المرجئة.

و يتبين بـذلک جهل عبـد اللّه بأحکام الشـريعة،و عدم أهليته لاحتلال مکان أبيه، و قد وشّـحت أنوار الإمامة وجه أخيه موسـى منذ کان فى المهـد،فکـان الإمـام الصـادق يقف على رأسه و هو فى المهـد و يسـارّه طويلا-و روى الوشاء عن على بن الحسـين، عن صـفوان الجمّال قال:سألت أبا عبد اللّه عليه السّلام عن صاحب هذا الأمر؟فقال:

«إن صاحب هـذا الأمر لا يلهو و لا يلعب»فأقبل أبو الحسن عليه السّـلام و هو صـغير و معه بهمـة(ولد البقر أو المعز أو الضأن)و هو يقول لها:«اسجدى لربک»فأخذه أبو عبد اللّه عليه السّلام و ضمّه إليه و قال:«بأبى و أمى من لا يلهو و لا يلعب» (2).

و کـان الإمـام الصادق يميّزه عن أولاده،و يفضّـله عليهم و يقول:«هؤلاء أولادى، و هـذا سـيدهم» (3).و لشـدّة حب الإمام الصادق عليه السّلام له قيل له:ما بلغ من حبک لموسى؟قال عليه السّلام:«وددت أن ليس لى ولد غيره،لئلا يشرکه فى حبى أحد» (4).

و روى محمد بن الوليد قال:سـمعت على بن جعفر بن محمد الصادق عليهما السّلام يقول:سمعت أبا جعفر بن محمد عليهما السّلام يقول لجماعة من خاصته و أصحابه:

«استوصوا بابنى موسى عليه السّلام خيرا،فإنه أفضل ولدى،و من أخلف من بعدى،و هو القائم مقامى،و الحجة للّه تعالى على کافة خلقه من بعدى».

1- (1) الإرشاد ص 271. [1]

2- (2) الإرشاد. [2]

3- (3) ينابيع المودة للقندوزى الحنفى.

4- (4) الإتحاف [3]للشبراوى الشافعى.

و قد ذكر الشيخ المفيد جماعة ممن رووا صريح النص بالإمامة من أبى عبد اللّه عليه السّلام على ابنه أبى الحسن موسى عليه السّلام من شيوخ أصحاب الإمام الصادق و خاصته و ثقاته الفقهاء الصالحين رحمة اللّه عليهم، منهم:المفضل بن عمر الجعفى، و معاذ بن كثير، و عبد الرحمن بن الحجّاج، و الفيض بن المختار، و يعقوب السرّاج، و سليمان بن خالد، و صفوان الجمّال و غيرهم ممن يطول ذكرهم.

و قد روى ذلک من أخوى الإمام الكاظم:إسحاق و على.و كانا من الفضل و الورع على ما لا يختلف فيه اثنان.

فروى عن المفضل بن عمر الجعفى رحمه اللّه قال:كنت عند أبى عبد اللّه عليه السّلام فدخل أبو إبراهيم موسى عليه السّلام-و هو غلام- فقال لى أبو عبد اللّه عليه السّلام:«استوص به، وضع أمره عند من تثق من أصحابک».

و روى عن معاذ بن كثير عن أبى عبد اللّه عليه السّلام قلت:أسأل اللّه الذى رزق أباک منک هذه المنزلة أن يرزقک من عقبک قبل الممات مثلها، فقال:«قد فعل اللّه ذلک»قلت:من هو جعلت فداک؟فأشار إلى العبد الصالح و هو راقد فقال:«هذا الراقد»و هو يومئذ غلام.

و عن عبد الرحمن بن الحجّاج قال:دخلت على جعفر بن محمد عليهما السّلام فى منزله، فإذا هو فى بيت كذا من داره، فى مسجد له و هو يدعو، و على يمينه موسى بن جعفر عليهما السّلام يؤمّن على دعائه.فقلت له:جعلنى اللّه فداک، قد عرفت انقطاعى إليک و خدمتى لک، فمن ولىّ الأمر بعدک؟قال:«يا عبد الرحمن، إن موسى قد لبس الدرع و استوت عليه»فقلت له:لا أحتاج بعد هذا إلى شىء.

و عن الفيض بن المختار قال:قلت لأبى عبد اللّه عليه السّلام:خذ بيدى من النار، من لنا بعدک؟قال:فدخل أبو إبراهيم و هو يومئذ غلام.فقال:«هذا صاحبكم فتمسّک به».

و عن منصور بن حازم قال:قلت لأبى عبد اللّه عليه السّلام:بأبى أنت و أمى، إن الأنفس يغدا عليها و يراح، فإذا كان ذلک فمن؟فقال أبو عبد اللّه عليه السّلام:«إذا كان ذلک فهو صاحبكم»و ضرب على منكب أبى الحسن الأيمن، و هو فيما أعلم يومئذ خماسى.

و صفوة القول:أن الروايات تتعاضد فی إثبات النزعات إلی الإمامة من بین أولاد الإمام الصادق،و هو أمر توهّموه بالعاطفة و تمنّوه،لأن الإمامة تجری بدلائل و تتم بشروط،فیهتدی بیسر إلی صاحبها،و تصرح السجایا و الأعمال باکتمال الشروط،و هو أمر معلوم أصحابه فی عدد معین و شخوص مثبتین،و قد مرّ بنا کیف کانت علامات الإمامة و أمارات الانتساب إلی البیت النبوی فی جواب الإمام الکاظم إلی أبی حنیفة.

فذاع عن أصحاب الإمام الصادق یومئذ ما کان الإمام یقوم به فی رعایة وصیّة الإمام موسی،و انتشر ما کان یوصیه به.منها:«یا بنی اقبل وصیتی،و احفظ مقالتی، فإنک إن حفظتها تعش سعیدا و تمت حمیدا،یا بنی إنه من قنع بما قسم اللّه استغنی و من مدّ عینه إلی ما فی ید غیره مات فقیرا،و من لم یرض بما قسم اللّه عز و جل له اتهم اللّه فی قضائه،و من استصغر زلة نفسه استعظم زلة غیره،و من استصغر زلة غیره استعظم زلة نفسه.یا بنی من کشف حجاب غیره انکشفت عورات بیته،و من سلّ سیف البغی قتل به،و من احتفر لأخیه بئرا سقط فیها،و من خالط السفهاء حقّر،و من خالط العلماء وقّر،و من دخل مداخل السوءاتهم.یا بنی قل الحق لک و علیک، و إیاک و النمیمة فإنها تزرع الشحناء فی قلوب الرجال،یا بنی إذا طلبت الجود فعلیک بمعادنه (1).

و معلوم أن العصر الذی خضنا فی بحثه هو من أخطر العصور السیاسیة و أشدها علی شیعة أهل بیت النبی و أئمتهم المعصومین علیهم السّلام و قد کانت الوصیة بالشکل الذی ارتاه من التدبیر للإبقاء علی حیاة وصیّه و حمایته من ظلم المنصور و حقده.

فتولی الإمام الکاظم أعباء الإمامة و هو یعلم ما علیه المنصور من ظلم و اعتداء، فحرص علی أن لا یذاع أمره و لا تنتشر أجوبته و مسائله،فقد کان یقول لمن یجیبه:

«فإذا أذعت فهو الذبح».

و لکن من خلف المنصور کان أعتی و أعدی،و قد رأینا ما ذا کان علیه المهدی،بعد أن أخذ الإمام الکاظم فی المدینة یحتل مکانته و یقوم باستقبال الوفود و الطلاب من کافة الأقطار.ثم جاءت فترة حکم الرشید،و بدأ وجود الإمام الکاظم یقضّ مضجع الرشید

1- (1) صفة الصفوة ج 2 ص 95 و 96. [1]

العباسی،و علی عادتهم إذ کانوا یتخذون الحج ذریعة للوصول إلی مواقع الأئمة من أهل البیت،فحج مرة و اجتمع بالإمام الکاظم عند الکعبة،و قال له الرشید:أنت الذی یبایعک الناس سرّا؟فقال الإمام علیه السّلام:«أنا إمام القلوب،و أنت إمام الجسوم» (1).

و لا یدع الإمام لهارون الرشید فرصة یفتخر بها علی المسلمین بالانتساب إلی النبی محمد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و لا یترکه یتمتع و یدلّ بشرف القرابة التی یستعملها لظلمه،فلمّا حج هارون الرشید مرة،فأتی قبر النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم زائرا له،و حوله قریش و أفیاء القبائل،و معه الإمام موسی الکاظم،فلما انتهی إلی القبر قال الرشید:السّلام علیک یا رسول اللّه یا ابن عمی.افتخارا علی من حوله،فدنا الإمام موسی بن جعفر فقال:«السّلام علیک یا أبة»فتغیّر وجه هارون و قال:هذا الفخر یا أبا الحسن حقا (2).و فی بعض الروایات أن الإمام الکاظم أجابه:«و علیک السّلام یا عبد اللّه»فلم یحتملها الرشید (3).

و لمّا قرب الرشید من المدینة،استقبله الوجوه من أهلها،و تقدمهم الإمام الکاظم علی بغلة،فقال له الربیع:ما هذه الدابة التی تلقیت علیها أمیر المؤمنین، و أنت إن طلبت علیها لم تدرک،و إن طلبت لم تفت؟فقال:«إنها تطأطأت عن خیلاء الخیل،و ارتفعت عن ذلّة العیر،و خیر الأمور أوساطها» (4).

و لم یکن الإمام الکاظم لیخشی الرشید فی أمر هو فیه الحکم و إلیه المفزع،فهو صاحب السلطة الروحیة،و إلیه أمر الشریعة،فسأله محمد بن الحسن یوما-بمحضر الرشید و هو بمکة-فقال:یجوز للمحرم أن یضلل محمله؟فقال الإمام:«لا یجوز له ذلک مع الاختیار»فقال محمد بن الحسن:أ فیجوز له أن یمشی تحت الضلال؟فقال له:«نعم»فتضاحک محمد بن الحسن من ذلک.فقال له الإمام علیه السّلام:«أ تعجب من سنّة النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و تستهزئ به،إن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کشف ظلاله فی إحرامه،و مشی تحت الظلال و هو محرم،إن أحکام اللّه لا تقاس،فمن قاس بعضها علی بعض فقد ضلّ عن سواء السبیل»فسکت محمد بن الحسن لا یرجع جوابا.

1- (1) الإتحاف ص 55. [1]

2- (2) تاریخ بغداد ج 13 ص 31.و [2]تذکرة الخواص لسبط ابن الجوزی ص 259.و تاریخ ابن کثیر ج 10 ص 183.

3- (3) الإتحاف ص 55. [3]

4- (4) روضة الواعظین. [4]

و تبين الأحاديث و الأسئلة التى دارت بين الرشيد و بين الإمام الكاظم طوايا نفس الرشيد،و ما ضمّت جوانحه من غيض على الكاظم لتمتّعه بمنزلة الإمامة و برتبة الولاية الشرعية التى تنقاد لها القلوب،حتى كان لا يملك إخفاء ذلک،و يقول لبنيه فى حق الإمام موسى الكاظم:(هذا إمام الناس،و حجة اللّه على خلقه،و خليفته على عباده.

أنا إمام الجماعة فى الظاهر و الغلبة و القهر،و اللّه إنه لأحق بمقام رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم منّى و من الخلق).

و كان المأمون فى خلافته يقول:كان الرشيد سمع جميع ما يجرى بيننا(بينه و بين أخيه الأمين)من موسى بن جعفر و لذلک قال ما قال (1).و تصديقا منه لما قاله الإمام الكاظم له من أنه إمام القلوب و الرشيد إمام الجسوم.و يظل الرشيد على ما تقتضيه سلامة الملک و دوام الحكم باحثا عن ألوان من الإساءة فى الألفاظ و التصرف، و ساعيا إلى النيل من المنزلة و الرتبة التى حبا اللّه بهما الإمام الكاظم،فيسأل الرشيد الإمام الكاظم:أخبرنى لم فضّلتم علينا و نحن و أنتم من شجرة واحدة،و بنو عبد المطلب و نحن و أنتم واحد،إنّا بنو عباس،و أنتم ولد أبى طالب،و هما عمّا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و قرابتهما منه سواء؟ فقال الإمام:«نحن أقرب»قال:و كيف ذاک؟قال الإمام:«لأن عبد اللّه و أبا طالب لأب و أم،و أبوكم العباس ليس هو من أم عبد اللّه و لا من أم أبى طالب».

قال:فلم ادّعيتم أنكم ورثتم النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و العمّ يحجب ابن العم،و قبض رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و قد توفى أبو طالب قبله و العباس عمه حى؟فقال له:«إن رأى أمير المؤمنين أن يعفينى عن هذه المسألة،يسألنى عن كل باب سواه يريده».

فقال:لا،أ و تجيب.

فقال الإمام:«فأمّنى».

قال الرشيد:أمّنتک قبل الكلام.

فقال الإمام:إن فى قولک على بن أبى طالب عليه السّلام إنه ليس مع ولد الصلب ذكرا كان أو أنثى لأحد سهم إلا الأبوين و الزوج و الزوجة،و لم يثبت للعم مع ولد الصلب ميراث،و لم ينطق به الكتاب العزيز و السنة،إلاّ أن تيما و عديا و بنى أمية

1- (1) حياة الحيوان الكبرى للدميرى.

قالوا:العم والد.رأيا منهم بلا حقيقة،و لا أثر عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،و من قال بقول على من العلماء قضاياهم خلاف قضايا هؤلاء.هذا نوح بن دراج يقول فى هذه المسألة بقول على و قد حكم به»إلى أن قال عليه السّلام:«إن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال:أقضاكم على.و كذلک عمر بن الخطاب قال:على اقضانا.و هو اسم جامع،لأن جميع ما مدح به النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أصحابه من القرابة و الفرائض و العلم داخل فى القضاء».

قال الرشيد:زدنى يا موسى.

قال الإمام الكاظم:«المجالس بالأمانات،و خاصة مجلسک».

فقال:لا بأس به.

قال الإمام الكاظم:«إن النبى لم يورّث من لم يهاجر،و لا أثبت له ولاية حتى يهاجر».

فقال:ما حجتک فيه؟ قال الإمام:«قول اللّه تبارک و تعالى: وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يُهاجِرُوا ما لَكُمْ مِنْ وَلايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتّى يُهاجِرُوا و إن عمّى العباس لم يهاجر».

فقال له الرشيد:إنى أسألک يا موسى،هل أفتيت بذلک أحدا من أعدائنا أو أخبرت أحدا من الفقهاء فى هذه المسألة بشىء؟ فقال الإمام:«اللهم لا...»ا ه.

و نحو ذلک ما أثاره الرشيد التماسا للطعن و الإساءة لأن عامل القرابة من الرسول كان من أهم العوامل التى أقام عليها العباسيون صبغتهم الدينية و صفتهم الشرعية،إذ سأل الإمام الكاظم:جوّزتم للعامة و الخاصة أن ينسبوكم إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و يقولوا لكم:يا بنى رسول اللّه،و أنتم بنو على.و إنما ينسب المرء إلى أبيه،و فاطمة إنما هى وعاء.و النبى جدّكم من قبل أمكم؟ فقال:«يا أمير المؤمنين.لو أن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم نشر فخطب إليک كريمتک،هل كنت تجيبه؟».

قال:سبحان اللّه!و لم لا أجيبه،بل افتخر على العرب و العجم و قريش بذلک.

فقال الإمام:«لكنه لا يخطب إلىّ و لا أزوجه».

فقال الرشيد:و لم؟ قال الإمام:«لأنه ولدنى و لم يلدک».

فقال:أحسنت يا موسى!ثم قال:كيف قلتم إنّا ذرية النبى و النبى لم يعقب، و إنما العقب الذكر لا الأنثى،و أنتم ولد الابنة،و لا يكون ولدها عقبا له..الخ حديثه.

فقال الإمام:«أعوذ باللّه من الشيطان الرجيم بسم اللّه الرحمن الرحيم وَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ داوُدَ وَ سُلَيْمانَ وَ أَيُّوبَ وَ يُوسُفَ وَ مُوسى وَ هارُونَ وَ كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ».

فقال:ليس لعيسى أب.

فقال الإمام:«إنما ألحقناه بذرارى الأنبياء عليهم السّلام من طريق مريم عليها السّلام و كذلك ألحقنا بذرارى النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من قبل أمّنا فاطمة.أزيدك يا أمير المؤمنين؟».

قال:هات.

فقال الإمام:«أعوذ باللّه من الشيطان الرجيم فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ ما جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعالَوْا نَدْعُ أَبْناءَنا وَ أَبْناءَكُمْ وَ نِساءَنا وَ نِساءَكُمْ وَ أَنْفُسَنا وَ أَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللّهِ عَلَى الْكاذِبِينَ و لم يدّع أحد أنه أدخله النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم تحت الكساء عند مباهلة النصارى إلاّ على بن أبى طالب عليه السّلام و فاطمة و الحسن و الحسين،أبناءنا:الحسن و الحسين،و نساءنا:فاطمة،و أنفسنا:على بن أبى طالب عليه السّلام.على أن العلماء قد أجمعوا على أن جبرئيل قال يوم أحد:«يا محمد إن هذه لهى المواساة من على»قال:«لأنه منى و أنا منه»فقال جبرئيل:«و أنا منكما يا رسول اللّه».ثم قال:لا سيف إلا ذو الفقار و لا فتى إلا على،فكان كما مدح اللّه عز و جل به خليله عليه السّلام إذ يقول: قالُوا سَمِعْنا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقالُ لَهُ إِبْراهِيمُ إنا نفتخر بقول جبرائيل أنه منّا» (1).

و من جميع الروايات،تظهر لنا صورة الرشيد الحاكم الذى يعانى أشدّ المعاناة من الوجود الشخصى للإمام الكاظم،و يحتال بمختلف السبل للنيل منه أو الغضّ من المكانة الروحية التى يعجز هو-بحكمه و جبروته-عن تحقيق أربه و غرضه،و لم يظفر بشىء فى كل تلك المحاولات،فالنفوس تهفو إلى أهل البيت،و لا يزداد محبّوهم إلا منعة و تمسّكا.و الإمام الكاظم احتلّ منصب الإمامة،بالعهد،فكان أهلا لما قدّر له و ما جرى به سابق علم الرب تعالى،فأىّ وجه للمدافعة و المقارنة بين سلطة تقوم بأمر اللّه و هدى الإسلام،و بين حكم يقوم بالقهر و الغلبة.و قد اتفق المخالف و المؤالف على عظيم منزلة الإمام الكاظم.روى الخطيب البغدادى:كان موسى بن جعفر يدعى العبد الصالح من عبادته و اجتهاده.روى أصحابنا أنه دخل مسجد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم

1- (1) الاحتجاج للطبرسى ج 2 ص 163-165.و [1]عيون أخبار الرضا للصدوق.و نور الأبصار للشبلنجىّ.

فسجد سجدة فی أول اللیل،و سمع و هو یقول فی سجوده:«عظیم الذنب عندی، فلیحسن العفو عندک یا أهل التقوی یا أهل المغفرة»فجعل یرددها حتی أصبح.و کان یبلغه عن الرجل أنه یؤذیه،فیبعث إلیه بصرّة فیها ألف دینار،و کان یصرّ الصّرر ثلاثمائة دینار و أربعمائة دینار و مائتی دینار،ثم یقسّمها بالمدینة.و کان مثل صرر موسی بن جعفر إذا جاءت الإنسان الصرة فقد استغنی (1).

یقول الشبلخی:کان الإمام موسی الکاظم أعبد أهل زمانه و أعلمهم و أسخاهم کفا،و أکرمهم نفسا،و کان یتفقّد فقراء المدینة،فیحمل إلیهم الدراهم و الدنانیر إلی بیوتهم لیلا،و کذلک النفقات،و لا یعلمون من أی جهة وصلهم ذلک إلا بعد موته ا ه.

و لم یتمکن الرشید-بسلطانه الغاشم-من أن یحجب نور الإمام بحبسه الإمام الکاظم،بل کان المکلّفون به لا یملکون إلا تقدیسه و تبجیله،و من وراء القضبان کانت أخبار الإمام الکاظم أشدّ تأثیرا علی العباسیین.عن عمار بن أبان یروی الخطیب، قال:حبس أبو الحسن موسی بن جعفر عند السندی،فسألته أخته أن تتولی حبسه- و کانت تتدین-ففعل،فکانت تلی خدمته،فحکی لنا أنها قال:کان إذا صلی العتمة حمد اللّه و مجّده و دعاه،فلم یزل کذلک حتی یزول اللیل،فإذا زال،قام یصلی حتی یصلی الصبح،ثم یذکر قلیلا حتی تطلع الشمس،ثم یقعد إلی ارتفاع الضحی،ثم یتهیأ و یستاک و یأکل،ثم یرقد إلی قبل الزوال،ثم یتوضأ و یصلی حتی یصلی العصر، ثم یذکر فی القبلة حتی یصلی المغرب،ثم یصلی ما بین المغرب و العتمة،فکان هذا دأبه.فکانت أخت السندی إذا نظرت إلیه قالت:خاب قوم تعرّضوا لهذا الرجل،و کان عبدا صالحا...ا ه.و تروی له الکرامات و الفضائل فی السجون الأخری التی کان بها الإمام الکاظم،و قد رویت فی المصادر التی ذکرت سیرته علیه السّلام.

و کان الإمام الکاظم لا ینفکّ فی سجنه یصف الرشید بالطاغیة،و یحذر حاشیته مما ینتظرهم علی یدیه،و أبی أن یعطی الدنیة فی دینه فیقر للظلمة بسلطان أو یوافقهم علی ما یریدون،فکان الإمام الکاظم غمّا علی الرشید ینغّص علیه عیشه و ملذاته و لهوه،و قد حیّرت الرشید الدلائل و المعجزات التی ظهرت للإمام الکاظم،فاستعان یحیی بن خالد البرمکی و قال له:یا أبا علی أ ما تری ما نحن فیه من هذه العجائب، أ لا تدبّر فی أمر هذا الرجل تدبیرا یریحنا من غمه؟فقال له یحیی:الذی أراه لک یا

1- (1) تاریخ بغداد. [1]

أمير المؤمنين أن تمنن عليه و تصل رحمه،فقد و اللّه أفسد علينا قلوب شيعتنا.فقال هارون:انطلق إليه و أطلق عنه الحديد،و أبلغه عنّى السّلام،و قل له:يقول لک ابن عمک إنه قد سبق منّى فيک يمين أنى لا أخليک حتى تقرّ لى بالإساءة و تسألنى العفو عما سلف منک،و ليس عليک فى إقرارک عار و لا فى مسألتک إيای منقصة.و لما قام يحيى بالمهمة حذّره الإمام الكاظم مما ينتظره و قال له:«انظر إذا سار هذا الطاغية إلى الرقة و عاد إلى العراق لا ـ يراک و لا ـ تراه لنفسک،فإنى رأيت فى نجمک و نجم ولدک و نجمه أنه يأتى عليكم فاحذروه»ثم قال:«أبلغه عنى:يقول لک موسى بن جعفر، رسولى يأتيک الجمعة،فيخبرک بما ترى،و ستعلم غدا إذا حادثتک بين يدى اللّه من الظالم و المعتدى على صاحبه و السّلام» (1).

و بعث إليه الإمام عليه السّلام من الحبس رسالته التى يقول فيها:«إنه لن ينقضى عنى يوم من البلاء إلا انقضى عنک يوم من الرخاء،حتى نقضى جميعا إلى يوم ليس له انقضاء يخسر فيه المبطلون» (2).

و لقد كان من خوف الرشيد و فزعه من الإمام الكاظم أنه وضع العيون على الإمام الكاظم و هو فى سجنه،فكانوا يرفعون إلى الولاة و البلاط العباسى أحواله فى العبادة و أوضاعه فى الديانة،و كتب بعض العيون التى كانت عليه أنه سمعه عليه السّلام يقول فى دعائه:«اللهم إنک تعلم أنى كنت سألتک أن تفرّغنى لعبادتک،اللهم قد فعلت».

و بالجملة فإن الشيعة قد اتجهت إلى الإمام الكاظم و أخذت الوفود تفد على المدينة من الأقطار المختلفة للانتهال من علم الإمام و الاستفسار عن الأمور التى تهمّها،و تحصيل الإجابات المطلوبة،و قد كان أخبار الأموال التى تحمل إلى الإمام من أكبر الأمور التى جعلت الرشيد فى حال من الضيق و الرعب.و نظر إلى طبيعة العلاقة بين الإمام و بين شيعة أهل البيت نظرته إلى اعتبار الجباية و جمع الأموال أساس الملک،لأنها مصدر الإسراف و البذخ فى قصور العباسيين،و بها قوة الدولة،و حسب أن إقبال الناس على الإمام الكاظم،و أخبار جوده و سخائه بداية ثورة تقوّض ملكه و عرش آبائه.فكان يرى أن اختلاف الناس إلى إمامهم،و حملهم العبادات المالية المفروضة إلى جهتها الشرعية تمرّد عليه و حركة ضده،سيما و أن الإمام عليه السّلام كان

1- (1) انظر الغيبة للشيخ الطوسى ص 20. [1]

2- (2) صفة الصفوة لابن الجوزى.و [2]تاريخ بغداد. [3]

يشعر الرشيد بأن له فى السلطان الذى هو فيه رأى،فإضافة إلى بيانه عليه السّلام للرشيد بأن سلطة الرشيد هى على الجسوم،و أنه إمامها.بمعنى قائدها و سلطان زمانها، تنساق وراءه بحكم القوة و القهر،و أما سلطته عليه السّلام فهى منصوبة على الإيمان بالعقيدة و الاقتداء بهدى الرسالة المحمدية،فقد بيّن له الإمام عليه السّلام أن الدولة التى عليها ملكه و تخضع لحكمه هى بمنزلة ما يخص أهل البيت من الممتلكات،لمّا قال هارون للإمام الكاظم:خذ فدكا.و الإمام يمتنع،فلمّا ألح عليه قال:«ما آخذها إلا بحدودها»قال:و ما حدودها؟قال:«الحد الأول عدن»،فتغير وجه الرشيد قال:

و الحد الثانى؟قال:«سمرقند»فاربدّ وجهه،قال:و الحد الثالث؟قال:«إفريقية».

فاسودّ وجهه،قال:و الحد الرابع؟قال:«سيف البحر مما يلى الخزر و أرمينية».فقال هارون:فلم يبق لنا شىء فتحول فى مجلسى فقال الإمام:«قد أعلمتك أنى لو حددتها لم تردّها».فعند ذلك عزم الرشيد على قتله (1).

و يعمد الرشيد إلى انتهاك حرمة بيت من بيوت اللّه كان موضع عبادة الإمام موسى الكاظم و محل حلقته،فيأخذه من المسجد،و لما دخل به إليه،قيده فى تلك الساعة.و تدلنا طريقة ترحيله للإمام الكاظم على مدى خوفه من الناس و توقعه أن يثوروا به و لا يتركوا ابن بنت نبيهم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يرسف بقيود الرشيد.و لكى يعمّى أمره على الناس استدعى قبتين.فجعله فى إحداهما على بغل،و جعل القبة الأخرى على بغل آخر،و خرج البغلان من داره عليهما القبتان مستورتان،و مع كل واحدة منهما خيل.

فافترقت الخيل،فمضى بعضها مع إحدى القبتين على طريق البصرة،و الأخرى على طريق الكوفة،و كان الإمام فى القبة التى مضى بها على طريق البصرة،و أمر القوم الذين كانوا مع قبة الإمام بأن يسلّموه إلى عيسى بن جعفر بن المنصور-و كان على البصرة-فحبسه عنده سنة،و تنقّل من حبس عيسى إلى حبس الفضل بن الربيع.فبقى عنده مدة طويلة،فأراده الرشيد على شىء من أمره،فأبى.فكتب إليه بتسليمه إلى الفضل بن يحيى،ثم إلى السندى بن شاهك (2).

و توفى الإمام فى حبس السندى بن شاهك مسموما سنة 183 ه و له خمس و خمسون سنة.

1- (1) تذكرة الخواص [1]نقلا عن ربيع الأبرار للزمخشرى. [2]

2- (2) الإرشاد ص 281.و [3]الغيبة 23.و روضة الواعظين ص 220.و [4]نور الأبصار ص 151.و [5]الإتحاف ص 56. [6]

و ذكر الشيخ الطوسى رحمه اللّه رواية محمد بن يعقوب عن شيخ من العامة ممن كان يقبل قوله قال:جمعنا السندى بن شاهک ثمانين رجلا- من الوجوه المنسوبين إلى الخير،فأدخلنا على موسى بن جعفر عليه السّلام و قال لنا السندى:يا هؤلاء انظروا إلى هذا الرجل هل حدث به حدث،فإن أمير المؤمنين لم يرد به سوء و إنما ننتظر به أن يقدم ليناظره و هو صحيح موسع عليه فى جميع أموره،فسلوه و ليس لنا همّ إلا النظر إلى الرجل فى فضله و سمته.فقال موسى بن جعفر عليه السّلام«أما ما ذكره من التوسعة و ما أشبهها فهو على ما ذكر،غير إنى أخبركم أيها النفر إنى قد سقيت السمّ فى سبع تمرات،و أنا غدا أحتضر،و بعد غد أموت»فنظرت إلى السندى بن شاهک يضطرب و يرتعد مثل السعفة (1).

و خلاصة القول أن الإمام موسى بن جعفر كان أكثر أولاد أبيه علما و دينا و زهدا وجودا،أحاطه الإمام الصادق بالرعاية مذ كان فى مهده باعتباره الوصى و الخليفة من بعده،فكان أجلّ ولد أبى عبد اللّه عليه السّلام قدرا،و أعظمهم محلا،و أبعدهم فى الناس حقبا،و لم ير فى زمانه أسخى منه و لا أكرم نفسا و عشرة،و كان أعبد أهل زمانه و أورعهم و أجلّهم و أفقههم،و اجتمع جمهور الشيعة على القول بإمامته و التعظيم لحقه و التسليم لأمره،و رووا عن أبيه عليهما السّلام نصوصا كثيرة عليه بالإمامة،و إشارات إليه بالخلافة،و أخذوا عنه معالم دينهم،و رووا عنه من الآيات و المعجزات ما يقطع بها على حجية و صواب القول بإمامته (2).

الإسماعيلية

:

قدمنا أبرز الوجوه فى سيرة الإمام الكاظم لإظهار مسار الإمامة،و التعرّف على الخصائص و الفضائل التى تقطع القول،و هنا نبدأ بعرض لحياة إسماعيل بن الإمام الصادق،و مسلک الانشقاق عن مسيرة الإمامة.

إن الروايات فى إسماعيل لم تتطابق،و لا نذهب إلى أبعد من القول أن كونه أكبر أولاد الإمام الصادق كان سبب اللبس الذى وقع عند البعض،لأن الإمامة للأسنّ،و نعلم من صفته أنه كان أعرجا،فهو كأخيه عبد اللّه الأفطح،و إن كان أرجح الروايات تصف إسماعيل بحال يختلف عن عبد اللّه،و لكن الإمام الصادق الرجل

1- (1) الغيبة.

2- (2) الإرشاد. [1]

الذی استطاع أن یقود الأمة فی أخطر فترة و أشد معترک،و أن یفتح آفاق الفکر، و یرسی قواعد الفقه،و یتحاشی مأزق السلطان و السیاسة،کان فی بیته الأب الحانی و المربی العالم الذی یظل أولاده بالعطف و یغذیهم بالهدایة و النور،و یحبهم و یبرّهم جمیعا.و نحن علی أن إسماعیل کان علی الصلاح و الهدایة،و کان یلقی من الإمام الصادق حب الأب و رعایة الإمام،فالتقت صور العطف هذه مع کون إسماعیل أکبر أولاد الإمام الصادق فی تکوین الظن بأنه الإمام من بعد أبیه.و أما ما قیل من البداء فی هذا المورد و بهذا المفهوم فلا أساس له،لأن الإمام الصادق لم یشر إلی إمامة إسماعیل بالرغم من أن الأسئلة التی کانت توجه إلیه کثیرة،و ما روی عن الادعاء بالبداء،صادر من المخالفین الذین أباحوا لأنفسهم الکذب و التقوّل علی الشیعة و أئمتهم کالجریریة (1)و البتریة (2)و أصل أقوالهم التی نسبوها إلی الشیعة فی البداء کان فی تحولات الغلاة و بحثهم عن الأفکار التی تنسجم مع جذورهم کجماعات تسعی إلی إظهار ما جاءت علیه أیام الإسلام من عقائدهم،و أطلقوا هذه المقالة فی ظروف أصابهم الفشل فیها بعد أن حاولوا-فی غلوهم و انحرافهم-الانتساب إلی ثورة محمد النفس الزکیة (3)و قد کان المغیرة بن سعید یدّعی الصلة بمحمد بن عبد اللّه بن الحسن،و یقول أن الإمام علی زین العابدین علیه السّلام أوصی إلیه،و أن النفس الزکیة أذن له فی أمور منها:خنق الناس (4).

و لما فشلت تلک الثورة و قتل محمد و أخوه إبراهیم،ادّعوا أن الشیعة وضعت البداء،لکی لا یظهر من أئمتهم القول بخلاف ما أخبروا به.

و الثابت الذی لا یرقی إلیه الشک هو أمر وفاة إسماعیل فی حیاة الإمام الصادق.

ذکر ابن خلدون أنه توفی فی حیاة أبیه فی العریض فی المدینة المنورة،و دفن بالبقیع سنة 145 ه (5)و یقول المقریزی:إن إسماعیل توفی سنة 138 ه و جعفر والده لا

1- (1) اتباع سلیمان بن جریر من الفرق [1]الزیدیة قال بأن الإمامة شوری و أنها تنعقد بعقد رجلین من خیار الأمة،و أجاز إمامة المفضول،و یذکر البغدادی أن بعض أصحاب التواریخ ذکروا أن سلیمان بن جریر سم إدریس بن عبد اللّه بن الحسن،و یسمیها الشهرستانی السلیمانیة.

2- (2) اتباع الحسن بن صالح بن حی و کثیر النواء الأبتر،و هم کالجریریة و قد توقفوا فی عثمان.

3- (3) انظر الفرق بین الفرق ص 148.

4- (4) شرح ابن أبی الحدید ج 2 ص 309. [2]

5- (5) تاریخ ابن خلدون ج 3 ص 360.

يزال على قيد الحياة (1)كما أن تواتر ذكر الإمام الصادق عند وفاة ابنه إسـماعيل لما بدا للّه يفيد أن اللّه أظهر بوفاة إسماعيل ما كان فى سابق علمه من جعل الإمامة فى الأشخاص الذين خلقوا لتحمّلها.و اختلاف التواريخ لا يخرج عن فترة بقاء الإمام الصادق على قيد الحياة.

و لما توفى إسـماعيل حزن عليه الإمام الصادق حزنا عظيما.و أمر بوضع سـريره على الأرض قبل دفنه مرارا كثيرة،و كان يكشف عن وجهه و ينظر إليه يريد بذلک تحقق أمر وفاته عند الظالمين خلافته له من بعده،و إزالة الشبهة لهم فى حياته (2).

و كان موت إسماعيل-رحمه اللّه-قد أزال الظن و الوهم اللذين وقع فيهما بعض أصحاب الإمام الصادق.

أما الآخرون الذين تصفهم المصادر بالأباعد و الأطراف،و ليسوا من خاصة الإمام الصادق،منهم الذين ادعوا بقاءه حيا و إنه لم يمت،و تلک مقولـة الغلاة فى كل زمن،و عقيـدتهم التى يقتربون بها من الحلول و التناسخ.فأنكرت موت إسـماعيل، و قالوا:كان ذلک على جهة التلبيس من أبيه على الناس لأنه خان،فغيّبه عنهم، و زعموا أن إسـماعيل لا يموت حتى يملک الأرض،يقوم بأمر الناس،و أنه هو القائم، لأن أباه أشار إليه بالإمامة بعده و قلّده ذلک (3).و لو لا هؤلاء الذين ظلوا يتربصون،لما كانت قضية موت إسماعيل تصل إلى هذا الحد من الأهمية،و قد تولى كتّاب الفرق القول بإمامة إسـماعيل.لأنه أدنى إلى الإساءة إلى الشـيعة،و من طريقه يسـهل نسـبة كل فرقة إلى الشيعة،و يتحمل الشيعة الاثنا عشرية تبعة هذه الأقوال،و يجرى بين الأمة الإسلامية إطلاقات و مقولات هؤلاء،فتتلقاها بالقبول و الاطمئنان.

يقول المقريزى:

و كـانت الشـيعة فرقـا،فمنهم من كان يـذهب إلى أن الإمام من ولـد جعفر الصادق هو إسـماعيل ابنه،و هؤلاء يعرفون من بين فرق الشـيعة بالإسماعيلية من أجل أنهم

1- (1) اتّعاظ الحنفا.

2- (2) التكملة للشيخ عبد النبى الكاظمى ج 1 ص 192 نقلا عن أعلام الورى. [1]

3- (3) فرق النوبختى ص 67-68. [2]

يرون أن الإمام من بعد جعفر ابنه إسماعيل،و أن الإمام بعد إسماعيل بن جعفر الصادق هو ابنه محمد المكتوم (1).

و فى الوقت الـذى يـذكر البغـدادى فى الفرق بين الفرق لفـظ الزعم لتجنب القطع أو الجزم،يقول الشهرسـتانى بمـا عرف عنه من تعصّب و تحامل أن الإمام إسماعيل هو الابن الأكبر للإمام جعفر الصادق،و هو الذى نصّ عليه فى بدء الأمر،و لقد حدث الاختلاف على موته.

و يذهب ابن الجوزى فى المنتظم بعيدا،فيدرج معهم فى هذا المسـلك الخرمية و البابكية و المحمّرة،و أن آرائهم و مذاهبهم أخذوا بعضها من المجوس و بعضـها من الفلاسـفة،و أنهم دخلوا تحت سـتار ذكر ظلم السـلف الأشـراف من آل النبى،و دفعهم عن حقهم،و قتلهم و ما جرى عليهم من الذل،فتناصروا و تكاتفوا،و انتسبوا إلى إسماعيل بن جعفر بن محمد الصادق.

و ابن الجوزى يقصـد بـذلک الغلاة الذين سـبق ذكر حركتهم فى أكثر من موضع و بحث فى سـياق الكتاب،و الذين تصدى الإمام الصادق لحركتهم و تـبرّأ منهم،و لمـا مـات عليه السّـلام قـالوا أن الإمـام الصـادق حى لم يمت و لا ـ يموت حـتى يظهر و يلى أمر النـاس،و إنه هو المهدى،و زعموا أنهم رووا عنه أنه قال:إن رأيتم رأسـى قد أهوى عليكم من جبل فلا تصدقوه،فإنى أنا صاحبكم.و إنه قال لهم:إن جاءكم من يخبركم على أنه مرضنى و غسلنى و كفننى فلا تصدقوه فإنى صاحبكم صاحب السيف.

و لا يمكن الجزم بأن الغلاة هم قوم الفرقة الإسـماعيلية.لأن أولئک الذين يصفهم العلماء بالأباعد مع أنهم ليسوا من خاصة أصحاب الإمام الصـادق و أنهـم مـن الأـطراف،يحتمـل وجـود مـن أقـام على الظـن و بقى على الاعتقـاد الـذى أراد الإمـام الصـادق إزالتـه و منعه،فظلت(إسـماعيلية)خالصـة تـدين بإمامـة إسـماعيل،و منهـا مـا كـان بالاتصـال بإسـماعيل كالمباركيـة الـتى تزعّمهـا مبـارک مولى إسـماعيل،فزعمت أن الإمـام بعـد الإمام الصادق هو محمـد بن إسـماعيل،و قالوا:إن الأمر كان لإسـماعيل فى حياة أبيه،فلما توفى قبل أبيه جعل جعفر بن محمد الأمر لمحمد بن إسماعيل،و كان الحق له،و لا يجوز غير ذلک،لأنها لا تنتقل من أخ إلى أخ بعد الحسن

1- (1) خطط المقريزى ج 1 ص 348. [1]

و الحسين عليهما السّلام و لا تكون فى الأعقاب،و لم يكن لأخوى إسماعيل عبد اللّه و موسى فى الإمامة حق كما لم يكن لمحمد بن الحنفية حق على على بن الحسين.

و غيرها من المعتقدات و الآراء التى تتصل بنشوئها و اتصالها بعقائد الشيعة إلى أن تنتهى إلى هذه الفترة من الزمن و حدوث الاختلاف بعد وفاة الإمام الصادق،و على ذلک فلا نريد أن نظلم إخواننا من الإسماعيلية الذين آمنوا بعمق و عقيدة بوصاية النبى للإمام على عليه السّلام،و توليهم الأئمة المعصومين،إلى أن كانت الأقوال التى التزموها و ابتعدوا بها عن منهاج الشيعة.

و أن الفاطميين على لسان قاضيهم النعمان تبرءوا من الغلاة،و التزموا موقف الشيعة،و أنكروا أقوال أبى الخطّاب.قال القاضى النعمان:(ثم كان أبو الخطاب فى عصر جعفر بن محمد من أجلّ دعاته(!)فأصابه ما أصاب المغيرة.فكفر و ادعى أيضا النبوة.و زعم أن جعفر بن محمد إله،تعالى اللّه عن قوله،و استحل المحارم كلها، و رخّص فيها،و كان أصحابه كلما ثقل عليهم أداء فريضة.أتوه و قالوا:يا أبا الخطاب،خفف علينا فيأمرهم بتركها،حتى تركوا جميع الفرائض و استحلّوا جميع المحارم و ارتكبوا المحظورات،و أباح لهم أن يشهد بعضهم لبعض بالزور.و قال:من عرف الإمام فقد حل له كل شىء كان حرم عليه،فبلغ أمره جعفر بن محمد(...) فلم يقدر عليه بأكثر من أن لعنه و تبرّأ منه،و جمع أصحابه و عرّفهم ذلک و كتب إلى البلدان بالبراءة منه و باللعنة عليه،و عظم ذلک على أبى عبد اللّه جعفر بن محمد (...)و استفظعه و استهاله) (1).و يبدو أن القاضى المغربى يجهل تفاصيل ما قام به الإمام الصادق من جهد فى دحض و فضح أفكار الغلاة حتى كان لا- ينام الليل،و إن كان قوله فيما قدر عليه الإمام الصادق يحتمل إرادة ما يقوم به الحكام من المحاربة بالسيف كعيسى بن موسى العباسى عامل الكوفة،و إذا كان غير ذلک فلا وجه لقوله.

و مهما يكن من أمر فرقة الإسماعيلية و الاختلاف فى إسماعيل،فإن التاريخ يجهل جهلا- يكاد يكون تاما كيفية بدء الدعوة لإمامة إسماعيل،فلا- يعرف أول من دعى لإمامته،كما لا يمكن تحديد عوامل تأخير ظهورها إلى الوجود،فالتاريخ لم يعرف شيئا اسمه الفرقة الإسماعيلية حتى أواخر القرن الثالث الهجرى،و هو بدء ظهور

1- (1) دعائم الإسلام ج 1 ص 63([1]الهفت-غالب).

حركتهم،و إذا كان ذلک دور الستر فی معتقدات الإسـماعيلية.فإن أقوال الإسـماعيلية عن هذا الدور هی الأقوال الوحيدة التی تظهر أسـباب التستر و الاختفاء متعلقة بالدعوة و قيامها علی الشكل الذی يدعون إليه،و هم دائما يتحدثون عن تاريخ أئمتهم فی هذه الفترة بشیء من عدم التطابق فی العدد و الوقائع.

و لكن الثابت أنه بعد وفاة الإمام الصادق عليه السّلام انتقل فريق منهم إلی القول بإمامة موسی بن جعفر عليه السّلام بعد أبيه عليه السّلام و افترق الباقون فريقين،فريق منهم رجعوا عن حياة إسـماعيل و قالوا بإمامة محمد بن إسماعيل لظنهم أن الإمامة كانت فی أبيه و أن الابن أحق بمقام الإمامة من الأخ.و فريق ثبتوا علی حياة إسـماعيل.و يقول الشـيخ المفيد-رحمه اللّه-المتوفی سـنة 413:(و هم اليوم شـذّاذ لا يعرف منهم أحد يومی إليه،و هذان الفريقان يسـميان بالإسـماعيلية،و المعروف منهم الآن من يزعم أن الإمامة بعد إسـماعيل فی ولده و ولد ولده إلی آخر الزمان).ا ه.

و قـد أعقب إسـماعيل محمـدا و عليا.و نحن بإزاء الاثنين نلمس فی سـيرتهما تلک الآثار النفسـية التی تحـدث فی الأبناء انحيازا للأب فی مجال الأسـرة الواحـدة كأی بشـر ينقاد إلی العواطف و ينجر إلی الأهواء،و هذه الآثار لا علاقة لها بالتهيؤ للإمامة، فليس هناک ما يثبت أن محمـدا قد تطلع علی عهد جده الإمام الصادق إلی شـیء من الإمامة أو أنه أعدّ لها نفسه،إذ يفترض حسب الادعاء أن يكون من نصب بعد وفاة إسماعيل و فی حياة الإمام الصادق عالما بما نصب له.

و السـيد ابن عنبة فی العمدة يذكر قول شيخ الشرف العبيدلی:هو-إسماعيل- إمام الميمونية و قبره ببغداد.و قول ابن خداع:كان الإمام موسی الكاظم عليه السّلام يخاف ابن أخيه محمد بن إسـماعيل و يبرّه،و هو لا يترک السـعی به إلی السـلطان من بنی العباس.كما ينقل السيد ابن عنبة قول أبو نصـر البخاری:كان محمد بن إسماعيل بن الصادق عليه السّلام مع عمه موسی الكاظم عليه السّلام يكتب بالسرّ إلی شيعته فی الآفاق،فلما ورد الرشيد الحجاز،سعی محمد بن إسماعيل بعمه إلی الرشيد فقال:أ علمت أن فی الأرض خليفتين يجبی إليهما الخراج؟فقال الرشـيد:ويلک أنا و من؟قال:موسـی بن جعفر.و أظهر أسـراره،فقبض الرشيد علی موسی الكاظم عليه السّلام و حبسه و كان سبب هلاكه،و حظی محمد بن إسماعيل عند الرشيد، و خرج معه إلی العراق و مات ببغداد،و دعا عليه موسی بن جعفر عليه السّلام بدعاء

استجابه اللّه تعالى فيه و فى أولاده،و لمّا ليم موسى بن جعفر عليه السّلام فى صلة محمد بن إسماعيل و الاتصال مع سعيه به قال:«إنى حدثنى أبى عن جده عن أبيه عن جده عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:الرحم إذا قطعت فوصلت،ثم قطعت فوصلت،ثم قطعت فوصلت،ثم قطعت قطعها اللّه تعالى،و إنما أردت أن يقطع اللّه رحمه من رحمى» (1).

أما على بن إسماعيل فقد وردت الرواية به بهذا الخصوص،و هى المرجحة، لأن أبطالها البرامكة،و لكن ظهور اسم محمد فى تاريخ الفرقة الإسماعيلية على اسم أخيه على يعطى الأولى أهمية،و دور على بن إسماعيل مهم أيضا لعلاقته بالبرامكة الذين أخفوا مجوسيتهم،و كانوا مدار سياسة العداء للعلويين فى زمنهم،حتى انتقم اللّه من ظلمهم لآل بيت النبى الأطهار على يد ظالم آخر.و الرواية عن النوفلى عن أبيه عن مشايخهم قالوا:إن السبب فى أخذ موسى بن جعفر عليه السّلام أن الرشيد جعل ابنه فى حجر جعفر بن محمد بن الأشعث،فحسده يحيى بن خالد بن برمك على ذلک و قال:إن أفضت إليه الخلافة زالت دولتى و دولة ولدى.فاحتال على جعفر بن محمد -و كان يقول بالإمامة-حتى داخله و أنس به،فكان يكثر غشيانه فى منزله،فيقف على أمره و يرفعه إلى الرشيد،و يزيد عليه فى ذلک بما يقدح فى قلبه.ثم قال لبعض ثقاته أ تعرفون لى رجلا- من آل أبى طالب ليس بواسع الحال يعرّفنى ما احتاج إليه؟فدلّ على على بن إسماعيل بن جعفر بن محمد،فحمل إليه يحيى بن خالد مالا،و كان موسى عليه السّلام يأنس بعلى بن إسماعيل و يصله و يبرّه،ثم أنفذ إليه يحيى بن خالد يرغّبه قصد الرشيد و يعده بالإحسان إليه،فعمل على ذلک،فأحسّ به موسى عليه السّلام فدعا به و قال له:«إلى أين يا ابن أخى؟»قال:إلى بغداد.قال الإمام:«و ما تصنع؟» قال:علىّ دين و أنا مملق.فقال له الإمام موسى الكاظم عليه السّلام:«أنا أقضى دينک و أفعل لک و أصنع».فلم يلتفت إلى ذلک،و عمل على الخروج.فاستدعاه أبو الحسن عليه السّلام و قال له:«أ أنت خارج؟»قال:نعم،لا بد لى من ذلک.فقال له:

«انظر يا ابن أخى و اتق اللّه و لا توتم أطفالى»و أمر له بثلاثمائة دينار و أربعة آلاف درهم، فلما قام من بين يديه قال لمن حضره:«و اللّه ليسعينّ فى دمى و يويتمنّ أولادى»فقالوا:

جعلنا فداک،أو أنت تعلم هذا من حاله و تعطيه و تصله؟قال:«نعم،حدثنى أبى عن

1- (1) عمدة الطالب ص 233-234. [1]

آبـائه عن رسول اللّه...»الحـديث...فخرج على بن إسـماعيل حـتى أتى يحيى بن خالـد فعرف من خـبر الإمـام موسـى بن جعفر،فرفعه إلى الرشيد،و سأله الرشيد عن عمه فسعى به إليه و قال له:إن الأموال تحمل إليه من المشرق و المغرب،و إنه اشترى ضيعة سمّاها البشيرة بثلاثين ألف دينار...ثم خرج يحيى بن خالد على البريد حتى وافى بغداد،ثم دعا السـندى بن شاهک فأمره فى موسـى بن جعفر بأمره فامتثله،و كان الـذى تولى به السـندى بن شاهک وضع له سـما فى طعام قـدّم إليه.و يقال أنه جعله فى رطب،فأكل منه موسـى،و أحس بالسم،و لبث بعده ثلاثا موعوكا،ثم مات فى اليوم الثالث...و أخرج و وضع على الجسر،فأمر يحيى بن خالد أن ينادى عليه عند موته:

هذا موسى بن جعفر الذى تزعم الرافضة أنه لا يموت فانظروا إليه (1).

و الإسـماعيليون يعـدّون البرامكـة إسـماعيلية على مذهبهم،و كذلک زبيدة زوجة الرشـيد هى الأخرى إسـماعيلية،و ينفون عنها تدبير قتل البرامكة (2).

يقول النوبختى:فأما(الإسـماعيلية)فهم«الخطّابيـة»أصـحاب(أبى الخطاب محمـد بن أبى زينب الأسدى الأجدع)و قد دخلت منهم فى فرقة محمد بن إسماعيل، و أقرّوا بموت إسماعيل بن جعفر فى حياة أبيه،و هم الذين خرجوا فى حياة أبى عبد اللّه جعفر بن محمد عليه السّلام.

و كانت الخطّابيـة بعد براءة الإمام الصادق عليه السّلام منهم و لعنهم و الوقوف بوجه إلحادهم و زندقتهم،قد تفرقوا فصاروا أربع فرق،و كان أبو الخطّاب يدّعى أن الإمام الصادق جعله قيّمه و وصـيّه من بعده،و علّمه اسم اللّه الأعظم،ثم ترقّى إلى أن ادّعى النبوة،ثم ادّعى الرسالة.ثم ادعى أنه من الملائكـة،و أنه رسول اللّه إلى أهل الأرض و الحجة عليهم.ففرقة منهم قالت:إن أبا عبد اللّه جعفر بن محمد هو اللّه جلّ و عزّ، و تعالى اللّه عن ذلک علوا كبيرا.و أن أبا الخطاب نبى مرسل أرسـله جعفر،و أمر بطاعته،و أحلّوا المحارم من الزنا و السرقة و شرب الخمر،و تركوا الزكاة و الصلاة و الصيام و الحج.و أباحوا الشهوات بعضهم لبعض و قالوا:من سأله أخوه ليشهد على

1- (1) الإرشاد 279-280.و [1]الغيبة 21.و روضة الواعظين ص 218.و [2]مقاتل الطالبيين ص 501- 502.و [3]كشف الغمة فى معرفة الأئمة للإربلى ص 247. [4]

2- (2) تاريخ الدعوة الإسماعيلية ص 145. [5]

مخالفيه فليصدّقه و يشهد له،فإن ذلک فرض عليه واجب.و جعلوا الفرائض رجالا سمّوهم،و الفواحش و المعاصى رجالا و تأوّلوا قول اللّه عز و جل: يُرِيدُ اللّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ .و قالوا:خفف عنّا بأبى الخطّاب،و وضع عنّا الأغلال و الآصار،يعنون الصلاة و الزكاة و الصيام و الحج،فمن عرف الرسول النبى الإمام،فليصنع ما أحب.و فرقة قالت بزيّع نبى رسول مثل أبى الخطاب،أرسله جعفر بن محمد،و شهد بزيع لأبى الخطّاب بالرسالة،و برىء أبو الخطاب و أصحابه من بزيع.و فرقة قالت:السّرى رسول مثل أبى الخطاب،أرسله جعفر و قال:إنه قوى أمين،و هو موسى القوى الأمين،و فيه تلک الروح،و جعفر هو الإسلام،و الإسلام هو السّلام و هو اللّه عز و جل،و نحن بنو الإسلام كما قالت اليهود: نَحْنُ أَبْناءُ اللّهِ وَ أَحِبّاؤُهُ .و قد قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:سلمان ابن الإسلام.فدعوا إلى نبوّة السرى و رسالته،و صلّوا و صاموا و حجّوا لجعفر بن محمد، و لبّوا له فقالوا:لبيک يا جعفر لبيک.

و فرقة قالت:جعفر بن محمد هو اللّه عز و جل،و تعالى عن ذلک علوا كبيرا، و إنما هو نور يدخل فى أبدان الأوصياء فيحل فيها،فكان ذلک النور فى جعفر،ثم خرج منه فدخل فى أبى الخطّاب،فصار جعفر من الملائكة،ثم خرج من أبى الخطّاب فدخل فى معمر (1).

و جميع ما نجم عن حركة الغلاة و انتسب إلى أبى الخطّاب لا يخلو من الادعاء بالربوبية و النبوة،و أغلبها تقول ببقاء الأموات،و الزعم أن معبودهم لا يموت، فالمعمرية عبدوا أبا الخطّاب كما عبدوا معمرا هذا،و قد كان رجلا يبيع الحنطة، و زعموا أن الدنيا لا تفنى،و أن الجنة هى ما يصيب الناس من العافية و الخير،و أن النار ما تصيب الناس من خلاف ذلک.و قالوا بالتناسخ،و أنهم لا يموتون و لكن ترفع أرواحهم إلى السماء و توضع فى أجساد غير تلک الأجساد،و استحلّوا الخمر و الزنا و سائر المحرمات،و دانوا بترک الصلاة (2).

و لا شک أن حركة الغلاة هى حركة سياسية إضافة إلى كونها حركة دينية ضمّت بقايا العقائد و الأديان التى محق الإسلام وجودها،و اجتثت جذورها،و لما ظهرت

1- (1) انظر فرق النوبختى 42-44. [1]

2- (2) الحور العين [2]لابن نشوان ص 167.

بوادرها كان ظهورها فی ضلال الحكّام و حواشی عظمتهم.و استطاع الظلمة و المتجبرون أن يجعلوها سلاحا فتاكا فی حملتهم ضد أهل البيت و شيعتهم،فأسهموا فی نشاط تلك الفرق،و سهّلوا لهم التظاهر و الادعاء بحب أهل البيت،و قد عالج الأئمة الأطهار عليهم أفضل الصلاة و السّلام مشكلة تسلل الغلاة و دخولهم فی صفوف المسلمين،فكان الإمام الصادق يلعن أبا الخطّاب و أصحابه و جميع الدعاة إلى الألحاد و الغلو،و يفضح أصولها و مصادرها،و من أقواله عليه السّلام:«إنّا أهل بيت صادقون لا نعدم من كذّاب يكذب علينا عند الناس،يريد أن يسقط صدقنا بكذبه علينا».ثم ذكر المغيرة و بزيع و السری و أبا الخطّاب و معمّر و بشّار الشعيری و حمزة اليزدی و صائد النهدی فقال:«لعنهم اللّه أجمع،و كفانا مئونة كل كذاب».

و قال عليه السّلام:«إن قوما يزعمون أنی لهم إمام،و اللّه ما أنا لهم بإمام،مالهم لعنهم اللّه،أقول كذا و يقولون كذا.إنما أنا إمام من أطاعنی.و من قال بأننا أنبياء، فعليه لعنة اللّه.و من شک فی ذلک فعليه لعنة اللّه» (1).

و إذا كان الفاطميون قد أملوا على قاضيهم أن يثبت البراءة من أبی الخطّاب لتنزيه معتقداتهم،فإن بقية الإسماعيلية لم يوافقوهم على ذلک،كما لم يوافقوهم على أعمالهم الأخرى كمحاربتهم القرامطة و التصدّی لجرائمهم،و قد ألمحنا إلى أن التاريخ الإسماعيلی يظهر عليه الاضطراب و عدم الانسجام،لأن هناک فراغا و ثغرات ظلت ظاهرة لم تنفع فی ملئها المحاولات الكثيرة،و قد أدی ذلک إلى أقوال غير واقعية، و آراء لا نصيب لها من الصحة،كالقول بأن بذور حركة الإسماعيلية قد بذرت فی عهد جعفر بن محمد.يقول عارف تامر-و هو من الإسماعيلية-:و لا يوجد هناک من يستطيع إنكار هذه الحقيقة،و قد كانت هذه الدعوة سرّية،و كان يعمل لها فی الخفاء إسماعيل بحياة أبيه،يعاونه الداعية الكبير أبو الخطاب،و جاء بعد إسماعيل ولده محمد،و كان على جانب كبير من العبقرية و الثقافة راجح الفكر ثاقب النظر (2).

و هذا تحكم واضح،و قول يبعد عن الواقع،و لا أساس له من الصحة،و لكنه يعتقد كبقية الإسماعيلية أن محمد بن إسماعيل خرج من المدينة إلى الكوفة مصحوبا بأخيه و جماعة حركته،و استتر،فبنوا تاريخا لمحمد بن إسماعيل على مقتضى التنظيم

1- (1) انظر بحث:الغلاة،المجلد الأول،الجزء الأول من الإمام الصادق و المذاهب الأربعة. [1]

2- (2) مقدمة كتاب عبقرية الفاطميين لمحمد حسين الأعظمی ص 14.

السـرى و الحركة الباطنية،و أنكروا ما تذكره المصادر و تثبته الحقائق من التحاق محمد بركب العباسـيين و تحكم المنفعة و الرغبة فى الدنيا حتى حملتاه إلى الموت فى بغداد.

و يحدد الأسـتاذ تامر عام 128 ه تاريخا لنشأة الإسـماعيلية كـدعوة دينية(من قبل الفقيه المتشـرّع الإمام جعفر الصادق)ثم يقول إنها بدأت تتحول إلى حركة سياسية عام 259 ه.

و لاـ نريـد الخوض فى مناقشـة مثـل هـذه الآراء لأنها تكشف عن نفسـها،و لا نرغب بالإطالـة فى بحث الإسـماعيلية و الإمامـة،فالمصادر الإسـماعيلية التى يسـتقى منها الكتّاب المعاصـرون-تامر و غيره-تشـير إلى مثل هذا الادعاء،و قد قلنا آنفا أن الحركة الإسماعيلية اختارت الوقائع و المعتقدات المهمة فى تاريخ الشـيعة،و ساقت انفصالها و انشـقاقها عن المذهب الجعفرى فى صياغه مشابهة،فاختارت مبدأ التقية لدى الشـيعة ليكون ذريعة للقول بالتنظيم السـرى الباطنى القائم على الرموز و المعانى التى لا صـلة لها باللغة أو مبادئ التفسير.فالتقية عند الشـيعة عمـل بقوله تعالى: لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكافِرِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَ مَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللّهِ فِى شَىْءٍ إِلاّ أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقاةً .

و قد كان الإمام أمير المؤمنين عليه السّلام يوصى بالتقية و يأمر بها،و ليس ذلك منه إقرارا،فقد علم تشدّده فى الحق،و عدم خشيته أحدا غير اللّه،لكنه أمر بها لأنها من الأمور التى يحكم بها العقل و السـمع.أما من حيث العقل فالأولى أن يجنّب الإنسان نفسه شرور من يستطيع أن يناله بشـرّ إما بسـلطة أو قوة أو ظرف،فيتّقى شـرّه و يحفظ حياته.و أما من حيث السـمع.فإن قصة أصحاب الكهف و فرارهم بدينهم: إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ و وقائع دعوة موسى: اِذْهَبا إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشى وَ دَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِها و غيرها من الأحـداث الكثيرة كافيـة لإظهار أن التقية-أو مبدأ تجنب المخاطر و حفظ الوجود-من أوامر الشرائع،و قد قال اللّه عز و جل لنبيه الكريم: اِدْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَ بَيْنَهُ عَداوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ثم تأتى الآية التى تنص على التقية فى العلاقة مع المشـركين أو السـماع ببعض الأعمال: فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ باغٍ و ما نزل فى حق عمّار بن ياسـر: إِلاّ مَنْ أُكْرِهَ وَ قَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمانِ و على ذلك رأينا كيف كان توجيه الإمام الصادق عليه السّلام لأصحابه و التزام التقية.و نرى كيف يخاطب الأئمة عليهم السّلام

الظلمة و العتاة بإمرة المؤمنين للإبقاء على حياتهم و كفّ شرور الحكّام الطغاة عن شيعتهم، و كل الأعمال المعهودة فى تطبيق التقية لا تحتمل أكثر من مقاصدها التى أذن بها الشرع، فإن الأئمة عليهم السّلام كانت مناهج سيرهم واضحة،و أقوالهم فى معاهدهم و بيوتاتهم معروفة.و ما يصدر عنهم فى مقابلة الملوك و سلاطين الزمان بالقدر الذى يوجبه الشرع لحفظ النفس،و كذلك رجال الشيعة و قادتها عملوا بأوامر الشرع و طبقوا توجيهات أئمتهم فى حال الاضطرار.و إلى هنا ينتهى أمر التقية،أى عند الحدود التى تكفل إبعاد الخطر و دفع الشر،فليس من تقية الشيعة التخفّى،و النظام القائم على السرّية و الرموز و الأرقام و الإشارات التى تخص أقواما خلت و مذاهب سالفة.

و قد استغل الإسماعيليون مذهب التقية فى سبيل أغراضهم و مصالحهم فكانوا سنيين مع أهل السنة و(شيعيين)مع الشيعة و مسيحيين مع المسيحية (1).

كذلك أدّعى الإسماعيلية التدبير الذى رآه الإمام الصادق لحفظ حياة وصيه و خليفته الإمام موسى الكاظم و قالوا:إن قصة وفاة إسماعيل بن جعفر فى حياة أبيه كانت قصة أراد بها الإمام جعفر الصادق التمويه و التغطية على الخليفة العباسى أبى جعفر المنصور الذى كان يطارد الشيعة فى كل مكان،فخاف جعفر الصادق على ابنه و خليفته إسماعيل،فادّعى موته (2).و قالوا إن موسى الكاظم لم يجعله الصادق إماما إلا سترا على ولى الأمر(محمد بن إسماعيل)ليكتم أمره على الأضداد،و لئلا يطلع ما خصّ به أهل العداوة و العناد حتى يستطيع الإمام المستقر الحقيقى النهوض بأعباء الدعوة سرا (3).و لا تتفق الإسماعيلية على موت إسماعيل فى حياة أبيه،فمنهم من يرى ذلك،و منهم من ينكر موته،و أنه بقى حيّا و شوهد فى البصرة.و مهما يكن من قول فإنهم أقنعوا أنفسهم بالادعاء بالنص،و جعلوه مادة لبحوثهم و أفكارهم و قالوا:

و لما وجدناه قد نصّ عليه،كان منه العلم بأنه غير منقطع النسل و العقب،و إذا كان غير منقطع النسل و العقب فالإمامة له و لنسله ثابتة،و إن كان(ع.م)لم ينص على أحد بعد نصه على إسماعيل(ع.م)فالإمامة لإسماعيل،فإذا ثبتت إمامة إسماعيل ثبت

1- (1) عبقرية الفاطميين ص 18.

2- (2) تاريخ الدعوة الإسماعيلية ص 16. [1]

3- (3) زهر المعانى [2]للداعى إدريس ص(48-49)-غالب-أعلام الإسماعيلية.

نسله.إذا لا يستحق الإمامة من لا يكون له عقب بكونها محفوظة فی العقب،و إذا ثبت نسله فالإمامة لنسله ثابتة (1).

و يدّعون:بما أن إسماعيل هو صاحب الحق الشرعی فی الإمامة بعد أن نص أبوه علی ذلک،فلا بد إذن أن تتسلسل الإمامة فی ابنه محمد بن إسماعيل.هذا من ناحية،و من ناحية ثانية كان محمد بن إسماعيل أكبر سنا من عمه موسی الكاظم ا ه.

فإذا عدنا إلی تاريخ ولادة إسماعيل نجد أن ولادته كانت سنة 132 ه فيما كان الإمام موسی الكاظم عليه السّلام قد ولد سنة 128 ه.أما وجوه المقارنة الأخری فهی واضحة و لا تحتاج إلی جهد فی الردّ و النقاش،لأنها لا تثبت أمام الحجج،فليس هناک من نص علی إسماعيل بالمرة.كما أنه لم يجمع مؤهلات الخلافة،و لم يصلح لها بعد أبيه،و لكن الإسماعيلية ادّعوا ذلک،و أيدوا دعواهم بما لا يصلح للتأييد ورد الاعتراض و أن وفاة إسماعيل فی حياة أبيه و ما ذهبوا إليه من التمويه من قبل الإمام الصادق إنما هو من صنائع الغلو،و القصة خيالية وضعها المغالون فی هذا المبدأ من مؤرخی و كتّاب الإسماعيلية الذين يكثرون من أمثال هذه القصص فی كتاباتهم ليضفوا علی الأئمة الإسماعيلية مناقب و فضائل لا يقرّها عقل (2).

و إن الخوض فی غمار البحث عن الطائفة الإسماعيلية و نشأتها و مقومات دعوتها أمر يخرجنا عن الغرض الذی من أجله تعرّضنا لذكر أولاد الإمام الصادق عليه السّلام و لكننا رأينا أنفسنا ملزمين بهذه الدراسة إلی التعرّض لبعض ما يتعلق بتاريخ هذه الفرقة فی إطار ادعائها بالإمامة و معتقداتها.و سنقتصر علی الجوانب الأساسية فيما يلی من البحث.

إن الوقائع التاريخية لا يضيرها الادعاء و لا تؤثر عليها فی جوهرها محاولات التغيير و التحريف،فإذا ما خيل للمتسلّطين أن كثرة اللغط بما أرادوه و زيادة الترديد لما افتعلوه قد حسم ما كان يهددهم و قطع ما كان يقضّ مضاجعهم،فليس ذلک من الحقيقة فی شیء.و أنا أذكر ذلک،و قصدی ما تجنّی الحكام الجائرون به من أقوال و دسائس و مؤامرات علی الأئمة الأطهار من آل البيت رضوان اللّه عليهم،و ما كان

1- (1) المصابيح فی إثبات الإقامة لأحمد حميد الدين الكرمانی ص 130.

2- (2) الطائفة الإسماعيلية،الدكتور محمد حسن كامل ص 3.

لأصحاب العروش من زبانية و أذناب سايروهم على الكذب و أقرّوهم على الظلم، و لكن تاريخ و حقائق الأئمة الأطهار و شيعتهم بقى جليا ناصعا برغم كل نتائج الملوك الفسّاق و الظالمين،و قد شمّر رجال الشيعة عن ساعد الجدّ،و بذلوا أقصى الجهود منذ مئات السنين لإظهار تلك الحقائق،فما كان الإمام على إلا وصيّا،و أول القوم إسلاما و أقدمهم إيمانا،و هكذا كل وصى من ذريته،حتى إمامنا و مولانا الصادق عليه السّلام.

فلم يكن إلا صاحب الإمامة و الخلافة الكبرى الذى تنطق بفضائله الآثار،و تصرخ بمكانته الحقائق،و الذى واجه ظروفا شائكة و أوضاعا صعبة تجلّت عناية الرب و تسديده فيما ألهمه اللّه من حكمة استطاع بها أن يحمى نفسه و يحفظ وجود شيعته.

و هكذا إذا تسلسلنا فى البحث حتى غيبة الإمام الثانى عشر حجة اللّه القائم بأمره صاحب الزمان المهدى عجل اللّه فرجه.

و قد حملنى على هذا التلميح دواعى الاستجابة لروح الإخاء و المودة التى أراها عند الكثير من الأخوة الإسماعيلية،فآثرت أن المح بمجمل الإمارات الهامة فى تاريخ الشيعة لأدخل منها إلى القول بأن الأخوة الإسماعيلية لم ينتبهوا إلى أصل و سبب الاختلاف و الاضطراب الذى يحيط بالأحداث الأساسية التى تتعلق بتاريخهم.و ذلک من حيث المواقع التى تجرى عليها،و الأشخاص و التفاصيل،و من الطبيعى حدوث ذلک لأنها محاولات تبنى عبر عصور متلاحقة،و أقوال تنشأ فى أزمان متعددة، و الأصل أو الحقيقة تأباها.

و مع هذا النظام السرى و القول الباطنى،ارتكب الإسماعيليون خطأهم بأن أباحوا للمستشرقين التلاعب فى آثارهم،و اعتمدوا عليهم فى التحقيق و الإخراج،بحيث تجدهم يرون فى أحكام المستشرقين على الآثار و النصوص الصحة و لا يتطرّق إليهم الشک،و ما من مستشرق- إلا ما كان أندر من الكبريت الأحمر-إلا و اتصل بسبب، و التقى بغاية مع حركة الاستشراق الاستعمارية الخبيثة،بل أقرّ الإسماعيلية لهم بالفضل حتى قالوا:و بفضل تلک الدراسات التاريخية الهامة التى قامت بها فئة من المستشرقين (الثقات)الضليعين فى علوم الإسماعيلية،و على رأسهم أو بالأحرى فى مقدمتهم العلامة و المستشرق الروسى الكبير البروفسور(ايفانوف)و البرفسور ماسينيون...

و الدكتور شتر و طحان و سبوكوربان...و المستشرق الإنكليزى برنارد لويس (1).

1- (1) تاريخ الدعوة الإسماعيلية ص 22. [1]

و الغريب أن البعض منهم يرى فى تأييد المستشرقين لآرائه حجة،كما فعل عارف تامر و هو يقول:قلت فى أكثر من مكان بأنى لا أفرّق بين الحركات الثلاث:

الإسماعيلية و القرمطية و الفاطمية،فكلها باعتقادى حركة واحدة نبعت من نبع واحد و انحدرت من أصل واحد،و قد يكون دى ساسى و دوزى و هامر و كاترمير و غويارد و بلوشه و دى خويه متّفقين معى بالرأى (1).

و فى الوقت الذى يعانى الشيعة من افتراءات المستشرقين و نتائج حملة الاستشراق اللعينة،و أخذهم بالأقوال التى تجافى الحقيقة،و يعمل كتّابهم و باحثوهم و مؤرخوهم على فضح حملة الاستشراق و من انتسب إليها من الكتّاب العرب،يفسح الإسماعيلية الباب لهؤلاء،و كأن الغرض الإسهام فى الإساءة إلى الشيعة و نشر دوائر الخلط بين مذهب الشيعة و الفرق الأخرى التى يعزى إلى الشيعة معتقداتها،فيزداد تراكم الأخطاء،و يظفر الأعداء باعتراف و إقرار بما يقوله المستشرقون،و نحن-بكل جهد و منذ عشرات السنين-لا نهدأ عن مواجهة المستشرقين و تلاميذهم فى البلاد الإسلامية،و لم نحقق من النتائج إلا اليسير إذا ما نظرنا إلى أصقاع العالم التى تأخذ بأقوال المستشرقين و تلتفت إلى آراء المتعصّبين الذين نحروا الإخاء و ضحّوا بالروابط.

فبرنارد لويس-على سبيل المثال لا الحصر-لا نتوقع منه أن يفهم التقيّة كما هى عند الشيعة لأمرين:الأول:بعده عن الإسلام.و الثانى::تأثره بنصوص مؤرخى الحكّام و الملوك،و اعتباره أن كل ما يطلق عليهم شيعة هم متّفقون على هذه الآراء،فهو يقدم ملاحظات و آراء تشعر بالتمييز فى مواضع،لكنه فى قضية التقيّة أبعد ما يكون عن الصواب و الإدراك (2).

و هكذا شأنه فى بقية القضايا التاريخية فاسمع لقوله:(فلما توفى الإمام جعفر الصادق سنة 765 م انقسم أتباعه إلى فريقين حول أحد ابنيه،موسى و جعفر،و أيد حقه فى الخلافة،و اعترف أتباع الأول بالأئمة من نسله حتى الإمام الثانى عشر بعد على بن أبى طالب عليه السّلام)تجد خطأه فى الشخصيات الناجم عن خطئه فى فهم التاريخ الإسلامى (3).

1- (1) القرامطة ص 84-85.

2- (2) انظر الدعوة الإسماعيلية الجديدة(الحشيشية)لبرنارد لويس ص 39.

3- (3) انظر:(برنارد لويس):العرب فى التاريخ ص 150.

فإذا أعدنا النظر إلى الظروف التى نشأت فيها حركات الغلو و التى بحثنا عواملها و كونها من المؤامرات على الشيعة،نجد برنارد لويس يتبنّى الرأى الذى حاوله الحكام و قاموا بترويجه بظهور الفرق و أنصاف الفرق بين جماعات كانت مذاهبهم متعددة و مزيجة،و أن النصف الأول من القرن الثامن كان فترة نشاط هائل بين الشيعة المتطرفين.و يقول:و كان التحول من طائفة أو رئيس إلى آخر سهلا و متكررا.و تسمى المصادر الإسلامية الكثير من المبشرين الدينيين الذين كان بعضهم أشخاصا من أصل وضيع قادوا ثورات و وصفوا للسيف،و تعزى لبعضهم عقائد أصبحت فيما بعد خاصة بالإسماعيلية (1).

و يشير إلى العراق لذات الغرض الذى توخّاه الطاعنون على الشيعة،و لكنّا نجده متفهّما لظروف الدعوة الإسماعيلية و معتقداتهم فيقول:و يمكن وصف الفترة الواقعة بين القرن الثامن الميلادى و أوائل القرن التاسع بأنها فترة استعداد،نظم خلالها إسماعيل و ابنه محمد و عدد من الأتباع المخلصين بناء هذه الفرقة و الدعوة لها، و تختلف تعاليمهم اختلافا بيّنا عن تعاليم السنّة،كما أنها تضمّ كثيرا من الأفكار الأفلاطونية الحديثة و الهندية،و قد تمكنوا من إدخال هذه الأفكار بقولهم بمبدإ التفسير الباطنى الذى يجعل لكل آية معنيين:أحدهما ظاهر و حرفى،و الآخر باطن لا يقف عليه إلا أهل العلم.و كانت التعاليم السرّية لهذه الفرقة تنشر على مراتب من التنشئة (....)لا يرقى إلى أعلى مراتبها إلا من يتمّ تحوله إلى المذهب الإسماعيلى،و كان من شأن هذا التنظيم السرى أن ساعد الإسماعيلية على البقاء و الازدهار على الرغم من يقظة شرطة العباسيين (2).

و خلاصة القول،فإن الكتّاب الإسماعيليين يكشفون عن عناصر قيام معتقدات الفرقة الإسماعيلية،و ننتهى إلى حقيقة أن الإمامة و الافتراق عن خطها بعد سنين طويلة من موت إسماعيل و حقائق سيرة ابنه محمد هى المنفذ،فهم يقولون أن الفكرة الإسماعيلية ليست وليدة حادثة معينة أو تفكير استبدّ بشخص أو جماعة فى أمر من الأمور،أو حال من الأحوال،بل هى امتداد أزلى لنظرة أزلية عاشت فى دم الإنسانية

1- (1) الدعوة الإسماعيلية لبرنارد لويس ص 39.

2- (2) العرب فى التاريخ ص 150-151.

منذ بدء الخليقة.و ستستمر فی تجدّدها و تصاعدها نحو الأكمل ما دامت الخليقة و ما دامت الحياة،و لربما استطاع المؤرخون أن ينسبوا ميلاد الحركات و العقائد إلى أحداث تاريخية معينة تسببت فی خلقها و عملت على تطويرها و بلورتها،غير أن هذا المقياس لا ينطبق على الفكرة الإسماعيلية من حيث جوهرها الذی كان توأما للحياة عينها (1)و قد صارت مع تطور الزمن بعد نشأتها حركة عقلية تدل على أصحاب مذاهب دينية مختلفة،و أحزاب سياسية و اجتماعية متعددة،و آراء فلسفية و علمية متنوعة (2).

و يعتبر الإسماعيليون أنفسهم من أنجب التلاميذ الذين درسوا الفلسفة اليونانية دراسة واقعية،و أخذوا عنها الأفكار و النظريات و طبّقوها و حوّروها فی مجتمعهم، و ليست جمهورية أفلاطون إلا أحد الكتب المفضلة القيمة التی درسوها بعناية و طبقوها بإمعان (3).

و يتّفق الإسماعيليون على أن عقيدتهم فلسفية.يقول مصطفى غالب:(إذا ما أردنا تعريف الإسماعيلية بإيجاز و تقديمها باختصار،و وصفها بمختلف الأوصاف،فلا نقول عنها إلاّ إنها العقيدة الفلسفية التی تتطور مع الزمن و تتكيف معه،أو بلغة أصحّ هی انطلاق الفكر الوثّاب فی هذا العالم اللامتناهی،أو وثوب الروح نحو مثلها الأعلى).و يبين عارف تامر فضل البحوث و الدراسات فی التعرف على الدعوة الإسماعيلية و يقول:(و بعد ظهور هذه المصادر و المخطوطات،أصبحت الحركة الإسماعيلية معروفة بأنها رسالة فلسفية مستقلة،و دعوة سياسية أممية ذات أثر ظاهر بمجرى الحياة العامة،و فكرة عقائدية باطنية تخفی وراءها أهدافا و مقاصد لا يزال الفكر يسعى لجلاء غوامضها و سبر أغوارها)ا ه.

و قد وجدت هذه المقاصد و الأفكار(الوثابة)فی قضية موت إسماعيل،و تطّلع ابنه محمد متنفّسا و ثغرة،فصاغ أصحابها و الداعون إليها معتقدات الإسماعيلية بالمضمون و المنطق الفلسفيين،و كانت تقوم و لا شک على الفلسفة اليونانية حتى كانت خير وعاء لها،و استطاع الداعون إلى هذه الفلسفة من إدخالها فی العقائد

1- (1) أعلام الإسماعيلية ص 13.

2- (2) تاريخ الدعوة الإسماعيلية ص 14. [1]

3- (3) القرامطة لعارف تامر ص 64.

و التنظيم و السلوک،فکانت الکواکب و الأجرام و النفس و العقل و الحرکة و الثبات و الاختیار و الفعل و الأرض و البحار و البساتین و الأزهار و البشر و الحیوان و غیرها تربط بها الأسماء و توصل بها.

و کانت مسألة الباطن و الظاهر أعمق من الأوصاف التی عرفوا بها.لأن الباطنیة و التخفّی من ألزم الحالات لمثل هذه الدعوات التی تنتمی إلی أمم أخری و مذاهب و معتقدات قدیمة،إذ لا یمکنها الظهور و لا الإفصاح،فالباطن هو الحال الذی لا یمکنها غیره،و من هذه الباطنیة امتدت الصفات التی تستمدّ من القول بالإمام الظاهر و الإمام الباطن،و بالمعنی الظاهر و المعنی الباطن،فإنهم ادّعوا أن لظواهر القرآن و الأخبار بواطن تجری مجری اللب من القشر،و إنها توهم الأغبیاء صورا،و تفهم الفطناء رموزا و إشارات إلی حقائق خفیة.و أن من تقاعد عن العرض علی الخفایا و البواطن متعثر،و من ارتضی إلی علم الباطن انحط عنه التکلف،و استراح من أعبائه، و استشهدوا بقوله تعالی: وَ یَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَ الْأَغْلالَ الَّتِی کانَتْ عَلَیْهِمْ قالوا:

و الجهال بذلک هم المرادون بقوله: فَضُرِبَ بَیْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بابٌ (1).

یقولون فی قوله: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا إِذا قُمْتُمْ إِلَی الصَّلاةِ أنه القیام من النوم، و مثل النوم مثل الغفلة.و المستجیب-أول رتبة یصل إلیها المنتسب إلیهم-طول ما کان فیه قبل استجابته فی غفلة من أمر اللّه و أمر أولیائه بمنزلة النائم فی الظاهر،فإذا انتبه بکسر کاسر (الکاسر من یتفقه بالدعوة و یصل إلی مدخل الفلسفة)کسر علیه،أو بمنبه له من قبل نفسه کما قد یتنبه النائم کذلک من ذات نفسه،و قد یوقظه عن نومه غیره.و أراد الصلاة قصد إلی بیت الخلاء،و قد ذکروا أن مثله مثل الدعوة التی فیها یتخلی من کل کفر و شرک و نفاق و خطیّة کما یتخلی فی بیت الخلاء من أمثال ذلک من النجاسات و الأقذار،یتخلی من ذلک فی الظاهر من أراد الطهارة فی الظاهر،و فی الباطن من أراد الطهارة الباطنة بالتبری من جمیع ذلک،ثم یقبل علی استماع العلم و الحکمة اللذین مثلهما فی الظاهر مثل الماء الذی منه أصل الحیاة الظاهرة،کما أن من العلم أصل الحیاة الباطنة الدائمة للأرواح (2).

و یدخلون الإمامة فی سیاق معتقداتهم،فبعد أن یذکروا أن القلب أول متکوّن من الجنین،ککون الشمس أول ما تکون من الفلک،و الناطق أول ما ظهر فی عالم

1- (1) المنتظم ج 5 ص 111. [1]

2- (2) تربیة المؤمنین من کتاب تأویل دعائم الإسلام للقاضی النعمان بن محمد ص 55.

؟؟؟،و هـذه النفس النامية لا توجد إلا بوجود موضوعها الذى هو جسـمها،فبوجوده وجودها و بعدمه عدمها...يقولون ثم إنه كان إلى الأئمة الأطهار الـذين هم حجب الإبداع على مرّ الأعمار،و إلى باب كل واحد منهم حجة و داعيه،و ما دونه حججه الاثنا عشـر-عدد المراتب فى الـدعوة الإسـماعيلية-الـذين لا يفارقون إقامـة الـدعوة الباطنـة.و إلى الأبواب الظاهرة و الحجـج و الدعاة و المأذونين إقامة الدعوة الظاهرة، فحـدود الظاهر يسـتخرجون الأنفس من عالم الطبيعـة و يهـذّبونها أولا بالرياضـة و الشـريعة،و ينقلونها إلى المعارف الحكيمة،و يصوّرونها بالصور العلمية لكون الأئمة المستقرّين هم الذين أقاموهم و أحلّوهم فى منازلهم على قدر الاستحقاق و رتّبوهم، فكان أول قائم بالدعوة فى دور الستر آدم،و تبعه نوح،و قام إبراهيم الخليل عليه السّلام و اجتمع عنده أهل المستقر،فكان لها كالشمس و هى له كالقمر،لأن هيكله من جملة الهياكل النورانية... (1).

و عندهم آدم الجزئى و آدم الكلى،و الفرق بين آدم الكلى و آدم الجزئى هو أول دور الستر،و آدم الكلى هو صاحب الجثة الإبداعية،لأنه أول الكـل،و إليه انتهاء الكل فى الابتـداء،و آدم دور الستر جزئى بالنسـبة إليه.و آدم الجسـمانى يقع على كل ناطق من نطقاء دور الستر،و ضـده إبليس الجسمانى فى دور كل ناطق.و يقول صاحب النص:

(فاعلم ذلک و إبليس ناطقنا صـلوات اللّه عليه هو(...كتابة سرية رمزية...)لعنه اللّه،فاعلم ذلک،و لذلک قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم«قرن بكل نبى شيطان،و قرن بى شيطانان»يعنى أبا جهل و أبا لهب(كتابة سرية)لأنهما كانا معاديين له و لمقيمه فى أول دوره) (2).

و هم يبقون عمل النبوة فى أئمتهم لا على أساس النيابـة و بقاء الدعوة إلى الشـريعة و دوام الهداية إلى الرسالة،فيقولون:(إن الإمام رسول إلى الخلق بأمر اللّه تعالى و نص رسوله من قبل الوحى و الإمام الثانى كذلک من قبل الإمام الأول،الأول بأمر الوصى، و النبى بأمر من اللّه عز و جل،و هلمّ جرّا من واحـد إلى واحد إلى يوم القيامة،يصح ذلک و يثبته قوله سـبحانه لنبيه(ع.م): إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ

1- (1) الذخيرة فى الحقيقة [1]للداعى الفاطمى اليمانى على بن الوليد ص 102-104.

2- (2) مسائل مجموعة من الحقائق العالية و الدقائق و الأسـرار السامية التى لا يجوز الاطلاع عليها إلا بإذن من العقد و الحل ص 129-134 تحقيق د.شتروطحان.

وَ يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَ هُمْ راكِعُونَ عنى هاهنا بالمؤمنين:الوصى و الأئمة من ولده و قوله تعالى:

وَ قُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَ رَسُولُهُ وَ الْمُؤْمِنُونَ فقوله فى هذه الآية«و المؤمنون»عنى به الأئمة الطاهرين من ذرية الرسول أولاد الوصى و البتول عليهم السّلام فلفظ«المؤمنون»هاهنا عام و معناه خاص،فلو لم يكن ذلک لم يدر من المأمور بالعمل و من الذى يراه،و كذلک جميع الحدود الذين هم دون الإمام:الباب و الحجة إلى المكاسر،كل واحد منهم رسول إلى من دونهم بنص من هو فوقه،بأمر متسلسل إلى اللّه سبحانه) (1).

و من الواضح اختلاف المضمون عند الشيعة فى أمر الوصاية و النص عنه فى هذا السياق،فهو تشبّه بهم،و لكنه يفترق عنه من حيث تقييد الإمامة بحدود الولاية و النيابة عن صاحب الرسالة و المبعوث بالنبوة،فالإمامة عند الشيعة امتداد لأمر الدعوة و مداومة على الأحكام و العمل بالأصول.أما الإسماعيليون فقد أوقعهم الغلو فى الادعاء بأن محمد بن إسماعيل مشهود له بالرسالة فى الأذان عند قوله:أشهد أن محمدا رسول اللّه،لأن شهادته لنفسه غير جائزة،و إنما كانت شهادته لمحمد بن إسماعيل (2).

كذلک فإن الغلو نال من جوهر العقيدة بالصفة الروحية للأئمة التى يعتقدها الشيعة فى الأئمة المعصومين لكى يكون الدين كاملا و يناط أمر الشريعة بإمام له من صفات صاحب الرسالة ما يعصمه،فقد قال الإسماعيلية:إن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم نقل إلى الإمام على بعض علومه الإلهية مباشرة ليتوارثها الأئمة من نسله بعده،و هى علوم تتمثل على الخصوص فى تفسير القرآن أو ما عرف بالتأويل أو المعنى الباطن،إذ لكل تنزيل تأويل،و كل كتب الإسماعيلية تشير إلى ذلک.كما ردّوا كل الأحاديث النبوية إلى أئمتهم و هى المعروفة بالأخبار،و قد جعلهم ذلک يثبتون لأئمتهم صفة إلهية (3).و هو ما يبرأ منه الشيعة،و قد اتخذ أعداؤهم ذلک ذريعة للطعن،و أنكروا كل حقائق التنزيه و دلالات النقاء و السمو فى عقيدة الشيعة.

1- (1) كتاب الأزهار و مجمع الأنوار للداعى ابن آدم الهندى البهروجى ص /184منتخبات إسماعيلية تحقيق د.عادل العوّا.

2- (2) الأنوار اللطيفة فى فلسفة المبدأ و المعاد للداعى طاهر بن إبراهيم الحارثى ص 161 الباب الخامس من السرادقة الرابع الفصل الثانى.و المسائل المجموعة من الحقائق ص 99.

3- (3) الحاكم بأمر اللّه ص 13-14.

و قد بيّن الأئمة-أنفسهم-منازلهم الدينية و مراتبهم،و وضحوا معالم الإمامة و صفات صاحب الأمر الشرعى،و لم يدع أحد منهم صفة إلهية.

و لا ننكر أن الحركة الإسماعيلية قد اتسمت بأساليب تنظيمية و بهياكل سرية و مناهج دعائية تدل على إدراك عميق لنفسيات شعوب الشرق الأدنى،و على فهم دقيق لمصادر التذمّر،و لا يبعد عن الواقع من يقول أن للإسماعيلية سحرا خاصا و جاذبية قوية كانت تهفو بنفوس فريق من الناس و تستميلهم،و تستأثر بأهوائهم،و تبلغ منهم مبلغا يدفعهم إلى المخاطرة و المجازفة و الإتيان بغرائب الأعمال،و قبول الطاعة العمياء و الاستسلام المطلق،و أن فى الكتمان و السرية و الخفاء و الغموض ما يستهوى الخيال و يرغب النفوس و يطلق الأوهام و الأحلام،و كلما كان السرّ أدق و أخفى،أو كان اللغز أعوص و أغمض كان سحر الخفاء أشدّ جاذبية و أقوى إطلاقا للخيال.و ما زال الإنسان منذ أقدم العصور مولعا بالغرائب و العجائب،محبّا لاستطلاع الأسرار و كشف المخبآت و استجلاء الغوامض المحجوبة و الأسرار المنيعة (1).و جميع ذلک من مقتضيات الأفكار الفلسفية و العقائد الغامضة التى عبّرت عن نفسها بالحركة، و ليست من التقية فى شىء.فما أوضح الاختلاف،و ما أجلى الفرق بين الاثنين؟ و يصرّح الكتّاب الإسماعيليون بأن حركتهم كان لها القدح المعلّى فى مضمار التنظيمات من حيث الدقة،و إنهم برعوا براعة لا توصف فى تنظيم أجهزة الدعاية على قلة الوسائل فى ذلک العصر،و استطاعوا أن يشرفوا بسرعة فائقة على أقاصى بقاع المسلمين،و يتنسّمون أخبار إقناعهم.فقد كان الإمام الإسماعيلى-و الذى يعتبر رئيسا للدعوة-يعتبر الدعاة عصبا مهما للدعوة،فينتخب الدعاة من ذوى المواهب.و وفقت الحركة الإسماعيلية بين جهاز الدعاية الذى نظمته و بين نظام الفلک و دورته،فجعلوا العالم-الذى كان معروفا فى عصرهم-مثل السنة الزمنية.فالسنة مقسمة إلى اثنى عشر شهرا،فقسموا العالم إلى اثنى عشر قسما،و سمّوا كل قسم جزيرة،و جعلوا على كل جزيرة داعيا،و قالوا:إن الدعوة لا تستقيم إلا باثنى عشر داعيا يتولّون إدارتها،يقابلهم فى عالم الفلک الواحد اثنا عشر برجا،يطابقها فى جسد الإنسان اثنا عشر نقيبا،يقابلها فى عالم الحجب اثنا عشر حجابا.و هكذا إلى بقية تنظيماتهم،

1- (1) القرامطة ص 78.

و التی تحتاج إلی بیان یفضی بنا إلی الإطالة و الخروج عن القصد،و قد أغفلنا الکثیر من جوانب الموضوع خشیة ذلک.و لم نذکر إلا ما کان إغفاله یخلّ بالغرض.

لقد شقّت الدعوة الإسماعیلیة طریقها فی المجتمع الإسلامی لعوامل متعددة و لجهازها السری و الدعائی،فتضافرت المواهب التی تنتمی إلی مختلف الجماعات و الأفکار علی دراسة الظروف الاجتماعیة و الاقتصادیة و السیاسیة،و اشترط علی الداعی أن یکون ملمّا بذلک،لیسهل علیه الدخول بین طبقات المجتمع الذی یوجّه إلیه.فهو مزوّد بمعلومات عن اختلاف الناس فی الدین و المذهب و العقلیة،و یخاطب فی دعوته کل جماعة بما یروقها لیجذبها إلی صفوف الحرکة،مع التأکید علی التکتّم و التخفّی و السرّیة،و کان أتباع کل مرتبة منهم لا یعرفون أسرار المرتبة الأخری.أما التقوی فهی أن یلزم الداعی الخیر و یعمل به و یتجنّب الشرّ و یحذره (1).

و حقیقة الحرکة أنها أممیة،لم تکن حرکة قومیة عنصریة،کما أنها لا ترتبط مع الشیعة الإمامیة إلا بالتسمیات الشکلیة،فکل مبدأ لدی الإمامیة یتحول لدیهم بما ینسجم مع معتقداتهم.و الحرکة الإسماعیلیة استغلّت تذمّر الناس مما ارتکبه حکام تلک العهود من جرائم و من سوء السیرة و الاستبداد،و لم تظهر أمام انحراف الحکام و ظلمهم دعوة تردعهم،أو حرکة تثور بهم إلا من قبل شیعة أهل البیت و بزعامتهم، فالإسماعیلیة تنخرط فی إعلان المعارضة و توجیه السخط الاجتماعی و الدینی فی البلاد الإسلامیة و المطالبة بحق العلویین الشرعی فی الحکم مع الاحتفاظ بالأهداف السرّیة، و التنظیمات الخفیة التی تخلو منها ثورات العلویین،و التی تتمیز بوضوح أهدافها و اشتهار رجالها بالعلم و الدین و الدعایة الجلیة.

و کان نهج الشیعة الإمامیة الزاهر و سبیلها الراشد ینأیان عن الطرق الباطنیة و أسالیبها السرّیة و وسائلها العنیفة،فکانت عقائد الإمامیة تحکم تصرفات من آمن بها و التزم،و لم یتردّد علماء الإمامیة فی شجب و إدانة ما یتجافی مع روح الإسلام و یخشی نور عقیدته و وضوح أهدافه،و ینزوی فی السرّیة و الباطن،و قاموا بدورهم الدینی فشملهم الباطنیة بأعمال القتل،فراح الکثیر منهم ضحایا و شهداء.

و کان التشیّع قد انتشر فی بلاد المغرب علی ید الإمام إدریس بن عبد اللّه بن

1- (1) القاضی أبو حنیفة النعمان المغربی:الهمة فی إتباع آداب الأئمة ص 55.

الحسن بن الحسن بن علی بن أبی طالب علیه السّلام الذی فرّ من أیدی العباسیین بعد موقعة فخ فی عهد الخلیفة الهادی سنة 169 ه.و أقام الأدارسة فی المغرب الأقصی دولة شیعیة سنة 172 ه التفّ حولها البربر،و من ثم أصبحت بلاد المغرب أرضا صالحة للدعوة الإسماعیلیة،و کان ذلک مما سهّل علی کل من الداعیین:أبی سفیان و الحلوانی عملهما،فلما ذهب أبو عبد اللّه الشیعی إلی المغرب فی أوائل سنة 180 ه وجد الأمور ممهدة له،کما وجد التشیّع قد دخل فی عقول البربر،و اعتنقه کثیر من وزراء الأغالبة (1).و کان من الحنکة السیاسیة بحیث استطاع أن یفهم الزعماء المحلیین أن الخلاف بینهم هو السبب فی ضعفهم،و أن الاتحاد تحت لواء التشیّع سیکون لهم القوة،فمهّد الداعی لمجیء مولاه المهدی عبید اللّه بانتصارات و مکاسب،فدفع قبیلة کتامة إلی مهاجمة دولة الأغالبة و مهاجمة دولة الرستمینی فی تاهرت بعد ذلک،و هکذا قامت دولة إسلامیة شیعیة جدیدة،و دخل المهدی القیروان فاتحا (2).

لقد اجتذبت الدعوة الإسماعیلیة إلی صفوفها جماعة من المفکرین،کما نسبوا إلیهم جمعیة إخوان الصفا.لأن حرکة الإسماعیلیة قامت علی أسس سیاسیة ثوریة عنیفة و متطرفة مازجت الأفکار و العقائد الفلسفیة التی حددت المنحی و صاغت النظرة التی یتّصفون بها،و لذلک کان یطلق علی کل متفلسف بأنه إسماعیلی و لو فی فترة محدودة اشتهر بها وضع الإسماعیلیة و أخبار حرکتهم الخیالیة التی تجمع بین الأفکار الفلسفیة و بین الأعمال الانتحاریة التی تقرب من الأساطیر،و الأسالیب التی تعتمد علی المنحی الخیالی و الدعائی الذی لا یهتم بنوعیة الأسلوب.

و اقترب الإسماعیلیة من الطریقة الشیعیة فی تبنّی ظلامات الناس و الدفاع عن المحرومین و البائسین،و ارتبطوا بالحرکة الشیعیة بمفهومها العام،فیما کان قادتهم یختارون الأشخاص للإیغال به فی عالمهم الخفی.کذلک ارتبط الإسماعیلیة بالشیعة من خلال الشعار الذی یقضّ مضاجع الجبابرة بالنّصفة لآل محمد و الرضا منهم و الانتقام لهم،و لکن کان الأمر بمفهومهم الخاص لا بالمفهوم الشیعی الواضح و الصریح الذی تهفو له الأفئدة و تندفع فی ظله النفوس إلی الموت و الشهادة إرضاء للّه

1- (1) مصر فی عصر الدولة الفاطمیة:محمد جمال الدین السرور.

2- (2) الفرق الإسلامیة فی الشمال الإفریقی لآلفرید بل ص 158.

و انتقاما للنبی و آله الطیبین.فکان الإسماعیلیة مع الشیعة فی مواطنهم فی الکوفة و بقیة مناطق العراق،و استغل الدعاة الإسماعیلیون اضطهاد الشیعة و جور الولاة،و اتصلوا بهم.کذلک کانت دعوتهم فی الیمن (1)و انضمّت إلیها بتحدّی الخلافة العباسیة.و قد ظهرت الحرکة الإسماعیلیة علی مسرح الأحداث السیاسیة متسلحة بسلاح العقیدة بعد أن بسطت دعوتها فی أرجاء البلاد الشاسعة،و حاولت أن تزیل الخلافة العباسیة و تقیم علی أنقاضها دولة إسماعیلیة،و لأن دعوتها لم تنجح فی بغداد،فقد سرت فی کثیر من بقاع الأمة العربیة غربی العراق لتجعل من العرب من الجزیرة و جنوب سوریا قوام دولتها و لب حضارتها و حملة لواء دعوتها،ثم تتولی الدفاع عن الأرض العربیة ضد الغزوات الصلیبیة،فی الوقت الذی انحدرت فیه خلافة بغداد،إلی فرض الصراع السیاسی و الخضوع للغزاة الأجانب تارکة عبء الدفاع عن بلاد العرب لسیوف المصریین و السوریین بقیادة الدولة الفاطمیة (2)و التی کانت فی عقائدها حریصة علی المظهر الذی یجعلها قریبة من عقائد الشیعة،و تعمل علی إخفاء المضامین الفلسفیة و المعتقدات الغریبة التی لحقت بالفرقة الإسماعیلیة.

الدولة الفاطمیة

اشارة

:

قویت الدعوة الإسماعیلیة تحت ظل ملوک مصر الفاطمیین و لا بأس بالإشارة إلی تاریخ هذه الدولة بموجز من القول،فإنی لا أحاول بهذه العجالة إعطاء صورة عن الدولة الفاطمیة،فهی دولة إسلامیة خدمت الإسلام،و ترکت آثارا تشهد للفاطمیین.

و التاریخ سجّل لهم صحائف بیضاء.و لکن الأقلام الملوثة بأوساخ الطائفیة و أدران التعصب أقامت الحواجز.

کان أول ظهورها بالمغرب سنة 297 ه‍909/ م و لم یرض خلفاؤها بالبقاء فی المغرب،بل حملهم الطموح و ساقهم إلی إخضاع ما جاور المغرب من البلاد، ففتحوا مصر سنة 358 ه‍969/ م و نقلوا قاعدة حکمهم إلیها،و قد دامت دولتهم زهاء قرنین من سنة 358 ه‍567/ ه‍(969-1171 م).

و أنشئوا مدینة ملکیة لتکون مقرّ سکناهم و بلاطهم،و هذه المدینة هی مدینة

1- (1) رسالة افتتاح الدعوة للقاضی النعمان بن محمد ص 33.

2- (2) الإسماعیلیون و الدولة الإسماعیلیة لبمیساف میشیل لباد ص 11 ط الاتحاد.

القاهرة (1)-المدينة الخاصة التى كانت تحيط بها أسوار ضخمة-فأصبح فى مصر لأول مرة بلاط خلفاء ينافس بلاط خلفاء بنى العباس.و فى عهدهم انفصلت مصر عن الإمبراطورية العباسية،و أصبحوا أشدّ أعداء تلك الدولة،و اتخذت الدولة العباسية أساليب الدعاية ضدّهم،فقد طعنوا فى نسبهم،و أطلقوا عليهم بدل لفظ الفاطميين -العبيديين-باسم الخليفة عبيد اللّه المهدى،أول خليفة فاطمى،و هو الذى أسس الدولة الفاطمية فى المغرب،و شككوا فى صحة نسب عبيد اللّه،فأطلق عليهم أعداؤهم هذه التسمية للقضاء على نسبتهم لفاطمة الزهراء عليها السّلام و سيأتى ذكر ذلك.

كما أن بعض مؤرخى العرب سلب عنهم هذه التسمية،و سمّاهم الخلفاء المصريون،و منهم من سمّاهم بالرافضة،و من خصومهم من سمّاهم(المجوس)على اسم أتباع زرادشت الذين كانوا فى فارس حتى ظهور الإسلام.و سمّوهم أيضا الباطنيين.

و أيا كانت التسمية و الألفاظ،فقد بسطوا سلطانهم،و دام ملكهم مدة من الزمن.

فقد تأسست الدولة سنة 297 ه‍909/ م فى المغرب،و انتقلت إلى مصر سنة 358 ه‍/ 969 م و سقطت سنة 567 ه‍1171/ م.

و كان عدد خلفاء مصر(11)خليفة هم:

1-المعز أبو تميم معد 341 ه‍ 952 م.

2-العزيز أبو المنصور نزار 365 ه‍ 975 م.

3-الحاكم أبو على المنصور 386 ه‍ 996 م.

4-الظاهر أبو الحسن على 411 ه‍ 1020 م.

5-المستنصر أبو تميم معد 437 ه‍ 1045 م.

6-المستعلى أبو القاسم أحمد 487 ه‍ 1094 م.

7-الآمر أبو على المنصور 495 ه‍ 1101 م.

8-الحافظ أبو ميمونة عبد المجيد 541 ه‍ 1146 م.

9-الظافر أبو منصور إسماعيل 544 ه‍ 1149 م.

10-الفائز أبو القاسم عيسى 549 ه‍ 1154 م.

1- (1) الدكتور عبد المنعم ماجد،نظم الفاطميين و رسومهم ج 9/2.

11-العاضد أبو محمد عبد اللّه 555 ه 1160 م.

و أبرز شخصية فى الدولة الفاطمية اشتهرت فى التاريخ هى شخصية الحاكم، حتى غلا فيه محبّوه.و سنشير لذلک.

و كانت الإسماعيلية وحدة لا تنفصم تحت زعامة الفاطميين،و كانت الدولة الفاطمية وقتئذ تسمى(الدعوة القديمة)و بموت الخليفة المستنصر الفاطمى حصل ذلک الانشقاق على(الدعوة القديمة)و انتهى المنشقّون إلى نزار بن المستنصر،و قالوا إن أباه عيّنه فى الإمامة و الخلافة من بعده،و استطاع زعيم هذه الدعوة(الحسن الصباح) أن يكوّن دولة نزارية لها كيانها الخاص فى فارس،و أن ينشىء دعوة عرفت فى التاريخ (بالدعوة الجديدة)و عرف أنصارها بالإسماعيلية النزارية أو(الإسماعيلية الحشيشية) و أخذت دولتهم تغالب الدهر منذ سنة 488 ه حتى سقطت فى سنة 654 ه على يد هولاكو المغولى،و لم تمت الدعوة النزارية بموت دولتها،و ظل أنصارها يعملون فى الخفاء حتى بعثوا اليوم باسم(الآغاخانية)اتباع آغاخان،و هؤلاء هم النزارية المحدّثون.

و أما أنصار الدعوة القديمة،فأولوا دعوتهم للمستعلى الابن الأصغر للمستنصر، و سمّوا المستعلية،و لمّا مات الخليفة الآمر،و ولى الخليفة الحافظ اعترف إسماعيلية مصر له بالرياسة،فسمّيت دعوتهم الدعوة الحافظية،و اعترف إسماعيلية اليمن بالطيّب فسمّوا الطيبية.

لقد كان من أكثر الأحداث تأثيرا فى إضعاف الدولة الفاطمية توالى الانقسامات المذهبية السياسية،و تعرّض الدولة إلى هزّات قوية،فقد كانت الاختلافات حول القائم بالحكم و البيعة له سببا فى تمزيق رعيتهم و تشتيت أتباعهم،فعند وفاة المستنصر -كما قلنا-فإن نزارا-الابن الأكبر-كانت له ولاية العهد،و قد أجلسه أبوه فى حياته، فلما مرض المنصور أراد أخذ البيعة له،لكن الوزير القائم بالحكم الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمّال كان يكره أن يكون الحكم لنزار لعداوة كانت بينهما بسبب أن نزار قال للأفضل يوما:انزل يا أرمنى يا نجس (1).و كان نزار قد وعد محمود بن وصال اللكى بالوزارة و التقدمة على الجيوش مكان الأفضل.

1- (1) النجوم الزاهرة ج 5 ص 142. [1]

و كان الأفضل هو الذى بادر بإخراج أبى القاسم و مبايعته و نعته بالمستعلى و قال:بأن النص و الوصية للابن الأصغر،و بادر و خرج من وقته و أخذ معه أخاه عبد اللّه،و توجهوا إلى الاسكندرية،و لا نخوض فى تفاصيل النزاع لأن ذلک ليس مقصدنا،و قد انتهى النزاع بهزيمة نزار،و انقسام الإسماعيلية منذ ذلک الحين إلى:

1-الإسماعيلية النزارية.

2-الإسماعيلية المستعلية.

و لاقت الدولة الفاطمية بعد هذا الانقسام الأمرين من معارضة النزارية و مقاومتهم (1).

و حدث انقسام آخر بعد وفاة الآمر،فقد خولفت أصول المذهب،و ولى الخلافة ابن عم الآمر،و حدث ذلک لأول مرة،و ليس لذلک من سبب،لأن الآمر قد ولد له قبيل وفاته ابن اسمه الطيب،فأخذت له البيعة بولاية العهد،و لكن الحافظ قد استقرت له الأمور بعد أن ضعفت قوته لما أبداه وزيره أحمد بن الأفضل من رغبته فى الاستقلال و الدعوة إلى نفسه.

و الغرض أن الحافظ فى ولايته الخلافة،و ظهور مخالفة أصول المذهب كان يمثل جماعة تخالف أغلبية الفاطميين الذين يرعون الحكم،فقد كان الحافظ محبوسا فى حياة الآمر.و أدى ذلک إلى انقسام جديد كان من عوامل إضعاف الدولة.

و أصبحت الإسماعيلية منقسمة إلى:

1-إسماعيلية حافظية.

2-إسماعيلية طيبية.

و تعرّضت الدولة إلى خلافات و منافسات فى عهد الحافظ بسبب الولاية على العهد،فقد عهد الحافظ أولا لابنه الأكبر سليمان،و لكنه مات بعد قليل،فعهد لابنه الثانى حيدرة،مما آثار حقد ابنه الثالث و اسمه حسن،فقام بثورة عنيفة انقسم بسببها الجيش الفاطمى إلى فريقين يحارب كل منهما الآخر،مما أدى إلى إضعاف الجيش فى مجموعه (2).

1- (1) مجموعة الوثائق الفاطمية،جمال الدين الشيّال21/.

2- (2) نفس المصدر22/.

و حدث فی السنة التالیة لوفاة الآمر فترة من أهم فترات التاریخ الفاطمی، و دامت لمدة سنة.فقد ولی الحافظ-و هو ابن عم الآمر-غداة وفاة الآمر کولی للعهد و کفیل لطفل منتظر،ثم ثار به أبو علی أحمد بن الأفضل شاهنشاه،و خلعه فی الیوم التالی و سجنه و استقل هو بالحکم.

و هذا الذی فعله الوزیر أحمد یعدّ انقلابا سیاسیا تام الأرکان،و أوشک بفعلته هذه أن یقضی نهائیا علی الدولة الفاطمیة،فقد کان أبو علی الحامی المذهب،و لهذا فقد عمل علی إلغاء کثیر من الشعائر الإسماعیلیة.و یروی صاحب النجوم الزاهرة بأنه أظهر التمسّک بالإمام المنتظر فی آخر الزمان،فجعل الدعاء فی الخطبة له،و یغلط بشکل شنیع فی مذهبه لأن ابن تغری یروی علی المنقول و الموروث من أن الشیعة هم کل من حمل الاسم،فلذلک لا یری فی انقلاب الوزیر و مخالفته إلا مضادة تامة و مخالفة کاملة تضع الوزیر فی الصف المعادی.

و کاد أبو علی أحمد أن یقضی علی الدولة الفاطمیة،و أن یقیم فی مصر دولة جدیدة،لکن أمراء الإسماعیلیة و قوّادهم ثاروا علیه،و تمکنوا من قتله و إعادة الحافظ.

و لهذا اعتبر الإسماعیلیة الیوم الذی أطلق فیه سراح الحافظ و إعادته إلی الحکم عیدا من أعیادهم الهامة و أسموه(عید النصر) (1)و ظلوا یحتفلون به إلی آخر أیام دولتهم لأنهم اعتبروه نصرا للمذهب الإسماعیلی و للدولة الفاطمیة و إحیاء لهما بعد أن حاول الوزیر أحمد تغییرهما.

و قد أنجبت زوجة الآمر بعد وفاته ولدا آخر غیر الطیب،و لکنها أخفته فی القرافة خوفا علیه من الحافظ الطامع فی الخلافة.

و لمّا عاد الحافظ للحکم،ظل دائب البحث عن الطفل المختفی،إلی أن عثر علیه،و تخلص منه،و أعلن نفسه خلیفة (2).

و(البوهرة)الیوم هم الإسماعیلیة المستعلیة،یعتقدون أن إمامهم الحادی

1- (1) یقول المقریزی فی الخطط:عید النصر هو السادس عشر من المحرم،عمله الخلیفة الحافظ لدین اللّه لأنه الیوم الذی ظهر فیه من محبسه،و یفعل فیه ما یفعل فی الأعیاد الأخری من الخطبة و الصلاة و الزینة و التوسعة فی النفقة ج 1 ص 490.
2- (2) مجموعة الوثائق الفاطمیة24/.

و العشرين(الطيب)ابن الآمر المستعلى قد استتر،و بدأ سلسلة الدعاة المطلقين،و قد ظهر منهم ثلاثة و عشرون فى اليمن،ثم ثلاثة و عشرون فى الهند.و يعتقدون أن الأيوبيين لم يتسلموا الحكم من الورثة الحقيقيين،بل من الخلفاء المزيّفين،لأن الحافظ و أولاده يعدّون غاصبين (1).

و على أى حال فإن أهم شخصية برزت فى التاريخ الإسلامى للطائفة الإسماعيلية هى شخصية الحاكم بأمر اللّه،و دارت حول تلك الشخصية أقوال و أساطير،فلنقتصر على ذكره منهم.

الحاكم بأمر اللّه:

هو المنصور بن نزار العزيز باللّه،ولد بالقاهرة ليلة الخميس 23 من شهر ربيع الأول 335 ه 985 م.كنيته أبو على،و لقبه الحاكم بأمر اللّه،و هو أول خليفة من الفاطميين،ولد فى القاهرة.

ولى الخلافة بعد وفاة أبيه سنة 386 ه فى شهر رمضان،و كان له من العمر إحدى عشرة سنة و نصف.

و قام بالوصاية عليه برجوان الصقلىّ،و كان يطمع بالاستئثار بالسلطة،و شعر الحاكم بخطر برجوان و ما يقصده،فعمل على التخلّص منه،فاحتال على قتله سنة 350 ه و بذلک استعاد الحاكم سلطته،و قلّد الحسين بن جوهر أمور الدولة،و لقّبه بقائد القواد.

و اتصف الحاكم بصفات النبل و الشهامة و الأخلاق الفاضلة،و مثّلوه بعمر بن عبد العزيز بعدله.

و كانت تقوى الحاكم البالغة قد جعلت أتباعه يبالغون فى تقديرهم لشخصيته، فظهرت أقوال كثيرة بين أتباع المذهب الإسماعيلى تبيّن أن الحاكم ليس بإمام مثل الأئمة،و إنما بشّرت به الأنبياء،و أشير إليه بالرمز فى التوراة على أنه الزاهد الراكب الحمار ليأتى بهذه الأعمال الباهرة (2).

1- (1) الحقائق الخفية لمحمد حسن الأعظمى 18.

2- (2) عبد المنعم ماجد،الحاكم بأمر اللّه الخليفة المفترى عليه 106.

و لقد كانت خلقة الحاكم بأمر اللّه تساعده كذلک،توحی بأنه شخص متميز عن الآخرين،و تؤكد لديه هذا الإحساس.فلقد وصفته الروايات المعاصرة له فقالت:

(كان منظره مثل الأسد،و عيناه واسعة شهل-(يخالط سواد عينيه زرقة)و إذا نظر إلى الإنسان يرتعد لعظم هيبته،و كان صوته جهر مخوف،فإذا أشرف عليهم،سقطوا على الأرض وجلا منه،و فحموا عن خطابه) (1).

و زاد الطين بلّة أن الغلو فی ذات الحاكم وصل إلى حد التأليه،و أن الغلو جاء من بعض المقرّبين إليه،بحيث انفرط عقد مبادئ المذهب،و اختلطت عقائده.

و يعبّر أحد الدعاة عن هذه الحالة فی زمن الحاكم بقوله:(فغلا فيه صلى اللّه عليه من غلا،و سفل بذلک من حيث ظن أنه علا،و وقع فی أهل الدعوة و المملكة فی الاختباط،و كثر الزيغ و الاختلاط) (2).

و لعل المتداخلين فی صفوف المسلمين-و الذين يسعون بكل جهد لمحو العقيدة الإسلامية-قد استغلوا هذا الشعور و غلوّ الاتباع فی شخصية الحاكم،فنفثوا السموم فی جسم ذلک المجتمع المتماسک فی عقيدته بالوحدانية و النبوة،فراحوا يبثّون تأليه الحاكم و نفی التوحيد و النبوة.

و من أولئک:الفرغانی المعروف بالأخرم،رجل من بلاد فارس،تسمّی بالحسن بن حيدرة،و هو رجل أجدع الأنف أو مثقوبه،فعرف بالأجدع،و كان ظهور دعوته سنة 409 ه 1018 م على خلاف فی ذلک.

قام الأخرم بنشر الإلحاد،و قال أن المعبود هو الحاكم،و دعی لإبطال النبوة، فأسقط اسم اللّه و اسم النبی صلّی اللّه عليه و آله و سلّم و اعتبر التنزيل و التأويل و التشريع خرافات و قشورا.

و دخل فی خمسين رجلا من أعوانه إلى الجامع الذی كان فيه قاضی القضاة ابن أبی العوام،فدخلوا فيه راكبين،و أخذوا أموال الناس و ثيابهم،و سلّموا لابن أبی الهوام رقعة ليقرأها الناس،و قد بدأ باسم الحاكم الرحمن الرحيم،فرفع القاضی صوته منكرا،و هجم الناس على الأخرم و قتلوا أصحابه،أما هو فقد هرب(و قيل قتل)و إنه

1- (1) محمد عمارة:عند ما أصبحت مصر عربية ص 97 نقلا عن:الحاكم بأمر اللّه و أسرار الدعوة الفاطمية لمحمد عبد اللّه عنّان.

2- (2) الحاكم بأمر اللّه الخليفة المفترى عليه.

يقوم بعمليات أمثال هذه فى البلاد الإسلامية ليقتل المسلمون بعضهم بعضا،و تبقى آثار هذه الهجمات المنكرة يتوارثها أجيال لم يمحصوا الأمور كما يراد،فيكيلون الذمّ و يتّهمون الأبرياء.

و كذلک ظهر داعية آخر اسمه محمد بن إسماعيل سنة 408 ه‍1017/ م و قيل اسمه:أنوشتكين أو هشكتين.و يظهر أنه تركى،و لقب بالدروز الـذى لا يعرف لها أصل.و هذا الداعية قرّبه الحاكم فى أول الأمر،حتى عرف بأنه غلام الحاكم، و ارتفعت منزلته فى الدولة،و أظهر الغلو فى الحاكم،و أنه الإله الذى صـنع العوالم، و صـنف كتابا أسـماه الدستور،و حصل له اتباع عرفوا بالدرزية بلغ عددهم ستة عشر ألفا كانوا يأتون بأمور مبتذلة... (1).

و اختلف فى نهايـة الـدرزى،و خلـط بينه و بين الأـخرم،فبينما تقول روايـة أنه قتل و جماعـة من الدرزيـة على يـد الأتراک و هو فى موكب الحاكم،و إنهم لم يقتلوه بسبب اعتقاده،بل لأنه نصح الحاكم بإزالة الألقاب التى كانوا يباهون بها.

و تقول رواية ثانية إنه هرب إلى الشام،و نشر دعوته فيها،و تقول ثالثة إنه قتل فى إحدى المعارک.

و الـذى يهمّنـا فى هـذا الموضوع هـل أن طائفـة الـدروز فى سوريـا و غيرها ينتمون إليه أم لا؟ و الـذى يظهر أنهم لا يحبّون أن يلقّبوا بهـذا اللقب،و يستنكرون أن ينسبهم أحد إلى الداعى نوشتكين الدرزى المسمى محمد بن إسماعيل الدرزى-و هم كما يظهر- يرمونه بالإلحاد و الخروج عن عقيـدتهم،و يطلقون على أنفسـهم اسم الموحدين و تسـميتهم بالدروز تسـمية خاطئة،و مع ذلک فقد أصـبح اسم الدروز لهذه الفرقة ملازما لهم.و الباحث يجد نفسه مضطرا لإطلاق هذا الاسم لاختصاصه بهم فى الدلالة و الاشتهار.

و كـذلک اختلف الكتّاب و المؤرخون فى أصل الـدروز هل أنهم فرس أم أتراک؟ و قيل:إنهم مزيـج من عناصـر مختلفة من عرب و فرس و هنود.

1- (1) نفس المصدر السابق 108.

و ذهب البعض من مؤرخى الأفرنسيين فى القرن السابع إلى أن الدروز هم سلالة الجنود الفرنسيين الصليبيين الذين كانوا تحت قيادة الكونت«دى دروكس».

أسكنهم جبال لبنان بعد سقوط عكا!!!فكلمة الدورز هى تحريف«دى دروكس».

و التاريخ يدلنا على أن هذه القبائل التى اعتنقت عقيدة الدروز كانوا يسكنون هذه المنطقة من لبنان و حوران و وادى التيم قبل أن تبدأ الحروب الصليبية بأكثر من ثلاثة قرون،و أن قبائلهم و عاداتهم معروفة بأصولها و تقاليدها الرفيعة.

يقول الأستاذ محمد كامل حسين:و ربما أراد المؤرخون الفرنسيون بهذا القول أن عددا كبيرا من جنودهم كانوا أسرى عند الدروز،فاتخذهم الدروز عبيدا لهم،كما اتخذوا النساء الفرنسيات إماء و سبايا (1).

و الذى يبدوا أن عقيدة الدروز فى تأليه الحاكم أخذت عن الداعى حمزة بن على الذى قدم مصر سنة 395 ه و أخذ بنشر الدعوة سرّا إلى تأليه الحاكم،و كان الأخرم الفرغانى من أعوانه،قد شجّعه حمزة على الجهر بتأليه الحاكم كما تقدم.

و لمّا قتل الفرغانى حلّ محله الدرزى محمد بن إسماعيل الذى تنسب إليه الدروز،و هم يتبرّءون منه.

و قضية علاقة الدرزى بالحاكم تضمّ الإشارة إلى إنكار الحاكم لما ادّعاه الدرزى،و لكن اتفقت النقول و تطابقت الآراء على أن الحاكم إنما أنكر خوفا من الرعية بعد أن قدم الدرزى مصر-و كان من الباطنية القائلين بالتناسخ-فاجتمع بالحاكم و ساعده على ادعاء الربوبية،و صنف له كتابا ذكر فيه أن روح آدم عليه السّلام انتقلت إلى الإمام على،و أن روح الإمام انتقلت إلى أبى الحاكم،ثم انتقلت إلى الحاكم،فأظهر الحاكم الانقياد له و إطاعته.و لمّا ثار الناس،قال له الحاكم:أخرج إلى الشام،و أنشر الدعوة فى الجبال،فإن أهلها سريع الانقياد.فقرأ الكتاب على أهله،و استمالهم إلى الحاكم،و أعطاهم المال،و قرر فى نفوسهم الدرزى التناسخ،و أباح لهم شرب الخمور،و أخذ مال من خالفهم،و الزنا،و إباحة دماء أعدائهم.و لعل موافقة المصادر الإسماعيلية لعلاقة الدرزى بالحاكم هى الأصل فى اعتقاد صحة الاتهام،فقد جعلت شخصية الدرزى هى الصلة بين الإسماعيلية و الدروز،أو تروى أن الدرزى تمكن فى

1- (1) محمد كامل حسين،طائفة الدروز9/ ط دار المعارف بمصر.

وقت قليل من السيطرة على الموقف فى وادى اليتم،و إعادة الهدوء و السكينة إلى صفوف الإسماعيلية هناک بعد فرقة و اختلاف،و عمل جاهدا لتوسيع و انتشار الدعوة الإسماعيلية فى تلک البلاد،و بقى الدرزى رئيسا للدعوة و كبيرا لدعاتها فى بلاد الشام حتى إعلان وفاة الحاكم و ولاية الظاهر،فلم يعترف الدرزى بوفاة الحاكم مدّعيا بأن وفاته لم تكن سوى نوع من الغيبة لتخليص أنفس مريدى الحاكم من الأدران.و بقى متمسكا بإمامة الحاكم،و منتظرا عودته من تلک الغيبة.و بذلک أعلن انفصاله عن الإسماعيلية التى لا تعتقد بالغيبة،و تقول بفناء الجسم و بقاء سرّ الإمامة بالروح،فينتقل بموجب النص إلى إمام آخر،و هو المنصوص عليه من قبل الإمام المتوفى،و سمّيت الفرقة التى تبعث(الدرزى)بالدرزية نسبة إليه (1).

و عقائد الدروز تلتقى مع عقائد الإسماعيلية فى الأمور التى انشقّوا بها عن المجتمع الإسلامى الشيعى،و تطرّفهم فى أمور لا يقرّها التشيّع،و انقسموا عن المسلمين فى عقائدهم التى لا يقرّها و لا يؤمن بها أتباع أهل البيت.لأن هناک عقائد هى مجموعة من أفكار و فلسفات قديمة صيغت فى صورة إسلامية،و هذا أبعد ما يكون عن نهج أهل البيت و أتباعهم،و قد بيّنا ذلک.

و أيا كان،فالحديث عن الدروز و عقائدهم صعب،فإن لهم كتبا مقدسة و آراء يشذّون بها عن المسلمين،فهم يتّبعون حمزة فى تعاليمه و تأليهه للحاكم،و هنا نقول:

إن الأيدى العابثة أو الفئات الحاقدة استطاعت خلق هذا الاعتقاد-تأليه الحاكم- و تشويه عقائد المسلمين بعقائد بعيدة عن روح الإسلام،و استغلال ظروف الناس العامة و أوضاع الأشخاص.

و ذلک عند ما حاولت بعض الطوائف إحياء،نحلها القديمة،و اتخذت لها مبادئ كان من أهمها:مناوءة سلطان الإسلام السياسى،و إعادة مجد أسلافهم.مما يحملنا على القول بأن هؤلاء الدعاة الذين وفدوا على مصر،و حاولوا نشر ألوهية الحاكم،كانوا ينتمون إلى هذه الطوائف،و قد عمدوا من وراء دعوتهم التى قاموا بنشرها إلى إثارة الفتن و القلاقل فى القاهرة،ليمهّدوا بذلک للقضاء على الدولة الفاطمية،غير أن محاولتهم سرعان ما باءت بالفشل (2).

1- (1) تاريخ الدعوة الإسماعيلية ص 238-239. [1]

2- (2) انظر كتاب طائفة الدروز للدكتور محمد كامل حسين ط دار المعارف بمصر 1962.

و لكنهم نجحوا فى نشر العقائد الفاسدة و بثّ روح الفرقة بين الطوائف، و أوجدوا تجمعا على الباطل،و تفرقا و ابتعادا عن الحق.

فهؤلاء الذين دعوا إلى تأليه الحاكم لم تكن عقولهم بهذا المستوى من الجهل و الغرور،و أن يسندوا خلق الأكوان إلى مخلوق عاشروه،و لكنهم استغلوا شخصية الحاكم و موقعها فى النفوس،فراحوا ينشرون ظلالهم و إلحادهم،و قد تألفت هذه الجماعة من ثلاثة:الفرغانى و محمد بن إسماعيل و حمزة،و قد وقع الاختلاف بينهم و اختص حمزة بنشر الدعوة.و من رسائل إلحاده(توكلت على أمير المؤمنين جل ذكره فى جميع الأمور معلّ علة العلل صفا صفاة العلة).(من عبد أمير المؤمنين و مملوكه حمزة بن على بن أحمد هادى المستجيبين المنتقم،من المشركين بسيف أمير المؤمنين و شدّة سلطانه،و لا معبود سواه).

و أصبح حمزة يلقب بالإمام،و لمّا غاب الحاكم،صرّح حمزة بأنه هو الإمام، و أنه سيغيب أيضا على أن يرجع مرة أخرى.

و لا نخوض فى تفاصيل سيرة الحاكم،فحديثها يطول،و فيها ما يدعو إلى الاستغراب و الدهشة من الأعمال الكثيرة و القدرة الفائقة على تحرّى العدل فى أوضاع العامة،و المبالغة فى العقوبات و الأحكام،إلى غيرها من التحوّلات فى الأوامر و التغييرات فى الأمور التى يقرّرها،و قد كانت سببا فى الطعون و النقمة على الحاكم.

و كان سبب اختيارنا له فى البحث،و اقتصارنا فى الحديث عليه للعبرة فى فعل الأهواء و تأثير الأحقاد التى استخلصت من سيرة الحاكم الأعمال التى تدل على روح العدل و الحرص على مصالح الرعية.و وافت بها ما ينسجم مع الهوى و الحقد للانتهاء إلى أن الحاكم دعا لنفسه بالأهوية،و ارتكب من الأفعال ما ارتكب.و التحقيق يثبت أن الحاكم فى كل أمر يخرج عن سيرة العدل كان يقابله بالإنكار،و لا أريد هنا أن أقف مدافعا عن الحاكم بأمر اللّه،بقدر ما أقصد إلى التأكيد على مسألة الأهواء و التعصب، و ما تفعله فى التاريخ من تشويه حتى تمكنت من إخفاء آثار أعماله و أوامره التى ألزم الناس بها و هو يعالج بها أوضاعا فى المجتمع،و يقصد إلى القضاء على الفساد فيها و تستهدف المحافظة على الأخلاق،و معالجة موجات الانحلال التى بدأت تشيع بسبب الترف فى الأوساط الغنية أو تنتشر بسبب المجاعات فى أوساط الفقراء،فحرّم عمل(الفقّاع)و بيعه و كان من مسكرات ذلك العصر...و لقد جاء فى سجل أصدره

بتحريم المسكرات فى سنة 400 ه(1009 م)أن:المسكر هو مجمع السيئات، و القائد إلى قبائح الأفعال.

و مما يؤكد أن الحاكم إنما كان يواجه موجة من التحلل الخلقى فى المجتمع القاهرى فى ذلك الحين،ذلك المرسوم الذى أصدره فى سنة 401 ه و الذى يمنع فيه اللهو و الغناء،و خاصة بالنسبة للنساء،و الذى يحرم الاجتماعات الماجنة التى كانت تعقد فى الخلاء بالصحراء،و عند ذلك هوجمت أماكن البغاء بشدة،و أزيلت دورهم و أوكارهم،و طهّرت منهم أحياء المدينة،و كانوا ينبثون فى معظم جنباتها.كما سبق و حرّم على الناس دخول الحمام إلا بمئزر يستر بعض عوراتهم،و حرم على غير الباعة و المشترين للأرقّاء دخول أسواقهم حتى يمنع العابثين من تمضية الوقت فى التمتّع بالجوارى بحجة الشراء،كما طلب من تجار الرقيق عدم الجمع بين الغلمان و الإماء فى مكان واحد،و أن يفرد لكل منهم مكان خاص بالبيع و الشراء (1).

و يقوم الحاكم بقتل قاضيه حسين بن على بن النعمان،و كان من أسباب قتله أن الحاكم كان قد ملأ عينه و يده،و شرط عليه العفة عن أموال الناس.فرفع إلى الحاكم شخص متظلم رقعته يذكر فيها أن أباه مات و ترك له عشرين ألف دينار،و أنها كانت فى ديوان حسين،و كان ينفق عليه منها مدة معلومة،فحضر يطلب من ماله شيئا، فأعلمه القاضى أن الذى له نفذ.فاستدعى الحاكم القاضى،فدفع إليه الرقعة،فأجابه بما قال للرجل،و أن الذى خلفه أبوه استوفاه فى نفقته.فأمر الحاكم بإحضار ديوان القاضى فى الحال،فأحضر ففتش فيه من مال الرجل،فظهر أنه إنما وصل إلى القليل منه،و وجد أكثره باق،فعدّ على القاضى ما رتبه و أجراه عليه و إكرامه إياه و ما شرط عليه من عدم التعرّض لأموال الرعية،فجزع و هاله و قال:العفو و أتوب.و انصرف بالرجل،فدفع إليه ماله،و أشهد عليه.فحقد الحاكم عليه ذلك،فأمر به فحبس،ثم أخرج بعد ذلك على حمار نهارا و الناس ينظرون (2).

و أمر الحاكم قاضيه عبد العزيز بن محمد بن النعمان بالنظر فى المساجد، و تفقد أوقافها،و جمع الريع و صرفه فى وجوهه.ففعل ذلك و بالغ فيه.

1- (1) محمد عمارة:عند ما أصبحت مصر عربية ص 107-108.

2- (2) ولاة مصر الكندى ص 599.

و بنى الحاكم جامع القاهرة و جامع راشدة على النيل بمصر،و مساجد كثيرة، و نقل إليها المصاحف المفضضة و الستور الحرير و قناديل الذهب و الفضة،و منع من صلاة التراويح،و قطع الكروم،و منع من بيع العنب،و لم يبق فى ولايته كرما،و أراق خمسة آلاف جرّة من عسل فى البحر خوفا من أن تعمل نبيذا،و منع النساء من الخروج من بيوتهن ليلا و نهارا (1).

و لم يرض الحاكم بعادة من سبقه من الحكّام فى حمل الناس على تقبيل الأرض بين أيديهم،فنهى عن ذلك،و نهى عن الصلاة عليه فى الخطب و المكاتبات،و جعل مكان الصلاة عليه:السّلام على أمير المؤمنين.

و أمر الحاكم قاضيه عبد العزيز فى يوم عاشوراء أن يمنع النساء و الناس و هم فى مواكب العزاء من المرور فى الشوارع،لكى لا تمتدّ يد العامة إلى أمتعة الباعة،و أن يختص النوح و النشيد خارج المدينة.

و لما منع الحاكم النساء الخروج من دورهنّ و منع الأساكفة من عمل الخفاف لهن،اتفق أن القاضى مرّ على دار امرأة،فناشدته أن يقف لها و يسمع كلامها،فوقف، فبكت بكاء شديدا إلى أن رقّ لها،و حلفت له أن لها ابنا أنه فى السياق،و أنها تريد أن تراه قبل أن يموت.فأمر بعض رجاله بأن يمضى معها إلى دار أخيها،فأغلقت بابها، و أعطت مفتاحها لجاريتها،و ذهبت مع الرجّالة إلى دار طرقتها،ففتح لها،فدخلت، و استمرت مقيمة فيها،فكشف عن أمرها،فإذا هو منزل رجل كانت تهواه و يهواها.

فأخبر القاضى بذلك،فتعجّب من فطنتها حتى توصلت إلى مرادها،و إذا بزوجها قد جاء إلى القاضى و قال:ما أعرف زوجتى إلا منك.و حلف أنها ليس لها أخ و إنما ذهبت إلى عشيقها.فسقط فى يده،و خاف القاضى أن يبلغ الخبر الحاكم،فيكون سبب غضبه عليه،فركب فى الحال إلى الحاكم،و قصّ عليه القصّة و بكى.فأمر الحاكم بإحضار المرأة و الرجل،فمضى الأعوان إليهما بغتة،فوجدوهما نائمين متعانقين لا يعقلان من السكر،فحملوهما إلى الحاكم،فأمر بإحراق المرأة فى بارية،و ضرب الرجل بالسياط ضربا مبرحا،و زاد فى الاحتياط على النساء و التحجير عليهنّ (2).

1- (1) النجوم الزاهرة ج 4 ص 177. [1]

2- (2) ولاة مصر ص 607.

لقد كان الحاكم يدور فى الأسواق على حماره،يبحث عن الذين يغشّون الناس،و يتولى عمل الحسبة بنفسه.

فإذا انتهت هـذه الأعمال تاريخيا إلى الذين أسـهموا فى إشاعة بدع الضـلال، و استسـهلوا إطلاق كلمة الفساد و الرداءة على الآخرين،و قيّد مداركهم التعصّب،و شوّه علمهم الهوى،قالوا بما يضحک،و كتبوا زورا،و لكنهم مرغمون على ذكر الحقيقة كقولهم:(فمن وجده قد غشّ فى معيشـة،أمر عبـدا أسود معه يقـال له مسـعود أن يفعل به الفاحشـة العظمى،و هـذا أمر منكر ملعون لم يسـبق إليه،و كان قـد منع النساء من الخروج من منـازلهنّ،و قطع شـجر الأعنـاب حتى لا يتّخـذ الناس منها خمرا،و منعهم من طبـخ الملوخيـة و أشـياء من الرعونات التى من أحسنها منع النساء من الخروج و كراهة الخمر...) (1).

ثم تسـهم الإقليمية فى الحملة على الحاكم بأمر اللّه الذى استطاع أن يقيم حكما قويا،أن ينشغل به ملوک الأقطار الإسلامية الأخرى الذين ضعفت قبضتهم و وهنت قواهم،و هم بأبراد الخلافة و أزياء الإسلام التى تكفل لهم الخضوع و الاستسلام.

يقول محمد عمارة:(و نحن نرى أن شخصـية الحاكم بأمر اللّه شخصية تاريخية قد أصابها الكثير من الظلم و التعسّف فى التفسير و التحليل من قبل الكثير من المؤرخين و الباحثين.بل و نرى أن هـذا الظلم قـد انسـحبت أذياله على القاهرة و مصـر،فبـدت فى ثوب من السـخرية و الاضطراب،و جو من الإجراءات التى لا رابط لها و لا منطق وراءها خلال فترة حكم هذا الخليفة التى امتدت ربع قرن من الزمان) (2).

و لقـد بلغ من قوة الحاكم و قـدرته على السـلطان و الملک،أن ينفذ إلى بنى العباس فى إقليم سـلطانهم و موضع ملكهم،فخطب أبو المنبع قرواش بن المقلد الملقب بمعتمد الدولة للحاكم سـنة 401 ه فجمع معتمد الدولة أهل الموصل،و أظهر طاعة الحاكم،و أحضـر الخطيب يوم الجمعة،و أعطاه نسخة ما يخطب نقتطف منها:

(اللّه أكبر اللّه أكبر لا إله إلا اللّه،و اللّه أكبر و للّه الحمـد،الحمـد للّه الذى انجلت بنوره غمرات الغضب،و انهدّت بقدرته أركان النصب،و أطلع بقدرته شمس الحق من

1- (1) ابن كثير ج 12 ص 9. [1]

2- (2) عند ما أصبحت مصر عربية،محمد عمارة ص 96.

الغرب،الذی محا بعدله جور الظلمة،و قصم بقوته ظهر الغشمة،فعاد الأمر إلی نصابه و الحق إلی أربابه.

و أشهد أن محمدا عبده و رسوله صلّی اللّه علیه و آله و سلّم اصطفاه و اختاره لهدایة الخلق،و إقامة الحق،فبلّغ الرسالة،و أدی الأمانة،و هدی من الضلالة،و الناس حینئذ عن الهدی غافلون،و عن سبیل الحق ضالون،فأنقذهم من عبادة الأوثان،و أمرهم بطاعة الرحمن،حتی قامت حجج اللّه و آیاته،و تمّت بالتبلیغ کلماته صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و علی أول مستجیب إلیه علی أمیر المؤمنین و سید الوصیین،أساس الفضل و الرحمة،و عماد العلم و الحکمة،و أصل الشجرة الکرام البررة،النابتة فی الأرومة المقدسة المطهرة،و علی خلفائه الأغصان البواسق من تلک الشجرة،و علی ما خلص منها و زکا من الثمرة) (1).

و یذکر ابن الجوزی أن الحاکم کان یرسل الرسل إلی قرواش،و یکاتبه حتی استماله،فأقام الدعوة له بالموصل،و انحدر إلی الأنبار،و أظهر قرواش الخلاف، و أدخل یده فی المعاملات السلطانیة،و ورد علی الخلیفة من هذا ما أزعجه،فراسل عمید الجیوش،و کاتب بهاء الدولة البویهی.

و لقد کان هذا التهدید الفاطمی خطیرا،حمل العباسیین علی اللجوء إلی کل الوسائل لدفعه عنهم و النیل من الحاکم و الفاطمیین،و لجئوا إلی الطعن فی نسب الفاطمیین،و تحریک المشاعر الدینیة ضدّهم،و الضرب علی أوتار الزندقة و الإلحاد، و رمی الآخرین بالکفر و الفسوق،مما اعتاده علماء العوام و خدمة الملوک،فکتب فی دیوان الخلافة محضرا بذلک أخذت فیه خطوط الأشراف و القضاة و الفقهاء(شهدوا جمیعا أن الناجم بمصر و هو منصور بن نزار المتلقب بالحاکم حکم اللّه علیه بالبوار و الدمار و الخزی و النکال و الاستیصال ابن معد بن إسماعیل بن عبد الرحمن بن سعید لا أسعده اللّه،فإنه لمّا صار إلی الغرب تسمی بعبید اللّه و تلقب بالمهدی،و من تقدمه من سلفه الأرجاس الأنجاس علیه و علیهم لعنة اللّه و لعنة اللاعنین أدعیاء خوارج لا نسب لهم فی ولد علی بن أبی طالب،و لا یتعلّقون منه بسبب،و أنه منزّه عن باطلهم،و أن الذی ادّعوه من الانتساب إلیه باطل و زور،و أنهم لا یعلمون أن أحدا من أهل بیوتات الطالبیین توقف عن إطلاق القول فی هؤلاء الخوارج أنهم أدعیاء،و قد

1- (1) المنتظم ج 7 ص 149.و [1]النجوم الزاهرة ج 4 ص 225. [2]

كان هذا الإنكار لباطلهم و دعواهم شائعا بالحرمين،و فى أول أمرهم بالغرب منتشرا انتشارا يمنع من أن يتدلّس على أحد كذبهم،أو يذهب و هم إلى تصديقهم،و إن هذا الناجم بمصر هو و سلفه كفّار و فساق فجار ملحدون زنادقة،معطلون،و للإسلام جاحدون،و لمذهب الثنوية و المجوسية معتقدون،قد عطلوا الحدود،و أباحوا الفروج،و أحلّوا الخمور،و سفكوا الدماء،و سبّوا الأنبياء،و لعنوا السلف،و ادعوا الربوبية).

و قد سقناه بكامل نصه و لفظه لإظهار ما كان عليه العباسيون من ضيق و قلق، فالتمسوا فى الطعن،وكيل التهم متنفسا و مخرجا.و لهم من الأتباع ممن تمسحوا بالعلم و تزيوا بالفقه ما يحقق لهم أغراضهم و يترجم رغباتهم.و قد لجئوا إلى التزوير، فوضعوا خط الشريف الرضى فى المقدمة (1).

و معلوم أن الشريف الرضى-بمكارمه و عظم منزلته و جلالة قدره فى مجتمعه و أهل بيته-كان لا يرى فى الملوك العباسيين من هو أهلا لها،و قد عرف القادر منه ذلك،و أصبح يخشى السيد الرضى لأنه يرى هوانا فى مقامه فى ظل حكّام كالقادر، فيفصح عن رأيه فى حكم العباسيين،و يجهر بميوله إلى الفاطميين مبالغة فى إظهار الخلاف للعباسيين،و يقول السيد الرضى:

ما مقامى على الهوان و عندى مقول صارم و أنف حمىّ

أحمل الضيم فى بلاد الأعادى و بمصر الخليفة العلوى

من أبوه أبى،و من جدّه جدّ ى إذا ضامنى البعيد القصى

و منها:

لف عرقى بعرقه سيدا الناس جميعا محمد و علىّ

إن جوعى بذلك الربع شبع و أوامى بذلك الطلّ ريّ

و لا يبعد أن يكون اعتراف الشريف الرضى بالحكام الفاطميين و التصريح برغبته فى اللحاق بهم فى نظر العباسيين بمستوى واحد من الأهمية مع اعتراف الولاة بالطاعة للفاطميين،و ذلك لعظيم مكانة الشريف الرضى و هيبته و تأثيره على الناس،لعلمه و شرفه و فضله،و أن يكون ذلك من أسباب لجوء العباسيين إلى كتابة محضر ديوانهم،

1- (1) انظر:المنتظم ج 7 ص 255 و البداية و النهاية ج 11 ص 346.و [1]النجوم الزاهرة ج 4 ص 229.

و من الروايات ما يفيد أن أبيات الشريف الرضى الشعرية كانت وراء أمر القادر بكتابة المحضر.

و مهما يكن من قول،فإن الشريف الرضى لم يكن بالرجل الذى ينصاع لإرادة الباطل و أوامر الجور،و يتخلى عمّا يليق بمنزلته من قول الحق.

و لم يحرّك محضر العباسيين مشاعره أو يثير غضبه،بل أهمله تماما.

و الخلاصة:

فإن الحاكم كانت تبدو عليه منذ حداثة سنّه مظاهر التفوّق و الذكاء و قوة الشخصية،و قسمات الإنسان المتميز عن الأشباه و الأقران،و كان صاحب اهتمامات ثقافية و فكرية مبكرة،لا فى مجال الفلسفة و التشيّع و الفلك و التنجيم فقط-كما اشتهر عنه-بل و فى مجال التذوّق الأدبى للشعر و النثر،و المشاركة فى مجالسهما و مخالطة أعلامهما فى ذلك الحين (1).

و برز فى عهده أسماء كان لها أثرها فى انتشار الإسماعيلية كأحمد حميد الدين الكرمانى،و القاضى عبد العزيز بن محمد بن النعمان،و الحسن بن الحسن بن الهيثم و غيرهم من الدعاة و رجال الفكر الإسماعيلى.

أى أن الحركة العلمية التى بدأها المعزّ الفاطمى مع بنائه القاهرة لم تهدأ، و بقيت على و تائرها المتعددة،منها ما يتعلق بالفكر الإسماعيلى،و منها ما يتصل بالحياة الفكرية و الأدبية المختلفة،و التى تدين للمعزّ الفاطمى بأعماله و عنايته،كما تدين العلوم الإسلامية لعمله الأزهر بالفضل.و لا جدال فى أن عصر المعزّ لدين اللّه من أزهى العصور،و كيفما اتجهت إليه النظرة،فإن عصره يمتاز بأمارات التقدم و الترقى و الحضارة.

و يحتل فى العقيدة الإسماعيلية موقعا متميزا بين أئمتهم،فقد عدّ بعد إمامهم محمد بن إسماعيل مجددا للشريعة،عند ما أمر القاضى النعمان بن محمد بتجديد الشريعة و رفع مبانيها و إظهار ظواهرها و معانيها،فألّفها فى مائتى كتاب تزيد على عشرين، و زاد على ذلك عدة كتب،جاء فيها من ذكر الحلال و الحرام و القضايا و الأحكام (2).

1- (1) عند ما أصبحت مصر عربية نقلا عن:الحاكم بأمر اللّه لمحمد عبد اللّه عنان.

2- (2) كتاب الذخيرة فى الحقيقة،الفصل الحادى و العشرون. [1]

و هنا لا بد من معاودة الإشارة إلى أن الفاطميين من الإسماعيلية كانوا فى معتقداتهم العامة بالإمامة يردّدون اعتقاد اعتقاد الشيعة الإمامية،و جرى فى أحوالهم السياسية هذا الاعتقاد،و جهدوا فى الحفاظ على الطابع الذى يخفى آثار الباطنية التى أبعدتهم عن الأركان و الأصول،و عند ما تقترب منه نقاط الاختلاف و مواضع الافتراق،تتحول معتقداتهم إلى أمور بعيدة عن عقائد الشيعة على ما تضمنه من اعتراف بمنزلة الإمامة و عقيدة الوصاية-فهى كما قلنا سابقا-واحدة فى الأصل،لكنها فى السياق تفترق من بعد عصر الإمام الصادق عليه السّلام و يشعر المسلم الشيعى فى مراسيم الدولة الفاطمية و أقوال حكامها بالقرب من عقيدة الإمامة الشيعية فى أصولها و أحكامها،إلا أنها سيقت بعد الانشقاق إلى أشخاص فيهم صفات الحكام و السلاطين غالبة،و لا يبدو عليهم مهما أضيف إليهم من صفات أخرى أى قدر من المنافسة لأصحاب الإمامة الحقة و أهل الخلافة الكبرى ممن حفظ النص بهم،و جعلت فيهم الولاية و الخلافة و الإمامة: وَعَدَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ لَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضى لَهُمْ .

و لقد كان الأخ الصديق العلامة محمد حسن الأعظمى-عميد كلية اللغة العربية بكراتشى-واقعا تحت تأثير دعوته الإيمانية الطيبة إلى التقريب و الوحدة عند ما حكم بأن الشيعة الإمامية يتفقون مع الفاطميين على المسائل العامة فى الفقه.و الصديق الأعظمى يقدّم مشاعر التقريب و الاتفاق على الحقائق التى لا سبيل إلى تجاوزها،و قد عرفناه واسع النشاط،غزير المعرفة،صادق الكلمة،يحمل رسالة المودّة و الصفاء، و لأقواله أثر فى المحافل.لذلک ذهبت مقالته نصا اعتمدها الأستاذ الدكتور محمد غلاّب-أستاذ الفلسفة بالدراسة العليا بالأزهر-و لو ترک القول دون أن يعقبه تفصيل لحملناه على العموم و قلنا إن السيد الأعظمى يريد أن المسلمين جميعا يتفقون فى المسائل العامة فى الفقه بأصولها،و هو ما يشملنا و الفاطميين.كذلک قوله فيما تختص به الشيعة من الأخذ عن طريق أهل البيت،لكنه يحصر الاختلاف فى أمرين أساسيين:

أولا:فيما يتعلق بمواقيت الصيام و الفطر.فالفاطميون يكملون رمضان ثلاثين يوما فى كل عام،و لا يلتزمون برؤية الهلال،بل يعتمدون على التقويم الفاطمى و الحساب،و الاثنا عشريون يقيّدون صيامهم اعتمادا على أحاديث صحّت عندهم برؤية الهلال كأهل السنّة.

ثانيا:الاثنا عشريون يجيزون زواج المتعة،أما الفاطميون فلا يجيزون المتعة كأهل السنّة.

و ليس الأمر بهذه السهولة،و نخشى أن يخرج الحديث عن موضوعه،فإن الأجزاء السابقة من الكتاب ضمّت بحوثا عن المتعة،استوفينا بها أوجه الخلاف، و يضيق وسع الكتاب الآن،كما نحذر الدخول فى المسائل الفقهية القليلة و القصيرة التى تسربت عن الإسماعيلية،لأن أحكامهم خاصة بهم بعد عصر الافتراق.و قد أخذنا على أنفسنا التعرّض للاعتقادات المهمة،لأنا لا نودّ أن نحجب الحقائق الدينية، و لكنا لا نتزحزح عن نورها إلى ضيق و عتمة الرموز و التأويلات المتكلفة،فالفاطميون يقولون:إن أسرار الدين متوقفة على تعليم الأئمة من نسل فاطمة الزهراء،و هم الكواكب و النجوم و المصابيح،ترسل نور المعرفة إلى قلوب أتباعهم،كما أن العين المبصرة بدون القمر و الشمس و المصباح لا تحقق الفائدة المرجوة،كذلک المسلم لا بدّ له من أن يستمدّ من الأئمة أنوار العلم و المعرفة.و إلا فإن العقول وحدها لا تكفى (1).و رووا عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنه قال:«إنى تارک فيكم الثقلين:كتاب اللّه و عترتى أهل بيتى ما إن تمسّكتم بهما لن تضلوا أبدا،و إنهما لن يفترقا حتى يردا علىّ الحوض» (2).و قوله للإمام على:«سوف تقاتل على تأويله،كما قاتلت على تنزيله» (3).فهذا كله يدل على أن الوصى و من تبعه من الأئمة من ذريته هم الذين اختصوا بتأويل القرآن،و لذلک رووا عن على قوله:«ما نزلت آية من القرآن إلا علمت كيف نزلت،و أين نزلت،و فى أى شىء نزلت،سلونى قبل أن تفقدونى».

و نكتفى إلى هنا بما أورده السيد الأعظمى حيث تبدأ بعد هذه النقطة مجالات الافتراق عنّا و دخولهم فى عالمهم الخاص بهم.ففى بدء كل مسألة يساق النص بلفظ أو بآخر،ثم يعقبه عرض بحسب معتقداتهم.فمثلا يأتى لفظ(فالإمامة عندهم- الفاطميين-هى قيادة العالم و حمل الحقيقة إليه،و مثل هذا المرشد ضرورى وجوده فى كل عصر حتى لا يبقى العالم جاهلا) (4).و هو من نصوصهم الخاصة،و لا ينافى

1- (1) الحقائق [1]الخفية عن الشيعة [2]الفاطمية ص 24.

2- (2) المجالس المؤيدية ج 1 ص 147([3]الحقائق). [4]

3- (3) أسرار النطقاء ج 2 ص 203(الحقائق). [5]

4- (4) كلام بير ص 21(الحقائق).

مضـمون الإمامة من حيث كون الإمام هو الهادى و المرشد إلى الطريق الحق،و هو القدوة لقوله تعالى: وَ اجْعَلْنا لِلْمُتَّقِينَ إِماماً و قوله عز و جل: وَ جَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا و الإمامة التى تنطوى عليها الخلافة هى لدوام النبوة و بقاء الرسالة لقوله تعالى: إِنِّى جاعِلُکَ لِلنّاسِ إِماماً و قوله سـبحانه: وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِى الْأَرْضِ وَ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَ نَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ و الشيعة تقيّد الإمامة بالنص،و تجعلها فى إطارها الشـرعى و أصلها الدينى،فهى من أركان الدين،و ليست من الفروع حتى يمكن أن يجتهد فيها،و تفوّض تفاصيلها و أحكامها إلى البشـر،فيكون للأـمويين الرأى فى الإسـراف فى الظلم و اتخـاذ مظـاهر السـلطان و العظمـة،و يصـبح للعباسـيين الحق فى قتل أولاد النبى محمد،و ارتكاب المحارم،و صرف أموال الرعية فى غير وجوهها و حلّها.و قد أطلق الإمام الكاظم-كما علمنا-كلمته فى شدة المواجهة مع السـلطان و الملوكيـة التى تتلبس بالإسـلام،فقـال للرشـيد قولته:«أنا إمام القلوب،و أنت إمام الجسوم»لأن مظاهر الخضوع و الموافقـة التى تنسـجم مع مظاهر الأبهة و السلطنة كانت من مقتضيات القهر و الغلب،و لقد جاء من سوّغ إظهار الحكم المتسلط بالسيف و القائم بالغلبة بمظهر الإمامة،و إقرار سلطانه مع الفجور،و ذلک من أبعد ما يكون عن الإسلام،و من أغرب ما اختاروه للإساءة إلى عقيدة الإمامة.

و إذا نظرنا إلى الملوک الفاطميين،وجـدنا انسـياقهم إلى مظاهر الملوكية بأوسع صورها.و قد كان المعزّ-صاحب المواكب و الركوبات التى تبعث على الدهشـة و الانبهار-إذا ما اطلع المرء على ما كتب عن هـذه المواكب و الركوبات التى يترک وصـفها فى النفس و الـذهن صورا خياليـة،و هى تجرى على نظام و ترتيب و مراسـيم و أعمال لم يكن مثلها فى عصـر أو قطر آخر (1).و القصد أن مسـلک حياتهم أقرب إلى الـدنيا و السـياسة،و أدنى إلى إمامـة الجسوم و سـلطة الزمان،و هم أوفق بها.أما الإمامة الكبرى فهى مقيدة بشـروطها،و متعلقة بأهلها الذين أحاطهم ولاة الجور بأسوار من الرعب.و لكن نور الإمامة لا تحجبه زنزانات الحكام أو عساكرهم،و لم ينل الحكّام من تفانى الأئمة الأطهار من أهل البيت فى الدعوة إلى التمسّک بالعقيدة و نشر الأحكام.

و الخلاصة،فإن الفاطميين قاموا بدور كبير و مشرّف فى مجال رفعة شأن

1- (1) انظر تفاصيل وصف المواكب هذه فى النجوم الزاهرة ج 4 ص 79-101.

الإسلام و إبراز عظمة فكره،و قد جذبوا إليهم الكثيرين من المفكرين و الأدباء و الفقهاء فانضموا إلى الدولة الفاطمية،و اعتنقوا الإسماعيلية،و أصبحوا قادة فيها،و هم كما قلنا فى مظهر عقيدتهم يتوخّون ما يتفق مع العقائد و الأحكام،و يقتربون من عقائد الشيعة فى مهمات الأمور و الأحداث التاريخية،و لعل صحة النسب و بقاء الانتماء إلى الدوحة المطهرة كان من أهم عوامل تميّزهم عن بقية الفرق الباطنية.

الهفت و الأظلة:

حاولت فى بحثى عن الإسماعيلية و الإمامة أن أحصل على أغلب المصادر و الكتب التى تختص بالإسماعيلية،و أن تكون من مظانّها و تصدر من أصحاب العلاقة.

و قد نشر معهد الدراسات الشرقية فى بيروت كتابا سمّى:بالهفت و الأظلة.

و قدم له الأستاذ الإسماعيلى عارف تامر بضميمة الأب عبده خليفة اليسوعى،و هو ينسب للمفضل بن عمر،و الكتاب جاء كمجالس متعددة تتضمن أسئلة متفرقة من المفضل بن عمر إلى الإمام الصادق يوجهها المفضل،و الإمام الصادق عليه السّلام يجيب.

و انتشر الكتاب بعنوان أنه من كتب الإسماعيلية،ثم صدر كتاب(الهفت الشريف)تقديم و تحقيق الأستاذ الإسماعيلى مصطفى غالب.

و الكتاب مجهول المؤلف و معدوم السند،بل يفقد كل عوامل الصحة و مقومات القبول،و مع الفرض أن المؤلف معروف و اسمه مشهور و الإسناد موجود،فإن العقل يحكم بأن الكتاب نوع من أنواع المهازل،و صورة من صور الخرافات المؤلمة التى منى بها المجتمع الإسلامى،فكم ابتلينا بدسّاسين،و أثقل كاهل المسلمين بما وضعه الذين يفترون الكذب على اللّه و رسوله من أفكار و أقوال و ما سطّرته تلك الأيدى من كتب نسبوها إلى رجال الأمة من حملة العلم و رؤساء المذاهب مما لا ينسجم مع ما عرف عنهم و ما هم فيه من المنزلة،و لو لا واجب الحق و إظهار الحقيقة لألقيناه فى سلة المهملات أسوة بغيره من الكتب المكذوبة التى تضم الأراجيف و الخرافات، و تعلن عن نفسها بنفسها لوضوح مضامينها و ما تضم بين صفحاتها،و لا ندرى ما الدافع على نشر الكتاب إذا كان الناشر نفسه يعترف بأنه يحتاج إلى مناقشته بابا بابا، و فكرة فكرة،ففيه ما لا يقبله العقل كما يعترف بقوله:

(إن الإمام الصادق–و هو الحكيم الموحّد المعروف بسعة علمه و إيمانه–يترفّع عن تعميم هذه الأفكار لتلاميذه و تبليغها لمريديه).

و أول ما يسترعى الانتباه من الناشر قوله:(مما لا جدال فيه أنه قد نؤاخذ على محاولتنا هذه،و قد نلام من الأصدقاء و الإخوان،لأن الكتاب الذى ننشره الآن من الكتب السرّية التى لا يجوز نشرها على العامة،لأن فيها تعاليم ربما يساء فهمها و تؤوّل على غير حقيقتها،مما يحدث آثارا سيئة فى النفوس و يمزّق وحدة الصفوف، و ما أحوجنا إليها فى هذه الظروف،و لكن لا بد من القول و نحن أمام موضوع خطير بأنه كم يثلج صدورنا إذا ما فتح هذا الكتاب أمام علماء و أدباء و باحثين لإبراز نصوص علمية تدحض،و إثبات أشياء تخالف الوقائع،فنحن لا يهمنا إلاّ جلاء الحقيقة وحدها،و إبراز الواقع بوجهه الناصع،و الحقيقة تأبى إلا الظهور مهما اعترضها من عقبات).

يخيل للقارئ عند الوقوف على هذه العبارات أنه سيقف على شىء فى النهاية يستحق الخوض فى قراءة أو تحقيق أمور مخالفة للحقيقة و يرفضها الواقع،أو أن فى ثناياها بعد التشذيب عطاء فكريا أو دلالة عقائدية أو نتاجا أدبيا يقدّمه الأستاذ تامر إلى العالم خدمة للحقيقة و قياما بواجبه العلمى كما يشير إلى ذلک بقوله:

(إذ نضع هذا الكتاب بين أيدى العلماء نعلم علم اليقين بأننا قد أدّينا جزءا من واجبنا نحو العلم و الحقيقة التى عاهدنا اللّه أن نجعلها هدفنا و مثلنا الأعلى فى الحياة).

مما يشعرنا بأن الأستاذ عارف قد أطلق هذه الكلمة نتيجة لدراسة موضوع علمى بطريقة منهجية هادفة إلى كشف حقيقة أو إظهار تفاصيل أو دقائق فى اتباع أصول التحقيق لإبراز ما يخدم العلم و يظهر الحقيقة نتيجة ما اكتسبه من خبرة فى ممارسته، و عند ما نقف على الكتاب نصاب بخيبة الأمل و للوهلة الأولى،إذ لا نعثر فيه على أمر يناسب قوله،فليس فى الكتاب مواضيع معقولة،فضلا عن أن يكون علما أو فكرا أو نحوهما.

ليس فيه من المعرفة المتّسعة المنسّقة و المرتبطة بنظام يعنى من الأقوال أو الأفكار شىء،بل فيه كل ما يمجّه الذوق و يرفضه العقل و لا يقرّه العرف.

و نعود للاستغراب عند ما نقف على قوله أن نشر هذا الكتاب لا بد أن يلقى استنكارا...الخ.

ص:499

و حق أن يكون الكتاب موضع استنكار و استخفاف لكل من يقرأه،فكيف لا يستنكر مثل هذه الأمور التى تفاجأ بها الأمة فى عصر الثقافة و العلم،و فى زمن التقدم و التطور،ينفذ إلينا من بوابة عضادتاها أحد المختصين الإسماعيليين و أحد الآباء المسيحيين،و الغريب أن يطبع طبعة أولى عام 1960 م و طبعة ثانية عام 1965 م.و إنى لأكبر الذوق الأدبى و البحث العلمى عن هذا الفهم السقيم و الذوق الهابط حتى يكون هناك إقبال على تناول هذا الكتاب إلا للاستهزاء و السخرية،و على الأغلب تكون من قبل أعداء الإسلام و الساعين بكل جهد و قدرة للنيل من أبنائه،و إعطاء صورة مشوهة عن مجتمعه.و لا أدرى أى شىء فى الكتاب يدل على صحته و يشير إلى ثبوته حتى يحتاج إلى دحض،و أى عمل يوصف بالموضوعة و المنطق حتى يدعو إلى نقد؟؟! و لا بد أن نتساءل بموضوعية عن مقومات أى بحث تاريخى أو أثر علمى،أ ليس المضمون أو المنهج أو المعالجة أو الوصف التاريخى هى الأسباب التى تكسب البحث أهمية و الأثر دلالة؟فيتوخى منه الفائدة،و يرجى منه المعرفة.أما إذا كان الأثر و الكتاب يحدث آثارا سيئة لعدم هذه الأسباب و لخلوّه من الأهمية،فلا مبرر لذكره فضلا عن التفكير فى نشره،و إن كان من صنف(الهفت)بخرافاته و أباطيله و أكاذيبه، فعلى المرء-أى امرئ مسلم-أن يسعى إلى إتلافه و يعمل على محوه،لما يحدثه من آثار سلبية تمسّ وحدة المجتمع.

أضف إلى أن الكتاب منحول من قبل شخص لا يجيد الوضع،و لا يحسن الألفاظ التى صاغ بها أكاذيبه.

و الكتاب مجهول المؤلف و معدوم السند،فكيف أقدم الاثنان على تكليف نفسيهما إشاعة عمل لا تتوافر فيه عناصر الصحة.و إن يكن عتب فعتب على عارف تامر لكونه إسماعيلى المذهب،و فى مثل هذا العمل إساءة بالغة سيما إذا كانت تصدر من إسماعيلى.و نستغرب متسائلين:ما هو الدافع و ما هى الخدمة التى يسديها بنشر هذا الكتاب؟فليس من خدمة العلم و الحقيقة فى شىء أن تنشر هذه الأقوال الكاذبة و الخرافات الشائنة و تنسب إلى شخصية(خارقة متفوقة ذات مستوى رفيع هامت بجلائل الأعمال)هى شخصية الإمام الصادق عميد أول مدرسة فكرية فى الإسلام و رئيس أول مركز لتعليم الفلسفة،و مخرج العقل فى العصور الإسلامية من نطاقه المحدود إلى فضاء رحيب تسيطر على أرجائه حرية الفكر العلمى السليم القائم على

الحقيقة و المنطق و الواقع،و أن مدرسته عليه السّلام قد أنجبت خيرة المفكرين و صفوة الفلاسفة و جهابذة العلماء-كما يقول عارف نفسه- (1).

و لم يستبق الناشر النتائج بوعيه عند ما يقول و يعترف أن الكتاب لا يليق بالنشر، و ذلک ما يدعو إلى الحيرة،فإن النتائج هى أحداثه الفرقة فى المجتمع،و تعريض وحدة الصف إلى التمزّق لأنه لا يضمّ بين دفتيه إلا الإساءة لجميع طوائف المسلمين و التهجّم على العقائد،و الطعن برجالهم.

و لا يدرى أحد منّا إلا الناشر نفسه ما هى الأسباب التى تكمن وراء نشر الكتاب و هو يصرح برأيه فيه.

كان اللازم-كما يقضى واجب النشر و أمانة النقل-أن يتأكد الناشر من صحة الكتاب و نسبته للمفضّل،و أن يتحرّى صفة المؤلف من الكتاب،فإذا عدم الاسم استدل بالأثر،فهل كان المؤلف ثقة فى النقل و رجال أسانيده كذلک.فإذا كان الأثر عبارة عن أكاذيب و مفتريات و خرافات،فالمنتحل أبعد ما يكون عن صفات الثقة و الأمانة.

و لا أجد تبريرا أو احتمالا مناسبا يجعلنا على علم بارتكاب مثل هذا الخطأ، و قد كنت بحسن الظن أحاول ذلک باعتبار الأستاذ عارف من الكتّاب الذين ينادون بحرية الكلمة و الموضوعية.إذن لا بد أن هناک أسبابا خاصة و عوامل غامضة حدت به إلى أن يقوم بطبع الكتاب،فيقدّم للمكتبة العربية و الأمة الإسلامية كتابا لا يحتوى- باعترافه-إلا آراء غريبة و شاذة،الأمر الذى يصبح أمامه موضوع العلم و الحقيقة مجرد ادعاء و صبغة يحاول أن يطلى نفسه بها دوما،فأى حقيقة فيما يدور بين الأشباح و الأظلّة،و ما يعرضه أمامنا من عالم المهووسين و المصابين،و تزكم أنوفنا رائحة الدسّ التى تفوح من الآراء و الحوادث التى وردت فى الكتاب كالأظلّة و الأشباح و المسوخية و الناسوتيّة و الأدوار و الأكوار و الرسخ و المسخ و الزواخر و حجب الآدميين و قد القدود و سطح السطوح و الحجب الشجى...الخ...و نظريات أخرى تتعلق بالإمام أمير المؤمنين على عليه السّلام و سلمان الفارسى،و بدء الخليقة،و تقمص المرأة...و افتراءه على الإمام الصادق عليه السّلام فى كثير من تأولاته،فيقول بكل جرأة

1- (1) القرامطة ص 49.

إن الإمام الصادق هو مؤسس الباطنية فی الإسلام،و فی عهده نمت و ترعرعت البذور التی غرست حتی بذور ابن سبأ،فتراه هنا یثیر قضیة لا صلة لها بالواقع،فحکمه بأن تأسیس الباطنیة یعود إلی الإمام الصادق هو من جملة المفتریات التی أشرنا إلیها فی بدء الحدیث و قلنا أن قدم الاعتقادات الإسماعیلیة و اتصالها بالمدارس الفلسفیة و المذاهب القدیمة التی سبقت الإسلام حملها علی الافتراء و الالتصاق بالإمام الصادق،و نسبة المعتقدات التی ظهرت بعد انحرافهم عن مسار الوصایة و الإمامة إلی الإمام الصادق و أهل البیت و کل أحکامهم بلا بینة و جمیع أقوالهم بلا دلیل،لأن عزل النصوص عن مقاصدها و سوق الأفعال التی تصدر عن الإمام الصادق أو غیره من الأئمة المعصومین فی غیر ظرفها تجن واضح و افتئات مشین.

و یبدی لنا الأستاذ علی صفحات الکتاب رأیه فی قضیة ابن سبأ،و أن آراءه قد ترعرعت بذورها فی ذلک العهد،فإذا به یتعرّی تماما من صفات التحقیق و التثبّت.

و قضیة ابن سبأ لا تقل خرافیة و کذبا عن(الهفت)الذی قدمه عارف ثامر فما هی إلا شخصیة وهمیة أوجدتها العناصر المعادیة للإسلام،و غذّتها الطائفیة الرعناء،و کان غرسها و نسج خیوطها فی القرن الثالث الهجری.و قد بحثناها فی غیر موضع فی أجزاء الکتاب السابقة.

و لا نجهد أنفسنا بأکثر من ذلک فی الردّ علی عارف،بل نحیل الردّ علی الأستاذ الإسماعیلی مصطفی غالب فیقول:

و لا ـ بد لنا و نحن نستعرض بعض ما کتبه عارف ثامر من أن نشیر إلی الکتابین اللذین أصدرهما مؤخرا و هما:(الإمامة فی الإسلام و القرامطة)لما أورد فیهما من الأراجیف و الخرافات المضحکة،مع علمنا الأکید بأنه هو نفسه یعرف حقیقة تلک الأراجیف و الأساطیر التی لا تتفق مع المنطق و التاریخ،و تتناقض أشد التناقض، و لکنه جاء بها لینال ما یرضی شهوته و یشبع نهمه،معتمدا فی ذلک علی المبدأ الذی یقول:(خالف تعرف)و لقد شحن هذین الکتابین بکل ما هو غریب و مخالف لجمیع من سبقه من الکتّاب و المؤرخین،و إن کنا نعجب لمن یختلق مثل هذه الروایات، و یفتعل النصوص،و یحرّف الوثائق،نقول و الألم یعصر قلوبنا و یحزّ فی أعماقنا أن الغایة لدی هذا الإنسان تبرر الواسطة،حتی و لو کانت الواسطة تقویض دعائم الدین، و طعنه فی الصمیم،و الإجهاز علی آخر رمق من الضمیر الإنسانی،علما بأنه لو أردنا

الرجوع إلى أى كتاب من الكتب التى حققها أو ألّفها عارف ثامر نجـد نقيض ما قال فى الآخر،فهو يأتى بالفكرة أو المصـدر أو الرأى فى هذا الكتاب،فى حين أنه يخالفه أشدّ المخالفة،و ينقضه أبشع النقض فى كتاب آخر،ذلک لأن كل كتاب سار فيه حسب الهوى الجارف (1).

و عن الهفت و الأظلة يتحدث الأسـتاذ مصطفى غالب حول ما ارتكبه الأستاذ ثامر من التحريف و الزيادة و إن كان(الهفت)الذى شرّفوه-و إنما يشـرّفون الخرافة و الافتراء-فى متنه هو من جنس ما قدّمه ثامر،و لكن مصـطفى غالب يدّعى أنه لفرقة باطنية أخرى،و لا يعنينا ذلک لأن العبرة فى المضمون و فى الاتجاه الباطنى الذى نخالفه.و علىّ أن أسوق القول على طوله لمقتضيات البحث:

(مما لا جدال فيه أننا نعيش فى عصر تطوّر فيه العلم و الفكر،و انطلقت عصارات الأدمغة المفكرة لتفعل و تبنى صروح البشرية على أساس علمى صـحيح رائـده الخلق و التقـدم و الإبـداع،و لتنير الطريق الصـحيح أمـام الأجيـال الصاعـدة التوّاقـة إلى الارتشاف من منهل العلم و المعرفـة،و أصـبح للفكر رسالـة مقدسـة هـدفها التوضـيح و النوعيـة و الأمانـة بعيـدا عن الارتزاق و الهوايـة و التحريف.فإنسان هـذا القرن (التكنولوجى)أصـبح ينظر إلى العلم بمنظار الواقع و الحقيقـة و الصـدق فى تتبع الأحداث التاريخية و الوقائع العلمية...دعانى لإطلاق هذه الصـرخة الداويـة ما لمسـته مؤخرا أن بعض الأيـدى قـد عبثت و لا تزال تعبث فى تراثنا الفكرى،و خاصـة ما يتعلق منه بآثار الفرق الباطنية السـرّية.نعم لقـد امتـدت الأيـدى(غير الأمينة)فتلاعبت بما عثرت من نصوص مخطوطة فغيّرت و بدلت فيها بدون رادع من ضـمير أو وازع مناقبى.

فى مطلع عام 1958 ميلادية طلب إلىّ المستشرق الآلمانى الكبير البروفسور (شتروتمان)أن أعيره نسخة خطية من الكتاب الهفت الشريف الذى كان فى ذلک الوقت يعمل على نشره و تحقيقه فى(هامبورغ)...فقد لبيت طلبه و أرسلت له النسخة المطلوبة...

و راحت الأيام تدور،و إذا بى أفاجئ بكتاب معروض فى الأسواق أصدرته

1- (1) تاريخ الدعوة الإسماعيلية ص 19-20. [1]

المطبعة الكاثوليكية فی بيروت سنة 1960 م علی حساب دائرة(البحوث و الدراسات بإدارة معهد الآداب الشرقية)عنوانه(الهفت و الأظلة)المنسوب إلی المفضل بن عمر الجعفی،و قد قام بتحقيقه و التقديم له عارف ثامر و الأب أ.عبده خليفة اليسوعی.

اللّه.اللّه.كيف تبدل عنوان الكتاب بهذه السرعة الصاروخية من الهفت الشريف إلی الهفت و الأظلة؟فقلت لنفسی:ربما كان هذا كتابا آخر.أم أن هنالک بعض النسخ المخطوطة تحمل هذا العنوان.فرحت أبحث و أنقب خلال ثلاث سنوات حتی تمكنت من الاطلاع علی أكثر من ثلاثين مخطوطة،و قد جاءت كلها بعنوان واحد هو (الهفت الشريف)...فأخذت أراجع النسخ المطبوعة و أطابقها علی نصوص النسخ الخطية فوجدت مع الأسف الشديد بأن التلاعب و التزوير قد وقع بالفعل،و لما كنت أحرص علی أن يكون المؤرخ أو العالم أو المحقق متّصفا علی الأقل بالأمانة العلمية و الدقة و الإخلاص و التجرّد و النزاهة،فقد عمدت إلی تحقيق الكتاب مشيرا إلی الزيادات و التحريفات بقدر الإمكان..

ثم يخاطب الأستاذ غالب الأستاذ ثامر:

نحن لا ننكر الخدمات التی قدمتها للمكتبة الإسماعيلية حيث قمت بنشر و تحقيق بعض المؤلفات بالرغم من أنها جاءت مشوّهة مقلوبة رأسا علی عقب،و بصراحة أقول:إننا نفضل ألف ألف مرة أن تبقی تلک الآثار فی طی الكتمان و الإهمال علی أن تتناولها الأيدی مبتورة.تلاعب التحقيق بنصوصها و حتی بعناوينها...) (1).

و أعود و أعتذر لهذا النص الطويل،و لكنه من ضرورات اكتمال السياق و عرض الصورة بأبعادها،و نحن أخذنا من الأستاذ غالب ما اكتشفه فی عمل الأستاذ تامر من تلاعب بالنصوص،و هی ثورة حقيق بها أمر ذو بال و أهمية.و الذی يبدو أن المحتوی و المضمون فی الآثار الإسماعيلية لا يحتل أهمية بقدر ما يحتل النص و المنقول.و كان مما يناسب عصر العلم و التكنولوجيا أن يتجه نقد الأستاذ غالب إلی النص ذاته و إلی حقيقة هذه الخرافات و الافتراءات،و ليس الأمر مجرد آثار محفوظة و سرّية مما يضنّ به علی الآخرين،و لا يطلع عليه إلا المنتسبون إلی الجماعات السرّية الباطنية.و من

1- (1) مقدمة كتاب:الهفت الشريف من فضائل مولانا جعفر الصادق عليه السّلام رواه المفضل بن عمر الجعفی.

المؤسف أن يكون الفصل فی تقریر أهمیة النص أو صحته بأیدی المستشرقین،فیلجأ إلیهم فی تحدید واقعیة النصوص و ربما العقائد.

و الغریب أن یکون لهذا الهفت الساقط نسخ عدیدة و کثیرة.و مهما کانت المکانة التی یحتلها الکتاب،فإن وجود مثل هذه النصوص أمر غیر محسوم من جهة الإسماعیلیة و الفرق الباطنیة الأخری بدلالة ما وقع بین الأستاذین بهذا الخصوص و نحن استشهدنا بأقوال الأستاذ غالب فی مؤاخذته علی الأستاذ ثامر لإظهار ما علیه الأخیر من عدم التثبّت و عدم الدقة،أما الناحیة الأخری و هی المهمة فإن لهذه النصوص وجودا و أثرا فی الحیاة الدینیة للفرق الباطنیة لأنها تتفق مع نمط العقائد و طریقة العلاقات و المراسیم،و لذلک من الصعب أن یحکم الإنسان علی إغفالها من قبل الإسماعیلیة أخذا بأقوال الأساتذة من الإسماعیلیة،و إنه لممّا یحزّ فی النفس حقیقة أن تبقی عناوین الأغلفة بعباراتها،و تظل أسماء هذه الکتب بألفاظها (1).

فالشیعی عند ما یقول:مولانا الإمام الصادق.یدرک ما ذا وراء هذه العبارة،و یعبّر عن معتقده بهذا القول،لأن الإمام الصادق علیه السّلام هو سادس الأئمة الأطهار وهبه اللّه المعرفة و الحکمة،و منحه الإمامة و الولایة،و اجتاز بالعقیدة الإسلامیة ذلک المعترک القاتل و المحنة القاسیة،فحفظ اللّه علی یدیه تراث آل محمد،و أنقذ اللّه به شیعة آل محمد فی نفس الوقت الذی حفظ به الإسلام و حصّنه.

إن النزعات الباطنیة و المیول الخفیة فی المعتقدات التی التقت بالإسماعیلیة اعتمدت بعض الوجوه التی علیها فی السیر بعض الغموض،و هنا کان الاختیار،و قد وقع علی المفضل الجعفی،و قد تأثروا بالاختلاط الذی وقع فی الأقوال عنه،و بما حصل من تدافع،غیر أن الأغلب و الأرجح هو تعدیل المفضل و الرکون إلیه عندنا، و کلما قیل عنه من تحول و اختلاط فی النظرة إلیه و القول فیه من قبل المصنّفین قد هذّبه و عدّله روایة علمائنا عنه کالشیخ الصدوق و الشیخ المفید.و غلبه مدح الأئمة، مما یکشف لنا أن قادة الاتجاه الباطنی یختارون ما یمکن النفاذ منه بالبناء علی الخلط و الجرح،و ما علموا أن الحقائق و العقائد السلیمة یموت حولها ما یعلق من شوائب، هذا إذا کان الاختلاط فی النظرة إلی المفضل مقصورا علی الکتب القلیلة التی خاضت

1- (1) الکتاب بعنوانین،أحدهما خارجی:کتاب الهفت الشریف من فضائل مولانا جعفر الصادق علیه السّلام رواه المفضل بن عمر الجعفی،و داخلی:کتاب الهفت الشریف رواه المفضل الجعفی.

فيه.أما القول الحق فهو ما أخذ من حقائق سيرته و من وقائع حياته،و ينحسر ما علق بصورة المفضل من غموض إذا تجنّبنا ملابسات انشقاق الإسماعيلية عن مسار الإمامة،كما لا يخفى دور الزنادقة فى الإساءة إلى المفضل لتصدّيه لهم،و ردّه عليهم.فإن بعض الروايات التى لا يركن إليها تصوّر المفضل بأنه وراء انحراف إسماعيل بن الإمام الصادق عن أبيه،و أنه كان منقطعا إليه،يقول فيه مع الخطّابية ثم رجع بعده.أما الزنادقة فإن من آثار الإمام الصادق العلمية و أجوبته الخالدة هو كتاب (التوحيد)فى أجوبة الإمام للمفضل بن عمر حينما سمع كلام ابن أبى العوجاء و إنكاره الصانع،فناظره المفضل،ثم بادر إلى الصادق عليه السّلام و طلب منه أن يملى عليه ما يقوى به على مناظرة الزنادقة،فأجابه بدلائل التوحيد و محكم البراهين على وجود الصانع الحكيم (1).فاختار الكذّابون الذين وصفوا(هفتهم)ذات الطريقة فى الإملاء بمجالس،و حسبوا أنهم سيسلمون من الفضيحة أو ينجون من العقاب.و لا ننسى أن نذكر أن طبيعة الدعوة الباطنية و غموضها يساعد على هذا الافتراء،و ذلک للانقياد الأعمى و الاستسلام التام،و إذا ما خرج بعضها إلى نور الحقيقة انهارت و تبدّدت.

خاتمة الكتاب

و بذلک نصل إلى ختام البحث الذى استغرق عشرات السنين،رافقت فيها الإمام الصادق،و تشرّفت بالكتابة عن شخصيته،إلى جانب البحث عن شخصيات أئمة المذاهب الإسلامية.

و قد كان نهج البحث يقوم على الحقائق و النظرة إلى واقع الأمور بتجرّد و إنصاف،و عرضنا لغرض المقارنة لشخصيات أئمة المذاهب،بحيث تجرى على بساط البحث و بنتيجة التنقيب.

و كان بودّى أن ألحق بالجزء الثامن بقية ما يتعلق بالمسائل الفقهية فى الصوم و الحج و الطلاق و الفرائض و غيرها،غير أن اتساع الجزء الثامن بمواضيعه حال دون ذلک.عسى اللّه أن يجعل له مناسبة أخرى.

و أرى فى ختام الكتاب و انتهاء سلسلة البحث عن الإمام الصادق و نشأة المذاهب

1- (1) انظر بعض هذه المجالس التى أملى فيها الإمام الصادق [1]أجوبته فى المجلد الثانى/الجزء الرابع من الإمام الصادق و المذاهب الأربعة. [2]

أن أعيد التنويه بالحقائق التى لا تحتاج إلى كبير عناء فى إثباتها،و فى مقدمتها دور الملوک و أصحاب السلطان فى تعدّد المذاهب و زرع الفرقة و الخصومة بين أبناء الأمة الواحدة.و قد ابتدأت الفكرة منذ الفترة الأولى للانحراف عن مبادئ العدل الإسلامى و الانغمار فى مظاهر الملوكية و التسلّط،فكان على يد معاوية الترويج لشرعية العسف و الظلم،حيث أوجد له مؤسسات ضمّ إليها الكثير ممن تزيّا بزى العلم و الدين، و راحت هذه المؤسسات تلبّى رغبات معاوية و الحكام فى إضفاء طابع الشرعية و الصبغة الإسلامية على واقع حكمهم و حقيقة سلطانهم القائم على القبلية و العصبية الجاهلية.

و بعد سقوط حكم الأمويين و قيام حكم الملوک من بنى العباس فى ظل و أفياء الدعوة إلى الرضا من آل محمد،أرسى الملوک العباسيون تلک الفكرة على أسس طبّقوها و نفّذوها فى فترة أصبح فيها التشيّع خطرا يتهدّد الكيان العباسى.

فقد نبغت شخصية الإمام الصادق،و شاع ذكره فى الآفاق،و أصبح سيد علماء الأمة و قائد حركة العلم و الفقه،فبات أمره شغل النظام الشاغل و همّه الدائم،و لمّا فشلت محاولات القضاء على حياة الإمام الصادق،و كانت آيات نجاته و حفظه من أيدى المنصور؛التمس الدوانيقى طريقا آخر،فسنّ للعباسيين سنّة إدناء شخصية معينة ممن يتوسّم فيها الفقه،لتكون فى الموضع الذى يكتسب من الحكم نفوذه و قوته، و تستعمل السياسة فى أغراض التمذهب،و إخضاع العلم الدينى لأغراض الدولة بحيث ترتأى الأحكام التى تأمن جانبها.

فيما كان الشيعة يمثّلون الاتجاه المناوئ،و يقفون بوجه هذه الأغراض،لأنها تستهدف النيل من مكانة الإمام الصادق،و تحاول بيأس التأثير على موقعه الروحى و شهرته العلمية،و كان الانصراف إلى الدين و العلم و الدعوة إلى التمسّک بأحكام الإسلام و التقيّد بأوامره،و اجتناب نواهيه الصفة الأساسية للصرح العلمى الذى سرت آثاره،و انتشرت أفكاره فى المجتمع الإسلامى،و الذى تمثّل بمدرسة الإمام الصادق التى انتسب إليها أربعة آلاف طالب،قاموا بدورهم فى رواية الحديث و بيان الأحكام و تبصير الناس و حفظ تراث الإسلام،فكان عليه السّلام:مشغولا بالعبادة عن حب الرئاسة (1).و آثر العزلة و الخشوع (2)و الانصراف لمهمّاته الدينية.

1- (1) صفة الصفوة ج 2 ص 94.

2- (2) حلية الأولياء ج 3 ص 192.

و من الحقائق أيضا،أن الشيعة فی عقائدهم من حيث النشوء كانوا مع مراحل الرسالة و تطورات الإسلام،فلا يخضعون لمقاييس التمذهب هذه،و ما كان من تسميته(المذهب الجعفری)فهو بحكم اصطلاحات فترة التمذهب التی تبنّاها الحكام، و بروز شخصية الإمام الصادق فی ذلک العصر و تصدّيه بمؤسسات مدرسته و رجال دعوته إلی تيارات الخلاف و الاختلاف،فنتج أن الإمام الصادق رأی أن يبرز معالم أحكامه و فقهه و طريقة مدرسته و منهجها التی هی امتداد لأحكام أهل البيت الكرام و آبائه المعصومين،و فی فترة اتضحت فيها المقاصد،فراح عليه السّلام يختار من أصحابه و مريديه الرجال،فيحمّلهم المهام الدينية و الفكرية و الاجتماعية ليظهروا-فی خضم تلک الفترة التی تعدّدت فيها الموجات و اتسعت-أحكام آل محمد،و يطبقوا طريقة الإمام الصادق فی الدعوة الدينية،و حماية مبادئ العقيدة و روح الإسلام مما يحيط بها من مخاطر و ويلات،فكان مصداق ما سعی إليه عليه السّلام أن يقال عنهم:«رحم اللّه جعفر بن محمد ما أحسن ما أدّب به أصحابه».

و قد كان تفرّد الإمام الصادق بصفات خاصة من الحقائق التی عجزت السلطة عن إخفائها أو طمسها،و ظلت منزلته الدينية و العلمية لا ينال منها العداء أو النصب، فتراه عليه السّلام سيد الفقهاء و أستاذهم الذی يفتخر بالأخذ عنه،و يتشرف برواية حديثه.

و قد استظهرنا من تتبع ظروف نشأة مدرسة الإمام الصادق و أحوال نشاطها تلک المهمات الجسام التی كان علی الإمام الصادق أن يتولاها،و تلک العوائق التی واجهها الإمام الصادق،فقد كان الخطر من السلطة الحاكمة بطابعه السياسی،و الخطر من الحركات التی قامت و اشتدت بطابعها الدينی و الفكری.

و يدلنا البحث علی متانة الصرح الفكری الذی شيّده الإمام الصادق،بحيث تمكّن من أداء المهمات،و استطاع مواجهة تلک الأخطار،و أرسی حركة الفقه و العلم علی قواعد ثابتة و أصول دائمة.و لذلک فإن الحاجة تزداد ظهورا فی عصرنا إلی إحياء منهج مدرسة الإمام الصادق و نشر أفكاره،لأن التكوين العقائدی لمدرسة الإمام الصادق و الذی اشتمل علی حاصل ما قرره النبی محمد و الأئمة الأطهار من أهل بيته الكرام تكوين ثابت و مستقر،له القابلية-بمقتضی ما انطوی عليه من أحكام و ما ضمّه من تراث-علی ضمان بقاء الأمة و تحقيق أمنها و مواجهة أعدائها.

و نری اليوم ما يعانی منه الفكر الشيعی و اشتداد الهجمة المعادية من قبل الحكام

و المتسلّطين،فقد احتفظت الأيام و مرّ التاريخ على أطراف المواجهة بين دعاة العدل الإسلامى و بين الملوک و الحكام الذين يتّخذون من الدين ستارا لمصالحهم،و يذيقون شعوبهم الويلات.

و خلاصة القول فإن مدار البحث هو أن السلطان الروحى و القيادة الدينية اللتين اختصّ بهما الأئمة الأطهار هما من صور الإمامة التى حفظت بها منزلة النبوة،و ضمن بها بقاء الدعوة،و من هنا كان سرّ تميّز سيرة الأئمة الأطهار و سبب نفوذهم الذى عجزت قوة الباغين و الطغاة عن القضاء عليه.

لقد أثبت الشيعة وجوب عصمة الأنبياء قبل اصطفائهم و بعد اصطفائهم لأنهم الأمناء و القادة،و قد كلف اللّه الخلق باتباعهم،فلا يجوز على المصطفين الإثم،لأن النبوة دعوة و تبشير بأمر إلهى،و الدعوة تتأثر بشخصية الداعى،فإذا جرب على نبى إثم أو عرف عنه ذنب،فإن مجرى الدعوة يتأثر بهما،و درجة إقبال الخلق أيضا.

قال اللّه تعالى مخاطبا إبراهيم عليه السّلام: إِنِّى جاعِلُکَ لِلنّاسِ إِماماً فعلى الناس اتباعه و الاقتداء به،و هم مكلفون بذلک.فذهب الشيعة إلى تنزيه الأنبياء عن المعاصى لأن ارتكابها ينفّر الناس.بخلاف غيرهم من المذاهب فى تجويز المعصية قبل النبوة.

و قد كان من سير الأئمة عليه السّلام و أحوالهم و أوضاعهم و خلقهم شواهد كبرى على تسديد اللّه و عصمتهم،مما يؤثر فى سير الدعوة و وقع الأحكام فى النفوس، و لذلک لا تجد فى فقه الشيعة قضية تدور عليها الآراء و الاجتهادات فى أن ولى الأمر إذا أخطأ،فمن الذى يقيم عليه الحكم.كما هو فى المذاهب الأخرى.

فولى الأمر الشرعى عند الشيعة هو فى منزلة و مرتبة دينية لها من النبوة الوصاية على أمر الشريعة و حماية الدين و مصالح الأمة،و ليس فى فكر الشيعة أوفقهم ما يبعد عن هذه الخصائص التى تدور فى فلک النبوة،فكيف يجرأ فاسق أو فاجر على أن يتولى من أمرهم شيئا؟فيما جوّزت المذاهب الأخرى إمامة المتسلّط و من اتصف بذلک من غلبة أو غيرها،و كذلک الحال مع الفاجر،حتى نسب إلى النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الأمر بالصلاة خلف البرّ و الفاجر،و قد تناسى من وضع الحديث و غفل من تعاطاه أن نبى الرحمة حمل رسالة العدل و بشّر بمرحلة جديدة من الإنسانية تصان فيها الدماء و الأموال بأعظم صيغ التشديد على حرمة حياة الإنسان و بأوضح عبارات تأكيد حريته،

لکن فهم الإمامة بمنطق الحاکمین و المتسلّطین کان من بواعث الوضع و من دواعی التسلیم بصحته تحت ذریعة(الجماعة)و حفظ الأمة بعیدة عن(الفتنة)و ما الفتنة إلا مهادنة البغاة و الجائرین علی انتحالهم صفة الدین،و مجاراتهم علی انتهاک حرمة دماء المسلمین و أموالهم و أعراضهم،و کان هذا المنطق وراء إظهار النظم المنحرفة بمظاهر إسلامیة لا تمتّ إلی روح الإسلام بصلة.

و قد مرّ من خلال البحث جوانب مختلفة من سیر و مواقف الأئمة الأطهار من أهل البیت علیهم السّلام و کیف عالجوا العلاقة بالحکّام،و کانت صفحات حیاة الإمام الصادق علیه السّلام منهج هدایة و رشاد یحضّ الأمة علی التمسّک بجوهر الإسلام و تعالیم القرآن،و یعمل علی دفع الأذی عن المؤمنین،و معالجة سیاسة الحکام،و کیف کان الاتجاه نحو دولة العدل التی ینشؤها مهدی الأمة الذی جاءت به بشارة النبی محمد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

و ختاما،و نحن فی نهایة المطاف أقول:إن منهج البحث فی هذه السلسلة قد استهدف کشف الحقائق و بیان الوقائع،و من خلال المقارنة ندع النتائج طلیقة،و لا نحصرها فی فصل من البحث،سیّما و نحن نعترف أن الجهد یقصر عن الإحاطة التامة بشخصیة کالإمام الصادق،و نأمل أن نلتقی بالقرّاء قریبا فی بحث مخصوص عن حیاة الإمام الصادق.

و للّه الشکر علی توفیقه و عونه علی إنجاز هذا البحث،و له الحمد أولا و آخرا.

و صلی اللّه علی نبینا محمد و علی آله الکرام الطیبین،و علی من اتبعه و والاه.

تعريف مركز

بسم الله الرحمن الرحيم

هَلْ يَسْتَوِی الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ

الزمر: 9

عنوان المكتب المركزي

أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آباده ای، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلی، الرقم 129، الطبقة الأولی.

عنوان الموقع : : www.ghbook.ir

البريد الالكتروني : Info@ghbook.ir

هاتف المكتب المركزي 03134490125

هاتف المكتب في طهران 88318722 ـ 021

قسم البيع 09132000109شؤون المستخدمين 09132000109.

مركز القائمية للبحوث والتحريات الكمبيوترية
اصبهان
www
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاءِ من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹